الثورة العربية الكبرى

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية فى ربع قرن

تأليف

أمين سعيد

المجلد الأول

النضال بين العرب والترك



مكتبة مدبولى

الثورة العربية الكبرى

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية

في ربع قرن

تأليف
أمين سعيد

المجلد الأول
النِضَالُ بَين العَرَب وَالتّرك

مكتبة مدبولى

اسم الكتـــاب : **الثورة العربية الكبرى**

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية فى ربع قرن

اسم الكـاتـب : أمين سعيد

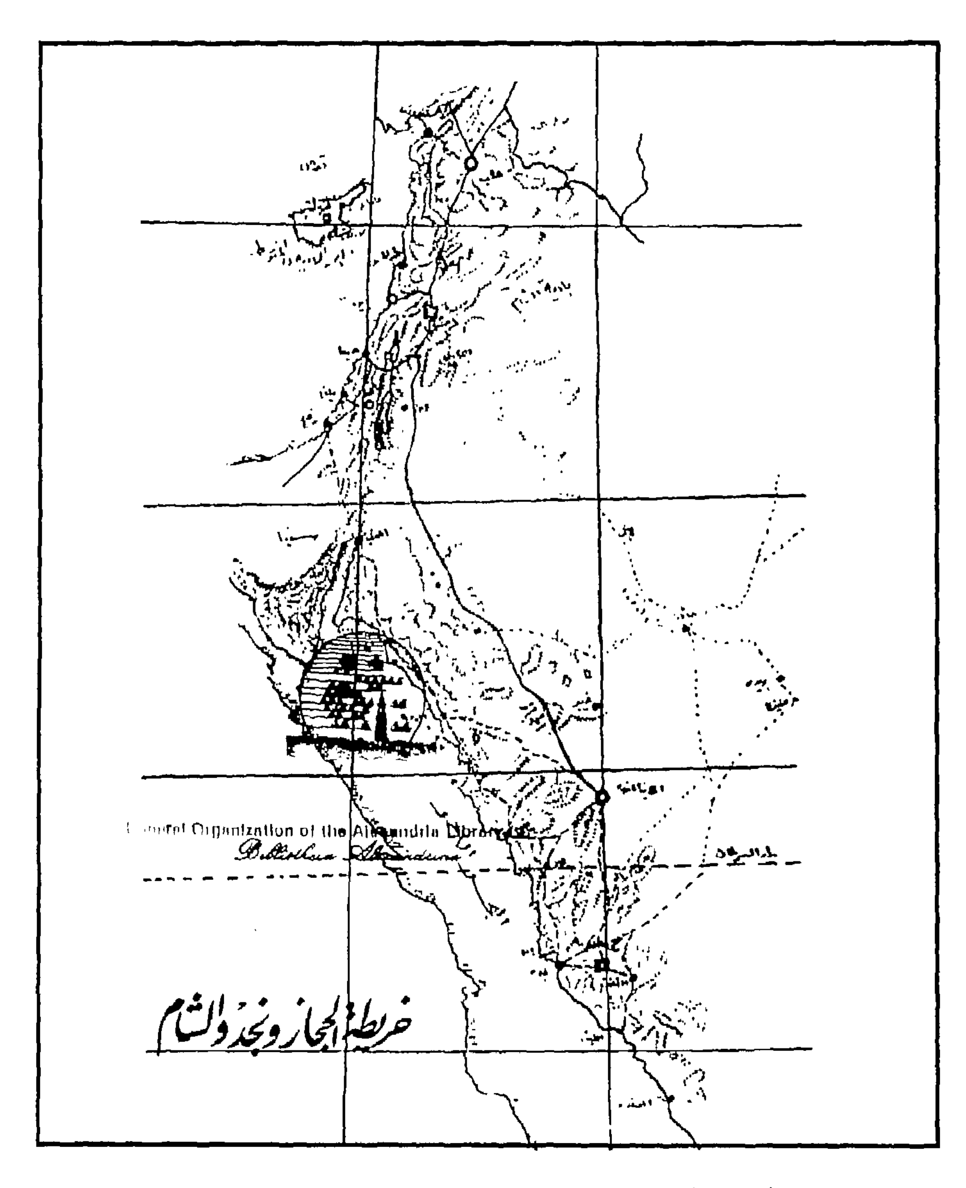
المجـلـــد الأول : النِضَالُ بَين العَرَب وَالتّرك

النـاشـــــــر : مكتبة مدبولى ٦ شارع طلعب حرب القاهرة

تليفاكـــــس ٥٧٥٦٤٢١ ت : ٥٧٥٢٨٥٤

الجمع التصويرى: ابو مسلم للكمبيوتر

ت : ٣٥٥٨٩٨٨



خريطة تبين أماكن القتال فى الحجاز وطريق زحف الجيش العربى



الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبيه العربي وعلى إخوانه المرسلين وصحابته والتابعين

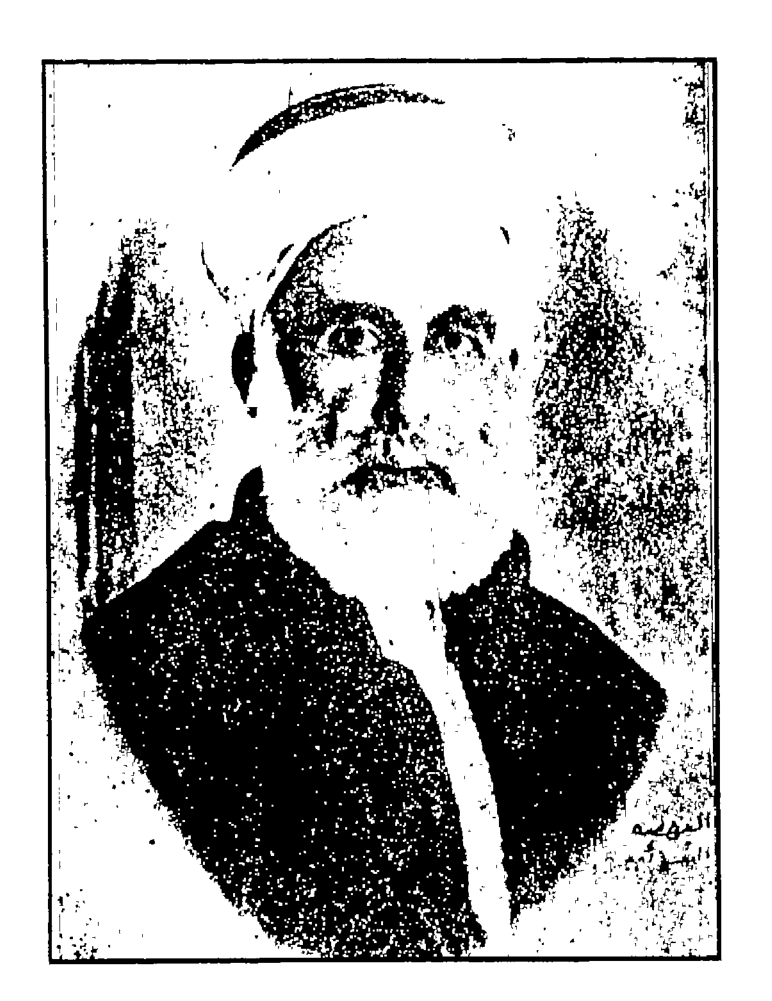
أما بعد فهذا الكتاب «النضال بين العرب والترك» وهو الحلقة الأولى من تاريخ القضية العربية، يضم أخبار الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثمانى فى سنة ١٩٠٨ حتى قيام الحكومة الفيصلية فى دمشق سنة ١٩١٨وتتلوه الحلقة الثانية «النضال بين العرب والفرنسين والإنجليز» وتشمل أخبار الحكومة الفيصلية من قيامها حتى سقوطها مع تاريخ القضية العراقية من ابتداء الحرب العظمى حتى إنشاء الدولة العربية الجديدة فى العراق سنة ١٩٢١.

أما الحلقة الثالثة فهى خاصة «بإمارة شرقى الأردن وقضية فلسطين وسقوط الدولة الهامشية فى الحجاز وأحداث الشام» وتشمل تاريخ القضية العربية فى الفترة الممتدة من سنة ١٩٢١ حتى يومنا هذا وفيها بسط واف لتاريخ إمارة شرقى الأردن مع بيان مفصل عن القضية الفلسطينية والوطن القومى اليهودى، وعن سعى انجلترا لتصفية عهودها مع الحسين، ورفضه للحلول المقترحة وقيام الحكومة السعودية فى الحجاز، ويتلو ذلك تفاصيل ما حدث فى بلاد الشام من أحداث تبتدئ باحتلال الفرنسيين لعاصمتها. فتجد أخبار الثورة السورية مفصلة إلى جانب تاريخ النضال السياسى الداخلى فى هذه الفترة الطويلة بين السوريين والفرنسيين.

ولقد حرصت على مراعاة التسلسل التاريخى للحوادث، وألحقت بكل منها مستند - إذا كان هناك مستند - وختمت كل حلقة بملخص حللت فيه حوادثها تحليلا، وأبنت فيه ما خسرته القضية العربية وما كسبته فى كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث، ورائدى فى عملى النزاهة وخدمة التاريخ.

لقد مضى على إعلان الثورة العربية الكبرى ثمانى عشرة سنة ونيف لم يؤلف فيها مؤلف جامع يضم شتاتها، ويسجل حوادثها، وينظم وثائقها ومستنداتها حتى خيف أن تدفن أخبارها فى صدور الذين اشتركوا فيها، وقد لحق أكثرهم بربه، فتضيع معالمها وتطمس آثارها، ويتعذر التأليف فيها، فلا يجد الكاتبون العرب فى المستقبل سوى رسائل مبعثرة، أو مقالات منثورة، أو كتب ألفت باللغات الأجنبية، وقد وضعها واضعوها لخدمة غاية معينة أو للدفاع عن خطة استعمارية شأن الكتاب الأوروبيين فى كل مايكتبونه عن قضايا الشرق وشؤونه.

واغتنمت فرصة الرحلة التى رحلتها إلى العراق فى خريف سنة ١٩٣٣ فاتصلت بمعظم الأحياء من الذين اشتركوا فى الثورتين: ثورة الحجاز وثورة العراق، وعملوا فى الدولتين: دولة الشام ودولة بغداد، ودونت أقوالهم، وحصلت على جانب من الوثائق والمستندات التاريخية التى لم تنشر من قبل، كما اتصلت أثناء مرورى فى دمشق وعمان بالذين كانت لهم يد فى إعداد الثورة الكبرى وفى ما تلاها من حوادث، ولم يضن علىّ النازلون فى وادى النيل من أبناء القضية بما يعرفونه من معلومات ويحفظونه من وثائق، يضاف إلى هذا وهذا ما عثرت عليه فى الكتب المؤلفة باللغات الثلاث (العربية والتركية والفرنسية) عنها. فقد قرأت ما وصل إلى يدى منها، وترجمت ما رأيت الحاجة إليه من كتب اللغة الإنجليزية، ورجعت أيضا إلى مجموعات الصحف اليومية والمجلات الشهرية. وبالاجمال فلم أدع مصدراً من المصادر التى ظننت إن الرجوع إليه قد يفيدنى فى عملى إلارجعت إليه، وقد حرصت على أن يكون عملى كاملا متقناً، فإذا ظهر نقص فرجائى أن يحمل على محمل حسن النية. فالكمال لله وحده، به نستعين، ومنه نستمد المساعدة والتوفيق.



الملك حسين بن على

ـ ١ ـ
مقدمات الثورة وعواملها
من سليم إلى عبد الحميد

لابد للباحث فى القضية العربية من درس صلات العرب والترك فى الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثمانى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨ حتى ختام الحرب العظمى فى شهر أكتوبر سنة ١٩١٨ وقد أقدم قادة الإمبراطورية العثمانية على خوضها مع الألمان مجازفين بمستقبل دولتهم، وغير مصغين إلى نصائح العقلاء والحكماء الذين أشاروا عليهم بالتريث والتزام الحياد، فقد يساعد هذا الدرس، وهو ذو نواح متعددة على استخراج نتائج إيجابية تنير السبيل وتجلى الحقيقة التى ننشدها فى كتابنا هذا.

والباحث فى علاقات هذين الشعبيين منذ اتحدا فى ظل الهلال العثمانى خلال القرون الوسطى، يوم كان للوازع الدينى المقام الأول، وكان الشرق يعيش فى عزلة عن الغرب، ويدور فى دائرة ضيقة من التقاليد والأساليب تسلسلت إليه من أسلافه الأقدمين، يسلم بأن العرب لم يجدوا غضاضة فى الخضوع لسلطان العثمانيين حينما مزق يوم مرج دابق جيش السلطان قيتباى آخر المماليك المصريين، وتقدم إلى دمشق فالقدس فالقاهرة فاتحا، فقد رحبوا به فى كل بلد من بلدانهم وقطر من أقطارهم، وبلغ من أمر شريف مكة يومئذ وهو الأمير حسين ابن أبى نمى أن أرسل إلى القاهرة من حمل إلى السلطان المنتصر كتاب بيعته ودخوله فى حظيرة طاعته، وبهذا الاعتراف اكتسب لقب خادم الحرمين الشريفين.

والتعليل الصحيح لهذه الظاهرة الاجتماعية، ماثل فى الفكرة الدينية، فقد سرى فى ذهن العرب من أبناء هذه الأقطار أن فى تأييد السلطان الجديد تأييد للإسلام وهو خادمه وناصره، وإعلاء لشأن الشريعة وهو حاميها ومؤيدها، وجمعا للكلمة وهو مما يأمر به الدين ويحض عليه، فالتفوا حوله، وساروا تحت علمه، وبايعوه سيدا وإماماً.

ولم يقصر سلاطين العثمانيين من جهتهم فى احترام العرب، وفى إكرام ساداتهم وعلمائهم، فادنوهم منهم، ووطأوا لهم الأكناف، وولوهم المناصب. فكان منهم الوزراء والحكام يعملون وإخوانهم الترك فى خدمة الدولة وتعزيز شأنها، لا ميزة لعربى على تركى ولا تركى على عربى إلا بالكفاءة، وهكذا امتد حبل الود والولاء بين أمتين، وحد بينهما

الدين والإقليم والمصلحة. وهبت على أوروبا بعد الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشرريح القومية واكتشف البخار فى أوائل القرن التاسع عشر، فاقترب الشرق من الغرب واختصرت المسافات، واتصلت الأمم بالأمم والشعوب بالشعوب، وكانت بضاعة القومية فى جملة صادرات الغرب الجديدة إلى الشرق، فجاءت تجرر ثوبا قشيبا يغرى ويفتن، إلا أن تأثيرها ظل محدودا خلال القرن التاسع عشر، بسبب الجهل الذى كان مستحكما وسائدا. بيد أن الفوز الذى أدركه فتيان الترك فى أوائل القرن العشرين على السلطان عبد الحميد - وقد تشبع بعضهم بفكرة القومية - كان مقدمة تحول عظيم فى صلات هاتين الأمتين، وقد ختم هذا الدور(ثورة ٢٣ يوليو - ١٩٠٨ -٣ أكتوبر سنة ١٩١٨) بانفصالهما عن بعضهما بعضا بعد ما عاشا متحدين سحابة أربعة قرون، يخضعان لنظام واحد، فانهار بهذا الانفصال بناء الإمبراطورية العثمانية، وقامت مقامها جمهورية أنقرة الجديدة، وقد اعتنقت مبدأ القومية، واتخذته شعار لها ودثارا، كما قامت هذه الدول العربية المنبثة فى بلاد العرب من أقصى الشمال حتى أقصى الجنوب.

فإعلان الدستور العثمانى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨ هو فى الواقع خاتمة دور سياسى للوازع الدينى فيه المقام الأول، فقد عمل السلطان عبد الحميد سحابة حكمه الطويل وقد امتد جيلا كاملا على استرضاء العرب واستمالتهم، وعلى إطفاء كل جذوة عنصرية من نفوسهم، فأدناهم منه، وفتح لهم أبوابه وخزائنه، فسكنوا واطمأنوا.

وتبدل الحال، حينما قبض فتيان الترك على زمام الأمور، ومعظمهم قليل التجارب، بعيد عن الحنكة والدهاء، كما أن بينهم من أغرم بالمدينة الأوروبية غراما أذهله عما للشرق من تقاليد وعادات تختلف عن تقاليد الغرب وعاداته، فانصرف يعمل من الساعة الأولى على إنشاء إمبراطورية تركية تبتلع ما للعناصر الأخرى - وفى جملتها العرب - من مقومات ومميزات فتدمجهم فى القومية التركية، وتجعل منهم أمة تركية تدين بدين الطورانية، وتعظم ذئبها الأغبر، وحجتهم أن ذلك أنفى للخطر، وأدعى إلى تماسك أجزاء السلطنة واتحادها.

وخاف عقلاء العرب ومفكروهم المغبة، وخشوا أن يؤدى هذا التحول الجديد فى سياسة الدولة إلى إضعاف القومية العربية، وبعض هؤلاء قد أبلى بلاء حسنا فى نصرة فتيان الترك إبان العهد الحميدى، فوصل حبله بحبلهم، وعمل معهم جنبا إلى جنب فى أوربا ومقدونيا، أملا بأن يتم على يدهم إصلاح الدولة وتجديد شبابها، ومعنى أن النقمة على العهد الحميدى والسعى لإنشاء حكم دستورى منظم، لم يك مما اختص به الترك

وحدهم. فقد شاركهم عدد كبير من أحرار العرب ومفكريهم، وكان العرب يعدون أنفسهم شركاء في الوطن العثماني العام، لهم ما للترك من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات أدبية ومادية. ولا أدل على هذا من المقابلة التي قابل بها أبناء العرب إعلان الحكم الجديد فقد سروا وابتهجوا، ونظم شعراؤهم القصائد وحبر كتابهم المقالات، وإذا استثنينا بعض أفراد خسروا ماديا بالانقلاب الجديد، فالأمة على اختلاف عناصرها، كانت مغتبطة به، فرحة بحصوله، ترجو الخير على يده وتأمل أن تسعد في ظله.

وازدحم الناس على أبواب جمعية الاتحاد والترقي مهنئين ومؤيدين فغصت بهم أنديتها، كما كثر هتافهم لرجالها وأبطالها. ثم صدر الأمر بانتخاب نواب يمثلون العرب في البرلمان الجديد فاختاروا نوابهم، ومعظمهم ممن رشحته الجمعية نفسها، وأرسلوهم إلى «دار السعادة» ليمثلوهم، ويشتركوا في بناء الدولة الجديدة. وكان مجلس النواب يتألف في دورته الأولى من ٢٧٣ نائبا للعرب منهم ٧٠ أي نحو ٢٥ في المائة، وكان فيه ٣٠ نائبًا للألبان ومثلهم لليونان والبلغار. وبالإجمال فقد كادت تتعادل نسبة العناصر غير التركية إلى نواب العنصر التركي فله ١٤٣ نائبًا مقابل ١٣٠ لأبناء العناصر الأخرى ٧٠ منهم للعرب.

ونر قرن القومية في حفلة استقبال نواب العرب حينما بلغوا العاصمة، فقد ازدحم على الرصيف إخوانهم النازلون فيها، وبينهم عدد من طلاب المدارس العليا، وقد آلمهم وجرح عزة قوميتهم تحامل الترك على الشعب العربي في شخص بعض موظفي العهد الحميدي، وساروا بهم إلى نادي جمعية الإخاء العربي ـ وسيأتي الكلام عليها، ولئن انقضت السنة الأولى من سني البرلمان الجديد من دون حادث يذكر، وكان الناس نشوى بخمرة السرور فقد تحول الحال منذ السنة التالية، حينما ظهر أن أقطاب العهد الجديد وسادته، يسيرون على نظام محكم في تعزيز قوميتهم التركية ورفع شأنها، وفي مقاومة العناصر الأخرى والقاء عليها ضاربين بمنطوق الحكم الدستوري الجديد ـ وشعاره المساواة والإخاء ـ عرض الحائط. ونحن في غنى عن القول أنه لولا ما رسخ في ذهن أبناء هذه العناصر وهو أن الحكم الجديد ينيلهم حقوقهم كاملة، ويشركهم في إدارة بلادهم، ويهيئ لها سبل التقدم والرقي، لما أيدوا الاتحاديين، فالغاية الحقيقية هي إبدال نظام الحكم القديم والتخلص منه، لا تغيير المظاهر والأشخاص.

وما كان الاغتباط بقيام الحكم الجديد على ضفاف البسفور قاصرا على سكان الإمبراطورية وحدها، بل شمل رعاياها النازلين في وادي النيل والضاربين في أوروبا

وأمريكا، كما شمل شعوب العالم الإسلامى، فاستبشرت خيرا بما وقع، وأملت أن يكون فاتحة طيبة للدولة، فتجدد شبابها وتنمى مواردها، وتستثمر كنوزها، وتستعيد مجدها.

ووقف خصوم الدولة وأعداؤها، وقفة الواجف المضطرب، لا عتقادهم إن صلاح حالها وتجديد شبابها يقضى على مطامعهم، ويقطع عليهم طريق التدخل فى شؤونها، وقد كانوا يكثرون منه. منتحلين شتى الأساليب والوسائل.

واغتنم خصوم العهد الجديد - وكانوا قلائل فى أول الأمر - فرصة التنسيق، فأخذوا يجاهرون بانتقاد الاتحاديين، وينسبون إليهم المحاباة والغرض، وخلاصة ما يقال فى قضية «التنسيق» هذه هو إن هؤلاء رأوا بعد ما استتب لهم الأمر، وصاروا أصحاب الحول والطول فى البلاد أن «يغربلوا» الموظفين القدماء الذين نشأوا وتدرجوا فى المدرسة الحميدية وبعضهم جهلة لم يبلغوا هذه المناصب عن طريق الكفاءة والاستحقاق، بل عن طريق الجاسوسية أو الرشوة أو غيرها من الطرق التى لا تشرف، فألفوا لذلك لجانا خاصة، فكانت فى عاصمة كل ولاية لجنة، تتبع لجنة عليا فى وزارة الداخلية، ووضعوا لها أنظمة تسير عليها وتهتدى بها، ثم أعلنت قرارتها وهى تقضى بالاستغناء عن بضعة آلاف من الموظفين، فرج ذلك البلاد رجة عنيفة، وكان موضع انتقاد وتذمر، لأن معظم الذين اقصوا كانوا من غير الترك - أى من العرب، وهم العنصر الأكبر، والكردوالألبان، وقد انقلب هؤلاء إلى بلدانهم بعد تجريدهم من وظائفم ينادون ويلا وثبورا، ويزعمون أنهم لم ينكبوا إلا عن طريق القومية، وإن الترك لم يخرجوهم إلا ليحل محلهم أبناء طوران، فأثر ذلك تأثيراً سيئًا فى النفوس.

ويجب أن لا ننسى ماكان للصحافة التركية الجديدة، وقد نشأت فى ظل الدستور من جولات فى الدعوة إلى تعزيز القومية الطورانية، وفى التحامل على القوميات الأخرى، وحض الحكومة على مقاومتها والقضاء عليها، ويمكن القول إن الخلاف العنصرى - وقد ظهر أول ماظهر فى «التنسيق» و «الوظائف» - بلغ أشده عن طريق «الصحافة» فكان فاتحة عهد الشقاق، وكان الثغرة الأولى فى بناء الدولة الجديدة، وقد اندك صرحها وانهار، ولم تقصر صحافتا العرب والترك فى التراشق بالألفاظ والجمل - كما لم يقصر شعراء الأمتين فى نظم القصائد والمقطوعات التى تزكى نيران القومية فى الصدور.

ولا يخفى أن الصحافة فى تركيا - وقد ولدت مع هذا العهد وترعرت فى ظله - فهى لم تكن معروفة فى العهد الحميدى القديم وقد كممت فيه الأقلام وعطلت المحابر، ومنعت حرية

الاجتماعات، حتى جاء الدستور ففك عقالها - أثرت أثراً لا ينكر فى النفوس، فقد انصرف كل عنصر فى هذا الدور إلى تأييدد صحافته القومية، ومناصرتها ، فكانت هنالك صحف عربية وأخرى أرمنية ورومية وألبانية، وكلها تجهر بالشكوى من تصرفات أقطاب العهد الجديد، مطالبة بإزالة الحيف النازل بأبناء قومها، داعية إلى إنصافهم ورد حقوقهم إليهم، واحترام قوميتهم، عاملة على إذكاء الروح العنصرى، وما كانت صحافة الترك تقصر فى الرد على هؤلاء، وفى تفنيد أقوالهم ومدعياتهم، وهكذا شهد الناس فى السنة الثانية للدستور حربا قلمية شعواء. تدور بين صحافة الترك وصحافة العناصر الأخرى، وكل ينقر على وتر ويذكى نار الحماسة والغيرة القومية فى صدور أبناء جنسه.

ومما لا شك فيه أن حركة هذه العناصر وتشددها فى المقاومة والنضال أوحى إلى الاتحاديين ضرورة الاعتماد على العنصر التركى وحدة فى الدفاع عن دولتهم وتأييدها، فوجهوا عنايتهم إلى تنشيطه - كما وقفوا الجانب الأكبر من مناصب الدولة على أبنائه، وهكذا تحولت الدولة تدريجيًا من «حكومة عثمانية» تعامل جميع أبناء العناصر المنضوية تحت علمها بالتساوى إلى حكومة طورانية للتركى فيها المقام الأول، وللغة الترك الجانب الأعظم من عنايتها وللشبيبة التركية الحظ الأوفر من وظائفها ومناصبها، فزاد ذلك فى حقد العناصر واستيائها. لأنها كانت تعد نفسها شريكة للتركى لها ماله من حقوق، ولاريب أن اشتداد الخلاف بين العناصر والترك وتمسك كل فريق بقوميته وعنصريته لايحيد عنها عجل فى إضرام الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ وفى خروج الترك من مقدونيا على تلك الحالة السيئة التى خرجوا عليها - كما عجل بخروجهم من بلاد العرب بعد ذلك، فانكمشوا فى داخل حدودهم القومية.

ـ ٢ ـ

الجمعيات العربية

من إعلان الدستور حتى الحرب البلقانية (١٩٠٨ ـ ١٩١٢)

ما كان اغتباط العرب بالعهد الدستورى الجديد، يقل عن اغتباط الترك. فقد ملأوا الجو هتافا وصياحا، ونظم شعراؤهم القصائد وحبر كتابهم المقالات فى التغنى بمزايا العهد الجديد وانضم رجالهم ومفكروهم إلى الاتحاديين موالين ومؤيدين، لاعتقادهم أن دولتهم ستجدد شبابها، وتسترد مقامها، وأن أمتهم ستنصف وكرامتها ستصان.

وأنشئ فى كل عاصمة من عواصم العرب فى الشام والعراق والحجاز واليمن، وفى كل بلد من بلدانهم ناد لجمعية الاتحاد والترقى يضم الصفوة المختارة، ويأتمر بأمر (المقر العام) للجمعية، وكان فى سلانيك، ثم نقل إلى الآستانة،وينفذ تعاليمه.

وتحول الحال حينما بدرت بوادر الخلاف العنصرى، وظهر أن الاتحاديين يسيرون على سياسة قومية سداها ولحمتها تعزيز الجامعة الطورانية وتأييدها، فأقفرت أنديتهم تدريجيا، وتفرق أنصارهم، وضعف نفوذهم، كما تخلى عنهم معظم نواب البلاد العربية وأنشأوا «كتلة» مستقلة اتحدت مع نواب الألبان والأرمن والكرد وبعض الترك من معارضى الاتحاديين، وقد انبثق عنها حزب الائتلاف العثمانى، وختم هذا الدور بإعلان الحرب البلقانية فى خريف سنة ١٩١٢ وتألفت فى خلال هذه الفترة جمعيات عربية عديدة فى الآستانة والقاهرة وبيروت ودمشق وبغداد لتعزيز شأن العرب والمطالبة بحقوقهم ومساواتهم بالترك، واقتداء بهؤلاء فى تعزيز قوميتهم، فأثرت هذه الجمعيات أثرًا بليغًا فى تكوين الرأى العام العربى، وإليها يرجع معظم الفضل فى إنشائه وإعداده بالتعاون مع الصحافة العربية فى مصر والشام والعراق والآستانة. فقد ساعدت على تنمية الشعور القومى وإيقاظه ـ كما ساعد الشعراء بقصائدهم الحماسية على خلق النهضة الوطنية الجديدة.

وهانحن نورد أسماء هذه الجمعيات، وتاريخ إنشائها، وأسماء مؤسسيها، وبيان عن برامجها وأغراضها ـ مع بيان بأسماء الصحف العربية التى ساهمت فى تلك الحركة أو اشتركت فيها.

١ ـ جمعية الإخاء العربى

أجمع الذين دونوا تاريخ القضية العربية على أن جمعية الإخاء العربى هى أول جمعية عربية تأسست فى الآستانة بعد إعلان الدستور العثمانى فى سنة ١٩٠٨ وأنشأت ناديا لها. وقالوا إن مؤسسيها هم عدد من كبار موظفى العرب فى العهد الحميدى، خافوا على مناصبهم فى الدور الجديد، فاستعانوا ببعض الشبان العرب المتحمسين، وأسسوا هذه الجمعية للدفاع عن مناصبهم. وهذه أسماء بعضهم: عارف بك المادرينى (والى دمشق فى العهد الاتحادى بعد ذلك) وصادق باشا المؤيد، وشفيق بك المؤيد، ويوسف بك شتوان، وشكرى باشا الأيوبى، وشكرى بك الحسينى، وغيرهم. وهذا نص المادة الأولى من قانونها الأساسى:

«جمعية الإخاء العربى العثمانى، نشأت فى دار الخلافة، مؤلفة من أبناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم ونحلهم ويحق لكل فرد من أبناء العرب (والعربى كل من ينتسب إلى العرب مولدًا وموطنًا) أن يكون عضوًا فى جمعية الإخاء العربى العثمانى بشرط أن يكون متصفًا بحسن الخلق والشهرة. غير محكوم عليه بجرم جنائى أو إفلاس احتيالى، ولا ساقط من الحقوق المدنية.

«أما مقصد جمعية الإخاء العربى العثمانى فهو معاونة جمعية الاتحاد والترقى فى سبيل المحافظة على أحكام القانون الأساسى (الدستور) وجمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق فى الجنس والمذهب، وتمكين الرابطة الجامعة بينهم. وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية، وإصلاح الشؤون المختلة، ثم السعى لإعلاء شأن الأمة العربية، واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها. كتأسيس معامل وشركات زراعية وصناعية وتجارية والاجتهاد بإقناع أهل البداوة للإقلاع عن عاداتهم المستهجنة، وعداواتهم المتسحرة بينهم، واسكانهم فى محلات ثابتة وتعويدهم على مزاولة العوائد والحرف الحضرية، وتنوير عقولهم بالعلم، وصيانة حقوق أبناء العرب جميعا من الغدر والاعتساف، وتبليغ شكاياتهم ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسمية إذا لم تلق حسن القبول عند المأمورين المختصين بالنظر فيها ، وصرف المقدرة بكل مايمكن من الأمور الخيرية، والسعى فى تأييد العدل والحرية والمساواة بين عناصر الأمة العثمانية، وإزالة الضغائن وسوء التفاهم من بينهم».

وقد أيد الطلاب العرب فى الآستانة هذه الجمعية فى أوائل عهدها مسوقين بدافع الشعورين القومى والوطنى، فقد ساءهم تحامل الاتحاديين خاصة، والترك عامة على العرب فى شخص أبى الهدى الصيادى ونجيب ملحمة وأحمد عزت العابد من رجال العهد الحميدى. فكانوا إذا خطبوا ضدهم أضافوا إلى كل منهم كلمة «العرب» تميزاً له وتشهيراً به، فيقولون عرب عزت، أو عرب نجيب (يريدون نجيب ملحمة) مع أنهم ما كانو يضيفون هذه النسبة إلى رجال الترك من أبطال العهد الحميدى أمثال فهيم وتحسين وما كانا أقل شراً من عزت العابد وأضرابه، ولطالما أوقف الطلاب العرب فى الاستانة الخطباء الترك واحتجوا عليهم لإساءتهم إلى العرب. وأخذت جمعية الإخاء العربى على نفسها مهمة استقبال نواب العرب حين قدموا الاستانة للمرة الأولى. فأعدت لهم الحفلات، واستقلبهم أعضاؤها والطلاب العرب، واحتفوا بهم وساروا معهم إلى دار الجمعية فكانت أو مظاهرة عربية شهدتها الآستانة.

٢ - المنتدى الأدبى

لم تعش جمعية الإخاء العربى طويلاً، لأنها ولدت ضعيفة ولأن التجانس كان مفقودا من بين أعضائها، ولأن غاية بعضهم لم تكن خالصة لوجه الله والوطن، فماتت وحل المنتدى الأدبى محلها.

أنشئ المنتدى الأدبى فى سنة ١٩٠٩ ومؤسسوه هم عبد الكريم قاسم الخليل ويوسف سليمان حيدر وسيف الدين الخطيب وجميل الحسينى ورفيق رزق سلوم - وهو مسيحى من حماه - على أن يكون مثابة للشباب العربى فى فروق، ودار لهم يجتمعون فيها ويختلفون إليها فتلقى محاضرات، وتنشأ مكتبة، ويأوى إليه من لا تساعده حالته المالية من الطلاب العرب على المبيت فى الفنادق والدور. وقد سلم شكرى بك الحسينى لعبد الكريم الخليل ستين ليرة عثمانية كانت باقية عنده باسم جمعية الإخاء لتنفق فى إنشاء المنتدى، كما سلمه كل ماكان لها من أثاث ورياش. ومثل الطلاب العرب بعد ذلك رواية صلاح الدين الأيوبى فى مسرح دار الفرح وأرصدوا ريعها له، فدرت عليهم أرباحا زائدة، وهكذا تم افتتاح داره فى بار ماق قبو من «ديوان يولى» فى حفلة حافلة. ألقيت فيها القصائد الوطنية الحماسية، وقد عاش المنتدى حتى سنة ١٩١٥ فأغلقته الحكومة بعد ذلك، وأدى

خدمات عديدة للعرب، وبلغ شأوًا عظيمًا فى ميدان السياسة لم تبلغه جمعية من الجمعيات الأخرى وخصوصًا إبان عقد الاتفاق بين زعماء العرب والاتحاديين، وكان الوزراء والعظماء والكبراء يحضرون حفلاته بلا انقطاع. ولما ضاقت به داره القديمة فى بارماق قبو انتقل إلى دار فخمة واسعة فى حى كدك باشا.

٣ ـ الجمعية العربية «الفتاة»

أعظم الجمعيات العربية التى نشأت بعد إعلان الدستور. أسسها فى باريس ثلاثة من الطلاب العرب الذين قصدوها بعد ماأتموا دورسهم فى الآستانة، وهم الدكتور أحمد قدرى وعونى عبد الهادى ورستم حيدر، ثم انضم إليهم رفيق التميمى ومحمد المحمصانى وعبد الغنى العريسى وجميل مردم بك. وقد اكتفوا بإطلاق اسم «الفتاة» عليها فى أول الأمر، لئلا يلفتوا النظر، وأرادوا أن تكون للعرب بمثابة جمعية الاتحاد والترقى للترك.

وكان من خططها الداخلية أن لا يعرف الداخل فيها سوى الذى أدخله، وكانت تتألف من ثلاث هيئات: الهيئة الإدارية، وقوامها ٦ أعضاء تدير شؤون الجمعية. والهيئة العاملة، وهى التى تختار الهيئة الإدارية، وتتألف من أعضاء الجمعية الذين أمضوا مدة التجربة، وهى ستة أشهر. والهيئة الثالثة تضم الداخلين حديثا، ولا يعرف بعضهم بعضا كما قلنا.

وكان شعار الجمعية فى أول تكوينها: العمل للنهوض بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية، واغتنام الفرص لتحقيق هذه الأمنية، وعدم الانفصال عن الترك، على أن هذا البرنامج تعدل بعد إعلان الحرب العظمى. فاتجهت النية نحو العمل لاستقلال بلاد العرب وتحريرها ـ كما سيأتى بيانه.

وكان للجمعية كلمات رمزية اصطلحت عليها للمكاتبات والاتصال وهى: بزغ فجر وطنك مت لعضد شخص أحى ثقة ظذ.

وانتقل مركز هذه الجمعية إلى سوريا بعد عودة مؤسسيها إلى بلادهم فى سنة ١٩١٢، واتخذت بيروت مقرًا رئيسيًا لها لأن أكثر مؤسسيها من بيروت. وتولى الدكتور أحمد قدرى إدارة فرعها فى دمشق، فاتسع نطاقها، وكثر عدد الداخلين فيها، وضاعفت نشاطها بعد إعلان الحرب العظمى، وخصوصًا بعد انتقال مقرها العام من بيروت إلى دمشق بسبب الهجرة، ولأن معظم رجالها كانوا فى الأخيرة.

وكان لهذه الجمعية سجلات منظمة بإدارة سكرتيرها العام محمد المحمصانى، وكانت تجتمع أسبوعيًا بانتظام، وتدون قراراتها فى سجل خاص. ومن الذين دخلوا فيها بعد انتقالها إلى سوريا وقبل إعلان الحرب: نسيب البكرى، والأمير عارف الشهابى، وتوفيق الناطور ومحمد الشريقى، وعمر حمد، وتوفيق البساط، ورفيق رزق سلوم، وسيف الدين الخطيب، وصالح حيدر، وابراهيم حيدر، والشيخ كامل القصاب، ودخل فيها بعد إعلان الحرب فيصل ابن الحسين، وعلى رضا باشا الركابى، وياسين الهاشمى ـ كما دخل فيها بعد ختام الحرب كثيرون، وكان من جملة قواعدها أن توعز إلى أعضائها بالاتصال بالجمعيات العربية الأخرى، والدخول فيها لتكون على معرفة بكل حركة تحدث.

٤ ـ الجمعية القحطانية

أنشئت هذه الجمعية فى الآستانة فى أواخر سنة ١٩٠٩ وبين الباحثين خلاف حول اسم مؤسسها، فيقول بعضهم أنه عبدالكريم الخليل، ويقول آخرون أنه خليل باشا حمادة أسسها حينما كان وزيرا للأوقاف بالاتفاق مع السيد عبد الحميد الزهراوى، ويقول غيرهم إن مؤسسها الحقيقى هو سليم بك الجزايرى وهى سرية وطنية. غايتها بث المبادئ الصحيحة بين أبناء الأمة، وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف.

وكانت الإشارة الرمزية بين أعضاء الجمعية هى أن يضغط المسلم على أحد أصابع يد المسلم ثم يضع الشاهدة والوسطى على الذراع الأيسر ويخفى بقية الأصابع، ويهجى كلمة «هلال» عند المحادثة. فإذا قال الأول هاء قال الثانى لام، ثم يقول الأول ألف فيقول الثانى لام.

وقد انتشرت مبادئ هذه الجمعية بين شباب العرب وضباطهم فى الجيش العثمانى وكثر عدد الداخلين فيها، وكان لكل واحد منهم أن يدخل عضوًا بدون استئذان المركز العام ومن الذين انضموا إليها: الدكتور عزت الجندى. وحسن حمادة، وعبد الكريم الخليل. وعلى النشاشيبى وعادل ارسلان. وأمين لطفى حافظ، وغيرهم. وقد عاشت حتى الحرب العظمى.

٥ ـ العلم الأخضر

أنشئت هذه الجمعية فى الآستانة أيضًا خلال شهر ايلول سنة ١٩١٢ والغاية منها

تقوية الروابط الوطنية بين الطلاب العرب فى المدارس العليا، وتوجيه قواهم إلى انتشال أمتهم من الوهدة التى سقطت فيها.

ومؤسسو هذه الجمعية: الدكتور اسماعيل الصفار، والدكتور فايق شاكر، والدكتور داود الديوانى، وعلى رضا الغزالى، وعبد الغفور البدرى، وأحمد عزت الأعظمى، وعاصم بسيسو ومسلم العطار، ومصطفى الحسينى، وشكرى غوش.

وقد أصدرت هذه الجمعية مجلة «لسان العرب» لتكون لسان حال لها، ثم أبدل اسمها فصارت مجلة «المنتدى الأدبى» وعاشت حتى الحرب العظمى.

تلك هى الجمعيات العربية التى تألفت فى الآستانة لخدمة العربية وتعزيزها من سنة ١٩٠٩ حتى أواخرسنة ١٩١٢ وتحول الحال بعد ذلك فقد كان لانكسار الدولة العثمانية فى حرب البلقان، وانهزامها ذلك الانهزام الشنيع أمام دويلات البلقان أثر بليغ فى نفوس مفكرى العرب. جعلهم يعدلون كثيراً من خططهم وأساليبهم. ويتبعون سياسة جديدة وينشئون جمعيات جديدة كما تراه مفصلا.

أسماء الصحف العربية التى ناصرت الحركة القومية وأيدتها

فى خلال الفترة الممتدة من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٤

اسم الجريدة	اسم صاحبها أو أصحابها	محل صدورها
جريدة المفيد	عبد الغنى العريسى وفؤاد حنتس	بيروت
« الحقيقة	كمال عباس	«
« الاتحاد العثمانى	الشيخ أحمد طباره	«
« المقتبس	محمد كرد على	دمشق
« القبس	شكرى العسلى	«
جريدة كلمة الحق	إبراهيم سليم النجار	الآستانة
« الحضارة	عبد الحميد الزهراوى	«
مجلة لسان العرب	أحمد عزت الأعظمى	«
جريدة بيام (باللغة التركية)	نجيب شقير	الآستانة
« طرابلس	كامل البحيرى	طرابلس
« الأجيال	توفيق اليازجى	«
« الوطن	باترو باولى	بيروت

»	العرفان	أحمد عارف الزين	صيدا
»	الأهرام	جبرائيل تقلا	مصر
»	المقطم	نمر وصروف ومكاريوس	»
»	المنار	السيد رشيد رضا	»
»	المؤيد	الشيخ على يوسف	»
»	النهضة	مزاحم الباجه جى	بغداد

وهناك صحف عربية فى أمريكا أيدت الحركة أيضًا، وفى مقدمتها جريدة مرآة الغرب، وتصدر فى نيويورك.

— ١ —

مؤتمر باريس العربي

من الحرب البلقانية إلى الحرب العظمى (١٩١٢ - ١٩١٤)

خاضت الدولة العثمانية الحرب البلقانية مكرهة، ومن دون أن تستعد لها، وتأخذ أهبتها فالخزينة فارغة، والثكنات خالية، والمستودعات خاوية، والتناحر الحزبى على أشده فى داخل البرلمان وفى الصحف وفى الشوارع والمنتديات، وشكاوى العناصر من تصرفات الاتحاديين تصم الآذان، وليس من شأننا هنا أن ندرس العوامل التى عملت فى انكسار الدولة، وعجلت فى انتصار البلقانيين وفوزهم، فقد بلغوا أسوار الاستانة فى خلال أسابيع قليلة، وهددوا باحتلالها مما ذهب بهيبة الدولة العثمانية وأضعف نفوذها ومقامها، وإنما نقول إن هذا الانكسار حرك الكوامن، ومزق البراقع، وأهاج المطامع، فقد سمع السوريون للمرة الأولى خطيبًا يخطب فى مجلس الشيوخ الفرنسى، وهو المسيو بوانكاره وزير الخارجية يومئذ، ويقول بملء فيه «إن لنا فى سوريا ولبنان مصالح تقليدية نريد أن نجعلها محترمة، ويسرنى أنى أستطيع أن أضيف إلى ذلك بأن الظن بوجود خلاف على هذا الأمر بيننا وبين الحكومة الإنجليزية لا مبرر له. فقد صرحت لنا بمنتهى الود أنه ليس لها فى تلك الأقطار غرض فى عمل ولا مقاصد تنويها ولا أمانى سياسية ترغب فيها من أى نوع كان».

والواقع أن انتصار البلقانيين بعث المسألة الشرقية من رقادها. فاعتقد كثيرون أن زمن اقتسام تركة الرجل المريض[١] قد اقترب. فدارت مباحثات طويلة بين وزارات خارجية الدول الطامعة فى الشرق. وهى روسيا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا. فطلب الانجليز أن يختصوا بالعراق فيكون منطقة نفوذ لهم لوفرة مصالحهم فيه، وطلب الفرنسيون مثل هذا الحق فى سوريا، وألح الروس فى أن تكون الآستانة وولايات الأناضول الشرقية من نصيبهم، وطلب الإيطاليون أن يختصوا بأزمير وشواطئ الأناضول الغربية. وقد اتفق الفرنسيون والانجليز مبدئيًا على أن يختص كل منهما بما طلبه، واعترف بهذا المسيو بوانكاره نفسه كما رأيت ولم يعقد الاتفاق النهائى مع الطليان والروس إلا بعد الحرب العظمى.

فهذه التصريحات وأشباهها، وما ظهرت به الدول العظمى يومئذ من الطمع فى أملاك

---

١ - كانوا يعبرون به عن الدولة العثمانية

لدولة، وعجز هذه عن الثبات والمقاومة، بل وسقوطها إلى الحضيض، جعل عقلاء العرب يحسبون حساب العواقب، ويفكرون فى مصير بلادهم، ويخافون أن يستهدفوا لحرب ماحقة لا تبقى ولا تذر، فيسوء مصيرهم ويسقطوا صرعى تحت سنابك خيل الغزاة، كما سقط مسلمو البلقان من قبلهم. لقد كانت عبر الحرب البلقانية فاتحة تحول خطير فى الرأى العام العربى. فقد أوجس العقلاء شرا من النتائج ـ سيما وقد كانت بلاد العرب مجردة من جميع وسائل الدفاع ـ كما كانت ثغورهم عاطلة من معدات الحرب والكفاح، لا تقوى على الثبات والوقوف فى وجه المغيرين، فإنشاء حزب اللا مركزية فى القاهرة وتأسيس الجمعيات الاصلاحية فى بيروت والبصرة وبغداد هو نتيجة طبيعية للحرب البلقانية ـ مما سنفصله تفصيلا.

١ ـ حزب اللامركزية العثمانى

كانت الجالية السورية بمصر، وتضم نخبة طيبة من المفكرين أول من تنبه إلى ما قد يولده انكسار الدولة فى البلقان من نتائج سيئة. فزار بعض أعضائها رؤوف باشا المفوض العثمانى فى مصر يومئذ منبهين إلى الخطر الذى تستهدف له سوريا من غارة تغيرها فرنسا على شواطئها، كما فعلت إيطاليا بطرابلس الغرب، وطلبوا إليه أن يكتب إلى الباب العالى لاتخاذ الأهبة والتدابير اللازمة للدفاع عن البلاد، واقترحوا إنشاء مستودعات للأسلحة، توزع على الأهلين عند الغارة. فيسرعون إلى الدفاع والنضال، وبعد أخذ ورد بين أعضاء هذه الجالية اتفقوا على إنشاء حزب سياسى سموه حزب اللامركزية العثمانى ومداره أن تتولى كل ولاية إدارة شؤونها الداخلية، لأن ذلك أدعى إلى النجاح، وإدخال الإصلاح ودرءا للخطر.

ومؤسسو حزب اللا مركزية هم رفيق العظم، والسيد محمد رشيد رضا، والدكتور شبلى شميل، واسكندر عمون، وسامى الجريدينى، وحقى العظم، ومحب الدين الخطيب.

وقد اختاروا له رفيق العظم رئيسًا، واسكندر عمون نائب رئيس وحقى العظم سكرتيرا عاما، ومحب الدين مساعدا للسكرتير. وهذا نص برنامجه:

المادة الأولى ـ ألف حزب سياسى باسم (حزب اللامركزية الإدارية العثمانى)

المادة الثانية ـ القصد من تأليف هذا الحزب بيان محسنات الإدارة اللامركزية فى السلطنة العثمانية للشعب العثمانى المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات وأديان وعادات

مختلفة، والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الإدارية فى جميع ولايات الدولة العثمانية.

المادة الثالثة ـ ليس هذا الحزب خفيا، وليس فيه مايعد من الأسرار، فهو ينشر مقصده المبنى على المطالبة باللامركزية الواسعة جهرا وعلانية دون الخشية من أحد، لاعتقاده يقينا أن الدولة لا تبقى فى العالم السياسى إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية.

المادة الرابعة ـ إن الدخول فى حزب اللامركزية مباح لكل عثمانى بلغ العشرين من العمر. على شرط أن يكون أولا من المتمعين بجميع الحقوق المدنية، ثانيا غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف، ثالثا غير مشتهر بسوء السيرة. رابعا أن يقبل القواعد المبينة فى برنامج الحزب

المادة الخامسة ـ يكفى لمن يريد الدخول فى الحزب أن يكون دليله أحد أعضاء الحزب، مع موافقة لجنة الإدارة المحلية على ذلك. ولايجوز قبول عضو مادام من حزب يخالف هذا الحزب فى المبدأ والغاية.

المادة السادسة ـ للمنتمى إلى الحزب أن يستقيل من عضويته فى أى وقت شاء

المادة السابعة ـ على العضو أن يدفع إلى الفرع المسجل فيه اسمه راتبا شهريا أقله قرشان ويقبل الحزب التبرعات ويعفى الفقراء من الراتب.

المادة الثامنة ـ لا يقيد الحزب أعضاءه بشيئ غير قواعد البرنامج السياسى الذى وضع لأجله

المادة التاسعة ـ على النواب (المبعوثين) المنتمين إلى الحزب أن يسعوا بكل مافى وسعهم لتنفيذ قواعد برنامج الحزب فى المجلس.

المادة العاشرة ـ لا يسوغ لأحد من المنتمين إلى الحزب مراجعة الحكومة باسم الحزب من تلقاء أنفسهم وإذا ثبت على أحد الأعضاء مثل هذا السلوك يمحى اسمه من سجل الحزب.

المادة الحادية عشرة ـ إن مركز الحزب العام فى مصر «القاهرة» ويجوز لكل بلد أو قرية اجتمع فيها عشرة من أهلها على مبدأ اللامركزية الإدارية أن يؤسسوا فرعا له، ويخبروا المركز العام بذلك.

المادة الثانية عشرة ـ تتألف اللجنة العليا للحزب من ٢٠ عضوا، ينتخب منهم رئيس

ونائب رئيس، وسكرتير ومساعدان له، وأمين للصندوق، ويجوز لهذه اللجنة أن تضم إليها من ترى فيه فائدة للحزب.

المادة الثالثة عشرة - إذا غاب الرئيس ونائبه يرأس الجلسة أحد أعضائها.

المادة الرابعة عشرة - كل فرع من فروع الحزب يتبع المادتين ١٢ و ١٣ فى تأليف لجنته الإدارية، وانتخاب الرئيس والسكرتير وأمين الصندوق.

المادة الخامسة عشرة - يعقد كل فرع مؤتمرا فرعيا محليا فى شهر يونيو (حزيران) من كل سنة يحضره جميع أعضاء الفرع، وتعقد اللجنة العليا مؤتمرا حزبيا عاما فى مصر القاهرة فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) من كل سنة يحضره أعضاء اللجنة العليا وأفراد الحزب فى المركز العام، ومندوبون ترسلهم اللجان الفرعية.

المادة السادسة عشرة - يرسل كل فرع للمؤتمر العام مندوبا من قبله.

المادة السابعة عشرة - تنتخب كل لجنة إدارية رئيسها وسكرتيرها وأمين صندوقها من أعضائها بالاقتراع السرى. وتعرف المركز العام فى القاهرة بنتيجة الاقتراع.

المادة الثامنة عشرة - على اللجان الإدارية الفرعية أن تسعى بكل الوسائل المشروعة لنشر مبادئ الحزب وتعميمها بين الناس، وتكثير أفراد المحاربين، والاجتهاد فى سبيل انتخاب نواب لمجلس المبعوثين، وللمجالس العمومية والإدارية والبلدية من الأكفاء الذين على مبدأ الحزب.

المادة التاسعة عشرة - اللجنة العليا تضع تعديل القوانين واللوائح للحكومة اللامركزية وتسعى مع سائر اللجان والأفراد إلى إقناع الشعب والحكومة بها.

المادة العشرون - على اللجان الإدارية الفرعية ان تتخذ دفاتر لقيد قراراتها وأسماء الأعضاء وموظفى الحزب وأمواله.

المادة الحادية والعشرون - تجتمع اللجان كلما قضت الحال بدعوة من الرئيس أو نائبه، والعضو الذى لا يحضر الاجتماع أربع مرات متواليات من غير عذر يعد مستقيلا من عضوية اللجنة.

المادة الثانية والعشرون - على السكرتير وأمين الصندوق فى كل لجنة أن يقدما إلى تلك اللجنة فى آخر كل سنة كشفا ببيان إيرادات الفرع ونفقاته عن تلك السنة، وعلى كل لجنة أن ترسل صورة من هذا الكشف إلى اللجنة العليا.

المادة الثالثة والعشرون - لا تعد مذكرات اللجان القانونية إلا إذا اجتمع نصف

أعضائها على الأقل، وإذا كررت الدعوة اكتفى بمن حضر.

المادة الرابعة والعشرون - للجنة كل فرع الحرية التامة فى أعمالها، إلا ما قيدتها به قرارات اللجنة العليا أو المؤتمر العام.

المادة الخامسة والعشرون - على لجان الفروع أن ترسل إلى اللجنة العليا كل ثلاثة شهور كشفا يحوى أسماء الذين دخلوا فى خلال هذه المدة فى الحزب، وأسماء الخارجين منه، وسبب خروجهم، والمتنقلين من مكان إلى مكان، وكشفا آخر يحوى بيان أعمالهم فى المدة المذكورة.

المادة السادسة والعشرون - على اللجنة أن تراقب سير اعمال لجان الفروع، وحسن تنفيذ قوانين الحزب.

المادة السابعة والعشرون - على اللجنة العليا أن تهيئ لائحة عامة عن الحزب وأحواله بناء على مايرد عليها من اللوائح والكشوف من لجان الفروع وترفعها إلى المؤتمر العام.

المادة الثامنة والعشرون - تجتمع الجمعيات العمومية والمؤتمر العام فى مواعيدها المقررة حسب المادة (١٥) ويرأسها فى كل مكان رئيس اللجنة الإدارية، وأما المركز العام فينعقد برئاسة اللجنة العليا.

المادة التاسعة والعشرون - تنظر كل جمعيية عمومية فى نتيجة الحسابات وفى بيان لجنة الإدارة عن أعمالها فى السنة الماضية، وتصادق على الحسابات الختامية، وتقرر مايجب العمل به فى السنة المقبلة، وتنتخب نصف أعضاء مجلس الإدارة، وتفض بعد انتهاء عملها.

المادة الثلاثون - على سكرتير كل لجنة إدارية أن يقوم بضبط المحاضر ومقررات الجمعية العمومية . وعلى سكرتير اللجنة العليا ومساعديه أن يقوموا بضبط أعمال المؤتمر العام.

المادة الحادية والثلاثون - من خصائص المؤتمر العام الاطلاع على بيان اللجنة العليا عن أعمال الحزب فى السنة الماضية، ورؤية حساباتها، والتصديق عليها، والمذاكرة فى كل ما يرفع إليه عن أعمال السنة المقبلة وتقريرها.

المادة الثانية والثلاثون - كل تغيير وتبديل فى برنامج الحزب السياسى الأساسى من حقوق المؤتمر العام، ولا يتم ذلك إلا بطلب تحريرى من اللجنة العليا، أو لجنة من لجان الفروع، ويعمل بغالبية الآراء.

المادة الثالثة والثلاثون ـ على اللجنة العليا ولجان الفروع تنفيذ ما يقرره المؤتمر كل منها فيما يخصه.

ولقد كان لهذا الحزب شأن خطير فى الحوادث التى تقدمت إعلان الحرب العظمى، وسنتكلم عنها فى موضعها.

ب ـ جمعية بيروت الأصلاحية

لمدينة بيروت، درة تاج آل عثمان، مقام خاص بين بلاد العرب. نشأ عن اعتبارات جغرافية واقتصادية ومذهبية، فهى واقعة فى منبسط صغير من الأرض بين البحر الأبيض وجبل لبنان ويكتنفها من جهاتها الثلاث، ولما كانت أكثرية سكانه من الموارنة فقد أوجس مسلمو بيروت ـ وهم أقلية ـ شراً من الحركة الجديدة التى ظهرت فى فرنسا إزاء سوريا، وخافوا أن تستغل الأكثرية المورانية وهى معروفة بالعطف عليها لصلة قديمة نشأت عن حوادث معروفة، فمراعاة لهذه الاعتبارات، ولما ظهر من عجز الدولة، وخوفا من أن تحتل فرنسا البلاد متذرعة بسوء الإدارة، وبما لها من نفوذ أدبى ومصالح اقتصادية، كان مسلمو بيروت أول من لبى الصوت الذى ارتفع فى مصر بالنداء إلى الإصلاح على أساس اللامركزية، لما توهموه من أنه الوسيلة الوحيدة لدرء الخطر المحدق بهم، ولانقاذهم من الوقوع فى براثن الاحتلال الفرنسى.

وفعلا اجتمع أعيان بيروت وكبارها ونوابها، وبحثوا، الموقف وأبلغوا الوالى العثمانى ـ واسمه يومئذ أدهم ـ رغبتهم فى إدخال الإصلاحات العاجلة، فرفع أمرهم إلى الباب العالى ببرقية طيرها فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٢ وقال فيها «وإذا لم نأخذ بالإصلاح الصحيح فالبلاد ملفتة من يدنا لا محالة» فأجابه رئيس الوزارة وكان يومئذ الصدر الأعظم كامل باشا بأن يدعو الشعب إلى تقديم مطالبه للنظرف فيها، وعلى أثر ذلك اجتمع ٩٠ مندوبا فى دار بلدية بيروت يوم ٣١ يناير سنة ١٩١٣ ـ٢٣ صفر سنة ١٣٣١ ووافقوا على المطالب الآتية وأبلغوها إلى الوالى لإرسالها إلى وزارة الداخلية لتنفيذها وهى:

مادة أساسية ـ الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية

المادة الأولى ـ تقسم إدارة الولاية إلى قسمين: القسم الأول هو المشتمل على الأعمال المتعلقة بكيان السلطة وشؤونها الأساسية، وهى المسائل الخارجية والعسكرية والجمارك والبريد والتلغراف وسن القوانين. ووضع المكوس.

والقسم الثاني ـ هو المشتمل على الأعمال المحلية المتعلقة بشؤون الولاية الداخلية الخاصة. فكل مايتعلق بالقسم الأول منوط تقريره وإجراؤه بالحكومة المركزية.

وكل ما يتعلق بالقسم الثاني منوط تقريره بمجلس الولاية العمومي.

المادة الثانية ـ للوالي صفتان قانونيتان: الأولى تمثيل الحكومة المركزية، وبهذه الصفة يتولى إجراء جميع الأعمال المتعلقة بالقسم الأول، طبقا لقرارات الحكومة المركزية.

والثانية يمثل حكومة الولاية التي يرأسها، وبهذه الصفة يتولى تنفيذ جميع الأعمال المتعلقة بالقسم الثاني طبقا لقرارات المجلس العمومي . أما حقوق الوالي ووظائفه فهي:

أولا ـ تنفيذ قرارات المجلس العمومي

ثانيا ـ الاعتراض على قرارات المجلس العمومي طبقا للشروط الآتي بيانها في باب «الوالي والمجلس العمومي».

ثالثا ـ الاطلاع على المشروعات التي تعدها «لجنة المجلس العمومي» لإبداء ملحوظاته عليها قبل تقديمها إلى المجلس.

رابعا ـ تعيين المتصرفين والقائمين والمديرين بعد عرض أسمائهم على الحكومة المركزية، وفقا لنظام يضعه المجلس العمومي.

خامسا ـ تعيين الطلاب المتحنين الذين تعرض عليه لجنة الامتحان أسماءهم لأجل التوظف.

سادسا ـ دعوة المجلس العمومي في الميعاد المعين لاجتماعه. ويمكنه دعوته لاجتماع فوق العادة بمصادقة لجنة المجلس أو «مجلس المستشارين».

المادة الثالثة ـ يؤلف في الولاية مجلس عمومي من ثلاثين عضوا ينتخب نصفهم من المسلمين، والنصف الآخر من غير المسلمين لمدة أربع سنوات، وهم ينتخبون منهم رئيسًا لهم بالاقتراع السري (أما سائر الانتخابات العمومية، فتبنى على قاعدة التمثيل النسبي العددي في دوائر الانتخابات).

أما حقوق المجلس ووظائفه فهي :

أولا ـ تقرير جميع أعمال الولاية الداخلية، والمذاكرة فيما يعرض عليه من قبل الوالي، أو لجنة المجلس أو عشرة من أعضائه.

ثانيا ـ وضع الأنظمة الداخلية بشرط أن لا تمس شؤون السلطنة الأساسية.

ثالثا ـ عقد القروض التي لا تتجاوز قيمتها نصف الواردات المختصة بالولاية . أما

القروض التى تتجاوز قيمتها هذا المبلغ فيلزم لها مصادقة الحكومة المركزية.

رابعا - إعطاء رخص لتأليف شركات مساهمة (آنونيم) عثمانية للمشاريع العمومية، كالنافعة والتجارة والصناعة والزراعة، وسائر الشؤون العمرانية داخل الولاية على شرط أن لا تتضمن امتيازًا. أما المشاريع التى تتضمن امتيازًا فيجب مصادقة الحكومة المركزية عليها. وتخول هذه الشركات الشخصية المعنوية. بمعنى أن يكون لها حق التملك.

خامسا - تقرير الضمائم الكسورية على المكوس المقررة.

سادسا - تقرير رواتب موظفى ومستشارى الدوائر التى هى بإدارة حكومة الولاية.

سابعا - حق استيضاح الوالى، وطلب عزله، ولا يتدخل المجلس العمومى فى الشؤون السياسية العامة مطلقًا.

المادة الرابعة - قرارات المجلس العمومى نافذة، مالم يعترض عليها الوالى، بمصادقة مجلس المستشارين فى خلال أسبوع من تاريخ تبليغه إياها، فيعيد المجلس النظر فى قراره، وإذا أصر عليه بأكثرية ثلثى الأصوات يكتسب القرار الصفة القانونية القطعية، وعلى الوالى تنفيذه.

المادة الخامسة - ينتخب المجلس العمومى بالاقتراع السرى لجنة من أعضائه من كل لواء واحد، واثنان من مركز الولاية لمدة سنة واحدة، فتجتمع بإدارة مستشار المجلس العمومى.

أما وظائف اللجنة فهى:

أولا - مراقبة تنفيذ قرارات المجلس

ثانيا - درس المشاريع اللازمة للولاية وإعداد لوائحها

ثالثا - تعيين مهندسين اختصاصيين للاستعانة بهم فى أعمالها

رابعا - حق الاعتراض على الممتحنين الذين تقدم إليها «لجنة الامتحان» أسماءهم قبل عرضها على الوالى.

خامسا - دعوة المجلس العمومى لاجتماع فوق العادة باتفاق ثلثى أعضائها، ومصادقة مستشار المجلس.

المادة السادسة - الوالى وحاكم الشرع فى مركز الولاية والدفتردار، وباشمدير الرسومات، وباشمدير البوستة والتلغراف، وقومندان الجندرمة وضباطها تعينهم الحكومة المركزية. على شرط معرفتهم اللغة العربية معرفة تامة، ويستثنى من هذا الشرط والى

الولاية لمدة خمس سنوات من تاريخ وضع مواد هذه اللائحة موضع الإجراء.

أما بقية الموظفين فينبغي أن يكونوا من أهالي البلاد، ويجرى تعيينهم على الوجه الآتي بيانه:

يمتحن طالبوا الوظيفة أمام لجنة مؤلفة من مستشار ورئيس الدائرة التي يطلبون الدخول فيها، فتقدم لجنة الامتحان اسمي الممتازين منهم إلى لجنة المجلس العمومي، وبعد مصادقتها يعرضان على الوالي فيعين أحدهما. ولدى تعيينه يبلغ الوالي اسمه للنظارة المنسوب إليها، فيقيد في سجلها، محافظة على حقوق ترقيته وتقاعده. وأما رؤوساء العدلية فيعينون وفقا لنظام يضعه المجلس العمومي.

الموظفون المعينون من قبل الولاية - عدا رؤساء العدلية تكف يدهم بناء على طلب المستشار ورئيس الدائرة المنسوبين إليها معا. وأما رؤساء العدلية فتكف يدهم بناء على طلب المستشار ومصادقة مجلس المستشارين. وقرار كف اليد في كلا الحالين ينفذه الوالي.

وللموظف المكفوفة يده الحق بمراجعة الوالي في خلال سبعة أيام من تاريخ تبليغه ذلك إذا كان موظفا في مركز الولاية، وخمسة عشر يوماً إذا كان خارج المركز. فيحيل الوالي دعواه إلى مجلس المستشارين ليحكم في وجوب العزل أو عدمه. والموظف الذي يحكم مجلس المستشارين بعزله لايجوز استخدامه في دوائر الحكومة ولا يعطى معاش معزولية. أما محاكمة المعزول جزائياً فتجري في المحاكم العدلية بمذكرة كخاصة من المستشار إلى المدعي العمومي.

وأما موظفو الحكومة المركزية فتكف يدهم بطلب المستشار ومصادقة الوالي الذي يطلب عزلهم بعد حكم المستشارين عليهم من النظارة المنسوبين إليها، وينبغي أن يعين خلفهم في مدة ثلاثين يوماً.

وأما المفتشون والمستشارين فيكون عزلهم بطلب الوالي من مجلس المستشارين، وبحكم صادر من هذا المجلس.

وأما الوالي فيكون عزله بناء على قرار المجلس العمومي بأكثرية ثلثي مجموع أعضائه فتعين الحكومة المركزية خلفه في مدة أربعين يوماً.

المادة السابعة - تعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث العربية أو التركية أو الفرنسية وذلك للدوائر الآتية في مركز الولاية

وهى الجندرمة والمالية (وتلحق بها غرفة التجارة) والبوستة والتلغراف والجمرك، وتعين أيضا مفتشًا أجنبيًا عامًا لكل لواء من الولاية الداخلة تلك المسألة المراجع فيها ضمن دائرة اختصاصه.

ويعين المجلس العمومى من الدول التى ترضاها الحكومة المركزية مستشارين للدوائر الآتية. وهى مجلس الولاية العمومى، والعدلية، والنافعة والمعارف، والبلدية، والبوليس، ويلبس هؤلاء المستشارون الشعار العثمانى فى أوقات العمل. أما مدة الاستشارة والتفتيش فخمس عشرة سنة يمكن تجديدها.

المادة الثامنة ـ واردات الولاية على نوعين: أحدهما يعود برمته إلى مركز السلطنة وهو حاصلات الجمارك والبوستة والتلغراف والبدلات العسكرية، والآخر وهو عدا ماذكر من الواردات يعود برمته إلى الولاية.

المادة التاسعة ـ ينظم المجلس العمومى ميزانية الولاية السنوية. فيدخل فيها رواتب جميع الموظفين والمستشارين، عدا موظفى ومستشارى الجمارك والبوستة والتلغراف.

المادة العاشرة ـ تسلم الأراضى المحولة والأملاك الأميرية الداخلة ضمن الولاية إلى المجلس العمومى، وتكون برمتها ملكا للولاية.

المادة الحادية عشرة ـ لا علاقة للإدارة ولا للمجلس العمومى فى الأوقاف. بل يسلم كل وقف إلى مجلس الملة المنسوب إليها، لاستخدامه بموجب قانونها (بناء عليه جميع أوقاف المسلمين فى الولاية تسلم إلى مجلس ملتهم أسوة بباقى الطوائف).

المادة الثانية عشرة ـ البلديات مستقلة بجميع أعمالها، ولها الحق فى وضع الرسوم البلدية بمصادقة المجلس العمومى دون مراجعة الحكومة المركزية

المادة الثالثة عشرة ـ يؤلف مجلس يسمى المستشارون ويكون أعضاؤه رئيس المجلس العمومى (أو من ينوب عنه من أعضاء لجنة المجلس) وجميع مستشارى الدوائر فى مركز الولاية.

أما وظائف هذا المجلس فهى:

أولا ـ تفسير مواد النظام الذى تضعه الحكومة المركزية (بناء على هذه اللائحة) كدستور لحكومة الولاية ومجلسها العمومى.

ثانيا ـ تفسير القرارات والأنظمة التى يضعها المجلس العمومى.

ثالثا ـ النظر والحكم فى وجوب عزل الموظف أو عدمه.

رابعا ـ النظر والحكم بناء على طلب الوالى أو أحد المستشارين فى كل خلاف فى الرأى يقع بين أحد المستشارين والمجلس العمومى أو أحدى لجانه أو أية دائرة كانت. ويكون حكمه مبرما، ويرأس هذا المجلس والى الولاية، وينوب عنه فى غيابة رئيس المجلس العمومى أو مستشار هذا المجلس.

المادة الرابعة عشرة ـ تعتبر اللغة العربية اللغة الرسمية فى جميع المعاملات داخل الولاية، وتعتبر أيضا لغة رسمية كاللغة التركية فى مجلس النواب والأعيان.

المادة الخامسة عشرة ـ تخفض الخدمة العسكرية إلى سنتين، وتقضى الخدمة أيام السلم فى الولاية، وتنزل قيمة البدل النقدى للنظامية إلى ثلاثين ليرة عثمانية، وللرديف الاحتياطى إلى عشرين ليرة.

ولابد لنا من الاعتراف بهذه المناسبة أن بعض العناصر المسيحية الموالية لفرنسا فى بيروت أرادت استغلال (الحركة الإصلاحية) لخدمة هذه الحكومة فتقربت من زعماء الحركة، وتظاهرت بالإخلاص لهم، والرغبة فى الخدمة الوطنية عاملة سرا على توسيع الخرق بين الدولة والإصلاحيين مما ستراه مفصلا.

ج ـ جمعية البصرة الإصلاحية

أنشأ هذه الجمعية فى البصرة السيد طالب النقيب نائب البصرة فى مجلس النواب العثمانى وأحد زعماء حزب الائتلاف، فانضم إليها عدد من كبار البصرة
كما أنضم إليها أحرار العراق وشبانه. وصدرت جريدة النهضة فى بغداد لتكون لسان حال لها فلم تعش طويلا.

ولما عقد مؤتمر باريس أبرق إليه السيد طالب مؤيدا ومشجعا فخاف الاتحاديون العاقبة فانتدبوا أحد رجالهم وهو القائمقام فريد بك وعينوه قائدا للبصرة وناطوا به مهمة اغتيال السيد طالب فجاء البصرة ومعه حاشية كبيرة، فأسرع هذا وأرسل إليه من اغتاله.

فرأى الاتحاديون أن من مصلحتهم الجنوح إلى المسالمة فاستمالوا السيد طالب وأرسل إليه طلعت بك وزير الداخلية يومئذ برقية مفرغة فى قالب المجاملة فأذاع على الأثر البيان الآتى:

أعلن بكمال الفخر إلى عموم أهالى الولاية والملحقات بأننا قد اتفقنا فى أمر تشريك المساعى، وكأننا روح واحدة وجسد واحد لأجل رفع شأن وشوكة حكومتنا السنية، التى

قدرت صداقتنا رسميا، ولم يبق خلاف بيننا بأى صورة كانت . وقد زال ما كان من سوء التفاهم زوالا قطعيا، وصرنا كتلة واحدة نعمل على سعادة دولتنا الأبدية، ونسعى فى محافظة وحدتنا العثمانية بكل قوانا، حتى لايبقى منا فرد واحد، وللبيان حررت الكيفية وأعلنت فى ٧ ربيع الأول سنة ١٣٣٢.

د - النادى الوطنى العلمى فى بغداد

أنشئ هذا النادى فى الزوراء سنة ١٩١٣ على أثر إنشاء حزب اللامركزية العثمانى فى مصر، ليكون فرعا له ورئيسه هو مزاحم الباجه جى ودخل فيه كثير من الشبان فنشر المبادئ القومية وغرزها، وكان يستظل بظل السيد طالب النقيب رئيس جمعية البصرة الإصلاحية الذى نشطه، فأنشاء جريدة النهضة وكان يصدرها مزاحم نفسه، فلما عطلها الاتحاديون ولم يصدر منها سوى ١٢ عدداً وأمروا بالقبض على صاحبها ففرّ إلى البصرة ودخل فى حمى السيد طالب.

هـ - مؤتمر باريس العربى

شعر الشبان العرب فى باريس بما شعر به إخوانهم وآباؤهم فى سوريا ومصر والعراق والأستانة من ضرورة السعى للإصلاح وتحقيقه، ودرء الغوائل ففاوضوا فريقا من رجال العرب النازلين تلك العاصمة فلقوا منهم استحسانا وتحبيذا، فألفوا على الأثر لجنة تحضيرية هذه أسماء رجالها.

عبد الغنى العريسى، ندرة المطران ، شكرى غانم، عونى عبد الهادى، جميل مردم بك ، شارل دباس، محمد المحمصانى، جميل معلوف، واختصوا الأول بوظيفة السكرتارية

وكان فى مقدمة مهام اللجنة فى جلستها يوم الثلاثاء ١١ مارس سنة ١٩١٣ الارتباط بحزب اللامركزية بمصر، وفى يوم ٤ إبريل «دنيسان» من تلك السنة أرسلت كتابا إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية اقترحت فيه عليها أن تكون قدوة للمؤتمر ومصدر عمله وهذا نصه:

نحن الجالية العربية فى باريس نقدم إليكم عواطف الشكر والمنة لتأليفكم حزب اللامركزية الإدارية، فقد جمعتم فى برنامجكم الأمانى التى يرتادها أبناء العرب لسعادتهم وترقيتهم فى كل حين، أما قد عهدنا فيكم خيرة المواطنين حدة وغيرة وإقداما فقد أوقفنا

أنفسنا لخدمة عنايتكم النبيلة واعتبرنا كم مصدرا لما نتوقع أن نقوم به فى هذه الديار إزاء مناظرات الجرائد، ومغامز الخطباء فى الأندية السياسية، ومجرى المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية

ذلك ماحمل الجالية العربية وعددها ينيف على الثلاثمائة فى هذه المدينة ـ على الاجتماع والبحث عن التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن المحبوب من الطوارئ، وإصلاح أمور بلادنا على قاعدة اللامركزية. وبعد المناقشات ارتأت الجالية أن تعقد مؤتمراً للعرب يقوم به السوريون فى هذه المدينة فانتخبت لجنة إدارية مؤلفة من شكرى غانم ومحمد المحمصانى وندره مطران وعونى عبد الهادى وجميل معلوف، وشارل دباس وجميل مردم وعبد الغنى العريسى تظهر فيه للأجانب أن العرب يدرأون عادية الاحتلال من أية دولة كانت، ويحتفظون بحياتهم الوطنية، وتصارح الدولة العثمانية بوجوب تطبيق الإصلاحات اللامركزية فى بلاد العرب، فاجتمعت اللجنة الإدارية وقررت أن ترتبط واياكم فى العمل، وأن تنفذ ما يوعزه إليها مركزكم فى مصر خدمة للمصالح العربية.

وإن المؤتمر سيجتمع فيه وفود من البلاد الأمريكية الشمالية والجنوبية، ومن المقيمين فى البلاد الأوربية ومن بلادنا العربية وأخصها سوريا، فنتقدم إليكم طالبين أن توفدوا من قبلكم من ينوب عن السوريين المقيمين فى مصر، ولرئاسة المؤتمر بصفتكم مصدراً لأعمالنا، وإليكم ماتدور حوله مباحث المؤتمر.

الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال

حقوق العرب فى المملكة العثمانية

ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية (كما هو مفصل فى برنامجكم)

المهاجرة من سوريا وإلى سوريا.

وسيعهد بهذه الموضوعات إلى خطباء يبحثون فيها بحثا مدققا بحضور المواطنين وممثلى الصحف الأوربية وبعض كبار الأوربيين. حتى إذا انتهى المؤتمر قررت اللجنة مع الوفود حمل الطلب إلى مؤتمر السفراء فى لندن، وهو الاعتراف بحياة العرب الوطنية، ودرء احتلال الأجانب، ووجوب الإصلاحات اللامركزية فى البلاد العربية، أو حمله إلى سفراء باريس فما إذا انفرط عقد مؤتمر لندن، أو الاكتفاء بعقد مؤتمرنا أمام الأجانب دون حمل قراراته إلى السفراء وذلك راجع إلى ما يقرره مركزكم العام.

فتكرموا علينا بالمؤازرة برأيكم حتى إذا كانت فكرة المؤتمر صالحة فى نظركم بعثتم

ممثلا عن مركزكم لنبوئه المكانة الرفيعة ونعضده على الغاية المنشودة.

وحسبنا الله أن يأخذ بأيديكم وأيدينا لوقاية الأمة والبلاد من فساد البداية والمعاد والسلام عليكم.

وفى يوم ١٤ إبريل كتبت اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر إلى لجنة باريس شاكرة عواطفها وأبلغتها إنها قررت إرسال مندوبين من قبلها لحضور المؤتمر على أن يكون لهم المشاركة والنظر فى موضوعاته حتى تكون موافقة لمبادئ الحزب وبرنامجه. وقالت إنها «ترجو أن يكون هذه الاتفاق مبدأ دور سعيد للأمة العربية بتضافر أبنائها».

وعلى أثر ذلك أذاعت لجنة المؤتمر فى باريس المنشور الآتى فى أنحاء العالم العربى:

نحن الجالية العربية فى باريس قد أوقفتنا مناظرات الأجانب الأوربية ومغامزات الساسة فى الأندية العمومية على استقراء ما يجرى من المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية وأخصها زهرة الوطن سوريا ولم يبق بين جمهور الناطقين بالضاد من لا يعلم أن ذلك نتيجة سوء الإدارة المركزية.

فحدا بنا الأمر إلى الاجتماع، وعددنا ينيف على الثلاثمائة فى هذه المدينة فجرى البحث عن التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الأرض المترعة بدم الآباء العظام ورفات الأجداد الإباة من عداء الأجانب، وإنقاذها من صبغة التسيطر والاستبداد، وإصلاح أمورنا الداخلية على مايتطلبه أهل البلاد من قواعد اللامركزية حتى يشد بها ساعدنا، وتستقيم قناتنا، فينقطع بذلك خطر الاحتلال أو الاضمحلال، وتنفى مذلة الرق، وتخفت نأمة الاستعباد، ويظهر للاعبين بحياة الشعوب أننا أمة تأبى الضيم، ولا تستسلم ولا تستكين لمسكنة.

وبعد المداولة تقرر عقد مؤتمر للعرب يقوم به السوريون فتفد إليه وفود أكابر من البلاد العربية، وعقلاء أفاضل من المهاجرين السوريين لمصر وأمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية والبلاد الأوربية، فتمثل فيه الأمة العربية المنتشرة فى أقطار الأرض، وتحق كلمة التضامن الاجتماعى والسياسى لهذه الأمة فى هذا المؤتمر. حيث نبسط للأمم الأوربية أننا أمة مستمسكة ذات وجود حى لا ينحل، ومقام عزيز لا ينال، وخصائص قومية لا تنزع، ومنزلة سياسية لا تقرع، ونصارح الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا وأن حياتنا أقدس حق من حقوقنا، وأن العرب شركاء فى هذه المملكة، شركاء فى الحربية، شركاء فى الإدارة، شركاء فى السياسة، وأما فى داخلية بلادهم فهم شركاء أنفسهم.

ومن ثم انتخبت الجالية لجنة إدارية (هى الموقعة على هذا) لتقوم بالعمل فوضعت خطة المؤتمر، وما سيجرى فيه من المباحث على مشهد من أبناء الوطن المجيد وبعض من كبار الأوربيين وممثلى الصحف الأوربية والأمريكية، وهذه هى المسائل التى ستكون قاعدة المذكرات:

١ ـ الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.

٢ – حقوق العرب فى المملكة العثمانية.

٣ ـ ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية.

٤ ـ المهاجرة من سورية وإلى سوريا.

ومتى تمت المناقشات حمل المؤتمر قراراته إلى حيث يتحتم عليها التصديق ويحق التنفيذ.

وبعد فإننا ندعو كل من يخفق قلبه لأمة العرب صغيرا أو كبيرا أن يلبى داعى الوطن لاسيما أرباب الزعامات فى مقاعد الجمعيات، فعليهم نعتمد، وإليهم نتجه، فإما أن يتضامنوا إلى وفود المؤتمر، وإما أن يبعثوا إليه بالرسائل البرقية أو الكتابية يظهرون فيها ارتياحهم لنبل الغاية واشتراكهم فى شريف المقصد حتى يدلى المؤتمر لدى الأمم بحجته وتستوثق قوته بقوة أمته، وهناك ينبثق اليقين، فيطل على هذه الأمة فجر الحياة من بين اتساق الغسق وركام الظلمات

وسلام على من تلقى هذا النور ففشاه، ومن عرف واجبه فأداه.

اجتماع المؤتمر وقراراته

وفى يوم الأربعاء ١٨ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٣ افتتح المؤتمر جلسته الأولى فى منتصف الساعة الثالثة فى قاعة الجمعية الجغرافية بشارع سن جرمن من برئاسة السيد عبد الحميد الزهراوى وهذه أسماء المندوبين الذين شهدوه:

السيد عبد الحميد الزهراوى واسكندر عمون عن حزب اللامركزية بمصر. سليم على سلام وأحمد مختار بيهم وأحمد حسن طبارة والدكتور أيوب ثابت عن الجمعية الاصلاحية ببيروت وتوفيق السويدى وسليمان عنبر عن العراق. ومحمد حيدر وإبراهيم حيدر عن بعلبك.

وعبدالكريم الخليل عن جالية الأستانة. ونجيب دياب ونعوم مكرزل والياس مقصود عن المهاجرين السوريين إلى الولايات المتحدة. وعباس بجاتى عن المهاجرين إلى المكسيك

وشكرى غانم وعبد الغنى العريسى وندره مطران وعونى عبدالهادى وشارل دباس وخير الله خيرالله وجميل مردم ومحمد محمصانى عن جالية باريس.

وعقد المؤتمر أربع جلسات كان آخرها مساء يوم الأثنين ٢٣ يونيو، وقد خطب فى هذه أحمد مختار بيهم باللغة الفرنسية، فلخص أقوال الخطباء وترجم قرارات المؤتمر ثم أعلن ختامه وهذا نص القرارات:

١ - إن الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للملكة العثمانية، فيجب أن تنفذ بوجه السرعة.

٢ - من المسلم أن يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية، وذلك بأن يشتركوافى الإدارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا.

٣ - يجب أن تنشأ فى كل ولاية عربية إدارة لا مركزية تنظر فى حاجاتها وعاداتها.

٤ - كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صودق عليها يوم ٣١ يناير سنة ١٩١٣ بإجماع الآراء، وهى قائمة على مبدئين أساسين، وهما توسيع سلطة المجالس العمومية، وتعيين مستشارين أجانب فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين الطلبين.

٥ - اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة فى مجلس النواب العثمانى، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية فى الولايات العربية.

٦ - تكون الخدمة العسكرية محلية فى الولايات العربية. إلا فى الظروف والأحيان التى تدعو إلى الاستثناء الأقصى.

٧ - يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفيه لبنان وسائل ماليتها.

٨ - يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية. ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم، ويحيى العراق.

٩ - يجرى تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية.

١٠ - وتبلغ هذه القرارات أيضا للحكومات الأوربية ويشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية شكرا جزيلا لترحابها الكريم بضيوفها.

ملحق لهذه القرارات

١ - إذا لم تنفذ القرارات التى صادق عليها هذا المؤتمر فالأعضاء المنتخبون فى لجان الإصلاح العربية يمتنعون عن قبول أى منصب كان فى الحكومة العثمانية، إلا بموافقة خاصة من الجمعيات التى ينتمون إليها.

٢ - ستكون هذه القرارات برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين، ولا يمكن مساعدة أى مرشح فى الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه.

٣ - المؤتمر يشكر مهاجرى العرب على وطنيتهم فى مؤازرتهم له.

وفى يوم ٣٠ يونيو زار وفد مؤلف من السيد عبد الحميد الزهراوى رئيس المؤتمر، وشكرى غانم نائب الرئيس، واسكندر عمون، وسليم على سلام، والشيخ أحمد طباره، وأحمد مختار بيهم «وخليل زينيه وزير الخارجية الفرنسية المسيو بيشون فشكر الرئيس ماالقيه المؤتمر من ترحيب الأمة الفرنسية قائلا:

اننا إذا كنا نستحق هذا الإكرام بصفتنا أبناء دولة صديقة لفرنسا من قديم الزمان فإننا نستحقه أيضا بصفتنا سكان بلاد ما زالت فرنسا تظهر نحوها كل انعطاف وتودد، وإننا اعتمادا على هذا وذاك نعتقد أن فرنسا وكل أوربا تمدان لنا يد المعونة فى تحقيق الإصلاح الذى وعدتنا دولتنا العثمانية فى إجرائه، وأن الاتحاد والإخاء المستحكمين بين المسلمين والمسيحيين من جهة وبين السوريين واللبنايين من جهة ثانية هما أعظم برهان على ارتقائنا وكفاءتنا لإدارة أعمالنا مع استعانتنا بتجاريب أوربا، واستظلالنا بظل الراية العثمانية. لهذا نحن واثقون من أن أوربا لا بد أن تصغى بارتياح إلى مطالبنا الإصلاحية النافعة.

فرد عليه المسيو بيشون شاكرا «وقال إن فرنسا تشعر بعاطفة الولاء الأكيد والصداقة الثابتة نحو الدولة العثمانية، وهى تحب الخير للسوريين، وأنه معجب بما أظهره طلاب الإصلاح من التعقل فى مطالبهم، وأنه لجدير بأوربا كلها أن تكون ضامنة لتحقيق الإصلاح. كافلة لمستقبل تلك البلاد. وإن فرنسا تقبل بكل رضى وسرور أن تكون محامية (Avoeal) سوريا لدى أوربا، وأنها تفعل ذلك للعثمانية لا ضدها.

وقال أحمد مختار بيهم أيضا «إننا نحترم فرنسا، ولكن لانرضى أن تكون أكثر من معضدة لنا فى إصلاح شؤوننا بشرط أن نظل عثمانيين».

وقصد الوفد بعد ذلك قصر السفارة العثمانية فقابل السفير وسلمه نسخة من قرارات المؤتمر مع الكتاب الآتى:

«إنفاذا للقرار الصادر من المؤتمر العربى يوم ٢٣ يونيو سنة ١٩١٣ نتشرف بأن نرسل لدولتكم مع كتابنا هذا نسخة من القرارات التى صادق عليها المؤتمر، راجين أن تتفضلوا بإطلاع الحكومة العثمانية عليها، واقبلوا فائق احترامنا».

ولابد لنا من التنبيه هنا إلى أمر جوهرى قد لايستوقف نظر القارئ المسرع. فقد أراد السيد عبد الحميد الزهراوى وأحمد مختار بيهم بما فاها به من تصريحات بحضور الوزير الفرنسى أن يقطعا الطريق على الذين اندسوا بين رجال المؤتمر، وزعموا أنه ماعقد إلا لخدمة السياسة الفرنسية، وإن غايته هى طلب المساعدة الفرنسية، وليبين له أنهما عثمانيان لا يرغبان عن العثمانية بديلا.

ولقد أدرك الوزير مارميا إليه فكتب كتابا سريا إلى قناصل فرنسا فى سوريا يقول فيه : لقد تحقق لدينا من تصريح الوفد الذى زارنا باسم المؤتمر العربى أن هذه الحركة قد انقلبت علينا، فاظهروا أنفسكم أنكم تساعدونها لاكتساب ثقة الشعب، واسعوا فى الخفاء لقتلها (يريد الحركة الإصلاحية).

حكومة الأستانة والمؤتمر

لم تقابل حكومة الأستانة عقد المؤتمر فى عاصمة فرنسا بالارتياح. ويقال إنها سعت عند الحكومة الفرنسية لحملها على عدم السماح باجتماعه، فلم تفلح فانتدبت جمعية الاتحاد والترقى مدحت شكرى بك أحد أقطابها، فسافر إلى باريس، واجتمع إلى رجال المؤتمر، وبعد مباحثات ومناقشات تم الاتفاق بين الفريقين على الشروط الآتية:

١ - يكون التعليم بالدورتين الإبتدائية والثانوية فى جميع البلاد العربية باللغة العربية ويكون بالتركية فى القسم العالى.

٢ - يكون جميع رؤساء المصالح والموظفيين ماعدا الولاة عارفين اللغة العربية، ويكون تعيين القضاة ورؤساء القضاء الذين ينصبون بإرادة سنية من العاصمة. أما من عداهم من الموظفين فيعينون من الولاية.

٣ - تترك إدارة الأوقاف الموقوفة للجهات الخيرية المحلية لمجالس الجماعات المختلفة.

٤ - تترك الأمور النافعة (الأشغال العامة) للإدارة المحلية.

٥ ـ يخدم المجندون فى المناطق العسكرية القريبة من بلادهم، ويختار الجند الذى تدعو الحاجة إلى إرساله إلى اليمن وعسير بنسبة عادلة من جميع أبناء السلطنة العثمانية.

٦ ـ مقررات المجالس العمومية تكون نافذة فيما هو من اختصاصها القانونى.

٧ ـ يكون مبدئيا فى الوزارة ثلاثة من أبناء العرب، ويعين منهم عدد من المستشارين والمعاونين فى الوزارات، ويكون منهم اثنان أو ثلاثة فى كل مجلس من مجالس شورى الدولة ومحكمة التمييز (النقض والإبرام) والمشيخة الإسلامية وبقية المصالح الأخرى. ويكون منهم أربعة أو خمسة على الأقل فى الدوائر المختلفة من كل وزارة.

٨ ـ يعين خمسة ولاة على الأقل من العرب وعشرة متصرفين، وينصف الذين لم يرقوا منهم، ويعاملون معاملة زملائهم من موظفى الملكية والحقانية والشرعية الترك.

٩ ـ يعين عددم من العرب فى مجلس الشيوخ (الأعيان) بنسبة أثنين من كل ولاية.

١٠ ـ يستخدم مفتشون أخصائيون من الأجانب فى كل ولاية بنسبة الحاجة، وتحدد وظائفهم واختصاصتهم بنظام خاص.

١١ ـ تكون المعاملات الرسمية فى البلاد العربية باللغة العربية، على أن يُنفذ ذلك تدريجيا.

هذا ماتم الانفاق عليه فى باريس بين مندوب جمعية الاتحاد ـ وكانت هى القابضة على زمام السلطنة ـ ورجال المؤتمر، وقد حمله المندوب وعاد به إلى الأستانة وعاد معه عبد الكريم الخليل أحد أعضاء المؤتمر للإشراف على الحالة عن كثب.

ولم يطل الأمر حتى أعلنت الحكومة الاتحادية عزمها على إدخال الإصلاحات المطلوبة فاستصدرت يوم ٣ أغسطس سنة ١٩١٣ مرسوما سلطانيا هذا تعريبه:

أنه بالنظر إلى الضرورات، واختلاف الأمزجة فى الولايات العثمانية، وإلى وجوب ترقية البلاد وإسعاد أهلها وزيادة رفاهم تقرر بعد الاتكال على الله ومفاوضة الولايات مايأتى:

١ ـ يعهد فى إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلى المشروط صرف ريعها على الجهات الخيرية، مع مراعاة شروط الواقف إلى مجالس الجماعات فى الولايات، وذلك بموجب قانون خاص سينشر قريبا.

٢ ـ يؤدى الجنود خدمتهم العسكرية زمن السلم فى دائرة التفتيش التابعين له. وإذا رأت الدولة أن الحال تقضى بزيادة عدد الجنود المحتشدة فى جهة من جهات الحدود فلها أن تسوق جميع الصفوف العسكرية من دون قيد ولاشرط. ويؤخذ الجند الذى تمس

الضرورة إلى سوقه لليمن والحجاز وعسير ونجد وأمثال هذه المقاطعات - من البلاد العثمانية بنسبة صحيحة.

٣ - يكون التدريس باللغة العربية فى جميع الولايات التى تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة وذلك لتوفير أسباب الرقى والحضارة حالا ومستقبلا. على أن يبدأ ذلك منذ الآن فى المدارس الابتدائية والثانوية مع جعل تعليم اللغة التركية إجباريا. وينظر من الآن فى الوسائل التى تؤدى إلى جعل التعليم العالى فى البلاد العربية باللغة العربية. على أنه يجب أن يظل باللغة التركية فى المدارس الثانوية فى مراكز الولايات لتعم هذه اللغة.

٤ - يجب أن يلاحظ فى تعيين الموظفين للبلاد العربية معرفتهم لغتها عدا اللغة التركية وتعين الحكومات المحلية الموظفين من الدرجة الثانية، طبقا لما نص عليه فى القوانين الخاصة بذلك، والذين يعينون بإرادة سنية يناط تعيينهم بالحكومة المركزية فى الآستانة».

وأذاعت وزارة الداخلية فى الوقت نفسه بيانا رسميا على الولايات استهلته بقولها:

لما كانت الغاية التى وضعناها نصب أعيننا هى ارتقاء جميع الولايات العثمانية، وضمان راحة سكانها ورفاههم بحسب أمزجتهم وحاجاتهم المحلية فقد دارت بعد الاتكال عليه سبحانه وتعالى مكاتبات مع الولايات بشأن الإصلاحات اللازمة، وتقرر الشروع فى تنفيذه تدريجا، بحسب قرار مجلس الوزراء الآتى:

ثم أورد البيان نص المرسوم الآنف الذكر وزاد عليه «أنه حبا فى الإصلاح تقررجلب مفتشين من الأجانب بقدر الحاجة على أن يعينوا فى كل ولاية، ووضع قانون خاص لذلك وإنه عملا بقانون الولايات تقرر ضم جانب من الإيرادات العامة إلى ميزانية كل ولاية لسد العجز الواقع عن قيام ميزانيتها بالواجبات الملقاة عليها، وخصوصا فى الأشغال العامة والمعارف، وأن المقرر أيضا تنفيذ القرارات التى تقررها المجالس العمومية ضمن دائرة اختصاصتها بلا إبطاء».

ولقد ارتاح بعض رجال العرب النازلين فى الآستانة إلى هذه المقررات - على مافيها من غموض وإبهام، وعدوها خطوة فى سبيل الإصلاح الذى ينشدونه، وتألف وفد منهم قوامه الشريف على حيدر باشا ونجلاه محيى الدين وعبد المجيد ومحيى الدين باشا الجزايرلى وإبراهيم صبوصة بك وشكرى باشا الأيوبى وبديع بك المؤيد ونجيب بك شقير والشيخ عبدالعزيز شاويش والدكتور حسين حيدر ومعروف الرصافى وسامى العظم وعبدالكريم

الخليل فقصد الباب العالى يوم الثلاثاء ١٥ أغسطس، وقابل الصدر الأعظم سعيد حليم باشا فخطبهم باللغة التركية معربا عن ارتياحه إلى إزالة سوء التفاهم بين العرب والترك. وقال إن غاية وزارته إسعاد الشعب العربى الكريم أخلص الشعوب العثمانية للخلافة العظمى، وخطب أيضا الشيخ عبدالعزيز شاويش وعبد الكريم الخليل.

وأدبت الشبيبة العربية فى الأستانة مساء ذاك اليوم مأدبة فخمة فى فندق طوقاتليان لخمسة وأربعين مدعوا حضرها كبار العرب والترك فحضر من هؤلاء طلعت وأنور وجمال وخليل وفتحى، وحضر من أولئك الشريف على حيدر معربا عن سروره بإزالة سوء التفاهم من بين الشعبين وحض أقطاب الحكومة على التعجيل بتنفيذ الإصلاحات فأجابه طلعت إنه وزملاؤه يخدمون العرب بإخلاص من زمن بعيد، وأنكر وجود سوء تفاهم، وخطب فتحى بك سكرتير جمعية الاتحاد العام باسمها فشكر للشبيبة العربية كرمها وبسط رغبة الجمعية فى الإصلاح وقال: إنها عقدت العزم على إنجاز ماوعدت به، وخطب آخرون.

ولما وصلت الأمور إلى هذا الحد أبرق عبدالكريم الخليل إلى باريس داعيا رجال المؤتمر العربى إلى زيارة الأستانة فجاءها سليم سلام وأحمد مختار بيهم وأحمد طبارة يوم الجمعة ١٥ أغسطس وقصدوا دار المنتدى الأدبى، واجتمعوا بمعتمدى الجمعيات العربية وقفوا منهم على الحالة.

واتصل القادمون برجال الحل والعقد، ثم تشرفوا يوم ٢٣ منه بمقابلة جلالة السلطان، وأعربوا له عن تعلق العرب بالعرش العثمانى، ورجوا منه أن يأمر الحكومة بتنفيذ الإصلاح على جناح السرعة، لأن الإصلاح هو الطريق الوحيد لترقية البلاد، وتنمية ثروتها، واسعاد سكانها فوعدهم خيرا. وكذلك زاروا ولى العهد يوم ٢٧ منه وخطبوا بين يديه. وفى مساء ذاك اليوم أدبت جمعية الاتحاد والترقى مأدبة شائقة للشبيبة العربية دعت إليها رجال الإصلاح وأقطاب الدولة. وخطب فتحى بك فى ختام المأدبة باسم الجمعية فقال.

«تبادلنا فى اجتماع سابق عواطف السرور بحصول ما حصل من اتفاق وتفاهم بين العرب والترك. وأعيد الآن ماقلته فى ذاك الاجتماع أمام وفد المؤتمر العربى، وأشكر لهم مساعيهم الحميدة وغيرتهم الصادقة، وأرجو أن يكون هذا الاتفاق مقدمة عهد سعيد للدولة والأمة».

وخطب الشيخ أحمد طبارة باسم الوفد خطبة طويلة نثبتها هنا لنفاستها قال:

حيا الله هذا الجمع الشريف وأحياه، وبارك فى هذا الاتفاق وأنماه

أيها السادة/

«يقول الحكماء العرب فى أمثالهم: صديقك من صدقك لامن صدقك. وهى لعمرى حكمة بالغة يجدر بكل عاقل أن يضعها نصب عينيه، وأن يجعلها نبراسا يستضئ به فى حياته الاجتماعية فإن دولتنا العلية أيدها الله باتت فى أشد الحاجة إلى رجال يصدقونها فى أقوالهم وأعمالهم. لا أن يصدقوها فى كل شيئ نافعا كان أو ضارا. وحسبنا ماتجرعناه من مرارة هذه السياسة الخرقاء قبل الدستور وبعده.

أنا إن رأيت الخطر محدقا بصديق تهمنى حياته فالمروءة تقضى علىّ أن أنبهه إليه، وأن أسعى لأنقاذه منه. حرصا على حياته العزيزة، أما انكارى للخطر - وأنا أراه - فلا يلتئم مع الصداقة والمروءة فى شيئ. فنحن نعتقد أن العرب والترك إخوان صنوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، وإن حياة هذا الملك تتوقف عليهما، فمن مصلحتها ومصلحة الدولة أيضا أن لا يكون بينهما سوء تفاهم على الإطلاق، فإنكار سوء التفاهم مع وجوده مضربهما معا، ومنكره غير محب لهما معا، وإنما المحب هو الساعى إلى إزالة سوء التفاهم بين الفريقين. وتوثيق عرى المحبة والوداد بيهما هو أساس نجاح الملك، هو الثقة بين الأمة والحكومة. وعلى قدر هذه الثقة يكون حظ الملك من التقدم والنجاح. وأساس الثقة هو عدم الاستئثار بشئ، وإعطاء كل ذى حق حقه. على هذه القاعدة الأساسية بنينا طلبنا للإصلاح حفظا لهذا الملك بعد ما رأينا العيون شاخصة إليه، والأطماع حائمة حوله. فكنا فى طلبنا هذا أكثر حبا له من الذين كانوا يقولون: إن الوقت غير مناسب للإصلاح. مع أن الإصلاح ليس له وقت معين. بل كلما اشتد المرض على المريض كان استقدام الطبيب له ألزم، وتناول العلاج له أحوج وأكفل.

لقد صرحنا بملء أفواهنا، ونصرح الآن، وفى كل زمان ومكان، أننا نشأنا تحت ظل الهلال العثمانى (تصفيق) ونريد أن نعيش تحت ظله ونموت تحت ظله (تصفيق) واعنى «بنحن» العرب، وأعنى بالعرب كل ناطق بالضاد. لا فرق فى ذلك بين المسلم وغير المسلم (تصفيق) لا نرضى من دولتنا العلية بديلا. وأننا نفديها بأرواحنا وأموالنا (تصفيق) وإنما نطلب لها الحياة السعيدة والعيشة الرضية، لنعيش وإياها فى سعادة وهناء ورخاء على قاعدة الاشتراك فى الحكم وتبادل الحقوق.

ولا نحتاج فى هذا المقام إلى زيادة إيضاح بعد ما حصحص الحق وبان، وظهر الصبح

للعيان، وصرح فخامة الصدر الأعظم وحضرة ناظر الداخلية وغيرهما من كبار رجال الدولة بأمور خطيرة الشأن، وقدروا أهمية القائمين بالإصلاح حق قدرها، وأثنوا على وطنيتهم أطيب ثناء. على أن هؤلاء يعتقدون أنهم إنما فعلوا ما يفرضه عليهم الواجب والصداقة والإخلاص لدولتهم ووطنهم وأمتهم.

لقد سر جميع العقلاء من العرب والترك بالاتفاق الذى تم بين عنصريهما وبات الكل ينتظر تنفيذه ليجنى الوطن ثمره النافع، ولا سيما بعد ما أكد لنا فخامة الصدر الأعظم وحضرة ناظر الداخلية تأكيدا ماوراءه زيادة لمستزيد أن هذا الهدف واقع لا محالة فى القريب العاجل، وأن الدولة لا تقف بالإصلاح عند هذا الحد، بل تزيده، وتعززه كلما سنحت الفرصة.

ونحن نعتقد إن هذا الاتفاق النافع لا تنحصر فوائده فى العرب، بل فى العرب والترك معا، وأن القائمين به عربا كانوا أو تركا إنما هم يعملون لسعادة الفريقين معا، وسعادة الملك العثمانى، لأنه على قدر ارتقاء العرب فى سلم الحضارة والعمران يكون ارتقاء هذه الدولة ونجاحها من أجل ذلك أهنئ الترك والعرب معا بهذا الاتفاق السعيد المبنى على المشاركة فى الحقوق المدنية والسياسية، وأضرع إلى الله سبحانه أن يجعله فاتحة عصر جديد مجيد للدولة العليا وأن يوفق رجالها إلى كثير من الإصلاحات الحقيقية التى يحيا بها الوطن العثمانى حياة سعيدة راقية، واشكر للساعين فيه غيرتهم الوطنية. وأول الغيث قطر ثم ينهمل

ويتساءل فريق من الناس أيها السادة قائلين: أتظهر الحكومة هذه الإصلاحات من حيز الوعود إلى عالم الوجود؟ فالذ ى أراه أنه ليس من مصلحة الدولة البر بالوعد والوفاء فقط بل وأن تسبق أعمالها أقوالها من الآن، وأن تعتمد على الله وعلى نفسها وعلى الأمة فى إنجاح الوطن. فتصبح الأمة العثمانية على اختلاف مذاهبها يدا واحدة فى إنهاض الوطن وإسعاده، ولنا فى عظم استعداد أبنائها خير كفيل للنجاح فى أقرب آن.

وفى الختام نسأل الله أن يوفقنا جميعا إلى مافيه خير الدولة وسعادة الوطن وألا يجعل للأغراض الذاتية سلطانا علينا، وأن نرى فى النوائب الأخيرة خير واعظ لنا لأننا إن لم نعتبر بها فلا حياة لنا بعدها. وكثيرا ماتكون النوائب سببا فى الفوائد والله ولى التوفيق»

وفى أوائل شهر سبتمبر غادر المندوبون الأستانة عائدين إلى وطنهم بيروت وأذاعوا حين سفرهم البيان الآتى على الجمعيات العربية العاملة فى سوريا ومصر

والآستانة. قالوا:

جئنا الآستانة لتحقيق وعود الإصلاح وطلب تنفيذها فى أقرب آن، وقد سمعنا من جلالة السلطان وسمو ولى العهد وفخامة الصدر الأعظم وحضرة ناظر الداخلية وسائر رجال الحكومة وجمعية رجال الاتحاد والترقى وعودا صريحة قاطعة لا نستطيع أن نظهر ارتيابا فيها. وأكد لنا فخامة الصدر الأعظم والناظر غير مرة أن تنفيذ الإصلاح واقع لا محالة فى القريب العاجل وأن الدولة العليا لا تقف بالإصلاح عند هذا الحد بل تزيده وتعززه كلما سنحت الفرصة وساعدتها الأحوال. فرأينا من المصلحة أن نتظاهر بالرضا، لأن السياسة تقضى علينا بذلك، وعزمنا على السفر إلى بلادنا لعرض المسألة برمتها على مسامع الأمة وإعدادها لقبول الإصلاح إذا برت الحكومة بوعدها، أو لاتخاذ التدابير اللازمة الفعالة للوصول إلى غايتنا الشريفة. وقد أفهمنا رجال الحكومة حقيقة الحال وقلنا لهم إن هذه آخر مرة نرضى فيها بالوعود. فإن لم يبروا بها فى أقرب آن كانوا هم وحدهم المسؤولين عن تفاقم الأمر وسوء العاقبة».

وفى يوم الثلاثاء ٢٨ أكتوبر من تلك السنة وصل إلى الآستانة السيد عبدالحميد الزهراوى رئيس المؤتمر العربى قادما من باريس، بدعوة من عبد الكريم الخليل.

وفى يوم الخميس ٣٠ منه بدأت المفاوضات بينه وبين مدحت شكرى بك رسول الاتحاديين إلى باريس لتنفيذ الشروط التى تم الاتفاق عليها. وضاق صدره حينما أدرك أنهم يسوفون ففاه يوم ٢١ نوفمبر بحديث صحافى قال فيه:

«لقد جئت الآستانة وفاوضت فريقا من رجال الحل والعقد فى تنفيذ اتفاقهم مع مؤتمر باريس، فسمعت من وعودهم ماسمعه طالبوا الإصلاح من قبل. ولكن ما الفائدة ونحن نريد أعمالا لا أقوالا. لم يعد لى من الوقت متسع للإقامة فى الآستانة. ويرى أصدقائى أن سفرى منها أمر واجب، وفى كل يوم أتلقى كتبا وبرقيات تستحثنى على التعجيل فى السفر إلى مصر. ومع أننى لم أفقد الثقة بحسن نية الحكومة، إلا أن سير الأمور على منوالها الحالى يوهن عزمى، ويثبط همتى، ويمنعنى من الرد على سؤالك. ولما كان سفرى يعد بمثابة قطع رجاء من الحكومة، فإننى أتحاشاه وقد أفهمتها ذلك، ولا عذر لها إذا تجاهلته فى مستقبل الأيام. ويلوح لنا أن السبب فى مماطلة الحكومة هو خلاف داخلى بين جمعية الاتحاد والترقى ففريق من أعضائها يؤيد مطالبنا، ويروم معاملتنا بالحسنى، وفريق يرفض مطالبنا ويشير باستعمال الشدة معنا، ولانعلم فى أى جانب يكون الرجحان، فإن استطاع

أولهما اقناع ثانيهما كان لنا ماطلبنا، وإلا ساءت العاقبة».

واستؤنفت المفاوضات على أثر نشر هذا الحديث، وظلت دائرة حتى أواخر شهر ديسمبر، ففيه تم الاتفاق على أن يعين هو وعدد من رجال العرب فى مجلس الشيوخ (الأعيان) العثمانى، وفى يوم ٤ يناير سنة ١٩١٤ صدر مرسوم بتعيينه وتعيين عبد الرحمن اليوسف ومحمد بيهم ويوسف سرسق ومحيى الدين النقيب وأحمد الكيخيا أعضاء فى ذاك المجلس. فلم يرق هذا التعيين ـ وخصوصا تعيين السيد الزهراوى ـ فى عين الشبيبة العربية، ولا فى عين طلاب الإصلاح، وعدوه خرقا لقرارات مؤتمر باريس. فقد جاء فى المادة الأولى من ملحق القرارات ما نصه «إذا لم تنفذ القرارات التى صادق عليها هذا المؤتمر، فالأعضاء المنتمون إلى لجان الإصلاح العربية يمتنعون عن قبول أى منصب كان فى الحكومة العثمانية إلا بموافقة خاصة من الجمعيات التى ينتمون إليها».

وأبلغ السيد الزهراوى الشبيبة حينما شعر باستيائها أنه مستعد للاستقالة إذا أصرت على ذلك، وقال أنه لم يقبل هذا المنصب إلا بالإتفاق مع بعض زعماء العرب الذين تم الاتفاق على تعيينهم قريبا فى مناصب عالية، ولمساعدة الحكومة على الإصلاح. فأبلغته الشبيبة أنها قطعت صلاتها السياسية به، وأن حزب اللامركزية هو المسؤول عن أعماله. وما عليه إلا أن يرجع إليه فى أمر الاستقالة أو البقاء.

واستدعت الشبيبة عبد الكريم الخليل معتمدها، وقد رأت انه لم ينهج النهج الملائم فى صلاته بالحكومة، وفى الخطة التى يسير عليها، واستوضحته عما تم فى قضية الإصلاح وذلك فى اجتماع حافل فى دار المنتدى الأدبى شهده نيفو ألف عربى. فأعلن أنه لا يستطيع أن يبوح بما يعرفه من أسرار خاصة بالسياسة العربية أمام مثل هذا الحفل فاختار الحاضرون لجنة قوامها نجيب شقير وسيف الدين الخطيب وأسعد داغر وجلال البخارى وصبحى حيدر للاجتماع به وسماع أقواله. فتم الاجتماع يوم ٧ يناير فى جلسة سرية امتدت أثنتى عشرة ساعة من الساعة الثالثة بعدالظهر حتى الثالثة والنصف بعد نصف الليل فدافع عن سياسته وقال: إن انتظام السيد الزهراوى فى مجلس الأعيان خير من عدمه. لأنه يفيد فى داخل المجلس أكثر من فائدته فى خارجه، وإنه لم يقبله إلا عملا بالاتفاق السرى المعقود بينه وبين الاتحاديين باسم المؤتمر[1] وأنه يحتوى على فوائد عظيمة للعرب لا سبيل للوصول إليها إلا تدريجا ومع الزمن، خوفا من هياج العنصر التركى والعناصر الأخرى على الحكومة ومطالبتها بمثل مانال العرب منها. فمثل هذه

١ ـ انظر ص ٣١.

الفوائد العظيمة يجب أن نقضى فى سبيل الحصول عليها طويلا من الوقت، وأن لا نتألم من الانتظار، فقد أخلصت جمعية الاتحاد والترقى لنا، ووضعت يدها فى أيدينا.

ثم قال «ولا أخفى عليكم أن فى مقدمة الأسباب التى اضطرتنا واضطرت السيد الزهراوى إلى قبول هذا المنصب هو رغبتنا فى توطيد الاتفاق العربى - التركى وإقامة الدليل على اتحاد العنصرين لمقاومة أطماع الأجانب فى بلادنا العربية، فهم يعملون عل استغلال خلافنا لتحقيق آمالهم».

وفى يوم ٩ يناير أذاع أعضاء اللجنة المنتدبة البيان الآتى، وقد نشر فى صحف الأستانة وبيروت والقاهرة وهو:

«اجتمعنا نحن الموقعين أسماءنا أدناه بمعتمد الشبيبة العربية عبد الكريم الخليل اجتماعا طويلا فى جلسة خاصة، وبعد البحث معه وجدنا مبادئ الإصلاحات العمومية الأولى حسنة على مايظهر، ولكن أمر التنفيذ لم يصل إلى درجةالمطلوبة، وليس فيه مايوجب السرور، ولكننا نرى أن الوقت الحاضر لا يساعدنا على إظهار الاستياء من سير الأحوال لأن ذلك يشوش على المصلحة العامة، وربما يقف عقبة فى طريقها، فلا يجوز الآن عدم اعتماد عبد الكريم أفندى بل يجب انتخاب لجنة استشارية من أربعة أشخاص تشد أزره ويرجع هو إليها يستشيرها فى مفاوضاته استشارة خاصة، ولا صلة لهذه اللجنة بالحكومة، وإنما صلتها بعبد الكريم أفندى، ويظل الرسول الوحيد بين الشبيبة والوزارة وجمعية الاتحاد والترقى، لأن ذلك أقرب إلى المصلحة العامة».

الخلاف بين الإصلاحيين

لم يرق بعض الهيئات السورية العاملة فى أمريكا ومصر وسوريا ماجرى، فاحتجت عليه وانتقدته، ونحن نثبت هنا نص الاحتجاج الذى أرسلته جمعية الاتحاد السورى فى نيويورك يوم ١٩ فبراير سنة ١٩١٤ إلى لجنة حزب اللامركزية العليا بمصر قالت:

إن جمعية الاتحاد السورى فى نيويورك الممثلة للسواد الأعظم من العثمانيين المهاجرين فى الولايات المتحدة تحتج بلسانها ولسان فروعها والجمعيات المشتركة معها فى المبدأ احتجاجا قويا على تعيين بعض أعضاء اللجان الإصلاحية فى سوريا ومصر لوظائف مختلفة فى الحكومة، وعلى قبولهم هذه الوظائف فى الأحوال الحاضرة، وفى أثناء سعى رجال الحكومة بكل مافى وسعهم من الوسائل غير المشروعة والمخالفة لروح الدستور لقتل

الحركة الإصلاحية فى سوريا والبلاد العربية، وتعتبر الجمعية هذا العمل مخالفا لروح النهضة. ومضرا بمصلحة الشعب و الأمة. ذلك لأن المقصود منه ذر الرماد فى أعين البسطاء وإيهاهم أن قبول بعض أعضاء اللجان المعروفين فى بلادهم وظائف فى هذه الحكومة - وهى على شكلها الحاضر - يعنى وجود التفاهم بينها وبين المطالبين بالإصلاح، وقد يكون المقصود من هذه الحركة ما هو أفظع من ذلك أى استمالة بعض من يظن فيهم الزعامة لفصلهم عن حظيرة الإصلاحيين.

نحن نجل أعضاء اللجان المذكوريين عن معرفة هذا القصد فى السابق والقبول له أو الاشتراك فى تنفيذه، ومع هذا فإن جمعية الاتحاد السورى وفروعها والجعيات التى تعزز مبدأها فى ديار الهجرة، ترفع أصواتها بالاحتجاج والاعتراض مطالبة رجال الإصلاح فى سوريا ومصر بمراعاة منطوق ما تقرر فى مؤتمر باريس العربى فيما يتعلق بقبول أو نبذ الوظائف قبل تنفيذ «اللائحة» الإصلاحية، ولا سيما البند القائل بوجوب تعيين المستشارين الأجانب تنفيذا قطيعا، وعدم الاكتفاء بالقول والوعود.

وترجو هذه الجمعية من شقيقاتها اللجان الإصلاحية التصريح بهذا المبدأ علانية، واعتبار من يخالفه منفصلا عن جسمها، ليوقن المصلحون المخلصون فى كل قطر ومصر أن النهضة الوطنية لا تزال على حالها، ولا يؤثر فى مرماها الشريف تصرف أفراد، فلا تثبط العزائم الشديدة ولا تخور القوى العاملة فى هذا الجهاد المقدس الشريف.

فرد عليها رفيق بك العظم رئيس اللجنة العليا لحزب اللامركزية بالجواب الآتى:

«اطلعت على الكتاب المرسل من قبل جمعية الاتحاد السورى، وفيه تجتج باسمها واسم فروعها فى بلاد المهجر على قبول الجمعيات الإصلاحية فى سوريا وبلاد العرب مايخالف قرارات مؤتمر باريس إلى آخر ماجاء فى الاحتجاج، فسرنى ثبات إخواننا فى المهجر على مبدأ المطالبة بالإصلاح سرورا لا مزيد عليه، إلا أننى رأيت فى الاحتجاج تسرعا فى الحكم على الإصلاحيين فى مصر. فأرجو أن يكون البيان الآتى وسيلة لإصلاحه من قبل إخواننا أعضاء الاتحاد السورى، وسببا لتاكيد حسن ظنهم بالإصلاحيين فى سوريا ومصر.

إن من جملة قرارات مؤتمر باريس أن لايقبل أحد من أعضاء الجمعيات الإصلاحية وظيفة إلا برضى جمعيته، ويظهر أنه بناء على هذا القرار قبل بعض الجمعيات ماعرضته الحكومة من تعيين أفراد من الإصلاحيين فى بعض المناصب العليا اعتمادا على ضرورة وجود المصلحين فى الوظائف لتطبيق قوانين الإصلاح التى تصدرها الحكومة، وافقت

مطالب الإصلاحيين أو كانت دونها، وسواء صح رأى هذه الجمعيات أو لم يصح، فإن جمعية اللامركزية فى مصر لم تشترك فى هذا الرأى إلا فى أمر واحد وهو الرضى بتعيين السيد عبد الحميد الزهراوى عضوا فى مجلس الأعيان، ولهذا السبب لا نخال منصفا يخالفنا فيه قط وإليكم البيان:

رأت الحكومة أن الحركة الإصلاحية فى سوريا وبلاد العرب صحيحة لا ريب فيها، وسواء علمت إن الإصلاحيين إنما يريدون مصلحة الدولة نفسها وأنهم حسنو النية والقصد أو لم تعلم، فإنها رغبت فى التفاهم مع جمعيات الإصلاح وطلابه، وهم كثيرون فى سوريا وبلاد العرب. بل وفى الآستانة نفسها، فتفاهمت مع مندوب الشبيبة العربية فى الآستانة، ومع غيره فى غيرها، ثم أرادت التفاهم مع جماعتنا الذين يديرون معظم الحركة العربية، فاستدعت إلى الآستانة السيد عبدالحميد الزهراوى فكانت اللجنة العليا بمصر تلح عليه بالبقاء خارج البلاد ريثما يستوثق من وعود الحكومة، ولما استوثق منها سافر إلى الآستانة وأخذ بالتفاهم مع الحكومة، فوضعت بعض مواد اتفاق باريس موضع الإجراء كمسألة وجوب معرفة الموظفين اللغة العربية، وبقيت هناك مواد وعدوا بتنفيذها تدريجيا فكان بقاؤه ضروريا ثمة لأجل المطالبة بتنفيذ بقية مواد الإصلاح، ولما عرضت مسألة الوظائف على بساط البحث وأرادت الحكومة أن تعين السيد الزهراوى فى الأعيان رأت اللجنة العليا أن ترضى بهذا التعيين ليكون واسطة لدوام التفاهم بينها وبين الحكومة وماعدا هذا فإنه لم يعين أحد فى وظيفة من أعضاء اللجنة العليا، بل ولا من الحزب كله فى سائر البلاد وليس بين أعضاء اللجنة من يرضى بدون إصلاح قط.

عل أننا مادمنا طلاب إصلاح لاطلاب عنت أو وظائف فلا نرى من حسن الرأى أن تطلبنا الحكومة للتفاهم وتلين لنا القول، وتعترف لنا بالكثير من الحقوق التى لم تك ترضى أن تصغى لطالبها منذ سنين، ونرميها بالكذب ونباعد بيننا وبينها لغير سبب مالم يقم لنا دليل قاطع على أنها تفعل ذلك رياء لا صدقا، وإنها تفعل فى غد ضد ماتقوله اليوم، ومتى قام لنا الدليل على ذلك كان لنا معها شأن غير شأننا اليوم، وليس فى قرارنا على تعيين السيد الزهراوى فى الأعيان مانع يمنعنا من الاستمرار فى الخطة الصالحة لقومنا ووطننا متى ثبت لنا أنها تريد الوقوف عند هذا الحد من الإصلاح. كما أنه ليس فى تعيين السيد الزهراوى ما يوجب ريب إخواننا أعضاء جمعية الاتحاد السورى فيمن تظن فيهم الزعامة كما جاء فى احتجاجهم المذكور.

هذا إذا كان الاحتجاج يعنى فيما ورد فيه إخوانهم الإصلاحيين بمصر الذى أقوله عن نفسى وعن إخوانى هنا: هو أنه «ليس هناك شيئ يفصلنا عن حظيرة الإصلاحيين، وليس لأحدنا مطمع بغير الإصلاح الذى ننشده بكل وسيلة من الوسائل المشروعة والسلام».

ونرى من المفيد هنا أن ننشر فقرات من كتاب مطول كتبه السيد عبدالحميد الزهراوى يوم ١٦ يناير ١٩١٤ بعد الضجة التى قامت حول تعيينه إلى السيد رشيد رضا فى مصر يبسط فيه موقفه ويدافع عن سياسته قال:

«كنت قد فصلت لكم إذ جئت إلى باريس كيف وجدت أمر مؤسسى فكرة المؤتمر فوضى، وكيف تعبنا فى ستر الأمر وإيجاد المؤتمر مرونقا بتوفيق من الله فوق المأمول، وبعد انقضاء المؤتمر تفرق الجمع الذى لفق تلفيقا، ثم بعد قليل نفد صبر البيروتيين فذهبوا إلى بلادهم وبقيت ياعزيزى وحدى أمثل الفكرة، وبقى خليل زينيه وأيوب ثابت وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية قطرة واحدة، حتى ولا من الجامعة السورية، وإنما همهما بيروت وحدها لا شريك لها، ولكن لأنهما متعلمان سايرانى وسايرتهما وتوادنا جيدا حتى سفرى، ولم يك مثل هذا التواد ولا ربعة بينهما وبين رفقتهم البيروتيين المسلمين»

ثم قال «جئت بعد ذلك إلى استامبول لأرى ماجد فيها، لأن المعرفة بالقديم لا تغنى، والمعرفة عن بعد كثير من مأخذها غير صحيح ، وما أضر العلم المبنى على مأخذ غير صحيح. وبعد وصولى بقليل عرفت كثيرا من الأحوال الحاضرة هنا، وبعد مدة أخرى عرفت أكثر، وكدت أظن أنى اكتفيت وأحطت كل الإحاطة، ولكن الآن تبين لى أنه لولا الصبر والتأنى اللذان مكننى الفاطر سبحانه وتعالى منهما، لرجعت بمعرفة غير كافية ولذلك أصبحت لا أجسر أن أقول تمت إحاطتى وإنما أقول أصبحت يجوز لى أن أفصل وأشرح بشيئ من الطمأنينة، وأن تأخير هذا الشرح والتفصيل كان أنفع وجاء اليوم فى وقته».

الشرح هنا يتعلق بثلاثة مواضيع:

١ ـ أوروبا والعثمانية

٢ ـ الاتحاديون وغيرهم

٣ ـ رجال الإصلاح الحقيقى وأبناء العرب هنا وفى الجهات الأخرى

وبعد ما تكلم عن الموضوع الأول بإيجاز انتقل إلى الثانى فقال «والاتحاديون هم أولياء الأمر مباشرة، وهم اليوم يتسلحون بعزائم ماضية وناوون نية قاطعة أن يجددوا شباب

الدولة بقدر ماتسمح لهم الظروف، ويشتهون أن يخلص إليهم العرب ويساعدهم فضلاؤهم في هذا السبيل، ويعترفون بخطيئاتهم الماضية، وينوون أن لا يعودوا إلى مثلها بقدر الإمكان أنا مؤمن بنيتهم وأقوالهم هذه كل الإيمان لأدلة كثيرة ظهرت لي. ولكني مرتاب من جهة قابليتهم تطبيق العمل على النية، وعلى كل حال أرى أن عدم تركهم وحدهم خير من تركهم، ويرجى أن تقوى قابليتهم فإن شئتم أن تخطئوني بتحسين الظن إلى هذه الدرجة كما أشرتم إلى ذلك في كتابكم المرسل إلى الشيخ إسماعيل الحافظ فإني لا أخطئكم بالتخطئة لأني أجل رأيكم أكثر من رأيي، وإنما أرجو أن يكون في خطئ شيئ من البركة .. إلخ.

ثم تكلم بعد ذلك عن رجال الإصلاح وقال «ماأظنكم ـ استغفر الله ـ ماأعتقد أنكم في حاجة إلى بيان أن رجال الإصلاح الحقيقي غير كثيرين، وما أعتقد أنكم تعرفون منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، وأعني برجال الإصلاح الحقيقي من جمعوا في موضوع الإصلاح بين صدق النظر وصدق العمل ومن كثرت تجاربهم. ومرنت رويتهم وصحت عزيمتهم. ثم نحن مع قلتهم وصعوبة اشتغالهم مع غيرهم أمام مشكلين عظيمين: الأول السبات الذي فيه الأمة، والثاني الجشع الذي فيه أوربا.

ثم تكلم عن أبناء العرب في الآستانة وقال أنهم ثلاثة أصناف. متاجرون، ومتعلمون ومأمورون، فالصنف الأول لا في العير ولا في النفير. والصنف الثاني أولاد في ناشئه العمر لايليقون للسياسة ولا تليق لهم. والصنف الثالث أربعة أقسام الضباط والموظفون وطلاب الوظائف والمتقاعدون.

فأما الضباط فلا تجربة لهم في هذه المسألة البتة، والأولى عدم دخولهم فيها فإن هذه التجربة القليلة التي سأقصها الآن زهدتني في كل سياسة يشترك فيها الضباط منا، ذلك أن عزيز بك على ناقم اليوم على الحكومة فيشتهي لأجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفا وهو لأجل ذلك ناقم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له، لأنه على زعمه يؤخر حركات العرب ولا أدري ماهي حركات العرب وأين تسير؟ وهو يجتهد أن: يجمع حوله بعض الأولاد وينفرهم منا ومن صنعنا، ولكن لا ينجح بحوله تعالى. ومن جهة أخرى هو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا، وقد أردت اختباره فوجدته يجنح إلى مصالحة أولياء الأمور وحينئذ يرضى عن كل شئ، فانظر ياعزيزي إلى الذين يعدون أنفسهم في مصاف رجالنا.

وأما المأمورون المتقاعدون فمثلهم كمثل العجائز لايرضيهن شيء، ولا يستطعن عمل

شيء، وأما المأمورون المنصبون فلا هم لهم إلا حفظ مناصبهم.

وأما العرب في الجهات الأخرى فهم أهل سوريا وأهل العراق وأهل الجزيرة فالسوريون والعراقيون حضر. ألفوا الذل وتعودوا الاستخذاء والاستكانة. لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا، لا يساعدون ولا ينوون أن يساعدوا، لا يهبون ولايروق لهم أن يوقظوا، وأما أهل الجزيرة الخلص فهم الأهل وقاهم الله كل شر وشد سواعدهم، أولئك يجب وصل الرابطة بهم من غير أن نقطعها مع الحضر على قلة غنائهم.

أنظر ياعزيزي أنا لازم لهناك كما تشير ولازم إلى هنا، فإن هنا محل عمل ليس بقليل. فإني أرجو أن يكثر بوجودي هنا عدد رجالنا الذين يعتمد عليهم فإن رضيت عن هذا الرأي فعليك عملان معجلان، وعمل يمشي مع الزمان وأنا معك فيه على بعد المقر، فالأول من المعجلين تبشيري ببرقية عن رضائك خاصة - وهو الأهم - ورضاء الرفاق عامة - وهو المهم - والثاني حملك الرفاق على تقديم برقية للصدارة يحبذون فيها هذا التعيين ويجعلونه دليل إقدامهم على تنفيذ الرغائب كلها بعبارة رقيقة تشويقية، أما الثالث فهو مابيننا من أمر إيجاد الرجال الذين يعتمد عليهم وتوزيعهم بقدر مايساعد الزمان والمكان لبث الإصلاح العلمي والعملي.

هذه هي الخلاصة المفصلة. أما خلاصة الخلاصة وهي: إن اليأس لايجوز بحال من الأحوال، ولكن الأمة في كل أطرافها ليست في حالة يعتمد عليها في شيئ، وأنه مع هذا لا يجوز أهمالها، وكذا لا يجوز إهمال من بيدهم أمر المملكة وتركهم لوحدهم، وإنه لابد لنا من رجال هنا، وإن أكثر مايتصرف به الرواة من الأخبار غير صحيح، وأني منتظر أمركم بسرعة واقبلوا..

و - جمعية العهد

أنشأ هذه الجمعية في الآستانة البكباشي عزيز علي المصري يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٣ بعدماضم إليه نخبة من ضباط العرب في الجيش العثماني هذه أسماء بعضهم: محمد إسماعيل الطباخ، ومصطفى وصفي، وسليم الجزايري، ونوري السعيد، ويحيى كاظم أبو الشرف، وعارف التوام، ومحيي الدين الجبان، وعلي النشاشيبي، وياسين الهاشمي، وطه الهاشمي، وجميل المدفعي، وتحسين علي، واسماعيل الصفار، وعلي رضا الغزالي،

ومولود مخلص، وأمين لطفى الحافظ، وعلى جودت الأيوبى، وعبدالله الدليمى، والدكتور عبدالقادر سرى.

وهذه الجمعية سرية فى الأصل ، وقد أقسم أعضاؤها على أن لا يبوحوا بشيئ عنها وأن يعملوا لإدراك أغراضها وهذا نص برنامجها:

١ - إن جمعية العهد جمعية سرية أنشئت فى الآستانة وغايتها السعى للاستقلال الداخلى لبلاد العرب. على أن تظل متحدة مع حكومة الآستانة اتحاد المجر مع النمسا.

٢ - ترى جمعية العهد ضرورة بقاء الخلافة الإسلامية وديعة مقدسة بأيدى آل عثمان.

٣ - لما كانت الجمعية تعتقد أن الآستانة رأس الشرق وأن الشرق لايعيش إذا اقتطعتها دولة أجنبية فهى تعنى عناية خاصة بالدفاع عنها وتعمل للمحافظة على سلامتها.

٤ - لما كان الترك يؤلفون من ٦٠٠ سنة المخافر الأمامية للشرق أمام الغرب فعلى العرب أن يعملوا للحصول على مايؤهلهم لأن يكونوا القوى الاحتياطية الصالحة لهذه المخافر.

٥ - على رجال العهد أن يفرغوا قصارى جهدهم فى إنماء المزايا المحمودة، وبث الدعوة للتمسك بالأخلاق الفاضلة، فالأمة لا تحتفظ بكيانها السياسى القومى ما لم تكن مجهزة بالأخلاق الصالحة القويمة».

ولقد أحدث إنشاء هذه الجمعية ضجة شديدة فى دوائر الآستانة لما عرف به منشئوها من الصلابة والقوة، ولأنها ولدت فى ظرف توترت فيه العلاقات بين الاتحاديين والشبيبة، فلقيت تأييدا من الشبان والضباط العرب الذين التفوا حولها، وأنشأوا لها فرعين فى بغداد والموصل، وهذا ما جعل الحكومة الاتحادية تخشاها، وتحسب حسابها، وتفرق رجالها قبل أن يشتد ساعدها.

ففى يوم ٢٤ يناير سنة ١٩١٤ عقد اجتماع خاص فى دار وزارة الحربية بالآستانة حضره الصدر الأعظم سعيد حليم باشا، ومحافظ الآستانة العسكرى أحمد جمال باشا، وذلك قبل أن يعين لوزارة البحرية ومدير الأمن العام عزمى بك فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية خاصة، وجمعية العهد عامة وقرروا المواد الآتية:

١ - إقصاء ضباط العرب المقيمين فى الآستانة وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطا، ينتمى ٣١٥ منهم للعهد إلى المناطق التركية، وهى تراقية والأناضول فلا يعود فى إمكانهم القيام بأى عمل يساعد على زيادة الجفاء بين العرب والترك.

٢ ـ تولية القيادة فى البلاد العربية إلى الضباط الترك، وإقصاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم فيها بقدر الإمكان.

٣ ـ الإسراع فى تنفيذ سياسة تتريك العناصر

٤ ـ يعد أحمد جمال باشا المنهاج اللازم لتتريك العناصر

٥ ـ مقاومة الحركة الإصلاحية التى ظهرت فى بيروت وباريس

٦ ـ إلغاء الأحزاب العربية كلها، وتأليف شعبة سياسية فى وزارة الداخلية تشرف على الشؤون العربية، وتدبر الخطط اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال، وترقب حركاتهم بدقة زائدة

٧ ـ إقصاء العرب الذين يعملون ضد الترك من الآستانة، واستمالة من يمكن استمالته منهم

٨ ـ تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقى فى البلاد العربية، والإكثار من المنتسبين إلى أنديتها.

ولم تقف الحكومة الاتحادية عند حد اقصاء الضباط العرب، وقد أقصوا فعلا غداة صدور هذا القرار. بل أصدرت يوم ٩ فبراير من تلك السنة أمرًا بالقبض على عزيز بك وأحالته إلى المحكمة العسكرية متهمة إياه بأنه أساء التصرف فى ٣٠ ألف ليرة عثمانية تسلمها من أنور باشا حين مغادرته طرابلس الغرب وطلبت منه حسابا عن طريقة انفاقها وعن سياسته فى اليمن وطرابلس الغرب، والمفهوم أن أنور باشا كان ينوى إعدامه لزعامته حركة الضباط العرب، ولينتقم منه لعدم تنفيذه الأوامر التى كان يصدرها إليه حينما كانا فى طرابلس الغرب يحاربان إيطاليا فى ابتداء غارتها عليها.

ولقد أثار اعتقال عزيز بك على هذا المنوال وتقديمه إلى المحاكمة وقد حكمت عليه بالإعدام ضجة شديدة بين العرب فى الآستانة خاصة، وفى جميع بلاد العرب عامة. وأقيمت المظاهرات والاحتجاجات. فاضطرت الحكومة إزاء ضغط الرأى العام وتشدده إلى إصدار عفو عنه. فأطلق سراحه على أن لا يقيم فى الآستانة، وأن لا يتدخل فى الشؤون السياسية العثمانية، وقد جاء على الفور إلى مصر.

س ـ الجمعية القحطانية فى مصر

كان حقى العظم السكرتير العام لحزب اللامركزية فى مصر يطمع فى منصب سام

فريق من قدماء المشتغلين بالحركة العربية



رفيق العظم — طالب النقيب — نسيب البكرى

توفيق السويدى — الدكتور أحمد قدرى — الدكتور إسماعيل الصفار

محمد الشريقى — شريف الفاروقى — عبد الغفور البدرى

يقلده فى الدولة العثمانية بعد اتفاق الآستانة، باعتباره من رجال الإصلاح والعاملين له، فلما عين السيد الزهراوى لعضوية مجلس الأعيان وعين غيره لوظائف كبيرة، ولم يفكر أحد فيه، ثار ثائره على السيد الزهراوى والقائلين بقوله من دعاة التفاهم مع الدولة وأنصار سياسة التدرج، وحمل على هؤلاء حملات شديدة فاقصاه حزب اللامركزية عن حظيرته فازداد حقدا على حقده. وألف جمعية أسماها الجمعية القحطانية بالاشتراك مع الشيخ فؤاد الخطيب، وكان يتردد على مصر فى زمن العطلة الصيفية قادما من الخرطوم حيث يدرس اللغة العربية فى كلية غوردون، وانضم إليهما الدكتور عزت الجندى، وكان أيضا من الموتورين الناقمين. وكان شعار هذه الجمعية مقاومة الترك، وتحريض العرب على الثورة والانتفاض، وكانت توزع المنشورات بلا انقطاع على البلاد العربية فتوقعها تارة باسم الجمعية القحطانية، وتارة باسم الجمعية الثورية. والاثنان لمسمى واحد. ولعل السبب فى تسميتها بالجمعية الثورية ما جاء فى أحد منشوراتها وكانت توزعها بالألوف كما قلنا:

«أيها العرب عموما: اعلموا أنه تأسست جمعية فدائية تقتل كل من يقاتل العرب، ويقاوم الإصلاح العربى. ماهو الإصلاح على مبدأ اللامركزية الذى يطلبه البعض مع التابعية لغلمان الآستانة؟ يجب أن نعمل على مبدأ الاستقلال التام، وتأليف دولة عربية لامركزية تعيد سالف مجدنا الغابر، وتحكم البلاد بالحكم الذاتى فى كل مقاطعة بما يليق بها، وتبدأ عملها بإزالة وجود بعض الثعالب المتزلفين من العرب الذين كانوا ولايزالون سببا لدوس الحقوق تحت أقدام أولئك الغلمان السفاكين، وسيرى العالم ذلك عند مايشرعون فى تنفيذ ما أعدوه لنا من المهالك».

ح - جمعية الجامعة العربية

أنشأ هذه الجامعة فى القاهرة السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الغراء بعد عودته من رحلته إلى الآستانة سنة ١٩٠٩ - ١٩١٠ وقد رجع منها معتقدا بعدم إمكان دوام اتحاد العرب والترك. وقد رمى إلى غرضين: أولهما - السعى لاتحاد حلفى بين أمراء جزيرة العرب للاتفاق ومنع الشقاق. وثانيهما التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وإيجاد صلة بين الجمعيات العربية والسورية والعراق وغيرهما.

وهذا نص القسم الأول الذى وضعه لها السيد رشيد مؤسسها. إذ كانت خاصة بالأمراء والزعماء، وكلهم من المسلمين.

«أقسم بالله العظيم القهار، المنتقم الجبار، العالم بسرى وعلانيتى، القادر عل سلبى كل ماأعطانى من المواهب والقوى، وبكتاب الله المجيد أننى أبذل جهدى وما فى وسعى لجمع كلمة العرب والتأليف بين أمرائهم وتأسيس ملك جديد لهم، بحسب القواعد التى وضعتها لذلك جمعية الجامعة العربية، التى انتظم فى سلكها اليوم. وأننى أسعى لذلك مع أعضاء هذه الجمعية بمنتهى الصدق والاخلاص، وأننى لا أبخل فى سبيل ذلك بمالى ولا بنفسى ولا يلفتنى عنه هواى وحظى الشخصى ولاحظ أحد من أهلى وولدى، وأننى أحافظ عل مقاصد الجمعية وأسرارها بأشد ما أحافظ به على دينى وشرفى وعرضى. فلا أفشى لها سرا، ولا أعارض لها عملا، ولا أقول ولا أعمل عملا يخالف مقاصدها أو يحدث فيها خللا أو يوقع فيها فشلا لعلة من العلل أو سبب من الأسباب، وأننى أقوم بكل عمل يلكفنى إياه مركزها العام من مقاصد هذه الجمعية أو وسائلها بحسب استطاعتى ، على عهد الله وميثاقه لأبر بقسمى هذا بلا تأويل ولا عذر ولا كفارة، وإن حنثت بشيء مما تضمنه أو غدرت أو أفشيت سرا أو قلت أو فعلت مايضر هذه الجامعة أو أحدا من العاملين لها أو يخل بشئ من مقاصدها فعلى إثم من حقر اسم الله ونبذ كتاب الله وبرئ من الدين والشرف ومن ذمة العرب، واستحق انتقام الله ولعنة الملائكة والناس أجمعين وانتقام الجامعة العربية وكل من يغار على ملته وأمته، وكان من من الخائنين والملعونين إلى يوم الدين والله على ما أقول شهيد».

وقد عدل هذا القسم بعد الحرب العظمى.

وكاتب السيد رشيد الإمام يحيى بن حميد الدين والإمام عبد العزيز السعود والسيد محمد على الإدريسى باسطا أغراض الجامعة وغايتها. فكتبوا إليه موافقين ومحبذين، كما اجتمع إلى الإمام الأمير عبد الله بن الحسين خلال زيارته لمصر، وأدخله عضوا فيها، وأقسم اليمين بين يديه وكان من أعضاء الجمعية العاملين بمصر قبل الحرب الشيخ على يوسف صاحب المؤيد، ورفيق العظم، ودخل فيها بعد إعلان الحرب الدكتور عبد الرحمن شهبندر وشريف الفاروقى وغيرهم.

ـ ٤ ـ

النضال الداخلى بين العرب والترك

انقسام الاتحاديين إزاء الحركة العربية ـ تدابيرهم فى سوريا ـ جمال باشا فى دمشق ـ العرب يؤيدون الدولة

ما كان زعماء جمعية الاتحاد والترقى ومن يواليهم ويؤيدهم من دعاة الطورانية يعطفون على الحركة العربية الجديدة، إذا لم نقل أنهم كانوا يوجسون خوفا من نتائجها، ويرون فيها خطراً على الدولة يجب الإسراع فى درئه، قبل استفحاله وتفاقم خطره.

على أن واجب الانصاف يدعونا إلى الاعتراف بأنهم ما كانوا سواسية فى هذا الرأى، فقد كان منهم من يميل إلى تطبيق الإصلاح وتنفيذه من دون نظر إلى أشخاص المطالبين به لشدة حاجة البلاد إليه، كما كان بينهم من يقول باسترضاء العرب، وأخذهم باللين والمسالمة فلا يخرجوا على الدولة أو ينفضوا من حولها، أما فريق الغلاة والمتطرفين فيقول بالبطش والتنكيل ويدعو إلى مقاومة الحركة الجديدة والقضاء عليها.

ولقد كان السيد عبد الحميد الزهراوى أول من تنبه إلى وجود هذا الاختلاف فى الرأى بين أقطاب الجمعية بشأن القضية العربية فقال فى حديث صحفى «إن بين أقطاب الاتحاديين خلافا حول مطالب العرب فبعضهم يرى قبولها وتنفيذها، ويرى آخرون غير ذلك».

ويمكن القول أن أقطاب الجمعية كانوا ينقسمون إزاء المسألة العربية إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ فريق يقول بمنحهم استقلالا داخليا فى داخل إمبراطورية طورانية للترك فيها المقام الأول، وزعيم هؤلاء أنور باشا[1] وبينهم الصدر الأعظم سعيد حليم باشا وشقيقه عباس حليم باشا وجاويد بك وزير المالية يومئذ.

٢ ـ فريق الطورانيين الغلاة ويقول بأخذ العرب بالشدة: وتتركيهم والتنكيل بزعمائهم ومفكريهم. ومن القائلين بهذا الرأى أحمد جمال باشا وحسين جاهد بك صاحب جريدة طنين والدكتور ناظم بك وأحمد رضا بك رئيس مجلس النواب، والمعلم ناجى وطلعت الصغير.

١ ـ يقال إن من جملة ماكان يفكر فيه هذا إصدار جريدة باسم «جهان» باللغات الأربع: العربية والتركية والفارسية والأوردية لنشر الدعوة لهذا المشروع فى العالم الإسلامى، وقد دعى الأستاذ حامد المليجى المصرى لتحرير القسم العربى. ولم يتم تنفيذه

٣ ـ فريق المعتدلين وهو أقلية، ويقول بالتساهل مع العرب، ومنحهم لا مركزية نوعية تنفذها الحكومة مباشرة من دون أن تستعين برجال الإصلاح، وزعيم هؤلاء طلعت باشا، ولما كانت الدولة منهوكة القوى، مهدودة الحيل فى تلك الأيام لأنها كانت خارجة من حربين (الطرابلسية والبلقانية) فقد اتفق هؤلاء وهؤلاء على مصانعة رجال الإصلاح واستمالتهم، بيد أنها ما لبثت أن تنكرت لهم حينما تنفست الصعداء، واستردت جانبا من قوتها ونفوذها وبدأت فألبت عليهم العناصر الموالية لها من العرب، وبعضهم من ذوى النية الحسنة، وعملت على أن تسترد بالشمال ما منحته باليمين، وإليك حوادث مادية لا يمترى فى صحتها، ولا تدع شكا فى صحة هذا الاستنتاج:

١ ـ بينما كان الإصلاحيون يعقدون مؤتمرهم فى بارس، تألف فى دمشق حزب دعى حزب الإصلاح الحقيقى وقد جاء فى بيانه ما نصه:

«كل منا يطلب الإصلاح ويريده. وكل منا يسعى وراءه ويجتهد للحصول عليه، غير أننا لم نر من الكياسة والحزم أن نقوم فى وجه دولتنا العلية التى تتفيأ نعيمها وخيراتها فى نكبتها الأخيرة بعد أن تألبت عليها دول البلقان، بمساعدة الأعداء فأنزلوا بها الويلات والمحن، ولكن الأمر الذى دعانا إلى المطالبة الآن هو قيام فريق لافى العير ولاالنفير فى أيام محنتها بحجة المطالبة بالإصلاح، وهم يريدون الكيد لها وتمهيد الطريق لاستيلاء الأجانب عليها وعلى بلادها، وأسطع برهان على ذلك أنهم ذهبوا إلى فرنسا لعقد مؤتمرهم فى عاصمتها وهذا مادعانا لتأسيس حزبنا لنضرب على أيدى هؤلاء الخونة المارقين، ونطلب الإصلاح من حكومتنا العلية بلا واسطة، ونعقد مؤتمرا فى عاصمة بلادنا المحبوبة» ورئيس هذا الحزب محمد فوزى باشا ومن أعضائه عبد الرحمن اليوسف والأمير شكيب ارسلان والشيخ أسعد الشقيرى والدكتور حسن الأسير وطه المدور، وقد ذهبوا إلى الأستانة فعلا وانضموا إلى الشريف على حيدر باشا والشريف جعفر باشا والشيخ سليمان البارونى والشيخ عبدالعزيز جاويش والشيخ صالح التونسى وعبد العزيز الثعالبى ويوسف شتوان والشيخ اسماعيل الصفايحى التونسى وغيرهم من الذين كانو يرون وجوب تأييد الدولة وشد أزرها فى كفاحها الخارجى، وعدم أزعاجها بإثارة مشاكل داخلية. وقد شنوا غارة كبيرة على طلاب الإصلاح فى عاصمة السلطنة وشوهوا سمعتهم فى نظر الرأى العام التركى وأظهروهم وهم بمظهر المأجورين للأجانب. المتطوعين فى خدمتهم. العاملين على تسليم البلاد إليهم.

٢ ـ أقال الاتحاديون على أثر اغتيالهم ناظم باشا يوم ٢٣ يناير سنة ١٩١٣ وإسقاطهم وزارة كامل باشا، واستيلائهم على مقاليد الحكم ـ أقالوا أدهم بك والى بيروت الائتلافى وأحد أنصار الحركة الإصلاحية وعينوا حازم بك أحد رجالهم خلفا له،وكان أول ما عمله حل الجمعية الإصلاحية فى شهر مارس من تلك السنة بموجب البلاغ الآتى:

«بما أن الجمعية التى تألفت من شهر ونصف من بعض الذوات فى بيروت باسم الجمعية العمومية الإصلاحية، والتى أتفق أن أعطى لها إيصالا من مقام الولاية قد كان تأليفها مغايرا لما نص عليه صراحة فى قانون الجمعيات. فضلا عن أن بين المطالب التى يطالب بها هؤلاء باسم الإصلاح ماهو مناف لأحكام الدستور. وبناء عليه فكان من الطبيعى منع اجتماعها.

«ولقد شرعت الحكومة بتطبيق قانون إدارة الولايات الذى أعدته طبقا لمبدأ توسيع السلطة، وتوسيع الوظائف طبقا لما نص عليه فى المادة ١٠٨ من الدستور وصدرت إرادة الحضرة السلطانية بمراعاة أحكامه. فجاء محتويا على المساعدات الواسعة التى تتطلبها الإصلاحات المطلوبة لبيروت وسائر الولايات العثمانية، ومتضمنا لأحكام خاصة تضمن الاحتياجات المحلية لكل ولاية ، ومن الثابت أنه إذا وجدت نواقص فى هذا القانون وهو يضمن تحقيق الإصلاحات التى تود الحكومة السنية انفاذها بإخلاص عند تطبيق بعض أحكامه الفرعية. فلا شك أنها تتم هذا النقص بالاشتراك مع مجلس الأمة، وسيجتمع قريبا إن شاء الله.

«والخلاصة أنه قد منع بموجب أحكام القانون اجتماع هذه الجمعية، وليس لها كيان ذاتى قانونى، ولم يبق حاجة لدوامها بعد الآن، وإذا حاول القائمون بها الاجتماع خلافا للمأمول، فتضطر الحكومة إلى إجراء ما يقتضيه القانون بحقهم من المعاملات».

وقابل البيروتيون هذا التدبير الحكومى بالاحتجاج فصدرت صحفهم بيضاء يوم نشره لا تحمل سواه مجللا بالسواد فعطلتها الحكومة، وحاكمت بعض رجالها. فأضربت بيروت ثلاثة أيام احتجاجا على هذه المحاكمة، واشتد النضال بين الحكومة ورجال الإصلاح، ولم يقف إلا بعد عقد اتفاق، وظهور الاتحاديين بمظهر الراغب فى الإصلاح والوفاق.

٣ ـ إقصاء الضباط العرب وإرسالهم إلى الأقطار التركية النائية ومنع استخدامهم فى

بلادهم.

٤ ـ تعزيز مقام جمعية الاتحاد والترقى فى البلاد العربية، وإنشاء الأندية والفروع لها والاستكثار من الأنصار، وتحامل هؤلاء على رجال الإصلاح وطلابه، وتشويه سمعتهم فى نظر أمتهم ونظر العرب.

٥ ـ تدخلهم فى الانتخابات النيابية التى جرت سنة ١٩١٣ وعدم وفائهم بما عاهدوا عليه من ترك الانتخابات حرة فى بلاد العرب، وإخراج ٧٠ نائبا عربيا. فقد فرضوا النواب فرضا على البلاد، ومعظمهم من الترك أو المتتركين ـ وإذا استثنينا نواب ولايتى بيروت والبصرة وبعض نواب ولاية دمشق. فمعظم النواب الآخرين من الذين عينهم الاتحاديون، ولم يخرجوا سوى ٥٠ نائبا لبلاد العرب بدلا من ٧٠.

٦ ـ بينما كان عزيز بك على زعيم الضباط العرب يقاسى الآلام فى الآستانة، وقد تمثل شبح الموت بين عينيه ـ كان أمير الآلاى وهيب بك الألبانى وهومن المعروفين بكره العرب وبغضهم، وقد اشتهر بالخطبة التى خطبها تلك الأثناء فى وزارة الحربية وقال فيها: «إن فى استطاعته اكتساح سورية بستة أورط تركية والقضاء على كل حركة عربية» يقطع الطريق إلى مكة لتقلد منصبه الجديد، وإلى الحجاز وقائده العام ـ وقد زوده الاتحاديون بتعليمات تقضى بالقضاء على كل ما للشريف من نفوذ ومقام واغتياله إذا لزم الأمر، وأمدوه لتنفيذ هذه الخطة بسبعة أورط وآلاى مدفعية، ووعدوه بإجابة كل ما يطلبه.

ووصل وهيب بك إلى مكة فى شهر فبراير سنة ١٩١٤ يحمل تعليمات صريحة بإلغاء كل ما للحجاز من امتيازات محلية نشأت عن وضعه الجغرافى والاقتصادى والدينى، وإفراغه فى شكل ولاية عادية، وتطبيق قانون الولايات الجديدة فى أرجائه، وإنشاء سكة حديدية بين المدينة ومكة.

وزيادة فى البيان نقول إن الحجاز ما كان يدفع ضرائب للحكومة بسبب فقره وشدة حاجة أهله، وكانوا معفيين أيضا من الخدمة العسكرية حرمة لبلادهم. كما كانوا يحكمون بنظام عرفى تواضعوا عليه من زمن طويل لشريف مكة فيه المقام الأول، فلما قبض الاتحاديون على زمام الأمر فى الدولة بعد الحرب البلقانية وتقلد أنور باشا وزارة الحربية وجمال باشا وزارة البحرية، واتجهت النية إلى مقاومة الحركة العربية والتخلص من رجالها

كان إلغاء شرافة مكة فى مقدمة الأغراض التى رموا إليها فيتخلصوا من قوة عربية كبيرة كانوا يخافونها. وقد هز هذا التدبير الحجاز وأقلق سكانه وكاد يجر إلى فتنة عمياء لو لم تسرع الحكومة إلى تلافيها بالايعاز إلى وهيب بالكف عن خططه وتدابيره

وكذلك أرسلوا إلى البصرة قائدا قوى الشكيمة اسمه فريد بك للقضاء على الحركة الإصلاحية فى العراق والفتك بزعيمها السيد طالب النقيب، وقد فصلنا ذلك من قبل كما بدأوا يعدون العدة لارسال حملة كبيرة بقيادة جاويد باشا لفتح العراق فتحا جديدا، وضرب عشائره العربية ضربا قاضية. ولولا مفاجأة الحرب العظمى لهم لما توانوا، وهكذا فقد اختاروا لكل قطر عربى واليًا أو قائدًا من أكفأ رجالهم لمحاربة الحركة الجديدة. سواء بمقاومتها مقاومة غير مباشرة بتأييد العناصر المعادية لها، أو أساليب أخرى تبعا لظروف الزمان والمكان.

ولقد أثرت هذه العوامل والاعتبارات الإيجابية فى نفوس العرب. سيما بعد ما امتزجت بها عوامل سلبية أخرى ذات شأن. فقد نشطت فى هذا العهد الدعاية الطورانية نشاطا مشهودًا. فصدرت فى الآستانة كتب تركية مختلفة حملت مطاعن جارحة فى عظماء الإسلام العرب، وقام خطباء الترك يدعون إلى نبذ كل ما هو عربى، وإحياء كل ماهو طورانى، ونكتفى بإيراد فقرة كنموذج لما قالوه وكتبوه تحت سمع الحكومة الاتحادية وبصرها إثباتًا لدعوانا:

فقد عبيد عبيد الله أفندى أحد شيوخهم كتابًا سنة ١٩١٣ سماه «قوم جديد» وطبعه ونشره رمى فيه إلى تنفير الترك من الدين الإسلامى وإقصائهم عن حظيرته القدسية، ومما قاله منتقدا وضع أسماء الصحابة الكرام فى المساجد «ماهذا الجهل ما هذه الغفلة التى استولت عليكم، تعلقون أسماء خلفاء العرب فى مساجدكم، ولا تذكرون بالاحترام أسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الأحاديث النبوية الكثيرة إلخ»

وقال فى مكان آخر: «ياللحيرة من عقولكم واعتقاداتكم تتركون تقديس سلطان قوى الشوكة كحضرة الفاتح (السلطان محمد الفاتح) صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وسلم، وتوجهون احترامكم لشخص خيالى موهوم كالخضر». إلخ

وقال فى مكان آخر: إن الشبيبة التركية لا تنكر الصوم والصلاة والحج والزكاة وكلمة الشهادة، ولكنها لا تعدها من أركان الدين التى استخرجتها من أحكام القرآن والأحاديث

وهي:

١ ـ العقل

٢ ـ كلمة الشهادة الحسنة

٣ ـ الأخلاق الحسنة

٤ ـ الجهاد والحرب مالا وبدنا

٥ ـ السعي لإعداد معدات الحرب

وألف الكاتب التركي جلال نوري كتابا سماه «تاريخ المستقبل» قال فيه «يجب على الحكومة أن تكره السوريين على ترك أوطانهم، وأن تحول اليمن والحجاز إلى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية، التي يجب أن تكون لغة الدين، ومما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا أن نحول جميع الأقطار العربية إلى أقطار تركية. لأن النشء العربي الحديث صار يشعر بعصبية جنسية، وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب أن نحتاط لها»

وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك مجلة تركية اسمها «اجتهاد» لصاحبها الدكتور عبد الله جودت جعلت تنفير الترك من الدين الإسلامي والتحامل على العرب دأبا لها وديدنا مما زاد في استياء هؤلاء ونفرتهم، على أن إعلان الحرب العظمى فجأة في شهر أغسطس سنة ١٩١٤ وإسراع الدولة إلى حشد جيشها، ثم اضطرارها إلى خوض غمرتها في جانت الألمان عملا بإحكام معاهدة التحالف المعقودة بينهما جعل رجال العرب يطيلون البحث والتفكير في الخطة التي يسيرون عليها خلال المرحلة الجديدة فرأوا بعد إنعام النظر والإحاطة بالموقف العام أن يؤيدوا الدولة في نضالها ويشدوا أزرها في كفاحها فلا تسقط تحت سنابك خيل الغزاة من الأجانب وهم لم يطالبوا بالإصلاح ولم يتجشموا الأهوال والمصاعب في سبيله إلا لمقاومة كل احتلال أجنبي وإتقائه، ويصونوا بلادهم من أن ينتهك كرامتها الأغيار، وهكذا تدافع العرب وفي مقدمتهم عرب سوريا إلى تأييدها، رجالاوشيوخًا وشبانا وفتيانا متغافلين عن كل اعتبار حزبي ونزعة قومية، جاعلين مصلحة الوطن فوق كل مصلحة، وافتتحت التعبئة العامة للجيش في بلاد العرب من دون حادث يذكر. وتسابق زعماء الإصلاح إلى تأييد الحكومة والانضواء تحت علمها. وننشر هنا نص كتاب كتبه عبد الكريم الخليل من الآستانة إلى أحد أصدقائه يوم ٦ أغسطس سنة ١٩١٤

---

١ ـ سافر عبد الكريم يومئذ إلى سورية بناء على اقتراح زعماء الاتحاديين، وفي مقدمتهم جمال باشا نفسه ليضمن للحكومة ولاء العرب وإقبال شبانهم على التجنيد.

أى بعد إعلان التعبئة العامة فى تركيا بأربعة أيام قال(١):

أيها العزيز/

أنا على وشك السفر إلى سوريا، لأن التدابير التى اضطرت حكومتنا السنية إلى اتخاذها درءا لخطر الحرب العظمى تقضى على كل عثمانى مخلص لدولته وأمته أن يبذل جهده فى سبيل تنقيذها على أحسن مايرام. وستكون مهمتى فى سوريا جمع كلمة الأمة على شد أزر الحكومة، والسعى لمنع كل مايحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية. وقد وعدتنى الحكومة أن تشد أزرى فى هذه المهمة وتجيبنى إلى كل المطالب العادلة باسم الأمة العربية، أو باسم الأحرار من أبنائها. فلنكن كلنا يداً واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوربية، وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها. لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأنا وأعلى مقاما».

وكتب أحمد مختار بيهم من بيروت يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٤ أى قبيل دخول الدولة الحرب ببضعة أيام إلى صديق له فى مصر يقول:

«يخيل لى أن الحرب واقعة لامحالة بين الدولة العليا ودول الحلفاء. والأمل عظيم جدا بأن تكون حربا قومية ظافرة تعوض الدولة من الخسارة التى منيت بها فى السنوات الأخيرة وترفع شأن العثمانيين فى نظر العالم، وقد ألغينا أحزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية. لأن المصلحة المشتركة تقضى بذلك، وسوف يرى إخواننا الترك، ولا سيما الاتحاديون من أعمالنا فى هذه الحرب مايظهر لهم عظيم إخلاصنا للعرش العثمانى وتفانينا فى خدمة الوطن المشترك، ونحن الآن على أحسن مايرام مع حزب الحكومة الذى أظهر وطنية عظيمة فى هذه الأزمة الشديدة، وسنظل كذلك إن شاء الله إلى الأبد. فكن على ثقة بإن سورية ستكون فى إبان الحرب أحسن منها قبلها فلا يقع ما يكدر من جانب الأهلين مادمنا أحياء»

جمال باشا فى سوريا

قسمت الامبراطورية العثمانية إلى ست مناطق عسكرية أضيفت كل منطقة إلى الجيش المرابط فيها. فكان الجيش الأول فى الدردنيل وقد تقلد قياده المشير ليمان فون ساندرس باشا الألمانى، وجعل مركز الجيش الثانى فى الآستانة، والجيش الثالث على حدود البلقان،

أما الجيش الرابع فكانت دمشق مقره. وكانت دائرة نفوذه العسكرية والإدارية تشمل البلاد الممتدة من جنوبى طوروس حتى اليمن - أى أنها كانت تضم ولايات أطنة وحلب والشام وبيروت وجبل لبنان والقدس والحجاز أى مقاطعات كيليكية وسوريا ولبنان وفلسطين والحجاز.

وتولى الفريق زكى باشا الحلبى، وهو عربى قيادة هذا الجيش فى ابتداء الحرب فتمت التعبئة فى عهده، ووضعت الخطط العسكرية تحت إشرافه، على أنهم مالبثوا أن أبدلوه بأحمد جمال باشا وزير البحرية يومئذ، وأحد أقطاب الاتحاديين، فغادر الآستانة يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٤ قاصداً دمشق بطريق الأناضول وأطنه وحلب فبلغها يوم ٥ ديسمبر ودخلها باحتفال رسمى، أما زكى باشا فعين ياورا للامبراطور غليوم - أى أنهم أخرجوه من خدمة الجيش العامل.

وتقرب جمال باشا فى ابتداء هذا الدور من الإصلاحيين، وسعى لاستمالتهم. فاتصل برجالهم وزعمائهم وقربهم إليه وأدناهم منه فاتخذ الدكتور عبد الرحمن شهبندر طبيبا خاصا له، كما فتح أبوابه فى وجه عبد الكريم الخليل؛ فكان يدخل ويخرج أى وقت أراد، ونفح محمد كرد على مبلغا كبيرا من المال باسم جريدة المقتبس وجاد بمثل ذلك على عبد الغنى العريسى صاحب جريدة المفيد - وكلتا الجريدتين من أعظم صحف الإصلاحيين يومئذ - فانضما إلى الحكومة عملا بالخطة المرسومة. ودعا فى أوائل شهر يناير سنة ١٩١٥ إلى حفلة أدبية أقيمت فى النادى الشرقى لتكريم الشيخ عبد العزيز شاويش وحضرها شبان العرب ورجالهم، ولما جاء دوره وقف وخطب قائلا:

«يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم منذ شروق أنوار الديانة الأحمدية. أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التى وجدت قبل الإسلام. عضوا على عربيتكم بالنواجذ، ودافعوا عنها بكل قواكم. اعملوا على ترقية العرب والعروبة. جددوا مدينتكم . قوموا قناتكم . كونوا رجالا كاملين.

« إن البرنامج الذى عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه لإصلاح حالة العرب لأوسع كثيرا مما قد يخطر ببالكم، ولست لأوجس شراً من بقاءالعرب والترك متحدين وخاضعين لخليفة واحد. بل من انفصال أحدهما عن الآخر كشعبين مستقلين».

«ويجب علينا أن نعمل كثيرا لإدراك هذه الغاية. فنطرد قبل كل شىء من صفوفنا أولئك

المنافقين الذين باعوا وطنهم للعدو ونضيق الخناق على الذين يعملون لمصلحته»

ثم قال «واليوم أراني قادراً على أن أؤكد لكم أن الأماني التركية والأماني العربية لا تتعارضان مطلقا، فالترك والعرب ليسوا سوى إخوانا في غايتهم الوطنية، وربما أكمل بعضهم مجهود بعض. إن غرض رجال تركيا الفتاة هو إيقاظ الشعور الوطني في الأمة التركية وتدريب مواطنيهم على العمل، وتحريرهم من النير السلافي وتقويتهم»

«وإني أناشد الشبان العرب والترك قائلا:

إن هذين الشعبين مقضى عليهما بالفناء في اللحظة التي يتخاذلون فيها، فالنزا ع والخلاف بين عمودي الإسلام لابد أن يؤدي إلى سقوط ذلك الدين، ويومئذ لا مفر من الوقوع تحت نير الاستعمار السلافي.

«وإنه لمن أشد بواعث الأسف والحزن أن تنجح المحاولات الشيطانية التي يحاولها أعداء الدين والوطن في بذر بذور الشقاق بيننا. فعلى الترك والعرب أن يحبوا بعضهم بعضا فيجنوا ثمار مجهوداتهم المشتركة. وإني محذركم عواقب التخاذل فإنه مؤد حتما إل استعبادكم وإفنائكم»

وفي نفس الليلة التي خطب فيها هذه الخطبة أصدر أمراً عسكرياً بتفريق كتيبة ضباط العرب الشبان في دمشق وعددها ٨٠ شاباً من خريجي المدارس العالية. وقد جاءوا بهم على أثر إعلان الحرب العظمى ودربوهم ليكونوا ضباطاً. فقد أزعجته أناشيدهم الوطنية الحماسية في تلك الحفلة. فأمر بحل الكتيبة وإرسال رجالها إلى ميادين القتال في الدردنيل والقوقار والأماكن النائية، وبأن يوضعوا في خطوط النار فنفذ أمره. ولم ينج من رجالها سوى أفراد قلائل.

وغادر دمشق بعد ذلك إلى القدس ليشرف على إعداد المعدات لحملة القناة، وقد باءت بالفشل على إثر هجوم ٢ فبراير سنة ١٩١٥ فعاد إلى القدس وأقام فيها معلنا أنه يعمل لإعداد حملة أخرى، وشاعت إشاعات عديدة في دمشق عن فشل الجيش وانكساره فسافر الدكتور عبد الرحمن شهبندر وعبدالكريم الخليل إلى القدس في شهر إبريل سنة ١٩١٥ بدعوة منه وقابلاه فألفياه مضطرباً، فأخبرهما أن حالة الجيش على مايرام، وإنه لا محل للتشاؤم مطلقاً، وكلفهما إبلاغ ما شهداه إلى إخوانهما.

وبينما كانت الأحوال تسير على هذا المنوال، وكان الهدوء يرفرف على بلاد العرب

والتعاون على أتمه بين الحكومة والشعب فوجئ الناس فى أواخر شهر يونيو سنة ١٩١٥ بنبأ اعتقال عبد الكريم الخليل وعدد آخر من دون إبداء أى سبب. فوجموا واضطربوا ووقفوا يرقبون نتائج التحقيق، وكان يدور سراً فى عالية أمام المجلس العسكرى «ديوان الحرب العرفى» وكان الاعتقاد السائد بأنه لابد أن يطلق سراحهم عاجلا لعدم وجود ما يستوجب إدانتهم، على أن دهشتهم كانت أعظم حينما عرفوا إنهم علقوا على أعواد المشانق فى بيروت صباح ٢١ أغسطس سنة ١٩١٥ بقرار أصدره ديوان الحرب وصدق عليه جمال باشا وهذه أسماؤهم:

عبد الكريم الخليل وصالح حيدر ومسلم عابدين ونايف تللو محمد المحمصانى ومحمود المحمصانى وعبد القادر الخرسا ومحمود العجم وسليم عبد الهادى ونور الدين القاضى وعل الأرمنازى.

وإليك ماجاء فى كتاب الايضاحات السياسية، وقد أصدره جمال باشا عن هؤلاء (ص ١١٥ ـ ١٢١)

١ ـ عبد الكريم الخليل: كان مع رضا الصلح فى كل تحريكاته أثناء الحرب العامة، وخلاف ذلك فإنه كان من الداخلين فى جمعية اللامركزية وفى تشكيلاتها السرية وسافر إلى مصر واشترك فى مذاكرات اللامركزية

٢ ـ صالح حيدر: كان رئيسا لبلدية بعلبك، وهو نو نفوذ وسطوة فى المنطقة التابع لها ووجوده على رأس بلدية بعلبك ساعده على تعزيز موقف الحزب اللامركزى ونشر الدعايات له. وقد كان عاملاً خطراً ضد الدولة العثمانية، ومن أكبر المساعدين على إيجاد التفرقة بين الترك والعرب

٣ ـ مسلم عابدين: كان يكاتب حقى العظم، وكان من الداخلين فى جمعيته، وكان معمتدا للجمعية فى اللاذقية

٤ ـ نايف تللو: كان من ضمن الداخلين فى الجمعية ومعتمد لها فى البقاع وقد اعترف أنه أدخل أشخاصاً فيها.

٥ ـ محمد المحمصانى: أحد مؤسسى فرع بيروت للامركزية. وقد أبرزت له له نصوص الكتب التى كتبها فى الطعن بالإدارة العثمانية، وفى الشكاية من ظلم الترك وأذاهم فاعترف بصدورها منه.

٦ ـ محمود المحمصاني: كان من الذين دخلوا فى اللامركزية، وأحد دعاتها السريين وقد أدخل فيها عدداً من الأشخاص، وتسلم أختام فروعها فى سوريا ووزعها، وكان يدير فرع بيروت.

٧ ـ عبد القادر الخرسا: كان من الداخلين فى اللامركزية وجاء بأختامها من مصر إلى بيروت، وكان نفسه من أعضاء فرع بيروت.

٨ ـ محمود العجم: كان من الداخلين فى فرع بيروت للامركزية كما اعترف هو نفسه وكان يؤدى التقاسيط الشهرية بانتظام واعترف بأنه قرأ المنشورات.

٩ ـ سليم الأحمد عبد الهادى: كان معتمدا للامركزية فى قضاء جنين

١٠ ـ نور الدين القاضى: كان من أعضاء اللامركزية، وكان يأخذ أختام الفروع ويسلمها إلى الفروع المختصة بها، كما كان يتسلم الكتب والمنشورات الواردة من البريد الفرنسى.

١١ ـ على الأرمنازى: اعترف بأنه كان على صلة باللامركزيين ثم أدعى بأنه انفصل عنهم كان معمتداً للحزب فى حماه وقد جاءه نورى القاضى بالختم.

وحكم فى هذه القضية نفسها بالإعدام على حافظ بك السعيد نائب يافا فى مجلس النواب العثمانى، والشيخ سعيد الكرمى مفتى قضاء طولكرم وحسن حماد وغيرهم. وقدأبدل حكم الإعدام الصادر على الأول والثانى بالسجن المؤبد لتقدمهما فى السن ومات الأول فى السجن وأفرج عن الثانى فى نهاية الحرب بعد إقامته نحو أربع سنوات فى قلعة دمشق سجينا .

وحكم فى هذه القضية أيضا غيابيا على كل من رفيق العظم وحقى العظم والشيخ رشيد رضا وداود بركات وفارس نمر والدكتور شبلى شميل وخليل المطران وإبراهيم البحار وجورج عبد المسيح وجبرائيل ناصيف ونجيب عازورى والفريد عازورى وجورج بحرى والأمير خليل أبى اللمع وخليل بولاد وهنرى حبيب بولاد ونجيب البستانى وأمين البستانى ويوسف البستانى وفيليب سمان ونجيب قطان ونجيب قريصانى وجورج دومانى وجورج قريصانى وكميل أده وجان عيد ونجيب غناجة والدكتر غرزوزى ونعمة الله غانم ورفائيل غره وميشيل لطف الله والدكتور يوسف كحيل والشيخ يوسف الخازن وجورج خير ورشيد خياط وأدمون ملحمه والدكتور خليل مشاقه ويوسف سمعان صيدناوى وإلياس حنين وسليم شميل وماريوس شميل ويوسف حبيب زنانيرى وإلياس زهار وألفونس زينيه

وفؤاد الخطيب وقسطنطين ينى وحسن حمادة وعبد الحفيظ الحسن ورزق الله أرقش وسليم ثابت وعزت العابد وشكرى غانم وعزيز على المصرى وجميعهم من السوريين الذين كانوا ينزلون مصر وأوربا فى تلك الأيام باستثناء الأخير فهو من أصل مصرى وبعضهم من المتصلين باللامركزية ـ كما أن بينهم من كان متصلا بالحكومة الفرنسية ويعمل فى خدمتها.

وحكم أيضا بالإعدام غيابيا على كل من بشارة البوارى واسكندر سرسق وإدوارد كرم وجبرائيل حداد وسيمونى أبى شنب وقيصر أبى شنب وأسعد باسيلا ونجيب أيوب وألفريد ليان وأسعد مفرج وانطون أرقش ونجيب موسى دياب (أمريكا) وسليم بولس والأمير أمين مجيد أرسلان وسعيد مخيبر ورشيد تقى الدين ويوسف صمويئيل.

هذه هى أسماء الذين حكم عليهم بالإعدام غيابيًا ومواجهة فى السنة الأولى للحرب. ويلوح لنا أن هنالك اعتبارات سلبية وإيجابية حملت جمال باشا على ركوب هذا المركب نوجزها فى مايلى:

١ ـ ميل زعماء تركيا إلى التخلص من الحركة العربية والقضاء عليها وهى فى المهد وكانوا يعتقدون أن فرصة الحرب من الفرص السانحة التى لايجود الزمان بمثلها، ولذلك لم يحجموا عن اهتبالها.

٢ ـ ما أدركه الترك من نصر فى الدردنيل على الحلفاء فى تلك الأيام فقد والى هؤلاء الهجوم، وكانوا يعتقدون أنه لابد لأساطيلهم من اقتحام حصونه ودكها ثم مجيئهم بعد ذلك بالجيوش وانهزامها مما شجع الترك وقوى عزائمهم وجعلهم يعتقدون بأن الفوز سيكون فى جانبهم وأنه يجب التخلص من أذكياء العرب ليعيشوا مرتاحين زمن السلم.

٣ ـ ما أثبتته الوثائق السرية التى نشرها البلاشفة فى سنة ١٩١٨ من سجل وزارة الخارجية الروسية عن وجود صلة بين جمال باشا والأرمن فى تلك الأيام، وتوسيطه إياهم لحمل الحلفاء على الاعتراف به سلطانًا على تركيا مقابل قضائه على الدولة (وقد نشرنا نصوصها فى الباب السادس) فقد أراد أن يغتنم الفرصة فيقضى على الأحرار النابهين من أبناء البلاد.

يؤيد هذا الاستنتاج ماصرح به عبد الكريم الخليل ساعة الإعدام وهو قوله «إنى أعرف لماذا يقتلنى جمال باشا فقد قيل إنه أراد التخلص منه لأنه وقف على جانب من خطته وكان يكتمها عن كل الناس.

٤ ـ تلك هى مجموعة الأسباب السلبية أما الأسباب الإيجابية ففى مقدمتها الكتب السرية التى ظل حقى العظم يرسلها حتى بعد إعلان الحرب العظمى، وقبل اشتراك الدولة فيها إلى محمود المحمصانى فى بيروت. وقد صادرتها المراقبة وسلمتها إلى قائد الجيش. ونحن ننشر أحدها وهو أهمها قال:

إلى السيد المبجل سيد أفندى شكرى:

تحية وسلاماً: وبعد ففى هذه الساعة الخطيرة التى تدور فيها رحى الحرب العظمى بمنتهى الشدة ينتظر الوطن المقدس من أبنائه بذل ضحايا أكبر مما بذل فى الماضى، إ ن الحرب العالمية قد تطير منها شرارة فى الشرق، فتصبح بلادنا شعلة من نار فتلتهم البرئ والمذنب لا فرق بين العرب والأتراك، فما لاريب فيه أن الحكومة ـ على العكس من المتوقع ـ لو اشتركت فى الصرا ع العام أن تخرج إلا مخضودة الشوكة، مما يقرب أجلها فلو ختمت الحرب بانتصار الحلفاء فإن هذه النهاية تصبح ولا مفر منها، وبذلك يسهل حل المسألة الشرقية بواسطة روسيا، وإذ ذاك تصبح الأراضى العربية عرضة لنفس الأخطار التى تهدد الأراضى التركية، وبما أن الأتراك سوف يبذلون قصارى جهدهم ويستخدمون كل مواردهم الدفاعية للذود عن امبراطوريتهم وممتلكاتهم، فإن الخطر الذى يهدد العرب سيكون أعظم، والبلية أشد وهذا هو المنتظر وقوعه فعلا، إذن فمن المهم أن يتأهب العرب للذود عن استقلالهم المهدد.

إن جمعيتنا التى لديها هيئة خاصة، والتى تتألف من نفر اشتهروا بالوطنية، وعرفوا بالتضحية، ترى أن واجبها المقدس يقضى باتخاذ الوسائل الفعالة فى الحال لصيانة الوطن وأبنائه، فلهذا السبب نرجو الإجابة على الأسئلة الآتية:

١ ـ كم لديك من القوات التى يمكنكم ـ إذا دعت الضرورة ـ لبدء التمرد العام بها.

٢ ـ أفى استطاعتكم إمدادنا بالأموال أو جمع الاكتتابات التى يمكنكم شخصيا استعمالها عند الضرورة؟ وكم مقدار الأموال الممكن جمعها؟

٣ ـ أمن المستطا ع إيجاد ملجأ حصين لإخواننا السريين الذين يناط بهم البدء فى التمرد والذين سنساعدهم بكل مالدينا من الوسائل؟

٤ ـ إن الممكن إرسال رجل ثقة إلينا يمثل حزبكم للذهاب إلى جهة معينة لانتظار تعليماتنا.

٥ - وإذا لم تجدوا ذلك الثقة أفترون من اللازم أن نبعث إليكم بمن يبلغكم تعليماتنا؟.

«فالمرجو الإجابة على هذه الأسئلة بتفصيل، إن كل دقيقة تضيع سدى معناها فقد روح عربية. فالبدار البدار فلقد حان وقت التضحية الشخصية من أجل الواجب والوطن والسلام»

ملحوظة:

«أرجو وقت الإجابة أن تلاحظوا كتابة اسمى مع العنوان، ويجب وضع الظرف داخل ظرف آخر بهذا العنوان:

(القاهرة ـ شارع الدواوين: الشيخ حقى خلف فراش مسجد برلانتى هانم أمام سراى المرحوم شريف باشا)

ويجب تسليم الخطاب لرجل ثقة وهو يسلمه بيده إلى أى مكتب أجنبى على الساحل فإن استحال ذلك فليس ثمة ضرر إذا أرسلتم الخطاب بواسطة البريد المحلى».

ولا يخامرنا أدنى شك فى أن حقى العظم قد استغل صلته بحزب اللامركزية فكتب تلك الرسائل، كما أذاع تلك المنشورات بدون أن يطلع عليها رجال الحزب أو يأخذ رأيهم ـ ولو فعل لما أقروه ولما وافقوه ـ سيما وقد فترت العلاقات بينهم وبينه فتوراً ظاهراً فى تلك الأيام، يؤيد هذا أن هؤلاء الأقطاب لم يسلسوا القياد للإنجليز يوم جاؤا يخطبون ودهم ويسألونهم تأييدهم ومساعدتهم فاشترطوا إعلان استقلال العرب رسميا قبل القيام بحركة ما، وسنفصل ذلك عند الكلام عل المفاوضات بين الإنجليز والعرب.

ويلوح لنا أن حقى أراد من إثارته تلك الضجة، ومن إرساله المنشورات الكثيرة إلى سورية قبل الحرب أن يحمل الاتحاديين على استرضائه وتعيينه فى إحدى الوظائف التى كان يسعى للوصول إليها، فلما وقعت الحرب، وحدث ما حدث، اتخذت منشوراته ـ وقد اعت فى الأصل لاقتناص الوظيفة، وسيلة للفتك بأبرياء لا ذنب لهم سوى أن حقى عرف أسماءهم بالواسطة فكاتبهم وأحسنوا الظن به فكاتبوه.

والكتاب الذى اعتمد عليه جمال باشا فى القبض على الذين قبض عليهم وحاكمهم بتهمة الاتصال باللامركزيين وأعدمهم صادر من حقى نفسه، ومرسل يوم ١٦ إبريل سنة

١٩١٤ إلى محمود المحمصانى ببيروت وهذا نصه

«حسب أمركم تم قبول مصطفى أفندى سميسمه عضواً فى الحزب، وكذلك اقترحت على اللجنة قبول الأخ محمد أفندى (المحمصانى) فقبل بكل سرور وارتياح وأملى منه أن يغفر لى أقدامى على هذه الجرأة قبل أن أستأذنه بذلك، وقدمت المكاتيب والبطاقات فالرجاء تسليمها إليهما.

«ويوجد للحزب فروع فى مدن حماه وجنين ونابلس وبعلبك والبقاع ووادى العجم والموصل والبصرة. فإذا مر الأخ فى سفرته على المدن السورية المار ذكرها فليقابل الإخوان المذكورة أسماءهم فيما يلى ذلك بعد أن يبرز لهم بطاقة الحزب لإثبات هويته وانتسابه، ففى حماه يقابل على أفندى الأرمنازى (صاحب جريدة نهر العاصى) أو خالد أفندى درويش البرازى

وفى حمص يقابل قسطنطين أفندى ينى صاحب جريدة دليل حمص

وفى بعلبك يقابل صالح بك حيدر رئيس البلدية

وفى جنين يقابل سليم أفندى الأحمد عبد الهادى

وفى نابلس يقابل حسن أفندى حماد

وفى البقاع يقابل نايف أفندى تللو مأمور التحصيلات

وفى يافا يقابل حافظ بك السعيد

كيف وصلت أوراق اللامركزية إلى الترك

وسيلاحظ القارئ من مطالعة أخبار تلك الأيام أن الوثائق والمراسلات التى عثر عليها الترك واتخذوها مداراً للتحقيق هى أوراق حزب اللامركزية والجمعية القحطانية والجمعية الثورية، وكانت محفوظة بيد حقى العظم، وكذلك أوراق القنصليتين الفرنسوية فى دمشق وبيروت، وما عدا ذلك فلم يوقفوا إلى معرفة سر جمعية واحدة من الجمعيات العربية الكثيرة التى كانت تعمل فى تلك الأيام ولم يصادروا ورقة واحدة من أوراقها

وقد أكد لنا بعض الثقات أن محمد الشنطى اليافى - أحد مساعدى حقى العظم ومعتمديه هو الذى حمل هذه الأوراق إلى الترك. فقد اغتنم إحدى الفرص فسافر فى أوائل

الحرب إلى أثينا فسلم الأوراق بكاملها، إلى السفير العثمانى غالب كمال بك أملا بأن تمنحه الدولة مكافأة مالية كبيرة، فأرسله هذا على الفور إلى طلعت بك وزير الداخلية، فأحاله هذا إلى جمال باشا، فقصد دمشق ونزل ضيفا مكرما على الحكومة، فكان يتناول الأموال من صندوقها ويتصل برجالها من دون انقطاع، والظاهر أنه اتخذ صلته هذه وسيلة لابتزاز الأموال من الشبان العرب، وكانوا يومئذ فى أزمة نفسية شديدة، فذهب المرحوم الحاج سعيد الشوا وكان مقربا من جمال باشا لما أسداه من خدمات كبيرة للجيش التركى أثناء تراجعه عن القناة، وقص عليه قصص الشنطى فأمر باعتقاله وإرساله إلى سجن عالية وقد شنق فى بيروت يوم ٦ مايو سنة ١٩١٦ مع رجال الرعيل الثانى، وورد اسمه غير مرة فى أوراق اللامركزية.

والأقوال مختلفة فى طريقة وصول أوراق القنصليتين الفرنسويتين فى بيروت ودمشق إلى الترك ولن لم يحاكم أحد من الذين وردت أسماؤهم فى القضية الأولى فقد حوكم من قبلهم نخلة باشا المطران أمام ديوان حرب عرفى دمشق فحكم عليه بالأشغال الشاقة فى السجن المؤبد، وطيف به فى أسواق دمشق وشهر به.

ويقول جمال باشا فى مذكراته أن نخلة المطران سلم إلى المحكمة العسكرية قبل وصوله مع وثائق خطيرة فحكم عليه بالسجن المؤبد فسيق مخفوراً إلى ديار بكر وقتله الحراس قرب جرابلس لأنه حاول الفرار.

وهذا نص الوثيقة التى أشار إليها جمال باشا وقد وجدت فى قنصلية فرنسا فى دمشق وهى كتاب أرسله القنصل إلى سفير فرنسا بالأستانة يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٣:

جناب المسيو بمبار

أتشرف أن أحيط سعادتكم علما بأن نخلة باشا المطران، وهو من ذوى النفوذ فى بعلبك زار هذه القنصلية مرتين خلال الأسابيع الأخيرة.

وقد كان ذلك السيد من عامين سكرتير السفارة التركية فى باريس، وله معرفة بمعظم رجالنا السياسيين، وهو عضو فى الكنيسة الكاثوليكية للروم الملكيين، وفى جمعية الاتحاد والترقى، ولو أنه نفى ذلك فى أحاديثه معى عند ما أشار إلى إخفاق سياسة اللجنة ووقاحة الاتحاديين.

فقد انتهز فرصة السفر إلى دمشق لطلب إعادة محاكمة أحد أصدقائه وحضر لزيارتى للمناقشة - كما قال - «فى مسألة تهم الدولة التى اختارتها الطبيعة لحماية لبنان وسورية»

ثم أكد لى أن كبير الساسة الفرنسويين (يريد المسيو بوانكاره) له شأن فى الموضوع نفسه».

ومما قاله:

«إن الحالة الحاضرة أصبحت لا تطاق، وإننا عزمنا على إدماج بعلبك وسهل البقاع فى لبنان لارتباط تلك الجهات جغرافيا. بيد أننا نفتقر لتحقيق هذه الغاية إلى مساعدة الحكومة الفرنسوية وحمايتها، وقد وطدنا العزم نحن المسلمين والمسيحيين على إدراك النجاح، وإنا نعرف كيف نحقق غايتنا إذا فكرت الحكومة العثمانية أن تقاومنا بالسلاح، وينتمى إلى حزبنا فريق من أهالى بعلبك وعلى هذا فمدينتنا لها مركز خاص، فهى مفتاح قلب سوريا والطرق المؤدية إلى الداخل، وأنا وأسعد بك حيدر رئيس المناولة وأكبر الرجال نفوذا فى تلك الجهة وعبد الغنى بك الرفاعى زعيم المسلمين قد عقدنا النية على أن تكون جهتنا جزءا من لبنان، وقد قررنا أن نذهب إلى بيروت لنخبر المسيو كوجيت بنياتنا. لأنه على الدوام مهتم اهتماما شديدا بكل ما يتعلق بلبنان، ونظراً لأن بعلبك فى دائرة قنصليتك رأيت من الواجب علىّ أن أطلعك على هذه الأمور بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن أسعد بك وعبد الغنى بك.

«وإنى طبعا أتقبل تأكيدات نخلة باشا بكل احتياط، بقطع النظر عن أننى قابلته بالحفاوة التامة. وقد زارنى مرة أخرى وأكد لى من جديد إخلاصه لفرنسا. ووعد أن يقدم لى أى خدمة يستطيعها فى بلاده».

وبين الرواة اختلاف فى كيفية وصول أورق هاتين القنصليتين إلى الترك. فهنالك من يقول: إن يقول إن رجال الحكومة فى بيروت ذهبوا إلى دار القنصل الأمريكى وطلبوا منه أن يسمح لهم بتفتيش دار القنصليتين الفرنسوية والإنجليز. لأنهما كانتا تحت إشرافه بعد سفر القنصلين فى ابتداء الحرب. فأجاب بالرفض لأنهما ختمتا بالشمع الأحمر. فقال الموظفون الترك أنهم لا يريدون دخول الغرف المختومة بل يكتفون بتفتيش مالم يختم فاستمهلهما ريثما يراجع السفير فى الأستانة، وقد راجعه فأجاز الطلب ففتشوا غرف الدارين فعثروا فى دار القنصل الفرنسوى على هذه الأوراق فأخذوها، ولم يعثروا على شيئ فى دار القنصل الإنجليزى لأنه لم يترك شيئا بعكس قنصل فرنسا.

وهنالك رواية أخرى مؤداها أن الموظفين الترك فى بيروت دخلوا دار القنصلية

الفرنسوية وفضوا أختامها غير مراعين القواعد الدولية فأبلغ القنصل الأمريكى - وكانت الدار موضوعة تحت حمايته - سفير دولته فى الآستانة وهذا رفع الأمر إلى الحكومة الأميركية فاحتجت فى شهر يوليو سنة ١٩١٦ احتجاجا رسميا على خرق القواعد الدولية.

ويقال أيضا إن أحد تراجمة قنصلية بيروت اللبنانيين هو الذى أرشد الترك إلى مكان هذه الأوراق فحصلوا عليها، وكذلك فقد اتخذت الأوراق التى استخرجت من دار القنصلية فى بيروت مدارا لاتهام يوسف الهانى وهو من موارنة لبنان، وتقديمه إلى المحاكمة أمام الديوان العرفى بعاليه. فحكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم فشنق فى بيروت يوم ٥ إبريل سنة ١٩١٦ وسنأتى على الوثيقة الخاصة به.

ومما يستحق الذكر أن السيدة زوجة يوسف الهانى أقامت حفلة راقصة فى منزلها عشية الليلة التى أعدم فيها زوجها لجمال باشا وحاشيته دعت إليها نساء الطبقة الراقية فى بيروت وبعد انتهاء الرقص وشرب الشمبانيا ركعن بين يديه طالبات العفو عن الهانى المعتقل فوعدهن بإجابة ملتمسهن، وأرسل من فوره فأمر بشنقه فلم تشرق عليه الشمس إلا وهو جثة هامدة فى ساحة البرج.

ومن الذين قدموا إلى المحاكمة بتهمة التجسس للحكومة الفرنسوية الشيخ فيليب والشيخ فريد الخازن فقد حكم عليهما بالإعدام ،فأعدما فى بيرت يوم ٥ يونيو ١٩١٦ فذهبا كما ذهب الهانى ونخلة المطران من قبل فى سبيل استيلاء فرنسا على سوريا ولبنان.

قضية عالية الثانية

استقر جمال باشا فى دمشق فى خريف سنة ١٩١٥ بعدما ضرب ضربته، وأعدم الذين أعدمهم ، وفى جملتهم صديقه وحميمه عبدالكريم الخليل، وهو الذى جاء سورية بناء على طلبه فأخذ فى هذا الدور يولم الولائم، ويؤدب المآدب لكبار القوم وذوى المقامات ويتصل بالمشايخ ورجال الدين، ويوزع عليهم الهدايا والأعطيات ليستميلهم، أو ليأمن جانبهم على الأقل. محاولاً تسكين الأفكار وتهدئة الأعصاب - كما أخذ من جهة أخرى يقصى الضباط العرب الذين كانوا فى سورية. فلم يبق واحداً منهم بل أرسلهم جميعا إلى ميادين القتال المختلفة.

ووقع خلاف فى هذه المرحلة بينه وبين خلوصى بك والى دمشق يومئذ وهو من أفاضل الترك وكان قد تعهد للدكتور عبد الرحمن شهبندر ولغيره من رجال النهضة العربية بأنه لا خوف عليهم مادام هو فى دمشق، فوثقوا به وأقاموا بضمانته.

وبيان ماحدث أن خلوصى بك احتج إلى طلعت باشا على تصرفات جمال باشا فقد أمر بإعدام بكباشى شركسى اسمه أحمد بك بحجة أنه عذب المهاجرين الأرمن وآذاهم، وقال إن إطلاق يده على هذا المنوال يقتل ويشنق من دون استئذان معناه انتهاك حرمة القوانين والأنظمة واعتداء عليها، وطلب أن يؤذن له بالسفر إذا لم يوقف جمال باشا عند حد فأذن له فأرسل على الفور فدعا الدكتور شهبندر وقال له لقد عزمت على السفر لأننى مصدور لا يناسبنى هواء هذا المحيط، وأظنك وأنت دكتور تدرك أن حالك كحالى فالهواء لم يعد يوافقك فإذا أردت أن تحضر معى إلى الآستانة فتفضل.

وعقيب ذلك غادر خلوصى بك دمشق قاصداً الآستانة وخرج الدكتور شهبندر لوداعه فأبى أن يكلمه فى المحطة خوف الجواسيس والرقباء بل غمزه بعينه لمقابلته فى الجانب الآخر من القطار حيث أشار عليه بالرحيل، فلم يطل المقام بعدها فى دمشق بل قصد البصرة ومنها جاء إلى مصر.

وهنالك حادثة أخرى سابقة تدل على نية جمال باشا وعلى رغبته فى الانتقام. وخلاصتها أن إمبراطور ألمانيا أهدى فى السنة الثانية للحرب قنديلا ليعلق على ضريح السلطان صلاح الدين بن أيوب فتقرر أن يحتفل فى الجامع الأموى بوضعه ليلة القدر من سنة ١٣٣٣هـ (إيلول سنة ١٩١٥) وأن يخطب فى هذه الحفلة الدكتور شهبندر بالعربية وخلوصى بك (الوالى) بالتركية والبارون أوبنهايم مندوب الإمبراطور غليوم بالفرنسوية ويختم الحفلة جمال باشا بخطبة باللغة التركية، وانتهز الدكتور الفرصة فتكلم عن تاريخ صلاح الدين وعدله وسعة صدره وإنصافه حتى فى معاملة أعدائه، وقال وما على جمال باشا إذا أراد أن يحفظ التاريخ اسمه كما حفظ اسم صلاح الدين إلا أن يسير على منواله، وما كاد ينتهى من خطبته حتى تقدم جمال باشا غير متقيد بالنظام الموضوع للحفلة وقال ليس السلطان صلاح الدين الذى أسهب فى مدحه الدكتور شهبندر الخليفة الوحيد فى عظمته. بل أن التاريخ حفظ اسم السلطان سليم بين كبار الخلفاء مع إنه فتك بإخوته وبأهله وبرجال دولته، لأنه وجدهم قد تآمروا عليه وهددوا المملكة الإسلامية وسيأخذ القانون فى معاقبة الذين تجرأوا على معاداة الدولة والتآمر على سلامتها.

وقد خاطب خلوصى بك الدكتور شهبندر راجيا منه أن لايثير مسألة المعتقلين ثانية، وأن لا يعود لمثل هذا البحث أمام جمال باشا.

ولم تنقض بضعة أشهر حتى كان أتم جميع التدابير، فأقصى الوحدات العربية وأرسلها إلى ميادين القتال، لأنه لم يأمن جانبها بعد كل ما جرى منه - كما أرسل معظم الأسر الكبيرة إلى الأناضول، وملأ السجون بالمعتقلين وبث الرعب والإرهاب فى القلوب.

وهذا نص البلاغ الذى أصدر فى ختام القضية الثانية:

«لما جرى القصاص على بعض الأشخاص المنتسبين إلى الحزب المؤلف فى مصر والممالك العثمانية تحت عنوان (حزب اللامركزية) والذين حوكموا أمام ديوان الحرب فى عالية كتبت فى البيان الذى نشرته فى شهر أغسطس سنة ١٩١٥ أن التحقيقات تجرى بصورة دقيقة بحق أعوانهم الأشرار الذين لم يكن قبض عليهم قبلا.

«إن الوثائق السياسية التى عثرنا عليها واعتراف عبد الغنى العريسى صاحب جريدة المفيد الذى ألقى القبض عليه أخيراً بعد أن ذكرنا فى البيان خبر فراره واعتراف سيف الدين الخطيب عضو محكمة بداية حيفا السابق ورفيق رزق سلوم ضابط الاحتياط ورفقائهم الآخرين قد نور المسألة من جميع أطرافها، فسيق إلى ديوان حرب عالية الذين ظهر أن لهم علاقة فى هذه المسألة بدرجات متفاوتة مع من تبين أن لهم دخلا فى المساعى الخائنة بتنفيذهم ترتيبات الجمعية وتشبثاتها وأعمالها. وفى ختام التحقيقات والمحاكمات التى أجراها الديوان العرفى صدرت الأحكام اللازمة بحق المتهمين من الموقوفين والفارين كل حسب اشتراكه فى ترتيبات هذه الجمعية التى غايتها ومقصدها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة، فحكم على شفيق بن أحمد العظم، والأمير عمر بن عبد القادر الجزايرى وعمر بن مصطفى حمد ورفيق بن موسى رزق سلوم ومحمد بن حسين الشنطى وشكرى بن بدرى على العسلى وعبد الغنى بن محمد العريسى وعارف بن محمد الشهابى وتوفيق بن أحمد البساط وسيف الدين بن أبى النصر الخطيب والشيخ أحمد بن حسين طبارة وعبد الوهات بن حسين الإنجليزى وسعيد بن فاضل عقل وباترو باولى وجرجى بن موسى حداد وسليم بن محمد سعيد الجزائرى وعلى بن محمد حاج عمر ورشدى بن أحمد الشمعة وأمين لطفى بن محمد حافظ وجلال بن سليم البخارى بالإعدام لثبوت اشتراكهم فى هذه التشبثات بالدرجة الأولى وبصورة عملية. وحكم على كل من تبين دخولهم فى الدسيسة فرعيًا وهم سالم بن مصطفى المظلوم

بالاعتقال فى القلعة لمدة خمس سنوات وتوفيق بن محمد الناطور ويوسف بن مخيبر سليمان بعشر سنين وحسين بن خليل حيدر بخمس عشرة سنة ورياض بن رضا الصلح بنفى مؤيد والأمير طاهر بن أحمد الجزايرى بعشر سنين معتقلا فى القلعة وحكم على الذين مع كونهم لم يفهموا المقصد والتشبث الحقيقى، وثبت وجود مساع لهم مع هذه الجمعية بصورة محسوسة إما بسائق الجهل أو الصلف وإنما لم توجد عليهم وثائق تنور وجدان الهيئة الحاكمة وثبتت مجرميتهم واشتراكهم، وهم رضا الصلح وأسعد حيدر بإعادتهما إلى منفاهما. وتقرر منع محاكمة وبراءة كل من محمد كامل الهاشم وإبراهيم القاسم وسامى العظم ورشدى الشوا وعاصم بسيسو وعزت الأعظمى ومصطفى الكيلانى وعبد الرحيم حنون والدكتور حسام الدين ونجيب شقير والشيخ فتح الله على أديب والدكتور أحمد قدرى وسليم الطيارة وجميل الحسينى والشيخ سعيد البانى وسليم الشمعة وسليم البخارى وفايز الخورى ورشيد الحشيمى وعمر الأتاسى والبكباشى على رضا والدكتور أمين قزما وسعيد عدره والدكتور عبد الحفيظ واليوزباشى محمد جميل الألشى وفريد باشا الباقى وعثمان العظم.

«ومن الذين صدر بحقهم حكم الإعدام وهم شفيق المؤيد والأمير عمر وشكرى العسلى وعبدالوهاب الإنجليزى ورشدى الشمعة ورفيق رزق سلوم أعدموه هذا الصباح فى دمشق والآخرون أعدموا فى بيروت وأرسل المجرمون الآخرون إلى منافيهم وسجونهم وعلى هذا المنوال استقر الأمن فى سورية وفلسطين وهما فى حاجة إليه إلى الأبد. وسينشر كتاب حاو جميع الوثائق على حدة مع اعترافات المتهمين وتاريخ صغير لهذه القضية»

«ومن أنعم النظر فى الوثائق يفهم أولا: أن هؤلاء الأشخاص قد ضحوا بلا تردد بما لديهم من المقدسات الدينية والوطنية إزاء منافعهم الخسيسة المادية وأنهم قد أشركوا مساعيهم ونفوذهم وقدرتهم أعداء الدولة وسعوا فى إعداد الطاعة فى الداخل إزاء اعتداء الأعداء فى الخارج، ومما هو جدير بالتقدير إن إدارة هذه التشبثات لم تتسع بالنظر لما جبل عليه العنصر العربى النجيب من الصداقة والطاعة والصلابة الدينية العارية عن شوائب الظنون، بل انحصرت بين أشخاص مسلمين ومسيحيين لا أهمية لهم، ولايكاد يتجاوز عددهم المائتين من المحكوم عليهم حديثا وقديما وحضورا وغيابيا

«وبناء على السلطة التى تخولنى إياها المادة الثانية من القانون المؤرخ ١٤ مايو سنة ١٩١٥ وتنص على التدابير التى ينبغى للسلطة العسكرية التوسل بها زمن النفير العام ضد

الخارجين على الحكومة وإجراءاتها فأنا ساع لإبعاد أولئك الأشخاص الذين يتخذون حقوق الدولة ومقدساتها ملعبة فى سبيل منافعهم الشخصية مع من لهم علاقة معهم من أسرهم وعائلاتهم، وقد اتخذت الأسباب الكاملة لإعاشة هذه العائلات ورفاهيتها فى الأماكن التى ينقلون إليها تحت عناية الحكومة السنية وعاطفتها وسيعطون هنالك أراض وأملاكا تعادل قيمتها قيمة أراضيهم وممتلكاتهم فى سورية. وإنى أوصى جميع الأهلين فى سورية وفلسطين بالسكينة والطمأنينة. على أنه من الآن فصاعدا لم يبق محل لإجراء التعقيبات والإبعاد إلى الولايات العثمانية فى حق أحد مطلقا، مالم تظهر وثائق قوية تدل على خيانته»

قائد الجيش الرابع وناظر البحرية

أحمد جمال

ولقد اقترنت أحكام الإعدام والنفى والسجن بأحكام النفى والإبعاد فشملت نحو ٣٠٠ أسرة ـ من أسر الشام (سورية وفلسطين ولبنان) قبض على أعضائها. نساء ورجالا وأطفالا بأمر جمال باشا فى شهر مارس وإبريل سنة ١٩١٦ وأرسلوا إلى الأناضول ـ أى قبل صدور الأحكام بعد ماصودرت أملاكهم وأموالهم فوزعوا فى مدنه وقراه قاصيها ودانيها، فمنهم من أرسل إلى ولاية قونية ومنهم من أرسل إلى أنقرة وغيرهم إلى ديار بكر وبروسة وأطنة وسيواس وقسطمونى حتى لم تبق مدينة من مدن الأناضول إلا ونزلتها عائلة أو أكثر من العائلات السورية، والغاية من هذا التدبير ـ وهم لم يقصوا سوى الأسر الغنية والكبيرة . اضعاف العصبية العربية فى بلاد الشام باقتطاع العناصر القوية من جسمها فتتفكك وتفقد قوميتها وتندمج فى الطورانية

لقد عامل جمال باشا العرب كما عامل طلعت باشا وأنور باشا الأرمن، وهكذا تعاون الثلاثة ـ على الفتك بخيرة أبناء هذين العنصريين وتشتيتها ليخلوا لهم الجو بعد الحرب فنقلوا الأرمن إلى بلاد العرب ونقلوا العرب إلى منازل الأرمن الخالية فى الأناضول. وقد اعترف جمال باشا نفسه فى كتاب الإيضاحات السياسية بما وقع من أسر وتغريب، وعلله بأنه تدبير احتياطى وإنه إنما أرسل النساء والأطفال مع الرجال لكى يعيشوا بشكل عائلة، ولا يكونوا فى حالة سيئة (أنظر ص ١١٣ ـ ١١٥ من كتاب الإيضاحات) وإذا كان هنالك فرق بين العملين، فهو فى أن جمال ومنزلته فى الدولة ما كانت دون منزلة أنور، وطلعت كان يدافع عن الأرمن ويسعى لكف الأذى عنهم، ويعمل على حمايتهم، مع أنهم كانوا

يحاربون الدولة يومئذ فى صفوف الروس ويقاتلونها، بينما كان العرب يهجمون على القناة بقيادة جمال باشا نفسه.

وهذا ما كتبه فى مذكراته بهذا الموضوع (ص٥٠٤) تعريب على أحمد شكرى: «ولما وصلت إلى السلطات المدنية - بعد نفى أرمن الأناضول الأوامر - بنفى جميع الأرمن من أطنه وحلب، عارضت فيها معارضة شديدة ولم أكتف بذلك بل كتبت تقريرا مفصلا عن هذه المسألة وبعثت به إلى الأستانة، وقد ذكرت فيه أننى لا أرى ضرورة ما لذلك العمل الذى لابد أنه يؤثر تأثيراً سيئًا فى المركز الاقتصادى والزراعى بصفة خاصة للمنطقة التى يرابط فيها الجيش الرابع، ولكنى وقد أمرت بألا أتعرض لما لا يعنينى أو أدخل فى شؤون السلطات المدنية بل أمدها بالمساعدة فقط، هل كنت أستطيع أن أحول دون تنفيذ هذه الأوامر أو أن أعطلها؟ ولما كنت موقنا بأن نفى جميع مهاجرى الأرمن إلى العراق سيذيقهم من الكروب ألوانا، رأيت أن أحول كثيرا منهم إلى ولايتى بيروت وحلب فنجحت بعد الاحتجاجات التى أرسلتها إلى الأستانة فى الحصول على الإذن بما طلبت، وبهذه الوسيلة استطعت أن أبقى فى هاتين الولايتين زهاء ١٥٠ ألف مهاجر. وبعد ما أسهب فى ذكر خدماته للأرمن قال: إن بطريرك الأرمن صافن أفندى زاره فى الأستانة عند رجوعه إليها فى ديسمبر سنة ١٩١٥ وسلمه مذكرة شكر من البطريركية باسم الأمة الأرمنية بأسرها.
ولا ريب أن أقوال جمال باشا فى مذكراته تؤيد ما قيل عن توسطه الأرمن للاتفاق مع الحلفاء على مهاجمة الدولة كما سيأتى:

ديوان حرب عاليـــة

ولقد آن لنا أن نتكلم قليلا عن ديوان حرب عرفى عالية، وعن المآسى التى مثلت على مسرحه. فنقول إن جمال باشا أنشأ هذا الديوان على أثر وصوله إلى سورية سنة ١٩١٤ لمحاكمة المتهمين بالقضايا السياسية وغيرها من الذين يدخلون تحت طائلة الأحكام العرفية وكانت البلاد خاضعة لها بسبب حالة الحرب.

لقد كان الديوان العرفى يتألف من هيئتين: هيئة تحقيق يرأسها ضابط اسمه صلاح الدين، وهيئة قضاة يرأسها قائمقام اسمه شكرى بك.

وما كانت هنالك جلسات علنية ولا مرافعات ولا دفاع بالمعنى المفهوم من هذه الألفاظ وإنما كانت هيئة القضاة تسترشد فى جميع أعمالها بأوامر جمال باشا نفسه. وكانوا

يكتفون فى الغالب بدرس نفسيه القادم وأخلاقه وأطواره، فإذا تبينوا أنه من الأذكياء الذين يخشى جانبهم أشاروا إلى ذلك فى جانب اسمه فيأمر الباشا بإعدامه للتخلص منه، ومعنى ذلك أن الكفاءة وعدمها كانت القاعدة فى إصدار الأحكام بالنسبة لأكثر المتهمين ومعظم الذين نجوا من قبضة الديوان العرفى هم من الذين تظاهروا بالبلة أو أنكروا نسبتهم العربية، أو قدموا هدايا ثمينة لرجال التحقيق فشهدوا ببلاهتهم، أو جاءوا بوسائط أخرى. وقد اعترف شكرى بك نفسه بعد انفضاض الديوان العرفى، وقد فض بعد ٦ مايو سنة ١٩١٦ أن الحكم فى القضية الكبرى عدل أربع مرات بأمر جمال باشا، فكان فى كل مرة يخرج أناسا من قائمة المعدمين، ويدخل غيرهم، وأخيرا أبلغه بشكله النهائى يوم ٥ منه فنفذ كما أمر.

ولابد لنا أيضا من التنبيه إلى أمر خطير آخر، وهو أنه رغم وسائل التعذيب والإرهاق - وقد تفنن فيهما الترك ليحملوا المعتقلين من رجال القضية العربية على الاعتراف والاقرار - لم يفوزوا بطائل فلم ينبس أحد ببنت شفة، بل ظلت أسرارهم محفوظة فى صدورهم وحسبك أنهم تفننوا فى ضرب عبدالكريم الخليل وتعذيبه، لانتزاع اعتراف عن إخوانه وشركائه فلم يبح بسر وكذلك فعلوا مع عمر حمد وعبد الغنى العريسى وشكرى باشا الأيوبى وسيأتى الكلام على قضيته.

وإذا قيل لنا إن عبدالغنى العريسى ورفيق رزق سلوم وسيف الدين الخطيب أفضوا بأشياء ذات شأن أوردها جمال باشا فى كتاب الإيضاحات السياسية. نجيب أن ما أفضوا به لا يزيد عن معلومات مبهمة عن جمعيتى اللامركزية والإصلاحية كانت تلوكها الألسنة ولا تدين أحدا فالتحقيق فى الدورين قام على أوراق اللامركزية وقد جاء بها الشنطى بسبب تفريط حقى العظم وعدم حسبانه حساب العواقب، وعلى ماعثروا عليه فى قنصليتى فرنسا. ومما يؤيد هذا الاستنتاج إنه لم يدر أى تحقيق حول جمعية العربية الفتاة مع أن بين الذين أعدموا كثيرين من رجالها، والذين ورد ذكرهم فى أقوال العريسى وغيره هم من الذين لا تنالهم طائلة العقاب كالسيد رشيد رضا ورفيق العظم وغيرهما من البعيدين.

ونقول بهذه المناسبة إن أوراق جمعية العربية الفتاة السرية، وكانت فى عهدة محمد المحمصانى ظلت مدفونة فى ضريح أحد الأولياء فى بيروت قرب البسطة حتى ذهبت إحدى سيدات آل حيدر إلى منزل آل المحمصانى فاتفقت مع إحدى سيداتهم وذهبن إلى مقام الولى واستخرجن الأوراق وحرقنها.

وجملة القول أننا من الذين يعتقدون بإن جمال باشا لم يعمل ما عمله إلا ليتخلص من العنصر العربى المنور، وإذا كان انتصار الترك فى الدردنيل قد عجل فى إعدام الرعيل الأول فإن انتصار كوت العمارة هو الذى عجل فى الكارثة الثانية، ودفعه إلى ضرب العرب هذه الضربة الكبرى فقتل رجالهم، وسبى نساءهم ويتم أطفالهم، وشردهم فى الأناضول وظن أنه تخلص منهم إلى الأبد.

ولكى لا يرمينا القارئ بالتحامل ننقل ما أورده على فؤاد باشا رئيس أركان حرب جمال باشا فى مذكراته عن هذه الحوادث قال:

«لقد قلت فيما تقدم إن جمال باشا لم يكن مخطئا فى إجراءاته الخاصة بتنفيذ حكم الإعدام برجال القافلة الأولى. فقد كان فى موقف حرج ييرر عمله، ولو لم يقدم على عمل ما عمله لما استطاع أن يسيطر على الموقف، ويحول دون اتساع نطاق الثورة، وكانت تهدد البلاد العثمانية فى البقعة العربية منها.

«لقد كان عليه أن يقف عند هذا الحد. خصوصا وقد لمس تأثير عمله فى البلاد فقد هابه رجال الحركة الثورية، ووقفوا جانبا، ولكنه لم يفعل ذلك بل واصل الكتابة إلى أنور باشا وطلعت باشا ملحا بطلب تخويله السلطة اللازمة لمحاكمة جميع الذين وردت أسماؤهم فى الأوراق التى صودرت فى القنصلية الفرنسوية وهذا خطأ فادح ارتكبه وجعل العرب يمقتونه حتى لقبوه بلقب سفاح سورية، وهم على حق».

وزيادة فى الانصاف ننشر ماكتبه جمال فى مذكراته عن هذه الحوادث تبريراً لسياسته - بعد أن نشرنا الخطير من الوثائق والبيانات التى أذاعها ليقابل القارئ بين الأقوال كلها، ويحكم بنفسه، فإننا نحاول أن نرسم صورة كاملة لذاك العهد غير مشوبة بشائبة تحامل أو افتراء. فالحق أحق بالاتباع قال:

«يوم وصولى إلى دمشق أخبرنى خلوصى بك والى سورية أن لديه أموراً خطيرة يريد محادثتى فيها، فاجتمعنا فى مساء اليوم نفسه فسلمنى وثائق ذات شأن وجدت فى دار القنصلية الفرنسوية. وقال إنها تجعل عدداً من رجال سورية ومن كبار موظفى العرب مسؤولين، وإنه لم يعمد إلى اتخاذ تدابير ضدهم بل أرجأ ذلك إلى مابعد حضورى».

«وتدل هذه الوثائق إن أحرار العرب كانوا يعملون تحت حماية فرنسا وبإرشادها ولمصلحتها، وقد رأيت أن اتخاذ تدابير إجراءات قضائية بحقهم قد يعرض حركة الوحدة الإسلامية وهى ضالتنا المنشودة للخطر، فقررنا إخفاء الأمر وكتمانه».

«وقبل وصولى إلى سورية سلمت إلى المحكمة العسكرية وثائق خطيرة حكمت بموجبها على نخلة باشا المطران البعلبكى بالأشغال الشاقة المؤبدة فسيق مخفورا إلى ديار بكر وقتله الحراس ذات ليلة قرب جرابلس لما حاول الفرار».

«ومع أن الأدلة التى وجدتها تجعل كثيرين من كبار السوريين مسئولين إلا أننى فكرت فى أن هؤلاء سيدركون فى المستقبل أن الحرب العظمى ليست إلا مسألة حياة أو موت للعالم الإسلامى، وأنهم سيقلعون عن أعمالهم، فلذلك قررت أن لا أتخذ إجراءات ضدهم، وبما إنى كنت شخصيا موافقا مبدئيا على استعمال اللغة العربية، ومنح العرب امتيازات فى الشؤون الإدارية فقد اجتمعت بعبد الكريم الخليل أحد زعماء الحركة العربية فلاطفته ثم اجتمعت بواسطته بالدكتور عبد الرحمن شهبندر وبعبد الغنى العريسى وبمحمد كرد على وغيرهم فبسطت لهم خطة الحكومة، وأكدت لهم أن تحرير العالم الإسلامى من النير الأجنبى ممكن التحقيق لو انتصرنا. فوافقوا على صدق كلامى وأقسموا بالله وبشرفهم أن يظل عرب سورية على الولاء للدولة مادامت الحرب، وقد أعطيت عبد الكريم ومحمد كرد على وعبد الغنى العريسى أموالا طائلة - بناء على طلبهم وما أظهروه من الاحتياج، فأصبحوا بعد ذلك مطيعين لأوامرى».

ثم قال «وفى أواخر يونيو (حزيران) سنة ١٩١٥ زارنى الشيخ أسعد الشقيرى مفتى الجيش الرابع وقال: إن الثورة بدت علاماتها فى سورية، وإن فى استطاعة كامل بك الأسعد نائب بيروت أعطائى المعلومات عنها. فأحضرته. فقال لى«إنكم وضعتم ثقة كبيرة فى جماعة الإصلاح وخولتموهم حرية مطلقة فى البلاد، ولكننى أخشى أن يكونوا أساءوا استعمال تلك الثقة، فإن رضا بك الصلح، وعبد الكريم الخليل ينظمان عصيانا فى جهتى الطيبة وصيدا، ولو تفضلتم بإجراء تحقيق لتبينتم صحة كلامى».

«وقد أمرت بإجراء تحقيق فأثبت صحة ما قيل. فأمرت بالقبض على رضا الصلح وعبد الكريم وشركائهما».

«وعثر موظفوا المراقبة على كتب واردة من القاهرة تحث متنورى الغرب على الثورة، بدعوى أن تركيا سوف تخرج من الحرب مخضودة الشوكة فتصبح البلاد العربية عرضة لاستيلاء الأجانب، فيقتضى أن يزود العرب عن استقلالهم المهدد، وقد استنتجت من ذلك أن جماعة الإصلاح لم يعدلوا عن العصيان فى سورية وفلسطين، كما عجبت لما أظهره عبد الكريم وجماعته من الولاء للحكومة منذ إعلان الحرب حتى الآن».

تلك هى مجمل الأسباب التى سردها فى الدفاع عن سياسته. ولا ريب أن القارئ المنصف يسلم معنا بأنها لا تبرر ماوقع. فوجود صلة لأفراد ينتمون إلى حزب الإصلاح - وما كان نخلة باشا المطران منهم - بالقنصلية الفرنسوية لايجوز أن يتخذ ذريعة لاتهام الجميع بالخيانة بعد مابرهنوا منذ ابتدأت الحركة الإصلاحية فى سنة ١٩١٣ حتى بدء عهد الإرهاب فى صيف سنة ١٩١٥ على إخلاص وطنية اعترف هو بها فى أقواله، كما أن كتاب حقى العظم إلى محمود المحمصانى، وقد أرسل قبل دخول الدولة فى الحرب لم يرد به سوى مجرد التشويش. يضاف إلى هذا أن مجرد رواية يرويها كامل بك الأسعد عن اشتغال رضا الصلح وعبد الكريم الخليل بإعداد الثورة - وعداوته لهما مشهورة معروفة بسبب السياسة المحلية - لا يجوز أخذها قضية مسلمة. وإلا فأين هى الوثائق التى تثبت الخيانة على عبد الكريم ورضا الصلح لو كان ما أتهمهما به صحيحا، ولماذا لم ينشرها كما نشر الوثائق الأخرى.

هذا من جهة واحدة. أما من الجهة الأخرى فالوثائق التى نشرها سواء فى مذكراته الخاصة أو فى كتابه «الإيضاحات السياسية» وقد اقتبسنا الخطير منها، وما سماه اعترافات المجرمين لا تصح أن تكون بحال من الأحوال مدارا لتقديم الذين قدمهم للمحاكمة، فضلا عن محاكمتهم والحكم عليهم بالإعدام - إذا لم يكن المقصد التخلص منهم والقضاء علي الفكرة العربية بأشخاصهم.

ولو تساهلنا مع جمال باشا، وقلنا بجواز تقديم الذين وجدت وثائق ضدهم فى دار قنصلية فرنسا من أمثال نخلة يوسف الهانى وأضرابه، ولا يزيد عددهم على أصابع اليد الواحدة، فبماذا يجيب لو سئل عن الوثائق أو الأدلة المادية التى تدين الآخرين، فقد بحثت طويلا بين كل مانشره عن وثيقة تدين السيد عبد الحميد الزهراوى، وكان عضوا بمجلس الشيوخ، ويتمتع بالحصانة البرلمانية فلم أعثر إلا على وثيقتين - كما سماهما - الأولى برقية أرسلها إليه حزب اللامركزية بمصر يوم تعيينه عضوا بمجلس الشيوخ ونصها:

قرر حزبنا باتفاق الآراء قبولكم لعضوية الأعيان، واعتمد الحزب عليكم بأن تكونوا واسطة لدى الحكومة لأجل المطالبة العربية الأخرى.

رفيق

والثانية كتاب توصية أرسله إليه الإمام يحيى بشأن موظف وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«أوحد النبلاء الأعاظم، أكمل العظماء الأفاخم، حائز مناقب الفخار عبد الحميد أفندى الزهراوى عمدة الخيار، ألبسه الله ملابس التوفيق والإقبال وأعاد على حضرته أتم تحية وإجلال.

إنه وصل المحرر العالى الذى جمع مع الإيجاز جزالة المعانى، وأفصح عما لحضرتكم من علو الجناب وشكرنا حسن الائتلاف وحسن النية فى شأن الائتلاف المبارك إن شاء الله وإنا لنرجو الله سبحانه أن يجعله فاتحة خير لجمع كملة الموحدين، وإعزاز جامعة المسلمين ونؤمل كافة أن لا يبقى أثر للاختلافات الداخلية، الناشئة عن الأغراض والأحقاد الشخصية التى جلبت على الدولة العلية والبلدان الإسلامية ما قد علم من العلل والأمراض، وإنى لأشكر خاصة ما أبديتموه من التوجهات العلية، كما سررت بالقاء النظر العالى من حضرتكم على الشهم الغيور إلياس شكرى بك قائمقام أب فإن المومأ إليه قد سبقت له الخدمة فى اليمن ووفق لنيل الثناء على حسن الخدمة والإدارة زاده الله كمالا ووفقنا وإياكم لصالح الأعمال، وهذا مرسل أيضا بواسطة القائمقام المومأ إليه، ومستمد صوالح الدعوات المرضية، ودمتم موفقين وشريف السلام عليكم».

وهكذا فقد حاسبه على كتاب ورده من الإمام واتخذه حجة للفتك به. كما حاسبه على برقية حزب اللامركزية، وهو حزب رسمى معترف به، ومما يستحق الذكر أنه لم يرد للسيد الزهراوى ذكر فى البلاغ المنشور يوم ٦ مايو سنة ١٩١٦[1] لأنه لم يقدم إلى التحقيق ولم يحاكم، وإنما سيق مع الذين سيقوا إلى دمشق مساء ٥ مايو وأعدم فيها فى الصباح، ثم تداركوا له هذه البرقية والرسالة فنشر وهما تبريرا لعملهم فى كتاب الإيضاحات فكانتا حجة عليهم لا لهم.

وكذلك فلم يسق جمال باشا فى كل ما كتبه برهانا يدين كل من عبد الوهاب الإنجليزى وشكرى العسلى ورشد الشمعة وسيف الدين الخطيب والشيخ أحمد طبارة وجرجى الحداد وسليم الجزائرى وعلى حاج عمر وأمين لطفى حافظ وجلال بخارى وسليم الأحمد عبد الهادى ومحمد المحمصانى ومحمود المحمصانى ومحمود العجم ونور القاضى وعبد القادر الخرسا ونايف تللو ومحمد مسلم وصالح حيدر وعلى الأرمنازى.

نعم: لا ننكر أن بين الوثائق التى عثروا عليها فى دار القنصلية الفرنسوية ـ وقد نشرنا

---

١ ـ انظر ص ٧٠.

واحدة منها آنفا ـ مايثبت وجود صلة بين الفرنسويين وشفيق المؤيد أحد الذين أعدموا فى دمشق فى مايو سنة ١٩١٦ وها نحن نثبتها بنصها:

من المسيو بمبار سفير فرنسا بالآستانة إلى وزارة الخارجية الفرنسوية بباريس الآستانة فى ١٥ يناير سنة ١٩١٣.

«سعادة الوزير:

«استقبلت شفيق بك المؤيد نائب دمشق وسليل أسرة كبيرة فى دمشق، ويتنبوأ اليوم مقاما كبيرا، وكانت زيارته للمفاوضة فى القضية السورية التى برزت على أثر كارثة مقدونية».

«وبعد مقدمة طويلة ملؤها المجاملة كما هى العادة فى الشرق، أخذ فى بيان القصد الذى دعاه إلى زيارتى فسألنى أولا وبطريق الابهام عن المعنى الذى ترمى إليه بياناتكم عن المسيحيين القاطنين فى البلاد العثمانية وشموله وكان يحاول أن يفهم هل يكون اهتمام فرنسا وشفقتها محصورين فى المسيحيين فقط أم يشمل مسلمي سورية الذين اعتادوا أن ينظروا إلى فرنسا كوطن ثان لهم فأجبته إنكم أحببتم أن تذكروا الواجبات الخاصة المترتبة على فرنسا إزاء المسيحيين الكاثوليك، وإن فرنسا صادقة فى مودتها ومظاهرتها القديمة لأهالى سورية من غير تفريق فى الدين والمذهب.

«وكان يظهر على شفيق بك أنه متأثر جدا من المساعى المصروفة بين المسلمين لاستمالتهم إلى انجلترا وقد كان كلامه عن المسيحيين ذا فائدة عظيمة بالنسبة لهذه المساعى ولقد شفت غليله الإيضاحات التى أعطيتها له، فأعرب عن شكره العظيم بعد أن طلب منى تكرارها مرات متعددة.

«لقد أوغل شفيق بك فى روح المسألة وبحث معى فى الإصلاحات الواجب تنفيذها فى الإدارة السورية، وعن اللامركزية، وعن قلب الولايات السورية الثلاث إلى إمارة وعن عدم تعيين الترك فى الوظائف العامة، وقال: إن الحكومة العثمانية لن تتأخر عن إرسال قوة لمقاومة هذه الأمانى. ثم سألنى هل فرنسا مستعدة لسوق جيش إلى حلب على فرض أن الحكومة العثمانية ساقت قوة لإبقاء سورية تحت سلطانها؟ فأجبته بإن الحكومة تنظر فى الحقيقة إلى اللامركزية بعدم ارتياح. لأنها تخشى أن تؤدى حركتهم إلى الانقسام، ولهذا يتحتم على الإصلاحيين قبل كل شيئ أن يقنعوا الحكومة بحسن نيتهم».

ويرى هو أن استقامة أهالى سورية لاتحتاج إلى مناقشة، وإنه متى كان موظفوهم

الملكيون والقضائيون ممن يتكلم بلسانهم، وكانت واردات ولاياتهم وبلدياتهم تحت أيديهم يتم لهم الإصلاح المطلوب. على أن تتولد من هذه الإصلاحات الأمور الأخرى. فأوصيته بالحذر والتأنى وتأخرت عن السير معه فى الساحة المحرقة التى أراد أن يجرنى إليها إما عن حسن نية أو عكس ذلك.

«ولقد سافر شفيق بك إلى مصر فى نفس ذلك اليوم ولا ريب إنه سيكرر للحكومة الإنجليزية نفس البيانات التى رددها أمامى وسيقابل بين جوابها وجوابى وإنى لأرجو أن تكونوا صريحين معه. وسيسافر من مصر إلى بيروت فيتحدث مع الإصلاحيين الذى جمعهم الوالى، وعند وصوله إلى دمشق سيبدأ العمل مع أصدقائه الذين تركوا المجال للبيروتيين».

«لقد بلغت القضية السورية كمالها فى الساحل بكل سهولة، ولا يلبث الهياج الحاصل من جرائها أن يتسع فى الداخل. فسكانه أحد مزاجا، وأشد من سكان السواحل المتمدنين المسالمين».

وكتب قنصل فرنسا فى بيروت إلى وزارة الخارجية يوم ٢٢ إبريل سنة ١٩١٣ بشأن زيارة شفيق بك ماترجمته:

«وصل شفيق بك المؤيد إلى هنا بعد توقفه قليلا فى مصر، وأمس زارنى وقد اجتهدت أن أخاطبه بنفس اللهجة التى خوطب بها فى دار السفارة فى الآستانة. على أن حديثنا انحصر فى حركات الإصلاحيين الأخيرة».

«وقد اعترف شفيق بك أن القادة أظهروا العجز، ودلوا على عدم دراية، وأنهم لم يصنعوا شيئًا سوى تنظيم اللائحة الإصلاحية، وقد وافقت الحكومة المركزية على تطبيقها، كما أدركوا ذلك. وأفادنى أيضا أن بعض الوكلاء وفيهم أحمد مختار بيهم وهو أذكى رجل مسلم فى بيروت سيتوجهون إلى الآستانة للمفاوضة مع ممثلى الحكومة العثمانية بشأن المسألة السورية، ومع ممثلى الدول فى لندن وباريس. ويجزم شفيق بك بأنه حصلت نتيجة مهمة حتى الآن وأن الأهالى المنقسمين إلى أحزاب متعددة قد اشتركوا فى المسألة السياسية مع ما بينهم من حزازت دينية قديمة. ويريد شفيق بك السفر إلى دمشق حيث حركات الإصلاح متأخرة عن بيروت وسيعمل لإنشاء حزب اللامركزية لا حزب للإصلاح، ويتعاون مع اللامركزية بمصر».

وكذلك فهناك وثيقة خاصة بالأمير عمر الجزائرى فقد جاء فى برقية أرسلها سفير

فرنسا في الآستانة يوم ٢٧ يناير سنة ١٩١٣ إلى قنصل دمشق مانصه: وأظن أن الأشخاص الذين رجوك بواسطة الأمير عمر هم ممن يفكر بالاطمئنان على نفسه زيادة عن كل شيئ. فيجب عليك أن تصغى بمحبة ووداد لأن معرفة السوريين من مسلمين ومسيحيين بأنه يسوغ لهم أن يثقوا بنا من الأهمية على جانب عظيم إلخ إلخ..

ولا يوجد في الوثائق الأخرى المنشورة ما يدل على وجود أى صلة لأى رجل من رجال الإصلاح واللامركزية بفرنسا سوى الذين ذكرنا أسماءهم هنا وأوردنا نصوص الوثائق الخاصة بهم لنضع الأشياء في مواضعها.

كيف نفذت أحكام الإعدام

بقى علينا أن نصف حالة الشهداء حين إعدامهم، وطريقة الإعدام، ومافاه به كل واحد منهم، فقد نقل رجال الرعيل الأول بالعربات من عالية إلى ديوان الشرطة في بيروت منتصف ليل ٢٠ أغسطس سنة ١٩١٥ فأدركوا على الفور ما أعد لهم، فلم يجزعوا، ولم يهنوا، وتوضأ معظمهم كما اغتسل أحدهم، وتقدم عبد الكريم من مفوض الشرطة وقال له:

- ألا يحضر الوالى إعدامنا

- كلا. فمدير البوليس ورضا باشا كافيان

- أتريد أن تدعو لى قليلا مدير البوليس

- حبا وكرامة

وذهب المفوض إلى مدير البوليس فدعاه وشد ما أسرع إلى مقابلة عبد الكريم، وكان أثناء إقامته في الآستانة قد أنقذه من السجن مرتين فلما تقابلا التفت إليه عبد الكريم شامخ الرأس وقال له:

- أتذكر أننى أنقذتك مرتين من الموت.

فقطب مدير البوليس حاجبيه وقال:

أذكر ذلك، ولكننى عاجز الآن عن مكافأتك فقد حكم عليك من يد فوق يدى

- أنا لا أطلب منك أن تنقذنى الساعة لأننى أعرف الحد الذى يبلغ إليه عرفان الجميل عند الأتراك، ولو كلفوك أن تضع الحبل في عنقى لما تأخرت ولفاخرت أقرانك بعملك

- والآن ماذا تطلب

- أطلب منك أن تقابلنى بالوالى عزمى

ـ ذلك مستحيل

ـ أتمنعون عن محكوم عليه بالموت رغبة يرجوها قبل موته

ـ قل ما تريد أن يعرفه الوالى منك وأنا أبلغه أياه حرفا حرفا.

ـ لا أريد ذلك إذا كان هو لايجسر أن يقابلنى وجها لوجه. ولكنى أريد منك أن تمنع كل تركى من الدخول على، وهذه هى إرادتى الأخيرة

ثم أدار ظهره وأخذ يمشى بسرعة وهو واضع يديه فى جيوبه

وأحب مدير البوليس أن يرضيه فى آخر ساعات حياته فمنع عن الدخول إلى غرفته فى تلك الساعة الرهيبة التى سبقت الإعدام كل مأمورى البوليس الترك.

وكان الجميع فى غرفة واسعة والجنود تطوق المحل من الخارج. وكانوا يسمعون من حين إلى آخر وقع حوافر الخيل وصلصلة السلاح وأوامر الضباط لجنودهم

ومـاهى إلى هنيـهة حتى وصل إلى تلك الغرفـة بوليس يحمل حبـرا وأقـلامـا وقـال للمحكومين.

ـ اكتبوا وصاياكم إذا شئتم.

وترك الأقلام والحبر على طاولة كبيرة فى الغرفة وخرج فجلس الشهداء يخطون على الطروس آخر ما تمليه عليهم الوطنية والعاطفة قبل ساعة الموت.

كتب كل واحد وصيته وتركها وديعة عند دار البوليس لتسلمها إلى أهله

وأعلنت الساعة الرهيبة فصدرت الأوامر إلى الجنود بتنكب السلاح ونادى منادى الويل فى المحكومين.

وأول من وقف تحت حبل المشنقة المرحوم عبد الكريم الخليل. أجرأ الشهداء، وأثبتهم جنانا، وأعفهم لسانا فقال بصوت جهورى وجمل متقطعة.

ـ قوانين العالم كلها تجيز للمحكوم عليه بالموت أن يقول إرادته الأخيرة قبل ساعة موته فهل يجيز لى قانونكم إيها الباشا (يريد رضا باشا قائد جبل لبنان يومئذ) أن أتكلم قبل أن يوضع الحبل فى عنقى.

فتوقف رضا باشا بضع ثوان لا يحير جوابا ثم أذن له فى الكلام فقال:

«أشـهـدكم أيها القـوم أننا لم نأت أمـرا فـريا يوجب وقـفـتنا هذه، وإنى آسف على مـا أظهرته من الإخلاص للدولة منذ نشـوب الحرب، ولكن الاتحـاديين أبوا إلا أن يعلنوا عداءهم لهذا العنصر الكريم الذى لا يملك من أمره شيئا. فإذا كان جمال باشا يتهمنا

بإضرام الثورة لاستقلال العرب فلابد من ضحايا لهذا الاستقلال، ولنكن نحن أول هذه الضحايا».

«أننى أعرف السبب الحقيقى الذى شنقنى جمال باشا لأجله وسيعرفه التاريخ»

ولما جئ بالأخوين محمد ومحمود المحمصانى إلى الساحة تعانق الأخوان طويلا قبل الصعود إلى منصة المشنقة ثم أخذ كل منهما يشجع الآخر على الموت وهما يبتسمان وصعدا معا إلى المشنقة بقدم ثابتة وكانت عين الواحد منطبعة على عين شقيقه»

ونادى المرحوم محمد، المأمور الموكل بتنفيذ الحكم وقال له:

- لى رجاء إليك قبل موتى وهو أن تتكرم وتنفذ الحكم بى وبأخى فى وقت واحد حتى لا يتعذب الواحد منا بمرأى أخيه يموت أمامه

ولما وقف محمد تحت الحبل أجال نظره فى الجمع وقال بصوت جهورى:

- يشهد الله إنى لم أخن وطنى دقيقة واحدة، يشهد الله أن مافعلته وقمت به من الحركات التى اتهمت بها إنما كان عن اعتقاد ثابت لا يتزعزع بأنى أخدم بلادى وأنجيها إنى أموت شهيدا. فلتحيا أمتى وليحيا العرب.

ودفعت الطاولتان بحركة واحدة من تحت أقدام الأخوين، وما هى إلا خمس دقائق حتى كانا كرفاقهما الشهداء جثة بلا حراك.

ثم جئ بالمرحومين عبد القادر خرسا ونور الدين القاضى فوقف نور الدين تحت الآلة وقال:

- إنى برئ ياناس مما اتهمت به، فأرجوكم أن تبلغوا أخى سلامى، ثم قولوا له أن لا يتأثر ولا يبكى على. لأنى مت ميتة الأبطال وأنى لم أسود لاسمى صحيفة لافى الحياة، ولا فى الممات وهوى الكرسى من تحته فقضى مثل رفاقه

وكان كل شيئ قد انتهى عند الساعة الرابعة، وصعدت أرواح أحد عشر شابا من خيرة أبناء البلاد تلاقى ربها.

أما الذى كان يقرأ أمام رضا باشا ومدير البوليس وهيئة الديوان العرفى فرمانات الإعدام فهو ضابط مغربى برتبة يوزباشى. كان عضوا فى الديوان العرفى واسمه عبد الله.

وعند الصباح جئ بإحدى عشرة عجلة فانزلت الجثث عن الأعواد ووضعت كل واحدة منها فى عربة وجلس عن جانبيها بوليسان وساروا بالجميع إلى الرمل حيث حفروا لكل واحد حفرة واروه فيها

أما الأخوان محمد ومحمود محمصانى فقد وضعا معا فى حفرة واحدة وقد أبقى الأتراك فرقة من رجال البوليس والجندرمة حيال القبور حذرا من سرقة أجساد الشهداء، غير أن بعضا من عائلة حيدر صمموا النية على سرقة جثة المرحوم صالح فجاءوا الرمل وغافلوا البوليس الواقف أمام حفرة فقيدهم، أو بالأحرى اسكتوه وأخذوا الجثة بعد دفنها بنهار واحد

شهداء ٦ مايو سنة ١٩١٦

ولم انتهت المحاكمة الصورية فى شهر مايو وتقرر الإعدام نقل الذين سيعدمون فى بيروت إلى ديوان شرطتها ليلة ٦ مايو. فأدركوا على الفور مايراد بهم. ونقل الآخرون إلى دمشق. وكان الذين نقلوا إلى بيروت يملأون الفضاء بنشيد:

نحن أبناء الألى شادوا مجدا وعلا
نسل قحطان الأبى جد كل العرب

واستمروا على ذلك طول مدة وجودهم فى دار الشرطة، وكانوا كأنهم فى حلقة أدب فلا خوف ولا جل.

وعند الساعة الثالثة بعد انتصاف الليل تحفز الجنود ورجال البوليس ونادى المنادى فى الجنود «السلاح» فتجمعت تلك الفرق المسلحة المبثوثة فى كل أنحاء البلاد كأنها على أهبة الدخول فى المعركة.

ودخل البوليس إلى غرفة الشهداء، ونادى ثلاثة منهم هم المرحوم سعيد عقل والمرحوم باترو باولى والمرحوم جرجى حداد، فلما سمع الجميع صوت البوليس، وكانوا قد جمعوهم فى غرفة واحدة علا ضجيجهم وأخذوا ينادون: حبذا الموت حبذا المشنقة فى سبيل الوطن، خذونا كلنا سوية إلى آلة الإعدام.

وأخذوا يتمشون صفوفا فى الغرفة ذهابا وإيابا وهم يرددون بصوت عال جهورى نشيد: نحن أبناء الألى

أخذ الجند الرفاق الثلاثة مكبلين بالقيود إلى ساحة الإعدام وكان الظلام دامسا والسكينة المخيفة سائدة على تلك الساحة لا يسمع فيها سوى صدى الشهداء الذين كانوا

يرددون نشيدهم فى دائرة البوليس، أو صهيل جواد جندى، أو طقطقة سيف ضابط على بلاط الشارع.

تقدم الثلاثة بقمصانهم البيضاء إلى الصف الأول من المشانق التى كانت منصوبة فى جهة ساحة الاتحاد الغربية ففحص الطبيب أجسامهم (لأن القانون يقضى بعد إعدام المريض)وكان ضابط الديوان يتلو نص الحكم بالإعدام فى ذلك الوقت وهو يحرك رأسه ويديه بطريقة غريبة مزعجة.

فغضب المرحوم باترو باولى من كل هذه الحركات و«الرسميات» وصرخ فيهم بصوته الجهورى:

ـ عجلوا بنا وخلصونا من وجوهكم اللعينة، كان الأولى بكم بدلا ن أن تفحصوا أجسامنا بدقة أن تحاكمونا بعدل.. أننا لانخاف الموت.

ومن لا يمت بالسيف مات «بحبلة»: تعددت الأسباب والموت واحد

... خلصونا.. عجلوا

وصعد هو من تلقاء نفسه إلى منصة المشنقة ورفس الكرسى برجله فأهوى وقضى، وجاء دور المرحوم سعيد عقل فوقف على منصة المشنقة والتفت إلى الواقفين حوله قائلا: ـ

غفر الله لمن ظلمنى، وأسأل ربى أن يكون دمى الذى يراق الآن سببا فى المستقبل لحياة بلادى وشرفا لعائلتى وأولادى.

ثم التفت إلى الطبيب الواقف أمامه وقال له:

ـ رجائى إليك، وأنت من أهل بلادى، أن تهوى بكل قوتك علىّ حال تعلقى لأن خفة جسمى تمنع انقطاع حبل حياتى بسرعة

وجاء الجنود بثلاثة رفاق جدد للإعدام هم المرحوم عمر حمد والمرحوم عبد الغنى العريسى والمرحوم الأمير عارف الشهابى

وكان البوليس قد طلب من عبد الغنى أن يخرج من.الدائرة إلى الساحة مع عمر حمد وحدهما فالتفت إليه عبد الغنى وقال له:

ـ إذهب وقل لرئيسك إن عبد الغنى يطلب أن يعدم مع رفيقه الأمير عارف، ولا يحب أن يفترق عنه حتى فى الموت.

فذهب البوليس ثم عاد وقال له:

ـ حسن فليذهب معك

فريق من شهداء العرب



عبد الحميد الزهراوى — الشيخ أحمد طباره — عبد الغنى العريسى

شكري العسلى — عبد الوهاب الإنكليزى — رشدى الشمعة

جرجى الحداد — سيف الدين الخطيب — جلال البخارى

ولما خرج الثلاثة من الدائرة أخذوا يرددون بصوت عال النشيد الذى ذكرنا مطلعه عدة مرار وكان صوت المرحوم عمر حمد الجهورى يرن بنبراته الشديدة فى ذلك السكون المظلم فتردد صداه جدران منازل بيروت.

وكتب المرحوم عمر حمد على الطاولة قبل خروجه من دائرة البوليس ثلاثة أبيات حماسية من الشعر أخذ يرددها وهو صاعد إلى المشنقة.

ولما وقف ذلك الشهيد على منصة الإعدام خاطب رضا باشا ومدير البوليس باللغة الفرنساوية ماتعريبه:

أنى أكلمكما باللغة الفرنسوية لأنكما لا تفهمان العربية. فبلغا حكومتكما الظالمة أن هذا العمل الذى تعمله الآن سيكون سببا فى خرابها وتقويض أساساتها

ثم التفت إلى الحاضرين وقال باللغة العربية

- إنى أموت غير خائف ولاوجل. أموت فداء الأمة العربية، فليسقط الأتراك الخونة وليحيا العرب.

ولما وصل الشهيد إلى كلمة «فليسقط الأتراك الخونة» أشمأز منه الموكل بأمر إعدامه فضرب الكرسى من تحته قبل أن يتمكن الحبل من عنقه فأهوى المسكين إلى الأرض وهو بين حى وميت، فما كان من لؤم ذلك الوحش إلا أن وخزه بسيفه شاتما لاعنا، ثم حمله مع رفيق مثله، ووضع الحبل فى عنقه رغما عن سيلان الدم بغزارة من جرح بالغ أصابه فى رأسه أثناء الوقوع والضربة

والتفت عبد الغنى عند هذا الحادث إلى الواقفين من مأمورى الحكومة وقال لهم

- عار عليكم أن تعذبوا المحكوم بالإعدام إلى هذه الدرجة، إن الإنسانية ستنتقم منكم على هذه الأعمال.

فشزره الشرطى بخشونة ولؤم قائلا بشراسة:

- هذا لا يعنيك ومن يخن دولته ينله أكثر من ذلك

وجاء دور المرحوم عبد الغنى العريسى فوقف على المنصة وحاول البوليس أن يعجل فى وضع الحبل فى عنقه فالتفت إليه عبد الغنى وقال له باشمئزار:

- دعنا نتكلم ياهذا واحترام إرادة رجل يموت

- ولماذا الكلام؟ ومن يسمعك ويعتبر كلامك الآن؟ دعنا من هذا الخلط ياعبد الغنى

وأسرع إلى وضع الحبل فى عنقه، فنفر منه عبد الغنى والتفت إلى الناس وقال بصوت جهورى:

- بلغوا جمال باشا أن الملتقى قريب وأن أبناء الرجال الذين يقتلون اليوم سيقطعون فى المستقبل بسيوفهم أعناق أبنائك الأتراك

إن الدول لا تبنى على غير الجماجم، وإن جماجمنا ستكون أساسا لاستقلال بلادنا

وكان الكرسى قد هوى من تحت الشهيد، فتغلغل صوته فى صدره، وانتفض جسمه قليلا ثم قضى

وعجل البوليس بإعدام المرحوم الأمير عارف فلم يتركه يتكلم أكثر من بضع كلمات، وجئ بعد ذلك بالقافلة الثالثة فكانت مؤلفة من المرحوم الشيخ أحمد طبارة ومحمد الشنطى وحدث فى هذه الأثناء حادث مؤثر، وهو إن عائلة المرحوم الشيخ أحمد طبارة كانت معتقدة بأن الشيخ سيحكم عليه بالنفى فقط، ولكن همس الناس فى الآذان ولد فى صدر عائلته شكا فلم يغمض لأخوة المرحوم فى تلك الليلة جفن، وجاء إثنان منهم إلى ساحة الاتحاد ليشاهدا المحكوم عليهم، ولم يكونا قادرين على معرفة القادمين إلى الإعدام بسبب الظلام من جهة وصفوف الجنود من جهة ثانية.

وصعد الشيخ المرحوم إلى منصة المشنقة وأخواه واقفان ينظران إلى جهته ولا يعرفانه حتى بدأ بالكلام فشعرا بالضربة الهائلة وأهوى الصغير على صدر أخيه ينتحب ثم عادا إلى البيت يحملان للأرملة والأم والأطفال والإخوان ذلك الخبر المفجع.

وظل الجنود يقودون الشهداء اثنين اثنين إلى المشانق حتى جاء دور المرحوم توفيق البساط، فوصل إلى أمام الساحة - وكان الفجر قد بدأ بأنواره يكشف حلك الليل - وهناك شاهد أحد عشر شابا من خيرة شبان البلاد كانوا من ساعة يكلمونه فإذا هم الآن جثث معلقة لا حراك بها ولا حياة. شاهد ذلك المشهد المؤثر فتجسمت فيه إذ ذلك تلك الروح العالية روح الشجاعة الحقيقية، والتفت إلى إخوانه المشنوقين وإلى شانقهم وقال بصوت جهورى ووجه بسام:

- مرحبا بأرجوحة الشرف! مرحبا بأرجوحة الأبطال! مرحبا بالعمد التى تسند إليها الأمم فى استقلالها، مرحبا بالموت فى سبيل الوطن الحر..

وكان يمشى بسرعة أثناء كلامه هذا إلى المشنقة فما أنتهى من جملته الأخيرة حتى كان

قد أصبح على منصة المشنقة فوضع الحبل فى عنقه وبسرعة البرق رفس الكرسى فأهوى ومات شهيداً.

ولما قضى توفيق البساط التفت رضا باشا إلى البوليس وقال له:

من بقى عندكم؟

فأجابه ـ الضابطان سليم الجزائرى، وأمين لطفى

(وكان المرحومان من كبار ضباط الجيش العثمانى ومن أركان حرب الجيش)

فلما سمع رضا باشا اسم الضابطين نهض مسرعا إلى دار الشرطة، وقابل المرحومين هناك، ودامت المقابلة نصف ساعة تماما، وكان المرحوم أمين لطفى فى أثناء المقابلة يتكلم بهلجة قوية ويقول لرضا باشا:

ـ ليقل لنا الديوان العرفى على الأقل كيف حكم علينا بالإعدام. لماذا لم يستنطقونا؟ لماذا لم يسمعوا كلامنا؟ أهذا هو جزاء خدماتنا للدولة؟

وأخيرا قال لهما رضا باشا:

ـ سأخابر القيادة العليا بشأن العفو عنكما

وجلس حالا إلى التليفون وطلب مخابرة جمال باشا فأجيب: إنه متغيب وأن فخرى باشا وحده فى القيادة. فطلب محادثته ودامت المحادثة عشر دقائق حاول رضا باشا فى أثنائها طلب العفو عن المرحومين بصفة كونهما من كبار ضباط الجيش. غير أن الجواب كان يرن دائما من بوق التليفون بهذه الكلمة.

ـ أولماز (غير ممكن)

ولما يئس رضا باشا من استجداء العفو عنهما التفت إلى سليم الجزائرى وقال له متأثرا

ـ ماذا تريد أن أفعل بعد الآن ياصديقى! تعال أنت وخاطب فخرى باشا

فاقترب سليم من آلة التليفون وطلب مخابرة فخرى فلم يسمع غير هذه الكلمة

ـ أولماز!!

فرفع يده مهددا غاضبا ورمى الآلة فحطمها والتفت إلى رفيقه وقال له:

ـ هلم بنا....

وتقدم رضا باشا من المرحوم سليم الجزائرى فصافحه وعاد أدراجه ليحضر مشهد إعدامه بصفته الرسمية

وكان الجزائرى مهابا محترما فى الجيش. حتى أن الضباط كانوا يحترمونه ويهابونه

وهو فى الديوان العرفى سجينا بل أن رهبتهم منه لم تنقص حتى ساعة إعدامه

ومشى الضابطان معا بثيابهما العسكرية ومهاميز أحذيتهما الطويلة ترن على بلاط الشارع وكان سليم الجزائرى يردد نشيده المشهور

ولما اوصل الرفيقان إلى أمام المشنقة كان قد مضى ساعة على إعدام الإثنى عشر شهيدا قبلهم وكانت أنوار الفجر قد انبسطت على بيروت المرعبة الحزينة، وحاول البوليس أن ينزع (قلبق) الشهيدين عن رأسيهما والشارات العسكرية عن أكتافهما. فأبيا، وأمر رضا باشا البوليس أن يتركا على حالهما

فصعد المرحوم سليم أولا إلى منصة الإعدام ونظر إلى الحضور من تحت نظارتيه البلوريتين بعينين تكاد البطولة الصادقة تلمس خلال لمعانهما ثم قال لرضا باشا

- قل لهذا الخنزير الكلب جمال باشا أن لايفرح بموتى لأن روحى ستظل حية، وتعلم أبناء البلاد من وراء القبر دروس الوطنية وبغض الأتراك

ولما جاء البوليس ليضع الحبل فى عنقه أراد أن ينزع نظارتيه عن عينيه فمانع وقال لهم بنبرة الأمر:

- إعدمونى على حالى كما عشت لأنى لا أريد أن أموت وفى شيئ ناقص

فلم يستطيع البوليس إلا الطاعة، وقضى ذلك الشهيد البطل فى الثوب الذى كان يلبسه وهو يقود الجيوش!

ولما جاء دور المرحوم أمين لطفى صعد إلى منصة الإعدام وهو يضحك ويردد النكات المضحكة هازئا بالدولة التركية. وتلبك البوليس فى وضع الحبل فى عنق الشهيد فالتفت إليه وقال له ساخرا باللهجة المصرية:

- ألم تعلم طرق الإعدام كما يجب ياواد؟ ضع الحبلة فى عنقى بفن ونزاكة على الأقل جزاء خدماتنا للدولة.

ولما لم يحسن البوليس وضع الحبلة أخذ المرحوم الحبل منه ووضعه هو بنفسه فى عنقه ولكن البوليس رفس الكرسى من تحت رجليه قبل أن يمكن الشهيد الحبل من جوزة العنق فأهوى وظل يتعذب مدة عشر دقائق.

هذا فى بيروت أما فى دمشق، وقد أعدم فيها كل من عبد الحميد الزهراوى وشفيق المؤيد، وعبد الوهاب الإنجليزى، وشكرى العسلى، والأمير عمر الجزائرى ورفيق رزقى سلوم فى نفس الوقت الذى أعدم فيه شهداء بيروت - أى فى صباح ٦ مايو - فقد تقدم

المحكوم عليهم بجأش رابط إلى المشنقة. فأبان شفيق المؤيد بكلمات موجزة الغاية الشريفة التى سعى إليها رجال العرب، وطلب فى الختام قراءة الفاتحة على أرواحهم وقال المرحوم شكرى العسلى «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون» ولما أزيح الكرسى من تحت أقدام المرحوم السيد الزهراوى أنقطع به الحبل فرفع مرة ثانية وشد من رجليه شدا قويا. ففاضت روحه إلى بارئها.

قضية خان الباشا

رغم إعلان جمال باشا فى بيانه الرسمى الصادر يوم ٦مايو انتهاء دور القضايا السياسية، ورغم حل ديوان عرفى عالية وتفرق رجاله، فقد برزت على الأثر قضية ثالثة كانت دمشق مسرحا لها، وقد سميناها قضية خان الباشا. لأن الذين أوقفوا فيها اعتقلوا فى خان يسمى بهذا الاسم فى دمشق

وخلاصة هذه القضية أن أمير اللواء شكرى باشا الأيوبى، وكان رئيسا لمصلحة المطاحن فى الجيش الرابع، والذى ذكرنا خبر الجلسة التى عقدت فى بيته لتأييد الدولة اضطرب اضطرابا عظيما وجزع أشد الجزع حينما جاءه نبأ إعدام الذين أعدموا فى بيروت ودمشق ظلما وبغيا، فاقسم لينتقمن لهم وليحاسبن جمال باشا حسابا غير يسير على ما اجترح وارتكب.

واتصل الخبر بولاة الأمور الترك فأصدروا تعلميمات بوضعه تحت مراقبة شديدة وإحصاء حركاته وسكناته. فظلوا على ذلك نحو شهر وفى ذات يوم من شهر يونيو سنة ١٩١٦ استوقفه أحد رجال الأمن ومد يده إلى جيبه فانتشل محفظته وفتشها فعثر فيها على خطاب حماسى مرسل إليه من عمر الرافعى الطرابلسى، وفيه يحمل على الترك حملات شديدة، ويصفهم بالقسوة والوحشية، ويقول لابد لنا أن نثأر منهم تحت لوائك وقيادتك وقد مزج كتابه باصطلاحات صوفية. فاعتقل شكرى باشا على أثر هذا الاكتشاف فى فندق من فنادق دمشق النائية، ووضعوا على باب غرفته شرطيا لمنعه من الاتصال بالناس. وجاءه ذات يوم نجله الصغير «فصيح» فكلمه باللغة التركية - وكان الشرطى الواقف على الباب يصغى إليهما رغم تظاهره بالنوم - وقال له إذهب إلى والدتك وقل لها أن تبلغ شكرى القوتلى بإن يعد لى معدات السفر فى جرمانا لأننى أود الفرار إلى الحجاز للالتحاق بالثورة.

وما كاد الغلام يخرج من الفندق حتى انطلق الشرطى فأبلغ الأمر إلى مدير الشرطة فبعث الشرطة فقبضوا عليه وهو فى طريقه إلى البيت وسألوه عما قال له والده فأنكر فضربوه ١١ قضيبا فاعترف بما قاله له، فأرسلوا قوة أحاطت بقرية بالا حيث يقيم شكرى القوتلى وقبضت عليه وجاءت به إلى السجن.

ويدأ التحقيق على الأثر مع شكرى باشا فأنكر وجود أى صلة له بأحد فضربوه حتى أدموا رجليه ويديه وسحبوا أظافره وتفننوا فى تعذيبه وهو يصر على الانكار.

وقبضوا فى تلك الفترة على عبد الغنى الرافعى وكان يتردد على شكرى باشا ويتصل به وزجوه فى السجن، وضربوه ضربا مبرحا ثم عثروا على أمتعته فى فندق من فنادق دمشق (عدن بالاس) فوجدوا مشروع منشور أعده بالاتفاق مع شكرى باشا بالدعوة إلى اضرام نار ثورة عربية طلبا للانتقام من جمال باشا.

واتسع نطاق التحقيق فقبض على الشيخ صالح الرافعى، وفارس الخورى نائب دمشق يومئذ، وعمر الرافعى والشيخ عبد القادر كيوان وسعدى الملا سكرتير شكرى باشا، ورشيد الرافعى وعبدالحميد باشا القلطقجى، وصدر الأمر باستدعاء الدكتور أحمد قدرى من معان فجئ به على الأثر.

ولما هددوا شكرى القوتلى بالضرب اعترف اعترافا مؤولا على أنه مالبث أن حاول الانتحار فقطع إحدى شرايين يده اليسرى بموسى بعد ماوضع كتابا تحت وسادته كتب فيه أنه ينتحر تخلصا من المسؤولية الوجدانية لاتهام أبرياء خوفا من القتل والتعذيب وقد تداركه الأطباء وأنقذوه.

وحوكم المتهمون فى هذه القضية أمام ديوان حرب دمشق، وكان مؤلفا برئاسة القائمقام فخر الدين بك وعضوية مصطفى بك وهو بكباشى فى المشاة ومن أهالى طرابلس الغرب وضابط تركى آخر اسمه واثق بك برتبة أميرالاى فى الفرسان وبعد أخذ ورد امتد أشهرا أصدر الديوان قرار ببراءتهم جميعا.

وحمل الرئيس هذا القرار إلى جمال باشا فألقاه فى وجهه وقال له: إذهب فأنا أريد عقوبة لا براءة. فعاد إلى زملائه وأبلغهم ما وقع فتمثل الضابط المغربى العربى يقول المتنبى:

يقضى على المرء فى أيام محنته * * * حتى يرى حسنا ماليس بالحسن

وجرت المحاكمة مجددا فحكم بالإعدام على كل من شكرى باشا الأيوبى وعبد الغنى الرافعى وعمر الرافعى وباعتقال الشيخ عبد القادر كيوان فى إحدى القلاع لمدة أربع سنوات وتبرئة الباقين، ولما كانت التعليمات الجديدة التى أصدرتها القيادة العليا فى تلك الأيام تقضى بعدم جواز إعدام المحكومين السياسيين قبل إرسال قضاياهم إلى الآستانة وفحصها وتدقيقها، وقد لجأوا إلى هذه التدابير على أثر فظائع جمال باشا فضيقوا بذلك نطاق سلطته الواسعة. أرسل أعلام الحكم إلى ديوان التمييز العسكرى المؤلف برئاسة فؤاد باشا فعاد منقوضا، وقد كتب عليه أنه لا وجه لإقامة الدعوى على المتهمين لأن الجرم المنسوب إليهم لم يخرج إلى حيز التنفيذ، وحفظ جمال باشا النقض فى ديوانه ولم يبلغه إلى الديوان العرفى لتنفيذه، ولما قرب زمن مغادرته لسورية (خريف سنة ١٩١٧) دعا فخرى بك وأبلغه القرار، واشترط عليه أن يظل شكرى باشا وكيوان وعبد الغنى وعمر الرافعى فى الاعتقال إدارة. فتم له ما أراد وأطلق سراح الآخرين ولم يفرج عن عمر وعبد الغنى الرافعى والشيخ كيوان إلا عشية دخول الجيش العربى إلى دمشق فقد جاء شكرى باشا الأيوبى بنفسه بعد ظهر الاثنين ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٨ وكان قد أفرج عنه قبل ذلك ببضعة أشهر - وفتح باب السجن وأسطلق سراح المسجونين باسم ملك العرب ، وكان قد تسلم المدينة قبل ذلك بساعات من الترك الذين جلوا نهائيا عنها ظهر ذلك اليوم.

ومما يستحق الذكر أن جمال باشا استدعى شكرى باشا الأيوبى إلى مقره، وذلك بعد اعتقاله ببضعة أشهر، وطلب إليه بعد مقدمة طويلة أن يسافر إلى الحجاز ويقابل الحسين ويتوسط للصلح وحقن الدماء على أن تنظر الدولة فى مطالبه بعد الحرب وتنصفه، فقال له أنه لايسافر إلا إذا حمل شروطا صريحة. فأجابه جمال باشا أن مثلنا الآن كمثل سكان منزل يحترق بالنار. فبدلا من أن يبادروا إلى إطفائه يشتغلون باقتسام الغرف فيذهب المنزل طعمة للنيران بتهاونهم، وانتهى هذا السعى بالاخفاق لأن الباشا أبى التوسط، وكذلك عرض عليه مثل هذا الاقتراح من جانب جمال باشا الصغير على أثر توليته القيادة العامة فاعتذر أيضا.

وكانت هذه القضية خاتمة القضايا الكبرى الثلاث، التى شغل أمرها سورية والعالم العربى.

جمال باشا يشهد نتائج أعماله

ونرى من الواجب علينا ونحن نختم هذا الفصل أن نشير إلى أن أحمد جمال باشا لم يغادر سورية إلا بعد أن شاهد ماكان لعمله الفظيع من نتائج سيئة عجلت فى القضاء على الدولة وإخراجها من بلاد العرب، وقد اعترف بذلك ضمنا فى مذكراته، كما اعترف بأنه لولا اتفاق الإنجليز مع الحسين لما عبروا القناة إلى الضفة الثانية ولما تقدموا فى فلسطين وسورية لمحاربة الترك الذين أضطروا كما قال جمال باشا لأن يشطروا قواهم إلى شطرين: شطر كان يحارب الإنجليز وشطر كان يحارب العرب. مما عجمل فى انكسارهم وأدى إلى انتصار العرب والإنجليز. وها نحن ننقل ماكتبه بقلمه فى مذكراته تعريب على أحمد شكرى ص٢٨٩:

«وكان جل همى فى ذلك الوقت (فبراير سنة ١٩١٦) أن أعمل لحمل الشريف على إرسال كتيبة إلى فلسطين بقيادة أحد أبنائه. ولتحقيق هذه الغاية كاشفت الشريف فيصل وفاوضته مليا، وتبادلنا مع الشريف حسين سلسلة رسائل وافية، وفى النهاية أصبحت يوم ٢ يونيو سنة ١٩١٦ أمام ثورة الشريف حسين فكانت ضربة قاضية على حملة القناة.»

«وقد أخذت أفكر فى أمر الإنجليز. فرأيت أنهم لو أرادوا مهاجمة فلسطين براً لتعين عليهم إنشاء خط مواصلات بين القناة وفلسطين كما فعلنا، وربط هذين القطرين بسكة حديد، ولم تجرؤ كتيبة إنجليزية فى عام كامل على أن تطأ ضفة القناة الشرقية ١٩١٥ - ١٩١٦»

«وأول ما اكتشفناه من أعمال الإنجليز الدفاعية كان فى أواخر شهر يناير سنة ١٩١٦ فقد أنشأوا استحكامات عند رؤوس الجسور فى ضفة القناة الشرقية تجاه القنطرة والإسماعيلية ويوافق تاريخ إنشاء هذه الاستحكامات تاريخ آخر خطاب أرسله الحسين إلى الإنجليز، وأكد لهم فيه خروجه علينا، ومن هذا يتبين أنهم لم يقرروا العبور إلى الشاطئ الشرقى، أو بعبارة أخرى لم يبدأوا بالهجوم على فلسطين إلا بعد أن استوثقوا من الشريف، وتأكدوا أن ثورته ستضطرنا إلى اتخاذ تدابير خاصة لحماية الحجاز. بل إلى أن نسحب من فلسطين بعض قواتها. وفضلا عن ذلك فقد كانوا واثقين أن البدو الذين أغروهم بالأموال الطائلة المرسلة بواسطة الشريف سيثورون ضدنا، وأن ثورتهم ستضعفنا كثيرا».

وقال فى مكان آخر «والتضحيات الهائلة التى اقتضاها تموين حامية المدينة، وإمداد

فريق من شهداء العرب



أمين لطفى



سليم الجزايرى



الأمير عارف الشهابى



عبد القادر الخرسا



نايف تللو



محمد المحمصانى

الجنود المرابطة بين المدينة ومعان بالمؤونة والذخيرة حتمت علينا أن نشطر المؤن المخصصة لفلسطين إلى شطرين، وحالت دون تعزيزنا لهذه الساحة بالقوى اللازمة متى شئنا وكيفما أردنا».

ووصف فى مكان آخر إخلاص العرب للدولة وماأبدوه من ضروب الشجاعة والإخلاص فى خلال حملة القناة الأولى (يناير وفبراير سنة ١٩١٥) أى قبل أن يضرب ضربته الكبرى ويفتك برجال العرب فقال (ص ٢٦٣):

«ويعجز اللسان عن أن يوفى القوات العثمانية ـ لا فرق بين ضباطها وجنودها اللذين اشتركوا فى حملة القناة الأولى حقهم من الثناء على مابذلوه من المجهودات، وأظهروه من ضروب الوطنية العالية. وأرى من واجبى إظهار إعجابى بأولئك الجنود البواسل الذين قاموا بذلك الزحف، غير مبالين بما لاقوه من ضروب الضنك وتحملوه من المشاق فى سحب المدافع. فضلا عن الجسور المتحركة وسط بحر الرمال . وقد ساد بين رجال الحملة ـ لا فرق بين الترك والعرب ـ شعور العطف الأخوى، ولم يكن بينهم من يضن بحياته دفاعا عن إخوانه. والواقع أن الحملة الأولى على القناة كانت برهانا ساطعا على أن أكثرية العرب الساحقة انضمت إلى الخلافة بقلوبها وجوارحها».

«أما العرب الذين تألفت منهم الفرقة الخامسة والعشرون فقد أدوا واجبهم (فرقة دمشق) بمنتهى الشجاعة والإخلاص. فلذلك لا يمكننى مطلقا تخفيف الحقد والسخط اللذين أشعر بهما نحو الشريف لبذره بذور الخلاف فى تلك الكتلة التى توحد شعورها».

وقال فى مكان آخر ص ٢٨٠: «وقد أدت فرق التموين واجبها بدقة تامة، ووصلت فى مواعيدها المضروبة. ومسألة المسائل التى تعتبر على جانب عظيم من الأهمية هى أنه لم تحدث خيانة واحدة، أو فرار واحد بين عرب سورية وفلسطين، الذين تكونت منهم وحدهم فرق التموين».

هذا بعض ماكتبه فى صدد الأعمال العسكرية، وهو يؤيد ما ذهبنا إليه فى فاتحة هذا الفصل، وهو أن العرب أخلصوا للدولة فى بدء الحرب، وتقدموا للدفاع عنها بكل قواهم وبذلوا الغالى والرخيص فى سبيلها فلما جازاهم جمال باشا بالشنق والقتل والنفى والتغريب والتعذيب ومصادرة الأموال وهتك الأعراض، انقلبوا عليه فكانت النتيجة التى وصفها بقلمه أبلغ وصف. وقد كان عليه أن يرجع باللائمة على نفسه بدلا من أن يحمل التبعة غيره. فلولا تصرفاته لما ثار العرب على الدولة، ولما شهروا السلاح فى وجهها.

وثمة جريمة أخلاقية أخرى ارتكبها جمال باشا، فقد وصم جميع الذين شنقهم ونفاهم أو حكم عليهم بالإعدام غيابيا، بتهمة الخيانة للدولة والتآمر عليها، ولئن صحت هذه التهمة بالنسبة لنخلة مطران ويوسف الهانى وبيتر باولى وقد كانوا يمهدون لاستيلاء فرنسا على سورية ولأبناء الخازن ولشفيق المؤيد من بعض وجوه وللأمير عمر الجزائرى - ولهذا بعض العذر باعتباره من رعايا فرنسا - فإنها لا تصلح بالنسبة للشهداء الآخرين الذين لم يقترفوا ذنبا، ولم يرتكبوا خيانة يستحقون أن يحاكموا عليها فضلا عن إعدامهم[1] لولا الرغبة فى التخلص منهم والقضاء على الحركة العربية فى أشخاصهم.

وهذا نص الوثيقة الخاصة بيوسف الهانى وهى التى عثروا عليها فى دار قنصلية فرنسا ببيروت:

إلى جناب المسيو كوجيت قنل فرنسا العام فى سورية:

سيدى القنصل العام:

نظرا لأن فرنسا هى الحامية الطبيعية للمسيحيين العثمانيين والوطن الثانى لمسيحى سورية نتشرف نحن الموقعين على هذه العريضة الأعضاء المسيحيين باللجنة التنفيذية فى الجمعية العمومية المنتخبة بواسطة مجالس النقابات بولاية بيروت لوضع مشروع إصلاح لتلك الولاية بأن نعرض على أنظار قنصل فرنسا العام فى سوريا الملاحظات الآتية:

١ - موقف المسيحيين العثمانيين

٢ - الإصلاحات التى اقترحتها اللجنة التنفيذية

٣ - أمانى وآمال المسيحيين السوريين

ولنا وطيد الأمل فى أن يعرض جناب القنصل العام هذه الملاحظات على حكومة جمهورية فرنسا، ويؤيدها بكل نفوذه

١ - موقف المسيحيين العثمانيين

لقد كانت حالة المسيحيين فى الإمبراطورية العثمانية سيئة بل محزنة، ولربما تزداد الحالة سوءا عقب الحرب البلقانية والهزائم التركية لأن النتائج المباشرة لتلك الهزائم هى:

---

١ - يقول الأمير شيب أرسلان فى مقالات نشرها فى مجلة المنار سنة ١٩٢٢ دفاعا عن سياسته فى العهد التركى أن جمال باشا لما صمم على شنق المعتقلين استدعى شكرى بك رئيس ديوان الحرب العرفى إلى دمشق وسلمه أسماء ٤٠ شخصا يجب الحكم عليهم بالإعدام فراوده شكرى بك كثيراً وداقع كثيراً فهدده بالقتل كما قال. ولما قال له إن وجدانه لايرتاح إلي الحكم بالموت إلا على ثلاثة وبالأكثر على خمسة استحضر أعضاء الديوان وهم ضباط شبان لايخرجون على إرادته وكانت النتيجة الحكم على ٢١ فقط..

١ ـ زيادة الضرائب

٢ ـ بعث روح التعصب الدينى بين المسلمين

٣ ـ حمل مسيحيى سورية من جديد على الهجرة

أما من حيث زيادة الضرائب فإن الحكومة التركية على أثر ضياع ممتلكاتها فى أوربا ستسعى ـ بل هى ساعية الآن فعلا ـ إلى نقل العبء الذى كان على كاهل الولايات الأوربية إلى الولايات الأسيوية، والعارفون بحيل الإدارة التركية ووسائل إرهاقها فى فرض الضرائب يعلمون جيد العلم أن الأعباء الجديدة لن تقع إلا على كواهل الأهالى المسيحيين وحدهم

وأما من حيث التعصب الإسلامى فإنه كان أقوى وأنفع سلاح فى أيدى الساسة العثمانيين، وهم لم يحجموا عن استعماله فى الحوادث الأخيرة فى البلقان، فقد كان المسلمون يعتبرون الحرب البلقانية حربا دينية بين الهلال والصليب تألبت فيها الدول المسيحية على الإسلام.

وعلى ذلك ليس أيسر على المسلمين من أن يظنوا أن وجود المسيحيين فى الدولة العثمانية هو السبب الرئيسى فى هزيتمهم وتضعضعهم، والمسيحيون العثمانيون هم فى نظر المسلمين أصل الشر وسبب البلايا التى نزلت بالدولة. فهم أعداؤها الطبيعيون، إذن فمن المحتم أن يصيروا فى المستقبل موضع الإهانة والاضطهاد، ونحن بالطبع لا نقصد ذلك الاضطهاد الظاهر الملموس الذى قد يترتب عليه تدخل دولة من الدول ـ كلا إذ التركى من أشد الناس مكرا وأحرصهم على ذلك ـ بل نقصد ذلك الاضطهاد البطئ الخفى الذى تفوقت فيه السلسطات العثمانية اعتمادا على مافى القوانين التركية من مرونة

وأما من حيث هجرة مسيحيى سورية فينبغى أن لايغرب عن البال أن عددا عظيما من المسلمين هاجر منذ الحرب البلقانية من مقدونية وتراقية إلى سورية، ولا تزال حركة الهجرة آخذة بالازدياد تؤيدها السلطات التركية، ومعنى هذا ـ وبالسوء الحظ ـ أن التوازن العددى بين مسلمى سورية ومسيحييها قد اختل ومال لغير مصلحة هؤلاء . ومن المنتظر أن تزداد أنانية المسلمين وأثرتهم ـ وهم مستبدون فعلا بمقتضى أوامر دينهم ـ بعد مايتضاعف عددهم ولقد ثارت ثائرة مسيحيى سورية لهذا، حتى أن كثيرا منهم نزح إلى أمريكا، فيمكن القول إذن أن الحالة الحاضرة تساعد على الهجرة المزدوجة: هجرة المسلمين إلى سورية وهجرة مسيحيى سورية إلى أميركا. فإذا استمرت الهجرة ولو إلى

أمد قصير فنتيجتها إبادة العنصر المسيحى فى سورية.

ولما ألقى الرئيس بوانكاره، ذلك السياسى المسموع خطابه الأخير مطالبا تركيا بإدخال الإصلاحات فى ولاياتها الآسيوية، نزلت الحكومة التركية على مقترحه، وكلفت الولاة وضع مشروعات الإصلاح فى ولاياتهم، ولما كان المسيحيون العثمانيون يعرفون بسبب التجارب الماضية مايتوقعونه من وراء تلك النيات الخالصة من الحكومة، يقولون أن الغرض الوحيد من وضع تلك المشروعات هو منع أوربا من الإلحاح فى طلب إدخال إصلاحات معينة فى تركيا. فالحكومة التركية تريد أن تتخذ تلك المشروعات - التى وإن كانت فى الظاهر من وضع الأهالى فهى فى الواقع من وضع الحكومة - وسيلة لرفض الإصلاحات التى تطلبها أوربا بإدعائها أنها لا تتفق وروح المشروعات التى وضعها الطرفان المختصان.

ولقد أعرب مسيحيو بيروت - على الرغم من كل ذلك - عن رغبتهم فى العمل بالاتفاق مع المسلمين لتنفيذ تلك الاصلاحات للسببين الآتيين:

١ - احباط نيات الحكومة التركية ومنعها من الاستئثار بوضع المشروع بالطريقة التى تريدها.

٢ - ليتضمن المشروع مبدأ المراقبة الإدارية فى كل فرع من فروع الإدارة.

فلو قبل هذا المبدأ جميع أعضاء اللجنة لا فرق بين مسلميهم ومسيحييهم لقام الدليل بصفة قاطعة على أن السكان بأسرهم يرون أن الاصلاح فى تركيا من الأمور المستحيلة، مالم يمكن بمساعدة أوربا.

ولو فرضنا أن من المستطاع الوصول إلى الإصلاحات بدون مساعدة أوربا فما كان هذا بمطفئ غلة مسيحيى سورية. ذلك لأنهم متحدون مع فرنسا اتحادا لا انفصام له، وأنهم لن ينسوا مطلقا فرصة إعجابهم بها، وبخبرتها العالية، ولا ماهم مدينون لها به من المساعدة فى أوقات الشدة.

فاقصى مايبتغيه مسيحيو سورية هو أن تحتل فرنسا القطر السورى، ولهذه الأسباب يعرض الموقعون أسماءهم من أعضاء اللجنة التنفيذية بالنيابة عن مسيحيى بيروت بحسب مراتبهم الاقتراحات التالية التى يعتقدون أنها الوحيدة الكفيلة بإصلاح الحالة السياسية الحاضرة فى سورية: -

١ - احتلال فرنسا لسورية

٢ ـ استقلال ولاية بيروت استقلالا تاما تحت حماية فرنسا ووصايتها

٣ ـ إدماج ولاية بيروت فى لبنان، الذى يكون تحت سيادة فرنسا الفعلية

ميشيل تويني، يوسف الهاني، بترو طراد، الدكتور أيوب ثابت، رزق الله أرقش، خليل زينيه

وقد رفع القنصل العام هذا الكتات بتقرير إلى وزارة الخارجية قال فيه:

جناب المسيو بيشون:

سلم إلىّ بترو[1] محرر جريدة الإصلاح العربية، بالنيابة عن الموقعين صورة عريضة أتشرف بإرسالها إليك طىّ هذا الكتاب نظرا لأهمتها السياسية، مع العلم أنها وضعت بعد موافقة زعماء اللجنة التى تعمل سرا لتنفيذ الإصلاحات فى سورية، كما أخبرتكم بذلك مرارا، وقد وقعها أكبر أولئك السادة نفوذا فالمحامى مسيو بترو طراد ومترجم القنصلية مسيو توينى من الروم الأرثوذكس، والمسيو هانى من الموارنة والدكتور ثابت من البروتستانت، وقد أظهروا فى خطابهم المرسل إلىّ بالنيابة عن الطوائف الدينية التى يمثلونها اهتماما شديد بتحقيق أمانى المسيحيين، كما أكدوا شدة تعلقهم بفرنسا.

«إن هذه الوثيقة الجديدة هى بمثابة دليل آخر على مايشعر به مسيحيو تلك اللجنة، وهى تبرهن من جهة أخرى على الأثر العظيم التى أحدثته الوعود الفرنسوية والآمال الكبيرة التى أثارتها فى نفوس تلك الطوائفّ

والخلاصة أنه لو اكتفى جمال باشا بمعاقبة أمثال هؤلاء الذين كانوا يعملون للأجانب لما وجد اعتراضا من الأكثرين ولالتف الناس حوله وأيدوه.

ولا ريب أن العرب معذورون بانفضاضهم من حوله وفى قتاله بعد ما أصلت سيف النقمة وفتك بكبرائهم وعظمائهم ومفكريهم ظلما وبغيا غير مراع فيهم إلا ولا ذمة وعاملا عل التنكيل والتعذيب بدون شفقة ولا رحمة.

---

١ ـ هو بترو باولى أحد الذين شنقوا فى بيروت يوم ٦ مايو سنة ١٩١٦ وجريدة الإصلاح هى جريدة الشيخ أحمد طبارة أحد الذين أعدموا فى ذلك اليوم أيضاً، وقد خلت محل الاتحاد العثمانى.

ـ ٥ ـ

المفاوضات بين الحسين والاتحاديين

الحسين يطلب إمارة الحجاز لأبنائه والنظام اللامركزى لسورية

ريع العالم العربى وجزع لما نزل بعرب الشام، وكان لبعض رجالهم من الذين أفلتوا من قبضة الظلم والإرهاق، فلجأوا إلى العراق ومصر والحجاز، يد كبيرة فى إثارة الرأى العام العربى على الترك وتنفيره منهم، وفى إعداده للثورة طلبا للانتقام والثأر، كما بكى شعراؤهم وكتابهم فى مصر والحجاز والعراق وأميركا الشهداء مستنزلين سخط العالم المتمدن على الطغاة، ومنادين بوجوب انقاذ العرب من يد الظلمة ومحاسبتهم حسابا غير يسير.

ومن تحصيل الحاصل القول أن تصرفات جمال باشا ومظالمه عجلت فى إضرام الثورة قبل أن تعد معداتها، وقبل الانتهاء من تهيئتها، بل وقبل أن يأتى أوانها. مما أثر فى تطورها وحال بين العرب وبين اجتناء الثمرات التى كانوا يرجون اجتناءها فى ختامها، كما كانت سببا فى تنفير الرأى العام المتمدن من الاتحاديين، واحتقاره لحكومتهم.

ولا نرى بدا قبل التبسط فى هذا البحث من درس العلاقات التى كانت قائمة بين شريف مكة والاتحاديين قبل الحرب. وقد أشرنا إليها لماما فى الفصل الماضى، ثم نتكلم عن زيارة الأمير فيصل الأخيرة للاستانة وما دار بينه وبين رجال الدولة من مفاوضات، وعودته إلى دمشق، واتصاله برجال الأحزاب العربية، والمباحثات التى دارت بينه وبينهم، والخطط التى وضعوها، معتمدين فى إيراد ذلك كله على المصادر الموثوقة، وعلى أقوال رجال مشهود لهم بالصدق والأمانة ملتزمين جانب الحياد والنزاهة فى كل ما نكتب وندون، وهو ما يجب أن يكون شعار كل مؤلف فنقول:

منصب شرافة مكة من المناصب الكبيرة فى الدولة العثمانية. ويأتى صاحبه بعد الصدر الأعظم وخديوى مصر. ويتصل بمقام الصدارة مباشرة، وهو المرجع الأكبر فى الحجاز للعربان، وصاحب الكلمة العليا فى تصريف أمور باديته.

وانحصر هذا المنصب فى أواخر العهد العثمانى فى الإشراف من آل أبى نمى انتقل إليهم من ذوى زيد عل يد المرحوم محمد على باشا إبان الحملة المصرية إلى الحجاز سنة ١٨١٢ وظل فيهم يتوراثونه حتى إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ وكان يتبوؤه الشريف

على باشا ابن عبد الله بن محمد عبد المعين، فاستقال خوفا من فتك الاتحاديين سادة العهد الجديد، وغادر الحجاز على عجل فهبط مصر واتخذ القاهرة دار مقام له، فعينت الحكومة العثمانية الشريف عبد الإله باشا خلفا له فمات بعد تعيينه بيومين فاتجهت الأنظار إلى الشريف حسين باشا بن على ابن محمد عبد المعين فعين لهذا المنصب الخطير. فغادر الأستانة قاصدا مكة مع أنجاله، وكان يقيم فيها بأمر السلطان عبد الحميد نفسه فقد استقدمه سنة ١٨٩٨ على أثر خلاف حدث بينه وبين عمه الشريف عون الرفيق باشا أمير مكة يومئذ، وقد شكا هذا منه فاقطعه قصرا فى أسينية، وعينه عضوا فى مجلس شورى الدولة.

قدم الشريف الجديد مكة وللاتحاديين فى دوائر الدولة نفوذ ومقام، سرى إلى المتصلين بهم والمنتسبين إليهم فى الولايات والأقاليم، فبدأ عمله فوضع حدا لتداخل اتحاديى مكة وأنصارهم فى شؤون الحكومة وضرب على أيديهم، فشكوا منه وضجوا من أعماله وتصرفاته ورموه بحب الاستبداد والسيطرة وشنوا عليه غارة فى الصحف، فلم يأبه لذلك

ولم يحمله على تعديل خططه وأساليبه، فرأى المركز العام لجمعية الاتحاد والترقى، وقد أوجس شرا من صلابة الشريف وشدة شكيمته أن يهاجمه بواسطة أمير الحج الشامى، وهو يومئذ عبد الرحمن بك اليوسف فأعلن هذا سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩) أن طريق دمشق - المدينة المنورة غير مضمونة وأنه يخشى اعتداء العربان، ولذلك يقترح أن يرجع المحمل الشامى بطريق البحر فيركب السفن من جدة إلى سواحل الشام، وعارض الشريف فى تنفيذ هذا المقترح لأن معناه عجزه عن حماية الأمن وتوطيده فى داخل الحجاز، وهو فى مقدمة مهامه، وفقده كل نفوذ على العربان - وهو مالا يرضاه. وانتهت هذه المشادة بأن تولى الأمير بنفسه إرسال المحمل الشامى بطريق المدينة المنورة إلى دمشق وقد عهد بقيادته والسهر عليه إلى شقيقه الشريف ناصر باشا وإلى نجله الأمير عبد الله وصهره عبد الله باشا بن محمد والشريف شاكر ابن زيد معلنا أنه يحمل كل تبعة تنشأ عن هذا التدبير، وهكذا سافر المحمل برا إلى دمشق فدخلها من دون حادث ونزل الأمراء ضيوفا على عطا باشا البكرى فى منزل خاص أعده لهم فاحتفلت بهم دمشق احتفالا كبيرا وأدبت لهم المآدب، ووصل عبد الرحمن اليوسف أمير الحج وحاشيته بطريق البحر إلى بيروت ودمشق ودعا الأمراء إلى مأدبة عشاء فاعتذروا.

وقد توطدت العلاقات بين آل الحسين وبين بنى البكرى فى دمشق على أثر هذه

الزيارة، وكان من أثرها أن سعى الحسين وبين بنى البكرى فى دمشق على أثر هذه الزيارة وكان من أثرها أن سعى الحسين فاستصدر إرادة سنية تجيز لشبان آل البكرى أن يؤدوا الخدمة العسكرية فى مكة حينما يدعون إليها، وبالفعل فقد سافر أحمد فوزى بك البكرى كبير أنجال عطا باشا إلى مكة فى صيف سنة ١٩١٤ لتادية الخدمة العسكرية - على أثر إعلان النفير العام تنفيذا للإرادة. فحل ضيفا على الحسين، وقص على مسامعه وجود جمعيات عربية قوية منظمة فى سورية تعمل لاستقلال العرب، وللحصول على حقوقهم.

فيصل فى دمشق والآستانة ووثائق وهيب باشا

وللمرة الأولى زار الأمير فيصل دمشق قادما من مكة فبلغها يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٩١٥ وحل ضيفا على آل البكرى، ولم يطل الإقامة بل سافر إلى الآستانة لمقابلة ولاة الأمور، ليطلعهم على تصرفات وهيب باشا، وعلى المكاتبات والوثائق التى عثر والده عليها.

وخلاصة أمر هذه الوثائق، أنه بينما كان الأمير على بن الحسين مسافرا إلى المدينة المنورة ومع وهيب باشا قائد الحجاز وواليه، فى شهر يناير سنة ١٩١٥ ووجهتهما قناة السويس للاشتراك فى حملة جمال باشا، فيقود الأمير متطوعى العربان، ويقود وهيب الجند العثمانى المرابط فى الحجاز، وقد صدر له الأمر بالاشتراك فى الأعمال العسكرية فى صحراء التيه سقطت - قضاء - محفظة الأوراق السرية الخاصة بهذا من السيد محمد نائب

الحرم وهو حجازى اشتهر بممالأة الاتحاديين وتأييدهم حتى نال ثقتهم المطلقة، وكان قد ائتمنه عليها لثقته به، فلم ينتبه إلى سقوطها، فعثر عليها أحد رجال الأمير على وجاء بها إليه ففضها واطلع على مافيها من مكاتبات سرية كانت تدور بين حكومة الاستانة والوالى للفتك بالشريف وأولاده والقضاء على استقلال الحجاز «النوعى» وعلى ماكان يدبر هنالك من خطط وتدابير لم يحل دون تنفيذها سوى إعلان الحرب العظمى واشتغال الدولة بها عن كل ماعداها.

وتوقف الأمير على عن متابعة السفر بعد عثوره على هذه الوثائق الخطيرة واعتذر وبقى فى المدينة ثم عاد بها إلى مكة فسلمها إلى والده فقرأها، وبعد انعام النظر فيها قرر انتداب نجله الثالث الأمير فيصل، وكان معروفا بالميل إلى الترك والحرص على استبقاء

مودتهم، للسفر إلى الآستانة ومقابلة ولاة الأمور والسعى لإيجاد طريقة للاتفاق والتفاهم فغادر مكة إلى دمشق فبلغها فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٥ ولم يقم فيها طويلا بل قصد دار الخلافة.

وزار الأمير على أثر بلوغه العاصمة الصدر الأعظم، وأطلعه على الوثائق والكتب التى وجدوها، وشكا من تصرف الاتحاديين، وقال إنهم يعملون للتنكيل بنا، ودس الدسائس ضدنا مما أفقدنا الثقة بهم، وقابل طلعت وأنور وحدثهما بما حدث به الصدر فطيبوا خاطره وأصدروا أمرا بنقل وهيب باشا من الحجاز إرضاء له ولوالده، وعينوا الجنرال غالب باشا مكانه وهو رجل طيب القلب، مشهور بالمسالمة، وسلموه تعليمات تقضى عليه بأن يتقرب من الشريف، وينشئ معه علاقات طيبة ويعمل للتفاهم والوفاق.

ويقول على فؤاد باشا رئيس أركان حرب الجيش الرابع فى مذكراته «إن الأمير فيصلا أبلغ أقطاب الحكومة الاتحادية أنه على استعداد لأن يذهب على رأس قوة حجازية للاشتراك فى حملة القناة الثانية [1] وإنه حادث أنور باشا بشأن رجال العرب المعتقلين فى عالية (رجال الرعيل الثانى الذى أعدم يوم ٦ مايو سنة ١٩١٦) طالبا إطلاق سراحهم والعفو عنهم، فوعده خيرا، كما حمل على سياسة جمال باشا حملة شديدة، ووصفها بأنها سياسة عداء للعرب، وإنه ليس فى إمكان العرب السكوت عنها كما سلم إلى سعيد حليم باشا الصدر الأعظم، باعتباره صديق بيتهم، ويمت إلى أسرة كبيرة مستعربة، مذكرة بسط فيها مطالب العرب ورغبتهم فى الحرية والاستقلال، وقال إنهم على استعداد لتأييد الدولة إذا اعترفت باستقلال الحجاز على أساس اللامركزية، وبالشريف حسين أميرا على أن تكون الإمارة إرثا فى أولاده من بعده، وقد أطلع الصدر زملاءه الوزراء على ماوقع».

ولم يطل الإقامة فى الاستانة بعد مافاز بعزل وهيب باشا بل غادرها إلى دمشق فى شهر فى شهر نوفمبر ليكون على مقربة من جمال باشا وليقود متطوعة الحجاز، وفعلا أبرق أنور باشا إلى جمال باشا يدعوه إلى الحفاوة الزائدة به، وأن يتخذه كمستشار له يساعده على تهدئة الحالة فى البلاد العربية، وأن يحل أراءه فى المكان اللائق بها. كما أبرق إليه طلعت باشا وزير الداخلية بما كان من شكايته منه ومن حملته على سياسته وطالب إليه أن يستميله ويتودد إليه. وقد كان من أثر هذه التوصيات أن ذهب جمال باشا بنفسه إلى

---

١ ـ الأولى هى التى هاجمت القناة يوم ٢ فبراير سنة ١٩١٥ كما جاء فى الصفحة ٦٠ وكان الترك فى تلك الأيام يعلنون أنهم يعدون حملة غيرها لاحتلال مصر.

المحطة لملاقاته حين وصوله إلى دمشق، وأعد له حفلة استقبال فخمة للغاية فى مقر القيادة حضرها أمراء الجيش وكبار القوم، وأدب له فى المساء مأدبة عشاء فخمة أيضا متوددا إليه ومظهرا له كل حفاوة وإكرام.

وحل فيصل ضيفا فى دار آل البكرى. ثم لم يلبث أن غادر دمشق إلى القدس مع جمال باشا، وحل ضيفا فى مقر قيادة الجيش، ثم زار ميدان الحرب فى سيناء، وخطب فى المأدبة التى أدبت لتكريمه، واشترك فيها الضباط والقادة خطبة مطولة. ومما قاله: «يجب على الأمة العربية أن تشترك فى الجهاد، وأنا ذاهب إلى الحجاز لأعود على رأس جيش كبير من المتطوعة فيشترك فى الحملة الثانية» ثم عاد إلى دمشق ومنها قصد الحجاز. وقد تم الاتفاق بينه وبين جمال باشا على أن يأتى بألف وخمسمائة متطوع.

فيصل والجمعيات العربية

وللمرة الأولى اتصل فيصل برجال الجمعيات العربية السرية، ولا سيما رجال جمعيتى الفتاة والعهد فاجتمع بهم سرا فى منزل آل البكرى فكانوا يترددون عليه بين الساعة ١١ والواحدة بعد منتصف الليل أى أنهم كانوا يزورونه تحت ستار الظلام خوف الرقباء.

ولقد تكلمنا فى الفصل الثانى عن هذه الجمعية وعن طريقة إنشائها، وقلنا إنها كانت تضم نخبة ممتازة من رجال العرب العاملين، وإنها نقلت مقرها بعد إعلان الحرب العظمى من بيروت إلى دمشق، فكان رجالها يجتمعون سرا فى تلك الأيام لبحث الحالة والنظر فيما يجب عمله، وخصوصا بعد ماظهرت نيات الترك جلية ووضح أنهم يترقبون دوائر السوء برجال العرب ويكيدون لهم كيدا

وكانت الآراء فى دمشق مضطربة غير مستقرة على حال من الأحوال، وفيها نزعة إلى الاستمرار على معاونة الدولة لانقاذ البلاد من الفتح الأوربى، وما يؤدى إليه من الحماية أو الاستعمار، وذلك قبل استفحال المظالم ونصب المشانق، فقد عقد فى شهر مارس سنة ١٩١٥ اجتماع سرى فى منزل شكرى باشا الأيوبى اشترك فيه الدكتور عبد الرحمن شهبندر وخالد الحكيم وسليم الشمعة والشيخ تاج الدين الحسنى وعبد الكريم الخليل وغيرهم فبحثوا الموقف من جميع وجوهه وأخيرا أجمعت الكلمة على وجوب مساعدة الدولة فى حربها، وعلى تأليف عصابات من أهل البلاد للدفاع عنها يوم يضطر الترك إلى الانسحاب، وهذا كله جرى قبل أن يكشر الاتحاديون عن أنيابهم ويظهروا أمام العرب من

غير قناع يستر سوآتهم. ونرى من الجهة الأخرى أن جمعية الفتاة عقدت أيضا اجتماعا في دمر برئاسة رضا باشا الركابي قررت فيه انتداب الشيخ كامل القصاب للسفر إلى مصر والاتصال برجال الحركة العربية والاتفاق على خطة معينة فسافر بحرا وذلك في شهر أكتوبر سنة ١٩١٤ أي قبل دخول الدولة الحرب، فاتصل بهم وعاد من دون أن يعمل شيئًا معينا، فانزلته الباخرة في أضاليا بالأناضول، فجاء إلى دمشق، واتصل أمره بالسلطة العسكرية فاعتقلته وأرسلته إلى عالية وحققت معه كثيرا ثم أطلقت سراحه ـ بعد سجنه مدة من الزمن ـ ولم يقفوا منه على شيء.

وصل فيصل إلى دمشق من الأستانة في طريقه إلى مكة، وكان رجال العرب يبحثون عن وسيلة تساعدهم على الخروج من المأزق الذي صاروا إليه، فقد عاجلتهم الحرب قبل أن يستعدوا لها، وتخفف من ضغط جمال باشا وشدته، وكان قد فتك برجال الرعيل الأول وبدأ بالقبض على رجال الرعيل الثاني والتحقيق معهم فحل في دار آل البكري، واتصل برجال الجمعيات وخلا إليهم، وخلوا إليه ودرس معهم التدابير التي اتخاذها.

وكان في مقدمة الذين اتصلوا به في هذا الدور الدكتور أحمد قدري معتمد جمعية العربية الفتاة في دمشق وأحد مؤسسيها، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر ومحمد الشريقي وياسين الهاشمي (رئيس أركان حرب الفيلق الثاني عشر يومئذ) وعلى رضا الركابي وغيرهم، وقد سر بما سمعه من أقوال وتصريحات، وبما لمسه من حماسة وغيرة، فقد أفهموه أنهم مستعدون للعمل، ولا ضرام ثورة عربية في سورية لتحرير البلاد العربية الخاضعة لتركيا، لأنهم وثقوا أنها ستكون معرضة لاحتلال أجنبي لما شاهدوه من تصرفات الترك، ولما كان يصلهم من أخبار الحرب في أوربا، وقالوا إنهم لا يطلبون منه ألا أن يكون قائدا لهذه الثورة وزعيما

وزاره في إحدى الليالي ياسين الهاشمي وقضى معه زمنا غير قصير فسأله عما يطلبونه من الحجاز وعن نوع المساعدة التي يقترحونها.

فأجابه ياسين بقوله لا نطلب شيئا ولا نحتاج إلى شيئ فعندنا كل شيئ وما عليك إلا أن تقودنا تسير في الطليعة.

ـ إننا متفقون مع رؤساء القبائل الحجازية، وهم مخلصون لنا ومستعدون للعمل معنا

ـ لا حاجة لنا بهم فعندنا كل شيئ.

وقد سر كثيرا بما سمع واقتنع إن في سورية حياة وإن في العرب رجالا ومنح جمعية

الفتاة على الأثر ألف ليرة عثمانية ذهبا لإنفاقها فى أعمالها. والواقع إن رجال دمشق كانوا يعملون حتى ذاك اليوم لتكون الثورة سورية تعلن فى سورية لا فى الحجاز، ولإداراك هذه الغاية سعى رجال جمعية الفتاة فاتصلوا بزعماء القبائل وذوى المكانة وضموهم إلى صفوفهم فكان من رجال الجمعية نواف الشعلان بن نورى الشعلان شيخ قبائل الرولا من عنزة، ونسيب الأطرش من كبار شيوخ الدروز وفرحان الميدا شيخ مداين صالح وأبو سليم فرحان المغوش شيخ قبيلة قرية خلخلة فى جبل الدروز وغيرهم من ذوى النفوذ فى البلاد السورية على اختلاف الطبقات والمذاهب.

وغادر فيصل دمشق عائدا إلى مكة فى شهر ديسمبر من شهور سنة ١٩١٥ وهو ممتلئ نشاطا وحماسة وقد أثر فى نفسه ماسمعه من أقوال وما شاهده من روح قومية. كما حمله الشيخ بدر الدين الحسنى وعلى رضا باشا الركابى ختميهما الذاتيين إلى والده علامة موافقتها على إعلان الثورة، فبلغ مكة وقص على والده ما سمعه ووصف له ما شاهده، وأبلغه مااستقر عليه القرار من إضرام ثورة فى بلاد الشام لإنقاذ العرب وإنشاء المملكة العربية وسلمه الختمين المرسلين.

ولم يطل فيصل المقام فى مكة بل غادرها على الأثر إلى الطائف ووافاه إليها والده وأخواه (على وعبد الله) فعقد الأربعة مؤتمرا عائليا سريا، بعيدا عن أعين الرقباء والجواسيس وكان الترك يرقبون حركاتهم وسكناتهم ويحصون عليهم أنفاسهم فاتفقوا فيما بينهم على أن يتولوا أمر الثورة وأن يتموا الاتفاق مع الإنجليز، وكانت رسلهم تتردد على الحجاز للاتصال بالشريف، وإقناعه بالانضمام إلى صفوفهم، ويعدونه بتأييده فى سياسته الرامية إلى تحرير العرب وإنقاذهم.

وعاد الأربعة إلى مكة بعد مااتفقوا على الثورة كما قلنا، فقضى الشريف فيصل أياما يستعد للرجوع إلى دمشق ليكون على صلة برجال الثورة وليرقب حركات الترك وسكناتهم.

وفى شهر يناير (كانون الثانى) من شهور سنة ١٩١٦ وصل إلى دمشق ومعه ٥٠ فارسا من أتباعه بينهم عدد من الأشراف فنزل وإياهم فى ضيافة آل البكرى هو فى المدينة وهم فى قرية القابون (من ضواحى دمشق) وعاد إلى ماكان عليه من الاتصال برجال العرب ومفكريهم ودرس الخطط والأساليب والاستعداد للثورة. وفى شهر فبراير (شباط) من تلك السنة وصل إلى دمشق أنور باشا وكيل القائد العام فاحتفلت الحكومة بوصوله. ثم

سافر إلى الحجاز فرافقه فى رحلته جمال باشا وفيصل فبلغ المدينة المنورة وقضى فيها أياما ومع أنه أظهر رغبة فى الاجتماع بالشريف حسين، وطلب إليه أن يوافيه إليها، ويقال أن الترك كانوا يفكرون فى القبض عليه ونفيه لو أجاب دعوتهم ـ إلا أنه اعتذر عن المجئ وأرسل هدايا ثمينة إلى أنور وجمال فسلمها فيصل إليهما. ثم عاد معهما إلى دمشق. وكان ديوان حرب عالية مشغولا بمحاكمة المعتقلين من كرام العرب وأحرارهم،س فسعى عنده كثيرا لإطلاق سراحهم والعفو عنهم ولما أخفق أبلغ ذلك إلى والده.

برقية الشريف الأولى إلى أنور باشا

وفى شهر مارس أرسل الشريف إلى أنور باشا البرقية الآتية:

«إن خروج الدولة العلية منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف عل اشتراك جميع العناصر فيها ولاسيما العرب والجانب الأهم من ميادين القتال فى بلادهم، وتأييدهم لها قلبا وقالبا فى نضالها».

ويلوح لى إن إرضاء الشعب العربى يتوقف على مداواة قلبه الذى جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهم مختلفة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتى:

١ـ إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين

٢ ـ إنالة سورية ماتطلبه من نظام لا مركزى

٣ ـ جعل إمارة مكة وراثية فى أولادى، وإبقائها على حالتها الحاضرة. فإذا قبلت هذه المطالب فأتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة أبنائى فى ميادين العراق وميدان فلسطين وإذا لم تقبل فأرجوكم أن لا تنتظروا منى شيئًا سوى الابتهال للحق جل وعلا بأن يهب للدولة النصر والتوفيق».

فرد عليه أنور باشا بالرد الآتى:

«وصلت برقيتكم الهاشمية القائلة أن إحراز النصر يكون باشتراك جميع أبناء الأمة قلبا وقالبا».

«ولما كان طلب إعلان عفو عن بعض المتهمين وتطبيق نظام اللامركزية فى سورية واستبقاء إمارة مكة فى شخصكم السامى وفى أولادكم خارجا عن اختصاص سيادتكم فالاستمرار فى طلبه ليس من مصلحتكم فى شيئ».

«وإنى أبلغكم أنه لابد من أن ينال الموقوفون عقابهم كما أن حقوق سيادة ملجأ الخلافة ستظل فى الحجاز على ماكانت عليه، وكما هى فى جميع الممالك الشاهانية وأوصيكم ملحا بأن تستدعوا ولدكم عليا الموجود فى المدينة إلى مكة فورا وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بإرسالهم حتى نهاية الحرب. والأمر لمن له الأمر سيدى»

فأرسل إليه الشريف الرد الآتى:

«لقد أرسلت نجلى فيصلا إلى دمشق اعتمادا على شرف الدولة، ولست أرجو أن يعود إلىّ الآن. على أن سوق المتطوعة إلى دمشق يتوقف على وصوله إلى المدينة ورؤية هؤلاء له. وسيدعى نجلى على إلى مكة قريبا» [1].

ويقول جمال باشا فى مذكراته عن هذا الحادث ماتعريبه «ولقد استمرت محاكمة المعتقلين إلى مابعد رجوع أنور باشا إلى الاستانة وعندئذ ظهر الشريف حسين بمظهره الحقيقى فأرسل برقية رقمية إلى أنور باشا وهذا أبلغنى إياها وقد جاء فيها:

«إذا كنت ترغب فى التزامى جانب الهدوء والسكينة فيجب الاعتراف باستقلالى فى الحجاز من تبوك حتى مكة وحصر الإمارة فى أبنائى والعدول عن محاكمة أحرار العرب وإعلان عفو عام فى سورية والعراق»

«وعلى أثر وصول هذه البرقية أرسلت فى طلب فيصل، واستحضرت على فؤاد باشا ليكون شاهدا على محادثتنا وقلت له «لما سمعت حين رجوعى من المدينة بأن أخاك عليا يتدخل فى شؤون الحكومة، ويدعى لنفسه حقوقا ليست له أبلغت المحافظ أن يطلب إليه الكف عن هذه الأعمال، لاعتقادى أنه لم يقدم عليها إلا لحداثة سنه وقلة تجاربه، وأبلغت والدك أن يكفه، وقلت لك فى محادثاتنا أننى أبذل مافى وسعى للمحافظة على منصب والدك وقد أبلغته ذلك شخصيا. كما أخبرك وكتب إلىّ معربا عن عظيم شكره وامتنانه. ولا أظنك

---

١ ـ أملى سمو الأمير عبد الله على المؤلف نصوص هذه البرقيات باللغة التركية وترجمها إلى العربية.

تجهل أن لأبيك خصوما لا يستهان بهم من أبناء عمومته فى الآستانة وهم يعملون لإيغار صدر الحكومة عليه فخير لكم وأبقى الاقلاع عن الاتيان بأى عمل يكون حجة لخصومكم. ثم أطلعته على برقية والده إلى أنور باشا فاضطرب وأظهر تألمه وأسفه وقال: إن ماوقع ليس سوى سوء تفاهم. فوالدى لا يقصد شيئا ضارا، ولست تجهل أنه لايجيد اللغة التركية ويلوح لى أن هذه البرقية ترجمها مترجم عاجز عن فهم النص العربى فحرفها. ثم وعد أن يكتب إلى أبيه فى الحال يسأله العدول عن مطالبه وأرسلت إليه البرقية الآتية:

«لقد نمى إلىّ خبر برقيتكم إلى أنور باشا تطلبون أن تكون الإمارة وراثية فى أسرتكم وأن يمنح أشخاص عديدون العفو الشاهانى بعد أن قامت البراهين على خيانتهم للوطن والأمة.

«وليس بممكن إجابة الجزء الثانى من طلبكم لضرره بالمصالح العامة. فالحكومة التى تصفح عن الخونة جديرة أن تتهم بالضعف، كما أن عفوها يغرى كثيرين بالخيانة ولو أطلعت على الوثائق التى ظهرت فى المحكمة لرأيت إلى أحد وصل أولئك المتهمون»

«وأما فيما يختص بجعل الإمارة وراثية فى أسرتك فالفرصة ليست مناسبة للمطالبة بذلك، وأظنكم تعترفون بأن الإعراب عن مثل هذه الرغبات ونحن فى إبان الحرب حيث تستهدف جميع قوى الإنسان عقلية وجسمية لأشد العناء ـ من رجل يتبوأ مركز الشرافة وفى أعظم بقعة من بقاع الدولة العثمانية لابد أن يكون له أسوأ وقع فى نفوس الجمهور، وأعتقد أنه ماكان ينبغى لكم أن تطلبوا مثل هذا الطلب ولو كنتم على حق، فموارد الأمة ينبغى أن تحشد لغرض واحد وهو إحراز النصر النهائى».

ولو فرضنا أن الحكومة لبت طلبك لمجرد الرغبة فى الحصول على مصادقتك فى هذه الأوقات العصيبة. فماذا يمنعها أن تعاملك بالشدة والقسوة لو انتصرت فى ختام الحرب؟. وعلى كل فيجب أن تعلم أن الرجال الذين أسسوا الحكومة الحاضرة، والذين تجرأوا على القيام فى وجه السلطان عبد الحميد لايصفحون عمن يجترئ على شل حركتهم فى هذه الحرب، وقد دخلوها لمصلحة العالم الإسلامى، وهم فى الوقت نفسه لا يتأخرون عن استحصال جزيل الإنعام من جلالة الخليفة لكل من عمل ابتغاء مرضاة الله ولتحقيق غاياتنا المقدسة».

ويستطرد جمال باشا فى مذكراته بعد ذلك ويقول: «وأصدرت محكمة عالية حكمها فى

القضية الكبرى (قضية ٦ مايو سنة ١٩١٦) ونحن لانزال نتبادل الرسائل مع الحسين فجاهد فيصل لينال عفوا للمحكوم عليهم وكان يزورنى كل يوم لعدم سعيهم لإنقاذ مواطنيهم، ودعانى ذات يوم للغداء معه فى القانون (قصر آل البكرى وقد دمره الفرنسويون أثناء الثورة السورية سنة ١٩٢٥ بالديناميت) وكان ذلك فى أوائل شهر إبريل فدار الحديث حول موضوع العفو أيضا فسألته هل عرفت تفاصيل مافعله هؤلاء؟ فقال كلا. فقلت لو عرفت التفاصيل لأسفت أشد الأسف على توسطك للحصول على عفو لهم».

«وتلقيت بعد أيام رد الشريف حسين على برقيتى إليه وهو يلح فى إصدار عفو، لأن صدوره فى مصلحة الحكومة، ويشكو من تصرفات محافظ المدينة (بصرى باشا) ويقول إنه يأبى أن تسلب منه حقوق منحه إياها الخليفة.

«وكثرت فى الوقت نفسه شكاوى بصرى باشا من تصرفات الشريف على (وكان يقيم معه فى المدينة) وسعيه لتأليب العربان واستمالتهم فدعوت فيصلا وأطلعته على رد أبيه وعلى سلوك أخيه وقلت له:

«لا أستطيع إدراك غرض والدك من استعماله اللهجة الواحدة التى يستعملها فى هذه الأيام، ولاغاية أخيك من الخطة التى يسير عليها فى المدينة، فمن الجهة الواحدة تعلنون أنكم عاملون على تجهيز المتطوعين وإرسالهم للاشتراك فى حملة القناة فتمدكم الحكومة بالمال والرجال، وتدل أعمالكم من الجهة الأخرى على ميلكم إلى الانفصال، وقد بدرت بوادره من ناحية أبيك وأخيك. فإذا أردتم أن تظلوا أصدقاء فيجب أن تراعوا قوانين الصداقة، وإلا فأعلنوا ثورتكم وأحملوا سلاحكم».

«وإذا كنتم لا تضمرون الشرف فاكتب إلى أخيك فليحضر إلى هنا فى الحال، وليكف عن الاعتداء على سلطة المحافظ. فأجابنى بأنه سيسوى الخلاف بين هذا وأخيه وسيدعوه للقدوم إلى دمشق - كما أنكر مانسبته إليهم من الميل إلى الثورة».

فيصل ينجو من الشرك

وكان جمال باشا يريد من استقدام على إلى دمشق أن يقرنه إلى أخيه فيصل فيظلان رهينة لديه يمنعان أباهما من الإتيان بأى حركة ضد الدولة، وتلك كانت الغاية من استقدام

فيصل ولم تخف هذه الاعتبارات على هذا، فأخذ يفتل خيوط الرأى مع إخوانه فى دمشق باحثا عن وسيلة يتوسل بها ليفلت من الشرك، ويشترك مع أخوانه فى الحركة المقبلة، لأنه أدرك عدم إمكان إضرام ثورة فى الشام بعدما فرق جمال باشا ضباط العرب، وقذف بهم إلى كل ميدان سحيق من ميادين القتال، وملأ سورية بجنود جاء بهم من الأناضول، كما قبض على نخبة الرجال وساقهم إلى تلك الربوع، ولذلك اتجهت الأنظار فى هذه المرحلة إلى الحجاز.

وكانت المكاتبات السرية تجرى بدون انقطاع بين فيصل وأبيه وإخواته فيوافيهم بكل مايحدث فى دشق ويطلعهم على مايدور بينه وبين الترك، ويوافونه أيضا بما عندهم، وقد تم الاتفاق فى مابينهم على أن يوعز الشريف على إلى المتطوعة الذين جاءوا معه من الحجاز - وكان يقودهم بنفسه - ويقيم فى المدينة انتظارا لتكامل عددهم فيسير بهم إلى القناة، أن يقترحوا استقدام فيصل من دمشق ليسير إلى ميدان القتال، وفعلا أبلغ زعماء هؤلاء الترك أنهم فى شوق إلى الزحف وأنهم يرجون أن يكون فيصل على رأسهم - كما جاء فى برقية والده، وقام هو بمثل هذه الحركة فى دمشق فزار جمال باشا وأبلغه أن أخاه عليا تلقى أمرا من أبيه بأن يسافر إلى القناة، وأنه يود أن يذهب إلى المدينة فيجئ مع أخيه والمتطوعة إلى القدس، فأجاز له جمال باشا ذلك، وقال له : سر على رأس وفد، واستقبلهم باسمى وعد معهم واسع - للإصلاح والتوفيق.

وقد تألف هذا الوفد من الشريف فيصل رئيسا، ومن كاظم بك مفتش المنزل وآصف بك المستشار العدلى للجيش الرابع ونسيب بك البكرى والشيخ عبد القادر الخطيب، وقصد المدينة المنورة بالسكة الحديدية فى منتصف شهر مايو (أى بعد تنفيذ حكم الإعدام فى الرعيل الثانى بنحو عشرة أيام) وفيصل يكاد يطير فرحا وسرورا، لأنه أفلت من القفص ونجا من قبضة الترك، واستقبل استقبالا باهرا حين وصوله، وانضم إلى أخيه وأقام معه فى منزله، ويقول نسيب بك البكرى أحد أعضاء الوفد أن آصف المستشار القضائى قابل فيصل فى الحرم النبوى غداة وصولهم وقال له ودموعه تسيل على خديه: إذا كنت تستطيع أن تنجو بنفسك فإنج، ولا تعد إلى دمشق فهم يضمرون لك الشر، وإنى أقول لك هذا القول كرامة لجدك الراقد فى هذه الروضة.

تأهب الترك فى المدينة

وما كاد فيصل يستقر فى المدينة حتى وصل إليها فخرى باشا وكيل قيادة الجيش الرابع منتدبا من قبل جمال باشا للإشراف على الحالة، وليتولى القيادة بالذات، وكانت فيها يومئذ قوة عسكرية مؤلفة من ثلاثة آلاف جندى، عززوها بنجدات جديدة أخرى، تحت ستار إرسالها إلى اليمن. مما زاد فى مخاوف الشريف وأولاده. لأنهم أدركوا أن حشد هذه القوة الكبرى فى المدينة وتوالى وصول النجدات إليها معناه أن الترك يريدون الفتك بهم وضربهم الضربة القاضية، فيزحفون بهذا الجيش إلى مكة ـ بحجة السفر إلى اليمن، ويدخلونها بالاتفاق مع القوة التركية الباقية فيها، وهكذا تنهار آمال الشريف وأولاده، ويضعف مركزه. إن لم نقل أن حياته تصبح فى خطر، ولذلك قرر التعجيل بإعلان الثورة، مع أنه لم يستعد لها الاستعداد الكافى، خوفا من مفاجأة يفاجئه بها الترك، ولما أبلغ أمره هذا إلى نجله فيصل فى المدينة كتب إليه تقريرا مطولا يطلب تأجيل إعلان الثورة إلى شهر أغسطس (كان ذلك فى شهر مايو سنة ١٩١٦) بحجة أن المواسم الزراعية تكون قد انتهت وتكون العرب قد اكتالت وأدخرت مؤونتها من الحبوب فتشترك فى الثورة وتكون عامة شاملة لأهل الحجاز والشام، فرد عليه ملحا بضرورة الإسراع فى العمل مهما كانت الظروف والاعتبارات لأنه لم يبق مجال للانتظار.

واعتذر فيصل لرجال الوفد الذين جاءوا معه من دمشق لاستقبال وفود المجاهدين باسم الجيش الرابع لتأخره عنهم وصرفهم قائلا: إن مشاغل ضرورية تحمله على البقاء بضعة أيام أخرى فى جانب أخيه، وأنه لايزال يفاوض جمال باشا المتطوعة، وهل يركبوا فى سفرهم القطار إلى دمشق أم يذهبوا رأسا إلى القناة، ومتى انتهت هذه المفاوضات جئت دمشق حالا فلا تنتظرونى، فعاد هؤلاء وبينهم نسيب بك البكرى، وقد اتفق مع الأمير سرا على أن يرسل إليه إذا تم الاتفاق على إعلان الثورة برقية هذا نصها «أرسلوا الفرس الشقراء».

وكان أول ما فعله نسيب بك على أثر بلوغه دمشق أن أرسل أسرته إلى مكة بالسكة الحديد استعدادا للطوارئ، وأخذ يتأهب للسفر وماهى إلا ثلاثة أيام حتى تلقى البرقية المتفق عليها، وذلك فى الأسبوع الأخير من شهر مايو سنة ١٩١٦ ونصها: «أرسلوا الفرس الشقراء» فأدرك أن كل شيئ قد انتهى. فقصد قرية القابون وكانت مقر الرجال الذين

جاءوا مع فيصل يوم قدم من مكة، وفى منتصف تلك الليلة غادرها إلى الحجاز وقد انضم إليهم فى رحلتهم خالد الحكيم فسار بهم دليلهم بطريق العراق، وكان جمال باشا يومئذ فى بيروت فلما عاد بعد يومين وعرف أنهم سافروا أمر بمطاردتهم فتبعتهم القوى المختلفة ولم تعثر لهم على أثر.

خروج الأميرين من المدينة

ولما تم الاتفاق نهائيًا على إعلان الثورة قابل على وفيصل فخرى باشا يوم ٣٠ مايو وأطلعاه على صورة البرقية الأخيرة التى أرسلها أنور باشا إلى والدهما وقد هدده فيها وتوعده بقوله: «يجب على كل موظف أن يلزم حدود وظيفته فلا يتجاوزها ولا يتدخل فى شؤون الدولة، وإلا اضطرت لاتخاذ الإجراءات المقتضية فى مثل هذه الأحوال، وأنه يجب إرسال المتطوعين بلا تردد واستدعاء على من المدينة» وقالا له بعد هذه البرقية لم يعد فى إمكانهما الاستمرار فى العمل، وإن أحدهما «عليا» سيعود إلى مكة طبقا لإشارة والده فاعتذر فخرى باشا وقال : إن ماجاء فى البرقية نتيجة تسرع وإنه لابد من تسوية هذه الأمور فى المستقبل، ثم تقرر أن يبقى فيصل فى المدينة لقيادة المجاهدين بدلا من أخيه، ويسير بهم إلى القناة.

بدء القتال حول المدينة

وفى يوم أول يونيو غادر على المدينة إلى سيدنا حمزة حيث معسكر المتطوعة بعد ماودع فخرى باشا وبصرى باشا على أن يقضى فيه ليله ويسافر فى الصباح فرافقه أخوه لوداعه، على أن يعود بعد سفره إلى مقره فى المدينة فقضيا الليلة هنالك وفى الصباح (٢ يونيو) كتبا كتابا مشتركا إلى فخرى باشا وبصرى باشا حمله مرافق فيصل - وهو ضابط تركى قالا فيه:

«حيث إن رجال الحكومة أساءوا فينا الظن، ولما كان ذلك يحول بيننا وبين الاستمرار فى التعاون مع الحكومة فقد عدنا إلى مكة بناء على البرقية التى تلقيناها من والدنا لعدم استطاعتنا البقاء».

وركبا على الفور مع حاشيتيهما و٢٠٠ هجان إلى مكة فسلكا الطريق الشرقى وظلا فى مسيرهما حتى بلغا الخانق (إحدى المراحل على طريق المدينة ـ مكة) فنزلا فيها وفى صباح ٣ يونيو عادا إلى الحسا (بيار على) قرب المدينة وأرسلا الرسل إلى القبائل يدعوانها لموافاتهما، ولم ينقض أسبوع حتى وافاهما نحو ستة آلاف مقاتل فهاجما السكة الحديد بين محطة المدينة ومحطة المحيط يوم ٩ يونية منه، فدارت أول معركة بين العرب والترك الذين خرجوا لقتالهم، وعاد هذا الجيش فى الغد فهاجم محطة المحيط نفسها فخرج فخرى باشا بنفسه للقتال على رأس قواته واشتبك مع العرب، واستمر القتال من الفجر حتى الظهر وانتهى بارتداد العرب حتى بير الماشى لنفاد ذخائرهم ومنها رجعوا حتى الغدير، وهنالك افترق الأميران فذهب فيصل إلى جهة ينبع وبقى على وحده وأخذا يستعدان للنضال، وذلك قبل أن تعلن الثورة رسميا.

أقوال جمال باشا عن مقدمات الثورة

ويقول جمال باشا فى مذكراته عن هذه الحوادث. وقد اعتمدنا نحن فى كتابة ماكتبناه هنا على ماسمعناه من جلالة الملك على، ومن سمو الأمير عبد الله ومن نسيب بك البكرى ـ مانصه:

«ولما وصل إلى المدينة كتب إلىّ معربا عن سروره لأن أخاه عليا سيقابلنى قريبا، وبما أن الشريف حسينا سألنى أن أرسل إليه مبلغا من النقود لانفاقه على المجاهدين. أبرقت إلى محافظ المدينة بأن يسلمه ما طلب، وذلك قبل إعلان الثورة بيوم أو بيومين [1]

«وبينما أنا فى بيروت يوم ٢ يونيو سنة ١٩١٦ دعانى فخرى باشا من المدينة لمحادثتى فى التليفون وقال لى «مازالت علاقاتى حسنة مع الشريفين على وفيصل منذ وصولى إلى هنا وقد دعوانى أول أمس لزيارة مقام سيدنا حمزة (يقع فى ضاحية المدينة) حيث معسكر المتطوعة فذهبت وتغدينا معا ولعب هؤلاء ألعاب الفروسية وأنشدوا الأناشيد الحماسية. ودعيت مساء أمس إلى منزل الشريف على فقضيت وقتا فيه. ومع أننا اتفقنا على أن تسافر أول كتيبة من كتائب المتطوعة فى هذين اليومين إلى درعا، فقد تغير الموقف صباح اليوم تغيرا كبيراً، فقد جاء إلى أحد رجال الشريف على وأعطانى ثلاثة كتب: الأول لى والثانى والثالث من الشريف حسين. أحدهما لك، والثانى للصدر الأعظم وبما أنهم مكتوبان

١ ـ يقول نسيب بك البكرى إنهم سلموه يومئذ ١٨ ألف بندقية و ٢٠ ألف ليرة عثمانية ذهبا.

بالأرقام فقد عجلت بإرسالهما إليك أما الكتاب المرسل إلى فهذا نصه:

«بناء على الأوامر الصادرة من والدى سيقف نقل المتطوعة إلى فلسطين، ولهذا عقدت النية على العودة بالموجودين إلى مكة، بدلا من ضياع الوقت هنا، وإنى آسف لاضطرارى إلى الرحيل بدون أن أودعك فأرجو قبول عذرى».

ويقول جمال باشا أن الشريف حسينا فى كتابه إليه «إنه يعتذر عن عدم استطاعته الاشتراك فى حملة القناة قبل أن تجاب المطالب التى طلبها فى برقيته، قبل أن تكف الحكومة عن اتباع خطة الإيهام حوله» ويقول فى كتابه إلى الصدر الأعظم «إنه لا يعرف أى الرجلين يصدق: أهذا السياسى الذى يتعامل معه مباشرة (يريد به جمال باشا) ولطالما أظهر المجاملة والود، أم ذاك الذى استعمل معه ألفاظا مهينة جارحة (يريد به أنور باشا) وإنه لذلك مضطر إلى قطع العلاقات مع الحكومة حتى تجاب المطالب التى طلبها من أنور باشا قبل شهرين».

ويقول جمال باشا أنه تلقى رسالة بالأرقام من الشريف فيصل، وكان قد سلمه مفتاحا لها قبل سفره إلى المدينة قال فيها: «لقد صدر إلى الأمر بوقف نقل المتطوعة إلى سورية لأسباب أؤمل أن أبسطها لك شخصيا متى تشرفت بلقائك. وقد ساءتنى كثيرا الحالة الجديدة التى نشأت، ولما كان من بواعث الألم أن لا تقع عينى عليك ثانية قبل تسوية الأمور تسوية مرضية، فأتشرف بإخبارك إننى ذاهب إلى مكة لقضاء بعض الوقت».

ـ ٦ ـ
عوامل الثورة المباشرة

لم يبق فى استطاعة الحسين أن يتجنب الاصطدام بالترك، وأن يحجم عن مصارحتهم الشر والعدوان بعد ماواصلت الحالة إلى الدرجة التى وصفناها من الجفاء والفتور خلال المرحلة السابقة، رغم اصطناع المودة، وقد ظل كل فريق يبديها للفريق الآخر حتى اللحظة الأخيرة، لظهور نيات الترك واضحة جلية إزاءه وإزاء أولاده أولا، وإزاء قومه وأبناء جنسه ثانيا، وما كان هؤلاء يضمرون شرا للدولة، وما كانوا يتمنون زوالها أو الخروج عن طاعتها لولا إنها بادأتهم الشر وصارحتهم العدوان، وكشفت لهم عن وجه المكر والانتقام.

لقد كانت هنالك جملة عوامل بعضها شخصى، وبعضها محلى، وقومى، وبعضها دينى ترغم الحسين على ركوب هذا المركب، وتضطره إلى أن ينقض عهده مع الدولة، وتسوقه إلى محالفة الإنجليز بعد ما جاءوه متطوعين وعرضوا عليه من الشروط ما يغرى، وأعلنوا استعدادهم لتنفيذ كل ما يطلبه من مطالب بلا قيد ولا شرط وقالوا له: عليك أن تكتب وتشترط، وعلينا أن نوقع ونصدق، وإذا كانوا لم يفوا بعهودهم ومواثيقهم فليس الذنب ذنبه، وليس هو أول مخدوع بهم.

ولعل فى مقدمة **العوامل الشخصية** اعتقاده بإن رجال الدولة انتزعوا كل ثقة منه ومن أولاده، وأنهم يتحينون الفرص للقبض عليه وإقصائه، ولا يخفى أن الغاية الأصلية للترك من إرسال وهيب باشا إلى الحجاز وتزويده بما زود به من سلطة واسعة خضد شوكة الحسين والقضاء على كل ماله من نفوذ. ويعترف جمال باشا فى مذكراته أن وهيب باشا طلب من الحكومة إرسال فرقتين من الجند ليتولى تنفيذ مشروعه، ولولا مفاجأة الحرب العظمى وقد جاءت على حين غرة ـ لنفذ ولقضوا على الحسين قضاء أبديا ـ يضاف إلى هذا مايردده البعض وهو أنه كان للحسين عيون فى ديوان حكومة مكة وفى مكتب برقها وفى الباب العالى، يوافونه بكل ما يدور بشأنه من مكاتبات بين الآستانة ومكة ويطلعونه على جميع الخطط والتدابير. وما كان باستطاعة الاتحاديين معرفة شيئ من أسراره وخططه فقد كان حذرا شديد التكتم، وقد ظل يحاسنهم ويلاطفهم حتى اضطرهم إلى استبدال وهيب باشا بغالب باشا فى أوائل زمن الحرب فارتاح من خصم شديد، وخلا له الجو فى مكة فتصرف كما أراد وتسنى له أن يبتز كمية كبيرة من السلاح فى خلال سنتى الحرب الأوليين ومبلغا كبيرا من المال لا يقل عن ٦٠ ألف ليرة عثمانية من جمال باشا، ولعل خوفه من الانتقام هو الذى جعله يشترط على الاتحاديين فى خلال المفاوضات التى دارت بينه وبينهم جعل

الإمارة وراثية فى أولاده، لأنه كان يخشى اقصاءه فى أول فرصة تسنح فأراد أن ينال من الدولة عهدا باستبقاء الإمارة فى بيته وذريته فيطمئن ويرتاح، فأبى عليه رجالها ذلك.

ويأتى **العامل المحلى** بعد العامل الشخصى، ويجب أن يحسب حسابه، وقد نشأ عن مركز الحجاز الاقتصادى، وعن حالته الاستثنائية.

إن الحجاز قطر مجدب، أو واد غير ذى زرع كما وصفه القرآن، وقد اعتاد سكانه أن يعيشوا مما يدره عليهم موسم الحج، فإذا كان خصبا رتعوا فى بحبوحة الراحة وحسنت حالتهم وأدخروا لسنتهم الجديدة مايدفع عنهم غائلة الحاجة والجوع، بعكس ما إذا كان عدد الحجاج قليلا ووارداهم ضيئلا.

ولا يخفى إن الحرب العظمى أعلنت فى شهر رمضان من شهور سنة ١٣٣٢ هـ أى قبيل موسم الحج بثلاثة أشهر تقريبا، ولما كان الإنجليز وحلفاؤهم غير واثقين من إخلاص الدولة العثمانية، لهم ومعتقدين إنها متحالفة مع الألمان، وأنها لابد أن تخوض الحرب فى جانبهم فقد ضربوا الحصر البحرى على سواحلها، ومن جملتها سواحل الحجاز فى البحر الأحمر. فتعطل بذلك موسم الحج، ولم يرد من الحجاج سوى عدد قليل لا يذكر فشعر أهل الحجاز وسكانه بالضائقة، ولكنهم صبروا على أمل أن تنتهى الحرب فى سنتهم فيلغى الحصر البحرى وتقبل وفود الحجاج فيعوضوا ماخسروه ويستدركوا مافاتهم، وحل الموسم الجديد وانتهى ورحى الحرب لا تزال دائرة والحاجة تحز فيهم حزا، وقد أكلت جميع ما أدخروه وجمعوه فارتفعت أصواتهم بالشكوى والاستغاثة وشعروا بألم الجوع والمسغبة فكاتب الشريف الحكومة وبسط لها مايعانيه أهل مكة وجدة من جوع وضنك بسبب تعطيل موسم الحج. فاعتذرت بسوء الحالة، وبحاجة الجيش إلى القوات، ولم ترسل شيئا يهون على الناس أمرهم، ولما ضاقوا ذرعا ولم يجدوا مايأكلونه ويقتاتون به حتى أن بعضهم انتزع أبواب منزله وأخشاب السقوف ليبيعها ويقتات بثمنها، جاءوا إلى الحسين يتوسلون إليه أن يعمل لانقاذهم من الموت جوعا ويكشف عنهم مايعانونه من الكرب والغم بعد مارفضت الدولة أن تمدهم وتساعدهم، وغنى عن البيان أن الوسيلة الوحيدة للخلاص من تلك الحالة هى محالفة الإنجليز والاتفاق معهم فيلغوا الحصر البحرى وتعود السفن والبواخر إلى زيارة الحجاز حاملة الميرة والزوار.

هذا مجمل مايقال فى العامل المحلى، وهو جوهرى لا سبيل إلى إنكار خطورة شأنه، ويأتى بعده العامل القومى. وخلاصة مايقال فيه أن الحسين ـ وقد كان العرب ينظرون إليه كأكبر زعيم عربى فى ذلك العهد ـ كبر عليه أن تساق الحرائر من أبناء أمته إلى الأناضول

سبايا تحت ستار النفى وأن يقتل كبار قومه ويصلبوا ويمحوا من الأرض ويشتت شملهم لا لذنب جنوه، ولا لإثم اقترفوه، وإنما لأنهم طالبوا الدولة بإصلاح بلادهم خوفا من أن يؤدى الاهمال إلى تدخل الدول العظمى فى شؤونها باسم الاصلاح ـ كما جرى من قبل فى البلقان ـ ثم ينقلب هذا التدخل إلى احتلال أو استعمار كانوا يخافونه ويعملون على تجنبه وإتقائه، ولذلك لم يجد بدا حينما وقعت الواقعة وأصم الاتحاديون آذانهم عن إجابة ملتمسة بالعفو عنهم من الثورة، انتقاما لهم وطلبا للثأر، ولانقاذ البقية الباقية، وقد كانت مهددة بالفناء والاضمحلال.

وهنالك إجماع بين الباحثين فى الشؤون العربية على أن إسراع الحسين فى إعلان ثورته بعد الفتك بالرعيل الثانى ونفى الأسر الكبيرة، حمل الاتحاديين على تغيير سياستهم وأساليبهم كما اضطرهم إلى استقدام جمال باشا وتنحيته عن عمله فى سورية فعاد إلى الأستانة يجز أذيال الانكسار والخيبة بعد ما فشلت مساعيه وخابت آماله فى إنشاء عرش فى دمشق يتبوؤه ويورثه لأبنائه من بعده. وسنستوفى الكلام عن مطامعه فى الفصول الآتية.

هذا من الجهة الواحدة، أما من جهة أخرى فقد كان الاعتقاد سائدا بين العقلاء أن النصر فى ختام الحرب سيكون للإنجليز وحلفائهم، فتدور الدائرة على الألمان وعلى الترك وتنقرض الدولة العثمانية، ويستولى الحلفاء على أراضيها، وبلاد العرب فى جملتها، وهكذا يقع العرب، بين أنياب الاستعمار الأوربى الظالم، وهو ما يحاذرونه، ولذلك كان لابد للحسين بصفته زعيم العرب الأكبر من الاتصال بخصوم الترك وعقد المواثيق معهم لإنقاذ بلاد العرب وإنشاء الدولة العربية الكبرى ـ فتحل فى الشرق محل الدولة التركية الزائلة وتجدد مجد العرب، وتحيى دولتهم فلا ينتقلون من سيد إلى سيد.

ويجب ألا ننسى العامل الدينى أيضا فقد كان الحسين ـ وهو صلب فى دينه شديد التمسك بإحكامه مغرقا فى المحافظة على تقاليده ـ يعتقد بكفر الاتحاديين وخروجهم على الإسلام لأعمال بسطها بسطا وافيا فى المنشور الذى أذاعه على العالم الإسلامى بإعلان الثورة، وقد تخلص من هذه المقدمة السلبية إلى نتيجة إيجابية، هى وجوب قتالهم على كل مسلم والجهاد فيهم انقاذ للأمة من شرورهم . وقد قام بهذا الواجب حين ثار عليهم.

تلك هى خلاصة العوامل التى نعتقد إنها عجلت فى إعلان الثورة العربية ودفعت الحسين إلى قتال الترك والانضمام إلى الإنجليز وقد بذلوا له الوعود بسخاء وبلا حساب كما ستراه مفصلا.

ـ ٧ ـ

المفاوضات بين العرب والإنجليز
نصوص المكاتبات التى دارت والعهود التى قطعت

ما كان الإنجليز بغافلين عما هنالك من نضال داخلى وتشاد سرى بين الحسين والاتحاديين ذاع خبره واشتهر أمره.

ولما كان الألمان قد استمالوا هؤلاء الاتحاديين واجتذبوهم إليهم، وارتبطوا معهم برابطة وثقى لا انفصام لها، فقد اتجهت أنظار الإنجليز نحو مكة للاتصال بأميرها، خصم الاتحاديين العنيد، ومنافسهم الشديد واجتذابه فتتعادل الكفة، وتتوازن القوى، هنا العرب، هنالك الترك. وكان كل فريق منهما (الإنجليز والألمان) يستكثر من الأنصار والأعوان لاعتقاده أن يوم الحرب العظمى قد اقترب، وأن زمن النفخ فى صورها أزف ودنا.

ولقى الإنجليز أعراضا ونفورا من الحسين وأبنائه فى أول الأمر. لأن فكرة الثورة المسلحة والانفصال عن الترك، وإنشاء دولة عربية مستقلة لم تك قد اختمرت فى رؤوسهم ولأن كل ما جرى كان فى نظرهم من المسائل الداخلية التى تحل وتسوى مع الوقت، بيد أن وقوع ماوقع قبيل الحرب وعثورهم على ماعثروا عليه من تقارير سرية وكتب رسمية، جعلهم أكثر يقظة فجاهروا بالمطالبة بالاستقلال الداخلى للحجاز وبإمارة وراثية، تكون فى بيتهم وأعقابهم، ولو نالوا ماطلبوه واقترحوه ولم يرتكب جمال باشا ما ارتكبه من مظالم فى ديار الشام لما جردوا سيفا، ولما أطلقوا على الترك قذيفة، ولما تبدل الموقف الحربى فى بلاد العرب ذلك التبدل الذى عجل بإخراج الترك وانهيار دولتهم.

كيف أنشئت الصلات بين الحسين والإنجليز

وكان اللورد كتشنر معتمد بريطانيا فى مصر قبيل الحرب، ووزير حربيتها فى إبانها أول سياسى بريطانى عمل للتقرب من آل الحسين، وسعى لإنشاء صلات ودية بينهم وبين حكومته، أملا باجتذابهم واكتسابهم بعدما اكتسب الألمان الترك، فقد اغتنم فرصة مرور الأمير عبد الله بن الحسين ممثل مكة يومئذ فى مجلس النواب العثمانى بالقاهرة ـ وكان يمر بها فى غدوه إلى الآستانة ورواحه منها فيقضى فى ربوعها أياما انتظارا لسفر الباخرة، وينزل ضيفا على الخديوى عباس حلمى باشا فى قصر عابدين. فزاره سنة

١٩١٣ مصحوبا بالمستر ستورس السكرتير الشرقى للوكالة البريطانية يومئذ زيارة شبه رسمية من دون أن يحدد موعدها من قبل فتردد الأمير فى استقباله، تجنبا لما تثيره من القيل والقال متى ذاع خبرها، بيد أن إلحاح الخديوى عليه ـ والظاهر أنه كان متفقا مع اللورد على هذه الزيارة من قبل ـ جعله يستقبله ويدخل البهو الذى أجلس فيه، فقال له بعد السلام والتعارف: لقد اغتنمت فرصة مرورك بالقطر المصرى فجئت لأبلغك شكر حكومتى على مايلقاه الحجاج الهنود رعاياها من عناية والدة ورعايته إبان قيامهم بتأدية فريضة الحج. فنحن مغبتطون لهذا التبدل فى معاملة الحجاج» فشكره الأمير على زيارته ومجاملته ووعده بأن يحمل إلى والده ماسمعه. وقصد على الفور دار الوكالة العثمانية فقابل المفوض السامى العثمانى، وقص عليه ماجرى بالتفصيل، ورجا منه أن يبلغه الباب العالى فلا يكون هنالك مجال لتفسير أو تأويل. كما قصد فى الغداة مع تشريفاتى الخديوى إلى قصر الدوبارة، فوضع بطاقته للعميد البريطانى ردا على لزيارته له، وقد اختار زمنا يتغيب هذا فيه.

ومر الأمير بالقاهرة أيضا فى أوائل شهر يوليو سنة ١٩١٤ وكان النضال على أشده بين الشريف الحسين، وبين وهيب باشا الوالى والقائد العسكرى الجديد للحجاز، وقد حل محل الوالى كامل بك والفريق خيرى باشا ـ أى أنه جمع السلطتين فى يده وجاء مزودا بسلطة واسعة ومعه سبع أورط مشاة وأورطة مدفعية يعتمد عليها فى تنفيذ سياسته الجديدة القائمة على مقاومة الشريف، والقضاء على كل ماله من نفوذ، وتطبيق أحكام قانون الولايات الجديد فى الحجاز وذلك بإلغاء العرف القديم وهو يقضى بإعفاء أهل الحجاز، من الضرائب ومن الخدمة العسكرية ولأنشاء السكة الحديد بين مكة والمدينة.

وكان أول ما عمله الوالى الجديد أنه كتب إلى الشريف يطلب منه أن يسلم إلى السلطة العسكرية ١٠٠ بندقية يسلح بها حرسه، فلم يرد عليه فألح فأصر الشريف على عدم الرد، ودار فى تلك الأثناء شجار بين الجند وحرس الشريف استعمل فيه الرصاص وسقط عدد من القتلى، فاعتقد الناس أن يوم الفتنة قد اقترب، سيما وقد اقترنت هذه الحوادث بإضراب أهل مكة وجدة وإغلاقهما المخازن احتجاجا على تصرفات الوالى الجديد وخططه، وأدرك أقطاب الاتحاديين فى الآستانة أن وهيب باشا تسرع وأن نيران الفتنة تكاد تتقد فأوعزوا إليه بأن يكف وأذاعوا أن الحكومة عدلت عن تطبيق قانون الولايات، وعن تطبيق الخدمة العسكرية فى الحجاز، وعن مد السكة الحديدية. فاستقرت الأمور

وهدأت النفوس فى الظاهر وإن كانت منطوية على حقد وضغن.

واشتدت الأزمة والأمير عبد الله فى القاهرة ينتظر حلول موعد سفر باخرة البريد ليبحر فيها. فتلقى برقيات من ولاة الأمور فى الأستانة تستعجله بالسفر، واجتمع يومئذ باللورد كتشنر والمستر ستورس، وسلمه هذا كتابا، وقال له أن مستر فيتز موريس رئيس تراجمة السفارة البرطانية فى الأستانة سيأتى إلى الباخرة فى أزمير لمقابلتك ولتسلم هذا الكتاب منك وسيضع تحت تصرفك مدة إقامتك فى الأستانة باخرة خاصة تبحر بها متى أردت فتسلم الأمير الكتاب وسلمه إلى كبير التراجمة فى أزمير ولم ير حاجة لطلب الباخرة

ودار فى خلال هذا الاجتماع حديث بين الأمير واللورد حول السياسة التى تنوى انجلترا إتباعها إزاء العرب فأجابه أن انجلترا حريصة على إبقاء علاقاتها ودية بالترك وإنها تساعد العرب ضمن هذه الدائرة مراعاة لتقاليدها القديمة.

ووصل الأمير عبد الله إلى الأستانة فى منتصف شهر يوليو ضمن ويقال إن الغاية من استقدامه كانت للبحث فى إنشاء إمارة لمكة، ولم يستقر به المقام حتى أعلنت الحرب العظمى، وأغلق البرلمان وأهمل كل مشروع. فغادر الأستانة يوم ١٨ أغسطس سنة ١٩١٤ ومعه شقيقه الأمير فيصل نائب جدة فى البرلمان فبلغا القاهرة يوم ٢٢ منه وحلا فى قصر عابدين فزار المستر ستورس الأمير وسلمه كتابا من الحكومة الإنجليزية إلى شريف مكة «تشكره فيه على حسن قيامه بخدمة الأماكن المقدسة وسهره على راحة الحجاج وتقول أيضا إنها لا تعارض فى إرجاع الخلافة إلى العرب» ولم يجتمع باللورد كتشنر لأنه كان فى انجلترا يتقلد وزارة الحربية.

ابتداء المكاتبات

فى أواخر شهر سبتمبر وصل إلى مكة تاجر مصرى من حى الجمالية اسمه على أفندى أصغر [١] يحمل إلى الشريف عبد الله من المستر ستورس السكرتير الشرقى لدار الحماية الكتاب الآتى:

«أمرنى اللورد كتشنر وزير الحربية البريطانية أن أكتب إلى سيادتكم لأسألكم فيما إذا كنتم وسيادة والدكم لا تزالون على رأيكم الأول الخاص بالدفاع عن حقوق العرب، وقد

١ - هو من أنسباء حسين روحى البهائى الموظف فى قلم الترجمة بدار المندوب السامى يومئذ، وهو الذى اختاره لهذه المهمة، ويعتمد الانكليز على هؤلاء البهائيين المستعربين فى أعمالهم السرية ببلاد العرب، ويثقون بهم لما خبروه من إخلاصهم.

سبق له أن أجابكم بعدم إمكانه مساعدتكم فى تحقيقها. فإن فى استطاعة حكومة جلالة الملك أن تقدم لكم المساعدات اللازمة، بسبب عزم الحكومة التركية على الدخول فى زمرة الأعداء، وخرق تقاليد الصداقة القديمة بين البلدين».

ولم يشأ الأمير إطلاع والده على هذا الكتاب لما يعرفه من صلابته وإخلاصه للدولة ونفوره من الاتصال بكل ماهو أجنبى، فصرف الرسول من دون أن يكتب له جوابا

ورجع الرسول بعد أسبوعين يحمل كتابا آخر من ستورس هذا مضمونه:

«بما أن الترك عزموا عزما نهائيا على دخول الحرب فى جانب الألمان، وبما أن الفرصة سانحة لكم لتحقيق مطالب العرب فأنا آسف لترككم كتابى بلا جواب آملا الإسراع فى إرسال الرد على سؤالى».

فأطلع الأمير والده على الكتابين وسأله بماذا يجيب فضحك وقال أكتب له «الصيف ضيعت اللبن».

فكتب الأمير هذه الجملة وسلمها إلى الرسول فعاد بها إلى القاهرة.

وفى شهر نوفمبر - أى بعد دخول تركيا الحرب - عاد على أفندى إلى الحجاز يحمل كتابا ثالثا من المستر ستورس هذا مضمونه:

«بما أن الترك دخلوا الحرب فى جانب الأعداء فنحن على أتم استعداد لمساعدة شريف مكة فى قضيته، وتقديم كل ما يريده من مساعدة» فأطلع الأمير والده عليه فقال له «ليس فى استطاعتى أن أعمل شيئا قبل أن أستشير العرب وأسألهم رأيهم» فكتب الأمير بذلك إلى المستر ستورس متمهلا وواعدا بتقديم اقتراحات معينة فى المستقبل.

***

وانصرف الحسين فى خلال هذه الفترة إلى درس الموقف وإنعام النظر فيما يجب عمله فرأى أن يوفد نجله فيصلا إلى الشام والآستانة للإشراف على الحالة هنالك وللاجتماع برجال العرب فى دمشق وحلب، وللاتصال بأقطاب تركيا، فسافر إلى المدينة ومنها إلى دمشق والآستانة وفعل مافعله وقد بسطناه فى الفصل السابق ثم عاد إلى مكة فأطلع والده وأخوته عل ماتم معه، فذهب الكل إلى الطائف وعقدوا مؤتمرهم فى شهر أكتوبر سنة ١٩١٥ وفيه قرروا إعلان الثورة بالاتفاق مع الإنجليز على أساس استقلال العرب وتحريرهم. ومما قرروه فى هذا المؤتمر أن يعود فيصل إلى الشام فيتصل برجال العرب فيها، وكانوا يفكرون فى أن تبدأ الثورة هنالك فيدرس التدابير، ويضع الخطط لتكون عامة

تشتمل الحجاز والشام، وأن يسافر على إلى المدينة ويقيم فيها تحت ستار قيادة المتطوعين. فيتفق مع شيوخ القبائل وينظم أمرهم استعدادا للثورة، وأن يتولى الأمير عبد الله تنظيم قبائل، الطائف والقبائل المجاورة لمكة ويعدمعدات العمل، وأن يشترك مع والده فى المكاتبات التى تدور مع الإنجليز. ولما رجعوا من الطائف انصرف كل منهم إلى إتمام ما اختص به.

اتصال الإنجليز باللامركزيين بمصر

وبينما كانت المكاتبات السرية دائرة بين دار الحماية بمصر وشريف مكة كان المستر ستورس يتصل بأقطاب حزب اللامركزية فى القاهرة ويباحثهم ويدعوهم إلى زيارته فى قصر الدوبارة، ويسألهم عن خططهم فيما لو دخلت تركيا الحرب، وماذا يكون موقفهم لو عمل الحلفاء على استقلال بلاد العرب. وهل يستطيع العرب مؤازرتهم والنهوض بأعباء استقلالهم؟. فأجابوه أن العرب يتمنون استقلالهم وإعادة غابر مجدهم إذا كان لابد من انهيار دولة الترك. وهم على استعداد لتأييد كل حركة ترمى إلى استقلال العرب مهما كان شأنها.

وبعد محادثات عديدة تم الاتفاق على أن يكتبوا شروطهم الخاصة باستقلال العرب وأن يعرض اللورد كتشنر هذه المطالب على بريطانيا حتى إذا وافقت عليها أعلنتها رسميا بواسطة شركة روتر، فيعرفها العالم على أن تتعهد بحمل حلفائها على قبول هذا العهد للأمة العربية، حتى لايكون ثمة مجال للطمع فى الأقطار العربية، وفى مقابل ذلك تتعهد الهيئات العربية السياسية بالسعى لإيقاد الثورات فى البلاد العربية لشل حركة الجيش العثمانى، وفعلا كتب هذا البيان وأرسل إلى لندن.

وكان من مقتضى هذه الحركة أن ينتدب رجال اللامركزية إلى البلاد العربية رسلا يثقون فيهم لدرس الحالة فيها، وللاتصال بزعمائها ومفكريها لاطلاعهم على ما وقع، على أن تتولى دار الحماية دفع نفقاتهم، وهكذا غادر القاهرة إلى البصرة محب الدين الخطيب، كما سافر الشيخ محمد القلقيلى إلى سورية وفلسطين، وذلك قبل دخول تركيا الحرب طبعا، وقد عاد ثانيهما على الفور ولم يطل الإقامة فى دمشق وبيروت لأنه خاف سوء العاقبة. أما الأول فقد قبض عليه الإنجليز فى البصرة وألقوه نحو عشرة أشهر فى غياهب السجون، وبعد أسابيع عاد البيان من انجلترا مشوها مبتورا فلم يرض ذلك اللامركزيين، فقطعوا المفاوضات وأمسكوا عن العمل.

نصوص المكاتبات السرية

وهانحن نثبت نصوص المكاتبات السرية التى دارت يومئذ بين الشريف والإنجليز مراعين تسلسلها التاريخى.

١

من الشريف حسين إلى السير هنرى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٨ رمضان سنة ١٣٣٣ (١٤ يوليو سنة ١٩١٥)

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر، سلمه الله:

أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتى واحتراماتى، وأرجو أن تعملوا كل مافى وسعكم لتنفيذ المذكرة إليكم طيه، المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية

وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم ولحكومتكم أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا، لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة.

ثم يجب أن لا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب، لإلقاء المناشير، وإذاعة الشائعات، كما كنتم تفعلون من قبل، لأن القضية قد قررت الآن.

وأنى لأرجوكم هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية، لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضى المقدسة «مكة والمدينة» التى أوقف إرسالها منذ العام الماضى.

وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا العام، والعام الفائت، سيكون له أثر فعال فى توطيد مصالحنا المشتركة. وأعتقد أن هذا يكفى لاقناع رجل ذكى مثلكم، أطال الله بقاءكم.

حاشية ـ أرجو أن لاتزعجوا أنفسكم بإرسال أى رسالة، قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا، خلا الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه.

ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا، كما نرجو أن تعطوه بطاقة ليسهل عليه الوصول إليكم عند مانجد حاجة لذلك.

والرسول موثوق به.

المـــذكرة

لما كان العرب بأجمعهم ـ دون استثناء ـ قد قرروا فى الأعوام الأخيرة أن يعيشوا، وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظريا وعمليا بأيديهم. ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إل أمانيهم المشروعة، وهى الأمانى المؤسسة على بقاء شرفهم، وكرامتهم وحياتهم..

ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى بالنظر لمركزهم الجغرافى، ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا..

أنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربى أنه من المناسب أن يسأل الحكومة البـريطانيـة إذا كـانت ترى من المناسب أن تصـادق بواسطة مندوبهـا أو ممثلهـا على الاقتراحات الأساسية الآتية:

أولا ـ أن تعترف انجلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين ـ أدنه، حتى الخليج الفارسى شمالا، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا، ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوبا يستثنى من ذلك عدن التى تبقى كما هى ـ ومن البحر الأحمر، والبحر المتوسط حتى سينا غربا.

على أن توافق انجلترا أيضا على إعلان خليفة عربى على المسلمين.

ثانيـا ـ تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انجلترا فى كل مشروع اقتصادى فى البلاد العربية ، إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية.

ثالثـا ـ تتعاون الحكومتان الإنجليزية والعربية فى مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظا لاستقلال البلاد العربية. وتأمينا لأفضلية انجلترا الاقتصادية فيها...

على أن يكون هذا التعاون فى كل شيئ، فى القوة العسكرية، والبحرية، والجوية..

رابعـــا ـ إذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما ونشب بينه وبينها قتال وعراك، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد. على أن هذا الفريق المعتدى إذا رغب فى إشراك الفريق الآخر معه ففى وسع الفريقين أن يجتمعا معا وأن يتفقا على الشروط.

خامسا ـ مدة الاتفاق فى المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة.

وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء «مدة الاتفاقية بعام».

هذا ولما كان الشعب العربى بأجمعه قد اتفق «والحمد لله» على بلوغ الغاية وتحقيق

الفكرة مهما كلفه الأمر، فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلبا أوإيجابا فى خلال ثلاثين يوما من وصول هذا الاقتراح. وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق من الحكومة جوابا فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء.

وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا ـ إذا لم يصل الجواب ـ أحرارا فى القول والعمل من كل التصريحات، والوعود السابقة التى قدمناها بواسطة على أفندى.

٢

من مكماهون إلى الشريف

مصر فى ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ (٣٠ أغسطس سنة ١٩١٥)

إلى الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار، فرع الشجرة المحمدية، والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع، والمكانة السامية، السيد ابن السيد، والشريف ابن الشريف، السيد الجليل المبجل دولة الشريف حسين باشا، وسيد الجميع، أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين، عمت بركته الناس أجمعين.

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة، أعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص والإحساسات نحو انجلترا. وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالك برأى واحد وعقيدة واحدة وهى أن مصالح العرب هى مصالح انجلترا ومصالح انجلترا هى مصالح العرب.

وأود بهذه الرسالة أن أؤكد لكم ما قاله اللورد كتشنر فى الرسالة التى وصلتكم بواسطة على أفندى، وهى الرسالة التى أوضح لكم فيها بصراحة رغبتنا فى استقلال البلاد العربية وسكانها وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربيا عندما تعلن الخلافة، ونصرح مرة أخرى أن حكومة صاحب الجلالة تميل إلى أن يكون الخليفة عربيا عريق العروبة. أما مايتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا فى مثل هذه التفاصيل ـ والوقت قصير والحرب قائمة ـ سابقا لأوانه. وخاصة أن تركيا لا تزال تحتل قسما كبيرا من الأراضى التى أشرتم إليها فى اقتراحكم احتلالا تاما.

ثم يجب أن أضيف إلى ذلك، أننى علمت بدهشة وألم أن بعض العرب فى هذه الأقسام لا يرغبون فى مساعدتنا، بل يقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح للألمان والأتراك، أعنى للهدامين الجدد، الظالمين القدماء.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا على استعداد لأن نرسل لفخامتكم المنح المطلوبة للأراضى المقدسة حالما تعلموننا كيف وأين ترغبون تسلمها، ونحن نهيئ الأسباب اللازمة ليتمكن رسولكم من الوصول إلينا بكل أمان وسلام.

وتفضلوا بقبول احتراماتنا

التوقيع «أ. هـ ماكماهون».

٣

من الشريف إلى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ (٩ سبتمبر سنة ١٩١٥).

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر، سلمه الله

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ فى ١٩ شوال وطالعته بكل احترام واعتبار رغم شعورى بغموضه وبرودته فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية. أعنى نقطة الحدود.

وأرى من الضرورى أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى، واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع فى كل الشؤون، وفى أى شكل، وفى أية ظروف، ويجب أن أؤكد لكم أيضا أن مصالح اتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التى ذكرتها لكم.

ويعذرنى فخامة المندوب إذا قلت بصراحة أن «البرودة» و «التردد» اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله أن البحث فى هذه الشؤون إنما هو إضاعة للوقت، وإن تلك الأراضى لاتزال بيد الحكومة التى تحكمها.. يعذرنى فخامته إذا قلت إن هذا كله يدل على عدم الرضا، أو على النفور أو على شيئ من هذا القبيل.

فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه، ومفاوضته بعد الحرب بل هى مطالب شعب يعتقد أن حياته فى هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد مع الدولة التى يثقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال وهى بريطانيا العظمى.

وإذا أجمع هؤلاء على ذلك فإنما يجمعون عليه فى سبييل الصالح المشترك. وهم يرون أنه من الضرورى جدا أن يتم تنظيم الأراضى المجزأة، ليعرفوا على أى أساس يؤسسون حياتهم. كيلا تعارضهم انجلترا أو إحدى حليفاتها فى هذا الموضوع مما يؤدى إلى نتيجة

معاكسة، الأمر الذى حرمه الله.

وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا - فى تلك الحدود - مناطق يقطنها شعب أجنبى. بل هى عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها.

أما الخلافة فإن الله يرضى عنها، ويسر الناس بها

وأنا على ثقة ياصاحب الفخامة، أنكم لا تشكون قط بأنى لست أنا شخصيا الذى يطلب تلك الحدود التى يقطنها عرب مثلنا، بل هى مقترحات شعب بأسره، يعتقد أنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية.

أو ليس هذا صحيحا يا فخامة الوزير؟

وبالاختصار فإننا ثابتون فى إخلاصنا، نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا - كما قيل - أو غاضبين!

أما مايتعلق فى قولكم بأن قسما من شعبنا لايزال يبذل جهده فى سبيل تأمين مصالح الأتراك، فلا أظن أن هذا يبرر «البرودة» و«التردد» اللذين شعرت بهما فى كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود، الموضوع الذى لا أعتقد أن رجلا مثلكم ثاقب الرأى ينكر أنه ضرورى لحياتنا الأدبية والمادية.

وأنا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة الإسلامية فى كل عمل أقوم به، وأراه مفيدا وصالحا لبقية المملكة، وإنى سأستمر فى هذا إلى أن يأمر الله بغير ذلك!

وأود هنا ياصاحب الفخامة، أن أؤكد لكم بصراحة أن كل الشعب - ومن جملته هؤلاء الذين تقولون أنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا - ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود، وقضية المحافظة على ديانتهم، وحمايتهم من كل أذى أو خطر.

وكل ماتجده الحكومة البريطانية موافقا لسياستها، فى هذا الموضوع، فما عليها إلا أن تعلمنا به، وأن تدلنا على الطريق التى يجب أن نسلكها

ولذلك نرى من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب إليكم فى أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا فى بيروت وسواحلها.

ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هى آمن على مصالح انجلترا من خطة انجلترا على مصالحنا، ونعتقد أن وجود هؤلاء «الجيران» فى المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها.

وفوق هذا فإن الشعب البيروتى لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء، وقد يضطرونا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة، تفوق فى صعوبتها المتاعب الحاضرة.

وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة.

وأنا أصرح بهذا، رغم أنى أعتقد وأؤمن بالتعهدات التى قطعتموها فى كتابكم

ويستطيع معالى الوزير، وحكومته أن يثقا كل الثقة بأننا لانزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التى عرفها مستر ستورس منذ عامين.

ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التى تناسب موقفنا، وخاصة فيما يتعلق بالحركة التى أضحت قريبة، والتى يدفعها إلينا القدر بسرعة ووضوح، لنكون حجة ـ نحن والذين يرون رأينا ـ فى العمل ضد تركيا، ودون أن نتعرض للوم والنقد.

وأعتقد أن قولكم «بأن بريطانيا لا تحثكم ولا تدفعكم للإسراع فى حركتكم مخافة أن يؤدى هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم» لا يحتاج إلى إيضاح.. إلا فيما يتعلق بمطالبكم بالأسلحة والذخائر عند الحاجة...

أعتقد الآن أن فى هذا كفاية....

٤

من مكماهون إلى الشريف

القاهرة فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ (١٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٣)

إلى شريف مكة «مع الألقاب»

تلقيت كتابكم المؤرخ فى ٢٩ شوال بكثير من الغبطة والسرور، وكان للعبارات الودية المخلصة التى وردت فيه أكبر تأثير فى نفسى.

وأنه ليؤسفنى إنكم لاحظتم فى كتابى الأخير، وحديثى عن قضية الحدود، شيئا من «البرودة» والتردد. مع أننى لم أكن أقصد ذلك، بل كنت أود أن أقول بأن الوقت لم يحن بعد للبحث فيها بحثا منتجا.

هذا كل ما أردت قوله. وقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعلقون أهمية كبرى على قضية الحدود، وأنكم تعتبرونها من المسائل الحيوية ، فأرسلت مضمون كتابكم إلى الحكومة

البريطانية، وأنه ليسرنى أن أرسل إليكم البيانات التالية، التى أثق كل الثقة بإنها ستفوز برضائكم

إن «مرسين» و«اسكندرونة» وبعض الأقسام السورية الواقعة فى غربى دمشق وحمص، وحماه، لا يمكن أن يقال عنها إنها عربية محضة.

فيجب أن تستثنى من الحدود التى ذكرتموها ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات، على أن لاتنفض شيئا من اتفاقاتنا مع الزعماء العرب.

أما الأراضى التى تستطيع انجلترا العمل فيها بملء الحرية ودون أن توقع ضررا بحليفتها فرنسا فإن لى السلطة التامة باسم الحكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جوابا على كتابكم:

١ ـ إن انجلترا مستعدة ـ على أساس تلك التعديلات ـ أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم فى الحدود التى اقترحها شريف مكة.

٢ ـ تحمى بريطانيا الأراضى المقدسة من كل اعتداء خارجى، وتعترف بوحدتها.

٣ ـ تقدم بريطانيا للعرب ـ عند الحاجة ـ كل مساعدة، أو نصيحة تلزم، وتعاونهم فى تشكيل أفضل شكل من أشكال الحكومات فى مختلف البلاد العربية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن العرب يوافقون على الاقتصار على استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها، ويرضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون إليهم لتنظيم دوائر من التبعة الإنجليزية.

أما ما يتعلق بولايتى البصرة وبغداد فإن العرب يعرفون أن مراكز انجلترا ومصالحها فيها ، تتطلب شكلا إداريا خاصا، ومراقبة خاصة للمحافظة على تلك الانحاء من الاعتداءات الخارجية وتأمين راحة، واطمئنان السكان، وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها.

وإنى لعلى ثقة بأن هذا التصريح يجعلكم أبعد ماتكونون عن الشك فى عطف بريطانيا على أمانى أصدقائها «التقليديين» العرب، ويؤدى حتما إل التحالف، والعمل على طرد الأتراك من البلاد العربية، وإنقاذ العرب من النير التركى، الذى كان ومايزال يضغط على أعناقهم منذ أعوام.

لقد قصرت كتابى هذا على الشؤون العظيمة الأهمية، فإذا كان لديك شؤون أخرى ترغبون فى المذاكرة بشأنها، ولم أشر إليها فى كتابى هذا، فإن فى وسعنا البحث فيها فى فرصة مناسبة فى المستقبل.

وقد تلقيت بالسرور والرضاء، نبأ وصول المحمل الشريف، والهدايا المرسلة بكل دقة ونظام بفضل التعليمات والارشادات القيمة التى قدمتموها، وذلك بالرغم من الأخطار والمصاعب التى خلقتها الحرب الحاضرة.

أرجو من الله أن يعيد السلام والأمان والحرية سريعا إلى جميع الشعوب.

لقد أرسلت إليكم هذا الكتاب بواسطة رسولكم النشيط الأمين الشيخ محمد بن عارف عريفان، وهو سيطلعكم على بعض الشؤون التى لم أذكرها فى كتابى.

«أ. هنرى مكماهون»

٥

من الشريف إلى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ (٥ نوفمبر سنة ١٩١٥)

إلى السير ماكماهون «مع الألقاب»

لقد تلقيت بسرور كتابكم الكريم المؤرخ فى ١٥ ذى الحجة، وها أنا أجيبكم عليه بما يلى:

١ ـ رغبة فى تسهيل الاتفاق، وخدمة الإسلام، واجتناب كل مامن شأنه تعكير صفو المسلمين، واعتمادا على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة فإننا نتنازل عن اصرارنا فى ضم مرسين وأدنه، إلى المملكة العربية.

أما قضية حلب وبيروت، وسواحلها فهى عربية صرفا، وليس هنا فرق بين المسلم العربى، والمسيحى العربى، فكلاهما من نسل واحد.

وسنسير ـ نحن المسلمين ـ على خطة سيدنا عمر بن الخطاب وسواه من الخلفاء الذين فرضوا على المسلمين ـ بموجب الديانة الإسلامية ـ أن يعاملوا المسيحيين كما يعاملوا أنفسهم. وقد قال سيدنا عمر فى حديث له عن المسيحيين بإن لهؤلاء مالنا من حقوق وواجبات.

وعلى هذا فإن المسيحيين سيتمتعون بما نتمتع به من حقوق، بما يتفق ومصلحة الشعب أجمع.

٢ ـ لما كان العراق قسما من المملكة العربية، وكان مركز حكوماتها فى عهد على ابن أبى طالب، والخلفاء الذين تبعوه، ولما كان هذا القطر مهدا لحضارة العرب ومدنيتهم، وفيه أنشئت أبنيتهم الأولى، وفيه عظمت قوتهم، فإن العرب القريبين والبعيدين، ينظرون إلى هذا القطر نظرة اعتبار خاصة، ولا يستطيعون أن ينسوا تقاليدهم وذكرياتهم.

ولذلك أعتقد أنه ليس فى المستطاع إقناع الشعب العربى بالتناول عن هذا القطر. إنما رغبة فى تسهيل الاتفاق واعتمادا على عهودكم فى المادة الخامسة من كتابكم، وحفظا لمصالحنا المشتركة فى هذا القطر، فقد نوافق أن نترك الآن لمدة قصيرة الأراضى التى تحتلها الجيوش الإنجليزية، تحت إدارة انجلترا، لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة، واحترام اتفاقكم مع شيوخها.

٣ ـ إذا كنتم ترغبون فى الاسراع بالثورة فإننا نرى أمامنا كثيرا من المخاوف، وأول مانخشاه أن يقوم مسلمو الطرف الآخر ويلومونا على حركتنا وثورتنا على حكومة إسلامية.

ثم هناك أمر آخر نخشاه، وهو أننا إذا وقفنا فى وجه الأتراك ووراءهم جميع القوى الألمانية، فإننا لا نستطيع أن نعرف، إذا كان من الممكن أن تضعف إحدى الدول المخالفة وتطلب الصلح تتركنا انجلترا وحدنا أمام الأتراك أم لا؟

٤ ـ إن الأتراك لا يكادون يروننا وحيدين حتى يعمدوا إلا الانتقام منا فيعبثوا بحقوقنا المادية والمعنوية، ويعتدوا على كرامتنا وشرفنا بمساعدة حليفتهم ألمانيا.

٥ ـ عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا العظمى هى حليفتهم لا تدعهم وحدهم عند انتهاء الحرب وعقد معاهدة الصلح وتمد يدها دوما لمساعدتهم والدفاع عنهم، عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة لا يشوبها شيئ من الخوف والحذر

٦ ـ إن كتابنا المؤرخ فى ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ يغنينا على ما أعتقد عن إعادة رأينا فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الأخير بشأن الإدارة والاستشارة الحكومية والموظفين على أن لا يكون ـ كما صرحتم ـ تدخل فى الشؤون الداخلية.

٧ ـ إننا ننتظر وصول جوابكم النهائى الصريح على هذه الاقتراحات بأسرع مايمكن فقد أبدينا كل تساهل فى الموضوع فى سبيل الوصول إلى اتفاق يرضى الفريقين ونحن نعرف أن نصيبنا من هذه الحرب أما نجاح يؤمن للعرب حياة تتفق وتاريخهم القديم،

أو انقراض فى سبيل الوصول إلى أمانيهم ومطالبهم.

ولو لم أكن أعرف أن العرب بأجمعهم مستعدون للتضحية بأرواحهم فى سبيل الوصول إلى أمانيهم، لكنت أفضل أن أصعد إلى رأس جبل وأنزوى فيه، ولكن العرب بأسرهم يصرون علىّ بأن أقود حركتهم حتى النهاية.

وليحفظكم الله، وينصركم...

٦

من مكماهون إلى الشريف

القاهرة ١٣ ديسمبر سنة ١٩١٥ (٩ صفر سنة ١٣٣٤)

وبعد. فقد وصلنى كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذى الحجة وسرنى مارأيت فيه من قبولكم إخراج ولايتى مرسين وأدنة من حدود البلاد العربية، وقد تلقيت أيضا بمزيد السرور والرضا تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وغيره من السادة الخلفاء الأولين، التعاليم التى تضمن حقوق الأديان وامتيازاتها على السواء. هذا وفى قولكم إن العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعا أن هذا يشمل البلاد الداخلة فى حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء.

أما بشأن ولايتى حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامة، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيهما فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق، وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى فى الوقت المناسب.

إن حكومة بريطانيا العظمى ـ كما سبقت فأخبرتكم ـ مستعدة لأن تعطى كل الضمانات والمساعدات التى فى وسعها إلى المملكة العربية ولكن مصالحها فى ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة، وإننا نستصوب تماما رغبتكم فى اتخاذ الحذر، ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم، ولكنا فى الوقت نفسه نرى من الضرورى جدا أن تبذلوا كل مجهوداتكم فى جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة، وأن تحثوهم على أن لا يمدوا يد المساعدة لأعدائنا بأى وجه كان. فإنه على نجاح هذه المجهودات وعلى

التدابير الفعلية التى يمكن للعرب أن يتخذوها الاسعاف غرضنا عندما يجئ وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته. وفى هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا قد فوضت إلىّ أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوى إبرام أى صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك.

هذا وعربونا على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم فى مجهوداتكم فى غايتنا المشتركة فإنى مرسل مع رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه. وأقدم فى الختام عاطر التحيات القلبية.

٧

من الشريف إلى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٥ صفر سنة ١٣٣٣ (أول يناير سنة ١٩١٦)

تلقينا كتابيكم المؤرخين فى ٩ صفر فسرنى ماجاء فيهما، وذهب ماكان يقلقنى وأظن أن فخامتكم قد أدركتم بعد وصول الشريف محمد فاروق واجتماعه إليكم بإن أعمالنا حتى الآن لم تكن لغايات وميول شخصية، بل إن كل شيئ كان نتيجة مطالب ورغائب شعبنا، وإننا لسنا سوى ناقلين ومنفذين لرغائب الشعب وإلحاحه

وهذه الحقائق هى دوما فى فكرى أهتم لها كل الاهتمام، وأرجو أن تجد فى نفسكم مكانها من الانتباه والاعتبار.

إن ما يتعلق بقضية العراق، وقضية التعويض الذى اقترحناه لقاء احتلاله فإننى رغبة فى تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا فى القول والعمل، أدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وعدالتها.

أما ما يتعلق بالأقسام الشمالية ومرافئها أبدينا لكم فى كتابنا السابق أقصى مايمكن أن نوافق عليه من تعديلات ونحن لم نتساهل هذا التساهل إلا لتحقيق الرغائب التى يريدها الله العلى الأعلى أن تتحقق.

وهذا الشعور هو الذى حدانا لأن نتجنب كل ما من شأنه أن يسئ إلى تحالف انجلترا أو فرنسا، والاتفاق المعقود بيهما خلال هذه الفترة ومصائبها.

٨

من مكماهون إلى الشريف

القاهرة فى ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٣٤ ٣٠ يناير سنة ١٩١٦

تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ فى ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق به، واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية.

وأننا لنقدر حق التقدير الدوافع التى تقودكم فى هذه القضية الهامة، ونعرف جيدا أنكم تعملون فى صالح العرب، وأنكم لا ترمون إلى شيئ - فى عملكم - غير صالحهم وحريتهم وقد عنيت عناية خاصة بملاحظاتكم بشأن ولاية بغداد، وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عند ماتتم هزيمة الأعداء، ونصل إلى التسويات السلمية.

أما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم فى تجنب كل مامن شأنه الإساءة إلى تحالف انجلترا وفرنسا، وسررت جدا بإبداء مثل هذه الرغبة.

وأظنكم تعرفون جيدا أننا مقررون قرار نهائيا بالا نسمح بأى تدخل - مهما قل شأنه - فى اتفاقنا المشترك فى إيصال هذه الحرب إلى الفوز، ثم متى انتهت الحرب فإن صداقة فرنسا وانجلترا ستقوى وتشتد، وهما اللتان بذلتا الدماء الإنجليزية والفرنسية جنبا إلى جنب فى سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات.

والآن .. وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا فى الدفاع عن الحقوق والحريات وتعمل معنا فى سبيل القضية الهامة، فإننا لنرجو الله أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد، صداقة دائمة، تعود على الجميع بالسرور والغبطة.

وقد سررنا جدا للحركة التى تقومون بها لإقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا. ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب، لاتخاذ تدابير أوسع من هذه.

٩

من الشريف إلى مكماهون

مكة فى ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ ٢٠ فبراير ١٩٧٦

إلى صاحب السعادة... [١]

١ - لم نوفق إلى العثور على النص الكامل لهذا الكتاب فاكتفينا منه بهذه الخلاصة الموجزة وهى كل ماوجدناه.

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم الأخير المؤرخ ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٣٤ ـ ٣٠ يناير سنة ١٩١٦ وأحطت علما بما جاء فيه، وسأعمل إن شاء الله لجمع كلمة العرب لنبدأ العمل قريبا بإذن الله.

١٠

من مكماهون إلى الشريف

القاهرة فى ١٠ مارس سنة ١٩١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤

بعد مايليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحتشام وتقديم خالص التحية والسلام وشرح عوامل الألفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية أرفع إلى دولة الأمير المعظم أننا تلقينا رقيمكم المؤرخ فى ١٤ ربيع الآخر من يد رسولكم الأمين، وقد سررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التى تنوونها وأنها لموافقة فى الأحوال الحاضرة، وأن حكومةجلالة الملك صادقت على جميع مطالبكم، وإن كل شيئ رغبتم الإسراع فيه وفى إرساله فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة وتبقى فى (بورت سودان) تحت أمركم لحين ابتداء الحركة وإبلاغنا إياها بصورة رسمية كما ذكرتم بالمواقع التى يقتضى سوقها إليها، والوسائط التى سيكون حاملو الوثائق لتسليمها إياهم.

إن كل التعليمات التى وردت فى محرركم قد أعلمنا بها محافظ بورت سودان، وهو سيجريها حسب رغبتكم، وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لإرسال رسولكم حامل خطابكم الأخير إلى جيزان حتى يؤدى مأموريته، التى نسأل الله أن يكللها بالنجاح وحسن النتائج، وسيعود إلى بورت سودان، وبعدها يصلكم بحراسة اللّه ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله.

وننتهز الفرصة لنوضح لدولتكم فى خطابنا هذا ماربما لم يكن واضحا لديكم، أو ما عساه أن ينتج سوء تفاهم. ألا وهو يوجد فى بعض المراكز والنقط المعسكرة فيها بعض العساكر التركية على سواحل بلاد العرب. يقال إنهم يجاهرون بالعداء لنا والذين هم يعملون على ضرر مصالحنا الحربية البحرية فى البحر الأحمر. وعليه نرى أنه من الضرورى أن نتخذ التدابير الفعالة ضدهم، ولكننا قد أصدرنا الأوامر القطعية أنه يجب

على جميع بوارجنا أن تفرق بين عساكر الأتراك الذين يبدأون بالعداء وبين العرب الأبرياء الذين يسكنون تلك الجهات. لأنا لا نقدم للعرب أجمع إلا كل عاطفة ودية. وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكونوا على بينة من الأمر إذا بلغتم خبرا مكذوبا عن الأسباب التى تضطرنا إلى عمل من هذا القبيل.

وقد بلغتنا إشاعات مؤداها أن أعداءنا الألداء باذلون جهدهم فى أعمال السفن ليثبتوا بها الألغام فى البحر الأحمر ولإلحاق الأضرار بمصلحتنا فى ذلك البحر، وإنا نرجوكم سرعة إخبارنا إذا تحقق لديكم ذلك.

وقد بلغنا ان ابن الرشيد قد باع للأتراك عددا عظيما من الجمال، وقد أرسلت إلى دمشق الشام، ونؤمل أن تستعملوا كل مالكم من التأثير عليه حتى يكف عن ذلك، وإذا هو صمم على ماهو عليه أمكنكم عمل الترتيب مع العربان الساكنين بينه وبين سورية أن يقبضوا عل الجمال حال سيرها، ولا شك أن فى ذلك صالح لمصلحتنا المتبادلة.

وقد يسرنى أن أبلغ دولتكم أن العربان الذين ضلوا السبيل تحت قيادة السيد أحمد السنوسى، وهم الذين أصبحوا ضحية دسائس الألمان والأتراك قد ابتدأوا يعرفون خطأهم، وهم يأتون إلينا وحدانا وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد إليهم، وقد هزمنا - والحمدلله - القوات التى جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا، وقد أخذت العرب تبصر الغش والخديعة التى حاقت بهم وإن لسقوط (أرضروم) من يد الأتراك، وكثرة انهزاماتهم فى بلاد القوقاس تأثيرا عظيما هو فى مصلحتنا المتبادلة، وخطوة عظيمة فى سبيل الأمر الذى نعمل له وإياكم. ونسأل الله عز وجل أن يكلل أعمالكم ومساعيكم بالنجاح وبالختام.

أنجال الملك حسين الأربعة



الملك علي



الأمير عبد الله



الملك فيصل



الأمير زيد

ـ ٨ ـ

إعلان الثورة فى الحجاز
المعارك الأولى حول المدينة المنورة

كان سفر الأميرين على وفيصل والمتطوعة من معسكر سيدنا حمزة أول صباح يونيو سنة ١٩١٦ أول نذير أنذر به الترك بخروج العرب عليهم وانفضاضهم من حولهم.

واتجه الأميران بعد مغادرتهما المعسكر إلى الخانق سالكين الطريق الشرقى، ثم عادا فى الغداة إلى بيار على وهى واقعة إلى الغرب الجنوبى من المدينة فخيما فيها، وكاتبا القبائل، وأخذا يجمعان القوى والأنصار، ولا يخفى أن الأمير عليا أنشأ خلال إقامته فى المدينة المنورة صلات وثيقة مع شيوخ حرب وجهينة وبلى وبنى سالم ومسروح، وأخذ عليهم العهود بأن ينضموا إلى الثورة ويقاتلوا معها، وهذا هو السر فى شكاوى الترك منه ـ فما كانوا بغافلين عما يعمله ـ وإلحاحهم على والده باستدعائه، وفى يوم ٨ منه هاجما بستة آلاف مقاتل محطة المحيط، واشتبكوا مع حاميتها. فدارت أول معركة بين الترك والعرب، وأستأنفا الغارة صباح ٩ منه فهاجما الحسا فخرج للقائهما فخرى باشا على رأس قوة كبيرة فدارت معركة امتدت من الصباح حتى الظهر وانتهت بإرتداد المهاجمين حتى بير الماشى، لنفاد نخائرهم، ثم إلى الغدير وهنالك افترقا: فتولى فيصل قيادة قسم من القبائل وسلك بها الطريق الغربى ـ أى أنه اختص بالعمل على طريق المدينة ـ ينبع كما اختص على بالعمل على الطريق الشرقى مكة ـ المدينة.

على هذا المنوال بدأت المعارك حول المدينة بين العرب والترك قبل أن تعلن الثورة وسميا، أما فى منطقة الطائف، وقد اختص بالعمل فيها الأمير عبد الله، فقد بدأ القتال مساء يوم الجمعة ٩ يونيو (٨ شعبان) وكان الأمير قد استعد له سرا من قبل، عقد المواثيق مع قبائل عتيبة وثقيف وهذيل وسبيع وبنى الحارث.

وبيان ذلك أنه لما تم الاتفاق على إعلان الثورة غادر مكة متظاهرا بأنه ذاهب لتأديب قبيلة البقوم العاصية. فبلغ الطائف يوم ٥ شعبان، وكان فيها غالب باشا والى الحجاز وقائده العسكرى العام للاصطياف ـ كما كان فيها أحمد بك قائد الفرقة العسكرية ومعظم ضباط هذه الفرقة، مع عدد من الجند لا يقل عن ٣٥٠٠ مقاتل.

وشعر الترك بما يدبره الأمير عبد الله فى الخفاء وأدركوا إن المسألة ليست مسألة

تأديب البقوم، فذهب أحمد بك قائد الفرقة إلى غالب باشا، وطلب إليه أن يصدر أمرا باعتقال الأمير خوفا من النتائج. فقال إن اعتقاله يثير القوم علينا من دون لزوم وأبى أن ينفذه . وقد ظل قادة الترك بين أخذ ورد حتى يوم الجمعة ٨ شعبان ففى ذاك اليوم أعلن الأمير أنه منصرف بعد صلاة الجمعة لتأديب البقوم ولما كانت العادة المتبعة عندهم أن يأتى لوداع الوالى قبل سفره فقد وقع خلاف بين رجال حاشيته، وكانوا لا يجهلون حالة الترك النفسية ومابين رجالهم من اختلاف، فمنهم من قال باجتناب الذهاب خوفا من القبض على الأمير فتفسد الخطة، ومنهم من قال إن ذهابه يورث القوم اطمئنانا . ويؤدى إلى تسكين ثائرتهم. وأخيرا صحت عزيمة الأمير على الذهاب مهما كانت النتائج فغادر داره قاصدا مقر الوالى، وكان عليه أن يخترق القشلاق العسكرى لبلوغه، وقد دهش الضباط الترك - وكانوا مجتمعين مع الجند - حينما رأوه داخلا عليهم بمفرده وحيوه التحية العسكرية، ولم يتعرضوا له فمضى حتى دخل على الوالى، فاستقبله مرحبا وأظهر ارتياحه إلى زيارته فأبلغه أنه قرر الانصراف بعد الظهر لأداء مهمته، فتمنى له التوفيق ثم قام لوداعه فتعانقا وبكى الوالى، وكان مشهدا مؤثرا. وهكذا عاد الأمير إلى مقره سالما وفى الساعة الثانية بعد الظهر غادر الطائف مع رجاله متجها نحو الشرق فكان أول ما فعله بعد ما أصبح خارجها إصداره الأمر إلى رجاله بتقطيع الأسلاك البرقية والتليفونية، ثم هاجموا الترك فى المساء (مساء ٨ شعبان).

وبدأت الثورة فى مكة يوم السبت ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ و١٠ يونيو سنة ١٩١٦ وذلك أن الحسين أوعز إلى رجاله، وكان قد أعدهم من قبل كما حصل فى المدينة والطائف بأن يهاجموا القشلاق العسكرى فى «جرول» وكان الترك غافلين عما يدبر لهم، وكان قادتهم وكبار ضباطهم فى الطائف، ويتولى القيادة بكباشى اسمه درويش بك. ففى ذلك الصباح بدأ الحسين نفسه الثورة بأن أطلق رصاصة من قصره على قشلاق الترك، فكانت الإعلان للثورة العربية الكبرى، كما كانت الإشارة التى اتفق علها بينه وبين رجاله فبدأوا الهجوم على أثرها . وكانوا قد احتشدوا فى مكان مجاور قبيل الفجر.

وأدرك درويش بك قائد الجند التركى حراجة الموقف، وعرف أن مصير جنده إلى الفناء لأنهم كانوا يقومون بالتمرينات الرياضية المعتادة فى خارج القشلاق بلا سلاح فعمد إلى الحيلة لانقاذهم فخاطب الشريف تليفونيا وسأله عن السبب فى ماوقع فأجابه «إ ن العرب لا يرضونكم حكاما عليهم بعد ماقتلتموهم وعاديتموهم» فأجابه «مادام الأمر كذلك فأرسل

من قبلك من تعتمد عليه لنسلمه السلاح والجند فنحن لا نريد إراقة الدماء عبثا».

فقصد الشريف شرف عبد المحسن البركاتى على الفور لمقابلة دوريش، وليتسلم الثكنة ومن فيها فقال له هذا «لابد من دخول الجند إلى الثكنة لاتمام عملية التسليم ولما كان ذلك غير مستطاع قبل أن يكف الثوار عن إطلاق النار ويرفعوا الحصار فأرجوك الإيعاز إليهم بالانصراف فندخل سوية ونجرى العملية المطلوبة» فانخدع الشريف وأمر الثوار بالتفرق فدخل الجند الثكنة فورا وتقلدوا سلاحهم وأخذوا أهبتهم للنضال ونبه أحد الضباط العرب الشريف فنجا بنفسه.

هاجم الشريف محسن بن أحمد منصور شيخ قبائل حرب جدة صباح الأحد (١٠ يونيو) على رأس أربعة آلاف مقاتل فتحصنت حاميتها التركية فى شمالها وجنوبها وصمدت للنضال، وقد اشتركت ثلاث بوارج بريطانية فى هذا الهجوم يوم ١٣ منه وأصلت أماكن الترك نيرانا حامية وهى: دفران وفوكس وهاردنج.

منشور إنجليزى

وطارت الطيارات البحرية البريطانية فى سماء يوم ١٤ منه وألقت على معسكر الترك المنشور الآتى:

«ومار بك بظلام للعبيد» إلى سعادة قائد القوات التركية وحضرات ضباطه الكرام بخط الدفاع بجدة:

أعلمكم علم اليقين وأخبركم بالحقيقة التى لا مراء فيها، وهى أن مكة المكرمة والطائف أصبحتا فى يد دولة أمير مكة المعظم الشريف حسين بن على وانتصاراته على الجيوش التركية متوالية. فقد أصبحت أرض الحجاز خالية بالمرة من دوائر الحكومة الاتحادية مع أعلامكم بأن الحركة لم تكن لتأسيس دولة خلافة عربية إسلامية، وإن العرب لا يكرهون الترك من حيث هم لأنهم مسلمون مثلهم، وإنما يريدون التخلص من الحكومة الاتحادية الجائرة التى تلعب بها ألمانيا والله على ماأقول شهيد. فبدلا من وقوفكم فى وجه العرب الذين لكثرة عددهم وعدتهم سيحرزون النصر المبين إن شاء الله بعد إزهاق الكثير من الأرواح، وبدلا من المقاومة التى لا نتيجة لها أنصح لكم أن تسلموا بدلا من أن تبيدوا عن آخركم ومهلتكم هى مجرد وصول هذا إليكم بعد رفضكم لهذا النصح تصب عليكم القنابل من السفن الهوائية، ومن البحر والبر حيث استعد لكم العرب بالمدافع الجبلية السريعة

ومدافع الميدان الحديثة والرشاشات السريعة وعلى كل حال فإنا لا تعد ذلك جبنا منكم، ولا إهانة لشرف رايتكم، ولكن الرجل المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه، ويتجاوز الأدب وهو كاره لتجاوزه. فلا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، وحسن رعايتكم بعد التسليم مضمون والعاقبة للمتقين.

الحكومة الإنجليزية

وفى يوم ١٦ يونيو رفعت حامية جدة راية التسليم فأنذرت بعدم اتلاف مدافعها وأسلحتها، وبلغ عدد الجنود الذين استسلموا ١٣٤٦ جنديا يقودهم ٤٧ ضابطا. أما الغنائم فهى ١٠ مدافع ميدان وأربع مدافع جبلية وأربع رشاشات مع كمية كبيرة من البنادق والعتاد.

وصول أول إمداد للثورة

وفى يوم ٢٧ يونيو وصل إلى جدة ولسن باشا حاكم بورسودان (الكولونيل ولسن) مندوبا من قبل السردار فى السودان (وهو سردار الجيش المصرى وحاكم السودان السير رجنلد ونجت ومندوب الملك بعد ذلك) ويحمل كتابا منه إلى الشريف يتضمن تهنئته بالنصر والاستقلال ويعرب عن إعجابه به وبرجولته، ويقول إنه من الإنجليز الذين يحبون الشرق، ولاسيما العرب من نعومة أظفارهم، وأنه أرسل مع هذه التحية قوة بسيطة من قبيل المساعدة مجهزة ببطارية ميدان وبطارية مكسيم، وثلاثة آلاف بندقية، وأن عدد رجال القوة هو ٣٢٠ جنديا معهم ٢٤٠ دابة وهم جميعا بقيادة اللواء السيد بك على (السيد باشا على بعد ذلك).

ويقال إن الشريف حاول رفض السلاح بحجة أنه لا حاجة له به، لأن المسألة بسيطة جدا عل على أن يطلب حاجته عند اللزوم ثم وافق بعد إلحاح على أن ترسل أربعة مدافع إلى رابغ، ويبقى اثنان فى جدة. أما مدافع مكسيم فتظل فى بورسودان إلى حين الطلب.

منشور الثورة

وفى يوم ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤و ٢٦ يونيو تم طبع منشور الثورة وقد وضعه الحسين بذاته، وبسط فيه الأسباب التى حفزته إلى مقاتلة الاتحاديين بسطا وافيا وهذا نصه الكامل[١]

١ ـ نقول الكامل لأن الإنكليز اختصروه حين وصل إلى أيديهم فى مصر واختزلوه، ونشروه مشوها كما ستراه

بسم الله الرحمن الرحيم

منشور عام من شريف مكة وأميرها إلى جميع إخوانه المسلمين.

«ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين»

كل من له إلمام بالتاريخ يعلم أن أمراء مكة المكرمة هم أول من أعترف بالدولة العلية من حكام المسلمين وأمرائهم، رغبة منهم فى جمع كلمة المسلمين، وإحكاما لعرى جامعتهم، لتمسك سلاطينها من (آل عثمان) العظام طاب ثراهم، وجعل دار الخلد مثواهم، بعروة الإيمان بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامة عليه، ولبناء أحكام دولتهم على الشريعة الغراء، ولنفس تلك الغاية السامية الرفيعة مازال الأمراء المشار إليهم يحافظون عليها حتى أننى حملت بالعرب على العرب بذاتى فى سنة سبع وعشرين وثلثمائة وألف ١٣٢٧ أثناء حصار (أبها) محافظة على شرف الدولة، وفى السنة التى تلتها كان مثل هذه الحركة تحت قيادة أبنائى. إلى غير ذلك مما هو فى هذا المعنى كما هو مشهود ومعهود - إلى أن نشأت فى الدولة جمعية الاتحاد، وتوصلت إلى القبض على إدارتها وجميع شؤونها بقوة الثورة فحادوا بها عن صراط الدين ومنهج الشرع القويم، ومهدوا السبل للمروق منه واحتقار أئمته - وسلبوا شوكة السلطان المعظم ماله من حق التصرف الشرعى والقانونى أيضا - وجعلوه هو ومجلس الأمة ومجلس الوكلاء منفذين للقرارات السرية لجمعيتهم الثورية - وأسرفوا فى أموال الدولة وحملوها الديون الفاحشة، التى لا يخفى أمر خطرها ووخامة عاقبتها على أحد - وأضاعوا عدة ممالك كبيرة من ممالكها - ومزقوا شمل الأمة العثمانية بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية بالقوة القاهرة، فأوقعوا بينها وبين العنصر الذى أرادوا تسويده عليها وإدغامها فيه العداوة والبغضاء - وخصوا العرب ولغتهم بالاضطهاد.

ولم يكتفوا بذلك كله حتى خاضوا بالدولة والأمة غمرات هذه الحرب الأوربية الساحقة الماحقة فوقفوا بالدولة موقف الهلكة، وألقوا بأيديهم إلى التهلكة، واستنزفوا باسمها ثروة الأمة، كما استنزفوا قبلها ثروة الدولة ثم اتخذوها ذريعة للفتك بجميع المخالفين لرأيهم فى سياستهم الخرقاء وإدارتهم الظالمة، والتنكيل بالعرب خاصة، حتى أن حرم الله سبحانه وحرم رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم لم يسلما من شرهم ، فأنهم عرضوهما للخوف والجوع والخراب.

أما انحرافهم عن صراط الدين فلا نأخذ فيه هنا مجرد ما اشتهر عن زعمائهم من

الكفر والالحاد فى الصحف الإسلامية والأوربية، ولا بما نعلم من سوء اعتقاد جمهور علماء الآستانة وغيرهم فيهم، بل نأخذ فيه بأقوالهم وأفعالهم ـ فمن باب الأقوال مانشروه فى دار السلطنة من الكتب والصحف التى جاهرت بالطعن فى الإسلام، وانتفاض ماعظم الله تعالى من قدر خاتم الرسل وقدر خلفائه الراشدين الكرام، ككتاب (قوم جديد) الذى اشتهر بما فيه من الكفر والضلال والإضلال، وتحريف نصوص الكتاب العزيز والسنة السنية، ومجلة (اجتهاد) التى شوهت أجمل سيرة فى الخلق وأشرفها، وهى سيرة المصطفى صلوات الله عليه وسلامة، ولايمكن أن تنشر أمثال هذه المطبوعات فى دار السلطنة على مرأى ومسمع من شيخ إسلامها وعلمائها، ومن رجال السلطنة ووزرائها، لولا أن والجمعية هى الناشرة لها.

وما بالنا نرى من ينتقد جمعيتهم، لو بحق يعاقبونه بالقتل أو بالنفى أو السجن المويد، ومن يطعن فى دين الله وصفوة خلقه يعزز ويكرم.

ومن باب الأفعال أنهم أبطلوا ماكان محتما على تلاميذ المدرسة الحربية وغيرها وعلى جميع العسكر من التزام الصلاة. فجعلوا الصلاة فى نظامهم العسكرى اختيارية غير واجبة توسلا بذلك إلى أبطالها بالفعل، وقد جعل كتاب (قوم جديد) لدينهم أركانا لا صلاة فيها ولا صيام ولا حج. ثم جاءت أوامرهم فى أثناء هذه الحرب إلى الجنود المقيمين فى مثل المدينة المنورة أو مكة المكرمة أو الشام تحتم عليهم الإفطار فى رمضان، بعلة المساواة بيهم وبين الجنود الذين يقاتلون فى حدود الروس، ولفقوا أقاويل لمعارضة النص الصريح الذى لا يقبل التأويل وهو قوله عز وجل (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر» بل شرعوا فى ابطال أحكام الشريعة المنصوصة فى القرآن الكريم المجمع. عليها المعلومة من الدين بالضرورة وقد يعد من هذا القبيل ماورد أخيرا إلى قاضى محكمة مكة الشرعية بأن لايحكم إلا بالشهادة التى تحررت فى محكمته وبين يديه، وألا يلتفت إلى الشهادات التى يكتبها المسلمون فيما بينهم. غير مبالين بما فى آية البقرة. ومنه استحلالهم لقتل المسملين والذميين بغير محاكمة شرعية ولا حكم، أو بأحكام عرفية ماأنزل الله بها من سلطان، واستحلال مصادرتهم وسلب أموالهم وإخراجهم من ديارهم ـ وسيأتى شيئ من شواهد ذلك فى المنشور، ولايمكن هنا إحصاء جرائمهم ولا بدعهم وأحداثهم فى الإسلام، ومن أغربها مشروع (سجلات المتشفعين) الذى قرره شيخ إسلامهم السابق وأصدر به إرادات سنية، وقصاراه بيع الشفاعة النبوية لطالبها بليرة عثمانية، وكتابة

أسماء المشترين للشفاعة فى سجلات تودع فى الحرم النبوى الشريف.

وأما سلبهم ما للسلطان المعظم من حق التصرف الشرعى - وكذا القانونى - فهو مما لايجهله أحد من أهل العاصمة وأهل المعرفة فى جميع أقطار المملكة ولا من الأجانب أيضا.

حتى أنه لاقدرة له على اختيار رئيس الكتاب (المابين) فى سلطنته الشريفة، ولا رئيس خاصته المبجلة المنيفة، فضلا عن اختيار الصدر الأعظم وشيخ الإسلام - فضلا عن النظر فى أمور المسلمين كافة، إذ يجب على المسلمين أن يكون لهم إمام (خليفة) شرعى مستقل قادر على إقامة الشرع ورفع لواء العدل.

وإما إسرافهم فى أموال الدولة وإرهاقها بالقروض الفاحشة فأمره معلوم للخاصة والعامة، وكذلك إضاعتهم لعدة ممالك من الدولة - كمملكتى البوسنة والهرسك والممالك الألبانية والمكدونية وطرابلس الغرب وبرقة، وكذلك إثارة الأحقاد الجنسية الممزقة لشمل الأمة العثمانية، وبهذه السياسة السوأى أضاعوا المملكة الألبانية، وفقدوا الشعب الأرنؤوطى الباسل الذى كان سياجا للدولة أمام البلقان، وهى التى حملتهم على ماشتهر خبره فى هذه الأيام من الفتك بالأرمن من رجال ونساء وأطفال، فأين هذا أن صح عشر معشاره من قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم «من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة» رواه الخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود. وفى الوصية بحفظ حقوق أهل الذمة والعهد أحاديث فى الصحاح والسنن ومن الأحاديث المخيفة فى هذا الباب ماوراه الطبرانى من حديث جابر «إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو» وإن كان فى سنده ضعف فإن متنه فى غاية القوة تؤيده السنن الاجتماعية.

وأا ماخصوا به العرب ولغتهم من الاضطهاد فهو أعظم ماجنوه على الدين والدولة من الفساد، حاولوا قتل اللغة العربية، فى جميع الولايات العثمانية، بإبطالها من المدارس، ومنعها من الدواوين والمحاكم، وأصدروا فى ذلك أوامر كثيرة لقيت من مبعوثى العرب معارضات شديدة، ونفروا عنها فى كتبهم الجديدة، وألفوا لذلك الجمعيات الكثيرة، ولا يخفى أن قتل اللغة العربية قتل للإسلام نفسه، فالإسلام فى الحقيقة دين عربى - بمعنى أن كتابه أنزل باللغة العربية، وجعل متعبدا بتلاوته وتدبره وفهمه لا بمعنى أنه خاص بالعرب. فمن المعلوم من الدين بالضرورة أنه عام لجميع الأمم. وقد قال الله فى سورة الرعد .(وكذلك أنزلناه حكما عربيا).

وقد أمكنتهم فرصة إعلان الأحكام العرفية فى البلاد من تنفيذ كل مايريدون فى العرب

فطفقوا يقتلون ويصلبون كبراء ونوابغ رجال النهضة العربية الذين اشتهروا بغيرتهم على الأمة والدولة من أرباب المعارف والأفكار وحملة الأقلام وبارعي الضباط، وآخر ماوصل إلينا من بلاغتهم الرسمية فى ذلك أنهم صلبوا فى الشام ٢١ رجلا فى آن واحد (منهم شفيق بك المؤيد والسيد عبد الحميد الزهراوى والضابط الكبير سليم بك الجزائرى والأمير عارف الشهابى وعبد الغنى العريسى وشكرى بك العسلى وعبد الوهاب بك وتوفيق بك البساط) وأنه لصعب على كثير من ذوى القلوب القاسية أزهاق مثل هذا العدد الكثير من الأنفس لأجل الانتقام، ولو كانت من الدواب أو بهيمة الأنعام، وإنما يقتلون أمثال هؤلاء جهرا، ويصلبونهم فى الشوارع العامة صلبا، حتى لا يطمع عربى بأن يقول بعدهم أن لغتنا لغة الإسلام. فيجب على الدولة الإسلامية الكبرى مساعدتنا على حفظها، وإن لنا فى المملكة حقوقا شرعية وقانونية يجب علينا المطالبة بها، وأما من يقتلون رميا بالرصاص بعلل عسكرية ومن يقتلون اغتيالا فى السجون والشوارع فلا سبيل إلى العلم بأخبارهم إلا إجمالا، وأنه ليعز على كل إنسان أن يرضى لقومه أو لغيرهم من أبناء جنسه بأن تكون دماؤهم مهينة غير محترمة إلى هذا الحد. وقد عظم الإسلام أمر احترام الدماء، وجعل من يتعمد القتل خالدا فى النار.

ثم أنهم صادروا أموال من لا يحصى من الناس، وعمدوا إلى كثير من الأسر (العائلات)الغنية أو المغضوب عليها لأسباب سياسية فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وعقارهم وأبعدوهم نساء وأطفالا إلى بلاد الأناضول بلا كافل شرعى فهتكوا حرمة المخدرات من النساء المؤمنات اللواتى لا يعرفن السياسة، وعرضوا أطفالهن للهلاك بين أيديهن فى طريق النفى الطويل الذى لايجدن فيه الكفاية من القوت والأسباب الواقية من البرد أو الحر، والله تعالى يقول (ولا تزر وزر أخرى) والظاهر أن الغرض من هذا أن يكون من يسلم من الهلاك من هؤلاء النساء والأطفال كالاماء والعبيد للترك فى الأناضول، ولابد من أن ينسى الأطفال لغتهم هنالك، فيكونوا تركا تعمر بهم بلاد الترك، ولعلهم يريدون أن يأتوا بترك يحلون محل هؤلاء المنفيين فيسهل جعل البلاد السورية كلها تركية.

ولم يكتفو بالتنكيل بالأحياء تقتيلا وتصليبا ومصادرة ونفيا، بقساوة على الأطفال والمخدرات، تنفطر لمجرد تصورها القلوب وتذهب الأنفس حسرات ـ بل وصل حقدهم عل العرب إلى إهانة الأموات، فتجرأوا على قبر الأمير والمجاهد التقى الزاهد مولانا الشريف عبد القادر الحسنى بإهانته وتحقيره.

أى مسلم، بل أى بشر يرضى لقومه بمثل هذا الظلم والخسف، وقد جعل الله تعالى أمر نفى المرء من وطنه، مقارنا لأمر قتاله ليرتد عن دينه، وسببا لمشروعية القتال فقال تعالى فى تعليل الإذن بالجهاد (أذن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذى أخرجوا من ديارهم بغير حق) ـ الآية. وقال فى شأن معاملة غير المسلمين بالعدل والبر والاحسان (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم أن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

وأما نصيب الحجاز وسكان الحرمين الشريفين من هذه الأرزاء فلو سكتنا على ماكان من بوادره وأوائله لطغى مده، حتى لايعلم إلا الله أين يكون وحده، ساقوا إلينا الألوف الكثيرة من جنودهم المنظمة مستكملة الأسلحة والذخائر، وهم يعلمون كما نعلم إن الحجاز لا يهاجمه أحد من الدول المحاربة، حتى يحتاج إلى قوة مدافعة، وأنهم فى أشد الحاجة إلى هؤلاء الجنود فى ميادين القتال، فلم يبق إلا أنهم يريدون أن يفعلوا فى الحجاز، ما فعلوا فى سورية والعراق، ليتم لهم القضاء على الأمة العربية فى عقر دارها، وموطن منعتها وعزها وفخارها، ويذيقوا هذا الحرم الذى جعله الله آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيئ، ما أذاقوا جنة الدنيا (الشام) من الجوع والخوف، ويسلبوه مامن الله به عليه وامتن به على سكانه فى كتابه العزيز، فكان وجود هذه الجنود سببا لمنع ورود الأقوات على الثغور الحجازية، وعليها مدار معيشة البلاد، وسببا لمنع ورود الحجاج منها ولاكسب لأهلها إلا منهم، فاشتد الضيق حتى اضطر كثير من أبناء الدرجة الثانية من الأهالى إلى بيع أبواب بيوتهم وخشب سقفها بعد بيعهم لجميع مايملكون لأجل الحصول على سد الرمق، وصار من المحتم على دفع أسباب الهلاك عن قوم جعلنى الله راعيا مسؤولا عنهم، وأسباب منع سواد المسلمين الأعظم عن إقامة ركن من أهم أركان دينهم، ولو كان ذلك البلاء فى سبيل الدفاع عن الأوطان، أو المصلحة الراجحة للإسلام، لتحملته البلاد بالافتخار، ولساوى فيه الشرفاء والموسرون غيرهم ولو بالاختيار، ولكنه كما أسلفنا ضد مصلحة الإسلام والوطن.

فياأيها الإخوان المسلمون:

إننا قد وصلنا إلى حال من الخطر لم يسبق لها فى الإسلام نظير ـ كان لنا دول عزيزة قوية، أفضلها دول أسلافنا العربية. وقد ورثتها هذه الدولة العثمانية، فكنا نحن العرب أحرص الناس على حياتها، على كونها هى التى خذلت اللغة العربية وانتحلت لنفسها

منصب الخلافة دون الدول التركية والكردية قبلها، وكنا نحن أمراء مكة وشرفاؤها أخلص زعماء العرب وغيرهم لها، على حرمانها بلادنا مهبط الوحي والعرفان من علوم الدين والدنيا. كل ذلك حرصا منا ومن العرب كافة على أن يكون للإسلام دولة قوية تحفظ استقلاله، وتنفذ شرعه ولو في الجملة.

وقد صار أمر هذه الدولة إلى جمعية اغتصبت آل عثمان الكرام ملكهم بقوة الثورة، وجعلته في أيدي زعانف ليس لأكثرهم في الشعب التركي الإسلامي أصل راسخ، ولا في الإسلام علم صحيح ولا عمل صالح، كأنور باشا وجمال باشا وطلعت بك فكان من سوء تصرفهم فيها وفينا ما أجملناه لكم في هذا المنشور، وقد كانت مقاومة أخواننا الترك لهم أشد من مقاومة العرب، وأما نحن فكنا كلما سمعنا أو رأينا شيئًا من هجماتهم على الإسلام ندفعه بالتأويل، إلى أن أعيانا التأويل، وكلما علمنا بجناية منهم على الدولة أو على العرب نقول لعله ذنب عارض يرجعون عنه بعد قليل، ولا نستحل مقاومتهم لأجله لئلا يترتب عليه صدع في الدولة، ويزيد له مايريدون من التفرقة بين العرب والترك، حتى أنني ساعدتهم على مقاتلة قومي، ومقاومة أبناء أمي وأبي، فلم يرضهم كل ذلك من العرب ولامني.

ولما رأيناهم عرضوا استقلال هذه الدولة التي نحرص عليها للزوال، ولم يبقوا على كرامة الدين، ولا على أحكام الشرع، ولا على استقلال السلطان، لم يبق من سبب نحتمل لأجله منهم هذا الخسف والهوان، فلما وصل سيل طغيانهم إلينا في حرم ربنا الذي أكرمنا بخدمة بيته وإقامة دينه، وحرم جدنا ورسولنا عليه الصلاة والسلام، الذي نحفظ من حديثه الصحيح «إذا ذلت العرب ذل الإسلام» اضطررنا إل مقاومة بغيهم من أسلم الطرق، وهي حصر جنودهم في معاقلها من غير أن نبادئهم بقتال، فمن سلم منهم سلم، ومن قاتلنا كانت جنايته على نفسه، فما كان من حاميتهم بمكة إلا أن فعلت مايعد برهانا على ماتكن صدورهم للدين والعرب وهو رميهم للبيت العتيق الذي أضافته العزة الأحدية لذاتها العلية في قوله تعالى: «وطهر بيتي للطائفين» وهي قبلة المسلمين وكعبة الموحدين بقنبلتين من قنابل مدافعهم التي تحصن (جياد) عندما علموا بقيام البلاد بالمطالبة باستقلالها، وقعت إحداهما فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف، والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع، فالتهبت بنارهما أستار البيت حتى هرع الألوف من المسلمين لأطفاء لهيبه بالضجيج

والنحيب، واضطروا إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهيب، وما انتهى أمرهم بهذا حتى عززوا الاثنتين بثالثة وقعت فى مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا عدا ماوقع من القذائف فى بقية المسجد الذى اتخذوه هدفهم الوحيد فى غالب مقنوفاتهم بالقنابل والرصاص، ومازالوا يقتلون الثلاثة والأربعة فى نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد التقرب من الكعبة المشرفة. وفى هذا من الاستخفاف بالدين وازدراء بيت الله تعالى والإلحاد فيه مانترك القول والحكم فيه أيضا لجماعة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بعد تذكيرهم بقول الله عز وجل (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وتذكيرهم بأن الجاهلى كان يرى قاتل أبيه فى هذا البيت فلا يمسه بسوء (نعم) نترك الحكم فى هذا الاستخفاف والازدراء للعالم الاسلامى. ولكنا لانترك مشاعر ديننا وشعائره ألعوبة فى أيدى الاتحاديين، ولانبيح لهم من التصرف فى حرم الله وحرم رسوله ما استباحوا فى ديار الشام ولا فى الأستانة نفسها، ولا نسكت لهم بعد على شيئ من بغيهم على أحد من أبناء جنسنا، إذ لم يعد فى السكوت مصلحة راجحة لا لدين ولا لدولة. بل صارت المصلحة الإسلامية والعربية (وهما متلازمتان) فى مقاومة هذه الفئة الباغية.

ولما كان أمر حماية الحجاز من هذا البغى والعدوان، وإقامة مافرضه الله فيه من شعائر الإسلام، ووقاية العرب والبلاد العربية من عاقبة الخطر الذى استهدفت له الدولة العثمانية بسوء تصرف هذه الجمعية الباغية ـ كل ذلك لا يتم تداركه إلا بالاستقلال التام، وقطع كل صلة بهؤلاء المتغلبين السفاكين للدماء. الناهبين للأموال، وقد هبت البلاد بتوفيق الله تعالى للنهوض بأمر استقلالها، بعد أن ضربت على أيدى عمال الاتحاديين ورجال حامياتها فاستقلت فعلا، وانفصلت عن البلاد التى لم تزل تئن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالا تاما مطلقا بكل معانى الاستقلال، الذى لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجى، جاعلة مبدأها وغايتها نصرة دين الإسلام، والسعى لإعلاء شأن المسلمين، والمساواة الشرعية فى الحقوق بينهم وبين جميع من يدخل فى حوزة استقلالها من المخالفين ، قائمة فى كل أعمالها على أساس أحكام الشرع الشريف الذى لا يكون لنا مرجع سواه، ولا مستند إلا إياه فى جميع الأحكام وأصول القضاء وفروعه، مع استعدادها لقبول ما ينطبق على أصول الدين ويلائم شعائره من أنواع فنون الترقى الحديث وأسباب النهضة الصحيحة، باذلة كل مافى الجهد والطاقة لإعزاز العلم وتعميمه بين الناس على اختلاف الطبقات وعلى حسب الحاجة والاستعداد.

هذا ماقد قمنا به لأداء الواجب الدينى علينا، راجين من إخواننا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يؤدوا كذلك مايرونه واجبا لنا عليهم من أحكام روابط الإسلام والتناصح على البر والتقوى، وليعلموا أننا قمنا بما قمنا به ونحن نعتقد اعتقاد راسخا أنه أفضل خدمة للإسلام، إذا لم تتحقق به أكبر أمانى المسلمين الصادقين حتى الترك منهم فإنه لا ضرر فيه يوازى عشر معشار الضرر فى تركه، وستظهر لهم الأيام حقيقة ذلك فليصبروا إن الله مع الصابرين، والله نسأل ويحبه وحب رسوله نتوسل، أن يتولانا بالتوفيق ويمدنا بالهداية إلى مافيه خير الإسلام والمسلمين، والاعتماد على الله العلى الكبير، وهو حسبنا ونعم النصير.

شريف مكة وأميرها

الحسين بن على

صدى إعلان الثورة فى الغرب والشرق

ريع أقطاب الاتحاديين، لاعلان الثورة فى الحجاز، وكان جمال باشا أشدهم حسرة وتألما، لأنه أدرك أنه كان مخدوعا، وعرف أنه لم يحسن التصرف مع الحسين وأبنائه الذين أفلتوا من يده بعد ماأخذوا المال والسلاح. ولقد كان بصرى باشا محافظ المدينة أول من تنبه إلى هذه الحقيقة، وكان يدعو إلى الفتك بالشريف وأبنائه ويشير باتباع سياسة الشدة والحزم فى الحجاز فقال كلمته المأثورة «لقد انتصر الذكاء العربى فى هذه المعركة على الذكاء التركى وفاز عليه».

وقبض فخرى باشا على ناصية الحال فى المدينة على الأثر وتولى قيادة الجند المرابط هنالك، وأخذ يعد ويستعد لمنازلة العرب الذين بدأوا قتاله بدون هوادة ولا توقف، وجاءته تعلميات جمال باشا بأن يعجل فى العمل، كما أصدر هذا أوامره إلى بعض أورط كانت واقفة على قدم الاستعداد فى دمشق بالسفر إلى الحجاز والانضمام إلى قوات فخرى باشا. وألف وفدا قوامه محمد فوزى العظم وعبد الرحمن اليوسف والشيخ أسعد الشقيرى سافر إلى المدينة على الفور لمقابلة شيوخ القبائل وإقناعهم بالإقامة على الولاء للدولة والانضمام إلى جيوشها.

تعيين الشريف على حيدر لإمارة الحجاز

ورأى الاتحاديون بعد ماحشدوا القوى وأصدروا التعليمات إلى قواهم بأن يعجلوا فى إخماد الثورة، أن يضربوا العرب بالعرب وأن يلقوا بين الأمة العربية الشقاق والبغضاء ويمزقوها تمزيقا. فجاءوا بالشريف على حيدر باشا، وهو وكيل مجلس الشيوخ العثمانى ووزير أوقاف سابق، ومن الذين عرفوا بتأييد الاتحاديين وموالاتهم فى جميع الأدوار، وعينوه لمنصب الشرافة وأرسلوه بقطار خاص إلى دمشق من الآستانة ثم قصد المدينة المنورة، وقد تقرر أن يحط فيها رحاله، ويتخذها عاصمة لإمارته، فبلغها فى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٩١٦ ومعه شقيقه الشريف جعفر باشا.

كيف أذيع إعلان الثورة فى سورية وكيف نشر فى مصر

ومما يستوقف النظر بوجه خاص أن خبر إعلان الثورة العربية فى الحجاز أذيع فى دمشق قبل إذاعته فى مصر بمدة أسبوع كامل. مع أن مصر كانت على معرفة بكل ما يحدث ففى يوم ١٥ يونيو نشرت الحكومة فى دمشق البلاغ الآتى:

اعتدت بعض العصابات المؤلفة من ذوى الطمع والفساد، ومن بعض جماعة العربان وقد استميلوا بالمال على بعض المخافر المجاورة للمدينة المنورة بالسلاح، وخربوا التلغراف والسكة الحديد. فبادرت القوى العسكرية إلى التنكيل بتلك العصابات الواقفة فى الطريق، وتمكنت من دخول المدينة، وشرعت فى إصلاح السكة كما أنشأت دار للمخابرات اللاسلكية فى المدينة تجرى المخابرات بواسطتها. وفى الليلة البارحة زحفت قواتنا العسكرية على العصاة المجتمعين والمتحصنين فى موقع الحسا (أول مرحلة للحاج السائر من المدينة إلى مكة وتبعد عن الأول ثلاث ساعات وتسمى بير على أيضا) بجوار المدينة. واستولت على المواقع التى كان ممتنعا بها العصاة المذكورون وطردتهم منها بعد تبديد شملهم. وقد بلغتنا برقية من محافظ المدينة المنورة تشعر بأن أهل المدينة سروا سرورا عظيما بما وقع. وهذا نصها:

«لقد سر أهل البلدة الطيبة قلبا وقالبا بمحو القبائل الباغية والتنكيل بها فى المعركة الشديدة التى دارت أمس، وعادت الراحة إلى ربوعها. كما أن هذه الحادثة قد أثرت تأثيرا عظيما فى العربان المجاورة ونبتهل إلى الله بتوالى توفيقات دولتكم».

أما فى مصر فقد نشرت شركة روتر يوم ٢٢ يونيو برقية مصدرها لندن جاء فيها:
وصلت أنباء موثوق بصحتها بأن دولة شريف مكة جاهر باستقلال العرب وخروجهم على الترك الذين أوصلوا البلاد بتهاونهم إلى أقصى دركات الانحطاط .. إلخ
وفى يوم أول يوليو سنة ١٩١٦ أذاع قلم المطبوعات فى القاهرة البلاغ الرسمى الآتى:
تأكدت رسميا الأخبار التى نشرتها شركة روتر بتاريخ ٢٢ يونيو عن قيام عربان الحجاز بقيادة سيادة شريف مكة وقد زال حكم الأتراك فى هذه الولاية وأصبحت مكة وجدة والطائف فى قبضة يده. وسقطت أيضا بلدة الليث بعد ماأسرت حاميتها ولايزال حصن صغير بمكة وآخر بالطائف تقاوم حاميتهما ولكن تسليمهما ينتظر من ساعة إلى أخرى».
أما فى لندن فلم يذع خبر الثورة رسميا إلا يوم ٢٨ يوليو أى بعد انقضاء سبعة أسابيع من استرجاع حريتهم السابقة. وقد قاموا فى الماضى بثورات عديدة ضد الحكم التركى فى البلاد العربية.
«وقد أدى سوء تصرف الحكومة الحالية فى الآستانة وخضوعها التام لسلطة الألمان إلى دخول تركيا مضطرة فى حرب مشؤومة أوصلت الأحوال فيها إلى حد النهاية. فرأى شريف مكة وغيره من الزعماء فى البلاد العربية أن الأوان قد آن لخلع النير التركى عن أعناقهم والمناداة باستقلالهم.
«وكانت بريطانيا العظمى تعطف دائما على العرب، ولكن صداقتها التقليدية لتركيا اضطرتها فى الماضى إلى البقاء على الحياد. أما الآن وقد انضمت تركيا إلى صف الدول الوسطى (ألمانيا والنمسا) فقد أصبحت بريطانيا العظمى حرة فى اظهار عطفها على العرب الذين انخرطوا فى عداد الحلفاء ضد العدو المشترك.
«على أن بريطانيا العظمى محافظة على سياستها السابقة فى الابتعاد عن أية مداخلة فى الشؤون الدينية، وعلى بذل جهدها فى إبقاء الأماكن المقدسة أمينة من كل طارئ خارجى».
«ومن القواعد الجوهرية فى سياسة انجلترا العظمى التى لاتقبل التغيير والتبديل أن تبقى هذه الأماكن المقدسة فى أيدى حكومة إسلامية مستقلة».
«ولا يخفى أن أحوال الحرب الحاضرة تلقى العقبات الكثيرة والأخطار فى سبيل الذين يرغبون فى القيام بفريضة الحج، ولكن العمل الذى قام به شريف مكة يجعل الأمل كبيرا

فى اتخاذ التدابير اللازمة التى تمكن الحجاج فى المستقبل من زيارة الأراضى المقدسة بسلام واطمئنان».

وخطب اللورد كرومر فى مجلس اللوردات البريطانى يوم ١٨ يونيو سنة ١٩١٦ خطبة عن الثورة العربية قال فيها:

«إن الأخبار التى نشرتها الصحف عما يجرى فى جزيرة العرب عظيمة الشأن جدا. ومن رأيى أنها داعية إلى الارتياح أيضا، ومما يزيدها وقعا فى النفوس أنها حدثت على حين غرة وبلا انتظار. أما كونها خطيرة الشأن فلأن ما يختص بالمواطن المقدسة يثير اهتمام العالم الإسلامى كله تقريبا. وأما كونها داعية إلى الارتياح فلأن فى العمل الذى قام به شريف مكة وسائر المشتركين معه دليلا على ثقتهم التامة فى الإعلان الذى أصابت حكومة جلالة الملك فى نشره فى أول الحرب وهو أنها لاتنوى الدخول فى شؤون إدارة أهل الحجاز أو استقلالهم.

«قلت إن هذه الحركة لم تكن منتظرة، ومع أن جزيرة العرب كانت فى حالة ثورة مزمنة فى السنين العديدة الماضية، فلو سئل المطلع على شؤون الشرق لنفى احتمال حدوث ثورة فيها. وقد كانت ظواهر الحال تدل على أن الفوز الذى أحرزه العثمانيون فى كوت الإمارة يكفى خنق فكرة الثورة فى بلاد العرب قبل اكتمالها، ولكن الحقيقة جاءت مناقضة لها. فكان لنا من ذلك عبرة جديدة تضاف إلى مئات العبر التى تقدمتها، وهى أنه يستحيل على الأوربى أن يتنبأ بما سيقع فى الشرق إذ جل مانعرفه عنه هو أن نتوقع فيه حدوث غير المنتظر وما ليس فى الحساب».

فرد المركيز وباسم الحكومة البريطانية قائلا:

لا يسعنى أن أزيد على مانشرته الصحف عن سير الحالة فى جزيرة العرب شيئا يذكر سوى أن حكومة جلالة الملك لم تؤخذ بأخبار بلاد العرب على غرة. فقد كانت خطتها من الأول إلى الآخر المحافظة على الأراضى المقدسة فى الحجاز والعراق العربى تحت سلطة إسلامية. على أنه لما ظهر أن الدولة العثمانية أخذت تضيع منزلتها كالدولة الممثلة للدين الإسلامى والعالم الإسلامى الحقيقى بفعل النفوذ الأجنبى والسيطرة الألمانية، اتضح أن حدوث ثورة كالثورة التى جرت الآن لم يكن بعيد الاحتمال. فإن الحكومة العثمانية أخذت تضيع حقها كممثلة للإسلام منذ مدة طويلة، ولذلك لم يبق مجال للدهشة والاستغراب مما قام به قوم يعدون أنفسهم الممثلين الحقيقيين للدين الإسلامى. ولا يسع أحد أن يتمالك عن

إظهار العطف والميل إلى أولئك الذى يفرغون قصارى جهدهم فى نزع النير الأجنبى عنهم.

وأما العامل الآخر الذى يحملنا على العطف على المساعى التى يبذلها العرب لتحرير أنفسهم من ربقة السيادة التركية، فهو أن هذه الحرب أثرت فى موسم الحج تأثيرا عظيما أوجبته الضرورة الحربية عل كره منا. وقد كان ألوف من رعايا جلالة الملك يحجون من الهند وماوراءها شرقا إلى المواطن المقدسة، ويحتمل أن ما جرى الآن يسهل إعادة موسم الحج الذى قضت الضرورة بالدخول فى شأنه بسبب حصر الموانى العثمانية على سواحل جزير العرب وينشطه تنشيطا عظيما».

وعند الحكومة مايؤيد صحة الأخبار عن حالة سورية المفتتة الأكباد، فقد أطلق الترك فى ظل جمال باشا عقال الجور فيها، ومد يد الشدة والقسوة إلى أعيان السوريين الذين وقعت عليهم الشبهة عند الحكومة الاتحادية، وقد أعدم عشرون على الأقل من أصحاب المكانة والوجاهة، ونفى كثيرون سواهم أو سجنوا. وعلاوة على ذلك أن فى سورية الآن تلك الحالة المرعبة التى أشار إليها اللورد بريس فقد ضرب الترك نطاقا محكما على لبنان وأخذوا يجوعون أهله بهذا الحصر ويحرمونهم من حاجيات المعيشة وقد خاطبت الحكومة الأميركية الحكومة العثمانية أو هى تخاطبها الآن - مشيرة إلى مافى هذا العمل من المخالفة للسير المعتاد الذى تجرى عليه الحكومات المتمدنة. ولا غرو إذا قلقنا أشد القلق لسوء المصير الذى سيحيق بأهل سورية بعد الذى رسخ فى الأذهان مما حل بأرمينية. وإن الفرنسويين الذين يهتمون بمصير مسيحيى سورية أشد اهتماما بمصير المسلمين السوريين أيضا، ومن البديهى أن مستقبل سورية يشغل بال الحكومة جدا ورجاؤها الوحيد أن الفوز الذى يمكن إحرازه فى أنحاء العالم المختلفة من الوجهة الحربية قد يساعد على حل هذا المشكل».

صدى إعلان الثورة فى فرنسا

وقوبل اعلان الثورة بالارتياح فى الدوائر الفرنسوية، وبادرت الحكومة الفرنسوية فألفت وفدا من مسلمى إفريقيا الشمالية غادر مرسيليا إلى جدة يوم ٦ سبتمبر سنة ١٩١٦ على رأس عدد كبير من الحجاج المسلمين (من تونس والجزائر) وقد حمل رئيسه السى قدور بن غبريط كتابا رقيقا من المسيو بوانكاره رئيس الجمهورية الفرنسوية إلى الشريف الحسين مع مليون وربع مليون من الفرنكات سلمها الكولونيل بريمون مندوب فرنسا فى الحجاز إلى

الشريف محسن بن أحمد منصور فى جدة مع هدايا خاصة إلى الملك. وهذه أسماء أعضاء الوفد:

أغا شعراوى ومصطفى شرشالى عن الجزائر. الشاذلى العقبى والعربى بن الشيخ عن تونس. وسى أحمد بن سكريج عن المغرب الأقصى . وعبده خان عن إفريقيا الغربية. أما سكرتير الوفد فهو السيد على ملك.

ولما وصل الوفد إلى مكة أرسل الشريف إلى المسيو بوانكاره البرقية الآتية:

أبشركم بسرور لا مزيد عليه بوصول الوفد الإسلامى الفرنسوى[1] المؤلف من ملكيين وعسكريين. فقد استقبله الأهالى استقبالا فخما يليق بمقامه. فأهلا ومرحبا به. وإنى لمتشكر من صميم الفؤاد للذين أوفدوه إلينا، ونعرب للأمة الفرنسوية عن إعجابنا بعملها فى هذا الوقت الذى تدافع به هى وحلفاؤها عن المدنية وحقوق الأمم. وما خلا ذلك فإن التاريخ الأكبر شاهد على العواطف الكريمة التى أظهرتها الأمة الفرنسوية للإسلام والمسلمين. لهذا أتمنى من صميم فؤادى دوام هذه العواطف. وأعرب لحضرتكم عن أخلص عواطفى لشخصكم الكريم وللأمة الفرنسوية».

فرد عله المسيو بوانكاره بالبرقية الآتية:

«أشكر لعظمتكم بالذات بإخبارى عن وصول الوفد الذى ندبته إلى عظمتكم حكومة الجمهورية الفرنسوية، ولم يكن عندى أدنى شك بالمقابلة الودية التى أقمتموها له، وليكن لعظمتكم تمام الثقة بأن الحكومة الفرنسوية تتمنى بمنتهى الإخلاص النصر المبين لجيوشكم، وإنى أشاطرها هذه العواطف، وأتمنى لعظمتكم الفوز».

وأنشأت جريدة الطان الناطقة بلسان الحكومة الفرنسوية مقالة بمناسبة سقوط الطائف بيد الجيش العربى قالت فيها:

«إن الفوز الجديد الذى أحرزته جنود الشريف حسين وسع الدائرة التى قامت على أساس ثورة مكة. معيدة استقلال العرب، ولم يعترف أمراء مكة بسلطة الحكومة العثمانية إلا رغبة منهم فى تعزيز شأن الإسلام، ولذلك أبوا اليوم أن يخضعوا لنفوذ حكومة تركية بيعت للأجنبى. يديرها ملاحدة زنادقة، ولما رأى الشريف الأكبر، وهو ابن النبى ـ ووقف على مجارى السياسة فى العالم ـ ضغط اليد الألمانية على الآستانة، وأن ضغطها يزداد يوما فيوما، بدأ يحاذر المطامع الألمانية التى استكشفها تحت ستار مواثيق الإمبراطور

---

١ ـ إشارة إلى وصول الضباط والجنود المسلمين والفرنسويين وسيأتى الكلام عنهم.

غليوم الكاذبة، فبدأ من ذلك العهد الجديد الذى حمل إمبراطور ألمانيا شيخ إسلام الأستانة عليه ولكنه بدأ ضد الترك عبيد ألمانيا وأذلائها لا ضدنا.

«إن الحركة العربية التى بدأت فى مكة ذات شأن على رغم كونها محلية إلى الآن، والفوز الذى يؤيد هذه الحركة التى قام بها شعب مظلوم ويدعمها، ينتزع من يد سلطان الأستانة المقام الذى أكسبه إياه بسط نفوذه على أرض الحجاز. فالسلطنة العثمانية التى كسرت فى أرمينية، والتى ستقطع صلاتها غدا بأوربا أخذت منذ اليوم تتهدم فى جهة الجنوب من بلادها. فالثورة تتمخض اليوم فى صدور العرب الأباة بعد أن لبثت منذ قرن مضى، أى منذ ثورة الوهابيين تظهر للوجود حينا بعد حين فى ثورات اليمن المتوالية.

«لقد استعادت أرض الحجاز استقلالها وتبادل الأمير حسين الشريف الأكبر الرسائل البرقية مع رئيس الجمهورية، وهى توازى الاعتراف بهذه الحكومة الإسلامية الجديدة صديقة فرنسا. فقد شكر الشريف رئيس الحكومة على إرسال البعثة الإسلامية الملكية العسكرية التى ذهبت لتحييه ولتعرب له عن صداقة فرنسا للعالم الإسلامى وإخلاصها له، ويستطيع المسلمون اليوم زيارة مكة أحرارا بعد ماارتفع عنها نير الاتحاديين، ففرنسا مسرورة فى الإعراب عن صداقتها لهم بمساعدتهم على الحج وفى تحية الشريف حسين تحية الرئيس الدينى والمدنى الذى أعاد إلى قلب بلاد العرب حكومة عربية مستقلة لا تزعجها أية مداخلة أجنبية ولا ظل لأى نفوذ أجنبى عليها».

وخطب السى قدور بن غبريط رئيس الوفد خطبة طويلة بين يدى الشريف فى مكة جاء فيها:

«قد شرفنا رئيس جمهوريتنا بالمثول بين يديكم الكريميتين مع بقية الوفد لتبليغ مراسم التهانى الصادرة من صميم الأفئدة الدالة على خلوص المودة القلبية فى استرجاع حقوق أسلافكم الكريمة إليكم فى منابعها الأصلية»

«وإن نهضتكم المشكورة وإعلانكم استقلالكم قد أدخلا سرورا كبيرا على دولة فرنسا حيث رأت فى ذلك حسم المظالم الفادحة التى ارتكبها ذوو الأغراض من حزب فتيان الأتراك الذين استحوذ عليهم حزب الشيطان وغرهم حتى نبذوا الإيمان وراء ظهورهم ونظروا للعرب أينما كانوا بعين البغض، وأحلوا محو اللغة العربية ونفى أهلها من كل أرض».

ثم قال: «وقد أثرت هذه النهضة القومية فى نفوس الملايين من المسلمين سكان إفريقية،

فقد استبشروا وانشرحوا بنهضتكم القومية بعد ماكانوا فى خوف وكدر على مصير هذه الديار إذ تحققوا تحرير القطر الحجازى بوجودكم من كل تدخل أجنبى».

وقد حمل السى قدور عند عودته كتابا من الشريف بخط يده إلى المسيو بوانكاره رئيس الجمهورية الفرنسوية تضمن الشكر على خطابه. كما أرسل إليه هدية من الجياد العربية».

الألمان والثورة العربية

ولم يكن اضطراب الألمان من جرأة الثورة العربية فى الحجاز أقل من اضطراب الترك يؤيد ذلك مانشرته صحف لندن يومئذ. وهو أن حكومة برلين حظرت على صحف بلادها إذاعة أى خبر من أخبار الثورة الحجازية. كما كلفت السفير العثمانى فى عاصمتها أن يطلب إلى حكومته موافاتها بمعلومات عن الثورة وأسبابها وعواملها.

وزار قنصلا ألمانيا والنمسا فى دمشق جمال باشا على أثر إعلان الثورة وحادثاه بشأنها فقال لهما: «إنها حركة موضعية بسيطة لا تلبث أن تخمد، وأنه أصدر الأمر إلى قواده فى الحجاز بأن يسرعوا فى القضاء عليها، وأنه يرجو أن يبشرهما بعد بضعة أيام بانتهائها وبالقبض على الشريف الحسين ليأتى به ويشنقه على أبواب دمشق، فخرجا من عنده وهما مطمئنان إلى أقواله، لاعتقادهما أن قائدا مسؤولا مثله لا يلقى الكلام على عواهنه وكتب كل منهما إلى حكومته بما سمع».

ويمكن القول أن تأثير الثورة الأدبى عند الألمان فاق تأثيرها المادى فقد صرح بعض قادتهم العسكريين فى دمشق قائلا: «إننا لم نستمل الترك ولم نبذل لهم مابذلناه ولم نتحمل ماتحملناه إلا لأن الخلافة الإسلامية فيهم ولأنهم موضع احترام مسلمى العالم بسببها ، أما وقد أضاعوها وفقدوا هذه المزية بخروج الشريف عليهم، وهو أكبر زعيم مسلم وسليل أعظم بيوت فى الإسلام. فالألمان سيعيدون النظر فى موقفهم ويسعون للتخلص من الترك.

سعى جمال باشا للاتفاق مع الحلفاء

ولا نرى بدا ونحن نكتب آخر صفحة من أعمال جمال باشا فى الشام وعن أثره فى تكوين الثورة العربية من الإشارة إلى الجهود التى بذلها إبان وجوده فى دمشق للانفصال عن الدولة العثمانية، ولإنشاء سلطنة تشمل البلاد التى كان يتولى أمرها يومئذ (منطقة الجيش الرابع) وتمتد من جبال طوروس (وهى الحد الطبيعى الفاصل بين بلاد العرب وبلاد

الترك من الشمال) حتى رفح جنوبا وتتسع شرقا فتضم العراق وولايات الأناضول الشرقية، وتشمل الحجاز واليمن أى أنها تضم البلاد العربية التى كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية مع البلاد التى اصطلحوا على تسميتها بأرمينية وكانت العراق فى منطقة الجيش الرابع.

لقد غر جمال باشا ماكان يتمتع به من سلطان عظيم ومن نفوذ واسع ومن جاه عريض فى الأقطار التى كان يتولى إدارتها فحدثته نفسه بأن يستقل فيها وأن يؤسس ملكا يتوارثه أبناؤه من بعده. سيما وقد كان يركب ركبة الملوك، ويسير فى موكب لا يقل عن موكب السلطان نفسه عظمة وجلالا، والموسيقات تعزف بين يديه، والشعراء ينشدون قصائدهم ويتغنون بمدحه ويتغزلون بوصف أعماله وإصلاحاته، وقادة الجيش رهن إشارته، والحكام طوع أمره، والعلماء ببابه، يعطى ويهب، ويعفو وينتقم، ولا كلمة فوق كلمته، ولا نفوذ يعلو نفوذه.

رأى جمال باشا كل هذا وشاهد نفسه فى أعلى المراتب فحدثته نفسه - والنفس أمارة بالسوء - أن يستبقيه لأبنائه. ولكن كيف السبيل إليه، وكيف يتصل بالحلفاء ويستعين بهم وبونه وبونهم البحار والجبال؟ لقد أرشده ذكاؤه إلى الاستعانة بالأرمن لإدرا هذه الأمنية فأخذ يحاسنهم ويتقرب إليهم ويدخل الذين يبلغون حدود الأقطار الداخلة فى سلطته تحت جناح حمايته. فيتخذ ذلك يدا تنفعه عند قومهم. ويقول بعض الثقات إنه لم يعجل فى إعدام المرحوم عبد الكريم الخليل إلا لأنه عرف شيئا عن هذه الخطة خلال محادثتهما الخاصة. فأراد التخلص منه قبل أن يفضى بشئ مما عرفه ومما اطلع عليه بطريق الصدفة. فقد كان شديد الحذر والكتمان.

وننشر هنا الوثائق الخاصة بحركته الانفصالية لندل على أنه لم يك صادقا فى دعواه الاخلاص للدولة وللدين. ولنثبت أنه كان أحق بالشنق وبتهمة الخيانة من معظم الذين شنقهم ورماهم بالخيانة والغدر، ظلما وبغيا، فقد سعى للانفصال عن الدولة وتعهد بالقضاء عليها بمساعدة الروس والأرمن أعدى أعدائها، وإذا لم ينجح بعد ماعقد النية على العمل فما ذلك إلا بسبب معارضة الإنجليز والفرنسويين للمشروع - كما تؤيد ذلك الوثائق المنشورة. ويلوح لنا أنه أراد من فتكه بزعماء العرب ورجالهم أن يمهد لحكم بلادهم. وكان لايزال يفاوض ويتوسم النجاح، فلا يجد من يقف بوجهه ويقاومه متى انتهى الأمر إليه، فجرت الرياح بما لم يشتهه ويؤمل، وأدى عمله إلى نفرة العرب وخروجهم على الدولة

وإعلانهم عليها حربا شعواء، سواء في الحجاز، وكانوا يقاتلونها وجها لوجه، أو في داخل بلادهم وكانوا يقاومونها مقاومة سلبية، ويشلون خططها ويزعجونها بدعاياتهم وأساليبهم مما عجل في سقوطها والقضاء عليها، وقد كان هو نفسه أول وقود الثورة فاستدعته الحكومة وجردته من كل سلطان ونفوذ، وكان نصيبه بعد ذلك الاغتيال بين الأرمن الذين حماهم وآواهم، وظن أن باستطاعته أن يستخدمهم في محاربة الدولة التي وضعت فيه كل ثقتها ورجائها. ويرى كثير من زعماء العرب أن العار لاحق بأمتهم، لأن قتله لم يكن على يد أحد من أبنائها لغسل تلك السبة التي أصابتهم من جرأته على حقوقهم المقدسة، وجرحهم في أعز شيئ لديهم.

الوثائق وكيف وجدت

وهذه الوثائق مما عثر عليه البلاشفة في سجلات وزارة الخارجية الروسية على أثر ثورتهم الكبرى في سنة ١٩١٧ وقد نشروها في ختام الحرب، وهي لا تدع مجالا للشك والارتياب في سوء نيته وفي تآمره على الدولة مع أشد خصومها وأعدائها، يستعين بهم في القضاء عليها رجاء إنشاء دولة جديدة على أنقاضها، يكون رأسا لها ويتوارثها أبناؤه من بعده. وكل مانرجوه من القارئ الكريم أن يطالعها بإنصاف وروية، وأن يقابل بينها وبين المكاتبات التي دارت بين الحسين والإنجليز، وقد نشرناها في الفصل السابق فيرى كيف أبى هذا في أول الأمر أن يفاوضهم أو أن يتصل بهم لئلا يثير مشكلة على الدولة أو يحرج مركزها، رغم توسل الإنجليز إليه بمختلف المغريات والوسائل، وكيف سعى بعد ذلك للاتفاق مع رجالها يناشدهم عدم السبح في تيار العداء والطغيان. فهددوه وحاولوا الفتك به وبأبنائه وبالبقية الباقية من رجال قومه، مما اضطره بعد ذلك إلى محالفة الإنجليز اضطرارا خوف العواقب ودخوله في جانبهم بعد ما نال وعودا ومواثيق صريحة، وبعد ماتعهدوا له بأنشاء دولة عربية تضم بلاد العرب كلها، وإذا لم يفوا بالوعد فما ذلك ذنبه ولا خطأه.

ويضاف إلى هذا أن العرب في جميع مفاوضتهم مع الحلفاء ماتعرضوا للدولة العثمانية ولا أرادوا القضاء عليها كما أراد جمال باشا، وإنما سعوا للاستقلال في داخل حدودهم القومية وإنشاء دولة منهم ولهم تعمل على تعزيز قوميتهم وإحياء مفاخرهم، ولا لوم عليهم في ذلك ولاتثريب، ومع الاحتفاظ بصداقة الترك ومودتهم والإبقاء على دولتهم، وشتان بين الغايتين.

وهذا نص الوثائق مسلسلة بحسب تاريخها

وزارة الخارجية الروسية

بطرسبورغ فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٥شيفرة رقم ٦٣٩

إلى سفارتى باريس وروما

إن الأخبار الواردة إلينا من الدوائر الأرمنية فى استمبول تفيد أن جمال باشا يرغب فى القيام بحركة عداء لحكومة استمبول إذا حققت شروطه التالية:

أولا - أن تتعهد الدول المتحالفة بالاعتراف بسيادة الدولة العثمانية برئاسة سلطان على اتحاد السلطنة المؤلف من دول سورية، فلسطين، العراق، عربستان، كليكية، أرمينية، كردستان،.

ثانيا - أن يتولى السلطنة أحمد جمال باشا وأن يتولى السلطنة من بعده أولاده وأحفاده

ثالثا - يتعهد أحمد جمال باشا أن ينادى بأن السلطان الحالى وحكومته أسرى بيد الألمان ويعلن الحرب عليهم.

رابعا - فى حال إعلان جمال باشا ثورته هذه وزحفه لمقاتلة الحكومة يتعهد الحلفاء بتقديم السلاح والغذاء والعتاد الحربى اللازم لجيوشه.

خامسا - أن تقدم الدول إلى جمال باشا المساعدات المالية اللازمة إلى نهاية الحرب

سادسا - يرضى جمال باشا بترك المضايق واستمبول للحلفاء.

سابعا - يتعهد جمال باشا بأن يترك الطريق حرة لمساعدة الأرمن.

أن أقل ثورة داخلية فى تركية تضعف قوات هذه الدولة وتساعدنا كثيرا. فبناء على ذلك من الضرورى الدخول بمفاوضات مع جمال باشا والأرمن المخلصين لنا فإذا تمكن جمال باشا من طرد الألمان وقلب حكومة استمبول كانت لنا فائدة عظيمة، ولهذا نرجو الجواب على برقيتنا هذه سريعا وسرا.

سازانوف

ـ ٢ ـ

بخارست فى ١١ ديسمبر سنة ١٩١٥، رقم ٧٧٨

الرجاء حل الشيفرة من قبل المرسل إليه مسيوك. ن. كولكو فتش مستشار الشعبة الثانية فى وزارة الخارجية ببطرسبورغ

إن الأخبار الواردة تدل على ظهور خلاف بين جمال باشا ورجال الحكومة المركزية فإذا وجد من يساعد جمال باشا على حصر حكم تركيا فى آسيا فقط فمن الممكن استمالة جمال باشا إلينا وحمله على العمل ضد حكومة استمبول.

الرجا أفادتنى عن وجهة نظر الحكومة فى هذا الأمر. سيما وفى الإمكان أن نستفيد من الأرمن الموجودين هنا وفى تركيا فائدة كبرى.

السفير - س. ا. بوكولونسكى

ـ ٣ ـ

بطرسبورغ فى ١٢ سنة ١٩١٥ رقم ٦١٣٠

بوكولوفسكى سفير روسا فى بخارست

وصلت برقيتكم الشيفرة رقم ٧٧٨ إن كل تفرقة يمكن إيجادها فى تركيا. وعلى الأخص بين أركان الحكومة تجد منا المعاضدة والمساعدة التامتين. وفى الإمكان تقديم أى وعد بما يقترحه جمال باشا، وإذا اقتضى الأمر ففى مقدورنا الحصول على وعود من الحلفاء بتحقيق مايريده، وإلى أن يحين الأوان يجب أن تظل هذه القضية سرية

الإمضاء: كوليكوفتش

بخارست فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٥ رقم ٨١٥

تلقيت برقيتك رقم ٦١٥٠

يعتقد زخاروف أنه إذا جرت المفاوضات مع أحمد جمال باشا بواسطة مندوب الخارجية القيصرية مباشرة فقد تأتى بالفائدة المطلوبة وفى إمكان الأرمن أن يقدموا مايلزم من مساعدات محلية. ومع فإن الأرمن يتعهدون بفتح أبواب المفاوضات التى يتممها مندوبكم وهم على استعداد ليوفدوا مندوبين من قبلهم إلى مصر يتصلان من هناك بجمال باشا ولهذا يطلبون من الخارجية مايلى:

أولا - أن تعطيهما أوراق مرور إلى مصر، وعدم إرهاقهم بطلب الكفالة لدخول مصر

ثانيا - إعطاء التعليمات إلى الموظفين على حدود سويسرا لتسهيل مرورهما

ثالثا - إرسال التعليمات اللازمة إلى سفيرنا فى لندن وباريس لتسهيل سياحتهما برا

ويحرا حين ذهابهما إلى مصر.

رابعا - إعطاء التعليمات اللازمة إلى الموظفين المحليين فى مصر لعدم معارضتهما فى الوجهة التى يذهبان إليها.

خامسا - إرسال التبليغات اللازمة إلى ممثلنا فى مصر لحماية هذين المندوبين والدفاع عنهما بقدر استطاعته ماديا وفعليا.

سادسا - تسهيل السبل لهما لمخابرة باسيل زخاروف من أى بلد كان، وأن تظل الطريق حرة أمامهما.

إن المهمة الموكولة إليهما هى إيجاد الطرق اللازمة للدخول بمفاوضات مع أحمد جمال باشا ومعرفة شروطه ومطالبه ودعوته إلى الشروع بالمفاوضات حتى إذا نجحا فى الوصول إلى هذا الهدف تركا المجال واسعا أمام المندوبين الذين ستوفدهم وزارة خارجية صاحب الجلالة القيصرية لوضع الاتفاق النهائى بينها وبين أحمد جمال باشا.

أن الفوز الذى أحرزته القوات البلغارية والألمانية فى جهاتها، وقيام الإنجليز بإخلاء قسم من شبه جزيرة غاليبولى قد أدخل الشك فى نفوس الأرمن بإمكان الفوز نهائيا، أن الأرمينيين اللذين سننتدبهما لمفاوضة أحمد جمال باشا أحدهما روسى التبعة والآخر بريطانى التبعة.

الرجا إرسال التعليمات سيدى

الامضاء: بوكولوفسكى

ـ ٥ ـ

روما فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٥ رقم ٨٥٧

تلقيت برقيتكم رقم ٦٣٩١

إذا كان هناك أقل احتمال بالفوز فى المساعى التى أشرتم إليها فى تقريركم فإن السنيور سونينو يراها موافقة جدا. ويرى ضرورة العمل بها لأننا فى هذه الحالة ننقذ الموقف بسرعة

السفير م. ن. كريس

ـ ٦ ـ

باريس ٢٧ ديسمبر سنة ٧٥١

أخذنا برقيتكم رقم ٦٣٩١

أبلغت نسخة من محتوياتها للمسيو بريان فأظهر اهتماما كبيرا بهذه الأخبار، وصرح أنه سيعرضها غدا على مجلس الوزراء قبل أن يفوت الوقت. وقد قال لى فى هذه المناسبة:

إن هذه الشروط، وإن كانت موافقة لنا على كل حال، لا تتفق مع مطامع الإنجليز الذين قد لايقبلون بها.

السفير آ. ب.إيزوفولسكى

ـ ٧ ـ

باريس فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٥ رقم ٨٥٤

ذيلا للبرقية رقم ٥٨١

بعد الانقلاب الوزارى الذى حصل فى فرنسا اجتمعت بالمسيو بريان وباحثته فى أمر البرقية فأفادنى أنه مرتاح إلى الخطة التى وضعتموها للاجتماع بجمال ومفاوضته

إلا أن هذا المشروع يلاقى معارضة جدية فعلية من قبل الدوائر الفرنسوية

فالخطة التى وضعتموها وإن كانت حسنة فى الظاهر، إلا أن الفرنسويين يرونها محققة لرغبة روسية وحدها بالاستيلاء على المضايق واستمبول فى حين أنها تحرمهم من البلاد التى وعدوا بها كفلسطين وسورية وقسم من مقاطعة كليكية

وكما أن الشعب الروسى لا يمكنه أن يحيد قط عن فكرة الاستيلاء على استمبول والمضايق فإن الرأى العام الفرنسى أيضا لايمكنه قط أن يتخلى عن البلاد الموعود بها كسورية وفلسطين وكيليكية. وعدا هذا يجب علينا أن لا ننسى أيضا أن الحكومة البريطانية تفكر فى إيجاد حكومة عربية مستقلة.

وفى نهاية الأمر أفادنى مسيو بريان بصراحة تامة أنه يشك فى إمكان فوز جمال باشا بثورته وهو يحكم قطعة صغيرة من السلطنة العثمانية.

وأنا اعتقد أن الخطة التى وضعتموها أنتم لهذه المفاوضات كانت قائمة على تحقيق

المصالح الروسية وحدها، مع عدم الإضرار بالمصالح الفرنسية أو الإنجليزية. وقد أوضحت هذه الأمور إلى مسيو بريان وأيدت له نيتكم الحسنة، وأضفت إليها أن رغبتكم الأكيدة لاتقتصر على هذا الهدف وحده. بل تعتقدون أن الثورة الداخلية التى قد تقع فى تركيا تهدم تماما سياسة ألمانية فى الشرق، وبذلك يستفيد الحلفاء فائدة كبرى. وقد استصوب بريان الفكرة الأخيرة، ووجدها موافقة تماما. وقال لى: إذن مادامت هذه هى الغاية فأنا أوافق عليها تمام الموافقة، وأعلنكم موافقتى على مشروعكم. إلا أننى أرجو أن لاتخل هذه المفاوضات التى ستجرونها بحقوق فرنسا فى الشرق.

السفير : آ. ب. ايزوفولسكى

ـ ٨ ـ

باريس فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٨١٥ رقم ٨٥٥

ملحقا ببرقيتى رقم ٨٥٤ المرسلة بتاريخ اليوم

خصوصى ـ لا أكتمكم أننى لاحظت من جواب مسيو بريان على اقتراحكم أشياء إن لم يكن من الجائز وصفها بالحدة إلا أنها فى الوقت نفسه تدل على عدم الرضا عن هذا الاقتراح.

إنكم تعلمون جيدا أن اتفاق الحلفاء على تسليم المضايق واستمبول إلى روسية أمر غير مرغوب فيه فى الأندية الفرنسية البرلمانية والإنجليزية. وقد كان هذا الاتفاق سببا فى حملة عنيفة أثارها النواب وبعض الوزراء على مسيو دلكاسة

فالذى علمته أن الوزراء الفرنسيين عارضوا فى هذا الاتفاق علنا. إلا أن المؤكد هو أن الاتفاق لم يكن مرغوبا فيه، وليس من الجائز فى وجه من الوجوه أن نعتمد على مؤازرة الفرنسيين لنا فى أمر تنفيذه مؤازرة صادقة.

والمؤكد هو أن الفرنسيين هنا يقدرون بعض اقتراحاتكم، وليسوا فى حالة يجهلون معها أهمية أحداث ثورة فى السلطنة العثمانية، كلا بل هم يعتقدون أن هذه الثورة مفيدة جدا لهم فى الحرب العالمية. إلا أنهم لا يرون فى الاقتراحات المقدمة لمفاوضة جمال باشا إلا تحقيقا لأمانيكم فى الاستيلاء على استمبول والمضايق دون أقل ضمان للسيادة الفرنسية المقررة على الشرق.

فالذى أعتقده تحقيقا لهذه الفكرة أن يبدل هذا الاتفاق بصورة تحفظ للفرنسيين

حقوقهم المقررة على سورية وفلسطين وكليكية، وفى هذه الحالة يمكن استئناف المفاوضات مع جمال باشا.

السفير: ايزوفولسكى

ـ ٩ ـ

إلى سفير روسيا فى باريس

بطرسبورغ فى ١٧ يناير سنة ١٩١٦

شيفرة رقم ٦٣٣

جوابا على القضايا المتعلقة ببرقيتى رقم ٦٥١٨ وبرقية سفيرنا فى لندن رقم ٩٠٦

أؤيد فكرة السير إدوارد غراى بوجوب قيام الفرنسيين أنفسهم بمفاوضة جمال باشا ووسطائه فى القاهرة.

لهذاأرجوكم مفاوضة بريان فى هذا الأمر، وتقديم الضمانات اللازمة له بشأن سورية والعمل بكل قواكم لحمل الفرنسيين على القبول بهذه المفاوضات التى نراها جد ضرورية فى سبيل تحقيق رغائبنا ورغائب الفرنسيين معا.

وزير الخارجية: سازانوف

ـ ١٠ ـ

إلى سفير روسية فى باريس

إلى سفير روسية فى لندن

برقية شيفرة

بطرسبورغ رقم ٦٥١٨

يقول الوسطاء أن البطء فى بدء المفاوضات يحول دون تأمين الفوز المنتظر

فإذا كانت الحكومات التى تمثلوننا لديها تعتقد أن مجرد نشوب ثورة داخلية فى تركيا موافق لمصالح الحلفاء عرفونا فورا لنرسل الوسطاء إلى مصر عن طريق لندن وباريس مع إجراء التسهيلات اللازمة لهم لمقابلة أركان الخارجيتين حين وصولهم إليكم

وزير الخارجية: سازانوف

ـ ١١ ـ

إلى وزير الخارجية الروسية فى بطرسبورغ

لندن فى ٢٧ يناير سنة ١٩١٥، رقم ١٧

شيفرة ـ نسخة لباريس

تلقيت برقيتكم رقم ٨٥

أجابنى نيكولسون أن الحكومة البريطانية بعد فحصها القضية من جديد وتقليبها على سائر وجوهها ترى أن من الضرورى عدم اشتراكها فى هذه المفاوضات والتنازل عنها بصورة نهائية لأن المفاوضات التى تدور مع العرب تدور بجو صاف وبصورة ملائمة للعرب والإنجليز معا.

ثم سألته عما إذا كانت الحكومة البريطانية تجد مانعا فى أن تتولى الحكومتان الروسية والفرنسية هذه المفاوضات بصورة إفرادية فأجاب أن الحكومة البريطانية لا تعارض فى ذلك قط. إلا أنها لا تؤيدها بوجه من الوجوه.

والذى لاحظته أن الحكومة الإنجليزية تعمتد فى الدرجة الأولى على العرب وحدهم مستفيدة من شعورهم العدائى للأتراك وجمال باشا الذى أعدم رجالهم

السفير: بنكندورف

ـ ١٢ ـ

إلى وزير الخارجية الروسية فى بطرسبورغ

برقية شيفرة رقم ٢١

باريس فى ٢٨ يناير سنة ١٩١٦

جوابا على برقيتكم رقم ٨٠

وافقت الحكومة الفرنسية على الاقتراح المقدم من قبلكم، ولم تجد فيه مايمس الاتحاد الموجود بين الحلفاء.

وقد علمت أن مسيو بريان وحكومته غير راضين تمام الرضا عن المفاوضات السرية التى يقوم بها الإنجليز مع العرب لأن الإنجليز انصرفوا إلى خدمة أنفسهم دون حلفائهم فى هذه القضية.

السفير : إ يزوفولسكى

باريس فى ١٣ مارس سنة ١٩١٦

شيفرة رقم ١٩٥

نسخة إلى لندن

وصل منذ مدة إلى هنا ظافارياف وعملا باشعاركم السابق سهلت له طرق المخابرات والاجتماع بالمسيو بريان.

أبلغ ظافارياف مسيو بريان المشروع الذى وضعه لإجراء مفاوضات فى مصر مع جمال باشا مع بيان بأسماء الرجال وطرق مخابراتهم مع الباشا

ولئن كان المسيو بريان استقبل ظافاياف استقبالا حسنا وأظهر له كل عطف، إلا أنه لم يعده وعدا ثابتا، بل لاحظنا من أجوبته أنه يحاول التخلص من وعد قطعى، باحثا عن موقف أحمد جمال باشا غير الثابت، وعن الدور المولج به ظافارياف. ومع هذا أتمنى له الفوز فى مهمته، وقد سافر ومعه أحد الضباط الفرنسيين لإتمام هذه المفاوضات فى مصر».

إلى هنا تنتهى سلسة الرسائل السرية التى دارت فى شأن هذه المؤامرة بين الدول وقد انتهت بالإخفاق والفشل بسبب معارضة الإنجليز والفرنسويين.

فشل الشريف على حيدر واستدعاؤه

وقبل أن يغادر جمال باشا الشام أصدر أمرا بإرجاع الشريف على حيدر باشا من المدينة المنورة. فعاد إلى دمشق فى أوائل شهر مايو سنة ١٩١٧ بعد ماقضى هنالك نحو ثمانية أشهر يبث الدعاية للترك بين العربان بلا طائل، وينفق الأموال فى استمالتهم وإغرائهم وينفحهم بالهدايا بلا جدوى.

ويقال أن فخرى باشا هو الذى كتب طالبا إجلاءه ومن معه لأنه تبين أنه لا فائدة ترجى منهم. فهم مجردون من كل نفوذ بين العربان كما أن بقاءهم يؤدى إلى زيادة النفقات والأعباء، وكانت المدينة فى حالة حصار تقريبا فأبلغ بلطف لزوم سفره فغادر طيبة بقطار خاص يحرسه عدد كبير من الجند معهم مدافع ورشاشات للمحافظة عليه. فضلا عن التدابير الخاصة التى اتخذت من المدينة حتى تبوك. ولم يطل الإقامة فى دمشق بل قصد عالية فتديرها. ولما شعر بقرب أفول نجم الدولة غادر لبنان إلى الآستانة عائدا من حيث أتى ومتنحيا عن إمارة لم يتقلدها. وهكذا قضى على مشروع الاتحاديين من هذه الناحية ولم يوفقوا إلى ضرب العرب بالعرب. كما كانوا يرجون، بل وقف الكل صفا واحدا فى وجههم واتفقوا على محاربتهم واستئصالهم.

ـ ٩ ـ

تآمر الحلفاء على العرب

عهود ومواثيق ورسائل سرية

من المعميات التى يقف كاتب الثورة العربية أمامها معترفا بالعجز عن ابتكار تعليل معقول لها، هذه المفاوضات التى كانت تدور بين انجلترا وفرنسا وروسيا لاقتسام ممتلكات الدولة العثمانية عامة، وبين الأولى والثانية لاقتسام بلاد العرب خاصة، فى نفس الوقت الذى كانت تدور فيه المكاتبات بين انجلترا والشريف لحمله على الاشتراك فى الحرب إلى جانب الحلفاء، مقابل الاعتراف باستقلال العرب والتعهد بالمساعدة على إنشاء دولة عربية تشمل الحجاز والشام والعراق. على أن ينظر فى تقرير مستقبل الساحل الشامى بعد الحرب، وقد انتهت بالاتفاق التام، وبدخول العرب الحرب بعد ماعتقدوا أنهم نالوا الوعود الكافية وحصلوا على الضمانات التى يجب الحصول عليها.

لقد سعى الإنجليز إلى الحسين، ولم يسع إليهم، وعملوا على استمالته قبل أن يسعى إلى اسمتالتهم، وطرقوا بابه ولم يطرق بابهم، وأظهرو استعدادهم لقبول جميع مطالبه وتنفيذها ولم يطلب منهم شيئا، وهذه كتب السير هنرى مكماهون نائب الملك فى القاهرة وماكان يكتب باسمه الخاص، بل باسم الدولة التى يمثلها، وبالإضافة إليها.

فالحسين ـ كما تدل سلسلة الرسائل والمكاتبات التى نشرناها فى الفصل السابع لم يعجل فى التعاقد مع الإنجلين، ولم يسرع فى دخول الحرب إلى جانبهم إلا بعد مكاتبات ومخاطبات استمرت ثمانية عشر شهرا (سبتمبر سنة ١٩١٤ ـ يونيو سنة ١٩١٦) نال بموجبها مايتسنى لمن كان فى موقفه نيله من شروط وعهود، وما كان له أن يتردد فى تصديقها وهى صادرة باسم دولة عظيمة، كان رجالها يعيرون الألمان صباح مساء بخرق حرمة المعاهدات والعقود الدولية باعتدائهم على حياد البلچيك. ويقولون إنهم لن يلقوا السلاح حتى يعيدوا ألمانيا إلى رشدها، ويحملوها على احترام العهود والتقيد بها.

ومما يستوقف النظر بوجه خاص أنه بينما كانت المكاتبات تدور بين الحسين والسير ارثر مكماهون نائب الملك فى مصر للاتفاق على وضع أسس النهضة العربية وقواعدها كانت هنالك مفاوضات تدور فى القاهرة نفسها بين السر مارك سايكس المندوب البريطانى

السامى لشؤون الشرق الأدنى والمسيو جورج بيكو المندوب الفرنسوى السامى لشئون الشرق الأدنى للاتفاق على تقرير مصير البلاد العربية، واقتسامها ويشرف عليها المسيو سازانوف معمتد روسيا العام فى القاهرة يومئذ. فكيف نعلل هذين الموقفين المتناقضين اللذين يقفهما الإنجليز فى وقت واحد مع العرب ومع الفرنسويين؟ وبماذا نفسرهما؟

فإذا قال قائل إن الإنجليز كتموا أمر المكاتبات التى كانت تدور بينهم وبين الشريف عن الفرنسويين أجبناه أن الأمر بالعكس فجميع الدلائل تدل على أن الفرنسويين كانوا عارفين بما هنالك. يؤيد ذلك ما أجاب به المسيو بريان وزير الخارجية الفرنسوية يومئذ على الاقتراح الروسى الخاص بالاتفاق مع جمال باشا ـ كما سبق ـ وامتناعه عن تشجيعه مما أدى إلى إحباطه وفشله لأنه يناقض المشروع العربى الإنجليزى. يضاف إلى هذا تعجيل الفرنسويين بمساعدة الثورة عند نشوبها وإرسالهم وفدا إلى مكة حمل كتابا خاصا من رئيس الجمهورية الفرنسوية إلى الشريف يهنئه فيه وقد بسطنا ذلك بسطا وافيا فى الفصل السابق فلا نعود إليه.

وهنالك ظاهرة أخرى، ونعنى بها مطالبة السير هنرى مكماهون الحسين بإخراج الساحل الشامى من داخل حدود الدولة العربية التى اقترحها بحجة أن للفرنسويين مصالح فيه. فقد جاء فى كتابه يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ إلى الحسين مانصه «لما كانت مقاطعات مرسين والاسكندرونة وبعض أجزاء سورية الواقعة إلى الغرب من مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن تسميتها عربية محضة. فإنه يقتضى إخراجها من الحدود التى بينتموها وأنه بمقتضى هذا التعديل، ومن غير إخلال بمعاهداتنا السابقة مع بعض زعماء العرب نقبل الحدود على ماذكرتموه»

فلو كان الإنجليز يبغون التفرد بالعمل فى جزيرة العرب ـ كما يظن لأول وهلة ـ لما احتاج مندوبهم إلى وضع مثل هذا القيد، ولما ألح باحترام مصالح الفرنسويين الخاصة وعلى كل فإننا من الذين ـ يعتقدون بأن الإنجليز أطلعوا الفرنسويين على كل مادار بينهم وبين الحسين، ولم يكتموا عنهم شيئا، إذا لم تقل إنهم كانوا يعملون بالاشتراك، ولئن تظاهر بعض الموظفين الإنجليز فى مصر وغيرها من بلاد العرب بعدم الميل إلى السياسة الفرنسوية، أو شجعوا على مقاومتها وتحديها فى بعض الأحيان، فما كانت دوائر لندن العليا تميل إلى إغضاب هؤلاء أو إثارتهم، بل كانت فى الغالب تصدر الأوامر إلى ممثليها

فى مصر، ولدى الجيوش العربية بأن يتقيدوا بالاتفاقات المعقودة، وبأن لا يخرجوا عن دائرتها، فكانوا يصدعون بأمرها وإن خالف ميولهم الشخصية أحيانا

والتعليل الوحيد فى نظرنا لما وقع، هو أن الإنجليز والفرنسويين كانوا يرجون أن يتاح لهم اقناع الحسين بالرضاء بملك الحجاز، على أن يتوصلوا إلى عقد تسوية معه على مسائل سورية، والعراق تركوا الباب مفتوحا لها فى معاهدة سايكس ـ بيكو، فلما فشلوا من هذه الناحية، وكانت آخر محاولة حاولوها هى مفاوضات جدة أيام ١٧و ١٨و ١٩ مايو سنة ١٩١٧ وقد اشترك فيها الملك والأمير فيصل والمندوبان الساميان (مارك سايكس وجورج بيكو) بالذات – وسيأتى الكلام عليها ـ اعتمدوا على القوة فى تنفيذ خططهم واتفاقهم، فكان لهم ما أرادوه، وكانت شر نكبة نكب بها العرب.

وهنالك رواية أخرى سمعناها من بعض الذين عملوا فى القضية العربية أيام الحرب العظمى، وكانوا على صلة وثيقة بالدوائر البريطانية فى القاهرة، خلاصتها أن المندوبين البريطانيين سعوا إبان المفاوضات التى دارت بينهم وبين الفرنسويين فى تلك الأيام على مصير بلاد العرب، لحمل هؤلاء على التنازل عن مطامعهم فى سورية مقابل التعويض عليهم بمستعمرة نيجيريا الغنية فى أفريقيا ويبلغ عدد سكانها ١٨ مليونا فأبوا أن يقبلوا عوضا وقالوا إنه لابد لهم من الذهاب إليها تلبية لطلب مسيحييها ورعاية لتقاليدهم.

والواقع أن الفرنسويين ما برحوا من سنة ١٨٦٠ يطمعون فى احتلال هذا القطر العظيم، متوسلين بمصالح اقتصادية لهم فى بيروت وبمالهم من مدارس، وماكانت تقل فى لبنان وحده عن ٣٠٠ مدرسة وبقية المدن السورية الأخرى، فلما جاءت الحرب اعتقدوا أن الفرصة سانحة لتحقيق أحلامهم، فأبوا قبول التعويض المقترح متذرعين بالدفاع عن المسيحيين ورعايتهم. يضاف إلى هذا أنهم كانوا يمنون النفس باتخاذ بلاد الشام قاعدة لإمبراطورية فى آسيا شبيهة بإمبراطوريتهم فى إفريقية، وقد فشلوا من هذه الناحية كما فشلوا فى حكم سورية نفسها.

ولم ير الإنجليز بدا فى هذه المرحلة، وكانت الحرب فى إبان شدتها من مراعاة عواطف الفرنسويين ومسايرتهم، فعقدوا معهم معاهدة القاهرة (سايكس ـ بيكو) خوفا من إحراجهم وكانوا يهددون فى تلك الأيام بعقد صلح منفرد، أملا بأن تساعد الظروف على تعديلها والتخلص منها.

اتفاق الإنجليز والفرنسويين والروس على اقتسام تركيا

ونبدأ بنشر نص المعاهدة التى عقدت بين الإنجليز والفرنسويين والروس - لاقتسام الدولة العثمانية - فقد تقدمت معاهدة سايكس - بيكو - مع نصوص الرسائل التى تبودلت بينهم فهى تميط اللثام عن كثير من الأسرار، وتنير جانبا من جوانب البحث وتثبت أن التوسع الاستعمارى كان فى مقدمة الأغراض التى رمى إليها الخلفاء من مواصلة الحرب رغم ماكانوا يذيعونه بأنهم لم يخوضوها إلا لنصرة الحق والعدل.

ولقد راعينا التسلسل التاريخى فى إيراد هذه الرسائل، وهى أيضا مما استخرجه البلاشقة من الخزانة السرية لوزارة الخارجية الروسية ونشروه ففضحوا الحلفاء.

١

فى يوم ٤ مارس سنة ١٩١٥ أبلغ المسيو سازانوف وزير الخارجية الروسية سفيرى انجلترا وفرنسا فى بطرسبرغ مذكرة قال فيها:

ترغب الحكومة الروسية عند ختام الحرب العظمى فى ضم الأراضى الآتية إلى ممالكها وهى: مدينة الأستانة مع ضفاف البوسفور الغربية وبحر مرمرة ومضيق الدردنيل وتراقية الجنوبية حتى خط إينور - ميديه، وسواحل آسيا الصغرى الواقعة بين البوسفور حتى نهر سقاريا مع بعض المراكز على خليج أزميت وجزر بحر مرمرة وجزيرتى أميروس وتندوس الواقعتين قرب مداخل الدردنيل، على أن لا يخل ذلك بما لفرنسا وانجلترا من حقوق تلك الأراضى.

٢

فردت الحكومتان على هذه المذكرة ببيان قالتا فية أنهما توافقان على مطالب الروس بشرط أن تنتهى الحرب بالنجاح السريع، وأن توافق روسيا على مطالب فرنسا وانجلترا فى الأجزاء الآتية وهى:

١ - الاعتراف بجعل الأستانة ميناء حرا (ترانسيت) وإعلان حرية المضايق للبواخر التجارية.

٢ - الاعتراف بحقوق انجلترا وفرنسا ومصالحهما فى آسيا، تلك المصالح التى طالما طالبتا بتحديدها تحديدا صحيحا بعقد اتفاق خاص بينهما وبين روسيا.

٣ ـ صيانة الأماكن المقدسة فى البلاد العربية تحت حكم دولة إسلامية مستقلة.

٤ ـ ضم منطقة الحياد الفارسية إلى منطقة النفوذ البريطانى فى إيران.

٥ ـ الاعتراف بأن هذه المطالب قابلة للبحث والتعديل.

٣

وفى يوم ٧ مارس أرسل وزير الخارجية الروسية إلى سفيريه فى لندن وباريس ردا على اقتراحات حكومتيهما قال فيه:

إن اتخاذ قرار حاسم فى مستقبل العلاقات بين الدول الإسلامية المقرر تأليفها على أنقاض السلطنة العثمانية وفصلها عن دولة الخلافة يهم حكومة صاحب الجلالة القيصر لأنه يساعد كثيرا على تحقيق الأمانى التى نعمل على تحقيقها.

إن حكومة صاحب الجلالة القيصر ترغب من كل قلبها فى نزع الخلافة من الترك. إلا أنها فى الوقت نفسه ترغب من كل قلبها فى تأمين حرية الحج وعدم التعرض له بأقل مايسوء المسلمين.

وحكومة صاحب الجلالة القيصر تؤيد ادخال المنطقة الحيادية فى إيران ضمن دائرة نفوذ بريطانيا، إلا أنها فى الوقت نفسه ترى أن تترك اصفهان ويزد شهر التى لا يمكن التفريق بينهما والأراضى المجاورة للمنافع الروسية.

إن المنطقة المحايدة فى حدودها الحاضرة عبارة عن رأس داخل فى البلاد الأفغانية وهى قريبة من موقع «ذى الفقار» إلى الحدود الروسية. ولهذا نرى من اللازم إلحاق قسم من الخط الداخل ضمن الحدود الأفغانية فى محيط النفوذ الروسى

أما مسألة إنشاء الخطوط الحديدية فى المنطقة المحايدة فإنها وإن كانت ذات أهمية جدية لحكومة صاحب الجلالة القيصر إلا أنها فى الوقت نفسه تعد بأن تدرس هذه النقطة بالاتفاق مع الحكومة البريطانية فى المستقبل بصورة ودية تامة، وأن لاتعتمد على الاستئثار فى هذه النقطة إلى النهاية.

إن حكومة صاحب الجلالة القيصر لما كانت مالكة الحرية التامة المطلقة فى إدارة المنطقة التى ستخصص لنفوذها فى السلطنة العثمانية، ولما كانت حائزة على الصلاحية المطلقة فى المشاريع المالية والاقتصادية التى ستقوم بها فى المستقبل لترقية هذه المنطقة

فهى تؤمل المصادقة على هذه الأمانى بتمامها.

وهى تؤمل حل المسائل المتعلقة بحدودها فى شمالى الأفغان طبقا للمحادثات التى دارت بينها وبين وزير خارجية بريطانيا فى العام الماضى.

أنى أرغب منكم بسط هذه الأمور بحذافيرها للسير إدوارد غراى وزير خارجية بريطانيا والحصول منه على وعد قطعى رسمى بشأن هذه المطالب وافراغها بقالب نهائى.

٤

فرد عليه المسيو ايزولسكى سفيره فى باريس يوم ٨ منه ببرقية قال فيها:

«أبلغنى المسيو دلكاسة (وزير الخارجية الفرنسوية) إن الحكومة الفرنسوية مستعدة لتأييد وجهة النظر الروسية فى مايتعلق بقضيتى المضايق والآستانة».

٥

وفى يوم ١٨ منه أرسل المسيو سازانوف إلى سفيره فى باريس البرقية الآتية:

«أرجوكم إبلاغ شكرى الصميم إلى المسيو دلكاسة للبيان الذى أدلى به إليكم يوم ٨ مارس بشأن استعداد الحكومة الفرنسوية لتأييد وجهة نظرنا فى مختلف الشؤون التى بسطناها فى برقيتنا السابقة، والخاصة بقضيتى الآستانة والمضايق.

ولما كان المسيو دلكاسة ذكر لكم فى اجتماعاته المختلفة أن فى إمكانكم أن تكونوا مطمئنين من جهة فرنسا ومن محبتها لروسيا ورغبتها الأكيدة فى معاضدتها إلا أنها ترى وجوب أخذ رأى بريطانيا نهائيا فى الأمر قبل البت فيه خوف الاعتراض.

وبما أن الحكومة البريطانية قد كتبت إلينا اليوم بأنها توافق على ضم المضايق والمناطق المعينة من الآستانة إلى روسيا مقابل شروط تختص بمصالحها الاقتصادية على أن تبدى مثل هذا التساهل إزاءها فى غير هذه الناحية فى الميدان السياسى.

ومع ثقتى العظيمة بالمسيو دلكاسة واعتقادى بأن أقواله الشفهية كافية. إلا أنى أرى من الضرورى الحصول على وعد خطى مماثل للوعد البريطانى يطئن روسيا على حصول ماترغب الحصول عليه فى هذا الباب، ويكون أدعى للارتياح».

٦
اشتراك إيطاليا فى المفاوضات

وبينما كانت المفاوضات تدور على هذا المنوال بين العواصم الثلاث قررت إيطاليا الانضمام إلى الحلفاء والاشتراك فى الحرب إلى جانبهم، فلم ير هؤلاء بدا من إطلاعها على ما يدور، وقد تولت حكومة لندن هذه المهمة، وهذه صورة التقرير الذى أرسله سفير روسيا إلى وزارة خارجية حكومته بهذا الشأن:

«أبلغت وزارة خارجية انجلترا وزارة الخارجية الإيطالية المبادئ التى اتفق عليها الحلفاء لاقتسام السلطنة العثمانية مع أمانينا المبسوطة فى برقية ٧ مارس على أثر تقرير هذه الحكومة دخول الحرب العالمية بجانب دول الحلفاء والخروج من الجانب الألمانى النمسوى. فأجاب وزير الخارجية الإيطالى أنه على استعداد تام لإجابتنا على رغبتنا هذه فى حال تعهدنا مع الحلفاء بتحقيق الشروط التالية إذا ما خرج الحلفاء ظافرين من الحرب وهى:

أولا - أن تعرض القضية الشرقية بسائر فروعها على بساط البحث بين دول الحلفاء وإيطاليا.

ثانيا - أن تعطى لإيطاليا فى المناطق التى ستضم إلينا سائر الحقوق والتعهدات التى ستعطى لفرنسا وبريطانيا بصورة مساوية.

ثالثا - أن تعترف الحكومة الروسية بالمنطقة التى ستعطى إلى إيطاليا فى المملكة العثمانية.

رابعا - أن تكون حصة إيطاليا فى البلاد التى ستسلخ عن السلطنة العمثانية مساوية تماما للأراضى التى ستعطى لفرنسا وبريطانيا.

٧

وعاد سفير روسيا فى لندن فأرسل إلى وزير خارجيته برقية حدد فيها مطالب إيطاليا تحديدا نهائيا وهى:

أولا - إن الحكومة الإيطالية توافق الحكومة الروسية على الشروط التى أدمجتها فيما يتعلق بتأمين حرية مرور السفن من المضايق وتجارة الترانزيت، وتدخل فى تأليف اللحنة العليا التى ستتولى مراقبة المضايق على أن يكون رأيها مساويا لرأى فرنسا وبريطانيا فى اللجنة المذكورة.

ثانيا ـ أ الحكومة الإيطالية تؤيد رأى الحكومة الروسية بضرورة فصل الحكومة الإسلامية التى ستؤسس فى الحجاز على أنقاض السلطنة العثمانية عن الخلافة، وأن تكون تحت مطلق نفوذ بريطانيا.

ثالثـا ـ أن الحكومة الإيطالية تؤيد بكل قواها نزع الخلافة من الأتراك وإلغاءها بتاتا إذا اقتضى الأمر.

رابعا ـ أن الحكومة الإيطالية تساعد بكل قواها الفكرة الروسية القائلة بوجوب تأمين حرية طريق الحج، وأن تكون هذه الطريق تحت حماية الدول المتعاقدة.

٨

نص المعاهدة الروسية ـ الإنجليزية ـ الفرنسوية

وبعد مفاوضات وقع الحلفاء يوم ٤ مارس سنة ١٩١٦ فى بطرسبرغ المعاهدة الآتية:[١]

بناء على المفاوضات التى دارت بين بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا فى ربيع سنة ١٩١٥ فى لندن وباريس

وبناء على اقتناع هذه الدول المتحالفة بوجوب إنقاذ الأمم الخاضعة للسلطنة العثمانية، واقتسامها مناطق نفوذ فيما بنيها.

ولما كانت الأكثرية الساحقة من أبناء هذه البلاد راغبة جد الرغبة فى الخلاص من تحكم الحكومة الحاضرة

ولما كان الواجب يقضى بضرورة العمل على تدريب هذه الشعوب فقد تقرر ما يلى:

المادة الأولـى ـ تتعهد فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا فيما بينها أن تعمل يدا واحدة فى سبيل إنقاذ البلاد العربية وحمايتها، وتأليف حكومة إسلامية مستقلة فيها تتولى بريطانيا مراقبتها وإدارتها.

المادة الثـانيـة ـ تتعهد الدول المتعاقدة بحماية الحج، وتسهيل سائر السبل المؤدية إلى مرور الحجاج وعدم الاعتداء عليهم.

المادة الثـالثـة ـ تقسم البلاد العثمانية إلى مناطق نفوذ بين الدول المتعاقدة على الوجه التالى:

---

١ ـ نشرت الحكومة البلشفية هذه المعاهدة يوم ٢١ فبراير سنة ١٩١٨.

منطقة نفوذ روسيا

أولا ـ تضم إلى روسيا المناطق التالية:

أ ـ ولايتا أرضروم وبتليس والمناطق التابعة لهما

ب ـ الأراضى الكائنة جنوبى كردستان وتمتد على خط من ولاية موش إلى سعرد ومن هناك تنحدر إلى جزيرة ابن عمر، ثم تتبع خطا مستقيما إلى العمادية ومنها إلى الحدود الإيرانية.

جـ ـ تتجه نقطة الحدود هذه من موش شمالا إلى البحر الأسود فتدخل طرابزون فى سمتها

د ـ تنتهى نقططة حدود روسيا على البحر الأسود شرقى طرابزون فى منطقة تحدد فيما بعد.

هـ ـ تخضع هذه الأراضى خضوعا تاما إلى حكومة صاحب الجلالة قيصر روسيا وتعتبر من ممتلكاته.

منطقة نفوذ فرنسا

ثانيا ـ تضم إلى منطقة نفوذ فرنسا المناطق التالية:

أ ـ السواحل السورية، وتبدأ هذه السواحل من حدود الناقورة مارة بصور وصيدا فبيروت فطرابلس واللاذقية وتنتهى فى الأسكندرونة.

ب ـ تضم المناطق الساحلية جميعها إلى فرنسا مع الجبل اللبنانى المعروفة حدوده بموجب الاتفاق الدولى.

جـ ـ تضم جزيرة ارواد والمناطق المجاورة لها، والجزر الصغيرة القائمة على الساحل المعرف عنه فى الفقرة السابقة.

د ـ تضم ولاية كيليكية إلى النفوذ الفرنسى وتبدأ حدود هذا الخط من جهة الجنوب من الحدود الخاضعة إلى النفوذ الروسى فى جزيرة ابن عمر، ثم تتجه إلى عينتاب وماردين ثم تنحدر شمالا من آلاطاغ – قيصرى ـ اق طاغ ـ بيلديز طاغ ـ زرعه ـ اكين ـ خربوط.

هـ ـ تظل هذه المنطقة خاضعة تمام الخضوع للنفوذ الفرنسى.

منطقة نفوذ بريطانيا

ثالثا ـ تؤلف منطقة النفوذ البريطانى من المناطق التالية:

أ ـ تضم المنطقة الممتدة من الحدود الروسية والفرنسية فى الخطين المذكورين إلى النفوذ البريطانى. وهذه المنطقة تضم القطر العراقى مع نفس مدينة بغداد.

ب ـ السواحل الممتدة من الحدود المصرية إلى حيفا فعكا حيث تتصل بحدود نفوذ فرنسا.

جـ ـ تضم المنطقة الممتدة من خليج فارس إلى آخر البحر الأحمر إلى نفوذ بريطانيا المطلق.

د ـ تؤلف الحكومات العربية عملا بالمادة الآتية من سكان المناطق المسكونة بالعرب. على أن تكون هذه الحكومات حائزة على السيادة والاستقلا اللازم لها، والذى يعين فيما بعد بالاتفاق بين الحكومات المتحالفة.

٤ ـ تتألف فى المنطقة الكائنة بين منطقتى النفوذ الفرنسوى والبريطانى دولة أو حلف دول عربية مستقلة، وفقا لاتفاق خاص بين فرنسا وانجلترا على أن تحدد حدود هذه الدولة حين عقد هذا الاتفاق.

٥ ـ يكون ميناء اسكندرونة دوليا وتعلن حريتها

٦ ـ تعتبر فلسطين وأماكنها المقدسة منطقة خارجة عن الأراضى التركية. على أن توضع تحت إدارة خاصة وفقا لاتفاق يعقد بين انجلترا وفرنسا وروسيا بهذا الشأن، وتحدد مناطق نفوذ المتعاهدين ومصالحهم.

٧ ـ تعترف الدول المتعاقدة مبدئيا ومتقابلا بجميع العقود والامتيازات المعقودة المعطاة قبل الحرب فى هذه الأراضى.

٨ ـ تقبل الدول المتعاقدة جانبا من الدين العثمانى بنسبة الأراضى التى تمتلكها.

١

معاهدة سايكس ـ بيكو

فى يوم ٩ نوفمبر ١٩١٥ عينت الحكومة الفرنسوية المسيو جورج بيكو قنصلها العام فى بيروت سابقا، مندوبا ساميا، لمتابعة شؤون الشرق الأدنى، ولمفاوضة الحكومة البريطانية فى مستقبل البلاد العربية. فلم يلبث إن شد رحاله إلى القاهرة، فاجتمع إلى السير مارك

سايكس النائب فى مجلس النواب البريطانى، والمندوب السامى لشؤون الشرق الأدنى.

وفى القاهرة نفسها دارت المفاوضات بين هذين المندوبين أشرف عليها معتمد روسيا لتطبيق المبادئ التى تم الاتفاق عليها وتقررت بموجب المعاهدة الثلاثية. ولرسم خط الحدود الجديد على الخارطة. وفى شهر مايو سنة ١٩١٦ تم الاتفاق نهائيا بين المندوبين فأرسل المسيو بول كاميون سفير فرنسا فى لندن الكتاب الآتى يوم ٨ مايو إلى السير ادوارد غراى وزير الخارجية البريطانية.

«أمرت أن أبلغكم أن الحكومة الفرنسوية قبلت الحدود التى رسمت على الخرائط الموقعة من جانب السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو ورضيت بالمبادئ التى دارت عليها المفاوضات بنيهما، وهى تنتظر التوقيع على نصوص الاتفاقية المرسلة طيه:

المادة الأولى - أن فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة، أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربى فى المنطقتين (أ) (داخلية سورية) و (ب) (داخلية عراقية) المبينتين فى الخريطة الملحقة بهذا، ويكون لفرنسا فى منطقة (أ) ولانجلترا فى منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية، أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية - يباح لفرنسا فى المنطقة الزرقاء (شقة سورية الساحلية) ولانجلترا فى المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس) إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة، أو بالواسطة، أو من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة، أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثالثة - تنشأ إدارة دولية فى المنطقة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا بالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلى شريف مكة.

المادة الرابعة - تنال انجلترا مايأتى:

(١) ميناء حيفا وعكا.

(٢) يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات فى المنطقة (أ) للمنطقة (ب) وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها بأن لاتدخل فى مفاوضات ما مع دولة أخرى للتنازل عن قبرص إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسوية مقدما.

المادة الخامسة - تكون اسكندورنة ميناء حرا لتجارة الإمبراطورية البريطانية، ولا تنشأ معاملات مختلفة فى رسوم الميناء ولا ترفض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية

وتباح حرية النقل للبضائع الإنجليزية عن طريق اسكندرونة والسكة الحديد فى المنطقة الزرقا، سواء كانت واردة إلى المنطقة الحمراء أو إلى المنطقتين (أ) و (ب) أو صادرة منهما.

ولاتنشأ معاملات مختلفة (بالذات أو بالتبع) على أى سكة من السكك الحديدية أو فى أى ميناء من موانئ المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية.

وتكون حيفا ميناء حرا لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها، ولا يقع اختلاف فى المعاملات، ولا يرفض إعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسوية. ويكون نقل البضائع الفرنسوية حرا بطريق حيفا وعلى السكة الحديد الإنجليزية فى المنطقة السمراء، سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء أو الحمراء أو المنطقة (أ) أو المنطقة (ب) أو واردة إليها، ولا يجرى أدنى اختلاف فى المعاملة بالذات أو بالتبع يمس البضائع أو البواخر الفرنسوية فى أى سكة من السكك الحديدية، ولا فى ميناء من الموانئ فى المناطق المذكورة.

المادة السادسة ـ لا تمد سكة حديد بغداد فى المنطقة (أ) إلى مابعد الموصل جنوبا ولا فى المنطقة (ب) إلى مابعد سامرا شمالا، إلى أن يتم إنشاء خط حديدى يصل بغداد بحلب مارا بوادى الفرات، ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين.

المادة السابعة ـ يحق لبريطانيا العظمى أن تنشئ وتدير وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدى يصل حيفا بالمنطقة (ب) ويكون لها ماعدا ذلك حق دائم بنقل الجنود فى أى وقت كان على طول هذا الخط. ويجب أن يكون معلوما لدى الحكومتين أن هذا الخط يجب أن يسهل اتصال حيفا ببغداد، وأنه إذا حالت دون إنشاء خط الاتصال فى المنطقة السمراء مصاعب فنية، ونفقات وافرة لإدارته تجعل إنشاءه متعذرا فالحكومة الفرنسوية تكون مستعدة أن تسمح بمروره فى طريق بربورة ـ أم قيس ـ ماقى ـ إيدار ـ غسطا ـ مغاير قبل أن يصل إلى المنطقة (ب)

المادة الثامنة ـ تبقى تعريفة الجمارك التركية نافذة عشرين سنة فى جميع المنطقتين الزرقاء والحمراء والمنطقيتين (أ) و (ب) فلا تضاف أى علاوة على الرسوم، ولا تبدل قاعدة التثمين فى الرسوم بقاعدة أخذ العين إلا أن يكون باتفاق بين الحكومتين.

ولا تنشأ جمارك داخلية بين أية منطقة وأخرى من المناطق المذكورة أعلاه، ومايفرض من رسوم الجمرك على البضائع المرسلة إلى الداخل يدفع فى الميناء، ويعطى لإدارة المنطقة المرسلة إليها البضائع.

المادة التاسعة - من المتفق عليه أن الحكومة الفرنسوية لا تجرى مفاوضة فى أى وقت كان للتنازل عن حقوقها، ولا تعطى مالها من الحقوق فى المنطقة الزرقاء لدولة أخرى سوى للدولة، أو حلف الدول العربية بدون أن توافق على ذلك سلفا حكومة جلالة الملك التى تتعهد للحكومة الفرنسوية بمثل هذا فى ما يتعلق بالمنطقة الحمراء.

المادة العاشرة - تتفق الحكومتان الإنجليزية والفرنسوية بصفتهما حاميتين للدولة العربية على أن لا تمتلكا، ولا تسمحا لدولة ثالثة أن تمتلك أقطارا فى شبه جزيرة العرب أو تنشئ قاعدة بحرية فى الجزائر على ساحل البحر الأبيض الشرقى. على أن هذا لا يمنع تصحيحا فى حدود عدن قد يصبح ضروريا بسبب عداء الترك الأخير.

المادة الحادية عشرة - تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها لتعيين حدود الدولة، أو حلف الدول العربية.

المادة الثانية عشرة - من المتفق عليه عدا ما ذكر أن تنظر الحكومتان فى الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح إلى البلاد العربية.

٢

وفى ١٥ يوم مايو سنة ١٩١٦ أرسل السير ادوارد غراى وزير الخارجية البريطانية إلى سفير فرنسا فى لندن الكتاب الآتى:

«لى الشرف أن أجيبكم على كتابكم المؤرخ ٩ الجارى، والخاص بإيجاد حكومة عربية أنى أنتظر أن تعلمونى مباشرة فى ما إذا كان فى إمكانكم إعطائى ضمانات معينة تضمن بقاء حقوق الملاحة والامتيازات البريطانية فى المعاهد والمؤسسات الدينية ومعاهد التعليم والمعاهد الصحية فى المناطق التى ستصير فى مابعد مناطق فرنسوية، أو فى المناطق التى تسود فيها المصالح الفرنسوية، وفقا للقواعد الواردة فى كتابكم. وتفضلوا...

٣

فرد عليه السفير الفرنسوى فى اليوم نفسه بالخطاب الآتى:

«لقد أعربتم فى كتابكم بتاريخ اليوم عن رغبتكم قبل الرد على كتابى الخاص بمسألة

تأليف حكومة عربية، والمؤرخ ٩ الجارى ـ فى الحصول على مايضمن لكم دوام بقاء امتيازات وحقوق الملاحة، وكذلك جميع الحقوق والامتيازات البريطانية فى المؤسسات الدينية ومعاهد التعليم، وفى المعاهد الصحية فى المناطق التى تصير فى مابعد مناطق فرنسوية، أو فى المناطق التى تسود فيها المصالح الفرنسوية ـ كما أن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ستعترف بهذا الحق عينه لفرنسا مستعدة للمصادقة على جميع الامتيازات البريطانية المختلفة التى يرجع تاريخها إلى زمن معين قبل الحرب فى المناطق التى تنتسب إلى فرنسا فيما بعد، أو المناطق التى تعتمد على مجهوداتها فيها. أما فيما يختص بالمؤسسات الدينية ومعاهد التعليم والمعاهد الصحية فإنها ستظل كما فى الماضى مستمرة فى أداء مهمتها. وألفت نظركم فى الوقت نفسه إلى أن هذا العهد لا يشمل الامتيازات الأجنبية، أو مايتعلق بالأمور العدلية والقضاء.

٤

فرد عليه السير إدوارد غراى يوم ١٦ منه بالكتاب الآتى:

جوابا لخطابكم المؤرخ فى ١٥ الجارى لى الشرف أن أبلغ سعادتكم أن قبول جميع هذه التكليفات والترتيبات بهيئتها الحالية، مما يوجب إهمال المنافع البريطانية العظيمة. غير أنه لما كانت حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ترجو الفوائد العميمة لمصالح الحلفاء عامة بإحداث حالة سياسية داخلية مساعدة فى تركيا، فقد استعدت لقبول المواد المتفق عليها لضمان اشتراك العرب فى الحرب، ولكى يقوموا بواجب التحالف فيحتلوا حلب وحماه وحمص ودمشق، فإذن حصل التفاهم بين انجلترا وفرنسا فيما يتعلق بالشروط الواردة فى كتابكم المؤرخ ٩ الجارى.

ثم أدرج فى الكتاب نص مواد المعاهدة بكاملها

* * *

تلك هى نصوص المكاتبات الرسمية التى دارت بين الحلفاء، والعقود التى عقدوها لتقرير مصير بلاد العرب، وهى واضحة لا غموض فيها ولا إبهام.

ومما يستوقف النظر أن الاتفاق النهائى مع الشريف على خوض الحرب لم يتم إلا بعد

اتفاق الحلفاء بينهم على القسمة - أى أنه جاء بعده - على الرغم من أن جميع هذه الاتفاقات تمت فى سنة واحدة (سنة ١٩١٦) ولذلك يجب أن يعتبر نافذا ومرعيا عملا بالقاعدة العامة القائلة «المتأخر ينسخ المتقدم».

على أنه لابد لنا من القول هنا أن الإنجليز لم يروا بعد انتهاء الحرب، وبعد أن وضعوا أيديهم على العراق وفلسطين وسيلة للخروج من الموقف الذى صاروا إليه مع العرب سوى إنكار هذه العهود وتجاهلها، أو الادعاء بأنهم لم يقطعوها، أو لم يتعهدوا بها، أو أنها مبهمة يؤيد ذلك الحديث الذى فاه به الأمير فيصل نفسه يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٢٠ مع جريدة المفيد الدمشقية فقد قال: لما كنت فى لندن قدمت صورة من المعاهدة التى تقررت مع الإنجليز إلى رئاسة مجلس الوزراء فانكرت وجودها كل الانكار، وقالت إنه لايوجد عهد ولا كتاب ينطق بهذا التصريح، ثم أورد الأمير نص المعاهدة، وقد كتب على رأسها بخط الحسين مانصه: صورة ماتقرر مع بريطانيا بشأن النهضة وهو:

١ - تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معانى الاستقلا فى داخليتها وخارجيتها تكون حدودها شرقا من بحر خليج فارس ومن الغرب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض، وشمالا حدود ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات، ومجتمعة مع الدجلة عند مصبها فى بحر فارس، ماعدا مستعمرة عدن فإنها خارجة عن هذه الحدود وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التى أجرتها بريطانيا العظمى مع أى شخص كان من العرب فى داخل هذه الحدود بأنها فى محلها فى رعاية وصيانة تلك الحقوق وتلك الاتفاقيات مع أربابها أميرا كان أو من الأفراد.

٢ - تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أى مداخلة كانت بأى صورة كانت فى داخليتها، وسلامة حدودها البرية والبحرية من أى تعهد بأى شكل يكون، حتى ولو وقع قيام داخلى من دسائس الأعداء، أو من حسد بعض الأمراء فيه تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع ذلك القيام وهذه القيامات أو الثورات الداخلية، وتكون مدتها محدودة - أى لحين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها الداخلية.

٣ - تكون البصرة تحت اشغال (أى احتلال) العظمة البريطانية لحينما يتم للحكومة الجديدة المذكورة تشكيلاتها المادية، ويعين من جانب تلك العظمة مبلغ من النقود

يراعى فيه حال احتياج الحكومة العربية، التى هى حكمها قاصرة فى حضن بريطانيا، وتلك المبالغ تكون فى مقابلة ذلك الأشغال.

٤ ـ تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ماتحتاجه ربيبتها الحكومة العربية من الأسلحة ومهماتها والذخائر والنقود مدة الحرب.

٥ ـ تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط الحديدى من مرسين أو ماهو مناسب من النقاط فى تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها.

وعلى أثر ذلك كررت طلب تلك المعاهدة من مكة، ولكنها لم ترد ويالأسف حتى الآن فلهذا لا يمكن أن أقول بأن وزارة الخارجية مخالفة للحقيقة بأقوالها، ولا أقول أن حكومة مكة تقول غير الواقع».

وفى شهر أغسطس سنة ١٩٢٢ زار وفد سورى برئاسة الأمير ميشيل لطف الله لندن لمطالبة الإنجليز بتنفيذ عهودهم للعرب، ولما قصد وزارة الخارجية، وقابل أحد أقطابها العارفين بشؤون الشرق الأدنى دار البحث على تلك العهود فقال السياسى الإنجليزى أنه لا يستطيع البحث فى شأن سورية، لأن بين بريطانيا وفرنسا معاهدات تقيد البريطانيون بها وأنه لاتوجد بينهم وبين العرب معاهدة، ولكن هنالك عهود صدرت من السير هنرى مكماهون لا تتضمن الشيئ الذى تريدونه. وأنه من الأول إلى الآخر ما فكر باستقلال العرب، إلا على شرط أن يكونوا تحت وصاية بعض الدول العظمى.

ولقد عالج المستر ج . دى . ف. لودر. من الإنجليز المشتغلين بالشؤون العربية فى كتابه «القول الحق» تعريب نزيه المؤيد العظم قضية هذه العهود فى فصل خاص فقال:

«ابتدأت المفاوضات بين شريف مكة وبين بريطانيا العظمى بابتداء الحرب العامة، ولم تثمر شيئا باديئ بدء. لأن الشريف أراد أن يكون موقفه جليا واضحا، وكان يستعد سرا لمقاومة كل حركة عدائية يتحركها الترك. كما كان يتظاهر لهم بالصداقة، وقد جمع متطوعين فى شهر فبراير سنة ١٩١٥ لتأييد الحملة التركية على القناة، وساعد بحارة الطراد امدن الألمانى، والحق أن حالة الحرب العامة كانت مبهمة لا تدعو إلى التفاؤل بانتصار الحلفاء وكان موقف الحسين موقف ود، ولكن الترك أنفسهم جلوه باشتباههم فى أمر العرب، وقيام جمال باشا بما قام به من الأعمال الفظيعة وفرار الكثيرين من سورية، وتحريضهم الحسين على امتشاق الحسام لتحرير العرب، وقد دعته هذه الاعتبارات إلى

فتح باب المكاتبات مع نائب الملك في مصر وكان ذلك في شهر يوليو سنة ١٩١٥ وتعتبر هذه المكاتبات ذات شأن عظيم. لأنها تحتوى على مستندات وصكوك تبين العهود التى بين الحكومة البريطانية، وبين الحكومة العربية، وهى التى حدثت حولها ضجة عظيمة، وكانت سببا لمناقشات عديدة. ورغم ذلك كله لم يطلع عليها أحد بتمامها، وكنا نرى بين آونة وأخرى نتفامنها».

ثم أورد الكاتب خلاصة لمطالب الحسين، وجواب الانجليز عليها، وقال «إن المكاتبات التى دارت لم تف بالمطلوب ولاجلت موقف العرب ولاحددت مركزهم مع الحلفاء. بل بالعكس إظهرت تمسك كل فريق ببعض نظرياته التى من شأنها أن تثير الخصومة وتولد النفور والنزاع فى المستقبل. وهنالك أمر واحد تقدم تقدما محسوسا، وهو موافقة الفريقين على العمل لفصل البلاد العربية نهائيا عن الدولة العثمانية، واعتبر العرب مساعدتهم للحلفاء فى إتمام هذا القصد الواسطة الوحيدة لنيل استقلالهم بلا قيد أو شرط إلا بعض المساعدة البسيطة عند مسيس الحاجة إليها وذلك بناء على طلبهم إياها».

ولقد أثيرت مسألة هذه العهود غير مرة فى مجلسى النواب واللوردات البريطانيين خلال السنوات الأخيرة، وكان الأعضاء الموالون للعرب ينادون فى كل مناسبة بضرورة الوفاء بالعهود المقطوعة، ويلحون بنشرها فيجابون بأنه لم يئن أوان النشر، أو يقال لهم بأن بريطانيا وفت بما عليها وقامت للعرب بما يجب أن تقوم به.

ويقلل من قيمة هذه الدعوى فى نظرنا، بل ويسقطها مارواه المستر جريفز مؤلف كتاب «لورانس» وهو أن نائب الملك بمصر والحسين بن على لم يكونا على علم بالاتفاقات التى عقدت بين الإنكلز والفرنسويين بشأن بلاد العرب.

ويقول الدكتور شهبندر فى مقالة نشرها فى مجلة المقتطف فى شهر يونيو سنة ١٩٣١ بعنوان: «لورانس فى الميزان» مانصه «أما الاعتذار الذى قدمه بعض الكتاب عن التناقض المعيب فى السياسة البريطانية بقولهم إن الذى حدث إنما هو وجود دائرتين فى وزارة الخارجية استقلت كل منهما بواحدة من هاتين المعاهدتين من دون أن تكاشف الأخرى فهو من سقط الكلام، ولايليق أن يقال حتى عن الصين فى أعظم أيام نكبتها، ناهيك بأن ينسب إلى أعرق دولة فى التنظيم السياسى وانسجام الخط الخارجية، ومما هو حرى بالتدوين أن نائب الملك بمصر لما تناول أمرا بعقده اتفاقية مع الحسين بن على أرسل إنذارا إلى

حكومته شديد اللهجة قال فيه: إننا بتأييدنا القضية الوطنية فى بلاد العرب نعمل عملا محفوفا باعظم الأخطار، وأشد المهالك، لأن حرية العرب قد تنمو فى أحد الأيام فتصير الغول الذى افترس صانعه فى رواية «فرانكشتين».

«ولما حدثت الثورة فى روسيا فى ربيع سنة ١٩١٧ نشر البلاشفة صورة هذه المعاهدة فتناولها الترك ووزعوها فى الأقطار الحساسة ذات التأثير فى المصالح الإنكليزية، ورأينا فى القاهرة فى تلك الأيام السير مارك مايكس يعود من لندن ليخفف من سوء وقعها فى الأوساط العربية، وماقد تحدثه من رد الفعل. ولما اطلع عليها نورى السعيد دخل على لورانس فسأله أى العهدين سترتبط به انكلترا فاجابه بعد تردد نفسانى عميق «إنها ستحافظ على كلمتها لفظا ومعنى وان العهد المتأخر ينسخ العهد المتقدم» ويقول الدكتور شهبندر «ان لورانس شعر بعد ذلك بخجل عظيم فى نفسه على هذه المواربة، فاراح ضميره فيما بعد باطلاعه الأمير فيصلا على جميع مااستكشفه من أسرار وزارة الخارجية البريطانية وآلى على نفسه أن يرفض جميع مايمنح من الألقاب والرتب والأوسمة والأموال لأعماله الممتازة فى الشئون العربية.

«وقد برّ بيمينه فأنه طبع نحو ثلاثمائة وخمسين نسخة من كتابه الكبير «أعمدة الحكمة السبعة» ففرق ثلثها على أصحابه على سبيل الهدية وباع الثلثين الباقيين للمشتركين بثلاثين جنيها للنسخة وقد كلفه الطبع ١٣ ألف جنيه، وكان ثمن الصور وحدها يربو على قيمة الاشتراك، فكانت خسارته عشرة آلاف جنيه. لذلك رأى أن يضع لهذا المؤلف الكبير مختصرا يأخذ من ريعه مايسد به هذا النقص الذى استدانه من أصحابه، وسمى هذا المختصر:

«ثورة فى الصحراء» وقد الفه فى يومين. ومن حسن الحظ أن كتابه ثورة فى الصحراء لاقى نجاحا. حتى أن مطبعة فرنسوية كبيرة استأذنته فى نقله إلى الفرنسوية فاشترط عليها أن تطبع على غلافه العبارة الآتية: «إن ريع هذا الكتاب سيوزع على صرعى المظالم الفرنسوية» فأبت

ويقول المستر جريفز صديق لورانس فى كتابه عنه : «إنه شرح للملك جورج بصورة شخصية أن الدور الذى مثله فى الثورة العربية لم يكن مشرفا له ولا بلاده ولا للحكومة البريطانية. فقد أمر أن يمنى العرب بالأمانى الكاذبة. وهو يرجو أن يعفى من قبول الأوسمة التى أنعم بها عليه لنجاحه فى الخديعة والاحتيال» وهكذا رفض قبول الأوسمة

التى عرضت عليه، وأعادها وتطوع جنديا فى سلك الطيران.

ولسنا فى حاجة بعد هذه البيانات إلى إضافة شيئ عليها، وحسبنا أن نقول أن نكث بريطانيا، وعدم وفائها بما تعهدت به للعرب متسترة وراء بعض الألفاظ والتعابير سيظل لطخة سوداء فى جبين السياسة البريطانية لا يمحوها كر الأيام ومر الأعوام.

ـ ١٠ ـ
العرب فى ميادين القتال

أعلنت الثورة فى الحجاز قبل أن يستعد العرب لها، ويأخذوا أهبتهم لخوضها، ويدخروا من السلاح والمعدات ما يضمن لهم الوقوف فى وجه قوات الترك الكبرى، وكانت تحتل مدن الحجاز وشواطئه، وثغوره وطرقه، ولا يقل مجموعها عن بضعة عشر ألف مقاتل. يقودها ضباط مدربون، وسلاحها من أمضى الأسلحة. كما أن خطوط مواصلاتها منظمة على أفضل منوال.

لقد كان للترك فى المدينة وحدها حين إعلان الثورة ثلاثة آلاف مقاتل. لم يلبثوا أن أصبحوا عشرة آلاف بالإمدادات التى أرسلت إليهم، ويعترف الكولونيل بريمون فى كتابه (الحجاز فى الحرب العالمية) أن قوات الترك فى المدينة المنورة كانت فى أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩١٦ (أى بعد اعلان الثورة بأربعة أشهر) تتألف كما يأتى:

قوة المدينة نفسها: تؤلف من أورطتين مشاة، وآلاى هجانة يقودها أمير الآلاى عبد الرحمن بك، وتتبعها ٣ بلوكات استحكام ورشاشات ومدفعية قوية. وقوة بيردرويش، وتتألف من خمس أورط مشاة، وبلوكين راكبة، وآلاى هجانة وبطارية مدافع جبلية تحمل على الجمال وأربع طيارات ويقودها القائمقام غالب بك (غالب باشا الشعلان)

وقوة بيرر وحانة، وتتألف من آلاى هجانة وقوة من عرب شمر، وكتيبة من البغالة وه مدافع ميدان، ومفرزة لاسلكى ومجموعها ٢٣٣٠٠ جندى يقودها نحو ٦٠٠ ضابط على رأسهم فخرى باشا.

وكانت قوة الطائف لا تقل عن ألف جندى و ٨٣ ضابطا بقيادة الفريق غالب باشا والى

الحجاز وقائده، وكان يصطاف هنالك مع أركان حربه، ولديها عشرة مدافع و ١٧٠٠ بندقية وكمية كبيرة من الذخائر.

أما قوة مكة فما كانت تقل عن ألف جندى أيضا بقيادة البكباشى درويش بك لديها ٢٠ مدفعا. وكانت قوة جدة تتألف من ٢٥٠٠ جندى أيضا ومائة ضابط ولديها ٢٠ مدفعا و ١٥ رشاشة. ولا يدخل فى هذا الإحصاء سماكان لهم من قوات أخرى فى ينبع والوجه والمناطق الأخرى وفى محطات السكك الحديد، ولا يقل مجموعها عن ٢٠ ألف جندى نظامى مسلح، تملك نحو ١٢٥ مدفعا مختلفة العيار والحجم.

فهذا البيان البسيط يدل على أن العرب استهدفوا يوم إعلان ثورتهم لمنازلة قوات عظيمة يقودها ضباط اشتهروا بالجرأة، وتلقنوا العلوم العسكرية الحديثة فى أرقى الجامعات. يضاف إلى هذا أنها كانت تتحصن فى قلاع منيعة لا ترام. سواء فى المدينة أو فى الطائف أو فى مكة أو فى جدة فتتفوق بذلك على العرب، وكان عليهم أن يهاجموها فى صياصيها وداخل حصونها.

ومن تحصيل الحاصل القول أن قوات العرب لم تكن فى تلك الأيام سوى شراذم قليلة من البدو، الذين لم يألفوا النظام، والذين ما اعتادوا الثبات فى الميدان، ولا البقاء فى معترك الطعن والضرب، سلاحها قديم، وعتادها قليل، وقد كتب عليها أن تكون محرومة من جميع الوسائل والمعدات المتوفرة عند الجيش التركى.

ولقد اعترف جلالة الملك على لكاتب هذه السطور حينما سأله عن المعارك الأولى التى دارت بينهم وبين الترك على أثر خروجهم من المدينة بأنهم ارتدوا أمام فخرى باشا فى خلال المعركة الثانية التى دارت فى الحسا لنفاد ذخيرتهم، وقال إنهم وصلوا فى تراجعهم إلى رابغ، وصرح بمثل ذلك الأمير عبد الله فقال: إن الترك حملوا عليه حينما هاجم الطائف يوم ٨ شعبان - أى قبيل إعلان الثورة بيوم واحد فشتتوا شمل رجاله وهزموهم فثبت مع حاشيته القليلة ثم عاد إلى مهاجمة الطائف مع القوات التى جمعها من هنا وهنالك فحاصرها وظل يشدد الحصار عليها حتى استسلمت إليه.

ونحن فى غنى عن القول أن إقدام الحسين وأولاده على إعلان الثورة وهم مجردون من كل قوة منظمة، ولا يملكون سوى كمية قليلة من البنادق، وهى التى أخذوها من الترك للمتطوعة ، ولايجهلون أنهم سيستهدفون لقتال قوات كبيرة تنزل فى ديارهم، تحيط بهم

وتسد عليهم المسالك، ومن ورائها جيوش جرارة، تسرع لنجدتها، تنطوى على كثير من الجرأة وصدق العزيمة، ولو تسنى لفخرى باشا بلوغ مكة ـ كما تصور جمال باشا، لقضى على الثورة وأبادها، بيد أن ثبات رجال العرب فى وجهه واستماتتهم فى المقاومة والنضال جعله يعدل عن خطة الهجوم، ويكتفى بالدفاع، فاستصفى العرب مدن الحجاز الواحدة بعدالأخرى، ثم اتجهوا نحو الشمال لتحرير سورية وإنقاذها، ولقد أظهر الجيش العربى فى خلال الأدوار التى مرت بها الحرب من الشجاعة والاقدام ـ على حداثة عهده ـ مانال إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء، وجعل قادة الحلفاء وفى مقدمتهم اللورد اللنبى يعترفون بما أسداه من خدمات جلى.

كيف استسلمت جدة

نعود بعد هذا التعميم إلى التخصيص. التى فنتكلم عن المعارك التى دارت والوقائع التى وقعت. مراعين قاعدة التسلسل التاريخى للحوادث وموردين تاريخ جيش الثورة، ومادار فى خلال تلك الأيام من مكاتبات بين العرب والحلفاء. ففيها مايميط اللثام عن كثير من الأسرار فنقول:

كانت حامية جدة أول حامية تركية استسلمت للعرب فى الحجاز، فقد رفعت راية التسليم يوم ١٦ يونيو، ويبلغ عدد رجالها ١٣٤٦ جنديا، بينهم ٢٠ ضابطا، وغنم العرب من جدة ١٠ مدافع ميدان و٤ مدافع جبلية و ٤ رشاشات ومستودعا كبيرا للأسلحة والذخائر، فكانت فاتحة طيبة.

واستعان العرب بالمدافع التى غنموها فى جدة على ضرب الحامية التركية وكانت متحصنة بقلعة جياد (مكة) فنقلوها على الأثر، ونصبوها أمام القلعة وسلطوا نيرانها عليها ولا يفل الحديد إلا الحديد فدمروها ثم اقتحموها يوم ٤ يوليو سنة ١٩١٦ وأسروا حاميتها وغنموا فيها ٣ مدافع جبلية، ومدفعين من العيار الكبير وكمية كبيرة من الذخائر والعتاد.

وصدق مدفعيو العرب الحملة على ثكنة جرول. وكان عدد من الترك يحاصر فيها بقيادة البكباشى درويش بك، وحمل عليها الجيش بالسلاح الأبيض فاقتحمها يوم ٩ يوليو بعد غروب الشمس وأسر حاميتها، وتتألف من ٢٨ ضابطا و٩٠٠ جنديا و ١٥٠ بين جريح ومريض. وهكذا تم لهم التغلب على قوات الترك فى مكة فدانت للحكومة الجديدة.

احتلال الليث وأوملج

وفى يوم ١٥ أغسطس سنة ١٩١٦ استولى العرب على ثغر الليث على شاطئ البحر الأحمر بين الحجاز واليمن، وعلى ثغر أوملج فدخلا فى طاعة الحكومة الهاشمية الجديدة.

احتلال الطائف

تولى الأمير عبد الله الطائف بنفسه فجمع القبائل حولها، وأقام على حصارها بعد الهزيمة الأولى، وظل يطاولها، ويراوحها ويغاديها حتى استسلمت إليه عند منتصف ليل ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٦ (٢٤ ذى القعدة سنة ١٣٣٤) فقد جاء الوالى غالب باشا بنفسه مع ضباطه إلى المعسكر العربى (خارج السور) وسلموا أنفسهم كما سلمت القوات التركية سلاحها للجيش العربى.

فى ميدان المدينة المنورة

قلنا فى مقدمة هذا الفصل إن القوات العربية التى هاجمت محطة المحيط يم ٨ يونيو بقيادة الأميرين على وفيصل كانت تتألف من ٦ آلاف مقاتل من قبائل حرب وجهينة وبلى ومسروح، وأنها لم تثبت أمام فخرى باشا، بل ارتدت إلى الوراء لنقاد ذخيرتها.

وافترق الأميران بعد معركة الحسا فقصد على (الغدير) وهى على ٢٥ كيلو مترا من المدنية المنورة إلى الجنوب. كما قصد فيصل بير عباس (ديار بنى سالم) على بعد ٧٥ كيلو مترا من المدينة، واتخذها مقرا لحركاته العسكرية تؤيده قبائل مسروح وبنى سالم وبلى وجهينة وتشد أزره.

وشجع فخرى باشا مالقيه من فوز فى المعركة الأولى، فحمل بقوة كبيرة على جيش الأمير فيصل فى منتصف شهر يونيو، فاحتل العلاوة، وبلغ بير الماشى، وهى على بعد ٣٠ كيلومترا من المدينة فاحتلها وحصنها وغايته من ذلك اقصاء الثوار من حول المدينة، لتسهيل الأعمال العسكرية.

ولقى الأمير على عناء وتعبا فى أوائل الثورة من حسين بن مبيريك شيخ رابغ فقد كان ضالعا مع الترك. ميالا إليهم وقد تأيد ذلك بكتابين أرسلهما إليه الشريف على حيدر من

المدينة، وعثر عليهما رجال الحكومة الجديدة. ولذلك لم يجد بدا من التراجع إلى رابغ والنزول فيها ففر هذا إلى المدينة.

وحمل فخرى باشا على جيش الأمير فيصل يوم ٢٠ شوال سنة ١٣٣٥ (١٩ أغسطس سنة ١٩١٦) فدارت معركة دامية بين الفريقين انتهت بارتداد الترك بعد مامزق العرب أورطتين من أورطهم وأسروا منهم ضابطين و ٦٠ أسيرا.

وعاد فخرى باشا إلى الهجوم فحمل يوم أول أكتوبر على جيش الأمير فيصل، فارتد أمامه حتى ينبع البحر، فلم يطارده فخرى باشا، بل توقف أمام ينبع لا يدخلها، ثم ارتد إلى المدينة فجأة فى الغداة فلحق به الأمير . واستأنف فخرى باشا الخروج فهاجم بير عباس يوم ١٤ ذى الحجة بقوات كبيرة واحتلها، ولكن الأمير فيصلا اضطره إلا إخلائها فارتد إلى بير الرايق.

وخاف الحسين فى خلال الفترة التى دارت فى إبانها هذه المعارك ـ وقد طارت فى خلالها إشاعات بأن فخرى باشا ينوى الزحف على مكة بطريق رابغ ـ النتيجة، وأدرك أن الترك عازمون على ضرب الثورة ضربة قاضية، فأرسل يطلب من حلفائه الإنجليز المدد والنجدات بواسطة مندوبه فى مصر. ونحن ننشر نصوص المكاتبات السرية التى دارت فى هذا الشأن ثم نقفى عليها بما دار بين الحلفاء أنفسهم من مباحثات لأهميتها.

١

فى يوم ١٥ رمضان سنة ١٣٣٤و ١٤ يوليو سنة ١٩١٦ أرسل الحسين إلى مندوبه بمصر البرقية الآتية:

«من الضرورى أن نعد سقوط الطائف، وإرسال قوة مرفوقة بمدفعية ورشاشات مع القائد السيد على[1] لتقوية معسكرنا بالمدينة، الذى هو الآن بمثابة حياتنا، والمحسوس أن القائد المومأ إليه غير موافق على هذه الحركة، وسيتخذ له أعذارا كعذر رابغ، ولا يخفى ما فى هذا من النتائج الوخيمة. فعليك أن تبلغ الحالة إلى نائب الملك، وهو لا شك يقدرها قدرها. وأنى لم أبعث بهذه المدفعية إلا إلى موقع فيه أولادى لئلا يمسهم سوء هم ومن معهم. ولولا مصادفتنا لمثل هذه المشاكل، وكانت البطارية قد توجهت من رابغ الذى لامانع

١ ـ هو قائد القوة المصرية التى أرسلها الإنكليز إلى الحجاز لمساعدة الثورة.

لتوجهها. سيما وأنه بعد عودتها بيومين وصل أحد مأمورينا المهمين بحملة من أعيان عشيرة حرب مندوبا من الأولاد لاستصحابها معهم فلو وصلت إلى معسكر فى ذاك الحين لكانت حكومة المتغلبة فى كافة أنحاء سورية اليوم فى مزيد الخطر والاضطراب، ولتكفينا بريطانيا تكلفها الحالى على الترعة، وعليه فلا أرى إلا إعادة طلبى بعد عزمى ألا أبحث بعد المرة الأولى وعليه ضرورة تجاوزهم على الخط الحديدى ـ كما أشرنا لجناب ستورس عند مواجهته بأولادنا فى البقيع ـ وهذا ضرورى، وافادتكم عنه منتظرة، ولتخفيف المحظور والضرورة ألزمتنى بالأخذ فى سوق المدافع المكتسبة من الترك إلى معسكر المدينة لتضعيف القوة المعنوية، فإنه رغما عما مع عدوهم من المدافع والرشاشات أتلف من العدو فى الوقعة التى زعموا أنهم طردوه ما يتجاوز الـ ٢٥٠٠ قتيل، كما تشهد بذلك كثرة ماوقع فى أيدى جنودنا من السلاح الذى غنموه»

٢

وفى ٣٠ منه أرسل إليه البرقية الآتية:

حالة معسكرنا بالمدينة شرعت بالتحسن والترقى عند تسلحهم بالبنادق المرسلة التى أغاثنا بإرسالها فخامة النائب بعدالوهن الذى بلغ منى حتى القوة المعنوية لفقدهم المؤونة الحربية. سيما خراطيش (قذائف) بنادق غرة (يونانية) ومارتين (فرنسوية قديمة) والمحسوس أن فيصلا سيتجاوز بقسم من معسكره على أطراف المدينة.

المتغلبة (الترك) شرعوا فى إعادة ما فقدوه فى المدينة من الجند إلى الشام، أو يأتون بعوضه . ولعله من عدم الأمنية من أفراد الجند، وعلى رواية أنهم يأتون بأقل من مقدار مايعيدونه للشام.

أن راوية تجاوزهم على ينبع من طريق (العلى) هى التى اضطرتنى إلى طلب مظاهرة بحرية فى ينبع التى كثرت الإشاعات فى تقرر اتخاذها واسطة للسوقيات ومايقتضى لحركات المدينة.

ضرورى تعيين أحد البواخر الحربية المستعدة مصحوبة بثلاث طيارات ليعلم الترك الذى استحوذ الرعب الشديد عليهم من تأثيراتها فى (لام) بجوار(المنال) بوجودها، وهذا هو السبب الوحيد الذى أوجب طلب مظاهرة ينبع التى بواسطتها تتقطع آمالهم من

التجاوز بتأثيراتها فى قواتهم التى بالمدينة، ولا يتيسر المرور من طريق الساحل لمن يريد ينبع من الشمال. لأنها تكون فى داخل حركتها، ولابد أننا نصحب قائدها إفادة لنائب ينبع بأنها مصونة أمام كل احتمال، وليخبر ابنى فيصلب بقدومها ومحلها، فإذا وصلت ورأت عدم أثر للعدو تسافر إلى الوجه لأننى فى هذه الدقيقة تلقيت من سليمان رفادة مايفيد بوصولها، وضرورى أن يصحبها بجانب من الذخيرة وما أشبه ذلك لسليمان المذكور..إلخ

٣

وقال فى برقية طيرها يوم ٢٣ شوال إلى نائب الملك رأسا:

التمس سرعة اصدار الأمر إلى من يلزم لبعث أربع مدافع جبلية واثنين أيضا من عيار ١٠ س من النوع الذى يتجزأ و ٤ رشاشات و ٤ طيارات برية من العشرة التى قيل أنها تحت الطلب ولو على وجه التعويض من أحد الجيوش إلى ينبع فى الأسبوع الآتى لمقاومة شدة حملات العدو على جيوشنا المحرومة من كل المعدات وتفوق العدو عليها حتى بقربه من مركزها التى يريدون قدوم الأمير حيدر إلى مكة قبل الحج، ومقدار ٧٥٠٠ بندقية منها ٥٠٠٠ إلى ينبع و٢٥٠٠ إلى جدة بالمقدار الزائد من المؤونة، وهذا باسم سلامة المصلحة فأنى قد اضطررت إلى بعث طابورين تقريبا من متطوعة البلاد مع عدم تدريبهم ومدفعين مما اكتسبناه من الترك وإن كانت قديمة لنا لما فيها من الضرورة.

٤

وقال فى برقية طيرها يوم ١٣ ذى القعدة إلى مندوبه بمصر:

١ ـ أشرت لفخامة نائب الملك فى برقيتى منذ شهر بأن الترك سيصرفون كل جهدهم لبعثة المحمل مع الشريف الذى عينوه وطلبت إرسال القوى بصورة أوضحتها فى برقيتى ولا أدرى سبب اهمالها.

٢ ـ بوصوله تقابله حالا وتفيده بأنه توالى علينا بصورة وثيقة بأن الأتراك رأوا التوجه من المدينة فى ١٣ الجارى المصادف أمس باثنى عشر طابورا وبرفقتهم المحمل ورأينا أن نفتح لهم الطريق حتى يتوسطوا منه فيأتيهم فيصل من خلفهم ويكون أمامهم زيد

المعسكر من أسبوع بين (القظيمة) ورابغ بالمتطوعة، ولكنه فى هذه الحالة يحتاج جدا لتقويته بثلاث طوابير، تساق إليه من أقرب المواقع، وليكن أنزالها فى رابغ أو القظيمة .. ولا أقول هذا آخر رجائى.

٥

وفى يوم ١٨ منه طير البرقية الآتية:

لا أظن أن قيمتنا لدى العظمة البريطانية لا توازى سوى ثلاث آلايات فأن زيادة تواتر حركات العدو بالقوة السالفة الذكر وضيق الوقت وما هو فى معنى ذلك استلزم جلب على بقوته الشرقية إلى رابغ وتأخير وظيفته الأصلية».

الضرورة ألجأت إلى ارتكاب هذا التبديل العظيم فى خط الحركة مع جهل حسن النتيجة.

عالمنا العسكرى الذى لم تدخلوه حتى الساعة فى مبدأ التكوين يمنع العظمة البريطانية عن نسبتنا للإلحاح، ويلزمها بصيانتنا عما فى هذا من المشاكل والمخاطر وبكل عجلة. أقله صدور الأمر بباخرة حربية مصحوبة بطيارتين أو ثلاث لتكون راسية أمام رابغ.

٦

وفى يوم ١٩ منه طير المندوب إلى الحسين البرقية الآتية:

«أفهمنى نائب الملك بأنه ليس فى استطاعة الحكومة البريطانية إرسال جنود إلى الحجاز لأسباب مختلفة. أهمها الحذ ر من اتهام العالم الإسلامى لهم، واعتقاد منهم بأنه ليس للأتراك قوة يخشى منها. المهمات الحربية كالرشاشات والبنادق سترسل مع باخرة خاصة بها، ولايريدون ارسالها مع باخرة فيها أجانب».

٧

وفى يوم ٢٣ منه أرسل الحسين إلى نائب الملك البرقية الآتية:

«تلقيت الآن برقية من مندوبى هذا نصها: «أفهمنى فخامة نائب الملك أنه ليس فى

استطاعة الحكومة الآن ارسال جند إلى الحجاز لأسباب مختلفة أهمها الحذر من اتهام العالم لهم.. إلخ، وفى بيانى لفخامتكم فى إحدى كتبى الأخيرة عما أرسل من النقود إلى الآن بأنها موجودة لم تلمسها الأيدى، وإصرارى على الاكتفاء بمدفعين من البطارية الجبلية وطلبى إعادة الباقى إلى مستودعها كاف لسلامتى من هذه الوجوه الثانية لمخالفتها المقررات الاتفاق المعلوم لدى الفخامة. سيما اعتباركم فى جملة الحلفاء وهذه أجل البحث فيها وفى الختام.

٨

ولما طال الأخذ والرد بلا جدوى طير يوم ٢٢ ذى الحجة إلى نائب الملك البرقية الآتية:

«إن مقاومة جندنا البدوى للمتغلبة (الأتراك) وحليفتها (ألمانيا) وصدهم فى نحورهم وثباته أربعة شهور لا يحجمنى عن طلبى للعظمة البريطانية امدادها العسكرى كشرط عهدنا، ولقد حصل لدينا مزيد الأسف من استرجاعها الطيارات أيضا بعد أن وصلت إلى رابغ، فى الوقت الذى كانت طيارات العدو تهدد يمنة جندنا الذى بقيادة فيصل وتؤثر عليه، فزيادة تفوق العدو بطياراته فى هذه المرة يلزمنى باسم العهد والتحالف الواقعين بيننا، عدا ماصرحت به حكومة جلالة الملك فى بلاغها الرسمى المذاع فى ٢٨ رمضان المبيح لها كل محذور بقولها فيه عن العرب إنهم انخرطوا فى عداد الحلفاء ضد العدو المشترك ثم قولها أنها ستبذل كل الجهد فى إبقاء الأماكن المقدسة آمنة من كل طارئ خارجى. فكل هذا يخولنى أن أطلب بسرعة إعادة الطيارات إلى رابغ بمهندسيها ومديريها بدون إضاعة وقت، وأن حياة أبنائنا على وفيصل وزيد كافلة لحراستها. أما القوة الجزائرية التى يقال أنها ستساق، فإن صح أمرها فمن الضرورى اعتبارى أنها بريطانية محضة، وعليه فلابد من إيجاد قوات كافية نظامية لمقابلة العدو واحباط أعماله المرتكن فيها على الفن والمخترعات الحربية التى لا يحسنها جندنا فى الوقت نفسه، فإذا حصل أدنى تأخر فى انفاذ الطلبات الواقعة الضرورية فى الوقت العاجل فما يحدث عقبة من التهلكة العظمى التى لا تتصورها مملكتنا المرتكنة بعد الله تعالى على شرف وشهامة محالفتها مع حكومة جلالة الملك لا تخفى على فخامتكم إلخ.

ولم يقف الحسين عند هذا الحد من الطلب بل أرسل برقية أخرى يوم ٢٣ منه مقترحا

إرسال سفينة خاصة تنقل ولده عبد الله إلى مصر لمقابلة نائب جلالة الملك على أن لا تزيد مدة غيابه عن عشرة أيام للتفاهم.

فرد عليه معتمده يوم ٢٨ منه بالبرقية الآتية:

«أبلغنى اليوم نائب الملك جوابا على برقية مولاى بأن دولة بريطانيا لا تود أن يخالج ضمير مولاى شك فى أنها لا تود مساعدته فى كل ما يحتاج إليه بشرط أن يكون فى الإمكان وإنهم يعتبرون مصالحهم متحدة مع مصالحنا، وذكرنى بأنهم فعلوا كل ماطلبناه سوى مسألة الثلاث أورط، وأنهم يهمهم جدا اقتناع سيدى بحسن نيتهم ووفائهم وأنهم مستعدون لمساعدتنا بكل مايلزمنا على قدر إمكانهم . إلخ

٩

وفى يوم أول محرم سنة ١٣٣٥ أرسل البرقية الآتية أيضا:

«قابلت اليوم نائب الملك مقابلة طويلة متباحثا فى عدة أمور أهمها تصريحه نهائيا بأنه لايوجد أدنى سوء تفاهم، ولا يدرى ماهى الأسباب التى حملت مولاى على اعتقاده وقال إنه يمكن أن تكون مسألة عدم إرسال قوة إلى رابغ، واسترجاع الطيارات، وكرر القول بأن منتهى رغبته تحقيق أمانى مولاى ورغباته، بشرط أن تكون فى استطاعته المحافظة على توازن القوى التى تدافع عن بلادها والتى تساق إلى الأماكن الأخرى، وبين الرأى العام الإسلامى. ومع هذا فقد طلب طلبات مولاى من لندن، ويأمل أن يصله جواب مرضٍ فى خلال هذين اليومين . إلخ.

١٠

وفى يوم ٢ منه أرسل البرقية الآتية إلى نائب الملك:

«ايفاد ولدنا عبد الله أساسا منوط لرأى فخامتكم، والقصد به قيامنا بوفاء مايجب أمام بريطانيا العظمى. فلاحظنا فى مبادئ المخابرة مع فخامة الوزير عن حسيات المسلمين فى حركتنا وإمدادنا بالقوة العسكرية حتى لما يتحدث فى داخلية البلاد لحين تكويننا القوة العسكرية ـ كما هو معلوم الفخامة وصراحة شهامتكم. فى تحريركم ٦ جمادى الأولى سنة

١٣٣٤ الموافق ١٠ مارس سنة ١٩١٦ بأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبنا، وعطف حسيات فخامتكم فى خاتمة رقيمكم بادئ الذكر بقولكم: «وبالختام أقدم عظيم احتراماتى وكامل ضروب المودة والإخلاص التى لا يزلزلها كر العصور ومر الأيام» أظن يافخامة الشهم أن هذا يجعل لى الحق فى استفهام فخامتكم عن أثر التجنب الذى نراه يزداد يوم فيوما. ويهمنا جدا الوقوف على حقيقة الأمر لئلا يقع مايحدث زيادة التجافى لأمر وسبب لا حقيقة لهما.

١١

وعاد الحسين ثانية إلى طلب الطيارات، فأرسل يوم ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٣٥ البرقية الآتية إلى مندوبه بمصر.

تزور فخامة النائب وتفيده أن الغرض من الطيارات هو لدفع ضرورة شديدة، فإذا لم يمكن بأى صورة مرافقتها لمعسكراتنا الجنوبية، فالرجاء تفيدونا بسرعة كيما نتخذ أسبابا أخرى تخفف احتياجنا لوجودها، ونتدارك الأمر مهما أمكن، حتى لانترك الحاجة بدون تدبير من الإسرافات والتكلفات فى مواد لا توازى جزءا من مصرف وكلفة إنشائها المبحوث عنه.

١٢

وفى اليوم نفسه طيرت إليه الوكالة الخارجية البرقية الآتية لابلاغها إلى نائب الملك بنصها وهو:

«توالت علينا برقيات الأمير فيصل، وقد جاءنا من سموه اليوم ثلاث برقيات مفصلة، وكل حرف من حروفها يدل على شدة حاجته إلى المؤونة، ولا سيما المال بسبب الطوفان العظيم الذى تدفق عليه من قبائل الشمال، وكلها تقسم يمين الطاعة بين يديه، وتعطى الضمانات المعروفة فى مثل هذه الأحوال. ثم تطلب السلاح والمال، وأنه لمن المستحيل أن يترك سموه هذا الأمر على حاله، والأمير فيصل يتهدد بالانسحاب من الميدان إذا لم تجب مطالبه بكل سرعة. ويقول سموه إن هذا النجاح العظيم يجب أن لا يهمل، وأن لايكتفى

أمامه بالكلام والوعود، مخافة أن يدب الملل والضجر إلى تلك القبائل المتحمسة التى أقبلت بظعنها وخيامها فنرجو تدارك الأمر كيف كان، وبأى واسطة ممكنة فعالة وسريعة مخافة الفشل الذى نثق ونؤكد أن فخامته يبذل ما بطاقته لدفعه، ولا حاجة بنا إلى وصف الموقف الذى بات فيه جلالة مولانا الملك الأعظم بسبب الكارثة وفخامته فى غنى عن كل بيان. وقد زاد جلالته على ذلك بقوله: إننا لسنا من التجار حتى نحتاج إلى كل ذلك، ولسنا من الذين يريدون ربحا خصوصيا ليستفيدوا من وراء هذا، بل إننا عاملنا حليفتنا الموقرة كما يعامل الرجل أهله، فضلا عن حرصنا الشديد على كل ما يصدر. ولكن الضرورة القاهرة الشديدة ولزوم المحافظة على مكانتنا ومكانتهم فى عيون الوفود المتكاثرة دعت إلى طلبنا هذه الزيادة إلخ.

١٣

وفى يوم ١١ منه أرسل المندوب البرقية الآتية:

قابلت اليوم النائب وعرضت المطالب، وكانت نتيجة المقابلة اطمئنانى التام أن بريطانيا ستستمر فى معاونتنا تماما، وأن فخامته أكبر نصير لهذ ه السياسة الحسنة، ولقد كلفنى أن أعرض اسمى احتراماته وتشكراته القلبية لجلالة مولاى الأعظم وإليكم الجواب عن جميع برقياتكم المرسلة إلينا:

الطيارات لا يمكن نقلها إلى ينبع لأسباب عسكرية، وهى التسلط التام على السكة الحديدية. فالرجال العسكريون والطيارون الإنجليز متفقون بأن بقاءها فى محلها أفيد بكثير من نقلها، وفخامة النائب مطمئن إلى ذلك.

سيرسلون من هنا بعد عشرة أيام ثلاثين ألف جنيه إلى الأمير فيصل لعرب الشمال، وهم على وشك ارسال نحو أربعة آلاف بندقية، وقد طلبوا من انجلترا كميات كبيرة من الأسلحة. أما زيادة الراتب الشهرى من الدراهم والدقيق كما تطلبون ففخامته موافق. ولقد أرسل برقية إلى المعتمد بجدة يبين له التعليمات اللازمة بهذا الخصوص، وعند مايتشرف المعتمد قريبا بالمثول بين يدى جلالة الملك فمن الواجب عمل ترتيب قطعى معه بهذا الخصوص وفخامة النائب يطلب التفضيلات والأسباب الداعية لهذه الزيادة لكى يبينها لحكومته فتوافق عليها. ولهذا يجب أن تكون البراهين قاطعة لإقناع الماليين البريطانيين الذين هم بطبيعتهم عسرين كما فى جميع العالم ـ وقد زاد أنه مقتنع غاية الاقتناع بأن كل

ماطلبناه منهم ليس إلا ضروريا ولا يخطر فى فكره غير خاطر، وأننا وإياهم نعتمد على بعضنا الاعتماد كله، وأن صداقتهم ومعاونتهم ستستمر مدى الأيام.

١٤

وفى يوم ٢٠ منه أرسلت وكالة الخارجية البرقية الآتية إلى المندوب بمصر:

العدو حضر بير الماشى بنصف قواه وحاكميتها على الجهات، فالتمس من فخامة النائب لأجل سلامة المصلحة أن لايعلق انفاذ طلباتنا المؤسسة على تسريع النتائج المرغوبة من كل وجهة ملاحظات الغير، فأنا أعلم بحالة البلاد. وأبسط الأدلة على هذا أنهم لو أسعفونا ببقاد جزء من الطيارات بمعسكراتنا الجنوبية، وقذفهم بعشرة قنابل لسقطوا فى اليوم الثانى وغنمناهم وغنمنا مدة مطاولتهم ومافيها من النفقات والمشاكل بل السلامة من جميع المحاذير الناشئة عن ذلك والمتعلقة بالحياة. فأننا فى أشد الحاجة لقنابل المدافع الصحراوية الواردة من السودان فى الغالب، والمعلوم عيارها عندهم . وقد اضطررنا إلى بعث مقدار الراتب الذى جعلناه للمركز للأمير على، والأمير زيد كرا جمالهم فى الشهر بثلاثين ألف جنيه، فأنه لدى معسكر زيد ثلاثة آلاف جمل، ولدى معسكر الأمير على ألف جمل بالكراء لكل جمل خمسة جنيهات، لتباعدهم عن مركز السوقيات.

١٥

فرد عليها يوم ٢٢ منه بالبرقية الآتية:

يقولون إن القنابل الصحراوية موجود منها فى السويس ١٥٠٠ ستشحن غدا للوجه لارسالهما إلى ينبع لسمو الأمير على، وأنهم أعدوا هذا المقدار لشحنه من سبعة أيام فحصل عطل بالباخرة اضطرهم للتأخير. وهم مستعدون لتقديم كميات أخرى عند الطلب. وكذلك أرسلوا مقدارا مهما من الأسلحة إلى سمو الأمير عبد الله بواسطة الأمير فيصل . والمظنون أن سموه لا يتمكن من إرسال جميع ماوصل إليه من الديناميت لقلة الوسائط النقلية، وسيرسلون فى باخرة الغد ثلاثة آلاف ليترة من الديناميت للأمير فيصل ليرسلها إلى أخيه، وهم مستعدون أن يرسلوا كل شهر من الديناميت بحساب ١٠٠ ليترة فى اليوم.

والكولونيل نيوكمب الموجود فى الوجه متخصص فى هذه الشئون ويقولون إنهم أبلغوا الأمراء أنهم مستعدون أن يقدموا لهم جميع مطالبهم.

تدابير الحلفاء للدفاع عن رابغ

لم تذهب صيحات الحسين فى طلب النجدة والمساعدة من الإنجليز للدفاع عن رابغ وصد الترك فى ما لو هاجموها أو حاولوا الوصول إلى مكة بطريقها سدى، فقد حملتهم على الدرس والبحث واتخاذ بعض التدابير للدفاع عن الجيش العربى وحمايته

ولقد عالج هذه الحادثة الكولونيل بريمون (الجنرال بريمون بعد ذلك) وقد كان رئيسا للبعثة الفرنسوية إلى جدة فى كتابه الحجاز فى الحرب العالمية. قال ماخلاصته:

le hedjaz dans la Gurre mondiale. par General Ed. bremond

«وغادر الأميرال ويمس السويس على أثر وصول أخبار انسحاب الأمير فيصل فبلغ رابغ بالبارحة ايريلادس ومعه قواه. ووصل أيضا إلى جدة الكابتن لورانس فى أول نوفمبر، وكان الأمير على مخيما فى رابغ. أما الأمير فيصل فكان فى بير عباس مع ٨٠٠٠ من جهينة لا يفكر إلا فى الزحف نحو الشمال.

وغادر لورانس الحجاز وهو معارض كل المعارضة لاستخدام الوحدات الأوربية فى جزيرة العرب، مؤكدا أن القبائل تتخلى عن الشريف، وتعدل عن نصرته إذا استعان بالأوربيين. مع أن التجارب التى جربت بعد ذلك فى العقبة جاءت مناقضة لهذا الرأى.

ورافق الكابتن لورانس الأميرال ويمس إلى الخرطوم فعقدوا مجلسا برئاسة السردار أقر المبادئ الآتية:

١ ـ لا يستطيع الجيش العربى فى حالته الحاضرة أن يقاوم حملة صادقة يحملها عليه الترك.

٢ ـ يحتاج الدفاع عن رابغ إلى حامية مؤلفة من ثلاثة أورط، ولما كانت وزارة الحربية البريطانية أبت الأخذ بهذا الاقتراح،س فمن الواجب تأليف فيلق من الجند العربى النظامى المأسور فى الهند.

٣ ـ وجوب انتقال القوى الفرنسوية إلى رابغ.

٤ ـ وجوب إرسال بعثة الكولونيل نيوكمب بلا ابطاء.

ثم يقول فى مكان آخر من كتابه وعاد الأميرال ويمس بعد ذلك مع خمس بوارج، وأظهر استعداده لانزال الجنود إلى البر عند الحاجة . وأنزل الإنجليز بإغراء السردار قوة من الجنود المصريين بقيادة السيد على باشا، مع بطاريتين من مدافع الجبل المصرية وبلوك استحكام.

ثم جاءوا بأربع طيارات و٤٠٠ جندى مصرى و٢٠٠ بريطانى.

وفى يوم ٢ نوفمبر أبرق السردار السر رجنلد ونجت إلى الكولونيل ويلسن المعتمد البريطانى فى جدة يقول أن فى استطاعة البارحة هاردنج أن تحمل إلى رابغ القوى الفرنسية التى وصلت إلى السويس، فاضطر الكولونيل بريمون رئيس البعثة الفرنسية أن يبرق إليه قائلا (حيث إن فى استطاعة الترك أن يأتوا بجيش لا يقل عن أثنى عشر ألف مقاتل مسلحين بثلاث بطاريات فالقوات الإنجليزية والفرنسوية غير كافية، ولهذا أرى الاحتفاظ برشاشاتنا فى السويس ريثما يتخذ قرار نهائى فى شأنها بين الحكومتين).

وقال الجنرال ليندن بيل Leynden Bell رئيس أركان حرب الحملة المصرية صباح ٥ نوفمبر للملازم الأول سان كنتان saint Qiuetin فى القاهرة إن الباخرة هاردنج تنتظر قرار الكولونيل بريمون فى السويس، فرد عليه هذا بأنه لم يرد منه شيئ من يوم ٢ الجارى فأجابه بأنه يرجوه أن يبلغه قراره حينما يصل إليه.

وفى اليوم نفسه تلقى الكولونيل بريمون بواسطة المسيو ديفرانس معتمد فرنسا بالقاهرة برقية أرسلها القائم بأعمال فرنسا فى لندن بتاريخ ٢ نوفمبر وهذا تعريبها: «لقد بذلت الجهد عند السير إدوارد غراى ملحا بضرورة احتلال رابغ، وبإنزال النجدات الفرنسوية التى أرسلت لمساعدة الشريف مع ضباطها إلى البر. ولما كانت الأخبار الواردة هذه الليلة إلى لندن تدل على تقدم الترك ثلاث مراحل فى زحفهم نحو رابغ، مما أثبت أننى كنت على صواب فى سعيى، وبما أن الأميرال الإنجليزى صرح قبل أسابيع أنه قادر على صد الترك ومنعهم من العبور بما يملكه من قوى فقد سألته الحكومة الإنجليزية عما إذا كان فى استطاعته الدفاع عن رابغ أم لا؟ فإذا رأى أن هنالك حاجة لتدخل الجيش فيجب عليه أن يطلب ذلك من السردار، الذى تلقى أمرا بأن ينزل فى تلك الحالة إلى البر الأقرب إلى رابغ من الوحدات الإنجليزية ـ السودانية أو الفرنسوية. وسيتفق السردار مباشرة مع

الكولونيل بريمون على التفاصيل، ولم تثر مسألة دخول المسيحيين أو عدم دخولهم إلى الحجاز بوجه من الوجوه، وقد طلب اللورد غراى أن تكون السفن الحربية الفرنسوية على قدم الأهبة لمساعدة الأميرال الإنجليزى فى الدفاع عن رابغ».

وفى يوم ٤ نوفمبر أبرق وزير الخارجية الفرنسوية إلى الكولونيل بريمون رئيس البعثة العسكرية يقول: إنه وافق على الجواب الذى رد به فيما يختص بطلب الرشاشات، وأنه لما كانت الحكومة البريطانية قررت أن تنظم الدفاع فى رابغ على منوال مناسب فترسل جنودا تشد أزرها بوارج حربية. فيجب على البعثة الفرنسوية أن تساعد الإنجليز وتعمل بالاتفاق معهم عند ما يبدأون بتطبيق هذا البرنامج.

وفى يوم ٤ نوفمبر غادرت البارجة الفرنسوية poiuau جيبوتى إلى رابغ وتلتها البارجة entrecasteaug وأمر نائب الأميرال سبتز spitz أن تتولى إحدى هاتين البارجتين وظيفة الخفر فى خليج رابغ»

وفى يوم ٩ نوفمبر أبلغ الكولونيل ويلسن الكولونيل بريمون برقية جاءته من السردار فى الخرطوم بأن الحكومتين الإنجليزية والفرنسوية اتفقتا على أن تقصد رابغ القوات الفرنسوية القادمة من بيزرت، وتلك النازلة فى السويس.

وأبلغ الجنرال لندن بل فى الوقت نفسه هذه البرقية إلى الملازم الأول سان كنتان، فأجابه أنه يفكر فى إبلاغ أوامر السردار إلى قائد نقطة السويس فقال له بأن السردار سينظم هذه المسألة مع رئيس البعثة مباشرة وأبلغ ذلك إلى قائد نقطة السويس أيضا. وعلى أثر ذلك أبرق الكولونيل بريمون إلى السردار يقول إنه لم يتلق الأمر الذى يبلغه إياه، وأنه بعد مايقابل الأميرال ويمس حين مروره بجدة ويتفق معه يصدر الأوامر اللازمة إلى سان كنتان.

وفى يوم ١٤ منه أبرقت وزارة الخارجية الفرنسوية إلى رئيس البعثة بأن يتخذ جميع التدابير اللازمة للتعاون مع الإنجليز، فذهب على الأثر إلى رابغ فبلغها فى الساعة الثامنة من مساء ١٤ منه فوجد فيها بارجة فرنسوية وبارجتين إنجليزيتين. وكانت القوة الإنجليزية المصرية تخيم فى شمالى الميناء بقيادة الميجر جويس. أما قوات الأميرين على وزيد فكانت ترابط بين النخيل منتشرة إلى الشمال والجنوب قرب القوة المصرية.

ووصلت إلى رابغ يوم ١٧ منه القوة الفرنسوية، وقد أبحرت من السويس بالباخرة لا

الإنجليزية، وتتألف من ٨ ضباط و٣٧ جنديا وصف ضابط بينهم ٣ من رجال الصحة وهى بقيادة اللوتنان كولونيل قاضى المسلم الجزائرى.

وقصد الخرطوم الكولونيل بريمون للتعرف إلى السردار، وللاتصال به وللبحث فى الدفاع عن رابغ، فوصلها يوم ١٤ ديسمبر ومعه الكابتن جورج لويد (اللورد جورج لويد) فدارت أحاديث طويلة بين هؤلاء الثلاثة حول التدابير التى يجب اتخاذها للحيلولة دون سقوط مكة المهين للحلفاء ويمكن إجمال القواعد التى دار عليها البحث فى ما يلى:

١ ـ القيام بعمل فى العقبة أو غزة لقطع سكة حديد الحجاز، على أن يقوم الجيش المصرى بعمل عاجل وراء الحدود.

٢ ـ إنشاء حصن فى رابغ لقطع الطريق على الترك.

٣ ـ احتلال الوجه لاتخاذه قاعدة لتخريب السكة الحديد فى منطقة مداين صالح.

٤ – عدم تشجيع العرب على أخذ المدينة. لأن أخذها يعزز فكرة الاتحاد العربى ويقويها مما يضر بمصالح الحلفاء.

وفى يوم ١٩ ديسمبر سافر الكولونيل ويلسن والكولونيل بريمون إلى رابغ فاختارا مكانا لإنشاء مطار عليه، وكانت هنالك الحاجة إلى ٩٠٠ مصرى علاوة على القوى الموجودة والبحارة الذين ينزلون إلى البر عند اللزوم، ويتفاوتون بين الـ ٦٠٠ ـ ٨٠٠ والقوة الفرنسوية التى كانت فى السويس. ولقد رفضت وزارة الحربية الفرنسوية السماح لأورطتين كانتا فى جيبوتى بالإبحار إلى رابغ. وأرسلتا إلى فرنسا بعد ذلك.

وعرض السنيور بيرناباى Bernabei معتمد إيطاليا فى جدة على الشريف أن يقدم أربع أورط من الأحباش، فأجابه بأن يحادث الإنجليز فى هذا الشأن.

وفى يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٦ وصل السير ريجنلد وينجت سردار الجيش المصرى إلى القاهرة قادما من الخرطوم ليتقلد منصب نائب الملك فى مصر. فقال للمسيو ديفرانس معتمد فرنسا أثناء زيارته له: «إنه وأن كان انتزاع مكة من الترك أثر أثرا غير محمود فى مصر وفى الهند. فأنا من القائلين بوجوب تقديم المساعدة اللازمة للشريف ومن أنصار الرأى القائل بإرسال جنود أوربيين إلى رابغ وإن كان لابد من موافقة الشريف مقدما على إرسالهم» ثم أبدى أسفه لتردد هذا واضطراب موقفه وقال أنه أرسل إليه كتابا

فيه معنى الإنذار ليجيب عليه بلا أو نعم، ومداره هل يوافق على انزال هذا الجند فى رابغ، أم لا. وقال: إنه فى حالة ورود الجواب بالرفض فإنه يرسل هذا الجند إلى مكان آخر ريثما يطلب ثانية. وذكر أيضا أنه يرى بأن إنزال جند، ولو كان قليل العدد فى رابغ يوقد نار الحماسة فى صدور العرب، ويحمل الترك على العدول عن محاولة الدنو منها.

وقد رد الحسين على برقية نائب الملك ببرقية رقمية أرسلت بتوقيع الشيخ فؤاد الخطيب إلى الكولونيل pearson فيها شيئ من الغموض فأبرق هذا إلى القاهرة قائلا أن الحسين قبل إنزال جنود أوربيين فأصدر الجنرال ونجت على الفور أمرا إلى الجنرال موراى بأن يبلغ لواء الجنرال. أ. مـودج A. Mudg وكان قد أعد من قبل للسفر بأن يتحرك. وسأل الجنرال لندن بل الملازم سان كنتان عن القوات الفرنسوية، وهل ستسافر إلى جدة؟ وقال إنها ستكون بقيادة الجنرال مودج، وتنقل معه وتمون بواسطته. فأجاب الكولونيل بريمون يوم ٧ يناير سنة ١٩١٧ قائلا بأن قوات السويس الفرنسوية ستسافر إلى رابغ مع القوات على بوارج إنجليزية، وان الليتو نان كولونيل قاضى سيتلقى الأوامر من الجنرال مدوج مع احتفاظه بالاستقلال الداخلى. وإن الكولونيل بريمون سيحضر بنفسه إلى رابغ للإشراف على حركة النزول والسكنى، وأكد سان كنتان للجنرال مودج أنهم سيعملون كل ما فى امكانهم لإرضائه، وقد وافقت وزارة الحربية الفرنسوية على هذه التدابير فأصدرت التعليمات الآتية:

«تكون القوات الفرنسوية المتجمعة فى رابغ بقيادة الليتونانت كولونيل قاضى، ويكون هو بإمرة الجنرال مودج».

وتلقى هذه التعليمات الآتية وهى تحدد مهمتهك

١ ـ حماية معسكر الطيران (مطار) رابغ والميناء.

٢ ـ ممنع العدو من الدنو من الماء.

وكانت الخطة التى تصورها نائب الملك تنطوى على إبقاء الجنود الأوربيين فى رابغ للدفاع عنها وإرسال القوى العربية كلها إلى ينبع وتوجيه البدو نحو الخط الحديدى.

وضرب يوم ٩ يناير موعدا لسفر اللواء وكانت الدلائل تدل على أن كل شئ انتهى وتقرر إلا أن وصول الكولونيل ولسن إلى جدة يوم ٨ يناير عائدا من رحلته إلى مصر وقد عرج على ينبع ورابغ جعلهم عن إرسال اللواء. وبيان ذلك أن هذا أقتنع بعد مادرس الحالة

هنالك عن كثب بأنه لا حاجة إلى إرسال جنود وبيين إليها (ولم يك فيها يومئذ أكثر من ٢٠٠ منهم) وقال إن الترك لن يصلوا إليها مطلقا وإن مجئ لواء من الجنود البريطانيين يؤدى إلى حصول اضطراب فأيد بذلك وجهة نظر لو رانس ثم طلب برقية الشيخ فؤاد الخطيب الخاصة بطلب المساعدة وأعاد قراءتها وقال إنها لا تنطوى على الصراحة الكافية ثم رأى الكولونيل ويلسن وبريمون أن يسافرا إلى رابغ فيجتمعا بشيوخ القبائل ويبسطان أمامهم الموقف وطلبا منهم العهود بعدم إحداث أى اضطراب وبالطبع فمثل هذا العمل لا يتسنى القيام به إلا بعد موافقة الملك وتحت إشرافه.

وفى يوم ٩ يناير أبرق نائب الملك إلى الحسين للبت فى مسألة الجنود الأوربيين وكلفه أن يطلب إرسالهم بكتاب خطى وعلى مسئوليته وكانت حاشيته مجمعة على طلب التدخل الأوربى ماعدا الشيخ فؤاد الخطيب.

أما هو (الملك) فكان غير ميال إليه على أن يكتفى بالمساعدة المادية وفى يوم ١١ منه قرر أن يكتب بأنه لاحاجة فى الوقت الحاضر إلى الاستعانة بجنود أوربيين على أن يحتفظ بحق طلبهم عند الضرورة.

وفى يوم ٢٥ منه قررت وزارة الخارجية البريطانية بناء على اقتراح نائب الملك وضع لواء مسلح تحت تصرف الجنرال موارى ـ انتهى ملخصا عن كتاب الحجاز فى الحرب العالمية بقلم الكولونيل بريمون.

وكتب الدكتور شهبندر وهو يترجم الكولونيل لو رانس عن حوادث رابغ ما ملخصة: «لما تحرج الموقف حول المدينة سافر الكولونيل لورانس (الكابتن لورانس يومئذ) وكان يعمل في مصلحة الاستخبارات الإنكليزية فى القاهرة إلى جدة فى أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩١٦ فاجتمع بالأمير عبدالله، وقصد ينبع فاجتمع بالأمير فيصل لأول مرة فى وادى الصفراء على طريق المدينة وكان معه نحو ٨٠٠٠ مقاتل بينهم ٨٠٠ هجان فدرس الحالة ووعد الأمير بارسال الذخائر والسلاح والمال ثم ودعه وسافر إلى الخرطوم فاجتمع بالسردار ثم قصد القاهرة وتداول مع ولاة الأمور البريطانيين فى شئون الثورة العربية ودار البحث حول إرسال لواء من جنود الحلفاء إلى تلك الأصقاع. وكان الكولونيل بريمون رئيس البعثة افرنسوية يصر كثيرا على تنفيذ هذه الخطة ويلح بإرسال قوات فرنسوية وإنكليزية إلى رابغ لاحتلالها فحال لورانس دون ذلك وقدم تقريرا إلى القيادة البريطانية العليا قال فيه إن

القبائل العربية قادرة على الدفاع عن الآكام بين المدينة ورابغ إذا هى اتحفت بالمدافع والنصائح ولكنها على التحقيق تنفض إلى خيامها إذا علمت بنزول الأجانب فسر القائد العام بهذا التقرير وانتهت المسألة بإرسال سلاح ومال وضباط إلى الجيش فى رابغ وتعيين لورانس مستشارا حربيا للأمير فيصل»!

إنشاء الجيش العربى

علي هذا المنوال ختمت المشادة التى قامت بين الحسين والحلفاء بشأن إرسال القوى والمعدات إلى رابغ - وقد استمرت نحو أربعة أشهر، قاسى الحسين فى خلالها من مطل الإنكليز وتسوفهم واختلاف قادتهم وذوى الشأن منهم الأمرين، فقد كان كل واحد منهم يسعى لناحية خاصة كما كان كثيرون منهم يقاومون الثورة العربية ويتمنون موتها، يؤيد ذلك ماوراه لورانس فى كتابه وهو أن القائد العام للقوى البريطانية في مصر لم يكن مؤمنا بالثورة العربية ولا ظهر له أن يبذل المال والرجال والسلاح فى سبيلها وكان يرى أن يوجه جميع قواه إلى ميدان فلسطين الأكبر، وربما كره أن يتدخل نائب الملك وهو رجل ملكى فى الشئون العسكرية، ولاح للناس يومئذ أن الثورة العربية ماتت فى المهد ورأى كثير من ضباط الأركان الحربية البريطانية بمصر فى جميع ذلك سخرية بنائب الملك وقهقهوا فرحا بان يجدوا الحسين نفسه عاجلا على مشنقة الاتحاديين وهم كجنود بسطاء كانوا يشعرون فى نفوسهم بعطف على الترك عطف الزميل على الزميل فلم يكن بمقدورهم أن يردوا الفاجعة والعار فى المسلك الذى سلكوه. وزاد الطين بلة أن البعثة الفرنسوية العسكرية كانت تدس الدسائس على الحسين فى جدة ومكة.

فهذه الاعتبارات جعلت الحسين يعدل عن الاعتماد على الحلفاء عسكريا، وينظر فى إنشاء جيش نظامى يعول عليه فى المهمات وفى مقابلة الخطوب.

ولما كان إنشاء جيش كهذا يحتاج إلى ضباط أكفاء يقودونه، والى جنود يؤلفون نواته فقد دارت المفاوضات بين الحسين وولاة الأمور الإنجليز فى ميدان فلسطين وفى العراق على أن تقدم السلطة إليه مايحتاجه من سلاح ومعدات.

ويؤخذ من المكاتبات التى دارت بين الحسين ومندوبه فى هذا الشأن أن الأول أخذ منذ الشهر الثانى للثورة يلح فى إرسال الضبط والجنود العرب إلى الحجاز للبدء فى

إنشاء الجيش وتكوينه. يؤيد ذلك البرقية الصادرة من مكة إلى المندوب بمصر يوم ١٥ رمضان - أى بعد إعلان الثورة بخمسة أسابيع قال:

«بكل إمكان من السرعة تبعثوا لنا ضباطا لتأليف قوة البلاد المنظمة، فإن أمرها أصبح أول شيئ تحتاجه البلاد» ولا ريب أن هذه الجمل القصيرة تترجم عن شعور الحسين فى ذلك العهد وتصف حالته وماكان يعلقه على إنشاء جيشه. ولا نشك فى أنه لو أخذ الإنجليز بيده وسهلوا له السبل والوسائط وأمدوه بما يطلبه من قوى ومعدات لتغير وجه الحرب من السنة الأولى ولا تفت بلاد العرب كثيرا من المصائب. بيد أن سيرهم الملوى وترددهم بل وعدم إخلاصهم حال دون اتساع نطاق الأعمال العسكرية وتأليف الجيش القوى المطلوب.

وتدل الوثائق التى نشرت حتى الآن أن أول قافلة من الجنود العرب غادرت السويس يوم ٢ شوال سنة ١٣٣٥ (أول أغسطس سنة ١٩١٦) كانت تتألف من ٧ ضباط هذه أسماؤهم: نورى بن سعيد البغدادى، ومحمد حلمى البغدادى، وراسم سردست الدمشقى ورؤوف عبد الهادى النابلسى وابراهيم الراوى وجميل الراوى البغداديان ورشيد الهاشمى البغدادى وعدد من الجنود. وسافر معها أيضا الدكتور أمين المعلوف اللبنانى ومعه مستشفى كامل لمائة جريح مع جميع اللوازم و٥٠ خيمة.

وأرسل الإنجليز إلى جدة فى الباخرة التى أقلت هؤلاء ٤٥ طن أرز ومثلها من الدقيق و٥ أطنان سكر وألفين بندقية و ٢٣٣٠٠٠٠ قذيفة (البنادق والقذائف لينبع) و٣٠٠ بغلة للنقليات و٢٦ حصانا لجر المدافع.

عزيز على المصرى وانسحابه

وغادر عزيز بك على المصرى القاهرة يوم ٨ ذى القعدة سنة ١٣٣٤ إلى جدة لمقابلة الحسين، وليتولى إنشاء الجيش النظامى الجديد، ولم يطل الإقامة فى مكة. بل سافر إلى رابغ - حين اشتداد الأزمة - وكان فيها نورى السعيد وإبراهيم الراوى وحلمى البغدادى وجميل الراوى فقد جاءوها يوم ١٥ شوال من مكة بعد مقابلتهم الحسين وبدأوا بالعمل ثم تتابع وصول الجند والضباط والمعدات. فأنشأوا بادئ ذى بدء فوجين من المشاة، وفوج رشاش وبطارية مدافع.

ووفق عزيز بك على ومن معه إلى إنشاء قوة قوية لا يستهان بها نالت إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء، ودلت على نشاط العرب وذكائهم. وقد اشتركت هذه القوة فى المعارك التى دارت حول المدينة. غير أن حادثا حدث لعزيز بك بعد انقضاء ثلاثة أشهر من وصوله جعله ينسحب من العمل ويعود إلى مصر.

والذى عليه الأكثرون أن السبب الحقيقى لانسحابه هو خلاف سرى نشب بينه وبين الإنجليز. فقد ألح على الحسين فى أن يطلب من هؤلاء إرسال المدافع التى غنموها من الترك فى ميدان فلسطين قائلا: إن عندنا طائفة من المدفعيين تحسن استعمالها، ولما طال المطال ولم يرسلوا شيئا قال مامعناه: يلوح لى أن الإنجليز يريدون القضاء على العرب والترك فى وقت واحد، وذلك بأن يتركوهما مهملين حتى يفنوا بعضهم بعضا فلا هم يرسلون لنا القوى والمعدات لنضرب الترك الضربة القاضية ونحتل المدينة، ولاهم يتركوننا وشأننا فيقضى الترك علينا ونرتاح وينفردون بالعمل وحدهم. والظاهر أن هذه الأقوال نقلت إلى الحسين والإنجليز. فألح هؤلاء على الحسين فى طلب إقصائه منتحلين لذلك بعض الأعذار. فأرسل تعليمات سرية إلى الأمير على فى رابغ بأن يوعز إليه بأن يطلب أجازة، فأدرك هذا مايجرى فى الخفاء، فتقدم بنفسه لطلبها وعاد إلى مصر، بعد ما أتم إنشاء ثلاثة أفواج من المشاة وثلاث بطاريات مختلفة الحجم وفوج هجانة وبلوك مهندسين، فحل نورى السعيد محله فى رئاسة أركان الجيش، كما حل محمود القيسونى محله فى رئاسة الجند بمكة (وزارة الدفاع) وقد قلدها على أثر إنشاء الحكومة فى مكة.

وبنما كان عزيز على ونورى السعيد وإخوانهما ينشئون الجيش فى رابغ كان مولود مخلص الموصلى وعبد الله الدليمى وراسم سردست يعملون فى تأليف نواة جيش نظامى فى ينبع. .فتولى الأول تنظيم قوة الخيالة، والثانى المشاة، والثالث المدفعية، وقد انبثقت هذه النواة عن الجيش الشمالى الذى اتجه إلى العقبة والشام وظل يتقدم حتى حلب.

الوضع الجديد للجيوش العربية

غادر الأمير عبد الله الطائف قاصدا ميدان القتال للاشتراك فى المعارك الدائرة حول المدينة، فسلك الطريق الشرقى، وظل فى تقدمه من دون أن يمر بمكة حتى بلغ وادى العيص، فحط فيه رحاله واتخذه معسكرا لجيشه، وبدأ العمل. فأصبح للعرب

حول المدينة ثلاثة جيوش:

١ ـ الجيش الشمالى بقيادة الأمير فيصل، ومقره حوالى بير درويش (غربى المدينة) ومهمته الرئيسية مشاغله جيش فخرى باشا ومنعه من بلوغ ينبع.

٢ ـ الجيش الجنوبى بقيادة الأمير على، ومقره رابغ ومهمته منازلة الترك، ومنعهم من الزحف إلى مكة.

٣ ـ الجيش العراقى بقيادة الأمير عبد الله، ومقره فى العيص ومهمته منازلة العدو وتخريب السكة الحديد بين الشام والمدينة.

وتولى الجيش الأول وحده منازلة الترك فى ابتداء الثورة، لأن الأمير عبد الله كان منهمكا فى حروب الطائف، كما كان الأمير على منهمكا فى حل مشكلة ابن مبيريك، يضاف إلى هذا أن ينبع أقرب الأماكن إلى المدينة، فلذلك انصب عليها فخرى باشا بقواته محاولا بلوغها وضرب الجيش الشمالى وتمزيقه ثم الزحف إلى مكة بطريق رابغ على المنوال الذى وصفناه فيما تقدم. بيد أن استسلام الطائف السريع، ووصول الأمير عبد الله إلى ميدان القتال وتتابع وصول الإمدادات والنجدات ونفرة العرب من داخل الجزيرة لتأييد الحركة الجديدة، فت فى عضد فخرى باشا، وأضعف قواه الأدبية. ففضل البقاء فى المدينة وعدم التورط فى حرب لا يعرف نتائجها.

جيش الأمير على فى الميدان

عاد جيش الأمير على إلى النضال فى شهر ربيع الأول بعد ما أكمل معداته فى رابغ فتحرك يوم ٢٢ منه قاصدا غدير أبو عوف، فتراجع الترك أمامه وجلوا عن سفح الغاير وعسكروا بين المحز وآبار على، تاركين ساقتهم فى بئر روحانا، واشتبكت طلائع هذا الجيش صباح ٢٧ منه بقوات للترك قرب بير الناجم. فدار قتال شديد بين الفريقين اسفر عن انهزام هؤلاء وطردهم من أماكنهم الحصينة فى «المحز» فتقدم الجيش حتى بئر عباس فعسكر فيها. ثم ارتد إلى قاعدته فى رابغ لاعتبارات محلية. على أنه عاد يوم ٢٧ ربيع الثانى فاحتل بئر عباس واتخذها قاعدة له. وقد هنأ نائب الملك فى مصر الحسين بانتصار جيشه فى هذا الميدان.

ومما يستحق الذكر بهذه المناسبة أن الأمير عليا قضى سنى الحرب كلها فى ميدان القتال حول المدينة، ولم يعد إلى مكة إلا فى أواخر سنة ١٩١٩ - أى بعد غياب زاد عن أربع سنوات فقط. غادرها فى سنة ١٩١٥ ذاهبا إلى المدينة المنورة لقيادة حملة المتطوعين المرسلة إلى قناة السويس. وأصيب بالحمى فى رابغ سنة ١٩١٦ واشتد عليه المرض. فكتب أحد رجاله إلى والده يبلغه خبر مرضه، فأرسل إليه أنه يبرأ منه، ولا يسمح له بدخول مكة إذا عادا إليها مع أنه ماكان يفكر بالرجوع مطلقا، وما يقال عن الأمير على يقال عن أخيه فيصل. فأنه لم يعد إلى مكة بعد خروجه منها فى أوائل سنة ١٩١٦ لينضم إلى جمال باشا إلا فى أواخر شهر إبريل سنة ١٩٢١ - أى بعد ست سنوات. وكان فى طريقه إلى البصرة.

* * *

وينوه الكولونيل بريمون فى كتابه «الحجاز فى الحرب العالمية» حين بحثه الأعمال العسكرية التى عملت فى خلال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٩١٧ (ربيع الأول وربيع الثانى وجمادى الأولى سنة ١٣٣٥) بالتقدم المشهود فى أعمال العرب العسكرية. ويقول إن قواتهم كانت تتألف كما يأتى:

١ - جيش الجنوب ويقوده الأمير على ومعه الأمير زيد ويعسكر فى رابغ

٢ - جيش الوسط أو الجيش الشرقى، ويقوده الأمير عبد الله، وكان يرابط فى جنوب المدينة الشرقى.

٣ - جيش الشمال بقيادة الأمير فيصل ومقره ينبع - الوجه

ولقد تحرك الأمير على نحو يوم ٦ ديسمبر سنة ١٩١٧ بإلحاح الملك وإصراره، فسار حتى أبو دهيبة الواقعة على بعد ٧٠ كيلو مترا من رابغ، وألقت الطيارات الإنجليزية القنابل على الترك بنجاح أثناء تقدمه. وجاء فخرى باشا بعشر أورط ليحول دون سيره. وأغار البدو من أتباع هذا الجيش على الترك، فوصلوا ختى بيار على وعادوا بنحو ستين تركيا أسرى. وجاء الأمير على يوم ٢٣ منه فعسكر فى بير العبد وفى يوم أول فبراير (شباط) ألقت الطيارات التركية القنابل على معسكره. وفى يوم ٥ منه زحف الأمير زيد فتقدم ٢٠ كيلو متر إلى الأمام، فلم يصادف أحد، من الترك الذين جلوا عن هذه الأراضى. وعاد الأمير على إلى رابغ يوم ١١ منه فأعد حملة جديدة من مكيين وبيشه وبدر وغيرهم بلغ

عددها ٤٨٠٠ ومعها سبعة مدافع و ٧ رشاشات وسار بها يوم ٢٧ فبراير سالكا الدرب السلطانى وواصل الأمير زيد عمله فاستولى على الأماكن المجاورة للمحز.

وكانت الطيارات البريطانية الأربع بقيادة الميجر روس (ROSS) ترافق حملة الأمير فى تقدمها، وقد طارت ثلاث منها فوق المدينة وصورتها بالفوتوغرافيا. ولم يبق بأيدى الترك بعد ذلك سوى بير الماشى وبير درويش المحيطين بالسكة الحديد الواقعة فى الشمال الشرقى.

وبلغ جيش الأمير على بير عباس يوم ١٠ مارس. وقذفت الطيارات التركية وعددها ثلاث معسكر الأمير زيد، وبلغ البدو فى غاراتهم أبواب المدينة، وعادوا بكثير من الأسرى. فكان هذا أول انتصار باهر ناله العرب. وقد بلغت خسارة الترك فى هذه المعارك ١٢٥ قتيلا وجريحا و١٧ أسيرا بينهم ضابطان، وقتل عربيان وجرح ١٠.

وخندق الترك وراء حصونهم، ولم يتحركوا حركة ما، وكان البدو يتوارون وراء الصخور فى الجبال ويطلقون النار على أماكن الترك من الصباح حتى المساء. وفى يوم ٢٧ مارس ضرب الأمير على مخيمه فى بير درويش، ولم تقع بعد ذلك معارك ذات شأن. نعم إن العرب وجهوا عنايتهم للاستيلاء على بير الماشى الحصين ويؤلف جزءا من خط الدفاع عن المدينة فحشد فخرى باشا جميع قواه فيه تاركا المدينة بلا حامية، فارتد الأمير زيد إلى المحز، كما ارتد الأمير على وهو يقاتل إلى الدرب السلطانى.

الأمير عبد الله فى الميدان

وغادر الأمير عبد الله الطائف فبلغ الخانق فى أوائل شهر ديسمبر سن ١٩١٦ وهى فى جنوبى المدينة. وقد أثر تقدمه فى القبائل التى كانت موالية للترك فحملها على تغيير موقفها، وشتت كتيبة تركية كانت فى نخلة جنوبى المدينة، وغنم منها مدفعا و ٣ رشاشات. ثم اجتاز بجيشه السكة الحديد، وعسكر فى وادى العيص فارتد الترك إلى جبل أحد، وقد أحكموا تحصينه.

والتقى رجال الأمير يوم ١٣ يناير (١٩ ربيع الأول) بعصابة القائمقام أشرف بك التركى، فى مكان يبعد بيومين عن محطة أبى النعم فدار بينهما قتال شديد انتهى

باستسلام العصابة، وكانت تحمل ٢٥ ألف ليرة عثمانية ذهبا إلى اليمن فأمر الأمير بتوزيعها على رجاله، وأسرا أشرفا رئيسها وقائمقام آخر و ٢٤ جنديا وضابطا.

وضرب الأمير مخيمه يوم ١٩ يناير فى معربا (وادى العيص).

الزحف نحو الشمال

فى صباح ٢٤ يناير سنة ١٩١٧ أطلقت البوارج البريطانية ايرلوت ودفرين وفوكس قنابلها على الوجه، وأنزلت على مسافة ٣ أميال منها ٢٥٠ بحريا إنجليزيا و ٥٠٠ جندى عربى حملتهم من ينبع. فدارت بينهم وبين الترك المتحصنين فى خنادق قوية معركة حامية انتهت بانسحاب هؤلاء وارتدادهم إلى مسافة ٦ أميال تاركين ٧٠ قتيلا وجريحا و١٠٠ أسير ومدفعين و٤٠٠ بندقية. و إليك نص البيان الرسمى الذى نشرته الوكالة العربية بمصر فى هذا الشأن:

«سقطت مدينة الوجه فى قبضة جنودنا العربية بعد معركة عنيفة دافع فيها الترك دفاع المستميت ثم فرت جنود الأعداء لا تلوى على شيئ تاركة بين أيدينا ٨٠ أسيرا وعددا من القتلى والجرحى . وقد جدت جيوشنا فى اقتفاء أثرهم، ولا تزال تضرب فى أقفيتهم وتقهقر الترك لا يلوون على شيئ».

وغادر الأمير فيصل ينبع يوم ١٤ فبلغ الوجه فى ١٥ منه ومعه الكابتن لورانس والكولونيل نيو كمب و ٣ آلاف هجان و٤ مدافع و ١٠٠ رشاشة وفى يوم ١٠ ربيع الثانى (١١ فبراير) استولى العرب عنوة على المويلح وضبا وأسروا أسرى وفر الترك إلى شوك.

وفى يوم ١٧ مارس نقل مطار رابغ إلى وجه، وبدأوا من يوم ٢٠ فبراير بمهاجمة محطات سكة حديد الحجاز. وفى الوجه انضم جعفر باشا العسكرى إلى جيش الشمال وعين قائدا عاما للقوات النظامية، وعين نورى السعيد رئيس أركان حرب له.

واضطر الترك على أثر اتساع ميدان القتال وانتقاله من الحجاز إلى صحراء الشام وظهور العرب حول محطات السكة الحديد الممتدة فى هذه الصحراء إلى اتخاذ تدابير جديدة على طول هذا الخط فقسموه إلى ثلاث مناطق: منطقة العلا، وتولى قيادتها اللواء بصرى باشا محافظ المدينة القديم، ومنطقة تبوك، وتولى قيادتها القائمقام عاطف بك،

ومنطقة معان وتولى قيادتها اللواء محمد جمال باشا وقد جاءوا به من أزمير وتولى الفيلق الثامن المحافظة على القسم الممتد من معان إلى درعا، ويقوده الفريق جمال باشا الصغير.

وكانت قوات الجيش الشمالي النظامية فى أول سنة ١٩١٧ تتألف من: سرية هجانة، وسرية بغالة، وبطارية مدافع مؤلفة من ٤ مدافع: مدفعى جبل مصريين، ومدفعى صحراء، وسرية رشاشات، وفوج عدده ٣٠٠ جندى نظامى.

وكانت قوى الجيش الجنوبى النظامية تتألف من ثلاثة أفواج مشاة وفوج هجانة وفوج رشاش (١٦ رشاشة) وبلوك مهندسين، وبطارية أوبوس انجليزية، وبطارية جبلية وفصيل مدافع صحراء، وفصيل مدافع جبلية وعين نورى الكويرى لرئاسة أركان حرب هذا الجيش على أثر انتقال نورى السعيد إلى الجيش الشمالى لخلاف نشا بينه وبين محمود القيسونى (وزير الحربية).

حروب المحطات

وألف الجيش الشمالى على أثر نزوله فى الوجه سرايا كبيرة للغارة على المحطات، فكانت سرية سرية الشريف شرف بن راجح تتألف من قوة البغالة ومدفعين جبليين وأربع رشاشات مع مفرزة التخريب، ويعززها نحو ألف هجان من قبائل البدو. فأغارت هذه السرية فى أوائل مارس على قلعة المعظم، وكانت حاميتها التركية مؤلفة من فوج مشاة و٦ رشاشات، ومدفعين وخيالة، وبعد التراشق بالمدافع، وكان الترك قد استعدوا للقاء العرب وأحكموا مواضعهم صدر الأمر لهؤلاء بالهجوم فمشت القوات النظامية إلى الأمام بقيادة قائدها مولود مخلص تحت نيران العدو، واضطرته إلى التراجع واخلاء خنادقه الأمامية ـ والالتجاء إلى داخل القلعة. بينما كانت مفرزة التخريب المجهزة بالديناميت تواصل نسف الخطوط. ولم يشترك البدو فى هذا الهجوم، ولم يتسن للمدفعية العربية هدم القلعة ولم توفق إلى حماية الجنود حين هجومهم على القلعة، فاستهدفوا لنيران العدو الشديدة، وعند الظهر تلقوا أمرا بالتراجع فارتدوا تاركين ١٢٥ قتيلا وجريحا، كما أصيب قائدهم بجرحين وكسرت يده اليسرى وقتل أحد ضباطه وجرح معظمهم.

وفى أواخر يوليو أعد الجيش سرية كبيرة بقيادة جعفر العسكرى تتألف من اللواء الهاشمى (فوج البغالة) بعد توسيعه بمن انضم إليه من الأسرى العرب فصار يتألف من

فريق من قادة الجيش العربى



عزيز المصرى



نورى السعيد



جميل المدفعى



جعفر العسكرى



على جودة الأيوبى



مولود مخلص

٢٠٠ بغالا و٢٠ خيالا و١٥٠ هجانا ورشاشتين ثقيلتين و٨ رشاشات خفيفة (وكان بقيادة مولود مخلص) ومن مدفعين جبليين، ومن سريتي رشاشات ثقيلة (٨ رشاشات) ومن فوج مشاة ومن مفرزة التخريب، فوصلت هذه السرية بعد منتصف ليل ٣٠ يوليو إلى محطة زمرد، وكان الترك قد سيروا سرية من فوجي مشاة وسرية رشاشات ومدفعين لطرد مفرزة الكولونيل نيوكمب (وكانت مهمتها نسف الخطوط والقطارات وتعطيلها) فاشتبكوا مع القوات العربية ودار قتال عنيف بين الفريقين، فاضطر جناح العرب الأيمن إلى التوقف لشدة نيران العدو، وثبت الجناح الأيسر المؤلف من اللواء الهاشمي وحمى الجناح الأيمن وحمل العدو على التراجع . بيد أن وصول نجدات لهذا جعله يعدل عن خطته، ويحاول تطويق اللواء الهاشمي وكان يزحف إلى الأمام فانتبه قائده إلى هذه الحركة، وقابل حركة الالتفاف بمثلها فقد أعد على الفور قوة صغيرة سلحها برشاشتين خفيفتين وأربعة ثقيلة ـ وقادها بنفسه وحمل بها على الترك لإحباط خطتهم، وأصلاهم نارا حامية. تاركا قيادة القوى الباقية إلى وكيله فتراجعوا أمامه وظل القتال دائرا حتى غروب الشمس، وعند المساء أصدر جعفر العسكرى أمرا بالانسحاب لنفاد الماء، فاقترح عليه مولود المخلص استئناف الهجوم على الترك لاحتلال الجبال المطلة على الآبار، وقال إذا عدنا من دون أن نشرب ونروى خيلنا فمصيرنا إلى البوار والهلاك. لأن الماء يبعد عنا مسيرة يوم واحد فوافقه على رأيه فحمل الجند على الآكام والجبال فاحتلها. كما استولى على آبار الماء فشربوا وسقوا الخيل وعند منتصف الليل ارتدوا نحو الجديدة وكانت مقر قيادة الجيش الشمالى بدلا من الوجه، وبلغت خسارة العرب فى تلك المعركة الحامية ٥٠ جنديا بين قتيل وجريح.

احتلال العقبة

وفى أوائل شهر يوليو سنة ١٩١٧ سير الجيس الشمالى سرية بقيادة الشريف ناصر إلى معان والعقبة لتخريب الجسور والمحطات، وازعاج الترك فقامت بعملها خير قيام، سيما بعد أن أنضم إليها عوده أبو تايه شيخ قبيلة الحويطات. فهاجمت محطة معان وشتتت شمل القوى التركية المرابطة هنالك

وفى يوم ١٩ رمضان (اغسطس سنة ١٩١٧) وصلت هذه القوى إلى العقبة

فاستولت عليها حربا، وأسرت حاميتها التركية المؤلفة من ٧٢٠ جنديا و ٣٠ ضابطا يقودهم أمير آلاى وغنمت مدفعين. وبلغت خسارة الترك فى معان والعقبة نحو ٦٠٠ قتيل وجريح.

وقرر الأمير فيصل على أثر هذا الفوز الانتقال إلى العقبة، وسير على الفور رشيد المدفعى مع ٥٠٠ جندى جئ بهم حديثا من الأسر مع تجهيزاتهم وملابسهم العسكرية فلبسوها فى البواخر، وتم نقل الجيش الشمالى كله على الأثر واتصل برا بالجيش البريطانى فى فلسطين.

وفى أوائل شهر شوال احتل الجيش الكويرة مواصلا الزحف إلى الأمام، وفى منتصف شهر شوال سير سرية لغزو محطة تبوك. فعادت بجملة أسرى بعد ما دمرت جانبا من السكة، واستولت سرية أخرى من سراياه على قلعة مطران، وأسرت ٤٥ أسيرا تركيا بيهم ثلاثة ضباط.

انتصار وادى موسى

وأعيد تنظيم القوى النظامية فى العقبة على منوال جديد. سيما بعد ما تتابع وصول الأسرى من الجنود والضباط العرب، فصارت تتألف من فرقتين مشاة تتألفان من أربعة ألوية:

لواءا العقبة الأول والرابع ومقرهما العقبة، ولواء الكويرة واللواء الهاشمى، ويتألف اللواء من فوجين، والفوج من ٥ سرايا (بلوكات) مع سرية رشاشات. ولواء مدفعية وفوج نقليات وفيه ١٥٠٠ جمل ووحدة هجانة، وهكذا تضاعف عدد الجند النظامى.

وقد وزعت هذه القوى فى أوائل احتلال العقبة على المنوال التالى:

يؤلف اللواء الأول القوة الاحتياطية. ويظل فى العقبة. ويرابط اللواء الثانى فى الكويرة، ويحتل اللواء الهاشمى وادى موسى (البطراء). وقد نفذت هذه التعليمات بلا صعوبة. فأزعج ذلك الترك وأقلقهم. فجهزوا حملة عسكرية كبيرة زحفت إلى وادى موسى فى أوائل شهر ذى القعدة لاحتلاله فصدمها اللواء صدمة شديدة، واستمر القتال بين الفريقين ثلاثة أيام حمل فى نهايتها اللواء على الترك فمزقهم وكسرهم شر كسرة. مع أن عدد جندهم كان يزيد على عدده أضعافا مضاعفة، وقاد الحملة التركية ـ وقد سارت من معان ـ اللواء محمد جمال باشا بنفسه.

وجدد الترك الحملة فأعدوا سرية تتألف من كتيبتى بغالة، ومدفعين وسرية رشاشات سارت من معان للقيام بأعمال الاستطلاع ولسبرغور القوتين العربيتين فى واد موسى والكويرة. وكان الجيش العربى قد أعد سرية فى (المريفة) بقيادة مولود مخلص قوامها فوج مشاة (٤٠٠) وسرية رشاش ورعيل من الخيالة فالتقت السريتان فى المريفة (أواخر نوفمبر سنة ١٩١٧) ودار قتال بينهما فى عين وحيدة انتهى بارتداد الترك وانسحابهم، ثم استؤنف القتال وصال العرب على الترك. فجلوا عن هذه مرتدين إلى سمنة ومعان نفسها فعزز احتلال هذه مركز الجيش العربى، فأخذ يغير على أطراف معان، ويضايق الترك فأعدوا قوة جديدة فى أواسط شهر ديسمبر تتألف من كتيبتى بغالة وفوجى مشاة وبطاريتى مدافع فقابلتهم السرية العربية نفسها وصدمتهم، فارتدوا إلى سمنة والمسافة بينها وبين عين وحيدة ٨ كيلو مترات.

وفى شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ انتقل مقر الجيش الشمالى من العقبة إلى الكويرة وفيها أعد سرية من اللواء الهاشمى وهجانة الشريف ناصر بقيادة نورى السعيد سارت إلى الجفر، وفيها انضم إليها عودة أبو تايه برجاله، وكان ينزلها فحملوا جميعا على محطة جروف الدراويش (بين عمان ومعان) فدمروها وأسروا حاميتها التركية المؤلفة من ١٠٠ جندى، وغنموا مدفعا ودمروا قطارا كاملا كان يحمل ميرة إلى المدينة.

معارك الطفيلة ومعان

وأعد الجيش الشمالى حملة بقيادة الأمير زيد تتألف من هجانة الشريف ناصر ومدفعين جبليين ورشاشتين وكوكبة خيالة و ٦٠٠ من قبائل الحويطات فزحفت إلى الطفيلة لاحتلالها ومشاغلة الترك شرقى نهر الأردن لتخفيف العبء عن الجيش البريطانى، وكان يحار فى غربة، فاحتلتها فى أوائل شهر فبراير بدون مقاومة تذكر، فأعدت القيادة التركية العليا فرقة عسكرية كاملة بقيادة الأمير آلاى حامد فخرى لاستردادها وطرد العرب من تلك الأنحاء لما لمقام الطفيلة من شأن عسكرى كبير. واتصل هذا النبأ بالأمير زيد قائد القوى العربية فى الطفيلة. فاستنجد بقبائل الكرك العربية فانجدته، وجاءه رؤساء القبائل بالذات، ووصلته نجدات من الكويرة. وفى أوائل شهر مارس حملت الفرقة التركية على العرب فصمدوا لها ودار قتال عنيف استبسل فيه الفريقان، وانتهى بتمزيق الفرقة التركية شر ممزق وقتل قائدها وهيئة أركان حربه وعدد من ضباطه، وغنم العرب مدفعين من المدافع

السريعة الطلقات و ٢٢ رشاشة و ٢٠٠ دابة وأسروا ٣٠٠ جندى.

وفي منتصف شهر مارس أعد الترك حملة كبيرة لاسترداد الطفيلة قادها محمد جمال باشا بالذات أيضا، ففازت باسترجاعها على أنها ما لبثت أن جلت عنها.

وانتقل مقر الجيش الشمالي من الكويرة إلى أبى اللسل فى تلك الأيام مشايعا للجند فى زحفه.

وحدثت حادثة فى أوائل شهر إبريل تستوقف النظر وتدل على انتشار روح القومية فى صدور رجال الجيش، وعلى يقظتهم، وتثبت أنهم كانوا يحاربون لاستقلال العرب لا لغاية أخرى. وبطل هذه الحادثة اللواء مولود مخلص (قائد الفرقة العربية الأولى يومئذ) فقد أبى تنفيذ أمر أصدرته إليه القيادة بمهاجمة محطة فصوعة الواقعة جنوب معان، وقال يجب علينا بعد الآن أن نولى وجهنا شطر الشمال (شطر بلاد الشام) لخدمة قضيتنا الوطنية، والعمل على تحرير إخواننا. وغنى عن البيان أن مولود باشا ـ وقد قص هذه القصة بنفسه على مؤلف الكتاب خلال اجتماعهما فى بغداد سنة ١٩٣٣ ـ أراد تحدى الضباط الإنجليز فى المعسكر، وهما لورانس وجويس، وقد كانا يعملان جهدهما ليوجها الجيش العربى نحو الجنوب (أى نحو الحجاز) ولصرفه عن التقدم نحو بلاد الشام والتوغل فيها طبقا لتعليمات حكومتهما.

ووضع مولود باشا وإخوانه على الأثر مضبطة بمعنى ما تقدم رفعوها إلى الأمير طالبين أن يولى الجيش وجهه نحو الشمال. تاركا قوة كافية لحصارمعان ريثما تسقط جوعا كما فعلوا فى ميدان المدينة من قبل فيخدمون بذلك القضية الوطنية التى جاءوا للموت فى سبيلها.

ولما وصلت المضبطة إلى القيادة أمرت بتنحية مولود عن العمل، لأنها اعتبرت عمله خروجا على التقاليد والنظم العسكرية . وأعدت قوة لمهاجمة محطة فصوعة عملا بالأمر الصادر قادها جعفر العسكرى بنفسه، ولكنها لم تكد تغادر أبا اللسل حتى هبت عليها عاصفة شديدة تلتها أمطار غزيرة فتاهت فى الصحراء وتشتتت وهلكت دوابها، واتصل ذلك بمقر القيادة، فأرسلت السيارات والجند لانقاذها فعاد رجالها بعد عناء شديد من دون عمل، فكأن الطبيعة أرادت أن تشارك الضباط فى غضبهم . وماهى إلا أيام حتى أفرج عن مولود باشا وأعيد إلى قيادة فرقته، وصدر إليه الأمر بأن يستعد للهجوم على معان، وكان الضباط الإنجليز يسمونها فردون العرب.

وفى منتصف شهر إبريل أعدت سرية بقيادة عبد الله الدليمى تتألف من قوة من مشاة الفرقة الأولى ومدفعين جبليين وبعض رجال الحويطات للهجوم على محطة دار الحج الواقعة جنوب معان، ولما اقتربت منها أرسلت جنديا وعريفا للاستطلاع فباغتهما الترك وقتلوا الأول وجرحوا الثانى وقادوه مجروحا إلى داخل المحطة، وهاجمت السرية المحطة واستولت عليها وأسرت حاميتها، ولما رأت العريف العربى مذبوحا قتلت جنديين تركيين انتقاما له. وكتب قائدها إلى قائد الجيش التركى فى معان ينذره بقتل أسرى الترك إذا عادوا إلى ذبح الأسرى العرب، ويقول له «عندنا كثير من أسراكم، ولا يوجد أسير واحد منا عندكم».

معارك الطفيلة ومعان

ولما تمت الاستعدادات لمهاجمة معان، صدر الأمر إلى الفرقة العربية الثانية بأن تتظاهر عسكريا أمام محطة الجردونة، لتحول بين قواها، وبين الانضمام إلى حامية معان حين الهجوم على هذه، فقامت بمهمتها، وهاجمت المحطة يوم ٢٢ إبريل، وفى صباح ٢٤ منه تقدمت الفرقة الأولى بقيادة مولود باشا لاحتلال تلول السمنات الواقعة غربى معان، وكان اللواء الأول يؤلف مقدمة الجيش المهاجم، فشرع بالهجوم على خط الترك الأول من صباح ٢٥ منه وأصلت المدفعية العربية الترك نيرانا حامية، فتقدم الجند تحت حمايتها فاحتل بعد عناء سلسلة تلول السمنة، وهى واقعة غربى معان وتبعد عنها كيلو مترا وتسيطر عليها. وقد حصنها الترك من قبل، ولما رأى قائد الفرقة تقهقر الترك شهر حسامه ونادى برجاله وتقدم لمطاردة المنهزمين وكانوا متجهين نحو معان، وكان يظن أن سقوطها أصبح قريبا، ففاجأته قوة تركية بنيران شديدة من خنادقها فأصيب برصاصها وكسرت رجله فنقله جنده على الفور إلى مقر الجيش، ومنها أرسل إلى القاهرة للمعالجة.

وأصلى الترك من مواقعهم الحصينة فى معان العرب نيرانا حامية، لكى يزحزحوهم فثبتوا، وأخذوا يعدون العدة لاستئناف الهجوم، وكانوا يترقبون وصول الفرقة الثانية من محطة الجردونة ـ وقد تكللت مهمتها بالنجاح التام فدمرت المحطة وأسرت الحامية – وعادت مثقلة بالغنائم فعهد إليها بالهجوم من جناح الفرقة الأولى الأيمن (أى من جنوبى غربى معان) وكان الأميران فيصل وزيد فى تلول السمنات يشرفان على الأعمال العسكرية.

وحمل الجيش العربى على أماكن الترك الحصينة أصيل يوم ٢٧ إبريل بعد ما أصلتهم

مدفعيته نيرانا حامية، وتقدم المشاة ـ ولم يشترك أحد من رجال القبائل فى هذه المعارك، لأنهم لم يألفوا الهجوم على الحصون ـ فطردوا الترك واحتلوا خط الدفاع الثانى عند العشاء، وقضوا فيه ليلتهم وكرروا الهجوم فى الغد عند الأصيل على خط الدفاع الثالث، واشتد القتال، وامتد حتى المساء وانتهى بفوز المشاة العرب واحتلالهم الخط الثالث فقضوا فيه ليلتهم.

وجزع الترك واضطربوا وعقدوا فى الليل اجتماعا قرروا فيه الاستسلام للعرب ـ وما كانت حامية معان تقل عن فرقة عسكرية ـ لعجزهم عن المقاومة. ولما شاع ذلك بين السكان أقبلوا على التطوع فى صفوف الترك فسلحوا نحو ٥٠٠ منهم شحنوهم فى خط الدفاع الرابع[1] وعززوهم به، ولقى الجيش العربى صعوبة وعناء فى الغد حين حملته على هذا الخط ودام القتال حتى الليل. فأصدر القائد أمرا بارتداد الجيش إلى خط الدفاع الثانى، لأن الترك تلقوا نجدات فى ذلك اليوم، ولأن قنابل المدافع نفدت. وفى ٣٠ إبريل ارتد الجيش إلى عين وحيدة. وبلغت خسارة العرب فى هذه المعارك ١٠٠ قتيل وجريح. وإليك ما كتبه مولود مخلص عن حروب سمنة ـ معان قال:

«أصدر سمو الأمير المعظم أمره بالتأهب للزحف على سمنة واحتلالها بالقوى العربية وهى اللواء الأول من الفرقة الأولى، ويتألف من فوجى مشاة (٦٥٠ ـ ٧٠٠ محارب) بقيادة تحسين على، ومن سريتى رشاش و٤ مدافع صحراء ومثلها جبلية، ومدفعين هوجيكس بقيادة جميل المدفعى وماينوف عن ٤٠٠٠ مجاهد من العشائر».

«وصدرت الأوامر فى اليوم التالى بأن ينضم اللواء الثالث للفرقة الأولى مع سريتى رشاش و ٤ مدافع جبلية مصرية، وعدد غير يسير من أبناء القبائل إلى القوة الأولى، وكان هذا اللواء قد تحرك قبل ٣ أيام بقيادة نورى السعيد إلى جنوب معان لتخريب السكة الحديد والمحطات. فأدى مهمته فصدر إليه الأمر بأن يرتاح».

«وفى يوم ٢٤ نيسان (إبريل) تحرك اللواء الأول بعد العصر بطريق عكيكة فى الشرق الجنوبى من معان (الجناح الأيمن من سمنة) ولقد تلقت إحدى السرايا أمرا أن تذهب مع

١ ـ يقال إن السبب فى وقوف أهل معان هذا الموقف خلافا لما أظهره أبناء البلاد العربية الأخرى من تأييد الثورة ومناصرتها فى كل مكان مر به رجالها هو مابينهم وبين عوده أبى تايه والحويطات من خلاف قديم، ولما كان هؤلاء يحاربون مع الجيش فقد خاف المعانيون انتقامهم وفتكهم إذ فازوا ودخلوا فقاموا بهذه الحركة اتقاء شرهم.

رشاشتين، وجمع من القبائل إلى جناح سمنة الأيسر فتشاغل العدو.

«واستقر الرأى على أن يكون الهجوم من الوراء لسهولة الأراضى، فتقدمت الوحدات النظامية، وحشدت على منوال تستطيع معه منازلة قوى العدو القادمة من معان وضرب قواه المرابطة فى سمنة من الجناح والوراء أيضا.

واختير مكان موافق للمدفعية فتسنى لها ضرب سمنة من الجناح والخلف، وإصلاء معان نارا حامية.

«ولما بزغت شمس ٢٥ إبريل بدأت المدفعية تصب نيرانها على أماكن الترك فى سمنة لتمهد لهجوم المشاة – وما كان الترك يعتقدون إن الجيش العربى يستطيع أن يقوم بمثل هذه الحركة الخطيرة ـ فقامت بواجبها على أفضل منوال ـ وبعد انقضاء ٢٠ دقيقة أمرت قائد اللواء الأول أن يوعز إلى أحد أفواجه بالهجوم. فزحف فوج المرحوم عبد الحميد الهاشمى، فاحتل موقع الترك الذين انسحبوا بسهولة من دون خسارة تذكر بسبب تساهل الفوج وقوى الجناح الأيسر فى مطاردتهم. وانفرد مدفعان من مدافعنا بمطاردتهم وكان على جانبيها جميل المدفعى وأصلاهما نارا حامية. ولم يشترك أحد من أبناء العشائر وكانوا يحصون بالألوف.

«وخيل إلى أنه من العار علينا أن ندع العدو يقهقر من دون أن نفتك به، ونمزق قواه فلا تنضم إلى إخواتها وتحاربنا فى الغداة. ولكن مالعمل وليس عندى قوة راكبة أستطيع أن أطارده بها، وبما أننى لم أقدر على ضبط نفسى، ولا أن أقف موقف المتفرج على ضياع هذه الفرصة الثمينة تذهب من أيدينا أسرعت أحث عبيد الأمير، وكانوا بالقرب منا ولا يقل عددهم عن ٦٠ خيالا على مطاردة العدو فانضموا إلى، وهجمنا على سرية تركية كانت مسرعة فى الانهزام فأسرناها كلها، وبدأنا نطارد سرية أخرى. وانشغل معظم هؤلاء فى نزع سلاح الترك المأسورين فتأخروا عن اللحاق بى، ولم يبق معى منهم سوى ١٥ ـ ٢٠ جنديا فأطمع ذلك العدو المنهزم فوقف وأخذ يطلق الرصاص علينا فأصابت رصاصة رجلى اليسرى فكسرتها وجرحت أخرى اليمنى وقتل خمسة من رجالنا وجرحت فرسى. وهرب من كان معى.

«وعرف جنودى ما أصابنى فأتوا لنجدتى تحت نيران العدو الحامية فكان ذلك أعظم برهان على الوداد المتقابل والمحبة السائدة بين الجند وقائدهم. وتقدر قوة الترك التى

اشتركت فى محاربة سمنة بفوج مشاة وسرية رشاش ومدفعين وكانت المدافع التركية فى معان تأتى كل صباح إلى سمنة وتعود فى الغروب وحيث إن الهجوم عليها وقع عند الفجر فلم تستطع هذه المدافع أن تساعدها، بل اكتفت بمساعدتها فى أثناء تقهقرها».

وأعد الجيش بعد هذه المعارك سرية مؤلفة من ٣٠ هجانا بقيادة الشريف ناصر فهاجمت يوم ٨ مايو محطة القطرانة، وأسرت عددا من الجند التركى، ثم أعادت الكرة عليها فى الغداة ولم تخرجها.

وأعد سرية أخرى أسماها سرية وادى الحسا مؤلفة من هجانة بدو ومدفعين ورشاشتين للتأثير فى بنى صخر وعشائر الكرك، وحملهم على الاشتراك فى تخريب السكة، وقد اتحدت مع سرية الشريف ناصر، وهاجمت يوم ١٢ منه محطة القطرانة فلم تنجح. ثم هاجمت محطة وادى الحسا يوم ١٥ منه فاحتلتها ودمرت جانبا من السكة. فسير الترك قوة استردتها فى اليوم التالى. ونشط العرب فى خلال هذا الشهر نشاطا زائدا لتخريب السكة، وتعطيل مواصلات العدو فدمروا ٢٥ جسرا من جسور السكة خلال عشرين يوما.

وهاجمت سرية عربية أخرى يوم ٣٠ مايو محطة الفريفرة وأحاطت بها فشقت حاميتها التركية طريقها لها واتجهت إلى محطة القطرانة، واسترد الترك المحطة.

وفى أوائل شهر يونيو تحركت الفرقة الأولى للجيش العربى من عين وحيدة للهجوم على محطة الجردونة، وظلت الفرقة الثانية فى تلول السمنات لمشاغلة العدو. وتولى نورى السعيد قيادة هذا الهجوم، ومشى إليه اللواء الأول من الجنوب، والثانى من الشرق. وكان الترك قد أحسنوا تحصينها وحشدوا فيها قوة من المشاة مع ٤ رشاشات ومدفعين، فاستسلمت عند ما ضيق عليها الخناق فخربت الفرقة المحطة والجسر، وعادت بأسرى وعددهم ٢٢٠ إلى مقرها. وعاد الترك فأصلحوا الجسر والمحطة وسيروا فى أواخر ذلك الشهر قوة مؤلفة من فوج مشاة و٤ مدافع و٨ رشاشات فاستولوا على المحطة وحصنوها واستأنفت الفرق الأولى الهجوم عليها فلم توفق إلى احتلالها. ثم سيرت اللواء الأول إلى جرف الدراويش وهنالك انضمت إليها سرية وادى الحسا فهاجمتا هذه المحطة فى أواخر ذاك الشهر أيضا، ورأى قائدها أن لا فائدة من المجازفة لأنها كانت حصينة، فارتد عنها فعادت سرية الحسا إلى مكانها، وظل اللواء الأول فى التوانة فأقام فيها شهرا واحدا لمنع اتصال الترك بقواهم

فى الجنوب، ثم تلقى أمرا بأن ينسحب إلى الطاحونة وكان فيها مقر الفرقة الأولى.

وأغارت سرية الشريف ناصر على محطات المنزلة وقلعة عنيزة ووادى الشعر فاستولت عليها ثم استردها الترك، وكانت تنتقل بين أيدى الجيشين.

وقررت القيادة العليا فى النصف الأخير من شهر يوليو مهاجمة الجردونة لمشاغلة حامية معان التركية ولتخفيف العبء عن عاتق الجيش البريطانى فى الشريعة. وحمل نورى السعيد يوم ٢٠ يوليو بالفرقتين الأولى والثانية مع اللواء الهاشمى ومفرزة التخريب على الجردونة لتنفيذ هذه الخطة بعد ما ترك اللواء الثانى من الفرقة الأولى أمام معان.

وكانت حامية الجردونة التركية مؤلفة من فوج مشاة و٤ مدافع ورشاشات، وكانت منيعة جدا. كما كان على الجيش المهاجم أن يعمل فى أراضى سهلية تجعله هدفا لنيران العدو، ولذلك لم ينجح هذا الهجوم، واضطرت القوات العربية إلى الارتداد بعدما فقدت ٢٤ ضابطا و٢٠٠ جندى قتلوا ما عدا الجرحى.

وفى يوم ٢٣ يوليو تلقى اللواء الأول الأمر بالهجوم على محطة تل الأحمر، وتقع بين معان والجردونة وتخريبها، فلم يوفق وعاد بعد ماخسر ٥٠ قتيلا وبضعة جرحى وكريوم ٢٥ منه فارتد أيضا.

تأليف الحملة الكبرى لفتح الشام

بعد ما استقرت أقدام الجيش الشمالى فى العقبة والمناطق المجاورة لها وحاز ماحازه من نصر وتوفيق رأى أن يوسع نطاق أعماله، وينقل الميدان إلى حوران وجبل الدروز والغوطة لانقاذ دمشق من أيدى الترك، فكاتب الأمير الإنجليز - وكانوا من جهتهم يعدون المعدات للقيام بحملة كبيرة على خطوط الترك فى فلسطين - فتم الاتفاق على إعداد حملة كبيرة يقودها الأمير بالذات، ويكون مقرها الأزق بدلا من أبى اللسل، واشترط لذلك شروطا قبلوها. وعلى أثر ذلك دعا قادة الجيش النظامى وضباطه ورؤساء القبائل وزعماء الثورة وأبلغهم بأن يكونوا على تمام الأهبة للزحف على الشمال.

وتقدم نسيب بك البكرى الحملة فقصد جبل الدروز ليمهد لها، وليستميل الزعماء والشيوخ ويحملهم على الاشتراك فى الجهاد القومى. وهذا نص المنشور الذى حمله من الأمير إلى أهل جبل الدروز وحوران:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عموم أهل جبل الدروز وحوران المحترمين:

بما أننا قد انتدبنا السيد نسيب بك البكرى إلى جهاتكم بالوكالة عنا ريثما نحضر بذاتنا، أو يحضر أخونا الأمير زيد لجهتكم فيجب والحالة هذه إجراء جميع التسهيلات المقتضية التى اعتدنا أن نراها من أمثالكم الموصوفين بالغيرة العربية والحمية والشهامة العدنانية، بطرد أعدائنا وأعداء وطننا، أولاد جنكيز خان، الذين إذا لم نتحد على طردهم من ديارنا، ونخلص البقية الباقية من أبناء قومنا من أيديهم فإنهم لا يبقون منا فردا، وإننا بعونه جل جلاله سنأتيكم قريبا بجيوشنا ومعداتنا. هدانا الله وإياكم سواء السبيل ووفقنا للتغلب على الأعداء وراحة العباد وتخليص البلاد.

تحرير فى ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٦ الموافق ٢٨ مارس ١٩١٨

وهبط نسيب بك الجبل، ونزل قرية عنز الواقعة على سيف البادية، وأقام عند شيخها حسين بك الأطرش، وهو من الموالين للثورة المؤيدين لها. ثم اتصل بسلطان باشا الأطرش «شيخ قرية القرية» وسار إليه. وسلطان معروف بعداوته للترك وشدة وطأته عليهم. وكان بيته ملاذا لطريدهم، كما كان مقرا للدعاية العربية فى الجبل، ومركزا من مراكز الاتصال بين ثوار العرب فى الصحراء وبين سورية. فكانوا ينزلون عنده إبان تنقلاتهم فيقيمون فى حرز حريز.

ولما شاع خبر وصول نسيب بك إلى الجبل، وعرف ماقام به من أعمال كتب سليم باشا الأطرش، وكان ضالعا مع الترك يحكم الجبل من قبلهم إلى سلطان باشا ينصحه بالعدول عن هذه الأعمال، فرد عليه ردا قاسيا، ودعاه إلى الانضمام إلى إخوانه وأبناء عشيرته فى قتال أعدائه وأعدائهم.

وعاد نسيب بك إلى العقبة، وأطلع الأمير على ماوقع، ثم رجع بعد شهرين مع الشريف ناصر يحمل المنشور الآتى:

إلى كافة أهل الشمال حضريهم وبدويهم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: أما بعد فانه يتبين لكم من الفرمان[1] الذى هو ضمن

(١) لم نعثر على نص الفرمان

هذا الكتاب، والصلاحية التى خولنى إياها جلالة والدى المعظم، وعليه ريثما آتى إلى بلادكم بشخصى قد أنبت عنى الشريف ناصر بن على والسيد نسيب البكرى لتكونوا وإياهم يدا واحدة على أعدائنا وأعدائكم، ولتخلصوا بلادكم من ربقة الذل والهوان وتطردوا من دياركم عدوا طالما طغى فى أرضكم وفسق فى بلادكم وقتل وشنق أعاظم رجالكم وعن قريب إن شاء الله أكون عندكم، وأفرح نفسا طالما شقيت لأجلكم، وتألمت لألمكم، وماذلك على الله بعزيز.

فيصل

آخر قافلة من دمشق

وبينما كان الأمير يستعد للعمل فى الشمال وصلت من دمشق إلى أبى اللسل آخر قافلة من الأحرار وهذه أسماء رجالها: الدكتور أحمد قدرى، ورستم حيدر، ورفيق التميمى، وتحسين القدرى، وخليل السكاكينى، وسليم عبد الرحمن، والشيخ سعيد البانى ومحمود المغربى (ملازم استحكام أصله من طرابلس الغرب) وقد غادروا دمشق سرا فى أواسط شهر (يونيو) فجاءوا قرية جرمانا، فغيروا ملابسهم المدنية ولبسوا ملابس بدوية كان الدكتور قدرى أعدها لهم. كما أعد لكل واحد حصانا وسلاحا. فساروا إلى قرية خلخلة فى جبل الدروز، ومنها إلى (القرية) فنزلوا ضيوفا على سلطان باشا والتقوا فيها بعبد اللطيف العسلى وأخيه لطفى، وكانا قادمين من سورية والشيخ فريد الخازن، فساروا إلى أبى اللسل واشترك بعضهم فى الأعمال العسكرية التى انتهت بدخول دمشق.

الزحف إلى الأزرق

ولما تمت التدابير وتقرر الزحف دعا الأمير جمهور المجاهدين وقال لهم «هيا للعمل لقد دنت ساعة انقاذ سورية، وسنباشر الهجوم العام بعد أيام فاذهبوا غدا مع الحملة البدوية وجمهور الثوار فى جميع أنحاء سورية».

وقاد الأمير بالذات هذه الحملة. وقد تم تأليفها فى أواخر شهر أغسطس كما يأتى:

لواء الهجانة، ويتألف من ٦٠٠ هجان مع أربعة مدافع و ٤ رشاشات ثقيلة و ٢٠ خفيفة

و ٤ دبابات ومفرزة تخريب وطيارتين للكشف، ثم انضم إليها نورى الشعلان مع ١٠٠ خيال من قومه، وعودة أبو تايه مع ١٠٠ خيال كما انضمت إليها سرية الشريف ناصر فأصبحت تتألف من نحو ألف محارب، وتولى الأمير زيد القيادة فى أبى اللسل بعد سفر أخيه.

وفى أوائل شهر سبتمبر تحركت الحملة قاصدة الأزرق فاجتازت السكة الحديد من جنوب معان الشرقى فبلغته يوم ١٨منه، وكانت تتناول ميرتها وماءها من منازل خاصة أعدت من قبل فى وسط الصحراء. وسيرت دبابتين من دباباتها مع قوة من الخيالة حين مرورها بمحطة السمراء يوم ١٦ منه. فدمرت الجسر الحديدى القائم بين المفرق والزرقا.

الدروز ينضمون إلى الحملة

وبعد ماا ستقرت الحملة فى الأزرق، وضربت خيامها قصد نسيب بك البكرى الجبل، ومعه حسين بك الأطرش وزكى الدروبى (من ضباط الثورة) فاتصل بزعماء الجبل، وعقد معهم اجتماعا فى كاف حضره الشيوخ والزعماء، وتم فيه الاتفاق على المبادئ الآتية:

١ ـ استقلال جبل الدروز سياسيا وإداريا، مع حفظ جميع التقاليد المرعية بين العشائر.

٢ ـ إيجاد العلاقات الودية والمحالفة الثلاثية بين الحجاز وسورية وجبل الدروز على ثلاث نقط:

أ ـ العرب تساعد الدروز والدروز تساعد العرب

ب ـ لا سلطة فعلية أو عسكرية لحكومة من الحكومتين السورية والحجازية على جبل الدروز.

جـ ـ أن جبل الدروز يعتبر الأمير فيصلا، أميرا على سورية، ولكنه لا يعتبره أميرا على الجبل، إلا من الوجهة الأدبية والعلاقات الأدبية والتشريفية(١)

---

١ ـ أقر الأمير فيصل هذا الاتفاق حينما عرض عليه، فارسل يوم ٢١ ذى الحجة سنة ١٣٣٦ الكتاب الآتي:
حضرة الأديب الفاضل نسيب بك البكرى وحضرة الرجل الماجد أبو نايف حسين بك الأطرش:
«بعد السلام عليكما ورحمة الله وبركاته: أخذت كتابيكما وسررت جداً بارك الله فيكم ومن معكم من أبناء الوطن. ولاشك أنكم اليوم فى بصرى اسكى شام. نحن غداً صباحاً نشد من هنا. أنا أصلكم بالأوتومبيل. الحملة تصل إليكم بعد باكر. عملنا سيكون مهما جداً، وسنكسب جميعاً الشر العظيم=

وعلى أثر انتهاء اجتماع كاف وإصداره هذا القرار، وقد قبله نسيب البكرى باسم الأمير فيصل كاتب سلطان باشا قرى أم الرمان والفارية وحوط وعنز والمغير وبكة طالبا إلى أهلها أن يوافوه إلى بصرى اسكى شام لمهاجمتها. فاجتمع له نحو ٣٠٠ مقاتل حمل بهم صباح ٢٥ سبتمبر على الجيش العثمانى المرابط فيها فدخلها بعد قتال دام ثلاث ساعات ومنها قصد شمسكين فاجتمع فيها بالشريف ناصر ونورى الشعلان وعوده أبو تايه ومن معهم فاتحدوا فى العمل وكان نسيب بك البكرى وحسين الأطرش فى هذا الجيش واتجهوا جميعا نحو دمشق.

حركات الحملة فى حوران

بدأت الحملة الكبرى عملها صباح ٢١ سبتمبر بمهاجمة محطة خربة الغزالة فدمرتها كما دمرت جسرا كبيرا بقربها، ونسفت السكة الحديد بينها وبين درعا، وكانت الطيارات الألمانية تتعقبها وترميها بقنابلها لازعاجها وشل حركتها.

وسيرت ذلك اليوم قوة من الهجانة إلى المزيريب لتعطيل السكة الحديد بين درعا وحيفا فبلغت قرية طفس بعد الغروب فكمنت وراءها واستدعت طلال حريدين شيخها وكان من أخلص شيوخ حوران للقضية العربية. فاتفق مع قائدها على أن يأتيه بقائد محطة المزيريب التركي، وكان أرمنيا فيسلمها لهم، وجاء هذا بملابس بدوية فتم الاتفاق على أن يجمع ضباطه وقواته كمن يريد أن يصدر إليهم تعليمات فتباغت القوة المحطة وتأسر الحامية. وبينما كان هذا يهم بتنفيذ خطته وصل من حيفا قطار يحمل فوجا تركيا ومدافع ووقف فى المزيريب. فتوقفت القوة عن الهجوم انتظارا لسنوح الفرص. ولما تقربت فى صباح اليوم الثانى ضربتها المدافع التركية، فقصدت محطة صغيرة بين المزيريب ودرعا فدمرتها، ثم سارت إلى محطة نصيب بين درعا ومعان بعد ماخربت جسرا كبيرا بين نصيب ودرعا متجهة نحو قصر الأزرق، وقضت ليلتها فى الخرابات الواقعة هناك.

وقصدت صباح ٢٥ منه قرية شيخ سعد فقضت فيها يوم كاملا وأسرت ١٥٠٠ جنديا و

= تجاه العالم. لاشك أنكم تخابرتم مع الشريف ناصر ومع من ببصرى. كما أنكم تبلغتم سقوط عمان وهلاك الجيش التركى برمته. باكر نتكامل فى درعا وان شاء الله انهم غنيمة لنا. النقدية تصلكم معنا. والتفصيل من الرأس، والفصل عند الله والسلام.

٦٠ ضابطا تركيا من القوى المتراجعة. وعلمت وهى فى الشيخ سعد أن الترك يضربون قرية طفس بمدافعهم لأن سكانها منعوا جندهم من المرور بها خوفا من النهب فهبت لنجدتهم وهاجمت الكتيبة التركية وطردتها، واستشهد شيخ القرية طلال حريدين وعدد من أبنائها فى خلال مقاومتهم للترك.

وفى يوم ٢٨ منه احتلت محطة درعا. وبلغ عدد الأسرى الترك هنا نحو خمسة آلاف من فلول القوى المتراجعة من فلسطين ومعان، وفى صباح ٢٩ منه اتصلت بالجيش البريطانى وزحفت إلى دمشق على السكة الحديد فوصلتها يوم ٣٠ منه، ودخلتها بين هتاف الأهالى وترحيبهم، ورفعت العلم العربى على أبراجها. وكان على رأسها نورى السعيد قائد القوى النظامية فى السرية، وجميل المدفعى قائد المدفعية والدكتور أحمد قدرى وعلى جودت الأيوبى وبدئ بإنشاء الحكومة العربية.

وهذا ملخص ماكتبه الجنرال بريمون عن أعمال العرب العسكرية قال:

«قطعت سرية الشريف بين ٣٠ يوليو و ١٠ أغسطس سنة ١٩١٧ السكة الحديد فى أربعة مواضع بين العلا وقلعة الزمرد، وبين المديرة والطويرة، وقد استسلمت حامية الزمرد وكان بينها خمسة من الروم ودمر العرب المحطة وشاحنات كانت فيها.

وفى يوم ٧ أغسطس سنة ١٩١٧ أبحر إلى العقبة الشريف شرف مع ٤٠٠ من العرب النظاميين ومعهم الكولونيل جويس والعريف بتيرى الفرنسوى مع قوته وهى رشاشتان يديرهما ١٢ جنديا وأقام قوات أمامية فى الكويرة - وهى على بعد ٣٨ كيلو مترا من العقبة وفيها ماء ومقابر قديمة - لاتقاء العدو وقد اعتادت طياراته أن تأتى كل يوم فتلقى قنابلها على المعسكر وعلى العقبة وعلى الكويرة. وفى يوم ١٧ أغسطس غادر جعفر العسكرى الوجه مع مئات من الجنود إلى العقبة، وسافر معه الكابتن بيزانى الفرنسوى وبقية رجاله. وفى يوم ٢٣ منه لحق بهم الأمير فيصل بالبارجة هاردنج مع القوة المصرية و ٤٠٠ جندى، وهكذا وبعد انتظار سنة بدأ فصل جديد فى حرب الشرق الأدنى.

وفى ١١ سبتمبر ألقت الطيارات الألمانية ٦٠ قنبلة وأطلقت الرشاشات على معسكرى العقبة والكويرة فجرح جندى وهلك ٣٠ حيوانا فى الثانية، وقتل تسعة وجرح ثلاثة فى الأولى وجاءت الطيارات الإنجليزية فضربت محطة معان بالمقابلة. وفى أواسط سبتمبر دمر

لورانس مع ٨٠ عربيا قطارا تركيا قرب المدورة فقتل وأسر من الترك ١٥٠ جنديا، واستولت قوة عربية أخرى على قطار تركى قرب عنيزة الواقعة على ٥٠ كيلو مترا من معان.

وفى يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٩١٧ أصدر الحسين أمرا إلى الأمير زيد بأن يقصد ينبع مع قواته النظامية ليبحر إلى العقبة، فسار أولا إلى الوجه مع المدفعية و ١٨٠٠ مقاتل ثم قصد العقبة فبلغها يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩١٧.

وفى يوم ١٩ أكتوبر هاجم ألفان من الجند النظامى مع بنى عطية مركزا للترك جنوبى دار الحج فحطموا قطارا وأسروا وقتلوا ٣٠٠ تركى، وظلوا هنالك ثلاثة أيام. فكان لهذا النصر رنة كبرى.

وأصدر أحمد جمال باشا وهو فى أطنة أمرا بإنقاذ السكة بأية صورة كانت. فحمل جمال باشا الصغير[1] بقواته الكبرى ومعه ٣ طيارات على العرب فى وادى موسى وردهم فكر عليه ليلة ٢٣ أكتوبر ضابط سورى اسمه مولود أفندى (المؤلف ـ هو أمير اللواء مولود باشا مخلص، وهو عراقى من أهل الموصل) بثلاثمائة جندى نظامى عربى وحمل حملة صادقة فدمر المعسكر التركى وقتل ٤٠٠ تركيا وأسر ٣٠٠ وكانت خسارته ٤٠ قتيلا. وهذا النصر العظيم مدار فخر كبير لهذا القائد ولرجاله.

وجاء فى بلاغ أذاعه الكابتن سانت كنتان يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٧ أن قوات الترك فى الحجاز وعلى السكة الحديد كانت كما يأتى:

١ ـ قوة قلعة الحسا جنوبى معان بقيادة جمال باشا الصغير (هو محمد جمال باشا) ومقره معان وتتألف من ٧ أورط مشاة و ٦ كتائب خيالة و ٣ بطاريات سريعة الطلق ومجموع ذلك ٣٧٠٠ محارب، مع ألف سيف و١٥ مدفعا و ٣٢ رشاشة و ٢٧٠٠ دابة.

أما قوة تبوك ويقودها اللواء بصرى باشا (وهذا خطأ أيضا فقد كان قائد هذه المنطقة القائمقام عاطف بك، أما بصرى باشا فكان قائد العلاء) وتتألف من ٤ أورط مشاة وبطاريتين. ويبلغ مجموع المحاربين من رجالها ١١٠٠ لديهم ١٢ مدفعا و ١١ رشاشة و ٢٢٠ دابة.

١ـ هو محمد جمال باشا قائد قوة معان لاجمال باشا الصغير، وكان يومئذ يقود الفيلق الثامن فى السلط.

وتأتى بعد ذلك قوة الحجاز السفرية، ومقرها المدينة بقيادة فخرى باشا، وتتألف من قوة الشمال، ومقرها فى العلا بقيادة على نجيب بك قائد الآلاى ٥٨ و تتألف من ٧ أورط وبطاريتين.

وقوة الجنوب وتتألف من ١١ أورطة وهى بقيادة فخرى باشا نفسه. ويبلغ المجموع العام لها ٧٥٠٠ محارب لديهم ٥١ مدفعا و ٣٧ رشاشة.

وفى مقابل هذه القوى كان للحلفاء فى بلاد العرب ٢١ ألف رجل و ٧٨ مدفعا و ٨٠ رشاشة ونحو ٤٠٠٠ يقاتل الجانب الأكبر منهم فى فلسطين[١].

واتسع نطاق الأعمال العسكرية فى صحراء الشام ابتداء من دخول ١٩١٨ فقد ووضع الجيش الشمالى نصب عينيه فى هذه المرحلة تحقيق الغرضين الآتيين: مهاجمة معان وبلوغ البحر الميت للاتصال بالإنجليز، وكانوا على ٢٠٠ كيلو متر من العقبة، وتولى المهمة الثانية الأمير زيد، وكان ينزل فى عين جرنادل على طريق القوافل بعد ما احتل خرائب الحويطات وبنى شاكر. وكان جعفر باشا ينزل مع قوة أخرى على عين ديلاغا أما بقية الجند العربى فكان فى الكّويرة.

وكانت هذه المهام شاقة صعبة. فهنالك نقص فى وسائل النقل، ولا سيما الإبل ونقص فى الملابس والمعدات، يضاف إلى ذلك جو قارس فاتك.

وفى يوم ٣ يناير هاجم الشريف ناصر محطة جرف الدراويش على ٨٠ كيلو مترا من جنوبى معان، فأسر ٢٠٠ تركى. وفى يوم ٦ منه جلا الترك عن أبى اللسل (على ٢٠ كيلو مترا من جنوبى معان) وفيها ماء غزير وعين بسطا (على ١٢ كيلو مترا من شمال معان) فاحتلها العرب.

وفى يوم ١٣ منه استقر الأمير زيد فى الطفيلة، وهى على ١٦٠ كيلو مترا من العقبة بعد ما جلا الترك عن الشويك وغابة عيش. وحملت الفرقة التركية ٤٧ على الطفيلة لاستردادها - لأن فقدها ضايق الترك - حملة صادقة فهاجمتها بكل قواها ومعداتها يوم ٢٨ يناير فهزمها العرب شر هزيمة فى سهل الحسا، وقتلوا ٤٠٠ من رجالها، وأسروا ٣٠٠ بينهم ٧ ضباط وغنموا مدفعين و ٨ رشاشات و ٨٠٠ دابة.

---

١ - لم يشر الإحصاء إلى قوات الترك فى فلسطين يومئذ، وماكانت تقل عن عشرين ألف مقاتل.

وما كانت الحالة حول معان سائرة على ما يرام، وقد قاد الأمير فيصل بنفسه حملة عل الدورة يوم ٢٢ منه فلم توفق. وورد الشريف عبد الله بن حمزة البحر الميت مع البدو يوم ٢٨ منه، ودمر فى المزرعة زورقا بخاريا وستة زوارق شراعية وأسر ٦٠ تركيا.

وحشد الترك قوات كبيرة فى الطاحونة تجاه الطفيلة فأرسلوا نحو ثلاثة آلاف جندى عززوها بكتائب فنية من النمسويين والألمان وطيارت ومدفعية وغيرها. ثم وصف هنا معركة الطفيلة بما وصفت به من قبل.

واتجهت أنظار العرب فى أوائل شهر إبريل إلى معان، فنقل الأمير زيد قواته الكبرى من وادى موسى إلى حول معان، تاركا جانبا من البدو هنالك، وهاجم نورى السعيد غدير الحج يوم ١١ إبريل فأخذ ١٥٧ أسيرا تركيا، وخرب ماطوله ١٠ كيلو مترات من السكة الحديد وفى يوم ١٢ منه احتل جعفر العسكرى محطة أبو قردان وأسر ٢٠٠ أسير.

وفى يوم ١٣ منه احتل العرب مرتفعات سمنة، وتبعد عن معان ٥ كيلو مترات وتسيطر علها، فشجعهم هذا النصر على مهاجمة معان ـ برغم ورود نجدات تركية إليها من الشمال والجنوب، ودارت مبارزات بين المدفعيين يومى ١٥ و ١٦ إبريل.

وفى ١٧ منه تقدم العرب حتى معان الشامية، وهى من ضواحى مدينة معان فأسروا مائة تركى، وغنموا مدفعين بعد مافقدوا ٢٥٠ قتيلا.

ووصف الكولونيل بريمون فى كتاب أعماله الحملة العسكرية الكبرى التى فتحمت الشام بما نورده ملخصا:

كانت الحملة بقيادة نورى السعيد، وكانت تتألف كما يأتى:

٤٠٠ جندى نظامى عربى بقيادة على جودت الأيوبى و ٣٥ مصريا بقيادة الكابتن بيك (للنقل) و ٣٠ تركيا بقيادة الكابتن سكوتيجانس، وثلاث دبابات وطيارتان وسيارات نقل، وكانت القوات البريطانية بقيادة الكولونيل جويس ولورانس والميجر يونغ وكان فيها أيضا بطارية فرنسوية عيار ٦,٥، وسرية رشاشات فرنسوية وسرية مهندسين بقيادة الكابتن بيزانى الفرنسوى، ومجموع رجالها ٣ ضباط و ١٤٠ جنديا.

وفى يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩١٨ غادرت الحملة أبى اللسل بقيادة الأمير فيصل نفسه

قاصدة الأزرق فبلغته يوم ١٢ سبتمبر، وسبق الأمير ونورى السعيد فوصلا يوم ١١ بالسيارة أما الطيارات فجاءت يوم ١٠ منه.

وفى الساعة ٤،٣٠ من يوم ١٤ منه غادرت الحملة الأزرق ـ وقد ظل الأمير فيها ـ باتجاه الغرب الشمالى. وفى يوم ١٦ عسكرت على مسافة ١٢ كيلو مترا من درعا، فانضم إليها ٢٠٠ من خيالة الرولا مع الشريف ناصر والأمير طراد الملحم. وفى ١٧ منه دمرت المدفعية مركزا للترك فى تل عرار، وهو على بعد ٨ كيلو مترات شمالى درعا. وتجولت الدبابات الإنجليزية على طول السكة الحديد، وحلقت خمس طيارات تركية فوق الحملة وألقت قنابلها ورصاصها من عل، لأن المدفعية منعتها عن أن تسف، ثم عادت إلى درعا وكانت تراوح الحملة وتغاديها بلا انقطاع.

وقبع الترك فى درعا وتحصنوا فيها. فواصلت الحملة تخريب السكة، وفى الساة ١١،١٥ أمر نورى السعيد بالزحف على تل شهاب بعد ما أبقى قوة فى تل عرار لمضايقة حامية درعا. ولما وصلت الحملة إلى المزيريب قابلها السكان بالهتاف والسرور، ثم غادرتها فى الساعة ٩،٣٠ مساء إلى تل شهاب فى انتظار قطار قادم من الغرب.

وفى الساعة ١١:٣٠ مساء أمر نورى السعيد بتدمير جسر السكة الحديد القائم هنالك وأرسلوا بدويا للتجسس فعاد بعد طول انتظار يقول إنه وصل فوج من الجنود الألمان بقيادة كولونيل تحصن فى متاريس. فكان ذلك القطار المنتظر. وعادت الحملة إلى المزيريب فوصلت الساعة الثانية من صباح ١٨ سبتمبر، ثم اتجهت إلى الشرق مارة بجنوبى درعا وفى الساعة ٤،١٥ خربت مخفرا للترك فى نصيب ففر رجاله إلى درعا، وفى الساعة التاسعة مساء عسكرت على مسافة ٥ كيلو مترات شرقى السكة الحديد. واستأنفت الزحف صباح يوم ١٩ منه، فلحقتْ بها طيارتان تركيتان من درعا، وألقت عليها قنابل فى الساعة ٩،٣٠ صباحا فأجابتها المدفعية بنيرانها. وذهب على الأثر لورانس بسيارة يبحث عن الطيارات الإنجليزية. وفى الساعة ٦ بعد الظهر قصدت أم السراب، وكان فيها مطار فنزلت فيها وضربت خيامها. وفى مساء ٢٠ منه سيرت قوة لتدمير السكة الحديد جنوبى جابر فقامت بمهمتها وعادت. ووصلت إلى أم سراب ظهر ٢٢ منه ثلاث طيارات قدم عليها لورانس فقال إن الهجوم الإنجليزى فاز فوزا مبينا، وأنهم أسروا ٢٢ ألف تركى، وأن خيالة الإنجليز وصلت إلى بيسان.

ودار قتال بين الطيارات فسقطت طيارة تركية، ووصل فى الساعة السادسة مساء قائد الطيران الإنجليزى بطيارة، وألقت أربع طيارات إنجليزية فى الليل القنابل على درعا. وفى الساعة ١١ مساء غادرت الحملة أم السراب لتخريب السكة الحديد فقامت بمهمتها وعادت فى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر ٢٣ منه. وفى هذا اليوم جلا الترك عن معان فاحتلها العرب، وفى صباح ٢٤ منه طارت طيارة انجليزية فوق المعسكر وألقت بلاغا جاء فيه أن الانتصار عظيم، وأن خيالة الإنجليز بلغوا سمخ، وأن الجيشين السابع والثامن التركيين تمزقا، وأن القوات التركية فى السلطنة وعمان تنسحب نحو الشمال سائرة شرقى السكة الحديد. فسار نورى السعيد بقواته لمطاردتها فوصل فى الساعة ٤.٣٠ بعد الظهر إلى أم طيا، وفى صباح ٢٥ منه شوهدت قوتان كبيرتان للترك تسيران على انفراد نحو الشمال على جانبى السكة الحديد بين المفرق ونصيب فالتقط البدو منهما زهاء ٢٠٠ أسير منهم ألمانى واحد ونمسويون وغنموا منهم غنائم، واعتزمت الحملة قطع خط رجعة الجيش التركى الرابع. فسارت فى الساعة ٣ بعد ظهر ٢٥ منه إلى الشمال، وتوقفت فى الساعة السادسة، وفى صباح ٢٦ منه واصلت سيرها فبلغت شمسكين فى الساعة الرابعة من صباح ٢٧ منه وفى الساعة الثامنة بلغت الشيخ سعد، وتبعد ١٨ كيلو مترا من شمالى المزيريب، واقتاد الخيالة الدروز والحوارنة، وقد إزداد عدد المنضمين منهم إلى الحملة فى اليومين الأخيرين زيادة كبيرة وقد اقتيد ٨٠٠ أسير إلى معسكر الحملة فى الشيخ سعد. بينهم ضباط ألمان ونمسويون و ١٦ رشاشا ومدفعا.

وفى الساعة ١٠ صباحا جاء أهل طفس يستجيرون بالحملة، ويسألونها إنقاذهم من ظلم الترك الذين نهبوهم واعتدوا على نسائهم أثناء مرورهم بقريتهم فجردت قوة أرسلتها على الفور لطردهم، ولما وصلت تبينت جموعا كبيرة من قساة الترك قادمة من الجنوب لا تزال محافظة على النظام، ولديها قيادة منظمة، والراجح إنها فلول الفيلق الثامن المرتد من عمان تحاول سلوك طريق درعا - طفس - شيخ سعد - نوى - دمشق، ويبلغ مجموعها ٨ آلاف مقاتل منها ٣ آلايات مشاة يقودها ثلاثة جنرالات، ومعها عدد من الفنيين الألمان والنمسويين فلم تردد مدفعيتها فى صب النيران على الترك القادمين. فذعروا لهذه المفاجأة وارتدوا فسلكوا الطريق الشرقى وهى طريق - درعا - شمسكين - دمشق - وبينما كانت المدفعية تصلى الترك نارا حامية انسل العرب إلى قرية طفس فانتقموا من الترك الذين كانوا فيها ثم عادوا فى الساعة السادسة مساء إلى الشيخ سعد ووصلت فى المساء طيارة

إنجليزية، فقالت أن الخيالة الإنجليز يصلون فى الغد إلى درعا. وغادرت الحملة الشيخ سعد فى الساعة ٤.٣٠ من صباح يوم ٢٨ منه فوصلت فى الساعة العاشرة إلى درعا فألفت فيها آلايين من الخيالة البريطانيين وصلا فى الساعة ٨.٣٠ صباحا ووصلت فى المساء الحملة البريطانية الكبرى من عمان. وفى درعا اتصل الجيش العربى بالجيش البريطانى.

وفى صباح ٢٩ منه غادرت الخيالة البريطانية درعا إلى دمشق. فأدركت الترك فى الصنمين وساقتهم حتى خان دنون على ٢٠ كيلو مترا من جنوبى دمشق وكانت خيالة الجيش العربى بقيادة الشريف ناصر قد سبقتهم فبلغت الكسوة ودخلت دمشق الساعة ٣ من صباح أول أكتوبر. أما الأمير فيصل فبلغ دمشق يوم ٢ منه قادما بالسيارة من الأزرق، وقد استقبل والحلفاء استقبالا حماسيا، وأخذوا من دمشق ١٦ ألف أسير تركى.

شهادة ضابط تركى

وأنشأ مدير شعبة الاستخبارات فى القوة المرتبة وكانت تدافع عن معان رسالة وصف بها المعارك التى دارت حول تلك المدينة بين العرب والترك فنخلص منها ما يلى اتماما للبحث قال:

على أثر إعلان الثورة العربية فى الحجاز أصدر أنور باشا أمره إلى محمد جمال باشا قائد قلاع أزمير بالسفر إلى سورية ليكون تحت أمرة أحمد جمال باشا، ويساعده فى اخمادها. كما أرسلت القيادة العليا إلى الحجاز قوات جديدة من مشاة وخيالة ومدفعية لا يقل عددها عن ٢٠ ألف جندى.

ووصل محمد جمال باشا إلى دمشق، ثم سافر إلى الحجاز فنيطت به مهمة الدفاع عن المنطقة الممتدة من محطة الهدية قرب المدينة المنورة حتى محطة المدورة ويبلغ طولها ٦٥٠ كيلو مترا، وكان مقره فى العلا بادئ بدء.

وعرفنا فى العلا أن الشريف على حيدر باشا فشل فى المهمة التى انتدب لها - رغما عن الهدايا والأموال التى وضعت تحت تصرفه، ولم يوفق إلى استمالة قبيلة واحدة من القبائل العديدة، ولذلك أعيد إلى دمشق بقطار خاص يحرسه عدد كبير من الجند ومعهم مدفعين ورشاشات.

وللمرة الأولى رأينا جندا عربيا منظما بقيادة مولود مخلص يقتحم محطة المعظم الواقعة فى منطقة جمال باشا الصغير بعد مداين صالح، وقد أبدت هذه القوات بسالة خارقة فى مهاجمة الحامية العثمانية التى نصبت رشاشاتها الست على أسطحة منازل المحطة واستبسل الفريقان، وتقدم العرب حتى أبواب هذه، وكانت النيران تحصدهم حصدا ووصلت فى المساء قوة من الخيالة التركية بقيادة ميرزابك الشركسى فطاردتهم وردتهم إلى مسافة بعيدة.

وكانت الحركات الحربية فى ابتداء الأمر قاصرة على مناوشات بسيطة تحدث بيننا وبين العرب على طول السكة، وكنا قبل وصولهم إلى إحدى المحطات لمهاجمتها ـ نتخذ التدابير للدفاع عنها ـ لأننا كنا نعرف كل شيئ من جواسيسنا. وتغيرت الحالة بعد وصول الأمير فيصل إلى والوجه بثلاثة أشهر. فصاروا ينسفون الخطوط الحديدية بالديناميت، بعد أن يقطعوا أسلاك البرق. فعمدت القيادة التركية إلى اتخاذ تدابير ذات شأن. فكنا نرسل دوريات عسكرية لمعاينة السكة قبل مرور القطارات، وكان معظم هذه الدوريات ـ وتخرج عادة بين كل محطتين فتلتقى فى وسط الطريق ـ يسقط أسيرا فى يد العرب. ولما شاهد محمد جمال باشا ذلك طلب قوات كافية وهدد بالاستقالة والانسحاب فأرسلوا له فوجى مشاة من أتراك مقدونية.

واتسع نطاق الثورة حتى شمل ماوراء تبوك، وسقطت قلعة البدايع فضيقت القيادة منطقة محمد جمال باشا، وأضافت قسما كبيرا منها إلى بصرى باشا.

وكان القواد الترك فى تلك الجهات يلحون على القيادة العليا بإرسال نجدات جديدة، خوفا من سريان الثورة إلى جميع البلاد، ولما رأت إلحاحهم سألتهم سرا عما إذا كان فى الامكان إخلاء الحجاز وأرسلت قائد ألمانيا كبيرا إلى محطة الحفير. فاجتمع بفخرى باشا وباحثه فى الجلاء فأجابه هذا أنه لا يخرج من المدينة وفيه عرق ينبض، وأنه يقاوم فكرة الجلاء كل المقاومة.

وكانت المناوشات تزداد يوما بعد يوم على طول السكة، وكان العرب يواصلون نسف القطارات وتعطيل الخطوط، ورغم يقظة الترك فقد نسفوا قطارات ذهب ضحيتها كثيرون.

ولما احتل الجيش العربى العقبة صدر الأمر إلى محمد جمال باشا بأن يقصد إلى معان، وجاءنا الجواسيس ـ ونحن نستعد للسفر ـ قائلين: إن القيادة العربية قررت نسف

القطار الذى سيقلنا مهما كلفهم الأمر، وأنهم يودون القبض على محمد جمال باشا حيا أو ميتا. فاتخذ هذا التدابير اللازمة، وسرنا فى القطار وكأننا فى ساحة حرب فالجنود واقفة على قدم الأهبة برشاشاتها وبنادقها.

وكان جمال باشا الصغير قد سبق محمد جمال باشا إلى معان وبدأ بتنظيم الحركات العسكرية فتسلم هذا القيادة منه، وكان فيها آلاى خيالة عدد جنده ١٢٠٠ وبطارية مدافع سريعة الطلقات، وآلاى آخر وعدة أفواج مشاة ورشاشات، وبطاريتان من المدافع النمسوية.

وكان علينا أن نحمى منطقة تمتد ٧٠ كيلو مترا جنوبا حتى محطة الدورة و ٨٠ كيلو مترا شمالا حتى محطة القطرانة.

ورأينا حول معان جيشا عربيا منظما يملك معدات حربية كاملة، وعنده رشاشات يديرها جنود يمانيون، عدا الرشاشات فى كل فوج، وكتائب فنية للبرق والديناميت والاستحكام وكان عدده يناهز ألفين، وفيه ٢٠٠ ضابط يقودهم الأمير فيصل، ومعه شقيقه الأمير زيد والشريف ناصر وجعفر العسكرى ونورى السعيد وراسم سدرست قائد المدفعية

وكان العربان لا يرحمون الأسير التركى الذى يقبضون عليه، ويضربونه حتى تسيل دماؤه، وإذا وصل إلى مقر القيادة يكون على آخر رمق، ولما شكا هؤلاء ذلك إلى الأمير أعلن بأن كل من يحضر أسيرا تركيا إلى مقر القيادة ينال مكافأة تختلف باختلاف رتبة أسيره وتزداد بنسبة مقام هذا ودرجته. فتبدلت الحالة وصار البدوى يحرص أشد الحرص على أسيره، ويعنى براحته أملا بالمكافأة، وكان أول ما يسأله عن رتبته فإذا عرف أنه ضابط سر وابتهج وتزداد عنايته به بنسبة رتبته العسكرية لأن المكافأة تكون أكبر.

وكانت خطوطنا الحربية فى منطقة معان أوائل سنة ١٩١٨ تشمل الكويرة وأبى اللسل وعين وحيدة وعين بسطة، وتبعد عن مدينة معان ١٥ ـ ٢٠ كيلو مترا. وكانت الطفيلة ووادى موسى بأيدينا. وكانت تدور بيننا وبين الجيش العربى مناوشات بسيطة.

وبينما كان محمد جمال باشا يفتش الخطوط الأمامية فى يوم من أيام نوفمبر سنة ١٩١٧ طلبه جمال باشا الكبير إلى التليفون لمخاطبته مباشرة. ولما أبلغ أنه غائب أرسل إليه برقية إلى الخطوط الأمامية طلب فيها إرسال آلاى الرماحة مع

مدفعيتـه ورشاشـاته وآلاى المشـاة وآلاى النقليـات من معـان والأ ماكن القـريبة منها على جنـاح السـرعة، وأرسـل مثـل هـذا الطلب إلى بصـرى باشـا أيضـا فنفـذ أمـره وأرسـلت القـوات عـلى الفـور لصـد الجيـش البريـطانى وانقـاذ القـدس. فـوصلت الخيـالة أولا ولا يقـل عـددها عن الألفيـن - وهـى بحـالة يرثى لهـا من الضنك والتعب. لأنهـا لم تقف فى الطريق بل سارت مسرعة، واشتركت على الفور فى معارك القدس ففقدت معظم رجالها.

معارك وادى موسى

وعلى أثر سفر القوات التركية إلى القدس أمر محمد جمال باشا بالجلاء عن الخطوط الأمامية لعدم وجود قوات كافية للدفاع، فأخلينا الكويرة وعين بسطة وأنشأنا خط دفاع فى جبل سمنة، وأقمنا المشاة فى مرتفعات معان الغربية وفى محطتها، واتخذنا التدابير للدفاع عن جنوبها وشمالها وأسرعنا بحفر الخنادق.

ونشط الجيش العربى فى خلال هذه الفترة فاحتل وادى موسى، فرأى محمد جمال باشا أن يسترده لأهميته العسكرية فطلب نجدات، فأرسلوا له آلاى الشراكسة بقيادة ميرزابك من تبوك. كما أرسلوا له قوة من المشاة، وقبل وصولها زحفت جنودنا من معان بقيادة القائمقام شولاق كمال بك رئيس أركان حرب محمد جمال باشا ثم لحق بها بنفسه.

وبدأ جندنا العمل باحتلال الجبل المطل على وادى موسى ونصب فيه مدفعيته فباكرت القوات العربية باطلاق النار، وكانت متحصنة فى أماكن جبلية مناوحة لمراكزنا، لتمهد لهجوم المشاة، وتولى ميرزابك قيادة الجناح الأيمن للترك، وكان الأمير زيد يقود العرب واشتركت الطيارات التركية فى هذا الهجوم، وكانت تحوم فوق العرب أثناء القتال وتلقى عليهم قذائفها من ارتفاع ٣٠٠ متر فقط، وحمل الترك على العرب حملة صادقة واستمروا فى ضربهم بالمدافع ساعتين. فقابلوهم بنيران حامية حينما بدأوا يصعدون فى الجبل وردوهم على أعقابهم فاستأنفوا الهجوم عند الظهر ففشلوا أيضا.

وتلقى جمال باشا ورحى القتال تدور فى وادى موسى - برقية من بصرى باشا يطلب فيها نجدات سريعة لسقوط محطتين بأيدى العرب، وكانو يهددون تبوك. كما أبلغ أيضا أن العرب المرابطين حول معان يشددون فى الخناق عليها ويهاجمون جنوبها فشعر بحرج

الموقف. سيما وقد كان بعيدا عن مركز الرئاسة، وقرر أن يستعد لمعركة حاسمة يتولى بنفسه تنظيمها وإدارتها.

وافتتحت المدفعية التركية الحملة الثالثة بنيران حامية كانت تصبها صبا على مراكز العرب حتى ظننا أنها أصبحت رمادا وأطلالا، وأصدر الباشا على الأثر أمره بالهجوم وأراد أن ينزل بنفسه إلى الميدان ويتقدم الصفوف، فمنعه رئيس أركان حربه الذى تولى إدارة الهجوم، وقد اشترك فيه أكثر ضباط المقر العام وجنده. ومشى مشاة الترك إلى الجبل تحت حماية المدفعية وكانت تسرف فى إطلاق القنابل يتقدمهم كمال بك ممتشقا حسامه يضرم فى صدورهم نيران الحماسة فصمد العرب لهم ونازلوهم منازلة الأبطال. وقد أظهر الفريقان فى هذا اليوم من البسالة والبطولة ما يحير العقول. وبدأت المجزرة الكبرى حينما بلغ الترك خنادق العرب فثبتوا فيها رغم قلة عددهم فدار القتال بالسلاح الأبيض وجرح كمال بك هنا للمرة الرابعة عشرة. كما جرح زكائى بك ياور محمد جمال باشا، وسقط على بعد خمسة أمتار من مواقع العرب الذين ارتدوا بعد استبسال عظيم. فدخلنا الوادى بعد ما خسرنا نحو مائتين بين قتيل وجريح، ولم نكد نستقر فيه حتى صدر الأمر إلينا بالانسحاب فأخليناه بعد ساعتين فقط لتحرج الحالة فى جنوبى معان وتبوك فاتجه الجند نحو معان تاركا مقر القائد وبطارية المدافع وراءه. وكانا ينتظران حركته ليسيرا معه. وقد وقع رجال المقر فى حيرة، وكادوا يسقطون فى أسر العرب، وكانوا يحيطون بالمكان من جهاته الثلاث لولا مداهمة الليل. واستولى العرب على مستشفى الجرحى الترك. لأننا عجزنا عن إنقاذه أثناء انسحابنا.

معارك الطفيلة

وماكادت هذه القوات تصل إلى معان حتى أبلغت أن الفرقة ٤٧ التركية ـ وقد نالت فوزا مجيدا فى حروب رومانيا ـ تحركت بأمر القيادة العليا إلى الطفيلة لاستردادها، وكانت تضم ٢٠٠٠ جندى مشاة ونيف، ومعهم عدد قليل من الخيالة و ٤٠ رشاشة وستة مدافع.

واقترح محمد جمال باشا على القيادة العليا أن تنزل هذه الفرقة فى محطة جرف الدراويش، لا فى محطة القطرانة ـ كما تقرر ـ لأن طريق الكرك وعر فأبت الأخذ باقتراحه فسارت إلى القطرانة وقصدت الكرك غداة وصولها، وأخذ قائدها معه خزينة مال الفرقة

الخاصة لفرط غروره وشدة اعتماده على نفسه.

وأعد المعدات فى الغداة للبدء بالقتال وأصدر إلى رجاله التعليمات التى يسيرون عليها وفاته أنه أمام جيش منظم مسلح بالسلاح الكامل، ولديه معدات حربية وافرة، ولما خاطبه بعض الضباط ونبهوه إلى هذا الخطأ وألحوا عليه باتخاذ أسباب الحيطة والحذر وإرسال قوة للاستطلاع أجابهم: أن أمر هؤلاء سهل جدا بالنسبة لحروب رومانيا الهائلة.

وكان يعتقد أنه أمام شراذم من البدو لا حول لها ولا طول، لا تلبث أن تفر من أمامه حينما تسمع أصوات المدافع.

واصلت الفرقة سيرها حتى دخلت الوادى المطل على الطفيلة، ويبعد عنها نحو ساعة تقريبا . وعلم العرب بسيرها من قبل فأعدوا المعدات للقائها ورتبوا قواتهم على المنوال الآتى:

١ ـ أرسلوا قوة رابطت فى أكمة تطل على الوادى من اليمين والشمال.

٢ ـ وأرسلوا قوة أخرى رابطت فى مؤخرة الوادى قرب الطفيلة لصدها ومنعها من التقدم.

٣ ـ أعدوا قوة ثالثة فى جهة قريبة من الوادى لقطع خط رجعتها ومطاردتها عند الانهزام.

٤ ـ نصبوا عددا كبيرا من الرشاشات فى أنحاء الوادى.

وما كادت الفرقة تتوسط الوادى حتى ارتفعت الأصوات من أنحائه الثلاثة وانهال عليها رصاص الرشاشات والبنادق كوابل من المطر فحاولت الثبات من دون جدوى، لأنها ما كانت تترقب مثل هذه المباغتة، فأمر قائدها الجند بالتراجع فتراجعت وهى تدافع عن نفسها .

وقتل فى هذه المعركة القائد وأركان حربه ومعظم الضباط والجند وعاء الأحياء من رجالها وهم قلائل إلى الكرك ينادون ويلا وثبورا .

وعلى أثر هذه الكارثة جاء المرشال فون فالكنهاين إلى معان، وتفقد المكان وأمرت القيادة العليا محمد جمال باشا بأن ينتقل إلى محطة جرف الدراويش ليقود القوات التركية التى صدر الأمر بحشدها سرا لاسترداد الطفيلة وسموها «قوى التأديب» وكانت بقيادة ضابط ألمانى اسمه نيونيدر ماير، وتتالف من ثلاثة آلايات مشاة مع مدفعية تركية قوية

ورشاشات عديدة، ويلوك خيالة ألمانى مع رشاشاته، وكتائب فنية من تليفون وبرق لاسلكى واستحكام.

وجاء محمد جمال باشا جرف الدراويش مع أركان حربه وضباطه ليتولى العمل ويقود القوى فحدث تشاد بينه وبين ضباط الألمان الذين أرادوا الاحتفاظ بالسلطة العليا. فأصر هذا على أن تكون الحملة بقيادته بدون قيد ولا شرط. فوافق الألمان بعد تردد مكرهين وقد استغل هذا سقوط ٢٥ فارسا خيالا ألمانيا فى كمين نصبه لهم العرب حول المحطة فأبادوهم عن آخرهم وقال لهم إنى أعرف منكم بالبلاد وأخبر. فانصاعوا إليه. وقد نقم الألمان على العرب عملهم فكانوا يطلقون النيران على كل عربى يصادفونه انتقاما لإخوانهم من دون أن يفرقوا بين الموالى والمنشق.

وسارت هذه القوات إلى الطفيلة فدخلتها بعد مناوشة طفيفة دارت بينها وبين قوة الاستطلاع العربية. فقد انسحب الجند العربى قبل وصولنا وأبوا الاشتباك معنا وعاد جمال باشا إلى معان مع رجاله، وعادت القوات العسكرية إلى الكرك بعد ماأقامت حامية فى الطفيلة.

معارك معان

علمنا فى أوائل شهر فبراير من أقوال عيوننا وارصادنا أن الجيش العربى يعد معداته للهجوم على معان، وأنه قرر نسف الخطوط الحديدية شمالا وجنوبا وتدمير الجسور بالديناميت. ليحول دون إرسال ميرة وعتاد إلى القوات التركية فى الجنوب ليحملها على الاستسلام . فأرسل محمد جمال باشا فى طلب إمدادات ونجدات، لأنه كان يعتقد عجزه عن المقاومة - ورأى وكان اليأس قد سرى إلى نفسه - أن يذهب إلى دمشق ليتصل برجال القيادة ويفاوضهم ويطلعهم على الحالة، ويسعى لاستقدام قوات جديدة والظاهر أن سعيه جاء بعد أوانه فإنه لم يكد يغادر معان حتى أخذ العرب بمضايقتها.

ودارت معارك بيننا وبينهم حول محطات السكة خلال شهرى مارس وإبريل كان النصر فيه سجالا فيوم لنا ويوم لهم، وكان أعظمها شأنا معركة المدورة. فقد التحم فيها الفريقان بالسلاح الأبيض، وكان العرب يظهرون بسالة خارقة.

لا أذكر جيدا تاريخ اليوم الذى ابتدأ فيه الهجوم العربى على معان، وإنما أظنه وقع بين

٥ ـ ٦ إبريل فقد أخذت مدفعيتهم تطلق نيرانها بشدة على جبل سمنة وهو خطنا الأمامى. وبينما كان جيشهم يدخله فى المساء سمعنا أصوات الديناميت تدوى كالرعد القاصف من الشمال والجنوب ورأينا القضبان الحديدية تتطاير فأدركنا خطورة الموقف وعرفنا أننا أصبحنا فى عزلة عن العالم.

واستأنف الجيش العربى القتال فى الغداة، فأمطر خطوطنا الأمامية نيرانا حامية، ثم بدأ هجوم المشاة تشد أزرهم القبائل، فاستولوا بعد مقاومة طفيفة على المرتفعات القائمة بين معان وسمنة والمرتفعات الواقعة جنوبى المحطة (مركز القيادة التركية) وكان نصرهم عظيما فى ذاك اليوم فقد صارت معان ومحطتها تحت رحمة مدفعيتهم التى نصبوها فى جبل سمنة، وكان رصاصهم أيضا يصلنا.

وتراجعنا على أثر ذلك إلى الخنادق المجاورة وحشدنا قوانا فى خط الدفاع الأخير من المحطة، وقد أقمنا فى الجبل الملاصق لها، وفى الأكمة الواقعة على ١٠٠ متر من جنوبها. وأقمنا فى الخنادق الشرقية ـ والأرض هنالك منبسطة ـ نحو ٢٠٠ جندى للدفاع إذا هوجمنا من هذه الناحية مع مدفع واحد.

وكانت قواتنا فى معان منقسمة إلى قسمين: قسم البلد، وقسم المحطة، وتتألف القوة الأولى من فوج مشاة لديه ٤ رشاشات ومدفعان نمساويان سريعا الطلق يشد أزرهم المتطوعة من السكان، وقد انضموا مع نسائهم إلى الجيش وعددهم نحو ٣٠٠.

وتتألف قوة المحطة، وتبعد نحو نصف ساعة عن البلدة ـ من فوج مشاة و ٨ رشاشات مع مدفعين نمسويين ومدفعى صحراء وآخر من الطراز القديم وقد نصبوها فى الجبل المطل على المحطة وفى الهضاب الممتدة على طريق معان وشرقيها (المحطة) وجنوبها وشمالها ويقود هذه القوة القائمقام على وهبى بك.

وأصبحنا فى اليوم الثالث ونحن أمام العرب وجها إلى وجه يروننا ونراهم على مسافة ٢٠٠ ـ ٣٠٠ متر، وكانت قنابلهم تتساقط علينا كالمطر، ونحن فى الخنادق والغرف فلا نستطيع أن نرفع رؤوسنا إلى أعلى. واستنجد قائدنا بدمشق وبالمدينة أيضا طالبا إرسال إمدادات سريعة، فأجابه فخرى باشا من المدينة بأن إمداده له هو الدعاء إلى الله بنصره وقالت دمشق يجب أن لا تستسلموا إلى العدو إلا جثثا هامدة.

وبدأ العرب صباح اليوم الرابع بهجوم عام فى جميع مناطق الميدان، وكانت مشاتهم

تتقدم ببطء وقد بلغ بعضها خنادق الترك، ولكنها ماكانت تثبت فى الميدان لعجز قوات البدو عن مجاراة النظاميين. فتتراجع أمام نيران الترك، ولا سيما أمام رشاشاتهم. فقد كانت تصليها حمما رغم تساقط القنابل العربية عليها.

واستولى العرب بعد نضال عنيف على آخر هضبة بجوار المحطة، وأصبحوا يسيطرون على الساحة، وكانت حالتنا أليمة جدا فى اليومين الخامس والسادس. فقد قلت ميرتنا، وكنا نوزع قطعة من الخبز المجفف مع قليل من الزيتون على الجندى، كما أصدر أمر إلى المدفعيين والمشاة بالاقتصاد فى انفاق القنابل والرصاص لنفاد المدخر لدينا، وقد كنا فى حالة يرثى إليها لفقد القوة الأدبية وصرنا عاجزين عن القيام بأقل حركة أمام الجيش العربى الزاحف، وأنهكنا التعب داخل الخنادق، ولم تكن مبينة على الطراز الحديث.

واشتدت مضايقة العرب لنا حتى أصبحوا على بضع خطوات منا، وكانوا يصلوننا نيرنا حامية من مدافعهم ورشاشاتهم، وكان رصاصهم يتطاير من الشبابيك والنوافذ فيدخل الغرف ـ كما تسلل بعضهم إلى داخل المحطة. واستدعينا القوة التى كانت فى الجبل حينما رأينا اشتداد الحال. فجاءت وطردت العربان من حول المحطة، ولولا وصولها لاستولوا عليها ونهبوها ولزادوا قوانا الأدبية وهنا على وهنها.

ولتعزيز هذه القوى وتنشيطها أذعنا بلاغا قلنا فيه أن الفيلق الثامن الذى يتقدم من القطرانة لإنجاد معان صار قريبا، وأنه سيدخلها ليلا، وأن عشائر العرب فى الكرك وجهات عمان قادمة لمساعدتنا، فنشط هذا البلاغ جندنا فى الخنادق وأنعشهم، وظهرت عليه علائم القوة، وأخذ رجاله يهنئ بعضهم بعضا.

وانقضى الليل ولم يصل الفيلق ولا العربان، فأذعنا بلاغا آخر قلنا فيه إن النجدات تأخرت لأسباب قاهرة، وأنها ستصل فى هذا المساء.

وفى مساء اليوم السابع أخذنا إشارة لاسلكية من القيادة بأنها أرسلت فوجا مع عتاد وميرة ومدفعى صحراء لإنجادنا، وأن قوات الفيلق الثانى بقيادة أمير آلاى دلى شوكت أرسلت إلى محطة القطرانة لتعزيز قوات المحطات بين القطرانة ومعان ولصيانة طريق المواصلات، ولمنازلة الجيش العربى وقد بدأت شراذمه تهاجم المحطات بعد احتلال الطفيلة.

فى ذلك اليوم قبل وصول برقية القيادة المنشورة آنفا أرسل على وهبى بك برقية إلى الناصرة (مقر القيادة العليا للجيش التركى فى بلاد العرب يومئذ) والى دمشق يقول أن

الذخيرة نفدت من مستودعات الجيش. حتى لم يبق للجندى سوى خمس رصاصات وللمدفع سوى عشرين قنبلة وودع القيادة بجمل مؤثرة وقال أن هذه آخر برقية يرسلها وفعلا أمر بانزال عامود اللاسلكى فأنزل. كما أمر باعداد المعدات لنسف المحطة فى الصباح فلا يتسلمها العدو حين دخوله. وأبلغ الجند بأن يستعد للمقاومة بالسلاح الأبيض وأمر قيم المال بدفن مال القيادة ـ وكان لديها كمية من الذهب ـ فى حفرة يؤشر عليها إشارة سرية بعد دفنها، كما قرر حرق علم القيادة فلا يغنمه العدو.

وأشرقت شمس اليوم الثامن والعرب يمطروننا نارا حامية لم نر أشد منها فى الأيام الأولى. فقلنا إنها مقدمة هجوم عام على معان والمحطة، وكنا بانتظاره وقد قررنا المقاومة بالسلاح الأبيض. مع أننا لم نرقد فى ليلتنا تلك أكثر من ساعتين أو ثلاثة خوف الهجوم. وكنا ننتظر الدقيقة الرهيبة، دقيقة المعركة الفاصلة حيث يشتبك الجيشان بالسلاح الأبيض ولكن نيران العرب قد خمدت فجأة.

ودق جرس التليفون وأنا أنزل إلى مقر القيادة العامة تحت الأرض لأتلقى أخبار معان، فبشرنى بأن العدو انسحب من الخطوط الأمامية، وأنه يواصل تراجعه. فأبلغت هذه البشرى إلى على وهبى بك فدهش وكاد لا يصدقها. ثم صعد إلى ظهر الأرض ووجه منظاره نحو الجيش العربى فوجده يغادر الهضاب والأكمات المحيطة بالمحطة. فأدركنا حينئذ أنه لم يشدد نيرانه إلا سترا لانسحابه، وما هى إلا دقائق معدودات حتى انتشر الخبر بين الجند فأخذوا يتراكضون لاحتلال الأماكن التى جلا عنها العرب، كما بدأت مدفعيتنا باطلاق النار عليهم. فأصدر القائد أمرا إلى الجند بالرجوع إلى أماكنهم خوفا من أن تكون هنالك مباغتة، وعند الظهر رأينا مدفعية العرب تطلق مدافعها من جبل سمنة.

وقد اختلفت الآراء فى أسباب هذا الانسحاب وفى تعليله. خصوصا، وقد كانت معان على وشك التسليم بعد مانفدت ذخيرتها وميرتها، ولو هجم علينا العرب يوم انسحابهم لدخلوا معان بلا عناء، ولعل أقرب تعليل إلى الحقيقة فى نظرنا هو التعليل الآتى:

لما رأى القائد العام للجيش العربى أن الهجوم على معان طال أسبوعا ولم يقترن بنتيجة ـ مع ماضحى جيشه من ضحايا ـ أصدر أمرا بالانسحاب خوفا عل القوة الأدبية فلا تتزلزل ولئلا يؤثر ذلك فى نفوس أبناء العشائر، ومازادت خسارة الترك عن ٢٠٠ بين قتيل وجريح.

وشرعنا بعد ذلك فى العمل فأصلحنا السكة الحديد، وأنشأنا الجسر الذى نسفوه بين معان والجردونة، وجاءتنا النجدات والميرة والذخيرة وسيرنا قطارا إلى دمشق أرسلنا فيه الجرحى والمرضى. كما عززنا الدفاع عن معان وبثثنا الألغام حولها.

ولما شعر العرب بوصول النجدة ورجوع الترك إلى نشاطهم بدأوا بمهاجمة الجردونة ونسف قضبان السكة الحديدية بين محطات الجردونة وعنيزة والحسا وجرف الدراويش.

ولابد لنا من الاعتراف بأن بقاء الجيش العربى فى جبل السمنة المطل على معان أزعجنا. فقد كان يصب نيران مدفعيته بدون انقطاع فى الصباح والمساء على مراكزنا ولذلك قررت القيادة استرداد هذا الجبل. فقمنا بحركة سرية. وما كدنا نستولى عليه حتى فاجأتنا القوات العربية فانسحبنا منه.

وقد انحصرت الأعمال الحربية فى خلال شهور إبريل ومايو ويونيو بمناوشات بسيطة اتجهت عناية العرب فى إبانها نحو الشمال فاشتبكوا مع الفيلق الثانى - بمعارك هائلة فى جهات الحسا. امتدت أياما استبسل فيها الفريقان، واحتفظ فيها الترك بمواقعهم.

وانتقل مقر الفيلق الثانى من القطرانة إلى عمان بعد استقرار الحالة فى تلك المناطق، وجه وجهه نحو جبل الدروز وحوران لمقاومة الحركة العربية وقد بلغ دعاتها تلك الأنحاء.

الجلاء عن بلاد العرب

وتكلم بعد ذلك عن جلاء الترك عن بلاد العرب فوصفه بقوله:

لما قررت القيادة العامة للجيش الإنجليزى القيام بهجومها الكبير على الجيش التركى، كان الجيش العربى قد أخذ أهبته فجاءت سرية منه ليلة ٢٤ سبتمبر فرابطت بين محطتى نصيب والمفرق وعطلت السكة. فعاد القطار الذى كان يسير من عمان إلى درعا أدراجه لانقطاع الطريق، ولما ذهب العمال لاصلاحه وجدوا الجند العربى لهم بالمرصاد فأصلاهم نارا حامية، فرجعوا وأبلغوا القيادة ما وقع.

وكنت أركب القطار الأول الذى غادر عمان ذلك اليوم إلى المفرق، فأخبرونا بما جرى، ولما تقدمنا قليلا وجدنا قوات العرب معسكرة هنالك فعدنا إلى محطة عمان وأخبرنا قائد

الفيلق فأمرنا بالسفر، ولما وصلنا إلى محطة الزرقا وجدناها تعج بطلائع الجيوش التركية المتراجعة من أمام الإنجليز.

ومما يؤسف له أشد الأسف ماحدث فى الزرقا بين الجيوش التركية نفسها فقد كان هنالك معسكر الجيش الرابع، ومعسكر الفيلق الثانى والثامن، وكان كل منهما ينافس زميله ليفوز بالسفر قبله، ولينال مكانا فى القطار ينجو به. وكان من أشد ما يبعث الأسى فى نفس الضابط التركى ما كان يجيب به الجندى الواقف أمام أحد العربات، حينما يحاول الصعود إليها ـ «ممنوع ياافندم» فقد جرد كل جيش من هذه الجيوش حرسا مسلحا لحماية العربات، ولمنع الضباط الآخرين من الوصول إليها.

وكان أول ما فعله الألمان أنهم أحرقوا كل ماكان عندهم من لوازم ومعدات لأن أرواحهم أثمن شيء فى نظرهم، ولم يزعجوا أنفسهم بحمل شيء، فكنت ترى الخيام الكبيرة والكراسى والمقاعد والمناضد مبعثرة هنا وهنالك فى محطتى الزرقاء وعمان وكان الترك يلتقطونها فى أول الأمر كأنها غنيمة باردة ولا يعرفون أنها ثقيلة، وأنهم لن يستطيعوا حملها.

وسار القطار بنا من محطة الزرقا ليلا إلى المفرق فبلغناها عند نصف الليل، وفى الصباح أمرونا بمغادرته ليرجع إلى معان فينقل الجرحى والمرضى والمدفعيات المرتدة من السلط.

وقبل شروق الشمس هاجم المحطة سرب من الطيارات الإنجليزية قادما من جهة الغرب فانتشر الضباط والجند على مسافة ٥٠٠ متر، وما كان فى استطاعتهم تجاوز هذه الدائرة لأن العرب كانوا لهم بالمرصاد.

ودنت الطيارات القادمة ولا يقل عددها عن الثلاثين من الأرض حتى أصبحت على ارتفاع ٤٠٠ متر، وأخذت باطلاق القنابل، فكان الجندى يبحث عن ملجأ يلجأ إليه فى تلك البطاح عبثا، وبعد أن أفرغت قنابلها بدأت باطلاق الرشاشات ففتكت بنا فتكا ذريعا ولا تسل عن عدد القتلى، فقد امتلأت بهم القفار وكان أنين الجرحى يصم الآذان.

ولم يطل غياب الطيارات أكثر من ساعتين فقد عادت وهبطت حتى أصبحت على ارتفاع لا يزيد عن ٣٠٠ مترا فأطلقت النار مدة ساعة ونصف ثم انصرفت بعد أن فتكت بالجند المذعور أشد فتك.

وقصد جمال باشا الصغير في صباح ذلك اليوم مع أركان حربه درعا لتنظيم النقل، وظل في محطة المفرق دلى شوكت بك قائد الفيلق الثاني لقيادة الجيش. وكان لسوء الحظ مريضا في ذاك اليوم. فكان ينظر من صالون القطار إلى تلك الجنود المنتشرين في تلك الصحراء وقنابل الإنجليز تفتك بهم وهو عاجز عن العمل. وكان الفيلق الثامن حتى تلك الساعة في عمان بقيادة ياسين الهاشمي، وقد سارت بعض خيالته وفرقه إلى محطة المفرق وكانت القطارات تروح وتغدو بين هذه وعمان فقط. لأن الجيش العربي سبق فقطع الطريق بين درعا والمفرق وعطل السكة الحديدية فاضطرت الجنود التركية المتراجعة إلى الوقوف في الأخيرة، ولولا ذلك لواصلت سيرها إلى دمشق ناجية. وقد أدى ذلك إلى إلقاد الذعر والاضطراب في صفوف الترك، وإلى تلاشي القوى الأدبية، فكان الضباط من الملازم الثاني حتى القائمقام لا يفكرون إلا في النجاة، وزاد الطين بلة ماشاع حينئذ وهو أن جبل الدروز قد ثار وانضم إلى العرب، وأن الثوار مرابطون في الجهة الغربية للانقضاض على الجيش التركي، وأن الإنجليز احتلوا الأماكن التي جلا عنها الترك في الجنوب، وأنهم يزحفون من الوراء. أضف إلى هذا أن طيارات الإنجليز ماكانت تتركنا دقيقة واحدة. فقد هاجمتنا في المفرق وفتكت بنا فتكا ذريعا. وكان الجنود و الضباط الترك يشتمون أنور وطلعت وجمال شتما شنيعا، لأنهم أوصلوا البلاد إلى هذه الحالة، ولو كانت أمامنا قوات عربية منظمة لاستسلم الكل إليها في تلك الساعة، وقد بلغ منا اليأس أشده.

وللمرة الرابعة عاودتنا الطيارات الإنجليزية في اليوم نفسه، وفي محطة المفرق نفسها وعددها يقارب الأربعين فقذفت قنابلها علينا بنشاط لم نعهده في المرات الثلاث الأولى، غير تاركة شيئا وغير راحمة الجرحى، وقد كانوا في عربات وضعنا عليها شارة الهلال الأحمر وسقطت إحدى قنابلها في مستودع الذخيرة والعتاد التركي فانفجر فسرت النار في المعسكر فكانت مجزرة من أفظع المجازر حتى بلغ اللهيب عربات المرضى والجرحى فكانوا يطلبون المعونة والنجدة، ولا من مغيث وقد دمرت المحطة وأصبحت شعلة نار.

ولما أمسى المساء تلقينا أمرا بأن نسير على أقدامنا فغادرنا محطة المفرق تاركين كل شيئ، وكانت النار لا تزال تضطرم، وكنا نذرف الدموع على حالتنا الأليمة، وعلى إخواننا وماكدنا نبتعد قليلا حتى توقف الكشافة لأنهم أبصروا شرذمة من البدو واقفة في الجهة الغربية، وقد ظل الجيش كله واقفا نحو ساعة حتى استطاع أحد القواد تدبير قوة من الجيش لا يزيد عددها عن المائتين لطرد الشرذمة، وقد ظهر أنها وقفت للفرجة لا للقتال،

وكان الجنود يفرون يمينا وشمالا بعد ما يرمون أسلحتهم فى داخل العربات القطار ناجين بأنفسهم بعد ما خمدت الروح الأدبية فى صدروهم.

وسرى الجند التركى الليل بطوله، وكنت فى المقدمة مع بعض الضباط فبلغنا عند شروق الشمس محطة «قم عرز» الواقعة على خمسة كيلو مترات من درعا إلى الجنوب.

وكانت مغلقة، وكانت أمنيتنا الكبرى أن نجرع جرعة من الماء ولم نذقه من ٢٠ ساعة وكان الجيش قد أشرف على الهلاك من العطش فهتفنا بقائد محطة درعا وطلبنا منه أن يسير قطارا مملوءا ماء فأرسله، وما كدنا نبتعد قليلا عن هذه المحطة حتى جاءت الطيارات الانجليزية عند الصباح لتعيد عملها أمس.

وبعد ساعتين من دخولنا محطة درعا بلغها الجيش المنسحب، وكانت ملأى بالجيوش المنهزمة من فلسطين وقضينا يوم ٢٦ سبتمبر فيها، فزارتنا الطيارات الإنجليزية مرتين وكان مفعولها أقل.

هذا ماجرى بالقوات التى كانت فى المحطات، والتى عادت من ميدان القتال فى فلسطين أما قوات معان فقد تلقت أمرا بالانسحاب بسرعة إلى عمان - درعا فتراجعت يوم ٢٣ سبتمبر على طريق السكة الحديد منسحبة تحت حماية المدفعية، وكانت تمنع الجيش العربى عن اللحاق بها، وقد انضمت إليها فى تراجعها القوات التى كانت مبعثرة هنا وهنالك. ووصلت إلى محطة الجيزة (قرب عمان) بعد سفر الفيلق الثامن بيوم واحد، وهنالك باغتها الإنجليز، وأحاطوا بها فاستسلمت إليهم فأرسلوها إلى القدس أسيرة.

قال المؤلف وأسعدنى الحظ وقد كنت مريضا من التعب والماء القذر الذى شربته فركبت فى القطار الخاص الذى أعد فى درعا لقواد الجيش وكبار الضباط الألمان، وعندما بلغنا محطة الكسوة نزل جمال باشا الصغير منه، وأخذ يعمل لتأليف فوج من الجند يرابط للدفاع، فلم يوفق إلا بعد عناء عظيم.

وكان من جراء الاستقلال العربى فى دمشق وانقطاع المواصلات بين دمشق ورياق أن بق عدد عظيم من الضباط والجنود الترك فى تلك المدينة لا يقل عددهم عن ألف وخمسمائة تسلمتهم الحكومة العربية. كما تسلمت الأسرى الآخرين من الترك ولا يقل عددهم عن العشرين ألفا.

فى ميدان الحجاز

هذا بعض ماجرى فى الشمال حتى دخول دمشق. أما ما جرى فى ميدان الحجاز بعد سفر الجيش الشمالى، فخلاصته أن جيش الجنوب بقيادة الأمير على، وجيش الشرق بقيادة الأمير عبد الله أقاما على حصار المدينة وكان الأمر لا يخلو من مناوشات تدور بين الفريقين، وكان الجنود الترك والضباط يفرون بلا انقطاع لاجئين إلى المعسكر العربى، ودام الحال على هذا المنوال حتى عقدت الهدنة بين الحلفاء والترك يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨، وقد جاء فى المادة ١٦ منها ما يقضى على الترك باسترداد قواهم من جميع البلاد العربية.

ففى أوائل شهر نوفمبر أبلغ الأمير على فخرى باشا نص معاهدة الهدنة، ودعاه إلى الاستسلام فأبى - كما أبى الإصغاء إلى الأوامر التى صدرت إليه من الآستانة باللاسلكى وهى تدعوه إلى التسليم، بحجة أنها خدعة حربية - وفى يوم ٢٨ نوفمبر وصل الأمير على إلى بير درويش ومعه الكابتن غارلند ضابط الارتباط الإنجليزى، ودعوا فخرى باشا إلى الاستسلام فأبى أيضا، فكررا الطلب للمرة الثالثة فرفض.

ولما رأى الحلفاء إصراره خاطب المندوب السامى البريطانى الحكومة العثمانية فى الأمر فانتدبت وزارة الحربية ضابطا حمل شروط الهدنة، وأمرا رسميا من وزير الحربية إلى فخرى باشا بالتسليم فورا، ولما وصل هذا الضابط إلى معسكر المدينة وسلم الكتب إليه أبى أيضا بحجة أن للمدينة مقاما قدسيا عند المسلمين، وأنه لن يستسلم وهو حى فعاد الضابط كما جاء وعاد الجيش العربى إلى التشديد والتضييق.

وعلم ضباط الحامية بما وقع، وكانوا فى أشد حالات الضيق، فاتفقوا فيما بينهم برئاسة كورامين بك رئيس أركان حرب الحملة على خلع فخرى باشا، وتسليم المدينة إلى العرب وكتبوا نشرات أذاعوها بين رجال الجيش. ولما اتصل ذلك بفخرى باشا وعرف أن رئيس أركان حربه يتآمر عليه كاد يفتك به، ففر هذا مع فوجين من آلالاى ٥٥ واستسلم فأحرج ذلك مركز هذا، فأمر يوم ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٨ بالجلاء عن منطقة العلا وضم قواتها إلى قواته فى المدينة لتعزيز مركزه فزاد ذلك فى نقمة الضباط والجند وفرت سريتان من سرايا الفوج الثانى للآلاى ٤١ المرابط فى العوالى مع رشاشتين وجانب من المدفعية وانضمت إلى العرب فعجل فخرى باشا بالجلاء عن منطقة العوالى يوم ٢٥ منه كما جلا عن بير الماشى.

وتتابع بعد ذلك فرار وحدات الجيش التركى واستسلامها إلى العرب حتى أسقط فى يد فخرى باشا، وعرف أنه لم يبق عنده من القوى مايكفيه للدفاع عن خط واسع فارتد إلى خط الدفاع الثانى، ولما توالى الفرار، وأدرك أنه لا فائدة من المقاومة لسريان روح التمرد والعصيان بين أفراد الجيش، وتضعضع القوى الأدبية أرسل وفدا يوم ٤ يناير سنة ١٩١٩ إلى بير درويش لمقابلة الكابتن غارلند ومفاوضته والاتفاق معه على شروط التسليم فتم ذلك يوم ٧ منه، ووقع على الاتفاق بين الأمير على والكابتن غارلند ممثل الحلفاء من جهة وفخرى باشا من جهة أخرى، وفى يوم ١٠ منه وصل هذا إلى مقر الأمير على فى بير درويش، وسلم نفسه. وفى يوم ١٦ منه وصلت أول قافلة من الجيش التركى المستسلم إلى ينبع فركبت البحر إلى مصر، وتتابع سفر الأسرى حتى يوم ١٣ فبراير فلم يبق منهم أحد.

ومما يستحق الذكر أن حكومة الآستانة أرسلت وفدا إلى المدينة قوامه حيدر منلا بك وزير الحقانية، والأميرالاى أحمد بك يحملان إرادة سنية من السلطان إلى فخرى باشا بوجوب التسليم عملا بالاتفاقيات المعقودة، فبلغا الحجاز يوم ١٤ يناير أى بعد استسلامه بأربعة أيام.

وهذا بيان القوات التركية التى استسلمت فى المدينة:

الفرقة ٥٨ المشاة وتتألف من أربع آلايات ٤١و ٥٥ و ١٦٢و ١٧٨ مع رشاشاتها وفوج الدرك السيار، والسرية السلطانية وكتيبة الهجوم، وكتيبتا الهجانة والبغالة مع رشاشاتها، ومجموع ذلك ١٠١٤٠ جنديا و ٦٩٠ ضابطا لديهم ١٤٩٧٦ بندقية و ١١٩٨ دابة و ٨ مدافع صحراء، ومثلها جبلية سريعة الطلق و ٤ مدافع أبوس و ٦ جبلية أخرى سريعة الطلق و ٢٢ مدفع ما نتللى و٥ مدافع جبلية عادية و٧ مدافع ذات الفتيل و ٣ مدافع صغيرة.

ولا يشمل هذا الاحصاء القوات التركية الأخرى التى استسلمت للعرب بعد ذلك وهى قوات تبوك وبقية الحاميات الأخرى على طول السكة الحديد حتى معان. ولا يقل عدد أسرى الترك الذين استسلموا للعرب عن ٤٠ ألفا.

وهذا نص الاتفاق الخاص بتسليم المدينة:

«توفيقا للمادة ١٦ من معاهدة الهدنة المعقودة بين دول الحلفاء وتركيا تقرر بين صاحب السمو المعظم الأمير على باسم الحكومة الهاشمية، والكابتن غارلند البريطانى بالنيابة عن دول الحلفاء، وبين الهيئة الموقعة فى ذيله المرسلة من قبل قائد القوات التركية فى المدينة

إخلاء المدينة وتسفير القوات التركية إلى بلادها بموجب الشروط الآتية:

١ ـ نظرا لضعف الأمراء والضباط والجنود العثمانية الذين سيخلون المدينة يتوسط ويسعى صاحب السمو المعظم الأمير على باسم الحكومة الهاشمية لدى دول الحلفاء المعظمة لارسال الجنود التركية إلى بلادها.

٢ ـ بعد مرور ثمانية وأربعين ساعة من إمضاء هذه الشروط يلزم على القائد فخر الدين باشا أن يترك المدينة المنورة، وفى معيته كل من ينتخبه من الأمراء ويأتى إلى مقر سمو الأمير على فى (بئر درويش) ويحل فى منزله ضيفا معززا ومكرما.

٣ ـ إن القطاعات العسكرية الموجودة فى داخل المدينة المنورة وجوارها تجتمع فى داخل المدينة المنورة والقطاعات الموجودة على الخط الحديدى تجتمع أيضا فى مركز (البويرة) والأسلحة الخفيفة والثقيلة مع جميع ذخائرها تهيأ فى المواقع المذكورة بموجب كشف، وتسلم بموجب مضبطة قبل سفر القطاعات التركية إلى هيئة المأمورين المندوبة من قبل صاحب السمو المعظم الأمير على. وبعد نقل القطاعات المجتمعة فى مركز (البسويرة) بالقطار الحديدى إلى (بواط) يجرى سوقهم إلى (ينبع النخل) بواسطة الجمال وإذا صعب سوق القطاعات المذكورة من (بواط) يجتمعون بسلاحهم وذخائرهم فى المدينة المنورة ويجرى بعده تسليم السلاح والذخيرة وعندها يهيأون للرحيل، وأن الأسلحة الثقيلة الخاصة بقطاعات (جليجلة) و (علاوة) تنقل إلى المدينة المنورة بواسطة الحيوانات التى ترسل من جيش سمو الأمير على وأن الأسلحة الخفيفة وذخائرها سيجرى تسليمها فى (جليجلة) وبعده يجرى نقل القطاعات عند وصول الجمال إليها فى المحل المذكور.

٤ ـ توفيقا للمادة الثالثة عشرة من معاهدة الهدنة تسلم القطاعات التركية الأسلحة الخفيفة والثقيلة والذخائر وجميع المهمات الحربية والتلغراف واللاسلكى وجميع الآلات والأدوات المماثلة، ويجب أيضا تسليم الخط الحديدى مع قطاراته ومحطاته وجميع لوازمه بصورة سليمة، وبدون أن يطرأ عليها أقل تخريب. إن الألغام والمواد المتفجرة الموضوعة فى المحلات المختلفة تجمع من قبل واضعيها بدون أن يحصل قضاء ما.

٥ ـ الأسلحة والأشياء المدرجة فى متن المادة الرابعة تحضر من طرف المأمورين المخصصين لهذه الغاية، وتسلم بموجب كشف، وبمقابل مضبطة من طرف الهيئة

المعينة من قبل صاحب السمو المعظم الأمير علي.

٦ ـ جميع الحيوانات الأميرية تسلم من قبل القطاعات إلى الهيئة المنتخبة من قبل سمو الأمير علي بموجب كشف منظم بمعرفة البياطرة الموجودين في المدينة.

٧ ـ إن الأشياء الذاتية العائدة لشخص الأمراء والضباط، كمثل النقود والنواظير والأشياء الذاتية المماثلة لها، والأشياء الذاتية العائدة للجنود العثمانية كمثل النقود وغيرها. إن كل هذه الأشياء المذكورة أعلاه لا تمس بضرر ما، ويسمح لحامليها بأخذها.

٨ ـ يتفضل سمو الأمير بتخصيص جملين لكل أمير من الأمراء، وجملا واحدا لكل من الضباط والمأمورين وجملا واحدا لكل فرد من الجنود ويعين لكل قافلة ألفا جمل أو ما يقارب هذا المقدار.

٩ ـ يسعى بكل همة لترحيل الأمراء والضباط والجنود والمرضى في قوافل على أن تكون الفاصلة بين القافلة الأولى والثانية من خمسة إلى ستة أيام وعلى كل قافلة أن تستصحب معها مئونة عشرة أيام من الأرزاق، وعدا ذلك يعطى إلى المرضى علاجاتهم وكل ما يلزم من المواد الطبية، وأن بطانيات الجنود وألبستها وجميع أدوات مطبخها وما يلزم لوضع مائها وكل ما يلزمها في طريقها يتدارك ويعطى من قبل القيادة التركية في المدينة، وكلما يقتضي لأجل نقل الأشياء المذكورة أعلاه يتفضل بإعطائه سمو الأمير، ويخصص من جمال القافلة في المائة عشرين للمرضى ويخصص أيضا جملا واحدا لأجل الأفراد الذين مرضهم خفيف ولأجل مساعدة الطبيب يرسل طبيبان وبمعيتهم الأفراد اللازمة من الصحية لأجل تطبيب المرضى المرسلين في القوافل.

١٠ ـ بعد مرور أسبوع على امضاء هذه الشروط يبتدئ سوق أول قافلة.

١١ ـ المنزل الأول ويكون (الحفر) والثاني (مضيق بواط) والثالث (رأس البئر) والرابع (ينبع النخل) والقافلة التي تصل إلى هذا المنزل تنتظر فيه مجئ الوابور غير أن المرضى يساقون رأسا إلى (ينبع البحر) وتؤمن راحة القوافل الواردة إلى (ينبع النخل) من قبل البكباشي محيي الدين بك.

١٢ ـ تجرى النقليات على الجمال ما بين (ينبع النخل) و (ينبع البحر) بمعرفة المأمورين

المخصوصين لهذه الغاية وعلى الوجه المذكور أعلاه.

١٣ ـ إن مسألة الاركاب فى البواخر وما يقتضى من التسهيلات لها تدبر من قبل قائمقام القضاء ومعاونة البكباشى برايت بك.

١٤ ـ إن الجمال المرسلة إلى المدينة المنورة لأجل نقل وسوق القوافل تجتمع فى (عروة) وبعده تقسم على القطاعات والمؤسسات المهيأة للحركة وترسل إليها.

١٥ ـ تدخل هيئة الاستلام إلى المدينة المنورة عقب خروج حضرة فخر الدين باشا منها.

١٦ ـ بعد خروج أول قافلة من المدينة تحتل الجنود الهاشمية النقاط اللازمة الموجودة فى محيط المدينة. وتضمن الراحة العمومية إلى أن تخرج آخر قافلة منها، ويضمن سمو الأمير عدم دخول العربان والأهالى إليها.

١٧ ـ إن النقود والأوراق النقدية الموجودة فى خزائن القطاعات والمؤسسات توفيقا لأوراقها الرسمية والحسابية المنظمة فى داخل كشف تسلم بموجب مضبطة إلى الهيئة المنتخبة.

١٨ ـ يؤذن للقطاعات والمؤسسات أن تأخذ الدفاتر والأمانات والمخلفات الموجودة لديها لأنهم مجبرون على ابرازها أمام حكومتهم.

١٩ ـ تشكل هيئة من الأشراف ومشايخ القبائل المحلية لأجل منع الأضرار والتعديات حين انسحاب القوات على الخط إلى (بواط) والمدينة المنورة من أول محطة إلى آخر محطة.

٢٠ ـ يلزم بقاء مستخدمى الحرم الشريف والخزينة النبوية فى وظائفهم إلى مدة شهر ونصف إلى أن يعين غيرهم فى محلهم ومعاشاتهم تصرف لهم كالسابق.

٢١ ـ يمكن البقاء فى المدينة لمن يرغب من المأمورين الملكيين والمجاورين فيها.

٢٢ ـ يستوفى أصحاب الحقوق حقوقهم من المبالغ العائدة للملكية والمحكمة الشرعية والخزينة النبوية وبعد ذلك يسلم الباقى من المبالغ المذكورة بموجب دفاترها للهيئة المنتخبة بمقابل مضبطة.

٢٣ ـ على دائرة البريد أن تعيد المبالغ المرسلة من قبل الضباط والجنود العثمانية إلى عائلاتهم بواسطة اليوزباشى ضياء بك، لعدم إرسال هذه الحوالات إلى أصحابها.

٢٤ - يبقى موظفو المطاحن والكهرباء وما يلزم من المقدار الكافى من المأمورين العائدين لسوق القطاعات إلى حين سفر آخر قافلة، ويستمر هؤلاء فى وظائفهم وتصرف لهم معاشات كالسابق.

٢٥ - أن المرضى الموجودين فى المستشفيات، والذين يصعب نقلهم لشدة مرضهم يوضعون فى مستشفى أو اثنين، ويترك لكل مائة منهم لأجل معالجتهم طبيبا وصيدليا واحدا.

٢٦ - بعد تفريق ما يلزم أخذه من الأدوية والرباطات لأجل الطريق يترك ما بقى إلى الحكومة الهاشمية، ويسلم إلى مفتشى صحتها.

٢٧ - على الأشراف المكلفين بسوق القافلات أن يرشدوا إلى كل ما يقتضى لأجل المحافظة على المرضى فى المنازل عند المساء، ولأجل إعطائهم شايا وشوربة حارة.

٢٨ - الطرفان مجبران على تطبيق أحكام هذه الشروط.

٢٩ - نظمت هذه الشروط فى نسختين بالعربية والتركية فى مقر قيادة سمو الأمير على فى (بئر درويش) فى يوم الثلاثاء الموافق ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٣٧ و ٧ كانون الثانى سنة ١٩١٩م - سنة ١٣٣٥ رومية عند الساعة تسعة غروبية.

معتمد دول الحلفاء فى الحجاز	الأمير
يوزباشى غارلند	على بن حسين
قائد منزل القوة السفرية	قائد الفرقة (٥٨) المنسوبة للقوة السفرية
امير آلاى عبد الرحمن	أميرآلاى على نجيب
رئيس لوازمات القوة السفرية	وكيل رئيس أطباء القوة السفرية
قائمقام صبرى	يوزباشى كمال

مساعدة العرب العسكرية للحلفاء وقيمتها

على هذا المنوال انتهت الحرب التى أوقدها العرب على الترك الذين ظلموهم وأذوهم، فقد ختمت بالحجاز بعد ماقاتلوا على كل شبر أرض تقريبا. سواء فى مكة أو الطائف أو

جدة أو المدينة بالانتصار التام، وباستسلام قوى الترك إليهم وماكان عددهم يقل عن عشرين ألف مقاتل مجهزة بأفضل الأسلحة الحديثة ـ وقد فصلنا ذلك من قبل ـ كما ختمت فى الشام بفوزهم على الترك فى معظم المعارك التى اشتبكوا معهم فيها، وبقطعهم خط رجعة الجيش التركى المتقهقر من فلسطين ووادى الأردن ومنطقتى معان وعمان وتمزيقه وما كان يقل عن ثلاثين ألف مقاتل، فقد ارتد على جناح السرعة من دون أن يشتبك مع، الإنجليز فى قتال بسبب ظهور العرب وراء خطوطه يضربون ويقتلون، وينسفون ويخربون، فانسحب بسرعة، لكيلا يقع بين نارين. فكان فى ذلك القضاء المبرم عليه وكان ذلك سببا فى تشتته ونيل الجيش البريطانى نصرا لم يحلم به، ولولا جهود العرب فى الصحراء، وقطعهم الطريق على الجيش العثمانى ومهاجمتهم للمحطات على طول الطريق، وإمعانهم فى رجاله قتلا وأسرا لما وقع ما وقع ولارتد الجيش سالما ولأنشأ خطوط دفاع جديدة فى حوران وحول دمشق.

ولقد سلم الترك والألمان بهذه الحقيقة قبل الحلفاء. وقد أنكر بعض هؤلاء ويا للأسف على العرب حقهم، فقال المارشال ليمان فون ساندرس القائد العام للجيوش التركية فى بلاد العرب ـ وقد تم فى عهده الانهزام والجلاء فى مذكراته التى نشرها بعد الحرب ما نصه:

«ولقد اتفق شريف مكة وأميرها مع الإنجليز فى صيف ١٩١٦ على الاشتراك فى الحرب وأعلن استقلاله، فنشطت بذلك حركات العرب الثورية فى بلاد الشام، وكان الحلفاء يحمونها واتسع نطاقها ـ خصوصا بعد افلاس سياسة الشدة التى سار عليها جمال باشا فى معاملة الشعب العربى.

«ولقد أراد أنور باشا إعداد حملة عسكرية كبيرة تزحف على مكة وتنصب أميرا جديدا عليها. بيد أن عدم ملاءمة الظروف الحربية وعدم جواز اشتراك جنود مسيحيين فيها حال دون اتمامها فعدل عنها. ولقد أدت الثورة العربية خدمات عظيمة للجيش البريطانى خلال تقدمه فى شبه جزيرة سيناء. فكان الإنجليز آمنين مطمئنين يفعلون ما يشاءون، كأنهم فى داخل بلادهم. بعكس الترك الذين مقتهم أهل البلاد وملوهم، فكانوا يسوقون جيوشهم كأنهم فى بلاد معادية لهم.

«ولايخفى أن المستر تشمبرلن أبرق يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٩١٥ إلى نائب الملك فى الهند

يقول له: إن العرب لا يزالون مترددين فى الانضمام إلينا فإذا لم نستملهم بمنحهم امتيازات تطمئن قلوبهم إليها فقد لا ينفصلون عن الترك» وتبدل الحال حينما رجحت كفة الإنجليز فى بلاد العرب، وحينما اعترفوا باستقلال هؤلاء، فانضم الشريف إليهم وأدى خدمات جليلة للحلفاء فى بلاد العرب. ولقد كانت السكة الحجاز عرضة للتدمير والتلف كل يوم. وخصوصا بعد أن احتل الجيش العربى العقبة، وأصبح الأمير فيصل ـ وقد عرفته فى الآستانة وأعجبت بمزاياه فى جانب أعدائنا ـ ولا ريب أن خطأ الحكومة التركية العظيم فى سياستها العربية هو الذى ألقى مثل هذا الأمير الكبير فى صفوف الأعداء، وسبب فصل قطر كبير من الأقطار العربية عنها وانضمامه إلى خصومها.

«وعلمت سرا فى ١٠ مايو سنة ١٩١٨ أن حكومة الآستانة ترغب فى أن تعهد إلى بالأشراف على الشئون الإدارية لسورية، علاوة على مهام القيادة العسكرية، وفعلا عرضت ذلك بواسطة أنور باشا، فاعتذرت بكثرة مهامى العسكرية، ولما ألح كررت الاعتذار، وما كنت أجهل أن الانحلال سرى إلى الإدارة التركية الملكية فى سورية لسوء معاملة الموظفين، كما أن النفرة من الترك استحكمت فى قلوب السوريين.

«وفى النصف الأخير من شهر أغسطس سنة ١٩١٨ تلقيت بواسطة جمال باشا الصغير قائد الجيش الرابع اقتراحا من الشريف فيصل يقول فيه «أنه مستعد للانضمام بجيشه العربى إلى الجيش التركى إذا اعترفت تركيا باستقلال العرب وتعهدت بمساعدتهم فى إنشاء حكومة عربية مستقلة، وأنه فى هذه الحالة يتعهد بأن يتولى قيادة جبهة نهر الأردن الشرقية» ومما جاء فى هذا الاقتراح قوله «ولما كان الجيش البريطانى على وشك القيام بهجوم عام فى جهة الأردن الغربية، فأنه يصبح فى استطاعة الترك إذا نفذ هذا الاقتراح استخدام جيشهم الرابع لصد الإنجليز».

فأبرقت على الفور إلى هذا بواسطة رئيس أركان حربى كاظم باشا بأن يفتح باب المفاوضات مع الأمير فيصل، كما أبرقت إلى أنور باشا بما وقع، وطلبت إليه تقديم الضمانات اللازمة بسرعة ليتم الاتفاق فلم أحظ برد ـ لا من أنور ولا من جمال. ولذلك لا يمكننى الكلام عن الاقتراح غير أنى فهمت من كاظم باشا رئيس أركان حربى أن الترك لا يثقون كثيرا بصحة هذه المقترحات».

وقال فى مكان آخر: «وفى يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩١٨ علمت أن جموعا عربية غفيرة

تجمعت فى شرق الشام وجنوبها. وكانت حالة الشام الأدبية - وقد تحولت تحولا سريعا - تبعث على الحذر والخوف، فقد كثر توارد رجال القبائل المسلحين إلى دمشق، وكانوا يتجولون فى أسواقها ويطلقون الرصاص إعرابا عن فرحهم وسرورهم، وكان الدمشقيون يتهافتون علنا على قراءة منشورات الطيارات الإنجليزية، وكانت تلقيها بكثرة فتزداد بذلك الدعوة العربية انتشارا. وبدأت الفوضى تسرى إلى جميع فروع الأعمال كما كثر ورود جواسيس فيصل ورجاله، وكانوا يدعون الناس إلى الثورة والانتقاض. واتصل بى أن كثيرا من أهل دمشق هيأوا العلم العربى فى دورهم استعدادا لإعلانه، وقد رفع على دمشق يوم ٢٩ سبتمبر، وأطلق بعضهم الرصاص على قوافل الجيش فأوقفها ونهبها كما أطلق الرصاص على آخر قوة تركية مرت فى أسواق دمشق، وغادر آخر جندى تركى محطة القدم مساء ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٨ بعد أن خسر الترك كثيرا من جندهم فى تلك المحطة وفى الطريق، لأن السكان كانوا يهاجمونهم».

وقال الكاتب التركى الذى نقلنا عنه وصف معارك معان فى هذا الموضوع:

«ولولا وجود جيش عربى وقف موقف العداء من الترك فى جزيرة العرب وفى ساحة حربية طولها ألف كيلو متر لما تم للجيش البريطانى إحراز ما أحرزه من النصر بهذه السرعة العظيمة وبدون كبير عناء. وإلى الجيش العربى يعود الفضل فى بلوغ الإنجليز قلب البلاد العربية واحتلال القدس والمرابطة أمام السلطة وجناحهم الأيسر مكشوف. ولولا هذا الجيش لكان فى استطاعة الترك القيام بحركة التفاف واسعة النطاق على الجيش البريطانى وإجباره على التراجع».

هذا من الجهة الواحدة. أما من الجهة الأخرى فقد عطل العرب للترك نحو أربعين ألف مقاتل بأسلحتها الكاملة، كان فى الإمكان حشدها فى ساحة فلسطين أمام الإنجليز ومنعهم من التقدم».

لقد كان فى المدينة المنورة مالا يقل عن ١٥ ألف جندى بقيادة فخرى باشا، وكانت قوات الفيلق الثانى المرابط فى القطرانة لحماية المحطات لا تقل عن عشرة آلاف. وما كان عدد القوات التى كانت فى تبوك بقيادة بصرى باشا يقل عن أربعة آلاف. يضاف إليها قوات العلا بقيادة على نجيب بك ومجموعها ثلاثة آلاف جندى، وذلك عدا الرشاشات والمدفعية

القوية والمحطات اللاسلكية والطيارات وغيرها، فلو وقفت هذه القوات فى وجه الجنرال اللنبى هل كان فى إمكانه بلوغ نابلس والشريعة ودخول دمشق - اللهم كلا.

إن المساعدات التى أداها الجيش العربى من يوم تكوينه حتى ختام الحرب عظيمة. وقد كان العامل الأول فى ارتباك القيادة التركية وعجزها عن وضع خطط حربية ثابتة. كما كان إصرار بعض قواد الترك على عدم الجلاء عن الحجاز من جملة هذه العوامل.

ومن يمعن النظر فيما أصاب جيوش الجنرال اللنبى عند دخولها السلط وعمان فى التلول يتبين صحة هذه النظرية. فقد أوقف هؤلاء خيالة الإنجليز بضع ساعات، وصل خلالها فوج من درعا مع رشاشاته، فاشترك فى المعركة، وهزم الإنجليز وقضى على خططهم وتدابيرهم، وكانت ترمى إلى قطع خطوط مواصلات الجيش الرابع - إذن فمنع أربعين ألف جندى تركى من الاشتراك فى حروب فلسطين، وشل حركة الترك فى بلاد العرب من الأمور الخطيرة التى لا يستهان بها، ولولاها لما تسنى للانجليز دخول تلك البلاد.

وهنالك أمر آخر لابد من التنويه به - وهو تأثير الجيش العربى فى المعركة الفاصلة، فقد ضرب الجيش التركى ضربة قاضية أثناء ارتداده، وأجهز عليه مما حير القيادة التركية العليا وأذهلها.

لقد كانت القيادة التركية تعمل على اكتساب ود القبائل العربية وتبذل لها العطايا والأموال والأرزاق بدون حساب، وقد فازت بعض الفوز فى أول الأمر. على أن ظهور الجيش العربى فى صحراء الشام أثر فى هذه القبائل، وحملها على الانضمام إليه. فخسرنا خسارة كبيرة. يضاف إلى هذا وهذا ما أثرته الثورة فى النقليات العسكرية. فقد كان معظم القاطرات البخارية والعربات مشغولا على الخط الحجازى، مما أدى إلى إهمال النقليات على خط دمشق رياق، وبقية الخطوط الأخرى، وتنظيم النقل فى مقدمة وسائل الظفر فى الحروب. ولولا ثورة الحسين لما تسنى للجيش الإنجليزى اختراق فلسطين ولقضى عليه قضاء مبرما نهائيا فى صحراء سينا.

أقوال رجال الحلفاء عن فعالية الجيش العربى

١ - شهادة اللورد اللنبى

جاء فى التقرير الرسمى الذى أرسله اللورد اللنبى يوم ٢٨ يوليو سنة ١٩١٨ إلى وزارة

الحربية البريطانية عن أعمال الجيش العربى مانصه: «أشكر لجلالة الحسين بن على ملك الحجاز إخلاصه لقضية الحلفاء، ولا أملك نفسى عن توجيه عاطر الثناء إلى سمو الأمير فيصل لما أظهره من براعة فى القيادة، وعلى اخلاصه القلبى على ما أبداه من بسالة ومهارة فى الأعمال العسكرية التى عملها الجيش العربى. وقد ساعدت الحلفاء مساعدة كبيرة فى الحصول على نتائج فاصلة فى الحرب».

وقال فى التقرير الختامى الذى رفعه فى شهر أكتوبر سنة ١٩١٨ عن سير الحرب:

«وقد ساعدنا الجيش العربى مساعدة عظيمة القيمة، بقطع مواصلات العدو قبل القتال وبمعاونته لفرساننا فى أثناء الزحف على دمشق، فقد رابط على الطريق الذى تقهقر منه العدو الشمالى درعا، فحال دون فرار جانب من الجيش العثمانى الرابع، وأنزل بالعدو خسارة كبيرة».

٢ ـ شهادة فرنسوية رسمية

وفى يوم ٤ فبراير سنة ١٩١٩ سلم الجنرال مورداك رئيس ديوان المسيو كلمنصو الحربى الأمير فيصلا وسام الصليب، وشارة سعف النخل مع كتاب هذا نصه:

«أنه أمير يشار إليه بالبنان، مملوء من الحمية والنخوة، أيد بعزم وطيد قضية أبيه جلالة ملك الحجاز منذ سنة ١٩١٦ ليخلع النير التركى، ويساعد الحلفاء، وكان ملازما لجنوده، ونظم عدة هجمات حربية مهمة على السكة دمشق ـ المدينة المنورة، وقاد فيها بنفسه، واحتل العقبة والوجه من شهر أغسطس إلى شهر سبتمبر سنة ١٩١٨ وهجم هجمات كثيرة فى الجهات الجنوبية والشمالية من معان، واستولى على عدة محطات، وأسر عددا كبيرا من الأسرى واشترك فى تمزيق شمل الجيش الرابع والجيش السابع والجيش الثانى والجيش الثامن من العثمانيين، بقطعة مواصلاتها فى شمالى درعا وجنوبها وغربها، ثم دخل مع جنود الحلفاء دمشق فى أول سبتمبر وحلب فى ٢٦ منه بعد أن فعل فعالا تدل على منتهى الجرأة والإقدام».

٣ ـ تقرير السير رجنلد ونجت

ووضع السيررجلند ونجت حاكم السودان العام ثم نائب الملك فى مصر زمن الحرب، وهو الذى أعلنت الثورة العربية فى عهده تقريرا مفصلا عن حوادث حرب الحجاز من ٩ يونيو سنة ١٩١٦ إلى تسليم المدينة فى ١٠ يناير سنة ١٩١٩ قال فيه:

«أعين الجيش العربى فى الحجاز بقوة صغيرة مؤلفة من ٥٥ ضابطا و ١٠١٠ من صف الضباط والجنود، وكانوا مسلحين بستة مدافع ميدان، وستة مدافع سريعة الطلق و١٠ مدافع جبلية ومدفعى موزر صغيرين.

فلما شرع العرب فى الهجوم، أخذ الترك فى الحجاز على غرة، وتمكن جند الشريف من الاستيلاء على مكة وجدة فى الشهر الأول، وثبتت حامية الطائف ثلاثة أشهر ونصف شهر وسلمت فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٦ وكان الفضل الأكبر فى الاستيلاء على الطائف لفصيلة المدفعية المصرية بقيادة اللواء سيد باشا على، ثم شرع فى تطويق المدينة المنورة وكان فيها ٣٥٠٠ من خيرة المقاتلين العثمانيين أعدوا للقتال فى جنوبى بلاد العرب وقدر على القوات العربية أن تستولى عليها، وتمكن الترك من جعل المدينة قاعدة حربية لهم بواسطة السكة الحديد ليهددوا مكة.

وفى منتصف شهر سبتمبر سنة ١٩١٦ غادرت السويس بعثة الكولونيل بريمون العسكرية الفرنسوينة إلى جدة.

وبعد ما انقضى موسم الحج تبين أن خير الطرق لأخذ المدينة، إنما هو قطع مواصلاتها بالسكة الحديد مع الشمال. فزحف الأمير فيصل من ينبع إلى الوجه، واستولى عليها وأخذ عرب الحويطات يهددون السكة الحديد بقيادة الشيخ عودة أبى تايه ومعه الكولونيل لورانس لمنع إرسال المدد من الشمال إلى المدينة.

وأسهب السر رجنلد ونجت فى وصف هذه الهجمات، ومما قاله: إن قافلة كبيرة كانت قادمة من حايل (عاصمة ابن الرشيد) إلى المدينة فباغتها العرب وقتلوا ٣٠ من الترك وأسروا ٢٥٠ أسيرا، وغنموا أربعة مدافع جبلية وعددا كبيرا من البنادق، وثلاثة آلاف جمل موقرة أطعمة وثيابا وألفى رأس غنم. وفى هجمة أخرى على السكة الحديد بقيادة الكولونيل يوكمب دمرت فصيلة من العرب والمصريين ماطوله خسمة كيلو مترات نزعتها قضيبا قضيبا.

وانتقل الأمير فيصل إلى العقبة بعد الاستيلاء عليها، وكان للهنود فعال تذكر فى الوجه، وكانت القوات العربية تنجد من ينضم إليها من القبائل والمتطوعين، وبين المتطوعين الكتيبة العربية، وكانت مؤلفة من ٤٠٠ رجل تطوعوا من أسرى الحرب العرب برعاية البعثة السياسية الإنجليزية والفرنسوية، وقد دربهم ضباط فرنسويون وإنجليز فى القطر المصرى.

وقنص العرب آخر طيارة للترك فى المدينة فى أواخر شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ فسقطت على الأرض فنقلها العثمانيون بالسكة الحديد إلى المدينة، ولم تعد تصلح للطيران.

وفى أوائل سنة ١٩١٨ حاول العثمانيون الانسحاب من الحجاز، فأفرغ الجيش العربى قصارى جهده ليعرقل حركتهم بقطع السكة الحديد، وأسر العرب خمس قوافل للترك فيها ١٥٠٠ جمل، وكان بين الغنائم التى غنمها العرب فى معارك أخرى ٢٥ ألف ليرة عثمانية ذهبا.

وكان من جراء ذلك أن اضطر الترك إلى انقاص قواهم فى المدينة بمن أرسلوهم شمالا لحماية الخط. وكانت القوة العثمانية فى المدينة قد بلغت ٩٥٠٠ رجل فى أوائل سنة ١٩١٧ معهم عدد كبير من المدافع الضخمة و ٢٥٠٠ رجل لحراسة السكة الحديد، و ٨٠٠ رجل فى جهة الوجه، ومقاتلة أخرى فى مواضع أخرى.

ولما صار الأمير فيصل فى الوجه تقدم الأمير عبد الله إلى شمال المدينة، وجاوز السكة الحديد، وجعل ينبع قاعدته، ورابط فى وادى العيس وسير القبائل إلى الشمال الشرقى من المدينة لأسر القوافل التى تمدها بالمؤن من عند ابن الرشيد.

وأنشئت فى الوجه مدرسة لتعليم الرجال طريقة تخريب السكة الحديد، فتعلم كثيرون من العرب هذا العمل، وكانوا يدمرون السكة بارشاد الكولونيل نيوكمب والكابتن لورانس والملازم غارلند. فحال ذلك دون إرسال المدد من فلسطين وسورية إلى المدينة، واضطر قائد المدينة العثمانى أن يخفف قوته حين أرسل جانبا منها إلى الوجه والعلا ومدائن صالح وغيرها من المحطات واضطرته قلة الطعام إلى طرد أهل المدينة من بيوتهم.

وقد اشترك فى تدمير السكة الحديد وقطعها الأمير فيصل بين العلا والهدية، والأمير عبد الله من الهدية إلى بواط والأمير على والأمير زيد فى الجنوب، واتخذت التدابير لتوحيد زمان القطع.

وفى أواخر سنة ١٩١٨ قطعت مواصلات العثمانيين فى الحجاز بالشمال، فكانت القوافل، تأتيهم متقطعة من حايل أو الرياض. وأخذ العرب يهاجمون المدينة، وأبى فخرى باشا القائد العثمانى تسليمها بعد ما كسر الجنرال اللنبى العثمانيين فى فلسطين فى سبتمبر واستولى العرب على تبوك فى ١٢ أكتوبر، وأسروا فيها أكثر من ٣٠٠ أسير وغنموا عشرة مدافع، ثم احتلوا مواقع أخرى، ولكن عقد الهدنة مع تركيا فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨ حال دون مواصلة القتال. وفى ١٠ يناير سنة ١٩١٩ سلم فخرى باشا فى بير درويش، ودخل الأمير عبد الله باسم والده ملك الحجاز الساعة ١١ من صباح يوم ١٣ منه».

٤ ـ أقوال الكولونيل لورانس

ووصف الكولونيل لورانس أعمال العرب العسكرية وصفا شيقا فقال:

«كلنا يعرف أن فيصلا بذل جهدا كبيرا فى نشر ألوية الثورة التى أعلنت فى مكة وفى توسيع نطاقها، فتم له ما أراد وبفضل بسالته وحكمته أسدت هذه الثورة أعظم خدمة للحلفاء فى ميدان فلسطين».

«وكلنا يعرف أيضا أن الجيش العربى الذى أعد وأنشئ فى ساحة القتال بين نيران المدافع صار جيشا منظما كامل العدة والعدد، بعد ماكان فى ابتداء أمره شراذم من البدو، وقد تم له أسر ٣٥ ألف جندى من الترك، كما أخرج عددا لا يقل عن هذا من صفوف القتال، وغنم نحو ١٥٠ مدفعا، واستولى على مساحة مائة ألف ميل مربع من الأراضى . ولقد أدى العرب هذه الخدمة فى زمن كنا فى أشد الحاجة إليها، فنحن مدينون لهم».

ويقول الدكتور شهبندر فى رسالته «لورانس فى الميزان» مانصه: «وقد أحدث احتلال الوجه انقلابا فكريا فى البريطانيين فى مصر، فأدركوا قيمة الثورة العربية، وعرف القائد البريطانى العام أن الجنود الذين يحاربون العرب يربون على الجنود الذين يحاربونه، فوعد بالعتاد والسلاح والمال، وكان من ألزم الضروريات للعرب مدافع الجبل لأن مدافع الترك كانت تفضل مدافعهم كثيرا، ولم يك فى حوزة الجيش البريطانى منها مايستغنى عه. وكان عند الكولونيل بريمون فى السويس مدافع جبلية من أجود الأنواع. إلا أنه اشترط لإرسالها

للحجاز تسيير حملة من الحلفاء لتحول دون إيغال العرب فى الشمال، ومن حسن الحظ أن أقبل فحل آخر محله سمح بها».

ما أسداه الحلفاء العرب.

ماكانت موارد العرب فى ابتداء نهضتهم تساعدهم على البذل وابتياع الأسلحة والمعدات، وخصوصا والحجاز من الأقطار الفقيرة، ولذلك كان لابد لهم من الاستعانة بأموال الحلفاء ومعداتهم وخبرتهم، ليؤدوا المهمة المنوطة بهم على الوجه الأكمل، وليدركوا الأغراض التى وضعوها نصب أعينهم.

ولقد ذكرنا فيما تقدم أن الإنجليز تعهدوا للحسين فى مكاتباتهم بأن يقدموا إليه جميع ما يطلبه من معدات وأموال وأسلحة بدون قيد ولا شرط. لأن المصلحة واحدة، ولأن الغاية التى كان يرمى إليها الفريقان متحدة: فالعرب يعملون لإخراج الترك من بلادهم لينشئوا دولة عربية مستقلة داخل حدودهم القومية، والإنجليز يسعون لإضعاف الترك ودفع خطرهم عن مصر، وكانوا يهددون خطوط مواصلاتهم الكبرى، ولو تم لهم الاستيلاء على قناة السويس كما كانوا يتصورون لأحرجوا انجلترا، وحالوا بينها وبين مستعمراتها الكبرى، ولغيروا شكل الحرب، فطردهم من منطقة القناة، وجرهم إلى وسط الصحراء وطردهم منها، ثم إخراجهم من بلاد العرب هو فى مصلحة الإنجليز، ولا يتعارض فى وجه من الوجوه مع المصلحة العربية.

ومن يدرس المكاتبات التى دارت بين الحسين وبين مندوبه فى مصر يتبين أن الإنجليز لم يفوا بهذا الجانب من عهودهم أيضا.ولم يقدموا للعرب ماطلبوه من معدات وأسلحة، فقد كانوا لايدفعون لهم إلا بمقدار وبعد إلحاح شديد. يضاف إلى هذا أنهم كانوا يرسلون إليهم الأسلحة والمدافع القديمة.

يؤيد هذا ما رواه أحد الذين شهدوا معارك جدة الأولى (١٠ ـ ١٦) يونيو سنة ١٩١٦ فقد أكد أن الشريف محسن بن منصور، وهو الذى هاجم ذلك الثغر أبلغه أن البنادق التى وزعها على العرب الذين اقتحموا جدة ـ وهى مما جاد به الإنجليز ـ قديمة العهد استعملت فى الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٥ وقال إن ٢٠ فى المائة منها انفجر بأيدى مطلقيه فبترها وطلب الإسراع بإبدالها، وروى الشريف ناصر بن على مثل هذه الرواية، وألح فى

تغيير هذه البنادق لقدمها، ولأنها تلحق أضرارا كبيرة بالعرب.

ولو ساعدوا العرب وسهلوا للجند والضباط التطوع وأفسحوا لهم المجال لعملوا أكثر مما عملوه، ولكان لهم فى الحرب شأن يذكر.

ويقول الدكتور شهبندر فى رسالته لورانس فى الميزان بهذه المناسبة ما نصه: «ولقد عملنا على تنوير أذهان الأسرى العرب الذين كانوا يفدون إلى مصر فى أيام الحرب وحملهم على التطوع فى الجيش العربى، ولكن جهودنا كانت كلما أوشكت أن تثمر أصابتها صدمة عنيفة من رجال العسكرية البريطانية تذهب بها فكان كل تشجيع يأتى من المكتب العربى يقابل بالمقاومة من الكولونيل سمسن فى المعادى، وتوضع فى سبيله العراقيل».

أن طمع الإنجليز فى احتلال فلسطين والعراق وطمع الفرنسويين فى احتلال الشام جعلهم يقاومون تقدم العرب، ويعملون على تضييق دائرة عملهم. فلا تتجاوز الحجاز، ولولا ميل الأمير فيصل الشديد إلى إنقاذ الشام، وإلحاح جيشه عليه وتهديده بالعصيان لما أجازوا له التحول إلى الوجه، ولما وصل العقبة، ولظل يدور فى الدائرة الصغيرة التى رسموها له وهى الحجاز.

ويوخذ مما لدينا من الوثائق أن الحكومة البريطانية كانت تدفع كل شهر لجيش الشمال ١١٠ آلاف من الجنيهات. ترسل إلى الأمير، وهو يتولى توزيعها على الموظفين والضباط والجنود حتى لايبقى لديه شيئ منها. وكان المخصص للجيش الجنوبى ٤٧ ألف جنيه كانت ترسل لقائده الأمير على، وكذلك كانوا يرسلون لجيش الشرق (الأمير عبد الله) ٥٥ ألف جنيه، وأرسلوا إلى هذه الجيوش نحو مائة ألف بندقية مع قذائفها، وثلاث بطاريات مع عتادها واللوازم الطبية والألبسة وغيرها.

* * *

وأرسلوا أيضا إلى جدة غداة الثورة قوة مصرية من السودان بقيادة السيد بك على اشتركت فى حصار الطائف، وفى الأعمال العسكرية حول المدينة، والتحق جانب منها بجيش الشمال بعد ذلك، وكانت لهم بعثة فنية بقيادة الكولونيل نيوكمب لتخريب الجسور والسكة الحديد ونسفها، واشتركت البحرية البريطانية فى احتلال جدة والوجه. وكان فى كل معسكر من المعسكرات الثلاث مستشارون للإنجليز.

وكانت الشؤون العربية فى أوائل عهد الثورة منوطة بنائب الملك فى مصر، وهو يومئذ السير هنرى مكماهون يساعده المستر ستورس والجنرال كليتن مدير المخابرات العام والكابتن جورج لويد من رجال المخابرات، على أنهم عادوا فأنشأوا مكتبا خاصا للشئون العربية وسموه المكتب العربى كان برئاسة الجنرال كليتن نفسه، يساعده الميجر كورنواليس والأستاذ هوجارت من أساتذة اكسفورد. وقد جئ به لمعرفته اللغة العربية ومنح رتبة ميجر، وأصدر هذا المكتب جريدة أسبوعية باسم «الكوكب» لنشر الدعاية انتهت حياتها بعد الحرب بقليل.

مساعدة فرنسا للثورة العربية

ولم تشأ الحكومة البريطانية أن تنفرد بمساعدة الثورة العربية، بل خاطبت حليفتها فرنسا بواسطة السفير البريطانى فى باريس يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩١٦ طالبة إليها مساعدة الشريف ماديا، وأن ترسل المساعدة بأسرع ما يمكن من الوقت بطريق مصر، وفى يوم ٧ منه طلبت وزارة الحربية الإنجليزية من فرنسا أن تعد بطارية من عيار ٧,٥ يقودها مسلمون لإرسالها إلى القاهرة مع بعض الفنيين من مدفعيين وبرقيين وغيرهم من ذوى الإخصاء فى الفنون الحربية بشرط أن يكونوا مسلمين فوافقت الحكومة الفرنسوية مبدئيا على هذا الطلب، وقررت إيفاد بعثتين إلى الحجاز: الأولى سياسية برئاسة السى قدور بن غبريط، وقد ضمت طائفة من أعيان المسلمين المغاربة، ومهمتها تقديم التهانى للحسين وحمل الهدايا له. والثانية عسكرية برئاسة الكولونيل بريمون لمعاضدة الثورة العربية. ونورد خلاصة تقرير رسمى وضعته وزارة الحربية الفرنسوية يوم ٥ أغسطس سنة ١٩١٦ أى على أثر إعلان الثورة رقم ـ ١٤ ـ ٩ ـ ٥٠٢٣٩٠ وقد تضمن رأى فرنسا فى الثورة قال:

إن إعلان الثورة العربية فى الحجاز هو فى مصلحة الحلفاء من عدة وجوه: فأما من الوجهة السياسية فإن اتساع نطاقها حتى تشمل شعوب فلسطين وسورية وأرمينية الصغرى، وتحرير هذه الشعوب من النير التركى قد يهيئ لفرنسا أسباب التدخل فى شؤون هذه المقاطعات، كما تشغل من الوجهة العسكرية الجيش التركى. وأما من الوجهة الأدبية فإنها تقود الجانب الأكبر من رعايانا المسلمين إلى اعتبار الترك كمعتدين على

الأماكن المقدسة الإسلامية، فيزداد تعلقهم بفرنسا، لأنها تكافح الترك وحلفاءهم وتزيدهم إخلاصا لها.

«وبناء على هذه الاعتبارات قد يكون من المفيد العمل على تنمية الثورة وصبغها بصبغة إسلامية. ومهما يكن هنالك من ملاحظات يجب أن يحسب حسابها. فالحركة العربية ذات فائدة للحلفاء وإن ظن العالم الإسلامي - إن لم يكن كله فبعضه - أن انجلترا هي التي دفعت الشريف حسين إلى الثورة، وربما هذا الظن بفرنسا أيضا.

«هذا من جهة واحدة، أما من الجهة الأخرى فإن الشريف حسين لم ينهض للثورة إلا بعد ما وثق من مساعدة الإنجليز له. وضمن استعدادهم لتقديم كلّ يطلبه من الذهب والقوى والسلاح والذخائر وغيرها. ولقد أهابت الحكومة الإنجليزية بالحكومة الفرنسوية إلى مساعدة الشريف في دائرة إمكانها، وبالشروط التي يتم الاتفاق بينها وبينه على حدة»

* * *

وقد انتدب لرئاسة البعثة العسكر ضابط نشأ في المستعمرات الإفريقية اسمه الكولونيل بريمون، وكان يومئذ وكيل رئيس أركان حرب الفيلق الخامس والخمسين، ورقي أخيرا إلى رتبة جنرال، لخبرته في الشؤون الإسلامية، وعين الكابتن كوس (الكولونيل كوس بعد ذلك) وكيل رئيس لها.

وهذا بيان ما أرسلته فرنسا من أسلحة ومعدات لمساعدة الثورة: بطاريتان من عيار ٨ مع سرية رشاشات وبطارية من مدافع الصحراء ذات ستة مدافع عيار ٨ ومثلها من مدافع الجبل، وبلوك مهندسين، وورشة مدفعية ومستشفى صحراء سيار و ٢٤٠٠ بندقية وكمية من الذخائر.

وقد وزع ضباط هذه البعثة وهم ١٢ ضابطا و ٤٨ صف ضابط بين الجيوش العربية الثلاثة وكان رئيسها ووكيله مع عدد من الحاشية يقيمون في جدة. ويعترف رئيسها في كتابه بأن الفرنسويين لم يشتركوا اشتراكا جديا في الأعمال العسكرية، إلا بعد دخول شهر فبراير سنة ١٩١٧.

وأرسلت فرنسا مالا للحسين بن علي في دفعتين. فقد حمل الدفعة الأولى السي قدور بن غبريط، ووصل إلى جدة يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٩١٦ وقدرها ١٢٥٠٠٠٠ فرنك ذهب

(خمسين ألف جنيه انجليزى) كما حمل الدفعة الثانية السى مصطفى الشرشالى ووصل إلى جدة فى شهر ستبمبر سنة ١٩١٧ وهى ٩٧٥ ألف فرنك ذهب (٣٤ ألف جنيه مصرى) تسلمها الحسين ووزعها على الفور بين نجليه الأميرين على وعبد الله فخص هذا بعشرين ألفا وذاك بأربعة عشر ألفا. وهذا كل ما قدمه الفرنسويون للثورة من مال ورجال ومعدات. ويعترف الكولونيل بريمون فى كتابه الحجاز فى الحرب العظمى ص ١٢٢ أن الأميرفيصلا طلب إليه يوم أول إبريل سنة ١٩١٧ حينما كان فى الوجه إرسال مدفعين من عيار ٧,٥ شنيدر، ويقول إنه أحال هذا الطلب إلى باريس فجاءه يوم ١٤ منه الرد بالرفض، لأن فرنسا لا تملك هذين المدفعين ـ كما قالوا ـ ثم كرر الطلب بعد ذلك لإرسال مدفعين من عيار ٦,٥ فأجيب بالرفض.

ولقد حل الكابتن كوس محل الكولونيل بريمون فى رئاسة البعثة الفرنسوية. فقد دعى هذا إلى فرنسا فسافر إليها يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٧ بسبب شكايات شكاها الإنجليز من أعماله وتصرفاته، فقد كان كثير التحامل عليهم، كما كان شديد الكره للعرب، يسعى بكل قواه ـ كما يدل على ذلك كتابه ـ لإلقاء التفرقة والشقاق بينهم، ولاسيما بين الأمراء أبناء الحسين. فيغرى هذا بهذا ـ كما ملأ كتابه بالطعن فى العرب، وفى تشويه حركتهم. فلم يذكر سوى العيوب والمثالب، ولم يثبت لهم موقفا مشرفا إلا فى النادر، وإذا وصف معركة فاز فيها العرب فأنه ينسب شرف هذا الفوز للمدفعيين الفرنسويين الذين يكونون شاركوهم بإدارة مدفع أو مدفعيين. وذنب العرب، عنده طمعهم فى سورية، ومحاولتهم بلوغها. كما أن ذنب الضباط الإنجليز عنده هو كونهم يشجعون الثورة ويحضون العرب على التقدم والايغال فى الزحف نحو الشمال، نحو الشام، وهو مالا يتفق مع المصلحة الفرنسوية فى نظره ولأنهم لا يستشيرونه فى معظم الأمور ولا يأخذون رأيه.

ومما يدل على أن الحكومة الفرنسوية نفسها ضاقت ذرعا به، وأدركت أنه نصب نفسه متطوعا لمقاومة الحركة العربية وللطعن فيها وفى رجالها والمشتغلين بها أن أرسل إليه المارشال جوفر القائد العام يومئذ برقية يقول فيها:

«يستنتج من برقياتكم أنكم تخافون من الحركة العربية، وتجوسون شرا من نتائجها ومن أخذ العرب للمدينة بحجة أنه يشجع ما فى نفوسهم من طموح إلى احتلال سورية،

وفاتكم أن فرنسا وانجلترا عقدنا أخيرا اتفاقا يقضى بإنشاء اتحاد عربى يشمل دمشق وحمص وحماه وحلب والموصل.

«فظهوركم بهذا المظهر - وقد أدركه الإنجليز والشريف - قد يبعث على الظن بأننا نعمل لنقض العهود التى ارتبطنا بها، وقد يؤثر تأثيرا سيئا على عملنا فى الشرق. فيجب أن لايفسر عملكم هذا التفسير السيئ.

«وترى الحكومة الفرنسوية - بعكس رأيكم - أن سقوط المدينة بأيدى العرب يؤثر تأثيرا حسنا فى نفوس القبائل العرب والدرزية، ويكون برهانا على قوة النهضة العربية. كما يكون من الجهة الأخرى فوزا لخططنا فى الشرق، وهى تقوم على التعجيل فى القضاء على الامبراطورية العثمانية».

ولقد اعترف الكولونيل بريمون نفسه فى كتابهِ أيضا بأن السير فرنسيس برتى سير انجلترا فى باريس بدأ من يوم ١٧ مايو سنة ١٩١٧ بالسعى عند وزارة الخارجية الفرنسوية لأستدعاء البعثة الفرنسوية، لأن رئيسها لا يعطف على القضية العربية. وقال أيضا أن المسيو كامبون سفير فرنسا فى لندن كتب إلى وزار الخارجية الفرنسوينة بهذا الشأن.

ـ ١١ ـ
النضال بين العرب والحلفاء

ماكاد العرب ينتهون من نضالهم الداخلى القديم مع الترك، ويتفرغون لحربهم الجديدة، وقد استبشروا بها وبشروا، وحشدوا لها قواهم، وظنوا أنها تحقق آمالهم، وتضمن إنشاء دولتهم الكبرى، وقد نالوا وعودا رسمية صريحة بإنشائها ـ نقول إنهم ما كانوا يعلنون الثورة وينزلون إلى ميادين القتال، حتى رأوا أنفسهم أمام حالة غريبة مع حلفائهم الإنجليز الذين وثقوا بهم واطمأنوا إليهم، فأدركوا أنهم على أبواب نضال جديد مع هؤلاء قد لا يختلف كثيرا عن النضال القديم إلا من جهة المظهر والظرف والشكل.

لقد عاهد الحسين الإنجليز على إنشاء دولة عربية مستقلة بكل معانى الاستقلال فى داخليتها وخارجيتها. تكون حدودها شرقا بحر فارس وغربا بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض، وشمالا ولاية حلب والموصل إلى نهر الفرات مجتمعا مع دجلة إلى مصبهما فى بحر فارس. ما عدا مستعمرة عدن، فأنها خارجة عن هذه الحدود. وقد قبل السير هنرى مكماهون هذه الحدود، وأبدى تحفظا عليها فى كتابه المؤرخ ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ هذا نصه: «لما كانت مقاطعات مرسين والاسكندرونة وبعض أجزاء سورية الواقعة إلى الغرب من مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن تسميتها عربية محضة، فأنه يقتضى إخراجها من الحدود المبينة».

وعاهدهم على أن يحافظوا على هذه الحكومة وعلى صيانتها من أى مداخلة كانت وبأى شكل كان، فى داخليتها وخارجيتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أى تعد بأى شكل يكون ولو وقع قيام داخلى من دسائس الأعداء أو من حسد بعض الأمراء.

وعاهدهم أيضا على أن يقدموا لهذه الحكومة جميع ما تحتاج إليه من مال ونفقة وأرزاق وميرة وسلاح فى كفاحها إلى جانبهم، وفى سبيل قضيتهم وقضية الحلفاء المشتركة فلا يبخلون عليه بشئ ولا يردون له طلبا. لأن قوى العرب المادية كانت محدودة فى تلك الأيام سيما والحجاز ـ قطب الحركة فى تلك الأيام ـ كان فى أشد حالات الضنك والفقر بسبب الحصار البحرى الذى ضربة الحلفاء على شواطئه قبل انضمامه إليهم.

وعاهدهم عل أن يعاملوه معاملة الند للند والحليف الصادق للحليف الصادق، يطلعه على أسراره، ولا يتكتم عنه شيئا، ويحافظ عليه ويدافع عنه، ولا يسعى لنكث عهده الذى عاهد عليه متذرعا بشتى الحيل والأساليب. ولابد لنا من القول هنا أن كثيرين من العقلاء كانوا ينبهون الحسين وأولاده إلى ختل الإنجليز ودهائهم وتلاعبهم فى العهود والمواثيق وتفسيرهم لها بما يطابق مصلحتهم وأغراضهم، وقالوا له يجب أن تكون على حذر من القوم فعدم الوفاء بالوعود والمواثيق من شيم السياسة البريطانية. كما أن التلاعب بالألفاظ والجمل والصيغ هو من طبيعة السياسة نفسها. فلم يعبأ بهذه النذر بل وثق بالقوم معتقدا فيهم الإخلاص والوفاء.

وعاهدهم أيضا على أن يقطعوا السكة الحديد بين مرسين واسكندرونة فيعزلوا بلاد العرب عن بلاد الترك، ويسهلوا مهمة العرب فى نضالهم، ويدفعوا عن بلادهم كثيرا من الكوارث. فتنتهى الحرب فى بلاد العرب ويجد الترك نفسهم أمام الأمر الواقع بسرعة فترفع قواعد الحكومة الجديدة، ويصبح العرب سادة بلادهم.

وهذا ماعاهد عليه الحسين الإنجليز قبل أن يثور على الدولة، وقبل أن يرفع راية الجهاد والنضال، وقبل أن يصرم الحبال التى كانت تصله بالترك الذين محضهم النصح وحاول بمختلف الأساليب منعهم عن الإيغال فى العداء فلم يصغوا له. ومعنى ذلك أن الحسين لم يترك الباع إلا ممسكا باعا، ولم يخرج على الترك إلا بعد مايئس من إصلاحهم وإعادتهم إلى الصراط السوى، وبعد ما إعتقد أن تردده وإحجامه مؤذن بهلاكه وهلاك قومه وملبسهم ثياب العار والخزى يوم القيامة فأمة يقتل رجالها وزعماؤها ومتعلموها ويصلبون فى ميادين مدنها، وتسبى نساؤها وينفى رجالها وتستباح كرامتها، ثم تقيم على الخسف والذل، ولا تجرد سيفا فى وجه المعتدى الظالم ، الذى كان يتآمر على دولته ويعمل لدك بنيانها وهو يفتك بسادات العرب كما أثبتت الوثائق الرسمية المنشورة فى هذا الكتاب - أن أمة هذا شأنها محكوم عليها بالفناء والذل والاستعباد. ولقد وقى الحسين قومه هذا العار بنهضته وقيامه، ولم يقف عند هذا الحد بل تعداه إلى استغلاله أيضا من الناحية الإيجابية فعاهد الإنجليز، ونال منهم كل ما يمكن نيله من عهود ومواثيق. ولئن نكثوا عهده ولم يفوا له فالذنب عليهم - لا عليه - واللوم يجب أن يوجه إليهم. فهم الذين نكلوا وراغوا وفسروا وأولوا وظلوا حتى الساعة الأخيرة يسعون لتصفيتها والتخلص منها. ومعنى ذلك أن إنكارهم لها لم يك سوى إنكارا لفظيا بدليل محاولتهم تصفيتها بعد الحرب بمشروعين خطيرين:

مشروع لورانس، ومشروع كرزن وقد أفردنا لهما فصلا خاصا فى المجلد الثالث.

فالحسين ـ كما تدل القرائن ـ كان حسن النية فى الحالتين: فى مفاوضاته مع الترك وفى مفاوضاته مع الإنجليز، فقد سعى فى خلال المرحلة التى تلت إعلان الحرب إلى التفاهم مع أولئك والاتفاق معهم على قواعد معينة ومحضهم النصح، فأنذروه وتوعدوه وهموا به، فلما شعر بما يدبرون له استأنف مفاوضاته مع الإنجليز، وكانوا يداورونه ويغررونه، وهو يماطلهم أملا بأن يتم له التفاهم مع الترك، فلما يئس منهم أتم هذه المفاوضات، وقد نال فيها كل ما يمكن أن يناله من كان فى مركزه. وكما فشل مع الترك أولا فشل مع الإنجليز أخيرا، فأولئك لم يصغوا وهؤلاء لم يفوا، فعدم إصغاء الترك وعدم وفاء الإنجليز هو سبب مارافق القضية العربية من إخفاق. ومصدر هذا الجفاء بين العرب والحلفاء، ولن يزول إلا يوم يعيدون للعرب حقوقهم كاملة ويوفون بعهودهم.

١ ـ حادث رابغ وينبع

ونبدأ هنا بإيراد سلسلة حوادث بعثت على نفرة الحسين من الإنجليز، وجعلته يعدل رأيه فيهم، ويندم على حسن ظنه بهم. مبتدئين بحادث رابغ وينبع. فقد كان فاتحة النضال فى هذا الدور، وكان مقدمة الحوادث أخرى أعظم منه شأنا، وقد فصلناها واستقصيناها بقدر الإمكان.

لقد استنصر الحسين الإنجليز واستصرخهم لإمداده بالسلاح والرجال حينما شعر بخطر فخرى باشا، وكان يهدد باحتلال ينبع ورابغ والساحل كله. فبدلا من إرسال النجدات على جناح السرعة راحوا يسوفون ويماطلون وينتحلون شتى الأعذار للتخلص من إجابة الطلب. تاركين الثورة تحت رحمة الأقدار، وقد أثبتنا ذلك بالوثائق الرسمية المنشورة فى هذا الفصل وغيره، ويعترف الكولونيل بريمون فى كتابه بأنه لو كان على رأس القوى التركية فى المدينة قائد حازم مقدام غير فخرى باشا لبلغ مكة فى أيام الثورة الأولى بدون عناء، وقضى على الحركة فى مهدها.

ونعيد هنا ما قلناه قبلا. وهو أن قوات العرب فى ابتداء الثورة كانت محدودة جدا وكانت لا تزيد على شراذم من البدو لم تالف الحروب المنظمة، ولم تعتد الهجوم على الحصون والقلاع والتقيد بأوامر القواد والضباط. بعكس الذين كانوا يملكون قوى منظمة

على أحسن مثال ولديهم أجود أنوا ع الأسلحة.

ولقد أدرك فخرى باشا هذه الحقائق فحمل بنفسه غداة الغارة التى شنها الأميران على وفيصل على محطة المحيط بقوات كبيرة فشتت شمل أنصارهما. وخاف الحسين النتائج فأبرق يوم ١٥ رمضان (١٤ يوليو سنة ١٩١٦) أى بعد إعلان الثورة بخمسة وعشرين يوما فقط إلى مندوبه بمصر ملحا فى إرسال قوة مرفقة بمدفعية ورشاشات مع القائد السيد على (هو السيد باشا على) (لتقوية معسكرنا بالمدينة الذى هو الآن بمثابة حياتنا) وشكا الحسين فى برقيته من تصرفات السيد باشا على وإصراره على البقاء فى رابغ.

فرد عليه مندوبه يوم ٢٠ منه قائلا: «لقد أمر حاكم السودان (سردار الجيش المصرى) السيد على باشا بإطاعة جميع الأوامر التى يصدرها إليه مولاى، وأن يتحرك فورا إلى المدينة».

واقترح المندوب العربى على الحسين فى برقيته الموافقة على إخراجم حملة قوية من الجيش الإنجليزى إلى العقبة لقطع السكة الحجاز وتخريبها. فأجابه على الفور بالموافقة وقال له : «والنتيجة الحقيقية مرهونة على سرعة التخريب قبل ساعة بدون اهمال أو تباطؤ فالوقت ثمين جدا. ويجب عليك أن تقابل نائب الملك فى الحال وتحثه على تعجيل مباشرة هذا العمل الجوهرى» فأبرق إليه يوم ٢٩ منه يقول «قطع الخط من الشمال تقرر عندهم نهائيا، وقد وافقوا على إرسال طيارات إلى جدة لتكون تحت تصرف مولاى». بيد أنه عاد فأبلغه يوم ٨ شوال سنة ١٣٣٤ عدم إمكان إرسال طيارات إلى جدة، وقال أنه لم ينجح فى جميع ما بذله من السعى لأن الطيارات مشغولة فى سيناء، ثم عاد فأبلغه يوم ١٩ ذى القعدة أيضا أنه ليس فى استطاعة الحكومة الإنجليزية ارسال جنود إلى الحجاز لأسباب مختلفة.

ولقد ظل أمر رابغ وينبع والمدينة يشغل الحسين أربعة أشهر - أى حتى سقوط الطائف فقد سكن وأطمأن قليلا بعد تسلمها، لأنه مكنه من استخدام الجيش الذى كان يحاصرهم فى ميدان المدينة، كما سلح رجاله بما غنمه فيها من أسلحة ومدافع، يضاف إلى هذا وصول عدد من الجنود والضباط المدربين والرجال الفنيين فى هذه الفترة واشتراكهم فى القتال مما أدى إلى دفع خطر الترك. ولا نطيل الكلام عن هذه الحادثة فقد بسطنا بسطا وافيا فيما تقدم (انظر الفصل العاشر) وإنما نقول إنها تركت أثرا بليغا فى نفس الحسين

تنم عليه برقياته إلى نائب الملك، وفى نفوس أبنائه وأفهمتهم أن الذين عاهدوهم ووثقوا بهم غير أوفياء لعهودهم ومواثيقهم.

٢ ـ حادث المنشور

أعد الحسين بعد إعلان الثورة، منشورا[١] وجهه إلى العالم الإسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها وأذاعه فى مكة يوم ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤هـ و٢٦ يونيو سنة ١٩١٦ وضمنه من الأسباب والعلل ما ظن أنه كاف لتبرير عمله وأرسله إلى مندوبه بمصر لنشره فى صحفها وتوزيعه فى أنحاء العالم، وكتب إليه بهذه المناسبة فى يوم ١٢ رمضان يقول: المنشور صدر إليكم وقد راعينا فيه أساسات ما يقتضى رعايته وتقتضى الوداد وحسن الطوية قلنا لابد من أخذ رأى نائب الملك فى طريقة نشره فى جميع أنحاء الجزيرة. فالزيادة والنقص غير ممكنة، وإنما يمكن جعلها بصفة ملحق».

ولقد كان يظن أن الإنجليز لا يعارضون فى نشره، ولكن مندوبه فاجأه يوم ١٦ رمضان ببيرقية قال فيها: «لقد اعترض نائب الملك على ماجاء فيه خاصا بضرب الترك للكعبة المقدسة، وإحراق الستار. لاعتقاده أن هذه الجملة تغيظ القسم الأعظم من المسلمين فى الهند، لأن للاتحاديين هنالك تأثيرا عظيما، ويقول بأن هؤلاء الهنود يقولون إنه لا سبب لضرب الكعبة سوى قيام العرب. فرد عليه ببرقية يوم ١٩ منه قائلا «أما المنشور فهو عديم الأهمية من الوجهة السياسية، وإنى لم أنشره إلا مجاراة للرغبات فاحتجاج الهنود على ضرب الكعبة المعظمة لا أعرف له وجها. إذن كأنهم يقولون إن الكعبة للعرب دون الترك وإن الترك لإغاظة العرب بسبب قيامهم ضربوا كعبتهم فنسبة الترك إلى هذا مما لايخفى والحال على عكس ذلك. فالكعبة المعظمة ليست خاصة بالعرب أو العجم، وإنما هى لعامة المسلمين فتعظيم كل مسلم لها تعظيم للاسلامية، وهذا من البديهيات. أفكل من لا يدرك هذه الصراحة من الهنود وخلافهم حتى لو طوينا ضرب البيت من المنشور فكأنهم على كل حال يستاؤون من قيامنا، ولا يهمهم فى تلك الفقرة الا لنوزع المنشور فى جزيرة العرب برمتها».

ثم عاد يوم ٢ شوال فكتب إليه يقول «لا ندرى ما صنع الله بمنشورنا وكيفية طبعه» فأجابه فى ٣ منه بقوله: المنشور وصل باسم إلياس دبانة (هو وكيل الحسين الشخصى فى مصر) وما نشر حتى الآن، وسأتدخل فى أمره بناء على أمر مولاى، وسأذهب غدا إلى

١ ـ نشرناه بنصه الكامل فى الصفحات السابقة.

الإسكندرية لمقابلة نائب الملك، وأنشره قريبا. ثم كتب إليه يوم ٧ منه يقول: لم أتمكن حتى الآن من البت فى أمر المنشور، ولكن أرى أن يجعل مولاى الفظائع التى ارتكبها الأتراك في المدينة ذيلا للمنشور. ثم كتب إليه يوم ٨ يقول:

«نجحت مساعى فى أمر المنشور وأؤمل أن أتمكن من نشره بعد غد»

وفى يوم ١٤ منه أبرق إليه يقول: «أطلعت السد رشيد رضا على المنشور وعند ما قرأه قال أنه خير ما يكتب، وإنما فيه نواقص لغوية، ربما كانت من الطبع يمكن اكمالها وطبع المنشور بلغة مؤثرة. وكما عرضت سابقا يلزم التوسع قليلا فى بحث المظالم التى ارتكبها الأتراك ضد الأرمن، واحتقارهم للخلفاء الراشدين، منع نشر العلم فى البلاد العربية وما يتأتى من الأخطار فى حصر البلاد الحجازية. وإنى أرى الضرورة القطعية فى أمر هذا التوسع، فإما أن يأمرنى بنشر المنشور عينا وإما التوسع فيه بما تقدم ذكره وإما أن نرسله ثانية لمولاى مع الملاحظات فى البريد[1].

فأبرق إليه يوم ١٧ منه:

«قلت فى تلغرافك ١٢ منه (لم نعثر عليه) فى بحث طبع المنشور لابد من الوعد بثانى يتضمن الوجه والمتى (كذا) والحال أن بحثى فى شهداء الشام وقولى فيه دفعتين تاركين الأمر للعالم الإنسانى عموما، وللإسلامية خصوصا كاف لهذه الوجهة بالنسبة لاختصار المنشور، ثم قلتم فى برقية ١٤ منه عن الأرمن، وقد قلت فى منشورنا بلا تفرقة ذميهم ومسلمهم، وهذا أيضا كاف لمختصرية المنشور من جهة، ومن الأخرى الأعراض بما فعل الروس فى يهود بولندة وأمثال ذلك من الوقايع المشهورة هذه ملاحظاتى.

«أما بحث الجند، وأن أبناء المنتسبين إلينا سيكونون كذا وكذا فلا أسأل الله لهم إلا السعادة».

وفى يوم ٢١ منه كتب إليه مندوبه يقول: «رأيت بالنسبة إلى تأخر صدور المنشور ولاهتمام الرأى العام هنا بمعرفة الأسباب الداعية إلى قيام سيدنا ونواياه للإسلام والعرب أن أنشر ثلاث مقالات بدون إمضاء منسوبة إلى مصدر عربى سياسى تحتوى على ظلم

---

١ - حرصنا فى اثبات المكاتبات التى كانت تدور بين الحسين ورجاله على إيرادها بنصها الأصلى من دون تغيير ولاتبديل

الأتراك للعرب وعبثهم بالشريعة الإسلامية، وبعض الأسباب الجوهرية التى حملت سيدنا على القيام. إلى غير ذلك من الأسباب المقنعة، والتى تهم المسلمين عموما والعرب خصوصا فسمحت الحكومة بنشر المقاتلين، وكان لهما أعظم وقع حسن، وسنهتم بالكتابة عنها فى أمهات الصحف الإسلامية والمسيحية.

أما المقالة الثالثة وهى التى ذكرت فيها مسألة ضرب الكعبة، فقد منعت الحكومة الإنجليزية نشرها. وهذا دليل على معارضتهم التامة فى هذه المسألة، وعند ما رأيت امتناعهم ابتعدت عن الكلام فيها مخافة سوء الفهم فى العلاقات السياسية الحسنة فما رأى مولاى؟؟».

وفى يوم ٢٣ منه أبرق إليه مانصه:

«أبلغتنى الحكومة الإنجليزية رسميا اليوم أنه يمكن نشر المنشور بدون حذف أدنى شيئ منه، وسأعطيه اليوم لقلم المطبوعات وتنشره الصحف غدا صباحا».

ومع ماتضمنته هذه البرقية من وعد بنشر المنشور كاملا فقد نشر معدلا ومختصرا يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٦ وهذا نصه بعد التعديل ليقابل بالنص الأصلى:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا منشورنا العام إلى كافة إخواننا المسلمين»

«ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين»

كل يعلم بأن أول من اعترف بالدولة العلية من حكام المسلمين وأمرائهم هم أمراء مكة المكرمة. رغبة منهم فى جمع كلمة المسلمين، وتحكيما لعرى جامعتهم لتمسك سلاطينها من (آل عثمان) العظام طاب ثراهم، وجعل دار الخلد مثواهم، بالعمل بكتاب الله وسنة ورسوله صلوات الله عليه وتفانيهم فى انفاذ أحكامهما، ولنفس تلك الغاية السامية الرفيعة لا يزال الأمراء المشار إليهم محافظين عليها، فأنى حملت على العرب بذاتى فى سنة ١٣٢٧ ألف وثلاثمائة وسبعة وعشرين لفك حصار (ابها) محافظة لشرف الدولة، وفى السنة التى أعقبتها جرت عين هذه الحركة تحت قيادة أحد أبنائى. إلى غير ذلك مما هو فى هذا

المعنى، كما هو مشهود ومعهود إلى أن نشأت فى الدولة جمعية الاتحاد، وتوصلت إلى قبض إدارتها وكافة شؤونها بما كانت نتيجته انتقاصها من الممالك ما قوض عظمتها مما عرفه أفراد العالم، وخصوصا بخوضهم بها غمرات الحرب الحاضره، وإيقافهم إيامهم اليوم في موقف الهلكة التى لا تحتاج لبيان.

كل هذا لمحض غايات معلومة تأبى إحساساتنا البحث فيها، وتستدعى تفطر قلوب مسلمى المعمورة أسى وحزنا على دولة الإسلام، وتمزيق ما بقى من سكان ممالكها بلا تفريق بين مسلمهم وذميهم. فريق منهم بالصلب وأنواع الإعدام، والآخر بإجلائه عن وطنه على الصورة المعهودة والحالة المشهودة. علاوة على ما أصيبوا به فى أموالهم وأنفسهم من آفات الحروب. ولا سيما هذه الأخيرة التى كان للأرض المقدسة منها النصيب الأعظم كما يعلم مختصرا من اضطرار العموم حتى الدرجة الثانية من الأهالى إلى بيع أبواب دورهم وبواليبها وأخشاب سقفها، بعد بيعهم لكافة موجوداتهم، وذلك للحصول على سد. الرمق كل هذا وكأن جمعية الاتحاد لم تره كافيا لغرضها. كما يظهر من تجاوزها على إخلال الرابطة الوحيدة بين السلطنة السنية العثمانية وكافة مسلمى المعمورة. إلا وهى التسمك بالكتاب والسنة. فقد وصفت أحد صحفها الموسومة (بالاجتهاد) الصادرة فى دار السلطنة السنية سيرة الرسول صلوات الله عليه وسلامه بشر السير (نسأل الله العافية) وهذا بمرأى ومسمع من وزير الدولة الأعظم وشيخ إسلامها وسائر علمائها ووزرائها وأعيان رجالها، وشفعت هذه الجرأة بلغو قوله تعالى «للذكر مثل حظ الانثيين» فساوتهما فى الميراث، وعززتهما بالطامة الكبرى، وهى هدم أحد أركان الإسلام الخمس وهو صوم رمضان بالأمر بفطره على الجندى المقيم بالمدينة المنورة أو مكة المكرمة أو الشام مثلا، بدعوى أن زميله الجندى الآخر يقاتل فى حدود الروس ولفقت لهذا أقاويل المعارضة صراحة قوله تعالى «فمن كان منكم مريضا أو على سفر» إلى غير ذلك مما يمس بالأساسات الإسلامية من الإقدامات المشتهرة صراحة أحكام مرتكبها بعد أن ضربت على أيدى شوكة السلطان المعظم، وسلبته حتى حق الاقتدار على انتخاب رئيس كتاب (مابين) سلطنته الشريفة أو رئيس خاصته المبجلة المنيفة، فضلا عن النظر فى أمور المسلمين ومصالح البلاد والعباد. وما فى هذا من إسقاطهم لشروط الخلافة المطالب بها المسلمون، وجوب البراءة منهم والحالة هذه مما لا مشاحة فيه، ومع هذا فما زلنا نتأول صحة هذه الجرأة هربا وحذرا من نسبة تهمة التفرقة وبواعث الاختلاف، حتى ظهر الخفا وانكشف

الغطا، واتضح بأن الدولة أصبحت فى يد أنور باشا وجمال باشا وطلعت بك يحكمون فيها بما يشاءون ويفعلون بها مايريدون، وأبسط دليل على صحة هذا ماورد أخيرا لقاضى محكمة مكة الشرعية بأن لايحكم إلا بالشهادة التى تحررت فى محكمته بين يديه ولا يلتفت للشهادة التى يكتبها المسلمون فيما بينهم. غير مبالين بما فى آية البقرة. هذا كله من وجهة ومن الأخرى صلبهم فى آن واحد للواحد والعشرين رجلا من عظماء أفاضل المسلمين، وكبراء نوابغ العرب. عدا من صلبوه من قبل، وهم الأمير عمر الجزائرى والأمير عارف الشهابى، وشفيق بك المؤيد، وشكرى بك العسلى وعبدالوهاب الإنجليزى، وتوفيق بك البساط، وعبدالحميد الزهراوى، وعبد الغنى العريسى ورفاقهم المعلومون ولا ريب أنه يصعب حتى على ذوى القلوب القاسية إزهاق نفوس مثل هذا العدد فى آن واحد، ولو كانوا من بهائم الأنعام. وهب أننا التمسنا لهم عذرا وانتحلنا لهم مسوغا فى قتل هؤلاء الأفاضل، فما المسوغ لنفى عائلاتهم البئيسة البريئة من كل ذنب وفيها من الأطفال والشيوخ وربات الخدور من تنفطر لهم القلوب وتذهب إلا نفس حسرات عليهم، وأذاقتهم أنواع العذاب فوق ماقد أجرعوه من سم المصيبة بإتلاف عميدهم الذى خربت بفقده منازلهم، والله تعالى يقول: «ولا تزر وازرة أخرى» وإذا انتحلنا لهذه مسوغا أيضا. فما الذى يسوغ لهم مصادرة أملاكهم وأموالهم التى يأوون إلها ويستفيئون بها بعد أن قضوا على عزيزهم، وسلبوا من أيديهم أسباب عزهم، وإذا تعامينا عن هذا كله أيضا، وقلنا ربما كان لهم مسوغ إليه، فكيف يمكن أن ننتحل مسوغا لجراءتهم على قبر الأمير الابر والمجاهد ألتقى الزاهد مولانا الشريف عبد القادر الجزائرى الحسنى وإهانته وتحقيره.

هذا ما أبدوه من الأعمال أتينا به مختصرا تاركين الحكم فيه للعالم الإنسانى عموما والعالم الإسلامى خصوصا، وحسبنا برهانا على ماتكنه صدروهم نحو الدين والعرب رميهم للبيت العتيق الذى أضافته العزة الأحدية لذاتها السبحانية فى قوله تعالى «وطهر بيتى للطائفين» وهو قبلة المسلمين وكعبة الموحدين بقنبلتين من قنابل مدافعهم التى بحصن (جياد) أثناء قيام البلاد بالمطالبة باستقلالها، وقعت إحداهما فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع، التهبت بنارهما أستار البيت حتى هرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب، واضطرهم الحال إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهيب، ومانتهى أمرهم بهذا، حتى عززوا الاثنتين بثالثة فى مقام إبراهيم، وهذا عدا ما وقع منها فى بقية المسجد الذى اتخذوه هدفهم

الوحيد فى غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص، وما زالوا يقتلون الثلاثة أو الأربعة فى نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد القرب من البيت، وفى هذا من الاستخفاف والازدراء بالبيت وتعظيمه وحرمته مانترك القول والحكم فيه أيضا لعموم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها (نعم) نترك الحكم فى هذا الاستخفاف والازدراء للعالم الإسلامى، ولكنا لا نترك كياننا الدينى والقومى ألعوبة فى أيدى الاتحاديين، وقد يسر الله تبارك وتعالى للبلاد نهضتها كما وفقها بحوله وقوته لأخذ استقلالها وتكليل مساعيها بالفوز والنجاح بعد أن ضربت على أيدى موظفيها بيننا، ورجال حاميتها، فاستقلت فعلا وانفصلت عن البلاد التى لم تزل تئن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالا تاما مطلقا بكل معانى الاستقلال الذى لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجى، جاعلة غايتها ومبادئها نصرة دين الإسلام والسعى لإعلاء شأن المسلمين وقائمة فى كل أعمالها على أساس أحكام الشرع الشريف، الذى لا يكون لنا مرجع سواه ولامستند إلا إياه فى سائر الأحكام وكافة أصول القضاء وفروعه. مع استعدادها لقبول كل ما ينطبق على أصول الدين ويلائم شعائره من أنواع فنون الترقى الحديث وأسباب النهضة الصحيحة. باذلة كل مافى الجهد والطاقة لاعزاز العلم وتعميمه بين الناس على اختلاف الطبقات وعلى حسب الحاجة والاستعداد.

هذا ما قد قمنا به لأداء الواجب الدينى علينا. راجين من كافة إخواننا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يؤدوا فى ذلك ما يرونه واجبا لنا عليهم، لتحكيم روابط الأخاء الإسلامى، رافعين أكف الضراعة لرب الأرباب، ومتوسلين برسول الملك الوهاب أن يتولانا بالتوفيق، ويمدنا إلى مافيه خير الإسلام والمسلمين، والاعتماد على الله العلى الكبير وهو حسبنا ونعم النصير.

شريف مكة وأميرها

الحسين بن على

فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤

٣ ـ حادث القنفدة

وبينما كان النضال دائرا بينه وبينهم على قضيتى رابغ والمنشور فوجئ بحادث ثالث زاده تذمرا واستياء، ونعنى به حادث القنفدة واحتلال الإدريسى لها.

وبيان ما وقع هو أن السيد محمد على الإدريسى اغتنم فرصة الحرب والثورة فأرسل قوة من رجاله بعد الاتفاق مع الإنجليز هاجمت القنفدة، وهى ميناء صغير واقع على شاطئ البحر الأحمر بين جدة وجيزان، فاحتلتها يوم ١٠ يوليو سنة ١٩١٦ وأسرت حاميتها التركية ورفعت الراية الإدريسية عليها . ولما كان الحسين لا ينظر بارتياح إلى اتساع رقعة هذه الإمارة، ويعتقد بأن القنفدة حجازية، وأن الإدريسى معتد عليه أبرق إلى مندوبه بمصر يوم ٢٨ منه متذمراً، وطالباً استصدار الأمر للبارجة الإنجليزية التى وقفت أمام القنفدة حين مهاجمة الإدارسة وسهلت لهم عملهم بمغادرتها .

فرد عليه هذا يوم ٢ أغسطس قائلا «أسترحم من مولاى أن لا يتأثر من استيلاء الإدريسى على القنفدة، فالأحوال الحاضرة تجبرنا على السكوت الآن، وإننى أرى أن يكلف مولاى ويلسن باشا (الكولونيل ولسن معتمد انجلترا فى الحجاز) فقد كلفته حكومته تنفيذ أوامر مولاى بهذا الخصوص لكى يأمر البوارج الحربية فتساعد جنود مولاى على احتلال الموانئ الصغيرة، كالوجه وماشاكل ذلك ليكون العمل أتم».

وقبل أن يتلقى برقية مندوبه أرسل يوم ٢ شوال (أول أغسطس) البرقية الآتية إلى نائب الملك مباشرة وتوجها بكلمة «مستعجل».

«وما صادفته من المعاملات فى حادث القنفدة ما كنت أتصور أن أصادفه من حكومة بريطانيا العظمى بعد عشرين عاما . فضلا عن الحالة الحاضرة، سيما وأن القنفدة المذكورة هى داخل الحدود المقررة»

«اصرارى فى أمرها ليس من حرص جاه أو ماهو فى معنى ذلك، ولكن تيقن يا حضرة الوزير أنها متعلقة بروح المسألة رأسا ، ويتأثر منها جوهر الكيان الذى دخلنا فى أسبابه، سيما عكس تأثيراتها فى أمهات المواد والتشبثات بدون مجبر على ذلك وهذا الذى يمنعنى عن المساهلة فإنه ممكن تعويض المذكور باللحية ونحوها ألتمسكم بصورة قطعية تعديلها إلى هذا الشكل».

وفى اليوم التالى أرسل إليه البرقية الآتية أيضا «عقب تحرير تلغرافى لفخامتكم بالأمس أعاد علينا معتمد بريطانيا استيلاء الإدريسى على ولاية عسير عموما . وكان قوام حركتنا ومدارها محصورا تماما فى امداد وإعانة بريطانيا العظمى والله على ما أقول وكيل، أنادى باسم سيادته من مكة وسائر جهاتنا ، وحسبى على سلامة

حسياتى من شوائب الحسد والبغض كتاباتى التى هى تحت العدد والتاريخ لكافة مشايخ عسير بمعاونتهم، وطلبى القيام على متغلبة الأتراك. علاوة على ما ستراه فخامتكم فى مصر وما حول القنفدة من القبائل المقيمة لشهامتكم عن واسطة مرخصة بجدة، الذى ألزمنا على إرسال مامورنا درءاً للشقاق. فأن قصدنا وغايتنا حصول النتيجة المرغوبة بأى صورة كانت الإفادة منتظرة لحصر اشتغالاتى الذهنية بما يقتضى الاستحضارات الإكمالية».

وفى يوم ٤ منه أرسل إلى مندوبه بمصر البرقية الآتية:

١ ـ ضرورى اطلاعكم على تلغرافاتى بتاريخ الأمس وقبله لفخامة نائب الملك.

٢ ـ أخرجت الأمر من الرسميات إلى الخصوصيات لزيادة التأكيد أنه لا غاية لنا سوى سلامة العرب بدينهم وقوميتهم بأى وسيلة كانت، ليتحقق لدى الدولة البريطانية ضمائرنا لأننا مبتدئين نحن وإياهم فى معرفة بعضنا البعض، ولسلامة معظم الأمور من هلكة سوء الفهم وقصر الاطلاع. وصرحت هذا فى اجتماعاتنا غير مرة وبسطت يدى لأعاهد من يراه القوم، وإنى أول شهيد تحت رايته.

أروم أن أبعث إليكم كتاب السيد المشار إليه جوابا لنا قبل ثلاثة شهور لترون ما يقوله بأن العرب عصونى، وليس بيدى منهم واحد علاوة على مشافهة مندوبى محمد بن عريفان حتى اضطررت إلى الكتابة إلى كافة المشايخ بإطاعته والقيام معه، ولكن لست من ذوى الكبرياء والتعاظم ولا القصد إلا تأمين المصلحة وقراره لنا فى الحدود من البرك غربا إلى رأس وادى ضلع شرقا المعلوم لمن يعرف حدود البلاد الخصوصية، أما من جهة الجنوب فيأخذ مايشاء».

وفى يوم ٧ منه أرسل إليه المندوب البرقية الآتية:

«لقد تكلمت معهم بصورة غير رسمية فى مسألة القنفدة وفهمت أنهم سيكلفون الإدريسى بالجلاء عنها، والذى أراه إذا كان مناسبا أن تحتلها جنود مولاى عقيب إخلائها لأ القوم يودون أن تبقى تحت حكم مشايخها، وسأصر غدا على ضرورة بقائها بيدنا،

ولعلى استطيع أن أخبر مولاى غدا بما يتم بشأنها».

وكتب إليه يوم ١٧ يقول:

علمت بأن الإدريسى سيقابل الشيخ عريفان (مندوب الحسين) وبعده سيكلف مأموريه بأن يتركوا القنفدة، وقد صرح للانجليز بأنه عدو للأتراك وصديق حميم لمولاى.

٤ ـ اللقب

ماكادت مسألة القنفدة تحل على هذا المنوال وقد احتلها جند الحجاز ودخلت فى حوزته، حتى طرأ طارئ جديد أدى إلى كثير من الأخذ والرد، واستغرق حله بضعة أسابيع شغلت أسلاك البرق بين مصر والحجاز طويلا بشأنه.

وبيان ذلك أنه بعد ما استقرت الحالة فى الحجاز، وزال الخطر عن الثورة رأى رجال مكة أنه لابد من إنشاء حكومة تسوس البلاد وتدبر أمورها، فاجتمع أهل الحل والعقد فى مكة يوم الخميس ٦ محرم سنة ١٣٣٥ ـ ٣ ديسمبر سنة ١٩١٦ وبايعوا الحسين ـ وكان حتى ذلك اليوم يلقب بلقب شريف مكة وأميرها ـ ملكا على العرب. وفى يوم ٧ منه أصدر خطابا ملكيا إلى الشيخ عبد الله سراج مفتى الأحناف فى مكة، وجه فيه إليه منصب قاضى القضاة، وعينه وكيلا عن رئيس الوكلاء، واختار لبقية الوكالات الذوات الآتية أسماءهم:

ولدنا عبد الله بن حسين لوكالة الخارجية، ويكون وكيلا عن وكيل الداخلية (هو الأمير فيصل) أما رئيس الوكلاء فهو الأمير على.

عبد العزيز بن على رئيس أركان حرب، ووكيل رئيس الجند.

الشيخ على مالكى: وكيلا للمعارف

الشيخ يوسف بن سالم: وكيلا للمنافع العمومية

الشيخ محمد أمين: وكيلا للأوقاف

الشيخ أحمد باناجه: وكيلا للمالية[1].

وعلى أثر ذلك أذاع الأمير عبد الله بصفته وكيل الخارجية البلاغ الآتى على وزارات

١ ـ منحهم لقب وكلاء باعتبارهم وكلاء عنه فى إدارة مصالحهم.

خارجية الحلفاء والمحايدين قال:

«يملء السرور أبلغ سعادتكم أن أفاضل البلاد ووجهاءها وعلماءها وكافة طبقاتها قد اجتمعوا فى صباح هذا اليوم وأقروا باتفاق الآراء على مبايعة حضرة صاحب الجلالة والسيادة مولاى الشريف الأعظم حسين بن على بالملك على الأمة العربية، فهو ملك العرب الأعظم. بناء على ما تحققت البلاد من كفاءته وإخلاصه الحقيقى للوطن، ورغبته الصادقة فى نشر ألوية العلم والعدل فى جميع أرجاء هذه البلاد العربية التى غادرتها عصابة الاتحاد والترقى ـ المعروفة لدى العالم بأسره بالمساعى والمقاصد المخالفة لكل شريعة ونظام، ولتعمدها استئصال كيان البلاد المادى والمعنوى المشهودة آثاره فى طائفة غير قليلة من مسلمين ومسيحيين ودروز ممن لا ذنب لهم غير وطنيتهم الصادقة وصفاتهم العلمية. وأن الأمة العربية لتود من سعادتكم اعتبارها عضوا عاملا فى الهيئة الاجتماعية ـ كما ستثبت ذلك بعناية الله وتوفيقاته الصمدانية».

لما وصلت هذه البرقية إلى مصر حجزها قلم المراقبة الإنجليزى خمسة أيام ولم يرسلها إليم المندوب . ولما كان الخبر قد اتصل بهذا من مصدر غير رسمى أبرق يوم ٧ منه إلى وكيل الخارجية يقول ما نصه: «اتصل بى من مصدر غير رسمى أن سموكم أنبأتم الحكومة المصرية بأن جلالة سيدنا قد أعلن الملك، ولم يكن لدى علم بذلك. فألتمس من سموكم التكرم بإفادتى» ثم أرسل إليه الكتاب الآتى:

«تلغرافكم المبشر بإعلان مبايعة الأمة العربية لجلالة سيدنا المعظم ملك العرب وصل متأخرا خمسة أيام عن تاريخ إرساله. ولقد تلقيت الخبر بطريقة غير رسمية قبل وصول البرقية، وأرسلت لسموكم مستفهما تلغرافيا عن صحته، ولعل استفهامى هذا هو الباعث على تسليمهم التلغراف إلى».

«وبعد وصول التلغراف لى طلبنى مدير القلم العربى فى السلطة العسكرية، وأشار على بكتمان هذا الخبر وعدم نشره. فأجبته بأن هذا تجاوز على حقوقنا، وأننى ملزم بنشره فرجانى حينئذ أن أتمهل إلى صباح الغد، وأن أقابله ليبلغنى رأيه النهائى بعد مشاورة نائب الملك. فإن أذنوا بنشره نشرته وإلا فإنى من الواجب على أن أحتج عليهم وأستأذنكم تلغرافيا فيما أفعل. وحذرا من أن يؤخروا تلغرافى إليكم قدمت هذه العريضة، حتى إذا وصلتكم ولم يكن قد انتهى إليكم تلغراف عن نتيجة الذى حصل. اسألوا نائب الملك عن

سبب انقطاع مخابراتى، وهل نشر الإعلان أم لا.

«ثم أرجو من سموكم أن لاتظنوا بأننى سأستعمل بهذا الاحتجاج شيئا من الشدة أو ما ينافى الذوق. بل بالعكس سأفرغ أقصى جهدى لسبك الاحتجاج فى قالب سياسى لا ينافى المجاملات».

ثم أرسل إليه يوم ١٣ منه البرقية الآتية:

«فاوضت رجال السلطة الإنجليزية بشأن الإعلان بمبايعة صاحب الجلالة الملك على العرب، وقد انتهت المفاوضات بيننا. إلا أنهم رغبوا التربص إلينا ثلاثة أيام ليدرسوا فى خلالها ما يكون من حالة العالم الإسلامى، وكيفية هذا النبأ، وأنه متى عرف ذلك يمكن إفراغ الإعلان بشكل يلتئم مع الحالة المذكورة ولا أرى بأسا فى هذا».

وفى يوم ٢١ منه أبرق إليه قائلا:

«قابلت بالأمس معتمد فرنسا السياسى بمصر. وبعد المجاملات الرسمية حادثته بشأن الاعتراف بالملك فأجابنى بأن لفظ العرب عامة يشمل أمثال تونس. فقلت بأن هذا الاصطلاح سابق، ولم يؤد يوما ما معنى سلطان الترك: سلطان جميع الأتراك والمقصود به البلاد العربية. ثم بينت له لزوم سرعة اعتراف الحلفاء بهذا الأمر ليشجعونا فى عملنا المشترك، ونحن ننتظر من الحلفاء مثل هذا التشجيع لننشط فى حركاتنا، ثم شرحت لزوم مساعدة الأمة الفرنسوية الكريمة. التى هى بمجدها وتاريخها جديرة بالعطف على أختها العربية. فهما عريقتان بالحرية والاستقلال. فللأمة الفرنسوية أن تنظر للأمة العربية كصديقة وحليفة محترمة مخلصة. لتبنى أساسات السياسة على الصراحة والإخلاص. أما إعلان خبر الاستقلال فلم أوفق إليه».

وفى يوم ٢٢ منه أبرق إليه:

«كررت تشبثاتى مع ولاة الأمور الإنجليز مبينا أن لفظة «ملك العرب» ليست عامة كما يظنون أنها تشمل مصر والجزائر وغيرها. بل المقصود ملك البلاد العربية. وأكدت لهم أنه لايوجد واحد من أصحاب الفكر والرأى فى الأمة العربية يمكن أن يرضى بغير هذا اللقب

الذى هو حقهم الطبيعى. ثم أظهرت أن الإحجام عن تشجيعنا مما يدعو إلى فتور روح الحركة فينا. فقالوا أنهم يأملون أن يرد الجواب فى ظرف أسبوع. لأنهم يشتغلون بالمذاكرة مع حلفائهم، وكرروا أنهم يريدون التمسك بمعاهداتهم مع صاحب الجلالة مليكنا وإننى أرى لزوم إظهار التجلد السياسى».

وفى يوم ٢٥ منه تلقى من مكة البرقية الآتية:

«تلقينا برقيتكم أفيدونا أولا هل أنتم بادأتموه بالبحث أم هم البادئون؟ علمنا من بحثكم أنه كان مع معتمد فرنسا، ولكن بحثكم الثانى مع أى موظف من حكومة جلالة الملك، وإذا عملنا هذا تعين ما يقتضى الجواب عنه».

وفى اليوم نفسه أرسل الحسين إلى المندوب بمصر البرقية الآتية بتوقيع الشيخ فؤاد الخطيب:

«رأى صاحب الجلالة مولاى المعظم أن أبلغكم اجتناب مباحثة مأمورى السياسية بما يتعلق بذلك، وأن بادأوك فعلق جوابهم على طلب تعليماتنا، وما يردك منا تفيدهم به. فتبلغ أولا من ذاكرك بعنواننا الجديد من مأمورى حكومة جلالة الملك جزيل توقيراتى الجدية وأن معلوم كمالاتهم تكليفى بعنوان الخلافة العربية فى مبادئ مذكراتنا فى أمر النهضة. ثم تبليغك إيانا بتاريخ رمضان رغبتهم فى تلقيبنا سلطان العرب وأن غياب ابنى زيد ـ الذى كان يشتغل بالأوراق إذ ذاك يحول دون تعيين يوم وعدد تلك الافادة. فمن الضرورى وجودها وإجابتنا عنها فى قيوداتك. ولذلك فأن تأويلها الآن فى عنواننا المقيد «بالبلاد العربية» عقب سماحهم واستنسابهم لنا عنوان الخلافة العربية وسلطان العرب بما لهما من السلطة الواسعة اعتراف بمغلوبية كمالاتهم ومداركهم السامية. أمام الخيالات المحضة. إذ إن مصر ليست من البلاد العربية وتونس والجزائر بطريق الأولى. ولا شك بأن دوام حدوث مثل هذه الخيالات والذهابات يحكم علينا بالتردد فى العمل ونتيجته إحباط مساعينا وإياهم نحو الحقيقة التى ثقتى واعتمادى عليها بعد المولى الجأتنى إلى اقتحام ما ذلله البارى من المهالك والمخاطر»

«ولقد أردت ايفاد ابنى عبد الله لإزالة ما عسى أن يحدث من أمثال هذا من سوء

التفاهم ترجيحا على بقائه الضرورى لدينا. ولكن لم تسعفنا الأقدار إلى إعادة حصولنا على هذا الأمل المهم من بشرانا بقدوم جناب صاحب المعالى السردار والحاكم العام للسودان إلى جدة، ليبسر البارى بمذاكراتى لمعاليه زيادة تأمين الوصول إلى النتيجة المقدسة المقصودة، وخدمة البشرية وصيانتها من أمثال هذه الشوائب. فإن المقصد نزيه والغاية شريفة وإننا بحول الله تعالى ممن يحافظ على شعار الوفاء مع الإخاء. فضلا عن حلفائنا الكرام الذين يعجزنا شكر صنيعهم».

وفى يوم ٢٩ منه أبرق المندوب بمصر قائلا:

«بلغت اللازم لحكومة جلالة الملك، وأكدوا بأن لا سبب لتأخير إلا اشتغالهم بالمذاكرة مع سائر حلفائهم لما لهذه المسألة من عظيم الشأن. وأن بريطانيا العظمى تحافظ على شرفها وعهودها وأنها تبذل كل مالديها فى سبيل هذه الغاية الشريفة وتصرف أقصى جهدها لتبنى سياستها على مكارم الأخلاق ولكن مسألة كهذه هى من أعظم المسائل، وليس من الممكن الجواب عليها بدون تأمل ومذاكرة، لكى يكون جوابهم مطابقا لما يلزم. ومن الطبيعى أن هذا يستغرق زمنا طويلا. وهم شاكرون احساسات صاحب الجلالة نحوهم ويرجون أن هذا التأخير الضرورى لا يزعج مولاى. وأما إفادتى التى كنت قد ذكرتها هى بتاريخ ٩ رمضان والعبارة هى «تباحثت مع نائب الملك لأجل لقب «ملك العرب» فوجدته ميالا لقبوله».

وفى يوم ٢٠ صفر سنة ١٣٣٥ أبرق وكيل الخارجية إلى المندوب بمصر: أمر استقلال بلادنا قد بلغتنا به بريطانيا وفرنسا فى الأسبوع الماضى بصورة رسمية ودولة روسية بلغتنا بأنها مصدقة على كل ما بلغنا إياها حتى أن حكومة بريطانيا شرعت قبل ثلاثة أيام تخاطب سيدى ومولاى بعنوان ولقب صاحب الجلالة.

وفى يوم ٢ ربيع الأول أرسل المندوب بمصر قائلا:

نشر اليوم فى الصحف البلاغ الآتى: اعترفت الحكومة البريطانية وحكومة جمهورية فرنسا رسميا بشريف مكة ملكا على الحجاز.

وهكذا. وبعد مفاوضات ومكاتبات استمرت نحو ٥٠ يوما اعترف الحلفاء بالحسين ملكا على الحجاز. لا على العرب كما لقبه قومه. فكانت أيضا صدمة جديدة صدمه بها الحلفاء.

وهذا ملخص ما قاله الكولونيل بريمون فى كتابه الحجاز فى الحرب العظمى عن مسألة اللقب وقد اشترك فى المفاوضات التى دارت حولها قال «وفى هذه الفترة وفترة الأشهر الثلاثة الأخيرة من سنة ١٩١٦) حدث حادث ما كان الانجليز ولا الفرنسيون يتوقعون حدوثه مطلقا، وأعنى به المناداة بشريف مكة الأكبر ملكا للعرب. ففى يوم ٢ المحرم (غداة دخول السنة الهجرية الجديدة) دعا الأمير عبد الله إلى اجتماع بحجة تبادل التهانى بالسنة الجديدة، ولما تكامل الجمع وقف الشيخ فؤاد الخطيب مدير جريدة القبلة وأستاذ كلية غردون فى الخرطوم، وسيرد اسمه كثيرا فى هذا الكتاب، وخطب خطابا ملأه بالثناء على الحسين، وتغنى فيه بمجد العرب، وختم بعرض طائفة كبيرة من الكتب زعم أنها وردت من سورية، وأنها اعترفت بالحسين بن على ملكا على العرب فنهض الجالسون ونادوا بالأمير ملكا على العرب، فأجابهم هذا بأنه ما أراد الحرب، وأنه لم يخض غمارها إلا لأجل شعبه وفى سبيله، وأن للمسلمين أن يختاروا فى المستقبل خليفتهم، وأن علينا أن نضع نصب أعيننا فى الوقت الحاضر تحرير العرب وانقاذهم فقط» فرد عليه أحد شيوخ البدو الحاضرين بقوله «إذا كنت لا ترضى أن تكون خليفة فمن يكون الخليفة إذن؟»

«وبعد قليل أبرق الأمير عبد الله وكيل الشؤون الخارجية للملكة العربية إلى البعثة الفرنسوية بخير البيعة، واتفق الكولونيل ولسن معتمد بريطانيا مع الكولونيل بريمون على الاكتفاء بتقديم التهانى، وكتب هذا إلى وزارة الخارجية الفرنسوية قائلا: لو كان لنا ممثل سياسى فى مكة لما فوجئنا بمثل هذه المفاجأة الغريبة» وقد أدت هذه الملاحظة إلى إرسال ابن عزوز ترجمان القنصلية الفرنسوية فى جدة قبل الحرب إلى مكة بصفة معتمدا لفرنسا

«وعلل السى قدور بن غبريط فى تقرير رفعه إلى وزارة الخارجية الفرنسوية هذه الحركة غير المتوقعة بأنها نتيجة الصمت الذى يلتزمه الحلفاء إزاء ما يطمع به الملك من توسيع حدود أراضيه».

«وقوبل خبر هذه المبايعة باستغراب فى القاهرة ولم يشجع المستر ستورس والكابتن لورانس الأمير عبد الله حينما اجتمعا به يومى ١٦ و ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٦ فى جدة على الاندفاع فى تحقيق هذه الفكرة وقال لورانس قبل عودته إلى القاهرة «لقد نصحنا عبد الله بأن يأخذ المدينة قبل أن يفكر فى أن يكون ملكا على سورية وفلسطين».

«وكانت القاهرة غير مرتاحة إلى ما وقع، لأنها كانت تخشى أن يؤدى هذا التصرف

إلى نفرة الأمراء العرب الآخرين من الشريف وتخوفهم منه. كما أن فشله أو سقوطه يكون عظيم الأثر فى الهند».

«وأبرق السير هنرى ماكماهون إلى الشريف معربا له عن عدم موافقته فأجابه بأنه لم يفعل ما فعله إلا نزولا على رغبة كبار قومه وعلمائهم وشيوخ القبائل، وأنه مستعد للتنازل عنه إذا كانت انجلترا لا تقره».

«وفى يوم ١١ نوفمبر سلم الكولونيل ويلسون والكولونيل بريمون بأمر حكومتيهما، وبعد اتفاقهما، إلى الشريف مذكرة متحدة المعنى فى قضية المبايعة، وتولى ابن عزوز تقديم الرد الفرنسوى إلى الأمير عبد الله فقال له بهذه المناسبة «إن الحلفاء مخطئون بترددهم فى الاعتراف رسميا بلقب والدى الجديد» ثم قال انظروا إلى الألمان كيف يعملون على أعلاء مقام تركيا وزيادة نفوذها. فقيصر ألمانيا لا يخاطب السلطان إلا بقوله «صاحب الجلالة المقدسة» فيجب على الحلفاء أن لا يقتصروا فى مساعدتهم للدولة العربية الجديدة على الماديات. بل يجب أن يتخطوها إلى الأدبيات والمعنويات فيعلوا مقامها ونفوذها، وقال إن العالم الإسلامى كله يتجه بأنظاره نحو الدولة العربية الجديدة».

«وتبادل رجال الحكومتين الإنجليزية والفرنسوية المذكرات بهذا الشأن. ففى يوم ١٧ نوفمبر أبرق سفير انجلترا فى باريس من لندن إلى السردار فى القاهرة يقترح عليه أن يلاحظ على الشريف تسرعه فى قبول البيعة ويقول: إن الحكومات الثلاث المتحالفة تعتبر الحسين رئيسا للشعوب العربية الثائرة على الترك، وأنها تعد نفسها سعيدة بأن تعترف به ملكا شرعيا وفعليا على الحجاز على أن لا يلقب «باللقب الملكى» لأن ذلك يؤدى إلى وقوع الشقاق والانقسام بين العرب. وقد يحول فى المستقبل دون تسوية شؤون شبه الجزيرة تسوية تبعث على الارتياح.

«وختم السفير برقيته بتهنئة العنصر العربى وشكره على جهوده. مؤكدا أن الحكومة البريطانية وحلفاها متفقون على ضمان استقلال العنصر العربى، والمحافظة عليه بكل مايملكونه من قوى».

«ولقد رأى المسيو بريان حين كتابة هذه البرقية أبدال كلمة «العنصر العربى» بالشعوب العربية».

«وبعد أخذ ورد طويلين بين الحكومتين اتفقتا فى أواخر سنة ١٩١٦ على الاعتراف

بالملك ففى يوم ٣ يناير سنة ١٩١٧ زار ابن عزوز الملك وسلمه، كتابا من الكولونيل بريمون قال فيه: إن الجمهورية الفرنسوية تعترف به ملكا على الحجاز، وأن يكون لقبه هكذا «جلالة ملك الحجاز» وقد سلمه أيضا الكولونيل ويلسن فى الوقت نفسه مذكرة بمثل هذا المعنى. فرد الملك على ابن عزوز قائلا أنه لا أهمية للقب الملك فى نظره، وأنه لا يفكر إلا فى خدمة أمته وبلاده، وكلفه ابلاغ شكره إلى حكومته».

وقبل ابلاغ الاعتراف رسميا كتب المندوب العربى بمصر إلى مكة يوم ٢٨ صفر سنة ١٣٣٥ يقول إنه علم بأن الحكومتين الفرنسوية والإنجليزية اعترفتا بصاحب الجلالة ملكا على الحجاز. ولما كان هذا الإعلان يكدر جميع المحبين فهو يسأل عن رأى صاحب الجلالة بما يجب عليه أن يعمله فجاءه الجواب الآتى:

«لا لزوم لمثل هذه المساعى لأنها تخل بما نحتاج لباقى الأعمال وتحدث مواضيع دقيقة».

٥ ـ محاولة استرداد القوة البريطانية من رابغ

فى أواسط شهر أكتوبر سنة ١٩١٦ وصل إلى جدة المستر ستورس السكرتير الشرقى لدار المندوب السامى بمصر والكابتن لورانس فجاء الأمير عبد الله لاستقبالهما والتحدث معهما، وبعد السلام وتبادل المجاملات المعتادة قال المستر ستورس: أبلغكم، وأنا آسف، أن الحكومة البريطانية قررت استرداد القوة التى أرسلتها إلى الحجاز لهياج مسلمى الهند عليها، وكان للإنجليز بوارج حربية فى رابغ، وكانت رابغ نفسها لا تزال تحت رحمة الأقدار فارتج على الأمير عبد الله، ولم يفتح عليه بشئ يتكلم به فترك المكان وانسحب من دون أن ينبس ببنت شفة ـ فالتقى وهو منصرف باكولونيل بريمون مندوب فرنسا فسأله إلى أين

ـ إلى مكة

ـ ولماذا أراك مستعجلا

ـ لأننا قررنا عقد الصلح والانتهاء من مسألة الحرب. فقد عرض علينا هؤلاء الاعتراف باستقلال العرب، وبما أن الاستقلال هو الغاية من حركاتنا فأننا مستعدون للانسحاب فيحل غيرنا محلنا من المعروفين بالميل إلى الترك، وتدور المفاوضات على أساس الاعتراف بالاستقلال وهو المطلوب.

فأسرع الكولونيل بريمون حينما سمع هذا الكلام إلى المستر ستورس والكابتن لورانس

وأبلغهما ما قاله الأمير. فلحقا به وألحا عليه بالرجوع إلى المكان الذى ينزلان فيه لاتمام البحث، فاعتذر وقال إنه ليس باستطاعه البقاء بعد الذى سمعه، وأنه سيبلغه حرفيا إلى والده فهو صاحب الشأن.

فكررا الرجاء والالتماس وقالا: إن هنالك سوء تفاهم، وأن الأمر مجرد اقتراح لا أكثر ولا أقل، فإما يقبل أو يرفض وبما أنه لا يوافق عليه فأنه يعد مرفوضا. فقال أنه بعد الذى سمعه لابد له من ابلاغه إلى والده ليتدبره، وبعد أخذ ورد طويلين وافق على أن يؤجل سفره لمدة قصيرة، ولايسرع فى طريقه إلى مكة ريثما يكاتبان لندن ويحصلان منها على تصريح خطى بأن انجلترا لا تفكر فى استرداد قواها من الحجاز، وأنها ستستمر فى مساعدة الثورة. وهكذا كان

ولم يشر الكولونيل بريمون فى كتابه إلى هذه الحادثة وقد سمعناها من الأمير عبد الله بالذات. مع أنه لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولم يدع نقيصة إلا ألصقها بالعرب وحركتهم.

٦ ـ سعى الفرنسويين للاستيلاء على سورية

فى أواسط شهر إبريل سنة ١٩١٧ وصل إلى القاهرة المسيو جورج بيكو المفوض السامى الفرنسوى لسورية على رأس وفد من رجال فرنسا، كما وافاها من لندن السير مارك سايكس المفوض السامى البريطانى، وهما بطلا المعاهدة المعروفة باسمهما، والمختصان بالنظر فى شؤون البلاد العربية من قبل حكومتيهما.

وخطب الأول خطبة سياسية فى طائفة من اللبنانيين اجتمعوا فى فندق شبرد. مما قاله إنه آن الأوان للنظر فى مصير سورية ولبنان، وأن الحلفاء قد اختاروا فرنسا وصية على لبنان، وأن نظام الحكم فى الداخلية سيكون استشاريا، وأنه كان قبل سنتين فى مصر ثم غادرها إلى أوربا ليعمل لأجل سورية. وقد تحددت مهمته باتفاق جميع الدول. فهو ذو صفة رسمية فى الوقت الحاضر، ولقبه الرسمى «مفوض سام» وأن فرنسا والحلفاء لا يقصدون فتح البلاد، وإنما يقصدون تحريرها. وودع الحاضرين فى الختام بقوله: «أودع مواطنى المستقبل هنا ذاهبا إلى الإسكندرية للاجتماع إلى مواطنى من أمثالكم هنالك».

ولما كانت هذه الخطبة هى الأولى فى بابها. ولما كان المسيو جورج بيكو من الرجال

الرسميين الذين يقام وزن لأقوالهم وتصريحاتهم، وبما أنه جاهز بأن فرنسا ستكون وصية على لبنان، مما يعد خرقا للعهود المقطوعة للعرب، طير المندوب العربى بمصر إلى مكة بالبرق خلاصة ما وقع، وأضاف عليه أن معظم الذين سمعوا الخطبة ما كانوا مرتاحين إلى ما قيل، وأنهم انتقدوا تصرف المندوب وطلب من وكالة الخارجية ابلاغه الخطة التى يسير عليها ازاء هذا الحادث، فجاءه الجواب بأن يقابل نائب الملك ويسأله عن معنى الحركة الجديدة.

هذا من جهة واحدة. أما من الجهة الأخرى فقد أثارت هذه التصريحات ضجة شديدة بين السوريين واللبنانيين فى مصر. لأنها دلت على حقيقة نيات الفرنسويين، وعلى ما يضمرونه لبلاد الشام، وجاءت مصداقا لما كان يشاع عن رغبتهم فى امتلاكها بأى طريقة كانت، وعن الاتفاق السرى الذى عقدوه فيما بينهم وبين الانجليز لاقتسام بلاد العرب وكتموا أمره. ونعنى به اتفاق سايكس – بيكو المشهور وقد نشرناه فى ما تقدم سيما وقد كانت الدلائل تدل على نواح أخرى، خصوصا محاولة الحلفاء صد العرب عن الإيغال فى الزحف نحو الشمال، وتحديدهم منطقة عملهم فى دائرة ضيقة لا تتجاوز الحجاز - على صدق الإشاعات الجديدة.

وقابل المسيو جورج بيكو بعد ذلك بأيام المندوب العربى فى القاهرة فقال له: إن المسائل المتعلقة بالمستقبل يسهل حلها بمفاوضات واتفاقات تعقد مباشرة. ولم يشر بشئ فى هذه المقابلة، وقد نقل المندوب مادار فيها بالبرق إلى مكة عن خطبته، وإنما قال أن العرب جديرون بالحياة الاستقلالية إذا لم يستسلموا للفوضى، وأنه عمل مدة وجوده فى أوربا على تأييد الفكرة العربية الاستقلالية، لما خبره من حالة العرب أثناء وجوده قنصلا لدولته فى بيروت قبل الحرب.

وفى أول مايو سنة ١٩١٧ غادر السير مارك سايكس القاهرة إلى جدة لمقابلة الحسين فبلغها يوم ٤ منه وكان معه فى رحلته هذه الكولونيل ويلسن المندوب البريطانى فى جدة، وقد جاء القاهرة لمقابلته والعودة معه. ويلوح لنا أن الغاية من زيارة هذين القطبين السياسيين للقاهرة فى تلك الأيام، وسفر الأول إلى جدة ومقابلته الملك ثم رجوعه إلى القاهرة واجتماعه إلى زميله جورج بيكو، وسفرهما معا إليها واصطحابهما الأمير فيصل من ميدان القتال، وحضوره الاجتماعات التى عقدت بينهما وبين والده - يلوح لنا أن الغاية من كل ذلك هى ابتكار تسوية تحل الاختلافات التى ظهرت يومئذ على مصير سورية

والعراق وفلسطين ـ لأن الحلفاء كانوا مجمعين على الاعتراف باستقلال الحجاز وبحكومته، وما كانوا يطمعون بالتدخل فى شؤونه مطلقا، أى أن قضيته كانت منتهية من هذه الجهة، ولذلك انحصر الخلاف فى مصير هاته الأقطار.

والظاهر أن الحلفاء كانوا يظنون أن فى إمكانهم الوصول إلى مثل هذه التسوية مع الحسين ـ رغم صراحة العهود المقطوعة له، ولعلهم كانوا يعتمدون على اعترافه فى المكاتبات التى دارت بينه وبين السير هنرى مكماهون، بما لانجلترا من مركز خاص فى البصرة، وتعهده بأن يؤجل الاتفاق على مصير سورية إلى مفاوضات خاصة تدور بعد الحرب.

تقرير ابن غبريط

وربما كان السى قدور بن غبريط رئيس الوفد الفرنسوى الإسلامى السياسى إلى الحجاز فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٦ أول من نبه الفرنسويين إلى المشاكل التى قد يستهدفون لها فى سورية من جراء اشتداد ساعدة الحركة العربية واتساع نطاقها. فقد قال فى تقرير رفعه إلى وزارة الخارجية الفرنسوية يوم ٢ ديسمبر سنة ١٩١٦ أى على أثر رجوعه من مكة ما ملخصه «لا ينطوى استقلال العرب فى عرف الشريف الذى أعلنه على تحرير الأماكن المقدسة فقط، بل يمتد إلى ما وراء ذلك فهو يطمح إلى إنشاء دولة عربية قوية ذات شأن تشمل حدودها الجغرافية بلاد العرب كلها، وقد قال لى بهذا الصدد أن بلاده لا تستطيع أن تعيش منفردة بسبب ضعف مواردها. بل لابد لها من الاعتماد على الأقطار المجاورة لها، وهو يشير بذلك ضمنا إلى سورية ودمشق. ولايخفى ابنه (يشير إلى الأمير عبد الله) مطامعه من هذه الناحية. ويجب على أن أصرح هنا بأن خلافا مع الشريف قد يجعل استقرارنا فى سورية عرضة لمصاعب، إذا لم نبادر إلى اغتنام فرصة ضعفه الحاضر فنعقد معه اتفاقا يحدد مطامعه، ويعترف بما له من مصالح لا تتعارض مع مصالحنا.

«على كل حال فلابد لنا من مساعدته ماديا وأدبيا. لأننا نخشى أن تؤثر فيه انتصارات ينالها الترك فتحمله على التخاذل، ولقد أبان لى بجلاء، وكان ابنه عبد الله أكثر منه صراحة، بأن تقاعدنا عن مساعدتهم فى حالة الخطر قد يعجل فى حمل الحكومة العربية

على التعاقد مع الترك، وقد يتخذ أعداؤنا المصير السيئ الذى صارت إليه الدول الصغرى التى حالفت فرنسا وروسيا وانجلترا، ثم استهدفت لما استهدفت إليه من مصير سيئ بسبب غزو الألمان لها واستصفائهم بلادها، وسيلة فيشجعوا العرب على اخماد سيوفهم والوقوف فى جانب الترك ضد الحلفاء.

«ولابد لى من القول أن ما يظهره الموظفون الانجليز من عدم اهتمام بمعالجة هذه الشؤن يزعج الشريف وابنه، ويزيد فى مخاوفهما وأسفهما خصوصا بعد ماظهرت آثار الخلاف فى وجهات النظر بين ولاة الأمور المدنيين والعسكريين الانجليز أنفسهم فى القاهرة، وما يجهر به بعضهم من عدم الوثوق بفرنسا وتمثل سياستها فى بلاد العرب بعثة عسكرية أثار وجودها ثائر الحسد فى نفوسهم».

فالغاية التى رمى إليها السر مارك سايكس من رحلته الأخيرة إلى مصر ومن تردده على جدة واجتماعه بالملك ـ وتقول برقية أرسلتها وكالة الخارجية العربية بمكة يوم ١٠ رجب سنة ١٣٣٥ ـ مايو سنة ١٩١٧ إلى المندوب العربى بمصر[1] أن السير مارك سايكس قادم بدعوة خاصة وجهت إليه ـ هى التفاهم مع الملك على مصير تلك الأقطار وما هى عربية فى عرفهم ـ تضع حدا لسياسة التشاد وقد ازدادت واستفحلت فى خلال السنة الثانية للثورة.

ويقول المندوب العربى بمصر فى برقية طيرها إلى مكة يوم سفر هذا إلى جدة بالذات «يسافر اليوم إلى جدة السر مارك سايكس لأجل مسألة فى غاية الاهمية، ولقد قابلته قبل سفره فافهمنى بعض الأمور التى سيتكلم عنها مع مولاى. ولا شك أن له نفوذا عند حكومته وهو يريد أن يقابله لعدة مسائل أهمها تقرير موقفنا نحن العرب جميعا مع الحلفاء لا سيما مع انجلترا وفرنسا».

«ولاريب أن الأمور التى يتكلم عنها هى تعليمات حكومته. وقد قال بإنه وإن كان بين هذه المسائل ما قد لا ينال ارتياح جلالة الملك إلا أنها فى مجموعها ستسره، وأعرب لى عن لزوم الاتحاد بين الحلفاء. وقال إن هذا أعظم شيء فى نظرهم، وأرى أننا نحن العرب فى أدق نقطة من تاريخنا السياسى».

ويقول الكولونيل بريمون فى صدد زيارة السير مارك سايكس لجده ما ملخصه:

وصل الكولونيل ويلسن والسير مارك سايكس إلى جدة يوم ٤ مايو بالبارحة «لاما»

---

١ ـ ص ٤٩ من كتاب الحجاز فى الحرب العظمى.

وجاءها الملك من مكة يوم ٥ صباحا ومعه الشيخ فؤاد الخطيب فاستقبل القادم وبحث معه طويلا. وعلى أثر انتهاء هذا الاجتماع قصد السير مارك سايكس دار البعثة الفرنسوية وناط بالملازم ميلى، أن يبلغ الكولونيل بريمون، وكان غائبا فى رابغ، الايضاحات الآتية: ـ قال:

«إن للمسألة العربية ثلاثة جوانب:

فالجانب الأول خاص بالانجليز والفرنسويين والعرب.

والجانب الثانى خاص بالانجليز والعرب ويتعلق بمصير العراق.

والجانب الثالث خاص بالفرنسويين والعرب ويتعلق بشواطئ البحر الأبيض.

ولقد أحطت بتفاصيل الجانب الأول، وأرجو أن لاينقضى وقت طويل على الكولونيل بريمون حتى يعى هذه الشئون، وسأعود يوم ١٩ منه فأقابله وأحادثه.

«ولن أتكلم عن الجانب العربى ـ الفرنسوى خوف الوقوع فى الشرك الذى يريد الملك أن يوقعنا فيه. فهو يتظاهر بمقت الإنجليز إذا حادث فرنسويا، ويمقت الفرنسويين إذا حادث إنجليزيا. ولعل من المناسب أن يطلع الكولونيل بريمون الملك تدريجيا على مطالبكم وعلى الامتيازات التى تريدونها ويدخلها فى رأسه بدون إلحاح.

«وليس فى إمكاننا إهمال شأن الملك لما له من مقام عند قبائل عنزة، وكل سياسة يؤيدها ويناصرها تستميل حوران إلى جانبكم، وهى تنفر منكم، وتعطف على الانجليز فى الوقت الحاضر فالدروز يستقبلون كثيرا من الضباط المنهزمين وسيؤدى ذلك إلى تأليف قوة ذات شأن تقف فى جانبنا».

هذا ما أفضى به السير مارك سايكس إلى البعثة الفرنسوية قبل مغادرته جدة مع الكولونيل ويلسن يوم ٥ مايو على أن يعود إليها فى ١٩ منه مع المسيو جورج بيكو مندوب فرنسا السامى فى الشرق، ويقول الكولونيل بريمون إن أحاديث الملك أثرت أثرا طيبا فى نفس السير مارك سايكس.

وفى يوم ١٠ مايو أبرق وزير الخارجية الفرنسوية إلى رئيس البعثة فى جدة معلنا قرب سفر المسيو جورج بيكو (الذى اشترك تقريبا فى جميع المفاوضات التى دارت بشأن سورية) إلى جدة.

وفى يوم ١٦ منه غادرت الطرادة «تورن بروك» الإنجليزية ميناء السويس وعليها السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو والأميرال ويمس والكولونيل ويلسن فقصدت العقبة. فركبها الأمير فيصل. فأبحرت بالجميع إلى جدة فوصلتها فى الساعة ٣ بعد ظهر يوم ١٨ منه.

وفى صباح ١٩ منه وصل الملك إلى جدة، فاجتمع بالقادمين واختلى بهم مليا وعقدت اجتماعات عديدة كان آخرها ذاك الذى تم على ظهر البارجة نفسها قبيل سفرها إلى عدن فى الساعة ٣ من بعد ظهر يوم ٢٠. أما الأمير فيصل فظل فى جدة حتى يوم ٢٣ منه، فعاد بالباخرة لاما ومعه الكولونيل ويلسن، وعاد الملك إلى مكة يوم ٢٤ منه.

ولم يمط الكولونيل بريمون اللثام فى كتابه عما دار فى هذه الاجمتاعات، وعما تم عليه الاتفاق لأنه لم يشهدها بالذات. بل ظل بعيدا عنها كما اعترف، وإنما لاحظ تبدلا فى سياسة بعض موظفى الحكومة الحجازية إزاء الفرنسويين. على أنه نقل فى ص ٣٠٧ أن الأمير فيصل قال فى دمشق للمسيو مرسيه ضابط الارتباط الفرنسوى على أثر احتلالها:

«لقد آثرنا أثناء مفاوضات جدة أن نؤجل البت فى قضية سورية الساحلية. فقد كان مثلى ومثل الإنجليز والفرنسويين أزاءها مثل تجار يسعى كل واحد منهم ليحوز أكبر نصيب من عروض لا توجد بأيديهم».

والذى عليه معظم العارفين أن هذا الاجتماع انتهى بلا نتيجة تذكر لإصرار الملك على المطالبة بتنفيذ العهود المقطوعة له بدون هوادة.

ومما يؤيد هذه الرواية فى نظرنا ما طرأ على موقف الفرنسويين من تبدل إزاء الملك بعد ذلك، وقد كانوا يعلقون عليه آمالا جساما. فقد انتدبت الحكومة الفرنسوية فى تلك الأيام السى مصطفى شرشالى ـ وكان عضوا فى بعثة ابن غبريط للسفر إلى مكة بمهمة خاصة لدى الشريف، وإن كان سفره بحسب الظاهر للحج ـ وزودته بتعليمات تسلمها من وزارة الخارجية يوم أول مايو سنة ١٩١٧ وقد جاء فيها «أن فرنسا وهى على تمام الاتفاق مع انجلترا فيما يختص بشئون بلاد العرب لا ترمى إلا إلى صيانة أراضى الدولة العربية كاملة، وتميل كبقية حلفائها الآخرين إلى أن لا يكون لدولة من الدول الأوربية نفوذا ما على الأماكن الإسلامية المقدسة عند المسلمين. مهما كانت صفة هذا النفوذ. وهى مصممة على عدم التدخل فى المسائل السياسية لشبه الجزيرة العربية، وعلى أن لايكون لكل دولة أوربية ما أن تنال مركزا فى بلاد العرب.

«وأما فيما يختص بسورية والبلاد العربية التى وراءها فلن تدع فرنسا إلى الآخرين أمر العناية بتقدم هذه المقاطعات ونموها. فهى من هذه الجهة ما برحت من القديم تهتم بمصير قاطنيها. وفى استطاعتها أن تذكر بما لها من تقاليد وعلاقات قديمة. كما أن المؤسسات والمعاهد ذات الشأن التى أنشئت فيها خلال السنوات الأخيرة هى ثمرة الاهتمام والعناية اللذين نبذلهما فى سبيل هذا الجزء من آسيا الصغرى.

«ولا نرغب فى استعباد سكان هذه المقاطعات واسترقاقهم، وإنما نرغب فى تسهيل تقدمهم ورقيهم. وحكومة الجمهورية الفرنسوية هى على تمام الاتفاق مع الحكومة الإنجليزية للاعتراف بالأنظمة التى يختارونها مع مراعاة الأحوال الخاصة لمختلف المقاطعات.

«وفيما يختص بالولايات التى يقطنها العنصر العربى. فالحكومة الفرنسوية تشجع على إنشاء إمارات فى حلب ودمشق والموصل. على أن يرتبط أمراؤها بملك الحجاز. ومن المتفق عليه أيضا أن تتمتع الحكومة الفرنسوية وحدها بحق تقديم المستشارين الذين قد يحتاج إليهم الأمراء ليقودوهم فى طريق المدنية. وكذلك فيجب أن تطلب من فرنسا رؤوس الأموال اللازمة لاستغلال خيرات البلاد، وأن تناط بها مهمة مباشرة المشروعات الكبيرة لترقية هذه المقاطعات اقتصاديا.

«وأما فيما يختص بالساحل. حيث الشعوب أكثر تعداد واختلاطا فالضرورة تدعو إلى إنشاء نظام خاص تحت إشراف الحكومة الفرنسوية مباشرة».

«ولابد من نظام خاص للقدس وفلسطين يضمن احترام جميع الأديان وسيدعى الشريف إلى الاشتراك فى دراسة هذا النظام».

«فباستطاعتكم بعد الاطلاع على هذه التعليمات أن تكافحوا من دون استشارتى كل اختلاق يظهر فرنسا بمظهر عدم المكترث بشئون سورية، أو يظهرها بمظهر الواقف عقبة فى سبيل توسع الشريف، وتعلنوا إنها مصممة على أن تحسب حسابه فى كل عمل من الأعمال».

وفى يوم ٧ يونيو وصل السى مصطفى الشرشالى إلى جدة. وقبل أن يباشر عمله وأن يطلع الملك على مايحمله أو يصرح بأى تصريح، أرسل وزير الخارجية الفرنسوية يوم ١٧ منه إلى البعثة الفرنسوية بجدة البرقية الآتية:

«كلف المسيو جورج بيكو، ولا شك أنه أطلعكم على محادثاته فى جدة مع الملك أن يطلع السى مصطفى الشرشالى على الخطير منها. ولما كان الموقف قد تبدل بعد ما تسلم هذا التعليمات التى يحملها. فقد أبلغت الأول أن يبلغه بأن لا يكتفى بعدم البحث مع الملك فى الشئون السورية. بل ينكر معرفته لأى شئ يختص بالاتفاق الإنجليزى - الفرنسوى إذا ساءله عنه وأن لا يجعل للحكومة الفرنسوية علاقة بقضية الملكية، وأن يقتصر على نقل أجوبتنا إليه. وغنى عن البيان أن إفشاء السى شرشالى للأسرار التى اطلع عليها وهو مايخشى منه فى هذا الموقف، يولد الشك فى نفس الملك من جهة إخلاصنا. ولذلك رجوت المسيو جورج بيكو ابلاغ هذا بأن يكرر على مسامع الملك فى شتى المناسبات الأقوال التى قالها له المسيو جورج بيكو نفسه حين زيارته له وأن يدور فى دائرتها».

«ويلوح لى أن من الضرورى أن يوضح الشرشالى للملك معنى تعبير «سورية المسلمة» وقد ردده هذا فى المشروع الذى سلمه إلى المسيو جورج بيكو. فهذا التعبير لا ينطبق فى نظرنا على المقاطعات الساحلية. حيث الأديان والطوائف مختلفة متعددة. ولئن زعمت حاشية الشريف أن فى الاستطاعة تطبيقه على كل المقاطعات السورية، لعدم وجود أفضلية عددية للعناصر المسيحية. فهذا القول لا ينطبق على لبنان. ولقد أبلغت المسيو جورج بيكو رأيى بأن من مصلحتنا توقع حدوث خلاف فى هذا الشأن، ولن تنسى البيانات التى صرح بها، ولا الأعمال التى عملت حتى الآن فى الداخل والخارج، ولا الامتيازات التى لنا هنالك ولن تهمل. وإنى أرجو أن تسترشدوا بهذه التعليمات فى محادثاتكم الخاصة بهذه الشئون، وفى إبداء آرائكم للشرشالى».

فهذه البيانات السرية الفرنسوية لا تدع مجالا للشك - وإن كانت تقول بأن هنالك مشروعا سلمه الملك إلى المسيو جورج بيكو للاتفاق - فى فشل المهمة التى جاء المندوبان الساميان إلى جدة من أجلها وإلى بقاء ما كان من تشاد وجذب حول مصير هذه المقاطعات على ما كان عليه.

على أن ساسة الحلفاء مالبثوا أن مزقوا حجاب التقية الذى أشار وزير الخارجية الفرنسوية بوضعه والتستر وراءه، حينما بسم لهم ثغر الحظ، ووثقوا من انتصارهم على ألمانيا وحلفائها فقد عقد يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٩١٧ اجتماع كبير فى باريس حضره السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو والمسيو غو من أقطاب وزارة الخارجية الفرنسوية وعدد من السوريين واللبنانيين خطب فيه الأول فقال: «إن بريطانيا وفرنسا متفقتان تمام

الاتفاق على سياستهما فيما يتعلق بالبلدان غير التركية، وأنه لا خلاف هنالك ولا تناقض وأنه يجب على السوريين أن يعملوا متحدين لتحرير بلادهم» وتلاه المسيو غو فقال إنه بلسان وزير الخارجية يؤيد أقوال السير مارك سايكس ويقول إن الدولتين متفقتان تمام الاتفاق فى مايختص بمصير البلدان غير التركية. وفى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩١٧ أى بعد ثلاثة أيام خطب المسيو بيشون وزير الخارجية الفرنسوية يومئذ خطبة أشار فيها إلى الحقوق التقليدية التى لفرنسا فى سورية. فأعرب عن ابتهاجه بمالها من الحقوق الخاصة التى تعترف بها معاهدات صريحة غير سرية فى المساعدة على إنهاض شعب يعتمد على فرنسا.

ولم تقف مساعى فرنسا عند هذا الحد. بل انتدبت المسيو مالزاك وهو مستشرق فرنسوى كان يعمل فى القنصلية الفرنسوية بدمشق، ويعرف الشؤون الشرقية معرفة تامة. فجاءت به إلى القاهرة ليساهم فى نشر الدعاية الفرنسوية. فاتصل ببعض اللبنانيين وأخذ يدعو بواسطتهم إلى توسيع حدود لبنان فتشمل بيروت وطرابلس وصيدا وسهول البقاع وإنشاء دولة لبنانية تحت نفوذ فرنسا يكون دوق (فوتنير) الفرنسوى أميرا لها، وبذل كثيرا من الأموال فى هذا السبيل.

ونهض أحرار السوريين لمقاومة الحركة الجديدة والمطالبة باستقلال البلاد العربية استقلالا تاما، يؤيدهم فى هذا المسعى حزب الاتحاد اللبنانى، وخطته العمل لاستقلال لبنان، والمحافظة على امتيازاته، وعدم العبث بها، وكان يرأسه يومئذ المحامى اسكندر عمون نائب رئيس حزب اللامركزية.

وخطب المسيو ريبو رئيس الوزارة الفرنسوية خطبة فى مجلس نواب أمته يوم ٤ يونيو سنة ١٩١٧ قال فيها: إنه ليس لفرنسا أدنى فكرة فى امتلاك سورية أو غيرها من البلدان فوافق مجلس النواب الفرنسوى على قرار بهذا الشأن. فأرسل الأحرار السوريون بمصر البرقية الآتية إلى رئيس مجلس النواب الفرنسوى، وقد وقعها اسكندر عمون بصفته رئيس الاتحاد اللبنانى، ورفيق العظم بصفته رئيس حزب اللامركزية ونصها:

بكل احترام ننحنى أمام تضحيتكم التى أجمعتم عليها لأجل استقلال الأمم الصغيرة. وهذا المبدأ الذى دافعت عنه فرنسا مدى الأجيال، وقررته علنا أمام مجلس نوابكم فى القرار التاريخى يوم ٤ يونيو سنة ١٩١٧ فسوريو ولبنانيو مصر واثقون بأن تحرير بلادهم واستقلالها المطلق قد صار الآن مؤكدا. فهم يقدمون احتراماتهم المصحوبة بإعجابهم

وامتنانهم إلى مندوبى الشعب الفرنسوى حامى ذمار جميع الحريات[1].

ولما يئس الفرنسويون من التفاهم مع الشريف، وأدركوا أنه ليس فى إمكانهم حمله على الاعتراف بما يدعونه من حقوق على سورية، وجهوا وجههم إلى ناحية أخرى. فقرروا الاستعانة ببعض الموارنة اللبنانيين من النازلين فى القطر المصرى. فأنشأوا فى سنة ١٩١٧ جمعية باسم جمعية الدفاع عن سورية ولبنان. تولى رئاستها عبد الله باشا صفير اللبنانى، واختير الدكتور أسعد عطية سكرتيرا عاما لها، وكان من أعضائها خليل باشا خياط، وفريد باشا بابا زوغلو وغيرهم من اللبنانيين المعروفين فى مصر والمسلم السورى الوحيد الذى انضم إلى هذه الجمعية وانخرط فى سلكها، هو حقى العظم. فقد نقم على الأمير فيصل عدم تعيينه سكرتيرا خاصا له.

٧ ـ وعد بلفور

وجاء وعد بلفور بعد ذلك ضغثا على إبالة، وقد قطعه الإنجليز من دون استشارة الحسين، ومن دون أخذ رأيه. مع أنه يختص بإقليم عربى، وإذ قيل لنا إنه كتم كبقية العهود والاتفاقات السرية الأخرى، نجيب أن الأمر بالعكس، فقد نشرته جريدة المقطم يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩١٧ أى بعد صدوره بستة أيام فقط، وهو صادر بصفة كتاب من اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية يومئذ إلى اللورد روتشلد.

عزيزى:

«يسرنى جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك أنها تنظر بعين الرضا والارتياح إلى المشروع الذى يراد به أن ينشأ فى فلسطين وطن قومى لشعب اليهود، وتفرغ خير مساعيها لإدراك هذا الغرض. وليكن معلوما أنه لا يسمح بإجراء شيئ يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التى للطوائف غير اليهودية الموجودة فى فلسطين الآن أو بالحقوق التى يتمتع بها اليهود فى بلدان الأخرى وبمركزهم السياسى»

ومما يستحق الذكر أنه لما دخل الجنرال اللنبى القدس يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩١٧ رسميا مشى إلى جانبه ممثلو دول الحلفاء، ولم يمثل الدولة العربية الجديدة ممثل فى ذلك الاحتفال الرسمى.

١ ـ يجب أن يلاحظ بأن تاريخ إلقاء هذه الخطبة متقدم على الخطبة المنشورة آنفا. فقد تبدل موقف فرنسا فى خلال الفترة المنقضية بينهما.

٨ ـ الصلح المنفرد ومساعى الترك

كان الأمير سعيد الجزائرى بين الذين نفاهم جمال باشا إلى الأناضول أيام السبى والهجرة، رغم ما كان يظهره من حب للدولة وإخلاص، ورغم قيادته بعض المتطوعين المغاربة فى أوائل الحرب للقتال فى صفوفها، والظاهر أن نفيه ونفى أسرته وبينهم والده الأمير على باشا ـ وكان يومئذ مندوبا عن دمشق فى مجلس النواب العثمانى ووكيل رئيسه إلى بورسة، جرى بموجب المبدأ الذى سنه جمال باشا، وهو نفى أسر وأقارب المشنوقين وكان من جملتهم الأمير عمر الجزائرى عم الأمير سعيد، فقد أعدم شنقا فى دمشق يوم ٦ مايو سنة ١٩١٦ مع الذين أعدموا فيها للأسباب التى سردناها فى الفصل الرابع.

ولما أصيبت سياسة الترك فى سورية بما أصيبت به من فشل وإخفاق واضطر الباب العالى إلى استدعاء السفاح جمال، وتغيير سياسته نحو العرب كان الأمير سعيد وأخوه الأمير عبد القادر فى مقدمة الذين عادوا إلى سورية من العرب المنفيين، فقصد الثانى العقبة سرا، ومنها سافر إلى مكة فأدى فريضة الحج سنة ١٣٣٦ وعاد ثانية إلى سورية. أما الأول وهو الأمير سعيد فأخذ على عاتقه مهمة السعى لعقد صلح منفرد بين العرب والترك يزيل الخلاف من بين الأمتين، ويعيد السلام إلى قراره فى بلاد الشام والحجاز، فقصد السلط فى شهر يوليو سنة ١٩١٨ وقابل جمال باشا الصغير قائد الجيش الرابع، وكان مقره هنالك، فعرض عليه فكرته. فلقيت منه استحسانا وتأييدا، وفى يوم ٦ أغسطس سنة ١٩١٨ غادر الأمير سعيد السلط قاصدا معان. فركب قطارا خاصا أعده له الترك فاستقبله فيها على وهبى بك قائدها ـ عملا بالأوامر التى تلقاها ـ وجاء له برسول سلمه الكتاب الذى يحمله من جمال باشا الصغير إلى الأمير فيصل ونصه:

قيادة الجيش الرابع فى ٥ أغسطس سنة ١٩١٨

المعروض :

إطفاء لنار الفتنة المشتعلة بين المسلمين أبعث إلى حضرتكم بالنجيب الأمير سعيد، الذى يقوم من جانبنا بمهمة مقدسة، وأنى لعلى اعتقاد بأن حفيد النبى الكريم غير مرتاح إلى هذا الفتور بين المسلمين. وأعتقد أن روح النبى الطاهرة ستكون راضية عن عملى هذا.

وأرجوا الله أن يصون دينه المحمدى ـ كما وعدنا فى كتابه الكريم وأن يوفق العاملين للصلح فيما يسعون إليه:

وأرسل الأمير سعيد أيضا كتابا خاصا منه مع كتاب الباشا هذا نصه:

معان فى ١٧ أغسطس سنة ١٩١٨

كلفنى قائد الجيش الرابع جمال باشا أن أوافيكم إلى مقركم العالى للبحث فى قضية الصلح، وأجد نفسى سعيدا بلقائكم ـ كما أرجو الله أن يوفقنى لخدمة البلاد. فإذا كنتم على استعداد للدخول فى المفاوضات. فأرجو من سموكم تحديد الزمان والمكان فأوافيكم متخذا هذه الفرصة وسيلة لتأييد الأخوة، وأقبلوا فائق احترامى.

وفى يوم ١٨ منه عاد الرسول إلى معسكر الترك فى معان يحمل الرد الآتى من الأمير فيصل:

عين وحيدة فى ١٨ أغسطس سنة ١٩١٨

عزيزى الأمير سعيد المحترم

«تلقيت رسالتك وسررت لدوام صحتك ـ عسى البارى أن يحفظك، ولولا علمى بصفاء قلبك وخلوص نيتك ما كنت أرى لزوما للرد على كتابك. ولكن بالنظر لما بيننا من الأخوة والمحبة أرى ـ أن كانوا (أى الترك) قد زودوك بما تثق به ويطمئن إليه قلبك فأحضر إلى وادى «عقيقة» هذه الليلة تجد عشرة رجال يحملون فانوسا أحمر. فاعتمد عليهم وهم يقودونك إلينا وأن كنت لا تحمل مايطمئن إليه القلب فلا تتعب نفسك فأنت فى مكانك، والعرب وشأنهم والسلام».

وقصد الأمير سعيد الوادى فى الوقت المضروب مع دليل فلم يعثر على الرجال العشرة، لأنه أضاع نقطة الاجتماع. فعاد إلى معان بعد ما لقى مصاعب، وفى الغد أرسل كتابا إلى الأمير فيصل يخبره بما وقع، ويطلب إليه أن يرسل مندوبا يعتمد عليه، وينتظر قدومه على أكمة تشرف على السهل فيقصد المعسكر العربى متسترا تحت جناح الظلام.

ووصل المندوب فصحب الأمير إلى المعسكر العربى، فكان فى استقباله نورى السعيد وفائز الغصين، فقضى ليلته هنالك، وفى الغد اجتمع بالأمير، وسلمه كتاب جمال باشا

فتلاه بامعان وخلا بعد ذلك بنورى وفائز.

فكتب رده ونصه:

إلى حضرة قائد الجيش الرابع:

«تلقيت كتابكم الذى تفضلتم بإرساله مع الأمير سعيد، وبما أن ما تضمره ذاتكم العالية قديما من العواطف السامية نحو المسلمين معلوم لدى الجميع، فليس عندى ما أقوله سوى تبجيل شخصكم الكريم - وبما أن الرسائل التى نتداولها منذ تسعة أشهر بقيت عرضة للتسويف، فلم يبق أمل بالوفاق والاتفاق - غير أن مساعى الأمير سعيد فى هذه المرة أحيت بعض أمل فى نفسى - مع أن الحال والوقت هما فى أقصى درجة من الخطورة، كما أن وضعك العسكرى مهلك، ولا أورد هذا على سبيل التهديد. بل إن وجدانى يسوقنى إلى إسدائكم النصيحة. أن العرب لا يطلبون شيئا زائدا من الترك. بل غاية ما يتمنونه أن يعيشوا أحرارا. وأن يضعوا أيديهم بأيدى الترك، ويكون حالهم من حكومتهم كحال بافاريا من روسيا فإذا كانت حكومتكم مستعدة لقبول هذه الشروط فنحن على أتم استعداد للدخول فى مفاوضات الصلح وإلا سنرجع إلى اصدار الفتاوى المزيفة[1] ونصب المشانق وأقبلوا يا حضرة الباشا احترامى».

وعاد الأمير سعيد إلى معان فعمان فالسلط، وأطلع جمال باشا على ماوقع وسلمه الكتاب فجمع هذا هيئة أركان حربه. فقررت ارسال برقية إلى الأستانة بوجوب الاعتراف باستقلال العرب، وقد وضعت الحكومة مشروعا بذلك رفعته إلى السلطان فأقره ولكنه لم يبلغ إلا متأخرا، أى بعد الهزيمة الكبرى فى فلسطين.

عهد جديد للعرب

ولما وصل كتاب جمال باشا إلى الحسين فى مكة أرسله إلى نائب الملك بمصر عربون إخلاص ومودة، وأصحبه بكتاب ذكر فيه أن العرب لا ينفصلون عن حلفائهم مهما بذل لهم، فأرسل النائب الكتاب إلى وزارة الخارجية البريطانية فى لندن - وفى يوم ٨ فبراير سنة ١٩١٨ أبلغ المعتمد البريطانى بجدة جلالة الحسين البرقية الآتية التى وصلت إليه من لندن لابلاغها إلى جلالته ونصها:

---

١ - اشارة إلى الفتاوى التى استصدرها أحمد جمال باشا سنة ١٩١٦ من بعض علماء سورية بتكفير الحسين لخروجه على السلطان.

إن الرغبة والصراحة التامة التى اتخذتموها جلالتكم بإرسالكم الكتب التى أرسلها القائد التركى فى سورية إلى سمو الأمير فيصل إلى جناب نائب جلالة الملك كان لهما أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى، وإن الإجراءات التى اتخذتموها جلالتكم فى هذا الصدد لم تكن إلا رمزا يعبر عن تلك الصداقة التى كانت دائما شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية، وحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى .

ومما لا يحتاج إلى دليل أن السياسة التى تنسج عليها تركيا هى إيجاد الارتياب والشك بين دول الحلفاء والعرب، الذين هم تحت قيادة وعظيم إرشادات جلالتكم قد بذلوا الهمة الشماء ليظفروا بإعادة حريتهم القديمة . إن السياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتياب بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يرغبون فى الأراضى العربية، وتلقى بأذهان دول الحلفاء أنه يمكن ارجاع العرب عن مقصدهم. ولكن أقوال الدساسين لن تقوى على إيجاد الشقاق بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد.

«إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفائها مازالت واقفة موقف الثبات لكل نهضة تؤدى إلى تحرير الأمم المظلومة، وهى مصممة على أن تقف بجانب الأمم العربية فى جهادها حتى تبنى عالما عربيا يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثمانى، وتجتث التنافس المصطنع الذى أحدثته السلطات الرسمية التركية وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قد سلكت مسلك سياسة التحرير، وتقصد أن تستمر عليه بكل استقامة وتصميم، بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط فى وهدة الدمار، وتساعد العرب الذين لا يزالون تحت نير الظالمين، لينالوا حريتهم. وفى الختام ألتمس قبول خالص التحيات وعظيم الاحتشامات والتمنيات

الحسين يهدد بالانسحاب

ولقد كان الحسين يظن بعد الخدم الجليلة التى أسداها للحلفاء، وبعد رفضه الصلح المنفرد الذى عرضه الترك على قاعدة الاعتراف باستقلال العرب - أن هؤلاء يصفون له وينجزون الوعود التى وعدوه بها، والعهود التى قطعوها. بيد أن تتابع الحوادث على المنوال الذى سردناه آنفا، وإصرار الحلفاء على حصر الحركة العربية فى دائرة ضيقة لا تتعدى

الحجاز جعله ييأس ويفكر فى الاستقالة والانسحاب، وإليك نص كتاب أرسله يوم ٢٠ ذى القعدة سنة ١٣٣٦ (سبتمبر سنة ١٩١٨) إلى نائب الملك بمصر قال:

أنى ماطلبت أمام حكومة جلالة الملك ماطلبته من المواد التى تعهدت عظمتها بها رغبة منى فى تأسيس حكومة، أو تشكيل دولة لا ستأثر بحاكميتها، أو حرصا على جاهها، أو رياستها، ولكن عند مادعتنى بريطانيا إلى مادعتنى إليه، وعلمت أن مقاصدها بهذا أيضا تأمين مصلحة المسلمين عامة، والعرب خاصة. لم يسعنى إلا الإجابة وطلبى أقله تلك المواد المؤدية فى اعتقادى لما يأتى:

أولا ـ لحفاظة الكيان للعالم الإسلامى، بالنظر لما حل وما سيحل بتركيا

ثانيا ـ صيانة العظمة البريطانية من الأستهداف لما سترمى به عكس مقاصدها

ثالثا ـ سلامتى من الاتهام بالتواطؤ معها ضد الأساس المقصود بالنهضة

نعم إنى لم أجد من جناب الفاضل الأريب المستر «ستورس» عنداجتماعى بحضرته فى السنة الأولى بجدة، ثم بعده بحضرة الشهم الهمام السير مارك سايكس، ثم فى السنة الماضية بالقومندان الهمام «هوغرت» الموقر ـ مايشير إلى مايخالف أو يخل بتلك المقررات. غير أن ما فى طبيعة مشروعنا وتتماته الحياتية من الرقة ما يصادف من بعض حالات يستدعى سياقها زيادة تعيين الأمر، وتأكد الحقيقة عن الحدود فقط، وإلا باقى المواد فإنا نعجز عن أداء شكر الوفاء بها عما لو فهمت الغلط فى مقرراتنا المذكورة أساسا أو حدث ما يوجب تعديلها ـ الأمر الذى لا أقول إنه يمس كيان العالم الإسلامى، ولكن أظن أنه لا يخلو من شئ من ذلك . هذا على فكرى الخصوصى . إلى أن قال:

فإن تعديل مقرراتنا المذكورة بصرف النظر عما فى إخلاله بالغايات المقصودة الأساسية، وعرضتنا لحذر موادنا الثلاثة آنفة البيان، وطمس صحيفة تاريخى. فهو يزيل ويسقطنى من ثقة واعتماد بلادى وأقوامى الأقربين، حينما يظهر لهم عكس تلك المقررات التى أعلنتها لهم، وصرحت بها شفاها وتحريرا فى ظرف هذه المدة، وأسست عليه الأعمال وأكون خدعت نفسى وغششتكم يا أصدقائى بما وراء هذا من اضطراب البلاد بالفتن والثورات ونحوها، مما لا يمكن لى معه حتى الاستفادة لذاتى، ومايزيل حسن كل ظن حكومة جلالة الملك بى، وأكيد إخلاصى يجبرنى أن أقول من الآن إن مبادئ هذه الخطرية على وشك التحسس بها بالنسبة للطلبات المتكررة المختلفة عن أمرهم بإعلان استقلال

بلادهم، ولم أجد ما أدفعهم به إلى قولى أن استقلالى هو استقلال عموم أنحاء البلاد، ولكنهم يقيمون الحجة على دفعى هذا بأوجه أخر. وعليه فإن كان ولابد من التعديل فلا لى سوى الاعتزال والانسحاب إلى أن قال:

أما عطف الأمر وتعليقه بمؤتمر الصلح - فالجواب عليه من الآن بأن لا علاقة لنا به، ولا مناسبة بنيننا وإياه، حتى ننتظر منه سلبا أو إيجابا.

ولقد سار الحسين على هذه الخطة فى مخاطبة الإنجليز منذ سنة ١٩١٨ ولا سيما بعد اجتماع مؤتمر الصلح، وتحققه من عدم وفائهم له فكان يكرر جملة «الانسحاب والاستقالة» فى كل كتاب يكتبه أو مذكرة يرسلها. متوهما أنه بتهديده إياهم على هذا المنوال يحملهم على التساهل وتعديل خططهم فى بلاد العرب، فكانوا يماطلون ويسوفون. وسننشر نص هذه المكاتبات فى مكانها مراعاة لقواعد التسلسل التاريخى.

مذكرة الحسين إلى أمريكا

وبهذه المناسبة ننشر نص المذكرة التى أرسلتها وكالة خارجية الحكومة العربية إلى الولايات المتحدة على أثر دخول هذه الحرب فى جانب الحلفاء سنة ١٩١٧ وإعلان الرئيس ولسن ما أعلنه من مبادئ، مما أنعش آمال العرب وزادهم تمسكا باستقلالهم ثقة منهم بوعوده وعهوده:

ياسعادة الوزير:

«تئن الأمة العربية من أجيال تحت النير التركى. ولم يأت فى التاريخ ذكر لشعب ذاق من ضروب الاستعباد والتعذيب ما ذاقته هذه الأمة، ولا ذنب لها سوى أنها الأكثرية فى البلاد العثمانية. فكان الترك يعدونها خطرا يهدد سيادة عنصرهم، ولهذا عاملوها معاملة العدو لعدوه اللدود، وبالغوا فى ذلك بعد فقدانهم بعض ولايات تركيا الأوربية. الأمر الذى جعل الأكثرية العربية شيئا لا جدال فيه. وعلى هذا المنوال كان العنصر العربى - وهو محروم من جميع حقوقه وعرضة للمظالم والفظائع - يتضاءل ويضعف فى بلاده أو يبحث فى البلاد العربية الأخرى عن الحياة التى كان الترك يوصدونها فى وجه أبنائه. ولما أعلنت الحرب الأوربية، ولم يبق فى بلاد الترك رقيب على أعمالهم أطلقوا العنان لحقدهم وغضبهم، وراحوا ينفذون خطتهم المنظمة لإبادة العرب فلم تردعهم عاطفة، ولم يصدهم قانون،

واستحلوا فى هذا السبيل كل واسطة محرمة فاستعملوا الشنق والتغريب، والحبس والتعذيب وتفريق العائلات وحجز الأملاك والأحكام الغيابية إلى آخر ما هنالك من المظالم.

«ولقد بذل جلالة مولاى الملك كل ما كان فى وسعه لنصح حكومة الترك والرجوع بها إلى جادة الصواب والعدل، فذهب تعبه سدى. فخلع نير الظلم وأعلن استقلال العرب بصفته رئيسا لبيت قريش. وهو البيت الذى خرجت منه كل البيوت التى تبوأت عرش الملك فى البلاد العربية من أمية إلى بنى العباس إلى الفاطميين فالتف حوله كل شعبه العربى، ولم تمض عليه شهور قليلة حتى أنشأ جيشا، ونظم إدارة، وطرد وأباد كل ما كان تركيا فى الحجاز واكتفى بأن ضرب نطاقا حول المدينة. لأن الصفة الدينية التى عليها تحول فى كل حال دون ضربها بالمدافع لفتحها عنوة وترابط جيوشه اليوم فى الأراضى السورية وتقوم بأعمال تكلل جميعا بالفوز والنجاح».

«فالمملكة الجديدة تجاهد منذ سنتين فى سبيل إنقاذ عنصر جدير بالاحترام لما له من تاريخ مجيد ومن فضل على التمدين الأوربى لا يمكن أن تجد من الأمة الاميركية العظيمة سوى عطف ومودة، وهى تؤمل أن تعترف بها حكومة الجمهورية الكبرى. ولا سيما بعد دخولها الحرب إلى جانب الحلفاء مملكة مستقلة. كما اعترفت بها الدول المتحالفة. ويعلق جلالة مولاى أهمية كبيرة على هذا الاعتراف الذى يكون أول تنفيذ فعل لمبدأ تحرير الشعوب الذى أيده جناب الرئيس ولسن. وقد دخلت بلادكم الحرب لتحقيقه.

«ولا حاجة هنا إلى سرد الظروف التاريخية التى أدخلت الدول فى مصافها، أى فى المجتمع الدولى شعبا مجاهدا فى سبيل حريته واستقلاله قبل انتهاء جهاده، فلا أذكر إلا معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ فقد اعترفت باستقلال اليونان، بينما كان الترك لا يزالون يعتبرونهم من رعاياهم.

«وسيوضع للمملكة العربية حال انتهاء الحرب دستور حر. يضمن المساواة فى الحقوق لجميع السكان بدون أدنى تمييز بين المذاهب والأديان. والبلاد العربية التى تعلن بملء اختيارها وبتمام حريتها بعد انقاذها من النير التركى رغبتها فى الانضمام إلى هذه المملكة تمنح استقلالا داخليا. فتكون مع الحجاز حلفا قائما على المبادئ الديمقراطية الواسعة. ولهذا فالمملكة الجديدة تعتبر نفسها من كل الوجوه ذات حق بعطف حكومة الجمهورية الكبرى ومساعدتها، وأرجوكم يا سعادة الوزير أن تبلغوا حكومتكم أمانى الأمة العربية هذه، وأن تتفضلوا بقبول شعائر احترامى الفائق».

ملاحظات هامة
على سير القضية من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٨

تنتهي بهذا المجلد الحلقة الأولى من سلسلة تاريخ القضية العربية، وتشمل حوادث الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨ حتى دخول الجيش العربي إلى دمشق يوم أول أكتوبر سنة ١٩١٨ وإنشاء الحكومة الفيصلية في ربوع الشام.

ولئن ذهب بعض الباحثين إلى اعتبار ما حدث في العهد الحميدي من حوادث فردية لا انسجام بينها ولا ارتباط، كصدور كتابي أم القرى وطبائع الاستبداد، ونشر كتاب يقظة العرب في آسيا التركية بالفرنسوية في باريس سنة ١٩٠٥ من مقدمات الحركة العربية وطلائعها، أو إنشاء الجمعية السرية التي أنشئت في بيروت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أي في إبان ولاية مدحت باشا لسورية وكان من أعضائها المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجي. فالنهضة المادية الحقيقية لم تبدأ إلا بعد إعلان الدستور في سنة ١٩٠٨ فقد قامت على دعامتين جديدتين: حرية الكلام وحرية الاجتماع، وقد كفلهما النظام الحكومي الجديد لسكان تلك المملكة. فانطلقت الألسنة والأقلام وارتفع الضغط عن الأفكار وانتشرت العلوم فساعد هذا الانقلاب، وهو خطير الشأن على ايقاظ العرب. فأدركوا أنهم كمية مهملة في الإمبراطورية العثمانية وأن لهم حقوقا يجب أن ينالوها، وكرامة يجب أن تصان ومجداً يجب أن يعملوا لاحيائه وتجديده.

وصدرت صحف عربية عديدة في ظل النظام الدستوري في دمشق وبيروت والقدس ويافا وطرابلس واللاذقية وحلب وجدة وبغداد والبصرة وغيرها من بلاد العرب وفي الآستانة نفسها، وإلى هذه الصحف العربية التي كانت تصدر في القطر المصري يعود معظم الفضل في تكوين الرأي العام العربي وإنشائه، وبث الروح القومية بين طبقاته. ولم يغتفر لها الترك صنعها يوم نصبوا الميزان في عالية. فكان الصحافيون أكثر الطبقات ضحايا فقد استشهد منهم في هذا المرحلة عبد الحميد الزهراوي صاحب جريدة الحضارة الاستانبولية وعبد الغني العريسي والأمير عارف الشهابي صاحبا جريدة المفيد البيروتية وعمر حمد من محرريها والشيخ أحمد طبارة صاحب جريدة الإصلاح البيروتية وسعيد عقل من محرريها، وجرجي حداد محرر جريدة الراوي الدمشقية، وعلي الأرمنازي صاحب جريدة نهر

العاصى الحموية، وشكرى العسلى صاحب جريدة القبس الدمشقية وبترو باولى صاحب جريدة الوطن البيروتية.

وحكم فى هذا الدور بالاعدام غيابيا على فريق من رجال الصحافة السوريين فى مصر نذكر منهم الدكتور فارس نمر صاحب المقطم، والسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار وداود بركات محرر الأهرام، ومحب الدين الخطيب المحرر فى المؤيد، وإبراهيم سليم النجار وجورج دومانى ونعمة الله الغانم. وحكم بمثل ذلك على قسطنطين ينى محرر جريدة دليل حمص فى حمص، وخليل زينيه محرر جريدة الثبات فى بيروت، وقد فرا من قبل ونفى آخرون نذكر منهم يوسف العيسى وعيسى العيسى صاحبا جريدة فلسطين اليافاوية، ونجيب نصار صاحب جريدة الكرمل الحيفاوية، ومحمد صبحى عقدة صاحب جريدة أبى النواس اللاذقانية، وعلى الغبرا صاحب جريدة النديم الدمشقية، وأمين الغريب صاحب جريدة الحارس البيروتية. فقد أرسلوا جميعا إلى الاناضول. ماعدا الأول والثالث فقد ظلا فى دمشق، وقبض فى بغداد على إبراهيم حلمى العمر الصحافى العراقى وأرسل إلى دمشق ليحاكم فيها، فقضى بضعة شهور سجينا، ثم أطلق سراحه على أن يبقى فى دمشق.

ومن الذين قدموا إلى المحاكمة فى الديوان العرفى بعالية واعتقلوا شهورا ثم أفرج عنهم نجيب شقير صاحب جريدة بيام، وأحمد عزت الأعظمى صاحب مجلة المنتدى الأدبى، وتوفيق اليازجى محرر جريدة الإصلاح البيروتية.

ويأتى رجال الجمعيات والأحزاب السياسية بعد الصحافيين. ولئن كان ضحايا هؤلاء أقل من أولئك، فما ذلك إلا عجز الترك عن اكتشاف أسرار الجمعيات السرية لما تذرع به رجالها من تكتم عظيم خلال التحقيق والمحاكمة. ومن تحصيل الحاصل القول أن المنتدى الأدبى فى الآستانة كان أكثر هذه الجمعيات ضحايا. لأنه كان أشهرها وأعظمها، ولأنه كان مقر الدعاية العربية فى الآستانة. فانتقم الترك من مؤسسيه ومديريه انتقاما مريعا. فأعدموا عبد الكريم الخليل وسيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم ونفوا يوسف سليمان مخيبر، ولم ينج من مؤسسيه سوى جميل الحسينى. فقد قبض عليه وسجن أشهر ثم برئ لما ثبت من ابتعاده عن المعترك السياسى فى أواخر ذاك العهد.

ويأتى حزب اللامركزية بعد المنتدى الأدب. فقد فتك الترك بكل من استطاعوا القبض

عليه من رجاله كما حكموا على المقيمين بمصر كافة بالإعدام. ومن الذين أعدموا في بيروت ودمشق باسم اللامركزية أو بسببها: صالح حيدر وسليم الأحمد عبد الهادى ونايف تللو ومسلم عابدين ومحمود المحمصانى ومحمد المحمصانى ونور الدين القاضى، عبدالقادر الخرسا ومحمود العجم. وحكم بالسجن المؤبد على الشيخ سعيد الكرمى وحافظ السعيد ثم يأتى بعد ذلك عنصر الضباط العرب فى الجيش التركى، وقد أعدم الترك منهم سليم الجزائرى وأمين لطفى الحافظ وعلى النشاشيبى، واعتقل فى عالية من الضباط على رضا البيلانى وجميل الألشى ورضا الخطيب وسالم مظلوم وقد أطلق سراح الأولين وحكم على الأخير بالاعتقال خمس سنوات. وفضلا عن ذلك فقد جروا فى تلك الأيام على طريقة جهنمية فى الانتقام من الضباط العرب المعروفين بالغيرة القومية، فكانوا يرسلونهم إلى خطوط النار فى ميادين القتال ليخلصوا منهم، وقد استشهد كثيرون منهم على هذا المنوال.

ولقد مرت القضية العربية فى هذه المرحلة بثلاثة أدوار:

ويبتدئ الدور الأول بإعلان الدستور، وينتهى بإعلان الحرب العظمى. فقد نهج العرب فى خلاله نهج الأمم الناهضة العاملة للحرية والاستقلال. فألفوا الجمعيات السرية كما ألفت، وأصدروا الصحف كما أصدرت، ونظموا القصائد الحماسية القومية كما نظمت، وأنشأوا الأحزاب السياسية، وعملوا على «التنظيم الداخلى» وإنشاء الروابط بين لجانهم وجمعياتهم وأنديتهم استعدادا للعمل الكبير الذى وضعوا نصب أعينهم القيام به. ولا يسع الباحث فى أعمال هذا الدور إلا الإعجاب بما يشهده من انتظام واتساق وتضامن وتعاون.

أما الدور الثانى وهو دور الإرهاب أو دور مطاردة رجال القضية العربية وأحرار العرب ومفكريهم. فيبتدئ من أوائل سنة ١٩١٥ أى من حين وصول جمال باشا إلى دمشق وإصداره أمره بإلغاء كتيبة الضباط الشبان من خريجى المدارس العليا، وكانوا يمرنونهم فى دمشق ويعدونهم ليكونوا ضباطا على أثر ما سمعه من أناشيدهم القومية. فأرسلوا إلى ميادين القتال فى شتى الجهات وهلك معظمهم، وينتهى بإعلان الثورة الرسمية يوم ١٠ يونيو سنة ١٩١٦. نعم إن أقطاب الاتحاديين قرروا فى شهر يناير سنة ١٩١٤ أى قبل وصول جمال باشا إلى دمشق بسنة تقريبا اتخاذ تدابير متعددة للقضاء على الحركة

العربية وتتريك العرب .إلا أن تأثير هذه التدابير ظل محدودا لأنها سلبية فى طبيعتها لا تتعدى المقاومة الخفية. ولقد تحول الحال حينما أعلنت الحرب العظمى، وبسطت الأحكام العسكرية، ونصبت المحاكم العرفية وأوقف البرلمان، ووضعت المراقبة، وعطلت الصحافة وانطلقت أيدى الاتحاديين فى البلاد يفعلون ما يشاؤن لا رقيب ولا حسيب.

ويلوح لنا أن اختيار جمال باشا القائد العام فى بلاد العرب ـ وهو المعروف بشدة الشكيمة والميل إلى سفك الدماء وتخويله سلطة لا حد لها ـ ليس من قبيل الصدف بل هو نتيجة خطة أحكم الاتحاديون تدبيرها، وأرادوا من ورائها الفتك برجال العرب ومفكريهم وشبانهم الذين أشربوا الروح القومية، أملا بأن يخرجوا منصورين من الحرب، وكانت الدلائل تدل فى سنيها الأولى على أن النصر سيكون فى جانب الألمان، فينفذوا سياسة التتريك، ويقضوا على كل نأمة عنصرية، وينشئوا امبراطورية تحيى مجد جنكيز خان وتيمور لنك وتعيد عهد الذئب الأغبر.

ولا تلحق تبعة ماجرى فى ذلك العهد الدموى جمالا وحده. بل تشمل أقطاب الاتحاديين الذين كانوا مسيطرين على البلاد العثمانية، وفى مقدمتهم أنور باشا وزير الحربية ووكيل القائد العام الدكتاتور الحقيقى، فقد كان مصدر كل سلطة فى الدولة – وقد استمد نفوذه من تأييد الألمان له، ومن سيطرته على الجيش، ولو أراد لوضع حدا لتلك الأعمال، ولكنه تغاضى عنها، ومنح جمالا كل ما طلبه من سلطة، ووضع تحت تصرفه كل ما أراد من قوى، على أن سير الحوادث وقد جرت على غير مايشتهونه، جعل أنور يعدل عن تلك السياسة فيضيق اختصاص صاحبه، ويسلبه ماكان منحه إياه. يؤيد ذلك ما جرى حين نظر القضية الثالثة (قضية خان الباشا) فهو لم يجسر على إعدام الذين ألح باصدار الحكم بإعدامهم بل أرسل الأعلام إلى ديوان التمنييز العسكرى لفحصه، عملا بالأوامر الجديدة، وقد سلبت منه اختصاصاته، فعاد منقوضا يقول إنه لا وجه لإقامة الدعوى على أحد لأن الجرم الذى حوكموا لأجله لم يخرج إلى حيز التنفيذ، ولو فعلوا فى القضيتين الأوليين ما فعلوه فى الأخيرة وأرسلوا الإعلاميين إلى التدقيق لعادا منقوضين ولاكتفوا بإصدار أحكام بسيطة على المتصلين بالقنصليتين الفرنسويتين وحدهم. كما جرى فى قضية نخلة المطران، وقد حوكم قبل وصول جمال، وقبل أن يتدخل فى شؤون القضاء فحكم عله بالنفى فقط.

وينقسم العمل السياسى فى خلال هذا الدور إلى ثلاثة مراحل: فالمرحلة الأولى تبتدئ

من إعلان الحرب العظمى (شهر أغسطس سنة ١٩١٤) حتى (شهر أغسطس سنة ١٩١٥) أى حتى صدور الحكم فى القضية الأولى وتنفيذه، فقد انضم العرب فى خلال هذه المرحلة إلى الدولة قلبا وقالبا وأيدوها رغم ماكان بينهم وبين الاتحاديين، ورغم ظهور دلائل تدل على سوء نية هؤلاء وترقبهم دوائر السوء بالعرب. لأنهم أدركوا أن الاحتلال التركى أهون من الاحتلال الأجنبى وأخف شرا، ولأنهم اعتقدوا أنهم لا يعدمون وسيلة للتفاهم مع أولئك حينما تضع الحرب أوزارها وتنقشع غمامتها. وأطمع هذا العطف الاتحاديين كما غرهم ما كانوا يتمتعون به من قوة ومن سلطان عظيم لم ينالوا مثله فى غابر أيامهم. فقالوا إنها فرصة ثمينة لا يجود الدهر بمثلها. فأقدموا على تصفية حساب الحركة العربية ونصبوا الميزان فى عالية كما نصبوه من قبل فى أشقودره يوم أرسلوا شوكت طورغود إلى ألبانيا فى سنة ١٩١١ للقضاء على الحركة الألبانية فعجلت حركتعم تلك فى إخراجهم من ألبانيا وطردهم من البلقان. كما عجلت حركة عالية على إخراجهم من بلاد العرب وطردهم منها.

ولا يسع المنصف إلا التنويه باخلاص العرب للدولة فى هذه المرحلة، وإذا اضطروا إلى الاتصال بأعدائها بعد ذلك، وتعاونوا معهم على هدمها والقضاء عليها فالذنب ذنب الاتحاديين قبل أن يكون ذنب العرب، والتبعة لاحقة بهم فلو جزوا العرب على إخلاصهم بإخلاص، وصافحوا اليد الممتدة إليهم، وتغاضوا عن كل حادث فى الماضى - وهو ماجرى العرف أن يحدث فى الشدائد، وأى شدة أعظم من تلك الحرب، لما وقع ماوقع ولما كان ماكان.

وتبتدئ المرحلة الثانية بعد إعدام الرعيل الأول فقد كشر جمال باشا عن أنيابه وتنكر للعرب ولبس ثوب الأسد بعد مانزع ثوب الحمل، وأخذ ينادى بأنه لابد له من عقاب الخونة، والخونة فى عرفه هم أحرار العرب والناهضون من رجالهم. مع أنه دعا هؤلاء فى الخطبة التى خطبها فى النادى الشرقى (يناير سنة ١٩١٥) إلى إحياء شهامة العرب وترقية العرب كما مر.

ولابد لنا من الاعتراف بأن العرب فوجئوا بأعمال جمال باشا مفاجأة لم تكن تخطر لهم ببال فتشتتت الجمعيات السرية فى كل ناحية من أنحاء السلطنة العثمانية، بعضهم منفى وبعضهم سجين وبعضهم مقتول، وأرسل آخرون إلى ميدان القتال وجند آخرون فى الجيش وفر غيرهم.

أضف إلى هذا أن كل صلة كانت مقطوعة بينهم وبين العراق والحجاز. فضلا عن العالم الخارجى لصعوبة السفر والانتقال فى تلك الأيام العصيبة، ولوجود مراقبة شديدة على المراسلات. والحقيقة أنه لم يبق خارج القفص فى تلك الأيام سوى عدد ضئيل جمدا كان يقيم فى دمشق على حذر ووجل يترقب القبض عليه من ساعة إلى ساعة، ويودع أهله عند خروجه من المنزل فى الصباح لأنه قد لا يعود فى الظهر، ويودعه فى الأصيل لأنه ماكان واثقا من الرجوع إليهم فى الليل.

فهذه الفترة القليلة - وكان بقاؤها فى دمشق بفعل عوامل محلية خاصة. فبعضها أقام بضمانة الوالى خلوصى بك كالدكتور عبد الرحمن شهبندر، وبعضها أقام لأن الوحدة العسكرية المنسوب إليها كانت تقيم فيها كالدكتور أحمد القدرى وياسين الهاشمى وغيرهما هى التى اتصلت بالأمير فيصل عند مروره بدمشق فى غدوه إلى الآستانة ورواحه منها وهى التى أطلعته على ما يقاسيه العرب فنقل شكايتها إلى رجال الدولة وعمل - كما اعترف جمال باشا وعلى فؤاد باشا - على تعديل هذه السياسة فى دمشق وفى الآستانة فلم يوفق. وهى التى نفخت فيه روح الثورة وكان معروفا - حتى إعلان الحرب العظمى - بمصافاة الترك قائلا بعدم الخروج عليهم مهما كانت الظروف، وهى التى أقنعته بوجوب العمل لإنقاذ العرب من خطر محقق، فضم جهوده إلى جهود أخيه الأمير عبد الله، وكان متصلا بالإنجليز فتقررت الثورة ووضعت أسسها، ومما لا ريب فيه أنه كان للعامل المحلى والشخصى يد لا تنكر فى إعدادها وتكوينها.

وتبتدىء المرحلة الثالثة على أثر عقد مؤتمر الطائف فى خريف سنة ١٩١٥ وقد قرر إعلان الثورة وإعداد معداتها فى الداخل، والاتصال بالإنجليز فى الخارج وقد سارت الأمور فى مايختص بالجزء الأول على أفضل منوال. فأقام الأمير على فى المدينة يستميل القبائل ويأخذ عليها العهود والمواثيق. كما انصرف الأمير عبد الله من ناحيته إلى جمع كلمة قبائل الطائف وإعدادها لليوم العصيب. أما الأمير فيصل فكان يقيم فى دمشق يفتل خيوط الرأى ليجد مخرجا يخرجه من معتقله. فقد استبقاه الترك رهينة يهددون بها والده ويغلون يده عن كل عمل. ولولا تخلصه منهم بتلك اللباقة وإفلاته من قبضتهم الحديدية لتأخر إعلان الثورة ولسارت الأمور فى غير هذا الاتجاه.

وامتدت المكاتبات بين الحسين والإنجليز سنتين وأشهرا وانجلت عن تلك العهود التى بذلها السير هنرى مكماهون للعرب باسم حكومته، وبالإضافة إليها وقد وقف الإنجليز

موقفا غريبا إزاء هذه العهود فكانوا ينكرونها ويتبرأون منها إذا كان مخاطبوهم من العرب ويقولون أنها لم تصدر منهم، يؤيد ذلك ماوراه الأمير فيصل بنفسه عما دار بينه وبين رئاسة الحكومة البريطانية حين زيارته لها فى رحلته الأولى وأثبتناه فى متن الكتاب أما إذا كان المخاطبون من الفرنسويين فينعكس الأمر.ويرفع الإنجليز عقيرتهم منادين بأنهم مرتبطون مع العرب بعهود لا يسعهم إنكارها، وأن هؤلاء حلفاؤهم. كما أن فرنسا حليفتهم فيجب أن يفوا لهم كما يفوا لها.

ومما يستحق الذكر بهذه المناسبة أنه لما تقرر عقد مؤتمر باريس فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ ـ وقد دعى الأمير فيصل لحضوره، كما دعى اللورد اللنبى ـ نشرت جريدة الديلى تلغراف يوم ١١ سبتمبر ـ أى قبل المؤتمر بأربعة أيام مقالة بإيعاز المستر لويد جورج قالت فيها أن المساعدة العسكرية الثمينة التى بذلها العرب للإنجليز فى زمن الحرب تقضى على هؤلاء بأن يفوا بعهودهم للحسين وفيصل. فقد قدم العرب للقتال جيشا يتألف من ٣٠ ألف إلى مائة ألف مقاتل. وليس لدولة من الدول ـ ما عدا العرب ـ أى فضل فى الانتصار الذى ناله الإنجليز على الجيش التركى بقيادة الألمان. وقد بذلوا فى سبيل هذا الانتصار مليون مقاتل وملايين الجنيهات. وإننا نعتبر أن فيصلا حليفا، كما أن الفرنسويين حلفاؤنا، وبعد ما أسهبت الجريدة فى تفنيد مطالب الفرنسويين قالت:

«ولايطابق الواقع ما يقوله هؤلاء الذين لايعرفون نصوص اتفاق سنة ١٩١٦ ويؤكدون أن المسيو جورج بيكو لم يكن عارفا باتفاقنا مع الحسين. فالحقيقة أن الإنجليز أطلعوه على جميع التفاصيل المتعلقة بخط الحدود الذى تم الاتفاق عليه بينهم وبين الحسين ـ كما يقضى عليهم ـ الواجب وقد قبله وارتضاه بموجب اتفاق سايكس ـ بيكو».

وانخفضت حماسة الإنجليز لعهودهم وتلاشت يوم ١٦ ستيمبر ـ أى بعد نشر هذه المقالة بأربعة أيام، فعقدوا اتفاق باريس مع الفرنسويين، وقد وافقوا فيه على احلال الجيش الفرنسوى محل الجيش الإنجليزى فى المناطق الواقعة غربى خط سايكس - بيكو أى فى المنطقة الساحلية مع استثناء المدن الأربع، مقابل تنازل الفرنسويين لهم عن الموصل وفلسطين. ولم يعودوا إلى ذكر هذه العهود بل تناسوها وجحدوها.

ولا ريب أن ضعف العرب وتشتتهم وانحطاط مستواهم الاجتماعى وفقد الرجال الاكفاء من بينهم وعدم تمرسهم بالسياسة الدولية هو العامل الجوهرى فى إنكار الإنجليز لهذه

العهود وتجاهلهم إياها، وفى عدم نجاح القضية العربية النجاح الذى كان يرجى لها.

فلو عرف الإنجليز أن هناك شعبا قويا ناهضا لهابوه واحترموه ووفوا له بعهودهم، بل لأعطوه أكثر مما طلب. يؤيد ذلك المصير الذى صارت إليه الأناضول الجنوبية بعد الحرب فقد كانت جزءا من المنطقة الساحلية التى وضعت تحت الحماية الفرنسوية بموجب معاهدة سايكس ـ بيكو، وكانت تشمل مقاطعة كيليكية حتى ديار بكر وماردين وقد احتلها الفرنسويون عسكريا بعد الحرب، وأنشأوا فيها حكومة عسكرية رئيسها الكولونيل بريمون مندوب فرنسا إلى الحجاز، وطبقوا فيها نفس الأساليب التى طبقوها فى سورية تماما، فاستعانوا هناك بالأرمن كما استعانوا هنا بالموارنة، ويجب أن نعترف أن هؤلاء كانوا ألين عريكة من الأرمن الذين تقلدوا السلاح وقاتلوا الترك جنبا إلى جنب مع الفرنسويين، وأوصلوا أنواع الأذى والاضطهاد إليهم. ومنشأ ذلك ماحدث بين الشعبين من حوادث مؤلمة فى زمن الحرب ومايدعيه الأرمن من ظلم الترك لهم وذبحهم لرجالهم ونسائهم ولم يسئ مسلمو سورية إلى الموارنة فى تلك الأيام السوداء، بل ساعدوهم بقدر ماوصلت إليه طاقتهم، وفتحوا لهم أبواب بيوتهم وتحملوا معهم المظالم والمغارم. ولم يظهر ما ظهر من خلاف بينهم إلا بعد سنة ١٩١٨ بسبب الدعايات الأجنبية. على أننا لا ننكر أن كثيرين منهم انضموا إلى القضية الوطنية، وعملوا باخلاص وجاهدوا أصدق جهاد متأثرين بما هنالك من روابط قومية وجنسية وعنصرية واقتصادية تربطهم بالعرب المسلمين.

ولما رأى الفرنسويون أن الإصرار على قتال الترك فى كيليكية ولم يستطيعوا بلوغ ديار بكر وكردستان كما كانوا يرجون يولد لهم مشكلات عظيمة، وأدركوا أنهم أمام شعب ناهض قوى منظم، يستهين بالحياة فى سبيل بلاده، ولا يستمال بالمال ولا بغيره، جلوا عن كيليكية فى سنة ١٩٢١ وعن البلاد التركية كلها، وأعادوها إلى أصحابها، بعد ما عوضوهم بكميات كبيرة من الأسلحة تركوها لهم مع مساحة ٥٤٠ كيلو مترا من الأراضى السورية ومنحوهم امتيازات داخلية فى سنجق اسكندرونة. ومعنى ذلك أن الترك لم يستردوا بلادهم وحدها بل غنموا غنائم أخرى معها. ونحن فى غنى عن القول أنهم لو خضعوا وخشعوا وتفرقوا أحزابا وشيعا ـ كما فعل العرب ـ لكانت أطنه اليوم عاصمة دولة أرمنية، كما هى بيروت عاصمة دولة مورانية، ولكانت ديار بكر عاصمة دولة كردية، ومرعش عاصمة دولة تركية ولنفذوا فى بلاد الترك ما نفذوه فى بلاد العرب تماما. ولم ينقذ الترك سوى سيفهم

الصقيل ومافطروا عليه من ميل للطاعة وحب للنظام.

ويبتدىء الدور الثالث بإعلان الثورة رسميا ونزول العرب إلى ميدان القتال وينتهى بإرسال الحسين بلاغه الشهير إلى الإنجليز يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٨ يعلن فيه استعداده للانسحاب وتخليه عن العمل، لأنهم لم يفوا للعرب بما عاهدوهم عليه فأحرجوا مركزه فى نظر قومه.

والواقع أن القضية العربية كانت فى خلال هذه المرحلة، ولعلها أعظم المراحل التى اجتازتها شأنا، عرضة لتيارات مختلفة وعوامل متناقضة، حتى ظن بها كثيرون الظنون واعتقدوا أنه قد لا يكتب لها التغلب على المصاعب التى أحدقت بها من كل جانب. فقد كان جمال باشا يهاجمها من الداخل بكل قواه ويبذل جهده للقضاء عليها والتخلص منها فيتم بذلك عمله الأصلى، ويقضى على كل حركة عربية، وينال إكليل الغار والظفر. ولا ريب أن فشله فى احتلال مكة وفى انقاذ الحجاز أفقده ماكان يتمتع به من نفوذ فى دوائر الآستانة وجعل حكومتها تنتقص سلطته تدريجيا حتى جردته من كل حول وطول. فطلب أن يقال وكانت الحرب فى سنتها الثالثة فأقيل، وعاد حزينا مغموما يعض كفيه حزنا وأسى وقبع فى وزارة البحرية ينتظر ماخبأه له القدر، ولم يطل به المطال حتى فر إلى روسيا فعاش شريدا طريدا ومات قتيلا منبوذا وتلك عقبى الظالمين.

ويجب أن لا ننسى المعاملة غير اللائقة التى عامل بها الإنجليز الحسين. وذلك قبل انقضاء الشهر الأول على انضمامه إلى جانبهم رسميا ـ فقد أخذوا يتنكرون له ويهملون مطالبه، ومن يقابل بين كتب معتمدهم إليه قبل الثورة وبين البرقيات التى أرسلوها إليه بعدها يجد الفرق ظاهرا والتبدل محسوسا، وعندنا أن معظم الفضل فى انقاذ الثورة. بل فى انقاذ القضية العربية كلها يعود إلى الجهود الخاصة التى بذلها الحسين وأبناؤه فى الأشهر الأولى ولولا ذلك لتم لفخرى باشا بلوغ مكة واحتلالها والقضاء على الحركة فى مهدها.

ومع أن كتب السير هنرى مكماهون إلى الحسين صريحة فى أن حدود المملكة العربية الجديدة تشمل فلسطين وسورية الداخلية والعراق على أن ينظر فى مصير الساحل السورى بعد الحرب، فقد أنكر الإنجليز والفرنسويون على الحسين أن يلقب ملك العرب وأبلغوه رسميا أنهم لا يعترفون به إلا ملكا على الحجاز وحده وما خاطبوه بعد الثورة إلا

بهذا اللقب، وكانوا يلقبونه به فى صحفهم وفى الصحف المصرية، وكان الملك يطلع عيلها، مما لا يدع شكا فى نياتهم. إلا أنه ظل حتى الساعة الأخيرة ينكر عليهم تصرفاتهم، وينادى بأن هنالك وعودا وعهودا يجب الوفاء بها، ويناشد انجلترا أن تفى له بما عاهدته عليه فلا يكون سخرية العالم الإسلامى.

وهنالك ظاهرة أخرى فى صلة الحسين بالحلفاء زمن الثورة. فقد كانت تتأثر بالحوادث فإذا كانت كفتهم راجحة، وكان طالع الحرب باسما لهم أهملوا مطالبه وأزوروا عنه، وإذا كان الأمر بالعكس وكانت كفة الألمان والترك هى الراجحة أجيبت ماطلبه، ولقى عناية واهتماما. ولقد لاحظ القراء أن وزير الخارجية الفرنسوية أرسل تعليمات سرية إلى معتمده فى الحجاز بأن يتجنب البحث مع الحسين فى معاهدة سايكس ـ بيكو، عن إتيان أى حركة تثير شبهاته من ناحية فرنسا ومطامعها فى سورية. وتبدل الحال بعد ذلك حينما هبت ريح النصر على أعلام الحلفاء وكتب الفوز لهم فلم يعودوا يكتفوا بنشر نصوص المعاهدة وإعلانها رسميا والمطالبة بتنفيذها. بل طبقوها بالقوة. منكرين على العرب كل حق فى إنشاء حكومة مستقلة فى دمشق، وقد منحوا ذلك بموجب تلك المعاهدة.

ومن يقابل بين الاستقّبال الذى استقبل به الفرنسويون إعلان الثورة فى سنة ١٩١٦ وكيف هللت له صحفهم، وكيف أرسلوا الوفود والهدايا إلى الحسين وبين المعاملة التى عاملوا بها الملك فيصل فى سنة ١٩٢٠ وكيف انقلبت عليه صحفهم وهاجمته ووالده والعرب كلهم، يرى تأثير المصلحة ظاهرا، ويعجب لمفعولها فهى تجعل الصديق عدوا والعدو صديقا.

ويجب أن لاننسى أيضا ماأقامه الإنجليز والفرنسويون من عقبات فى سبيل توسيع دائرة عمل الجيش العربى، ومحاولتهم حصره فى الحجاز ومعارضتهم فى احتلال المدينة. لكيلا يشجع احتلالها الحركة العربية، ويطلق يد العرب فيندفعون إلى خارج الحجاز. ويزحفون على العراق كما زحفوا على الشام، ولا يقر الإنجليز هذه الخطة بل يعارضونها كما عارض الفرنسويون فى الزحف على الشام، نعم إن هنالك من يزعم أن مطاولة المدينة نشأت عن اعتبارات عسكرية جوهرية. فقد شل حصارها حركة خمسة وعشرين ألف جندى تركى أو أكثر كانوا يقاتلون على أسوارها وعلى طول سكة حديد الحجاز فى مسافة لا تقل عن ألف ومائتى كيلو متر. أقام فيها الترك الجند للدفاع عنها وصونا لمواصلاتهم، وأزعج قيادتهم العليا فى خلال سنتين ونيف، وجعلهم يشطرون قواهم المحاربة فى الشام إلى

شطرين: شطر يحارب فى بادية سيناء، وشطر آخر يحارب فى المدينة وعلى طول السكة الحديد ـ كما اعترف جمال باشا نفسه ـ وما كان هذا يتسنى لو تم احتلال المدينة بسرعة ووضع العرب يدهم على محطات السكة من المدينة حتى معان. ومع أن هذه الملاحظة لا تخلو من وجاهة إلا أن نتائجها الأدبية بل والمادية لا تقاس بالنتائج التى كانت تجنى من دخولهم المدينة وغنمهم ما فى يد حاميتها من مدافع وبنادق وعتاد يستعينون بها فى حروبهم فضلا عما يكون لمثل هذا الفوز من صدى فى بلاد العرب نفسها فهو يقوى الهمم ويصقل العزائم ويفتح أمام العرب أبوابا جديدة للعمل وميادين جديدة للنضال.

هذا من جهة أما من الجهة الأخرى فلو وفى الانكليز للحسين بما وعدوه به من إرسال حملة الي العقبة تحتلها وتزحف الى معان فتقطع خط الرجعة على الترك فى باديية الشام لتبدل سير الحرب ولانتهبت بسرعة فى هذا الميدان ولعجل ذلك فى طرد الترك من بلاد العرب كلها لامن الحجاز وحده، ولنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك، وما منعهم أن يفعلوه سوى طمعهم فى الاستيلاء على الساحل السورى وعلى المقاطعات التركية الواسعة فى جنوبى الأناضول وشرقية. وقد تم لهؤلاء وهؤلاء تنفيذ خططهم فى بلاد العرب دون بلاد الترك لانه لم يتح للعرب ما أتيح لأولئك من الحصول على كميات كبيرة من الاسلحة والمدافع التى بذلها لهم الالمان بسخاء وبدون حساب فضلا عن ملايين الجنيهات التى مدوهم بها. وعندنا ان مصدر الفرق بين المعاملتين هو عدم وجود مطامع معينة للألمان فى بقعة من بقا ع الترك كما هو الحال مع حلفاء العرب الذين كانوا يقترون عليهم فى كل شئ بعكس ما كانوا يعملونه فى الميادين الأخرى فقد كانوا يبذلون بلا حساب.

ومن سوء حظ الثورة العربية أن يكون للإنكليز الذين كان عليهم أن يغنوها بأموالهم ويسلحوها بسلاحهم ـ وما كانت موارد العرب فى تلك الأثناء تساعد على التفرد بالعمل ـ مطامع فى بلاد العرب يرون أن نجاح الثورة واتسا ع نطاقها يحول دون تحقيقها فلذلك ضيقوا دائرة عملها، أن يكون لهم وقد لا نبالغ إذا قلنا إن فائدة الإنكليز من الثورة العربية كانت أكثر من فائدة العرب. فقد سهلت لهم سبل الاستيلاء على فلسطين والعراق وبلاد الشام وضمنت لهم الفوز بعد ماقاسوا الأمرين من الترك فى خلال السنتين الأوليين للحرب فكسرهم الترك شر كسرة فى ميدان العراق وحصروا جيشهم فى كوت الإمارة كما هزموهم فى ميدان فلسطين واضطروهم إلى الإلتجاء إلى ضفة القناة الشرقية، ولم يتسن

لهم اجتيازها والتوغل فى فلسطين والشام إلا بعد اعلان الثورة العربية واشتغال الترك بها. وما جرى فى هذا الميدان جرى فى ميدان العراق تماما فقد انقلب العرب الذين كانوا يحاربون الإنكليز فى صفوف الترك على هؤلاء حينما أعلنت الثورة ونادى مناديها، فأخذ الإنكليز ينتقلون من نصر إلى نصر. فاحتل الجنرال اللنبى القدس فى نفس الوقت الذى احتل فيه الجنرال مود بغداد تقريبا. ولولا مفعول الثورة العربية لما فاز الإنكليز فى الشرق الأدنى ولا ستهدفوا للهزائم التى استهدفوا للهزائم التى استهدفوا لها فى الدردنيل وفى كوت الإمارة وفى معارك القناة الأولى.

ولابد لنا من القول أن بعض مفكرى العرب وأذكيائهم من الذين وقفوا على أسرار السياسة الأوربية ودخائلها وعرفوا مكر الأوربيين وعدم وفائهم فى معاملة الشرقيين خاصة وأحاطوا علما بما يضمره الإنكليز للعرب وما يعملونه لتضييق دائرة الثورة وجعلها محلية موضعية لاتتعدى الحجاز ولا تخرج عن محيطة، اتصلوا بالحسين فى الأشهر الأولى التى تلت إعلان الثورة ونبهوه إلى المكائد التى تكاد للعرب وإلى الأخطار التى تستهدف لها ثورتهم إذا لم يشدد على الإنكليز ويطالبهم بتنفيذ وعودهم كاملة وبتقديم كميات عظيمة من السلاح لإنشاء جيش وطنى وبإطلاق يد العرب بالعمل فى العراق وفى بادية الشام فكان يجيبهم أجوبة غير صريحة ويقول إنه ليس فى إمكاننا أن نفعل غير مافعلنا وأن إحراجنا لهم قد يضطرهم إلى التخلى عنا فنقع فريسة بين براثن الترك والألمان فيقولون له إن الأمر بالعكس وان تهديده لهم قد يحملهم على إجابة مطالبة كما أن التساهل معهم يطمعهم ويجعلهم يصرون على أساليبهم وخططهم. والمكاتبات الرسمية التى عثرنا عليها لاتدل على أنه اتبع الشدة فى مخاطبة الإنكليز، ولا على ميله إلى التوسل بأساليب العنف. على أنه انصرف فى نهاية الحرب، بعد ما انطبق عليه المثل القائل الصيف ضيعت اللبن ـ الى تهديدهم بالاستقالة والانسحاب، وقد كرر ذلك مرات فى كتبه ومخاطباته لهم بعد عقد الصلح وما كان يهمهم من أمره شيئا.

وخلاصة القول وجماعه، أنه برغم الهفوات التى ارتكبت فى هذا الدور ورغم وقوع كل ماوقع خرجت الحركة العربية من الحرب العظمى سليمة، وصارت بسببها قوة مادية محسوسة بعد ما كانت خيالا أو فكرة تجول فى بعض الرؤوس وضمنت للعرب إنشاء دولة مستقلة تمام الاستقلال فى الحجاز والاستيلاء على الجزء الداخلى من بلاد الشام فى خط

مستقيم يمتد من المدينة إلى حلب لا يفصل بينه .. وتلك نتيجة مادية لا يستهان بها كما إنها أفادتهم من الوجهة الأدبية فوائد ذات شأن، ولئن لم تحقق آمالهم كاملة فما ذلك إلا لعدم إخلاص الحلفاء، وقد كانوا طامعين فى الأجزاء الثمينة من بلاد العرب كما قلنا ـ ولأن العرب لم يكونوا قد أعدوا ما يلزم للثورة، فقد فاجأتهم الحرب العظمى قبل أن تنضج الحركة الفكرية، وقبل أن يتسع نطاق جمعياتهم وتتكامل نظمهم «تشكيلاتهم» الداخلية، وقبل أن تتصل هيئاتهم وجمعياتهم وتنظم حركتهم التنظيم المطلوب، وقد أدرك الحلفاء هذا النقص فاستغلوه فتحول النضال من جهة إلى جهة. فبعد ماكان العرب يناضلون الترك قبل الحرب صاروا يناضلون الإنجليز فى العراق وفى فلسطين والفرنسيس فى سورية ولبنان، بعدها أى أنه صار عليهم أن يكافحوا خصمين قويين بدلا من خصم واحد، ولم يقصروا من هذه الناحية ـ وسنفصل أدوار هذا النضال فى الحلقة الثانية تفصيلا وافيا.

ومن الله نستمد العون والتوفيق

فهرست الجزء الأول

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصـفـحـة

الصفحة

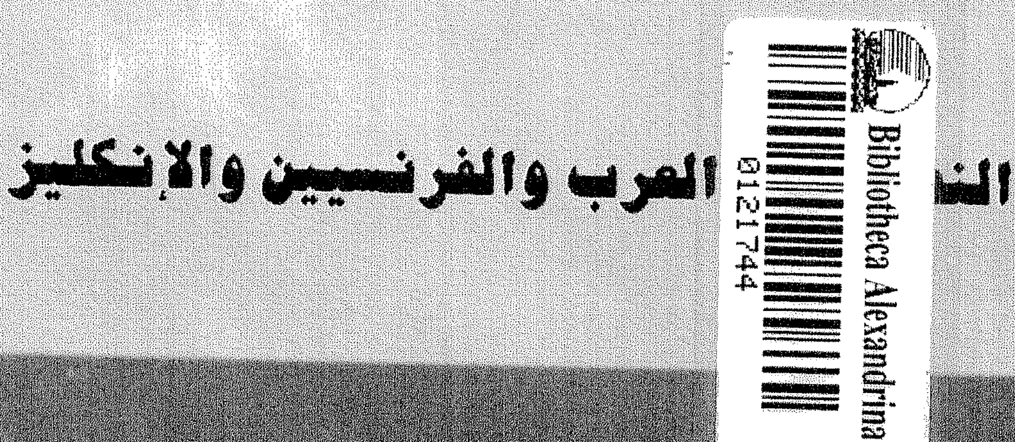
الثورة العربية الكبرى

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية فى ربع قرن

تأليف

أمين سعيد

المجلد الثانى



مكتبة مدبولى

الثورة العربية الكبرى

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية

في ربع قرن

تأليف

أمين سعيد

المجلد الثانى

النضال بين العرب والفرنسويين والإنكليز

مكتبة مدبولى

اسم الكتـــاب : **الثورة العربية الكبرى**

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية فى ربع قرن

اسم الكـاتـب : أمين سعيد

المجلد الثـــانى : النضال بين العرب والفرنسويين والإنكليز

الـنـاشـــــر : مكتبة مدبولى ٦ شارع طلعب حرب القاهرة

تليفاكـــس ٥٧٥٦٤٢١ ت : ٥٧٥٢٨٥٤

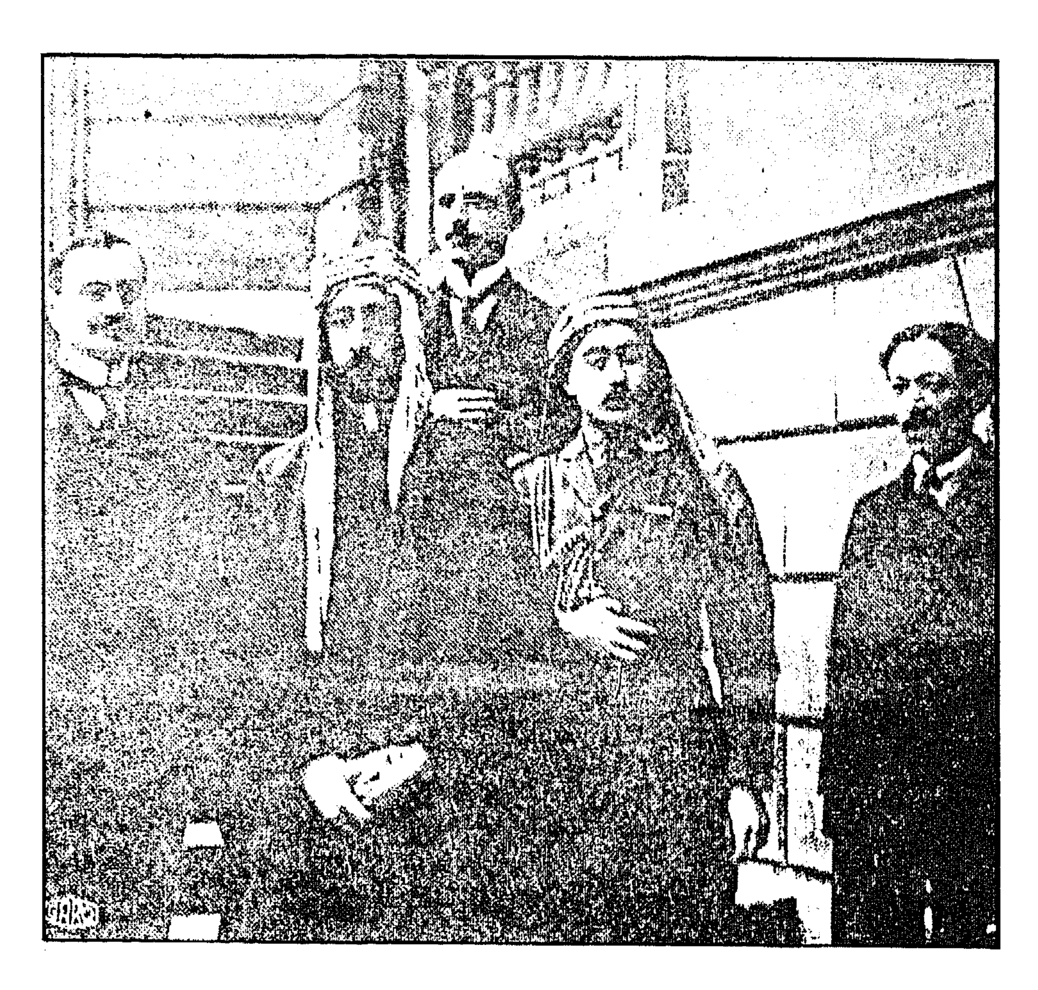
الجمع التصويرى: ابو مسلم للكمبيوتر

ت : ٣٥٥٨٩٨٨



الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبيه العربى، وعلى إخوانه المرسلين وصحابته والتابعين

أما بعد فهذا هو المجلد الثانى من كتاب «الثورة العربية الكبرى» ويشتمل على الحلقة الثانية من تاريخ القضية العربية وهى تاريخ الحكومة الفيصلية من قيامها حتى سقوطها، مع تاريخ القضية العراقية من ابتداء الحرب العظمى حتى انشاء الدولة الجديدة فى بغداد سنة ١٩٢١ - أقدمه للقراء، رأرجو أن ينال قبولهم ورضاءهم والله الموفق والمستعان.



الوفد العربى إلى مؤتمر الصلح

في الوسط الأمير فيصل، وإلى يمينه الدكتور أحمد قدرى مستشار الوفد ووراءه رستم حيدر العضو فى الوفد، وإلى يساره تحسين قدرى مرافقه العسكرى، وإلى جانبه عونى عبد الهادى سكرتير الوفد

١
الدولة الفيصلية فى الشام

١

كيف تأسست الدولة الفيصلية

خطبة الأمير فيصل فى حلب

ترجل الأمير فيصل من سيارته حينما بلغ ضاحية دمشق يوم ٢ أكتوبر سنة ١٩١٨ قادما من الأزرق. وكان أعيان الشام وعلماؤها ورجالها قد خرجوا لاستقباله، فركب جوادا عربيا كريما، وسار فى موكب حافل يحيط به ١٥٠٠ فارس من رجاله وحاشيته وبأيديهم السيوف والرماح فاخترق دمشق من الجنوب حتى الشمال، ومشى بين صفوف أبنائها الذين هرعوا لاستقباله، ونثروا الزهور والرياحين على موكبه واستقر فى منزل محمود بك البارودى، وانصرف على الفور إلى انشاء الحكومة الجديدة.

وفى يوم ٥ أكتوبر سنة ١٩١٨ أذاع البلاغ الرسمى الآتى:

إلى أهالى سوريا المحترمين

أشكر جميع السوريين على ما أبدوه من العطف والمحبة وحسن القبول لجيوشنا المنصورة والمسارعة للبيعة باسم مولانا السلطان أمير المؤمنين الشريف حسين - نصره الله - ثم أبلغهم المواد الآتية:

١- تشكلت فى سورية حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالا مطلقا لاشائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية.

٢- قد عهدت إلى السيد رضا باشا الركابى بالقيادة العامة للحكومة المذكورة نظرا لثقتى باقتداره ولياقته.

٣- تتألف ادارة عرفية لرؤية المواد التى يحيلها القائد إليها. بناء عليه أرجو من الأهالى الكرام المحافظة على الهدوء والسكون، والطاعة للحكومة الجديدة، والانقياد لأوامرها والإصغاء لتبليغاتها. وأبلغكم بأنى سأكون تجاه جميع الأفراد المنضوين تحت لواء الحكومة العربية كأب شفوق. كما أنى سأكون شديد العقاب على من يجرؤ على مخالفة أوامرها والعبث بقوانيها وإيقاع العراقيل فى سبيل رقيها وسيرها. ولذلك فإنى آمل من أهالى سورية الذين برهنوا على محبتهم لنا بترحيبهم بنا أم يكونوا مثالا حسنا

للطاعة والسكون حتى يثبتوا للعالم أجمع أنهم أمة لائقة للاستقلال، قادرة على إدارة شؤونها بنفسها . وليعلم جميع الناس أن حكومتنا العربية قد تأسست على قاعدة العدالة والمساواة. فهى تنظر إلى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظرا واحدا، لا نفرق فى الحقوق بين المسلم والمسيحى والموسوى. فهى تسعى بكل ما لديها من الوسائل لتحكيم دعائم هذه الدولة التى قامت باسم العرب، وتستهدف اعلاء شأنهم، وتأسيس مركز سياسى لهم بين الأمم الراقية.

والله نسأل أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه خير العرب وإعلاء كلمتهم والسلام

فى ٢٧ ذى الحجة سنة ١٣٣٦ الشريف فيصل

وعلى هذا المنوال وضعت قواعد الحكومة الجديدة فى بلاد الشام برئاسة الأمير فيصل نفسه، وتسلم رضا باشا الركابى الإدارة، ولقب بلقب الحاكم العسكرى العام.

الأعمال العسكرية فى الشمال

ولما كانت المهمة العسكرية للجيش العربى لم تنته بدخول دمشق، وكان لابد له من تحرير الأجزاء الباقية من سورية الشمالية، ومطاردة الجيش التركى. فقد غادر لواء الهجانة دمشق يوم ١١ منه بقيادة على جودت الأيوبى مع سرية الشريف ناصر، فدخلوا حمص يوم ١٤ منه بين هتاف الأهالى وتصفيقهم، ثم تقدموا إلى حماه فدخلوها يوم ١٩ منه بعد ماجلا عنها الترك. وفى يوم ٢٠ منه زحفت هذه القوات - وقد تخلف على جودت فى حماه لمرضه فحل محله فى القيادة على رضا العسكرى - قاصدة حلب فأدركت خيالة الإنكليز فى معرة النعمان ملتحمة مع ساقة الجيش التركى، فاشتركت فى القتال فانسحب الترك إلى خان السبيل، وتحصنوا فى خط دفاع أنشأه مصطفى كمال باشا رئيس الجمهورية التركية اليوم بعد ما عهدت اليه وزارة الحربية التركية بالقيادة العليا فى بلاد العرب فحل محل المشير ليمان فون ساندرس.

واشتبك العرب والترك يوم ٢٥ منه فى خان السبيل، فلم يستطع هؤلاء المقاومة فارتدوا إلى شمالى حلب، ووصل فى تلك الأثناء نورى السعيد فتولى القيادة العامة للقوات العربية التى دخلت حلب فى الليل. وفى صباح ٢٦ منه بدأ بمطاردة الترك حتى محطة المسلمية، ثم تلقى أمرا بالعودة إلى حلب فعاد إليها، ومر يوم ٢٧ منه لواء بريطانى من غربى حلب لمطاردة ساقة الترك فدار قتال بين الفريقين قتل فيه قائد اللواء. وفى يوم ٣٠ منه عقدت

الهدنة بين الترك والحلفاء، ووضعت الحرب أوزارها.

وانصرف نورى السعيد بالاشتراك مع الشريف ناصر إلى إنشاء حكومة جديدة. فعين على رضا العسكرى حاكما عسكريا على حلب، ثم أبدل بشكرى باشا الأيوبى.

الأمير فيصل فى حلب

وفى أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ غادر الأمير ومعه عدد كبير من رجال الشام دمشق للقيام بجولة فى الأنحاء الشمالية، وبعد ما زار حمص وحماه دخل حلب باحتفال حافل يوم ٦ منه. فأقيمت لتكريمه حفلة كبيرة فى نادى العرب يوم ١١ منه فخطب خطبة ضافية بسط فيها أغراض الثورة، والعوامل التى عملت فى تكوينها، وقد اخترنا نشرها لخطورة شأنها ولأنها أول خطبة سياسية له فقال:

لا نشك أنكم أيها السادة ترومون منا أعمالا مهمة. وبما ان حلب هى فى أقاصى بلاد العرب لم يتصل بأهلها ما وقع بيننا وبين الأتراك، وما سبب قيامنا ضدهم. لأن الأتراك كانوا يشيعون للملأ أجمع أن الأشراف اتفقوا مع الغربيين على بيع البلاد لقاء دريهمات، وسعوا لإخراج فتاوى ضدنا نشروها للعامة، وقد يوجد بين بسطاء العقل من غش بزعم الأتراك وضلالاتهم.

نشأ الدين الإسلامى بقدرة اللّه تعالى، ونشر بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم النبى العظيم، الذى تنتسب إليه أسرتنا. فلا يتصور أن أناسا منسوبين لمحمد النبى الكريم يبيعون أو يخونون ما وضعه جدهم. لأن مصلحة الأمم الإسلامية لها علاقة كبيرة بهذا الشأن.

نحن لم نقم إلا لنصرة الحق وإغاثة المظلوم. ساد الترك ٦٠٠ سنة هدموا فى خلالها صرح مجد أقامه أجدادنا. ومن ذلك الحين أطفئت نار العرب، ولكن لم تطفأ لأن العرب عاشوا قرونا وأعواما، ولم يتسن البقاء لأمة من الأمم غير العرب، وإنما كانت تنتهز الفرص وتظهر عندما ترى الوقت المناسب.

نمنا ٦٠٠ سنة. ولكن لم نمت. بل انتظرنا الظرف المساعد على النهوض والخروج إلى ساحة العمل لتمكين وتشييد مجدنا.

عندما أعلن الاتراك النفير العام أتوا بأعمال تتبرأ منها الإنسانية ولا لزوم لتعدادها.

وكانت العرب تنادى وتطالب الأتراك بحقوقها وهذه اغتنمت الفرصة التى مكنتها من الانتقام من العرب.

رأى والدى أن حكومة الترك ليست بدولة تعمل لإحياء دين أو عمل عام ينفع البلاد. ولكنها أعلنت جهادها بالاتفاق مع المانيا لمجرد الانتقام من العناصر الخاضعة لها ومنها العرب وتبين له أن مبادئها غير مبادىء الحق، فاتفق مع الحلفاء بعد الاتكال على قوة الله لعلمه أنهم ينصرون الضعيف، ويساعدون على إعادة حقوق الأمم المحكومة، وتساعد وإياهم على إزاحة الأتراك واستخلاص ما اغتصبوه منا نحن العرب.

باسم العرب حالف والدى الحكومات الغربية، وقام معهم ضد المانيا وتركيا كتفا إلى كتف. لا كما زعم الأتراك من أن قيامنا كان نتيجة مطامع شخصية.

فأنا باسم كافة العرب أخبر إخوانى أهل الشهباء أن للحكومات الغربية وخصوصا انكلترا وفرنسا اليد البيضاء فى مساعدتنا، وشد أزرنا ولا تنسى العرب ما دامت موجودة على وجه البسيطة فضل معاونتهم.

نحن اليوم ندعى الحرية والاستقلال فهذه أقوال إذ لم نعمل شيئا حتى الآن سوى طرد الأتراك من بلادنا، وهذا محتم عليهم لأن القدرة الإلهية تأبى أن تتركهم بدون مجازاة لما أتوه من فضائح الأعمال.

بقيت علينا وظائف مهمة جداً. وهى تأسيس ملك وحكومة نفتخر بهما أمام العالم أجمع إن الأمم الغربية قد ساعدتنا وستساعدنا معنى، وانى لأتلو عليكم برقية وردت لى منذ ثلاثة أيام تبين لكم إحساسات الدول الغربية نحونا ليفهم جميع المواطنين أننا لم نبع البلاد ولن نبيعها أبدا وهى:

نص تصريح ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨

«إن السبب الذى من أجله حاربت فرنسا وانكلترا فى الشرق تلك الحرب التى أهاجتها مطامع الألمان إنما هو لتحرير الشعوب التى رزحت أجيالا طوالا تحت مظالم الترك تحريرا تاما نهائيا، واقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالى الوطنيين لها اختيارا حرا. ولقد أجمعت فرنسا وانكلترا على ان تؤيد ذلك بأن تشجعا وتعيننا على إقامة هذه الحكومات والإدارات الوطنية فى سورية والعراق - المنطقتين اللتين أتم الحلفاء تحريرهما، وفى الأراضى التى مازالوا يجاهدون فى تحريرها وأن تساعدا هذه الهيئات

وتعترفا بها عندما نؤسس فعلا – وليس من غرض لفرنسا وانكلترا أن تنزلا أهالى هذه المناطق على الحكم الذى تريدانه. ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والإدارات التى يختارها الأهلون من ذات أنفسهم، وأن تضمنا لهم عدلا منزها يساوى بين الجميع، ويسهل عليهم ترقية الأمور الاقتصادية فى البلاد بإحياء مواهب الأهالى الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم، ووضع حد للخلاف القديم الذى قضت به السياسة التركية – تلك هى الأغراض التى ترمى إليها الحكومتان المتحالفتان فى هذه الأقطار المحررة».

لاشك فى أن هذه البرقية من المستندات التاريخية العظيمة، وانها تنبىء عن شعور عال وحسيات إنسانية لا يقوم العرب بإداء واجب الشكر عليها إلا بتحقيق أمانى هذه الدول، وهى تشكيل وتنظيم حكومة عادلة قوية تحفظ حقوق جميع أهل البلاد.

اننا اليوم فى موقف حرج، الأمم المتمدنة وحلفاؤنا ينظرون إلينا بنظر الإعجاب والتقدير وأعداؤنا يرمونا بعين النقد. خرج الأتراك من بلادنا. ونحن الآن كالطفل الصغير لا حكومة ولا جند ولا معارف. والسواد الأعظم من الشعب لا يفقه معنى الوطنية والحرية، ولا ما هو الاستقلال، حتى ولا ذرة من كل هذه الأمور، وذلك نتيجة ضغط الاتراك على عقول وأفكار الأمة. لذا يجب أن نفهم هؤلاء الناس قدر نعمة الاستقلال، ونسعى إن كنا أبناء أجدادنا لنشر لواء العلم. لأن الأمم لا تعيش إلا بالعلم والنظام والمساواة، وبذلك نحقق آمال حلفائنا.

أنا عربى وليس لى فضل على عربى، ولو بمثقال ذرة أننى أوفيت واجبى الحربى كما أوفى والدى واجبه السياسى فإنه تحالف وتعاهد مع أمم متمدنة أوفت بعهودها ولاتزال تساعدنا على تشكيل حكّومة منتظمة. فعلينا إبراز هذه الأمنية إلى حيز الوجود بكمل الحزم والعزم. لأن البلاد لا يمكنها أن تعيش بحالة فوضى – أى بلا حكومة، وهذا واجب ذمة الأمة وأهل البلاد، ونبرأ إلى اللّه مما يحصل لهذه البلاد بعد اليوم. أنا ومن معى سيف مسلول بيد العرب يضربون به من يريدون.

أحض اخوانى العرب على اختلاف مذاهبهم بالتمسك بأهداب الوحدة والاتفاق، ونشر العلوم، وتشكيل حكومة نبيض بها وجوهنا. لأننا إذا فعلنا كما فعل الأتراك نخرج من البلاد كما خرجوا لا سمح اللّه، وان فعلنا ما يقضى به الواجب يسجل التاريخ أعمالنا بمداد الفخر. إننى أقل الناس قدراً وأدناهم علما لا مزية لى إلا الإخلاص.

إننى أكرر ما قلته فى جميع مواقفى بان العرب هم عرب قبل موسى وعيسى ومحمد.

وأن الديانات تأمر فى الأرض باتباع الحق والأخوة وعليه فمن يسعى لإيقاع الشقاق بين المسلم والمسيحى والموسوى فما هو بعربى.

إننا عرب قبل كل شيء، وأنا أقسم لكم بشرفى وشرف عائلتى، وبكل مقدس ومحترم عندى بأنه لا تأخذنى فى الحق لومة لائم، ولا أحجم عن مجازاة من يتجرأ على ذلك. فلا أعتبر الرجل رجلا إلا إذا كان خادما لهذه التربة.

عندنا والحمد الله رجال أكفاء كثيرون، ولكنهم مقيمون خارج الديار، وفى بلاد الأتراك وسيأتون قريبا إن شاء اللّه فيصلحون الخلل الموجود هنا ولا يجدر أن نتقاعس عن العمل ريثما يأتون. فما لايدرك كله لا يترك كله، ويلزم علينا أن نبتدىء بدون أن ننظر للمرء من حيث شرف عائلته وخصوصيته. بل ننظر إلى الرجل الكفء شريفا كان أو وضيعا. إذ لا شرف إلا بالعلم. الإنسان يخطىء فإذا أخطأت سامحونى وبينوا لى مواطن خطئى.

بما أن أغلب الأفراد يجهلون قدر نعمة الاستقلال كما بينت لكم فلا يبعد أن يحصل فى بعض المحلات ما يخل بالأمن. فالحكومة مجبورة على تطبيق معاملاتها على القانون العسكرى العرفى مدة الحرب ريثما يتم تشكيل حكومة منتظمة.

أرجو إخوانى أهل البلاد أن ينظروا إلى الحكومة نظر الولد للوالد الشفوق، ويساعدوها جهد طاقتهم. ويعلموا أن الحكومة مشرفة على أعمال الأفراد والموظفين.

إن الحكومة فى طورها الجديد بحاجة لإيجاد قوة تحفظ كيانها. فكل من يعبث بأوامرها ويخل بمقرراتها، يستهدف ليدها القوية ولأجل حفظ الاستقلال ليس إلا أدعوا أهل البلاد للاهتمام الزائد بتكوين حكومة ثابتة الأركان متينة الجانب.

الدرك والشرط هما قوام البلاد. وبدونهما لا تنتظم أحوال الحكومات. لذلك أطلب من الجميع وخصوصا الشبان أن ينتظموا بهما، وأن لا يتأخر أحدهم عن خدمة وطنه وبلاده بدون نظر لموقعه العائلى.

فإن الشرطة وظيفة شريفة عالية، وإن الإنسان يتولى كل عمل فى داخليته وبيته. حتى تجد رب البيت يكنس داره بيده، ولا يرى بها استخفافا.

وستكون القوانين السابقة مرعية الإجراء إلى أن يتم سن القوانين من قبل المجلس الأعلى – أى مجلس الأمة.

الحكومة الحاضرة تحفظ الأمن والنظام ريثما تتعين هيئات الحكومة الجديدة.

العرب أمم وشعوب مختلفة باختلاف الإقليم. فالحلبى ليس كالحجازى والشامى ليس كاليمانى، ولذا فقد قرر والدى أن يجعل البلاد مناطق يطبق عليها قوانين خاصة بنسبة أطوار وأحوال أهلها. فالبلاد الداخلية يكون لها قوانين ملائمة لموقعها، والبلاد الساحلية أيضا يكون لها قوانين طبق رغائب أهلها.

كان من الواجب علينا أن نبتدىء أولا بجمع الهيئة التى تسن هذه القوانين. ولكن العرب الذين هم فى البلاد الخارجية هم أعلم منا بالقوانين الأكثر ملاءمة للبلاد. ولذلك نرجىء هذا الأمر إلى وقت اجتماع هؤلاء، وفى أقرب وقت يصلون إن شاء الله. ان الذين استدعيتهم من الخارج رجال قديرون على وضع قوانين صالحة ملائمة لروح البلاد وطبائع أهلها، وسيكون اجتماعهم فى دمشق أو غيرها من البلاد العربية لعقد مؤتمرهم، وسأنظر باعجل وقت بشؤون الاوقاف والكنائس ورد حقوقها المغصوبة من قبل الاتراك، وأعطى كل ذى حق حقه.

وأطلب من إخوانى أن يعتبرونى كخادم للبلاد. إنكم قد أعطيتمونى البيعة بمنتهى الإخلاص والرضاء فأقابلها بالقسم العظيم. إنى لا أفتر عن نصرة الحق ورد الظلم وكل ما يرفع شأن العرب، وأرغب إلى الأهالى أن يؤازرونى بالعمل فى خدمة الجامعة إلى أن يلتئم مجلس الأمة فأقول حينئذ هذه بضاعتكم ردت اليكم.

إن حلب خالية من المدارس فأتمنى لها مستقبلا علميا باهرا. كما كانت عليه بالتاريخ وأرجوا أخيراً صرف الهمة والنشاط لامرين مهمين: (١) حفظ النظام العام (٢) ترقية المعارف، فوالله لا يمتاز أحد عندى إلا بفضله وعرفانه.

عند مرورى من حماه استنهضت همة الأهالى بكلمات وجيزة للعناية بالعلم، وافتتاح المدارس، وبجلسة واحدة تبرع بضعة أشخاص بأربعة آلاف جنيه، ووعد الآخرون بإبلاغها حتى ١٢ ألف جنيه، وسأستدعى حضرات الأهالى بحفلة خاصة للعناية بهذا المشروع الهام – مشروع العلم روح البلاد. نسأل الله تعالى أن يوفقنا لخدمة البلاد ونفع العباد، ويمتع الامة بالحياة الرغيدة والسلام.

٢
التقسيم الادارى الجديد

كان الاميرالاى بهجب بك وكيل ولاية سورية آخر من غادر دمشق ظهر يوم الاثنين ٣٠ سبتمبر من ولاة الأمور العسكريين والملكيين الترك. فقد اجتمع قبيل سفره بشكرى باشا الأيوبى وسلمه المدينة فذهب هذا لفوره إلى سجن القلعة ففتح أبوابه وأخرج المسجونين، وعددهم أربعة آلاف تقريبا باسم جلالة الملك حسين، وتألفت فى دمشق على الأثر حكومة مؤقتة برئاسة الامير سعيد الجزائرى قوامها شكرى باشا وفارس الخورى وبديع المؤيد وغيرهم.

وفى يوم أول اكتوبر أرسل الأمير سعيد إلى المدن السورية برقية هذا نصها:

بناء على انسحاب الحكومة التركية فقد تأسست الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرف. طمئنوا العموم وأعلنوا أن الحكومة باسم الحكومة العربية.

فتألفتت على الأثر حكومة عربية فى بيروت برئاسة عمر الداعوق رئيس البلدية، وأذاعت المنشور الآتى:

١ـ على الأهلين والموظفين ورجال الدرك والشرطة متابعة أشغالهم ووظائفهم بتمام السكينة والهدوء، وبكل نشاط واستقامة، ويتحتم على الأهلين أن لا يتداخلوا فيما لا يعنيهم، وأن لا يتعدى بعضهم على بعض.

٢ـ ممنوع قطعيا حمل السلاح والخروج إلى الطرقات ليلا بعد الساعة الثانية بعد الغروب.

٣ـ إذا حدث تعد على أحد فعليه حالا أن يخبر أقرب مخفر للبوليس

٤ـ إذا وقعتت مغدورية أو مخالفة أو تماهل بالوظيفة على الأهالى من قبل أى كان فعليه إعلامى حالا.

٥ـ كل من يتجرأ على مخالفة هذه الأوامر يجازى أشد الجزاء بلا شفقة ولا رحمة، وكل من يتجاسر على سلب الأمن العام يحاكم على الفور، ويعدم شنقا أو رميا بالرصاص.

٦ـ المظاهرات والتجمع وإلقاء الخطب ممنوع.

٧ـ بما أن الأتراك وعيالهم وسائر الغرباء هم بمثابة وديعة عندنا، فيجب على كل فرد تمام الاعتناء برفاهيتهم وراحتهم كما تقتضيه الشهامة العربية.

شكرى باشا الأيوبى فى بيروت

وبادرت حكومة دمشق الجديدة فعينت شكرى باشا الأيوبى حاكما عاما على بيروت ولبنان، وعينت جميل الألشى رئيس أركان حرب له، فقصدا بيروت على الفور مع ١٠٠ جندى فوصلوا يوم ٦ منه فأعلن شكرى باشا دخول البلاد فى حوزة الحكومة العربية، ورفع العلم العربى على دار الحكومة، وعين حبيب باشا السعد حاكما مدنيا بعد ما أقسم يمين الطاعة للملك الحسين.

اتفاق ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٨

وما كاد الترك يجلون عن بلاد الشام حتى قام الفرنسويون يطلبون تنفيذ أحكام اتفاقية سايكس - بيكو، وان يعهد اليهم فى إدارة الساحل السورى والمناطق الأخرى التى منحوها بموجبه فماطلهم الإنكليز أياما. ثم وقعوا وإياهم اتفاقا جديدا يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٨ ينظم إدارة الشام ريثما يبت فى مصيرها نهائيا، ويوزع السلطات بين رجالهم، من دون استشارة العرب أو أخذ رأيهم. وقد حمل الإنكليز الفرنسويين على توقيع بيان ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ وإقراره مقابل الاتفاق الجديد، وهو يحصر السلطة العليا السياسية والعسكرية فى يد المارشال اللنبى القائد العام للحملة المصرية. على أن يلحق به مندوب سام فرنسوى يلقب بلقب «مستشار سياسى خاص» لاستشارته فى أمور المنطقة الزرقاء (شقة سورية الساحلية) ولإدارة شؤونها السياسية والإدارية بالاتفاق مع القائد الأعلى، ويحق للمستشار السياسى الخاص أن يعين المستشارين السياسيين للمنطقة (١) سورية الداخلية بعد الحصول على موافقة الحكومة أو حلف الحكومات العربية التى ستنشأ هنالك. كما يقوم بمهمة الوسيط بين القيادة العليا والحكومات العربية المزمع إنشاؤها فى جميع الشؤون السياسية والإدارية الخاصة بمناطق نفوذ فرنسا.

ويحق لهذا المستشار أيضا بمقتضى هذا الاتفاق إنشاء إدارة ملكية فى الشقة الساحلية وتعيين الموظفين اللازمين. على أن يرفع أسماءهم إلى القيادة العليا، ويكونون مسؤولين أمامها.

وعلى القائد العام أن يبلغ المستشار الفرنسوى خلاصة القرارات التى يقررها والتدابير التى يتخذها خارج الشؤون العسكرية. وقد أسندت وظيفة المستشار السياسى إلى المسيو جورج بيكو المندوب السامى الفرنسوى فى الشرق.

وعلى أثر عقد هذا الاتفاق قسمت القيادة العليا للحملة المصرية البلاد السورية إلى ثلاث مناطق، وأطلقت عليها اسم «بلاد العدو المحتلة».

وفي يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩١٨ أذاع الجنرال بولز رئيس أركان حرب الحملة منشورا ضمنه التعليمات الخاصة بإدارتها:

المنطقة الجنوبية: وتشمل فلسطين الحاضرة من الحدود المصرية جنوبا حتى خط الناقورة غربا، فنهر الأردن شرقا وتضم لواء القدس القديم ولواءى نابلس وعكا من ولاية بيروت القديمة. وتولت السلطات الإنكليزية إدارتها مباشرة وعين الجنرال بولز حاكما عليها.

المنطقة الشرقية: وتشمل ولاية سورية القديمة من معان جنوبا حتى حدود تركيا شمالا مع أقضية أدلب وجسر الشغور والباب غرباً والفرات شرقا.

وجعلت هذه المنطقة عربية، وتولى إدارتها العليا الأمير فيصل

المنطقة الغربية: وتضم لواء جبل لبنان ولواء بيروت ولواءى طرابلس واللاذقية من ولاية بيروت القديمة وقضاءى إنطاكية واسكندرونة من ولاية حلب.

ووضعت هذه المنطقة تحت النفوذ الفرنسوى مباشرة وعين الكولونيل بياباب حاكما لها. وقد احتج حزب الاتحاد السورى بمصر على هذا التقسيم، وقال أنه جرى طبقا لمعاهدة سايكس - بيكو السرية.

الاحتلال الفرنسوي لسورية الساحلية

فى يوم ٥ أكتوبر سنة ١٩١٨ غادر الأميرال فارنه (Varny) بورسعيد مصحوبا بقواه البحرية وهى اليخت أريان و٤ نسافات وزورقين حربيين قاصدا بيروت فبلغها يوم ٧ منه، وفى يوم ٨ منه وصل الكولونيل بياباب.

ولابد لنا من القول أن الكابتن كولوندر المندوب الفرنسوى بالنيابة والملحق العسكرى بالحملة المصرية قابل الجنرال بولز يوم ٢٩ سبتمبر طالبا أن يسمح للقوات الفرنسوية باحتلال مدينة دمشق فلم يجبه إلى ما طلب. وعلى أثر هذا الرفض عين المسيو مرسيه نائب القنصل الفرنسوى فى بورسعيد ضابطا للارتباط فى دمشق.

ووصل الجنرال اللنبى إلى دمشق يوم ٥ أكتوبر، كما جاءها الكابتن كولوندر المندوب الفرنسوى بالنيابة فقابل هذا الجنرال كليتن وباحثه فى تعيين شكرى باشا الأيوبى حاكما

عسكريا على بيروت. فأصدر هذا أمره إلى الميجور كورنواليس (ضابط الارتباط البريطانى يومئذ فى دمشق) بأن يغتنم أول فرصة لإبلاغ الأمير بأن حق تعيين الحكام منحصر بالقائد العام وحده.

وقابل المسيو كولوندر صباح ٧ منه الأمير فيصل وباحثه فى القضية نفسها، واحتج لديه على إرسال شكرى باشا إلى بيروت فأجابه: «إنه يدع معالجة الشؤون السياسية للسياسيين، وإنه منصرف إلى مطاردة الترك» وأخيرا تم الاتفاق يوم ٩ منه على إنزال العلم العربى باحتفال عسكرى، وهكذا غادر الباشا وجنده عائدين إلى دمشق وظل جميل الألشى فى بيروت معتمدا عربيا، وتولى الكولونيل بياباب الحكم. وفى ١٠ منه وصلت إلى بيروت الفرقة الفرنسوية التى كانت ملحقة بجيش الجنرال اللنبى. وفى يوم ١١ نوفمبر احتل الفرنسويون اللاذقية وفى ٢٤ منه احتلوا اسكندرونة، وفى يوم ٧ ديسمبر احتلوا إنطاكية.

٣
العرب ومؤتمر الصلح
سعى الفرنسويين لمنع الأمير من دخول المؤتمر

وتلقى الأمير وهو فى حلب برقية من والده بأن يسافر إلى أوروبا ليمثله فى مؤتمر الصلح. فغادرها على الأثر بطريق حمص ـ طرابلس بعد ما أقام أخاه الأمير زيدا نائبا عنه فى دمشق، وقد جاءها فى أواسط شهر اكتوبر سنة ١٩١٨ من معان، حيث تولى قيادة الجيش الشمالى بعد سفر أخيه إلى الأزرق.

وصل الأمير إلى بيروت يوم ١٩ نوفمبر فاستقبله الجنرال بولفين قائد الفيلق الحادى والعشرين البريطانى وكبار البيروتيين وأعيانهم، وفى يوم ٢٢ منه ركب الطراد البريطانى غلوسستر إلى مرسيليا، ومعه نورى السعيد رئيس أركان حربه ورستم حيدر رئيس ديوانه والدكتور أحمد قدرى طبيبه الخاص، وتحسين قدرى مرافقه العسكرى وفايز الغصين سكرتيره الخاص.

وقبل وصول الأمير فيصل إلى فرنسا أبلغت الحكومة الفرنسوية الحسين رسميا بواسطة الكومندان كوس معتمدها فى جده أنها وإن كانت ستحتفى بالأمير فيصل حين وصوله إلى مرسيليا يوم ٢٦ نوفمبر احتفاءها بابن ملك حليف وصديق وتقوم بالواجب عليها إلا أنها تعجب لأن الأمير لم يبلغ أحدا من ممثلى الجمهورية الفرنسوية فى سورية وفلسطين خبر رحلته هذه. مع أن الحكومة الفرنسوية هى المختصة باستقباله وإعداد معدات سفره من مرسيليا إلى باريس، وقالت إنه يظهر لها أنه يستحيل عليها فى الوقت الحاضر اعتبار الأمير قائما بمهمة رسمية لم تبلغ عنها شيئا، فلم يبد الملك ارتياحه إلى هذا التبليغ، وقال إنه يغتنم الفرصة ليصرح بأنهم أخذوا ينظرون إليه بنظر عدم الاطمئنان منذ وصول الجيش العربى إلى سورية. مع أنه ليس له أى مطمح فى تلك البلاد وما كان تدخل الجيش العربى فى شؤونها إلا بطلب سكانها الذين أعربوا عن هذه الرغبة بملء الحرية، وبدون أى ضغط. لا من جانبه ولا من جانب ابنه، وإنهم يعتقدون بأنه لابد من رفع العلم العربى على عدة مدن سورية وأنه لا ينسى جميل فرنسا معه وسيتجنب عمل كل ما من شأنه أن يسىء إليها أو يؤدى إلى العبث بمصالحها أو إهمالها. ثم كتب على الأثر كتابا رسميا بمثل هذا المعنى سلمه إلى المعتمد الفرنسوى.

و اذا خامر القارىء شك فى صحة هذه الرواية، أو ظن أنها مشوبة بشىء من المبالغة لشذوذها فنحن مؤيدوها بما كتبه الكولونيل بريمون فى كتابه «الحجاز فى الحرب العالمية» عن رحلة الأمير إلى فرنسا. قال فى ص ٣٠ ما ملخصه: «تلقيت أمرا فى يوم ٢٤ نوفمبر بأن أقصد باريس على عجل لأقوم بمهمة استقبال الأمير فيصل نجل ملك الحجاز ومرافقته بضعة أيام، فذهبت إلى وزارة الخارجية، وقابلت المسيو غو معاون مدير الشؤون الآسيوية فألقى عليّ التعليات الآتية شفاها قال: وصل الأمير فيصل إلى فرنسا بطرادة إنكليزية ونزل فى مرسيليا، ولا أعرف إن كان لايزال فيها أم بلغ ليون. فاقصد ليون أو مرسيليا إذا لزم الأمر، واجتمع به. وستجد معه المسيو برتران وهو وزير مفوض بالمعاش وقد انتدبناه لاستقبال الأمير حينما علمنا بسفره.

«وستعامل الأمير معاملة قائد عسكرى (جنرال) ممتاز فقط، ولا تعترف له بأى صفة سياسية. وقل له ان هذه الشؤون (السياسية) تعلو مستواك ومستواه وان الذين أشاروا عليه بالقدوم إلى أوروبا لم يمحضوه النصح، وانه كان يجب عليه أن يتحادث مع المسيو جورج بيكو قبل المجىء. وان الحكومة البريطانية لا تعمل له كل شىء، وانه ما كان يجدر به أن يستشيرها وحدها ويهمل الحكومة الفرنسوية.

«وابذل الجهد لكى لا تأتى به إلى باريس قبل أن تتلقى أوامر جديدة. وفى استطاعتك أن تطوف به فى كل مكان، وأن تهيىء له زيارة أى ناحية من النواحى بعد إبلاغ ذلك إلى الولاة المحليين. واقصد به إلى الجنرال غورو قائد الجيش الرابع المرابط فى ستراسبورغ فيقلده وسام اللجيون دونور من رتبة غراند أوفيسيه.

«وهيىء ضابطا عسكريا لمرافقته فى كل مقاطعة ينزلها واعتمد على السيارات العسكرية فى تنقلاتك وجولاتك، وأبلغ المسيو برترام أننى وضعت ١٥ ألف فرنك تحت تصرفه لهذه الرحلة، وأنها معك وتجد معه الضابطين المترجمين ريموند وجوس.

«وزر غرفة تجارة ليون معه، واعمل ليقدموا له هدية نفيسة من الأقمشة الحريرية، واسع عنده لإنشاء علاقة بين جامعة ليون والجامعة العربية التى ستنشأ فى دمشق. فتتبادلا الاستاتذة والطلاب، وابحث معه عن المسيو هريو، واحمل هذا على محادثة الأمير.

«ويجب أن تكون صريحا كل الصراحة مع لورانس، وأفهمه أنه سلك سبيلا غير مستقيم. واستقبله استقبالا وديا إذا جاء لابسا بزة كولونيل بريطانى، ولن نقبله اذا جاءنا كبدوى يلبس الملابس العربية واذا أصر على البقاء متنكرا فلا شأن له معنا، ولا

مكان له عندنا.

«وعرفني عن عدد حاشية الأمير، وعن الذين يسافرون معه. فنحن لم نتلق البيانات الوافية لصعوبة المواصلات ورداءتها».

وبلغ الكولونيل بريمون ليون في الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٢٨ نوفمبر فاتصل على أثر وصوله بحاشية الأمير، وكان ينزل في تيرمنيوس، وكان المسيو برترام قد أعد كل شيء طبقا لتعليمات المسيو غو - اهـ

وكان الكولونيل لورانس يرافق الأمير في غدواته وروحاته، وقد سبقه إلى مرسيليا قادما من لندن، وكان قد بلغها في أواسط شهر اكتوبر لانه غادر دمشق يوم ٤ منه أي بعد الاستيلاء عليها بأربعة أيام فقط قاصدا عاصمة بلاده.

ويعتقد الفرنسويون أنه هو الذي سعى فاقنع الحكومة البريطانية بإرسال دعوة إلى الحسين للاشتراك في مؤتمر الصلح، وهو الذي حمل الأمير فيصلا على القدوم إلى اوروبا للدفاع عن قضية العرب. مما لا يتفق ومصالحهم، ولذلك أصدروا التعليمات السرية بطرده والتخلص منه. وقد تم ذلك فعلا لانه جاء مرسيليا بملابسه العربية وسار في ركاب الأمير إلى ليون وهو يلبسها.

وأبلغ الكولونيل بريمون المسيو برتران تعليمات وزارة الخارجية الخاصة بلورانس، وبوجوب إخراجه من فرنسا اذا أصر على الاكتساء بالملابس العربية، فاغتنم هذا أول فرصة، وأطلع الامير على ما هنالك فقال له على الفور وبلا تردد سيغادر لورانس فرنسا في هذا المساء عائدا إلى انكلترا. ثم استدعاه وأطلعه على قرار الحكومة الفرنسوية فانطلق فقابل المسيو برتران وقال له «انكم تطردونني وسأسافر هذا المساء» وسافر ولم يقبل أن يبدل ثوبه العربي بثوب بريطاني بعد ما رد إلى الفرنسويين أوسمتهم ونياشيهم.

وأبدى الأمير رغبته بزيارة الإلزاس فذهب المسيو برتران على الأثر إلى باريس للحصول على التعليمات اللازمة، وفي الساعة ١٠:٣٠ من مساء ٣٠ نوفمبر غادر الأمير وحاشيته محطة ليون بعربة خاصة فبلغ محطة بلفور الساعة ١٠ من صباح أول ديسمبر فكان في استقباله السي قدور بن غبريط، ثم ركبوا السيارات في اليوم نفسه إلى ستراسبورغ فبلغوها الساعة ٦ مساء.

قال الكولونيل بريمون:

«وأثار الأمير مسألة السفر إلى باريس صباح ٣ ديسمبر قائلا: ألم يحددوا موعدا

لزيارتى لها. ثم خلا بالكولونيل بريمون وقال له «لقد حاربنا جنبا إلى جنب فنحن أخوان سلاح، وأنا أثق بإخلاصك وصداقتك فقل لى بصراحة. ماذا هنالك وأخبرنى بجلاء هلاتريد الحكومة الفرنسوية أن أذهب إلى باريس؟ لقد تركت أخى زيدا فى دمشق ليقوم مقامى وهو فتى. ولما كانت الحالة غير مستقرة هنالك: فالأفضل لى أن أعود إذا كنت أضيع وقتى عبثا هنا».

فأجابه الكولونيل إنه سيعرض الأمر على حكومته، ويبلغه جوابها عند وصوله بلا إبطاء. وفى الساعة الثامنة من مساء ٤ منه تلقى البرقية الآتية «ضرب رئيس الجمهورية الساعة الخامسة من يوم ٧ ديسمبر موعدا لاستقبال الأمير. فدبروا السفر ونظموه على أن تصلوا الساعة الثانية بعد الظهر فيكون مندوبو الحكومة فى انتظاركم للاستقبال» وقد نفذ هذا البرنامج فوصل الأمير وحاشيته فى الموعد المضروب ونزل فى فندق الكونتينتال ثم قصد الاليزة فقابل رئيس الجمهورية مصحوبا بالسى قدور بن غبريط.

تلك هى خلاصة رواية الكولونيل بريمون نضيف عليها ما رواه لنا أحد الذين رافقوا الأمير فى رحلته تلك، وهو أن الحكومة الفرنسوية كانت مصممة على أن لا تسمح له بزيارة باريس بيد أن توسط الحكومة الإنكليزية – وقد تم بسعى لورانس والحاحه ـ جعلها تعدل عن قرارها. على أن هذا ما لبث أن جاء إلى استقبال الأمير وصحبه فى زيارته لانكلترا فقد روى الكولونيل بريمون فى كتابه أنه لما بلغ مع الأمير ميناء بولون مساء ٩ منه نزل لورانس من الباخرة التى كانت راسية بجانب الرصيف، وقابل الأمير الذى احسن استقباله، ثم حيَّى لورانس الكولونيل بريمون بكل لطف ودعاه إلى السفر معهم إلى انكلترا مؤكدا له أنه سيلقى قرى وإكراما. فشكره وقال إنه يأسف لأن مهمته تنتهى عند هذا الحد وأنه لا يستطيع السفر معهم.

واستقبل الأمير فى لندن استقبالا شائقا، ونزل فى فندق كارلتون ثم قابل ملك الانكليز على الأثر ومعه الكولونيل لورانس بالملابس العربية، ومما يستحق الذكر بصدد هذه المقابلة أن كبيرا إنكليزيا من رجال البلاط عنف لورانس على ظهوره بهذه الملابس فى بلاط بكنجهام قائلا: «أيجوز للكولونيل لورانس أن يظهر فى هذا المكان وهو رجل من رعية التاج بل ضابط بريطانى ببزة رسمية أجنبية» فأجابه بحزم ولباقة «اذا خدم رجل سيدين اثنين وكان عليه أن يسىء إلى واحد منهما. فالأفضل أن يسىء الى أقوامها أنا هنا ترجمان رسمى للأمير فيصل. هذا اللباس الذى تراه هو لباسه» وزار الأمير فى خلال هذه الرحلة

وزارة الخارجية، واجتمع بالقائم بأعمالها . وعاد ثانية إلى باريس يوم ٦ يناير لشهود مؤتمر الصلح فلقى معارضة فى قبوله من جانب الفرنسويين، وقد اعترف بذلك الكولونيل بريمون فى كتابه ص ٣١٨ فقال «ولقد وافق المسيو كلمنصو على قبوله فى مؤتمر الصلح بناء على توسط اللورد كرزن مع أنه رفض ذلك فى أول الأمر»

الأمير فى حفلة افتتاح المؤتمر

وقد مثلت الحكومة العربية فى حفلة افتتاح مؤتمر الصلح يوم ١٨ يناير سنة ١٩١٩ بمندوبين لا مندوب واحد. هما الأمير نفسه ورستم بك حيدر. فقد اشتركا فى الحفلة وجلسا بين مندوبى الدول المتحالفة.

٤

المؤتمر يقرر مبدأ الاستفتاء

ويلغى ضمنا معاهدة سايكس ـ بيكو

ومع أن الإنكليز والفرنسويين كانا يعملان سرا لإبقاء قضية البلاد العربية بمعزل عن المؤتمر. إلا أنهم اضطروا إلى مجاراة الرئيس ولسن فوافق مندوبوهم يوم ٣٠ يناير سنة ١٩١٩ أى بعد افتتاح مؤتمر الصلح باثنى عشر يوما على قرار اشترك فى توقيعه مندوبو الولايات المتحدة وإيطاليا واليابان يقضى بفصل أرمينية وبلاد العرب عن تركيا، واستفتاء سكانها فى تقرير مصيرها، وفى اختيار وصى لها. ونحن نورد الجانب الذى يختص بنا من ذلك القرار:

المادة ١ـ لمثل هذه الأسباب. ولا سيما لسوء الإدارة التركية التاريخية فى معاملة الشعوب الخاضعة لها، وللمذابح الأرمينية الهائلة وسواها فى السنوات الخمس المتأخرة قرر الحلفاء والدول المشتركة معهم فصل أرمينية وسورية والعراق وفلسطين وبلاد العرب فصلا تاما عن المملكة التركية من دون إلحاق ضرر بسكان الأقسام الأخرى من المملكة التركية.

المادة ٢ـ قررت الدول المتحالفة والدول المشتركة معها أنه نظرا للفرصة السانحة للبت فى مصير المستعمرات والأراضى التى كانت لألمانيا وتركيا، وهى مأهولة بسكان لا يستطيعون الوقوف وحدهم بالنسبة لحالات العالم الحاضرة الشديدة ـ العمل فى هذه الأراضى بمبدأ ترقية وإسعاد هذه الشعوب الذين يعتبرون وديعة مقدسة فى ذمة المدنية، وأن ينص على ذلك فى دستور جمعية الأمم.

المادة ٣ـ اقتنع الحلفاء بعد الدرس الدقيق أن أفضل طريقة للقيام بهذا المبدأ هو وضع هذه الشعوب فى عهدة الأمم الراقية التى تكون بالنسبة إلى مواردها أو اختبارها أو مركزها الجغرافى أقدر على القيام بهذه المهمة. فيجب أن تقوم بهذه المشارفة كوصيات من قبل جمعية الأمم.

المادة ٤ ـ تعتقد دول الحلفاء والدول المشتركة معها أن طبيعة الوصاية يجب أن تكون حسب درجة السكان من الرقى ومركز البلاد الجغرافى وحالتها الاقتصادية ومشاكل هذه الظروف.

المادة الخامسة ـ لما كان الحلفاء يعتبرون بعض الشعوب التى كانت خاضعة فى السابق للمملكة التركية بلغت من الرقى درجة يصلح الاعتراف بها كأمم مستقلة محتاجة إلى استمداد النصائح الإدارية ومساعدة دولة وصية حتى تصير قادرة على السير وحدها فإن رغائب هذه الشعوب يجب أن يكون لها مقام أولى فى اختيار الدولة الوصية.

ولما أقر مجلس الحلفاء الأعلى عهد جمعية الأمم فى شهر فبراير سنة ١٩١٩ أدمج هذه المبادئ فى المادة الثانية والعشرين منه تثبيتا لها وتوكيدا ولقطع الطريق على الإنكليز والفرنسويين وهذا نصها:

«يجب أن يطبق على المستعمرات والبلدان التى فضت نتائج الحرب الأخيرة بخروجها عن سلطة الدول التى كانت تسيطر عليها فى الماضى والتى تسكنها شعوب لاتزال إلى الآن غير قادرة على الوقوف منفردة فى معترك الحياة ـ المبدأ القاضى بجعل سعادة شعوبها وتقدمها وديعة مقدسة فى يد العالم المتمدن ويجب أن ينص فى هذا العهد على الضمانات اللازمة لحسن القيام بهذه الوديعة والطريقة المثلى لتطبيق هذا المبدأ عمليا هو أن يعهد بالوصاية على هذه الشعوب إلى الدول الراقية التى تمكنها مواردها المالية أو اختباراتها أو موقعها الجغرافى من القيام بهذه المهمة على منوال أفضل من غيرها وتكون مستعدة لقبول هذه التبعة، وتقوم بها على سبيل الانتداب من قبل جمعية الأمم.

وتختلف طبيعة هذه الوصاية باختلاف درجات هذه الشعوب فى التقدم وباختلاف موقعها الجغرافى وأحوالها العمرانية وما اشبه من الظروف، ولما كان بعض الشعوب الصغيرة التى كانت ضمن السلطنة العثمانية قد بلغت من الرقى درجة يمكن أن يعترف معها مؤقتا بكونها أمة مستقلة على شرط أن تسترشد إدارتها بنصائح ومساعدة تستمدها من دولة منتدبة إلى أن تصير أهلا للسير وحدها على أن تحل رغبة هذه الشعوب باختيار الدولة المنتدبة محلها من الاعتبار ويجب فى جميع الأحوال على كل دولة من الدول المنتدبة أن تقدم تقريرا سنويا إلى مجلس جمعية الأمم عن البلاد الموضوعة تحت وصايتها. ويجب على هذا المجلس أن يحدد تحديدا صريحا نوع السلطة أو المراقبة أو الإدارة التى تخول الدولة المنتدبة ممارستها.

ويجب أيضا إنشاء لجنة دائمة لتسلم تقارير الدول المنتدبة سنويا وفحصها وإمداد المجلس برأيها فى جميع الأمور المختصة برعاية شروط الانتداب.

الأمير في المؤتمر

وفى يوم ٦ فبراير سنة ١٩١٩ ذهب الأمير ومعه الكولونيل لورانس إلى المؤتمر لبسط قضية العرب فتكلم بالعربية نحو ٢٠ دقيقة وكان لورانس ينقل كلامه إلى الإنكليزية ونقلها مترجم آخر إلى الفرنسوية.

ودافع ببلاغة وحكمة عن حقوق العرب وقال أن والده لايطلب أن يضم شبر أرض واحد إلى مملكته ولكنه يطلب للعرب - ويريد بالعرب الشعوب التى تتكلم العربية حق تقرير مصيرها - بحسب نظام التوكيل الدولى وهو النظام الذى يعتقد أن البريطانيين مستعدون لتطبيقه على عرب الحجاز. وقال أنه لا يصر على توكيل دولة دون أخرى، ولاينطق باسم عرب أفريقية ولا يعارض الفرنسويين إلا حيث يحتمل أن يعارض الفرنسويون فى مطالب الذين كانوا حلفاء أكثر من ثلاثة أعوام.

ولخص فى الختام مطالبه بقوله: أنه يطلب الاعتراف ببلاد العرب وحدة جغرافية مستقلة برياسة جلالة والده الحسين بن على وتطبيق العهود المقطوعة للعرب بالاستقلال التام مع الاعتراف لسورية بالاستقلال التام على أن تستعين بمستشارين أجانب تستخدمهم عند الحاجة وعلى أن تكون متصلة بحكومة الحجاز فى شؤونها الخارجية.

ورد على سؤال للرئيس ولسن ومعناه هل الأصلح لهذه البلاد أن تكون متحدة أو منقسمة بين دولتين أو أكثر أو تكون تحت انتداب دولة واحدة أو أكثر من دولة فقال أن الأفضل لها أن تكون مستقلة وموحدة.

ورد على سؤال آخر له عن السلاح الذى قدمه الفرنسويون لمساعدة الثورة فقال أنهم ساعدوها بأربعة مدافع فقط.

وفى يوم ١٣ سمع المؤتمر أقوال المسيو شكرى غانم بصفته رئيس الجمعية السورية - اللبنانية فى باريس فطلب إنشاء وحدة سورية باشراف فرنسا. وسمع فى اليوم نفس أقوال المستر هورد بلس رئيس الجامعة الأميركية فى بيروت فقال إن السوريين يريدون أن يمنحوا حكم أنفسهم ودافع عن هذا المبدأ ببلاغة.

وفى يوم ١٥ منه سمع أقوال داود عمون رئيس الوفد البنانى إلى باريس، وتألف هذا الوفد من بعض أعضاء مجلس إدارة لبنان، وبمساعى الفرنسويين، وقوامه داود عمون رئيسا وعبد الحليم الحجار ونجيب عبد الملك وإميل اده وعبد الله الخورى أعضاء فطلب إعادة لبنان إلى حدوده الطبيعية والجغرافية قبل ١٨٦٠ ومنحه استقلالا إداريا مع جمعية تشريعية بمساعدة فرنسا وإشرافها.

وهكذا سمع المؤتمر أربعة أصوات: صوت الأمير فيصل والمستر هوارد بلس، ويطلبان الاستقلال لسورية واستفتاء السوريين فى تقرير مصيرهم، وصوت شكرى غانم ويطالب بوحدة سورية بإشراف فرنسا، وداود عمون ويطالب بحكومة لبنانية منفصلة عن سورية بإشراف فرنسا.

المؤتمر يقرر إرسال لجنة دولية للتحقيق

وعاد المؤتمر فنظر يوم ٢١ مارس فى قضية البلاد العربية وأرمينية، وقرر إجابة لإلحاح الولايات المتحدة تعيين لجنة دولية من الحلفاء لدرس مسائل آسيا الصغرى، والوقوف على رغائب سكانها.

ولم يقابل هذا القرار بالارتياح فى الدوائر الفرنسوية، فاعترضت عليه وانتقدت الوفد الفرنسوى فى المؤتمر لتسرعه فى اقراره. بحجة أن سكان سورية فى حالة لا تمكنهم من الإجابة على الاسئلة التى توجه عليهم. وبذلت مساع شتى عند الرئيس ولسن لحمله على العدول عن ارسال اللجنة فلم تثمر شيئا. وأسرع رستم بك حيدر مندوب العرب فى المؤتمر وقد بقى فى باريس بعد سفر الأمير - فأرسل كتابا إلى الكولونيل هاوس سكرتير الرئيس ولسن أطلعه فيه ما يجرى، وذكر له تعلل الحكومتين الإنكليزية والفرنسوية وما يبديانه من الرغبة فى عدم الاشتراك بلجنة التحقيق الدولية. ولما اطلع الرئيس على هذا الكتاب وعرف ما هنالك أمر اللجنة الأميركية بأن تسافر حالا إلى الشرق من دون ان تتقيد بسفر اللجنتين الانكليزية والفرنسوية. فسافرت فعلا. وبذل المندوب العربى عند الانكليز ما بذله عند الرئيس ولسن لحملهم على إرسال وفدهم - وقد تألف فعلا من السير هنرى مكماهون والاستاذ هوجارث - فأرسل اللورد هاردنج العضو بالوفد البريطانى لمؤتمر الصلح كتابا إلى رستم بلك حيدر يخبره فيه باستعداد الوفد الإنجليزى للحاق بعد قليل باللجنة الأميركية.

وعينت الحكومة الفرنسوية المسيو هنرى لونج العضو بمجلس النواب رئيسا للجنتها، ثم عادت فاشترطت عقد اتفاق مقدم بين الحكومات ذات الشأن على طريقة الاستفتاء فى المناطق المحتلة قبل أن يسافر الوفد. فأبى الرئيس ولسن أن يتقيد بطلبها، فأوقفت سفر وفدها، وسعت عند الانكليز أيضا فجاروها فى خطتها، ولم يرسلوا وفدهم.

الأمير فى بروكسل وروميه

واغتنم الأمير الفرصة فزار بروكسل، وحل ضيفا على ملكها البرت ثم عاد إلى باريس وكانى يكثر من الاجتماع بالرجال السياسيين. عاملا على اقناع القوم بعدالة قضيته.

وزار الأمير المسيو كلمنصو قبل رجوعه إلى سورية زيارة طويلة فأبلغه هذا استعداد فرنسا للاعتراف باستقلال سورية مقابل اعتراف السوريين بمصالحها. فوعده بأن يعمل للاتفاق والوفاق. وقد صرح الأمير بمثل هذا بعد رجوعه فقال من خطبة خطبها فى بيروت «ولقد قابلت المسيو كلمنصو فجرى التفاهم المطلوب» وكان يكثر من الثناء عليه ويطنب فى وصف مزاياه.

وقصد الأمير رومية فزار قداسة البابا فكلفه إبلاغ سلامه إلى أبنائه المسيحيين فى سورية. كما اجتمع إلى رجال السياسة الإيطاليين. وفى يوم ٢٧ ابريل غادر ترانتو عائدا إلى بيروت للإشراف على الحالة، ولإعداد المعدات لاستقبال الوفد الأميركى.

٥

الأمير في سورية
أقواله وخطبه

وصلت المدرعة الفرنسوية أدجار غينه. المقلة للأمير وحاشيته إلى بيروت في الساعة الثانية بعد ظهر الأربعاء ٣٠ إبريل فاستقبلته المدرعة باريس الراسية في مينائها بإطلاق المدافع ترحيبا. فنزل إلى البر الساعة الرابعة، وقصد في سيارة والى يساره الجنرال فين البريطاني دار المعتمد العربي. وهنالك استقبل وفود البلاد السورية، ورد على خطب الخطباء قائلا:

« الاستقلال يؤخذ ولا يعطى. لقد أعطانا العالم الاستقلال، فعلينا أن نأخذه، وأن نطلبه تاما خاليا من كل شائبة، وكل من يطلب انكلترا أو اميركا أو فرنسا أو إيطاليا فهو ليس منا. نحن لا ننكر أننا محتاجون إلى المعاونة وسنتفق عليها مع من نريد بحسب ما يوافقنا وهذا لا يكون إلا بعد أن نأخذ الاستقلال التام المطلق»

وهذا نص البيان الذي أذاعه على أثر وصوله:

يا أبناء سورية العزيزة:

ها قد عدت إلى الوطن بعد أن فارقته خمسة أشهر. وقد أبلغت العالم المتمدن ما انتدبتموني إليه من بيان مطالبكم. فتقرر مبدئيا استقلال بلادكم، وصحت النية على إرسال لجنة تحقيق دولية تحقق ما نقلت إلى الغربيين من رغائبكم وستصل اللجنة في هذين الأسبوعين. وبهذا ترون أن قد تم القسم الأعظم من المهمة الخارجية التي نعمل لأجلها وذلك بحسن نيات الحكومات الأربع المعظمة، وصدقهم في أقوالهم وتمسكهم بالمبادىء السامية التي جعلوها دستورا لأعمالهم وطبقا لأماني الأمة.

بقيت هنالك المهمة الداخلية التي هي من خصائص هذه الأمة بأجمعها، وهي المسؤولة عنها، ونجاحها موكول إليها فعلى الشعب أن يقوم بما يقرره المؤتمر السوري العام الموقت الذي ينعقد عما قريب.

الأمم تود لكم النجاح، وأنا أريد منكم أن تبرهنوا لهذه البعثة المحترمة التي ستشهد بالحق لكم أو عليكم بأنكم تستحقون الاستقلال، وأنكم قادرون على إدارة شؤونكم بأنفسكم سجلوا أمام العالم والتاريخ أنكم أمة تفدي كل عزيز في سبيل أشرف غاية، وهي الذي أعاونكم عليه، وأنا أحد أفرادكم.

أنا لا أشك فى أنكم يد واحدة على المطالبة بحقكم الصريح، والسعى للوصول إليه بكل ما فى نفوسكم من قوة. تعملون وغايتكم متحدة، والصدق رائدكم فى أقوالكم وأعمالكم جريا على ما تقتضيه منكم محبتكم لهذه التربة الطاهرة. متمسكين باهداب الحزم. متخذين أسباب السكينة والتؤدة والغيرة على هذا الوطن.

وإنى لآمل أن تثبتوا للعالم أنكم أحفاد أولئك الأجداد الذين كانوا سدنة الحرية ودعاة العدل. والتاريخ شاهد لا يمارى فى صحة القول. وإن ما قامت به الجاليات السورية المنتشرة فى أقطار العالم من جلائل الأعمال ليدخل السرور إلى فؤاد كل من يحب هذه البلاد. فقد أسمعت أنها لا ترى السعادة كل السعادة إلا فى الاستقلال التام بدون قيد ولا شرط. فإذا كانوا على تفرقهم لايرضيهم إلا هذا، فأنتم باجتماعكم أكثر استمساكا بحقوق بلادكم. تستقلون فى بلادكم استقلالكم فى بيوتكم، فينظر كل صقع من أصقاعكم فى شؤونه بنفسه مع احترام تقاليده وعاداته. أما المعاونة التى نحتاج إليها فنبتاعها بأثمانها.

هذا ما أحب ان تجعلوه يا بنى وطنى نصب أعينكم، وأن تكونوا المثال الحى وقدوة الأبناء والأحفاد ـ اهـ

وغادر بيروت صباح السبت ٣ مايو قاصدا دمشق فمشى بين صفوف الشعب تهتف وتصفق حتى بلغ الفيحاء. فدخلها دخول الفاتح الظافر، وقد خرجت كلها تستقبله. فكان يوما تاريخيا مشهوداً.

وفى يوم الاثنين ٥ منه دعيت الوفود السورية التى اشتركت فى استقبال الأمير فى بيروت ودمشق مع أعيان البلاد وزعمائها ورجال الرأى فيها إلى اجتماع كبير عقد فى بهو دار حكومة دمشق عند الأصيل، وقد شهده الأمير بالذات وخطب فيه الخطبة الخطيرة الآتية:

أتشرف بأن ألقى بعض كلمات على مسامعكم الكريمة. وهذه الكلمات ستكون تاريخية بالنسبة لحياة الأمة العربية الجديدة فى ماضيها واستقبالها. وأرجو العفو والعذر إذا سمعتم بعض أغلاط تقع منى فى أثناء الحديث، لكونى لست من رجال هذا الموقف، وأرجوكم أن تنظروا الىّ بعين العذر. وقد دفعنى إلى الكلام:

أولاً أن أكثر هؤلاء الكرام الذين أتشرف بمخاطبتهم مجتمعون هنا من كافة أنحاء سورية، وقد أتوا إلى بيروت لملاقانى وأداء التحية باسم جميع المواطنين الذين ينوبون عنهم. وحضروا إلى هنا ليسمعوا منى ما حصل فى الغرب فى مؤتمر السلام بخصوص بلاد العرب عامة وسورية خاصة. ولاشك فى أننى مكره على إلقاء هذه الكلمات، لأطمئن

أهل البلاد على بلادهم وعلى استقلالهم. مع أنى بعض الأحيان لا يمكننى أن أصرح بكل شيء لبعض الموانع السياسية التى تجبرنى على السكوت عنها للوفد القادم. ولما كان أكثر الذوات لا يعرفون ما هى الحركة الثورية التى قامت فى الحجاز، وما هو السبب الدافع إليها ولربما أنهم قبل يومنا هذا كانت أفكار بعضهم ممن لا يعلم السياسة العمومية داعية إلى اتهام هذه الثورة بتهم لا محل لذكرها، ويقول أن من قام بهذه الحركة أتى بخيانة للوطن أو للأمة أو للجامعة العثمانية التى كنا نحن من أفرادها. ولكن على أثر انكسار الاتحاديين وتشتت شمل الاتحاد الجرمنى، علم المجموع أن من قام بالثورة هو رجل أو رجال عالمون بسير الحركة السياسية والعسكرية فى العالم. وأن من قام بهذا ما قام إلا لحفظ قسم من جسم البلاد العثمانية وإنقاذه مما سيقع به بعد الحرب. ولاشك أن المسؤول فى الحركة - أى الحركة الثورية العربية هو أولا والدى، ثم الحجازيون مادة، الذين قاموا بها فعلا، أما السوريون فانهم مسؤولون عنها معنى، لانهم قد شوقوا الحجازيين لهذه الحركة فنرى والله الحمد أن الفخر وان كان أولا للحجازيين فهو فخر للجميع. لان هذه الثورة هى ثورة قومية لا يمكن أن نسندها إلا إلى الأمة جمعاء. نعم! إن والدى قام بالثورة فى أثناء النزاع العظيم الدنيوى بعد ما رأى أن الأتراك انقادوا إلى التيار الألمانى، وأوردوا الأمة العثمانية موارد الهلاك، ورأى أن دوام العرب فى الحرب مع الاتراك المتحدين مع الالمان سيوقع البلاد التركية فى ذات الموقع ورأى أن الأمة العربية التى طالما تمنت الخروج من نير الاستعباد والنهوض إلى ما كانت عليه فى سابق التاريخ طامحة بأنظارها إلى الإفلات من أشراك أعدائها. لهذا قام بالحركة بعد أن أتيت إلى سورية وقابلت بعض الرجال الذين منهم كثيرون فى مجلسنا هذا. سواء من البدو أو من الحضر عقب مجيئى إلى هنا. ولاشك فى أنهم يذكرون ذلك.

ولما وصلت إلى دمشق، ورأيت ما رأيته من رجال الثورة، رجعت إلى الحجاز وأخبرت والدى كيف أنهم قاموا بواجبهم وعليه قام. ولكن تقدير البارى جعل السوريين فى موقف لا يمكنهم من مؤازرة الحجاز بما قام به لأسباب تعلمونها، وهو ضغط الاتراك عليهم وما أتوه من الأفعال التى سيسطرها التاريخ، ويخلد ذكر من قتل ومن استشهد فى تلك الأثناء من السوريين بأحرف ذهبية. قام والدى ولم يفكر فيما يقع على الحجازيين من القيام ضد الأتراك، ولم يتيقن من النتيجة. إلا أن البارى سبحانه وتعالى يسر هذه الأمور فجلا الأتراك عن سورية.

«لاشك أنه قبل ذلك أتى ببعض مذاكرات أو معاهدات بينه وبين الأمم المحالفة أمم الحلفاء. واتكالا على البارى سبحانه وتعالى ثم على العهود التى أخذها قام بالواجب إلى أن انتهى الحرب وبدأ فى الصلح. ذهبت عن والدى إلى باريس عقب جلاء الأتراك، ولتنفيذ الخطط العسكرية فى البلاد المحتلة. جعلت البلاد السورية مقسمة على ثلاث مناطق وهذا لتنفيذ الخطط العسكرية ليس إلا. وأسست الحكومة العربية العسكرية فى داخلية سورية، وهى ليست حكومة دائمة. ولذلك ذهبت إلى المؤتمر الذى انعقد فى باريس لأخذ كل مستحق حقه. وصلت باريس، ودخلت المؤتمر وجمعية الأمم لبث رغائب الشعب على قدر اجتهادى، وتمكنت من قول ما أريد. وعند ذهابى رأيت أمم الغرب فى حالة جهل عميق عن أحوال العرب. كانوا لايعرفرن عن العرب إلا ما كانوا يعرفرنه عنهم فى حكايات ألف ليلة وليلة ليس إلا. كانوا يظنون العرب عبارة عن الأمم السالفة العربية، ولا يفتكرون بوجود الأمم العربية الحاضرة، ولا يعرفرن شيئا عن الأفكار السياسية والنهضة التى حصلت فيها. يفتكرون العرب هم عبارة عن عرب البادية الذين يسكنون الصحراء، وأما باقى سكان البلاد المعمورة فهم يعدونهم غير عرب. ولاشك أن جهلهم هذا جعلنى أصرف وقتا طويلا لأفهم هذه الأمم الحقيقة، وأثبت أن العرب أمة واحدة تقطن فى البلاد التى تحدها البحار من الشرق والجنوب والغرب، وتحدها جبال طوروس من الشمال.

«قلت هذا للمؤتمر، وأخبرتهم بمقاصد العرب ونواياهم. وبما أنهم قاموا لإنصاف المظلوم فبعد أن فهموا المقاصد والمطالب، وما فعله العرب من المعاونة للحلفاء فى هذه الحرب اعترفوا باستقلال العرب مبدئيا، ولكونهم ليسوا عالمين بالدرجة التى حازتها الأمة العربية اليوم من الرقى الأدبى والسياسى، ولتأمين السلم فى البلاد بأجمعها رأوا أن ينتدبوا هيئة دولية لترى الحقيقة بأبصارها. وها هى قادمة اليكم.

كانت مدافعتى عن بلاد العرب على قسمين: الأول، البلاد العربية لا يمكن تجزئتها. القسم الثانى، ـ بما أن البلاد العربية بين سكانها اختلافات فى طبقات العلم والتعليم ليس إلا، فالظروف ليست كافية لتجعلهم أمة واحدة. لذلك رأيت الدفاع كما يلى:

« ان سورية والحجاز والعراق قطعات عربية. وكل قطعة منها يطلب أهلها الاستقلال. وقلت إن نجداً والبلاد المساوية للحجاز من الأقطار العربية هى تابعة للحجاز ليس إلا. وهذه يرأسها والدى. أما سورية فيجب أن تكون مستقلة. وكذلك العراق يريد استقلاله، ولا يريد معاونة أو حماية. نحن لا نرضى فى سورية أن نبيع استقلالنا بما نحتاج إليه من

المعاونات فى ابتداء تكويننا، بل إن الأمة السورية هى أمة تريد أن تستقل وتأخذ ما تحتاجه من المعاونة بثمنه - أى بدراهم معدودات.

«دافعت هذا الدفاع، ولا حاجة إلى غير ذلك. لان مجلسى هذا هو خاص لسورية. فإننى أقول عن سورية:

«دافعت عن سورية بحدودها الطبيعية. وقلت ان السوريين يطلبون استقلال بلادهم الطبيعية، ولا يريدون أن يشاركهم فيه شريك وقد توفقنا والحمد لله. العراق بلاد مستقلة بلا علاقة بسورية. كما أن سورية لا علاقة لها بسائر البلاد العربية. مع أن العرب أمة واحدة. وكلنا يعلم ان المقاطعات العربية بالنسبة للتاريخ والجغرافية والصلات القومية هى بلاد واحدة. وان هذه المقاطعات تكون جماركها ومصالحها الاقتصادية موحدة لا حاجز يحجز المناسبات الودية والاقتصادية بينها.

«كانت مدافعاتى عن البلاد بهذه الصورة، وكانت الأمم تنظر إلى طلباتى نظر الارتياح والقبول. وما حصل من الجدال ما هو إلا من عدم معرفة تلك الأمم مقاصد العرب وطواياها، خوفا من وقوع مالا تحمد عقباه بما بذره الأتراك، ولكون الأمم الغربية تنظر إلى المجموع التركى العثمانى كمجموع واحد، وما يحصل من الأتراك يظنونه من العرب. فبعد أن وقفوا على حقيقة الأمر، وعرفوا ما هى مقاصد السوريين أذعنوا لهم وأعطوهم كل ما يطلبونه. وها أنا بين أيديكم قد قدمت إليكم من مؤتمر السلم أبلغكم ذلك، وستصل إليكم الهيئة الدولية، وتخبركم بما أخبرتكم به، ونطلب منكم أن تعربوا لها عن ضمائركم بأية صورة كانت. لان الأمم لا تريد اليوم أن تحكم أمة أخرى إلا برضاها.

«وقد جعلت جمعية الأمم مانعا للحرب، ووكلت بحل الاختلافات والنظر فيها، وسيكون للعرب مندوب فى جمعية الأمم. وهذه التى تنظر إلى ما هو حاصل، أو ما يحصل بين الأمم من الاختلافات بعد رجوع هذه الهيئة إلى باريس، وستسمع رأى كل شعب من الشعوب التى كانت تحت يد الترك، وتعلن مطالب العرب وغيرهم إما استعباداً أو حكما ذاتيا، استقلاليا على قدر علم وعرفان واقتدار الأمم التى انسلخت عن الاتراك.

«فالموقف اليوم هو بيدكم. إن التسويات الخارجية قد تمت بفضل البارى سبحانه وتعالى، وبحسن نية من حالفنا من الدول العظام الذين لا يمكننى أن أفرق بين الواحدة

والأخرى فى حسن النية، وهم بكل ارتياح قد قبلوا ما نثرت بين أيديهم من الأقوال.

«أنا الآن سأبتدىء فى قولى عما يجب علينا عمله، ولكن قبل كل شىء يلزمنى أن أرجع ثانيا إلى الماضى فأقول:

«إن الثوار قاموا ولم يستشيروا الأمة لعدم مساعدة الوقت، فحملوا المسؤولية، وعملوا ما عملوه حتى اليوم.

والآن ذكرت ما حصل فى السابق إلى تاريخنا هذا. وأريد ممن حضر من ممثلى الأمة الذين فى حالتهم الحاضرة، ليسوا ممثليها بالصورة الحقيقية، ولكنهم بموقعهم الأدبى يمثلون الأمة تمثيلا معنويا. أطلب منهم أن يصرحوا إلى بافكارهم وأن يقولوا لى هل ما قمنا به فى السابق هو حسن أم لا؟؟ (فأجيب الأمير على سؤاله «حسن ، حسن!!» وأعقب بالتصفيق والهتاف)

«وهل هو موافق لرغائب الأمة أم لا؟؟ (فأجابه الحضور: موافق، موافق مع الهتاف الشديد).

«وهل أعمالنا هى مقرونة برضى الأمة أم لا؟ [فأجاب الجميع نعم، نعم! وكل الرضى وفوق الرضى (تصفيق وهتاف)]

«وهذه أعمالنا فى السابق. ولكن بعد اليوم يجب على رجال الثورة أو رجال الحكومة الحاضرة (قولوا ما شئتم) أن يظلوا سائرين بأعمالهم. لأننا إلى الآن ما تمكنا من تأسيس حكومة أساسية. ولكن بما أن الوقت قد ساعد واجتمعت هيئة الوفود. فلا يمكننى أن أرجعهم قبل الاطلاع على أفكارهم الخصوصية. هل يريدون أن نداوم على عملنا أم لا؟ (الجواب: نداوم، نداوم، نداوم، مع الهتاف).

«هل الأمة معتمدة على من هو قائم بأمورها أم لا؟ فأجابوه: معتمدة، معتمدة، معتمدة.

«أرجوكم الإصغاء لبعض كلمات تجول فى خاطرى. هل تسمح الأمة بأن أدبر الحكومة مع السياسية الخارجية والداخلية بعد اليوم أم لا؟ (نعم، نعم، نعم!) تصفيق شديد، وهنا قوطع بالهتاف الشديد. وقال الجميع: فليحيا أميرنا فيصل تكرارا، وتكلم بعض الحضور باختصار، ثم عاد إلى الكلام فقال:

«أشكر هذه الهيئة، وأشكر هؤلاء الذوات على ما هم ناظرون اليّ به من الارتياح والطمأنينة، ولكننى أيضا أجلب نظرهم إلى مسألة وهى: لاشك أن الوكيل أو الشخص الذى يدافع فى الحقوقيات لا يمكنه المدافعة عن حقوق موكله إلا إذا كان بيده وثائق تخوله ذلك، كذلك السياسيون لا يمكنهم الدفاع عن الأمة إلا اذا كانوا حائزين على الشروط التى تمكنهم من العمل. فالهيئة الحاضرة تسأل الأمة هذا السؤال وتريد الإجابة عليه وهو:

«هل الأمة تؤيد كل أعمالى فى الداخل والخارج قولا وفعلا؟ وهل تساعدنى بإعطاء جميع ما أطلب منها بدون شرط.ولا قيد أم لا؟ (فأجيب نعم لك الأمر).

« هذا الذى أريد. لاشك أن هذه هى النقطة الاساسية التى تكون مستنداً للشخص وللذوات، أو للهيئة التى ستعمل لتدبير الشؤون بعد اليوم إلى حين انعقاد المؤتمر السورى الذى سينعقد فى هذه الأيام.

«ولكن لكى أعمل إلى ذلك الوقت يلزمنى الاعتماد. وقد طلبته منكم وأعطيتمونى إياه وسأعمل.

«أرجو البارى سبحانه وتعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الخير، وإنى أريد من الأمة أن تنظر إلى بالنظر السابق. وأنتظر من الأمة أن لا تغتر وتقول: الأمم أعطتنا استقلالنا فإن اعتراف تلك الأمم ما هو إلا اعتراف معنوى. فلا نعطى شيئا إلا ما نأخذه بأيدينا. فالأمر بيد الأمة وعليها القيام. وإن لم نقم واتبعنا الاهواء وقلنا نحن مستقلون. وكل منا تقاعد عن واجبه الوطنى فلا استقلال لنا.

«أقول هذا لانى رأيت الأمة عند قدومى قابلتنى بكل ترحيب. وأريد أن الأمة تؤيد أقوالها بأفعالها. هذا طلبى مختصراً جداً. ولعدم علمى بما سأطلبه لا يمكن أن أقول شيئا. ولكن بعد ان أحرزت ثقتكم، ونلت اعتمادكم. فعلى قدر ما أراه من الحاجة سأطلب من الأمة أن تؤازرنى معا.

سعد الدين الخليل (حوران): إن حوران تقدم لسموه ما يطلب. وقام موفد آخر وتكلم بحماسة شديدة. ثم قام أحد موفدى فلسطين وقال: إن دماء الفلسطينيين وأموالهم للأمير. وقال أحد موفدى العامريين. إننا قد لبسنا للحرب عدتها. نحن وجميع العرب من لم يقتل فليمت. فقال له الأمير أرجوك التوقف لأن ما قيل ليس بلسان

العموم. أريد أن ينتدب أحد منكم للكلام.

فقام الشيخ نورى الشعلان شيخ مشايخ الروله فقال: «نحن العرب عيالهم وبيوتهم الشعرية فداك وطوع يديك. ومن لا يفعل ذلك يخرج عن دين الأسلام».

وقال نسيب بك الأطرش: «نحن جميع عشائر سورية العربان والدروز نضحى حياتنا تجاه خدمتك وخدمة الأمة العربية، والحائد عن ذلك يكون خائن الناموس والشرف والعرب».

الشيخ عبد الحسين صادق (جبل عامل) ـ اننى باسم أهل جبل عامل أبايعك على الموت.

الأمير: ـ لم يحن زمن المبايعة، نحن اليوم فى دمنشق وكلامى موجه للدمشقيين وللسوريين.

وأريد ان اسأل أهل دمشق، ثم أهل المقاطعات

محمد فوزى باشا العظم ومحمد أبو الخير عابدين والشيخ أسعد الصاحب وغيرهم: نحن رهينو أمرك نفديك ونعتمدك.

بطريرك الروم الكاثوليك: كما تأمرون سموكم فأمروا بما تشاؤون

ثم سأل سموه بطريرك الروم الأرثوذكس فأجابه «بيننا وبين سموكم اتفاق فى هذه القاعة على شرائط معدودة لاتبرح من ذاكرتكم الشفافة. فنحن عليه راسخون» ثم استأنف بطريرك الروم الكاثوليك وقال: «انى أعتمد نفس الاعتماد الذى اعتمده بطريرك الروم الارثوذكس»:

مطران السريان الكاثوليك ـ اننى اعتمد نفس الاعتماد الذى اعتمده غبطة بطريرك الروم الأرثوذكش.

مطران السريان القديم ـ أقول بلسان أمة السريان فى سورية إنهم طوع أمرك. تبايعك بقلوبها وتعتمد عليك.

سعيد باشا سليمان (بعلبك) ـ عموم أهل قضاء بعلبك تحت أمرك، مئات وألوف رهن إشارتك.

عمر بك الأتاسى (حمص) ـ قدمت من حمص وما ودعت الحمصيين إلا بعد ان اعتمدونى وهم يسلمونك دماءهم وأرواحهم.

إبراهيم الخطيب (جنوب لبنان) ـ فوضناك أن تكون سلطانا (سمو الأمير باسما: ابق ذلك الآن) جبل لبنان جزءمتمم لسورية لا ينفك عنها.

وهكذا صرح جميع أعيان البلاد ووجوهها الذين كانوا حاضرين باعتمادهم واحدا تلو الآخر، وأبانوا جميعا أن أرواحهم ودماءهم طوع إشارة سموه. وفى النهاية قال سمو الأمير: «لقد حصل المطلوب» ثم تكلم مطران الأرمن باللغة التركية فشكر ما لقيه مهاجرو الأرمن من عطف العرب وإنسانيتهم خلال سنى الحرب الأربع، وقال إن تاريخنا سيكتب اسم العرب بمداد من ذهب. فانا ابارك لكم وأشكركم.

ثم استأنف الأمير الكلام فقال:

«لاشك أننى بعد ما أخذت هذا الاعتماد من هذه الهيئة سأداوم وأثابر على أعمالى كما سبق حتى انعقاد المؤتمر العام الذى اخبرتكم عن انعقاده فى هذه الايام، والذى سيسن القوانين التى توضع لإدارة شؤون سورية كافة.

«ولاشك أن فكرى فى إدارة سورية هو اننى أرى مطالب الأقلية من الشعب تكون مرجحة على آراء ورغائب الأكثرية. وهذا أولا بالنسبة لما بذل الأتراك من الشقاق والنفاق بين العناصر. البلاد ستقسم إلى مناطق بموجب الحالة الجغرافية والسياسية التى اكتسبها السكان بالنسبة إلى اختلاف مناطقهم. وإننى أعلم يقينا أن القسم الجنوبى من البلاد السورية لايدار كما يدار الساحل، ولا يدار الساحل كما يدار داخل سورية مثلا، وحوران وجبل الدروز والمنطقة الجنوبية. وقولى هذا قول شخصى. لانى فرد. ولكننى أؤثر على المجموع، بما له من الاعتماد على. وإن شاء اللّه أرى منهم اعتمادا دائما، ويأخذون أقوالى ويعملون بها، لأن النتيجة حسنة إن شاء اللّه (تصفيق وسكوت برهة)

«وإنى أطلب من الجميع كبيرا كان أو صغيرا أن يعتمدوا على البارى سبحانه وتعالى ثم على من هو منهم – أى شخصى الحقير. لأنى سأدافع عنهم، وسأنظر اليهم على اختلاف أديانهم نظرة واحدة.

«لا فرق عندى بينهم. بل أرى الصالح والمتعلم مقدمين فى نظرى. أقسم على هذا بشرف آبائى وأجدادى، كما أنى أطلب من الأمة أن لا تنظر إلى شخصياتها فى المعاملات العامة، وليس لاحد منا أن يقول كنت كذا – ناظرا لشأنه العائلى. بل لينظر كل منا إلى

النفع العام فى جميع الأمور التى يجب أن تقدم على المصالح الخاصة. ولاشك أن الشخص بذاته محترم عند الجميع. ولكن العمل يجب أن يكون بالعلم. فقد يكون الرجل وجيها فى البلاد وهو غير قادر على إدارة وظيفة. فليعلم كل إنسان أننى لا أتحزب لشخص لانه من عائلة أو أسرة ذات شأن وقوة، بل أنظر إلى اقتداره الشخصى لا لمقامه الاجتماعى فى الأمة فاستخدمه فى العمل الذى يليق به. لأن الحرمة الشخصية معنوية، والعمل عائد للأمة جميعا فلا يمكن إدخال الشخصيات فى العموميات.

«وأرجو أن تعتمد الامة على الأمم التى حالفتها وناصرتها، والتى لولاها لم نستطع الاجتماع الآن. ولكننا واثقون ان حلفاءنا لا يريدون لنا إلا الفلاح، ولا طمع لهم بغير نجاحنا. فعلينا أن نثبت لهم انا أمة تريد ان تستقل، ولنحافظ على كبيرنا وصغيرنا وجارنا ومستجيرنا، ونحترم كل من يأتينا من الأمم الغربية لخدمتنا فى بلادنا.

«هذا وأرجوكم رجاء خاصا أدعوكم به إلى الاتحاد وجمع الكلمة. فهذه وظيفة الأمة. لا وظيفتى الخاصة. إذ أنا فرد منكم. ولا استقلال لكم إلا إذا لزمتم السكون، وعملتم بما يقوله من انتم معتمدوه.

«هذه أقوالى وربما أطلت أو أخطأت، ولو خطب فى هذا الموقف غيرى لتكلم الساعات الطوال، ولكن عجزى يجعلنى أقول السلام عليكم»

٦

الحالة فى سورية بعد عودة الامير
نشاط الحركة الوطنية وتأليف الأحزاب والأندية

عملت الحكومة الجديدة فى خلال غياب الأمير فيصل فى أوروبا ـ وقد امتد خمسة أشهر.. على إكمال التنظيم الإدارى. فأنشأت ديوانا للشورى الحربى للنظر فى شؤون الجيش. كما أنشأت مجلسا للشورى يساعد الحاكم العسكرى العام فى درس القوانين والأنظمة. وأسست ديوانا عاما للمعارف، ومديرية للحقانية، وأخرى للأشغال العمومية فخطت خطوات واسعة فى سبيل الاستقرار. كما وطدت الأمن، وكانت باتفاق الكلمة أفضل حكومة بين الحكومات الموقتة التى أنشئت فى لبنان أو فى فلسطين أو فى العراق. فاطمأن إليها الناس وارتاحوا وأقاموا يرقبون نتائج المفاوضات الدائرة فى باريس لتقرير مصيرهم.

ونشطت الحركة الوطنية فى خلال تلك الفترة نشاطا يستوقف الأنظار. فصدرت صحف عديدة وتألفت أحزاب سياسية، وأنشئت الأندية الوطنية وانبث الدعاة فى كل مكان يعملون لإيقاظ الروح الوطنية، ويدعون إلى مقاومة كل دعاية أجنبية، ويطالبون بالاستقلال التام لسورية وفلسطين استقلالا مجردا من كل شائبة.

ونتكلم أولا عن الأحزاب السياسية التى تألفت فى تلك الفترة وساهمت فى الحركة الوطنية وهى:

١ـ حزب العربية الفتاة

أعيد تأليف هذه الجمعية على أثر دخول دمشق، وتولت العمل باسمها لجنة إدارية هذه أسماء أعضائها:

على رضا الركابى. ياسين الهاشمى. الدكتور أحمد قدرى. نسيب البكرى. رفيق التميمى. توفيق الناطور. والخامس هو السكرتير العام، والسادس هو أمين الصندوق.

وكانت هذه اللجنة تسيطر على الحكومة سيطرة فعلية، وكانت منها بمنزلة جمعية الاتحاد والترقى من الحكومة التركية. فما كان يتم شىء إلا بأمرها وإرادتها.

وتبدلت هذه اللجنة على أثر عودة الأمير من أوروبا فى شهر مايو سنة ١٩١٩ فتألفت

فى الدور الجديد على المنوال الآتى:

ياسين الهاشمى والدكتور أحمد قدرى ورفيق التميمى وسعيد حيدر وأحمد مريود وعزت دروزه وشكرى القوتلى وهذا أمين الصندوق ودروزة السكرتير العام.

واستقالت هذه اللجنة فى شهر مارس سنة ١٩٢٠ على أثر حملات شديدة وجهت إليها، فخلقتها لجنة جديدة اختارها الأعضاء فى اجتماع كبير عقدوه فى منزل على رضا الركابى برئاسة الأمير زيد وهى.

على رضا الركابى ونسيب البكرى وسعيد حيدر وخالد الحكيم والدكتور أسعد الحكيم ومحمد الشريقى (السكرتير) وجميل مردم بك (أمين الصندوق)

وكان فى صندوق هذه الجمعية يوم أسندت أمانة صندوقها إلى جميل مردم بك ١٦ ألف جنيه أبى شكرى القوتلى فى أول الأمر أن يسلمها لاعتبارات رآها. على أنه قبل - بعد توسط وإلحاح - أن يسلمها، وكانت فى عهده جميل بك يوم دخول الفرنسويين دمشق.

وكذلك كان فى عهدة توفيق الناطور ألفا جنيه من أموال الجمعية لم يقدم عنها حسابا للهيئة الإدارية التى اجتمعت فى القاهرة بعد الجلاء عن دمشق. لأنه ظل فى سورية، ولم يبرحها مع إخوانه الذين هجروها حين دخول الفرنسويين. فقد عاد إلى بيروت، وتقلد على الاثر منصبا قضائيا فى حكومة لبنان.

ومن الذين دخلوا جمعية الفتاة فى ذلك الدور الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وحسن الحكيم وعمر الأتاسى وخالد الحكيم والأمير عادل أرسلان وأسعد الحكيم ويوسف حيدر ورشيد طليع.

ب- حزب الاستقلال العربي

انشىء هذا الحزب فى دمشق سنة ١٩١٩ ليكون ردءا لجمعية الفتاة. فتظل سرية، ويظل أمرها مجهولا عن الجمهور فيتولى هو العمل الظاهرى، ويقوم بالأعمال الاخرى. وقد اشترك عدد من أعضائها فى تأسيسه.

وهذه أسماء أول لجنة إدارية له: سعيد حيدر وأسعد داغر وعزت دروزه وزكى التميمى وفوزى البكرى وعبد القادر العظم وسليم عبد الرحمن وفايز الشهابى.

وقد كثر عدد اللذين دخلوا فيه تلك الأيام، وكان شعاره العمل لاستقلال بلاد العرب وتحريرها من كل نفوذ أجنبى.

جـ حزب العهد السوري

حزب العهد من الأحزاب العربية التى نشأت فى الأستانة خلال العهد التركى، وعملت لمصلحة العرب. وقد بسطنا تاريخه وأغراضه بسطا وافيا فى المجلد الأول.

فلما تم فتح سورية، وظهرت نيات الحلفاء وأغراضهم اجتمع مؤسسو هذا الحزب وأعضاؤه القدماء من الضباط العرب الذين اشتركوا فى الثورة. عراقيين وسوريين وقرروا أن ينقسم العهد إلى حزبين: سورى وعراقى فيعمل كل منهما لخدمة قضية بلده مستقلا عن الآخر.

وتألف حزب العهد السورى فى هذا العهد من الضباط السوريين.٤١ سواء منهم الذين كانوا فى الجيش العربى، واشتركوا فى الثورة، أو الذين ظلوا فى الجيش التركى وجاءوا بعد الحرب إلى بلادهم. واشترك عدد من غير العسكريين فى أعماله. نذكر منهم الأمير فؤاد الشهابى وحسن الحكيم وحسنى البرازى وغيرهم، وكانت غايته السعى لاستقلال سورية.

وهذه أسماء أعضاء لجنته الإدارية: حسنى البرازى. محمد إسماعيل. لطفى الرفاعى. عارف التوام. رشيد بقدونس. الأمير فؤاد شهابى. حسن الحكيم.

د- حزب الاتحاد السوري

نشأ هذا الحزب فى مصر رسميا فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٨ أى بعد طرد الترك من الشام. وقد ضم نخبة من رجال القضية العربية القدماء، الذين انفضوا تدريجيا من حول الحسين خلال السنة الأولى والثانية للنهضة، لما تبينوه من صلابته وتشدده فى آرائه وعدم ميله إلى الأخذ بآراء ذوى الرأى، ولأنهم أدركوا أن الإنكليز والفرنسويين مصممون على اقتسام العراق وسورية.

وجاء نشر البلاشفة للوثائق السرية بعد خروجهم على الحلفاء، وفى جملتها معاهدة سايكس ـ بيكو. فزادهم إيمانا على إيمانهم، وحملهم على مضاعفة الهمة لإنقاذ سورية من دون أن تكون لهم صلة بحكومة مكة. وكان هنالك إجماع بأن الحلفاء سيتركون الحجاز للحسين، ولن يمكنوه من التدخل فى غيره.

وبدأ هؤلاء العمل فى أوائل سنة ١٩١٨ ـ وكانت الحرب دائرة ـ فاختاروا منهم لجنة هذه أسماء رجالها: رفيق العظم والدكتور عبد الرحمن الشهبندر. وفوزى البكرى. والشيخ كامل

القصاب. وخالد الحكيم. ومختار الصلح. وحسن حماده، اشتغلوا شهرين أو ثلاثة فجمعوا فى خلالها الوثائق الخاصة بالجمعيات العربية وترجموا بعض رجال العرب من الشهداء، والغاية التى رموا اليها، ثم كتبوا كتابا إلى اللورد ملنر وزير الحربية البريطانية يومئذ بواسطة سكريتره سألوه فيه بعد ما وصفوا القلق المستحوذ على البلاد العربية الأسئلة الآتية:

١- هل باستطاعتنا أن نؤكد لقومنا أن غاية الحكومة البريطانية أن يتمتع العرب فى البلاد العربية بالاستقلال التام ونحن نتعهد باعتبارنا الممثلين للجمعيات العربية المتعددة بأنه بعد التصريح الإيجابى نقوم بالخدم اللازمة التى تكلف بها من جانب حلفائنا وتعود منفعتها علينا جميعا.

٢- يطلق القائمون بالحركة العربية كلمة بلاد العرب على شبه جزيرة العرب والعراق وسورية وقسم من ولاية الموصل.

٣- هل من سياسة حكومة انكلترا مساعدة أهالى هذه البلاد على استقلالهم استقلالا تاما، وتأليف حكومة عربية لا مركزية تشبه حكومة الولايات المتحدة أو غيرها من الحكومات الحليفة التى توافق طبيعة الأهلين، أم هى تعتبر كل البلاد العربية على السواء.

٤- إن السوريين مع تمنيهم لأن تكون سورية جزءاً من المملكة العربية الحليفة فإنهم كانوا من قبل الحرب يعملون لتطبيق قانون اللامركزية على البلاد السورية، وتقسيمها إلى ولايات تحكم نفسها بنفسها حكما إداريا فقط. وإذا استقلت البلاد العربية فيجوز تطبيق مثل هذا القانون على ولاياتها وإماراتها كلها.

٥- ان العرب كانوا ولايزالون يعتمدون على بريطانيا العظمى ويثقون بتقاليدها التى تقضى بسلامة البلاد العربية، واعتبار صونها ضرورة سياسية، ولذا فإن قومنا يمدون يد الموالاة والصداقة إلى حكومة بريطانيا والى شعبها، ويأملون منهما أن يكونا نصيرى هذا الشعب ذى التاريخ العظيم الذى إذا وقف على أبواب الشرق كان حارسا أمينا وصديقا صدوقا لمعاضديه على استقلاله.

٦- ان التصريحات الرسمية التى صرح بها ساسة الحكومة الإنكليزية الخاصة. بسلامة الولايات التركية الآهلة بالعنصر التركى، وعدم التحدى لاستقلالها، وإغفال سائر العناصر العثمانية تجعل الأمة العربية فى يأس شديد من سلامة حياتها السياسية إذ لا ترى من الإنصاف أن يصرح لتركيا التى هى حليفة الألمان بسلامة بلادها. وتهمل

الأمة العربية التى هى حليفة بريطانيا العظمى والتى ضحت بالكثير من رجالها لأجل استقلالها.

وهنا مجال للقول فى اختلاف الأحوال فى البلاد العربية، والخلاف القائم بين بعض أمرائها، ولكننا نقدر أن نقول إن الوفاق بين أمراء العرب غير متعذر على المبادىء الأساسية التى تقوم عليها حكومة البلاد العربية المتحدة، هذا اذا أمدتنا دولة انكلترا بالمساعدة وأطلقت لنا يد العمل بصدق وإخلاص فى شبه جزيرة العرب، واستعانت بجلالة الملك الحسين بن على المعظم على التأليف بين قلوب أمراء الجزيرة وجمع كلمتهم.

هذا وإننا مع متنورى العرب عامة، والسوريين منهم خاصة. سواء كانوا فى سورية، أم فى مصر، أم فى البلاد التى لاتزال تحت النير التركى، أم فى البلاد التى تشغلها الجيوش البريطانية مستعدون لكل مساعدة وكل عمل تترتب عليه مصلحة بلادنا، ووفاؤنا إلى حلفائنا الذين يأخذون بناصرنا.

٧- إن الثورة العربية وإن ظهرت من الحجاز. فسورية أساسها، ولها اليد الطولى فى الحركة الفكرية التى انتجتها. وكان الاتصال مستمرا بيها وبين الحجاز، وكان جلالة الملك المعظم وأنجاله الأمراء على اتفاق تام مع الجمعيات العربية فى سورية ومصر، ولولا ثقة السوريين بوفاء انكلترا للعرب عامة وللسوريين خاصة لما قدم هؤلاء منذ نشبت الحرب إلى يومنا هذا عددا عظيما من نوابغ رجالهم وعلمائهم وأفاضلهم ضحايا من أجل استقلال البلاد العربية.

ونحن لا نتصور أبدا أن رجال بريطانيا العظمى المنصفين يدعون تلك النفوس الشريفة تذهب هدرا مهما كانت الاعتبارات السياسية التى تتطور اليوم فى أوروبا. ومن البيانات المهمة التى نكتفى بالإشارة إليها فى هذا البيان أن الجمعيات السورية لم ترسل مندوبيها إلى مصر بعد إعلان الحرب (اشارة إلى سفر الأستاذ الشيخ كامل القصاب وغيره إلى مصر) إلا للاستيثاق من معونة إنكلترا وتحقيق الآمال التى عقدتها الأمة العربية على رجال بريطانيا العظمى.

ويكفى أن نلفت نظركم إلى الإيضاحات السياسية التى صرح بها جمال باشا فى كتابه الذى طبع أثناء الحرب وشوه به وجه الحقيقة، ومنه تعلمون طرفا من أخبار هذه الجمعيات التى تقدم لكم تاريخها الحقيقى.

العهد البريطاني للسوريين السبعة

وفى يوم ٢٢ يونيو سنة ١٩١٨ دعا الكومندور هوغارث عميد جامعة اكسفورد، وكان منتدبا للعمل فى المكتب العربى بمصر الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وأحد اخوانه إلى منزل المستر والرند كاتم أسرار اللورد ملنر، وأبلغه جواب الحكومة البريطانية الرسمى الصادر يوم ١٦ يونيو سنة ١٩١٨ من وزارة الخارجية وهو:

١- أن حكومة جلالة الملك ترغب فى أن تكون عامة الشعوب التى تتكلم اللغة العربية منقذة من السلطة التركية، وأن تعيش فيما بعد وعليها الحكومة التى ترغب فيها.

٢- أن بعض البلاد العربية أما كانت تتمتع باستقلالها التام منذ مدة أو حصلت عليه الآن، وهو استقلال اعترفت به انكلترا اعترافا تاما. وهذا يكون شأنها أيضا مع البلاد التى تحصل على استقلالها من الآن حتى نهاية الحرب.

٣- أن سائر البلاد العربية هى الآن إما خاضعة للترك أو تحتلها جيوش الحلفاء. فحكومة جلالة الملك تأمل ولها الثقة أن شعوب هذه البلاد تحصل أيضا على حريتها واستقلالها، وأن يتخذ بشأنها عند انتهاء الحرب قرار يتفق مع رغائبها.

٤- ان حكومة جلالته تعتقد أن العوائق والصعوبات المقدرة التى تقف فى سبيل إحياء هذه الشعوب سيتغلب عليها تغلبا ناجحا. وهى تعد بكل مساعدة لمن يسعى فى إزالتها، ومستعدة لأن تنظر فى أى خطة لعمل مشترك يلتئم مع الحركات العسكرية الحاضرة ويتفق مع المبادىء السياسية لبريطانيا وحلفائها.

وبعد الحصول على هذه الوثيقة السياسية الخطيرة وقد سماها لورانس «العهد البريطانى للسوريين السبعة» اجتمع عدد كبير من السوريين فى مصر فتذاكروا فى الشؤون السياسية إلى أن انتهوا إلى إنشاء حزب الاتحاد السورى، ووضعوا له المبادىء الآتية:

١- تكون سورية بجملتها على وحدتها القومية من جبال طوروس شمالا، والخابور فالفرات شرقا، والصحراء العربية فمداين صالح جنوبا، والبحر الأحمر فخط العقبة ورفح، فالبحر المتوسط غربا.

٢- تكون سورية مستقلة استقلالا تاما، تضمنه جمعية الأمم، وتضمن قانونه الأساسى ضمانا لا يحل بهذا الاستقلال.

٣- يكون الحكم فيها على مبدأ الديمقراطية اللامركزية، ويكون أساس قوانينها وأحكامها

مدنيا بحتا، ما عدا أحكام الأحوال الشخصية فإنها تبقى على ما هى عليه.

٤ـ يكون قانون حكومتها الأساسى ضامنا حقوق الأقليات.

وقد اختير الأمير ميشيل لطف الله رئيسا له والسيد رشيد رضا وكيلا والدكتور عبد الرحمن الشهبندر وسليم سركيس سكرتيرين، وانضم اليه رفيق العظم والشيخ كامل القصاب وخالد الحكيم ووهبه عيسى المحامى وغيرهم.

وما كاد يذاع خبر تأليف هذا الحزب حتى أرسل إليه الأمير جورج لطف الله يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٨ حوالة مالية بألفى جنيه مع كتاب رفيق «أعرب فيه عن سروره بقيام طائفة من رجال الوطن بعمل نافع لسورية وقال إنه لما كان يعلم أن ما يقومون به يحتاج إلى نفقات فهو يرجوهم قبول نصيبه من الاشتراك معهم فى المسعى الوطنى الجليل، وذلك بتسلم الحوالة التى أرسلها على بنك الأنجلو بألفى جنيه مصرى» فقررت لجنة الحزب فى جلستها فى اليوم نفسه إبلاغه شكرها، وقالت «ان الأمير بعمله وضع الحجر الذهبى الأول فى أساس الحزب الذى ألف لجمع كلمة السوريين على طلب الاستقلال التام لوطنهم بالفعل فى الفرصة السانحة الآن»

ولقد كان هذا الحزب أول حزب احتج على تقسيم سورية إلى مناطق على أثر الاحتلال. كما كان أول من طالب باستفتاء السوريين فى تقرير مصيرهم. ولما قدمت اللجنة الاميركية إلى سورية سافر رئيسه الأمير ميشيل لطف الله إلى دمشق، وانضم إلى العاملين. وانشأ هذا الحزب فرعا فى دمشق برئاسة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر اشترك فى تلك الحركة وساهم فيها.

٥ ـ الحزب الوطنى السورى

نشأ هذا الحزب فى دمشق يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٢٠ وقد جاء فى المادة الثانية من برنامجه أن غايته هى:

١ـ السعى إلى استقلال سورية السياسى التام، بحدودها الطبيعية، والمطالبة بذلك والدفاع عنه بكل الوسائل الفعالة.

٢ـ تقوية الصلات القومية والأدبية والاقتصادية بين الشعوب العربية عامة والبلاد السورية خاصة، والسعى فى تقوية الفكرة العلمية فى الأمة العربية لتنهض إلى مستوى الأمم الراقية.

٣ـ التساوى فى الحقوق المدنية والسياسية بين جميع أبناء الوطن السورى على اختلاف المذاهب والعناصر.

٤ـ تأييد المبدأ الملكى الديمقراطى بتأليف حكومة ملكية نيابية، تكون من الشعب ومسؤولة أمام الشعب يرأسها سمو الأمير فيصل باسم ملك سورية، ويمثلها تمثيلا سياسيا، كما هو الحال فى الحكومات الملكية المقيدة.

٥ـ صيانة الحق القانونى فى جميع أوضاع الحكومة والأمة، والسعى لتحسين حالة النظام الاجتماعى فى سورية بتأسيس صناديق للتعاون الاقتصادى والخيرى، وتنشيط النقابات الزراعية والتجارية وجمعيات العمال.

٦ـ مؤازرة سمو الأمير فى ما يطلبه لمصلحة البلاد واستقلالها، وتشويق الأهلين على الإقبال على التجنيد وما يلزمه من التكاليف. حتى يتسنى الدفاع عن الوطن وتوطيد الأمن فى ربوعه والظهور بمظهر الحكومات المنظمة الراقية الخ.

وقد تولى محمد الشريقى سكرتارية هذا الحزب. وكان ذا هيئتين. ادارية وتتألف من ١٦ عضواً، واستشارية، وتتألف من ٢٥ عضوا معظمهم من وجهاء دمشق وأعيانها وبينهم عدد من الأحرار ومن الأشراف الحجازيين.

٦ـ الجمعية العربية الفلسطينية

وكانت فى دمشق خلال تلك الفترة جالية فلسطينية كبيرة لها صوت مسموع فى الدوائر السياسية. كما كان عدد كبير من رجالها يتبوأون مناصب رفيعة فى دوائر الحكومة وفى الأحزاب، وفى الجمعيات والنوادى والصحافة.

ومع أنهم أنشأوا فى أول الأمر جمعية باسم جمعية النهضة الفلسطينية لمناصرة القضية الفلسطينية والدفاع عنها، وإسماع صوت فلسطين. الا أنهم عادوا أخيرا فأنشأوا فى أول يونيو سنة ١٩٢٠ جمعية باسم الجمعية العربية الفلسطينية تعمل لجمع كلمة الجمعيات الفلسطينية وتوحيد غاياتها، وتسعى لمقاومة الهجرة الصهيونية، وادخال فلسطين ضمن الوحدة السورية، وانتخبوا لها هيئة إدارية هذه أسماء أعضائها:

إبراهيم القاسم عبد الهادى. أمين الحسينى (مفتى القدس) سليم عبد الرحمن. معين الماضى. عزت دروزة. عارف العارف.

وقد أدت هذه الجمعيات خدمات ذات شأن للقضية الفلسطينية.

تلك هى الأحزاب والهيئات الرسمية التى كانت تعمل فى سورية يومئذ، وكانت ذات برامج معينة وخطط مقررة، وقد كان لكل حزب منها جريدة تمثله وتنطق بلسانه. فجريدة المفيد كانت لسان حزب الاستقلال العربى، والكنانة كانت لسان حزب العهد، والأردن كانت لسان الحزب الوطنى، والدفاع لسان الاتحاد السورى.

٧ـ الحزب السورى المعتدل بمصر

ونشأ أيضا فى خلال تلك الفترة حزب سياسى فى مصر باسم الحزب السورى المعتدل شعاره العمل لتوحيد سورية فى ظل الانتداب الأميركى، وقد ضم خيرة السوريين فى مصر وكبارهم، وفى مقدمتهم الدكتور فارس نمر صاحب المقطم، والدكتور يعقوب صروف، وميشيل أيوب باشا، وسعيد شقير باشا، وأنطون مشاقه باشا، وخليل خياط باشا (رئيس فرع الإسكندرية) وسليمان نصيف، ونسيم صيبعة، وأمين مرشاق، ونقولا دياب، وسليم حداد والياس عيساوى وغيرهم. ولم يكن لهذا الحزب رئيس معين، وإنما كان أعضاؤه ينتخبون رئيسا لكل جلسة يعقدونها وكانت السكرتارية العامة بيد الاستاذ سامى الجريدينى.

ولما وصلت اللجنة الأميركية إلى بيروت انتدب هذا الحزب وفدا من رجاله تألف من الدكتور فارس نمر وخليل باشا خياط وأنطون مشاقه باشا ونسيم صيبعه فوصلوا صباح ١٠ يوليو إليها.

وقابل خياط باشا والدكتور نمر المستر كراين مقابلة بسطا فيها مطالب الحزب ورغائبه وهى تنحصر فيما يأتى:

١ـ أن تكون سورية من جبال طوروس شمالا إلى حدود صحراء سينا جنوبا ومن البحر المتوسط غربا إلى الصحراء العربية شرقا بلادا واحدة غير متجزئة.

٢ـ أن يعلن مؤتمر الحلفاء استقلال سورية التام، ويوكل دولة لتساعد حكومتها حتى تبلغ الدرجة إلى تتمكن بها من حفظ هذا الاستقلال والتمتع به، وأن تكون تلك الدولة هى الولايات المتحدة الأميركية. لأنها غير مقيدة باتفاقات تستلزم تجزئة سورية.

٣ـ أن تقسم البلاد إلى ولايات متحدة مستقلة كل منها بشؤونها الداخلية وضمها جميعها إلى حكومة واحدة مركزية نيابية مدنية.

٤ـ أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة للبلاد كلها.

٥ـ أن تكون الديانة مفصولة فصلا تاما عن الحكومة وسياستها مع المحافظة على أحكام الأحوال الشخصية.

وكانت فى دمشق أيضا اللجنة الوطنية، وهى ذات مهمة خاصة، وسنتكلم عنها فى موضعها.

الأندية العربية

ونشأت على أثر قيام الحكومة العربية أندية وطنية تضم الشباب، وتعمل على إذكاء الروح الوطنية فى صدره، وتنظيم حركته. وكان النادى العربى فى دمشق رأس هذه الأندية، كما كان قطب رحى الحركة السياسية، ومحل عقد الاجتماعات الوطنية والحفلات العمومية.

وكذلك كان فى حلب ناد بهذا الاسم، ومثله فى حمص، وبقية المدن الأخرى، وكانت مرتبطة بنادى دمشق تسير طبق تعليماته وأوامره.

وغنى عن البيان أن وجود هذه الأحزاب والصحف والأندية ساعد على تنمية الروح الوطنية وإذكائها كما ساعد على نشر الفكرة الاستقلالية. سواء فى الجنوب (فلسطين) أو فى الساحل. فلم يرق ذلك للفرنسويين والإنكليز وخافوا العاقبة، ولذلك رأينا المسيو جورج بيكو نفسه يبرق فى أواخر شهر يناير سنة ١٩١٩ إلى وزارة الخارجية الفرنسوية قائلا إن غياب الأمير فيصل شجع المتطرفين.

ويقول الكولونيل بريمون فى كتابه (ص ٣٢٥) إن اللورد اللنبى زار دمشق فى أوائل شهر فبراير سنة ١٩١٩ مع المسيو جورج بيكو. فقال اللورد لصاحبه: سيعود الأمير فيصل إلى دمشق لإقامة قصيرة وإننى أعتمد شخصيا على نفوذه (الأمير) فى مقاومة الحركة العربية التى تنمو باطراد فى الخارج وتبعث على قلقى

السعى للتفاهم بين الأمير وفرنسا

وعاد المسيو جورج بيكو إلى دمشق فى النصف الأخير من شهر مايو – أى بعد عودة الامير بأسبوعين فقابله مقابلة طويلة، ودار البحث على إيجاد صيغة للاتفاق بينه وبين فرنسا ويقول الكونت غونتنيرون فى كتابه «كيف استقرت فرنسا فى سورية» وهو من الذين

عملوا مع المسيو جورج بيكو فى تلك الأيام: ان هذه المقابلة جرت بطلب الأمير، وأنه اقترح الشروط الآتية للتفاهم مع فرنسا.

١ـ تلغى فرنسا معاهدة سايكس ـ بيكو فى مقابل الاعتراف بالانتداب على سورية.

٢ـ تلغى الإدارة العسكرية فى الساحل، وتنشأ إدارة محلية وطنية كإدارة المنطقة الشرقية.

فرد عليه المسيو بيكو بأنه لا يسع فرنسا إلغاء تلك المعاهدة لأنها ذات طرف واحد فيها، على أنه وعده بدرس هذا الاقتراح، والنظر فيه وإدخال بعض تعديلات على المعاهدة بعد الاتفاق على ذلك مقدما مع القيادة البريطانية العليا. لان انكلترا احد الفريقين المتعاقدين.

وطلب الأمير فى هذه المقابلة أن تذيع المفوضية الفرنسوية بلاغا تعلن فيه قبولها لاقتراحاته قبل وصول لجنة الاستفتاء الأميركية، ليطمئن الرأى العام السورى فأجابه المسيو بيكو أن منشور الحلفاء الصادر يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩١٨ (انظر ص٥) يكفى من هذه الناحية لتطمين سموه فأجابه أنه مختصر ومبهم.

ودار البحث أيضا على مسألة الحدود. فأظهر الأمير رغبته فى توحيد سورية وفلسطين وكيليكية والموصل وجعلها ضمن الحدود السورية، وطلب مساعدة فرنسا لعرب العراق فوعده المسيو جورج بيكو بأن يبذل جهده بالاتفاق معه لإنشاء «سورية كاملة» رغم ما تبديه انكلترا من عدم التساهل فى ترك الموصل وفلسطين. وقال فيما يتعلق بالعراق إنه لا يشترك فى عمل لا تقره انكلترا.

ولم تسفر هذه المباحثات عن أى اتفاق على أن المسيو بيكو أبرق على الفور إلى وزارة الخارجية بما دار. وفى يوم ١٨ يونيو – أى بعد انقضاء شهر أو أكثر على تلك المقابلة تلقى تعليمات من باريس فزار الأمير، وأبلغه استعداده لنشر البيان الذى اقترحه وللموافقة على تعيين سوريين فى المنطقة الساحلية فلم يقبل، وهكذا فشلت المفاوضات بين الأمير والفرنسويين.

دعوة مؤتمر سورى عام

وأول ما اتجهت إليه أنظار الأمير فى هذه المرحلة دعوة الأمة السورية إلى انتخاب ممثلين رسميين لها يجتمعون فى دمشق، ويبدون رأيهم فى مصيرها، ونوع الحكم الذى تختاره، ويقدمون مطالبها إلى اللجنة الدولية القادمة فى الطريق. فجرت الانتخابات فى المنطقة الشرقية طبقا لقانون الانتخاب التركى القديم. فدعى الناخبون الثانويون الذين

انتخبوا النواب للبرلمان العثمانى إلى اختيار النواب الجدد بالنظر لضيق الوقت، وجرت هذه العملية فى الداخل طبق المرام. أما فى الساحل وفلسطين، وكانتا تحت الاحتلال الأجنبى فقد اجتمع كبار القوم، وذوو الرأى والمكانة وانتخبوا مندوبين عنهم بموجب مضابط وضعوها. فجاء نواب بيروت وطرابلس واللاذقية وفلسطين إلى دمشق ودخلوا المؤتمر بموجبها.

وفى ٧ يونيو افتتح المؤتمر رسميا فى دار النادى العربى. افتتحه الأمير بخطبة ضافية بسط فيها الغاية من دعوته، وتكلم عن اللجنة الأميركية ومهمتها. وقال إن مهمة المؤتمر تنحصر فى تمثيل البلاد أمام اللجنة الأميركية، وعرض أمانيها، وفى سن القانون الأساسى فيكون دستور سورية المستقبل، ويحفظ حقوق الأقليات.

٧
وصول اللجنة الأميركية ومطالب البلاد

فى يوم الأربعاء ١٠ يونيو وصلت إلى يافا اللجنة الأميركية قادمة بباخرة خاصة فنزلت إلى البر، وبدأت عملها الرسمى بإذاعة البيان الآتى:

إن الشعب الأميركى ليس له مطامع سياسية فى أوروبا أو الشرق الأدنى. بل يفضل - على قدر الإمكان - تجنب كل علاقة بالمشاكل الأوروبية والأسيوية والإفريقية، ويرغب بإخلاص فى أن يسود السلام الدائم، وأنه بهذه الروح يدنو من مشاكل الشرق الأدنى.

«لقد عين مجلس الأربعة لجنة دولية لدرس الحالة فى المملكة التركية لعلاقتها بالوصايات. فغاية القسم الأميركى الموجود الآن هى الوقوف جهد المستطاع على أحوال السكان والطبقات وعلاقاتهم، ليكون الرئيس ولسن والشعب الأميركى على بينة من الحقائق فى كل سياسة يدعى إلى السير عليها فيما يتعلق بمشاكل الشرق الأدنى. سواء كان ذلك فى مؤتمر الصلح، أو فى جمعية الأمم».

وانضم إلى اللجنة فى يافا الكولونيل ويلسن السكرتير العسكرى للورد اللنبى

وهذه أسماء رجال اللجنة:

مستر تشارلس كراين ومستر هنرى كنغ - مندوبان

مستر البرت يساو - مستشاز فنى

مستر جورج منتغمرى - مستشار فنى

الكابتن وليم ياى - ملحق

المستر لورانس مور - مدير أعمال

ولقد رج وصول اللجنة الأميركية البلاد من أقصاها إلى أقصاها. فكثرت الاجتماعات ونشطت الدعايات، ووزعت المنشورات، وتعددت الرسل، وتنوعت الأسباب، وحاول الفرنسويون فى خلال هذه المرحلة أن يفوزوا ولو باليسير من عطف الشعب السورى فاخفقوا – رغم ما بذلوه وما أنفقوه، وقدر بعشرات الألوف من الجنيهات.

ولقد اتفقت كلمة معظم أهالى فلسطين وجنوبى سورية على توكيل المؤتمر السورى العام وكان ممثلوهم يقولون لرجال اللجنة: اذهبوا إلى دمشق وقابلوا المؤتمر فهو الذى يتكلم بلساننا.

وبعد ما وصلت إلى دمشق قابلها رئيس المؤتمر يوم ٣ يوليو سنة ١٩١٩ وسلمها قراره وكان على رأس وفد يتألف من ٢١ عضوا يمثلون مناطق سورية المختلفة. وهذا هو بنصه:

«إننا نحن الموقعين أدناه بإمضاءاتنا وأسمائنا أعضاء المؤتمر السورى العام المنعقد فى دمشق الشام، والمؤلف من مندوبى جميع المناطق الثلاث الجنوبية والشرقية والغربية الحائزين على اعتمادات سكان مقاطعاتنا وتفويضاتهم من مسلمين ومسيحيين وموسويين قد قررنا فى جلستنا المنعقدة فى نهار الأربعاء المصادف لتاريخ ٢ يوليو سنة ١٩١٩ وضع هذه اللائحة المبينة لرغبات سكان البلاد الذين انتدبونا، ورفعها إلى الوفد الأميركى المحترم من اللجنة الدولية.

أولا ـ إننا نطالب بالاستقلال السياسى التام الناجز للبلاد السورية التى تحدها شمالا جبال طوروس وجنوبا (رفح) فالخط المار من جنوب (الجوف) إلى جنوب (العقبة الشامية) و(العقبة الحجازية) وشرقا نهر الفرات فالخابور، والخط الممتد شرقى (أبى كمال) إلى شرقى (الجوف) وغربا البحر المتوسط، بدون حماية ولا وصاية.

ثانيــا ـ إننا نطالب أن تكون حكومة هذه البلاد السورية ملكية، مدنية، نيابية تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية الواسعة، وتحفظ فيها حقوق الأقليات. على أن يكون ملك هذه البلاد الأمير فيصل الذى جاهد فى سبيل تحرير هذه الأمة جهادا استحق به أن نضع تمام الثقة بشخصه، وأن نجاهر بالاعتماد التام على سموه.

ثالثا ـ حيث إن الشعب العربى الساكن فى البلاد السورية شعب لا يقل رقيا من حيث الفطرة عن سائر الشعوب الراقية، وليس هو فى حالة أحط من حالات شعوب البلغار والصرب واليونان ورومانيا فى مبدأ استقلالها. فاننا نحتج على المادة (٢٢) الواردة فى عهد جمعية الأمم والقاضية بادخال بلادنا فى عداد الأمم المتوسطة التى تحتاج إلى دولة منتدبة.

رابعا ـ إذا لم يقبل مؤتمر الصلح هذا الاحتجاج العادل لاعتبارات لا نعلم كنهها فإننا بعد ما أعلن الرئيس ويلسن أن القصد من دخوله فى الحرب هو القضاء على فكرة الفتح والاستعمار، نعتبر مسألة الانتداب الواردة فى عهد جمعية الأمم عبارة عن مساعدة فنية واقتصادية لا تمس باستقلالنا السياسى التام. وحيث إننا لا نريد أن تقع بلادنا فى أخطار الاستعمار. وحيث إننا نعتقد أن الشعب الأميركى هو أبعد الشعوب عن فكرة الاستعمار

وأنه ليس له مطامع سياسية فى بلادنا، فإننا نطالب هذه المساعدة الفنية والاقتصادية من الولايات المتحدة الأميركية. على أن لا تمس هذه المساعدة استقلال البلاد السياسى التام ووحدتها، وعلى أن لا يزيد أمد هذه المساعدة عن عشرين عاما.

خامسا ـ إذا لم تتمكن الولايات المتحدة من قبول طلبنا هذه المساعدة منها فإننا نطلب أن تكون هذه المساعدة من دولة بريطانيا العظمى. على أن لا تمس استقلال بلادنا السياسى التام ووحدتها، وعلى أن لا يزيد أمدها عن المدة المذكورة فى المادة الرابعة.

سادسا ـ إننا لا نعترف بأى حق تدعيه الدولة الفرنسية فى أى بقعة كانت من بلادنا السورية، ونرفض ان يكون لها مساعدة ويد فى بلادنا بأى حال من الأحوال.

سابعا ـ إننا نرفض مطالب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبى من البلاد السورية – أى فلسطين وطنا قوميا للإسرائيليين، ونرفض هجرتهم إلى أى قسم من بلادنا. لانه ليس لهم فيها أدنى حق، ولانهم خطر شديد جدا على شعبنا من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسى. أما سكان البلاد الأصليون من إخواننا الموسويين فلهم مالنا وعليهم ما علينا.

ثامنا ـ إننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبى من سورية المعروف بفلسطين والمنطقة الغربية الساحلية التى من جملتها لبنان، عن القطر السورى، ونطلب أن تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة بأى حال كان.

تاسعا ـ إننا نطلب الاستقلال التام للقطر العراقى المحرر، ونطلب عدم إيجاد حواجز اقتصادية بين القطرين.

عاشرا ـ إن القاعدة الأساسية من قواعد الرئيس ويلسن التى تقضى بإلغاء المعاهدات السرية تجعلنا نحتج على كل معاهدة تقضى بتجزئة بلادنا السورية، أو كل وعد خصوصى يرمى إلى تمكين الصهيونيين فى القسم الجنوبى من بلادنا. ونطلب أن تلغى تلك المعاهدات والوعود بأى حال كان.

«هذا وإن المبادىء الشريفة التى صرح بها الرئيس ويلسن لتجعلنا واثقين كل الثقة فى أن رغائبنا هذه الصادرة من أعماق القلوب ستكون هى الحكم القطعى فى تقرير مصيرنا. وإن الرئيس ويلسن والشعب الأمريكى الحر سيكونان لنا عونا على تحقيقها. فيثبتون للملأ صدق مبادئهم السامية وغايتهم الشريفة نحو البشرية بنوع عام، ونحو شعبنا العربى بنوع

خاص. وإن لنا الثقة الكبرى فى أن مؤتمر السلام يلاحظ أننا لم نثر على الدولة التركية التى كنا وإياها شركاء فى جميع الحقوق التمثيلية والمدنية والسياسية. إلا لأنها تحاملت على حقوقنا القومية. فيحقق لنا رغائبنا بتمامها فلا تكون حقوقنا قبل الحرب أقل منها بعد الحرب بعد أن أرقنا من الدماء ما أرقناه فى سبيل الحرية والاستقلال، ونطلب السماح لنا بإرسال وفد يمثلنا فى مؤتمر السلام للدفاع عن حقوقنا الثابتة. تحقيقا لرغباتنا هذه والسلام».

وبعد ما أتمت اللجنة مهمتها فى دمشق، ووقفت على رغائب الشعب وأمانيه سافرت إلى بعلبك، ثم قصدت بيروت، وقامت بجولة فى أنحاء المنطقة الغربية، وسمعت أقوال سكانها، وقد أجمعت كلمة المسلمين – ويؤلفون الأكثرية – على رفض الانتداب الفرنسوى رغم سعى الفرنسويين وتهديدهم ومحاولتهم صد الناس عن اللجنة بالقوة، وكانت أكثرية الموازنة والكاثوليك فى جانب الانتداب الفرنسوى، وقال بعضهم بإنشاء لبنان الكبير فى ظل فرنسا وقال آخرون بالانضمام إلى الوحدة السورية.

وغادرت اللجنة بلاد الشام بعد ما قضت فيها ٤٢ يوما، وزارت ٣٦ بلدا من أكبر بلدانها وتلقت ١٨٣٦ عريضة، وبعد ما سمعت آراء السكان، وقد أجمعت أكثريتهم المطلقة على طلب الاستقلال التام لسورية المتحدة. على أن تستمد الدولة السورية المساعدة الفنية من أميركا فإذا أبت فمن انكلترا مع رفض الانتداب الفرنسوى والهجرة الصهيونية، وتقول اللجنة فى تقريرها ان ٧٥,٥ فى المائة من مجموع السكان وعددهم ٣٤٧٥٠٠٠ نسمة أجمعوا على هذه المطالب. مما يدل على يقظة الشعب السورى، وتضامنه واتحاده، فانه رغم الوسائل العديدة التى بذلها الفرنسويون لم يوفقوا إلى اكتساب ثقة سوى الموازنة – اقترعوا لهم مراعاة لتقاليد قديمة، ولأنهم نشأوا فى مدارسهم. أما الأكثرية الساحقة من السوريين وخصوصا المسلمين، فقد وقفوا صفا واحدا ينادون بطلب الوحدة والاستقلال، ورفض كل وصاية وحماية مما يسجل لهم بالفخر.

وقصدت اللجنة أطنه فأقامت مدة تبحث وتنقب، ثم سافرت إلى الأستانة ومنها عادت إلى باريس فى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ لتقديم تقريرها، فإذا كل شىء قد تبدل وتحول، واذا القوم غير القوم والرجال غير الرجال. فأسقط فى يدها فحملت تقريرها إلى واشنطن وسلمته إلى وزارة الخارجية فألقته فى سلة المهملات، وظل أمره مكتوما حتى سنة

١٩٢٤ إذ نشرته جريدة التيمس الأميركية، وقدمت له بمقدمة قالت فيها «إن السر فى إقناع وزارة الخارجية الاميركية بالعدول عن نشره هو ما اشتمل عليه، ولو نشر فى حينه لغير مجرى الحوادث فى تركيا وربما أنقذ مليونا من الأشخاص الذين هدرت دماؤهم ظلما بعد الحرب. ويزيح هذا التقرير الغطاء عن مطامع الحلفاء ويبين مساوىء المعاهدات السرية، ويوضح التناقض بين العهود التى قطعتها أوروبا لشعوب الشرق والخطة الأستعمارية التى سارت عليها، وينبىء مقدما بحبوط الحركة الصهيونية، ويصور الاتحاد المكين بين المسلمين والمسيحيين للحصول على الاستقلال، ويثبت بطلان دعاوى أوروبا».

ونثبت هنا الجانب الأعظم من هذا التقرير لخطورته، ولأنه يمثل صفحة من صفحات الوطنية السورية الخالدة، ويثبت أن العرب السوريين فى قيامهم على الترك ما كانوا آلة بيد الأجانب، وإنما كانوا يطلبون الاستقلال الحقيقى ويسعون اليه، وإذا لم يف لهم حلفاؤهم بما وعدوهم، فالذنب ليس ذنبهم. ولابد من يوم يصلون فيه إلى استقلالهم الحقيقى الكامل.

تقرير اللجنة الأميركية

بدأ التقرير بذكر الغاية من إرسال اللجنة ثم ذكر أسماء موظفيها، وقد قسم إلى أربعة أقسام:

المقدمات والمسائل العامة بوجه الإجمال، فالاستنتاجات، فالملاحظات - وقال إن الطريقة التى اتبعتها اللجنة فى أعمالها هى الاجتماع بالأفراد والوفود الذين يمثلون الطبقات المختلفة، وقد كانت هذه الطريقة فى طبيعتها نوعا من التدرب السياسى للشعب. فضلا عن تأثيرها الفعال فى ظهور رغائب السكان الذين أدركوا أن لرغائبهم قيمة. وقد عرفت اللجنة أن هناك دعوة قوية، وأن أفراد وجماعات أصيبت بضغط شديد كما حيل أحيانا بين بعض الوفود واللجنة. وهناك كثير من العرائض مدعاة للشك والريب، ولكن اللجنة تعتقد أن هذه العرائض ينسخ بعضها بعضا حين عرضها على محك النقد، ولقيت اللجنة من جهة أخرى صراحة فى التعبير عن الأفكار كانت تدهشها. حيث كان الموقف يدعو إلى الخوف من النتائج، وكان الاستحسان عاما للحقيقة القائلة «إن أميركا لا تطلب الاستيلاء على شبر جديد من الأرض».

وبلغ مجموع السكان فى سورية ثلاثة ملايين ٣٤٧٥٠٠ نسمة ينقسمون هكذا «مسلمون ٢٣٦٥٠٠٠ نسمة ومسيحيون ٥٨٥٥٠٠ ودروز ١٤٠ ألفا ويهود ١١٠ آلاف وطوائف أخرى ٤٥ ألفا . ويجب اعتبار هذه الأرقام فى كل حال على وجه التقريب. ويمكن اعتبارها أقرب إلى الصواب فى ما يتعلق بنسبة السكان فى كل مقاطعة.

ومع التقرير خارطة توضح حدود المناطق العسكرية وحدود (فلسطين الكبرى) التى يطلبها الصهيونيون و(لبنان الكبير) الذى يطلبه اللبنانيون. ولا يمكن أن يكون عدد الوفود قياسا نسبيا للسكان. فإن المسيحيين منقسمون إلى طوائف صغيرة كثيرة. حتى ان وفودهم كانت أكثر عدداً من وفود الأكثرية الإسلامية.

١ـ العرائض وقيمتها: تلقت اللجنة ١٨٦٣عريضة مدة وجودها فى سورية، لا يمكن اعتبارها حاوية لرغائب السكان الحقيقيين لأسباب أهمها: أن عدد العرائض من الجهات المختلفة ليس بنسبة عدد السكان. فقد زارت اللجنة فى المنطقة الجنوبية ١٣ مدينة لم تتلق فيها سوى ٢٦٠ عريضة، ولم تزر فى المنطقة الشرقية غير ثمانى مدن جاءها منها ١١٥٧ عريضة، وكثرت هذه العرائض على اللجنة عند اتجاهها نحو الشمال لأن الوقت اتضح أمام الناس لمعرفتها، وتكوين الفكرة العامة. كما اتسع لدعاة البرو باغندا وإعداد العرائض، وكذلك فإن عدد العرائض من الهيئات الدينية المختلفة لا يتناسب مع عدد المذاهب والأديان، وهذا أيضا يصدق على المطالب الشفهية التى عرضتها الوفود واللجان. ففى المنطقة الجنوبية كان عدد الوفود المسيحية ٥٣ وفدا فى حين أنه لم يكن للمسلمين غير ثمانية، وهم ثمانية أضعاف المسيحيين هناك. وهذا التفاوت غير موجود فى مجموع العرائض كلها شفاهية وكتابية. إذ تلقت اللجنة عرائض كثيرة من القرى الإسلامية فى حلب والجهات الشمالية الشرقية الأخرى، وكذلك فإن تأثير البرو باغندا المنظمة ظاهر فى بعض هذه العرائض. فان العبارات فى كثير منها واحدة، هناك فقرات مطبوعة كصورة للنسج على منوالها وقد تلقتها اللجنة مطبوعة وليس فيها شيء خطى غير التوقيع. ومن المؤكد أن عدداً صغيراً من العرائض استحضر بغير طرق شرعية إذ كانت التواقيع بخط واحد فى عريضتين وفى ثلاث. وزد على ذلك تواقيع الجمعيات الجديدة التى قيل إنها نقابات صناعية فى بيروت. فقد عرفتت اللجنة أن هذه الاختام صنعها أحد سماسرة البرو باغندا قبل وصول اللجنة

١ ـ وحدة سورية السياسية ومن ضمنها كيليكية شمالا والصحراء السورية شرقا وفلسطين حتى دجلة جنوبا.

٢ ـ الاستقلال الناجز لسورية.

٣ ـ مقاومة الوطن القومى الصهيونى والهجرة اليهودية.

ثم صار هذا البرنامج العلامة الواضحة فى عرائض المنطقة الجنوبية. فاشتملت عليه ٨ من ٢٣ فى القدس و١٠ من ٣٥ فى حيفا والناصرة، وكانت ٨٣ من ٢٦٠ فى المنطقة الجنوبية أو ٣٢ بالمائة استقلالية. بينما هناك عرائض تضرب على ما يشبه هذا الوتر.

٣ ـ برنامج دمشق: صار برنامج الاستقلال الأصلى بعد تأييد المؤتمر السورى له فى دمشق يعرف «ببرنامج دمشق» وهو يشتمل على ثلاث مواد من برنامج الاستقلال مع إدخال لفظة «المساعدة» من أميركا، واذا رفضته فانكلترا. وفيه أيضا ما يأتى:

رفض المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم. رفض المطالب الفرنسوية كلها فى سورية. الاحتجاج على المعاهدات السرية والاتفاقات الخاصة مثل اتفاق سايكس بيكو وتصريح بلفور. مقاومة استقلال لبنان الكبير. إنشاء حكومة ديمقراطية لا مركزية برئاسة الأمير فيصل. المطالبة بالاستقلال والحرية الاقتصادية للعراق.

٤ ـ برنامج لبنان: ينقسم البرنامج اللبنانى إلى ثلاثة أقسام كما تدل على ذلك العرائض:

أ ـ لبنان كبير فرنسوى مستقل

ب ـ لبنان كبير مستقل

يطلب أصحاب البرنامج الأول فصل لبنان الكبير عن سورية واستقلاله التام مع سهول البقاع، وضم طرابلس أحيانا، وأن يكون تحت الوصاية الفرنسوية وقد تلقت اللجنة ١٣٩ عريضة تؤيد هذا البرنامج من ١٤٦ رفعت إليها فى المنطقة الغربية المحتلة كانت عشرون منها ذات صيغة واحدة.

وبرنامج الحزب الثانى كبرنامج الحزب الأول إلا انه خال من طلب الوصاية الفرنسوية و٣٣ من ٣٦ عريضة من هذا البرنامج مطبوعة فى شكلين و٨ منها مضاف إليها طلب الوصاية خطا.

وأما برنامج لبنان الإدارى فيطلب لبنان الكبير كمقاطعة مستقلة إداريا ضمن الوحدة

السورية. ولم يرد ذكر للوصاية فى هذا البرنامج على الإطلاق. وعدد العرائض التى اشتملت عليه ٤٩ وهى خطية ليس منها غير ٣ مطبوعة.

٥ ـ البرنامج الصهيونى: تلقت اللجنة ١١ عريضة تستحسن البرنامج الصهيونى، وهو إنشاء وطن قومى لليهود، وفتح باب المهاجرة لهم. وجميع هذه العرائض من اللجان اليهودية. و٨ عرائض أخرى تستحسن إنشاء المستعمرات اليهودية فى فلسطين بدون موافقة على البرنامج الصهيونى كله. وقد رفع فلاحو العرب الذين هم على ولاء مع النزلاء اليهود ٤ من هذه الثمانية.

الحدود الجغرافية

١ ـ سورية المتحدة ـ نالت سورية المتحدة أكبر نسبة فى ١٥٠٠ عريضة وهى ٨٠٫٤ بالمائة من مجموع العرائض. وسورية المتحدة هنا يدخل فيها كيليكية والصحراء وفلسطين. وتحدد عادة: جبال طوروس شمالا، ونهر الفرات والخابور والخط الممتد من أبو كمال إلى شرقى الجوف شرقا ورفح ـ العقبة جنوبا، والبحر الأبيض المتوسط غربا. ومع أن وحدة سورية هى المادة الاولى فى برنامج استقلال دمشق، فإن عددا كبيرا من المسيحيين فى المقاطعات كلها يؤيدونها كما تدل عليه العرائض.

٢ ـ العرائض التى تؤيد الصهيونية وعددها ١٩ طلبت ٦ منها فصل فلسطين عن سورية.

٣ ـ طلبت جماعتان مسيحيتان فى فلسطين وضع فلسطين منفصلة تحت الوصاية البريطانية، تفضيلا لذلك على سورية المتحدة تحت الوصاية الفرنسوية.

٤ ـ تضمنت ٢٤ عريضة أكثرها من مسيحيى الجنوب طلب الاستقلال الإدارى لفلسطين ضمن سورية، وهذا ولاشك يندمج فى طلب الوفود الأخرى الاستقلال والحكم اللامركزى.

٥ ـ وتلقت اللجنة ٢٠٣ عرائض ضد الوحدة السورية أو ١٠٫٩ بالمائة يطلب أصحابها لبنانا كبيرا مستقلا.

٦ ـ زاد طلب الوحدة السورية ظهورا وتأكيدا فى العرائض التى رفعت إلى اللجنة احتجاجا على استقلال لبنان الكبير وعددها ١٠٦٢ بعضها مندمج فى برنامج دمشق، وبعضها من البروتستانت والمصادر المسيحية الأخرى فى لبنان.

٧ ـ أظهر ٣٣ وفدا من اللبنانيين الممثلين للمسلمين والمسيحيين خوفهم من المستقبل الاقتصادى إذا فصل لبنان عن سورية، وطلبوا أن يكون مستقلا ضمن الوحدة السورية. وفسر بعضهم الاستقلال الإدارى باستقلال فى حكومة لامركزية.

٨ ـ كان سهل البقاع معتبرا جزءاً من لبنان الكبير لاينفصل عنه، وقد أشارت ١١ عريضة بوجوب ضمه إلى لبنان، وطلبت ٨ من دمشق بقاءه فى منطقة دمشق.

٩ ـ كانت كيليكية تعد من سورية مثل سهل البقاع، وقد طلب ذلك أصحاب ١٥٠٠ عريضة من القائلين بسورية المتحدة. وقد سمتها عريضتان باسماء مدنها، ووجدت ٣ عرائض تطلب إعطاءها لأرمينية.

الاستقلال الناجز

١ـ النسبة الكبرى الثانية هى للاستقلال الناجز فإنها ٧٥.٥ بالمائة وقد أيدته الوفود الإسلامية كلها. ومن المؤكد كما دلت عليه الأحاديث الشفهية أن كلمة «الاستقلال الناجز لم تستعمل بمعنى الحرية التامة من كل إرشاد أجنبى كالوصاية مثلا. فإن كثيرا من هذه العرائض كانت تشير أحيانا إلى اختيار الدولة الوصية، أو طلب (المساعدة) الاجنبية. وهناك جماعة الاندية العربية رغبت فى التحرر التام من كل سلطة أجنبية. بيد ان السواد الاعظم يطلب الاستقلال، ويحدد الوصاية كمساعدة اقتصادية وتعليم إدارى.

٢ـ يكاد عدد العرائض التى طلب فيها استقلال العراق يوازى عدد العرائض التى تقدم ذكرها فقد بلغ ١٢٧٨ أو ٦٨.٥ بالمائة. ويجب أن يضاف إلى هذا ٩٣ من ٩٧ عريضة تطلب الاستقلال لسائر البلدان العربية، وقد استعملت عبارة «كل البلدان العربية» فى عرائض فلسطين، ثم استبدلت «بالعراق» فى برنامج دمشق. فيكون مجموع العرائض التى طلب فيها الاستقلال والحرية الاقتصادية للعراق ١٣٧١.

شكل الحكومة

١ـ بلغ عدد العرائض التى طلب فيها إنشاء مملكة ديموقراطية دستورية لامركزية ١١٠٧ أو ٥٩،٥ بالمائة وكلها عدا ٥ تطلب الأمير فيصلا ملكا. وقد كانت هذه العرائض كثيرة فى المنطقة الشرقية، ولم يكن الامر كذلك فى فلسطين حينما وصلت اللجنة. اذ لم يرد ذكر المملكة فى غير خمس عرائض من ٢٦٠ ذكر الأمير فيصل فى اثنتين منها.

٢ـ طلب ٢٦ وفدا من المسيحيين فى المنطقة الغربية «حكومة تمثيلية ديمقراطية ذات شكل جمهورى» ورفع مثل هذا الطلب إلى اللجنة من وفود فى المنطقة الشرقية. فالمجموع ٣٤ أو ١.٨ بالمائة والغرض من هذا الطلب مقاومة فكرة المسلمين، أو المملكة السورية برئاسة فيصل.

٣ـ اشتمل البرنامج الدمشقى على طلب الضمانات الكافية لحماية حقوق الأقليات، وأيد هذا الطلب عدد كبير من الوفود المسيحية فى لبنان فبلغ المجموع ١٠٢٣ أو ٥٤،٩ بالمائة وقدنال هذا الطلب من المسلمين والمسيحيين تأييدا لم ينله سوى معارضة الصهيونية.

٤- طلبت ٥ عرائض فى الجنوب ان تظل اللغة العربية لغة رسمية بدلا من العبرانية، وطلب فى ١٠ إلغاء الامتيازات الأجنبية.
٥- رفعت إلى اللجنة ١٩ عريضة أو ٢، ١ بالمائة تطلب الاستقلال الإدارى لسائر المقاطعات السورية، وذلك علاوة على العرائض التى طلبت فيها الاستقلال الإدارى لسورية وفلسطين.

الوصايا

انقسم القوم خمس فرق تجاه الدولة الوصية. فكان بعضهم يقول: اذا كانت الوصاية إجبارية فاننا نطلب هذه الدولة أو تلك، ومعنى ذلك أنهم يقبلون الوصاية محتجين. وقد كانت الاكثرية الكبرى تطلب «المساعدة» بدلا من الوصاية لخوفها أن تكون هذه رداء للمقاصد الاستعمارية.
١- مجموع العرائض التى طلبت فيها انكلترا بالدرجة الأولى ٦٦ عريضة أو ٥، ٣ بالمائة منها ٤٨ من الوفود الأرثوذكسية بفلسطين و٤ من الدروز، ومجموع العرائض التى طلبت فيها انكلترا بالدرجة الثانية ١٠٧٣ أو ٥، ٧٥ بالمائة منها ١٠٣٢ تطلب مساعدة انكلترا، واذا امتنعت فأمريكا.
٢- مجموع العرائض التى طلبت فيها فرنسا بالدرجة الاولى ٢٧٤ أو ٦٨، ١٤ بالمائة منها ٥٠ من لبنان فقط. وبلغ مجموع العرائض التى طلبت فيها فرنسا بالدرجة الثانية ٣ فقط.
أما مجموع العرائض التى طلبت فيها مساعدة اميركا فى الدرجة الأولى فهو ١١٢٩ عريضة، أو ٥، ٦٠ بالمائة منها ٥٧ تطلب أميركا كدولة وصية و٨ تفضل وصايتها إذا كانت الوصاية إجبارية.

الصهيونيـــة

تكلمنا عن الصهيونية آنفا، ونقول الآن: إنه بلغ عدد العرائض التى تقاومها ١٨٥٠ أو ٣، ٧٣ بالمائة. وهذا العدد الأكبر هو الثالث فى أى مطلب آخر، وهو يمثل الرأى العام المسيحى الإسلامى أكثر من سواه. وكانت حركة المقاومة للصهيونية قوية فى فلسطين على الأخص، إذ كانت ٢٢٢ من ٢٦٠ عريضة ضدها أو ٣، ٨٠ بالمائة وهذه اكبر نسبة لأى مطلب آخر.

الاحتجاجات والانتقادات

تنقسم الانتقادات على الدول إلى ثلاثة أقسام:

أولا - انتقاد مطالب الدول ونوعيتها وسياستها بلا تحديد أو تعيين.

ثانيا - انتقاد معين على سوء الإدارة والخلل والرشوة فى الإدارة العسكرية

ثالثا - احتجاجات على تدخل السلطات العسكرية المحلية ومضايقتها للجنة.

١ - عرضت على اللجنة ثلاث شكاوى عامة ضد الإنكليز

٢ - كانت الشكاوى العامة على الفرنسويين كبيرة جدا، بلغ عددها ١١٢٩ أو ٦٠,٥ بالمائة وهذا ناتج بالأكثر عن وجود احتجاج من هذا النوع فى برنامج دمشق. وعرضت على اللجنة ٢٤ شكوى ضد أعمال معينة أتاها الفرنسويون و١١ شكوى ضد النفى والحرس المسلح والتهديد والارهاق وما شاكل ذلك من الوسائط، التى قال الشاكون ان السلطات الفرنسوية لجأت اليها لتمنع الذين لا يمالئون الفرنسيين من الظهور أمام اللجنة.

٣ - ظهر الانتقاد العام على الحكومة العربية فى ٣٥ عريضة من المسيحيين، وفيها يتخوفون من سوء مصير المسيحيين فى الحكم العربى. وانتقدت الحكومة العربية أيضا فى ٤ عرائض أخرى«

٤ - اشتملت ١٠٣٣ عريضة على الاحتجاج على المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم المتضمنة «وضع بعض الجماعات المنفصلة عن تركيا تحت إشراف إحدى الدول» وهذا الاحتجاج يؤيد طلب الاستقلال التام لسورية الوارد فى برنامج دمشق.

٥ - اندمج فى ٩٨٨ عريضة احتجاج على المعاهدات السرية التى تقسم سورية بدون معرفة أهلها أو رضاهم على الاتفاقات الخاصة، والمقصود بذلك اتفاق سايكس - بيكو وتصريح بلفور، وان لم يرد لهما ذكر. وقد ورد هذا الاحتجاج فى برنامج دمشق، وأيدته الأحزاب الأخرى أيضا.

طواف اللجنة

طافت اللجنة سورية فى ٤٢ يوما من ٢٠ يونيو إلى ٢١ يوليو، والسلطة العليا فى هذه البلاد للجنرال اللنبى، ولكن الأحكام المدنية تجرى فيها طبقا للأنظمة التركية، مع تعديلات

موضعية طفيفة. وقد ظلت بعض مقاليد الإدارة فى أماكن كثيرة بأيدى الموظفين الذين تركهم الترك، وللحكام العسكريين والضباط واجبات أخرى خاصة. كالأعمال الطبية والاقتصادية والمواصلات وغيرها. وتقسم هذه البلاد إلى أربع مناطق:

الجنوبية، ويقوم بإدارتها ضباط بريطانيون

والغربية، ويتولى شؤونها الفرنسويون

والشرقية، وهى بأيدى العرب

والشمالية، وهى بإدارة الفرنسويين أيضا

وقد قضت اللجنة فى الجنوبية (١٥) يوما ومثلها فى الشرقية و(١٠) فى الغربية ويومين فى الشمالية.

الكلام على المناطق

المنطقة الجنوبية ـ وصلت اللجنة إلى يافا فى وقت متأخر بسبب التغيير الذى طرأ على الخطة المرسومة. ولم تكن السلطة البريطانية تتوقع وصولها فوضعت برنامجها الذى جرت عليه من دون مساعدة البريطانيين. وكانت تجتهد لمعرفة آراء ورغائب كل جماعة ذات شأن، وكل طائفة وهيئة منظمة، وبعض ذوى العلم والاطلاع، وممثلى الأقليات أو الشيع، ولا سيما فى الأماكن التى يبدو فيها ميل إلى منع هذه الآراء من الظهور بأحد الأسباب. ولما كانت الشيع المسيحية، ولا سيما الكاثوليكية منها كثيرة كان من المرتقب أن لا تكون النسبة متعادلة فى عدد اللجان، والوقت الذى خصص لها. فلذلك أعدت البعثة بيانا بأغراضها كانت تلقيه على الوفود والجماعات، وأذاعته أيضا فى الصحف بشكل أحاديث، واتخذت أنواع الحيطة لتكون مهمتها واضحة وجلية. فكانت تجيب على الأسئلة المختلفة التى تطرح عليها قائلة: "لا صحة لما يقال من أن من سياسة أميركا قبول الوصاية، وأنه لا يمكن التنبؤ بقبولها وأنه لا قوة للجنة للحكم. واستخدمت اللجنة فى أسفارها سيارات لجنة إغاثة الشرق الأدنى الأميركية لكى لا تعتمد فى شىء على غير أميركى ما استطاعت، وأعلنت أنها لا تقبل دعوات اجتماعات عامة، ولا ترضى عن المظاهرات.

وقضت اللجنة أسبوعا فى القدس أمضت يومين منه فى زيارة بيت لحم والخليل وبير السبع، ولم تقبل سوى إكرام محدود من الموظفين الإنكليز والفرنسويين، واستفتت رؤساء

الطوائف المختلفة، وإن لم يكن لبعضهم ما يقولون فى الاستفتاء مثل القبض والحبس. وطافت شمالى فلسطين بسرعة. فاستقبلت الوفود فى رام الله ونابلس وجنين والناصرة وحيفا وعكا. وقد كان بعض هذه الجماعات يأتى من أماكن بعيدة يستحيل على اللجنة زيارتها، واجتمعت فى مستعمرة «ريشون ليزيون» الصهيونية بزعماء عدة مستعمرات يهودية وبأعضاء اللجنة الصهيونية المركزية.

١- الحكومة المحتلة: كان الموظفون البريطانيون - من الميجور جنرال السير آرثر مونى قائد منطقة بلاد العدو المحتلة الجنوبية إلى أصغر موظف - لطفاء مجاملين، وأكثرهم ذو خبرة سابقة قبل الحرب فى الهند، أو فى مصر والسودان، وبصفتهم مجموعا فهم هيئة ذات أهلية واقتدار تعمل فى البلاد لمصلحة أهلها.

٢- مطالب الشعب: اجتمعت كلمة المسلمين فى فلسطين – وهم حسب الإحصاء الإنكليزى الاخير نحو أربعة أخماس السكان على المطالبة باستقلال سورية المتحدة، ولم تشذ منهم سوى فئة معروفة من الموظفين كانت تسير مع تيار النفوذ السياسى. وقررت الأحزاب التى اجتمعت فى يافا أن سورية أهل لحكومة مستقلة بلا دولة وصية، وأنه إذا أصر مؤتمر الصلح على تعيين دولة فإنهم يفضلون الولايات المتحدة.

وقد أيد الناس فى القدس وغيرها من فلسطين هذا القرار. وكانوا يحيلون مسألة الوصاية إلى المؤتمر السورى الذى ينطق بلسانهم. ورفض بعض المسلمين ولا سيما فى الجنوب قبول الوصاية رفضا باتا مهما كان نوعها. وقد ظهر منذ أعلن المؤتمر السورى رغبة فى مساعدة أميركا بالدرجة الأولى وانكلترا فى الدرجة الثانية، ورفض الوصاية الفرنسوية بتاتا أن هذا ما يطلبه سواد المسلمين فى فلسطين. ويرجح أن ذلك كان يجول فى خواطرهم حينما أحالوا اللجنة على المؤتمر.

وكانت مطالب المسيحيين فى فلسطين وهم (١٠) بالمائة من مجموع السكان مختلفة فكانت جماعات الشمال كاللاتين الكاثوليك فى طبريا وحيفا وأكثر مسيحيى الناصرة مع المسلمين فى طلب الاستقلال، وترك تقرير مسألة الوصاية إلى المؤتمر السورى. وكان الروم الكاثوليك والموارنة يطلبون الوصاية الفرنسوية، وكان الارثوذكس فى كل مكان متفقين على طلب الوصاية الإنكليزية. وهناك جماعات اخرى لم يطلب أحد منها وصاية أميركا مباشرة ولكنها كانت تقول بأنها لو تأكدت من قبول الولايات المتحدة فإنها لا تختار سواها، وأكثر المسيحيين من هذا الرأى، وكلهم فى جانب الوصاية يريدون دولة ذات حكم صحيح.

وكان اليهود الذين يؤلفون أكثر من (١٠) بالمائة من سكان فلسطين يؤيدون الصهيونية الإنكليزية فى الحين الذى اتفقت فيه كلمة المسلمين والمسيحيين على مقاومة الصهيونية، وهذه المسألة ذات علاقة كبيرة بوحدة سورية.

٣ـ الصهيونية: أعلن يهود فلسطين تأييدهم الصهيونية بوجه عام، واختلفوا فى التفاصيل والطرق الموصلة إلى تحقيقها، ويمكن وصف الأمور التى اتفقوا عليها فيما يلى:

جعل فلسطين (وطنا قوميا) فى الحال، وأن يصير الحكم السياسى فى البلاد عاجلا أو آجلا معروفا باسم الحكومة اليهودية. والسماح لليهود بالمهاجرة إلى فلسطين من كل مكان فى العالم، وان يكون شراء الأراضى مباحا لهم، وأن تكون العبرانية لغة رسمية،. وان تكون بريطانيا الدولة الوصية لفلسطين لتحمى اليهود وتساعدهم على تحقيق مشروعهم. ولما كانت الدول الكبرى فى العالم قد استحسنت فكرة الصهيونية فلا تحتاج إلى غير تنفيذ. أما الذى اختلف عليه اليهود فهو: مسألة الحكومة اليهودية، وهل يجب انشاؤها عاجلا أو بعد زمان طويل. وهل يسيرون على حسب الطقوس والتقاليد اليهودية القديمة، أم على الطريقة العصرية، فيهتمون بالمسائل الاقتصادية واستثمار الموارد واستخراج القوات الكهربائية من الأنهار.

٤ـ الأماكن المقدسة: ذهبت سلطة التركى عن البلاد، وقد حافظ على الحالة القديمة من جهة الأماكن المقدسة، وتركها كما هى فمن يقوم مقامه؟ قد تكون الدولة الوصية: فإذا أخذت الوصاية دولة كاثوليكية فلابد من وقوع مشاكل. لان الكاثوليك يعتقدون أنهم مظلمون ويطلبون زيادة حقوقهم على حساب الروم، فوجود دولة كاثوليكية يفقد التوازن الموجود ولا سيما فى غياب روسيا. وبما أنه يوجد الآن وكيل محافظ للاماكن الكاثوليكية المقدسة. أفلا يمكن توسيع نطاق هذه الفكرة، وجعلها دستورا لهيئة دائمة تحافظ على الاماكن المقدسة يكون للروم الارثوذكس والبروتستانت والمسلمين واليهود ممثلون بها وإعطاؤها سلطة ووسائل تستعين بها على العناية بهذه الأماكن كلها للأديان الثلاثة. ويجب أن يراعى فى تأليفها أسباب الألفة والمحبة، لئلا يبقى موضوع النزاع والخلاف.

المنطقة الغربية

وصلت اللجنة إلى بيروت بعد أن جابت فلسطين والنصف الجنوبى من منطقة الاحتلال

الغربية، فقضت يومين فى مقابلة اللجان. فكانت تزور الأماكن من صور إلى البترون بالسيارة. وقد تلطف الجنرال اللنبى فوضع يخته تحت أمرها، فزارت به طرابلس واللاذقية والاسكندرونة، وقابلت الوفود وسمعت أقوالهم فى كل جهة من المنطقة الغربية، ولم يكن فى منهجها شىء يختلف عما سارت عله فى المناطق الأخرى من حيث المقابلات والتدابير. وقد بذل الموظفون الفرنسويون الجهد لتوفير أسباب الراحة لها.

١ـ مطالب الشعب: كانت الحالة فى المنطقة الغربية كالحالة فى فلسطين. إلا أن بعض المسلمين طلبوا المساعدة الأميركية أو الإنكليزية، وطلب الدروز الوصاية الإنكليزية، والموارنة وسائر الشيع الكاثوليكية طلبت وصاية فرنسا، وانقسم الأرثوذكس فلم يجمعوا كلمتهم على طلب الوصاية الإنكليزية كما فعلوا فى فلسطين ودمشق، وانقسم النصيرية أيضا. وكان أكثر الإسماعيليين مع فرنسا. وكانت آراء الذين يطلبون الوصاية الفرنسوية مختلفة فى مصير لبنان وعلاقته بسورية. فان أكثر القوم من صور إلى طرابلس طلبوا استقلال لبنان الكبير، وفصله عن سورية، ووضعه تحت وصاية فرنسا، ولم يكترث أنصار هذا المبدأ لفكرة الوحدة الوطنية. بل كان من أمانيهم فيما يظهر أن يصيروا رعايا فرنسويين فى القريب العاجل، ورغب الآخرون أن تكون سورية متحدة تحت الوصاية الفرنسوية مع تكبير لبنان وإعطائه نوعا من الاستقلال الإدارى الواسع.

أما فى لبنان الأصلى فالأكثرية مخلصة للفرنسويين معارضة للإنكليز، ولم تستطع اللجنة سؤال الذين يميلون إلى فرنسا رأيهم فى الوصاية الاميركية فيما إذا كانت ممكنة، وكانت الوصاية الفرنسوية غير مرغوب فيها بسبب براهين أكيدة تدل على أن السواد الاعظم من السكان حتى الموارنة يفضلون أميركا على سواها، ويقال إن سبب هذا التفضيل هو تجرد أميركا عن الأغراض الذاتية فى الحرب وكرمها قبل الهدنة وبعدها، والعلاقات الشخصية التى أنشأها عدد كبير من اللبنانيين الذين قضوا وقتا طويلا أو قصيرا فى الولايات المتحدة، ورجعوا إلى بلادهم محافظين على الإخلاص لأميركا.

وجاهر الدروز بطلب الانفصال عن لبنان إذا أعطى لفرنسا

هذا فى لبنان الأصلى. أما فى المناطق الاخرى التى يراد ضمها إلى لبنان الكبير مثل صور وصيدا وطرابلس فإن فيها أكثرية كبرى من السكان تعترض على الحكم الفرنسوى وتقاومه، ويدخل فى هذه الاكثرية جميع المسلمين السنيين، وأكثر الشيعيين، وقسم من الروم الأرثوذكس وطائفة البروتستانت، وأكثر هؤلاء يريدون أميركا أولا وانكلترا بالدرجة الثانية.

والأكثرية فى باقى المنطقة الغربية إلى شمال لبنان الكبير المرادإنشاؤه ضد الوصاية الفرنسوية فى كل الاحوال، ومن الباقين قسم كبير يعترض على الانفصال عن داخلية البلاد ويضع وحدة البلاد فوق فرنسا.

ومما يجدر ذكره أنه بينما السوريون الوطنيون يرفضون مساعدة فرنسا ذاكرين اسمها لم يتعرض أحد من نصراء فرنسا والراغبين فى وصايتها لرفض أميركا أو انكلترا باسمهما. على أن المسيحيين أظهروا فى أحيان مختلفة أنهم يخافون إذا صارت انكلترا وصية على البلاد أن تمالىء المسلمين على المسيحيين.

لبنــان

صارت هذه المنطقة الجميلة التى وضعت منذ بسنة ١٨٦١ تحت حماية الدول الاوروبية الست وجعل حاكمها مسيحيا موضع اهتمام فرنسا من ذاك العهد، لأن أكثر سكانها من الموازنة والكاثوليك. وقد ظهرت فى هذه المنطقة كسائر البلاد التى فصلت عن سلطة الباب العالى مباشرة آثار العمران. فأنشئت الطرق وغرست الأشجار، وشيد عدد كبير من البيوت الحجرية، وكان المال الذى يربحه المهاجرون فى الولايات المتحدة عاملا كبيرا فى هذا التقدم، وقد ازدادت ثروة الرهبنات المارونية والأديرة فى هذه السنين، واعفى لبنان من الخدمة العسكرية، وكانت الضرائب التى يدفعها خفيفة. ولما كان قطرا مسيحيا، وكان للمسيحيين فيه من وظائف الحكومة أكثر مما تخولهم نسبتهم العددية مال الدروز إلى الهجرة واللحاق بإخوانهم فى حوران استياء من عدم المساواة.

وقد ظهرت آثار سياسة فرنسا الاستعمارية فى كثير من سكان هذه المنطقة وفى بيروت والأقسام الاخرى من سورية، فهم يشعرون أنهم يعرفون اللغة الفرنسوية أكثر من اللغة العربية، وأنهم أرقى من سكان الداخلية! هؤلاء هم الذين يطلبون فصل لبنان عن سورية، أو هم البقعة التى نمت فيها هذه الفكرة.

وقد حمل قرب المنطقة الحكومة التركية على التساهل واللين مع المسيحيين وغيرهم فى المناطق الأخرى لئلا يكون فارق كبير بينهما فى العمران، ولكن إعفاء لبنان من الخدمة العسكرية، واتساع المجال أمام طلاب الوظائف، وقلة الضرائب أو صغرها مال بالكثيرين إلى فكرة لبنان الكبير تحت وصايا فرنسية. غير أن هناك حزبا كبيرا بين الميالين إلى فرنسا يقاومون فكرة جعل لبنان قسما من فرنسا، وهذا

يصدق على ذوى المراتب الرسمية من الموارنة.

إن كل تعديل فى الحالة يجب أن ينيل باقى سورية مثل هذا الضمان. لا أن يحرم منه سكان لبنان، وذلك مستطاع توفيره فى سورية المتحدة بواسطة نوع كاف من الاستقلال الإدارى. ويجب توقى إبقاء هذه المقاطعة ذات مركز ممتاز عن سواها، لئلا يزداد ثقل الأعباء على المناطق الأخرى.

منطقة الاحتلال العربية

أقامت اللجنة فى دمشق تسعة أيام قضت ستة منها فى مقابلة الوفود الدينية والسياسية والهيئات الرسمية وأصحاب المراكز السامية من كل الطبقات، حتى الأمير فيصل نفسه والجنرال اللنبى، ومكثت هنا أكثر من كل مكان آخر فى سورية. لان دمشق ستكون عاصمة «سورية المتحدة» إذا تم إنشاؤها، هذا فضلا عن أن فى المنطقة الشرقية حكومة عربية عاملة تسعى وتجتهد لتمهيد الطريق إلى «الوحدة الكبرى».

وعقد المؤتمر السورى فى أثناء وجود اللجنة فى دمشق، وعلقت فى الشوارع ألواح كتب عليها «نريد الاستقلال التام» وقد نزعت بأمر الحكومة. ونشرت الصحف المحلية ما دار بين اللجنة والقاضى والمفتى والعلماء من الأحاديث فاحتدم الجدال حولها بين القوم وفى الصحف (وبالطبع فقد نشرت هذه الأحاديث من دون إذن اللجنة أو سماحها) وأجابت اللجنة دعوة الأمير فيصل إلى الطعام مرتين.

وأعدت اللجنة فى خلال تلك المدة التدابير لرحلة إلى أطراف الصحراء للوقوف على آراء السكان، وكانت خلاصة مطالب المسلمين منهم الاستقلال الناجز بلا حماية ولا وصاية. ولكنهم لما كانوا يشعرون بحاجتهم إلى الإرشاد الاقتصادى والمالى، يطلبون ما يلزم من المستشارين - بعد الاعتراف باستقلالهم - من أميركا. وكان خطباء العرب الفصحاء يسألون أميركا التى عملت على تحريرهم ان تؤيد استقلالهم فى مؤتمر الصلح قائلين إنهم يعدونها مسؤولة أمام الله عن تتميم ما بدأت به. والمسيحيون فى هذه المنطقة وهم فئة قليلة كانوا فى خوف عظيم يطلبون تعيين دولة قوية وصية على سورية ليحصلوا على الحماية التامة، وهم يفضلون أن تكون بريطانيا العظمى تلك الدولة، وأن تضم المنطقة الشرقية إلى فلسطين.

وقضت اللجنة يوما واحدا فى بعلبك بعد سفرها من دمشق لسماع النزاع القائم على ضم البقاع إلى لبنان الكبير. وبعد أن ظلت عشرة أيام فى المنطقة الغربية عادت ثانية إلى المنطقة الشرقية فى الطريق الممتد من حمص إلى طرابلس، وقصدت حلب بعد أن أصغت لأقوال الوفود فى حمص وحماه. ومكثت ثلاثة أيام فى حلب وقفت فيها على آراء الوفود واللجان، وقد طلب القوم فى الشمال الاستقلال للعراق بقوة، وكان بعض الجماعات فى حلب يهتم كثيرا بتوسيع حدود سورية شرقا حتى تشمل الصحراء الشرقية.

الحكومة العربية

بين كبار موظفى العرب عدد من ذوى الأنفة والاقتدار والتهذيب تبدو عليهم مظاهر الاستقامة الوطنية، وكلهم سوريو المولد وقد تمرن بعضهم على الإدارة فى مصر كالجنرال حداد باشا مدير الأمن العام، وسعيد باشا شقير المستشار المالى. أما الآخرون مثل القائمقام يوسف بك العظمة مساعد الأمير فيصل (حاجبه) والجنرال جعفر باشا العسكرى حاكم حلب، واحسان بك الجابرى رئيس بلدية حلب فقد تلقوا علومهم واختباراتهم فى العهد التركى.

وأكثر الموظفين الصغار فى هذه المنطقة والمناطق الأخرى من بقايا العهد التركى وسيرتهم فى بعض الأحيان أشر من قبل. وقد بذلت الحكومة كل واسطة لإكرام اللجنة وتحقيق أمانيها، وكان الموظفون يتباهون أحيانا بأنهم تركوا للناس الحرية المطلقة فى بسط أفكارهم أمام اللجنة.

رغائب الشعب

كانت المطالب فى المنطقة الشرقية أقرب إلى الاجتماع من مثلها فى المنطقة الغربية أو الجنوبية، كما يظهر ذلك من النظرة الأولى إلى جداول العرائض، ويؤيد الجانب الاكبر من هذه المطالب ـ بين شفهى وخطى ـ قرار المؤتمر السورى الذى سيأتى الكلام عنه فى موضع آخر. وقد اتفقت على هذا البرنامج أحزاب مختلفة متضاربة. لان الكل شعروا بوجوب الاتحاد والتضامن لسلامة الوطن. وكان لسعى الحكومة والاحزاب الأخرى تأثير على الأحزاب المتطرفة فسارت فى الصف بعد نشوزها، مثل الذين كانوا يطلبون الاستقلال

التام بلا وصاية، أو الذين يطلبون الوصاية وحدها. ومما لا ريب فيه أن مواد البرنامج الرئيسية تعبر عن فكر الجمهور العام ما أمكن التعبير عنه فى أى بلاد كانت.

طلب القوم فى هذه المنطقة «سورية المتحدة» بالإجماع تقريبا، وطلبوا لها الاستقلال الناجز، ورفضوا كل مساعدة فرنسوية، وأعلنوا أنهم ضد البرنامج الصهيونى. واتفق المسلمون كلهم على طلب المساعدة من أميركا. وأيد اليهود المشروع الصهيونى لإخوانهم فى فلسطين، وطلبوا لأنفسهم الاستقلال الإدارى. وطلب الدروز حكومة عربية تحت الوصاية البريطانية. وانقسم المسيحيون حسب الطوائف حينا وحسب المكان حينا آخر، وكان مسيحيوا الجنوب كلهم حتى الكاثوليك واللاتين يطلبون الوصاية البريطانية أو أمريكا إذا كان الإنكليز لا يستطيعون المجىء لسبب ما. وكان ذلك شأن أرثوذكسى دمشق وقسم منهم فى الشمال. أما طوائف البروتستانت الصغيرة فكانت تطلب وصاية أنجلوسكسونية أمريكية أو إنكليزية، وكان الأرثوذكس السوريون كلهم فى جانب أمريكا وكل الموارنة والكاثوليك (خلا الذين فى عمان ودرعا) فى جانب فرنسا. كما أن المسيحيين كلهم تقريبا كانوا فى جانب الوصاية.

المؤتمر السورى

علمت اللجنة منذ وصولها إلى القدس أن مؤتمرا سيعقد فى دمشق للفصل فى مسألة الوصاية بالنيابة عن جانب كبير من السكان. وقد تألف هذا المؤتمر وعقد جلساته إبان وجود اللجنة فى دمشق، وجاء إليها فى آخر يوم من أيامها هنالك، وقدم إليها البرنامج الذى أعده.

لم ينتخب الشعب أعضاء هذا المؤتمر مباشرة أو بدعوة جديدة، والسر فى ذلك عدم مساعدة الوقت لتنقيح لوائح الاقتراع. بل عهد إلى بقايا الناخبين فى الانتخاب التركى الاخير فانتخبوا أعضاء هذا المؤتمر. كما كانوا ينتخبون أعضاء مجلس النواب التركى. وقد انتقد بعضهم هذه الطريقة قائلين إنها غير قانونية وأن معظم الناخبين من رجال جمعية الاتحاد والترقى، وأن الأعضاء ليسوا بنسبة السكان.

واشترك فى هذا المؤتمر (٦٩) عضوا، وتأخر (٢٠) عضوا انتخبوا فى الغرب والشمال عن الوصول إلى دمشق فى الوقت المعين، وبين الأعضاء عدد من المسيحيين، ولكن لا يوجد بينهم يهودى. ويقال إن بين الناخبين الثانويين يهودا وافقوا على انتخاب النواب فى

المجلس. والأدلة كثيرة على أن البرنامج الذى وضعه المؤتمر السورى يعبر عن أفكار القوم فى سورية أتم التعبير.

ثم أوردت اللجنة نص قرار المؤتمر المنشور فى أول الفصل ثم قالت:

وقد اتضح للجنة جليا فى درسها أحوال سورية أنه كان للبلاغ الفرنسوى البريطانى وما ماثله من تصريحات مؤتمر الصلح، وقواعد الرئيس ولسن الأربع عشرة تأثير عظيم فى نفس الأمة السورية، فبنت عليها مطالبها، فلذلك لا يستطيع مؤتمر الصلح أن يتجاهلها. بل يجب عليه أن يحققها بأمانة، ولا سيما البلاغ الذى هو على اتفاق تام مع تصريحات الحلفاء المتكررة من مقاصدهم فى المملكة التركية السابقة، ولا سيما سورية والعراق.

ومن الثابت أن قرارات ٣٠ يناير وهذا البلاغ يرميان إلى فصل المناطق العربية عن تركيا فصلا تاما. ويقضى بأن لا تكون سورية والعراق مستعمرتين بالمعنى القديم على الإطلاق وأن لا تستثمرا لمنفعة الدولة المحتلة، بل يجب تشجيعهما ومساعدتهما فى بلوغ الاستقلال الوطنى بأسرع ما يستطاع. والوعود فى البلاغ مبذولة لسورية والعراق على التساوى.

وقد وضع هذا البلاغ مع القرارات المشار إليها خطة العمل للجنتنا تلك الخطة التى قضت بإرسالها للوقوف على رغائب السكان.

فلذلك وبناء على ما تقدم لابد من امتحان إخلاص الحلفاء فى المقاصد التى أذاعوها فى أثناء الحرب. وذلك بدعوتهم لإنفاذ هذه المقاصد فى الأقسام العربية من الأراضى التركية. لأن وعودهم واضحة معينة لا يمكن الخطأ فى تأويلها.

ومما يستحق الاهتمام أيضا أنه يستطاع العمل بنجاح فى طريقة الوصايات بإشراف جمعية الأمم. ولاشك أن نجاحها هنا يساعد على الأخذ بها فى مواضع أخرى، وهى خدمة كبيرة فى سبيل تقدم العالم تساعد على تبرير ضحايا الحرب العظيمة. وربما كان الحلفاء غير قادرين على إيجاد منطقة يستطيعون فيها تقرير خطتهم حسب المبادىء التى أعلنوها مثل هذه المنطقة.

مهد الأديان الثلاثة

إن خطورة المسألة السورية ظاهرة فى الحقائق المعروفة جيدا فإن فى هذا القسم من المملكة التركية مهد الديانات الثلاث الكبرى، وهى «اليهودية والمسيحية والإسلام» ولما كانت فلسطين تضم أماكن تقدسها الأديان الثلاثة فستكون موضع اهتمام العالم المتمدن كله، فلذلك يكون كل حل موضعى أو خاص بشعب واحد عديم الفائدة.

الأمة العربية

لسورية مقام جغرافى عظيم سياسيا وتجاريا ومدنيا فهى الجسر الذى يصل بين أوروبا وآسيا وإفريقية. فيجب أن يكون العدل أساس الحكم فى قضيتها لتنجم عنه فائدة للمدنية فى العالم. ويجب أن يعطى كل قسم من المملكة التركية السابقة حياة جديدة، ويفسح المجال له بعد تبديل الأحوال السياسية لأنه ربما كان انحلال المملكة التركية فرصة عظمية ـ قد لا تعود ـ لإنشاء حكومة شرقية في سورية على مبدأ الحرية الدينية التامة التى تشمل سائر الأديان وتصون حقوق الأقليات بنوع خاص. ومن الإنصاف للعرب الاعتراف بالأمة العربية ورغائبها الوطنية. كما أنه من مصلحة العالم أن تتألف حكومة عربية على القواعد السياسية الحديثة. نعم إن العناصر متعددة والمصالح متباينة، وإن كثيراً من السكان غير صالحين الآن للحكم الذاتى، ومع ذلك فإن الأحوال ملائمة للقيام بهذه التجربة الآن. لأن هؤلاء السكان كانوا على اختلاف مذاهبهم وطبقاتهم على نوع واحد من الاتفاق تحت الحكم التركى رغم سياسة التفريق التركية.

ولابد أن يكونوا أحسن حالا فى عهد حكومة حديثة ووصاية راقية.

وعلى كل فإن مشارفة دولة تنتدبها جمعية الأمم يمنع هذه النهضة من السير فى الطريق التى سارت عليها تركيا الفتاة. وحينئذ يدرك العرب أيضا أن هذه أفضل فرصة سانحة لتأليف حكومة عربية، فيجتهدون لتكلل حركتهم بالفوز المبين. وما ظهر الآن من مقاصد الأمير فيصل يجعله جديرا كل الجدارة برئاسة حكومة جامعة بين المبادىء الشرقية والغربية، ويضمن نجاح هذه التجربة بواسطة دولة وصية مخلصة. ويبقى فى الإمكان إذا فشلت هذه التجرية الرجوع إلى تجزئة الأراضى. بيد أن تجزئة الأراضى حسب المذاهب يولد مشاكل لاعداد لها – كما قال الدكتور اماس عن

بعض الأقسام التركية الأخرى:

«ان الفصل بين أبناء المذاهب، وإسكان كل فريق فى موضع خطأ وخطل وخطر. إن العمران التاريخى قائم على تنوع المذاهب فى كل منطقة» وهناك خطر لا ريب فيه ينشأ عن تقسيم سورية إلى أجزاء لا قيمة لها ولا معنى.

الاختيـار الذاتى

لذلك يجب أن يكون الغرض من كل سياسية يسار عليها فى المسألة السورية (إنشاء حكومة وطنية تستمد سلطتها من مشيئة الشعب الحرة) وأن تكون هذه السياسة متفقة جهد الإمكان مع وحدة البلاد الجغرافية والاقتصادية.

هذه هى الخطة الطبيعية التى ينبغى السير فيها ـ هذا إذا كان السير ممكنا ـ لأنها تطبق على رغائب مؤتمر الصلح، ورغائب السواد الأعظم من السكان.

ومن الملاحظات المهمة أن الموظفين الفرنسيين والإنكليز فى سورية مجمعون على استحسان الوحدة السورية تحت وصاية دولة واحدة. إذ من المؤكد وقوع مشاكل بين الإنكليز والفرنسويين والعرب تضر بالسلام إذا بقى الإنكليز والفرنسويون فى البلاد.

إن الصعوبات العارضة فى طريق الوحدة السورية هى:

امتناع الفرنسويين عن الجلاء عن سورية وبيروت ولبنان. والانكليز عن مغادرة فلسطين. ومقاومة المسلمين والمسيحيين الشديدة للبرنامج الصهيونى. ومطالبة اللبنانيين بالاستقلال التام عن سورية، وكره العرب العظيم فى الشرق للسيطرة الفرنسوية، وخوف كثير من المسيحيين من تسلط المسلمين، وضعف الشعور الوطنى، وسيأتى الكلام عن هذه الأمور فى مكان آخر.

آراء

تقدم اللجنة إلى مؤتمر الصلح الآراء الآتية لمعالجة المسألة السورية:

إن أول وأهم ما تشير به هو أنه مهما كانت الإدارة أجنبية. سواء كان ما يؤتى به إلى سورية دولة أو أكثر ـ أن لا تأتى كدولة مستعمرة. بل كدولة وصية من قبل جمعية الأمم غايتها ومهمتها المقدسة (خدمة الشعب السورى وترقيته).

ويجب أن تكون مدة الوصاية محدودة تعينها الجمعية حسب الحقائق التى تراها فى تقارير الدولة الوصية، وأن تكون للدولة الوصية سلطة كافية ذات زمن محدد أيضا لتكفل نجاح الحكومة الجديدة وتتمكن من القيام بالمشاريع الأدبية والاقتصادية اللازمة لحياة البلاد، وأن تصرف الدولة الوصية همها الأكبر إلى التعليم الضرورى لأبناء البلاد الديمقراطية، وتكوين روح وطنية قوية. وهذا لازم بنوع خاص فى سورية التى استفاق ضميرها حديثا. وعلى الدولة الوصية أن تسعى منذ البداية لتدريب الشعب السورى على الحكم الذاتى المستقل بأسرع ما تسمح الأحوال، وذلك بانشاء جميع ما يقتضى لحكومة ديمقراطية من الدساتير وإشراك السكان فى الإدارة وزيادة نصيبهم من الحكم شيئا فشيئا، حتى تنشأ بالتدريج روح وطنية متنورة فى الوطنيين لا تنظر إلى مصلحتها الشخصية عند النظر فى مصلح البلاد.

وتتألف فى الوقت نفسه قوة كبيرة منظمة لخدمة البلاد. ولما كان من الواجب أن لا يطول زمن المشارفة بلا سبب مشروع، فمن الضرورى انشاء حكومة ذاتية مستقلة حالما يمكن الإقدام على هذا الأمر. مع العلم بأن الغرض الأول من الحكومات ليس الحصول على أشياء معينة بل ترقية الوطنيين.

ومن واجب الدولة الوصية فى سورية وفى هذا العصر المتمدن أن تجعل الحرية الدينية التامة فى مأمن. قولا فى الدساتير، وعملا فى الإدارة. وأن تكون عنايتها شديدة بالمحافظة على حقوق الأقليات. إذ لا شىء أكثر أهمية من هذا فى نجاح الحكومة العربية الجديدة.

ويجب التوقى من تراكم الديون الكبيرة على الحكومة الجديدة فى ترقيتها الاقتصادية. كما يجب التوقى من غمسها فى شؤون الدولة الوصية الاقتصادية، والمحافظة من جهة أخرى على امتيازات الأجانب - كحقوقهم فى إنشاء المدارس والمشاريع الاقتصادية الخ، ومن الواجب عرضها على جمعية الأمم لتعدلها كما تقتضى مصلحة سورية. ولا ينبغى للدولة الوصية أن تستخدم سلطتها لتأييد مشاريع احتكارية إلى حد يضر بسورية أو الأمم الأخرى. بل يجب أن نعمل للسير بالحكومة الجديدة إلى الاستقلال الاقتصادى سريعا كالسير بها إلى الاستقلال السياسى.

ومهما كان نصيب الآراء الأخرى، فإنه يجب العمل بهذه الآراء إذا كان مؤتمر الصلح وجمعية الأمم مخلصين لمبدأ الوصايات (الموضوع فى دستور الجمعية) وتجب المحافظة على مصالح سورية الجوهرية كيفما كان شكل الإدارة فيها. فإن المؤتمر السورى فى

دمشق تساوره المخاوف من جعل سورية مستعمرة لإحدى الدول تحت اسم آخر غير الاستعمار، فلذلك يجب نزع هذا الخوف بنزع أسبابه.

وتشير اللجنة فى الدرجة الثانية بالمحافظة على وحدة سورية حسب رغائب السواد الأعظم من سكانها – كما تدل على ذلك عرائضهم – لأن البلاد المشار إليها محدودة وعدد سكانها قليل جداً، ووحدتها الجغرافية والاقتصادية والجنسية واللغوية واضحة بينة لا تحتمل إنشاء حكومات مستقلة ضمن حدودها المطلوبة. وإذا كان فى الوسع تجنب هذا التقسيم فإن البلاد عربية بلغتها ومدنيتها وتقاليدها وعاداتها.

إن هذا الرأى مطابق للنظريات العامة التى سبق ورودها. كما انه ينطبق على مبادىء جمعية الأمم، ويتفق مع رغائب الأكثرية فى البلاد.

يجب أن ترسم حدود سورية الجغرافية لجنة خاصة. وتعتقد اللجنة أن طلب المؤتمر السورى إدماج كيليكية فى سورية لامسوغ له تاريخيا ولا تجاريا، ولا من حيث العلاقات اللغوية الصغرى أكثر مما يضعها مع سورية. وعلاوة على ما تقدم فليست سورية محتاجة إلى شاطىء بحرى آخر مثل أقسام آسيا الصغرى.

ولا ينبغى حين الاعتراف بوحدة سورية نسيان الأمانى الطبيعية فى المناطق التى تشبه لبنان، الذى له نوع من الاستقلال. وتكون الوحدة أصح وأمتن إذا أعطى لبنان وما شاكله نوعا واسعا من الاستقلال الإدارى فإن برنامج دمشق نفسه يطلب حكومة على قاعدة اللامركزية الواسعة. تمتع لبنان بكثير من الرخاء والحكم الإدارى فى المملكة التركية فمن الضرورى أن لا يكون حظه فى المملكة السورية أقل من حظه فى المملكة التركية، بل يجب أن يعتقد بان علاقاته الاقتصادية والسياسية مع باقى سورية تكون وهو عضو فى سورية أفضل منها إذا انفصل عنها انفصالا تاما.

وبالطبع فإن لبنان كبلاد أكثر سكانها مسيحيون يخشى تسلط المسلمين فى سورية المتحدة وهناك موانع أربع تقيه هذا الخوف:

أولا ـ استقلاله الإدارى الواسع

ثانيا ـ وجود دولة وصية قوية مدة طويلة يتألف فيها الدستور الذى تسير عليه الحكومة الجديدة.

ثالثا ـ مشاركة جمعية الأمم التى تحافظ على الحرية الدينية وحقوق الأقليات.

رابعـــا ـ شعور الحكومة العربية بضرورة المحافظة على لبنان لكى تستطيع الدخول فى جمعية الأمم.

وعلاوة على ذلك فإذا كان عدد المسيحيين كبيرا فى داخل المملكة يزول الخطر من جنوح المسلمين إلى الاستياء الذى لابد منه إذا كان عدد المسيحيين كبيرا خارج المملكة. وهذا الأمر تؤيده الحوادث فى الهند فى علاقات الأديان المختلفة.

ثم إن لبنان كبلاد أكثر سكانها مسيحيون يكون أقوى وأفيد إذا كان ضمن سورية المتحدة مما لو كان خارجها منفردا لوحده. إذ يكون شريكا لها فى كل منافعها ومصالحها الحيوية، ولذلك نرى أن تكون سورية ولبنان متحدين معاً لفائدتهما، وهذا رأى اللبنانيين المتنورين أنفسهم.

ومثل هذا الكلام يقال عن فلسطين، وهى ان كانت (الأرض المقدسة) عند المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء فإنها ذات موقف دقيق يحتاج إلى معالجة دقيقة، وسيأتى الكلام عنها فى سياق الحديث عن الصيونية.

الوحدة السورية والوصايات

تشير اللجنة فى الدرجة الثالثة بوضع سورية تحت وصاية دولة واحدة كواسطة طبيعية لتأمين الوحدة وفائدتها. ولا ترى تقسيم إدارة المقاطعات السورية بين عدة وصايات، ولو كانت الوحدة الوطنية معترفا بها فليست هذه ولا تلك بالطريقة الطبيعية التى تعتقد اللجنة أنها الفضلى لتوحيد الحكومة الجديدة، أو الشعب كله، وليس من المستبعد أن ترغم الظروف مؤتمر الصلح على الأخذ بوصاية مقسمة. وهذا ليس بالحل الذى يجب اختياره عن طواعية لعدم اتفاقه مع مصلحة السكان الكبرى.

ويجب أن لا ننسى أن السوريين هناك، وأنهم مضطرون إلى الاتفاق معاً على صورة ما، ولابد لهم من العيش بعضهم مع بعض. سواء العرب فى الجهة الشرقية أو الذين على الساحل من المسلمين والمسيحيين. فهل يعاونون على ذلك أم يعرقلون بإنشاء علاقات ودية ولائية بواسطة دولة وصية واحدة؟ لا ريب فى أن الحل الإدارى السريع لمسألة العلاقات الصعبة هو تقسيم القوم إلى أجزاء صغيرة مستقلة، وبعض الأحيان لابد أن يكون الفصل جليا واضحا كما فى قضية العلائق بين الترك والأرمن، ولكن الفصل التام بين تلك الأجزاء

لا ينتج عنه غير اشتداد الخلاف وزيادة العداوات بين العناصر.

إن العبرة التى يلقيها علينا درس الشعور الاجتماعى الحديث توجب إدراك (النصف الآخر) على قدر ما يستطاع إدراكه بالعلاقات المكينة الحية. فعلى الدولة الوصية التى تمنح بعض الجماعات استقلالا إداريا محليا معقولا أن تعمل فى الوقت نفسه على تقوية وحدة الشعور الوطنى فى سائر البلاد، وعلى تحسين العلاقات الودية بين تلك الجماعات المختلفة لان سكان سورية كما سمعناهم أكدوا لنا مرارا أن العلاقات القديمة بين الجماعات المختلفة ناشئة عن سياسة الحكومة التركية السيئة. فاذا شمل العدل الجميع على السواء ووضح أن غرض الحكومة هو خدمة جميع الطبقات بلا تفضيل ولا تمييز - تحسنت العلاقات وزال سوء التفاهم، ولا يتم الوصول إلى هذا الأمر بتفريق الناس بعضهم عن بعض وجعلهم أعداء .

بناء على ما تقدم يلح رجال اللجنة فى وضع سورية تحت وصاية واحدة، وذلك لفائدة المذاهب والجماعات كلها.

الأمير فيصل

وتشير رابعا بأن يكون الأمير فيصل رئيس حكومة سورية المتحدة للأمور الآتية:

١- طلب المؤتمر السورى التمثيلى هذا الطلب بالإجماع باسم الشعب السورى. وليس هناك ما يحمل على الشك بأن السواد الأعظم من سكان سورية يرغبون رغبة صادقة فى أن يكون الأمير فيصل حاكما.

٢- أن المملكة الدستورية القائمة على مبادىء الديمقراطية ملائمة للعرب بطبيعة الحال، ولما ألفوه من أحوال القبيلة، ولاحترامهم لزعمائهم فإنهم يحتاجون أكثر من كل شعب إلى ملك كمركز شخصى لسلطة الحكومة.

٣- أن الامير فيصلا وصل إلى سلطته الحاضرة وصولا طبيعيا، ولا يوجد شخص آخر يقوم مقامه.

ومن مميزاته أنه ابن شريف مكة، وله مقام كبيرفى العالم الإسلامى وكان أحد زعماء العرب الكبار الذين حملوا التبعة فى ثورة العرب ضد الترك، واشتركوا فى تحرير الشعوب

الناطقة بالعربية فى المملكة التركية، ولذلك وضع فيه المؤتمر السرى ثقته التامة. ولقد أخذ الإنكليز بناصره، وتوسموا خيرا من تقلده رئاسة الحكومة العربية الجديدة. فهو عربى عصرى يميل إلى الأخذ بفضائل المدنية الغربية. وصلاته مع العرب فى شرق سورية ودية. فلا خوف على مملكته من هذا الجانب، ولكنه بالطبع غير محبوب من المسيحيين فى الشواطئ كما هو محبوب من العرب فى المنطقة الشرقية. ولكن هيهات أن يوجد رجل يتفق الناس على محبته أكثر منه. فهو متساهل حكيم حاذق فى سلوكه مع الناس واكتساب مودتهم وثقتهم، وهو رجل مخلص بعيد النظر. ولا يمكن الجزم الآن فيما إذا كانت له القوة الكافية التى يحتاج إليها فى معالجة الصعوبات. ولكن مما لاشك فيه انه لا يوجد زعيم عربى آخر فيه من عناصر القوة ما فيه. وسيكون أكبر معين فى زمن الوصاية.

يستطيع مؤتمر الصلح أن يثق كل الوثوق بأن وجود عربى له هذه الصفات على رأس هذه الحكومة الجديدة فى الشرق الأدنى مفيد.

الصهيونية

تشير اللجنة بوجوب تنقيح البرنامج الصهيونى لفلسطين تنقيحا كبيرا. لا سيما مهاجرة اليهود غير المحدودة التى ترمى إلى جعل فلسطين بلادا يهودية.

١- باشرت اللجنة درس الصهيونية، وهى ميالة إلى استحسانها، ولكن الحقائق الحسية التى وجدتها فى فلسطين مع قوة المبادئ العامة التى أعلنها الحلفاء وقبلها السوريون حملتها على وضع المشورة الآنفة.

٢- تلقت اللجنة من اللجنة الصهيونية فصولا إنشائية كثيرة عن البرنامج الصهيونى، وسمعت كثيرا عن المستعمرات الصهيونية ومطالبها فى المؤتمر، ورأت بنفسها شيئا مما فعلته، ووجدت عددا كبيرا يؤيد أمانى الصهيونيين وخططهم. وهى تعجب من انصراف تلك الجوالى إلى العمل، وتغلبها بالوسائط الحديثة على العقبات الطبيعة.

٣- تعتقد اللجنة أن الصهيونيين حصلوا على تشجيع معلوم من الحلفاء فى تصريح اللورد بلفور الذى كثر اقتباسه والاستشهاد به وتصديق ممثلى الحلفاء الآخرين عليه. إنما إذا عمل بهذا التصريح الذى يقضى بإنشاء «وطن قومى لليهود فى فلسطين مع الفهم الصريح بأنه لا يجب أن يعمل شئ يمس بالحقوق المدنية

والدينية التى للجماعات غير اليهودية فى فلسطين»

إذا عمل بهذا النص لا يبقى شك فى أنه يجب إدخال تعديل كبير على البرنامج الصهيونى.

إن إنشاء وطن قومى «للشعب اليهودى» لا يعنى جعل فلسطين بلادا يهودية. كما أنه لا يمكن إقامة حكومة يهودية بدون اهتضام الحقوق المدنية والدينية التى للجماعات غير اليهودية في فلسطين. والحقيقة التى وقفتت اللجنة عليها فى أحاديثها مع ممثلى اليهود هى أن الصهيونيين يتوقعون أن يجلوا السكان غير اليهود من فلسطين بشراء الأراضى منهم.

إن الرئيس ولسن فى خطبته التى ألقاها فى ٤ يوليو سنة ١٩١٨ وضع المبدأ التالى كواحد من المقاصد الأربعة الكبرى التى يحارب الحلفاء من أجلها وهو:

«حل كل مسألة. سواء كانت تتعلق بالارض أو السيادة أو المسائل الاقتصادية والسياسية يجب أن يبنى على قبول الناس الدين يتعلق بهم قبولا حرا. لا على المصالح المادية أو لفائدة أى دولة أو أمة أخرى ترغب فى حل آخر خدمة لنفوذها الخارجى أو لسيادتها» فاذا كان هذا المبدأ سيسود، وإذا كانت رغائب السكان فى فلسطين سيعمل بها فيما يتعلق بفلسطين فيجب الاعتراف بأن السكان غير اليهود فى فلسطين ـ وهم تسعة أعشار السكان كلهم تقريبا ـ يرفضون البرنامج الصهيونى رفضا باتا، والجداول تثبت أن سكان فلسطين لم يجمعوا على شيء مثل إجماعهم على هذا الرفض، فتعريض شعب هذه حالته النفسية لمهاجرة يهودية لاحدّ لها، ولضغط اقتصادى اجتماعى متواصل ليسلم بلاده ـ نقض شائن للمبدأ العادل الذى تقدم شرحه، واعتداء على حقوق الشعب – وان كان ضمن صور قانونية.

وقد اتضح أيضا أن الشعور العدائى ضد الصهيونية غير قاصر على فلسطين. بل يشمل سكان سورية بوجه عام. فان ٧٢ بالمائة من مجموع العرائض فى سورية ضد الصهيونية، ولم ينل طلب نسبة أكبر من هذه النسبة غير الوحدة السورية والاستقلال. وقد أعرب المؤتمر السورى الدمشقى عن هذا الشعور العام فى المواد ٧ و ٨ و١٠ من بيانه.

ولا ينبغى لمؤتمر الصلح أن يتجاهل أن الشعور ضد الصهيونية فى فلسطين وسورية بالغ أشده، وليس من السهل الاستخفاف به. فان جميع الموظفين الانكليز الذين حادثتهم اللجنة يعتقدون أن البرنامج الصهيونى لا يمكن تنفيذه إلا بالقوة المسلحة، ويجب أن لا تقل

هذه القوة عن خمسين ألف جندى، وهذا فى نفسه برهان واضح على ما فى البرنامج الصهيونى من الإجحاف بحقوق غير اليهود. لابد من الجيوش فى بعض الأحيان لتنفيذ القرارات، ولكن ليس من المعقول أن تستخدم الجيوش لتنفيذ قرارات جائرة. هذا فضلا عن أن مطالب الصهيونيين الأساسية فى حقهم على فلسطين مبنية على كونهم احتلوها منذ ألفى سنة، وهذه دعوى لا تستوجب الاكتراث والاهتمام.

وهناك أمر لايجوز إغفاله إذا كان العالم يريد أن تصير فلسطين مع الوقت بلاداً يهودية. وهو أن فلسطين هى الأرض المقدسة عند اليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء .يهم أمرها ملايين من المسيحيين والمسلمين فى العالم، ولا سيما ما يتعلق من تلك الأحوال بالعقائد الدينية والحقوق، فمسألة فلسطين وما يتفرع منها مسألة دقيقة حرجة، ومن المستحيل أن يرضى المسلمون والمسيحيون بوضع الأماكن المقدسة تحت رعاية اليهود مهما حسنت مقاصد هؤلاء. والسبب فى ذلك هو أن الأماكن الأكثر تقديسا عند المسيحيين هى ماله علاقة بالمسيح، والأماكن التى يقدسها المسلمون غير مقدسة عند اليهود بل مكروهة. ولا يستطيع المسيحيون والمسلمون فى هذه الأحوال أن يرضوا عن وضع تلك الأماكن تحت إشراف اليهود. ثم هناك أماكن أخرى لها فى نفوس المسلمين مثل هذا الشعور، ولما كانت هذه الأماكن كلها مقدسة ومحترمة من المسلمين كانت وصايتهم عليها فيما مضى أمرا طبيعيا، فالذين يطلبون صيرورة فلسطين يهودية لم يحسبوا للنتائج حسابها، ولا للشعور العدائى ضد الصهيونية فى جميع أنحاء العالم التى تعتبر فلسطين أرضا مقدسة.

وبناء على ما تقدم تشعر اللجنة مع عطفها على مسألة اليهود أن الواجب يقضى عليها بأن تشير على المؤتمر أن لا يؤيد غير برنامج صهيونى معتدل يجب العمل فيه بالتدريج، وبعبارة أخرى يجب تحديد المهاجرة اليهودية إلى فلسطين، والعدول بتاتا عن الخطة التى ترمى إلى جعل فلسطين حكومة يهودية.

ولا يوجد هناك سبب يمنع ضم فلسطين إلى سورية المتحدة كأقسام البلاد الأخرى ووضع الأماكن المقدسة تحت إدارة لجنة دولية دينية تكون كما – هى الحال فى الوقت الحاضر – تحت إشراف الدولة الوصية وجمعية الأمم، ويكون لليهود بالطبع عضو فى هذه اللجنة.

لمن تكون الوصاية على سورية؟

إن هذه الآراء الآن تؤدى بالطبع إلى ضرورة الإشارة إلى الدولة التى يجب أن تكون وصية على سورية كلها.

١ـ إن الاعتبارات التى سبق الكلام عنها تبين الصفات المطلوبة فى الدولة الوصية، وأول هذه الصفات أن تكون مرغوبا فيها من السكان، وأن تتقيد بروح نظام الوصاية قلبا وقالبا، وتعمل للغرض الذى وضع النظام لأجله، وترضى بالجلاء بعد زمن معلوم، ولا تحاول استغلال البلاد لمصالحها الشخصية، ويجب أن يكون لها شغف بالديموقراطية وترقية الجمهور العام، وإحياء الروح الوطنية، وتحتاج فى هذه المهمة التى لا شكر عليها إلى رغبة محدودة وصبر طويل. إذ لا تستطيع دولة أن تنظر نظرات صادقة فى الأحوال المحسوسة ـ كملكية الأراضى مثلا ـ وتحاول أن تصلح تلك الأحوال بدون أن يكون لها كثير من الأعداء. ويجب أن تكون قد سبقت لها خبرة فى سياسة قوم أقل ارتقاء، وأن تكون ذات موارد كبيرة فى الرجال والمال.

٢ـ من المرجح أن هذه الصفات لم تجتمع فى دولة، ومن المؤكد أنها لم تجتمع فيها متناسبة متوازية. وهذه الصفات مطلوبة كثيرا أو قليلا. كما ظهر لنا من أحاديثنا مع الأمة السورية، ووجود هذه الصفات يؤدى إلى طور جديد فى العلاقات بين الأمم. بحيث تدخل فيها روح التضحية. والدولة التى تأخذ الوصاية على سورية كلها على هذه الشروط لا تخدم سورية وحدها. بل العالم كله، وفى الوقت ذاته تخدم نفسها لأنها تعمل على تحقيق مقاصد الحلفاء السامية فى الحرب، وتعطى برهانا دامغا على أن هذه المقاصد لم تهمل الأمر الذى يساعد كثيرا على استبقاء الأمم متحدة متمسكة بمبادئها العالية.

٣ـ إن قرارات مؤتمر الصلح فى ٣٠ يناير سنة ١٩١٩ مندمجة فى الأوامر المعطاة لنا. وهى توضح حالة المناطق التى ستفصل فصلا تاما عن المملكة التركية، وقد جاء فيها «أنه يجب أن تراعى رغائب هذه الجماعات فى اختيار الدولة الوصية أولا».

إن ما وصلنا اليه فى درسنا لا يدع مجالا للشك فى رغبة أكثرية الشعب السورى، فإنه بالرغم من كون قبول أميركا الوصاية أمرا مجهولا كل الجهل، وبالرغم من كون اللجنة لم تشجع الأفكار على الاتجاه نحو هذه الجهة أو الأخذ بها بل ثبطتها ـ إنه مع ذلك فقد كانت أميركا الدولة التى اختارها السوريون فى الدرجة الأولى. وكانت نسبة العرائض التى تطلبها ٦٠ بالمائة فى المجموع كله. بينما لم تنل دولة أخرى أكثر من ١٥ بالمائة من المجموع.

فريق من رجال العهد الفيصلى



رضا الركابى



ياسين الهاشمى



هاشم الأتاسى



يوسف العظمة



الشيخ كامل القصاب



المستر كراين رئيس لجنة الاستفتاء الأمريكية

وقد ثبت أن القوم يعرفون الأسباب التي بنوا عليها اختيارهم أميركا: فهم يقولون إنما اختاروها لأنهم يعرفون سيرتها ومقاصدها السامية التي لا تشوبها شائبة، والثقة التي لها عند الجماهير السورية، التي كانت في أميركا، والروح الطيبة التي ظهرت من المعاهد الأميركية التهذيبية في سورية ولا سيما كلية بيروت التي تواصل تشجيع الروح الوطنية السورية، مما أثبت لهم أن أميركا ليس لها مطامح جغرافية ولا استعمارية وانها، لا تلبث أن تنجلي من تلقاء نفسها حالما يثبت بناء الحكومة السورية ويتخذون كوبا والفيلبين مثلين على روحها الديموقراطية النبيلة، وما لها من الموارد الغزيرة - وهكذا يتضح من النظر في رغائب الشعب السوري أن الوصايا يجب أن يعهد بها أميركا.

٤ - أما من حيث الصفات المطلوبة في الدولة الوصية على سورية فأميركا التي اختارها الشعب بالدرجة الأولى لا خوف عليها من تقديم كل امتحان دقيق على المقياس الذي أشرنا إليه في كلامنا السابق. فهي وان كانت أقل خبرة من انكلترا في هذا العمل، وربما كانت علاقاتها مع سورية غير كثيرة ولا متينة مثل علاقات فرنسا. فهي على الأقل حاصلة على الصفة التي يتطلبها نظام الوصاية الجديد الذي يحدد العلاقات التي يجب أن تكون لدولة كبيرة مع شعب ضعيف.

وهي وإن قبلت الوصاية مع التردد فإنها سترى كيف أن المنطق يقضي بحمل هذه التبعة التي نجمت عن المقاصد التي خاضت الحرب من أجلها وعن دعوتها إلى تأليف جمعية الأمم.

٥ - وهناك مسألة أخرى وهي أن أميركا هي الدولة التي تقدر أن تعالج المسألة السورية - في البدء على الأقل - بدون اعتراض عليها من الشعب السوري فقد ظهر أن الأكثرية ترغب في مجيئها أكثر من رغبتها في مجيء أية دولة أخرى.

وأنه لا سهل على انكلترا وفرنسا معاً أن تتنازلا عن مطالبهما لأميركا من أن تتنازل إحداهما للأخرى. وهي الدولة التي ليس لها منافس، ولها موارد غزيرة تساعدها على نشر العمران في سورية، الأمر الذي يفيد الأمم التي لها صلات مكينة مع سورية، ويساعد على حفظ العلاقات الودية بين الحلفاء يضاف إلى ذلك أن الإنكليز الذين لهم مصالح كبيرة في مصر وبلاد العرب والعراق لا يرحبون بدولة أخرى مثلما يرحبون بصيرورة أميركا جارة لهم وكذلك العرب والسوريون في تلك المناطق والفرنسيون الذين لهم مصالح كثيرة خصوصية في بيروت ولبنان.

المصاعب التى امام أميركا

ترد على الإشارة بوصاية أميركية واحدة على سورية كلها جملة اعتراضات. أولها أن إرضاء الشعب الأميركى بقبول الوصاية غير مؤكد، وثانيها أن رضاء الإنكليز أو الفرنسويين بالجلاء وترحيبهم بمجىء أميركا غير مؤكد أيضا. وهذه حالة قد تسبب تعبا دائما لإدارة أميركية. علاوة على أن التشجيعات الكثيرة التى أعطيت للصهيونيين - وإن كانت مبهمة - قد تؤدى إلى عرقلة أميركا بالنظر إلى سكانها إلى هود ذوى النفوذ. ثم إذا كانت أميركا ستقبل وصاية ما فعلى الغالب أن الوصاية على آسيا الصغرى أكثر ملاءمة وأكبر أهمية. لأن هناك مهمة عظيمة تحتاج إلى ما عند أميركا من المقدرة فتخرج عن سياستها التقليدية فيما يتعلق بشؤون القارة الشرقية. وتعتقد اللجنة أنه لا دولة غير أميركا تقدر أن تذهب إلى آسيا الصغرى، ولها حرية تامة لتعامل سائر العناصر بالعدل على السواء.

ويمكن القول عن هذه الاعتراضات بوجه عام أنها قد تكون من النوع الذى يحل نفسه، أو من العراقيل التى يجب توقعها فى مهمة عظيمة كهذه، ولكن هذا لا يمنع اللجنة من القيام بواجبها. وهو الإشارة إلى ما تعتقد أنه الطريقة الفضلى التى ينبغى السير فيها. لذلك تشير بأن تسأل الولايات المتحدة الأميركية أن تأخذ الوصاية على سورية كلها.

نبوءة تمت

إذا لم تعط أميركا الوصاية على سورية لسبب ما تشير اللجنة فى هذه الحالة عملا برغائب أكثرية الشعب السورى أن تعطى الوصاية لبريطانيا العظمى، فإن الجداول تبين أن هناك ١٠٧٣ عريضة فى سورية تطلب وصاية بريطانيا العظمى إذا لم تأخذ أميركا الوصاية، وهذا يزيد كثيرا على العرائض التى تطلب فرنسا، بل إن ستين فى المائة من العرائض تحتج بشدة على وصاية فرنسوية مباشرة وتتحاشى اللجنة البحث فى أسباب هذه الحالة. مضطرة إلى الاعتقاد بأن الموقف نفسه تستحيل معه الإشارة بأن تكون سورية كلها تحت وصاية فرنسوية. إن شعور العرب فى الجهة الشرقية شديد ضد فرنسا. وهناك سبب خطير يدعو إلى الاعتقاد بأن السعى لإكراه القوم على قبول الوصاية الفرنسوية يؤدى إلى حرب بين العرب والفرنسويين، ويوجد بريطانيا فى مأزق حرج.

ولعل اللجنة يسمح لها أن تقول إن هذا الاستنتاج يخالف ما كانت ترجوه فى البدء. فقد كانت تأمل ـ بالنظر إلى علاقات فرنسا القديمة الودية مع سورية، وإلى تضحياتها الفائقة فى الحرب، وإلى ما ينتظر أن تناله المملكة الإنكليزية من الأراضى بعد الحرب ـ أن تتمكن من الإشارة على المؤتمر بوضع سورية كلها تحت وصاية فرنسا، ولكن كلما طال مقام اللجنة، فى سورية تأكدت أن هذا الأمر لا يمكن الإشارة إليه ولا العمل به.

بناء على ما تقدم ترى اللجنة أنه إذا كانت أميركا لا تستطيع قبول الوصاية أن تعطى لبريطانيا العظمى، لأن الأكثرية تطلبها، ثم لأنها هناك، ولديها رجال إداريون متمرنون، وهى ذات خبرة كافية فى معاملة الشعوب الأقل منها ارتقاء، ومتوفرة فيها صفات كثيرة مما يجب أن تكون فى الدولة الوصية كما تقدم.

الاعتراضات على بريطانيا العظمى

غير اننا لا ننصف الشعب السور إذا نحن لم نصف بعبارة صريحة بعض الأسباب التى حملت القوم فى سورية على تفضيل أميركا على إنكلترا فان القوم أظهروا فى أحاديثهم معنا خوفهم من أن وضع الوصاية فى أيدى الإنكليز يحول الدولة الوصية إلى دولة استعمارية من الطراز القديم، ويصعب على بريطانيا العظمى أن تتخلى عن مبدأ الاستعمار. لا سيما فى بلاد تحسب أهلها غير راقين، وترهق الشعب الفقير لكى تزيد عدد الموظفين الإداريين، وتصبح مصالح سورية تبعا لمصالح الإمبراطورية، وتستثمر البلاد أخيرا لمنافعها، ولا تنجلى عنها أبدا لتعطى أهلها الاستقلال الحقيقى، كما أنها لا تعنى بالتعليم العمومى فلا تهىء له أسبابه الكافية. فضلا عن أن تحت سيطرتها من الأراضى أكثر مما يجب أن يكون لفائدتها وفائدة العالم بالرغم من تاريخها الاستعمارى المجيد. وهذه المخاوف التى تساور نفوس السوريين توضح لماذا يطلبون «الاستقلال الناجز» ومساعدة محدودة الأمد، عشرون سنة فقط، كما توضح احتجاجاتهم على المادة ٢٢ من دستور جمعية الأمم. وكلهم يعتقد أن الدولة التى يرسلها مؤتمر الصلح إلى سورية يجب أن تأتى كوصية حقيقية تحت إشراف الجمعية ولأجل محدود. وكل ما خالف هذين فهو خيانة للشعب السورى.

ويجب الإيضاح أيضا بأن المصالح المشروعة لفرنسا فى سورية تكون مضمونة تحت

الوصاية الحقة. إذ لا يوجد سبب يدعو إلى قطع رابطة من الروابط التى لفرنسا مع سورية أو إضعافها. سواء كانت سورية تحت وصاية دولة أخرى أو مستقلة.

بقى أمر واحد تجب إضافته، وهو انه إذا كانت فرنسا تتشبث بمصالحها فى سورية تشبثا لا تبالى معه بالعلاقات الودية التى بين الحلفاء فإنه من الممكن بالطبع أن تعطى وصاية على لبنان «غير مكبر» بالانفراد عن سورية كما ترغب جماعات كبيرة فى هذه المنطقة. ولا تستطيع اللجنة للأسباب التى تقدم شرحها أن تشير بهذا الأمر على المؤتمر ولكنه ترتيب ممكن.

هنرى / س كنغ - تشارلس ر. كراين

٨

اتفاق لويد جورج وكلمنصو

وسفر الأمير إلى أوروبا ثانية

ريع الفرنسويون من نتيجة الاستفتاء وأدركوا أن أملهم باستمالة الشعب السورى قد خاب وضاع. كما عرفوا أن دون تطبيق خططهم الاستعمارية مصاعب لا تذلل، فوجهوا وجههم نحو لندن، ودبروا حملة فى صحافته على الإنكليز ملحين بتنفيذ العهود المعقودة بيهما بشأن سورية.

وأسرع الإنكليز فأبلغوا مؤتمر الصلح - إرضاء للفرنسويين - بأنهم لا يقبلون الانتداب لسورية، وقامت صحف الإنكليز الكبرى وفى مقدمتها جريدة التيمس تدعو إلى استرضاء الفرنسويين وإجابة مطالبهم.

وبينما كانت المناقشات القلمية دائرة على هذا المنوال بين صحافتى لندن وباريس، وبينما كان رجال السياسة من الحكومتين يعملون للوصول إلى تفاهم حاسم كان الموظفون الفرنسويون فى لبنان يبثون دعاية واسعة النطاق لتكبير لبنان فى ظل الانتداب الفرنسوى، ولعلهم خشوا أن لا ينالوا منالا من سورية فأرادوا أن يمهدوا لإنشاء دولة لبنانية تدخل تحت حمايتهم، فيفوزون ببعض ما يريدون، وإليك صورة القرار الذى حملوا مجلس إدارة لبنان على إصداره يوم ٢ مايو سنة ١٩١٩ بالمطالبة بتوسيع حدود لبنان، وقد أبلغ رسميا بواسطة الحكومة الفرنسوية إلى مؤتمر الصلح وهذا نصه:

لما كان جبل لبنان مستقلا من القديم بحدوده التاريخية والجغرافية، والقطع التى فصلت عنه إنما سلخت منه عنوة واغتصابا بأمر الدولة التركية.

ولما كانت الدولة الغاصبة قد تقلص ظلها، واضمحلت سيطرتها عن هذه البلاد.

ولما كان لبنان لا يتسع له العيش والرخاء مالم تعد إليه القطع المفصولة عنه.

ولما كانت دول الحلفاء قد أعلنت أنها تساعد على تحرير الشعوب المظلومة وإعادة الأراضى المغصوبة لبلادها الأصلية، وكانت القطع المغتصبة من لبنان تعد قسما منه،

ومعظم سكانها هم من اللبنانيين أصلا.

فبناء على ذلك وعلى طلبات والحاح اللبنانيين المتواصلة والمعلنة فى جميع أنحاء الجبل قد اجتمع هذا المجلس بصفته ممثلا للشعب اللبنانى وأصدر القرار الآتى:

١ـ المناداة باستقلال لبنان السياسى والإدارى بحدوده التاريخية والجغرافية، واعتبار البلاد المغصوبة منه بلادا لبنانية كما كانت قبل سلخها عنه.

٢ ـ جعل حكومة لبنان هذه ديمقراطية مؤسسة على الحرية والإخاء والمساواة مع حفظ حقوق الأقلية وحرية الأديان.

٣ ـ إن الحكومة اللبنانية والحكومة الفرنسوية متفقتان على تقرير العلائق الاقتصادية بين لبنان والحكومات المجاورة.

٤ ـ مباشرة درس وتنظيم القانون الأساسى بطرقه الأصولية

٥ ـ تقديم هذا القرار لمؤتمر الصلح

١ـ حمل الفرنسويون البطريرك على السفر فقصد باريس ومعه لفيف من المطارنة، وذلك فى شهر اكتوبر سنة ١٩١٩ فقابل المسيو كلمنصو وباحثه ثم عاد إلى لبنان فوصل بيروت يوم ٢٥ ديسمبر من تلك السنة يحمل الكتاب الآتى:

باريس فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٩

أيها السادة

«إن المفاوضات التى جرت من بوم وصول غبطتكم إلى باريس فيما بينكم وبين وزير الخارجية وبينى أنا قد وطدت ولاشك فيكم الاعتقاد أن الحكومة الجمهورية متمسكة تمسكا لا تنفصم عراه بتقاليد الولاء المتبادل منذ قرون بين فرنسا ولبنان.

وتلك المفاوضات التى أكدت لكم أيضا أن حل المشكل الذى نسعى إليه فى مؤتمر الصلح. وعلى وجه الإجمال مطابق لأمانى الشعب الذى أنت ممثله السامى

«ان رغبة اللبنانيين فى المحافظة على حكومة ذاتية ونظام وطنى مستقل تتفق كل الاتفاق مع تقاليد فرنسا الحرة، وأن اللبنانيين لتأكدون من مساعدة فرنسا ومؤازرتها، وبالاستقلال عن كل مجموع أهلى أيا كان أن يحافظوا على تقاليدهم ويوسعوا نطاق نظاماتهم السياسية والإدارية، وأن يستعجلوا بأنفسهم زمن الانتفاع التام من مرافق بلادهم. وأخيرا أن يروا أولادهم يتأهبون فى مدارسهم الخاصة للقيام بالوظائف العمومية.

«أما الحدود التى سيجرى فيها هذا الاستقلال فلا يمكن تعيينها نهائيا قبل أن يقرر ويحدد أمر الوصاية على سوريه.

«على ان فرنسا التى بذلت كل ما فى وسعها سنة ١٨٦٠ لكى تخول لبنان أرضا أوسع لا تنسى أن تضييق حدوده كما هو الآن نتيجة الضغط الذى أنّ تحته لبنان زمنا طويلا.

«وان فرنسا التى ترغب فى تحسين الصلات الاقتصادية بين البلاد الموضوعة تحت وصايتها ستنظر أيضا =

٦ ـ إعلان هذا القرار فى الجريدة الرسمية، وفى غيرها من الجرائد الوطنية تطميناً لأفكار اللبنانيين وبيانا للمحافظة على حقوقهم.

يضاف إلى هذا وهذا حمل الفرنسويين بطريرك الموارنة إلياس الحويك على السفر إلى باريس والمطالبة بانشاء لبنان الكبير تحت الحماية الفرنسوية مما هو معلوم ومأثور[١].

فإخفاق السياسة الفرنسوية وعمالها ذلك الاخفاق المشين، أمام اللجنة الأميركية، وظهور الشعب السورى بمظهر المتحد المتضامن الرافض لكل حماية فرنسوية، وحدوث اضطرابات على حدود المنطقة الغربية، واتساع نطاق الدعاية العربية فى أرجائها، وتظاهر المسلمين لا فرق بين السنيين والشيعيين والدروز وتظاهر النصيرية ـ ويؤلفون مع المسلمين الجانب الاكبر من سكان تلك المنطقة ـ بالميل إلى حكومة دمشق وتردد زعمائهم ووجهائهم وأصحاب الرأى منهم على عاصمتها ـ إن ذلك كله زاد فى قلق الفرنسويين وجعلهم يلحون على الإنكليز فى تسوية القضية السورية على قاعدة العهود المقطوعة. وبما أن موقف الولايات المتحدة كان غير واضح حتى ذلك الحين ـ فهى لم تعلن إن كانت تقبل انتدابا أم لا – رأى ولاة الأمور الإنكليز أن يستدعوا الأمير إلى أوروبا ثانية لعقد اتفاق نهائى. فأبرق إليه المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٩١٩ يدعوه إلى القدوم، ويلح عليه بأن يصل إلى لندن يوم ١٦ منه. ومع أنه تلقى البرقية فى ساعة متأخرة من ليلة ١١ فقد أعد معدات السفر على الفور، وغادر دمشق فى الساعة التاسعة والنصف من صباح ١٢ منه بقطار خاص إلى حيفا، ومعه الشيخ فؤاد الخطيب أمين الخارجية، والجنرال حداد باشا مدير الأمن العام والدكتور أحمد قدرى طبيبه الخاص، والقائد أركان حرب محمد اسماعيل والخورى يوسف اسطفان والمحامى توفيق الناطور والمرافق العسكرى تحسين قدرى. ولحق به بعد يومين الأمير أمين أرسلان وأمين التميمى والدكتور سامح الفاخورى والأمير فايز شهاب (لبنان) وأمين الكسبانى.

= بغاية العناية عند تحديد تخوم لبنان فى ضرورة تخويل الجبل الأراضى السهلية والمرافىء البحرية اللازمة لعمرانه.

«واننى على ثقة من أن التأكيدات التى أبديها لغبطتكم توافق العواطف التى حملت الشعب اللبنانى فى هذه المرة أيضا على طلب وصاية فرنسا لبلاده. ولى الامل ان الحل النهائى الذى سيبته مؤتمر الصلح فى المسألة السورية يفسح المجال للحكومة الفرنسوية ويمكنها أن تحقق كل التحقيق أمانى هذا الشعب الباسل، واقبل يا صاحب الغبطة فائق اعتبارى».

«كلمنصو»

وبلغ الأمير الإسكندرية يوم السبت ١٣ منه، وأبحر فى الأصيل على نسافة بريطانية إلى مرسيليا، وقد سافر اللورد اللنبى قبله بأسبوع، وتوقفت النسافة فجأة يوم الاثنين ١٥ منه قرب مرسيليا فبلغها الأمير يوم ١٨ منه، وسافر إلى باريس على الفور، وقد ظهر بعد أن توقفها كان مقصودا، وانه جرى بإشارة لاسلكية تلقتها وهى فى عرض البحر من حكومة لندن، لعدم اقتران المفاوضات التى كانت تدور بين المستر لويد جورج والمسيو كلمنصو بنتيجة نهائية. ولما كانا ينويان مفاجأته بالأمر الواقع فقد رأيا تأخير سفره ريثما يتم الاتفاق وهو ما وقع.

ومما يستحق الذكر هنا، ويدل على رغبة الإنكليز فى استرضاء الفرنسويين زيارة الكولونيل ماين هيرزاكن يوم ٩ سبتمبر للامير فيصل ـ أى قبل سفره إلى أوروبا بيومين ـ مصحوبا بالكابتن كولوندر الفرنسوى، وإبلاغه شفاها الإنذار الآتى باسم اللورد اللنبى:

١ ـ تعلن بريطانيا انها ترفض الانتداب على سورية بأى شكل كان

٢ ـ تؤيد بريطانيا فكرة إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين.

٣ ـ تقاوم بريطانيا فكرة إنشاء حكومة تخالف رغبات الشعب السورى.

٤ ـ لما كان المارشال اللنبى هو المسؤول عن أمن هذه البلاد أمام المجلس الأعلى فهو عازم على إعادة الأمن إلى نصابه عند حدوث اضطراب أو قلاقل.

فاحتج الأمير على هذا الإنذار وقال إن المظاهرات التى يقوم بها الشعب منشؤها وجله على مصيره وتخوفه من هضم حقوقه، وأنه لا يوافق على تقسيم البلاد العربية بوجه من الوجوه، ولا يساعد على استعمارها. فأجابه الكولونيل الإنكليزى «سيعاقب المارشال الذين يحاولون إيقاد الاضطرابات مشروعة كانت أم غير مشروعة»

ولقد أثر هذا الانذار أثراً بليغاً فى نفس الأمير، وجعله يحسب للحوادث حسابها. كما جعله يشعر بأن هنالك تفاهما بين الفرنسويين والإنكليز على سورية والعراق مما أيدته الحوادث. فإنه لم يكد يبلغ باريس يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩١٩ حتى عرف أن كل شىء قد انتهى. وانه إزاء سياسة جديدة تم الاتفاق على تفاصيلها بين الحكومتين، وتقضى بجلاء الجيش البريطانى عن المنطقتين الشرقية والغربية وعن كيليكية وحلول الجيش الفرنسوى محله، ومعنى ذلك أن تحتل فرنسا البلاد التى اختصت بها بموجب معاهدة سايكس ـ بيكو

وفى جملتها أقضية بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا. لأنها داخلة فى حدود المنطقة الساحلية الخاضعة مباشرة لفرنسا. ويستثنى من ذلك المدن الأربع، وهى دمشق وحمص وحماه وحلب مع ولاية الموصل، وقد تقرر أن تظل تحت الاحتلال البريطانى مع أنها من الاراضى الداخلة فى أشقة سورية الداخلية. فيقتصر الاحتلال العسكرى البريطانى فى هذا الدور على العراق وفلسطين وقد كان مصيرها غير جلى - كما لا يخفى - وهذا نص الاتفاق العسكرى الذى عقد فى باريس يوم ١٥ سبتمبر بهذا الشأن:

«لقد قبل المسيو كلمنصو باسم الحكومة الفرنسوية اقتراحات المستر لويد جورج بجلاء الجيش البريطانى عن سورية وكيليكية، واستبدال هذه القوى بجنود فرنسوية فى كيليكية وفى غرب خط سايكس ـ بيكو فى سورية

«ومن المعلوم أن الحكومة الفرنسوية بقبولها هذه الاقتراحات لا تتعهد بقبول أى قسم آخر من المواد المقترحة فى مذكرة المستر لويد جورج فى ١٣ سبتمبر سنة ١٩١٩ والخاصة باحتلال سورية وفلسطين والعراق إلى أن يصدر القرار فى قضية الانتداب. فالمؤتمر يسجل هذا الاتفاق بصفته تدبيرا عارضا وموقتا لتسوية الاحتلال العسكرى لاغير ، وهو لا يؤثر فى حل القضايا الخاصة بالانتداب والحدود التى يجب النظر فيها باعتبارها جزءا من قضية الصلح العامة مع تركيا»

وفى يوم ١٧ منه نشر فى باريس البلاغ الرسمى الآتى:

«تقرر فى الاتفاق الذى عقد بشأن الحلول محل الجنود البريطانية فى سورية وكيليكية أن تترك من الآن المدن الأربع وهى دمشق وحمص وحماه وحلب خارج منطقة الاحتلال العسكرى الفعلى»

وزيادة فى البيان والإيضاح نقول إن الإنكليز نالوا من الفرنسويين فى مقابل هذا الجلاء المزايا الآتية:

١ ـ عدم المطالبة بإدخال ولاية الموصل ضمن الحدود السورية

٢ ـ عدم المنازعة فى تقرير مصير فلسطين – أى أن تكون لبريطانيا.

٣ ـ عدم المنازعة فى وضع العراق تحت الانتداب البريطانى

٤ - إبقاء مقاطعة شرقى الأردن - وكانت يومئذ جزءا من سورية - تحت الاحتلال البريطانى.

نعم هذا ما ناله الإنكليز من الفرنسويين مقابل موافقتهم على إحلال الجيش الفرنسوى محل الجيش البريطانى. بشرط أن يتم الجلاء والحلول فى أول شهر نوفمبر من تلك السنة.

وأبلغ هذا الاتفاق - وقد تم بموافقة اللورد اللنبى - إلى مجلس الحلفاء الأعلى رسميا فأقره، وجاء فى المذكرة الخاصة به أنه سيظل نافذا إلى أن تفرغ أميركا من إبرام معاهدة الصلح، وتلعن قرارها الخاص بقبولها الانتداب أو رفضه له. والقصد من كل ذلك جعل الأمير أمام حالة واقعة وإجباره على الرضا والتسليم بما قدر وقسم.

وعلم الأمير بما تم وهو فى مرسيليا فسافر إلى باريس على الفور، ولم يقم فيها. بل غادرها مباشرة إلى لندن فاجتاز بحر المانش بمدمرة إنكليزية، وبلغ لندن يوم ١٩ منه فاستقبل استقبالا رسميا فخما، وحل فى فندق كارلتون وقابل يوم وصوله اللورد اللنبى وذهبا معا إلى دوننج ستريت وقابلا رئيس الوزارة مقابلة طويلة.

وقد احتج الأمير على ماوقع. فطيب الإنكليز خاطره وقالوا له إنه لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا غير ما فعلوه. وثم أشاروا عليه أن يذهب إلى باريس ويفاوض الفرنسويين ويتفق معهم فأبى فى أول الأمر.

ودارت محادثات طويلة فى تلك الأثناء بينه وبين أقطاب الإنكليز اقترح فى ختامها تأليف لجنة عسكرية تؤلف من أربعة ضباط: أميركى وعربى وانكليزى وفرنسوى وتجتمع فى لندن للبحث فى ما يلزم اتخاذه من التدابير لاتقاء ما قد يحدث من حوادث بسبب جلاء الجنود البريطانية وحلول الجنود الفرنسوية محلها، فوافق الإنكليز مبدئيا على هذا الاقتراح، وأبلغوا الأمير بأن يسافر إلى باريس لمفاوضة المسيو كلمنصو والاتفاق معه على تفاصيله وجاءوه بدعوة خاصة منه. فاجتاز المانش يوم ٢٠ اكتوبر وفى يوم ٢٣ منه. قابل المسيو كلمنصو مقابلة طويلة لم تؤد إلى اتفاق. لان هذا أبى الاشتراك فى اللجنة العسكرية التى يقترح الأمير تأليفها. وزار عونى عبد الهادى بصفته مندوبا عربيا فى مؤتمر الصلح المستر فولك رئيس الوفد الأميركى بعد سفر ولسن إلى بلاده، وأبلغه خبر اتفاق ١٥ سبتمبر ورجاه التوسط لحل الخلاف القائم بين العرب والفرنسويين والإنكليز

حوله، وقال له إن هذا الاتفاق يعد بمثابة مقدمة لتقسيم البلاد العربية. فأجابه انه لا يستطيع أن يتكلم رسميا لأن المسألة العربية مرتبطة بالمسألة التركية، ولم يحن زمن البحث فيها، وإن غاية ما يفعله هو التكلم مع الإنلكيز والفرنسويين بصفة خاصة.

وعلى أثر ذلك خوفا من انسحاب الأميركان من مؤتمر الصلح فيخسر العرب عضدا قويا رفع عونى عبد الهادى تقريرا إلى المؤتمر اقترح فيه فصل القضية العربية عن القضية التركية، وأن يعجل بنظر الأولى لاعتبارات سردها. ومع أن بعض كبار الأميركيين وعدوه بالتأييد إلا ان الكلمة العليا ظلت للانكليز والفرنسويين فأرجىء النظر فيها، ثم كان بعد ذلك ما كان من انسحاب الأميركيين ورفضهم إبرام معاهدة فرسايل. فكان هذا الانسحاب من سوء حظ العرب.

لقد باع الإنكليز العرب وصداقتهم بزيت الموصل، وجحدوا عهودهم لهم. ووصف المستر كراين رئيس اللجنة الأميركية إلى بلاد الشرق ما جرى أبلغ وصف بقوله «لما خرجنا من باريس فى صيف سنة ١٩١٩ إلى الشرق كنا كلنا آمالا بنجاة سورية وتحريرها. فلما عدنا وجدناها بيعت بيع السلع، باعها الإنكليز بزيت الموصل وهو الزيت الذى تنازل عنه الفرنسويون ثمنا لإطلاق يدهم فى سورية» ويمثل هذا صرح أحد أصدقاء الكولونيل لورانس فقال «لو لم تكن الموصل داخلة فى منطقة النفوذ الفرنسوى لقبل المستر لويد جورج نظرية الكولونيل لورانس باستقلال سورية».

الجنرال غورو يعين لقيادة جيش الشرق

وبينما كان الأمير يعمل فى باريس ولندن لتعديل اتفاق ١٥ سبتمبر والتخلص منه فوجىء يوم ١٢ أكتوبر ١٩١٩ بتعيين الجنرال غورو قائدا عاما للجيش الفرنسوى فى الشرق ومندوبا ساميا لفرنسا فى سورية وكيليكية. ومع أن هذا صرح على أثر تعيينه ان مهمته محدودة بدقة وجلاء وهى «إبدال جنود بجنود، والمحافظة على النظام فى تلك البلاد إلى أن يقرر مؤتمر السلام المطالب السياسية الخارجية بأقسام السلطنة العثمانية المختلفة» إلا أن ذلك لم يخفف من قلق الأمير فأفضى بحديث لجريدة الماتان الفرنسوية قال

فيه «وإنى أرغب فى الاتفاق الودى مع فرنسا ومعاونة الجنرال غورو الذى لم أجتمع به حتى الآن لسوء الحظ، ولكن لا يسعنى التسليم بتجزئة البلاد التى وعدونا وعدا رسميا بعدم تجزئتها. وأقول هنا إن المستر لويد جورج أطلعنى من أيام على مذكرة، وطلب منى التسليم بها فرفضت ذلك بتاتا. وعندى توكيل من العرب فلا يحق لى أن أقبل شكلا من أشكال الحكم يعارض آمالهم، ولم أفعل شيئا فى باريس سوى انى طلبت من المسيو كلمنصو أن لايجزىء بلادنا، وأن تظل القيادة العسكرية فيها موحدة إلى أن يصدر قرار المؤتمر فلم أتلق جوابا على ذلك. فإذا رأى العرب أن الأمم الاخرى خدعتهم فإنهم يطلبون العون فى مكان آخر»

وفى يوم ١٨ نوفمبر وصل الجنرال غورو إلى بيروت فاستقبل استقبالا عسكريا، وجاء معه عدد كبير من الضباط، وبدأ توارد الجند الفرنسوى إلى سورية على الأثر.

٩

جـــلاء الجيـش الإنـكـليــزى

وتدابير الحكومة الفيصلية

بدأ الجيش الإنكليزى بالجلاء عن حلب ودمشق فانتهى جلاؤه بانتهاء شهر نوفمبر، ولم يبق سوى الجند المرابط فى حوران وشرقى الأردن، وكذلك غادرت دمشق يوم ١٨ نوفمبر القوة الفرنسوية التى كانت ترابط فيها وهى ٢٥٠ جنديا إلى بيروت. وفى يوم ٢٥ نوفمبر طارت الطيارات الإنكليزية فى سماء دمشق وألقت أوراقا كتب فيها: «إن القائد العام للجيش البريطانى وضباطه وعساكره فى دمشق يرومون أن يودعوا سمو الأمير زيد المعظم والهيئة الحاكمة وأهل دمشق، ويشكرونهم من صميم أفئدتهم على ما أظهروه نحوهم من العطف أثناء وجودهم بدمشق ويتمنون من كل قلوبهم مستقبلا حسنا لدمشق وللشعب العربى كله»

بيان الحكومة السورية فى المؤتمر

ورأت حكومة دمشق أن لا تنفرد بالعمل فى الدور الجديد فأصدر الأمير زيد أمرا بدعوة المؤتمر السورى، فاجتمع بعد ظهر السبت ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٩ فى دار النادى العربى، والقى الحاكم العسكرى على رضا باشا الركابى باسم الأمير خطبة قال فيها:

«تعلمون أن العرب وجلالة الملك المهاب لم يخوضوا غمار هذه الحرب فى جانب الحلفاء إلا لإنقاذ الأمة العربية من نير الظلم والاستعباد، والحصول على الاستقلال التام، وقد دخل الجيش العربى سورية فاتحا، وأعلن الحكم العسكرى الموقف فى البلاد ريثما يتقرر مصيرها نهائيا، وكانت سورية التى فتحها الجيش العربى بمعونة الحلفاء والعرب قد قسمت إلى مناطق احتلالية بتدبير القيادة العامة للجيوش المتحالفة لتدار من قبل السلطات العسكرية الموقتة. وقد ذهب سمو الأمير فيصل إلى أوروبا لتمثيل البلاد فى المؤتمر وللمناضلة عن حقها السياسى بتفويض الشعب. ولايزال يواصل نضاله وجهاده المقدس ولاتزال الضجة قائمة فى أوروبا حول المسألة السورية. غير أن الحلفاء نظرا للارتباكات المالية، وتأخر أميركا فى إعلان قرارها النهائى - كما يدعون - اضطروا للقيام بتدبير

عسكرى مؤقت يقضى بانسحاب الجيش البريطانى على أن لا يحل محله جيش آخر إلا فى بعض النقط من منطقتنا الشرقية، وهى بعلبك ورياق وشتورة. وأما الجيش البريطانى فسيحافظ على مواقعه الأصلية فى حوران والكرك، ولا ينسحب منها وستبقى السلطة الادارية لنا فى الأماكن الاخيرة، كما كانت سابقة. ولقد تم هذا التدبير العسكرى دون استشارة العرب الذين هم حلفاء أيضا،.ويجب أن يكون لهم الرأى الأول فى مثل هذا الشأن. الامر الذى امتعضت له الأمة، وكان الواجب على الحلفاء أن يأخذوا رأى العرب فيه قبل كل شىء. ولقد تعددت بموجب هذا التدبير القيادة العسكرية فى سورية بعد ما كانت موحدة»

ثم تكلم عن تصريحات المسيو بيشون وزير الخارجية الفرنسوية. وقد جاء فيها إن كل ما جرى وقتى، لا يؤثر فى قرار مؤتمر الصلح النهائى. وأجاب على ذلك بقوله «وإن تصريحات كهذه لا تكفى لقبولنا هذا التدبر الأخير الذى هو تطبيق لمعاهدة سايكس - بيكو السرية المجحفة بحقوق البلاد، والمنافية لمبدأ الحلفاء. وهذا ما دعانا إلى رفع استقالتنا لسمو الأمير احتجاجا على التبليغات التى أبلغناها فعهد إلى نا بالسلطة العسكرية الموقتة على أن يرفع احتجاجنا للمقامات العالية.

«وقد دعا سموه مؤتمركم الموقر لإطلاعكم على الموقف الحاضرر بصفتكم زعماء البلاد وممثلى إرادة الأمة لتبدوا رأيكم فى هذا الاتفاق الموقت الأخير، ولتواصلوا جهادكم المقدس فى إدارة الحركة الوطنية أكثر من ذى قبل، فتكون مساعيكم القيمة فى داخل البلاد عونا لسمو الأمير فى خارجها».

وعقد المؤتمر السورى يوم ٢٤ منه جلسة قرر فيها أن يرفع إلى الأمير زيد الكتاب الآتى:

«ان المؤتمر السورى بصفته،ممثلا للأمة السورية العربية قانونيا وسياسيا قد تشرف بسماع بيان سموكم الذى تلاه الحاكم العسكرى العام بالنيابة عنكم، وعلم منه حرج الموقف وكيف أن حلفاء العرب إبان شدتهم يوم كان طالع الحرب غير باسم قد نكثوا عهودهم مع العرب اليوم فعلا، وعبثوا بالعهود والأسس التى أعلنوها للملأ أجمع من أنهم يقاتلون لنصرة الحق، ويؤيدون حقوق الأمم لتعيين مصيرها حسب رغائبها وأمانيها، وقد خرقوا عهد جمعية الأمم قبل أن يجف مداده، وبدأوا بتقسيم البلاد وتهيئة أسباب استعمارها حسبما تقتضيه مصالحهم الاستعمارية. معتمدين على قوة السيف والمدفع

وحق الفتح، ومعترفين عمليا بأن العهود والمواثيق ما هى إلا قصاصة ورق - رغما عما كانوا يؤاخذون به الألمان ويثيرون ثائرة الشعوب عليهم من أجله، وإن الاتفاق العسكرى الموقت الذى تم بين لويد جورج وكلمنصو بشأن البلاد السورية تم خلسة عن العرب الذين هم أصحاب البلاد منذ وجد التاريخ وأصحاب الحق الأول فى تعيين أمر البلاد.

«والمؤتمر إزاء هذا الاتفاق الموقت يرى أن واجب الأمة التى يمثلها فى أمانيها ورغائبها يقضى عليها بالدفاع عن وحدتها واستقلالها وشرف قومها إلى آخر نسمة فيها. تأييدا لرغائبها التى أبدتها، وتأمينا لوحدة بلادها التى هى عرضة للتقسيم واستقلالها وهو عرضة للضياع.

«ويرى أنه من بواعث الوطنية أن يعرض على مسامعكم بعض أمانيه ومقرراته التى لا يرى بدا من جوب تطبيقها لأجل توحيد الحركة فى البلاد للوصول إلى الغاية المنشودة. وهى إعلان الاستقلال التام للقطر السورى بحدوده التى رسمها المؤتمر بقراره الذى قدمه إلى اللجنة الدولية الأميركية. فهو لا يقبل الانقسام والتجزئة بوجه من الوجوه. مع تعيين شكل الحكومة بانها ملكية شورية مدنية، ويرى أن يلفت نظركم إلى الأوضاع والتعامل المتخذين فى الممالك التى سبقتنا فى الأخذ بمبدأ السيادة القومية، وهو يقضى بان تكون الحكومة وطنية لمجلس الأمة حق مراقبتنا ضمن دائرة القانون الأساسى والمؤتمر يعتبر نفسه على وفاق مع سموكم بلزوم اتخاذ التدابير العاجلة لتطبيق هذه الأصول والأوضاع وإنشاء حكومة مسؤولة أمام الأمة يثق بها ويمنحها اعتماده المطلق، وثقته التامة لاتخاذ وسائل الدفاع عن وطنه المهدد بالاستعمار»

منشور المؤتمر إلى الأمة

وأذاع المؤتمر على الشعب السورى البيان الآتى:

بما أن حياة البلاد لا تقوم إلا بوحدتها التامة واستقلالها التام. وبما أن بعض الاستعماريين يتهددون تلك الوحدة ويعبثون بهذا الاستقلال. فقد رأى المؤتمر السورى الذى يمثلكم، وينطق بلسانكم ويعبر عن رغائبكم في جلسته يوم ٢٤ نوفمبر أن يوجب على الأمة الدفاع بدنا ومالا ضد كل من يحاول الإخلال بوحدة البلاد واستعمارها والعبث باستقلالها، والمؤتمر على ثقة تامة من أن الامة العربية الكريمة ذات المجد الأثيل والشرف

الأصيل ستقدر الواجب حق قدره. فتسرع إلى تلبية نداء الوطن بكل ما لديها من قوة وحياة، وإنه يأمل كل الأمل أن الأمة العربية ستجد فى أوروبا وأميركا كثيرا من المخلصين المنصفين ممن يساعدونها على نيل حقوقها وأمانيها ويدافع عن قضيتها واللهّ ولى التوفيق.

بلاغ الأميـــر زيـــد

وفى يوم ٢٧ منه أرسل الأمير زيد إلى الحاكم العسكرى الكتاب الآتى:

«ها قد انسحبت الجيوش البريطانية من منطقتنا الشرقية ودخلنا فى دور جديد هو الخطوة الاولى نحو الحياة الحرة. إذ أصبحت حكومتنا العربية هى المكلفة بحفظ الأمن والنظام فى هذه البقعة المباركة من بقاع البلاد العربية المحررة التى لانزال نواصل جهادنا فى الدفاع عن حق استقلالها السياسى ووحدة أقطارها استنادا على وعود حلفائنا وعهودهم التاريخية.

ولا مراء أن الواجب الوطنى يقضى على رجال حكومتنا فى هذه الأيام أن يتذرعوا بالحزم والنشاط والتبصر فى إدارة شؤون البلاد أكثر من ذى قبل لنبرهن للعالم أجمع أن العرب جديرون بالحياة الحرة والاستقلال الوطنى التام الذى هو المثل الاعلى لكل فرد من أفراد الامة، والذى خضنا لأجله غمار هذه الحرب أربع سنوات فى جانب الحلفاء. وعلى ذلك وبصفتى نائب أخى سمو الأمير فيصل أوصى جميع الموظفين ورجال الحكومة المسؤولين بما يأتى:

١- السهر الدائم على الاحتفاظ بالأمن العام، والضرب بسوط من حديد على أيدى من يريدون الفساد والتصدى للإخلال بالراحة العامة.

٢ - قطع دابر الشقاوات وحوادث الاعتداء.

٣ - احترام الأهلين، ورعاية مصالحهم على مبدأ الحكومة للشعب والشعب للحكومة ضمن المبادىء القانونية.

٤ - منع كل من يخالف قواعد الشرف الصحيح والأخلاق الفاضلة.

٥ - توزيع العدل بين جميع الطبقات، والمساواة التامة بين جميع الطوائف.

٦ - الاهتمام العظيم بتدريب وتنظيم قوتى الجيش والدرك. اللذين هما محط آمال الامة

ليكونا فى المنزلة التى يقضى بها الدفاع الوطنى».

الفرنسويون يتقدمون لاحتلال بعلبك ورياق

وفى يوم ٢٩ منه أذاع الحاكم العسكرى البلاغ الآتى:

«لقد تبلغنا رسميا من مندوبى حكومتى انكلترا وفرنسا أن الجنود الفرنسوية ستحل محل الجنود البريطانية فى شتورة ورياق وبعلبك حسب القرار العسكرى الاخير، فتحتلها احتلالا عسكريا على أن تبقى هذه الناحية مرتبطة من الجهة الإدارية بالحكومة العربية. فالحكومة العربية قد انتدبت أمير اللواء نورى السعيد ليسافر إلى بيروت بتعليمات خاصة ويفهم القائد الفرنسوى الاخطار العظيمة التى ستنجم عن هذا العمل المخالف لرضاء الشعب فاطلب من الشعب الذى أعرب عن نواياه الطيبة فى جميع المواقف أن لا يلتفت إلى الأخبار الكاذبة، وأن يكتفى بما ينشر من جانب الحكومة».

ووصل فى تلك الآونة إلى دمشق ضابط انكليزى كبير منتدب من قبل الجنرال اللنبى لإقناع ولاة الامور العرب بالتساهل مع الفرنسويين، فقابل مع الكولونيل كوس (المعتمد الفرنسوى) الأمير زيدا مقابلة طويلة بعد ظهر ٢٨ منه حضرها الحاكم العسكرى العام ونورى السعيد ويوسف العظمة المعتمد العربى فى بيروت يومئذ، فدار البحث حول الموقف الأخير فأصر ولاة الامور العرب على خطتهم، وقالوا إن احتلال الجيش الفرنسوى لهذه المناطق يكون مبعث اضطرابات وفتن، وأخيرا تم الاتفاق على أن يسافر نورى السعيد إلى بيروت ليفاوض الجنرال غورو مباشرة فسافر فعلا مساء ٢٨ منه.

وهاج سكان دمشق ونظموا المظاهرات والاحتجاجات وتقدموا للتطوع فى الجيش، وأعلنوا انهم يقاومون الاحتلال بالقوة.

وعاد نورى السعيد مساء ٢٩ منه بعد ما قابل الجنرال وفاوضه ولم ينل منه منالا. فإنه ما لبث أن أصدر أمرا بالاحتلال. وهذا نص البلاغ الرسمى الذى أصدرته الحكومة يوم ٢ ديسمبر سنة ١٩١٩.

«رغما عن استمرار المذاكرات التى انتدب لها أمير اللواء نورى السعيد رغبة فى حفظ الأمن والسلام فهمنا اليوم أن الفرنسويين دخلوا المعلقة حسب القرار العسكرى الاخير

وقد احتجت الحكومة عند قناصل الدول وعند ورود تفصيلات ننشرها».

وعاد نورى السعيد إلى بيروت يوم أول ديسمبر لمقابلة الجنرال غورو ومفاوضته.

وفى يوم ٤ منه صدر الأمر بتعيينه قائدا عسكريا على منطقة حاصبيا ـ راشيا ـ رياق المعلقة ـ بعلبك.

وفى مساء ٦ منه رجع من بيروت بعد ما اتفق مع الجنرال على إبقاء قوة فرنسوية صغيرة فى المعلقة ـ رياق ـ للإشراف على النقليات العسكرية، وعلى أن يعدلوا عن احتلال المناطق الأخرى.

وفى اليوم نفسه أرسل المعتمد الفرنسوى فى دمشق الكتاب الآتى إلى الحاكم العسكرى العام:

«لى الشرف أن أؤكد لكم حديثنا فى هذا اليوم وان ألخص طيه بالصورة الواضحة التصريحات الرسمية التى تفضل الجنرال غورو القائد العام فى الشرق بالتصريح بها إلى الجنرال نورى السعيد وإلىّ فيما يختص بإبدال الجيوش ويجرى الآن.

«إن انسحاب الجيوش الإنكليزية من بعض جهات سورية واستبدالها فى بعض نقط معينة بفصائل من الجيوش الفرنسوية إن هو ـ كما دلت على ذلك بصراحة برقية المسيو كلمنصو – التى تشرفت بتبليغكم إياها فى حينها[1] ـ إلا تدبير عسكرى محض ذو صفة

١ـ هذا نص البرقية التى أرسلها كلمنصو إلى بيروت فى أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩١٩ «يصل الجنرال غورو إلى سورية حوالى ٢٠ نوفمبر، وليس فى قرار المؤتمر الخاص بإبدال الجنود شىء من الإبهام والتعمية، ولا هو يدل على تجزئة سورية، وليس له صفة ما سوى أنه تدبير عسكرى وقتى لا يمس أبدا مسائل الانتداب والحدود التى يناط تحديدها بقرارات مؤتمر الصلح الذى يرى أنه لا يمكن فصلها عن التسوية العامة فى الآتى»
وقد قرر الجنرال غورو ما يلى لكيما يبقى لهذا التدبير العسكرى الصفة التى اختصوه بها.

١ـ إن إدارة الجهات فى المنطقة الشرقية التى يحق لجيوش الاحتلال الفرنسوية ان تحل فيها محل جيوش الاحتلال الإنكليزية تبقى بجملتها – وكما فى الماضى مناطة بحكومة دمشق الغربية.

٢ـ إن الحامية العربية فى بعلبك تكون مؤيدة فى هيئتها الحالية جنبا إلى جنب مع الحامية الفرنسوية، وستبقى فصيلة عربية أيضا فى رياق لادارة المواصلات بين دمشق والحاميات العربية الموجودة فى الجهات التى يمتد فيها خط رياق ـ حلب الحديدى. وفى كل مكان يبقى موظفو الإدارة العربية قادرين على استعمال القوى اللازمة من الشرطة والدرك.

٣ـ تبقى الحكومة العربية مسؤولة عن النظام والأمن فى كل مساحة أراضى المنطقة الشرقية بحسب حدودها الحالية، والجيوش الفرنسوية ـ كما كانت الجيوش الانلكيزية التى حلت محلها ـ لا تتدخل إذا حصلت ضرورة إلا لمساعدة الحكومة العربية ويطلب منها.

وبالطبع فأنا مستعد كل الاستعداد لتقديم كل التفصيلات التى ترغبونها وأرجوا قبول فائق احترامى».

موقتة. وقد ارتأت هذا التدبير الحكومتان الفرنسوية والإنكليزية، وحاز موافقة القيادة العليا من قبل المؤتمر، وأن هذا التدبير لايدل قط على تجزئة البلاد السورية، ولا يبت بوجه ما فى مسائل الحدود والانتداب التى تبقى معلقة بمؤتمر الصلح.

اتفاق الأمير وكلمنصو على تأجيل الاحتلال

وبينما كانت المفاوضات دائرة على هذا المنوال بين رجال الحكومتين فى دمشق وبيروت للاتفاق على حل للمشكلة الجديدة، كان الأمير فيصل يفاوض المسيو كلمنصو فى باريس ويقيم له الدليل على أن احتلال هذه المناطق يزعج العرب ويؤلمهم، وقد يؤدى إلى إحداث اضطرابات دموية من المصلحة اتقاؤها واجتنابها. وقد تشدد الأمير فى هذه القضية تشدداً زائدا كما أصدر الأوامر إلى دمشق بمقاومة الفرنسويين بالقوة إذا احتاج الحال وصدهم، وأرسل بذلك كتابا خاصا من باريس إلى والده فى مكة ينبئه بما تم، ويقول له إنه مصمم على النضال، ولن يسمح للفرنسويين باحتلال هذه المناطق أبدا.

وبعد أخذ ورد طويلين عقد اتفاق بين الأمير وكلمنصو يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ نص على إبقاء الحالة فى هذه الاقضية على حالها، وأن يكتفى بقبول ضابط فرنسوى فى بعلبك وآخر فى راشيا، وبذلك انفرجت الازمة وانتهى الخلاف.

وعلى أثر هذا الاتفاق وإبلاغه إلى الجنرال غورو رسميا للعمل به أذاع الحاكم العسكرى البلاغ الرسمى الآتى فى دمشق يوم ٨ ديسمبر:

تصحيحا لما أذعناه قبل أمس عن احتلال بعض النقط من المنطقة الشرقية نعلن أنه قد تم الاتفاق مع الجنرال غورو باسم الحكومة الفرنسوية على صرف النظر عن احتلال البقاع وبعلبك وراشيا وحاصبيا، إزالة لسوء التفاهم مع الحكومة العربية ريثما يصدر مؤتمر الصلح قراره النهائى بشأن سورية وهذه صورة الاتفاق:

١ ـ يكتفى بارسال ضابطى ارتباط أحدهما لبعلبك والثانى لراشيا

٢ ـ يرسل رهط فرنسوى واحد إلى رياق للمحافظة على العتاد الذى ابتاعه الفرنسويين من الإنكليز وأدوات السكة الحديدية والمستشفى، ولأجل ذلك يترك لهم المعسكر الذى كان للإنكليز.

٣ ـ يبقى الدرك العربى فى المعلقة، وتبقى هيئة الحكومة على حالها.

وفى يوم ١٠ منه أذاع البلاغ الآتى:

لايخفى على أبناء الوطن أن الاتفاق الذى جرى بين المستر لويد جورج والمسيو كلمنصو تم قبل وصول الأمير فيصل إلى باريس وأنه لم يقبله، ولما كان الاتفاق المذكور عسكريا محضا لا تعلق له بمستقبل البلاد الذى بقى موكولا إلى مؤتر الصلح فقد اقترح سموه اقتراحات لأجل تخفيف مضار هذا الاتفاق، منها تأليف لجنة مختلطة من ضابط عربى وضابط إنكليزى وضابط فرنسوى لحل ما يقع بين المناطق من الاختلافات التى يتضرر بسببها الشعب السورى، من حيث هو شعب واحد يسكن بلادا واحدة، وقد وردت اليوم برقية من سموه تفيد قبول حكومتى بريطانيا وفرنسا تأليف هذه اللجنة وعدول الحكومة الفرنسوية عن الحلول محل الجنود البريطانية فى البقاع. على أن تنسحب الجنود العربيةالنظامية أيضا من تلك المنطقة».

أول معركة فى بعلبك

وعملا بشروط الأتفاق أرسل الفرنسويون ضابط ارتباط إلى بعلبك ومعه قوة من الجند فاجتمع الناس على مدخل المدينة، ومنعوه من دخوها وصادروا أمتعته الخاصة. فعاد إلى بيروت وأطلع رؤساءه على ما وقع فصدر الأمر إلى قوة فرنسوية بقيادة الجنرال دى لاموط بالزحف على بعلبك فوصلت طلائعها صباح الخميس ١٨ ديسمبر إلى قرية الطيبة الواقعة على ٨ كيلو مترات من بعلبك لناحية الغرب فباغتها الوطنيون الكامنون هنالك وأصلوها نارا حامية فوقفت وضربتهم بمدافعها، فشغلوها من الصباح حتى العصر ثم انسحبوا لنفاد عتادهم فتقدمت حتى ضواحى بعلبك وعسكرت هنالك ودخلتها صباح الجمعة ١٩ منه وكانت تتألف كما يأتى:

١٥٠٠ جندى مشاة و٢٠٠ فرسان و٤ مدافع جبل و٣٠ رشاشا. واعترف الفرنسويون بخسارة ٩ قتلى و١٥ جريحا.

ولما وصلت هذه الاخبار إلى دمشق احتجت الحكومة السورية على ما وقع وغادر دمشق يوم ٢٠ منه المعتمد الفرنسوى مع معاون الحاكم العسكرى إلى بعلبك للإشراف على الحالة ثم عادا يوم ٢٣ بعد ما وصل الأمن. وفى صباح ٢٦ منه غادر دمشق إلى بعلبك أيضا

اللواء نوري السعيد والمعتمد الفرنسوي ومدير الداخلية في حكومة دمشق على أثر ورود أخبار جديدة بوقوع قتال بين الثوار والفرنسويين في قرية دار الواسعة، وقد كررت الحكومة العربية الاحتجاج، وتمكن مدير الداخلية في خلال هذه الزيارة من استرداد أمتعة ضابط الارتباط المنهوبة وقبض على المعتدين. وقد دمر الفرنسويون أثناء حركاتهم العسكرية في منطقة بعلبك قرى ايعات ودار الواسعة وبوادي.

وفي يوم ٧ يناير سنة ١٩٢٠ جلت القوى العسكرية الفرنسوية عن بعلبك، واستقر فيها ضابط الارتباط.

١٠

تنظيم الدفاع الوطنى وإقرار الخدمة الالزامية

نبهت هذه الحوادث رجال الشام إلى ما يراد بهم. وأفهمتهم أنه لابد لهم من قوة كبيرة يعتمدون عليها فى نضالهم العتيد مع حلفائهم الفرنسويين والإنكليز وكل منهم يطمع فى احتلال جزء من أجزاء بلادهم، فاتجهت أنظارهم إلى إنشاء جيش قوى منظم، ولما كان نظام التطوع الاختيارى المتبع فى تجنيد المجندين لا يفى بالحاجة فقد درست الحكومة مشروعا جديدا يقضى بالأخذ بنظام التجنيد الإجبارى، ووضعت لذلك مشروع قانون أقره الأمير زيد يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٩ وهو يقضى بتجنيد من أكمل العشرين إلى الأربعين، وجعل مدة الخدمة ستة أشهر والبدل النقدى ٣٠ جنيها ويستثنى وحيد والديه، وجاء فى مقدمته أنه تدبير خاص اتخذ لتوطيد الامن.

ورغم هذا التدبير فقد أهمل الجيش اهمالا شائنا، ولم يعن العناية اللازمة بتجديد سلاحه وبالحصول على الذخائر الكافية له، مما سبب كارثة ميسلون وأودى بتلك الحكومة مما سنفصله تفصيلا .

إنشاء لجنة الدفاع الوطنى الأهلية

والعوامل التى حفزت الحكومة إلى سن قانون الخدمة الإلزامية وإلى السعى لإنشاء جيش نظامى قوى، هى نفس العوامل التى حفزت كثيرين من الغيورين فى دمشق إلى الاجتماع وإنشاء هذه اللجنة لتنظم الدفاع الوطنى وتساعد الحكومة فى مهمتها، وتجمع كلمة الأمة حول هذه الغاية المقدسة.

وتفصيل ما حدث هو أن وجهاء الأحياء فى دمشق ـ وقد نبههم ما دار من نضال بين الحكومة العربية والانكليز والفرنسويين حول قضية جلاء الجنود، إلى الخطر المحدق ببلادهم. فأخذ رجال كل حى يجتمعون فى حيهم ويفكرون فى الوسائل والأساليب التى يجب التوسل بها لصيانة استقلالهم والمحافظة عليه. واتصل بعض رجال الأحياء ببعض، واتفقوا على أن ينتدب كل حى أربعة من الرجال المخلصين الذين يعتمد عليهم ويثق بهم فيجتمعون بزملائهم ممثلى الأحياء الأخرى، ويقررون ما يرونه لازما للدفاع عن الوطن، وكان ذلك فى أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩١٩.

· وكان عدد ممثلى الأحياء فى ابتداء أمرهم ٤٨ ممثلا، وكانوا يجتمعون كل أمسية فى حى من الأحياء طبقا لقرار يتخذونه من قبل، وبهذه الطريقة يتصلون بسكان الأحياء على اختلافهم، ويقفون على رغائب الأمة التى وثقت بهم وأنابتهم، فكانت اجتماعاتهم عبارة عن برلمان شعبى محلى متنقل يجتمع كل يوم فى حى من الأحياء. بدلا من اجتماعه فى دار خاصة ويعقد جلسته فى منزل وجيه الحى أو أحد كبرائه فيلتف الناس حوله وتلقى الخطب والقصائد الحماسية، فتنتشر الدعاية ويتسع نطاق الحركة.

وأخذ عدد أعضاء اللجنة يزداد تدريجا حتى بلغ المائتين والخمسين فى شهر ديسمبر. ومما قررته فى جلسة عقدتها يوم ١٨ نوفمبر فى منزل عبد الرحمن اليوسف تأليف لجان فرعية لجمع المال اللازم للحركة الوطنية بنسبة اثنين فى المائة من ثروة كل فرة من أفراد الأمة ومن شاء أن يزيد فله الفضل.

وانضمت إليها الأحزاب السياسية، وانتدب كل حزب ممثلا له يحضر جلساتها ويشترك فى أعمالها. كما انضم إليها كثيرون من أعضاء المؤتمر السورى ووجهاء المدن الأخرى وأعيانها وذوى الرأى فيها، وأنشأوا لها الفروع فى مدنهم. فلم تخل مدينة كبيرة تقريبا من فرع لها.

وقد امتاز الاجتماع الذى عقدته يوم ٣ ديسمبر فى النادى التجارى بدمشق باشتراك بطريرك الروم الأرثوذكس ومطران السريان والمفتى والعلماء. وبعد المناقشة والأخذ والرد تقرر باتفاق الآراء لزوم الدفاع عن الوطن، ودعوة كل طائفة من الطوائف الوطنية بواسطة رئيسها الروحى وزعمائها للاشتراك فى الدفاع.

وقررت اللجنة فى اجتماع آخر تأليف كتيبة من المتطوعين يبلغ عددها الألف تتولى تجهيزهم وإرسالهم إلى ميدان القتال. كما قررت إرسال وفود إلى البلاد السورية للاتفاق على توحيد الخطة.

وأعلن الشيخ كامل القصاب فى جلسة عقدتها اللجنة يوم ١٠ منه أنه قابل رجال الحكومة، وأنهم على وفاق مع الشعب فما يريده يريدونه. وقال إن الأمة قررت الدفاع وأن بعض رجال حى الميدان تطوع فعلا وسيضربون خيامهم غدا فى المزة، وكذلك سيفعل أهل الشاغور، وأن الأحياء الواردة من بعلبك والبقاع تقول إن أهلهما على استعداد للانضمام إلى الحركة الوطنية.

وفى جلسة أول فبراير تم انتخاب اللجنة الإدارية التى تتولى العمل باسم اللجنة وهذه أسماء أعضائها:

سامى مردم بك، ونسيب حمزة، والشيخ كامل القصاب، والشيخ عبد القادر الخطيب، وعونى القضمانى، والشيخ عيد الحلبى، وأسعد المالكى، وشكرى الطباع، وعبد القادر سكر، وجميل مردم بك، وأسعد المهاينى، ومحمد النحاس واتخذت لها ناديا خاصا بها. ولقد نالت هذه اللجنة مقاما كبيرا فى عيون الشعب السورى، ولا ريب فى أنها لو نظمت التنظيم اللازم لأفادت البلاد فوائد لا يستهان بها، ولأدت للحركة الوطنية أجل الخدم. سيما بعد أن انتشرت فروعها، وأصحبت موضع ثقة الناس واعتمادهم.

اعتقال الهاشمى وإبعاده إلى الرملة

ومما نذكره أيضا بهذه المناسبة وله صلة كبيرة بقضية الدفاع ما حدث يوم السبت ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٩ فقد دعى يس باشا الهاشمى رئيس ديوان الشورى الحربى يومئذ (وزير الدفاع) إلى تناول الشاى فى دار القائد العسكرى البريطانى، وكان البريطانيون على أهبة الجلاء عن دمشق فلما وصل إلى الدار وجد سيارة مسلحة مع قوة عسكرية بانتظاره فأمر بالركوب فركب، وسارت به إلى الرملة فى فلسطين فاعتقل فيها.

وما ذاع هذا الحادث فى دمشق حتى أقفلت أسواقها فى الغداة، وقام الشعب بمظاهرة كبيرة، وأبلغ معتمدى الدول الاحتجاج الآتى:

«ان الشعب السورى عموما فى عاصمة البلاد السورية يحتج بإقفال جميع أسواق المدينة وحوانيتها، وبالاشتراك فى مظاهرة عمومية عظمى على أخذ يس باشا الهاشمى فجأة، وبلا علم من رئيس الحكومة، وخلافا للأصول، وإرساله إلى حيفا، ويكرر إعلان ارادته فى طلب وحدة البلاد السورية وتمام استقلالها، فنرجو رفع هذا الاحتجاج إلى حكومتكم واقبلوا فائق الاحترام.

وصدرت الصحف المحلية فى الغداة وهى مطوقة بإطار أسود وفى وسطها نص الاحتجاج. ولقد ظل الهاشمى فى الاعتقال خمسة شهور و٢٣ يوما ثم أطلق سراحه فى شهر مايو. فقصد مصر ومنها عاد إلى دمشق مساء ١٦ منه فاستقبل استقبالا شائقا.

وأقام له النادى العربى مساء ٢٥ مايو حفلة خطب فى ختامها ومما قاله:

«كانت الحالة حرجة يوم تركت دمشق، وقد وجدتها أحرج يوم عودتى إليها. فعلمت

أشياء كثيرة خلال هذه المدة - أي في ظرف ستة أشهر. ومن جملتها أننا نقول ونقول ثم نقول ثم ننسى. نتكلم في كل محل ثم نتكلم عن كل شيء ونطلب الكلام في كل شيء وفي كل أمر ولكننا لا نسأل عن العمل الحقيقي ولا نعمل العمل الحقيقي.

«إذا أردتم أن تقوموا بالواجب فكمموا أفواهكم. وإذا أردتم الدفاع عن أوطانكم والحرية الكاملة لأيديكم فاتركوا الكلام. إن السبب فيما أصابني هو لساني، ولكن الحب الحقيقي الموجود في قلوب الأمة خفف المصاب، ومكنها من انقاذي، وأعادني في الزمن الذي تمكنني فيه خدمة مصلحتها».

والأقوال مختلفة في الأسباب التي أدت إلى اعتقال الهاشمي، ومع أنه صرح بأن السبب في إصابته هو لسانه إلا أن معظم الباحثين يرون أن السبب الحقيقي هو اهتمامه يوم كان على رأس ديوان الشورى العسكري بالقضية العراقية، مما لم يخف على الانكليز فاعتقلوه وأقصوه.

وهنالك رواية أخرى مؤداها أن السلطات الفرنسوية في بيروت هي التي طلبت من الجنرال اللنبي اعتقاله، فقد شكا الفرنسويون من تدابيره العسكرية ومن وضعه الخطط لغزو المنطقة الغربية، ويقال إنهم استطاعوا الحصول على هذه الخطط بطريقة سرية فدعاه الجنرال على الأثر فسافر إلى مصر وقابله يوم ٢٤ سبتمبر فعاتبه عتابا شديدا على خطته العدائية إزاء الفرنسويين، وطلب إليه الكف عن هذه الأعمال وإهمال شأن التجنيد، وأجاز له العودة إلى دمشق. وعاد الفرنسويون إلى الشكاية منه، ولا سيما بعد سفر الأمير إلى أوروبا، وظهور العصابات على حدود المنطقة الغربية، وتقدم رمضان شلاش من الرقة واحتلاله دير الزور. فرأى الانكليز أن يعتقلوه لشل حركته فكان لهم ما أرادوه.

١١

العصابات فى المنطقة الغربية

١. حادث بعلبك

كانت الحالة هادئة مستقرة فى سورة كلها حتى شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ أى حتى عقد الاتفاق العسكرى الخاص بجلاء الجنود الإنكليزية عن البلاد السورية وإحلال الجنود الفرنسوية محلها، مما فسره بعضهم بأنه تطبيق مقنع لمعاهدة سايكس - بيكو، وقد رفضها السوريون فى كل موقف، وأعلنوا أنهم لايقرونها ولا يرضون بها.

نعم: إن الأمر ما كان يخلو من اضطرابات وفتن موضعية نشأت عن استبداد الموظفين الفرنسويين وسوء تصرفاتهم، وانقيادهم فى معظم الأحيان لبعض الأنصار من الذين أشربوا التعصب فى قلوبهم، وظنوا أن زمن الانتقام قد أزف فأغروا بخصومهم الموظفين الفرنسويين، ومعظمهم ممن نشأ فى المستعمرات الإفريقية النائية وجاء سورية وهو يعتقد أن ما كان يجوز له فعله هنالك يجوز له فعله هنا، فنفر ذلك الناس من الفرنسويين، وأوجد ذلك الجفاء الذى انقلب إلى عداء.

وتحول الحال حينما حاول الفرنسويون تطبيق الاتفاق الجديد والحلول محل الإنكليز فى بعلبك والبقاع ورياق (من مراكز النقل الخطيرة فى سورية الوسطى ومحل اجتماع قطارات السكة الحديد القادمة من حمص ومن دمشق ومن بيروت) فقد نهض السكان لمقاومتهم وألفوا العصابات لصدهم. لانهم أدركوا أن هذا الاحتلال – وإن صبغوه بالصبغة الموقتة في الظاهر – ووصفوه بأنه تدبير إدارى لا يؤثر فى قرار مؤتمر الصلح النهائى فهو مؤبد ودائم. سيما وهو تطبيق لأحكام معاهدة بحت أصوات الفرنسويين وهم يناشدون الإنكليز صباح مساء بأن يطبقوها وينفذوها بإخلاص. فدار قتال بين الفرنسويين والسكان وحدثت اضطرابات مزعجة. كان أولها حادث بعلبك وقد فصلناه من قبل.

ولابد لنا من القول أن الفرنسويين حاولوا استغلال هذا الحادث من الوجهة المذهبية. فأشاعوا أن المسلمين فى البقاع وبعلبك هاجموا القرى المسيحية وأحرقوها واعتدوا على سكانها. فانبرى زعماء الثورة وأصدروا البيان الآتى:

«نحن زعماء بلاد بعلبك القائمين بتحرير بلادنا والمطالبة باستقلالها التام ورفض كل

حماية أجنبية نعلن كل فرد منكم بأنكم إخواننا فى الوطنية والجنسية. لكم ما لنا وعليكم ما علينا. فلا تغركم ترهات الأجانب، ولا سيما حزب الاستعمار الفرنسوى الساعى لبذر بذور الفساد بيننا وبينكم ليتدخل بهذه الوسيلة فى شؤون وطننا العزيز. عاملا على تمزيق شمله باسم الدين مع أنه لا دين له.

«فنحن الموقعين أدناه نؤمنكم على أرواحكم وأموالكم. كما أننا نعلن أن كل فرد من أى طائفة كان إذا تعرض لأحد منكم فكلنا أعداؤه الألداء وخصومه الأشداء، ودمه هدر لنا والسلام على من اتبع الهدى».

٢ـ حادث الحولة

وقع هذا الحادث فى أواسط شهر اكتوبر - أي قبيل حادث بعلبك بأيام، وإنما قدمنا الكلام على ذاك لأهميته، ولأن السياق اقتضى تقديمه. وخلاصته أن نزاعا حدث بين طائفة من عربان الحولة التابعين للمنطقة الغربية وأربعة من رجال الدرك اللبنانى. فاعتدى هؤلاء على العربان فضربهم العربان وهزموهم ففروا تاركين أسلحتهم وخيولهم فسيرت حكومة مرجعيون على الأثر ١٥ دركيا فنازلهم العرب وهزموهم بعد ما جرحوا ثلاثة منهم.

وأعدت السلطة الفرنسوية على الأثر حملة مؤلفة من ١٥٠ خيالا مسلحين برشاشتين فسارت حتى قرية الخصاص وهى من قرى الأمير محمود الفاعور- أمير عرب الفضل الضاربين فى الجولان من حوران فأطلقت النار بلا إنذار وقتلت امرأتين وولدا واقترفت أنواع المنكرات ثم انسحبت تحت جنح الظلام عائدة إلى مرجعيون.

وشاع الخبر فى قضاء القنيطرة فهاج الناس وتجمهروا للزحف على مرجعيون، فتدخلت الحكومة السورية، وسكنت الهياج، وتألفت بطلبها لجنة قوامها يوسف العظمة المعتمد العربى ببيروت، والأمير عادل أرسلان عن حكومة دمشق والميجور باركر والكابتن سمرست عن حكومة انكلترا والأمير محمود الفاعور وأحمد مريود عن العرب وحاكم صيدا العسكرى مع ضابط آخر من الفرنسويين، ومهمة هذه اللجنة تقدير الخسارة والتعويض على المنكوبين.

ووصل المندوبون الإنكليز والعرب إلى مكان الحادث ولم يصل الفرنسويون فحال ذلك دون عمل أى عمل - كما كان من جملة الأسباب التى ساعدت على اتساع نطاق الاضطرابات فى تلك المقاطعة فشملت قضاء مرجعيون وجبل عامل فأحرقت قرى القليعة

وإبل السقى وانتشرت العصابات فى كل مكان، وأقلقت الفرنسويين وأزعجتهم.

ولما استفحل الخطب وسادت الفرضى جهز الفرنسويون حملة عسكرية كبيرة بقيادة الجنرال دى لاموط زحفت على قرى هونين والخالصة وكفر كلا من قضاء مرجعيون وضربتها بالمدافع وحرقتها واقتادت ٣٠ من رجالها و١٥ من نسائها إلى الجديدة.

وأعاد الجند الكرة فضرب يوم ٢٦ سبتمبر قرية الغجر من قرى قضاء القنيطرة فى داخل حدود المنطقة الشرقية بالمدافع. خلافا لكل اتفاق، وبعد ما دمروها صبوا البترول على أنقاض البيوت فحرقوها ثم ضربوا فى اليوم الثانى قرى أخرى للشيعة هنالك، ونهبوا ٤٠٠ رأس من البقر و٢٠٠ جاموسة وماشية وكل ما عثروا عليه من أثاث.

وهاجم ألف جندى فرنسوى يوم الاثنين ٢٩ ديسمبر قرية الطيبة مقر آل الأسعد. وبعد ما أحاطوا بالقرية تقدم بعضهم إلى دار بنى الأسعد فكسروا أبوابها ونهبوها ولم يتركوا فيها شيئا من مؤن ورياش وأثاث. وحينما انتهوا حرقوها واتجهوا إلى منزل محمد السهيلى فنهبوه.

ودارت المعركة بين الثوار والفرنسويين حينما حمل هؤلاء يوم ٤ يناير سنة ١٩٢٠ على عمرة الأمير محمود انتهت بفوز الأولين. فتقدموا حتى الجديدة وخسر الفرنسويون فى هذه المعارك ٧٠ قتيلا و١٧ أسيرا و١٧ رشاشا ومدفعين جبليين وقد جىء بأسراهم إلى دمشق وأرسلوا إلى بيروت.

وهذا نص البلاغ الرسمى الذى نشرته السلطة فى بيروت عن هذه الحوادث قال:

«فى أواخر شهر ديسمبر الماضى تكررت حوادث النهب والسلب فى سنجق صيدا فاضطرت الحكومة إلى إرسال فرقة لتأديب العابثين بالأمن فتمكنت من توطيده فى ضواحى الغجر والخيام والطيبة وكفر حيلا.

«وبعد أن اطمأن الأهالى وأمنوا شر العصابات عادت فى ٥ الجارى إلى السلب والنهب فعادت الفرقة إلى جهة الخصاص، وكانت تطارد الثوار وتقر الأمن فى تلك الربوع، وفى خلال دورتها جرت لها مناوشة مع بعض العصابات التى كانت تحاول أن تقطع خط الرجعة عليها بينما كانت عصابات أخرى ترتكب السلب والنهب فى مرجعيون.

«ومما يذكر أن هذه العصابات مسلحة بالبنادق الحربية والرشاشات وقد ألحقت الفرقة بها خسائر فادحة وضربتها ضربات موجعة. فكان ذلك لهم خير أمثولة ولغيرهم خير عبرة وعاد الأمن إلى نصابه فى تلك الضواحى.

«ويسوغنا أن نقول إن الفرقة الفرنسوية أصيبت بخسائر لا تتجاوز الخمسين بين قتيل وجريح وفقيد، وأنها اضطرت إلى ترك ثلا ث رشاشات فى مستنقع الليطانى».

٣ـ حركة تل كلخ

كان بدء هذه الحركة فى أواسط شهر نوفمبر سنة ١٩١٩ فقد تلقى الحاكم العسكرى الفرنسوى لتل كلخ أمرا من بيروت برفع العلم الفرنسوى على دار الحكومة يوم وصول الجنرال غورو، وبارسال وفد من الأعيان للاشتراك فى استقباله فأبى هؤلاء السفر، كما أزعجهم رفع العلم. وما كان الفرنسويون يرفعون علمهم حتى ذاك إليوم، فتجمهروا خارج البلدة بعدما أرسلوا عائلاتهم إلى أماكن بعيدة وأرسلوا يطلبون من الحاكم إنزال العلم فأجابهم بأن يتفرقوا ويخضعوا، والا تضرب منازلهم وتحرق فكتبوا إليه الكتاب الآتى:

بسم الله الرحمن الرحيم

ليلة ١٣ ديسمبر سنة ١٩١٩

من الدفاع الوطنى إلى جناب المعتمد الفرنسوى فى تل كلخ

«قبلنا دخولكم لكونكم حلفاءنا واعتمادا على وعودكم الكثيرة بشأن منحنا الاستقلال وقد بينتم حين دخولكم البلاد أن وظيفتكم هى موقتة، والبت القطعى فى مصير البلاد عائد إلى مؤتمر الصلح، وبرهنتم لنا على هذه النية بعدم رفع العلم الفرنسوى. ولكن بمزيد الأسف نراكم الآن قد دستم تلك العهود والمواعيد، ورفعتم فى تل كلخ العلم الفرنسوى كأنها أُصبحت أرضا فرنسوية. فطالما نقضتم العهد أصبحنا مضطرين للدفاع عن وطننا المحبوب حتى الموت. وعليه أتينا بهذا الإنذار لكى تنفذ المواد الآتية:

١ـ انزال العلم الفرنسوى عن تل كلخ.

٢ـ تشكيل حكومة وطنية من أهل البلاد فى تل كلخ.

٣ـ المخابرة مع مقاماتكم العإلية بشأن تصديق استقلال البلاد العربية وعدم تجزئتها.

هذه هى المواد التى نطلب تنفيذها الآن ريثما يبت المؤتمر قراره، وإذا لم تنفذ تكون المسئولية عائدة عليكم واقبلوا احترامنا»

سعد الدين الجندلى   *أحمد البرازى*   *حسن إبراهيم الدندشى*

فجاءهم الجواب من القاضى سعد الدين البغدادى بأن العلم رفع على أراضى المنطقة الغربية بأمر القائد العام، وأن الحاكم ليس سوى مأمور بالمحافظة عليه، ولا ينزعه حتى تسبيل آخر نقطة من دمه. فقرر الدفا ع الوطنى على الأثر طرد الفرنسويين وإنشاء حكومة وطنية استقلالية.

وبدىء النضال يوم الخميس ١٢ ديسمبر فقد التقى اثنان من الدنادشة قرب جسر العريضة (بين طرابلس ـ تل كلخ) بضابطين فرنسويين معهما جندى من جنود الدرك الفرنسوى. فطلب هؤلاء منهما تسليم سلاحهما فأبيا . فأطلق أحد الضابطين النار من مسدسه ارهابا فقابلاهما بالمثل فقتل أحدهما على الفور وهو الكابتن كمان يوسكينه وجرح الثانى وهو الكابتن بيشون قائد الجند فى تل كلخ، ومات فى الطريق قبل وصوله إلى طرابلس وقتل الجندى.

وحاصر الثوار يوم السبت ١٨ منه دار الحكومة فى تل كلخ، وكانت محاطة بالجند والرشاشات، وهاجموا الجند المرابط فى المحطة فقتلوا ثلاثة منه، والتقى الثوار بقوة للفرنسويين كانت تحتطب فى وادى عين الورد فقتلوا ثمانية من رجالها وأخذوا بغالهم.

وقتلوا فى صباح الأحد ١٩ منه جنديين فرنسويين قرب المحطة.

وفى صباح الاثنين وصلت ٥ سيارات تحمل ٢٠٠ جندى و٨ عربات نقل ورشاشتين إلى قرب الخنادق الأمامية التى أنشأها الثوار للدفاع عن تل كلخ فتوقف الجند لازالة الحواجز فأصلاهم الثوار ناراً حامية فارتدوا إلى الوراء، وبدأوا القتال، ففتك الثوار بادىء بدء بضباطهم الأربعة، وامتدت المعركة أربع ساعات، وانتهت بتراجع الجند عند الساعة ٦ مساء، وفى الساعة ٣٠ و٧ وصلت قوة فرنسوية مؤلفة من ٥٠ خيالا بقيادة ضابط كان يسير منفردا فقتلوه.

وفى يوم الثلاثاء سير الفرنسويون ٣ أورط معها طيارتان وسبعة مدافع ميدان و٥٠ خيلا فبلغت مواقع الثوار عند الضحى، وابتدأ القتال بشدة. ولما أدرك قادة الجيش أن التغلب على هؤلاء غير مستطاع ارتدوا إلى الوراء، وحملوا حملة صادقة بجميع قواهم على الجناح الأيسر للثوار، وبعد قتال امتد ٣ ساعات ارتد هؤلاء إلى الوراء.

وفى يوم الأربعاء تقدمت القوة الفرنسوية فضربت قرية باروما بالمدافع فدمرتها، ونهبت جميع ما فيها من الأمتعة والأثاث والحبوب والخيل والماشية، وفى يوم الخميس أعدموا

المرحوم أحمد أغا الحسين بالرصاص بعد ما أمنوه، وبعد ما تناول طعام العشاء مع الحاكم.

وفي يوم السبت زحفت قوة لمهاجمة قرية بيت حسن. فقابلهم أهلها بالنار، وقتلوا ٢٠ منهم، فارتدوا إلى تل كلخ ليعودوا بقوة أكبر، فأغتنم أهل القرية الفرصة ونزحوا فجاءوا وأحرقوها.

وبعد حدوث ما حدث أرسل الكولونيل نيجر الحاكم الإداري للمنطقة الغربية شروط الأمان للدنادشة.

هذه الشروط تمنح للدنادشة الآتية أسماؤهم فقط حسب التفصيل:

«أسعد المحمد وولده فياض ٢٠٠٠ ليرة مع حصان وفرس، وحسن العلي وولده سامي ٢٠٠٠ ليرة وثلاثة أحصنة، محمد العلي وولده قاسم ٢٥٠ ليرة وفرس، ومثلها من حسين العلي وأولاده، سليمان الخالد ٧٥ ليرة وفرس، محمد الجاسم وأخواه ١٥٠٠ ليرة وثلاثة أحصنة، ودياب العثمان ٥٠٠ ليرة وحصان، ومحمد المحمود ٥٠٠ ليرة وفرس وعماد الدين ابراهيم وأخوه ٥٠٠ ليرة وفرسان ابراهيم عرنوس ١٥٠ ليرة وفرس، وعبد الكريم الفياض ٧٥٠ ليرة مع حصان، ومحمد ألكنج وولده خالد ٢٥٠ ليرة وفرس، وكاظم ٢٠ ليرة، ومثله أسعد المحمد، وعمر الإبراهيم وولده المحمد ٥٠٠ ليرة وفرسان، وعبد اللطيف الرستم ١٥٠٠ ليرة وفرس، وأحمد الجزار ١٥٠ ليرة وفرس، ومثله خالد الجزار، ومحمد الجزار ١٠٠ ليرة وفرس، وخالد الإبراهيم ٣٠٠ ليرة وفرس، وأسعد الإبراهيم ٥٠ ليرة وفرس، وحسين الحميد ١٥٠ ليرة وفرس، وبدر الحميد ٥٠ ليرة وفرس، ومثله مصطفى عبد الحميد، والحاج حسين العبود ٥٠٠ ليرة وفرس، وعبد اللطيف الكنج ٢٠ ليرة، ومثله محمد الرستم، وعبد الفتاح العلي العبود ١٠٠ ليرة وفرس، وعبد الله العمر ٤٠ ليرة وفرس.

«إذا لم تنفذ هذه الشروط فجميع ممتلكات هؤلاء تصادر وتحجز ويطاردون، ويحاكم كل واحد منهم أمام الديوان العرفي حينما يقبض عليه. وعلاوة على هذه الغرامة المفروضة من خيول وأسلحة وأموال، فبيوت تل كلخ اللازمة لإسكان الجند وأعمال الحكومة والمصادرة والشدة العسكرية تواصل، وتزاد إلى النهاية ما دامت هذه الشروط لم تنفذ. أما الرؤساء الذين سببوا العصيان والثورة، وهم عبد الله الكنة وولده محمد أبو عبود وأسعد الفياض وأسعد الكنج ومصطفى عبد الله العمر وخالد الرستم وحسن الإبراهيم فعلاوة على أنهم لا ينالون الأمان قطعيا فخيراتهم وأموالهم تضبط وتصادر، ويكونون عرضة للمطاردة

ويحاكمون عرفيا، وكل من يقبل واحدا منهم فى بيته أو يساعدهم على الهرب يعاقب بالاعدام وضبط أمواله.

«وإذا جاء دباح الأحمد من نفسه خاضعا طائعا فقد يترك حيا، ولا يحاكم ولئن تأكد أن الفلاحين اشتركوا فى هذه الثورة فإن أملاكهم تعفى من المصادرة بشرط أن يجيبوا على كل ما يسألون عنه، ويطلب منهم من حكومة القضاء، وينزع سلاحهم كاملا حسب الشروط التى تعينها الحكومة»

ونحن فى غنى عن القول أن الدنادشة الأباة رفضوا قبول شرط واحد من هذه الشروط، وفضلوا الهجرة فقصدوا دمشق حيث استقبلوا بالحفاوة، وأقاموا فيها واشتركوا فى معظم الحركات الوطنية التى دارت، وظلوا يناضلون حتى سقوط تلك الحكومة.

٤ ـ مزرعة الشوف

بدأت حوادث الشوف (جبل لبنان) فى شهر أغسطس سنة ١٩١٩ وذلك أن بعض الشبان الدروز أطلق الرصاص على الأميرال مورنه قائد الأسطول الفرنسوى فى الشرق والمسيو جورج بيكو وحاشيتهما أثناء مرورهم فى أراضى بقعلين فى طريقهم إلى بيت الدين فجرح الأميرال جرحا خطيراً نقل على أثره إلى بيروت وشفى منه، ولم يصب زميله بيكو بأذى.

ومع أن الفرنسويين كتموا الحقيقة بالبلاغ الرسمى الذى أصدروه عن هذا الحادث فلا تنقض دعاياتهم ـ وكانوا ينادون بأن أهل لبنان يفدونهم بالأرواح ـ إلا أنهم سيروا قوات كبيرة للفتك بالقرى التى ظنوا أن لها صلة بمطلقى الرصاص، فنكلوا بسكانها تنكيلا، ففر الشبان إلى رؤوس الجبال وألفوا عصابات قوية جعلت دأبها شن الغارات وإزعاج السكان والحكومة.

ونثبت نص البلاغ الفرنسوى عن هذا الحادث وقد نشر فى مصر يوم ١٢ أغسطس سنة ١٩١٩ ليكون عبرة:

«كان الأميرال مورنه قائد الأسطول الفرنسوى فى بيروت يزور قرية قرب بيروت مع المسيو جورج بيكو. ففى أثناء المظاهرات التى أقيمت له أطلق الأهالى بندقياتهم حسب عاداتهم فأصيب الأميرال مورنه فى بطنه وجرح جرحا خطيرا، وأصيب ياوره ونقل إلى بيروت».

ولما ضاق الفرنسويون ذرعا بأعمال عصابة الشوف عمدوا إلى الحرق والقتل. فسيروا فى أوائل شهر نوفمبر قوة عسكرية كبيرة أحاطت بالحى الدرزى من مزرعة الشوف، وضربت حوله نطاقا، ثم بدأت المدافع باطلاق نيرانها على البيوت. كما بدأ الجند بقذف القنابل الملتهبة فأحرقوا ٢٥ منزلا، وقتلوا نحو ٤٠ قتيلا نساء ورجالا. فهام الدروز الباقون وعددهم لا يقل عن المائتين بين نساء ورجال وأطفال وشيوخ وعجزة على وجوههم فبلغوا دمشق مساء الخميس ٦ نوفمبر، فضجت حزنا وأسى لما أصابهم.

٥ ـ حوادث النصيرية

بدأت حوادث جبال النصيرية فى شهرمايو سنة ١٩١٩ أى أنها سبقت الحوادث الأخر. وخلاصتها أن خلافا نشأ بين النصيرية من سكان قضاء بانياس (المرقب) وبين الإسماعيلية من جيرانهم على أراض ومزارع، ولما كان هؤلاء أغنى وأثرى فقد استطاعوا استمالة الموظفين الفرنسويين واكتساب عطفهم، فنصروهم على النصيرية. فلجأ هؤلاء إلى السلاح للدفاع عن حقوقهم وممتلكاتهم فجرد الفرنسويون قوة للتنكيل بهم فدارت معارك بين الفريقين فى مكان يدعى الشيخ بدر.

وحالف النصر النصيرية فجرد الفرنسويون قوة أخرى بقيادة الكولونيل جان زحفت يوم ١٦ يونيو على الخوابى، وفى ٢١ منه تقدمت إلى المرقب، ولما توسطت واديا هنالك أطبق عليها الثوار وأصلوها ناراً حامية فارتدت على الفور تاركة قتلاها. فأرسل الفرنسويون نجدات جديدة إلى ميدان القتال من طرابلس الشام ومن بيروت على جناح السرعة. وطلب الجنرال هملان القائد العام للجيش الفرنسوى يومئذ من القيادة البريطانية إرسال حملة من حمص وأخرى من حماة على النصيرية فلم تقبل (راجع ص ٢٢٨ من كتاب كيف استقرت فرنسا فى سورية) فاضطر الفرنسويون أن يعملوا منفردين وأرسلوا ١٢٠٠ جندى لقتال الثوار.

وفى يوم أول أغسطس عقد فى دار المفوضية العليا فى بيروت مجلس عسكرى اشترك فيه المسيو جورج بيكو والسوزنتدان كوبان الحاكم الإدارى للمنطقة الغربية والجنرال هملان، والجنرال بولز رئيس أركان حرب المارشال اللنبى فقرر وجوب التفاهم مع النصيرية، وعدم الامعان فى النكاية. وانتدب الليوتنتان كولونيل نيجر وضابط إنكليزى آخر برتبته فسافرا إلى طرطوس وفاوضا الشيخ صالح العلى وأقنعوه بالخضوع فخضع وقدم

٥٠ بندقية على أن تعوض السلطة المنكوبين من أبناء طائفته، وعلى أن يفصل خليل إلياس قائمقام بانياس من عمله. لأن النصيرية كانوا يعدونه مسؤولا عما حدث ففصل وعين ابراهيم الكنج من زعماء النصيرية خلفا له، وبأن يعفى عن كل من احمد المحمود ومحمد اسماعيل وأسبر الزغبى والشيخ محمود ميهوب من زعماء النصيرية، وكانوا يقاسون الأمرين فى سجن اللاذقية.

ولم يطل الوقت حتى عاد الفرنسويون إلى مهاجمة الشيخ صالح وأتباعه فدارت معارك بينهما انتهت بارتداد الفرنسويين، وظلوا فى نضال معه حتى أول شهر يونيو سنة ١٩٢٢ فاستسلم إليهم وقد فصلنا أخباره فى المجلد الثالث فارجع إليها.

٦ـ حوادث دير الزور

وبينما كانت أخبار الاضطرابات والفتن فى داخل المنطقة الغربية وعلى حدودها تملأ الأسماع وتزعج الأفكار وتقيم الناس وتقعدهم. جاءت الأخبار من بادية الشام بان رمضان شلاش حاكم الرقة العسكرى جمع جموعا كبيرة من قبائل البادية وزحف بها يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩١٩ على دير الزور فاحتلها.

ولما عرف سمو الأمير فيصل بالحادثة وكان فى باريس أرسل البرقية الآتية إلى الأمير زيد فى دمشق لتنشر كبلاغ رسمى وهذا نصها:

«شاع أن جماعة بإمرة رمضان شلاش مع عجمى السعدون هاجمت دير الزور زاعمة أنها تعمل بموجب الأوامر التى تلقتها من الحكومة العربية. فنحن هنا نصرح بأن هذه الإهانة الموجهة ضد حليفتنا بريطانيا العظمى وضد مصلحة الأمة العربية هى مخالفة للاتفاق الموقت بين الحلفاء، والمعمول به من السنة الماضية وأن هذا الاعتداء هو بدون علم الحكومة العربية وموظفيها، ونصرح أيضا بأن المسؤولين عن هذا العمل وكل من يلحق بهم أو ينضم إليهم هم من الثوار وسيجازون جزء العصاة وقد اتخذت التدابير اللازمة لإعادة النظام وتوقيف المعتدين»

وأرسل فى الوقت نفسه برقية إلى المارشال ولسن رئيس أركان حرب الإمبراطورية الإنكليزية قال فيها: إنه لا علم للحكومة العربية بما جرى من احتلال دير الزور، وأنه يعتقد أنه يتم بفعل عجمى السعدون وجماعته خدمة للترك.

وخلاصة ما حدث هو أن الحكومة العربية أرسلت فى ختام الحرب قوة من الهجانة إلى دير الزور لاحتلاله على أثر جلاء الترك عنه وعينت متصرفا له فوصل فى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٩١٨ وأنشأ حكومة بمساعدة الشريف على الناصر.

واستاء بعض أهالى الدير من تصرفات تصرفها هذا، فوضعوا مضابط أرسلوها إلى حاكم «عانه» الإنكليزى يطلبون فيها وضع لوائهم تحت تصرف الإنكليز فأرسلها إلى بغداد ومنها أرسلت إلى لندن فصدر الأمر بالاحتلال فجهزت بغداد حملة من بضع دبابات وسيارات بقيادة الكابتن جامبير بلغت الدير فى أوائل شهر يناير سنة ١٩١٩ على حين غرة مطالبة بتسلمه فاستغرب المتصرف هذه المعاملة. ثم تم الاتفاق على أن يذهب الكل إلى حلب لمراجعة السلطات العليا، وهنالك تقرر أن تضم دير الزور إلى العراق ريثما يقرر مؤتمر الصلح مصير البلاد، فتسلم البريطانيون اللواء بكاملة ماعدا قضاء الرقة فقد ظل تابعا لسورية.

وفى شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ عين القائمقام رمضان شلاش حاكما عسكريا على الرقة فأخذ يعد المعدات، ويكاتب رؤساء العشائر تمهيداً لاحتلاله، واغتنم فرصة الهيجان والاضطراب وكانا يسودان البلاد فزحف على رأس ٥٠٠ خيال من العربان والأكراد ليلة ١١ ديسمبر لاحتلال الدير واتصل الخبر بالكابتن جامبير فتحصن مع قواه بالثكنة العسكرية. وفى الصباح دخل رمضان البلدة بمساعدة أهلها بدون مقاومة واستسلم الكابتن مع رجاله للثوار بعد مفاوضات، فاعتقلوهم بضعة أيام ثم أطلقوا سراحهم.

وأرسل رمضان بعد ذلك جموعه وإخوته فأجتلوا الميادين والبوكمال وعاد الانكليز فاستردوا هذه يوم ٢١ ديسمبر بدون مقاومة تذكر.

وحمل رمضان ثانية على البوكمال يوم ١١ يناير سنة ١٩٢٠ قاصدا احتلالها رغم ما أذيع يومئذ من اتخاذ نهر الخابور حداً فاصلا بين سورية والعراق.

ولما وصلت الأمور فى دير الزور إلى هذا الحد عينت حكومة دمشق مولود باشا مخلص حاكما عسكريا على دير الزور، وزودته بتعليمات تقضى بوجوب توطيد الأمن والاتفاق مع حاكم البوكمال الإنكليزى فوصل يوم ١٧ منه وقبض على ناصية الأمر.

وكاتب الأمير فيصل اللورد اللنبى لحل الخلاف. وتم الاتفاق بعد ذلك على ترك اللواء كله لسورية ولايزال فيها.

٧ـ حوادث إنطاكية والحمام

قبض الفرنسويون فى إنطاكية على بعض الأعيان لموالاتهم لإخوانهم فى المنطقة الشرقية وساموهم الذل والهوان، وحكموا على بعضهم بأن يكسروا الحجارة لتصليح الشوارع.

فثار الأهالى فى الحمام والعمق وهجموا عليمعسكر الفرنسويين فقلتوا ضابطا وجرحوا عامل الاسلكى، وانهزم الفرنسويون وتركوا ٢٥ قتيلا وثلاثين أسيرا فتوسط الضابط العربى على الحدود، وأنقذ الأسرى وأعادهم إلى الفرنسويين.

وبعد أيام جهز الفرنسويون حملة هاجمت العمق، وفتكت بأبنائه، وهذا نص بلاغ رسمى فرنسوى نشر يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٢٠ فى بيروت:

«علمنا أن قرية الحمام التى تبعد ثلاثين كيلو مترا عن حلب من جهة طريق الاسكندرونة قد هاجمتها عصابة من الأشقياء عددهم من ٥٠٠ ـ ٦٠٠ رجل غير أن قومسيرنا العإلى لم يفت إدراكه أمرهم، فاوفد وقت هجومهم ثلة من الجند لنجدة أهإلى تلك الناحية فأبلت فيهم البلاء الحسن. فقتلت منهم ٥٠ وأسرت ١٧ رجلا وفر الباقون»

٨ ـ حوادث الجزيرة الفراتية

واعتدى الفرنسويون فى الجزيرة الفراتية، وفى منطقة جرابلس وعلى طول السكة الحديد الممتدة من حلب حتى الحدود التركية على السكان وظلموهم فثاروا عليهم.

وتحالف العرب والكرد فى شهر يناير سنة ١٩٢٠ على طردهم، وبدأوا فعطلوا جسر الفرات فارسل الفرنسويون ٢٠٠ جندى مع أربع رشاشات ففتك بها الثوار فأرسلوا قوات أخرى من جرابلس فهزموها، واحتلوا ٥ محطات، وظهروا فى ٢٧ مكانا على طوال الخط.

الترك يعودون إلى النضال

وبينما كان النضال على أشده على حدود المنطقة الغربية وفى داخلها، والفرنسويون يعانون الأمرين فى مطاردة الثوار، ويستقدمون القوى والجند، ويبذلون الأموال ذات اليمين وذات الشمال استمالة للزعماء والشيوخ وابتياعا للذمم والضمائر، نشطت الحركة التركية

فى الشمال، وكان الفرنسويون يحتلون مقاطعة كيليكية (ولاية أطنه) وقد عينوا الكولونيل بريمون (رئيس البعثة الفرنسوية إلى الحجاز مفتشا إداريا لها) وجاءوا بالأرمن وكانوا يمنونهم بإنشاء دولة أرمنية فحشروهم فيها، وأطلقوا يدهم فى التنكيل بالترك فسالت الدماء أنهاراً، وهزم الفرنسويون وحوصرت حامياتهم فى مرعش وأورفه وعينتاب ومرسين وطرسوس، فاضطرب مركزهم وضعف نفوذهم. فأهل الشمال يقاتلونهم، وسكان المنطقة الغربية ينازلونهم، وإذا استثنينا البقعة المورانية فى جبل لبنان القديم فالبلاد السورية كلها من حوران حتى حلب فأطنه فبوزانتى كانت ثائرة عليهم. تعمل للخلاص منهم وكانوا يمعنون فى النكاية بأهلها. فيقتلون ويعذبون، ولا يعفون عن صغير، ولا يرحمون كبيرا، ولا يتوانون عن حرق كل قرية أو مدينة تثور عليهم، أو تحاول الوقوف فى وجههم. ولقد بعثت هذه الاعتبارات الجنرال غورو على إيفاد سكرتيره العام الكونت روبير دى كيه إلى باريس فى أواخر شهر ديسمبر سنة ١٩١٩ طالبا إمداده بنجدات عسكرية كبيرة. فعاد فى أواسط شهر فبراير بعد ما ضمن إرسال ٦٠ ألف جندى إلى سورية يؤيد ذلك ما فاه به المسيو ميلران رئيس الوزارة الفرنسوية يوم ١١ فبراير سنة ١٩٢٠ أمام لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب. وهو أن الضرورة تقضى بإرسال ٣٠ ألف جندى لاحتلال أراضى حلب ودمشق التى يحتلها البريطانيون فى آسيا.

١٢

عودة الأمير فيصل من أوروبا

وبيان عن مفاوضاته مع الفرنسويين

فى وسط هذا الجو المضطرب المملوء بالعواصف والغيوم غادر الأمير فيصل باريس يوم ٦ يناير سنة ١٩٢٠ قاصداً طولون، فركب البارجة الفرنسوية «والدك روسو» عائداً إلى بيروت.

وتردد الأمير فيصل كثيراً على وزارة الخارجية قبل سفره، واجتمع بالمسيو كلمنصو والمسيو برتلو المدير العام لوزارة الخارجية، وجرت مفاوضات رسمية لحل المشكلة السورية، وكان معظمها يدور بين رستم حيدر والمسيو برتلو. وكثيرا ما اشترك فيها الأمير بالذات وكانوا يرجعون إلى المسيو كلمنصو عند اختلافهم.

ولقد كانت مسألة تحديد سلطة المستشارين الفرنسويين، وتقرير عددهم، وتحديد الحدود بين سورية ولبنان فى مقدمة المسائل التى اشتد حولها الجدال، وكثر الأخذ والرد فقد طلب الفرنسويون بادىء بدء أن يكون لهم ستة مستشارين فى سورية (سورية الحاضرة ولا يدخل فيها لبنان) للعدلية والمالية والداخلية والمعارف والحربية والأشغال العامة. على أن تحدد سلطتهم فى المستقبل باتفاق خاص يعقد بين الحكومتين فأصر الأمير على أن يكونوا موظفين عاديين عند الحكومة السورية فأبوا وقالوا بتأجيل البت فى ذلك إلى مفاوضات أخرى.

واشتد الأخذ والرد أيضا حول مسألة الحدود بين سورية ولبنان فقد أصر الفرنسويون على توسيع حدود لبنان الكبير، فتبلغ طرابلس من جهة الشمال (الحدود الحاضرة) والزبدانى من جهة الشرق فعارض الأمير، وطلب استفتاء الأهالى الذين يراد إلحاقهم

بلبنان فى تقرير مصيرهم فرفض الفرنسويون ذلك. فطلب تحكيم مؤتمر الصلح فأبى الفرنسويون ثم عاد فقبلوا.

واقترح الأمير فى خلال هذه المفاوضات أن تكون بيروت عاصمة للحكومة السورية فى فصل الشتاء، فلم يوافق الفرنسويون.

وتغدى الأمير يوم ٥ يناير سنة ١٩٢٠ أى قبل سفره بيوم واحد فى وزارة الخارجية ودار الكلام على التمثيل الخارجى، فوافق الفرنسويون على أن تتمتع سورية بهذا الحق مشترطين أن يمثلوا سورية. حيث لا يكون لها ممثل خاص.

وقابل يوم سفره، ٦ منه، المسيو كلمنصو مقابلة طويلة. وكان معه رستم حيدر وعاد يحمل المشروع الذى انجلت المفاوضة عنه فحمله إلى سورية ووعد بعرضه على الشعب السورى ولم يوقعه ولم يتعهد بتنفيذه.

ومما يستحق الذكر ان الأمير كان يستشير رجال الوفد المرافق له فى المسائل التى يدور عليها البحث بينه وبين الفرنسويين ويأخذ آراءهم وكانت الأكثرية فى جانب الاتفاق مع فرنسا، وكان الدكتور أحمد قدرى هو المعارض الوحيد.

وفى يوم سفر الأمير من باريس - أى يوم ٦ يناير وصل الدكتور ثابت نعمان من مكة يحمل كتابا خاصا من الحسين إلى نجله يأمره فيه بالرجوع حالا إلى سورية، والمحافظة على المبدأ الذى قاموا لأجله، وعدم التساهل مع الفرنسويين. وتلقى الأمير قبل سفره بثلاثة أيام (أى فى ٣ يناير) برقية من الأمير زيد بدمشق تتضمن أن الفرنسويين احتلوا ثلاث قرى من أعمال حمص، ودخلوا بعلبك بثلاثة آلاف جندى، ويستعجله بالرجوع لاضطراب الحالة.

مشروع فيصل ـ كلمنصو

وهذا نص المشروع الذى حمله الأمير إلى سورية، ووعد بعرضه على الشعب وأخذ رأيه فيه:

«عطفاً على التصريح الافرنسى الإنكليزى فى ٩ نوفمبر سنة ١٩١٨ من جهة، واستناداً على المبادىء العامة لتحرير الشعوب والمعاونة الودية المعلنة من قبل مؤتمر الصلح من جهة أخرى، تؤكد حكومة الجمهورية الافرنسية اعترافها بحق الأهالى الناطقين باللغة العربية

والقاطنين فى الأراضى السورية من سائر المذاهب أن يتحدوا ليحكموا أنفسهم بأنفسهم بصفتهم أمة مستقلة.

يعترف صاحب السمو الملكى الأمير فيصل بأن مصلحة الأهلين السوريين الكبرى نظرا لاختلال الكيان الادارى الناشىء عن الاضطهاد التركى والخسائر اللاحقة البلاد أثناء الحرب - تتطلب تحقيق وحدتهم، وتنظيم كيان الأمة الادارى بالالتجاء إلى النصائح والمعونة التى ستسجل فى جمعية الأمم عندما تتألف هذه الجمعية بصورة عملية فهو باسم الأهالى السوريين يطلب هذه المهمة من فرنسا.

١

تتعهد الحكومة الافرنسية بأن تمنح معونتها لسورية، وأن تضمن استقلالها ضد كل تجاوز، ضمن الحدود التى سيعترف لها بها مؤتمر الصلح. وفى تعيين هذه الحدود ستبذل الحكومة الافرنسية جهدها لنيل جميع التعديلات الحقة من الوجهة الجنسية واللغوية والجغرافية.

٢

يتعهد صاحب السمو الملكى الأمير فيصل بأن يطلب من حكومة الجمهورية الافرنسية ومن هذه الحكومة وحدها المستشارين والمدربين والموظفين الفنيين اللازمين لتنظيم الإدارتين المدنية والعسكرية. وسيوضع هؤلاء المستشارون والفنيون تحت امرة الحكومة السورية، التى منها يتقبلون تعيينهم وقواهم التنفيذية التى ستحدد باتفاق مشترك بين الحكومتين بموجب عقد ينص على مدة مهمتهم والضمانات المتعلقة بها.

إن الحكومة الجمهورية وصاحب السمو الملكى الأمير فيصل متفقان على تطبيق نظام دستورى فى سورية. ضامن لحقوق الأهلين السياسية. ومثبت للحريات المكتسبة سابقا ومطابق لأمانيهم المتضمنة إنشاء حكومة مسؤولة أمام البرلمان.

وتوصلا للتنظيم المالى الذى هو القاعدة الأساسية لإدارة الدولة الجديدة يشترك المستشار المالى فى إعداد ميزانية النفقات والواردات، ويبلغ إجباريا جميع التعهدات

والنفقات لمختلف الدوائر، ويراقب حصة سورية من الديون العامة العثمانية، ويكلف بالمسائل المتعلقة بتطبيق الشروط المالية فى معاهدة الصلح مع تركيا فى سورية.

أما مستشار الأشغال العامة فتكون الخطوط الحديدية تحت إشرافه. ويحترم النظام الخاص المتعلق بسكة حديد الحجاز. وكل تصرف يغير السير الحر الاقتصادى للخطوط الموصلة إلى دمشق لمصلحة شخص ثالث يعد لاغيا، وكأنه لم يكن.

وعقب انعقاد الاتفاق الحاضر تمنح الحكومة الافرنسية معونتها لأجل تنظيم الدرك والشرطة والجيش.

يعترف صاحب السمو الملكى الأمير فيصل للحكومة الافرنسية بحق الأولوية التامة بالتعهدات والقروض اللازمة لخير البلاد. ما لم يتقدم وطنيون يطلبون هذه المشروعات لحسابهم. على أن لا تكون أسماؤهم معارة إلى رأس ماليين أجانب.

٣

ستمثل الدولة السورية فى باريس لدى الحكومة الافرنسية بمندوب سياسى مكلف بملاحظة المسائل الخارجية التى تهم الأمة السورية.

وتعهد الدولة المذكورة أيضا إلى ممثلى فرنسا السياسيين وقناصلها فى الخارج بتمثيل مصالح سورية الخارجية.

٤

يعترف صاحب السمو الملكى الأمير فيصل باستقلال وسلامة لبنان تحت الانتداب الافرنسى.

وستعين الحدود فى مؤتمر الصلح، ويؤخذ هذا الأمر بعين الاعتبار لإتمام حقوق ومصالح وأمانى الأهلين.

٥

اللغة العربية معترف بها كلغة رسمية لإدارة المدارس أما اللغة الافرنسية فتدرس بصورة إجبارية وممتازة.

٦

تكون دمشق العاصمة. ومحل إقامة رئيس الدولة. ويختار المفوض السامى له مقراً عادياً فى حلب. ليكون على مقربة من كيليكية. وهى منطقة الحدود، وتعد النقطة الطبيعية لجيوش الدفاع المتجمعة، وإذا احتاج الأمر إلى دعوة هذه الجيوش للداخل، فلا يكون ذلك إلا بطلب رئيس الدولة السورية وبالاتفاق مع المفوض السامى.

يبقى هذا الاتفاق الذى يعين المبادىء العامة مكتوما بين الفريقين حتى توقيع الاتفاق النهائى والفصل، ويوضع عند رجوع صاحب السمو الملكى إلى فرنسا ويعرض فى الوقت الموافق على مؤتمر الصلح.

نظم هذا الاتفاق فى نسختين يوم ٦ يناير سنة ١٩٢٠.

ولهذا الاتفاق ثلاث ملاحق: الأول خاص بالأقليات فى لبنان وقد تضمن «أن الأقليات تستفتى عند تحديد الحدود».

والثانى عن حوران (جبل الدروز) ويتضمن أنه يطبق فيه نظام استقلال نوعى فى داخل الدولة السورية.

والثالث عن بيروت واسكندرونة وقد تقرر أن تكونا مدينتين حرتين.

الأمير فى دمشق

وصل الأمير إلى بيروت يوم ١٣ يناير بالبارجة الفرنسوية «والدك روسو» فاستقبلته السلطة العسكرية الفرنسوية استقبالاً فخماً، وحياه جنرال دى لاموط باسم الجنرال غورو، فسار فى موكب حافل إلى دار المعتمد العربى، وزار فى إليوم نفسه الجنرال غورو فرد له الزيارة فى محل نزوله. وشهد فى المساء حفلة فى البارك (ميدان سباق الخيل) حاول الجنرال غورو أن يتقدم عليه فيها، ويسير أمامه، مما أثار انتقاد الحاضرين وقد استغل

خصوم الاتفاق مع فرنسا تصرف الجنرال المخالف لآداب الضيافة وللمجاملة فقالوا للأمير انهم يعاملونك هذه المعاملة، وأنت لم تتفق معهم. فكيف يكون شأنك معهم يوم الاتفاق ويدخلون البلاد ويقبضون على زمام الأمور.

وجاءت إلى بيروت وفود من مختلف البلاد السورية للحفاوة بالأمير فاستقبلهم وحادثهم وقال لهم إنه رأى أن مصلحة البلاد تقضى بالاتفاق مع فرنسا فعقد معها اتفاقا وقتيا يريد أن يستشير الأمة قبل إقراره فاستحسنه فريق، واستنكره آخرون، والذى عليه الأكثرون أن الأمير كان فى ابتداء هذه المرحلة مخلصاً للاتفاق ميالا إلى إتمامه.

وفى مساء يوم الخميس ٢٢ يناير أقام النادى العربى بدمشق حفلة تكريم للامير باسم الشبيبة خطب فيها كثير من الخطباء، ووقف فى ختامها فشكر للنادى حفلته ثم قال:

«أتيت من الغرب لأقف على رغائب الأمة بعد انسحاب الأمير كان من المعترك السياسى وكنت أود أن أفاتح أرباب التفكير فى مستقبل البلاد بالنظر للحالة فى الغرب، لأننى جئت لأمكث بضعة أيام ثم أرجع إلى ما يجب علىّ الاهتمام به هناك. ولا أزال ذلك الرجل الذى تتصورونه. سواء كان تصوركم حسناً أم سيئاً لا يهمنى ذلك بقدر ما يهمنى العمل ومستقبل الأمة. ولا يهمنى أيضا ما يقال عنى مدحاً أو هجاء أو غير ذلك. فالأمة كالأفراد أحرار فيما يقولون. ولهذا لا أنظر إلى ما قيل، ولا إلى ما يقال، ولا إلى الأفكار المتباينة التى تصدر عن أفئدة مملوءة بالحماسة. سواء كانت من أفراد أو من جماعات، فالأمة بأجمعها ترغب أن تكون مستقلة. وأنا أسر إذا رأيت شبان الأمة يطلبون الاستقلال، ويتحسسون بمثل هذا الشعور العالى الذى يضمن لنا المستقبل والذى ما أسست النادى إلا لأنتظر مثله.

«وإننى وإن كنت لا أحيط علما بكل ما يجول فى الأفكار المختلفة فإننى أفتخر بشىء واحد هو أننى أحببت وطنى، وسعيت لوطنى، ولى غاية واحدة، وهى أن أرى بلادى مستقلة ولا تنحصر هذه البلاد فى بلدة واحدة فكل بلاد العرب بلادى.

«أنا والله لا تخيفنى قوة الحكومة، ولا قوة الجمعيات، وإنما أخاف التاريخ والمستقبل وأخاف أن يقال إن فلانا عمل عملاً لا يليق بآبائه وأجداده الذين كانوا يسعون وراء

الاستقلال. وأرجوا الأمة أن تعلم بأننى فى الغرب مثل ما أنا هنا لا أبدل كلامى. سواء كنت أمام السياسيين أو فى أحرج المواقف. ومبدئى هو أن تكون بلادى مستقلة، وأنا عامل بما هدانى الله إليه لاستقلال بلادى وإرجاع مجدنا الغابر. والله يشهد بأننى أسعى لذلك ولا أظن أنه يوجد فى البلاد رجل واحد يرضى بالاستعباد الأجنبى. بل أعتقد أن الرفيع والوضيع والشيخ والشاب والعالم والجاهل يشعرون بشعور واحد. وهو طلب الاستقلال للبلاد.

«شكر أحد إخوانى الخطباء لمحمود الفاعور حميته، كان محمود معتزلا فى البادية صابراً صامتا. فلما اعتدى عليه قام وفعل بدون قول الأمر الذى أرغب أن تكون الأمة عليه.

«لنا سنة ونصف ونحن نقول، كفانا خطبا، كفانا قولا، نحن فى أيام العمل لا فى أيام القول. إن الأقوال لا تأتى بفائدة، ولكن الأفعال تفيد كثيرا. غبت عن هذه البلد أربعة أشهر ولاشك أن التاريخ سيحفظ ما فعلته فى الغرب. سواء كان جيداً أو رديئا. قليلا أو كثيرا، ولا أنزه نفسى عن الخطأ فقد كنت أقول ما يلهمنى ضميرى.

«ولما عدت رأيت الأمة بأشد مظاهر الحماسة، ولكنها حماسة لا تتعدى القول. وحبذا لو اقترنت بالعمل. أنا أدعو الأمة إلى ذلك. إذ لا حياة لها إلا إذا فعلت كما أقول، نحن بحاجة إلى التعاون، إلى التعاضد، إلى التكاتف، إلى التعارف، إلى العمل، إلى الود.

«اننى روح الحركة. والأمة باعتمادها على الحكومة تعتمد علىّ إلى أن تسنح لنا الفرص، ويتسع لنا المجال فنؤلف المجالس التى تعتمد عليها الأمة، ولذلك فأنا لا أسمح فى ساعتنا هذه لشخص أو جماعة أن يقول إن الجكومة كذا وكذا، أو يطلب إبدال حاكم بحاكم. لأننى أنا مسؤول حتى انعقاد مجلس الأمة، وعندئذ أتنصل من المسؤولية وأضعها على الأمة.

«إن الحكومة اليوم هى حكومة عسكرية، حكومة موقتة غير منتخبة من طرف الشعب، ولبعض أسباب لا أقدر أن أشرحها أؤخر التشكيلات إلى أن أقدم للأمة هدية الاستقلال. إن رجائى عظيم وكبير، وأفتخر إذا رأيت شبان الأمة يعاضدوننى فى طلب الاستقلال التام وفى طلب الحرية».

«نحن فى موقف حرج يجب أن لا نحتقر فيه الأمم. لاننا باحتقارنا لإحداها نكون احتقرنا أنفسنا أمام دول كبار وأمم عظام، يجب علينا أن نحترم كل أمة وكل حكومة متى

احترمت بلادنا واستقلالنا ومنافعنا، لا نحب أن نعادى، ولا أن نتجاوز على حقوق غيرنا. كما أننا لا نريد أن يتجاوز أحد على حقوقنا.

«أطلب من الأمة والشبان أن يتكاتفوا ويؤيدوا حكومتى التى ستقودهم إلى الخير، وأن يفعلوا كالفاعور فى سكوته، وأن لا يكثروا من الأقوال، ولا يعادوا أحدا لا بألسنتهم ولا بصحفهم، وأن يعتمدوا على الحكومة.

«هذه وصيتى إليكم، والحكومة تنتظر منكم أن تؤازروها، وأنا سأعمل وأؤلف حكومة أعتمد عليها. فإذا اعتمدت عليها يجب على الأمة أن تعتمد عليها أيضا، وأرغب أن الإخوان جمعيهم يعاضدون حكومتى التى أرجو أن أسمع من أخبارها فى الغرب مايسرنى لأتمكن من المطالبة بالاستقلال حتى آخر نقطة من دمى».

تأليف الحكومة الجديدة

وأنجز الأمير وعده فألف يوم ٢٦ يناير حكومة جديدة برئاسة الأمير زيد ولقبه بلقب رئيس مجلس المديرين، وعين أمين بك التميمى معاونا له، ورضا باشا الركابى مديرا للحربية، ورشيد طليع مديرا للداخلية، ويوسف العظمة رئيسا لهيئة أركان الحرب العامة. واسكندر عمون مديرا للعدلية، وساطع الحصرى للمعارف، وأحمد حلمى بك للمالية.

وإذا سأل سائل عن الحكومة الركابية وكيف ومتى استقالت؟ نجيبه أن رضا باشا رفع استقالته يوم ١٠ سبتمبر - أى قبل رجوع الأمير بشهر وأربعة أيام إلى الأمير زيد معتزلا العمل ومنسحبا منه، لأنه ما كان يميل إلى تأييد فكرة العداء للحلفاء، ولا إلى تشجيع العصابات، فلما أدرك أن الحكومة سائرة فى هذا الطريق، وأنه لا قبل له بوقفها أو إرجاعها بعد ما اتفقت عليها جميع الأحزاب فضل الاستقالة، لئلا يحمل تبعة ما يحدث. فعين مصطفى نعمة بك وكيلا له، كما أحدثت مديرية للداخلية عين لها رشيد بك طليع متصرف حماه، وعين يوسف بك العظمة رئيسا لديوان الشورى الحربى فتعززت بهذا التبديل والتغيير فكرة الدفاع. كما لقيت العصابات تأييدا وتنشيطا من الحكومة الجديدة.

عرض الاتفاق على الهيئة العاملة للفتاة ورفضه

وعلى أثر رجوع الأمير عقدت الهيئة العاملة للفتاة، وهي الهيئة الثانية. وكانت تتألف كما يأتي: (الدكتور احمد قدرى ورفيق التميمى ويس الهاشمى واحمد مريود وسعيد حيدر وتوفيق الناطور وعزت دروزه وشكرى القوتلى) اجتماعاً سرياً فى منزل الدكتور احمد قدرى حضره الأمير فيصل – ومعه المشروع الذى جاء به – فعرضه على اللجنة فاقترعت ضده وقالت برفضه فدافع الأمير عنه وقال: أن رفض المشروع معناه إعلان حرب على فرنسا فقالوا إننا مستعدون لإعلان الحرب على فرنسا وإنكلترا معا، وانتهى الاجتماع بإصرار اللجنة على الرفض.

واستدعى الأمير فى الغداة أعضاء اللجنة وقابلهم منفردين فكان يخلو بالواحد منهم ويناقشه ويحاول إقناعه بقبول المشروع، وحينما يراه مصراً على الرفض يطلب إليه أن يكتب تقريراً مفصلاً يبدى فيه رأيه، ويسرد الأسباب التى تبعثه على الرفض ثم يتناول تقريره ويصرفه.

وكاشف الأمير رضا باشا الركابى بما وقع بينه وبين الهيئة العاملة من خلاف، فأشار عليه بأن يعمل لإقالتها وإبدالها بهيئة أخرى. فوافق مبدئيا. فدعيت الهيئة العامة لجمعية الفتاة إلى اجتماع سرى فى منزل الركابى باشا رأسه الأمير زيد بالذات، وحضره نحو ٥٠ عضوا من أعضاء الفتاة، وافتتح الجلسة الشيخ كامل القصاب بخطبة نارية حمل فيها على اللجنة الإدارية (الهيئة العاملة) للجمعية واتهمها بالتقصير وبالتفريط فى مصلحة البلاد، وختم خطبته طاليا إقالتها واختيار لجنة جديدة قادرة على القيام بالمهمة الموكولة إليها، ثم تعاقب الخطباء وكلهم يضرب على هذا الوتر، ويتهم اللجنة بالتقصير والتفريط فى حقوق البلاد، ويقتوح اختيار لجنة أكفأ منها وأشد غيرة وحماسة. وحينما انتهوا خطب رفيق التميمى باسم اللجنة العاملة فأعلن استقالتها. وقال إننا فعلنا ما استطعنا فعله فجربوا أنتم أنفسكم، ثم جرت الانتخابات على الأثر للجنة جديدة ففاز نسيب البكرى والركابى وخالد الحكيم وأسعد الحكيم وسعيد حيدر وجميل مردم ومحمد الشريقى.

١٣
المناداة بالاستقلال وإعلان الملكية

ولم يطل الأمير الإقامة فى دمشق بعد رجوعه. بل غادرها يوم ٢٨ يناير بقطار خاص إلى حلب فقضى ثلاثة أيام. ثم عاد إلى دمشق ليلة أول فبراير، وفى صباح ٣ منه قصد إلى بيروت بقطار البريد فعاد مساء ٥ منه.

ولقد أراد من رحلته إلى حلب درس الحالة عن كثب، وخصوصا حالة الثورة التركية. كما اتصل بزعماء العصابات العاملة فى المنطقة الغربية ونصحهم بالتزام الهدوء والسكينة، وفعل مثل ذلك في دمشق مع زعماء عصابات الجنوب والغرب فهدأت الحالة واستقرت بفضل تدخله.

ورأى أن يكمل عمله بزيارة الجنرال غورو والسعى معه لوضع حد لحالة التقلقل، وذلك بإصدار عفو عام عن رجال العصابات، وإنشاء حكومة وطنية فى بيروت تقود البلاد، وتمهد للدور الجديد، دور التفاهم والاتفاق فلم يلق منه تشجيعا. فعاد إلى دمشق وقد زاد اعتقاداً بعدم إمكان التفاهم مع الفرنسويين، وأعلن غداة وصوله بأن سفره إلى أوروبا تأجل لشهر واحد بسبب تغيير الوزارة الفرنسوية، فقد سقطت فى تلك الآونة وزارة كلمنصو وخلفتها وزارة مليران.

وانقضى شهر فبراير بهدوء نسبى سكنت فى خلاله عواصف الاضطرابات والفتن فى معظم أنحاء سورية، انصرف فيه الفرنسويون إلى إخماد ثورة كيليكية ومقاتلة الترك، وشاع فى أوائل شهر مارس أن الأمير عدل عن السفر نهائيا إلى أوروبا، وأن المؤتمر السورى سيدعى إلى الاجتماع – وقد انفض على أثر جلاء الجيش البريطانى، وأنه سيعلن استقلال البلاد وينادى بالأمير ملكا عليها وأن القصد من هذا التدبير جعل أوروبا أمام حالة واقعة.

وفى الساعة الثالثة بعد ظهر السبت ٦ مارس اجتمع المؤتمر السورى رسميا فى دار النادى العربى. وفى الساعة الرابعة وصل الأمير، وبعد أن استقر به المقام قال: إن كاتبى الخاص عونى بك عبد الهادى سيلقى خطاب الافتتاح

فاعتلى هذا المنبر، وألقى الخطاب الآتى:

«أيها السادة:

«فى الوقت الذى قرب فيه حل المسألة التركية حلا نهائيها فى مؤتمر الصلح، رأيت أن أدعوكم مرة أخرى لتقرير مصير البلاد حسب رغائب الأهالى الذين رأوا فيكم الكفاءة للنيابة عنهم فى مثل هذا الوقت العصيب. فقد وعد مؤتمر السلم أن ينظر فى رغبة الشعوب، بل حتم على نفسه أن يقرر مستقبل كل أمة حسب ارادتها ورغائبها تحقيقا للمبادىء السامية التى خاص لأجلها الحلفاء غمار الحرب الكبرى.

«فالرئيس ولسن ذكر فى خطابه فى (مورن فرنون) يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩١٨ المادة الآتية: «كل مسألة سياسية كانت أم اقتصادية أم دولية يجب أن تحسم على قاعدة الأساسات المستندة إلى حرية قبول الشعب ذى العلاقة رأسا بتلك المسألة. لا على القواعد النفعية المادية أو المصالح التى يتطلبها شعب أو أمة أخرى لأجل تأمين نفوذها الخارجى أو سياستها».

«وقد ذكر جميع رؤساء الحكومات المتحالفة أقوالا لا تقل فى معانى استقلال الشعوب عن أقوال الرئيس ولسن فى هذا الصدد. وقد نشرت حليفتانا انكلترا وفرنسا منشورا فى ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ أكدتا لنا فيه استقلال بلاد العرب المنشود».

«أيها السادة! لما كانت هذه الحرب حرب حرية واستقلال. حربا جاهدت فيها الأمم ذبا عن كيانها السياسى دخل فيها صاحب الجلالة والدى المعظم فى صفوف الحلفاء، بعد أن استوثق من العرب فى الجزيرة وفى سورية والعراق. فقاتلوا قتالا شهد لهم فيه أعاظم رجال أوروبا السياسيين والعسكريين، وأثنوا على شجاعتهم وبسالتهم غاية الثناء. ولابد أن يحفظ التاريخ أعمالهم الجليلة فى إبان الحرب التى استمات فيها الحجازى والسورى والعراقى، وإنى لواثق بأن الأمة العربية ستنال من المغنم ما ناله غيرها من حلفائنا الذين نالوا الظفر على الأعداء».

«إن هذا الظفر لم يكن عسكريا فقط، بل هو سياسى قبل كل شىء، لأنه انتصار الحق على القوة، والحرية على الاستبداد. فقد انتشرت اليوم فكرة الاستقلال بين الشعوب، وانتقشت على أفئدتها فلن تزول بعد الآن.

«استحق العرب حريتهم واستقلالهم بفض الدم الطاهر الذى سفكوه، وبفضل ما قاسوه من أنواع العذاب والقهر. فالأمة العربية لا تقبل بعد اليوم أن تستبعد. كما إنى أعتقد أنه ليس هنالك أمة تريد استعبادنا. فرحلاتى الرسمية العديدة إلى أوروبا والأحاديث والكتابات التى جرت بينى وبين ساستها لم تبق فى نفسى مجالا للشبهة والتردد فى نيات حكوماتها الحرة.

«أيها السادة! إننا لانطلب من أوروبا أن تمنحنا ما ليس لنا به حق، بل نطلب منها أن تصدق على حقنا الصريح الذى اعترفت لنا به كأمة حية. نريد حياة حرة واستقلالا تاما ونود أن نعيش مع سائر الأمم المحترمة على غاية من الولاء والمحبة الخالصة. فسياستنا فى المستقبل ستكون سياسة صلح وسلم مبنية على الثقة المتقابلة والمنافع المتبادلة، وبكلمة واحدة، سياسية تتفق مع مصالح الأمة ومنفعة السلم العام. فالعرب لا يستنكفون عن تبادل المنافع بينهم وبين الأمم المتمدنة، ولا يرفضون صداقة من يريد صداقتهم - على شريطة أن لا يمس ذلك بكرامتهم، ولا يخل باستقلالهم السياسى التام.

«أيها السادة! إن وظيفتكم اليوم خطرة، ومهمتكم كبيرة. فأوروبا تنظر إلينا عن كثب، وستحكم لنا أو علينا بالنسبة للخطة السياسية التى سنسير عليها، والأعمال التى سنقوم بها فى المستقبل. فدولتنا الجديدة التى قام أساسها على وطنية أبنائها الكرام هى فى حاجة اليوم إلى تقرير شكلها أولا ووضع دستور لها يعين لكل من آمرنا ومأمورنا حقوقه ووظائفه فى حياتنا المستقبلة التى أرجو أن يكون ملؤها الجد والعمل والإقدام.

«وقبل أن أختم كلامى فى هذه الجلسة الخالدة أريد أن أذكركم بإخوانكم العراقيين الذين جاهدوا معكم، وأبلوا بلاء حسنا فى سبيل الوطن، وبالواجب الذى يتحتم علينا فى أمر التضامن والتعاضد لنحيا حياة سعيدة قوية، وأقرئكم السلام العربى الخالص. متمنيا لكم التوفيق والنجاح فى مساعيكم الوطنية والسلام عليكم».

«وعقد المؤتمر جلسة يوم ٧ مارس سنة ١٩٢٠ قررفيها إعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية، والمناداة بسمو الأمير فيصل بن الحسين ملكا عليها. وفى يوم ٨ مارس سنة ١٩٢٠ جرت البيعة فى دار بلدية دمشق». وتحرير ذلك أن المؤتمر اختار وفداً من أعضائه اجتمع رجاله فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر. فقصد دار الإمارة، وأبلغ الأمير قرار المؤتمر، فأجاب شاكرا. وفى الساعة الثالثة جاء بموكبه الرسمى فاستقبله أعضاء

المؤتمر والحاضرون بالتصفيق الشديد. فجلس على منصة أقيمت هنالك، وإلى يمينه الأمير زيد وبقية الأشراف، وإلى يساره هيئة الحكومة وضباط الجيش، وحضر الحفلة مندوبا انكلترا وفرنسا وقناصل الدول الأخرى.

وجاء رئيس البلدية بالعلم السورى الجديد، وهو علم الدولة الهاشمية فى الحجاز - وقد أضيفت إليه نجمة فنشره فاستقبل بالهتاف والتصفيق.

ثم رفعه على دار البلدية، وبدىء على الفور بإطلاق مائة مدفع، ورفعت فى ساحة الشهداء لوحة كتب عليها «ليحيا جلالة الملك فيصل».

قرار المؤتمر السورى بإعلان الاستقلال

وأعلن رئيس المؤتمر السورى أن المؤتمر وضع قراراً يتلوه الكاتب. فوقف هذا على شرفة البلدية وتلا القرار وهذا نصه:

«إن المؤتمر السورى العام الذى يمثل الأمة السورية العربية فى مناطقها الثلاث الداخلية والساحلية والجنوبية «فلسطين» تمثيلا تاما يضع فى جلسته العامة المنعقدة نهار الأحد الموافق لتاريخ ١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٣٨ وليلة الأثنين التالى له الموافق لتاريخ ٧ مارس سنة ١٩٢٠ القرار الآتى:

إن الأمة العربية ذات المجد القديم والمدنية الزاهرة لم تقم جمعياتها وأحزابها السياسية فى زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسى، ولم ترق دم شهدائها الأحرار وتثر على حكومة الأتراك إلا طلبا للاستقلال التام والحياة الحرة، بصفتها أمة ذات وجود مستقل وقومية خاصة، لها الحق فى أن تحكم نفسها بنفسها أسوة بالشعوب الأخرى التى لا تزيد عنها مدنية ورقيا.

وقد اشتركت فى الحرب العامة مع الحلفاء استناداً على ما جهروا به من الوعود الخاصة والعامة فى مجالسهم الرسمية، وعلى لسان ساستهم ورؤساء حكوماتهم، وما قطعوه خاصة من العهود مع جلالة الملك حسين بشأن استقلال البلاد العربية، وما جهر به الرئيس ولسن من المبادىء السامية القائلة بحرية الشعوب الكبيرة والصغيرة واستقلالها على مبدأ المساواة فى الحقوق وإنهاء سياسة الفتح والاستعمار، وإلغاء المعاهدات السرية

المجحفة بحقوق الأمم، وإعطاء الشعوب المحررة حق تعيين مصيرها، مما وافق عليه الحلفاء رسميا - كما جاء فى تصريحات المسيو بريان رئيس وزراء فرنسا بتاريخ ٣ نوفمبر سنة ١٩١٥ أمام مجلس النواب، واللورد غراى وزير خارجية بريطانيا العظمى فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٦ أمام لجنة الشؤون الخارجية. وتصريح الحلفاء فى جوابهم على مذكرة الدول الوسطى التى رفعها المسيو بريان بواسطة السفير الأميركى فى باريس، وجواب الحلفاء على مذكره الرئيس ولسن بتاريخ ١٠ يناير سنة ١٩١٧، وبيان مجلس النواب الافرنسى فى ٥ يونيو سنة ١٩١٧، وبيان مجلس الشيوخ فى ٦ منه أيضا، وما جاء فى الخطاب الذى ألقاه المستر لويد جورج فى غلاسكو بتاريخ ٢٩ منه سنة ١٩١٧.

وقد كان ما قام به جلالة الملك حسين المعظم من الأعمال العظيمة فى جانب الحلفاء، هو الباعث الأكبر لتحرير الأمة العربية وإنقاذها من ربقة الحكم التركى. فخلد لجلالته فى التاريخ العربى أجمل الآثار وأفضلها.

وقد أبلى أنجاله الكرام مع الأمة العربية فى جانب الحلفاء البلاء الحسن مدة ثلاث سنوات. حاربوا خلالها الحرب النظامية التى شهد لهم بها أقطاب السياسة وقواد الجند من الحلفاء أنفسهم وسائر العالم المدنى، وضحى العدد الكبير من أبناء الأمة الذين التحقوا بالحركة العربية من أنحاء سورية والحجاز والعراق. فضلا عما قام به السوريون خاصة فى بلادهم من الاعمال التى سهلت انتصار الحلفاء والعرب - مع ما أصابهم من الاضطهاد والتغذيب، والقتل والتغريب، تلك الأعمال التى كان لها الأثر الأكبر فى انكسار الترك وجلائهم عن سورية، وانتصار قضية الحلفاء انتصاراً باهراً حقق آمال العرب بوجه عام، والسوريين منهم بوجه خاص، فرفعوا الأعلام العربية وأسسوا الحكومات الوطنية فى أنحاء البلا د قبل أن يدخل الحلفاء هذه الديار.

ولما قضت التدابير العسكرية بجعل البلاد السورية ثلاث مناطق أعلن الحلفاء رسميا أن لا مطمع لهم فى البلاد السورية، وانهم لم يقصدوا من مواصلتهم تلك الحروب فى الشرق سوى تحرير الشعوب من سلطة الترك تحريراً نهائياً، وأكدوا أن تقسيم المناطق لم يكن إلا تدبيراً عسكرياً موقتا لا تأثير له فى مصير البلاد واستقلالها ووحدتها، ثم إنهم قرروا ذلك رسميا فى الفقرة الأولى من المادة الثانية والعشرين من معاهدة الصلح مع المانيا. فاعترفوا فيها باستقلالنا - تأييدا لما وعدوا به من إعطاء الشعوب حق تقرير مصيرها - ثم

أرسلوا اللجنة الأميركية للوقوف على رغائب الشعب، فتجلت لها هذه الرغائب فى طلب الاستقلال التام والوحدة السورية التامة.

وقد مضى نحو عام ونصف والبلاد لاتزال رازحة تحت الاحتلال والتقسيم العسكرى الذى ألحق بها أضراراً عظيمة، وأوقف سير أعمالها ومصالحها الاقتصادية والإدارية، وأوقع الريبة فى نفوس أبنائها من أمر مصيرها، فاندفع الشعب فى كثير من البلاد، وقام بثورات أهلية منتقضا على الحكم العسكرى الغريب، ومطالبا باستقلال بلاده ووحدتها.

فنحن أعضاء هذا المؤتمر رأينا، بصفتنا الممثلين للأمة السورية فى جميع أنحاء القطر السورى تمثيلا صحيحا نتكلم بلسانها ونجهر بإرادتها، وجوب الخروج من هذا الموقف الحرج استناداً على حقنا الطبيعى والشرعى فى الحياة الحرة، وعلى دماء شهدائنا المراقة وجهادنا المديد فى هذا السبيل المقدس، وعلى الوعود والعهود والمبادىء السامية السالفة الذكر، وعلى ما شاهدناه ونشاهده كل يوم من عزم الأمة الثابت على المطالبة بحقها ووحدتها، والوصول إلى ذلك بكل الوسائل، فأعلنا بإجماع الرأى استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية - ومنها فلسطين - استقلالاً تاماً لا شائبة فيه على الأساس المدنى النيابى، وحفظ حقوق الأقلية، ورفض مزاعم الصهيونيين فى جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود أو محل هجرة لهم.

وقد اخترنا سمو الأمير فيصل ابن جلالة الملك حسين، الذى واصل جهاده فى سبيل تحرير البلاد، وجعل الأمة ترى فيه رجلها العظيم، ملكا دستوريا على سورية بلقب صاحب الجلالة الملك فيصل الأول، وأعلنا انتهاء الحكومات الاحتلالية العسكرية الحاضرة فى المناطق الثلاث - على أن تقوم مقامها حكومة ملكية نيابية مسؤولة تجاه هذا المجلس فى كل ما يتعلق بأساس استقلال البلاد التام إلى أن تتمكن الحكومة من جمع مجلسها النيابى على أن تدار مقاطعات هذه البلاد على طريقة اللامركزية الإدارية، وعلى أن تراعى أمانى اللبنانيين الوطنية فى كيفية إدارة مقاطعاتهم لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب العامة - بشرط أن يكون بمعزل عن كل تأثير أجنبى.

ولما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربى من حكم الترك، وكانت الأسباب التى يستند إليها فى استقلال القطر السورى هى ذات الأسباب التى يستند إليها

فى استـقـلال القطر العـراقى، وبما أن بين القطرين صـلات وروابط لغـوية وتاريخيـة واقتصادية وطبيعية وجنسية تجعل أحد القطرين لا يستغنى عن الآخر، فنحن نطلب استقلال القطر العراقى استقلالاً تاماً - على أن يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسى اقتصادى.

هذا وإننا باسم الأمة السورية العربيـة التى أنابتنا عنها نحتفظ بصداقة الحلفاء الكرام. محترمين مصالحهم، ومصالح جميع الدول كل الاحترام، وإن لنا الثقة التامة بـأن يتلقـى الحلفـاء الكرام وسـائـر الدول المدنيـة عـملنا هـذا المستـند إلـى الحـق الشرعى والطبيعى فى الحياة فيما تتحقق فيهم من نبالة القصد وشرف الغاية فيعترفوا بهذا الاستقـلال، ويجلـى الحلفـاء جنودهـم عن المنطقتـين الغربية ـ والجنوبية فيـقوم الجند الوطنى والإدارة الوطنيـة بحـفظ النظام والإدارة فـيـهـا، مع المحـافظة على الصداقة المتبادلة، حتى تتمكن الأمة السورية العربية من الوصول إلى غاية الرقى، وتكون عضواً عاملاً فى العالم المدنى.

وعلى الحكومة السورية التى تتألف استناداً على هذا الأساس تنفيذ هذا القرار»

كلام الملك

وألقى الملك على الأثر الكلمات الآتية: «أشكر للأمة نياتها الحسنة نحوى، وعلى ما أبدته من حسن الاعتماد، وأشهد الله أنى ما قمت إلا بما يجب على، وأتمنى أن أوفق لأقوم بكل ما يكفل استقلال البلاد وحريتها، ولأعتنى بشؤون الشعب السورى ورقيه، وأشهدكم على قولى هذا والله خير الشاهدين».

ثم تقدم رجال الدولة للمبـايعة فكان الأمير زيد فى المقدمة، وتلا بطريرك الروم الأرثوذكس عهداً موقعا عليه من جميع رؤساء الطوائف المسيحية الروحيين قالوا فيه «إنه نظرا لاتفاق الأمة السورية على مبايعة سمو الأمير فيصل ملكا على سورية فرؤساء الطوائف الروحيون يبايعون جلالته على الشروط السبعة التى اتفقوا عليها معه فى جلسة يوم الاثنين ٧ أكتوبر سنة ١٩١٨ وهى: إطاعة الله واحترام الأديان، والحكم بالعدل، وإجراء المساواة، وتوطيد الأمن، وتعميم المعارف، وإسناد الوظائف لمستحقيها، متعهدين بالطاعة والاخلاص لجلالته».

تأليف أول وزارة سورية وبيانها

وفى نفس اليوم (٨ مارس) أصدر جلالة الملك مرسوما إلى رضا باشا الركابى بتأليف الوزارة وهذا نصه: «نظرا لما عرفناه من إخلاصكم وأهليتكم فقد عهدنا إليكم بمنصب رئاسة الوزارة، لتشكلوا هيئتها توصلا للغاية المقدسة التى ينتظرها كل وطنى بفارغ الصبر من إسعاد الوطن ورقيه سياسيا وعمرانيا» وفى يوم ٩ منه تم تأليف الوزارة وهذا نص المرسوم باعتمادها:

«وزيرى السيد رضا الركابى

«نصادق على ما ارتأيتموه فى مذكرتكم رقم ١ بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٨ و٩ مارس سنة ١٩٢٠ من تأليف الوزارة على المنوال الآتى:

«رئيس مجلس الشورى: علاء الدين الدروبى. وزير الداخلية: رضا الصلح. وكيل وزير الحربية: أمير اللواء عبد الحميد القلطقجى على أن يدبرها رئيس أركان الحرب يوسف العظمة (كان الأول فى حلب يتقلد منصب الحاكم العسكرى) وكيل وزير المالية: فارس الخورى. وكيل وزير الحقانية: جلال الدين. وزير المعارف: ساطع الحصرى. وكيل وزير التجارة والزراعة: يوسف الحكيم».

«فنأمل أن تصرفوا الجهد فى المحافظة على الحقوق وتوطيد الأمن والراحة فى البلاد، وتوثيق عرى العلائق الودية بين حكومتنا والحكومات المتحابة، وأخصها حكومات الحلفاء، توصلا لتحقيق أمانى الشعب السورى وآماله فى وحدته وأن تبذلوا غاية الوسع فى بث روح الوئام بين جميع طبقات الأمة السورية على اختلاف مذاهبها ونزعاتها. وإنا نسأل الله أن يقرن أعمالكم بتوفيقه ويتولاكم بعنايته».

وفى يوم ٢٧ منه جاءت الوزارة إلى المؤتمر السورى، ووقف رئيس مجلس الشورى فتلا بيانها وهذا نصه:

«أيها السادة المحترمون

«هيئة الوزارة سعيدة جدا بكونها أول وزارة وطنية دستورية فى تاريخ سورية، ظهرت أمام أول مجلس ممثل للأمة تقرأ بيانها وتبسط خطتها. فهى لذلك تفخر بتحية هذا المجلس الوطنى الجليل، الذى سيكون له الذكر الخالد فى الأمة جيلا. بعد جيل لأنه كان المعرب الصادق عن رغائبها، والمؤيد لحقوقها، والمؤسس لحكومتها الجديدة فى تاريخها المجيد».

«تعلمون أيها السادة أنه عند ما نشبت الحرب العامة، واقتحمتها دول الأرض الواحدة تلو الأخرى قامت الأمة العربية بزعامة رئيسها وأميرها جلالة الملك حسين المعظم، وانضمت إلى جانب الحلفاء تقاتل معهم جنبا إلى جنب وترخص الضحايا الغالية فى الدفاع عن القضية المشتركة. أملا بنيل استقلالها، والتخلص من الاستعباد الذى أناخ عليها مدة طويلة ضاعت فيه مدنيتها القديمة وتقوضت دعائم عزها الأثيل، وكان قيامها وانضمامها للحلفاء فى أيامهم الحرجة عندما كانت كفة انتصارهم غير راجحة ضربة شديدة على الآمال الواسعة التى توقعتها المانيا والمتفقون معها من التحاق الدولة العثمانية، بهم وذلك لما للأمة العربية من المقام التاريخى والاجتماعى، وجنى الحلفاء من جراء ذلك فوائد عظيمة اشتد بها أزرهم، وفت فى سواعد خصومهم، وانتهت الحرب باندحار الألمان والمتفقين، معهم وانتصار مبادىء الحق على القوة، وتحررت الأمة العربية بفضل ما قام به جلالة الملك حسين المعظم وأنجاله البواسل من الأعمال العظيمة التى قلدوا بها أعناق أمتهم أطواقا من الشكر والفخر. فهو إذن المؤسس الأول لتاريخ العرب الجديد. الذى فتحت به هذه الأمة عصرها الذهبى الثانى. فنحن نرفع لسدته الملوكانية فروض التبجيل والشكران، ونسجل لجلالته فى تاريخنا فصول الإجلال والامتنان».

«كما أن نجله النابغ صاحب الجلالة الملك فيصل ملك سورية المعظم الذى أقام الدعوى السورية، وأخذ على نفسه الدفاع عنها إلى الدرجة الأخيرة، وواصل الجهاد فى تحرير هذا القطر هو المؤسس الأول للمملكة السورية، وصاحب الفضل الأكبر فى استخلاصها وإنشائها على قواعد الحرية والتجدد، فاجتمعت عليه قلوب أبنائها، وانعقدت آمالهم واتفقت كلمتهم على أنه ملك هذا القطر الذى لا يدافع، وسيده الذى لا ينازع. فنرفع لسدته الملوكية عهود الطاعة. ونهنىء عرش سورية بالوطنى الباسل والملك العادل. ولا ننسى أن نذكر بلسان الشكر والتبجيل دول الحلفاء العظيمة التى ثبتت أقدامها الراسخة فى مأزق الروع

فأيدت مبادىء الحق ودكت صروح الباطل، ونادت بعهد جديد وعصر مجيد، هو عهد حرمة الحقوق وحرية الشعوب وإنكار سياسة الفتح والاستعمار، وإبطال المعاهدات السرية المجحفة بحقوق الأمم، وإعطاء الشعوب المحررة حق تقرير مصيرها، وقد نلنا بفضل معونتهم مالا تنساه هذه الأمة.

«على هذه المبادىء النبيلة والأساسات الراسخة انتخبت الأمة السورية أعضاء مجلسكم الموقر لأجل تعيين مصيرها على شكل يوافق أمانيها، ويؤيد حقوقها التى منحتها إياها الطبيعة ودعمتها مفاداتها وضحاياها الجسيمة فى الحرب العامة، وأقربها الحلفاء فى وعودهم وعهودهم، واعترفوا باشتراكهم معها بالفخر فى هذا النصر، فاتفقت كلمتكم على إعلان استقلال سورية بحدودها المعروفة ضمن المناطق الثلاث التى قضى الاحتلال العسكرى الموقت بقسمتها إليها، وعلى المناداة برجل الأمة ومحررها فيصل بن الحسين ملكا عليها، وعلى إنشاء حكومة دستورية مسؤولة أمام مجلس الأمة، ونشرتم بذلك قراركم التاريخى الناطق بالحزم والحق فى الثامن عشر من شهر جمادى الآخرة والثامن من شهر مارس الحاضر، فكان ذلك مبدأ لحياتنا الجديدة الحرة، وقد قابلت الأمة بأجمعها عملكم المجيد بالاستحسان والابتهاج، وأقامت المهرجانات والأفراح فى جميع أنحاء البلاد فجاء عملها هذا دليلا آخر يثبت بالفعل إجماع الشعب على تأييده هذه الغاية، وتفانيه فى سبيل تحقيق أمانيه القومية الشريفة، فنحن نطرى عملكم هذا، ونقدم لكم شكرا وثناء يسجل لكم فى تاريخ الامة».

«واستنادا على هذا القرار الذى خرجت به رغائب الأمة من القول إلى الفعل، وظهر فيه الحزم وصدق العزيمة ـ عهد إلينا جلالة مولانا الملك المعظم بإدارة المملكة على المبادىء المدنية الدستورية التى اختارها مجلسكم الموقر، فباشرنا العمل، وتسلمنا أزمة الأمور مستعينين بالله، ومعتمدين على مؤازرة الأمة، وموطنين النفس على أن نبذل أقصى الجهد فى سبيل المحافظة على الاستقلال التام ضمن الوحدة السورية. لتتمكن أمتنا من الوصول إلى المقام الذى يليق بها بين الأمم الراقية من المدنية والعمران، على نسبة نجابة أبنائها وتاريخها المجيد».

«ولنا وطيد الأمل بحسن نيات الحلفاء العظام أن يقابلوا حياتنا الجديدة بالسرور والارتياح ،ويعاضدوننا فى إزالة جميع العراقيل التى تحول دون رقينا ونجاحنا. خصوصا

الدولتين العظيمتين بريطانيا وفرنسا، اللتين عرفتا بمحبتهما للعرب وشملتهم معونتهما الثمينة فى حرب حريتهم، وكانتا أول من وافق على القواعد الصحيحة والغايات النبيلة التى على موجبها جاءت الأمة الأميركية الشريفة لنجدتهم من عبر الأطلانتيك، ولدينا من وعدهما ما يضمن لنا استمرار ولائهما وبقاء محبتهما المفيدة لنا فى أيام السلم. كما كانت فى أيام الحرب، فلا يكون منهما اليوم إلا ما يأتلف مع مبادئهما الشريفة، ويسهل لنا طريق الفلاح والعمران».

«وفوق ذلك فهما تعلمان علم اليقين اننا لا نرغب إلا الحياة المطمئنة الهادئة فى ظل سلم عام. ولا يمكن أن يستقر ذلك فى سورية مع تجزئتها وحرمانها من الحكم الذاتى، وتثقان أننا نصون مصالح جميع الأمم فى بلادنا، وخصوصا مصالح هاتين الحليفتين العظيمتين. بحيث نفيد ونستفيد، وعملنا هذا منطبق على الغاية الشريفة التى خاضوا وخضنا معهم لأجلها غمار هذه الحرب الضروس، وشهد لنا بالفضل فيها أعظم رجالهم مرات عديدة، وهو مؤيد ومحقق لوعودهم بحق هذه الأمة».

«فسياستنا الخارجية إذن هى سياسة السلم والولاء مع جميع الدول، وخصوصا مع دول الحلفاء الذين آزرونا فى الحرب، وسيؤازروننا فى السلم أيضا، وصيانة حقوق رعاياهم والاستفادة مما نحتاج إليه من مدنيتهم. مما يساعد على رقينا، ولا يمس استقلالنا.

«أما إدارتنا الداخلية فتبقى على الأسس الحاضرة إلى أن يصدر القانون الأساسى الذى يضمن لسكان كل مقاطعة من أبناء الوطن من السعى فى سبيل عمران بلادهم، وتنمية ثروتهم، وترقية حالهم، وسنبذل الجهد فى توطيد الأمن العام، وإقامة قسطاس العدل بين الناس على شكل يوصل أصحاب الحقوق إلى حقوقهم بالسرعة المرغوبة، وتقوية الجيش لأجل حفظ الأمن والنظام والدفاع عن الاستقلال التام. ونحن نرى بملء السرور أن هذه الخطة منطبقة على رغائب الأمة التى تلبى دعوة الجندية بالحمية، والرغبة للقيام بخدمة الوطن المقدس، وسنعنى بصورة مخصوصة بنشر المعارف، وجعل المدارس فى حالة يمكنها أن تخرج للبلاد رجالا مشبعين بحب الوطن وسلامة الفكر وقوة البنية ومتانة الأخلاق. وسنهتم بإغناء خزائن علومنا بترجمة كتب العلوم والفنون الحديثة، والاستفادة من المعارف الغربية، وسنسعى لتحسين حالة البلاد الاقتصادية وإنماء زراعتها وتجارتها وصناعتها والاستفادة من خزائنها الأرضية، ليكثر الإنتاج وتزداد الثروة العامة فتخف عنا

بذلك ويمراعاة قاعدة الاقتصاد وطأة الغلاء الثقيلة، التى شملت العالم، وأصبحت شغل كبارهم وساستهم الشاغل. ولما كانت هذه الأعمال لا تقوم إلا بالمال، والحكومة لا يمكنها إيفاء هذه الوظائف بدون أن يكون لديها المقدار الكافى منه، وكانت الواردات الحاضرة لا تقابل النفقات المبرمة التى يقتضيها تطورنا الجديد وإنفاذ خطتنا المذكورة، فإنا سنسعى لإيجاد التوازن بين الواردات والنفقات، وسنفرغ قصارى الجهد فى سبيل إنفاق أموال الخزينة فى وجوهها النافعة. بحيث لا يصرف مال جزاف وبدون عمل يقابله. ونحتاج فى ذلك إلى حمية الأمة وإسراعها فى تأدية التكاليف، وإلى سخاء نحن إليه الآن أحوج منا إلى أى شىء كان».

«وسيكون عملنا الآن بالقوانين والأنظمة المدنية العثمانية، وما جرى تعديله أو رفعه منها بعد عهدهم، إلى أن يتيسر لنا تبديلها وتعديلها بصورة تدريجية على شكل يوافق حالة البلاد وأخلاقها ورقيها، ويلائم المدنية الحاضرة ويصون حقوق الأفراد والجماعات ويساعد على رقينا الحقيقى».

«والحكومة ترجو من المجلس الموقر أن يسرع فى وضع القانون الأساسى وقانون انتخاب نواب الأمة لتباشر إجراء الانتخاب، وجمع المجلس التشريعى بأقرب ما يمكن. وفى الختام نؤمل من الأمة وممثليها الكرام أن يعاضدونا فى مهمتنا الوطنية ونحييكم باحترام».

وتكلم بعض النواب على الأثر مؤيدين الوزارة فوافق المجلس على الثقة بها بالإجماع.

١٤
صدى إعلان الاستقلال

كان اعلان الاستقلال وانشاء الملكية على هذا المنوال فاتحة تحول جديد فى القضية السورية. إن لم يكن من جهة الأساس، فمن جهة الشكل، فقد أصبحت معالجتها من اختصاص وزارة مسؤولة إلى برلمان وطنى يمثل الأمة ويتكلم باسمها، ومعنى ذلك أن البلاد السورية صارت تتمتع من الوجهة الشكلية النظرية بحكومة دستورية ونظام برلمانى ديمقراطى، بعد ما أنكرت سلطان الحلفاء، وكانوا يحتلون معظم أجزاء البلاد.

والظاهرة البارزة فى الحكومة الركابية، وهى إحدى ممرات التحول الجديد، اعتدالها الزائد، وتكونها من رجال طاعنين فى السن، فرئيسها ووزير داخليتها ومثله وزير الخارجية من الشيوخ المجربين. ولئن كانا من المعروفين بالميل إلى الاعتدال والروية. وقد سلكت الوزارة فى ابتداء عهدها سبل الاعتدال والحكمة، وعملت على تهدئة الخواطر والتقرب من الإنكليز والفرنسويين. ظنا منها أنها بهذه الطريقة تكتسب ثقتهما وعطفهما فتضمن لبلادها الاستقرار والهدوء. ونظرة واحدة إلى برنامجها تؤيد هذا الاستنتاج.

جلالة الملك والحلفاء

ولم يقصر جلالة الملك من ناحيته فى العمل على اكتساب ثقة الحلفاء، والتقرب منهم فلم تكد تنتهى مراسم البيعة حتى أوفد للواء نورى السعيد إلى باريس ولندن يحمل كتابين خطيين من جلالته إلى الحكومتين الفرنسوية والإنكليزية بسط فيهما الأسباب التى حملته على قبول البيعة. وقال إن من أخص أمانى السوريين أن يعيشوا على ولاء مع الحلفاء. ولم يغن هذا التدبير شيئا. فقد أعلن المستر لويد جورج فى مجلس النواب البريطانى يوم ١٨ مارس «إن بريطانيا وفرنسا أبلغتا الأمير فيصلا انهما لا يستطيعان الاعتراف بقرار مؤتمر دمشق، ودعتاه إلى أوروبا لبسط قضيته»

وكذلك أرسل اللورد كرزون وزير الخارجية البريطانية يومئذ برقية خاصة إلى الملك

ينكر فيها ما تم ويدعوه إلى القدوم لمفاوضته فرد عليه قائلا:

«انه كان يتمنى أن يتاح له الذهاب إلى أوروبا ليقدم شكره إلى حكومة جلالة الملك، ولتنوير المجلس الأعلى عن موقف سورية الحقيقى. وختم برقيته طالبا الاعتراف باستقلال سورية»

وأرسل الملك فى الوقت نفسه رسالة خاصة إلى الرئيس ولسن ذكره فيها بعهود الحلفاء وفعال العرب فى الحرب العظمى، وجودهم فيها بالأرواح والمال استناداً إلى تلك العهود، وبسط له سوء عاقبة تقسيم سورية إلى أربع مناطق إدارية طبقا لمعاهدة سرية لا نعلم من حقيقتها شيئا فحنق الشعب. ومع أن الدول أكدت له أن هذا التقسيم وقتى يزول بزوال الحكم العسكرى إلا أنه اضطرب بسبب إشاعة اتفاق فرنسا وبريطانيا على تجزئة البلاد وتقسيمها. فاضطر الشعب، إلى إعلان استقلاله والمناداة بى ملكا فعاد النظام إلى نصابه، وهذ العمل يطابق وعود الحلفاء. وناشد الرئيس أن يبذل نفوذه لتأييد الحق فى هذه القضية.

ولابد لنا من القول ان الملك فاتح الجنرال غورو حين زيارته له فى بيروت يوم ٤ فبراير بما هنالك من اتجاه إلى إعلان الاستقلال، والمناداة به ملكا [1]: ومع أن الكولونيل كوس المعتمد الفرنسوى فى دمشق كان على علم بما يجرى، بل كان من جملة العاملين على اتمام البيعة. وقد حضر حفلة إعلانها – كما رأيت بصفة رسمية ـ فقد تنكر الفرنسويون فى بيروت وباريس للملك وحملوا الهيئات الموالية لهم هنا على استنكار ما وقع. كما أوعزوا إلى صحفهم هنالك بالحملة على الحكومة السورية الجديدة، وبالحض على عدم الاعتراف بقرار المؤتمر السورى.

ولقد كان مجلس إدارة لبنان أول المحتجين فوضع يوم ١٢ مارس قرارا رفعه إلى الجنرال غورو هذا نصه:

لقد اطلع هذا المجلس على قرار صادر من المؤتمر السورى بمناسبة تتويج سمو الأمير

١ـ يقول رضا باشا الركابى فى مقالة نشرها بعد وفاة الملك فيصل عن إعلان الملكية ما نصه «ولقد استدعانى الملك يوم عرض عليه القرار الخاص بإعلان الملكية، واستشارنى. فقلت له: هل من ضرورة لهذه العجلة، وبينت أن الحكمة تقتضى الانتظار، وتدعو لأن يؤجل إعلان التصريح إلى أن تمهد السبل هنا وهنالك. فقال لى إذا كانت الغاية التفاهم مع الفرنسويين فقد اتفقت معهم على ذلك،. ولم تمانع فرنسا فى ما وقع رغبة فى المحافظة على الولاء».

فيصل ملكا على سورية فوجد فيه مسا بحرية لبنان وحقوقه. ولما كان ليس للمؤتمر السورى ولالسواه من الحكومات المحلية صلاحية البحث أو التدخل فى أمور لبنان وإدارته. فيحتج هذا المجلس بنيابته عن اللبنانيين على كل ما ورد فى المنشور المذكور فيما يتعلق بجبل لبنان، ويؤيد استقلاله المطلق المعلن فى شهر مايو سنة ١٩١٩ راجيا رفع هذا الاحتجاج إلى المؤتمر العام المؤتمن على مصالح الأمم».

وأرسل بطريرك الموارنة الاحتجاج الآتى إلى الجنرال غورو:

«استنادا إلى الانتداب الذى خولنا إياه الشعب اللبنانى لتمثيله والمدافعة عن حقوقه لدى مؤتمر السلام. نحتج بكل قوانا على قرار المؤتمر السورى فى دمشق المخالف لأمانى اللبنانيين، ونحن لا نكف عن متابعة المطالبة بكل شدة بحقوقنا المبينة فى اللائحة التى قدمناها إلى مؤتمر السلام بتاريخ ٢٥ اكتوبر سنة ١٩١٩ وإذا كان بعض اللبنانيين قد اشتركوا فى المؤتمر السورى. فهؤلاء لا يمثلون قطعيا الامة اللبنانية. وإننا على ثقة بان الحلفاء بنصفون اللبنانيين المظلومين. الذين كابدوا كثيرا من العذاب فى إخلاصهم وتفانيهم على مصلحة الحلفاء».

وكذلك حملوا مجلس بلدية طرابلس فأصدر يوم ١٢ مارس قرارا مفاده «أن مندوبى المؤتمر السورى لا ينوبون عن أهل طرابلس، وأنه (أى المجلس) يعترض أشد الاعتراض على ذاك المؤتمر، الذى ألف بطريقة غير قانونية، ويطلب أن تكون سورية الكبرى تحت حماية فرنسا».

وعلاوة على ذلك فقد نشر قلم المطبوعات الفرنسوى فى بيروت البلاغ الآتى:

«تواترت الإشاعات بأن اجتماع المؤتمر السورى، والتصريحات التى صارت المجاهرة بها كانت نتيجة اتفاق بين الحكومتين الفرنسوية والعربية، ومن البديهى أن هذه الإشاعات ساقطة من نفسها، ولا نصيب لها من الصحة. لأن مثل هذه القرارات هى من شأن مؤتمر السلام. والحكومة الفرنسوية هى أبعد من أن يكون لها علاقة بما تم».

فهذه البلاغات والاحتجاجات نبهت رجال المنطقة الشرقية إلى نيات جيرانهم. كما نشطت العناصر المتطرفة، وكانت تنقم على الوزارة ضعفها واستسلامها، وأخذها الأمور باللين والحلم، وعدم اهتمامها بإعداد معدات الدفاع، ثم حدث حادث الخطبة فى مساجد

بيروت. فزاد الطين بلة، كما زاد الخواطر هيجانا واضطرابا.

وخلاصة ما وقع أن ولاة الأمور الفرنسويين فى بيروت استدعوا خطباء المساجد وأئمتها، وأوعزوا عليهم بأن لا يخطبوا باسم جلالة الملك فيصل، وأن يدعوا للخليفة محمد وحيد الدين السادس العثمانى. فأبى عليهم الخطباء ذلك، وأنكروا تدخلهم فى الشؤون الدينية. فقبضوا على الشيخ محيى الدين المكاوى - خطيب جامع المجيدية يوم ٥ إبريل ونفوه إلى إرواد. فثارت لذلك ثائرة المسلمين، وأقيمت مظاهرة فى دمشق احتجاجا على نفيه واعتقاله. فاضطروا إلى اطلاق سراحه، والاعتذار عما بدر منهم ونشروا البلاغ الآتى:

١ - ليس بصحيح ان الحكومة الفرنسوية تعرضت للمسائل الدينية الإسلامية. وانما المنع الذى صدر الأمر به موجه ضد الفكرة السياسية التى مشى بموجبها الرؤساء الروحيون فى بيروت، مدفوعين إلى ذلك من الشام.

٢ - إن السلطة الفرنسوية تحتج بكل شدة على المساعى المبذولة لاثارة عواطف المسلمين الدينية. ففرنسا تحترم جميع الأديان على السواء. ولا ترضى أن يتخذ الدعاء باسم جلالة الملك فيصل حجة لإيجاد الخلافات السياسية».

وتلت هذه حادثة العلم، وذلك أنه على أثر اعلان الاستقلال فى دمشق رفع المعتمد العربى فى بيروت علم الدولة الجديد على داره، فلم يرق ذلك لمثلى الاحتلال فأرسلوا اليه كتابا يطلبون إنزاله بحجة أن الدول لم تعترف رسميا بالحكومة الجديدة، ولأن حكومتهم لاتزال تعتبر الداخلية (حكومة المنطقة الشرقية) فرفض المعتمد طلبهم ورفع الأمر إلى حكومته فأبلغته بعدم إنزال العلم، وتدخلت عند الحكومة الفرنسوية، فتنصلت هذه مما وقع. وهكذا سويت المسألة.

فهاتان الحادثتان، وقد أثارتا الخواطر وما اتهمت به الوزارة من تقصير فى إعداد معدات الدفاع، ومن تساهل مع الفرنسويين فى نقل الذخائر إلى كيليكية بالسكة الحديد قد خلقت جوا ملتهبا، وحمل بعض العناصر على مناوئتها علنا. كما أخذ بعض أعضاء المؤتمر السورى بمهاجمتها، ووجهوا اليها أسئلة رد عليها وزير النافعة فى جلسة يوم السبت ٢٤ إبريل سنة ١٩١٩ وهذا ما قاله موجزاً:

«سألتم عما تعلمه الحكومة عن الأعمال التى تجريها حكومة الساحل. من إكراهها الأهلين على تختيم مضابط مؤتمركم، وعن مداخلتها فى أمور الأهلين الدينية فى المساجد فأقول إن حكومتنا قامت بما يجب عليها فى هذا السبيل محققة رغبة الأمة. فلفتت نظر المندوب الفرنسوى إلى هذه الحوادث أكثر من مرة. وفقا لقواعد حقوق الدول. وقد توصلنا إلى إصلاح كثير من هذه الأضرار نذكر منها قضية السعى لإنزال العلم السورى وقد تبين لنا من المكاتبات الدائرة أن المندوب الفرنسوى لم يأمر بانزال العلم. بل أبلغ معتمدنا هنالك أن الأمر متعلق بمؤتمر الصلح، ولايزال علمنا مرفوعا، وسيبقى كذلك تحقيقا لرغائب الأمة. وأما قضية خطيب الجامع المعتقل فستحل بما يوافق رغائب الأمة إذا لم تكن حلت حتى الآن.

«وسألتم عن الحشد العسكرى فى الساحل، وعن التدابير التى اتخذتها حكومتنا، وعن المساعى التى بذلناها فى سبيل استقلال البلاد وفى الجواب أقول: انه تحقق لنا أن إشاعة الحشد لا نصيب لها من الصحة، وان ما يشاهد ليس سوى عبارة عن استبدال قوى بأخرى. كما تأكد لدينا أن السلطة المحتلة أنقصت قواها عن قبل. أما المساعى التى بذلتها حكومتنا فى الاستقلال فلنا الأمل أن تنتهى ببلوغ الأمل المنشود، وأظنكم تسلمون معى بأنه ليس من الموافق بيان التفاصيل. على أننا نقدر أن نؤكد لحضراتكم أن حكومتنا لا تفتر عن السعى، ولا تدع وسيلة تفوتها فى سبيل الحصول على رغائب الأمة. مؤملة أن توضح لمؤتمركم العالى بأقرب وقت نتيجة مساعيها، وبالطبع هى الاعتراف بالاستقلال التام والوحدة السورية.

• ولقد خرجت الوزارة فائزة من هذه المعركة - رغم الحملات الشديدة التى حملت عليها، ورغم الأسئلة المحرجة التى وجهت إلى مندوبيها. فلم يثن ذلك العناصر المعادية لها، ولم يمنعها عن مواصلة العمل فى الخفاء لإسقاطها متذرعة بما أظهرته من الضعف والعجز، ثم جاء قرار سان ريمو يوم ٢٦ إبريل بمنح الانتداب لفرنسا على سورية، ولإنكلترا على فلسطين والعراق فعزز دعوة القائلين بوجوب التخلص منها، وإنشاء وزارة قوية متجانسة تقود البلاد فى المرحلة الدقيقة من تاريخها. واستمال خصوم الوزارة الملك إلى جانبهم وعقدوا اجتماعات سرية فى منزل كبير الأمناء حضرها بالذات. فتقرر إسقاطها وعلى أثر ذلك ذهب (كبير الأمناء) يوم ٣ مايو إلى منزل الركابى ولم

يغادره إلا بعد ما انتزع منه استقالة الوزارة. وقد بناها على أسباب صحية.

بلاغان رسميان إلى الملك

وقبل أن نتكلم عن الوزارة الجديدة ننشر نص البلاغ الرسمي الذى أبلغه المسيو مليران رئيس الوزارة الفرنسوية إلى جلالة الملك فيصل يوم أول مايو معلنا وضع سورية تحت الانتداب الفرنسوى. لانه كان من العوامل فى إحداث الأزمة وإقالة الوزارة. ثم نتبعه بخلاصة كتاب اللورد اللنبى قال:

«إن الحكومة الفرنسوية مشيرة من جهة إلى بلاغاتها السابقة، ومن جهة أخرى إلى المبادىء العمومية لتحرير الشعوب، والمعاونة الودية التى أعلنها مؤتمر الصلح تؤكد اعترافها بأن للأهالى الناطقين بالعربية من جميع المذاهب والساكنين فى القطر السورى الحق فى أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم بصفتهم شعوبا مستقلة، وترى من واجباتها أن تقبل المهمة التى عهد بها إليها مؤتمر الصلح لإعطاء هؤلاء الأهالى مشورتها، ومساعدتها لتحقيق أمانيهم المشروعة، وجعلهم ينتظمون أمما. وهذه المساعدة لابد منها بعد استعباد طويل وخروج من حرب تركت البلاد خرابا. وستضمن استقلالهم من كل اعتداء ضمن الحدود التى يعينها مؤتمر الصلح ناظرة نظر الاعتبار إلى الإدارات الذاتية اللازمة».

وفى يوم ٢٧ ابريل تلقى الملك كتابا خاصا من اللورد اللنبى ينطوى على تبليغ رسمى من بريطانيا عما اتخذه الحلفاء من قرارات بشأن سورية وفلسطين والعراق. وختم اللورد كتابه بدعوة الملك للسفر إلى أوروبا بالحاح «ليتمكن من بسط قضيته وقضية البلاد، ولان حقوق ملكيته لا تتم إلا بواسطة مؤتمر الصلح».

وقد رد الملك على البرقية الأولى ببرقية أرسلها يوم ١٣ مايو إلى المسيو مليران أبان فيها استياء الأمة السورية من تقسيمها إلى شعوب عديدة. فى حين أن هذه الشعوب القاطنة فى الأراضى السورية تنتمى إلى شعب واحد وتنزع منازع واحدة.

الوزارة الدفاعية وكيف تألف

ما كاد كبير الأمناء يعود من منزل رضا الركابى بكتاب الاستقالة حتى حمل إلى دار الحكومة كتاب اسناد رئاسة الوزارة الجديدة إلى هاشم الاتاسى وهذا نصه:

«عزيزى هاشم الأتاسى

بالنظر لما أحدثته برقية الحكومة الفرنسوية الواردة أول من أمس من التأثير الذى نتج عنه وقوع أزمة وزارية ـ رأينا أن نعهد اليكم لما ثبت لدينا من إخلاصكم ومقدرتكم بتأليف وزارة جديدة، يكون أول همها المحافظة على الأمن والراحة فى الداخل، والدفاع عن حقوق هذا الوطن إزاء كل من يريد به سوءا، أو يحاول الوقوف فى سبيل استقلاله المقدس من الخارج. فاعملوا على انتقاء من اختبرتم فيهم الصفات المطلوبة للوصول لهذه الغاية النبيلة وارفعوا إلينا ذلك للمصادقة عليه. والله يتولانا بتوفيقه وعنايته لخير هذه الأمة والبلاد والسلام عليكم» فرفع على الفور بيانا بأسماء زملائه وكانوا متفقين عليهم من قبل فصدر المرسوم الآتى:

«وزيرى السيد هاشم الأتاسى

نصادق على ما ارتأيتموه فى تذكرتكم رقم ١ بتاريخ ١٥ شعبان سنة ١٣٣٨ (٣ مايو سنة ١٩٢٠) من تأليف الوزارة على المنوال الآتى:

رئيس مجلس الشورى السيد رضا الصلح. وزير الداخلية هاشم الاتاسى (وكالة) وزير الخارجية. الدكتور عبد الرحمن شهبندر. وزير الحربية يوسف العظمة. وزير المالية فارس الخورى. وزير الحقانية جلال الدين. وزير المعارف ساطع الحصرى وزير التجارة جورج رزق الله.

فنؤمل أن تبذلوا جل مساعيكم فى تحقيق رغبات الأمة باتخاذ أفعل التدابير للدفاع عن استقلالنا المقدس، وحفظ الأمن والراحة، والعمل على تمكين لحمة التضامن بين طبقات الأمة السورية على اختلاف مذاهبها ونزعاتها لتكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وتوثيق عرى الولاء بين حكومتنا وحكومات الدول المتحابة الفخمة، ونخص منها اللاتى تساعدننا على الوصول إلى غايتنا المنشودة، وفقكم الله لما يريد، وتولاكم بعنايته وحسن توفيقه».

وفى يوم السبت ٨ مايو تقدمت الوزارة إلى المؤتمر فألقى وزير الخارجية بيانها وهو:

«أيها السادة

بناء على استقالة السيد على رضا الركابى تألفت الوزارة التى ترونها فى هذا

المجلس، لتبين لحضراتكم الخطة التى عزمت على انتهاجها. وقد قبلت أن تقع هذه التبعة العظيمة على عاتقها فى هذه الأيام العصيبة خدمة للوطن المقدس، وهى مستندة فى أعمالها بعد الاتكال على الله تعالى وعلى مؤازرتكم ومؤازرة الأمة الكريمة التى أنابتكم عنها.

إن أساس خطتنا هو:

١ ـ تأييد الاستقلال التام الناجز المتضمن فى جملة ما يتضمنه حق التمثيل الخارجى.

٢ ـ المطالبة بوحدة سورية بحدودها الطبيعية، مع رد طلب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبى منها وهو فلسطين وطنا قوميا لليهود.

٣ ـ رفض كل مداخلة أجنبية تمس سلطاننا القومى.

هذه غايات وزارتنا. وهى فى الواقع تحقق ما قرره مؤتمركم فى جلسته التاريخية المشهودة. ولأجل الحصول على هذه الغايات لابد لنا من المحافظة على صداقة حلفائنا الكرام الذين يساعدوننا على تحقيق رغائبنا الوطنية، والاستفادة من كل ما لدينا من الماديات والمعنويات كيما نتمكن من تنظيم قوة عامة فى البلاد تكفل حياتها وانتظامها. ولا يخفى على حضراتكم أن تنظيم القوة يحتاج إلى المال والرجال. أما الرجال فهم متوفرون لدينا. وأما المال فنسعى جهدنا للحصول عليه بطريقة لا تضر بحالة البلاد الاقتصادية. فالأمة التى تجود بروحها فى سبيل استقلال الوطن لا تبخل بمالها لتحقيق هذه الغاية أيضا. وستهتم الوزارة فى خطتها الداخلية اهتماما خاصا بزيادة التشديد فى حفظ النظام والأمن، حرصا على راحة الأهلين، وتأمينا لسير أعمالهم ونمو ثروتهم. ولما كان الإخلال بالأمن موجبا لعرقلة مساعينا الوطنية المقدسة فى الداخل، وسوء سمعتنا فى الخارج فقد عزمنا على أستعمال الشدة والصرامة فى وجه كل من يعكر صفو الأمن ويعبث بالراحة ويسىء سمعة البلاد.

«بلغكم أيها السادة أن المؤتمر فى سان ريمو اتخذ بعض قرارات ابتدائية تتعلق بنا، وهذه القرارات قد تضمنت الاعتراف مبدئيا باعتبار سورية دولة مستقلة. فنحن نسجل هذا الاعتراف مع السرور، ونتخذه أساسا للحقوق الأخرى التى سنطالب بها.

«نسجل على حليفتنا بريطانيا العظمى تصريحها باستعدادها بالاعتراف بجلالة مليكنا

الأعظم رأس دولة سورية مستقلة. إلا أن هذه القرارات ترمى إلى الانتداب، فنحن لقاء ذلك سنسعى جهدنا لرفع هذا القيد.

«لاشك فى أن المؤتمر الذى سيعقد فى أواخر هذا الشهر فى باريس سيعيد النظر فى مقرراته السابقة، ولنا ملء الأمل أن يعود فينصفنا، ولا يهمل وعود حلفائنا لنا. على أننا إن لم ننصف فلنا بقوة شعبنا وعزمنا الثابت أكبر ضامن لتاييد حقنا ونتخذ فى الختام هذه الفرصة لنعلن أننا قوم لا نطلب إلا حقنا، ولا نريد التعدى على غيرنا. بل نريد أن نعيش أحرارا فى عقر دارنا. مسالمين من يسالمنا. ومحترمين منافع من يحترم منافعنا. وبالله التوفيق».

وخطب بعض النواب مشيرا إلى خطورة الموقف - كما ناقش بعضهم الوزير، واشترط بعضم أن تعلن الوزارة كونها دفاعية، لمنحها الثقة. فوقف الوزير وقال إن الوزارة دفاعية قامت لأجل الدفاع، وستدافع إلى النهاية. فنالت الثقة الاجتماعية.

تدابير الوزارة وخططها

افتتحت الوزارة عملها بإصدار قرض داخلى بنصف مليون دينار سورى أقر قانونه مجلس الوزراء يوم ١١ مايو. وخلاصته «يعقد قرض وطنى فى البلاد السورية على مبلغ نصف مليون دينار بفائدة ستة بالمائة، ويرهن مليون دونم من أراضى الدولة العامرة فى ولاية حلب ولوائى حمص وحماه المذكورة مواقعها فى الجدول المربوط بهذا القانون، تأمينا على رأس المال. بحيث يرهن مقابل الدينار الواحد أربعة دونمات من الأرض ويصرح بذلك فى سند الدين. وتكون سندات الدين لحاملها، ويفرز من الواردات السنوية لأراضى الدولة مبلغ أربعين ألف دينار سنويا لتأدية الفائدة السنوية، ولاستهلاك رأس المال الأصلى ويدخل هذا المبلغ فى الميزانية العامة كل سنة اعتبارا من ميزانية سنة ١٩٢١ إلى أن يتم استهلاك الدين فى ٢٤ سنة».

وأعاد مجلس الوزراء الجديد النظر فى قانون التجنيد العام. وقد أهمل أمره فى عهد الوزارة السابقة، فعدله تعديلا جعله أوسع وأعم، ووضع له ذيلا نشر يوم ١٧ مايو يقضى بتجنيد جميع سكان المملكة السورية. وجعل مدة الخدمة الفعلية سنة واحدة، وقد ضمنت الوزارة بهذين القانونين الرجال والمال.

حروب الترك فى كيليكية

وعادت العصابات فى هذه الفترة إلى نشاطها، بعد ما ازدادت قوة بمن انضم إليها من الضباط الذين استقالوا من خدمة الجيش. فظهرت فى البقاع وجبل عامل وجبال النصيرية، وفى منطقة انطاكية واللاذقية والجزيرة العليا، فضايقت الفرنسويين وأزعجتهم واشتد ساعد العصابات التركية التى كانت تقاتل فى الشمال، ونالت فوزا كبيرا على الفرنسويين، وهزمتهم فى معارك عديدة، وحاصرت حامياتهم فجاءوا بنجدات جديدة من أوروبا بدل القوى التى أعادوها فى شهر إبريل. يوم اشتد الخلاف بينهم وبين ألمانيا وزحفت قواهم فاحتلت الرور.

وسعى الفرنسويون فى خلال هذه الفترة عند الملك فيصل ليحصلوا منه على إجازة بنقل جندهم من بيروت إلى حلب فالحدود التركية بالسكة الحديد (سكة الحديد من رياق إلى حلب) تسهيلا لمواصلاتهم، وليتسنى لهم ضرب العصابات التركية التى كانت تحاربهم ضربة شديدة، وأبلغ الجنرال غورو الكولونيل كوس مندوبه العسكرى فى دمشق أن يحتج باسمه على منعهم، وأن يبلغ الحكومة السورية أن الفرنسويين إنما جاءوا سورية ليحرروها من الترك. فما بالها تمنع المسيرة عن جيوشهم. فاتخذت الوزارة هذا الاحتجاج وسيلة لمطالبة الفرنسويين بدفع نصيب سورية من إيرادات الجمارك، وانتدب الملك الكولونيل طولا الفرنسوى - وقد جاء معه من أوروبا فى المرة الاولى فذهب إلى بيروت وحادث الجنرال غورو ثم عاد بعد بضعة أيام يحمل نسختين من مشروع اتفاق. واحدة ليوقعها جلالة الملك والثانية لتوقعها الحكومة وخلاصتهما أن الحكومة السورية تسمح بمرور الذخائر والزاد وبعض رجال الجيش مقابل بعض شروط. فعدلت الحكومة الشروط، وجعلتها على المنوال الآتى:

١ ـ الاعتراف باستقلال سورية استقلالا تاما.

٢ ـ الاعتراف بوحدة الشعب السورى والمملكة التى يقيم فيها.

٣ ـ دفع نصيب سورية من حصة الجمارك حسب اتفاق مؤتمر حيفا.

ولما عرضت هذه المطالب على الجنرال غورو رفضها. وقال إنه يكتفى بتصريح المسيو ميلران وأن حكومته لا تسمح له بتغيير شىء مما ورد فيه.

ويقول الركابي في صدد هذا الحادث «إنه أشار على الملك ـ حينما كان رئيسا للوزراء بأن يسمح للفرنسويين بنقل قواهم بالسكة الحديد، وبأن يرسل جنودا سورية للاشتراك معهم، لأنهم يدافعون عن الحدود السورية، ويؤدون واجبا كان يجب على الحكومة السورية أن تؤديه. وأن الملك وافق مبدئيا على رأيه، ووعده بتنفيذه، ولكنه عدل عنه في النهاية بتأثير العناصر الأخرى التي أشارت بالاتفاق مع الترك، والمضي في نضال الفرنسويين حتى النهاية لحملهم على الاعتراف باستقلال البلاد تحت تأثير الضغط».

وسافر يوسف العظمة وزير الحربية في تلك الأيام إلى حلب، ومنها قصد إعزاز «مدينة صغيرة على الحدود التركية» فاتصل بمندوبي الحكومة الكمالية وباحثهم في إنشاء تعاون عسكري بين الحكومتين، فوعدوه بأن يطلعوا حكومتهم على اقتراحاته ويبلغوه الجواب. ولم تقترن تلك الجهود بنتيجة إيجابية. لأن الفرنسويين عقدوا هدنة مع الترك في تلك الأيام.

الملك فيصل والانتداب

وبمناسبة دخول شهر رمضان في تلك الأثناء، آدب الملك مأدبة إفطار في قصره يوم ٢٨ مايو دعا إليها كبار القوم وعظماءهم، وبعد الطعام ألقى الخطبة الآتية:

«أريد بهذه المناسبة أن أقول كلمات أعلم أنها تهم الأمة كثيرا. نعم إن هذه الكلمات كانت منتظرة من الحكومة لا مني. لاني غير مسئول. ولكني أستسمح رئيس الوزراء وأقول:

«إن الأمة اليوم في شوق عظيم لمعرفة حالها ومصيرها. فقد بلغنا القرار الذي وضع في سان ريمو بشأن مستقبل بلادنا بصورة مجملة. فيئس البعض من جراء ذلك، وظن أنه قضى على مستقبلنا، وأن كل سعي نبذله لا يأتي بفائدة. وقال القسم الأعظم من سكان البلاد: لقد قضي علينا، ونحن لا نريد أن نستعبد فلنمت شرفاء.

«هاتان هما الفكرتان السائدتان اليوم. وكلتاهما غير مطابقتين للحقيقة. لأنه لم يقض علينا بالفناء لنيأس، ولا قضى علينا بالاستعمار لكي نقول يجب أن نموت شرفاء.

«لماذا قضي علينا؟ من المعلوم أنه اتخذ قرار يعترف باستقلال سورية على ما يقال ويجعلها تحت الانتداب! ولكن ما هو الانتداب؟ وما هي كيفيته؟ وهل يقضي علينا؟ هذا ما لايزال مجهولا.

«لقد اتخذت الأمة قرارا من قبل أعلنت فيه استقلالها. وقالت إنه يجب على الأمم أن

تعترف به. فكما أننا اتخذنا قرارا يوافق مصلحتنا، فقد اتخذوا قرارا لأنفسهم يلائم مصالحهم. وكل من الفريقين يدعى الحق لنفسه. ولكن ما بينهما من الود لا يجعل أحدهما يعتدى على حقوق الآخر وأن كان كل منهما ينظر إلى مصلحته قبل مصلحة سواه.

«الأمة السورية أعلنت استقلالها وفقا لمصالحها. أما الدول - فمع اعترافها بهذا الاستقلال - اشترطت لقبوله شروطا تلائم مصالحها أيضا، وعندما أعلنا استقلالنا قلنا باحترام مصالح الجميع، لنكون فى تآلف مع الشعوب التى حاربنا معها. ثم إن الدول وضعت شروطا وقالت لنا تعالوا لنؤلف بين مصالحنا ومصالحكم. فيظهر من هذا أنه لا ضيم علينا حتى الآن، وأن أبواب المذكرات مازالت مفتتحة أمامنا، وأنه ينظر الينا كأمة مستقلة.

«إن كلمة الانتداب لاحد لها ولا معنى صريحا لها. وقد رفضتها الأمة رفضا باتا، ولا يقبلها أحد يريد الحياة. فهى كلمة مطاطة تفسر طورا بأشد أنواع الاستعمار، وتارة بأخف ضروب المعاونة الودية، التى لا تمس الاستقلال. ومع ذلك فقبولها عار على كل أمة تريد الحياة.

«أرجو من الأمة أن تعلم ان رئيسها أو حاكمها أو ملكها الذى انتخبته هو على هذا المبدأ. لا يرضى أن يقال إن المملكة التى هو رئيسها تحت قيود مملكة أخرى. فالأمة التى عاشت قرونا عديدة، ومدنت العالم لا يمكن أن تتقيد بهذه القيود. وأريد أن لا يكون رفض الانتداب مقتصرا على القول فقط.

«تذكرون جميعكم أننى كنت دائما أقول. ولاسيما بعد رجوعى من أوروبا إن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى. أنتم تطلبون منى الاستقلال، وأنا أطلب منكم الوسائل. تذكرون أننا لما كنا تحت سلطة الاحتلال، وكانت الحكومة بدون قوة إجرائية، والأمة محتاجة إلى القوة - أى إلى الجند أردت أن أظهر للأمة ضرورة التجنيد، فتطوعت جنديا بسيطا، ولم يكن فى الإمكان حينئذ وضع قانون للتجنيد لحفظ النظام أولا وللمدافعة عند الحاجة ثانيا. فوضعت قانون التجنيد، ورأينا الفرق بين الجند قبلا عندما كان متطوعا، وبقى أكثر من سنة دون أن نتمكن من تنظيم وحدة للاستعراض. فضلا عن الدفاع وبينه الآن. وعلى أنه لم يمر شهران على وضع قانون التجنيد حتى رأينا أن لنا جيشا ولو قليلا، ونظاما، ولو فى حال الطفولية. ولكن الحكومة ترى أن هذا الجيش لا يكفى لحاجة البلاد داخلا وخارجا. ولاسيما

وأن ذلك القانون كان قد استثنى قسما عظيما من الخدمة.

«إن الأمم تنظر الينا من وجهتين: الأولى نظرة صديق يريد منا أن نظهر بمظهر منظم عظيم، ويخشى وقوع حادث يعكر علينا ويفسح المجال لإظهارنا بمظهر الهمجية. والثانية نظرة فريق ربما يطمع فينا. فالحكومة مجبرة على إيجاد القوة التى تفرح صديقها، وتدافع ولو عن كيانها، وتحافظ على نظامها لاسيما وأن المناطق السورية المحتلة هى فى حالة فوضى. أخشى أن تسرى إلينا وتسىء سمعتنا فى الخارج. فيجب أن تسهر الحكومة على حفظ النظام فى الداخل، وعلى إيجاد قوة تجعلنا محترمين من أصدقائنا وأعدائنا، ولا أعرف لنا عدوا.

«إن الامة تريد الاستقلال، وترى أن كل وزارة أو حكومة لا تعلن أنها دفاعية لا تصلح لها. فالأمة التى تطلب هذا يجب أن تقدم الوسائل اللازمة له من المال والرجال. يجب أن لا يتسرب اليأس إلى نفس أحد منا. وعلى المفكرين والعقلاء وأرباب الصحف أن يحولوا دون ذلك فنحن سنعيش، ولن يمس استقلالنا بسوء.

«ولاشك أن هذه الأمة التى بذلت عشرات الالوف من الضحايا فى غاليسيا والقوقاس والعجم والروم ايلى خدمة لمصالح غيرها، لا تتأخر عن بذل أضعاف ذلك دفاعا عن كيانها وحريتها، ولو كانت خارجة من حرب طويلة منهكة. ولما كان من غير المستطاع إيجاد جند بلا مال. فقد أصدرت الحكومة قرضا مضمونا يمكنها من إيجاد قوة تضمن حياتها المقبلة فأرجو من الأمة أن تقبل عليه، وتثبت للعالم المتمدن أنها لا تحتاج من الخارج. حتى ولا للمال. فلديها كل شىء عند اللزوم.

«لقد اعتادت الحكومات أن تصدر قروضا عند الأزمات يكون الاقبال عليها مقياسا لحياتها. فأريد أن يصادف هذا القرض إقبالا عظيما. سيما وهو مضمون برهائن عظيمة تعود بالفائدة على حاملى إسناده. فاستنهض الهمم للإقبال عليه، وعلى الجندية، ولاشك فى أنه لن يتأخر عن ذلك إلا من كان عدوا للوطن.

«إن جميع الحاضرين هنا هم أعين هذه الأمة التى تبصر بهم صالحها ونجاحها. فعليهم أن يسعوا لإرشادها إلى هاتين الغايتين الشريفتين. المال والجندية فيكونوا بذلك خير مساعدين لحكومتهم وأمتهم.

«هذا ما أرجوه من الأمة وأوصيها بالانصراف إلى الجد والرزانة فى جميع حركاتها

وسكناتها . أما الذين يقولون بالاستماتة فى سبيل الحياة الحرة والموت الشريف فإنى أقدس فكرتهم، وأعد نفسى فردا من أفرادهم. ومتى دنت ساعة الخطر، فسأكون أول من يموت بيد أنى أطمئنهم بأنه لم يحكم علينا بالإعدام. فهذا الحكم لم يصدر ولن يصدر. وعلينا أن نستعد ونتروى، وأن لا تكون حركاتنا تابعة للخيالات، بل للماديات والمحسوسات.

«ان مسألة سورية من أعظم مشاكل العالم التى يصعب حلها . فلا يحكم فيها حكما نهائيا بمجرد قول جريدة أو خطبة يخطبها مسؤول أو غير مسؤول. فالحكومة التى رئيسها أمامى أسأله أنا والأمة عن نتيجة أعماله تنتظر اليوم نتائج الأمور فأريد من الأمة أن تثبت إلى النهاية، وأن تنتظر النتيجة برباطة جأش، وتمد حكومتها بالمال والرجال، ولنبذل جهدنا، والتوفيق منه تعالى وأرجو أن نكون فى العام المقبل حول هذه المائدة وقد نسينا هذه الأيام العصيبة».

الهدنة بين الترك والفرنسويين

وبينما كان رجال الحكومة السورية يدبرون التدابير ويجمعون القوى أذيع فى دمشق يوم ٥ يونيو سنة ١٩٢٠ نبأ عقد هدنة بين الفرنسويين والترك. فقد أدرك الفرنسويون عجزهم عن الثبات فى الشمال والغرب، وعرفوا أنه ليس فى استطاعتهم التغلب على هذه القوى كلها، فاتصلوا بالترك ثم اتفقوا معهم على عقد هدنة تكون مقدمة لصلح وهذا نص الشرروط:

من مصطفى كمال رئيس مجلس الأمة الكبير

إلى رئيس القيادة فى عينتاب

«تم الاتفاق بيننا وبين الفرنسويين بعد مذاكرات على الشروط الآتية:

١ ـ تعقد هدنة بيننا وبينهم من منتصف ليلة ٣٠ مايو.

٢ ـ ينسحب الفرنسويون الذين فى بوزانطى وسيس بمعداتهم وذخائرهم إلى خط أطنه ـ مرسين. ويجلون عن عينتاب، وتنحسب قواهم من داخل المدينة إلى معسكرهم فى خارجها. وينبغى أن يتم الجلاء عن بوزانطى وسيس وعينتاب فى خلال عشرة أيام من ابتداء الهدنة.

٣ ـ نرد إلى الفرنسويين أسراهم فى خلال عشرة أيام من ابتداء الهدنة، ويردون إلينا من بيدهم من أسرانا، أو من أسرى المسلمين المعتقلين لأسباب سياسية.

٤ ـ تكون لنا حرية الاتصال بوالى أطنه والموظفين العثمانيين، وينبغى التحاجز (ترك القتال) من صبيحة يوم الاثنين ٣٠ مايو، ويتقدمه وضع التعليمات اللازمة بشرط الجلاء عن بوزانطى وسيس وعينتاب وتبادل الأسرى.

وينبغى أن لا يأتى صباح ٣٠ منه حتى تكون بلغت الخطوط الأمامية هذه الأوامر، وأطلب أن يحافظ عليها بدقة».

تلك هى شروط الهدنة التى عقدت بين الترك والفرنسويين. فمكنت هؤلاء من نقل جنودهم التى كانت تحارب فى الشمال إلى اسكندرونه وقاطمه على حدود حلب، ولم يكد ينصرم شهر يونيو حتى كان عندهم نحو ٥٠ ألف جندى فى تلك المنطقة مجهزين بالسلاح الكامل فضلا عن القوات الأخرى التى كانت محتشدة فى بيروت والجبل والمناطق الأخرى وما كانت تقل عن العشرين ألفا.

وجهز الفرنسويون على الأثر حملة كبيرة زحفت على بلاد الجنوب (صيدا وصور ومرجعيون) لمطاردة العصابات التى استفحل نفوذها فى تلك الجهات. وكانت قد هاجمت صور ومرجعيون، وكادت تحتلهما فأحرقوا كثيرا من القرى والضياع ودمروها. وفى يوم السبت ٥ يونيو عقد اجتماع كبير فى مدينة صيدا أصدرت السلطة الفرنسوية عنه البلاغ الآتى:

«فى صباح السبت ٥ يونيو اجتمع بناء على دعوة الحكومة فى صيدا أعيان أقضية صيدا وصور ومرجعيون من شيعيين ومسيحيين ودروز، وبلغ عددهم أكثر من ٢٠٠ فألقى عليهم الكولونيل نيجر خطابا شديد اللهجة، وجهه إلى الشيعيين. ثم تلا عليهم الأحكام

قائلا ان الحكومة يسوءها.أن يحكم على وجهاء الشيعيين بهذه الأحكام الصارمة، ولكنهم هم الجناة على أنفسهم. وهذه خلاصة الأحكام:

حكم بالإعدام على صادق حمزة وأحمد المحمود بزة ومحمد التامر وعبد الحميد بزة ويوسف طاهر أدهم خنجر وكثيرين غيرهم.

وحكم بالنفى المؤبد على كامل الأسعد والسيد عبد الحسين شرف الدين والحاج محمد سعيد بزة وراشد عسيران ومحمد الحاج حسن عبد الله وإخوته.

وبعد تلاوة هذه الأحكام قال الكولونيل إن الحكومة أعدمت جميع الثوار الذين حاولوا متابعة حركاتهم أثناء وجود الحملة، وعددهم يقدر بثلاثين. ثم طلب من الحاضرين إعلان قبولهم الشروط الآتية لاسترداد الحملة وهى:

١ ـ دفع غرامة قدرها مائة ألف جنيه مصرى.

٢ ـ إرجاع المسلوبات إلى أصحابها.

٣ ـ إعطاء تعهد خطى للحكومة بالمحافظة على المسيحيين الذين يبقون فى قراهم.

٤ ـ جمع الأسلحة من أقضية صور وصيدا ومرجعيون.

٥ ـ تسليم المجرمين أينما وجدوا.

٦ ـ إلقاء المسؤولية على عواتقهم عن كل أمر يجد، وكل قتيل يقتل فى أحد الأقضية الثلاثة.

وأمهل الكولونيل الحاضرين إلى الساعة الثالثة ليتداولوا، ويعطوا الجواب على شروطه. وفى الوقت المعين قدموا تعهدا خطيا ذيلوه بالذيل الآتى ووقعوه بتواقيعهم وهو:

نتعهد بدفع مئة ألف جنيه مصرى للتعويض عن الخسائر التى لحقت بقرى المعتدى عليم، ونتعهد بأن نساعد الحكومات على جمع الأسلحة من الأهالى ونسلم المجرمين – إذا رأيناهم – ولا نقدر أن نحافظ على مسيحيى الأقضية من هجوم خارجى، وانما نكون مسؤلين إذا اشتركت قرانا فى هذا الهجوم.

وبما أننا لا يمكن أن نكون فى وقت واحد فى كل مكان لا يسعنا أن نحمل مسؤلية ما يقع على عواتقنا. غير أننا سنبذل الجهد للحيلولة بكل قوانا دون وقوع حوادث جديدة تستوجب المسئولية.

وفى ١٧ منه نشر فى بيروت البلاغ الآتى:

«لاتزال الحملة العسكرية تواصل أعمالها فى قضاء صور وجميع رؤساء القبائل والقرى فى حدود المنطقة الجنوبية جاءوا مظهرين خضوعهم، ودفعوا الغرامة وسلموا الأسلحة كما تقرر».

«وقد قبض على بعض المتمردين فأعدموا رميا بالرصاص، وامتنعت قريتان فقط عن القيام بالتعهد فأكرهتا بالقوة».

«وقد أعيد تأليف عصابات صادق حمزه وأدهم خنجر فى المنطقة الشرقية، وجاءت هذه العصابات إلى قريتى عديس والطيبة لإكراه الشيعيين المقيمين فيهما على الانضمام إليهما لإثارة فتن جديدة. فلما أبى سكانهما الانصياع لتلك العصابات نهبت القريتين فأرسلت قوات قومندان صيدا بسرعة إلى محل الحادث لنجدتهما».

«وحاولت عصابة قويج فى الشمال من الشيعيين مهاجمة قرية فوبانات المارونية، فأرسلت فى الحال قوة كبيرة وبددت شمل العصابة».

ونشرت شركة هافاس يوم ٢٣ منه البرقية الآتية:

أخفقت العصابات التى حملت على جديدة ومرجعيون إخفاقا تاما وخسرت أربعمائة قتيل.

وأصاب مثل هذا الفشل عصابات الشيخ صالح حول طرطوس، وفر الشيخ صالح نفسه.

حادث مجلس إدارة لبنان

وبينما كان النضال دائرا بين الفريقين ورجال العصابات فى الجنوب (جبل عامل) وفى الشمال (جبل النصيرية) بأقصى شدته كان الأميرالاى سعيد بك البستانى قائد الجند اللبنانى السابق يتردد على دمشق، ويقابل جلالة الملك فيصل بغية إيجاد تفاهم بين دمشق ولبنان. فقد سئم أحرار لبنان المعاملة السيئة التى يعاملهم بها الموظفون الفرنسويون، وفى مقدمتهم الكومندان لابرو متصرف الجبل. فقد كان يتطاول على أعضاء مجلس الإدارة

(برلمان الجبل)، ولا ينفذ قراراتهم، كما تطاول الليوتنان ماسيت - مستشار الجند اللبنانى على قائد الجند العام الأميرالاى سعيد بك، ولم يطق هذا الإقامة على الذل فاستقال وانصرف إلى خدمة القضية الوطنية.

بدأت المحادثات فى أواخر شهر مايو بواسطة نجيب الأصفر فى بيروت بين كل من سعد الله الحويك أحد أعضاء مجلس الإدارة وإلياس الحويك ترجمان المتصرفية وابن أخيه وبين جميل الألشى ضابط الارتباط العربى فى بيروت على قاعدة استقلال الجبل وحياده بعد تكبيره، وقد اشترك فيها أخيرا سليمان كنعان وإلياس الشويرى من أعضاء المجلس والأمير أمين أرسلان. وبعد أخذ ورد تم الاتفاق على وضع مضبطة بطلب الاستقلال التام للبنان على أن يحملها أعضاء مجلس الإدارة ويسافروا بالذات إلى دمشق، ومنها إلى حيفا فباريس. حيث يلاحقون قضيتهم أمام مؤتمر الصلح، وعلى أن تدفع لهم عشرة آلاف جنيه لنفقات سفرهم ريثما يصلون إلى باريس - وقد تعهدت الجمعيات اللبنانية فى أميركا بأن تقوم بدفع نفقاتهم مدة إقامتهم هنالك، وجمعت الإعانات فعلا - وقد دفع لهم المبلغ المتفق عليه تناوله سليمان بك كنعان باسم قرض من عارف النعمانى، بضمانة الأمير أمين أرسلان بعدما كتب عليه سندا، ووزعت الأموال على الذين تقرر أن يسافروا - كما تقرر أيضا بأن تكف العصابات بعد توقيع المضبطة عن مهاجمة الأراضى اللبنانية، وقد نفذ هذا الاتفاق.

وكانت المفوضية العليا على علم بكل ما يجرى، وكانت تطلع عليه بواسطة أحد موظفيها، وكان يحضر الاجتماعات السرية فى منزل نجيب الأصفر. وقد قدمه هذا إلى أعضاء المجلس طالبا إليهم أن يثقوا به ثقتهم بأنفسهم. بحجة أنه من الناقمين على الفرنسويين، ووعدهم هذا أن يسافر إلى حيفا يوم سفرهم ويرافقهم إلى باريس.

وفى يوم ١٠ يوليو وضعت المضبطة المطلوبة، ووقعها سبعة من أعضاء المجلس هم: سعد الله الحويك وخليل عقل وسليمان كنعان ومحمود جنبلاط وفؤاد عبد الملك وإلياس الشويرى ومحمد الحاج محسن وتخلف يوسف البريدى - وكان متضامنا مع الأعضاء الموقعين بسبب مرضه، وأرسل نسيبه مخول قاصوف للاشتراك فى اجتماعاتهم، ووعد بأن يلحق بهم إلى دمشق. ولم يكاشفوا داود عمون بالأمر، لأنهم ما كانوا يثقون به ولم يفاتحوا حبيب السعد.

وهذا نص المضبطة الموضوعة:

إن مجلس إدارة جبل لبنان النيابى المؤلف نظاما من ١٣ نائبا، وفى الوقت الحاضر من ١٢ نائبا عاملا بسبب خلومركز أحد نائبى كسروان المستقيل قد وضع نهار السبت الموافق ١٠ يوليو سنة ١٩٢٠ بأكثريته الكبرى القرار الآتى:

إنه لما كان اللبنانيون، منذ أعلنت الدول العظمى حق إنشاء الحكومة الوطنية لشعوب هذه البلاد، قد طلبوا ومازالوا يطلبون تأييد حقوقهم بتأسيس حكومة وطنية مستقلة.

ولما كان استقلال جبل لبنان ثابتا تاريخيا، ومعروفا منذ أجيال طويلة وموقعه وطبيعة أهاليه الموالفة للحرية الاستقلالية منذ القدم، مما يستلزم استقلاله وحياده السياسى - أيضا لوقايته من المطامع والطوارىء، وكان مع ذلك من أهم مصالحه وراحة شعبه الوفاق وصفاء العلاقات مع مجاوريه، وقد دل على ذلك ما أحدثه التقاطع من ثوران الجهلاء لارتكاب الحوادث المؤلمة المقلقة المتسلسلة من السنة الماضية إلى هذه الآونة.

فبناء على ما تقدم قد بذل هذا المجلس مزيد الاهتمام توصلا لوفاق يضمن حقوق البلدين المتجاورين سورية ولبنان ومصالحهما ودوام حسن الصلات بينهما فى المستقبل. وبعد البحث فى هذا الشأن وجد أنه من الممكن الوصول إلى ذلك بمقتضى البنود التالية:

١ ـ استقلال لبنان التام المطلق.

٢ ـ حياده السياسى، بحيث لا يحارب ولا يحارب، ويكون بمعزل عن كل تدخل حربى.

٣ ـ إعادة المسلوخ منه سابقا بموجب اتفاق يتم بينه وبين حكومة سورية.

٤ ـ المسائل الاقتصادية يجرى درسها، وتقرر بواسطة لجنة مؤلفة من الطرفين وتنفذ قراراتها بعد موافقة مجلس لبنان وسورية.

٥ ـ يتعاون الفريقان فى السعى لدى الدول للتصديق على هذه البنود الأربعة وضمانة أحكامها.

ولأجل التمكن من العمل على ذلك بحرية، وبمعزل عن ضغط وتأثير خارجى، ولأجل السعى الناجح فى المراجع الإيجابية لتقرير أحكام البنود الأربعة المتقدم بيانها، والتى هى مطالب الأمة اللبنانية ومصلحة لبنان الحقيقية المنزهة عن المآرب والأغراض الخصوصية،

وبالنظر لنيابة هذا المجلس عن الشعب اللبنانى القانونية والمؤيدة مؤخرا أيضا باصوات أكثرية الشعب الكبرى قد قررت أكثرية المجلس موقعة هذه المضبطة الانتقال والتوجه بالذات لملاحقة ومتابعة تقرير مضمون البنود الآنف بيانها فى أعمال القضية، والمراجع الإيجابية وإبلاغ هذا القرار بكامله إلى المقامات الرسمية، والسعى بالطرق الممكنة.

فؤاد عبد الملك محمود جنبلاط سليمان كنعان خليل عقل سعد اللّه الحويك

محمد الحاج محسن إلياس شويرى

وتم الاتفاق على أن يسافر الأعضاء منفردين يوم السبت ١٠ يوليو إلى دمشق لئلا يلفتوا الأنظار. فقرر الفرنسويون القبض عليهم فورا، وأرسلوا قوات رابطت عند نفق حمانا والمسالك الأخرى، وكانت السيارة المقلة لسعد اللّه الحويك وابن أخيه إلياس أول ما وصل فلما شاهد الأول هذا الاستعداد قال لابن أخيه «لقد وقعنا» واستقبلهما ضابط فرنسوى وقال لهما يجب أن تعودا إلى صوفر لتحصلا على تصريح بالسفر، وأرسل معهما جنديين فالتقيا فى عودتهما بسيارة أخرى فيها اثنان من زملائهما فلما بلغا صوفر أرسلا منها إلى منزل حبيب باشا السعيد، وجاء الكولونيل نيجر والكومندان لابرو ومدير الأمن العام فحققوا معهم، وقبض أيضا فى اليوم نفسه على الأميرالاى سعيد البستانى والأمير أمين ارسلان وعارف النعمانى وإلياس عقل نجل خليل عقل، وسجنوا منفردين ثم نقلوا إلى السراى القديمة، وفى يوم ١٨ منه بدأت محاكمتهم أمام مجلس عسكرى مؤلف من الضباط ديبوى ولكمنسو ولابير برئاسة الكولونيل بكروسون بتهمة الخيانة الوطنية العظمى، وفى يوم ١٩ منه حكموا عليهم الأحكام الآتية:

خليل عقل نفى عشر سنين مع إعادة ١٤٠٠ ليرة، ودفع ٢٠٠٠ غرامة، ومثله سليمان كنعان مع إبلاغ الغرامة إلى٢٨٠٠، ونفى سعد اللّه الحويك ٨ سنوات وإعادة ١٤٠٠ وغرامة ٢٨٠٠ ليرة، ونفى فؤاد عبد الملك ١٠ سنوات وإعادة ٨٠٠ ليرة ودفع ١٦٠٠ ليرة غرامة، ونفى محمد محسن ٨ سنوات وترجيع ١٤٠٠ ليرة وغرامة ٢٨٠٠ ليرة ونفى محمود جنبلاط ٧ سنوات وإعادة ١٣٥٠ ليرة وغرامة ٢٧٠٠ ليرة، ونفى إلياس الشويرى ١٠ سنوات مع إعادة ١٥٠٠ ليرة وغرامة ثلاثة آلاف ليرة، ونفى سعيد البستانى عشر سنوات، ونفى الأمير أمين أرسلان ٦ سنوات ورشيد عقل ٨ سنوات وإلياس الحويك ٩ سنوات مع ترجيع ٣٠٠ ليرة وغرامة ٦٠٠ ليرة.

وأرسل المحكوم عليهم إلى إرواد فظلوا فيها حتى أواخر شهر أغسطس سنة ١٩٢٠ ثم أعيدوا إلى بيروت، ومنها نقلوا إلى جزيرة كورسيكا. فأقاموا فيها نحو ثمانية أشهر نقلوا بعدها إلى باريس، وظلوا فى الاعتقال حتى أواخر سنة ١٩٢٣ فأطلق سراحهم فعادوا إلى أوطانهم.

إلغاء مجلس الإدارة

وأصدر الجنرال غورو يوم ١٢ يوليو سنة ١٩٢٠ وعلى أثر هذا الحادث قرارا بإلغاء مجلس الإدارة هذا نصه:

١ ـ ألغى مجلس إدارة لبنان لعدم استطاعته القيام بوكالته.

٢ ـ تقوم مقامه لجنة إدارية موقتة ريثما يعين النظام الأساسى للبنان الكبير، ويمكن الشروع بالانتخابات النيابية.

٣ ـ يعين أعضاء اللجنة الإدارية فيما بعد.

وأرسل حبيب السعد والمطران مبارك وإميل إده وداود وعمون والدكتور أيوب ثابت برقيات إلى الجنرال غورو يستنكرون فيها أعمال أعضاء مجلس الادارة ـ لإنهم طلبوا الاستقلال ـ ويتبرأون منهم، ويضيفون إليهم لقب الخيانة ـ أى أنهم مثلوا نفس الأدوار التى كان جمال باشا يمثلها فى عهده زمن الحرب ـ فكان يحمل كبار القوم بالقوة ـ على إرسال برقيات يكتبها رجاله، وتستهل باستنكار حركات الأحرار وتصرفاتهم، وتختم بشكره لمعاقبته الخونة وتخليصه البلاد من شرورهم، على أنه لابد لنا من القول أن المطران مبارك غير رأيه حينما اطلع على المضبطة فى أثناء المحاكمة. وقال لو كنت أعرف أنهم يطلبون هذه المطالب لما أرسلت احتجاجى. وذهب الكومندان ترابو والشيخ يوسف الخازن إلى بكركى صباح الأحد ١١ يوليو – أى غداة القبض على الأعضاء ـ وما كان البطريرك يعرف شيئا – لأن أخاه وابن أخيه كتما عنه الأمر، وانقطعا عن زيارته من ابتداء المفاوضات. وقالا له إن «الجماعة» اتفقوا مع الملك فيصل، وباعوا البلاد وخانوها، وأن الجنرال غورو يطلب إليك أن تحتج على عملهم فاحتج مع المحتجين. على أنه ذكر الجنرال غورو بأمرهم حينما اجتمع به فى بيروت يوم أول سبتمبر سنة ١٩٢٠ فأجابه أنه لم يأن

أوان البحث فى قضيتهم، فلم يعد إلى اثارتها ثانية. وقد فترت العلاقات بينهما بعد هذا الحادث.

وننشر هنا نص البلاغ الفرنسوى الذى أذيع فى بيروت يوم ١٢ يوليو عن هذا الحادث بنصه للمقابلة بينه وبين ما أوردناه:

«علم من مدة طويلة أن حكومة دمشق تعمل فى المنطقة الفرنسوية على نشر دعوة يراد بها إحباط النفوذ الفرنسوى، ودفع الأهلين بوسائل منكرة إلى الاحتجاج على الانتداب الفرنسوى، ولقد أحبط ولاة الأمور الفرنسويون ضربا من ضروب هذه المناورات. وتحرير الخبر أن جماعة من وسطاء حكومة دمشق الشريفية رشوا ثمانية من أعضاء مجلس إدارة لبنان بمبلغ اثنين وأربعين ألف جنيه، فحاول هؤلاء الأعضاء أن يبرحوا المنطقة الفرنسوية إلى دمشق ثم يسافروا من أحد موانىء المنطقة البريطانية إلى أوروبا، بناء على إيعاز من الأمير فيصل ليجاهروا فيها - خلافا لعواطف أهل لبنان التى أظهروها وأكدوها تكرارا - بان لبنان غير مستعدة لقبول الانتداب الفرنسوى ويشهروا بذلك.

«فهذا ما تفعله حكومة دمشق التى ما فتئت تظهر عداء ظاهرا منذ أشهر مع أن ولاة الأمور الفرنسويين يظهرون لها الملاينة والمسالمة، ولم تخش حكومة دمشق من عواقب تسليح العصابات وإرسالها إلى المنطقة الغربية لمقاتلة جنودنا ولم تحجم عن أن تنشر فى صحف دمشق أقوالا يمجها الذوق عن الجنرال غورو، وأن تحرض الأهالى على رفض مساعدة فرنسا وأن تسىء معاملة مريديها، والذين تحت حمايتها كالأمير مختار عبد القادر. ولقد كان للحادث الجديد اليوم - حادث أولئك الأعضاء وقع عظيم فى بيروت ولبنان - حيث تظاهر الأهالى ضدهم، وهم يستعدون لاقامة مظاهرة كبيرة يوم ١٤ يوليو ضدهم».

وقد زاد هذا الحادث فى نقمة الفرنسويين على حكومة دمشق، لانه كاد يخرج موارنة لبنان من أيديهم، وهم عدتهم التى يعتمدون عليها فى نضالهم للاستيلاء على بلاد الشام بعد ما خذلهم المسلمون على اختلاف طوائفهم، وتخلى عنهم الروم الأرثوذكس والبروتستانت، ووقفوا صفا واحدا أمامهم يعلنون أنهم يرفضون انتدابهم ويأبون التعاون معهم، ولا ريب أن خروج هذه الهيئة عليهم، وهى الهيئة الرسمية الوحيدة التى تمثل لبنان، ومحاولتها السفر إلى دمشق وإعلانها باسم لبنان أنها تطلب الاستقلال التام، وينطوى هذا

ضمنا على رفض الانتداب الفرنسوى قذ أقلقهم وجعلهم يعجلون فى ضرب حكومة دمشق، وفى العمل على التخلص منها ليأمنوا الطوارىء، ولكيلا يستهدفوا لحادث مثل هذا.

الإنذار الفرنسوى الأخير إلى الحكومة السورية

ومذكرات الملك إلى الحلفاء

وبينما كان ولاة الأمور الفرنسويون يبرقون ويرعدون وصل اللواء نورى السعيد إلى بيروت يوم ١٠ منه مصحوبا بالكولونيل طولا الفرنسوى (ضابط الارتباط الفرنسوى فى معية الملك، وقد جاء معه من باريس حين عودته فى المرة الأولى) للاتصال بالجنرال غورو والبحث معه فى وضع خطط الرحلة التى يرحلها جلالة الملك إلى أوروبا تلبية لدعوة مؤتمر الصلح، ولإتمام المباحثات السياسية. فأبى الجنرال الدخول فى التفاصيل، وسلم الأول إنذارا شفهيا حمله إلى دمشق مساء ١١ منه يطلب فيه:

١ ـ قبول الانتداب الفرنسوى بدون قيد ولا شرط.

٢ ـ إرجاع الجيش السورى إلى الحالة التى كان عليها فى شهر فبراير.

٣ ـ التعامل بورق النقد السورى.

٤ ـ احتلال محطات سكة حديد رياق ـ حلب وبعلبك وحمص وحماه احتلالا عسكريا واحتلال مدينة حلب نفسها.

وقال إنه لا يوافق على سفر الملك إلى أوروبا مالم تحل المسألة السورية حلا نهائيا، وأنه إذا سافر عن طريق غير بيروت فالحكومة الفرنسوية لا تحادثه ولا تستقبله.

ولما تلقى جلالة الملك هذا الانذار أبلغ فى اليوم نفسه (١١ يوليو) البرقية الاحتجاجية الآنية إلى الماركيز باتررنودى مانكى قنصل ايطاليا العام فى دمشق بصفته عميد القناصل، وممثل دولة كبيرة حليفة لإرسالها إلى مؤتمر الصلح العام وإلى جمعية الأمم، ولابلاغها إلى قناصل الدول فى دمشق لارسالها إلى حكوماتهم وهى[1] .

«بعد ما حشد الجنرال غورو جيوشه على الحدود الفاصلة بين المنطقتين الشرقية

١ـ هذه البرقية والبرقيات الأخرى التى تبودلت من ١٠ حتى ٢٧ يوليو هى من محفوظات الأستاذ توفيق اليازجى.

والغربية، وأنشأ قواعد حربية، طلب قبول مطالب فرضها علىّ، وفيها انتهاك صريح لسيادتنا الوطنية، وقد اعترف حتى الآن بجزء منها بطريقة غير رسمية. وقال إنه سيضع العقبات فى سبيل سفرى إلى باريس إذا لم تجب مطالبه وإن الحكومة الفرنسوية ترفض أن تحادثنى فى القضية السورية إذا سلكت فى سفرى سبيلا غير المنطقة الغربية.

«وإننى ألفت إلى عمله هذا نظر دول الحلفاء وجمعية الأمم راجيا أن يتدخلوا ويحولوا دون سقوط الشعب السورى أمام القوة. فلا يكون فريسة للروح العسكرية، وقد كان القضاء عليها من جملة أغراض الحرب العظمى، وألجأ إلى عدالتهم ليحجبوا الدماء وليصونوا هذه البلاد التى ضحت ضحايا كثيرة فى سبيل قضية الحلفاء من خراب عام، وذلك بأن يؤلفوا لجنة تحكيم دولية تعرض عليها مطالب الجنرال غورو لدرسها وأتعهد وشعبى مقدما بقبول قراراتها والخضوع لها.

فيصل

وفى يوم ١٢ منه أرسل سكرتير جلالته إلى قنصل إيطاليا العام البرقية الآتية لإبلاغها إلى قناصل الدول فى دمشق ليرسلوها إلى حكوماتهم وهى:

لى الشرف أن أطلعكم على ما يأتى:

١ ـ فى ليلة ١٢ الجارى جاءت القوات الفرنسوية المرابطة فى جرابلس فعسكرت فى جسر الساجور.

وجاءت فصيلة فرنسوية مسلحة بالرشاشات إلى رياق فانضمت إلى بضعة الجنود الفرنسويين الذين نالوا حق الإقامة هنالك باتفاق خاص للمحافظة على مستودع السلطة فى المنطقة الغربية.

ووصل إلى رياق الكابتن هاك الحاكم العسكرى لزحله، فأبلغ سلطاتنا احتلال رياق من قبل الجنود الفرنسوية.

٢ ـ لقد حدثت هذه الحوادث فجأة ومن دون موافقتنا. بل من دون اطلاعنا عليها قبل وقوعها. وهى لا تتفق مطلقا مع التأكيدات التى نلناها بالمحافظة على الحالة الحاضرة.

٣ ـ رغبة منى فى إنقاذ السلم وفى المحافظة على روابط الصداقة والود حتى النهاية لم اتخذ حتى هذه الساعة أى تدبير فى مقابل هذه الأعمال العدائية.

ويظهر لى بجلاء ووضوح أن الثقة التى وضعناها فى حلفائنا الفرنسويين ستنتهى باحتلال بلادنا كلها، ويت صلات الصداقة والتحالف بيننا وبينهم.

وفى الختام إنى آسف لإبلاغكم بأننى أعتبر الحركة الجديدة للجيش الفرنسوى فى داخل منطقتنا عملا عدائيا تقع تبعته كاملة على عاتق مسببيه.

فيصل

مذكرة إلى الحلفاء

وفى اليوم نفسه أرسل جلالة الملك المذكرة الآتية إلى دول الحلفاء بواسطة الحكومة الايطالية، وعلى يد قنصلها العام فى دمشق وهى:

يا صاحب السعادة

بصفتى رئيسا للشعب السورى حليف بلادكم، والذى جاهد فى سبيل القضية المشتركة أوجه نظركم إلى الحالة الحرجة التى نشأت فى سورية. حيث السلام محفوف بأشد الأخطار.

وإنى أخاطبكم بصفتكم ممثل إحدى دول الحلفاء الكبرى التى اشتركت فى مؤتمر الصلح الذى أخذ على عاتقه مهمة توطيد السلام فى العالم كله، والتى اعترفت فى مؤتمر سان ريمو باستقلال بلادى، ودعتنى إلى القدوم لمحادثتى بصفتى رئيس هذا البلد المستقل. فأقول لكم بصراحة وجلاء إننى بينما كنت أعد المعدات إلى السفر تلبية للدعوة التى وردت إلىّ تلقيت أنباء مزعجة عن حركة الجيوش الفرنسوية بقيادة الجنرال غورو فاثارت شكوكى من جهة نياته السليمة – رغم تصريحاته المتكررة لى بأنه يشعر شعورا وديا نحونا – بيد أن حركاته فى الأيام الأخيرة، وحشده الجيوش على طول خط الحدود، وسلوك سلطات الاحتلال أثبتت لى بجلاء أن أفعاله لا تتفق وأقواله.

هذا من جهة. أما من الجهة الأخرى فإننى أبلغت بصفة شبه رسمية انه يعلق سفرى

إلى باريس على إجابة مطالبه. ويقول إن الحكومة الفرنسوية لا تحادثنى فى القضية السورية إذا لم تجب مطالبه وهى:

١ ـ احتلال الجنود الفرنسوية لمحطات سكة حديد رياق ـ حلب.

٢ ـ الاعتراف بالانتداب الفرنسوى لسورية بدون قيد ولا شرط.

٣ ـ قبول التعامل بورق النقد الذى أصدره البنك السورى فى المنطقة الشرقية.

٤ ـ إلغاء الخدمة العسكرية الإلزامية فى المنطقة الشرقية (مع علمه بأن هذه الخدمة لم تقرر إلا لتوطيد الأمن والنظام).

ولقد اقترحت عليه تأليف لجنة دولية مختلطة تعرض عليها هذه المطالب القاسية التى لا تتفق مع المبادىء التى أعلنها الحلفاء، وتفصل فى كل خلاف يقع بيننا، وذلك طبقا لأحكام اتفاقات ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ المعقودة بين الحكومة الفرنسوية وبينى فأجاب على هذا الاقتراح بتعزيز قواه على الحدود، وباحتلال رياق - كما أن القوات الفرنسوية فى جرابلس احتلت جسر الساجور فى طريق حلب. مما يستخلص منه أنه بدأ ينفذ عمليا المطالب التى ذكرتها آنفا قبل أن يطلعنى عليها رسميا.

فرغبة فى اجتناب كل عمل عدائى، وفى عدم إراقة دماء فى هذه البلاد المسالمة، الحريصة على أن تعيش السلام وراحة، والواثقة من عدالة قضيتها التى أدافع عنها من نزاهة حلفائها والمجلس الأعلى لى الشرف أن أطلع سعادتكم على الحالة أن تستعملوا نفوذكم لوقاية هذه البلاد من حرب لا تولد سوى الخراب والدمار.

فيصل

وأبرق فى إليوم نفسه إلى الجنرال غورو البرقية الآتية:

إن احتلال رياق مخالف للاتفاقات المعقودة، فاحتج بشدة على هذا العمل غير الودى وأطلب سحب القوة الفرنسوية طبقا لهذه الاتفاقات.

«ولقد أبلغت أن جيوشكم جلت عن جرابلس، وجاءت فعسكرت فى جسر الساجور، ولما كنت أجهل سبب هذه الحركة فاننى أطلب ايضاحا عنها.

فيصل

وأرسل إليه يوم ١٢ منه البرقية الآتية:

نقل إلى أمير اللواء نورى ما دار بينكم وبينه من حديث بشأن الخطاب الذى ستوجهونه إلى بواسطة الكولونيل كوس، ولم يصلنى حتى الآن.

«إن احتلال سكة حديد رياق - حلب - أعنى المنطقة الشرقية مخالف على خط مستقيم لمذكرة ١٥ سبتمبر الخاصة بجلاء الجيش البريطانى عن البقاع، وللاتفاقات التى عقدت بعد ذلك بين المسيو كلمنصو وبينى مدة إقامتى فى باريس.

فاذا كنتم لا تتقيدون بما جاء فى هذه المذكرة وفى هذه الاتفاقات، فأنا مستعد للعمل فى الدائرة التى يرسمانها.

ورغبة فى اجتناب كل سوء تفاهم فى هذا الموضوع أقبل أن أمنحكم الضمانات اللازمة لسلامة نقلياتكم على سكة حديد رياق - حلب.

فيصل

وفى يوم ١٢ منه كتب الكولونيل كوس إلى جلالة الملك بأن الجنرال غورو كلفه أن يبلغ سموه الملكى أنه بسبب احتلال قوة من الجنود السورية لمجدل عنجر اضطر لاحتلال المعلقة ورياق الواقعتين فى البقاع أيضا. فأرسل جلالته يوم ١٣ منه إلى الجنرال غورو بواسطة الكولونيل كوس قائلا:

لقد اتخذت مجدل عنجر الواقعة بين مدخل وادى الحرير وبين صحراء الديماس ودمشق من جهة، وبين البقاع من جهة أخرى، وبحكم وضعها الجغرافى، مركزا من مراكز اجتماع الجيوش للمحافظة على الأمن فى هذه المقاطعة كلها منذ احتلال الحلفاء. وهى فى الوقت نفسه الممر الطبيعى للقبائل فى غدوها ورواحها بين الشرق والغرب. الأمر الذى يبعث السلطات السورية على التمسك بها والمحافظة عليها.

ولقد عززت القوات المرابطة فيها على أثر الأخبار المزعجة الواردة فى الأيام الأخيرة عن حشد الجيوش على حدود منطقة الاحتلال الفرنسوى، ولذلك لا يمكن اعتبار ما جرى سوى تدبير دفاعى رأت الحكومة السورية أن الواجب يقضى عليها باتخاذه من باب الاحتياط فقط.

فاجتنابا لكل سوء تفاهم، ولما كنتم تسوغون احتلال المعلقة ورياق بوصول القوة التى وصلت إلى مجدل عنجر أبلغكم أننى مستعد لتخفيض قواتنا فيها وإعادتها إلى ما كانت عليه من قبل، إذا كنتم تدللون على شعوركم الودى بالجلاء عن رياق والمعلقة المحتلة بجيوشكم.

كيف تم احتلال المعلقة ورياق

فى الساعة السابعة من صباح ١٢ يوليو دخلت قوة عسكرية فرنسوية المعلقة ورياق فاحتلتها احتلالا عسكريا، بدون انذار ولم تتعرض للسلطة المدنية، وفى يوم ١٤ منه أذاع الفرنسويون البلاغ الآتى فى بيروت تسويغا لعملهم.

«خالفت الحكومة الشريفية الاتفاق المعقود فى باريس بين المسيو كلمنصو يوم كان رئيسا للوزارة والأمير. إذ كان تقرر أن لا يحتل البقاع جنود فرنسويون ولا شريفيون، وأن يكتفى بقوة البوليس اللازمة لتوطيد الأمن وبالرغم عن ذلك احتلت فصيلة شريفية مجدل عنجر. فعلى أثر هذا الاحتلال الذى لا يسوغه مسوغ معقول صدر الأمر إلى الجند الفرنسوى باحتلال رياق والمعلقة.

وفى يوم ١٢ يوليو أرسل الكولونيل كوس إلى جلالة الملك الكتاب الآتى:

« طلبتم منى بتاريخ ١٠ يوليو معلومات عن ماهية الحركات العسكرية التى اقتضت وصول ٧ قطارات مشحونة بالجنود الفرنسوية إلى المسلمية. فلى الشرف أن أبلغكم كما بسطت ذلك لمرافقكم من قبل، ان الجنرال غورو أعلمنى أن ما جرى كان عبارة عن إبدال جنود المخافر الأمامية الواقعة أمام جرابلس بجنود غيرها».

وأرسل سكرتير الملك يوم ١٤ منه البرقية الآتية إلى رستم حيدر مندوب العرب فى مؤتمر الصلح بواسطة السفارة الإيطالية فى باريس:

١ ـ احتل الجيش الفرنسوى رياق من دون إخبار ولا إبلاغ سابق. ولما كانت النية متجهة إلى اتقاء الحرب فلم نقاوم أقل مقاومة. وبالطبع فقد يضطر الجيش السورى فى المستقبل إلى مقاومة كل حركة عسكرية جديدة. لانه من غير الممكن استمرار هذه الحالة.

«تتجمع الجيوش الفرنسوية فى صوفر والمريجات وفى ضواحى حلب.

٢ ـ صرح الجنرال غورو أنه وضع شروطا يريد أن يمليها علينا. وقد بدأ بتنفيذها من دون أن يبلغنا إياها رسميا، ومع أننا طلبناها منه فلم يرسلها إلينا رسميا حتى الآن.

٣ ـ تقابل ميولنا ونياتنا السلمية بأعمال عسكرية من الجهة الأخرى.

٤ ـ يعارض الجنرال غورو فى سفر الملك إلى اوروبا.

٥ ـ لما كان الجنرال غورو فى وقوفه هذا الموقف العدائى يخالف قرارات مؤتمر السلام وسان ريمو فيجب أن يعد مسؤولا عن كل ما قد يقع فى سورية.

نص الإنذار الفرنسوى

وفى مساء ١٤ يوليو وصل إلى دمشق الكومندان ماندر يحمل كتابا خاصا إلى جلالة الملك مع نص الإنذار فسلمه إياهما. وهذا نص الكتاب:

«ياذا السمو

«أتشرف بأن أرسل مذكرتى المؤرخة ١٤ يوليو، أقدمها إلى سموكم الملكى وأناشد أخلاقكم السامية ووطنيتكم الصحيحة وشعوركم الودى نحو فرنسا أن تقبلوها.

«لقد برهنت فرنسا من جهتها على إخلاصها لسورية بقبولها القيام بمهمة إرشاد الدولة الجديدة وقيادتها بنزاهة. ولذلك أريد أن أظن أن سموكم الملكى سيصغى إلى صوت الحكمة فى معالجة هذه القضية الخطيرة. فلا يتضامن مع حكومة لا تمثل سوى الأحزاب المتطرفة من الشعب.

«ولا أفكر أننى قادر على أن أعول فى تنفيذ الضمانات التى تشرفت بطلبها على سموكم الملكى إذا تولت ذلك الحكومة. فبقاؤها فى مناصبها ينطوى على معنى العداء لفرنسا، وقد بذلت جهدها لجر بلادكم إلى الحرب وإلقائها فى أتون بلاياها، ولن يعصمها سوى تصرف سموكم الملكى وحده».

وهذا نص الانذار:

«سادت السكينة سورية إبان الاحتلال الإنكليزى، ولم يتعكر صفو الأمن ويبدأ الاضطراب فيها إلا لما حلت جنودنا محل الجنود البريطانية، وقد أخذت هذه

الاضطرابات تزداد من ذلك الحين.

ولقد أثرت هذه الاضطرابات فى رقى سورية ونظامها السياسى والإدارى والاقتصادى أكثر من تأثيرها فى سلامة جنودنا وفى الاحتلال الفرنسوى فى المنطقة الغربية. فحكومة دمشق تحمل كل التبعة أزاء سكان سورية الذين عهد مؤتمر الصلح إلى فرنسا بأن تمتعهم بحسنات إدارة مؤسسة على الاستقلال والنظام والتساهل والثروة، وإن أمانى الولاء والتعاون التى أظهرتها فرنسا لسموكم بتأييدها حقوق السكان الذين يتكلمون العربية على اختلاف مذاهبهم ويقطنون القطر السورى بحكم أنفسهم بأنفسهم كأمم مستقلة قد أجاب عليها سموكم معترفا بأن لسكان سورية مصلحة كبيرة فى طلب المشورة والمساعدة من دولة كبيرة لتحقيق وحدتهم وتنظيم شؤون الأمة. نظرا للتضعضع الذى أصاب البلاد من الإرهاق التركى والأضرار التى نتجت عن الحرب، وتلك المشورة والمساعدة ستسجلها عصبة الأمم عندما تتحقق بالفعل. وقد دعا سموكم الملكى فرنسا إلى القيام بهذه المهمة باسم الأمة السورية.

ولما كنتم تفاوضون الحكومة الفرنسوية فى شهر يناير الماضى وكانت العصاباتت الخارجة من دمشق تجتاح المنطقة لغربية أرسل إلى مسيو كلمنصو البرقية الآتية:

«عندما بلغنى خبر هجوم البدو فى جنوب سورية وشمالها قلت للأمير فيصل إننى اتفقت معه موقتا على بعض المبادىء، وإننى أحافظ أتم المحافظة على كلامى، ولكن يجب أن يقابل خطتى هذه بمثل ما فيه من الإخلاص، وأن يجعل سلطته محترمة على أنصاره، فإذا لم ينفذ هذان الشرطان تنفيذا دقيقا، فالحكومة الافرنسية تستأنف العمل بحرية وتستعمل القوة لتأييد النظام، واحترام الحقوق التى لها من المؤتمر»

والبيان الآتى يوضح جليا كيف أن حكومة دمشق لم تنقطع عن انتهاج خطة معادية ومخالفة تمام المخالفة لسياسة التعاون التى رمى إليها رئيس الوزراء وتعهدتم بتطبيقها.

١ـ عداء جلى على قواتنا.

إن اصرار حكومة دمشق على رفض السماح للسلطة الفرنسوية باستعمال سكة رياق - حلب الحديدية هو عمل عدائى بحت. فالحكومة لا تجهل أن تلك السكة لابد منها لإعاشة احدى فرقنا الفرنسية فى الشمال، وتمكينها من القتال. وهذه الفرقة تقاتل قوات معادية تابعة لتركيا التى انتزع الحلفاء الظافرون سورية من ربقتها، ودفاعا عن حدود حكومة

سورية الجديدة التى يجب أن تربطنا بها روابط المصلحة وعرفان الجميل.

إن حكومة دمشق هى التى وضعت مبدأ تنظيم العصابات واستخدامها ضد جنودنا المحتلة. وهذا المبدأ أعلنه قائد الفرقة الثالثة فى حلب صراحة يوم ١٣ إبريل بالقول الآتى:

«لما كنا لا نستطيع أن نعلن الحرب رسميا على الفرنسويين يجب علينا أن نملأ البلاد بالعصابات التى تجهز عليهم تدريجا، وسيقود ضباطنا هذه العصابات. فإذا استشهد أحدهم تعين الحكومة عائلته»

وإليك الأدلة الآتية على دقة تنفيذ هذه الخطة:

فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩١٩ هوجم موقعنا فى تل كلخ بتحريض السلطة الشريفية فى حمص، وفى أواخر ذاك الشهر ذبح بدو محمود الفاعور الذى قلتم لى يا صاحب السمو الملكى إنه صديقكم الشخصى - مسيحى مرجعيون وهجم على جنودنا فى ٤ يناير رافعا العلم الشريفى.

وفى ٥ منه سنة ١٩٢٠ تحقق وجود الجنود الشريفية بين الذين هاجموا جنودنا تحت قيادة ثريا بك (بركات) فى فريق خان ثم فى الحمام.

وفى يونيو ثبت وجود أميرالاى ويوزباشى وستة ملازمين و٣١٧ رجلا من الجيش الشريفى بين العصابات التى كانت تعمل فى ساحة مرجعيون، وثبت استعمال معدات مأخوذة من الجيش نفسه، وهى أربعة رشاشات ثقيلة، وثلاثة خفيفة، وخمسون صندوق ذخيرة، وظهر أيضا اشتراك محرضى المنطقة الشرقية فى الاضطرابات التى امتازت بمذابح (عين ابل) وفتنة الشيعة فى شهر يونيو.

ثم إن منظمى العصابات محترمون كل الاحترام فى دمشق. لاسيما صبحى بركات الذى لا يجهل أحد إساءته إلينا.

وعندما لم تكن العصابات ترسل من المنطقة الشرقية كانت الفتنة تثار فى المنطقة الفرنسية نفسها.

وبهذه الأعمال وقعت اعتداءات عديدة على المسيحيين لاسيما فى جسر الفرعون فى ٢٩ ديسمبر حيث تقع التبعة على الضابطين الشريفيين واحد بك وتحسين بك.

وقد سوعد الشيخ صالح بطل الفوضى والبغضاء لنا مساعدة مؤثرة مستمرة فى جبال النصيرية.

ومن الممكن تعداد كثير من هذه الأمثلة وقد عرضناها على سموكم الملكى فى حينها.

٢ ـ سياسة حكومة دمشق العدائية

رأى سموكم الملكى إدخال أشخاص مشهورين بعدائهم لفرنسا فى حكومة دمشق، وكان تأثير المحيط شديدا عليكم، حتى أنكم لم تتمكنوا من السفر فى الوقت المناسب تلبية لدعوة مؤتمر الصلح، وقد تألفت الوزارة من أناس من تلك الفئة التى لا تقتصر خطتها على إهانة فرنسا ورفض مساعدتها. بل تتناول المجلس الأعلى الذى منح فرنسا الانتداب لسورية.

إن رفض انتداب فرنسا رفضا باتا فى ١٨ مايو الماضى هو خطة عمياء قد تجر نتائجها المصائب على سورية.

٣ ـ التدابير الإدارية ضد فرنسا

إن التمنع الاقتصادى الظاهر فى رفض ورق النقد السورى الجديد الذى أصدره البنك السورى لحساب فرنسا، ومنع جميع المعاملات التجارية والمالية مع فرع بنك سورية فى المنطقة الشرقية هو دليل جديد على عداء مضر بمصلحة البلاد أيضا.

وكذلك منع نقل الحبوب إلى المنطقة الفرنسوية مبتدئا من حماه فدمشق فحلب.

ثم إن السلطة الشريفية اجتازت حدود المنطقة الشرقية، وتقدمت تدريجا داخل المنطقة لتظهر أنها توسعت توسعا يقصد به إخراجنا.

ففى شهر مارس وضع مخفر شريفى فى (الخالصة) ثم رفع العلم الشريفى على (القدموس) بعد ذلك بقليل، وفى إبريل جعلت حكومة حلب (القصير) قضاء شريفيا. ثم نصب قائمقام شريفى فى جسر الشغور.

٤ ـ أعمال عدائية موجهة رأسا إلى فرنسا

إن من كان صديقا لفرنسا أو مواليا لها فى المنطقة الشرقية يكون مشتبها به من

السلطة ويعامل معاملة سيئة فى أغلب الأحيان. ومن الأدلة الظاهرة على ذلك أن فارس غنطوس ونسيب غبريل اللذين ضمنت حكومة دمشق رسميا رجوعهما إلى راشيا أسيئت معاملتهما، ووضعا فى السجن بعد رجوعهما.

وفى ٢٢ يناير هوجم وفد من دروز حوران جاء للسلام علينا أثناء عودته فى وادى القرن وقتل عدد من رجاله.

ولدينا أمثلة عديدة على ذلك، ولاسيما فى حلب. أما من كان عدو لنا فإنه يحترم فى المنطقة الشرقية، ويحمى من كل شىء، ويحل على الرحب والسعة. فقد احتفل بالدنادشة احتفالا كبيرا فى دمشق بعد حوادث تل كلخ، ولم يمس بسوء فى دمشق أمين محيو الذى نسف مستودع العتاد الحربى فى بيروت. ثم إن سموكم الملكى سعى مؤخرا لرجوع كامل بلك الأسعد الثائر المشهور إلى المنطقة الغربية، وهو قد نفى بسبب فتن البلاد الشيعة وعليه قسم عظيم من تبعتها.

وعدد سكان المنطقة الشرقية الذين أكسبهم عداؤهم لنا عطف الحكومة عظيم جدا.

إن بث الدعوة ضد فرنسا فى المنطقة الغربية قد ألبسته حكومة دمشق أشكالا خبيثة أرادت السلطة الفرنسوية أن تغمض عينها عنها، لأنها قررت اتباع سياسة التساهل إلى النهاية.

وآخر هذه الأعمال وأظهرها شراء القسم الأعظم من أعضاء مجلس الإدارة باثنين وأربعين ألف جنيه مصرى.

وقد ألقت مخافرنا القبض على هؤلاء الأعضاء فى ١٠ يوليو بينما كانوا ذاهبين إلى دمشق لبيع بلادهم، منكرين الأمانى التى أعرب عنها مواطنوهم بالإجماع تقريبا منذ عهد بعيد.

إن صحافة دمشق التى تفرط الحكومة فى شد أزرها تواصل دائما حملاتها على كل ما هو فرنسوى، وتقبح السلطة المحتلة فى المنطقة الغربية، وترد كل مساعدة تعرضها فرنسا على سورية وتهيننى أقبح إهانة.

٥ ـ الاعتداد على الحقوق الدولية

بمقتضى هذه الحقوق يجب على قائد جيش الحجاز المحتل قطرا سوريا لابد أن يظل عثمانيا إلى أن يقتضى تنفيذ المعاهدة بتغييره أن لا يعمل بغير هذه الصفة، وأن يحافظ

على الحالة الراهنة وهو حارسها. ولكنه تصرف عكس ذلك متخذا صفة السيادة العليا، وقد تقرر التجنيد الإجبارى ونفذ منذ ديسمبر سنة ١٩١٩ مع أن البلاد لاتزال بلادا أجنبية، وهذا العبء الثقيل الذى لا يجدى نفعا قد أكره عليه الشعب حتى فى المناطق التى لها شكل خاص كالبقاع. ونفذ فى أناس مستثنين منه كاللبنانيين والمغاربة المقيمين فى المنطقة الشرقية، ولاقى هذا التجنيد الباطل مقاومة نزيهة أدت فى بعض الأحيان إلى إراقة الدماء.

ثم إن المجلس الملقب بالمؤتمر السورى الذى تألف واجتمع بصورة غير قانونية يسن القوانين بل يحكم باسم حكومة ودولة لم يعترف بوجودها. وفضلا عن ذلك فقد قدم اللقب الملكى لسموكم الملكى بدون حق ولا وكالة مما وضعكم كما عبرتم عن ذلك فى موقف التمرد على مؤتمر الصلح.

ولم تحترم الامتيازات الأجنبية فإن أحد رعايانا الأمير مختار الذى يمثل أسرة كبيرة اشتهرت منذ القدم باتصالها بفرنسا قد أوقف إيقافا معيبا فى حلب.

وليست الاتفاقات السياسية محترمة أيضا. فإن لواء من الجيش الشريفى أرسل إلى (مجدل عنجر) رغم الاتفاق الذى تم فى ديسمبر الماضى مع المسيو كلمنصو والذى يقضى أن لا تحل فى البقاع قوة شريفية أو فرنسوية.

٦ـ الأضرار التى أصابت فرنسا وسورية من ذلك

لم تستطع السلطة الفرنسوية حتى الآن أن تنظم البلاد التنظيم الذى ننتظره منها، لأنها اضطرت إلى صرف قواها وجهودها لقمع الفتن المتوالية، ومواصلة المفاوضات السياسية الجدية العقيمة مع حكومة دمشق. فهى والحالة هذه غير مسؤولة عن هذا التأخير، بل تتحمل العبء العسكرى والمالى الذى تقضى به الحالة التى أوجدتها حكومة دمشق، ولا يمكن أن تؤثر على التكاليف فى الميزانية السورية. سواء بفقد الدخل الذى ينشأ عن استمرار الفوضى أو بالاشتراك فى نفقات السيادة التى تلحق بها فى المستقبل.

ولقد بلغت حالة الفوضى التى أوجدها مثيرو الفتن فى البلاد حداً دعا إلى استجلاب قوات كبيرة أعظم عددا مما يدعو إليه استبدال جنود إنكليزية إبان السكينة.

وإن هذه الأسباب تدل دلالة كافية على أنه لا يمكن بعد الآن أن نعتمد على حكومة جاهرت فرنسا بالعداء كل المجاهرة، وأخطأت نحو بلادها خطأ عظيما بظهورها عاجزة عن تنظيمها وإدارتها.

لذلك ترى فرنسا أنها مضطرة لأخذ الضمانات التى تكفل سلامة جنودها وسلامة السكان، التى نالت من مؤتمر السلم مهمة الوكالة عليهم. فأتشرف بأن أبلغ سموكم الملكى أن هذه الضمانات هى كما يأتى:

١ - التصرف بسكة رياق - حلب الحديدية لإجراء النقليات التى تأمر بها السلطة الفرنسوية، ويؤمن هذا التصرف بأن يراقب مفوضون عسكريون فرنسويون جميع ما ينقل فى محطات رياق وبعلبك وحمص وحماه وحلب تعضدهم قوة مسلحة مخصصة للمحافظة على المحطة، واحتلال مدينة حلب التى هى نقطة مواصلات هامة لا يسعنا أن نتركها تسقط فى يد الترك.

٢ - قبول الانتداب الفرنسوى

إن هذا الانتداب يحترم استقلال أهالى سورية، ولا يناقض مبدأ الحكم بسلطة سورية تستمد قوتها من ادارة الشعب، ولا يتضمن سوى معاونة بشكل مساعدة وتعاون من الدولة المنتدبة. دون أن يتخذ مطلقا شكل استعمار أو إلحاق أو إدارة تنفذ رأسا.

٣ - قبول الورق السورى

تصبح هذه العملة عملة وطنية فى المنطقة الشرقية فتلغى جميع الأحكام المتعلقة بالبنك السورى فى المنطقة الشرقية.

٤ - تأديب المجرمين

الذين كانوا أشد عداء لفرنسا. وهذه الشروط تقدم جملة، ويجب قبولها جملة أيضا بلا أدنى فرق خلال أربعة أيام تبتدىء من نصف ليل ١٥ يوليو (أى ١٤ منه الساعة ١٢ ليلا) وتنتهى فى ١٧ منه الساعة ٢٤ (أى الساعة ١٢ ليلا).

فإذا جاءنى علم من سموكم قبل هذا الموعد بقبول هذه الشروط فيجب أن تكون قد صدرت أوامركم فى الوقت نفسه إلى المراجع اللازمة لكى لا تعارض جنودى الزاحفة لاحتلال المواقع المعينة. ثم ان قبول الشرط الثانى والثالث والرابع يجب أن يؤيد رسميا قبل ١٨ منه. أما تنفيذها بالتمام فيكون قبل ٣١ منه الساعة ٢٤ (نصف الليل).

وإذا كان سموكم الملكى لا يشعرنى فى الوقت اللازم بقبول هذه الشروط أتشرف بأن أبلغه أن الحكومة الفرنسوية تكون مطلقة اليد فى العمل. وفى هذه الحالة لا أستطيع أن أؤكد أن الحكومة الفرنسوية تكتفى بهذه الضمانات المعتدلة.

ولا تقع على فرنسا تبعة المصائب التى تحل بالبلاد. فهى قد برهنت على تساهلها من

زمن طويل، وفى الآونة الأخيرة فحكومة دمشق هى التى تتحمل جميع أعباء مسؤولية فصل الخطاب الذى لا أنظر إليه إلا آسفا، ولكنى مستعد له بمتانة لا تتزعزع.

تدابيـــر الوزارة

فوجئت الوزارة بإنذار الجنرال غورو مفاجأة لم تكن تتوقعها. فانقسمت حياله. ففريق من أعضائها قال بقبوله والنزول على أحكامه وفريق قال بالتريث والانتظار.

وظهرت على أثر وصول الانذار فكرة تدعو إلى إقالة الوزارة والتخلص منها، وتأليف وزارة قوية برئاسة الهاشمى تقود الأمة فى هذه الأزمة، وتواصل الكفاح والنضال فأيد أقطاب حزب التقدم فى المؤتمر السورى ـ وهو الحزب الذى كانت تعول الوزارة على تأييده فى بقائها ـ الفكرة، ولما كوشف الأتاسى بها ودعى إلى الاستقالة قال: يجب الاتفاق على انتخاب من يخلفنى قبل استقالتى، ولا أتأخر عنها متى تألفت الوزارة الجديدة. وحال دون تبديل الحكومة فى تلك الآونة عدم موافقة جلالة الملك عليه. فقد كان يحاول أن يجمع السلطة فى يده ويتفرد بالعمل فى خلال هذه المرحلة الدقيقة. بعيدا عن تطاحن الأحزاب واختلافاتها.

ولما أدركت الوزارة أنها فى مركز ثابت وأنها باقية فى الدست لثقة جلالة الملك بها اتخذت سلسلة تدابير نوجزها فى ما يلى:

١ـ إعلان الإدارة العرفية

وكان أول تدابيرها وأعجلها إعلانها الإدارة العرفية يوم ١٣ منه، وهذا نص البلاغ الرسمى الصادر بذلك:

«بناء على خطورة الموقف ولزوم اشتغال الأمة بأمر دفاعها فقط قررت الحكومة العسكرية مؤيدة بقرار الوزارة تأييد الإدارة العرفية التى لم تلغ حتى الآن وتطبيقها بحذافيرها ولحصول الاطلاع عليها أدرجنا المواد الآتية:

١ ـ تؤيد الإدارة العرفية فى جميع أنحاء المنطقة الشرقية.

٢ ـ إن أحكام القوانين والأنظمة الأساسية والملكية المخالفة لهذا القرار تعد معطلة مادامت الإدارة العرفية قائمة.

٣ ـ يحاكم أمام القضاء العرفى الذين يرتكبون الجرائم الآتية:

أ ـ كل من يعبث بالأمن العام داخلا أو خارجا من مرتكبي جريمة الجنحة أو الجناية. سواء كان فاعلا بنفسه أو ذا مدخل - مهما كانت صفته ومكانته.

ب ـ كل من يعتدى على موظفى الحكومة أثناء قيامهم بوظائفهم الرسمية - بشرط أن يكون عمله ذا صلة بالأحوال المتعلقة بالإدارة العرفية.

ج ـ كل من له صلة بالجمعيات السرية، ولو كانت مؤسسة قبل إعلان الإدارة العرفية.

د ـ كل من يتهم بجنحة أو جناية تمس إحدى القضايا المنظورة أمام القضاء العرفى.

هـ ـ كل من يتهم بإفشاء أسرار الحكومة العسكرية إبان إعلان النفير العام، وما يتعلق بالجاسوسية والخيانة العسكرية.

و ـ الذين تتصل جرائمهم بجمع الوسائط النقلية وسوق الجند وحشدهم. والموظفون المكلفون بطرح التكاليف الحربية إذا تلاعبوا أو أساءوا استعمال وظيفتهم، والذين يسهلون الفرار للجنود، ويساعدونهم على عدم تلبية أوامر الجندية ويحبذون لهم ذلك.

ز ـ كل من يتهم بجريمة تختص بالاعتداء على زوجات الضباط والأمراء العسكريين ومن ينتمى إلى الجندية من الملكيين والأهالى، وكل ذى رحم يتصل بهؤلاء.

٤ ـ للإدارة العرفية الحق أولا: بأن تفتش المساكن التى ترى لزوم تفتيشها، وثانيا أن تطرد إلى خارج البلاد كل من تقبض عليه الحكومة من أصحاب السوابق، والذين لامسكن لهم ولا مأوى فى منطقة الإدارة العرفية. وثالثا بأن تأخذ سلاح الأهلين وعتادهم الحربى وتصادره. ورابعا أن تعطل الصحف فورا إذا سعت لإفساد الرأى العام، وبأن تمنع الاجتماعات.

٥ ـ قضايا الجنح والجنايات العادية تنظر كما فى السابق أمام المحاكم النظامية.

٦ ـ بما أن القضاء العرفى مكلف بوظائف المحاكم النظامية الجزائية التى ناب منابها. فلا يحق له التدخل فى القضايا التى نظرتها قبل إعلان الإدارة العرفية.

٧ ـ يحاكم أمام القضاء العرفى من تبين أن له مدخلا فى الأحوال التى استلزمت إعلان الإدارة العرفية، وان لم يكن من أبناء المنطقة الشرقية.

٨ ـ يطبق القضاء العرفى أحكامه على قانون الجزاء العسكرى إذا لم يجد ما يطابق الجرم فى قانون الجزاء المدنى.

٩ ـ يحاكم المتهمون بالأحوال التى استلزمت إعلان الإدارة العرفية أمام محاكمها مهما

على رتبهم من دون استحصال مرسوم ملكي.

١٠- ترى محاكم القضاء العرفي المؤسسة حديثا في المنطقة الشرقية قضايا الأركان والأمراء والضباط وإن كانت دون رتبهم.

١١- أحكام القضاء العرفي مبرمة.

٢ـ الوزارة أمام المؤتمر

ودعا المؤتمر الوزارة لسماع أقوالها، والاطلاع على خططها، فجاء صباح الثلاثاء ١٣ منه رئيسها ووزيرا الخارجية والحربية، وألقى الأخير البيان الآتي:

أيها السادة:

نرى من الواجب أن نبسط على مسامعكم خلاصة ما يقع في هذه الدقيقة الحرجة تعرفون خطة الوزارة، وتذكرون أننا قلنا في بيانها الذي نال استحسانكم إننا سنحافظ على صلات الصداقة مع جميع الحلفاء، ولا سيما مع فرنسا وإنكلترا، وتعلمون أيضا أننا حافظنا على هذه الخطة ساعين لتحقيقها وتحقيق آمال الأمة التي أعلنتها للعالم على لسانكم أنتم ممثلوها في هذا المؤتمر الموقر.

بدأت المفاوضات وسارت في طريق حسن وتلقينا ما تعلمونه من قرار مؤتمر سان ريمو المعترف بسورية دولة مستقلة ومن التبليغات غير الرسمية من حليفتنا بريطانيا التي تشير إلى الاعتراف بجلالة ملكنا ملكا على سورية – علاوة على تأييد الاستقلال المذكور.

وعزمنا في المدة الأخيرة على إرسال وفد إلى أوروبا لاتمام المفاوضات وحل المسألة السورية حلا نهائيا يحقق آمال الأمة وسعادتها، ولنبرهن للعالم والدول كلها أننا لا نعادي أحدا ولا نقاوم قرارات مؤتمر السلم ما دامت ضامنة لاستقلالنا وشرفنا. وقد عزم جلالة الملك على السفر بالذات حبا بإنهاء المفاوضات. وكنا واثقين بأننا سنتلقى البشائر بتحقيق آمالنا وفيما نحن سائرون في تنفيذ هذه الخطة العملية نرجو الخير من سفر وفدنا برئاسة جلالته حصل ما حصل وحدثت هذه الحوادث المؤسفة التي أبينها لكم.

«لقد أراد الجنرال غورو اعتمادا على قواه العسكرية أن يعرقل أو يمنع سفر جلالة الملك إلى أوروبا لأسباب لا نعلمها. وقد سلم موفدنا بعض الشروط التي قال إنه يطلبها منا ولم نطلع بعد على نصها الرسمي، ولا يمكننا أن ننظر اليها بصفة رسمية ما لم نتلقاها مكتوبة من يد رسمية.

«وليست هذه الشروط مخالفة لمطالب الأمة فقط. بل إنها تخالف روح المقررات التى اتخذت فى مؤتمر سان ريمو، وتعبث بها، وقد وقعت عليها فرنسا لأنها تخل بأساس الاستقلال والسيادة التى اعترفت بها الدول لسورية فى ذاك المؤتمر. ولقد حشد الجنرال جيوشه على حدود المنطقة الشرقية شمالا وغربا، وربما كانت غايته حملنا على قبول شروطه ونكرر القول بأننا لم نبلغها رسميا حتى هذه الساعة، وفوق هذا فقد أرسل جنوداً لتعزيز القوة الفرنسوية فى رياق وصرح حاكم زحلة الفرنسوى العسكرى لقائد المحطة العربى أنه احتل رياق، احتلالا عسكريا، وأعاد الجنرال القوة الفرنسوية التى احتلت المعلقة فى العام الماضى اليها. وقد أبلغنا الكولونيل كوس أمس عن لسان الجنرال غورو أن احتلال رياق والمعلقة جرى فى مقابل تعزيز قواتنا فى مجدل عنجر، والحال أن هذه النقطة عسكرية وضعت لتأمين النظام الداخلى فى ذلك الجوار منذ ابتداء الاحتلال، واذا كنا عززناها فما ذلك سوى تدبير احتياطى اضطررنا إلى اتخاذه بعد ما رأينا حشد الجنود على حدود منطقتنا.

«فحكومتنا بعد ما احتجت على معاملة الجنرال غورو التى لا تلتئم مع التحالف، وطلبت إحالة القضية إلى التحكيم الدولى تعلن للأمة وللعالم أجمع من على هذا المنبر ما يأتى:

١ ـ نحن لا نريد إلا السلم والمحافظة على شرفنا واستقلالنا الذى لا نحتمل أن تشويه شائبة.

٢ ـ نحن براء من كل تهمة نوصم بها ويراد بها الإيهام بأننا نريد العبث بصلاتنا الودية مع حليفتنا وحلفائنا.

٣ ـ نحن لا نرفض المفاوضة، ونحن مستعدون للدخول فيها وها إن الوفد برئاسة جلالة الملك مستعد للسفر إلى أوروبا. ونحن نقبل كل حل لا يمس استقلالنا وشرفنا، ويكون مبنيا على أساس الحق والاستقلال.

٤ ـ إننا مستعدون كل الاستعداد ومصممون كل التصميم على الدفاع عن شرفنا وحقوقنا بكل ما أعطانا الله من قوة.

هذا هو الموقف الحاضر أيها السادة وقد بسطناه لحضراتكم، والله معنا إذ نحن لا نريد سوى حقنا والدفاع عن كياننا.

٣ـ معدات الدفاع والتدابير العسكرية

وكان فى مقدمة التدابير العسكرية التى اتخذت تعيين الأمير زيد قائدا عاما للجيش السورى، وياسين الهاشمى قائدا لجبهة مجدل عنجر (طريق دمشق ـ بيروت) ولدمشق

نفسها، ويحيى حياتى قائدا لمنطقة حمص وحماه. أما فرقة حلب فكانت بقيادة محمد إسماعيل الطباخ، وكانت فرقة درعا بقيادة إسماعيل الصفار.

وقد يكون من المفيد هنا أن نتكلم عن تشكيلات الجيش السورى فى تلك الأيام ونظمه ومعداته وأسلحته وذخائره وعتاده وضباطه فنقول:

(لا يخفى أن الجيش السورى الجديد قام على أنقاض جيش الشمال القديم الذى زحف من الحجاز حتى دمشق فحلب على المنوال الذى وصفناه فى المجلد الأول، وكان أول ما فعلته الحكومة السورية الجديدة، وقد تولى رئاسة الجند فيها ياسين الهاشمى (رئاسة ديوان الشورى الحربى) تسريح الجيش القديم والاستغناء عن معظم ضباطه وجنوده على أن يحل محله جيش جديد منظم على الأصول الحديثة يقوده ضباط بلغوا رتبهم العسكرية بالتدرج).

وجددت رئاسة ديوان الشورى الحربى (المدرسة الحربية القديمة) فى دمشق لتخريج الضباط. كما نظمت المصالح العسكرية على منوال حديث. فكانت هنالك مصلحة للميرة، وأخرى للتجهيزات، وثالثة للتسليح، ورابعة للمدفعية تشرف عليها كلها هيئة أركان حرب عليا وكان نظام التطوع فى تلك الفترة هو النظام المتبع فى الجيش. ومع أن جلالة الملك كان أول من تطوع إلا أن الإقبال على التجنيد كان قليلا لحالة الأمة الروحية. فقد كانت خارجة من حروب امتدت أربع سنوات ونيف – لاقى الجند فى خلالها الأمرّين من قساوة الأنظمة العسكرية وشدتها فتشرب بغضها كما تشربها الأهالى، لما خبروه من مساوئها فى العهد العثمانى.

وتبدل الحال فى شهر فبراير سنة ١٩٢٠ حينما تقرر الأخذ بنظام التجنيد الإجبارى لإنشاء جيش منظم قوى، وكثر فى خلال هذه الفترة ورود الضباط السوريين الذين كانوا فى الجيش التركى ثم سرحوا بعد الهدنة، أو عادوا من الأسر فانضموا إلى الجيش الجديد وساعدوا فى تكوينه وإنشائه.

وكان الجيش السورى فى خلال شهر يونيو سنة ١٩٢٠ أى قبيل وصول وبعد قيام الوزارة الاتاسية واضطلاع يوسف العظمة بعبء وزارة الحربية وأخذه على عاتقه مهمة تنظيم الجيش الجديد، وإعداد معدات الدفاع يتألف كما يأتى:

١ـ هيئة أركان حرب عليا يرأسها الوزير ورئيس ثان يشرف على الشئون الإدارية،

وكان يتقلدها يومئذ القائمقام أحمد اللحام.

وكانت هيئة أركان الحرب تتألف من فروع (شعبات) تقلد رئاسة الشعبة الأولى (شعبة الحركات الحربية) القائمقام مصطفى وصفى، وتولى رئاسة الشعبة الثالثة (شعبة المخابرات) البكباشي شريف الحجار، وكان اليوزباشى حسن يحيى الصبان يتولى إدارة القوى العمومية، والقائمقام عارف التوام رئيسا لإدارة التسليح.

وكانت هنالك أيضا ثلاث فرق عسكرية نظامية:

فرقة الشام ، وفرقة حلب، وفرقة درعا.

وكانت كل فرقة تتألف من ٣ ألوية، وكل لواء يتألف من ٣ أفواج، ولكل فوج سرية رشاشات، ولكل فرقة لواء مدفعي يتألف من فوجين، ويتألف الفوج من بطاريتين.

وكان مجموع القوى العامة للجيش السورى فى أواسط شهر يوليو لا يزيد عن ٨٠٠٠ جندى يملكون ١٥ ألف بندقية مختلفة الطراز. لكل منها ٢٥٠ قذيفة، ونحو ٥٠ مدفعا عيار ٥ر ٧ - و٤ مدافع من عيار ٥ر١٠ ولكل مدفع ٥٠ قنبلة.

وكان يمثل الحكومة العربية فى بيروت ضابط من هيئة أركان الحرب فى مقدمة مهامه موافاة الحكومة بتقارير مفصلة عن الحالة العامة، وعن تدابير الفرنسويين العسكرية.

وكان مجموع الضباط المستخدمين فى القيادة العليا وفى الجيش العامل وفى دوائر التجنيد وفى الأعمال العسكرية الأخرى لا يقل عن ٥٠٠ ضابط من مختلف الرتب بينهم مجموعة صالحة من الأكفاء الذين تمرنوا فى الحروب العظمى، وقاتلوا فى شتى الساحات والميادين.

٤ـ دعوة المجلس الحربى الأعلى

وفوجئت الوزارة والملك فى تلك الفترة الحرجة بمفاجأة مدهشة، فقد زار ياسين الهاشمى على أثر تعيينه قائدا لمجدل عنجر، والقاء مهمة الدفاع عن دمشق على عاتقه الأمير زيدا، وقال له إنه ليس فى إمكانه قبول المهمة الموكولة إليه - كما أنه ليس فى استطاعة البلاد الدفاع والوقوف أمام الجيش الفرنسوى الزاحف، لان مخازن الجيش فارغة من الأسلحة والذخائر ومعدات القتال مفقودة.

وانطلق الأمير على الفور فقابل جلالة الملك وأطلعه على رأى الهاشمى فاستدعاه فأعاد عليه ما قاله، فدعا هيئة الوزراء اليه واستشارهم فيما يفعل فدافع يوسف العظمة عن خطته وقال انه بصفته وزيرا للحربية يتحمل كل تبعة، ويصر على المقاومة والدفاع. وأخيرا تم الاتفاق على عقد مجلس عسكرى يحضره كبار الضباط والقادة للبت فى هذه القضية الخطيرة.

واجتمع هذا المجلس بعد ظهر الجمعة ١٦ منه برئاسة الملك وحضره الوزراء والهاشمى وأحمد اللحام ومصطفى وصفى وشريف الحجار ومصطفى نعمة وحسين يحيى الصبان وعارف التوام، وهم هيئة أركان الحرب فسألهم الملك واحدا واحدا عن مقدار قواهم فأجابوا أجوبة متضاربة فطلب إليهم إبداء رأى حاسم. فطلبوا إمهالم مدة ثم اجتمعوا برئاسة مصطفى نعمة (مستشار وزارة الحربية يومئذ) نحو ربع ساعة أعلنوا بعدها أن فى إمكان الجيش المقاومة بضع ساعات إذا كانت الحرب غير جدية، وأما إذا حمى وطيس القتال ولم يوفق إلى دحر العدو وتشتيت قواه فلا يقاوم أكثر من ٥ دقائق.

٥ـ استشارة الإنكليز وراى اللورد اللنبى

ومع أن الإنكليز كانوا خلال تلك المرحلة يشيرون على الملك بالتفاهم مع الفرنسويين والاتفاق معهم، وكان معتمدهم فى دمشق (الكولونيل ايستون) يكرر هذه الجمل على مسامع الملك والوزراء فى كل مناسبة ملحا بضرورة الاتفاق، فقد أرادت الوزارة أن تقف على رأى اللورد اللنبى قبل البت فى الأمر فانتدبت اللواء نورى السعيد والأمير عادل ارسلان فسافرا إلى حيفا وقابلا اللورد وكان يزورها يومئذ واستشاراه فأشار بقبول الإنذار والتفاهم مع الفرنسويين. فأرسلا على الفور برقية إلى جلالة الملك بما سمعاه منه.

ولم يكتف اللورد بذلك بل أرسل كتابا خاصا إلى جلالة الملك (لايزال محفوظا بنصه الإنكليزى فى خزانة الدكتور عبد الرحمن شهبندر يشير فيه بالقبول بلا تردد).

٦ـ راى الكولونيل طولا والكولونيل كوس

وكان من رأى هذين الضابطين الفرنسويين - وكانا يعملان فى دمشق ويظهران الاخلاص والصداقة لجلالة الملك. وقد أقالهما الجنرال غورو من عملهما بعد دخول دمشق

وأعادهما إلى فرنسا لاعتقاده بعدم إخلاصهما لسياسته ـ قبول الانذار لقطع الطريق على الجنرال غورو والمتعطش إلى دخول دمشق واحتلالها عسكريا لينال شرف هذا العمل إطفاء لشهوة الفتح المتأججة فى فؤاده، وكانا يقولان لا تترددوا فى القبول فقد يتذرع الجنرال بأوهى الأسباب لتطبيق برنامجه الاستعمارى ودخول دمشق بجيشه.

الوزارة تقرر القبول

فازاء هذه الاعتبارات المادية قررت الوزارة فى جلسة عقدتها يوم ١٧ الجارى (أى قبيل انتهاء المدة المضروبة فى الإنذار) أن تشير على جلالة الملك بقبوله لعدم إمكان المقاومة ماديا فأرسل جلالته صباح ١٨ منه كتابا إلى الجنرال بواسطة الكولونيل طولا يعلن فيه قبوله شروط الانذار فجاءه يوم ١٩ منه الجواب الآتى:

«لى الشرف أن أتسلم كتابكم المرسل بواسطة الكولونيل طولا المنطوى على قبولكم مبدئيا وشخصيا لشروطى. فأذكر سموكم الملكى بأنه ليس المقصود من مذكرة ١٤ يوليو قبولها، وانما المقصود هو تنفيذ أحكامها بأعمال رسمية تعمل قبل ١٨ منه على أن يتم تنفيذ ما ورد فيها بكامله قبل ٣١ منه عند منتصف الليل.

«ولما كنت قد مددت المدة ٢٤ ساعة إجابة لطلب سموكم الملكى فقد أكون محقا اذا لم أمددها مدة أخرى قبل أن أتلقى نبأ القبول رسميا وفعليا من جانب سموكم بأعمال تعملونها وقد أشير إلى ذلك فى الفقرة الرابعة من مذكرة ١٤ منه.

«ولكى أدع لكم وقتا كافيا لقبول المطالب رسميا وتنفيذها فقد قررت أن لا تتحرك جيوشى قبل ٢١ يوليو عند منتصف الليل».

وفى الساعة التاسعة والنصف من مساء ١٩ منه أرسل الجنرال غورو البرقية الآتية وقد سلمها الكولونيل طولا شخصيا إلى الملك:

«ضرب يوم ١٨ يوليو موعدا لقبول أو رفض مذكرة ١٤ منه ثم مددت هذه المهلة حتى ١٩ منه نصف الليل لا لقبول الشروط رسميا بل للبدء بتنفيذها رسميا مع العلم بأن تنفيذها بكاملها يتم قبل ٣١ منه وبناء على ذلك فلن أمنح أى مهلة بعد التسهيلات التى جرت،

وإذا كان لابد من إعطاء وقت كاف لأجل قبول الشروط والبدء بتنفيذها فإنى أقرر أن جيوشى لا تتحرك حركة قبل ٢١ يوليو عند منتصف الليل».

وفى يوم ٢٠ منه أرسل الملك إلى الجنرال غورو بواسطة الكولونيل كوس البرقية الآتية:

«رغبة فى إنقاذ شعبى من ويلات الحرب، وأملا فى إنشاء سلم موطد لا يتسنى إدراكه إلا بالاحتفاظ بصداقة الحلفاء ومودتهم، وخصوصا مودة الحكومة الفرنسوية أبلغكم أننى أقبل مطالبكم مع الإيضاحات الواردة فى برقيتكم بتاريخ ١٦ و١٨ الجارى.

«ان المطالب التى تضمنها إنذاركم المؤرخ فى ١٤ الجارى سردت على الوجه الآتى:

١ـ أن تكون سكة حديد رياق ـ حلب على أتم استعداد لجميع النقليات التى تأمر بها السلطات الفرنسوية.

إن جعل سكة الحديد بهذه الحالة يتسنى بمراقبة حركة النقل فى محطات رياق وبعلبك وحمص وحلب بواسطة مفوضين عسكريين فرنسويين تشد أزرهم قوة عسكرية تقوم بالمحافظة على المحطة. وباحتلال مدينة حلب ذات المركز الخطير للمواصلات والتى لن ندعها تسقط بأيدى الترك.

٢ ـ إلغاء التجمع العام والامتناع بتاتاً عن التجنيد وتسريح القوى وإعادة تشكيلات الجيش وعدد الجند إلى ما كانتا عليه فى شهر ديسمبر الماضى.

٣ ـ قبول الانتداب الفرنسوى، إن الانتداب سيحترم استقلال الشعوب السورية على منوال يتفق مع مبدأ الحكم بواسطة السلطات السورية النظامية التى تستمد قوتها من الوزارة الشعبية. وهو لا ينطوى بالنسبة للسلطة المنتدبة إلا على إعانة تمنح بشكل مساعدة وتعاون لا يتحول بشكل من الأشكال إلى استعمار أو إلحاق أو إدارة مباشرة.

٤ ـ قبول النقد السورى، ان هذا النقد سيتخذ نقدا وطنيا للمنطقة الشرقية. وبناء على ذلك تلغى جميع القيود التى وضعت حتى الآن فى هذه المنطقة بالنسبة اليه.

٥ ـ تسليم المجرمين الذين اشتهروا بأعمالهم العدائية لفرنسا ولن يطول الوقت حتى تدرك حكومة الجمهورية بأن هذه الأزمة الشديدة التى اجتزناها لم تكن سوى نتيجة سوء

تفاهم واسع النطاق بيننا وبين الشعب السورى الذى قاتل جنباً إلى جنب مع الحلفاء وضحى أنواع الضحايا فى سبيلهم.

فيصل

وفى اليوم نفسه أرسل الكولونيل كوس إلى الملك الكتاب الآتى:

«رجانى الجنرال غورو أن أبلغكم أنه تلقى رد سموكم الملكى المرسل أمس بواسطتى وأعرب عن ارتياحه إلى الاعتبارات التى بنى عليها.

«وينتظر الجنرال الآن وصول تأييد كتابى مفصل يحرر طبقا للأسس الواردة فى مذكرة ١٤ يوليو موضحا وذاكرا الشروط التى أوردها ومعلنا قبولها. كما أنه يؤيد من جهة أخرى برقيته المرسلة مساء أمس مؤكدا أن الجيوش الفرنسوية لا تتحرك قبل ٢١ الجارى عند منتصف الليل لأجل احتلال حلب فتبلغها فى اليوم الثالث.

«وينتظر الجنرال أن يتم فى هذا اليوم (٢٠ منه) تنفيذ مضمون الرد بأعمال رسمية وباتخاذ التدابير التى تدل على التنفيذ وتؤيده طبقا لما أشار إليه صراحة فى إنذاره.

«ويزيد الجنرال على ذلك قائلا تستطيع سموكم أن تثق من المعاملة الطيبة الحسنة التى ستعاملكم بها فرنسا ومن عطفها وعدلها. والمكاتبات المختلفة التى جرت حتى الآن والبلاغات التى أبلغت لسموكم الملكى فى موضوع شروط الإنذار وتطبيقها، ولاسيما ما يختص منها بتطبيق الانتداب قد بسطت نيات الدولة المنتدبة بسطا جليا كافيا».

الاضطرابات فى دمشق

وتناقلت الالسن فى دمشق أن الحكومة قبلت انذار الجنرال غورو وتعهدت بتنفيذه فقامت المظاهرات الاحتجاجية وعقد المؤتمر السورى جلسة ضحى يوم الخميس ١٥ منه (أى قبل قبول الانذار رسميا بيومين) خطب فيها الخطباء فحملوا على الوزارة حملة شديدة، وتنادوا إلى الدفاع وأقر المؤتمر فى ختام جلسته هذه اقتراحا وقعه ٤٥ من أعضائه وأذيع على الجمهور على أن يبلغ إلى الحكومة لتطلع عليه، وتتقيد بما جاء فيه وهو:

«بما أن مؤتمرنا هذا، وهو أول ممثل للأمة السورية وناطق بلسانها قرر فى جلسته يوم ٧ مارس أن يبقى منعقدا إلى أن يجتمع المجلس النيابى، وبما أن البلاد دخلت اليوم فى طور جديد يستدعى زيادةالتضامن والتكاتف وجمع الكلمة حول غاية الوطن المشتركة، وهى الاستقلال التام والدفاع عن شرف الأمة بأسرها نطلب إقرار الاقتراحات الآتية وإبلاغها للحكومة ونشرها على الأمة.

«إن المؤتمر السورى الممثل للأمة السورية فى مناطقها الثلاث يعتبر قراره التاريخى بمواده الأساسية الثلاث وهى:

١ ـ الاستقلال التام والوحدة السورية، ورفض الهجرة الصهيونية.

٢ ـ ملكية جلالة الملك فيصل على الأساس النيابى الدستورى.

٣ ـ إبقاء المؤتمر منعقدا يراقب أعمال الحكومة المسؤولة أمامه إلى أن يجتمع مجلس النواب بموجب القانون الاساسى ـ قراراً واحدا لا يقبل التجزئة.

«وإن المؤتمر السورى لايعترف ـ باسم الأمة السورية ـ بأى معاهدة أو اتفاقية أو بروتوكول يتعلق بمصير البلاد مالم يصادق عليه».

ودعا الملك أعضاء المؤتمر يوم السبت ١٧ منه إلى الاجتماع فى حديقة قصره، ولما تكامل جمعهم وقف فيهم خطيبا وسرد الأسباب السياسية والعوامل العسكرية التى جعلته يجنح إلى سياسة السلم. فهاجت خواطر بعض الأعضاء وتكلموا بلهجة شديدة وذكروه بخطبه الحماسية فى النادى العربى، وبسوء نيات الفرنسويين وعزمهم على تحطيم الاستقلال والقضاء عليه. فتأثر الملك وحاول إنقاذ الموقف بلباقة فاقترح على كل واحد من الأعضاء أن يكتب كتابا خاصا إليه يبسط فيه آراءه وعقيدته الخاصة بشرط أن لا يطلع أحدا من إخوانه عليه، ووعد بأن يعمل بما تقترحه الأكثرية، ولا يخرج عن مضمونها، وقال «إننى أعتقد أن الآراء التى تعطى على هذا المنوال تكون صحيحة، لا يؤثر فيها نفوذ ولا إرهاب» فعارضت أكثرية الأعضاء فى الأخذ بهذا الاقتراح، فأهمل ولم ينفذ.

وعقد أعضاء المؤتمر جلسة فوق العادة فى دار المؤتمر صباح الأحد ١٨ منه وكان الأعضاء منقسمين إلى فرق وأحزاب، وكان نواب منطقة دمشق والبلاد المجاورة محتفظين بالصمت بعكس نواب الساحل وفلسطين. وقامت اللجنة الوطنية بمظاهرة كبيرة مشى فيها

كثيرون، وكانوا يرددون أناشيدهم وجاءوا إلى دار المؤتمر وحيوا الأعضاء الوطنيين، ونادوا بسقوط الخونة المارقين.

وعقد المؤتمر جلسة قانونية بعد الظهر قرر فيها استدعاء هيئة الحكومة، واستيضاحها عن الخطة التى قررت السير عليها. سيما ومهلة الانذار تنتهى فى منتصف تلك الليلة (ليلة ١٩ منه).

وعقدت اللجنة الوطنية اجتماعا كبيرا ليلة الإثنين شهدها رجال الأحزاب وممثلوها وعدد كبير من أعيان دمشق، فقرروا بعد سماع خطب ومحاورات إقامة مظاهرة كبيرة يوم الثلاثاء لحمل الحكومة والملك على انتهاج خطة دفاعية، وفعلا خرجت المظاهرة فى الصباح الباكر وسارت حتى ساحة الشهداء، وهنالك تعاقب الخطباء ملحين بضرورة الدفاع، ومما زاد فى هياج القوم واضطرابهم ما شاع بينهم وهو قبول الحكومة الإنذار رسميا.

وعقد المؤتمر جلسة قبل الظهر (ظهر يوم الاثنين ١٩ منه) بدأها سرية، ثم قرر أن تكون علنية، وقال رئيس المؤتمر على الأثر إن رئيس الوزارة أبلغه أن الحكومة غير آتية إلى المؤتمر، وأنها تنتظر عودة الرسول الذى انتدبته إلى بيروت لمفاوضة الجنرال غوروفى تعديل الشروط الواردة فى إنذاره. فلذلك لا يرجى حضورها إلا بعد رجوع الرسول.

وتكلم كثير من الخطباء، ثم وافق المؤتمر على اقتراح للسيد الشريقى نائب اللاذقية، وقرر طبعه وتوزيعه على الأمة وهذا نصه:

«بما أن المؤتمر السورى قد اطلع على الشروط التى طلب الجنرال غورو من الحكومة السورية قبولها والموافقة عليها، وهى احتلال الخط الحديدى مع مدينة حلب وقبول الانتداب الفرنسوى بدون قيد ولا شرط، واعتبار الورق السورى عملة وطنية، وإلغاء التجنيد الإجبارى إلى آخر ما جاء فى هذا الطلب، ولما كانت الحكومة الحاضرة قد طلبت اعتمادا من المؤتمر فى ٨ مايو حينما أتت إليه على أثر صدور قرار سان ريمو القائل بانتداب فرنسا لسورية وتجزئتها، وأعلنت فى بيانها الرسمى أنها رفضت هذا القرار، واحتجت عليه، وأنها ستدافع عن كيان البلاد إذا غصب حقها، وأرغمت على الاستعباد. فالمؤتمر الذى قرر استقلال البلاد التام ووحدتها، ووضع المملكة السورية على هذا الأساس، واعتمد الوزارة بعد ما قبلت به وأخذت على نفسها القيام بتنفيذه، وقد استدعاها بعد ورود الإنذار المذكور ليقف منها على خطتها إزاءه بصورة رسمية فلم تلب الطلب، فهو يعلن للملأ أنه لا يحق لأية حكومة كانت أن تقبل باسم الأمة السورية أى شرط من الشروط التى تخالف

قرار المؤتمر التاريخى. فالحكومة الحاضرة إذا خالفت بيانها الرسمى، ولم تقم بواجبها تجاه البلاد، وأرادت أن توقع على صك يخالف قرار المؤتمر. فالمؤتمر يعتبرها بتوقيعها غير شرعية، والصك غير صحيح ويحمل أشخاص الوزارة كل تبعة ومسؤولية تجاه الوطن الطبيعى والشرعى وجهادها المديد وإن كل مداخلة أجنبية فى البلاد هى غير مشروعة. سواء وقعت بالقوة أو بموافقة أشخاص لا نيابة لهم عن الأمة تخولهم هذا الحق. ويحق للأمة السورية أن ترفضها فى كل وقت، وهو يشهد العالم المتمدن على بيانه هذا ويذيعه للأمة ويرفعه لمعتمدى الدول».

وعقد المؤتمر جلسة ثانية بعد الظهر بدأها سرية، ثم جعلها علنية أعلن رئيسه فى أثنائها أنه يجب انتخاب وفد قوامه ٨ من أعضاء المؤتمر و٨ من نواب الأحزاب لمقابلة جلالة الملك وإطلاعه على الروح السائدة بين الأمة.

وانتخب المؤتمر وفده، فانضم إلى مندوبى الأحزاب وقصدوا البلاط الساعة السادسة مساء فهتف لهم الشعب هتافا عاليا، فقابل بعضهم الملك ورئيس الوزارة، وعادوا فى الساعة الثامنة إلى المؤتمر فأعلن الرئيس أنه لم يتم شىء نهائى، وأن الوزارة تنتظر وصول جواب الجنرال غورو لتقرير خطتها.

وبدأت الوزارة مساء الاثنين ١٩ منه بتنفيذ أحكام الإنذار فسرحت الجيش، كما قررت تأجيل المؤتمر السورى لمدة شهرين، فجاء فى الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء ٢٠ منه هاشم الاتاسى ويوسف العظمة إلى دار المؤتمر، ووقف هذا وتلا مرسوما ملكيا بتعطيل جلساته لمدة شهرين، فعارض بعض الأعضاء واحتج آخرون، كما حاول غيرهم الخطابة فأشار إليهم وزير الحربية بلزوم الانصراف فانصرفوا، فأقيمت مظاهرات فى أسواق دمشق، وسادت الفوضى واشتد الهياج، وهاجم الغوغاء فى السهرة قلعة دمشق لأخذ السلاح، ونهبوا المستودعات، وأطلقوا السجناء، فذهب الأمير زيد بنفسه مع قوة مسلحة بالرشاشات إلى القلعة للدفاع عنها أصلت المتظاهرين نيرانا حامية فتفرقوا بعد ما قتل نحو ٢٠٠ منهم، وقصد جمهور من الغوغاء البلاط بمظاهرة عدائية ففرقتهم الشرطة قبل وصولهم. وأغلقت دمشق فى تلك الليلة، وبات الناس فى كرب وضيق عظيمين.

الجيش الفرنسوى يزحف على دمشق

وعقدت الوزارة اجتماعا بعد ظهر الثلاثاء (٢٠ منه) لوضع نص المذكرة الجوابية المفصلة التى ترسل إلى الجنرال غورو طبقا لاقتراحه الوارد فى برقيته الأخيرة فاستغرقت هذه الجلسة نحو ثلاث ساعات. وفى الساعة السادسة مساء ذهب الكولونيل كوس إلى البلاط بناء على برقية تلقاها من الجنرال غورو يسأله فيها عما استقر عليه القرار فسأل عن الرد فقيل انه انتهى ثم سلم إليه بنصه وهو مكتوب طبقا لاقتراح الجنرال فحمله وعاد به إلى داره ووضع على الأثر برقية إلى الجنرال سلمت إلى مصلحة البرق فى الساعة السابعة ونصف مساء وقد جاء فيها أن الملك وقع جواب القبول، وأنه تسلمه وأرسله بالبريد.

وقد كان المأمول بعد هذا الرد أن يقف الجيش الفرنسوى عن الزحف وأن ينتهى كل شيء. بيد أن عدم وصول البرقية إلى الجنرال فى الوقت المعين أى قبل منتصف الليل غير الوضع، فقد تذرع بتأخيرها فأصدر أمره اليجيشه بالزحف فتحرك إلى دمشق.

وبيان ما وقع أن موظفى البرق وجدوا الأسلاك البرقية مقطوعة بين دمشق وبيروت حينما أرادوا إرسالها فى الساعة الثامنة مساء – أى بعد وصولها بنصف ساعة فحاولوا إرسالها بطريق النبك ـ حمص ـ البقاع فاتصلوا بعد عناء طويل بمركز البقاع عند منتصف الليل، وطلبوا من الموظف المختص أن يتسلمها فأجابهم ان ضابطا فرنسويا واقفا على رأسه والمسدس مشهر بيده يأمره بأن يرسل برقية من الجنرال غورو إلى الكولونيل كوس حالا، ويأتى بالجواب فأخذها منه ولما حاولوا إعطاءه البرقية المرسلة امتنع عن قبولها فتأخرت رغما عنهم.

وجاء فى صباح ٢١ منه الكولونيل كوس ومعه جميل الألشى مرافق الملك إلى مكتب البرق للبحث عن سبب تأخيرها، فأجيبوا بأنها وصلت فى الساعة السابعة والنصف وبما

أنها غير رسمية لأنها مأجورة ـ وكان معتمدو الدول فى دمشق يدفعون أجورا على برقياتهم ـ وتعد من البرقيات التجارية فقد حفظت لترسل عند حلول دورها. ولما أرادوا ارسالها عند الساعة الثامنة وجدوا الأسلاك مقطوعة، فحاولوا إرسالها بطريق النبك ـ فامتنع الموظفون فى البقاع عن تسلمها. وأحيل الموظف المختص إلى المحاكمة فى الديوان العسكرى الوطنى فحوكم يوم ٢٢ منه فأثبت عدم إمكان ايصال البرقية فنيا للاعتبارات التى بسطناها فبرأه.

وبعد ما تم للفرنسويين دخول دمشق، وتألفت الوزارة الدروبية يوم ٢٦ منه أحالت حسن بك الحكيم مدير البرق والبريد العام فى الحكومة الفيصلية، يوم أول أغسطس سنة ١٩٢٠ إلى الديوان العرفى لمحاكمته بتهمة الحيلولة دون ارسال البرقية عن قصد وتعمد، فأثبت فى المحاكمة أنه أستقال فى الساعة الخامسة والنصف من يوم ٢٠ يوليو - أى قبل وصول البرقية بساعتين ونصف، وانسحب من العمل محتجا على الوزارة لنقضها عهودها للأمة بقبولها إنذار الجنرال غورو وقائلا: إن التعاون معها ذل واستحذاء، فبرأه الديوان بعد درس قضيته، وبعد ما سمع شهادة الشهود وعالج القضية من الوجهة الفنية وبنى تبرئته على الاعتبارات الآتية ١ـ لأنه استقال قبل ورود البرقية بساعين و٢ـ لأنه لم توجه إليه تهمة من الموظفين المختصين، ولم يشهد أحد منهم بأنه أوحى إليه أوامره بوقفها و٣ـ لأنه بصفته مديراً عاما للبرق والبريد لا يطلع على البرقيات الصادرة والواردة. بل يتولى ذلك الموظفون المختصون.

ولما أرسلت أوراق البراءة إلى الوزارة نقضتها طالبة اعتقاله، وإعادة محاكمته فأعيدت محاكمته، وهو غير معتقل، وأعاد الديوان العرفى تبرئته للاعتبارات السابقة، ولأنه لم يقم ما ينقضها وحاولت إعادة محاكمته للمرة الثالثة ثم عدلت عنها لما رأته من إصرار الديوان العرفى على تبرئته فقد أجاب رئيسه أحد الوزراء حينما اقترح عليه أن يصدر حكما بإعدامه قائلا إنه يفضل قطع يده على إصدار مثل هذا الحكم، ووقفت القضية عند هذا الحد.

وهنالك من يعتقد بأن قطع السلك البرقى فى تلك الليلة بين بيروت ودمشق جرى بإغراء بعض الموظفين الفرنسويين. الذين أرادوا اغتنام هذه الفرصة لدخول دمشق متذرعين بهذه الوسيلة، فكان لهم ما أرادوه.

شروط غورو الجديدة

وفى صباح ٢١ منه طير الملك برقية إلى الجنرال غورو فى بيروت، وقد أبلغ عونى عبد الهادى صورة منها إلى الكولونيل ايستون المعتمد البريطانى بدمشق وهذا نصها:

«على الرغم من المشكلات التى توقعتها مقدما فقد قبلت كتابة ورسما كل ما طلبتموه فى إنذاركم، وسرحت الجيش العامل طبقا لأحكامه، وألغيت الخدمة العسكرية الإجبارية مما سبب استياء جانب من أبناء شعبى، كما يشهد بذلك قناصل الدول فى دمشق. ولقد دهشت حينما علمت أن جيوشكم تزحف على دمشق رغم قبولى جميع الشروط الواردة فى الإنذار بلا قيد ولا شرط. مما يعد انتهاكا للعهود المقطوعة، وخرقا للحقوق الخاصة وللروح الأدبى العام.

«فكل تبعة تنجم عن هذا العمل الغريب تقع على عاتق مسببها، وأطلب منكم فى الختام اتخاذ التدابير اللازمة لسحب جيوشكم بسرعة».

وأرسل الجنرال البرقية الآتية إلى الكولونيل كوس:

«لقد تلقيت الساعة العاشرة من هذا الصباح ثلاث برقيات منكم بالترتيب الآتى:

١ ـ برقية ٢٠ يوليو الساعة ١٩:٣٠

٢ ـ برقية ٢١ « « ٢٠:٣٠

٣ ـ برقية بدون رقم وبتاريخ ٢١ منه تؤكد البرقيتين الأوليين بشأن قبول الشروط المنطوية على عقوبات بطرق رسمية، وتطلب منى عدم مواصلة الزحف على دمشق.

٤ ـ وتلقيت برقية ٢١ منه المرسلة فى الساعة ٧:٣٠ المشيرة إلى أن برقيتكم بتاريخ ٢٠ منه لم يمكن إرسالها بسبب قطع سلك التلغراف بين دمشق والزبدانى.

٥ ـ ولم تصلنى البرقية الحاملة قبول الشروط المطلوبة فى خلال المدة المضروبة، ولذلك بدأ الزحف على دمشق فى هذا الصباح.

وخلافا لما أشرتم إليه لم يبدأ بإطلاق النار فى مجدل عنجر، وقد ارتد رجال المخافر العربية فى البقاع بطريق دمشق، وربما ارتد رجال مجدل عنجر. وتتسلق جنودنا منذ الساعة ٩ صباحا هضاب لبنان الشرقية. ولذلك لم يعد بالإمكان إيقاف زحفها.

وفى امكانكم أن تنبهوا الأمير بأنه لو لم تنظم الحكومة العربية عصابات السلب والنهب وتؤيدها لما تأخرت برقيتكم الخطيرة الشأن بسبب قطع السلك. فحكومة دمشق هى ضحية أعمالها السابقة. ويجب إعلام الأمير أن الزحف سيستمر حتى يصل الجيش إلى مقابل دمشق فإذا لم يجد مقاومة، وإذا تم احتلال حلب والمحطات المذكورة فى الشروط بدون مقاومة فإن الجيش لا يدخل دمشق.

وأؤكد لكم تلغرافى نمرة ٣/٣٥٦ الذى أرسلته مساء أمس، وأبلغتكم فيه أن تبقوا مستعدين للمحادثة مع كل حكومة مستعدة للتعاون بإخلاص مع فرنسا .

وأرسل الملك فى اليوم نفسه البرقية الآتية إلى حكومات الحلفاء بواسطة قنصل إيطاليا العام:

«رغم قبولى جميع الشروط الواردة فى إنذار الجنرال غورو المؤرخ ١٤ يوليو، وهى تنطوى على احتلال مدينة حلب الواقعة فى أقصى حدودنا الشمالية، ومحطات حلب وحمص وحماه، وعلى سحب جيوشنا من الحدود وتسريح الباقى منها وإلغاء التجنيد الإجبارى وعلى قبول التعامل بالنقد السورى وعلى الاعتراف بالانتداب الفرنسوى لسورية - ذلك القبول الذى أعرب لى عن ارتياحه إليه فى كتابه المؤرخ فى ٢٠ منه والمقدم إلى بواسطة ضابط ارتباطه فى دمشق - فانه أصدر الأمر إلى جيشه بالزحف على دمشق.

«وسيؤدى حتما هذا العمل الشاذ الذى لا يكاد تاريخ الإنسانية والحضارة ينطوى على مثيل له إلى اراقة كثير من الدماء البريئة. خصوصا وهو يقع بعد قبول إنذار باهظ الشروط سرح بموجبه الجيش السورى، وأرسل رجاله إلى بيتهم، ويخشى معه من انتقاض شعبى الذى يلح فى رفض هذا الإنذار.

فألفت نظر حكومتكم والعالم المتمدن إلى هذه الجناية السيئة، ولن تقع تبعتها إلا على عاتق مرتكبها. ذاك الذى انتهك حرمة العقود الدولية المقدسة»

إعلان الحرب على الفرنسويين

وتبدل الموقف بعد ظهر الأربعاء ٢١ منه فقد ذهب الكولونيل طولا فى الصباح إلى عاليه فقابل الجنرال غورو وأطلعه على قصة البرقية، وأفهمه انه لابد للحكومة فى تأخيرها، وطلب

إليه فى النهاية وقف الجيش الزاحف فأجاب أنه لا يستطيع وقفه بعد كل ما جرى. فعاد إلى دمشق وأبلغ جلالة الملك الجواب فتأثر كثيرا، وأدرك انه كان مخدوعا، ورأى ان مقابلة الشر بالشر هى الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البلاد من حرب أهلية تكاد تنشب فيها بسبب قبول الانذار. ومما لا ريب فيه أن وقوع الزحف فى صبح ليلة سوداء قضتها دمشق ولم يغمض لها فيها جفن، جعل جلالة الملك يختار هذه السياسة، ويعدل عن خطته السلمية فقد تركب الأهوال ما ليس يركب.

ونادى على الأثر منادى الحــرب فى أرجــاء دمــشق ودوى نذيره، وأرسل جــلالة الملك فاستدعى الشيخ كامل القصاب ـ زعيم اللجنة الوطنية يومئذ ـ وقال له لقد قررنا الدفاع فأرنا همتك ونشاطك، وجئنا بالقوى التى تقول انها مهيأة للزحف، فانطلق يجوب الأحياء كما انتشر الخطباء فى كل ناحية يحثون الناس على الدفاع، فأشرق وجه دمشق بعد القطوب وعادت إليها حركتها ـ بعد جمود قاتل، وتراكض الناس إلى محطة السكة الحديد للسفر إلى ميدان القتال بميسلون، والاشتراك بالدفاع، ومعظمهم بلا زاد ولا سلاح.

وأذيعت على الأثر المناشير الثلاثة الآتية:

١ــ منشــور الملك

إلى أبناء الوطن

عملنا للمحافظة على السلم حتى لا نفتح على الأمة باب التعلل والاحتجاج، وحافظنا على شرفنا فى كل مواقفنا مع الفرنسويين، وآخر ما فعلناه فى هذا الباب أننا قبلنا شروطا لندفع بها عادية القوم، ولنحافظ بها على كتلة سورية عربية، متمتعة بالحرية والاستقلال ولكن الجنرال غورو الذى لا يهنأ له بال حتى يرى شرف هذه الأمة معرضا للإهانة والاحتقار حنث بيمينه، وخالف الأصول المعترف بها، وتعامى عن سماع الواجب، وأمر جيشه بمهاجمة الجيوش العربية المرابطة على الحدود فإلى معاضدة هؤلاء الأبطال الذين يعرضون مهجهم للدافع عن الوطن المقدس ندعو كل فرد من أفراد الامة إلى السير إلى الأمام حيث الشرف والمجد والدين والوطن.

٢ـ منشور القيادة العامة

إن أمارات السوء التى ظهرت جليا موشحة بتجاوز العدو واختراقه الحقوق الولائية والبشرية أنذرتنا بخطر الاستعباد وبطشه الأبدى وإيقاد نيران حرب تكون وبالا على الألوف من الأبرياء لهدم أمانى الأمة السورية والقضاء على مبادئها القويمة التى قامت تجاهد وتسعى لتضمن فوزها فى معترك الحياة.

لقد حان الوقت الذى يحتم على شبان هذا الوطن وشيوخه أن يستبسلوا أمام هذا الاعتداء الفعلى، وأن يظهروا منتهى الغيرة والإقدام رابطى الجأش. ساهرين على تنفيذ تلك المبادىء المقدسة – رغما عن ممانعة هذا العدو ومعاكسته لنيلنا هذه الغاية فى الحياة. إن الأمة السورية التى تعرف شرفها ومقامها والتى تتمتع بذكاء أبنائها ودهائهم، وتعتمد على أخلاقها القومية يستحيل أن يندرس مجدها فى أى وقت وأمام أية قوة، مهما تراكمت المصائب، واشتدت فداحة الظلم والجور عليها فلابد أن يأتى اليوم الذى نعلن فيه ظفرها وانتصارها على غاصبيها، ويستحيل أن تموت هذه الإحساسات، ويقتل هذا الشعور. فتخديرا للعزائم الوطنية وتوهينا لها قد تأتى طيارات العدو المحتل وتحلق فى سمائنا لاستكشاف الأماكن والحركات العسكرية، ولإلقاء الرعب والإرهاب فى قلوب الذين لا يدركون أن تأثير الطيارات لا يكون إلا على الذين يخافونها، ولربما ترمى قذائفها على المبانى العسكرية وإذا رأت جموعا وجماهير محتشدة لتثبيط العزائم والمعنويات القومية التى لا تتزلزل أمام هذه الترهات والأوهام – قد يكون تأثير أعمالها بسيطا فيضمحل ويتوارى معها متى تفرقت الجموع المجموعة، وانتشرت فى الأرض بلا خوف ولا وجل. وليعلم الشعب بأسره أن المدافع والطيارات والبنادق والأسلحة لا تقضى على آمال الأمة إذ إن تأثير الطيارات على الماديات المجردة فقط، وليس لها أى تأثير على الاحساس والوجدان أمام ثبات الأمة وإقدامها على اقتحام المصاعب والعقبات التى يضعها العدو الفاغر فاه ليبتلعنا إذا زلت بنا القدم – كما أن الحكومة قد اتخذت الحيطة والتدابير الممكنة لمنع تجول الطيارات واعتلائها فى آفاقنا، ووضعت المدافع والرشاشات السريعة فى مواضع متعددة لصدها والتنكيل بها فعسى أن تكلل الأعمال بالفلاح والنجاح، وما النصر الا من عند الله.

٣ـ منشور الحكومة

«إن الحكومة العربية السورية حبا للسلم، وحقنا للدماء البريئة لم ترغب أن تدخل غمار الحرب. فقبلت ما عرضه عليها الجنرال غورو من الشروط المصحوبة بالإنذار، وأرسلت إليه قبل انتهاء الموعد جواب موافقتها. كما أبلغكم ذلك كبير الأمناء إلا أن الجنرال غورو نقض العهد – مع الأسف وبادأنا بالعداء فعلا، فأصبحت الأمة بعد الاتكال عليه تعالى والاستمداد من روحانية نبيه مضطرة للدفاع عن كيانها وحياتها وشرفها، ملقية تبعة ما ينجم عن الحرب من الويلات على الجنرال غورو. لذلك فإني أوصى جميع أبناء الوطن ورجال الحكومة أن يقوموا بواجباتهم الوطنية بعزم وقوة متوكلين على الله القدير، ومنعا لهذا الاعتداء الفظيع، وما النصر الا من عند الله يؤتيه من يشاء»

استئناف المفاوضات ومطالب جديدة

وعاد الملك ثانية ـ بعد ما خمدت ثورة عاطفته ـ فأرسل إلى الجنرال غورو يوم ٢١ منه البرقية الآتية:

«على الرغم من قبول جميع الشروط الواردة فى مذكرة ١٤ الجارى، وعلى الرغم من زحف الجيش الفرنسوى وتقدمه نحو دمشق، ورغبة فى حقن دماء تسيل بلا طائل أطلب منكم فى الدقيقة الأخيرة أن تصدروا أمركم إلى الجيش بإيقاف أعماله للدخول فى محادثات تدور على القاعدة المبينة فى برقيتكم المبلغة اليوم. يسافر اليوم إلى طرفكم أحد أعضاء الحكومة، ومهمته التعاقد معكم باسمها» وغادر دمشق فى اليوم نفسه (٢١ منه) ساطع الحصرى وزير المعارف وجميل الألشى المرافق العسكرى لجلالة الملك إلى عالية لمقابلة الجنرال غورو والبحث معه فى ايقاف زحف الجيش، فسلم الجنرال الوزير المذكرة الآتية وقد حملها الملك وهى:

إنه وأن تكن طرق التنفيذ المنصوص عليها فى الإنذار لم تنفذ خلال المدة المضروبة، ولما كان الأمير قد اتخذ تدابير التنفيذ فالجنرال غورو مستعد لوقف زحف الحملة على دمشق بالشروط الآتية:

١ـ تنشر حكومة دمشق منشورا ألحقت مسودته بهذا البيان يوضح الأسباب التى حملت

الجيش الفرنسوى على الزحف وعلى التوقف.

٢ ـ تستقر الحملة فى الأماكن التى بلغتها وتحد من الشرق بمسيل التكية، وتظل هنا ريثما يتم تنفيذ شروط الإنذار كاملة، تلك الشروط التى قبلها الأمير، وتخفض تدريجيا بالنسبة لتنفيذ الشروط.

٣ ـ تظل سكة حديد رياق ـ التكية فى خلال هذه المدة تحت مطلق تصرف الفرنسويين.

٤ ـ تسترجع الحكومة إلى دمشق القوات العسكرية الشريفية المرابطة غربى وشمالى مسيل التكية وفى المنطقة نفسها، بما فى ذلك قوات البقاع، وذلك رغبة فى سلامة الجيش الفرنسوى، ويجعل الدرك الباقى فى هذه المنطقة تحت أمر السلطات الفرنسوية المحتلة.

٥ ـ تمتنع حكومة دمشق من الآن عن مد يد المساعدة للعصابات التى تعمل فى المنطقة الغربية، وخصوصا للشيخ صالح.

٦ ـ إن الاضطرابات التى نشأت عن أعمال العصابات التى أوصلت الحالة إلى هذا الحد وحوادث ٢٠ يوليو فى دمشق، وقد أثبتت خطر تسليح الشعوب تسليحا عاما. إن هذه الاعتبارات تجعل من الواجب على الجنود المسرحين أن يسلموا أسلحتهم إلى المستودع العسكرى على أن ينزع سلاح الشعب تدريجيا.

٧ ـ تقيم فى دمشق لدى الحكومة بعثة فرنسوية مفوضة تمنح الاختصاصات الآتية:

أ ـ اختصاصات موقتة.

تقوم بمهمة المراقبة على تنفيذ الشروط التى قبلتها الحكومة.

ب ـ اختصاصات دائمة.

تدرس طريقة تطبيق الانتداب فى المنطقة الشرقية – أى تعاون فى تنظيم وفى قيام الوزارات بالخدمات العامة.

توضع هذه البعثة تحت إشراف رئيسها (الكولونيل كوس) وتؤلف من الفروع الآتية:

فرع عسكرى

فرع مالى ـ للضرائب والمحاسبات العامة وأملاك الدولة والمساحة والبريد.

فرع إدارى ـ لأعمال الإسعاف والصحة.

فرع اقتصادى ـ للزراعة والمناجم والأشغال العامة.

فرع للحقانية والشرطة.

فرع للتعليم العام.

٨ ـ فى حالة عدم تنفيذ شرط من هذه الشروط، أو فى حالة الاعتداء على الجيش الفرنسوى فى أى جهة من الجهات تسترد الحملة حريتها المطلقة فى العمل.

وأبرق الكولونيل كوس يوم ٢٢ منه إلى الجنرال غورو البرقية الآتية:

تلقى الأمير إعلانا بهدنة تنتهى يوم ٢٣ منه عند منتصف الليل، وحيث إنه لم يصله حتى الآن أى اقتراح من قبلكم، فهو يطلب إبلاغه بسرعة الشروط المقترحة مع مهلة كافية لإعطاء الجواب.

قبول شروط الإنذار الأخير

ودعا الملك الوزراء إلى القصر الملكى، وأطلعهم على شروط الإنذار الجديد واستشارهم فيما يرونه. فأشاروا عليه بقبوله وعدم المعارضة، ويقول أحد الثقات ان يوسف العظمة كان فى جملة الوزراء الذين أشاروا على الملك بقبول الإنذار فلما سمع منه ذلك قال له:

ـ ولماذا كنت تصر على الحرب؟.

ـ كنت أعمل «مناورة» على الفرنسويين

ـ يجب أن نموت بعد أن وصلت الحالة إلى هذا الحد.

ـ إذن أنت تأمرنى أن أموت.

ـ يجب أن نموت شرفاء.

أول بلاغ رسمى عن القتال

وفى يوم ٢٢ نشر فى دمشق البلاغ الرسمى الآتى:

«حالما أعلن الدفاع عن البلاد وقفت قواتها التى كانت راجعة من مجدل عنجر غربى

خان ميسلون فصدمتها القوات الفرنسوية المتقدمة، وفى طليعتها خمس دبابات فتبادلت مدفعيتنا والدبابات النار فحطمنا ثلاث وأكرهنا الأخيرتين على التقهقر والانسحاب بسرعة.

وكان قطار عسكرى فرنسوى يسير من رياق إلى جهة حمص فاقتلعت قواتنا الوطنية قضبان سكة الحديد قرب القصير فهوى القطار وانفجر ما فيه من مواد حربية ولم يرد علم بعد عما أصاب ركابه.

وبينما كانت دورياتنا فى بعلبك تتجول للمحافظة على الأمن تعرضت لها قوة فرنسوية، ولكنها انهزمت تاركة مركبة نقل، وسبعة قتلى وثلاثة جرحى.

وحامت طيارة اليوم فوق مواقعنا (؟) فأكرهتها مدفعيتنا على الانسحاب فارتدت نحو الغرب.

وزحفت قوة فرنسوية نظامية مؤلفة من كتيبتين إلى يحفوفا فقابلها الوطنيون وردوها إلى رياق بعد ما كبدوها خسارة»

وعاد الملك فأرسل يوم ٢٣ منه البرقية الآتية إلى الجنرال غورو:

«نحن نأبى الحرب بيد أن قبولنا لمذكرتكم الأخيرة يعرضنا لحرب أهلية، ويجعلنى أنا وكل عضو من أعضاء الحكومة عرضة للتهلكة. نحن على استعداد لتنفيذ إنذار ١٤ يوليو بكامله، وقد نفذنا حتى الآن أربعة بنود من بنوده ونتعهد بشرفنا بأن ننفذه بإخلاص إذا جلا الجيش الفرنسوى عن الأماكن التى احتلتها»

ولما لم يرد جواب من الجنرال الذى كان مصمما على متابعة الزحف إلى دمشق أدرك رجال الحكومة أنه لابد من القتال والمقاومة فذهب يوسف العظمة إلى ميسلون لملاقاة الجيش الفرنسوى، وتقلد ياسين باشا الهاشمى قيادة موقع دمشق والأمير زيد القيادة العامة للجيش، ولكن الجيش كان مسرحا.

معركة ميسلون

كانت الخطة العسكرية التى وضعها يوسف العظمة للدفاع عن دمشق تقضى بإنشاء سلسلة من الحصون حول قرية مجدل عنجر المطلة على سهول البقاع والمسيطرة على طريق رياق - دمشق السلطانى، وبحشد قوات من الجند لمنع الجيش الفرنسوى من التقدم نحو

العاصمة، وكان مجموع القوات المرابطة فى هذا الخط حينما اجتمع المجلس الحربى يوم ١٦ يوليو يقدر بثلاثة آلاف جندى نظامى مسلحين ببطاريتين من المدافع: بطارية جبلية وبطارية صحراوية يقودهم أميرالآلاى تحسين الفقير، وقد حل فى قيادة هذه المنطقة محل ياسين الهاشمى الذى أبى تولى القيادة - كما رأيت - لاعتقاده بعجز الجيش عن المقاومة والثبات لنقص معداته وأسلحته وفقده النظام.

ولقد سرحت هذه القوى حينما صدر الأمير بتسريح الجيش يوم ١٧ منه. فارتدت المدفعية إلى دمشق تاركة خطوط الدفاع الخلفية، كما تفرق المشاة عائدين إلى بيوتهم ومنازلهم وبلدانهم، لأن الخطة التى ساروا عليها فى تسريح الجيش تقضى بإلغائه إلغاء تاما، وعدم الإبقاء على شىء منه، ولذلك تفرق رجاله المدربون هنا وهنالك، ولم يبق من مجموع قوات مجدل عنجر عندما نودى بالحرب يوم الاربعاء ٢١ منه سوى ٦٠ جنديا جمعوا من هنا وهنالك وحشدوا فى ميسلون للدفاع والمقاومة. ولا نشك فى أن تسريح الجيش على هذا المنوال كان من جملة العوامل التى أطمعت الجنرال غورو، وجعلته ينتقل من تشديد إلى تشديد آخر، ولو اكتفوا بسحب الجيش إلى خارج المنطقة وأبقوه فيها على أن يسرح نهائيا بعد الاتفاق على جميع الشروط وتنفيذها لما حدث ما حدث.

وانتشرت الدعوة للتطوع فى دمشق يوم الأربعاء (٢١ منه) ونفخ فى بوق الحرب بعد ما كان الجيش الفرنسوى قد اقتحم منطقة مجدل عنجر ووادى الحرير، وتقدم باتجاه ميسلون وتبعد عن دمشق ٢٨ كيلو مترا فقط من جهة الغرب.

ورأى قواد الجيش العربى أن يصمدوا لجيش الجنرال غوابيه فى ميسلون وأن ينازلوه فيها، فبدأوا من يوم الاربعاء بانشاء خط دفاع وبإعداد معدات القتال، وتنظيم المتطوعين القادمين من دمشق، وقام بهذه المهمة الخطيرة البكباشى شريف الحجار مدير الاستخبارات العسكرية فى الجيش، والاستاذ فى المدرسة الحربية، فقد وصل إلى ميسلون مساء ذاك اليوم على رأس ٣٠٠ فارس وتوالى وصول المتطوعين فبلغ عددهم مساء الجمعة ٢٣ منه ثلاثة آلاف يحملون بنادق مختلفة الأنواع والأحجام. ونظم شريف الحجار الأسلحة قبل الاشتباك فى المعركة فوضع حملة البنادق الإنكليزية فى جانب، كما وضع حملة البنادق الألمانية فى جانب آخر، ومثلهم حملة البنادق العثمانية.

وعبئت هذه القوى فى منطقة ميسلون ووهادها وجبالها تعبئة محكمة، وأقامت فى انتظار وصول العدو، وجاء يوسف العظمة صباح السبت ٢٤ منه ليشترك فى القتال. وانشئت مصلحة للتموين (منزل) فى دمر بقيادة لطفى الرفاعى لإمداد الجيش المحارب بالمؤن والماء - كما أنشئت مصلحة للصحة.

وظلت القوى الفرنسوية تتقدم من دون مقاومة حتى أشرفت على منطقة ميسلون مساء الجمعة، فحطت رحالها وأقامت تنتظر الصباح للبدء بالعمل، وعند شروق فجر السبت ٢٤ منه أخذت المدفعية الفرنسوية تطلق نيرانها بشدة على أماكن المتطوعة فثبتوا وكانت المدفعية السورية تجيبها بمقدار لقلة العتاد، وكان هنالك نحو ١٠ طيارات ترافق الجيش الفرنسوى فى زحفه، وعدد كبير من الدبابات يمهد له. وفى الساعة ١٠ صباحا بدأ مشاتهم بالزحف إلى الأمام فصمد لها المتطوعة، وأصلوها نارا حامية، ووقف يوسف العظمة عند الساعة الحادية عشرة على احد التلول وبيده منظار يراقب حركة القتال، فحاول مرافقه العسكرى ياسين الجابى أن يحمله على التراجع وعدم تعريض جسمه لرصاص الأعداء فأبى فجاءته رصاصة من رشاشة فى صدره وتلتها رصاصات أخرى فوقع مضرجا بدمه.

واستمر القتال بين الفريقين حتى الظهر فأسكتت المدفعية الفرنسوية المدفعية السورية كما زحزح المشاة فغادروا أماكنهم تاركين نحو ٨٠٠ شهيد - أى أنهم فقدوا فى هذه المعركة أكثر من الربع. وقدرت خسارة الفرنسويين بثلاثمائة قتيل.

وهذا بيان القوات الفرنسوية التى كانت تقاتل فى ميسلون كما جاء فى بلاغ فرنسوى رسمى:

«آلاى المشاة ٤١٥ وآلاى رماة الجزائريين الثانى، ولواء سنغالى من الرماة الإفريقيين وآلاى من السباهى المغاربة، وخمس بطاريات ميدان، ومثلها جبلية، وبطاريتان من عيار ١٥٫٥ ويبلغ مجموع القوة نحو تسعة آلاف جندى تعززها طيارات ودبابات مع كمية من الرشاشات، وكانت بقيادة الجنرال غوابيه. وقد تطوع فى هذه الحملة عدد كبير من اللبنانيين الموارنة، بينهم بعض المتعلمين للقيام بأعمال الاستطلاع والترجمة والتجسس وأداء خدمات أخرى.

الانسحاب من ميسلون

وتم انسحاب المتطوعة والضباط العرب من ميسلون عند الساعة الواحدة بعد الظهر وارتد المشاة إلى سهول الديماس يقودهم شريف الحجار، وقد حاول أن يقف بهم عند قدسيا، وينشىء خط دفاع للمقاومة، ولكنه اضطر إلى الانسحاب لضعف القوى الأدبية وفقد النظام، ولأن الذين التفوا حوله لا يزيدون عن ٢٥ جنديا فعاد فى المساء إلى دمشق.

جلالة الملك فى الميدان

قصد جلالة الملك صباح السبت ٢٤ يوليو دمر ومنها إلى الهامة حيث كان مقر الجيش فوقف يرقب أخبار القتال الدائر فى ميسلون، ونحو الساعة الحادية عشرة ركب الأمير زيد ومعه الدكتور أحمد قدرى سيارة قاصدين ميسلون، وما كادا يتوسطان صحراء الديماس حتى حلقت فوقهما طيارة فرنسوية رمتهما برصاصها فأوقف الأمير السيارة ونزل منها واستلقى على ظهره وأخذ يطلق عليها الرصاص من بندقيته، وأمر الدكتور بالنزول فنزل استعداداً للدفاع، ولكن الطيارة تركتهما وانصرفت عنهما، وكان هنالك عدة طيارات فرنسوية تروح وتغدو للاستطلاع، وفيما هما على تلك الحالة مر بهما سائق سيارة يوسف العظمة وهو يسوق السيارة وهى خالية ويقول بأعلا صوته لقد انكسرنا، وما كاد يتقدمان قليلا حتى شاهدا المتطوعين عائدين فرجعا إلى الهامة ورافقا الملك إلى منزل الأمير زيد فى المزة، وقصد الدكتور قدرى دار الحكومة لإبلاغ الوزراء ما وقع ولإبلاغ البلدية أن تكون على استعداد، فمر بطريقه بدار المعتمد الفرنسوى فاستدعاه وقال له قل لجلالة الملك أن لا يقيم بعيداً فعاد إلى المزة وقص على جلالة الملك ما وقع فتقرر أن يقصد الكسوة وسار إليها فعلا عند الأصيل، وكان من رأى قناصل وايطاليا وأمريكا وانكلترا أن يظل جلالته فى دمشق فيخرجه الفرنسويون بالقوة إذا شاءوا.

وكانت الخطة التى يميل جلالة الملك إلى اتباعها فى هذا الدور تقوم على الانسحاب مع هيئة الحكومة إلى درعا وإنشاء خط دفاع هنالك، وجمع القوى ومواصلة النضال، بيد أن سقوط ميسلون بسرعة وتشتت قوى المتطوعة، وعدم استطاعتها الوقوف طويلا فى وجه الفرنسويين وتخلف بعض الوزراء عن اللحاق بجلالته حال دون تنفيذ هذه الخطة، يضاف إلى ذلك أن الكولونيل طولا وزميله كوس كانا يعملان حتى تلك الساعة ليظل جلالته على عرش سورية ساعين لإقناع الجنرال غورو بان ما وقع هو من فعل العناصر المتطرفة، ولا تلبث أن تنفض وتذوب بعد الاحتلال.

١٥

الجيش الفرنسوى فى دمشق

مشى الجيش الفرنسوى من ميسلون بعد ظهر السبت بحذر وبطء فبلغ المزة فى المساء فحط رحاله ونزل فى جوارها. وزاره فى المساء اللواء نورى السعيد قائد موقع دمشق والقائمقام جميل الألشى مرافق الملك، واتصلا بقائده وأركان حربه وأبلغوهم ان فى استطاعة الجيش أن يدخل دمشق فى أى وقت أراد.

وفى الساعة الرابعة بعد ظهر الأحد ٢٥ منه بدأت جيوش الحملة تدخل دمشق - وكانت مقفلة الأسواق. عابسة مقطبة تندب شهداءها ورجالها وآمالها وقد لبست ثوب الحداد - فوزعت فى ثكناتها، ووقف الأهالى على برازق الأرصفة مطرقين عابسين، مقطبين كأن على رءوسهم الطير.

تأليف الوزارة الدروبية

ووقع الملك فى صباح الاثنين ٢٦ منه، وكان لايزال فى الكسوة مرسوما بتعيين علاء الدين الدروبى رئيس مجلس الشورى فى الوزارتين الركابية والأتاسية ووزير الداخلية فى الأخيرة رئيسا لوزارة جديدة تحل محل الوزارة الأتاسية المستقيلة.

فألف هذا وزارته على الفور من عناصر عرفت بتأييد الانتداب الفرنسوى وموالاته. وقد أرادوا من هذا التدبير، ومن اختيار هؤلاء أن يكونوا واسطة للتفاهم بين الملك والفرنسويين وهذه أسماء الوزراء: عبد الرحمن اليوسف للشورى، وعطا الأيوبى للداخلية وبديع المؤيد للمعارف، وجميل الألشى للحربية، وفارس الخورى للمالية، ويوسف الحكيم للزراعة، وجلال الدين للعدلية – أى انها كانت تضم معظم أعضاء الوزارة السابقة فرئيسها وثلاثة من أعضائها كانوا فيها.

وتبدل الموقف حينما أذاع الجنرال غوابيه قائد الحملة الفرنسوية البيان الآتى:

«بما أن الأمير فيصلا جر البلاد إلى شفا الخراب والدمار فقد جرد من سلطة الحكم وصدر الأمر بدفع عشرة ملايين فرنك تعويض الخراب وسد الخسارة التى أصابت المنطقة الغربية من جراء العصابات، ونزع سلاح الجيش السورى عامة»

احتجاجات الملك وتدابيره

ولما طلع الملك على هذا البلاغ أرسل إلى الجنرال غورو يوم ٢٧ منه الاحتجاج الآتى برقيا:

«احتج على التصريح الذى صرح به قائد حملتكم إلى حكومتى بتاريخ أمس وأتنصل من كل تبعة أردتم أن تحملونى إياها، وأعتبر جميع المكاتبات التى تدور بينكم وبين حكومتى أو التعليمات التى تصدرونها إليها مباشرة وبدون وساطتى ملغاة، وغير مشروعة أمام جمعية الأمم».

«وأكرر لكم بهذه المناسبة تصريحى السابق، وقد أعربت فيه عن رغبتى فى اجتناب كل نزاع، وفى عدم معارضتى لوجود البعثة التى يوكل إليها تحديد أسس الانتداب، وقد رضيت به فى الأول والآخر».

وأرسل فى اليوم نفسه إلى اللورد كرزن وزير الخارجية البريطانية البرقية الآتية بواسطة اللورد اللنبى:

سيدى

أرسل إليكم طى هذا صورة تبليغ من قائد جيش الاحتلال الفرنسوى، وقد احتججت عليه، وتجدون صورة هذا الاحتجاج طيه أيضا. وأنا أنكر كل ما جاء فى التبليغ المشار إليه وأضع المسؤولية كلها سواء كانت مادية أو غير مادية على السياسة التى جرى عليها جيش الاحتلال الفرنسوى منذ الاحتلال وعقد الهدنة مع تركيا. وإنى موقن من زمان طويل أن الغرض الأصلى هو إخراجى بحيل ودسائس من هذه البلاد، وحملى على مغادرة العرش الذى أسسته بمساعدة حكومة صاحب الجلالة البريطانية، وبذلك يثأرون منى لصلاتى الودية مع بريطانيا العظمى. وسأبقى على هذه الحال فى دمشق منتظرا مشورتكم لى، ومحتجا على كل مشاكسة ومعاكسة، وأرجو أن لايطول انتظارى طويلا. فإذا لم

تصلنى إشارة منكم بما أفعل، فأنا لا أرغب البقاء فى هذه البلاد مهانا ذليلا، ولا أطيق الذم الذى يوجه إلى أمتى من غير حق. وقد طلبت رسميا من القائد الفرنسوى أن يبلغنى رسميا بأن أغادر البلاد أو يعاملنى طبقا لحالة (شروط) الانتداب».

وأرفقه أيضا بالكتاب الآتى إلى اللورد اللنبى:

سيدى اللورد

كما أخبرتكم قبلا بعد تسريح جيشنا، وإخلاء مراكزنا الحربية فى مجدل عنجر، والفائدة التى نجمت عن هذا الاحتلال للجيش الفرنسوى بتقدمه إلى وادى القرن، وبعد تسلم البلاغ النهائى من الجنرال غورو وجوابى بقبول كل الشروط التى تضمنها البلاغان، وطلبى منه أن يسحب جنوده من الأماكن المحتلة بلا حق، لايستطع إنزال العقوبات بأولئك الذين اتهموا باشتراكهم مع السكان فى الزحف إلى الساحة ليحولوا دون تقدم الجيش الفرنسوى عند دخوله دمشق. وإنى وحكومتى نرفض رفضا باتا أن نشهر حربا على فرنسا أو نثير نزاعا مع الفرنسويين. ولقد لقى الجنرال غورو حينما أراد اقتحام دمشق رجالا غير مسلحين وغير ممرنين تقدموا رغم إرادتى وكدت أواجه حربا أهلية داخلية لو سلمت بتقدمه إلى خان ميسلون. كما وقع عند قبول الشروط الأولى، ولم يقبل الجنرال غورو طلبى بإيقاف الزحف، بل هاجم رجالا غير ممرنين ومسلحين فكانت مجزرة استعملت فيها جميع أنواع آلات الحرب الحديثة والدبابات والطيارات وزهقت ١٥٠٠ روح ثم تقدم ودخل دمشق بدون مسوغ شرعى، وقد انسحبت إلى الضاحية خشية وقوع حرب فى الشوارع لو بقيت فى داخلها. وعدت إليها بعد احتلال الجنود الفرنسويين الذين استعملوا جميع أنواع الدسائس والافتراء.

ولقد أساء الينا الجنرال بنكثه فيما وعدنا به من عدم التقدم إلى دمشق، وبنقضه عهده وقد اعتمدنا عليه فسرحنا جيشنا، وأخلينا مواقعنا العسكرية عند مدخل وادى الحرير».

مطالب الفرنسويين الجديدة

وأبلغ الجنرال غوابيه أيضا الحكومة السورية مذكرة تنطوى على المطالب الآتية:

١- دفع عشرة ملايين فرنك غرامة حربية باسم تعويض.

٢ ـ نزع سلاح الجيش السورى وتحويله إلى قوة بوليس وتسليم أسلحته ومعداته ومدافعه إلى الجيش الفرنسوى غنيمة حربية.

٣ ـ تسليم كبار المذنبين ليحاكموا أمام المحاكم العسكرية.

٤ ـ انتهاء حكم الملك فيصل.

٥ ـ نزع سلاح الأهالى، وذلك بتقديمهم عشرة آلاف بندقية للجيش الفرنسوى.

فقبلت الوزارة هذه الطلبات وتعهدت بتنفيذ أحكامها، ودفعت الغرامة وسلمت الأسلحة وسرحت الجيش، وأخذ الفرنسويون جميع معداته وأسلحته. وفرضوا مثل هذه الغرامات (مالا وبنادق) على جميع المدن السورية الداخلية تقريبا، فدفعت حمص وحماه وحلب غرامات كبيرة وسلمت مقادير وافرة من الأسلحة.

خـــروج الملك

وفى مساء ٢٧ منه سلم الكولونيل طولا رئيس البعثة الفرنسوية بدمشق إلى الملك فيصل الكتاب الرسمى الآتى:

«أتشرف بإبلاغ سموكم الملكى قرار الحكومة الفرنسوية. وهى أنها ترجو منكم مغادرة دمشق بأسرع ما يستطاع بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وبطانتكم، وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يبرح محطة الحجاز بدمشق غدا ٢٨ يوليو الساعة الخامسة صباحا»

ولما تلقى جلالة الملك هذا البلاغ أرسل على الفور إلى الجنرال غورو الكتاب الآتى:

«أبلغنى الكولونيل طولا بكتاب مؤرخ ٢٧ الجارى قرارا للحكومة الفرنسوية، يدعونى إلى مغادرة دمشق بقطار خاص فى الساعة الخامسة من صباح غد، فلى الشرف أن أصرح لكم اننى لا أعترف للحكومة الفرنسوية بحق نزع الاختصاص الذى منحنى اياه مؤتمر الصلح رسميا لإدارة المنطقة الشرقية حين احتلال سورية، وتقسيمها إلى ثلاث مناطق ثم تأيد عمليا بتاريخ ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٩ بالمذكرة التى قدمها المستر لويد جورج إلى المسيو كلمنصو وإلىّ.

«وما أنا بمعترف للحكومة الفرنسوية بأى صفة فى نزع اللقب الذى لقبنى به الشعب السورى، والقوة وحدها هى التى تستطيع نزعه، ولكنكم تعلمون أنه لا عمل لها فى الحقوق الخاصة.

«وغنى عن البيان أن دخول جيوشكم إلى دمشق بعد معركة قصيرة مع الشعب واحتلال دور المصالح العامة عسكريا هو خرق لمقررات مؤتمر السلام، وبالأخص لمبادىء جمعية الأمم التى ألغت الحرب، ووضعت قواعد لحل الخلافات بطريق التحكيم الدولى.

«وكذلك فإن احتلالكم لعاصمة البلاد عمل خطير الشأن وغير عادل، لأنه وقع بعد تسريح الجيوش السورية طبقا لإنذاركم المؤرخ ١٤ الجارى وقد قبلته بكامله، ذلك القبول الذى أظهرتم ارتياحكم إليه فى كتابكم يوم ٢٠ الجارى وأقمتمونى شاهدا لعطفكم على الشعب السورى.

«نعم انكم طلبتم فى الفقرة الثانية من ذلك الكتاب تأكيدا مفصلا لقبول شروطكم، لا جوابا بالقبول، لأن هذا كان فى يدكم، على أن تأخير وصول هذا التأكيد المفصل، وقد سلمته إلى معتمدكم الكولونيل كوس قبل انقضاء الموعد بست ساعات لا يسوغ لكم سوق جيوشكم إلى دمشق خصوصا، وقد أبلغتم قبل انقضاء الموعد المضروب للإنذار باثنتى عشرة ساعة أننى بدأت بتنفيذ شروطكم بجد، وفى مقدمتها تسريح الجيش السورى.

«ولقد استخرجتم من هذه الحالة - وهى تثبت ما عانيته بسبب قبول الانذار - حجة للزحف على بلادى، فاستقبل عدد قليل من الجند أقيم لحفظ الأمن والنظام، جيشكم كحليف فلم يحل هذا دون اعتقال ضباطكم لهؤلاء كأسرى حرب مع أن حالة الحرب غير موجودة.

«وأذكركم أيضا بالكتاب الذى أرسلتموه إلى مع وزير المعارف، مندوبى لديكم وما انطوى عليه. فقد اعترفتم بأننى غير مسؤول عن تأخير وصول البرقية المفصلة، وقد أشير إليها آنفا وفى نفس الوقت الذى اعترفتم فيه هذا الاعتراف فرضتم علينا شروطا قاسية جديدة، يستحيل علىّ حمل شعبى على قبولها، فوضعتمونى بذلك بين أمرين كلاهما مخطر ومخيف: فإما قبول شروطكم الجديدة، وفى ذلك الثورة على جيشى وحكومتى فتتذرعون بها للتدخل واحتلال دمشق، وإما الرفض وفى هذه الحالة تزحف الألوف المؤلفة من جيوشكم المسلحة بجميع أدوات التدمير الحديثة، وتنتصر على شعب حمل على أن يكون ضدها وتدخل دمشق. وقد وقع الشق الثانى.

«ولو كانت الشعوب تعيش اليوم كما كانت تعيش فى القرون الوسطى يوم كان الحق للقوة، وكان السيف هو الحكم فى الاختلافات لكان تصرفكم منطبقا على القوانين القائمة ولكن الحرب العظمى وقد خضنا عمارهما فى جانب الحلفاء لنفوز باستقلالنا قد بلغت غايتها بإقرار مبدأ الحق وسحقت الروح العسكرى. وإذا لم تكن مبادىء مؤتمر الصلح التى أعلنت حرية الشعوب وحقها فى أن تحكم نفسها بنفسها ليست لغوا من القول، وإذا ظل عهد جمعية الأمم – وقد وقع عليه الحلفاء والأعداء – وهو يلغى الحرب بين الشعوب واستعباد الأمم، باقيا ومحترما فالقوة العسكرية الفرنسوية التى احتلت المنطقة الشرقية وقد عهد إلى بإدارتها، ذلك الاحتلال الذى لا يمكن إلا أن يعد أداة للإرهاق، ويجب أن يعتبر كذلك.

«وختاما فإن تصرفاتكم تخالف اتفاق سايكس ـ بيكو وقد وقعت عليه الحكومتان الفرنسوية والإنكليزية سنة ١٩١٦، والاتفاقات المعقودة فى أواخر سنة ١٩١٥ بين الحكومة الإنكليزية من جهة وجلالة والدى ملك الحجاز من جهة أخرى، والمادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم، وقرارات مؤتمر سان ريمو، والتعهدات التى تعهدت إلىَّ بها الحكومة الإنكليزية، ونص معاهدة الصلح المعروضة على تركيا، والاتفاقات المعقودة بين المسيو كلمنصو رئيس الوزارة الفرنسوية السابق وبينى، وتخالف فى النهاية القوانين العامة ومبادىء الأخلاق الدولية»

فيصل

احتجاج الحكومة السورية الرسمى

وفى يوم السبت ٢٤ منه أبلغ معتمد الحكومة العربية السورية فى مصر احتجاج حكومته إلى دول العالم والحلفاء على أعمال الجنرال غورو وهذا نصه:

«بعد أن قبل الملك فيصل والحكومة السورية شروط الجنرال غورو التى نشرت فى الصحف حبا بحقن الدماء وسحب جيشه إلى الداخل أمر الجنرال غورو جنده بالزحف على دمشق، فاحتج الملك فيصل على هذا العمل مستصرخا العالم المتمدن، ومعلنا تنصله من كل تبعة تنشأ عن مخالفة الجنرال غورو للوعود الرسمية».

وفى يوم ٢٥ منه أذاع المعتمد فى الصحف المصرية البيان الآتى:

«أخبرتنى حكومتى السورية بقبولها الشروط التى اشترطها الجنرال غورو على جلالة الملك فيصل فى الأسبوع الماضى، ومنها سحب الجنود العربية المخيمة فى حدود المنطقة الشرقية. وتسريح باقى الجيش الموجود فى دمشق وغير ذلك من الشروط التى نشرتها الصحف وقبلها جلالة الملك، حبا بحقن الدماء، ومحافظة على السلام واعتمادا على وفاء الجنرال غورو بالعهود، وعدم زحف جيشه إلى المنطقة الشرقية. وقد اغتنم جنابه فرصة انسحاب الجيوش العربية من الحدود إلى الداخل فأمر بزحف الجنود الفرنسوية إلى دمشق – رغما عن الاتفاق الذى تم بينه وبين الحكومة السورية.

«وبما أن هذا العمل الذى هو خرق للعهود وتأباه العدالة والقوانين الدولية ويترتب عليه من النتائج مالا يتفق مع حب السلام فإنى باسم الحكومة السورية أحتج عليه وأستصرخ العالم المتمدن لافتا نظره إلى ذلك، والحكومة تتنصل عن كل تبعة تنشأ عن مخالفة الجنرال غورو للعهود الرسمية التى ألزم بها نفسه»

الأمير فيصل يغادر دمشق

وازدحم القصر الملكى بالمودعين من كبار القوم وقد جاءوا لإظهار عاطفتهم نحو جلالة الملك، ومما قاله لوفد كان فيه كاتب هذه السطور «لقد كان فى إمكانى أن أعمل ما عمله الخديو توفيق فأستعين بالإنكليز وأتفق معهم، ولكننى لم أفعل ذلك لأننى واثق من حقى ومن فوز الأمة فى النهاية».

وقال يومئذ «أنا ذاهب الآن إلى درعا، ولا أعلم إلى أين أتوجه بعد ذلك إلى الجنوب أم إلى الغرب. لقد طلبت ثقة البلاد دفعات. فكانوا يقولون أنه يحرص على المقام، وأنه عقد اتفاقات سرية، وكنت أقول لهم ثقوا بى ولا تعصوا أمرى لعلى أبلغ بكم نهج

السبيل، فلم أقدر على الإسماع. وقد رأيت الخطر بعينى، وفعلت مالا رأى لى بفعله، وقد يجعل الله بعد عسر يسرا.

«كلنا وطنيون وفينا المتعقل والمتهور، ولما جئت إلى هذه البلاد، ورأيت بعض الإخوان يتنادون بالحركة العربية نصحت لهم بالأناة والنبصر. ثم عدت فوجدت بعضهم قتيلا والآخر شريدا. أنا ذاهب الآن وقد ضاعف همتى ونشاطى ما رأيت، وستسمعون صوتى إن حييت ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء ويختار».

وغادر جلالته دمشق فى الساعة الخامسة من صباح ٢٨ يوليو. وقد اختاروا لسفره هذا الوقت لئلا يخرج الناس لوداعه فودعه بعض كبار القوم، وسافر معه بعض رجاله، ولما وصل درعا التف حوله شيوخ حوران فأقلق ذلك الفرنسويين، فخافوا العواقب وطارت إحدى طياراتهم على الأثر، وألقت على درعا وبقية القرى الحورانية المنشور الآتى:

من الجنرال قائد القوات الفرنسوية إلى أهالى درعا وضواحيها

«إن الأمير فيصلا كان قد تلقى أمرا بأن يترك دمشق ويسافر رأسا إلى بلاده، وقد تعهد بإطاعة هذا الأمر. أما وقد بلغنا على العكس مما تعهد به أنه بقى فى درعا وشرع فى مخادعة الأهالى ليدفعهم إلى أعمال سيئة العواقب ومضرة بمصالح البلاد التى لم يبق له فيها أقل علاقة. فقد كتب له أن يتابع سفره بلا تأخير».

«فنحن الآن ندعو عموم الأهالى أن يكلفوه بأنفسهم بترك بلادهم حالا. إذ إن إقامته بينكم تجعل بلادكم هدفا للقنابل. والآن نعطيكم مهلة عشر ساعات ليتوجه الأمير فى ختامها إلى بلاده. واذا مانع فى ذلك يجب عليكم، ارجاع قطاره إلى الشام».

وأرسل علاء الدين الدروبى رئيس الوزراء الجديدة برقية إلى الملك فيصل يقول:

«تبلغ السلطة العسكرية جلالتكم الخروج من حوران، وقد وضعت تحت تصرفكم قطارا فإن لم تفعلوا فقد تضرب طياراتها قرى حوران» فرد عليه كبير الأمناء قائلا:

«يقيم جلالة الملك فى جزء من البلاد التى بايعته، ويتابع عمله فى إسعاد الوطن وتخليصه من المحن والمصائب التى لحقت به وهو لا يرى أن يتضرر أحد بسببه»

وفعلا غادر جلالته درعا بقطار خاص صباح أول أغسطس قاصدا حيفا. لأنه رأى أن

الأفضل لمصلحة الأمة والبلاد التوسل بالوسائل السياسية بدلا من المقاومة. وقد استقبل استقبالا رسميا فى حيفا، ومما يستحق الذكر للعظة والاعتبار أنه طلب شايا حينما مر قطاره بمحطة العفولة (إحدى محطات سكة الحديد بين درعا وحيفا) وهى داخلة فى منطقة الاحتلال الانكليزى فشربه ودفع ثمنه، وهى أول مرة يدفع ثمنا لشاى يشربه فى أراضى مشمولة بالحماية البريطانية منذ الثورة.

ولما بلغ حيفا أرسل برقية إلى والده يطلب منه مالا. لانه غادر دمشق وهو لا يملك شيئا فأرسل اليه حوالة بخمسة وعشرين ألف جنيه على البنك العثمانى تسلمها، واستطاع بواسطتها أن يواصل سفره إلى أوروبا.

وأقام جلالته فى حيفا حتى يوم ١٨ منه. ففى صباحه غادرها إلى بورسعيد فودعه الكولونيل ستانتون باشا حاكمها العسكرى. ويقال إنه أشار عليه بأن يقصد الحجاز بدلا من أوروبا. ولما بلغ القطار الرملة جاء السير هربرت صموئيل المندوب السامى لحكومة فلسطين يومئذ من القدس وحياه رسميا باسم الحكومة البريطانية. وبلغ بورسعيد فى المساء فأقام يومين، وفى صباح ٢٠ منه ركب الباخرة ستروبى إلى ايطاليا فنزل ميلانو ومنها قصد كومو فى إيطاليا ليواصل نضاله ودفاعه، وسافر معه إحسان الجابرى وساطع الحصرى ونورى السعيد وتحسين قدرى.

أحكام النفى والإعدام تصدرها المحاكم الفرنسوية

بعد ما استتب الأمر للفرنسويين فى دمشق، وبعد أن فرضوا الغرامات المالية الباهظة على المدن السورية وتقاضوها، التفتوا إلى مطاردة رجال العهد الفيصلى فاجتمع المجلس العسكرى التابع للفرقة الثالثة من الجيش الفرنسوى فى الشرق فى دمشق يوم ٩ أغسطس وأصدر الحكم الآتى:

«بعد جلسات ومقررات المفوض العسكرى قرر بأن: كامل القصاب وعلى خلقى وأحمد مريود والأمير محمود الفاعور وفؤاد سليم وصبحى الخضرا وصبحى بركات ومنح هارون وعونى القضمانى وشكرى الطباع وعمر شاكر وسليم عبد الرحمن وعمر بهلوان وعثمان قاسم وسعيد حيدر وعبد القادر سكر وخليل بكير وحسن رمضان وعادل أرسلان ومحمد

اسماعيل ورشيد طليع وعونى عبد الهادى وإحسان الجابرى والدكتور أحمد قدرى ورفيق التميمى وتوفيق اليازجي ورياض الصلح وخير الدين الزركلى ومحمد على التميمى وبهجت الشهابى ونبيه العظمة وشكرى القوتلى وعيد الحلبى وياسين دياب وخالد الحكيم هم مجرمون بالاتفاق والتحريض والدسائس، لكونهم عملوا بالاتفاق مع أعداء الحكومة الفرنسوية لتسهيل مقاصدهم وأعمالهم. فلذلك قرر المجلس العسكرى ادانتهم والحكم عليهم جميعا بعقوبة الاعدام وبمصادرة جميع أملاكم وبمقتضى وطبقا للمادة ٢٠ من قانون الجزاء العسكرى وقانون ١٩ مايو سنة ١٩١٨ ونظرا للمادة ١٣٩ من قانون العقوبات العسكرى والمادة ٩ من قانون ٢٢ يوليو سنة ١٨٦٧ قرر المجلس أن يؤدى المحكوم عليهم نفقات المحاكمة. على أن تستوفى من إدارة أموالهم، وتدفع رأسا إلى خزينة الحكومة الفرنسوية، وحكم أيضا بالاعدام على كل من صادق حمزه ومحمود أحمد البزة ورياض محمد حسن فرحات وعبد المجيد محمد البزة ومحمود فرح سليمان وموسى بورقيلى والشيخ عبد اللّه عز الدين وطرفه الحاج فياض شراره ومحمد سويدان وأدهم خنجر وعلى حرب ومحمود قاسم وعبد الحسين سرور ونمر بليوز ومحمد تامر وسعيد يوسف تامر وبمصادرة أملاكهم.

وحكم بالنفى على كل من كامل الأسعد وعبد اللطيف الأسعد وحسن يوسف ونصر اللّه صعب والحاج محمد برى والسيد عبد الحسين شرف الدين ومصادرة أملاكهم.

وقبض بعد ذلك فى دمشق على كل من أحمد اللحام وياسين الجابى وسليم طبنج وعبد الفتاح المدفعى وعارف الجراح وياسين الحواصلى ومحمد غصوب من ضباط الجيش السورى وأرسلوا منفيين إلى إرواد. كما توارى معظم ضباط ذلك العهد خوفا من الانتقام.

١٦

مذكرة الملك فيصل إلى الحكومة الانكليزية

واستقر الملك ومن معه فى مدينة كومو الإيطالية حيث وافاه الجنرال حداد باشا معتمده الخاص فى لندن يومئذ. وفى كومو أعد الملك مذكرة طويلة بسط فيها الحوادث التى تعاقبت على البلاد العربية بعد الحرب بسطا وافيا، وحملها حداد باشا نفسه إلى المستر لويد جورج يوم ١١ سبتمبر سنة ١٩٢٠ مع الكتاب الآتى:

الفندق الكبير

قصر «ايستى» إيطاليا ١١ سبتمبر عام ١٩٢٠

لحضرة المستر لويد جورج رئيس الوزارة الإنكليزية المحترم

أرفع اليكم طيه المذكرة التى وضعتها عن القضية العربية. ثم أقول:

عندما غادرت سورية، كنت أرغب أن أذهب توا إلى سويسرا، لمخابرتكم منها عن الوقت الذى تجدونه مناسبا لمقابلتى فى إنكلترا.

على أننى عندما وصلت إلى هنا (ايطاليا) علمت أنكم فى «لوسرن»، فرأيت أن لا أذهب إليكم مخافة أن لا تكون الفرصة سانحة عندكم لمقابلتى.

والآن، وقد عدتم إلى بريطانيا، فإنى أقدم إليكم مذكرتى بواسطة الجنرال حداد باشا، الذى أضع أنا ووالدى كل ثقتنا به.

وإنى لآمل أن تطلعوه بسرعة على رغبتكم فى مقابلتى شخصيا فى إنكلترا، لأن لدى تصريحات شفوية عظيمة الأهمية - وخاصة فيما يتعلق بالموقف الجديد - أرغب فى إطلاعكم عليها.

وفوق هذا أريد أن أضيف إلى ذلك أن والدى ملك الحجاز، قد عهد إلى مرة أخرى بمهمة تمثيله فى القضية العربية عامة، وكلفنى ترأس الوفد الذى عينه، لتقديم تشكراته للملك جورج، لتفضله بإرسال الهدايا له، كما أبرق لكم بذلك من بورسعيد.

فيصل

نص المذكرة

إن الأعمال غير الشرعية التى قامت بها فرنسا فى سورية قد اضطرتنى للسفر إلى أوروبا موفدا من قبل والدى الملك حسين ـ لأعرض القضية العربية مرة أخرى أمام حكومة صاحب الجلالة.

فالأعمال التى قامت بها فرنسا لا يمكن تطبيقها على اعترافاتها السابقة فيما يتعلق بأغراضها وغاياتها فى الحرب. وأعتقد من جهتى أن فى هذه الأعمال خرقا لمعاهدة فرسايل التى يصر الفرنسيون على تطبيقها بحذافيرها.

فقد أخذت فرنسا من العرب المنطقة الوحيدة التى تضم المدن العربية ـ خلا الجزيرة العربية ـ وجعلت موقف عائلتنا أمام العالم الإسلامى عامة، والعالم العربى خاصة موقفا لا يمكن لعائلة احتماله.

فعائلتى هى العائلة الحاكمة أو القائدة فى جزيرة العرب.

ولما كان والدى هو زعيم هذه العائلة. فقد اعترف به زعيما للحركة العربية الرامية للفوز بالاستقلال.

وقد حمل العرب أسلحتهم ضد الأتراك اعتمادا على بعض العهود التى قطعها الملك حسين لهم.

وهذه العهود التى قطعها والدى كانت مؤسسة على العهود التى قطعتها له بريطانيا العظمى.

وستطلعون فى هذه المذكرة على الحوادث التى أدت إلى احتلال دمشق بالجيوش الفرنسوية. وأظن أن تفاصيل هذه الحوادث لابد أن تعطيكم فكرة صريحة واضحة عن الغايات التى كانت ترافق أفكار الجنرال غورو منذ مغادرته باريس قادما إلى سورية.

وهذه الغايات هى حديث البلاد العربية اليوم.. واعتقد أنها تمس مصالح بريطانيا الحيوية فى كل شىء.

يدرك كل عربى اليوم أن غايات الجنرال غورو منحصرة فى احتلال المنطقة التى تعهدت بريطانيا بتأسيس حكومة عربية مستقلة فيها، احتلال عسكريا، بأية حجة من الحجج.

وبما أن فرنسا قد أدركت أن عائلة الشريف هى زعيمة الحركة العربية، وأنها تعمل بموجب التعهدات التى قطعتها بريطانيا لها، فقد قررت أن تضرب هذه العائلة ضربة قاضية، وأن تتخلص من العثرة التى وجدتها أمامها ـ وهى أنا ـ فقامت تنشر النفوذ الفرنسى وتعلو به، وتقضى على النفوذ الإنكليزى فى الشرق الأدنى فى آن واحد.

ففى اليوم الذى وقعت فيه الحوادث فى دمشق، قامت الصحف الباريسية تهاجم عائلتنا مهاجمة متتابعة.

فبعد أن اعترف بوالدى، وبعض أفراد العائلة، وزعماء العرب الأبطال المناضلين فى سبيل الحرية، قامت الصحف الفرنسيه تعمد إلى عبارات السب والإهانة، حتى أن إحدى الصحف نشرت مقالا قالت فيه «العائلة الهاشمية التى كان وصولها إلى الملك فى دمشق من «اختراع» الإنكليز».

وعلى هذا فإن أغراض الحكومة الفرنسوية، والأهداف التى ترمى إليها، قد تحققت أخيرا. فقد احتل الجنرال غورو دمشق، وثلاث مدن أخرى، وأصبح العالم أمام «الأمر الواقع».

ولست أتكلم أنا الآن لدوافع وأسباب شخصية. فأنا ليس لى مطامع خاصة. وأعتقد أن كل إهانة، وظلم، وسباب يصيبنى، إنما يضاف إلى مفاخر العرب الوطنية التى أظهروها خلال الحرب.

أنا أعتقد ـ من كل وجهة من وجهات النظر أن احتلال دمشق كان غير شرعى. فقد أيد مؤتمر الصلح فى اجتماعاته الأولى إيكال أمر إدارة المنطقة الشرقية إلىَّ وهى الإدارة التى كنت تسلمت زمامها منذ الهدنة تحت سلطة الجنرال اللنبى، كما اعترف بذلك ضمنا فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩١٩ فى المذكرة التى أرسلها مستر لويد جورج للمسيو كلمنصو، ولممثلى الدول العظمى، وإلىّ شخصيا.

إذن فليس لأى قائد فرنسى الحق فى أن يسلبنى هذا المركز. وأن يخرق حرمة استقلال سورية. ثم ان مركزى بصفتى رأس حكومة سورية، قد أعلن وفق رغائب الشعب، واعترفت به بريطانيا العظمى، على أثر القرار الذى اتخذه مجلس مؤتمر الصلح فى سان ريمو.

فإذا روعيت معاهدة فرسايل، وما تضمنته من مبادىء «الحق فوق القوة» والعدول عن

التدابير العسكرية، وحق الشعوب فى الاستقلال والحرية، وكان قرار عصبة الأمم ليس قراراً فارغاً لا قيمة له، يجب أن يعتبر عمل فرنسا تدبيرا جائراً لا مبرر له.

يدعى الجنرال غورو أنه إنما ينفذ الانتداب فى الاعمال التى قام بها، فما هو هذا الانتداب.

هل صادقت عليه عصبة الأمم والمجلس الأعلى.

إن الشروط التى أرسلها الجنرال إلىّ من جهة، والتصرفات التى تبدو من الجانب الفرنسى من جهة أخرى، إنما هى شروط وتصرفات محتل يريد فرض شروطه بقوة السلاح.

وهذا تدبير يناقض المبادىء التى كانت الدول المحالفة تحارب من أجلها، كما يناقض معاهدة السلام «المادة ٢٢، الفقرة الرابعة من قرار عصبة الأمم» التى تنص على وجوب اعتبار رغائب الشعوب فى قضية الانتداب. وهذا ما لم يطبق فى سورية.

والجهد الوحيد الذى بذل فى هذا السبيل فى سورية كان من جانب حكومة الولايات المتحدة. التى أرسلت لجنة عام ١٩١٩، لنتعرف مطالب الشعب فى هذا الصدد.

وقد أعلن اللورد اللنبى إذ ذاك أن هذه اللجنة هى الوحيدة التى توفد إلى سورية، وأن مؤتمر الصلح سيعتمد على تقريرها عندما يبحث فى تقرير مصير هذه البلاد.

والعدل والإنصاف يقضيان بإذاعة ونشر هذا التقرير الذى بقى سرا مكتوما حتى الآن.

إن ما يفهمه الجنرال غورو من الانتداب ـ الانتداب الذى يفرضه بثمانين ألفا من الجند يحملون أحدث أنواع القتل والتدمير لا يتفق قط والتصريحات الإنكليزية ـ الفرنسية فى ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨، التى تنص على رغبة هاتين الحكومتين فى مد يد المساعدة لتشكيل الحكومات الوطنية المحلية فى البلاد العربية، وعدم رغبتهما فى فرض الأنظمة الخاصة فى هذه البلاد، كما تنص على أن رغبة هاتين الدولتين الوحيدة هى السعى والمساعدة فى تأمين أعمال الحكومة العربية، وتنفيذ الأنظمة التى تقررها بنفسها بحرية.

وأعتقد أننى لست فى حاجة هنا لأن أؤكد وجود التناقضات بين كلمات الحكومة الفرنسية سنة ١٩١٨، وأعمال الجنرال غورو سنة ١٩٢٠.

وعلى كل حال لم يكن من المنتظر، ولم يكن من العدل أن يطبق الانتداب على دمشق والمدن الأربع، لأن فى هذا التدبير ما يناقض العهود التى قطعتها بريطانيا للعرب تناقضا صريحا.

لقد أشرت فى حديثى إلى المسائل المتعلقة بمؤتمر الصلح، والانتداب، وإلى قرار عصبة الأمم ،وتصريحات إنكلترا وفرنسا عام ١٩١٨، لأبين أن عمل فرنسا لم يكن مشروعا فى أى وجه من الوجوه.

غير أن قضية العرب ليست متعلقة بأى قرار من قرارات مؤتمر الصلح، أو قرار أية دولة من الدول، خلا إنكلترا.

فنحن قد تفاوضنا مع إنكلترا لا سواها، والعهود التى قطعت لنا إنما هى عهود قطعتها لنا إنكلترا، وقد قال والدى فى كتاب بعث به فى اكتوبر عام ١٩١٨ إلى المفوض السامى فى القاهرة ما يلى:

«أما ما يتعلق بقضيتنا، والبحث فيها فى مؤتمر الصلح فإنى أقرر وأقول منذ الآن إنه ليس لى علاقة بالمؤتمر، أو أية سلطة أخرى. واعتقد أنه من الأصلح أن لا تبلغ إلينا مقررات المؤتمر بواسطة المؤتمر. لأننى أكون ناكرا لرحمة اللّه اذا أنا قبلتها».

وقد أراد صاحب الجلالة والدى أن يقول إن إنكلترا هى التى قطعت العهود لا سواها وإن على إنكلترا نفسها أن تسعى لأن ترى عهودها منفذة.

وإذا أنا حضرت مؤتمر الصلح ـ رغم أنى أقدر الشرف الذى أولانى إياه صاحب الجلالة البريطانية ـ فإنما فعلت ذلك، لأن السلطات البريطانية هى التى طلبت إلى أن أفعل ذلك.

ولئن سافرت إلى باريس فى شهر أكتوبر السابق، وسعيت للمفاوضة مع الحكومة الفرنسية وعدت لسورية احمل أحسن الرغائب للتفاهم مع الفرنسيين، وعملت لجعل الشعب هادئا ولأحول بينه وبين مهاجمة الفرنسيين عندما كانوا ضعفاء فى سوريا، وكانت المصاعب تكتنفهم من كل حدب وصوب، ولم يكن لديهم سوى حامية كانت تتألف بعض الأحيان من ألف رجل ـ فما فعلت هذا كله إلا كى استطيع أن اقول ذات يوم للدولة التى أعطتنى كلمتها إنى نفذت التعليمات التى تلقيتها منها بكل دقة وكل إخلاص.

فقد كانت الكتب الرسمية التى تصلنى من اللورد اللنبى تصر علىّ ملحة أن لا أتخذ موقفا عدائيا من الفرنسويين، حتى أننى تلقيت برقية من اللورد كرزون، قبل احتلال دمشق بثلاثة ايام، يطلب إلى فيه بإلحاح ان لا أتخذ أى موقف عدائى.

ولهذا كله لم أفكر قط فى محاربة الفرنسويين ومقاومتهم، الأمر الذى كان يجعل موقفهم فى سورية صعبا للغاية لو أقدمت عليه.

وفوق هذا، فقد كنت أقبل دواما شروطهم ـ رغم أنها مستحيلة ـ آملا أن أسافر فيما بعد إلى أوروبا، وأسوّى المسألة فيها.

وكتبى التى أرسلتها إلى الحكومة الإنكليزية من باريس، تبرهن على أننى كنت أرفض أن أخطو خطوة واحدة بدون استشارتها.

وإنى لفخور أن أقول بإنى كنت مخلصا للمبادىء التى وضعها والدى. وهو أن أفاوض حكومة واحدة، وهذه الحكومة هى بريطانيا.

والآن وقد خطت فرنسا خطوة جعلت كل أمل فى التفاهم والصلح مستحيلا، فقد جئت باسم والدى أطلب من إنكلترا أن تقوم بوعودها.

لقد كانت الحركة العربية موجودة قبل الحرب. فقد وضع العرب نصب أعينهم دوما استعادة استقلالهم، وتجديد عظمة المملكة العربية والخلافة الإسلامية السابقة.

فالظن إذن بأن الحركة العربية قد نشأت عام ١٩١٥، ظن خاطىء.

وكل ما فى الأمر أن زعماء العرب وجدوا فى نشوب الحرب فرصة لتحقيق أمانيهم، فقاموا بحركتهم.

فقد حث الألمان السلطان ـ خليفة الإسلام ـ على إعلان الحرب المقدسة، آملين من وراء ذلك ان يتحد العالم الإسلامى على الحلفاء. وكانت إنكلترا ـ بلا ريب هى العدوة الكبرى.

وقد أدركت بريطانيا ما يمكن ان يصيب المسلمين من أخطار هذه الحرب، وعرفت أن هناك فتورا فى قلوب العرب من الترك، فدخلت فى المفاوضات مع والدى الملك حسين.

واعترف قبل أى شىء أن أساس الاتفاق مع والدى شريف مكة، هو الاعتراف باستقلاله لأنه رفع السيف فى وجه الترك، ولأن هذا العمل هو أعظم عمل سياسى تستفيد منه الدول

المتحالفة فى العالم الإسلامى.

وقد أعلن والدى على أثر هذه العهود بأن الجهاد ضد الترك ليس من الأعمال غير المشروعة، لأنهم يقومون بأعمال تناقض مصالح الإسلام الحقيقية.

وقد نجحت عائلتى فى اقناع العرب بهذه النظرية، بمساعدة بريطانيا. وأسست سياستها مع العرب على أساس الوعود التى قطعتها إنكلترا لوالدى.

وبهذه الوسيلة حمل العرب سلاحهم تحت علم خليفة النبى، رغم أنه كان المطلوب منهم محاربة السلطان الذى كان إلى ذلك الحين خليفتهم.

وقد رافقهم النجاح فى ثورتهم، فسقطت مكة دفعة واحدة بين أيديهم. وذاعت الأنباء بين جميع الأقطار الاسلامية، ففشلت خطة ألمانيا فشلا مريعا.

وهكذا قام والدى وعائلته، وأتباعه وأكثرية الشعب العربى بالقسم الذى يتعلق بهم فى الاتفاق.

فقد قدموا كل المساعدة لجيوش الجنرال اللنبى، وكانوا عاملا هاما فى نجاح الحلفاء فى المعركة.

وقد جئت الآن باسم والدى أسأل بريطانيا أن تقوم بتنفيذ القسم الذى يتعلق بها فى الاتفاق.

أنا لا أود أن اعود هنا إلى ذكر الاقتراح الذى عرضته إنكلترا على والدى من أول الأمر، وهو أن يظل شريف مكة «حياديا» فنحن لو ظللنا حياديين لفزنا من إنكلترا بنفس العهود فى منح الجزيرة العربية استقلالها.

ومع هذا فقد خرجنا للحرب، فقاتلنا وخسرنا عددا كبيرا من رجالنا المقاتلين، وعرضنا أنفسنا لخطر مهاجمة ابن سعود الذى كان يستطيع ان يهاجمنا بالنظر لضعفنا، وبفضل الأسلحة التى فاز بها من إنكلترا.

لقد فعلنا هذا كله.. ومع هذا فقد قطعت علاقتنا اليوم مع البلاد العربية، وأصبحت حالتنا أسوأ مما لو كنا لم نذهب للحرب، وظللنا «حياديين» كما اقترحت علينا إنكلترا فى أول الأمر لقاء الاعتراف باستقلال المملكة العربية.

لقد كنا نعتقد فى ذلك الحين أن حملنا السلاح إلى جانب إنكلترا ومحاربتنا معها بدلا من البقاء حياديين سيفيد القضية أكثر مما أفادها، وسيجعل إنكلترا تؤكد تنفيذ عهودها كل التأكيد، والعهود التى قطعتها إنكلترا لوالدى هى عهود صريحة واضحة. لا لبس فيها ولا غموض.

فقد طلب والدى فى كتاب أرسله فى ٢٤ يوليو عام ١٩١٥ ما يلى:

أولا ـ يجب أن تعترف إنكلترا باستقلال البلاد العربية التى يحدها شمالا مرسين وأطنه حتى الدرجة ٣٧ من خط العرض، الذى يمر على بيره جك، وماردين، حتى حدود العجم، وشرقا الخليج الفارسى، وجنوبا المحيط الهندى ـ خلا عدن ـ وغربا البحر الأحمر، والبحر المتوسط حتى مرسين، وعلى إنكلترا أن توافق على إعلان خليفة عربى للمسلمين.

ثانيا ـ على دولة الشريف العربية أن تعتبر إنكلترا الدولة المفضلة فى جميع المشروعات الاقتصادية.... الخ.

وفى ٣٠ اغسطس عام ١٩١٥ كتب المفوض السامى فى مصر إلى والدى كتابا يعبر له فيه عن السرور الذى شعر به عندما رأى العرب ينظرون إلى مصالحهم مع مصالح إنكلترا ويؤكد له أن الحكومة الإنكليزية ترحب بأن يستعيد الخلافة الإسلامية رجل عربى من العرب الخلص. أما فيما يتعلق بالحدود فقد قال المفوض السامى فى كتابه ان البحث فى مثل هذه التفاصيل سابق لأوانه.

وفى ١٩ سبتمبر عام ١٥ أجاب والدى على هذا الكتاب، بكتاب طويل ينقض فيه غموض جواب المفوض السامى، ولهجته الباردة المترددة فيما يتعلق بنقطة الحدود الهامة.

وقد أشار والدى فى كتابه هذا إلى أن مصالح اتباع ديانتنا تتطلب تصريحا واضحا فى هذا الموضوع. لأن حياة المملكة العربية العتيدة متعلقة بالحدود المذكورة.

وفى ١٤ نوفمبر عام ١٩١٥ أجاب المفوض السامى والدى قائلا: إن منطقتى مرسين واسكندرونة، والمناطق الواقعة فى غرب دمشق وحمص وحماة وحلب، لا يقال ولا يمكن أن يقال إنها عربية صرفا، وإنه من الواجب استنثاؤها من الحدود المذكورة.

أما فيما يتعلق بالأراضى التى تستطيع إنكلترا أن تعمل فيها بحرية ما تريده دون استشارة فرنسا حليفتها، فقد أضاف السير هنرى مكماهون قائلا:

«ان لى السلطة باسم بريطانيا العظمى أن أعطى العهود والتأكيدات التالية:

«إن بريطانيا العظمى على استعداد للاعتراف وتأييد استقلال العرب فى البلاد المحددة فى اقتراح الشريف.

أما ما يتعلق بولايتى بغداد والبصرة فإن العرب سيعترفون بمركز ومصالح بريطانيا فيهما. على أن يكون لها الحق فى أن تتخذ فيهما التدابير الإدارية لحفظهما من الاعتداء الخارجى»

وفى كتاب آخر مؤرخ فى ٢٥ اكتوبر عام ١٩١٥ أضاف المفوض السامى إلى سابق تصريحاته أنه «من المفهوم أن العرب قد وافقوا على اختيار بريطانيا وحدها فى مهمة الاستشارة والإرشاد، واستخدام الإنكليز وحدهم - إذا احتاجوا إلى مستشارين فنيين لتنظيم شؤون المملكة».

فأجابه والدى بكتاب مؤرخ فى ٥ نوفمبر عام ١٩١٥ يقول: «إنه رغبة فى تسهيل الاتفاق، وخدمة المسلمين، واعترافا بموقف إنكلترا ومزاياها، يتنازل عن إصراره فى ضم مرسين وأدنه إلى المملكة العربية، ولكنه يقول إن حلب وبيروت ومرفأ بيروت إنما هى عربية محضة.

أما ما يتعلق بالعراق فقد قال والدى إنه قسم من المملكة العربية، وإنه كان مركز الخلافة فى العصور السابقة، وأن العرب بأجمعهم يعلقون عليه اهتماما خاصا، ولا يمكن أن ينسوا تقاليدهم، وينسوا البلد الذى كان مركزا لأكثر خلفائهم».

ثم أضاف إلى ذلك قائلا: «وعلى هذا لا يمكننا إرضاء الشعب العربى وإرغامه على التنازل عن العراق بأى حال من الأحوال»

على أنه رغبة منا فى تسهيل الاتفاق، نستطيع أن نوافق على ترك العراق تحت الإدارة الانكليزية «وهى محتلة بالجيوش الإنكليزية» وذلك لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض، بالنظر لما يتطلبه تأسيس كل مملكة جديدة من مال».

أما ما يتعلق بالإدارة والمستشارين والموظفين، فقد أشار والدى إلى ما كان قاله فى رسالة سابقة. وهو انه لا يعارض فى ذلك، وخاصة ان المفوض السامى قد صرح أن كل هؤلاء لا يكون لهم أى دخل فى الشؤون الداخلية.

وفى ١٤ ديسمبر عام ١٩١٥ أجاب المفوض السامى بكتاب قال فيه: «أما ما يتعلق بولايتى بيروت وحلب فإنه سيتخاطب بشأنهما مع والدى فى وقت آخر، وصرح أن الحكومة الإنكليزية مستعدة أن تعطى كل ضمانات المساعدة والتأييد للمملكة العربية، ولكن مصالحهما معا تتطلب إدارة ثابتة حبية فى ولاية بغداد. كما أن المحافظة على هذه المصالح تحتاج إلى سرعة، لا تسمح الظروف الحاضرة فى المفاوضة بشأنها.

وفى أول يناير عام ١٩١٦ كتب والدى إلى المفوض السامى يقول: «أما ما يتعلق بالعراق، والتعويض الذى أشرنا إليه لقاء فترة الاحتلال، فإننا نترك تقدير المبلغ لحكمة بريطانيا وعدلها تقوية لثقتنا ببريطانيا، وإخلاصنا فى مفاوضة حكومتها».

أما ما يختص بالأقسام الغربية ومرفئها فان نفس الشعور السابق يجعلنى أتجنب ما يمكن أن يسىء إلى تحالف بريطانيا وفرنسا.

ومتى انتهت الحرب، فإننا سنسألكم فى أول فرصة «عن تلك الأقسام التى غضضنا النظر عنها، والآن تركناها لفرنسا حليفتكم»

ويتحدث والدى بعد هذا عن وجود فرنسا، ويقول إن وجودها فى أى مكان كان ليس من الحكمة فى شىء.

ثم يضيف إلى ذلك قائلا:

«إن الشعب البيروتى لن يرضى حتما بمثل هذا الانفراد، ولابد أن يضطرنا لاتخاذ تدابير جديدة قد تجعل إنكلترا إزاء اضطرابات، ومشاغل لا تقل عن اضطرابات ومشاغل اليوم».

ثم شرح بإسهاب لماذا يعتقد باستحالة السماح لفرنسا أو لأية دولة سواها، بقطعة واحدة من تلك المنطقة.

وفى ٢٥ أكتوبر عام ١٩١٦ كتب المفوض السامى، مقدرا الدوافع التى دفعت والدى لبحث هذا الموضوع باهتمام، وقال إنه كتب الملاحظات الكافية على ملاحظاته المتعلقة ببغداد. الأمر الذى سينظر فيه باهتمام تام عندما تغلب الجيوش التركية على أمرها، ويعود السلام إلى نصابه.

وأما ما يتعلق بالأراضي الشمالية، فقد شكر المفوض السامي والدى على رغبته فى تجنب كل ما مْن شأنه أن يضر التحالف الإنكليزى والفرنسوى.

وبعد هذا أود أن أعود هنا لذكر الشروط التى اتفق عليها بين والدى والمفوض السامى وهذه هى:

١ ـ تأسيس مملكة عربية تمتد من الخليج الفارسى إلى حدود كيليكية ـ بما فيها حلب وحمص وحماة ودمشق ـ حتى حدود مصر، على أن تكون هناك «إدارة خاصة» فى ولايتى بغداد والبصرة بالاتفاق مع الشريف فى نهاية الحرب.

٢ ـ رغبة من والدى فى أن لا يخلق شيئا من المشاكل بين الحلفاء خلال الحرب، فإنه «يغض النظر» عن لبنان وبيروت، ومرفئها، ويتركها لفرنسا، على أن يعاد البحث فى أمرها بعد الحرب.

وليس هنالك أية رغبة ـ حتى ولا من جانب إنكلترا ـ أن تترك مملكة داخلية كبرى دون منفذ بحرى على الشاطىء، بين اسكندرونه وصيدا.

٣ ـ تتعهد إنكلترا بتأييد المملكة العربية ومساعدتها بالاستشارة، والمحافظة عليها من الهجمات الخارجية، على أن لا تستخدم المملكة مستشاريها وموظفيها من أية دولة غير إنكلترا.

وما كان من المنتظر أن تطلب الحكومة البريطانية من العرب أن يعذروها فى عدم قيامها بتلك العهود. بحجة أنها لا تتفق ومعاهدة سايكس ـ بيكو أجاب والدى على ذلك بهذه الملاحظات:

١ ـ إن العهود التى قطعتها الحكومة البريطانية على نفسها هى سابقة لهذه المعاهدة، ولذلك فان ما جاء فى معاهدة سايكس ـ بيكو مناقضا لتلك العهود، يجب أن يعتبر لاغيا باطلا.

وعند ما لفت والدى النظر إلى هذه المعاهدة السرية التى اطلع عليها بواسطة جمال باشا ـ الذى اطلع عليها من الأرمن ـ أجابه المفوض السامى بهذا الكتاب:

«لقد اطلع البلاشفة فى وزارة الخارجية فى بتروغراد على سير المفاوضات والمحادثات

الاحتياطية «لا المعاهدة» بين إنكلترا وفرنسا وروسيا التى جرت فى خلال الحرب، لتجنب المصاعب بين الدول التى تحارب تركيا.

وقد شوه جمال الغرض الأساسى من هذه المفاوضات والمحادثات ـ إما عن جهل وإما عن خبث ـ فلم يذكر الشروط المتعلقة بالموافقة على تأسيس الحكومات الوطنية المستقلة والمحافظة على مصالحها، وجهل أن نجاح الثورة العربية، وانسحاب روسيا قد أحدثا موقفا مختلفا »

وعند ما تلقى والدى هذا التصريح الواضح طلب أن لا يكون فى معاهدة سايكس بيكو ما يقف معارضا للعهود المقطوعة للعرب.

وفينـا فلـم يفوا

لقد زرت أوروبا مرتين من قبل، ولكنى لم أسأل قط عما تم فى فلسطين والعراق.

فقد كنت أعمل مع والدى حسب ما نعتقد أنه حسن تجاه إنكلترا.

لقد أطلعت الجنرال حداد ـ الذى تركته فى إنكلترا ـ على الخطيئات التى ارتكبت للفت نظركم إليها.

وقد كان من نتيجة هذه الأخطاء أننا أخرجنا من سورية والعراق، وهما بين ألسنة اللهيب.

أما ما يتعلق بفلسطين، فقد تركت التعليمات مع مندوبى للاطلاع على وجهة نظر الحكومة البريطانية بهذا الشأن التى أعتقد أنها ستكون موافقة على جميع الأعمال.

وأنا آت الآن للمرة الثالثة للحكومة البريطانية باسم والدى، وأنا على ثقة بأن تلك التعهدات ستكون موضع نظر وعناية واهتمام الحكومة.

فالعرب يعتقدون أن «الإنكليزى» يحافظ على تنفيذ كلمته، ويعلقون أملهم على «كلمة الإنكليزى» ويعتقدون أنه ليس فى التقاليد الإنكليزية ما يعتبر المعاهدات كأوراق مهملة لا قيمة لها.

وأنا لا أطلب من الحكومة الإنكليزية شيئا ليست مستعدة للقيام به. فقد قال مستر لويد جورج فى اجتماع حضرته فى دونتج ستريت «ولقد قامت القوى العربية بالعهود التى قطعتها لبريطانيا، ويجب علينا نحن أن نقوم بعهودنا».

وأخيرا فإنى أسأل الحكومة الإنكليزية – إذا كان من العدل أن يعامل رجل حالف انكلترا وعمل تحت لوائها، وقاد الثورة نحو النجاح، وكان رأيه الوحيد أن يظل مخلصا لبريطانيا وحليفاتها – أن يعامل بمثل هذه المعاملة، لأنه كان مخلصا نحو بلده، أمينا لإنكلترا.

وانتقل الملك بعد ذلك إلى الكلام عن احتلال فرنسا للساحل، وعما صحبه من اضطرابات فى جبل لبنان ومرجعيون وتل كلخ واللاذقية واسكندرونة وحارم وجسر الشغور. فوصفه وصفا مناسبا ثم قال:

ولم يكد نبأ هذه الاضطرابات يصل إلى مسامعى، حتى أرسلت على الفور رسلا إلى تلك الأنحاء، لتهدئة الشعب، وإقناعه بأن يكون صديق الفرنسويين. وقد حدث إذ ذاك أن الترك والأكراد أفلحوا فى إقناع أحد زعماء العشائر البدوية بمشاركتهم فى العمل فى إخراج الفرنسويين من أورفه. فجاء هذا الزعيم يستشيرنى فنصحته بأن لا يفعل، فسار على نصيحتى.

وقد عرضت نفسى بهذا العمل لانتقاد شعبى نفسه، الذى بدأ يعتقد أنى أخونه مع الفرنسويين.

وقد عرف الفرنسيون أنفسهم الغاية من سياستى. فأرسل إذ ذاك رئيس دائرة الجنرال

غورو السياسية، مذكرة إلى الجنرال قال فيها: «إن لجنة الدفاع الوطنى التى كانت قبل وصول الأمير فيصل تدير شؤون – الحكومة، ومازالت حتى الآن تنشر فى البلاد أفكار الاستقلال التام قد قررت هذه اللجنة محاربة الأمير فيصل إذا كان هذا قد وقع معاهدة مع فرنسا».

«وقد كانت الاستقبالات فى دمشق هذه المرة، أقل حماسة مما كانت عليه فى أى وقت آخر. وذلك لأن الجمهور يتنبأ أو يشعر بأن الأمير فيصلا قد باع سورية إلى فرنسا.

«وهذه اللجنة لاتزال مستمرة فى المعارضة، ويظهر أنها لا ترغب فى مشاركة الأمير فى غاياته ومراميه ـ الزائدة أو الناقصة فى الإخلاص، للتقرب منا».

هذا وأعتقد أن كل من يعرف طبيعة المنطقة الشرقية وصعوبة المواصلات، وطبيعة العشائر المشاغبة، يدرك صعوبة العمل فى تهدئة الخواطر الثائرة، والحيلولة دون رغبة هؤلاء، فى مهاجمة الفرنسويين فى المنطقة الغربية.

ومما يجب ذكره هنا أنه عندما كانت حامية الفرنسويين فى أقصى مراتب الضعف، وكان عدد رجالها لا يزيد عن الألف، فى ذلك الحين، زرت حلب زيارة شخصية لأوقف العصابات الذاهبة لمشاركة الترك الوطنيين فى محاربة الفرنسويين فى كيليكية.

وازداد استياء الشعب فى كل مكان، ورأى الناس أنه انقضى ثمانية عشر شهرا على إعلان الهدنة، ولم يظهر شىء يدل على أن هناك رغبة فى العمل فى إجابة رغائبهم. وكان الشعب من ناحية أخرى يرى الفرنسويين يطبقون سياسة استعمارية محضة. كما كان الترك يرسلون دعاتهم إلى المدن ويحرضون الرأى العام ضد الحلفاء الذين يقومون بهذه الأعمال، ويطبقون مثل هذه السياسة بالرغم من محاربتهم إلى جانبهم، ويقولون إن سورية والعراق سيقسمان إلى قسمين، وأنه من الأفضل لهم ولمصلحتهم أن يسيروا إلى جانب الترك لمعارضة أنانية السياسة الأوروبية بقوة السلاح.

وكل ما كنت أستطيع عمله فى هذه الظروف هو أن أقنع كل واحد بأنهم إذا صبروا وانتظروا فإنهم واصلون إلى ما يرضيهم.

وفى ٨ مارس عام ١٩٢٠ أعلن شعبى بواسطة مندوبيه الذين اجتمعوا فى دمشق استقلال سورية، وانتخابى ملكا عليها. وقد قال هؤلاء المندوبون فى أنفسهم إنه إذا كان الحلفاء مخلصين فى أعمالهم ووعودهم، فإنهم يعترفون بهذا القرار الناشىء عن رغبة

الشعب العامة، والذى يضع وعود الحلفاء موضع التنفيذ، ويبرهنون بذلك على كذب الترك فى ادعاءاتهم.

أما إذا كان الأمر على النقيض من هذا، ولم يؤيد الحلفاء عمل الشعب السورى وقرار مندوبيه، يظهر صدق الترك فى كل ادعاءاتهم وأقوالهم وتحذيراتهم.

لقد قيل عن المؤتمر السورى، الذى مثل الشعب السورى حق التمثيل إنه مؤتمر غير قانونى. مع أن هذا المؤتمر قد انتخب بأفضل الوسائل المشروعة، وكان - حسب أوامرى وطلبى - يمثل الشعب السورى بكامله كل التمثيل.

فقد جرت الانتخابات على الدرجة الثانية وحسب القوانين التركية القديمة، فانتخب ٨٥ مندوبا من مختلف الجهات. أضفنا إليهم ٣٥ مندوبا عن زعماء القبائل ورؤساء الأديان.

وقد جاء الأعضاء من المنطقتين الشرقية والغربية، وكان هؤلاء يمثلون مختلف المذاهب والديانات. وأرسل لبنان ثلاثة مندوبين، كان انتخبهم لإطلاع اللجنة الأميركية على رغائب اللبنانيين وأمانيهم.

وبعد أن نزلت عند قرار المؤتمر، وقبلت العرش، أعلنت السياسة التى يجب أن تسير عليها الحكومة الجديدة، وعنيت عناية خاصة أن لا ألعب بعواطف الشعب الوطنية، وأن لا أخدعه، مع انه كان فى وسعى إذ ذاك - إذا أردت - أن أكون محبوبا من الشعب إلى أقصى حد.

وقد أسرعت بعد هذا إلى الشروع فى تنظيم الإدارة والحكم بشكل يتفق وطبيعة البلاد فألفت حكومة، كان للمسيحيين من يمثلهم فيها، وكان موقف الوزارة فى العمل موقفا صعبا إلى حد كبير.

وذلك لأن الفرنسويين كانوا مسيطرين على السواحل، وكانوا يتقاضون الرسوم الجمركية، التى كانت المورد الأساسى فى الخزينة، ولا يدفعون حصتنا إلا بصورة متقطعة، كما أنهم لا يدفعون إلينا سوى قسم ضئيل من هذه الحصة. وهذا ما جعل حكومتى تواجه صعوبات جمة منذ تأليفها، وتقع فى حيرة شديدة لشدة حاجتها للمال.

ثم ازداد سوء الحال بعد ذلك، وأخذ الفرنسويون يطبقون سياسة جائرة فى الشؤون الجمركية. فأضروا التجارة، وأوقعوا أضرارا لا حد لها بأسواق دمشق. وهذا ما كانوا

يرمون إليه من وراء سياستهم هذه.

وهكذا بدأت المملكة الجديدة الجديدة حياتها تحت هذا الكابوس. فأخبرت وزارة الخارجية الإنكليزية بواسطة الجنرال حداد باشا، عن الأسباب التى أدت للقيام بهذا العمل، وإعلان الاستقلال والملكيه. فأجابتنى الوزارة المذكورة بعد مقررات «سان ريمو» أن انكلترا تعترف باستقلال حكومة سورية، وتعترف بى ملكا عليها.

أما فرنسا فقد رفضت أن تتخذ مثل هذا القرار، وتعترف بالاستقلال وبى. وذهب الجنرال غورو فوق هذا إلى لبنان، وأخذ يخطب خطبا ضد حكومتى، مثيرا اللبنانيين للاحتجاج على مقررات المؤتمر السورى.

وعندما عدت للمرة الثانية لقضية البقاع، وطلبت إلى الجنرال غورو أن يجلو عن البقاع أجابنى جوابا غريبا قال فيه: «كيف تريد أن أنسحب من البقاع، وأنا لا أستطيع أن أمنع الضباط الذين يصرون على التقدم» فأجبته: «اذا كان الجنرال غورو يجد أنه من الصعوبة منع ضباطه ـ وهم الذين يسيرون على نظام الجندية ـ فكيف أستطيع أنا أن أمنع رجال القبائل الذين لا يعرفون شيئا عن النظام».

وكان موقف فرنسا يزداد غموضا يوما بعد يوم. وقد استطاعت بعد عقد الهدنة مع مصطفى كمال أن ترسل قسما كبيرا من جيوشها إلى هذه البلاد، وأخذت تحشد الجند والمصفحات والطيارات الخ..

لقد كنت دوما أفكر فى السفر إلى باريس لبحث هذه المشكلة مع الحكومة الفرنسوية، بيد أن ازدياد خطورة الموقف يوما بعد يوم، جعلنى أعتقد أن وجودى فى سورية ضرورى للغاية.

فقد كان وجودى فى سورية، أكثر ضرورة فى ذلك الحين من وجودى فى أوروبا، وقد اعترف الجنرال غورو بذلك فى كتاب بعث به إلى حكومته. كما اعترف اللورد كرزون بمثل هذا فى الخطاب الذى ألقاه فى مجلس اللوردات – رغم أنه صرح برغبته فى أن يرانى فى المستقبل القريب فى لندن.

وإذ ذاك سرت حسب الآراء التى أبرق إلىّ بها الجنرال حداد من لندن، وقررت أن أذهب إلى أوروبا حالا ـ كما تريد وزارة الخارجية الإنكليزية ـ وكان موقف الجنرال غورو يتضح شيئا فشيئا، ويقوى عزمى على السفر بأسرع ما أستطيع.

فقد فكرت انه قد يكون من الممكن - إذا سافرت لأوروبا - أن أصل إلى حل للقضية كلها. وكتبت إلى الجنرال غورو في ٩ يوليو، أطلب إليه أن يهيىء لي أسباب سفرى فأجابني بأن لديه بضعة شروط يريد أن يعرضها عليّ قبل مغادرة سورية، والا فان الحكومة الفرنسوية لن تدخل معي في أية مفاوضة.

ومنذ تلك اللحظة أخذت الحوادث تمر بسرعة..

فقد أصبح لدى الجنرال غورو قوى كافية لسحق كل معارضة نحاول أن نبديها، وأعتقد أن ذهابي إلى أوروبا قد ينهي القضية فحال دون سفرى. وتحركت الجيوش الفرنسية في ١١ - ١٢ يوليو. وأخذت تتقدم من جرابلس نحونا فاحتلت جسر الشغور ثم دخلت رياق مزودة بالأسلحة والمدافع لتقوية الحامية المعسكرة فيها.

وقد حدث كل هذا فجأة وبطرفة عين دون إخطاري بشيء. وكان من الواضح أن الجنرال غورو يعد العدة للقيام بحملة عامة على منطقتي.

وفي ١٤ يوليو تلقيت من الجنرال غورو إنذاره المعروف.

وإنه لمن المستغرب أن يدعي الجنرال غورو في هذا الإنذار أني وضعت له العراقيل في محاربة العدو المشترك مصطفى كمال، ورفضت السماح بنقل الذخائر إلى جيشه.

فالذخائر لم يعترض أحد على نقلها. ولم يوقفها أحد، أما الجيوش فكل ما فعلته في هذا الصدد هو اني طلبت إليه أن يعترف بما اعترفت به انكلترا - فيما يتعلق بالحكومة العربية - وأن يقوم بالتعهدات التي قطعتها حكومته لنا قبل أن ينقل جيوشه على الخطوط الحديدية. وأوضحت له بصراحة أنه يستحيل عليّ تهدئة الشعب إذا لم يجب هذه المطالب.

وقد طلبت إلى الجنرال غورو أن يعترف بالحكومة وبي. لأنني كنت أعرف عن ثقة أن حكومته تركت له هذا الأمر يقرره حسب ما يراه.

ويجب أن أضيف إلى هذا أن الجنرال غورو كان يرسل الذخائر إلى جيوشه في القطارات، وقد أدركت الآن أن ما قالته الصحف المحلية عن غايات الجنرال غورو في إرسال هذه الذخائر كان صحيحا لا ريب فيه.

فالجنرال غورو لم يكن يرغب في نقل الجند والذخائر لمحربة العدو المشترك مصطفى

كمال بل لمهاجمة منطقتي.

أما أنا فقد أظهرت شعوري نحو مصطفى كمال بصراحة وجلاء قبل أن تجلو الجيوش الفرنسوية عن جرابلس.

فقد أرسلت إلى الجنرال غورو اذ ذاك كتابا أشرت فيه إلى النتائج الخطيرة التى يؤدى إليها فتح الباب للترك لإثارة القلاقل والاضطرابات فى سورية والعراق، واقترحت عليه أن أرسل إليه جيوشى لتتعاون مع الجيوش الفرنسوية فى سبيل احتلال المناطق التى قرر مؤتمر الصلح أن تكون من منطقتي.

غير أن الجنرال غورو لم يوافق على هذا الاقتراح. وأعتقد أن رجلا يقترح محاربة الترك لا يمكن أن يتهم فى «وضع العراقيل» أمام الجيش الفرنسوى المحالف لمحاربة العدو المشترك.

وقد ذكر الجنرال غورو ـ استنادا إلى القلاقل التى اتهمنى بإثارتها ـ ست حوادث قال إنها وقعت بمعرفتي، ولم يذكر قط أن ثلاثا منها قد وقعت خلال غيابى فى أوروبا، وكانت المخابرات ـ حين وقوعها ـ مقطوعة بينى وبين سورية.

والحقيقة أن هذه الحوادث الثلاث، سواها قد وقعت على أثر الأعمال التى كان يقوم بها الموظفون الفرنسويون... وهى الأعمال التى كنت لفتّ إليها نظر الجنرال غورو مرارا عدة، وأرسلت إليه كتابين بشأنهما.

أما الكتاب الأول فيبرهن على شدة إخلاصى ورغبتى فى العمل مع الفرنسويين بروح المودة، ويدل على أننى عندما ألفت الحكومة الجديدة، كنت واضعا هذه الرغبة نصب عيني.

وأعتقد أن التهمة التى ألصقت بحكومتي، بأنها تشجع العصابات، وتحثها على دخول المنطقة الغربية، تثير استغراب كل رجل كان فى سورية خلال تلك الشهور.

ومما يجدر ذكره هنا أن الفرنسويين أنفسهم سلحوا العصابات المسيحية فى مختلف الجهات لإثارة القلاقل فى منطقتي.

وقد تبودل كثير من الرسائل بين الضباط السياسيين الفرنسويين وبعض الأهلين، بشأن استخدام بعض متطوعة الأكراد ـ بالراتب الذى يريدونه ـ لتأليف العصابات وإثارة القلاقل فى سورية، وعلى الحدود الكردية فى العراق تملأ صحائف صفراء من تاريخ سورية الحديثة.

إذن... فقد كان من الطبيعى - فى بلاد هذه حالتها - أن ترتكب بعض الجرائم الشخصية ضد بعض الجند الفرنسوى.

وعندما كان يقع مثل هذه الجرائم فى أحدى النواحى لم نكن نجد جهدا من الجانب الفرنسوى للبحث عن المجرمين، بل كان كل ما فى الأمر أن يحرق الفرنسويون أقرب قرية وأن يحجزوا غلالها، ويسوقوا ماشيتها، ويتركوا سكانها فى شقاء وتعاسة لاحد لهما.

وإنه لمن سوء حظ سورية أنها بعيدة وأن شعبها يجهل كيف يلفت نظر العالم المتمدن ويطلعه على جلية الامر. ولو لم يكن الحال كذلك، ولو استطاع السوريون أن يسمعوا صوتهم للعالم المتمدن لأثارت هذه الأعمال والاضطهادات عاصفة شديدة فى العالم الأوروبى «تنسف» فرنسا من سورية إلى الأبد.

على أن هذه الأخبار إذا لم تصل إلى أسماع أوروبا وأميركا، فقد انتشرت فى كثير من الانحاء العربية، وكان كره الفرنسويين يزداد يوما بعد يوم.

أما التهمة الثالثة التى وجهها الجنرال غورو إلى حكومتى، فهى رفض هذه الحكومة إدخال العملة الجديدة على أساس الفرنك.

وإنى لأجيب على هذه التهمة ان الجنرال غورو ليس لديه قوة شرعية لإبدال العملة فى البلاد، بعملة سواها، وهو إذا فعل هذا فإنما يكون مستعملا سلطة «الحاكم» المطلق... الأمر الذى لاحق له فيه.

ثم إن رفض العملة الجديدة لم يكن من حكومتى، بل من الشعب أجمع.

ويدعى الجنرال غورو فى إنذاره أن حكومتى قد عاملت أنصار فرنسا معاملة سيئة، وكرمت - من ناحية أخرى - أعداء فرنسا.

وعلى ذلك أجيب أن هؤلاء الأنصار الذى قيل إنهم عوملوا معاملة سيئة، كانوا من المتآمرين على الأمن، الساعين لإثارة النعرات الدينية بين مختلف المذاهب، لقاء الأموال التى دفعها لهم الفرنسويون.

أما هؤلاء الذين يدعوهم الجنرال غورو «أعداء فرانسا» فإنهم من الرجال الوطنيين المخلصين، يحاربون الذين هم مقاصد فرنسا، وإنه من المضحك أن يدعى هؤلاء «أعداء

فرنسا» وأن يعاملوا معاملة سيئة بالنسبة لهذا العداء.

فقد كان هؤلاء يرغبون أن يعيشوا تحت الحكم العربى، وكان قسم كبير منهم يقيم فى المنطقة الغربية، وهى المنطقة التى لا سلطة لى عليها.

ولم يكن فى وسعى فى أى حال من الأحوال أن أخنق الشعور التى تولد فى النفوس، وشجعته تصريحات الحلفاء المختلفة فى كثير من الظروف.

وهنالك تهمة مضحكة أخرى فى إنذار الجنرال غورو - وهى تهمة لا ظل لها من الحقيقة - وهى ادعاؤه أننا رشونا المجلس اللبنانى بمبلغ ٤٢ ألف ليرة إنكليزية ليطلب الاستقلال بدون مساعدة فرنسا، واتهام أعضاء المجلس بالخيانة لأنهم طالبوا بهذا الاستقلال، وهذه التهمة مضحكة لأسباب عديدة:

١- لم يكن لدى الحكومة السورية مال تتمكن معه من دفع شىء.

٢- إن المادة الخاصة بلبنان الكبير، قد كانت دوما خارجة عن السياسة التى كنت أتبعها. ولم أكن أعتقد أن أمرا كهذا يقابل بالارتياح بين سكان الأراضى المقترح إلحاقها بلبنان، وقد أرسلت لكم طيه ترجمة قرار المجلس، وهو القرار الذى نفى من أجله كثير من أعضائه.

وإنى أعرف السبب الذى حدا بالجنرال غورو للوم الحكومة السورية فى هذا الشأن، وهو محاولة هؤلاء المنفيين السفر إلى فرنسا وعرض شكواهم عن طريق المنطقة الشرقية، بعد أن حالت فرنسا دون سفرهم من المنطقة الغربية.

واتهم الجنرال غورو الصحف الدمشقية بأنها تهاجم السياسة الفرنسوية، ونسى أن الصحف التى تساعدها فرنسا لم تترك فرصة تمر دون أن تهاجمنى وتهاجم القضية العربية مهاجمة شديدة، وتحمل على السياسة الإنكليزية فى الشرق الادنى، وتحاول الانتقاص من قيمتها.

وقد طلبت مرارا عديدة إلى السلطات الفرنسوية أن توقف صحفها عن التهجمات، فلم تصغ إلى طلبى، ولهذا لم يكن فى وسعى أن أمنع صحف دمشق عن الجواب.

ثم بالرغم من لهجة الجنرال غورو القاسية فى إنذاره غير المشروع، فقد بذلت كل جهد لأقنع حكومتى بالموافقة عليه.

فقد كنت أعرف أن رفضه سيؤدى حتما إلى مصيبة.

وتلقيت فى تلك الظروف الحرجة ـ والضغط يشتد حولى ـ برقية من اللورد كرزون فأعلمت الكولونيل كوس بموافقتى على شروط الجنرال غورو، وطلبت إليه فى نفس الوقت أن يمدد مهلة الانذار حتى أتمكن من تنفيذ الشروط. فمددها ٢٤ ساعة بناء على طلبى.

وفى ١٩ يوليو طلبت مهلة أخرى، لأتمكن ـ هذه المرة من إبدال الموظفين الذين يترددون فى قبول الشروط.

وفى إليوم الذى أجيب فيه طلبى، أعلمت الجنرال غورو أن الجيوش العربية التى كانت تحتل مراكز مجدل عنجر القوية، والفرق التى كانت ترابط على الحدود، قد انسحبت بناء على أوامرى إلى دمشق، وبدأت منذ ذلك إليوم أسرح الجيوش فى العاصمة، بناء على تأكيد الفرنسويين بأن الجيوش الفرنسوية لن تتقدم. وقد كان القناصل فى دمشق شهودا على هذا التأكيد.

أريد أن أؤكد هنا أن موافقتى على شروط الجنرال غورو، إنما كانت مؤسسة على اعتمادى الذهاب إلى أوروبا، لأعرض القضية أمامكم، ليأخذ العدل مجراه، بناء على عهودكم المقطوعة.

وفى ٢٠ يوليو أغلقت المؤتمر، وكنت مضطرا لاتخاذ هذا التدبير، بعد أن رأيت أعضاءه يرغبون فى معارضة مطالب الفرنسويين بقوة السلاح.

وفى الساعة الخامسة والخمسين دقيقة من هذا اليوم نفسه، أعطيت الكولونيل كوس جوابى المفصل، وموافقتى على شروط الجنرال غورو بأجمعها، فوصله الجواب قبل ست ساعات ونصف من نهاية مهلة الانذار.

ولكن الجنرال غورو يدعى أن برقية الموافقة لم تصله إلا ففى صباح اليوم التالى – أى فى ٢١ يوليو.

ويجب أن أذكر هنا أن موافقتى على شروط الجنرال غورو قد جعلت موقفى فى دمشق صعبا إلى أقصى حد.

فقد أدى تسريح الجيوش العربية، إلى قيام حركة فى دمشق ضد الحكومة. وكان

الشعب يؤثر أن يحارب على أن يوافق على مثل هذه الشروط.

ولم تنته الحركة إلا بعد سقوط مائة وعشرين من القتلى، وثلاثمائة جريح.

وفى صباح ٢١ يوليو نقل إلىّ أن الجيوش الفرنسوية تتقدم نحو دمشق، وأنها أسرت فرقة صغيرة من الجيش العربى التى تركت فى البقاع لتجمع الأسلحة والذخائر من السكان، وتعود بها إلى دمشق.

وقد كانت هذه الفرقة الأسيرة، تحمل أوامر بأن تعامل الفرنسويين كحلفاء. فكانت النتيجة أن وقعت أسيرة فى أيدى هؤلاء الحلفاء دون أن تبدى أقل مقاومة.

ولم أكد أطلع على هذه الأنباء حتى أرسلت الكولونيل طولا إلى الجنرال غورو، أطلب إليه أن يقوم بوعده، ويأمر بانسحاب الجيوش الفرنسوية.

وفى اليوم التالى أرسل إلى الجنرال غورو كتابا يطلب فيه ان أوقع على شروط أخرى وقد أرسلت إليكم طيه هذا الكتاب وتلك الشروط لتطلعوا عليها.

وقد أجيب الجنرال على هذا الكتاب بأن هذه الشروط الجديدة، لم تكن موجودة فى الإنذار، وانى قد نفذت القسم الأكبر من الشروط الأولى، وأنا مستعد لتنفيذ القسم الآخر إذا انسحبت الجيوش الفرنسوية.

ولو قبلنا الشروط الجديدة، لما بقيت لى ولا لوزرائى أية سلطة فى البلاد.

وفوق هذا لم أكن أثق بأن الجنرال غورو لن يبعث بشروط جديدة إذا قبلت هذه.

وبينما كنت أسعى لتسوية هذه المشاكل بروح المسالمة والود وصلتنى أخبار جديدة عن تقدم الجيش الفرنسوى، فخرجت الجموع من دمشق، دون نظام ودون أسلحة، للمدافعة عن المدينة.

ولم يزد عدد هؤلاء الذين تجمعوا فى خان ميسلون عن الالفى رجل. وقد اشترك مع هؤلاء مائتا رجل من رجال القبائل المسلحين، وهم بقايا الجيوش المسرحة - فعهد إليهم بالمحافظة على الأسلحة والذخائر، وكان من الطبيعى أن يذهبوا ضحية المصفحات والطيارات الفرنسوية.

وقد كان بين هؤلاء الذين سقطوا صرعى فى ميسلون بعض رفاقى فى معارك فلسطين

وانى لاحنى رأسى احتراما لجميع هؤلاء الذين ضحوا بحياتهم فى سبيل الاحتجاج على اعتداء لم يعرف له التاريخ مثيلا.

لقد وثقت بكلمة الجنرال غورو، واعتمدت على وعده بأن لا يسمح للجيوش الفرنسوية بالتقدم. فأخليت المراكز من الجند، وسرحت قسما كبيرا من الجيش... وأجبت ـ انا الرجل الأعزل ـ بأنى أرفض الحرب.

وقد كنت أعرف أن موافقتى على الشروط الجديدة لابد ان تثير حربا أهلية فى دمشق، فأعطيت الجنرال غورو عهدا صريحا بأن أنفذ شروط ١٤ يوليو بكاملها. وطلبت إليه لقاء ذلك أن يوقف تقدم الجيوش نحو دمشق. فكان جوابه لى إطلاق النار على النظاميين والمتطوعين.

وبالرغم من هذا كله فقد أمرت النظاميين الذين نجوا من القنابل أن يتركوا السلاح. وقد فنيت فرقة من الجنود الشجعان ـ تحت قيادة البطل يوسف العظمة ـ وهى فى مكانها.

تم تكلم بعد ذلك عن ما جرى بعد حوادث ميسلون، وهى مطابقة لما نشرناه، فاكتفينا به وناشد فى الختام إنكلترا أن تفى بعهودها للعرب.

١٧
اتفاق فرنسا وإنكلترا
على الحدود بين سورية ولبنان وفلسطين والعراق

ونختم هذا الفصل بنشر نص الاتفاق الذى عقد بين إنكلترا وفرنسا يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٠ لتحديد الحدود النهائية بين الأراضى المشمولة بالانتداب الفرنسوى والانتداب الإنكليزى وهو:

أنابت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية الوزيرين المفوضين الواضعين اسميهما أدناه ليحلا جميع الأمور التى لها علاقة بالانتداب الذى منح لبريطانيا العظمى على فلسطين والعراق ولفرنسا على سورية ولبنان فى المجلس الأعلى الذى اجتمع فى سان ريمو، وقد اتفقتا على الشروط الآتية:

١ـ تعينت حدود المناطق التى شملها الانتداب الفرنسوى - أى سورية ولبنان وحدود المناطق التى شملها الانتداب البريطانى - أى فلسطين والعراق كما يلى:

من الشرق نهر الفرات وجزيرة ابن عمر إلى حدود ولايتى ديار بكر والموصل القديمة، ومن الجنوب الشرقى حدود هاتين الولايتين القديمة إلى غاية رومإلين كوى، ومن هنا خط يمتد من المنطقة التى يشملها الانتداب الفرنسوى فيترك فيها جميع الأراضى الواقعة فى حوض نهر الخابور الغربى، ويمر باستقامة نحو الفرات، فيجتازه بالبوكمال ويمتد باستقامة إلى أمتار فجنوب جبل الدروز، ومن هنا يمتد إلى جنوب نصيب. الواقعة على خط حديد الحجاز، فسمخ الواقعة على بحيرة طبرية سائرا إلى جنوب خط السكة الحديدية وموازيا له. وتبقى درعا وما حولها فى المنطقة التى يشملها الانتداب الفرنسوى، ويبقى ذلك الخط فى وادى اليرموك ضمن المنطقة الفرنسوى، ويسير بصورة ملاصقة وموازية لخط السكة الحديدية. كى يصبح فى الأمكان أن يمد فى وادى إليرموك سكة حديدية واقعة فى الأراضى المشمولة بالانتداب البريطانى، وستوضع التخوم فى سمخ بصورة يمكن معها للفريقين المتعاقدين الساميين ان يبنيا مرفأ ومحطة للسكة الحديدية ليتمكنا من استعمال بحيرة طبرية بحريا.

ومن الغرب يسير الخط من سمخ مارا داخل بحيرة طبرية، فأول وادى المسعدية. حيث يسـير مع مجرى هذا النهر فى وادى جرابا، إلى نبعه، ومن هنا يتصل بطريق القنيطرة وبانياس بالمكان المعروف بالسكيك، فيسير مع الطريق التى تبقى فى المنطقة الفرنسوية لغاية بانياس، ومن هنا يسير نحو الغرب حتى يصل إلى المطلة، وتبقى المطلة فى المنطقة البريطانية.

وسيوضع لهذا الجزء من الحدود تفصيلات دقيقة، يمكن معها تسهيل المواصلات بين جميع أطراف البلاد المشمولة بالانتداب الفرنسوى كصور وصيدا والمناطق الواقعة إلى الغرب وإلى الشرق من بانياس.

وتفصل التخوم بالمطلة بمفرق الماء فى وادى الأردن وحوض نهر الليطانى، وتسير جنوبا مع وادى الأردن. فوادى فرعم، ووادى كركرة. اللذين يبقان فى المنطقة البريطانية فوادى اليلاونه، ووادى العيون والزرقاء التى تبقى فى المنطقة الفرنسوية، ويصل الحد إلى شاطىء البحر المتوسط في مينا رأس الناقورة، وتظل فى المنطقة الفرنسوية.

٢ ـ تؤلف بعد التوقيع على هذه المعاهدة بثلاثة أشهر بعثة لتدرس الحدود بين المناطق المشمولة بالانتداب الفرنسوى والمناطق المشمولة بالانتداب البريطانى التى بيناها فى المادة الأولى. وتتألف هذه البعثة من أربعة أعضاء. تعين الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوى اثنين منهم، وتعين الاثنين الآخرين الحكومة المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسوى، والحكومة المحلية المشمولة بالانتداب البريطانى بعد مشورة الحكومتين المنتدبتين.

إذا وقع خلاف بين أعضاء هذه البعثة يعرض على مجلس جمعية الأمم، ويكون قراره قطعيا.

وتقدم تقارير البعثة النهائية عن الحدود الثابتة التى عينت أخيرا، وتربط معها المصورات الضرورية الموقع عليها من قبل أعضاء البعثة. وتوضع ثلاث نسخ من هذه التقارير والمصورات. تحفظ النسخة الواحدة بين سجلات مجلس جمعية الأمم، وتحفظ النسختين الأخريين الحكومتان المنتدبتان.

٣ ـ توافق الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية على ترشيح لجنة خاصة مهمتها درس الخطط التمهيدية التى تعينها الحكومة الفرنسوية المنتدبة لأجل مصلحة الرى فى البلاد المشمولة بانتدابها، لئلا يقلل إبرازها لحيز الفعل ماء دجلة والفرات فى الموضع الذى يدخلان به المنطقة العراقية المشمولة بالانتداب البريطانى.

٤ ـ توافق الحكومة البريطانية بالنظر إلى مكانة جزيرة قبرص من الوجهة الجغرافية والعسكرية بالنسبة إلى خليج الاسكندرونة على أن لا تفاوض أحدا بخصوص التنازل عنها، أو تسليمه إياها قبلما توافق فرنسا على ذلك.

٥ ـ أ ـ توافق الحكومة الفرنسوية على وضع ترتيب حُرٍّ يبين كيفية استعمال خط السكة الحديدية الواقع بين طبرية ونصيب استعمالا مشتركا.

تضمن سير هذا الترتيب وانتظامه إدارتا السكة الحديدية المؤلفتان فى منطقتى الانتداب البريطانى والفرنسوى بأسرع ما يمكن - أى بعد تنفيذ الانتداب على سورية وفلسطين، وتسمح هذه الاتفاقية بصورة خاصة لإدارة السكة الحديدية البريطانية أن تسير قطاراتها ذهابا وإيابا بين هاتين المنطقتين وفقا لمصالحها. وتنقل البضائع التجارية إلى المنطقة المشمولة بالانتداب الفرنسوى بواسطتها، وتعين هذه الاتفاقية الشروط المالية والإدارية والفنية اللازمة لسير القطارات البريطانية، أما إذا لم يتم الاتفاق خلال ثلاثة أشهر من تنفيذ الانتداب بين الإدارتين المذكورتين أعلاه فستعين جمعية الأمم حكما يفصل الخلاف، وعندئذ تنفذ شروط هذه الاتفاقية التى حازت رضا الطرفين.

يعمل بموجب هذه الاتفاقية إلى أجل غير مسمى، وتصحح أحيانا بمقتضى الأحوال.

ب ـ يمكن للحكومة البريطانية أن تمد خطا من الأنابيب الحديدية بجانب السكة الحديدية. ولها الحق فى نقل جنودها على هذه السكة الحديدية دائما.

ج ـ توافق الحكومة الفرنسوية على تعيين بعثة خاصة تدرس الأراضى، وبعد درسها إياها تعين الحدود فى وادى اليرموك حتى نصيب بطريقة فنية، يمكن معها بناء الخط الحديدى البريطانى، وخط الانابيب الموصل بين فلسطين وبين سكة الحجاز

ووادى الفرات فى المنطقة المشمولة بالانتداب البريطانى. وتبقى السكة الحديدية الحالية المارة بوادى اليرموك داخل الأراضى المشمولة بالانتداب الفرنسوى. ويجب على بريطانيا العظمى إحقاق حقها هذا فى مدة لا تتجاوز عشر سنوات.

د - تتألف البعثة التى ذكرناها أعلاه من عضو بريطانى وعضو فرنسوى يضاف إليهما نواب عن الحكومات المحلية بصفة مستشارين فنيين. هذا ان رأت الحكومة البريطانية والحكومات الفرنسوية لزوما لذلك.

هـ - إذا اقتضى الأمر لأسباب فنية أن يمر خط السكة الحديدية البريطانية ببعض الأماكن المشمولة بالانتداب الفرنسوى توافق الحكومة الفرنسوية على مرور هذا الخط بتلك المناطق، وتقدم للحكومة البريطانية أو لعملائها المساعدات اللازمة.

و - إذا شاءت الحكومة البريطانية العمل بموجب الحق الممنوح لها بالفقرة الثالثة من هذه المادة – أى أن تمد سكة حديدية فى وادى اليرموك تنفذ الحكومة الفرنسوية الشروط التى اشترطتها على نفسها بالفقرة الأولى والثانية من هذه المادة غب مرور ثلاثة أشهر من إنشاء السكة.

ز - توافق الحكومة الفرنسوية على اتخاذ التدابير الفعالة لحمل الحكومات المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسوى، لتصادق على هذه الحقوق الممنوحة للحكومة البريطانية.

٦ - تم الاتفاق على هذه الشروط التى تسهل أعمال الحكومة البريطانية مقابل عقد الاتفاقية الفرنسوية البريطانية بخصوص الزيت فى سان ريمو.

٧ - لا تضع الحكومة البريطانية، ولا الحكومة الفرنسوية موانع فى منطقتى انتدابهما لجمع الموظفين اللازمين لإدارة خط السكة الحجازية أو لاستخدامهم.

تمنح جميع التسهيلات الضرورية لمرور جميع المستخدمين فى الخط الحديدى الحجازى بمنطقتى الانتداب البريطانى والفرنسوى لئلا تتأخر أعمال هذا الخط.

توافق الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية عند اللزوم على أن تعقدا اتفاقية مع الحكومات المحلية. خلاصتها استثناء جميع مهمات هذا الخط ومعداته من الرسوم الجمركية عندما تمر بإحدى مناطق الانتداب.

٨ ـ يعين خبراء واختصاصيون من قبل حكومة سورية وفلسطين غب مرور ستة أشهر من إمضاء هذه المعاهدة. مهمتهم فحص أحوال مياه نهر الأردن الأعلى ونهر اليرموك وتوابعهما لاستخدامها لأجل الرى، ولأجل توليد الكهرباء وتعيين المقدار اللازم للأراضى الواقعة تحت الانتداب الفرنسوى.

تزود الحكومة الفرنسوية الأخصائيين الذين تعينهم لدرس هذا المشروع بالتعليمات اللازمة لمنح فلسطين الماء الزائد خدمة لمنافعها العامة.

إذا لم يحصل الاتفاق المطلوب بنهاية هذا الدرس، تعرض المسألة على الحكومتين البريطانية والفرنسوية لتدرساها وتقررا فيها قرارا نهائيا.

تشترك إدارة فلسطين بقدر انتفاعها من هذه الأعمال فى دفع نفقات بناء الترع والخلجان والسدود والخزانات والأحواض والأقبية وخطوط الأنابيب الحديدية... الخ وتشترك فى جميع الأعمال التى من شأنها إنبات الحراج وتنشيط تربيتها.

٩ ـ توافق الحكومتان البريطانية والفرنسوية عملا بنص المادة ١٥ والمادة ١٦ من نظام الانتداب الفلسطينى، وعملا بنص المادة الثامنة والمادة العاشرة من نظام الانتداب العراقى، وعملا بنص المادة الثامنة من نظام الانتداب اللبنانى السورى، وعملا أيضا بموجب الحق العام المعطى من قبل الحكومات الوطنية للمدارس المحلية بخصوص التربية والتعليم على السماح للمدارس التى تخص أناسا من التبعة الفرنسوية، أو من التبعة البريطانية على المثابرة فى إدارة هذه المدارس فى منطقتى انتدابهما، ويسمح بتعليم اللغة الفرنسوية واللغة الإنكليزية فى هذه المدارس.

لا تعنى هذه المادة بحال من الأحوال منح رعايا إحدى الدولتين المشار إليهما حق فتح مدارس جديدة فى الوقت الحاضر فى منطقة انتداب الدولة الأخرى.

هاردنج **ج. بيج**

٢

الثورة العراقيـــة الكبرى

عوامل الثورة ومقدماتها

بينما كان النضال على أشده بين العرب والفرنسويين فى الشام، وقد حشد هؤلاء قواهم ليضربوا الضربة الكبرى، كان العراق يتمخض عن ثورته الكبرى على الإنكليز الذين جاءوه زمن الحرب، واحتلوا مدنه وأنشأوا فيه نظام حكم غريب شاذ عموه بالسيوف والحراب.

والعوامل التى حفزت السوريين إلى منازلة الفرنسويين، وقد قاتلوا وإياهم الترك، واشتركوا فى تدمير سلطنة الاتحاديين هى نفس العوامل التى حفزت العراقيين إلى قتال الإنكليز ومنازلتهم. فقد كان العراقيون يرجون أن يبر هؤلاء بوعودهم وينجزوا عهودهم للعرب، فيأخذوا بيدهم ويساعدوهم فى إنشاء دولتهم الكبرى، فلما أدركوا أن الأمر بالعكس، وان القوم يعملون على استعمار العراق وإذلال أهله والعرب كافة نهضوا للدفاع عن حقوقهم نهضة عرب الشام. ومعنى ذلك أن العوامل الأصلية للحركتين واحدة، مع وجود اعتبارات محلية وظروف خاصة لابد من مراعاتها وحسبان حسابها.

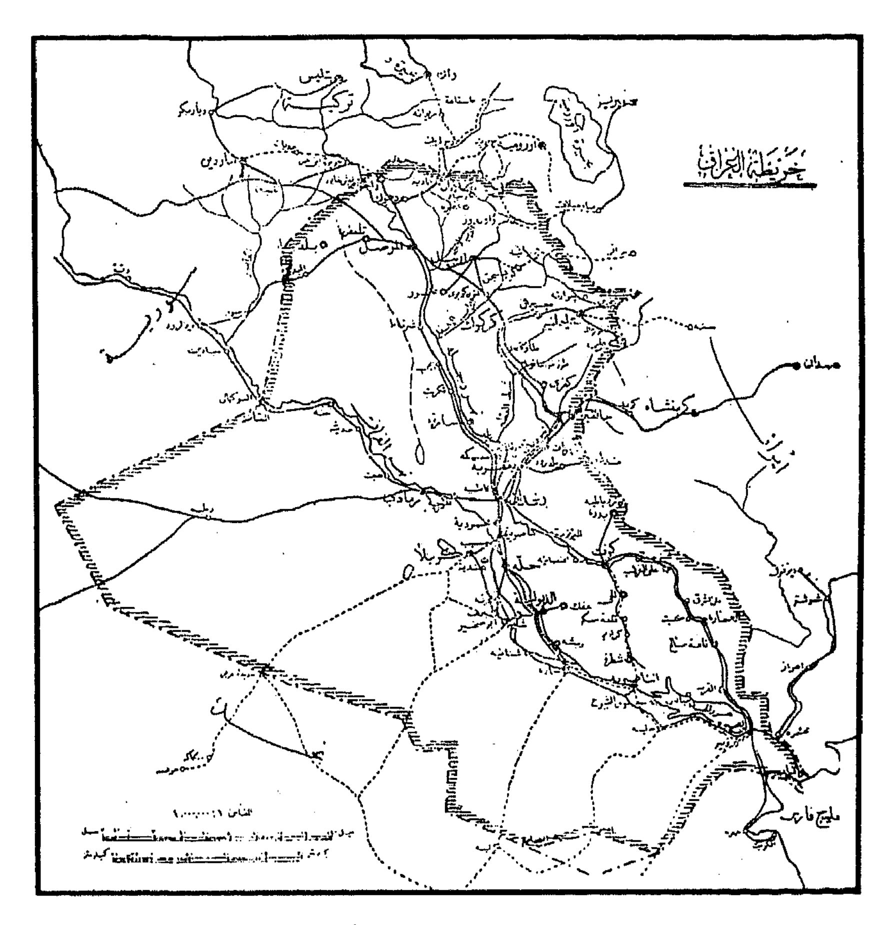
ومن تحصيل الحاصل القول بأن الحركة العربية قامت فى دورها الأول على أكتاف العراقيين قيامها على أكتاف السوريين، فقد كان الشبان من هؤلاء وهؤلاء يعملون جنبا إلى جنب فى الآستانة وبيروت ودمشق وبغداد والبصرة، ويؤلفون الجمعيات وينشرون الصحف باسم استقلال العرب ووحدتهم، لا باسم قطر من أقطارهم، ولا إقليم من أقاليمهم. ولئن كثر عدد الضحايا من السوريين خلال ذاك الدور فما ذلك إلا لأن عدد المشتغلين بالقضية منهم كان أكثر. وتبدل الحال فى خلال الدور الثانى. فقد أتاح احتلال البصرة ثم بغداد لضباط العراق وشبانه من الذين كانوا فى الجيش العثمانى، وتخلفوا عن الانسحاب معه يوم انسحب، أو سقطوا فى أسر الإنكليز أو انضموا إليهم ـ الاشتراك فى الثورة الكبرى فى الحجاز وقتال الترك فى سبيل الاستقلال الذى وعد به العرب، فكان عددهم أكثر. نعم لا ننكر أن بعض الفلسطينيين تطوع فى الجيش العربى بعد احتلال القدس إلا أن كفة العراقيين فى جيش الثورة كانت الراجحة، وإن ظلت خسارة السوريين من جهة الكيفية لا الكمية

الأرجح. فقد أودت مظالم جمال باشا بنخبة ممتازة من خيرة رجالهم وكتابهم ومفكريهم ـ وكل هؤلاء لا يعوضون، ولا يمكن تلافى الخسارة الناجمة عن فقدهم، ولم يقصر الفريقان، ولم يتوانيا . فبذل كل ما فى وسعه لخدمة القضية العامة – قضية العرب الكبرى. ومات ضحاياهم سواء فى عالية أو دمشق، أو حول المدينة المنورة، أو حول معان، أو فى صحراء الشام وحوران باسم العرب وفى سبيل استقلالهم – لا بأى اسم آخر. ولابد لنا من التنبيه إلى أمر آخر وهو أن كلمة عراقى وسورى لم تعرف إلا يوم دخل الحلفاء بلاد العرب فى زمن الحرب فبذروا هذه البذرة لتفريق الكلمة وإيقاع الشقاق. لاعتقادهم أن بقاء العرب متحدين متفقين يحول دون تحقيق مطامعهم فى بلادهم، ويقضى على خططهم الاستعمارية فأتوهم من هذه الناحية ـ الناحية الإقليمية ـ وأغروا السورى بالعراقى، كما أغروا هذا بالحجازى، وضربوا هذا بذاك فتنبه العرب أخيراً، إلى ما يراد بهم، وأحبطوا كيد الدساسين، ونهضوا يقاتلون العدو المشترك، وتقلد العراقيون من رجال الثورة ومن غيرهم المناصب الكبرى فى الحكومة الفيصلية بالشام، وهم من مؤسسيها . كما اشتركوا فى أعمال ذلك الدور من أوله إلى آخره. سواء فى داخل الحكم أو خارجه، وساعدهم هذا الاشتراك فى أعمال لحكومة وتقلدهم المناصب العليا على إعداد الثورة العراقية وتهيئة أسبابها ونشر الدعاية لها . فهم واضعو أساسها، وهم النافخون فى ضرامها .

٢
حروب الإنكليز فى العراق

يشبه موقف الإنكليز فى العراق موقف الفرنسويين فى الشام من وجوه كثيرة. فهم ما برحوا منذ استقروا فى الهند يطمعون فى استصفاء هذا القطر، ويرغبون فى امتلاكه. ولما زلزلت الدولة العثمانية فى الحرب البلقانية وظن بعضهم بمصيرها الظنون دارت مفاوضات رسمية فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٢ بين الإنكليز والفرنسويين. لم تلبث أن اقترنت بالنجاح التام، فقد اعترف هؤلاء بالعراق منطقة نفوذ بريطانية مقابل اعتراف الإنكليز بما للفرنسيين من حقوق ومصالح فى الشام. ولم يجدا أى صعوبة فى الاتفاق على اقتسام هذين القطرين العربيين. اللذين وحدت بينهما الطبيعة وجعلت كل واحد منهما متمما للآخر.

واغتنم الإنكليز فرصة اشتراك الدولة العثمانية فى الحرب العظمى. فهاجموا العراق على الفور فبزوا فرنسا من هذه الناحية ـ وقد كان لها من مشاغلها الكبرى يوم اكتسح الألمان بلادها فى أوائل الحرب، ودكوا حصونها ومعاقلها، مالا يدع لها وقتا للتفكير فى إرسال مثل هذه الحملة. بعكس الإنكليز الذين كانوا فى مأمن من مثل هذه الغارة تشن على بلادهم. ولئن اعتمد الإنكليز على قواهم المادية فى احتلال العراق، وفى طرد الترك منه. فقد اعتمد الفرنسويون على المعاهدات السياسية التى حملوا الإنكليز إبان الحرب على توقيعها معهم، وقد رأيت أن هؤلاء بذلوا الجهد لحمل الفرنسويين على التنازل عن سورية مقابل تعويضهم بنيجيريا فلم ينجحوا، ولم يسع الإنكليز إلا مجاراتهم ـ ولو كان فى ذلك نقض للعهود المقطوعة للعرب ـ لان الفرنسويين أقوى من العرب وأنفذ فى المقامات الدولية. واعتمد الفرنسويون على القوة ـ بعد الحرب ـ فى تنفيذ تلك العهود، ولم يحجموا عن منازلة الحلفاء الذين كانوا يقاتلون وإياهم جنبا إلى جنب. فتم لهم ما أرادوه.



خريطة العراق يستعان بها على معرفة أماكن الثورة العراقية

الحرب بين الترك والإنكليز فى العراق

بدأ الإنكليز غارتهم على العراق فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٤ ففى يوم ٧ منه وصلت قوة من جيوشهم بقيادة الجنرال دلماين إلى «الفاو» فاحتلتها بلا مقاومة. كما احتلت عبادان. ثم تقدمت إلى سينه فاحتلتها أيضا، وفوجئت صباح ١١ منه بهجمة هجمتها قوة عثمانية كبيرة وصلت من البصرة فصدتها.

ووصل يوم ١٣ منه الجنرال باريت القائد العام لحملة العراق على رأس قوة جديدة، ودارت أول معركة شديدة بين الإنكليز والعثمانيين يوم ١٤ منه فى قرية سيحان. وقد احتشد فيها ثلاثة آلاف من هؤلاء ثلثهم من رجال العشائر العراقية، فحمل عليهم الجنرال دلماين، ثم ارتد فى المساء وثبت الترك فى مواقعهم. على أنهم ما لبثوا أن ارتدوا ولم يجد الإنكليز أحدا هنا حينما عادوا إلى الهجوم يوم ١٧ منه.

وبدأ العثمانيون بالجلاء عن البصرة منذ صباح ٢١ منه وفى صباح ٢٢ أشرفت الحملة البريطانية البحرية على البصرة، ووصلت الحملة البرية بعد الظهر، واحتلتها رسميا يوم ٢٣ منه. فنزل الجند فى الثكنات، واستقبل الجنرال باريت والسير برسى كوكس (قنصل بريطانيا العام فى الخليج الفارسى يومئذ) أعيان البلاد. فقرأ بيانا باللغة العربية حوى ذكر الأسباب التى أدت إلى الاحتلال، وبيان ما يجول فى صدر الحكومة البريطانية من العواطف الودية نحو العرب.

واستقر الإنكليز فى البصرة فأنشأوا فيها حكومة، واتخذوها قاعدة لأعمالهم العسكرية الكبرى فى العراق، وبعد ما أتموا إعداد معداتهم تحركوا يوم ٣٠ ديسمبر قاصدين إلى القورنة لمنازلة قوات الترك ـ بقيادة صبحى بك، وإلى البصرة وقائدها العسكرى ـ فدار قتال يوم ٧ منه فى المزيرعة انتهى بطرد الترك. وفى يوم ٨ منه عبر الإنكليز دجلة لمهاجمة القورنة الحصينة، وهددوا مواقع العثمانيين فيها من الخلف ومن الجناح. فأرسل صبحى بك فى منتصف تلك الليلة كتابا إلى القائد الإنكليزى يقترح فيه التسليم بشرط أن يخرج جنوده بسلاحهم فأبى هذا قبول الشرط. فاستسلم الجند بلا قيد ولا شرط وعددهم ١٢٠٠ جندى و٤٢ ضابطا ورد الإنكليز إلى صبحى بك سيفه اعترافا ببسالته.

ولما وصلت هذه الأخبار إلى الآستانة عزل جاويد باشا القائد العام لجيش العراق،

وعين سليمان عسكرى بك، وهو من صناديد الاتحاديين وأبطالهم خلفا له. فبلغ بغداد فى أواخر شهر ديسمبر مع حاشية كبيرة، وقوى عسكرية وأخذ يخطب وينادى بأنه لابد له من استرداد البصرة وإلقاء الإنكليز فى البحر، وتحرير سواحل الخليج الفارسى والزحف على الهند والاستيلاء عليها.

وبدأ عمله العسكرى فحشد قواه فى الناصرية للزحف على البصرة. كما حشد قوة أخرى فى جوار المزيبلة وعران للزحف على الأهواز، والأحداق بجناح الجيش البريطانى الأيمن، وحمله على التقهقر. ونشط الموظفون الترك فى العراق خلال هذه المرحلة نشاطا زائدا فاستثاروا حمية السكان من العرب والكرد، وحملوهم على التطوع فى الجيش ومشاركته فى الدفاع عن الوطن، فتسنى لهم حشد نحو ١٠ آلاف مقاتل فى الشعبية.

وزحف الإنكليز يوم أول يناير سنة ١٩١٥ للاستطلاع فى شمال عران ثم ارتدوا إلى القورنة، واستأنفوا الزحف فى ٢٠ منه فتقدموا إلى المزيرعة على ضفة دجلة اليمنى فصدمهم سليمان عسكرى بك ودارت معركة بين الفريقين انتهت بارتداد الإنكليز بعدما جرح سليمان بشظية قنبلة، وتحول الموقف بعد هذه المعركة وبعد التدابير العسكرية التى اتخذها الترك، فأصبحوا مهاجمين بعد ما كانوا مدافعين.

ودارت معارك عديدة بين الفريقين فى هذا الميدان كانت معركة الشعبية يوم ٤ ابريل أعظمها شأنا، فقد هجم سليمان على المعسكر البريطانى المحصن فى الشعبية بعشرين ألفا من المحاربين، ومعظمهم غير مدربين معهم ١٥ مدفعا فردوه وهزموه بعد ما قتلوا نحو ثلاثة آلاف من رجاله، وأسروا نحو ألف. فلجأ إلى الناصرية وانتحر فيها. فحل محله فى القيادة أميرالآلاى حليم بك. وكان الترك قد خندقوا فى عران وحصنوها. ولم يلبث هذا أن ارتد أمام البريطانيين يوم أول يونيو تاركا المراكز العسكرية بين يدى الجنرال تونسند القائد الجديد للحملة العراقية، فطارده هذا بأسطوله النهرى حتى أدركه فى العمارة يوم ٣٠ منه، فاستقبله حليم بك نفسه مع عاصم بك متصرف اللواء وأربعة ضباط كبار مع ٤٠ ضابطا صغيرا، واستسلموا إليه بلا حرب ولا قتال. وقد كان فى إمكانهم أن يأسروه لأنه كان وحيدا.

وعينت حكومة الآستانة أميرالالاى نورى الدين بك قائدا للعراق بعد انتحار

سليمان عسكرى واستسلام حليم. فوصل فى شهر يونيو. وبدأ كما بدأ سليمان عسكرى فحشد القوى فى محل حصين يدعى السن. ويبعد عن كوت العمارة نحو ١٢ كيلو مترا من الشرق. فانضمت إليه القوات التركية المتراجعة من سوق الشيوخ ومن الناصرية، وقد احتل الإنكليز الأخيرة بعد معركة دامية يوم ٢٤ يوليو وأسروا فيه ١١٠٠ أسير تركى.

وسير الترك نجدات قوية للدفاع عن العراق، وألفوا لجنة لتحصين مدينة بغداد نفسها استعدادا للدفاع عنها. ووقعت المعركة الأولى بين نور الدين بك والجنرال تونسند صباح ٢٧ سبتمبر فى السن، واستمرت نحو ٢٠ ساعة، واشترك فيها الأسطولان النهريان (الإنكليزى والتركى) وانتهت بفوز الإنكليز. فجلا الترك عن خطوطهم عند الفجر، وانسحبوا إلى خطوط الدفاع الجديدة التى أقاموها شمالا على خط سلمان باك ـ طيسفون ـ وخسروا فى هذه المعركة ١٧ ألفاً بين قتيل وجريح و١٢٨٩ أسيرا مقابل ١٢٢٩ قتيلا وجريحا من الجيش الإنكليزى. ونظم الترك قواهم تنظيما جديدا فى سلمان باك استعدادا للقاء الإنكليز، وتلقوا نجدات جديدة، وحصنوا مواقعهم تحصينا زائدا.

وبدأ الجيش البريطانى الزحف على سلمان باك يوم ١٦ نوفمبر بعد استعدادات امتدت ستة أسابيع. وفى يوم ٢١ منه هجم على قلب الجيش التركى وعلى جناحه الأيسر. كما انصرفت قوة منه إلى مشاغلة الجناح الأيمن، وكان الإنكليز يرمون إلى الإحداق بالترك، وقطع خط رجعتهم على نهر «ديالى» ففازوا بادىء بدء، واستولوا على الخطوط الأمامية وغنموا ٨ مدافع وأسروا ١٧٠٠ أسير ومزقوا فرقة كاملة للترك. ووصلت والمعركة دائرة فرقة تركية بقيادة خليل بك (عم أنور باشا) فتعزز مركز الترك ورجحت كفتهم فاستردوا الخطوط الأمامية، وضربوا الإنكليز ضربة شديدة. فبدأوا بالانسحاب ليلة ٢٢ منه فطاردهم نور الدين، وكاد يحدق بهم يوم أول ديسمبر فى أم الطبول. لولا أن أدركته قوة انكليزية وفى يوم ٣ ديسمبر بلغ الجنرال تونسند كوت الإمارة وفى يوم ٦ منه أدركه الجيش التركى وفى ٧ منه ضرب الحصار عليه.

ووصل إلى بغداد فى أواخر شهر نوفمبر المارشال فون درغولتز الألمانى فتقلد قيادة الجيش التركى فى العراق، وبدأ فأنشأ خط دفاع فى الفلاحية شمالى «كوت العمارة» المحصورة لرد القوى البريطانية الزاحفة لإنقاذ الجيش المحصور وصدها. ورغم ما بذله

الإنكليز من جهود، وما بذلوه من مال [1] مماجاءوا به من قوى فقد عجزوا عن بلوغ الكوت وانقاذ الجيش المحصور. فسلم يوم ٢٩ ابريل سنة ١٩١٦ بعد ما أتلف سلاحه، معداته وبلغ عدد رجاله ١٣٥٠٠ جندى عدا الضباط فأرسلوا إلى الأناضول.

وحل خليل باشا محل الجنرال فون درغولتز فى قيادة الجيش التركى المحارب، ومات هذا يوم ٦ ابريل بالحمى فخسر الترك قائدا حكيما مجربا.

وبدلا من أن يوجه الترك اهتمامهم إلى قتال الإنكليز فى ميدان دجلة اتجهوا نحو فارس فأرسلوا فيلقا بقيادة على إحسان باشا إلى خانقين لمنازلة القوى الروسية التى بلغتها فأدى مهمته على الوجه الأكمل، وطرد الروس من الأراضى التركية، وأطمع الترك هذا الفوز فأوغلوا فى ايران واحتلوا كرمنشاه وهمدان وأعلنوا انهم يعدون المعدات للزحف على طهران ومنها إلى أفغانستان فالهند لضرب انكلترا ضربة قاضية.

واغتنم الإنكليز الفرصة فأرسلوا حملة كبيرة إلى البصرة بلغ عددها ٤٠ ألف جندى تولى قيادتها الجنرال مود. فبدأ الهجوم على الترك فى إمام محمد يوم ٩ يناير سنة ١٩١٧ فاحتل خطوطهم الأمامية فقاوموه مقاومة شديدة، ودارت معارك هائلة فى هذا الميدان انتهت يوم ٩ فبراير باستيلاء الإنكليز على خطوط الترك، فتقدم الإنكليز على ضفاف الفرات، وعبروا دجلة ليلة ١٦ منه. وهاجموا الفلاحية على الضفة اليسرى فاحتلوها يوم ٢٢ منه. كما اجتازوا الفرات. ولم يأت يوم ٢٥ منه حتى تضعضع الترك، وفقدوا كل أمل بالانتصار فارتدوا يوم ٢٧ منه إلى سلمان باك، وتحصنوا فيها فطاردهم الإنكليز فلم يقووا على الثبات، فانسحبوا ليلة ٦ مارس إلى ديالة فهاجمهم الإنكليز فجلوا عنها إلى بغداد، فلحق بهم الجنرال مود ودخلها فجر ١١ مارس سنة ١٩١٧.

وواصل الإنكليز الأعمال العسكرية، فاحتلوا سامرا يوم ٢٢ إبريل ثم تقدموا نحو شرقاط وكان الترك قد تحصنوا فيها وأنشأوا خطوط دفاع محكمة.

وسير الإنكليز القوى لاحتلال المدن العراقية الواقعة على الفرات فاحتلوا الرمادى فى الغرب يوم ٢٩ سبتمبر – كما احتلوا تكريت يوم ٦ نوفمبر، واحتلوا أيضا كركوك

١ ـ كان من جملة التدابير التى لجأ إليها الإنكليز يومئذ انهم انتدبوا الكابتن لورانس. وكان يعمل فى دائرة المخابرات بالقاهرة للسفر إلى العراق ومقابلة خليل باشا وتهيئة الأسباب لاخراج الجيش البريطانى المحصور فى كوت الإمارة مقابل مليون جنيه رشوة تدفع له. ولما أجاب بالرفض وعده بزيادة المبلغ فأجاب بالرفض أيضا، وقد انتقد بعض مؤرخى لورانس تصرفه هذا التصرف المخالف لقواعد الأخلاق.

وأخرى فى الشرق فى أواخرإابريل.

واستؤنف القتال فى هذا الميدان بعد انقضاء فصل الصيف فاحتل الإنكليز الفتحة والبلاليج وشرقاط والجرناف قرب الموصل. فأقلق ذلك الترك فقرروا الجلاء عن هذه. وبينما كانوا يخلونها مرتدين إلى نصيبين، وقد جلا عنها قائدهم العام على إحسان باشا عقدت الهدنة بين تركيا والحلفاء يوم ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٨ فعاد هذا إلى الموصل ثانية وأمر الموظفين الترك باستئناف عملهم.

ووصل إلى الموصل ظهر يوم ٢ نوفمبر الكولونيل ليجمان مدير المخابرات فى الجيش البريطانى فقابل على احسان باشا ودعاه إلى زيارة القائد البريطانى فى جوار اليوسف (جنوبى الموصل) فأجاب الدعوة وعاد إلى مقره. وفى الغداة جاء الكولونيل ليجمان إلى دار الحكومة ومعه جندى بريطانى فأنزل العلم التركى، وأنذر على إحسان باشا بوجوب السفر حالا. وتقدمت فرقة الجنرال «واكهوب» فاحتلت الموصل.

ودارت مفاوضات رسمية بين الباب العالى وممثل انكلترا السياسى فى الآستانة حول مصير الموصل. فأرسل هذا بلاغا إلى الحكومة التركية ألح فيه بسحب القوات التركية من الموصل فى الحال. عملا بمواد الهدنة. لأن الحملة البريطانية محتاجة إلى احتلالها للدفاع عن نفسها أزاء جيش الجنرال نورى باشا (شقيق أنور باشا) المرابط فى أذربيجان قال:

«وإذا أصر الترك على عدم الجلاء فالحملة البريطانية تطرد على إحسان باشا وتأسره وتحتل المدينة بالقوة» فوافقت الحكومة التركية على الجلاء مشترطة أن يكون الاحتلال العسكرى البريطانى وقتيا، وأن يظل فيها الموظفون الترك يؤدون أعمالهم كالسابق باسم السلطان.

وغادر الموصل على إحسان باشا يوم ٥ منه بسيارة إلى نصيبين تحميه مدرعات بريطانية خوف اعتداء العربان عليه. وتولى الكولونيل ليجمان إنشاء الحكومة الجديدة فى الموصل، وقد تولى رياستها. وفى يوم ١٢ منه انتهى الحكم التركى فى الموصل وفى العراق. فانتهى بانتهائه دور الأعمال العسكرية، ودخل هذا القطر فى قبضة الجيش البريطانى بعد حروب هائلة امتدت أربع سنوات.

٣
العــــراق زمـــن الهــــدنة

كان عقد الهدنة بين الترك والحلفاء فى موندروس يوم ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٨ فاتحة دور جديد فى العراق، ابتدأ بإنشاء نظام حكم شاذ وغريب، وانتهى بإعلان الثورة العراقية الكبرى يوم ٣٠ يونيو سنة ١٩٢٠ وقد خاضها العراقيون دفاعا عن حقوقهم وطلبا لاستقلالهم.

كان العراقيون يرجون أن يتاح لهم بعد ختام الحرب وحلول عهد السلام إنشاء حكومة عربية مستقلة فى بلادهم، تتحد مع الحكومات العربية فى الشام والحجاز، وتحيى مجد العرب، طبقا للوعود التى قطعها الإنكليز للحسين باسم العرب عامة، وللعراقيين أنفسهم فى أثناء الحرب خاصة، فقد كان هؤلاء فى أول الحرب يعطفون على الترك كإخوانهم أهل الشام، ويرون أن مصلحة العرب هى فى التضامن معهم وتأييدهم فتخرج الدولة ظافرة من حربها، ولا تسقط بلادهم فى قبضة الاستعمار الأوروبى، وتبدل موقفهم حينما بدأ جمال باشا ينفذ سياسته فى الشام وقد ذهب ضحيتها عدد غير قليل من العراقيين، وحينما ظهرت نيات الاتحاديين إزاء العرب. وهى ترمى كما قلنا إلى القضاء على مفكريهم ورجالهم. يضاف إلى هذا ما ارتكبه الترك أنفسهم من مظالم فى العراق خلال الحرب العظمى. فقد فعل خليل باشا هنا ما فعله جمال باشا فى الشام، وذلك أنه سير فى شهر أغسطس سنة ١٩١٦ قوة كبيرة إلى الحلة بقيادة أميرالآلاى عاكف بك الألبانى فدمرها تدميرا، وسبى نساءها، وأرسل رجالها إلى الأناضول منفيين، وكانوا قد فعلوا مثل ذلك فى كربلاء من قبل مايو من تلك السنة. فقتلوا وشنقوا عددا من رجالها. لأنهم لم يقدموا الجنود المطلوبة للدولة، وقد استوفينا الكلام على هاتين الحادثتين فى مكانهما.

وعود الإنكليز للعراقيين

وننشر هنا نص الوعود الرسمية التى قطعها الإنكليز للعراقيين فى أثناء الحرب العظمى وفى زمن الهدنة. مبتدئين بمنشور الجنرال مود، وهو أولها. فقد صدر يوم ١٩ مارس سنة ١٩١٧ وهذا نصه:

١

يا أهالى ولاية بغداد

إننى باسم مليكى المعظم، واسم شعوبه التى يحكم عليها أوجه إليكم الخطاب الآتى:

إن الغرض من معاركنا الحربية هو دحر العدو وإخراجه من هذه الأصقاع. فإتماما لهذه المهمة وجهت إلى السلطة المطلقة على جميع الأطراف التى تقاتل فيها جنودنا.

إن جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بصفتهم قاهرين أو أعداء، بل بصفتهم محررين فقد أخضع مواطنوكم منذ أيام هولاكو لمظالم الغرباء. فخربت قصوركم وزوت حدائقكم وأتت أشخاصكم وأسلافكم من جور الاسترقاق. لقد سيق أبناؤكم إلى حروب لم ينشدوها، وجردكم القوم الظلمة من ثروتكم وبددوها فى أصقاع شاسعة. تكلم الترك من أيام مدحت باشا عن الإصلاح. أفليس دثور العراق وأقفاره برهانا على بطلان هذه المواعيد.

إنها ليست أمنية جلالة مليكى المعظم وأمنية شعوبه فقط، بل هى أيضا أمنية الأمم العظمى المتحالفة معها حكومة جلالته أن تعودوا كما فى السابق. وقد كانت أراضيكم مخصبة، وكان العالم يتغذى بألبان آداب أجدادكم وعلومهم وصناعاتهم، وقت كانت بغداد إحدى غرائب الدنيا.

«لقد ارتبط قومكم بممتلكات جلالة مليكى المعظم بعروة المصالح الوثقى فقد تبادل تجار بغداد وتجار بريطانيا من مائتى سنة المنفعة والصداقة. أما الألمان والأتراك الذين نهبوكم أنتم وذويكم فقد اتخذوا بغداد مدة عشرين سنة مركزا يهجمون منه على نفوذ البريطانيين وحلفائهم فى إيران والبلاد العربية، ولذلك لم تستطع الحكومة البريطانية السكوت عما يحدث فى وطنكم حاضرا أو مستقبلا، ولا تتسامح قياما بواجب مصلحة الشعوب البريطانية ومصلحة حلفائها فى أن يرتكب الترك والألمان ما ارتكبوه مرة ثانية فى بغداد.

ويجب عليكم يا أهل بغداد، يا من جئنا نحميكم من الظلم والغزو، ونضمن حرية تجارتكم، ويامن ستنالون ما يستوجب أدق اهتمام الحكومة البريطانية أن تعلموا أن هذه الحكومة لن تفرض عليكم أنظمة أجنبية عنكم. فأمنيتها الوحيدة أن تحقق ما تطمح إليه نفوس فلاسفتكم وكتابكم مرة أخرى. ولسوف يسعد أهالى بغداد ويتمتعون بالغنى المادى

والأدبى بفضل نظامات توافق قوانينهم المقدسة وأطماعهم القومية.

لقد طرد العرب فى الحجاز الترك والألمان الذين بغوا عليهم، ونادوا بعظمة الشريف حسين ملكا عليهم، وعظمته يحكم مستقلا حرا، وهو متحالف مع الأمم التى تحارب دولتى تركيا والمانيا، وهذا شأن أشراف العرب وأمراء نجد والكويت وعسير.

لقد ذهب كثيرون من أشراف العرب ضحية فى سبيل الحرية على أيدى أولئك الحكام الغرباء الذين ظلموهم. وانكلترا وحلفاؤها مصممون على أن لايذهب دماء هؤلاء الأبطال هدرا، وأمنية إنكلترا وحلفائها أن تسمو الأمة العربية مرة أخرى، وتستعيد عظمتها ومجدها وأن تعمل لإدراك هذه الأمنية متحدة متفقة.

يا أهل بغداد تذكروا أنكم تألمتم ٢٦ جيلا آذاكم الظلمة والغرباء الذين سعوا دائما إلى الإيقاع بين البيت ورب البيت كى يستفيدوا من شقاقكم. فهذه السياسة مكروهة عند بريطانيا وحلفائها لأنها إغراد بالعداوة، ولا يستقيم معها حال، ولا يستقر معها سلام، وأنا مأمور بأن أدعوكم بواسطة أشرافكم وشيوخكم الطاعنين فى السن وممثليكم إلى الاشتراك فى إدارة مصالحكم الملكية، لمعاضدة ممثلى بريطانيا السياسيين المرافقين للجيش - كما تنضمون إلى ذوى رحمكم شمالا وشرقا وجنوبا وغربا فى تحقيق أطماعكم القومية.

صدر من مركز رئاسة الجيش البريطانى ببغداد فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٣٥هـ الموافق ١٩ مارس سنة ١٩١٧.

٢

ولما عقدت الهدنة بين الحلفاء والألمان يوم ١١ نوفمبر دعا السير وليم مارشال القائد العام للجيش البريطانى فى العراق. وقد حل محل الجنرال مود المتوفى بالحمى أعيان بغداد وتلا عليهم البيان الآتى:

«حينما دخل بغداد المرحوم السير ستانلى مود على رأس جنوده المنصورة قبل ثمانية عشر شهرا. كان أول عمل قام به هو إصداره منشورا إلى أهالى بغداد، وبواسطتهم إلى

سائر سكان العراق. وكان ماحواه تأمينا في الحاضر ورجاء في المستقبل. ولابد أن كثيرا من الحاضرين يذكرون كلمات الجنرال مود، وعندهم أيضا صور من منشوره. فقد قال لكم أن الجيش البريطاني جاءكم منقذا لا فاتحا، وأنه لا يوجد تحت الحكم البريطاني تعرض لديانة أي رجل كان، ولا لأعماله الخاصة، ولكن عدالته شاملة يتساوى فيها كل أحد، ويكون فيها مجال لسعي الجميع. وقد وعدكم أيضا أن نبذل قصارى جهدنا في تنشيط التجارة وزيادة التقدم، وأن نسخر أنفسنا لرفع منار الحرية ولإنقاذ منافعكم المادية. ولكن الجنرال مود كما تعلمون أيها السادة لم يجد سعة في عمره لإنجاز هذا الوعد. فقد وضع الأساس وبقي على اتمام البناء، وفي هذا إليوم الذي يقع فيه على حسب التقريب ذكرى مرور سنة على وفاته، تلك الوفاة التي جاءت في غير أوانها أتيت لأذيع بينكم نبأ انتهاء القتال مع الجيوش التركية بصورة ظافرة. ففي خلال بضعة الأشهر الأخيرة تبدل شكل الحرب بعد قتال شديد، تبدلا فجائيا. فبلغاريا أمضت بدون قيد شروط الهدنة، والنمسا سلمت تسليما كاملا، والجيوش الالمانية تنسحب انسحابا تاما. كما أن تركيا طلبت الصلح. وقد علمتم أن الجيوش البريطانية تقدمت في أيام قلائل من الناصرة إلى دمشق، ومنها إلى حمص وحماه ولم يكن التقدم في سورية وحدها، بل نلنا نصيبنا على دجلة بعد أن مزقنا الجيش التركي وأسرناه بأجمعه. فأصبحنا الآن في موقف يجعل مقادير الموصل بيدنا، وبذلك تكون الحرب قد انتهت في هذه البلاد، ويمكننا اليوم أن نبين أن الوعود التي أعطيت مرارا يجب أن تنجز في أول فرصة ممكنة، وبمثابة عربون في الوقت الحاضر يدل على نياتنا الحسنة أبلغكم ما يأتي:

١ - يسمح لأسرى الحرب المعتقلين في الهند بالرجوع إلى أوطانهم ماعدا الذين من الجيش التركي.

٢ - تطلق الحرية التامة للتجارة، وتخفف تضييقات الحصار في داخل الأراضي المحتلة.

٣ - يخفف التضييق أيضا على العمل الشخصي.

٤ - يسمح بنقل الجثث التي تدفن في كربلا والنجف بشروط مناسبة.

٥ - تفتح الطريق من جديد للزيارات المنظمة للأماكن المقدسة.

٦ - يعطى راتب شهر مكافأة للموظفين الدائمين من الأهالي في دوائر الحكومة الملكية من

الذين لا يخدمون فعلا فى صفوف الجيش، وقد قاموا بوظيفتهم حق القيام.

٧ - يختار بعض المسجونين فى السجون الملكية ويطلق سراحهم.

٨ - يوزع طعام وألبسة على فقراء بغداد والمدن الأخرى، وتخفف القوانين الحالية بعض تخفيف.

ولا أجد أيها السادة ما أقوله غير ماقلته، وأطلب إليكم أن تعتقدوا أن التضييقات والإزعاجات التى لابد من وقوعها بسبب وجود الجيش بين ظهرانيكم لم تنشأ عن رغبتنا فيها، وإنما اقتضتها الضرورة العسكرية، وأعدكم باسم جلالة الملك الإمبراطور أن أقوم بإزالة ما يدعو إلى الشكوى بالسرعة الممكنة.

٣

وزا فد من علماء النجف الحاكم السياسى، يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وكلفوه أن يبلغ القائد العام للجيش البريطانى فى العراق تهانيهم بما ناله الحلفاء من نصر فى ميدان سورية وفى البلقان، وذكروه بما للعرب من حقوق. فأرسل إليهم ردا باسم القائد العام هذا نصه:

«يود القائد العام منكم أن تذكروا علماء النجف وأعيانها وتجارها بما هو معروف عند كل أحد. وهو أن بريطانيا العظمى تحارب ألمانيا لأجل صيانة العهود التى لا يحل نقضها، وتأمين حرية الشعوب الصغيرة التى تتوقف سعادتها على رعاية العهود، والنتيجة الحاضرة للفوز الذى أحرزته جنود الحلفاء فى الشرق الأدنى هى تحرير الشعوب التى قاست العذاب من جور الدول الوسطى وحلفائها. وقد أذعنت بلغاريا للصلح بعد ما هزمت فأجليت جنودها عن ألبانيا وصربيا والجبل الأسود، وعلى حسب ما تقتضيه حقوق الشعوب. فالمناطق التى يسكنها اليونانيون تعطى لليونان، والتى يسكنها الصربيون تعطى لصربيا، ويتخذ الحلفاء هذا المنهج الذى يسيرون عليه فى معاملة الشعوب الأخرى قاعدة لهم فى سياستهم نحو العرب، وكما أن الصربيين اشتركوا فى استرداد بلادهم. فالعرب أيضا حاربوا جنبا إلى جنب مع الحلفاء لتحرير قطر عربى.

٤

وفى يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٨ نشرت السلطة البريطانية المحتلة فى العراق نص المنشور الذى أذاعته الحكومتان الإنكليزية والفرنسوية عن الغاية من مواصلتهما الحرب فى الشرق الأدنى.

تلك هى نصوص الوعود الرسمية التى نشرها الإنكليز فى العراق خلال الحرب العظمى وعلى أثر عقد الهدنة. وقد وعدوا فيها العراقيين بالحرية والاستقلال، وأعلنوا أنهم ما جاءوا فاتحين ولا مستعمرين. بل محررين ومنقذين يضاف إليها الوعود الرسمية التى قطعوها للعرب ومنشورات الشريف، وقد كانت تذاع فى العراق وكلها ترمى عن قوس واحدة، وتبشر العرب بقرب تحريرهم وإنقاذهم.

٤
خيبة الآمال

وبينما كان العراقيون ينتظرون أن تبر لهم إنكلترا بما وعدت به، وتنشىء حكومة عربية مستقلة فى ربوعهم، على منوال الحكومة الفيصلية فى الشام، وقد اشترك العراقيون اشتراكا فعليا فى إنشائها، وكانوا من أوتادها، كما كانوا من أوتاد الثورة العربية الكبرى، خابت آمالهم بالمنشور الذى نشره الكولونيل ولسن الحاكم السياسى العام للعراق فى يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩١٨ وهو:

«أذيع على أهل العراق من وقت إلى آخر أن سياسة الحكومة البريطانية تسعى دائما إلى تنشيط روح الوطنية والاستقلال فى جميع البلاد التى يمتد إليها النفوذ البريطانى، والنفع الذى يعود على أهالى البلاد من إنعاش هذا الروح هو عظيم جدا، ولكنه لا يمكن للذين لم يحصلوا على اختبار عملى فى الأمور إحراز كل ذلك مرة واحدة، بل يرقون إليه تدريجا، ولا ريب أن الطريق المثلى التى يخطو بها الأهالى أول خطوة هى اشتراكهم فعلا فى إدارة أمورهم المحلية الخاصة ثم يرتقون مع الزمان إلى أمور أوسع نطاقا، وطبقا لهذه الخطة تقرر أن ينشأ فى بغداد من أول شهر يناير سنة ١٩١٩ المقبل «مجلس بلدى» للنظر فى أمور البلدية. ويتألف هذا المجلس من رئيس ونائبين ثانيين، ومن كاتم أسرار ومعاون كاتم أسرار، وكل من هؤلاء يكون موظفا لدى الحكومة، ويكون أيضا فى المجلس عشرة أعضاء غير رسميين يعينهم الرئيس، وستة أعضاء غير رسميين آخرون ينتخبون على طريقة تشرح فيما بعد. ويرتآى أن ينظر هذا المجلس عند تأليفه فى رسوم البلدية، وإيرادات بلدية بغداد تحت رعاية الإدارة الملكية ونظارتها، ويزود بسلطة مالية ثانية يمكنه معها أن يصادق على صرف مبلغ نهايته ٥٠٠ روبية فى السنة، ويمكنه أيضا التصديق على مبلغ قدره ١٥٠ روبية فى الشهر لكل شأن من الشؤون. وتكون هذه السلطة ثابتة على كل حال لما خصص فى الميزانية لهذا الشأن. وعلى المجلس الذى أعطى هذا المقدار من

السلطة المالية أن يعنى فى الأمور الآتية: النظافة والصحة العامة والمستشفيات وإسعاف الفقراء والطرق والمتنزهات والأسواق والحرف، وتخطيط الدور والأبنية والنجارة الهندسية والأمور الأخرى المتعلقة بالبلدية. وقد وضعت قوانين العمل وصودق عليها وحدد فيها عدد الجلسات التى يعقدها المجلس فى كل شهر. والطريقة التى تتبع فى المناقشات، ويكتب محضر المجلس باللغتين الإنكليزية والعربية وينشر من وقت إلى آخر ليطلع عليه العموم. وينشأ مثل هذا المجلس فى جميع المدن العراقية الكبيرة، ويكون عرضة للتغيير حسبما تقتضيه الحالة المحلية. وهذا العمل يكون عربونا يدل على نيات الحكومة البريطانية الحسنة نحو أهالى العراق. الذين يؤمل منهم أن ينتهزوا هذه الفرصة السانحة ويبادروا بروح الإخلاص لخدمة الوطن المشترك».

ولقد نبه هذا البيان أفكار العراقيين الذين كانوا يطمعون أن تبادر السلطة البريطانية إلى إنشاء حكومة عربية وطنية فى بلادهم إلى ما يراد بهم، فأدركوا أن الإنكليز عازمون على حكم العراق حكما عسكريا استعماريا مباشرا، ظهرت مقدماته بتعيين ضابط عسكرى لكل مدينة من مدنهم باسم الحاكم السياسى. فكان حاكم الموصل ضابطا عسكريا برتبة كولونيل وهو لنجمان، ومثل ذلك حكام البصرة والنجف وكربلاء وبقية المدن الأخرى وعلى رأسهم الكولونيل ولسن الحاكم العام، وهم إما من ضباط المستعمرات الذين ألفوا الحكم والسيطرة، أو من ضباط الجيش الذين لم يمارسوا الشؤون المدنية، وقد انتفخت أوداجهم غروراً وصلفا فازدروا الناس واحتقروهم وأوصلوا أنواع الاذية إليهم. ولم يكتفوا بذلك، بل اصطفوا طائفة ممن لاخلاق لهم قربوهم إليهم، وأدنوهم منهم فأمعنوا فى الإرهاق. يضاف إلى هذا وهذا أن الجانب الأكبر من موظفى تلك الحكومة كان من الهنود الذين جاءوا مع الحملة، ومن النصارى واليهود والأجانب الذين مالأوا الاحتلال، وكانوا عونا له فى تنفيذ سياسة رامية إلى إذلال العرب أصحاب البلاد الشرعيين واضطهادهم. وقد أقصوا عن أبواب الحكومة وحيل بينهم وبين إدارة بلادهم فاستاءوا ونقموا وأخذوا يفكرون فى الوسائل التى يتوسلون بها لإنقاذ بلادهم من الحالة التى صارت إليها فى عهد الاحتلال، وقد خيب كل أمل، وقضى على كل رجاء.

الاستفتاء السرى

وزاد في استيائهم ونفرتهم ما أصدره الحاكم السياسي للعراق يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩١٨ من تعليمات سرية إلى الحكام السياسيين في المدن والأقاليم بأن يلقوا على الرؤساء والعلماء وذوي الرأي أسئلة وجهها اليهم وهي:

١ ـ هل تريدون تأليف حكومة عربية مستقلة تحت حماية بريطانية تضم البلاد الواقعة من شمالي الموصل إلى خليج فارس؟.

٢ ـ هل تريدون أن يرأس الحكومة أمير عربي؟.

٣ ـ من تختارون لرئاسة هذه الحكومة؟.

وأضاف إلى تعليماته مادة تقضي على الحكام بأن يسعوا لحمل الشعب على انتخاب السر برسي كوكس معتمد إنكلترا في خليج فارس رئيسا للدولة العراقية الجديدة.

ولجأ الحكام إلى الحيلة في إلقاء الأسئلة والحصول على أجوبتها، وسعوا كثيرا لينالوا الأجوبة الموافقة. إلا أن افتضاح أمرها وشيوع خبرها أحدث رد فعل، وبعث جمهرة من المفكرين في المدن والأقاليم على مقاومة الحركة وحملهم على الاجتماع لوضع خطة ثابتة يسار عليها ويعمل لتحقيقها. ولا ريب أن حادث الحلة هو الذي نبه الرأي العام العراقي إلى ما يحيكه الإنكليز في الخفاء. وبيان ما وقع هو أن حاكم الحلة السياسي استشار أحد المقربين إليه في طريقة إلقاء الأسئلة، فاختار له سبعة من الأعيان كلفه أن يلقيها عليهم فيجيبوا عليها كما يريد، على أن يتم ذلك سرا ومن دون اطلاع أحد. وانتشر الخبر في المدينة وعرف الوطنيون ما هنالك. فكتبوا إلى الحاكم كتابا وقعه كثيرون قالوا فيه إنهم علموا بأنه عازم على استفتاء سبعة من المدينة، وأنهم يطلبون عطف الحكومة على حقوقهم المكتسبة بسؤالهم عن آرائهم، وحمل رئيس البلدية الكتاب إلى الحاكم فأبى تسلمه، وأسرع فجمع السبعة الذين اختارهم فأجابوه الأجوبة التي لقنهم إياها. وقالوا إنهم يختارون السربرسي كوكس حاكما للعراق. ولم يكتفوا بذلك، بل لطخوا الكتاب الذي حمله رئيس البلدية إلى الحاكم بالأوحال، وأرسلوا كتاب السبعة إلى دار البلدية، وأمروا رئيسها بأن يأتي بالناس منفردين اليه ويحملهم على توقيع كتاب السبعة فنفذ أمرهم ووقع عليه كثيرون، وأبى آخرون توقيعه. ولما شاع ذلك أصدر حجة الإسلام محمد تقي الشيرازي كبير مجتهدي الشيعة فتوى بعدم جواز انتخاب غير مسلم للحكم على المسلمين وهذا نصها:

«ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب أو يختار للإمارة أو السلطنة على المسلم غير مسلم»[1] .

وقصد الحاكم السياسى العام، النجف فى الأسبوع الأول من شهر ديسمبر سنة ١٩١٨ وعقد مجلسا كبيرا ضم لفيفا من العلماء والوجهاء والأعيان وأكثر رؤساء القبائل. فتكلم طالبا منهم أن يفصحوا عن آرائهم فى نظام الحكم الذى يختارنه لبلادهم فطلب السيد علوان الياسرى من زعماء القبائل إمهالهم ليتمكنوا من إمعان النظر فى هذا الأمر الخطير ويتفقوا على صيغة جواب يجيبون به.

واجتمع هؤلاء فى الغداة فى دار الشيخ جواد الجواهرى فتبودلت الآراء، وأقر الجميع فى الختام خطبة موجزة ألقاها الشيخ عبد الواحد آل الحاج سكر. وقال فيها:

«لسنا اليوم أيها السادة أكفاء للجمهورية، ولسنا فرنسا أو تركيا أو انكليزا فنختار أميرا فارسيا أو تركيا أو إنكليزيا. وإنما نحن عرب فيجب أن نختار أميرا عربيا وحيث ان البيت الشريفى فى مكة أكبر بيت فى العالم العربى فإننا نرغب أن تكون لنا حكومة عربية مستقلة يرأسها أحد أنجال جلالة الحسين».

وتكررت الاجتماعات فى النجف على الأثر، وأدت إلى وضع جواب مطول لا يخرج فى معناه عما ذكر، ولما أرسل إلى الحكومة رفضته، وأخرجت زعماء القبائل إلى بلادهم بحجج تافهة، ثم دعتهم إلى الكوفة وكلفتهم أن يجيبوا منفردين على الأسئلة الثلاثة فأجابوا طالبين انشاء حكومة عربية تحكم العراق بحدوده الطبيعية يرأسها أحد أنجال الحسين وأجاب النجفيون بعد ذلك بمثل هذا الجواب.

أما فى الكاظمية وهى من المراكز الكبرى فى العراق، وتأتى بعد النجف فقد عقد فيها اجتماع خطير يوم ٨ يناير سنة ١٩١٩ للإجابة على هذه الأسئلة أقر المجتمعون فى ختامه الجواب الآتى:

«بناء على الحرية التى منحتنا إياها الدول العظمى، وفى مقدمتها الدولتان الفخيمتان إنكلترا وفرنسا. وحيث إننا ممثلوا جمهور كبير من الأمة العربية العراقية المسلمة فإننا

١ ـ هذا نص السؤال الذى وجه اليه «مايقول شيخنا وملاذنا حضرة حجة الاسلام والمسلمين أيده الله فى العالمين الشيخ مرزا محمد تقي الحائرى الشيرازى متع الله المسلمين بطول بقائه فى تكليفنا معاشر المسلمين بعد أن منحتنا الدولة المفخمة البريطانية حق انتخاب أمير لنا نستظل بظله ونعيش تحت رايته ولوائه. فهل يجوز لنا انتخاب غير المسلم للأمارة والسلطنة علينا. أم يجب علينا اختيار المسلم بينوا تؤجروا.

نطلب للعراق حكومة عربية إسلامية يرأسها ملك عربى مسلم هو أحد أنجال جلالة الملك حسين. على أن يكون مقيدا بمجلس تشريعى وطنى والله ولى التوفيق».

وعهدت السلطة فى بغداد إلى القاضيين الإمامى والحنفى بأن ينتدب كل منهما خمسة وعشرين رجلا من أبناء طائفته للاشتراك فى اجتماع تعقده الحكومة لاستطلاع رأى أهالى بغداد. كما دعت عشرين من اليهود، وعشرة من المسيحيين. فعقد هذا الاجتماع يوم ٢٢ يناير، ووضع بأكثرية الآراء القرار الآتى:

«لما علم أن الغاية التى ترمى إليها كل من دولتى بريطانيا وفرنسا فى الشرق هى تحرير الشعوب وإنشاء حكومات وطنية وتأسيسها تأسيسا فعليا بكل من سورية والعراق حسب ما يختاره السكان الوطنيون. فإننا ممثلو الاسلام من الشيعة والسنة من سكان مدينة بغداد وضواحيها. بما أننا أمة عربية وإسلامية فقد اخترنا أن تكون بلاد العراق الممتدة من شمالى الموصل إلى خليج العجم دولة واحدة عربية يرأسها ملك عربى مسلم هو أحد أنجال سيدنا الشريف حسين. مقيدا بمجلس تشريعى وطنى مقره بغداد عاصمة العراق».

وقد ختم هذا الدور بالقبض على سبعة من الوطنيين الذين قاوموا خطط السلطة وتدابيرها. فأخرجوا من العراق، وأرسلوا إلى الآستانة منفيين بطريق الهند ومصر فكانوا طليعة المنفيين الذين كثر عددهم بعد ذلك. «بين هؤلاء الذين نفوا رجلاً كبيراً وفليسوفاً خطيراً هو شاعر شعراء العرب فى القرن العشرين «الزهاوى».

٥

الجمعيات السرية ومضابط التوكيل الوطنية

ولقد أراد الإنكليز بإقصاء هؤلاء القضاء على الروح الوطنية. وإخماد الحركة الجديدة وبث الرعب والإرهاب. فخاب أملهم. إذ سلكت الحركة سبيلا آخر، ودخلت دورا جديدا هو دور التنظيم. وقد ساهم فيه العراقيون الذين كانوا فى دمشق. فقد توفروا فى خلال هذه الفترة على العناية بقضية وطنهم الأصلى بعد ما ظهرت نيات الحلفاء، وبعد ما تبين أن الفرنسويين يسعون لاستصفاء الشام سعى الإنكليز لامتلاك العراق عملا بما بينهما من عهود مكتوبة، لم يبق مجال لانكارها أو تجاهلها.

أ ـ جمعية العهد

فقد بدأ هؤلاء فبعثوا جمعية العهد القديمة من مرقدها، بعد ما أضافوا إليها كلمة العراقى تمييزا لها عن العهد السورى، وقد جاء فى المادة الأولى من برنامجها الجديد ما نصه:

«إن غايات الجمعية الأساسية هى ما يأتى:

(أ) استقلال العراق استقلالا تاما ضمن الوحدة العربية، وداخل حدوده الطبيعية وهى: يقسم العراق إلى ثلاث مناطق الأدنى والأوسط والأعلى، ويمتد من حدود الفرات الواقعة شمالى دير الزور، وضفة دجلة الممتدة من قرب شمالى ديار بكر إلى خليج البصرة، ويشمل ضفتى دجلة والفرات من الشمال واليمين المحددة بالمواقع الطبيعية.

(ب) طلب المساعدة الفنية والاقتصادية من بريطانيا العظمى، على أن تكون هذه المساعدة بالثمن، وأن لا تمس استقلال العراق التام.

(ج) إنهاض الشعب العراقى ليبارى أرقى الأمم الغربية.

(د) السعى لخير الأمة العربية عامة.

واتصل مركز العهد فى دمشق بفروع العهد القديمة المؤسسة فى الموصل وبغداد والبصرة، وأخذ يرسل إليها منشوراته ورسائله السرية فتوزعها، ويصدر إليها التعليمات بما يجب عمله لتنمية الحركة الوطنية، ومقاومة الاحتلال. وهكذا تم الاتصال بين العراقيين فى الشام ووطنهم الأصلى. كما ساعد وصول بعض ضباط الثورة الذين سرحوا بعد

انتهاء الحرب على تعزيز الروح الاستقلالية، بما نشروه من دعايات، ورووه من روايات.
وكان من جملة أعمال هذه الجمعية المبرورة فى ذاك العهد أنها وضعت مضابط وقعها أعيان البلاد وزعماؤها، انتدبوا فيها الأمير فيصلا للدفاع عن قضية العراق وحقوقه، وكان يومئذ فى أوروبا يمثل العرب أمام مؤتمر الصلح، ويعمل لقضيتهم.

ولما زارت اللجنة الأميركية دمشق فى شهر يونيو سنة ١٩١٩ قابلها وفد جمعية العهد العراقية، وقدم إليها باسم العراق المطالب الآتية:

١ ـ استقلال العراق من ديار بكر إلى خليج فارس بحدوده الطبيعية المعروفة، مع قبول بعض التعديلات المتفق عليها بين الفرس والترك.

٢ ـ تأسيس حكومة دستورية مدنية ملكية فى العراق. ملكها الأمير عبد الله أو شقيقه الأمير زيد.

٣ ـ تحتج الجمعية احتجاجا شديدا على الفقرة الخاصة بالانتداب من المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم، وترفضها رفضا باتا، ولا تعترف لأى دولة كانت بحقوق أو تقاليد سياسية أو اقتصادية أو تاريخية فى البلاد العربية المنسلخة عن تركيا.

٤ ـ ترى الجمعية الاستعانة بأميركا فيما تحتاجه البلاد من المساعدات الفنية والاقتصادية على أن لا تمس المساعدة المذكورة استقلال البلاد السياسى التام.

٥ ـ رفض مهاجرة العناصر الأجنبية كالهنود واليهود إلى البلاد العربية.

٦ ـ تطلب الاستقلال التام لسورية كلها ورفع الحواجز السياسية بين سورية والعراق، تلك الحواجز التى تضر بوحدة العرب، وترفض ما تدعيه فرنسا فى سورية من الحقوق والتقاليد.

وهذا نص ما جاء فى تقرير لجنة كراين الأميركية عن العراق:

«استحالت على اللجنة زيارة العراق فى مثل هذا الظرف، بعد أن سئلت بالحاح القيام بهذه الزيارة. وتلقت فى دمشق وحلب شكايات عن السلطات الإنكليزية المحتلة بأنها تضيق على السكان حريتهم السياسية فى الخطابة والعمل، وأنها تنوى فتح باب المهاجرة للهنود بصورة تؤذى سكان العراق فى حقوقهم ومصالحهم.

وقدمت هيئة فى حلب بيانا وافيا إلى اللجنة يشبه برنامج المؤتمر السورى الدمشقى هذه خلاصته:

١- يجب أن يكون العراق مستقلا استقلالا تاما بما فيه ديار بكر ودير الزور والموصل وبغداد والمحمرة.

٢ ـ تكون الحكومة ملكية دستورية نيابية.

٣ ـ يكون الملك أحد أنجال الملك حسين فإما عبد الله وإما زيد.

٤ ـ الاحتجاج على المادة «٢٢» من عهد جمعية الأمم.

٥ ـ رفض تدخل أى دولة أجنبية فى البلاد.

٦ ـ طلب المساعدة الاقتصادية والإدارية من أميركا بعد نيل الاستقلال أو الاعتراف به.

٧ ـ الاعتراض على المهاجرة كلها. ولا سيما هجرة الهنود واليهود.

٨ ـ أن يكون لسورية الاستقلال التام.

٩ ـ أن لا تتدخل فرنسا فى سورية.

ومما يلاحظ أن هذه الشعوب القديمة تطلب اتباعا لتقاليدها حدودا واسعة. ليس فى الامكان الحصول عليها مثل دير الزور فى سورية وديار بكر فى أرمينية والمحمرة فى العجم.

وجاء بطريرك السريان الأرثوذكس «النساطرة» من دير زفران ـ الواقعة قرب ماردين ـ فقابل اللجنة فى حمص وقال إن (٩٠) ألفا من قومه قتلوا سنة ١٩١٥ ولما جاء الإنكليز سنة ١٩١٨ كانوا جميعا مستعدين للدخول فى حكمهم والخضوع لهم. ولكن وصول رسل الآستانة لاستثارة الأكراد ونهوض العرب للمطالبة باستقلالهم زاد الحالة سوءا. فلذلك يطلب ضم المقاطعة التى يقطنها شعبه إلى العراق تحت الوصاية الأميركية أو البريطانية.

هذا وقد وضع المستشارون الثلاثة فى اللجنة تقويما عاما عن البحث الذى قامت به، وراعت اللجنة فى التعليمات جميع الشؤون والاعتبارات المحلية والوطنية والجنسية والدينية. كما راعت السياسة العملية، ومبدأ حاجة العالم إلى السلام الدائم ـ اهـ.

ب ـ جمعية حرس الاستقلال

أنشئت هذه الجمعية فى بغداد فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٩ ومؤسسوها هم على البزركان، وجلال بابان، وشاكر محمود، والحاج محمود رامز، ومحيى الدين العسكرى،

والشيخ محمد باقر الشبيبى وجاء فى المادة الأولى من منهاجها.

«تأسست فى بغداد جمعية سرية سياسية باسم «حرس الاستقلال» وجاء فى المادة الثانية: تسعى الجمعية المذكورة وراء استقلال البلاد العراقية استقلالا مطلقا. وجاء فى الثالثة: «تعترف الجمعية بإسناد منصب الملكية فى هذه البلاد إلى أحد أنجال جلالة الملك حسين على أن يكون ملكا دستوريا ديمقراطيا» وجاء فى الرابعة «على الجمعية أن تتخذ أقصى ما يمكن من التدابير على طريقة التدريج لإحراز الغاية السياسية المذكورة فى المادة الثانية» وجاء فى الخامسة «يجب على الجمعية أن تفرغ قصارى جهدها فى سبيل ضم المملكة العراقية إلى لواء الوحدة العربية» وجاء فى السادسة «على الجمعية أن تتعاون وتتآزر بكل قواها مع الجمعيات والأحزاب التى تشترك معها. سواء فى مبدئها المقرر فى المادة الثانية، أو فى سياستها المنصوص عليها فى المادة الخامسة» وجاء فى السابعة «يجب على الجمعية أن تبدأ قبل كل شىء بتوحيد كلمة العراقيين على اختلاف مللهم ونحلهم، وأن تبذل أقصى ما يمكن من المجهودات للقضاء على كل بواعث الافتراق فى الدين والمذهب».

وظهر نزاع بين جمعية حرس الاستقلال وبين حزب العهد العراقى نشأ عن اختلاف فى المبادىء. وكانا يعملان فى الخفاء، لأن السلطة البريطانية ما كانت تسمح بإنشاء الأحزاب ولا بإصدار الصحف، ولا بعقد الاجتماعات فى ذلك العهد. فقد أنكر حراس الاستقلال على العهد الفقرة الخاصة بطلب مساعدة إنكلترا ونصها «طلب المساعدة الفنية والاقتصادية من بريطانيا العظمى. على أن تكون هذه المساعدة بالثمن، وأن لا تمس استقلال العراق التام» وطلبوا إلغاءها. لأنها لا تتفق مع مبادئهم، ولأن فى استطاعة العراق أن يطلب هذه المساعدة من أية دولة أراد.

وبلغ خبر هذا الخلاف مقر جمعية العهد فى دمشق. فانتدب جميل المدفعى وإبراهيم كمال من أعضائه فجاءا بغداد لحل الخلاف والتوفيق بين الجمعيتين، ووفقا إلى إنشاء هيئة إدارية مشتركة للجمعيتين تديرهما وتتولى شؤونهما. على أن يظل الشيخ سعيد النقشبندى معتمدا سياسيا فى بغداد لجمعية العهد العراقى، وعاد الخلاف بين أعضاء الهيئة الإدارية الجديدة بعد سفر المندوبين، فضعف شأنهما.

وأعيد بعد ذلك إنشاء جمعية حرس الاستقلال، وتألفت لجنتها الإدارية فى هذه المرحلة

من عارف حكمت وشاكر محمود وجلال بابان وعلى البزركان، واتخذت المدرسة الأهلية الجديدة، وقد أنشأت فى تلك الفترة، مقرا لها تعقد فيه اجتماعاتها السرية. واتسع نطاقها فى خلال هذه المرحلة. فأنشأت لها فروعا فى الكاظمية والنجف والحلة والشامية، وغيرها وتولى رئاستها السيد محمد الصدر.

جـ جمعية الشبيبة

وتألفت فى تلك الفترة أيضا جمعية سرية ثالثة قوامها عدد من الشبان للمساهمة فى العمل للاستقلال. لم يطل الأمر على قيامها حتى انضمت إلى جمعية حرس الاستقلال واندمجت فيها.

٦

الفــرات مهــد الثــورة

للفرات مقام خاص فى العراق. نشأ عن وضعه الجغرافى والقومى والدينى، وتشمل كلمة الفرات المنطقة الممتدة من حدود دير الزور حتى خليج البصرة. فجميع سكان ذلك السهل الفسيح الرحب - ولا يقلون عن مليونين - فراتيون لهم طابع خاص وآداب خاصة وتقاليد خاصة تميزهم عن بقية المناطق العراقية الاخرى. ولعل فى مقدمة هذه الميزات ائتمارهم بأوامر رؤسائهم، وانقيادهم إلى المجتهدين العلماء الاعلام - والفراتيون من الشيعة الإمامية فى الغالب، ويكثر السلاح فى بلادهم، فقل أن يخلو بيت فى الفرات من بندقيات تدربوا على استعمالها. كما ألفوا بذل الأرواح تلبية لأوامر رؤسائهم وشيوخهم. ولايزال معظمهم على الفطرة، ويعولون على العصبيتين الدينية والعنصرية.

ولم تكن العلاقات الودية بين الترك والفراتيين على ما يرام فى العهد العثمانى. لأن هؤلاء كانوا يسيئون الظن بهذا الفريق القوى من رعاياهم، ويعتقدون أنه يفضل الفرس عليهم، ولذلك كانوا يضطهدونه ويقصونه عن أبواب الحكومة، وعن الوظائف الحكومية مما أدى إلى جفاء فنفور استغله الإنكليز زمن الحرب العظمى لمصلحتهم. فوقاهم كثيرا من الويلات والخطوب.

وترك الإنكليز الفرات وشأنه فى ابتداء زحفهم. فلم يدنوا منه. ولم يسيروا إليه جندا، ولم يتدخلوا فى شؤونه، فأنشأ الفراتيون حكومة فى كربلاء، وأخرى فى الحلة والنجف على أثر انسحاب قوات الترك منها فى سنة ١٩١٥ - ١٩١٦[١] .

١- حدث فى الحلة حادثان خطيران الأول سنة ١٩١٥ وخلاصته كما كتب إلينا أحد الفضلاء المحققين هو أن الأهالى لستثقلوا كلف الجندية وغيرها فتمردوا على الحكومة التركية، وقد يجوز أنهم أساءوا اليها وإلى بعض موظفيها. فأرسلت قوة بقيادة القائمقام عاكف بك لإخضاعهم فقابلوها بالسلاح وقتلوا نحو مائة من رجالها فارتدت عنهم.

ورأت الحكومة التركية أن تتغاضى عنهم. لئلا تثير عليها مشكلة جديدة. وكانت فى حرب مع الإنكليز. ولما استراح بالها من جهة هؤلاء وانتصرت عليهم فى الكوت، وأسرت الجنرال تونسند رأت أن تصفى حسابها مع الحليين فسيرت حملة كبيرة فى يونيو سنة ١٩١٦ بقيادة عاكف بك نفسه. فلما عرفوا بقرب وصولها وبعدد قواها خافوا واضطربوا ونزح بعضهم إلى النجف وغيرها من مدن العراق مع عائلاتهم، ولذلك لم تجد القوة حين وصولها سوى عدد قليل. كما أنها لم تلق مقاومة فطلب قائدها إلى الباقين بأن يخرجوا منها فخرجوا، وبعد ساعات أمرهم بالرجوع على أن يبقوا ثلاثة أحياء وهى (جبران والكاف والجامعين) خالية من مجموع =

وأبقى الإنكليز للفراتيين حكومتهم حتى ختام الحرب العظمى، وكانت تحكم البلاد حكما شعبيا، على أنهم ما لبثوا بعد الهدنة أن مدوا شباكهم فى الفرات، فاتصلوا بالشيوخ والرؤساء، وأخذوا يوجهون إليهم الدعوات لزيارة العاصمة (بغداد) فيجزلون ويهدونهم الهدايا الثمينة، ويمنونهم الأمانى المعسولة، وتدرجوا من ذلك إلى العمل لبسط نفوذهم السياسى، وإدخال البلاد فى حظيرة الطاعة، وبدأوا فعينوا الكابتن مارشال حاكما للنجف بعد ما مهدوا لذلك مع الرؤساء. ولما قصد هذا مقر عمله رافقته المس بل السكرتير الشرقى لدار المندوب السامى فى بغداد وقدمته إلى العلماء، وأثنت كثيرا على أخلاقه ومزاياه. وقالت ان مهمته تنتهى عند النظر فى الشؤون العسكرية، وأنه سيتجنب التدخل فى الشؤون الإدارية، وستبقى على ما كانت عليه.

وجاءوا للحاكم مارشال بترجمان وسكرتير وحاشية تتألف من ٢٠ حارسا «شبانه» وفعلوا مثل ذلك فى الألوية الأخرى فعينوا الكابتن بلفور للحلة والكابتن رايلى للديوانية ثم تدرجوا فى التدخل فى الشؤون الإدارية واستخدموا بعض العناصر لتخدير الأعصاب واستمالة الجمهور متظاهرين بحسن النية، وكونهم لا يضمرون للعراق شرا.

ورأى العقلاء بعد ما تم للإنكليز بسط نفوذهم السياسى والإدارى على الفرات والقبض على مرافقه أنه لابد من القيام بعمل واسع النطاق لدفع الخطر - وكانت فكرة الحرية والاستقلال وإحياء المجد العربى قد تغلغلت فى أدمغة المفكرين من أبناء هذا الوادى الخصيب، فبدأوا بعقد الاجتماعات السرية فى المشخاب وأبى ضحير والديوانية عاملين على إزالة الحزازات القديمة من بين العشائر، وعلى توحيد الصفوف وجمع الكلمة، حتى

= الاحياء التسع، ثم وجه مدافعه نحو الأحياء الخالية فدمرها، وبعد ذلك دخل المدينة وأباحها لجنده. ثم دعا بعض رؤساء الأحياء فسجن منهم نحو ثلاثين، وأمر بصلبهم فصلبوا وبنهب دورهم فنهبت، وبأسر المتزوجين وسبى نسائهم فأسروا وسبيت نساؤهم، وتفنن فى تعذيب السكان وقتل من ضعفائهم عددا بلغ ١٠٩ مع الذين صلبوا ثم أمر بإحراق دور كل متمرد على الحكومة من الدور الواقعة فى الأحياء الثلاثة فأحرق من الحلة نحو ألف دار، وجند معظم أبنائها فأرسلوا إلى ساحات الحرب وبقى فى المدينة يتربص الفرص لضرب النجف، وبينما هو كذلك انتصر الإنكليز على العثمانيين فى دجلة فجاءت إشارة إلى القائد بإرسال معظم جنده إلى ساحة الوغى، ثم سحبت الحكومة بقية الجند لتستعين به فى حربها. وفى ليلة سقوط بغداد أبرقت إلى موظفى الحلة بوجوب إخلائها والسفر إلى المسيب، فأرسل المتصرف إلى بعض الرؤساء وأخبرهم بعزمه على الانسحاب وطلب اليهم أن يتولوا محافظة بلدهم بأنفسهم. ثم انسحبت الحكومة فى اليوم الثانى وبدأ الاهلون المتشردون يعودون إلى بلدهم بالتدريج، فلما عادوا إليها نهبوا دور الحكومة ومخازن أطعمتها واسترجعوا بعض منهوباتهم منها، وبقيت الحلة يتولى أمرها سكانها.

ولا يختلف عصيان كربلاء فى أسبابه عن عصيان الحلة. فقد كانت قوة الحكومة ضعيفة، وروح الشغب والتمرد ظاهرة فى الاهلين بسبب هذا الضعف. حتى أن الكربلائيين حملوا على دور بعض الموظفين فنهبوها فاستعانت السلطة بقوى جديدة، فلم يكتب النصر لأحد الطرفين – على الرغم من تسليط الحكومة مدافعها على المدينة وضربها، ثم تصالح الفريقان.

إذا جاء يوم العمل برز الكل كتلة واحدة. وكان النجفيون روح الحركة، وكانوا يشتركون فى كل اجتماع يعقد ويديرونه.

رفض التعاون مع السلطة

ولم يطل بالحاكم السياسى للنجف المقام حتى بدأ فعين مجلس إدارة للواء الشامية برئاسته اختار لعضويته السيد نور الياسرى والسيد علوان الياسرى والحاج عبد المحسن شلاش والسيد هادى زوين والسيد عباس الكليدار والسيد هادى نقيب الأشراف والشيخ عبد الواحد الحاج سكر والسيد محسن أبا طبيخ والشيخ علوان الحاج سعدون والشيخ سليمان الظاهر ومحمد العبطان وعبادى آل حسين والحاج عبد الرحيم. ولما تناول هؤلاء كتب التعيين استغربوا هذا التصرف من الحاكم. فاجتمعوا وتداولوا مليا وقرروا بعد استشارة العلماء عدم التعاون مع السلطة، ورفض قبول العضوية وأرسلوا كتابا إلى الحاكم قالوا فيه «إن هذا التعيين لا ينطبق على المبادىء الصحيحة للحكم الوطنى. فيجب أن يفسح المجال للشعب فى مجالس كهذه لعقد اجتماعات عامة، وبحرية تامة يقرر فيها ما يجب اتخاذه فى قضية الحكم الوطنى».

أول هيئـة وطنيـة

وعقد على أثر الرفض اجتماع كبير فى النجف حضره العلماء والزعماء وانتخبوا الشيخ جواد الجواهرى والشيخ عبد الكريم الجزائرى والشيخ عبد الرضا والشيخ راضى والسيد نور الياسرى والحاج عبد المحسن شلاش والسيد عبد المحسن الياسرى للمداولة مع السلطة ومطالبتها بتحقيق رغبة الشعب فى إنشاء حكم وطنى، واختاروا الشيخ محمد باقر الشبيبى سكرتيرا لهذه اللجنة.

اغتيال الحاكم مارشال

وتصرف الكابتن مارشال تصرفات شاذة آلمت النجفيين، ولمست موضع الكرامة من نفوسهم فكان يجبر الناس على الوقوف له على الأقدام حين مروره، وكان يعاقب كل من لا يقف. إلى غير ذلك من التصرفات المؤلمة، فاجتمع عدد من الشبان وقرروا اغتياله وإنقاذ البلاد منه. وقد نفذوا قرارهم فعلا. فذهب بعضهم بعد ما تزيوا بزى الحراس (شبانه) إلى دار الحاكم، ودخلوا عليه موهمين حراسه انهم يحملون كتابا رسميا له، وأطلقوا عليه

الرصاص، وقتلوه وسلبوا الحراس أسلحتهم.

وجاء على الأثر الكابتن بلفور حاكم الكوفة على رأس قوة كبيرة، وضرب نطاقا حول النجف، وأعلن حصارها، وأنه لا يسمح لأحد بالدخول اليها والخروج منها ما لم يسلم اليه سكانها القتلة، وعددهم أحد عشر وهم: كاظم صبى وعباس على وكريم حاج سعد وأخواه احمد وراضى وحاج نجم البقال ومحسن أبو غنيم وعباس الخليلى وثلاثة آخرون.

وبعد حصار استمر ٤٥ يوما ذاق النجفيون فى خلاله الأمرين سلموا عشرة من المطلوبين فشنقوا من دون محاكمة، واستطاع عباس الخليلى النجاة فقصد طهران.

وقبض بسبب هذه الحادثة على ٧٠ من أعيان النجف وعلمائها وألقوا فى غياهب السجن. نذكر منهم الشيخ محمد جواد الجزائرى والسيد محمد على بحر العلوم والسيد إبراهيم البهبهانى وغيرهم، ولم يطلق سراحهم إلا بعد مدة، ودمرت السلطة فى الكوفة والنجف دور كل من السيد عبد المحسن أبو طبيخ والسيد نور الياسرى ومرزوق العواد وعبد الواحد الحاج سكر وعبد المحسن شلاش وكاظم الحاج سكر.

الفراتيون يوكلون الحسين

ووضع الفراتيون ثلاث مضابط يطلبون فيها ملكا للعراق من أبناء الحسين وأرسلوها إلى الحسين وهذا نصها:

الى ملك العرب الحسين بن على

السلام عليك ورحمة الله، أما بعد فإن الحلفاء فى الحرب العظمى، أذاعوا على سكان العراق فى هذه الأيام منشورا عاما فحواه انهم لم يحاربوا إلا لتحرير الشعوب، وأن يكون لكل شعب من الشعوب حق تقرير مصيره بنفسه وإدارة شؤونه من قبله، ولم يكن لهم نية الفتح والاستعمار، وبناء على هذا طاف الحاكم الملكى فى العراق، واجتمع بكافة الزعماء والرؤساء والعلماء طالبا إليهم أن يبدوا رأيهم فى النقاط التالية:

١ ـ فى حدود المملكة العراقية، وما إذا كانت الموصل جزءاً من العراق أم لا؟.

٢ ـ فى الحكومة التى يرغبون فيها، أو الأمير الذى يملكونه فى البلاد؟.

وبعد المداولات والمذاكرات أبلغوا الحاكم السياسى البريطانى العام فى العراق بأن الموصل جزء لا يتجزأ من العراق، وطلبوا إليه تأسيس حكومة عربية دستورية. على أن يكون أحد أنجال جلالتكم ملكا على العراق، كما يبلغكم تفصيله المندوب من قبل عموم

العراقيين الشيخ محمد رضا الشبيبي.

ووقع على الأولى علماء الدين فى العراق، وعلى الثانية زعماء القبائل ورؤساء العشائر العراقية، وعلى الثالثة الشبان.

وحمل هذه المضابط إلى مكة الشيخ محمد رضا الشبيبي. وقد اتصل بالإنكليز أمره قبل سفره فحاولوا القبض عليه وانتزاع المضابط، وكان يضعها فى داخل جلد مصحف ويطوف بها على الناس لتوقيعها، فقصد الزبير واختفى فيها أياما ثم صحب قافلة للبدو إلى نجد، معلنا أنه ذاهب إلى الحجاز لقضاء فريضة الحج، ولم يطمئن إلا بعد وصوله إلى حائل فنزل ضيفا على أميرها فأكرمه، وسهل له السفر إلى المدينة المنورة من دون أن يعرف شيئا عن مهمته، وقوبل بالحفاوة الزائدة حين وصوله إلى طيبة، وبالغ الأشراف والعلماء والضباط العراقيون في إكرامه. ثم سافر إلى مكة، واجتمع فى وادى فاطمة بالأميرين على وعبد الله فرحبا به، ولم يطلعهما على تفاصيل مهمته، بل أبقى كل شىء مكتوما حتى قابل الحسين فسلمه المضابط، وبسط على مسامعه ما يعرفه فأكبر ما سمع وسر كثيرا، وقال سأكون عند حسن ظن العراقيين إن شاء الله. وبعد ما أدى فريضة الحج ذهب إلى دمشق وكانت مركز الحركة فى تلك الأيام، واتصل بالأمير فيصل ورجال العراق النازلين فيها. فقابلوه بالحفاوة فانضم إليهم وعمل معهم لخدمة العراق. ثم عاد وإياهم إلى بلاده بعد يوم ميسلون.

وأرسل الحسين المضابط إلى الأمير فيصل فى باريس.

٧
العصابات فى ديـر الزور والموصل

كان احتلال رمضان شلاش ورجاله لدير الزور يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩١٩ باسم الحكومة الفيصلية فى الشام، وبمساعدة الضباط العراقيين فى الجيش العربى من جملة العوامل التى ساعدت على نمو الحركة الوطنية فى العراق. كما كان من جملة الأسباب التى عجلت فى إعلان ثورته، فقد اتخذتها جمعية العهد مقرا لأعمالها، ومركزا لنشر دعايتها لوقوعها على الحدود فكانت ترسل النشرات والصحف والتقارير فتذاع فى المدن العراقية وتنشر بين طبقات الشعب.

ولما استقر قرار هذه الجمعية على إضرام الثورة فى العراق أوعزت إلى بعض الضباط العراقيين فى الجيش بأن يستقيلوا ويقصدوا دير الزور للاشتراك فى تأليف العصابات التى تقرر تأليفها لمنازلة الإنكليز وبث الفوضى والإرهاب. فيحملهم ذلك على تغيير سياستهم. فرحل كثيرون. وقصد الدير يومئذ ثلاثة من أقطاب جمعية العهد فى سورية وهم: جميل المدفعى وعلى جودت الأيوبى وتحسين على لإزالة ما حدث بين مولود مخلص حاكم الدير العسكرى ورمضان شلاش من خلاف. ولإنشاء مركز قوى للثورة وتنظيم العصابات. فقاموا بهذه المهمة وهاجمت أول عصابة عراقية سكة الحديد بين سامراء وشرقاط فى أواخر شهر مارس سنة ١٩٢٠.

عصابة جميل المدفعى

وألف جميل المدفعى عصابة قوية فى الفدعم على الخابور، قادها بنفسه، وزحف بها لمنازلة الإنكليز فمر بالقبائل العربية النازلة فى نصيبين داخل الحدود التركية فاستنفرها فنفرت، وانضمت اليه، ومعظمها من قبيلة شمر، وأيدته قبائل الزيدية فى جبل سنجار وقدمت له الطاعة، ولما وصلت إلى تلعفر أرسل كتابا إلى موظفيها وضباطها قال فيه:

«لامناص لكم من الانضمام إلى القوة الزاحفة بعددها الكثيرة وعددها الوافر، وأنتم بين أمرين فإما أن تشتركوا معها فى الحرب، وإما أن تقدموا لها الميرة والمؤن، ويجب

عليكم أيضا أن تعتقلوا الموظفين البريطانيين ليكونوا رهينة بيدنا فلا يفرج عنهم حتى يفرج الإنكليز عن ياسين باشا الهاشمى المعتقل فى فلسطين».

وقبضت العصابة يوم ٤ يونيو على الميجور باولو معاون الحاكم السياسى لتلعفر بينما كان يتجول فى ضاحيتها فرأى سيارتين فركض نحوهما فأطلقت عليه الرصاص فقتل كما قتل ضابط عراقى الكابتن استورات قائد الدرك، وتحصن الموظفون البريطانيون فى تلعفر بدار الحكومة مع الجند، وأطلقوا نيران بنادقهم ورشاشاتهم على الثوار، وعرض عليهم هؤلاء التسليم مرارا فأبوا فنسفوا دار الحكومة بالديناميت فقتل كل من كان فيها. ووصلت سيارتان مدرعتان وسيارات نقل فالتقى بها الثوار عند مدخل المدينة وحطموها وقتلوا من فيها.

وأرسل المدفعى قوة من رجاله فى الغداة لمهاجمة القوافل العسكرية بين الموصل والشرقاط، وكانت هنالك عصابات أخرى تعمل فى ذلك الجانب، جاءت من دير الزور لمهاجمة السكة الحديد وتعطيلها، وعرقلة النقليات الإنكليزية، وقامت بما يترتب عليها. وفى يوم ٦ منه غادرت العصابة تلعفر إلى الموصل فداهمتها فى الطريق قوة إنكليزية جهزها قائد الموصل وأرسلها على الفور فصمد لها الثوار. وقسم الإنكليز قواتهم إلى قسمين تفرغ قسم منهم للثوار واتجه القسم الآخر إلى تلعفر لاحتلالها وقطع خط مواصلات هؤلاء فلم يخف ذلك على قائدهم فشرع بالانسحاب وسبق الإنكليز إلى تلعفر فوجدها خالية وقد نزح عنها سكانها، فاتجه إلى الخابور وعاد إلى دير الزور.

٨

إعـــلان استقلال الــعراق

وقرار المؤتمر العراقى العام

وبينما كانت العصابات العراقية تعمل فى الشمال وتنازل الإنكليز، وتهاجم معاقلهم كان رجال السياسة فى دمشق يدرسون مشروعا جديدا يرمى إلى جعل أوروبا أمام حالة راهنة ويقوم على إعلان استقلال سورية والعراق فى وقت واحد، فينادى بالامير فيصل ملكا على الشام، وبالامير عبد الله ملكا على العراق.

ولما اختمرت هذه الفكرة، وتم الاتفاق مقدما على تنفيذها أرسل توفيق السويدى بصفته رئيسا للمؤتمر العراقـى [١] فى دمشق كتابا إلى رئيس المؤتمر السورى يوم ٤ مارس سنة ١٩٢٠ ونصه:

« إلى حضرة رئيس المؤتمر السورى الأكرم

«لما كانت الثورة العربية لا ترمى إلى تحرير قطر دون سواه من الأقطار العربية، ولما كان العراقيون عضوا عاملا فيها فقد قاموا بما يحب عليهم من الخدمة للقضية العربية فى الحرب الماضية حتى وصلوا مع إخوانهم السوريين إلى سورية، التى تربطها بقطرهم العراقى روابط اقتصادية وجنسية وسياسية، وبما ان المؤتمر السورى لم يهمل مقررات المؤتمر العراقى

١ـ تألف المؤتمر العراقى من الأعضاء الآتية أسماؤهم مع حفظ الالقاب:
مندوبو مقاطعة بغداد وجنوبى العراق ـ جعفر العسكرى وسعيد الشيخلى وتحسين على واسماعيل نامق وسامى الأورفلى وفرج عمارة وناجى السويدى وتوفيق السويدى ويونس وهبى وحامد صدر الدين وأحمد رفيق ونورى قاضى ورشيد الهاشمى وصبيح محمد ورضا الشبيبى ومحمد أديب وعزت الكرخى وعبد اللطيف الفلاحى وتوفيق الهاشمى ومحمد البسام.
مندوبو الموصل وشمالى العراق: جميل المدفعى وعلى جودت وعبد الله الدليمى ومكى الشربتلى وإبراهيم توحلة وثابت عبد النور وأسعد الصاحب

المرتبطة بسورية فى قراراته السابقة، لذلك قرر المؤتمر العراقى المنعقد فى دمشق فى جلسة ٤ مارس سنة ١٩٢٠ أن يرجو من المؤتمر السورى الاشتراك معه فى تقرير مصير البلاد المحررة وفقا لرغائب الأمة وبيانات الحلفاء ومبادىء الرئيس ولسن فلى الشرف أن أبلغكم الكيفية»

رئيس المؤتمر العراقى

توفيق السويدى

واختار المؤتمر خمسة من أعضائه للاتصال بحزب الاستقلال العربى فى دمشق، لتحديد علاقات المؤتمرين «المؤتمر العراقى والمؤتمر السورى» وتقرير الأسس التى تبنى عليها قرارتهما، وهذا نص قرار المؤتمر العراقى. وقد تلاه فى حفلة البيعة بدار بلدية دمشق يوم ٨ مارس رئيسه بالذات:

قرر المؤتمر العربى العراقى العام الذى يمثل الشعب العراقى تمثيلا قانونيا فى جلسته المنعقدة فى دمشق الشام [1] يوم ٨ مارس سنة ١٩٢٠ و١٨ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ اعلان القرار الآتى:

باسم الشعب العربى العراقى

خاضت الأمة العربية غمار الحرب الماضية فى جانب الحلفاء لرفع نير الأجانب عن عاتقها واسترجاع سالف مجدها، واستئناف مهمتها الطبيعية فى تمدين الشرق، وتحقيق آمالها القومية بالوحدة والاستقلال التام أسوة بغيرها من الشعوب التى نالت استقلالها، وهى دونها حضارة ورقيا. وكان الحلفاء الكرام قد قطعوا لها العهود على الأخذ بنصرتها فى هذا السبيل، وأعلنوا بلسان رؤساء حكوماتهم ومجالس نوابهم أن لا غاية لهم من الحرب إلا استقلال الشعوب وترك الخيار لها فى بت مصيرها، وتعيين شكل حكومتها. فأبرمت بريطانيا العظمى مع جلالة الملك حسين تلك المعاهدة المعروفة التى اعترفت فيها باستقلال العرب من جبال طوروس وشمالى ولاية الموصل إلى خليج فارس والأوقيانوس الهندى والبحر الأحمر، وأيد الرئيس ولسن ذلك بما أعلنه من المبادىء السامية، التى وافق عليها الحلفاء قاطبة، واتخذوها أساسا للصلح الدائم كما جاء فى بيان اللورد غراى وزير خارجية إنكلترا أمام لجنة الأمور الخارجية فى ٢٣ اكتوبر سنة ١٩١٦ وتصريح المسيو بريان رئيس الوزارة الفرنسوية

١ـ عقد المؤتمر فى منزل نورى السعيد فى حى الشهداء بدمشق

فى ٣ نوفمبر سنة ١٩١٦ وردود الحلفاء على مذكرة الدول الوسطى التى أرسلت على يد السفير الأميركى فى باريس وجوابهم على مذكرة الرئيس ولسن فى ٢٢ مايو سنة ١٩١٧ وبيان مجلس النواب االفرنسوى فى ٥ يونيو سنة ١٩١٧ وبيان مجلس الشيوخ فى ٦ منه وتصريح المستر لويد جورج فى غلاسكو يوم ٩ يونيو سنة ١٩١٧ وما شاكل ذلك من البيانات القائلة بتحرير الشعوب الكبيرة والصغيرة واستقلالها، وترك الخيار لها فى بت مصيرها، وإلغاء المعاهدات السرية المجحفة بحقوقها.

وقد كان لجلالة الملك حسين الأول وأنجاله أصحاب السمو الأمراء العظام الفضل الأكبر فى تحرير الأمة العربية وإنقاذها من نير العبودية والذل، وإحراز النصر المشترك على الأعداء فى الشرق فأبلوا فى الحرب أحسن بلاء، وقادوا الأمة من نصر إلى نصر ثلاث سنوات متواصلة أراقوا فيها دماء زهرة أبناء العراق وسورية والحجاز، وكانوا موضع إعجاب الحلفاء والأعداء على السواء، وذلك فضلا عما تحملته الأمة فى الاقطار العربية المختلفة من المصائب والأهوال، وما قامت به من جليل الأعمال تأييدا لقضيتها الحقة، وإنتصارا لجلالة الملك وحلفائه الكرام.

وقد أسفر هذا الجهد المشترك المتواصل عن اندحار الأعداء وجلائهم عن العراق ودخول الجيوش البريطانية إليه بصفة حلفاء ومحررين. فأعلنوا حينئذ أنه لا مطمع لهم فى البلاد، ولا غاية إلا استقلال الأمة وترك الخيار لها فى بت مصيرها وتقرير شكل حكومتها.

على أن الحرب العظمى قد وضعت أوزارها منذ نحو عام ونصف، والبلاد لاتزال تئن تحت رزء الاحتلال الأجنبى. الذى ألحق بها أضرارا جسيمة مادية وأدبية، وأوقف سير أعمالها ومصالحها الاقتصادية والإدارية بشكل كاد يزلزل موقفها السياسى. فعيل صبر الشعب من هذه الحال، وانتقض فى أماكن مختلفة على الحكم العسكرى الأجنبى مطالبا باستقلاله التام.

فنحن أعضاء هذا المؤتمر الذى يمثل الشعب العربى العراقى تمثيلا قانونيا صحيحا رأينا الآن أن نجهر بإرادته ونخرج البلاد من هذا الموقف الحرج والحال المبهم المضطرب، واستنادا إلى حق الأمة الطبيعى فى الحياة الحرة والاستقلال التام، والى المبادىء السامية التى أعلنها الحلفاء العظام أكثر من سبعين مرة خلال الحرب الماضية، وإلى الرغائب التى اعربت عنها الأمة العربية العراقية فى ٦ ربيع الثانى سنة ١٣٣٧ بوثائق رسمية وقعها الأمراء والرؤساء

والزعماء والمفكرون وسائر طبقات الشعب، وإلى ما شاهدناه ونشاهده كل يوم من عزم العرب العراقيين على نيل استقلالهم التام، والتوسل بكل الوسائل الممكنة التى تؤدى إليه. وبصفتنا ممثلى الشعب المكلفين بالإعراب عن إرادته أعلنا الآن بإجماع الآراء استقلال البلاد العراقية المسلوخة عن تركيا بحدودها المعروفة من شمالى ولاية الموصل إلى خليج فارس، استقلالا تاما لا شائبة فيه، وأيدنا استقلال سورية التام، وأعلنا اتحاد العراق بها اتحادا سياسيا واقتصاديا، ونادينا بحضرة صاحب السمو الملكى الأمير عبد الله ملكا دستوريا بلقب صاحب الجلالة ملك العراق، وعهدنا فى نيابة الملك إلى صاحب السمو الأمير زيد المعظم، وأعلنا انتهاء حكم الاحتلال العسكرى الحاضر على أن تقوم مقامه حكومة وطنية مسؤولة أمام الشعب.

وإننا باسم الأمة العربية العراقية التى أنابتنا عنها وعهدت إلينا تقرير مصيرها نعلن محافظتنا على صداقة الحلفاء الكرام، وعزمنا على احترام مصالحهم ومصالح جميع الدول الأجنبية فى بلادنا. راجين منهم أن يعترفوا بهذا الاستقلال ويجلوا عن بلادنا العراقية ليحل محلهم فيها الجند الوطنى، والإدارة الوطنية فتتمكن دولتنا حينئذ من أن تكون عاملا من عوامل الرقى فى العالم المتمدن.

هذا وإن الحكومة العراقية التى تتشكل عاجلا مكلفة بتنفيذ قرارنا هذا.

تحريرا فى ٨ مارس سنة ١٩٢٠ و١٨ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨

وقد وقع قرار المؤتمرين وقعا حسنا فى العراق يؤيد ذلك الكتاب الذى أرسله رئيس المؤتمر العراقى يوم ٦ يونيو سنة ١٩٢٠ إلى رئيس المؤتمر السورى ونصه:

كتب إلينا أخيرا فريق من رؤساء قبائل العراق الكبيرة، وطائفة من العلماء والمفكرين فى تلك البلاد يطلبون منا النيابة عنهم فى الإعراب لكم عن ارتياحهم العظيم إلى ما قرره المؤتمر السورى وأعلنه من استقلال سورية، والمناداة بصاحب الجلالة فيصل بن الحسين ملكا عليها، وعن مشاركتهم للأمة السورية فى الأفراح التى نشأت عن ذلك. وهم يشكرون المؤتمر بنوع خاص على ما درجه ضمن بيانه الخطير من الاهتمام بمصير العراق وتأييده قضيته. مما كان له وقع كبير جدا فى نفوس سكان العراق. وقد جاء فى أحد كتبهم ما نصه:

«الآن وقد قرأنا كتابكم المؤرخ فى ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٨ وهو الكتاب الذى كان لمضمونه دوى هائل فى أنحاء القطر العراقى لا يسعنا أن نصف لكم مبلغ الفرح الذى عم هذه

الربوع بعد أن اطلعت الأمة على موقف سورية. ذلك الموقف الخطير الذى قوى عزائم بنى قومكم، وليتكم تشهدون المشاهد التى تمتعت بها الأماكن المقدسة على أثر ما جرى عندكم من قرار المؤتمرين السورى والعراقى. فإنها وايم الحق من أعظم المشاهد وأكبرها. فقد سرت روح النشاط فى مناطق العراق كلها. فها هى هائجة مائجة تتمخض بمولود شرف ومجد، وسيكون قرة عيون العرب فى جزيرتها. فبشراكم نهوض بنى قومكم ووحدتهم، ورجاؤنا أن تعربوا للمؤتمر السورى والأمة السورية النجيبة عن مشاركتنا لها فى أفراحها بنيل استقلالها وشكرها على تأييد قضيتنا»

هذا ما جاء فى بعض رسائل إخواننا زعماء الأمة العراقية، وذوى الشأن فيها، وممن نعتقد أن لهم القول الفصل فى القضية العراقية. فنحن نيابة عن هؤلاء الأبطال نرفع إلى المؤتمر الموقر أخلص التهانى وأجزل الشكر - أهـ

٩

الانتداب للعراق

الاتفاق بين بغداد والفرات على إعلان الثورة

وبينما كان العراقيون ينتظرون حلا شريفا لقضيتهم فوجئوا يوم ٢٥ إبريل سنة ١٩٢٠ بإعلان قرار مؤتمر سان ريمو. وهو يقضى بانتداب بريطانيا لقطرهم، وزاد فى استيائهم البلاغ الرسمى المنشور فى بغداد يوم ٣ مايو سنة ١٩٢٠ وبه تعلن إنكلترا قبولها لقرار مؤتمر الحلفاء فى سان ريمو «بوضع العراق تحت انتدابها لتدريبه على أساليب الحكم الذاتى».

ورأى العراقيون بعد هذا القرار أنه لامناص لهم من النضال لاسترداد حقوقهم. فأوفد الفراتيون الحاج عبد المحسن شلاش والسيد هادى زوين إلى بغداد للاتصال برجالها والاتفاق معهم على خطة نهائية للعمل يشترك الكل فى تنفيذها . فاتصل القادمان برجال جمعية الحرس وتم الاتفاق على عقد اجتماع كبير فى منزل حمدى باشا البابان. فعقد يوم ٣ شعبان سنة ١٣٣٨ وحضره من أعيان البغداديين السيد محمد الصدر ويوسف السويدى والشيخ أحمد الشيخ داود وجعفر جلبى أبو التمن ورفعت الجادرجى وفؤاد الدفترى والشيخ عبد الوهاب النائب والشيخ سعيد النقشبندى والسيد محمد المصطفى الخليل. فبسط السيد هادى زوين باسم الفرات الحالة فى بلادهم وذكر استعدادهم للعمل. وطلب إلى البغداديين تحديد موقفهم فقال جعفر جلبى أبو التمن: إن قادة بغداد مستعدون للعمل على أن يكون بنسبة ما يبديه العلماء ورؤساء القبائل، وأعلن أنه سيسافر قريبا إلى كربلاء ليدرس الحالة بنفسه فقال الحاضرون إنهم يضعون ثقتهم فيه، وينيبونه عنهم. فيكون ممثلهم لدى العلماء وأهل الفرات. وقد غادر بغداد يوم ١٣ شعبان إلى كربلاء.

وعقد بعد منتصف ليلة نصف شعبان اجتماع سرى بكربلاء فى منزل الإمام محمد تقى الشيرازى كبير علماء الشيعة فى العراق حضره جعفر جلبى مندوب بغداد ومندوبو النجف وقبائل الشامية. فدرسوا الموقف، واتفقوا فى النهاية على إعلان الثورة، وأقسموا الأيمان بالقرآن العظيم أنهم لا يتأخرون عن تلبية نداء دينهم ووطنهم، وأنهم يجازفون بكل مرتخص

وغال فى سبيل إنقاذ وطنهم تحت طاعة إمامهم الميرزا محمد تقى الشيرازى. الذى يقودهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

وبعد الاتفاق على هذا القرار الخطير تفرق المجتمعون عند الفجر، وعاد أبو التمن إلى بغداد لإطلاع إخوانه على ما جرى. وقد كان محل ثقة الفراتيين واعتمادهم، وكانوا يعولون على رأيه ويثقون بإخلاصه وإيمانه ووطنيته.

وفى مساء ٢٠ شعبان عقد اجتماع فى منزل حمدى باشا فى بغداد لسماع أقوال أبى التمن العائد من الفرات. فقص على زملائه ما شهده فى اجتماع كربلاء، وأبلغهم ما تم الاتفاق عليه. فقر قرارهم على المباشرة بنشر الدعوة لإنشاء حكومة وطنية فى العراق.

واغتنمت اللجنة التنفيذية لجمعية الحرس فرصة حلول شهر رمضان، فقررت أن تقيم مساء كل خميس حفلة فى مسجد لنشر الدعوة للحركة الوطنية.

وأقاموا الحفلة الأولى فى آخر ليلة جمعة من شعبان، فكان الإقبال عليها قليلا فى أول الأمر. لأن الناس لم ينبهوا إلى الغاية منها، على أن الأمر تبدل فى الحفلة الثانية فكثر الإقبال والازدحام، وشعرت السلطة البريطانية بما هنالك. فعمدت إلى الحيلة فدعت الآنسة بيل بعض الشبان المتحمسين لشرب الشاى فى منزلها ليلة الجمعة (أى ليلة إقامة الحفلة) لمنعهم من الاشتراك فيها، وأبلغتهم أنها تود أن يزوروها مساء كل خميس لشرب الشاى معها. ففطنوا إلى غايتها، ولم يعودوا إلى تلبية دعوتها.

وأقيمت الحفلة الثانية فى حى الميدان (من أحياء بغداد) وكانت فى كل مرة توجه باسم الحى الذى تقام فيه، وكانت تتعدد فى الاسبوع الواحد أحيانا، وكان الزعماء يحضرونها فيقابلون بالهتاف، وكانت خطب الخطباء تدور حول مطالبة الحلفاء بإنصاف العرب ورد حقوقهم إليهم.

مندوبو بغداد وطلباتهم

قبضت السلطة العسكرية البريطانية على الشاب عيسى افندى الموظف فى الأوقاف. لأنه ألقى قصيدة حماسية فى أحد هذه الاجتماعات، ونفته إلى البصرة فأضربت بغداد احتجاجا وقررت لجنة الحرس إقامة مظاهرة سياسية كبيرة. وخطب على البزركان أحد رجالها فى

اجتماع عقد فى جامع الحيدرخانة. طالبا من الشعب انتخاب ١٥ مندوبا من بغداد والكاظمية لمفاوضة الحكومة فى المسائل السياسية الجوهرية، وفى مقدمتها إلغاء الإدارة العسكرية وإنشاء حكومة وطنية، فانتخبوا على الفور وهم: السيد أبو القاسم والشيخ أحمد الشيخ داود والشيخ أحمد الظاهر وجعفر جلبى أبو التمن ورفعت الجادرجي والشيخ سعيد النقشبندى وعبد الرحمن باشا الحيدرى وعبد الوهاب النائب وعلى البزركان والسيد عبد الكريم السيد حيدر وفؤاد الدفترى والسيد محمد الصدر والسيد محمد مصطفى الخليل ويوسف السويدى والحاج ياسين جلبى الخضيرى. وما كاد الجمهور يفرغ من انتخابهم حتى ظهرت سيارتان مدرعتان فى الشارع وأطلقتا النار فأصيب أخرس ومات. فاحتفل الشعب احتفالا عظيما بتشييع جنازته وسماه فقيد الوطن، وأرسل حاكم بغداد السياسى والعسكرى على أثر هذا الحادث فدعا أبا التمن والشيخ أحمد الشيخ داود والشيخ مهدى البصير وعلى البزركان إلى مقابلته فقابلوه يوم ٨ رمضان. فقال لهم إنه مسؤول أمام حكومته عن المحافظة على النظام فى داخل مدينة بغداد وإنه وإن كان يعدهم مسؤولين عما حدث فى الليلة الماضية من مشاغبات واضطرابات. إلا أنه لا يود أن يناقشهم الحساب، وإنما يرجوهم أن يكفوا عن خطتهم، وعن العبث بالأمن. فقالوا له إن عدم إنجاز بريطانيا لوعودها هو السبب فى نقمة الشعب، وإن إنشاء حكومة وطنية هو السبيل الوحيد لتهدئة الأفكار.

كتاب المندوبين إلى الحاكم ورده

وأرسل المندوبون الخمسة عشر فى الغداة (٩ رمضان) كتابا إلى الحاكم الملكى العام يطلبون تحديد وقت للاجتماع والبحث. فضرب يوم ١٤ منه موعدا لهم وأرسل فدعا ٢٠ عينا بغداديا للاشتراك فى المباحثات التى ستدور بينه وبين المندوبين. وهذه أسماء العشرين: السيد محمود الكيلانى والسيد داود الكيلانى وعبد المجيد الشاوى وعبد القادر الخضيرى ومحمد حسن جلبى الجواهرى والشيخ شكر قاضى الجعفرية وصالح الحلى والحاج على الألوسى وعبد الجبار خياط وخسرو قومجيان . وساسون حسقيل وعزره مناحيم دانيال ويهودا زلوف ومحمود جلبى الشابندر ومحمود جلبى الاطرقجى والسيد جعفر عطيفة وجميل صدقى الزهاوى وعبد الكريم آل جلبى ومحمود جلبى الاسترابادى والحاج عبد الحسين آل جلبى.

ولم تخف الغاية من دعوة هؤلاء على مندوبى الشعب. فدعوهم مقدما إلى اجتماع عقدوه

فى منزل رفعت الجادرجى للاتفاق على توحيد الخطة واتفقوا جميعا على مطالبة الحكومة بما يأتى:

١ ـ انشاء مجلس تأسيسى (جمعية وطنية) تضع الدستور وتقرر شكل الحكم.

٢ ـ إطلاق حرية الصحافة.

٣ ـ رفع الحواجز الموضوعة فى طريق البرق والبريد بين العراق والبلاد المجاورة

وأقفلت بغداد يوم الاجتماع، واحتشدت الجماهير حول السراى، وجاء الحاكم العام وحوله حاشيته وخاطب الحاضرين قائلا:

أيها السادة:

اجتمعنا اليوم لنصغى إلى اقتراحاتكم، وللمداولة معكم بخصوص مطالبكم. ولى كلمة يتلوها عليكم حضرة حسين افندى افنان فاسمعوها.

ثم وقف هذا فألقى الخطبة الآتية:

اتصل بى أن بعضا من حضراتكم يريد أن يقدم لى فى هذا اليوم مطالبه بخصوص مستقبل العراق لعرضها على حكومة جلالة ملك بريطانيا. فلا حاجة لى أن أبين لكم سرورى من هذه الفرصة التى يتاح لى فيها أن أرحب بحضراتكم، وأشرح لكم بقدر ما لى من السلطة شرحا إجماليا ماهية سياسة حكومة جلالة الملك بإزاء هذه المسألة.

لابد أنكم قرأتم تصريحات الحكومتين البريطانية والفرنسوية التى سبق نشرها فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ ولابد أنكم قرأتم المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم، وقد وقع عليه معظم أمم العالم من سنة. ومن باب التذكير أتلوها على مسامعكم مرة أخرى (ثم تلاها).

فهذه التصريحات تبين لكم سياسة حكومة جلالة الملك وتوضح مراميها. تلك السياسة التى لم تنحرف الحكومة البريطانية عنها قيد شبر فى وقت من الأوقات. وأصرح لكم أن حكومة جلالة الملك ترغب فى تأسيس حكومة وطنية فى العراق. وقد أرادت تنفيذ ذلك فى أسرع وقت ممكن. على أنه حصل تعطيل حال دون تحقيق إرادتها وكنت أشد الناس أسفا على هذا التأخير الذى حدث بدواع وأسباب لم يكن فى وسعنا تلافيها. فإن طول الحرب الحاضرة

والصعوبات التى حالت دون عقد الصلح. واختلال النظام فى البلاد المجاورة للعراق. سواء من جهة إيران. أو من جهة تركيا أو سورية ـ كل هذه الاضطرابات عاقتنا عن تاليف حكومة ملكية بالسرعة التى كنا نتمناها، وأملى أن تعتقدوا أنه لم يكن بوسعنا قط اجتنباب هذا التأخير، وأوكد لحضراتكم أن الذين يسعون إلى تأسيس حكومة ملكية بصورة مستعجلة بالحض على استعمال العنف وتهييج البسطاء من الأمة يجنون على وطنهم مهما كانوا مدفوعين إلى أعمالهم هذه بدافع الوطنية أو بعوامل أخرى. ولا أمل بتأسيس حكومة ملكية كما تريدون قبل أن يستتب الأمن العام، وتتثبت أركان النظام فى هذه الآونة التى تتطور فيها البلاد. وليعلم أولئك الذين يحرضون على الإخلال بنظام البلاد الحالى، ويثيرون خواطر الأهلين ويهيجونها على السلطة أنهم إنما يثيرون عوامل تستطيع الحكومة اتخاذ التدابير لمقاومتها، ولا تتأخر عن اتخاذها إذا اقتضت الحال. وقد تؤثر على وضعية ونظام الإدارات الوطنية التى نقترح تأسيسها، وبصفتى رئيسا موقتا للحكومة الملكية الحاضرة أحذركم، وأبلغكم أن كل تحريض على العنف أو الإخلال بالنظام سيقابل بالحزم والعزم من السلطتين العسكرية والملكية. واعلموا أن القوة هى فى جانبنا، واننا قد عزمنا على توطيد دعائم النظام فى هذه البلاد إلى أن تؤسس الحكومة الملكية التى تنشدونها. ولن أتردد فى الاستعانة بالسلطة العسكرية لاستخدام القوة الكافية لتوطيد النظام، ولن تقصر السلطة المذكورة فى امدادى بالقوى التى تكفل صون النظام وتمنع العبث به. وأملى أن لا أضطر إلى إعادة هذه التحذيرات عليكم، وأن لا تقضى الظروف المقبلة باستخدام الجنود. أو باتخاذ التدابير الخصوصية حفظا للنظام العام.

وأتكلم الآن عن حكومة العراق المقبلة. فأقول إن الحكومة البريطانية وطدت العزم على وضع نظام للحكومة العراقية المقبلة فى أقرب وقت ممكن بعد استشارة الرأى العام فى ذلك. وقد دارت مكاتبات كما يعلم أكثركم بينى وبين حكومة جلالة الملك وكبار رؤساء الحكومة الملكية هنا توصلا إلى إنشاء حكومة ملكية موقتة. تقوم بعبء الإدارة إلى أن تتم مذاكرات الحكومة مع الأهلين. ويوضع نظام ثابت للحكومة الجديدة. وقد طبعت الإدارة الملكية هنا دستور هذه الحكومة الموقتة. وكانت رامقة إلى حكومة جلالة الملك، وكان فى النية نشره. غير أن حكومة جلالته لم يكن فى وسعها التصيرح لى بنشره – كما تقدم – قبل انتهاء مفاوضات الصلح مع تركيا. أو على الأقل تقرير شىء منها. ومع هذا فلا بأس من أن أقول لكم بوجه الإجمال إن ما ننويه هو تشكيل مجلس للأمة برئاسة رئيس عربى إلى أن يرفع دستور العراق إلى المجلس

التشريعى المنوى تشكيله أيضا، ونعتقد بضرورة إعطاء البلاد متسعا من الوقت إلى أن تستقر أمورها، وإعطاء الأهلين فرصة لتأسيس فكرة صحيحة تنشر بواسطة المجلس التشريعى بعد تشكيله. وليس هنالك خير يرجى من الإسراع فى أمور كهذه.

هذا وأذكركم بأن العراق يختلف عن سائر الممالك بأنه لم يتأثر بويلات الحرب - مع أن رحاها دارت فيه. وها هى الأخبار تأتينى عن الحالة فى سورية والقفقاس وقسم من إيران وتركيا .. وحتى من فلسطين، وكلها تدل على الغلاء وسوء الإدارة. وقد استحوذ الفقر على أهالى تركيا وسورية وبلغ استياء الأهالى هنالك ما بلغ.

إننا لننكث عهودنا إذا تراخينا فى إدارة شؤون الحكومة قبل أن يحين الوقت لتسليم زمامها إلى الحكومة الوطنية التى ننوى تشكيلها فى المستقبل. فلا تغرنكم الظواهر. فقد كانت العراق تحت سيطرة حكومة أجنبية مدة مائتى عام ومهما . سلمت النيات فلا يمكن تأسيس حكومة وطنية فى لحظة واحدة، بل لابد من التدرج فى هذا السبيل. وإلا فالفشل مؤكد. واعتقدوا بأننى وجميع رجال الحكومة متشربون روح الرغبة فى تنفيذ البيان الذى تلوته عليكم. غير أننا لا نستطيع القيام بالأمور المستحيلة. واعلموا أن مصالحنا موحدة وما يهمكم يهمنا .

وأشكركم فى الختام لاستماعكم أقوالى، ويسرنى معرفة اقتراحاتكم وسأرفعها إلى حكومة جلالة الملك المهتمة بمصالح العراق.

ووقف السيد محمد الصدر يتكلم باسم الحاضرين فقال إن حركتهم سلمية لا يقصد منها إثارة القلاقل. وإن كل ما يطلبونه هو إنشاء حكومة وطنية حسب تصريح الحلفاء يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ وإن الأمة انتدبتهم للدخول مع السلطة المحتلة فى مفاوضات تمهيدية لإنجاز هذا الأمر. وهى تنتظر بفارغ الصبر تحقيق أمانيها العادلة. قال: وأرى أننا متفقون على المبادىء الأساسية لأن المنافع المتبادلة تقضى بذلك، وأن كل ما نطلبه الآن هو عقد مؤتمر وطنى يمثل الأمة، وتشترك جميع المدن العراقية فى انتخابه، وتكون مهمته وضع أسس الدولة الجديدة وتحديد علاقاتها بالحكومة البريطانية. وإطلاق حرية المطبوعات والمراسلات. ثم قال إن هذا الذى نطلبه قد اتفق عليه بين مندوبى الأمة، والذين اختارتهم الحكومة. ثم سلم يوسف السويدى إلى الحاكم الملكى نص المطالب مكتوبة وهى:

إلى سعادة الحاكم الملكى العام المحترم

تعلمون أن الشعب قد انتدبنا فى مظاهرته التى أقامها ليلة ٧ رمضان الحالى الموافق ٢٦ مايو للنيابة عنه فى مطالبة السلطة المحتلة، ومفاوضة رجالها بشأن تنفيذ ثلاثة مطالب جوهرية يرى جمهور الشعب ومعظم قادة آرائه اليوم ضرورة تطبيقها وتنفيذها حالا. وهى. أولا:

١ ـ الإسراع فى تأليف مؤتمر يمثل الأمة العراقية ليعين مصيرها، ويقرر شكل إدارتها فى الداخل، ونوع علاقاتها بالخارج.

٢ ـ منح الحرية للمطبوعات ليتمكن الشعب من الإفصاح عن رغائبه وأفكاره.

٣ ـ رفع الحواجز الموضوعة فى طريق البريد والبرق بين أنحاء القطر أولا، وبينه وبين الأقطار المجاورة له والممالك الأخرى ثانيا. ليتمكن الناس هنا من التفاهم مع بعضهم، ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة فى العالم.

فبصفتنا نوابا عن أهل بغداد والكاظمية نطلب إليكم أن تصادقوا على تنفيذ هذه المطالب الثلاثة بكل سرعة ممكنة، وأن تهتموا حالا بمراجعة حكومة الملك فى ما تلزمكم مراجعتها فيه لأجل تنفيذ المطالب المذكورة. ولا يغرب عن بال سيادتكم ما فى قبول هذه المطالب وإحلالها محل الإجراء والتنفيذ من صيانة الأمن وحفظ النظام والسلام العام. وإننا لننتهز هذه الفرصة فنقدم إلى سعادتكم فائق الاحترام والإكبار.

ثم وجه السويدى الكلام إلى الحاكم قائلا: إن ما ذكرتموه فى خطابكم عن مستقبل البلاد ينطبق كل الانطباق على مطالبنا. فقد قلتم إنه قد تقرر استقلال سورية والعراق باتفاق فرنسا وبريطانيا، وقلتم إن هذا الأمر لا يتم إلا بانتخاب مجلس عال يمثل العراق ويرأسه رئيس عربى لكى تجرى التشكيلات الإدارية بمعونته. وذكرتم أنكم ترغبون أن يتم هذا الأمر بأسرع ما يكون، وإن موانع عاقتكم عن تنفيذه. ونحن نبدى أسفنا العظيم لذلك، ونقول لم هذا التأخير؟ فان حياة كل فرد من الأمة تتوقف على تحقيق ذلك، والأمن مستتب فى البلاد. فلا داعى لتأخير إنشاء الحكومة الوطنية التى هى مطمح أنظار الجميع.

ثم دار البحث على المجلس التشريعى واختصاصاته، وطريقة انتخابه فقال الحاكم إنه سينتخب وفق القواعد الانتخابية التى تتألف بمقتضاها مجالس التشريع. وقال أيضا إنه سمح قبل أيام لأحد الوطنيين بإصدار جريدة هى (جريدة الاستقلال) وإن قانون المطبوعات التركى هو الذى سينفذ. وقال الحاكم فى الختام إنه لابد من انقضاء شهرين قبل إجابة طلبات الأهلين.

الفرات يشارك بغداد

وحدث فى النجف ما حدث فى بغداد. فقد قابل الوفد النجفى المفوض حاكم لواء الشامية السياسى يوم ٢٦ رمضان، وسلمه كتابا يحتوى على المطالب الآتية: ١- الإسراع بجمع المؤتمر العراقى لتقرير شكل الحكم الذى ترغب فيه الأمة العراقية. ٢- إطلاق سراح المنفيين. ٣- إفساح المجال للأمة لإظهار رغائبها المشروعة. وذلك بالسماح بعقد الاجتماعات. فدعاهم إلى العمل لتسكين الهياج. فقالوا إن ذلك يكون بقبول طلبات الشعب.

وألف أهل كربلاء وفدا منهم قوامه الميرزا عبد الحسين الشيرازى والسيد محمد على الطباطبائى والشيخ محمد الخالصى والشيخ صدر الدين المازندرانى والسيد عبد الوهاب الوهاب والحاج محمد حسن أبو المحاسن والشيخ عمر الحاج علوان لمقابلة الحاكم وتقديم هذه الطلبات إليه. وأصدر العلامة الشيرازى بهذه المناسبة المنشور الآتى:

إلى إخواننا العراقيين

«السلام عليكم جميعا ورحمة الله وبركاته:

«أما بعد فإن إخوانكم المسلمين فى بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء وغيرها من أنحاء العراق قد اتفقوا فى ما بينهم على الاجتماع والقيام بمظاهرات سلمية وقد قامت جماعة كبيرة بتلك المظاهرات – مع المحافظة على الأمن. طالبين حقوقهم المشروعة المنتجة لاستقلال العراق – إن شاء الله – بحكومة إسلامية، وذلك بأن يرسل كل قطر وناحية إلى عاصمة العراق وفدا للمطالبة بحقه متفقا مع الذين سيتوجهون من أنحاء العراق عن قريب إلى بغداد. فالواجب عليكم بل على جميع المسلمين الاتفاق مع إخوانكم على هذا المبدأ الشريف. وإياكم والإخلال بالأمن والتخالف والتشاجر بعضكم مع بعض. فإن ذلك مضر بمقاصدكم، ومضيع لحقوقكم التى صار الآن أوان حصولها بأيديكم. وأوصيكم بالمحافظة على جميع الملل والنحل التى فى بلادكم فى نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، ولا تنالوا أحدا منهم بسوء أبدا. وفقكم الله جميعا لما يرضيه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وقام الكربلائيون بمظاهرات سلمية فى صحنى الحسين والعباس ألقيت فيهما الخطب السلمية. فأقلق ذلك الحكومة وأزعجها. فأرسلت يوم ٤ شوال سنة ١٣٣٨ و٢١ يونيو سنة

١٩٢٠ قوة كبيرة جاء على رأسها الميجوربولى حاكم الحلة. فضرب نطاقا حول المدينة. فعلم بذلك العلامة الشيرازى. فأرسل يدعو الحاكم إلى زيارته. ويسأله عن السبب. فامتنع عن القدوم وأرسل اليه الكتاب الآتى:

«بعد تقديم مراسم التحية والسلام نعرض لحضرتكم أن قسما من قواتنا قد وردت لهذه الانحاء لأجل حفظ الأمن وإلقاء القبض على عدد من الأشرار. الذين يقصدون الإفساد ونهب الأموال وإلقاء الرعب فى قلوب الأهلين وان قواتنا هذه لا تتعرض للصلحاء الأبرار. فنرجو أن تطلعوا العموم على هذه المسألة. لكى يرتفع الرعب والاضطراب عنهم، وفى الختام نقدم لحضرتكم فائق الاحترام»

فرد عليه بالكتاب الآتى:

«الى حاكم سياسى الحلة الميجوربولى هداه الله.

«قرأنا كتابك، وتعجبنا غاية العجب من مضمونه. حيث إن جلب العساكر لمقابلة الأشخاص المطالبين بحقوقهم المشروعة الضرورية لحياتهم من الأمور غير المعقولة، ولا تطابق أصول العدل والمنطق بوجه من الوجوه، ويحتمل أن الاشخاص الذى يقصدون الاستفادة من إيجاد الخلاف بين أهالى العراق والإنكليز هم الذين غشوكم لينالوا بواسطة ذلك مقاصدهم. وفى الليلة الماضية أردت ملاقاتكم لدفع الشبهة من نفسكم كى لا تغفلوا عن هذه النكتة. ولكنكم امتنعتم عن ذلك وإن نظرياتنا فى أمور المملكة أصلح وأنفع من سوق الجيوش، واستعمال القوة الجبرية وأدعوكم عجالة لأبلغكم أن توسلكم بالقوة فى مقاومة مطالب الأمة واستدعاءاتها مخالف للعدل ولإدارة البلاد. وان امتنعتم عن المجىء فى هذه المرة فتصبح وصيتى للأمة بخصوص مراعاة السلم ملغاة من ذاتها، وأتراك الأمة وشأنها. وبهذه الصورة تقع مسئولية كل نتائج السوء عليك وعلى أصحابك.

«وفى الختام لى الامل أن تؤثر نصايحى فيك. كى لا يقع ما يفسد النظام والأمن. وكى لا تكونوا سببا لإراقة دماء الابرياء»».

فلم يحمل ذلك الحاكم على تغيير سياسته. فأرسل غداة وصول هذا الكتاب إليه فاستدعى نخبة من أهالى كربلاء هم الشيخ محمد رضا نجل الشيرازى والسيد محمد على الطباطبائى والشيخ هادى كمونه وعبد الكريم العواد وعمر الحاج علوان وعثمان الحاج علوان ومهدى قنبر

وأحمد قنبر والسيد أحمد البير والشيخ كاظم أبو أذان ومحمد شاه فترددوا فى إجابة دعوته لأنهم أدركوا أن وراءها النفى. فألح عليهم العلامة الشيرازى بالذهاب فقبض عليهم الحاكم فور وصولهم، وأرسلهم يوم ٢٥ شوال منفيين إلى جزيرة هنجام. فأزعج هذا التدبير الفرات كله وأقامه وأقعده، وكان من جملة العوامل التى عجلت بالثورة[١] .

١ـ فعلت الحكومة البريطانية فى سنة ١٩١٩ فى كربلاء ما فعلته الآن. فقد اعتقلت يوم ٥ ذى القعدة سنة ١٣٣٧ خمسة من رجالها وهم السيد محمد على الطباطبائى والسيد محمد مهدى المولوى والشيخ عمر الحاج علوان والشيخ عبد الكريم العواد والشيخ طليفح الحسون ومحمد على أبو الحب ونفتهم إلى الهند. فكتب العلامة الشيرازى يوم ٨ منه كتابا إلى الحاكم العام للعراق استنكر فيه هذا التصرف، وطلب إطلاق سراحهم فأجابه بالكتاب الآتى:
بغداد فى ٩ ـ ٨ ـ ١٩١٩
حضرة آية الله العظمى حجة الاسلام الميرزا محمد تقى الشيرازى دامت بركاته.
لى الشرف أن أعرض لكم أنه وصلنا كتابكم المؤرخ ٨ ذى القعدة تذكرون بكل أسف أن الاعمال التى أقدمت عليها حكومة بريطانيا العظمى لإجراء واجبات وظائفها ولحفظ أحكام القوانين والأنظمة أوجبت استياء وتشويش العلماء الأعلام دامت بركاتهم فى كربلاء. وكنت أعتقد أن فى تجارب الأربع السنوات الماضية قد ثبت لدى حضرتكم والمتعلقين بكم بأن الحكومة البريطانية اعتنت بصيانة وسلامة العتبات المقدسة أكثر من أية دولة أخرى.
كانت كربلاء منذ مدة طويلة بؤرة للاغتشاشات والثورات بين الأهالى والحكومة. وكما لا يخفاكم بأن هذه الثورات كانت تحدث أضرارا وخسائر وتلفيات كثيرة من قبل الجنود التركية على الأهالى والمدينة. لاسيما أن شرف العلم والعلماء كان غير مضمون فى تلك العصور. مما أدى إلى تيقظ الحكومة البريطانية واهتمامها بمثل هذه الأصول المخالفة للعادات البريطانية. لقد حصلت لنا اطلاعات كافية فى مدة الاثنى عشر شهرا الماضية تثبت أن بعض الأشخاص فى كربلاء يقومون بتشويش الأذهان وينشرون أخبارا غير مرضية. وغايتهم من ذلك تشويش أفكار الناس ضد الحكومة البريطانية. وكنت منتظرا من مدة طويلة انتهاء هذه الإشاعات غير المرضية بعد إعلان الصلح. لكنى ألاحظ أن الأمر قد انعكس، وأن بعض الجاهلين قد زادت جسارتهم وكثر سعيهم فى تشويش الناس. فلذا لاحظت أن من الواجب القبض على بعض الأفراد وأن الاشخاص الذين قبض عليهم هم أربعة من أهالى المدينة الذين لم يكن أية علاقة معكم، ولا مع العلماء الأعلام والروضات المطهرة. والاثنان اللذان من السادة – وان لم يكونا من ذوى الأهمية إلا أنهما ينشران الاشاعات الكاذبة ضد الانكليز وهو باعث لتشويش أفكار الأهالى، ونظرا لإقداماتكم فقد عزمنا على تسريح السيد محمد على الطباطبائى وارساله إلى سامرا على أن يسكن هنالك ولايخرج منها بدون إجازة منا. فنرجوكم اشعاره بهاذ الأمر تحريريا عند وصول كتابنا هذ إليكم مع إخباره بأن يبقى هناك سكنا وأن لايتدخل فى أمور الناس، وإذا تخلف عن التقيد بهذا الأمر فإنا بكامل حريتنا ننفيه عن هذه المملكة إلى محل لايتمكن فيه من إحداث أى تشويش.
وأما السيد محمد مهدى المولوى فإن له اليد الطولى فى تشويش أفكار العموم، وبما أنه هندى الأصل فقد استحسن إرساله إلى وطنه الأصلى. حتى بعيش بكامل الحرية لأنه لايمكن إبقاؤه فى كربلا. حيث وجوده موجب لعدم استراحة الناس فيها.
لنا وثيق لرجاء أن بعض الأشخاص فى كربلاء قد انتبهوا واحترزوا من بعض أعمالهم التى توجب عليهم المسئولية، وإن حكومة بريطانيا ترغب فى إعطاء الناس الرفاهية التامة، لكنها لا تود أن يستعمل بعض الأشخاص هذه الحرية والرفاهية لأغراض تولد لاغتشاشات ولتشويشات بين الناس. وقد قدمت هذه الرسالة بواسطة النائب محمد حسين خان المعروف بالخدمة لدينا. وفى الحقيقة أنه الرجل الوحيد الذى يعتمد عليه. وقد زودته ببعض معلومات شفوية ليعرضها على حضرتكم والسلام.
وفى يوم ٩ ربيع الأول سنة ١٣٣٨ أطلق سراح المنفيين من الكربلائيين فعادوا إلى بلدهم.

فريق من زعماء الثورة العراقية



العلامة الشيرازى — يوسف السويدى — جعفر أبو التمن

علوان الياسرى — عبد المحسن شلاش — هبة الدين شهر ستانى

الشيخ أحمد الشيخ داود — على البتروكان — رضا الشيبى

فتوى جديدة

وأصدر الحجة الشيرازى يومئذ الفتوى الآتية: «مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين. ويجب عليهم فى ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم».

مظاهرات الحلة

وأقيمت فى الوقت نفسه مظاهرة وطنية فى الحلة لتأييد الطلبات الشعبية، وأعلن الناس أنهم يضعون ثقتهم فى رؤوف الأمين والسيد حسن القزوينى فأسرعت الحكومة فاعتقلت الأول مع خمسة من إخوانه الأحرار ونفتهم إلى هنجام. وأقامت الموصل مظاهرة كبيرة لتأييد مطالب الأمة. وانتخبت أربعين مندوبا قابلوا حاكم الموصل، وقدموا له المطالب كتابة.

السلطة تنشىء حكومة مدنية

وفى يوم ٢٠ يونيو أذاع الحاكم العام البلاغ الرسمى الآتى:

ترى مقدما حكومة جلالة الملك التى استؤمنت على تنفيذ الانتداب أن هذا الانتداب يعنى إنشاء حكومة عراقية تضمن استقلالها جمعية الأمم، وتخضع لانتداب بريطانيا. ويضع هذا الانتداب على عاتق بريطانيا تبعة حفظ الأمن فى الداخل وسلامة المملكة فى الخارج، ويقضى عليها بوضع نظام أساسى تستشير العراقيين فى وضعه – مع ملاحظة حقوق الطوائف المختلفة فى العراق ورغائبها ومنافعها، ويحتوى على شروط من شأنها ان تسهل ترقية العراق وتقدمه، وتجعله قادرا بعد زمن على أن يقف على ساقيه، ويحكم نفسه بنفسه. فتنتهى عندئذ مدة هذا الانتداب.

وقد عهدت حكومة جلالة الملك إلى السير برسى كوكس بتنفيذ هذا المشروع. وسيعود إلى بغداد فى الخريف ليتسلم زمام منصبه، ويتقلد منصب الممثل الأعلى للحكومة البريطانية فى العراق فينقضى بتسلمه عهد الإدارة العسكرية الحاضرة.

وخول السير برسى كوكس الحق فى إيجاد هيئات وطنية وهى:

١ ـ مجلس شورى برئاسة رئيس عربى.

٢ ـ مجلس مؤسسين. ويمثل العراق كله. وينتخب العراقيون أعضاءه بتمام الحرية، ويعد القانون الأساسى بالاشتراك مع مجلس الشورى.

وأرفق الحاكم العام هذا البيان ببيان آخر هذا نصه:

أشاع بعضهم إشاعات مؤداها أن الحكومة البريطانية على وشك سحب قواها العسكرية من العراق. مما يفضى إلى الإخلال بالأمن العام. فأنا السير أرنولد تالبوت ولسن نائب الحاكم الملكى العام فى العراق أنشر لأجل إفادة العموم. أن الحكومة البريطانية من حيث هى مسؤولة عن السلم الداخلى والأمن الخارجى فى هذه البلاد لا تفكر فى سحب قواها العسكرية - بعضها أو كلها، ولايزال لديها قوى من جميع الأسلحة تكفى لحفظ النظام الداخلى والأمن الخارجى كفاية تامة. ولا أحجم عن أن أطلب من السلطات العسكرية المساعدة اللازمة عند الحاجة.

وأرسل مندوبو بغداد يوم ٣٠ يونيو كتابا إلى الحاكم العام العسكرى طلبوا فيه الإسراع بعقد مجلس المؤسسين. وقالوا إنهم لايرون موجبا لتأخير دعوته إلى الخريف. فأذاع الحاكم يوم ٩ يوليو البلاغ الآتى:

أعلنت بمنشور صادر يوم ١٧ يوليو سنة ١٩٢٠ موافقة حكومة جلالة الملك على إنشاء مؤتمر عام ينتخبه أهالى العراق. وحيث إنه لابد من وضع قانون للانتخاب ينتخب بموجبه الأعضاء فقد فوضت حكومة جلالة الملك الحاكم الملكى العام أن يدعو ممثلى الرأى العام فى جميع المقاطعات ليبحثوا بالاشتراك مع الهيئات الإدارية فى الطريقة التى يجب اتباعها فى انتخاب أعضاء هذا المجلس الذى سيعقد قريبا. وفى إعداد الوسائل الضرورية للانتخاب، وإعداد سجلات بأسماء الذين يحق لهم الاشتراك فى الانتخاب. وحيث إن فى العراق أفرادا مثلوه فى مجلس الأعيان والنواب العثمانيين، ولهم سابق خبرة فى شؤون الانتخاب والمصالح العامة، فقد دعا الحاكم العام هؤلاء إلى الاجتماع فى بغداد فى زمن غير بعيد. فتتألف منهم لجنة تشترك مع الحكومة الملكية فى وضع المشروعات الانتخابية.

وينتخب أعضاء اللجنة المذكورة أحدهم للرئاسة عليهم، ويدعون آخرين من المقاطعات التى توفى نوابها أو لم يحضر نواب عنها.

ورد مندوبو الشعب على الحاكم العام يوم ١٢ يوليو بالكتاب الآتى:

لا يخفى على حضرتكم أننا طلبنا فى كتابنا المؤرخ ٣٠ يونيو سنة ١٩٢٠ من جناب الحاكم العسكرى والسياسى لبغداد الإسراع بعقد المؤتمر العراقى العام، وذلك جوابا على المنشور المؤرخ ١٧ يونيو، والقاضى بعقد المؤتمر المذكور فى الخريف، ولم نتلق حتى الآن جوابا على كتابنا المذكور. ولما كانت جريدة العراق الصادرة يوم ١٢ يوليو نشرت منشورا من سعادتكم وردت صورته إلى بعضنا مع مذكرتكم الخصوصية (وهنا أوردوا خلاصة المنشور) ولما كان هذا المنشور يدل على أن حكومة بريطانيا استحسنت اقتراحنا الخاص بالتعجيل بعقد المؤتمر فاستحقت بذلك الشكر والامتنان، واستوجب اطمئنان الأفكار رأينا أن من الواجب عرض الاقتراحات الآتية – طبقا لرغائب الأهلين وهى:

لا يخفى على حضرتكم أن الحقوق الدولية والأساسية تقضيان بتنفيذ قوانين الدولة التى انفصلت عنها البلاد حربا، إلى أن يبت فى مصيرها نهائيا. فعلى هذا يجب أن تكون أحكام القوانين العثمانية نافذة فى هذه البلاد إلى ذلك الوقت. لذلك نرى أن الأفضل أن تستند المشروعات كلها إلى مستند قانونى لتنطبق على أساس قويم. وعملا بهذا المبدأ يمكن الأخذ بقانون انتخاب أعضاء المجالس العمومية فى تأسيس لجنة تحضيرية يكون رئيسها منها – كما ورد فى المنشور المذكور، لتقوم بالمشروعات المدرجة فيه، وأن ينفذ ما هو ملائم من أحكام قانون مجلس النواب العثمانى فى تأليف المؤتمر العراقى. ليكون الأمر موافقا لرغائب الأهلين، ومطابقا لقرار الدولتين الفخمتين فرنسا وإنكلترا. اللتين أعلنتا فيما سبق أنه لا يخطر فى بالهما إرغام سكان البلاد السورية والعراقية على قبول نظامات وقوانين معينة. فرجاؤنا أن يصادف طلبنا هذا قبولا من حضرتكم. وهذا ما نعرضه عليكم بالنيابة عن مندوبى بغداد والكاظمية، واقبلوا منا فائق الاحترام.

يوسف السويدى *السيد محمد صدر الدين*

وتألفت اللجنة الانتخابية من ١٩ عضوا هم شيوخ البلاد العراقية ونوابها فى العهد العثمانى، واجتمعت رسميا يوم ٦ أغسطس. فافتتح الحاكم العام اجتماعها بخطبة قال فيها:

«لقد دعيت هذه اللجنة لتساعد فى سن قانون الانتخاب لتجرى بمقتضاه انتخابات المؤتمر العام الذى تريد حكومة جلالة الملك عقده بأسرع ما يمكن. وعند سنوح الفرص المناسبة. ولا يخفى عليكم أن على هذا المؤتمر أن يسن قانونا أساسيا لهذه البلاد باستشارة الحكومة الملكية. وأصرح الآن أن الترتيبات الانتخابية التى سترونها ستكون مؤقتة لها مقصد واحد وهو الانتخاب للمؤتمر العام الأول، وعلى هذا المؤتمر أن يبت فى شأن قانون الانتخاب المؤقت، وموافقته لاحتياجات القطر.

«ومن المعلوم أن قانون الانتخاب العثمانى لا يمكن تطبيقه على الأحوال الحاضرة من دون تعديل. لان فيه مواد لا توافق الأحوال الحاضرة. فهو مثلا يشترط على المرشح للانتخاب أن يحسن اللغة التركية. أما هذا المجلس فيمثل أكثر مناطق العراق وطوائفها، وبما أن هنالك مناطق لم يحضر مندوبوها بسبب وفاة بعضهم، وتغيب آخرين فعلى حضراتكم أن تقترحوا طرقا لانتخاب من يقوم مقامهم فى هذه اللجنة. التى تتوقع الحكومة الملكية أن تستمد منها كل معونة. لا فيما يختص بالغرض الذى دعيت لأجله. بل فى أمور مهمة أخرى يمكن حدوثها. وأغتنم الفرصة فأشكر لكم إجابتكم دعوتى لمساعدتى فى هذا العمل، وإنى واثق فى أننا سننال بالتعاون المشترك أمنيتنا التى تتوخاها حكومة جلالة الملك وهذه الأمنية هى تأسيس حكومة وطنية فى العراق».

وانتخب السيد طالب النقيب لرئاسة اللجنة بأكثرية الآراء، وعقدت هذه اجتماعا آخر قررت فيه دعوة السيد محمد الصدر ويوسف السويدى وجعفر أبى التمن وعبد الرحمن باشا الحيدرى إلى الانضمام اليها. فأبلغهم الحاكم الملكى القرار فاستقال الثلاثة وقبل الأخير فساءت استقالتهم السلطة، وقررت إعلان الإدارة العرفية، ومنع المظاهرات، وتمزيق شمل المندوبين، وفعلا هاجمت فجر ١٣ أغسطس منازل يوسف السويدى وجعفر أبى التمن والشيخ أحمد الشيخ داود وعلى البزركان. فقبض على الثالث، وأرسل إلى البصرة حالا، وسجن فيها أياما ثم نفى إلى هنجام، وقوبلت الشرطة بالنار حينما هاجمت منزل السويدى فاضطرت إلى استقدام نجدات فتخلص وقصد إلى اليوسفية، وكانت الثورة تضطرم فيها. وخرج الثانى والرابع متنكرين من بغداد، ولحقا بالفرات، ولجأ عارف حكمت مع بعض أعضاء جمعية الحرس إلى كربلا، وقبض على جلال بابان وعارف السويدى والسيد محمد مصطفى الخليل من المندوبين، وجعفر الشبيبى ونورى فتاح من رجال العهد والحرس، وأرسلوا إلى البصرة،

ومنها إلى هنجام. وأذاع قائد بغداد العسكرى يوم ١٣ منه البيان الآتى:

«اعتاد بعض المفسدين منذ شهر رمضان أن يحتفلوا بتلاوة قصة المولد فى ليالى الجمع ظاهرا لمقاصد دينية، ولكن فى الباطن لتهييج الأفكار ضد الحكومات، ولبث روح الفساد، ولكى لا يجد الناس مجالا لسوء الظن بأن السلطة المحتلة تريد الممانعة فى المذاكرة العلنية الحرة فقد اجتنبت حتى الآن التدخل فى الموضوع. ولكن المحركين أساءوا استعمال الحرية الممنوحة، وضللوا العامة ضلالا مبينا. فلهذا وجب علينا أن نعلن منع إقامة هذه الحفلات وكل اجتماع يعقد لأغراض سياسية يعرض القائمين به لأشد العقاب إلا إذا كان مطابقا للقانون العثمانى فى هذا الموضوع، وبإذن من حاكم بغداد العسكرى والسياسى، ولقد ألف مجلس عسكرى للنظر فى أمثال هذه الجرائم التى تقع ضد الأمن العام».

وفتش رجال الشرطة دار يوسف السويدى بعد الانتهاء من إطلاق الرصاص وبعد خروجه، فعثروا على أوراق سياسية قبض بموجبها على عبد المجيد كنه، وحوكم أمام محكمة عسكرية بتهمة الاشتراك فى تأليف عصابة مسلحة تسعى إلى قتل كل مخالف لمبادىء حزبها فحكمت عليه بالإعدام شنقا، ونفذ الحكم فيه ليلة ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٢٠ وقبض على أخيه عبد الحميد ونفى إلى جزيرة هنجام.

١٠

إعلان الثورة

أين أطلقت الرصاصة الأولى

بينما كانت المناقشات دائرة فى بغداد على هذا المنوال بين مندوبيها والسلطة البريطانية كانت نيران الثورة تتأجج فى الفرات، وكان القتال على أشده بين الثوار والإنكليز.

بدأت الثورة فى الفرات يوم ٣٠ يونيو- أى قبل أن يطارد الإنكليز أحرار بغداد، ويمنعوا عقد الاجتماعات السياسية بمدة ٤٤ يوما. وقد عجل فى اضطرامها اعتقال نجل العلامة الشيرازى وصحبه الأحرار، ونفيهم إلى جزيرة هنجام على المنوال الذى بسطناه من قبل. مما كان له أسوأ وقع فى نفوس العراقيين عامة. والفراتيين خاصة. فأرسلوا احتجاجات شديدة اللهجة إلى الحكومة مطالبين بإطلاق سراحهم فردت عليهم بأنها اعتقلتهم لأنهم عبثوا بالأمن، وأن الضرورة تقضى بإبقائهم فى خارج العراق فى الوقت الحاضر.

ودعا حاكم أبى صخير رؤساء الشامية إلى مقابلته فامتنعوا، وقالوا إنه لما كانت الحكومة قد اعتدت على مقام أكبر زعيم دينى فى العراق فقبضت على نجله وتسعة من إخوانه ونفتهم إلى هنجام، كما نفت غيرهم من الأحرار فهم يخشون على أنفسهم إذا جاءوا لمقابلته.

وتتابعت الاجتماعات خلال هاتيك الأيام فى أبى صخير وعفك، وقرر رجال القبائل إضرام الثورة، وتداولت الأيدى نص كتاب أصدره أحد أنجال الإمام الشيرازى يحض فيه على الجهاد.

وكان مكتب الثورة فى النجف - وقد أسسه الشيخ محمد رضا الشبيبى والشيخ باقر الشبيبى والسيد سعيد كمال الدين وأخوه حسين كمال الدين والسيد علوان الياسرى والشيخ عبد الكريم الجزايرى والشيخ أحمد صافى وعبد الحميد زاهد يبث الدعوة للحركة الوطنية، وكان على صلة وثيقة برؤساء القبائل، وكانوا يأتون النجف بحجة الزيارة فيجتمعون برجال المكتب فى داخل صحن الإمام. وكان المكتب أيضا على صلة برجال بغداد ودمشق. فلا يكاد يفوته شىء مما يحدث هنا وهنالك. وكان شديد الحذر فى مراسلاته يتخذ أغرب الطرق لإخفاء رسائله ومناشيره. وقد اتخذ له مقرا فى وسط المسجد العلوى

«الصحن» فى مكتبة عبد الحميد الزاهد، وكان يضع فى داخل جلود الكتب والمصاحف مناشيره ورسائله. ومما يستحق الذكر أن المكتب، وما كان يخفى عليه ما تعده السلطة من معدات فى الفرات وتتخذه من تدابير عسكرية شديدة أنشأ صلات مع بعض مسلمى الهنود المجندين فى الجيش البريطانى. فكانوا يطلعونه على حركة الجيوش وتنقلاتها فيذيعها على الرؤساء والشيوخ ليأخذوا حذرهم.

وأرسل المؤتمر العراقى فى دمشق العلم الذى اتخذه شعارا للدولة العراقية الجديدة مع بدوى – وكان البدو واسطة الاتصال فى تلك الأيام بين الشام والعراق – فكان أول علم دخل النجف فصنع المكتب نماذج منه سرا، ووزعها على القبائل فى الفرات.

ولما قبضت السلطة فى كربلاء على الميرزا محمد رضا الشيرازى وإخوانه عقد المكتب اجتماعا فى جامع الهندى «النجف» للاحتجاج. فاعتقلت السلطة على الأثر السيد سعيد والسيد حسين كمال الدين والسيد أحمد الصافى والسيد ضياء الخراسانى وعبد الحميد زاهد وفتشت بيوتهم وبيوت غيرهم. فزاد ذلك فى استياء الناس. فاستغل قادة الحركة الفرصة وطبعوا مناشير بالدعوة إلى الثورة، وزعت فى الشامية والشطرة والمشخاب والعمارة، وخطب خطباء المساجد داعين علنا إلى الانتقاض والثورة طلبا لحقوق بلادهم.

وتدخل شيخ الشريعة الأصبهانى، وكاتب الحاكم السياسى فى بغداد طالبا إطلاق سراح نجل الإمام الشيرازى وإخوانه وبقية المعتقلين الآخرين، وتعهد بأن يبذل قصاراه فى سبيل تهدئة خواطر الناس إذا أجيب طلبه. وبأن يستخدم نفوذه فى حفظ النظام بشرط أن تسرع الحكومة فى تحقيق أمانى الشعب وإجابة مطالبه. فأجابه الحاكم العام على كتابه بالبرقية الآتية يوم ٢٢ شوال بواسطة حاكم لواء النجف قال:

«أنا لا أقدر أن أتدخل مداخلة شيخ الشريعة بشأن المنفيين. لان أكثرهم معروفون بالفساد وسوء الأخلاق. على أننى قد أستطيع أن أتدخل بشأن اثنين أو ثلاثة منهم، فليسمهم بأسمائهم لألتمس من القائد العام إطلاق سراحهم. وأعتقد أنه يقبل ذلك إذا كان جناب الشيخ يسعى لتوطيد الأمن فى الشامية. لاعتقادى أنها لا تجرؤ على مخالفته، وليعلم جنابه أن قبائل الرميثة مشغولة بقتالنا فعلا».

فساءت البرقية وما انطوت عليه من عبارات قاسية الشيخ. فأرسل على الفور إلى الحاكم

البرقية الآتية:

«أخذنا برقيتكم المؤرخة ٢٢ شوال، ونقول لكم إننا لم نشفع أبدا فى رجال معروفين بسوء الأخلاق، وإنما شفعنا فى الأحرار الأبرياء الذين سجنوا وأبعدوا لغير ما جرم. على أن الحكومة إذا كانت تعتبرهم جناة مجرمين فعليها أن تسلمهم إلى القانون ليجرى حكمه فيهم، وتكون آنئذ قد استراحت من شرهم، وتخلصت من التهم والظنون السيئة. ثم إن الميرزا محمد رضا نجل آية الله الشيرازى بين المنفيين. فهل تستطيع الحكومة أن تقول انه معروف بالفساد. ولولا اهتمام والده بالسكينة العامة ، وبالنظام والأمن لرأينا الحالة على غير ما هى عليه الآن. فإن معالجة الحالة الحاضرة بالإصلاح أمر غير مقدور»

وبينما كان هذا يجرى فى بغداد وكربلاء والنجف أصدر الميجور رايلى حاكم الديوانية – وقد امتاز بين الحكام السياسيين بشدة الوطأة والضغط – أمرا إلى اللفتنانت هيات حاكم الرميثة باعتقال الشيخ شعلان أبى الجون – شيخ قبيلة الظوالم. وهم بطن من بنى حجيم – ويرسله مخفورا إلى الديوانية. فدعا الشيخ إلى مقابلته فجاء بعد ما قال لزميله الشيخ غثيث الحرجان قبل ذهابه إنه غير آمن من كيد السلطة وبطشها، وإنه يجب الاستعداد لإنقاذه إذا لزم الأمر وقال له إذا أرسلت اليك بطلب جنيهات. فاعلم أن المطلوب هو رجال لاجنيهات.

واستقبل اللفتنانت هيات الشيخ شعلان حينما جاءه وذلك يوم الجمعة ١٣ شوال و٣٠ يونيو استقبالا سيئا ووبخه وعنفه، وأسمعه كلاما مرا، وأبلغه أن الحكومة عازمة على نفيه فحذره هذا من سوء العاقبة ونصحه وأشار عليه بالتريث خوف النتائج السيئة فلم يصغ إليه وأمر بوضعه فى السجن لإرساله إلى الديوانية فقال الشيخ لرجل جاء معه اذهب فبلغ الأهل أنى مسجون اليوم ومنفى غدا وإننى فى حاجة إلى عشرة جنيهات فليرسلوها حالا. فأسرع عشرة من قومه فبلغوا الرميثة عند الأصيل، وقصدوا دار الحاكم فقتلوا شرطيين، وهجموا على السجن وأنقذوا شيخهم وعادوا به إلى مقره. فكانت تلك الرصاصة أول رصاصات أطلقت فى الثورة العراقية وكانت إعلانا لها.

وأعلنت الثورة فى النجف يوم الأحد ٢ يوليو فقد تجمهر الناس حينما وردت الأخبار من الرميثة بوقوع ما وقع فى صحن المسجد العلوى، ورفعوا العلم العربى. وقاد كل شيخ قبيلته، وأسرع إلى الجهاد فى سبيل الله والوطن.

وأرسل اللفتنانت هيات فأبلغ حاكم الديوانية الحادث، وقال له إن رجال الشرطة تخلوا عنه وولوا منهزمين، وطلب إرسال نجدات فأرسل إليه ١٥٠ جنديا من الهنود بلغوا الرميثة يوم ٢ يوليو.

وسار الميجور رايلى نفسه مساء ٣٠ يونيو على رأس قوة من الفرسان مسلحة بالرشاشات إلى منازل قبيلة بنى الأقرع، وكان شيخها الحاج سعدون الرسن فى الرميثة - وتبعد عنها نحو خمسة عشر كيلو مترا. فبلغها فجر يوم أول يوليو فهاجمها وأحرق مضافة الشيخ. فأهاج ذلك رجاله فانبروا لمقاومة المهاجمين وأصلوهم نيرانا حامية، فارتدوا إلى الديوانية خاسرين.

وخرب الثوار عدة أماكن من السكة الحديد جنوبى الرميثة يوم أول يوليو وهاجموا قطارا للاستطلاع وصل فى تلك الأثناء من البصرة فى طريقه إلى بغداد يخفره جنود من الهنود، ويقوده الميجور كرناندر، وأطلقوا عليه رصاصهم فنجا بصعوبة وعاد إلى البصرة لأنه أدرك صعوبة بلوغ بغداد.

وسير حاكم الحلة يوم ٢ منه قوة كبيرة إلى الرميثة بقيادة الكابتن براك تتألف من ٤ ضباط إنكليز و٣٠٨ من الجنود معهم ١٥٨ عاملا من عمال السكة الحديد بقيادة ضابطين إنكليزيين و٦٠ هنديا لإصلاح السكة وإنشاء جسر على الفرات لعبوره، بدلا من الجسر الذى خربه الثوار، فبلغت الرميثة يوم ٣ منه بعد مقاومات شديدة، وكان الثوار يزعجونها برصاصهم، وقد فتكوا ببعض رجالها. وأسرع قائد الحملة حينما بلغ الرميثة فتولى القيادة واحتل خندقين من خنادق الثوار، فحفروا خنادق غيرها، وضربوا الحصار عليها وما كانت حاميتها تملك سوى مؤونة يومين، ولذلك بدأ ضباطها يحسبون حساب المستقبل ويخشون سوء المصير.

وسيرت الحملة قوة فى الغداة إلى قرية البوحسن لإنجاد قائدها اللفتنانت ماريوث وإنقاذه من الثوار، ورافقها حاكم الرميثة بالذات، وقال لقائدها إن عليه أن يحرق تلك القرية قبل العودة إلى المعسكر، ولا يتقيد بأوامر القيادة ففعل ما أشار به. فهاج ذلك العرب فهاجموا القوة وقتلوا منها ٤٣ جنديا، وجرحوا ضابطا بريطانيا وآخر هنديا و١٣ جنديا.

وحمل العرب على الخنادق التى تحصنت فيها الحامية حول الرميثة فقتلوا ٦ من الجنود وجرحوا ١٤ فارتدت إلى الداخل وتحصنت فى دار الحكومة، وخسرت جنديين أثناء انسحابها.

ولما اشتدت المجاعة عليها هجمت على الأسواق فنهبت من الأرزاق ما يكفيها بضعة أيام، وحفرت الآبار للاستقاء لصعوبة ورود الفرات. وطارت الطيارات البريطانية فوق الرميثة وألقت ثلاثة صناديق من العتاد، وسقط صندوقان آخران فى محل بعيد استطاعت بلوغه ونقلهما بصعوبة، واشتدت المجاعة حينما طال الحصار. فهاجمت الحامية الأسواق ثانية وجمعت كمية من الطعام بعدما قتلت عشرين من الأهالى.

وفى مساء ٦ منه غادر الديوانية قطار خاص مشحون بالطعام والعتاد والماء لحامية الرميثة بقيادة اللفتنانت كولونيل مكين فوصل بعد عناء إلى مكان يبعد ستة أميال عن الرميثة. فتوقف وشرع فى إعادة المركبات إلى الخط، فظهرت أمامه يوم ٧ منه قوة كبيرة للثوار وفاجأته بإطلاق النار فثبت وحاول التقدم، وهبت قبل الظهر عاصفة اغتنم فرصتها، وتقدم مسافة ميل من دون أن يشعروا به. ثم لحقوا به وطاردوه فاتجه شمالا، وبلغ صباح ٨ منه الإمام حمزة وهو يبعد عن الرميثة ١٨ ميلا، وخسر فى تلك المعارك ضابطا بريطانيا و٤٧ جنديا من الهنود وجرح ضابط و٢٦٦ جنديا.

وغارت حامية الرميثة غارة ثالثة على السوق. فأخذت ما يكفيها حتى يوم ٢٢ يوليو وأيدتها فى غارتها تسع طيارات جاءت لهذه الغاية، وعلى أثر هذه الحوادث جهزت السلطة العسكرية قوة كبيرة بقيادة الجنرال كوننغام احتشدت يوم ١٦ منه على مسافة ١٦ ميلا من الرميثة ومعها قطار مشحون بالماء والعتاد والميرة.

وبذلت مساع للافراج عن الحامية، فلم تقترن بنتيجة. فبدأ الجنرال كوننغام العمل، ولما بلغ المكان الذى فشلت فيه قوة مكين قابله الثوار بنيران حامية، وكانوا قد تحصنوا فى خنادق حفروها فى ترعة جافة، وكان عددهم لا يقل عن خمسة آلاف – فقابلهم بالمثل، وبدأت المعركة فى الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ١٩ منه ودام القتال حتى المساء فلم توفق قواته، وكانت مؤلفة من ثلاثة أفواج مشاة، وفوج مدفعية مؤلف من فصيلة مدافع ميدان وحظيرة رشاشات إلى زحزحة الثوار عن أماكنهم – رغم استبسال المدفعيين، وكفت الحملة عن إطلاق النار عند المساء فأغرى ذلك الثوار بها فحملوا حملة صادقة على أحد الأفواج فصمد لهم. وطلب قائد الحملة من الديوانية ماء وعتادا وأدوات صحية، فأرسلت إليه بقطار خاص وصل صباح ٢٠

وتقدمت الحملة فى الصباح، وعبرت الفرات إلى الضفة اليسرى، وحفرت خنادق بلا مقاومة. لأن الثوار جلوا ليلا وبلغت الرميثة عند الظهر، وأنقذت حاميتها وبلغت خسارتها ٣ ضباط بريطانيين و٣٢٣ جنديا قتلى وضابطين جريحيين و١٥٠ جنديا جريحا وبلغت خسارة قوة الرميثة ١٤٨ قتيلا وجريحا فى زمن الحصار.

وفى صباح ٢١ منه تحركت الحملة من الرميثة عائدة إلى الحلة مع الحامية القديمة. لأن القيادة الإنكليزية شعرت بعجزها عن الاحتفاظ بقوة هنالك. فلحق بها الثوار واغتنموا فرصة زوبعة رملية هبت يوم ٢٢ منه ففتكوا بساقتها، وألحقوا بها خسارة كبيرة وفى يوم ٢٣ منه وصلت إلى الديوانية.

٢- فى ميدان الشامية

لما نشبت الثورة فى الرميثة ووقع ما وقع خرج الميجور نور برى حاكم النجف والشامية إلى منازل الشيخ مجبل أحد رؤساء قبيلة الفتلة قرب الحميدية، وطلب إليه أن يساعده فى حمل الزعماء على زيارة النجف أو الكوفة للمداولة معهم. فأجابه أنهم شديدو النقمة على الحكومة وتصرفاتها وأنهم لا يأتون. وأخيرا تم الاتفاق على الاجتماع فى منزل الشيخ يوم ٧ يوليو ووفد الرؤساء فى الوقت المعين وفى مقدمتهم السيد علوان الياسرى والشيخ عبد الواحد فنزلوا فى ضيافة الشيخ، وقبل وصول الحاكم جاء من أنبأهم أنه (الحاكم) أرسل قوة صغيرة للقبض عليهم وأنه غير آت. ولما كانوا قد اتخذوا عدتهم وجاءوا بالقوى الكافية من الرجال فلم يعبأوا بالرواية، وبعد برهة وصل الكابتن مان الحاكم السياسى للحميدية لمقابلتهم. فلما ألفاهم مسلحين قال لهم أتظنون أنكم قادرون على مقاومة الحكومة البريطانية وأن بنادقكم هذه تقيكم غضبها؟ فأجابوه ان العراق غير الهند، وأنه مادامت البنادق على العواتق فهم قادرون على كل شىء. ثم أبلغهم أنه طرأت طوارىء منعت الميجور نور برى عن الحضور، وأنه جاء للمداولة باسمه فليبسطوا له مطالبهم. فأجابوه أنهم مستعدون للاتفاق مع الحكومة والتفاهم معها إذا أجابت المطالب الآتية:

١- منح العراق الاستقلال التام.

٢-إيقاف رحى القتال فى الرميثة.

٣- جلاء الحكام السياسيين والقوات الإنكليزية عن جميع مراكز الثورة فى الفرات واحتشادهم فى بغداد. على أن تدور هنالك المفاوضات بين زعماء الأمة العراقية ورجال الحكومة المحتلة، لتقرير العلاقات السياسية بين البلادين وتحديدها.

٤- إطلاق سراح المعتقلين السياسيين، وفى مقدمتهم نجل العلامة الشيرازى.

فقطع المفاوضات على الأثر لعدم إمكان قبول هذه الشروط، وعاد إلى مقره، وتفرقوا فى بلادهم وفى يوم ١١ منه أعلنت الثورة فى الشامية، وزحفت قوة يوم ١٢ منه بقيادة السيد علوان الياسرى والشيخ عبد الواحد لاحتلال «أبو صخير» مركز قضاء الشامية، واشترك معهم السيد هادى زوين برجاله فتحصنت الحامية الإنكليزية فى دار الحكومة، وأرسلت السلطة باخرة نهرية لإنجادها فرست أمام الدار للدفاع عنها، وليظل طريق الحامية إلى الماء مفتوحا فلم يغن ذلك عنها قتيلا. فقد دخل الثوار البلدة ووجهوا نيرانهم إلى الباخرة من مسافة قصيرة فهربت، وضربوا نطاقا حول دار الحكومة، وتركوا القوات الكافية للحصار، وتقدموا نحو الكوفة للاشتراك فى المعارك الدائرة حولها.

أول هدنة بين الثوار والسلطة

وقصد السيد علوان والشيخ عبد الواحد الحميدية لإخراج الكابتن مان حاكمها، وكان يملك مقدارا كبيرا من المال يستطيع بواسطته عرقلة حركة الثوار، فذهب شيوخ قبائل الحميدية إليه، وطلبوا منه أن يسافر إلى الكوفة خوفا على حياته، لانهم لا يستطيعون حمايته. فأجاب طلبهم وقصد الكوفة بحماية الشيخ سلمان العبطان رئيس قبيلة الخزاعل والحاج رابح آل عطية أحد مشايخ قبيلة الحميدات وبلغها سالما. واغتنم الميجور نور برى فرصة وصولهما فدعاهما إلى التوسط عند الشيوخ لإيقاف حركة القتال فقابلا السيد علوان وصاحبه وعرضا عليهما اقتراح الحاكم فوافقا بشرط أن يحضر الاجتماع مندوبو النجف والشامية فوافق على ذلك، وأرسل سيارتين إلى النجف جاءتا بالشيخ جواد الجواهرى والشيخ عبد الكريم الجزايرى وبقية المندوبين إلى الكوفة. فعقد الاجتماع فى بستان مجاور، وعرض الشيوخ المطالب التى عرضت فى الشامية، وبعد مناقشة طويلة تم الاتفاق على عقد هدنة لمدة أربعة أيام يسافر فى خلالها الحاكم إلى بغداد بالطيارة لإبلاغ مطالب الثوار للحكومة. ووافق الثوار على إخراج حامية أبو صخير، وايصالها سالمة إلى الكوفة مقابل تعهد الحكومة بالامتناع عن

القيام بأية حركة فى خلال هذه المدة، وبعدم إرسال نجدات عسكرية، وبعدم الإتيان بأى عمل عسكرى. وأن أى حركة تتحركها الحكومة خلافا لهذه الشروط تؤدى إلى نقض الهدنة. ووفى القادة بما عاهدوا عليه فأخرجوا حامية أبى صخير وجاءوا بها إلى الكوفة ورابطوا على مقربة من هذه المدينة.

وحدث فى إبان الهدنة أن مرت سفن نهوية تحمل ميرة وعتادا إلى حامية الكوفة بمنازل قبيلة بنى حسن (وتنزل بين الكوفة والكفل) فهاجمتها وقتلت من فيها ونهبتها. فانتقضت بذلك الهدنة واستؤنف القتال.

٣- معركة الرستمية

وعقد الزعماء اجتماعا على الفور لتقرير الخطة الجديدة التى يتبعونها فتم الاتفاق على أن تتولى قبيلة بنى حسن حصار الكوفة، وتعمل قبائل الشامية فى ميدان الكفل والحلة، ونفذ ذلك فورا. فتحرك السيد علوان والشيخ عبد الواحد، وبقيادتهما القبائل إلى الكفل واحتلوها يوم ٢٢ يوليو وفر الموظفون.

وسيرت القيادة الإنكليزية قوة من الحلة إلى الكفل للاستطلاع بقيادة الكولونيل كار دكاسل تتألف من الفوج الثانى من ألاى ما نشستر، وسريتين من كتيبة سند ٣٥ وسرية من فوج سيخ ٣٢١ الفنى، والبطارية ٣٩ فواصلت تقدمها وعسكرت عند قناة الرستمية بقرب الكفل مساء ٢٤ منه، وبدأت بحفر خنادق فبلغ ذلك الثوار فى الكفل فتحرك نحو ثلاثة آلاف لمهاجمة الحملة وبادرتهم البطارية بإطلاق النار فتقدموا حتى صاروا على مسافة ١٥٠ ياردة منها وباشروا بإطلاق النار عليها فصدر إليها الأمر بعد قليل بالاستعداد للانسحاب فى خلال ساعة. لأن قائدها خاف أن يهاجم الثوار الحلة نفسها، ووقع ذعر واضطراب فى ساقتها فقتل بعضهم وأسر آخرون - كما هاجمها من الأمام ثوار آخرون واردوا من أماكن قريبة فوقعت بين نارين. بيد أنها استطاعت أن تشق طريقا لها. فوصلت الحلة بعد عناء، وفقدت كما جاء فى بلاغ إنكليزى ٣١٨ جنديا أسر منهم العرب ١٦٠ منهم ٧٩ إنكليزيا و٨١ هنديا و٢٠ قتيلا ويقول الثوار إن عدد الذين سلموا منها كان قليلا وأنهم غنموا منها ٤٠ رشاشا، وسقط مدفع من مدافعها فى القناة ليلا. فاغتنمه الثوار مع كثير من القنابل. ويسمون هذه المعركة أيضا معركة الرازنجية.

واقترب الثوار من الحلة على أثر هذا الانتصار. فعسكروا فى الطهمازية قربها فاتخذت السلطة تدابير شديدة للدفاع عنها، وحصنت محيطها، ويمتد إلى ستة أميال ويشمل البلدة ومحطة السكة الحديد ورصيف النهر والمطار – كما قيدت حركات سكانها.

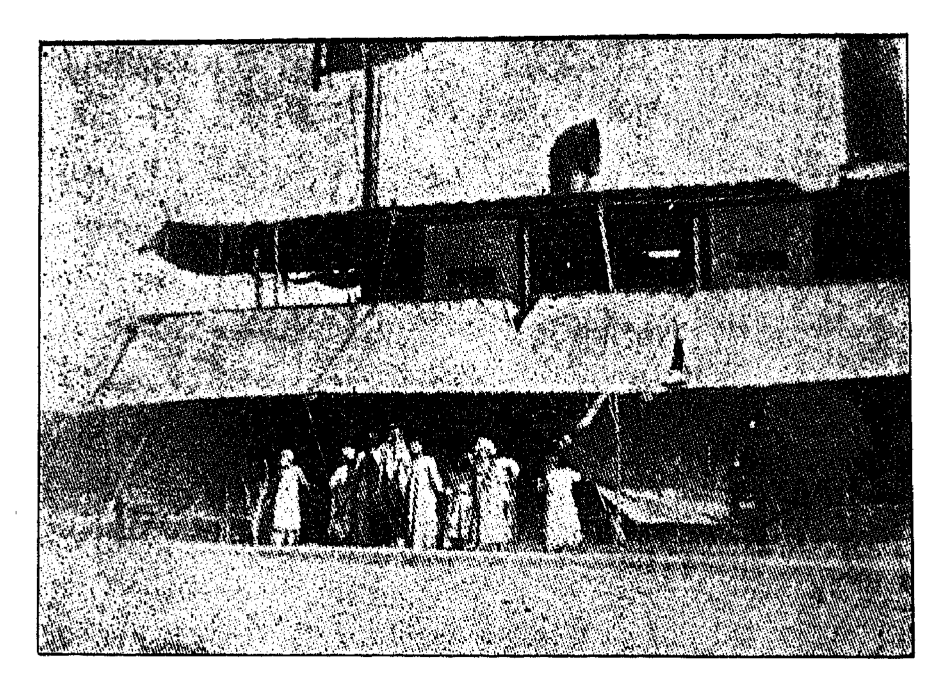
وحمل الثوار ليلة ٢٨ يوليو حملة استطلاع على الحلة فردتهم الحامية ثم حملوا حملة صادقة يوم أول أغسطس. فقاومهم الجند مقاومة شديدة – طبقا لتعليمات القائد العام – وتقضى بعدم التنازل عنها بأى شكل كان، بيد أنهم شقوا طريقا لهم فى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، وتقدموا من ناحية الجنوب، ولم يكن هنالك سوى قوة صغيرة من الهنود ورجال الدرك المحلى. وقد أبى هؤلاء أن يقاتلوا أبناء بلدتهم فتركوا المخفر وانسحبوا، ودخل الثوار المدينة فدار القتال فى الشوارع، ووصلت فى تلك الساعة نجدة للانكليز بقيادة الكولونيل (بطر) اشتركت فى المعركة، وحملت الثوار على الخروج من البلدة، ولجأ بعض الدين كانوا فى الشوارع الداخلية إلى بيوت السكان فآووهم فى منازلهم، واستخدموا الحيل فى إخراجهم ولم يفقد منهم سوى واحد، وأحرقت الحكومة بعض البيوت القريبة من السور.

٤- فى عفك والدغارة

حمل الميجور رايلى حاكم لواء الديوانية بقوة صغيرة يوم ٢٥ يوليو على بنى الأقرع وحرق منزل شيخهم سعدون الرسن، فقابلوه بالرصاص وظلوا يطاردونه حتى أبواب الديوانية. ولما أطلق سراح الشيخ قصد الرميثة. فتبين صحة الخبر القائل بإعلان الثورة. فعاد إلى منازله وأمر رجاله بمهاجمة مخفر الدغارة، وبما أن رجال المخفر من قبيلته فقد انضموا إليه وسلموه المخفر. وفر حاكم الدغارة إلى الديوانية. وانضم رجال قبيلة البوسلطان إلى الثورة وهاجموا قطارا برح محطة الديوانية يوم ٢٠ منه فأخرجوه عن الخط وعطلوه، وسعت مصلحة السكة الحديد لإنقاذه فلم توفق.

٥- الجلاء عن الديوانية

واستدعى الميجور رايلى حاكم الديوانية الشيخ شعلان آل عطية يوم ٢٨ منه، وكان قد اعتقله فى ابتداء الحوادث. لما يعرفه من صلته بالثوار. وقال له إنه يطلق سراحه إذا تعهد



المدفعية فاير افلاي قبل أن يدمرها الثوار



المجاهدون في النجف يستعدون للذهاب الى ساحات الحرب

بالمحافظة على الجنود أثناء الانسحاب. فلا يقع اعتداء عليهم. حتى يجتازوا آخر حدود موطن بنى الأقرع – والشيخ من رؤسائهم – واشترط عليه أن يسلم أحد أولاده رهينة. فقبل ذلك فأطلق سراحه. ولما أبلغ قومه ما تم بينه وبين الحاكم لم يجيزوه، وتمت الاهبة للانسحاب فغادر الجنرال كوننغام يوم ٣٠ منه الديوانية بقواته بعد ما سلح بعض عربات القطار لحماية الساقة فهاجمه الثوار فأصلاهم نارا حامية، وفتك بهم وواصل سيره وهم يتعقبونه حتى بلغ جسر خان جدول فعسكر فيه لقضاء ليلته واستأنف السير فى الغداة. فعلم حينما بلغ ابن على أن الثوار خربوا ٣٥٠ ياردة من السكة الحديد، وعطلوا جسر السكة بقربه فاستمر فى طريقه ولم يتسن له يوم أول أغسطس أن يسير أكثر من خمسة أميال بسبب كثرة التخريب على سكة الحديد. واشتبك مع الثوار بمعركة شديدة حينما بلغ نهر الأبخر قرب محطة قوجان، استمرت ثلاث ساعات وأسفرت عن خسارة الثوار نحو ١٠٠ قتيل وخسرت الحملة أكثر من ذلك، واشتركت قبائل الجبور بقيادة الزعيمين قوجان ودوهان وعشائر الدغارة بقيادة سعدون الرسن وقبائل عفك بقيادة الزعيمين الحاج مهدى فاضل وشقيقه الحاج صلال الموح فى هذه المعركة.

وبلغت القوة البريطانية محطة قوجان بعد ظهر الأربعاء ٣ منه فاستقت وملأت مستودعات الماء، وواصلت سيرها بحراسة قوة يقودها الكولونيل مكفين ومعه قطار للترميم، وكانت مهمة هذا القطار ترميم السكة حتى نهر الجربوعية.

واستأنفت الحملة سيرها يوم ٤ منه فعرقل حركتها خروج العربات عن الخط، واغتنمت الفرصة فضربت بعض القرى التى انضم أهلها إلى الثوار، وكانت طول سفرها عرضة لهجومهم. ثم اشتبكت يوم ٥ منه فى أراضى الهاشمية بمعركة شديدة معهم، وظلت تقاتل وتتقدم حتى دخل قسم منها الحلة بعد ظهر ٩ منه، ودخل القسم الآخر يوم ١٠ وقد استغرقت رحلتها من الديوانية إلى الحلة ١١ يوما، وكان معدل سيرها خمسة أميال ونصف ميل كل يوم.

٦– فى السماوة

لم يكن للإنكليز حين نشوب الثورة قوات كافية فى الفرات الأدنى (منطقة المنتفك والناصرية) فأرسلوا يوم ٣ يوليو باخرتين تحملان القوات إلى السماوة استعدادا للنضال.

كما قصدها فى اليوم نفسه الميجورماى على رأس قوة صغيرة، وسافر إليها قطار مدرع للدفاع عنها. كما ذهبت قوة إلى مخفر محطة الخضر (منطقة السماوة) للمرابطة فيها. وتأخرت الأعمال العسكرية فى هذه المنطقة نحو أربعين يوما لاشتراك قبيلة البوجحيم فى معارك الرميثة والديوانية. فلما انتهت عادوا إلى منازلهم فاستراحوا مدة قصيرة. ثم شرعوا فى العمل فهاجموا السكة الحديد فى مواضع مختلفة قرب محطة الخضر، وضربوا الحصار عليها، وقد استمر مدة قصيرة. واتخذت السلطة تدابير شديدة لحماية السكة بين الناصرية والسماوة فأرصدت قطارين مدرعين ناطت بكل واحد حماية جانب منها. وهاجم الثوار يوم ١٢ أغسطس محطة الخضر. فتبادلوا وحاميتها النار، واشتركت الباخرة كرين افلاى – وكانت جالسة على الطين بإطلاق النار على الثوار – كما اشترك القطار المدرع المكلف بحماية السكة بين الخضر والسماوة فى المعركة. فهجم عليه الثوار وتعلقوا بمركباته فعاد على الفور إلى السماوة خوف الوقوع فى أيديهم. وعلى أثر ذلك صدر الأمر إلى حامية الخضر بالجلاء فجلت تحت حماية القطارين المدرعين، وقد ضايقهما الثوار وأخرجوا بعض المركبات عن الخط.

وعبأ الإنكليز قواتهم فى السماوة تعبئة فنية فحشدوا جانبا من الحامية فى المحطة، وآخر فى جسر البريوتى، وثالثا فى معسكر الميرة ورابعا فى مقر القيادة. وتولى القيادة الجنرال نبى وتلقى أمرا بالدفاع عنها، وعدم الجلاء بأى طريقة كانت. وحاول الإنكليز عبثا إنقاذ الباخرة كرين افلاى الجالسة على الطين. وكان الثوار يضايقونها برصاصهم ويفتكون برجالها الواحد بعد الآخر. وكانت الطيارات تحمل اليها أكياس الدقيق من آونة إلى أخرى. وقد قنص رجال الثوار طائرة فهوت وتحطمت وقتل قائدها. ولما اشتد الجوع ببحارة الباخرة أطلقوا فيها النار. وطرأ عطل على محرك الباخرة رقم – ٩ فى أثناء سيرها من الناصرية إلى السماوة يوم ٢٥ منه فرست على الشاطىء لإصلاحه فهاجمها الثوار، فدافعت حاميتها وقتل بعضهم وسلم الذين أسرعوا فى الهرب فعادوا إلى الناصرية.

واستقر قرار ولاة الامور العسكريين على الجلاء عن السماوة لصعوبة المواصلات برا ونهرا. فجلوا عنها يوم ٣ سبتمبر بدون عناء يذكر، وغادرتها حاميتها بحماية القطار المدرع رقم ١ وتعطلت القاطرة قرب السماوة. فوقف القطار فهاجمه الثوار، وقتلوا الكابتن رسل والكابتن فيجى من ضباطه، واستمر إطلاق النار متواصلا بينه وبينهم مدة ثلاثة أيام، وصعدوا إلى مركباته بعد نضال استبسل فيه الفريقان، ولم ينج من حاميته سوى القليل.

٧- فى الكوفة

جلا البريطانيون من ابتداء الثورة عن النجف وكربلاء، وحشدوا قواهم الكبرى فى الكوفة على الفرات، وجاءوا بالبارجة فابر افلاى وهى مجهزة بمدفعين، واثنى عشر رشاشا فوضعوها أمامها للدفاع عنها، كما ادخروا كمية كبيرة من الميرة استعدادا للنضال. ولما كان بقاء هذا المعقل سليما فى وسط منطقة الثورة لا يخلو من أخطار. فقد اتجهت النية فى أواسط شهر أغسطس إلى مهاجمته ومضايقة حاميته، لحملها على التسليم، ونقل الثوار على الأثر المدفع لذى غنموه فى معركة الرستمية بعد ما أصلحوه واستعملوه بمهارة فى مقاومة البارجة فابر افلاى وصبوا منه قنابل عليها فاتقدت فيها النار واحترقت فغادرها رجالها ولجأوا إلى المعقل، فأطلق عليه الثوار نار مدفعهم الوحيد، وشددوا الحملة فقابلتهم الحامية بنيران مدافعها فأتلفت مدفعهم. فلم يفت ذلك فى عضدهم. بل انصرفوا إلى حفر نفق يتصل باستحكاماتها الشمالية وحشوه بالبارود لنسفها فلم ينفجر وظللت الحامية ثابتة حتى نهاية الثورة.

٨- فى اعالى الفرات

دعا الكولونيل لنجمان حاكم لواء الدليم السياسى، ومن أكثر الضباط الانكليز معرفة بشؤون العراق الشيخ ضارى المحمود رئيس قبيلة الزوبع إلى مقابلته يوم ١٢ أغسطس فى خان المنطقة الواقع بين بغداد والفلوجة، ويبعد عن الأولى ٣٠ كيلو مترا فقط. فجاء الشيخ فى الموعد المضروب ومعه نجله خميس وبعض أتباعه ثم وصل الكولونيل بسيارته ومعه خادمه فاستقبله الشيخ ودخلا معا إلى الخان، وكانت فيه قوة من الدرك، وبينما هما يتحادثان جاء جماعة إلى ضابط نقطة الخان وأبلغوه أن عصابة من اللصوص هاجمتهم فأمره الكولونيل بأن يسرع فى مطاردتها مع عشرة من رجاله وبضعة من رجال الشيخ فصدع بالأمر وأثار هذا الحادث ثائره. فأخذ يؤنب الشيخ ويلقى عليه تبعة الإخلال بالأمن فاستاء هذا واستأذن فى الخروج فخرج ثم عاد ومعه نجله وآخر من قبيلته فدخلوا على الكولونيل وبادره الثانى بإطلاق خمس رصاصات فسقط صريعا، وأجهز عليه الشيخ بسيفه ثم غادر النقطة وأعلن الثورة فانقطعت بذلك المواصلات بين بغداد والفلوجة، وتحرج موقف القوات الإنكليزية فى الرمادى، ولم يهدىء روعها سوى زيارة الشيخ على سليمان. فقد أبلغ قوادها أنه لا خطر عليهم وقد بر بعهده فقدرت السلطة عمله، وخصصت له راتبا ضخما.

وغادرت الرمادى يوم ١٥ أغسطس ثلاث بواخر تحمل مؤونة وعتادا إلى حامية الفلوجة وباخرة صحية تحميها باخرة مسلحة، وما كادت تبتعد خمسة أميال عن الرمادى حتى فاجأها الثوار بنيرانهم فلم تجبهم، وواصلت سيرها حتى باتت على خمسة أميال من الفلوجة. فجلست باخرتان منها على الطين لانخفاض الماء وأطلق الثوار الرصاص على الباخرتين الأخريين فأصابوا قائديهما فجرتا مع الماء ثم جلستا على الطين. وواصلت الباخرة المسلحة إطلاق النار حتى نفد عتادها فهجم عليها نحو ٥٠٠ من الثوار وأضرموا فيها النار ونهبوا ما فى البواخر، ونجا بعض الملاحين الذين أسرعوا فى الفرار، وأرسل فى الغداة اللفتنانت كولونيل ولميس قائد الرمادى قوة عسكرية إلى محل الحادثة قتلت بعض العرب وعادت من دون أن تشتبك بمعركة.

٩- فى ديالى

لما شبت الثورة فى الفرات، واتسع نطاقها وخيف أن تشمل الاجزاء الأخرى بدأ حكام المناطق باتخاذ ما يرونه مفيدا من التدابير لتوطيد الأمن. ومن جملة هؤلاء الميجور هايس حاكم لواء ديالى. فقد اغتنم فرصة حادث سلب فدعا شيوخ القبائل إلى زيارته فى بعقوبة مركز لواء ديالى، ولما جاءوه أمرهم بعدم الخروج إلا باجازة خاصة منه، وبعد ما أقاموا أياما أذن لهم بالعودة إلى منازلهم بعد ما أفهمهم خطر الانضمام إلى الثورة. وطلب اليهم المحافظة على الأمن، واستثنى منهم الشيخ حبيب الخيزران رئيس قبيلة العزة لما يعرفة من ميوله الوطنية ومن اتصاله بزعماء الثورة.

وغادر الميجور هايس بعقوبة بعد أيام إلى بغداد للاستشفاء من مرض أصابه فحل الكابتن لويد حاكم دلتاوة محله فزاره الشيخ حبيب طالبا السماح له بالسفر إلى بغداد لقضاء أيام. على أن يعود بعدها إلى بعقوبة. فسمح له بالسفر فجاءها وقضى فيها أياما وبدلا من أن يعود إلى هنا كما وعد – سافر إلى منازله فى دلتاوة – فجمع يوم وصوله طائفة من زعماء عشيرته وزعماء العشائر المجاورة فتحالفوا على الانضمام إلى الثورة، وعلى أن يشد بعضهم أزر بعض، وعلى أن يسهروا على أموال الناس وأرواحهم، وأفهمهم أن الغاية من حركته هى تعطيل السكة الحديد بين بغداد وخانقين الواقعة على الحدود الإيرانية فلا تنقل القوات الانكليزية التى شاع يومئذ أنها قادمة من إيران لمنازلة الثوار. وحمل الشيخ برجاله فى الغداة

على بعقوبة فاحتلها وغادرها الحاكم السياسى فأنشأ الثوار حكومة برئاسة السيد محمود المتولى. وسقط الكابتن لويد حاكم دلتاوة والميجور استرخن من موظفى الرى وإنكليزى ثالث بقبضة الشيخ فنقلهم إلى قرية دللى عباس، وأنزلهم فيها وبالغ فى إكرامهم.

وأبى الكابتن رايتلى معاون الحاكم السياسى فى شهربان من أعمال لواء ديالى أن يستسلم للثوار الذين حاصروه فى المخفر. بل قاومهم فدار قتال استمر ثلاثة أيام، وانتهى بسقوط المخفر بأيديهم يوم ١٥ أغسطس.. فقتل وقتل معه الكابتن بردفلد قائد حامية المخفر والمستر بوكن والسارجن ميجور نيوتن – عدا رجال المخفر الآخرين. واتخذ الثوار بلدة روز مقراً للأسرى الذين سقطوا فى أيديهم من رجال الحكومة. ولم يغفل الثوار تعطيل السكة الحديد. وهى الغاية من الثورة. فبدأوا يوم ٨ أغسطس بتخريبها فانقعطت المواصلات بين العراق وايران.

ولما وصلت هذه الأخبار إلى بغداد سيرت القيادة العليا يوم ١٠ أغسطس قوة كبيرة بقيادة الجنرال بنك لمهاجمة القرى العربية الواقعة شمالى بعقوبة وتأديبها فباغتها نحو ٣٠٠ ثائر أثناء سيرها فألقوا الرعب فى صفوفها – على أنها ما لبثت أن لمت شعثها وصمدت لهم، وجاءتها نجدة وهى تقاتل فارتد الثوار وانسحبوا، وحملت القوة على القرى فلم تلق مقاومة، ثم عادت إلى معسكرها على نهر ديالى قبالة بعقوبة ومنها ارتدت إلى بغداد بعد ما تركت قوة صغيرة لحماية جسر السكة الحديد ومحطة اللاسلكى القريبة منه. ثم عززت بنجدات جديدة. وكان على مقربة منها معقل الآشوريين النازلين على ديالى فاستخدمتهم فى مقاومة الثورة – فقاتلوا العرب فأحاطوا بمعقلهم وحاصروه ثلاثة أيام قتلوا فى خلالها نحو ٤٠ من رجاله، وسيرت السلطة قطارا إلى بعقوبة شحنته بالميرة والعتاد فنسفه الثوار على أربعة أميال من هذه. فأسرع قائد المعقل الأشورى واسمه الكولونيل كتيف هاون مع رجاله إلى محل الحادث، وحال بين الثوار وبين الذخائر والبنادق، ونقلها إلى معقله. فاطمأن الآشوريين وتسلحوا واستبسلوا فى الدفاع عن معقلهم.

١٠– فى كركوك واربيل

وامتدت الثورة إلى شرقى بغداد حتى بلغت كركوك وأربيل. كما وصلت فى الغرب حتى الفلوجة والرمادى. ولما كان الجنوب كله تقريبا بيد الثوار فقد أصبحت بغداد شبه محصورة، ولا سيما بعد ما وصل الثوار إلى قرب المسيب، وعطلوا السكة الحديد بين بغداد والحلة،

وشرعوا فى مهاجمة المحمودية بالاتفاق مع قبائل اليوسفية المجاورة بغداد. ولهذه الاعتبارات أصدر القائد العام أمرا إلى الجنرال ساندرسن قائد بغداد العسكرى بإنشاء الحصون والمعاقل استعدادا للدفاع عنها. كما عهد إليه بإعادة خط المواصلات بين بغداد والفلوجة، ووضع تحت أمره قوة مختلطة كبيرة مع فرقة من العمال، وبدأت هذه القوة عملها يوم ٣ سبتمبر فتقدمت ببطء ثم عززت بسريتين فنيتين يوم ٢٠ منه فبلغت خان النقطة فى ٢١ منه، وضربت بمدافعها قلعة الشيخ ضارى (قاتل لنجمان) ونسفتها، وقطعت الماء عن مزارعه، وكان يقاتل مع الثوار فى أعالى الفرات. وفى يوم ٢٤ منه وصل قطار مدرع إلى الفلوجة وأنشأ الإنكليز الحصون على طول خط الفرات وشحنوها بالجند. كما أنشأوا معقلا قويا تجاه قناة العقلاوية لمراقبة الماء ومنع الثوار من كسر السد.

وما جرى فى هذا الميدان جرى فى ميدان ديالى (شمالى بغداد) تقريبا فقد سيرت السلطة قوة دخلت بعقوبة يوم ٢٩ أغسطس بدون مقاومة تذكر، وقصد أحد ضباطها منزل القاضى حسين افندى، وأطلق عليه الرصاص فقتله. لأنه كان من دعاة الثورة وقتل عددا من الأهالى. ووصلت نجدات جديدة من إيران ومن الهند للسلطة. فأصلحت سكة حديد بغداد - خانقين وبسطت نفوذها على تلك الربوع.

١١

التنظيم الداخلى فى الفرات

ورأى زعماء النجف وعلماؤها بعد ما دارت رحى القتال وجلا الإنكليز عن البلاد أنه لابد لهم من تنظيم الشؤون الداخلية. فبدأوا فأنشأوا مجلسا بلديا للنجف هذه أسماء أعضائه:

الحاج عبد الرزاق شمسه والشيخ عباس شمسه وحسين الظاهر وكردى عطية أبو طلل والسيد سعيد كمال الدين.

وكان فى مقدمة مهامه جمع الرسوم والضرائب المحلية، والإشراف على الشؤون الصحية وأنشأوا أيضا كتيبة من الدرك للمحافظة على الأمن، وأنشأوا أيضا حكومة محلية تتألف من هيئتين: هيئة أعضاء مجلس الإدارة وهم: الشيخ جواد الجوهرى رئيسا، وعبد المحسن شلاش ناظر المالية، والسيد مهدى السيد سليمان رئيس القوة الإجرائية. وهيئة القوة التنفيذية وتتألف كما يأتى:

السيد مهدى السيد سليمان والحاج حسون شربه والحاج حسين الظاهر وكردى عطية أبو طلل والحاج محمد البرشاوى والحاج عبد الله الشمرتى وعنيدان عدوه والسيد على جريو.

وكانت هناك هيئة خاصة لإدارة شؤون الأسرى البريطانيين تتألف من: الشيخ عبد الكريم الجزائرى وعبد المحسن شلاش، وهادى الجوده كاتب الارزاق، والشيخ عبد الحسين الحلى سكرتيرا. أما الهيئة العلمية الدينية العليا التى كانت تشرف على شؤون الثورة وتديرها فكانت تتألف كما يأتى:

الشيخ فتح الله الشريعة والشيخ جواد الجواهرى والشيخ عبد الكريم الجزائرى والشيخ مهدى والشيخ ملا كاظم والشيخ إسحق آل حبيب الله والشيخ موسى تقى والشيخ مشكور الحولالى والشيخ عبد الرضا الشيخ راضى والشيخ على الحلى والسيد محمد على بحر العلوم

والسيد على السيد حسين وعبد المحسن شلاش. وكانت الرئاسة العليا لشيخ الشريعة الأصبهانى. وقد خلف المرحوم العلامة الشيرازى فقد انتقل إلى رحمة ربه يوم الثلاثاء ٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٨ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٠ أى بعد اعلان الثورة بخمسين يوما.

وأنشئت أيضا حكومة وطنية فى كربلاء يشرف عليها مجلس قوامه السيد هبة الدين الشهرستانى والسيد أبو القاسم والشيخ أحمد الخراسانى وعين السيد محسن أبو طبيخ متصرفا لكربلاء.

وتولى السيد علوان الياسرى والشيخ عبد الواحد رئيس قبيلة الفتلة إدارة دفة القتال بين الهندية وكربلاء، وكانا يتوليان بالاشتراك قيادة الجموع المحاربة. وتولى السيد قاطع العواد قيادة القوى المحاربة حولة الحلة. ويقدر ما أنفقه السيد علوان الياسرى والسيد نور آل السيد عزيز والشيخ عبد الواحد بثلاثين ألف جنيه على تموين الثورة، وتدارك لوازمها واستمالة بعض العناصر لتأييدها. ومما يستحق الذكر أنهم كانوا يرسلون الأموال من الفرات إلى بغداد لإنفاقها فى تنظيم المظاهرات، وتنشيط الحركة الوطنية فيصل صدى ما يقع على ضفاف دجلة إلى الفرات فيتحمس الناس وينضمون إلى العاملين للاستقلال ويشدون أزرهم.

وتولى الشيخ محمد باقر الشبيبى الكتابة للثورة فكان يصدر مناشير يومية يذيع فيها أخبار القتال فى شتى مناطقه. وسير الحركة ويدبج المقالات الوطنية النافعة المفيدة. ومما جاء فى منشور أصدره يوم ١٤ ذى القعدة قوله:

إن الوطن الذى ألزم كل فرد منكم الدفاع عنه يلزمكم أيضا أن تراعوا الشروط الآتية.

١ - يجب على كل رئيس قبيلة أن يفهم كافة أفرادها أن المقصود من هذه النهضة إنما هو طلب الاستقلال التام.

٢ - أن يهتف للاستقلال كل من فى ميادين القتال.

٣ - يجب تأمين الطرق وحفظ المواصلات بينكم وبين مناطق الثورة فى البلاد.

٤ - يلزم التمسك بالنظام وتدبير الحركات، ومنع الأعتداءات. فلا نهب ولا سلب ولا ضغائن قديمة ولا أحقاد.

٥ - من الواجب بذل الهمة لحفظ الرصاص. فلا يجوز إطلاقه فى الهواء بدون فائدة.



الاسرى البريطانيون الذين وقعوا بيد الثوار العرا قيين



الملك فيصل مع فريق من رجال الثورة العراقية بعد وصوله الى العراق

٦ - يجب الاعتناء بالأسرى ضباطا أو جنودا إنكليزا أو هنودا.

٧ - يجب إبقاء أدوات التلغراف والتلفون وحفظ الأعمدة فإن فى حفظها منافع عظيمة للأمة. نعم يجب قطع الأسلاك البرقية إلى حد تنقطع معه مخابرات الحكومة المحتلة.

٨ - يلزم الاهتمام بقلع السكك الحديدية، ولاسيما نسف الجسور والقناطر التى يمر منها القطار.

٩ - يجب الاحتفاظ بما يقع تحت أيديكم من عربات النقل والسيارات والمراكب.

١٠- يجب حفظ المدافع والرشاشات، ولا يجوز تخريب آلاتها أو توزيعها مطلقا. لأنها من أكبر وسائط الفوز وأعظم وسائل النصر.

١١ - يلزم حفظ الذخيرة المغتنمة كالرصاص والقذائف والقنابل وسائر أنواع البارود.

١٢ - إذا أسقطتم مدينة أو قرية فلا تتركوها منحلة. بل الواجب ترتيب حكومتها الموقتة.

١٣ - لا تهدموا محلات الحكومة وأبنيتها إلا إذا كانت معقلا، ولا تتلفوا أثاثها لاحتياجكم إليه فى المستقبل.

١٤ - حافظوا على المستشفيات وكافة أدواتها وأجزائها.

١٥ - ارفقوا بجرحى خصومكم الساقطين فى الحرب. فلا شىء يستحق الرفق والعطف مثل الجريح الذى يعانى من ألم جراحه ما يدمى القلوب ويبكى العيون.

وأنشأ الشيخ محمد باقر جريدة الفرات «أسبوعية» لتأييد الثورة ولم يصدر منها سوى خمسة أعداد، وأصدر السيد محمد عبد الحسين جريدة الاستقلال فى النجف لتأييد الثورة ولم ينشر منها سوى ثمانية أعداد.

العودة إلى المفاوضات السلمية

واغتنم السير أرنولد ولسن الحاكم العام فرصة وفاة المغفور له الإمام الشيرازى وتبوء شيخ الشريعة الأصبهانى الزعامة الدينية للشيعة الإمامية فأرسل إليه يهنئه بما ناله ثم عزه يوم ٢٧ اغسطس بالكتاب الآتى، وكانت الثورة فى أشد انتشارها وفوزها قال:

إلى حجة الإسلام شيخ الشريعة الأصبهاني.

حضرة العلامة الفهامة حجة الإسلام والمسلمين آية الله فى العالمين شيخ الشريعة الأصبهانى، دام علاه.

بعد إهداء السلام والتفقد عن صحة ذاتكم الشريفة. تؤمل أن كتابنا الذى أظهرنا فيه إحساساتنا الودية وتبريكاتنا الصميمة بتقلدكم هذا المقام المنيع والشرف الرفيع الذى أنتم حائزون عليه الآن قد وصلكم سالما. ولكن فى الحقيقة ونفس الأمر أن المقام الرفيع يستوجب التعزية والتسلية لا التبريك والتهنئة. وخصوصا فى هذه الأيام نظرا إلى المصائب التى انتابت العراق وسائر أبنائه، وكان هذا من آراء سلفكم المرحوم العلامة المبرور الميرزا محمد تقى الشيرازى طاب ثراه. الذى كما هو معلوم لدى العموم عبر فى إحدى مفاوضاته الأخيرة عن رغبته فى عقد الصلح بين الحكومة والملة واجتناب سفك الدماء وإزهاق النفوس. ولا يمكننى أن أشك أن الذات المتازة بصفات الإنسانية والتقوى كحضرتكم لابد أن تشعر بهذا الشعور السامى. وأما من جهة الحكومة فكما هو المعلوم فى أقطار العالم أن الحكومة الإنكليزية المعظمة قد اعتمدت دائما على الأركان الثلاثة. وهى الرحمة والعدل والتسامح الدينى، ومن قبل أن تقع الحرب العظمى كان للدولة الإنكليزية التى شعارها المسالمة جيش صغير للدفاع عن نفسها. فلما أسرع الترك والألمان بالهجوم على بريطانيا العظمى قامت الأمم الساكنة فى المالك الإنكليزية قومة واحدة ودخل أبناؤها فى صفوف الجيش.

ولما انكسر العدو شر كسرة، ووضعت الحرب أوزارها كان للدولة الإنكليزية جيش جرار عدده خمسة ملايين. منتشرا فى بلاد العدو، وفى العالم بأسره، ولما انتهت المنازعات بادرت إنكلترا إلى تسريح جنودها فرجعوا إلى منازلهم وأوطانهم، وعادوا إلى الحياة السلمية فنقض بذلك عددهم نقصا كبيرا. على أنه يمكن حشد هذا العدد العظيم مرة أخرى إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وأما من جهة ثروة الدولة الإنكليزية وسائر مواردها. فلا يجب أن أبسط ما هو ظاهر كالشمس فى رابعة النهار. فأهل العراق قبلوا الدولة الإنكليزية، وكانوا مسرورين من بقاء جيوشها فى هذه البلاد لما غلبت الترك. ولما رأى بعض المفسدين والمغرضين أنها بدأت بتخفيض جيشها قاموا يشوشون الأذهان، ويهيجون الأفكار. فظهرت الحالة الحاضرة التى توجب الأسف، وما هى الحالة الآن؟ هى إن العشائر العراقية فى حالة حرب قوية. ولكن عددها

قليل ولا تملك من الدراهم إلا الأقل، وليس لها وسائل لاختراع الآلات الحربية كالمدافع والبنادق والرصاص، ولا يمكنها أن تحصل على المساعدة من الخارج، واذا لم ترجع إلى زراعتها فإنها ستتلف وتموت جوعا. ها قد بذل العرب حتى الآن ما فى وسعهم من الجهد، ولا يمكنهم أن يأتوا فوق ما عملوا. وهم يرون رأى العين أن قواتهم مائلة إلى الزوال بعكس الحكومة. فإن قوتها كانت فى مبدأ الأمر قليلة فضايقتها العشائر بعض مضايقة. أما الآن فإن البواخر ترد كل يوم إلى البصرة حاملة العساكر والمدافع والقنابل والبنادق والرشاشات والذخائر الحربية وسائر ما يلزم للأعمال العسكرية. واذا اقتضى نظركم الشريف أن تبعثوا معتمدا إلى بغداد لكى يشاهد هذه الأشياء بعينه فإنا نرحب به ونرجعه سالما آمنا من دون تأخير.

والخلاصة أن النتيجة النهائية معلومة. فسفك الدماء لا يدوم وستجازى الحكومة البريطانية عملا بقواعدها بعض المشايخ وغيرهم من الذين ضللوا الناس – وأسماؤهم معلومة عندى كما هى معلومة لديهم – ولا ريب أن فضيلتكم تعرفونهم أيضا. ولا حاجة إلى ذكرهم هنا ولكن لا خوف على غيرهم ولا على عامة الناس. بل يمكنهم أن يرجعوا إلى أوطانهم ومنازلهم آمنين وستسلم نفوسهم، وكما لا يخفى على فضيلتكم أننى بالنسبة لخطورة المسألة عينت الكولونيل هاول ناظر المالية نائبا عنى ليدخل فى المفاوضات والمراسلات التى لابد أن تجرى قبل أن تنتهى المنازعات، وبما أن حضرتكم مشغولو البال فى الأمور الدينية والمسائل الروحانية على الاغلب. نرجوكم أن تعينوا معتمدا أو معتمدين ليجتمعا به فى مكان يتفق عليه. ويبحثوا معه هذه المسائل المهمة. وفى الختام نبلغكم احتراماتنا الوافرة، وتحياتنا الصميمة والسلام. فرد عليه الشيخ يوم ١٥ سبتمبر بالكتاب الآتى:

«حضرة الحاكم الملكى العام ببغداد

استشعرنا من إلقاء طياراتكم فى عدة أماكن صورة كتابكم إلينا مضافا إلى طبعه فى جريدة العراق اهتماما بوقوفنا عليه، وطلبا لجوابنا عنه. ومن الغريب أن كتابكم هذا سبق جوابه منا. قبل أن تحرروه بمدة طويلة. مرة بعد أخرى بثثنا نصائحنا فيها وأنذرناكم قائلين لكم تداركوا الأمر قبل خروج علاجه عن مقدرتنا. ولاشك أنكم تعلمون أن تداركه بإعطاء العراقيين حقوقهم التى طالبوكم بها مطالبة سلمية فأبيتم إلا اغتصابها وجعلتم أصابعكم فى آذانكم حذرا من أن تسمعوا مطالبا بها، وأخذتم بعد الوعود بالوعيد وبعد التأميل بالتضليل

١٤

الثورة فى مرحلتها الختامية

بعد ما تم للسلطة اخضاع الثوار فى منطقة ديالى وفى أعالى الفرات التفتت إلى الفرات الأوسط، وكانت قد تلقت فى خلال هذه الفترات نجدات كبيرة من الهند. فزحف الآلاى ٥٣ يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٩٢٠ على بلدة طويريج فاحتلها فى اليوم نفسه بعد قتال عنيف خسر فيه ٢٠ قتيلا. وحاول الثوار أن يحرقوا جسر البلدة عند انسحابهم فصدتهم القوى المهاجمة فتحصنوا ببعض المنازل المطلة على الفرات وأطلقوا النار من كواتها على العدو. إلا أنه دخل المدينة وأكرههم على مغادرتها بعد ما لحقت بالأبنية أضرار جسيمة.

ولم ير أهل كربلاء بدا من التسليم بعد ما سقطت طويريج فى يد الإنكليز فأرسلوا وفدا إلى مقر قيادة الآلاى عرض خضوعهم فامر بالسفر إلى بغداد لمقابلة المندوب السامى فسافر وعندما حضر فى ديوانه تليت عليه الشروط التى فرضتها الحكومة وهى.

١- تسليم سبعة عشر شخصا فى خلال ٢٤ ساعة للمحاكمة. لأن هنالك أسبابا تبعث على الاعتقاد بأنهم مجرمون.

٢- على أهالى كربلاء أن يسلموا فى مدة ثلاثة أيام أربعة آلاف بندقية مع كل واحدة مائة طلقة، ويجب أن يكون نصف البنادق من طراز حديث والنصف الآخر صالح للاستعمال. وإذا لم تقدم البنادق فيدفع ٢٠ ليرة عثمانية عن كل بندقية صالحة للاستعمال، وروبية عن كل رصاصة لا تسلم.

٣- إرجاع الأموال العائدة إلى الحكومة، ودفع تعويض عن الخسائر التى لحقتها وسيقدر مبلغ التعويض ويبلغ.

٤- الطاعة لأوامر الحكومة.

٥- أن لا يقبلوا لاجئا فارا من وجه العدالة.

٦- إذا لم ينفذ الشرطان الأول والثانى فى المدة المعينة، ولم يقدم سبب معقول فالسلطة العسكرية تتخذ التدابير اللازمة للتنفيذ.

فقبل الوفد الشروط ونفذت فعلا وسلم المطلوبون[١]

وزحف الآلاى ٥٥ يوم ١٦ منه لاحتلال الكفل ولما بلغها نصب فيها جسرا للعبور إلى الكوفة فهاجمه الثوار وحاولوا منعه من إنشائه فلم يفوز فارتدوا واستمرت الحملة فى زحفها حتى وصلت إلى مكان قريب من الكوفة فقضت فيه ليلتها وفى الصباح شرعت فى الزحف فقاومها الثوار مقاومة شديدة واستقتل الفريقان فى معركة حامية انتهت بفوز الآلاى ودخوله الكوفة وإفراجه عن حاميتها المحصورة وقد بلغت خسارتها زمن الحصار ٢٢ قتيلا بينهم الكابتن مان حاكم الحميدية وضابط آخر.

وأرسلت النجف مفوضين إلى الكوفة قابلوا قائد الآلاى ٥٥ للبحث فى شروط التسليم فاضطرهم إلى توقيع عهد مفاده أنهم يسلمون بلا قيد ولا شرط، وأنهم مستعدون لقبول ما تفرضه الحكومة من الشروط التى ترى أنها ملائمة للمصلحة. وأطلق على الفور سراح الاسرى الإنكليز الذين كانوا فى قبضة الثوار وهم ٧٩ أسيرا بريطانيا و٨٩ أسيرا هنديا فنقلوا إلى الكوفة وجميعهم بصحة جيدة، وقد أثنى بلاغ بريطانى رسمى على المعاملة الحسنى التى عامل بها النجفيون الأسرى.

وتقدمت حملة بريطانية أخرى لاحتلال السماوة فبلغتها مساء ١٣ منه وشرعت بمهاجمتها صباح ١٤ فتحصن الثوار فى غابات النخيل وقاوموا مقاومة شديدة، ولكنهم أضطروا إلى مغادرتها فى المساء بعد قتال عنيف فدخلتها الحملة فى الصباح، وانسحب الثوار إلى جسر السوير الواقع بقرب الإمام عبد الله فرابطوا فيه.

وهال الزعماء ما لحق بالثورة من فشل فى هذه المناطق فأخذوا يجمعون جموعهم

---

(١) هذه أسماء الذين سلموا:

هبة الدين الشهرستانى والسيد حسين القزوينى والسيد محمد الكشميرى والشيخ يحيى والسيد عبد الحسين الدره والسيد عبد الوهاب الوهاب وطليفح الحسون وشمس القزوينى ورحمن العواد وحمودى الصليلى وعباس البرغش وروكان.

واعتقلت السلطة فى الحلة كلا من:

الشيخ جواد الجواهرى والسيد محمد رضا الصافى وعبد المحسن شلاش والشيخ حسن ابن شيخ الشريعة والسيد عزيز الله وهم من أهالى النجف.

واعتقلت فى الكوفج: الحاج نجم العبود وحاج أمين كرماشه وعبد الرسول تويج.

واعتقلت فى الشامية. التسيخ عبد الواحد الحاج سكر والشيخ عبد الكاظم والشيخ السيد هادى زوين والشيخ عمران الحاج سعدون والشيخ سماوى الحلوب والشيخ على المزعل ومحسن أفندى من رؤساء عشيرة بنى حسن. وكان ضابطا فى الجيش البريطانى ثم التحق بالثوار.

واعتقلت فى الحلة: سلمان البراك وإبراهيم السماوى رئيس عشيرة خفاجه ومنوخ رئيس عشيرة خفاجه وشريف وعبود العنيد من رؤساء عشيرة الجبور ودوهان الدين من رؤساء عشيرة الجبور وفرحان الدين من رؤساء عشيرة الجبور.

ويستعدون للمقاومة فى الشامية. فحفروا الخنادق والحصون وكانت الطائرات الإنكليزية تغاديهم وتراوحهم كل يوم وتلقى عليهم الديناميت والقنابل، ولم يرعهم سوى إسراع سلمان العبطان ومحمد العبطان إلى مقر قيادة الآلاى ٥٥ واستسلامهما بدون قيد ولا شرط فأعلن العفو عنهما فورا واقتفى أثرهما فى التسليم جماعة من كبار الشيوخ فحوكم بعضهم وأطلق سراح آخرين ونفى غيرهم. ولما وصلت الحالة إلى هذا الحد غادر بعض الزعماء العراق إلى الخارج فقصد السيد محمد الصدر ويوسف السويدى دمشق وسافر جعفر جلبى أبو التمن والسيد علوان الياسرى والسيد نور والسيد عزيز والسيد محسن أبو طبيخ ورزوق العواد ورابح العطية وعلى البزركان وعبد الرزاق الهاشمى وعلوان الحاج سعدون إلى الحجاز.

والقبيلة الوحيدة التى صمدت ولم تستسلم هى قبيلة البوجحيم. فقد تحصن رجالها بمراكزهم قرب الإمام عبد الله (الرميثة) وكانوا يتبادلون الرصاص كل يوم مع الإنكليز. وأخيرا أوفدت السلطة مندوبا لمفاوضتهم بالتسليم فوافقوا على إرسال مندوب منهم إلى السماوة وبينما كان يتداول مع قائد القوة البريطانية فى الشروط أصدر هذا أمره بالهجوم على القبيلة فثبت رجالها وقاوموا مقاومة عنيفة وأفلحوا فى صد الهجوم واحباطه.

واستؤنفت المفاوضة بعد ذلك وتم الاتفاق على الشروط الآتية:

١ـ أن تكون للعراق حكومة عربية مستقلة.

٢ـ ان لا يطالب عرب البوجحيم بشيء خسرته الحكومة فى أثناء الثورة عدا ما تراه أعين رجال الحكومة باقيا فى أيديهم.

٣ـ أن لايؤدوا شيئا من الضرائب عن سنة ١٩٢٠ لانهم لا يستطيعون دفعها بسبب ما لحقهم من الأضرار الفادحة من جراء الثورة.

٤ـ أن يتعهدوا بالمحافظة على السكة الحديد التى تمر بأرضهم.

٥ـ أن يتعهدوا بتوطيد الأمن وحماية السلم فى جميع أراضيهم.

٦ـ أن يسلموا إلى الحكومة ٢٤٠٠ بندقية.

وفى يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٠ وقع على هذه الشروط، وبذلك انتهت الثورة.

١٣

عهد الانتقال

أسباب فوز الثورة العراقية

اتسع نطاق الثورة العراقية، وفاز رجالها فوزا مبينا فى ابتداء عهدها، فاستولوا على معظم مدن الفرات وحواضره. كما فازوا فى منطقة ديالى وبسطوا عليها نفوذهم وطاردوا الإنكليز وأسروا جانبا من ضباطهم وجنودهم، بينما كان الفرنسويون يدكون بناء الدولة الجديدة فى بلاد الشام، وهى الدولة التى أحاطها العرب بثقتهم وتأييدهم، والتفوا حولها واتجهوا بقلوبهم إليها.

وأسرع الانكليز فأذاعوا نبأ هذه القاصمة فى العراق وطبلوا وزمروا، وكتبوا ونشروا وظنوا أنها لابد موهنة قوى الثوار، وكانوا يتجهون نحو دمشق، ويستمدون منها العون الأدبى، ومعجلة فى القضاء على الثورة وإخمادها. ولكن ساء فألهم وخابت آمالهم. فقد زاد ما وقع الثورة ضراما، والثوار إقداما، فشددوا عليهم وضيقوا. ولولا نجدات قوية استقدموها من الهند وإيران على جناح السرعة، وحشدوها فى ميادين الثورة لتقلص ظلهم عن العراق، ولفقدوا كل نفوذ فى أرجائه.

وقد يعجب بعضهم لهذا التباين العظيم بين حركة دمشق وحركة بغداد، وقد نشأتا فى زمن واحد، وانبثقتا عن أصل واحد، وقامتا لغرض واحد، فتلك ترمى إلى تحرير سورية وتحقيق وحدتها واستقلالها، وتلك ترمى إلى منازلة الإنكليز حتى يفيئوا إلى الحق والصواب، وينفذوا العهود التى قطعوها للعرب باستقلالهم وحريتهم ـ ولا نرتاب فى أنه لو وفق الثوار السوريون إلى إدراك الفوز الذى أدركه إخوانهم العراقيون فى أيام الثورة الأولى، لتبدل الموقف فى دمشق وفى بغداد أيضا، ولكانت النتائج غير ما رأينا، ولكن ما العمل. وقد كانت الضربة شديدة مهد لها الفرنسويون واختاروا الزمن الملائم لضربها. فقد اشتد التنافس بين رجال الحكومة الفيصلية وقادتها، هذا يقول بالدفاع وذاك يقول بالتسليم، وهذا يعلق الاشتباك بالمعركة على تأييد الإنكليز العاجل. وهذا يقول بالاعتماد على الطليان. وهكذا تفرقوا بددا فنكبوا وهزموا ونفذ المقدور، ونكب العرب شر نكبة فى تاريخهم الحديث.

فاتحاد سكان الفرات قلبا وقالبا وانقيادهم إلى زعمائهم ورؤسائهم، وانقياد هؤلاء إلى شيوخ الدين وعلمائه، واعتقاد هؤلاء وهؤلاء منذ الساعة الأولى بأن القوة هى الوسيلة الوحيدة لاسترجاع الحقوق ولبلوغ الأمانى هو الذى صان للثورة العراقية مقامها، وحفظ لها جمالها وجلالها، وضمن لها ادراك ما أدركته من نتائج باهرة، بيضت وجه العرب، وخففت من آلامهم، ولا نرتاب فى أنه لو سارت الأمور فى سورية على هذا المنوال، واتبع القوم منذ الساعة الأولى خطة معينة، عملوا لتنفيذها وأعدوا المعدات لتحقيقها، لاتقوا الكارثة، ولكان ربح العرب من حركتهم أعم وأجزل.

هذا من جهة واحدة، أما من الجهة الأخرى فإن حركة العراق كانت موضعية بالنسبة لحركة الشام. ولولا ما حدث فى ديالى، لقلنا إنها فراتية، فقد وقف شمالى العراق كله على الحياد، ولم يشترك فى عمل إيجابى، اللهم إلا تلك العصابات التى قادها الضباط العراقيون، وجاءت من دير الزور قبيل الثورة ثم سكنت فى إباتها، ولجأت بغداد إلى السكون بعد ما ضرب الإنكليز ضربتهم يوم ١٣ أغسطس ومنعوا المظاهرات، وطاردوا الزعماء، وقد لجأ بعض هؤلاء إلى الفرات واشتركوا فى ثورته وفى مقدمتهم السيد محمد الصدر ويوسف السويدى وجعفر جلبى أبى التمن ومحمود رامز وعلى البرزكان. وانضم بعض الضباط إلى الثورة واشتركوا اشتراكا فعليا، وأدوا لها أجل الخدمات. والإنكليز الذين درسوا شؤون الثورة العراقية مجمعون على أنها كانت منظمة.

ووقفت البصرة على الحياد فى معظم الأدوار التى مرت بها حركة الجهاد الوطنى. ولعل منشأ ذلك كثرة طوائفها وعناصرها، وبديهى أن مثل هذا الانقسام لم يكن موجودا فى سورية فقد وثقت الأمة بحكومتها، والتفت حولها ولم تبخل عليها بشىء من مال أو رجال، ولو تيسر للعراق ما تيسر لسورية، وكان أهل العراق فى أول الأمر ينهجون نهج السوريين ويستمدون منهم العون والقوة، ولم تبخل سورية على العراق بشىء فى تلك الأيام العصيبة، مما سنعود إلى بسطه وتفصيله لكان فوزهم أعظم، فقد كانوا يقاتلون ـ والبندقية سلاحهم الوحيد ـ جيشا قويا مسلحا بأحدث معدات القتال وأدوات الهلاك والدمار. فمن طيارات إلى دبابات إلى قطارات مدرعة إلى مدفعية قوية إلى رشاشات. مما لم يتسن للعراقيين الحصول عليه فى أزمتهم تلك، وكان بعض هذه المعدات متوفرا عند حكومة دمشق، وكان فى استطاعة رجالها الحصول على كل ما يحتاجون إليه لو فكروا فيه من قبل، وأعدوا المعدات اللازمة للدفاع فى

خلال ثمانية عشر شهرا.

ولئن كتب العراقيون فى ثورتهم هذه صفحة خالدة فى تاريخ البطولة، ونالوا من انكلترا كل ما يمكن نيله، وما كانت تنوى أن تحدث حدثا أو تغير وضعا فى بلادهم، لولا قيامهم فى وجهها ومنازلتهم لجيوشها، فالسوريون لم يقصروا فى البذل والإنفاق، وإذا كان هنالك تبعة فلا يحملها الشعب السورى. بل يحملها أولئك الذين تربعوا فى مناصب الحكم من يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩١٨ حتى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٣٠ لا فرق بين عهد وعهد، ووزارة ووزارة، وطبقة وطبقة، وحزب وحزب، وجمعية وجمعية. فالتبعة لاحقة بهم جميعا، وهم مسؤولون عن كل فشل وإخفاق.

وهنالك من يعتقد أن فاجعة الشام كانت درسا مفيدا لزعماء العرب ورجالهم. فقد مزقت الحجب التى كانت مسدولة على أبصارهم فرأوا الحقائق فنهجوا نهجا جديدا فى معالجة القضية العراقية. والواقع أنه ما كاد الملك فيصل يغادر دمشق حتى ظهرت فى دوائر السياسة البريطانية فكرة ترمى إلى الاستعانة بنفوذه ومقامه فى تسكين الثورة العراقية، وفى انشاء حكومة وطنية فى بغداد بعد ما ظهر فساد النظام الذى أنشأوه وتبين بطلانه.

وسعى الفرنسويون إلى مقاومة هذه الحركة والوقوف فى وجهها، وحمل انكلترا على العدول عنها، ولكنهم ما لبثوا أن سكتوا مرغمين لما تبينوه من إصرارها وثباتها. وسنبسط فى الصفحات الآتية الأدوار التى مرت بها هذه الحركة، فنرافق الملك فيصل فى رحلته من حيفا إلى بورسعيد فكومو فلندن، ثم نرافقه إلى القاهرة فجده فمكة، ونواصل السير معه إلى البصرة فبغداد ونشهد إنشاء الدولة العربية الجديدة فى عاصمة العباسيين وندون أخبارها. فهى جزء ثمين من بحثنا التاريخى.

١٤
الملك فيصل فى حيفا

وصل جلالة الملك فيصل إلى حيفا مساء أول أغسطس سنة ١٩٢٠ قادما من درعا ودمشق فاستقبله ولاة الأمور البريطانيون استقبالا رسميا، ونزل فى فندق الكرمل على حسابه الخاص وأبرق إلى والده يطلب منه ارسال مبلغ من المال يستعين به فى رحلته إلى أوروبا - ولم يك يملك شيئا - فأرسل إليه حوالة برقية على البنك العثمانى بخمسة وعشرين ألف جنيه تسلمها - ويقال إن ستانتون باشا حاكم حيفا يومئذ حاول إقناعه بعدم السفر إلى أوروبا والعودة إلى الحجاز فأبى ذلك، وأزمع الرحيل فى صباح يوم ١٨ منه فرافقه عدد من رجاله، ولما بلغ الرملة جاء السير هربرت صموئيل المندوب البريطانى السامى لفلسطين مسلما، ووصل فى المساء إلى بورسعيد وغادرها يوم ٢٤ منه إلى أوروبا بعد ما أذيع أنه يسافر إلى لندن لشكر جلالة ملك الانكليز على الهدايا التى أهداها إلى والده، وأرسلت بواسطة اللورد اللنبى، وفى يوم ٣١ منه نزل فى ميلانو وأعلن فيها «أنه مصمم على الدفاع عن قضية سورية» وقد رافقه فى سفره هذا: إحسان الجابرى وساطع الحصرى وتحسين قدرى.

وكان المفهوم أنه سيقصد لوسرن لمقابلة المستو لويد جورج، ولكن اعلان هذا بأنه غير قادم إليها جعل الملك يعدل عن زيارتها، وقصد بلدة كومو فى إيطاليا وأقام فيها.

وزاره فيها الجنرال حداد باشا مندوبه فى لندن، وكان يعمل فى خلال هذه الفترة بالاشتراك مع لورانس وبعض أنصار العرب لحل المشكلات القائمة بين هؤلاء والحلفاء، وإنشاء تفاهم بين الملك فيصل وفرنسا خاصة.

وزار المسيو بريان وهو رئيس للوزارة الفرنسوية لندن فى أواخر سنة ١٩٢٠ لمفاوضة الحكومة البريطانية فى بعض الشؤون الدولية. فدبرت التدابير لدعوة حداد باشا إلى دوننج ستريت (دار رئاسة الوزارة) حينما يزورها المسيو بريان للاجتماع برئيس الوزارة البريطانية وجاء فى الوقت المعين، ودعى إلى مقابلة الوزير البريطانى الاكبر. فاغتنم هذا الفرصة وأثار مسألة الملك فيصل. فاحتد المسيو بريان، وقال انه غير مستعد للتفاهم معه بوجه من الوجوه، لأنه حارب فرنسا وأهانها.

فرد عليه حداد باشا قائلا: انه بصفته جنديا من جنود الملك فيصل لا يسعه أن يسمع مثل هذا الوصف يوصف به مليكه، وأراد الانسحاب احتجاجا. فتدخل المستر لويد جورج واستبقاه وبعد أخذ ورد دعى المسيو بريان حداد باشا إلى زيارته فى باريس لبحث المشكلة من جديد، ولم يتح لهذا السفر لان الوزارة الفرنسوية لم تعمر طويلا بعد ذلك. فقد سقطت فى شهر يناير ١٩٢١ . على أن الإنكليز اعتبروا دعوة حداد باشا إلى زيارة باريس دليلا على ميل فرنسا إلى استئناف العلاقات الودية مع الملك فيصل، وإلى تناسى الماضى فدعو الملك إلى زيارة عاصمتهم فجاءها يوم أول ديسمبر سنة ١٩٢٠ فاستقبله فى المحطة السير إدوارد ولنجتن باسم ملك انكلترا مع مندوبى الوزارات، ونزل فى أوتيل كلاردج، وفى يوم ٣ منه قصد إلى قصر بكنجهام لمقابلة الملك فاستقبله حين وصوله اللورد كرزن وكبار رجال البلاط ثم قابل الملك، وتلا خطابا شكره فيه على الهدايا التى أرسلها إلى والده، وأعرب عن ولاء بيت الشريف للملك جورج وعن رجائه فى أن تظل علاقات العرب والبريطانيين على ما يرام لخير الشعبين. فرد عليه الملك معربا عن سروره الكثير بمشاهدته، وكلفه أن يبلغ والده شكره وحسن تمنياته.

أعماله فى لندن وتدخله فى قضية العراق

واستأجر الملك منزلا خاصا أعد لاقامته فى لندن، وأفضى يوم ٦ ديسمبر إلى صحافى إنكليزى بحديث تكلم فيه عن القضية العراقية. فكانت المرة الأولى التى تعرض فيها لشؤون العراق. ومما قاله: «إننى كبير الأمل بنجاح السير برسى كوكس فى المهمة التى ندب لها فى العراق، وهو يمثل أفضل نوع من رجال الإدارة البريطانيين، وقد اشتهر عند العرب بالعدل وسيوفق إلى كثير من الأعمال الطيبة. ولكن ذلك يستغرق زمانا يذكر. وقد كان العرب من أعظم أصدقاء بريطانيا، وإنى واثق بأن السير برسى كوكس سيفعل كل شىء لإجابة رغائبهم.

«لقد نشأت ثورة العراق عن سوء تفاهم. فالعرب لم يفهموا مقاصد بريطانيا. فقد فرضت عليهم نظاما من الحكم يتجاوز فى بيروقراطيته نظام الحكم فى الهند. فبدلا من أن يرى العرب الحكومة الأهلية التى وعدوا بها شاهدوا الموظفين البريطانيين فى كل مكان وفى كل دائرة من دوائر الأعمال. نعم إن بين العرب زعماء كثيرين ما ارتابوا قط فى نيات إنكلترا، وأنا أشهد للبريطانيين بالنزاهة وشرف القصد ومكارم الأخلاق. ولكن لا ينتظر أن يدرك عامة الشعب ما يدركه زعماؤه. أضف إلى هذا أنه حدثت فى بعض الأحيان أمور استبد فيها بعض الضباط

والموظفين فأضرم هذا نار الاستياء، وأخذ العرب يظنون أن هذا النظام سيظل إلى ما شاء الله.

«وعلاوة على ذلك أن البريطانيين ما اتخذوا قط شيئا من التدابير لإحباط الدسائس التى كان أعداؤهم يدسونها لهم. فكان من جراء ذلك ما نشاهد من هذه الحالة التى يؤسف لها».

احتجاجه على صكوك الانتدابات

ولما نشرت صكوك الانتدابات على سورية وفلسطين والعراق أرسل يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٢١ الاحتجاج الآتى إلى السير أريك درمند السكرتير العام باسم والده الملك حسين قال:

«إن العرب قبل أن يحوضوا الحرب تلقوا وعدا من بريطانيا العظمى بنيل استقلالهم، ولم يرد حينئذ ذكر الانتداب على الإطلاق. فلما نص فى معاهدة فرسايل على الانتداب أبى الملك حسين أن يبرمها. وان الملك حسينا يأسف لأن بلاده ليست عضوا فى جمعية الأمم التى ينظر إليها العرب بعين الارتياح، وإن دول الحلفاء ندبت أنفسها للبلدان العربية من غير أن تراعى نصوص العهد الذى قطعته. ثم ان الحوادث التى حدث فى البلاد العربية منذ عقد الهدنة لم تك مما يبدد شكوك العرب فى نيات الحلفاء. أما الآن، وقد نشرت صكوك الانتداب فليس فيها ما ينشط العرب على إبرام المعاهدة أكثر من قبل.

قال «وقد أمرنى والدى بتقديم احتجاج رسمى، ورجائى أن لا توافق جمعية الأمم على هذه الانتدابات قبل أن تستشير الملك حسينا. الذى قاد العرب فى أثناء الحرب وشد أزر الحلفاء، وأن لا تنشر صكوك الانتداب رسميا قبل أن تقف على رغائب أهالى الولايات التى تشملها، وذلك عملا بالمادة ٢٢ من عهد الجمعية».

مذكرته إلى مؤتمر الشرق

وعقد وهو فى لندن مؤتمرا دوليا فى خلال شهر مارس سنة ١٩٢١ للنظر فى مشكلات

الشرق وحلها. فانتدب حداد باشا لتمثيله فيه فذهب وألقى البيان الآتى:

خاض العرب الحرب إلى جنب الحلفاء، وقد وضعوا نصب أعينهم أغراضا جلية معينة فطمحوا إلى نيل استقلالهم، واسترجاع منزلتهم كشعب حر قابض على زمام مصيره. ولكن جلالة والدى الملك حسين لم يقدم على هذه المهمة الشاقة المفعمة خطرا، وهى مهمة القيام على رأس الثورة العربية إلا بعد أن قطعت له حكومة جلالة الملك العهود والمواثيق بأن يجنى العرب من النتائج والفوائد ما يتكافأ مع المخاطر التى يستهدفون لها، والتضحيات التى سيضحونها، وقد تضمنت هذه المواثيق وعدا صريحا باستقلال البلاد المحدودة بخط يمتد من الإسكندرونة تابعا دائرة العرض ٣٧ إلى حدود فارس ومنها إلى خليج فارس. أما من الغرب فقد جعل الحد البحر الأحمر وشبه جزيرة سينا والبحر المتوسط. واستثنت الحكومة البريطانية بعض أمور سلم والدى بها، وطلب أن يحال ما بقى من الاستثناءات، وهى تشمل جانبا صغيرا من هذا المجموع إلى المفاوضات بعد الحرب. ورأى والدى أن هذه العهود تكفل الوحدة والاستقلال للبلدان التى ينطق أهلا العربية فى السلطنة العثمانية إذا أوتى الحلفاء النصر. فخاض الحرب ودعا العرب اخوانه أن يتألبوا تحت رايته، فلبوا دعوته وتقاطروا من جميع أنحاء الولايات العربية لأداء نصيبهم من المهمة العامة. ومع أن هذا النصيب كان صغيرا إذا قيس بنصيب الدول العظمى. فإنه لم يكن خاليا من الأهمية والشأن – كما هو معلوم لكل من طالع البلاغات الرسمية التى صدرت فى أثناء الحرب – وبعد ما وضعت أو زارها.

ولكن حلول عصر السلام خيب آمال العرب تخييبا لم يذق مثله سواهم من الحلفاء. فإنهم لم ينالوا الاستقلال الذين كانوا يطمعون به ويطمحون إليه وأضاعوا ما كان لهم من الوحدة النسبية لما كانوا تابعين للآستانة. وليس بين الاعتبارات السياسية الصحيحة ما يسوغ التفريق بين الولايات العربية، ولكن تجزئة هذه الولايات إلى دول منفصل بعضها عن بعض ومستقل بعضها عن بعض شر من ذلك. فإن هذه الولايات واحدة من حيث جنس أهلها ومرتبط بعضها ببعض ارتباطا لا تفصم عراه من الوجهة الاقتصادية. فإذا لم تطلق حرية الاتجار إطلاقا تاما فى تلك الولايات فلا نجاح لسورية، وأريد بسورية ما يشمل فلسطين ولا فلاح للعراق. وقد بلغ من شدة الاتصال والاتحاد بين هذه الولايات أن قبائل عرب البادية تنتقل من الواحدة إلى الاخرى عاما بعد عام. وزد على ذلك أن العرب لا يستطيعون درء السيل الذى يهدد بالتدفق من الشمال، والذى يعد عاملا من العوامل الدائمة فى تاريخ الشرق

الأوسط إذا لم يتحدوا ويكونوا يدا واحدة. فاذا انقسموا ضاعوا وهلكوا. وإذا اتحدوا استطاعوا الدفاع عن حدودهم وسلامة بلادهم من الخطر الخارجي. وهما شرطان لا زمان من شروط التوطئة للارتقاء المنظم.

وهذه الاعتبارات ظاهرة جلية. حتى لقد ترددت فى سردها للمؤتمر لولا أنى رأيت الحلفاء يتجاهلونها فيما وضعوا من الحلول للشرق الأدنى فيما يتعلق بالعرب، ولم يعبأوا بهذا الأمر حتى أنهم لم ينشئوا حلقة صلة يمكن أن تصير عاملا على بلوغ هذه الوحدة.

وقد سلم والدى بأن لدول الحلفاء مصالح فى بعض أنحاء الولايات العربية، وهو فى مقدمة القائلين بأن العرب يجب أن ينظروا إلى هذه المصالح والعلاقات بما يليق بها من الروية والاحترام. ومما هو جدير بالذكر أن الحلفاء جاهروا بتصريحات لوحدات جنسية يسر والدى أن تكون موضوعا للبحث بروح التساهل وسعة الصدر. مع أن العهود التى قطعتها الحكومة البريطانية له تتضمن شيئا من هذه التصريحات. ولكنه يشترط أن يكون محور هذا البحث العواطف البادية فى ما جاهر به رئيس الولايات المتحدة فى ٤ يوليو سنة ١٩١٩ وهو: «أن يفصل فى كل مسألة. سواء كانت خاصة بالحدود الجغرافية، أو السيادة، أو التدابير الاقتصادية أو السياسية على قاعدة قبول الشعب صاحب الشأن لهذا الفصل بتمام حريته، واختياره لاعلى قاعدة مراعاة المصالح المادية أو المنافع التى تكون لأمة أخرى. قد تتوق إلى حل آخر. حرصا على نفوذها الخارجى وسيادتها».

وغنى عن البيان أن أقطاب الحلفاء طالما جاهروا بهذه المبادىء. وقالوا إنهم اتخذوها رائدا لسياستهم. فباسم جلالة الملك حسين أرجو من هذا المؤتمر أن يعيد النظر فى الكيفية التى عومل العرب بها بنصوص معاهدة سيفر. إنى أقف بالنيابة عن العرب، وأطلب الاستقلال والوحدة اللذين قاتلنا لأجلهما. ولأجلهما أراق العرب من مواطنى دماءهم. فنحن نروم المحافظة على علاقات المودة التى كانت بيننا وبين الحلفاء. كما كنا إخوانا تحت السلاح ولا نبغى الإضرار بالمصالح المشروعة التى هى لدولة أجنبية من الدول، ولكننا جميعا نروم بروح الوطنية الصادقة التى نشاطرها سائر الشعوب أن نكون أحرارا فى تنظيم شؤون حياتنا القومية. فينهض العرب مدفوعين بما لهم من التاريخ المجيد، وينمون ملكاتهم ويراعتهم مرة أخرى، ويقومون بنصيبهم فى حضارة البشر المشتركة كما فعلوا فيما مضى. فإذا لم تحقق أمنيتنا هذه، فإن السلام الذى ينشده هذا المؤتمر لا تتوطد أركانه فى الولايات العربية.

ثم ألحق بيانه بالمذكرة التفصيلية الآتية.

١- يعترض سمو الأمير فيصل باسم الملك حسين على الانتداب. فإنه لم يذكر فى العهود. ويقول: إن روح عهد جمعية الأمم. كما يظهر فى المادة ٢٢ والفقرة الرابعة من فقرتها لا تناقض أماني العرب، ولكن الألفاظ التى أفرغ فيها مطلقة المعنى، وقد أثبتت نصوص الانتداب كما نشرتها الصحف أن العهد فسر تفسيرا يغاير هذا الروح، فالملك حسين وجميع العرب يرفضون هذا التفسير بتاتا. ولهذا يطلب جلالته أن يصحح تحديد هذه المساعدة ويبين بجلاء ووضوح. إن نيات الحلفاء تقتصر على بذل المساعدة التى ورد ذكرها فى العهود من غير تعرض للاستقلال القومى الذى ما فتىء الحلفاء يفهمون العرب أنه حظهم المنشود من سنة ١٩١٥.

٢- وافقت الدول العظمى المتعاقدة بمعاهدة فرسايل على عهد جميعة الأمم الذى كتب فى ٢٦ مادة، وأدمج هذا العهد فى المعاهدة، وجرى مثل هذا فى معاهدة سيفر، وصارت كل مادة من مواد العهد جزءا من هذه المعاهدة. وغنى عن البيان انه لا يصح من الوجهة القانونية أن تنقض مادة ما من مواد المعاهدة مادة أخرى. فالمادة ٢٢ تنص فى الفقرة الرابعة على «أن مشيئة هذه الشعوب يجب أن يكون لها الاعتبار الأكبر فى اختيار الدولة المنتدبة» ولكن المادة ٩٤ تقول فى الفقرة الثالثة «إن دول الحلفاء الكبرى تختار الدولة المنتدبة» فلم يشر هنا بشىء إلى مشيئة الشعوب وهذا الإغفال يؤول حتما إلى الالتباس لأن الحلفاء تغاضوا فى سان ريمو عن المادة ٢٢ فى توزيع الانتداب من غير استشارة الشعوب للوقوف على مشيئتها.

٣- أوصانى سمو الأمير خصوصا أن أقول إنه لا يبرز الاعتراض المتقدم توطئة لرفض قبول مساعدة دولة خصوصية من الدول، ولكنه يقدمه كمبدأ يتمشى على جميع الولايات العربية. هذا والملك حسين يتوق جدا إلى احترام مصالح جميع الحلفاء على السواء. وهو مستعد لقبول المساعدة المذكورة فى العهود والمواثيق التى قطعت له من قبل أن يخوض الحرب

بشرط أن لا تعتدى هذه المساعدة على الاستقلال القومى.

٤- وللمسألة مظهر آخر لا ينشط الملك حسينا على إبرام المعاهدات، وقد كلفنى الأمير فيصل أن أعرض الوقائع التالية على مسامع المؤتمر راجيا أن ينظر إليها بمثل الإخلاص الذى بعثه على عرضها.

إن سكان العراق لا يتجاوزون مليونين ونصف مليون. وفى العراق حامية بريطانية عددها مع ما يتبعها من غير المحاربين ٢٢٠ ألفا وفى فلسطين ٥٠ ألف جندى وسكانها ٦٠٠ ألف وفى ولايات سورية التى يحتلها الفرنسويون نحو مليونين من الأهالى، وفيها من القوات الفرنسوية مع من يتبعها من غير المحاربين ١٦٠ ألف رجل. وهذا الجيوش مسلحة بأحدث ألات الحرب (ما عدا الغازات السامة) التى اخترعت لكسر عدو مشترك. وكل هذا لإخضاع أمة صغيرة انحازت فى الحرب إلى الحلفاء لنبذ نير الاستعباد. فهذا الشعب انضم إليكم فى أدق ساعات الحرب. ومع ذلك نرى جنودكم اليوم تحتل بلادنا، وعددها بالنسبة إلى الأهالى يفوق عدد جنود الحلفاء فى أى مكان آخر كان من البلدان الأجنبية التى خيمت عليها. وزد على ذلك أن الحكم العسكرى لايزال ساريا فهل من مسوغ لهذه المعاملة؟.

لقد كان من نتائج ذلك أن سكان البلاد عمدوا إلى هجرانها زرافات. إما طوعا وإما كرها فبعضهم فى الهند والبعض الآخر فى مصر أو كورسيكا وغيرها من أنحاء أوروبا. ناهيك بالألوف الذين يهاجرون إلى أميركا - كما كانوا يفعلون قبل الحرب.

وقد أمرنى سموه أن أوجه أنظاركم خصوصا إلى كثرة عدد الضباط الأبطال الذين قاتلوا معه فى الحرب، وجرحوا برصاص الأعداء، وهم اليوم مشمولون بأحكام الحبس أو النفى أو الإعدام التى أصدرتها محاكم الحلفاء العسكرية عليهم فى الولايات المختلفة، وأمرنى فوق هذا أن أقول إن الذين خدموا مصلحة العدو فى إبان الحرب اتخذتهم القوات المحتلة اليوم أنصارا لها، وشملتهم برعايتها. أما الذين قاتلوا مع الحلفاء فى حومة الوغى فمبعدون عن أوطانهم، وقد حرموا من خدمة بلادهم. فإذا اعتبرتم هذه الأمور تبينت لكم علل الاضطرابات والباعث الذى بعث الملك حسينا على عدم إبرام المعاهدة.

٥- وفى الختام يرى الأمير فيصل أنه إذا أسدى الحلفاء مساعدة حقيقية إلى العرب طبقا لوعدهم للملك حسين، ونبذوا فكرة السيادة أو الحكم بالسيف. فالأمير واثق أن الحلفاء

سيلقون فى طاقتهم أن يسحبوا فى الحال الجيوش الجرارة لأن شعب البلاد يكون أعظم صديق للحلفاء، كما كان فى أيام الحرب العصيبة.

٦- فاذا استحسن المؤتمر هذه المبادىء وقبلها. فالأمير فيصل يريد أن يعرض على مسامعكم أمورا تتعلق بمعاهدة سيفر لتنظروا فيها. ومنها:

١- الامتيازات والحقوق التى تمتع الحجاز بها على الدوام، والتى كانت محترمة لما كان الحجاز تحت حكم تركيا.

٢- المسائل المتعلقة بالأوقاف وسائر المهام الدينية التى يقوم بها الحجاز.

٣- تسوية العلاقات الاقتصادية بين الولايات العربية.

٤- تأليف اللجنة التى تحدد تخوم الولايات العربية، وهى الحدود التى أشارت إليها المادة ٩٤ ومسائل ثانوية أخرى.

مفاوضاته الرسمية مع الإنكليز وسفر تشرشل إلى مصر

واتصل الملك منذ وصوله إلى لندن بوزارة المستعمرات البريطانية. فدارت بينه وبينها مفاوضات لحل المشكلة العراقية، وكان الكولونيل لورانس يتقلد منصب مستشار للشؤون العربية فى هذه الوزارة، وقد قبله بعد ما نال وعدا من حكومته بأنها ستنصف العرب، وتنيلهم حقوقهم.

ولما تم الاتفاق مبدئيا سافر المستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية إلى الشرق العربى لزيارة مصر وفلسطين، وللاجتماع بالوفد العراقى القادم من بغداد والاتفاق معه على طريقة العمل لإنشاء الحكومة الجديدة، وكان ممثلو الحكومة البريطانية فى العراق قطعوا خطوات واسعة لتحقيق هذه الأمنية منذ وصول السير برسى كوكس إلى بغداد فى شهر اكتوبر سنة ١٩٢٠ وتقلد منصبه الجديد.

١٥

كيف أنشئت الدولة الجديدة

وصول السير برسى كوكس وتدابيره

انتهت مدة خدمة السير ارنولدولسن الحاكم السياسى للعراق فى ختام شهر سبتمبر سنة ١٩٢٠ فوصل إلى البصرة يوم أول اكتوبر بطريقه إلى بلاده فاجتمع فيها بالسير برسى كوكس المندوب السامى الجديد. وفى يوم ١١ منه بلغ هذا بغداد فاستقبل استقبالا رسميا وأجاب على خطب الخطباء بكلمات موجزة فقال. «إن دولة إنكلترا أرسلتنى للاتفاق مع أعيان العراق وكباره، ولمساعدتهم فى تأليف حكومة عربية مستقلة تحت إشرافها، ولقد جئت لهذا القصد، وإنى لأرجو أن يحصل المقصود للطرفين. غير أنه لا يمكننى العمل مادام الاضطراب قائما. ولذلك سأنتظر ريثما تحصل الفرصة والأمر بيدكم».

ثم ألقى بعد بضعة أيام بيانا مكتوبا على جمهور من أعيان بغداد دعاهم للمداولة بشأن تأليف حكومة موقتة فقال:

«إننى آت إلى العراق لإنشاء حكومة مستقلة. إن استقلال العراق محفوظ عند جامعة الأمم وعند بريطانيا. ولكن لا يفهم من هذا الاستقلال أنه بدون انتداب. فقد أخذت بريطانيا على عاتقها مهمة المحافظة على أمن العراق الداخلى والخارجى، وحسن إدارة الحكومة» قال «وإننى أرغب الإسراع فى تأليف الحكومة الجديدة، ولولا هذه القلاقل التى أشغلت قسما من العراقيين عن أمور بلادهم، وأضحت عقبة فى سبيل المداولة معهم لباشرت عملى، وسأبدأ بإنشاء حكومة وطنية موقتة لأبرهن على حسن نيتى. أما الحكومة الدائمة فتنشأ عند ما يستتب الأمن. والاستقلال النهائى ليس فى يدى، بل هو بيدكم، ومتى برهنتم على أنكم قادرون على الحكم الذاتى نودعكم ونلقى إليكم زمام الأعمال، وسأدعوكم بعد أيام لاستطلاع آرائكم».

وفى يوم ٢٦ منه أذاع فى مناطق الثورة البلاغ الآتى:

«إن فخامة نائب الملك السير برسى كوكس يعلن لجميع أفراد العشائر وطوائف العراق أن حكومة بريطانيا العظمى انتدبته ليعود إلى العراق ولينفذ مقاصدها الثابتة بمساعدة رؤساء الأمة، ولتشكيل حكومة وطنية فى العراق بنظارة حكومة بريطانيا. ويصعب جدا على فخامته

تنفيذ نوايا حكومته ما دامت بعض أقسام العشائر والطوائف فى العراق تعادى الحكومة. ويظن أن الأحوال الحاضرة نتجت عن الشكوك الواهية التى تخامر أفكار بعض طبقات الأمة فى نوايا الحكومة البريطانية، ويعتقد أنه توصل إلى إزالة كل شك من أفكار الذين قاتلوه حتى الآن. ولا يعلم غرض العشائر الذين يشغلون أنفسهم بالحرب. فإذا كان هنالك سوء تفاهم فيسره أن يبلغ العشائر ذلك إليه بواسطة أقرب حاكم سياسى إليهم».

حكومة النقيب الأولى

وفى يوم ٢٧ منه أتم السير برسى إنشاء الحكومة الموقتة برئاسة السيد عبد الرحمن الكيلانى نقيب أشراف بغداد. وهذه أسماء أعضائها:

السيد طالب النقيب لوزارة الداخلية، وساسون حسقيل للمالية، ومصطفى الألوسى للعدلية، وجعفر العسكرى للدفاع، وعزت باشا الكركوكى للأشغال والمواصلات، وعبد اللطيف المنديل للتجارة، والسيد محمد مهدى الطباطبائى للمعارف والصحة، ومحمد على فاضل للأوقاف.

وضم إلى الوزارة اثنى عشر وزيرا بلا وزارة لمساعدتها فى مهمتها. وللاستعانة بآرائهم وهذه أسماؤهم:

عبد الرحمن الحيدرى وعبد الجبار الخياط وفخر الدين جميل والحاج عبد الغنى كبه والشيخ عجيل السمرمد وعبد المجيد الشاوى والشيخ محمد الصيود وداود اليوسفانى والشيخ سالم الخيون واحمد الصانع ونجم البدراوى والشيخ ضارى السعدون.

وعقدت الوزارة بكامل هيئتها أول اجتماع رسمى يوم ٢ نوفمبر. فألقى رئيسها الخطبة الآتية:

أيها السادة الأجلاء، وجوه الوطن العزيز النبلاء

تعلمون أن ما انتدبتم إليه من القيام بالوظائف التى أودعت إلى عهدتكم من أهم الأمور. فيجب على كل منا أن يتخذ صدق العزيمة شعاره، وقوة الإقدام دثاره، مع الثبات المكين عند مباشرة الأعمال التى تعود إلى وظيفته. ويجب على كل واحد منا أيضا أن يسند صاحبه

ويعاضده في عمله لتحصل الثمرة المطلوبة، وتلتقط الضالة المنشودة للجميع، وإني لا أحب أن أطيل الكلام في هذا الباب. لانكم تعلمون أكثر مما أعلم، وواقفون على الأحوال أكثر مما أنا واقف عليه وأتم. ومما هو ظاهر في الميدان، ومشاهد بعين العقل كالعيان، تمايز الرجال بالأعمال، وشتهد لهم على ذلك الآثار.

والقول إن لم يقرن الفعل به　　تصديقه فهو الحديث المفترى

سدد الله خطاكم، ووفقنا وإياكم لما فيه النفع للبلاد والعباد بمنه وكرمه».

وفي يوم ٨ منه أذاع ديوان المندوب السامي البلاغ الآتي:

إن فخامة المندوب السامي يرغب في أن يطلع عموم الأهالي على قدر الإمكان على الإجراءات التي يتخذها لتنفيذ مقاصد حكومة جلالة ملك بريطانيا. أما هذه المقاصد فهي الإسراع في تمهيد الطرق التي يتوصل بها الشعب العراقي إلى إبداء رأيه في شكل الحكومة التي يرغب فيها. ثم تعجيل تأسيس هذه الحكومة بإرشاد حكومة بريطانيا العظمى وإشرافها.

إن اختيار شكل الحكومة أمر يجب أن يبت فيه العراقيون أنفسهم، ولا يمكن إصدار مثل هذا القرار بدون تأليف مؤتمر عام يمثل الشعب تمام التمثيل. ثم إن لجنة النواب السابقين المجتمعة الآن تشتغل في وضع التعليمات الانتخابية، وسيجرى بالسرعة اللازمة كل ما يقتضى حسب اقتراحات اللجنة المذكورة، ويشرع في الانتخابات في الأمكنة الخالية من الاضطرابات، ولا يمكن اجراء انتخابات في الأمكنة الثائرة ما لم يخضع سكانها للحكومة، ويلوذوا بالسكون المعتاد، وعلى كل حال فالاستعداد لإجراء الانتخاب لن يتم في مدة تقل عن شهرين أو ثلاثة.

وبما أنه يلزم إشتراك زعماء الأمة في أعمال الحكومة خلال هذه المدة أكثر من قبل، وتجنبا من تسرب اليأس إلى قلوب المسالمين الذين أقاموا على الولاء للحكومة من تأخير إجراء الانتخابات فقد دعا فخامة المندوب السامي حضرة صاحب الفخامة والسماحة السيد عبد الرحمن افندي نقيب أشراف بغداد إلى تأليف مجلس وزراء برئاسته حبا بالوطن. أما وظيفة المجلس المذكور فهي القيام بالواجبات العمومية بإرشاد فخامة المندوب السامي إلى أن يصدر قرار المؤتمر ويسن قانون أساسي للبلاد. والذين يشاركون المندوب السامي رغبته في التعجيل بعقد المؤتمر، وإصدار قراره عليهم أن يشاركوه أيضا في حض الأمة على الطاعة في الأماكن الثائرة، لكي لا تتأخر إعادة السلم والنظام إلى نصابهما، ولا تتأجل المباشرة في الانتخابات. وفي الختام يصرح المندوب السامي للعموم أن تأليف مجلس الوزراء الحالي هو لتمهيد سبيل الإصلاحات القادمة، وأنه لا يعارض أحكام المؤتمر العام وقراراته.

مؤتمر القاهرة

في يوم ٩ مارس سنة ١٩٢١ وصل إلى القاهرة المستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية مصحوبا بالكولونيل لورانس وبعض الخبراء البريطانيين لدرس شؤون الشرق الأدنى. وفي يوم ١١منه وصل الوفد العراقى القادم للاجتماع بالوزير، ويتألف من السير برسى كوكس، والجنرال هلدين القائد العام للجيش البريطانى فى العراق، وجعفر باشا العسكرى وزير الدفاع وساسون حسقيل وزير المالية، والجنرال انكش والجنرال ستورث والكولونيل تريفور المعتمد البريطانى فى بوشهر، والكولونيل سلاتير والمس بل، والكولونيل بونى والماجور إيدى والماجور جب والماجور بارت والمستر سمسن فاجتمع بالمستر تشرشل وعقدا جلسات عديدة للبحث فى شؤون العراق اتفقا فى ختامها على تفاصيل المشروع الجديد لإنشاء الدولة العربية فى العراق برئاسة الملك فيصل. وسافر الوزير البريطانى بعد ذلك إلى فلسطين، وعاد الوفد العراقى إلى بغداد ونشر على أثر وصوله البيان الآتى:

«كان السبب الأول الذى دعا إلى عقد المؤتمر الذى التأم فى القاهرة رغبة وزير المملكة الجديد فى الاجتماع بالممثلين البريطانيين فى المناطق الواقعة ضمن دائرة مسؤوليته، كالمندوبين الساميين فى العراق وفلسطين، وحاكمى عدن وبلاد الصومال وذلك لكى يطلع الوزير المذكور رأسا على مجرى الأمور فى الأقطار المذكورة.

أما فيما يختص بالعراق فكانت المسألة الموضوعة على بساط البحث إنقاص المصروفات العسكرية انقاصا كبيرا، لكى تتمكن الحكومة البريطانية من القيام بأعباء المحافظة على حالة ثابتة الأركان فى البلاد العراقية ريثما تتمكن الحكومة الوطنية ذاتها من أن تأخذ على عاتقها مسؤولية الدولة العربية التى ترمى الحكومة البريطانية الى تأسيسها وتأييدها.

وقد تمكن فخامة المندوب السامى وجناب القائد العام من أن يقدموا إلى المؤتمر اقتراحات ترمى إلى اقتصاد بعضه عاجل، وبعضه تدريجي. مما جعل وزير الدولة شديد الآمال بأنها ستأتى مرضية لآراء حكومة جلالة الملك والرأى العام البريطانى والعربى. وفى الوقت ذاته أحل الاتفاق الذى توصل إليه بشأن المحافظة على الأمن الداخلى وحماية الحدود والترتيبات المالية اللازمة لترقية الجيش العربى محلها من الاعتبار.

وسيصدر فى وقت قريب عفو عام يشمل جميع الذين اشتركوا فى الاضطرابات الأخيرة عدا بعض أفراد ارتكبوا جرائم فظيعة كقتل الكولونيل لنجمان وما أشبه من الجرائم.

ولما انتهى المؤتمر سافر الوزير إلى فلسطين، ومنها إلى إنكلترا لكى يقدم بذاته النتائج التى أسفر عنها المؤتمر إلى مجلس الوزراء، والأمل وطيد أن ترد فى بضعة الأيام القريبة برقية بمصادقة مجلس الوزراء عليها. فيصدر المندوب السامى بلاغا آخر».

منشور العفو

وفى ٣٠ مايو أصدر المندوب السامى منشورا بالعفو العام هذا نصه:

«بناء على التخويل الصادر من حكومة جلالة الملك يعلن فخامة المندوب السامى بمزيد السرور عفوا عاما عن المجرمين السياسيين. يعمل به ابتداء من هذا اليوم. وعلى القاعدة الآتية:

١- يشمل العفو العام جميع من كان لهم يد فى فتنة سنة ١٩٢٠ وذلك فيما يختص بالجرائم التى تعد مرتكبة ضد الحكومة مساعدة على الفتنة، ويطلق سراح المسجونين والموقوفين ويؤذن للفارين بالعودة، ولا خوف عليهم من أن يحاكموا . ويستثنى من ذلك:

١- الذين كانوا حين اشتراكهم فى الفتنة موظفين بالأجرة فى إدارة المناطق المحتلة. فهؤلاء ينظر فى أمر كل واحد منهم على حدة حسب استحقاقه.

٢- الأفراد الآتية أسماؤهم، والمعتقد أنهم مسؤولون عن اقتراف جرائم شنيعة أو التحريض على اقترافها وهم فارون الآن من وجه العدالة:

أ- الشيخ ضارى وولداه خميس وسليمان، وسرب وأسلوبى وولدا مجباس، ودهان بن فرحان وجميع هؤلاء تابعون لعشيرة الزوبع وهم متهمون بقتل الكولونيل لنجمان أو التحريض على قتله.

ب ـ جميل بك المدفعى وحميد افندى دبونى المتهمان بالتحريض رأسا على قتل الكابتن بارلو واللفتنانت استيوارد وغيرهما من الموظفين البريطانيين فى تلعفر.

ج ـ جاسم المويلى من عشيرة المهدية المتهم بقتل الكابتن ريكلى.

د- محمد الملا محمود من البحاحثة المتهم بقتل اللفتنانت إبرادفيلد وحسن العبد وجاسم العوض من بنى تميم المتهمان بقتل المستر بوكانن.

هـ- باصر بن اريغير وعلاوى الجاسم وابن ريميدى وهم متهمون بقتل أسرى بريطانيين.

و ـ بسبوس بن محاويس ونعمة بن ضعينة من الجوابر. وهما متهمان بقتل بعض ضباط سلاح الطيران الملكى.

ز ـ فالح بن حاج سفر الأعجيرب من الجوابر متهم بالتحريض على قتل اللفتنانت هيدكار وخمسة من رجال المدفعية البريطانيين على المركب (اكرين فلاى).

٢- أما بشأن الأفراد الذين لم تكن لهم علاقة بفتنة سنة ١٩٢٠ ولكنهم معتقلون أو منفيون أوشاردون لأسباب مختلفة متعلقة بجرائم سياسية ارتكبت قبلها - فقد خول المندوب السامى مبدئيا أن يشملهم العفو قبل أن ينظر فى أمر كل منهم على حدة، وبحسب استحقاقه الخاص عند تقديم صاحب الشأن طلبا رسميا إلى أقرب ممثل بريطانى، أو إلى فخامة المندوب السامى رأسا».

١٦
الملك فيصل فى العراق

لم يطل الملك فيصل الإقامة فى لندن، بعد سفر المستر تشرشل إلى الشرق العربى، فقد غادرها يوم ٣١ مارس بعد ما وردت الأخبار إلى لندن بنجاح مؤتمر القاهرة، وباتفاق الوزير وولاة الأمور البريطانيين والمحليين فى العراق على القواعد والأسس التى يسار عليها فى إنشاء الدولة الجديدة.

أما القواعد التى تم الاتفاق عليها مبدئيا بين الملك والوزير قبل سفر هذا إلى القاهرة فهى:

١- تعترف الحكومة البريطانية باستقلال المملكة العراقية، وتتعهد بإلغاء الانتداب وبمساعدة العراقيين فى تأسيس حكومة وطنية وطيدة.

٢- تعقد معاهدة ولاء وتحالف بين الحكومتين البريطانية والعراقية. تنال فيها الحكومة البريطانية بعض مزايا اقتصادية، وتنص على استخدام مستشارين إخصائيين بريطانيين لمساعدة الموظفين العراقيين.

وبلغ بورسعيد يوم ٢٣ أبريل سنة ١٩٢١ وجاء القاهرة فى ١٤ منه وفى يوم ٢١ غادرها إلى جدة ومعه الأمير زيد، وقد جاء إلى القاهرة لملاقاته. واستقبل فى جدة ومكة استقبالا حافلا، واجتمع بالزعماء العراقيين اللاجئين إلى الحجاز وحادثهم مليا ووقف على آرائهم.

كتاب الحسين إلى العراق

وفى الأسبوع الثانى من شهر يونيو غادر جدة ببارجة بريطانية قاصدا البصرة يحمل من جلالة والده إلى الشعب العراقى الكتاب الآتى:

من الحسين بن على -إلى الأماجد النجباء كافة إخواننا أهل العراق. حاضرهم وباديهم عافاهم الأسواء.

«بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإن محررى هذا سيصلكم ان شاء تعالى عن يد ابنى فيصل، أنبئكم به بأنى لم أوفده إليكم إلا لمحض إنفاذ رغباتكم، وطبقا لإرادتكم إذ لا

يهمنا ورب الكعبة إلا حصول أقوامنا على استقلالهم ببلادهم، ووحدتهم بأى صورة وشكل كان. وعلى يد أى شخص من أبنائها. وحسبى الله تبارك وتعالى بكل ذلك. وعلى كل حال فهو جل شأنه المسؤول أن يمن على الجميع بموجبات رحمته ومرضاته، ويدفع عنا واياكم الأسواء ويختار لنا ما كان فيه الخيرة، وصلى الله على خيرته من خلقه وآله الطهر وصحبه الغر والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

فى ٤ شوال سنة ١٣٣٩ و١٠ يونيو سنة ١٩٢١

واستقبل بالحفاوة الزائدة حين وصوله البصرة يوم ٢٣ منه. وجاء وفد كبير من بغداد للحفاوة به. وفى يوم ٢٤ منه أقيمت له حفلة فخمة فألقى الخطبة الآتية. وهى أول خطبة خطبها فى العراق قال:

«قبل كل شىء أريد أن أبدى مزيد شكرى لما رأيته من الوفادة والاستقبال من سكان هذه المدينة نحو شخصى، وليس ذلك عليهم بكثير لما اشتهر عنهم. وما يأتى من الطيب دائما طيب.

أريد أن ألقى كلمتين عنى وعن أسرتى فأقول:

إن الواجب الدينى والجنسى هو الذى دفع بنا إلى القيام بتلك النهضة المباركة، وذلك الدافع هو شعور شريف جعل الأمة العربية فى موقع سام فى العالم. فما رأيتموه من والدى ومنى ومن أخى لا يوجب الشكر عليه. بل هو واجب وأنا أرى نفسى وأسرتى مسؤولين عن هذا المبدأ أكثر من كل فرد. لأن هذه الأمة شيدت بعمل البارى سبحانه وتعالى وجدنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. فإذا كان على العربى واجب فعلينا أضعاف. فلذلك لا أريد أن يشكرنا أحد. وأرجو أن لا أسمع بعد من أحد شكرا عن شخصى. لأن ذلك يزعزع همتى، وإنى أعمل الواجب ولا أرغب فى الشكر.

إخوانى: أعد نفسى سعيدا بأن أكون معكم، وأشكر البارى للقياى إياكم وسائر إخوانى فى هذا القطر. فاكلمكم فى هذا المحضر (كفيصل) مجرد عن كل شخصية، بل كواحد مجرد عن كل مقدرة: أوصيكم أن تكونوا متحدين متعاضدين مساعدين بعضكم البعض. فتزيلون الشك من قلوبكم فى الآخرين، وأن لا يكون لكم قصد سوى خدمة هذه الأراضى المقدسة. فإذا عملتم بهذا بالصبر والثبات. فلابد أن تدركوا قصدكم وتفلحوا.

أحلف بالله أن ليس فى قلبى طمع سوى خدمة هذه البلاد. وإنما أفعل ذلك لوجه الله. وإنى

والله أرغب أن أرى غيرى فى مقامات عالية، وأن أرى فى المقامات العالية رجالا انتدبتهم الأمة وتثقون بهم حق الثقة. فإنى أقسم بشرفى وأجدادى وبقبر جدنا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وآله أن كل من تختارونه فأول واحد يمد يده هو أنا.

الأمة لا يمكن أن تأتى بعمل إذا صار حاجز بينها وبين الحاكم. إن الشك والظن رأس كل بلية. فأوصى كافة أبناء جلدتى أن يرفعوا كل شك من قلوبهم نحو إخوانهم فإذا أخلصوا النية بهذه الصورة نجحوا فى مقاصدهم.

هذه توصية عارية عن كل غرض، وأقول لكم والله شاهد على وملائكته والناس أجمعون إنه إذا اتفقت أمة على رجل يرأسها فأول من يبايعه هو أنا.

نعم خدمنا فى الحرب والسياسة. لكن عملنا ذلك كان من الواجب علينا والاعتماد هو على قلوب الأمة التى نحن نراها قوية الآمال بنجاحها. فكما أننا اتحدنا ووصلنا إلى هذه الدرجة فلنواظب على عملنا. مؤملين الوصول إلى ما نبتغيه. ألا وهو الاستقلال التام بكل معنى الكلمة».

وفى يوم ٢٦ منه غادرها إلى بغداد بقطار خاص، ومر بكربلاء والنجف فزار مرقدى الامامين على والحسين وكانت المدن التى مر بها فى طريقه لابسة حلل الزينة. ووصل بغداد يوم ٢٩ منه فاستقبله فى محطتها السير برسى كوكس والجنرال هلداين ورئيس الوزراء والوزراء والأعيان، وخطب رئيس البلدية مرحبا، ودخل المدينة بموكب حافل. ولم يكد يستقر به المقام حتى قصد الكاظمية لزيارة مرقد الإمام موسى الكاظم. كما زار ضريح الشيخ عبد القادر الجيلانى. وقد أقيمت حفلات تكريم عديدة أعرب فيها الشعب عن ارتياحه إلى وصوله، وإجماعه على اختياره إلى أعلى مقام فى بلاده.

تدابير السلطة البريطانية

وكانت السلطة البريطانية فى بغداد أقالت السيد طالب النقيب وزير الداخلية فى الوزارة النقيبية الأولى، ونفته إلى سيلان لما اتصل بها من أنه يقاوم السياسة الجديدة فى العراق، ويطمع أن يكون رئيسا للدولة الجديدة.

وخطا الإنكليز الخطوة الثانية فأذاع المندوب السامى يوم ٥ يوليو - أى بعد انقضاء أسبوع على وصول الملك إلى بغداد - بيانا رسميا هذا نصه:

«بسط المستر تشرشل فى خطبة خطبها يوم ١٤ يونيو على مجلس النواب البريطانى الحالة السياسية فى بلدان الشرق الأدنى، وأورد بيانا شافيا عن سياسة حكومة جلالة الملك فى هذه البلدان. وقد أمرت بنشر نص خطابه فى صحف بغداد والبصرة الصادرة باللغتين العربية والإنكليزية. ليطلع عليه الناس فنشر حالا. وحيث إن بعضهم يرغب أشد الرغبة فى صدور تصريح منى بصفتى المندوب السامى ورئيس الحكومة العراقية المؤقتة أشرح فيه بوضوح النقاط المهمة التى وردت فى الخطبة المذكورة. رأيت الواجب يقضى على بالقيام بذلك، فأقول:

١- إنه مما يستحق الذكر أن الحكومة البريطانية قطعت فى ابتداء الحرب العظمى فى أوقات مختلفة عهودا لأهالى العراق ولجلالة ملك الحجاز بأنه لن يسمح بوجه من الوجوه أن تعود العراق أو أى مقاطعة من المقاطعات المحررة إلى السلطة التى كانت تابعة لها عند نشوب الحرب. وإن الحكومة البريطانية تقصد المحافظة على هذه العهود بحزم وثبات، وتشعر أنها تكون مقصرة فى القيام بواجباتها بموجب هذه العهود فيما لو أهملت تقديم المساعدة إلى العراق فى هذا الدور الابتدائى من حياته وتركته بإهمالها فريسة للاضطراب، كما أن بريطانيا فى الوقت نفسه غير مستعدة للاستمرار فى حمل العبء المالى الثقيل والمسؤولية السياسية، بمراقبة إدارة العراق إلى الحد الذى كان ضروريا ريثما تعاد الأمور إلى الحالة التى كانت عليها فى زمن السلم.

إن الحكومة البريطانية كانت ولاتزال ترى أن أفضل طريقة للقيام بوعودها وواجباتها هى مساعدة أهل العراق على إقامة حكومة وطنية منهم بمساعدتنا. فتنشأ بذلك دولة عربية صادقة تكون بغداد عاصمة لها. أما حكومة جلالة الملك فترى أن أفضل أنواع الإدارات هى حكومة دستورية برئاسة حاكم مقبول لدى أهل البلاد. وترغب فى أن تبين بوضوح كما سبق وبين تكرارا بأنه ليس لها قصد أو رغبة فى إكراه الشعب على قبول حاكم معين. بل بالعكس ترغب فى وجود الحرية التامة فى الاختيار وإبداء الرأى، ومع ذلك فإنها بصفتها تحملت نفقات طائلة فى العراق خلال السنوات السبع الأخيرة لا يمكنها أن تقف موقف عدم الاكتراث، ولها الثقة بان يستعمل الشعب العراقى الحكمة والحرية معا فى اختيار هذا الوازع.

وهنا أود أن أشير بايجاز إلى قدوم سمو الامير فيصل إلى بغداد فأقول: إن موقف حكومة جلالة الملك فى هذا الصدد هو ما يلى:

إن عائلة الشريف هى العائلة التى نشرت اللواء العربى فى صف الحلفاء أثناء الحرب، ولعبت دورا ذا شأن فى ربحها، وكانت القضية التى دخلت من أجلها فى صفوف المحاربين قضية حرية العرب، وهى القضية التى تعهدت بريطانيا بمظاهرتها ونجاحها فى العراق، وأجيب أنصار عائلة الشريف فى العراق عند ما سألوا الحكومة البريطانية عن موقفها إزاء دعوتهم للأمير فيصل ليأتى إلى العراق بأن حكومة جلالة الملك لن تضع عثرة فى سبيل ترشيح سموه وإذ وقع عليه اختيار الشعب العراقى فيلقى تأييد بريطانيا. وكذلك فلم ير المستر تشرشل - وهو يعرب عن رغبته فى أن يستعمل أهالى العراق الحرية فى الاختيار ما يمنعه من أن يجاهر بأن حكومة جلالة الملك تعتبر الأمير فيصلا مرشحا موافقا. لا بل هو فى الواقع أفضل مرشح فى الميدان، وترجو أن ينل معاضدة أكثرية الشعب العراقى.

وتعتقد حكومة جلالة الملك أنه إذا تم اختياره نكون قد توصلنا إلى حل ينطوى على أكبر الآمال فى مستقبل سعيد لهذه البلاد.

وتعلم حكومة جلالة الملك أنه بحث فى حلول أخرى ممكنة منها أولا - إنشاء جمهورية، ومنها ثانيا - الاتيان بأمير تركى اما فيما يختص بالأول فحكومة جلالة الملك ترى أن درجة العراق من الرقى غير موافقة قطعيا لإنشاء جمهورية، وأما فيما يختص بمبايعة أمير تركى فهذا حل لا تفسح الحكومة مجالا له.

والمرجو أن البيانات التى وردت فى هذا البلاغ تفسر سياسة حكومة جلالة الملك تفسيرا جليا. وهى السياسة التى استحسنها بالإجمال الجمهور البريطانى والصحافة البريطانية، طبقا لما ورد فى خطاب المستر تشرشل، وأوافق عليها كل الموافقة بصفتى المندوب السامى، الذى من واجباته وواجبات وظيفته تفسيرها بدقة».

البيعة بالملك

وفى يوم ١١ منه قرر مجلس الوزراء المناداة بسمو الأمير فيصل بن الحسين ملكا على العراق، على أن تكون حكومته حكومة دستورية نيابية ديمقراطية مقيدة بالقانون، وأبلغ قراره هذا إلى المندوب السامى. فرأى هذا أن يستشير العشب العراقى ويقف على رأيه قبل أن يبت فى الأمر، فاقترح على الوزارة إجراء استفتاء عام، فجرى ذلك بواسطة لجان ألفتها الوزارة

من أرباب الكفايات وأوفدتها إلى المدن. فكانت كل لجنة تدعو الأهلين بعد أن تحل فى مدينتهم إلى الاجتماع فى مكان تعينه فتتلو عليهم الخطب، وتدعوهم إلى إبداء رأيهم. فيقبلون على البيعة بطيبة خاطر، وقد ظهر فى نتيجة هذا الاستفتاء أن ٩٧ فى المائة كانوا فى جانب الملك.

وعلى أثر ظهور هذه النتيجة ضرب يوم ١٨ ذى الحجة (٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١) وهو يوم عيد الغدير المقدس عند الشيعة الإمامية - موعدا لإتمام البيعة، وإجراء التتويج، فأقيم فى صباحه احتفال فخم عظيم فى ساحة برج الساعة من الثكنة العسكرية. حضره أقطاب الحكومة، وكبار الموظفين البريطانيين، ومتصرفو الالوية. وافتتح السير برسى كوكس المندوب السامى الحفلة بتلاوة البيان الآتى:

منشور من السير برسى كوكس الحامل للوسام الأكبر للإمبراطورية الهندية، ووسام نجمة الهند العالى من درجة فارس ووسام القديس ميخائيل والقديس جرجس السامى من درجة فارس، المندوب السامى لجلالة ملك بريطانيا إلى الأمة العراقية بواسطة ممثليها الحاضرين.

«قرر مجلس الوزراء باتفاق الآراء وبناء على اقتراح فخامة رئيس الوزراء المناداة بسمو الأمير فيصل ملكا على العراق فى جلسته المنعقدة فى اليوم الرابع فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٣٩هـ الموافق ١١ يوليو سنة ١٩٢١ على أن تكون حكومته حكومة دستورية نيابية دمقراطية مقيدة بالقانون، وبصفتى مندوبا لجلالة ملك بريطانيا رأيت أن أقف على رضى الشعب العراقى البات قبل موافقتى على ذلك القرار. فجرى التصويت العام برغبة منى، وأسفرت نتيجة التصويت عن أكثرية كلية ٩٧٪ من مجموع الناخبين المتفقتين على المناداة بسمو الأمير فيصل ملكا على العراق. وعليه أن سمو الامير فيصل نجل جلالة الملك حسين قد انتخب ملكا على العراق. وأن حكومة جلالة ملك بريطانيا قد اعترفت بجلالته ملكا على العراق فليحيا الملك.

خطبة الملك

ووقف على الأثر جلالة الملك فيصل وخطب الخطبة الآتية:

أتقدم إلى الشعب العراقى بالشكر الخالص على مبايعته إياى مبايعة حرة دلت على محبته لى وثقته بى. فاسأل الله عزوجل أن يوفقنى لإعلاء شأن هذا الوطن العزيز، وهذه الأمة النجيبة لتستعيد مجدها الغابر وتنال منزلتها الرفيعة بين الأمم الناهضة الراقية.

وانه ليجدر بى فى مثل هذه الساعة التاريخية التى برهنت فيها الأمة العراقية على خالص ودها نحو أسرتنا الهاشمية أن أذكر ما لجلالة والدى الملك حسين الأول من الأيادى البيضاء. فقد رفع لواء العرب منضما إلى الحلفاء، ونهض بالعرب لا غاية له سوى تحريرهم وتأييد استقلالهم القوى الذى كانوا ينشدونه منذ قرون، كما إنى أرى من الواجب المتحتم فى مثل هذا اليوم أن أذكر محييا تلك النفوس الطاهرة الأبية، نفوس أبناء النهضة العربية الذين استبسلوا مع أبطال الحلفاء، وذهبوا ضحية أوطانهم العزيزة. أولئك هم أصحاب الذكر الخالد فسلام عليهم وألف تحية.

وهنا واجب آخر يدعونى إلى أن أرتل آيات الشكر للامة البريطانية. فقد أخذت بناصر العرب فى أوقات الحرب الحرجة، فجادت بأموالها وضحت بأبنائها فى سبيل تحريرهم واستقلالهم. وإننى اعتمادا على صداقتها ومؤازرتها التى أظهرتها وتعهدت لنا بها أقدمت على القيام بشؤون هذه البلاد شاكرا للحكومة المؤقتة همتها، ولفخامة المندوب السامى حميته وللحكومة البريطانية العظمى اعترافها بى ملكا للدولة العراقية المستقلة التى دعيت لملكيتها بإرادة الشعب مباشرة.

أيها العراقيون الأعزاء: لقد كانت هذه البلاد فى القرون الخالية مهد المدنية والعمران، ومركز العلم والعرفان. فأصبحت بما نابها من الخطوب والحوادث خالية من أسباب الراحة والسعادة، فقد منها الأمن وسادت الفوضى وقل العمل وغاضت مياه الرافدين فى بطون البحار، وأقفزت الأرض بعد أن كانت يانعة نضرة وطغت القفار على العمران، وأضحت المدن التى قويت على مقاومة النائبات أشبه شيء بواحات واسعة. فنحن الآن تجاه هذه الحقائق المؤلمة. ولا يجدر بشعب يريد النهوض إلا أن يعترف بها. إننا لم ننهض إلا لمكافحة هذه العقبات، ولم نخض غمار الحرب الكبرى إلا لإحياء هذه المعالم الدارسة. وإذا كان الناس على دين ملوكهم. فدينى إنما هو تحقيق أمانى هذا الشعب، وتشييد أركان دولته على المبادىء الدينية القويمة، وتأسيس حضارته على أساس العلوم الصحيحة والأخلاق الشريفة، متوكلا على الله ومستندا على روحانية أنبيائه العظام، ومعتمدا عليكم أنتم أيها العراقيون.

لقد صرحت لكم مرارا بان ما نحتاج إليه لترقية هذه البلاد يتوقف على معاونة أمة تمدنا بأموالها ورجالها. وبما أن الأمة البريطانية أقرب الأمم إلينا وأكثرها غيرة على مصالحنا. فإننا سنستمد منها وتستعين بها وحدها فى الوصول إلى غايتنا المنشودة فى أسرع وقت.

ولا يعزب عن الأذهان بأنه إذا كان الناس على دين ملوكهم. فالملوك على دين شعوبهم. فعلى - قدر التضامن يكون النهوض - ونحن الآن أحوج الأمم إلى التضامن والتعاضد والعمل بجد ونشاط ضمن دائرة السلام والنظام. وإني لا آلو جهدا بأن أستعين برجال الأمة على اختلاف مواهبهم وتباين طبقاتهم وتفاوت معتقداتهم. فالكل عندى سواء لا فرق بين حاضرهم وباديهم ولا ميزة لأحد على غيره إلا بالعلم والمقدرة، والأمة بمجموعها هى حزبى لا حزب لى سواها ومصلحتها مصلحتى لا مصلحة لى غيرها.

ألا وإن أول عمل أقوم به مباشرة الانتخاب، وجمع المجلس التاسيسى، ولتعلم الأمة أن مجلسها هذا هو الذى سيضع بمشاورتى دستور استقلالها على قواعد الحكومات الدستورية السياسية الديمقراطية، ويعين أسس حياتها السياسية والاجتماعية، ويصادق نهائيا على المعاهدة التى سأودعها له فيما يتعلق بالصلات بين حكومتنا والحكومة البريطانية العظمى، ويقرر حرية الأديان والعبادات بشرط أن لا تخل بالأمن والأخلاق العمومية، ويسن قوانين عدلية تضمن منافع الأجانب ومصالحهم، وتمنع كل تعرض للدين والجنس واللغة، وتكفل التساوى فى المعاملات التجارية مع كافة البلاد الأجنبية.

وإنى لواثق تمام الثقة باننا بالاستشارة مع فخامة المندوب السامى جناب السير برسى كوكس الذى برهن على صداقته للعرب - خلدت له الذكر الجميل - سنصل إلى غايتنا بأسرع وقت إن شاء الله.

فإلى الاتحاد والتعاضد، فإلى الروية والتبصر، إلى العلم والعمل أدعو أمتى والله الموفق والمعين.

انسحاب الوزارة

وبعد انتهاء حفلة التتويج اجتمع مجلس الوزراء فخاطب الرئيس الأعضاء قائلا:

لا يخفى على حضرتكم أن الأصول المرعية فى الممالك الدستورية تقضى بانسحاب الوزراء من ميدان العمل عند حدوث تجدد فتبوء جلالة الملك فيصل عرش العراق، وضرورة تأليف حكومة دائمة دستورية هما تجددان عظيمان، فلذلك قررت الانسحاب من أعمال رئاسة الوزارة وتقديم استقالة الوزارة إلى الأعتاب الملكية، وأرسل على الفور الكتاب الآتى:

يا صاحب الجلالة

إن الأصول المرعية فى الحكومات الدستورية تقضى بانسحاب هيئة الوزارة من ميدان العمل عند حدوث تجدد فى شكل الحكومة، ولما كان تبوء جلالتكم عرش العراق وضرورة إنشاء حكومة دستورية دائمة هما تجددان مباركان . فقد انسحبت مع رفقائى من مباشرة أعمال مجلس الوزراء، وبادرت بعرض الكيفية على أعتاب جلالتكم.

وفى يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢١ أعيد تأليف الوزارة برئاسة النقيب كما يأتى:

الحاج رمزى للداخلية، وساسون حسيقل للمالية، وناجى السويدى للعدلية، وجعفر العسكرى للدفاع، والسيد محمد على هبة الدين للمعار، وعزت الكركوكى للاشغال العمومية، ومحمد على فاضل للأوقاف، وعبد اللطيف المنديل للتجارة، والدكتور حنا خياط للصحة - وبذلك تم إنشاء الدولة العراقية الجديدة.

ملاحظات عامة

تنتهى بختام هذا الجزء الحلقة الثانية من تاريخ القضية العربية، وتشمل أخبار النضال بين «العرب والفرنسويين والإنكليز فى الشام والعراق» وتضم حوادث الفترة الممتدة من فتح دمشق سنة ١٩١٨ حتى إنشاء الدولة العربية الجديدة فى العراق سنة ١٩٢١.

وقد بدأنا هذه الحلقة بإيراد تاريخ الدولة الفيصلية وينقسم إلى ثلاثة أدوار:

الأول: وهو دور التأسيس والإنشاء، ويبتدىء بدخول جيش الشمال إلى دمشق، وبقيام الدولة الجديدة، وينتهى برجوع الأمير فيصل من رحلته الأولى إلى أوروبا فى شهر ابريل سنة ١٩١٩ وبوصول لجنة الاستفتاء الأميركية. ويبتدىء الدور الثانى بعودة الأمير ثانية إلى أوروبا واتفاقه مع المسيو كلمنصو على قواعد معينة لحل المشكلة السورية. أما الدور الثالث فيبتدىء من إعلان الاستقلال، وينتهى بيوم ميسلون وخروج الملك إلى حوران وسفره إلى حيفا فأوروبا.

لقد تحول الخلاف السرى الذى ظهر بين قواد العرب والفرنسويين فى سنة ١٩١٧ على مصير سورية ومستقبلها إلى نضال علنى منذ ابتداء هذه المرحلة، وظل يتطور تدريجيا حتى انتهى بمعركة ميسلون سنة ١٩٢٠.

ولم يستطع ولاة الأمور الفرنسويون فى بيروت سنة ١٩١٨ أن يكتموا عواطفهم فقد استقبلوا الأمير فيصلا استقبالا باردا حينما جاء فى شهر نوفمبر ليبحر إلى أوروبا لحضور مؤتمر السلام. بحجة أن الإنكليز هم الذين دبروا الرحلة من دون أن يستشيروا فرنسا، ومن دون أن يأخذوا رأيها، وهى ذات صلة كبيرة بالقضية. والواقع أن هؤلاء كانوا يلحون على الإنكليز منذ ختام الحرب العظمى بتطبيق أحكام معاهدة سايكس - بيكو

ويطلبون وضع دمشق تحت سيطرتهم. وقد ظل هؤلاء يسوفونهم ويماطلونهم حتى انتزعوا منهم الموصل وفلسطين وكانت الأولى داخلة فى المنطقة (أ) أى داخلية سورية. كما كانت الثانية دولية. فلما نالوا ما نالوه بدأوا بالجلاء عن هذه المناطق، ثم أطلقوا يد الفرنسويين فى سورية فكان ما كان.

وقوبل الأمير أيضا بجفاء وفتور حين وصوله إلى مرسيليا، وأعدت المعدات لإرساله إلى الإلزاس واللورين والحيلولة بينه وبين مؤتمر الصلح، وذلك لأن الفرنسويين ما كانوا يسلمون بحق العرب فى الاشتراك بمؤتمر الصلح، أو الظهور فى المجتمعات الدوليه، ويرون ان مسائل بلاد العرب حلت باتفاق سايكس - بيكو. فيجب أن ينفذ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولئن قبلوا تعديله بعد ذلك مرتين فما ذلك إلا مراعاة للظروف الدولية فقد عدل فى المرة الأولى بالتنازل عن الموصل وفلسطين للإنكليز، وذلك مقابل موافقة هؤلاء على سحب جنودهم من بلاد الشام (ساحلا وداخلا) وكان الإنكليز يحتلون هذه البلاد كلها، ومن كيليكية أيضا. فقد أدركوا أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لبسط نفوذهم فأرضوا الإنكليز، وما كان فى استطاعتهم إخراجهم بالقوة.

وعدل اتفاق سايكس - بيكو للمرة الثانية فى معاهدة أنقرة المعقودة بين تركيا وفرنسا فى سنة ١٩٢١ فقد اضطر الفرنسويون بموجب هذه المعاهدة إلى الجلاء عن مقاطعة كيليكية، وقد دفعوا للإنكليز ثمن الحلول فيها، وتخلوا عن مطامعهم فى جنوبى الأناضول وشرقيه، وكانت أورفة وديار بكر وماردين داخلة فى المنطقة الزرقاء (منطقة شقة سورية الساحلية) وقد أطلقت يدهم بموجب معاهدة سايكس - بيكو فيه. فلهم الحق بأن ينشئوا فيها نوعا الحكم الذى يختارونه. كما تنازلوا للترك عما مساحة ٥٤٠ كيلو مترا من الأراضى التى أدخلتها معاهدة سيفر فى حدود الدولة السورية، ومنحوهم امتيازات إدارية فى لواء اسكندرونة، وذلك لأنهم أدركوا أن الإيغال فى عداء الترك، وقد حاربوهم حروبا شديدة فى مرسين واطنه ومرعش وعينتاب ودرت يول وعثمانية وتغلبوا عليهم وحصروا حامياتهم - لا يفيدهم، ولأنهم رأوا أمامهم شعبا قويا مستبسلا لا يمد عنقه للنير. ولابد لنا من القول أن الحكومة الإنكليزية احتجت على هذا الاتفاق، وقالت أنه خرق صريح لاتفاق سايكس - بيكو وأنه كان يجب على الحكومة الفرنسوية أن تستشير بريطانيا قبل إقراره فلم يأبه الفرنسويون لاحتجاجها. لأنهم رأوا أن مصلحتهم فى التخلص من الترك الأقوياء

لا المضى فى نضالهم. والقوى محترم فى كل زمان ومكان، ولئن نفذت أحكام معاهدة سايكس - بيكو على العرب وفى بلاد العرب فما ذلك الا لضعف العرب وفقرهم وجهلهم وعدم وجود رجال أكفاء بينهم يحسنون قيادتهم وتدريبهم.

* * *

وتوسط الإنكليز وفتحت أبواب مؤتمر الصلح فى وجه الأمير ومثل العرب بمندوبين لا بمندوب واحد كما كانوا يطلبون، واتصل الأمير مدة إقامته فى باريس بالرئيس ولسن وتردد عليه كثيرا، وكان الوسيط بينهما الدكتور بلس رئيس الكلية الأميركية ببيروت يومئذ، فقدسافر بعد الحرب إلى أميركا وأوروبا للدفاع عن القضية السورية.

وأعجب الرئيس الأميركى بالأمير العربى، وقربه إليه وأدناه منه. فشكا إليه تمسك الفرنسويين والإنكليز بمعاهدة سايكس - بيكو واعتزامهم تطبيقها مع أنها من المعاهدات السرية التى ألغيت بدخول أميركا الحرب، وبإقرار الحلفاء لمبدأ حق تقرير المصير وطالب الرئيس بإنصاف العرب فوعده بالمساعدة والتأييد.

وفى يوم ٢٠ مارس سنة ١٩١٩ استصدر الرئيس ولسن قرارا من مؤتمر الصلح بإيفاد لجنة دولية إلى بلاد العرب لدرس الحالة عن كثب، ومعرفة مطالب هذا الشعب والوقوف على آرائه.

وعينت الحكومة الإنكليزية السير هنرى مكماهون مندوبها السابق فى مصر والأستاذ هوجارث من المستشرقين ليمثلاها فى هذه اللجنة، وعينت الحكومة الفرنسوية النائب موريس لونج مندوبا عنها. وبينما كانت المعدات تعد لسفرها إلى الشرق انسحب المندوب الفرنسوى، وأعلن أنه لا يسافر إلا إذا اتفقت الحكومات ذات الشأن مقدما على جميع التفاصيل. ولا سيما على مناطق الاحتلال العسكرى، وعلى الأساليب التى يجرى بموجبها الاستفتاء، والواقع أن الخبراء الفرنسويين نبهوا حكومتهم بعد صدور هذا القرار إلى عدم انطباقه على مصالحهم، وكانت هنالك دعاية شديدة تبث ضد الفرنسويين. يضاف إلى هذا أن تصرفات موظفيهم فى الساحل ما كانت ترضى الشعب، وهكذا انسحبوا من اللجنة وأخذوا يحاربونها، ويضعون العقبات فى سبيل سفرها متذرعين بأعذار جمة وجاراهم

الإنكليز أيضا. لأنهم أدركوا ما أدركه الفرنسويون، وشعروا بأن نتائج الاستفتاء لن تكون فى جانبهم لنقمة العرب عليهم، وانضم زعماء الصهيونية إلى العاملين لوضع العراقيل فى سبيل اللجنة. لأن جلاء الإنكليز عن فلسطين مؤذن بتصرم آمالهم. وهكذا وحدت المصلحة بين هذه العناصر فوقفت صفا واحدا فى سبيل سفر اللجنة. ولما أطلع مندوبو العرب الرئيس ولسن على ما يدبر فى الخفاء لإحباط هذا المشروع ومقاومته خوف نتائجه أجابهم بأنه لابد من تنفيذ قرار المؤتمر. وقال إنه مستعد لإرسال اللجنة الأميركية وحدها فى حالة استنكاف الإنكليز والفرنسويين. وقد بر بوعده.

وسبق الامير اللجنة فعاد إلى سورية لإعداد ما يلزم للاستفتاء، وقد كانت علاقاته اجمالا بالفرنسويين خلال إقامته فى عاصمتهم، على غير ما يرام، وكانوا يعملون فى هذه المرحلة لتعزيز فكرة إنشاء «لبنان الكبير» ويقول الكونت غونتمبيرون إن المسيو جورج بيكو قنصل فرنسا فى بيروت قبل الحرب ومندوبها فى سورية بعدها هو الذى أوحى بفكرة «لبنان الكبير» وهو الذى دعا إليها لأنه كان يرى صعوبة فى الاستيلاء على سورية الداخلية. فتكتفى فرنسا بلبنان بعد أن تكون وسعت حدوده وأرضيه.

ولعل النتيجة التى أسفر عنها الاستفتاء هى خير عمل يمكن تسجيله لما عمل فى ذلك الدور. فقد اتفقت كلمة الأمة السورية بما يشبه الإجماع على المطالبة باستقلال سورية التام وبإنشاء دولة سورية متحدة يرأسها الأمير فيصل وبرفض مطالب الصهيونية فى فلسطين، وبطلب مساعدة أميركا فإذا لم تقبل فإنكلترا، وقد نشرنا تقرير اللجنة برمته. فهو من أعظم الحجج التاريخية، وهو ينقض دعوى المدعين بأن الأمة العربية السورية كانت تعمل للدخول تحت حماية دولة من الدول أو تفضل هذه على غيرها.

وبينما كان الأمير يترقب أخبار باريس بوصول اللجنة وتقديم تقريرها إلى مؤتمر الصلح ليصدر قراره بموجبه، فوجىء ببرقية من الحكومة الإنكليزية تستعجله بالقدوم إلى باريس، وكان اللورد اللنبى قد سبقه اليها، فأبحر على الفور، ولكنه لم يصل إلا بعد فوات الآوان – أى بعد عقد اتفاق باريس. وقد وافق فيه الإنكليز على استرداد جيوشهم من الأراضى التى تقضى معاهدة سايكس – بيكو بأن تكون خاضعة لفرنسا بما فى جملتها كيليكية والساحل السورى، على أن تستثنى من ذلك ولاية الموصل، وقد فاز الإنكليز بها، ولواء الكرك فى داخل الدولة السورية (إمارة شرقى الاردن الحاضرة) ولم يجل عنها

الجيش البريطانى، أما المدن الأربع فقد ظلت من دون احتلال على أن يتم الاتفاق بشأن مصيرها بين الأمير والحكومة الفرنسوية مباشرة.

وقد احتج الأمير على هذا الاتفاق، ولم تخف عليه خطورة شانه، وقصد لندن على الفور ليطالب الإنكليز بالوفاء. فاشاروا عليه بالتفاهم مع فرنسا، فعاد إلى باريس ثانية بعد ما تبين عدم فائدة الإقامة فى لندن وأدرك أن الإنكليز تخلوا عنه مقابل الموصل وفلسطين وشرقى الأردن، وانصرف على أثر عودته إلى معالجة الحالة التى نشأت عن الجلاء، وأعلن أنه لا يوافق بوجه من الوجوه على احتلال الفرنسويين للاقضية الأربعة، وهى البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا، فقد ألحقت بموجب معاهدة سايكس - بيكو بلبنان الكبير مع أنها كانت من أعمال ولاية دمشق فى العهد التركى، وقد وضعت الدولة العربية الجديدة يدها عليها فى ختام الحرب. وقد دارت مفاوضات عديدة بين الأمير والفرنسويين انتهت بالاتفاق على أن تكتفى الحكومة الفرنسوية بإرسال ضابط ارتباط إلى بعلبك ومثله إلى راشيا، وأن يعدل عن احتلالهما. وكان لفرنسا ضابط ارتباط فى دمشق وآخر فى حلب. ولابد لنا من القول أن الفرنسويين طلبوا فى أوائل عهد الاحتلال أن يكون لهم ضابط ارتباط فى حمص وآخر فى حماه، فلم تجبهم القيادة البريطانية إلى طلبهم.

وظهرت العصابات فى هذا الدور، وقد لا نعدو الصواب كثيرا إذا قلنا إنه لم يكن لحكومة دمشق يد فى إنشائها وتكوينها، وأول ما ظهرت فى جبال النصيرية وفى جبل عامل وفى سهل البقاع، ولا نشك فى أن لأعمال بعض الموظفين الفرنسويين يدا فى تكوينها وإنشائها فقد جاروا على النصيرية، وكانوا فى خلاف مع جيرانهم الإسماعيليين، وتعصبوا لهؤلاء وساقوا القوى على النصيرية لقتالهم واخضاعهم فوقفوا فى وجههم وقاتلوهم. وحدث مثل ذلك تقريبا فى الحولة. فقد اعتدى بعض الجنود على العربان فدافعوا عن أنفسهم وبدلا من أن يعالج ولاة الأمور المحليون هذه الحادثة بالحكمة والروية ساقوا القوى والمدفعية فحرقوا القرى وخربوا المنازل والدور، فكان ذلك فاتحة ذلك النضال العنيف فى جبل عامل - وقد امتد بضعة أشهر. أما حوادث البقاع فقد نشأت عن محاولة بعض الشبان المتحمسين منع ضابط الارتباط الفرنسوى من الدخول إلى بعلبك - حسب الاتفاق الجديد - وإعادتهم له وبدلا من أن يعمل الفرنسويون لحل الخلاف مع حكومة دمشق جردوا قوة كبيرة بقيادة الجنرال دى لاموط تقدمت لاحتلال بعلبك، فتجمع الأهالى لقتالها

وقاوموها مدة، ولكنها تغلبت عليهم ودخلتها. ونحن في غنى عن القول أن المنكوبين في هذه الحوادث الثلاث لجأوا إلى دمشق يسألون حكومتها العون والمساعدة، وأن تأخذ بيدهم. فلم تر أن تتغاضى عنهم - وقد نكبوا في سبيل وطنهم، فأجرت عليهم الرواتب والأعطيات فشجعهم ذلك. فعادوا ثانية إلى بلادهم طلبا للثأر والانتقام، فكانت فاتحة حروب العصابات. وقد اتسع نطاقها تدريجا بعد ذلك فأزعجت حكومة دمشق وحكومة بيروت على السواء وألحقت بالبلاد وسكانها فادح الأضرار.

وتقدمت المفاوضات في خلال هذه المرحلة تقدما يذكر بين الأمير والفرنسويين، وتم الاتفاق على مشروع معاهدة تحدد العلاقات بين سورية وفرنسا. وقد حمله في وطابه وعاد به إلى دمشق. وبدلا من أن يدعو المؤتمر السوري ويعرضه عليه في جلسة علنية أو سرية ويطلب منه إصدار رأيه فيه سلبا أو إيجابا اكتفى بعرضه على أعضاء جمعية العربية الفتاة، فأجمعت كلمتهم على رفضه وقد فصلنا ذلك تفصيلا. فكف عن عرضه على الهيئات الأخرى، ولو فعل للقي تأييدا في الغالب. وبينما كان يضرب أخماسا في أسداس ويفكر في اختيار الطريق الذي يسلكه. فلا هو قادر على المضي في الاتفاق نهائيا مع الفرنسويين، سيما وقد خذله الإنكليز وتخلوا عنه - في نفس الوقت الذي خسر فيه الرئيس ولسن نفوذه ومقامه، وقد كان عضده الأكبر والمستند الذي يستند إليه، ولا هو قادر على مجافاة إخوانه الوطنيين الذين عملوا معه منذ ابتداء الحركة وأخلصوا الخدمة، والتخلي عنهم، والتعاون مع الفرنسويين. لأنه ما كان يجهل أن اتفاقه معهم قد يعرضه لعداء أولئك وخصومتهم. سيما ولم يكن واثقا من إخلاص الفرنسويين ولا معتقدا فيهم الوفاء بعد كل ما جرى - نقول بينما كان على هذه الحال أوحى إليه بعض رجال سورية النازحين إلى مصر أن الطريقة المثلى لحل القضية السورية هي إعلان استقلال سورية وإنشاء دولة في ربوعها، وجعل أوروبا أمام حالة مبرمة لا ترى لها بدا من التسليم بها وإن عارضت في الابتداء، فلقيت هذه الفكرة ارتياحا. وما هي إلا أيام حتى نفذت، فاجتمع المؤتمر السوري وأعلن الاستقلال ونادى به ملكا على البلاد وأنشأ حكومة برلمانية دستورية، وألف لجنة لوضع دستور مستمد من أحدث المبادىء العصرية. ولقد قوبل ما تم بعدم الارتياح من جانب الإنكليز والفرنسويين، وأبلغوا الأمير أنهم لا يقرونه ولا يوافقون عليه. ولم تمض خمسة أسابيع حتى اجتمع مؤتمر الحلفاء في سان ريمو فقرر تجزئة البلاد العربية بين إنكلترا وفرنسا

فاختص هذه بالشام ساحلا وداخلا. كما اختص تلك بالعراق وفلسطين. فأثار ذلك ثائر الشعب، وقام الناس فى دمشق وبغداد والقدس وحلب وبيروت ومكة وقعدوا لهذا النبأ الخطير، وعدوه برهانا حسيا على تمسك باريس ولندن باتفاق سايكس - بيكو. وإصرارهما على تنفيذه واقتسام بلاد العرب. فسرت فكرة الدفاع، وأجمع الرأى العام على المطالبة بإعداد القوى لمقاومة قرار المؤتمر. وكان العراق يتمخض بثورته. وكان الترك ينازلون الفرنسويين على حدود سورية الشمالية. وما هى إلا أيام حتى استقالت أو أقيلت الوزارة الركابية، وحلت محلها الوزارة الأتاسية، وقد جعلت الدفاع شعارا لها، ونادت بأنها من الدفاع وإلى الدفاع وأنها لم تؤلف إلا للدفاع.

ولا ريب أن منطوق كلمة الدفاع يوحى بإعداد المعدات وشراء الأسلحة، وحشد الجند وإكمال التأهبات. فهل فعلت الوزارة الدفاعية شيئا من ذلك؟ وهل أعدت المعدات المطلوبة وهل قصرت فى أداء الواجب أم لم تقصر؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه هنا مثيرين بحثا لم يثر حتى الآن. فقد لايخلو ذلك من فائدة. وقد يساعد على تنوير الرأى العام. فيذكر للمحسن إحسانه، وللمقصر تقصيره.

والكلام على الدفاع وشؤون الدفاع يجر إلى البحث عن وزارة الحربية فى الدولة الفيصلية، وعن الذين تقلدوها فى ذلك العهد، وهم أربعة أولهم ياسين الهاشمى وآخرهم يوسف العظمة، وبينهما مصطفى نعمت ورضا الركابى وعبد الحميد القلطقجى. فقد تقلد الهاشمى هذه الوزارة على أثر إنشاء الحكومة الجديدة فى شهر اكتوبر سنة ١٩١٨ وكانت تسمى رئاسة ديوان الشورى الحربى، وظل يديرها حتى قبض عليه الإنكليز ونفوه إلى الرملة (فلسطين) يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٩ فحل محله بالوكالة مصطفى نعمت، وظل يتقلدها حتى يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٢٠ ففيه عين على رضا الركابى مديرا للحربية (حلت محل ديوان الشورى الحربى). وقد ظل فى هذا المنصب حتى ألف وزارته يوم ٨ مارس من تلك السنة فتقلد هذا المنصب اللواء عبد الحميد القلطقجى وظل فيه حتى يوم ٣ مايو سنة ١٩٢٠ فحل محله يوسف العظمة. وعلاوة على هذا فقد تقلد يوسف منصب رئاسة هيئة أركان الحرب للحكومة العربية من يوم ٢٨ يناير سنة ١٩٢٠ أى يوم إنشاء مديرية الحربية وتعين رضا الركابى مديرا لها. ومعنى ذلك أن يوسف بحكم تقلده رئاسة هيئة أركان الحرب أولا، ووزارة الحربية أخيرا سيطر على هذه الوزارة زهاء ستة أشهر ونيف كان فيها

الآمر الناهى، سواء فى زمن رئاسة هيئة أركان الحرب أو وزارته. فقد كان الكل فى الكل وكان يستمد السلطة من الملك مباشرة. أى أن هذه الوزارة انحصرت فى يد هذين الاثنين: الهاشمى والعظمة، وهما المسؤولان عنها مباشرة هذا تقلدها ١٤ شهرا ونيفا وذاك تقلدها ٦ أشهر فلننظر فيما أعداه من عدد وتدابير.

لقد سرح الهاشمى فى زمن رئاسته الجيش الشمالى (جيش الثورة) وأنشأ المؤسسات الفنية. فأعاد المدرسة الحربية. كما نظم مكاتب الديوان ومصالحه، ووضع القواعد والأسس لإنشاء ثلاث فرق. ولما كانت الخدمة العسكرية اختيارية فى هذا العهد فقد كان عدد الجيش العامل كله لايزيد عن ثلاثة آلاف. كما أن مخازن الجيش ظلت فارغة من البنادق والمدافع والذخائر تقريبا. فلم يعر هذا الأمر ما يستحقه من اهتمام. فى حين أن الأموال كانت متوفرة لدى تلك الحكومة. فقد كانت تتناول من السلطة البريطانية خلال السنة الأولى ١٥٠ ألف جنيه شهريا. فى حين أن عدد الضباط الفنيين لم يكن غير قليل، وكانت رواتبهم تستغرق معظم ميزانية وزارة الحربية.

وكان منطق الحوادث يوجب على وزارة الحربية أن تعنى فى العهد الثانى – عهد يوسف العظمة، وقد جيء به من بيروت لينظم الجيش، وأطلقت يده فى العمل، ومنح سلطة لا حد لها – بالإصلاح والتنظيم وإعداد المعدات للكفاح. سيما بعد ما تبدل الحال وظهرت نيات الإنكليز والفرنسويين. وتبين اتفاقهما وثبت أنهما يعملان سويا لاقتسام البلاد، وتنفيذ خططهما، وارتفعت الأصوات من كل ناحية بإعداد معدات الدفاع والاستعداد للنضال والكفاح.

والعمل البارز الذى عمله يوسف العظمة فى هذه الفترة استصداره قانون الخدمة الإجبارية. وقد نشر فى شهر مارس – أى بعد تقلده الرئاسة، فارتفع بذلك مجموع الجيش إلى ثمانية آلاف بدلا من ثلاثة. أما التسليح فقد أهمل فى هذا العهد. كما أهمل فى العهد السابق، وظلت مخازن الجيش فارغة، وظلت معداته ناقصة. فما كان يملك أكثر من ١٥ ألف بندقية ونحو ٥٠ مدفعا. ويجب أن لا ننسى أن هذه البندقيات كانت مختلفة الطراز ومثلها المدافع. أما القذائف فكانت قليلة جدا ومثلها القنابل، وما كان عددها يزيد عن ٢٥٠٠ قنبلة بنسبة ٥٠ لكل مدفع و٢٥٠ قذيفة لكل بندقية. ومن الغريب أنه لم يعر أحد من رجال تلك الدولة، ولا من أقطابها قضية التسليح اهتماما، ولم يدر أى بحث بشأنها. ولعل منشأ ذلك ما كان يتمتع به اللذان قاما على رأسها من ثقة كبيرة.

ولما بدأ الفرنسويون بحشد قواهم العظيمة فى بيروت واسكندرونة استعدادا للضربة الكبرى وجاءت الأخبار الرسمية إلى مصلحة الاستخبارات فى الجيش بأن الفرنسويين نقلوا معسكراتهم من ضهور الشوير إلى المريجات، ثم تقدموا إلى البقاع، وضعت هذه المصلحة تقريرا مفصلا عن الحالة العسكرية اقترحت فيه إخلاء جميع المناطق فى داخل البلاد وحشد الجيش كله فى حوران، تحت ستار القيام بمناورة كبيرة والعناية بإعداد جيش لا يقل عن خمسة عشر ألف جندى، ليتسنى الدفاع، وقالت إن بقاء قوى الجيش مبعثرة فى حلب وحمص وحماه يضعفها ويؤدى إلى القضاء عليها، ولما تلى هذا التقرير فى جلسة مجلس الوزراء يوم ٢٩ يونيو - أى قبل وصول الانذار النهائى بخمسة عشر يوما فقط قرر المجلس عدم الأخذ به. لأنه يزعج الفرنسويين، ويفتح بابا للقيل والقال. فأهمل، وظل كل شىء على حاله. وبعد انقضاء أيام قليلة على هذا الحادث زار قنصل إيطاليا فى دمشق جلالة الملك. وقال له إن المعلومات الرسمية التى تلقاها تثبت له أن الفرنسويين يملكون فى سورية نحو ٧٠ ألف جندى، وأنهم يريدون احتلال دمشق، وأن قواهم الكبرى محتشدة فى اسكندرونة.

ولم ينكشف أمر الجيش إلا بعد ١٥ يوليو سنة ١٩٢٠ أى بعد وصول إنذار الجنرال غورو، ولم يكلف أحد نفسه مؤونة البحث عن حالته، وربما عد ذلك من الأسرار العسكرية الخطيرة التى لا يجوز لأحد الاطلاع عليها. ونعتقد أنه لولا الهاشمى لظل أيضا أمره مكتوما. فقد اغتنم فرصة تعيينه لقيادة منطقة دمشق فذهب إلى الأمير زيد، وأطلعه على الحالة - كما وصفنا من قبل - فذهب إلى أخيه فدعى المجلس الحربى إلى الاجتماع، ولما عرف يوسف العظمة ما وقع «قال لقد كشفنا ياسين، وانتهى كل شىء، ولم يعد بإمكاننا أن نعمل شيئا» ثم اعترف بعد ذلك لجلالة الملك بأنه كان «يناور» وأنه ما كان يعتقد أن الحالة ستصل إلى حرب مع الفرنسويين. ولا ريب أن ظهور ما ظهر زاد الفرنسويين صلابة وشدة، وما كانت تخفى عليهم خافية مما يجرى فى مكاتب دمشق - كما اضطر الحكومة إلى قبول الإنذار على المنوال الذى بسطناه - مما أدى إلى وقوع تلك الكارثة المريعة، وقد كان فى الإمكان اتقاؤها لو سارت الأمور فى غير هذا الاتجاه، ولو رسمت تلك الحكومة لنفسها خطة تسير عليها وتنفذها بعد اتفاق الفرنسويين والإنكليز نهائيا وبعد صدور قرار سان ريمو - بدلا من الاستسلام إلى تيارات متناقضة وآراء متباينة. فقد كان رجال تلك الحكومة - وخصوصا الوزارة الآتاسية - مزيجا من عناصر متباينة فمنهم الدفاعى

المتطرف الذى لا يرضى بما دون طرح فرنسا فى البحر، ومنهم المستسلم الذى يرى أن السلامة كل السلامة هى فى قبول الانتداب والتسليم للفرنسويين، والجلوس فى أحضانهم. يؤيد ذلك قبول معظمهم العمل فى الوزارة الدروبية التى تألفت غداة ميسلون لتنفيذ مبادىء الانتداب. فقد كان رئيسها عضوا نافذا فى الوزارة الدفاعية، وكان يتقلد منصب وزارة الداخلية، وهو من أكبر المناصب. وقل مثل ذلك عن كثيرين من رجال ذاك العهد. والذين رفضوا التعاون مع الفرنسويين، هم عصبة قليلة جدا ويعدون على الأصابع.

هذا من جهة واحدة. أما من جهة الأخرى فيجب أن نعترف بأن الفرنسويين نشطوا نشاطا زائدا فى خلال الدور الثانى - أى بعد اتفاقهم مع الإنكليز وإطلاق يدهم فى العمل، وبعد صدور قرار مؤتمر سان ريمو وانسحاب الأميركان - إلى نشر الدعاية وإنفاق الأموال والاستكثار من الأنصار والأعوان، وشراء الذمم والضمائر. ويقدر بعض العارفين ما أنفقه الفرنسويون على الدعاية وحدها فى تلك الفترة بثلاثمائة مليون فرنك - نحو ثلاثة ملايين جنيه بعملة ذاك العهد، اشتروا بها ضمائر كثيرين من ذوى المقامات، كما استمالوا آخرين بالوعود التى بذلوها لهم، فكانت لهم لجنة كبيرة فى دمشق تعمل بإشراف معتمدهم مهمتها تثبيط العزائم، ونشر الدعاية الفرنسوية، واستمالة الجماهير. وكانت تضم عددا غير قليل من وجهاء ذاك العهد وأقطابه، وبعض المقربين من الملك وحاشيته. وقد استمالت عددا من كبار الموظفين - كما كان لهم أنصار فى داخل الجيش، وكان هنالك شيخ من شيوخ الطرق نصب نفسه لنشر الدعاية الفرنسوية، فاستمال بعض المرتزقة من الشيوخ، وكان نطاق حركتهم فى حلب أعم وأوسع، وشبكة اصطيادهم أكبر. وكذلك استمالوا بالأموال الوافرة التى بذلوها أسرا كبيرة فى قضاء الزبدانى وفى البقاع. لا فرق بين السنيين والشيعة. وأرسلوا عصابة كبيرة إلى ميسلون قادها مسلم من وجهاء بيروت، وسلحوها بالمسدسات والقنابل غرضها الظاهر التطوع فى الجيش الوطنى لمقاتلة الفرنسويين، ومهمتها الحقيقية إلقاء الذعر والاضطراب فى الجيش، واغتيال الضباط وإرشاد الطيارات إلى أماكن المدفعية، وقد اعتقل رجالها فى حالة الجرم المشهود، ووضعت الأصفاد والأغلال فى أعناقهم وأرجلهم وأرسلوا إلى دمشق لمحاكمتهم، وكذلك قبض على آخرين وهم يقطعون الأسلاك التليفونية والبرقية بين دمشق وميسلون، وبينها وبين المناطق الأخرى يوم الزحف الفرنسوى واستمالوا عددا غير قليل من زعماء الدروز فى حوران فكان نصف الجبل فى

أيدى أنصارهم تقريبا، واستمالوا عددا من مشايخ الحوارنه ومن شراكسة القنيطرة وحمص ومن الصحافيين والضباط وبعض النواب وهكذا شقوا الصفوف وثبطوا الهمم وألقوا الاضطراب والذعر بما بثوه من دعايات منظمة، وقد وجهت إلى الحكومة القابضة على ناصية الحال يومئذ انتقادات شديدة لإهمالها وتراخيها فلم تغن فتيلا.

فإذا أضفنا هذه العوامل إلى التردد الذى كان يسود دوائر الحكومة، وعدم وجود سياسة صريحة ثابتة لها. فقد كانت تتظاهر آونة بالميل إلى الفرنسيس، ثم تعرض عنهم، ثم تنادى بأنها دفاعية من دون أن تعد للدفاع عدته، ثم تقبل إنذار الفرنسويين ثم ترفضه ثم تعلن الحرب عليهم ثم تنكره، ثم تسعى للتقرب اليهم - أدركنا السر فى سقوطها فحالة مثل هذه لا يمكن أن تدوم. وحكومة كهذه الحكومة لا يمكن أن تعيش. فلابد من انقراضها وهو ما وقع. فالبقاء للأصلح، والأفضل سنة الله فى خلقه. وزاد الطين بلة انهزام الأمير عبد الله بن الحسين فى تربة يومئذ والقضاء على ما للحكومة الهاشمية من قوى والتجائها إلى الإنكليز لرد ابن سعود عن مكة مما أفقدها كل هيبة ومقام، وأطمع الفرنسويين فزادوا فى الضغط على فيصل. ومضوا فى تنفيذ خطتهم لاعتقادهم انه أصبح وحيدا لا سند له. فلا حكومة مكة قادرة على إنجاده ومساعدته بعد ما أضاعت كل شىء، ولا الإنكليز يمدون إليه يدا بعد ما باعوه ببترول الموصل وأموال اليهود، ولا هو قادر على ضبط الموقف فى دمشق بعد ما أفلت من يده. لما كان يغشى سياسته من اضطراب - كما أن حالة الجيش ما كانت تمكنه من مواصلة القتال والصدام. بعد ما تبين أن مخازنه فارغة، وأن كل ما يملكه من عتاد لا يكفى لمعركة واحدة تمتد بضع دقائق، وأن المسؤولين عنه قصروا فى إعداده وتنظيمه.

فهذه الاعتبارات وغيرها عجلت فى يوم ميسلون. وألبست العرب ثوب الحداد على دولة كانت يرجى أن يكون لها شأن عظيم فى نهضتهم الحديثة، وفى إدراك أمانيهم وكانت النكبة الثانية التى نكبوا بها فى حركتهم الجديدة، أما الأولى فهى مظالم جمال باشا، وقد أفقدتهم نخبة ممتازة من رجالهم الأكفاء المتعلمين. الذى كان يرجى منهم خير كبير لأمتهم.

ونعيد هنا ما قلناه فى متن هذا الجزء، وهو أن إعلان الثورة فى العراق وانتصار الثوار على الإنكليز واستيلاءهم على مدن الفرات وقواعده - فى نفس الوقت الذى كان فيه الجنرال غورو يقوض حكومة دمشق - وما تكللت به هذه الثورة من فوز ونجاح خفف عن

العرب بعض آلامهم وأحزانهم، وهون مصابهم. فقد استبدلوا دولة بدولة. ونقلوا مركز العمل من دمشق إلى بغداد.

ومما لا ريب فيه أن قيام الحكومة الفيصلية فى الشام أثر أثرا كبيرا فى العراق، وشجع الحركة الوطنية التى ظهرت فى ربوعه، وقد كان لرجال هذه الحكومة يد لا تنكر فى تنميتها وتعزيزها - سواء بما كانوا ينشرونه من رسائل ومنشورات، وسواء بما كانوا يبذلونه من أموال. فقد عرفنا من أوثق المصادر أن جمعية العربية الفتاة دفعت للثورة العراقية ٤٥ ألف جنيه، ودفع حزب الاستقلال ٢٥ ألف جنيه، ودفع الأميران فيصل وزيد مالا يقل عن ٣٠ ألف جنيه لزعماء الحركة السياسية من العراقيين أنفقت على إعداد ثورة العراق، وعلى تجهيز العصابات وتأليفها، وعلى طبع المنشورات وإرسال الرسل.

ويرى معظم الذين كتبوا فى الثورة العراقية من العراقيين أن الثورة نشأت عن عوامل شتى يمكن إيجازها فيما يلى:

١- عدم وفاء الحلفاء للعرب بما عاهدوهم عليه.

٢- سوء عمل الإدارة العسكرية التى أنشأها الإنكليز فى إبان الحرب، وتمسكوا بها بعد ختامها.

٣- الضغط على الحرية الفكرية وعدم السماح بإصدار جريدة وطنية.

٤- إلقاء الحكومة بنفسها فى أحضان الذوات والمتنفذين.

٥- إنشاء الحكومة الفيصلية فى الشام.

٦- إعلان الثورة فى مصر.

ويرى كتاب الانكليز الذين كتبوا فى الثورة العراقية غير ذلك. وقد وضع السير آرنولد ولسن حاكم العراق السياسى فى زمن الثورة بعد اعتزاله العمل كتابا باللغة الانكليزية «A clash of Loyalies» دافع فيه عن سياسته. وقال إنه طلب من حكومته سلطة مطلقة للعمل حينما تفاقم الخطب وتأزمت الحالة. فأرسلوا له الجنرال هلداين قائدا عاما للجيوش البريطانية فى العراق، وبدلا من أن يقيم هذا فى بغداد للإشراف على الحالة وإنجاز ما يراه لازما من التدابير نزح إلى جبال كراند فى إيران هربا من حر الصيف فى العراق، واتخذها مقرا لقيادة الجيش.

وكذلك طلب تعليمات صريحات من حكومته ينفذها ويسير عليها فلم ينل أجوبة صريحة. وكانوا يقولون له انتظر إلى أن يتم عقد الصلح بيننا وبين الترك وإياك أن تقدم على عمل قبل تقرير الانتداب، ودارس رغائب الاهالي جيدا. ومما شكا منه فى كتابه قلة عدد الجند فى العراق قبل الثورة. فقد كان لا يزيد عن ٤٠ ألفا مما أطمع العرب.

ووضع الجنرال السير المرهلدين كتابا عن الثورة سماه «الثورة العراقية» فذهب إلى أن قيام الحكومة الفيصلية فى الشام وتقلد العراقيين وظائف عالية فيها كان من جملة العوامل فى تكوين الثورة العراقية. فقد طمعوا فى إنشاء حكومة عربية فى بغداد. فشرعوا يبثون الدعوة لاستقلال العراق، وبدأت الدعاية تتسرب من سورية إلى العراق منذ شهر إبريل سنة ١٩١٩ فأثرت فى العرقيين. ولا سيما فى سكان شواطىء الفرات الأدنى. وعنده أن احتلال دير الزور وتساهل الإنكليز بأمره، وتسليمه للحكومة الفيصلية كان من العوامل الأصلية فى تكوين الثورة. وقال إنه قد لا يكون مبالغا إذا اعتقد أنه لو استرد الإنكليز هذا اللواء لما حدثت الثورة.

وانتقد الجنرال الإدارة البريطانية فى إبان الاحتلال انتقادا مرا - كما انتقد استخدام ضباط غير مجربين فصلوا من الجيش بعد الهدنة واستخدموا مساعدين للحكام السياسيين، ومعظمهم لا يعرف الشعب الذى قدر له أن يحكمه، واعترف بأن الحكم الجديد وقد كان مبنيا على اختبار سابق فى الهند كان شديد الوطاة على أهل البلاد الذين لم يتعودوا عليه، وما كانوا مستعدين لقبوله.

وعدد من أسباب الثورة نقمة أصحاب العقار من المسلمين واليهود والنصارى على الحكومة الذين صادرت بيوتهم أثناء الحرب، ودفعت عنها أجورا زهيدة - بعكس البيوت التى لم تصادر - فقد ارتفعت أجورها ارتفاعا زائدا حرم منه أصحاب العقار. فنقموا على الحكومة الجديدة، وتمنوا زوالها. وكذلك كان شأن أصحاب الأراضى. فقد عضدت الحكومة شيوخ القبائل اكتسابا لتعضيدهم. فسلبوا الأهالى أراضيهم.

وعدد منها أيضا نقمة موظفى الحكومة السابقة. لأن الحكومة الجديدة أخرجتهم من وظائفهم، يضاف إلى هذا أن التقاعد التى خصصت لبعضهم كانت ضئيلة.

أما المس بيل. وهى من أكثر الإنكليز تضلعا فى الشؤون العراقية فتقول فى كتابها إن وعود الحلفاء وقيام الحكومة الفيصلية كانا فى مقدمة العوامل التى كونت الثورة. ومما قالته

فى هذا الشأن «وطرأت على أفكار العراقيين طوارئ جديدة بعد اطلاعهم على مبادئ ولسن الأربعة عشر، وقد أذاعتها شركة روتر يوم ١١ اكتوبر سنة ١٩١٨ فى العراق، وعلى منشور الحكومتين الإنكليزية والفرنسوية يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ وكان العراقيون قبل ذلك يذعنون لكل قرار يصدر، ولكل تدبير يدبر، وقد فتح هذا المنشور باب مشكلات عديدة تعذر حلها.

«وكذلك جاء إنشاء الحكومة الفيصلية فى الشام صغثا على إبالة فقد كان أكثر رجال هذه الحكومة من العراقيين الذى يعتقدون أنهم انما حاربوا فى سورية ليحرروا وطنهم وكانوا قد ألفوا قبل حرب معان جمعية دعوها جمعية العهد العراقى[١] وكانت غاية هذه الجمعية استقلال العراق واتحاده بسورية المستقلة برئاسة بيت الشريف، وكان يديرها ياسين باشا البغدادى الذى أسر عند سقوط الشام[٢] وأخذ على عهدته بث الدعوة الوطنية، وإيجاد حركة سريعة فى العراق، ولم تتحقق مقدار مساعدة فيصل لها.

«وهنا لك عامل آخر وهو رجوع طائفة كبيرة من الموظفين البغداديين الذين رافقوا الجيش التركى فى انسحابه إلى الموصل، فخلقت لهم الحكومة التركية وظائف اسمية فى الموصل، ولما رجعوا بعد الهدنة كانوا مشبعين بشعور العداء للإنكليز فنشروه».

ومما سمعناه خلال زيارتنا للنجف الأشرف فى شهر نوفمبر سنة ١٩٣٣ ولم يسجله كتاب الثورة العراقية - وهو فى نظرنا من العوامل الجوهرية - ما حدث فى شهر مارس من سنة ١٩١٩ أى بعد أن بسط الإنكليز نفوذهم السياسى على النجف، واحتلوا الفرات احتلالا عسكريا. فقد استاء الكابتن مارشال أول حاكم إنكليزى للنجف لأن بعض الشبان لم يقفوا له أثناء مروره بالشارع العام. فأمر باستدعائهم وجلدهم عقابا لهم، فكبر ذلك عليهم، وكان له أسوأ وقع فى النفوس، وكان من أثره أن تآمر بعض النجفيين عليه وقتلوه - وقد أشرنا إلى هده الحادثة فى مكانها.

والخلاصة أن للعراقيين الذين كانوا فى سورية بعد الهدنة - لا فرق بين الذين كانوا فى جيش الثورة العربية، وبين الذين انضموا إليهم بعد دخول الشام يدا كبيرة فى إعداد الثورة وتكوينها. سواء باشتراكهم فى احتلال دير الزور، وبتنظيمهم حركة الجمعيات

(١) ألفت جمعية العهد العراقى قبل الحرب العظمى، ثم جددت بعد ختامها، وقد نشرنا تاريخها «انظر المجلد الأول والثورة العراقية فى هذا المجلد».

(٢) كان ياسين باشا حين حروب معان قائدا للفيلق التركى الثامن الذى يقاتل الانكليز فى شونة نمرين (وادى الشريعة) وقد ارتد مع الترك حين انسحابهم فى سبتمبو سنة ١٩١٨.

السياسية العاملة فى الداخل، ومدها بالأموال - وسواء بإرسالهم الصحف والمناشير والكتب وتنشيطهم حركة الدعاية، وسواء بتأليف العصابات - وقد كانت أول من فتح باب الحرب وقاتل الانكليز فى شمال العراق وانتصر عليهم - وأدار الفراتيون رحى الثورة وقاموا بأعبائها عند مانادى مناديها وقام سوقها. فلم يحجموا ولم يتقهقروا، وقاتلوا واستبسلوا ولم يلقوا السلاح إلا بعد ما نالوا عهودا صريحة من الإنكليز بإجابة مطالب البلاد وتحقيق أمانيها وإقامة حكومة عربية فى ربوعها. ولا نرتاب فى أنه لولا هذه الثورة لما عدل الإنكليز شيئا من خططهم وأساليبهم، ولأبقوا النظام الإدارى القديم الذى أنشأوه، ولأرغموا العراقيين على قبوله وألفوا حكومة إنكليزية يرأسها السير برسى كوكس طبقا للتعليمات التى صدرت فى سنة ١٩١٨. بيد أن الصدمة التى صدموا بها والفشل الذى لحق بهم جعلهم يعدلون عن هذه السياسة ويميلون إلى التساهل مع العرب لإرضائهم من ناحية، وللتخلص من النفقات الباهظة التى كانوا ينفقونها من جهة أخرى. فقد بلغت فى سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ نحو ١٢٥ مليون جنيه وزعت كما يأتى:

١- ٥٥ مليون جنيه نفقات الجيش العادية.

٢- ٢٩ مليون جنيه ونصف مليون لنفقة الحرب

٣- ٤٤ مليون جنيه ونصف مليون لتجهيز الجيوش المحتلة.

وقد خفضت هذه النفقات فى السنة الأولى لإنشاء الحكومة الوطنية إلى ٣٠ مليونا من الجنيهات للجيش، وخمسة ملايين للإدارة المدنية. وخفضت فى السنة الثانية إلى عشرين مليونا، وظل التخفيض مستمرا سنويا على هذه النسبة، ولا يزيد فى الوقت الحاضر عن بضع عشرات من الألوف ينفقونها على المطاردين فى الحبانية وفى منطقة البصرة.

ومع ما ناله العرب من فوز فى العراق بانشائهم هذه الدولة فى ربوعه إلا أن ما استردوه فى بغداد لا يعادل ما خسروه فى دمشق. ومعنى ذلك أن كفة الفوز والنجاح لم تكن هى الراجحة فى خلال المرحلة الثانية من مراحل القضية العربية. نعم ان إنشاء هذه الدولة وقيامها مما لا يستهان به، ولكنه على كل حال لا يعادل نكبة ميسلون، وقد قسمت على أثرها سورية إلى ست دويلات: دولة فلسطين، وإمارة شرقى الأردن ودولة لبنان الكبير، ودولة دمشق، ودولة جبل الدروز، ودولة العلويين، ودولة حلب، وتوطدت أقدام اليهود فى فلسطين، ولو فاز العرب فى ذاك الميدان وثبتوا لما حدثت هذه الحوادث المريعة - والأمر لله من قبل ومن بعد.

فهرست الجزء الثانى

صفحة

صفحة

الثورة العراقية الكبرى

الثورة العربية الكبرى

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية فى ربع قرن

تاليف

أمين سعيد

المجلد الثالث

إمارة شرق الأردن وقضية فلسطين

قوط الدولة الهاشمية وثورة الشام



الثورة العربية الكبرى

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية

في ربع قرن

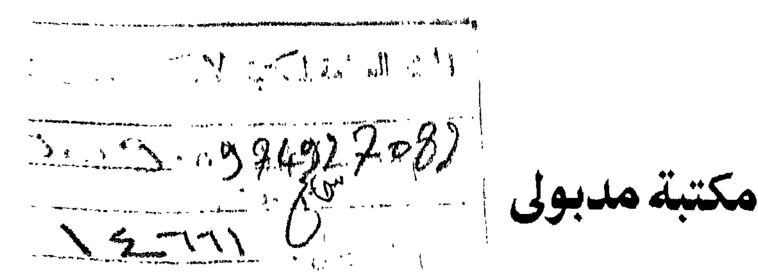
تأليف

أمين سعيد



المجلد الثالث

إمارة شرق الأردن وقضيــة فلسـطين وسقوط
الدّولة الهاشمية وثورة الشام



مكتبة مدبولى

اسم الكتاب : **الثورة العربية الكبرى**

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية فى ربع قرن

اسم الكاتب : أمين سعيد

المجلد الثالث : إمارة شرق الأردن وقضية فلسطين وسقوط الدّولة الهاشمية وثورة الشام

الناشر : مكتبة مدبولى ٦ شارع طلعت حرب القاهرة

تليفاكس ٥٧٥٦٤٢١ ت : ٥٧٥٢٨٥٤

الجمع التصويرى: أبو مسلم للكمبيوتر

ت : ٣٥٥٨٩٨٨



الأمير عبد الله بن الحسين



الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبيه العربى وعلى إخوانه المرسلين وصحابته والتابعين

أما بعد. فهذا هو المجلد الثالث من كتاب الثورة العربية الكبرى ويحتوى على تاريخ القضية العربية فى الفترة الممتدة من سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٣٤ ففيه بسط واف لتاريخ إمارة شرق الأردن. مع بيان مفصل عن القضية الفلسطينية والوطن القومى اليهودى وعن سعى انجلترا لتصفية عهودها المقطوعة للحسين ورفضه الحلول التى اقترحتها. وانهيار الدولة الهامشية فى الحجاز وقيام الدولة السعودية، ويتلو ذلك تفصيل ما حدث فى بلاد الشام من أحداث فتجد أخبار الثورة السورية الكبرى مفصلة إلى جانب تاريخ النضال السياسى الداخلى سحابة هذه الفترة الطويلة بين السوريين والفرنسويين ـ أقدمه للقراء وأرجو أن ينال قبولهم ورضاءهم والله الموفق والمستعان.

١

إمـــارة شـرقـى الأردن

ـ ١ ـ

نشأة إمارة شرقى الأردن

لماذا جاء الأمير عبد الله إلى معان؟

كان تسلسل الحوادث التاريخي يقضى علينا أن نشير فى الجزء الثانى إلى قدوم الأمير عبد الله بن الحسين إلى معان فى شهر سنة ١٩٢٠ واجتماع الناس حوله وما قيل عن رغبته فى طلب الثأر والزحف على دمشق مما كان له صدى بعيد الغور، بيد أن اشتباك حوادث سورية بحوادث العراق وارتباطهما جعلنا نمضى فى سرد أخبار الثورة العراقية حتى نهايتها. ثم نعود إلى الكلام عن إمارة شرقى الأردن فنفصل . أخبارها مع إيراد تاريخ القضية الفلسطينية لارتباطهما ارتباطًا وثيقا.

ولا يخفى أن المؤتمر العراقى العام المعقود فى دمشق يوم ٨ مارس سنة ١٩٢٠ نادى باستقلال العراق وبإنشاء دولة دستورية فى ربوعه وبايع الأمير عبد الله بالملك عليها وأقام الأمير زيداً نائبا عن أخيه عبد الله ريثما يحضر ويباشر العمل. وقد عارضت الحكومة البريطانية فى تنفيذ ما تقرر ـ وكانت تحتل العراق احتلالا عسكريا، فقد زار الأمير عبد الله القاهرة فى شهر إبريل سنة ١٩٢٠ وقضى فيها أياما فاتصل باللورد اللنبى المندوب السامى البريطانى يومئذ وأقطاب الإنجليز وباحثهم فى قضية العرش العراقى فأشاروا عليه بالرجوع إلى مكة ووردّه ردا لطيفا معتذرين بأن أوان البحث لإنشاء عرش فى العراق لم يأن. والواقع أن الإنجليز ما كانوا حتى تلك الأيام يفكرون فى إنشاء عرش عربى فى العراق، أو التسليم بحقوق العراقيين وإنما كانت سياستهم تدور حول إنشاء حكومة استعمارية يرأسها السير برسى كوكس وتلحق بحكومة الهند الإنجليزية وتكون من جملة مقاطعاتها. ولولا نهضة العراق واستبسال أبنائه لنفذت تلك الخطط، ولحدث هنا ماحدث بعد ذلك فى الشام وفلسطين وشرق الأردن ولا يزال قائما وشاهدا.

وعاد الأمير عبد الله من القاهرة فتقلد منصبه القديم فى الحكومة الحجازية، وهو وزارة الخارجية فحدث خلاف بينه وبين والده فى شهر يونيو سنة ١٩٢٠ على إدارة المحاجر الصحية فى الحجاز. فقد طلبت الحكومة البريطانية أن تكون مسئولة عن هذه المحاجر وأن لايقام محجر فى جزيرة أبى سعد «المناوحة لجدة» بل يكتفى بمحجر جزيرة قران

الإنجليزى فينزله الحجاج القادمون من الهند وجاوة. على أن يعاين فى جزيرة أبى سعد الحجاج الوافدون بطريق السويس معاينة صحية وأن تمثل الحكومة الإنجليزية الحجاز فى مجلس الكرنتينات والصحة الدولى لقاء عوض مالى تدفعه لحكومة مكة سنويا.

وأبى الحسين قبول هذا الاقتراح فكتب إليه اللورد اللنبى كتابا خاصا يرجوه تنفيذه فأصر على الرفض فهدد الكولونيل فيكرى مندوب الحسين إلى اللورد اللنبى محتجا فأقيل المعتمد. واعتزل الأمير على أثر هذا الحادث العمل فى الوزارة ولزم منزله فى مكة نحو شهرين.

ثم غادر مكة إلى المدينة ولم يطل الإقامة بل قصد معان، وكانت تابعةللحجاز فبلغها فى شهر سبتمبر واستقر فيها فأثر قدومه ضجة شديدة فى بلاد الشام - لأنه وصل ودماء شهداء ميلسون لم تجف، والشعب السورى يبكى استقلاله وعرشه، فاتجهت الأنظار إليه والتف الناس حوله وأسرع بعض الأحرار الذين لجأوا إلى فلسطين ومصر بعد الكارثة بالسفر إلى معان للعمل مع الأمير والسير تحت رايته.

وحشد الفرنسويون قوات كبيرة فى درعا وعلى طول حدود حوران وأنشأوا الخنادق وشحنوها بالمقاتلة وكاتبوا الإنجليز واستحثوهم على تأييدهم فى مقاومة حركة الأمير وحصرها فى منطقة ضيقة.

ـ ١ ـ
شرقى الأردن فى العهد الفيصلى.

وضع الجيش العربى الذى كان يقاتل حول معان يده على البلاد الواقعة شرقى نهر الأردن بعد جلاء الترك فى سنة ١٩١٨ وأنشأ فيها حكومة ألحقت بدمشق، ولم يعارض الإنجليز ى ماتم وكانوا يحتلون البلاد الواقعة غربى نهر الأردن (فلسطين).

وظلت الأمور سائرة على هذا المنوال، سحابة الحكم الفيصلى، فكانت هذه المقاطعة تتبع تلك الحكومة مباشرة. نعم أن بعض الضباط والعمال البريطانيين كانوا يثبون دعاية بين سكانها ليحملوهم على طلب الانضمام إلى فلسطين. كما كان بعضهم يثسير مشكلات للحكومة المحلية ويشجع العناصر المشاغبة على المطالبة بالانفصال عنها. وظل نطاق هذه الحركة محدودا فلم يتسع بفضل معالجة حكومة العاصمة له، وكانت حريصة على إبقاء علاقاتها ودية مع الإنجليز.

ولما دالت الدولة الفيصلية فى الشام رأى الإنجليز الفرصة سانحة لتحقيق أغراضهم فى هذه المقاطعة ويسط نفوذهم السياسى عليها، وهى فى الأصل جزء من المنطقة السمراء (فلسطين) وقد جعلتها معاهدة سايكس ـ بيكو دولية ثم نفض الفرنسويون يدهم منها فى سنة ١٩١٨[١] فدخلت فى منطقة النفوذ البريطانى. ولم يجل الجيش الإنجليزى عنها فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٩ حينما جلا عن بلاد الشام الشمالية طبقا لاتفاق سبتمبر سنة ١٩١٩ بين لويد جورج وكلمنصو. بل ظل يرابط فيها . وكان أول عمل عملوه فى هذا الباب هو البرقية السرية التى أبرقها السير هربرت صموئيل يوم ١٦ أغسطس سنة ١٩٢٠ إلى

١ ـ قال المسيو بريان فى خطبة خطبها فى مجلس النواب الفرنسوى يوم ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٠ فى هذا الصدد مانصه: ولقد أثار الإنكليز مسألتى سورية وفلسطين فى وقت مناسب لهم فقد اختاروا زمنا كثرت فيه مشاغل الحكومة الفرنسوية ومشاكلها الدولية. فخاطب المستر لويد جورج فى مكتبه فى لندن المسيو كلمنصو رئيس الوزارة الفرنسوية. وكان يزوره وذلك فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٨ واتفقا من دون أن يكون معهما سكرتير ومن دون أن يدون محضر للجلسة على أن تنال إنكلترا فلسطين.

«واجتمعا بعد ذلك بسنة وبعد ماظن أنهما تناسيا ماتفقا عليه. ولكن تبين بعد ذلك العكس فقد أبرما ذاك الذى ظن أنه افتراض، وذلك أن المستر لويد جورج دعا إلى اجتماع عقد فى غرفته بشارع بنتو حضره الرئيس ولسن وعدد من المستشارين الفنيين ووزير الخارجية الفرنسوية وتكلم هذا عن اتفاقات سنة ١٩١٦ فاعترض عليه المستر لويد جورج قائلاً: إن هذه الاتفاقات عدلت فقد وعدوني بالتنازل عن الموصل وفلسطين. فلم يعترض عليه أحد «ص ١٥٥ – ١٥٦ من كتاب «Comment la Frances'est installée en Syrie».

الملك فيصل، وكان فى حيفا يعد معدات السفر إلى أوروبا.

وهذه ترجمتها:

القدس ـ دار الحكومة فى ١٦ أغسطس سنة ١٩٢٠ سرى.

صاحب السمو الملكى الأمير فيصل:

أريد أن أبلغكم أنه بعد حوادث دمشق التى حدثت فى الشهر الماضى زارنى بعض مشايخ شرقى الأردن وطلبوا إنشاء إدارة بريطانية، ووردتنى رسائل من عندهم ومن بعض أعيان السلط بهذا المعنى، ولما كان الاتفاق المعقود بين الحكومتين البريطانية والفرنسوية يقضى بأن تكون البلاد الواقعة جنوبى خط سايكس ـ بيكو فى منطقة النفوذ البريطانى لا الفرنسوى فالحكومة البريطانية تميل فى هذه الحالة إلى تعيين عدد قليل من الضباط لمساعدة أهل شرقى الأردن على تنظيم حكومتهم ووسائل الدفاع عنها، ولذلك دعوت زعماء البلاد من عجلون شمالا إلى الطفيلة جنوبا لمقابلتى فى السلط يوم السبت القادم للمشاورة فى الأمر» وعملا بما جاء فى برقيته غادر القدس يوم الجمعة ٢٠ أغسطس قاصدا أريحا والسلط وفى ظهر يوم السبت ٢١ منه وقف فى دار حكومة السلط. وخطب شيوخ البلاد الخطبة الآتية:

زارنى فى القدس على أثر حوادث دمشق الأخيرة عدد كبير من المشايخ والأعيان من شرقى الأردن، وتلقيت رسائل من سواهم ومن بعض أعيان السلط وقد طلبوا منى أن أوسع نطاق الإدارة البريطانية حتى تشمل بلادهم. ولا يخفى عليكم أن الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية اتفقتا من مدة طويلة على أن هذه البلاد داخلة فى منطقة نفوذ بريطانيا وغير داخلة فى منطقة النفوذ الفرنسوى. وقد تلقيت من أيام تلغرافا من لندن جاء فيه أن الحكومة الفرنسوية جددت عهدها بأنها لا تروم التعرض لأمور هذه الجهات بوجه من الوجوه. ولما كانت الحكومة الفرنسوية قد وطدت نفوذها فى دمشق فمن الضرورى فصل هذه الجهة عن حكومة دمشق.

«ورب قائل يقول: وما هو نوع المساعدة التى تساعدكم بريطانيا بها؟ فأقول إنها لا تنوى أن تدخلكم فى النظام الحالى لحكم فلسطين بل تنشئ لكم إدارة منفصلة عن فلسطين تساعدكم على أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم، وترسل نفرا من الضباط السياسيين

تختارهم من العادلين الخبيرين بأعمال الإدارة والذين يعرفون الأهالى واللغة العربية، ويعضهم تعرفونهم حق المعرفة فيقيمون فى المدن الكبرى فى هذه الجهات ويساعدونكم فى تنظيم أمور الدفاع إذا هاجمكم مهاجم من الخارج، وفى تنظيم البوليس المحلى الذى يحافظ على الأمن والنظام وينشطون التجارة ويعززون السلام ويساعدونكم على إجراء العدل وعلى إنفاق الضرائب التى تجبى منكم على سد حاجاتكم ويستشيرونكم فى الوجوه التى ينفق مال الضرائب فيها وإصلاح الطرق وتمهيدها وبناء المدارس وتدبير الإسعاف الطبى .

«وتطلق حرية الاتجار مع فلسطين، ويمون أهل البلاد الواقعة شرقى الأردن بالبترول والأرز والسكر وغيرها من الحاجيات. كما يمون أهل فلسطين بها . ونطلب منكم أن تمنعوا إصدار هذه الأشياء التى هى قليلة فى العالم إلى بلدان أخرى غير بلدانكم، وسنسهل لكم السبيل لبيع ما تريدون بيعه وسنتخذ التدابير فى الحال لفتح بنك لمساعدة التجارة وسنسهل المواصلات البريدية مع فلسطين وسواها ونمدكم بالمشورة الفنية فى فتح الطرق وغيرها من الأمور التى تهمكم».

«أما الموظفون الذين يشتغلون بأعمال الحكومة تحت إدارة العدد اليسير من الضباط البريطانيين فيعين من أهل هذه البلاد كل من يمكن تعيينه منهم. ولا يكون عندكم تجنيد إجبارى ولسنا ننوى نزع سلاحكم. ولكن لا يسمح لكم بنقل الأسلحة إلى فلسطين طبقا لما هو متبع الآن. فإذا كنتم ترغبون فى مساعدة البريطانيين لكم فهذا خير شكل للمساعدة».

«وسيكون فى رأس التعليمات العمومية التى تصدرها الحكومة البريطانية للضباط فى هذه الجهات مساعدة الأهالى ليحكموا أنفسهم والمحافظة على مبادئ النزاهة والعدل التى هى شارات الحكم البريطانى فى جميع أنحاء العالم وأساس الحكم الحسن الصحيح، وعسى أن تكون نتيجة هذا الاجتماع رفاهية ورخاء لبلادكم التى أسأل الله القادر على كل شئ أن يسبغ عليها وعلى سكانها البركات».

الحكومات الثلاث الجديدة

وعاد المندوب إلى القدس وتفرق الشيوخ فى قراهم ومدنهم ودخلت البلاد رسميا تحت الحماية البريطانية وألحقت بالمندوب السامى لحكومة فلسطين. وقامت من جراء هذا التبدل

ثلاث حكومات فى شرق الأردن منفصلة بعضها عن بعض:

١ ـ حكومة عجلون

٢ ـ حكومة السلط وعمان

٣ ـ حكومة الكرك

وكان لكل حكومة من هذه الحكومات مستشار بريطانى خاص، فالميجور سمرست هو مستشار الأولى والكابتن برنتن مستشار الثانية والمستر كركبرايت للثالثة: وتولى الميجور بيك إدارة الدرك. فأدى هذا الانقسام إلى زيادة الفوضى وانتشارها.

وأسرع شيوخ عجلون فعقدوا يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٢٠ بينهم وبين الميجور سمرست (اللورد رجلان بعد ذلك) معاهدة بالإضافة إلى الحكومة البريطانية تحدد علاقاتها تحديدا صريحا، وهى بشكل أسئلة وجهوها إليه وأجابهم عليها، وتسمى معاهدة أم قيس وهذا نصها:

معاهدة أم قيس

١ ـ نوافق على إنشاء حكومة عربية مستقلة تحت انتداب بريطانيا. وأما بخصوص ضم حوران والقنيطرة ومرجعيون إلى حكومتكم الجديدة فهذا طلب لا يستطاع منحه فى الوقت الحاضر. بل سيكون تقديمه والسعى فيه لدى مندوب ونائب جلالة ملك بريطانيا العظمى بفلسطين.

٢ ـ طلبكم أميرا عربيا لهذه الحكومة. فهذا الطلب أيضا سيخابر فخامةالمندوب السامى ليسعى لتحقيقه لدى جمعية الأمم.

٣ ـ بخصوص تأليف مجلس عام لهذه الحكومة. فهذا الطلب سيقدم إلى المندوب السامى ويصادق عليه بعد استشارة أهل الكرك والسلط.

٤ ـ لا علاقة البتة بين حكومة هذه البلاد وحكومة فلسطين.

٥ ـ منع الهجرة الصهيونية ومنع بيع الأراضى لليهود عائد لحكومة البلاد.

٦ ـ توافق الحكومة البريطانية على تأليف جيش وطنى لهذه البلاد وزيادته عند اللزوم إذا وافق عليه أهل السلط والكرك.

٧ ـ لا توجد فى الوقت الحاضر فكرة نزع السلاح. أما إذا أرادت الحكومة الوطنية ذلك فى المستقبل فالأمر لها.

٨ ـ لا يكون تسليم أى فرد كان من المجرمين السياسيين اللاجئين إلى هذه المنطقة بتاتا، ولا يطالب أحد من الأهالى بجرم سياسى سابق أو خلاقه.

٩ ـ تكون التجارة حرة بين هذه المنطقة وفلسطين وتجرى المخابرة بخصوص جعلها حرة مع باقى الحكومات المجاورة لها، وستعطى حقها من إيرادات الجمارك. وقد يمكن أخذ جانب منها لوفاء الدين العام.

١٠ ـ سيكون الخط الحجازى بين درعا – سمخ تابعا لحكومة الشام. أما بين درعا ـ المدينة فقيد المذاكرة.

١١ ـ للحكومة الوطنية الحق فى اتخاذ أى شعار كان.

١٢ ـ تقدم الحكومة البريطانية السلاح وغيره للحكومة المحلية بثمن حسب اللزوم.

١٣ ـ تراجع جمعية الأمم بشأن انتداب بريطانيا لسورية.

تلك هى الأسس التى تم الاتفاق عليها فى عجلون، وتأسست بموجبها حكومتها المحلية. وقد كان المظنون أن إنشاء هذه الحكومات يساعد على توطيد الأمن والنظام فانعكست الآية وانتشرت الفوضى وساءت الحالة فأقلق ذلك العقلاء من أهل البلاد ـ كما أخاف الفرنسويين وهم يجاورون هذه البلاد من شمالها والإنجليز ويجاورونها فى فلسطين من غربها.

ـ ١ ـ
الأمير عبد الله فى عمان والقدس
اجتماعه بالمستر تشرشل واتفاقه معه ـ إنشاء الحكومة الجديدة

ثلاثة عوامل جوهرية عملت فى تكوين إمارة شرقى الأردن:

١ ـ رغبة الإنجليز فى إرضاء بيت الشريف خاصة والعرب عامة، ولاسيما بعد نكبة الشام وخروج فيصل منها ذلك الخروج الذى آلم كل عربى وجعله ينفر من الحلفاء ويسئ الظن فيهم.

٢ ـ اضطراب الحالة فى داخل بلاد شرقى الأردن واختلاف حكوماتها المحلية وتنازعها وظهور بوادر تنذر بحرب أهلية وبخراب عاجل.

٣ ـ وجود الأمير عبد الله فى معان على حدود البلاد الجنوبية واتصاله برجالها وشيوخها وانتشار دعاته بين قبائلها وفى مدنها، وما قيل يومئذ عن وجود قوات كبيرة معه تستعد لطردالإنجليز منها والوصول إلى الشام ومنازلة الفرنسويين والانتقام منهم مما أقلق هؤلاء وهؤلاء وجعلهم يفكرون فى ابتكار وسيلة تريحهم من مشكلة جديدة توشك أن تواجههم.

وهنالك اعتبارات شخصية لابد أن نحسب حسابها. وفى مقدمتها نقمة الأمير عبد الله الشخصية على الإنجليز، لأنهم حالوا بينه وبين السفر إلى العراق وتسنم العرش الذى اختاره العراقيون له وإصرارهم ـ حتى ذلك الوقت على إنشاء نظام حكم استعمارى ـ وقيام الثورة فى العراق واضطرامها. وقد لاقوا الأمرين منها وكانوا إبان ظهور الأمير على حدود فلسطين الجنوبية يسوقون القوى لإخمادها ويدرسون الوسائل للتخلص منها.

فهذه الاعتبارات جعلت الإنجليز يحذرون الحركة الجديدة، ويعدلون عن قمعها بالقوة ويسعون لحلها حلا سلميا بعد ما عجزوا عن إقناع الأمير بالرجوع إلى الحجاز. فقد أرسلوا إليه أحد كبار الموظفين ليقنعه بالعودة من حيث أتى فأبى فرأوا أن يتربصوا ويعملوا على حصر الحركة فى نطاق محدود فلا تنبثق عن مشكلة يعسر حلها.

ووصل الملك فيصل فى تلك الأثناء إلى لندن (ديسمبر سنة ١٩٢٠) أى بعد وصول

الأمير عبد الله إلى معان بشهرين تقريبا، واتصل بولاة الأمور الإنجليز وأقطابهم وحادثهم، وتناول فى أحاديثه أحداث العراق والشام، فضرب الإنجليز أخماسا فى أسداس. فرأوا أن مصلحتهم هى فى الانفاق مع العرب وفى العودة إلى التعاون مع بيت الشريف لما يوفره عليهم هذا التعاون من نفقات وأعباء . وهكذا وافقت وزارة المستعمرات مبدئيا على إنشاء عرش فى العراق يتبوؤه فيصل، وإمارة فى شرقى الأردن يتقلدها عبد الله. فارضت بذلك الأخوين كما أرضت والدهما وجمهورا كبيرا من العرب. وقد عدوا هذا العمل شبه ترضية للأمة العربية التى جازاها الحلفاء فى نهاية الحرب العظمى جزاء سنمار وقلبوا لها ظهر المحن، وعاملوها بأسوأ ما يعامل حليف حليفه.

وأزمع المستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية يومئذ السفر إلى الشرق الأدنى للاتصال بممثلى السلطة البريطانية بعد ما أصدر التعليمات اللازمة للمباشرة بتنفيذ هذين المشروعين الخطيرين. فوصل إلى القاهرة يوم ٩ مارس سنة ١٩٢١ وقضى فيها أياما اجتمع فى خلالها مليا بالوفد العراقى، ثم سافر إلى القدس للنظر فيما ينتظره هنالك.

الأمير عبد الله فى عمان

بينما كان المستر تشرشل يستعد للنزول إلى البر فى الإسكندرية يوم ٩ مارس سنة ١٩٢٠ قادما من إنجلترا كان الأمير عبد الله يركب قطارا خاصا أعد له ليسافر إلى عمان. فبلغها يوم الأربعاء ٨ منه بعد ما توقف قطاره فى محطة القطرانة حيث احتشد شيوخ الكرك وزعماؤها للترحيب به ورافقه بعضهم فى قطاره. واستقبل استقبالا رسميا حين وصوله. وكان بين الذين جاءوا لتهنئته المستر كركبرايت المعمتد البريطانى هنالك، وقد زاره زيارة رسمية.

وأقامت له البلدية فى المساء حفلة تكريم خطب فيها كثير من الخطباء ثم خطب فقال: «إن الله لا يترككم ولا يتخلى عنكم، ولا يزال فيصل يجاهد لأجل مجدكم وبلادكم وله فى الغرب أصدقاء لهم نفوذ، وهم يسعون فى تحقيق أمنيته وأمنيتكم، وآمالى عظيمة بأن لا يرجع خائبا. وإذا حان الوقت للزحف فلا أريد سوى السمع والطاعة فأن أمرتم بالتقدم تتقدمون أو بالتأخر تتأخرون.

«يطلب منى فى هذا الموقف الشيخ كامل القصاب ـ أحد خطبائكم ـ العهد فأعلموا أنه

ماجاء بى إلا حميتى وما حمل والدى من العبء الثقيل، فأنا أدرك الواجب على. ولو كان لى ٧٠ نفسا لبذلتها فى سبيل الأمة ولما عددت أنى فعلت مايذكر».

وفى يوم ٢٧ منه غادر عمان إلى القدس فاستقبله فى السلط المستر ستورس السكرتير الشرقى لدار المندوب السامى سابقا وحاكم القدس فى تلك الأيام ورافقه فى سفره، فاستقبل حين وصوله استقبالا شعبيا باهرا ـ كما استقبل استقبالا رسميا كبيرا وحل على الحكومة ضيفا فى مقرها. وفى يوم ٢٨ منه وصل المستر تشرشل إلى القدس فاجتمع به اجتماعا رسميا طويلا دام ثلاث ساعات تم الاتفاق فيه على الأسس التى تبنى عليها الإمارة الجديدة، وغادر الأمير القدس فى الغداة إلى عاصمته الجديدة للبدء فى العمل.

قواعد الاتفاق

هذه هى الشروط الشفهية التى تم عليها الاتفاق فى القدس بين الأمير والوزير يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٢١ خلال اجتماعهما:

١ ـ تؤسس حكومة عربية وطنية فى شرقى الأردن برئاسة الأمير عبد الله.

٢ ـ تكون هذه الحكومة مستقلة استقلالا إداريا تاما.

٣ ـ تساعدها بريطانيا ماديا لتوطيد الأمن.

٤ ـ تسترشد برأى مندوب بريطانى يقيم فى عمان.

٥ ـ يحافظ على حدود سورية وفلسطين من كل اعتداء.

٦ ـ تنشئ بريطانيا مركزين للطيران فى عمان والجيزة.

٧ ـ تتوسط بريطانيا لتحسين العلاقات بين الأمير عبد الله والسلطة الفرنسوية فى سورية.

إنشاء الحكومة الجديدة

وعاد الأمير إلى عمان على الأثر وبدأ بإنشاء الحكومة الجديدة. فعين رشيد طليع مشاورا للأمور السياسية والإدارية وأمين التميمى مشاورا للحقوق والنافعة وحسن الحكيم مشاورا للمالية. على أن إنشاء الحكومة نهائيا لم يتم إلا فى شهر يوليو سنة ١٩٢١ ففى

يوم ٢ منه تألفت الحكومة بكامل هيئتها على المنوال الآتى:

رشيد طليع كاتبا إداريا ورئيسا لمجلس المستشارين والأمير شاكر بن زيد لأمور العشائر ومظهر رسلان للمالية. مع إضافة مستشارية العدلية والصحة والمعارف لعهدته، ورشدى الصفدى للأمن العام وغالب الشعلان مستشارا للقيادة العليا.

الإنجليز والإمارة الجديدة

وفى يوم ١٨ إبريل سنة ١٩٢١ زار السر هربرت صموئيل المندوب السامى لحكومة شرقى الأردن عمان زيارة رسمية، وألقى أمام سرادق الأمير عبد الله على جمهور كبير من الشعب خطبة ضافية بسط فيها سياسة حكومته إزاء الإمارة الجديدة فقال:

أسعدنى الحظ بأن قابلت فى دار الحكومة بالقدس صاحب السمو الأمير عبد الله حينما زار فلسطين هو والمستر تشرشل أحد أعضاء الوزارة البريطانية . والحكومة البريطانية تسر بفرصة التعاون مع الأمير عبد الله فى البلقاء، وتثق بصداقته وحسن نيته كل الثقة وتقدر الصداقة وحسن الثقة اللتين امتحنتا فى هذه الحرب الضروس الطويلة حق قدرها، وتدرك الخدمات التى قامت بها الجيوش العربية فى ذلك النضال وتقدرها حق قدرها، وترغب فى أن التحالف الذى نشأ فى أثناء الحرب توثق عراه فى أيام السلم.

يساعد الموظفون البريطانيون فى إدارة ما وراء الأردن من شهر أغسطس الماضى وسيظلون يعملون كمستشارين للأمير وموظفيه من قبلى فى جميع أنحاء البلاد المختلفة.

وسيجد سموه فى المستر وابرامسون كبير المندوبين البريطانيين موظفا ذا مقدرة وخبرة عظيمة هو وجميع الموظفين المشتركين معه فى طول هذه البقعة وعرضها. رجال يعطفون علنى الشعب، ويميلون إلى آداب اللغة العربية وسيتمكنون من المساعدة على زيادة ترقية البلاد وسيفرغ قصارى الجهد لتدبير كل ما تحتاجون إليه لفتح أسواق فلسطين لحاصلات بلادكم وتسهيل نقلها إليها، وسينظر بعين العناية فى حاجة أهل البلاد التى نحن فيها على اختلاف طبقاتهم. سواء كانوا من سكان المدن أو الفلاحين أو قبائل العرب حبا فى زيادة هنائهم بحسب حاجاتهم المتعددة. ولإدراك ذلك يجب أن تكون المحافظة على النظام والأمن العام فى المقام الأول من الأهمية، ويؤمل أن يحتفظ بقوة احتياطية تكون

أكثر كفاءة وأشد حولا مما كانت الحالة من قبل، وتستخدم مع الجندرمة فى توطيد سلطة الأمير عبد الله والحكومة المحلية، ويسرنا أن نلبى رغبات الأمير عبد الله فنقدم عند الضرورة طيارات وسواها من المعونة الفنية لأغراض محلية، وستؤول هذه التدابير إلى استتاب السكينة فى المقاطعات وتمكن أيضا من اتخاذ التدابير لكبح جماح كل من يعكر صفو الأمن فى الأراضى المجاورة غربا وشمالا.

والحكومة البريطانية مصممة على أن لا تصير بلاد شرقى الأردن مركزا للعداء، سواء كان لفلسطين أو لسورية، ونحن نعلم أننا فى إخراجنا هذا التصميم إلى حيز الفعل نستطيع الاعتماد على معونة الأمير عبد الله. ومن بواعث الارتياح الشديد لحكومة جلالة الملك أن تجد نفسها متحالفة مع ممثلى الشعب العربى فى جميع البلدان العربية. ومن البراهين الأخرى على ضمان هذا التحالف ودوام مدته سياسيا فى البلقاء وجودى بينكم اليوم ممثلا لجلالة الملك جورج. وإنى أرجو أن يتخذ من التدابير منذ الآن ما يرفع هذه البلاد إلى مستوى من اليسر والرخاء لا يقل عنه فى البلاد المجاورة، أو عما كان عليه فى الأزمان الغابرة.

فأجاب الأمير عبد الله بما يأتى: أشكر سعادتك على خطابك الرقيق. وأقول بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن الحاضرين إننى واثق بأن الأمة العربية تبرهن على أنها خليقة بتحقيق كل ما وضع فيها من الآمال بمساعدة حليفتنا العظمى، وأنى أطلب من الله أن يحفظ الملك جورج والملك حسينا ويطيل سعادتهما.

ـ ٤ ـ
شرقى الأردن والانتداب البريطانى والمفاوضات لتنظيم علاقتها ببريطانيا

أدمجت بريطانيا شرقى الأردن فى فلسطين فى صك الانتداب الذى قدمته إلى مجلس جمعية الأمم. وأقره هذا فى جلسته يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢ فشملها الانتداب البريطانى رسميا. ولما كان صكه ينص على جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود طبقا لوعد بلفور فقد أرسلت الحكومة البريطانية يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٢ مذكرة رسمية إلى جمعية الأمم باستثنائه من هذا الوعد قالت فيها:

تطلب حكومة جلالة الملك من مجلس الأمم وفقا لشروط المادة ٢٥ من صك الانتداب لفلسطين[١] أن يقرر ما يأتى:

«لاتطبق المواد الآتية من نظام الانتداب الفلسطينى فى القطر المعروف بشرقى الأردن الذى يشمل جميع المقاطعات الواقعة إلى شرق خط ممتد من نقطة واقعة على خليج العقبة على بعد ميلين إلى غرب مدينة العقبة مارا بمنتصف وادى عربة والبحر الميت ونهر الأردن حتى المنطقة التى يلتقى بها هذا النهر بنهر اليرموك فمنتصف هذا النهر حتى الحدود السورية:

والمواد الملغاة هى:

١ ـ الفقرة الثانية والثالثة من ديباجة صك الانتداب والمواد الثانية والرابعة والسادسة والسابعة والجملة الثانية من الفقرتين الأولى والثانية من المادة ١١ والمواد ١٣ و١٤ و ٢٢ و ٢٣.

وفى تطبيق نظام الانتداب على شرقى الأردن تقوم حكومته بالأعمال التى تقوم بها حكومة فلسطين فى فلسطين بمراقبة الدولة المنتدبة .

٢ ـ تقبل حكومة جلالة الملك التبعة التى تقع على عاتقها فى تطبيق نظام الانتداب على شرقى الأردن، وتتكفل بأن الشروط التى توضع لإدارة ذلك القطر وفقا للمادة ٢٥ لا

---

١ ـ ننشر هذ الصك كاملا حين بحثنا القضية الفلسطينية.

تكون بأى وسيلة غير مطابقة لبقية شروط نظام الانتداب التى لم يشر إلى عدم تطبيقها هذا القرار.

المفاوضات بين شرقى الأردن وإنجلترا لتحديد علاقاتهما

وفى يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٢٢ غادر الأمير عبد الله عمان ومعه رئيس وزرائه قاصدا لندن فزار حكومتها زيارة رسمية، ودارت مفاوضات بين رئيس وزرائه وبين السير جلبرت كليتن مندوب وزارة المستعمرات لتحديد علاقات البلادين بمعاهدة لم تقترن بنتيجة. فعاد الأمير ووزيره إلى بلادهما يحملان المشروع البريطانى المعروض عليهما للبت فيه.

وهذا نص المذكرة التى سلمها السير جلبرت كليتن مندوب بريطانيا على أثر ختام تلك المحادثات إلى رئيس الوزراء

لندن فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٢

يا صاحب السعادة

لى الشرف أن أبين لكم أنه يمكننى الآن أن أخبركم عن النتائج التى توصلنا إليها على أثر المباحثات التى دارت مع سمو الأمير عبد الله ومع سعادتكم.

فأما من خصوص التأمين الشفوى الذى أعطى لسمو الأمير عبد الله بالاعتراف بحكومة مستقلة ف شرقى الأردن فقد أمرت بإبلاغ سعادتكم بأن إعلان هذا التأمين يجب أن يؤخر حتى ختام مؤتمر لوزان.

وأما عقد المعاهدة الواردة فى القسم الأخير من التأمين المذكور فوزير المستعمرات يقول بعدم إمكان تخطى الحدود التى وصلنا إليها، وقد أمرت بأن أبلغكم أن الحكومة غير مستعدة لاتخاذ قرار حاسم فى هذا الشأن الآن، ولذا يظهر أنه لا فائدة ترجى من إطالة إقامتكم فى انجلترا.

ولقد كنت فى خلال المباحثات التى دارت بيننا على اتصال بقسم الشرق الأدنى فى

وزارة المستعمرات. وقد وضع ما اقترحته من اقتراحات أمام وزير المستعمرات. وهو على تمام الأهبة لعرض المسألة بحذافيرها على مجلس الوزراء الإنجليزى عند حلول الوقت المناسب. فأرجو إبلاغ ذلك لسمو الأمير عبد الله عند عودتكم إلى شرق الأردن.

واقترحت أن تكون المعاهدة التى يراد عقدها طبقا للتأمين الشفوى المعطى لسمو الأمير قائمة على الأسس الآتية:

مقدمة : تبنى على الرغبة فى اتخاذ التدابير اللازمة لحسن إدارة المقاطعة المعلومة شرق الأردن، وتدار فى الوقت الحاضر بإدارة مرضية من قبل الأمير عبد الله بن الحسين وتشير إلى نظر حكومة جلالته لمطالب الشعب العربى، وتذكر قرار مجلس جمعية الأمم فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٢ واعتراف حكومة جلالته البريطانية بحكومة نيابية مستقلة فى شرق الأردن تحت حكم الأمير عبد الله بن الحسين.

مواد: تنص على تخويل الأمير عبد الله بن الحسين السلطة التنفيذية المعطاة لحكومة جلالته البريطانية كمنتدبة على فلسطين فى ذاك الجزء المعلوم، وهو شرق الأردن وستحدد حدوده فى أول فرصة. ويخول سموه أيضا حق إعلان القوانين والأوامر والأنظمة لضمان حسن إدارة شرق الأردن. ويبلغ ذلك إلى حكومة جلالته وينص فى الوقت نفسه بأن القوانين والأنظمة وغير ذلك مما يقرره مجلس فلسطين التشريعى لا يمثل شرق الأردن إلا فيما يراه سمو الأمير نافعا لشرق الأردن.

وينص أيضا على تعهد سموه بوضع قوانين وأنظمة وأوامر طبقا لما تقضى به الحاجة للقيام بكل المسؤوليات والتبعات التى أخذها جلالته بالنسبة لشرق الأردن وبعدم اقتباس أو وضع قوانين وأنظمة تحول دون القيام بهذه التعهدات والمسؤوليات على الوجه المطلوب. وينص أيضا على رغبة سموه بأ يعمل بمشورة حكومة جلالته البريطانية فى جميع الشؤون الخطيرة المتعلقة بالتبعات الدولية ومصالح حكومة جلالته.

ويتعهد سموه أيضا باتباع خطة قويمة فى الإدارة والمالية، وبوضع ميزانية ثابتة للمالية وينص فيها أيضا على الاعتراف بحق شرق الأردن بالرسوم الجمركية على الأمتعة الداخلة لشرق الأردن من فلسطين. ويجب أن يفهم بأنه سيكون هنالك تعريفة جمركية معينة يوافق عليها من جانب حكومة جلالته البريطانية فى فلسطين وشرق الأردن ولا تقام حواجز جمركية بين البلدين. وينص على أن يكون لتجارة شرق الأردن ما لتجارة فلسطين من

التسهيلات فى الموانى. وعلى تعهد حكومة جلالته بأن لا تضع عقبة فى طريق اشتراك شرق الأردن مع أى حكومة من الحكومات العربية المجاورة فى اتفاقات جمركية وغيرها بشرط أن لا تؤثر هذه الاتفاقات فى تعهدات جلالته الدولية.

ويتعهد سمو الأمير بأن يقبل ويراعى التدابير التى تراها حكومة جلالته ضرورية فى الشؤون القضائية لصيانة مصالح الأجانب، وينص فى هذا التعهد على أن لا يحاكم أجنبى ما، أمام محكمة شرق الأردن بدون اخبار وأخذ رأى كبير المعتمدين البريطانيين، وذلك ريثما يوضع اتفاق خاص. وتعقد اتفاقات لتنظيم منح الامتيازات واستغلال المنابع الطبيعية وسكك الحديد وعقد القروض ومنح المساعدات المالية والشؤون الأخرى التى لها تأثير فى تقدم شرق الأردن المالى والاقتصادى، ومنح المساعدة العسكرية طبقا للشروط التى يتفق عليها بين الحكومتين.

وكل اتفاق يعقد على هذه الأسس يقدم من جانب حكومة جلالته إلى مجلس جمعية الأمم، ولا يوجد مانع يمنع الطرفين المتعاقدين من إعادة النظر فى المعاهدة لتعديلها مراعاة للأحوال المحلية الحادثة بشرط إبلاغ كل تعديل لمجلس جمعية الأمم.

ولا تظنوا أن نتائج المباحثات التى دارت غير مرضية، ولو ألقيتم نظرة على التبدلات اتى طرأت على الحالة العامة من تاريخ دعوة سمو الأمير وسعادتكم إلى لندن لأدركتم أننا تقدمنا كثيرا ومهدنا السبيل لعمل نهائى فى المستقبل عند ما تجد الحكومة البريطانية من وقتها متسعا للنظر فى هذه القضية.

وقد رد عليه رضا باشا فى ١٩ منه بالكتاب الآتى:

لى الشرف بإبلاغكم أن تسلمت كتابكم المؤرخ ١٨ منه مع المذكرة الملحقة به بشأن مشروع المعاهدة. وأود أن أذكركم بأن سمو الأمير يمنح قضية التمثيل الخارجي والسعى لإدخال شرق الأردن فى جمعية الأمم، وهى مما نص عليه الاتفاق الشفوى عناية خاصة وأرجو أن توضع أمام مجلس الوزراء عند تقديم مشروع المعاهدة.

وسأعرض بعد وصولى إلى عمان جميع الشؤون على سموه وسأعجل بإبلاغكم الجواب. وقد اخذت برقية من سموه يقول فيها بأن الاعتبارات المحلية واعتقاده بحسن نيات حكومة

جلالته تجعله يأمل أن يصدر إعلان الاعتراف مع عقد المعاهدة فى البرهة القريبة، وأتخذ هذه الفرصة وسيلة لبيان شكرى إلخ.

تحفظات الحكومة الأردنية

واستقال رضا الركابى من رئاسة حكومة شرق الأردن على أثر عودته من لندن فخلفه مظهر رسلان فأعاد درس المشروع.

وأرسل إلى السر جلبرت كليتن فى سنة ١٩٢٣ الكتاب الآتى:

أطلعت على كتاب سعادتكم المرسل إلى سلفى رضا باشا الركابى عندما ما كان فى لندن بخصوص المذاكرات التى دارت بينكم وبينه. ولى الشرف أن أبين لسعادتكم ملاحظاتى على الأسس الواردة فى كتابكم تميهدا للمباحثات التى ستدور لعقد المعاهدة. وإننى بالنيابة عن سمو مولاى الأمير المعظم أشكر لكم مابذلتموه من المساعى الحسنة بخصوص اعتراف حكومة جلالته البريطانية باستقلال حكومة شرق الأردن، وأذكركم أن المعاهدة يجب أن توافق فى بنودها روح الاستقلال المبنية عليه.

تقول المادة الأولى: يخول الأمير عبد الله بن الحسين السلطة التنفيذية المعطاة لجلالة ملك بريطانيا كمنتدب على فلسطين فى ذاك الجزء المعلوم وهو شرق الأردن وستحدد فى أول فرصة مناسبة، فألفت نظركم إلى أن التخويل لابد أن يكون بين التابع والمتبوع والآمر والمأمور، وهذا لا يتفق مع استقلال المنطقة التى اعترفت حكومة جلالته البريطانية به، ولهذا أرى أن تبدل هذه المادة بما يأتى:

تترك أو تتخلى بموجب هذه المعاهدة حكومة جلالته البريطانية لسمو الأمير عبد الله عن الحقوق والسلطات المخولة لها من جمعية الأمم بقرارها فى ١٨ إبريل سنة ١٩٢٣ بموجب المادة ٢٥ من صك الانتداب لفلسطين فى ذاك القسم المعلوم وهو شرق الأردن والذى ستحدد حدوده فى أول فرصة. وبما أن المادة الثانية صريحة بأن من الواجب على حكومة شرق الأردن إبلاغ حكومة جلالته عن جميع القوانين والأنظمة. فهذا يكون كافيا للدلالة على سير الإدارمة والتبدلات التى تريد حكومة جلالته إبلاغها إلى جمعية الأمم.

وجاء فى المادة الثالثة أن القوانين والأوامر والإدارات وغير ذلك مما يقرره مجلس

فلسطين التشريعى لا تشمل شرق الأردن إلا فيما يراه سمو الأمير نافعا لشرق الأردن، ولا يخفى على سعادتكم أن الحكومات النيابية لا يمكنها قبول قانون إلا إذا أقره مجلسها التشريعى. وبما أن القوانين والأوامر التى يقررها مجلس فلسطين التشريعى لا يمكن أن تكون نافذة إلا إذا وافق عليها مجلس شرق الأردن وأصبحت كقانون صادر مصادق عليه من قبل سمو الأمير. وبهذه الحالة يكون القانون الصادر على هذا المنوال كأنه لم يؤخذ من فلسطين لاكتسابه الصبغة القانونية بموجب أنظمة شرق الأردن وإن اتفقت بالأصل. ولهذا لا أرى محلا لذكر هذه المادة بعد ما جاء فى المادة الثانية أن لسمو الأمير الحق المطلق بإعلان القوانين والأوامر والأنظمة لحسن إدارة شرق الأردن.

وجاء فى المادة السادسة أن حكومة جلالته تعترف بحق شرق الأردن فى الرسوم الجمركية على الأمتعة الداخلة لفلسطين من بلاد غير شرق الأردن وبالنتيجة تدخل شرق الأردن لأجل الاستهلاكات إلخ ، إلخ.

وجاء بالمادة السابعة أن حكومة جلالته لا تضع عثرة فى طريق اشتراك شرق الأردن مع أى حكومة من الحكومات العربية المجاورة وغيرها بعقد اتفاقات جمركية ـ بشرط أن لا يؤثر ذلك فى التعهدات الدولية لحكومة جلالته. فبعد أن جاء بالمادة السابعة أن لحكومة شرق الأردن الحق التام بعمل اتفاقات جمركية مع الحكومات المجاورة لا أرى حاجة لابقاء المادة السادسة. لأن إطلاق المنصوص عليه فى المادة السابعة والتقييد المنصوص عليه فى السادسة لا يتفقان. خصوصا والمباحثات لا تزال دائرة بين فلسطين وشرق الأردن بشأن الجمارك وسيعقد اتفاق بينهما.

وأما المادة الثامنة الخاصة بالمحاكم فقد تعهد سموه بأن لا ينفذ حكم مابحق أجنبى فى شرق الأردن إلا بعد الحصول على موافقته مقدما. وهذا التعهد يضمن المحافظة على حقوق الأجانب. ولهذا لا أرى حاجة لمنح ضمانات أخرى.

هذا ما أردت إبداءه من الملاحظات بشأن بعض الأسس الواردة فى الكتاب راجيا التكرم ببيان المقصود من كلمة «المشورة» فى المادة الرابعة ومن «التعهد المالى» فى المادة الخامسة وجلائهما بما يزيل الغامض.

وأذكر سعادتكم أيضا بما جاء فى كتاب الركابى باشا يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٢ عن التمثيل الخارجى والسعى لإدخال شرق الأردن فى جمعية الأمم.

وعلى كل حال فإن هذه الشؤون يبحث فيها عندما تكونون على استعداد للبحث فى نصوص المعاهدة وتفضلوا إلخ.

اعتراف بريطانيا بشرق الأردن

وتوقفت المحادثات والمكاتبات لعقد المعاهدة حتى كان يوم ٢٤ مايو سنة ١٩٢٣ فقد زار عمان السير هربرت صموئيل المندوب السامى لفلسطين وخطب الخطبة الآتية:

أرغب بالنيابة عن جلالة الملك جورج الخامس وحكومته أن أقدم أصدق التهانى لسمو الأمير عبد الله وأهالى شرق الأردن، وبالأصح إلى جميع العرب بمناسبة هذا اليوم المبارك السعيد. (هو عيدالفطر لسنة ١٣٤١هـ)

إننا ندخل اليوم فى دور عظيم الشأن فى تاريخ الأمم العربية الكبير. فبعد أن كان العرب عنصرا مجيدا اشتهر بالإدارة والآداب والفنون والعلوم تقهقروا تحت اضطهاد دولة دخيلة غير راقية. وقد منحتهم الحرب الكبرى فرصة لتحرير أنفسهم. فقد اشتركت جيوش بريطانيا العظمى تسندها الجيوش العربية بقيادة أنجال شريف مكة مع القوات العثمانية فى حرب طال أمدها، وتكللت الثورة العربية ضد تركيا بالتعاون مع الحلفاء بنجاح تام. وقد مهدت السبل الآن لنهضة عربية يتوقف انتشارها ونجاحها على العرب أنفسهم.

أن فصل هذه البلاد عن المملكة العثمانية وضع على عاتق بريطانيا العظمى تبعة إزاء جمعية الأمم، الجمعية الجليلة القدر التى تمثل رأى القسم الأكبر من العالم المتمدن، وستنجز الوعود التى أعطيت لجلالة الملك حسين فى أثناء الحرب، ووفقا لهذه الخطط اعترف بشريف مكة ملكا مستقلا، ونودى بجلالة الملك فيصل ملكا على العراق وأعطى سلطات فعلية، وعقدت معاهدة مع الملك حسين حديثا وستعلن نصوصها قريبا وهى تدل على أن النهضة العربية دخلت فى طور جديد. وها نحن نحتفل الآن بالاتفاق الذى عقد مع سمو الأمير فى أثناء زيارته لجلالة الملك جورج والحكومة البريطانية، ولا يخفاكم أن الاتفاق ينص على ما يلى:

تعترف حكومة جلالة الملك جورج بوجود حكومة مستقلة فى شرق الأردن برئاسة صاحب السمو الأمير عبد الله بن الحسين - بشرط أن توافق جمعية الأمم على ذلك وأن

تكون حكومة شرق الأردن دستورية تمكن حكومة جلالة الملك من القيام بتعهداتها الدولية فيما يتعلق بتلك البلاد وذلك باتفاق يعقد بين الحكومتين.

لم تنقض سنتان عل تسلم سمو الأمير زمام إدارة شرق الأردن حتى خرجت من دور الاضطراب والفوضى إلى دور سلام مستمر وتقدم متزايد فاستفاد من هذا التحسين جميع الأهالى على اختلاف طبقاتهم. سواء فى المدن أو القرى أو بين الفلاحين والبدو. والأمل وطيد بأن التقدم سيستمر باطراد، والفضل فى ذلك أيضا يعود إلى المستشارين الذين اختارهم سموه وأذكر منهم مظهر باشا رسلان - الذى أرغب أن أقدم له التهانى الخالصة بنواله هذه الرتبة الجديدة.

والحكومة البريطانية تفخر بأنها استطاعت الاشتراك فى هذا التقدم باذلة لحكومة الأمير مساعدة فعلية وأدبية، وقد تمتعت هذه الحكومة بمساعدة مالية أيضا مما سهل لها إيجاد قوة سيارة منظمة وطدت أركان الأمن العام فى هذه البلاد، وقد وضعت طيارات وسيارات مصفحة تحت تصرفها لاستخدامها عند الحاجة، وقدم لها مستشارون سياسيون وعسكريون حسب حاجاتها. وحرصت حكومة جلالة الملك فى الوقت نفسه على عدم التدخل مطلقا فى إدارة الأمير فأصبح استقلال إدارته حقيقيا.

واسمحوا لى أن أذكر فى هذا المقام عظيم تقديرى للصداقة التى استحكمت حلقاتها بينى وبين سمو الأمير، ويسرنى أنى تمكنت فعلا من الاشتراك فى التطورات التى جرت مؤخرا وساعدت عليها سواء فيما يتعلق باستقلال شرق الأردن أو بالتقدم الناشئ عن عقد المعاهدة مع الحجاز.

وإنى آمل من صميم الفؤاد أن الحزم السياسى وروح التساهل وحسن تدبير الأمور الإدارية - وقد امتازت بها حكومة الأمير تستمر طويلا بعناية الله تعالى تعكس ضياء جديدا على سموه، وتؤدى إلى دوام خير ونجاح الذين هم تحت سلطته.

الاعتداء على الاستقلال وانتقاصه

وأدى الأمير فريضة الحج فى سنة ١٣٤٢هـ فحدثت فى أثناء غيابه حوادث ساعت الإنجليز ولم يكد يعود إلى عمان فى يوم ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٤ - ١٩ المحرم سنة ١٣٤٣ حتى تلقى من الحكومة البريطانية إنذارا ينطوى على المطالب الآتية:

١ ـ بسط المراقبة البريطانية على المالية بدون قيد ولا شرط

٢ ـ إخراج المتهمين بالتحريض فى حوادث الحدود[1].

٣ ـ إلغاء نيابة العشائر، على أن تكون القوات المحلية خاضعة لتفتيش قائد القوات الإمبراطورية، وعلى أن تستخدم طبق مشورة حكومة جلالته.

٤ ـ قبول اتفاق تسليم المجرمين المعقود مع سورية.

٥ ـ أن يعد سمو الأمير محترما وغير مسؤول عن إدارة الحكومة باعتبار أن الحكم يجب أن يكون دستوريا فى كل حال.

فلم يسع الأمير سوى الرضا والقبول بسبب تحرج الحالة وسجل قبوله بهذه الجملة «إنا لله وإنا إليه راجعون».

وعلى أثر ذلك نشرت حكومة عمان يوم ٢١ المحرم سنة ١٣٤٣ و ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٤ البلاغ الرسمى الآتى:

بناء على تشويش الأفكار فى البلاد المجاورة بسبب الحوادث المؤسفة التى وقعت فى سورية وتسكيننا لها رأينا قبول رأى رسمى أبدى لنا بطلب نزوح بعض الذوات الذين يقال إن وجودهم فى المنطقة يفسر بخطة غير حبية تجاه الحكومة الحليفة فى سورية، ولما لم يكن للذوات المذكورين أدنى علاقة بتلك الحوادث اقتضى التنويه بأن نزوحهم غير مسبب عن ظهور مسئوليتهم منها، بل لتطمين الأفكار الرسمية الخارجية بحسن النوايا المنطوية عليها أفئدتنا، ولرغبتنا فى إثبات خطتنا القويمة السالمة من كل شائبة نحو المناطق المجاورة، وأن التحقيق الجارى سيجلى الحقائق على وجهها».

---

١ – خلاصة مايقال فى وصف تلك الحوابث أنها نشأت عن مهاجمة عصابات آتية من شرق الأردن لبعض أراضى حوران ولدمشق فقد واصلت غارتها حتى دخلت باب السريجة من أحياء دمشق الجنوبية، وذلك فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٤ فاقلق ذلك الفرنسويين فقصد المسيو ليبسيه السكرتير العام للمفوضية القدس، واتصل بولاة الأمور الإنكليز واحتج لديهم على ماحدث فسيرت حكومة فلسطين القوى إلى الحدود لمطاردة العصابات واشتركت مع القوي الفرنسوية فى هذه المهمة وادعي الفرنسويون بأن بعض الوطنيين السوريين النازلين فى شرقى الأردن اشتركوا فى تأليف العصابات وإرسالها فقبض عليهم وأرسلوا إلى معان والبقعة ثم إلى الحجاز، وهذه أسماؤهم : الأمير عادل ارسلان وأحمد مريود ونبيه العظمة وعثمان قاسم وغيرهم.

ضم العقبة ومعان إلى شرق الأردن

ظلت العقبة تابعة لحكومة الحجاز حتى سنة ١٩٢٤ فقد أقنع الأمير عبد الله والده فى أثناء زيارته له بعمان بالتنازل له عنها مع مقاطعة معان فأجابه إلى طلبه مشترطا أن يكون التنازل شخصيا وأن يبقى حق الملكية للحجاز.

والواقع أن الاستيلاء على العقبة وإدخالها فى الدائرة الإمبراطورية المرنة كان من جملة الأغراض التى وضع رجال الاستعمار البريطانى فى الشرق العربى نصب أعينهم تحقيقها منذ ختام الحرب العظمى لما لها من الأهمية العسكرية والاقتصادية. وقد استعانوا بالأمير عبد الله بعد ماتبوأ إمارة شرق الأردن لما له من حظوة عند أبيه فتم التنازل فى شهر مارس سنة ١٩٢٤ واشترط فيه أن يكون شخصيا كما قلنا.

وهذا نص البلاغ الرسمى الذى أذاعته يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٢٤ الوكالة العربية فى القاهرة عن هذا التنازل:

«لا صحة ولا أصل بتاتا لما نقلته الأخبار البرقية بشأن معان والعقبة وعلاقاتها بشرق الأردن، بل إنه تقرر بقاء سمو الأمير على فى معان بالقوة التى قدم بها من المدينة للترتيبات المقتضية لانتظام سير خط الحجاز وتأمين سير المواصلات ونحو ذلك مما تقضى به الحال الحاضرة، وأن العقبة ومعان وملحقاتها تابعة للمركز بالحجاز ومربوطة مباشرة كحالتها الأولى، وتعيين غالب باشا الشعلان لا تأثير له قطعيا، وما هو إلا موظف من موظفى الحكومة الهاشمية تابع للمركز بصورة رسمية».

وألحقت هذه المقاطعة بحكومة عمان رسميا فى شهر يوليو سنة ١٩٢٥ فقد تنازل جلالة الملك على عنها فى إبان الحرب الحجازية ـ النجدية سنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ بمعاهدة عقدت فى جدة يوم ٢٥ ذى القعدة سنة ١٣٤٣ (٥ يونيو سنة ١٩٢٥).

وهذا نصها:

تقرر بين جلالة الملك على وسمو الأمير عبد الله ما يأتى:

أ ـ التصريح بسلامة الشرق العربى

ب ـ عدم انزعاج جلالة الخليفة الأعظم (يعنى الملك حسين) وكان ينزل العقبة يومئذ فقد قصدها بعد مغادرته الحجاز واتخذها دار مقام له ثم أخرج منها وأرسل إلى قبرص

وسنفصل ذلك حين الكلام على الدولة الهاشمية ـ نظر لمقامه فى العالم العربى والإسلامى ـ أى أنه لا يجرى التسليم إلا بعد تشريف جلالته لجدة.

جـ ـ لا يجرى التسليم إلا بعد صدور الأمر منه لموظفى ولاية معان.

د ـ عدم التعرض لناقلات الحجاز الحربية مطلقا.

هـ ـ السماح للحكومة الحجازية بنقل جندها ومعداتها إلى أى محل تريد قبل التسليم وبعده.

التسلم والتسليم

وفى يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٢٥ غادر الأمير عبد الله عمان قاصدا معان مع رئيس وزرائه وحاشيته للاحتفال رسميا بضم هذه المقاطعة إلى إمارته وهذا نص الخطاب الذى وجهه إلى رئيس حكومته بهذه المناسبة يوم ٤ منه:

«نظرا لتنسيب صاحب الجلالة الهاشمية الملك على المعظم ملك البلاد المقدسة الحجازية أيده الله وأدام نصره ضم ولاية معان والعقبة إلى إمارتنا اقتضى إصدار إرادتنا الملكية إليكم إعلانا بذلك مع الشكر الدائم لجلالته».

المعاهدة بين شرق الأردن وانجلترا

واستمرت المفاوضات دائرة بين حكومة عمان وحكومة القدس لعقد المعاهدة الأردنية الإنجليزية طبقا لتصريح حكومة لندن حتى يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٨ فقد وقع عليها فى القدس.

وهذا نصها:

لما كان لصاحب الجلالة البريطانية بموجب انتداب اؤتمن عليه فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢ صلاحية فى الإقليم المشمول بذلك الانتداب.

ولما كان صاحب السمو أمير شرق الأردن قد أنشأ حكومة فى ذلك القسم من الإقليم المنتدب عليه المعروف بشرق الأردن

ولما كان صاحب الجلالة البريطانية مستعدا للاعتراف بوجود حكومة مستقلة فى شرق الأردن تحت حكم صاحب السمو أمير شرق الأردن (على طريق اتفاق يعقد مع صاحب السمو) على أن تكون تلك الحكومة دستورية وتضع صاحب الجلالة البريطانية فى موقف يؤدى معه التزاماته بشأن هذه البلاد.

فلذلك اعتزم الآن صاحب الجلالة البريطانية وصاحب السمو أمير شرق الأردن أن يعقدا اتفاقا لهذه المقاصد وعينا لتلك الغاية مندوبيهما المفوضين.

عن صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وإيرلندة والممتلكات البريطانية وراء البحار وإمبراطور الهند الفيلد مارشال بلومر.

وعن صاحب السمو أمير شرق الأردن حسن خالد أبو الهدى.

اللذين بعد أن تبادلا تفويضيهما التامين ووجداهما بالشكل الصالح الملائم اتفقا على ما يأتى:

المـــادة ١ ـ يوافق صاحب السمو الأمير على أن يمثل صاحب الجلالة البريطانية فى شرق الأردن معتمد بريطانى يعمل بالنيابة عن المندوب السامى لشرق الأردن، وعلى أن تجرى المخابرات بين صاحب الجلالة البريطانية وجميع الدول الأخرى من الجهة الواحدة وبين حكومة شرق الأردن من الجهة الثانية عن طريق المعتمد البريطانى والمندوب السامى السالفى الذكر.

ويوافق صاحب السمو الأمير على أن النفقات العادية للحكومة المدنية والإدارة ومرتبات المعتمد البريطانى وموظفيه تتحملها بأسرها شرق الأردن، ويهيئ صاحب السمو الأمير محلا لإقامة البريطانيين من موظفى المعتمد البريطانى.

المادة ٢ ـ أن سلطتى التشريع والإدارة المؤتمن عليهما صاحب الجلالة البريطانية بصفة كونه منتدبا على فلسطين يتولاهما فى هذا القسم المعروف بشرق الأردن من الإقليم المنتدب عليه صاحب السمو الأمير عن طريق الحكومة الدستورية التى يعينها بحدودها قانون شرق الأردن الأساسى ـ وأى تعديل يطرأ عليها يكون بموافقة صاحب الجلالة البريطانية.

إن كلمة فلسطين فى سائر مواد هذا الاتفاق ـ مالم ترد معرفة على وجه آخر ـ تعنى

ذلك الشطر من الإقليم المنتدب عليه الواقع إلى الغرب من خط مرسوم من نقطة تبعد ميلين عن مدينة العقبة على الخليج المعروف بذلك الاسم صعودا فى منتصف وادى عربة والبحر الميت ونهر الأردن حتى ملتقاه بنهر اليرموك، ومن ثم فى منتصف ذلك النهر حتى التخوم السورية.

المادة ٣ ـ يوافق سمو الأمير على أن لا يعين فى شرق الأردن ـ مدة الاتفاق الحاضر موظف من غير جنسية شرق الأردن دون موافقة صاحب الجلالة البريطانية، وسيضبط عدد الموظفين البريطانيين المعينين على هذا المنوال فى حكومة شرق الأردن وشروط استخدامهم باتفاق على حدة.

المادة ٤ ـ يوافق صاحب السمو الأمير على اتخاذ وسن أية قوانين أو أوامر أو أنظمة قد يقتضيها القيام التام بما على صاحب الجلالة البريطانية من التزمات وتبعات دولية بشأن بلاد شرق الأردن، وعلى أن لا تقبل أو تسن فى شرق الأردن أية قوانين أو أوامر أو أنظمة يمكن أن تعرقل القيام التام بتلك الالتزامات والتبعات الدولية.

المادة ٥ ـ يوافق صاحب السمو الأمير على على أن يسترشد بنصيحة صاحب الجلالة البريطانية التى تسدى إليه عن طريق المندوب السامى لشرق الأردن فى جميع الأمور المختصة بصلات شرق الأردن الخارجية، وكذلك فى جميع الأمور الهامة التى تمس الالتزامات والمصالح المالية والدولية لصاحب الجلالة البريطانية بشأن شرق الأردن.

ويتعهد سمو الأمير أن يتبع فى شرق الأردن فى الإدارة والمالية وموارد الحكومة خطة من شأنها أن تكفل الاستقرار والتنظيم الصالح لحكومته وأمورها المالية.

ويوافق على أن يجعل صاحب الجلالة البريطانية على علم بالتدابير المقترحة والمتخذة لإنفاذ هذا التعهد على الوجه اللائق، ويوافق فوق ذلك على أن لا يغير طريقة مراقبة الأموال العامة فى شرق الأردن من غير موافقة صاحب الجلالة البريطانية.

المادة ٦ ـ يوافق صاحب السمو الأمير على أن يرجع إلى مشورة صاحب الجلالة البريطانية فى قانون الميزانية السنوى، وفى أى قانون يختص بالمواد التى تنطوى عليها نصوص هذا الاتفاق، وفى أى قانون من الأنواع التالية وهى:

(١) أى قانون يمس نقد شرق الأردن أو له صلة بإصدار أوراق نقدية (بنكنوت)

(٢) أى قانون يفرض رسوما متفاوتة

(٣) أى قانون يمكن أن يجعل الأشخاص المنتمين إلى جنسية أية دولة من جمعية الأمم أو إلى أية دولة وافق صاحب الجلالة البريطانية بموجب معاهدة على أن يضمن لها نفس الحقوق التى كانت تتمتع بها فيما لو كانت عضوا فى العصبة المذكورة ـ خاضعين أو مستهدفين لأى فقد أهلية لم يخضع ولم يستهدف له الأشخاص الذين هم من الرعايا البريطانيين أو الذين ينتمون إلى جنسية أية دولة أجنبية.

(٤) أى قانون خاص ينص على وراثة عرش الأمير أو على إنشاء مجلس وصاية

(٥) أى قانون يمنح نفسه فيه أى أرض أو مال أو هبة أخرى أو عطية.

(٦) أى قانون يمكن أن يتولى الأمير بمقتضاه السيادة على قطر خارج عن شرق الأردن.

(٧) أى قانون يختص بحق المحاكم المدنية فى القضاء على الأجانب.

(٨) أى قانون مغير أو معدل أو مضيف لتفاصيل أحكام القانون الأساسى.

المادة ٧ ـ لا يكون بين فلسطين وشرق الأردن أى حاجز جمركى، مالم يقع اتفاق بين البلدين، والتعريفة الجمركية لشرق الأردن يوافق عليها صاحب الجلالة البريطانية.

تدفع حكومة فلسطين إلى حكومة شرق الأردن المبلغ المقدر من الرسوم الجمركية المفروضة على قسم البضائع الداخلة إلى فلسطين من إقليم غير شرق الأردن، ثم تدخل شرق الأردن فيما بعد للاستهلاك المحلى، ولكن يحق لحكومة فلسطين أن تحجز من المبالغ التى تدفع على هذا الحساب المبلغ المقدر من الرسوم الجمركية التى تفرضها شرق الأردن على ذلك القسم من البضائع التى تدخل شرق الأردن من أقاليم غير بلاد فلسطين ثم تدخل فلسطين فيما بعد للاستهلاك المحلى.

وتلقى تجارة ومتاجر شرق الأردن فى الموانئ الفلسطينية من التسهيلات ما تلقاه تجارة فلسطين ومتاجرها على السواء.

المادة ٨ ـ لا توضع عقبة فى سبيل اتحاد شرق الأردن بمن تود من الممالك العربية المجاورة فى الجمارك أو لمقاصد أخرى ـ مادام ذلك يتفق مع الالتزامات الدولية لصاحب الجلالة البريطانية.

المـادة ٩ ـ يتعهد صاحب السمو الأمير بقبول وتنفيذ مايمكن أن يعده صاحب الجلالة البريطانية ضروريا من النصوص المعقولة فى المواد القضائية لصيانة مصالح الأجانب، وستدمج هذه الشروط فى اتفاق على حدة يبلغ إلى مجلس جمعية الأمم، وريثما يعقد اتفاق كهذا فلا يؤتى بأجنبى أمام محكمة أردنية من غير موافقة صاحب الجلالة البريطانية.

يتعهد صاحب السمو بقبول وتنفيذ مايمكن أن يعده صاحب الجلالة البريطانية ضروريا من النصوص المعقولة فى المواد القضائية لصيانة القانون وحق القضاء بشأن المسائل الناجمة عن العقائد الدينية للطوائف الدينية المختلفة.

المـــادة ١٠ ـ يمكن لصاحب الجلالة البريطانية أن يحتفظ بقوات مسلحة فى شرق الأردن. ويمكن أن ينشئ وينظم ويراقب فى شرق الأردن وقوات مسلحة تكون فى رأيه ضرورية للدفاع عن البلاد، ولتأييد صاحب السمو الأمير فى صيانة السلام والنظام.

ويوافق صاحب السمو الأميرعلى أن لا ينشئ ولا يحتفظ فى شرق الأردن، وأن لايسمح بأن ينشأ أو يحتفظ بأى قوات عسكرية من غير موافقة صاحب الجلالة البريطانية.

المـادة ١١ ـ يعترف صاحب السمو الأمير بالمبدأ الذى يعتبر أن تكاليف القوات اللازمة للدفاع عن شرق الأردن عبء على واردات تلك البلاد ـ تستمر شرق الأردن عند نفاذ هذا الاتفاق على تحمل سدس تكاليف قوة الحدود لشرق الأردن وتتحمل كذلك ـ حالما تسمح موارد البلاد المالية ـ فرق الزيادة ما بين تكاليف القوات البريطانية المرابطة فى شرق الأردن وتكاليف هذه القوات فيما لو كانت مرابطة فى بريطانيا العظمى فى الدرجة التى تعتبر هذه القوات ـ فى نظر صاحب الجلالة البريطانية ـ مستخدمة فى شؤون شرق الأردن وحدها.

المـادة ١٢ ـ مادامت واردات شرق الأردن غير كافية لسد النفقات العادية للإدارة التى تنفق بمصادقة صاحب الجلالة البريطانية ـ بما فيها أى إنفاق على قوات محلية تكون شرق الأردن عرضة لها بموجب المادة ١١ ـ فيؤخذ بتدبير إعانة من الخزانة البريطانية على سبيل هبة أو قرض. تعضيدا لواردات شرق الأردن، ويتخذ صاحب الجلالة البريطانية التدابير لدفع فرق الزيادة من نفقات القوات البريطانية فى شرق الأردن إلى الحد والأوان اللذين تظل فيهما واردات شرق الأردن غير كافية لاحتمال زيادة كهذه.

المادة ١٣ - يوافق صاحب السمو الأمير على أن تتخذ وتسن جميع القوانين أو الأوامر والأنظمة التى يتطلبها صاحب الجلالة البريطانية من حين لآخر للقيام بمرامى المادة العاشرة، وأن لا تقبل ولا تسن فى شرق الأردن أية قوانين أو أوامر أو أنظمة قد تصطدم فى رأى صاحب الجلالة البريطانية بمرمى تلك المادة.

المادة ١٤ - يوافق صاحب السمو الأمير أن يتبع نصيحة صاحب الجلالة البريطانية بشأن إعلان الحكم العرفى فى جميع شرق الأردن، أو فى أى جزء منها وأن يعهد بإدارة ذلك الجزء أو تلك الأجزاء التى قد توضع تحت الحكم العرفى فى شرق الأردن إلى ذلك الضابط الذى قد يرشحه أو أولئك الضباط الذين قد يرشحهم صاحب الجلالة البريطانية من قوات جلالته البريطانية. ويوافق صاحب السمو كذلك على اتخاذ قانون خاص - عند إعادة الحكومة المدنية - يبرئ فيه القوات المسلحة المحتفظ بها صاحب الجلالة البريطانية من تبعة أى تصرف أو اهمال أو تقصير وقع خلال الحكم العرفى .

المادة ١٥ - يمكن لصاحب الجلالة البريطانية أن يتولى حق القضاء على جميع أعضاء القوات المسلحة التى يحتفظ بها أو يراقبها صاحب الجلالة البريطانية فى شرقى الأردن، ووفاء للغرض من هذه المادة والمواد الخمس السالفة فلفظة (قوات مسلحة) تعتبر شاملة للمدنيين الملحقين بالقوات المسلحة أو المستخدمين فيها .

المادة ١٦ - يتعهد صاحب السمو الأمير بأن يقدم فى كل حين كل تسهيلات لتنقل قوات صاحب الجلالة البريطانية - بما فيها استعمال اللاسلكى والخطوط البرية لمصلحتى البرق والهاتف وحق مد خطوط برية - ولنقل وخزن الوقود والعتاد والذخيرة واللوازم على طرق شرقى الأردن وسككها الحديدية ومعابرها المائية وموانيها.

المادة ١٧ - يوافق صاحب السمو الأمير على أن يسترشد بنصيحة صاحب الجلالة البريطانية فى جميع الشؤون المختصة بالامتيازات واستثمار المواد الطبيعية وإنشاء وإدارة سكك الحديد وعقد القروض.

المادة ١٨ - مامن أرض فى شرق الأردن يتنازل عنها أو تؤجر أو توضع بأية طريقة تحت مراقبة أية سلطة أجنبية. وهذا لا يمنع صاحب السمو الأمير من اتخاذ ما قد يكون ضروريا من التدابير لإقامة ممثلين أجانب ولتنفيذ أحكام المواد السابقة.

المـــادة ١٩ ـ يوافق صاحب السمو الأمير على أنه ريثما تعقد اتفاقات خاصة بتسليم المجرمين تختص بشرق الأردن فمعاهدات تسليم المجرمين النافذة بين صاحب الجلالة البريطانية والدول الأجنبية تتناول شرق الأردن.

المـــادة ٢٠ ـ ينفذ هذا الاتفاق حالما يبرمه الساميان المتعاقدان بعد قبوله من جانب الحكومة الدستورية التى تؤلف بموجب المادة الثانية، وتعتبر الحكومة الدستورية مؤقتة إلى أن يصدق على الاتفاق على ذلك الوجه، ولا شئ يمنع الفريقين الساميين المتعاقدين من النظر حينا بعد حين فى نصوص هذا الاتفاق بقصد أى تنقيح قد يلوح أنه مرغوب فيه فى الأحوال التى توجد عند ذلك.

المـادة ٢١ ـ لقد صيغ الاتفاق الحاضر فى لغتين، الانجليزية والعربية وسيوقع مفوض كل من الساميين المتعاقدين على نسختين إنجليزيتين وآخرين عربيتين ويكون للصيغتين عين المقام من الاعتبار، وإنما عند الاختلاف بينهما فى تفسير مادة من مواد الاتفاق يكون للصيغة الانجليزية التقدم.

وثقة بما تقدم فقد وقع المندوبان المفوضان المذكوران على الاتفاق الحاضر فى القدس فى هذا اليوم العشرين من شهر فبراير سنة ١٩٢٨م.

(بولر) *(حسن خالد أبو الهدى)*

دستور شرق الأردن

وعملا بما نص عليه فى متن المعاهدة وضع دستور هذه الحكومة بالاتفاق بين دار الإمارة والسلطة البريطانية ونشر يوم ١٦ إبريل سنة ١٩٢٨ وهو فى ٧٢ مادة. وقد جاء فى المادة ١٦ منه أن السلطات التشريعية والإدارية مخولة للأمير عبد الله بن الحسين ولورثته من بعده وأن ولاية العهد فى الذكور من سلالة الأمير وفقا لقانون الوراثة الخاص.

وعلى هذا المنوال تم إنشاء هذه الإمارة نهائيا من وجهة نظر الحقوق الدولية واعترف باستقلالها ووجودها.

ـ ٥ ـ
الحركة الوطنية فى شرق الأردن

لم يقابل وضع المعاهدة على هذا المنوال وسن دستور منبعث عن أحكامها بالارتياح فى البلاد الأردنية لما فيه من الافتئات على حقوق السيادة الوطنية، ولأنه جاء مخالفا للعهود الشفوية المقطوعة لسمو الأمير عبد الله فى سنة ١٩٢١ وللتصريحات العديدة التى ألقاها الموظفون البريطانيون الرسميون فى شتى المناسبات. فتنادى الوطنيون إلى عقد مؤتمر عام يمثل البلاد وينطق بلسانها وقد عقد هذا المؤتمر فى عمان يوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٨ وحضره ١٢٠ مندوبا من الزعماء والرؤساء والمفكرين. فأنكر ما وقع ووضع الميثاق الوطنى الآتى ودعا البلاد إلى التمسك به وتنفيذه وهو:

بالاستناد إلى العهود المقطوعة للعرب عامة من جانب حليفتهم بريطانيا العظمى فى أثناء الحرب العامة.

وإلى العهود الرسمية المقطوعة من قبلها لشرق الأردن خاصة وإلى المادة (٢٢) من عهد جمعية الأمم.

وإلى مبادئ الرئيس ولسن الأربعة عشر التى اعترف بها الحلفاء ووعدوا رسميا بتحرير الشعوب المظلومة على أساسها.

وإلى الوعد الرسمى الصادر عن وزارتى خارجية انجلترا وفرنسا سنة ١٩١٨ للبلاد العربية المحررة.

وقد اجتمعنا نحن ممثلى الإمارة العربية الأردنية فى مؤتمرنا الوطنى المنعقد فى عمان بتاريخ ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٨ وقررنا ميثاق وطنيا لبلادنا البنود الآتية:

١ ـ إمارة شرق الأردن دولة عربية مستقلة ذات سيادة بحدودها الطبيعية المعروفة.

٢ ـ تدار بلاد شرق الأردن بحكومة دستورية مستقلة برئاسة صاحب السمو الملكى الأمير عبد الله بن الحسين المعظم وأعقابه من بعده.

٣ ـ لا تعترف بلاد شرق الأردن بمبدأ الانتداب إلا كمساعدة فنية نزيهة لصالح البلاد

وهذه المساعدة تحدد بموجب اتفاق أو معاهدة تعقد بين شرق الأردن وحليفة العرب بريطانيا العظمى، على أساس الحقوق المتقابلة والمنافع المتبادلة دون أن يمس ذلك بالسيادة القومية

٤ ـ تعتبر شرق الأردن وعد بلفور القاضى بإنشاء وطن قومى لليهود بفلسطين مخالفا لعهود بريطانيا ووعودها الرسمية للعرب، وتصرفا مضادا للشرائع الدينية والمدنية فى العالم.

٥ ـ كل انتخاب للنيابة العامة يقع فى شرق الأردن على غير قواعد التمثيل الصحيح وعلى أساس عدم مسؤولية الحكومة أمام المجلس النيابى لا يعتبر انتخابا ممثلا لإرادة الأمة وسيادتها القومية ضمن القواعد الدستورية. بل يعتبر انتخابا مصطنعا لا قيمة تمثيلية صحيحة له، والأعضاء الذين ينتخبون على أساسه إذا فصلوا بحق سياسى أو مالى أو تشريعى ضار بحقوق شرق الأردن الأساسية لا يكون لفصلهم قوة الحق المعترف به من قبل الشعب، بل يكون فصلهم جزءا من أجزاء تصرف السلطة الانتدابية وعلى مسؤوليتها.

٦ ـ ترفض شرق الأردن كل تجنيد لا يكون صادرا عن حكومة دستورية مسؤولة باعتبار أن التجنيد جزء لا يتجزأ من السيادة الوطنية.

٧ ـ ترفض شرق الأردن تحمل نفقات أية قوة احتلالية أجنبية، وتعتبر كل مال يفرض عليها من هذا القبيل مالا مغتصبا من عرق عاملها المسكين وفلاحها البائس.

٨ ـ ترى شرق الأردن مواردها إذا منحت حق الخيار بتنظيم حكومتها المدنية كافية لقيام إدارة دستورية صالحة فيها برئاسة سمو الأمير المعظم صاحب الإمارة الشرعى. أما الإعانة المالية التى تدفعها الحكومة البريطانية فإن بلاد شرق الأردن تعتبرها نفقات ضرورية لخطوط المواصلات الإمبراطورية وللقوى العسكرية المعدة لخدمة المصالح البريطانية ليس إلا. لذلك فإن هذه الإعانة التى يضاف إليها اليوم قسم من واردات البلاد لتحقيق غايات لا مصلحة لشرق الأردن فيها كما هو الواقع لا تخول بريطانيا العظمى حق الإشراف على مالية شرق الأردن هذا الإشراف المركزى الضار الواقع اليوم، ولهذا فإننا نعتبر الوضع المالى الحاضر المبنى على سياسة تخفيف الإعانة المالية عن عاتق المكلف على حساب المكلف الأردنى عبارة عن وضع ضار غير

مشروع لا تتحمله موارد البلاد ومن الواجب إبطاله واستبداله بنظام يؤيد استقلال حكومة شرق الأردن المالى. مقررين أن التصرف المالى الحاضر لا يجوز صدوره عن حليفة غنية كبريطانيا بالنسبة لبلاد فقيرة كشرق الأردن.

٩ - تعتبر بلاد شرق الأردن كل تشريع استثنائى لا يقوم على أساس العدل والمنفعة العامة وحاجيات الشعب الصحيحة تشريعا باطلا.

١٠ – لا تعترف شرق الأردن بكل قرض مالى وقع قبل تشكيل المجلس النيابى

١١ - لا يجوز التصرف بالأراضى الأميرية قبل عرضها على المجلس النيابى وتصديقه عليها وكل بيع وقع قبل انعقاد المجلس يعتبر باطلا.

وألف المؤتمر لجنة تنفيذية من ٢٦ عضوا لمتابعة قراراته والسهر على تنفيذها اختار لرئاسة حسين الطراونة رئيسه وأبلغ نص قراراته إلى الأمير فسلمها إلى المعتمد البريطانى فأرسل إليه يوم ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٨ الكتاب الآتى:

١ - لى الشرف ياصاحب السمو أن أعيد مع هذا كتاب حسين الطراونة الذى تناولته من يد سموكم.

٢ - أعترف بأنه مما يوجب خيبة الأمل وجود بعض أشخاص لا يحبذون شكل الحكومة الحاضرة التى اقمتموها سموكم بالاتفاق مع الدولة المنتدبة.

٣ - إن العمل الشاق الذى بذل، والصعوبات الجمة التى ذللت لجعل الإدارة فى هذا المستوى من الكفاءة والجدارة والحكومة فى هذه الحالة، لو فهمت جيدا لقدرها الجميع قدرها ولأدركوا أيضا أن إنشاء مجلس خال من موظفى الحكومة للاشتراك فى العمل، وفى مثل هذه الآونة من تطور البلاد يكون مجلبة للكوارث.

٤ - وعندى أنه من الخطر إنشاء مجلس تنفيذى فى الوقت الحاضر وإلى مدة أخرى لا يتألف من كبار موظفى الحكومة، وفضلا عن ذلك فإن البلاد لا تقدر الآن أن تتحمل رواتب أعضاء مجلس تنفيذى لا يتقلدون مناصب رؤساء مصالح.

فإذا كان الذين قدموا هذا الكتاب الموقع من حسين الطراونة إلى سموكم يطلبون حقيقة خير بلادهم ونجاحها فأنا واثق كل الثقة بأن أحسن وسيلة لذلك أن يؤيدوا التدابير التى أعددتموها لحكومة هذه البلاد.

٥ ـ ثم إن التقدم نحو الحكم النيابى لا يتم إلا بعد ما يبرهن الشعب على قدرته لتحمل مسؤوليات أكبر.

الوطنيون يحتجون

وفى أواسط شهر ديسمبر سنة ١٩٢٨زار السير جون تشانسلور المندوب السامى البريطانى لفلسطين عمان فوضع الوطنيون المذكرة الآتية وأرسلوها إليه:

«لنا الشرف أن نقدم هذه المذكرة التى تعبر عن شعور البلاد وأمانيها وهى تتضمن الأمور الآتية:

١ ـ نعلن باسم الشعب الأردنى احتجاجنا واستياءنا من المعاهدة المعروفة بعد ما أعلن هذا الشعب احتجاجه الوطنى بإجماع الأصوات، ونذكركم بالعهود التى قطعت للعرب عموما ولأهل شرق الأردن بوجه خاص، وبالدم الذى أراقه العرب فى جانب الحلفاء طمعا فى استقلالهم وحريتهم. كما أننا ننتهز هذه الفرصة لاعلان إخلاصنا الدائم آملين أن نحصل على استقلالنا الحقيقى وحياتنا الدستورية فى القريب العاجل.

٢ ـ نحتج بشدة على كل تدخل يقوم به المعتمد البريطانى فى شؤون حكومتنا، ونعلن أن كل القوانين والأوامر والاتفاقيات التى تسنها وتعقدها الحكومة إنما تقوم على القوة ولا إرادة للشعب بها.

٣ ـ نحتج أيضا على قانون الانتخاب بكامل نصوصه. وذلك لأن هذا القانون بعد تنقيحه خول للمائة والستين ناخبا حق انتخاب المجلس التشريعى الذى يمثل ٢٥ ألف ناخب ومنع عن بعض العشائر حق التمثيل. ومن المعلوم أن مجلسا تشريعيا تقاطعه أغلبية السكان لا يكون ممثلا للبلاد.

٤ ـ نستنكر أعمال هذه الحكومة. لأنها سنت قوانين جائرة للضغط على حرية النشر وغير ذلك من الحقوق المعتبرة حقوقا طبيعية للإنسان، وتدخلت فى حرية المحاكم وسجنت أخلص الزعماء وأشدهم أمانة لبلادهم، وخلقت وظائف لأعوانها ملأتها بالجهلة وغير الأكفاء. الأمر الذى نشأ عنه مضاعفة الضرائب، وزاد الطين بلة المبالغ التى تنفق على الجواسيس وعلى بناء قصر فخم للمعتمد البريطانى بينما الحكومة نفسها من غير بناية خاصة».

اللجنة التنفيذية تقاطع الانتخابات

ودعت الحكومة الأردنية الشعب إلى انتخاب المجلس التشريعي المقرر إنشاؤه بحسب أحكام الدستور، فقررت مقاطعة الانتخابات ودعت الأمة إلى عدم الاشتراك فيها، وأرسلت فى شهر أكتوبر سنة ١٩٢٨ البرقية الآتية إلى جمعية الأمم:

«ولما كانت المعاهدة بين بريطانيا العظمى وسمو الأمير عبد الله والدستور الذى سن فى وزارة المستعمرات مجحفين بحقوقنا، فقد احتج الشعب عليهما وبالرغم من احتجاجاتنا إلى الحكومة على قانون الانتخاب المخالف للأصول والموافق لرغائبها، وخلاصته جعل ناخب ثانوى لكل ١٥٠ مكلفا، فقد قامت بدعاية ضارة تركز على قوى موظفيها فى المقاطعات وسجلت بطرق متنوعة قسما من الشعب خلافا لرغائبه، ومن السكان الذين لم يتجنسوا بالجنسية الأردنية بعد، وبهذه الطريقة يعملون لجمع المجلس التشريعى لإقرار المعاهدة وتصديقها من مجلس هو وليد انتخابات ستة بالمائة من مجموع سكان شرق الأردن البالغ عددهم ٢٥٠ ألفا ونيفا، فنحتج على ذلك ونطلب توسطكم لإنشاء حالة دائمة تأتلف مع رغائب الشعب وروح الانتداب النزيه المقررة فى جمعية الأمم».

وقد فازت الحكومة بما أرادت، واجتمع المجلس التشريعى فى سنة ١٩٢٩ وأقر المعاهدة.

مؤتمرات اللجنة التنفيذية

وعقدت اللجنة التنفيذية مؤتمرها يوم الأثنين ١١ مارس سنة ١٩٢٩م فى عمان لدرس الموقف فأصدر القرارات الآتية لإبلاغها إلى جمعية الأمم بواسطة اللجنة التنفيذية وهى:

١ - أن الحكومة البريطانية لم يتصرف ممثلوها فى شرق الأردن تصرفا ينطبق على روح عهد جمعية الأمم بالنسبة لحقوق السكان ومصالحهم وضمان حرياتهم المشروعة.

٢ - إن مشروع المعاهدة المعروض على شرق الأردن قد أجمعت على رفضه رفضا باتا لمخالفته أمانى البلاد القومية وميثاقها الوطنى ووعود انجلترا الخاصة للعرب وتعهدات الحلفاء بالمحافظة على حقوق الأمم الضعيفة أثناء الحرب العامة.

٣ - إن المجلس التشريعى الذى يدعى على الأسس وبالطرق المار ذكرها لا يمثل بلاد شرق

الأردن فى شئ - بل تعتبر مقرراته جزءا من إجراءات التسلط البريطانى غير المشروع.

٤ - إن شرق الأردن تعتبر ميثاقها القومى أصلا فى المطالبة بحقوقها الاستقلالية المشروعة ووضع دستورها على أساس السيادة القومية، وهى تتنصل من كل مسؤولية تقع فى البلاد من جراء تعنت ممثلى بريطانيا العظمى فى خروجهم على روح عهد جمعية الأمم إزاء الشعب، وفى عدم تقديرهم أن استرقاق الشعوب لم يعد جائزا فى القرن العشرين بعد جهاد الإنسانية جهادها العام فى سبيل التحرر وبعد أن كانت انجلترا نفسها أول من نادى بإبطال رق الأفراد. بل إنها تعتبر الحكوة البريطانية وحدها هى المسؤولة عن التقهقر الواقع فى هذه البلاد من حيث التشريع والإدارة والجباية المرهقة للفلاح الأردنى. حتى أصبحت شرق الأردن فى موقف محزن من التقهقر الاقتصادى والاجتماعى لا يسعها السكوت عليه.

٥ - باسم الحضارة والإنسانية نلفت نظر جمعية الأمم المحترمة إلى جميع الحقائق المؤلمة المتقدمة التى يوقعها ممثلو بريطانيا العظمى باسمها ونرجو إليها إيفاد لجمنة حيادية نزيهة للنظر فى هذه الأمور، وتحقيق صحة هذه الشكاوى المؤيدة بالوثائق الرسمية.

ثم عقد المؤتمر الثالث فى إربد يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٣٠ وبعد ما عرض أحوال البلاد الأردنية سياسيا وإداريا واقتصاديا، وبعد المداولة فى جميع هذه الموضوعات من كل نواحيها وفروعها وجد أن الحكومات التى تألفت منذ سنة ١٩٢١ حتى اليوم تألفت مجموعا وأفرادا خلافا للأصول الدستورية، وقامت بأعمال ومقررات تخالف القوانين المرعية والأصول التشريعية وأن ماهو مشهود اليوم فى شرق الأردن من الاضطراب السياسى والفوضى الإدارية والخبط القضائى والأزمات الحادة إنما هو نتيجة محتمة لهذا الوضع الشاذ الذى عليه البلاد، ولعدم استقرار حالة سياسية مرضية فى البلاد تضمن سيادة الأمة وسلطانها ونتيجة للتذبذب الحكومى الذى شهدته البلاد، والذى لا يزال موجودا فيها منذ فصلها عن سورية حتى اليوم وتحقق أن تلافى هذا النقص واصلاح هذه الأخطاء لا يأتى إلا عن طريق حكومة دستورية مسئولة أمام مجلس نيابى ينتخب انتخابا حرا ولذا قرر ما يأتى:

١ - تشكيل حكومة دستورية أمام مجلس نيابى وكل حكومة تشكل على غيرها هذا الأساس لا تكون مشروعة.

٢ ـ لا تعترف الأمة بمشروعية المجلس التشريعى الذى ألفته الحكومة غير المشروعة ولا تتقيد بمقرراته.

٣ ـ لا تعترف الأمة بالتصرفات التى وقعت والتى ستقع من أى سلطة كانت قبل تأليف الحكومة النيابية المنشودة التى تنال ثقة الشعب أو تتمتع بالسيادة والسلطان القومى.

٤ ـ إبلاغ صورة من هذا القرار للمقامات والسلطات المسؤولة.

٥ ـ عند عدم تنفيذ هذا القرارار يجتمع المؤتمر الأردنى الرابع لاتخاذ الطرق السلمية المشروعة لتنفيذ أحكام هذا القرار.

وعقدت اللجنة المؤتمر الرابع فى عمان يوم ١٥ مارس سنة ١٩٣٢ فأصدر بعد البحث والمناقشة القرارات الآتية:

١ ـ عدم الاعتراف بالمعاهدة

٢ ـ المطالبة بإنشاء حكومة دستورية مسؤولة.

٣ ـ تخفيف الضرائب إلى حد يتفق مع حالة البلاد.

٤ ـ الاستغناء عن الموظفين المستعارين.

٥ ـ إلغاء القوانين الاستثنائية.

٦ ـ مقاومة كل سعى يراد به إدخال الصهيونية إلى شرق الأردن.

٧ ـ مشاطرة البلاد العربية أمانيها.

وعقدت اللجنة مؤتمرها الخامس فى عمان يوم ٥ يونيو سنة ١٩٣٣ فأقر القرارات الآتية:

١ ـ تأليف حكومة وطنية ذات مسؤولية مشتركة على أساس الكفاءة والثقة العامة، وتقوم هذه الحكومة بمفاوضات لتعديل المعاهدة بما يضمن حقوق البلاد.

٢ ـ استنكار ما تقوم به الصهيونية من دعايات للانتقاص من حقوق شرق الأردن تحقيقا لمطامعها، ووضع تشريع قاطع لمنع بيع الأراضى لليهود وتعاملهم مع شرق الأردن بأى شكل، وأن يمنع كل يهودى من الإقامة الدائمة.

٣ ـ إلغاء القوانين الاستثنائية لمخالفتها روح التشريع كقانون النفى والإبعاد وقانون منع الجرائم والعقوبات المشتركة.

٤ ــ الاستغناء عن الموظفين المعارين لحكومة شرق الأردن حرصا على الوحدة الإدارية.

٥ ـ معالجة ما وصلت إليه البلاد من سوء الحالة الاقتصادية باتخاذ تدابير خاصة

٦ ـ اتباع سياسة مالية تكفل الاستقرار المالى فى موازنة الدولة.

٧ ـ جباية الضرائب من الشركات الأجنبية صاحبة الامتيازات كما تجبى من الأهلين.

٨ ـ منع التضخم فى تشكيلات الحكومة، وإرجاعها إلى حد يتناسب وحالة البلاد ومقدرتها المالية .

٩ ـ المطالبة بإعادة ينابيع الحمة إلى الأردن كما كانت فى السابق.

١٠ ـ تشجيع رؤوس الأموال العربية بالقيام بمشروعات عمرانية واقتصادية لازدهار البلاد لمنح الامتيازات الاقتصادية.

١١ ـ اعتبار الخط الحجازى وقفا إسلاميا كما هو، وتسليم إدارة هذا الخط إلى لجنة إسلامية لاستثماره والأشراف على شؤونه.

١٢ ـ توسيع نظام التعليم الابتدائى بصورة تسد حاجة البلاد، وتأسيس مدارس للعشائر.

١٣ ـ توحيد الجهود مع البلاد العربية لدرء الأخطار الاستعمارية والصهيونية وتحقيق المبادئ القومية مع السعى لتقرير الاتحاد العربى اللامركزى على قواعد الاتفاق بين حكومات البلاد العربية. على أن يحتفظ كل قطر بخصائصه الداخلية وشكل حكومة

رحلة الأمير عبد الله إلى لندن

ومع ما بذلته اللجنة من جهود فلا يزال الإنجليز متمسكين بموقفهم فى شرق الأردن، ولا يزالون حتى الساعة معارضين فى تعديل بعض نصوص معاهدة سنة ١٩٢٨ رغم اشتراك الحكومة والمجلس التشريعى مع اللجنة فى هذا الطلب. وقد غادر الأمير عبد الله عمان يوم ٣ يونيو سنة ١٩٣٤ إلى انجلترا لزيارة الحكومة البريطانية والسعى لتعديل المعاهدة ، ولا نعرف ماذا تسفر عنه رحلته هذه من نتائج.



موسى كاظم باشا الحسيني

٣

فلســـــطين

ـ ١ ـ

نشأة الصهيونية

وعد بلفور واعتراف الدول به

كانت فلسطين حتى إعلان الحرب العظمى جزءا من بلاد العرب الخاضعة للإمبراطورية العثمانية، وكانت منقسمة من الناحية الإدارية إلى قسمين: يتألف القسم الأول من الأنحاء الشمالية ويلحق بولاية بيروت، وهو عبارة عن لواء عكا ولواء نابلس وتتبع الأول أقضية صفد وطبريا والناصرة وحيفا وتتبع الثانى أقضية بنى صعب (طولكرم) وجماعين وجنين.

ويشمل القسم الآخر الأنحاء الجنوبية. ويتألف من لواء القدس المستقل (أى أنه كان مرتبطا بوزارة الداخلية مباشرة) وتلحق به أقضية يافا وغزة وبئر السبع.

ولم يكن لليهود امتياز أو تفوق فى خلال العهد العثمانى. وكانوا ينقسمون إلى قسمين: قسم اليهود الوطنيين. وهم متجنسون بالجنسية العثمانية. وقسم اليهود الأجانب وقد أخذ هؤلاء يهاجرون إلى فلسطين فى أواخر القرن التاسع عشر، عاملين على امتلاك الأراضى وإنشاء المستعمرات مما لفت إليهم الأنظار. فوضعت الحكومة العثمانية نظاما للهجرة إلى فلسطين منعت بموجبه اليهود الأجانب ـ وكانوا يفدون بكثرة من روسيا ورومانيا ـ من الأقامة أكثر من ثلاثة أشهر.

والواقع أن حركة الانتعاش اليهودى التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وترمى إلى إنقاذ اليهود وتحريرهم وتجديد ملكهم نمت واتسع نطاقها فى أوائل القرن العشرين بتأييد أغنياء اليهود ومفكريهم. فسافر الدكتور هرتسل أحد زعمائهم يومئذ إلى الآستانة (سنة ١٩٠٢) وقابل السلطان عبد الحميد وعرض عليه قرضا بمليونى جنيه يعقده أغنياء اليهود للحكومة العثمانية مقابل سماحها لليهود بالهجرة إلى فلسطين واستيطانها بلا قيد ولاشرط. فأبى السلطان الأخذ بهذا الاقتراح فعاد المندوب خائبًا. ونبهت هذه الحركة الحكومة العثمانية إلى ماوراء الهجرة اليهودية من أخطار فشددت فى مقاومتها، ووضعت لها القيود والشروط، واغتنم الاتحاديون فرصة الحرب العظمى فأرادوا أن يضربوا الحركة اليهودية فى فلسطين ضربة قاضية لما تبينوه من ميل اليهود إلى الحلفاء وتجسسهم لحسابهم. فأعدموا عددا قليلا منهم بتهمة الجاسوسية ونفوا عائلات إلى

الاناضول، ولم تغن وسائط هؤلاء ووسائلهم. وقد اعتادوا أن يتوسلوا بها فى كل مناسبة لقضاء أوطارهم ولم تحمل جمال باشا على التساهل معهم، وكان عازما على مقاومة الصهيونية والقضاء عليها[1].

نص وعد بلفور

وليس من قصدنا هنا التوسع فى الكلام عن منشأ الصهيونية التاريخى وغايتها. فهنالك مطولات من الكتب والرسائل وضعها دعاتها فأسهبوا وأطالوا. وحسبنا أن نقول هنا أن الغاية الحقيقية منها هى إنشاء دولة يهودية فى فلسطين تحيى مجد إسرائيل وتضم شمل اليهود فى العالم. ولقد كان أثر الحرب العظمى كبيرًا فى تحول الصهيونية فشمر دعاتها لخدمة قضيتهم القومية مستغلين نفوذهم المالى والسياسى فى أوربا وأميركا. فعملوا كثيرًا وبذلوا جهودًا لايستهان بها. ففازوا بوعد بلفور الصادر يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ فكان أول ثمرة مادية من ثمار جهادهم الوطني، كما كان حجر الزاوية فى بنيانهم القومي، وقد صدر بشكل كتاب أرسله اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية إلى اللورد روتشيلد وهذه ترجمته:

عزيزى

«يسرنى جدًا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك أنها تنظر بعين الرضى والارتياح إلى المشروع الذى يراد به أن ينشأ فى فلسطين وطن قومى لشعب اليهود وتفرغ خير مساعيها لادراك هذا الغرض، وليكن معلوما أنه لايسمح بإجراء شىء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التى للطوائف غير اليهودية الموجودة فى فلسطين الآن، أو بالحقوق التى يتمتع بها اليهود فى البلدان الأخرى وبمركزهم السياسى فيها».

ونشرت جريدة الجويش كرونيكل اليهودية التى تصدر فى لندن هذا الكتاب يوم ٦ نوفمبر، وأذاعته شركة روتر فى الآفاق يوم ٨ منه فقابله اليهود بالارتياح وواصلوا السعى عند الحكومات الأوربية الأخرى لحملها على تأييده والاعتراف به. وكانت الحكومة الفرنسوية هى الثانية التى اعترفت به. فقد نشر فى باريس يوم ١٤ فبراير سنة ١٩١٨

١ ـ كان اليهود حتى إعلان الحرب العظمى ينزلون من فلسطين منطقة القدس ومنطقة يافا وحيفا وصفد وطبريا وكان مجموعهم ٥٤ ألفا.

البلاغ الرسمى الآتى:

«استقبل المسيو ستيفان بيشون وزير الخارجية المسيو سوكولوف ممثل الجمعيات الصهيونية. فأعرب له عن ارتياحه إلى التضامن المشهود بين الحكومتين الفرنسوية والبريطانية فى قضية إسكان اليهود فى فلسطين».

وفى يوم ١٩ مايو سنة ١٩١٨ أبلغ المركيز أمبريالى سفير ايطاليا فى لندن المستر سوكولوف باسم حكومته «أنها مستعدة لتسهيل العمل الخاص باتخاذ فلسطين مقرا لليهود».

وفى يوم ٣١ اغسطس سنة ١٩١٨ أعرب الرئيس ولسن للحاخام ستيفان فيز أحد زعماء الحركة الصهيونية فى أميركا عن ارتياحه إلى النجاح الذى أدركته الصهيونية. فعد ذلك موافقة ضمنية منه على وعد بلفور.

اللجنة الصهيونية واختصاصاتها

وألف اليهود فى سنة ١٩١٨ لجنة برئاسة الدكتور وايزمن تمثل جميع عناصرهم وحددوا اختصاصاتها وأغراضها بما يلى:

١ ـ تكون حلقة اتصال بين الحكومة البريطانية ويهود فلسطين.

٢ ـ تسهل عودة المهاجرين والمنفيين إلى فلسطين.

٣ ـ تساعد على تعمير المستعمرات اليهودية وتنظيم أمور اليهود بالإجمال فى فلسطين.

٤ ـ تساعد الجمعيات والمدارس والمعاهد اليهودية فى فلسطين لتستأنف أعمالها.

٥ ـ توثق عرى المودة بين اليهود والعرب.

٦ ـ تضع التقارير فيما يمكن عمله للاستعمار اليهودى.

٧ ـ تنظر فى إنشاء جامعة يهودية.

اتصال اليهود بالأمير فيصل

وفى شهر أبريل سنة ١٩١٨ وصل إلى الأسكندرية وفد اللجنة الصهيونية برئاسة الدكتور وايزمن، ويتالف من جوزيف كوينى وليون سيمون وإسرائيل سيف وسلفان ليفى

لزيارة فلسطين والاشراف على الحالة فيها، وصحبهم فى رحلتهم هذه الماجور اورمسبى جور من وزارة الحربية البريطانية ـ وزير المستعمرات بعدئذ ـ بصفة ضابط الارتباط السياسى البريطانى لدى اللجنة الصهيونية يساعده الكابتن جيمس روتشلد فزاروا القدس وساتقبلتهم السلطة البريطانية رسميا، وأدب لهم المستر ستورس حاكم القدس يومئذ مأدبة رسمية.

واغتنم الدكتور وايزمن الفرصة فقصد يوم أول يونيو سنة ١٩١٨ العقبة فزار الأمير فيصلا وبسط له أغراض الصهيونية ورغبته فى التعاون مع العرب. فكان الأمير كثير الحذر ـ كما تقول المصادر الصهيونية ـ ولم يبد رأيا حاسما.

ولما رحل الأمير رحلته الأولى إلى أوربا فى خريف سنة ١٩١٨ لحضور مؤتمر الصلح ونزل باريس جاءه المستر سوكولوف أحد زعماء اليهود مرحبا وطالبا منه أن يظهر عطفا على القضية اليهودية فصرفه بلطف.

وسافر الأمير بعد ذلك إلى لندن فزاره عظماء اليهود الإنكليز وفى مقدمتهم السير الفريد موند والسير هربرت صموئيل واللورد بركنهد (وزير الحقانية البريطانية) وتظاهروا بالعطف على العرب وقضيتهم وأظهروا استعدادهم لتأييدها بنفوذهم وطلبوا إليه أن يوقع على بيان كتبوه باللغة الإنكليزية وقالوا إنه ينطوى على اظهار العطف على فكرة الوطن القومى، فوقعه الأمير باللغة العربية بعد أن كتب عليه مانصه «مشترطا أن ينال العرب استقلالهم من رفح حتى طوروس وخليج العجم» ولما سأله بعضهم لماذا عجل فى التوقيع أجاب لقد اشترطنا لتأييدهم انشاء مملكة عربية فإذا أنشئت فلا يهمنا شىء ويقول اليهود إن البيان الذى وقع عليه الأمير يومئذ ينطوى على الاتفاقية الآتية:

صاحب السمو الملكى الأمير فيصل يمثل ويعمل لصالح مملكة الحجاز العربية والدكتور حايم وايزمن يمثل ويعمل لصالح الجمعية الصهيونية مع ذكرهما القرابة العنصرية والروابط القديمة الكائنة بين العرب واليهود وإدراكهما أن أضمن وسيلة لتحقيق أمانيهم القومية هى التعاون لترقية الدولة العربية وفلسطين، وبما أنهما يرغبان زيادة على ذلك فى تأييد التفاهم الطيب القائم بينهما اتفقا على المواد الآتية:

المادة الأولى ـ الدولة العربية وفلسطين فى جميع علاقاتهما وأعمالهما يجب أن يسودهما التفاهم بأشد اخلاص وحسن إرادة، ولهذه الغاية سيعين فى حينه وكلاء عرب

ويهود موثوق بهم ومؤيدون فى البلدين المشار اليهما.

المادة الثانيـة ـ تحدد الحدود النهائية بين الدولة العربية ولفسطين بواسطة لجنة يتفق عليها حالما تتم مفاوضات مؤتمر الصلح.

المادة الثالثة ـ تؤخذ جميع التدابير وتعطى أفضل الضمانات لتطبيق تصريح الحكومة البريطانية الصادر يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ حين وضع دستور حكومة فلسطين.

المادة الرابعـــة ـ تتخذ كل التدابير لتشجيع وتنشيط الهجرة اليهودية إلى فلسطين بمقياس كبير وبالسرعة الممكنة لإسكان المهاجرين فى الأراضى، وتصان حقوق الفلاحين العرب ويساعدون فى تقدمهم الاقتصادى.

المادة الخامسة ـ لايوضع نظام أو قانون يمنع أو يحول بأية طريقة دون ممارسة الأديان بحرية كاملة. ويسمح أيضًا بدون قيد ولاشرط بحرية العقائد والعبادات بدون تميز أو تفضيل وتمارس الحقوق المدنية والسياسية.

المادة السادسة ـ تكون المقدسات الإسلامية تحت إشراف إسلامى.

المادة السابعة ـ ترسل الجمعية الصهيونية إلى فلسطين لجنة من الخبراء لدرس قابلية البلاد الاقتصادية وتقدم تقريرا عن أفضل الوسائل لتحسينها وتضع الجمعية الصهيونية هذه اللجنة تحت تصرف الحكومة العربية لدرس قابلية المملكة العربية الاقتصادية وتقديم تقرير عن أفضل الوسائل لتحسينها. وتستخدم الجمعية الصهيونية خير جهودها لمساعدة الحكومة العربية فى إعداد الوسائل لتحسين الموارد الطبيعية والقابلية الاقتصادية فى بلادها.

المادة الثامنة ـ يوافق الفريقان المتعاقدان على العمل باتفاق وتآلف لضمان تحقيق هذا الاتفاق أمام مؤتمر الصلح.

المادة التاسعة ـ تحكم الحكومة البريطانية فى كل خلاف يبدو خلال تطبيق أحكام هذا الاتفاق».

وتقول المصادر اليهودية أن الأمير وضع التحفظ الآتى على هذا الاتفاق:

إذا توطدت دعائم الحكومة العربية كما طلبت فى كتابى بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٩١٨

إلى وزارة الخارجية البريطانية فأقوم بما كتب فى هذه الاتفاقية وإذا أجريت تبدلات فلا أكون مسؤولا عن عدم قيامى بما جاء فيها.

وينفى الذين وافقوا الأمير فى رحلته إلى لندن وحضروا الاجتماع فى فندق كارلتون الذى يقول الصهيونيون إن الاتفاق وقع فيه وجود هذا الاتفاق بهذا الشكل ويقولون إن الأمير وقع بيانًا عاديًا لايزيد فى مضمونه عما قلناه آنفا. وقد تحدى بعضهم الصهيونيين حينما أذاعوا هذا الاتفاق لنشر متنه مع توقيع الأمير فيصل عليه فلم يفعلوا.

بيان للأمير ينفى الاتفاق

على أن جريدة الجويش كرونيكل وهى لسان الجمعية الصهيونية فى إنكلترا نشرت يوم ٤ أكتوبر سنة ١٩١٩ بيانًا للأمير فيصل نفسه عالج فيه المسألة اليهودية بصراحة فقال: «يجب أن تظل فلسطين جزءًا من سورية فليس بينهما حد طبيعى ولافاصل، ومايؤثر فى الواحدة يؤثر فى الآخرى. ويجب أن يؤثر فيها فالعرب يرون فلسطين ولاية عربية ولايرونها بلادا قائمة بنفسها ونحن نسعى لننشئ إمبراطورية عربية تتألف فى أقل مايكون من العراق وسورية وفلسطين.

«وقد قيل لى أن جميع اليهود يعتمدون على التصريح الذى فاه به المستر بلفور ويتطلعون إلى إنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين - أى أن تصير فلسطين دولة يهودية ولاريب أن هذه الأمانى تناقض أفكار العرب ولاترضيهم. فأناشد اليهود وهم ساميون قبل العرب طالبا معاونتهم إيانا فى انشاء المملكة العربية حتى إذا كثر عدد اليهود فى فلسطين تيسر أن تجعل ولاية يهودية من ولايات هذه المملكة العربية».

فلو كان مايقوله الصهيونيون عن وجود ذاك الاتفاق صحيحا لما نشر هذا التصريح وهو يناقضه على خط مستقيم.

اليهود ومؤتمر الصلح

ولقد كان من جراء مساعى اليهود ونشاطهم فى أوربا أن قرر مؤتمر الصلح سماع أقوال مندوبيهم والوقوف على آرائهم فى القضية الصهيونية. فتكلم يوم ٢٧ فبراير سنة

١٩١٩ أمام المؤتمر الدكتور وايزمن والمستر سوكولوف باسم الجمعية الصهيونية العالمية والمسيو أندره مسبير وباسم الجمعية الصهيونية فى فرنسا والمسيو سيليفان ليفى الأستاذ فى كوليج دى فرانس باسم اللجنة الصهيونية وهو عضو فيها والمسيو أوسيشكين باسم يهود روسيا. وقد اتفقت كلمتهم جميعا على المطالبة بانشاء جمهورية يهودية فى فلسطين تحت وصاية جمعية الأمم.

ـ ٢ ـ

العرب والحركة الصهيونية وبريطانيا
الجمعيات الإسلامية المسيحية والمؤتمرات الوطنية

ظلت فلسطين من ابتداء الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ حتى ختامها فى سنة ١٩١٨ ميدانا لتطاحن الجيوش المتحاربة. فقد اتخذها الترك فى أول الأمر قاعدة لجيوشهم الزاحفة على قناة السويس. فكانوا يغيرون منها على مراكز الإنكليز فى الصحراء وعلى ضفتى القناة نفسها. وتبدل موقف الجيش البريطانى بعد سنة ١٩١٦ وبعد إعلان الثورة العربية واشتراك العرب فى الحرب إلى جانب الحلفاء. فصار مهاجما بعد ماكان مدافعا فكر على الترك فى فلسطين من الجنوب كما كر عليهم الجيش العربى من الجنوب الشرقى وظلا يقاتلانهم حتى أخرجوهم من فلسطين والشام فى أواخر أيام الحرب وساقوهم حتى حدود الأناضول.

ولم تتح لعرب فلسطين الفرصة الكافية للإعراب عن رأيهم فى السياسة الجديدة التى يراد تنفيذها فى بلادهم، بسبب حالة الحرب وماتستلزمه من تدابير استثنائية اعتمد عليها الإنكليز بعد دخولهم البلاد، اعتماد الترك عليه من قبل، فظل وعد بلفور مكتوما عن عامة الشعب الفلسطينى بالإجمال حتى دخول الإنكليز القدس يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩١٧ أو حتى وصول اللجنة الصهيونية فى إبريل سنة ١٩١٨ وهو الأصح.

أول احتجاج على السياسة الجديدة

وربما كان المرحوم كامل أفندى الحسينى مفتى القدس فى تلك الأيام هو أول فلسطينى احتج على السياسة البريطانية الجديدة المنطوية على وعد بلفور. فقد شهد المأدبة الرسمية التى أدبها المستر ستورس حاكم القدس يوم ٢٧ إبريل سنة ١٩١٨ ولوفد اللجنة الصهيونية وسمع مادار فيها من خطب عن المستقبل الذى يعدونه لفلسطين فاحتج وانسحب. أما فى مصر فقد زار وفد من كبار السوريين المندوب السامى البريطانى محتجا على الوعد حين إعلانه.

تاليف الجمعيات الإسلامية المسيحية

ولم يكد كابوس الحرب يختفى عن الأنظار وتخف وطأة الأحكام العرفية حتى شمر عرب فلسطين للمقاومة ـ فألفوا فى كل مدينة من مدنهم جمعية ضمت كبار مسلميهم ومسيحييهم. فقد اتفق الفريقان على مقاومة الخطر الصهيونى الفاغر فاه لابتلاع فلسطين والقضاء على عربها وأطلقوا عليها اسم الجمعيات الإسلامية ـ المسيحية ولاتزال قائمة حتى الآن.

واتجهت أنظار الفلسطينيين فى هذه المرحلة نحو دمشق لأنهم أدركوا أن مصلحتهم هى فى الانضمام إليها والاستعانة بها . فبلادهم جزء لايتجزء من سورية وعقدت الجمعيات الإسلامية المسيحية مؤتمرا فى يافا يوم ١٢ فبراير سنة ١٩١٩ اشترك فيه ٣٦ مندوبا فقرروا باتفاق ٣٠ رأيا ضم فلسطين إلى سورية.

فلسطين واللجنة الأمريكية.

وتجلت فكرة الانضمام إلى سورية فى أثناء اللجنة الأميركية لفلسطين فى شهر يونيو سنة ١٩١٩ فقد اتفقت الكلمة على طلب الاستقلال التام لفلسطين ضمن الوحدة السورية وعلى رفض وعد بلفور والانتداب البريطانى(راجع تقرير اللجنة الأمريكية فى الجزء الثانى).

المؤتمرات الوطنية الفلسطينية

ورأى زعماء فلسطين ومفكروها أن يستعينوا بالمؤتمرات الوطنية يعقدوها فى الظروف المناسبة للدفاع عن قضيتهم ولإسماع صوتهم، ولوضع الخطط التى يسيرون عليها فى جهادهم. فعقدوا سبعة مؤتمرات حتى الآن هذا مؤجز تاريخها.

١ ـ المؤتمر السورى العام

ولما كانت فلسطين على اختلاف طوائفها وبلدانها قد اشتركت فى المؤتمر السورى العام المعقود فى دمشق يوم ٨ يونيو سنة ١٩١٩ إذ أرسلت إليه كل مدينة من مدنهم نوابا

يمثلونها. وكان مما قرره المؤتمر رفض الهجرة الصهيونية، وعدم الاعتراف بوعد بلفور. فقد قرر الفلسطينيون اعتبار هذا المؤتمر أول مؤتمر وطنى عقدوه واتخذوا قراراته قاعدة للسياسة الوطنية التى يسيرون عليها فى نضالهم ولانرانا فى حاجة إلى إعادة نشرها فهى مندمجة فى قرار ٨ مارس سنة ١٩٢٠ التاريخى (انظر المنشور فى الجزء الثانى).

٣ ـ المؤتمر الفلسطينى الثانى

عقد هذا المؤتمر فى دمشق وفى دار النادى العربى يوم الجمعة ٢٧ فبراير سنة ١٩٢٠ وبحث فى الشؤون الآتية:

١ ـ فلسطين والوحدة السورية.

٢ ـ الحكومة الوطنية التى تنوى الحكومة المحتلة تأليفها، وماذا يجب اتخاذه فى شأنها.

٣ ـ الهجرة الصهيونية وماذا يجب اتخاذه لصد تيارها.

٤ ـ علاقة فلسطين بالسلم العام.

وقد اشترك فى هذا المؤتمر مندوبو اللجنة العليا للدفاع الوطنى بدمشق ومفوضو الأحزاب السياسية. وهى الوطنى السورى والاستقلال العربى والاتحاد السورى والعهد السورى الديمقراطى والعهد العراقى والنادى العربى وجمعية النهضة الأدبية وزعماء الدنادشة وحوران والكرك وشيوخ بنى صخر وغيرهم. فأقر أربع قرارات هذا نصها:

١ ـ إن أهالى سورية الشمالية والساحلية ماخطر لهم فى وقت من الأوقات أن يعتبروا سورية الجنوبية ـ أى فلسطين قطعيا غير سورية، وكما أثبتوا ذلك فى مقررات مؤتمرهم السورى فهم الآن يثبتون هذا القرار مرة ثانية.

٢ ـ إن أهالى سورية الشمالية والساحلية اعتبروا ويعتبرون الخطر الصهيونى إذا تمكن فى فلسطين يبتلع كيانهما السياسى مع الزمن. وهذا ماحملهم على المجاهرة برفض الهجرة الصهيونية أمام اللجنة الأميركية. فهم الآن يثبتون مرة ثانية هذا القرار ويرفضون جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود، ويلتمسون من حكومتهم العربية أن ترفض رسميا هذا الوعد ولو صادقت عليه بقية حكومات الحلفاء والسعى لأجل ذلك، ومقاطعة

اليهود اقتصاديا فى مناطق سورية الثلاث.

٣ ـ إن أهالى سورية الشمالية والساحلية يرفضون أى حكومة وطنية فى فلسطين قبل أن تعترف الحكومة المحلية بمطلبى الفلسطينيين اللذين قدموهما للجنة الأمريكية من عدم فصلها عن سورية أولا، ومنع المهاجرة الصهيونية ثانيًا، ويرفضون كل قرار يقرره الوطنيون فى الاجتماع الذى تعقده الحكومة المحتلة فى القدس. لأن هذا القرار يعتبر أنه وقع بالضغط وبقوة الحراب.

٤ ـ تتمة للقرارات الثلاثة السابقة ـ وبما أن الحركة الوطنية القائمة فى البلاد للمطالبة باستقلال سورية بحدودها الطبيعية ـ وبما أن أوربا فى جميع تبليغاتها ومنشوراتها تفصل كلمة فلسطين عن سورية تغريرا للناس. فلذلك أهل سورية الشمالية والساحلية دفعا لكل التباس فى مغزى أعمالهم السياسية يقررون أن هذه الحركة كما هى موجهة لإخراج المحتلين من الساحل. كذلك هى موجهة أيضًا لإخراج المحتلين من فلسطين وأن اللجنة الوطنية يرجى منها أن تدعى من الآن فصاعدا لجنة الدفاع الوطنى العربى عن سورية وفلسطين.

٣ ـ مؤتمر حيفا الثالث

غادر مندوبو فلسطين فى المؤتمر السورى دمشق عائدين إلى بلادهم بعد نكبة العرب الكبرى فى ميسلون، وبعد ماخابت آمالهم من جهة الحكومة الفيصلية، ولما كان لابد من وضع خطة للحركة الفلسطينية فى المرحلة الجديدة فقد اتجهت أنظار الزعماء والمفكرين إلى عقد مؤتمر ينظم العمل. وبعد مباحثات تم الاتفاق على أن يجتمع المؤتمر فى حيفا. فعقد يوم ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ وأطلقوا عليه المؤتمر الثالث إضافة إلى المؤتمر السورى العام، وإلى المؤتمر الفلسطينى الثانى المعقودين فى دمشق.

ودارت مباحثات فى هذا المؤتمر انتهت بالاتفاق على المطالبة بالمواد الآتية:

١ ـ رفض انتداب بلفور.

٢ ـ منع الهجرة اليهودية.

٣ ـ انشاء حكومة وطنية لفلسطين.

وقد اختار هذا المؤتمر لجنة تنفيذية عهد إليها بالسعى لتنفيذ قراراته ومتابعتها والاشراف على الحركة الوطنية، واختار موسى كاظم باشا الحسينى رئيس المؤتمر رئيسا لها، وكانت تتألف من السادة عارف الدجانى والشيخ سليمان الفاروقى وتوفيق حماد وإبراهيم الشماس والدكتور يعقوب برتقش ومعين الماضى وعبد الفتاح السعدى.

٤ ـ مؤتمر القدس الرابع

ودعت اللجنة التنفيذية إلى عقد مؤتمر رابع عقد فى القدس يوم ٢٥ يونيو سنة ١٩٢١ لانتخاب وفد يسافر إلى أوربا لبسط القضية الفلسطينية على مسامع الرأى العام المتمدن، وبيان مايلحقه تنفيذ السياسة الصهيونية المندمجة فى وعد بلفور من شديد الضرر بفلسطين وأهلها، وذلك قبل أن يبت رسميا فى الانتداب.

وقد تم انتخاب هذا الوفد وتألف كما يأتى:

موسى كاظم باشا الحسينى رئيسا وتوفيق حماد وأمين التميمى ومعين الماضى وإبراهيم الشماس وشبلى الجمل أعضاء. وفى يوم أول يوليو سنة ١٩٢١ غادر الإسكندرية قاصدا لندن فقابل ولاة الأمور فيها وبث دعاية طيبة لبلاده.

اتحاد الوفدين السورى والفلسطينى وقرارهما

واتصل الوفد الفلسطينى وهو فى أوربا بوفد الاتحاد السورى وعقدوا يوم ٢٥ أغسطس من تلك السنة مؤتمرا (المؤتمر السورى الفلسطينى) فى جنيف استمر نحو ٢٥ يوما وضعوا فى ختامه بيانا مفصلا قدموه إلى رئيس جمعية الأمم وأعضائها وطلبوا تحقيق المطالب الآتية:

١ ـ الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومى لسورية وللبنان ولفلسطين.

٢ ـ الاعتراف بحق هذه البلاد فى أن تتحد معا بحكومة مدنية مسئولة أمام مجلس نيابى ينتخبه الشعب، وأن تتحد مع باقى البلاد العربية المستقلة فى شكل ولايات متحدة فيدارسيون.

٣ ـ إلغاء الانتداب حالا.

٤ ـ جلاء الجنود الفرنسوية والإنكليزية عن سورية ولبنان وفلسطين.

٥ ـ الغاء تصريح بلفور.

٥ ـ مؤتمر نابلس الخامس

عقد هذا المؤتمر يوم الثلاثاء ٢٢ أغسطس سنة ١٩٢٢ بدعوة اللجنة التنفيذية لسماع أقوال الوفد العائد من لندن وتقرير الخطة السياسية الجديدة وتلى فيه بيان الوفد. وقد جاء فيه أنه قصد لندن بطريق رومة فقابل قداسة البابا وشكره على دفاعه عن فلسطين ونال وعدا وثيقا بأنه لايفتر عن دفاعه. ثم أشار إلى مادار بينه وبين الحكومة الإنكليزية من مكاتبات ومراسلات ومباحثات، وختم تقريره بقوله إن سياسة إنكلترا الخاصة بالقضية الصهيونية لاتزال على حالها لم يحدث فيها تعديل جوهرى، وأن صك الانتداب جاء معززا لها. وقال إن الحكومة البريطانية لاتزال مصرة على تنفيذ سياستها غير ملتفتة إلى عهودها للعرب. ومصدر ذلك تفرق كلمة هؤلاء وتشتت شملهم. وقال إنه يرى الأخذ بالاقتراحات الآتية:

١ ـ تنمية التضامن بين العرب وتوطيده بطريقة عملية تأتى بالفائدة المنشودة، واجتناء ثمرة تنشيط النهضة الاقتصادية وتوسيع نطاق العلم والزراعة.

٢ ـ بذل الاهتمام لتوثيق عرى الاتحاد بإخواننا العرب وإعلان ذلك لدحض الزعم الفاسد بتشتت شملهم المبنى على الوهم بأن كل مقاطعة من مقاطعاتهم فى عزلة عن الأخرى فيقصر أمل الطامعين فى هذه الأمة ويعتقدون أنها ليست لقمة سائغة.

٣ ـ إرسال برقية شكر إلى جلالة الملك حسين لما أبداه ويبديه من العناية أولا وآخرا بالقضية العربية عامة والفلسطينية خاصة، مع استمداد تلك العناية الهاشمية.

٤ ـ ارسال وفد إلى ملوك العرب وأمرائهم لإيقافهم على الظلم الواقع والبحث عن فوائد الاتفاق والتفاهم.

ووضع المؤتمر عند ختامه الميثاق الوطنى الآتى. وقد أقسم جميع الأعضاء على التقيد به

وتنفيذه وهو: «نحن ممثلى فلسطين أعضاء المؤتمر العربى الخامس نقسم أمام الله والأمة والتاريخ بأن نواصل المساعى المشروعة لتحقيق الاستقلال والاتحاد العربى ورفض الوطن اليهودى والمهاجرة الصهيونية».

ووقف موسى كاظم باشا الحسينى رئيس المؤتمر فى الجلسة وقال بصوت جهورى: أعاهد الله والشرف والإنسانية على مقاطعة المجلس التشريعى الذى قررت الحكومة إنشاءه فهل تعاهدوننى على ذلك؟ فوقف جميع الأعضاء مع المستمعين صائحين: إننا نعاهدك على ذلك ولنفقد الأولاد والأحفاد إذا لم نقاطعه.

٦- مؤتمر يافا السادس

دعت اللجنة التنفيذية إلى عقد هذ المؤتمر فى يافا لتنظيم الحركة الوطنية طبقا للتحول الجديد الذى حدث على أثر رفض الأمة الاشتراك فى المجلس التشريعى - كما سيأتى بيانه فعقد هذا المؤتمر صباح السبت ١٦ يونيو سنة ١٩٢٣ وتلى بيان الوفد الفلسطيني إلى أوربا بالحضور مؤتمر الصلح، والدفاع عن قضية فلسطين، وبسط مطالب أهلها[1] ثم بحث فى مشروع المعاهدة العربية - البريطانية لحل المشكلة الفلسطينية وتصفية عهود بريطانيا للعرب (سيأتى الكلام على هذا المشروع فى الباب الثالث عند البحث فى سقوط الدولة الهاشمية) فقرر رفضه. وهذا نص القرار الذى قرره:

«قرر المؤتمر العربى الفلسطينى السادس المنعقد فى يافا والممثل للأمة رفض مشروع المعاهدة الإنكليزية - العربية المقدم لجلالة الملك حسين والذى نشرت حكومة فلسطين خلاصته، لأنه مخالف للعهود المقطوعة للعرب ولحقوق الشعب الفلسطينى، والمطالبة بإلغاء السياسة الصهيونية وبإنشاء حكومة وطنية نيابية مستقلة. ورفض كل مشروع لايضمن تحقيق مطالب الأمة».

١ - قررت اللجنة التنفيذية فى اجتماع عقدته فى شهر أكتوبر سنة ١٩٢٢ إرسال وفد إلى لوزان ولندن للدفاع عن قضية فلسطين حين اجتماع مؤتمر الصلح بين الترك والحلفاء لحل القضية الشرقية. وقد رأس موسى كاظم باشا الوفد وتألف من أمين التميمي والحاج توفيق حماد وشبلى الجمل ووصل إلى القاهرة يوم ٦ نوفمبر فاجتمع إلى أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى، وتم الاتفاق فى جلسة رسمية عقدت يوم ٧ منه على توحيد عمل الوفدين: وفد فلسطين ووفد سورية. وفى يوم ٨ منه غادر الوفد مصر إلى تركيا فاجتمع إلى أقطاب الترك، ثم قصد لوزان وحال الحلفاء دون دخوله المؤتمر وبسط قضيته. فاكتفي بنشر الدعاية لها بين رجال المؤتمر والعاملين فيه، ثم قصد لندن واتصل برجال الحل والعقد فيها داعيا إلى انصاف فلسطين ورد حقوقها.

وأصدر المؤتمر قرارات عديدة تدور فى هذه الدائرة وانفض تاركا للجنة مواصلة العمل. وانتخب وفدا يسافر إلى لندن على الفور ليكون فى جانب الدكتور ناجى الأصيل (مندوب الملك حسين) فى أثناء المفاوضات التى تدور بينه وبين وزارة الخارجية لعقد المعاهدة العربية والدفاع عن قضية فلسطين طبقا لقرارات مؤتمر يافا. وقد رأس موسى كاظم باشا الوفد فبلغ لندن يوم ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٣ وظل فيها حتى ١٣ سبتمبر فعاد إلى فلسطين بدون جدوى لإخفاق تلك المفاوضات.

٧ ـ مؤتمر القدس السابع

اجتمع هذا المؤتمر يوم ٢٠يونيو سنة ١٩٢٨ فى دار اللجنة التنفيذية وشهده ٢٥٠ مندوبا يمثلون جميع المناطق والأحزاب. فقرر المطالبة بحكومة برلمانية وتحية الجمعية التأسيسية فى سورية وشكر الوفد السورى فى أوربا والاحتجاج على كثرة الموظفين الإنكليز فى الحكومة الفلسطينية وعلى إعطاء امتياز البحر الميت لشركة أجنبية وعلى تفضيل العمال اليهود على العمال العرب فى الأشغال الحكومية، والمطالبة بوقف سن القوانين ريثما تؤلف الحكومة البرلمانية، وأرسل المؤتمر برقية لمواصلة العمل برئاسة موسى كاظم باشا الحسينى.

٨ ـ المؤتمر الثامن

وبذلت مساع جمة لعقد المؤتمر الثامن لم تكلل بالنجاح حتى الآن لأسباب عديدة. على أن اللجنة التنفيذية عقدت جلسة عامة يوم ٧ إبريل سنة ١٩٣٣ فى القدس فقررت بالإجماع توجيه الدعوة إلى عقد المؤتمر الثامن يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٤ وتنظيم اللجنة التنفيذية على أساس مالى جديد ووضع نظام داخلى لها.

ـ ٣ ـ

الانتداب البريطانى لفلسطين

أنشأ البريطانيون على أثر احتلالهم لفلسطين حكما عسكريا صارما. فكان لهم فى كل بلد ضابط عسكرى يحكمها. وكان على رأس هؤلاء ضابط عسكرى كبير مقره فى القدس ويلقب الحاكم العام للمنطقة الجنوبية من أراضى العدو المحتلة، يستمد السلطة والنفوذ من القائد العام للحملة المصرية.

ولما تم الاتفاق بين الفرنسويين والإنكليز على اقتسام هذه البلاد ـ وقد أسهبنا فى الكلام عن ذلك فى الجزء الثانى ـ وأصدر مجلس الحلفاء الأعلى قراره يوم ٢٥ إبريل سنة ١٩٢٠ بانتداب إنكلترا لفلسطين، دعا حاكم القدس رؤساء الطوائف وأعيان البلاد إلى اجتماع عقد فى داره يوم ٢٩ إبريل من تلك السنة وتلا عليهم البيان الآتى:

«قرر المجلس الأعلى انتداب دولة لفلسطين، وأن يدمج عهد بلفور بأنشاء وطن قومى لليهود فى معاهدة الصلح مع تركيا. وقد عرض هذا الانتداب على بريطانيا فقبلته وهى تحكم البلاد لخير سكانها. وأتلو عليكم وعد بلفور وأقول لكم إن إدماجه فى صك الانتداب يعنى عدم التعرض للعادات الدينية والأماكن المقدسة، وعدم تقييد شىء من الحرية الدينية بشرط المحافظة على النظام والأمن العام، ويسمح للمهاجرين بدخول البلاد على قدر حاجتها إلى النمو والارتقاء، وتسيطر حكومة بريطانيا على المهاجرة ولايخرج أصحاب الأملاك الحاليون عن أملاكهم ولاتنزع منهم ولاتمنح امتيازات اقتصادية لأفراد أو جماعات ـ إذا كان فى منحها ضرر لغيرهم. فالحكم سيكون للحكومة البريطانية ولايسمح بحال من الأحوال لأقلية أن تسيطر على الأكثرية من السكان. ومتى حان الوقت لإنشاء شكل من أشكال الحكم النيابى ففى هذه الحالة تعقد الآمال العظيمة على زيادة اليسر لجميع سكان البلاد. وقد صدر هذا القرار بعد طول انتظار. فيجب انهاء الخلافات السياسية والاضطرابات، وعلى جميع الفلسطينيين الحقيقيين أن يتباروا لخدمة فلسطين وخير الأجيال المقبلة».

الاحتجاج على فرض الانتداب

وقد احتجت الجمعيات الإسلامية ـ المسيحية فى جميع أنحاء فلسطين على قرار المجلس الأعلى بفرض الانتداب خلافا للعهود المقطوعة للعرب، ووضعت مضابط أرسلتها إليه ونكتفى بإثبات الاحتجاج المرسل من جمعية القدس قالت:

«نحن أعضاء الجمعية الإسلامية ـ المسيحية الممثلة لجميع أهالى لواء القدس نحتج على القرار الصادر من مؤتمركم بخصوص مستقبل فلسطين، ونرفضه رفضا باتا لما فيه من الإجحاف بحقوقنا المقدسة. ونعلن أننا لانتخلى عن مطالبنا المنحصرة فى استقلال سورية المتحدة من طوروس إلى رفح، ورفض الهجرة الصهيونية رفضا باتا، وعدم فصل فلسطين عن سورية للأسباب الآتية:

١ ـ لإننا لم نقاتل الترك الذين تجمعنا وإياهم الرابطة الشرقية ونحارب بجانب الحلفاء لنعطى بلادنا هدية لأناس أجانب عنها، وليس لهم حق من حقوق التملك. فيها بل لننال حقنا من الاستقلال فى الحياة.

٢ ـ لإن فصل فلسطين عن سورية يضر بمصالح البلاد الاقتصادية والعمرانية وبمصالح الوطنيين القومية والمحلية.

٣ ـ لعدم كفاية أراضى البلاد لأهلها الوطنيين الذين هم فى ازدياد مستمر. سيما وفى النية الاهتمام بأمر إسكان وتحضير القبائل القاطنة فيها.

٤ ـ لإن الهجرة ستزيد النفوس وتسبب المجاعات وتؤهل البلاد لحالة الشغب والثورة الدائمين.

٥ ـ لو لم يكن دخول الأجنبى مضرا بمصالح البلاد الاقتصادية والأدبية لما منعت أرقى دول العالم وأشدها قوة واقتدارا كدولة بريطانيا وأميركا دخول الأجنبى إلى بلادها ـ فكيف بفلسطين المنهوكة القوى من الحرب الطاحنة فإنها لاتتحمل هجرة أشد الشعوب طمعا وأكثرها أنانية.

فلذلك نطلب من المجلس أن ينظر إلى مطالبنا بعين الانصاف ويؤيد هذا الحق الطبيعى الذى لاحياة للبلاد إلا به، ونلقى تبعة كل مايحدث فى البلاد مستقبلا على عاتق المؤتمر والسلام.

إنشاء الحكومة الفلسطينية

وبدأت الحكومة البريطانية بعد نيلها الانتداب لفلسطين، بإنشاء حكومة مدنية بدلا من الإدارة العسكرية القديمة. فعينت السير هربرت صموئيل من زعماء الحركة الصهيونية مندوبا ساميا لهذه الحكومة على أن ينفذ سياسة الوطن القومى.

وصل المندوب السامى الجديد إلى فلسطين لتقلد منصبه الجديد. وفى يوم أول يوليو سنة ١٩٢٠ نودى بالحكومة الجديدة وتقلد السير هربرت صموئيل رئاستها رسميا. وهذا نص البلاغ الرسمى الذى أذاعه:

إلى أهالى فلسطين

إنى مأمور من جلالة الملك جورج الخامس أن أبلغكم الرسالة الآتية:

إن الدول المتحالفة التى نالت الفوز الباهر فى هذه الحرب قد أودعت إلى بلادى أمر الوصاية على فلسطين لكى تسهر على مصالحها، وتكفل لبلادكم العمران السلمى الذى طالما كنتم تنشدونه.

إنى أذكر بافتخار العمل المجيد الذى قامت به جنودى تحت قيادة الفيلدمارشال اللورد اللنبى لتحرير بلادكم من النير التركى، وساسر حقيقة إذا وفقت أنا وشعبى أيضاً أن نكون وسيلة لكم لتنالوا السعادة بوجود إدارة حازمة وصادقة.

إنى أرغب أن أؤكد لكم أن الدولة المنتدبة ستنفذ ماعليها من الواجبات بدون محاباة مطلقا. وحكومتى عازمة على احترام حقوق العناصر والمذاهب على اختلافها فى المدة التى تنقضى ريثما يصادق مجلس جمعية الأمم نهائيا على الانتداب. وفى المستقبل عندما تكون الوصاية أمرًا واقعًا.

ولايخفاكم أن الدول المتحالفة قررت اتخاذ التدابير لتضمن إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين بالتدريج. وهذه التدابير لن تؤثر قطعيا على حقوق الأهالى المدنية أو الدينية. ولن تنقص من الرقى المعنوى لجميع طبقات الشعب الفلسطينى.

وإنى واثق أن المندوب السامى الذى انتدبته لتنفيذ هذه المبادئ سيفعل ذلك بعزم ثابت ونية صادقة، وسيسعى لاستعمال كل الوسائل التى تؤول لخير الشعب على اختلاف مذاهبه وطبقاته.

إنه مدرك جيدا خطورة المهمة الملقاة على حكومة بلاد يقدسها المسيحى والمسلم واليهودى على السواء. وسأحافظ بكل اهتمام على رقى البلاد التى ينظر العالم إلى تاريخها باهتمام عظيم - ا هـ.

وأتبع المندوب السامى هذا المنشور ببيان مفصل عن الخطة التى يسير عليها فى إنشاء الحكومة الجديدة فقال:

تفضل جلالة الملك فمنحنى منصب مندوب سام لرئاسة الحكومة المدنية التى تأسست الآن. والمنشور الذى تلوته يتضمن المبادئ التى سنسير عليها فى إدارة البلاد.

إن حدود البلاد شمالاً وشرقا لم تقرر بعد. وانى واثق أننا سنحصل على حل مرض بدون أدنى تأخير.

وستكون لفلسطين حكومة منفردة تتصل بوزراء جلالة الملك فى لندن مباشرة. وعندما يقرر الانتداب نهائيا تقوم الإدارة المدنية على أساس ثابت مع ضمان أمر الاستخدام المبنى على الكفاءة وحسن السلوك، وتخصص رواتب تقاعد لبعض الضباط. وستكون أكثر الوظائف العليا بيد موظفين بريطانيين ريثما يأن الأوان لزيادة عدد الموظفين الوطنيين الحائزين على الصفات التى تؤهلهم للمناصب الرفيعة والقيام بما تتطلبه إدارة البلاد. أما بقية الوظائف فهى مباحة للفلسطينيين على اختلاف مذاهبهم.

إن استقامة الموظفين هى أول شرط لإنشاء حكومة صالحة. وستنفذ الحكومة القوانين الصارمة فى كل شخص يعطى أو يقدم رشوة إلى أى موظف من موظفيها أو إلى أى عضو أو موظف كان فى مجلس بلدياتها. وستنفذ القوانين نفسها فى كل موظف يرتشى بقطع النظر عن درجة وظيفته.

وسأعين مجلسا للشورى قليل العدد تكون أكثريته من موظفى الحكومة، ويضم عشرة أعضاء غير رسميين يختارون من الطوائف المختلفة ويجتمع هذا المجلس برئاستى فى فترات متعددة، وتعرض عليه مشروعات القوانين الهامة مع الميزانية السنوية ليبدى رأيه فيها وتعطى الحرية للاعضاء غير الرسميين لطرح الأسئلة التى يودون سؤال الحكومة عنها وتعلن مناقشاته.

وهكذ تكون الخطوة الأولى لترقية الحكم الذاتى فى جهات عديدة من المملكة البريطانية

وأعتقد أنه مع تعاقب الأيام يحدث الارتقاء المنشود.

وأدمج في معاهدة الصلح مع تركيا شرط ينص على إنشاء لجنة تختارها بريطانيا لدرس الشؤون الخاصة بالأديان المختلفة في فلسطين وتسويتها. وحينما تؤلف هذه اللجنة تختار جمعية الأمم رئيسها. لقد حان الزمان الذى يمكن به تقدم البلاد الاقتصادى الذى تأخر بسبب الحرب. وستساعد التدابير التى ستتخذ لتأسيس الوطن القومى مساعدة كبيرة فى تحقيق العمران المنشود.

إن بيع الأراضى وكل مايختص بمعاملاته سيعود إلى ماكان عليه، ويكون خاضعا لبعض قيود يراد بها منع المتاجرة بالأراضى وسيوضع قانون خاص.

وإنى عازم على تأليف لجنة للأملاك من موظف بريطانى وعضوين آخرين تكون موضع ثقة اليهود والمسلمين والمسيحيين، ومن واجبات هذه اللجنة أن تحقق عن الاملاك التى تسويتها قريبة الحل، وأن تسعى لترويج عمران البلاد وتضمن الإنصاف والعدالة لكل المزارعين وأصحاب المراعى والملاكين. وتخطط الأملاك وتمسح عما قريب. وتنشأ محكمة خاصة لحل كل الخلافات الناشئة عن الأملاك. والغاية من ذلك تقرير الحدود وحسم المنازعات التى كانت سبب إقلاق راحة الأهالى. وستؤسس مصارف لإقراض الفلاحين مايلزمهم لآجال طويلة ولترويج الصناعات المدنية.

وستتسلم الحكومة المدنية سكك الحديد عن قريب وتشرع فى الإصلاحات اللازمة لها قبل حلول فصل الشتاء كى لايتكرر التعطيل الذى سبب خسائر ومتاعب جمة كما حدث فى الشتاء الماضى. وسيتم إصلاح السكة بين يافا واللد بتوسيعها وتصليح سكك أخرى.

ولقد وضعت على بساط البحث قائمة كبيرة تشتمل على المشروعات العمرانية التى يراد القيام بها، وهى تنطوى على إصلاح الطرق وشقها وترقية المواصلات التليفونية والتلغرافية وتعميم الكهرباء فى البلاد، وإنشاء مرفأ حيفا وتجفيف المستنقعات وغرس الغابات فى الأراضى الصالحة. وسيؤجل بعضها وهو يحتاج إلى نفقات عظيمة ريثما يتم إعداد الأموال الكافية. وأرجو أن أوفق إلى عقد قرض مالى حينما يقرر مصير الانتداب نهائيا ليساعد على القيام بالأعمال التمهيدية لجانب من هذه المشروعات.

تصريح المستر تشرشل

وفى أواسط شهر يوليو سنة ١٩٢٢ أذاع المستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية بيانا مطولا فسر فيه سياسة حكومته فى فلسطين ومعنى الوطن القومى وأثبت تمسك بريطانيا بوعد بلفور وعزمها على تنفيذه رغم شكايات العرب وتظلمهم وهذا نصه:

نظر وزير المستعمرات من جديد فى الحالة السياسية الحاضرة فى فلسطين بروية صادقة للوصول إلى حل المسائل المختلفة التى نشأ عنها ريب وقلق بين بعض أقسام من الأهالى. وقد وضع التصريح الآتى بعد استشارة المندوب السامى لفلسطين. وفيه خلاصة الأجزاء المهمة من المخابرات التى دارت بين وزير المستعمرات ووفد الجمعية الإسلامية المسيحية فى فلسطين الذى مضى على وجوده فى إنكلترة بعض الوقت وذكر النتائج التى صار الوصول إليها.

إن التوتر الذى ساد فلسطين من وقت إلى آخر يعزى معظمه إلى مخاوف تجول فى خواطر بعض فرق من الاهالى العرب وبعض فرق من الأهالى اليهود. أما هذه المخاوف من جهة العرب فبعضها يبنى على تفاسير مبالغ فيها لمعنى التصريح الذى نطق به بالنيابة عن حكومة جلالة الملك فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ وفيه استحسان إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين. وقد ظهرت تصاريح غير رسمية بأن الغاية من ذلك جعل فلسطين يهودية بجملتها، واستعملت جمل جاء فيها أن فلسطين ستصبح «يهودية كما أن انكلترا إنكليزية» غير أن حكومة جلالة الملك تنظر إلى هذه الآمال كغير قابلة التطبيق، ولاترمى إلى مثل هذه الغاية وأنها لم تفكر فى وقت من الأوقات بإخضاع أو محو السكان العرب أو قتل لغتهم وآدابهم فى فلسطين كما يتخوف الوفد العربى. وهى تلفت النظر إلى الواقع بأن عبارات التصريح المذكور لاتشير إلى تحويل فلسطين بجملتها إلى وطن قومى لليهود وإنما تعنى بأن وطنا كهذا يجب تأسيسه فى فلسطين. ومما يلاحظ بسرور فى هذه المناسبة أن المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى كارلسباد فى سبتمبر ١٩٢١ ـ وهو المجلس الأعلى المسيطر على الجمعية الصهيونية ـ اتخذ قرارا أعرب فيه رسميا عن الغايات الصهيونية. ومما جاء فيه «إن الشعب اليهودى عقد النية على أن يعيش مع الشعب العربى باتحاد واحترام متبادلين وأن يسعيا معا لجعل هذا الوطن المشترك زاهرا حتى يضمن تجديده لكل من شعوبه ورقيه القومى بسلام».

ولابد من لفت النظر إلى أن اللجنة الصهيونية فى فلسطين المعروفة الآن باللجنة التنفيذية الصهيونية لم ترغب قط فى أن يكون لها - وليس لها نصيب مافى إدارة البلاد العامة، ولايخولها المركز الخاص الذى تشغله الجمعية الصهيونية بموجب المادة الرابعة من صك الانتداب صلاحية تولى وظيفة كهذه. فإن مركزه الخاص ينحصر فى التدابير التى تتخذ فى فلسطين وتتعلق باليهود ومساعدة البلاد فى تقدمها عموما. ولكن لايخولها حق الاشتراك بصورة مافى حكومتها. وعلاوة على ذلك فأنه يفكر فى جعل جنسية أهالى فلسطين في نظر القانون الجنسية الفلسطينية، ولم يقصد بتاتا بأن يكون لهم أولأى قسم منهم أى جنسية.

أما فيما يتعلق بسكان فلسطين اليهود فالظاهر أن بعضهم خامرهم الشك بأن حكومة جلالة الملك قد تتخلى عن سياستها التى تضمنها تصريح عام ١٩١٧ ولذلك كان من الضرورى التأكيد مرة أخرى أن هذه المخاوف لاأساس لها، وأن التصريح الذى عاد الحلفاء فتمموه فى مؤتمر سان ريمو وأيضًا فى معاهدة سيفر لايظن تغييره.

وقد أعد اليهود فى أثناء الجيلين أو الثلاثة الأجيال الأخيرة إنشاء طائفة من فلسطين يبلغ عددها ٨٠٠٠٠ ربعهم مزارعون أو عملة في الأرض، وأصبح لهذه الطائفة أدوات سياسية خاصة ومجمع منتخب لإدارة شؤونها الداخلية ومجالس منتخبة فى المدن وجمعية لمراقبة مدارسها وحاخام باشى منتخب ومجلس حاخامين لإدارة شؤونها الدينية. وتدار أشغال هذه الطائفة باللغة العبرانية كلغة وطنية ولها صحف عبرانية تقوم بحاجاتها وحياة عقلية تميزه عن سواها. وقد أبدت حركة اقتصادية كبير. فهذه الطائفة إذا بسكان المدن والمستعمرات منها وجمعياتها السياسية والدينية والاجتماعية ولغتها وعوائدها وطرق معيشتها الخاصة لها فى الحقيقة مميزات قومية. وعندما يسأل عن تقوية الوطن القومى اليهودى فى فلسطين يمكن الجواب بأن ليس معني ذلك إرغام جميع أهالى فلسطين على قبول الجنسية اليهودية. بل زيادة رقي الطائفة اليهودية الموجودة فيها بمساعدة اليهود الموجودين فى جميع أنحاء العالم حتى تصبح فلسطين موضوع اهتمام وفخر لجميع اليهود من الوجهتين الدينية والقومية. ولكن حتى يكون لهذه الطائفة أمل وطيد فى تقدمها الحر وحتى يتسنى للشعب اليهودى فرصة تامة ليظهر مقدراته كان من الضرورى أن تعلم بأن وجودها فى فلسطين هو بمقتضى حق وليس كمنة. وهذا هو السبب الذى لأجله كان من الضرروى إيجاد الوطن القومى اليهودى فى فلسطين بضمانات دولية، وأن يعترف رسميا بأنه مبنى على علاقات تاريخية قديمة.

هذا إذن هو ماتعنيه حكومة جلالة الملك فى تفسير تصريح سنة ١٩١٧ وبناء عليه يرى وزير المستعمرات أن هذا التصريح لايتضمن شيئا من شأنه أن يثير رعب عرب فلسطين أو يسبب استياء اليهود.

ولأجل تطبيق هذه السياسة كان من الضرورى تمكين الطائفة اليهودية فى فلسطين من زيادة عددها بالمهاجرة، ولكن هذه المهاجرة لايمكن أن تكون كبيرة إلى حد يزيد على مقدرة البلاد الاقتصادية فى قبول مهاجرين جدد. ومن الضرورى التأكيد بأن المهاجرين لايكونون عالة على أهل فلسطين، وأن لايحرم بقدومهم أى قسم من السكان الحاليين من أعماله. وقد جرت المهاجرة حتى الآن على هذه الشروط. فكان عدد القادمين إلى فلسطين منذ الاحتلال البريطانى ٢٥ ألف مهاجر.

ومن الضرورى أيضا التأكيد أن الأشخاص غير المرغوب فيهم لايسمح بدخولهم إلى فلسطين، وأن الإدارة اتخذت وتتخذ كل الاحتياطات لهذه الغاية.

وفى العزم إنشاء لجنة خاصة فى فلسطين مؤلفة من أعضاء المجلس التشريعى الجديد المنتخبين للبحث مع الإدارة فى الطرق التى تتعلق فى تنظيم المهاجرة. فإذاحدث خلاف فى الرأى بين هذه اللجنة والإدارة يرفع الأمر إلى حكومة جلالة الملك وهى تعيره اهتماما خاصا. وزد على ذلك فانه بمقتضى المادة ١٨ من قرار مجلس جلالة الملك أعطى لأى طائفة مذهبية أو أى قسم كبير من أهالى فلسطين الحق بأن يرفعوا بواسطة المندوب السامى أو وزير المستعمرات وإلى جمعية الأمم أى مسألة يرون أن حكومة فلسطين لاتجرى فيها على نصوص الانتداب.

أما الدستور المنوى تطبيقه فى فلسطين والذى نشر مشروعه من قبل فيستحسن أيضاح بعض النقاط بشأنه. ففى الدرجة الأولى ليس الأمر كما يدعى الوفد العربى بأن حكومة جلالة الملك فى أثناء الحرب وعدت بإنشاء حكومة وطنية حالا فى فلسطين. وهذا الادعاء يستند معظمه إلى كتاب مؤرخ ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ من السير هنرى مكماهون المندوب السامى إذ ذاك فى مصر إلى شريف مكة (ملك الحجاز اليوم) وغاية مافى هذا الكتاب أنه يتضمن وعدا لشريف مكة بالاعتراف وتلبية استقلال العرب ضمن الحدود التى اقترحها الشريف. ولكن هذا الوعد أعطى معلقا على احتياط كما جاء فى الكتاب نفسه وهو يستثنى خطة مايستنتجه من الأراضى قطعا من سورية تقع إلى الغرب من مقاطعة دمشق.

وهذا الاحتياط كانت تنظر إليه حكومة جلالة الملك دائما كشامل لولاية بيروت ولواء القدس المستقل. وبناء عليه تكون فلسطين كلها من غربي الأردن خارجة عن وعد السير مكماهون، ومع ذلك تعتزم حكومة جلالة الملك تأسيس حكومة ذاتية واسعة النطاق فى فلسطين، ولكنها ترتئى فى الظروف الحاضرة أن يكون ذلك تدريجا لاطفرة. وقد خطت الخطوة الأولى منذ تأسيس الإدارة الملكية فعينت المجلس الاستشارى الحالى، وذكر المندوب السامى وقتئذ أن هذه هى الخطوة الأولى فى سبيل ترقية الحكم الذاتى. وفى النية اليوم اتخاذ خطوة ثانية وذلك بتأسيس مجلس تشريعى تكون أكثرية أعضائه منتخبة. وقد اقترح فى مشروع الدستور أن يكون ثلث أعضاء المجلس غير موظفين يعينهم المندوب السامى ولكن بما أنه قدمت على هذا النص اعتراضات مبنية على أسباب مانعة فوزير المستعمرات مستعد أن يحذفه من المشروع. أما هذا المجلس فسيكون رئيسه المندوب السامى ويؤلف من اثنى عشر عضوا منتخبا وعشرة أعضاء موظفين رسميين. ومن رأى وزير المستعمرات أنه يجب أن يمر وقت قبل أن يعطى لفلسطين الحكم الذاتى التام وقبل أن تكون للمجلس صلاحية المراقبة على القوة التنفيذية لكى يتاح فى أثناء ذلك لإدارات البلاد أن تترقى ولأمورها العالية أن تبقى على أساسات ثابتة. ولموظفى الحكومة أن يتدربوا على طرق الحكم ويكتسبوا الاختبار اللازم، وبعد سنوات قليلة يعاد النظر فى الحالة فإذا أسفرت التجربة عن نجاح يعطى إذ ذاك قسم أعظم من السلطة لنواب الشعب و المنتخبين، ويريد وزير المستعمرات أن يلفت الانظار هنا إلى أن الإدارة الحالية لفلسطين قد خولت لمجلس عال انتخبته الملة الإسلامية حق مراقبة الأوقاف الإسلامية مراقبة تامة ومراقبة المحاكم الشرعية. وأنها منحت هذا المجلس باختيارها مداخيل كبيرة لأوقاف كانت الحكومة التركية ضبطتها وأن للمعارف أيضا لجنة استشارية تمثل أقسام الأهالى. وإن مصلحة التجارة والصناعة تشرك فى الأعمال معها غرف التجارة التى تأسست فى المراكز المهمة. وفى النية إشراك أمثال هذه اللجان التمثيلية مع مصالح الحكومة المختلفة بصورة أوسع.

ووزير المستعمرات يعتقد بأن سياسة مبنية على مثل هذه الخطط وفى تأييد أوسع معانى الحرية الدينية فى فلسطين والمحافظة التامة على حقوق كل طائفة فيما يتعلق بأماكنها المقدسة لايمكن إلا أن تكون مقبولة لدى فرق السكان المختلفة وأن على هذا الأساس يمكن بناء روح الاشتراك فى العمل الذى يتوقف عليه رقى ونجاح الأراضى المقدسة فى المستقبل.

صك الانتداب لفلسطين

وفى يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢ أقر مجلس جمعية الأمم فى لندن الصك الذى وضعته بريطانيا لإدارة فلسطين بعد تعديل المادة الرابعة عشرة منه، وبذلك دخل الانتداب فى دوره الرسمى.

وهذا نصه:

حيث إن دول الحلفاء الكبرى وافقت تنفيذا لنصوص المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم على أن تعهد إلى دولة منتدبة تختارها الدول المذكورة لإدارة شؤون فلسطين التى كانت تابعة للسلطنة العثمانية ضمن الحدود التى ترسمها الدول المذكورة.

وحيث إن دول الحلفاء الكبرى وافقت أيضا على أن تكون الدولة المنتدبة مسؤلة عن تنفيذ التصريح الذى صرحت به حكومة جلالة ملك بريطانيا فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ للشعب اليهودى مع البيان الجلى بأن لايُفعل شىء يضر الحقوق الدينية والمدنية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة فى فلسطين، ولاالحقوق أو المركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى.

وحيث إن ذلك اعتراف بالصلة التاريخية التى تصل الشعب اليهودى بفلسطين والبواعث التى تبعث على إعادة انشاء وطنهم القومى فى تلك البلاد.

وحيث أن دول الحلفاء العظمى قد اختارت الحكومة البريطانية لتكون الدولة المنتدبة لفلسطين.

وحيث إن الانتداب لفلسطين قد صيغ فى النصوص الآتية وعرض على مجلس جمعية الأمم لموافقته عليه.

وحيث إن الحكومة البريطانية قبلت الانتداب لفلسطين وتعهدت بتنفيذه بالنيابة عن جمعية الأمم طبقا للنصوص والشروط التالية.

وحيث إن المادة ٢٢ الآنفة الذكر (الفقرة ٨) تنص على أن درجة السلطة أو السيطرة أو الإدارة التى تكون للدولة يتفق عليها بين أعضاء جمعية الأمم فإن مجلس جمعية الأمم ينص على ذلك نصا صريحا.

فالمجلس بعد تأييد الانتداب المذكور يحدد شرطه ونصوصه بما يأتى:

المادة ١ ـ يكون للدولة المنتدبة السلطة التامة فى التشريع والإدارة إلا حيث أقيمت لهما حدود فى نصوص صك الانتداب هذا.

المـــادة ٢ ـ تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد فى أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن اليهودى كما جاء فى ديباجة هذا الصك وترقية أنظمة الحكم الذاتى وضمان الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الأجناس والأديان.

المـــادة ٣ ـ يجب على الدولة المنتدبة أن تنشط الاستقلال المحلى على قدر ماتسمح به الأحوال.

المادة ٤ ـ يعترف «بهيئة» يهودية صالحة (لائقة) كهيئة عمومية لتشير وتعاون فى إدارة فلسطين فى الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر فى إنشاء الوطن القومى اليهودى ومصالح السكان اليهود فى فلسطين، وتساعد وتشترك فى ترقية البلاد تحت سيطرة حكومتها دائما.

ويعترف بأن الجمعية الصهيونية هى هذه الهيئة المنصوص عليها فى ماتقدم مادامت الدولة المنتدبة ترى أن نظامها وتأليفها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض. وعلى الجمعية الصهيونية أن تتخذ مايلزم من التدابير بعد استشارة الحكومة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة فى إنشاء الوطن القومى اليهودى.

المادة ٥ ـ تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن عدم التنازل عن شىء من أراضى فلسطين أو تأجيره أو وضعه تحت حكومة دولة أجنبية.

المـــادة ٦ ـ على حكومة فلسطين مع كفالة عدم إلحاق الضرر بحقوق ومركز سائر طوائف الأهالى أن تسهل هجرة اليهود (إلى فلسطين) فى أحوال مناسبة وتنشط بالاتفاق مع الهيئة اليهودية المشار إليها فى المادة ٤ استقرار اليهود فى الأراضى الزراعية وفى جملتها الأراضى المدورة والأراضى البور (الموات) غير المطلوبة للأعمال العمومية.

المـــادة ٧ ـ يتعين على حكومة فلسطين أن تسن قانونا للجنسية يتضمن نصوصا بتسهيل حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين مقاما دائما لهم على الرعوية الفلسطينية.

المـــادة ٨ ـ إن امتيازات الأجانب وفى جملتها المحاكم القنصلية وحماية القنصليات ورعاياها ـ وهى التى كان الأجانب يتمتعون بها بحكم الامتيازات أو العرف فى السلطنة العثمانية لاتكون نافذة فى فلسطين، ولكن متى انتهى أجل الانتداب فإن هذه الامتيازات تعاد برمتها أو مع التعديل الذى يكون قد تم عليه الاتفاق بين الدول صاحبة الشأن إلا إذا كانت الدول التى ظل رعاياها يتمتعون بالامتيازات المذكورة فى أول أغسطس سنة ١٩١٤ قد سبقت فتنازلت عن حق رد تلك الامتيازات أو وافقت على عدم تطبيقها لأجل مسمى.

المادة ٩ ـ الدولة المنتدبة مسئولة عن أن يكفل النظام القضائى الذى ينشأ فى فلسطين الحقوق القضائية للأجانب والوطنيين، ويضمن تمام الضمان احترام الأحوال الشخصية والمصالح الدينية لجميع الشعوب والطوائف، ولاسيما إدارة الأوقاف طبقا للشريعة الدينية وشرط الواقفين.

المادة ١٠ ـ تكون المعاهدات المبرمة بين الدولة المنتدبة وسائر الدول الأجنبية عن تسليم الرعايا الأجانب المطلوبين من فلسطين مرعية إلى أن تعقد اتفاقات خاصة بذلك على فلسطين.

المـادة ١١ ـ تتخذ حكومة فلسطين جميع التدابير اللازمة لصون مصالح الجمهور فى ماله علاقة بترقية البلاد، ويكون لها السلطة التامة لتدبير مايلزم لوضع يد الحكومة أو سيطرتها على مورد ما من موارد البلاد الطبيعية أو الأعمال والمصالح والمنافع العمومية الموجودة أو التى ستوجد فيما بعد فيها بشرط مراعاة العهود الدولية التى قبلتها الدولة المنتدبة على نفسها. وعليها أيضاً أن توجد نظاما للأراضى يلائم حاجات البلاد مع مراعاة أمور أخرى منها المنافع التى تنجم عن تشجيع إكثار المهاجرة واستغلال أعظم مايستطاع من الأرض. ويجوز لإدارة البلاد أن تتفق مع الهيئة اليهودية المذكورة فى المادة الرابعة على أن تجرى أو تستثمر بشروط الانصاف والعدل الأعمال والمصالح والمنافع العمومية، وترقى مرافق البلاد الطبيعية حيث لاتتولى الحكومة هذه الأمور مباشرة بنفسها. وإنما يشترط فى هذه الاتفاقات أن الأرباح التى توزعها الهيئة القائمة بالعمل لاتتجاوز مباشرة أو غير مباشرة فائدة معتدلة لرأس المال، وكل مايزيد عن هذه الفائدة يستخدم لما فيه نفع البلاد على الوجه الذى توافق عليه حكومتها.

المـادة ١٢ ـ يعهد إلى الدولة المنتدبة فى السيطرة على علاقات فلسطين الخارجية وحق

اصدار البراءات إلى القناصل الذين تعينهم الدول الأجنبية، وللدولة المنتدبة الحق أيضا فى أن تشمل رعايا فلسطين وهم فى خارج بلادهم بحماية سفرائها وقناصلها.

المادة ١٣ ـ تتقلد الدولة المنتدبة كل التبعة المختصة بالأماكن المقدسة والمبانى والمواقع الدينية فى فلسطين. وهذا يشمل المحافظة على الحقوق الموجودة وضمان الوصول إلى المواضع المقدسة والأماكن والمواقع الدينية وحرية العبادة مع المحافظة على مقتضيات الأمن العام والآداب. وتكون الدولة المنتدبة مسئولة لدى جمعية الأمم دون سواها عن كل مايتعلق بذلك بشرط أن لاتحول نصوص هذه المادة دون اتفاق الدولة المنتدبة مع حكومة البلاد على ماتراه الدولة المنتدبة سلطة التعرض للأملاك الإسلامية أو التدخل فى إدارة المشاهد الإسلامية المقدسة المحفوظة الامتيازات.

المـــادة ١٤ ـ تؤلف الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدرس وتعيين الحقوق والدعاوى المتعلقة بالأماكن المقدسة والحقوق والدعاوى التى تختص بالطوائف الدينية المختلفة فى فلسطين. ويعرض الأسلوب الذى يتبع فى تعيين هذه اللجنة وتأليفها ووظائفها على مجلس جمعية الأمم ليوافق عليها. ولاتعين اللجنة ولاتقوم بوظائفها من غير موافقة المجلس.

المـــادة ١٥ ـ يجب على الدولة المنتدبة أن تتحقق أن الحرية الدينية التامة وحرية القيام بجميع شعائر العبادة مكفولتان للجميع بشرط المحافظة على النظام العام والآداب فقط. ويجب أن لايكون هناك تمييز من أى نوع كان بين سكان فلسطين بسبب الجنس أو الدين أو اللغة. وأن لايحرم شخص مامن دخول فلسطين بسبب اعتقاده الدينى فقط، ويجب أن لاتحرم أى طائفة كانت من حق المحافظة على مدارسها لتعليم أبنائها بلغتهم إذا كان ذلك مطابقا لشروط التعليم العمومية التى قد تفرضها الإدارة (الحكومة).

المـــادة ١٦ ـ تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن القيام بما تقتضيه المحافظة على النظام العام والحكم المنتظم من الإشراف على الهيئات الدينية والخيرية التى لجميع المذاهب فى فلسطين. فإذا روعى هذا الشرط لايجوز أن تتخذ تدابير فى فلسطين لاعاقة أعمال مثل هذه الهيئات أو التعرض لها. أو الإجحاف بأى ممثل لها أو عضو فيها بسبب دينه أو جنسيته.

المادة ١٧ ـ يجوز لإدارة (حكومة) فلسطين أن تنظم على قاعدة اختيارية القوات اللازمة للمحافظة على السلم والنظام وللدفاع عن البلاد أيضًا. بشرط أن تكون تحت اشراف الدولة المنتدبة ولكن لايجوز لإدارة فلسطين استخدام هذه القوات لأغراض أخرى غير

الأغراض المعينة فى ماتقدم إلا بموافقة الدولة المنتدبة وفيماعدا هذه الأغراض لايجوز لإدارة فلسطين أن تجمع قوات عسكرية أو بحرية أو جوية ولا أن تبقيها عندها.

وليس فى هذه المادة مايمنع إدارة فلسطين من الاشتراك فى نفقات القوات التى تكون للدولة المنتدبة فى فلسطين. ويحق للدولة المنتدبة فى كل وقت أن تستخدم طرق فلسطين وسككها الحديدية وموانئها لحركات القوات المسلحة ونقل الوقود والمهمات.

المـادة ١٨ - يجب على الدولة المنتدبة أن تكفل عدم التحيز فى فلسطين على رعايا أية دولة تكون عضوا فى جمعية الأمم (وفى جملة ذلك الشركات المؤلفة بحسب قوانين تلك الدولة) إذا قيسوا برعايا الدولة المنتدبة أو أية دولة أجنبية كانت فى الأمور المتعلقة بالضرائب أو التجارة أو الملاحة أو تعاطى الصنائع أو المهن أو فى معاملة السفن التجارية أو الطيارات الأهلية. وكذلك يجب أن لايكون هناك تحيز فى فلسطين ضد عروض يكون منشؤها فى بلد من بلدان الدول المذكورة أو تكون مرسلة إليها. وتطلق حرية مرور المتاجر (الترانسيت) عبر البلاد المشمولة بالانتداب بشروط عادلة.

ومع مراعاة ماتقدم وسائر شروط صك الانتداب هذا يجوز لإدارة فلسطين أن تفرض بإشارة الدولة المنتدبة من الضرائب والرسوم الجمركية ماتراه ضروريا، وتتخذ من التدابير ماتظنه صالحا لزيادة ترقية الموارد الطبيعية فى البلاد وصون مصالح السكان. ويجوز لها أن تعقد بإشارة الدولة المنتدبة اتفاقا جمركيا خاصا مع أى دولة كانت أملاكها كلها داخلة فى تركيا الآسيوية أو شبه جزيرة العرب فى سنة ١٩١٤.

المـادة ١٩ - تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن الإدارة (إدارة فلسطين) على كل اتفاق من الاتفاقات الدولية العامة المعقودة حتى الآن، أو التى قد تعقد بموافقة جمعية الأمم فى مابعد من جهة الاتجار بالرقيق والاتجار بالسلاح والذخيرة أو الاتجار بالمخدرات أو تتعلق بالمساواة التجارية وحرية المرور (الترانسيت) والملاحة والطيران وبالمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية أو بالممتلكات الأدبية والفنية والصناعية.

المـادة ٢٠ - تعاون الحكومة المنتدبة بالنيابة عن إدارة فلسطين فى تنفيذ كل سياسة متشركة تقررها جمعية الأمم لمنع انتشار الأمراض. وفى جملتها أمراض النباتات والحيوانات ومكافحتها بقدر ماتسمح به الأحوال الدينية والاجتماعية وسواها من الأحوال.

المـادة ٢١ ـ تضع الدولة المنتدبة وتنفذ فى السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانونا خاصا بالآثار والعاديات ينطوى على الأحكام الآتية. ويكون هذا القانون ضامنا لرعايا كل الدول الداخلة فى جمعية الأمم المساواة فى المعاملة فيما يتعلق بالحفريات والتنقيبات الأثرية:

١

يجب أن يفهم من لفظة «العاديات» كل ماانتج عن عمل البشر أو وضعهم قبل سنة ١٧٠٠.

٢

إن التشريع لحماية العاديات يجب أن يكون أجدر بالتشجيع منه بالتهديد. ويجب على كل شخص يكتشف أثرا بدون حصول على الإذن المذكور فى الفقرة الخامسة أن يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه، وينال مكافأة متناسبة مع قيمة ماااكتشفه.

٣

لايمكن نقل ملكية شىء من العاديات إلا لمصلحة السلطة ذات الشأن مالم تعدل هذه السلطة عن استحواذه. ولايمكن إخراج شىء من العاديات من البلاد إلا باذن تلك السلطة.

٤

كل شخص يتلف أو يثلم قطعة من العاديات تعمدا أو إهمالا يجب أن يجازى جزاء معينا.

٥

ممنوع كل حفر أو تنقيب لإيجاد العاديات إلا باذن من السلطة ذات الشأن وإلا غرم المخالف غرامة مالية.

٦

توضع شروط عادلة للسماح بنزع الملكية مؤقتا أو دائما فى الأراضى التى تحتوى فائدة تاريخية أو أثرية.

٧

لاتعطى الرخصة بإجراء الحفريات إلا لأشخاص يقدمون أدلة كافية على اختبارهم الأثرى. وعلى الدولة المنتدبة عند إعطاء هذه الرخص أن لاتستثنى علماء أمة ما.

٨

يمكن اقتسام محصول التنقيب بين الأشخاص الذين أجروه والسلطة ذات الشأن بالنسبة التى تعينها هى. فإذا تعذر الاقتسام لأسباب علمية يعطى للمكتشف تعويض عادل بدل قسم من محصول التعديل.

المادة ٢٢ ـ تكون الإنكليزية والعربية والعبرانية اللغات الرسمية فى فلسطين. فكل عبارة أو كتابة بالعربية على طوابع أو عملة فى فلسطين تكرر بالعبرانية، وكل عبارة أو كتابة بالعبرانية تكرر بالعربية.

المادة ٢٣ ـ تعترف إدارة فلسطين بالأيام المقدسة (الأعياد) عند كل طائفة من طوائف فلسطين أيام راحة مشروعة لأفراد تلك الطائفة.

المادة ٢٤ ـ تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الأمم تقريرا سنويا يرتاح إليه المجلس عن التدابير التى اتخذت فى أثناء السنة لتنفيذ شرط صك الانتداب، وترسل نسخ من جميع الأنظمة والقوانين التى تسن أو تصدر فى أثناء السنة مع التقرير.

المادة ٢٥ ـ يحق للدولة المنتدبة بسماح مجلس جمعية الأمم أن تؤجل أو توقف تطبيق ماتراه من هذ الشروط غير مطابق للأحوال المحلية الحاضرة فى الأملاك الواقعة بين نهر الأردن والحد الشرقى لفلسطين. كما سيعين فى آخر الأمر. وأن تضع من التدابير لإدارة هذه الأملاك ماتراه ملائما لتلك الأحوال بشرط أن لايعمل عمل يكون مخالفا لشروط المواد ١٥و ١٦ و ١٨.

المادة ٢٦ ـ توافق الدولة المنتدبة على أنه إذا وقع نزاع مابينها (الدولة المنتدبة) وبين عضو آخر فى جمعية الأمم يتعلق بتفسير شرط صك الانتداب أو تطبيقها يعرض هذا النزاع على المحكمة الدائمة للعدل الدولى المنصوص عليها فى المادة الرابعة عشرة من عهد جمعية الأمم إذا لم يمكن حله بالمفاوضات.

المادة ٢٧ ـ يلزم موافقة مجلس جمعية الأمم على كل تعديل فى شروط صك الانتداب هذا.

المـــادة ٢٨ ـ يتخذ مجلس جمعية الأمم على كل تعديل فى شروط صك الانتداب هذا بموجب هذا الصك للدولة المنتدبة مايراه ضروريا لصون استمرار الحقوق المكتسبة فى المادتين ١٣ و ١٤ على الدوام بضمان الجمعية، ويستخدم نفوذه لأن يكفل بضمان الجمعية احترام حكومة فلسطين الاحترام التام للعهود المالية التى أخذتها إدارة فلسطين على عاتقها فى عهد الانتداب، وفى جملة ذلك حقوق الموظفين فى المعاش والمكافأة.

تحفظ الصورة الأصلية لهذا الصك فى محفوظات جمعية الأمم وترسل صور مصدق عليها بواسطة السكرتير العام لجمعية الأمم إلى جميع أعضاء الجمعية ـ ا هـ.

وقد احتج الوفد الفلسطينى على قرار مجلس جمعية الأمم حين صدوره ـ وكان فى لندن ـ كما أضربت جميع مدن فلسطين وعطلت أعمالها احتجاجا. وتلقى الوفد برقية من اللجنة التنفيذية فى القدس تدعوه للرجوع وقطع كل مفاوضة مع الحكومة البريطانية بسبب إصرارها على خطتها. فغادر إنكلترا فى النصف الأول من شهر أغسطس وبلغ حيفا يوم ٢١ منه وقصد نابلس على الفور فاشترك فى المؤتمر الخامس كما تقدم.

دستور فلسطين

وفى شهر أغسطس سنة ١٩٢٢ أى بعد فرض الانتداب نشر دستور حكومة فلسطين الجديدة. وقد بنى على وعد بلفور وصك الانتداب وهذا موجزه:

يعين رجل صالح لإدارة حكومة فلسطين يعرف بالمندوب السامى والقائد العام، ويخول السلطة اللازمة لتنفيذ جميع الواجبات المقترنة بوظيفته، وتطبيق شرط الانتداب الذى منحته دول الحلفاء إلى بريطانيا العظمى وتأسيس وطن قومى لليهود.

ومنح المندوب السامى السلطة لتقسيم البلاد بموافقة الوزير إلى مقاطعات أو أجزاء إدارية على أسلوب ملائم لأعمال الإدارة، وخول جميع الحقوق للتصرف فى الأراضى أو فيما له علاقة فيها، وفى جميع الحقوق لاستثمار المناجم والمعادن على اختلاف أنواعها وإعطاء امتيازات شرعية لأى كان لاستخراجها، وله الحق أن يهب الأراضى العامة والمعادن والمناجم ويؤجرها. أو يسمح باستثمارها مؤقتا بالشروط التى يرتئيها، وله الحق فى تعيين موظفى الحكومة بعد مراعاة أوامر الوزير بالأحوال التى يراها مناسبة، وأن يعين

واجباتهم ويبقى هؤلاء الموظفون فى مراكزهم مادام المندوب السامى راضيا عن أعمالهم.

ويؤلف مجلس تنفيذى لمساعدة المندوب السامى على الطريقة التى تشير بها حكومة جلالة الملك.

ويؤلف اعتبارا من التاريخ الذى يعينه المندوب السامى مجلس تشريعى لفلسطين يستعاض به عن المجلس الاستشارى، ويكون له السلطة التامة لسن القوانين الضرورية للمحافظة على الأمن والسلام وانتظام الحكومة بشرط أن لايخالف التعليمات المعطاة من حكومة جلالة الملك، وأن لايسن قانونا يمس الحرية الشخصية أو يقيد الحرية الدينية أو يميز بين سكان فلسطين بسبب الجنسية أو الديانة أو اللغة، أو يخالف نظام الانتداب الموضوع لفلسطين.

لاتنفذ القوانين التى يسنها هذا المجلس قبل أن يصادق عليها المندوب السامى وتقرها حكومة جلالة الملك.

يحتفظ المندوب السامى بالقوانين التى أجازها المجلس التشريعى لموافقة جلالته عليها ويحتفظ أيضا بالأمور التى لها مساس بنظام الانتداب.

ويحتفظ جلالة الملك لنفسه بحق رفض أى قانون قد يكون المندوب السامى وافق عليه فى خلال سنة واحدة من تاريخ الموافقة عليه، ويعلن رفضه اياه بواسطة كاتم السر العام.

يؤلف المجلس التشريعى من ٢٢ عضوا عدا المندوب السامى منهم عشرة أعضاء من الموظفين، واثنا عشر من غير الموظفين، وينتخب غير الموظفين بموجب الأوامر التى تصدر من مجلس الملك الخاص، أو بموجب مايوضع من القوانين والأنظمة من حين إلى آخر بشأن هذه الانتخابات، ويكون الأعضاء الموظفون الأشخاص الذين يشغلون وظائف كاتم السر العام والنائب العام ومدير المالية ومفتش الشرطة والسجون ومدير الصحة ومدير الأشغال العامة ومدير المعارف ومدير الزراعة ومدير الجمارك ومدير التجارة والصناعة.

تنشأ محاكم صلح فى كل قضاء وناحية، ويكون لها السلطة الخاصة بقانون حكام الصلح العثمانى كما هو معدل بموجب القوانين والأنظمة السارية بالفعل الآن.

وتنشأ محاكم مركزية فى الأقضية التى يعينها المندوب السامى، ولها الحق فى رؤية جميع القضايا الحقوقية الخارجة عن اختصاص محاكم الصلح فى ذلك القضاء والحق فى

رؤية جميع القضايا الجنائية الخارجة عن وظيفة محكمة الجنايات.

وتنشأ محكمة جنايات لها السلطة التامة فى رؤية جميع الجرائم المعاقب عليها بالقتل والجرائم الأخرى التى ينص عليها القانون الخاص.

وللمندوب السامى أن يؤلف بأمر منه محاكم أراض كلما دعت الحاجة إلى ذلك للنظر فى المسائل المتعلقة بملكية الأموال غير المنقولة.

وتؤسس محكمة تعرف بالمحكمة العليا وتعين صورة تأليفها بقانون خاص، ويكون لها صفة المحاكم الاستئنافية.

وللمحاكم الشرعية الإسلامية وحدها الحق فى رؤية الدعاوى المتعلقة بالأحوال الشخصية الخاصة بالمسلمين كالزواج والطلاق والنفقة وتصديق الوصاية إلخ. ولمحاكم الطائفة اليهودية الدينية وحدها أن تنظر فى استماع الدعاوى المتعلقة بالاحوال الشخصية.

ولمحاكم الطوائف المسيحية المختلفة وحدها أن ترى مسائل الزواج والطلاق والنفقة وتصديق الوصاية وتنظر فيما يتعلق بالأوقاف إلخ.

إذا شملت قضية تتعلق بالاحوال الشخصية أشخاصا من طوائف دينية مختلفة يجوز لأى خصم أن يقدم طلبا إلى قاضى القضاة. وهذا يعين بمساعدة مستشارين من الطوائف المختلفة المحكمة التى لها السلطة فى استماع تلك القضية.

وإذا قامت شبهة حول قضية من القضايا الشخصية الداخلة فى اختصاص محكمة دينية تحال القضية إلى محكمة خاصة يعين شكلها بقانون خاص.

ويجب أن تنشر باللغة الإنكليزية والعربية وبالعبرية جميع القوانين والإعلانات الرسمية والنماذج التى تصدرها الحكومة وجميع الإعلانات الرسمية التى تعلنها السلطات المحلية والبلديات فى المناطق التى يعينها المندوب السامى بأمر منه. ويجوز استعمال اللغات الثلاث فى المباحثات والمناقشات التى تدور فى المجلس التشريعى وفى دوائر الحكومة ومحاكمها مع مراعاة الأنظمة التى تسن من وقت إلى آخر.

يحق لجميع سكان فلسطين أن يتمتعوا بالحرية الشخصية التامة والحرية الدينية المطلقة مع مراعاة حفظ النظام العام والآداب العامة. ويحق لكل طائفة دينية معترف بها من الحكومة أن تتمتع بالاستقلال الذاتى لإدارة شؤونها الداخلية بعد مراعاة نصوص كل

قانون وأمر يصدره المندوب السامى.

إذا رأت طائفة دينية أو فريق كبير من أهالى فلسطين أن شروط الانتداب لاتنفذها حكومة فلسطين كما يجب فلها الحق فى رفع مذكرة بواسطة عضو فى المجلس التشريعى إلى المندوب السامى فينظر فى هذه المذكرة على الطريقة التى يعينها جلالة الملك وفقا للأصول التى وضعها مجلس جمعية الأمم.

ـ ٤ ـ

مقاطعة الانتخابات ورفض التعاون

وعملا بما جاء فى الدستور الجديد دعت الحكومة الشعب الفلسطينى إلى انتخاب أعضاء المجلس التشريعى المنصوص على إنشائه فانبرت لها اللجنة التنفيذية ودعت الأمة إلى مقاطعة هذه الانتخابات عملا بقرار مؤتمر نابلس الخامس لأن المجلس الجديد أقيم لتنفيذ سياسة الوطن القومى التى يستنكرها العرب.

وهذا نص البيان الذى نشرته يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٢٢:

أجمعت الأمة العربية الفلسطينية على رفض الانتداب ومشروع إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، وذلك بعد أن تجلت لها نتائج هذه السياسة الرهيبة على حياتها القومية والاقتصادية. وأن من مقتضيات رفض الأصل أن ترفض الفروع لذلك الأصل. ولهذا فقد قرر المؤتمر العربى الفلسطينى بمقاطعة الانتخابات المقبلة للمجلس التشريعى لأنه وجد بعد البحث الدقيق أن الاشتراك فى تلك الانتخابات إنما هو قبول ظاهر محسوس للانتداب ولتصريح بلفور الذى يقضى يجعل البلاد وطنا قوميا لليهود.

ولقد رفض الوفد العربى الفلسطينى فى لندن بلسان الأمة ذلك الدستور. لأنه وجد فيه مخالفة أساسية لمطالب الأمة وأمانيها وفيه غبن فاحش لها ولمصالحها.

ولانحتاج لبيان ذلك إلا أن نرجع إلى الإيضاح الذى نشرته الحكومة فى الجرائد المحلية فى البرهة الأخيرة إذ نرى أن:

(١) ليس للمجلس التشريعى تنفيذية مطلقا.

(٢) ليس للمجلس التشريعى أن ينظر فى أى نقطة تخالف سياسة الحكومة الأساسية بتمهيد السبل لإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين.

(٣) إن تنفيذ قرارات هذا المجلس تتوقف على إرادة المندوب السامى الذى عهد إليه بتطبيق تصريح بلفور للأمة اليهودية.

(٤) يؤلف هذا المجلس من أحد عشر عضوا من موظفى الحكومة واثنى عشر عضوا

منتخبا . لليهود منهم عضوان تحت رئاسة المندوب السامى، ويكون له صوتان وقد أوضحت الحكومة فى بيانها أن الأعضاء الموظفين مضطرون لأن يتمشوا فى المجلس طبق إرادة ورغبة الحكومة «فى المشروعات التى يعتقد بأنها تعرب عن خطة الحكومة».

فيكون فى المجلس مع هذه الحالة أربعة عشر صوتا ينادون بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين وعشرة أصوات ينادون بضد ذلك. وبما أن قرارات هذا المجلس ستتخذ بأكثرية الأصوات فستكون كلها مخالفة لأمانى الأمة ومصالحها التى تناقض الأمانى والمصالح التى تتوخاها تلك الأكثرية.

(٥) نص الدستور على أنه ستشكل لجنة من أعضاء المجلس المنتخبين لكى تنظر مع الحكومة فى أمر المراقبة على المهاجرة. وأن هذه اللجنة ستكون مقيدة بنظامات لاتتخطاها، وأن تنفيذ قراراتها يرجع إلى المندوب السامى الذى نيط به أمر تمهيد السبل بجميع الوسائط لهذه الهجرة التى علمت الأمة أنها التى ستلتهم البلاد أخضر ويابسا. ولهذا فلن يكون لهذه اللجنة إلا الموافقة على عدد المهاجرين الذين سوف يدخلون البلاد للقضاء على سكانها من الوجهة الاقتصادية والقومية.

ومع أن للجنة التنفيذية ثقة تامة بأن أفراد الأمة على اختلاف الطبقات ساهرون على مصالحها. عالمون بما يحتوى عليه هذا الدستورمن المناقضات لمطالبها مصممون على تنفيذ مقررات مؤتمرها . فقد قررت فى جلستها المنعقدة فى أول سبتمبر سنة ١٩٢٢ أن تنشر للأمة هذا البيان مظهرة مجمل الأسباب التى حدث بالمؤتمر أن يقرر رفض ذلك الدستور ومقاطعة الانتخابات المقبلة للمجلس التشريعى، وهى على يقين أن الأمة ستقاطع هذه الانتخابات منذ بدايتها كما جرى ذلك فى نابلس بسكون وهدوء ومراعاة للقوانين والأنظمة المدنية والله ولى التوفيق – اهـ.

وفشلت الانتخابات بمقاطعة الشعب الفلسطينى لها مقاطعة تكاد تكون إجماعية فأعلنت الحكومة عدو لها عنها، وقالت إنها ستؤلف مجلسا بالتعيين بدلا من المجلس المنتخب.

وهذا نص البلاغ الرسمى الذى أذيع بالقدس يوم ٣٠مايو سنة ١٩٢٣.

«حيث إن السواد الأعظم امتنع عن الاقتراع وترشيح الأعضاء للمجلس التشريعى استقر قرار الحكومة البريطانية على أن توقف الجزء الخاص فى مشروع الدستور بإنشاء مجلس تشريعى، وتجيز للمندوب السامى أن يعمل فى هذه الفترة بمشورة مجلس شورى وقد عين لهذا المجلس ثمانية أعضاء مسلمين وعضوين مسيحيين. أما العضوان اليهوديان فيعينان بعد استشارة اليهود الذين انتخبوا فى الاقتراع الأخير».

ورفضت اللجنة التنفيذية هذا المشروع أيضًا وقررت مقاطعته لأنه لايحقق أمانى الأمة وأرسلت برقية إلى وزارة المستعمرات تحتج فيها على تصرف المندوب، وعينت الحكومة الأعضاء العشرة وأذاعت فى شهر يونيو البلاغ الآتى:

«إن السياسة التى صرحت بها حكومة جلالة الملك ترمى إلى ترقية أنظمة الحكم الذاتى فى فلسطين تدريجا. ووفقا لهذه السياسة نشر فى شهر سبتمبر الماضى أمر صادر من جلالة الملك فى مجلسه الخاص ينص على إنشاء مجلس تشريعى من اثنى عشر عضوا منتخبا واحد عشر عضوا موظفا ودعى الأهلون فى الوقت المضروب لانتخاب الناخبين الثانويين طبقا لقانون الانتخاب التركى الذى ألفوه غير أن بعض العرب امتنعوا عن الاشتراك فى الانتخاب فى لوائين من الألوية الأربعة التى قسمت إليها فلسطين. أما فى اللوائين الآخرين فقد كان الامتناع جزئيا وقد نشأ عن هذا الامتناع عن اختيار مئات الأهالى من جهة وبعض الجمعيات المعارضة للانتخاب من الجهة الأخرى. وبما أن الأهالى لم ينتهزوا الفرصة التى سنحت لهم للاشتراك فى أعمال الحكومة بواسطة نواب منتخبين فقد قررت حكومة جلالة الملك أن ترجئ تنفيذ ذلك القسم من الدستور الخاص بإنشاء مجلس تشريعى إلى أجل موقت وأن تخول المندوب السامى أن يعمل فى هذه الأثناء باستشارة مجلس استشارى كالسابق مماثل لتأليف المجلس التشريعى الذى كان ينوى تأليفه - أى من ثمانية أعضاء مسلمين ومسيحيين ويهوديين وهذه أسماء الذين عينهم.

عارف باشا الدجانى وإسماعيل بك الحسينى وراغب بك النشاشيبى عن القدس وعبد الفتاح أفندى السعدى عن عكا وأمين بك عبد الهادى عن حيفا ومحمود أفندى أبو خضره عن غزة والشيخ فريح أبو مدين عن بير السبع وسليمان بك عبد الرزاق طوقان عن نابلس. أما العضوان المسيحيان فهما سليمان بك نصيف عن حيفا وأنطون أفندى الجلاد عن يافا وسيعين العضوان اليهوديان بعد استشارة المنتخبين الثانويين اليهود الذين انتخبوا أخيرا

وتعقد الجلسة الأولى قريبا.

وقد احتجت اللجنة التنفيذية على هذا التدبير أيضا ببرقية إلى وزارة المستعمرات باسم الأمة الفلسطينية ودعت الأعضاء الوطنيين إلى عدم التعاون مع الحكومة. فعقد هؤلاء اجتماعا فى القدس أرسلوا فى ختامة البرقية الآتية إلى المندوب السامى: «قرر أعضاء المجلس الاستشارى الوطنيون أن لايحضروا اجتماعات هذا المجلس قبل أن تنشر الحكومة بلاغا آخر غير البلاغ الذى نشرته تعلن فيه بأن هذا المجلس لايمثل الأمة ولم يتألف على أساس الدستور والمجلس التشريعى المرفوضين من الأمة».

ودعى هذا المجلس إلى الاجتماع يوم الخميس ١٣ يونيو سنة ١٩٢٣ فحضر اجتماعه سبعة من الأعضاء الوطنيين وتخلف ثلاثة، وبعد افتتاح الجلسة وقف الأعضاء السبعة وأعلنوا استقالتهم تضامنا مع الأمة وانسحبوا وبذلك فشل المشروع وقضى عليه.

مشروع الوكالة العربية ورفضه

وعرضت حكومة السيرهربرت صموئيل ـ بعد مافشلت فى إنشاء المجلس التشريعى انتخابا وتعيينا ـ على العرب مشروعا جديداً ظنت أنهم يقرونه فدعا المندوب السامى يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٣ أربعين وجيها من وجهائهم إلى شرب الشاب فى داره وقال لهم ماخلاصته: لقد صدقت جمعية الأمم على صك الانتداب وأصبح نافذا ولاتزال حكومة جلالة الملك مصرة على تنفيذ وعد بلفور ولايمكن أن تغير شيئًا من الدستور الذى سنته.

ولما كانت المادة الثانية من صك الانتداب تمنح اليهود وكالة صهيونية فإن حكومة جلالة الملك تريد أن تمنحكم هذا الحق فيكون لوكالتكم ماللوكالة اليهودية من الحقوق والمزايا، وأنا أعرض عليكم هذا الاقتراح وأدع لكم فرصة للإجابة عليه.

وتداول المجتمعون برهة اتفقوا فى خلالها على رفض المشروع لأنه لايحقق الأمانى الوطنية ثم دعوا المندوب السامى من الغرفة الأخرى وأبلغوه رفضهم لما عرضه فقضى على المشروع وفشل.

تصريح المستر إيمرى

وفى أواسط شهر إبريل سنة ١٩٢٥ زار المستر إيمرى وزير المستعمرات البريطانية

فلسطين لدرس حالتها والإشراف على شؤونها . فاستقبل فى دار الحكومة وفد اللجنة التنفيذية ووفد الحزب الوطنى العربى الفلسطينى فخاطب موسى كاظم باشا الوزير قائلا: إن الحالة فى فلسطين حرجة جداً، وإن الأهالى قلقون على مستقبلهم وقد سافرت وفود متعددة إلى لندن لمقابلتكم ولكن قضيتهم لم تحل بعد فاسترحم أن تنظروا إليها بعين الاعتبار وأن تأذنوا لرئيس الحزب الوطنى الشيخ سليمان الفاروقى بأن يتكلم بالنيابة عن العرب، فأفاض الشيخ فى الكلام عن علاقة بريطانيا بالعرب وعن حالة فلسطين الاقتصادية وعن نظام البوليس وعن الأشغال العامة. وقال إن أهل فلسطين لايريدون أكثر من أن يعيشوا بسلام فى بلادهم كأصحاب البلاد لاكغرباء عنها وقد قدموا بعض مطالب عرفها العالم أجمع. وهى إنشاء حكومة وطنية فى البلاد تمثل جميع العناصر وتكون مسئولة أمام برلمان وطنى. ثم قال ونحن نطلب إنشاء حكومة وطنية فى البلاد لأن صك الانتداب ينص على صيانة حقوق أهل البلاد وحفظها . فإذا أعطى لفلسطين هذا الحق فلا خوف على المصالح البريطانية. وتكلم أيضًا أمين التميمى عن نظام الحكم فى البلاد طالبا إلغاءه لمخالفته للامانى الوطنية وطلب إنشاء حكومة دستورية مسؤولة أمام مجلس نيابى ينتخبه المسلمون والمسيحيون العرب وسن دستور من قبل مجلس وطنى ينص على السلطات التشريعية والإدارية، وعلى أن تكون الأماكن المقدسة تحت حماية الأهالى، وعلى المساواة فى الحقوق بين جميع الأهالى وحماية المصالح البريطانية ولاتخالف مصالح الأمة.

ورد المستر إيمرى فقال:

إنى لمغتبط لتمكنى من زيارة فلسطين ومشاهدة شىء من البلاد والأهالى بعينى، وإنى أشكر موسى كاظم باشا لترحيبه بى بالنيابة عن هذا الوفد. كما أشكر الشيخ سليمان التاجى الفاروقى لما أشار إليه من التعاون بين الأمة العربية والبريطانية سواء أيام الحرب أو فى سبيل المدنية فى المستقبل. إن الحكومة البريطانية قررت أن تستمر بحسن نيه على هذا التعاون مع الأمة العربية ـ الأمة التى كان لها ماض عظيم، والتى أومل أن يكون لها مستقبل عظيم أيضًا . وقد شاهدت بعينى شيئًا من دلائل هذا التعاون السعيد فى العراق.

إن الحكومة البريطانية ترى أنه لايوجد تناقض بين هذا التعاون مع الأمة العربية لتقدمها فى فلسطين كما فى العراق أو فى غير بلاد وبين تصريح بلفور.

فمصالح الأهالى العرب فى فلسطين نظر فيها بامعان تام قبل أن عزمت الحكومة

البريطانية على أصدار هذا التصريح بأشهر عديدة. وذلك القسم فى التصريح الذى يشير إلى مصالح الأهالى الحاليين له من الأهمية ماللقسم الآخر منه. وقد نظرت فى هذا الأمر أولا الحكومة التى أصدرت التصريح ومن ثم أعيد النظر فيه أيضا من قبل حكومة المحافظين التى أنعمت النظر فى مطالب الوفود التى أرسلت من هذه البلاد ومن ذلك الحين أيدت هذا التصريح حكومة تنتمى إلى حزب آخر يختلف بالكلية عن الأحزاب السابقة. وكذلك محصته ونظرت فيه جمعية الأمم الممثلة فى عصبة الأمم. ولذلك فإنى على يقين من أن الذوات الموجودين هنا لاينتظرون حقيقة من الحكومة البريطانية أن تغير سياستها هذه.

إلا أننى أخشى أن يوجد سوء تفاهم. وحبا فى اجتنابه أصدر مستر تشرشل فى سنة ١٩٢٢ بيانا أوضح فيه ماعنته الحكومة البريطانية بتصريح بلفور. ولاريب فى أن بيان مستر تشرشل هذا أصبح مغلقا ولايسعنى الآن أبحث فيه مفصلا ولكنه أوضح بصراحة تامة أن تأسيس وطن قومى فى فلسطين لايقصد فرض جنسية يهودية بالمعنى السياسى على أهالى فلسطين. وليس فى النية قط الحط من شأن اللغة العربية والمدنية العربية أو الأهالى العرب أو جعلهم بأية صورة ماأدنى رتبة ومقاما من أى فئة أخرى من السكان.

وقد ذكر الشيخ سليمان الفاروقى بأن الأهالى العرب يعاملون معاملة الأجانب وليس كوطنيين فى بلادهم. إنى أستطيع أن أوكد أن غاية الحكومة البريطانية أن تجعل فلسطين الوطن القومى للعرب بكل معنى الكلمة مع إعطاء الشعب اليهودى فرصة ليؤسس له فيها وطنا قوميا. وكما بين مستر تشرشل لاتعنى عبارة «وطن قومى لليهود» أى شىء آخر خلاف أن الطوائف اليهودية الحالية فى هذه البلاد تتمكن من تحقيق رغائبها فى أن تعيش بحسب تقاليدها الخاصة. وأن يعترف بها كحق وليس كمنة، وأن السماح للطوائف اليهودية بتحقيق رغائبها يجب أن يعنى بأن لاتكون الهجرة إلى فلسطين إلى حد تتضرر منه أحوال البلاد الاقتصادية بوجه عام، والسكان العرب بوجه خاص. وإنى أطلب إليكم أن لاتصغوا لما قد يكون فاه به الدكتور ايدر أو أى فرد آخر. إذ لاعلاقة لذلك بسياسة الحكومة البريطانية التى تنظر أولا وقبل كل شىء آخر إلى سعادة ورفاهية أهالى البلاد التى أكثرية سكانها من العرب. ويهمها فيما يختص بمسألة إسكان اليهود أن ترى أن إسكانهم يكون فى ظروف ملائمة.

أما الآن فان الشىء الحقيقى الذى يجب عمله هو إغفال المخاوف المبنية عن سوء الفهم

والنظر إلى ماقامت به الحكومة بالفعل. إنى قد تتبعت هذه المسألة فى إنكلترا ومنذ أن وصلت إلى هذه البلاد. وقد اتضح لى أن الحكومة هنا كرست نفسها وعملت بإخلاص لمصالح أهالى البلاد بوجه عام، وليس من الصحة أن يقال كما ذكر الشيخ سليمان الفاروقى بإن سياسة الحكومة ترمى إلى غرض واحد هو ترقية وزيادة المهاجرة اليهودية. وبقدر ماأعلم لم ترم الحكومة مباشرة إلى تأسيس أى مستعمرة يهودية أو إلى استخدام أموال دافعى الضرائب لهذا الغرض. وبينما كنت مارا منذ بضعة أيام فى الغور رأيت الحكومة مهتمة بنقل الأراضى الأميرية إلى المزارعين العرب. ورأيت أولئك المزارعين يشتغلون ببناء أقنية لتجفيف أراضيهم.

وقد تكون أفضل تجربة لمعرفة ما إذا كان سكان البلاد فى بحبوحة وتقدم هى النظر إلى زيادة سكانها. فلو كان مايقال عن أن الأهالى المسلمين أو المسيحيين يجار عليهم واليهود يأتون بأفواج كبيرة إلى البلاد لقل عدد سكان العرب وازداد عدد اليهود على حسابهم.

ولكن قد اهتممت بإجراء التحقيقات عن مقدار نمو الأهالى الحقيقى فى بضع السنوات الأخيرة ووضع لى إحصاء باعتناء تام وبمقتضاه كان سكان هذه البلاد فى سنة ١٩٢٠ نحو ٦٧٣٠٠٠ منهم ٥٥٠٠٠ يهود ويقدر عدد السكان فى الوقت الحاضر بنحو ٨٠٦٠٠٠ منهم ١٠٨٠٠٠ يهود فمن ذلك يظهر أن عدد اليهود زاد فى الخمس السنوات الأخيرة نحو ٥٣ ألفا وزاد عدد السكان العرب نحو ٨٠ ألفا. ولذلك يمكنكم أن تحكموا بأنه بموجب هذه الأحوال لايوجد خوف من أين يفوق عدد المهاجرين اليهود السكان الوطنيين.

إنى أظن أن هذه الأرقام تبين بأن الحكومة البريطانية قد عملت مافى استطاعتها لمساعدة الأهالى الوطنيين. ولكنى لاأظن أن الفضل فى ذلك كله يعود إلى الحكومة. فإن قسما من هذه الزيادة فى رقى الأهالى العرب، وزيادة عددهم يرجع بلا شك إلى رؤوس الأموال التى جلبها اليهود إلى البلاد. وبصفتى وزير المستعمرات فإننى أعالج أمور أربعين حكومة فى بلدان أكثرها غير راق. والشىء الوحيد الذى تطلبه هذ البلدان دائما هو زيادة رؤوس الأموال والسكان وعليه فالمهاجرة اليهودية تجلب لكم هذ الأشياء التى يحتاج إليها كثيراً. وقد قلت ذلك لاحبا فى الجدل والمناقشة. ولكنى أرغب فى أن تعتبروا بأن مخاوفكم من الغاية التى ترمى إليها الحكومة البريطانية والخطر الذى يحدق بهذه البلاد من سياسة

السماح لليهود بالمهاجرة لهذه البلاد هى مبالغ فيها.

إن الحكومة البريطانية تنظر أولا وقبل كل شيء آخر إلى الواجبات المفروضة عليها نحو أهالى البلاد عموما. وتعتقد بأن السياسة التى تتبعها هى السياسة الوحيدة التى تجلب أكبر سعادة لمستقبل أهالى البلاد العرب الذين تعنى بشؤونهم فى الدرجة الأولى.

أنا أوافقكم بأن أفضل طريقة للحصول على آراء الأهالى ليس بتقديم قضايا من أشخاص منفردين إلى المندوب السامى بل بطريقة دستورية نظامية يمكن بواسطتها الإعراب عن آراء الأهالى وأعترف مع ذلك بأنى مستغرب من شكوى الشيخ سليمان الفاروقى وأمين بك التميمى وقولهما إن أهالى هذه البلاد ليس لهم نصيب الآن فى سن القوانين، وهنا يجب أن أذكركم أنه كان فى البلاد مجلس استشارى قام بأعمال حسنة وكان واسطة لابلاغ آراء جميع طبقات الأهالى إلى الحكومة، وكانت الحكومة البريطانية مستعدة لإعطاء سلطات استشارية وتمثيلية أوسع من هذه للأهالى. ولكن مع الأسف أصغى الأهالى لنصائح سيئة أسديت لهم ولم يغتنموا الفرصة التى سنحت. ثم أعطيت للأهالى فرصة أخرى وهى الاستمرار على المجلس الاستشارى إذا كانوا لايرغبون فى تشكيل مجلس تشريعى. ولما يقبلوا ذلك أيضًا عرضت عليهم فكرة الوكالة العربية التى يمكن بواسطتها أن تمثل مصالح الأهالى العرب.

ولذلك أوضحت الحكومة البريطانية بأنها كانت دائمًا ترغب فى الحصول على تعاون العناصر العربية التمثيلية، وأن تعمل بنصحهم وهى مستعدة دائمًا لذلك. ولكننا لاننظر إلى هذه المسألة بعد أن رفض ممثلو الأهالى قبول ماعرضناه عليهم من الامتيازات بأننا نطلب منهم معروفا. وقد أشار المتكلمون إلى عدم تمثيل الأهالى فى الإدارة أو البلديات.

وأن المندوب السامى قد أشار إلى رغبته فى إعطاء هذا الحق للأهالى، وإنى مستعد لأن آخذ هذا الأمر بعين الاعتبار وسأدققه بكل عناية. إن الحكومة البريطانية ترغب وتريد فى كل حال أن تتعاون مع ممثلى الأهالى العرب فى فلسطين، ولكننا لانطلب تعاونهم كمعروف منهم بالنظر لما عرضناه عليهم فى الماضى وللموقف المخطئ الذى وقفوه. والذى أؤمل بأن ينظر إليه كخطأ ويجب علىّ بأن أوضح ذلك أيضاحا تاما.

والآن أيها السادة قد تكلمت معكم بكل صراحة لأنى أظن أن من الأصوب والافضل أن أتكلم معكم بصراحة تامة. وأستطيع أن أؤكد لكم أن الحكومة البريطانية فى جميع

الأحوال تستمر على اعتبار نجاح ورقى جميع أهالى فلسطين كواجبها الأول. وبالطبع فإن أكثرية السكان تنال نصيبها الكامل من عنايتها واهتمامها وستسترشد فى جميع ذلك برغبتها الصدقة فى تقدم الأهالى العرب اقتصاديا وعمرانيا وسياسيا. وأظن أن نتيجة أعمالنا فى الخمس السنوات الأخيرة قد أثبتت بالاختبار ماعملناه للأهالى. وأعتقد من الجهة الأخرى بأننا سنقوم بأكثر من ذلك فى السنوات القليلة المقبلة كما أنى أعتقد أيضًا بأن الذوات الذين اجتمعت معهم اليوم سيرون بأنفسهم أن مافعلناه حيث الآن قد فعلناه برغبة واحدة هى ترقية ونجاح البلاد.

أنتم تنتمون إلى أمة كانت أمة عظيمة فى الماضى وسنحت لها فرصة الآن لأن تكون أمة عظيمة مرة أخرى. وإنى أرى أن مستقبلكم يتوقف لا على توحيد قواكم لمقاومة ماأظنه مخاوف ليست صحيحة ومايحدق بكم من الاخطار من سياسة الحكومة. بل بتوحيد قواكم لترقية شعبكم فى علومه ومعارفه وتقدمه وترغيبه فى تاريخه الخاص. وإنى لمسرور أن أرى مثلا المجلس الإسلامى الأعلى يعانى المشقات فى ترميم مناظر الحرم الشريف الجميلة، وفى إعادة غيرها من الآثار إلى سابق عهدها. وفى هذا السبيل يجب أن تسعوا لترقية شعبكم وتأمين مستقبلكم لافى توحيد قواكم لمقاومة ما أعتقده مخاوف باطلة.

ـ ٥ ـ
الاضطرابات فى فلسطين
تقارير لجان توماس هايكرت ومشو وسمبسن

الآن وقد انتهينا من سرد التاريخ السياسى للقضية الفلسطينية وقد تبين منه بصراحة وجلاء أن الحكومة البريطانية لا تزال من الأول إلى الآخر متمسكة بوعد بلفور فهو المحور الذى تدور حوله سياستها، ننتقل إلى الكلام عن الجزء الخاص بالاضطرابات التى وقعت فى تلك البلاد فى خلال هذه الفترة بسبب هذا الوعد الجائر فنصف المعارك التى دارت بين العرب واليهود والفتن التى شبت والنفوس التى هلكت مكتفين بإيراد الحوادث الخطيرة لتعذر الإحاطة بالحوادث البسيطة كما لا يخفى .

١ ـ اضطرابات القدس الأولى

كانت اضطرابات القدس فى شهر إبريل سنة ١٩٢٠ أول اضطرابات وقعت فى فلسطين بين العرب واليهود وخلاصة ما حدث أن صيدليا يهوديا اسمه كريمى بين مندل، يدير صيلية فى باب الخليل أهان المتظاهرين العرب القادمين من الخليل يوم الأحد ٤ إبريل لزيارة النبى موسى حسب المعتاد وحاول الاعتداء على علمهم فطارده المتظاهرون فلجأ إلى صيدليته فهجموا عليه وضربوه حتى أدموه وجاء بعد ذلك شاب يهودى ومعه سبعة من الجنود الإنجليز فحاول اختطاف العلم من يد حامله فأهوى أحد المتظاهرين على يديه بالسيف فقطعهما من الساعدين وتناولته أيد المتظاهرين بالضرب حتى لفظ أنفاسه. وحاول الجنود السبعة الانتقام لصاحبهم فضربوا وأوذوا.

وتدخلت الحكومة على الأثر فضربت نطاقا حول مدينة القدس القديمة (داخل السور) ومنعت الدخول والخروج.

ودار قتال يوم الاثنين ٥ منه بين العرب واليهود بسبب اطلاق اليهود النار على الوطنيين حين مرورهم بحى الواد.

وجاء سكان القرى المجاورة للقدس إلى نجدة اخوانهم فمنعتهم الحكومة من دخولها

وبلغ عدد القتلى فى هذه الاضطرابات تسعة من اليهود و٤ من الوطنيين وعدد الجرحى ٢٥٠ كما جاء فى بلاغ رسمى صدر يومئذ.

٢ ـ حادث بيسان

قبضت السلطة البريطانية فى بيسان يوم ٢١ إبريل سنة ١٩٢٠ على الأمير محمود الزناتى من أمراء عشائر الغور. فهاج ذلك قبائله فتجمهرت وهجمت يوم الخميس ٢٢ منه على السجن بقيادة الأمير بشير الغزاوى فأخرجت السجين بالقوة. وجاء الإنجليز على الأثر بقوة من حيفا وطبريا فطاردت العربان الذين ارتدوا إلى الضفة الشرقية للأردن ولجأوا إلى جبال عجلون واستنفزوا العرب فنفروا معهم وجمعوا جموعا غفيرة أغاروا بها على سمخ وبيسان وبعض القرى اليهودية فذعر اليهود وفروا لا يلوون على شئ.

وانقطع سير القطارات على أثر هذا الحادث بين حيفا ودمشق، وتعطلت المواصلات البرقية والتليفونية، وأرسلت السلطة البريطانية طيارات للاستطلاع أطلقت النار على الثوار وتم بعد ذلك توطيد الأمن واقراره.

٣ ـ اضطرابات يافا الأولى

وقعت اضطرابات يافا الأولى يوم أول مايو سنة ١٩٢١ فقد اعتدى اليهود أثناء احتفالهم بعيد العمال على عربى فنصر العرب أخاهم فدار قتال فى الشوارع أسف عن سقوط ٣٠ قتيلا من اليهود و١٠ من العرب وجرح من الأولين ١٤٣ ومن الآخرين ٢٧ وأرسلت السلطة قوات كبيرة إلى يافا. وألفت الحكومة لجنة للتحقيق عن أسباب الثورة برياسة السير توماس هايكرت قاضى القضاة. فذهبت إلى يافا وقامت بتحقيق دقيق وضعت فى ختامه تقريرا مفصلا عن أسباب الثورة وبواعثها أكدت فيه أن سياسة الوطن القومى هى سر الاضطرابات وهذه ترجمته:

تقرير لجنة توماس هايكرت

وجدنا فى البحث عن أسباب هذه المشاغبات سببا أوليا مهما لكنه ليس كافيا لإثارة

شغب عام. بل قد يثير شغبا وقتيا خاصا لا يتعدى أكثر من شارع واحد وعدد محدود من الأشخاص، وكان بإمكان شرطة يافا أن تمنعه فورا، وهو الاصطدام الذى حصل أثناء المظاهرة التى قام بها حزب العمال الاشتراكيين مع موكب حزب العمال اليهودى البولشفيك.

أما الشغب الحقيقى الذى نبحث عنه فليس شغبا اعتياديا، لأنه دام عدة أيام وهو يقع كلما تقابلت جماعات من المسلمين مع جماعات من اليهود، وقد ازداد يوما بعد يوم إلى أن عم قضاء يافا بأجمعه، وهوجمت المستعمرات اليهودية القريبة من يافا بشدة زائدة، ولم يكن لسكان هذه المستعمرات سابق علاقة بالعمال الاشتراكيين البولشفيك ولا صلة لهم بهم. غير أن مظاهرات البولشفيك كانت بالحقيقة الشرارة التى أضرمت نيران الثورة بين العرب واليهود فقاموا بعدها يطلبون الأخذ بالثأر بعضهم من بعض.

وروى لنا بعض اليهود الذين شاهدوا تلك الثورة عن كثب أنه لا توجد مسألةعداوة بين اليهود والعرب، بل جل ما هنالك أن هذه الحركة العدائية لليهود دبرت من قبل أشخاص يريدون أن يكيدوا المكائد للبريطانيين وأن يخلوا بالنظام والأمن لشئ فى النفس، وسعوا أن يقنعونا بأن منشأ كل اختلال يقع فى البلاد يعود إلى الدعاية العدائية التى يبثها هؤلاء الأشخاص الذين يأسفون كثيرا لزوال الحكم التركى، لأن الإدارة البريطانية الحالية قد قضت على منافعهم الشخصية العديدة وعلى امتيازاتهم الكثيرة التى كانوا يتمتعون بها فى العهد التركى القديم، وقد اشترك معهم فى العمل بعض الغرباء وخصوصا سماسرة فرنسويون قدموا فلسطين لكى يثيروا الفتن لمقاصد سياسية، وأكد لنا هؤلاء الشهود بصورة رسمية أنه لا علاقة للصهيونيين بالمشاغبات التى حصلت فى يافا، وصرحوا لنا أن العرب يتظاهرون بالعداء للصهيونيين ولليهود ويضمرون العداء للبريطانيين، وقد اتخذوا إظهار هذا العداء آلة للقضاء على الانتداب البريطانى.

وثبت لنا بعد البحث الدقيق عدم صحة هذه الأقوال إلا أننا لا ننكر أنه قام بذهن بعض الأشخاص لأسباب عديدة أنه بإمكانهم أن يستفيدوا من الوجهة السياسية من إثارة الفتن، ولا شك أن العداء لليهود كان متأصلا فى نفوس جميع الوطنيين بصورة لا تقبل الجدل، وقد ظهر لنا أن الوطنيين ينفرون من الحكومة لاتباعها سياسة إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، وقد أساء العرب فهم كنه السياسة المتبعة هنالك. كما أساء المدافعون عن هذه

السياسة فى دفاعهم عنها وفى تفسيرهم إياها، وانتشر الاعتقاد فى البلاد من أولها إلى آخرها بأن الحكومة عرضة لضغط الصهيونيين عليها، وهى لذلك تتحزب لليهود وتساعدهم فى جميع أعمالهم ومقاصدهم بالرغم من كونهم أقلية قليلة، وقد أكد لنا الكثيرون وتحققنا بأنفسنا أنه لولا وجود القضية اليهودية فى فلسطين لما لا وقت الحكومة أقل صعوبة فى إدارة الشئون المحلية، ونعتقد أن كره العرب للبريطانيين نشأ عن مساعدة الحكومة للسياسة الصهيونية.

ولو أكتفى بالاعتداء على المتظاهرين من اليهود دون سواهم لقلنا إن هذا التعرض بسيط ويحصل دائما فى جميع البلاد، ولكننا تحققنا أنهم حولوه عمدا إلى نزاع قومى وسلكوا مع خصومهم مسلكا لا يمكن الإغضاء عنه. وقد اتبعوا سفك الدماء البريئة بنهب المحلات الأمينة ليلا، وهذا مما يوجب الانتقاد فى نظر الأمم المتمدنة.

ولا تنكر أن اليهود أخذوا بثأرهم سالكين أيضا عين الطريقة التى سلكها خصومهم.

ولو ظل اليهود أقلية كما كانوا أيام الترك وحافظوا على أدبهم واعتدالهم لما عكر صفو عيشهم أحد. ولكن العرب لما رأوا أن اليهود أصبحوا أصحاب الكلمة النافذة عند الحكومة نقموا عليهم وأضمروا لهم الشر، وباتوا ينتظرون أول حركة تبدر منهم ليهيجوا الرأى العام عليهم، وقد أبدوا هذا الشعور مرارا عديدنة بانتهاك حرمة كثير من أعيان اليهود وإهانتهم شر إهانة.

وليس من شأننا ههنا أن نبحث فى المبادئ الصهيونية عامة. ألا أننا نذكر بعض الأمور التى لهامساس بالمشاغبات التى نحن فى صددها.

إن المظالم التى يشكو منها العرب، والتى كان لها دخل عظيم فى المشاغبات هى كما يلى:

(١) لأن بريطانيا العظمى أسست الحكومة الفلسطينية بحسب رغائب الصهيونيين واتبعت سياسة إنشاء الوطن القومى ولم ترع منافع سكان فلسطين الأصليين.

(٢) لأن الحكومة الفلسطينية استعانت بصورة رسمية تأييد لهذه السياسة بلجنة صهيونية تساعدها فى أعمالها، فما كان من هذه اللجنة إلا أنها ألفت حكومة ثانية فى قلب الحكومة الفلسطينية، وأخذت تعنى بمصالح اليهود وتهمل مصالح الوطنيين.

(٣) لأن عدد الموظفين اليهود كثير بالنسبة إلى عدد نفوسهم.

(٤) لأن برنامج الصهيونيين يقول بلزوم أفعام فلسطين بإناس أقدر وأمهر من العرب فى تعاطى التجارة والصناعة قصد الاستيلاء والصناعة قصد الاستيلاء على موارد البلاد ونزعها من أيدى أبنائها.

(٥) لأن قدوم المهاجرين خطر على أهل البلاد وعلى اقتصادياتها ـ لأن المهاجرين يزاحمون الوطنيين فى جميع أعمالهم.

(٦) لأن المهاجرين اليهود أساءوا إلى سكان العرب بكبريائهم وحملوهم على بغضهم والتحزب عليهم.

(٧) لأن نفرا من المهاجرين البولشفيك دخلوا إلى فلسطين وأخذوا يزرعون بذور الشقاق ويبثون الروح البولشفيكية فى طول البلاد وعرضها، وذلك لعدم اتخاذ الحكومة الاحتياطات اللازمة.

فقد العرب ثقتهم بالحكومة ـ رغم إخلاصها ـ وذلك لوجود هذه الشكاوى والمظالم، وصاروا ينظرون نظر الارتياب إلى جميع التدابير التى تتخذها كقانون الأراضى الذى سن فى سنة ١٩٢٠ وخلاصته أنه يجب طلب موافقة الحكومة على إجراء جميع المعاملات الخاصة بالأشياء غير المنقولة، ومنع فراغها لاناس لا يقطنون فلسطين، وادعوا أن هذا القانون وضع فى هذا الشكل لكى تهبط أثمان الأراضى وتصبح تحت رحمة اليهود، وقد فسروا أيضا قانون منع تصدير الحبوب أنه وضع لتهبط أثمانها، فينتفع من هذا الهبوط مهاجروا اليهود.

ويزعم العرب أن السر فى وجود الموظفين اليهود فى دوائر الحكومة بكثرة هو أن كاتم سر الحكومة رجل يهودى مشهور بغيرته على اليهود عموما والصهيونيين خصوصا، ويستشهدون لإثبات ذلك بإدارة النافعة التى أصبحت مستعمرة خاصة باليهود، ويدعون أن اليهود يقاطعون العرب، فالتاجر اليهودى لا يشترى شيئا من العربى إذا كان بإمكانه شراء ذلك الشئ من يهودى، ويتهمون الموظفين اليهود بأنهم لا يمكنون غير اليهود من أخذ الامتيازات أو عقد المقاولات العائدة للحكومة (١)

١ ـ يبين الجدول التالي عدد موظفى الحكومة وقد نقلناه باختصار عن تقرير الحكومة الرسمي الذي نشر فى يونيو سنة ١٩٢١.

		المقامات السامية	الوظائف السائرة	المجموع
مسيحى	بريطانى	١٦٥	٧٦	٢٤١
	فلسطينى	٨٢	٩٦٧	١٠٤٩
	المجموع	٢٤٧	١٠٤٣	

		المقامات السامية	الوظائف السائرة	المجموع
يهودى	بريطانى	١٤	١٣	٢٧
	فلسطينى	٣٦	٥٥٣	٥٨٩
	المجموع	٥٠	٥٦٦	
مسلم		٦٣	٥٢١	٥٨٤

يوجد بموجب هذه الأرقام ٢٦٨ موظفا بريطانيا منهم ٢٧ يهوديا بريطانيا، ويوجد ٥٨٩ يهوديا فلسطينيا و ١٦٣٣ موظفا فلسطينيا من غير اليهود. فتكون نسبة الموظفين الفلسطينيين اليهود للموظفين الفلسطينيين من غير اليهود كنسبة واحد إلى اثنين وثلاثة أربا ع، بينما نسبة نفوس اليهود لنفوس غير اليهود كنسبة واحد إلى سبعة، فيتضح لنا من هذا الجدول أن اليهود يشغلون وظائف تربو على ضعفى حقهم. هذا إذا اعتبرنا عدد السكان مقياسا لتوزيع الوظائف، وأما إذا اعتبرنا التعليم مقياسا لتوزيعها فلا نجد أن اليهود يشغلون وظائف أكثر مما يستحقون، فمن المحال أن تحل هذه المسألة على سبيل الإحصاءات

وقدم المندوب السامى الجدول التالى مبينا عدد الموظفين فى إدارة النافعة فى أغسطس سنة ١٩٢١.

ويقولون إن إدارة النافعة وإدارة السكك الحديدية توظفان مهاجرى اليهود بنسبة لا تتفق مع عدد نفوسهم، وتنحيان أبناء البلاد عن العمل. وبهذه الوسيلة صار المال الذى يجبى من أهل فلسطين يصرف فى سبيل إيجاد عمل لمهاجرى اليهود. أى يصرف فى سبيل تأسيس الوطن القومى اليهودى.

ولاقت الهجرة اليهودية اعتراضات اقتصادية شتى من قبل العمال وأصحاب الصنائع، والحق يقال أنه لو كان المهاجرون يوزعون حين وصولهم على المستعمرات اليهودية الزراعية لما أثر مجيئهم على طبقة العمال فى يافا وسائر فلسطين، ولا يخفى أن مجئ المهاجرين بكثرة إلى أى بلاد كانت واشتغالهم بالأشغال العامة ومزاحمتهم لأهالى المدن تثير شعور القلق فى صدور السكان الوطنيين، ولا سبيل إلى إفهام العرب أن اليهود ليسوا غرباء عن البلاد وأنهم يعودون إلى وطنهم القديم، لأن العرب يعتقدون إن هذه النظرية هى نظرية الصهيونية الصهيونيين. ويقولون عن الصهيونيين أنهم من الروس والبولونيين والبولشفيك

جاءوا ليزاحموا سكان هذه البلاد وينتزعوا اللقمة من أفواههم، ويدعون أن الحكومة والجمعيات الخاصة تطعم هؤلاء المهاجرين مجانا إلى أن تجد لهم عملا بخلاف العمال الوطنيين إذا لم يجدوا عملا لأنفسهم يتضورون من الجوع ولا نصير لهم إلا إلله.

ويؤيد العرب نظرية العمال نظرية ويضيفون إليها القول أن المهاجرين اليهود يزاحمون أهل البلاد لا فى الأشغال اليدوية فقط، بل فى الوظائف والأمور الكتابية أيضا، خصوصا بعد ان اعترف باللغة العبرية لغة رسمية. وتنحصر أهم انتقادات العرب فى الهجرة

		المقامات السامية	الوظائف السائرة	المجموع
مسيحى	بريطانى	١٢	٢	١٤
	فلسطينى	٠	١٥	١٥
	المجموع	١٢	١٧	

		المقامات السامية	الوظائف السائرة	المجموع
يهودى	بريطانى	١	٣	٤
	فلسطينى	٣	٤١	٤٤
	المجموع	٤	٤٤	
مسلم		١	١	٢

اليهودية من الوجهة السياسية، وأول من قام بنشر الدعاية إليها هم رجالات الطبقة المتعلمة ولم يلبثوا أن تمكنوا من تعميم أفكارهم ومبادئهم بين جميع طبقات الأمة. فصارت هذه الأفكار حديث القوم فى المقاهى والحانات والحوانيت والقرى والشوارع والأزقة إلخ. وخلاصة هذه الدعاية هى أنه بسبب السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين بكثرة ستصبح مملكة يهودية، ولم تجد الكتابات التى كتبها الصهيونيون فى كتابهم المدعو «قرن حيسود» لتسكين رعب الأهلين من الهجرة الصهيونية نفعا، وقد قالوا فيه إن مهمة اليهود الذين أرسلوا إلى فلسطين تنحصر فى تمهيد السبيل وإعداد الأشغال للألوف والملايين من اليهود الذين سوف يتبعونهم[1].

وتوجد أسباب عديدة حملت سكان يافا على الاعتراض على الهجرة اليهودية وعلى

١ ـ بلغ عدد المهاجرين الذين سمح لهم فى الدخول إلى فلسطين حتى نهاية سنة ١٩٢٢ (٢٨٠٠٠) منهم نفر قليل كانوا فى فلسطين قبل الحرب وعادوا إليها فى هذه البرهة. وقد صرحت الحكومة مررًا عديدة أن عدد مهاجرى اليهود الذين دخلوا البلاد لم يكن بكثرة محسوسة تولد ضايقة اقتصادية، وأنكر الصهيونيون قول العرب إن اليهود المهاجرين أخذوا الأعمال من أيدى العرب. وقد أدركنا بعد الاختبار أن اليهودى لايشغل غير يهودى، وإن اتحاد اليهود وحبهم بعضهم بعضا يسهل عليهم ترتيب جميع مصالحهم، وإن شكوى العرب غير صريحة.

إظهار العداوة واضرام الفتنة على اليهود: منها أن اليهود نساء ورجالا بدأوا بعد وصولهم إلى فلسطين ينظرون إلى السكان الوطنيين بعين الازدراء، وصارو يخالفون العادات القومية التى ألفها العرب منذ نعومة أظفارهم بسيرهم فى الشوارع والطرقات متأبطين بعضهم بعضا بمعاصم وسواعد، ومرتلين التراتيل العبرية وناشدين الأناشيد القومية، وبديهى أن انتقال اليهود من المعيشة الذليلة المزدحمة التى كانوا يعيشونها خارج فلسطين إلى المعيشة الحرة التى ابتدأوا يتمتعون بها فى فلسطين أهاجت عواطفهم إلى درجة قصوى، باتو معها ثملين بخمرة الوطن القومى الذى طالما حنوا لرؤيته وحلموا بالعودة إليه، فليس من الغريب أن نرى العرب يتكدرون من مجئ هؤلاء الناس ومن تحقيق أحلامهم، وليس غرضنا فى هذا البحث أن نسئ الظنون بالناس، بل أن ندرس الأمور التى سببت المشاغبات. وقد أردنا من ذكر هذه الأمور أن ننير أذهان الموظفين الموكول إليهم أمر المهاجرين لكى يجبرهم على دخول الدور من أبوابها، وعلى عدم التظاهر بالتظاهرات الحماسية التى من شأنها أن تمس شعور غيرهم.

وأكد لنا كثير من العرب المتعلمين أنهم يقبلون على الرحب والسعة مجئ بعض اليهود الأغنياء من أصحاب الأعمال الذى يستطيعون أن ينهضوا البلاد إلى مستوى الأمم الراقية بشرط ألا يفرقوا بين أبنائها، وقال الصهيونيون إن تحقيق سياسة الوطن القومى ستفيد العرب واليهود على السواء، وتبين لنا من درسنا الخاص أن اللجنة الصهيونية التى تمثل الرأى الصهيونى العام فى فلسطين قصرت كل القصور فى تفهيم العرب صحة هذه النظرية، ولذلك وجدناهم يتخوفون من الصهيونية والصهيونيين.

وليس هذا التخوف حديث عهد، بل يرجع فى تاريخه إلى أيام الإدارة العسكرية لما كان اليهود يتمتعون بتسهيلات خاصة حرمها الوطنيون، كالحصول على جوازات السفر ونقل البضائع التجارية فى السكك الحديدية العسكرية إلخ، وهذه المساعدات كانت تمنحها السلطة العسكرية لليهود بواسطة اللجنة الصهيونية التى اعتبرتها وكيلة عنهم، ولم يكن للعرب لدى السلطة لجنة مثلها، ومع أن تبعة عدم المساواة بالمعاملة بين الفريقين لا تقع على عاتق اللجنة الصهيونية تولَّد عند العرب عداوة نحوها وأضمروا لها الكره فى الباطن، ونحن نعتقد أن عدم المساواة بين الفريقين هى من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى الثورة فى يافا، وقد اتضح لنا أن اللجنة الصهيونية كا بإمكانها أن تستميل العرب إليها وأن تصيغ لهم وعد بلفور بصورة مقبولة لديهم أكثر من كل هيئة رسمية غيرها، ولكن القيام

بهذا العمل يتطلب مهارة وكياسة بالقول والعمل، وكان من الجدير بهذه اللجنة أن تصرف مساعيها فى تذليل هذه العقبات ولكنها لم تفعل ذلك، وقد وجدنا العرب يتذمرون منها ويقولون إنها لم تعترف بهم ولا اعتبرهم عضوا عاملا فى البلاد وضحت بمنافعهم فى سبيل اليهود.

وحصل استياء عام من تدخلها فى أمور موظفى الشرطة اليهود وغيرهم من صغار الموظفين ودفعها لهم مساعدات مالية علاوة على رواتبهم التى يتناولها من الحكومة، وقد منع هذا التدخل فى سنة ١٩٢٠. وتأكدنا بصورة خاصة أنها ضغطت على أحد أصحاب الأراضى المعروف باسم «ريشون لوسيون» اليهودى لأنه كان يستخدم عمالا وزراعا وطنيين فى أراضيه منذ حداثته، وأكرهته على إبدالهم بعمال وزراع من اليهود، وقيل لنا إن هذا الزارع لم يلب أمرها إلا مكرها لسببين (أولا) عز عليه استبدال العرب بيهود لأنه ترعرع بين العرب وعرفهم وألفهم منذ طفولته (ثانيا) لأن الأجور التى يطلبها اليهود فاحشة بالنسبة إلى الأجور التى يتقاضاها العرب وساعات العمل التى يشتغل فيها اليهود يوميا أقل من ساعات العمل التى يعمل فيها العرب، لذلك صار هذا المزارع يخسر فى زراعته عوضا من أن يربح بعد ذلك التبديل.

وكان لتدخل اللجنة الصهيونية فى سن القوانين وتعيين الموظفين وإعادة المأمورين المعزولين إلى وظائفهم وقع سيئ فى نفوس العرب، وليس من شأننا أن نقول أن اللجنة الصهيونية كانت محقة أو غير محقة فى أعمالها، لكننا تيقنا أنها سلكت مسلكا مهيجا لخواطر العرب. وبهذه الصورة ساعدت فى إيجاد العوامل والأسباب التى أدت إلى الاضطرابات والاختلافات العامة التى هى مدار بحثنا ههنا.

ومما يلفت النظر أن جميع ما يكتبه الصهيونيون ومحبوهم فى موضوع الصهيونية فى أوربا يصل فى حينه إلى فلسطين ويقرأ لأهاليها فى المدن والقرى على السواء، وقد روى لنا أحد الشهود من سكان طولكرم بينا كان يوضح لنا بعض الأمور عن حوادث الخضيرة حديثا للكاتب «ح. صيدبوتام» جاء فى كتابه «انجلترا وفلسطين» صفحة ٢٣٥: من الأمور المرغوب فيها تشجيع الهجرة اليهودية بكل وسيلة ممكنة ومنع الهجرة العربية.

وهذا الكتاب الذى نقل عنه هذا الحديث طبع فى سنة ١٩١٨ أى قبل مشاغبات يافا. وقد ذكر الوطنيون لنا مرارا عبارات عديدة مهيجة لا تقل خطورة عن هذا الحديث نشرها

جماعة الصهيونية أثناء اجتماعنا - أى بعد اضطرابات يافا ونخص منها بالذكر العبارة الآتية التى نشرتها جريدة «الجويش كرونيكل» بصدر عددها رقم ٢٧٢٠ الصادر فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ وهو:

إن التفسير الحقيقى للقضية الفلسطينية هو إعطاء اليهود السلطة التامة لجعل فلسطين يهودية، والاعتراف لهم بها أنها يهودية كما أن انجلترا إنجليزية وكندا كندية، هذا هو التفسير الصحيح للوطن القومى ويستحيل على اليهود تأسيسه أن لم يمنحوا مركزا يهوديا وطنيا خاصا.

لم تعر لجنتنا أذنا صاغية ولا اهتمت لمثل هذه الأقوال ولا علمت مقدارها عند الصهيونيين قبلما تقابلت وتباحثت مع الدكتور «إيدر» الرئيس العامل للجنة الصهيونية الذى كان معتدلا بالنسبة إلى غيره، والذى لا يرغب فى نشر أفكار تهيج العرب، وقد أنارت شهادته وإيضاحاته الطريق أمام لجنتنا وأوضحت لها بعض المسائل التى كانت غامضة عليها، ولما سئل الدكتور ايدر عن بعض الأمور المهمة أجاب عليها بحرية زائدة، وأظهر أمانى الصهيونيين بجرأة نادرة. ولم يقم وزنا للتفسير الذى فسر به المندوب السامى وأمين سر الحكومة معنى الوطن القومى، وقال إنه لا يمكن إلا إيجاد وطن قومى واحد فى فلسطين وهو الوطن القومى اليهودى، ولا يمكن المساواة بالحقوق بين العرب واليهود. بل يجب أن يتغلب اليهود على العرب متى تكاثر عددهم، وأبى أن يعترف أو يقبل بعبارة أن يكون لليهود سلطة أو سلطان قومى. ووضع عوضا عنها عبارة أن يكون لليهود حق التسلط والتغلب. ولا يخفى أن الدكتور ايدر - وهو رئيس عامل للجنة الصهيونية - يحيط بأفكار الصهيونيين واعتقاداتهم الرسمية من جميع وجوهها لذلك تعتبر تصريحاته ذات شأن عظيم. لأنه لا توجد فيها محاورات أو مغالطات يقصد منها التمويه، وقد قال أيضا بصريح العبارة يجب أن يسمح لليهود لا العرب بحمل السلاح، وأكد أن تسليح اليهود يحسن العلاقات بينهم وبين العرب، وقال أيضا يجب أن يسمح للهيئة الصهيونية أن تعترض على تعيينات الحكومة، وأن تقدم إليها أسماء الذين ترغب فى ترشيحهم لمنصب المندوب السامى فتنتخب الحكومة منهم واحدا.

نحن لا نفسر أفكاره لأن ذلك ليس من شأننا ولكن يهمنا من هذا التقرير أن نبين للملأ أجمع أن الرئيس العامل للجنة الصهيونية يطلب باسم اليهود بعض المطالب والحقوق التى

هى فى الحقيقة أساس الاضطرابات الحاضرة، ويخالف روح السياسة التى صرح بها المندوب السامى فى فلسطين وصرح بها أيضا أمين سر الحكومة، ويتضح من هذه التفصيلات سبب سوء للتفاهم الحاصل بين العرب واليهود كما يتضح سبب اتهام العرب لحكومة فلسطين أنها حكوممة صهيونية وسبب اتهام الدكتور إيدر لها أنها حكومة عربية.

أننا نشعر أنه فى الإمكان إخماد نار العداوة المتقدمة بين الشعوب القاطنة فى فلسطين وذلك بأن ينتخب من تلك الشعوب أناس ذو صفة رسمية يدعون للاجتماع معا والبحث فى المسائل المختلف عليها بحثا مشبعا بروح العدل والإنصاف، ويشترط قبل الدخول فى هذا البحث على العرب أن يقبلوا التصريح السياسى الذى صرحت به الحكومة بخصوص الوطن القومى اليهودى، ويشترط على زعماء اليهود أن يطرحوا خلف ظهرهم جميع المطالب التى تخالف ذلك التصريح، وأن يفهموا المهاجرين أنه مهما كانت علاقاتهم التاريخية والدينية فى فلسطين عظيمة يجب أن يدركوا أنهم قدموا هذه البلاد سعيا وراء إيجاد وطن لهم، وهى ملأى فى الوقت الحاضر بالعرب فينبغى عليهم أن يسيروا سيرا حسنا وأن يسلكوا مسلكا مرضيا مع العرب، وأن يظهروا لهم روح الصداقة والمسالمة، ويجب على وجوه العرب وأشرافهم أن يوضحوا للعرب بصريح العبارة أنهم إذا اعتدوا على أحد من اليهود بحال من الأحوال كسرقته أو نهبه أو قتله فيعرضون أنفسهم للجزاء الشديد.

٤ ـ اضطرابات القدس الثانية

وقعت هذه الاضطرابات فى أثناء المظاهرات التى أقامها الوطنيون يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٢١ احتجاجا على وعد بلفور بمناسبة حلول ذكراه السنوية. فدار قتال عنيف على طريق يافا سقط فيه خمسة قتلى من اليهود وعربى وجرح ٣٢ من الأولين و٦ من العرب.

٥ ـ اضطرابات يافا الثانية

حدثت هذه الاضطرابات فى يافا فى خلال شهر مارس سنة ١٩٢٤ إبان احتفال اليهود بعيد المساخر (بوريم) فقد كبر على الوطنيين مشاهدة الشبان اليهود يتزيون بزى رجال الدين الإسلامى ويبالغون فى ازدرائه واحتقاره فحاولوا صدهم وردعهم فلم يرتدعوا. فدار

بين الفريقين قتال أسفر عن سقوط عدد من القتلى والجرحى.

٦ ـ فتنة فلسطين الكبرى

كانت الفتنة التى اتقدت فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٩ من أعظم الفتن التى شبت فى فلسطين فعمت معظم مدنها وقراها. بعكس الاضطرابات السابقة فقد كانت موضعية محلية.

بدأت الفتنة فى القدس يوم ١٥ أغسطس وهو يوم عيد خراب الهيكل عند اليهود. فقد تجمهر عدد كبير منهم خارجها وساروا فى مظاهرة كبيرة مخترقين الشوارع وقاصدين مبكى اليهود (البراق) وقد حملوا الأعلام والشارات الصهيونية، وكان خطباؤهم يخطبونهم أثناء السير منادين بوجوب امتلاك (البراق) وانتزاعه من المسلمين ومنددين بهؤلاء. ولما وصلوا إليه خطبتهم إمرأة منهم منادية أن المكان لهم فيجب امتلاكه رغم أنف المسلمين والإنجليز.

وكان المسلمون يرقبون هذه الحركة وينظرون إلى مايفعله اليهود وقد امتلأت قلوبهم غيظا وحقدا، ولكنهم صبروا ورأوا أن لا يستعجلوا. ولما كان الغد يوم جمعة فقد تجمهر عدد منهم بعد الصلاة وجاء لزيارة البراق. فوجدوه يغص باليهود وقد رفعوا عليه الأعلام الصهيونية ووضعوا المقاعد الخشبية فحاولوا انتزاع الأعلام والمقاعد فعارضهم اليهود ودار شجار بسيط.

وأقام اليهود فى الغداة (السبت ١٧ منه) حفلة للألعاب الرياضية أفلتت فى خلالها كرة دخلت حقلا لفلاح عربى فلحق بها جمهور من اللاعبين وعبثوا فى الزرع فانتهرهم الفلاح صاحبه فاعتدوا عليه وضربوه فانتصر له جيرانه وأنجدوه فتضاربوا وتراشقوا بالحجارة وجرح فى هذا النضال ١٤ من العرب وخمسة من اليهود مات أحدهم وهو إبراهيم مزراحى بعد يومين فشيعت جنازته بموكب كبير، وأقام له اليهود مأتما حافلا وأدخلوه فى عداد شهدائهم. ودار بين الشعبين والبوليس شجار فجرح ٢٤ رجلا، وأقفلت المدينة على الأثر، وتعطلت الأعمال وشعرت الحكومة بتحرج الحالة. فاستقدمت نجدات عسكرية من مصر وصدر الأمر إلى بعض وحدات الأسطول البريطانى بالسفر إلى يافا وحيفا.

وهاجم اليهود ظهر الجمعة ٢٣ منه قرية لفتا (ضاحية القدس) مغتنمين فرصة احتشاد رجالها فى المسجد فاعتدوا على الأطفال، ووصل النبأ إلى المصلين فأسرعوا للدفاع عن ذونيهم ودار قتال بينهم وبين اليهود مالبث أن سرى إلى القرى المجاورة فاتسع نطاق الفتنة وشمل القرى والمدن، وفى مقدمتها يافا وحيفا وصفد والخليل، وقد بلغ عدد القتلى من اليهود فى الخليل وحدها ٦٤ قتيلا وجريحا. وقد بدأت الحوادث هنا على أثر إشاعة شاعت عن مقتل العائلة العربية المنفردة فى الأحياء اليهودية فى القدس مما هاج خواطر الناس وزاد على ذلك مبادرة اليهود لبعض العرب هنا بالشتم والتهكم وخصوصا بعض الطلاب من اليهود الأميركيين الذين اعتزوا أكثر مما يجب فى تلك الأوقات العصيبة بجنسيتهم فاستثاروا العرب. وقد أشاع اليهود أن العرب مثلوا بقتلى اليهود هنا فأرسلت الحكومة لجنة طبية قوامها ثلاثة من أطباء العرب هم الدكتور توفيق كنعان وحسين الخالدى وحسام الدين أبو السعود، وثلاثة من الأطباء اليهود، ومثلهم من الإنجليز فأخرجت يوم ١٢ سبتمبر جثث ٢٤ يهوديا من القبور وفحصتها فلم تجد فيها أثرا للتمثيل فوضعت تقريرا مفصلا نفت به تهمة التمثيل عن العرب، وقد نشرت حكومة فلسطين التقارير الطبية رسميا لدحض الدعاية اليهودية.

وبعكس ذلك فقد أثبتت التقارير الطبية أن اليهود فى تل أبيب مثلوا بعائلة عربية مسلمة فى تكنة أبى كبير فقتلوا رب العائلة وهو صديقهم ثم بقروا بطنه بمدراة الحصاد كما حطموا رأس ابن أخيه وزوجته وابنه وله من العمر ثلاث سنوات.

أما فى صفد وقد قتل فيها ٩ من اليهود وجرح ٢٦ فقد بدأت الاضطرابات بمرور بدوى غريب بقرب الحى اليهودى فأطلق عليه اليهود الرصاص فقتل فأحدث إطلاق الرصاص اضطرابا فى البلدة وأطلق اليهود الرصاص على العرب المارين بقرب حيهم ولما شاع ذلك اعتقد العرب أن اليهود قرروا مهاجمتهم فقاموا للدفاع عن أنفسهم فاندلعت نيران الفتنة ونهب اليهود ٣٠ مخزنا للمسلمين كانت فى داخل حيهم وبقربه.

تدابير الحكومة وسكون الفتنة

فوجئت الحكومة البريطانية بالاضطرابات فى فلسطين مفاجأة لم تكن تتوقعها فأسرعت فى إرسال القوى وحشد الجند، ويقال إنها أرسلت ١٢٠ طيارة و ٦ بوارج وخمسة آلاف

جندى فقبضت بعد عناء على ناصية الحال، وسكنت الهياج وقد، امتد نحو ١٥ يوما واصلت الحكومة القدس خلالها إصدار البلاغات الرسمية يوميا عن سير الحوادث وصدر آخر بلاغ يوم ١٢ سبتمبر وفيه أنه بالنظر لسكون الحالة لا تصدر بلاغات أخرى إلا إذا دعت الحاجة.

عدد القتلى والجرحى

ويقول بلاغ رسمى صدر يوم ٣ سبتمبر أن عدد القتلى ٢٠٦ موزعون كما يأتى: من المسلمين ٨٧ ومن المسيحيين ٤ ومن اليهود ١١٩ وعدد الجرحى ٥٧٥ جريحا من أبناء الطوائف الثلاث.

منشور المندوب السامى ورد اللجنة

وكان المندوب السامى البريطانى لفلسطين وهو السيرجون تشانساور غائبا بالأجازة فى لندن حين وقوع الاضطرابات فعاد على الفور إلى فلسطين، وقبل أن يدرس الموقف حق دراسته نشر يوم أول سبتمبر سنة ١٩٢٩ منشورا وزع بالطيارات فى أنحاء فلسطين حمل فيه على العرب. فاحتجوا عليه وفندوا أقواله، وهذا نصه مع رد اللجنة التنفيذية العربية عليه ـ قال:

«عدت فوجدت البلاد فى حالة اضطراب وفريسة لأعمال عنف غير مشروعة وهو أمر أحزننى جدا، وقد استفظعت ما علمت به من أعمال القسوة التى اقترفها جماعات من السفاحين الظمآنين إلى الدم، والأشرار الذين ارتكبوا جنايات قتل وحشية ضد أشخاص آمنين من السكان اليهود على اختلاف أعمارهم، وقد اقترنت تلك الجنايات كما فى الخليل بأعمال همجية كحرق المزارع والمنازل فى المدن والريف مع سلب الممتلكات وتخريبها وهذه الجنايات جلبت على مقترفيها سخط جميع الشعوب المتمدنة فى العالم.

«إن أول واجباتى هى إعادة النظام إلى البلاد وإنزال العقاب بالذين ثبتت عليهم تهمة ارتكاب أعمال العنف. وستتخذ جميع التدابير اللازمة للوصول إلى هذه الغاية، وإنى أطلب إلى جميع سكان فلسطين مساعدتى على تأدية هذه الواجبات.

«وعملا بوعدى الذى قطعته مع اللجنة الفرعية التنفيذية قبل مغادرتى لفسلطين فى يونيو

الماضى شرعت فى مفاوضة وزير الخارجية البريطانية حينما كنت فى انجلترا بشأن إحداث تغييرات دستورية فى فلسطين، ولكن نظرا إلى الحوادث الأخيرة أوقفت الآن هذه المفاوضة مع الحكومة البريطانية حتى يثبت السلام.

«وفيما يتعلق بالأقوال التى أذيعت فى العهد الأخير بشأن جدار المبكى (البراق) أروم الآ بموافقمة الحكومة البريطانية أن أعلن أنى أنوى تنفيذ المبادئ المبينة فى الكتاب الأبيض بعد تقرير الإجراءات الخاصة بتطبيقها.

وقد كان لنشر هذا المنشور أسوأ أثر فى نفوس العرب الذين سعوا ليحولوا دون إذاعته فلم يوفقوا. وقد ردت عليه اللجنة التنفيذية يوم ٣ منه بالرد الآتى:

«أطلع عرب فلسطين بدهشة عظيمة على منشوركم المؤرخ فى أول سبتمبر سنة ١٩٢٩ ولم يكن أحد منهم يتوقع إغفال الحقائق التى عرفها القاصى والدانى، والتى اعترفت بها الحكومة وهى:

١ ـ أن أكثر اليهود كانوا مسلحين.

٢ ـ أن الحكومة سلحت عددا منهم.

٣ ـ أنه لم يوجد فى قتلى تمثيل أو تشويه حتى فى الخليل. كما يؤيد هذا تصريح إدارة الصحة العامة البريطانية فى فلسطين.

٤ ـ وأن بعض قتلى العرب قد مثل بهم.

٥ ـ وأن جموع اليهود هم الذين بدأوا بقتل النساء والأطفال من العرب.

٧ ـ وأن الجنود النظامية قتلت النساء والأطفال والرجال من العرب فى بيوتهم وعلى فرشهم فى قرية صور باهر وغيرها.

٨ ـ وأن اضطرابات فلسطين السابقة والحالية إنما هى ناشئة مباشرة عن السياسة البريطانية الصهيونية التى ترمى إلى إفناء القومية العربية فى وطنها الطبيعى. لكى تحل محلها قومية يهودية لا وجود لها.

كل هذه الحقائق لم يكن أحد من العرب يتوقع إغفالها فى منشور صادر على عجل وسابق لأوانه، وتعلمون أن عرب فلسطين خسروا كل شئ من جراء هذه السياسة الصهيونية فلا

يهمهم أى زيادة فى الخسارة وستجدهم الجنود البريطانية عزلا من السلاح لتلقى أى ضربة تنزل بهم. فإذا كان لم يزل ثمة عدالة يحق للعرق أن يطلبوا نصيبهم منها فهم يلحون بطلب إجراء تحقيق نزيه من قبل أشخاص من خارج فلسطين لا يتأثرون أثناء قيامهم بواجبهم نحو العدالة بالنفوذ الصهيونى.

«إن التحقيقين اللذين أجريا فى فلسطين فى ظروف مماثلة سابقة من قبل لجان بريطانية قد أظهرا للملأ مطالب العرب الحقة ومقاصدهم القومية النبيلة كما أظهر مصائبهم السياسية»

«أن العرب يعتقدون كل الاعتقاد أن تحقيقات نزيهة كتلك ستروى للعالم حكاية حالهم فى هذه الاضطرابات الحاضرة رواية أصح مما صورتموه للعالم فى منشوركم الصادر قبل إعطاء العرب فرصة لاستماع صوتهم. وعندئذ يرى العالم أن اليهود الذين تجاوزوا التحرش السياسى إلى الدينى، والذين أصبح تحرشهم فى المدة الأخيرة مما لا يحتمل ـ كما صرحت بذلك الحكومة ـ والذين كانت أعمالهم الفظيعة فى هذه الاضطرابات ينطبق عليها كلامكم فى منشوركم بحق العرب، هم المسؤولون أولا عن الاضطرابات الحالية والسياسة التى تؤيدهم ثانيا»

«وإن مثل هذا المنشور كان ينبغى إصداره بعد إجراء التحقيقات التى ينشدها العرب لأقبل إجرائها. فلذلك نحن نتأكد أنكم لو أعدتم النظر فى الحالة الحاضرة لتوصلتم إلى حكم عادل.

واحتج محامو العرب فى فلسطين أيضا على هذا المنشور فى بلاغ طويل أذاعوه يوم ٤ منه، وقابل رئيس اللجنة التنفيذية وأمناؤها المندوب السامى يوم ٩ منه وبحثوا معه فى الحالة وقدموا له تقريرا مسهبا عن أسباب الاضطرابات وعواملها واحتجوا له على منشوره فقال لهم: أنه كتب فى منشوره الأول ما اعتقده صحيحا، وأن سوء الفهم الذى وقع فى تأويل المنشور الأول أصلح فى المنشور الثانى[1] ثم قال: وإنه لا يفرق فى معاقبة المجرمين بين

---

١ ـ نشر هذ المنشور يوم ٤ منه وقد جاء فيه: إن حكومة فلسطين أصدرت تعليمات تقضى بجمع الأدلة قبل انطماسها على ماإذا كنت الاضطرابات التى وقعت فى ٢٣ أغسطس كانت مدبرة أو بنت ساعتها وفي الوقت الذى تتعاون فيه الجنود البريطانية مع حكومة فلسطين لاعادة النظام الي نصابه تتخذ السلطات المدنية تدابير فعالة لمحاكمة المجرمين وقد اعتقل كثيرون من المتهمين واتخذت ضدهم الاجراءات القانونية.

«واحتاط ولاة الأمور احتياطا خاصا لتأليف مجالس منزهة للنظر في القضايا التي يرجح أن تكون كثيرة. وبناء علي طلب المندوب السامي لفلسطين أخذت وزارة المستعمرات تهتم بتعيين لجنة تحقيق وسيسافر أعضاؤها الي فلسطين في هذا الشهر لكي يحققوا الأسباب المباشرة التي أدت الي الاضطرابات الحاضرة وهل حدثت عرضا أو كانت مدبرة وسيكون رئيس اللجنة السير ولترشو رئيس اللجنة القضائية في تسوية المضايق ومعه ثلاثة أعضاء من البرلمان ينتخبون من كل حزب من الأحزاب الثلاثة.

العرب واليهود، وطلب من الوفد أن يوزع منشورا فى المقاطعة الشمالية لتسكين الأفكار.

صدى الفتنة فى الشرق والغرب

ريع العالمان الإسلامي والعربى لهذه الفتنة فأقيمت المظاهرات فى دمشق وحمص وحماه وحلب وبغداد والموصل لتأييد فلسطين والعطف عليها فى محنتها، وأرسلت البرقيات من شتى الجاليات الإسلامية فى القطر المصرى لتأييد الفلسطينيين. وبلغ الهياج فى سورية حده، وشاعت إشاعات بأن القبائل العربية زحفت إلى فلسطين للاشتراك فى الاضطرابات فاتخذت السلطات الفرنسوية على الحدود أشد التدابير لتحول دون سفرها مما قابله الإنجليز بالشكر. فقد جاء فى بلاغ رسمى نشر فى بيروت فى شهر أكتوبر أن ضابط الارتباط البريطانى زار المفوض السامى الفرنسوى وأبلغه شكر الحكومة البريطانية للسلطات الفرنسوية فى سورية على ما اتخذته من تدابير ساعدت كثيرا على توطيد الأمن فى أثناء الاضطرابات الفلسطينية.

وأرسل مسلمو الهند البرقيات العديدة إلى حكومة لندن يطلبون فيها إنصاف الفلسطينين وإعادة حقوقهم إليهم.

واتخذت السلطات البريطانية على حدود شرق الأردن تدابير صارمة لتحول دون دخول سكانها إلى فلسطين للدفاع عن إخوانهم. فوقفت الطيارات والدبابات على طول خط الحدود ولم يستطع ولاة الأمور المحافظة على الأمن إلا بشق الأنفس. ومما يستحق الذكر أن الموظفين الإنجليز اعتقلوا الشيخ مثقال الفايز شيخ بنى صخر مدة خمسة أيام، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد ما نالوا منه ضمانات بأن يكف عن كل ما من شأنه تكدير صفو السلم.

مذكرة الأمير عبد الله

وأرسل الأمير عبد الله بن الحسين أمير شرق الأردن إلى المندوب السامى البريطانى لفلسطين فى تلك الأثناء المذكرة الآتية يطلب إنصاف العرب والعدول عن سياسة الوطن القومى قال:

قد شاع فى شرق الأردن أن جماعات كبيرة من سكان تل أبيب ركبوا السيارات فى ٢٩ سبتمبر سنة ٩٢٩ (١) فى الساعة السابعة والنصف مساء آمين القدس وأن عددهم يزيد

---

١ ـ أشيعت هذه الشائعة بفلسطين فأسرعت الحكومة إلى إصدار بلاغ قالت فيه إنها اتخذت التدابير اللازمة لتحول دون وصول هؤلاء إلى القدس.

على ألف شخص مسلحين بقصد الاعتداء على العرب اعتداء جديدا لذلك ولأهمية هذه الشائعة ولما فيها مما يثير هياج الشعب ويجعله متأثر الأعصاب صعب القياد يخشى العاقبة على سكان فلسطين لم أجد بدا من تعجيل بيان أفكارى لفخامتكم فى هذا الصدد درءا لما يسفر عن أمثال هذه الإشاعات التى تذاع بصيغة وأسلوب محكمين غريبين لا يخلوان من التأثير.

لا مشاحة فى أن صبر العرب فى فلسطين وإقامتهم طيلة السنين التى عقبت وعد بلفور واعتدالهم فى غضون الحوادث الأخيرة التى أخذ فيها عاقلها بشكيمة جاهلهم على قدر الطاقة فتحاشوا - مع الأحوال الطارئة مدافعين عن أنفسهم غير معتدين - الدليل الناصع على مجانبة الشعب فى حوادث من شأنها التخريب والتقتيل بصورة لا تشاكل ما جلبوا عليه من الرعاية للنزلاء فى بلادهم - على الرغم مما يبدو من أولئك النزلاء من تحرش لم يغرب عن أحد كنهه فى كل فرصة عنت وسانحة أتيحت. ولعلى لا أخرج عن الصدد وأكون من الحقيقة على طرف التمام إذا صرحت بعقم الأمنية اليهودية فى فلسطين بعد الوقائع الأخيرة التى تقضى عل كل أمل فى إمكان مجاورة هؤلاء الدخلاء للعرب فى ذلك الوطن العامر بالعرب منذ ١٣ قرنا متطاولة.

لقد ساورنى القلق على الأمن فى فلسطين، وخشيت اندلاع لهيب الفتنة إلى مايجاورها من الأقطار العربية الإسلامية منذ استطارت أخبار مؤتمر زوريخ الصهيونى(١) وما نجم فيه من التطرف والجشع وعدم رعاية الحالة النفسية لعرب فلسطين وإخوانهم وفى جوارهم، وتجاهل الحقوق العربية البحتة، وقد اشتد ذلك القلق عندما وقع التشبث الأخير فى التعدى على المبكى لاستحازته من جانب اليهود. فأرسلت للتو والساعة خبرا إلى سعادة وكيل المعتمد البريطانى بعمان معربا عن تخوفى من استفحال الأزمة ومقدما أيضا - إبقاء القديم على قدمه - وأن أى تغيير يعتور الموقف التليد (ستاتوكو) سيؤدى حتما إلى فتنة عنيفة وهياج عنيف، ولم تك إلا عشية أوضحاها حتى وقع ما وقع واضطرت الحكومة لحشد القوة

---

١ - افتتح هذا المؤتمر يوم ٢٨ يوليو وختم يوم ١١ أغسطس سنة ١٩٢٩ وجاء فى خطبة افتتاحة للدكتور ويزمن «لما أنشئت الجمعية الصهيونية لم يكن الوطن القومى لليهود سوى فكرة. أما اليوم فأنهم يستطيعون أن يقولو بلا مبالغة إنهم نجحو نجاحُ كبيراً فيمايتعلق بمهمة إنشاء وطن قومى يهودى ومع ذلك لم يدركوا غرضهم فالمستعمرون والعمال اليهود رسخت أقدامهم فى فلسطين وصاروا الآن جزءا من السكان اليهود المقيمين في البلاد. وقد كان لهذا الأمر تأثير شديد فى العالم اليهودى كله وقد تحققوا أيضا بارتياح أن الافراط فى الهجرة انتهى.

المسلحة من برية وبحرية وهوائية ومجاوزة المعقول فى الطلب والمظاهرات المنطوية على التحدى أن يفضى ذلك كله إلى اتخاذ تدابير عسكرية دائمة تجعل مدبرى الفتنة يخشون عاقبة أعمالهم.

وأنى إذا استعرضت الإشاعات المتطايرة فى البلاد ووصول خبرها إلىّ يبن فترة وأخرى وتأملت فما تحمل بين طياتها من الاستفزاز الدينى والضرب على الوتر الحساس لم أستغرب ما تجشمت من العناء فى حمل الأمة على الإخلاد للسكينة مع تسللهم من هنا وهناك ناقمين هائجين، ولقد لقيت فى سبيل ذلك من الصعاب فوق ما اعترضتنى من مثلها فى خلال الثورة السورية. ولقد كانت هذه حركة قومية سياسية أسست حول نطاقها - وأن طال أمرها - وأن المشكلة الفلسطينية أشد خطرا لارتباطها فوق ذلك أجمع بالشعور الدينى الذى يحمل المتحمسين وكثير ماهم على نسيان كل اعتبار. فأرفع الصوت بشدة أن لا مندوحة لشرق الأردن من قوة احتياطية للجيش العربى ليقوم بواجب المسؤولية فى حماية الأمن والقبض على ناصية الحال فيما إذا تكررت الحوادث فى فلسطين لمنع غوائلها المخوفة حيال مفاجأة لا نعلم من ندهم من البلاد.

أما قوة الحدود فقد ثبت أنها أخذت إلى فلسطين وعدا هذا فتأثير القوى المحلية على نفسية الشعب لا تخفى على رجال الإدارة.

إن اليهود فيما يظن ويقال غير مقصرين فى تحديهم، وقد يعقب هذه القلاقل من حب الأخذ بالثأر وإيغار الصدور ما يعود عل مشكلة الوطن القومى بحشف وسوء كيل، ان إخماد الفتنة بقوة السلاح غير واف بالمرام فيما يخيل إلى إذا لم يعزز ذلك بحل ينزع من النفوس ما اكتنفها من الأحقاد. وإن الحكمة المأثورة عن حكومة بريطانيا العظمى لجديرة بذلك إن شاء الله. ولقد كتبت لفخامتكم بدافع التفاهم النزيه وقياما بما يقتضيه الحوار المرتبط بالمصلحة المشتركة من مصارحة.

ابن سعود والفتنة

وشاعت فى تلك الأثناء إشاعات بأن جلالة الملك عبد العزيز سعود يؤيد العرب الفلسطينيين ويعطف عليهم، وأنه سيشد أزرهم. فقابل مكاتب شركة روتر فى لندن يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٢٩الشيخ حافظ وهبة وزير الحكومة السعودية المفوض هنالك وسأله عن

سياسة حكومته فقال له: إن ابن سعود وشعبه يعترفان بأن فلسطين أرض مقدسة عند ثلاث ديانات كبيرة. ويرغب الملك من صميم فؤاده أن يعيش المسلمون واليهود والمسيحيون فيها بالاتفاق والوئام. وقال أيضا إن ابن سعود صديق لبريطانيا العظمى. ومن المؤكد أنه لا يحاول أن يوجد لها مشكلات جديدة فى فلسطين أو غيرها، أو أن يوسع شقة المشكلات الحالية. ويعتقد ابن سعود أن بريطانيا تقبض بيدها على قسطاس العدل بين اليهود والعرب وكل فكرة تذيعوها عن ميل ابن سعود إلى مساعدة الحركة المضادة لليهود خارجة عن الموضوع الذى نحن بصدده.

وفى ٦ منه عاد الشيخ فكرر لمندوب روتر بأن الملك ابن سعود صديق لبريطانيا العظمى، وقال إن له ثقة بعدالة الحكومة البريطانية ولا يتدخل بأى وجه كان فى شؤون فلسطين ولا يوجد مشكلات للحكومة البريطانية ويعتمد عليها فى دفع المظالم عن المسلمين.

ولما وصلت هذه التصريحات إلى بلاد العرب أرسل جلالة الملك عبد العزيز إلى اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى بالقاهرة البرقية الآتية:

«تعلمون ولا شك الإسلام فى حقوق أهل الأديان التى تقدمته، وأنه من المستحيل أن نعترف أو نقر بما لم يحكم به مهما كانت الدواعى والظروف».

«ونحن مازلنا ولا نزال نتمنى لبنى قومنا العرب ولبلادهم كل خير وسعادة يؤلمنا ما يؤلمهم ويسرنها مايسرهم فى كل وقت وحين»

وأرسل جلالته أيضا فى شهر أكتوبر سنة ١٩٢٩ البرقية الآتية بواسطة الوكالة السعودية بمصر إلى اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى - الفلسطينى وإلى المجلس الإسلامى الأعلى بالقدس قال:

«بلغنا الآن ماكان من اعتداء نفر من اليهود فى المسجد الأقصى على المسلمين يوم جمعتهم وقتل عدد منهم. وقد كانت هذه الفاجعة مدعاة للألم العظيم والكدر الشديد فى قلوبنا، وأنا وسائر من فى الجزيرة من العرب والمسلمين لنشارك سكان المسجد الأقصى ومن حوله فيما أصابهم من هذا العمل المنكر الذى وقع عليهم فى صلاتهم بمسجد المسلمين الحرام. وأنا لواثقون بأن الحكومة البريطانية بما نعهده من تقاليدها ستعامل بأقصى أنواع الشدة أولئك الآثمين. لا سيما الذين اقترفوا ذلك الأثم المبين. وأنا فى هذا الموقف

الذى امتلأت فيه النفوس ألما وكدرا نقدم للعرب وللمسلمين عامة تعزيتنا عمن فقد فى ذلك المسجد الحرام من المصلين».

ويقال أيضا إن جلالته أرسل بهذه المناسبة كتابا خاصا إلى جلالة ملك الإنجليز يطلب فيه إنصاف العرب ورد حقوقهم إليهم.

الجفاء بين العرب واليهود

وقد اشتد الجفاء على أثر هذه الحوادث بين العرب واليهود من سكان فلسطين فتقاطعوا، وجلا المسلمون الذين كانوا يسكنون فى الأحياء اليهودية أو على مقربة منها إلى الأحياء الإسلامية وحذا حذوهم اليهود فجلوا إلى الأحياء اليهودية، وأمسك اليهود عن معاملة العرب وعن الشراء منهم وأعلنوا عليهم حربا اقتصادية شعواء.

ولابد لنا من القول أن التحقيق الرسمى أثبت أن الحكومة سلحت جانبا كبيرا من اليهود بالسلاح الحكومى للدفاع عن أنفسهم فأستعملوا سلاحهم فى قتل العرب والاعتداء عليهم. كما أثبت أيضا أن بعض اليهود لبس لباس الجند البريطانى وأطلق رصاصه على العرب فقتل عددا منهم.

ومما يؤثر عن الدكتور وايزمن قوله غداة وقوع الفتنة: إننا نرسل إلى فلسطين ألف يهودى مكان كل يهودى قتل.

واحتج اليهود فى العالم على انجلترا ووصفوها بأشنع التهم وزعموا أنها هى التى حرضت العرب عليهم.

لجنة شو وتقريرها

وفى يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٩ وصلت إلى القدس لجنة التحقيق البرلمانية البريطانية، وهى مؤلفة برئاسة والتر شو للبحث عن أسباب الاضطرابات فعقدت أول جلسة يوم ٢٤ منه وألقى رئيسها افتتاحها كلمة استهلها بقوله: إن الحوادث المفجعة التى وقعت أخيرا فى فلسطين أقلقت العالم أجمع وهددت توقيف تقدم العمران السلمى فى هذه البلاد. وقد أسفت لها جميع طبقات الشعب التى اتحدت وطلبت إجراء تحقيق نزيه عن أسبابها لتجنب

تكرار وقوعها. وإن وزير المستعمرات - وقد وضع نصب عينيه هذه الغاية - عين هذه اللجنة للتحقيق فى الأسباب المباشرة التى أدت إلى وقوع الاضطرابات والإشارة بالتدابير الواجب اتخاذها لمنع تكرارها. فلذلك يقضى علينا الواجب بمقتضى شروط اختصاصنا أن نجرى تحقيقا وافيا تاما نزيها وقد صممنا على ذلك».

وقال أيضا إن لجنته ليست لجنة قضائية، وإنما هى لجنة للتحقيق فى بعض الحوادث، وأنها ستسلك الطريق الذى نعتقد أنه يوصلها إلى غايتها لتشير على الحكومة بما يجب عمله.

وقضت اللجنة فى فلسطين ثلاثة أشهر وخمسة أيام درست الحالة درسا مفصلا وجابت معظم المدن والقرى واجتمعت إلى كثير وسمعت أقوالهم وفى يوم ٢٨ ديسمبر غادرتها عائدة إلى لندن بعد ما أذاعت البيان الآتى:

«فى أول جلسة عمومية عقدناها أملنا أن نلقى فى تحقيقنا أكبر مساعدة ممكنة من الذين يرغبون فى إظهار الأسباب الحقيقية لاضطرابات أغسطس الواسعة.

«والآن نحن على أهبة السفر نشعر بأن أملنا قد تحقق بواسطة ذوى الشأن من الممثلين الذين أمدوا اللجنة بكل المعلومات التى تتعلق بمهمتها».

«أن الشهود الذين سمعنا إفاداتهم كانوا من مختلف طبقات الطوائف، ومن أكثر أنحاء البلاد وقد لقينا من كل فريق أكبر مقدار من المساعدة والتعاون فى العمل، ونعتقد أننا نعود الآن حاملين معنا - لا سجلا للوقائع المحزنة التى شوهت تاريخ هذه البلاد فقط. بل المادة التى ستكون أكبر مساعد عل تحليلنا أسباب تلك الحوادث مع الاقتراحات القيمة التى أدلى بها أشخاص وهيئات تمثيلية عن الاحتياطات التى يجب اتخاذها لمنع تكرر الاضطرابات».

«أن وقتنا محدود فلم نتمكن من زيارة كل البلاد، ولكن فى الزيارات التى قمنا بها تمكنا من سماع آراء من قابلناهم وتحن على ثقة بأن المعلومات التى جمعناها عن البلاد وأهلها ستكون ذات فائدة عظيمة فى إعداد تقريرنا».

«أن المهمة التى عينتها لنا حكومة جلالة الملك تنطوى على شقين. وقد أنجزنا الشق الأول وهو التحقيق المحلى، وفى القسم الشاق الباقى لنا فى تحديد الأسباب ووضع التواصى للمستقبل تشجعنا فكرة أن الجميع فى هذه البلاد ممن كانت لهم علاقة بالتحقيق

وقد عاونونا فعليا وسيكونون على استعداد للمعاونة أيضا فى اتباع السياسة المستقبلة التى تقررها حكومة جلالة الملك بناء على توصيتنا ».

هـ. سنل　　　هنرى تيرتون　　　هويكه مورس　　　ولتر س. شو

ومما يستحق الذكر أن العرب هم الذين ودعوا اللجنة يوم سفرها وهتفوا لها. وقد امتنع اليهود عن تشييعها لأنهم أدركوا أن رجالها فهموا الحقائق، ولم يأخذوا بالأساليب التي اعتاد الصهيونيون أن يأخذوا بها بعض الرجال الرسميين، ولم يكفهم ذلك بل دبروا حملة فى صحف انجلترا ضدها.

تقرير لجنة شو

وفى يوم أول إبريل سنة ١٩٣٠ نشر تقرير اللجنة، وقد تبين بعد ذلك أنها انتهت من كتابته يوم ٦ مارس، وأن تأخير نشره نشأ عن محاولة التوفيق بين آراء أعضائها. فالأكثرية منهم كانت ضد وعد بلفور وسياسة الوطن القومى، ولم يشذ سوى المستر سنل مندوب العمال فقد أظهر ميلا إلى تأييد السياسة الصهيونية فلم تأخذ اللجنة بآرائه وإليك خلاصة تقريرها:

«اتفق أعضاء اللجنة على القول أنهم استنتجوا من تحقيقهم أن الاضطراب بدأ بهجوم العرب على اليهود بغير مسوغ وهجم اليهود على العرب بضع هجمات كانت فى الغالب من باب أخذ بالثأر ومقابلة الشئ بمثله».

«ولم تقم بينة ما على أن المفتى أو اللجنة التنفيذية العربية فى فلسطين تعمدت هذه الاضطرابات أو نظمتها قبل وقوعها ـ كما زعم البعض ـ وما كان الاضطراب ضد السلطة البريطانية ولا قصد به أن يكون كذلك».

«وليس عند اللجنة انتقاد خطير إلى سلوك حكومة فلسطين وما اتخذت من التدابير، سواء قبل وقوع الحوادث أو بعد وقوعها. بل ترى اللجنة أن حكومة فلسطين أدت مهمتها الشاقة فى خلال الحوادث كلها بأقصى ما يمكن من الكفاءة وحافظت على النزاهة وعدم التحيز إلى شعب من الشعبين، فى حين أن زعماء الفريقين لم يظهروا ميلا يذكر إلى تسوية الخلاف وفض النزاع».

«وترى اللجنة أن نشاط اليهود وهجرتهم - حين لا يتجاوزان مقدرة البلاد على تحمل القادمين إليها من الخارج - درا على فلسطين منافع مادية أصاب العرب قسطا منها.

أما فيما يتعلق بالهجرة فأعضاء اللجنة يرون أن ولاة الأمور اليهود حادوا عن التعليمات والمبادئ التى وضعت فى سنة ١٩٢٢ والتى تعلمها الجمعية الصهيونية، وأن مزاعم الصهيونيين ودعاويهم أنشأت فى نفوس العرب خوفا من ضياع أسباب معيشتهم واستعبادهم استعبادا سياسيا.

«ولفتت اللجنة النظر إلى نفر من الزراع العرب أخرجوا قسرا وعنوة من الأراضى التى كانوا يزرعونها بعد ما بيعت تلك الأراضى، ولم تدبر لهم أرض سواها لزرعها، ولم تشك اللجنة من شركات الأراضى اليهودية. فأنها فى بعض الحالات تدفع تعويضا نقديا وكانت تعمل ما تعمله بعلم الحكومة واطلاعها، ولكن مع ذلك نشأت مشكلة دقيقة حادة، وصارت فى فلسطين طائفة مستاءة متبرمة. أفرادها من الذين لا يملكون أرضا لزرعها ووجوده هذه الحال قد يصبر منشأ خطر فاللجنة تحض على تدبير علاج لها».

«وقد استنتجت اللجنة أن فلسطين لا تستطيع أن تطعم عددا من السكان الزراعيين يزيد على عدد من فيها الآن من دون إحداث تغيير جوهرى فى أساليب الزراعة والإنتاج، وعندها أن الصعوبات التى تعانيها حكومة فلسطين تتفاقم بما يشعر به العرب من النفور لعدم تمتعهم بشئ من الحكم الذاتى. وليس لهم وسيلة مباشرة للاتصال بالحكومة بخلاف اليهود. وترى اللجنة أن الحكومة البريطانية أفرطت فى تخفيض الحامية فى فلسطين وشرقى الأردن. وعندها أن العلة الأساسية فى حوادث الاضطرابات عداوة العرب لليهود بسبب خيبة أمل العرب وعدم تحقيق أمانيهم السياسية والقومية وخوفهم على مستقبلهم الاقتصادى».

«أما الأسباب المباشرة فى حدوث ما حدث فتكرر وقوع بصدد البراق. ونشر مقالات مهيجة فى صحف الجانبين، وبث الدعوة بين غير المتعلمين من العرب وضعف القوة العسكرية وقوة البوليس، وعدم وفائهما بالحاجة واعتقاد العرب أن حكومة فلسطين تتأثر بالاعتبارات السياسية».

وفى رأس ما أشارت به اللجنة أن تصدر الحكومة فى الحال بيانا سياسيا فى فلسطين وتجاهر بعزمها على تطبيق هذه السياسة وتنفيذها بكل ماعندها من القوى والوسائل.

ويزيد فى قدر تصريح كهذا وقيمته إذا حوى تفسيرا جليا من جانب الحكومة البريطانية لفقرات فى صك الانتداب تكفل بها حقوق الطوائف غير اليهودية. وإذا نص على تعليمات واضحة لإرشاد حكومة فلسطين فى سياستها فى المسائل الجوهرية كمسألة الهجرة ومسألة الأراضى. وهذا الذى تشير به اللجنة يقوم أكثره على فرض أن تحديد السياسة المقترح ينص على أن حقوق غير اليهود تحمى حماية وافية.

وتشير اللجنة بإذاعة تصريح جلى بشأن السياسة التى تتبع فى المستقبل فى أمر هجرة اليهود إلى فلسطين وإعادة النظر فى الإداة الإدارية وإصلاحها لمنع الإفراط فى الهجرة كما أفرط فيها فى سنتى ١٩٢٥و ١٩٢٦.

ويجب إيجاد وسيلة أو أداة لاستشارة المصالح غير اليهودية فى أمور الهجرة.

وتقترح اللجنة إجراء تحقيق علمى للبحث فى تحسين وسائل الزرع فى فلسطين. وحينئذ يمكن وضع السياسة الخاصة بالأراضى فى ضوء هذا التحقيق.

«وإلى أن يتم هذا يجب اتخاذ تدابير لمنع ما هو واقع من طرد الفلاحين والزراع من الأراضى التى اعتادوا زرعها وفلاحتها، وعلى الحكومة أن تبحث عن وسائل التسليف فتزود المزارعين بما يلزم لهم من المال».

ولم تشر اللجنة بشئ صريح فى ما يختص بالمسألة الدستورية، ولكنها لفتت النظر إلى رأيها الذى أثبتته فى تقريرها وهو نفور العرب واستياؤهم من عدم نيلهم قسطا من الحكم الذاتي، وأن هذا النفور يضاعف الصعوبات والمشكلات.

واقترحت اللجنة تأليف لجنة مهمتها تعيين الحقوق والدعاوى فى صدد البراق، وأن ينظر فى أمر زيادة الرقابة على بث الدعوة بواسطة الصحف، وأن تجاهر الحكومة البريطانية مرة أخرى بأن المقام الخاص المسموح به للجمعية الصهيونية لا يخولها الحق فى أن يكون لها نصيب من حكم فلسطين.

وفد فلسطينى فى لندن

وانتدبت اللجنة التنفيذية جمال الحسينى سكرتيرها للسفر إلى لندن لملاحقة القضية الفلسطينية عن كثب، وبث الدعاية لها وتفنيد دعاوى اليهود. فسافر إليها فى شهر سبتمبر

وبذل جهدا مشكورا فى خدمتها واتصل بأنصار فلسطين من أحرار الإنجليز ومنصفيهم وقابل عددا من رجال الحكومة وأقطابها وأعد المعدات اللازمة لقدوم وفد فلسطينى كبير يتصل برجال الحكومة ويسعى لحل القضية بما يصون حقوق العرب.

وأتمت اللجنة التنفيذية تأليف الوفد يوم ٢٤ يناير سنة ١٩٣٠ وقوامه موسى كاظم باشا الحسينى رئيسا والحاج أمين الحسينى وراغب النشاشيبى والفريد روك أعضاء. على أن يضم إليهم فى لندن جمال الحسينى بصفة عضو ويكون عونى عبد الهادى سكرتيرا لهذا الوفد. وقد حددت اللجنة اختصاصات الوفد بما يأتى «يكون للوفد ملء الحرية باستعمال مايراه من الوسائل لنيل العرب فى فلسطين حقوقهم السياسية والقومية والاقتصادية. على أن يرجع إلى الأمة فى البت نهائيا فى الحلول التى تصل إليها مجهوداته».

وفى يوم ٢١ مارس غادر الوفد القدس إلى لندن فبلغها يوم ٣٠ منه فاستقبلته الجالية العربية وبعض الإنجليز من أنصار فلسطين بالحفاوة. وفى يوم ٣١ مارس قابل المستر مكدونالد رئيس الوزارة البريطانية واللورد باسفيلد وزير المستعمرات مقابلة استمرت ساعتين فعرض قضية فلسطين وقدم مذكرة مكتوبة طلب فيها وقف المهاجرة وسن تشريع خاص لمنع بيع الأراضى الصهيونية، وتأسيس حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابى وتحديد اختصاصات الحكومة فى شؤون البلاد الداخلية وصلاحيتها فى الأمور الخارجية، مع القيام بالالتزامات العادلة التى تعهدت بها حكومة جلالة الملك فى المعاهدات الدولية.

المستر مكدونلد يذيع عن سياسة حكومته

وفى يوم ٣ إبريل سنة ١٩٣٠ ألقى المستر مكدونلد بيانا فى مجلس النواب عن سياسة حكومته فى فلسطين هذا نصه:

إن الحكومة البريطانية ستستمر على إدارة شؤون فلسطين بمقتضى صك الانتداب كما وافق عليه مجلس جمعية الأمم. وهذا التزام دولى لا يمكن الرجوع عنه.

وتقضى شروط الانتداب على الحكومة البريطانية بالمساعدة على إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين مع عدم إتيان شئ من شأنه الإضرار بما للطوائف غير اليهودية الموجودة فيها من الحقوق المدنية أو الدينية، أو بحالة اليهود السياسية فى البلدان الأخرى

فهنالك وعد مزدوج، لليهود من جهة، ولغير اليهود فى فلسطين من الجهة الأخرى، والحكومة البريطانية عازمة عزما أكيدا على أن تنفذ التصريح بالمساواة نحو كل من الفريقين وتعامل بالعدالة على السواء كل طوائف السكان فى فلسطين.

وهذا هو الواجب الذى لا تحجم عنه، والذى ستستخدم كل ما عندها من الوسائل للقيام به.

وتقرير لجنة التحقيق يتناول نطاقا واسعا وقد عينت هذه اللجنة للبحث فى الأسباب المباشرة للحوادث الموجبة للأسف، والتى وقعت فى شهر أغسطس الماضى واقتراح وسائط لمنع تكرارها، ولابد أن اللجنة فى محاولاتها أداء مهمتها بأمانة وجدت صعوبة فى تعيين خط فاصل بالتدقيق. والحكومة تدرس الآن الاقتراحات المختلفة التى أشارت إليها اللجنة لمعالجة الأسباب المباشرة للحوادث ومنع تكرارها، وتشاور المصالح ذات الشأن. إنى أريد أن يفهم أن هذا البيان يشمل إعداد القوة اللازمة من البوليس لحفظ النظام فى الأحوال الحاضرة.

وقد كان لهذه التصريحات أسوأ أثر فى النفوس، لأنها دلت على تمسك الحكومة البريطانية بسياستها التقليدية فى فلسطين، وعلى أنها لا تبغى العدول عنها متأثرة بما لليهود من كبير النفوذ فى الدوائر البريطانية العليا. وقد أبرق الكثير إلى الوفد طالبين إليه أن يعود، ولكنه أبى الرجوع وواصل العمل حتى ١٢ منه فتوقفت المفاوضات على أثر ما ظهر للوفد - وهو أن الحكومة البريطانية لا تود إنصاف العرب وأرسل (الوفد) البرقية الآتية إلى فلسطين ومصر:

«عينت الحكومة البريطانية فى الاثنى عشر سنة الأخيرة ثلاث لجان تحقيق لتبحث فى أحوال فلسطين وتضع تقريرا عنها. وقد أبانت هذه اللجان جميعا أن السياسة الصهيونية كانت السبب فى جميع المتاعب، وأظهرت اللجنة الأخيرة أن فلسطين فى حالتها الحاضرة لا تتسع للمزيد من المهاجرين إليها، وأن الأراضى التى يتملكها العرب غير كافية لإعالتهم فضلا عن ضرورة الاستعداد لزيادة عدد السكان الزيادة الطبيعية، وأن العرب مجمعون على طلب الحكومة الديمقراطية.

وقد انتدبنا كوفد للبحث فى المسألة مع الحكومة البريطانية على ضوء تقرير اللجنة وحقوقنا الثابتة المبينة على مبدأ تقرير المصير فقدمنا الطلبات الآتية:

١ - وجوب وقف الهجرة إلى فلسطين، وأن تكون ملكية الأراضى التى فى يد العرب غير قابلة للنقل.

٢ - وجوب تأليف حكومة ديمقراطية يشترك فيها أهل البلاد بنسبتهم العددية. فرفضت الحكومة طلباتنا العادلة وأبلغتنا أنها سترسل خبيرا لدرس مسألتى الأراضى والهجرة وأنها ستدخل تغييرات دستورية فى نظام الحكم. وهذا دون ما طلبنا بكثير. ونحن نعتقد أن إعادة البحث فى مسألتى الأراضى والمهاجرة بعد ما قتلتها اللجنة فحصا وتمحيصا معناها الشك فى صحة حقوقنا.

وبالنظر إلى هذه العقيدة ختمت المباحثات وسيعود الوفد إلى وطنه وهو معتقد أن الحكومة البريطانية لا ينتظر أن تحل قضية عرب فلسطين بالعدل والإنصاف لتغلب نفوذ الصهيونيين عليها.

ولما كنا مقتنعين بأن الاستمرار فى هضم حقوقنا إكراما للسياسة الصهيونية يؤدى إلى إبادتنا كافة وأخيرا ملاشاتنا وإجلائنا عن بلادنا، وأن المسألة عندنا هى مسألة حياة أو موت فنعتقد أن شعبنا سيكافح هذه السياسة بجميع الوسائل السلمية.

ونحن واثقون من أن كل عربى فلسطينى يؤثر الموت دفاعا عن حقوقه الطبيعية وعن كيانه على الخنوع للضيم.

ولما كان أهل البلاد العربية والإسلامية شركاء فى فلسطين بات واجبا علينا أن نخطرهم بالحالة الخطيرة التى تهدد كيان بلادهم المقدسة وإخوانهم الساكنين فيها. وعندنا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن الجمهور البريطانى يعطف على قضيتنا رغم موقف الحكومة.

وفى يوم ١٣ منه أذاعت الحكومة البريطانية فى لندن البلاغ الآتى:

بسط الوفد الفلسطينى وجهات نظره فى عدة موضوعات، وخصوصا فى مسألتى الأراضى والمهاجرة ومنح دستور. فأخذت حكومة جلالة الملك علما بذلك وقد أفهم الوفد أن التغييرات الدستورية الشاملة التى يطلبها لا يمكن قبولها لأنها تعرقل عمل حكومة جلالته فى القيام بالتزاماتها بمقتضى الانتداب، وقد أفهم أنه لا سبيل للنظر فى أى اقتراح كان لا ينطبق على مقتضيات الانتداب.

تصريح للمستر مكدونلد

وفى يوم ٢٠ منه زار الوفد الفلسطينى المستر مكدونلد مودعا فقال للوفد: إنه مسرور بأنه

تناقش فى المسألة الفلسطينية هو والوفد، وقد أصغى بعناية إلى إيراد وجهة النظر العربية.

ثم قال: «إن حقوق العرب لا يمكن صرف النظر عنها، ولابد من المحافظة عليها وطلب من الوفد أن يخبر العرب أن الحكومة البريطانية أصغت بانتباه ودونت كل آرائهم وسيساعد ذلك على إجراء العدل، ومثل هذه المناقشة تؤثر فى الحكومة البريطانية أكثر من كل شئ آخر، وطلب من الوفد أن يتعاون والحكومة فى إدارة شؤون فلسطين».

وفى يوم ٢٠ مايو أذاعت حكومة فلسطين البلاغ الآتى:

«إن المحادثات التى جرت فى لندن بين بعض وزراء حكومة جلالته والوفد الفلسطينى العربى انتهت الآن، وقد أعرب الوفد عن آرائه بشأن عدد من المسائل، ولا سيما مسائل الأراضى والمهاجرة ومنح دستور للبلاد، وأخذت حكومة جلالته علما بآرائه فى هذه المسائل وأوضحت له أن التغييرات الدستورية الواسعة النطاق التى طلبها غير مقبولة برمتها، إذ إنها تجعل من المستحيل على حكومة جلالته القيام بجميع المسئوليات الملقاة على عاتقها بصفتها الدولة المنتدبة على فلسطين، وبما أن الوفد لم ير سبيلا لتغيير موقفه رغم الايضاحات والتأكيدات التى أبداها له وزراء جلالته، فقد ظهر جليا أنه ليس من فائدة ترجى من متابعة البحث فى هذه المسألة، وبناء على ذلك انتهت المحادثات التى كانت فى جميع أدوارها صريحة وودية، إلا أنه قيل للوفد إن حكومة جلالته بعد أن أخذت علما بوجهة نظر العرب ستلجأ فى نور المعلومات التى نالتها مباشرة من هذه المحادثات إلى حل مسألة صيانة مصالح الطوائف غير اليهودية فى فلسطين حلا يتناسب من كل الوجوه مع الالتزامات والعهود المترتبة عليها بموجب صك الانتداب، وهى مصممة على عدم السماح باتباع سياسة فى فلسطين من شأنها أن تعرض مستقبل تلك الطوائف للخطر، ولهذا السبب ونظرا لمشورة لجنة شو أوفد السيرجون هوب سمبسن للتحقيق فى مسألتى الأراضى والمهاجرة ورفع تقرير عنهما، ورغبة فى عدم إلحاق أى حيف بمصالح غير اليهود من جراء التأخير الذى لا مندوحة عنه قبل أن يكون فى الاستطاعة اتخاذ قرار حاسم فى نور تقرير السرجون هوب سمبسن، وينعم النظر الآن فى اتخاذ تدابير خصوصية لأجل اتخاذ الإجراءات السريعة لحماية مصالح الطبقة الزراعية من الأهالى، كما أنه اتخذت التدابير المؤقتة التى تضمن تنظيم المهاجرة فى خلال هذا التأخير، بحيث لا يعرض مستقبل البلاد الاقتصادى للخطر.

«أما المخاوف التى أعربت عنها بعض الدوائر من أن سياسة حكومة جلالة الملك قد تعرض كيان الشعب العربى فى فلسطين للخطر فلا مسوغ لها. ومن الأهمية بمكان أن تذاع - لمصلحة أهل فلسطين عموما - أن كل محاولة يقوم بها أشخاص مخدوعون لإذاعة أخبار مضضلة بشأن نيات حكومة جلالته - كما أعلن رئيس وزارة بريطانيا العظمى فى مجلس النواب يوم ٣ إبريل أن تستعمل جميع الموارد التى تحت تصرفها للقيام بالواجبات المفروضة عليها بصك الانتداب - أ هـ.

الكتاب الأبيض البريطانى

وفى ٢٧ مايو أصدرت الحكومة البريطانية كتابا أبيض فى القضية الفلسطينية يحتوى على تصريحات المستر مكدونلد رئيس الوزارة أمام مجلس النواب يوم ٣ إبريل وأقوال المستر هندرسن وزير الخارجية البريطانية أمام لجنة الانتدابات يوم ١٥ مايو، وهى لا تختلف عن تصريحات المستر مكدونلد، وقال إن الحكومة موافقة اجمالا على قرار لجنة التحقيق المرسلة إلى فلسطين بشأن قضية الاضطرابات، وأشار إلى شكوى الصهيونيين من مفتى بيت المقدس والجمعية التنفيذية العربية والحكومة. كما أشار إلى شكاوى العرب الثانوية. وقال إن الحكومة لا تعتبر أن تقرير اللجنة يقتضى القيام بعمل خاص لمشاكل المهاجرة والأراضى. وهى حيوية لفلسطين. ولذلك لا يمكن البت فيها بسرعة. فيجب والحالة هذه أن ينتظر تقرير السيرجون جون سمبسن. ويحال فى خلال ذلك دون انتزاع ملكية الأراضى من أيدى الفلاحين العرب. وتنوى الحكومة أن تصدر بيانا أوضح من هذا عن سياستها حالما يرفع إليها تقرير السيرجون سمبسن».

عودة الوفد إلى فلسطين

وفى يوم ٢٣ مايو غادر الوفد لندن عائدا إلى فلسطين بعد ما أقام فيها سبعة أسابيع عمل فى خلالها بجد ونشاط لخدمة القضية الفلسطينية والدفاع عنها. وإذا كان لم يوفق إلى إقناع الحكومة البريطانية بالعدول عن سياستها وإنصاف العرب فما ذلك إلا بسبب ما لليهود من نفوذ كبير فى الدوائر السياسية البريطانية العليا. فقد بذلوا جهدا عظيما فى حمل الحكومة البريطانية على إهمال تقرير لجنة شو وعدم الأخذ به ففازوا.

تقرير سمبسن

وعملا بما جاء فى تقرير لجنة شو أذاعت وزارة المستعمرات البريطانية يوم ٢ مايو بلاغا رسميا بأنها عينت السيرجون هوب سمبسن ليسافر إلى فلسطين بمهمة وقتية هى مفاوضته مع المندوب السامى لفلسطين وتقديم تقرير إلى الحكومة عن المسائل المتعلقة بتعمير الأراضى وتوسيع نطاق المهاجرة.

ووصل هذا إلى القدس يوم ٢٠ مايو وجاء فى بلاغ رسمى أذاعه المندوب السامى البريطانى يومئذ «أنه قادم للبحث مع المندوب بشأن مسائل الأراضى والمهاجرة وترقية اقتصاديات البلاد ورفع تقرير عنها إلى حكومة جلالته».

وفى يوم ٢٨ منه ذهب إلى يافا وعقد مع أعيانها اجتماعا ثم زار جنين والعفولة وبيسان وطبريا وصفد وحيفا والناصرة وعكا، وطاف معظم القرى واجتمع إلى كثيرين من العرب واليهود والموظفين ومديرى الشركات ورجال الأعمال الاقتصادية. ودرس الحالة عن كثب ووضع عنها تقريرا مفصلا رفعه إلى وزارة المستعمرات التى انتدبته. وهو مطبوع ومنشور باللغتين العربية والإنجليزية. وهذه خلاصة القواعد التى قام عليها:

١ ـ أثبت أن الأراضى التى بيد العرب (لغاية تاريخ وضع تقريره فى شهر يونيو سنة ١٩٣٠) لا تكفى لسد حاجاتهم. وخاصة إذا ظلت الأساليب الزراعية عندهم تسير على النمط الحالى.

٢ ـ أثبت أنه ليس عند الحكومة الفلسطينية أراض أميرية لتعطى لليهود.

٣ ـ أثبت أن الأراضى التى بيد اليهود تزيد عن حاجاتهم زيادة كبيرة. وقال أنهم يحتاجون إلى مدة لاستثمار الأراضى التى بأيديهم.

٤ ـ أثبت أن طريقة الاستعمار اليهودى مخالفة بأساليبها وكيفيتها لمبادئ العدل، وقال إن الأراضى التى تنتقل من كل عربى إلى يهودى لا تعود إلى العرب بحال من الأحوال.

٥ ـ أثبت فساد الأساليب التى تسير عليها الحكومة والوكالة اليهودية فى فتح أبواب المهاجرة لليهود. وقال إنه فضلا عن المهاجرين من ذوى الأصناف المصرح بها لمن يرومون الاستيطان من اليهود فى فلسطين يدخل أيضا عدد وافر من الناس بصفة سياح ولا تنتبه الحكومة إلا القليل منهم. ويدخل أيضا عدد ليس بقليل بطريق التهريب

والتخلص من المراقبة الواقعة على الحدود. فمن الواضح إذن أن الوكالة اليهودية هى المسؤولة عن جميع هذه الحوادث المخالفة للقانون.

٦ - وأوصى الحكومة فى ختام تقريره بأن تنهض بمشروع عمرانى كبير تكون الغاية منه تحسين الأساليب الزراعية وتحويلها إلى شكل تتحسن به الزراعة.

إعدام الشهداء الثلاثة

بلغ عدد العرب الذين صدرت عليهم أحكام بسبب الاضطرابات الأخيرة ٧٩٢ منهم ٢٠ حكم عليهم بالإعدام مقابل الحكم على ٩٢ يهوديا. منهم واحد حكم عليه بالإعدام واسمه هانكيز وهو من رجال الشرطة الفلسطينية. فقد ثبت عليه أنه فتك بأسرة عربية وهو يضع شارة الحكومة ويتسلح بسلاحها.

وأستأنف العرب أحكام الإعدام إلى مجلس الملك الخاص فى لندن ومع أن محاميا عنهم ذهب وترافع أمام المجلس إلا أنه قرر عدم اختصاصه.

واتجهت الأنظار نحو المندوب السامى لفلسطين، لأنه وجد وحده يملك حق العفو فأرسلت إليه برقيات من جميع الأنحاء والهيئات بطلب تخفيف الحكم. فأصدر فى أول يونيو قرارا أبدل فيه عقوبة الإعدام بالسجن المؤبد على المحكوم عليهم ما عدا ثلاثة منهم وهم عطا أحمد الزير ومحمد خليل جمجوم من خليل الرحمن وفؤاد حسن حجازى من صفد. وقرر بأن يعدموا شنقا يوم الثلاثاء ١٧ يونيو سنة ١٩٣٠ فى سجن عكا.

وزارت اللجنة التنفيذية المندوب طالبة تخفيف الحكم عن الثلاثة أسوة بالآخرين وأبرق البطاركة ورجال الدين إليه كما أبرقوا إلى ملك الإنجليز فلم يجد ذلك نفعا، ونفذ حكم الإعدام بالثلاثة فى الموعد المحدد. فأعدم المرحوم فؤاد فى الساعة الثامنة صباحا والمرحوم عطا فى الساعة التاسعة والمرحوم أحمد فى الساعة العاشرة.

وقد لبست فلسطين ثياب الحداد على شهدائها وأضربت يوم إعدامهم ولزم الناس المساجد والبيع يسألون لهم الرحمة. ومما يستحق الذكر أن اليهود من سكان عكا غادروها فى ذاك اليوم خوفا على حياتهم، وأرسلت الحكومة قوات عسكرية كبيرة أحاطت بها ومنعت الدخول والخروج منها.

وصلى عليهم صلاة الغائب فى جميع المساجد، وأعلنت وفاتهم فى المآذن واستمر الإضراب ثلاثة أيام أقيمت فى خلالها مظاهرات عديدة وصدرت الصحف الفلسطينية مجللة بالسواد ولبس الناس شارات الحداد ٤٠ يوما.

وأبت السلطة الرسمية أن تسلم جثث الشهداء لذويهم، كما أبت أن تسمح لأهل عكا بدفنهم. فقابل وفد من اللجنة التنفيذية المندوب فوافق على تسليم الجثث بشرط أن تدفن بهدوء ويزور الناس قبورهم بلا انقطاع ويحجون إليها مستمطرين لهم الرحمة.

أما اليهودى المحكوم عليه بالإعدام فقد خفض حكمه إلى سجن ١٥ سنة.

لجنة البراق

وفى شهر يونيو سنة ١٩٣٠ وصلت إلى القدس لجنة خاصة لدرس مسألة البراق وإصدار حكم فيها. وقد بدأت اللجنة عملها ٢٣ منه وافتتحها رئيسها المستر لوفكرن بخطبة شكر فيها لممثلى العرب واليهود استعدادهم لمعاونة لجنته. ثم قال أنها عينت بناء على اقتراح لجنة تحقيق شو بموافقة جمعية الأمم، على أن تكون مؤلفة من غير بريطانيين للفصل فى قضية البراق. وقال إن خير الطرق للوصول إلى الحقائق هو أن تتبع اللجنة أصول المحاكمات القضائية، ثم يطلب من الفريقين أن يساعدوه فى إقرار العدالة. وقال إن اللجنة مستعدة لاستماع ما يعرض عليها شفاها وكتابة، وأنها لم تأت للتحقيق فقط بل للحكم والفصل.

وقد تقاطرت الوفود من جميع أنحاء العالم الإسلامى إلى القدس للدفاع عن البراق وإعلان تمسك المسلمين فيه. فسافر وفد من مصر قوامه أحمد زكى باشا ومحمد زكى باشا ومحمد علويه باشا وزير الأوقاف المصرية السابق والأستاذ الشيخ محمد الغنيمى التفتازانى، وجاء وفد من سورية وجاء والمغرب كما أرسلت بقية الأقطار برقيات تعلن تضامنها وبعد طول بحث أصدرت اللجنة قرارها وهو يقضى بكون البراق ملكا للمسلمين وبأن يسمح لليهود بزيارته والصلاة فيه من دون إقامة مقاعد. ومعنى ذلك أنها أبقت القديم على قدمه.

ـ ٦ ـ

النضال بين الفلسطينيين والإنجليز
اجتماع يافا ومظاهرات شهر أكتوبر سنة ١٩٣٣

سكنت ريح الحوادث فى فلسطين وهدأت هدوءا نسبيا نحو سنتين بسبب الشقاق الذى أشتد بين رجال العرب بفعل الدسائس اليهودية ـ الإنجليزية. فخلا الميدان لليهود فطبقوا خططهم وأساليبهم المعروفة بمساعدة الحكومة البريطانية، وقد أعرضت عن أقوال لجان التحقيق وتقاريرها، وكلها فى مصلحة العرب ولم تنفذ شيئا مما جاء فيها.

ورأى مفكرو العرب أن يكون النضال فى المرحلة الجديدة موجها ضد الإنجليز مباشرة باعتبارهم المسؤولون عن السياسة التى ترمى إلى محوهم وإبادتهم، وباعتبارهم حماتها ومنفذيها. فلولا مساعدتهم لها وأخذهم بعضد اليهود وتأييدهم لهم لما استطاعوا البقاء فى فلسطين ولما ثبتوا فيها، ولما طمعوا فى إنشاء دولة يهودية فى ربوعها. ومعنى ذلك أن الحركة الوطنية فى هذه المرحلة اتجهت إلى مكافحة الإنجليز بعد ما كانت خمس عشرة سنة متجهة إلى مقاومة الصهيونية نفسها.

ووضع الفلسطينيون أساس السياسة الجديدة فى اجتماع عقدوه فى يافا فى شهر فبراير سنة ١٩٣٣ فألفوا وفدا من رجالهم قابل المندوب السامى البريطانى يوم ٢٤ منه محتجا على تدفق تيار الهجرة اليهودية. خلافا لكل عهد وميثاق وطالبا وقفها ومنع بيع الأراضى لليهود فرد عليهم بأن الهجرة تجرى طبقا للمقتضيات الاقتصادية. وبأن منع البيع أو تقييده اعتداء على الحرية الشخصية. فقرر المجتمعون بعد سماع هذه البيانات الدعوة إلى عقد اجتماع عام فى يافا ضربوا له موعدا يوم الأحد ٢٦ مارس سنة ١٩٣٣ للنظر فى التدابير التى يجب على الفلسطينيين التوسل بها للمحافظة على كيانهم. وعقد هذا الاجتماع وحضره نحو ألف فلسطينى فقرر بعد الدرس والبحث تطبيق مبدأ عدم التعاون مع الإنجليز باعتبارهم مسؤلون مباشرة عن نكبة فلسطين. على أن ينفذ تدريجا. وذلك بعدم تلبية دعوات الحكومة ومقاطعة البضائع الإنجليزية واليهودية.

مظاهرة القدس

وفى يوم ٨ أكتوبر سنة ١٩٣٣ عقدت اللجنة التنفيذية اجتماعا درست فيه الموقف وأصدرت القرارات الآتية:

١ ـ إعلان سخط الأمة العربية فى فلسطين التى بليت بالاستعمار البريطانى على عبث الحكومة البريطانية بحقوق أصحاب البلاد وتحديها لعواطفهم الوطنية واستهتارها بكيانهم الوطنى ومصالحهم الاقتصادية والاجتماعية، بفتحها أبواب البلاد للهجرة الصهيونية وتسهيلها انتقال أراضى العرب إلى أيدى اليهود واستبدادهم بالحكم المباشر.

٢ ـ دعوة الأمة الكريمة إلى الإضراب برا وبحرا فى جميع مدن فلسطين وقراها يوم الجمعة ١٣ أكتوبر الجارى.

٣ ـ إقامة مظاهرة كبرى فى اليوم المذكور فى مدينة القدس على أن يكون على رأسها رئيس اللجنة وجميع أعضائها الحاضرين فى هذا الاجتماع والغائبين، وذلك فى الساعة الواحدة بعد الظهر على أن تبتدئ من باب الحرم وتنتهى فى باب العامود، وعلى مقربة من دار الحكومة التى يقيم فيها المندوب السامى، ويتلى بيان على المتظاهرين يبين فيه حالة البلاد الحاضرة وسياسة الحكومة التى ترمى إلى «تهويد» فلسطين على مرأى العرب ومسمعهم. وبعد ذلك يتفرق المتظاهرون بكل سكون وهدوء.

٤ ـ بعد انتهاء هذه المظاهرة يذهب جميع أعضاء اللجنة التنفيذية إلى دار اللجنة حيث يقررون حالا القيام بمظاهرة ثانية فى مدينة أخرى من مدن فلسطين. على أن تتلو هذه المظاهرة مظاهرات أخرى فى أيام قريبة فى المدن والقرى، حتى لا تبقى مدينة ولا قرية فى فلسطين لم تقم بمظاهرة، ويجب أن تقام هذه المظاهرات على التوالى وتضرب جميع ابلاد إضرابا عاما فى كل حين تقام فيه إحدى المظاهرات.

٥ ـ إن جميع أعضاء اللجنة مطلوب منهم الاشتراك فى كل مظاهرة تقام، وأن يكونوا على رأسها، وكل عضو يتخلف عن هذا الواجب فأن اللجنة تبحث فى أمره ولها الحق فى فصله.

٦ ـ إن مظاهرة القدس التى ستقام يوم الجمعة المقبل لا تخاطب الحكومة فى شأن

الترخيص بها. وكذلك الحال فى المظاهرات الأخرى التى ستقام. ويجب على المتظاهرين أن يقوموا بمظاهرتهم مهما كلفهم الأمر.

٧ ـ إن عرب فلسطين قد يئسوا يأسا تاما من الحكومة فهم لا يخاطبونها فى شئ ولايطلبون منها شيئا.

٨ ـ العدول عن سياسة الاحتجاجات والخطب غير المجدية.

ولما اتصل الخبر بالحكومة أذاعت بلاغا رسميا يوم ١١ منه قالت فيه أنها لا تسمح بالقيام بأى مظاهرة أو موكب. فلم تعبأ اللجنة بمنعها وتمجهر الناس فى الحرم وخرجوا بموكب عظيم يتقدمهم موسى كاظم باشا الحسينى فى الوقت المضروب، وساروا من الحرم الشريف متجهين إلى كنيسة القيامة ثم خرجوا من السور ولما بلغوا الطريق الجديد هاجمت قوات الشرطة المظاهرة محاولة منعها عن مواصلة السير وتفريقها فلم تمتنع ولم تتفرق. بل واصلت السير إلى باب العامود فدار شجار بين رجالها والشرطة أصيب فى خلاله موسى كاظم باشا بشبه إغماء لكثرة الازدحام فنقل إلى المستشفى الفرنسوى ثم إلى داره، وأصيب جمال الحسينى برضوض فى كتفه وصدره وفخده لأنه كان يتقدم المظاهرة وكسرت ذراع فريد فخر الدين عضو اللجنة التنفيذية.

وقامت سيدات القدس فى ذاك اليوم بمظاهرة كبيرة وأقفلت فلسطين احتجاجا. وجرح ٣٥ من المتظاهرين و٥ من رجال الشرطة ومنعت الحكومة الصحف الفلسطينية من نشر أى شئ عن هذه المظاهرة.

وعقدت اللجنة التنفيذية اجتماعا فى المساء بدار رئيسها بعدما استرد قواه قررت فيه أن تقوم فلسطين بمظاهرة ثانية فى يافا يوم الجمعة ٢٧ أكتوبر، وأن تستمر البلاد فى إقامة المظاهرات كل أسبوع فى بلدة إلى أن تنزل الحكومة البريطانية على مطالب الأهلين بمنع الهجرة اليهودية ومنع بيع الأراضى وتحقيق المطالب الوطنية ـ كما استنكرت أعمال الشرطة القاسية وفظاعتها فى تفريق الجماهير العزل.

مظاهرة يافا

وحاولت السلطة منع هذه المظاهرة. كما حاولت منع مظاهرة القدس فلم تفلح، وأقبل الناس من كل حدب وصوب إلى يافا للاشتراك فى المظاهرة وفى مقدمتهم رجال اللجنة

التنفيذية واستعدت السلطة استعدادا كبيرا فنصبت الأسلاك الشائكة فى الشوارع وبثت القوى فى منافذ الأحياء.

واجتمعت اللجنة التنفيذية قبل الصلاة فى دار الجمعية الإسلامية ـ المسيحية وعقدت جلسة رسمية، وكانت يافا تموج بالناس كأنها فى يوم حشر وجاء سرب من سيدات العرب فى السيارات فحياهن الجمهور وهتف لهن، ووصل وفد من شباب دمشق وآخر من شرق الأردن ووفد الحولة وعلى رأسه أمير عرب الفضل.

وبعد الصلاة جعلت الجماهير تتدفق من باب الجامع الجنوبى فسارت المواكب وعلى رأسها موسى كاظم باشا رئيس اللجنة وعلت أصوات الأهازيج والتكبير والأناشيد الوطنية. ولما بلغ الموكب ساحة البوابة هاجمته خيالة الشرطة وعلى رأسها الخوذ الفولاذية وبأيديها الهراوات الغليظة محاولة تفريقه، فوقع الاصطدام وأطلقت النيران واشتد الهول والرعب ودامت الحال نحو ساعة ونصف ساعة.

وفى الساعة الرابعة مساء أذاعت السلطة فى يافا البلاغ الآتى: «اعتبارا من مساء هذا اليوم وإلى شعار آخر يجب على جميع الأشخاص الذين يقطنون ضمن منطقة يافا وتل أبيب أن يكونوا فى منازلهم من الساعة السادسة مساء إلى الخامسة صباحا».

وأصدرت حكومة فلسطين مساء الجمعة بلاغا رسميا جاء فيه:

أعلنت اللجنة التنفيذية العربية عزمها على إقامة مظاهرة سياسية بيافا يوم ٢٧ أكتوبر الجارى فقابل المندوب السامى رئيس اللجنة التنفيذية العربية وأعضاءها وأبلغهم أنه لا يسمح بإقامة موكب سياسى أو مظاهرة سياسية فى يافا، ولكن يسمح لأعضاء اللجنة التنفيذية بأن يتوجهوا إلى دار الحكومة ليقدموا احتجاجا أو بيانا خطيا لحاكم اللواء ليقدمه إلى المندوب السامى فلم يقبلوا وأقيمت المظاهرة إلخ.

ومنعت السلطة السيدات العربيات من القيام بمظاهرتهن ولما أرادت اللجنة التنفيذية أن تجتمع بعد المظاهرة لبحث الحالة جاء ضباط انجليز إلى دارها وفضوا الاجتماع بالقوة واحتلوا المكان، واعتقلت السلطة عددا كبيرا من الشبان ومن أعضاء الهيئات السياسية لاشتراكهم فى المظاهرة.

وعاد رجال اللجنة التنفيذية إلى القدس مساء الجمعة فعقدوا اجتماعا قرروا فيه مقابلة

المندوب السامى صباح السبت للاحتجاج على تصرفات الشرطة الشاذة فى يافا. كما قرروا تأليف ثلاث لجان مؤقتة: لجنة للإعلانات ولجنة قضائية ولجنة لتشييع الشهداء وإسعاف الجرحى.

وأضربت فلسطين برمتها يوم السبت ٢٨ منه وذهب وفد فقابل المندوب محتجا على ما جرى وطالبا توقيف الهجرة ومنع بيع الأراضى وتأليف حكومة نيابية وإطلاق سراح الموقوفين. وكانت أجوبة المندوب أن البلاد تتدرج فى مراحل الحكم النيابى وأن الاضطرابات تحول دون تقدمها. وأصدرت اللجنة التنفيذية يوم السبت ٢٨ منه البيان الآتى:

قررت اللجنة التنفيذية العربية إقامة مظاهرة سلمية فى مدينة يافا لإظهار استيائها من تدفق الهجرة وبيع الأراضى. فاجتمعت فى الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة فى دار الجمعية الإسلامية ـ المسيحية بيافا، وذهب الأعضاء لأداء صلاة الجمعة فى الجامع الكبير ثم خرج الموكب يتقدمه رئيس اللجنة التنفيذية موسى كاظم باشا الحسينى وأعضاء اللجنة ووفد سورية ووفد شرق الأردن وأمراء عرب الفضل ووفد الحولة وأعضاء الجمعية الإسلامية ـ المسيحية وأعضاء مكتب مؤتمر الشباب العربى وعدد كبير من أعيان ووجوه فلسطين ومدينة يافا، وسار فى الطريق المؤدية إلى حى العجمى الذى لا يسكنه غير العرب ولما تقدم الموكب واتجه نحو شارع العجمى للذهاب إلى مركز الجمعية الإسلامية ـ المسيحية فاجأه مشاة البوليس وفرسانه بالضرب ضربا مبرحا بالهراويات على أقفيتهم ورؤوسهم فذعر الأهلون وتفرقوا، ولم يكتف البوليس بتفريق الجمهور بل تعقبه بقسوة بين الشوارع والأزقة الضيقة فدافع البعض عن أنفسهم بعصى بسيطة أجابهم البوليس باطلاق الرصاص مدة طويلة مما سبب قتل أكثر من ثلاثين عربيا وجرح مائتين، وفى الساعة الثانية والنصف بعد ظهر ذلك اليوم اجتمع أعضاء اللجنة التنفيذية وبحثوا فى إقامة مظاهرة سلمية فى نابلس يوم الجمعة المقبل وفى إعانة عائلات الشهداء وأيتامهم والاشتراك بجنازاتهم وفى أثناء البحث دخلت الجمعية الإسلامية المسيحية كوكبة من الجند البريطانى على رأسهم عدد من الضباط العرب والإنكليز وفضوا اجتماع اللجنة التنفيذية بالقوة، واحتلوا المكان واعتقلوا السادة يعقوب الغصين، سعيد الخليل، صليبا عريضة، أدمون روك، وفريد فخر الدين، ومن أعضاء اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشباب، ثم أعلنت الأحكام العرفية فى يافا واعتقل مساء

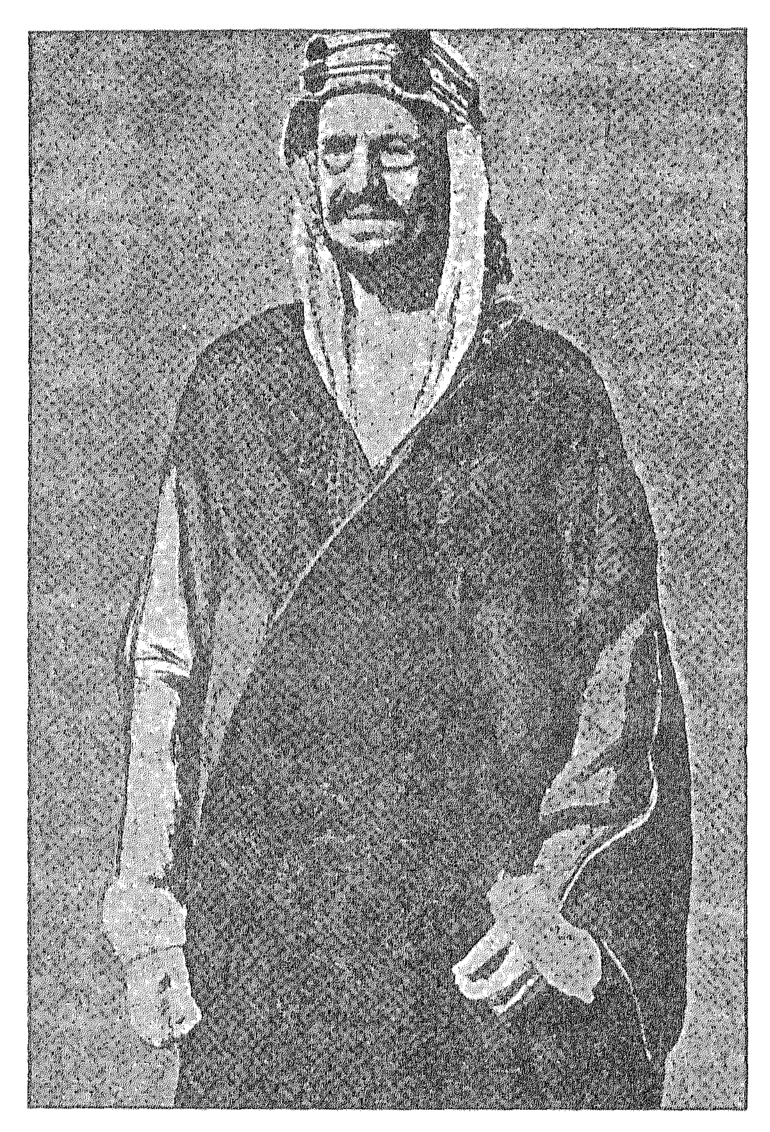
السادة جمال الحسيني وعوني عبد الهادي، وعزت دروزة، من أعضاء اللجنة التنفيذية العربية ثم ألقت الحكومة القبض على عدد كبير من الأهالي، وقد اعتدى البولس على السادة الموقوفين أعضاء لجنة مؤتمر الشباب بالضرب الشديد في دائرة البوليس، وحدثت بعض حوادث مؤلمة في نابلس وحيفا سببها البوليس بقسوته بخروجه على القوانين المدنية.

فاللجنة التنفيذية تستنكر هذه الأعمال القاسية التي اقترفتها الحكومة ضد شعب أعزل من السلاح لايقصد إلا إظهار استيائه واستنكار ماحل به من ظلم الانتداب ومايرمي إليه من إفناء الشعب العربي وإجلائه وإغراق البلاد بشذاذ الآفاق من اليهود، وتحتج على ذلك جمعية واللجنة تؤاسي ذوي الشهداء والأمة في شهدائها وتدعو الشعب العربي إلى الصبر والثبات ومد يد المساعدة للمنكوبين في هذه الظروف العصيبة والله ولي الصابرين.

محاكمة الاحرار

وأقامت حكومة فلسطين الدعوى أمام محكمة يافا علي بعض الأحرار الذين دبروا المظاهرة وقادوها فحوكموا أمام القاضي دولي البريطاني، وبعد مرافعات ومدافعات اشترك فيها معظم محامي فلسطين أصدر القاضي يوم ١٩ مارس سنة ١٩٣٤ قراره وهو يقضي بالسجن عشرة أشهر مع الأشغال الشاقة على كل من عوني عبد الهادي وجمال الحسيني وعزة دروزة والشيخ عبد القادر المظفر ويعقوب الغصين وأدمون روك وصليبا عريضة وسعيد الخليل وسليم عبد الرحمن وفريد فخر الدين. وبالسجن خمسة أشهر مع الأشغال الشاقة على كل من محمد على الفيض وعز المصري ورفيق مناع وخاشو كركوريان.

وقد كان لإصدار هذا الحكم أسوأ تأثير في نفوس الفلسطينيين خاصة والعرب عامة فاحتجوا عليه واستنكروه ورفع المحكوم عليهم الأمر إلى محكمة الاستئناف للنظر فيه ولم تبت حتى الآن.



الملك عبد العزيز السعود

٣

الدولة الهاشمية فى الحجاز

ـ ١ ـ
كيف تأسست الدولة الهاشمية

ظل الحجاز حتى إعلان الثورة العربية فى شهر يونيو سنة ١٩١٦ جزءا من أراضى الدولة العثمانية تشمله سيادة السلطان وتصدر الأحكام فيه باسمه، فلما جاهر الشريف يخلع طاعته، ونقض بيعته، اتجهت الأنظار إلى إنشاء دولة جديدة تحل محل الدولة القديمة وتدير شؤون البلاد وتمثلها.

ولم يشأ الشريف أن يعجل بالعمل مع أنه قبض فعلا على زمام الحجاز، ماخلا المدينة المنورة، بل ظل يوقع رسائله ومنشوراته باسم شريف مكة وأميرها، ويخاطب الدول بهذه الصفة، حتى ختام أول موسم للحج فى العهد الجديد، وزوال كل خطر عن الثورة فجرت البيعة بالملك يوم الخميس ٦ المحرم سنة ١٣٣٥ و ٣ ديسمبر سنة ١٩١٦ فجاء الحسين من القصر الملكى إلى مدرسته الخاصة الملاصقة للكعبة فدخلها يحف به آله وذووه والعلماء والكبراء، ولما استقر بهم المقام سلم الشيخ عبد الله سراج مفتى الحنفية فى مكة الشيخ عبد الله الخطيب كتاب البيعة فتلاه على الجماهير المحتشدة فى الحرم. ثم قام الشيخ ابن سراج فبايع الحسين بالملك، ولقبه بملك البلاد العربية وتبعه الناس بالمبايعة.

وفى الغداة أصدر الحسين المرسوم الآتى بتأليف أول وزارة.

حضرة العالم الكامل الشيخ ابن سراج:

إنه لما كانت مصالح الرعايا وانتظام شؤون المجتمع وتوفر أسباب العمران لابد لها من دواوين يتوزع عليها النظر فى الحكومة، وما هو فى معنى ذلك من المصالح العامة والخاصة ويتعين بها أساس الوظائف الذى تبنى عليه المسئولية وتكوين حكومة بلادنا المحروسة، وبالنظر إلى ما تحققناه فيكم من الكفاءة والاستقامة عزمنا بعد الاستعانة بالله عز وجل على توجيه منصب قاضى القضاة لعهدتكم وتعيينكم وكيلا عن رئيس الوكلاء العظام [1].

وقد اخترنا لبقية الوكالات حضرات الذوات الآتية أسماؤهم. وهم ولدنا عبد الله بن

---

١ ـ رئيس الوكلاء هو الأمير على بن الحسين وكان مشغولا بالحرب.

الحسين لوكالة الخارجية، ويكون وكيلا عن وكيل الداخلية[1] وعبد العزيز بن على «المصرى» رئيس أركان حرب ووكيل رئاسة الجند مع ترفيع درجته عن رتبته الحاضرة. والشيخ على مالكى وكيلا للمعارف والشيخ يوسف بن سالم رئيس البلدية سابقا وكيلا للمنافع العمومية والشيخ محمد أمين مدير الحرم الشريف سابقا وكيلا سابقا وكيلا للمنافع العمومية والشيخ محمد أمين مدير الحرم الشريف سابقا وكيلا للأوقاف مع بقائه فى نظارة أمور الحرم وكل ما يتعلق بوظيفته الشريفة والشيخ أحمد بن عبد الرحمن باناجة وكيلا للمالية وذلك لما توسمنا من درايتهم واستعدادهم للسهر على مصالح البلاد وأهلها على مايرضى الله. وإننا ننتظر منكم المبادرة إلى تأسيس الدوائر والدواوين الرسمية وتعيين العمال والموظفين لها. وأرجو الله سبحانه أن يجلعنا مظهر توفيقه وهداه فى كل ما يحبه ويرضاه».

وأصدر فى اليوم نفسه مرسوما آخر بإنشاء «مجلس الشيوخ الأعلى» يكون كبرلمان للحكومة الجديدة وهو:

بما أننا قد استنسبنا تعيين هيئة أطلقنا عليها اسم «مجلس الشيوخ» وجعلنا وظيفة هذا المجلس النظر فى كل ما يتعلق بمنافع البلاد والمراقبة على أعمال الدواوين والدوائر الرسمية وإبداء الرأى فيما تعرضه الدوائر على مقام رئيس الوكلاء وسيقرر فيما بعد اختصاص هذا المجلس العالى. وقد جعلنا رئيسا له جناب الفاضل الأجل فاتح بيت الله الحرام الشيخ محمد الشيبى وأعضاءه حضرات الأفاضل الأجلاء مفتى الشافعية السيد عبد الله ابن محمد صالح الزواوى ومفتى المالكية الشيخ عابد بن الحسين والشيخ عبد القادر بن على الشيبى ونائب الحرم السيد إبراهيم بن على ووكيل شيخ السادة السيد محمد بن علوى السقاف والشيخ عبد الله على رضا والشيخ على بن عبد الله الشرباصى والشيخ أبا بكر ابن محمد خوقير وذوى السيادة والشرف حمزة بن عبد الله الفعر وفتن بن محسن وسليمان ابن أحمد بن سعيد وناصر بن شكر».

وفى اليوم نفسه أرسل الأمير عبد الله بن الحسين وكيل الخارجية الجديد البلاغ الآتى إلى وزارات خارجية الحلفاء والمحايدين مترجما إلى اللغة الفرنسوية وهو:

«بملء السرور أبلغ سعادتكم أن أفاضل البلاد ووجهاءها وعلماءها وكافة طبقاتها قد

---

١ ـ وكيل الداخلية هو الأمير فيصل بن الحسين وقد كان مشغولا بالحرب.

اجتمعوا فى صباح هذا اليوم، وأقروا باتفاق الرأى مبايعة حضرة صاحب الجلالة والسيادة مولاى الشريف الأعظم حسين بن على بالملك على الأمة العربية، فهو اليوم ملك العرب الأعظم بناء على ما تحققته البلاد من كفاءته وإخلاصه الحقيقى للوطن ورغبته الصادقة فى نشر ألوية العلم والعدل فى جميع أرجاء هذه البلاد العربية التى غادرتها عصابة الاتحاد والترقى المعروفة لدى العالم بأسره بالمساعى والمقاصد المخالفة لكل شريعة ونظام، ولتعمدها استئصال كيان البلاد المادى والمعنوى، والمشهود آثاره فى طائفة غير قليلة من مسلمين ومسيحيين ودروز ممن لا ذنب لهم غير وطنيتهم الصادقة ونجابتهم العلمية وأن الأمة العربية لتود من سعادتكم اعتبارها عضوا عاملا فى الهيئة الاجتماعية. كما شيدت ذلك بعناية الله وتوفيقاته الصمدانية.

وتفضلوا يا حضرة الوزير بقبول توقيراتى الجزيلة وأنى على الدوام محبكم المخلص».

وفى يوم ١١ منه أرسل الأمير عبد الله بلاغا مطولا إلى المندوب بمصر عن الحكومة الجديدة وتأليفها نشرناه فى الجزء الأول

ولقد اعترضت الحكومتان الإنجليزية والفرنسوية على لقب الملك الجديد. ثم عادتا فاعترفتا بعد أخذ ورد طويلين به ملكا على الحجاز فقط. كما اعترفتا ومعهما روسيا باستقلال الدولة العربية الجديدة فى الحجاز. وقد فصلنا ذلك كله بإسهاب فى الجزء الأول.

الحكومة الجديدة ورجالها

على هذا المنوال تألفت الحكومة الجديدة فى الحجاز. فالحسين هو رئيس الدولة وكبير أنجاله الأمير على رئيس الحكومة (رئيس هيئة الوكلاء) ونجلاه الآخران عبد الله وفيصل تقلدا الخارجية والداخلية، ولئن جلس الأمير عبد الله فى دار وزارة الخارجية وأشرف على شؤونها بضعة أيام فلم يتح ذلك للأمير على. فقد كان حين إنشاء الحكومة الجديدة يدير حركة القتال فى الميدان الجنوبى وظل فيه حتى استسلام المدينة المنورة فى يناير سنة ١٩١٩ فدخلها وعين أميرا لها. وأول مرة عاد فيها إلى مكة بعد سفره منها فى سنة ١٩١٥ كانت فى أواخر سنة ١٩١٩ ولم يطل الإقامة. بل عاد إلى مقره فى طيبة ولم يتقلد هذا المنصب الذى اختاره له والده فى وقت من الأوقات. وكذلك كان شأن الأمير فيصل. فقد اختير لوكالة الداخلية وهو فى ميدان القتال، ولم يعد إلى الحجاز بعد سفره منه فى

سنة١٩١٥ إلا وهو ذاهب إلى العراق سنة ١٩٢١ فأقام بضعة عشر يوما فقط. واعتزل الأمير عبد الله العمل فى وزارة الخارجية نهائيا بعد سفره إلى بلاد الشام سنة ١٩٢٠ ورجع إلى الحجاز بعد ذلك غير مرة لا للعمل بها للزيارة.

لقد أردنا من سرد هذه البيانات التاريخية إقامة الدليل على أن الحكومة التى أنشأها الحسين فى الحجاز وحباها بكل ما للحكومات من مظاهر خارجية. فجعل لها مجلس نظار ومجلس شيوخ - لم تكن سوى حكومة اسمية مجردة من كل نفوذ وسلطان. إذ حصر كل شئ بشخصه وجعل نفسه الكل فى الكل. نعم أنه عين الشيخ عبد الله سراج نائبا لرئيس الوكلاء. كما عين نائبا لوكيل الخارجية وآخر لوكيل الداخلية، ولكن هؤلاء الوكلاء جردوا أيضا من كل سلطان ونفوذ. لأن الملك كان يصرف جميع الشؤون بنفسه ومن دون أن يطلع أحدا على شئ. وعقد مجلس الشيوخ جلسات فى السنة الأولى ثم انقطع عن الاجتماع نهائيا. إذ لم تعرض عليه قضية من القضايا الداخلة فى اختصاصه للنظر فيها. ولا ريب أن استئثار الحسين بالحكم وتفرده بالعمل ومحاولته إبقاء كل قديم على قدمه وتجاهله روح العصر وإهماله إعداد القوى والمعدات - إن ذلك كله عجل فى القضاء على دولته فلم تعش سوى تسع سنوات.

ـ ٢ ـ

علاقات الحكومة الهاشمية بالإمارات العربية

كان فى جزيرة العرب حين إعلان الحرب العظمى أربع إمارات مستقلة استقلالا داخليا تضيق دائرته وتتسع تبعا للظروف والأحوال: إمارة آل الرشيد وعاصمتها حايل، وإمارة آل سعود وعاصمتها الرياض وكلتاهما فى نجد وقد استحكمت بينهما العداوة فهما فى نزاع مستمر ونضال دائم.

وكانت الإمارتان الأخريان فى الجنوب (اليمن): الأولى فى الجبال وهى إمارة الزيود أو أمامتهم وعاصمتها صعداء وسلطتها روحية، والثانية فى تهامة وعاصمتها جيزان وهى أحدث الإمارات عهدا وأقربها إلى الحجاز وأكثرها صلة به.

وكان الحسين يرجو بعد ما عاهد الإنجليز واتفق معهم وأعلن الثورة فى الحجاز أن يحل محل الدولة العثمانية فى الجزيرة ويرثها. فتنتقل إليه السيادة على هذه الإمارات ويسيطر عليها.

على أن الحال تحول فى خلال السنة الأولى للحرب فانضم الإدريسى إلى الإنجليز وعاقدهم فاعترفوا بإمارته وسلطانه وأمدوه بالأموال والسلاح فحمل على أبها وحاصرها.

وفعل فعله ابن سعود أيضا فعقد مع الإنجليز يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ معاهدة العقير فاعترفوا فيها «بأن نجدا والحسا والقطيف وجبيلا وتوابعها هى بلاد ابن سعود وآبائه من قبل. كما اعترفوا بابن سعود حاكما عليها مستقلا، ورئيسا مطلقا على قبائلها وبأبنائه وخلفائه بالإرث من بعده»

ورفض الإمام يحيى الدخول فى مفاوضات مع الإنجليز ورد رسلهم خائبين قانعا بما ناله من الترك بمعاهد دعان.

وانضم آل الرشيد إلى الترك وأقاموا على الولاء لهم فى داخل الجزيرة يمدونهم بالإبل ويأخذون منهم الأموال والسلاح. ومعنى ذلك أن الشريف حسينا وجد نفسه أمام حالة مبرمة حينما نهض لقتال الترك. فقد سبقه الإدريسى وابن سعود فى الاتفاق مع الإنجليز ومحالفتهم، وسدا عليه طرق التدخل فى شؤونهما. أما عبد العزيز الرشيد فقد غلق مصيره

بمصير الترك، وانضم إليهم قلبا وقالبا لاعتقاده أن بقاء إمارته يتوقف على انتصارهم بعد ما نظم خصمه عبد العزيز السعود صلاته مع الإنجليز.

١ ـ العلاقات بين الحسين وابن سعود

ولم تكن العلاقات ودية قبل إعلان الحرب العظمى بين الشريف حسين وبين عبد العزيز سعود، فقد انصرف هذا منذ بلغ الحجاز سنة ١٩٠٩ قادما من الآستانة لتقلد منصب شرافة مكة إلى مقاومة الدعاية الدينية التى كان يبثها ابن سعود بين قبائل الحجاز خوفا من أخطارها ونتائجها.

وجهز الحسين حملة قوى فى سنة ١٩١٠ تتألف من عساكر بيشه وعكيل والقبائل الموالية له وفى جملتها عتيبة، وسار معه محمد بن حميد شيخ عتيبة وأبو العلا شيخ العصما وعدد كبر من الشيوخ والرؤساء حتى الخرمة على حدود نجد فهاجم قبائل الدواسر فى أسفل وادى الخرمة فقاوموه، وكان بينهم سعد بن عبد الرحمن الفيصل شقيق عبد العزيز سعود، وقد جاء على رأس قوة لصد الحسين فأسره وهزم من كان معه فخضعت له قبائل البقوم ومطير وغيرها فتغلغل فى نجد حتى وصل إلى قرب القصيم، وتوسط محمد بن حميد للاصلاح فتم الاتفاق على أن لا يتعرض ابن سعود لقبائل عتيبة والبقوم وسبيع ومطير الضاربة على الحدود الحجازية النجدية، ولا للقبائل الداخلة فى المنطقة الحجازية حتى الشعراء (شفانجد) ونال بذلك عهدا مكتوبا من عبد العزيز عاد به إلى مكة بعد ما أطلق سراح الأمير المأسور.

واستقرت الحالة فى شرقى الحجاز على أثر هذا الحادث، وتحسنت العلاقات بعض تحسن بين هاتين الإمارتين فلم يقع ما يكدرها. وساير الجار جاره حتى أعلن الشريف الثورة فأرسل إلى ابن سعود الهدايا والتحف كما كان يفعل سلاطين آل عثمان فأرسل إليه بالمقابلة هدايا مثلها حملها إليه وفد نجدى تألف من محمد العبد الرحمن الفيصل شقيق الأمير عبد العزيز وعبد العزيز بن تركى ومشارى بن حلوى ومحمد بن ناصر الفرحان فاستقبلهم حين دخولهم مكة فى حج سنة ١٣٣٦الشريف عبد الله بن محمد والشريف قائمقام مكة، ورحبا بهم باسم الملك ونزلوا فى ضيافته. ودار حديث بين الوفد والملك فى الشؤون السياسية فطالب الوفد بتحديد الحدود نهائيا بين نجد والحجاز، والاعتراف بنجد

ومصالحها فكلف الملك الوفد أن يقول لموفده هذه الجملة «كل ما أنت عليه فهو لك» وانقضت أيام الحج وعاد الوفد إلى بلاده من دون أن ينال منالا أو يحل مشكلة.

وكاتب ابن سعود الإنجليز بعد عودة الوفد طالبا منهم أن يحددوا موقفهم إزاءه وإزاء الحسين وإزالة ما هنالك من سوء تفاهم، ولاستنهاض همته لمهاجمة ابن الرشيد حليف الترك ونصيرهم، وللتشديد فى مراقبة تهريب الأرزاق والمؤن والذخائر من طريق الخليج الفارسى والكويت إلى البلاد العثمانية فأقام فيها أياما. وكان المستر فيلبى من جملة أعضائه ثم عاد وقد فشل فى مهمته فيما يختص بالجزء الأول بسبب عناد الفريقين ونجح من جهة حمل بن السعود على قتال آل الرشيد فقد حمل عليهم فى صيف سنة ١٩١٨ وقاتلهم.

وتجدد الخلاف بينهما والحرب العظمى توشك أن تلفظ أنفاسها وظهر بمظهر جديد منشؤه الخارجى التنازع على ملكية تربه والخرمة - وهما واحتان واقعتان إلى شرق الطائف وراء جبل حضن فى وادى سبيع يقطنهما جماعة من سبيع والبقوم. أما منشؤه الحقيقى فهو التنافس على السيادة والتنازع عليها. وقد اغتنم ابن سعود فرصة انتفاض الشريف خالد بن لؤى أمير الخرمة على الحسين فجاء لمناصرته وتأييده.

وبين الرواة اختلاف فى تعليل هذ الانتفاض، والرأى الأرجح هو أن خصاما شجر بينه وبين ناصر بن شلوع من شيوخ قبيلة الروقة (عتيبة نجد) فقد لطم هذا خالدا أثناء اشتراكهما فى حصار المدينة المنورة، وكانا فى جيش الأمير عبد الله فى العيص وقد حاربا معه فى الطائف، فأمر الأمير به فسجن أياما ثم أطلق سراحه. فلم يقنع خالد بهذه العقوبة فأستأذن فى الرحيل فأشار الشريف شاكر بن زيد فواز على الأمير بأن لا يأذن له خوف انتقاضة فأجابه: من هو حتى أخشاه؟ وأذن له مشترطا عليه أن يمر بمكة ويزور والده الملك. فلم يفعل بل قصد الخرمة بطريق رابغ فجمع رجاله فيها وحصنها واتصل بابن السعود ودخل فى طاعته وأخذ ينشر دعوته الدينية بين القبائل. فاتصل ذلك بالحسين فكتب إليه يأمره بالحضور فأرسل يعتذر ويقول أن هنالك أسبابا تقضى ببقائه. وعين الملك فى تلك الأثناء قاضيا للخرمة فقصدها ونزل على خالد فأكرم مثواه وأبقاه نحو شهر ثم أعاده مع كتاب إلى الشيخ عبد الله بن سراج قاضى القضاة فى مكة يقول فيه إنه أعاده بسبب الظروف الحاضرة، ولأنه يحب الجدل ويتدخل فى ما لا يعينه، وحمل القاضى بنفسه هذا الكتاب إلى صاحبه.

وكرر الملك الطلب وكتب إلى خالد يلح عليه بالحضور فأبى فأرسل إليه الرسل فأجاب أنه مستقل لا يحضر. فأمر بعزله وعين أجد أبناء عمه مكانه وهو شريف من أهل الخرمة

فكتب هذا إلى الملك يستعفيه ويقول أن خالدا لم يبق له نفوذا ولا هيبة.

وجهز الملك حملة بقيادة الشريف حمود بن فواز سلحها بمدفع جبلى ورشاشتين وسيرها إلى الخرمة للقبض على خالد وبلغ هذا خبرها فكمن لها مع رجاله فى بطن نخل قرب الخرمة ووضعوا السيف فى رقابها وشتتوا شملها، وغنموا أسلحتها وأسلابها.

وجهز الملك حملة ثانية من ألف بدوي، وسلحها بأربعة مدافع ورشاشات، ولما اقتربت من الخرمة، فاجأها خالد عند الفجر بقوة بيتها لهم، فأبادها، وأصيب قائدها برصاصتين في فخذه.

وأعد الحسين حملة ثالثة عقد لواءها للشريف شاكر بن زيد معظم رجالها من عتيبة فسلكت طريق مران، وطريق نجد وما كادت تتوسطه حتى هاجمها خالد بقبائل عتيبة فانفض رجال شاكر من حوله ومعهم السلاح الذخائر وانضموا إلى إخوانهم فعاد إلى مكة بعد ما خسر كل شئ.

وجهز حملة رابعة من قبائل بنى سفيان وهذيل وثقيف وبنى سعد وحرب الحجازية مع جانب من عساكر بيشة، وولاها صهره الشريف عبد الله باشا بن محمد وأرفقه بالشريف شاكر بن زيد فسارت حتى جبل حضن، وعدد رجالها يتفاوت بين ٣ ـ ٤ آلاف مقاتل وحدد مهمتها بتأديب قبائل البقوم وحماية العربان الموالين للحكومة. وفى حضن تلقت أمرا من الملك بالتزام مواقفها وعدم القيام بأى حركة انتظارا لتعليمات جديدة فأقامت نحو شهرين فانتشرت الحمى بين رجالها ومات عدد غير قليل منهم وأصبح الباقون بحالة لا تساعدهم على الاشتراك فى الحركات العسكرية.

وكانت الحرب العظمى قد انتهت والمدينة المنورة قد استسلمت فأصدر الحسين أمره إلى دوله الأمير عبد الله بالرحيل مع جيشه إلى عشيرة «وهى نقطة متوسطة بين المدينة والطائف ومكة. وحضن إلى الثانية أقرب وتبعد عن الثالثة ثلاث مراحل» فجاءها بطريق ابيار وكان والده فيها، وكان جيش الأمير يتألف من ٧٠٠ جندى نظامى و ٣٠٠ خيال و١٧ مدفعا جبليا وهاوتزر و ١٤ رشاشة وبدو من عكيل وعتيبة وبيشة لا يقلون عن ثلاثة آلاف. وكذلك جاءت إلى عشيرة القوات التي كانت مرابطة في حضن بقيادة عبد الله باشا، وجاء أيضا شرف بن راجح أمير الطائف وشاكر بن زيد والأشراف من آل ناصر وآل هزاع والحارث فعقدوا مؤتمرا برئاسة الحسين استمر ثلاثة أيام.

ووصل إلى العشيرة والمؤتمر مجتمع فيها حسين روحى سكرتير المعتمد الإنجليزى فى جدة يحمل كتابا من هذا إلى الملك فسلمه إياه يدا بيد فلما فضه وقرأه قال بصوت عال

«إذهب وقل لهم أنه ليس لهم حق التدخل فى شؤوننا وإننا نفعل ما نزيد» وصرفه من دون أن يكتب جوابا، وقيل يومئذ فى مكة أن حكومة لندن أرسلت بواسطة معتمدها تنصح الحسين بالاعتدال وعدم الإيغال فى العداء والرجوع إلى الطائف فيوافيه ابن سعود ويجرى الصلح والتفاهم. وقد أرسلت أيضا بمثل هذا إلى الرياض وحذرت صاحبها من قتال الشريف ونصحته بلزوم التفاهم معه.

وتحرك الأمير عبد الله بعد ختام المؤتمر متجها إلى الشرق ونزل فى حضن وأرسل يدعو القبائل إلى الطاعة، وكان يميل إلى التأنى وعدم التورط فى معارك حاسمة.

ولما طال به المقام كتب إليه والده يستحثه على الزحف والإسراع فى العمل فلم يربدا من الرحيل فقصد تربة ودخلها بلا عناء بعد ضربها بالمدافع، وكان خالد ومن معه قد نزحوا إلى نجد.

ووصل إلى مخيم الأمير فى تربة وفد من الرياض حمل إليه كتابا من ابن سعود يسأله فيه عن صحة ماشاع عن إزماعه الزحف على نجد ويدعوه إلى التوسط لإصلاح ذات البين وحجب الدم. فكتب إليه يطمئنه ويقول إنه يعمل للإصلاح والتوفيق وأعاد الوفد بعد ما أكرمه.

وقبيل الفجر من ليلة ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٧هـ ـ ١٩١٨م باغت خالد بن لؤى برجاله جيش الأمير عبد الله. وكان مستغرقا فى النوم ولم يتخذ أقل احتياط فأوقعوا الذعر فى المعسكر فأخذ يضرب بعضه بعضا وتمزق الجيش وارتدت فلوله إلى الطائف(١).

ولما وصلت هذه الأخبار إلى مكة اتصل الشيخ ابن سراج تليفونيا من ثكنة جرول بمعتمد انجلترا السياسى فى جدة ـ وذلك للمرة الأولى منذ تقلده الحكم فى سنة ١٩١٦ ـ وخاطبه بما وقع. فأجابه: لقد أرادت بريطانيا من الأول أن تنهى المسألة سلما بعقد اتفاق يزيل أسباب الخلاف فلم يصغ الحسين إليها. ووعده بمخاطبة حكومته وإبلاغه جوابها وطلب منه إعداد مكان فى جدة لنزول طيارات إنجليزية فأعد ووصلت طيارتان.

وبعد يومين أبلغ المعتمد الشيخ بأنه تلقى أمرا من لندن بأن يبلغ ابن سعود أن يعود إلى بلاده. وقال إنه أعد له كتابا بهذا المعنى. وقد أرسل هذا الكتاب إليه بواسطة الحكومة

---

١ ـ فصلنا أخبار هذه المعركة فى كتابنا ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ص ٣٤٠ ـ ٣٤٩ فمن أراد زيادة ايضاح فليرجع إلي ماكتبناه هنالك.

الحجازية فتسلمه فى تربه يوم ١٥ رمضان سنة ١٣٣٧ وبعد ما تلاه عاد بقومه إلى نجد

وهذا مضمون الكتاب:

«أمرتنى حكومة جلالة الملك أن أبلغكم بأن تعودوا إلى نجد حالما يصلكم كتابى هذا، وتتركوا تربة والخرمة منطقة غير مملوكة حتى مفاوضات الصلح وتحديد الحدود، وإذا أبيتم الرجوع بعد الاطلاع على هذ الكتاب فحكومة جلالة الملك تعد كل معاهدة بينكم وبينها ملغية، وتتخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية. وبالعكس فهى تقدر عملكم إذا عدتم وتعتبر أنكم قمتم بحقوق الود والولاء وأخذتم بنصائحها الودية، لأنها تعد الجميع أصدقاء لها، وهى تأسف أشد الأسف لما وقع بين أصدقائها. سواء كان النصر فى جانبكم أو فى جانب الحسين».

مباحثات جديدة بين الحسين وابن سعود

وأعقبت هذه الحوادث فترة ساد فيها السكون حتى سنة ١٣٤٠هـ فقصد الحجاز الشيخ أحمد بن ثنيان موفدا من قبل الأمير عبد العزيز سعود ومعه مندوب بريطانى من أبناء رحمة العراقيين، فدارت مباحثات أسفرت عن سماح الحسين للنجديين بالحج فى ذاك العام وأرسل السلطان عبد العزيز مع مساعد بن سويلم أمير الحج النجدى الكتاب الآتى إلى الأمير على بن الحسين قال:

«من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود إلى جناب صاحب السمو الملكى الأخ المكرم الأمير الجليل على نجل صاحب الجلالة الهاشمية الوالد المحترم الملك حسين بن على أدام الله عزهما آمين،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام - وبعد أرجو من البارى تعالى أن يحظى كتابى هذا لديكم وسموكم بسعادة وهناء،

لما رأيت تفضل صاحب الجلالة الوالد المعظم ببذل عنايته بالرخصة وبالسماح لأهالى نجد لأداء فريضة الحج، حيث برهن على حسن عواطفه فى إظهار فضيلته أحببنا أن نرخص لبعض رعايانا مختصرا من الحاضرة لزيارة بيت الله الحرام بصحبة خادمكم مساعد بن سويلم فاتخذت هذه خير وسيلة وأعظم فرصة لأهدى حضرتكم جزيل السلام،

ولا عبر لسموكم عن عظيم اشتياقى وخالص نواياى لتشديد عهود الصداقة وتمكين الصلات الحسنة والمناسبات الودادية المشتركة اللائى تربط القطرين الإسلاميين العربيين غير ملتفت إلى ما قدر الله رغم إرادتنا أن يقع فيما مضى بين الطرفين من الحوادث التى طالما أوجبت تأسفاتى وإكدارى - أرجو من البارى سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياكم لتحقيق هذه الأمانى ويعيننا على كل عمل من ورائه خير وسعادة يشملان المملكتين المتجاورتين. هذا وفى الختام أهدى جزيل التحية والإكرام لسموكم كما أن من عندنا أولادكم سعود وفيصل وأخواتهما يقدمون خلوصهم واحترامهم لسموكم والسلام عليكم كما بدئ فى ١٤ ذى القعدة ١٣٤٠»

عبد العزيز آل سعود

ولما أزمع الحج النجدى الرجوع أرسل الحسين الكتاب الآتى إلى ابن سعود ردا على كتابه لولى عهده قال:

الحضرة الكريمة:

بعد السلام والتحية والإكرام: إنه فى أهنأ الساعات وصلنا كتابكم برفق وافدكم الشيخ مساعد بن سويلم ومن برفقته من حجاج أهل نجد فسرنا قدومهم وحمدنا الله تعالى على، علم من دوام صحتكم. نسأله سبحانه وتعالى أن يسبل على الجميع سوابغ نعمة. أما ما أشرتم إليه وصرحتم به من ظنكم بنا وإحلالنا فى المنزلة والمكانة التى أشرتم إليها فجزاكم الله خيرا وهو المسئول سبحانه وتعالى أن ينور منا ومنكم البصائر ويجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضللين. وكان بودنا أن كل ما جرى وكان مما قدره الله - أن لا يكون. ولكن له فى خليقته مايشاء. وعلى كل فإنك يا عبد العزيز تجدنى فى الموقف الذى تركتنى فيه لا تغيرنا الحوادث ولا تؤثر علينا البواعث. فأن الجريمة هى فى الجسم كيفما كان أمرها. والنقيصة هى عين ذلك وما صرحت للشيخ أحمد بن ثنيان فى محررى لحضرتك برفقه ترانى عليه اليوم ياصاحب الحرمة والمكانة لا غرض لنا ولا قصد إلا عزكم ومجدكم وسؤددكم يابنى يعرب. وأنى أقسم لكم بمن فطر السموات والأرض ومن فيهن أنه لا يهمنى إلا ذلك. وأنى مستعد لتسليمك البلاد بكل انشراح وارتياح لسلامتها ونجاتها وسلامة ونجاة أبنائها من كل ما أردكتموه - ومما لا أشك أنكم ستدركونه - وقد أبلغت وافدكم الشيخ مساعد بن سويلم المذكور بكل ماينبغى، وأن كل ذلك حقيقة لا يأتيها التبدل ولا

يعتريها التزلزل بحوله تعالى وقدرته وأنها مجردة من كل قصد وغاية لا أريد بها إلا عزكم وسعدكم بقدرة الله يا أبناء البلاد وستراها وستشاهدها ولم يبق للتجارب، وقت نظرها فيك وعلى رأيك والله يتولاها وإياك بما فيه الخير والخيرة لنا ولك وللبلاد وأبنائها أسأله توفيق الجميع لما يحبه ويرضاه ويتولانا برعايته وإعانته والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

مؤتمر الكويت

ولما جاء الحسين إلى عمان زائرا فى شهر يناير سنة ١٩٢٤ قصده السر هربرت صموئيل المندوب السامى لحكومة فلسطين والسير جلبرت كليتن السكرتير العام لهذه الحكومة وبحثا معه فى التوفيق بينه وبين ابن سعود، واقترحا عليه الاشتراك فى مؤتمر الكويت - فوافق على إرسال ابنه الأمير زيد ليمثله فيه بشرط أن يرسل ابن سعود أحد أمراء بيته إلى المؤتمر.

وزيادة فى البيان نقول إن هذا المؤتمر عقد جلسته الأولى فى الكويت يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٣ بحضور مندوبى العراق ونجد، فرأسه الكولونيل نوكس رئيس المندوبين البريطانيين فى خليج فارس. فدار البحث على مصير قبائل شمر اللاجئة إلى العراق وإعادة المنهوبات وغيرها. وفى يوم ٢٤ منه اتفق الفريقان مبدئيا على الشؤون المعروضة للبحث. ولما أراد النجديون تحرير الاتفاق طلب العراقيون إدخال الشرط الآتى: «لا يعمل بمضمون هذا الاتفاق إلا بعد حل الخلاف بين نجد والحجاز». فأبى النجديون قبول هذا الشرط.

واشترك مندوب شرقى الأردن (على خلقى) فى جلسة المؤتمر السادسة يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٣ وقدم المذكرة الآتية:

١ - إنى باسم حكومتى أشكر الحكومة البريطانية لمساعدتها بادئ بدء للعرب فى استقلالهم كما قررته مع صاحب الجلالة الهاشمية، وبقبولها أيضا التوسط فى عقد مؤتمر الصلح مع حكومة نجد والسعى لمنع الاضطرابات الدائمة فى جزيرة العرب.

٢ - بما أن حكومة شرقى الأردن جزء من ثمرات النهضة العربية فإنها تتمسك بالقرارات الأساسية المتفق عليها بين حكومة بريطانيا وحكومة جلالة ملك الحجاز، وهى لزوم

احترام جلالته ومن معه احترام الصلات العهدية فى زمن الدولة العثمانية بين بريطانيا ومشايخ العرب الكائنة بلادهم فى خليج فارس، ولذلك فإنها تطلب أن تكون الحدود بينها وبين نجد مبينة على الاعتبار المتقدم.

٣ - إن حكومة شرقى الأردن مستعدة أن تكون الحدود بينها وبين نجد حسب العهود والحدود القديمة. وحسب المعاهدة التى أبرمتها حكومة نجد مع بريطانيا العظمى يوم ١٨ يوليو سنة ١٩١٦ على أن تتخلى الحكومة النجدية عن الجوف وسكاكه وما يتبعها لابن شعلان لتكون تلك الإمارة مصونة بذاتها. وأيضا فهى ضرورية للمستقبل للمواصلات بين شرق الأردن والعراق، ولذا فلابد من جعل هذه الأماكن تحت إشراف حكومة شرق الأردن.

٤ - يمكن تعيين وكلاء مفوضين يقيمون فى عاصمتى الحكومتين ليكونوا واسطة للمخابرة بين حكومتيهما.

٥ - يجب أن تتعهد كل من حكومتى شرقى الأردن ونجد بمنع الغزو بعضهما على بعض، وعند وقوع شئ من ذلك فإن الحكومة التى يقع الغزو من عشائرها مجبرة على إعادة المنهوبات عينا أو بدلا أو تعويضا بدفع ثمنها ودفع ديات القتلى أن وقع قتل.

٦ - لا يجوز لعشائر أى طرف من حكومتى شرقى الأردن ونجد أن يجتازوا الحدود جماعات وجموعا مسلحين أصلا. وإذا اقتضى دخول رجل واحد أورهط لا يتجاوز عدده العشره مسلحين أو غير مسلحين فعليهم أن يكونوا حائزين على وثيقة من حكومتهم يؤشر عليها معتمد الحكومة المراد الدخول إلى بلادها، وإذا اقتضى الأمر دخول أكثر من ذلك فيجب أن يقرر ذلك بين الحكومتين بعد المخابرات، ولا يجوز لإحدى الحكومتين مخابرة شعب أو عشائر الحكومة الأخرى مباشرة ما عدا المخابرات الودية والخصوصية. والمجرم السياسى الملتجئ إلى إحدى الحكومتين لا يجوز تسليمه لأى حكومة تطلبه عربية أو غيرها.

إن حكومة نجد قبل سنة ونصف أرسلت جيشا إلى شرق الأردن هاجم قرية فى جوار عمان، وذبح من أهلها نحو ثلاثين رجلا. فيجب دفع دية القتلى حسب أصول العشائر.

وفى جلسة ٢٦ منه رد الوفد النجدى بما يأتى:

إن حكومة نجد الحاضرة التى أقام دعائمها وشيد أركانها السلطان عبد العزيز ليست بحكومة حديثة العهد بل يرجع أساسها إلى مدة طويلة لا يجهلها الواقفون على تاريخ نجد

الحديث. فلو صح لنا الاستناد على نظريات ممثل شرق الأردن لجاز لنا أن نطالب بأمور شتى يطول شرحها. وفوق ذلك فإننا لا نعرف صفة خاصة للك الحجاز أو أمير شرق الأردن تخولهما حق الكلام أو التدخل فى شؤون الإمارات العربية التى لم تكن لها أدنى رابطة بالحجاز أو بشرق الأردن. ولذا فإننا نرفض النظر فيما طلبه ممثل شرق الأردن بهذا الخصوص.

لاحق لمندوب حكومة شرق الأردن فى الكلام عن ابن شعلان الذى هو أحد رعايانا. إن حكومة شرق الأردن تريد أن تتكرم عليه بجزء مملكتنا (الجوف وسكاكه وتوابعها) وهذا تغافل عن الروابط التى تربط الرولة بنجد. إن الجوف وسكاكه ووادى السرحان بأكمله كانت تتبع التطورات والتقلبات التى تطورتها نجد، فى حين أن تشكيلات الأردن الإدارية والجغرافية لم تكن سوى أقضية تابعة للكرك والقدس، ولم يعرف أن تلك الجهات كانت خاضعة إداريا وسياسيا لها. فلهذا نرفض طلب مندوب شرق الأردن بالتنازل عن الجوف وسكاكه ولا نقبله بوجه من الوجوه. إن البحث فى المعاهدة المعقودة بين نجد والحكومة الانجليزية وطرق باب الخوض فيها من جانب حكومة شرقى الأردن التى لم يكن لها وجود حين عقدها إنما هو افتئات صريح وتدخل غير مقبول فى شؤون نجد وعلائقها الخارجية. فلهذا نحتج بشدة على هذا التدخل.

أن ما اعتبره مندوب شرق الأردن أساسا للاتفاق لا يمهد طريق الصلح ولا يزيل الخلاف الواقع بين الحكومتين. فلكى نزيل العراقيل من سبيل المفاوضات نطلب:

١ـ أن يتكلم مندوب شرق الأردن باسم حكومته فقط ولا يتعرض لشؤون غيرها .

٢ ـ أن يحدد نقط الخلاف الواقع بين نجد وشرق الأردن.

٣ ـ إذا كان مندوب شرق الأردن يصر على طلباته التى اعتبرها أساسا للاتفاق فإننا نأسف لهذا العناد الذى يبعد الصلح ويوسع شقة الخلاف.

٤ ـ إذا سحب ممثل شرق الأردن المواد التى اعتبرها أساسا فإن الاتفاق على باقى المواد لا نرى فيه صعوبة.

وفى يوم ٢٧ منه طلب الوفد النجدى المطالب الآتية:

١ـ إن وادى السرحان والجوف كانا تابعين لنجد من أيام دولة السعود الأولى، ولما

انشطرت هذه الدولة إلى إمارات تبعت هذه الأماكن إمارة حايل التى شغلها الرشيد.

ولما أعاد الإمام فيصل بن تركى دولة السعود واسترد حايل ضمن ما استرده من إمارات آبائه تبعت الجوف ووادى السرحان حايل، وخضعت العشائر الضاربة فى وادى السرحان لنفوذ آل سعود. لذلك نطلب إخلاء قريات الملح لأنها جزء حيوى للجوف وأن حكومة نجد لم تتوقف عن استردادها من يد حكومة شرق الأردن الغاصبة إلا لأن الحكومة الإنجليزية وعدت بأن هذه المسألة يمكن حلها بالطرق السلمية.

٢ ـ إننا لانوافق مطلقا على اتصال حكومة شرقى الأردن بالعراق، بل لابد أن تكون حدود نجد متصلة بسورية لتكون تجارتها فى مأمن وتحفظا بكياننا الاقتصادى وحماية لروحنا التجارية نطلب أن يكون الاتصال بسورية هو الأساس فى تعيين الاتفاق بيننا وبين شرق الأردن.

٣ ـ العشائر المستوطنون فى الجوف ووادى سرحان تابعون لنجد وهم: الشرارات والحوازم وبعض بنى عطية وقسم من الحويطات.

٤ ـ إذا اجتازت عشائر نجد حدود شرق الأردن أو بالعكس فالحكومة المجتازة أرضها تطبق على العشائر المجتازة قوانينها وشرائعها الداخلية مادامت فى أراضيها.

٥ ـ التعهد بدفع المنهوبات أو بدلها وتسليم ديات المقتولين.

وفى جلسة ٢ يناير سنة ١٩٢٤ تلا مندوب شرق الأردن المذكرة الآتية:

١ ـ تكلم حضرات مندوبى نجد عن كيفية إنشاء حكومة شرق الأردن، وبما أنى رأيت الكلام هنا زائد فيجب أن نترك مثل هذه المسائل للتاريخ.

٢ ـ أنكر حضرات مندوبى نجد بصفة جلالة ملك الحجاز الخاصة بالعرب والعربية. وعليه أقول:

أن جميع الحكومات العربية فى البلاد العربية تكونت وظهرت بعد ظفر الحلفاء وانتاصرهم على المتفقين، وأن جلالة الملك حسين ومن كان معه من قومه كانوا يحاربون مع الحلفاء جنبا إلى جنب وكانت أعمالهم من أكبر عوامل النصر وغايتهم من ذلك استقلال العرب فى بلادهم.

أن الملك حسينا حينما قام بنهضته اتفق مع الحلفاء، وبالأخص مع الحكومة البريطانيمة عل أمور لا لزوم لبيانها هنا . وكان من جملة بنود الاتفاقات وجوب احترام الإمارات العربية الموجودة على خليج فارس وفى داخل البلاد العربية اللاتى كن إمارات اسمية خاضعات للقوانين العثمانية. وكان هذا الاتفاق باسم العرب عامة، وبما أن شرق الأردن وغير من الحكومات العربية هى بعض ثمار النهضة الهاشمية ومعاونة الحلفاء لها فلا يمكنها الانفصال عن تلك المعاهدات.

الجوف وسكاكة وتوابعهما من الأراضى السورية التى تبدأ حدودها من مدائن صالح وتمر فى خط الطول الأربعين وتنتهى عند البو كمال على نهر الفرات. وحكومة شرق الأردن هى قسم من سورية فيجب أن تكون الجوف وسكاكة تحت إدارتها كما سبق شرح ذلك فى مذكرتى الأولى، وأن الجوف وسكاكة ووادى السرحان هى مرعى ومسرح لجميع العشائر التابعة لشرق الأردن، وهى الرولة والشرارات وأتباعها مثل الحوازم والسرحان والفقراء وبنى عطية والحويطات وبنى صخر والعدوان. ولم يعرف أن الرولة والحويطات والشرارات كانت تابعة لنجد. فأطلب أن يبدأ الحد من مدائن صالح ويمر من شرقى تيما إلى أن يصل إلى هوجا ومن هنالك ينعطف مشرقا إلى جبل داف ثم يلتقى بخط الطول الأربعين، وبعد أن يترك الجوف وسكاكة ينتهى فى جبل عنزة.

٤ - بما أنى مندوب حكومة ومقيد بتعاليمها فلا يمكننى الخروج عن تلك التعاليم كما لا يسعنى السكوت عما أمرت أن أقوله. وعليه فاسمحوا لى أن أصرح لحضراتكم بأنه إذا لم تتخل حكومة نجد عن الجوف وسكاكة ووادى السرحان جميعه وعن الأراضى الحجازية التى احتلتها مثل تربة والخرمة وحائط وحويط وخيبر ووادى بيشه ووادى شهران وأقسام بلاد بنى شهر وبللحمر وبللسمر وتجعل تحديد الحدود بين الحجاز ونجد. على أن يكون الحد الفاصل هو الصحراء القاحلة فلا يمكن أن يحصل بيننا اتفاق.

٥ - أن بحثى عن المعاهدة بين نجد والحكومة الإنجليزية لا يقصد منه إلا إيضاح الحدود المعترف بها لحكومة نجد.

٦ - إذا تم الاتفاق على المواد الأساسية يسهل بعد ذلك الاتفاق على الأمور الثانوية. ومن

الممكن أن يتفق على مادة تقضى بإعادة المنهوبات وإعطاء ديات القتلى على أن يكون ذلك بمعرفة لجنة من الطرفين. على أن يثبت كل منهما منهوباته وقتلاه ويؤيدها بالحجج والبراهين والزمان والمكان.

ولما انتهى من تلاوة مذكرته وقف رئيس المؤتمر الكولونيل نوكس وألقى البيان الآتى: أرى أنه لا يحق لأهل العراق أو شرق الأردن الكلام عن الحجاز والحكومة البريطانية لا تقبل مطلقا الكلام عن ابن الرشيد. ولما قبل سلطان نجد الاشتراك فى المؤتمر اشترط شرطا أساسيا قبلته الحكومة الإنجليزية وهو أنه لا يحق لأى حكومة من الحكومات أن تشترك فى بحث ما يتعلق بالحكومات الأخرى. والتعليمات التى عندى هى أن يكون البحث فى الحدود فقط. ولا أستطيع أن أقول لكم كل شىء. ولكنى أقول إنه لابد من مجئ تعليمات جديدة لمندوب شرق الأردن.

وأوقفت جلسات المؤتمر على الأثر وسافر بعض المندوبين إلى بلادهم على أن يعودوا إلى الاجتماع عند ورود تعليمات جديدة وانتظارا لوصول مندوب الحجاز. وقد وعد الحسين الحكومة البريطانية بإرساله كما قلنا آنفا.

وعاد المؤتمر إلى الاجتماع يوم ١٨ يناير سنة ١٩٢٤ فأعلن الوفد العراقى أن حكومته تنازلت عما سبق فاشترطه من أن الاتفاق لا يكون نافذا إلا بعد الاتفاق بين نجد والحجاز. وخطب رئيس المؤتمر فى جلسة ١٩ منه فقال «أن جلسات المؤتمر لا يجوز أن تطول بدون حاجة، وأنه يقترح على الوفدين الحرية التامة فى بيان ملاحظاته وآرائه حول كل مادة لم يتم الاتفاق عليها يوضح فيها رأيه ومقدار أهمية ذلك فى نظر حكومته.

«إن الحكومة البريطانية لا ترغب أن تحمل أحدا على قبول أمر لايرضيه. وبناء على إلحاحى فى توسطها فى المواد المختلف عليها كحكم بين الطرفين أخذت منها البرقية الآتية:

«عطفا على برقيتكم المؤرخة فى ٢١ ديسمبر أننا لا نرغب أن نكون حكما بين مندوبى الحكومة الحكوميتين فى الأمور المختلف عليها. ولكنهم إذا اعتمدوا على توسطكم كرئيس للمؤتمر ومندوب من الحكومة البريطانية فنحن لا نرفض ذلك إذا قدموا طلبا تحريريا بذلك، موقعا عليه منهم كلهم. على أن يقبلوا أن الحكم الذى تحكم به الحكومة يكون قطعيا ونافذا على الطرفين».

وفى يوم ٢١ يناير طلب أعضاء الوفدين العراقى والنجدى تأجيل أعمال المؤتمر إلى ٥ مارس فيرجع كل منهما إلى حكومته. فقال رئيس المؤتمر أنه أبرق بهذا الاقتراح إلى حكومته وأنه لا يوافق على سفر الوفدين قبل ورود جوابها، وأن المسألة خطيرة وأن الواجب يقضى بانتظار رأى حكومة الحجاز فى شأن إرسال مندوب عنها وانتظارا لتعليمات شرق الأردن النهائية. على أن المؤتمر مالبث أن انفض ودارت فى أثناء انفضاضه مكاتبات بين الحكومات ذات الشأن انتهت بالاتفاق على عقده.

وضرب يوم ٢٥ مارس موعدا لاجتماع المؤتمر فى دوره الثانى وغادر المندوبون العراقيون بغداد قاصدين الكويت، ولما بلغوا البصرة وصلت أنباء إلى الحكومة العراقية بأن القبائل النجدية أغارت على العراق فاستدعت الحكومة وفدها على الأثر وقطعت المفاوضات مع نجد، ولم يحضر الأمير زيد إلى الكويت لأن ابن سعود رفض إرسال أحد من أمرائه بحجة أنهم لم يعتادوا الاشتراك فى المؤتمرات السياسية، واقتصر الأمر فى هذه المرحلة على مندوب شرق الأردن ومندوبى نجد فقط.

ولما اجتمع المؤتمر يوم ٢٥ مارس وقف مندوب شرق الأردن وقال: بما أنه تعين مندوب خاص لحكومة الحجاز. فنقتصر فى هذه الجلسة على ما يتعلق بشرق الأردن فنكرر بهذه المناسبة الطلب الواقع فى جلسة ٢ يناير الماضى بشأن الحدود، وهو يتضمن أن يكون بدء الحدود من مداين صالح إلى أن يمر من شرقى تيما ويضم عشائر ولد سليمان إلى أن يصل الهوجا ومن هنالك ينعطفى شرقا إلى الشمال إلى جبل داف ثم يلتقى بخط الطول الأربعين وبعد أن يترك الجوف وسكاكة منها ينتهى فى جبل عنزة. فإذا تم الاتفاق على هذا الطلب الأساسى الذى لا يمكننا الحياد عنه يسهل بعدئذ الاتفاق على المواد الثانوية.

فرد الوفد النجدى بأن الأخلاق والعادات وطرق المعيشة التى عليها أهل وادى السرحان تتفق تماما مع أخلاق وعادات ومعيشة أهل نجد، وارتباطهم بحكومة نجد أشهر من أن يذكر. ومن جهة أخرى فأن حكومات نجد سواء أكانت من أهل السعود أم الرشيد كانت لها السيطرة على هذه البلاد، وأننا لم نسمع أن حكومة سورية شغلت هذه البلاد إداريا - بمعنى أنها أرسلت إليها موظفين إداريين، وآخر عهد هذه البلاد إبان سقوط حايل كان محمد بن طلال حاكما لها. أما علاقة ابن شعلان بالجوف فقد كانت علاقة المغتصب، وأن التطورات التى حدثت بعد الحرب العالمية فى جزيرة العرب تجعل السلطان ابن سعود مضطرا للاحتفاظ بهذه، المنطقة ولا يقبل البحث فى أمر التنازل عنها.

وقال رئيس المؤتمر بما أن الجدال قد طال من دون أن نصل إلى نتيجة مفيدة فأنا أعرض عليكم ثلاثة حلول لتنظروا فيها:

١ ـ استفتاء الأهالى.

٢ ـ تقسيم وادى السرحان إلى قسمين: الجنوبى لنجد والشمالى لشرق الأردن.

٣ ـ تكون البلاد مستقلة ومحترمة من الحكومتين وتكون الحكومة عائدة للشعلان.

وقبل الوفد النجدى فى جلسة ٢٦ منه مبدأ الاستفتاء بشرط أن يعمل به فى الأماكن المتنازع عليها بين نجد والحجاز ـ أى فى تربة والخرمة، وأرجئ المؤتمر ريثما يراجع مندوب شرق الأردن حكومته ويتلقى تعليماتها. وفى يوم ٩ إبريل استؤنف المؤتمر فقال المندوب أنه رغبة فى الوفاق والسلام يوافق على أن يكون الجوف وسكاكة ووادى السرحان منطقة حياد يحترمها الفريقان. بشرط أن تحترم حدود سورية الطبيعية وتبقى حدودنا من الجنوب كما بينا سابقا. وبما أن طريق المواصلات بين مصر وفلسطين وشرق الأردن وبين العراق تجتاز أراضى شرق الأردن ووادى السرحان، وبما أن حكومة شرق الأردن هى المسئولة فى الدرجة الأولى عن تلك المواصلات. فيجب أن تكون مشرفة على هذ االطريق.

وكذلك فيجب أن تعاد إمارة الرشيدى وآل عايض فى عسير وتجلو الحكومة النجدية عن جميع الأراضى الحجازية لتوطيد الأمن والسلام فى الجزيرة.

وقال الوفد النجدى: إننا لا نرفض مطالب شرق الأردن فقط. بل نحتج على هذه المداخلة التى لا يسوغها حق دولى أو قانون شرعى، وإننا نعتبر أن هذه الطلبات لا يقصد منها سوى عرقلة المساعى التى تبذل فى سبيل الصلح.

وانفض المؤتمر على أثر ذلك وانقطعت المفاوضات وفشلت المساعى.

٢ ـ علاقاتها بالإمارة الأدريسية فى عسير

ماكان الحسين ينظر بارتياح إلى قيام هذه الإمارة فى عسير وتهامة على حدود الحجاز الجنوبية، وقد نشأت فى نفس الوقت الذى تولى فيه شرافة مكة تقريبا، ففى سنة ١٩٠٨ قدم السيد محمد الإدريسى صبيا، ونزل فى مسجد جده السيد أحمد بن إدريس المدفون فيها، ولما كان على جانب من الذكاء والدهاء فقد أخذ يتدخل فى شؤون البلاد مستغلا فرصة الاضطرابات الداخلية، وكان اليمانيون من أهل الجبال يقاتلون الدولة ويناوئونها، فبلغ أمره سعيد باشا متصرف عسير وقائدها العسكرى يومئذ فحمل عليه بقونة، ولما

اجتمعا أفهمه السيد بأنه من رجال الإصلاح الدينى، وأنه من أبعد الناس عن السياسة فوثق به وعينه قائمقام على صبيا وجيزان فزاد ذلك فى نفوذه الدينى والسياسى وأكسبه مقاما فى عيون القبائل فالتفت حوله. فأطعمه ذلك فجهز قوة كبيرة برئاسة ابن عمه السيد مصطفى وذلك فى سنة ١٩١٠ وأرسلها لفتح أبها «عاصمة عسير السياسية والعسكرية فى زمن الترك) فحاصرها وهم بفتحها فسيرت الدولة قوات من الحديدة لانجاد حاميتها فعادت بالفشل. فلجأت إلى شريف مكة فجهز حملة كبيرة قادها بنفسه ومعه الأميران عبد الله وفيصل من أنجاله وسار حتى أبها فهزم قوى الأدارسة المحاصرة ودخلها، وبعد أن وطد الأمن فى تلك البلاد عاد إلى عاصمته. ولجأ السيد محمد على إلى جبال فيفاء، ولكنه مالبث أن ظهر فى السنة التالية مغتنما فرصة وقوع الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا فوصل حبله بجبل الطليان جيرانه فى مصوع فأمدوه بالسلاح الإيطالى، وجهز شريف مكة فى أواخر سنة ١٩١١ حملة لقتاله بقيادة نجله فيصل تقدمت حتى القنفدة فى طريقها إلى عسير، ووقفت فيها لانتشار مرض الملاريا بين رجالها، وقد أصيب بها قائدها وظل طريح الفراش أشهرا وعادت فى ربيع سنة ١٩١٢ من دون أن تنال منالا.

وأعلنت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ والحالة غير مستقرة فى عسير فاشتركت فيها الدولة العثمانية إلى جانب الألمان، وتنفس الإدريسى الصعداء حينما نزل الإنجليز إلى العمل فى البحر الأحمر. فاتصل بهم وعقد معهم فى سنة ١٩١٥ معاهدة اعترفوا بإمارته وباستقلاله وأمدوه بالسلاح والمال فزاد ذلك فى نفوذه ومقامه، فنهض لمحاربة الترك فى أبها وحاصرهم ثانية ولكنه لم ينل منهم منالا، وتقدم رجاله فى صيف ١٩١٦ فاحتلوا القنفدة بمعرفة الإنجليز ومساعدتهم فأزعج ذلك الشريف، وكان ذلك فى ابتداء ثورته وأكثر من الاحتجاج لأنه كان يعد القنفدة حجازية ودارت مكاتبات طويلة بينه وبين الإنجليز بشأنها انتهت بإعادتها إليه وقد فصلنا ذلك فى الجزء الأول (انظر ص ٢٩٥). وعقد الإدريسى معاهدة ثانية مع الإنجليز فى سنة ١٩١٧ اعترفوا له بالسيادة على تهامة من اللحية حتى القنفدة وتعهدوا بحمايته من أى اعتداء خارجى، وتعهد بعدم تأسيس علاقات تجارية أو سياسية مع غيرهم.

وأطلق الأسطول الإنجليزى قنابله على الحديدة فى أواخر أيام الحرب العظمى واحتلها عسكريا .ورأى الإنجليز بعد ذلك أنه لا مصلحة لهم فى الاحتفاظ بها فجلوا عنها وسلموها إلى السيد الإدريسى فاتسعت بذلك رقعة إمارته، وأصبحت تمتد من القنفدة حتى الحديدة على أن سير الحوادث أثبت أن هذا التوسع كان شؤما على هذه الإمارة ووبالا عليها.

حروب آل عايض وتحالف الإدريسى وابن سعود

ووالى الحسين بعد ختام الحرب العظمى آل عايض أمراء عسير السراة وقد تفردوا بالحكم فى أبها بعد رحيل الدولة العثمانية فى ختام الحرب العظمى وأصبحوا أصحاب الأمر والنهى فى عسير السراة، وكان أحدهم حسن بن على بن محمد بن عائض معاونا لسليمان شفيق باشا متصرف عسير وقائدها العسكرى قبل الحرب العظمى، وأمدهم بالسلاح والمال فأقلق ذلك السيد الإدريسى جارهم وأزعجه فرأى أن يستعين بابن سعود جار آل عايض من ناحية الشرق ومنافسهم، وخصم الملك الحسين وعدوه. فيضرب بعض هؤلاء ببعض ويستريح، فكاتب ابن سعود وأرس إليه الهدايا وهدم قبة جده الأكبر أحمد بن إدريس فى صبيا تقربا من النجديين الذين يمقتون القباب، وعقد معه معاهدة يوم ١٦ ذى الحجة سنة ١٣٣٨ وأغسطس سنة ١٩٢٠.

هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسول الله

يعلم به الناظر إليه والواقف بأن الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل حفظه الله لما أمرنا بالقدوم على الإمام محمد بن على ين إدريس لعقد الأخوة الإسلامية الخالصة وجمع الكلمة على دين الله ورسوله ودعوة الناس إلى ذلك فى التعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وأن تكون اليد واحدة على أعداء الدين. فلما قدمنا على الإمام المذكور سره ذلك وأحبه حرصا على الخير والتعاون عليه فاتفقت الحال منا ومنه على عقد الأخوة بين الأمامين المذكورين على مثل ماذكر أعلاه. فحيث كان فى مملكه الإمام محمد بن على من القبائل والبلدان فى اليمن ماهو فى ملك آل سعود سابقا تركه الإمام عبد العزيز له لأجل محبته للخير ومعاونته عليه وحسن سيرته. فعلى هذا لابد من تعريف القبائل وتحديدها ليقوم كل منهما بما أوجب الله عليه فيمن تحت يده من الرعية. فصار الذى للإمام عبد العزيز من القبائل جميع يام ووادعة ومن تبعهم من جماعة وسحار وقحطان ورفيدة وعبيدة منهم بنو بشر وبنو طلق وشهران وبنو شهر وغامد وعسير وجميع قضاء محايل منهم بنو نوعه وأهل بارق وترقش وأهل الريش وغيرهم ممن تبعهم وجميع قبائل حلى المذكورين فى ولاية الإمام عبد العزين، وصار للإمام محمد بن

على الإدريسى تهامة سوى ماذكر وغير ذلك مما هو تحت يده وله رجال ألمع من عسير خاصة. ولا يعارض كل منهما من تحت يد الآخر. وما ذكر لعبد العزيز بن عبد الرحمن من القبائل فى السراة وتهامة ويام وغيرهم فالمراد به قرى وبوادى فى جبل وسهل وعليهما فى ذلك التناصح والتعاون وبذل الجهد فيما أوجب الله عليهما مما يلزم فى دين الله فيمن تحت أيديهما.

هذا ماصدر وحرر وقرر منا يانواب الإمام. حيث كنا قائمين مقامه ومن الإمام محمد بن على الإدريسى بحضوره وإمضائه - صدر العهد والميثاق منا ومنه ومن نكث فإنما ينكث على نفسه. والله ولى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

١٦ ذى الحجة سنة ١٣٣٨　　　*محمد بن على الإدريسى*

فيصل عبد العزيز المبارك　　عبد الرحمن بن محمد الراشد　　ناصر بن حمد الجار الله

ونهض السلطان عبد العزيز فجهز حملة كبيرة بقيادة ابن عمه عبدالعزيز بن مساعد حملت على العائضيين، فدارت بينهم وبينها معركة بن أبها وخميس مشيط انتهت بفوز النجديين. فلجأ آل عايض إلى تهامة فأسر الإدرسى بعضهم ونزل مكة البعض الآخر واستسلم حسن ومحمد ابن عمه لابن مساعد فقادهما إلى الرياض فأطلق سراحهما السلطان عبد العزيز فعادا إلى ابها ورجعا إلى قتال النجديين فجهزوا عليهما حملة كبيرة فى سنة ١٩٢٢ قادها الأمير فيصل السعود فدخلت أبها، وقضت على إمارة آل عايض وألحقتها بنجد نهائيا، وقبضت على الأمير حسن وجاءت به إلى الرياض ولا يزال أسيرا فيها. ولجأ بعض أبناء عمه إلى الحجاز فأمدهم الحسين بالسلاح والجند لمحاربة الأدارسة والسعوديين. ومما يستحق الذكر أنه لما هاجم هؤلاء الحجاز فى سنة ١٩٢٤ كانت للحسين قوات فى عسير تقاتل مع آل عايض فارتدت على الفور خوف السقوط فى الأسر. ومعنى ذلك أن الحسين ظل حتى أواخر حكمه عدوا للإمارة الإدريسية يكيد لها ولم تنفع وساطة المتوسطين فى إصلاح ذات البين.

٣ - علاقاتها بالإمامة الزيدية فى اليمن

لم تكن هنالك علاقات مباشرة بين الحسين والإمام يحيى لبعد الشقة من جهة، ولأن الحسين ما كان يطمع فى إخضاع الزيود لسلطانه. وجل ما كان يريده منهم أن يخضعوا

له خضوعا اسميا، وأن يحل فى اليمن محل الدولة العثمانية فتكون له الرئاسة العليا ويدير أهل اليمن شؤونهم الداخلية بأنفسهم.

ولتحقيق هذه الفكرة أوفد فى سنة ١٩٢٢ السيد محمد بن علوى السقاف شيخ السادة الأشراف إلى صنعاء لمفاوضة الإمام والسعى فى إنشاء تحالف بينه وبين حكومة مكة، وقد ارتاح الامام مبدئيا لهذه الفكرة فأوفد فى السنة الثانية حج ١٣٤٢ (يونيو ١٩٢٣) السيد محمد زبارة إلى مكة فقابل الحسين وحادثه فى المشروع فصرح له بما يأتى:

«أننى لا أريد ولا قصد لى ولا غاية إلا تلك الأمنية المقدسة (اتحاد العرب). وأننى ـ شهد الله على هذا ـ وإن يدى ممدودة لحضرتك إذا أردت أن تقوم بالأمر. وإننى أكرر قسمى وإشهادى لله وملائكته وكتبه ورسله على قولى هذا. وإننى أول من يقاتل تحت راية من يتعهد بهذا لأمر وتقبله الأمة فلا تتخذونى بأى صورة كانت مانعا، وأن هذه غايتى التى أدين لله بها وأشهده وأشهد حمله عرشه عليها، وأننى عليها أحيا وعليها أموت أنا وأولادى وكل من هو على رأيى»

ولما جاء دور وضع الأسس التى بنى عليها الاتفاق اقترح الحسين الاقتراحات الآتية:

١ ـ أن يعين أئمة صنعاء بمنشور يصدره ملك الحجاز بصفته رئيس الدولة العربية.

٢ ـ أن تدير وزارة خارجية مكة الشؤون الخارجية لبلاد العرب وتمثلها رسميا.

٣ ـ أن يعقد اتفاق بريدى وجمركى بين الحكومتين.

٤ ـ أن يعقد اتحاد عسكرى بين الحكومتين يقضى بتعاونهما.

ولما حمل محمد زبارة هذه الاقتراحات إلى الإمام أهملها. لأنه لم ير فيها مصلحة له فوقف المشروع عند هذا الحد، ولم تعش حكومة الحسين بعد ذلك طويلا.

٤ ـ علاقاتها بإمارة آل الرشيد

كان الحسين يرى فى آل الرشيد منافسين أقوياء ينافسونه على الإمارة فى قلب الجزيرة، وكان يعتقد أن مصلحته هى فى التخلص منهم والقضاء عليهم، وما كان يأبه

للسعوديين فى أول الأمر لظنه أن أمرهم سهل بالنسبة لآل رشيد جيرانه الأدنين، وقد كانوا يمالئون الترك ويؤيدونهم وينصرونهم، فى سياستهم وقد ظلوا على ذلك حتى ختام الحرب العظمى.

واغتنم ابن سعود فرصة جلاء الترك عن بلاد العرب وبقاء آل الرشيد بدون حليف قوى يستندون إليه فحمل على الرياض فى سنة ١٩٢٠ فكاتب محمد بن طلال أمير حائل يومئذ الحسين طالبا إمداده بالسلاح والمال لقتال السعوديين وحذره عاقبة التوانى والتواكل. وقال له إذا لم تسرع لإغاثتى اليوم - فهم مهاجموك فى الغد، فتغافل الحسين وتصام عن تلبية النداء. فمكن ذلك ابن سعود من خصمه فاستسلم له يوم ٢٠ صفر سنة ١٣٤٠ و ٢ نوفمبر سنة ١٩٢١ وبذلك قضى على إمارة آل الرشيد فى حايل، وأرسل الأمير محمد بن طلال إلى الأسر فى الرياض ولا يزال فيها مع بعض أبناء قومه، وفر بعض هؤلاء إلى العراق وهم يقيمون فيها وذهبت إمارتهم ضحية اختلافهم وشقاقهم وتحاسدهم فقد مات معظم أمرائهم مقتولين بعضهم بيد بعض.

تلك كانت حالة الجزيرة فى أواخر سنة ١٩٢٣ فالإدريسى مرتم فى أحضان ابن سعود وقد أقلقه طمع جاريه فيه (الحسين ويحيى) ونفوذ نجد يتسع اتساعا متواصلا فقد التهمت عسير السراة وإمارة حايل والجوف ووادى السرحان ووضعت يدها على الخرمة وتربة فى الحجاز، والعلاقات عادية بين الحسين والإمام وبينهما شاسع المسافات.

ـ ٣ ـ

العلاقات بين الحسين والإنجليز
سعى الإنجليز لتصفية عهودهم للعرب

تركنا الجفاء والفتور يغشى العلاقات بين الحسين والإنجليز، وتركناه يتهمهم بعدم الوفاء ويهدد بالاستقالة والانسحاب. ويقول إنهم أحرجوا مركزه أمام قومه ورجال عشيرته (راجع الفصل الثانى عشر من الجزء الأول).

ووضعت الحرب العظمى أوزارها ودخل الجيش العربى دمشق فاتحا والجفاء لا يزال مستمرا، ولما تقرر عقد مؤتمر الصلح فى باريس دعا الإنجليز رسميا الحسين إلى إرسال ممثل يمثله فى المؤتمر فأبرق إلى نجله الأمير فيصل ـ وكان فى حلب ـ بأن يسافر إلى أوربا فغادر بيروت يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٨ بالبارحة البريطانية غلوستر فأقلق ذلك الفرنسويين وأزعجهم لاعتبارين إحدهما سرى والآخر علنى:

أما الاعتبار العلنى فخلاصته أنهم لم يستشاروا فى إرسال الدعوة إلى الحسين ولا فى اختيار الأمير فيصل. ولم يؤخذ رأيهم فى برنامج سفره، ولذلك قرروا (انظر المجلد الثانى) أن يعاملوه حين وصوله إلى بلادهم معاملة قائد من قواد الحلفاء وأن يوصدوا فى وجهه أبواب المؤتمر.

وأما الاعتبار الخفى فلأنهم كانوا يعدون قضية بلاد العرب منحلة باتفاق سايكس ـ بيكو، وكانوا يلحون على الانجليز فى تطبيقه، وكان هؤلاء يماطلون وينتحلون مختلف الأعذار، ورأى الفرنسويون فى رحلة الأمير فيصل إلى باريس واشتراكه فى مؤتمر فرسايل ومطالبته، بالاستقلال التام لبلاد العرب وبالغاء اتفاق سايكس ـ بيكو لأنه من أشد الاتفاقات السرية خطرا على سياستهم و «مناورة» إنجليزية فحاولوا إحباطها واتقاءها بإقامة العقبات فى وجه الأمير. فأخذوه إلى ليون والألزاس واللورين وبذلوا جهدهم فى أقصائه عن أبواب المؤتمر. ولكنهم فشلوا أمام ضغط الإنجليز والأميركان ـ وقد استعان بهم هؤلاء واضطروا أن يقبلوا مندوبين اثنين للعرب. لا مندوب واحد ووقع الاختيار على رستم بك حيدر رئيس ديوان الأمير فشهد حفلة الافتتاح.

وعاد الأمير فيصل بعد ذلك إلى سورية وكان والده يتتبع عن كثب سير الحركة

السياسية ويقابل مندوبى الفرنسويين والإنجليز فى جدة، ويحضهم على الوفاء للعرب بما عاهدوهم عليه. وكانت جريدة القبلة تكتب فى تلك الأيام الفصول الطوال منتقدة تصرفات الفرنسويين وأساليبهم السياسية فى سورية. ولا يخفى أن الحسين نفسه كان يحرر المقالات الرئيسية فى تلك الجريدة.

اعتراضه على مشروع الانتدابات

وأقر مندوبو الدول العظمى فى مؤتمر فرساي عهد جمعية الأمم وجعلوه جزءا لا يتجزأ من معاهدة فرساي، واعتبروا جميع الدول التى قاتلت فى جانب الحلفاء وفى جملتها الحجاز أعضاء مؤسسة لجمعية الأمم - بشرط أن توقع على هذه المعاهدة وتقر نصوصها. وأبى الحسين توقيع المعاهدة حينما عرضت عليه لأنها أقرت مبدأ الانتداب لبلاد العرب ولا يتفق مع العهود الصريحة المقطوعة له باستقلالها.

ولما عقد مؤتمر الحلفاء فى لندن فى شهر مارس سنة ١٩٢١ لدرس حالة الشرق الأدنى مثل الأمير فيصل والده فى هذا المؤتمر، وتلا الجنرال حداد باشا بيانا مطولا بسط فيه حالة البلاد العربية بسطا وافيا وانتقد مبدأ الانتدابات وقال إنه مخالف لما عاهد عليه الحلفاءوالده وقد نشرنا البيان برمته (انظر الثورة العراقية فى الجزء الثانى).

لورانس يزور جدة ويسعى للتوفيق

ولما صحت عزيمة الحكومة البريطانية فى سنة ١٩٢٠ على إنصاف العرب والوفاء لهم انسحب الكولونيل لورانس من عزلته وقبل منصب مستشار لوزارة المستعمرات فى الشئون العربية، ورافق المستر تشرشل وزير المستعمرات يومئذ فى رحلته إلى البلاد العربية، فزارا مصر والقدس فى شهر مارس سنة ١٩٢١ وبعد انتهاء المهمة التى جاء لها عاد الوزير إلى بلاده، وقصد لورانس عدن وأقام فيها مدة ثم جاء جدة فقابل الحسين، وكان يحمل مشروع معاهدة يريد من الملك اقرارها وقد صحبه فى رحلته هذه الجنرال حداد.

وجاء الملك إلى جدة لمقابلة لورانس ومعه نجلاه الأميران على وزيد والشيخ فؤاد الخطيب وكيل الخارجية وعدد من الحاشية.

وافتتح لورانس الحديث فقال للملك إن هنالك دينا يراد توفيته، ولا يتيسر دفعه برمته الآن ولكن يدفع منه قسط غير قليل على أن ينظر فى تسديد الباقى فى المستقبل فأجاب الملك: أنت شرفت ولابد من البحث والمناقشة وأهلا وسهلا.

واستؤنف الاجتماع فى اليوم التالى وعرض لورانس على الملك مشروع المعاهدة فناقشه الملك وطلب أن ينص فى متنها على أن فلسطين مستقلة وداخلة فى الوحدة العربية، فاعتذر لورانس عن قبول هذا الطلب وقال إنه خارج عن حدود اختصاصه ثم ناقشه فى مواد أخرى وأصر فى الختام على تنفيذ العهود المقطوعة للعرب بحذافيرها. فأفهمه لورانس أن هذا غير مستطاع فى الوقت الحاضر، فقال أنه لا يقبل المشروع ولا يرفضه.

وقال له لورانس فى أثناء المناقشة أن فلسطين لا تريدكم فأجابه إن هذا لا يهمنا فأنا لا أطلب هذا لنفسى ولا لأولادى، وكل ما نطلبه هو أن تبرر بريطانيا بوعودها للعرب وإذا فعلت ذلك فأنا وأولادى نهاجر من بلاد العرب إذا لزم الأمر.

وبعد أخذ ورد طويلين وافق لورانس على أن تضاف إلى المعاهدة مادة ينص فيها على أن هذه المعاهدة لا تنقض أى عهد أو وعد قطع للعرب فى أثناء الحرب فلم يرض ذلك الملك واشترط تنفيذ العهود بحذافيرها. على أن ينظر فى حالة سورية مع فرنسا على حدة.

واجتمعت كلمة حاشية الملك على ضرورة قبول المشروع وألحت على الملك بتوقيعه واشتركت فى الإلحاح أسرة الملك بما فيها الملكة. وظل هو لوحده يصر على الرفض، ولما ضايقوه بإلحاحهم صعد إلى سطح المنزل الذى كان يقيم فيه واتجه نحو الكعبة وأقسم بربها أنه لا يوقع معاهدة لا تحقق ماوعد به من وعود وأنزوى لوحده. فلما رأى أهله ذلك عدلوا عن مباحثته واتفقوا مع لورانس على أن يزور الأمير عبد الله فى عمان ويبت معه المشروع فيوقعه باسم والده ثم يرسله إليه فيقره وينتهى الأمر.

وسافر لورانس إلى عمان وأقام فيها أياما اتصل فيها بالأمير عبد الله ودرسا مشروع المعاهدة على ضوء التعديلات التى أدخلت فى جدة وعدل الأمير ما رأى الحاجة ماسة إلى تعديله ثم وقعه وأرسله إلى والده ضمن كتاب يرجوه فيه أن ينتدبه بعد الاطلاع على المشروع لتوقيعه باسمه فأبى تسلم الظرف وأعادة مختوما إلى ولده كما جاءه وبذلك قضى على هذا المشروع.

وهذا نصه:

لما كان صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين الناهض بالعرب مؤسس الدولة الهاشمية ومليكها حامى حمى بلد الله الأمين ومدينة جدة سيد المرسلين من جهة، وجلالة ملك البلاد المتحدة البريطانية وإيرلندا والأملاك البريطانية فيما وراء البحار وإمبراطور الهند من جهة أخرى بالأصالة عن نفسيهما وبالنيابة عن ورثائهما وخلفائهما مدفوعين بالرغبة الخالصة لتوطيد وتقوية عرى الصداقة والولاء المؤسسة بين بلاديهما فى أثناء الحرب التى اقتحماها معا على الدول الجرمانية وتركيا، ومحمولين أيضا برغبة تمكين مصالحهما وتأييد السلام الدائم بين الشعوب العربية.

ولما كان صاحب الجلالة الهاشمية قد سمى وعين صاحب السمو الملكى الأمير عبد الله مفوضا من قبل جلالته لعقد معاهدة مع صاحب الجلالة البريطانية للوصول إلى هذه الأغراض. ولما كان صاحب الجلالة البريطانية قد سمى وعين المستر ف. أ. لورانس مفوضا من قبل جلالته لعقد معاهدة للوصول إلى هذه الأغراض مع صاحب الجلالة الملك حسين.

فقد اتفق صاحب السمو الملكى الأمير عبد الله والمستر لورانس على المواد الآتية وتعاقدا عليها:

المادة الأولى ـ سيكون السلام والمودة دائمين بين صاحب الجلالة الهاشمية وصاحب الجلالة البريطانية وورثائهما وخلفائهما وقد اتفق كل من الفريقين العاليين المتعاقدين على استعمال جميع الوسائل التى تبيحها قوانينه لمنع استخدام بلاده كقاعدة لحركات موجهة ضد مصالح الآخر الحالية والمستقبلة ووعدا بذلك.

المادة الثانية ـ تتعهد الحكومة البريطانية العالية بأن تمنع بجميع الوسائل السلمية والفعلية المتيسرة لديها. وخصوصا بإيقاف الإعانات من أى نوع كان كل تعد على بلاد صاحب الجلالة الهاشمية من المقاطعات المجاورة التى بينها وبين صاحب الجلالة الهاشمية صلات معاهدة.

المادة الثالثة ـ يتعهد جلالة الملك حسين بأن يعمل مافى جهده لتنشيط استمرار صلات المودة والسلام بين جلالته وجيرانه الذين بينهم وبين صاحب الجلالة البريطانية صلات معاهدة، ويمنع فى مناطق نفوذ جلالته وما تسرى عليه تابعية من الممالك كل ما يضر

بمصالحهم مادة ومعنى ومصالح أحكامهم. كما أنه على حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى استعمال نفوذها فيما إذا احتيج إلى ذلك فى تسوية أى خلاف كان عند أى مسألة كانت بين صاحب الجلالة الهاشمية وأحد جيرانه الذين بينهم وبين صاحب الجلالة البريطانية صلات معاهدة.

المادة الرابعة ـ قد بلغ مع هذا لجلالة الملك حسين المعاهدات المعمول بها بين حكومة بريطانيا والسيد محمد بن على الإدريسى وبينها وبين السيد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود.

المادة الخامسة ـ يعترف بهذا جلالة الملك حسين بالمعاهدات المذكورة فى المادة الرابعة الموجودة الآن بين الحكومة البريطانية والسيد محمد بن على الإدريسى وكذا بينها وبين السيد عبد العزيز السعود.

ويتعهد جلالته أن يحافظ على استمرار علاقات المودة التى كانت بين جلالته وبين هؤلاء الحكام قبل النهضة العربية، وأن يحترم الصلات والحدود المتفق عليها سابقا فيما بينه وبينهم شرطا أن لا يغاير هذه الصلات والحدود مضمون المعاهدات المذكورة فى المادة الرابعة.

المادة السادسة ـ اتفق وتواعد كل من الفريقين المتعاقدين العاليين على قبول معتمد الآخر والاعتراف به. فيجوز لجلالة الملك حسين أن يعين معتمدا للحكومة العربية الهاشمية فى لندن ولصاحب الجلالة البريطانية أن يعين معتمدا بريطانيا يقيم فى جدة وأى مدينة أخرى على ساحل بلاد صاحب الجلالة الهاشمية، ولا يعين صاحب الجلالة البريطانية معتمدا بريطانيا فى مكة والمدينة احتراما لصفتهما المأثورة ـ وكذا سيكون لجلالة الملك حسين إذا أراد ذلك ـ أن يعين وكيلا قنصليا فى إنجلترا والقطر المصرى والهند، ولصاحب الجلالة البريطانية أن يعين وكيلا قنصليا فى جدة وفى موان أخرى لصاحب الجلالة الهاشمية التى تراها الحكومة البريطانية من آن لآخر مناسبة، ويتمتع هؤلاء المعتمدون والوكلاء القنصليون بالامتيازات السياسية والقنصلية المعتادة.

المادة السابعة ـ يعترف بهذا جلالة الملك حسين بالاحتياطات المؤقتة للكورنتينات التى اتخذتها الحكومة البريطانية فى قمران ـ كما تقتضيه شروط الاحتياطات الطبية المسنونة فى العقد الصحى الدولى العام سنة ١٩١٢ أو أى عقد صحى

آخر يكون مقيدا للحكومة المذكورة.

ومن جهة أخرى فإن بريطانيا توافق على الاعتراف بالاحتياطات التكميلية التى يلزم اتخاذها فى جدة وفى موانئ أخرى من بلاد صاحب الجلالة الهاشمية تطبيقا للنصوص الطبية الواردة فى الاتفاقات أو الاتفاقيات المذكورة، وذلك بمقتضى لوائح يصدرها جلالة الملك حسين.

المادة الثامنة ـ تتعهد الحكومة البريطانية العالية بأن لا تتدخل بأى حال من الأحوال فى الإجراءات التى يتخذها جلالة الملك حسين لراحة الحجاج والاعتناء بهم داخل بلاد جلالته الهاشمية مع مراعاة ماجاء فى المادة العاشرة.

ويتعهد جلالة الملك حسين من جهته بأن يساعد كل مجهود يبذله الرعايا البريطانيون المسلمون أو الأشخاص أو الجمعيات المشمولون بحماية صاحب الجلالة البريطانية للاشتراك فى سبيل رفاهية الحجاج فى الحجاز وصحتهم وتموينهم ـ كما يفعل جلالته فيما يختص بعين زبيدة.

المادة التاسعة ـ قد اتفق كل من الفريقين العاليين المتعاقدين على أن يحدد مبلغ معين على كل حاج بصفة رسوم، وأن يعين مقدار لغاية أول يوم من جمادى الأولى من كل سنة وذلك للاحتياطات الصحية التى يتخذها كل منهما، وستكون هذه الرسوم شاملة لمصروفات جميع الاحتياطات الصحية حتى يوم نزول الحجاج إلى البر، وتكون داخلة فى ثمن التذكرة التى تصرف من شركات الملاحة المختلفة ويستولى جلالة الملك حسين على الرسوم المفروضة على الاحتياطات التى تتخذ فى جزيرة (قمران).

المادة العاشرة ـ وافقت الحكومة البريطانية على أن تعترف بالتبعية الهاشمية لجميع رعايا جلالة الملك حسين الذين يوجدون فى أى وقت كان داخل بلاد صاحب الجلالة البريطانية أو الواقعة تحت الانتداب البريطانى ـ شرطا أن يكون هؤلاء الرعايا الهاشميون حائزين على أوراق صادرة من جلالة الملك حسين تثبت التابعية الهاشمية لحاملها. ووافق جلالة الملك حسين من جهته على أن يعترف بالتبعية البريطانية لجميع البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية الذين يقيمون عادة فى بلاد صاحب الجلالة الهاشمية خارج جدة وغيرها من الموانئ التى يمكن أن يعين صاحب الجلالة البريطانية وكيلا وقنصلا فيها.

المادة الحادية عشرة ـ وافق جلالة الملك حسين على أن ممتلكات الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المختصين بحماية صاحب الجلالة البريطانية تسلم فى حال موتهم فى بلاد صاحب الجلالة الهاشمية إلى الممثل البريطانى فيها أو إلى أى سلطة يعينها لهذا الغرض ليتصرف فيها حسب القوانين التى تنطبق على الحالة. ويراعى ممثل بريطانيا فى البلاد المذكورة أن الرسوم والضرائب الواجبة على تلك الممتلكات بمقتضى الشرائع الهاشميمة تسدد فى حينها.

المادة الثانية عشرة ـ وافق بهذا صاحب الجلالة الملك حسين على أنه فى جميع القضايا التى تنشأ فى البلاد الهاشمية ويكون أحد الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية بريطانيا مدعيا فيها أو مدعى عليه يحضر ممثل قنصلى بريطانى فى المحاكم الهاشمية فى أثناء سماع القضايا، وفى الأحوال التى يظهر فيها المعتمد البريطانى رغبة لأسباب عادلة فى إجراء مخابرات سياسية فى شأن القضايا مع صاحب الجلالة الهاشمية فتؤجل الأحكام ولا تنفذ خلال مدة المذاكرة. ولا يجرى تنفيذ الحكم الصادر فى أى قضية كانت إلا بعد الإذن من صاحب الجلالة الهاشمية.

ولا تسرى أحكام هذه المادة على الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية الذين يقيمون عادة فى بلاد صاحب الجلالة الهاشمية خارج جدة وغيرها من الموانئ التى يمكن أن يعين صاحب الجلالة البريطانية وكيلا قنصليا فيها.

المادة الثالثة عشرة ـ وافق جلالة الملك حسين على أن يسلم الرعايا البريطانيين أو المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية المقبوض عليهم بأمر من الحكومة الهاشميمة أو السلطة القنصلية البريطانية فى الأحوال التى تضمن فيها السلطة المذكورة إحضارهم متى طلبتهم منها الحكومة الهاشمية. ولا تسرى أحكام هذه المادة على الرعايا البريطانيين الذين يقيمون عادة فى البلاد الهاشمية خارج جدة وغيرها من الموانئ التى يمكن أن يعين فيها وكيل قنصلى بريطانى.

المادة الرابعة عشرة ـ وافق جلالة الملك حسين على أن تنظر السلطة البريطانية فى القضايا التى تقع بين الرعايا البريطانيين أو الاشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية والتى تمس مصالح الرعايا الهاشميين. ولا تسرى أحكام هذه المادة فى الأحوال التى يرغب فيها الفريقان المتقاضيان أن يرفعا القضية إلى المحكمة الهاشمية

- كالمنصوص فى المادة الثانية عشرة - كذا لا تسرى أحكام هذه المادة على الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية الذين يقيمون عادة فى البلاد الهامشية خارج جدة والموانئ التى يمكن أن يكون فيها القنصل البريطانى أو وكيله.

المادة الخامسة عشرة - وافق صاحب الجلالة البريطانية على أن يتنازل فى بلاد صاحب الجلالة الهاشمية عن جميع الامتيازات والاستثناءات التى يتمتع به الآن الرعايا البريطانيون أو الأشخاص المشمولون بحماية صاحب الجلالة البريطانية بمقتضى الامتيازات الأجنبية بين بريطانيا العظمى والحكومة العثمانية إلا ما ذكر فى هذه المادة.

المادة السادسة عشرة - وافق جلالة الملك حسين على أن يشعر المعتمد البريطانى فى جميع الأحوال التى يحتاج فيها إلى نفى أحد الرعايا البريطانيين أو شخص متمتع بحماية صاحب الجلالة البريطانية من بلاد جلالته، وأن المعتمد مسئولا عن نفى الشخص المعين فى مدة معقولة.

المادة السابعة عشرة - يعترف جلالة الملك حسين بموقف صاحب الجلالة البريطانية الخصوصى فى العراق وفلسطين، ويتعهد أنه فى المسائل الواقعة تحت نفوذ جلالته الهاشمية فى البلاد ببذل استطاعته لمساعدة صاحب الجلالة البريطانية.

المادة الثامنة عشرة - ثبت بهذا اعتراف الحكومة البريطانية بعلم صاحب الجلالة الهاشمية شرطا أن المراكب غير مراكب الحكومة التى ترفع العلم المذكور تكون مسجلة فى جدة أو ينبع أو فى أى ميناء محدود معلوم من بلاد صاحب الجلالة الهاشمية، وأن تكون حائزة على أوراق صادرة من جلالة الملك حسين، وتنطبق بصفة عامة على الشهادات والأوراق الرسمية التى تعطيها عادة الممالك البحرية الرئيسية لمراكبها.

ويثبت جلالة الملك حسين من جهته بهذا اعترافه بالأعلام التى ترفعها المراكب التابعة لأى قسم من أملاك صاحب الجلالة البريطانية أو البلاد المشمولة بالحماية البريطانية أو الوقعة تحت الانتداب البريطانى بشرط أن المراكب التى ترفع هذه الأعلام تكون حائزة على الشهادات والأوراق الرسمية التى تعطيها عادة الدول البحرية الرئيسية لمراكبها.

المادة التاسعة عشرة - يصرح بهذا كل من الفريقين المتعاقدين أنه أثناء مدة هذه

المعاهدة لا يدخل فى أية معاهدة أو اتفاقية أو تفاهم مع فريق ثالث يكون الغرض منه موجها ضد مصالح الفريق الآخر المتعاقد الحالى.

المادة العشرون ـ لا ينقلب أى شرط من الشروط الواردة فى هذه المعاهدة على أنه قيود تكون قد قيدت أو ستتقيد فى المستقبل أحد الفريقين المتعاقدين بأحكام عهد عصبة الأمم أو بأى عهد آخر يمكن لعصبة الأمم أن تتخذه وأن يدخل فيه أحد الفريقين.

المادة الواحدة والعشرون ـ يعمل بهذه المعاهدة من تاريخ التوقيع عليها من قبل صاحب الجلالة الهاشمية وصاحب الجلالة البريطانية، وتبقى نافذة المفعول مدة سبع سنوات من ذلك التاريخ. وإذا لم يخبر أحد الفريقين العاليين المتعاقدين الآخر قبل مضى السبع السنوات المذكورة بستة أشهر بعزمه على فسخ المعاهدة فتستمر معمولا بها حتى مضى ستة شهور من اليوم الذى يرسل فيه أحد الفريقين المتعاقدين إعلانا بهذا.

حررت هذه المعاهدة باللغتين العربية والإنجليزية وستحفظ صورة كل منهما فى سجلات الحكومة الهاشمية والحكومة البريطانية. وقد وقع عليها فى عمان المفوضان المذكوران بعاليه فى اليوم الثامن من شهر ديسمبر سنة ألف وتسعمائة وواحد وعشرين ميلادية الموافق لليوم التاسع من شهر ربيع الثانى سنة ألف وثلاثمائة وأربعين.

الحسين ومؤتمر لوزان

ولما انتصر الترك على اليونان انتصارهم العظيم فى الأناضول فى ١٩٢٢ وتقرر أن يعقد مؤتمر دولى فى لوزان لحل مشكلات الشرق انتدب الحسين الدكتور ناجى الأصيل مندوبه فى لندن للسفر إلى لوزان وتمثيله هنالك، ومطالبة الحلفاء بإنصاف العرب وهذا نص البرقية التى أرسلها إليه[1].

«سافر إلى لوزان لتبليغ رؤساء وأعضاء المؤتمر الموقر احتشاماتى وتعظيماتى، وبأن لى

١ ـ قدم الدكتور ناجى الأصيل ـ وهو عراقى تخرج فى الكلية الأميركية ببيروت، وانظم إلي الجيش العربي فى أثناء الثورة ـ جدة فى أوائل سنة ١٩٢٢ مندوبا عن اللورد انشكايب صاحب شركة البنسولار اورينتال البريانطة الشهيرة للملاحة ليطلب من الحسين امتيازت اقتصادية لشركة اللورد، وأفهمه فى أثناء الحديث أن هذا واسع النفوذ وأن فى استطاعته مساعدة العرب، فقال له فليساعدنا إذن ونحن لانتأخر عن إجابة مطلبه. ثم أعاده إلى لندن ليسعى عند اللورد. واجتمع مؤتمر لوزان في تلك الأثناء فأرسل إليه وهو فى لندن البرقية المذكورة فى شهر ديسمبر سنة ١٩٢٢.

الابتهاج أن أسترعى تأمل شهامتهم فى أبسط مستند وهو برقية وزير خارجية بريطانيا العظمى باللسان الآتى مآله أدناه الذى يستدل منه على درجة تعهد الحلفاء للعرب أما قيامهم ووقوفهم الحربى المشهودة نتائجه، ومصابهم بعد ذلك بالقنوط من حلفائهم الذى يمثله درجة التماسهم اليوم الوسائل الساذجة البسيطة للعيان والوفود على الانقرويين لتأمين بلادهم وأرواحهم.

ثم أورد هنا نص برقية وزير خارجية بريطانيا، وهى منشورة فى الجزء الأول

«فهل من مقتضى الشرف والشهامة الأدبية أن يتنصل مما تفرضه عليه هذه التصريحات والتعهدات وخلف أحكامها بكل ما أصاب العرب من بعد الهدنة وجعلهم اليوم أمام الاتفاقات التى تريدها يد أنقرة بكل وسيلة، هذا عائد على شرف وأخلاق حلفائهم والعالم الأوربى . ونحن يكفينا شرفا وفخارا أننا أصبحنا قربان الثقة بالحلفاء، وضحية الاعتماد على شرف عهدهم ووعدهم، وأنا نجهل نتيجة واقعة قنوط جمهور العرب وموقفهم بعد تلك الثقة والاعتماد».

مفاوضات ناجى الأصيل فى لندن

وسافر الدكتور ناجى الأصيل إلى لوزان واتصل باللورد كرزن وزير الخارجية البريطانية يومئذ ورئيس الوفد البريطانى إلى المؤتمر فدارت مفاوضات طويلة بينهما انتهت بوضع مشروع لمعاهدة تعقد بين الحسين وبريطانيا لتصفية العهود القديمة وتنظيم العلاقات السياسية على منوال جديد.

وغادر الدكتور ناجى لندن يوم ١٥ إبريل سنة ١٩٢٣ يحمل متن المشروع فبلغ القاهرة فى ٢٥ منه وفى الغد سافر إلى السويس وجدة فمكة فاستقبل الملك مندوبه بالحفاوة وتسلم منه المشروع.

إعلان المشروع فى مكة

واغتنم الحسين فرصة حلول عيد الفطر السعيد لسنة ١٣٤١ ـ ١٧ مايو سنة ١٩٢٣ وقدوم المهنئين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا العيد المبارك لا شك فى تضاعف يمنه حيث صادف قبول المراجع الإيجابية لجميع المطالب العربية. فلا ريب فى أنه يوم اجمتع فيه

عيدان: عيد الفطر السعيد وعيد الاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم وهو يعلن ذلك للأمة العربية حاضرها وباديها، ثم وقف رئيس الديوان الهاشمى العالى وألقى البيان الآتى:

بسم الله الرحمن الرحيم

«نصرح فى هذا العيد المبارك بمآل المعاهدة العربية البريطانية المؤسسة على مقرراتنا الأساسية، والتى يعترف بها صاحب الجلالة البريطانية لنا باستقلال العرب بجزيرتهم وسائر بلادهم، وتتعهد لنا حشمته الملوكية بالمعاضدة الفعلية لتأسيس الوحدة العامة الشاملة لكل هذه البلاد بما فيها العراق وفلسطين وشرق الأردن وسائر البلاد العربية فى جزيرة العرب ما خلا عدن، فنأمر أن يعتبر هذا اليوم المبارك عيد الاعتراف باستقلال الأمة العربية والله ولى التوفيق».

ثم ألقى الدكتور ناجى الأصيل الخطبة الآتية:

مولاى

«نحمده تعالى ونشكره على هذه الوقفة الفريدة التى مننتم يا مولاى على بها لأقف بين يدى جلالتكم فى هذا اليوم العظيم لأقول كلمتى عن المعاهدة العربية البريطانية التى انتهت بحمد الله باعتراف بريطانيا باستقلال العرب فى جزيرتهم وسائر بلادهم ويتعهد جلالتكم بالمعاضدة الفعلية لتأسيس الوحدة العربية».

أن بداية هذا الانقلاب الكبير فى تاريخ الأمة العربية ظهر يوم نادى جلالتكم بأمته مستصرخا إياها للنهوض، وفك القيود لإعادة حريتها واستقلالها المغصوب. فيالها من نهضة مباركة قامت فحطمت سلاسل الأغلال القديمة والاستعباد وجاءت اليوم بالاستقلال والاتحاد وسيعرفها التاريخ بفتوحها العظيمة ومجدها المشيد. فالأمة العربية مدينة لكم يامولاى فى العهود التى قطعتموها لحفظها وصيانتها من مصائب الحرب ونتائجها، مدينة لكم فى هذا الاعتراف باستقلالها ووحدتها. فكما أنى ماقمت إلا بواجب الوطن يوم لبيت النداء فتركت الجيش التركى والتحقت بجيوش جلالتكم لأشترك فى الدفاع عن استقلال بلادى العربية فى تلك المعركة الكبرى. فاليوم أيضا يا مولاى بذهابى إلى لوزان حسب أمر جلالتكم للدفاع عن القضية العربية أمام المؤتمر، ومن ثم إلى عاصمة بريطانيا لمطالبتها بإيفاء العهود لم أقم إلا بنفس ذلك الواجب السامى الذى يفديه كل عربى صميم بروحه وماله وما تملكه يداه. أسأله تعالى أن يؤيد جلالة مولاى المنقذ الأكبر ويبقيه ذخرا للأمة العربية وأن يجعل هذا اليوم بدء كل خير لصالح الأمة العربية.

وفى يوم ٢٧ مايو سنة ١٩٢٣ وصل الدكتور ناجى الأصيل إلى القاهرة عائدا من مكة يحمل مشروع المعاهدة بعد ما وقعه الملك وأدخل عليه تحفظات جديدة. وفى يوم أول يونيو سافر إلى لندن لإكمال مفاوضاته.

ومع أنهم كتموا فى مكة ولندن نصوص المشروع ولم يذيعوها خوفا مما يحدثه نشرها من نتائج. إلا أن حكومة فلسطين مزقت حجاب الصمت فنشرت بموجب بلاغ رسمى أذيع فى القدس يوم ٥ يونيو سنة ١٩٢٣ خلاصة وافية للمعاهدة وهى:

هذه خلاصة المعاهدة التى جرت المفاوضة بشأنها بين حكومة جلالة ملك بريطانيا وجلالة ملك الحجاز. وهى لم تبرم حتى الآن. وقد اقترح جلالة ملك الحجاز إدخال تعديلات طفيفة عليها لم تعرف تفاصيلها تماما والبحث جار فيها.

المادة الأولى ـ تنص على وجود سلم بين الحكومتين وعلى منع استعمال بلاد الحكومة الواحدة مرسحا للأعمال العدائية ضد الحكومة الأخرى.

المادة الثانية ـ تنص على أن جلالة ملك بريطانيا يتعهد بالاعتراف باستقلال العرب فى العراق وشرق الأردن والولايات العربية فى شبه جزيرة العرب ما خلا عدن. وأن يعضد هذا الاستقلال. أما فى ما يتعلق بفلسطين فإن صاحب الجلالة البريطانية يتعهد بأن لا يجرى شىء فى هذه البلاد يمكن أن يجحف بحقوق أهلها العرب المدنية أو الدينية. أما إذا أبدت إحدى هاته الحكومات أو كلها رغبة فى عقد اتفاق جمركى أو خلافه بقصد إيجاد حلف عربى نهائى فإن صاحب الجلالة البريطانية يسعى لتعضيد رغبتهم إذا طلب إليه ذلك أحد المتعاقدين ذوى الشأن.

ويعترف صاحب الجلالة الهاشمية بالمركز الخاص الذى للجلالة البريطانية فى العراق وشرق الأردن وفلسطين، ويتعهد بأن يبذل غاية جهده فى التعاون مع جلالته البريطانية على القيام بتعهداته فى المسائل التى تقع ضمن نفوذ جلالته الهاشمية بشأن هذه البلاد.

المادة الثالثة ـ يتعهد جلالة ملك الحجاز بإقامة العلاقات الودية التى وجدت قبل الحرب بين جلالته وحاكم عسير وحاكم نجد.

المادة الرابعة ـ يتعهد صاحب الجلالة الهاشمية بأن يسعى فى تسوية المنازعات بشأن الحدود بين بلاده وبلاد حاكم عسير ونجد بمفاوضات ودية. ويتعهد صاحب الجلالة

البريطانية بأن يسعى فى تسوية منازعات كهذه عند من يرغب فى ذلك.

المادة الخامسة - يتعهد صاحب الجلالة البريطانية أن يعضد بجميع الوسائل السلمية والممكنة دفع أى اعتداء يقع على بلاد صاحب الجلالة الهاشمية ضمن الحدود التى قد تقرر نهائيا.

المادة السادسة - تنص على تعيين وكيل من قبل جلالته الهاشمية فى لندن وعلى تعيين وكيل للجلالة البريطانية فى جدة أو أى مدينة ساحلية أخرى. ويجوز لصاحب الجلالة الهاشمية أن يعين قناصل من قبله فى انجلترا والهند. ويتمتع هؤلاء الوكلاء والقناصل بالامتيازات السياسية والقنصلية العادية.

المادة السابعة - يعترف صاحب الجلالة الهاشمية بالترتيبات الصحية (الكورنتينات) الموضوعة مؤقتا من قبل الجلالة البريطانية فى قمران قياما بنصوص الاتفاق الصحى الدولى الموضوع فى سنة ١٩١٢ ويتعهد صاحب الجلالة البريطانية أن يعترف بالتدابير المتممة التى قد تتخذ فى جدة أو غيرها من المرافئ الواقعة فى بلاد صاحب الجلالة الهاشمية طبقا لأنظمة تصدرها جلالته.

المادة الثامنة - يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن لا يتدخل فى التدابير التى يتخذها صاحب الجلالة الهاشمية للعناية بالحجاج ويتعهد صاحب الجلالة الهاشمية أن يعضد المساعى التى يبذلها الرعايا البريطانيون لمساعدة الحجاج فى الحجاز.

المادة التاسعة - تنص على تعيين مبلغ محدود يدفعه كل حاج وعلى نشر المبلغ المعين سنويا.

المادة العاشرة - تنص أيضا على الاعتراف بالصفة الهاشمية التى لرعايا جلالته الهاشمية فى بلاد صاحب الجلالة البريطانية، وكذلك تنص على الاعتراف من قبل جلالته الهاشمية بالصفة البريطانية التى لرعايا صاحب الجلالة البريطانية فى بلاد جلالته الهاشمية.

المادة الحادية عشرة - تنص على تسليم أموال الرعايا البريطانيين الذين يموتون فى بلاد جلالته الهاشمية إلى المعتمدين البريطانيين فى تلك البلاد. ويتصرف بتلك الأموال وفقا للقانون النافذ فى مثل هذه الأحوال.

المادة الثانية عشرة ـ تنص على حضور قنصل بريطانى فى محاكم جلالته الهاشمية حين نظر المحاكم فى قضية يكون فيها أحد الرعايا البريطانيين مدعيا أو مدعى، وعلى تأجيل أى حكم إذا رغب المعتمد البريطانى فى إجراء مفاوضات بشأنه على أساس العدل.

المادة الثالثة عشرة ـ تنص على تسليم صاحب الجلالة الهاشمية للرعايا البريطانيين الذين تقبض عليهم السلطات الهاشمية إلى القناصل البريطانيين ـ بشرط أن يعطوا ضمانا بإحضارهم عند اللزوم، ولا تسرى نصوص هذه المعاهدة على الرعايا البريطانيين المقمين بصورة دائمة فى بلاد الحكومة الهاشمية خارج جدة وغيرها من الموانئ التى قد يعين صاحب الجلالة البريطانية قناصل فيها.

المادة الرابعة عشرة ـ تنص على رؤية قضايا الرعايا البريطانيين التى لا تمس مصالح رعايا الحكومة الهاشمية من قبل قناصل بريطانيا.

المادة الخامسة عشرة ـ تنص على تنازل صاحب الجلالة البريطانية عن جميع الامتيازات والاستثناءات خلاف المنصوص عليها فى هذه المعاهدة التى كان الرعايا البريطانيون يتمتعون بها بمقتضى نظام الامتيازات بين بريطانيا وتركيا.

المادة السادسة عشرة ـ تنص عل إعلام صاحب الجلالة الهاشمية المعمتد البريطانى عند ما يرغب جلالته فى إبعاد أحد الرعايا البريطانيين.

المادة السابعة عشرة ـ تعالج الشروط التى يعترف بموجبها صاحب الجلالة البريطانية بعلم جلالته الهاشمية.

المادة الثامنة عشرة ـ تصرح بأنه لا يجوز لأحد الفريقين الساميين أن يعقد أية معاهدة أو اتفاق مع فريق ثالث ضد مصالح الفريق المتعاقد السامى الآخر.

المادة التاسعة عشرة ـ تنص على أنه لا شئ فى هذه المعاهدة يبطل تعهدات تعهد بها أوقد يتعهد بها فى المستقبل أحد الفريقين الساميين بمقتضى عهد جمعية الأمم.

المادة العشرون ـ تنص على تصديق هذه المعاهدة وأنها نافذة المفعول لمدة سبع سنوات اعتبارا من اليوم الذى توضع فيه موضع العمل.

صدى المعاهدة واحتجاج الفلسطينيين

وقد أحدث نشر هذه الخلاصة دويا شديدا فى فلسطين، لأنها لا تحقق آمال أبنائها ولا تنقذهم من الخطر الذى يهددهم، فأرسل موسى كاظم باشا الحسينى كتابا إلى الحسين لفت فيه نظره إلى مخالفة المعاهدة للعهود المقطوعة للعرب.

فتلقى الرد الآتى:

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : كتابكم رقم ١١ شوال سنة ١٣٤١ وصل وأدخل علينا مزيد السرور وهو المسئول سبحانه وتعالى أن يوفق الجميع لما فيه سعادة الدارين.

مولانا: أؤكد لكم بهذا أيضا أن عزمنا الأساسى المؤملين تأييده بقدرة الله لا يمكن أن نتأخر عن واجباته مقدار شعرة وأملوا أنها حركة عليها نحيا وعليها نموت. والحقائق كما ذكرت تصلكم عقبه فكونوا واثقين بأنه لا يعترينا فتور أو كسل فى سبيل تلك الغاية الشريفة التى لا نريد بها إلا خدمة بلادنا وأبنائنا اخواننا.

فى ٢١ شوال سنة ١٣٤١ و ٧ يونيو سنة ١٩٢٣

المعاهدة والمؤتمر الفلسطينى السادس

وعقد الفلسطينيون مؤتمرهم السادس فى يافا يوم ١٦ يونيو سنة ١٩٢٣ لبحث مشروع المعاهدة، فقرر باتفاق الآراء رفضها. لأنها تناقض العهود المقطوعة للعرب ولحقوق الشعب الفلسطينى والمطالبة بإلغاء السياسة الصهيونية[١] إلخ.

واختار المؤتمر فى أثناء اجتماعه وفدا للسفر إلى لندن والاشتراك فى المفاوضات التى تدور بين مندوب ملك الحجاز والحكومة البريطانية للاتفاق على صيغة المعاهدة النهائية باسم فلسطين، وتألف الوفد من موسى كاظم باشا الحسينى رئيسا وأمين بك التميمى ووديع أفندى البستانى وغادر فلسطين يوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٣ إلى لندن وظل فيها حتى ١٣ سبتمبر من تلك السنة.

١ ـ نشرنا نص هذ القرار فى بحث القضية الفلسطينية.

تصريح جديد للحسين عن المعاهدة

واشتد اللغط فى تلك الأيام حول مشروع المعاهدة وقيلت أقوال. فاغتنم الحسين فرصة حلول موسم الحج فألقى بيانا على كبار الحجاج عن المعاهدة.

هذا نصه:

يهمنى من جميع الأقطار العربية ما يهمنى من أمر بيت الله الحرام. وقد عرضت علىّ الحكومة البريطانية معاهدة وجدت فى بعض موادها مالا يتفق مع العهود المقطوعة لى فعدلت تلك المعاهدة تعديلا هاما نصصت فيه على استقلال فلسطين استقلالا تاما مطلقا يخول الفلسطنيين إدارة بلادهم بأنفسهم واختيارهم طريقة الحكم التى يريدونها، وبذلك جعلت وعد بلفور فى حكم أنه لم يصدر وقضى عليه بالموت. وفوق ذلك فإننى طلبت فى التعديل أنه بعد عقد المعاهدة يؤمر المندوب السامى بفلسطين أن يصرح - بحضور مندوب من قبلى أمام ممثلى فلسطين – باستقلال الأقطار الفلسطينية استقلالا تاما مطلقا، ودخولها صراحة فى الوحدة العربية طبقا للعهود البريطانية المقطوعة لى، وأؤكد لكم أنه إذا لم تقبل الحكومة البريطانية التعديلات التى طلبتها فلا يمكن أن أوقع على المعاهدة بل أرفضها رفضا باتا. وكونوا على ثقة أنه لايمكن أن يذهب شبر من أراضى فلسطين وأنا وأولادى أحياء على وجه الأرض فإنا نحافظ على أحقر قرية فى فلسطين محافظتنا على بيت الله الحرام. ونريق فى سبيل ذلك آخر نقطة من دمائنا. وعلى كل حال فإننى بعد انتهاء أمر المعاهدة سأحضر بنفسى إلى أطراف تلك البلاد. فإذا ورد جواب لندن على مطالبى بالإيجاب أستشيركم فى طريقة الحكم التى تريدونها، وإذا ورد جوابها بالسلب استشيركم فيما يجب عمله وإننى أسير معكم على ما تتفقون عليه، وكونوا على ثقة أننى أنظر إلى أهل فلسطين نظرى إلى أولادى ولا أفرق فى ذلك بين مسلم ومسيحى ويهودى وطنى ومن يرجع من الصهيونيين عن أطماعه البلفورية، وإننى أشهد الله على ذلك وهو حسبى ونعم الوكيل.

تصريحات مندوب الحسين فى القدس

ولم يكتف الحسين بهذا التصريح بل أوفد الشيخ عباس مالكى فجاء إلى القدس، وألقى فى دار اللجنة التنفيذية العربية يوم ٢٥ أغسطس على ملأ من أبنائها البيان الآتى باسم

الملك قال : ـ

سادتى أهل فلسطين الكرام

أبلغكم سلام سيدى الملك الذى يهمه من أمركم ما يهمه من أمر بلد الله الحرام. ولقد بعثنى لأشرح لكم بيانه وأبين لكم ما تتساءلون عنه من جهة المعاهدة الحجازية التى تدور المفاوضات على عقدها بين حكومته وحكومة صاحب الجلالة البريطانية بعد أن ذكرت الصحف عنها شيئا أخاف حكومة فلسطين.

سادتى: لقد عرضت الحكومة البريطانية المعاهدة على مولاى صاحب الجلالة الملك وفى بعض موادها مالم ينشرح له فؤاده فعدلها تعديلا مهما نص فيه على استقلال البلاد الفلسطينية استقلالا تاما يخول الفلسطينيين إدارة أنفسهم مستقلين واختيار طريقة الحكم. فترك هذا التعديل وعد بلفور فى حكم كأن لم يصدر. إذ قضى عليه بالموت وفضلا عن ذلك فقد اقترح سيدى الملك أن يؤذن للمندوب السامى لفلسطين بعد عقد هذه المعاهدة بحضور مندوب من قبل جلالته بأن يصرح باستقلال البلاد الفلسطينية استقلالا تاما مطلقا ودخولها صريحا فى الوحدة العربية طبقا للعهود البريطانية المقطوعة لجلالته. ويؤكد لكم جلالته بأنه إذا لم تقبل الحكومة البريطانية أن تكون المعاهدة مطابقة للتعديل الذى اقترحه لا يمكن أن يوقع عليها بل يرفضها رفضا باتا. ويؤكد أنه لا يذهب شر من أراضى فلسطين وهو وأولاده أحياء على وجه الأرض. وهم يحافظون على أحقر قرية فى فلسطين محافظتهم على بيت الله الحرام ويريقون فى سبيل ذلك آخر نقطة من دمائهم.

ويريد جلالته أن يحضر بنفسه إلى أطراف هذه البلاد بعد انتهاء المفاوضة فى المعاهدة ليعقد مؤتمرا معكم. فإذا كانت المفاوضات قد انتهت بقبول مطالبه وعقد المعاهدة فيستشيركم فى طريقة ماتختارونه من نظام الحكم، وإذا كانت قد انتهت على غير اتفاق فيستشيركم أيضا فى ما يجب عمله، وهو يسير معكم على ما تتفقون عليه وقد أمرنى أن أؤكد لكم أنه ينظر إلى أهالى فلسطين نظره إلى أولاده على السواء. سواء المسلم والمسيحى واليهودى الوطنى ومن رجع من الصهيونيين عن أطماعه البلفورية فى الأراضى الفلسطينية ويشهد الله على ذلك وهو حسبه وحسبنا ونعم الوكيل.

هذا ما أمرت أن أبلغه لكم وفقنا الله واياكم إلى ما يحبه ويرضاه».

ـ ٤ ـ
الحسين فى شرق الأردن

وبر الحسين بوعده للفلسطنيين فغادر مكة يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٣ إلى جدة ثم زار ينبع والمدينة المنورة ثم جاء العقبة ومنها قصد عمان للاجتماع برجال فلسطين ومفاوضاتهم فى مشروع المعاهدة واتخاذ قرار حاسم فوصلها يوم ٨ يناير سنة ١٩٢٤.

وانتدبت اللجنة التنفيذية العربية فى القدس وفدا برئاسة موسى كاظم باشا الحسينى قوامه أمين التميمى وحافظ طوقان وشكرى التاجى وعونى عبد الهادى. فجاء إلى عمان وقابل الملك وباحثه فى المشروع وأبلغه نص قرار المؤتمر الفلسطينى السادس. فقال الحسين إنه لا يعاهد عهدا ولا يبرم أمرا بشأن فلسطين ومصيرها قبل أخذ رأيهم ونيل موافقتهم. وقال لهم إنه ينزل على إرادتهم ويتبع قراراتهم بشرط أن لا تخرج عن دائرة الحكمة والروية. واقترح عليهم أن يضعوا ميثاقا وطنيا يضمنونه خلاصة مطالبهم وأمانيهم ليعمل على تحقيقه. وجاء السير هربرت صموئيل المندوب السامى البريطانى لفلسطين والسير جلبرت كليتن السكرتير العام لهذه الحكومة وفاوضاه فى اشتراك الحجاز بمؤتمر الكويت وألحا عليه بضرورة إرسال مندوب إليه فامتنع بادئ بدء محتجا بأن المؤتمر مؤلف من حكومات مشمولة بالنفوذ البريطانى. وهى نجد والعراق وشرق الأردن خلافا للحجاز المستقل استقلالا تاما. وبعد تردد طويل وافق على انتداب نجله الأمير زيد ليمثله فيه بشرط أن يحضره أحد أمراء السعوديين وعلى أن تكون مهمة مندوبه بسط وجهة النظر الحجازية ـ وهى تقوم على عدم الاعتراف بما طرأ على الجزيرة من تبدل سياسى وجغرافى بعد الحرب وإعادة الحالة إلى ما كانت عليه سنة ١٩١٤.

مفاوضاته مع اليهود

وانتدبت اللجنة التنفيذية الصهيونية وفد قوامه الكولونيل كش وكبير حاخامى اليهود فى فلسطين حمل مضبطة إلى الملك لتسليمها إليه وتحيته باسمها، وخطب الأول بين يديه مرحبا بقدومه ومتمنيا أن يتم الاتفاق بين العرب واليهود على يده فرد عليه بما يأتى:

ياحضرة الكولونيل

لقد قلت ما يجب أن يقال فى معنى الجواب على خطابكم والعريضة المرسلة إلىّ من اللجنة التنفيذية الصهيونية على يدكم والتى تليت بحضورى الآن فى جواب قيل لحضرة خام باشى الموقر. ولكن علاوة على ماسبق أقول لكم الآن إنى أشكر اهتمام الهيئة التى بعثتكم بكتابها إلى هنا. وأزيد عليه بقولى إن من الواجب علينا خدمة البشرية والسعى للمساواة بين أبنائها الذين جعلهم الله فى ذمتنا وتحت رعايتنا وإننا كما تعلمون لسنا من ينكرون ماكان بيننا وبين الأمة التركية من الصلات والروابط القديمة القوية التى قاتلنا فى سبيلها العرب بالعرب لأجل تحكيم تلك الروابط. ولاعتقادنا بأن سلامة العموم منحصرة فى تقوية هذه الروابط وأهمها الإسلامية، وأن ذلك الشعور لم يكن عن سدى بل هو حقيقة قائمة فى نفوسنا. ولكن لما دعتنا بريطانيا العظمى لانتهاز الفرصة فى الحرب العامة للسعى للمحافظة على حقوقنا القديمة واستقلالنا الفعلى الذى لا يشوبه أى شئ أقدمنا على ذلك العمل العظيم، وأخذنا على عاتقنا مسئوليته أمام الله والتاريخ - وخصوصا علمنا بما يقال - فى معنى حربنا فى ذلك الوقت الحرج مع تلك الدولة الإسلامية ولمجرد حفظ كيان قوميتنا وتحقيق آمال شعبنا. لذلك أقول يا حضرة الكولونيل يجب أن تعلموا كيف تتحتم الاستماتة فى سبيل ما استهدفنا إليه وأن نضحى من أجله كل عزيز ولا نسمح بالنكوص عن ذلك والرجوع عنه. ومع هذا فإنكم إذا أحببتم الدخول علينا ومواطنتنا على الطريقة التى تدخل بها الأمم على الأمم فإننا نرحب بكم ونحترمكم ونساعدكم وتساعدوننا يابنى إسرائيل. خصوصا وإنا نحن العرب أحرص الناس على الشهامة والوفاء. وهاهم الإسرائيليون بين ظهرانى العرب عندنا يتمتعون بكل ما يتمتع به سواهم من السكان فى الحقوق وكافة مقتضيات العدل والانصاف فى المعاملات. ولا فرق عندنا بين النصارى واليهود فى الأديان».

والمفهوم أن اللجنة الصهيونية اقترحت على الملك فى كتابها أن تحل القضية الفلسطينية على المنوال الآتى:

١ - إنشاء حكومة عربية فى فلسطين يرأسها الأمير عبد الله.

٢ - تكون العربية والعبرية لغة لهذه الحكومة.

٣ - يخضع اليهود لهذه الحكومة ويساعدون على إنشائها.

٤ ـ تحدد الهجرة الصهيونية إلى فلسطين بنسبة الحاجة.

٥ ـ يساوى بين العرب واليهود فى الوظائف.

وقد رفض الملك مبدئيا قبول هذه الشروط قاعدة للمفاوضة لأنها تحقق وعد بلفور وتشد بنيانه.

مبايعته بالخلافة

وجاءت الأخبار وهو فى عمان بأن الترك ألغوا الخلافة وطردوا سلائل الخلفاء من بلادهم فسعى الأمير عبد الله لأخذ البيعة بالخلافة فتم له ما أرادوا وجرت البيعة يوم ١٢ مارس سنة ١٩٢٤ فى عمان، وغادر الملك عمان يوم ٢٠ منه عائدا إلى مكة يحمل لقبا جديدا هو لقب الخلافة.

نداء الحسين إلى الشعب البريطانى ورد رئيس الوزراء عليه

وبينما كان الحسين يعد معدات الرحيل إلى عمان لمقابلة زعماء فلسطين والاتفاق معهم على الخطة التى يسير عليها وجه نداء إلى الشعب البريطانى صدر من مكة يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٣ فترجم فى مصر إلى الإنجليزية وطبع فيها وأرسل إلى رئيس الوزارة البريطانية والوزراء وعدد من النواب واللوردات والصحف ونشر فى لندن يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٣ وهذا نصه العربى:

إلى الأمة البريطانية

من الحسين بن على

بناء على ما اشتهر به الشعب البريطانى الكريم من الثبات والنزاهة وهى الصفات المعروفة لى شخصيا رأيت أن أعرض على ضميره الصادق وحكمه السليم آرائى فى الحيف الذى أصاب قومى فى بلدانهم المختلفة.

لقد لبيت دعوة حكومة جلالة الملك لأنى كنت أعتقد أن فى دعوتها منافع مادية وأدبية متبادلة، وهو اعتقاد أعترف بأن الحكومة البريطانية كانت تشاطرنى إياه.

ولم تكن تلبيتى لهذه الدعوة تتنافر مع شئ من العواطف القومية أو الدينية. بدليل ما جاء فى منشوراتى الرسمية العديدة. فقد نهضت مع شعبى بعد نيل ضمانات تضمن مصالحهم ومستقبلهم وخضت غمار القتال جنبا إلى جنب وكنت وطيد الإيقان بأننا نحارب فى جانب شرف الأمة البريطانية كلها لا فى جانب أفراد تفصم العرى التى تربطنا بزوالهم. ومثلى يعنى بشرف الأمة البريطانية وشهامتها وعظمتها فأقدمت على خوض القتال وأنا ممتلئ ثقة، فى حين كانت كفة الخصم راجحة فى كوت الإمارة والقتال والدردنيل وجميع ساحات الحرب فى أوربا. وواصلت اشتراكى وشعبى إلى النهاية وإلى أن تقشعت السحب السوداء الملبدة، وكانت تنذر بحرب دينية فى الشرق تكون بعيدة المدى والعواقب وضربت المثل الأعلى للعالم فى سعة الصدر والتسامح والدفاع عن المبادئ السامية. فلبى العرب دعوتى فى العراق وسورية وفلسطين وكانت بيدى وثائق الساسة المسئولين وتصريحاتهم الرسمية والخصوصية التى فاهوا بها على رؤوس الأشهاد وكلها مجمع على أن العرب سيفوزون بوحدتهم واستقلالهم مكافأة لهم على ولائهم، وأن مصائبهم ومحنهم ستزول وقد وضعوا ثقتهم وآمالهم بعد الله فى شرف الأمة البريطانية. ومما يشهد بذلك ويثبته أيضا أنهم أبوا صلحا منفردا يعقد مع العدو الذى عرض عليهم أن ينيلهم استقلالهم وقطع لهم المواثيق الرسمية والضمانات المؤكدة، وذلك لأن العدو أخذ يشعر بتأثير الصدمة الشديدة الأدبى والمادى من جراء قتال العرب فى جانب بريطانيا العظمى وحلفائها.

وكان من نتائج هذا الولاء والوفاء تلغراف رسمى ورد من وزير الخارجية البريطانية يؤكد به وحدة العرب واستقلالهم وتصميم الحلفاء على تحقيقها، وأنه يستحيل أن يعقدوا صلحا إلا إذا نص فى شروطه الأساسية على حرية شعوبنا واستقلال بلدانهم. وقد أرسل هذا التلغراف باسم حكومة جلالة الملك البريطانية وأبلغه المعتمد فى جدة يوم ٨ فبراير سنة ١٩١٨.

فلهذه الأسباب ألفت نظر الأمة البريطانية إلى ما حل بحلفائها العرب الذين لا يزالون يعدون أنفسهم حلفاءها - على قلة ما فى العالم من الحلفاء الحقيقيين اليوم فقد مزقت وحدتهم وقطعت أوصالها وتفككت بلدانهم وصارت محتلة وأخذ العالم الإسلامى خاصة والسواد الأعظم من قومى يرميانني بتهمة أنى بعت بلدانهم لبريطانيا العظمى وحلفائها،

وهى فرية تكفى لتلطيخ كرامة بيتى وتسويد تاريخه ووصمة لا يصبر عليها حتى الذين تجردوا من كل معانى الشرف وكرم الشيم. ولا أعرف أن العرب ارتكبوا ما يستحقون أن يعاملوا لأجله هذه المعاملة إلا ثقتهم المطلقة ببريطانيا العظمى ووفاؤهم لها إن صح أن يعد هذا جناية حقيقية.

فالعرب المدفعون بآخر شرارة فى جوانحهم من الوفاء لحليفتهم العظيمة وبما فطر عليه جنسهم من عرفان الجميل والوفاء بالعهود يرغبون إلى أن أبلغ الشعب البريطانى أنهم لا يبغون بهذه الأقوال أن يباهوا بفعلهم أو يمنوا بمساعدتهم أو ينكروا على بريطانيا العظمى حقها فى ضمان مصالح شعبها أو يعارضوا فى صدق وطنية الأمة البريطانية، ولكنهم يرون من الإنصاف ألا تنحصر هذه الصفات فيها بل أن تكون فى سواها أيضا. وقد جاء فى الحديث الشريف «حب الوطن من الإيمان» فالعرب والحالة هذه حائرون كيف يوفقون بين وطنيتهم ووفائهم لحلفائهم.

ولهذا أرغب فى أن أصف فى رسالتى هذه دهشتى وحالتهم الحاضرة للشعب البريطانى الكريم لئلا يقع عليهم لوم ما إذا توسلوا بوسائل أخرى إلى درء هذا الذل العظيم الذى يسود تاريخهم المجيد غير مكترثين للعواقب مهما كانت وألا انطبق عليهم بحق المثل القائل «فر من الموت وفى الموت وقع» وهذه أبسط تهمة يلصقها بهم أعداؤهم. إذ يحق لهم أن يخاطبوهم بقولهم «لو بقيتم كما كنتم قبلا لنجوتم من جميع هذه البلايا والرزايا».

أما الحجاز فقد كان متمتعا بامتيازاته واستقلاله فى الماضى. ويستحيل الصبر على موقف الأمة العربية فى عيون العالم الإسلامى والشرق عامة فى عيون أنفسهم وفى مرآة تاريخهم، وأن ينظر إليهم كخونة ظالمين، وأن هذا الموقف الشائن مما يستحيل قبوله والتسليم به.

ولست فيما أقول منذرا ولكنى مذكر، فقد كانت شهرة بريطانيا العظمى أساس عظمتها فى الشرق. وهذه الشهرة أعظم نفوذا من أساطيلها العظيمة ومن جيوشها الجرارة. فهى فى حاجة إلى تجديد مكانتها. أقول ذلك بصراحة العربى وإخلاصه.

وعلى بريطانيا العظمى أن تبدأ بمعاملة العرب الذين حالفوها ووالوها إلى يومنا هذا مع كل ما طرأ من الطوارئ من اليوم الذى كانت فيه الحرب حقيقة بادية للعيان إلى أن

صارت خفية مستورة، ولا أطيل الكلام فى هذا الصدد ولكنى أرجو أن تشرع الأمة البريطانية فى أن تلقى عن عاتقها جميع هذه الأعباء، وأن تنصف العرب حلفاءها الأوفياء وخير لها أن يكون لها حليف متحد قوى مستقل من أن يكون هذا الحليف ممزقا مقطع الأوصال ذليلا كما هى حالة العرب الآن ولايعلم إلا الله إلى أين يسوقهم قنوطهم بعد ما طفح الكيل.

أقول ما تقدم مدفوعا إليه بعامل الإخلاص والوفاء لما علىّ من العهود والواجبات.

البلاط الهاشمى بمكة ـ ٢٤ نوفمبر *سنة* ١٩٢٣

مفاوضات لندن الجديدة
وتفسير وعد بلفور

وصل الدكتور ناجى الأصيل إلى لندن فى شهر يوليو سنة ١٩٢٣ يحمل تحفظات الملك حسين على المشروع الذى حمله إليه. وقد وصف الحسين تحفظاته بقوله «ولقد عدلت المشروع تعديلا هاما، ونصصت فيه على استقلال فلسطين استقلالا تاما مطلقا يخول الفلسطينيين إدارة بلادهم بأنفسهم واختيارهم طريقة الحكم التى يريدونها. وبذلك جعلت وعد بلفور فى حكم أنه لم يصدر وقضيت عليه بالموت» وأخذ يفاوض ولاة الأمور البريطانيين لإقناعهم بقبول تحفظات الملك الشيخ، وقبل أن تقترن محادثاته بنتيجة سقطت وزارة المحافظين وقامت وزارة العمال برئاسة المستر مكدونلد وأعلن فى لندن يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٣ بطريقة شبه رسمية أن المفاوضات الدائرة بين وزارة الخارجية ومندوب ملك الحجاز انتهت، وأن الحكومة البريطانية تخير العرب بين أمرين.

فإما أن تدخل فلسطين فى المعاهدة وينص فيها على قبول وعد بلفور بعد تفسيره تفسير رسميا بأنه لا ينطوى على إنشاء حكومة يهودية فى فلسطين التى تكون موطنا عاما لليهود يلجأون إليه متى شاؤا، وذلك طبقا للكتاب الأبيض الذى نشرته الحكومة البريطانية فى هذا الشأن.

«وإما اخراج فلسطين نهائيا من المعاهدة والسكوت عنها وإنشاء الاتحاد العربى من العراق وشرق الأردن والحجاز».

وأضافت وزارة الخارجية على ذلك «بأن الأمر أصبح بين يدى الحسين. فإذا قبل أحد المشروعين ـ وهو كل ما تستطيع الحكومة البريطانية أن تمنحه ـ انتهى الخلاف ووقعت المعاهدة». ونحن فى غنى عن القول أنه ما كان على استعداد لقبول مثل هذا المشروع بعد ما رفض المشروعات العديدة التى عرضت عليه. وهى لا تختلف عنه إلا من جهة الصيغة.

ولجأ الحسين إلى طريقة دبلوماسية لإنقاذ الموقف فأبرق من عمان فى يناير سنة ١٩٢٤ إلى المستر مكدونلد رئيس الوزارة ووزير الخارجية طالبا افتتاح مفاوضات جديدة وإرسال مندوب بريطانى إلى الحجاز أو قبول مندوب حجازى فى لندن. فرد عليه ببرقية قال فيها «إن معتمد بريطانيا فى جدة هو الواسطة المثلى للمخاطبات بين الحكومتين. وقال إنه لا يمكن الحكومة البريطانية أن تعامل مندوبا آخر يرسله الحجاز معاملة المندوبين السياسيين قبل التوقيع على المعاهدة».

وفى يوم ٢٤ يونيو سنة ١٩٢٤ وصل الدكتور ناجى الأصيل إلى بورسعيد قادما من لندن، وسافر إلى مكة يحمل النص النهائى للمشروع كما أقرته الحكومة البريطانية فلم يقبله الملك ووضع عليه تحفظات جديدة تقضى بإنشاء حكومة دستورية فى فلسطين لزيادة كفالة حقوق أهلها. وقال انه مستعد لقبول آراء بريطانيا العظمى فى أمور أخرى إذا قبل اقتراحه.

وغادر الدكتور ناجى مكة فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٤ بطريق العقبة وعمان ثم جاء القاهرة وفى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ غادر القطر المصرى إلى لندن لاتمام المفاوضات وقبل أن يصلها وردت الأخبار بمهاجمة السعوديين للحجاز واحتلالهم الطائف، وتلا ذلك ما تلاه من تنازل الملك حسين وسقوط مكة، فقطعت الحكومة البريطانية المفاوضة مع الدكتور ناجى وأذاعت يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٤ بلاغا قالت فيه «أنه بالنظر لتنازل الحسين عن الملك فليس فى وسع الحكومة البريطانية أن تواصل المفاوضة فى شأن مشروع المعاهدة مع الحجاز كما عدله الملك الحسين».

وقد رد الدكتور ناجى الأصيل على هذا الإعلان بمذكرة رسمية سلمها إلى وزارة الخارجية البريطانية وقال فيها إن الملك عليا لم يشاطر قط الملك الحسين رأيه فى ما أدخله على المشروع من تعديلات، ولذلك تعتبر كأنها لم تكن، وتبقى المعاهدة كما كانت فى شهر يونيو الماضى عندما وافقت على فتح باب البحث مع الملك علىّ لعقد المعاهدة لأنها اعتبرت

نفسها فى حل من العهود التى قطعتها للحسين، ولعلها حسبتها عهودا شخصية تزول بزوال الشخص المقطوعة له. مع أنها فى الواقع عهود سياسية قطعت للعرب كلهم لا للحسين وحده. يؤيد ذلك ما صرح به المستر لويد جورج فى جلسة مجلس النواب البريطانى يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٢٣ فقد طلبت من الحكومة البريطانية أن تنشر جميع المستندات والأوراق المتعلقة بالعراق والقضية العربية، وفى جملتها اتفاق سايكس - بيكو. وقال إن العرب اعتمدوا على قوة العهود المقطوعة لهم ومتانتها وليس فى الطاقة نقض هذه العهود ونكثها. فإن عهد إمبراطورية عظيمة ليس قصاصة ورق. وأيد المستر اسكويث (رئيس الوزارة البريطانية التى قطعت العهود للعرب فى عهده) المستر لويد چورچ فى طلب النشر فوعدتهما الحكومة ولم تفعل.

ـ ٥ ـ
النجديون يهاجمون الحجاز

بعد ما فشل مؤتمر الكويت على المنوال الذى بسطناه آنفا، وعجزت الحكومة البريطانية عن التوفيق بين صديقيها الملك الحسين والسلطان عبد العزيز عقد هذا اجتماعا حافلا فى الرياض دعا إليه كبار قومه لتقرير الخطة التى يسيرون عليها إزاء الهاشميين. وبعد البحث والمناقشة اتفقت الكلمة على مهاجمة هذه الأقطار الثلاثة فى وقت واحد فمشت بيارق نجد إلى الحجاز والعراق وشرق الأردن فى أول العام الهجرى الجديد سنة ١٣٤٣ (شهر أغسطس سنة ١٩٢٤) فبلغت الحملة المرسلة إلى الأردن ضاحية عمان يوم ١٤ أغسطس سنة ١٩٢٤ وهاجمت القسطل وأم العمد (منازل بنى صخر) ويادوه وطرش، فصمد لها جند الحكومة يؤيدهم العربان وطردوها ـ وكان الأمير عبد الله يومئذ فى الحجاز ـ وأذيع رسميا يوم ٢٢ منه أن النجديين طردوا نهائيا من شرق الأردن، وأن الطيارات طاردتهم حتى قرب الأزرق، وبلغت خسارتهم ألف قتيل وجريح وأسر منهم ٢٠٠.

وأصيبت الحملة التى أغارت على العراق بما أصيبت به الحملة الموجهة إلى الأردن. فصدت وردت وحالف التوفيق القوى التى هاجمت الحجاز وما كان عدد رجالها يزيد على بضعة الآلاف بقيادة خالد بن لؤى وسلطان بن بجاد، واحتلت مخفر كلاخ من مخافر الحكومة الهاشمية ـ ويقع شرقى الطائف ـ وتقدمت إلى مخفر الأخيضر ومنه زحفت بدون مقاومة تذكر إلى الطائف. ويقول بعض الرواة إن القوات الهاشمية المرابطة فى المخفرين ـ وما كان عددها يزيد عن المائتين والخمسين جنديا ـ استسلمت إلى الغزاة ولم تشهر سلاحا فى وجههم.

وبلغت القوة الطائف، وكان فيها نحو ٥٠٠ جندى نظامى يقودهم اللواء صبرى باشا وزير الحربية والقائد العام للجيش الحجازى ـ وقد عهد إليه بالدفاع عن تلك المنطقة، يساعده الشريف شرف بن راجح أمير الطائف وحاكمها. وكان فى الطائف أيضا الشريف عبد الله باشا بن محمد وقد جاءها للاصطياف مع أسرته وعدد كبير من أسر مكة وعائلاتها.

وأبلغ الشريف عبد الله بن محمد عمه الحسين خبر الغارة. فكتب إليه قائلا: يجب أن

تتخذوا التدابير اللازمة للدفاع ورد المغيرين. فأجابه أن مخازن العتاد والذخيرة تكاد تكون فارغة، وأن الموجود لا يكفى للدفاع وطلب إرسال نجدات بسرعة. فأصدر الملك أمره إلى ولى عهده الأمير على وكان فى مكة وقد جاءها حاجا فى تلك السنة مع قواته من المدينة، وتبلغ نحو ٨٠٠ جندى نظامى بالسفر إلى الطائف. فغادر مكة عصر يوم ٢ صفر، ومعه ٤ مدافع جبلية و٨ رشاشات.

وبدلا من أن يسلك بقواه الطريق السلطانى (طريق كرى) أصدر الحسين الأمر إليه بأن يسلك طريق ربع الثنية وهو أقرب من ذاك ولكنه أوعر. وقد أدى هذا التدبير إلى تأخير النجدة لأن المدافع والرشاشات والذخائر كانت محملة على إبل لم تعتد السير فى الجبال - لا على بغال كما هى العادة فى الجيوش - وبدلا من أن تصل يوم ٤ منه وصلت يوم ٥ إلى وادى المحرم ويبعد عن الطائف ثلاث ساعات تاركة مدفعين وقسما كبيرا من العتاد فى الطريق. ودخل الأمير الطائف فى مساء ذلك اليوم مع قواته البدوية تاركا القوى النظامية بقيادة اللواء جميل باشا الراوى فى الطريق.

وأراد الأمير النزول فى قصر شبرا - وقد اعتاد النزول فيه - فحال الشريف عبد الله باشا بن محمد دون ذلك لأن رصاص النجديين كان يصله. فقصد قصر رغدان وهو واقع قرب السور، وقضى ليلته فيه، وعرف قادة الجيش السعودى بوصول الأمير، ويقال أن قسما من البدو الذين جاءوا معهم انضم إليهم فقرروا الإسراع فى العمل وبذل الجهد لاحتلال الطائف قبل وصول القوات النظامية الأخرى. وحملوا حملة صادقة على المخافر الواقعة حولها فاحتلوها. فلجأ رجالها إلى داخل المدينة وانضموا إلى الحامية وكانت مسلحة بثلاثة مدافع جبلية و٨ رشاشات مع عتاد قليل.

وغادر الشريف عبد الله بن محمد الطائف ضحى ٦ منه قاصدا مكة لإطلاع الحسين على الحالة فى الطائف - وكان المهاجمون قطعوا الأسلاك البرقية. فسلك طريق عثمان وأدرك الأمير على عند الظهر أن وجوده داخل السور لا يفيد. فخرج فى الساعة الرابعة بعد الظهر مع بعض رجاله قاصدا وادى المحرم للاجتماع بقواه التى وصلت إليها على أن يكر بها على الطائف فينقذها ويطرد المهاجمين، وقد فشلت هذه الخطة بسبب الاضطراب الذى ساد بعد سفره. وقد لحق به على الأثر صبرى باشا والشريف شرف بن راجح القائمقام فهجم بعض الموظفين والسكان على الأبواب وفتحوها عنوة معلنين أنهم لا يريدون الحرب وهددوا الجند بالضرب إن لم يكفوا عن القتال حفظا لأرواحهم، وخوفا من

خراب ديارهم فغادر الجند البلدة ليلا بعد ما عطلوا المدافع والرشاشات. ودخل النجديون البلدة فى صباح ٧ منه بعد مارفع سكانها العلم الأبيض شارة التسليم ونهبوها وفتكوا بسكانها الذين وقعوا فيما حاذروه. وقد أنكر ابن سعود على رجاله ما فعلوه وتبرأ منهم. وجاء فى بلاغ شبه رسمى أصدرته حكومة نجمد عن هذا الحادث.

ما نصه:

ولما صارت القوة المهاجمة على أبواب الطائف وجدت قوات الحسين تغادرها على جناح السرعة فدخلتها ودخلها الحجازيون ولم تمض ساعة حتى امتلأت بهم واختلط الحابل بالنابل والعدو بالصديق وأنكر الابن أباه والأخ أخاه. وقد قام البدو الحجازيون الذين كانوا يحاربون مع الشريف بأعظم أدوار السلب والنهب».

وتبدل الموقف العسكرى بعد سقوط الطائف، وبعد تشتت القوى التى كانت فى داخلها ولم يعد فى استطاعة قوات الأمير على أن تهاجمها، ولذلك قرر أن يحشد جموعه فى الهدى وتبعد خمس ساعات عن الطائف غربا وتعلوا على سطح البحر ١٦٠٠ متر وتسيطر على وادى المحرم فارتد إليها صباح ٧ منه.

وفى صباح ٨ منه غادرها بأمر والده. وكان يدير حركات الجيش من مكة إلى بازان فى جوار عرفات فبلغها صباح ٩ منه وأقام فيها يستعد للقيام بغارة جديدة.

وفى صباح ٢١ منه غادرت القوة بازان إلى الهدى ثانية وذلك بطلب عربان ذاك الجوار الذين ألحوا على الملك بإرسالها ليشتركوا معها فى استرداد الطائف كما قالوا، وكان الملك ينتظر ورود قبائل حرب فتسلك طريق اليمانية لحمايتها فلم تحضر. وبذلك ظل هذا الطريق مفتوحا، وما كان عدد أشراف الحرث الذين يدافعون عنه يزيد عن الخمسين بقيادة الشريف على ابن الحارثية.

وقعد العربان عن تأييد القوة وشد أزرها خلاف ما وعدوا، وشعر الأمير بذلك وأدرك أن معظم القبائل انضم إلى السعوديين، وأنها قد تضربه من الوراء فأحكم موقفه فى الهدى وحصنه للدفاع عن مكة. ورأى قادة الجيش السعودى وكانوا يطلعون على حركات الجيش الهاشمى بواسطة عربان الديرة ـ الذين كانوا يبلغونهم كل حادث فى حينه أن يعجلوا فى الاستيلاء على الهدى فأعدوا عدتهم بالاتفاق مع عربان طويرق النازلة فى الهدى، وحملوا

حملة صادقة فى منتصف ليلة ٢٦ صفر من القلب والجناحين، ولما كانت الليلة حالكة السواد وكان دليلهم من أبناء الديرة فقد بلغوا الأماكن الأمامية لخط الدفاع الأصلى من دون أن يراهم أو يشعر بهم أحد. وفاجأهم الجند أصبحوا على مسافة ٥٠ مترا فاستمرت الحرب الليل بطوله وفى الصباح انسحب الجند من الخط الأمامى إلى الخط الأصلى وأصلى المهاجمين نارا حامية من الرشاشات ففتك بهم.

وظهر لقيادة الجيش حينما طلعت الشمس أن عربان الديرة انضمت إلى السعوديين وأنها تقاتل فى جانبهم وأن بعضها اعتصم بالجبال وأخذ يطلق الرصاص على الجيش من الوراء فقررت الانسحاب خوفا من قطع خط الرجعة، ولئلا يقع الجند بين نارين وقد انقلب الانسحاب إلى هزيمة بعد ذلك لأن بدو الديرة كانوا يطلقون الرصاص على الجيش فى تراجعه وبلغ بازان فى الغداة فخيم فيها وأخذ يجمع صفوفه وقواه.

وقد كان لارتداد الجيش على هذا المنوال أسوأ تأثير فضعفت القوى الأدبية فى نفوس الحجازيين، وكثر المنضمون إلى السعوديين، وفى جملتهم بعض الأشراف وعلى رأسهم الأشراف الحرث الذين أخذوا يهددون طريق مكة ـ جدة.

ولما وصلت الحالة إلى هذه الدرجة من الخطورة جمع الحسين الأشراف وسألهم عن رأيهم فى الحالة فقرروا الانسحاب إلى جدة، وبدأوا فأرسلوا النساء والأطفال وبينهم عائلة الحسين نفسه.

طلب مداخلة الإنكليز

واجتمع الشريف عبد الله باشا بن محمد والشيخ عبد الله سرامج قاضى القضاة والسيد أحد السقاف رئيس الديوان العالى فى مكتب الأخير وبحثوا الحالة وقرروا أن يقترحوا على الحسين إرسال برقية إلى الحكومة البريطانية لطلب تدخلها وقد وضعوها فعلا. وخلاصتها أن الدولة الهاشمية هوجمت من قبل السعوديين من دون استعداد وأنهم باسم الصداقة القديمة يرجون تدخل الحكومة البريطانية لكف الأذى وصيانة البلاد من الأخطار. وقد كتبت البرقية ووقعت وأرسلت إلى مكتب البرق. ولكن الحسين أوقفها ومنع إرسالها.

ـ ٦ ـ
تنازل الحسين والمناداة بالملك على

ورأى عقلاء الحجاز المجتمعون فى جدة أن الطريقة المثلى لحل الخلاف بينهم وبين ابن سعود هى حمل الحسين على التنازل عن العرش فيتخلصوا من شدة شكيمته أولا ويرضوا ابن سعود ثانيا ، وكان ينادى بأنه ما نهض إلا لقتال الحسين وانقاذ الحجاز فدعوا الأمير عليا إلى موافاتهم فى جدة فجاء إليها يوم ٤ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ فأبلغوه أن الأمة قررت خلع والده ومبايعته حقنا للدماء فأبى قبول البيعة مراعاة لكرامة والده فأرسلوا إلى الحسين فى مكة البرقية الآتية:

بما أن الشعب الحجازى بأجمعه واقع الآن فى الفوضى العامة بعد فناء الجيش المدافع وعجز الحكومة عن المحافظة على الأرواح والأموال، وبما أن الحجاز بلاد مقدسة يعنى بأمره عموم المسلمين، لذلك فأن الأمة قررت نهائيا تنازل جلالة الشريف حسين وتنصيب ابنه الأمير على ملكا على الحجاز فقط مقيدا بالدستور ـ على شريطة أن ينزل على رأس المسلمين وأهل الحجاز فى تحقيق آمالهم ورغائبهم فى اصلاح شئون البلاد المادية والمعنوية، وأن يكون للبلاد مجلسان، أحدهما نيابى وطنى لإدارة الأمور الداخلية والخارجية، والآخر شورى يتكون من أعضاء نيابيين منتخبين من المسلمين على اختلاف بلادهم، ومهمته الإرشاد والمساعدة على إصلاح الشئون الداخلية والخارجية والله الموفق لما فيه الصلاح.

٤ ربيع الأول سنة ١٣٤٣

عبد الله على رضا، سليمان قابل، محمد طويل ، مصطفى إسلام، ناصر بن شكر، شرف بن راجح، محمد صالح باناجه، محمد نصيف، عبد الله الصغير، على محمد سلام، أبو بكر باغفار، محمد نور جوخدار، أحمد ناظر، حمزة شيث، سليمان أبو غلية، حمزة جلال ابن على مصطفى، بابلى هاشم بن سلطان، سليمان أبو داود، عبد الصمد إبراهيم زامكة.

أحمد حماد، محمد سرور الصبان، عابد مقادى، عبد الرحمن باجنيد، عثمان با عثمان،

أمين سنباوه. حسين محمد نصيف، أحمد بن عبد الرحمن.

فأجاب الحسين على هذه البرقية ببرقية وجهها إلى جميع موقعى التلغراف السابق كل باسمه:

لا بأس وقد أشرنا لكم بقبول التنازل بكل ارتياح وأنا ليس لنا رغبة إلا فى سكينة البلاد وراحتها وسعادتها. فالآن عينوا لنا مأمورين ليتسلموا البلاد والشغل بكل سرعة ونحن نتوجه فى الحال وإن أخرتم من يتسلم البلاد ووقع حادث فأنتم المسؤولون عنه والأشراف عندكم كثير موجودون أرسلوا أحدا منهم أو سواهم. وعلاوة على هذا إذا قبل منكم ابنى على الأمر فعينوه رأسا.

فردوا عليه بالبرقية الآتية:

الحالة حرجة جدا ولا وقت للمخابرات فإن كنتم لا تتنازلون للأمير على فنسترحم بلسان الإنسانية أن تتنازلوا جلالتكم حتى تتمكن الأمة من تشكيل حكومة مؤقتة حقنا لدماء الأبرياء من المسلمين، ويمكنها المخابرة مع من يرون طريقة لنجاتهم ليعينوا من شاءوا. وإذا تأخرتم عن إجابة هذا فدماء المسلمين ملقاة على عاتقكم، والرجا نزولكم على رأى الأمة.

فأجاب الحسين تليفونيا:

أتشكر عن رغبتكم فى تنازلى، ولكن لغير الأمير على. وهذا ما أصرح لكم به وأرجوكم الإفادة سريعا ولا عندى غير هذا بصورة قطعية ومسئوليته علىّ ومؤاخذته عائدة علىّ فكأنى لم أفعل شيئا وإنى بكل رجاء أرغبكم أن تعينوا شخصا غير على بكل سرعة حتى يتم المقصود. وهذا أول وآخر ما أقوله بكل ممنونية وارتياح. هذا إذا كان لكم شفقة حقيقة على البلاد.

ثم أرسل البلاغ الآتى إلى الأعيان بواسطة قائمقام جدة.

تصميمى على الاعتزال أؤكد لكم بهذا أيضا طلب تعيين من يتسلم البلاد ومعاملاتها فى يومنا هذا بكل سرعة فإن الفوضى التى ذكرتموها فى برقيات طلبكم اعتزالى الأمر وقعت الآن بداعى إشهاركم رغبة تنازلى وإنى لا أقبل أى مسؤولية تقع إذا لم تسارعوا اليوم فى تعيين من يقبض على البلاد ومعاملاتها لا توجه فى الحال إلى الجهة التى

يختارها لى المولى على طريق جدة، وهذا ليس فرارا من أى شئ تتصورونه كلا ثم كلا تتضاعف التصورات والظنون بنا حين جواب الهيئة.

بيعة الملك على

وعلى أثر ذلك اجتمع الناس فى دار الحكومة بجدة وجاء سمو الأمير على فجرت مبايعته بالملك وذلك يوم ٥ ربيع الأول، وألقى السيد طاهر الدباغ الخطبة الآتية:

بناء على طلب الأمة قد تنازل جلالة والدكم وذلك بموجب برقيته المؤرخة فى ٤ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ رقم ٦٩ وقررت الأمة نهائيا البيعة لجلالتكم ملكا دستوريا على الحجاز، فقط على شريطة أن تنزلوا على رأى الأمة فى تحقيق آمالهم ورغائبهم فى إصلاح شؤون البلاد المادية والمعنوية، وأن يكون للبلاد مجلس نيابى وطنى ينتخب أعضاؤه من عموم الأقطار الحجازية بموجب قانون أساسى تضعه جمعية تأسيسية ـ كما هو جار فى الأمم المتمدنة ـ ومهمته إدارة الأمور الداخلية والخارجية بواسطة وزارة دستورية مسئولة أمام المجلس، وحيث إن الوقت ضيق الآن عن تشكيل المجلس الوطنى النيابى فقد رأت الأمة أن تشكل هيئة لمراقبة أعمال الحكومة، حيث لا يمكن لها إجراء أى عمل بدون تصديق الهيئة وموافقتها، وأننا نبايعك على ذلك وعلى العمل بكتاب الله وسنة ورسوله».

وعلى أثر انتهاء حفلة المبايعة أرسل السيد طاهر الدباغ البرقية الآتية إلى الحسين:

بحمد الله ومساعى مولاى قد تمت البيعة لجلالة نجلكم المعظم وقد فاوض جلالته من يلزم فى تسلم البلاد وإدارة شؤونها فالمنتظر من مولاى مبارحته البلاد بكل احترام تهدئة للأحوال.

ولما وصلته هذه البرقية أجاب عليها بالبرقية الآتية وقد أرسل نسخا منها إلى أعضاء هيئة جدة كلا باسمه:

مع الممنونية والشكر . هذا أساس رغبتنا التى أصرح بها منذ النهضة وإلى تاريخه، وقد صرحت قبله ببضع دقائق أنى مستعد لذلك بكلى ارتياح إذا عينتم ذاتا غير على وأنى منتظر هذا بسرعة وارتياح لأنه ليس لى غاية إلا راحة البلاد وسكانها وكل مايستلزم سعادتها.

ولما أطلع الحسين على خطبة البيعة ومانص فيها من وضع دستوز للبلاد وإنشاء مجلس نيابى منتخب أرسل إلى القائمقام جدة الكتاب الآتى:

وقفت على بلاغ فخامة قاضى القضاة نائب رئيس الوكلاء البرقى الصادر فى ٥ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ وعدد ٤ لقائمقام القصر العالى المتضمن أن هيئة جمعية جدة تشير إلى رغبة اعتزالى عن المصلحة الأمر الذى صرحت بإنفاذه عند رغبة الأهالى أو أبسط مقتضى بكل ارتياح وانشراح من أول عام نهضتنا ولم أزل أصرح به إلى تاريخى وأن رغباتى ومقاصدى هى محصورة فى سبيل راحة عموم البلاد ورفاهيتها وسعادتها باستقلالها التام ولا يهمنى تقليد أمر رياستها لأى شخص كان، وأنها وجعت مقامها لابنى على شرط أن يكون أمر حكومتنا الحجازية ونفوذها محصورا فى منطقة الحجاز فقط، وأن تكون حكومته دستورية وعليه ولكون نهضتنا مؤسسة أولا على استقلال البلاد العربية المصرح بحدودها ثم، والعمل فى أقطار الحرمين الشريفين بأحكام كتاب الله وسنة ورسوله فتحديد سلطة الحجاز الجارى مخابرات أولى الشأن معه إلى هذه الساعة فى شئون استقلال العرب ببلادهم. ولو لم يكن فى هذا التحديد ألا تأملنا فى مساعى الحضرة السعودية باستيلائها على حائل قاعدة إمارة الرشيد والجوف مقر آل الشعلان وتشبثه فى ضبط الكويت وتعرضه لغير إمارة آل عايض. بل تجاوزه على مكة المكرمة ومساعى أمام صنعاء لضم بلاد (حاشد) وتهامه والشوافع وحضرة الإدريسى على الحديدة وما حولها وجعله - أى أن الحجاز حكومة دستورية ينبذ فيها العمل - سيما الحرمين الشريفين بأحكام كتاب الله وسنة رسوله للعمل فيها بالقوانين البشرية مما تأباه شعائر الإسلام وفرائض الدين والأخلاق الشريفة مادة ومعنى. وهذا علاوة على مخالفة ذلك لأساس نهضتنا التى سفك فى سبيلها الحجاز خصوصا والعرب عموما دماءهم وأموالهم وأنفسهم لنيل هاتين الغايتين الشريفتين المقدستين.

وعليه تبلغوا هيئة الجمعية الموقرة المذكورمة وكل من يقتضى إبلاغه احتجاجى القطعى أولا على تحديد نفوذ الحجاز كما ذكر بما ينشأ عن قطيعة العرب وحرمانهم من حقوقهم الحيوية الأساسية.

والثانى ما فى إبدال العمل بكتاب الله وسنة ورسوله. ولذا فإنى أحفظ حقوق اعتراضى وإنكارى المادة والمعنى بكل ماذكر ولذا تحرر.

هيئة جدة وقناصل الدول

وأرسلت هيئة جدة يوم ٤ منه إلى قناصل انجلترا وفرنسا وهولندا والسوفييت وإيطاليا وإيران البلاغ الآتى:

نحيط علم سعادتكم نظرا لما وصلت إليه حالة البلاد من سوء السياسة والإدارة المستمرة. وحيث إن الخطر محدق من كل جهة وثبوت عجز الحكومة المركزية عن كل تدبير قد اتفق جميع أهالى الحجاز على طلب تنازل جلالة الملك حسين عن مركزه وذلك لاتخاذ التدابير اللازمة وحقن دماء الأبرياء. ولكن الملك حسينا مصر على عدم التنازل وقد كررنا عليه الطلب مرارا فلم يقبل.

فعليه يكون فى علمكم أن المسؤولية عائدة على شخصه فيما سيلحق البلاد والأهالى من الخطر. على أن يكون حقوق الإنسانية تقتضى التوسط فى حقن دماء الأبرياء بالاتفاق مع الأمير ابن سعود على ما يصون الأرواح والأموال وأقبلوا فائق الاحترام.

ثم أرسلت أيضا إلى القناصل نصوص المكاتبات الرسمية التى دارت بينها وبين الحسين بشأن تنازله.

إنشاء الحزب الوطنى الحجازى ومبادئه

أنشئ هذا الحزب يوم ٢ ربيع الأول (أى قبل بيعة الملك على) فى اجتماع عقده رجال جدة ووضعوا له المبادئ الآتية:

١ ـ السعى بكل الوسائل لحفظ البلاد من الكارثة الساحقة المحدقة بها.

٢ ـ السعى لجعل البلاد دستورية إسلامية سالمة من شوائب الدسائس والنفوذ الأجنبى.

٣ ـ النزول على ما يرتئيه العالم الإسلامى لمصلحة البلاد والعباد وكيفية إدارة البلاد.

وهذه أسماء هيئته الإدارية: الشيخ محمد الطويل رئيسا ومحمد طاهر الدباغ سكرتيرا عاما وقاسم زينل خازنا وعبد الله رضا وصالح شطا وعبد الرؤوف الصبان والشريف شرف ابن راجح وسليمان قابل ومحمد نصيف ومحمد صالح نصيف ومحمود شلهوب وماجد كردى أعضاء.

ووزع الحزب نشرتين على الأمة: الأولى يوم ٩ ربيع الأول، وجاء فيها أن المأزق الحرج الذى وقعت فيه البلاد دفع الأمة إلى التفكير فيما يجب عمله لدرء الخطر الداهم، وأن تتولى أمر نفسها بنفسها وأن تسعى بكل الوسائل لحفظ البلاد والعباد. ولأجل أن تكون الأعمال فى يد قادة صالحين للعمل، مفكرين فيما يجب عليهم نحو وطنهم المحبوب تشكل حزبنا الوطنى الحجازى من ذوى الأفكار السامية والنظر الثاقب وانتخبوا من بينهم ١٢ عضوا للقيام بالأعمال التى توجبها الحالة الحاضرة. وقد باشروا ولله الحمد عملهم وسيسيرون على مبادئ الحزب القويمة التى يتفانون لأجلها . وقد عاهدوا الله سبحانه وتعالى وأقسموا بعظيم آياته أن لا يدعوا صغيرة ولا كبيرة من الأعمال العائدة لمصلحة البلاد ألا فعلوها بقدر استطاعتهم. وكل ما يرغبونه من الأمة الحجازية أن تتدرع بالصبر وأن تضع ثقتها فى الحزب ورجاله المخلصين».

وجاء فى النشرة الثانية أن الحزب يقوم بالنيابة عن الأمة فى الوقت الحاضر والمستقبل.

بيان الحزب الوطنى إلى العالم الإسلامى

وفى يوم ٥ ربيع الأول و٤ أكتوبر سنة ١٩٢٤ أرسل الحزب الوطنى البيان الآتى إلى صحف مصر وقد وقعه محمد طاهر الدباغ سكرتيره:

«بما أن الشعب الحجازى بأجمعه الواقع الآن فى الفوضى العامة من فناء الجيش المدافع وعجز الحكومة عن المحافظة على الأرواح والأموال. وبما أن الحرمين الشريفين خاصة وعموم البلاد الحجازية عامة مستهدفة لخطر ماحق. وبما أن الحجاز بلاد مقدسة يعنى أمرها عموم المسلمين. لذلك فإن الأمة قررت نهائيا وأجبرت الشريف حسينا على التنازل عن عرشه، وسينسحب إلى حيث يرغب من البلاد لإقامته. وبالنسبة لما يخشى حدوثه من الاضطرابات الداخلية وهياج الرأى العام فقد رأت الأمة أن تبايع صاحب الجلالة عليا الأول ملكا دستوريا على الحجاز فقط ـ على شرط أن ينزل على رأى الأمم الإسلامية فى ما يؤول إليه صلاح هذا البلد الأمين. وقد أرسلت الأمة الخطابات إلى الإمام ابن سعود للمفاوضة، وأن الشعب الحجازى بعد هذا التبليغ والإجراء يلقى كل مسئولية على عاتق المسلمين إذا لم يسارعوا فى إنقاذ البلاد بإيقاف جيوش الإمام ابن سعود عند

آخر منطقة وصلت إليها، وإرسال المندوبين بكل ما يمكن من السرعة لإتمام المفاوضة واتخاذ الاجراءات الفعالة لحفظ البلاد».

الحزب يتوسط عند ابن سعود

وفى يوم ٥ منه أرسل الحزب الوطنى الكتاب الآتى إلى عظمة السلطان عبد العزيز سعود فى الرياض:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة صاحب العظمة السلطان عبد العزيز بن سعود:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ وبعد. فإننا معاشر العرب أمة واحدة شرفنا الله بدين الإسلام، وأن البلاد الحجازية التى هى منبع النور الإسلامى هى البلاد المقدسة عند عموم الناس أجمعين، وفيها حرمه الأمين وقبلة المسلمين والمشاعر العظام. وقد حدث بينكم وبين الشريف الحسين من النفور والمنازعات بأسباب عائدة لشخص الشريف وليس للأمة والبلاد أدنى دخل فى الأمر. لأن السلطة المطلقة كانت فى يده ولا يعمل إلا بما يريده بل قد احتكر الكلام عن لسان أهلها بمالا يريدونه، ونسب لهم مالا يوافقون عليه وأوجد العداء بينهم وبين الأمم المجاورة لهم من سكان نجد وخلافها بلا سبب ـ مع اتحادهم فى الدين والمذهب حتى أدى ذلك إلى سفك الدماء البريئة. فلما بلغ السيل الزبى هب الشعب الحجازى المجتمع فى جدة من أهلها وأهل مكة والطائف والأشراف والأعيان والعربان من عموم الطوائف الإسلامية الموجودة فى الحجاز وكلفوا الشريف حسينا بالتنازل عن ملكه لما ظهر من امتناعه عن تلاقى هذا القتال بالطرق السياسية، وبايعوا ابنه سمو الأمير عليا ملكا على الحجاز فقط ـ بشرط أن ينزل على رأى الأمم الإسلامية. فبلسان هذه الأمة وباسم الإسلام الذى قمتم لنصرته وأوقفتم حياتكم لرفعة شأنه وعلو مكانته نخاطبكم ونرغب من شهامتكم العربية الأمر بإيقاف الجيوش عند آخر نقطة وصلت إليها والموافقة على إرسال المندوبين من طرفنا للمفاوضة معكم فيما يجب عمله نحو هذه البلاد المقدسة لحفظ الأرواح والأموال وتأمين البلاد التى قال فيها سبحانه وتعالى «أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا» وقال فيه صلى الله عليه وسلم «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ. فَلاَ يحِلُّ لِإمْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الأُخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا أَوْ يَعضِدَ بِهَا شَجَرَةً» إلى آخر الحديث أو كما قال.

وقد قال صلى اللّه عليه وسلم لعتاب بن أسيد حين ولاه مكة «أَتَدْرِى عَلَى مَنْ وَلَّيتُكَ؟ وَلَّيتُك عَلَى أَهْلِ اللّه فَاستَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا» ونحن نقر بما تقرون به من الإيمان والإسلام والتوحيد والتمسك بالكتاب والسنة وترك البدع والمنكرات وكل ما خالف التعاليم الإسلامية الصحيحة الواردة فى الكتاب والسنة ونشهد أن اللّه وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وقد رفعنا الأمر إلى جميع الأمم الإسلامية واحتكمنا إليها فيما ستكون عليه حالة الحرمين الشريفين. هذا ونلتجئ إلى الله تعالى ثم إلى عدلكم وشهامتكم أن تأمر بإجابة رغائب الأمة الحجازية المستعدة لقبول طلباتكم العادلة والله على ما تقول وكيل وأننا نحمد الله إليكم أولا وآخرا والسلام».

وأبطأ وصول الجواب من السلطان فأبرق له الحزب برقية بما حواه الكتاب فأرسل إليه يوم ٢٦ منه البرقية الآتية:

«وصل تلغرافكم العمومى أما رسالتكم الرسمية الخاصة المتعلقة بالصلح فلم تصل، لا يمكن نشر روح السلام فى الجزيرمة مطلقا مادام الحسين وأولاده حكام الحجاز. لا نقصد الطمع فى امتلاك الحجاز والتسلط عليها. ولهذا فهى تترك للعالم الإسلامى وهذا ما نراه من البداية بتلك البلاد المقدسة وإذا خرج الحسين وأولاده فأنتم آمنون فى بلادكم ولقد أرسلنا التعليمات المتعلقة بذلك إلى رؤساء جيشنا».

ـ ٧ ـ
عهد الملك على

قبل الملك علىّ البيعة فى جدة يوم ٤ ربيع الأول بموافقة والده ورضائه، وعاد إلى مكة يوم ٧ منه بعد ما أرسل يبلغ ابن سعود ما وقع ويطلب وقف القتال، فأقام فى جوار والده حتى يوم ١٠ منه. ففيه غادر هذا مكة قاصدا جدة وظل فيها أربعة أيام وفى يوم ١٤ منه غادرها بالباخرة الرقمتين إلى العقبة ومعه عائلته وخدمه وأمير الآلاى عثمان بك التركى مدير الشرطة بعد ما طلب إلى نجله ترفيعه إلى رتبة أمير لواء ففعل.

الحسين لم يستنجد بالإنجليز

وأعلن الحسين قبل سفره من جدة أنه لم يستنجد بالإنجليز، ولم يطلب مساعدتهم فى القتال الدائر بينه وبين ابن سعود. وقال إن كل ما فى الأمر هو أنه كلف وكيله فى لندن أن يلفت نظر ولاة الأمور البريطانيين إلى أعمال ابن سعود ليقابلوها بما كانوا يقترحونه عليه من عدم إزعاجه أو مبادأته بالعدوان.

الملك على يجلو عن مكة

وساءت الحالة بعد خروج الحسين من مكة، وزاد اعتداء العربان وتواترت الأخبار بأن الجيش السعودى يتقدم إلى مكة من طريق السيل وما كانت قوات الحكومة تزيد عن ٣٠٠ جندى نظامى يضاف إليها ٢٠٠ شرطى وقسم من بيشة وعكيل عندها ٤ مدافع جبلية و٥ رشاشات خفيفة و ٣ رشاشات ثقيلة. ومع أن هذه القوة ما كانت تكفى لأى عمل عسكرى فقد أرسلت بأمر الملك الجديد إلى وادى فاطمة لضرب الأشراف الحرث وتأديبهم فأدت مهمتها ونكلت بهم وقتلت شقيق الشريف على زعيمهم وقتلت أخا ثالثا له وقادته هو إلى مكة.

وغادر اللواء صبرى باشا وكيل الحربية مكة يوم ١٣ منه إلى جدة للإشراف على الحالة فاجتمع إلى رجال الحزب الوطنى (هيئة جدة) فأبلغوه أنهم يرون الجلاء عن مكة فلا يسفك

دم فى منطقة الحرم. ولما أبلغ هذا القرار إلى جلالة الملك وافق عليه. فغادر مكة يوم الاثنين ١٤ ربيع الأول فبلغ جدة ليلة ١٦ منه مع رجاله واستقر فيها. وفى يوم ١٧ منه وصلت فرقة النصر المؤلفة فى عمان بقيادة تحسين الفقير فانضمت إلى القوى الموجودة وأخذت تعمل فى إقامة خطوط الدفاع حول البلدة وتعد معدات القتال.

الحزب الوطنى يستصرخ العالم الإسلامى

وعلى أثر دخول السعوديين إلى مكة وعودة الملك على إلى جدة أرسل رئيس الحزب الوطنى البرقية الآتية يوم ١٨ منه إلى رجال العالم الإسلامى

«سحبت الجيوش إلى جدة احتراما للحرم وحقنا للدماء ودخلت الجيوش السعودية مكة بسلام نؤمل اهتمام العالم الإسلامى بإرسال الوفود، وأن وساطة المسلمين هى غاية ما ترجوه الأمة. نكرر استنجادنا بالمسلمين الغيورين على الحرمين».

الحزب يرسل وفدا إلى مكة

ورأى أقطاب الحزب الوطنى فى جدة أن يتصلوا بقيادة الجيش السعودى بعد دخولهم مكة ويتبادلوا معهم الرسائل علهم يصلوا إلى حل. فأرسلوا إليهم يوم ٢١ منه الكتاب الآتى:

من عموم أهل جدة وأهالى مكة الموجودين بجدة إلى حضرة الأمير خالد بن منصور ابن لؤى قائد الجيوش السعودية:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد وصل إلينا كتاب الإمام عبد العزيز ابن سعود الذى يخاطب به جميع أهل مكة وجدة ويؤمنهم فيه على أرواحهم وأموالهم[1] فأما ما

---

١ ـ هذا نص الكتاب:

بسم الله الرحمن لرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إلى كافة من يراه من إخواننا أهل مكة وجدة وتوابعها من الأشراف والأعين والمجاورين والسكان وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه أمين

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإن الموجب لهذا الكتاب هو شفقتنا على المسلمين لصلاح أحوالهم وأمر دينهم ودنياهم. ولم نزل نكرر على الحسين النصائح ونحرضه على مايجمع شمل العرب لتكون كلمتهم واحدة، ولكن الطبع غلب التطبع ولايحتاج تطويل الشرح بما انطوى عليه. لأن أكبرشاهد على ذلك مارأيتموه منه وشاهدتموه من أقواله وأفعاله

ذكره عن الشريف حسين وما هو واقع بينهما فنفيدكم أن المذكور قد تنازل عن الملك إجابة لطلب الأمة ويرح البلاد وبايع الناس ولده الشريف عليا لما يعرفونه من حسن أخلاقه وحبه للمسالمة لعموم من فى الجزيرة العرب. واشترطوا عليه النزول على رأس المسلمين فيما يقررونه لسعادة البلاد واستقرارها، وحيث أن الإمام عبد العزيز قد ذكر فى كتابه أنه

فى هذه البقاع المباركة - التى هى مهبط الوحى مما ينكره عقل كل مسلم. وعلاوة على ذلك ينكره كل من يحب المسلمين ولو لم يكن منهم. فالرجل ترك مزايا الإنصاف، وهى ماانتسب فى هذا البيت الكريم، وأهمل حقوق هذه البقعة المباركة عليه فى عدم ركوب طريقة السلف الصالح التى هى شرفه وشرف المسلمين خصوصا وشرف العرب عموما . ولاشك أنه من ترك ما كان عليه النبى عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه وأصحابه وهو يتسمى باسم الإسلام وبالخصوص أن كان من أهل البيت الشريف وطمح إلى غيرها من الزخارف التى هى أكبر شؤم على الإسلام خصوصا وعلى العبر عموما - فهو لاخير فيه، فمنذ دخل الحجاز جعل أكبر همه الإيقاع بنجد والنجديين وقد تظاهر بذلك واضحا منذ أن تفرد بالحكم، وقبض على زمام الأمور فيها وقد بلغ من التهور أن منع أهل نجد قاطبه من حج بيت الله الحرام، وهو أحد الأركان الخمسة، فضلا عما يأتيه هو وعماله من المظالم والمعاملات القاسية تجاه حجاج بيت الله الحرام الذين يأتون من مشارق الأرض ومغاربها.
ومن هذه المدة قد تركنا التدخل فى أمور الحجاز لأجل احترام هذا البيت ورجاء للسلم والامان، ولكن مع الأسف أننا لم نحظ بذلك منه. وفى هذه الأيام الماضية فى سفره إلى الأردن بانت نواياه ومقاصده للمسلمين نحونا، حينما طلب تجزئة بلادنا وتشتيت شملنا حتى لقد يئسنا من الوصول إلى حسن التفاهم معه لجمع كلمة العرب، ووالله لانعلم شيئا له من المنقم علينا إلا كما قال تعالى (ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)، ولكننا ولله الحمد لسنا متأسفين على شىء إذا سلم لنا شرفنا فى أمر ديننا ودنيانا. فليس لنا قصد فى زخارف الحسين وأتباعه. لا فى ملك ولاخلافة، ولكن غاية قصدنا وما ندعو إليه هو أن تكون كلمة الله هى العليا ودينه هو الظاهر ويسلم شرف العرب، فلذلك لحقتنا الغيرة الإسلامية والحمية العربية أن نفدى بأموالنا وأنفسنا مايقوم به دين الله ويحمى به حرمه الشريف الذى أمر الله بتطهيره وتعظيمه واحترامه. كما قال تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود) وقد أرسلنا سرية من المسلمين لاحتلال الطائف لأجل القرب للتفاهم بيننا وبين إخواننا، فأحببت أن أعرض عليكم ماعندى فإن اجبتمونا فنعم المطلوب وأن أبيتم فهذا الذى يعذرنا عند الله وعند المسلمين، وأبرأ إلى الله أن أتجاوز شيئا مما حرمته الشريعة خصوصا فى هذا الحرم الشريف الذى قال الله تعالى فيه (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وحرمة هذا البيت معلومة حتى عند المشركين الأولين كما قال الشاعر:

إن الفضول تعاهدوا   أن لايقر ببطن مكة ظالم

وأما الأمر الذى عندى لكم فهو أنى أقول عليكم يا أهل مكة وأتباعها من الأشراف وأهل البلد عموما والمجاورين والملتجئين من جميع الاقطار عهد الله وميثاقه على أموالكم ودمائكم، وأن تحترموا بحرمة هذا البيت - كما حرمة الله على لسان خليله إبراهيم ومحمد عليهما أفضل الصلاة والتسليم، وأن لانعاملكم بعمل تكرهونه، وأن لايمضى فيكم دقيق ولاجليل إلا بحكم الشرع لا فى عاجل الأمر ولا فى أجله، وأن نبذل جدنا وجهدنا فيما يؤمن هذا الحرم الشريف وسكانه وطرقه والوافدين إليه الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا، وأن لانولى عليكم من تكرهونه، وأن لانعاملكم معاملة الملك والجبروت. بل نعاملكم بمعاملة النصح والسكينة والراحة، وأن لايكون أمر هذين الحرمين الشريفين الا شورى بين المسلمين، وأن لا يمضى فيهما أمر يضربهما أو بشرفهما أو بأهلهما إلا ماوافق عليه المسلمون. وأمضته الشريعة.
فهذا الكتاب شاهد لى وعلى عند الله ثم عند جميع المسلمين، وعلى ماقلته أعلاه أيضًا عهد الله وميثاقه، فهذا الذى يلزمنا ولابد أن شاء الله تعالى أن تروا مايسر خواطركم أكثر مما ذكرنا، ونرجو أن الله يهدينا واياكم لما يحبه ويرضاه، ويصلح بنا وبكم البلاد. وأن شاء الله يجعلنا واياكم هداة مهتدين، ويمنعنا واياكم من سوء الفتن، وأن ينصر دينه ويعلى كلمته، ويذل أعداء دينه، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

٢٢ صفر سنة ١٣٤٣.

سيجعل أمر هذه البلاد المقدسة شورى بين المسلمين فقد اتفقنا والحمد لله نحن وإياه فى نقطة واحدة لا شك أن فيها المصلحة العامة لهذه البلاد المحترمة المقدسة. فنرى أنه لم يبق موجب للقتال وسفك الدماء، وأصبح الحل المطلوب من الطرفين واضحا جليا وحيث الأمر كما ذكر نكلف سيادتكم بالموافقة على إرسال مندوبين من طرفنا إليكم يكونون فى أمان الله وأمان الإمام عبد العزيز بن سعود وأمانكم لعقد هدنة توقف القتال وتصون الطرفين من سفك الدماء إلى أن تحضر الوفود التى طلبنا حضورها من جميع الأقطار الإسلامية. وعلى الخصوص من جمعية الخلافة بالهند ـ وقد ورد جوابها بأنها أرسلت المندوبين ـ وبعد اجتماع الوفود ننزل على ما تقرره وتراه. هذا ما ندعوكم إليه ونكلفكم بقبوله طبقا لما جاء بكتاب الإمام عبد العزيز، ولا شك أنكم توافقون عليه. والله ولى التوفيق. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

وفى يوم ٢٢ منه تلقى الحزب الرد الآتى:

من خالد بن منصور بن لؤى إلى محمد طويل وكافة الأعضاء:

السلام على عباد الله الصالحين ـ أما بعد خطابكم وصل وفهمنا مضمونه بعده من طرف بيت الله الحرام واتباعه جاء الله به عنوة للمسلمين، والذى يبغى يتعلق بالحسين بمحبة ومعاونة ماله عندنا إلا المقاومة بحول الله وقوته، وإن بغى على بن الحسين الأمان فيقبل ويواجهنا مأمون، والمجالس والمخابرة لها راع وهو الإمام عبد العزيز حفظه الله ورعاه.

مع وصول الخبر يستوى علم زين ومقام على عندكم من غير مواجهة بيننا وبينه نتيجة الفساد يكون معلوم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

وفى يوم ٢٣ منه أرسل الحزب الوطنى الكتاب الآتى إلى خالد بن لؤى:

وصل كتابكم وجميع ما به علم وسنرسل لكم غدا أربعة أشخاص بالنيابة عن جميع الأهالى الموجودين بجدة للسلام عليكم وإفهامكم الحقائق، وأخذ الحقائق منكم رأسا، وأما ما ذكرتموه من المحبة والتعلق بالرجل فليس عندنا من هذا شئ، ولا لنا تعلق إلا بما فيه مصلحة المسلمين والله على ما نقول وكيل».

سفر الوفد وإخفاقه

ورغم ما جاء فى الكتاب فقد غادر الوفد جدة يوم ٢٣ منه إلى مكة، وقد تألف من الشيخ محمد نصيف رئيسا ومن المشايخ عبد الرؤوف الصبان وعلى سلامة وسليمان عزاية ومحمود شلهوب وصالح شطا يحمل توكيلا من الحزب يخوله المفاوضة فى كل ما يحقن الدماء، ولما قابل خالد بن لؤى خيرهم بين ثلاث: إما أن يقبضوا على الملك وأما أن يجبروه على الخروج من الحجاز، وأن لم يقدروا لضعفهم فلديهم قوة من البدو المتطوعين فى الجيش السعودى تساعدهم على ما يريدون وقال إنه غير مستعد للتساهل مطلقا.

وعاد الوفد إلى جدة يحمل الشروط فبلغها مساء السبت ٢٦ منه فدعا أعضاء الحزب وأعيان الأمة على الفور وأبلغهم ما جاء به، وقال لهم إن لهم مهلة عشرة أيام فقال أناس بوجوب الذهاب إلى دار الملك وحمله على التنازل والسفر، وقال غيرهم بالانتظار والتريث وأخيرا تم الاتفاق على أرجاء الأمر إلى غد، وعقد الاجتماع فى الغداة فوقف رئيس الحزب وأعلن أن مهمة الحزب انتهت، وعلى ذلك تقرر إلغاؤه وحله وكان ذلك يوم ٢٧ ربيع الأول، وقد قبض بعد ذلك على بعض أعضاء الوفد وسجنوا بتهمة أنهم كانوا ضالعين مع السعوديين وأنهم عملوا فى سبيل استيلائهم على الحجاز.

الملك على يقرر الدفاع

ولابد لنا من الإشارة هنا إلى الدعاية التى بثت تلك الأيام فى جدة للعدول عن الدفاع وحمل جلالة الملك على مغادرة البلاد وتسليمها إلى الجيش الزاحف، وقد وضع بعض أهل الحجاز مضبطة يوم ٢٣ ربيع الأول رفعوها إلى رئيس الوكلاء فى الحكومة الحجازية يطلبون فيها التوسل عند جلالة الملك على باسم الإنسانية بأن ينزل على رأس المسلمين الحجازيين بالرجوع عن الدفاع الذى استعد له، ولما رفعت المضبطة إليه أجاب أنه لابد له من الدفاع عن بلاد أبائه وأجداده، وهدد دعاة التسليم بالعقاب الشديد، وعلى أثر ذلك أرسل الحزب الوطنى الكتاب الآتى ليلة ٢٥ منه إلى وفده وكان فى مكة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: وبعد فقد تقدمت المضبطة بإمضاء الأهالى بطلب عدم الدفاع، وكان الجواب اليوم نهائيا بأنه لابد من الدفاع ولا سبيل لغير ذلك، وبعد

عجزنا عن اقناعه بالنسبة لضعفنا وقوته طلبنا منه أن يكتب كتابا للأمير خالد بإمضاء الملك بالموافقة على توقيف الحرب والأخذ فى أسباب التفاهم بينه وبين الأمير خالد إن كان مفوضا، وأن لم يكن مفوضا يمهلنا بدون حرب وبدون حركة من الجانبين بحيث يبقى كل فى محله إلى حين حضور الإمام عبد العزيز بن سعود. وبعد وصوله يحصل التفاهم معه وإن لم يوافق أيضا على هذا، فالذى هنا آخذ بأسباب الدفاع بكل همة ونشاط ولا يرجع عن هذه الفكرة مهما كانت النتيجة. وعلاوة على هذا يؤمل أن يصله عسكر ودبابات وطيارات فبعد وقوفكم على هذه الحقيقة تعرفون أن الأمير خالدا يوافق على هذا كان بها، وأن لم يلزم تأخذوا فى أسباب رجوعكم إلى جدة حالا قبل وصول كتاب الملك للأمير خالد والحذر من التأخير والاهمال. والأمر لله ولكم. وقد أوقفناكم على الحقيقة فاتبعوا ما فيه سلامتكم وتوكلوا على الله بسرعة التوجه. والله يرعاكم. وتحرر هذا بحضور عموم الهيئة».

كتاب الملك على إلى ابن لؤى

ولما ذاع أمر المكاتبات الدائرة بين الحزب الوطنى وخالد بن لؤى فى مكة أرسل الملك على إلى هذا الكتاب الآتى:

«اطلعنا على كتب منكم لأهالى جدة عموما وخصوصا، وفيها التهديد والوعيد، وحيث إن هؤلاء محكومون بحكام رؤساء ليس فى استطاعتهم تنفيذ ما تطلبونه منهم، وليس من شيمتهم إجراء ذلك لذلك رأينا أن نحرر لك كتابنا هذا بأنك أن كنت مفوضا من قبل حضرة الأخ السلطان عبد العزيز فى المذاكرة فيما يختص بحقن دماء المسلمين وبدفع السحق والمحق عن البلاد فعين لنا مندوبين من طرفك ومندوبين من طرفنا نعينهم، ويجتمعون عندك فى مكة أو بحرة، وان كنت غير مفوض من الأخ سلطان نجد فتخبر عظمته يفوضك أو يفوض من يراه للمذاكرة فى ذلك، وتكون الحركات الحربية موقوفة من طرفك ومن طرفنا إلى يأتى أن الجواب من حضرة الأخ السلطان عبد العزيز. وإن قلت لا هذا ولا هذا فالأمر مفوض لمن بيده العزة والقدرة فى كل حال».

بين قواد بن سعود والقناصل

أرسل معتمدو حكومات انجلترا وإيطاليا وهولندا وإيران وفرنسا الكتاب الآتى إلى قواد

ابن سعود في مكة وهو:

«نحن الموقعين أدناه اعتبارا للحوادث الحربية الواقعة بالقطر الحجازى، ونظرا لوجود عدد عظيم من رعايانا القاطنين بهذه الأراضى المقدسة نرى من واجباتنا ومن حقوقنا أن تدعوكم حكوماتنا إلى احترام أشخاص رعايانا وأموالهم فى أى مكان وأى وقت كان. ولهذا الباعث نرى لزوم إعلامكم أن حكوماتنا لا يسعها ألا أن ترمى على عاتق جيشكم وعاتق كل من هو عامل باسمكم مسئولية جميع ما يقع من قتل ونهب يمسان رعايانا والسلام»

وقد رد عليهم هؤلاء يو م ١٥ ربيع الأول بالكتاب الآتى:

أما بعد فقد وصلنا كتابكم وعلمنا ما فيه ولا يخفاكم أنا معشر العرب لم نقصد ملككم ولا رعاياكم، بل قصدنا محاربة من حال بيننا وبين هذا البيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا، وهو شرف العرب عموما، ونبذل فى سبيل حمايته إن شاء الله أموالنا وأنفسنا، وأهل مكة وسكانها مؤمنون على دمائهم وأموالهم وجدة وأقطارها مالنا فيها الغرض فإن حصل على شيء منها تعد فعرفونا نمنعه يكون معلوم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

وأرسلوا أيضا بعد ذلك بأيام إلى معتمدى الدول المذكورين الكتاب الآتى:

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن منصور بن لؤى وسلطان ابن بجاد إلى حضرات قنصل بريطانيا وفرنسا وهولندا وإيطاليا إيران.

«أما بعد. صار لديكم علوم أن ليس لنا فى رعايكم بغى سوى مسألة مكث على بن الحسين فى جدة، وهو ساع علينا وعلى رعايانا بالفساد ولا محالة ويوشى حرب (أى قبيلة حرب) على قطع السبل ومنع الأرزاق بين مكة وجدة الآن إن كان لكم قدرة على إخراجه من جدة فأخرجوه وإلا ميزوا رعاياكم ومن التحق بهم وعرفونا بمحلهم وحنا به أبصر (أى نحن أعرف به) ومنشور السلطان عبدا لعزيز بن السعود إلى أهل جدة بعزلة الحسين وتقديم ولده على مضمونه أنه لا يقبل الحسين ولا أولاده. والمنشور لابد أن يصل جدة عن قريب والجواب مطلوب بحال السرعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على محمد وآله وصحبه».

ولما تلقى القناصل هذ ا الكتاب أرسلوا ردهم عليه وهو:

جدة فى نوفمبر سنة ١٩٢٤

إلى خالد بن منصور بن لؤى وسلطان ابن بجاد

«بعد الاحترام: وصلنا كتابكما ولا يخفا كما أن حكوماتنا ملتزمة الحياد التام فى الحرب القائمة بين نجد والحجاز. وعلى ذلك فنحن محايدون، ولا يمكننا التدخل بأى وجه كان فى هذا الخصام. وقد أخذنا علما بتصريحكما بأن ليس لكما نظر فى رعايانا ونؤيد مضمون كتابنا الأول المختص بهم والسلام».

كتاب الملك على إلى ابن سعود

وأرسل الملك على يوم ٢٧ ربيع الأول كتابا إلى ابن سعود يقترح فيه عقد الصلح وحقن الدم. ولم يتلق جوابا عليه . وهذا نصه:

«بعد السلام والاحترام أعلم عظمتكم بأن الشعب الحجازى العربى محب للسلام، ولدفع الشقاق بين العرب ونظرا لثقته التامة بمبادئ الموافقة لمبادئه قد بدل على شكل حكومته وأقامنى ملكا عليه.

وبما أن أمانة الملك قد أودعت لشخصى فلابد لى من إيفاء واجبات هذه الأمانة بكل شرف. فعليه وانقيادا لأوامر الخالق عز وجل وحبا باتحادنا وكرها لسفك الدماء بين أمة واحدة، واتباعا للرأى العام الإسلامى والمراجعات الواردة إلىّ من الأقطار العربية الموافقة لمبادئى الأساسية قد قررت أن أتوسل بجميع ما يمكن لعقد صلح شريف يزيل جميع الموانع والمشاكل الموجودة بين الطرفين، وللدخول فى عهد جديد يؤمن مصلحة المسلمين عامة والعرب خاصة. ولذلك انسحبت من مكة بدون حرب لحفظ بيت الله الحرام ولمنع تكرار فظائع الطائف ولانتظار جواب مراجعتى الأولى فى جدة وبما أن الجواب لم يأتنى للآن ولم يوجد أحد يرأس جيشكم يمكننى المفاوضة معه اضطررت أن أراجعكم ثانيا، وأنا أنشر مراجعتى هذه علنا بين جميع المسلمين.

أبلغ عظمتكم هذا والبلاد قد أصبحت بحالة عسكرية يمكنها أن تسترجع جميع ما أضاعته بإذن الله. فإذا وافقتم على هذا التكليف الأخير أرجو لحين المباشرة بالمفاوضات

أن تبلغوا قائد جيشكم بمكة رفع ممنوعية أداء فرائض الدين من قبل الأئمة الثلاثة حالا، وإنى خوفا من مضايقة بلدة بيت الله بالمعيشة قد أذنت لمن يريد العودة إلى مكة من سكانها المهاجرين وسمحت بدوام سير القوافل رحمة بالفقراء والمساكين انتظارا لجواب عظمتكم الأخير. ولى من الأمل أن تقابلونى على حسن نياتى، وإلا فبعد الاتكال على الله سترونى وشعبى معا قائمين بجميع ما يترتب علينا من واجب الشرف وحفظ الأمانة لمقاومة تعرضات جيشكم للدفاع عن البلاد وتخليصها ورد الأذى والتعدى عنها، وبالطبع مسؤولية الدماء البريئة ستقع على المتسبب».

وبدلا من أن يجيب ابن سعود الملك عليا مباشرة أرسل يوم ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٣٤٣ من الرياض إلى أهل جدة الكتاب الآتى:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود إلى كافة أهالى جدة

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ وبعد، فلابد أنه بلغكم أن أغلب العالم الإسلامى قد أبدى رغبته وعدم رضاه عن حكم الحجاز بواسطة الحسين وأولاده، وأننا حبا فى سيادة السلام وحقن الدماء نعرض عليكم أنكم فى عهد الله وأمانه على أموالكم وأنفسكم إذا سلكتم مسلك أهل مكة، وبالنظر إلى وجود الأمير على بين أظهركم وخروجه على الرأى العام الإسلامى. فأننا نعرض عليكم الخروج من البلد والإقامة فى مكان معين أو القدوم إلى مكة سلامة لأرواحكم وأموالكم، أو الضغط على الشريف على بن الحسين وإخراجه من بلادكم. فأن فعلتم غير ذلك بمساعدته أو موالاته فنحن معذورون أمام العالم الإسلامى وتبعة ما يقع من الحوادث تكون على المتسبب ودمتم».

الوساطات لوقف القتال

لم تذهب صيحة الحجازيين بين العالم الإسلامى واستصراخهم إياه للتوسط بينهم وبين ابن سعود سدى، ولقد كان المجلس الإسلامى الأعلى لفلسطين أول هيئة إسلامية لبت الدعوة. فأرسل يوم ٤ أكتوبر برقيات إلى جميع الحكومات والجمعيات الإسلامية طالبا إرسال وفود من قبلها إلى جدة للتوسط بين المتحاربين. وقال إنه سيوفد بعض أعضائه بمجرد تسلمه جواب القبول، كما أبرق إلى ابن سعود يطلب وقف

القتال فرد عليه يوم ٢٣ منه يقول:

«يسوءني أن وساطتكم جاءت بعد أوانها. فقد جربنا في السنوات السبع الماضية كل وسيلة في مصالحة الحسين وفي احلال السلام والوفاق محل الجفاء والخصام فضاعت مساعينا أدراج الرياح. وبقدر ما كنا نظهر من الميل إلى الاتفاق كان الحسين يزيد في تغاليه وعناده، ودلت منشوراته في شرق الأردن على أنه يطمع بلا شك في تقسيم بلادنا وتقطيع أوصالها، وقد منع مواطنينا من تأدية شعائر الحج مدة ست سنوات، واستمر يدس الدسائس في بلادنا وفي عسير وفي كل مكان. وفي الواقع أن أعماله ومعاملته لحجاج بيت الله الحرام وتصرفاته معهم قد استفحلت بعجزه عن صون الأمن في مكة والمدينة وعن المحافظة على سلامة الحجاج المسلمين بهذين المكانين، فلكل هذه الأسباب التي يطول شرحها قد اضطررنا لاتخاذ التدابير الشديدة لتهدئة الحالة في الحجاز ولضمان مستقبل بلادنا.

ولما كان هذا هو غرضنا الوحيد ورغبتنا في أن لا يتكرر وقوع ما وقع نريد أن توجد في الحجاز إدارة تضمن حقوق المسلمين على الوجه المرغوب، وتكفل راحة الحجاج وتزيل كل ما يشكون منه».

وعاد المجلس الإسلامي فأرسل يوم ٢١ سبتمبر البرقية الآتية إلى ابن سعود «باسم الأمة الإسلامية والعربية نطلب حقن الدماء وصون حرمة البيت الحرام وحل الخلاف بالمفاوضة»

ورد شوكت علي باسم جمعية الخلافة في الهند على برقية المجلس الإسلامي الأعلى قائلا «نرغب في حقن دماء البلاد المقدسة، وإيجاد السلام متوقف على ترك كل شئ لمؤتمر إسلامي عام».

وأرسلت الحكومة الإيرانية تلغرافا إلى قنصلها في دمشق قالت فيه إنها قبلت الدعوة التي عرضت عليها للتوسط لوقف الحرب، وطلبت منه إبلاغ ذلك لابن سعود.

وقصد جدة في شهر نوفمبر من تلك السنة السيد طالب النقيب والمستر فيلبي وأمين الريحاني - وتجمعهم بابن سعود جامعة صداقة وود للتوسط عنده لوقف الحرب وأقاموا فيها حتى وصل إلى مكة ليلة الجمعة ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٤ (٨ جمادى الأول سنة ١٣٤٣)

فدخلها فاتصلوا به ودارت بينه وبينهم محادثات لم تثمر لتمسكه بخطته القائمة على اخراج آل الحسين من الحجاز.

وبعد مرور سنة أو أكثر على وقوع هذه الحرب أرسل الإمام يحيى يوم ٢٨ ربيع الأول سنة ١٣٤٤ برقية إلى السلطان ابن سعود فى مكة وإلى الملك على فى جدة يطلب وقف القتال قال:

قد علمتم ما حل ببلاد الأماكن المقدسة من الكوارث من نتائج الحرب التى اشتعلت نارها بينكم، ووصل الاستصراخ من الأهالى وعموم المسلمين لعموم ذوى العلاقة من المسلمين بالحرمين الشريفين ومشاعر الحج. فلا جرم إذا رأينا من الواجب علينا إجابة نداء المستصرخين بالتداخل فى طلب انهاء الحرب بصلح يرضاه الله ورسوله وتقربه عيون المسلمين. وقد حملنا على ذلك ما نعتقده فيك من حسن الظن بنا والثقة بمساعينا ووضوح أنكم من أصدقائنا واندفاع ما يظن مريد الانكساح فى سعينا. ولا ثمرة فى إطالة البيان أن نصون مهبط بقاع النزاع، وما فى ذلك من تكرر الكوارث بلا انقطاع وإبقاء الضرر بالبلاد والعباد حالا مستقبلا. وفى ذلك توكلت على الله وصممت على إرسال وفد مكلف بالإصلاح بينكم والثقة العظمى إذا وحد بها العمل فى أس طلبكم لمساعينا الخيرية بالقبول بوجودنا بصفة الحكم فيما يعنيكم واستردادكم السقطات فى البادرات وقبولكم لما يقصر معاناة الاختلاف وإلى ما يحبه الله ويربح فضله إلى مافيه حفظ الكرامة. وأفيدوا بالجواب السار فنحن فى انتظاره، وفقنا الله جميعا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فرد عليه الملك على يوم ٣ ربيع الثانى بالبرقية الآتية:

«لقد كان لبرقيتكم أكبر وقع فى نفوس أبناء الحرمين وانشرح لها الخاطر وقرت بها العين. ولا نستكثر تلك الغيرة على البيت الحرام من فخر آل البيت عليهم السلام فمرحبا بالوفد الذى صممتم على إرساله، وبالغرض الشريف الذى يؤمل من رجاله وسيرون بأعينهم صورة أخرى من أعمال المعتدين تسوغ استصراخ المسلمين فى أقطار العالمين وإنه فرض لا حول لهم عنه وإنكم فى الحقيقة أجدر من ينتصر لقوله تعالى «وإخراج أهله منه أكبر».

وإننا والله يعلم أننا ندافع عن دينه القويم وعن حرمات بيته الكريم وعن حياض الأوطان فإن حبها من الإيمان، ولنا أسوة حسنة بجدنا وجدكم الإمام فى مثل هذا المقام. فذلك هو

المأمول من عواطفكم الدينية والسلام على الإمام ورحمة الله وبركاته».

ورد ابن سعود على برقية الإمام يحيى بمثل مارد به على برقية المجلس الإسلامى الأعلى وأفهمه أنه لا فائدة من إرسال وفده.

مصر تتوسط

وأصدر جلالة الملك فؤاد أمرا إلى الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى رئيس المحكمة الشرعية العليا بمصر يومئذ أن يسافر إلى الحجاز للإصلاح والتوفيق فغادر السويس يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢٥ ومعه عبد الوهاب طلعت من موظفى الديوان العالى فقابل الملك عليا فى جدة فأعرب عن استعداده لقبول الوساطة، وأجابه ابن سعود بأنه لا غاية له فى الحجاز وأنه لا يبغى سوى إخراج آل الحسين، وطلب انتداب لجنة من البلدان الإسلامية التى تهتم بأمر الحجاز على أن تصدر الدعوة لتأليفها من جلالة الملك فؤاد.

ثم تسافر إلى الحجاز وتكون برئاسة المندوب المصرى فتدعو الشعب الحجازى إلى انتخاب حاكم من غير آل الحسين، وذلك بعد جلاء الفريقين المتحاربين عنه.

وبذلت عدا ذلك وساطات قنصلية وأرسلت جمعية الخلافة الإسلامية وفدا إلى جدة فلم يغن ذلك شيئا لإصرار ابن سعود على خطته.

الرجوع إلى القتال

وفى يوم ٩ يناير سنة ١٩٢٥ زحفت قوات ابن سعود من مكة إلى جدة لاحتلالها، وكانت الحكومة الهاشمية قد حصنتها فى خلال مدة المفاوضات، وأنشأت حولها سلسلة من الحصون ثبتت فى وجه المهاجمين وردتهم. وأرسل السعوديون سرايا أخرى احتلت القنفدة و الليث ورابغا من موانئ الحجاز. كما أرسلوا قوات أخرى حاصرت المدينة وهكذا بسطوا نفوذهم على معظم أقطار الحجاز.

ـ ٨ ـ

الحسين فى العقبة وقبرص

نزل الحسين العقبة بعد مغادرته جدة واتخذها دار مقام له، وانصرف إلى مساعدة حكومة جدة، ماليا بما أدخره من أموال زمن حكمه وعسكريا بما كان يؤلفه من فرق المتطوعين يجمعهم من هنا وهنالك ويرسلهم بحرا إلى جدة. فأقلق ذلك ابن سعود وأزعجه فكاتب الإنجليز طالبا إليهم إخراج الحسين من العقبة. وقال إنه لا يحجم عن الغارة عليها وإخراجه منها.

واغتنم الإنجليز الفرصة للتخلص من الحسين وإخراجه من العقبة ـ وكانت تعد من أملاك الحجاز حتى ذاك الوقت ـ وأن كانت بإدارة سمو الأمير عبد الله شخصيا ـ وقد بسطنا الأدوار التى مرت بها قضية العقبة فى الفصل الأول من هذا الجزء فأرسلوا يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٢٥ الإنذار الآتى إلى الحسين، وقد حمله إليه قائد البارجة البريطانية فورن فلاور وهو:

«إلى جلالة الملك حسين من وكيل خارجية بريطانيا العظمى»

بلغت حكومة جلالة ملك بريطانيا أن عظمة سلطان نجد هيأ قوة لمهاجمة العقبة، وبفهم من هذا أن الباعث هو جلالتكم وحكومة الحجاز التى جعلت مركز معان والعقبة بحالة عسكرية ضد ابن سعود. ولا يخفى أن حكومة جلالة ملك بريطانيا مسؤولة عن الأمن العام بفلسطين وشرق الأردن مع معان ـ التى تعد تحت انتدابها ـ فعندما أتيتم إلى العقبة كلفت حكومة جلالة الملك على والأمير عبد الله بتعيين الحدود الفاصلة بين الحجاز والشرق العربى.

ومع ذلك رأت العظمة البريطانية بأن المثابرة على المذاكرة فى مثل هذه الأوقات الحرجة غير ممكنة بالنظر لحالة الحجاز الراهنة. وعليه فقد أجلت حكومة بريطانيا المذاكرة فى هذا الموضوع لفرصة أخرى.

ولكن هناك نقطة متخذة من قبل جلالة ملك بريطانيا، ولا يمكنه أن يتساهل فيها. وهى أن يبقى أو أن يسمح بصورة ما بدوام الحالة الحاضرة، ولذلك بدأت بإظهار سلطة حكومة

الشرق العربى فى الأماكن التى هى مسئولة عنها أمام جمعية الأمم وهى تحتوى على معان والعقبة وتدعوكم أيضا لمغادرة العقبة لكى لا تكونوا سببا لحصول مشاكل جديدة بين بريطانيا وسلطان نجد.

وفى هذه المناسبة تصر بإلحاح بوجوب مغادرتكم العقبة قائلة لا يمكنها أن تسمح لكم بالبقاء أكثر من ثلاثة أسابيع.

ولما تلقى الحسين هذا الانذار قال للذين كانوا حوله:

«نقابل بمزيد الشكر والامتنان الأمور التى يختارها لنا المولى. وإنا على كل الأحوال لا نجرى أية حركة تخالف رضاه، وتكون مجلبة لغضب أقوامى. نعم نعم يا أعزائى نحن ضعفاء وليس عندنا يا يقوينا على دفع المعاملة التى يأباها الشمم لكن أمرنا الله سبحانه وتعالى بالصبر ووعدنا بالنصر».

الحسين يرسل جوابه ويرفض السفر

ورد الحسين على الانذار بكتاب رفض الإذعان والتسليم هذا نصه:

«إننى منذ ابتداء النهضة العربية حتى هذه الساعة وأنا مخلص فى ولائى لحكومة جلالة ملك بريطانيا. ثابت على مبدئى اعتمادا على شرفها وبناء على عهودها ومواثيقها الرسمية التى اقتطعتها على نفسها بشأن محافظتها على حقوق العرب وتأمين الوحدة العربية، والتصديق على استقلال العرب ومنحها الحرية للشعب العربى الذى اشترك مع حليفته جنبا إلى جنب، وسفك دماء زهرة الشبيبة من أبنائه، وضحى بالنفس والنفيس فى سبيل الحصول على تلك الغاية الشريفة والوصول إلى ضالته المنشودة ـ كما وإنى وأقوامى العرب حريصون أشد الحرص على تنفيذ أحكام تلك العهود والمواثيق التى كانت أساس النهضة العربية، دون أن تخل بما يوجب مسئوليتنا أمام محكمة الضمير النزيه وإنى ضحيت بكل شئ وتخليت عن الملك وغادرت وطنى حبا بالسلم وحقن الدماء وأتيت العقبة لأبرهن للعالم أجمع بأن لا مطمح لى سوى إسعاد أقوامى وتحرير بلادى بعد أن قمت بواجباتى ولم آل جهدا فى سبيل المحافظة على حقوق العرب والسعى وراء الوحدة العربية والتمسك بنص المعاهدة وانتظار تنفيذها، ولم ينقطع الأمل من الحكومة البريطانية بشأن إنجاز وعدها والوفاء بعهدها استنادا على شرف تقاليدها. وها أنى اليوم مقيم فى إحدى قرى الحجاز

معتزلا عن العالم، ومبتعدا عن كل مامن شأنه أن يوجب الشغب وسوء التفاهم. ولما كان هذا الاعتزال والابتعاد لم يخلصنى من أمثال تلك الشوائب فلا شك بأننى أينما ذهبت لا يخلو الأمر من حدوث شئ كما فى التبليغات الأخيرة، وربما كانت أشد هولا من موقفى الحالى. إذ لا أضمن هياج الشعب العربى وقتئذ وحدوث مالا تحمد عقباه نحو الحليفة وغيرها. ولهذا فإننى لا أرى مندوحة عن بقائى فى مكانى وأن شاءت حكومة جلالة الملك فلتبعث بى إلى عالم المريخ فإنى مستعد لإنفاذ رأيها فى هذه البعثة فى أول دقيقة التبليغ أو أنها إذا نسيت ورأت عظمتها أن تبعث إحدى وسائطها الحربية لتهلكنى وعائلتى وخلاص الجميع من هذه الغوائل، فلتفعل لأنى آليت على نفسى بأن لا أحجم عن مساعدة أبناء وطنى وقومى. وإنى أفتخر أمامكم بكونى مازلت ولن أزال أساعد الحكومة الحجازية بمالى الخاص الذى أدخرته لمستقبلى المجهول. لأن من لا خير فيه لوطنه لا يرجى منه الخير لحلفائه وأصدقائه. ولى الشرف بكونى ثبت على مبدئى وأخلصت فى عملى وقمت بواجباتى فما على من غيرى فيما إذا لم يف بوعده ولم يقم بإنجاز عهده ونفذ مطامعه بقوة مدرعاته وبرؤوس حرابه. فهناك يكون الحكم لمن غلب. وأن القوى الموجودة فى معان هى لأجل المحافظة على الخط الحجازى والمدافعة عن المدينة مع ملحقاتها تجاه كل طارئ أو معتد. كما أن ابن سعود قد هاجم شرقى الأردن وغير مرة فى أواخر العام المنصرم دون أن يكون لحكومة الحجاز أو لحامية معان أقل دخل فيها. فلماذا لم تعرفه حده لتوقفه عنده. وفضلا عن ذلك فإنى لم أعترف بالانتداب على البلاد العربية من أساسه ومازلت أحتج على الحكومة البريطانية التى جعلت فلسطين وطنا قوميا لليهود، وشمالى سورية تحت الانتداب ومأوى للأرمن. وأنى لأعجب من تغافل الحكومة البريطانية عما حل بالحجاز. بل بمكة المكرمة من السحق والمحق فى الأموال والأنفس والدمار الذى لا يمكن تلافيه إلا بعد عشرات من السنين، ثم اهتمامها بمحافظة معان والعقبة. الأمر الذى لا يبقى محل لإطالة البحث فيه، لأن ذلك كاف لأقل تأمل. وعليه فأنى أكرر جوابى النهائى بكونى لا أعترف بذلك الانتداب من أساسه، ولا يمكننى مغادرة العقبة إلا بعد إبلاغى لغوه وبعدئذ أذهب إلى حيث تريد حكومة جلالة الملك بشرط أن يكون محل إقامتى ضمن البلاد العربية، وأن لا أكون مسئولا عما عساه قد يحدث من شغب أو هياج شعب تطمح نفسه لرفع نير الاستعمار، وتجديد النهضة فيما إذا مست الحاجة. وإلا فإنى لا أبرح العقبة مهما كانت النتيجة ولو أدى الأمر لهلاكى ومحو عائلتى من الوجود وإنى لا أقصد بهذا معاداة

بريطانيا وسواها وإنما هى فى سبيل انقاذ وطنى وبنى قومى، وكل ما تفعله بى الحكومة البريطانية لما يزيدنى شرفا وفخرا بين شعبى وأقوامى، حيث يسجل التاريخ لكل منا عمله وفى هذا بلاغ».

وقد ترجم هذا الجواب إلى اللغة الإنجليزية على أن يكون المعول على النص العربى وقبل انتهاء المدة الضرورية بالإنذار وصلت البارجة دلهى البريطانية إلى العقبة فأنضمت إلى زميلتها وزار ربانها الملك، وجاء أيضا سمو الأمير عبد الله من عمان وسعى لإقناع والده بقبول الإنذار بعد ما رفضه رفضا باتا، وأخذ يستعد للنضال والمقاومة فوافق بعد أخذ ورد طويلين على السفر إلى قبرص إجابة لرغبة ولده ـ بعد ما طلب أن يسمح له بالإقامة فى يافا أو حيفا فرفضوا . وفى يوم الخميس ١٨ يونيو سنة ١٩٢٥ نزل إلى البارجة دلهى فأبحرت به إلى قبرص فنزل فى ليماسون يوم ٢٢ منه، ومما يؤثر عليه أنه صرح لبعض الذين قابلوه فى السويس حين سفره من العقبة إلى قبرص وصحبوه حتى بورسعيد أنه يعترف بأنه كان مخطئا وأنه لم يكن يعرف أخلاق الأوروبيين وما ينطوون عليه. وقال إنه يشهد الله أنه فعل ما فعله عن حسن نية.

وقد بقى فى جزيرة قبرص حتى أواخر شهر مايو سنة ١٩٣١ فأشتد عليه المرض فنقل إلى عمان وتوفى يوم ٤ يونيو من تلك السنة.

الحسين يحتج إلى بريطانيا وعصبة الأمم

وما كاد الحسين يستقر فى قبرص حتى شاع فى الصحف أنه أسير حرب فى يد الحكومة البريطانية فأرسل يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٩٢٥ كتابا إلى المستر بلدوين رئيس الوزارة البريطانية شكا فيه من هذه الإشاعة وما يترتب على صحتها من القلق له ولذويه وتناول شؤونا شتى. ومما قاله «ثم إنى أستأذن فى أن ألفت نظر فخامتكم إلى ما بدا بين القبائل العربية من الدهشة والاستغراب، ولما رأوا ابن سعود يجمع جيشا عظيما لمهاجمة الحجاز فهل بمقدرة ابن السعود أن يجيش مثل هذا الجيش من دون أن ينال من المساعدة ما يعينه على ذلك. إن الحالة المشتتة التى كان عليها ابن سعود بعد تلك الهزيمة التى أصيب بها خلال الحرب العامة لم تزل حية فى أذهان الأمة العربية. فمن المفهوم أن ابن الرشيد هاجم ابن السعود خلال الحرب العامة وهزمه فى ذلك الهجوم الكبير على جراب

وتمت هذه الهزيمة فى الكويت حيث فر ابن سعود تاركا للعدو كل يملكه من سلاح ورجال، وفى ذلك الحين استنجد بى فأرسلت إليه ولدى عبد الله على رأس نجدة كافية فوصلت إليه بعد ما أصبحت الهزيمة أمرا مقضيا فحمته ومنعته من أن تتناوله هجمات ابن الرشيد فمكث ولدى شهرا ومعه جنوده فى قرية شعرة تمكن بها من إكراه ابن الرشيد على التقهقر فى حدود بلاده».

وأسأل الله تعالى أن يهديكم سبل الرشاد، ويجعل ما يتوق إليه العرب من السلم والارتقاء محققا بتدخلكم الحكيم المشبع بالعطف والسلام».

رد رئيس الوزارة البريطانية

وفى يوم ٢٧ أكتوبر أرسل إليه المستر بلدوين الرد الآتى:

«لابد لى من أن أشكر جلالتكم على كتابكم بتاريخ ٢٢ أغسطس الماضى . وقد كان هذا الكتاب موضوع عناية دقيقة بالاشتراك مع رجال حكومة جلالة الملك المشتغلين بالشؤون العربية».

«وإننى آسف كل الأسف للقلق الذى أصاب جلالتكم من جراء أنباء ظهرت فى الصحف المصرية فحواها أنكم فى قبرص بصفة أسير حرب، والحقيقة كما ذكرتها جلالتكم وهى أن هذه الأنباء غير صحيحة. ولم يخطر لحكومة جلالة الملك قط فى بال أن جلالتكم تعاملون من أى وجه كان سوى معاملة فرد اختار بناء على دعوتها أن يقيم فى قبرص، وعند ما دعتكم حكومة جلالة الملك لمغادرة العقبة لم تضع أمامها سوى مصالحكم الخاصة ومصالح العنصر العربى التى ترى حكومة جلالة الملك أن قبول جلالتكم للإقامة فى قبرص قد خدمها خير خدمة. فهى ترى والحالة هذه أنه ليس من الضرورى إجراء أى تحقيق عن الأحوال التى تركتم فيها العقبة. ويعزز هذا الرأى أنكم سلمتم فى كتابكم بأن معان والعقبة استخدمتا لحشد الجنود التى تستخدم ضد سلطان نجد ونقلها . فليس فى وسع حكومة جلالة الملك سوى أن تعد هذا التسليم مبررا لقولها بأن جلالتكم والحكومة الحجازية كانا يقومان فى ذينك المكانين بأعمال ضد نجد.

وقد نظرت حكومة جلالة الملك فى طلب إجراء ما يمكن إجراؤه لإنهاء الحرب الحاضرة

فى الحجاز، وطلب جلالة الملك على طلبا كهذا، فعند ما تلقت حكومة جلالة الملك هذا الطلب سألت عظمة سلطان نجد هل يقبل وساطتها للسعى إلى تسوية الاختلافات بين الحجاز ونجد؟ ولكن عظمته جاوب أنه لا يستطيع أن يقبل هذا التوسط. فاضطرت حكومة جلالة الملك مع الأسف إلى الامتناع عن كل سعى آخر إلى التوسط. فإذا لم يكلفها الفريقان والحالة هذه أن تفعل ذلك فإنها لا تستطيع أن تساعد فى إعادة السلام.

وترى حكومة جلالة الملك أن فقرة أخرى فى كتابكم تتعلق بالأحوال التى تنازلتم فيها عن العرش قد تحمل من يطلع عليها ولا يكون واقفا على حقيقة الحال على الظن أن حكومة جلالة الملك بذلت نفوذها لحملكم على التنازل، ولا شك أن جلالتكم لم تشأ إيجاد مثل هذا النص الذى لا يطابق الواقع، ولكن بما آن كتابكم قد انتشر وربما نشأ منه ما يثير الظنون فحكومة جلالة الملك ترى من الواجب أن تذكر بصفة جازمة أنها لم يكن لها أى تأثير فى تنازل جلالتكم، ولم يكن لها أى شأن فى هذا العمل - لا بطريقة مباشرة ولا بطريقة غير مباشرة».

وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٢٦ أرسل الكتاب الآتى إلى رئيس جمعية الأمم فى جنيف وإلى الدول العظمى ونصه:

عن قبرص فى نوفمبر سنة ١٩٢٦

يا صاحب الرئاسة:

أننى أنا الموقع بذيله أدناه الملك حسين بن على ملك الحجاز وعضو مؤسس فى جمعية الأمم وحليف الحلفاء فى الحرب الكبرى أبين لجنابكم ما يأتى:

أولا - أن جمعية الأمم لم تخلق ولم تقبل بإيجادها الدول المتحالفة والمحايدة أيضا إلا لأمر واحد، وهو منع تعدى أية دولة مستقلة أو مملكة مستقلة أو إمارة مستقلة على دولة أو مملكة أو إمارة مستقلة مثلها، وإن هى لم تتمكن بالذات من هذا المنع أجبرت الدول العظمى الداخلة فى عضوية جمعيتها على التعاون عصبة واحدة لدفع الضرر ومنع المعتدى من التمادى فى تعديه، وهذا هو السبب الذى من أجله خلقت جمعية الأمم وقانونها الأساسى، ومن الغريب المدهش أنه لم يطبق هذا القانون الأساسى فى مسألتى مع الوهابيين الذين اجتاحوا بلادى وبلاد آبائى وأجدادى حتى محمد بن عبد الله النبى الهاشمى العربى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولذلك فإنى أحتج أشد الاحتجاج أولا على هذا العمل من قبل قائد الوهابيين.

ثانيـا ـ على الجمعية لعدم معاملتى بموجب قانونها الأساسى وإنى أطلب بإلحاح من الجمعية الموقرة إخراج الوهابيين من بلادى بقوة الدول أعضاء جمعية الأمم متفقة، التى أتشرف بأن أكون عضوا مؤسسا فيها وإعادة ملك آبائى وأجدادى إلىّ. وأرى من العبث أن أعين لرئاستكم المواد القاضية لى من قانون الجمعية بهذا الحق الصريح.

ثالثـا ـ تتذكر جمعية الأمم بأن قادة الوهابيين قبل اجتياح الحجاز كانوا قد دخلوا إمارة الكويت مما حمل الدولة البريطانية على إرسال الجنود الإنجليزية المقيمة فى العراق مع طياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة إلى الكويت وإرجاع الوهابيين بالفشل عن مقاصدهم.

رابعـا ـ لما فشل الوهابيون ولم يفلحوا فى هجومهم على الكويت وغزوتها ولما اقتحموا مملكة شرق الأردن بمجموع عصاباتهم هناك وقف فى وجههم ولدى الأمير عبدالله حاكم هذه المملكة وقاومهم بكل ما عنده من القوات الحربية والرجال الأشداء، وانضمت إليه فرق من الجنود الإنجليزية بطياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة فتغلب على هذه العصابات وردها، وقد رأى وشاهد بالعين بعض كبار القوم وهم شهود عدول بأن الوهابيين بعد فرارهم كانوا إذا وجدوا جريحا ترجلوا عن خيولهم وأغمدوا خناجرهم فى قلبه.

خامسا ـ أما أنا الموقع بذيله ملك الحجاز وعضو جمعية الأمم وحليف الدول الأعضاء العظماء والمنتصرين فى الحرب الكبرى لم أعن بشأن هذه العصابات عناية الخائف من تعديها على ملكى. لأننى كنت أدرى بأننا لسنا اليوم فى العصور الوسطى، ولأننى كنت أكثر من اليقين بأنها لا تتجاسر أن تهاجم بلادا يقدسها ثلاثمائة مليون من الموحدين ويصلون إلى قبلتها ويحجون إلى كعبتها من كل صوب وحدب، وتضمن جمعية الأمم وتحمى وتحترم هذا الاستقلال جميع دول الحلفاء، وما كنت لأظن بأن دولة من هذه الدول العظمى توعز إلى رجال هذه العصابات بواسطة بعض ساستها فيدخلون الأراضى المقدسة ويدمرون الأضرحة والمعابد والمشاعر الدينية.

أجل إنى ما كنت لأتصور أن الحليفة الكبرى تأتى من وراء أكبر حليف الشرق وأعظم ساعد لها فى الحرب الكبرى، وعلى الأخص عند فتحها القدس باعتراف قائد جيوشها الأكبر فتطعنه فى ظهره دون أن يكون لها ضمير يوبخها أو مروءة ووفاء يمنعان هذا العمل الفظيع الظالم أما الحليفة الكبرى فإنها شعرت بفظاعة عملها هذا على الأخص عند ما

رأت اشمئزاز الرأى العام الإنجليزى منه، أو بالأحرى اشمئزاز الشعب البريطانى النبيل بسبب سياستها المتخبطة المضطربة بل السقيمة الخرفاء ومن حرمان الإنجليز وأقدس المقدسات الإسلامية من حليف شريف وملك عريق فى الحسب والنسب ومسالم لم يفكر فى الاضرار بالآخرين.

أجل إن رجال الحكومة الإنجليزية الذين أتوا هذا الغلط الفاضح وهذا الخطأ الفظيع يقفون مطأطئ الرؤوس خافضى العيون أمام الرأى العام الإنجليزى النبيل الذى سيحاسبهم أشد الحساب عند عودة افتتاح البرلمان الإنجليزى والذى سيطلب منهم إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل هذا الانقلاب الظالم بكل واسطة أو شكل أو قوة وإلا سخط عليهم وكان سخطه عظيما وما نحن ببعيد عن سخطه المؤلم على رجال من أعاظم حكامه رفعهم إلى قمم المجد والفخر ولما رأى سوء تدبيرهم وسوء نياتهم أنزلهم حضيض المذلة والمهانة بعد أن سحب كل ثقة منهم.

سادسا - إننى أطلب من جمعية الأمم الموقرة إخلاء البلاد المقدسة والأقطار الحجازية من الوهابيين واستفتاء أهاليه الذين يعتبر حجازهم إلى اليوم كعضو مؤسس فى جمعية الأمم، وكحليف للدول العظمى لكى ترى بأن ما فوق التسعين في المائة من هؤلاء الأهالى يصوتون ضدهم.

أننى أطلب إطلاق يدى فى العمل لإعادة ملكى وملك آبائى وأجدادى المغتصب ورفع حكم رجال الحكومة الإنجليزية الجائر وضغطهم عنى.

أننى أطلب إبلاغ صوتى الشاكى من منفاى فى جزيرة قبرص بواسطة جمعيتكم المحترمة إلى جميع رجال الدول العظمى. وعلى الأخص إلى كافة الشعب الإنجليزى النبيل لأفهمه الحقيقة بكل صدق وصراحة بأن سياسة حكومته غير الشريفة نحوى لا تثمر غير الضغائن والبغضاء بين المسلمين الأصحاء والإنجليز - أقول المسلمين الأصحاء أى عامة المسلمين الذين يغارون على دينهم وعلى نبيهم وآله، ولا عبرة بأفراد لا يعدون إلا القليل من المسلمين الذين هم جهلة أغبياء يضللهم المضللون وعمال السوء فلا يعلمون من دينهم شيئا ولا يسيرون على النهج الذى أوصاهم به الكتاب العظيم - وهم مسلمون بالاسم فقط ولو كانوا أصحاء الإسلام لاحترموا آل نبيهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقد أوصاهم بهم خيرا، ولوقفوا جميعا وقفة واحدة كوقفة البطل المغوار والمسلم الصحيح المغفور له ساكن

الجنان محمد على باشا كبير العائلة العلوية الكريمة فى مصر وباقى أركان الدولة المصرية المقدسة الحجازية من بدعهم فى الدين.

إننى أكتب هذا الاحتجاج الشديد لرئاسة جمعيتكم لكى تعلم الدول كافة، ويعلم الشعب الإنجليزى النبيل خاصة بواسطتكم أن أعمال رجال حكومته فى الحجاز غير العادلة وغير الحقة تحط من مقامها ومن مقامه السامى فى أعين عامة المسلمين الأصحاء، خصوصا فى الهند وفى جميع المستعمرات البريطانية والدولية أيضا. لأن هؤلاء يريدون بكل قواهم المحافظة على شعائرهم الدينية فى أراضيهم المقدسة ويحجون من كل فج سحيق إلى هذه الأراضى من أجل هذه العشائر والعبادات المحترمة منهم. نعم فليعلم الشعب الإنجليزى النبيل هذه الحقائق، وليتحرك من جموده وليقف موقف المنقذ العادل الشريف ليضع حدا بين الظالم والمظلوم. فيرفع الظلامة التى سببتها حكومته عن المظلوم، وعندئذ فقط يجوز أن نقول بأن الشعب الإنجليزى هو نبيل وعادل ويحب العدالة والحق، وأن الدول العظمى تحترم رعاياها المسلمين وتحترم شعائرهم الدينية.

وإنى فى الأخير أطلب من جمعيتكم المحترمة كعضو مؤسس فيها أن تتدخل الجمعية بكل قواها المستمدة من الدول المتحالفة العظمى فى مسألة الحجاز، ووضعها فى جدول أعمالها وبحثها بحثا دقيقا وعادلا، ومساعدتى مساعدة فعلية لاستعادة ملكى وملك آبائى وأجدادى وإرجاع الوهابيين إلى بلادهم فتكسب بذلك حب عامة المسلمين الأصحاء فى العالم، وإعزازهم لها واحترامهم لأحكامها وتكون مطمئنة الضمير بأنها فعلت الواجب الذى من أجله تأسست جمعيتها وخلقت عصبتها، وإنها فاعلة إن شاء الله.

مغتنما هذه المناسبة ياجناب الرئيس لتقديم احتراماتى الفائقة الحد لشخصكم المحترم ودمتم.

الحسين بن على

ـ ٩ ـ

انهيار الدولة الهاشمية

استفرغ الملك على جهده واستنفد قواه الأدبية والمادية فى الدفاع عن جدة وفى المقاومة فلم يجده ذلك فتيلا فجنح إلى التسليم والجلاء بعد حصار استمر نحو ١١ شهرا.

ففى يوم الخميس ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥ تم الاتفاق على تسليم جدة للسعوديين على الشروط الآتية:

١ ـ بالنظر لتنازل الملك على ومبارحته للحجاز وتسليم بلدة جدة يضمن السلطان عبد العزيز لكل الموظفين الملكيين والحربيين والأشراف وأهالى جدة عموما والعرب والسكان والقبائل وعائلاتهم سلامتهم الشخصية وسلامة أموالهم.

٢ ـ يتعهد الملك على أن يسلم فى الحال جميع أسرى الحرب الموجودين فى جدة.

٣ ـ يتعهد السلطان عبد العزيز بأن يمنح العفو العام لكل من المذكورين أعلاه.

٤ ـ يجب على جميع الضباط والعساكر أن يسلموا فى الحال إلى السلطان عبد العزيز بجميع أسلحتهم من بنادق ورشاشات ومدافع وطيارات وخلافه وجمع المهمات الحربية.

٥ ـ يتعهد الملك على وجميع الضباط والعساكر ألا يخربوا أو يتصرفوا فى أى شئ من الأسلحة والمهمات الحربية جميعها.

٦ ـ يتعهد السلطان عبد العزيز بأن يرحل كافة الضباط والعساكر الذين يرغبون فى العودة إلى أوطانهم ويتعهد باعطائهم المصاريف اللازمة لسفرهم.

٧ ـ يتعهد السلطان عبد العزيز أن يوزع بنسبة معتدلة على كافة الضباط والعساكر الموجودين بجدة خمسة آلاف جنيه.

٨ ـ يتعهد السلطان عبد العزيز أن يبقى جميع موظفى الحكومة الملكيين فى مراكزهم الذين يجد فيهم الكفاءة فى تأدية واجباتهم بأمانة.

٩ ـ يتعهد السلطان عبد العزيز أن يمنح الملك عليا فى أن يأخذ معه الأمتعة الشخصية التى فى حوزته، بما فى ذلك أتومبيله وسجاجيده وخيوله.

١٠ ـ يتعهد السلطان عبد العزيز أن يمنح عائلة آل الحسين جميع ممتلكاتهم الشخصية

فى الحجاز - بشرط أن تكون هذه الممتلكات فعلا من الموروثة، ولا تشتمل على الأملاك الثابتة المحولة من الأوقاف بمعرفة الحسين إلى شخصه، ولا على المبانى التى يكون الحسين قد بناها فى أثناء ملكه لما كان على الحجاز.

١١ - يتعهد الملك على أن يبرح الحجاز قبل يوم الثلاثاء المقبل مساء.

١٢ - جميع البواخر التى فى ملك الحجاز وهى الطويل ورشدى والرقمتين ورضوى تصير ملكا للسلطان عبد العزيز، ولكن السلطان يصرح إن لزم الأمر للباخرة الرقمتين أن تستعمل لنقل الأمتعة الشخصية التابعة للملك على المتنازل ثم ترجع.

١٣ - يتعهد الملك على ورجاله وسكان جدة بألا يخربوا أو يتصرفوا فى أى شئ من أملاك الحكومة مثل اللنشات والسنابيك وخلافه.

١٤ - يتعهد السلطان عبد العزيز أن يمنح جميع السكان والضباط والعساكر الموجودين فى ينبع جميع الحقوق والامتيازات المذكورة بعاليه إلا فى ما يختص بتوزيع النقود.

١٥ - يتعهد السلطان عبد العزيز أن يمنح العفو للأشخاص المذكورة أسماؤهم أدناه أيضا ضمن العفو العام. وهم عبد الوهاب ومحسن وبكرى أبناء يحيى قزاز وعبد الحى ابن عابد قزاز وأحمد وصالح أبناء عبد الرحمن قزاز وإسماعيل بن يحيى قزاز والشيخ محمد على صالح بتاوى وإخوته إبراهيم وعبد الرحمن بتاوى أبناء محمد صالح بتاوى وأبناؤهم وأبناء عمهم حسن وزين بتاوى وأبناء محمد نور والشيخ يوسف خشيرم والشيخ عباس ولد الشيخ يوسف خشيرم والشيخ ياسين بسيونى والسيد أحمد السقاف وعوائل وأموال جميع المذكورين آنفا.

١٦ - إذا خالف الملك على أو رجاله فى حال من الأحوال أو قصر فى تنفيذ أى مادة من المواد المذكورة بعاليه فأن السلطان عبد العزيز لا يعتبر نفسه فى تلك الحالة مسئولا عن تأدية ما عليه من هذه الاتفاقية.

١٧ - يتعهد الطرفان السلطان عبد العزيز والملك علي أن يكفا عن أى حركة عدائية أثناء سير هذه المفاوضات.

وفى يوم ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ الموافق ٨ يناير سنة ١٩٢٦ نودى بالسلطان عبد العزيز سعود ملكا على البلاد الحجازية، وبذلك انتهى أمر الدولة الهاشمية فى الحجاز وقد عاشت تسع سنوات وبضعة أشهر، فقد أنشئت يوم ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ والأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين.



الدكتور عبد الرحمن شهبندر

٤

القضية السورية

من ميسلون سنة ١٩٢٠ إلى الثورة الكبرى سنة ١٩٢٥

ـ ١ ـ

عهد التقسيم والتجزئة

بدأ الفرنسويون عملهم فى سورية بحل الجيش الوطنى، والاستيلاء على سلاحه وذخائره ومدافعه غنيمة عسكرية، ولما سقطت وزارة علاء الدين الدوربى على أثر مصرعه فى خربة الغزالة يوم ٢١ أغسطس – وسنفصل ذلك فيما يأتى ـ أعيد تأليف الوزارة برئاسة جميل الألشى وزير الحربية فى الوزارة الدوربية يوم ٢٦ يوليو. فأصبح مجلس الوزراء يتألف من ست وزارات وهى: الداخلية والمالية والعدلية والمعارف والنافعة والتجارة بدلا من ثمان. وأصبح المندوب السامى فى هذا العهد مصدر كل سلطة فى الدولة. فهو الذى يعين رئيس الوزارة والوزراء ويقيلهم وهو الذى يسن القوانين والأنظمة وينشرها. فتلاشت بذلك السيادة الوطنية، وكانت تمثل فى مجلس النواب القديم (المؤتمر السورى) وفى الحكومة الوطنية التى تستمد ثقتها منه ومن العرش، وكان رمز الاستقلال وعنوانه، ولم يكتف الفرنسويون بذلك بل أصدر المفوض السامى الفرنسوى بلاغا ألغى به جميع القوانين والأنظمة التى وضعت فى العهد الفيصلى وقال بوجوب الرجوع إلى العمل بالقوانين العثمانية القديمة وبالأنظمة الجديدة التى وضعتها المفوضية العليا نفسها[1] وأسرع الفرنسويون على أثر احتلال دمشق فعينوا بعثة رسمية للأشراف على أعمال الحكومة السورية وتنفيذ تعليمات المفوضية وتطبيقها. وقد عهدوا بادئ بدء إلى الكولونيل طولا برئاستها. وهذه أسماء أعضائها وبيان اختصاصاتهم كما وردت فى كتاب رئيسها إلى رئيس الوزراء فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٠.

أتشرف بأن أبعث إليكم فيما يلى بيانا باختصاص كل عضو من أعضاء البعثة الحاضرين وذلك لأجل تسهيل الصلات بين المصالح الرسمية وبينها:

١ـ فى يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٠ أرسل رئيس البعثة الفرنسوية فى دمشق كتابا إلى رئيس الوزارة هذا نصه: «لقد علمت أنه إبان احتلال الحكومة العربية للمنطقة الشرقية القديمة من بلاد العدو المحتلة نشر الأمير فيصل قوانين جديدة وعدل بعض القوانين العثمانية المرعية فى البلاد. فبموجب المادة ٤٣ من اتفاق الهاى المؤرخ ٢٩ يوليو ١٨٩٩ يحظر إحداث قوانين جديدة وتبقى قوانين البلاد القديمة مرعية زمن الاحتلال. وفى هذه الحالة فالقوانين المذاعة أو المعدلة من قبل الأمير فيصل تكون غير شرعية ومغايرة للاتفاقات الدولية ولايجوز تطبيقها من الآن. ولذلك أرجوكم أن تتفضلوا فترسلوا لي كشفا بالقوانين الجديدة أو المعدلة، وأن تصدروا الأوامر إلى المحاكم والمجالس فى إدارتكم بأن لايعتدوا بها، وأن يبقى تنفيذ الأحكام الصادرة بموجب هذه القوانين معلقا.

١ ـ القسم العسكرى: يدير الكولونيل كوس هذا القسم. وهو مكلف بدرس الشؤون الخاصة بوزارة الحربية وله السلطة على مديرية الشرطة العامة والأمن العام وإدارة العشائر وكل ما يرجع إلى وزارة الداخلية.

٢ ـ القسم الإدارى: رئيس هذا القسم هو المسيو شوفلر وأعضاؤه المسيو ميليان والكومندان فيريه والمسيو فلوريمون والدكتور شابو.

يرجع فى كل الأمور الإدارية إلى المسيو شوفلر، ويتولى شخصيا شؤون وزارة الداخلية ويرجع إليه فى شؤون المعارف ريثما يحضر الاختصاصى قريبا وتتناول سلطة المسيو ميليان وزارة المالية والأوقاف. وينظر القائد فيريه فى الأمور المختصة بوزارة النافعة (ماعدا مديريات الزراعة والتجارة والصناعة) وله السلطة المؤقتة على إدارة البرق والبريد ريثما يحضر الاختصاصى لها.

ويتفرغ المسيو فلوريمون لمديريات الزراعة والتجارة والصناعة وإدارة البيطرية. وأما الدكتور شابو فيتفرغ للمسائل الخاصة بمديرية الصحة العامة وأمور الاسعاف.

٣ ـ القسم العدلى: إن جميع الشؤون العدلية هى من اختصاص المسيو بويش رئيس هذا القسم.

وعاد فأرسل كتابا قال فيه: إنه يجب أن تعرض قرارات الوزارة عليه قبل موافقتها عليها.

إنشاء دول وحكومات

١ ـ دولة لبنان الكبير [١]

ونفذ الفرنسويون بعد ذلك برنامجهم الاستعمارى القديم. ففصلو لبنان عن سورية وأنشأوا دولة لبنانية مستقلة عاصمتها مدينة بيروت بعد ما ضموا إليها أقضية بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا من أعمال حكومة دمشق ومدينة طرابلس حتى النهر الكبير فى الشمال وصيدا وصور ومرجعيون فى الجنوب، ومعنى ذلك أن لبنان صار يتألف فى الدور الجديد من المقاطعات الآتية:

جبل لبنان القديم

١ـ صارت دولة لبنان بعد ذلك جمهورية ومثلها دولة دمشق وقد فصلنا أخبار تحولهما فى الصفحات الآتية.

لواء بيروت، ويتألف من أقضية صيدا وصور ومرجعيون

طرابلس مع قضاء عكار وحده،

الأقضية الشرقية وهى بعلبك وحاصبيا وراشيا والبقاع

وجعلوا بيروت العاصمة للدولة الجديدة، وأطلقوا عليها باسم «لبنان الكبير» وفى يوم أول سبتمبر سنة ١٩٢٠ وقف الجنرال غورو فى قصر الحرش فأعلن استقلالها بضمانة فرنسا وتحت حمايتها. وقد احتجت الحكومة السورية رسميا على فصل الأقضية الأربعة عن دمشق وإلحاقها بلبنان من دون مسوغ.

٢ ـ دولة حلب

وفى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٢٠ استسلمت حلب للجنرال دى لاموط بدون حرب ولا قتال، فدخلها الجيش الفرنسوى.

وعين الجنرال دى لاموط قائد الجيش المحتل كامل باشا القدسى واليا لحلب. وجاء له بأمر من حكومة دمشق، على أن هذا ما لبث أن أعلن انفصاله عن حكومة دمشق وقطع كل صلة بها، وأخذ يسير طبقا لتعليمات الفرنسويين. فأنكرت عليه هذه تصرفاته واحتجت على أعماله وطلبت من الفرنسويين إيقافه عند حده وحمله عل احترام أوامرها وتعليماتها فلم يأبهوا لها. وإليك نص قرار أصدره مجلس الوزراء مجلس الوزراء الدمشقى يوم ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٠ بهذا الشأن:

تبين من المعاملات الجارية أن الفريق كامل باشا القدسى ينتحل لنفسه حق تنحية الموظفين ونصبهم فى حلب بدون أن تكون له صفة رسمية تخوله ذلك الحق. ولذلك تقرر عدم اعتبار الموظفين الذين يعينهم كامل باشا القدسى فى حلب وملحقاتها، واعتبار جميع الموظفين الذين أقالهم باقين فى وظائفهم مع دوام دفع رواتبهم. وأما الموظفون الذين عينوا أو يعينون مجددا ولم يتمكنوا من مباشرة العمل بسب معارضته فتعتبر مباشرتهم من تاريخ وصولهم إلى حلب ويستحقون الراتب من التاريخ المذكور».

ورغم هذا الاحتجاج وهذا التدبير فقد أصدر المفوض السامى يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٠ قرارا أعلن فيه فصل حلب فصلا نهائيا عن دمشق، وإنشاء دولة مستقلة تسمى دولة حلب.

٣ ـ دولة العلويين

وفى يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٠ أيضا أصدر المفوض السامى أمرا ثالثا بإنشاء دولة العلويين على أن تكون مدينة اللاذقية عاصمة لها، وعلى أن تتألف من المناطق الآتية:

لواء اللاذقية القديم، ويضم أقضية صهيون وجبلة وبانياس،

قضاء حصن الأكراد وصافيتا من لواء طرابلس القديم مع ناحية طرطوس

قضاء مصياف من أعمال حماه.

٤ ـ دولة دمشق

ظلت الحكومة القائمة فى دمشق تحمل اسم الحكومة السورية حتى يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٠ ففى ذلك اليوم استقال جميل الألشى من رئاسة مجلس الوزراء، وعين حقى العظم مكانه وأصدر على الفور قرارا بقلب الوزارات إلى مديريات عامة، ولقب نفسه بحاكم دولة دمشق فأقر الفرنسيون ما وقع، وفقدت دمشق بذلك ميزتها الطبيعية وأصبحت عاصمة من جملة العواصم العديدة التى ظهرت فى العهد الجديد.

٥ ـ دولة جبل الدروز

استمال الفرنسويون فى زمن الحكومة الفيصلية بعض شيوخ جبل الدروز بما بذلوه لهم من أموال وافرة فتطوع بعضهم فى الجيش الفرنسوى، وكان على رأس هؤلاء فارس الأطرش شيخ قرية ذيبين ومتعب الأطرش شخ رساس ومصطفى نجم الأطرش شيخ امتان وطاهر القنطار ونسيب نصار وغيرهم.

ولما سقطت الحكومة الفيصلية وانصرف الفرنسويون إلى تنظيم الحكم فى سورية دارت بينهم وبين شيوخ الجبل مباحثات للاتفاق على النظام الإدارى الذى ينفذ فى جبلهم. فعقد الدروز مؤتمرا فى السويدا يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٠ أقروا فيه القرارات الآتية وأبلغوها إلى السلطة الفرنسوية طالبين تنفيذها:

١ـ حكومة جبل الدروز هى حكومة شورية مستقلة استقلالا داخليا.

٢ ـ تقبل حكومة الجبل الانتداب الفرنسوى بشكل لا يمس استقلالها.

٣ ـ تسمى هذه الحكومة مشيخة جبل حوران، ويدخل ضمنها كامل وعرتى اللجاه والصفا وتمتد إلى حدود الدير على من الجهة الشمالية وإلى حدود الأزرق من الجهة الجنوبية.

٤ ـ يرأس هذا الحكومة حاكم أهلى، ينتخبه الأهالى، وفقا لقانون خاص مرة كل ثلاث سنوات، ويكون لها مجلس استشارى كبير ينتخب أعضاؤه وفقا لقانون خاص مرة كل ثلاث سنوات أيضا.

٥ ـ يقوم هذا المجلس مقام المجلس الملى، ولا يقل أعضاؤه عن الثلاثين عضوا.

٦ ـ تحدد وتعين صلاحية ووظيفة كل من الرئيس والمجلس بقانون خاص يوافق عليه أهل البلاد بجمعية عمومية.

٧ ـ تستمد حكومة الجبل ما تحتاج إليه من المساعدة المالية والفنية والاقتصادية من الحكومة المنتدبة.

٨ لا يحق للحكومة المنتدبة، المداخلة بأمور الجبل الداخلية، ولا تجنيد أهالى جبل حوران ولا نزع الأسلحة منهم ضمن المنطقة الفرنسوية.

٩ ـ يعهد بأمور الجبل السياسية الخارجية لمأمورى الحكومة المنتدبة السياسيين، ولا يكون للحكومة الوطنية مأمورون سياسيون إلا فى دمشق وفلسطين وجبل لبنان.

١٠ ـ واردات هذه الحكومة تكون أولا مما يصيبها من حصة الجمارك السورية والفلسطينية. وثانيا مما يصيبها من واردات ممالح أترى وكاف. وثالثا من دخل أملاك الدولة التى ستدخل ضمن حدود حكومة الجبل. ورابعا مما يطرحه المجلس الملى من الأموال عند الاحتياج المبرم. على أنه لا يحق لهذا المجلس أن يقرر استيفاء ضريبة الأعشار من حاصلات الأراضى. إنما الأموال التى يجوز له أن يقرر استيفاءها من الأراضى يجب أن تكون مقطوعة ومصدقا عليها من عموم أهل البلاد بجمعية عامة.

١١ ـ إذا خالف رئيس الجبل منافع الجبل العامة ومصالحه الحيوية وأخل بالقوانين الأساسية الموضوعة وقرر المجلس تنحيته، واستحصل على فتوى من مشايخ العقل

بذلك فحينئذ ينحى وينتخب خلافه.

١٢ ـ ينصب مشائخ العقل مدى الحياة ولا يعزلون ولا يحق للحكومتين الوطنية والمنتدبة التدخل بوظائفهم الدينية».

وأرسل المؤتمر الدرزى وفدا إلى دمشق برئاسة سليم الأطرش يحمل هذه القرارات لإبلاغها إلى البعثة الفرنسوية فدارت مفاوضات بينهما انتهت يوم ٤ مارس سنة ١٩٢١ بالاتفاق الآتى:

١ ـ تنشأ فى جبل دروز حوران، حكومة وطنية مستقلة استقلالا إداريا واسعا تحت الانتداب الفرنسوى، وتعين حدود هذه الحكومة لجنة ثم تقرها الدولة المنتدبة.

٢ ـ تكون هذه الحكومة وطنية ويعين موظفوها من أبناء البلاد، ويكون طرز إدارتها منطبقا على العوائد المحلية وتقدم الحكومة المنتدبة مستشارين فرنسويين يقيمون عند الحكومة الوطنية لتدريبها على الأمور القانونية والإدارية، ويرجعون إلى رئيس البعثة بدمشق. أما اسم الحكومة فيحتفظ به الآن ريثما يتفق عليه مع المندوب السامى.

٣ ـ يرأس هذه الحكومة حاكم أهلى ينتخب بواسطة ممثلى الشعب القانونيين لمدة أربع سنوات بموجب قانون خاص يسن فيما بعد ولا يصح انتخابه نهائيا إلا بعد مصادقة الدولة المنتدبة.

٤ ـ يساعد الحاكم فى مهامه مجلسان، يدعى الأول مجلس الحكومة، والثانى اللجنة الإدارية، وينتخب مجلس الحكومة لمدة ثلاث سنوات ممثلو الأمة الشرعيون وفقا لقانون خاص يوضع فيما بعد، ويلتئم هذا المجلس مرة فى السنة لتدقيق ميزانية الحكومة والموافقة على الحسابات الماضية، ويقدم اقتراحات فيما يتعلق بالمصالح العامة كالأشغال العمومية والصحة والاسعاف والمعارف إلخ. أما اللجنة الإدارية فيكون اجتماعها بصورة دائمة وتكون مؤلفة من موظفين يعينهم الحاكم ومندوبين ينتخبهم مجلس الحكومة.

٥ ـ ينظم قانون خاص تعين به وظائف الحاكم وصلاحيته وصلاحية مجلس الحكومة واللجنة الإدارية وكيفية تأليفهما، ويعهد بتنظيم هذا القانون إلى لجنة خاصة، ولا يصبح نافذا إلا بعد مصادقة الدولة المنتدبة عليه.

٦ ـ أن الحكومة المنتدبة وحدها دون سواها تقدم لحكومة جبل الدروز المساعدة الفنية والمالية والاقتصادية والعسكرية التى قد تحتاج إليها.

٧ ـ تتعهد الحكومة المنتدبة باستثناء سكان جبل الدروز من الخدمة العسكرية الإجبارية أما قوات الدولة والشرطة واللازمة لحفظ النظام العمومى فيصير تشكيلها بطريقة التطوع، ويسمح لسكان الجبل بإبقاء الأسلحة بين أيديهم داخل حدود الحكومة الدرزية.

أما فى خارج هذه الحدود فيجب على السكان المذكورين الخضوع للأحكام الموضوعة بخصوص حمل السلاح

٨ ـ أن الحكومة المنتدبة هى مولجة وحدها بمصالح الحكومة الدرزية وتمثيلها فى الخارج أما فى داخل المنطقة الفرنسوية فتقبل الحكومة المنتدبة معتمدين لحكومة الجبل لأجل المصالح الاقتصادية.

٩ ـ تتعهد الدولة المنتدبة، بعدم إجبار حكومة جبل الدروز على الدخول فى الوحدة المحتمل حصولها فيما بعد بين البلاد السورية إلا فيما يختص بالمسائل الاقتصادية العائدة منفعتها على الحكومة الدرزية وسائر المقاطعات السورية.

١٠ ـ مصادر الإيراد لميزانية جبل الدروز هى الآتية:

١ ـ الضرائب والرسوم المختلفة التى يفرضها مجلس الحكومة.

٢ ـ الرسوم التى تفرض على المناجم المعدنية المحتمل اكتشافها فى أراضى هذه الحكومة.

٣ ـ واردات أقسام الأراضى السنية العائدة للحكومة العثمانية، والمحتمل إدخالها ضمن منطقة جبل الدروز، ولا يصير دفع اعشار فى هذه الحكومة.

١١ ـ لا تصبح ميزانية جبل الدروز نافذة إلا بعد مصادقة المندوب السامى للجمهورية الفرنسوية فى سورية عليها.

١٢ ـ لا تقام حواجز جمركية بين حكومة الجبل وحكومة مقاطعة دمشق. إنما يحق لحكومة جبل الدروز أن تأخذ حصتها من واردات الجمارك السورية فيما لو ترتبت حصص لباقى المقاطعات السورية.

١٣ ـ يمكن لمجلس الحكومة أن يطلب من الدولة المنتدبة فى الأحوال المذكورة فى القانون الخاص المتعلق بصلاحية الحاكم ووظائفه إقالة الحاكم، وتتخذ الحكومة المنتدبة قرارا بهذا الشأن بعد استشارة رؤساء الدين.

١٤ ـ أن الحكومة المنتدبة ومجلس حكومة الجبل واللجنة الإدارية لا تتدخل على الإطلاق فى الأمور الدينية، ولا يجوز للسلطة المدنية عزل أو تنحية رؤساء الدين.

١٥ ـ تتعهد الحكومة المنتدبة وحكومة الجبل المحلية بالمحافظة على حقوق الأقليات داخل حكومة الجبل هذه.

فضل الله هنيدى، نسيب الأطرش، سليم الأطرش، توفيق أبو عساف، عقلة القطامى، قفطان عزام، فخر الدين الشعرانى، مسعود غانم، جبر شلغين، نايف أبو فخر، ضمر شلغين، دخل الله أبو فخر، نسيب الحسينى، حسين أبو فخر،

بالأصالة والنيابة عن المشايخ الروحانيين أقر وأعترف بذلك،

محمود أبو فخر

الرئيس الروحى

مصدق

روبيردى كيه

المفوض السامى فى سورية وكيليكية بالنيابة فى ٤ مارس سنة ١٩٢١ .

وفى يوم ٥ إبريل سنة ١٩٢١ اعترفت الحكومة المنتدبة بدولة جبل الدروز، وفى ٢٠ منه أصدر الجنرال غورو أمرا إلى الأمير سليم الأطرش بإنشاء الحكومة الجديدة فى الجبل وفى يوم أول مايو من تلك السنة عقد زعماء الدروز اجتماعا فى السويدا فانتخبوا الأمير سليم حاكما للدولة الجديدة، وفى يوم ٦ مايو تم انتخاب مجلسى الدولة الجديدة وعينت السلطة المنتدبة الكومندان ترانكا مستشارا لها، فجاء الجبل ـ وهو أول ضابط فرنسوى دخله، وفى يوم ٥ إبريل سنة ١٩٢٢ أعلن استقلال الدولة الجديدة رسميا، واتخذ ذلك اليوم عيدا رسميا يحتفلون بحلوله كل عام،

٦ ـ لواء الإسكندرونة

ظل لواء اسكندرونة[١] جزءا من دولة حلب حتى صيف سنة ١٩٢٤ فأصدر المفوض السامى قرارا قال فيه «يتمتع لواء الإسكندرونة مع بقائه تابعا للدولة السورية بنظام إدارى ومالى خاص، وتعتبر اللغة التركية لغة رسمية كالعربية والفرنسوية ويعين متصرف لواء إسكندرونة من قبل رئيس الدولة السورية بناء على اقتراح مندوب المفوض، ويكون له كل السلطة المخولة لمتصرفى الألوية. وله علاوة على ذلك النظر فى شؤون المعارف والأشغال العامة».

ولما جرت الانتخابات على قاعدة اللواء فى عهد المسيو دى جوفنيل ـ وسنفصل ذلك حين الكلام على الثورة ـ اجتمع مندوبو إسكندرونة فى ٢٤ يناير سنة ١٩٢٦ وقرروا فصل لوائهم عن سورية إداريا، وربطه رأسا بالمفوضية العليا مع توسيع سلطة مندوب المفوض السامى. على أنهم عادوا فاجتمعوا يوم ١٢ من تلك السنة، وقرروا إلغاء القرار الخاص باستقلال اللواء وإبقائه فى داخل الوحدة السورية على قاعدة اللامركزية، ويكون تعيين شكلها راجعا إلى المرجع الاختصاصى بالتفاهم مع المفوض السامى.

دساتير هذه الدول

وفى يوم ١٤ مايو سنة ١٩٣٠ نشر المفوض السامى مجموعة الدساتير التى وضعها للدول السورية. وهى جمهورية دمشق وجمهورية دولة لبنان وحكومة جبل الدروز وحكومة العلويين ولواء إسكندرونة وأرسلها إلى جمعية الأمم بواسطة وزارة الخارجية الفرنسوية فأقرتها، وهى نافذة ومعتبرة حتى الآن.

١ـ يتألف هذا اللواء من مدن اسكندرونة وإنطاكية وبيلان وقرقخان وهو مجاور لتركيا.

ـ ٢ ـ

إنشاء الاتحاد السورى وإلغاؤه

رغم السكون الذى شمل البلاد السورية بعد حوادث ميسلون، ورغم خمود الحركة الوطنية وتشتت زعمائها ورجالها فقد قابلت الأمة التجزئة التى أقدم عليها الفرنسويون بأشد مظاهر الاستياء والاستنكار. لأنها ما كانت تجهل الغاية منها وهى تثبيت أقدام الاستعمار وإنهاك البلاد بفادح النفقات.

ورأى الجنرال غورو أن يعدل مشروع التجزئة تعديلا ظن أنه يرضى الشعب. فأصدر يوم ٢٢ يونيو سنة ١٩٢٢ قرارا بإنشاء اتحاد بين دول دمشق وحلب والعلويين جاء فى المادة الأولى منه: أنه قد أنشئ اتحاد بين الدول السورية المؤلفة من دولة حلب ودولة دمشق وأراضى العلويين المستقلة، وجاء فى الثانية أن من أراد الانضمام إلى هذا الاتحاد من الدول أو الأراضى الأخرى الواقعة تحت الانتداب الفرنسوى يجب عليه قبول الشروط المدرجة فى هذ القرار، ثم يتخذ رئيس الاتحاد قرارا يصادق به على هذا الانضمام وحدد عدد الممثلين الذين تنتدبهم عنها لدى مجلس الاتحاد الدولى التى قبل انضمامها.

إن الدول الواقعة تحت الانتداب الفرنسوى داخلة كانت فى الاتحاد أم لم تكن لها عين النظام فيما يتعلق بالنقود والمعاملات الجمركية، ولا يمكن أن يفصل بينها بأدنى حاجز جمركى.

وجاء فى المادة الرابعة: أن السلطة التنفيذية تخول لرئيس الاتحاد الذى يمكنه تكليف حكام الدول بالنيابة عنه تنفيذ قرارات المجلس الاتحادى، وأن هذا الرئيس ينتخب من جانب المجلس بالأكثرية المطلقة ويكون انتخابه لسنة كاملة. وجاء فى المادة الخامسة: «يساعد رئيس الاتحاد فى مهام وظيفة مديرين من الدول المتحدة ومجلس الاتحاد. وهذه المديريات المشتركة بين الدول تكون بصورة مؤقتة كما يأتى: مدير المالية ومدير الأشغال العامة ومدير العدلية. ويرشد هؤلاء المديرين مستشارون فرنسويون. وجاء فى المادة السادسة: أن قرارات رئيس الاتحاد لا تنفذ إلا بعد مصادقة المفوض السامى عليها.

وجاء فى المادة السابعة: يؤلف المجلس الاتحادى من خمسة ممثلين لدولة دمشق وخمسة لدولة حلب وخمسة لبلاد العلويين، وينتخب هؤلاء الممثلون لمدة سنة من قبل مجالس الحكومات حينما تؤلف على الطريقة الانتخابية. على أنه لا يجب ضرورة أن يكون أعضاء المجلس الاتحادى من أعضاء مجلس الحكومة الذين ينوبون عنها . بل يجرى تعيينهم مؤقتا من قبل حكام الدول.

وجاء فى الثامنة «يلتئم المجلس الاتحادى بالمناوبة تارة فى دمشق وتارة فى حلب. فى كل منهما سنة واحدة، وتؤلف دائرة تمثل فيها كل بعثة مؤلفة من رئيس أول ورئيسين ثانيين.

وفى يوم ٢٨ يونيو سنة ١٩٢٢ اجتمع أعضاء المجلس الاتحادى فى حلب ووقف الجنرال غورو فأعلن إنشاء الاتحاد السورى رسميا، وخطب خطبة طويلة قال فى مستهلها إننى أعلم أن هذا الاتحاد لم يقابله الأهالى فى كل مكان بعواطف واحدة. غير أنه من المحتمل أن القرار الذى أوجده لم يترجم على وجه الصحة أو لم ينقل بالضبط. لهذا أرى أن يتلى عليكم بنصه فتلى فعلا.

واجمتع المجلس يوم ٢٩ منه فانتخب صبحى بركات أحد مندوبى حلب رئيسا لمجلس الاتحاد ثم انفض على أن يدعى إلى الانعقاد فى دورة أخرى، وقد اجتمع بعد ذلك فى دمشق وقرر أن تكون عاصمته الدائمة.

اقرار الانتداب وصكه

وعملا بقرار مجلس الحلفاء الأعلى الصادر فى سان ريمو يوم ٢١ إبريل سنة ١٩٢٠ بمنح الانتداب على سورية لفرنسا أقر مجلس جمعية الأمم حين اجتماعه فى لندن يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢ صك الانتداب الذى وضعته الحكومة الفرنسوية لسورية ولبنان.

وهذا نصه:

مجلس جمعية الأمم:

لما كانت دول الحلفاء العظمى متفقة على أن أراضى سورية ولبنان التى كانت فيما مضى جزءا من السلطنة العثمانية يعهد بها ضمن حدود تعينها الدول المشار إليها إلى دولة منتدبة موكول إليها نصح الأهالى ومعاونتهم وإرشادهم فى إدارتهم وفقا لنص الفقرة

الرابعة من المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم.

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسية قد قررت أن الانتداب على البلاد المذكورة يعطى لحكومة الجمهورية الفرنسوية التى قبلته.

ولما كان صك هذا الانتداب المبين فى المواد المذكورة فيما بعد قد وافقت عليه حكومة الجمهورية الفرنسوية وعرض للتصديق على مجلس الأمم.

ولما كانت حكومة الجمهورية الفرنسوية تتعهد بإجراء هذا الانتداب باسم جمعية الأمم طبقا للمواد المذكورة.

ولما كانت نصوص المادة الثانية والعشرين الآنفة الذكر (الفقرة الثانية) تقضى بأنه لما كانت درجة السلطة والمراقبة والإدارة التى تجريها الدولة المنتدبة لم يتفق عليها سابقا بين أعضاء جمعية الأمم فالمجلس هو الذى ينظم ذلك.

يضع نصوص الانتداب كما يلى موافقا عليه:

١ ـ تضع الحكومة المنتدبة فى برهة ثلاث سنوات اعتبارا من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب دستورا نظاميا لسورية ولبنان.

يصاغ هذا الدستور بالاتفاق مع السلطات الوطنية، وتراعى فيه حقوق عموم السكان القاطنة فى هذه البلاد ومصالحهم. وستشرع الحكومة المنتدبة فى إيجاد الوسائل التى من شأنها أن تسهل تقدم سورية ولبنان ورقيهما كحكومتين مستقلين وتسيرهما بموجب روح هذا الصك إلى أن يتم الشروع فى تنفيذ ذاك الدستور.

ويجب على الدولة المنتدبة أن تنشط الاستقلال المحلى قدر ما تسمح به الأحوال.

٢ ـ يمكن للحكومة المنتدبة أن تبقى جنودها فى البلاد للدفاع عنها، وقد خولت حق تنظيم جند من المليس المحلى قصد المحافظة على الأمن والدفاع عن البلاد كما تقتضيه الأحوال. وذلك حتى تنفيذ الدستور وإعادة الأمن إلى نصابه، وتنظم جنود المليس المحلى من سكان البلاد فقط.

ترتبط هذه الجنود فيما بعد بالإدارات المحلية تحت إشراف الدولة المنتدبة، ولا يجوز استخدامها لأغراض أخرى سوى الأغراض المعينة فيما تقدم ـ إلا بعد موافقة الدولة

المنتدبة لا مانع يمنع سورية ولبنان من الاشتراك فى نفقات القوات التى تضعها الدولة المنتدبة فى البلاد.

يحق للدولة المنتدبة فى كل حين أن تستعمل الموانى والخطوط الحديدية ووسائل النقل الموجودة فى سورية ولبنان لسوق جنودها ونقل جميع المواد والمهمات والوقود اللازمة لها.

٣ ـ يعهد إلى الدولة المنتدبة بالسيطرة على جميع علاقات سورية ولبنان الخارجية. ولها حق إصدار البراءات إلى القناصل الذين يعينون من قبل الدول الأجنبية، وتشمل الدولة المنتدبة بحمايتها السياسية والقنصلية الرعايا السوريين واللبنانيين الذين يعيشون خارج هذه البلاد.

٤ ـ الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن أى جزء من أجزاء سورية ولبنان وعن عدم تأجيره أو وضعه تحت تسلط دولة أجنبية.

٥ ـ إن إعفاء الأجانب من الأمور الواجبة وتمتعهم بالامتيازات الأجنبية وبقضاء القنصلاتو وحمايته التى كانوا يتمتعون بها أيام الدولة العثمانية لا تطبق فى سورية ولبنان، غير أن محاكم القنصلاتو الأجنبية تداوم على القيام بوظيفتها إلى أن يتم تنفيذ النظام الجديد المنصوص عنه بالمادة السادسة.

إن الدولة التى كان أتباعها يتمتعون بالامتيازات الأجنبية المبينة أعلاه لأول أغسطس سنة ١٩١٤ والتى لم تتنازل عن هذه الامتيازات أو توافق على عدم تطبيقها لأجل محدود، ستمنح ثانية جميع الامتيازات أو بعضها بعد انقضاء أمد الانتداب بالصورة التى يتم عليها الاتفاق بين الدول ذات الشأن.

٦ ـ تضع الحكومة المنتدبة فى سورية ولبنان نظاما قضائيا يصون حقوق الوطنيين والأجانب على السواء يحافظ على أحوال الناس الشخصية وعلى مصالحهم الدينية. وخصوصا إدارة الأوقاف التى تدار وفقا للشريعة ولإدارة الوقف.

٧ ـ تكون معاهدات تسليم الرعايا الأجانب المبرمة بين الدولة المنتدبة وبين سائر الدول الأجنبية مرعية فى سورية ولنبان إلى أن يتم عقد اتفاقات خاصة بهذا الشأن.

٨ ـ تضمن الدولة المنتدبة للجميع حرية الضمير وحرية القيام فى جميع شعائر العبادة

التى لا تخل بالأمن ولا بالآداب العامة، ولا يكون تمييز من أى نوع بين سكان سورية ولبنان بسبب الجنس أو الدين أو اللغة.

تنشط الحكومة المنتدبة التعليم العام، ويكون هذا التعليم بلغة البلاد المحلية، ولا تحرم جميع الطوائف حق المحافظة على مدارسها وتعليم أبنائها بلغتها متى كان ذلك مطابقا لقانون التعليم العام الذى تعينه الحكومة.

٩ ـ تتجنب الحكومة المنتدبة التدخل فى أعمال المجالس الإدارية وفى إدارة الطوائف الدينية وفى إدارة المعابد المقدسة التى تخص إحدى الطوائف. وقد تكفلت بالمحافظة على هذه المعابد.

١٠ ـ تحدد سلطة الدولة المنتدبة فى مراقبة البعثات الدينية فى سورية ولبنان لأجل محافظتهم على الأمن وعلى الحكم بطريقة مرضية، ولا تحصر الدولة المنتدبة مساعى هذه البعثات بصورة من الصور ولا تقيد أعضاءها بقيود بسبب قوميتهم مالم تخرج أعمالهم عن أصول الدين.

يمكن لهذه البعثات الدينية أن تشتغل بأمور الإسعاف والتعليم تحت مراقبة الدولة المنتدبة أو الحكومة المحلية.

١١ ـ يجب على الحكومة المنتدبة أن لا تميز بالمعاملة فى سورية ولبنان بين أتباعها وبين أتباع غيرها من الدول الداخلة فى عضوية جمعية الأمم. وتشمل هذه المعاملة الجمعيات والشركات الأجنبية على اختلافها، وأن لا تميز أيضا بين أتباع أى دولة أجنبية وبين أتباعها فى الأمور التى لها مساس بالضرائب والتجارة والملاحة وتعاطى الحرف والمهن، أو فى معاملة السفن البحرية أو الوسائط الهوائية. وكذلك الأمر يجب أن لا يكون تمييز فى سورية ولبنان بين البضائع التى يكون مصدرها أو محط رحالها بلاد تلك الدول المذكورة، ويجب إطلاق حرية المرور التجارية عبر المنطقة المشار إليها بشروط عادلة.

يمكن للحكومة المنتدبة بعد مراعاة ما ذكر أعلاه أن تفرض الضرائب والرسوم الجمركية التى تراها ضرورية أو أن توعز للحكومات المحلية أن تفرضها، ويمكن للدولة المنتدبة أو للدولة المحلية التابعة لمشورتها أن تعقد لأسباب جوارية اتفاقا جمركيا خاصا مع البلاد المتاخمة لها.

ويمكن للحكومة المنتدبة عملا بشروط البند الأول من هذه المادة أن تتخذ الوسائل الفعالة التى تعتقد صلاحها لترقية موارد البلاد الطبيعية مع المحافظة على مصالح السكان.

تمنح الامتيازات لترقية هذه الموارد الطبيعية لمن شاء دون تمييز فى تابعية الأشخاص الداخلة دولهم فى عداد أعضاء جمعية الأمم - بشرط أن لا تمس هذه الامتيازات بسلطة الحكومة المحلية، ولا تمنح الامتيازات بصفة احتكار عام. ولا تمس هذه الفقرة بتحديد سلطة الدولة المنتدبة فى إيجاد الاحتكارات المالية التى من شأنها أن ترقى مصالح سورية ولبنان، وتحفظ مواردهما المالية والمحلية، ويمكن للحكومة أن تسعى لترقية هذه الموارد الطبيعية مباشرة أو بواسطة شركة خاصة بالدولة المنتدبة أو برعاياها، أو يمنحهما ميزة فى الأمور الاقتصادية والتجارية والصناعية التى تقرر فيها المساواة بين الجميع.

المادة ١٢ - تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن سورية ولبنان على كل اتفاق دولى عام عقد حتى الآن، أو ربما يعقد فيما بعد بموافقة جمعية الأمم بخصوص الاتجار بالرقيق، وبالعقاقير وبالسلاح، والمعدات الحربية، وبالمساواة التجارية، وحرية العبور، والملاحة والطيران والمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية وباتخاذ الوسائط اللازمة لحماية الصنائع والآداب والفنون.

المادة ١٣ - تصون الدولة المنتدبة بقدر ما تسمح لها الأحوال الاجتماعية والدينية اتحاد سورية ولبنان فى الأمور ذات الفوائد العامة التى تقرها جمعية الأمم لمنع الأمراض ومقاومتها. وفى جملتها أمراض الحيوان والنبات.

المادة ١٤ - تتضمن هذه المادة بحثا طويلا فى قانون الآثار لا فائدة من نشره، وهو شبيه بالمادة الخاصة بالآثار فى صك الانتداب لفلسطين فليرجع إليها.

المادة ١٥ - عندما يتم تنفيذ الدستور المنصوص عليه فى المادة الأولى يوضع ترتيب بين الحكومة المنتدبة والحكومات المحلية تدفع بموجبه هذه الحكومات جميع النفقات التى أنفقتها الحكومة المنتدبة لأجل تنظيم الإدارة وترقية الموارد المحلية والقيام بالمشروعات العامة التى أفادت البلاد إفادة خاصة، وترسل نسخة عن هذه الترتيبات إلى مجلس جمعية الأمم.

المــــادة ١٦ ـ تكون اللغة الفرنسوية واللغة العربية اللغتين الرسميتين المستعملتين فى سورية ولبنان.

المادة ١٧ ـ تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الأمم تقريرا سنويا حسب طلبه تبين فيه التدابير التى اتخذتها أثناء السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب، ويرسل مع هذا التقرير نسخ عن جميع القوانين والأنظمة التى تسن سنويا.

المادة ١٨ ـ يجب أن يوافق مجلس جمعية الأمم على كل تعديل يحصل فى شروط هذا الصك.

المــــادة ١٩ ـ يستعمل مجلس جمعية الأمم نفوذه عندما تنتهى مدة الانتداب لتحافظ حكومة سورية ولبنان فى المستقبل على علاقاتهما المالية، ومنها الرواتب القانونية التى منحتها إدارة سورية ولبنان أيام الانتداب.

المــــادة ٢٠ ـ توافق الدولة المنتدبة إذا حصل نزاع بينها وبين دولة ثانية داخلة فى عضوية جمعية الأمم بخصوص تفسير شرط فى صك الانتداب أو تطبيقه على عرض هذا النزاع على محكمة العدل الدولية الدائمة المنصوص عليها فى المادة الرابعة عشرة من عهد جمعية الأمم. هذا إذا لم يكن حل النزاع بين الدولتين بواسطة المفاوضات[١].

المجالس التمثيلية للدول الجديدة

بعد أن أتم الفرنسويون عملية التجزئة وأقاموا فى كل ناحية دولة أنشأوا مجالس تمثيلية لهذه الدول. ففى يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٩٢٣ أصدر المفوض السامى قرارا بإنشاء مجلس تمثيلى لدولة دمشق يتألف من ٣٠ عضوا على أن تكون صلاحيته (اختصاصاته) محدودة بالنظر فى الميزانية والضرائب والتشريع والإدارة. ويكون له الحق أيضا فى تعيين ممثلى الدولة فى المجلس الاتحادى وفى طرح الأسئلة على الحاكم وإبداء التمنيات.

وصدر قرار بإنشاء مجلس كمثل هذا لدولة حلب وآخر لدولة العلويين. أما فى لبنان

١ رغم إقرار الانتداب يوم ٢٤ سنة ١٩٢٢ فإنه لم يوضع موضع التنفيذ رسميا إلا يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ وذلك بسبب معارضة إيطاليا. وأول تقرير قدمته فرنسا إلى جمعية الأمم عن الحالة فى سورية كان فى أكتوبر سنة ١٩٢٤.

وجبل الدروز فقد أُنشئ من قبل.

وقد احتجت دمشق على إنشاء هذا المجلس وعلى اختصاصاته الضيقة وقاطعت انتخاباته، وأضربت عن العمل عشرة أيام احتجاجا على إنشائه. بيد أن ذلك لم يحل بين السلطة وبين إتمام ما شرعت فيه، فأكملت الانتخابات وأخرجت النواب الذين اختارتهم فقاطعهم الشعب وازدراهم فعينت الحكومة شرطيين لحراستهم خوفا من فتك الشعب ونقمته.

إلغاء الاتحاد السورى وإنشاء الدولة السورية

لم يعش الاتحاد السورى طويلا لأنه لم يرض الشعب السورى الذى ظل يواصل الاحتجاج مطالبا بالوحدة الصحيحة وبالحكم النيابى الديمقراطى الحر وبالاستقلال الكامل. فلم ير الجنرال فيجان وهو الذى خلف الجنرال غورو بدا من إلغائه فأصدر يوم ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٤ قرار بإلغاء الاتحاد السورى وإنشاء وحدة بين دولة دمشق ودولة حلب وإبقاء حكومة العلويين فى خارج الدولة الجديدة وهذا نص قراره:

١ ـ تتحد دولتا حلب ودمشق اعتبارا من أول يناير سنة ١٩٢٥ وتؤلفان دولة واحدة (الدولة السورية).

تؤلف الدولة السورية ضمن الحدود الحالية لدولتى دمشق وحلب ـ دولة مستقلة عامصمتها دمشق على أن يحتفظ بحقوق وواجبات الحكومة المنتدبة.

٢ ـ يتولى السلطة التنفيذية رئيس حكومة يسمى (رئيس دولة سورية) وينتخبه المجلس التمثيلى بأكثرية الآراء المطلقة. وإن كان من أعضاء المجلس التمثيلى تزول منه هذه الصفة يوم انتخابه ويتحتم استبداله بغيره.

٣ ـ يتولى رئيس دولة سورية القيام بوظائف رئيس الاتحاد للدول السورية وبوظائف حكام الدول وفقا للقرارات المعمول بها.

وهو يعين كبار موظفى الدولة وفقا لأحكام القوانين والأنظمة التى بها يتعين دستور هؤلاء الموظفين. وسيصدر فيما بعد قرار للتمييز بين كبار الموظفين وغيرهم ولتعيين سلسلة مراتبهم.

٤ ـ يؤازر رئيس الدولة وزراء يناط به أمر نصبهم واستبدالهم، وتعود إلى الوزراء الإدارة العليا لجميع مصالح الدولة المربوطة بدائرة كل واحد منهم، ويضمن كل بما يتعلق به تطبيق أحكام القوانين والأنظمة، ويسمون الموظفين الذين لا يعود أمر تسميتهم لا إلى رئيس الدولة كما نصت المادة الثالثة من هذا القرار ولا إلى المتصرف أو الوالى وفقا لأحكام القوانين المعمول بها.

٥ ـ الوزارات خمس ـ وزارة الداخلية: وبها تربط مصالح الشرطة المحلية ومديرية الدرك الثابت ومديرية الصحة والإسعاف العام.

وزارة العدلية

وزارة المالية: وبها تربط مديرية مصالح العقارية. ومديرية أراضى الدولة.

وزارة المعارف العامة

وزارة الأشغال العامة والزراعة والإصلاح الاقتصادى: وبها تربط مديرية البرق والبريد.

٦ ـ تبقى على حالها إدارة الألوية والأقضية والنواحى والبلديات، ويسمى لواء حلب (ولاية حلب) ويقوم واليها بوظائف المتصرفين وفقا للقوانين والأنظمة المعمول بها.

٧ ـ إن وظائف مجلس كل من دولتى حلب ودمشق التمثيليين ووظائف المجلس الاتحادى يقوم بها فى الدولة السورية مجلس يطلق عليه اسم (المجلس التمثيلى لدولة سورية). والقواعد التى اتبعت فى انتخاب أعضاء المجلس التمثيلى لدولة سورية ما لم يصدر قانون انتخاب جديد.

٨ ـ تقوم بالسلطة القضائية المحاكم البدائية والاستئنافية ضمن الشروط المنصوص عليها فى القوانين الاتحادية المحددة وظائف هذه المحاكم وكيفية تأليفها وسير أعمالها.

٩ ـ ينتهى ارتباط لواء إسكندرونة بولاية حلب، وتبقى إدارته جارية وفقا للأحكام الخاصة المنصوص عليها فى القرار رقم ٩٨٧ المؤرخ ٨ أغسطس سنة ١٩٢١ والقرار رقم ١٨٨١ المؤرخ ٤ مارس سنة ١٩٢٣ وتناط برئيس الدولة السورية وظائف حاكم دولة حلب فيما يتعلق بإدارة هذا اللواء.

١٠ ـ تتمتع ولاية حلب بالامتياز المالى المحدد كما يلى:

تجمع الواردات التى تجبى فى أراضى الولاية باسم ضرائب بلا واسطة (مباشرة) وضرائب بالواسطة (غير المباشرة) ورسوم وكل دخل من أى نوع كان مما أجيزت جبايته وفقا للأصول. وكذلك كل المبالغ المخصصة للولاية باسم الأموال التابعة للتوزيع.

وتجمع أيضا:

١ ـ النفقات التى تصيب الولاية من أعباء الإدارة المركزية للدولة.

٢ ـ كل النفقات التى تستوجبها رسميا مصالح الدولة الكائنة فى أراضى الولاية.

٣ ـ النفقات المتأتية عن القيام فى أراضى الولاية بأشغال عامة أو ذات نفع محلى، أو النفقات التى تستلزمها أعمال الإصلاح من الوجهة الزراعية والاقتصادية أو الاجتماعية مما له فائدة محلية.

٤ ـ ما يصيب الولاية من النفقات التى يستوجبها القيام بأشغال عامة ذات نفع عام أو بأعمال الإصلاح من الوجهة الزراعية والاقتصادية أو الاجتماعية مما له نفع عام تكون قد استفادت منه الولاية. ويخصص الزائد من المداخيل لأشغال عامة ذات فائدة محلية، أو لأعمال لها ذات الفائدة من شأنها تحسين الزراعة والاقتصاد والأحوال الاجتماعية.

١١ ـ يمثل المفوض السامى لدى الدولة السورية مندوب يساعده مندوبون معاونون.

١٢ ـ إن سلطة المفوض السامى وممثليه هى التى نصت عليها القرارات والتعاليم المعمول بها، وإن المقررات التشريعية والتنظيمية التى يصدرها رئيس دولة سورية تعرض للتصديق على المفوض السامى. وكل تعيين يجريه رئيس الدولة ينبغى تصديقه من المفوض السامى.

وينبغى أن يقر المفوض السامى انتخاب رأس الدولة، وله أن يعلن زوال سلطته لأسباب تتعلق بالمصلحة العامة.

١٣ ـ ينبغى أن تصدق أعمال رئيس الدولة السورية من قبل المندوب لدى حكومته متى كان

التصديق غير عائد للمفوض السامى، أو متى خول المفوض السامى مندوبه حق التصديق.

وكل تعيين للوظائف التى يتقلدها الوزراء والمديرون ينبغى تصديقه من مندوب المفوض السامى.

وفى الملحقات حيث يكون مندوب معاون تصدق مقررات الحكومة المحلية من قبله.

١٤ ـ يتألف أول مجلس تمثيلى للدولة السورية من اجتماع أعضاء المجلس التمثيلى لدولتى دمشق وحلب.

١٥ ـ رئيس دولة سورية هو الرئيس الحالى لاتحاد دولة سورية الذى انتخبه مجلس الاتحاد فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٣ وسينتهى عهده قانونا فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٧.

١٦ ـ تقوم الدولة السورية مقام دولتى حلب ودمشق فيما يختص بالحقوق والواجبات المتعلقة بهاتين الدولتين، وتقوم مقام اتحاد دول سورية بقسم يعين فيما بعد من الحقوق والواجبات المتعلقة بذاك الاتحاد.

ـــ ١ ـــ

نشاط الحركة الوطنية وانتعاشها فى الداخل

فتنة حوران وأعمال العصابات

ظن الفرنسويون خطأ أن إسقاط الحكومة الفيصلية وتشريد رجالها وأخذ البلاد بالشدة يمكنهم من إخماد الحركة الوطنية ومن حكم سورية على الطريقة التى يختارونها، فلم يترددوا فى فرض الغرامات المالية الباهظة ونشر الأحكام العسكرية ووضع رقابة على الصحف القليلة التى ظهرت فى أوائل هذا العهد، لأن الصحف التى كانت تصدر فى العهد الفيصلى أغلقت وغادر أصحابها البلاد خوفا من الفتك والانتقام.

وطرأ على الحركة الوطنية جمود فى ابتداء هذه المرحلة بسبب سفر معظم المشتغلين بها. فقد تفرقوا غداة ميسلون فى الأقطار العربية المجاورة فنزل بعضهم فلسطين، وقصد آخرون مصر، ورحل غيرهم إلى الحجاز، وسافر فريق إلى أوربا وأميركا ليواصل النضال والكفاح فى سبيل بلاده.

ولقد كان لنشاط هؤلاء وجهادهم أعظم الأثر فى إيقاظ النفوس وتحريك الهمم ـ كما كان للأساليب التى سار عليها الفرنسويون فى حكم البلاد أثر لا ينكر فى استفزاز الشعب. فقاطع الذين مالأوهم والتف حول الوطنيين، فاستؤنف النضال فى هذه المرحلة على منوال جديد. فبعد ما كان بين الحكومة السورية والفرنسويين أصبح بين الشعب السورى وبين هؤلاء. وبعد ماكان سريا وسلبيا فى ابتداء هذه المرحلة صار علنيا وإيجابيا فى ختامها. فتقلد الشعب السلاح وقام يدافع عن كرامته ويعمل لاسترداد استقلاله وحقوقه.

وتنقسم الأعمال الوطنية التى عملت فى خلال هذه المرحلة إلى قسمين: قسم قام به الشعب نفسه فى داخل البلاد، وقسم قام به الأحرار من أبنائه فى خارجها. فقد أسمعوا العالم صوته وأطلعوه على قضيته وبسطوا شكاياته، ولم يدخروا وسعا فى خدمته وفى الدفاع عن حقوقه والمطالبة بإنقاذه وإغاثته.

ونبدأ بالكلام عن الحوادث التى حدثت فى داخل البلاد، ثم نتبعه بإيراد ما جرى فى خارجها لما بينهما من ارتباط وثيق وصلة متينة.

١ ـ فتنة حوران

كانت فتنة حوران أول فتنة اضطرمت فى العهد الجديد. فجرد الفرنسويون القوى لإطفائها والقضاء عليها.

وبيان ما وقع أن حكومة علاء الدين الدروبى، وقد تألفت غداة ميسلون دعت شيوخ حوران وزعماءها إلى زيادة دمشق لمباحثتهم فى الغرامة التى فرضها الفرنسويون على أهل سورية، والاتفاق على الجزء الذى يصيب حوران فأبوا الحضور فرأت أن توفد وفدا من أعضائها للتفاهم معهم.

وغادر الوفد دمشق صباح الجمعة ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٠ بقطار حوران وكان يتألف من علاء الدين الدروبى رئيس الوزارة وعبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى وعطا الأيوبى وزير الداخلية والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ عبد الجليل الدرا، وأبلغت حكومة حوران وطلب إليها أن تجمع الشيوخ فى درعا ليقابلوا الوفد. وازدحمت محطة خربة الغزالة ـ وتبعد نحو ٢٥ كيلو مترا عن درعا ـ بجمهور كبير من الحوارنة جاء يبحث عن الوزراء للفتك بهم، انتقاما منهم وتأديبا لغيرهم من الذين والوا الفرنسويين.

وغادر علاء الدين الدروبى الصالون الذى كان يركبه واندس بين ركاب عربات الدرجة الثالثة وفعل فعله معظم الذين كانوا معه، وركض عبد الرحمن اليوسف إلى دار المحطة وأقفل عليه الباب فلحقه الثوار وأطلقوا عليه الرصاص وقتلوه، وبحثوا بين ركاب الدرجة الثالثة عن الدروبى فاهتدوا إليه وقتلوه أيضا ونهبوا القطار وقتل فى أثناء الحادثة أيضا وحيد عبد الهادى من نابلس، وكان بين المسافرين لأنه حاول الفرار، وضابط إيطالى وقد ظنوه فرنسويا وكاهن مسيحى وجنود فرنسويون.

وعطل الجمهور السكة الحديد وقطع المواصلات البرقية والتيلفونية فجهزت السلطة الفرنسوية حملة عسكرية كبيرة لإخضاع حوران زحفت من دمشق فى أواخر شهر أغسطس فلاقاها الحوارنة فى الكسوة ـ وتبعد عن دمشق نحو ١٥ كيلو مترا من جهة الجنوب ـ فدارت معركة شديدة انتهت بتغلب الحملة فواصلت تقدمها فصدمها الثوار فى السمية فشقت طريقا لها فعادوا إلى قتالها فى غباغب.

وفى أول أكتوبر وصلت إلى درعا ـ وقد قطعت المسافة بينها وبين دمشق فى شهر

وبضعة أيام بحد ما اشتبكت مع الحوارنة فى معارك عديدة فأعلنت حوران خضوعها للسلطة الفرنسوية وقبلت الشروط الآتية:

١ ـ إعادة المنهوبات التى نهبت من القطار يوم ٢٠ أغسطس.

٢ ـ دفع دية الوزراء المقتولين وقدرها ١٠ آلاف ليرة ذهبا عن كل وزير و ٧ آلاف للضابط الإيطالى و ٢٥٠٠ ليرة للكاهن ومثله لوحيد عبد الهادى و ٥٠٠ عن كل عسكرى مقتول.

٣ ـ إعطاء الضمانات الكافية بعدم ارتكاب اعتداءات جديدة.

٤ ـ دفع مائة ألف ليرة عثمانية ذهبا وغرامة.

وضربت الطيارات الفرنسوية قرى حوران بقنابلها فى أثناء زحف الحملة وخربت البيوت ـ كما أحرق الجيش البيادر والبيوت ونهبها، ولما اطلعت لجنة الاتحاد السورى بمصر على هذه الأعمال أرسلت يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٠ الاحتجاج الآتى إلى رؤوساء حكومات الحلفاء ومجالسها النيابية وجرائدها المشهورة ورئيس الولايات المتحدة ومجلس الشيوخ فيها، ووزعته على كبريات الصحف فى العالمين الشرقى والغربى.

«ذهل السوريون لقراءة البلاغات الفرنسوية الصادرة بتاريخ ٢٣ أغسطس وأول سبتمبر سنة ١٩٢٠ المنبئة بتدمير الجيش الفرنسوى تدميرا منظما لمقاطعة حوران الزراعية التى هى أهراء سورية. الطيارات تخرب القرى بأكملها قاتلة للنساء والأولاد بلا رحمة. نحن نستصرخ الأمم المتمدنة، ومنها الأمة الفرنسوية ضد هذه الأعمال الوحشية التى يقصر عنها الوصف، وتورث الأحقاد بإطالة زمن القتال».

وفى يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٢ أعدم فى دمشق ثلاثة من الحوارنة، وهم عوض صلاح الدين المصرى وحسين الحاج يوسف عيسى وزعل يوسف بتهمة اغتيال الوزراء يوم خربة الغزالة.

٢ ـ عصابات الشمال

نشطت العصابات التى كانت تعمل فى شمالى سورية لمحاربة الفرسويين على أثر سقوط الدولة الفيصلية. فانتشرت فى جهات أنطاكية وحارم والعمق وأدلب والمعرة وجسر

الشغور بقيادة إبراهيم هنانو، واتخذت جبل الزاوية قاعدة لأعمالها واستولت على عدد من الحواضر كالمعرة وأدلب وجسر الشغور، وهزمت الفرنسويين فى معارك شتى. وكانت على اتصال بعصابات الشيخ صالح العلى التى كانت تقاتل الفرنسويين فى منطقة اللاذقية، وقد بسطت نفوذها على صهيون ومعظم القرى وهددت مدينة اللاذقية نفسها.

وجهزت السلطة العسكرية الفرنسوية قوات كبيرة لمطاردة العصابات فى الشمال. فقد جاء فى بلاغ فرنسوى رسمى صدر فى بيروت يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٢١ وبتوقيع الجنرال غورو عن أعمال الحملة الفرنسوية فى منطقة العلويين من شهر مارس سنة ١٩٢١ حتى شهر يوليو ما نصه:

«منذ شهر مارس حتى شهر يوليو سنة ١٩٢١ كان عدد كبير من الكتائب يعمل بملء النشاط، ويقاوم بدون انقطاع عددا شديد المراس من العصابات مسلحا فى أراض جبلية، وينازله فى معارك كبيرة تنتهى بالانتصار حتى استتبت السكينة وانتظمت الأمور الإدارية. وطاردت الجيوش بين ٦ إبريل و ٢٣ مايو سنة ١٩٢١ عصابتى إبراهيم هنانو والشيخ صالح العلى، وكانتا متحالفتين ولم تدع لهما وقتا للراحة فتفرقت العصابتان منسحبتين نحو الشرق. وقد أفضت هذه المعارك الشديدة إلى احتلال البلاد وإنشاء مراكز ثابتة فى كفر تخاريم ودركوش وجسر الشغور ومعرة النعمان. ومن ثم زحفت قوى الكولونيل نيجر العديدة ـ بعد ما وضعت الحواجز من البحر إلى نهر العاصى وطافت بلاد العلويين من الشمال إلى الجنوب واشتبكت فى معارك طويلة من ١٠ مايو حتى ١٥ يونيو حيث نشبت معركة بالقدموس وانتهت هذه المعارك العنيفة بطاعة العلويين وهزيمة الشيخ صالح العلى وقد تخلى عنه معظم أعوانه.

وجاء فى بلاغ فرنسوى آخر ما نصه: فى ١٢ مايو خرجت حملة من اللاذقية بقيادة الكولونيل نيجر فتوجهت إلى جبلة والمرقب حيث مركز العصابات. وفى يوم ١٣ منه زحفت حملة أخرى من محردة «محطة من محطات السكة الحديد بين حمص وحماه» بقيادة الكولونيل دوم. وسارت فى الوقت نفسه حملة ثالثة من الحمدانية «محطة من محطات السكة الحديد بين حماه وحلب» بقيادة الكولونيل فيك. ومشى الجنرال غوبو قائد اللواء الثالث من حلب على رأس لوائه لتأديب العصابات. فبلغ معرة النعمان يوم ١٥ منه، ودخلت قوة الكونيل فيك في اليوم التالي إلى حبيط، وتقدمت قوة الكولونيل دوم فاستولت على

جسر الشغور وزحفت قوة أخرى بقيادة الكولونيل فونيه عليى قلعة المضيق فاحتلتها.

«ودارت معركة عنيفة فى جسر الشغور بين الثوار وحملة الكولونيل جران كور انتهت بانسحاب الثوار والاستيلاء على البلدة».

وقد ارتدت العصابات أمام هذه القوات العظيمة ولا يقل عدد رجالها عن ثلاثين ألف مقاتل، فغادر إبراهيم بك هنانو مقره فى جبل الزاوية يوم ١٢ يوليو سنة ١٩٢١ ومعه ٥٥ جنديا وضباطا قاصدا عمان فلاقاه الفرنسويون شرقى سلمية يؤيدهم الإسماعيليون ودارت معركة بينه وبينهم انتهت بأسر أربعة من ضباطه أما هو فواصل السفر فوصل إلى عمان يوم ٣١ منه.

اعتقال هنانو فى القدس وإرساله إلى حلب

وفى شهر أغسطس ذهب إلى القدس لزيارتها فاعتقلته السلطة البريطانية بطلب القنصل الفرنسوى. فهاج العرب فى شرقى الأردن وماجوا واعتدوا على قائد الدرك وهو بريطانى. واحتج الأمير عبد الله رسميا إلى الحكومة البريطانية طالبا إطلاق سراح ضيفه، فلم تفد هذه الاحتجاجات وأرسل مخفورا إلى بيروت وسلم إلى السلطة الفرنسوية فأرسلته إلى حلب حيث حوكم أمام مجلس عسكرى فرنسوى فبرأه وأطلق سراحه.

أما الشيخ صالح العلى فقد ظل متواريا حتى يوم ٦ يونيو سنة ١٩٢٢ ففيه أذاعت السلطة الفرنسوية بلاغا رسميا بأنه خضع لها.

٣ ـ حادث القنيطرة

وفى يوم ٢٣ يونيو سنة ١٩٢١ غادر الجنرال غورو دمشق إلى القنيطرة لزيارة الأمير محمود الفاعور ومعه رئيس أركان حربه والضابط المترجم برانيه وحقى العظم حاكم دولة دمشق. فلما أصبحوا على مسافة ١٢ كيلو مترا من القنيطرة ظهرت أمامهم عصابة مؤلفة من ١٤ فارسا فأطلقت عليهم ١٥ عيارا ناريا فأصيب الجنرال بطلق فى كم يده المبتورة، وأصيب حقى العظم برصاصة فى فخده وأخرى فى ذراعه وثالثة فى شفته وقتل الضابط المترجم برانيه.

وسير الفرنسويون على الأثر حملة كبيرة بقيادة الكولونيل روكرو، وغادرت دمشق يوم ٢٣ يونيو فدمرت قرى ومنازل كثيرة. وهذا نص البلاغ الفرنسوى الذى أذاعه قلم المطبوعات بدمشق عن أعمالها:

«فى يوم ٢٣ يونيو ظهرت على طريق القنيطرة عصابة قادمة من شرق الأردن، وبعد أن قضت مأربها عادت فى اليوم نفسه إلى عجلون، وهذه نتائج التحقيق والعقوبات:

«زحفت حملة بقيادة الكولونيل روكرو من دمشق يوم ٢٣ يونيو فوصلت إلى القنيطرة يوم ٢٦ منه فدمرت بأمر المندوب السامى قربي جباتة الخشب ـ المنشية ـ عوفانى ـ طرنجه ـ الأحمر ـ تل الشيخة. لأنها آوت مجرمى القنيطرة فأصبحت شريكة لهم فى الجناية وقد حجزت أموال أهاليها وحكم فوق ذلك على كل قرية بغرامة من خمسين جنيها إلى مائة جنيه ذهبا ودمرت الحملة نفسها ١٧ مزرعة فى جباتة الخشب وارطانيا وترانك وفى ٢٩ منه زحفت على مجدل شمس وجباتا الزيت، وفى ٣٠ منه عادت إلى القنيطرة حيث باعت الأموال المحجوزة».

ولا يفى هذا الوصف سوى جزء قليل من المظالم التى ارتكبت فقد أوغلت الحملة فى أعمال القسوة مع اعتراف البلاغ الفرنسوى بأن الجناة جاءوا من شرق الأردن ـ أى أنهم ليسوا من أهل البلاد الذين صب عليهم الغضب.

ويقال إن بين الذين أطلقوا الرصاص على الجنرال غورو خليل على مريود ومحمود حسن من جباتا الخشب وشريف شاهين من جباتا ومحمد ظاهر من شبعا وصادق حمزة وأدهم خنجر، وهم من الذين لجأوا إلى شرق الأردن على أثر نكبة ميسلون.

٤ ـ عصابات الفرات

وظهرت فى تلك الأيام عصابات قوية فى الفرات استولت على ديرالزور وقضت على نفوذ الفرنسويين فى ربوعه، فسيروا يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٢١ حملة قوية من حلب لقيادة الكولونيل دى بيوفر دخلت دير الزور يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٢١ بعد قتال شديد واستولت على خنادق الثوار وأكرهتهم على التقهقر عبر الفرات ـ كما اعترف بذلك بلاغ فرنساوى رسمى.

٥ ـ حوادث المستر كراين

فى يوم ٢ إبريل سنة ١٩٢٢ وصل إلى دمشق المستر كراين رئيس اللجنة الأميركية التى جاءت سورية للاستفتاء (انظر الجزء الثانى) فزار الدكتور عبد الرحمن شهبندر وقال له: «لقد قدمت إلى هنا بقصد التحقيق، وذلك أن مجرى السياسة اليوم يطلب إظهار تقريرنا المشترك الذى كتبناه مع إخواننا أعضاء اللجنة الأميركية التى استفتت بلادكم سنة ١٩١٩ فهل كانت استعلاماتنا صحيحة ياترى؟ أريد منك أن تجمعنى بأبناء هذه البلاد. ولا سيما المشايخ منهم لأرى هل حصل شئ من التبدل فى آرائكم، وهل كنا مصيبين فى أخبارنا التى جمعناها فى تقريرنا؟».

وعقد فى اليوم نفسه اجتماع كبير فى بستان الحيات حضره كثير من أولى الرأى، وجاء المستر كراين مصحوبا بالدكتور شهبندر فسأل الحاضرين عن أحوالهم وهل لا يزالون على الآراء التى بسطوها له فى سنة ١٩١٩ فقالوا نعم. ثم تكلم كل واحد منهم على انفراد واصفا الحالة الحاضرة وساردا أسباب الشكاوى، وكان المستر كراين يدون ما يسمعه.

وفى يوم ٤ منه لبى المستر كراين دعوة حى الميدان فاجتمع الناس فى حديقة حسن الحكيم فبسط الحاضرون شكاويهم وأبانوا مساوئ الدور الجديد وأفاضوا. وذهب فى اليوم نفسه إلى حى المهاجرين فزار نساء الشهداء فى منزل المرحوم شكرى العسلى وسمع منهن نفس الأمانى الوطنية التى سمعها فى المرة السابقة.

وفى يوم ٥ منه لبى الدعوة إلى حى القصاع واستمع إلى مطالب المجتمعين ـ وهم كثيرون. وجاء طلاب مدرسة الحقوق ـ وبينهم مؤلف الكتاب وعدد من زملائه يذكر منهم الشهيد فايق العسلى وشفيق سليمان بك ومنير مردم بك وصبرى العسلى وحلمى أبو خضرة وغيرهم وقالوا إنهم باسم إخوانهم يؤيدون الأمة فى مطالبها.

وفى صباح ٦ منه أزمع المستر كراين الرحيل فاجتمع كثيرون لوداعه فى بهو الفندق فودعهم فردا فردا وخاطبهم قائلا: ما أشد سرورى برؤيتكم وأسفى لاضطرارى إلى مغادرة مدينتكم، وسيكون الدكتور كنغ زميلى فى لجنة الاستفتاء مسرورا جدا من نتيجة تحقيقى.

لقد أتيت هذه البلاد فى وقت لا يسمح لى فيه سنى بالسفر. ولكننى شئت أن أرى

البلاد التى زرتها مع أصدقائى سنة ١٩١٩ ولا يمكنكم أن تقدروا السرور الذى يصيبهم من نتيجة هذه التحقيقات البديعة. تمسكوا بقضيتكم فإنها عادلة وتوسلوا إليها بالوسائل العصرية لا بالطرق القديمة».

وتجمهر الناس حول سيارته وتعالى الهتاف للحرية والاستقلال، ونادى الناس بسقوط الوصاية، وجاء عبد الوهاب عفيفى وهو شاب مصرى فوقف على مقدم السيارة وخطب خطبة حماسية فألهب العواطف وأنشد الناس نشيد:

نحن لانرضى الحماية	نحن أولى بالرعاية
لا ولا نرضى الوصاية	لبنى العرب الكرام

ومشت سيارة المستر كراين فى موكب من فندق داماسكوس بالاس حتى فندق فيكتوريا والناس حولها يهتفون للحرية وينادون بسقوط الخونة والانتداب، وهنالك وقفت السيارة والتفت الدكتور شهبندر إلى المستر كراين وخاطبه بالانجليزية قائلا:

«التفت إلى ورائك ياسيدى واحفظ هذه الصورة التاريخية فى قلبك، وستمر على أوربا وأميركا فترى فيها أفرادا بضمائر حرة لا يزالون يحبون الإنسانية ويغارون على الحرية. فأذكر لهم هذا المنظر الغريب واشرح لهم المعانى التى تقرؤها».

واضطرب ولاة الأمور لهذا الحادث، وهو الأول يقع من نوعه بعد الاحتلال الذى قضى على كل نأمة حرة، وأخمد كل شعور وطنى، وكبر عليهم أن تتحرك المدينة وأن يدوى فى أرجائها الهتاف للحرية، فقرروا التذرع بسياسة الشدة والإرهاب واعتقال زعماء المظاهرة ورجال الحركة الوطنية. ونفذوا خطتهم الجديدة فى الغداة فقبضوا يوم الجمعة ٧ منه على الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر ومنير شيخ الأرض وعبد الوهاب العفيفى فساء ذلك الناس. فاجتمعوا فى الجامع الأموى لأداء صلاة الجمعة فخطب فيهم توفيق الحلبى وخالد الخطيب ومحمد الشريقى، ثم خرجوا بمظاهرة وساروا إلى دور القناصل يطلبون الإفراج عن المعتقلين وقبض فى مساء الجمعة وصباح السبت على توفيق الحلبى وخالد الخطيب والدكتور محمود حمدى حمودة الأستاذ فى مدرسة الطب وعادل حتاحت وسعاد شلبى وخليل خطاب وتوفيق الحلبى وثروت الجعفرى وتوفيق القيسى ورشدى ملحس وتوفيق عجم أوغلى وحسن الزنبركجى وصبرى البديوى ومحمد الخطيب وكاتب هذه

السطور فاضطربت دمشق لهذا الحادث وهاجت وماجت وكثرت الاجتماعات وأقيمت المظاهرات فأعلنت يوم ٩ منه الأحكام العرفية، وجاءت السلطة بقوات عسكرية جديدة لتعزيز الحامية.

وفى صباح ١٠ منه أضربت دمشق احتجاجا وعطلت الأعمال كما أضرب طلاب المدارس وجرت مظاهرة فى سوق الحميدية قرب الظهر، وعند الساعة الرابعة خرجت مظاهرة السيدات، وكن يهتفن للاستقلال والحرية ويطالبن بإطلاق سراح المعتقلين.

وأقيمت مظاهرة كبيرة يوم ١١ منه حاول الجند تفريقها بالسلاح فقاومه الجمهور فقتل طالبان وجرح ستة من الشبان فنزلت على أثر ذلك الجنود الفرنسوية إلى المدينة وأذيع البلاغ الآتى:

وفقا للقرار الصادر بوضع دمشق تحت الأحكام العرفية يعلن الكولونيل غودنى قائد جيوش دولة دمشق الأهلين بما يأتى:

١ ـ يمنع التجمع فى الطرق العامة ويقمع ذلك بالسلاح.

٢ ـ يمنع التجول فى شوارع المدينة من الساعة السابعة مساء حتى الساعة السادسة صباحا.

٣ ـ يطلب من الأهالى أن يعودوا إلى أعمالهم كالمعتاد

٤ ـ كل من يخالف هذه التعليمات يحال إلى الديوان العرفى

وفى الساعة الواحدة من ليل الثلاثاء ١٨ إبريل نقل الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر ومنير شيخ الأرض وتوفيق الحلبى وعبد الوهاب العفيفى والدكتور خالد الخطيب من سجن القلعة بحراسة ثلة من الدرك الفرنسوى إلى محل نظارة الشرطة فى الطابق الأسفل من نيابة العابد لمحاكمتهم أمام الديوان العرفى الفرنسوى، وأطلق سراح بقية المعتقلين ما عدا رشدى ملحس وسعاد شلبى وتوفيق عجم أوغلى والشيخ أحمد السورى وكاتب هذه السطور، فقد أخذت عليهم العهود أن يغادروا دمشق بعد ٤٨ ساعة، فسافروا في الوقت المعين، وقصد كاتب هذه السطور مصر وتديَّرها ولم يسمح له بزيارة سورية إلا فى سنة ١٩٢٨ على أثر إعلان العفو العام.

وفى يوم ١٩ منه بدئ بمحاكمة المعتقلين أمام الديوان العرفى الفرنسوى ـ وكان مؤلفا من الليوتنان كولونيل لا ريث رئيسا والكومندان جانيس والكابتن غورى والليوتنان بيرساى أعضاء.

وتألفت هيئة الدفاع من الملازمين وجيمس وشفاليه والبين وقد انتدبهم ديوان الحرب للدفاع عن المتهمين عملا بأحكام القانون الفرنسوى، وتألفت هيئة دفاع وطنية من المحامين الوطنيين.

وهذا نص مضبطة الاتهام:

١ ـ اتهم المعتقلون بتدبير مؤامرة غايتها تغيير شكل الحكومة مشفوعة بالعمل ومحاولة العمل لإعداد التنفيذ.

٢ ـ بالتحريض على مؤامرة غايتها تغيير شكل الحكومة مع إيقاع اضطرابات لأن المؤامرة أعقبها العمل أو المباشرة به لإعداد التنفيذ.

وتنطبق هذه الأفعال على المواد ١٧ و ٨٧ و ٨٩ من قانون الجزاء الفرنسوى، وعلى المادتين ٢٤ و ٢٥ من قانون المطبوعات الفرنسوى المؤرخ ٢٩ يوليو سنة ١٨٨١ وعلى المادة ٨ من قانون ٩ أغسطس سنة ١٨٤٩ الفرنسونى المعدل بقانون ٢٧ إبريل سنة ١٩١٦ الفرنسوى بشأن الإدارة العرفية.

ثم ألقى الرئيس أسئلة على المعتقلين فى التهم المسندة إليهم فأجابوا بجرأة ورباطة جأش واعترض الدفاع على اختصاص المحكمة (صلاحيتها) قائلا إنه لا يحق لها رؤية قضية يتهم فيها سوريون وتقع فى أرض سورية. فردت اعتراضهم وقررت أنها مختصة، ثم جئ بشهود الاثبات وهم من الشرطة والدرك، ودعى شهود النفى وكان عددهم ١٥٠ فاكتفت المحكمة بسماع ثلاثة منهم، وقالت لو جئنا بسكان دمشق كلهم لشهدوا فى مصلحة المعتقلين وختمت المحاكمة ودعا الرئيس المحامين وأبلغهم أن الحكم صدر كما يأتى:

الدكتور شهبندر	بالسجن عشرين سنة	بأكثرية الاراء
حسن الحكيم	بالسجن عشر سنوات	بأكثرية الآراء
سعيد حيدر	بالسجن خمس عشرة سنة	باتفاق الآراء
عبد الوهاب العفيفي	بالسجن عشرين سنة	بأكثرية الآراء
منير شيخ الأرض	بالسجن عشر سنوات	بأكثرية الآراء

الدكتور خالد الخطيب	بالسجن عشر سنوات	باتفـــــاق الآراء
توفـــــيق الحلبي	بالسجن خمس سنوات	بأكـــثـــرية الآراء

وفى منتصف ليل ٢٠ إبريل أعيدوا إلى سجنهم فى قلعة دمشق، وفى منتصف ليل ٢١ منه أركبوا ثلاث سيارات سارت إلى بدتين (بيت الدين) فى لبنان ثم نقلوا بعد ذلك إلى أرواد، وظلوا فيها حتى منتصف ليلة الجمعة ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٢٣ فأطلق سراحهم.

وقد كان لهذا الحكم القاسى أثر عميق فى البلاد فتجددت المظاهرات والاحتجاجات وساد الاضطراب دمشق وأضربت أسبوعا كاملا (٢٢ - ٣٠ إبريل).

وأرسلت السلطة الشرطة فى الأسواق يدعون الناس إلى معاطاة أشغالهم وعلقت فى الشوارع البيان الآتى: «وليكن فى علم الجمهور أن كل من لا يفتح دكانه ويعود إلى معاطاة أشغاله يغرم بثلاثين ليرة سورية بدون محاكمة ولا يسمع له اعتراض» فلم يغن عنها ذلك فتيلا. فعمدت إلى الشدة فقبضت على كثيرين من التجار والضباط المتقاعدين والشبان بحجة أن لهم ضلعا فى تدبير المظاهرات والحض على الإضراب وأخرجتهم خارج دمشق. وقد روت جريدة العمران الدمشقية فى عددها الصادر يوم ١٧ يونيو سنة ١٩٢٢ أنه بلغ عدد الذين سجنوا ونفوا وحكم عليهم فى خلال تلك الحوادث من إبريل حتى يونيو ٤٤١ شخصا .

ويضيق بنا المقام لو أردنا نشر أسماء جميع الذين اعتقلوا أو حكم عليهم فى هذا الدور أو أخرجوا خارج البلاد فنكتفى بإثبات بعضهم:

عثمان الشراباتى وعارف الأدلبى ونزيه المؤيد ومصطفى عمار ومحمد سعيد عبيد وشفيق العطرى ورشيد بقدونس ومحمد الشريفى ومسلم العطار وعادل العظمة ويحيى حياتى وسليمان القصار وتوفيق مغربيه وأديب خير وعبد الهادى دياب والحاج ياسين دياب ونسيب سليق وياسين الخانجى وحسنى العمرى ومحمد العوا والشيخ حمدى السفرجلانى وصبرى فريد البديوى وثروت الجعفرى وعبد الهادى المالكى ورفعت العوا ونورى الزين وحسام الدين العمرى وزكى الطرابيشى وحسن الطرابيشى وخليل خطاب وغيرهم.

وفى ٣ أغسطس سنة ١٩٢٢ حكم ديوان الحرب فى دمشق على الشبان: منير بن خالد

مردم بك وأحمد نسيب السكرى ومحمد شفيق بن حسنى سليمان بك وعبد الغنى بن حسن عمر باشا بسجن كل منهم خمس عشرة سنة بتهمة التواطؤ مع الدول الأجنبية أو ممثلى هذه الدول ودعوتها للقيام بأعمال عدائية وإشهار الحرب على حكومة دمشق أو الدولة المنتدبة مع السعى لإعداد الوسائل اللازمة، ولتدبيرهم الدسائس لتغيير شكل حكومة دولة دمشق والدولة المنتدبة لها. والثلاثة الأول من طلاب السنة الأولى بمدرسة الحقوق والرابع من طلاب المدرسة التجهيزية. وقد اتهموا بأنهم يطبعون مناشير ويوزعونها. وحكم الديوان العرفى فى الجلسة نفسها بسجن صهيب العطار خمس سنوات وتغريمه ثلاثة آلاف فرنك لإثارته الخواطر.

وحوكم أيضا الأخوان نديم ظبيان وبديع ظبيان أمام الديوان العرفى، وكانت التهمة الموجهة إليهما: القيام بمخابرات مع الدول الأجنبية وملوك العرب ضد الانتداب الفرنسوى وتأليف جمعية سرية غايتها البطش والاغتيال. فحكم على الأول بالسجن أربع سنوات وعلى الثانى بالسجن خمس سنوات وتغريم كل منهما ثلاثة آلاف فرنك، وقد أرسلا إلى أرواد وقبض أيضا على الصحافى نجيب الريس وأرسل إلى أرواد.

وسرت حركة الاستياء إلى المدن السورية الأخرى فأقيمت مظاهرات احتجاجية عنيفة فى حمص وحماه وطرابلس وحلب وكانت مظاهرة حمص شديدة انتهت بقتل أربعة وجرح ٣٠ وأقفلت على أثرها مدرسة التجهيز بحمص، وحكم على عدد كبير من الطلاب بالطرد والسجن.

ولما وصلت هذه الأنباء إلى مكة تجمهر فريق من أبنائها أمام القصر الملكى للإعراب عن شعورهم القومى نحو إخوانهم السوريين فألقى عليهم الحسين خطبة قال فيها: «وإذا لم تجد الوسائل السلمية نفعا فهناك نكون نحن وأنتم فى حل من أية مسؤولية تنجم عما يقضى به الشرف» وقد تبرع جلالته بألفى جنيه لإعانة المنكوبين والمعتقلين والمنفيين بهذه الكارثة.

صدى هذه الحوادث فى مصر وأوربا

وقد كان لهذه الحوادث أبلغ الأثر فى نفوس السوريين فى مصر فاحتجت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى إلى جمعية الأمم وإلى رؤساء الحكومات الكبرى فى



فريق من أحرار السوريين

اعتقلوا في جزيرة أرواد سنة ١٩٢٢ - ١٩٢٣

باريس ولندن وواشنطن وروما وإلى رؤساء وفود الدول فى مؤتمر جنوى وإلى كبريات الصحف الأوربية والأميركية على ما وقع ببرقية هذا نصها:

أصبحت الحالة فى سورية لا تطاق: ضرائب فادحة وإدارة استبدادية ومراقبة شديدة ومحاباة فى المعاملات الرسمية وتبذير فى أموال الأمة. انتهز الأهالى فرصة زيارة المستر كراين الرئيس السابق للجنة الاستفتاء الأميركية فأظهروا استياءهم من السلطة المحتلة وسوء إدارتها ورغبتهم فى الاستقلال التام بصفة مظاهرة عند توديع المستر كراين فألقت السلطة الفرنسوية القبض على زعماء الحركة واعتقلتهم فى مكان مجهول فهاج الشعب وقام بمظاهرات عامة مناديا بالاستقلال وإسقاط الانتداب فكافحهم الجند بأفتك آلات الحرب من الدبابات والرشاشات وقنابل اليد فقتل أناس وجرح آخرون فأقفلت المدينة، ووقفت حركة التجارة وسائر المعاملات فيها، والهياج مستمر من أسبوع، وقد أعلنت الأحكام العرفية.

«فاللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى - الفلسطينى الممثلة لجميع الأحزاب الاستقلالية السورية تحتج على هذا الاعتداء على حقوق الشعب وكل حرية بشرية، وتشهد العالم المدنى على الآلام التى تقاسيها سورية وتكرر إعلانها لرفض الانتداب المخالف لرغائب الشعب وتناشد ضميركم تأييد قضيتها العادلة حقنا للدماء وتأمينا للسلام»

وعقد لفيف من السوريين بالقاهرة اجتماعا يوم ١٠ إبريل وقرروا إرسال البرقية الآتية إلى جميع الأمم وإلى رؤساء الدول الكبرى وهى:

«زار دمشق المستر كراين رئيس اللجنة الأميركية التى انتدبها مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ للوقوف على رغائب أهالى سورية، وبمناسبة الاحتفال به أظهر الأهالى استياءهم من الحالة السياسية والمالية الحاضرة طالبين استقلال البلاد ووحدتها رافضين الانتداب فقبضت السلطة الفرنسوية على الزعماء الذين تكلموا باسمهم، وعلى أثر ذلك أقفلت دمشق وقام الأهالى بمظاهرة عطف وتضامن مع الزعماء الوطنيين ففرقتهم السلطة الفرنسوية بقوة السلاح. فالسوريون المجتمعون اليوم اجتماعا عاما فى مصر يحتجون على هذا الاعتداء على الحرية الشخصية والضغط على حرية الرأى العام، ويطلبون نشر تقرير لجنة الاستفتاء الأميركية وإرسال لجنة دولية للتحقيق».

وقد اهتمت الصحف الأوربية والأميركية لهذه الحوادث، ونشرت عنها الفصول الطوال

وكان مكاتبوها يترددون بدون انقطاع على مكتب اللجنة التنفيذية فى القاهرة فيمدهم بالمعلومات المفصلة عن حالة سورية فيرسلونها إلى صحفهم.

٦ ـ حادث أدهم خنجر

فى ١٧ يوليو سنة ١٩٢٢ قصد الشهيد أدهم خنجر[١] من قادة العصابات فى جبل عامل، وقد ورد ذكره مرارا فى المجلد الأول، قرية (القرية) لزيارة سلطان باشا الأطرش وما كاد يطأ دأره، وكان سلطان باشا غائبا ـ حتى أسرع رجال الحكومة إلى اعتقاله ـ وكان متهما بإطلاق الرصاص على الجنرال غورو أيضا ـ وأرسلوه إلى السويدا (قاعدة حكومة جبل الدروز).

وعاد سلطان باشا إلى بيته وعلم بما وقع فثارت فى نفسه النخوة العربية وعز عليه أن يؤخذ ضيفه فأرسل أحد أشقائه إلى السويدا، وبعث معه برقية إلى الأمير سليم الأطرش حاكم الجبل يومئذ ـ وكان فى دمشق ـ طلب فيها من الحكومة أن تحافظ على التقاليد وختمها بقوله «صعب علىّ إهانة قاصدى، الحل الوحيد إطلاق سراح الرجل ولا أتأخر عن كل ما يرضى الفرنسويين».

ولما لم تجد الوساطة أرسل إلى الجنرال غورو المندوب السامى البرقية الآتية:

«مع الأسف لم يراع البند القائل[٢] «إن فرنسا تحافظ على تقاليدنا وعوائدنا» ومعلوم أن الضيف والقاصد هما واحد فى نظر عشائرنا. فرجال حكومتنا الوطنية لم يراعوا هذا البند وسعادة المستشار ترانكا يؤيد إصراره. أطلب من حلمكم وعدلكم أن لا تجعلنى مضغة فى أفواه العرب وأن أتخصص بالأهانة عن أمثالى فى سورية. وبعد هذه ترونى أعترف بحلمكم واؤدى واجب الشكر لفخامتكم، غير مجهول أن موتى وإهانة ضيفى سيان فى عوائد السوريين. الرجل يطلب منى أن أتوسط له عفوا من فخامتكم، حلمكم انقاذا لشرفى ووطنى».

وجاء من أبلغه أنه تقرر نقل أدهم خنجر من سجنه فى السويدا إلى دمشق. فذهب مع

١ ـ هو من عائلة آل الأسعد الشهيرة فى جبل عامل، وقد لجأ الكثيرون من المسيحيين فى أثناء حوادث سنة ١٨٦٠ إلى منزل جده فحماهم وأكرمهم.

٢ ـ إشارة إلى اتفاق جبل الدروز المعقود بين الدروز وفرنسا سنة ١٩٢١ وقد نشرناه على الصفحة ٢٢٧ فى هذا الجزء.

شقيقيه مصطفى وزيد وصديقه حمد البربور وبعض أتباعه ورابط فى تل الحديد، وهو واقع على الطريق بين السويدا وأذرع ولابد للمسافرين من المرور به، لانقاذ ضيفهم فنقله الفرنسويون بالطيارة إلى بيروت وأعدموه حالا، وأرسلوا ثلاثة دبابات من دمشق إلى السويدا فهاجمها سلطان باشا برجاله وعطلها وقتل قائدها وأربعة من جنودها وأسر خمسة. فريع الفرنسويون لما وقع فأرسلوا طياراتهم إلى «القرية» قرية سلطان باشا فضربتها بالقنابل وسارت قوة أخرى حرقت داره فرحل إلى شرق الأردن ووضع أسرته فى مكان أمين وعاد مع رجاله إلى الجبل لمقاتلة الفرنسويين.

ووقعت مناوشات بينه وبينهم وأوفدوا إليه مندوبا يعجم عوده، ويعرض عليه الاتفاق والرجوع إلى قريته فقال: أنه يطلب شروطا فاقترحوا عليه أن يأتى إلى داخل حدود الجبل للمناقشة، فأتى وهو حذر من المباغتة. وجاء من أخبره أنهم يكيدون له ويسعون لاعتقاله فثار ثائره وحمل على القوى المرسلة لاعتقاله فطاردها وعاد إلى مقره فى شرق الأردن.

وكاتب المندوب السامى الفرنسوى فى بيروت زميله البريطانى فى فلسطين طالبا القبض على سلطان باشا وتسليمه، أو إخراجه من أراضى شرق الأردن عملا بالاتفاقات المعقودة فسيرت حكومة عمان قوة لمطاردته وعادت من دون أن تشتبك به.

وكتب إليه بعض أقاربه به يقول إن الفرنسويين مستعدون للتساهل معه إذا عاد وألحوا عليه بالرجوع إلى قريته ووعدوه بالانضمام إليه إذا حاولوا الفتك به فاشترط إرجاع ماشيته وأمواله وتعويضه عما ألحقته به الطيارات من خسارة وإصدار عفو عام عن جماعته وأن لا يكلف الذهاب إلى السويدا ولا إلى أى مكان توجد فيه قوة فرنسوية فقبلوا شروطه فعاد إلى قريته مرفوع الرأس موفور الكرامة.

٧ ـ عصابات الشوف

فى صيف سنة ١٩٢٣ ظهرت عصابات قوية فى الشوف أقلقت الفرنسويين وأرجعتهم فسيروا القوى لقتالها. ولم تستقر الحالة فى الشوف إلا بعد ما جهز الفرنسويون قوات كبيرة طاردت العصابات وشتت شملها.

٨ ـ حوادث بعلبك

حدثت حوادث بعلبك فى شهر يوليو سنة ١٩٢٤ وقد نشأت عن اغتيال إحدى العصابات لضابط فرنسوى فأرسلت السلطة الفرنسوية على الأثر قوات كبيرة هاجمت قريتى حورتعلاو بريتال كما طارت الطائرات الفرنسوية فوقهما فأمطرتهما وابلا من قنابلها وطوقهما الجند وقبض على النساء والأطفال والذرارى ومن صادفه من الرجال ـ كما صادر الماشية وهى نحو ٥٥٠٠ رأس وأرسلها إلى بيروت، ولجأ إلى الرجال والشبان إلى الجبال استعدادا للنضال والمقاومة.

وقد احتجت دمشق إلى جمعية الأمم على هذه الأعمال، ودارت معارك شديدة بين ملحم قاسم ورجاله انتهت بإعلان العفو عهم فاستسلموا.

٩ ـ العصابات التركية

وكانت هنالك عصابات تركية قوية تعمل على الحدود السورية وتقلق الفرنسويين وتزعجهم وقد اضطرتهم إلى حشد كثير من القوى فى تلك الجهات.

٣٥ ثورة فى سنة واحدة

ولعل أبلغ مانختم به هذا الفصل هو ماكتبه الجنرال سرايل (ثالث مندوب سام لسورية وقد جاء بعد الجنرال فيجان سنة ١٩٢٤) ردا على مقالة للكاتب الفرنسوى الشهير هنرى بوردو جاء فيها: لقد كانت سورية هادئة ساكنة في عهدي غورو وفيجان فقال ما نصه: «إن هذا الكاتب يجهل كل شيء أو يكذب. فقد قامت في سورية وحدها سنة ١٩٢٢ خمس وثلاثون ثورة ودفن فيها من الجيش خمسة آلاف جندي».

وأبلغ من قول الجنرال سرايل ما قاله سلفه الجنرال فيجان فقد خطب خطبة طويلة في حفلة ازاحة الستار عن النصب التذكاري الذي أقيم في بيرت لقتلي جيش الشرق الفرنسوي وفرقة البحرية الفرنسوية فى شهر يوليو سنة ١٩٢٤ فقال مانصه: واضطرت فرنسا بعد الهدنة وبعد ماصمتت المدافع فى أوربا. حيث كانت الأمهات الفرنسويات يعتقدن أنهن سيرين أبناءهن بقربهن ـ إلى إرسال أبنائهن إلى ساحات القتال فى مرعش وأورفا وميسلون فأنتم الذين رأيتم مجهودات جنودنا وقد بلغ عدد القتلى تسعة آلاف جندى و ٢٥٠ ضابطا يمكنكم أن تذكروا ذلك لأولادكم.

هيئة المؤتمر السوري - الفلسطيني في جنيف
أغسطس - سبتمر سنة ١٩٢١

في الصدر الامير ميشيل لطف الله رئيس المؤتمر. وإلى يمينه السيد رشيد رضا وكيل الرئيس. فالأمير شكيب ارسلان السكرتير العام. فتوفيق اليازجي مساعد السكرتير. فطعان العماد. فأمين التميمي. فنجيب شقير. فتوفيق فايد فسليمان كنعان. وإلى يساره الحاج توفيق حماد وكيل الرئاسة. فجورج سالم. فإحسان الجابري. فشبلي الجمل. فصلاح عز الدين فرياض الصلح.

ـ ٣ ـ
العمل السياسى فى مصر وأوربا

انتقل مقر الحركة الوطنية من دمشق إلى القاهرة بعد ميسلون فاستقر معظم الأحرار فى الثانية، فوحدوا قواهم ونظموا صفوفهم للنضال والكفاح فى هذا الدور بعد ما تسلط الأجنبى على بلادهم واستولى على أوطانهم ومحا كل أثر للسيادة القومية وللاستقلال.

١ ـ الاحتجاج على التجزئة

ولما وصلت الأخبار إلى مصر بأن الفرنسويين نفذوا مشروعهم الخاص بتقسيم سورية إلى دول وحكومات، وطبقوا مشروعهم الاستعمارى أرسل الأحرار ثلاث برقيات احتجاجية يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٠ إلى جمعية الأمم لتتلى فى أول اجتماع عام تعقده: الأولى باسم الاتحاد السورى، وقد وقعها الأمير ميشيل لطف الله، والثانية باسم المؤتمر السورى وقد وقعها رئيسه السيد رشيد رضا، والثالثة باسم المحكوم عليهم من الأحرار. وقد أرسلت صور هذه البرقيات إلى الملك حسين وإلى معتمدى الدول بمصر وإلى الصحف العربية والإفرنجية:

ـ ١ ـ

إن لجنة حزب الاتحاد السورى المركزية تحيى باسم السوريين المضطهدين أول اجتماع تعقده جمعية الأمم، التي تطلع فجر عصر جديد، فتضع فيها الأمم المظلومة آمالها لتحقيق العدل فى العالم بوضع آخر حد لعصر سيادة القوة على الحق. وتلفت أنظار جمعيتكم المحترمة إلى أعمال الدول الاستعمارية التى داست بالأقدام وعود الدول العظمى الصريحة المعطاة لشعوب تركيا المظلومة. ناطقة بإعطائها حق تقرير مصيرها. فالدول عاملت سورية كغنيمة حربية، وتقاسمتها بينها، وجزأتها أجزاء متعددة جعلت التربية السياسية متباينة والوحدة الوطنية ممزقة، وأمانى الشعب بعيدة التحقيق.

فالسوريون يفضلون حتى حكم الأتراك المكروه والمجحف بهم مع ضمان وحدة بلادهم على نظام التقسيم الحالى.

- ٢ -

بمناسبة اجتماع هيئتكم اجتماعا عاما نحن أعضاء المؤتمر السورى نواب الأمة السورية بالانتخاب القانونى، الذين اضطرتنا القوة الفرنسوية إلى الالتجاء إلى مصر نتشرف بأن نلفت نظركم إلى استقلال سورية الذى أعلنته عهدة جمعية الأمم فى المادة ٢٢ منها، وأيدته بمعاهدة سيفر، ونحتج على قلب حكومة دمشق الوطنية وعلى السلطة العسكرية التى تمزق وحدة بلادنا منشئة فيها عدة حكومات متباينة. جاعلة استقلال سورية بعيد التحقيق، رامية إلى تحقيق المبادئ الاستعمارية بالقوة القاهرة، ولدينا البراهين العديدة على ما نقوله.

فنحن نلتمس من هيئتكم أن تمنع تحقيق السياسة الاستعمارية وتجزئة سورية المتحدة غير المتجزئة بحجة واهية، وهى إجابة رغائب عدد قليل من الشعب. ونطلب تحقيق استقلالنا ووحدتنا التى أعلنها المؤتمر السورى فى جلسة ٨ مارس سنة ١٩٢٠.

- ٣ -

نتشرف نحن الموقعين أدناه بأن نلفت أنظار مجلس جمعية الأمم إلى أمر لم يعرف العهد الحديث له مثيلا. فقد تألفت محكمة عسكرية فرنسوية فى دمشق عقب احتلالها وحكمت على ٣٦ شخصا من الوجهاء والأدباء بالإعدام، وحجز أملاكهم وأموالهم لقيامهم بأعمال وطنية بحتة قبل نشوب القتال السورى ـ الفرنسوى، واستندت فى الحكم على قانون فرنسوى وضع لمعاقبة فرنسويين.

فنحن نحتج على هذا الحكم الذى لا يجيزه نظام، والصادر من محكمة لا سلطة لها فيه، ونسأل جمعية الأمم أن لا تترك مصير سورية المستقلة فى أيد قوية لا تحترم الحق.

٢ ـ الاحتجاج على فصل فلسطين عن سورية

وفى يوم ٢٣ ديسمبر سن ١٩٢٠ تم الاتفاق بين انجلترا وفرنسا على تحديد الحدود الفاصلة بين سورية وفلسطين ووقعت بينهما معاهدة بذلك. فعقدت لجنة الاتحاد السورى

جلسة فى ٢٧ منه ووضعت برقية احتجت فيها على ما وقع، وأرسلتها إلى جميع الصحف ونصها:

«إن اللجنة المركزية لحزب الاتحاد السورى المجتمعة اليوم بجلسة فوق العادة للنظر فى الاتفاق الجديد بين انجلترا وفرنسا الموقع عليه من المسيو ليج واللورد هاردنج بشأن الحد الفاصل بين سورية وفلسطين قد قررت بالإجماع الاحتجاج بكل قواها على ذلك مستندة على الحقوق الشرعية لأمتنا الحية برفض كل حد يفصل فلسطين عن سائر سورية، وعلى كل تجزئة فى البلاد. وتغتنم هذه الفرصة للمطالبة بالاستقلال التام وللاحتجاج على أى احتلال».

٣ ـ المطالبة بمندوب عربى فى مؤتمر لندن

ولما عقد الحلفاء مؤتمرا فى لندن لإعادة النظر فى معاهدة سيفر (شهر مارس ـ فبراير سنة ١٩٢١) عقد مندوبو الأحزاب الاستقلالية اجتماعا قرروا فيه أن يطلبوا من الحلفاء قبول مندوب عربى فى المؤتمر يبسط القضية لأعضائه، لكى تحل على أساس الحق والعدل وهذا نص البرقية التى أرسلت:

إن مندوبى جميع الأحزاب العربية من سورية وغيرها المجتمعين اليوم فى جلسة خاصة بمركز حزب الاتحاد السورى بمصر بمناسبة قرب اجتماع مؤتمر لندن الخاص بإعادة النظر فى معاهدة سيفر، وحل مسائل الشرق الأدنى قد قرروا بالاجماع:

١ ـ تكرار الاحتجاج على تجزئة بلادهم إلى مناطق مزقت وحدتها القومية، وأقامت حكومات استعمارية فيها تحت ستار الانتداب خلافا للعهود الصريحة والتصريحات العديدة للأمم المظلومة المنفصلة عن تركيا بتحريرها واستقلالها، وجعل حق تقرير مصيرها بيدها.

٢ ـ طلب تمثيل أمتهم فى المؤتمر الذى سيقرر مصيرنا ليضع لها الحل الأخير المنطبق على قواعد الحق والعدل ومصالح السلم فى الشرق الأوسط.

٤ ـ مؤتمر جنيف

ولا ريب أن المؤتمر السورى الفلسطينى الذى عقد فى جنيف كان من أجل الأعمال التى

عملت فى ذاك العهد لخدمة القضية الوطنية وتعزيزها .

ظهرت الفكرة لعقد المؤتمر فى الاجتماع الذى عقدته لجنة حزب الاتحاد السورى يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٢١ ومدارها عقد مؤتمر من جميع الأحزاب الاستقلالية لتوحيد المساعى فى جميع الانحاء التى يسكنها السوريون، وإيجاد كتلة يصح أن تمثل رأى السوريين فى مايريدون لبلادهم.

ولما اختمرت فى الرؤوس قررت اللجنة تنفيذها ، ونشرت يوم ٩ إبريل سنة ١٩٢١ المنشور الآتى:

«إلى جميع الأحزاب والجمعيات المطالبة باستقلال سورية ووحدتها تحية وسلاما: وبعد. فإن لجنة حزب الاتحاد السورى المركزية بمصر واثقة أنكم كنتم وما زلتم مواظبين على مبادئكم القويمة الوطنية ومساعيكم الشريفة إلى أن تكلل بالنجاح ويتحرر الوطن المحبوب، ويصبح كما يريد أبناؤه الأحرار العاملون وطنا حرا مستقلا زاهرا برجاله. ناهضا . يهممهم سائرا كل يوم إلى الإمام بفضل ما يبذله هؤلاء الأحرار العاملون فى سبيله من التضحيات العديدة والمساعى الجليلة.

«وبعد. فقد رأت لجنة حزب الاتحاد السورى التى كانت ولا تزال تجاهد بجميع الطرق المشروعة للحصول على الاستقلال التام للبلاد ـ الذى هو أمنية كل سورى أبى النفس أن تتآزر جميع الأحزاب والجمعيات السورية التى تعمل لغاية الاستقلال التام ووحدة البلاد. سواء فى سورية نفسها أو فى المهاجر البعيدة المتفرقة وتتفاهم فيما بينها على أسس المبادئ والمساعى معا ، وترفع صوتها فى وقت واحد للعالم المتمدن بأسره بجميع الطرق المشروعة طالبة الحصول على حقها الوطنى الطبيعى بكثير من العهود والوعود من أقطاب السياسة فى العالم المتمدن.

«ولما كان مجلس جمعية الأمم سيجتمع قريبا وينظر فى شروط الوصاية المفروضة على سورية وغيرها من البلاد المنفصلة عن تركيا ، فقد قررت لجنة حزب الاتحاد السورى أن تدعو الجمعيات والأحزاب السورية إلى عقد مؤتمر سورى عام فى جنيف ـ مركز جمعية الأمم فى ١٠ يونيو المقبل لتبرهن بكل مالديها من الوثائق والحجج والأدلة على ما لسورية من الحق فى الحرية والاستقلال، وتتوسل بالوسائل المشروعة لدى مجلس جمعية الأمم لسماع رأى البلاد قبل إبرام الحكم عليها . فلجنة حزب الاتحاد السورى تدعو سائر

الجمعيات السورية للاشتراك فى هذا المؤتمر. وترجو منكم إشعارها بأسماء مندوبيكم وبميعاد سفرهم وبما ترغبون الاشتراك فيه من نفقات المؤتمر العامة».

وانتدبت اللجنة الأستاذ توفيق اليازجى فسافر إلى جنيف لتهيئة أعمال المؤتمر وجمع المعلومات اللازمة واستقبال الوفود القادمة، ونشر الدعوة لمبادئ الحزب وإنشاء مكتب. وفى خلال ذلك رأت اللجنة أن تؤجل عقد المؤتمر حتى انعقاد الهيئة العامة لجمعية الأمم لما فى ذلك من الوسيلة لبسط القضية لمندوبى الدول. فأذاعت منشور ثانيا أعلنت فيه تأجيل المؤتمر إلى أول سبتمبر سنة ١٩٢١ وفى يوم ١١ أغسطس غادر وفد الاتحاد القاهرة إلى جنيف وجاءت الوفود الأخرى.

وفى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ٢٥ أغسطس عقد المؤتمر جلسة تمهيدية فى دار بلدية بلا نفاله فى جنيف، وبعد أن ذكر كاتب اللجنة التحضيرية برنامج الأعمال تلا برقيات ورسائل متعددة واردة من مندوبين مازالوا فى طريقهم إلى جنيف، ولا يستطعيون الوصول قبل ٢٦ منه. فقرر تأجيل الجلسة إلى ٢٧ منه، وفيه افتتحها الأمير ميشيل لطف الله بالنيابة عن حزب الاتحاد السورى صاحب الدعوة قائلا:

باسم الاتحاد السورى أشكر لكم أيها السادة إجابة دعوتنا إلى عقد هذا المؤتمر قادمين من وراء البحار تاركين عائلاتكم وأعمالكم إيثارًا لخدمة وطنكم على مصالحكم الخاصة، وأشكر أحزابكم الوطنية الصادقة التى ندبتكم للنيابة عنها فى هذا المؤتمر.

علمتم أن الغرض من هذا المؤتمر هو توحيد الأحزاب الاستقلالية وتنظيمها للتعاون على السعى فى الطرق السياسية لاستقلال أمتنا ووحدة وطننا الذى مزقت شمله وفرقت أهله المطامع الاستعمارية لغير ذنب جناه إلا تصديق وعود الحلفاء له خاصة، وللشعوب عامة بالحرية والاستقلال إذا هم ظفروا فى الحرب الكبرى الفاصلة بين سلطان الحق والعدل وسلطان القوة والقهر. واخترنا لعقد مؤتمرنا هذه المدنية الحرة - مركز جمعية الأمم - لنتمكن من إطلاعها على حقيقة قضيتنا وإسماع صوت أمتنا الخافت فى وطننا بالضغط الاستعمارى إلى جميع الشعوب الحرة، وفى مقدمتها أحرار بريطانيا العظمى وفرنسا - لعلها إذا علمت بحقيقتها تساعدنا على الوصول إلى حقنا الطبيعى فى الحرية والاستقلال لدى حكوماتها، وبواسطة جمعية الأمم التى هى الملجأ الوحيد الأمين للشعوب المهضومة حقوقها. المغلوبة على أمرها، وان هون كثير من رجال السياسة أمرها، وأضعف ما نيط

بها من الآمال بتعظيم شأن نفوذ رجال الاستعمار. فأدعو الله العزيز الحكيم أن يأخذ بيدنا ويكلل بالنجاح أعمالنا لخير الوطن العزيز. وأنا أعلن افتتاح المؤتمر السورى الفلسطينى فى جنيف باسم الله وباسم الوطن ولتحيا سورية حرة مستقلة.

وهذه أسماء الذين اشتركوا فى المؤتمر:

الأمير ميشيل لطف الله رئيس اللجنة المركزية لحزب الاتحاد السورى ومندوبها والسيد رشيد رضا رئيس المؤتمر السورى العام فى دمشق ونائب رئيس الاتحاد السورى ومندوبه والحاج توفيق حماد رئيس الجمعية الإسلامية المسيحية فى نابلس ومندوب المؤتمر الفلسطينى والأمير شكيب أرسلان مندوب حزب الاستقلال العربى وسليمان كنعان عضو مجلس لبنان الإدارى وإحسان الجابرى مندوب حزب الاستقلال العربى وأمين التميمى عضو الوفد الفلسطينى وسكرتيره وأحد أعضائه ورياض الصلح مندوب حزب الاستقلال العربى ونجيب شقير مندوب حزب الاستقلال العربى وصلاح عز الدين مندوب الجمعية السورية الوطنية فى بوسطن وطعان العماد مندوب الحزب الوطنى العربى فى الأرجنتين وجورج يوسف سالم مندوب حزب تحرير سورية فى نيويورك وتوفيق اليازجى مندوب حزب استقلال سورية ووحدتها فى سنتياغو (شيلى).

وقد انتخب المؤتمر الأمير ميشيل لطف الله رئيسا له والسيد رشيد رضا والحاج توفيق حماد وكيلى رئيس والأمير شكيب أرسلان سكرتيرا عاما.

وعقد المؤتمر ١٧ جلسة، وفى يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢١ ختم أعماله وانتخب لجنة تنفيذية عهد إليها بملاحقة قراراته. وقد تألفت كما يأتى: الأمير ميشيل لطف الله رئيسا والسيد رشيد رضا وكيل رئيس ونجيب شقير سكرتيرا عاما وتوفيق اليازجى وأسعد داغر أعضاء.

ووضع المؤتمر نداء مطولا قدمه باللغة الفرنسوية إلى المجمع الثانى لجمعية الأمم، ووزعه على أعضائها فى جنيف، وقال فى مقدمته:

إلى سعادة هـ . أ. فان كارنبك رئيس المجمع الثانى العام لجمعية الأمم

وإلى حضرات مندوبى الدول فى هذا المجمع

يا حضرة الرئيس، ويا حضرات الأعضاء:

أننا نحن الموقعين أدناه ممثلى الأحزاب والفرق السياسية فى سورية ولبنان ومعتمدى أهالى فلسطين من المسلمين والمسيحيين الناطقين بلسان أهالى هذه البلاد. نتشرف بأن نلجأ إلى سلطة جمعيتكم العليا باسم المؤتمر السورى الفلسطينى المنعقد الآن فى جنيف فى بسط الحالة السيئة التى آلت إليها أمتنا، واستمداد معونتكم لها بجعل حقوقها محترمة ومعترفا بها.

نقرع باب جمعيتكم واثقين بالمبادئ التى كانت أساسا لبناء جمعية الأمم، والتى أنعشت فى جميع الأقطار آمالا مشروعة، ألا وهى احترام القوميات وحق الأمم فى تقرير مصيرها، وإقامة العدل ومراعاة الشرف فى العلاقات الدولية، ونبذ سياسة الفتح، والدقة فى رعاية العهود فى الصلات المتبادلة بين الشعوب المنظمة.

نلجأ إلى جميعتكم عالمين أنها بموجب الخصائص التى خولها إياها عهد جمعية الأمم الموقع عليه فى فرسايل فى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٩ مرجع لقضيتنا هذه، ولها فيها حق النظر والحكم وفقا لروح هذا العهد.

أن سورية وفلسطين ولبنان تسألكم بادئ بدء الالتفات إليها والاعتراف بحقها فى طلب الاستقلال التام المطلق بمقتضى القواعد العامة لحقوق الشعوب، والعهود الخاصة المقطوعة لها فى السنوات الأخيرة.

أن الحرب الطويلة التى وضعت أوزارها وأنجبت جمعية الأمم كانت صراعا بين فكرتين - فكرة القوة والغصب، وفكرة الحق والحرية - فالأمم التى كانت تقاتل تحت لواء الحق وضعت مبدأ استقلال الشعوب فى طليعة مقاصدها من الحرب. وكان كبراء رجال الأمم المتحالفة يعلنون واحدا بعد الآخر على منابر مجالسهم النيابية أن الحرب لن تؤدى إلى فتوحات جديدة أو إلى ضم أقطار جديدة، وإنما يجب أن تسفر عن ظفر الحضارة واستقلال الشعوب.

ولقد سمع الشعب السورى هذه التصريحات فتقبلها بثقة تامة، وخاصة ما يضمن منها للشعوب الخاضعة للسلطة التركية السلامة التامة لحياتها وحرية الارتقاء بدون عائق (مواد الرئيس ولسون الأربع عشرة).

فالشعب السورى المؤيد بهذه التصريحات يمت إلى الأمم بتاريخ ومقوّمات تؤهله أن

يطالب بالاستفادة من تلك التصريحات وبالاعتراف بسيادته وفقا للمبادئ التى كان لها الفوز.

وإذا كان تعريف الأمة ـ هو كما قرر كثير من كبار المشرعين ـ مجموع أفراد من عنصر واحد ولغة واحدة وحضارة واحدة أولى إرث تاريخى شامل عام وشعور بإرادة تأليف جماعة سياسية واحدة، فأن سورية إذا أمة، وإذا كان تحديد القومية هو الشعور بأخوة متينة واشجة العروق، وحب متوارد لمسقط الرأس، فالأمة السورية هى ذات شعور قومى.

أن وحدتى السلالة واللغة مؤكدتان بكون السحنة واحدة فى جميع البلاد، وبكون اللسان العربى لسان الجميع. والغرباء الذين فى البلاد لا يتجاوزون واحدا فى المائة، كما أن الحضارة العربية هى السائدة فى البلاد وهى أحد فروع شجرة المدنية الذى كان مع الفرعين اليونانى والرومانى أصل الهيئة الاجتماعية الحاضرة وسبب ازدهارها، ثم إنها لم تقف فى سيرها. فالتعليم العربى منتشر فى جميع البلاد بعشرات من المدارس العليا، ومئات من المدارس الثانوية وألوف من المدارس الابتدائية، وهناك مدرستان جامعتان و ٦٢٠ مدرسة مختلفة الدرجة من مؤسسات الأجانب تضم مجهوداتها إلى عمل المدارس الوطنية. وكان نحو من مائة جريدة تصدر فى أنحاء سورية إلى حين انفجار الحرب العامة، ويقدر عدد القارئين والكاتبين فى أكثر المقاطعات بستين فى المائة. وأما الطبقة المستنيرة من أدباء وشعراء ومؤلفين وحقوقيين وأطباء ومهندسين فعدد رجالها عظيم، وكثيرون منهم نالوا شهاداتهم من أوربا، ولهم فى البلاد مركز رفيع. كما أن فى البلاد جما غفيرا من الضباط المتخرجين من مدارس الحربية فى الآستانة وفى أوربا قد أثبتوا كفاءتهم فى تنظيم مصالح الأمن العام. ولما جلا الترك فجأة عن البلاد قام أهالى سورية بمهمة تنظيم بلادهم المحررة، وتشكلت فى الحال لجان إدارية فى كل ناحية فوطدت أركان النظام والأمن العام إلى أن احتلت جنود الحلفاء البلاد. ولما ألقيت بعد ذلك مقاليد الإدارة فى المنطقة الداخلية إلى حكومة وطنية كان الأمن والنظام فيها أثبت وأتم منه فى المناطق المحتلة ـ كما شهد بذلك الأجانب الذين زاروا البلاد فى تلك الأثناء.

إن تراث مجد السوريين المشترك لغنى عن الإشارة إليه. أية مدينة كانت أبهى وأبهر من حضارة عصر عبد الملك بن مروان وهارون الرشيد وصلاح الدين الأيوبى وخلفائهم.

ومن ذا الذى لا يتذكر تألق أنوارها على سواحل بحر الروم ولا يشهد تأثيرها العالق بناصية الحمراء وبقباب كنائس بلرم (صقلية) إلى اليوم. ولا يمكن إنكار ما فى شعبنا من الكفاءة السياسية والأدراك السياسى. حتى أن حياتنا الإقليمية وتقاليدنا المحلية ظلت باقية لنا فى عهد الحكم التركى نفسه.

وفى سنة ١٩٠٨ أعلن الانتخاب العام (فى السلطنة العثمانية) فتمتع السوريون بجميع حقوقه. فكان عدد نواب العرب فى الندوة العثمانية يتجاوز ثلث أعضائها، وكان لهم دور مهم فى جلساتها وفى لجانها. وكانت سورية قبل الحرب تقوم بنفقات إدارتها. بل كانت الضرائب التى تدفعها تزيد عنها فتفيض على ميزانية السلطنة العامة.

إن شعور سورية القومى لم يزل ينمو منذ أوائل هذا العصر، وكانت الدعوة إليه تبث بنشاط من قبل الصحف والجمعيات الوطنية، وقد جاد فريق كبير من كبراء البلاد بأرواحهم على مشانق الترك تكفيرا عن جرم التفكير فى استقلال وطنهم.

وإن القومية السورية متجلية فيما وراء الحدود والبحار أيضا. فهناك جاليات سورية عديدة منتشرة فى جميع القارات. ولا سيما فى العالم الجديد، ولها صحفها وجمعياتها وأنديتها.

وعند نشوب الحرب أعلن جلالة الملك حسين الأول استقلال العرب بالاتفاق مع معظم الجمعيات السياسية فى سورية، ومنذ سنة ١٩١٦ قامت القوات العربية بمساعدة الإنجليز على هدم السلطنة التركية.

وكان المقاتلة من العرب واثقين بأنهم يسعون لاستقلالهم. لأن الحلفاء كانوا يعلنون أنهم يكافحون دفاعا عن حقوق الشعوب، ولم تكن آمال هؤلاء المقاتلة مبنية على تصريحات رجال السياسة فقط بل على الوعود الصريحة التى قطعها للملك حسين السير هنرى مكماهون العميد البريطانى فى مصر باسم انجلترا - إحدى دول الحلفاء سنة ١٩١٥ وقد ضمنت هذه الوعود الاعتراف باستقلال بلادنا. فكل تلك الوعود والدماء التى أريقت فى سبيل الغاية المشتركة كانت تعزز الآمال بإنشاء دولة سورية قائمة على النظام والحرية والسلام.

ولكن لم يتم لسوء الحظ شئ مما كنا نؤمله حتى أن لبنان الذى كان يتمتع باستقلال

ذاتى تام تضمنه الدول العظام قد سلب منه استقلاله - فطفق الشعب السورى ينظر إلى ماضيه والخيبة ملء فؤاده» ثم أشار النداء إلى عهود أوروبا للعرب وبسطها وقال:

نوجه إليكم هذه العريضة بأصدق عزيمة وأرسخ إيمان بأنكم سترون من الوقائع التى نبسطها لكم ما يجعلكم تعرفون إلى أى حد قضى الانتداب الذى ينفذون حكمه فينا على استقلالنا، وكيف أصبح يهوى بنا إلى دركة مستعمرة من مستعمرات المنتدبين علينا.

جاء فى الفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين التى تعين حدود الانتداب المختص بالجماعات العثمانية ما يأتى:

(١) إن هذه الجماعات قد بلغت درجة من الارتقاء يصح معها الاعتراف بكونها أمة مستقلة.

(٢) إن مهمة المنتدب قاصرة على المساعدة والنصح.

(٣) إن رغائب الجماعات يجب أن توضع أولا موضع الاعتبار عند اختيار الدولة المنتدبة.

وسترون كما نرى أن هذه القيود المعينة فى الانتداب لم يحترم شئ منها، وأن استقلالنا ليس سوى لغو من القول.

لقد قسمت بلادنا إلى مناطق - كما ذكر آنفا - عملا بمعاهدة سايكس - بيكو المؤيدة باتفاق لويد جورج وكليمانصو فى سنة ١٩١٩ فأخذ الانجليز فلسطين والساحل الفلسطينى وأخذ الفرنسويون ساحل سورية الشمالية، واحتفظ الأمير فيصل بالمنطقة الداخلية – فأسفرت هذه الوقائع عن إحراج صدور الأهلين، والتأم فى دمشق مؤتمر سورى عام فى شكل مجلس مؤسس يتألف من مندوبين انتخبوا من المناطق الثلاث - وقد عقد هذا المؤتمر برغبة الرأى العام الشديدة جلسة عامة، وأعلن بالاتفاق مع الزعماء السياسيين والرؤساء الروحيين من جميع الملل والنحل فى ٨ مارس سنة ١٩٢٠ استقلال سورية التام بحدودها الطبيعية - أى مع فلسطين ولبنان، ونادى بالأمير فيصل ملكا دستوريا على البلاد، وانصرف إلى سن القوانين وتنظيم الحكومة الوطنية التي كان لديها ممثلون للحكومات الأجنبية. علي أن هذه السيادة علي المنطقة الداخلية مالبثت أن انتزعت فى صيف سنة ١٩٢٠ كما تعلمون. وختم المؤتمر نداءه قائلا: فالمؤتمر السورى الفلسطينى

يطلب إذا منكم أيها الرئيس والأعضاء الكرام ما يأتى:

(١) الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومى لسورية وللبنان ولفلسطين.

(٢) الاعتراف بحق هذه البلاد فى أن تتحد معا بحكومة مدنية مسئولة أمام مجلس نيابى ينتخبه الشعب، وأن تتحد مع باقى البلاد العربية المستقلة فى شكل ولايات متحدة (فيدراسيون).

(٣) إعلان إلغاء الانتداب حالا.

(٤) جلاء الجنود الفرنسوية والإنجليزية عن سورية ولبنان وفلسطين.

(٥) إلغاء تصريح بلفور المتعلق بوطن قومى لليهود فى فلسطين.

فإذا لم يكن لدى جمعية الأمم الاستنارة الكافية، وأرادت أن توقن أن ما بسطناه هو رغائب الشعب الحقيقية فنحن نرجوها أن ترسل إلى سورية ولبنان وفلسطين لجنة تحقيق ذات سلطة كافية لتتمكن من إجراء تحقيق نزيه. وأن تعطى أهالى سورية من جمعية الأمم ضمانا بأن يكونوا آمنين من انتقام المحتلين واضطهادهم إذا أبدوا آراءهم بحرية، وذلك بأن تأمر بجلاء الجنود التى تضغط على الأهالى. وتفضلوا أيها السادة الرئيس والأعضاء بقبول فائق احترامنا.

وفد المؤتمر ولجنتيه

وألف المؤتمر لجنة من أعضائه على أثر ختامه تظل فى جنيف لملاحقة القضية أمام جمعية الأمم. كما قرر تأليف لجنة تنفيذية لمواصلة العمل وتنظيمه فى دائرة المبادئ التى وضعها، على أن يكون مقرها فى القاهرة، وأن تضم ممثلى الأحزاب التى اشتركت فى المؤتمر ويكون عدد أعضاؤها سبعة أو خمسة أو ثلاثة ويكون رئيس المؤتمر رئيسا دائما لها. وأن تبدأ العمل فى أول شهر ديسمبر سنة ١٩٢١.

وألفت اللجنة التنفيذية فى جلستها المعقودة فى القاهرة يوم ٢ مايو سنة ١٩٢٢ الوفد السورى، وأرسلت إلى أعضائه وهم الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابرى وسليمان كنعان تبلغهم ذلك، وتفوضهم العمل باسمها ثم قررت فى جلستها يوم ٢٨ منه أن تضم

رئيسها الأمير ميشيل لطف الله إلى الوفد، وأرسلت بذلك كتاب اعتماد إلى وزارات خارجيات الدول العظمى.

مذكرة الوفد إلى مؤتمر جنوى

وتلقى أعضاء الوفد كتاب الاعتماد فى نفس الوقت الذى اجتمع فيه المؤتمر الاقتصادى الدولى فى جنوى. فوضعوا مذكرة مفصلة قدموها يوم ١٢ مايو سنة ١٩٢٣ إلى السنيور فاكتا رئيس المؤتمر ورئيس وزراء إيطاليا، وإلى الرفيق تشيشرين وزير خارجية روسيا ورئيس وفدها فى المؤتمر وإلى كل من توسموا فيه الخير فى معرفتهم حقيقة هذه القضية وهذا تعريبها:

ياصاحب السعادة:

فى حين اجتماع مندوبى معظم الدول القديمة والحديثة للتعاون على تعمير أوربا الاقتصادى، وبما أن شعبنا لم يعترف بالحكم الحالى الذى وضع عليه بالقوة، نتشرف بصفتنا ممثلين منتخبين من الأحزاب السورية واللبنانية بأن نتقدم من مجمعكم المحترم لنطلعه على شكاوى مواطنينا، وما حكم عليهم به من التعاسة والألم. إن روح العدل والتراضى - الذى يهتدى به فى الأعمال العظيمة القائم بها المؤتمر - ضمانة لنا على أن صوت الضعفاء لابد أن يجد صدى مرضينا.

لما كانت المسائل السياسية والاقتصادية متصلة بعضها ببعض اتصالا وثيقا، وكان من الواجب وضع حل لمسألتنا المموهة بالمتناقضات والأغلاط والأكاذيب، وحبا بالمساعدة فى البحث عن وسائل تأخذ بيد لبنان وسورية. اللذين هما قسم حساس وعامل قوى فى الحياة الاقتصادية فى الشرق، نستأذن فى إعادة ذكر الوقائع السياسية التى كان لها التأثير الأكبر فى إيجاد الحالة الحاضرة فى بلادنا. بقطع النظر عن الأزمة العامة التى يتخبط فيها العالم.

إن سورية ولبنان من أرقى بلاد الشرق الأدنى، والحالة فيهما تؤثر على البلاد المجاورة لهما، فإذا ساد فيهما السلم أو عمت الفوضى لابد من انتشار ذلك إلى الجوار. بينما لأوربا مصلحة كبيرة فى صيانة النظام فى هذه البلاد. إن أهالى سورية ولبنان قد بلغوا درجة من الحضارة تربأ بهم عن المجازفات والمغامرات، ولكنهم متمسكون باستقلالهم

الاقتصادى والسياسى تمسكا يجعلهم لا يطيقون تحمل التحكم الأجنبى طويلا، فيكونون بسكوتهم مساعدين على القضاء على بلادهم.

إن أهالى سورية ولبنان يرون - والاستياء ملء نفوسهم - أن معظم الأقطار التى فصلت عن تركيا كألبانيا والحجاز وأرمينية، والأقطار التى فصلت عن روسيا تتمتع باستقلال يعترف به العالم، مع أنها أحط منهم درجة فى الرقى، فى حين أنه قد حكم عليهم حكما مناقضا لرغائبهم، وللوعود والضمانات التى وضعوا ثقتهم فيها.

لقد كان لبنان بفضل موقفه الخاص يقاوم دائما جميع الفاتحين. وكان أبناؤه مستعدين دائما لإهراق دمائهم فى سبيل استقلالهم، فإذا انفردوا فى ما مضى بعدم استقبال الفرنسويين كأعداء عند نزولهم إلى سورية. فما ذلك إلا لأنهم كانوا يثقون ثقة تامة بوعود الحلفاء أثناء الحرب وتصريحات ولسن، وبصداقة فرنسا وعدلها. كان حينما يتسرب شئ من الشك إلى نفوسهم لا يلبث أن تزيله منشورات قائد جيوش الاحتلال. ولم يدر فى خلدهم أن رغائبهم وحرياتهم الموروثة تصطدم بمطامع المستعمرين، وأن نير الاستعباد سيوضع على أعناقهم، وتؤخذ عليهم السبل لتعزيز الحكم الحاضر فى بلادهم، وأن نداءهم فى طلب الحرية يخنقه الإرهاب والدسائس.

أن ما جنيناه من الاختبار منذ ثلاث سنوات حتى الآن لا يجعلنا نتفاءل خيرا بمستقبل بلادنا، وأن إيجاد مجلس كالمجلس التمثيلى فى لبنان محددة سلطته تحديدا تجعله أقل مرتبة من مجلس استشارى، ليس سوى وسيلة لمخادعة الرأى العام وإعطاء مظهر قانونى لتحكم المفوضية العليا فى سورية. وقد جرى هذا الأمر للإغراق فى التحكم بالشعب، وحمله على الاعتراف بالأمر الواقع، وهو حلقة جديدة أضيفت إلى سلسلة العبودية التى يرسف بها الشعب.

يستطيع المستعمرون ولا ريب أن يشتروا أعوانا لتأليف هذا المجلس، وتسميته برلمانا وتنفيذ إرادتهم فيه. وسيموهون به على الشعب الفرنسوى وجمعية الأمم، وينادون بأن لبنان يتمتع باستقلال تام.

ولكننا نستأذنكم فى القول بأننا لن نستسلم بعد الآن للمخادعة، وأننا لن ننفك ولن ينفك أولادنا عن الجهاد فى سبيل حريتنا، وسيكون لنا من مضاء العزيمة فى السعى للحرية مثل ماكان لجميع الشعوب على ممر الزمان، ويعضدنا فى ذلك عطف كل شعب كريم.

وقد يهولنا أن نوقد النارفى الشرق الأدنى، ونخلق المشاكل للدول الأوربية ولكن هذا الأمر لا يوقفنا. لأننا غير مسئولين عنهم ما دمنا قاصرين فى أعمالنا على طلب حق فى الحياة يريد المستعمرون وأصحاب الأموال أن يحرمونا منه.

لقد أعرب السوريون إعرابا صريحا عن رغائبهم أمام لجنة التحقيق الأمريكية التى ذهبت إلى سورية يوم كان مؤتمر الصلح ملتئما، فاتفقت أكثريتهم الساحقة على طلب الاستقلال التام، وإلا فمساعدة ودية من الولايات المتحدة لا تمس الاستقلال. وقد عادوا الآن مرة أخرى إلى الإعراب عن هذه الرغائب بمظاهرات عمومية بمناسبة مرور مستر (كراين) رئيس تلك اللجنة فى ديارهم، غير مبالين بما استعمله المحتلون من الإرهاب والرشاشات والدبابات. إن أهمية الحركة التى ذكرتها برقيات مصر والجرائد الانجليزية فى ١٥ إبريل ظاهرة لمن يعرف عدد الجنود الفرنسوية فى سورية وتصرفها القاسى الفظيع فى قمع أدنى حركة، والذهب المبذول للإغراق فى نشر الدعوة ومنع العالم عن معرفة حقيقة ما يجرى فى بلادنا. أما نحن فنرى أن العمل لا يزال فى بدايته، لأن العداوة شديدة حتى فى صدور العنصر المارونى اللبنانى الذى وثق منذ عهد بعيد بصداقة فرنسا.

إن احتلال لبنان قد فاجأنا بعد آلام الحرب الهائلة وفتكات الجوع الذريعة التى أهلكت نحو ثلث أهالى لبنان. فليس من الغريب أن لا يقوم مواطنونا فى وجه الاحتلال، وهم على ما هم عليه من مضاء العزيمة، فضلا عن أن تقاليد فرنسا وتصريحات الحلفاء أثناء الحرب ومبادئ الرئيس ولسن قد جعلتهم يتفاءلون خيرا بالمستقبل.

ولكن الحالة قد تغيرت منذ ذلك الحين. فإذا كانت آلام الحرب لم تخف عن لبنان فإن أبناءه قد عرفوا أن النير الأجنبى أشد هولا من الحرب نفسها.

وأن خيبة آمال اللبنانيين واستياءهم من إلغاء الحكم الذاتى الذى تمتعوا به منذ ١٤٠٠ سنة قد زاد فى عداوة السوريين للاحتلال الفرنسوى

إن سلطة الحكام الفرنسويين فى سورية ولبنان قائمة:

(١) على عجز الأهالى أمام ستين ألف جندى فرنسوى فى سورية

(٢) على التقسيمات الإدارية بإيجاد حكومات سميت مستقلة فى البلاد. منعا لعمل عدائى عام.

(٣) على نفوذ العنصر المسيحى الذى يعتبره المحتلون مخلصا لمقاصدهم.

(٤) على قوة المخصصات السرية وإساءة استعمالها.

وعليه نبدى هذه الملحوظات:

(١) إن ضعف السوريين هذا سوف لا يدوم. وإن القومية العربية هى الآن أوسع دائرة من أن تتحمل حكما أجنبيا، فتعلقها بحكومة الأمير فيصل فى دمشق ومقاومتها المسلحة فى الغالب للاحتلال الفرنسوى، والاضطرابات المستمرة فى المنطقة الفرنسوية فى سنتى ١٩١٩ و ١٩٢٠ والضحايا العظيمة التى قامت بها لأجل بلوغ الغاية القومية حتى فى زمن الحكم العثمانى، كل هذا هو أحدث عهدا من أن ينسى.

إن قوة احتلالية مهما كانت كبيرة لا تستطيع خنق عاطفة الحرية الراسخة فى قلوب السوريين.

وسيعرف الشعب الفرنسوى الحقيقة عاجلا أو آجلا، ويتأكد أن لا فائدة من الضحايا التى يتحملها إجابة لرغائب العسكريين ومصالح أصحاب الأموال، ولابد يوما من إخلاء البلاد.

(٢) إن تقسيم سورية إلى دول متعددة لا يؤدى إلى الغرض المطلوب، ولابد أن تحبط الخطة التى اختطها السلطة فى تقسيم البلاد وإثارة المنافسات المحلية بين الأهالى ليتم لها تطبيق مبدأ «فرق تسد» وذلك التقسيم هو أحد الأسباب العظمى لاستياء السوريين.

وإن إيجاد دول مستقلة بعضها عن بعض فى بلاد صغيرة حتى من وجهة الاقتصاد وصيانة الأمن لابد أن يقلق الأمن، ويجهز على التجارة والحياة الاقتصادية العامة فيؤدى ذلك بطبيعة الحال إلى تعزيز الروابط بين أجزاء سورية المختلفة.

(٣) إن سلطة الاحتلال لا تستطيع الاتكال على العنصر المسيحى لاستعباد إخوانه المسلمين. إذ لم يكن قط للدين الاعتبار الأول فى جميع الوقائع التى يعرفها تاريخ سورية ولبنان. وإذا كان الجو تعكر بين الجماعات الدينية فى القرن الماضى فلم يكن ذلك إلا بتأثير دعوة أجنبية، وأعمال البعثات الدينية أخصها بالذكر الجزويت. وقد برهن اللبنانيون موارنة ودروزا مرارا عديدة على اتحادهم القوى، ورأيناهم فى أواخر القرن السادس عشر والخطر يهدد استقلالهم يتفقون على تولية الأمير فخر الدين

المعنى عليهم مع أنه من الأقلية الدرزية، ويعترفون لذريته بالوراثة. وعند ما تلاشت أسرته اختاروا أميرا مسلما من آل شهاب.

أن سياسة حماية المسيحيين فى السلطنة العثمانية لم يكن لها تأثير على نصارى لبنان فإن اللبنانيين بعد ما آزروا إبراهيم باشا المصرى على الترك عادوا فانقلبوا عليه، لأنه أراد انتهاك حرمة استقلالهم. ولم تمنعهم من ذلك نصائح الدول التى أوجدت مبدأ حماية المسيحيين والتى عضدت إبراهيم باشا.

وهكذا ظهر اللبنانيون متحدين للمحافظة على استقلالهم وعلى الاتحاد الاقتصادى مع سورية، وما زالوا على خير صلات بجميع إخوانهم السوريين.

(٤) أن المخصصات السرية (١٠ ملايين فرنك) التى تستخدم الآن لشترى الضمائر لن تجدى فائدة أمام حركة الثورة التى يتعاظم شأنها يوم بعد يوم.

إن تظاهرات الولاء للفرنسويين التى دبرتها المفوضية العليا عابثة بثقة المسيحيين، وتوزيع الأسلحة على بعض القرى، وتنظيم العصابات ضد المسلمين، والاعتسافات الأخرى التى ارتكبتها السلطة المحتلة، قد خلقت حالة مخيفة غير طبيعية. وأوجدت تراخيا بين المسيحيين والمسلمين، ثم زال كل ذلك عند ما شعر الفريقان بالنير الأجنبى.

وكانت مقاصد المحتلين تتجلى يوم فيوما، فعاد المسيحيون عن خطئهم بعد ما شعروا بأنهم كانوا ألعوبة، وصاروا هم والمسلمون سواء فى الغيرة على استقلالهم. وبما أن السوريين لا يعارضون فى استقلال لبنان. فإخلاء بلادنا من الجنود الأجنبية يعيد إلى سورية ولبنان جميع ماكانا يتمتعان به من السكينة والسلام. وجميع السوريين واللبنانيين متفقون على تنظيم اقتصادياتهم على قاعدة مشتركة.

ولا نرى بدا من القول مرة أخرى بأننا لم نسرد هذه الوقائع إلا لما لها من العلاقة بالموقف الاقتصادى الذى سنشرحه فى مايلى. وقد اغتنمنا هذه الفرصة لنظهر اتساع مسافة الخلف بين حالتنا الحاضرة ومقتضيات عهود الحلفاء وتصريحاتهم قبل الحرب وفى زمن الحرب ومبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها ومواد ولسن الأربع عشرة إلخ . إلخ.

وتكلم التقرير بعد ذلك عن الحالة الاقتصادية فى سورية ولبنان بعد الحرب وقال أنها كانت قبلها أفضل . ثم قال:

كان السوريون فى زمن السلطنة العثمانية عثمانيين يتمتعون بنفس ما يتمتع به الترك من الحقوق، فكانوا يشغلون المناصب فى جميع فروع الإدارة التركية، وكان لهم نواب منهم فى البرلمان العثمانى ـ بلغ عددهم ثلث أعضاء مجلس النواب.

أما الآن فأنهم فى منزلة سكان المستعمرات الإفريقية الذين تحميهم دولة أجنبية.

وقالوا فى الختام:

«نحن نستصرخ ما فى العالم من العدل، وما فى نفوس البشر من الشوق إلى السلام والرقى. نستصرخ الحرية التى قاتلت شعوبكم لأجلها قتالا يعرفه التاريخ. نستصرخ الشعور الشريف الذى دفعكم إلى القيام بالعمل الكبير الحاضر لإعادة تعمير العالم. ونلتمس منكم أن تسمعوا صوت ملايين من الناس يتألمون فى حياتهم المادية وشعورهم الوطنى».

وإن مطالبنا تلخص فيما يأتى:

(١) الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومى للبلاد

(٢) جلاء الجنود الأجنبية.

(٣) أن يكون للأهالى حرية انتخاب مجالسهم التأسيسية، وأن يختاروا شكل الحكومة التى توافقهم.

واتصل الوفد مدة إقامته فى رومة برجال السياسة الإيطاليين ـ ولا سيما الحزب الفاشستى ـ وذلك قبل أن يقبض السنيور موسولينى على زمام الحكم. فاستصدر منهم قرارات باستنكار تصرفات الفرنسويين وبالاعتراض على فرض الانتداب الفرنسوى.

ثم عاد إلى جنيف لملاحقة قضيته حين اجتماع مجلس جمعية الأمم وللنظر فى ما يجب اتخاذه من تدابير. فقابل السكرتير العام لجمعية الأمم محتجا على أعمال السلطة الفرنسوية فى سورية ولبنان المخالفة للعهود والاتفاقات الدولية، ومعلنا باسم الشعب رفض الانتداب، ووضع تقريرا مفصلا عن مجمل الحالة فى سورية ومطالب السوريين قدمه إلى مجلس الجمعية بواسطة لجنة الانتداب الدائمة قال فى مقدمته:

نتشرف نحن الموقعين على هذا التقرير مندوبى المؤتمر السورى الفلسطينى و ممثا

الأحزاب والجمعيات السورية واللبنانية والاستقلالية بأن نتقدم من لجنتكم لتأكيد القرارات التى قدمها المؤتمر السورى الفلسطينى فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢١ إلى الجمعية العمومية الثانية لجمعية الأمم وهى:

١ ـ الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومى لسورية ولبنان وفلسطين.

٢ ـ الاعتراف بحق هذه البلاد فى أن تتحد معا بحكومة مدنية مسؤولة أمام مجلس نيابى عام ينتخبه الشعب.

٣ ـ إعلان إلغاء الانتداب حالا

٤ ـ جلاء الجنود الفرنسوية والإنجليزية عن سورية ولبنان وفلسطين.

٥ ـ إلغاء تصريح بلفور المتعلق بوطن قومى لليهود فى فلسطين.

ثم إننا مكلفون من قبل أبناء وطننا أن نحيطكم علما بما يأتى:

لقد دلت السنوات الثلاث التى انقضت على الإدارة الفرنسوية على أنها إدارة استعمار بحت، ينفذ فى البلاد رغم الدعوة الواسعة النطاق لمسخ الحقيقة تجاه الرأى العام فى العالم.

إن الحالة الحاضرة فى سورية قد تفاقم أمرها تفاقما شديدا. فقد أخفت صوت الشعب إخفاتا وألغيت حرية القول والطباعة والاجتماع، وأنزلت أحكام التوقيف والسجن والجلد والإعدام والنفى بالوطنيين والكبراء من أهل البلاد، وبكلمة واحدة فإن الإدارة العرفية بالغة أشدها.

فهل هذا هو معنى الانتداب؟.

أهذا هو «الخير» الذى وعد به عهد جمعية الأمم؟.

أهذه هى «المهمة المقدسة» التى تكلمت عنها المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم؟.

لقد وعدونا بحريتنا فى الحرب العامة، وأجزلوا لنا التصريحات، وقطعوا عهودا صريحة لشعبنا العربى ولجميع الشعوب المظلومة. ولكن موقف الدول العظمى فى بلادنا مناقض لوعودهم وعهودهم.

كانت سورية فى زمن الترك تتمتع بحريات وحقوق واسعة. ولكن عطف سورية على

قضية الحلفاء فى زمن الحرب قد كلفها آلاما لا توصف، وضحايا لا مثيل لها. ثم إنها أعلنت استقلالها بعد الهدنة، ونادت بالأمير فيصل ملكا فى دمشق، معتمدة على حقوقها الثابتة فى تقرير مصيرها. ولكن الحكومة الفرنسوية ـ التى تضمر فكرة الفتح فى سورية ـ لم يرق لها هذا العمل. فأسرعت إلى القضاء على الحكومة الوطنية، واجتياح عاصمة المملكة السورية. وما زالت منذ سنتين تحكم فى البلاد سلطة عسكرية جائرة، وذلك بعد أن مزقتها وأضعفتها وأعملت فيها حكم الإرهاب.

لقد أعلنوا أن الغرض من الانتداب منحصر فى إنهاض بعض الجماعات وإعدادها للحكم الذاتى، ولم يقتصروا على الاعتراف بأن الشعب السورى بلغ درجة من التقدم والأهلية، بل أكدوا أن سورية بلاد متبسطة فى الحضارة، متقدمة تقدما يميزها عن سائر الجماعات التى كانت تتألف منها السلطنة العثمانية. ورأوا من العدل الاعتراف باستقلال كل هذه البلاد، وبل زادوا على ذلك قيامهم بالمساعى لعقد أواصر الصداقة مع الأناضول وتوقيع المعاهدات مع حكومتها، فى حين أنهم يسعون لاستعمار سورية واتخاذها سلعة للمقايضة.

إن الدول العظمى أعربت غير مرة عن رغبتها فى منح الاستقلال لجميع الشعوب المستعبدة، ولكنها لم تقتصر على نكث عهودها، بل سلبت الشعوب المستقلة حريتها كما نرى فى أمر لنبان، فقد كان يتمتع بحكم ذاتى واسع النطاق اعترفت به دول الحلفاء نفسها وضمنته، وكاد يكون مستقلا استقلالا تاما قبل حصول كثير من الدول الحاضرة على استقلالها .ولكن حريته لم تدم، ويا للأسف، فقضى الانتداب على استقلاله قضاء تاما. فمن ذا الذى يصدق بعد هذا المثال أن الحرية والاستقلال يعطيان بسخاء للشعوب التى تطلبهما من طريق السلم. والحقيقة أن من الواجب الجهاد للحصول عليهما، فالقوى لا يسلم بحق الضعيف إلا مرغما.

ولا نريد أن نقف هنا لذكر المدعيات الكثيرة تبريرا لحلول فرنسا فى سورية، فتلك مدعيات وضعت لنشر الدعوة اقناعا للشعب الفرنسوى، وأننا نلفت الأنظار إلى تصريح مسيو ليج رئيس الوزارة الفرنسوية السابق الذى أجاب على سؤال عن مدة الاحتلال فى سورية بقوله:

ـ دائما، وإلى الأبد...

وقال مسيو بريان فى مجلس النواب الفرنسوى: «ليست سورية بلاد أمة واحدة، ففيها عشرة شعوب تحتاج إلى من يجمع بينها»

وهو قول غريب، عار من كل أساس، وليس من الممكن تأييد هذا الرأى الذى يجهله السوريون أنفسهم، فمن الممكن أن مسيو بريان اعتبر الطوائف الدينية شعوبا قائمة بذاتها وهو خطأ فادح، لأن المعروف بالبداهة أن سورية تسكنها أمة واحدة يجمعها التاريخ والتقاليد والعادات واللغة والشعور والمصالح المشتركة.

إذا كانت لجنة الانتدابات لا ترى من سلطتها رفع نظام الانتداب أو إلغائه ـ كما صرح مستر بلفور ـ وأن مهمتها قاصرة على مراقبة تنفيذ الانتداب كما وضع، والسهر على صحة العمل بمواده، فنحن نرجو التحقق عن الموقف فى بلادنا والنظر فى شكاوينا ضمن حدود سلطتكم، وإننا نحتفظ بحقوقنا فى مطالبة الدول والمجلس الأعلى بإلغاء الانتداب والاحتجاج عليه».

ثم سرد الوفد شكاوى سورية من أعمال الفرنسويين وختم بيانه قائلا: إننا نقدم إليكم هذا التقرير واثقين ثقة تامة ـ ونحن نعلم أنكم أنصار المبادئ المدونة فى عهد جمعية الأمم ـ ونظن أنه لا يمكن لعضو فى جمعية الأمم أن يقوم بمهمته حق القيام إذا لم يكن من شأن هذه المهمة إلا اسدال الستار على مطامح الفتح والاستعباد ونلتمس منكم أن تهتموا بالاستعلام عن حقيقة الحالة.

الوفد ومجلس جمعية الأمم

وفى أوائل شهر يوليو سنة ١٩٢٢وصل الأمير ميشيل لطف الله لملاحقة القضية عند مجلس جمعية الأمم وقد ضرب يوم ١٥ منه موعدا لاجتماعه، وكان داخلا فى برنامجه النظر فى تقرير الانتدابات. فاتصل بالوفد الفلسطينى ووحد الفريقان العمل.

ولما اجتمع مجلس جمعية الأمم أرسل الوفد إليه يوم ١٧ منه البيان الآتى:

إن المؤتمر السورى الفلسطينى الممثل لجميع أهالى فلسطين من العرب، ولجميع الأحزاب السورية الاستقلالية ـ كان قد عرض على مجلسكم الموقر نداء فى شهر سبتمبر

الماضى بمناسبة اجتماع الهيئة العامة لجمعية الأمم فى سنتها الثانية.

وبما أن المجلس مجتمع الآن للنظر فى قضيتنا أتينا بهذا الكتاب لنذكركم بمطالبنا المبينة فى النداء السالف الذكر راجين أن تضعوا هذه المطالب موضع الاعتبار التام، وواثقين بأنكم توافقون عليها لمصلحة العدل والحق والسلم فهى منطبقة تمام الانطباق على المبادئ التى وجدت لأجلها جمعية الأمم.

ونحن مستعدون فى كل حين لإعطاء تصريحات أو فى إذا كنتم ترومون ذلك»

وفى يوم ٢٢ منه أرسل الوفد مذكرة إلى مجلس جمعية الأمم هذا نصها:

«نتشرف نحن الموقعين على هذا مندوبى اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى بأن نلفت أنظار مجلسكم المحترم باسم الشعب السورى إلى حالة بلادنا السيئة التى تستفز الشعب للثورة دفاعا عن حقوقه المقدسة».

إن مطالب الشعب السورى تنحصر فيما يلى:

١ ـ الاعتراف باستقلال سورية بضمان جميع الأمم، وبسيادة الشعب السورى وحقه فى تعيين شكل حكومته ووضع دستوره.

٢ ـ أن تضمن للشعب السورى حريته بإشراف جمعية الأمم الفعلى لانتخاب جمعيته التأسيسية، ولتمتعه بحقوقه تمتعا حرا .

٣ ـ جلاء الجنود الأجنبية عن سورية.

وأننا فى مطالبنا هذه نعتمد على المبادئ الآتية:

١ ـ الحق الطبيعى لكل شعب مدنى فى الاستقلال.

٢ ـ أهلية سورية الإدارية والسياسية التى برهنت عليها من سنين عديدة، ولا سيما منذ إعلان الدستور العثمانى.

٣ ـ عهود انجلترا فى سنة ١٩١٥ لجلالة الملك الحسين باسم العرب.

٤ ـ التصريحات العلنية التى صرح به الحلفاء عن غاياتهم من الحرب إلخ.

احتجاج الوفد على إقرار الانتداب

ولما عرف الوفد من الصحف أن مجلس جمعية الأمم أقر صك الانتداب الفرنسوى لسورية ولبنان أرسل إلى رئيسه يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٢٢ الاحتجاج الآتى

بما أن وفد المؤتمر السورى الفلسطينى قد اطلع فى الصحف على أن مجلس جمعية الأمم المجتمع أخيرا فى قصر سان جمس بلندن أيد مواد الوصاية الفرنسوية على سورية ولبنان.

ولما كان هذا التأييد مخالفا:

١ - للمادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم

٢ - ولمبدأ حق تقرير المصير

٣ - ولرغائب أهالى سورية ولبنان المشروعة التى ذكرت وأعلنت مرارا.

٤ - ولوعود الحلفاء وتصريحاتهم العلنية زمن الحرب.

٥ - وللعهود والاتفاقات المقطوعة للعرب فى سنة ١٩١٥.

٦ - ولنظام لبنان الذى وضع سنة ١٨٦١ وضمنته الدول دون أن يلغى فيما بعد.

٧ - وللمبادئ المقبولة فى القانون الدولى.

فالوفد يحتج احتجاجا شديدا على ذلك القرار الاستبدادى الجائر، ويعلن أن أهالى سورية ولبنان يعتبرون القرار المذكور كأن لم يكن وأن كل رزية تصيب بلادنا البائسة من جرائه تقع تبعتها على عاتق الذين وضعوا ذلك القرار الجائر».

الوفد فى جنيف

ورجع ثانية إلى جنيف وافتتح أعماله بتقديم مذكرة يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٢٢ إلى مجلس جمعية الأمم الذى التأم فى ذلك اليوم. استهلها بقوله: إننا نذكر مجلسكم المحترم بندائنا واحتجاجاتنا المؤرخة فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢١و ٢٠ مايو و ١٨ و ٢٢و ٢٧ يوليو سنة ١٩٢٢ ثم قال: إنه يلفت نظر المجلس إلى النقط الآتية:

١ - إن المادة الثانية والعشرين تؤكد صراحة أن الغرض الجوهرى من نظام الانتداب هو

خير الأهالى. إلا أن المجلس علق تنفيذ هذا النظام على اتفاق يعقد بين فرنسا وإيطاليا بدون أن يحسب حسابا للمصالح السورية.

٢ ـ إن المادة الأولى من صك الانتداب السورى التى تؤجل وضع النظام الأساسى لسورية إلى ثلاث سنوات تناقض الفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من العهد. لأن الاعتراف باستقلال سورية ـ ولو مؤقتا ـ كما تنص عليه تلك الفقرة هو أمر مقرر نهائيا ـ لا يمكن إعادته إلى البحث.

ثم إن الفقرة الثالثة من المادة المذكورة التى تنص على «تحبيذ الاستقلالات المحلية» وفقا لظروف تمس هذا الاستقلال أشد المساس.

٣ ـ إن قرار المجلس مناقض أيضا للفقرة الثانية من المادة الأولى من عهد جمعية الأمم التى تقول «كل حكومة أو مستعمرة مستقلة أو مستعمرة حرة فى حكمها الذاتى، أن تصير عضوا فى جمعية الأمم» مع أن لبنان الذى كان يتمتع باستقلاله الداخلى التام المضمون من سبع دول وفقا لبروتوكول سنة ١٨٦١ لم يقتصر أمره على أنه ليس عضوا فى جمعية الأمم، بل قد سلبت حريته وأنظمته التقليدية، وأخضع مع سورية للوصاية الفرنسوية.

٤ – إن الفقرة الثالثة من المادة الثانية من صك الانتداب تقول «لا شئ يمنع سكان سورية ولبنان من الاشتراك فى نفقة إعاشة قوات الدولة المنتدبة» فسورية التى ليست مهددة ولا معادية لجيرانها، والتى لا ترجو إلا أن تعيش بسلام وتتمتع بحريتها لا حاجة بها إلى الاشتراك فى نفقات جيش يحتلها ويبيد استقلالها.

٥ ـ إن المادة الثالثة من صك الانتداب تحرم سورية من حقها فى التمثيل الخارجى. فليس لبلادنا أن تدعى الاستقلال بدون أن تتمتع بهذا الحق المعترف لها به فى الفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين.

فبناء على ما ذكر، ولما كانت نصوص الانتداب تضع سورية تحت إدارة مباشرة، وتعرقل حرية تقدم البلاد فنحن نتقدم منكم راجين أن تضعوا موضع اعتبار دقيق مطالبنا المشروعة المنطبقة على مبادئ جمعية الأمم الأساسية.

نداء الوفد للجمعية العمومية

واجتمعت الهيئة العمومية لجمعية الأمم يوم ٤ سبتمبر سنة ١٩٢٢ اجتماعها الثالث.

فأرسل إليها الوفد نداء مطولا استهله بقوله:

تشرفنا نحن الموقعين أدناه ممثلى الأحزاب والفرق السياسية فى سورية ولبنان ومعتمدى أهالى فلسطين المسلمين والمسيحيين والناطقين بلسان أهالى هذه البلاد بتقديم نداء فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢١ لجأنا به إلى سلطة الجمعية العمومية الثانية، وبسطنا لها حالة أمتنا التاعسة، وطلبنا منها العون والمساعدة باسم الحق.

فنحن نتقدم منكم والثقة ملء نفوسنا مقتنعين أنكم لا تريدون وأنتم مندوبو خمس وخمسين شعبا حرا وأنصار المثل الأعلى لجمعية الأمم، والمدافعون عن المبادئ الصريحة المدونة فى عهد الجمعية، والضامنون لها، ورجال النزاهة والاستقامة أن تظل المطالب العادلة باستقلال الشعب الذى نمثله رسالة مهملة. إنكم لا تريدون أن يصبح نظام الانتداب الذى جعل فى العهد مهمة مقدسة من مهام التمدن الحديث ذريعة فى أيدى الأقوياء للاستعمار الهمجى والفتح بقوة السلاح.

ثم أفاض البيان بعد ذلك فى ذكر شكاوى السوريين والأسباب التى يتذرعون بها للمطالبة بحقوقهم، ولا تخرج فى روحها عن البيانات السابقة.

الوفد ومؤتمر لوزان

ولما انجلت الحرب الأناضولية عن انتصار الترك، وتقرر عقد مؤتمر فى لوزان لحل قضايا الشرق وتنظيمها اغتنم الوفد السورى فرصة وجوده فى رومة فاتصل بجلال الدين عارف بك مندوب الحكومة الكمالية هنالك وباحثه فى العلاقات بين الشعبين العربى والتركى، وإبان له أن من مصلحة الترك أن يؤيدوا السوريين فى سعيهم للاستقلال فنصح لهم بأن يسافروا إلى الاستانة ليكونوا على صلة برجال تركيا. فسافر الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابرى إليها فى شهر نوفمبر سنمة ١٩٢٢ ومكثا فيها بضعة أيام سعيا فيها للحصول على تأكيدات من الترك بأن لا تتنازل دولتهم عن السيادة على بلاد العرب المنفصلة عنها إلا لأهل البلاد أنفسهم.

وعاد الوفد إلى لوزان ليكون على مقربة من رجال المؤتمر فاجتمع بعصمت باشا رئيس الوفد التركى يوم ٢٢ نوفمبر، وبسط له الأمير شكيب مطالب السوريين وأعرب عن أمل الوفد بأن يظل الترك متمسكين بميثاقهم القومى إزاء البلاد العربية فقال له إن الميثاق هو

دستور العمل لمندوبى الترك.

وفى يوم ٢٣ نوفمبر طلب الوفد من مؤتمر لوزان السماح له ببسط القضية رسميا، ولما لم يتلق جوابا أرسل يوم أول ديسمبر سنة ١٩٢٢ مذكرة كرر فيها رجاءه بأن يسمع المؤتمر بياناته حين البحث فى حدود تركيا الجنوبية والجنوبية الشرقية. وقال «ومما يؤيدنا فى هذا تعهدات انجلترا للعرب بوجه عام، والتصريح الإنجليزى الفرنسوى الذى نشر للشعب السورى الفلسطينى يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ والميثاق الوطنى التركى الذى يؤيد حقنا فى تقرير مصيرنا[١].

فمؤتمر لوزان المحترم لا يستطيع أن يرفض سماع بيانات ممثلى شعب يجرى البحث فى مستقبله

ولما كانت معاهدة سيفر قد بطلت. فليس من الممكن الإصرار على تكرار نفس المنهج الذى انتهج نحو تركيا وكان تجربة فى شعب صديق للحلفاء، ولكنها تجربة جرت الوبال على الإنسانية[٢].

واتصل الوفد السورى مدة إقامته فى لوزان بمندوبى الدول كلها على انفراد وبسط لهم قضية سورية ولم يسمح له بدخول المؤتمر.

ولما عقدت الهيئة العامة لجمعية الأمم اجتماعها السنوى المعتاد فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٣ قدم إليها الوفد مذكرة مطولة بسط فيها حالة سورية، وفعل مثل ذلك فى سنة ١٩٢٤ وكان يلاحق القضية فى كل مكان ويعمل لتعزيزها، ومثله كانت اللجنة التنفيذية فى مصر فما كانت تدخر وسعا فى خدمتها وبذل الوسع فى تعزيز شأنها والدفاع عنها. وكانت على أتم صلة بالعاملين فى الداخل يوافونها بما يقع من وقائع فتذيعها وتنشرها.

---

١ ـ هذا نص المادة الأولى من الميثاق الوطنى التركى وقد وضعه مجلس النواب فى الاستانة يوم ٢٨ يناير سنة ١٩٢٠ «تتنازل الدولة العثمانية عن الأراضى المأهولة بأكثرية عربية على أن يقرر مصيرها بحسب إرادة سكانها. وأما القسم المأهول بالترك المتحدين اتحادا دينيا وقوميا فيتألف منه مجموع لايتجزء».

٢ ـ سلم مجلس الحلفاء الأعلى معاهدة سيفر إلى مندوبى الترك يوم ١١ مايو سنة ١٩٢٠ فى حفلة رسمية جرت فى دار وزارة الخارجية الفرنسوية وترأسه المسيو ميلران وقال للصدر الأعظم توفيق باشا إن عنده مهلة شهر لتقديم ملاحظاته عليها. وفى يوم ١٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ وقع الفريق هادى باشا الفاروقى ورشاد خالص بك مستشار وزارة الخارجية عليه باسم الحكومة العثمانية، ولم يلبث الكماليون أن مزقوها بسيوفهم.
وجاء فى الباب الثانى من هذه المعاهدة أن حدود تركيا الغربية تبدئ من الشاطئ جنوبى اطنة وتسير شرقا من جنوبى مرعش وديار بكر إلى الحد الحالى الشرقى فى الجنوب الغربي من أورفة.
ونص فى الباب الثالث على استقلال كردستان الذاتى، وعلى الاعتراف بدولتى الحجاز وأرمينية الجديدتين، وعلى الانتداب لسورية والعراق والجزيرة وفلسطين وعلى قرار وعد بلفور إلخ.

٥

الثورة السورية الكبرى



سلطان باشا الأطرش

ـ ٤ ـ

فى طريق الثورة

كان التذمر من أعمال الفرنسويين واستئثارهم بمرافق البلاد على أشده حينما استدعت الحكومة الفرنسوية يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٢٤ الجنرال فيجن المندوب السامى فى بيروت وأبدلته بالجنرال سرايل الماسونى عدو الإكليروس.

ووصل المندوب السامى الجديد إلى بيروت يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢٤.

وكان أول ما فعله أنه دعا المجلس التمثيلى اللبنانى إلى انتخاب ثلاثة مرشحين من الوطنيين ليختار واحدا منهم لمنصب حاكم دولة لبنان بدلا من حاكمها الفرنسوى، ولما عجز المجلس عن الاتفاق على اختيار المرشحين المطلوبين أصدر المندوب يوم ١٣ يناير سنة ١٩٢٥ قرارا بحله على أن تنتهى الانتخابات لمجلس جديد فى خلال ستة أشهر، وعلى أن ينتخب هذا الحاكم، ويشترط أن يكون من الوطنيين، وفى يوم ١٥ منه أصدر أمرا بإلغاء الأحكام العرفية ـ وكانت مبسوطة على البلاد من سنة ١٩٢٠ وبالعفو عن نحو ٥٠ محكوما من المحاكم العرفية الفرنسوية.

وأصدر بلاغا آخر قال فيه: إن أبوابه مفتتحة، وأنه مستعد لسماع مطالب البلاد فألفت دمشق وفدا كبيراً من رجالها قصد بيروت وقابله يوم السبت ١٧ يناير سنة ١٩٢٥ وسلمه المضبطة الآتية وهى تحمل كثيراً من التواقيع:

نحن الموقعين أدناه من مختلف طبقات الشعب السورى قد أنبنا عنا الوفد الحامل لهذه المطالب ليبلغها إلى الجنرال سرايل المفوض السامى للجمهورية الفرنسوية، وليعرب له عن أمانى الأمة التى تطلب تحقيقها وهى:

(١) نطلب أن تكون البلاد السورية بحدودها الطبيعية التى كانت عليها قبل الحرب العامة، بما فيها بلاد العلويين وجبل الدروز ولواء الاسكندرونة والأراضى الملحقة بلبنان الصغير وطنا واحدا فى اللغة والقومية.

(٢) دعوة الجمعية التأسيسية وأن تنتخب انتخابا حراً لتضع للبلاد قانونها الأساسى، وحل المجالس التمثيلية الحالية لأنها لاتنطبق على القواعد النيابية وحصر حق

التشريع بالمجلس النيابى وإلغاء القوانين الاستثنائية الصادرة بشكل قرارات فرادية.

(٣) لما كانت سورية بلادا معترفا باستقلالها فى العهود الدولية، فنطلب تأييد قاعدة مسئولية الحكومة أمام البرلمان، والغاء الإدارة العسكرية ومنع تدخل المستشارين حتى فى الأمور الجزئية.

(٤) الحرية الشخصية حق طبيعى لكل فرد، وهى مقدسة فى نظر الشرائع العامة فى جميع البلاد المتمدنة، فليس مايبرر عمل السلطة فى تضييق نطاق هذه الحرية، ولذلك نطلب احترام الحرية الشخصية بجميع أنواعها لانها من الحقوق الطبيعية المقدسة.

(٥) بما أن السلطات السابقة اعتقلت بعض الوطنيين وأبعدت آخرين بلا محاكمة أو إثبات، استنادا إلى وشاية الجواسيس الذين يصمون الوطنيين بأنهم صنيعة الدول الأجنبية، فنطلب وضع حد لهذه الأعمال المنافية للقوانين وإصدار عفو عام عن جميع المحكومين والمبعدين السياسيين.

(٦) توحيد القضاء بإلغاء المحاكم الأجنبية، واحترام صناعة القضاء واستقلال المحاكم، وجعل اللغة العربية لغة المحاكم الرسمية فقط.

(٧) لما كانت الأوقاف والمؤسسات الخيرية الدينية المحضة للأعمال الخيرية والشعائر الدينية، وكانت أوقاف بقية الطوائف غير المسلمة تدار بمعرفة الطائفة نفسها، وكانت الإدارة السابقة قد ضمت إدارة الأوقاف الإسلامية إلى المفوضية العليا فلم تحترم بذلك إرادة الواقفين، حتى أنها استولت على الخط الحديدى الحجازى الذى هو أعظم وقف إسلامى، وسلمته إلى شركة أجنبيه رغما عن احتجاج الأهلين فإنا نطلب إعادة هذه الإدارة إلى الطائفة الإسلامية، وإرجاع الخط الحجازى إلى استقلاله السابق.

(٨) منع الهجرة الأرمنية إلى البلاد.

(٩) توحيد أسعار النقد، وجعل الذهب أساسا لجميع المعاملات الرسمية وغير الرسمية.

(١٠) إلغاء الزيادة الجمركية، واتباع قاعدة الحماية تبعا للحالة الاقتصادية والإسراع فى عقد اتفاقات جمركية مع الحكومات المجاورة بالاشتراك مع الحكومة المحلية والغرف التجارية.

(١١) جعل الشركات ذات الامتيازات تابعة لمراقبة الحكومة المحلية، وحصر حق إعطاء

الامتيازات بالحكومة الوطنية، وإلغاء مصلحتى احتكار الدخان والديون العامة.

(١٢) توحيد الأنظمة الإدارية وإلغاء قانون العشائر الاستئنافى.

(١٣) الاقتصار على استخدام أهل البلاد فى الوظائف الرسمية.

وقال الجنرال للوفد بعد التعارف «يظهر لى إنكم تمثلون الطبقات المختلفة، وأنا سعيد جداً بمقابلتكم. ويظهر أن لكم ثقة بى، وأمل أن نتحد معا على العمل لتحقيق مطالبكم، وإذا كانت المعلومات التى اتصلت بى صحيحة فأنتم تمثلون الفكرة النيرة الحرة، وأعتقد انكم تستطيعون أن تساعدوا على جعل الثمرة ناضجة فى بلادكم» ولما دار الكلام على الوحدة قال إنكم تطلبون الوحدة وهى فى يدكم. فاتفقوا أولا بعضكم مع بعض عليها ثم طالبونى بتطبيقها. فقالوا له إن الوفود كلها مجمعة على المطالبة بها، وماعليه إلا إجراء استفتاء فيتبين أن الأمة كلها فى جانبها. فقال لهم وحدوا صفوفكم أولا.

وألفت حلب أيضا وفدا برئاسة إحسان الجابرى فصد بيروت وقابل المندوب وسلمه طلبات حلب وهى لاتختلف عن طلبات دمشق وناقشه فيها فأعاد عليه القول بتوحيد الصفوف ثم زار الوفد دمشق وقضى فيها أياما واتصل بالعاملين من رجالها، وتم الاتفاق على توحيد العمل، وعاد إلى بلدته عندما أذاع البيان الآتى:

«إن الوفد الحلبى لم يجذبه إلى دمشق عاصمة الأمويين ومصدر روح القومية والاستقلال إلا توحيد العمل لتحقيق آمال الأمة وتنظيم الصفوف كما طلب الجنرال سرايل وقد لاقى فى مقدمه كل حفاوة تجلى فيها عطف إخوانه رجال الوطنية ثم اطلع على أعمالهم السديدة واتحد وإياهم فى الفكرة والعمل. فهو يحمل كل بشارة تقوى العزم ويهدى من أعماق قلبه الشكر إلى من جمع الكلمة ورفع شأن الشباب الناهض والمبادئ المقدسة».

إنشاء حزب الشعب

وكانت الخطوة الكبرى التى خطاها الوطنيون فى هذا العهد هى إنشاؤهم حزب الشعب وهو أول حزب سياسى أنشئ رسميا فى سورية بعد الاحتلال الفرنسوى، لقيادة الحركة الوطنية وتنظيمها. وهذه أسماء أعضاء لجنته الإدارية:

حسن الحكيم ولطفى الحفار وفوزى الغزى وسعيد حيدر وإحسان الشريف وتوفيق

شامية وفارس الخورى وعبد المجيد الطباخ وأبو الخير الموقع وأديب الصفدى.

وأسندت زعامة الحزب للدكتور عبد الرحمن شهبندر وتولى حسن الحكيم أمانة السر العامة وأبو الخير الموقع أمانة الصندوق.

وأنشئ لهذا الحزب فرع فى حلب وآخر فى حمص وثالث فى حماه، واتصل باللجنة التنفيذية فى مصر وبالوفد السورى فى أوربا ـ كما اتصل برجال سورية العاملين فى الساحل وبزعماء جبل الدروز وبذوى الرأى والفكر من أبناء البلاد، فانتعشت الحركة الوطنية على يده.

زيارة اللورد بلفور لدمشق

وبينما كانت البلاد السورية تغلى كالمرجل ـ وقد نشأت فيها روح جديدة على أثر ظهور الحزب ـ جاءت الأخبار بأن اللورد بلفور صاحب الوعد المشهور اعتزم زيارة الشام قادما من فلسطين. فقامت دمشق وقعدت لهذا النبأ واحتشد أبناؤها ورجالها يوم ٨ إبريل سنة ١٩٢٥ أمام محطة القنوات للتظاهر ضده. فعلموا أن السلطة أنزلته فى محطة القدم، وأنه قصد إلى فندق فيكتوريا فلحقته الجماهير وهى تنادى بسقوطه وسقوط الصهيونية والانتداب الفرنسوى وتهتف للحرية والاستقلال، وأرسلت الحكومة قواها فاصطدمت بالمتظاهرين ودارت معركة حامية بين الفريقين أسفرت عن سقوط عدد من الجرحى وقبض على ٢٣ شابا. وأضربت دمشق فى الغداة (الخميس) وازدحم الناس فى الجامع الأموى عند الظهر. فأدوا الصلاة وخرجوا بمظاهرة كبيرة منادين بسقوط بلفور ووعده، والانتداب وحكومته، وبتحية فلسطين وأهلها، ولما وصلوا إلى قرب الفندق صدمهم الجند ودار شجار عنيف فاطلق الجند الرصاص على المتظاهرين فصرع اثنان وجرح نحو ٢٠ وحدث شغب خطير فخافت السلطة العاقبة، وأوفد الجنرال سرايل وكان فى دمشق مندوبا إلى الفندق أقنع اللورد بالسفر حالا خوفا على حياته. فأخرج من باب خلفى وركب سيارة درجت به إلى بيروت تحت حماية الشرطة والدرك فاستقرت الحالة. وكانت هذه أول مظاهرة وطنية عنيفة فى دمشق بعد حوادث كراين فى سنة ١٩٢٢. وكتب الجنرال سرايل فى مذكراته عن هذه الزيارة يقول: «لقد استقبلت دمشق اللورد بلفور بالاحتجاجات التى اشترك فيها بعض العناصر المسيحية التى لاتستطيع الكف عن عاداتها فى إدخال الديانة فى كل شئ. وقد

وزعت فى المدينة مناشير كثيرة بعنوان فلسطين للعرب، بلاد العرب للعرب، مما دل على أن هذه الحملة ضد اليهود تخفى وراءها أشياء كثيرة.

«وقد كانت زيارة اللورد بلفور مقدمة لمظاهرات عديدة ليست خطيرة النتائج اقتصرت على إغلاق الحوانيت وصدور الصحف بالإطارات السواد، وإضراب طلاب المدارس ولم تحدث حركة مافى الشوارع إلا بعد الخروج من المسجد، فعمدت إلى اخمادها بسرعة دون شيء من الشدة كما أشيع هنا وهنالك».

المسيو برونه ودستور سورية

ووصل إلى سورية فى شهر مايو سنة ١٩٢٥ المسيو برونه النائب فى البرلمان الفرنسوى لمقابلة المفوض السامى، والبحث فى أسس الدستور الذى قررت الحكومة الفرنسوية وضعه لسورية عملا بصك الانتداب فهز وصوله الرأى العام وقابلته وفود الشعب مطالبة بالوحدة وبأن يعهد إلى جمعية وطنية تأسيسية فى وضع الدستور، بدلا من اللجنة التى ألفتها وزارة الخارجية الفرنسوية يومئذ برئاسة المسيو بول بونكور وعهدت إليه بهذه المهمة. وعاد المندوب إلى فرنسا بعد ما أقام نحو شهرين فى سورية، وبعد ما أعلن بأنه لايسع الحكومة الفرنسوية العدول عن رأيها فى سن الدستور. فزاد ذلك فى استياء الشعب ونقمته.

سفر الكابتن كرابيه بالاجازه

وفى يوم ١٧ مايو من تلك السنة نال الكابتن كربيه حاكم جبل الدروز إجازة للسفر إلى فرنسا فوجد الدروز فى سفره بابا للفرج ووسيلة لتجديد شكاويهم من أعمال هذا الطاغية.

دخل كربيه جبل الدروز يوم ٤ يوليو سنة ١٩٢٣ خلفا للكبتن ترانكا فتقلد منصب مستشار لأمير الجبل، وكانت الإمارة يومئذ للأمير سليم الأطرش، ولما توفى هذا يوم ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٣ اجتمع المجلس النيابى للجبل واختاره وكيلا للحاكم لمدة ثلاثة أشهر فقط ريثما يتم الاتفاق على اختيار الحاكم الوطنى، وقد تم ذلك بدسائس كربيه وتدابيره، ولم يكتف بذلك، بل حمل المجلس نفسه فأصدر يوم أول أكتوبر سنة ١٩٢٤ قرارا باختياره حاكما للجبل وأقر الجنرال فيجان هذا الاختيار بقرار أصدره يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤

فصار الحاكم الرسمى.

ولما اتصل ذلك بزعماء الجبل وشيوخه عقدوا اجتماعا سريا فى قرية عرى ووضعوا عرائض يعلنون فيها أنهم يرفضون تعيين فرنسوى لمنصب الحاكم، ويطلبون تعيين وطنى مكانه عملا بالاتفاق المعقود بينهم وبين فرنسا، وحمل حسين الأطرش ومتعب الأطرش هذه العرائض إلى السلطة الفرنسوية فى دمشق وشكيا من تصرفات كربيه وأعماله وطلبا إقالته. فساء ماوقع هذا وأمر بوضع عرائض بتأييده وكان يطوف بها على الناس ويحملهم على توقيعها - كما انصرف من الناحية الأخرى إلى الانتقام من بنى الأطرش وأنصارهم ومواليهم وعمل على اذلالهم وقهرهم.

ويضيق بنا المقام لو رحنا نسرد ماعمله من أعمال فى أثناء ولايته على الجبل فقد منع الناس من زيارة آل الأطرش ومن التردد عليهم. بل ومن إلقاء السلام وكان يعاقب المخالف بالسجن كما كان يغرم كل قرية يذهب إلى زيارتها ولايخرج جميع أهلها لاستقباله بغرامات باهظة. وأبلغ أن الدرزى إذا تنحنح فإنما يقصد من نحنحته لعن من يمر به من غير طائفته وشتمه فى دينه. فكان يقبض على كل من يصادفه فى هذه الحالة ويلقيه فى غياهب السجن واستاء مرة من فهد الأطرش قائمقام صلخد فضربه بيديه ورجليه وبالسياط على مرأى من جميع الناس وأمره بتكسير الحصى والأحجار. وفعل مثل ذلك بسليمان نصار شيخ قرية سالة وعميد أسرة نصار. وهى من أسر الجبل الكبرى، وبالشيخ صالح طربيه وهو علم فى التقى والصلاح. وشكا الدروز هذ الأعمال الشاذة إلى ولاة الأمور الفرنسويين فألفوا الأبواب مغلقة فزادهم ذلك يأسا - كما زاد الحاكم طغيانا وظلما. على أنهم استبشروا حينما جاءت الأخبار بان الجنرال سرايل سيزور الجبل للاشتراك فى حفلة عيد استقلاله (٥ إبريل سنة ١٩٢٥) فاختاروا وفدا من الأمير حمد الأطراش ونسيب وعبد الغفار ومتعب الأطراش وغيرهم من الزعماء والشيوخ لمقابلة الجنرال وإبلاغه مطالبهم ولما طلبوا منه تحديد وقت لاستقبالهم أشار عليهم بأن يحضروا إلى دمشق فجاءوا ولما دخلوا عليه قال لهم ماذا تريدون؟ فاجابوه إننا نطلب مايأتى:

١ - تطبيق الانتداب فى الجبل طبقا للشروط المتفق عليها بيننا وبين فرنسا والمصدقة من الجنرال غورو.

٢ - فتح أبواب المفوضية لسماع شكوانا من تصرفات بعض الموظفين الذين يخرجون

بتصرفاتهم عن طريق العدل والإنصاف.

٣ - إزالة كل اعتداء يعتديه الكابتن كربيه على الزعماء وإبداله بحاكم وطنى حسب ماهو مصرح فى الاتفاق، وإنشاء تفاهم بين الشعب الدرزى والانتداب.

وسألهم الجنرال عن ماهية الاتفاق الذى يشيرون إليه فأجابه عقلة القطامى أنه اتفاق صدقت عليه المفوضية العليا بشخص المسيو رو بير دى كيه يوم ٤ مارس سنة ١٩٢١ فقال إنه لايعرف شيئا عنه.

وقال عبد الغفار باشا إن نص الاتفاق هو معنا وأخرجه وسلمه إياه فاخذه وقرأه وقال لهم:

هذا الاتفاق هو حبر على ورق، لايعمل به ولا أعتبره ولاأتقيد بوثائق وقعها غيرى[1].

وقال الجنرال للوفد وهو يتكلف الغضب لاأسمح لكم بالبقاء فى دمشق أكثر من ساعتين ومن يتأخر أرسله إلى المنفى حالا. وبعد مناقشات قصيرة خرج الوفد غاضبا وقبض على عقلة القطامى (شيخ قرية خربا وزعيم مسيحيى جبل الدروز) وأرسل منفيا إلى تدمر وعاد الشيوخ والزعماء إلى الجبل وهن يضطرمون غيظا واتصل ماجرى بكربيه فزاده جبروتا ولقب نفسه بإمبراطور الصحراء وبالسلطان عبد الحميد.

مقدمات الحوادث فى الجبل الدرزى

وفى يوم ١٨ مايو سنة ١٩٢٥ وصل إلى السويداء الكابتن رينو ليقوم مقام كربيه المسافر بإجازة شهرين فتنفس الدروز الصعداء وألفو لجانا لتوحيد الصفوف وإزالة ما هنا لك من سخائم وأحقاد فكانت اللجنة العليا فى السويدا برئاسة سلطان باشا وتحتها خمس لجان فرعية فى المجيدل وشهباء وثعلة وقيصما وسالة. فعقدت هذه اللجان اجتماعات عديدة ووضعت مضابط وقعها سكان الجبل طالبين فيها إبدال الكابتن رينو بكربيه لما شهدوه من الفرق بين أعمال الأثنين، وكان هذا يشجع الحركة سرا وعلنًا أملا فى الحصول

---

١ - يقول الجنرال سرايل فى مذكراته عن هذا الاتفاق مانصه: «ولقد أرانى أحد زعماء الجبل «معاهدة» بتوقيع روبير دي كيه تنص علي وجوب تعيين حاكم وطنى وموقعة فى سنة ج ١٩٢١ ولكن بأى صفة وقعها روبير دي كيه أبأمر الجنرال غورو؟ ولماذا لم يعتبرها فيجان؟ ثم إن وزارة الخارجية لاعلم لها بها. فلماذا لم تعلم؟ هذا سر؟»

على منصب كربيه. ووضع موظفوا حكومة الجبل كتابا أرسلوه إلى سرايل، وقالوا فيه «نرجو من الجنرال أن يقبل استقالتنا إذا رفض إبدال كربيه لاننا لانستطيع العمل معه».

وأرسلت اللجنة العليا برقية إلى المسيو برونه تطلب منه أن يحدد وقتا لمقابلتها فضرب يوم ١٦ يونيو موعدا فى دمشق فجاء ٣٠ من شيوخ الجبل ورؤسائه وقابلوه وسلموه مضبطة قالوا فيها:

«إن جبل الدروز جزء لايتجزء من سورية تجمعه بها جامعة اللغة والجنس، وتربطه بها روابط اقتصادية مستحكمة الحلقات فدمشق تأخذ ذخائرها من الجبل، وهو يستورد منها جميع حاجياته، فالجبل مدخر واسع ودمشق معين لاينضب، وهما مرتبطان من عصور طويلة بروابط لاتفصم عراها، والجبل لايحيا بدون الصحراء والصحراء لاتعيش بدون الجبل. ولذلك فإن جبل الدروز يريد المحافظة على شكل حكومته واستقلاله الإدارى فى جميع أوضاعه الحاضرة.

«إننا نريد أن يسود القانون فى البلاد ـ فتحترم الحرية الشخصية ـ فلا يسجن أحد ولا يعاقب أحد ولاينفى أحد إلا بقرار تصدره المحاكم العدلية وفقا للقوانين المتبعة فى بلاد العالم عامة، والمشمولة بالانتداب خاصة على الأقل. ونريد حرية الكلام وحرية الشكوى، وإذا ماشكا أحدنا أمره إلى المرجع الفرنسوى فلا يعاقب على شكواه على الأقل كما سبق وحصل مرات عديدة فى بلادنا . وذلك من قبل الحاكم كربيه فقد كان لايجرؤ أحد على الشكوى. نريد أن تلتفت المراجع الفرنسوية العليا إلى شكوانا وتسمع نداءنا وتصغى لمطالبنا ، فلا يحل بنا العقاب الشديد كما حل بنا من الكابتن كربيه لشكوانا ، ولأننا عرضنا حقيقة أمرنا على مندوب المفوض السامى فى دمشق فرفض مطالبنا . نريد أن ينصفنا الجنرال فيستبدل رينو بكربيه وكلاهما فرنسويان».

وأجابهم المندوب بعدما ناقشهم فى طلباتهم ومذكرتهم أن أمر التعيين والعزل هو من اختصاص الجنرال لا من مهمته ووعدهم بأن يساعدهم عنده.

وأسل الوفد فى اليوم نفسه برقية إلى سرايل فى بيروت هذا نصها « الوفد الدرزى الممثل بشخص الزعماء والشعب وجهته بيروت يلتمس مقابلة فخامتكم»

ولما وصلوا إلى بيروت رفض الجنرال مقابلتهم، وأرسل إليهم من يقول لهم عندما ألحوا

فى طلب المقابلة بأنه سيرسلهم إلى المنفى إذا لم يرجعوا حالاً [1].

وسمح للوفد بعد توسط زعماء دروز لبنان بمقابلة السكريتر العام للمفوضية فقال لهم ارجعوا إلى جبل الدروز وإذا كانت لكم شكاية على كربيه فأبقوها حتى يعود وعندها تنظر فيها المفوضية. فأجابوه أنهم يشكون من تصرفاته من سنتين ولا من مجيب ودارت بينهما محاورة طويلة انتهت برجوع الوفد خائبا.

واجتمع نحو ٤٠٠ شاب درزى فى السويدا باسم الجمعية العمومية وبرئاسة سلطان باشا على أثر عودة الوفد فاشلا وبعد مادرسوا الموقف قرروا مايأتى:

١ ـ تضحية كل غال وثمين فى سبيل الاستقلال.

٢ ـ مواصلة السعى لابدال كربيه برينو.

٣ ـ تذكير كل عضو من أعضاء المجلس النيابى بأنه بصفته ممثلا للأمة يجب عليه أن ينفذ ماتقرره الأمة. وبما أن الأمة تطلب عزل كربيه وتعيين رينو فعلى النواب أن يقرروا ذلك.

٤ ـ كل نائب ينذر ولايعمل بقرارات الأمة يهان ويضرب ويرجم.

٥ ـ على أعضاء الجمعية العمومية بذل دمائهم فى سبيل مساعدة أى فرد من أفراد الجمعية. والسير على خطة معتدلة بطريقة قانونية.

ودعى المجلس النيابى إلى الاجتماع يوم ٣ يوليو، فعقد أعضاء الجمعية الوطنية اجتماعا فى دار حسين مرشد، وقرروا الاتصال بالنواب ودعوتهم إلى إصدار قرار بتنحية كربيه وتعيين رينو عملا بإرادة الأمة. فتعهد لهم الأعضاء بذلك ولم يشذ منهم سوى فارس

---

١ ـ دافع سرايل عن تصرفاته المنكرة فى مذكراته قائلا: ظنت عائلة الأطرش عندما وصلت إلى سورية أننى جئتها لأهدم سياسة سلفى تدريجيا، وأعين لهم فى الجبل حاكما وطنيا يختارونه فأخذوا يترقبون ذلك. أما أنا فلم أجد أى مبرر لمثل هذا العمل.
وبغتة اغتنموا فرصة غياب كربيه فى فرنسا وقاموا يطلبون إقالته وتعيين سواه وقد حدث بعد ثلاثة شهور أن طلبت عائلة الأطرش وسواها من عائلات الجبل أن ترسل إلى فرنسا قسما من الجيش،.، وأكدت حبها وميلها إلى فرنسا.
وإنى لاأسف لشىء أسفى على ابقائى الكابتن كربيه فى الجبل.
وعقدت النية على مخاطبة كربيه فى الأمر عند عودته من فرنسا وإطلاعه على الحملات التى تقام ضده، وكنت أرغب فوق هذا أن أبدله بضابط أفضل منه، ولكننى انتظرت أن يعود إلى السويداء أولا، كيلا يقال إن حملات عائلة الأطرش أثرت على، فيؤثر هذا على مركز فرنسا وسمعتها. فقد لاحظت فى هذه البلاد أن أفضل حل يجب الالتجاء إليه فى مثل هذه الظروف هو أن «لايخضع الإنسان للمشاغبين»!.

الأطرش شيخ ذيبين وهو مشهور من الأول إلى الآخر بموالاة الفرنسويين ومماشاتهم. فأجابهم أنه لابد له من انتخاب كربيه فهجم عليه الشبان وضربوه وأهانوه وكان المجلس النيابى معقودا فى تلك الساعة برئاسة وكيل الحاكم.

واتصل الخبر بالملازم موريل - وهو من أشد أنصار كربيه - فذهب إلى محل الاجتماع الشبان وهجم عليهم بسوطه النحاسى فضربه حسين مرشد بالعصا على أنفه وأطلق يوسف الأطرش نجل عبد الغفار باشا عياراً ناريا فى الفضاء ففر الملازم والحجارة فى قفاه، ولجأ إلى دار الحكومة وطلب نجدة عسكرية من القلعة للتنكيل بالمتظاهرين فتدخل الكبتن رينو وحال بين الجند وبين المتظاهرين. وحسما للنزاع أصدر القرارات الآتية:

١ - يعتذر الشيوخ والزعماء للملازم عن الإهانة التى لحقت به.

٢ - تدفع السويدا ٢٠٠ ليرة عثمانية غرامة.

٣ - ينفى عشرة من آل مرشد إلى صلخد.

٤ - تهدم الطيارت الفرنسوية دار حسين مرشد (هو الذى ضرب الملازم بعصاه) وقبل الدروز المطالب الثلاثة الأولى ونفذوها، وطلبوا العدول عن تنفيذ المطلب الرابع وأبلغوا السلطة إنها إذا أصرت على هدم الدار فلا بد من إعلان الثورة فاكتفت بالاعتذار وبالمال.

محقق فرنسوى جديد[1]

ولما وصلت هذه الأخبار إلى دمشق أصدر الجنرال يوم ٥ يونيو أمرا إلى الكومندان تومى مارتان بأن يسافر إلى السويدا ويمهد لعودة الكابتن كربيه بالاتفاق مع الحزب المؤيد له (هو حزب بنى عامر) فوصل فى ٦ منه ونزل فى دار الحكومة وطلب من الدروز تقديم مطالبهم خطيا وقال إنه قادم للتحقيق فقالوا إنهم لايطلبون سوى إبدال كربيه. ثم قدموا له البيان الآتى لابلاغه إلى الجنزال سرايل وقد ضمنوه شكاويهم من أعمال كربيه وتصرفاته:

١ - أصدر الجنرال سرايل أمرا باستدعاء رينو على أثر تقريرين أرسلهما إليه يوم ٢ و١٧ يونيو، وأوضح فيهما خطورة حركة الجبل وطلب إلى المندوب السامى بلهجة الإلحاح أن يقابل الوفد الدرزى ويصغى إلى شكواه فأبي ذلك، وأصدر أمرا إلى مندوب المفوض السامى بإقالة رينو «لإن حالته النفسية كما يظهر من تقريره المؤرخ فى ٢ يونيو لاتلائم الظروف والأحوال الحاضرة، وعليكم أن تعينوا ضابطا آخر بدلا منه».

ياحضرة القائد:

ان سوء التفاهم وحصول ماحدث والخوف من حصول خلافه مسبب عن الأمور الآتى بيانها التى لحقت بالدروز مدة حكم الكابتن كاربيه:

(١) فتح آذانه للجواسيس مثل حسن الخطيب وحمود أبى حمرة ويحيى دليقان وساسى افندى وحسيب افندى والشرطى فهمى افندى والحرمة نسيمة وبنتها زكية ومعلمى المدارس الذين يلفقون الأخبار الكاذبة حتى لحق بالأبرياء مالحقهم من الضرب والإهانة بأجرة يتقاضاها الجواسيس عن كل خبر بانفراده.

(٢) مخالفة النظام عند جنود الدرك الذين لايعرفون من الوظيفة إلا العصى التى يحملونها حتى أنك لاتجد جنديا من الفرسان والمشاة إلا وبيده عصا لمس شرف الوجهاء وسوقهم سوق البهائم.

(٣) إن حامد قرقوط ذيبين سجن خمسة شهور وكسرت أضلاعه ومزق جلده من ضرب السياط لوشاية وشاه حسود - وقد اتضح ذلك فيما بعد.

(٤) إن حسن كسبول من قرية (ريمة اللحف) تمزق جلده من ضرب السياط لمجرد مروره بالطريق العام من غير أن يتنبه لإلقاء السلام على الكابورال دى بوشيل.

(٥) أحضر ساسى أفندى المستخدم فى المستشفى العام بعض نساء الدروز للإيقاع بهن فشعر بذلك حسين مرشد المجاور للمستشفى فنصحه وردعه ولكن ذلك أساء ساسى أفندى فوشى به لليوتنان موريل وادعى أنه ضربه فوضع فى أعماق السجن وقد اغتنم ساسى حبسه مدة عشرة أيام فكان يأتيه كل يوم فى الصباح والظهر والمساء ويضربه بالسياط على رأسه المكشوف مع تشغيله طول النهار حاسر الرأس حافيا بتكسير الحجارة وحبسه ليلا فى غرفة الفحم، ولم يكفه ذلك بل شهد عليه أنه فى تلك الجلبة شهر مسدسه على الليوتنان مع أنه لم يكن حاضرا وكان أعزل من السلاح.

(٦) إغفال التحقيق عن كل الدعاوى - يعنى وشايات المخبرين المذكورة أسماؤهم أعلاه وخلافهم - واعتبارهم مخبرين صادقين حتى أن وشاية حسن الخطيب أدت إلى سجن الشيخ سعيد طربيه وأخيه سلمان وفارس مفرج أخصاء سلطان باشا الاطراش وغازى الصفدى مدة شهر ونصف مع تكسير الحجارة والضرب المؤلم دون سبب.

(٧) توقيف أولاد صحوعه وأولاد حاتم وتغريمهم ثلاثة وعشرين ليرة ذهبا لمجرد وشاية هؤلاء المخبرين بدون تحقيق.

(٨) توقيف وهبة القشفوش لأنه امتنع عن إيجار داره وضربه ضربا مبرحا حتى بقى شهرا لايقدر على الوقوف على قدميه.

(١٠) ضرب أمين حديفه من قرية الكفر وحبسه تسعة أيام فى غرفة الفحم بدون أكل وشرب ومن غير سبب معروف.

(١١) توقيف حسين حديفة خمسة عشر يوما لأنه كان غائبا فى ملاقاة الكابتن كربيه يوم زار القرية، وغرم الأهلون لأجل ذلك عشرين ليرة عثمانية وذهبا.

(١٢) وضع غرامة عشرين ليرة ذهبا على أهالى (عرمان) لعدم تنظيم ملاقاة لائقة به.

(١٣) توقيف قائم مقام صلخد فهد الاطرش وضربه ضربا أليما لمجرد وشاية المفسدين ومن غيرتحقيق عما أسند إليه.

(١٤) توقيف أولاد الخيانى سبعة أيام فى غرفة الفحم وضربهم ضربا مبرحا وسقيهم ماء الملح لمجرد وشاية تدعى أنهم قتلوا شقيقتهم، وقد ظهرت حية تجرى على قدميها ولم يجاز المفترون أرباب الشخصية الدنيئة.

(١٥) سجن حمد بن جبر حميدان وضربه ضربا مبرحا من غير مدع شخصى ولا سبب، بل لوشاية مفسد.

(١٦) إيداع السجن ثلاثة من المسيحيين من أهالى (خربة) نجهل أسماءهم أبقوا فى السجن ثلاثة عشر يوما وعوملوا نفس المعاملة يعنى بالضرب المبرح.

(١٧) سجن شاهين شروف من قنوات وتشغيله بالأعمال الشاقة وضربه ضربا مبرحا.

(١٨) توقيف فارس إسماعيل أبى عسله وضربه ضربا مؤلما لغير ماسبب.

(١٩) توقيف قاسم عمر وضربه ضربا مؤلما لغير ماسبب».

(٢٠) ضرب غرامة عن ثمن مصباح البلدية المسروق الذى ظهر أخيرا عند نسيمة الجاسوسة والبالغ ثمنه سبعة قروش ونصفا. غرام الجوار بسبب هذه السرقة المكذوبة ثلاثة عشر جنيها ذهبا عثمانيا.

(٢١) ضياع هرة الليوتنان موريل وفرض غرامة عشر ليرات عثمانية على جميع أهل السويداء.

(٢٢) ضرب الكابورال دى بوشيل شاهين الدروكى حتى بقى ثلاثة أيام بحالة العدم لولا أن أحياه اللّه مرة ثانية، ولم يسأل الكابورال عنه.

(٢٣) توقيف سليمان بك نصار مدير ناحية سالة وطرده من الوظيفة وتشغيله بالأشغال الشاقة مدة نصف شهر لوشاية مفسد معروف.

(٢٤) توقيف حمد عامر من (عرى) وتشغيله بالاشغال الشاقة لوشاية مفسد هو معلم المدرسة الذى اتخذ التجسس مثل أكثر زملائه بدلا من التعليم.

(٢٥) توقيف حضرة الشيخ حسن صالح طربيه شيخ العقل وفارس أفندى عزت وإسماعيل أفندى مزهر ورفقائهم من أعيان السويداء لوشاية وشاها فهمى أفندى الشرطى وتشغيلهم بتكسير الحجارة.

(٢٦) إن الموقوف الذى تبرؤه المحكمة إذا طلب باخلاء سبيله عند انتهاء مدة حبسه يضاف عليه مدة خمسة عشر يوما لقاء استدعاء وحوالات الاستدعاءات الموجودة فى قلم العدلية .

(٢٧) تغريم المستنطق لأسباب لامحل لذكرها، واجباره على تأدية عشرين ليرة ذهبا عثمانية لزوجته بدون مسوغ شرعى أو قانونى وخصمهم من راتبه.

(٢٨) إن محمد رضوان لم ينتبه لمرور أحد الضباط الفرنسويين فيأخذ له السلام لذلك سجن ١٥ يوما مع الاشغال الشاقة وضرب ضربا أليما وطرد من وظيفته.

(٢٩) أدخل حسيب الخورى الجاسوس الفرية الآتية فى ذهن بعض رجال البعثة. وهى أن كل درزى يسعل فإنه يعنى بذلك أنه يلعن من يراه فى الطريق من خلاف مذهبه، ولما كان الإنسان لايستغنى عن السعال فى بعض الأحيان فقد أدت هذه الفرية إلى ظلم كثير من المساكين الذين أودعوا السجن وضربوا ضربا أليما، ومن جملتهم خزاعى الحلبى الذى بقى فى السجن شهرين تقريبا.

(٣٠) طرد الوكيل عبد الكريم أفندى حرب المشهود له بالأمانة والصدق والمتخرج من مدرسة الدرك بدمشق. وسبب طرده وشاية مخبر لأخذ وظيفته وقد سجن خمسة

عشر يوما مع الأشغال الشاقة وطرد من وظيفته.

(٣١) توقيف هلال نخله مدة خمسة وستين يوما نهارا بالأشغال الشاقة وليلا فى غرفة الفحم، وبقى فى أول الأمر خمسة أيام من غير أكل ولاشرب، بل على الماء والملح إلى أن أشرف على الموت. وقد هدده الليوتنان موريل والمسدس بيده كى يشهد على بعض الموظفين أنهم يتناولون الرشوة.

(٣٢) إن معلمى المدارس الذين يتقاضون الرواتب الباهظة من صندوق الحكومة لتعليم الأولاد تركوا واجبهم هذا ودخلوا فى سلك الجاسوسية المريح تحت رياسة جاسوسهم الأكبر فيليب حتى معلم صلخد، واستبد كل معلم بقريته واتخذ لنفسه صفة الحاكم وغدا يضرب ويسجن ويغرم حتى ضجرت النفوس.

(٣٣) أصدر الكابتن أمره بمنع الأهالى من دخول بيوت الزعماء واحتقاره الرؤساء وتطاوله عليهم بالشتم والقذف، وتهديده رئيس محكمة البداية وضربه العضو النيابى - كل ذلك مما آلم النفوس وأحفظها.

(٣٤) احتكاره جميع الصلاحيات المعطاة لرؤساء الدوائر والدرك حتى أن العدلية أصبحت اسما من غير مسمى - إذ لم يكن لها حكم إلا بعد صدور الإرادة الكاربنية.

(٣٥) سجن مختار قرية عاهرة فياض الطرودى ستة أشهر ونصفا من غير أن يعلم جرمه وذلك لوشاية مفسد، وقد قضى جميع هذه المدة فى الأشغال الشاقة. انتهى.

الجنرال يميل إلى الغدر

وفى يوم ١١ يوليو أرسل الجنرال سرايل إلى مندوبه بدمشق الكتاب السرى الآتى:

«أرجو منكم أن تدعو إلى دمشق المحرضين (الدروز) وبينهم حمد بك ونسيب بك ومتعب بك وعبد الغفار وسلطان باشا الأطراش بحجة أنكم تريدون استماع شكواهم ومطالبهم حتى إذا حضرو أبلغتموهم اننى أعدهم مسئولين عن كل اضطراب يقع فى الجبل وأبقيهم ضمانا عندى فى مكان يحتم عليهم الإقامة وستعنون أنتم بإبلاغى اسم المكان الذى يختار لهذا الغرض».

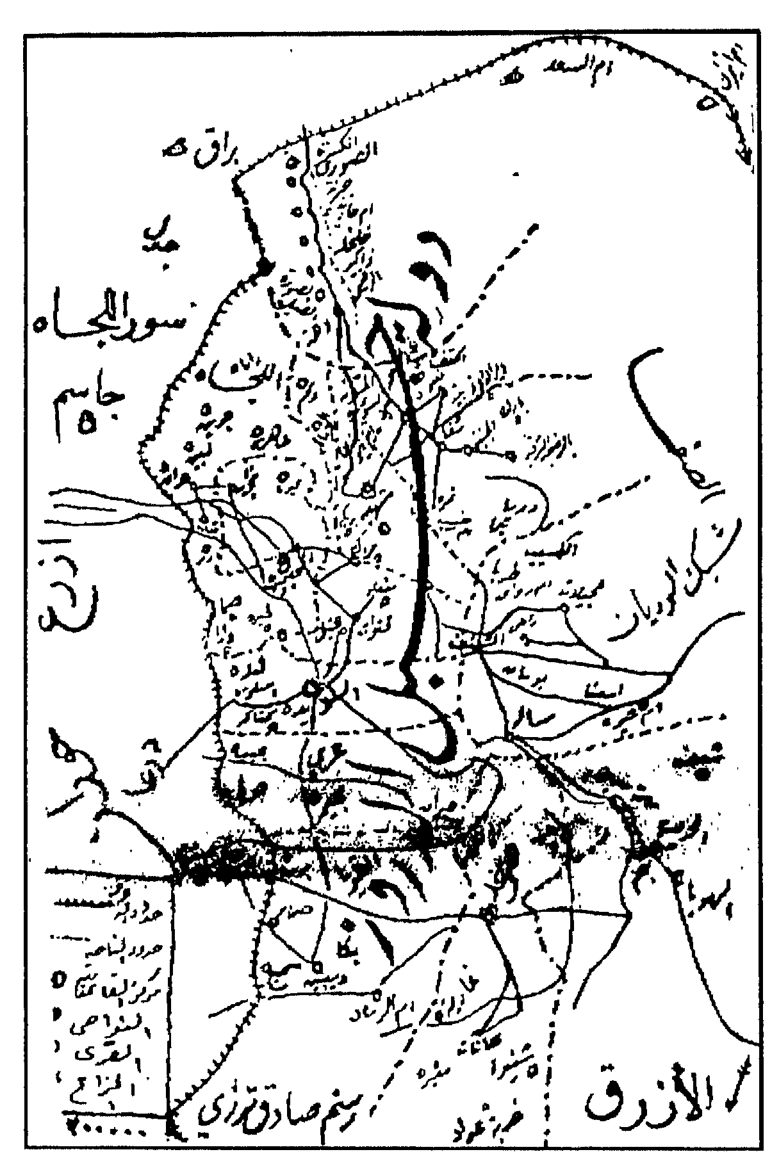
وعملا بهذا الأمر أبلغ الكومندان تومى مارتان الأمير حمد وعبد الغفار ونسيبا أن الجنرال يرغب فى مقابلتهم فلما بلغوا دمشق قبض عليهم وأرسلوا منفيين إلى تدمر.

ثم قبض بعد أيام على كل من برجس الحمود وعلى الأطرش وحسنى صخر وعلى عبيد ويوسف الأطراش وأرسلوا منفيين إلى الحسجة.

الغدر بسلطان باشا

وأرسل الكومندان تومى مارتان - عملا بأمر الجنرال سرايل - إلى سلطان باشا يدعوه إلى زيارته فأجاب معتذرًا لأنه أدرك أنه إذا ذهب لايعود فكرر الطلب فكرر الرفض والاعتذار. فارسل إليه أربعة ضباط فرنسويين مع قوة صغيرة بقيادة الكبتن نورمان لإقناعه بالقدوم، وللقبض عليه إذا استطاعوا - ولما وصلوا إليها كان سلطان باشا فى قرية رساس وهو على تمام الاهبة، وقد جمع حوله كثيرا من الرجال أثناء طوافه القرى - استعدادا للنضال.

وحاول الفرنسو يون دخول قرية «القرية» مقر سلطان باش فحذرهم شقيقه على من خطر التورط فرحلوا إلى الكفر ونزلو على مائها - وكان عددهم ١٩٠ جنديا - وأخذوا فى غسل ثيابهم وإصلاح شؤونهم فأنذر أسعد مرشد شيخ الكفر الكابتن نورمان قائد الحملة ثلاث مرات بوجوب الحذر ومغادرة المكان فترفع إلى مكان وعر مستدير يشرف على الطرقات وأبى الخروج.



خريطة تبين مواقع القتال فى جبل الدروز

ـ ٥ ـ

معارك الجبل الأولى

الهجوم على دار البعثة فى صلخد ـ معركة الكفر ـ يوم المزرعة

لما جاءت الأخبار إلى الجبل بأن السلطة اعتقلت الزعماء ونفتهم، وإنها شارعة فى اتخاذ تدابير عسكرية، وعازمة على إعادة كربيه بالقوة، بدأ سلطان باشا الأطرش يطوف القرى لجمع الجموع وإضرام الحماسة فى الصدور فزار أم الرمان فامتان فملح، وكان يصُف رجاله عند وصوله إلى القرية التى يقصدها، ويرتبهم ترتيبا يلفت الانظار ثم ياخذون جميعا فى اطلاق العيارات النارية فى الفضاء، ويهزجون أهازيجهم الحماسية فتستقبلهم القرية بأكملها وينضم إليهم رجالها وشبانها.

وقصد قرية عرمان وهى من قرى الدروز الكبرى فانضم إليه أبناؤها، وساروا تحت لوائه فقرر الزحف على صلخد لحرق دار البعثة الفرنسوية فيها، وكانت خالية من الموظفين الذين أسرعوا باللحاق إلى السويدا فنفذ القرار وأحرقت الدار.

وعلم وهو فى صلخد أن الجنود زحفت فى طلبه، وأنها ارتدت إلى قرية الكفر وعسكرت فيها . فأسرع بمن معه إلى لقائها وهاجمها برجاله من ناحيتين وحملو عليها بالسلاح الأبيض فقضوا عليها بسرعة، ولم يفلت منها سوى أفراد وصلوا إلى السويدا وقصوا على تومى مارتان ماوقع. وخسر الثوار أربعين شهيدا منهم مصطفى الأطرش شقيق سلطان باشا وإسماعيل نجل جاد الله الأطرش.

وأسرع تومى مارتان فحمل المال ولجأ إلى قلعة السويدا بمن عنده من الموظفين الفرنسويين ونسائهم، وانضم إليه ثلاثة من الدروز أقاموا على الولاء لفرنسا ودخل سلطان باشا السويدا وضرب الحصار على القلعة.

معركة المزرعة

اضطرب الجنرال سرايل حينما جاءه نبأ الكارثة التى نزلت بحملة نورمان وبحصار السويداء فأمر بتعبئة حملة عسكرية كبيرة فى أذرع (أحدى محطات السكة الحديد بين

درعا ودمشق) وتبعد عن هذه ١٠٣ كيلو مترات جنوبا، وهى مناوحة لسويدا من جهة الغرب وبينهما ٣٥ كيلو مترا، للزحف على الجبل والقضاء على الحركة الجديدة. وعهد بالقيادة العامة للحملة إلى الجنرال ميشو وجهزها بالطيارات والدبابات والمدفعية القوية.

وغادرت يوم أول أغسطس سنة ١٩٢٥ أذرع إلى السويدا - ولا يقل عدد رجالها عن ثلاثة آلاف مقاتل - فوصلت إلى ماء نجران فى المساء فنزلت عليه، فصدمها بعض الدروز وحاولو منعها فلم يفوزو فارتدوا إلى قراهم. والتقى عند المساء ما بين قريتى الدور وقصر الحرير عدد من الدروز لايزيدون عن المائتين، بساقة الحملة حيث الذخائر فى الطنابر وعلى ظهور البغال تحرسها الفرقة السورية فانقضوا عليها انقضاض الشواهين وأعملوا السيف فى رقابها والحراب فى نحورها، وفتكوا بها فتكا ذريعا واستولوا على البغال والطنابر والذخائر، واستاقوها أمامهم إلى القرى القريبة مبشرين بالنصر والظفر واكتساب الغنائم. فشجع ذلك سكان هذه القرى، وأضرم فى صدورهم نار الحماسة كما حرك فيهم شهوة حب الكسب والربح فاندفعوا فى الصباح لمنازلة الحملة، وكانت قد بلغت المزرعة فى تقدمها وهى على ١٧ كيلو مترا من السويدا.

وصدم فرسان الدروز الحملة صدمة شديدة فذعر رجالها، ولجأوا إلى متاريس أقاموها للدفاع عن أنفسهم واشتد القتال، وأعوزت الجند الذخائر وكانت فى يد الدروز - كما اشتد عليهم العطش والماء قليل فى الجبل بطبيعته، واليوم من أيام أغسطس الشديدة الحر، فانهزموا شر انهزام تاركين أسلحتهم ومعداتهم، وعادوا إلى أذرع يسابق أقصاهم أدناهم ولايقل عدد الذين قتلوا منهم فى ذاك اليوم عن ألف وخمسمائة غنم الدروز سلاحهم وذخائرهم ومعداتهم وكل ماكان معهم.

واستشهد من الزعماء فى هذا اليوم حمد البربور من أم الرمان، وكان من أخلص أنصار سلطان باشا وكان آية فى الشجاعة، وأخوه أجود وابن عمه أحمد وسليمان العقبانى من قرية السجن فقد كان ينفرد عن اخوانه، ويكر على فرسه فى أثناء المعركة ويقول اشهدوا اشهدوا ثم يكر على الجند. فيضرب الواحد منهم بسيفه ضربة كثيرا مابترت عنقه أو شطرته شطرين وقد قتل بهذه الطريقة ١٨ منهم إلى أن أصابته رصاصة فخر صريعا. وبلغ عدد قتلى الدروز ٢٥٠ وحطم فرسان الدروز فى هذا اليوم أيضًا خمس دبابات فرنسوية حرقوها وقتلوا سواقيها ومساعديهم بالمسدسات من كواها أثناء هجومها

عليهم كما عطلوا عددا غير قليل من المدافع الضخمة ذات عيار ٥ : ١٠ و ٥ : ٧ واستولوا على عدد كبير من الرشاشات وكميات كبيرة من البنادق. ولم ينج الجنرال ميشو نفسه إلا بشق الأنفس على متن دبابة.

وأسقط فى يد الجنرال سرايل حينم جاءه نبأ فشل الحملة، وكان يعلق على فوزها أعظم الآمال، فأبرق إلى باريس يطلب نجدات بسرعة. لأنه لم تبق لديه قوات تذكر. كما حاول كتم الخبر عن المناطق السورية، وانصرف من الجهة الأخرى إلى التفاهم مع الدروز، فارسل يوم ١٢ أغسطس وفدا من دروز لبنان وصل إلى السويدا وقابل الزعماء داعيا للصلح والسلام وقضى معهم أياما ثم عاد إلى بيروت يحمل شروطهم إلى الجنرال سرايل وهى:

١ - إقالة الكبتن كربيه.

٢ - يقبل الدروز حاكما فرنسويا بشرط أن يختاروه بأنفسهم.

٣ - لايعاقب أحد مابتهمة العصيان ولاتصادر أسلحته.

٤ - يوضع دستور خاص لجبل الدروز.

وبعدما اطلع على هذه الشروط. قال إنه مستعد لوقف الأعمال العسكرية ضمن الشروط الآتية:

١ - أن يدفع الدروز خمسة آلاف جنيه إنكليزى تعويض عسكريا.

٢ - أن يعوضوا على تجار السويدا مالحق بهم من خسارة بسبب الحوادث الأخيرة.

٣ - أن يعيدوا ماغنموه من سلاح.

وأطلق الجنرال سرايل على الأثر سراح الدروز الثمانية الذين كانوا معتقلين فى تدمر والحسجة فعادوا إلى الجبل واشتركوا فى الأعمال الجديدة.

ـ ٦ ـ

دمشق وثورة الجبل

كان هنالك اتصال وثيق بين زعماء دمشق وزعماء جبل الدروز وكانت بينهما عقود ومواثيق تقضى بتعاونهما فى العمل لإنقاذ البلاد وتحريرها.

وبيان ذلك أنه لما يئس الدروز من الفرنسويين وأدركوا أنه لا أمل فى تبديل سياستهم وجهو وجههم شطر دمشق. فجاء الأمير أحمد الأطرش فى أول شهر مايو سنة ١٩٢٥ واجتمع سرا بالدكتور عبد الرحمن الشهبندر زعيم حزب الشعب فى منزل قاسم الهيمانى فدار البحث على حالة سورية وموقف الفرنسويين ومايجب عمله لانقذ البلاد. فأظهر الدكتور رغبته فى الاجتماع بإخوان الأمير وأبناء عمه وذوى الحل والعقد فى الجبل فجاء منهم عبد الغفار ونسيب ومتعب الأطرش والشيخ يوسف العيسمى وغيرهم كثيرون وعقدوا اجتماعين سريين فى منزل الدكتور، وبعد البحث والمداولة تحالفوا بأقدس الأيمان وتعاهدوا وهم وقوف على أن يدافعوا عن استقلال بلادهم حتى النفس الأخير، ورجع الدروز بعد ذلك إلى جبلهم لإعداد معدات الثورة. كما انصرف الدكتور إلى تهيئة أسبابها وإعداد المعدات لها متعاونا مع إخوانه وأنصاره.

دمشق ترسل وفدا إلى الجبل

ولما وقع ماوقع فى الجبل وهزمت حملة ميشو وتشتتت وأرسل الفرنسويون وفد دروز لبنان إلى الجبل ليسعى للصلح والتوفيق، انتدب حزب الشعب فى دمشق ثلاثة من رجاله هم أسعد البكرى وتوفيق الحلبى وزكى الدروبى للسفر إلى الجبل والاتصال بزعمائه وإبلاغهم أن دمشق وسورية مستعدة لتأييدهم فى ثورتهم طبقا للاتفاق القديم، ولكى يحولو دون انشاء تفاهم بين الفرنسويين والدروز فوصلو إلى السويدا يوم ١٧ أغسطس فى نفس الساعة التى وصل فيها الكابتن رينو مندوب الجنرال سرايل ليفاوض الزعماء فى عقد الصلح فقابلوا هؤلاء وأقنعوهم بوجوب مواصلة النضال، واتفقوا معهم على أن يزحفوا صباح ٢٣ أغسطس إلى الكسوة وتبعد من دمشق ١٨ كيلو مترا من جهة الجنوب فيخرج

٢٠٠ فارس من هذه، وينضمون إليهم ويدخلونها معا .

وعاد المندوبون الثلاثة إلى دمشق يوم ١٨ منه، فأبلغوا زعماء الحركة ماتم الاتفاق عليه بينهم وبين الدروز، فعقد هؤلاء اجتماعا فى منزل الحاج عثمان الشراباتى ليلة ٢١ منه دام الليل بطوله ،وانتهى باتفاق الكلمة على توحيد العمل مع الدروز والاشتراك فى الثورة، وعلى أن يخرج قادة الحركة الوطنية صباح ٢٣ منه إلى الكسوة للقاء فرسان الدروز القادمين. وقد حضر هذا الاجتماع التاريخى الدكتور عبد الرحمن شهبندر وفوزى ونسيب البكرى وحسن الحكيم وجميل مردم بك وغيرهم.

وفى مساء ٢٢ منه غادر الدكتور شهبندر دمشق ومعه نزيه المؤيد العظم إلى قرية حوش متبن حيث تقرر أن يجتمع قادة الحركة ويقصدوا الكسوة فى صباح ٢٣ منه فلم يوافه سوى القائد يحيى حياتى والظاهر أن الباقين تأخروا لضيق الوقت. مما اضطر الدكتور أن يغير خطته، خوف الوقوع فى شرك الفرنسويين فذهب مغربا حتى بلودان، وتبعد عن دمشق ٣٥ كيلو مترا، ومن هنالك عاد إلى جبل الدروز بطريق غوطة دمشق فالتقى بجميل مردم وسعد الدين المؤيد فى الحوش فقصدوا الجبل واجتمعوا يوم ٢٥ منه بسلطان باشا وإخوانه فى قرية كفر اللحى، واتحد الكل فى العمل وكان من القواعد التى تم الاتفاق عليها أن لايعقد الجبل صلحا منفردا عن دمشق ولاتعقد دمشق صلحا لوحدها .

الفرنسويون يطاردون حزب الشعب

تلقى الفرنسيون من جواسيسهم فى جبل الدروز تفاصيل مادار بين مندوبى دمشق وبين زعماء الجبل، وعرفوا أنهم هم الذين أحبطوا خططهم وتدابيرهم فأصدر الجنرال سرايل يوم ٢٦ أغسطس أمرا باعتقال الهيئة الإدارية لحزب الشعب، ومصادرة أوراقه واغلاق ناديه. فقبض على فوزى الغزى وفارس الخورى وإحسان الشريف وعبد المجى الطباخ من رجال الهيئة وأرسلوا فى الغداة إلى أرواد وقبض أيضا على توفيق شامية وعثمان الشراباتى وعمر الطيبى وأرسلوا يوم أول سبتمبر بسيارة إلى الحسجة (دير الزور) أما حسن الحكيم وسعيد حيدر فأفلتا من الشرك وسافرا إلى زحلة وغادراها متنكرين إلى جبل الدروز فانضما إلى الدكتور شهبندر وجميل مردم. ولحق بهم على الأثر فوزى ونسيب وأسعد البكرى.

الهجوم على دمشق

قلنا آنفا إن الاتفاق تم بين مندوبى دمشق وزعماء الجبل على أن يجرد هؤلاء حملة تصل إلى الكسوة صباح ٢٣ أغسطس فيستقبلها المجاهدون الدمشقيون ويعودوا معها إلى دمشق ويدخلوها. ونقول الآن إن خبر هذا الاتفاق وصل إلى السلطة الفرنسوية فأعدت المعدات لإحباطه فنصبت الأسلاك الشائكة فى شوارع دمشق وأحيائها وبثت المتراليوزات فى الأسواق ـ كما حشدت القوى وسيرتها لمنازلة المغيرين. ولما جاء هؤلاء فى الوقت المعين، وكان عددهم قليلا لأن سلطان باشا لم يوفق إلى حشد عدد أكبر التقوا قرب جبل المانع بقوات الفرنسويين فدار قتال بينهما اشتركت فيه الطيارات الفرنسوية، وانتهت بعودة القادمين إلى الجبل، وأصدر قلم المطبوعات الفرنسوى يوم ٢٧ أغسطس بلاغا قال فيه إن قوة يتجاوز عددها الآلف والخمسمائة من الدروز والبدو زحفت على دمشق، ولما وصلوا صباح ٢٤ منه إلى ضواحى قرية «العدلية» فوجئوا بسماع أزيز الطيارات الفرنسوية فطارت فوق رؤوسهم وأمطرتهم قنابلها كما هاجمتهم فرقة الخيالة المراكشية وردتهم فعادوا إلى جبلهم بعد ماحبطت خطتهم.

وانصرف الزعماء فى خلال الأسبوع الأول من شهر سبتمير إلى إعدد حملة كبيرة تزحف إلى دمشق يقودها يحيى حياتى، وكان من رأيه أن تنقسم إلى ثلاثة أقسام فتدخل العاصمة من ثلاث جهات، وأن لايقل عدد رجالها عن الخمسمائة فارس. وحال دون تنفيذ هذه الخطة عدم اجتماع العدد المطلوب.

ـ ٧ ـ

طلبات الثورة وأغراضها

بلاغات سلطان باشا ومنشوراته

لما أصبحت الثورة حقيقة واقعة، وتم الاتفاق على توحيد العمل بين دمشق والجبل أذاع سلطان باشا الأطرش يوم ٢٣ أغسطس سنة ٢٥ النداء الآتى إلى السوريين كافة:

ـ ١ ـ

إلى السلاح إلى السلاح

يا أحفاد العرب الأمجاد! هذا يوم ينفع المجاهدين جهادهم، والعاملين فى سبيل الحرية والاستقلال عملهم، هذا يوم انتباه الأمم والشعوب فلننهض من رقادنا، ولنبدد ظلام التحكم الأجنبى عن سماء بلادنا. لقد مضى علينا عشرات السنين ونحن نجاهد فى سبيل الحرية والاستقلال، فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد أن سكت القلم، ولايضيع حق وراءه مطالب.

أيها السوريون! لقد أثبتت التجارب أن الحق يؤخذ ولايعطى فلنأخذ حقنا بحد السيوف، ولنطلب الموت توهب لنا الحياة.

أيها العرب السوريون

تذكروا أجدادكم وتاريخكم وشهداءكم وشرفكم القومى، تذكروا أن يد الله مع الجماعة، وأن إرادة الشعب من إرادة الله وإن الأمم المتحدة الناهضة لن تنالها يد البغى.

لقد نهب المستعمرون أموالنا واسستأثروا بمنافع بلادنا، وأقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد، وقسمونا إلى شعوب وطوائف ودويلات، وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير، وحرية التجارة والسفر حتى فى بلادنا وأقاليمنا.

إلى السلاح أيها الوطنيون، إلى السلاح تحقيقا لأمانى البلاد المقدسة، إلى السلاح تاييدا لسيادة الشعب وحرية الأمة، إلى السلاح بعد ماسلب الأجنبى حقوقكم واستعبد

بلادكم ونقض عهودكم ولم يحافظ على شرف الوعود الرسمية وتناسى الأمانى القومية.

نحن نبرأ إلى الله من مسئولية سفك الدماء، ونعتبر المستعمرين مسئولين مباشرة عن الفتنة، ياويح الظلم، لقد وصلنا من الظلم إلى أن نهان فى عقر دارنا فنطلب استبدال حاكم أجنبى محروم من المزايا الإنسانية، بآخر من بنى جلدته الغاصبين فلا يجاب طلبنا بل يطرد وفدنا كما تطرد النعاج.

إلى السلاح أيها الوطنيون ولنغسل إهانة الأمة بدم النجدة والبطولة: إن حربنا اليوم هى حرب مقدسة ومطالبنا هى:

١ ـ وحدة البلاد السورية ساحلها وداخله، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة، مستقلة استقلالا تاما.

٢ – قيام حكومة شعبية، تجمع المجلس التأسيسى لوضع قانون أساسى على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة.

٣ ـ سحب القوى المحتلة من البلاد السورية وتأليف جيش محلى لصيانة الأمن.

٤ ـ تأييد مبدأ الثورة الفرنسوية وحقوق الإنسان فى الحرية والمساواة والإخاء.. إلى السلاح ولنكتب مطالبنا المشروعة هذه بدمائنا الطاهرة كما كتبها أجدادنا من قبلنا.

إلى السلاح ـ والله معنا والإنسانية معنا ـ ولنحيا سورية حرة مستقلة.

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة الوطنية السورية العام.

ـ ٢ ـ
منشور عام إلى أخواننا السوريين

باسم الوطن السورى المقدس، وباسم استقلاله المبارك، أحييكم وأحيى فيكم العروبة الصادقة، والأنفة القومية، وأستصرخ منكم أمة عربية مشت على مناكب الدهر محمية الذمار، ماحملت عارا ولاكان بحماها قرار. أستنفركم لحومة الجهاد الوطنى. ياخير من حمى الوطن وكنتم عنه ذادة أبطالا، ونفرتم إلى موطن الشرف القومى خفافا وثقالا.

وأناديكم من معاقل الجبل المنيع، وهو داركم وسلاحكم، وحرزكم وملاذكم، أن هبوا إلى المنافحة عن أوطانكم، أوطان آبائكم وأجدادكم، وحطموا أغلال الاستعمار فى دياركم، فقد هبت رياحكم فاغتنموها، ودرت ضروع أيامكم فاحلبوها:

وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان
وفى الشر نجاة حين لاينجيك إحسان

أما بعد أيها المواطنون العرب: إن ثورتنا الدموية هذه هى بعروتها وزرها ثورة القائم لتحرير البلاد من المغتصبين المستعمرين. هى ثورة سورية بعيدة المدى شريفة الغاية. نضابها النفوس والأرواح، والسلاح والعزمات الصادقات، خالصة لوجه الاستقلال العربى. ففى سبيل استقلال بلادنا السورية حياة الأعزة نحيا، وفى هذا السبيل موت الكرام نموت.

لقد أوقدنا نار هذه الثورة الاستقلالية، بعد أن رزحت البلاد تحت كابوس الاستعمار أعواما خمسا ثقالا، ولسنا بتاركين من أيدينا سلاحا، ولاباغين من الفرنسيس سلما ولا اصطلاحا، حتى نبلغ بحد الحسام تمام المراد، وهو تخليص كامل البلاد السورية العزيزة من احتلال المحتلين، ونحن على مثل اليقين أن الوصول إلى هذ الغاية من السهل المستطاع، ولاسيما وهى الغاية التى تفتديها الأمة بما عز لديها وهان. فلذلك أدعو سائر البلاد السورية، ساحلا وداخلا، سهلا وجبلا، لقدح زناد الثورة العامة فى وجه الفرنسيس.

فمن أجاب هذه الدعوة الوطنية وسارع إلى القيام بهذا الواجب فهو العربى المخلص الأمين، ومن تقاعس عن ذلك فهو الخائن لأمته وبلاده وسيلقى جزاء الخائنين.

فهيا أيها العرب الأماجد، أهل النجدة والنخوة، وحدوا مساعيكم، وتعاقدوا بقلوبكم، وتقلدو سلاحكم، وانشروا ألويتكم، واركبو خيولكم، وصابحوا العدو الجائس خلال دياركم، ببارود الثورة، وخذوا عليه الطرق، وارصدو له فى المكامن وقطعوا الأسلاك، وانسفوا الجسور، واهبطوا على مخافره فى كل مكان، واقتلوه حيث ثقفتموه، واغنموا سلاحه وأعتاده، وكونوا عليه جميعا يدا واحدة، واصبروا فى القتال والجلاد إن الله مع الصابرين.

لقد جاء اليوم لذى جاد الدهر به علينا لتنجية بلادنا، بلاد أولادنا وأحفادنا من بعدنا، من العدو الذى قد كفى ماأنزل بالبلاد من شر وخسارة، وبوار تجارة، وارهاق وتعذيب،

وقتل وتغريب، وهو اليوم فى بلادنا أضعف منه غدا، وأقل سلاحا وجندا، فقد توالت بميادين المغرب هزماته، ونكست فيها أعلامه وراياته، وهو اليوم فى الوطن السورى على حال أرق من الخيال، وأقرب مايكون من الزوال، ودوام حال من المحال، فسارعوا إلى يومكم، فهذا هو اليوم وهذا هو المجال، فالثورة العامة منجاة البلاد والعباد من الاستعباد.

وقد بلغنا إلى الآن من هذه الثورة العربية مبلغا عظيما محفوفا بالنصر مؤيدا بالظفر. فطردنا الفرنسيس من ديار الجبل وجواره، ونجد لدركهم فى مفرهم ومحو آثارهم، وقد كان لنا معهم معارك دموية ما الكلام عنها بمثل العيان.

فقتلنا جند العدو تقتيلا، وغنمنا أسلحته وذخائره، وأسرنا ضباطه وقواده، وأسقطنا من أعالى الجو طياراته، وافترسنا بالفوارس العربية دباباته، وأعلنا الحكومة العربية الموقتة لتقوم بتدبير البلاد، ريثما يتم طرد العدو فيجتمع إذ ذاك مجلس تأسيسى ليعين شكل الحكومة الذى تختاره الأمة، ورفعنا العلم العربى المربع الألوان على (السويداء) قاعدة الجبل، وفى السويداء رجال، وأقمنا الحكم، ووطدنا الأمور والآمال، بقوة من المولى المتعال.

وها قد أجمعنا أمرنا وأعددنا وواصلنا الزحف على قوات العدو فى كل جهة هو فيها حتى نأتى عليه، فلا نذره إلا أثرا بعد عين.

وهذا بلاغنا إلى جميع الموظفين على اختلاف درجاتهم ومراتبهم، أن يكونوا أمناء على وظائفهم وأعمالهم - على شريطة ألا يعاونوا السلطة المحتلة معونة قلت ماقلت فى جمع ضرائب ولاتجنيد ولاسوق عسكرى، ولا فى أى خدمة تكون للعدو نوعا من المدد والعون، فمن أقدم من أصحاب الوظائف الملكية أو العسكرية على هذا، عد خائنا للبلاد يعاقب عقاب الخيانة الكبرى.

ثم يجب على أولى الأمر بذل الجهد فلا يدعوا فى هذه الآونة العصيبة التى تجتازها البلاد فى حريق النار والدم مجالا لوقوع الاعتداءات، فيجب صيانة الأموال والنفوس ورعاية المصالح والمحافظة على الأقليات.

وتظل القوانين الحالية سارية مرعية الحرمة، ومن يجسر على ارتكاب الخيانة للبلاد وللثورة يحاكم عسكريا.

فإلى اليوم الذى لاح صبحه، وفيه تتحرر البلاد السورية العربية يأباة الضيم وعياف

الذل، إلى اليوم الذى تتوحد فيه البلاد مستردة استقلالها المسلوب.

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة الوطنية السورية العام

ـ ٣ ـ

الاسقلال يؤخذ ولايعطى   الحرية والمساواة والاخاء

يابنى الوطن

لاتنافس فى الأهواء، ولا خصومات ولا أحقاد طائفية بعد اليوم، إنما نحن أمة عربية سورية، أمة مستضعفة قوية فى الحق، قد انتبهت إلى المطالبة بحقها المهتضم، أمة عظيمة التاريخ نبيلة المقاصد. قد نهضت تريد الحياة والحياة حق طبيعى وشرعى لكل الأمم قد قسمها الاستعمار الأجنبي، فوحدتها مبادئ حقوق الإنسان، وأعلام الحرية والمساواة والأخاء، نعم ليس هناك درزى وسنى وعلوى وشيعى ومسيحى ليس هناك إلا أبناء أمة واحدة ولغة واحدة وتقاليد واحدة ومصالح واحدة. ليس هناك إلا عرب سوريون.

يا بنى الوطن: ليس لكم بعد الآن على اختلاف المذاهب والفئات إلا عدو واحد. هو الحكم العسكرى الجائر والاستعمار الأجنبى، فانفروا إلى إنقاذ البلاد من أوضاعها السيئة وارفعوا علم الاتحاد والتضامن والتضحية، إن حركتنا اليوم هى حركة مقدسة غرضها المطالبة بالحرية والاستقلال، وضمان حقوق البلاد على مبدأ سياسة الأمة فيتحد الدرزى والسنى والعلوى والشيعى والمسيحى اتحادا وثيقا، وليؤلف بين قلوبنا الإخاء القومى ومحبة الوطن، ولتكن إرادتنا إرادة حديدية واحدة.

إن قائد جيوش الثورة الوطنية السورية المقدسة يطلب إلى كل العرب السوريين:

١ ـ إعلان الإخاء الوطنى بين كافة الطوائف.

٢ ـ قيام الأحياء (الحارات) فى كل مدينة بصيانة الأمن الداخلى. كل بحسب جهته عند دخول جيوش الثورة الوطنية وانهزام المستعمرين.

٣ ـ تاليف دوريات ومخافر وطنية يمشى على رأسها الزعماء المخلصون المحترمون من

الأمة لتأسيس الاتصال الداخلى لحفظ الأمن وصيانة الأموال ومنع التعدى.

٤ - إرسال قوة محلية من المتطوعين إلى خارج المدينة أو القرية الاستقبال كتائب الثوار الوطنيين بالأهازيج الحماسية عند وصولهم. باعتبار جميع الأمة جيشا واحدا لهذه الثورة المقدسة.

هذه هى التعليمات التى يجب أن يتبعها الشعب العربى السورى فى المدن والقرى تأييدا للأخوة القومية والثورة الوطنية: ولتحيا سورية حرة مستقلة.

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة الوطنية السورية العام

- ٤ -

وألقت الطيارات الفرنسوية يوم ٢١ أغسطس رسلة بامضاء الكابتن رينو أجاب عليها سلطان باشا بالجواب الآتى:

تتهمنا الرسالة أننا لم نفِ بالوعد بقولها إننا استسلمنا للنفوذ الأجنبى فقبلنا فى منطقتنا عصابات مسلحة وشاركناها بالهجوم على دمشق: إننا لانسمح لأى نفوذ أجنبى مهما كان نوعه أن يمتد إلى منطقتنا، لأننا من طلاب الاستقلال، وطلب الاستقلال لايتفق بوجه من الوجوه مع طلب النفوذ الأجنبى، وإذا عبرت منطقتنا بعض العصابات المسلحة فإنما هى عصابات أبناء عمنا سمعت بالضيم المشين الذى أصابنا من أمثال الكابتن كربيه فخفت لمساعدتنا، وهى عادات العرب تنفر لرفع الضيم عن ذويها منذ ألوف السنين، وأما كون الدمشقيين الذى هم أكبر أنصار الحرية والاستقلال هزأوا بنا وانسلخوا عنا. فهو كلام الواشى الذى يريد إلقاء بذور الشقاق بين أفراد الأسرة الواحدة.

تتهمنا الرسالة بالإبطاء والمماطلة وهى تهمة خالية من البراهين، لأن كل من عرف أحوال الجبل ووعورة مسالكه وصعوبة مواصلاته يدرك تعذر إنجاز الاتفاقات بالسرعة الواجبة، وأما اطلاق النار على الطيارات فليس بالأمر الغريب، لأن أولادنا الذين لهم شغف بالرماية لايملكون نفوسهم عن الرمى حين يرون مثل هذه الآلات الغدارة التى جعلت اسم المدنية الحديثة هزءا وسخرية، تحلق فى سماء الجبل الآمن - ثم - إن شتم العمال الذين

جاءوا لدفن الموتى فى ساحة القتال، هو أمر لانعلم منه شيئا. بل نحن بالعكس من ذلك مستعدون في كل آن لتسهيل دفن هؤلاء المساكين الذين ذهبوا فى سبيل المطامع الاستعمارية. وذكرت الرسالة تخريب خط الهاتف بين بصرى وأذرع ومهاجمة محطة خربة الغزالة، إن تخريب خط الهاتف ليس بمستغرب بل بقاؤه فى بلاد تلاشت السلطة منها هو من الغرابة بمكان، ونحن لم نأمر أحدا قط أن يتعرض لخربة الغزالة أو لغيرها، وإذا جرى شيء من ذلك فيكون على أيدى العصابات التى تسرح فى طول تلك البلاد وعرضها.

وقالت الرسالة: إن دولة فرنسا المعروفة فى التاريخ بالإنسانية والشرف والرحمة مستعدة أن تعفو، إننا نرد كلمة العفو ردا مطلقا. لأننا طلاب عدل وانصاف والذين طلبوا فى بادئ الأمر تغيير موظف فرنسوى أجمع أهل الأرض والسماء على فساد سيرته الشخصية والعمومية وتعيين موظف فرنسوى آخر مكانه لايستحقون كلمة العفو بل يستحقها الذى سببوا بما أسدوه من النصائح الطائشة للجنرال سرايل سفك هذه الدماء البرئية على جانبى الطريق المؤدية إلى موقع المزرعة. ثم تذكر الرسالة رغبة كاتبها فى حقن الدماء بين أمتنا والأمة الفرنسوية، وتسألنا هل لنا مصلحة حقيقية فى دوام الحرب؟. إننا من أحرص الناس على السلم وأكرههم للحرب مالم يكن لها مبرر شريف كالمبرر الذى ألجأنا إلى امتشاق الحسام بعدما طفح الكيل. بل صرنا لانحجم عن أن نمد يدنا لمن يمد لنا يده بعد مايعترف بحقوقنا الصريحة المشروعة المنشورة فى بياناتنا. وقد علمتنا الاختبارت الماضية أن العهود قصاصات تلقى تحت الأرجل. فهل تقدم لنا الضمانات الكافية ياترى إذا نحن عاهدنا وعقدنا الاتفاقات التى تضمن مصلحة الطرفين؟. إننا نطلب مثل هذه الضمانات على مذاكرات الصلح، ومادام هذا الشك فى الانفس فلا يتيسر الاطمئنان ولاتحصل الثقة المتبادلة. فعلينا أن نواجه الحقائق كما هى ونستكشف الدواء الناجع للأمراض الماضية التى أدت إلى الحالة الحاضرة المؤسفة.

إن كل تدبير موقت سينتهى بالفشل، ولابد من وضع أسس ثابتة ترضى أهل البلاد إرضاء تاما من جهة، ولاتضير دولة الجمهورية من جهة أخرى، وهذا الأمر لايتعسر إذا كان وراءه حسن النية وإعطاء الضمانات التى لاتحتمل شكا.

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة الوطنية العام

وأرسل سلطان باشا يوم ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٥ برقيات إلى رئيسى الوزارة الإيطالية والبريطانية ورئيس مجلس النواب الفرنسوى ووزير خارجية الولايات المتحدة وبعض الجرائد الأوروبية هذا نصها:

الدروز وعموم السوريين يقاسون أشد آلام الحكم العسكرى الفردى والظلم الإفرنسى منذ الاحتلال بصورة تهدد السلام دائما وتشعل نار الأحقاد بين الشرق والغرب.

إن القوات الفرنسوية التى تساق اليوم لخراب بلادنا وقتل الحرية ومبادئ حقوق الإنسان تضرب النساء والأطفال والشيوخ والقرى الآمنة بقنابل طياراتها ظلما وبغيا. وهذا مايضطرنا للدفاع عن كياننا وشرفنا حتى الموت. نحمل رجال فرنسا وحدهم مسئولية سفك الدماء البريئة. نستنجد بالأمم المتمدنة أن تبطل رق الشعوب بعد أن أبطلت رق الأفراد.

-٦-

ورد يوم ٢١ سبتمبر على نشرة ألقتها الطيارات الفرنسوية بالبيان الآتى:

تناولنا اليوم دعوتكم الكريمة إلى السلم مع القنابل المتفجرة من الطيارات فلم يزدنا هذا التناقض الغريب علما بالوضعية الحاضرة[1].

إن ماجاء فيها من التهديد المشرب بروح العطف يلفت الأنظار، لأن الجيش الذى اقتحمتم به سورية هو كطياراتكم من عادته عند سنوح الفرصة أن ينفذ صامتا خطط الفتح من غير التفات إلى عويل الأطفال وبكاء الأمهات.

تقولون قد اقتربت الساعة التى نعرف فيها قوى جيشكم ونتحمل فيها نتائج الثورة: إن إنكار بسالة الجيش الفرنسوى حينما كان يدافع فى الحرب العامة عن كيان فرنسا

١ ـ هذا نص الدعوة : «من الحكومة المنتدبة إلى سكان جبل الدروز ،
أيها الدروز
اقتربت الساعة التى تعرفون فيها قوى جيشنا، والتى ستتحملون فيها نتائج ثورتكم. لقد اختبرتم مضاء سلاحنا فى معركة المسيفرة، وإنه لواجب أن نذكركم أن فرنسا لاتقاتلكم وهى مدفوعة بعامل البغض، ولكنها تعاقب المجرمين كلا بحسب جرمه. إن الأشخاص ذوى البصيرة الذى يتركون منذ الآن السلاح ويقدمون خضوعهم سيكونون فى مأمن على حياتهم فيما إذا سلموا إلى أحد مخافرنا. وكذلك نضمن الحياة للشيوخ الذين يأتون إلى دمشق لتقديم خضوعهم ،
أيها الدروز
عودوا، إلى رشدكم وقدموا خضوعكم. إذ لايزال لديكم وقت للخضوع. القوا سلاحكم وتقلدوا بدلا منه المحراث لإنبات أرضكم. فذلك خير لكم ولمستقبلكم.

وحريتها هو إنكار الشمس فى رابعة النهار، ولكن الجيش القادم إلى جبل الدروز لتأمين الكابتن كربيه ومن حذا حذوه وتأييد لاستعمار بأفظع معانيه فى أمة آمنة كأمتنا هو غير الجيش الفرنسوى، ومن انقض على خصومه فى «الكفر» و«المزرعة» كما انقضضنا لايأبى أن يتحمل نتائج الثورة.

تذكرون مضاء سلاحكم فى معركة «المسيفرة» ولم تذكروا مضاء العزائم التى اغتنمت هذا السلاح فى عقر استحكاماتكم، وسحبت الخيول من أيدى أصحابها المقتولين فى سبيل الفتح والاستعمار، وإذا كانت فرنسا كما تقولون لاتقاتل مدفوعة بعامل البغض بل تعاقب المجرمين بحسب جرمهم فثقوا أننا لانقاتل إلا دفاعا عن الشرف القومى الذى عبث به موظفوكم، والحرية التى مات تحت أقدامها رجال ثورتكم الباهرة. أما مسألة المجرمين ـ الذين سودوا وجه الإنسانية بسيرتهم الخصوصية والعمومية، وجعلوا اسم الانتداب عارا وشنارا ـ فالأجدر أن نتركه إلى يوم الحساب.

تقولون إن الأشخاص من ذوى البصيرة الذين يتركون منذ الآن السلاح، يكونون فى مأمن على حياتهم. إن بين البصيرة وترك السلاح تناقضا ما كنا لندركه لو لم يكن له سابقة على عهد الحكومة الوطنية السورية لما أمنت بمواعيد أسلافكم فحلت جيشها فى أواخر يوليو سنة ١٩٢٠، وحكم على زعمائها بالموت فى أوائل أغسطس.

إن المؤمن لايلدغ من جحر مرتين، وقبل الوقوع فى مثل هذا الفخ عليكم أن تبيضوا الصفحات السود، وتعيدوا إلى الشرق حسن السمعة التى كنتم تتمتعون بها قبل أن تطأ أقدامكم هذا الوطن المقدس.

تدعوننا إلى إلقاء السلاح، وأن نتقلد بدلا منه المحراث، إننا ماحملنا السلاح إلا دفاعا عن هذ لمحراث الذى هو فخرنا. إننا نريد أن نحمل المحراث لنحصد منه الخير لنا ولأولادنا، ولكن إذا كانت ثمرة أتعابنا تذهب إلى بطون رجال أمثال من غرمونا آلاف القروش لفقد هرة فى «السويداء» وصفعوا أشرافنا وخيارنا لاستنزاف أموالهم فإن السلاح يكون خير ضامن لهذا المحراث.

إننا نرغب فى السلم من صميم الفؤاد، وإذا آنسنا فى خصومنا اليوم هذه الرغبة الأكيدة فإننا نمد إليهم أيدينا ـ نمدها ولكن على الشروط التى أذعناها للملأ فى منشوراتنا السابقة.

ـ ٨ ـ
المعارك الأولى فى الجبل الوغوطة

أعد الفرنسويون على أثر هذه الحوادث معدات الدفاع فى درعا وأذرع ودمشق، وحصنوا محطات السكة الحديد فى حوران وجاءوا من الشمال بكل ماكان عندهم من قوى ورجال.

وغادر الجنرال سوليه دمشق بسيارة، ومعه الكابتن دوكوتل لتفقد حالة الجند بين دمشق ودرعا، ولما وصل إلى قرب قرية المرجانية اعترضت سيارته حجارة فى الطريق، فوقف السائق لإزالتها فظهرت كوكبة من الفرسان وأطلقت نيرانها على السيارة فأمعنت فى الفرار ولكنها لم تكد تبلغ مرتفعا هنالك حتى ظهر أمامها رجال آخرون وجهوا إليها نيرانهم فجرح الجنرال فى فخذه الأيمن، والكابتن فى ذراعه وفخده، وأصيب السائق بكتفه ورغم ذلك فقد واصل السير حتى محطة المسمية فركب الجنرال القطار، وعاد إلى دمشق. وأرسلت السلطة على الأثر قوة عسكرية دمرت القرية وأحرقتها فلجأ سكانها إلى جبل الدروز.

استدعاء الجنرال ميشو

وفى يوم ٣ سبتمبر أذاعت وزارة الحربية أنها استدعت الجنرال ميشو من سورية للاطلاع على بعض التفاصيل، وأنها عينت الجنرال غاملان قائدا عام للجيش الفرنسوى فى الشرق[١].

ويقول الجنرل سرايل فى مذكراته عن الجنرل ميشو إنه ارتكب أخطاء، وإنه كان مثقلا بالمسئوليات. ولو كان لديه ثلاث فرق، كالفرق التى نعرفها فى الحرب العامة، والتى يستخدمها المارشال ليوتى فى المغرب الأقصى لتبدل تاريخ الثورة، ولكن الجنرل ميشو من مشاهير قواد فرنسا.

وفى يوم الأحد ١٣ سبتمبر وصل الجنرال غاملان إلى بيروت على ظهر مدفعية يحمل تعليمات تقضى عليه بالزحف إلى السويدا والقضاء على الثورة قبل أن يتسع

١ – كانت العادة عندهم قبل ذلك أن يجمعوا بين منصب المندوب السامى وقائد الجيش العام فى شخص واحد، وقد جروا على ذلك فى عهدى غورو وفيجان وفى أول عهد سرايل. فلما وقع ماوقع انتزعوا منه القيادة وعينوا لها الجنرال غاملان.

نطاقها فسافر إلى دمشق يوم ١٤ منه وعرض الحامية. وفى يوم ١٦ منه سافر إلى أذرع وتقلد قيادة الحملة المهيأة فيها.

معركة المسيفرة

وعرف قادة الثورة فى الجبل مايدبره الفرنسيون وأحاطوا علما بخططهم وكان بعض الوطنيين فى دمشق وبيروت يوافيهم يوميا بتقارير مفصلة عما يحدث فعقدوا اجتماعا فى قرية عرى لبحث الموقف، وبعد تردد وافقوا على أن يبيتوا الجيش الفرنسوى المرابط فى قرية المسيفرة من قرى حوران صبح ١٧ سبتمبر.

وقد نفذت هذه الخطة واشترك فيها نحو ٥٠٠ مجاهد، وما كان عدد قوى الفرنسويين فى المسيفرة يقل عن الألفين بقيادة الكابتن تاكيه.

وتقدم المجاهدون فى الوقت المضروب وقد اتفقو فيما بينهم على أن لايأتوا بحركة من شأنها تنبيه العدو إلا أن رصاصة أطلقها إبراهيم الأطرش وهو من المشكوك فى إخلاصهم للثورة لسابق صلته بالكابتن كرببيه، قبل وصول المجاهدين بخمس دقائق نبهت الحرس الفرنسوى فأطلق الأسهم النارية فى لفضاء فأنار الظلماء.

وانقض فرسان الدروز على الجند فأجلوهم عن مواقعهم واضطروهم إلى التوارى فى داخل البيوت وتغلغلوا فى وسط القرية واحتلوا القسم لشرقى منها.

وأشرقت الشمس والمعركة دائرة، وتلقى الفرنسويون إمدادات جديدة من هنا وهنالك ولجأ معظمهم إلى دائرة عميقة حولها الاستحكامات ومن ورئها السيارات المصفحة تدور لحمايتها وكانت قذائف الفريقين تصل إلى بئر القرية فتحول دون وروده.

وسكر المجاهدون بخمرة النصر فكف بعضهم عن القتال وانصرف إلى جمع الأسلاب والغنائم لاعتقاده أن المعركة انتهت، بيد أن وصول الطيارات الفرنسوية واشتراكها فى القتال غير اتجاه المعركة. فقد ألقت قنابلها على المجاهدين المنتشرين هنا وهنالك فذعروا وتشتتوا، وتراجع الذين أحاطوا منهم بالقرية كم تحصن الذين دخلوها فى البيوت حتى المساء فخرجوا متسترين بستار الظلماء، وفقد الفرنسويون فى هذه المعركة نحو ٩٠٠ قتيل وخسر المجاهدون نحو ٢٠٠ ولولا ماارتكبوه من هفوات فى هذه المعركة لتم لهم إجلاء الفرنسويين عن حوران كلها ولتبدل شكل الحرب.

معارك السويدا وعرى والمجمير ورساس

فى يوم ٢٣ سبتمبر مشى الجنرال غاملان بجيشه من أذرع قاصدا السويدا فرأى قادة الثورة أن يستدرجوه فدخلها ظهر يوم ٢٤ وأنقذ حاميتها.

وأرسلت الحملة قوة مؤلفة من ٤٠ جنديا مغربيا لو رود الماء فى قرية أم صاد فقبض عليهم الثوار وقطعوا الماء عن السويدا وبدأوا بإطلاق الرصاص عليها فى الظلام فخاف الجنرال غاملان العاقبة، وظن أن هنالك خطة مدبرة وخصوصا بعد ماجاءته الأخبار بظهور العصابات فى الغوطة وانتشارها حول دمشق. فغادر السويدا خلسة، ومعه تومى مارتان والحامية تاركا كل ماكان معه من عتاد ثقيل وسلاح كبير، وجاء فخيم فى المسيفرة واتخذها قاعدة لأعماله العسكرية فى الدور الجديد.

ويعد ما استراح نحو أسبوع زحف صباح ٢ أكتوبر بقوة من المسيفرة وتتألف من بضعة آلاف مقاتل تعززه ١٨ دبابة وطيارات ومدفعية قوية إلى قرية عرى وتقدم بلا مقاومة حتى قرب المجيمر فدنت ميمنتهم منه. بينما كان قلب جيشهم يزحف نحو تل الحبس بين عرى والمجيمر ونحو عرى نفسها.

ولما لم تكن القوة الدرزية في جهة المجيمر كافية للقيام بحركة واسعة لاكتناف ميمنة الفرنسوين، فقد قررت قيادتهم تمكين العدو من التوغل فى الانفراج الكائن بين عرى والمجيمر ثم مهاجمته فى الوعور والهضاب الكثيرة الواقعة فى شرقهما لأن الأراضى الواقعة فى الغرب سهلية لاتصلح لحرب العصابات.

وابتدأ القتال فى الساعة ٤٠ : ٩ من صباح ٣ منه بعد تمهيد عنيف بالمدافع فصب الفرنسويون قنابلهم من الطيارات والمدفعية على أماكن الثوار فثبتوا فيه وأصلوا أعداءهم نار حامية من تل المجيمر المشرف على السهل ومن تل عشان الواقع فى الجنوب ورابطت قوة صغيرة منهم فى تل الحبس. ولما صدت ميمنة الفرنسويين فى المجيمر عدل الجيش عن دخولها، واتجه نحو تل الحبس فاحتله كما احتل عرى نفسها وحمى الثوار نبع عرى ويبعد عنها ٤ كيلو مترات شرقا.

وشغل الثوار الجيش ليلة ٤ منه بإطلاق رصاصهم على معسكره من شمالى عرى وغربيها ومن المجيمر والوعور الغربية. ولما أصبح الصباح تقدم فرسان الجيش فى الساعة

الثامنة لاحتلال نبع عرى فصدهم الثوار وردوهم عنه وكانوا شديدى الحاجة إلى الماء.

وفى الساعة العاشرة أخذت قوى الثوار تدنو من عرى قادمة من الشمال والغرب فجلا الفرنسويون عن تل الحبس وتجمعوا فى عرى، وأخذ جيشهم يمتد شرقا نحو رساس متجنبا فى زحفه الأماكن الوعرة ثم اتجه نحو الشمال قليلا ليكون زحفه فى السهل المنبسط بين رساس والسويدا فبلغ الأولى ودخلها بلا مقاومة. وهاجم الثوار ساقة الجيش وأرسلو قوة بقيادة نسيب الأطرش للاستيلاء على عري، ولتهديد خط رجعة الجيش فقتل قائد القوة بعد مااستولى على عرى، وغنمت قوة من الثوار بقيادة زيد الأطرش غنائم كثيرة مما كان يرسله الفرنسويون إلى جيشهم.

واستسلم للحملة لفرنسوية عند دخولها عرى الأمير حمد الأطرش خوفا على داره وأثاثها، فهدر آل الأطرش دمه بعد ماعزلوه من الإمارة، ونادوا بالأمير حسن نجل يحيى الأطرش مكانه.

ودخل الفرنسويون قرية رساس ودمرو دار شيخها متعب الأطرش. وصمد لهم الثوار فى خارجها وحالو بينهم وبين احتلال الهضاب القريبة منها ماخلا تل رساس الوقع فى شرقها الجنوبى، وفى صباح ٥ منه زحفت قوة من فرسان الجيش لايقل عدد رجالها عن الخمسمائة إلى كناكر لو رود الماء لأن قلته فى رساس ضايقتهم فصدمها الثوار وهى عائدة صدمة شديدة، وغنموا منها خيلا فلزم الفرنسويون مراكزهم فى رساس.

ورأى الجنرال غاملان أن بقاءه هنا يعرض جيشه لخطر كبير فقرر الرجوع إلى حوران ويدأ تراجعه فى صباح ٨ منه بحماية المدرعات والطيارات فتركه الثوار يسير حتى بلغت مقدمته قرية كناكر فصبوا عليه نيرانا حامية من مسافات قريبة لايزيد بعضها عن ٣٠٠ متر، كما أصلته مدفعيتهم نارا حامية، وحملت عليه قوة كبيرة من الخلف فوقع الذعر فى الساقة وانقلب الانسحاب إلى هزيمة. فرأى الجنرال أنه ليس فى إمكانه بلوغ بصرى اسكى شام كما كان مقررا، فاتجه إلى الشمال فأمسك عليه الثوار الطرق المؤدية إلى أذرع وبصرى الحرير ولم يتركوا له سوى طريق المزرعة. فانتهى به التسيار إلى قرية الثعلة فقضى ليلته فيها. وغادرها فى صباح ٩ منه متجها إلى الشمال فبلغ ماء المزرعة بلا مقاومة. ولما أراد أن يسلك طريق بصرى الحرير وجدها مسدودة ورأى قوى الثوار محدقة به من الجوانب الثلاث ووجد نفسه بين أمرين فإما أن يشق لنفسه طريقا إلى الأمام وإما

أن يعود إلى الشعلة فاختار الأول فصده الثوار فعاد إلى الشعلة ونظم فيها قواه وغادرها على جناح السرعة إلى المسيفرة، ومنها ذهب فى الغداة إلى درعا ثم قصد طفس.

ولابد لنا من القول أن اتقاد ثورة حماه يومئذ كان فى مقدمة العوامل التى اضطرته إلى التراجع عن الجبل، فقد اعتقد أن هنالك خطة عسكرية مدبرة يراد بها القضاء على الجيش فرجع مسرعا إلى حوران

حروب الغوطة الأولى

ماكاد صوت الثورة يدوى فى أرجاء سورية حتى هرع الكثيرون إلى الجبل للانضمام إليها والقتال فى صفوفها ـ وكان بين القادمين ـ غير من ذكرنا ـ القواد فؤاد سليم وسعيد العاص وسرحان أبو تركى الديرى والشيخ محمد حجاز وحسن الخراط وإبراهيم صدقى وجميل البيك وبشير الهنداوى، وغيرهم من الوطنيين الاشاوس.

ولما بدأ الفرنسويون الزحف على الجبل رأى قادة الثورة وزعماؤها أنه لابد من توسيع نطاقها فتشمل غوطة دمشق وجبل قلمون والمناطق الشمالية لتخفيف الضغط عن الجبل فغادر نسيب البكرى الجبل إلى الصفا لتجنيد عربانها الغياث، والزحف بهم لقتال الفرنسويين.

وغادر حسن الخراط الجبل إلى الغوطة، وكان قد جاءه مع آل البكرى فانضم إليه أبو عبده ديب الشيخ، وأبو صلاح العرجا فألفوا عصابة قوية رابطت فى زور بالأعلى مقربة من دمشق فسيرت السلطة قوة الدرك السوري لقتالها بقيادة الكابتن رفيق العظمة، فاشتبكت مع العصابة بمعركة شديدة يسحبها الثوار «وقعهة الزور الأولي» انتهت باندحار الدرك تاركين قتلاهم وأسر الثوار ضباطهم، وغنموا منهم ٢٩ حصانا.

ودارت معركة الزور الثانية يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٥ قرب قرية المليحة واشترك فيها ٨٢ من المجاهدين. فقد خرج الفرنسويون بقوات كبيرة وبعد قتال استمر ٦ ساعات ارتدو منها، فصدمهم محمد عز الدين من قادة الثورة الدرزية وقد جاء الغوطة لتأييد ثواره فى جوار قرية جرمان وضربهم وظل يطاردهم حتى أدخلهم دمشق. وجرح حسن الخراط فى كتفه هذ اليوم واستشهد غدرا بين اثنين من الشراكسة فى وقعة يلدا يوم ٢١ ديسمبر بعد ماذاعت شهرته وأبلى أحسن بلاء.

وتتابعت بعد ذلك المعارك فى الغوطة واتسع نطاقها، وكان من أثرها دخول الثوار مدينة دمشق وضربها مما سنفصله.

ـ ٩ ـ
ثـــــــورة حمـــاة

فى الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٥ وصل إلى جبل الدروز بطريق شرق الأردن الشابان مظهر السباعى ومنير الريس، يحملان صورة اتفاق أمضاه بعض كبار حماة لإشعال نار الثورة فى تلك المدينة. ومن مقتضاه أن تحصل مناوشات تمهيدية فى الغوطة فى أول شهر أكتوبر، وأن تتقدم قوة من الجبل إلى جهات الفريتين لاتقل عن مئة فارس فينضم إليها فوزى القاوقجى ومن معه من الجند وأن تعلن الثورة فى حماة يوم ٢ أكتوبر وأن لايعقد الجبل صلحا منفرداً بل يكون الصلح مشتركا باسم سورية.

وسلم القادمان نص الاتفاق إلى الدكتور شهبندر فرأى من الضرورى الإسراع فى قبوله لتخفيف الضغط عن الجبل. فركب على الفور فى طلب سلطان باشا فاجتمع به فى قرية رساس وتباحثا مليا فى المشروع وقبلاه ووقعه سلطان باشا باسم الدروز وتسلمه نزيه المؤيد ومظهر السباعى وعادا به إلى الغوطة وأرسلاه إلى حماة مع الدكتور خالد الخطيب.

وكتب فوزى القاوقجى عن إعلان ثورة حماة يقول[1].

«لما تقرر أن تبدأ ثورة حماة مساء الأحد ٤ أكتوبر سنة ١٩٢٥ طلبت من الكومندان كوستيلير المستشار الإدارى لحماة أن أخرج للتفتيش على البدو لمنع أضرارهم عن القرى فسمح لى فخرجت مع قوة من الخيالة التى كانت بقيادتى فطفت بين العشائر داعيا رجالها للثورة فاتفقت مع بعض الشيوخ على الانضمام إليها وخصصت لكل واحد منهم راتبا وعملا معينا يتولاه غداة إعلانها وأتممت الاستعدادات فى خلال خمسة أيام ولما دنت ساعة العمل أصدرت التعليمات المفصلة لجميع الزعماء، وفى نحو الساعة الثامنة من مساء ٤ منه دخلنا حماة وهاجمنا المخافر وتسلمنا أسلحتها وقبضنا على رجالها من الشرطة والدرك ثم سرنا إلى دار الحكومة حيث ترابط قوة من الجيش المختلط مع الدرك والشرطة فهاجمناها واستولينا عليها بعد معركة امتدت حتى الساعة الثانية بعد نصف الليل وقتلنا

---

١ ـ كان فوزى ضابط فى الجيش السورى الذى أنشأه الفرنسويون ورتبته كابتن (يوزباشى) وكان حائزا على ثقة الفرنسويين واعتمادهم وقد عينوه مساعدا للمستشار الإدارى فى حماة، فما رأى ماراه من أعمال الفرنسويين وتصرفاتهم التى لاتطاق انضم إلى اخوانه الثوار، وقاتل معهم وصار من أبرز قواد الثورة.

من فيها من الجند ثم أخذنا نستعد لمهاجمة المواقع العسكرية الحصينة، وخرج فرسان العدو فى الصباح من الثكنات لمقاومتنا فرددناهم بعد معركة دامت نصف ساعة على جسر السرايا ثم طوقنا الثكنات فبدأت المعركة تشتد والنجاح حليفنا وخسارة العدو تتزايد وجنده يستسلم.

ووصلت طيارات العدو فأخذت تلقى قنابلها على المدينة فأسقطنا منها طيارتين وقبيل الظهر جاءت نجدات قوية فأنقذت المحصورين بعد معارك دامية وتوالى وصول النجدات وزاد عددها زيادة كبيرة، فأحجم كثير من زعماء حماة عن الاشتراك في الثورة خلافا لعهودهم وجبنوا وخافوا . ولما أصبح الاستيلاء على الأماكن العسكرية المملوءة جنودا غير مستطاع انسحبنا ليلة ٧ منه إلى خارج المدينة باتجاه الشمال لمباشرة الأعمال. أماخسارتنا فما زادت عن ٣٥ قتيلا وجريحا وحملنا عربان الموالى على مهاجمة الفرنسويين المتحصنين فى مركز قضاء المعرة واشتبكنا معهم فى معركة دامت أربع ساعات خسروا فيها ثلاثة ضباط وسبعين جنديا، وخسرنا بدويا واحدا وغنمنا ٣٥ حصانا و ٤٢ بندقية».

ووضعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى تقريرا مطولا فى شهر فبراير سنة ١٩٢٦ عن ثورة حماة أرسلته إلى جمعية الأمم وقد جاء فيه:

فى الساعة التاسعة من مساء الأحد ٤ أكتوبر سنة ١٩٢٥ هاجم الثوار دار الحكومة، وأرادوا الاستيلاء على السلاح المدخر فى مستودع الدرك فقابلهم الجنود المحافظون برصاص بنادقهم، وبعد مقاومة دامت زهاء ساعتين استولى الثوار على دار الحكومة وصادروا السلاح الموجود فيها، وكان قسم من الثوار قصد مخافر الشرطة وجرد رجالها من أسلحتهم بدون مقاومة وقد انضم بعض رجال الشرطة إليهم. وبعد احتلال دار الحكومة والمخافر هاجم الثوار الثكنتين العسكريتين، وكانت القوات الموجودة فيهما أغلقت الأبواب وأخذت تقاوم الثوار بإطلاق القنابل اليدوية وبرشاش المتراليوزات، ودام الحصار واستمرت المقاومة العنيفة حتى آخر الليل.

ولما استولى الثوار على دار لحكومة وتغلغلوا فى أروقتها كان لايزال بضعة أفراد من جنود «المليس» والدرك فى الطابق العلوى يطلقون الرصاص من المنافذ وقد شعروا بأن الطابق السفلى سقط فى أيدى الثوار فأشعلوا النار فى الطابق العلوى بقصد إحراق

السراى بمن فيه من الثوار ثم ركنوا من ناحية أخرى إلى الفرار فامتد لهيب النار من دائرة إلى أخرى حتى عم جميع دوائر الحكومة وشعباتها وقبل أن يتصل لسان اللهيب بإدارة السجن أحس السجناء بالخطر، وكانت الأبواب قد خلت من الحراس فحطموا الأبواب وخرجوا جميعا.

وقبل شروق الشمس خرجت القوة العسكرية المحاصرة فى (خان الموقف) (إحدى الثكنتين المحاصرتين) حيث كانت أصوات الرصاص انقطعت فى ذلك الوقت، وجعلت تقبض على من تراه من الأهلين فى الطريق وتعمل فى أقفيتهم ضربا بكعاب البنادق. غير أن الثوار أعادوا الكرة على هذه القوة وهاجموها ففرت من أمامهم ودخلت الثكنات، وعادت إلى حصارها كما كان فى الليل المنصرم واشتد الحصار والمقاومة إلى قبيل الظهر وكان الجنود المحصورون يلقون القنابل اليدوية المشتعلة من أعلى الجدران ومن نوافذ الثكنة بدون أن يسددوها إلى جهة معلومة. وأخيرا جعلوا يرمون تلك القنابل المشتعلة على المخازن المجاورة للثكنة فشبت النار فى تلك المخازن واندلعت فيها السنتها والجنود تطلق القنبلة تلو الأخرى على المخازن بدون انقطاع. فلما رأى أصحاب تلك لمخازن أموالهم تأكلها النيران وهى كل مايملكونه من حطام الدنيا ألقى بعضهم بنفسه إلى مخزنه تحت وابل الرصاص والقنابل وحاول الوصول إلى إنقاذ شىء من ماله فلم يتمكن وكانت الجنود الافرنسية كلما رأت أحدا يحاول التقرب من دكانه تلقى عليه قنبلة فينجو بروحه وعيناه ترى وتشاهد ماله تلتهمه النيران، حتى أن رجلا يدعى (حسن شاكر) لم يطق الصبر على مشاهدة ماله يحترق فتقدم إلى مخزنه، وكانت النيران لم تصل إليه بعد ففتحه وانتشل دفاتره والنقود الموجودة فى صندوقه وبينما هو كذلك رماه جندى من أعلى الثكنة بقنبلة أصابته وهو فى داخل مخزنه فأردته قتيلا وشبت النار فى المخزن فلم تبق على شىء منه.

وهكذا ظلت النار تأكل من المخازن وتمتد من واحد إلى الآخر حتى أتت على ١١٧ مخزنا بما فيها من بضائع وأموال ونقود، وأصبح أصحابها بعد أن كانوا أغنياء بأموالهم، فقراء لايملكون شروى نقير.

وبعد ظهر الأثنين وصلت قوة من الجند السنغالى والفرنسوى قدخلت المدينة بمدافعها ودباباتها ورشاشاتها وجعلت تطلق النار على الطرقات والشوارع كيفما سارت، وعلى أى شخص تراه فى طريقها من الأهلين فأخلت المواقع المرتفعة من المدينة، وصبت نيران

بنادقها ورشاشاتها على المنازل الآهلة بالسكان دون ماتمييز بين الثوار والآمنين، فخلت الطرق من الناس والتجأ الأهلون إلى منازلهم فلم تغنهم منازلهم شيئا حيث زهقت نفوس كثيرة وهى فى بيوتها آمنة مطمئنة برصاص بنادق الجنود المصوبة من شاهق. وفى تلك الساعة الرهيبة اشتد البلاء وعظمت النكبة فلم يعد الأخ يشعر باخيه ولا الأب بأبنه ولا الأم بطفلها والناس فى بيوتهم حائرون مضطربون وأعظم الناس مصيبة هم الذين كانت بيوتهم قريبة من المواقع المرتفعة التى احتلها السنغاليون. حيث لم يبق بيت إلا أصيب من سكانه برجل أو امرأة أو صبى.

ثم وصف التقرير الأعمال الشاذة التى ارتكبت فى خلال الاضطرابات فعدد ثلاث عشرة حادثة منها حادثة مصرع الدكتور صالح قنباز. فقال إنه ظل سحابة يوم ٥ أكتوبر يعالج الجرحى ويذهب إلى بيوتهم حاملا الأضمدة والأدوية لايمنعه شىء عن القيام بواجبه الإنسانى.

وعاد إلى منزله فى المساء فسمع صوت استغاثة صادر من مكان مجاور لمنزله ففتح الباب فرأى ابن عمته مطروحا على الأرض والدم يتدفق من رأسه وأبوه واقف بالقرب منه لايجسر على الدنو منه فصاح به الدكتور هاته إلى ولم يكد يلفظ هذه الكلمة حتى فاجأته رصاصتان من بندقية سنغالى أصابته فى رأسه فلفظ أنفاسه.

وظلت جثته مطروحة على الأرض زهاء ساعتين حتى خرجت النساء وحملنها إلى المنزل. وعند الصباح احتل السنغاليون المنزل ونهبوا ماوصلت إليه أيديهم من نقود ورياش وكتب تقدر قيمتها بألف جنيه وقبضوا على أخويه محمد وعبد الحميد فذعر النساء واخذن ملاءاتهن وحملن جثة عزيزهن وفررن بها إلى أحد المساجد فألقينها فيه وأخذن فى الندب فاجتمع بعض الأصدقاء وحفرو له فى المسجد قبرا ودفنوه فيه.

ويقول التقرير إن الجنود السنغاليين كانوا يقتحمون البيوت والمنازل المجاورة لمواقعهم فان وجدوا فيها رجالا سلبوهم مامعهم من دراهم، وأن لم يجدوا رجالا اعتدوا على النساء وسلبوهن أقراطهن وحليهن، وشكا بعض الأهالى إلى القائد العسكرى من هذه الأعمال الشائنة فإجابه أن حدوث مثل هذا أمر طبيعى من جنود ظافرة فى مدينة ثائرة.

وفى يوم الثلاثاء ٩ منه أذاع القائد بلاغا رسميا بأن المدينة أصبحت تحت حكم السلطة العسكرية وأن التجول محظور من الساعة السادسة مساء حتى السادسة صباحًا، وإن

الاجتماعات العامة والخاصة ممنوعة منعا باتا، وإن الرصاص سيطلق على كل من يرى الطريق أيا كان فى الأوقات الممنوع التجول فيها.

وفى يوم الأربعاء ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٥ انذرت السلطة أهالى المدينة بإنهم إذا لم يسلموا فى خلال ٢٤ سعة مائة بندقية مع قذائفها تأمر بإطلاق القنابل على أحياء المدينة بلا استثناء، فلم يتمكن الأهلون من إيجاد العدد بكامله بل نقص أربع بنادق فالتمسوا من المستشار الفرنسوى أن يمد الأجل ليستطيعوا تدارك مابقى من خارج المدينة فقبل بشرط أن يضاعف العدد ـ أى أن يسلموا مائتى بندقية حتى عصر ذلك النهار فقط، وعندما حل الأجل المضروب ولم يستطيعوا تدارك العدد المضاعف صبت المدافع والطيارات قنابلها على أحياء المدينة بلا انقطاع فخربت بيوتا ومخازن كثيرة وقتلت أشخاصا عديدين من نساء ورجال واشتد البلاء على الناس فكان صياح النساء وبكاء الأطفال يفتت الأكباد. فهرع فريق من الأهلين إلى لقائد وتضرعوا إليه أن يوقف الضرب فقال أمرت باطلاق ١٥٠ قنبلة وقد بقى منها أربعون لابد من إطلاقها وبعد ذلك يمكننى إيقاف الضرب على أن تأتونى بمئة بندقية أخرى حتى عصر ذلك اليوم فإن لم تأتونى بها أعيد الضرب كرة أخرى، وهكذا استمر الضرب وذاق الأهلون الأمرين حتى استطاعوا أن يتداركوا العدد المطلوب من البنادق مع قذائفه بشرائها من العساكر الفرنسوية نفسها وتوريدها للسلطة.

وقبض بسبب هذه الحادثة على نحو ٢٠٠ من رجال حماة، وأعيانها وشبابها وموظفيها، وكانوا يأتون بالمعتقل إلى السجن العسكرى ويطروحونه فيه فراشة الأرض وغطاؤه السماء محروما من الأكل خمسة أيام يشغلونه بالأشغال الشاقة المهينة كالكنس والرش وطرح الأقذار وقد تفننوا فى تعذيبهم وضربوهم ضربا مبرحا.

ضرب القرى وتدميرها

ودمرت السلطة العسكرية بعض القرى بسبب حوادث حماه وفى مقدمتها قرية كفر زيتا فقد ضربتها بالقنابل وساقت أهلها إلى السجن لأنهم لم يطردوا بعض البدو حين مرورهم بقريتهم. وكانت الطيارات الفرنسوية تلقى قنابلها على كل بدوى تصادفه وتضرب خيام البدو بقنابلها وقتل منهم كثيرون.

احتجاج سيدات حماه

ولما مر المسيو جو فنيل المندوب السامى الجديد ـ وقد حل محل الجنرال سرايل ـ بحماة يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥ بطريقة إلى حلب قدمت إليه سيدات مدينة حماه كتابا احتججن فيه على مالقين من العذاب والتنكيل وقلن فيه:

«غضبت المقادير ياسعادة المندوب على هذه البلاد بسبب سوء معاملة حكامه وأولى الأمر فيها حتى أصبحت هى وسكانها طعاما لألسن النيران وفريسة للفوضى والاستعباد، ولم تأت بذنب يستحق هذا العقاب الذى لم يسطر له التاريخ مثالا فى القرون الأولى.

«إنا لنذكر لسعادتك طرفا مما قاسته حماه تلك البلدة الصغيرة الهادئة التى صمتت صمتا طويلا عن ظلمها والاستبداد بأهلها. إذ لم يكن فى إبان تلك الحوادث الدامية سامع أوراحم.

١ ـ أباحت السلطة لجنودها القتل والنهب فكانوا إذا تخيل لهم أحد فى نافذة بيته أو فى الطريق أردوه قتيلا ذكرا كان أو أنثى وكم من شيوخ وأطفال ونساء قتلوا بلا ذنب ولاجريمة.

٢ ـ توالى إلقاء القبض على الناس من أى طبقة كانو فكل من يجدونه خارجا من بيته يسوقونه إلى السجن ويوسعونه ضربا ويشغلونه بالأشغال الشاقة. فلما رأى السكان ذلك أخذوا يفرون لاخوفا على أنفسهم من السجن. بل من المعاملة القاسية التى كان يعامل بها المعتقلون ـ تلك المعاملة التى قلما شهد مثلها التاريخ.

٣ ـ وإذا دخلوا منزلا للتفتيش عن رجل أو للتنقيب عن أوراق نهبوا ماوجدوه من متاع ودراهم والحقوا بنسائه كل أنواع الأذى والامتهان. حتى أصبحوا وياللعار يسوقون السيدات المصونات بدلا من أزواجهن الفارين.

وكل ماذكرناه ياحضرة المندوب السامى من تشويه وجه الفضيلة وتسويد صحائف التاريخ وعدم مراعاة القانون والنظام لايساوى شيئا بجانب الأطفال الذين كاد أن يقضى عليهم رعبا وذعرا من إلقاء القنابل وإطلاق المدفع. التى كانت تصب نارها على البلدة من دون سابق إنذار، والتى كانت تنهال على السكان انهيالا مريعا لأنهم لم يكملوا تسليم عدد البنادق التى فرضت عليهم فى مدة ساعتين فقط. فكم من منازل عامرة خربت ونفوس برئية قتلت فمن المسئول عن هذ الفظائع ياترى؟.. إلخ.

ـ ١٠ ـ
تدميـــر دمشـــق

اتسع نطاق حرب العصابات فى الغوطة اتساعا أقلق بال الفرنسويين فنقلوا جانبا من قواهم الكبرى فى حوران إلى دمشق وأرصدوه لقتال العصابات ومطاردتها وأقاموا الأبراج حول المدينة للدفاع عنها.

ودارت معارك عنيفة بين رجال العصابات والجند أحرق الفرنسويون فى خلالها قرى جرمانا والمليحة وزبدين وداريا ودير محد. فلجأ الشيوخ والأطفال من أبنائها إلى دمشق وانضم الشبان إلى رجال العصابات طلبا للثأر والانتقام فازدادت العصابات قوة كما ازداد الاضطراب فى دمشق، فما كان سيل المهاجرين من القرى ينقطع أبدا

وإزدادت الحالة حراجة يوم ١٤ أكتوبر فقد عادت القوات الفرنسوية التى خرجت إلى الغوطة لمطاردة رجال العصابات ومعها ٢٤ جثة من جثث القرويين وقد قبضت عليهم فى رجوعها، بعد انكسارها، وأعدمتهم رميا بالرصاص ثم شدتهم على ظهور الجمال ودخلت بهم المدينة لتلقى الرعب فى القلوب، فزاد ذلك فى الاستياء. خصوصا بعد ما قال الذين عاينوا هذه الجثث أنها مؤلفة من أخلاط لا علاقة لها بالثورة والعصابات، وإنما أراد قواد القوة من نقلها ستر فشلم. وقد طيف بهذه الجثث فى أسواق دمشق ثم عرضت فى ميدان الشهداء فكان منظرها من أفظع المناظر وأشدها هولا ورعبا.

ووصل إلى دمشق يوم ١٨ أكتوبر الجنرال سرايل قادما من بيروت فقصد أذرع مباشرة فزار ومعه الجنرال غاملان مراكز الجيش، وعاد فى الأصيل إلى دمشق. وعلم الثوار بوصوله فقرروا أن يقبضوا عليه حيا بأى طريقة كانت ـ ولما كان من عادته أن يزور قصر العظم فى البزورية فقد دخلت عصابة حسن المقبعة الشاغور وتسلل رجالها إلى البزورية للقبض على الجنرال[١] فاشتبكوا مع الحامية التى أقيمت للدفاع عن القصر

---

١ – جاء مذكرات الجنرال سرايل عن هذا الحادث مانصه: «زار الجنرال سرايل الجبل ومعه الجترال غاملان ثم عادا إلى دمشق وقد رافق وصول القطار إلى دمشق مناوشات شديدة فى الأحياء، وكان ازيز الرصاص يصم الآذان فالتفت سرايل إلى غاملان وقال:
ـ أتسمع الرصاص؟.. هذا ماأسميه أنا «الاستقبال الحافل»؟.
وأراد الجنرال سرايل أن يهب توًا إلى قصر العظم ـ تحت أزيز الرصاص ـ فتقدم إليه الليوتنان بيرو =

بمعركة حامية. فقد بادرهم هؤلاء بالنار حينما رأوهم فقابلوهم بالمثل واضطرمت النار فى القصر بسبب إطلاق الرصاص. وقد استشهد فى هذه المعركة حسن المقبعة زعيم العصابة وكانت وفاته فاتحة المعارك التى حدثت بعد ذلك وأدت إلى ضرب دمشق وإحراقها.

وبلغ عدد الثوار الذين انتدبوا للعمل فى دمشق ٤٠٠ ربعهم من دروز الجبل، والباقون من الغوطة، وكانوا بقيادة نسيب البكرى. وانضم إليهم بعض أهل الشاغور وباب السلام بزعامة حسن الخراط ومحمود سلام وأبى عبده ديب الشيخ وحسن المقبعة ـ وقد أشرنا إلى استشهاده.

واشتد القتال فى أسواق دمشق الداخلية. ولا سيما فى الأحياء الجنوبية ـ أى فى الميدان والشاغور وباب السريجة بين الثوار والقوات الفرنسوية، ودارت الدائرة على هؤلاء واستسلم رجال الدرك والشرطة للثوار فجردوهم من أسلحتهم. وبلغ الثائرون فى تقدمهم باب الجابية (وسط المدينة) وهددوا دار الحكومة والقلعة فلجأ الفرنسويون رجالا ونساء إلى حى الصالحية، وأقاموا حوله المتاريس والأسلاك الشائكة وأوقفوا الدبابات لحمايته. وحشدوا الجند للدفاع عنه، ولما أدركوا أنه لا قبل لهم بإخراج الثوار حربا أخذوا باطلاق القنابل على الجانب الذى يحتله الثوار فدمروه، واضطروهم إلى الجلاء عنه والرجوع إلى الغوطة خوفا على المدينة من التهديم.

لما انتشرت أخبار هذه الكارثة المريعة فى العالم ريع واضطرب وننشر وصف ما وقع نقلا عن مكاتب جريدة التيمس اللندنية فى مصر فقد زار دمشق على الفور ووصف كارثتها بما نجمله بما يأتى قال:

«إن الانكسارات التى أصيب بها الفرنسويون والمقاومة التى لاقوها فى جبل الدروز قد أحدثت اضطرابا عاما فانتشر الثائرون خارج دمشق وانصرف الفرنسويون إلى معالجة القرى التى اشتبهوا بأنها تلجئ رجال العصابات. ومنذ أسبوعين أحرق الفرنسويون قرى عديدة فى الجنوب الشرقى من دمشق، وجلبوا ٢٤ جثة وطافوا بها على ظهور الجمال فى

= وقال له:

ـ ألا يريد الجنرال أن يعرف مايجرى فى مركز القيادة أولا؟.

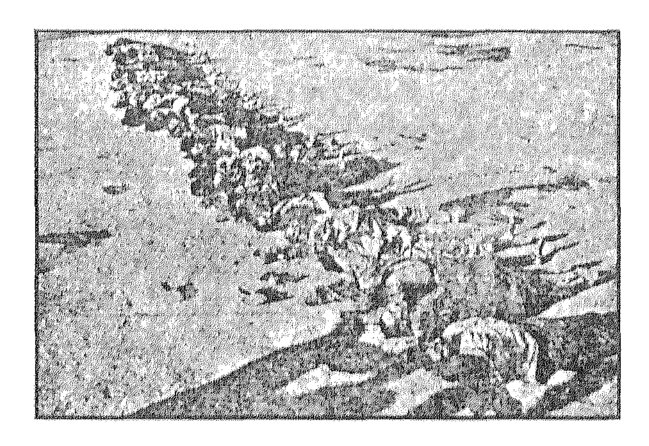
فقال الجنرال:

ـ ليكن ماأردت.. معك حقا

وذهب الجنرال إلى مركز القيادة، وإذا بالثوار يهاجمون قصر العظم، ويدخلون الجناح المعد لإقامة الجنرال. ولولا إشارة الليوتنان بزيارة مركز القيادة أولا لتبدلت الحالة



فريق من قواد عصابات الغوطة مجتمعين



جثث المقتولين وقد عرضها الفرنسويون فى ساحة الشهداء
بدمشق
يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٥

شوارع دمشق الرئيسية، وعرضوها فى ساحة المرجة (الشهداء) وكانو يقصدون من هذا المنظر الذى يثير كوامن الصدرور أن يحذورا العناصر المقلقة، ولكنه أفضى إلى إحداث تأثير يعاكس التأثير المقصود منه على خط مستقيم فقد أهاج غضب الجمهور وسخطه. ومما زاد الطين بلة أن كثيرين من القتلى الذين عرضت جثثهم هم من أهالى دمشق. وبعد ثلاثة أيام من هذا العمل وجدت خارج «باب شرقى» اثنتا عشر جثة من جثث الشراكسة الذين يستخدم الفرنسويون كثيرين منهم فى القتال كجنود غير نظاميين. فهذا الجواب على عمل الفرنسويين يدل على الروح السائد بين الذين أراد الفرنسويون أن يرهبوهم.

وفى ليلة ١٧ أكتوبر هوجم جمعٌ من الفرنسويين وقتلوا فى أحد الأحياء المتطرفة وبعد قليل أطلق المهاجمون النار على عدد آخر من الجنود وفى صباح اليوم التالى ظهر فى حى الشاغور ستون ثائرا وبعد قليل ظهرت عصابة من دروز جرمانا (قرية واقعة فى غوطة دمشق غير متصلة بجبل الدروز) فى حى الميدان، وذهبت العصابتان إلى الأسواق فى وسط المدينة وشجعهما على ذلك أن أناسا من أحياء أخرى هاجموا البوليس وجردوه من سلاحه وجعلوا يطلقون بنادقهم فى الفضاء، فبثوا الرعب والذعر ولم يكن أحد يعرف فى الحقيقة ما كان يجرى. وكان عدم الوقوف على حقيقة الحال سببا فى ازدياد القلق ويظهر أن الفرنسويين كانوا يعتقدون من قبل أن الجمهور يوشك أن يقوم بحركة مهمة، وأن القوات التى تعمل ضدهم أكبر مما هى فى الحقيقة. على أن الذين راقبوا الحال مراقبة دقيقة يرون أن عدد المغيرين لم يزد قط على خمسمائة.

«وفى ظهر اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر أرسل الفرنسويون الدبابات فجعلت تخترق الأسواق بسرعة هائلة وتصب نيرانها ذات اليمين وذات اليسار. وفى الساعة السادسة مساء بدأ الفرنسويون بضرب المدينة العريقة فى القدم. ويؤخذ مما عرف حتى الآن أنهم لم يستعملوا هذه المرة سوى القنابل الخالية من القذائف. ولكن هذا الضرب لم ينقص قلق الجمهور وذهوله واستمر الضرب الليل بطوله.

«وفى صباح اليوم التالى سحبت جميع الجنود فجأة من المدينة، ومن جملتها أحياء المسيحيين وحشدت فى حى الصالحية. ونقلت جميع عائلات الفرنسويين إلى هذا الحى ثم شرعت المدفعية من الساعة العاشرة صباحا إلى مدة أربع وعشرين ساعة تطلق القنابل

المحشوة بالقذائف على المدينة وجعلت الطيارات فى الوقت نفسه تمطر القذائف وتطلق الرشاشات».

«وفى ظهر اليوم العشرين من أكتوبر انقطعت النيران، وهى الهدنة التى تسمى هدنة الأربع والعشرين ساعة».

«وقد تركت قذائف المدفعيات وأعمال المغيرين آثارا لا تمحى، ورأيت هذه الآثار فى كل ناحية فاحدثت كآبة فى نفسى. فجميع المنطقة الواقعة بين سوق الحميدية والشارع المسمى المستقيم (سوق مدحت باشا) أصبحت خرابا وجميع ما فى السوقين من المخازن قد دمرته نيران الدبابات أو قذائف المدفعيات مخزنا بعد مخزن. وأصيب حى الشاغور بأضرار عظيمة، وكاد سوق الخراطين يصبح كله كومة رماد. وترى المنازل منزلا بعد آخر على وشك الدمار لأن القنابل قد خرقت جدرانه ولا شك أنها قنابل المدافع الفرنسوية. على أن الجامع الأموى العظيم قد نجا لحسن الحظ من النار. ولكن جامع السنانية الجميل أصابت إحدى القنابل قبته ففتحت فيها فوهة عظيمة ومرت القنابل الأخرى فى نوافذه الجميلة المصنوعة من الفسيفساء. أما الخسارة التى لا تعوض فهى قصر آل العظم فلم يبق فيه شئ مامن كنوزه فقد نهب بعضها وأتلف البعض الآخر ولم تترك منه قذائف المدافع سوى جدران مكان الحريم. وتحول إلى خراب. وأصيب سوق البزورية باضرار عظيمة. ودمرت منازل العائلات المشهورة كعائلات الركابى والبكرى والقوتلى تدميرا تاما. فالألفاظ تعجز عن الإحاطة بالمعانى التى يوصف بها المنظر الذى تظهر به الآن تلك المدينة المقدسة.

«ومن الصعب تقدير الخسائر التى وقعت من جراء تدمير الأبنية. وكثيرون من الثقات من كل نزعة يقولون إنها تتراوح بين مليون ومليونين من الجنيهات التركية الذهبية.

«ولم يعرف من القتلى الأجانب سوى رجلين طرابلسيين ورجل إنجليزى واحد جريح».

«وإذا كانت الجاليات الأوربية قد استطاعت النجاة بسهولة فما ذلك بفضل الفرنسويين وحسن تصرفهم بل بتوسط المسلمين وخدماتهم الطيبة فقد سلكوا سلوكا باهرا وجعلوا يبادرون بأنفسهم إلى توطيد النظام والسهر على الراحة فى حى المسيحيين بعد ما انسحب منه الجنود. وحموه من كل من حاول أن يدخل إليه بقصد النهب. وبادر بعض رجال البوليس من المسلمين وأخذوا الأوربيين إلى أماكن يأمنون فيها. فجميع الأوربيين الذين لقيتهم ممتنون كل الامتنان من هذه المساعدة التى لقوها من المسلمين. فى حين أن

الأوربيين فى دمشق لا يتستطيعون أن يعبروا عن كل ما يخالج نفوسهم من الامتنان للمسلمين، وتراهم يظهرون استياء عظيما من ضرب مدينة مفتوحة كدمشق ذات أماكن معروفة رسميا بأنها مأهولة بالأوربيين، ومع ذلك ضربت بالقنابل. وقد سحبت جميع الجنود من أحياء المسيحيين وضربت أماكن الأوروبيين بدون أقل إنذار سابق.

«والظاهر أن السلطة الفرنسوية قابضة على زمام الحالة، ولكن لم ير إلى الآن ما يدل على عودة الحال إلى مجراها الأصلى. نعم إنه فى وسع الفرنسويون أن يحتفظوا عنوة بالسلام فى دمشق. ولكن مفتاح الحالة كلها فى سورية هو جبل الدروز، فما دامت الحالة لم تستقر فيه فستستمر القلاقل من وقت إلى آخر أو تزداد. ويرى العارفون أن فرنسا تحتاج إلى قوات أكبر من القوات الحالية لإخضاع الجبل والاحتفاظ بالسلام فى بقية البلاد التى كثرت فيها العصابات الآن. ومع ذلك ففى الإمكان تذليل العقبة فيما يتعلق بجبل الدروز من دون التجاء إلى وسائل القمع لأن هذه العقبة إنما قامت لأن الفرنسويين لم يقدروا حالة الدروز النفسية حق قدرها وأصروا على إخضاع شعب اشتهر بعزة النفس والرجولية، فإذا استطاعوا معالجة الأمر بحكمة أمكنهم تحويل الدروز من خطر مقيم إلى الحلفاء».

صدى الكارثة فى فرنسا

ولما وصلت تفاصيل الكارثة إلى باريس اضطربت لها الدوائر السياسية وعالجتها الصحف وكتبت عنها المقالات. وننقل بعض ما كتب لتأييد مدعانا. فقد أنشأت جريدة الماتان مقالة عنوانها «إن الفضائح فى سورية قد طال وقتها» وأخرى عنوانها «إن الجنرال سرايل لعجزه عن متابعة سياسة رشيدة يضر كثيرا بسمعة فرنسا» وقالت فيها إن فى العالم الآن يرى تناقضا يضر بمكانة فرنسا وكرامتها. فبينما جمعية الأمم برياسة فرنسا تعمل لاجتناب وقوع حرب إذا بالجنرال سرايل المعهود إليه فى إدارة بلاد وكلت جمعية الأمم أمرها إلى فرنسا يمارس القمع ويسيئ الي سمعة فرنسا وتردد الأخبار الغريبة المبالغة التى تذيعها جمعيات عربية فى فلسطين والعراق، وقد سأل مندوبو الصحف المسيو بانلفيه أمس عن حوادث سورية فلم ينفها وقال أن الحالة دقيقة جدا، ولم يكن فى وسعه أن يزيد على ذلك شيئا لأن الجنرال سرايل فى تقاريره يتكلم عن حالة الجو وغلاء المعيشة ويرى فيما يتعلق بالحوادث أن يكتفى بكتابة سطرين فى إطلاع الحكومة الفرنسوية على الحوادث العظيمة الخطورة.

«لقد كان من الواجب طبعا حماية مدينة دمشق من الدروز، ولكن الدروز ما كانوا يزحفون إلى دمشق لولا الأساليب المكروهة التى اتبعها الجنرال سرايل. ولما بلغت الحال ما بلغتـه من الخطورة كان لابد من العمل وطرد المعتدين». ولكن هل كان على أصحاب الانتداب الممنوح من جمعية الأمم أن يطلقوا قذائف المدافع على حى كامل يقيم فيه النزلاء الأوربيون بدون إنذار سابق، وأن يجعلوا فرنسا عرضة للإهانة الناشئة عن الاحتجاج المقدم من قناصل الدول فى دمشق بواسطة عميدهم قنصل ألمانيا. ولا يمكن أن يكون للحزبية أو للصداقة شأن بإزاء فضيحة تزداد ظهورا فى سورية.

«إن الجنرال سرايل يعمل كمن يريد أن يقضى على سمعة فرنسا وقد باحث المسيو بريان أمس بانليفه فى موضوع هذه الحوادث الموجبة للأسف ولم يكن ذلك أول مباحثة فى هذا الشأن فإن المسيو بريان فى مركز يجعله يقدر أكثر من غيره الأضرار التى تعود على نفوذ فرنسا من جراء هوس الجنرال سرايل.

«ويود الرأى العام أن يعرف أن المسيو بريان تمكن من إقناع المسيو بانليفه بحقيقة قائمة على تحقيق دقيق. وما من أحد يزعم أن الفتنة يجب التهاون فى قمعها، ولكن شهود العيان القادمين من سورية مجمعون منذ أشهر عديدة على عد الجنرال سرايل عاجزا عن درء مثل هذه الحوادث عجزه عن منع تكررها».

ونشرت جريدة «الإيكودى بارى» مقالة للمسيو كيريليس عنوانها «من الذى يوحى إلى سرايل» قال فيها إن الأنباء الصريحة التى جاء بها أمس رجل من الثقات غادر دمشق فى ١٧ أكتوبر تؤيد بعض المعلومات التى نشرتها جريدة «التيمس» فإن الجنرال سرايل هو الذى أثار فتنة دمشق بالتدابير الهمجية التى اتخذها. أما الانتقام من القرويين فى ضواحى المدينة الذين أرعبتهم العصابات فاضطروا إلى مدها بالمؤن، وأما اتباع أساليب الإرهاب فلولاه لما لاح له شبح الثورة فى المدينة.

«وقد أصدر الجنرال سرايل فى أوائل شهر أكتوبر أمرا إلى الفصائل الشركسية والسورية بإحراق قرى جرمانا والمليحة وزبدين وداريا. وحدث فى قرية دير بحدل من قرى الأمير كاظم حفيد الأمير عبدالقادر الجزائرى أن جميع منازلها صب عليها البترول وأضرمت النار فيها بلا استثناء فأصبحت أكواما من الرماد».

«وفى خلال ذلك كثرت حوادث الإعدام السريع رميا بالرصاص، وقد شهد الدمشقيون

فى يوم ١٤ أكتوبر منظرا تنخلع له القلوب، وهو منظر أثنتين وعشرين جثة من جثث القتلى عرفوا بينها جثث كثيرين من المكارين القرويين المعروفين فى سوق المدينة وقد سير بهذه الجثث فى الشوارع وهى فى حالة عرى تام وقد ربطت إلى ظهور الجمال.

فسار هذا الموكب المفجع تخفره قوة من الجند ثم وقف فى الساحة العمومية حيث صفت الجثث وعرضت على الجماهير.

«ومن ذلك الحين أخذ السخط والحنق من نفوس العامة فى أحياء المدينة التى ثارت كلها. وتبدوا من ذلك الظروف والأحوال التى أدت إلى ذبح جنودنا وإلى مصائب لا يمكن تلافيها بخطأ الجنرال سرايل المنكود، وهى أحوال تعود المسئولية فيها إليه.

«أنه دبر فى ١٣ يوليو مكيدة دنيئة للدروز بغية القبض على ممثليهم الذين هزأ بهم وأهانهم قبل ذلك واختطف منهم ميثاق الضمان فقبض عليهم وأودعهم السجن بعد ما دعاهم إلى إبداء مطالبهم. وكانت نتيجة ذلك أن الدروز انتقموا لأنفسهم فأبادوا فصيلة الضابط نورمان وأخرجوا الفرنسويين من جبلهم».

«وبين اليوم الثامن واليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر لجأ الجنرال سرايل إلى إحراق القرى فى ضواحى دمشق، ودبر ذلك الموكب المفجع من الجمال المحملة جثثا أو سمح به فانتقم السكان العرب من جنودنا التعساء، وثاروا ثورة عامة. فما أسوأ ذلك التدبير وتلك الغريزة التى أوحت إلى الجنرال سرايل مأساة جبل الدروز. تلك المأساة التى تعود أسبابها إلى إهماله التام وعدم مبالاته به».

«وتحرج الموقف بعد ذلك ولكن عناده المقرون بالحمق والقسوة والفظاظة منعه من الاعتراف بخطئه فى عدم تبصره فى تلك الحوادث وعدم عده إياها من الحوادث الخطيرة».

«وماذا يستطيع الجنرال سرايل أن يجيب عن هذا السؤال البسيط وهو: لماذا حينما أظهر لك الضباط والموظفون مافى عنادك من الحمق وأبلغوك أن الثورة على وشك النشوب ودعوك لمشاهدة الحالة بعينى رأسك لم تذهب وتعاين تلك الحالة؟ ولماذا لم تذهب من ثلاثة أشهر من دمشق إلى السويداء والمسافة بينهما لا تستغرق أكثر من ثلاث ساعات بالأوتومبيل ؟»

وأنشأت جريدة الطان هو شبه رسمية مقالة طويلة عن حوادث سورية فقالت:

«إننا لا نبالغ إذا قلنا أن الحالة توجب القلق الشديد. ولابد من البحث فى أسبابها ونتائجها. فأما الأسباب فلا شك فى أن الحالة الحاضرة ترجع أسبابها إلى عمل ممثل فرنسا شخصيا وإلى السياسة التى اتبعها. ويلوح الآن لكل من هو بعيد عن التحيز أن مسئولية الجنرال سرايل مرتبطة بأصل مسألة الدروز ارتباطا يوجب الأسف وأن التأثير الذى أحدثته هذه المسألة فى خارج جبلهم يدل بوضوح على أن فى الدول السورية الأخرى استياء ونفورا من الدولة المنتدبة. ولا يمكن تفسير ذلك الاستياء وذلك النفور إلا بالأغلاط وضروب الإهمال الخطيرة التى ارتكبت فى تنفيذ الانتداب».

وكتبت جريدة «اكسيون فرانسز» تقول: أن الحكومة كذبت أمس الأول الأخبار السيئة الواردة عن سورية، وذكرت أن الحالة حسنة جدا فيها كلها وفى دمشق بنوع خاص. وهكذا يكون الجنرال سرايل والمسيو بنليفه قد كذبا على الرأى العام مرة أخرى.

وقال المسيو «سان بريس» فى جريدة الجورنال أن الجنرال سرايل طلب قبل بضعة أيام نجدات جديدة ١٥ ألف جندى، وقد تساءل المسيو سان بريس قائلا: هل صحيح ما تقوله الصحف الإنجليزية من أن الجنرال سرايل أهمل أبسط قواعد حقوق الإنسان فأمر بضرب دمشق قبل أن يصدر إنذارا بذلك لكى يجلو الأطفال والنساء منها؟ وهل صحيح أنه لم يبلغ قناصل الدول ما عزم عليه قبل تنفيذه؟

ويقال فوق ذلك أن العمل أدى إلى احتجاج القناصل، وتقديم هذا الاحتجاج إلى ولاة الأمور على يد قنصل ألمانيا بصفته عميد القناصل. فهل صحيح أن الجنرال سرايل طلب استدعاء قنصل ألمانيا لهذا السبب؟ إن هذه المسائل كلها تحتاج إلى جواب صريح واضح.

تقرير الجنرال غاملان

ونرى من المفيد بعد الذى نشرناه من أقوال الصحف الإنجليزية والفرنسوية عن هذه الكارثة المريعة أن نثبت ترجمة التقرير الرسمى الذى أرسله الجنرال غاملان القائد العام للجيش الفرنسوى فى سورية عن ضرب دمشق وحوادث الغوطة، للمقارنة ولإقامة الدليل على أنه لا قيمة لهذه التقارير الرسمية التى يحتجون بها:

قال الجنرال فى تقريره إلى وزارة الحربية يوم ٣٠ أكتوبر:

«ثارت الاضطرابات فى دمشق يوم الأحد فى ١٨ أكتوبر فأحدثت أزمة شديدة دامت ٤٨ ساعة.

«وقد دلت التعليمات على أن هذه الاضطرابات قد ثارت بدافع خارجى من جهة، وبدافع بعض العناصر الدمشقية التى تغتنم فرصة للمشاغبة على السلطة من جهة أخرى»

«فقد دخلت بعض العصابات المسلحة الأحياء والأسواق، وخاصة الشاغور والميدان فتبعهم قسم من الغوغاء فى هذه الأحياء بقصد السلب والسرقة، ولولا حزم السلطة لكانت الحالة خطيرة.

«وقد أطلقت القلاع مدافعها على الأحياء الثائرة، واشتركت الطيارات فى هذه العملية، فأرغم هذا التدبير طائفة من الوجهاء على مراجعة السلطة والموافقة على الشروط المفروضة».

«ومنذ ذلك التاريخ، ازداد عدد العصابات فى ضواحى دمشق وحماه، وكان الثائرون فى القرى الدرزية «المليحة وجرمانا وجسرين» يلقون كل مساعدة من الجبل»

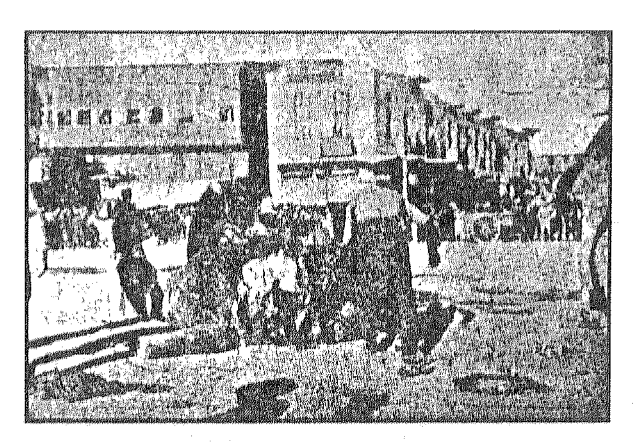
«وقد اضطر القائد العام فى هذه الظروف أن يحشد قسما من الجيش فى دمشق، لملاحقة الثائرين فى ضواحيها. فوصلت إلى دمشق فى ١١ أكتوبر الفرقة الثانية، وكتيبة من الشراكسة، وفى ١٥ منه وصلت فرقة من الكتيبة السادسة، ثم وصلت فى ١٦ منه فرقة أخرى من الكتيبة السادسة، وكتيبة من السباهين، وكانت هذه النجدات كلها بمثابة فرق محافظة فى بادئ الأمر، ثم أصبحت بعد أمد قريب مكلفة بمقاومة الثائرين وتوطيد الأمن فى دمشق وضواحيها.

«وفى ١٣ منه أرسلت قوة من الجيش إلى جلسرين ـ حيث يقيم بعض الثائرين ـ فتوقفت إلى القبض على ١٠٦ منهم، وعادت بأربع وعشرين جثة. أما خسائرنا فقد كانت طفيفة.

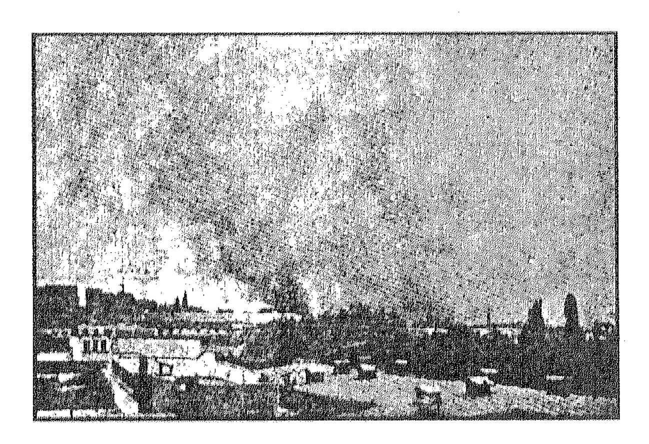
«وأعيدت الحملة فى ١٤ منه، فأحرق الجيش قرية المليحة، بعد أن ثبت ثبوتا لا يحتمل الشك اشتراكها مع الثائرين فى معظم أعمالم»

«وقد طلب إلى قرية جرمانا أن تسلم بنادقها فلم تفعل فاضطررنا إلى إحراقها فى ١٥منه».

«وفى ١٧ منه أرسلت فرق ١١ ـ ١٢ إلى دوما باكرا، وزارت قرى سبقا وجسرين



جثث القتلى محملة على الجمال ويطاف بها وتعرض في دمشق



مدينة دمشق تحترق

وسواهما، بينما كانت كتائب الشركس تحل جرمانا وتقاتل بعض الذين أقدموا على احتلالها»

«وقامت الثورة فى دمشق فى ١٨ منه بهجوم على قصر العظم، وأطرافه كان القصد منه، كما تبين، الوصول إلى المفوض السامى، وقد استمرت ٤٨ ساعة»

«وقد وضع تحت تصرف نسيب البكرى ورمضان شلاش منذ أمد غير قريب، عدد لا بأس به من العصابات كان من الصعب ملاحقتها والقضاء عليها بالرغم من كل التدابير»

«ثم بدأت منذ ذلك التاريخ الاعتداءات على رجال الجيش المنفردين»

«وقد ثبت الآن أن تلك العصابات كانت تدخل دمشق من جهة الشاغور والميدان، بمساعدة بعض الأهالى الذين «يشاركونها» فى أعمالها. وكانت تهاجم الجند المنفرد فى الأحياء والأسواق».

«وفى ١٨ منه وصل المفوض السامى قادما من بيروت وذهب توا إلى أذرع ودرعا يزور مراكز الجيش ويرفقته الجنرال غاملان فكان الثائرون يحاولون بشتى الوسائل الوصول إليه».

«وقد أكد لنا إذ ذاك كان كمينا هيئ مقدما لمهاجمة القطار الذى يقل المفوض السامى من درعا إلى دمشق. وأنه لولا تأخر القطار لتمت هذه المؤامرة، وتم الهجوم على القطار»

«وحدث ـ لحسن الطالع ـ أن المفوض السامى أراد أن يزور مركز القيادة قبل زيارة قصر العظم.. فنجا من الهجوم الذى هيأه الثوار بعد الظهر، واشترك فيه ـ من الأسطحة ـ القسم الأكبر من البيوت المجاورة».

«وقد أرسلت نجدة لقصر العظم، وكان الرصاص يتساقط عليها من النوافذ والحوانيت فى تلك الأسواق الضيقة، حتى أن بعض الجنود قد أصيبوا وهم فى داخل سيارة الإسعاف».

«وبعد أن تم للثوار مهاجمة قصر العظم، انتشروا فى بعض الأحياء وأخذوا يطلقون رصاصهم حول القلعة وحول مركز القيادة، من النوافذ والأبواب والأسطحة، ثم أقدموا فى النهاية على إضرام النيران فى حى الأرمن فى القدم».

«وفى منتصف الليل عاد الهدوء إلى المدينة، شيئا فشيئا حتى إذا ما انبلج الفجر استيقظت المدينة كعادتها هادئة ساكنة».

«وقد كانت السلطات المحلية هى التى تقوم بالدفاع فى هذا اليوم، أما أعمال القيادة الفرنسوية فقد انحصرت فى إنقاذ قصر العظم، وتقوية الحامية فيه، وإنشاء المتاريس حول الحى الأوربى والمؤسسات الفرنسوية. الأمر الذى حال دون اتساع الحركة وانتشارها».

«وفى اليوم التالى حشدت وحدات الجيش، واحتلت المراكز الهامة بشدة، وهيأت مدافع القلعتين والطيارات للعمل عند أول إشارة»

«وبالرغم من جميع هذه الاستعدادات قد عاد الثوار لإطلاق رصاصهم هنا وهناك وأخذوا يحاولون إعادة الهجوم على قصر العظم»

«وقد شبت النيران هذه المرة فى جوار قصر العظم والقلعة، وقام بعض السكان يغتنمون هذه الفرصة السانحة لاصطياد «الرومى»

«وقد ثبت بصورة لا تدعو إلى الشك أن بعض رجال الدرك السورى كان على اتفاق مع الثائرين»

«ومما ساعدنا على حصر الثورة فى نطاق ضيق، محاصرتنا للثوار فى أحياء الشاغور والميدان، والعمارة واتخاذ كل التدابير التى نستطيعها لقمع الحركة، والحيلولة دون امتدادها وانقلابها إلى ثورة عامة»

«ومما تجدر الإشارة إليه هنا أننا بالرغم من استعمال المدافع والطيارات فقد حاولنا جهد المستطاع أن تكون الخسائر فى الأرواح والأموال طفيفة لا تذكر»

«وبناء على أوامر مسيو أوبوار فى اتخاذ كل تدبير يؤدى إلى إنهاء الثورة، ساد الهدوء فى المدينة بأقل من ٢٤ ساعة»

«وقد اضطررنا فى هذه الظروف لاستعمال المدفعية، لأن هؤلاء الذين يطلقون رصاصهم علينا من النوافذ والأسطحة لا يمكن الوصول إليهم بغير هذه الوسيلة. فأطلقت مدافع القلعة قنابلها على جوار قصر العظم، وألقت الطيارات قذائفها على الشاغور».

«أما حامية قصر العظم فقد أحاطت بها النيران من كل حدب وصوب، وانقطعت عنا أخبارها»

«وقد أنذرنا العائلات الأوربية بالالتجاء إلى المراكز العسكرية قبل إطلاق القنابل. ولم يكف الثائرون رغم كل هذه الإنذارات عن إطلاق رصاصهم فى سوق الحميدية، ومدحت باشا، والشاغور، والميدان، والعمارة. فاضطررنا لإعطاء الأوامر للقلعة بمتابعة إلقاء القنابل على جوار قصر العظم وعلى الشاغور والميدن، وأشرنا على قائد المدفعية بأن يجعل القنابل شبيهة بقنابل التجارب - شديدة الصوت، قليلة الأذى - لإلقاء الرعب فى نفوس السكان».

«ويظهر أن متابعة إطلاق المدافع قد هدأت الحالة كثيرا، وأوصلتنا إلى النتائج المطلوبة»

«ففى الساعة الثامنة صباحا جاء وفد إلى مركز القيادة العليا، وعلى رأسه الأمير سعيد حفيد الأمير عبد القادر، ثم جاء وفد آخر على رأسه حقى العظم، وطلبا إيقاف إطلاق القنابل، فعقد اجتماع برياسة مندوب المفوض، وافق فيه مندوبو دمشق على دفع غرامة قدرها مائة ألف ليرة تركية ذهبا، وتسليم ثلاثة آلاف بندقية. وقد اشترطنا عليهم أن يتم تسليم هذه الغرامة صباح السبت فى ٢٤ منه وإلا عدنا إلى إطلاق القنابل».

«وقد دفعت الغرامة فى الوقت المعين. ولم يتمكن المندوبون من جمع البنادق فى الوقت المحدد. فتدخلت دائرة الاستخبارات فى الأمر، وأخذت تبحث عن البنادق وتفتش الدور».

«ومنذ ذلك الحين ودمشق هادئة. وقد عاد التجار إلى فتح حوانيتهم بعد تردد طويل».

«وقد أصيبت بعض الأحياء بالخسائر. وكان القسم الأكبر منها من جراء النيران التى أضرمها الثوار والسالبون».

«أما الطيارات والمدافع والمصفحات، فليست مسئولة إلا عن قسم ضئيل من هذه الخسائر».

«وقد عنيت القيادة العامة بألا تعمد إليها إلا عند الحاجة الماسة، وتمكنت - مع هذا - من أن تصل إلى النتيجة المطلوبة فى حصر الحركة بأقل النفقات والخسائر والحيلولة دون تحرك «الأفاعى الدمشقية» الحقيقية - أهـ .

الجنرال سرايل والإنكليز

ولقد حاول الجنرال سرايل ومن ورائه بعض الموظفين الفرنسويين أن يلقوا تبعة ما وقع على الإنجليز زاعمين أنهم هم الذين دبروا الثورة، وشحن الجنرال مذكراته بوثائق عديمة

القيمة استند فى كتابتها إلى درزى قال إنه استسلم للسلطة، وأفضى إليها بكل ما عرفه من أسرار. ولسنا فى حاجة بعد كل ما قدمناه إلى إضافة شئ لإقامة الدليل على أن الفرنسويين هم الذين أوقدوا الثورة السورية بسوء تصرفاتهم وفساد الخطط التى جروا عليها واستهانتهم بكرامة الأمة. على أنه اعترف فى بعض المواقف بأن سبب الثورة هو الخلاف بين ضباط الاستخبارات على منصب حاكم جبل الدروز، وتآمر الموظفين الفرنسويين عليه. وهذا بعض ما جاء فى تقريره الخاص إلى وزارة الخارجية الفرنسوية:

«فأنا أعترف بخطئى. لقد تركت فى المراكز الهامة وفى الجيش. موظفين وضباطا يكرهوننى، فإنهم لا يكرهون فرنسا. وقد كنت مخطئا فى هذا الظن».

«وأنا لا أتهم دون أن أذكر الأسماء. فأنى مضطر فى مثل هذه الظروف للتصريح بتلك الأسماء وها أنا أذكر واحدا بعد آخر».

«أن الخطأ الذى ارتكبته فى سورية هو إبقائى على بعض الموظفين الذين يكرهوننى، ويسعون للإيقاع بى».

«وأول هؤلاء المسيو غويته، المندوب المساعد فى دمشق ورئيس الغرفة السياسية فى المندوبية».

«فقد كان هذا الموظف رئيس «جماعة» تعمل على مخالفة تعليماتى فى الجبل وتأييد سياسة الكابتن رينو، وهى سياسة التعاون مع عائلة الأطرش التى يرغب رجالها فى الوصول إلى الحكم، ذلك الكابتن الذى أثار الشغب فى دمشق، وحاول مفاوضة الدروز الثائرين لتوطيد السلام بأى ثمن... ولو قضى هذا السلام على مركز فرنسا ومكانتها»

ولقد كان أحدهما يريد مركز الآخر. وهو الكابتن رينو نفسه، وكان يرغب فى الوصول إلى أغراضه، بالتقرب من عائلة الأطرش وكان كرببيه يبعدها عنه»

«ولقد كان فى عمل هذا الضابط بالنسبة لنفسه على الأقل شئ من المنطق».

«فهو يريد مركز الآخر، والوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا المركز هو أن يبدل سياسة هذا الموظف الآخر. ومن هنا نشبت الثورة».

«على أن من يظن أن الدروز ـ وخاصة عائلة الأطرش ـ سيعمدون إلى الهدوء والسكينة

إذا عين الكابتن رينو حاكما فى الجبل، لا يعرف الدروز، ولا يعرف أحوالهم».

«فلو عين الكابتن رينو حاكما لوجد الدروز حجة أخرى لإثارة الثورة».

وشكا الجنرال أيضا من تصرفات المستر سمارت قنصل إنجلترا فى دمشق يومئذ. وقال إنه عمل لإبدال الانتداب الفرنسوى لسورية بانتداب إنجليزى. وكان يقول قبل ضرب دمشق بالقنابل إن الفرنسويين لا يجسرون قط على إطلاق القنابل عليها»

والتقرير الذى وضعته القناصل على أثر حوادث دمشق بطلب دولهم أثبت ما ذهبنا إليه وقرع الفرنسويين على ضربهم البلد من غير إنذار وتركهم أحياء المسيحيين تحت رحمة الثوار، واعترف بأن المسلمين تولوا حماية هؤلاء فلم يصابوا بأقل أذى، وكان حسن الخراط نفسه يطوف أحيائهم ويقول لهم أنتم إخواننا».

استدعاء الجنرال سرايل وتعيين المسيو جوفينل

لما وقع من إعلان الثورة وانتشار الهياج والاضطراب فى كل مكان من سورية وارتفعت الأصوات فى فرنسا مطالبة بإقالة الجنرال سرايل ذهب المسيو بانليفه رئيس مجلس الوزراء ووزير الحربية يومئذ إلى المسيو هريو «رئيس الوزارة التى عينته لسورية» وكان يصطاف فى أحد المصايف يسأله أن يوافق على استدعاء الجنرال سرايل. لأنه لم يعد فى الطاقة المحافظة عليه. فرفض هذا إجابة ملتمس رئيس الوزراء وقال إنه يعد كل قرار تقرره الوزارة فى شأنه استهجانا صريحا للسياسة التى انتهجها فى أثناء وزارته. فعاد المسيو بانليفه غير مرتاح إلى نتائج زيارته وصبر على مضض حتى وقعت كارثة دمشق الكبرى وقام العالم المتمدن وقعد لها. فأقدم حينئذ على استدعاء سرايل إلى باريس «لتقديم معلومات عن الحالة» كما جاء فى بيان شبه رسمى صدر يومئذ.

وفى يوم ٨ نوفمبر غادر الجنرال سرايل بيروت بالباخرة سفنكس عائدا إلى فرنسا. وفى يوم ١٨ منه ذهب إلى مجلس النواب الفرنسوى مصحوبا بالمسيو بريان والمسيو ديلاديه للمثول أمام لجنتى الخارجية والجيش البرلمانيتين فسأل النائب فرى فى أول الجلسة: هل يقدم الجنرال كمتهم أم لا؟ فقال المسيو بريان إنه يتقدم إلى اللجنتين لمجرد تقديم البيانات التى أبدينا الرغبة فى سماعها، وأن الحكومة تحتفظ بكل أنواع المسئولية.

وقد شكا الجنرال فى تصريحاته من الصعوبات التى صادفها سلفاه وصادفها هو أيضا، وأوضح نصيب معاونيه من التبعة والمسؤولية فى الحوادث الأخيرة وأسهب فى بيان الأغلاط التى ارتكبها الموظفون المدنيون والعسكريون وخصوصا الكابتن كربيه وأشار إلى بعض الأغلاط الإدارية وأثنى على الجنرال ميشو ونوه بشجاعته وذكر أن جوادين قتلا تحته فى المعمعة. وقال إن ثورة الدروز ناشئة من اختلاط الأجناس والأديان وهو اختلاط يجعل سياسة أهل البلاد وحكمهم من أدق الأمور. ثم ذكر مقابلاته مع أسرة الأطرش لإخماد الثورة فى بدئها، ومن سوء الحظ أن أعضاء هذه الأسرة كانوا على اختلاف تام فلم يتمكن من أن يسعى سعيا وافيا بالغرض، ثم ذكر أن للحزب الإسلامى كثيرين من الأنصار وأن ذلك نشأ عن الحرب الحالية بين فرنسا والريفيين، وقال إن إنقاص القوات الفرنسوية كان من الوجهة العسكرية السبب الأكبر للصعوبات التى لقيها الفرنسويون، وأن الجنود الوطنية فى الفرقة السورية ليست إلا بمثابة التكملة وسد النقص فى عدد هذه الفرق وأن الآلايات المؤلفة من جنود المستعمرات ليس لها لدى أهل سورية مكانة تعادل مكان الجنود الفرنسوية.

وقال عن ضرب مدينة دمشق بالمدافع إن ثمانى قنابل أطلقت على المدينة فى اليوم الأول منها أربع أطلقت بعد الظهر، ثم تقرر استئناف ضرب المدينة فى اليوم التالى لأن الثوار استمروا فى إثارة الاضطرابات. ومن سوء الحظ أن بعض مطلقى المدافع لم تكن لهم الدربة اللازمة. فبسبب الخطأ فى التسديد والتصويب طاشت مائة وخمسون قنبلة فى المدينة فنزل العطل والضرر بمائتين وخمسين منزلا، وأصيب ١٥٣ شخصا. ثم قال إنه لإعادة النظام فى سورية يكون من الغلو أن يقال إنه يجب أن يكون هناك سبعون ألف جندى - أى عدد الجيش الذى كان لدى الجنرال غورو، ولكن الجيش الموجود الآن وعدده عشرون ألفا هو جيش لا يكفى.

وتقلد منصب المندوب السامى الجنرال ديبور - وقد جاء من باريس فى شهر أكتوبر بأمر وزارة الحربية للتحقيق عن الحالة - من يوم ٢ نوفمبر وظل فيه حتى وصل المسيودى جوفنيل المندوب السامى الجديد إلى بيروت يوم ٢ ديسمبر قادما من فرنسا.

وكان أول ما عمله هذا أن كتب إلى وزارة الحربية طالبا إرسال ٥٠ ألف عسكرى على جناح السرعة لإخماد الثورة فلبت طلبه وبدأت ترسل النجدات تدريجا.

ـ ١١ ـ

معارك إقليم البلان ووادى التيم
وموقف بعض نصارى لبنان من الثورة

مما أمتاز به الدروز عن بقية الطوائف السورية اختيارهم السكنى فى رؤوس الجبال فهم ينزلون ثلاثة جبال متجاورة: جبل حوران وجبل الشيخ وجبل لبنان. ويكادون يكونون منفردين فى الجبلين الأولين: جبل حوران وجبل الشيخ. أما فى جبل لبنان فيؤلفون الأكثرية فى بعض مناطقه الوسطى وبعض جهات الساحل. وفيما عدا ذلك فالأكثرية المطلقة للموارنة.

ومن تقاليد الدروز أن يتواصلوا ويتعاونوا ويشد بعضهم أزر بعض فى النائبات والملمات، فإذا نزلت بسكان جبل الشيخ نازلة يكفى أن يضرموا النار فى رؤوس الجبال فيشاهدها أبناء عمهم دروز جبل حوران فيسرعوا شيبا وشبانا لنجدتهم والدفاع عنهم ويبذلوا أرواحهم فى سبيلهم لا يرجون جزاء ولا شكورا.

ولقد كان دروز إقليم البلان[١] أو جبل الشيخ أول من لبى داعى الثورة. فأسرع عدد غير قليل منهم إلى جبل الدروز لتأييد بنى الأعمام فاشتركوا فى معظم المعارك الأولى. فساء ذلك السلطة الفرنسوية فوزعت السلاح على المسيحيين من قرى الإقليم وأغرتهم بقتالهم إيقاعا للشقاق بين أبناء البلاد.

ولما تم للدروز إجلاء حملة الجنرال غملان عن جبلهم فى شهر سبتمبر واتقوا كل خطر من ناحيتها، فقد شغل الفرنسويون فى هذه الفترة بحوادث دمشق والغوطة وحماه والنبك عن كل أمر آخر، قررت القيادة العليا للثورة تسييرحملة إلى إقليم البلان ووادى التيم فتضع حدا للاضطهاد الذى يعانيه الدروز من سكانهما ولنشر راية الثورة فى أرجائهما.

---

١ – يطلق هذا الاسم على المنطقة الممتدة غربى دمشق الجنوبى وتشمل قضاء وادى العجم وعاصمته قطنا، وتبعد عن العاصمة ٢٠ كيلو مترا وقضاء القنطرة وتبعد عنها ٦٥ كيلو مترا، وتتبعه سفوح حرمون الشرقية وسكانها من الدروز. أما سكان السهل فهم من الفلاحين السنيين ومن النصارى والبدو والشراكسة والتركمان وغيرهم.

ففى أواخر شهر أكتوبر تم تأليف الحملة بقيادة زيد الأطرش وقد انضم «إليها من مشاهير رجال الثورة صياح الحمود الأطرش وفؤاد سليم ونزيه المؤيد وفضل الله الأطرش وعلى عامر وأسد الأطرش وشكيب وهاب وحمزة الدرويش والأمير حسن الأطرش وغيرهم وغادرت الجبل متجهة نحو الغرب فاحتلت إقليم البلان واتخذت قرية مجدل شمس (قرية درزية كبيرة فى سفح جبل الشيخ) مقرا لها وكانت مهمتها هنا قاصرة على منع اعتداء الفرنسويين عن السكان واستمالة الشراكسة وحمل الأمير محمود الفاعور على تأييد الثورة والانضمام إليها.

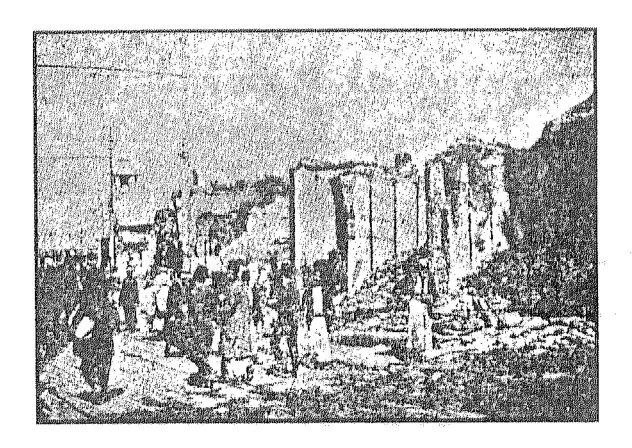
وبعد ما وطدت الحملة اقدامها فى الإقليم اتجه جانب منها إلى وادى التيم[1] فاحتل حاصبيا إلى يوم ١١ نوفمبر بدون مقاومة، لأن قائد الحامية الفرنسوية لجأ إلى الشيخ حسين قيس كبير شيوخ الدروز فى الوادى طالبا حمايته حينما عرف بتقدم الثوار، وكانت قوته قليلة فأوصله مع رجاله إلى النبطية سالمين ودخل الثوار المدينة بين أناشيد الرجال وزغاريد النساء، وألفوا حكومة وطنية برئاسة نسيب غبريل من أعيان مسيحييها.

وجاء قادة الثورة فى حاصبيا وفد من مسلمى جديدة مرجعيون ومسيحييها فعرض خضوعه وطلب إليهم احتلال الجديدة حالا. لأن الجيش أخلاها فسار المجاهدون إليها وصادف حمزة الدرويش فى طريقه سيارة فركبها مع ستة من دروز حاصبيا. ولما بلغ مفرق الطريق المؤدى إلى قرية كوكبا اعترضه وفد من أهاليها برئاسة كاهنها ودعاه إلى تناول طعام الغذاء فلبى الدعوة ودخل القرية آمنا مطمئنا.

وكان أهلها وهم مسيحيون منقسمين إلى قسمين: قسم يؤيد الثورة ويواليها ويرى الانضمام إليها وشد أزرها وعلى رأسه الكاهن، وقسم يوالى الفرنسويين وينفر من الثورة، وقد ساء هذا أن يدخل الثوار القرية وأن ينزلوا فى بيت الخورى. فاحتشد فى مدخل القرية وقابل حمزة ومن معه بالرصاص فسقط ثلاثة منهم صرعى فنادى هذا بأعلى صوته ياقوم: لا تطلقوا علينا الرصاص لأننا ما جئنا لمحاربتكم بل جئنا لمحاربة الفرنسويين المستعمرين وأقسم لكم بشرف الدروز وشرف هذه الثورة المباركة أننا لا نمسكم بسوء ونعتبر القتلى فداء عن الوطن فكفوا عن الرمى، وتأكدوا أنكم خاسرون إذا أردتم المقاومة فلم يصغوا إلى

---

١ - يتألف هاذ الوادى من عدة قرى وبلدان أشهرها حصبيا وراشيا، وهى فى سفوح حرمون الغربية ويقطنه دروز وسنيون ومسيحيون، وقد كان تابعا حتى سنة ١٩٢٠ لحكومة دمشق، ثم فصل عنها سنة ١٩٢٠ والحق بلبنان الكبير.



شارع الدرويشية بدمشق بعد تدميره



أحد أسواق حماة التجارية بعد تدميرها

ندائه بل واصلوا إطلاق النار فهاجت الجموع وماجت وهاجمت القرية وفتكت بعدد من أبنائها.

وكان من جملة القتلى الخورى الذى ذهب ضحية وطنيته وإخلاصه وقد فتك به أحد أبناء رعيته. ورأى قادة الحملة بعد الذى جرى أن يعودوا إلى حاصبيا وأن لا يتقدموا إلى الجديدة خوفا من وقوع اصطدام.

وأعد الثوار حملة بعد أيام بقيادة حمزة الدرويش ونزيه المؤيد لاحتلال الجديدة فلما وصلت إلى قرية (ابل السقى) وتبعد عن الأولى نحو نصف ساعة اعترضها أهل القرية ومعظمهم من المسيحيين ودعوها إلى تناول الطعام والمبيت فلبت الدعوة وقضت ليلتها عندهم. وفى خلال السهرة سلم أحد شيوخ القرية إلى زعماء الثورة كتابا مرسلا من بطرس كرم[1] مملوءا بالشتائم والتهديد والوعيد فأجابوه بكتاب رقيق قالوا فيه إن الثورة وطنية لا طائفية، وأن الثوار نهضوا لمحاربة الفرنسويين لا المسيحيين وعادوا إلى حاصبيا ثانية ولم يتقدموا تجنبا للاصطدام.

وقدم حاصبيا على الأثر زيد الأطرش القائد العام فى الإقليم فقصوا عليه ما وقع فاستحسن الخطة وأشار بعدم الزحف على الجديدة وأذاع المنشور الآتى:

الدين لله والوطن للجميع

إلى إخواننا المسيحيين فى قضائى حاصبيا وراشيا المحترمين أعزهم الله.

بلغنا من الوطنيين الأعزاء أن بعضكم داخلهم خوف من وجود الحملة الوطنية فى جوارهم فأخذوا ينزحون توهما منهم أن الثورة الوطنية قد تصيبهم بأذى، فساءنا هذا الخبر وآلمنا جد الألم. لأنهم إخوان لنا لا فرق بينهم وبين أى مكان من الطوائف الأخرى وثانيا لأن عملهم هذا يؤذى شعورنا لما فيه من عدم الثقة بما أسلفناه من البيانات التى أوضحنا فيها حقيقة الثورة الوطنية، ولقد اضطررنا بسبب موقفكم هذا إلى مخاطبتكم بصفتكم الطائفية على حين أننا لم نفعل ذلك من قبل تنزيها للثورة الوطنية من شوائب

---

١ - مارونى من أهالى شمالى لبنان جاء به الفرنسويون إلى الجديدة يومئذ للدفاع عنها وألفوا له عصابة مارونية أمدوها بالسلاح والمال لقتال الثوار وإيقاع الشقاق بين طوائف البلاد وإغراء المسيحيين بالمسلمين والمسلمين بالمسيحيين.

النزعات البعيدة عن الروح القومية. ولكننا رأينا بعض السذج لم يدركوا الأغراض النبيلة التى ترمى إليها ثورتنا هذه. فأسرعنا ببيانها على هذه الصورة تطمينا لهم، وإننا نرجو أن نثبت لكم عن قرب أن المبدأ الرئيسى التى تستند عليه حركتنا القومية هو ما صدرنا به هذا الكلام:

الدين لله والوطن للجميع

ووصل كتاب الثوار إلى بطرس كرم واتصل به ما قرروه من عدم الرغبة فى الاصطدام به فتحرك فيه شعور الانتقام وظن أنهم خافوه فأرسل بعض رجاله إلى مزرعة برغز وهى لآل شمس من دروز حاصبيا فكمن لهم شكيب وهاب ولما وصلوا وعددهم ١٦ مقاتلا إلى قرب المزرعة قبض عليهم شكيب وجردهم من أسلحتهم وأطلق سراحهم وأعادهم إلى الجديدة قائلا لهم «اذهبوا يا إخوانى وأبلغوا جميع إخواننا المسيحيين أننا لا نريد بهم شرا ولا نرغب فى محاربتهم. بل نود قتال الفرنسويين» فذهبوا إلى إخوانهم ولم يغيبوا طويلا حتى عادوا جميعا لمهاجمة المزرعة فقابلهم شكيب بالرصاص وقاتلهم فارتدوا إلى الجديدة وانضموا إلى القوة الفرنسوية المرابطة فيها وتحصنوا فى الاستحكامات الجديدة المنشأة حولها فحمل عليها الثوار فدار حولها قتال عنيف يوم ١٥ نوفمبر امتد ساعات وانتهى بانتصار الثوار واحتلالهم الجديدة فتراجع الفرنسويون إلى النبطية فطاردهم الثوار حتى جسر الخردلة ووقفوا عنده بعد ما نسفوه، لأنه أول حدود لبنان القديم، وكان من خطة الثوار أن لا يدخلوه، وقد اشترك معهم فى هذه المعركة عدد من أهالى العرقوب وهم مسيحيون وفريق من عرب الفضل التابعين للأمير محمود الفاعور.

منشوران جديدان

وعلى أثر حدوث ما حدث من الاصطدام فى كوكبا وقد استغلها الفرنسويون ومن والأهم فشوهوا سمعة الثورة وأوغروا صدور بعض بسطاء المسيحيين من الذين لم يطلعوا على حقائق الأمور - أذاع زيد الأطرش بيانين فى البلاد وجه الأول إلى الطوائف الإسلامية فى جبل لبنان، والثانى إلى اللبنانيين كافة وهذا نصهما:

الدين لله والوطن للجميع

قيادة حملة إقليم البلان

إلى وجوه وأعيان الدروز والسنيين والشيعيين فى جبل لبنان

أيها الإخوان:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد: فقد بلغنا أن الحكومة الفرنسوية تجردكم من سلاحكم وتسلح إخوانكم أبناء الطوائف الأخرى بحجة الخطر على سلامتهم الناشئ على زعمها عن الثورة السورية الوطنية. على أننا نعلم نحن كما تعلم الحكومة نفسها أن لا داعى لهذا السلوك الغريب الذى لم يسبق له مثيل فى هذا العصر فى أية بلاد من بلاد الله. ذلك لأن أبناء البلاد الذين تربطهم الروابط القومية وتشد بعضهم إلى بعض المصالح الوطنية ليسوا فى حاجة إلى هذه التدابير الضارة، وهم فى خير وسلامة لولا سوء إدارة الحكومة المنتدبة، ولولا أعمالها الصادرة عن نيات غير سليمة.

ولقد بات من الجلى الواضح أن الحكومة المستعمرة تريد أن تخدع العالم الخارجى باقناعه أن الثورة الوطنية هى ذات صبغة دينية، وذلك يقر فى أذهان الأمم المتمدنة أن انتدابها لسورية هو أمر ضرورى لسلامة الإقليات وصيانة حقوقها. لذلك فأن من الفروض الواجبة على كل من فى قلبه إخلاص لوطنه وحب للحرية أن يبذل أقصى مجهوده ليكذب هذه المزاعم ويثبت لهذه الحكومة أنه غير راض عن سياستها.

ولقد أسرعنا بالكتابة إليكم لعلمنا أن تجريدكم من السلاح وتوزيعه على إخوانكم الآخرين قد يوقظ فى نفوسكم شعورا غير صالح تجاههم ويحملكم على النفور منهم والريبة فيهم، وبالتالى قد ينشأ عن هذه الحالة حوادث تضر بالوطن وتؤذى القضية الشريفة، والأغراض التى يسعى إليها رجال الثورة الوطنية. ولا يخفى أن هذه النتيجة هى الغرض الذى تقصد إليه سياسة الحكومة. لأنه يساعد على رسوخ قدمها فى البلاد ويمكنها من الثبات فى ربوع الوطن. إذ يسقط بين يديها فريسة منهوكة القوى بسبب التطاحن الداخلى. ولقد كتبنا بيانا عاما للبنانيين الكرام وأوضحنا فيه أننا لا نريد فى حركتنا الحاضرة إلا سورية الداخلية. فلا محل إذا لقلق أحد على مسألة الحدود وأمطنا فيه اللثام عن سوء نية الحكومة بسيرها فى هذه السياسة الفاسدة، وأوضحنا الأغراض الحقيقية التى نسعى إلى تحقيقها بواسطة الثورة، وإننا لعلى ثقة أن الذين كانوا يجهلون الحقيقة من اللبنانيين ممن حملتهم سياسة الحكومة على مقاومة الحركة الوطنية قد أخذوا الآن

يدركون أن مساعدتهم للحكومة هى جناية على الوطن وخيانة لقضية الحرية تعافها الشهامة وينبوا عنها الشرف. وقد استدعت الحال أن نختصكم بهذه الرسالة على كره منا، لأننا لا نريد أن نخاطب فريقا من أبناء الوطن بصفته الطائفية، وذلك لكى نحذركم من سياسة الحكومة ونوصيكم أن تكونوا صبورين، ونحثكم على التقرب من إخوانكم وبنى جلدتكم ووطنكم أبناء الطوائف الأخيرة ونرجوكم أن تزيلوا بحسن سلوككم وصبركم كل سوء تفاهم بينكم، وأن تتفقوا جميعا على الذين يسعون لتكدير العلاقات الودية من الجهلة والسفهاء الذين لا يدركون ما يصنعون فتضربوهم بيد من حديد، واننا لنرجو أن تكونوا أنتم وجميع أبناء وطنكم الآخرين عند ظننا بكم من الحصافة والتعقل والوطنية الصادقة والسلام عليكم.

٢٢نوفمبر سنة ١٩٢٥ باسم قائد الجيوش الوطنية العام

زيد الأطرش

ـ ٢ ـ

إلى اللبنانيين الكرام
الدين لله والوطن للجميع

أيها الإخوان

لا شك فى أنكم تعلمون الأسباب الوجيهة التى أكرهت سكان سورية الداخلية على القيام فى وجه السلطة الاستعمارية الفرنسوية. وأنكم فوق هذا تعلمون أن هذه الثورة التى بدأت فى جبل الدروز قد عمت الآن بلاد سورية الداخلية، لأن مظالم الحكومة لم تكن مقصورة على جبل الدروز. بل كانت ولا تزال عامة تشمل جميع البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسوى، فالثورة الآن هى ليست درزية محلية، بل هى سورية وطنية يشترك فيها جميع أبناء سورية على اختلاف مذاهبهم وهى تقصد إلى أغراض وطنية بحتة لا شأن فيها للفوارق والنزعات الدينية. ولقد كنا أذعنا عدة بيانات فى البلاد الداخلية أوضحنا فيها المبادئ التى تستند إليها الثورة والأغراض التى ترمى إليها فأدرك القسم الأول من إخواننا مسيحى البلاد حقيقتها ولم يتأخروا عن الاشتراك فيها تلبية لدواعى القومية والوطنية على أن الحكومة الفرنسوية كرهت أن يعلم العالم الخارجى أن فى سورية روحا

وطنية وشعورا صحيحا بالإخاء الوطنى، فعمدت إلى أتباعها من المغرورين المخدوعين فزينت لهم أن يقفوا فى جانبها ضد الحركة الوطنية، وبذلت قصارى جهدها لبذر بذور الشقاق بين أبناء البلاد مستثمرة الفروق المذهبية. ولقد بلغ من سوء نيتها أنها سلحت فريقا من أبناء البلاد، وجردت الفريق الآخر من سلاحه، لقوهم العالم أن هنالك خطرا على الأقليات، ولتوهم الفريق الذى سلحته أنها حريصة على سلامته حال كون هذا العمل يؤدى حتما إلى إيقاظ سوء الظن فى الفريق الآخر، ويحمله فى التالى على الحيطة والوقوف موقف النفور من أبناء قومه ووطنه، ولا يخفى أن الغرض الرئيسى من هذه السياسة الفاسدة هو تحويل الثورة من صبغتها الوطنية إلى حرب ذات صبغة دينية شنيعة الحال والنتيجة، وذلك كى يقنع الرأى العام فى أوربا أن وجود الانتداب الفرنسوى فى سورية هو أمر ضرورى تتوقف عليه سلامة فريق من السكان.

ولقد جنت الحكومة أول ثمرة من ثمار سياستها فى الحادثة المؤسفة التى وقعت فى قرية كوكبا من أعمال مرجعيون. إذ سمحت بأن تحتشد فيها عصابات مسلحة بعد أن حرضتها على مقاومتها الحركة الوطنية، وعند مرور فريق من جيش الثورة بقرب كوكبا أطلق هؤلاء الرجال الرصاص على الجيش الوطنى من دون سبب موجب فقتلوا ثلاثة من رجاله.

وأسرع قائد القوة إلى التفاهم معهم بنفسه ومعه كاهن القرية، ولكنهم عادوا فأطلقوا الرصاص وقتلوا الكاهن المذكور ورجلا رابعا من رجال الجيش. فاضطر القائد عند ذلك إلى الدفاع عن أرواح أتباعه وعن شرفه وشرف الثورة الوطنية وحصل ما حصل مما كان له الوقع السيئ فى نفوسنا. مع علمنا أنه لم يكن ليحصل لولا سياسة الحكومة المبنية على قاعدة التفريق بين العناصر، ورمى بعض أبناء الوطن بالبعض الآخر توصلا إلى إضعافهم جميعا. ثم روجت الحكومة الدعوة الي التجمع في جديدة مرجعيون بقصد خلق جيش من الموارنة لمقاومة الحركة الوطنية الاستقلالية وذلك بحجة الدفاع عن حدود لبنان.

فانخدع بعض أبناء الوطن من سكان لبنان وأسرعوا إلى حمل السلاح، ثم جاء منهم فريق إلى جديدة مرجعيون بقيادة بطرس بك كرم، وفى ليلة ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٥ هاجم فريق من هؤلاء المتطوعين قرية برغز بقصد حرقها وقتل سكانها كما علمنا من النذر التى جاءتنا قبل وقوع هذا الاعتداء، ولكن برغز كانت محمية بقوة أرسلت لصد المعتدين فوقع

منهم بيد الحامية ستة عشر رجلا أسرى وصد الباقون عن برغز. وقد أطلق قائد الحامية سراح الأسرى بعد أن أفهمهم خطأهم، وأوضح لهم أن الثورة هى وطنية نزيهة عن النعرات الطائفية. على أن عصابة كرم أخذت فى إطلاق الرصاص على برغز، فجرت بعملها الطائش الجيش الوطنى المرابط فى حاصبيا، ولم تلبث أن تراجعت أمام هذه النجدات إلى الجديدة فدخلت وراءها واشتبكت مع القوة الفرنسوية وأجلتها عن البلدة كما هو معلوم. وواضح من هذا البيان أن مجئ بطرس كرم ومن معه إلى الجديدة كان جناية عليها وعلى الوطن. إذ ساعد على خلق سوء التفاهم بين رجال الثورة الوطنية وإخوانهم موارنة جبل لبنان، وذلك فى زمن قد استقبلنا فيه عهدا جديدا هو عهد القومية والوطنية الشاملة. وأصبح من الجناية على هذا الوطن المعذب أن يقوم من أبنائه فريق يزيد فى مصائبه بسعيه لتثبيت أقدام الأجانب فيه. وذلك جريا وراء نزعات قد علمت جميع أمم الأرض أنها شر داء يصيب الأوطان، وأنها علة الضعف والتفكك فى كل مجتمع من المجتمعات البشرية.

أننا نخاطب منكم جماعة المتنورين ونناشدهم بأن يذكروا ما عليهم من الواجبات تجاه الوطن والتاريخ، ونطلب إليهم أن يشتركوا معنا فى السعى للقضاء على روح التفرقة التى تود الحكومة المنتدبة أن تخلقها وتنميها لتستغلها لمصلحتها الاستعمارية، وأما مسألة الحدود بين سورية الداخلية وبين لبنان فهى من الأمور التى يصح البحث فيها بعد الفراغ من إنقاذ البلاد من الاعتداء الأجنبى، وإذا استدعت الضرورة العسكرية الاستيلاء على أمكنة معينة فلا داعى للقلق. إذ إن المعول فى هذا الشأن هو ما يتقرر بعد استقرار الحال فى البلاد. ونرجو أن لا يفوتكم أيها الإخوان أننا نقاوم دولة أجنبية لم تدع شيئا مما يؤذينا ويؤذى وطننا وذرارينا إلا فعلته. كأنها موكلة بهلاكنا وخراب ديارنا ولقد بلغ من حقد قواد الجيش الفرنسوى وشغفهم بإلحاق الضرر بنا وبنهضتنا الوطنية أنهم قذفوا من أول هذه الثورة حتى الساعة ما يزيد على الثمانمائة ألف كيلو من الديناميت علينا وعلى أطفالنا ونسائنا. فهل ترون بعد هذا من الشهامة والمروءة أن تكونوا أنصارا لهذه الدولة التى لم يأنف عمالها من استعمال هذه الوسائل الفظيعة للوصول إلى أغراضها الاستعمارية؟

ثم هل تجدون فى مصلحتكم أن تؤسسوا عداء بينكم وبين إخوانكم سكان الداخلية

وهم الأكثر عددا؟ وهم فوق هذا المصممون على أن يتخلصوا من الانتداب الفرنسوى، ولو اضطروا إلى محاربة كل من شاء أن ينتصر لعدوهم؟.

أننا لفى انتظار جوابكم. هل فى هذا البيان كفاية لإزالة ما علق بأذهان بعضكم من الخطأ الناتج من الدعاية الكاذبة أم غير ذلك؟ والسلام عليكم.

باسم القائد العام لجيوش الثورة الوطنية السورية
زيد الأطرش

الزحف على راشيا

بعد ما وطدت الحملة أقدامها فى إقليم البلان واحتلت قضاءى القنيطرة ووادى العجم وحاصبيا سيرت جانبا من قواها إلى راشيا بقيادة حمزة الدرويش، وكانت ترمى من عملها هذا إلى التقدم نحو سهل البقاع، واحتلال رياق وقطع خط الاتصال بين دمشق - بيروت بالسكة الحديد فبلغتها يوم ٢٠ نوفمبر وكان فيها عدد من الجنود الفرنسويين تحصنوا فى قلعة الأمراء الشهابيين، وصمموا على الدفاع فقابل وفد من سكانها حمزة الدرويش راجيا عدم احتلال بلدتهم خوفا عليها من التدمير. فأجابهم أنه لابد له من تنفيذ الأوامر التى يحملها وتقضى عليه باحتلالها. ويقال فى بعض الروايات إن عدد المهاجمين من الثوار ما كان يقل من الألفين. أما عدد القوة التى تحصنت فى القلعة للدفاع عنها فهذا بيانها:

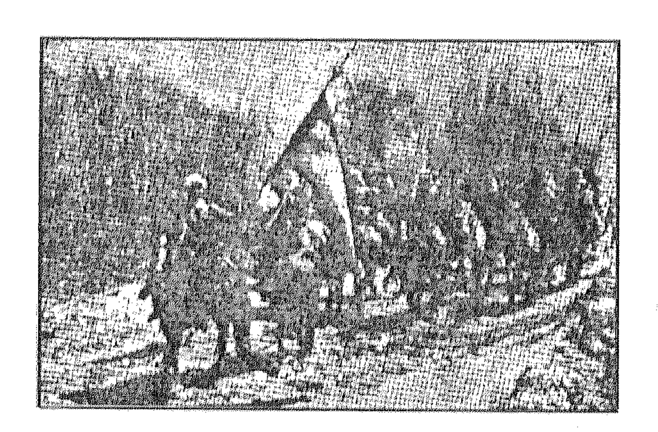
٣٥٠ جنديا فرنسويا و ١٥٠ مارونيا مجندين فى الجيش الفرنسوى و ٧٠ مسيحيا متطوعا من أهل راشيا.

بدأ الثوار هجومهم الشديد على راشيا عند زوال يوم الأحد ٢٢ نوفمبر وانقسموا ثلاث فرق: فرقة تحمل السلالم الخشبية الاعتيادية وفرقة تحمل القنابل اليدوية ولحفا مغموسة بالكاز، ورجالهما يتقدمون ومن ورائهم فرقة حملة البنادق.

هكذا تقدمت هذه الفرق من ثلاث جهات فكانت الحامية تمطرهم من القلعة وابلا من الرصاص والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية فقتل من متسلقى السلالم مالا يقل عن المائتين، وكانوا يهجمون هجوما متواصلا فلا يصل من المهاجمين إلا العدد النزر ثم يتجندل



جثث الشهداء أمام قلعة راشيا



كوكبة من فرسان الجاهدين في الغوطة رافعة لواء النصر

هؤلاء عند السور، وكانوا فى كل هجمة يتمكنون من رمى شئ قليل من المواد المحرقة.

وبعد نضال عنيف دام أربع ساعات على هذا المنوال جهز الثوار قسما آخر هجم على بابى القلعة من الجهتين الشرقية والغربية فأحرقهما بالنار وكسرهما بضرب الفؤوس.

وكانت الفرقة السباهية على باب الجهة الشرقية تقابل المهاجمين بالسلاح، وكان سلاحها السيوف، وكانت فرقة الروسيين تقابلهم من الجهة الغربية برءوس الحراب وما كان المهاجمون يرتدون.

مدخل الجهة الغربية سرداب طوله عشرة أمتار وعرضه متران كان الثوار يلجأون منه عشرة عشرة فإذا ما انتهوا إلى آخره وأوشكوا أن يدخلوا ساحة القلعة يقابلهم الروسيون بالحراب فيتجندلون فيثب وراءهم عشر آخرون خمسة منم يسحبون جثث القتلى إلى الخارج لتفتح المعبر والخمسة الآخرون يهجمون إلى الداخل فيصيبهم ما أصاب الذين هجموا قبلهم. وظلت هذه الهجمة على هذا الشكل المريع أربع ساعات وما زال المواثبون يخرجون الجثث ويكدسونها قرب السور حتى جعلوامنها سلما إلى أعلى الأقبية فتسلقوا عليها إلى سطح قبو لا يعلو عن الأرض من الخارج أكثر من خمسة أمتار وشرعوا من هنالك يساعدون الفرقة المهاجمة من الجنوب بالحريق.

وكانت الفرقة المهاجمة من الجنوب تواصل التسلق على السلالم وترمى النيران على بيوت القلعة فاحترق قسم كبير من تلك البيوت وتصاعد الدخان وانتشر يعمى عيون العساكر.

وكان يدافع فى هذه الجهة من الجيش المختلط ومن الجندرمة اللبنانية ومتطوعة الأهالى ففرغت ذخيرته، وعم الحريق تلك الجهة بأجمعها. فانسحب المدافعون إلى الجهة الشمالية - أى من القصر إلى دار بيت مفرج فى القلعة وكانت النيران لا تزال مشتعلة فى بيوت آل شاتيلا ومالك وخورى ضمن القلعة جنوبا.

فتحصن الدرك فى الجهة الشمالية وتحصن الثوار فى هذه الجهة المحرقة وصنعوا لهم من خيول العساكر المربوطة فى ميدان القلعة متاريس. فاطلقت الجندرمة من الجهة الشمالية نارها على الخيل فصرعتها وصار تبادل النيران من الشمال إلى الجنوب سجالا والمسافة بين المتراميين لا تزيد على المائة والخمسين مترا. وكانت الطيارات أسرابا عديدة تصب قنابلها على المهاجمين من كل جهة. لهذا لم يتمكن من ولوج القلعة أكثر من مائة وخمسين منهم.

وفى أثناء هذا الصراع كانت الهجمات على كل جهة من جهات القلعة الباقية متواصلة بلا انقطاع.

وفى يوم الاثنين الساعة الثانية بعد الظهر تمكن المهاجمون من دخول القلعة من جهتها الجنوبية.

وفى منتصف ليل الاثنين ـ الثلاثاء وصلت النجدات الفرنسوية على الترتيب الآتى:

وصلت فرقة من رياق إلى أسفل المحيتة فنصبت مدفعيتها الثقيلة هنالك، وأخذت تطلق المدافع حول القلعة وقامت الخيالة منها تحت حماية المدافع بحركة التفافية من جبل ضهر الأحمر إلى سهل كفرقوق غربى راشيا وشماليها، وإلى جهات بستان عين اللبوة والعقبة جنوبا، وفى الوقت نفسه كانت نجدة قدمت من جزين ونامت فى قرية كفر مشكة غربى راشيا، ونصبت مدافعها الجبلية تحت كنيسة كفر مشكة، وأخذت تطلق مدافعها من هنالك على راشيا وتقدمت عساكرها تحت حماية نار المدفعية فى هضاب بيت كيفا وكروم المنشار التابعة لراشيا.

واشتبكت العساكر التى وصلت إلى راشيا بالقتال مع فريق كبير من الثوار الذين انسحبوا إلى حاصبيا جبل الشيخ الشرقية الجنوبية مارين بعين عطا، وانسحب بيت العريان وبعض دروز القرى الشمالية إلى قرية عيحا ونجت الحامية فى القلعة وسيطر الجيش على راشيا صباح الثلاثاء ٢٣ منه.

وقتل الكابتن غرانجية فى اليوم التالى للهجوم أصابته رصاصة فى صدره بنما كان يتفقد الحامية ويستكشف حركات الثوار فتسلم القيادة الكابتن جروس دى مارلياف وقد كانت معركة راشيا هذه من أعظم معارك الثورة بما أبداه الثوار من بسالة نادرة. ولو تم لهم الاستيلاء على القلعة والزحف نحو رياق وزحله لتبدل شكل الثورة ولأدركت فوزا كبيرا.

وفقد الفرنسويون فى معارك راشيا عدا الكابتن غرانجيه الكومندان تينيه قتله الثوار أيضا وتهدمت معظم بيوت راشيا وأصبحت خرابا.

حملة الإقليم الثانية

وفى أواسط شهر ديسمبر سنة ١٩٢٥ وصلت إلى قرية الكفير من قرى حاصبيا حملة بقيادة متعب الأطرش قائد مشاة الدروز قادمة من الجبل، وبعد ما قضت فيها يومين غادرتها لمهاجمة مركز «شويا» شرقى حاصبيا والمشرف على كل تلك الجهات، وقد حصنه

الفرنسويون ووضعوا فيه ١١ مدفعا كبيرا وكثيرا من المدافع الرشاشة. ولما دنا الثوار منه أصلتهم المدافع نيرانا حامية فابتعدوا عن خط النار حتى الصباح ثم تابعوا بسيرهم إلى قرية المحيثة بعد ما حرقوها وعادوا إلى شويا من دون أن يشتبكوا مع الثوار الذى لحقوا بهم وتسللوا بين الأدغال والشعاب حتى بلغوا شويا فحاصروها مدة خمس عشرة ساعة وكادوا يدخلونها لولا أن فرقة من المتطوعين الموارنة خرجت منها ليلا ودارت من جهة الجنوب حتى صارت وراء الثوار وهاجمتهم فأصبحوا بين نارين فارتدوا ثانية إلى الكفير ثم قصدوا قرية عين عطا فمجدل شمس وهذا نص الكتاب الذى أرسله متعب إلى سكان مرجعيون وأطرافها:

جناب الأجلاء الأماجد الحاج محمد أفندى وعلى أفندى وخنجر أفندى العبد الله وعموم آل عبد الله فى قرية الخيام المحترمين.

بعد سؤال خاطركم، نعرفكم أنه واصل انذار لتحت يد الحاج عبد الله أبو سمرة وأخيه يوسف بو سمرة من إبل السقى لأجل يبلغوه لمسيحى حاصبيا ومرجعيون فعند اطلاعكم عليه تفهمون مضمونه. والآن إن الخطة التى اتخذت قبلا لم تكن مدربة لأننا غرب الديار وحصل من ورائها ما حصل.

وعليه أن قدر الله باشرنا بتدابير جديدة منظمة والتوفيق على الله. تأكدوا أيها الأفاضل أننا لانقصد الاعتداء على أحد. بل نحن مقاومون رجال فرنسا الذين يريدون استعمار بلادنا، ونحن لسنا ضد رجالها الأحرار الذين يريدون لنا كل خير. أما من جهة المسيحيين الذين تسلموا أسلحة من الحكومة بقصد مقاومتنا سوف نريهم منا ما يستحقونه وخصوصا أهالى راشيا الفخار الذين يضيقون على رجالنا العابرى الطريق، وقد قتلوا منهم حصانا وجرحوا واحدا من الذين يعتمد عليهم.

ثم بلغنا أن مسيحيى بلدتكم نهبوا حاصبيا ودخلوا مع الفرنسويين إليها فإذا استحسنتم إبلاغهم بإرجاع ما نهبوه حيث لا يمكننا التغاضى عنهم وترك حقنا عندهم ولولا نظركم عليهم لكنا غير عاجزين عن تأديبهم فإذا لم يقبلوا نصيحتكم عرفونا.

لقد صادرت رجالنا بعض المكارين الذين أتوا من بلدتكم إلى القنيطرة وصار تركهم إكراما فبلغوا المكارين أن لا يعودوا ثانيا إلى القنيطرة خوفا من وقوع سوء التفاهم ودام بقاكم.

حرر فى ٢٥ جمادى الثانى سنة ١٣٤٤ — أخوكم متعب الأطرش

ـ ١٢ ـ

دمشق بعد الكارثة

كان ضرب دمشق بالقنابل يوم الأحد ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٥ من أعظم حوادث الثورة السورية فلفت إليها الأنظار، وجعلها موضع الاهتمام ـ كما كان موضع استنكار العالم واستهجانه.

بدأ الفرنسويون بإطلاق النار على دمشق في الساعة الرابعة بعد ظهر الأحد ١٨ أكتوبر من قلعة المزة ـ وهي تطل على المدينة من غربيها ـ من دون أن يسبق ذلك إنذار للأهالي العزل الأبرياء أو للأجانب أو للقناصل خلافا لما تقضي به القوانين الدولية. وانقطع الضرب ليلة الإثنين، وفي صباحه حلقت في الفضاء طيارتان وبدأتا بإطلاق النار من رشاشاتهما ثم تبعهما إطلاق النار من قلعة المزة ومن قلعة دمشق وهي واقعة في وسط المدينة تقريبا فكانت القنابل وتتساقط في الأحياء الإسلامية، وهي حي الميدان والشاغور ومئذنة الشحم وباب الجابية وشارع سيدي عامود، حيث المنازل التاريخية الفخمة فتدكها دكًا على رؤوس أصحابها وتجعل عاليها سافلها وتدمرها تدميراً.

واستمر إطلاق المدافع من صباح الأثنين حتى صباح الثلاثاء بمعدل قنبلتين كل ثلاث دقائق الأولى من قلعة المزة والثانية من قلعة دمشق إحداهما مدمرة والأخرى محرقة.

ولما طال المطال واشتد الرعب وساد الفزع والهول تجمع بعض الوجهاء وذهبوا بهيئة وفد إلى الجنرال غاملان في الساعة العاشرة من صباح الثلاثاء يرجونه إيقاف الضرب رحمة بالأطفال والنساء وخوفا على ما بقي من المدينة. فأجابهم أنه لا يمكنه وقف الضرب إلا عند الظهر وبشرط أن تدفع دمشق للسلطة الفرنسوية حتى ظهر يوم السبت ٢٤ أكتوبر مائة ألف ليرة عثمانية ذهبا (فكأنه يريد أخذ ثمن القنابل التي ضربت بها المدينة مضاعفة) وتسليم ثلاثة آلاف بندقية على أن يكون مع كل واحدة مائة طلقة فقبلوا ما عرضه إنقاذا للشعب من الهول والرعب، وأنذرهم بأنه إذا لم يدفع المال وتسلم البنادق في الوقت المعين فسيستأنف إطلاق القنابل ويدمر المدينة تدميرا.

ووقف الضرب فعلا عند الظهر، وسكن الاضطراب قليلا وتنفس الناس الصعداء

وأدركوا أنهم سينامون ليلتهم بهدوء بعد ما حرموا النوم ثلاث ليال، ولكن الذى أهم وساءهم هو إرسال السلطة سيارتين مصفحتين إلى شارع مدحت باشا، وهو من أكبر شوارع دمشق التجارية، تطلقان قنابلهما على أبواب المخازن التجارية وتحطمها فيلقى جنود كانوا يسيرون وراء السيارتين قطعا من النفط الملتهب فتلتهم المخازن والحوانيت والبيوت مما سبب أضرارا عظيمة للتجار. كما أدى إلى قتل كثير من النفوس البريئة.

وانقضت أيام الأربعاء والخميس والجمعة واقترب السبت، وهو الموعد المضروب لدفع الغرامة وتسليم السلاح فوجم الناس وارتاعوا لأنه ليس فى إمكانهم الدفع ولا التسليم، وأخذوا يهجرون بيوتهم ومنازلهم إلى حى الصالحية، وقد ظل فى نجوة عن التدمير لأنه آهل بالفرنسويين، وزاد الطين بلة الإذاعة التى أذاعها قنصل بريطانيا العام فى دمشق بين رعايا دولته مساء الجمعة ونصها:

«نظرا لعدم إمكان تسليم السلاح المفروض على الأهالى ودفع المال اللازم، ونظرا لأن السلطة ستضرب بقنابلها المدينة مرة أخرى صباح غد السبت فعلى الرعايا البريطانيين أن يأتوا إلى دار القنصلية قبل صباح السبت مزودين بإعاشة تكفيهم بضعة أيام ومصحوبين بجوازاتهم وأوراقهم المثبتة».

ووصلت ليلة السبت أوامر مشددة من باريس تقضى بإيقاف أعمال التخريب والتدمير فى دمشق مهما كانت الظروف. فاكتفى ولاة الأمور بأن ضربوا ضريبة إضافية على المدينة قدرها عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهبا جزاء عدم دفع الغرامة فى موعدها ومدوا أجل المهلة حتى ظهر يوم الخميس ٢٩ أكتوبر وقالوا إن كل يوم ينقضى بعد ذلك ولا تدفع فيه الغرامة يضاف ٥٠٠ ليرة عثمانية ذهبا إلى حساب دمشق ريثما تدفع كاملة، فسكنت النفوس قليلا وزال خطر العودة إلى أعمال التخريب والتدمير. وألفت الحكومة لجانا فى الأحياء لجمع المال والسلاح مع الغرامات الإضافية.

ولما كان من المتفق عليه أنه لاسلاح فى دمشق فيقدم إلى السلطة عمد ولاة الأمور الفرنسويين إلى طريقة غريبة، وذلك أنهم استخرجوا بنادق قديمة كانت مدفونة فى قلعة دمشق وسلموها إلى متطوعة الشركس فعرضوها فى الأسواق بسعر عشر ليرات للواحدة فأقبل عليها الناس واشتروها وسلموها للجان، وبلغ الأمر ببعض هذه أنها كانت تكتفى بقبض ثمن البندقية ثم تسددها للسلطة مباشرة. والويل كل الويل لمن لا يدفع ثمن البندقية

المفروض عليه. فقد كان متطوعة الشركس يقتحمون بيته ويأخذون كل ما فيه من تحف وسجاد ونفائس لتباع سدادا لثمن البندقية. وبهذه الطريقة جمعوا من دمشق ٣٠ ألف ليرة ثمنا للبنادق. أما الغرامة المالية وقدرها مائة ألف ليرة ذهبا فقد دفعتها الحكومة إلى جيش الفرنسوى وجبتها من المكلفين مع الأموال الأميرية.

وسكنت الحالة في يومى السبت والأحد وكانت المدينة مقفلة في خلالهما ثم عادت ففتحت أبوابها يوم الاثنين، وأقبل الناس على الهجرة ـ وقد منعتها السلطة الفرنسوية في خلال الأسبوع الذى وقع فيه الضرب، وقدر عدد الذين غادروا دمشق في تلك الأثناء بخمسة وعشرين ألفا قصدوا إلى بيروت ولبنان وفلسطين ومصر.

أعمال العصابات في الغوطة

لما توالى إطلاق المدافع على دمشق في يومى الأحد والاثنين ١٨و ١٩ أكتوبر وأعلنوا أنهم لن يكفوا عن الضرب حتى يغادرها رجال العصابات ويجلوا عنها، انسحب هؤلاء مساء الاثنين عائدين إلى ملاجئهم في الغوطة.

وكان في الغوطة يومئذ ثلاث عصابات قوية: عصابة حسن الخراط، وقد تحصنت في الزور على أبواب دمش، وعصابة جمعة سوسق ـ وكانت تعمل في جبال قلمون ـ وعصابة رمضان شلاش وكانت ترابط في شمال الغوطة. وكان نسيب البكرى يشرف على هذه العصابات ويتولى القيادة العليا في الغوطة وفي قلمون.

تخريب قرى جديدة

وعادت العصابات بعد مغادرتها دمشق إلى نشاطها في الغوطة فأرسل الفرنسويون القوى لمنازلتها فردتهم فأرسلوا طيارتهم يوم ٣٠ أكتوبر فألقت قنابلها على قرى اليهجانة والغزلانية وتل مسكن ودير سلمان فدمرتها.

ولابد لنا من القول بهذه المناسبة أن وفدا من أهالى دمشق زار يوم السبت ١٧ أكتوبر رئيس الحكومة السورية يومئذ ـ وذلك بعد ما كانت السلطة الفرنسوية قد حرقت المليحة والبلاط وجسرين ودير بحدل وجرمانا، ونهبت مواشيها وأبقارها ومفروشاتها وأثاثها.

فشرد نساؤها ورجالها وأطفالها على وجوههم ولجأوا إلى دمشق - وأبان له أن السلطة بإحراقها القرى وتدميرها تزيد فى عدد رجال العصابات الثائرة. لأن كل من تحرق داره يرسل نساءه إلى المدينة ويسعى للحصول على بندقية، وينضم إلى الثوار فلم يلقوا جوابا.

ودارت معركة عنيفة يوم ٢١ ديسمبر بين عصابة حسن الخراط والفرنسويين انتهت بارتداد هؤلاء إلى دمشق.

إعلان الإدارة العرفية فى دمشق

وفى مساء ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٥ أذيع بلاغ رسمى بإعلان الإدارة العرفية فى دمشق وحوران وهذا نصه:

المادة الأولى - تعلن الإدارة العرفية فى مدينة دمشق وسنجقى دمشق وحوران اعتبارا من ظهر يوم الأربعاء الواقع فى ٢٥ نوفمبر سنمة ١٩٢٥.

المادة الثانية - تخول السلطة العسكرية فى المناطق التى أعلنت فيها الإدارة العرفية حسب المادة الأولى صلاحيات القضاء والضابطة التى تقوم بها السلطة الملكية، وذلك فى الجنايات والجنح التى تقترف ضد سلامة المنطقة وجيوش الدولة المنتدبة والنظام والأمن العام - وفقا لنصوص القرار رقم ٤ س تاريخ ١٠ يناير سنة ١٩٢٥.

المادة الثالثة - تقوم السلطة العسكرية بتطبيق الصلاحيات الملمع إليها بالاتفاق مع حضرة المفوض السامى أو مندوبه.

المادة الرابعة - الواجبات الناجمة عن أحكام هذا القرار رقم ٥ س تتناول جميع الأشخاص الموجودين بأية صفة كانت فى المناطق المعلنة فيها الإدارة العرفية.

المادة الخامسة - تثابر الإدارة الملكية على القيام بالصلاحيات التى لم تجرد عنها بموجب هذا القرار.

المادة السادسة - أمين السر العام والسلطات الملكية والعسكرية من فرنسوية وسورية مكلفون كل فيما يخصه بتنفيذ أحكام هذا القرار.

وأذيع مع هذا البلاغ البيان الرسمى الآتى - وهو موجه إلى أهالى مدينة دمشق ولواء

دمشق ولواء حوران المحترمين ونصه:

قامت عصابات فى ضواحى دمشق بتعديات على الأملاك الأشخاص، وقد تجرأ بعض الأشقياء على إحداث الاضطرابات حتى فى المدينة نفسها.

ولهذا فإن المفوض السامى قد عزم عزما ثابتا على الإسراع بدون إمهال لوضع حد لهذه الحالة التى لا تحتمل، وهو يدعو الأهالى جميعهم لمساعدته بثقة تامة للمحافظة على النظام الذى لابد منه، ليتمكن كل شخص من أن يعيش ويشتغل فى أمان وسلام.

ورغبة فى الوصول إلى هذه الغاية فإن الجنرال المفوض السامى الذى زودته حكومة الجمهورية الفرنسوية بالسلطة المطلقة يعلن الأحكام العرفية فى مدينة دمشق وسنجقى دمشق وحوران.

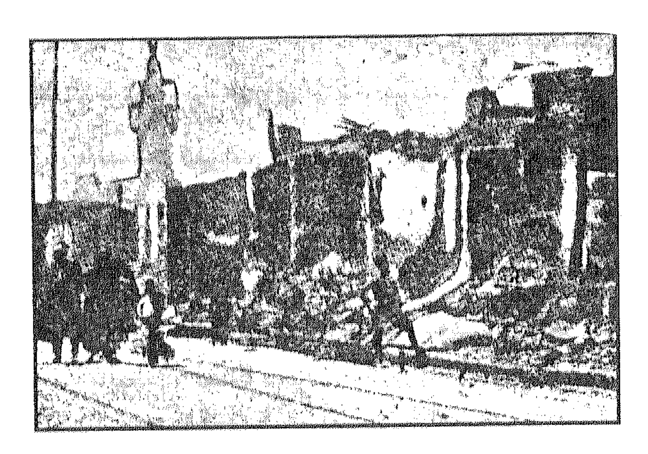
على الجميع أن يفهم الأهالى أن هذه التدابير لم تتخذ إلا لصالحهم وللتمكن من إعادة الحياة فى أقرب وقت إلى مجراها الطبيعى.

على جميع الأهالى أن يراعوا بكل دقة جميع الأوامر والأحكام الصادرة من السلطات العسكرية والمدنية وأن يكونوا على ثقة من أن لاغاية من هذه الأوامر والأحكام إلا الخير العام، ولم يوح بها إلا الرغبة فى المحافظة على مصالح كل فرد من الأهالى وأملاكه وحريته.

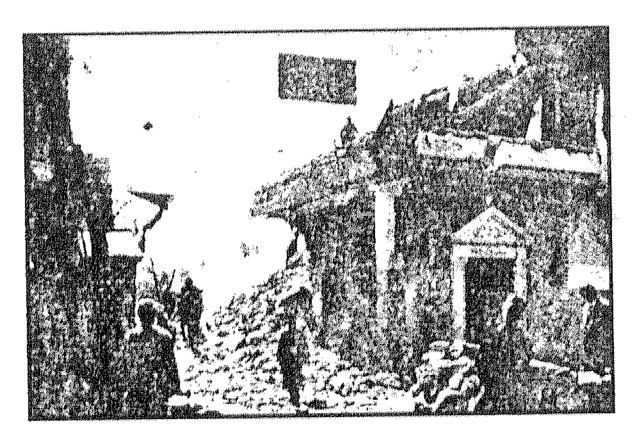
لا تبقى الأحكام العرفية إلا أثناء الاضطرابات السائدة حاليا، ويستعمل المفوض السامى ما فى وسعه لإعادة الأمن العام فى ناحية دمشق، فيتمكن أهالى المدن والقرى قريبا من العودة إلى أشغالهم التى انقطعوا عنها، وتتمكن سلطانها بالثقة والتعاون مع الدولة المنتدبة من وضع التشكيلات الجديدة التى تترتب عليها إدارة البلاد.

معركة بلدة وبيلة

حدثت هذه المعركة يوم ٢٩ نوفمبر، فقد ذهب نزيه المؤيد فى هذا اليوم إلى جوار حى الميدان فى دمشق مع ٥٠ فارسا للانتقام من سليم المفتى الذى كان يقوم بتأليف عصابة تقاتل الثوار فى صفوف الفرنسويين، فخرج الجند، للقائه فاستدرجهم حتى قرب قرية وبيلة وتبعد عن دمشق نحو ٥ كيلو مترات، وصمد لهم ووقف لقتالهم، وكان متعب الأطرش أول من قدم لنجدته مع ٨٠ فارسا من رجاله كانوا يرابطون فى قرية الست، ثم جاء على الأثر



شارع الجزماتية في حي الميدان بعد تدميره



قصور آل البكرى فى دمشق بعد مادمرها الفرنسويون فى شهر
أكتوبر سنة ١٩٢٥

سعيد العاص وعلى الأطرش وعبد القادر سكر ومحمد عز الدين الحلبى بمشاته فدارت معركة عنيفة امتدت من الصباح حتى المساء، والتحم الفريقان خلالها وتقاتلوا بالسلاح الأبيض، وانتهت بانهزام الجيش وتراجعه إلى دمشق تاركا نحو ١٠٠ قتيل سقطوا فى أقنية الماء. علاوة على كثيرين من القتلى والجرحى وطارد المجاهدون الجيش وهم يضربون فى أقفيته حتى وصلوا إلى ثكنة العزيزية فى وسط حى الميدان فقتلوا على بابها ضابطا فرنسويا وغنموا ١١ رشاشة وكمية كبيرة من العتاد.

وسيطر رجال العصابات على الغوطة خلال تلك الفترة وانتشروا فى قلمون والنبك وبلغوا قرية القصير وهددوا حمص شمالا، كما انتشروا فى وادى بردى غربا جاعلين دأبهم تعطيل السكة الحديد بين بيروت ودمشق وقد عطلوها مرات عديدة، كما انتشروا على طول سكة حديد دمشق - درعا جنوبا، وكانوا يعطلونها من آونة إلى أخرى فترسل السلطة القوات لإصلاحها.

ـ ١٣ ـ

دى جوفنيل فى مصر ودمشق

فى يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٢٥ نشر فى باريس المرسوم الخاص بتعيين المسيو هنرى دى جوفنيل العضو فى مجلس الشيوخ مندوبا ساميا لفرنسا فى سورية بدلا من الجنرال سرايل، وفى يوم ١٣ منه فاه بحديث مع مكاتب جريدة الأهرام فى باريس بسط فيه سياسته بسطا وافيا ومما قاله: لقد جاء الوقت الذى تعمل فيه السياسة عملها . فإذا كان لابد من استعمال القوة فإنى سأستعملها، ولكن استعمالها يحزننى لأن ما أريد عمله هنالك هو المساعدة فى تنظيم الاستقلال الوطنى تنظيما يجعل فرنسا وأوربا توافقان عليه. وقال إنه سيجعل شعاره فى سورية احترام الجميع وسيضع نصب عينه المستقبل لا الماضى. فيجب أن يستأنف العمل على قاعدة جديدة، وأنه وهو رجل غير عسكرى سيعمل بروح رجل غير عسكرى وأن وطنيته تساعده على فهم وطنية الآخرين.

وقال «وإذا كان الدكتور شهبندر يريد الرجوع إلى سورية، ففى وسعه الرجوع إليها بلا خوف».

زيارته للندن

وفى يوم ١٩ منه ذهب إلى لندن للاتصال بالمستر تشمبرلن وزير خارجية بريطانيا . وقيل أن الغرض من هذه الزيارة الحصول على جميع ما يمكن الحصول عليه من المعلومات التى من شأنها أن تساعده فى مواجهة المعضلة التى تنتظره، والوقوف على دخائل السياسة والأساليب البريطانية فى الشرق الأدنى، وتعشى مع وزير الخارجية ومع المستر إمرى وزير المستعمرات البريطانية، وقضى معهما نحو ساعتين بحثا فيها الحالة فى سورية، وتم الاتفاق على الإسراع فى تعيين الحدود بين سورية وفلسطين وسورية والعراق. كما تم على تعاون الحكومتين الإنجليزية والفرنسوية فى ربوع الشرق وتضامنهما .

اتصاله برئيس اللجنة التنفيذية والوفد السورى

ودارت محادثات سرية فى باريس بين المسيو دى جوفنيل والأمير جورج لطف الله من جهة، وبين المسيو جايار وزير فرنسا المفوض فى مصر يومئذ والأمير ميشيل لطف الله رئيس اللجنة التنفيذية من جهة ثانية، وتم الاتفاق على اتخاذ المبادئ الآتية قواعد لحل القضية السورية وتعهد الأمير ميشيل مبدئيا بحمل اللجنة على قبولها وهى:

١ ـ تدعى جمعية تأسيسية للاجتماع بطريقة الانتخاب المباشر لوضع نظام البلاد الأساسى على قاعدة السيادة القومية.

٢ ـ تحدد العلاقات بين فرنسا وسورية باتفاق يعقد بينهما ويكون محققا لمطالب سورية منطبقا على كرامتها.

٣ ـ يفصل فى مسألة الوحدة السورية فى المستقبل بين أولى الشأن أنفسهم.

٤ ـ تنشأ إدارة وطنية حائزة على ثقة البلاد.

٥ ـ عفو عام بدون استثناء. أما الحق المدنى فيبقى لأهله.

وتقرر أيضا أن يأتى المندوب السامى إلى القاهرة فيقابل رجال اللجنة التنفيذية ويحادثهم، وتعلن هذه المبادئ ويباشر تنفيذها.

ووصل الأمير شكيب أرسلان إلى باريس بعد ذلك بدعوة من المسيو دى جوفنيل وتقابلا وتباحثا فى الطريقة التى يجب اتباعها لوقف القتال وحل القضية السورية، وطلب المندوب من الأمير أن يضع له مشروعا للحل والانفاق فوضع المشروع الآتى:

عقد محالفة بين فرنسا وسورية إلى ثلاثين سنة تكون محالفة النظير لنظيره

يتعهد السوريون فى هذه المحالفة بأن لا يأخذوا متخصصين فنيين إلا من فرنسا ولا يعقدوا قرضا إلا فى فرنسا.

ولا يأخذوا ضباطا إذا لزمهم ذلك لتدريب جيشهم إلا من فرنسا.

وإذا عجزوا بالانفراد عن استثمار منابع الثروة فى بلادهم لا يستمدون إلا من مال فرنسا وصناعة فرنسا.

إذا هجم على سورية تتعهد فرنسا بتعضيد الجيش السورى

إذا نشبت حرب مع فرنسا يتعهد السوريون بتقديم عدد من الجند لمساعدتها يتم الاتفاق عليه بشرط أن تجهزه فرنسا.

لا تعارض الدولة السورية فيما لو رضيت حكومة لبنان بإبقاء حامية فرنسوية فى لبنان أو اتخاذ قاعدة بحرية فى سواحل لبنان.

ووعد المسيو دى جوفنيل بدرس الاقتراح، وغادر فرنسا يوم ٢٤ نوفمبر إلى بيروت بطريق الإسكندرية.

فشل مفاوضات القاهرة

أطلع رئيس اللجنة التنفيذية بعض إخوانه من الأعضاء على ما تم بينه وبين المسيو جايار فأقروه، ورأوا أن تدعو اللجنة عددا أكبر من رجال القضية لمباحثتهم ولنيل موافقتهم على القواعد التى تم الاتفاق عليها.

وعقدت اللجنة اجتماعا كبيرا ضم كثيرا من المشتغلين بالقضية. جاء بعضهم من الإسكندرية، وآخرون من القدس وسورية وتناقشوا فى المذكرة التى تقدم إلى المندوب عند وصوله، ونظروا فى الأسس المعروضة - من دون أن يعرفوا أنه اتفق عليها مبدئيا - ثم وضعوا صيغة جديدة تختلف عنها من وجوه عديدة.

ووصل المندوب إلى القاهرة صباح الأحد ٣٠ نوفمبر، ونزل فى فندق الكونتنتال فأقام له الأمير ميشيل لطف الله حفلة شاى فخمة فى قصر الجزيرة، وفى صباح الاثنين زاره وفد اللجنة وسلمه المذكرة الآتية:

ليست الحركة المنتشرة الآن فى سورية سوى مظهر جديد من مظاهر العقيدة الوطنية العامة القائمة على مبدأ الجامعة القومية والاستقلال الضامن للكيان القومى بجميع مظاهرة شأن كل أمة كاملة الخصائص. ويكفى أن نلقى نظرة سريعة واحدة على تاريخ هذه الحركة الحديثة لكى تتبين لنا القواعد العمومية التى يمكن أن يبنى عليها حل مرض للمشاكل الناشبة الآن.

ليس التنازع الذى كان موجودا بين العنصرين العربى والتركى فى السلطنة العثمانية بخاف على من له إلمام بتاريخ تركيا الدستورى الحديث. فقد اصطدم مبدأ القومية التركية

الذى نشره رجال تركيا الفتاة بعد إعلان الدستور العثمانى بمبدأ القومية العربية والمطالبة بنظام خاص لبلاد العرب الخاضعة للتاج العثمانى على الرغم مما كان العرب من المساواة العامة مع الترك أمام القانون من جميع الوجوه. وكان من جراء ذلك أن الجمعيات العربية عقدت مؤتمرها المشهور فى باريس سنة ١٩١٣ للتوسع فى تنظيم الحركة العربية ووضع المسألة العربية بين أمهات المسائل التى تقتضى الحل فى تركيا. فشعر الترك بخطر الموقف وحاولوا تلافى الحالة بالتساهل مع العرب والاعتراف لهم ببعض ما كانوا يطلبونه فأصدروا إرادة سنية بإجابة بعض تلك المطالب ولكن العرب لم يرضوا عنها. لذلك كان هم الترك أن يغتنموا فرصة الأحكام العرفية فى أثناء الحرب الكبرى للقضاء على المسألة العربية فساقوا زعماء الحركة إلى مجلس عرفى فى عالية (لبنان) وحكموا بالإعدام على العدد الأعظم من كبرائهم، ونفذوا الحكم فى ساحتى بيروت ودمشق العموميتين المعروفة كل منهما الآن باسم ساحة الشهداء، ولكن العرب، وفى مقدمتهم السوريون لم تفتر عزائمهم ولما يئسوا من الترك صاروا مستعدين لاستمالة الحلفاء لهم إلى مساعدتهم على دولتهم توصلا لاستقلالهم، فلما نالوا من الحلفاء عامة، ومن انجلترا وفرنسا خاصة وعودا عديدة باستقلالهم حمل ذلك ألوفا منهم على التطوع فى جيوش الحلفاء وثار الحجاز بأجمعه على السلطنة العثمانية، وتألف جيش عربى خاص من جميع الولايات العربية لمقاتلة الترك وانتهى الأمر بفوز الحلفاء، وشهد اللورد اللنبى نفسه فى أحد التقارير بالفضل العظيم الذى كان للحملة العربية فى انتصاراته فى فلسطين ضد الترك.

ولكن الغرض الأساسى الذى تكبد من أجله السوريون خاصة والعرب عامة جميع هذه الضحايا لم يتحقق منه شئ. وقد كانوا يعلقون آمالا كبيرة على مبدأ حق تقرير المصير إلى أن جاءت اللجنة الأميركانية إلى سورية ووقفت على آراء الأهالى فى مصيرهم. ثم سافر الأمير فيصل الذى كان يحكم المنطقة الداخلية فى سورية باسم القائد البريطانى العام إلى أوربا، ووصل إلى تفاهم مع وزارة الخارجية الفرنسوية لتنظيم دولة سورية وتعيين علاقات فرنسا بها. وعاد آملا أن يحمل أهالى البلاد على قبول هذا الاتفاق، ولكن لم يكد هذا الاتفاق يعرف حتى ثارت عليه ثائرة الأحزاب واجتمع مؤتمر سورى نادى باستقلال البلاد التام ووضع دستور لها، وأقام حكومة ديمقراطية بادرت فى الحال إلى تنظيم الإدارة وعاشت خمسة أشهر برهنت فى خلالها على ما قامت به من تنظيم فروع الإدارة وإقرار الأمن، ووضع أساسات الرقى العلمى والاقتصادى ـ على أن السوريين لا

يقلون كفاءة عن كثير من الأمم المستقلة فى أوربا نفسها.

ولكن السلطة الفرنسوية لم تمهل هذه الحكومة فجهز الجنرال غورو حملة عسكرية اقتحم بها دمشق والمدن الداخلية الأخرى واحتل البلاد وألغى استقلالها وجيشها الفتى، وبادر إلى وضع أسس جديدة للإدارة برأيه الشخصى. ولكن الحركة الوطنية لم تسكت بل ظلت مستمرة فى الشمال بقيادة إبراهيم هنانو بك أحد زعماء الوطنيين ودامت من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٢١. وظهرت فى الوقت نفسه حركة فى حوران على أثر احتلال دمشق دامت ستة أشهر، وظل القتال متواصلا فى بلاد العلويين من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢١ وظهرت الثورة الأولى التى قام بها سلطان باشا الأطرش فى سنة ١٩٢٢ ودامت ستة أشهر وكانت الإدارة الفرنسوية فى سورية فى خلال ذلك مضطربة لا تستقر على حال ففى أواخر سنة ١٩٢٠ مزق الجنرال غورو البلاد الي خمس دول، لكل منها حكومتها وعلمها، وفي السنة نفسها سلخ قسم من شمالي البلاد وأعطى لتركيا مع أن الفرنسويين تسلموا ذلك القسم من الإنجليز وتعهدوا فى المادة التاسعة من معاهدة سايكس - بيكو أن لا تتنازل إحداهما عن الأراضى الواقعة ضمن منطقتها بدون رضى الأخرى. وشعرت السلطة الفرنسوية أن هذا التمزيق ليس حلا طبيعيا. فعمدت إلى الجمع بين بعض الأجزاء التى فرقتها، وألفت حكومة الحلف السورى سنة ١٩٢٢ وجمعت فيه بين حكومة دمشق وحكومة حلب وحكومة بلاد العلويين. ولكنها رأت بعد ذلك مرة أخرى أن تضيق نطاق هذا الحلف ففى سنة ١٩٢٣ عدلت عن النظام القديم وفصلت بلاد العلويين عن تلك الوحدة وألفت حكومة الدولة السورية من حكومتى دمشق وحلب السابقتين فقط.

ولم يكن هذا الحلف أيضا مرضيا لأحد بوجه من الوجوه فعندما ظهرت الثورة الحالية بادر زعماؤها إلى إعلان مطالبهم بمنشور أذاعوه بكل ما لديهم من وسائل الإذاعة وتناقلته الصحف وهو يعيد أسس الحكومة التى وضعها المؤتمر السورى فى دمشق فى ٨ مارس سنة ١٩٢٠ تحقيقا لرغبات الأمة بأسرها.

ولابد لنا من الاعتراف بأن الظروف الحالية فى سورية تتضمن عوامل وحقائق جديدة تستحق أن توضع موضع الاعتبار. فإذا كان يراد وضع حل للمشاكل الحاضرة يبنى على الإخلاص والرغبة الحقيقية فى التفاهم فلا تظن أن سورية تأبى ذلك. ولكن ليس فى وسع أحد فى الوقت نفسه أن يشير بأى حل يتجاهل ماضى الحركة الوطنية فى سورية والدماء التى أهرقت من أجلها والجهود التى بذلت فى سبيلها والضحايا العظيمة التى جاد بها أهل

البلاد عن طيبة خاطر من أجل أغراض الحركة الوطنية. فالوطنية الحقيقية هى التى تحترم وطنية الآخرين كما تحترم نفسها.

وإذا سئلنا رأينا فى هذا الحل بصفة أحزاب تعمل لتحقيق المثل الأعلى الذى تنشده البلاد لا نستطيع سوى أن نبرز برامجنا الاستقلالية ونطلب تحقيقها. فإذا كان يراد بالحل المطلوب إعادة السكينة إلى البلاد السورية. فهذا الوفد يرى أنه من الممكن أن تتخذ القواعد التالية أساسا للبحث.

(١) تتألف الدولة السورية من جميع الأراضى التى وضعت تحت الانتداب الفرنسوى. وأما لبنان فيجب أن يستفتى جميع سكانه فى الانضمام إلى هذه الدولة أو الانفصال عنها استفتاء حرا مباشرا.

(٢) تؤسس حالا فى البلاد حكومة وطنية مؤقتة حائزة على ثقة الأمة تباشر. الانتخابات للجمعية التأسيسية.

(٣) تدعى جمعية تأسيسية للاجتماع مؤلفة بالانتخاب العام المباشر وهذه الجمعية تقرر نظام البلاد الأساسى على مبدأ السيادة القومية فى الداخل والخارج.

(٤) يلغى الانتداب وتحدد العلاقات بين فرنسا وسورية باتفاق إلى مدة معينة يحافظ فيه على مبدأ السيادة القومية. لا يعد مبرما إلا بعد موافقة البرلمان السورى عليه.

(٥) يسحب جيش الاحتلال من أراضى الدولة السورية حالما تؤسس الحكومة الوطنية المؤقتة.

(٦) تسجيل الاتفاق لدى عصبة الأمم، ودخول سورية فى عداد هذه العصبة.

فإذا كانت الحكومة الفرنسوية تجد فى هذه المبادئ العامة أساسا للتفاهم فنحن نرى أن تصدر تصريحا بذلك وأن تنتدب هيئة من قبلها تجتمع بهيئة تمثل القائمين بالحركة الوطنية، وتضع الهيئتان بالاتفاق بينهما قواعد توقيف القتال والأساليب اللازمة لتطبيق هذه المبادئ.

وأسقط فى يد المندوب حين ما اطلع على المذكرة ورآها تختلف اختلافا جوهريا عما تم الاتفاق عليه من قبل، ولكنه تجلد ووصفها بأنها تنطبق على مبادئ الثورة الفرنسوية، وسأله الوفد أن يدخل معه فى مناقشة على أساسها فأبى أن يصرح بشئ عن خطته. وقال إنه

يحفظ ذلك إلى ما بعد وصوله إلى سورية، وأنه يكتفى الآن بأن يسمع آراء السوريين وانتهت المقابلة بلا نتيجة، مع أنها استمرت ساعة وعشرين دقيقة

ورأى الوفد أن يستأنف الكرة ويقابل المندوب للمرة الثانية عساه أن يصل إلى اتفاق معه، ولما كان الوقت لا يسمح بذلك فقد انتدب أحد أعضائه فزاره وأبان له عدم ارتياح الوفد إلى نتيجة المحادثة، فأجابه أنه يجب السير رويدا رويدا فى تخفيف المطالب وأنه يريد أولا إعادة السلام إلى البلاد، وقال إنه لا يعتقد أنه فى استطاعة الوفد أن يؤثر تأثيرا ذا شأن فى هذا الموضوع وزاد على ذلك أنه مستعد للنظر فى كل حل يقترح لإعادة السلام.

وأرسلت إليه اللجنة فى الساعة الرابعة من مساء ذاك اليوم الكتاب الآتى:

«إن شعور الوفد السورى الذى تشرف بمقابلتكم اليوم صباحا بالواجب الملقى على عاتقه تجاه الحوادث التى صبغت أرض سورية بالدعم، ورغبته فى وضع حد لحالة البلاد الحاضرة والوصول إلى سلم دائم قائم على الثقة المشتركة والاعتراف بالمصالح المتبادلة يحملانه على أن يقترح عليكم الاقتراح التالى، وهو أن يسافر وفد من قبلنا فى الحال إلى سورية للعمل على حقن الدم ولتمهيد طريق صالح للمفاوضة بين جنابكم ومندوبى زعماء الثورة».

«ولكى نكفل التوفيق والنجاح لهذا المسعى يرجو منكم الوفد السورى أن تتفضلوا بإبلاغه موافقتكم على المبادئ التالية وقد وردت فى المذكرة التى تشرفنا برفعها إليكم فى هذا الصباح»

١ ـ تتألف الدولة السورية من جميع الأراضى التى وضعت تحت الانتداب الفرنسوى، أما لبنان فيجب أن يستفتى جميع سكانه فى الانضمام إلى هذه الدولة أو الانفصال عنها استفتاء حرا مباشرا.

٢ ـ تؤسس حالا فى البلاد حكومة وطنية موقتة حائزة على ثقة الأمة تباشر الانتخابات للجمعية التأسيسية.

٣ ـ تدعى جمعية تأسيسية للاجتماع مؤلفة بالانتخاب العام المباشر، وهذه الجمعية تقرر نظام البلاد الأساسى على مبدأ السيادة القومية فى الداخل وفى الخارج.

٤ ـ يلغى الانتداب وتحدد العلاقات بين فرنسا وسورية باتفاق إلى مدة معينة يحافظ فيها على مبدأ السيادة القومية، ولا يعد مبرما إلا بعد موافقة البرلمان السورى عليه.

٥ ـ يسحب جيش الاحتلال من أراضى الدولة السورية حالما تؤسس الحكومة الوطنية الموقتة.

٦ ـ تسجيل الاتفاق لدى جمعية الأمم ودخول سورية فى عداد أعضاء هذه الجمعية.

ولم يتسلم الكتاب إلا فى الساعة الحادية عشرة مساء بعد عودته من وليمة أولمت له فى فندق مينا هاوس فأرسل على الفور الرد الآتى:

مصر فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٥ الساعة ١١ ليلا

«حضرة السكرتير العام للجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى

«من بواعث أسفى الشديد أن يكون الحل الذى تقترحونه غير مستطاع القبول بتاتا، وأن يكون فى هذه الدرجة من قلة المطابقة للمحادثة التى دارت بيننا فى هذا الصباح والتى حفظت محضرها».

«ومن البديهى أن لا يكون للمهمة التى تطلبون منى بكتابكم أناطتها باللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى حظ من التوفيق».

«ولا أريد أن أدعكم تعتقدون لحظة واحدة أنه يسع فرنسا – كما تشيرون عليها ـ أن تنكث بالعهود التى قطعتها على نفسها أمام خمسين دولة».

«ثم إننى ـ كما تشرفت وصرحت لكم ـ سأعلن بيانى على رؤوس الاشهاد فى سورية نفسها».

«ولذلك أصارحكم القول من دون مرارة أنه كان من الأفضل لو لم يكتب كتابكم، وفى هذه الحالة كانت إعادة السلم إلى سورية أسرع وأسهل».

«وإننى أخشى أن تكونوا آخذين فى تحمل تبعة الاضطرابات والمصائب التى لابد من أن تقع».

«هذا وثقوا ياحضرة السكرتير العام باحترامى وأسفى».

رد اللجنة التنفيذية على المندوب

وفى يوم ٣ ديسمبر أذاعت اللجنة الرد الآتى:

بعد ما نشر المسيو هنرى دى جوفنيل المندوب السامى الجديد فى سورية ولبنان الكتاب الذى أرسلته إليه اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى فى ٣٠ نوفمبر الماضى ورد عليه قبل أن تتسلم اللجنة هذا الرد ببضع ساعات لم يبق بد للجنة من أن تذكر فى هذا البيان الوجيز خلاصة ما جرى بينها وبين جنابه مرجئة إلى موعد قريب نشر التفاصيل والمستندات فى بيان مطول.

تلقت اللجنة تلغرافا من وطنى كبير فى باريس تاريخه ١٧ نوفمبر الماضى أبلغها فيه أن مسيو دى جوفنيل سيعرج على القاهرة فى طريقه إلى بيروت. ويود أن يقابل وفدا من اللجنة ومن حزب الشعب وغيرهما. وعلمت اللجنة بعد ذلك أن هذا التلغراف أرسل بعد أن اطلع عليه المسيو دى جوفنيل وبعد أن أرسل كتابا بخطه إلى ذلك الوطنى فى المعنى نفسه وأردفه هو نفسه بحديث نشرته الصحف فى ٢٦ نوفمبر فى مصر قال فيه إنه سيقابل اللجنة التنفيذية والاتحاد السورى فى مصر، فعقدت اللجنة جلسة خاصة للبحث فى هذا الموضوع فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٥ وقررت إجابة الدعوة، وأبلغ هذا القرار إلى المسيو دى جوفنيل. ثم جاء أحد السوريين الوطنيين من باريس فى ٢٤ نوفمبر الماضى وأفضى إلى اللجنة بمعلومات مفصلة عن محادثات متعددة دارت بينه وبين مسيو دى جوفنيل وعرض على اللجنة قواعد أساسية لحل المشاكل الحاضرة فى سورية وإنشاء نظام الحكم فيها. وأكد للجنة أن المسيو دى جوفنيل يعتبر هذه القواعد أساسا صالحا للتفاهم ولا يرى فيها ما يناقض الخطة التى يريد اتباعها. ورغب فى أن تطلع عليها اللجنة والأحزاب السورية الوطنية. ففضل ذلك الأخ الوطنى أن يحملها بنفسه ويأتى بها إلى مصر وكان المسيو دى جوفنيل واقفا على ذلك. وهذه ترجمة تلك القواعد عن أصلها الفرنسوى المحفوظ فى اللجنة.

(١) تدعى جمعية تأسيسية للاجتماع بطريقة الانتخاب العام المباشر لوضع نظام البلاد الأساسى على قاعدة السيادة القومية.

(٢) تحدد العلاقات بين فرنسا وسورية باتفاق يعقد بينهما ويكون محققا لمطالب سورية منطبقا على كرامتها.

(٣) يفصل فى مسألة الوحدة السورية فى المستقبل وبين أولى الشأن أنفسهم.

(٤) تنشأ إدارة وطنية موقتة حائزة على ثقة البلاد.

(٥) يعلن عفو عام بدون استثناء. أما الحق المدنى فأنه يبقى لأهله.

فعقدت اللجنة جلسات متعددة للنظر فى هذا الموقف الجديد دعت إليها كل من فى مصر من رجال الأحزاب الاستقلالية لتسترشد بآرائهم فتقرر بالإجماع أن تقدم إليه مطالب معينة تفسر بمقدمة وجيزة عن تاريخ الحركة الوطنية فى سورية. ووضعت المذكرة والمطالب. وتألف الوفد الذى يجب أن يقابل المسيو دى جوفنيل وتحدد موعد المقابلة قبل وصول المسيو دى جوفنيل إلى مصر. وبعد وصوله قابله الوفد فى الموعد المعين - أى يوم الاثنين فى ٣٠ نوفمبر الساعة التاسعة صباحا وقدم إليه المذكرة مختومة بالمطالب وعليها طابع اللجنة التنفيذية وتوقيع السكرتير العام فتناولها المسيو دى جوفنيل من السكرتير العام يدا بيد واطلع عليها ولاحظ أنها بختم اللجنة فقط. وسأل هل هى تمثل رأى اللجنة أو آراء الجميع؟ فأجيب أنها تمثل آراء الجميع. وقدم إليه كشف بأسماء أعضاء الوفد كله والحزب الذى ينتمى إليه كل منهم، ثم قال جنابه إنه من السهل الاتفاق على المبادئ، ولكن يجب وضع أساليب التنفيذ. فأجابه السكرتير العام باسطا نظرية الوفد فى كيفية التعاون بين فرنسا وسورية. وقال له فى الختام إن هذا هو النصيب الذى نقدمه نحن لهذا التعاون ثم أراد جنابه الوقوف على وجوه المسألة السورية المختلفة فبسطت له. وكان يقول فى خلال المحادثات إنه لا يمكن عقد معاهدات إلا بعد تأليف الحكومة ولا تتألف الحكومة إلا بعد انتخاب المجلس التأسيسى ولا يدعى المجلس التأسيسى إلا بعد استتباب السلام. فعند ما خرج الوفد من لدنه قابله أحد أعضائه على انفراد وخاطبه فى وجوب حل عملى، وباحثه فى الطريقة المؤدية إلى ذلك. وعلى أثر ذلك عقدت اللجنة التنفيذية جلسة عند الظهر وقررت أن ترسل إليه فى الحال كتابا تعرض عليه فيه وساطتها لإعادة السلام، ولكنها كررت طلبها السابق أولا على المبادئ التى وضعتها فى مذكرتها هذه:

(١) تتألف الدولة السورية من جميع الأراضى التى وضعت تحت الانتداب الفرنسوى. أما لبنان فيجب أن يستفتى جميع سكانه فى الانضمام إلى هذه الدولة أو الانفصال عنها استفتاء حرا مباشرا.

(٢) تؤسس حالا فى البلاد حكومة وطنية مؤقتة حائزة على ثقة الأمة تباشر الانتخابات للجمعية التأسيسية.

(٣) تدعى جمعية تأسيسية للاجتماع مؤلفة بالانتخاب العام المباشر، وهذه الجمعية تقرر نظام البلاد الأساسى على مبدأ السيادة القومية فى الداخل وفى الخارج.

(٤) يلغى الانتداب وتحدد العلاقات بين فرنسا وسورية باتفاق إلى مدة معينة يحافظ فيه على مبدأ السيادة القومية، ولا يعد مبرما إلا بعد موافقة البرلمان السورى عليه.

(٥) يسحب جيش الاحتلال من أراضى الدولة السورية حالما تؤسس الحكومة الوطنية المؤقتة.

(٦) تسجيل الاتفاق لدى عصبة الأمم ودخول سورية فى عداد أعضاء هذه الجمعية

ثم أرسلت اللجنة الكتاب إلى المسيو دى جوفنيل مع رسول خاص فى الساعة التاسعة فلم يجده فاضطر فى النهاية أن يترك له الكتاب فى الفندق، وقد تسلمه جنابه بعد عودته ليلا ورد عليه ذلك الرد الذى أذاعه فى الصحف، فأجابته اللجنة عليه بالكتاب الآتى:

القاهرة فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٥

حضرة.......

أتشرف بأن أبلغكم وصول الكتاب الذى أرسلتموه فى ٣٠ نوفمبر الماضى إلى نجيب بك شقير السكرتير العام للجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطينى.

ولما كنا نعمل من أجل توفير السلام والرخاء لبلادنا المحبوبة، ونعتقد أننا نمثل الرأى العام اقترحنا الحلول التى كانت موضوع مذكرتنا وكتابنا اللذين قدما إليكم فى ٣٠ نوفمبر الماضى.

وتعتقدون ياصاحب السعادة أن تساهلا أقل سخاء مما اقترحناه يقرب سورية من فرنسا ومن السلام، ولكننا نشعر والأسف ملء نفوسنا أن الأمر لن يكون كذلك، على أنه مهما تكن الاقتراحات الفرنسوية التى تقبلها سورية فلا يمكن ألا أن تبتهج بما ينتج عنها من السلام والرخاء.

وتفضلوا يا صاحب السعادة بقبول وافر احترامى.

ميشيل لطف الله

رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسيطينى

فاللجنة التنفيذية إذن لم تحد قيد شعرة عن الخطة التى سلكتها من بادئ الأمر. ولم يكن فى الأمر (مناورة) ولا طلبت منه فى كتابها غير ما طلبته فى مذكرتها، ولكنها رغبة فى حقن الدماء وإعادة السلام إلى نصابه وتمهيدا لتحقيق المطالب التى طلبتها عرضت عليه وساطتها إذا وافق على المطالب التى قدمتها إليه، والتى لا تختلف من حيث الأساس عن القواعد السابقة الذكر التى عدها فى باريس موافقة لآرائه، ومازالت اللجنة تعتقد أن إجابة تلك المطالب هى الوسيلة الوحيدة لبلوغ هذه الغاية وتوطيد سلام دائم فى البلاد»

هذا وصف صحيح لما حدث يومئذ وقد ظل معظمه سريا حتى الآن. ولابد لنا من القول أن مركز المسيو جايار اضطرب فى مصر على أثر فشل المفاوضات، وعده بعض الدوائر الفرنسوية مسئولا عن الإخفاق الذى أصيب به المندوب السامى، وقيل إن قرارا أعد بإحالته على المعاش لولا أن وزير مصر المفوض فى باريس تدخل باسم جلالة الملك فؤاد لمصلحته فأبقى فى عمله.

ولم يخف ما تم على بعض العسكريين الذين جاءوا من بيروت إلى الإسكندرية لاستقبال المندوب وصحبوه إلى القاهرة. فقد قرأوا على وجهه آيات الألم فهونوا له أمر الثورة وقالوا له: أنها لا تلبث أن تخمد، وأن عليه أن يظهر بمظهر القوة والبطش إذا أراد نجاحا فاستسلم إليهم فسيطروا عليه سيطرة فعلية، وحالوا دون نجاح كل مفاوضة كما سيأتى بيانه.

استئناف المفاوضات

لم يفل ما حدث من عزيمة اللجنة، ولم تيأس من الوصول إلى حل سلمى يعيد السيف إلى قرابه. فأوعزت إلى أحد المتصلين بها فأرسل إلى المندوب السامى يوم ٤ ديسمبر الكتاب الآتى من القاهرة:

إننى عظيم الأسف بسبب الحادثة التى جرت فى مصر والتى تناقض كل المناقضة ما شاهدتموه من الحالة الروحية والرغبة الشديدة فى الاتفاق والتفاهم. على أن هذه الحالة الروحية لما تتغير واستعداد النفوس مازال على ماكان.

ومع ذلك فأنى أوجه نظركم إلى الأمور الآتية:

١ ـ إن اللجنة راغبة فى التفاهم ووضع حد لسفك الدماء. ولكنها لأجل الوصول إلى هذه الغاية وإقناع الذين بيدهم السلام رأت أن تقترح طريقة للأزمة، وهذه الطريقة لا يمكن نجاحها إلا إذا وثقت من موافقتكم على بعض القواعد الأساسية.

٢ ـ إن هذه القواعد بينت فى المذكرة التى قدمت إليكم فى الصباح.

٣ ـ إن اللجنة لم تكن تريد أن تطالبكم فى تطبيق سريع لخطتها، وكانت مستعدة للبحث فى الأسباب والاحتمالات.

٤ ـ إن الكتاب الذى وصل إلى يدكم فى الساعة الحادية عشرة أرسل منذ الساعة الرابعة بعد الظهر وكانت اللجنة تتوقع أن يصل إليها الجواب، وتبحث معكم فى الاتفاق إذا كان ممكنا بعد سفركم.

٥ ـ إن القواعد التى قدمها الوفد لكم قائمة على الأسس التى بحثت فيها معكم فى باريس. غير أن اللجنة أثارت مسألة إلغاء الانتداب والجلاء عن البلاد، وكان من الممكن الاتفاق على هذه القواعد بطريقة مرضية للفريقين.

ورد المندوب السامى يوم ٧ منه بكتاب قال فيه: نعم إن الحالة مؤسفة وأنت تعلم ماذا صنعت فى لبنان الكبير، فإنه سيبدأ يوم الخميس بوضع دستوره. وكان أفضل لسورية لو أنها بدلا من أن تحارب تضع قانونها الأساسى، وسنرى بعد ذلك الأمور الأخرى. وفضلا عن هذا فإننى من الآن تردنى الأنباء من شمالى سورية. وهى تبرهن على أن الخصومات على وشك إحداث حنق وتألم بين أجزاء سورية المختلفة، وهما شديدان بقدر ما رأيت من أثرهما فى سورية ولبنان، وأنت تصنع حسنا إذا قدمت إلى هنا وقابلتنى يوم الثلاثاء ١٥ ديسمبر مثلا.

المندوب السامى فى بيروت

وصل المندوب السامى إلى بيروت يوم أول ديسمبر فاستقبل بالحفاوة وفى يوم ٣ منه زار مجلس لبنان التمثيلى وخطب خطبة طويلة استهلها بقوله:

حضرة الرئيس والسادة النواب

فى الساعة التى نزلت فيها من الباخرة فى ميناء بيروت سلمنى الحاكم المسيو كايلا

القرار الذى وضعه المجلس النيابى للبنان الكبير ليشكر فرنسا التى كان جيشها سعيدا بوجود الدرك اللبنانى إلى جانبه «يقاتل للدفاع عن الأراضى اللبنانية ولحماية سكانه وللمحافظة على استقلاله».

وكما ترون أيها السادة أننى أستعمل نفس العبارات التى أوردتموها فى قراركم، وأننى أعيد قراركم نفسه ذاكرا بتأثر مشرب بمعرفة الجميل أنكم رجوتم من أن أنقل رسميا إلى الحكومة الدولة المنتدبة تأكيد تعلق اللبنانيين الذى لا ينفصم بالأمة الفرنسوية.

ثم قال: إن عهد الاستشارات قد انتهى وأنه قال أمس عند وصوله ويكرر قوله اليوم ويريد أن يصل إلى أقصى الحدود وهو «السلام لمن يريد السلام والحرب لمن يريد الحرب» وأنه حدد بهاتين الكلمتين خطة لا يمكن للرجال ولا الحوادث أن تحوله عنها. ثم قال إنه سيطلب إلى الحاكم أن يدعو المجلس التمثيلى إلى دورة استثنائية لوضع دستور لبنان وأنه إذا أرادت بقية الدول أن تشترك فى فوائد الأنظمة الحرة فهى تعرف الطريق.

ومن العبث أن يعرض العصاة على شروطا، أو أن يطلبوا منى وعودا فإن العمل الذى أقوم به هنا هو الجواب. فالحرب الآن لم يبق لها مبرر». فأجابه رئيس المجلس اللبنانى شاكرا.

وفى يوم ١٠ ديسمبر أذاع المندوب البيان الآتى إلى أهل سورية وجبل الدروز:

أيا كنتم مسلمين أو نصارى أو إسرائيليين ومهما تكن الطوائف التى تنتمون إليها أخاطبكم مخاطبة الصديق وأقول:

«مصيركم فى يدكم»

فى هذا اليوم العاشر من شهر ديسمبر يجتمع عند إخوانكم اللبنانيين المجلس الذى انتخبوه وقد كلفته المناقشة فى القانون الأساسى وانتخاب حكومة للبلاد، ولكان الأمر كذلك فى دولتى سورية وجبل الدروز لو أن هؤلاء يتمتعون كاللبنانيين بما يتعلق بالسلام من الخير والحسنات.

إن هناك لسوء الحظ أقلية مصرة على متابعة حرب لا تنال من فرنسا ولا تضيرها. فهى قضية عن هذه البلاد، وهى أعلى من أن تصل إليها يد فهذه الحرب تشقى البلاد السورية باستنزاف خزينتها وتدمير قراها ومزروعاتها وتشريد النساء

والأولاد عن مآويهم وتأخير تنظيم الاستقلال السورى.

إنى ألحق بهذه الأقلية مجموع الشعب السورى. فإن هذا الشعب يميل إلى العمل فى الهدوء والسكينة والحصول على تأسيسات حرة مميزات الشعوب الجانحة إلى السلام.

فإن تكن الحرب تضطرنى إلى أن أعهد إلى الجيش فى الانفراد بالدفاع عن دمشق ضد العصابات فأنى لا آلو مع ذلك عن السهر على إنماء وإسعاد الأنحاء السورية الأخرى التى لا تزال أمينة للانتداب والسلام.

فأنا إذن أدعو السوريين الحازمين المخلصين وجميع الوطنيين الصادقين إلى معاضدتى فى ظل العدالة والقوة الفرنسوية لتأمين سلامة الأشخاص وإنماء ثروة البلاد وتوسيع الحرية الوطنية التى هى فى نظرى سبب وجود الانتداب الفرنسوى فى هذه البلاد»

وبذلت على أثر وصول المسيو دى جوفنيل مساع عديدة للإصلاح والتوفيق لم تثمر ثمرة لأن هذا كان يشترط على الثوار فى كل مرة الخضوع وتسليم السلاح على أن تنفذ فرنسا بعد ذلك ما تسمح به من أنظمة وقوانين. وهذا بيان عن الجهود التى بذلت والوفود التى تألفت.

١ ـ وفد الأمير أمين أرسلان

وأول وفد تألف للوساطة والتوفيق هو وفد الأمير أمين ارسلان فقد اتصل هذا بالمسيو ميليا أحد مساعدى المسيو دى جوفنيل واتفق معه على أن يسافر على رأس وفد إلى جبل الدروز للصلح والتوفيق ولم يضعا قواعد للمفاوضة لتكون يد المندوب طليقة، ولئلا يحمل تبعة الفشل.

وتألف الوفد من الأمير أمين ارسلان والأستاذ فوزى الغزى ولطفى الحفار وعفيف الصلح فغادر دمشق يوم الخميس ١٧ ديسمبر إلى درعا ومنها سافر إلى عرى فوافاه إليها سلطان باشا وزعماء الثورة وتكلم الأمير أمين ملحا فى عقد الصلح ومبينا عدم فائدة متابعة الحرب فأجابه سلطان باشا وإخوانه أنهم لا يلقون السلاح حتى تجاب طلبات الأمة وأجملوها فى القواعد الآتية:

فريق من قواد الثورة السورية



نسيب البكرى





الأمير عادل أرسلان



مصطفى وصفى



توفيق هولو حيدر



نزيه المؤيد العظم



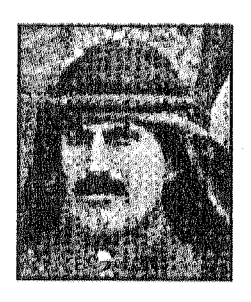
فوزى القاوقجى



محمد عز الدين الحلبى



على عبيد



سعيد العاص

١ – توحيد الحكومات السورية

٢ ـ إعلان عفو عام بلا قيد ولا شرط

٣ ـ تأليف حكومة موقتة يرضى عنها الثوار

٤ – عقد معاهدة بين فرنسا وسورية

٥ – تعويض المنكوبين عن خسائرهم.

ورجع الوفد إلى بيروت وأبلغ طلبات الثوار للمسيو دى جوفنيل فرفضها.

٢ ـ وفد دمشق

وأصدر المسيو دى جوفنيل يوم ١٩ ديسمبر أمرا إلى الجنرال اندريا قائد منطقة دمشق بأن يعمل لتأليف وفد من دمشق يحمل إليه طلباتها. فعقدت اجتماعات عديدة في دار البلدية انتهت بانتخاب ٢٠ وجيها وبالاتفاق علي تقديم المطالب الآتية:

١ ـ إنشاء حكومة وطنية موقتة.

٢ ـ تدعو هذه الحكومة الشعب لانتخاب مجلس تأسيسى انتخابا حرا.

٣ ـ وحدة سورية بحدودها الطبيعية.

٤ ـ تأجيل العقوبات المتعلقة بالثورة.

ولما أبلغ المسيو دى جوفنيل ما استقر عليه قرار الوفد أرسل إلى الجنرال اندريا يقول إنه يأبى استقبال الوفد، ومخاطبته أو التفاهم معه ما دامت دمشق ثائرة ومادام الثوار لم يلقوا السلاح.

وعاد فأرسل يوم ٢١ ديسمبر برقية إلى الجنرال أندريا يقول إنه ضرب بعد ظهر الثلاثاء ٢٢ ديسمبر موعدا لاستقبال الوفد فسافر إلى بيروت.

وقبل حلول الموعد المضروب للمقابلة بساعات جاء رسول من قبل المفوضية إلى الفندق الذى نزل فيه الوفد، وأبلغ رجاله أن المندوب يقابلهم منفردين لا مجتمعين. فعقدوا جلسة على الأثر قرروا فيها رفض هذا الطلب. وقالوا إنهم سيدخلون عليه مجمتعين وإذا لم يقبل

فيعودون أدراجهم فقبل طلبهم ودخلوا عليه فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر وسلموه طلباتهم وقد استمرت هذه المقابلة نحو نصف ساعة ثم طلب أن يجتمع بكل واحد منهم على انفراد لسماع رأيه فتم له ما أراد. وفى الساعة السابعة دخلوا عليه مجتمعين فألقى عليهم البيان الآتى:

«سمعتكم جميعا واطلعت على مطالبكم وسأدرسها باهتمام كبير حاسبا حساب للاترحال الذى لا يقوم عليه عمل دائم فى حين أننا نريد القيام بعمل وطيد. وإنى أنتظر منكم أن تعملوا معى بقدر إمكانكم فى سبيل السلام. فالسلام هو شرط العفو والدستور، ويخشى أن تفضى إطالة الحركات العدائية فى سورية إلى الخراب والجوع. فقولوا هذا للمقاتلين الذين يحاربون أنفسهم، ويحاربون تحقيق أمانيهم وآمالهم نفسها. لأنهم لو ألقوا السلاح لاستطاعوا الاشتراك فى الانتخابات التى ستجرى فى كل مناطق سورية المتمتعة فى الوقت الحاضر بالسلم. كما أنى أفوض إليكم القول لهؤلاء المقاتلين الذين لم يرتكبوا تتعلق بالحق العام والذين لم يتولوا أى قيادة فى تلك الثورة أن كل من جاء فى مدة خمسة عشرة يوما إلى مركز قيادة الكولونيل أندريا العامة وسلم سلاحه يستطيع العودة إلى منزله بدون خشية. وأما الزعماء الذين يقدمون خضوعهم فى المهلة نفسها فلا يسعنى أن أعدهم قبل السلم إلا بتأمين حياتهم، وأنى أتمنى من كل قلبى أن لا يكرهونى على استخدام النجدات التى أمدتنى بها بلادى كى أتمكن فى وقت قريب من القول لفرنسا أن تمتنع عن إرسال الجنود. فلنسرع فى توطيد السلم وتوطيد الدستور الذى يتلوه. وفى إيجاد جو يساعد على المناقشة فى المشاكل الكبرى بأجمعها من دون أن يكون هنالك مجال لاتهام الدولة المنتدبة بالرغبة فى الضغط على أى كان وبدون أن تتهم أية مدينة كانت بالسعى للإجحاف بالمدينة الأخرى.

«أما الآن فقد تقررت الانتخابات حيث يسود السلام. بيد أنها ستجرى فى سنجقى دمشق وحوران بعد تاريخ إلغاء الأحكام العرفية بشهر على الأكثر، وأن المجلس التمثيلى الذى سيكون وليد هذه الانتخابات يستطيع تقرير الدستور. وأعضاؤه الذين يقررون شكل الحكومة لا أنا ولا أنتم.

«فى لغتكم مثل عربى أحبه كثيرا يقول (صديقك من صدقك لا من صدقك) ولقد سمعت أقوالكم جميعا فاسمحوا لى أن أسرد على مسامعكم حكاية: كان فى أحد البلاد الجميلة

رجلان فاضلان ابتاعا قطعتين من الأرض واسعتين فقضى أحدهما وقته فى بناء الجدران حول ملكه وكانوا يتهمونه عن خطأ أو عن صواب بأنه يعتدى على ملك هذا وذاك. فاختصم مع كل الجيران وتشاجر معهم وانتهى به الأمر إلى الإفلاس قبل أن ينتهى من بناء منزله على أن الآخر اهتم أولا ببناء منزله وباتخاذ ذاك المنزل مسكنا له وبدعوة أصدقائه إليه فازدادت ثروته، وكان سعيدا ومحبوبا من جيرانه الذين وثق معهم العلاقات الاقتصادية التى لا غنى عنها لنجاحه ونجاح الآخرين.

«فهذه الطريقة السلمية التى أنصحكم باتباعها ـ لقد استقبلت منذ وصولى وفودا عديدة أبدت آراء مختلفة. وليس فى وسع وفد من الوفود ولا فى وسعى أنا أن نقرر مصير هذه البلاد. فالأمر منوط بالانتخابات، فاعملوا أيها السادة على توطيد السلم فى القريب العاجل والسلم يتيح لسورية أن تقول كلمتها. وهكذا تكونون قد خدمتم وطنكم وبلادى تشكر لكم أعمالكم هذه، لأنها تتمنى السعادة لكل البلاد المشمولة بالانتداب كما أنى أتمنى سعادتكم».

تحفظات الوفد الدمشقى

ودرس الوفد جواب المندوب ووضع تحفظاته عليه، وقرر تمسكه بطلباته وألف لجنة منه قوامها فارس الخورى ورشدى الصفدى وعارف القوتلى اتصلت بالمسيو مليا وسلمته تحفظات الوفد على جواب المندوب ونصها:

«يرى الوفد أن التصريحات التى تفضل بها المندوب السامى لا تكفى لإجابة رغائب الأمة وتلبية مطالبها المشروعة، ولا يستطيع الوفد أن يتفاءل بها لتحقيق الرغائب وإعادة السلام إلى البلاد. لأن الفقرة الأولى التى تضمنت مطالب الوفد بخصوص العفو العام(١)

---

(١) هذا نص قرار العفو الذي أصدره المفوض السامي يوم ٢٣ ديسمبر وقد أطلق علي أثر اعلانه سراح المعتقلين في ارواد والحسجة من أعضاء حزب الشعب وهم: عثمان الشراباتي وتوفيق شامية وجميل مردم بك وعبد المجيد الطباخ وعمر الطيبي وخالد الشلق واحسان الشريف.

١- لا يعاقب بأعمال العصيان الذين اشتركوا مع العصابات الثائرة التي أقلقت الامن العام سنة ١٩٢٥ إذا لم يرتكب هؤلاء جريمة خاصة ولم يتولوا قيادة العصابات إذا مثلوا لدي السلطة العسكرية قبل ٨ يناير سنة ١٩٢٦ وقدموا أسلحتهم لاجئين الي منازلهم.

٢- ان الذين يعرف عنهم إنهم كانوا رؤساء عصابات ثائرة تتخذ بحقهم تدابير فردية تقرر وفقا لأهمية الدور الذي مثلوه ووفقا للظروف التي قدموا فيها خضوعهم ومع هذا فإذا قدم رؤساء تلك العصابة خضوعهم قبل ٨ يناير سنة ١٩٢٦ لا ينفذ بحقهم حكم الاعدام الذي يصدر عليهم لأعمال العصيان التي بدرت منهم.

٣- ان الاحكام المقررة أعلاه مستقلة عن الغرامات وحجز الأموال التي قد يحكم بها قصد التعويض علي الضحايا وبدل العطل المتسبب من الفتنة.

لم تقترن بنتيجة كافية. لا تقنع الثائرين وتحملهم على التسليم لأنها تتضمن شرط تسليم السلاح لنيل العفو ولا يخفى أن دروز حوران لا يقدمون على تسليم السلاح مادامت البادية وسائر البلاد المجاورة لهم مسلحة.

«ولقد حاولت الدولة العثمانية مرارا عديدة تجريد جبل الدروز من السلاح فلم تستطع ذلك، وكل من أخذت منه بندقية عاد فاقتنى بدلها ولو ببذل كل ماالديه. فقبل أن تتخذ التدابير الكافية لا من البادية ومنع غزوات القبائل لا يميل الدروز إلى تسليم أسلحتهم. وعلى ذلك يكون هذا الشرط حائلا دون الاستفادة من منحة العفو.

«أما الثائرون الموجودون فى جار دمشق وسائر المناطق السورية فإن أكثرهم غير مسلحين بالبنادق أو الأسلحة الحربية الأخرى. فمن أذعن منهم وأقدم على التسليم تطالبه السلطة بالسلاح الذى كان بيده وهو لا يستطيع تسليم سلاح حربى. لأنه لا يملكه فيفضى ذلك إلى حبسه وإرهاقه لأجل تسليم السلاح، ويكون هذا حائلا دون تمتعه بالعفو ومانعا لغيره عن اقتحام التسليم وعلى ذلك يبقى هذا الشرط عثرة فى سبيل انفاذ هذا الأمر. والوفد يرى أن وضع هذا الشرط يعرقل المساعى الصلحية التى جاء لأجلها.

«وأما منع العفو عن الزعماء فهو أيضا حائل دون الوصول إلى الغاية المطلوبة. لأن هؤلاء الزعماء يمتنعون عن بذل نفوذهم فى سبيل إخماد الثورة وإلقاء السلاح ماداموا غير آمنين على حريتهم والتمتع بالعفو المنتظر. كما أن هيئة الوفد لا تستطيع أن تؤثر فى الثائرين إلا بواسطة هؤلاء الزعماء. وعلى ذلك ترى أن العفو لا يفيد بالطريقة المطلوبة إلا إذا منح للزعماء والأفراد على حد سواء. ومهما كانت بيانات المفوض السامى مشيرة إلى سلامة حياة الزعماء وضمانها فهى لا تضمن لهم الحرية بل تجعلهم عرضة للمحاكمة والسجن. ولا ينتظر أن يذعن هؤلاء ويجاروا الوفد فى خطته السلمية مالم يطمئنوا بأنهم يستفيدون من العفو فائدة عاجلة.

«وطلب الوفد إنشاء مجلس تأسيسى لوضع الدستور على قاعدة السيادة القومية. وكان يأمل أن المفوض السامى بالاستناد إلى تصريحاته العديدة يتفضل بإجابة هذا الطلب بصورة صريحة. بيد أن القرار الذى نشرته الصحف اليومية جاء مضعفا لهذه الأمنية ومهددا الدول السورية بخطر جديد للتجزئة[١] لأنه تضمن اجتماع نواب كل لواء على حدة

١ - نشرنا هذا القرار فى الفصل الذى عقدناه للانتخابات.

وتقرير الروابط السياسية بين لوائهم والألوية الأخرى، حتى إذا قرر أحد الألوية أو إحدى الولايات الانفصال عن الوحدة الحاضرة يجاب إلى ذلك. وبهذا يتيسر لدعاة الانفصال أن يمثلوا دورهم بدسائس جديدة لتمزيق البلادالسورية وإنشاء دولة جديدة فيها علاوة على العدد الموجود. في حين أن استشارة الألوية بواسطة ممثليها قد تمت في المجالس التمثيلية السابقة. فقد قرر مجلس النواب الحلبي الانضمام إلى دمشق كما قرر مجلس النواب الدمشقي الانضمام إلى حلب وتألف من المجلسين مجلس واحد قام بوظيفته مدة سنتين. وعلى ذلك يكون الاستفتاء قد تم بالطريق القانوني وأصبحت الوحدة بين حلب ودمشق قضية محكمة لم يعد من الجائز الرجوع إليه وإعادة الاستفتاء مرة ثانية، ولو صح ذلك لجاز تكرر هذه الإعادة كلما اجتمع مجلس تمثيلي جديد. فالوفد يرى ذلك افتئاتا على الوحدة السورية ويعد هذا القرار مهددا بتمزيق جديد وهو قادم لطلب توسيق الوحدة وضم البلاد المسلوخة.

«إن هذه القاعدة المسنونة في قرار الانتخاب المذكور هي محصورة في الألوية السورية فقط في حين أن الألوية اللبنانية لم تكلف مثل هذا الاستفتاء. بل ترك الأمر للمجلس النيابي العام يقرر فيه مجتمعا. فإذا كان الاستفتاء اللوائي يطبق في سورية يصبح من الواجب تطبيقه في لبنان أيضا. وعندها تنتخب كل محافظة على حدة ويجتمع النواب في مركز المحافظة ويقررون البقاء مع لبنان أو العودة إلى الوحدة السورية. فالوفد يرى أن التفريق بين لبنان وسورية في المعاملة على هذه الصورة مجحف بحقوق سورية وهادم لوحدتها».

«ومازالت الأقضية الأربعة التي سلخت عن دمشق في سنة ١٩٢٠ تلح بالرجوع إلى تلك الوحدة. وقد احتجت الحكومة السورية في ذلك الحين على ذلك السلخ غير القانوني واحتفظت بحق الاعتراض عليه وإقامة الدعوى بشأنه عندما تسنح الفرص. وبما أن الانتداب هو الحكم بين الدول السورية عند وقوع خلاف على أي أمر كان فالسوريون اليوم يرفعون الدعوى لدى ممثل الانتداب على دولة لبنان الكبير، ويطلبون استرداد هذه الأقضية بعد سماع مدافعاتهم بشأنها في طريق الاتصال بين دمشق وحلب بالسكة الحديدية، وأكثرية سكانها يطلبون ذلك. وبعد أن يسمعوا حكم ممثل الانتداب يبقى حق استئنافه إلى المراجع العليا كالوزارة الفرنسية وجمعية الأمم.

ولما كان من المسلم به أن للسوريين الحق بعد انتهاء الانتداب بالمطالبة بحدودهم الأصلية، فإذا لم تكن هذه الحدود غير مؤسسة منذ الآن على قاعدة المساواة وحفظ الحقوق يبقى باب النزاع مفتوحا.

ولما كانت وظيفة الانتداب اليوم تأسيس الحدود على سلم دائم ووفاق أبدى بين المقاطعات السورية فليس من الحزم أن يترك سبيل النزاع ميسرا لهذه المقاطعات ولا يعقل أن ترضى سورية الداخلية فى وقت من الأوقات أن تبقى محرومة من منفذ على البحر. وها أن مدينة طرابلس وملحقاها تطالب بالعودة إلى الوحدة السورية لأنها ميناء حمص الأصلية ولا تستطيع الدولة السورية أن تعيش بدون هذا المنفذ. فإذا كانت الدولة المنتدبة تريد أن تؤسس سلما دائما بين السوريين فما عليها إلا أن تنصفهم وتعطى كل ذى حق حقه منذ الآن ولا تترك باب الشر مفتوحا.

«وينص قانون الانتخاب الذى أصدره المندوب على إجراء الانتخابات بحسب القانون الأخير الذى سنه الجنرال فيجان على أساس القضاء، ومنع الترشيح على غير سكان القضاء الذين مر ستة أشهر على إقامتهم فيه. وبما أن المجلس المنوى انتخابه هو مجلس تأسيسى فإنه يتعذر وجود نواب صالحين لوضع الدستور فى كل قضاء من هذه الأقضية، وإذا بقى هذا القرار نافذا يخرج معظم النواب من سكان القرى الذين ليس لهم خبرة كافية فى مثل هذا العمل الهام. فالوفد يطلب أن يقبل ترشيح أى سورى كان فى كل قضاء من أقضية البلاد السورية. ولما كان هذا القانون مؤسسا على الطائفية وفيه حرمان للاقليات من حقوق الترشيح بصورة لم يسبق لها مثيل فى الأصول النيابية فالوفد يرى أن تزال هذه الفوارق ليتمتع جميع أبناء الوطن بالحقوق العامة.

«إن مهمة الوفد سلمية صرفة. وقد عرض على المندوب الأسس التى يعتقد أنها صالحة لإرضاء الشعب السورى وإعادة السلام إلى البلاد. وهو بما له من الخبرة يلح فى الرجاء بقبولها لتنال سورية استقلالها مع الاحتفاظ بصداقة فرنسا ومحبتها على قاعدة النفع المتبادل».

استقالة رئيس الحكومة السورية

ولقد كان من النتائج المباشرة لتأليف الوفد الدمشقى وسفره إلى بيروت

استقالة صبحى بركات رئيس الحكومة السورية، لأنه اعتبر مطالبة الوفد بإنشاء حكومة موقتة واستقبال المندوب للوفد وقبوله مفاوضته تحديا لحكومته فأرسل يوم ٢٢ ديسمبر إلى المندوب الكتاب الآتى:

ياصاحب السعادة

«أن المشكلات الحاضرة التى استعصى حلها تدعونى لأن أقدم إليكم استقالتى وإننى كرجل وطنى يشاطر هذه الأمة شعورها ويعانى أمورها منذ عهد طويل الأمد لابد لى وأنا فى الساعة الأخيرة من الحكم أن ألفت نظركم إلى أن هذه البلاد لا يستقر قرارها الحقيقى ولا تعود لها أمانيها وطمأنينتها إلا إذا أجيبت إلى مطالبها العادلة مثل تأليف مجلس تأسيسى يضع قانونها الأساسى على أساس السيادة القومية وإنشاء حكومة دستورية تكون وحدها مسئولة عن سياسة البلاد وإدارتها وأن يعلن فيها عفو عام بدون استثناء إلا فيما يتعلق بالحق الخاص وأن تؤيدوا سورية فى دخول جمعية الأمم.

«وبقيت مسألة ذات عقد كثيرة وهى مسألة الوحدة السورية بين الحكومات التى تؤلف الدولة السورية وجبل الدروز وبلاد العلويين من جانب والبلاد التى أضيفت إلى لبنان من جانب آخر. فإن حل هذه المسألة يحتاج إلى إقدام وبعد نظر. لأن الوطنيين السوريين يعتبرون أن بلادهم وحدة حقيقية فى العادات والتقاليد والآمال والآلام والعنصر واللغة. وهنالك كذلك عوامل اقتصادية وجغرافية هى على جانب عظيم من الأهمية، وأننى لا ارتاب أنكم ببعيد نظركم وصحة رأيكم وماجبلتم عليه من الكرم وحب الخير تستطيعون أن تذللوا المصاعب كلها وتسلكوا فى هذه البلاد سياسة جديدة لاعلاقة لها بالقديم تقرب منكم القلوب، وتؤسس بين بلادكم وبين سورية صلات ود ثابتة تنسى النفوس ما فيها من أحزان وحسرات وتضمن للجميع سلاما دائما ورخاء شاملا».

دعوة الشيخ تاج الدين الحسنى
إلى تأليف الحكومة

ودعا المندوب الشيخ تاج الدين لتأليف حكومة جديدة فقبل هذه المهام مبدئيا يوم ٢٤

ديسمبر، ووضع برنامجا واسع النطاق لوزارته واشترط قبوله للاضطلاع بالحكم. فدارت بشأنه مفاوضات بينه وبين المندوب استمرت خمسة عشرة يوما وانتهت بالفشل لرفض المندوب قبول البرنامج وهذا نصه:

«أقدمت الوزارة الحاضرة على تقلد أمور البلاد وهى عالمة بثقل المهمة الملقاة على عاتقها فى هذه الأزمة الشديدة التى تحتم على كل وطنى أن يبذل قصارى مجهوداته لتحقيق رغائب الأمة وإنقاذها من الأخطار التى تحدق بها من كل جانب وستعمل على إيجاد طريقة حل يكون فيها مقنع ومرضاة للسوريين من غير أن تناقض المصالح الفرنسوية الحقيقية.

وستضع نصب عينها تشييد أركان سلام دائم يرضى عنه جميع أبناء الوطن، سواء المقيمون والنازحون حتى يتعاونوا على إنهاض البلاد من عثارها وإقالتها من كبوتها وتخليصها من الكوارث التى كادت تقوض أركانها وتهد بنيانها، وإننا نتحمل أعباء هذه الحالة برباطة جأش ونخاطر بأنفسنا فى سبيل الأمة وسلامة الوطن. ولكننا حبا فى بلوغ الغاية المنشودة وتحقيقا لرغائب الأمة التى تسعى وراءها لم نجد بدا من العمل على القواعد الآتية:

١ ـ تحقيق الاستقلال بوضع قانون البلاد الأساسى على قاعدة السلطان القومى ودعوة مجلس تأسيسى عام للبلاد السورية للقيام بهذا العمل.

٢ ـ تأليف دولة واحدة من سورية الحاضرة وجبل العلويين وجبل الدروز على أن تدار على قاعدة اللامركزية بحسب ما يقرره المجلس التأسيسى العام، واسترداد الأقضية الأربعة وهى البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا التى كانت سلخت عن سورية سنة ١٩٢٠ بقرار عرفى على غير رغبة أهلها، وبالرغم عن مواقعها الجغرافية وضرورة المواصلات بكونها جزءا لا ينفك عن سورية. أما سائر الأقاليم التى أضيفت إلى لبنان فإنه ينبغى أن تؤلف مقاطعة مستقلة تنتخب نوابها وتقرر مصيرها وعلاقاتها السياسية إذا لم يمكن الاتفاق فى شأنها مع حكومة لبنان.

٣ ـ معاهدة تعقد بين فرنسا وسورية ولا تكون نافذة إلا إذا أبرمها البرلمان السورى على شرط أن تكون مؤسسة على قاعدة السلطان القومى للسوريين مع حفظها لفرنسا فى النفوذ السياسى والرجحان الاقتصادى

مالا يتعارض مع ذلك السلطان القومــى.

٤ ـ دخــول سورية فى جمعية الأمم

٥ ـ الجلاء التدريجى متى تألفت فى البلاد السورية قوى أمن كافية.

٦ـ التعويضى على منكوبى الثورة.

٧ ـ إصلاح النظام الاجتماعى والنظام النقدى

٨ ـ توحيد القضاء بحيث يكون مؤسسا على قاعدة السيادة القومية مع حفظ حقوق الأجانب والسوريين معا.

٩ ـ تحقيق العفو العام عن جميع الذين اشتركوا فى الثورة فى أنحاء سورية المختلفة مع حفظ الحق الشخصى لأربابه.

١٠ ـ إطلاق يد الحكومة فى إدارة البلاد.

١١ ـ لما كانت البلاد السورية من البحر المتوسط حتى حدود العراق آهلة بأمة واحدة تؤلف بينها وحدة اللغة والعنصر والتقاليد والآمال، ولما كان جبل لبنان قد خص بإدارة ممتازة بسبب ضرورة محلية، فأن الواجب يقضى بأن تقدر هذه الضرورة بقدرها وبأن لا تتجاوز مكانها.

وختم البيان بكلمة عامة جاء فيها أن الوزارات تؤلف لإدراك السلام وتأسيس قواعد صداقة بين الفرنسويين والسوريين على أن تقوم على أسس الثقة المتبادلة والمنفعة المتقابلة وقالت «إنها تعتمد على تأييد الشعب ومؤازرة عقلاء الأمة»

حكم فرنسوى مباشر

ولما عـجـز المسـيـو دى جـوفنيـل عن إنشـــاء حكومـة وطنيـة تقـبل التـعـاون مع الفرنسوييــن أصدر يوم ٩ فبراير سنة ١٩٢٥ قرارا عين فيه المسيو اليب حاكما على سوريــة وهذا نصه:

إن إدارة وتسيير الأعمال فى دولة سورية تؤمن بعناية وتحت سلطة المندوب فوق العادة للمفوض السامى لدى دولتى سورية وجبل الدروز ـ المسيو اليب، وذلك إلى أن يوضع نظام

نهائى بعد انتهاء الانتخابات، وبعد انتهاء المندوب المفوض السامى من انتخاب مساعديه.

٣ ـ مفاوضات جبل الدروز

ولما فشلت مساعى المسيو دى جوفنيل فى مصر وبيروت أوعز إلى الجنرال أندريا بأن يتصل بالدروز مباشرة ويدعوهم إلى السلام. فأرسل إليهم من درعا وكانت مقره يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٥ المنشور الآتى:

إن الكولونيل أندريا حاكم جبل الدروز يعلن للشعب الدرزى ولشيوخه بأن الدروز المتمردين قد انكسروا فى راشيا. كما أنهم سوف ينكسرون دائما كلما أرادوا السير ضد الفرنسويين.

إن الدروز المتمردين قد تمكنوا أن يباغتوا فى شهر أغسطس الماضى فرقا صغيرة من الجنود السورية لم تتخذ (نظرا لعدم اعتقادها بمراوغة سلطان الأطرش وبعض الشيوخ الآخرين) جميع الاحتياطات الواجب اتخاذها للقاء عدو حقيقى. غير أن الفرنسويين ينظرون اليوم بعيون مفتتحة ويدركون بأن الشعب الدرزى هو عموما طيب السريرة، وبأن المشايخ يعترفون بأن فرنسا قد أصلحت أحوال البلاد. على أن الفرنسويين يعرفون أيضا بأن الشيوخ سلطان ومتعب وزيد عامر وزيد الأطرش لم يحافظوا على حرمة الكلام الذى أعطوه، وما برحوا يدفعون بالشعب الدرزى إلى العصيان والتمرد رغبة فى إرضاء مطامعهم الشخصية ولأنهم يقبضون دراهم من الأجانب.

إن سلطان الأطرش كتب لى زاعما (يعنى الرد على كتابه الأول ولم يفرق سلطان باشا بين سورية وجبل الدروز بل هو يعتبرهما بلادا واحدة) أنه يطلب استقلال سورية كلها (كذا) مهملا التكلم عن جبل الدروز. إذًا فهو لا يرغب فى استقلال جبل الدروز بل يريد أن يحكم البلاد تحت امرة من أمراء العرب فيأمر وينهى إذ ذاك كسيد مطلق، وكون العنف والاستبداد من طبعه لا يصرف إدارة الأمور بغير العنف والقساوة فيصبح عندئذ الشعب الدرزى شعبا تعيسا وتئنون تحت نير كالشهبندر الذى بعد أن يقذف بكم فى هاوية النحس وسوء الطالع يصرف كل جهوده وهمه إلى ابتزاز جميع ما يصل إليه من دراهمكم وأموالكم.

إنى بصفتى حاكما للدولة الدرزية أوجه الكلام إلى الشيوخ أصحاب النظر الثاقب فى الأمور والعقلاء الذين يعرفون حقيقة سلطان ومتعب ويثقون بأن ليس من سبيل إلى انتظار عمل صالح منهم، وإلى الشعب الدرزى كافة قائلا للجميع: احذروا من الانقياد بعد الآن لسلطان فهو يسير بكم إلى الخراب والتعاسة. إنى رجعت حديثا من بيروت حيث واجهت المفوض السامى وطلبت منه الاستقلال الإدارى التام لدولة الدروز، وقد تم هذا الأمر ووعد بتحقيقه رئيس الجمهورية الفرنسوية. ولذا فإن مشايخ الدروز سوف يستطيعون تعيين حاكم ينتخبونه بذاتهم بثلاثة أشهر عقب التسليم العام، وأنا سوف أعمل بنفسى لخيركم كما فعلت إلى الآن. غير أنى سأبذل جهودا أعظم عند ما تأتون لمقابلتى والتسليم بين يدى «لا تترددوا أبدا ولا تنتظروا قط».

فقد قلت لكم قبل الآن أن شروط التسليم تزيد ثقلا كلما تأخرتم عن نبذ العصيان وتقديم الطاعة.

إننى قد أنذرتكم بأن حملات فرنسوية قوية جدا ستزحف عليكم فى الربيع القادم قويل لكم إذ ذاك. لأن الشقاء والتعاسة سينزلان بقراكم وبعيالكم وبحلالكم وبمواشيكم.

أنى قد انتهيت من قراءة تاريخكم فوجدته طافحا بالأمور الجميلة. فأنتم أشداء فى الحروب يلذ لى أنا الفرنسوى التحدث معكم، ولكن تعالوا إلى فى درعا. إنكم سيمكنكم العودة بعد مواجهتى إلى بيوتكم - كما أنكم ستدركون عند مواجهتى عظيم إخلاصى للدولة الدرزية لأننى مجرد من الأغراض الشخصية فى حين أن سلطان والأجانب الذى يغرونكم اليوم لا يفكرون إلا بأنفسهم وبالدراهم التى يأملون الحصول عليها من الجنوب أو من دمشق إننى عازم على جمع المجلس عن قريب فى درعا فالشيوخ الذين يأتون سيتناقشون معى فى القانون العتيد الذى سيعطى للدولة الدرزية وسنعتبره مع المأمورين الجدد ونقرر أمر السلام ويرجع العمران والفلاح إلى بلادكم مع رجوع الطمأنينة. فإذا لم يتم ذلك ضربت المجاعة أطنابها فى الجبل لأنكم لن تستطيعوا حصد ما زرعتموه. فالحملات الفرنسوية ستمنعكم من ذلك فتنهب إذ ذاك قراكم وتذهب طعمة للنار ويباد ويخرب جميع مالكم من الحلال. وإن الدروز سوف ينذحرون كما اندحروا فى السويدا ورساس وراشيا.

إن لى ثقة فى حسن إدراك العائلات الكبرى، وإننى على انتظار فى درعا، ولكن أنذركم بعدم التأخير أن كنتم ترغبون فى عودة السعادة لدياركم. وإنى أطلب من الحق سبحانه وتعالى أن يلهمكم إلى ما به خيركم وأن يرفق بأحوالكم وبكم.

وعاد الجنرال أندريا فأرسل إلى جبل الدروز يوم أول يناير سنة ١٩٢٦ المنشور الآتى وقد ألقته الطيارات الفرنسوية.

إلى عموم الرؤساء الروحيين والجسمانيين للجبل وسائر الشعب الدرزى المحترمين:

لقد بينا قبل الآن بأنه يعز علينا ويؤسفنا جدا أن نراكم كل يوم تسبحون زيادة فى بحر الجهالة والشقاء بمداومتكم على القيام بالحركات الافسادية وإهراق دمائكم العزيزة دون جدوى. إنكم شعب مخدوع لأنكم تقتلون أولادكم فى سبيل مصلحة هى غير مصلحتكم والذين من وراء دورهم يدفعون بكم إلى الموت والخراب مسرورين جدا من إمكانهم استخدامهم فى سبيل غاياتهم ومطامعهم الخصوصية.

أيها الدروز: أن أمة نبى معروف لم تكن فى زمن من الأزمان مستعبدة حاشا وكلا، فأنتم شعب نحترمه ونجله وقد عاملنا رؤساءكم أحسن معاملة ونحن الذين منحناكم الاستقلال فأنتم شعب نحترمه ونجله وقد عملنا هذه الأمور لمصلحتكم بالرغم عن معارضة أعدائكم الذين لم يكونوا مسرورين أبدا من حظكم. بل متكدرين غاية الكدر من رؤيتكم مساوين لهم فى المجالس وفى مقاعد الحكومة وفى الاحتفالات الرسمية وأمام كبراء وعظماء الأرض الذين كنا نعزمهم خصوصا لزيارة جبلكم لإعلاء جاهكم.

وأنتم أيها الدروز المحترمون تعرفون جيدا كل هذه الحقائق وتعلمون حق العلم بالاختبار أنا نحن الفرنسويين لسنا كقواد تركيا ممدوح باشا وسامى باشا وغيرهما من الذين كانوا يؤمنون زعماءكم وعامتكم ويحنثون بوعودهم ولسنا أيضا كالدولة العربية التى أرادت أن تجعل جبلكم متصرفية بسيطة يخضع لمأمورى دمشق، ويلتجئ لعجرفة مشايخ عربان البادية.

أيها الدروز الأجلاء: هل رأيتم فى زمانكم تاجرا من أهل المدن يحترم حقوق فلاح مادية كانت أو أدبية.

كلا وألف كلا. فأنتم أيها الدروز شعب نشيط وذو بأس، ونحن معاشر الفرنسويين

أحفاد بونابرت الكبير الذى كان أعظم ملوك الأرض طرا والذى لما أتى إلى عكا فاتحا أحبكم وكتب لأجدادكم الكرام الذين أحبوه أيضا عدة تحارير بخط يده، فمن تلك الذكرى العزيزة وغيرها نقدم لكم النصح والخير أولا. وإن عقلاءكم يعرفون أن أحفاد نابليون كثيرون جدا وأن نفوسهم تتجاوز الأربعين مليونا عدا وحكمهم يسود من أطراف المغرب إلى أقاصى الهند الصينية على أكثر من مائتى مليون من الرعايا يستحيل عليكم مهما كنتم أصحاب بأس أن تحرزوا عليهم النصر النهائى، أو تتغلبوا عليهم نظرا لشهرتهم بتاريخ العالم واتساع سلطانهم المترامى الأطراف. خاصة وهم معتمدون كل الاعتماد ومصممون النية على الرجوع إلى الجبل والعودة إليه مهما كلفهم الأمر. وأنتم تدركون إن فرنسا اليوم تفضل مائة ألف مرة أن تنمحى برمتها من وجه الأرض على أن لا تعود إلى الجبل. وهى عازمة إذا اضطرنا الأمر أن تجلب مائة طابور لهذه الغاية. أذ إن شرفها وسمعتها كدولة معظمة يقضيان عليها بالرجوع إليه.

لكن فرنسا وأن كانت شديدة البأس فهى أيضا كبيرة الحلم واسعة الصدر وهى أم المدينة والعمران، وتعرف أيضا أن تفرق بين الحنطة والزيوان وبين الجانى والضحية، وكما أن أصابع اليد البشرية هى غير متساوية ففرنسا الذكية المشهورة بإنسانيتها ستعرف جيدا أن تفرق بين الذى حارب من تلقاء إرادته وبين الذى حارب غصبا عنه وبين المعاند وبين النادم، لأن الذى يعاند يظن نفسه مصيبا فى حال أن جميع الناس عرضة للسهو والخطأ.

أن فخامة المفوض السامى المسيو هنرى جوفنيل الذى كان فى باريس نائبا لجمعية الأمم قد صرح بصوت جهورى وعال تسمعه جميع الأقطار السورية: إننى سأحارب كل من يريد الحرب وأسالم كل من يريد السلم إن هذه الجملة الذهبية ستلمع فى تاريخ فرنسا مظهرة فى وقت واحد عزمها القاطع وحلمها وقدرتها على التفريق بين الذين يريدون الحرب وبين الذين يحاربون بالرغم عنهم. لأنا نحن نعلم أمورا كثيرة عن الجبل ونعرف أن نفرق كما يقتضى بين الحنطة والزيوان كما قدمنا.

إننى أردد على مسامكم بأن فرنسا تضمن سلامة رأس كل من يقدم خضوعه بالحال وتؤمن حياته. فقدموا خضوعكم بالحال بلا تردد ولا إمهال واستسلموا إلى فرنسا فما فرنسا إلا أم حنون لكم تعالوا إليها ولا تخافوا. لماذا تتركوا الغير يخدعونكم؟ هل أصبحتم

أيها الدروز عبيدا لأهل الشام وسكان شرقى الأردن؟ إننى أقول لكم الحق: إن صبر فرنسا كبير غير أن له حدودا، واليوم الذى يفرغ فيه صبر فرنسا تندمون حيث لا ينفع الندم وتأسفون على عدم استماع نصائحى. ولكن هيهات بعد فوات الأوان. أنا أنذركم بأنه ستأتى ساعة لا تسمع فيها ضراعة ولا رجاء. يوم تزحف الجيوش على الجبل بقواتها القاهرة فلا تبقى ولا تذر، وتدمر وتحرق وتبيد جميع الأملاك للذين لم يقدموا قبل ذلك اليوم طاعتهم وخضوعهم لفرنسا.

أيها الدروز أنى انتظركم الآن بدرعا وكل واحد منكم يستطيع المجئ عندى وأنا أحلف له بشرف الجنرال أندريا إننى أتركه فى جميع الأحوال يرجع حرا لبلاده بدون أدنى معارضة وفى أى وقت يريد الرجوع. لكن إياكم ثم إياكم أن تتأخروا بعد أو تنتظروا بعضكم بعضا، وأن يقول واحدكم متى ذهب الآخر أنا أروح. فإننى أحذركم من ذلك كل التحذير. تعالوا إلى كل واحد بمفرده لأن الساعات والأيام تمضى بسرعة مر السحاب ويوم العقاب صار أقرب مما تظنون. والسلام على من اتبع الهدى وسمع النصيحة واهتدى ألف سلام.

ولما ألقى هذا المنشور على جبل الدروز أرسل عبد الغفار باشا الأطرش كتابا إلى الأمير أمين أرسلان مع رسول اسمه الشيخ اسماعيل عبد الدين وأرسل ضمنه جواب الشعب الدرزى على المنشور وهذا نص الجواب:

المسيو دى جوفنيل المندوب السامى الفرنساوى

ألقت الطيارات مع قنابلها نشرة فيها السؤال للدروز عن سبب استمرارهم فى الحرب إلى آخر ما ورد فيها، فيا فخامة المندوب نرجو أن يكون للحقيقة عندك مكان واسع حتى إذا أردت أن تطلع على حقيقة أسباب هذه الثورة وما سبقها منذ ٦ سنوات فى أماكن مختلفة من البلاد السورية لك ذلك دون أن تضطر إلى قبول التقارير الرسمية المبنية فى الأكثر على معلومات غير صحيحة كما وقع لأسلافك.

الدروز لم يعتدوا على الفرنسويين بل صبروا على شد وقسوة وأمور مخالفة لمصالحهم وللعدل مدة طويلة. وفى أثناء ذلك كانوا يجربون بكل الوسائل إسماع شكواهم إلى ممثل فرنسا فكانت مساعيهم السلمية هذه تذهب سدى حتى تفاقم الأمر وانفجرت هذه الثورة فكان ما كان.

فالدروز يا فخامة المندوب السامى يحاربون فى سبيل حرية البلاد السورية واستقلالها وحقوق معترف بها، وفى سبيل شرفهم الذى أهين مرات عديدة. وكل منصف يعذرهم فى ذلك ويعذرهم إذا تنبهوا هذه المرة لعدم الوقوع فى خطئيات سياسة حتى لا يبقى سبب لتكرار الحروب ومعلوم فخامتكم أن الثقة لا تتولد فى النفوس لمجرد صدور الوعود. فإن التجارب الماضية التى جربت فى زمن أسلافك الثلاثة لم تترك فى نفوس السوريين عموما والدروز خصوصا أثرا من الثقة والاعتماد، لذلك ليس من الأمور الهينة فى الحاضر إقناع الشعب الدرزى وجميع الثوار بترك السلاح بلا قيد ولا شرط.

إن حقوق الشعوب الطبيعية التى لا تستطيع قوة بشرية قتلها أو إخفاءها هى نفسها من دواعى الثورة. فمتى صار الاعتراف بها للشعب السورى ووضع العمل بها على أساس متين يكفل حلول الوفاء محل الجفاء. فلا يبقى باعث لتجدد القتال ولا العداوة. وهذا الأساس قد آن لحكومة الشعب الفرنسوى الحر - الذى سبق الجميع إلى طلب حقوقه بثورة دموية هائلة - أن تضعه فتكسب صداقة شعب كامل وتزيل من النفوس أثر السيئات الماضية التى سببت هذه الثورة وغيرها من قبلها .

أظهرتم فخامتكم أشفاقكم على نساء الدروز وأطفالهم من الجوع وغيره، وفى الحقيقة أن الطريقة التى اتبعها الجيش الفرنسوى فى رمى قنابل الطيارات والمدافع على المنازل والبيوت المأهولة بالنساء والأطفال هى أشد من الجوع والبرد، وتدل على قساوة لا يمكن أن ينكرها منصف كفخامتكم ونؤكد لكم أن هذه القساوة الممنوعة بين الدولة هى التى جعلت عموم الدروز يشعرون بالحقد الشديد على السلطة الفرنسوية ويصممون على مواصلة القتال، ويظهر لنا من عبارات هذه النشرة التى نحن فى صددها أن فخامتكم لم تتوقفوا بعد إلى تطهير محيطكم من الأشخاص الذين يحاولون تغطية غلطاتهم السياسية والإدارية بوضع التقارير والاعتماد على بضعة أشخاص لا قيمة لهم بيننا، ولا يقدرون أن يؤثروا فى شئ جوهرى بل يسيرون وراء المنافع الشخصية، ونعتقد أنه من الضرورى أن نبين لفخامتكم أن الدروز ليسوا كما يصورهم لكم البعض ولا يمكن أن يلعب بهم أحد. فقائد الثورة السلطان باشا الأطرش قد جعلت له القيادة برضى العموم من دروز وغيرهم. وقد سار على الخطة التى أجمع عليها الرأى العام وكنا نظن يا فخامة المندوب أنكم تقدرون عواطفنا الوطنية حق قدرها فلا تتهمونا بأننا آلة بيد الأجانب. لذلك نكرر لفخامتكم أننا

طلاب حقوق طبيعية مشروعة لا غبار عليها ولا يوجد فى تحقيقها ما ينافى مصلحة الشعب الفرنسوى الحر.

والخلاصة أننا نؤكد لفخامتكم أنكم بإجابتكم البلاد إلى مطالبها تخدمون الإنسانية ووطنكم خدمة كبرى تسجل لكم بمداد الفخر. ومن أهم هذه المطالب الاعتراف بالاستقلال واستبدال الحالة الحاضرة بشكل يتفق عليه يضمن لفرنسا مصالحها دون أن تتحمل الخسائر العظيمة فى المال والرجال، ودون أن تضطر البلاد لحمل السلاح دائما للوصول إلى غاية شريفة لا تعجز حكمتكم عن تحقيقها بصورة سلمية، والبلاد يا فخامة المندوب غير مستعدة لقبول التجزئة المضرة. وحيث إن جمعية الأمم هى الهيأة التى اتفقعت على إيجادها دول العالم المعظمة ومنها حكومة فرنسا لأجل منع الخصام بين الشعوب فنحن نرى أن يكون الاتفاق الذى تطلبه البلاد مسجلا لدى جمعية الأمم، وغنى عن البيان أن هذه النقاط كلها لا يمكن حلها بواسطة النشرات والمخابرات غير الرسمية. بل تتخذ لها طرقا أخرى كاعتماد مفوضين يمثلون رغائب الجميع.

الإمضاء: الشعب الدرزى

رد المسيو دى جوفنيل

وقد رد المسيو دى جوفنيل على كتاب الشعب الدرزى بالكتاب الآتى يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٢٦:

أيها السادة

أفهم جيدا أن الشعب الدرزى يريد تجنب الوقوع فى غلطات جديدة حتى لا يقع فى حروب جديدة كما جاء فى الكتاب الذى أرسل لى:

إذا كان الشعب يطمح إلى الحصول على حقوق مشروعة كما صرح به الكتاب نفسه فإنى مستعد كل الاستعداد أن أمنحها له وفقا لميثاق جمعية الأمم والانتداب. كما منحتها للبلاد اللبنانية والسورية التى لم تقع اضطرابات فيها. إنما لا يمكن المطالبة بهذه الحقوق المشروعة إلا بالوسائط المشروعة.

فليكف الشعب الدرزى عن الحرب فيقدم له قانون أساسى بالاتفاق مع السلطات الوطنية

ذات الصلاحية تراعى فيه حقوق جميع الأهالى الساكنين فى الجبل ومصالحهم وتمنياتهم.

يشكل المجلس. وهو يصرح إذا كان يريد تأليف أمة مستقلة ويريد الارتباط بدمشق وهو ينتخب رئيس الحكومة إذا بقى الجبل مستقلا، وإذا كان الأمر خلاف ذلك اجتمع ممثلو الدروز مع ممثلى المناطق الأخرى التى تطلب ذلك لتعيين حكومة واحدة والاقتراع على قانون أساسى واحد.

تطلب فرنسا من السوريين والدروز والعلويين واللبنانيين أن يصونوا بالاشتراك حدودهم الخارجية المشتركة، وأن يتعهدوا بعدم استعمال القوة للفصل فى الاختلافات الخارجية، ولكنهم يلجأون فى ذلك لتحكيم الدولة المنتدبة.

جاءت فرنسا إلى هذه البلاد لتكون حكما ولتكفل رفاه شعوب سورية ولبنان بعضهم تجاه بعض، ولتقدم للجميع مساعدة اختباراتها الفنية حين ترشدهم فى طريق التقدم ونجاح البلاد، النجاح والسلم والعدل هذا ما ترمى إليه فرنسا. فعلى الذين لا يسعون إلا للخير العام أن يجتمعوا حولها ولا حاجة فى ذلك لمخابرات سرية. إن التصريحات العلنية هى تعهدات أقوى جدا من الاتفاقات السرية، والشعب بجملته وجمعية الأمم هما كفيلان لها فما على رؤساء الشعب الدرزى إلا أن يلقوا سلاحهم حتى يبدأ التنفيذ. السلم يولد الحرية أما الحرب فلا تولد إلا الشقاء والخراب والجوع. أما بقية الشروط التفصيلية فما على رؤساء الدروز إلا أن يسألوا عنها المسيو بيراليب والجنرال اندريه فإنى فوضتهما بكل السلطة التى لدى.

وقد انتهت هذه المحاولة بالإخفاق أيضا. فقد رفض الدروز قبول هذه الشروط المبهمة وفضلوا مواصلة القتال.

٤ ـ الانتخابات النيابيـة

وكان من جملة التدابير التى شرع فيها المسيو دى جوفنيل على أثر وصوله إلى بيروت إجراء انتخابات فى جميع أنحاء البلاد السورية ـ ما عدا لبنان ـ بحجة الوقوف على الآراء العامة كما قال ـ مما خافه العقلاء وحسبوا حسابا لنتائجه السيئة ـ وقد كان الوفد الدمشقى إلى بيروت أول من تنبه إليه وحذره من الإقدام عليه.

وأبى المسيو دى جوفنيل إلا المضى فى تنفيذ خططه فنشر يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٥ قرارا هذا نصه:

أن المسيو دى جوفنيل عضو مجلس الشيوخ والمفوض السامى للجمهورية الفرنسوية فى سورية ولبنان الكبير وبلاد العلويين وجبل الدروز.

باعتبار الاضطرابات التى تسود قسما من سنجقى دمشق وحوران والتى أخرت موعد الانتخابات، والتى لا يمكن أن تؤخذ الأكثرية بجريرة الأقلية.

وباعتبار عدم وجود مجلس تمثيلى يعطل أشغال المفوضية العليا والحكومة السورية. إن كان من جهة الميزانية أو من الحكومة أو من جهة المصالح العامة وتقدم البلاد ورقيها. حيث لا يمكن معرفة أفكار وآراء ممثلى البلاد إلا بالتئام المجلس.

وباعتبار أن الانتخابات إذا لم يكن فى الامكان أن تجرى فى الأنحاء التى تسودها الاضطرابات بسبب وجود حالة عرفية بها، فلا شئ يمنع حصولها فى الأنحاء الأخرى التى تسودها السكينة.

وباعتبار أن مصلحة سورية الإسراع بإجراء الانتخابات فى المجال التى يتمتع أهلها بالسكون والحرية لإجراء انتخاب حر.

وبناء على اقتراح السكرتير العام تقرر ما يأتى:

المادة الأولى - تجرى انتخابات الدرجة الأولى للمجلس التمثيلى فى الأنحاء التى لا يوجد فيها حالة عرفية فى ٨ يناير سنة ١٩٢٦ وانتخاب الدرجة الثانية فى ٢٢ منه.

المادة الثانية - تجرى الانتخابات فى السناجق الأخرى بعد شهر من رفع الإدارة العرفية فيها.

المادة الثالثة - قبل اجتماع المجلس التمثيلى يجتمع مندوبو كل سنجق وولاية فى المحل الذى يعينوه بأنفسهم ويعبرون عن تمنياهم فى الموقف السياسى الذى يرونه موافقا فى السناجق التى يمثلونها وباقى الدوائر العمومية السورية.

المادة الرابعة - يجمع المندوب السامى بعدئذ ممثلى السناجق معتبرا بقدر الإمكان التمنيات التى كانوا أبدوها بموجب قاعدة التسلسل التى قد قرروا تشكيلها.

المادة الخامسة ـ المجلس أو المجالس التى تكون تألفت بهذا الشكل تتبع التعليمات الأساسية المعينة فى المادة السابعة من القرار ٢٩٨٠ المؤرخ فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤ لحينما يتم تشريع القانون الأساسى، ويمكنهم فى الساعة التى يعينوها أن يصدقوا على القانون، وذلك بموجب الصلاحية المعطاة لهم بموجب صك الانتداب.

وقد أحجم الناس فى لوائى حمص وحماه عن الاشتراك فى هذه الانتخابات لما تبينوه من أخطارها، وعجزت السلطة هنا عن إيجاد مرشحين يرشحون أنفسهم فاعتقلت فى حمص يوم ٢٥ يناير أحد عشر وجيها بتهمة مقاومة الانتخابات نفتهم إلى أرواد، وهذه أسماؤهم: هاشم، مظهر الاتاسى، وصفى الاتاسى، شكرى الجندى، توفيق الجندى، مظهر ارسلان، راغب الجندى، رفيق أرسلان، عبد القادر مراد، يحيى خانكان.

وهذه صور المضبطة التى وضعها مجلس بلدية حمص بمقاطعة الانتخابات:

نحن أعضاء مجلس بلدية حمص بحسب التمثيل المشروع الذى نحمله من الشعب الحمصى، وبالنظر لما شعرنا به من إجماع الأهالى على مقاطعة انتخاب المجلس التمثيلى بحسب القرار الآخر لمخالفته للأمانى الوطنية ـ قررنا تنفيذا لرغائب الشعب الذى ائتمنا على مصالحه رفض الاشتراك بإجراء هذا الانتخاب.

رئيف رسلان	محمد مظهر الأتاسى.	محمد راغب الجندى.
على الجندى.	شكرى الأخرس.	عيسى فركوح.
عبد الرزاق الأخرس	عبد المجيد الزهراوى.	

ووضع مجلس بلدية حماة قرارا يوم ٦ يناير أعلن فيه مقاطعته للانتخابات وهذا نصه:

نحن أعضاء المجلس البلدى بحماه: بالنظر لما تحققناه من إجماع الأهلين على مقاطعة انتخاب المجلس التمثيلى بموجب القرار الأخير لمخالفته للأمانى الوطنية، وبحسب تمثيلنا المشروع الذى أئتمنا عليه من قبل الشعب الحموى فتنفيذا لرغائبه ومصالحه قررنا رفض اشتراكنا فى الانتخاب.

رزق الله فرح.	أحمد الدريعى.	الحاج سليم عدى.	عبد الرزاق الأسود
محمد البرازى	محمد عدى.		

وقاطع أعضاء المجلس الإدارى فى حماه الانتخابات وأبوا الاشتراك فى عمليتها وزار المسيو بيراليب حاكم سورية الفرنسوى يوم ١٠ يناير حمص واجتمع إلى أعيانها وحضهم على الاشتراك فى الانتخابات فقالوا له: إنهم آسفون جد الأسف لما بلغت إليه الحالة الحاضرة من سوء» تفاهم بين الشعب ورجال الدولة المنتدبة، مما أدى إلى مقاطعة الانتخابات وأنهم كانوا يتمنون أن يحوم طائر الأمن فوق سائر الأصقاع السورية حتى يشترك جميع أفرادها باختيار الأكفاء لتمثيل الأمة فى مجلسها النيابى المنتظر. غير أن انفراد بعض المدن بإجراء الانتخابات دون بعض فيه مافيه من تجزئة البلاد. الأمر الذى يتجنبه كل وطنى مخلص».

وقصد هذا حماة بعد حمص وقابل أعيانها فأجابوه بما أجابه إخوانهم، وأبلغوه عزمهم على المقاطعة. وقصد حلب أيضا وكانت الحالة فيها شرا من حمص وحماه.

وعاد المسيو بيراليب من رحلته مزودا بالفشل والاخفاق، ووضع تقريرا مفصلا بما وقف عليه رفعه إلى رئيسه المسيو دى جوفنيل فأرسل إليه يوم ١٣ يناير كتابا قال فيه:

تناولت تقريرك عن الرحلة التى قمت بها مؤخرا فى حمص وحماه وحلب وإنى على رأيك فى استنتاجاتك.

إن الكولونيل مارتان المثبت فى وظيفة المندوب المعاون يتعلق إذًا فى كل المسائل التى تتناول النظام العسكرى. يمكن أن يظل هذا النظام مادامت هذه النظم ليس لها ممثلون. ليس ما يوجب علينا العجلة. إنى قررت أن أمنح البلاد قوانين أساسية تقيها - لمستقبل بعيد - من الحرب الأهلية والحرب الدينية والحرب الأجنبية التى هى فريستها من أجيال عديدة سواء أتطلب الأمر شهورا أم سنين فذلك لا أهمية له. فأنا عندى الوقت الكافى.

لقد جردت فرنسا فى أثناء الحرب سبعة ملايين، ولم تضطر إلى الآن إلى تجنيد رجل واحد زيادة عن جيشها للقيام بالأعمال الحربية فى المغرب الأقصى وسورية واحتلال الجانب الشمالى من نهر الراين. أما نفقاتها فى سورية فهى لا توازى ستة أجزاء من ألف جزء من ميزانيتها السنوية. أى أن الجهود لا تثقل كثيرا على عاتقها. ومن جهة أخرى ماهى الصعوبات العسكرية التى تقوم بواجبها بإزاء الصعوبات التى اعترضتنا فى مدغسكر، وفى تونس وفى المغرب وفى الهند الصينية وفى أوربا؟ إن الجمهورية الفرنسوية لم تتراجع قط عن مهمة شرعت فيها، وقد انتهت جميع حروبها بالانتصار.

فأنا أشعر إذا بشفقة كبرى تجاه الذين يتصورون أن السوريين والدروز يتمكنون بواسطة الخديعة أو القوة من صدنا عن مقاصدنا . فأرجوك أيها الصديق العزيز أن تعمل بصبر وحزم لتبديد هذه الأوهام التى ولدها الجهل، وأن تهتم الاهتمام التام ذاته فى هدم سوء التفاهم الذى حاول بعض ذوى المطامع إيجاده بين سورية وفرنسا .

حال بعضهم ثلاث مرات فى شهر واحد دون الدستور والسلم. حالوا دون ذلك فى القاهرة بمطالبهم غير المعقولة وفى جبل الدروز بردهم مساعى الوطنيين الذين كانوا يرمون إلى تخليص إخوانهم من توالى الجوع والشقاء والموت، وفى بيروت بعملهم على إخفاق مساعى الشيخ تاج الدين فى تأليفه الحكومة ولمحاولتهم معاكسة الانتخابات.

إنى أكره جد الكره السياسة الخفية. ففى الخفاء تعد المؤامرات التى تشقى بها الشعوب أما الحياة فلابد لها من النور .

عند ما تلقيت استقالة رئيس الدولة السورية أردت أن أنشئ نظاما دستوريا فى كل مكان يساعد به السلام على ذلك.

كان فى وسعى أن أجرى الانتخابات فى حلب والإسكندرونة وبلاد العلويين فأجريتها . أما فى دمشق وجبل الدروز فما كانت الاضطرابات لتسمح بإجرائها ففكرت أن قاضى دمشق يقدر على تأليف حكومة موقتة .

ولو وفق الشيخ تاج الدين فى مسعاه لكان بتقريبه السلم قرب موعد الانتخابات فى دمشق، ولتمكنت البلاد السورية من الاشتراك بالمناقشة فى مصير مقدراتها .

فلسورية لا فرنسا أن تقول إذا كانت تريد أن تكون متحدة أو منفصلة. لقد تناولت مضابط متعارضة من حلب والاسكندرونة وإنطاكية. إن طريقة المضابط تكاد لا تغنى شيئا . وإنى قد رأيت بعض الأسماء على عريضتين مختلفيتين فى المبدأ، ولذلك رأيت من الواجب أن ألجأ إلى الانتخابات التى هى واسطة الشعوب المتمدنة للإعراب عن رأيها .

ولو كان تم الصلح سريعا فى دمشق لكنت مستعدا كما صرحت للشيخ تاج الدين أن أعرض قرارات السناجق على الجمعية التأسيسية، ولكانت أكثرية هذه الجمعية قررت الأمر قرارا نهائيا .

لو كان جبل الدروز الآن فى حالة سلم لكان تمكن من اختيار دستور وحكومة، ولو

كانت دمشق متمتعة بالسلام لتمكنت من انتخاب ممثليها فى الجمعية التأسيسية والمناقشة بالاشتراك مع بقية الجهات السورية.

كل مــا أطلب من سكان الأراضى الواقــعــة تحت الانتــداب يوم يتم الصلح هو أن يتفاهموا فيما بينهم. والشئ الوحيد الذى أعارضهم فيه عندئذ كما أعارضهم الآن هو أن يدعوا تنفيذ مآربهم بالقوة.

أن حقوق الضعفاء والأقوياء فى نظر فرنسا هى متساوية فيجب إذن أن يجرى تحكيم الدولة المنتدبة فى الاختلافات التى تنشأ بين الجهات المختلفة الواقعة تحت الانتداب يوم يتم الصلح هو أن يتفاهموا فيما بينهم والشئ الوحيد الذين أعارضهم الآن هو أن يدعو إلى تنفيذ مآربهم بالقوة.

إن حقوق الضعفاء والأقوياء فى نظر فرنسا هى متساوية. فيجب إذن أن يجرى تحكيم الدولة المنتدبة فى الاختلافات التى تنشأ بين الجهات المختلفة من الأراضى الواقعة تحت الانتداب.

إن العالم المتمدن لا يفقه كيف أن السوريين لا يتمكنون ضمن الإطار المرن الواسع من أن يمنحوا نفوسهم دساتير الشعوب الحرة.

أما مسائل الحدود الداخلية فمن الجنون التكلم فيها من الساعة الحاضرة. فليهتم السوريون فى تنظيم سورية قبل أن يطمحوا إلى توسيعها.

أنا على يقين من أنك تساعدهم على ذلك بنزاهة تامة تجاه جميع العناصر والمذاهب، وبعطف قوى على المسلمين والنصارى على حد سواء.

فأنا بكل ثقة إذن أراك تأخذ على عاتقك هذه المهمة.

فتش عن السلم. ولكن إن لم يقدموا لك إلا الحرب فاقبل الحرب.

اضطرابات حلب

قاطع الحلبيون الانتخابات الجوفنيلية كما قاطعها أبناء الألوية الأخرى، ولم يشذ سوى بعض الأرمن اللاجئين وبعض المسيحيين مع طائفة قليلة من المسلمين عرفت بممالأة السلطة ومصانعتها. وأرسل الوطنيون يوم ٦ يناير سنة ١٩٢٦ البرقية الآتية إلى المفوض السامى محتجين على إجرائها ومطالبين بوقفها:

«قرار فخامتكم المؤرخ ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٥ جاء صدمة لآمال الأمة. إذ يقضى بأن يكون انتخاب المجلس النيابى على أساس اللواء، ويعطيه حق تقرير مصير الارتباط مع الألوية الأخرى مما يفسح مجالا للدسائس الرامية إلى الانفصال عن الوحدة السورية. إذ تكون الأكثرية العظمى فى المجلس من أهل الأقضية والقرى الذين لا تؤهلهم خبرتهم لمعرفة صالح البلاد والنظر فى القانون الأساسى ولا يملكون حرية الفكر بدليل توقيعهم مضابط الانفصال التى أكرهوا عليها بقوة الدرك والمستشارين والقائمقامين مع عدم معرفة ما وقعوا عليه. فنلفت نظركم إلى أن إجراء الانتخابات فى جزء من البلاد السورية منفصلا عن البقية وعلى هذا الشكل مخالف للنظريات الصحيحة. نحتج على هذا القرار ملتمسين إجابة مطالبنا التى تقدم بها إلى فخامتكم الوفد الدمشقى».

عاكف الجابرى وعبد الحميد الجابرى والمهندس إسماعيل باقى والطبيب على رامز باقى والطبيب عبد الرحمن الكيالى والصيدلى سعاد جلبى وإبراهيم هنانو والمحامى عبد القادر سرمينى والصيدلى أحمد الكواكبى والمحامى أحمد منير الوفائى وعبد الودود كيالى وصبحى الأميرى والمحامى أحمد راشد المرعشى وأسعد إبراهيم باشا والنائب محمد فاخر الجابرى والشيخ طاهر الكيالى ومحمد زكى ميسر والحاج نورى الجسرى وأحمد الرفاعى.

وبدأت الانتخابات فى موعدها المقرر فأضربت حلب، وعطلت أعمالها، وامتنع المسلمون عن الاشتراك فيها، واستمر الاضراب يوم السبت بطوله. ولما أدركت الحكومة أنها فاشلة عزلت الموظفين الذين يشرفون على أعمال الانتخابات وهم من المسلمين واستبدلتهم بمسيحيين فبذلوا كثيرا من الجهود فلم يفوزوا بطائل. وفى مساء السبت صدر قرار بتمديد أجل الانتخاب حتى مساء الأحد ـ خلافا للقانون ويقضى بإتمام العملية الانتخابية فى ٤٨ ساعة مهما كانت الظروف.

وقبض فى المساء على أعضاء لجنة المقاطعة وهم أحمد الرفاعى والحاج ربيع المنقاوى وسعد الله الجابرى ومنير العمادى وعبد اللطيف الكيالى وزهير جابرى والحاج محمود أبو صالح وغيرهم. وضربت السلطة نطاقا حول دور بعض الزعماء لمنعهم من الخروج. وهذا نص البيان الذى أذيع فى حلب بمقاطعة الانتخابات:

«فى هذا الوقت العصيب وبينما الأمة تسعى لتحقيق وحدتها السياسية وسيادتها

القومية على الأسس التى أجمعت البلاد على المطالبة بها عمدت المفوضية الفرنسوية إلى إجراء الانتخاب للمجالس التمثيلية فى حلب وفى بعض الألوية كل على حدة مهملة الركن الأعظم والأهم منها، لتكون هذه المجالس آلة لتجزئة البلاد وتفريقها. فالحلبيون المخلصون لوطنهم يترفعون عن أن يكونوا سببا لهذه التجزئة المميتة. فأجمعوا بالاتفاق على عدم الاشتراك فى هذه الانتخابات وقرروا مقاطعتها ورائدهم فى مشروعهم الإخلاص والثقة فى حمية مواطنيهم الكرام.

«فيا أيها الحلبى المخلص لوطنك وقومك اجعل رائدك الذمة والضمير فأنت حر، وليس من قوة تجبرك على الانتخاب فلا تعبأ باعتقال أو تهديد أيا كان مصدره لأنك فى حماية الأمة التى خلق القانون لضمان حريتها واحترام إرادتها والسلام عليك».

وواصلت حلب الاضراب يوم الأحد فأدى ذلك إلى اعتقال كثير من دعاة المقاطعة. فساء ذلك الأهالى فتجمهروا مطالبين بإطلاق سراحهم وأرسل الزعماء البرقية الآتية إلى المندوب السامى فى بيروت:

«الحلبيون رائدهم القانون قاطعوا الانتخاب. لأنه لا يتفق مع مطالب الأمة السورية. الانتخاب حق لا إكراه فيه ولا عقاب عليه. لكن السلطة الفرنسوية وترجمان البعثة وموظفى الاستخبارات ومأمورى الشرطة والبلدية يستعملون وسائل الإكراه والتهديد ويجبرون الناس على الانتخاب. ولقد أوقف بعض من لم ينتخب ووضعت أوراق مزورة فى الصناديق، وعزل رؤوساء المناطق وصرخ المنادون باسم البلدية من لم ينتخب يقع تحت الجزاء. وحبس عدة أشخاص للإرهاب بلا سبب قانونى ومدد أجل الانتخاب يوما ونصفا. كل هذا كى تحرم الأمة حقوقها المقدسة التى خلق القانون لحمايتها وتضعف الثقة بإمكان تنفيذ مبادئكم السامية التى جئتم لأجلها. فنحتج على هذه الأعمال المغايرة للحق والحرية طالبين وضع حد لها ليبقى الشعب حرا».

إبراهيم هنانو وربيع المنقارى وسعد الله الجابرى والدكتور عبد الرحمن الكيالى وأحمد الرفاعى وجميل إبراهيم وجميل فنصه:

وتجمع الناس فى الجامع الأموى الكبير فى حلب لأداء صلاة العصر من يوم الأحد فخطب فيهم بعد الصلاة الشيخ طاهر الكيالى داعيا إلى التعاضد والتمسك بطلباتهم المشروعة وحضهم على الهدوء والسكينة، ثم خرجوا بمظاهرة كبيرة قاصدين دار الحكومة

لإنقاذ المعتقلين وأمامهم طلاب المدارس ينشدون الأناشيد الحماسية، ولما بلغوها اقتحموها وهم ينادون: فليحيا الأحرار ولتسقط الانتخابات المزيفة نطلب اخلاء سبيل الأحرار.

وخرج مرعى باشا الملاح حاكم حلب من غرفته وخطب داعيا إلى التفرق وواعدا بالعمل على إخلاء المعتقلين فانبرى له شاب حمله الشعب على عاتقه وسأله لماذا سجنت هؤلاء الأحرار فأجابه «والله يابنى أنا ما قبضت على أحد ولا عندى خبر».

ـ إذن ليس لك من الأمر شئ

ـ نعم

ـ نطلب منك إخلاء سبيلهم فورا

ـ لا أستطيع ذلك

ـ إذا كنت لا تستطيع فلماذا لا تستقيل

ـ أنا ذاهب إلى مندوب المفوض السامى للبحث معه.

ولما أراد الخروج منعه الشبان ثم جاء وفد من العلماء فقابل الحاكم وخرج معه ومعهم بعض الشبان وقصدوا دار المندوب المفوض فأبى استقبالهم. فزاد ذلك فى استياء الأهالى ونقمتهم.

ووصلت فى تلك الأثناء إلى دار الحكومة قوة من السنغاليين والمغاربة مع دباباتين ففاجأت الجمهور المحتشد بإطلاق الرصاص فتشتت بعد ما قتل نحو ١٥ وجرح ٤٠ منه واعتقل نحو ٣٠.

وساءت الحالة على أثر هذا الحادث وعظم الهول والفزع، وأقفلت المدينة برمتها وتعطلت كل حركة. وأنشأ المفوض السامى على الأثر محكمة استثنائية لمحاكمة دعاة مقاطعة الانتخابات فاجتمعت وأصدرت الأحكام الآتية:

حكمت على السيدين عبد القادر ناصح الملاح وجميل إبراهيم باشا حكما وجاهيا بالسجن ستة أشهر وغرامة ٤٠٠ فرنك.

وحكمت غيابيا على السادة إبراهيم هنانو ومحمد توفيق الحكيم وأحمد ناصر أغا وبسيم القدسى وفاخر الجابرى والمحامى عبد القادر سرمينى ورشيد كتخدا ومحمد

الهبراوى ومحمد الهاشم وحسين الفداوى وعبود. كل بالسجن سنة واحدة وغرامة ٤٠٠ فرنك ما عدا السيد فاخر الجابرى والمحامى عبد القادر سرمينى فقد أرسلا إلى المحكمة تقارير طبية تنبئ بمرضهم. إلا أن المحكمة اعتبرت هذه التقارير غير نظامية فرفضتها.

وحكمت على الشيخ راغب الطباخ صاحب المطبعة العلمية وابنه السيد محمد بغرامة ١٢ ليرة لطبعهما النشرة الخاصة بمقاطعة الانتخابات.

وقد أجلت المحكمة إلى وقت آخر النظر فى قضية باقى المتهمين المعتقلين الذين أرسلوا إلى قلعة أرواد وهم السادة: سعد الله الجابرى والدكتور عبد الرحمن الكيالى والحاج ربيع المنقارى وأحمد الرفاعى ومنير العمادى.

وأرسلت السلطة نجدات قوية إلى حلب على الأثر لتهدئة الحالة. وهذه أسماء الذين أرسلوا إلى جزيرة أرواد من معتقلى حلب.

الدكتور عبد الرحمن الكيالى وطاهر الكيالى والحاج ربيع المنقارى والحاج عثمان الشراباتى وسعد الله الجابرى وأحمد الرفاعى وصلاح الدين الجابرى ومنير العمادى.

وأدى عجز السلطة عن اعتقال إبراهيم بك هنانو واحتجابه عن الأنظار إلى رواج كثير من الإشاعات. فقال قوم إنه قصد الحدود لتأليف عصابات والزحف على الفرنسويين كما فعل فى سنة ١٩٢٠ وقال غيرهم إنه ذهب إلى الغوطة للانضمام إلى الثوار، ولكنه بدد هذه الإشاعات كلها حين قدم نفسه للمندوب الفرنسوى فى حلب فأطلق سراحه.

ومع كل ما وقع فقد أتمت السلطة الانتخابات فى حلب وأخرجت نوابا عنها بالقوة هذه أسماؤهم: صبحى بركات ورشيد المدرس وغالب قطر أغاشى وشاكر نعمت الشعبانى وميشال جنادرى وسليم جنبرت ورحمون نحماد.

ودعى هؤلاء النواب إلى الاجتماع مع نواب الأقضية الأخرى الذين انتخبوا أيضا. فكان أول قرار أصدره مجلسهم الجديد المطالبة بالوحدة السورية، فصدر الأمر بحل المجلس على الفور ولم يدع بعدها إلى اجتماع.

مسلمو لبنان يطلبون الانفصال

واغتنم مسلمو بيروت فرصة اشتغال مجلس لبنان التمثيلى بوضع الدستور جديد للبنان فاجتمع عدد من كبارهم يوم ٥ يناير فى دار جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية بدعوة من

القاضى والمفتى وتداولوا فى الأسئلة التى بعثها رئيس المجلس التمثيلى إلى الطائفة الإسلامية ووضعوا الرد الآتى:

«من المعلوم أن رغائب ومطالب الطائفة الإسلامية التى هى الأكثرية الساحقة فى البلاد التى ألحقت بمتصرفية لبنان منذ إعلان لبنان الكبير سنة ١٩٢٠ هى رفض هذا الانضمام وطلب الالتحاق بالاتحاد السورى على قاعدة اللامركزية وقد كررت احتجاجها على هذا الانضمام الذى وقع رغم إرادتها ومن دون استفتائها فى ظروف عديدة، وقدمتها مرارا إلى المفوضية العليا وباريس وجمعية الأمم وهى حاوية لجميع الحجج القاطعة والأسباب المشروعة لرفض هذا الانضمام، وآخر احتجاج قدمته شفاهيا بواسطة وفد من أعيان الطائفة الإسلامية وخطيا إلى فخامة المفوض السامى نبعث إليكم بواحدة منها ضمن هذا الكتاب وعليه قررت الطائفة الإسلامية فى بيروت بالإجماع مغتنمة فرصة ورود الأسئلة الموجهة إليها من اللجنة الدستورية أن تعيد تثبيت احتجاجاتها السابقة على إلحاقها بلبنان، ورفض الاشتراك فى الأسئلة الموجهة إليها من اللجنة المشار إليها فيما يتعلق بسن الدستور اللبنانى وتؤيد وتكرر طلب الرجوع إلى ما كانت تحفظه لنفسها بشأن الالتحاق بالوحدة السورية على قاعدة اللامركزية فى كل وقت وزمان».

وهذه أسماء الذين اشتركوا فى هذا الاجتماع:

الشيخ أحمد عباس والداماد أحمد نامى وأنيس الشيخ وبدر دمشقية (رئيس بلدية بيروت) والمحامى جميل بدران والدكتور حسن الأسير وحسن قرنفل والدكتور حليم قدورة وحسن القاضى وحسن القبانى والمهندس حسن المخزومى وخير الدين النحاس وخليل دعبول والحاج رشيد اللاذقى والشيخ رضا القبانى وزكريا النصولى والدكتور سامح الفاخورى وسليم الطبارة وشريف خرما وطه المدور وعبد الله بيهم وعارف رمضان وعمر الداعوق (عضو بيروت فى المجلس التمثيلى) والحاج عبد القادر القبانى (مدير الأوقاف) والشيخ عبد الكريم أبو النصر (نقيب الأشراف) والشيخ عبد الباسط الأنسى والدكتور عبد الرؤوف حمادة ومحمد المخزومى ومحمد الفاخورى ومحمد عمر نجا ومحمد الباقر وخير الدين الأحدب ومحمد اللبابيدى ويوسف النحاس والشيخ عبد الرحمن المجذوب وحسن البنداق.

بعلبك تقاطع الانتخابات

واجتمع مجلس بلدية بعلبك أيضا وأصدر القرار الآتى:

«من المعلوم أن رغائب ومطالب الأكثرية الساحقة فى البلاد التى ألحقت بمتصرفية لبنان منذ إعلان لبنان الكبير عام ١٩٢٠ هى رفض هذا الانضمام وطلب الالتحاق بالاتحاد السورى على قاعدة اللامركزية، وقد كررت احتجاجاتها على هذا الانضمام الذى جرى بالرغم عن إرادتها وبدون استفتائها فى ظروف عديدة وقدمتها مرارا إلى المفوضية العليا وباريس وجمعية الأمم، وهى حاوية لجميع الحجج القاطعة والأسباب المشروعة لرفض هذا الانضمام وآخر احتجاج لها قدم بصورة شفاهية بواسطة وفد من أعيان الطائفة الإسلامية وبصورة خطبة إلى فخامة المفوض السامى. فعليه قرر مجلس بلدية بعلبك منتهزا فرصة وصول الأسئلة الموجهة إليه من اللجنة الدستورية إعادة تثبيت الاحتجاجات السابقة من الأكثرية الساحقة على الالتحاق بلبنان، ورفض الاشتراك فى الأسئلة الموجهة إليه من اللجنة المشار إليها فيما يتعلق بسن الدستور اللبنانى ويؤيد طلب الأكثرية الساحقة فى البلاد التى ألحقت بمتصرفية لبنان بشأن الالتحاق بالوحدة السورية على قاعدة اللامركزية فى كل وقت، ولهذا لا يرى مجلسنا لزوما الاعطاء الجواب على هذه الأسئلة ولا ارسال مندوبين (وقد نظم هذا القرار ورفع لرياسة المجلس النيابى فى دولة لبنان الكبير باتفاق الآراء).

ووضع الناخبون الثانويون فى بعلبك مضبطة بهذا المعنى

صيدا تطلب الوحدة

ووضع مسلمو صيدا المضبطة الآتية بطلب الوحدة وبالانفصال عن لبنان، وقد أرسلها القاضى والمفتى إلى رئيس المجلس التمثيلى وهى:

قد علم لدى ممثلى الجمهورية الفرنسوية فى البلاد السورية من حين أعلن ما يدعونه دولة لبنان الكبير. كما أنه علم لدى مجلسى البرلمان والوزراء فى فرنسا ولدى جمعية الأمم نفسها أن جميع أفراد الطائفة الإسلامية التى تؤلف الأكثرية الحقيقية فى هذه البلاد لم يرضوا على إلحاقهم بمتصرفية لبنان القديمة. ذلك الإلحاق الذى أرغموا عليه إرغاما. يؤيد تلك الاحتجاجات العديدة التى قدمت إلى كبار الرجالات والهيئات السياسية والفرنسوية وإلى جمعية الأمم فى أزمنة متعاقبة فى كل الخمس السنوات التى وجدت فيها دولة لبنان الكبير. والآن تغتنم الطائفة الإسلامية فرصة تكليف المفوض السامى المسيو دى جوفنيل

المجلس اللبنانى تنظيم القانون الأساسى - لتظهر رغباتها الأكيدة فى الانفصال عن مايسمونه لبنان الكبير - والانضمام إلى الوحدة السورية على أساس اللامركزية. وعلى هذا فقد قررت الطائفة الإسلامية فى صيدا بإجماع الآراء على أثر ورود الأسئلة الموجهة إليها من اللجمنة الدستورية عدم الاشتراك فى سن الدستور وتكرير طلباتها الحقة بشأن الالتحاق بالوحدة السورية على أساس اللامركزية ملتمسين تحقيق أمانينا عملا باحترام حقوق الشعوب المقدسة.

أحمد عارف الزين صاحب العرفان ومحمد جوهرى ومحمد نجيب الشماع ويوسف بكار ويوسف أبو ظهر وعمر أبو ظهر ومحمد بهيج الجوهرى ومحمد قوام ومحمود زنتوت وبهجت قدرورة ومصطفى الشماع وعبدالرحمن شهاب ومصطفى كنعان إمام محلة الكتان ومحمد رشيد وسليم حمود إمام محلة الكشك وعبد الحميد القواس إمام محلة السرايا وتوفيق الجوهرى وعبد الحليم الشماع وكامل الأنصارى وكامل حشيشو عالم ومنير سنجر وكامل البساط ومصطفى النقيب وعبد الغنى الزين وعبد الباسط الزين وعبد الغنى الأسير ويوسف الحناوى وأحمد محمود بعاصيرى ومحمد الصاوى ومحمد حشيشو وحسن رضى زنتوت وسعد الدين وتوفيق البزرى وزكريا زويه ومصطفى عمر العلائلى ومصطفى حمود وتوفيق الزين ومحمد جميل البساط وعمر الجبيلى ومحمد النعمانى وتوفيق عبد الفتاح وعبد الجليل لطفى ومحيى الدين نعمانى وعز الدين القطب وعبد اللطيف كالو وكامل الصباغ ومصطفى عمر نجولى وعبد الغنى لطفى وعبد الحليم نعمانى وعبد الله عمر الحلاق وأحمد محمد حمود وأديب محمود يماسى ومحمود بكرى وصالح البلولى وحسن سليم ومحمد اسماعيل والحاج إسماعيل البابا وعبد الحميد البعاصيرى وعبد الغنى عبد السلام الحلاق وسليم البعاصيرى ومحمد كامل العلائلى وأديب نقيب ومحمود إبراهيم أنيس ومصطفى البلطجى وراشد بكار ويوسف جوهرى وصالح الشريف وعبد الرحمن الانصارى ومحمود عبد السلام المجذوب وسعد الدين محمد القطب ومنير البساط ومحمود حسن اليمين وحسين خليل ومحمد الرشيدى ومحترم قدرورة وسليم الدره مختار محلة الكشك وحفظى المجذوب مختار محلة الكتان والسبيل وأحمد محمد حمود مختار محلة الشارع ومحمود الزين ومحمد بديع الزين ومحمد عبد الرحمن المجذوب ومصطفى الصلح وصفى الدين قدرورة وعمر الصلح وحسين نصار مختار محلة المسالخة وديب النوام مختار محلة السرايا.

طرابلس تطلب الوحدة

وأرسل تجار طرابلس وشبابها وعمالها برقيات مطولة بطلب الانفصال عن لبنان والانضمام إلى سورية وجاء من عكار مثل ذلك.

جبل عامل يطلب الانفصال

وأرسل أهل جبل عامل المضبطة الآتية إلى المندوب السامى

نحن أهالى جبل عامل منذ إلحاقنا بلبنان الصغير مازلنا نرى الغرم علينا والغنم له ندفع الضرائب ولا ينفق علينا منها سوى القليل حتى نرى حقنا مهضوما معه فلا نعطى من الوظائف ما نستحقه. ومعلوم أن هذا الاستئثار شديد على النفوس جدا . لذلك نطلب من عميد الدولة المنتدبة المسيو دى جوفنيل تحقيق آمالنا الراسخة فى نفوسنا وهى:

فصلنا عن لبنان بإنشاء إدارة مستقلة تحت إشراف الدولة المنتدبة وإن آمالنا وطيدة بعدل المفوض السامى وإنصافه أن يجيب طلبنا هذا الذى هو حق وعدل.

أحمد رضا . محمد التامر. راشد عسيران. حسين الدرويش. النائب نجيب عسيران. النائب السابق فضل الفضل. على جابر. سليمان مروه. على عبد الله. خنجر عبد الله. إسماعيل خليل. محمد جابر. عبد الحسين. محمود الأمين. السيد على بدر الدين. أحمد حاج. سعيد صباح.

ويلى ذلك مئات التواقيع من سائر أنحاء جبل عامل.

أرسل أعيان مسلمى اللاذقية برقية إلى المندوب السامى بطلب الوحدة هذا نصها:

«باسم الأكثرية باللاذقية نلتمس إعلان الوحدة السورية واشتراكنا بانتخابات المجلس التأسيسى السورى».

السلطة الفرنسوية تقاوم حركة الانفصال

هال المسيو دى جوفنيل قيام المسلمين فى لبنان قومة الرجل الواحد يطلبون الانفصال عن لبنان والانضمام إلى الوحدة السورية، كما هالة تضامن السوريين فى الداخل وإجماع

كلمتهم على مقاطعة انتخاباته وتمسكهم بالوحدة. فأدرك أنه خسر الصفقة وعرف أن الذين أشاروا عليه بإجراء الانتخابات غرروا به فألغى الانتخابات فى الداخل، واتخذ من التدابير ما رآه مفيدا لإيقاف الانفصالية عن لبنان. وهذا نص بلاغ رسمى أذاعه يوم ١٧ يناير سنة ١٩٢٦ بهذا الشأن:

يتلقى منذ زمن المفوض السامى كثيرا من المضابط المعارضة بعضها بعضا. فمنها ما يرمى إلى اقتطاع هذا القسم أو ذاك من لبنان، ومنها ما يطلب إبقاء الحدود الحالية على ما هى، فهذه المضابط غير مفيدة.

إن شكل الانتخابات الذى يسمح للأهالى بأن يجهروا بأصواتهم فى أوقات منظمة هو أفضل كثيرا من هذه العرائض فان الأول وهو نداء لولى الأمر.

ولهذا قرر المفوض السامى أن تكون الانتخابات لاحقة للسلم فى كل مكان.

إن الذين يواصلون عداءهم للانتخابات أو يمتنعون عن الاشتراك فيها يتنازلون بأنفسهم عن استعمال حقوقهم. ويرى المفوض السامى أن من الواجب عليه أن ينبههم إلى ذلك.

أما الذين يتعرضون للحدود فأنهم يثيرون عداوات الجنسيات والأديان ويجعلون الاتفاق بين الدول مستحيلا.

وهكذا فإنهم يقفون فى وجه الوحدة الحقيقية التى تقوم بتوثيق علاقات المودة والمصلحة. وأذاع المسيو ليون كايلا حاكم لبنان الكبير البيان الآتى على رجال حكومته:

انتهى إلى من جهات مختلفة أن بعضا من الموظفين اشتركوا فى الأيام الأخيرة فى الحملة التى ترمى إلى فصل بعض أراضى لبنان الكبير عنه. وبديهى أنه لايجوز للذين يشتركون فى القيام بمهام الدولة العامة أن يطرحوا على بساط المناقشة والجدل سلامة أراضى الدولة التى يجب عليهم أن يكونوا فى طليعة الذين يخدمونها. فإذا كانت آراؤهم لا تتفق مع واجباتهم الأساسية فلا ندرى لماذا لا يزيلون هذا التناقض بتقديم استقالتهم من وظائفهم. وهم على كل حال لا يمكنهم أن يبقوا فى وظائفهم إلا باتباعهم سبيل الاستقامة التامة فيما يختص بالمصالح والمنشئات التى يمثلونها بصفة من الصفات. كل مسلك يخالف هذا المسلك يستوجب العقاب. لا سيما وأن الدولة المنتدبة لما أنشأت الدول المشمولة

فريق من رجال الثورة السورية وشبانها



حسن الحكيم — جميل مردم بك — سعيد حيدر

فارس الخورى — عقله القطامى — الدكتور امين رويحه

الدكتور على الشواف — الصيدلى سليمان المعصرانى — آصف السفرجلاتى

بانتدابها على ما هى الآن قد استعملت السلطة المخولة لها بموجب الفقرة الثالثة من المادة الأولى من صك الانتداب.

وأود أن أعتقد أن هذا التنبيه سيكون كافيا فلا أضطر إلى اتخاذ عقوبات تأديبية، وأرجو أن توقفوا الموظفين والمستخدمين الذين تحت سلطتكم على مفاد هذا المنشور.

حل مجلس بعلبك البلدى

ولم يقف الأمر عند هذا الحد. فقد أصدر حاكم لبنان قرارا يوم ١٦ يناير بحل مجلس بلدية بعلبك «لأنه لم يقتصر فى طلبه الانفصال عن لبنان بتجاوزه حقوقه. بل ارتكب مخالفة كبيرة بالنظر إلى سلطة الانتداب صاحبة الشأن»

احتجاج نائب مسلم

وأرسل عمر الداعوق النائب فى مجلس لبنان التمثيلى البرقية الاتية إلى سكرتير جمعية الأمم بواسطة المندوب السامى الفرنسوى وهى:

أنا الموقع على هذا عمر الداعوق نائب بيروت أتشرف بأن أبسط لسعادتكم ما يأتى:

أولا - إن فريقا من نواب بيروت وطرابلس وصيدا والبقاع، مع كونهم أقلية عددية إلا أنهم يمثلون أكثرية السكان الذين تتألف منهم الجمهورية اللبنانية، قد قدموا أثناء المناقشة فى الدستور اللبنانى اقتراحا احتجوا فيه على ضم الأراضى التى يمثلونها إلى لبنان دون أن يؤخذ رأى أهاليها قبل ذاك الضم، فهم يطلبون أن تؤلف هذه الأراضى دولة مستقلة إدارية مرتبطة باتحاد لا مركزى مع لبنان القديم وسورية.

ثانيا - بعد أن وافق المجلس التمثيلى بالأكثرية على الدستور اللبنانى قرأ حضرة مندوب المفوضية العليا التحفظات للمجلس. وقال إن هذه التحفظات غير خاضعة للمناقشة[1] ولكى تطلع جمعيتكم الموقرة على احتجاجنا على ضمنا غير المشروع، ولكى تعلموا أن هذه التحفظات لم توضع موضع المناقشة، ولم يوافق عليها المجلس التمثيلى، أجزت لنفسى إرسال هذا البيان إليكم

وتفضلوا يا حضرة السكرتير العام بقبول اعتبارى الفائق

٥ ـ محاولة إنشاء عرش

وأراد المسيو دى جوفنيل أن يستعين بالشريف عبد المجيد نجل الشريف على حيدر باشا ـ وكان يقيم مع والده وأسرته فى بيروت فأدناه منه ووعده بأن يعينه أو والده ملكا على سورية إذا ساعده فى إخماد الثورة ثم أرسله إلى دمشق فوصلها فى الأسبوع الأول من شهر يناير وأعد له الفرنسويون استقبالا حافلا وسهلوا له الأسباب فأخذ يقابل الوجهاء وذوى الرأى عارضا وساطته ومعلنا أنه قادم لحقن الدم فلم ينل توفيقا[٢].

---

١ ـ هذه صوره التحفظات المحتج عليها

المادة ٩٥ ـ إن علاقات الدولة الخارجية وقبول أوراق اعتماد قناصل الدول الأجنبية هى وفقا للانتداب من اختصاص الحكومة الجمهورية الفرنسوية دون سواها.

إن الرعايا اللبنانيين الذين تسرى عليهم أحكام هذا الدستور الموجودين خارج حدود بلاده يناط أمر حمايتهم السياسية والقنصلية بالدولة الفرنسوية. أما فى الأراضى الفرنسوية فيتولى حمايتهم وزير الخارجية الفرنسوية.

المادة ٩٦ – لحكومة الجمهورية الفرنسوية أن تتدخل لتأمين تطبيق الانتداب واحترام هذا الدستور ولتأمين سلامة أراضي الدولة ولتأييد أو إعادة السلطات القانونية إذا أسقطتها ثورة ما ولهذه الغاية يحق للمفوض السامى الأزمين على سلطة الدولة المنتدبة أن يتصرف بجميع قوات الشرطة والدرك فى الدولة، وأن تكون له مراقبة دائمة عليهما وله كل السلطة فى تعهد وتأمين سلامة القوات العسكرية التى تبقيها الدولة المنتدبة طبقا للانتداب في الأراضى الموكول أمرها له.

المادة ٩٧ ـ يحق للمفوض السامى أن يوقف كل قرار من الحكومة أو فى المجلسين إذا وجده مخالفا لمصالح الانتداب أو لسلامة البلاد أو لحفظ النظام أو للتعهدات الدولية. لايجوز حل مجلس النواب أو اسقاط رئيس الجمهورية إلا بعد موافقة المفوض السامى.

المادة ٩٨ ـ يمثل المفوض السامى مندوب لدى الدولة.

يقدم المفوض السامى المستشارين الذين ينبغى أن يستخدموا فى مصالح الدولة على أن تعقد بين المفوض السامي والدولة مقاولات تبنى على أساس مشروع يقره المجلسان.

٢ ـ قدم الشريف عبد المجيد إلى بيروت فى شهر مارس سنة ١٩٢٤ على أثر طرد الحكومة الكمالية لآل عثمان من بلادها لأنه متزوج أميرة من هذا البيت فاضطر أن يصحبها فى مغادرتها الآستانة، وجاء معه والده وإخوته أيضا. ولايزالون يقيمون فيها حتى الآن.

ـ ١٤ ـ

استئناف القتال

حروب الغوطة - معارك قلمون ـ فظائع وادى بردى

رافق الفشل والحبوط جميع المشروعات التى باشرها المسيو دى جوفنيل فى هذه المرحلة، وأخطأه التوفيق فيها كلها، فقد فشل فى سعيه للاتفاق مع اللجنة التنفيذية فى مصر كما فشل فى مفاوضاته مع وفد دمشق وفى سعيه لإنشاء حكومة وطنية وفى محاولته إجراء انتخابات، وفى إرساله الشريف عبد المجيد إلى دمشق، فزاد فشله الثورة ضراما وانتشارا كما شجع الثوار وعزز الثورة يضاف إلى ذلك قيام الطوائف الإسلامية التى انضمت إلى لبنان الكبير تطالب بالانفصال عنه والانضمام إلى الوحدة السورية.

ورأى المندوب السامى أنه لابد له من الاعتماد على القوة فى هذه المرحلة فكتب إلى فرنسا طالبا إرسال قوات كبيرة فأجيب إلى ما طلب وتواردت النجدات بكثرة حتى قيل إن عدد الجنود الفرنسوية فى سورية ارتفع إلى مائة ألف جندى فى ذاك العهد مسلحة بمختلف الأسلحة الحديثة من دبابات وطيارات ورشاشات ومدفعية.

ولم يقف الأمر بهم عند هذا الحد بل ألفوا كتائب من الشراكسة والأرمن والإسماعيلية والنصيرية والموارنة وقذفوا بها الثورة. كما ألفوا بعد ذلك فى داخل جبل الدروز كتائب من الدروز سلطوها على الدروز أنفسهم.

وانتشرت هذه القوى العظيمة فى أنحاء سورية فى دمشق وفى الغوطة وفى وادى التيم وفى إقليم البلان وفى جبل قلمون وفى حمص وفى حوران تطارد الثوار وتقاتلهم فوقعت بينها وبينهم معارك دامية استبسلوا فيها أشد استبسال.

وطبق قادة الجيش الفرنسوى فى عهد المسيو دى جوفنيل وتحت سمعه وبصره ما اعتادوا تطبيقه من أساليب فى عهد أسلافه فقتلو وصلبوا ونفوا، وحرقوا القرى والمدن وفرضوا الغرامات وتفننوا فى النكاية والأذى مما خيب آمال المتفائلين الذين ظنوا أن وجود مندوب سام غير عسكرى كالمسيو دى جوفنيل لم يتشرب الروح الاستعمارية قد يحمل ولاة الأمور العسكريين على التخفيف من غلوائهم.

لقد كان المسيو دى جوفنيل كثير الاعتداد بلباقته، كما كان كثير الاعتماد على أساليبه وعلاقاته السياسية، فقد تقرب من الإنجليز وأحكم الصلات معهم فزار عاصمتهم على أثر تعيينه، كما زار القدس بعد وصوله إلى سورية وقضى أياما فى ضيافة المندوب السامى لفلسطين، وزار أيضا أنقرة وحل ضيفا على الحكومة التركية وعقد معاهدة مع الترك منح فيها هؤلاء ما كانوا يطلبونه من سورية مما أنكرته الحكومة الفرنسوية، واعترضت عليه واتصل بمندوب السلطان ابن سعود فى دمشق وقربه منه وأدناه ومنح النجديين امتيازات لم تكن لهم، ولما تم لابن سعود احتلال الحجاز كان أول من اعترف به باسم الحكومة الفرنسوية، وقد رأيناه على أثر تقلده منصبه الجديد يتصل بالعاملين من السوريين فى أوربا ويبدى لهم رغبته فى التقرب والتفاهم، ثم رأيناه فى مصر يزوز قصر الأمراء لطف الله ويجتمع إلى الوفد الممثل للأحزاب السورية ويتسلم مذكرته ويناقشه فى بعض الشئون، ونحن فى غنى عن القول أن هذه الأساليب والخطط مما تفرد به فلم يسبق لمندوب سام أن جرى عليها ولم يأخذ بها أحد بعده.

ويلوح لنا أن المسيو دى جوفنيل كان يعتقد أن حل القضية السورية لا يكلفه سوى أسابيع يقضيها فى بيروت ودمشق يعود بعدها إلى باريس وقد ضفر على رأسه إكليلا من المجد، وعمل ما عجز الأوائل عن عمله، ولكنه ما كاد يحط رحاله فى الأراضى السورية حتى أدرك أنه أخطأ الحساب والتقدير، فقد دعا الثوار إلى الاستسلام فلم يستسلم منهم أحدا، ثم أعلن العفو فلم يقبل عفوه أحد، ثم دعا إلى إجراء انتخابات فقاطعت الأمة انتخاباته، ودعا دمشق إلى إرسال وفد لمقابلته، ثم أعلن أنه لن يقابله مادامت الثورة قائمة فقال له الدمشقيون ونحن فى غير حاجة إلى مقابلتك، ثم عاد فدعاهم إلى زيارته فجاءوه فأراد أن يجتمع إليهم منفردين فأبوا إلا الدخول مجمتعين فكان لهم ما أرادوا وسعى أيضا لإنشاء حكومة وطنية قوية فى دمشق يستعين بنفوذها فى إخماد الثورة فلم يجد من يقبل التعاون معه.

ولا ريب أن هذا الفشل المتتابع المتلاحق أثر فى نفسه أثرا بليغا وتحول إلى يأس جعله يستسلم إلى العسكريين الذين استأثروا بالسلطة دونه وأمعنوا بالشعب تقتيلا وتعذيبا وإرهاقا وبالبلاد تدميرا وإحراقا وتخريبا فساءت الحالة وارتفعت الأصوات بالشكوى والتألم فغادر البلاد يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٢٦ يجر أذيال الخيبة والفشل.

قوات الفرنسويين وتدابيرهم العسكرية

ولابد لنا قبل الاسترسال فى وصف المعارك العسكرية التى دارت فى تلك الفترة من إلقاء نظرة عامة على الموقف الحربى ومقابلة قوى الفرنسويين بقوى الثوار. فمثل ذلك لا يخلو من فائدة.

كان الثوار عند دخول فصل الخريف يسيطرون على منطقة الغوطة وجبل القلمون وإقليم البلان ووادى التيم وجبل الدروز. نعم إن الفرنسويين استطاعوا فى أواخر شهر نوفمبر آجلاء الثوار عن حاصبيا وراشيا وفتحوا الطريق إلى القنيطرة، إلا أن الثوار ظلوا منتشرين فى جبال تلك المنطقة وجردوها، وهو منطقة جبلية وعرة يسهل العمل فيها وخصوصا فى فصل الشتاء.

وتوالى وصول النجدات للفرنسويين فى فصل الشتاء فأقاموا حامية كبيرة فى حمص بقيادة الجنرال مارتى وقوة أخرى فى دمشق بقيادة الجنرال أندريا، وكانت فى دمشق حملتان كبيرتان الأولى بقيادة الكولونيل فرن ومهمتها منازلة الثوار فى شرقى الغوطة، والثانية بقيادة الكولونيل ماسيت ومهمتها منازلتهم فى شمالها. وأنشأ الفرنسويون فى خلال فصل الشتاء ستة مخافر عسكرية كبيرة فى داخل الغوطة شحنوها بالمقاتلة والسلاح لمقاتلة الثوار ومطاردتهم: الأول فى دوما والثانى فى أوتايا والثالث فى شبعا والرابع فى خرابو والخامس فى بويضان من المرج والسادس فى البراق على حدود جبل الدروز الشمالية لمنع الاتصال بين الغوطة والجبل.

وحشدوا قوات أخرى على طول سكة حديد حوران فكان لهم مخفر عسكرى كبير فى بصرى اسكى شام وآخر فى بصرى الحرير وفى المسمية والمسيفرة وأنشأوا مركزين عسكريين كبيرين فى أذرع المناوحتين للجبل استعدادا للنضال.

وحشدوا أيضا قوات كبيرة فى جنوبى لبنان. فأعدوا حملة بقيادة الكولونيل ليمان جران عهدوا إليها بالعمل فى وادى التيم وإقليم البلان ومطاردة العصابات. وهكذا لم تبد بشائر الربيع حتى كانوا أنجزوا تدابيرهم ووضعوا خططهم.

موقف الثـــوار

هذا ما يقال عن موقف الفرنسويين واستعدادهم للمعارك الجديدة. أما موقف الثوار في شتى المناطق فيمكن وصفه في مايلي:

١ ـ الغوطة وقلمون

استقرت أقدام الثوار في الغوطة خلال فصلي الخريف والشتاء وسيطروا عليها وأخذوا يشنون الغارة على دمشق من جميع الأطراف، ويدخلون أسواقها ويخرجون منها. كما سيطروا على سكة حديد دمشق ـ بيروت ولذلك لم يتمكن المسيو دي جوفنيل من زيارة دمشق إلا بعد انقضاء شهرين ونيف على وصوله إلى بيروت خوفا من الوقوع في أسر الثوار. فقد جاءها للمرة الأولى يوم ٧ فبراير سنة ١٩٢٦ وخطب فيها خطبة طويلة أعاد فيها آراءه وأبدى عن رغبته في السلام.

واتجهت العصابات نحو الشمال فاتصلت بالعصابات التي كانت تعمل في جبل القلمون فتوحدت الخطة وسيطر الثوار سيطرة فعلية على المنطقة الممتدة من شمالي حمص حتى جبل الدروز واتخذوا النبك قاعدة لهم وقد أقبل أهل البلاد على تأييدهم والانضمام إليهم وهذا نص الميثاق القومي الذي وضعوه:

نحن سكان جبل قلمون وأهالي قضاء النبك نتعهد أن نخضع لأوامر الجيش ونقدم الرجال والمال والعتاد اللازم لأجل إنقاذ الوطن من أيدي المستعمرين وتحرير سورية كلها بحدودها الطبيعية وإننا نهرق آخر نقطة من دمائنا في سبيل استقلالنا ونحافظ على نص المقررات الأخيرة.

نعلن لعموم أهالي المنطقة في جبل قلمون والنبك أننا عزمنا على مكافحة العدو حتى النتيجة الحاسمة، ولأجل وصولنا لهذا القصد المقدس قد قررنا المواد الآتية:

١ ـ يعتبر كل وطني سوري عربي مجاهدا، ومن يخالف يعد خائنا ويحاكم في المحكمة الثورية.

٢ ـ تؤلف في كل قرية هيئة أو لجنة خاصة تكون من وجهاء القرية ويعهد إليها تنفيذ المقررات.

٣ ـ يجند من كل قرية مجاهدون بنسبة عدد نفوسها.

٤ ـ تكفل القرى مؤونة الجيش وعتاده حتى النهاية

٥ – كل من يترك الجيش ويفر يعد خائنا للوطن ويعدم.

٦ ـ بمناسبة إعلان الجهاد لطرد العدو فجميع الدماء والبغضاء القديمة ترفع من الصدور.

وظائف اللجان

أن اللجنة المشكلة فى كل قرية هى المسؤولة عن إعاشة المجاهدين وتدبير الذخائر اللازمة، وإلقاء القبض على كل خائن والحث على الجهاد وإجبار المقتدرين على شراء السلاح وتسليح من لا قدرة له.

الإعاشـــة

يخصص مستودع فى كل قرية ويجبى من الأهالى باسم أعشار تخصم هذه مستقبلا بموجب الوصل الذى سيعطى باسم الحكومة الثورية السورية.

يجب أن يكون على رأس مجاهدى كل قرية أحد الوجهاء ويكون مربوطا بهيئة القيادة من الوجهة الحربية، وعليه تبليغ المقررات إلى لجنة القرية لتنفيذها.

بما أن جهادنا المقدس لأجل تحرير البلاد فيجب علينا الاتفاق والاتحاد عملا بأمره تعالى.

٢ ـ فى وادى التيم وإقليم البلان

وطد الثوار أقدامهم فى منطقتى وادى التيم وإقليم البلان فاستولوا على قضاءى وادى العجم والقنيطرة وانبثوا فى قرى وادى التيم واستولوا على هضابه وآكامه، وكانت قواهم تتجول فيه من دون مقاومة. وكذلك كان الحال فى منطقة دمشق الغربية الممتدة من أبواب دمشق حتى الزبدانى.

٣ ـ فى جبل الدروز وحوران

وكذلك كان الحال فى جبل الدروز. فقد كان بأجمعه خاضعا للثوار وكان للفرنسويين بعض مراكز حصنوها فى حوران على طول السكة الحديد بين درعا ودمشق.

الزحف الفرنسوى فى الربيع

وما كادت تباشير الربيع تظهر حتى نهض الفرنسويون للعمل. فألفوا حملات كبيرة لمقاتلة الثوار وإجلائهم عن المناطق التى يحتلونها.

١ ـ الزحف على قلمون

وكانت منطقة قلمون ـ وتمتد من أبواب حمص حتى أول حدود غوطة دمشق الشمالية ـ أول ما استهدفت لهجوم الفرنسويين فى هذه المرحلة، فقد جهزوا حملة كبيرة غادرت حمص فى الأسبوع الثانى من شهر مارس إلى النبك بقيادة الجنرال مارتى وتتألف من أربعة آلاف جندى مشاة مع قوة كبيرة من الفرسان وبطاريتين ومصفحات و ٧٠ رشاشة.

وتولى الدفاع عن النبك القائدان سعيد العاص وفوزى القاوقجى، وقد كتب الثانى فى وصف تلك المعارك يقول: «ولقد قررنا أن ندافع عن النبك أولا فى جهات قارة شمالا فنسير غور العدو، ونعرف عدد قواه ثم فى النبك نفسها وحشدنا نحو ٨٠٠ مقاتل وحاولنا أن نضربه فى مضيق عيون العلق ضربة قوية لا توصله إلى النبك إلا وهو منهوك القوى»

ودخل مشاة المجاهدين قارة يوم ١١ مارس وقصد فرسانهم دير عطينة للإحداق بجناح العدو الأيسر، وفى يوم ١٢ أتموا معداتهم فى عيون العلق واشتبكوا مع الفرنسويين بمعركة استمرت ساعتين ونصفا وانتهت بارتدادهم إلى النبك يوم ١٤ منه فصمدوا للجيش وكان يتبعهم وقاتلوه من وراء استحكامات أحكموا بناءها على الطراز الحديث. وعند الأصيل احتل الجيش المستشفى الهولندى غربى النبك. فكر عليه المجاهدون واستردوه، ثم والوا الهجوم فاستردوا جميع الأماكن التى فقدوها وغنموا غنائم.

وفى يوم ١٥ مارس أدركوا أنه لابد لهم من الانسحاب لضآلة قواتهم بالنسبة لقوات العدو، ولأن مواردهم محدودة، ولأنه لا يجوز لهم أن يجازفوا بقواهم. فاحتل الفرنسويون

النبك وبدأوا يبسطون نفوذهم عل قلمون.

وواصل الجنرال مارتى الزحف يوم ١٨ منه قاصدا دمشق بعدما أبقى قوات كبيرة فى النبك فوصل إلى القطيفة فى الغداة، وفيها التقى بحملة الكولونيل ماسيت وقد خرجت من دمشق للاجتماع به فزحفت الحملتان يوم ٢٠ منه إلى جيرود، وتجولتا فى تلك المناطق وفى يوم ٢٦ منه وصلتا إلى دمشق بعد مااشتبكتا مع العصابات فى سلسلة من المعارك.

٢ ـ زحف الفرنسويين فى وادى التيم وإقليم البلان

واختارت القيادة الفرنسوية العليا منطقتى إقليم البلان ووادى التيم وهما متلاصقان للعمل فى المرحلة الثانية. فأعدت حملتين كبيرتين سارتا من دمشق يوم ٣ إبريل الأولى بقيادة الجنرال مارتى وتتألف من قواه القادمة من حمص، والثانية بقيادة الكولونيل ماسيت إلى خان سعسع ـ مجدل شمس للاتصال بحملة الكولونيل ليمان جران كور وقد اتمت تعبئتها فى صيدا وسارت بطريق الخيام ـ جسر الغجر قاصدة مجدل شمس عاصمة الثوار فى وادى التيم وإقليم البلان وقاعدتهم الكبرى هى واقعة فى سفح جبل الشيخ فى مركز متوسط بين دمشق والقنيطرة وقطنا وحاصبيا وراشيا، وقد أدركت هذه الحملات أغراضها فدخلت يوم ١٣ إبريل مجدل شمس وجعلتها قاعا صفصفا، وأنشأت فيها قاعدة عسكرية كبيرة كما أنشأت قاعدة أخرى فى القنيطرة ومرجعيون وحاصبيا. وقد دمر الفرنسويون خلال هذا الدور معظم قرى الدروز فى جبل الشيخ وفى وادى التيم.

٣ ـ الزحف على جبل الدروز

بعد ما انتهى الزحف الفرنسوى فى قلمون وفى إقليم البلان اتجه الفرنسويين نحو جبل الدروز فأعدوا قوات كبيرة قيل أنها بلغت عشرين ألفا فى المسيفرة وفى أذرع وفى بصرى اسكى شام للزحف على الجبل من ثلاث جهات فى وقت واحد، وأنشأوا قواعد عسكرية فى هذه المراكز نصبوا فيها مدافع ضخمة لضرب القرى الدرزية المناوحة لحوران.

وما كان الدروز بغافلين عما يراد بهم وعما يدبر لهم فى الخفاء، ولا يخفى أن الجيش الفرنسوى ارتد بقضه وقضيضه عن الجبل على أثر معارك أكتوبر سنة ١٩٢٥، وانصرف

إلى مقاتلة العصابات فى الغوطة وفى الإقليم وفى الجهات الأخرى فارتاح سكان الجبل من عناء الأعمال العسكرية فى هذه الفترة إلا جانبا منهم اشترك مع العصابات التى زحفت إلى وادى التيم ولكنه ما لبث أن عاد إلى جبله.

وجاء فشل مفاوضات الصلح التى دارت فى خلال شهر يناير - وقد فصلنا أخبارها من قبل - بينهم وبين المسيو دى جوفنيل وما سمعوه من أقوال وتهديد من الجنرال أندريا وغيره فأضرم نار الحماسة فى صدورهم، فقرروا مواصلة القتال حتى النفس الأخير، وتعاهدوا على أن تقدم كل قرية ربع محاربيها بالمناوبة لمواصلة القتال، وأن يكتب إلى الكومندان كوستيلير قائد درعا كتابا يشمل طلبات الثورة وأن يكلف رفعه إلى المسيو دى جوفنيل كما تقرر تأليف لجنة لإدارة الجبل.

ومما اتفق عليه فى اجتماع عقد يومئذ أن تذهب لجنة يتألف أعضاؤها من كل بيت معروف فى الجبل إلى قرية «ديبين» فيحرقوا بيت فارس الأطرش وإلى قرية «المجيمر» فيحرقوا بيت عبده الأطرش لأنهما خانا العشيرة والوطن وخرجا على الدروز فى نضالهم، وأن يشمل هذا التدبير بيوت نجيب عامر وتركى عامر وعبد الكريم نصر من الذين انضموا إلى الفرنسويين.

وعقد زعماء الثورة اجتماعا فى قرية «دامة» من اللجاه يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٦ فى منزل شبيب القنطار بحثوا فيه الدعوة السلمية التى أذاعها المسيو دى جوفنيل، فقرروا إرسال جواب يطلبون فيه الجلاء عن سورية بعد افتتاح المجلس التأسيسى بشهرين فرد عليهم هذا قائلا إنه لا سلم ولا مفاوضة إلا بعد أن يخضع الثوار ويلقوا سلاحهم.

وفى صباح ٢٦ منه غادر المجاهدون قرية «دامة» إلى لب اللجاه فاحتلوا من غير مقاومة تقريبا قرية جدل وسائر القرى الأخرى وبسطوا نفوذهم على اللجاه واتخذوه قاعدة لغاراتهم على مراكز الفرنسويين فى حوران وخصوصا على السكة الحديد لعرقلة نقلياتهم.

٣ ـ زحف الفرنسويين على الجبل

بدأ الفرنسويون الزحف على السويدا يوم ٢٣ إبريل سنة ١٩٢٦ وتولى قيادة الحملة فى هذه المرة الجنرال أندريا، ومهدت الطائرات الفرنسوية لها فأغارت يوم ٢٢ منه على قرى

الجبل كام الرمان، وصلخد وعرى والسويدا فأمطرتها وابلا من قنابلها وصبت عليها المدافع الضخمة المنصوبة فى المراكز العسكرية فى حوران حمما من نيرانها.

وهاجم الفرنسويون الجبل فى هذه المرة من ناحيتين فتحركت الحملة الأولى من أذرع صباح ٢٢ منه فبلغت قرية الغازية ودخلتها من دون حادث.

وتحركت الحملة الثانية وقد أطلقوا عليها اسم القوات الرئيسية وكانت بقيادة الجنرال اندريا نفسه من المسيفرة صباح ٢٣ منه فاتجهت إلى قرية أم ولد فدخلتها من دون حادث أيضا، لأن قيادة الثورة أبت الاشتباك فى معارك معها واستأنفت الحملة الأولى الزحف من الغازية صباح ٢٤ منه فاحتلت عند الظهر تل الحديد وقضت ليلتها فيه. كما احتلت القوات الرئيسية قرية عرى، وفى صباح الأحد ٢٥ منه مشت القوتان إلى السويدا.

وكان هنالك عدد كبير من المجاهدين بقيادة سلطان الأطرش وقد تعاهدوا على الدفاع عنها حتى النفس الأخير.

بدأ الفرنسويون يضربون السويدا فى الساعة السادسة من صباح الأحد ٢٥ منه وفى الساعة الثامنة أوقفوا الضرب نحو ربع ساعة ثم استأنفوه واستمروا نحو ساعة وحلقت إحدى عشرة طائرة فصبت نيرانها على السويدا وظل إطلاق النار متواصلا من الأرض والسماء حتى الظهر ثم دخل الجيش السويدا بعد معركة حامية فانسحب المجاهدون إلى الشرق ونزل سلطان باشا الأطرش وإخوانه على عين الحشبة ونزل الدكتور شهبندر ومن كان معه، وقد شهد معركة السويدا، قرية سالة وقصد آخرون العانات وغيرها من قرى المقرن الشرقى وكانوا على اتصال.

ـ ١٥ ـ
حكومة الداماد وبيانها

كبر على المسيو دى جوفنيل ما أصابه من فشل فى سعيه لتأليف حكومة وطنية تساعده فى إخماد الثورة فأعاد الكرة على الشيخ تاج الدين الحسنى محاولا اقناعه بالعودة إلى التعاون معه فأصر على تنفيط برنامجه ثم اتصل بهاشم الأتاسى وإبراهيم هنانو فلقى منهما إعراضا عن التعاون ما لم تجب طلبات البلاد، وأخيرا وبتوسط بعض المتوسطين قبل أن يولى الداماد أحمد نامى رئاسة الحكومة السورية.

ولهذا لم يكد الجنرال أندريا يدخل السويدا يوم ٢٥ إبريل حتى أصدر المسيو دى جوفنيل يوم ٢٦ منه قرارا جاء فى المادة الأولى منه ما نصه «عين الداماد أحمد نامى بك رئيسا لدولة سورية إلى أن يلتئم البرلمان المنتخب قانونا ويعين بنفسه رئيس الدولة».

وفى يوم ٢٨ منه نشر الداماد المنشور الآتى:

«لقد قاسمت وأقاسم جميع أمانى الشعب السورى، وقد تالمت وأتألم لجميع آلامه وإذا كنت أتحمل اليوم مسؤولية الحكومة الموقتة فذلك لكى أساعد سورية على تحقيق أمانيها وعلى تخفيف آلامها.

إننا لا نقدر أن نصل إلى غايتنا بالقوة، بل بالمخابرات وبالاعتماد على الحق وليس علينا ضد الدولة المنتدبة أن ننال نجاحا بل بمساعدتها وليس بمحاربة إخواننا الذين ولدوا على أرض هذا الوطن مثلنا نوجد الوحدة السورية بل باستمالتهم إلينا».

«إن الثورة قد كلفت ألوفا من الضحايا البشرية، وخربت مدنا كاملة وحكمت على الغلال أن تهرأ تحت الأشجار وفى الحقول، بل أنها زادت فى عمق الهوة التى تفصلنا عن الإسكندرونة والعلويين ولبنان، فى حين أن ضروريات حياتنا الوطنية تأمرنا أن نطمر هذه الهوة بفتح منفذ على البحر لحلب ودمشق وستسعى حكومتى لنيله بالطرق السلمية».

«ومن جهة أخرى سنتخابر مع الدولة المنتدبة لإعطاء الانتداب شكل معاهدة مستمدة من المعاهدة المعقودة بين انجلترا والعراق، وأخيرا فإننا نعجل بانتخاب جمعية تأسيسية يعترف بواسطتها بحقوق جميع السوريين فى استعمال الحرية والاستقلال».

«فليثق الشعب السورى ويصبر فالنجاح أمامنا ـ إنه يكفى لمحق سنابل القمح النافعة مطرة واحدة من البرد. غير إنه يلزم أيام عديدة بل أسابيع وشهور لينمو القمح ويحين الحصاد تلك هى شريعة الحياة التى لا يمكن نكرانها.

«فإذا سرتم معنا على طريق هذه الشريعة ترون إذ ذاك نهاية العذاب والشقاء وتحققون رويدا رويدا فى السلم والراحة مطاليب القلوب السورية»

وعلق عليه المفوض السامى بقوله:

أن البيان الذى اطلعتمونى عليه والذى يؤلف برنامج الحكومة الوطنية السورية يؤكد ثلاثة أمور أساسية.

أولا ـ وجوب إعطاء الانتداب شكل معاهدة لثلاثين سنة تعقد مع الدول المشمولة بالانتداب ـ أننى أقبل هذا الطلب.

ثانيا ـ حق سورية بوضع دستورها ـ أنى على اتفاق تام مع حكومتكم فى هذا الحق وأخيرا أعلمكم بالوصول إلى تحقيق المطالب السورية بواسطة المخابرات الحبية بين بقية الدول ـ إنه يجب أن يفهم أن هذه المخابرات لا يمكن الشروع فيها قبل مصادقة البرلمان المقبل على المعاهدة التى تتعهد فيها سورية أن لاتستعمل القوة فى أى حال ضد جاراتها وأن تلجأ إلى تحكيم الدولة المنتدبة عند وقوع الخلاف.

إن الدولة المنتدبة ليست حكما على أمانى الشعوب الواقعة تحت الانتداب، ولكنها كذلك على الطريق تظهر فيها هذه الأمانى ولا يوجد أقل مناقضة بين مصالح فرنسا ومطالب مختلف أقسام سورية ولبنان وجبل الدروز والعلويين والإسكندرونة، ولكن هذه المطالب يناقض أحيانا بعضها البعض.

فالاتفاق يجب أن يحصل بينكم وبين إخوانكم الذين ولدوا وإياكم على أرض واحدة لا بينكم وبيننا نحن الفرنسويين.

أن صعوبة هذا الاتفاق والحاجة إليه هما فى الوقت نفسه أساس صعوبة وحاجة الانتداب الذى عهدت فيه جمعية الأمم إلى فرنسا.

فعلى الانتداب واجبان. هما حالة السلام الخارجى للشعوب، وإعطاؤها كل الحريات الداخلية لا حرية استعباد فئة لأخرى.

ولا يمكن أن أبرهن عن أمانة فرنسا نحو واجباتها بأحسن مما برهنت به الآن، وهو تسليم سورية إلى أيدى حكومة وطنية حتى فى الساعة التى كان يسهل النصر لنا فيها تنفيذ سلطة مطلقة.

ولى الأمل أن تفهم الأمة السورية جيدا مظهر هذه الصداقة التى تقوم بها فرنسا نحوها، وأنها ستقابل الثقة بثقة مثلها. فإذا تم ذلك قدرتم يا صاحب السمو أن تعجلوا الرقى الذى يقود البلاد نحو النجاح والراحة والسلام بدلا من الثورة التى تحمل الخراب.

هذه هى الأمانى الحارة التى أرغب فيها مع رجائى بقبول اعتبارى الفائق

وفى يوم ٣٠ إبريل وصل المسيو دى جوفنيل والداماد أحمد نامى إلى دمشق وأخذا يعملان لإنشاء الوزارة، فلقيا مقاومة شديدة، وأبى كثيرون من الوطنيين التعاون مع الرئيس الذى اختاره الفرنسويون، على أنه تم لهم أخيرا يوم ٤ مايو تأليف وزارة شبه ائتلافية على المنوال الآتى:

شاكر نعمت الشعبانى للمالية وحسنى البرازى للداخلية وواثق المؤيد للأشغال العامة ولطفى الحفار للزراعة والرى ويوسف الحكيم للحقانية وفارس الخورى للمعارف.

بيان الحكومة الجديدة وبرنامجها

وهذا نص البيان الذى أذاعته الحكومة الموقتة مع برنامجها وقد أقره المسيو دى جوفنيل ووافق عليه:

إلى الشعب السورى الكريم

غير خاف على أحد ما بلغته الكارثة الحاضرة من إيقاع الدمار والبلاء فى هذا الوطن السورى المحبوب. فقد تواترت عليه المصاعب المفجعة فى الأشهر العشرة الماضية حتى كادت تقوض ما بناه لنفسه من آثار الحياة والعمران. وبات الحذر شديدا من الإتيان على ثمرات جهود الأجيال السالفة والجيل الحاضر.

لقد أصبح الموقف رهيبا وكاد يقضى على شعاع الأمل بالخروج من هذه المآزق الضيقة ولم يعد منصب الحكم والولاية يستهوى أحدا فى هذه الأيام العصيبة.

عندما دعينا لتسلم أزمة الإدارة فى سورية وقفنا برهة موقف التردد والحيرة متهيبين اقتحام هذه الغمرة وقبول ما فيها من التبعة، ونحن عالمون أن إنهاض هذا الوطن من كبوته وإقالته من عثاره يحتاج إلى مفاداة أبنائه ومغامرتهم بأشخاصهم.

نحن نعلم أن للأمة السورية حقوقا مشروعة تريد إدراكها، وتعتمد فى نيلها على قوة التى لا تغالب وبحسب هذه العقيدة ما زلنا من القائلين بوجوب العمل بالطرق الدستورية والوسائل القانونية. ومهما كانت نتيجة الثورة الحاضرة لا تتبدل أمانينا الوطنية ولا تضعف عزائمنا عن متابعة قضيتنا والمطالبة بحقوقنا بالطرق السلمية المشروعة تلك الأمانى التى كانت الأمة تسعى وراء تحقيقها منذ عهد قديم.

جاء المسيو دى جوفنيل المفوض السامى وأعلن أنه قادم لإنالة الشعب السورى حقوقه وقد مرت بضعة أشهر والمفاوضات تجرى بينه وبين السوريين لإيجاد أسلوب ملائم تحل به المشكلة الحاضرة بإنالة السوريين حقوقهم وإزالة أسباب شكاويهم ـ وهو معدود من نوابغ الفرنسويين ومشبع بروح الحرية والإنصاف. وله فى جمعية الأمم مواقف كثيرة وله مزايا بارزة فى نصرة الحق وتأييد العدل.

قبل أن وافقنا على تلبية الدعوة بتأليف حكومتنا الحاضرة وضعنا أمامنا فى ساحة التأمل والاعتبار أمورا كثيرة تتناول قوة الحق فى جانب قضيتنا الوطنية والوعود المكتوبة والشفهية التى تلقيناها من فخامة المفوض السامى وشخصية هذا العميد البارزة فى العالم الأوربى مع الثقة المتبادلة بينه وبين حكومتنا السورية ولزوم الاعتماد المتقابل والتعاون الحقيقى بيننا وبين الفرنسويين لنتمكن من الاستفادة بعملهم وخبرتهم ولتعود إلى البلاد سكينتها وسلامتها وما أدى إليه فقدان الثقة ومساوئ الإدارة الماضية من خراب بلادنا وتدميرها وخطأ الموقف السلبى حيال كوارث البلاد الحيوية والاقتصادية، وحيال الأمن المضطرب والأموال المندثرة والدماء المسفوكة.

بعد أن تأملنا كثيرا فى هذه الأمور وقابلناها مع معكوساتها فى الكفة الأخرى قضى علينا العقل والغيرة الوطنية أن نستخير الله ونعالج هذا الأمر ونحن معتمدون فى نيل النجاح على مؤازرة الشعب السورى الكريم وتأييده فى هذه المهمة الشاقة. وقد عاهدنا أنفسنا أن لانجازف بشئ من حقوق الأمة المشروعة.

إن حكومتنا قد اتخذت قاعدة لأعمالها البرنامج الآتى تسعى لتحقيقه.

١ - دعوة الجمعية التأسيسية لتتولى سن دستور البلاد على قاعدة السيادة القومية.

٢ - تحويل الانتداب إلى معاهدة تعقد بين فرنسا وسورية لمدة ثلاثين سنة تعين فيها الحقوق والواجبات والعلائق المتقابلة بين الأمتين مماثلة للمعاهدة المعقودة بين بريطانيا والعراق، ولا تكون هذه المعاهدة نافذة إلا بعد تصديقها من البرلمان السورى، ويحتفظ فيها لفرنسا بالنفوذ السياسى والرجحان الاقتصادى فقط. على شرط عدم الإخلال بالسيادة القومية.

٣ - تحقيق الوحدة السورية بالوسائل التى باشرنا بإجرائها منذ الآن، وستظهر للأمة نتائجها المثمرة فى القريب العاجل إن شاء الله.

٤ - توحيد النظام القضائى على قاعدة السيادة القومية بصورة تصون حقوق الوطنيين والأجانب معا.

٥ - تأليف جيش وطنى بحيث تتمكن القوات الفرنسوية من الجلاء التدريجى عن البلاد.

٦ - طلب إدخال سورية فى عصبة الأمم وإعطائها حق التمثيل الخارجى أسوة بالعراق.

٧ - درس إصلاح النظام النقدى الحالى وإعادة الأساس الذهبى فى عملة البلاد الرسمية بصورة تدريجية

٨ - استحصال العفو العام عن جميع أصحاب الجرائم السياسية مع الاحتفاظ بالحقوق الشخصية.

٩ - استحصال قرار بإلغاء الغرامات الحربية عن دمشق وغيرها.

١٠ - إيجاد طريقة للتعويض على منكوبى الثورة.

هذا هو الهدف الأصلى من برنامج حكومتنا الموقتة لإعادة السلام وتحقيق أمانى البلاد بالسرعة الممكنة، ولما كان هذا البرنامج يحقق قسما كبيرا من الأمانى الوطنية وحقوق البلاد فإننا نرجوا من الأمة السورية الكريمة مؤازرتنا لنتمكن من تنفيذه بأقرب وقت مستطاع والله من وراء القصد.

وثائق دى جوفنيل وعهوده

ودارت مفاوضات بين المسيو دى جوفنيل وبين الحكومة الجديدة للاتفاق على قضية

الوحدة والمشكلات الأخرى امتدت نحو أسبوعين، ومثل الجانب السورى فيها هيئة مجلس الوزراء ومثل الجانب الفرنسوى المسيو أليب المندوب الممتاز فى دمشق والكولونيل كاترو ورئيس دوائر الاستخبارات فى المفوضية العليا، واشترك فيها المسيو دى جوفنيل نفسه فانتهت بالتوقيع على وثيقتين: الأولى نص البيان الوزارى مع المواد العشرة (وقد نشرناهما آنفا) والثانية خاصة بطريقة تنفيذ كل مادة من مواد البرنامج العشر ولم تنشر حتى الآن.

وسلم المندوب، الداماد رسالتين كتبهما بخط يده، ووجههما إليه اعترف فى الأولى بحق سورية فى الحصول على مرفأ بحرى، وتعهد بإعطائها طرابلس مع عكار على طول خط السكة الحديد إلى بعلبك فتتصل طرابلس بدمشق مباشرة من دون أن تمر السكة بأراض لبنانية.

وسلم فى الوثيقة الثانية بضرورة الوحدة السورية، ووعد بتحقيقها على أساس التفاهم بين فرنسا وسورية من جهة وبين سورية ولبنان من جهة أخرى. والرسالتان مكتوبتان فى أواخر شهر إبريل سنة ١٩٢٦ وهما محفوظتان عند الداماد أحمد نامى ولم تنشرا.

اشتراك الموارنة فى هذه المفاوضات

وكان بعض زعماء الطائفة المارونية وفى مقدمتهم البطريرك السابق وأميل إده على علم بما جرى وقد تعهد الأخير باقناع أبناء طائفته بالموافقة على إعطاء طرابلس لسورية وإشعارا بذلك وقع بخط يده على الوثيقة الخاصة بقضية الوحدة.

ومما تم الاتفاق عليه أيضا بين الداماد والمندوب أن يكون تحقيق الوحدة السورية بطريق المفاوضات لا بأى أسلوب آخر، وذلك بأن تعقد معاهدة بين الحكومتين السورية واللبنانية تتعهدان فيها بأن لا تلجأ إلى السلاح واستعمال أى نوع من أنواع الشدة لحل قضايا الحدود، وتكون الغاية منها سلخ الأقضية الأربعة وطرابلس وعكار عن لبنان ويحكم الفريقان المندوب السامى عند حصول خلاف بينهما ويكون حكمه حكما قابلا للتمييز فى جمعية الأمم.

إعلان الجمهورية فى لبنان

وبعد ما قطع المسيو دى جوفنيل على نفسه هذه العهود الصريحة، وتعهد بتحقيق الوحدة السورية ـ وذلك بسلخ الأقضية الأربعة وطرابلس وعكار عن لبنان وإعادتها إلى سورية وافق يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٢٥ على الدستور الجديد للبنان، وينص على أن أراضى لبنان وحدة لا تتجزأ، ولا يجوز التنازل عن أى جانب منها ـ كما يقضى بإنشاء جمهورية ذات نظام برلمانى من مجلسين، وقد نودى بها فعلا يوم ٢٦ مايو واحتفل بإنشائها احتفالا رسميا.

وقد استوقف هذ التناقض بين عهود المندوب السامى ووعوده نظر وزير سورى فهو من جهة يعد بتحقيق الوحدة السورية بسلخ الأراضى التى ضمت إلى لبنان فى سنة ١٩٢٠ ويقر من جهة أخرى دستورا للبنان ينص على على عدم جواز التنازل عن أى جزء من الأراضى اللبنانية بأى طريقة كانت. فسأله عنه فقال: لا أرى فرقا بين دستور لبنان وبيان الحكومة السورية مادامت وزارة الخارجية الفرنسوية وجمعية الأمم لم تصادق عليهما فلهما وحدهما حق البت فى هذه الشؤون وفصل الخلافات. وقال إنه سيذهب إلى باريس وجنيف لهذه الغاية. وغادر بيروت يوم ٢٨ مايو من تلك السنة ذاهبا إلى باريس ولم يعد فسقط حكم هذه الوثائق بسفره، ولم يقم لها المندوبون المتعاقبون وزنا. مع أنها صدرت باسم فرنسا وبالإضافة إليها وكان من حقها أن تحترم وتنفذ.

ـ ١٦ ـ
كوارث الميـــــدان

حى الميدان ـ من أكبر أحياء دمشق وأكثرها سكانا ويتصل بالغوطة مباشرة من الجنوب والشرق والغرب، ولأبنائه صلة وثيقة بالبادية وخصوصا بحوران وجبل الدروز، وقد تطبع الجانب الأكبر منهم بطبائع البادية وعاش فيها واشتهر بالوفاء والمروءة والمحافظة على الأخلاق العربية السامية.

وينقسم حى الميدان إلى ثلاثة أقسام. الفوقانى وهو جزء من البادية تقريبا والوسطانى وهو مقر تجار الحبوب والتحتانى وهو أدنى الجزأين إلى مدينة دمشق.

وجلا الفرنسويون عن حى الميدان بكامله على أثر اشتداد ساعد العصابات بعد يوم ١٨ أكتوبر وأنشأوا خط دفاع فى باب الجابية أقاموا فيه المتاريس والأسلاك الشائكة والدبابات، وفعلوا مثل ذلك فى جهة الصالحية (شمالى دمشق) فتخلوا عن حى المهاجرين وصالحية الأكراد وأقاموا خط دفاعهم الشمالى عند الجسر الأبيض، ومعنى ذلك أن طول المسافة التى كانوا يسيطرون عليها داخل مدينة دمشق فى تلك الأيام ماكانت تزيد عن ثلاثة كيلو مترات على أكبر تقدير، وعللت السلطة بأنها أرادت عقوبة أهل الميدان بتركه تحت رحمة الثوار لأنهم لم يساعدوها فى القضاء على حركتهم.

وقد كان من نتائج هذا الاتصال المباشر بين الثورة وأهل الميدان أن انضم جانب منهم إليها، وألفوا عصابات خاصة بهم تازلت الجند الذى كان مرابطا وراء الاستحكامات والبيوت فى باب الجابية وكانت تهاجمه بين آونة وأخرى فتفتك فيه وقد قتلت يوم السبت ١٢ فبراير سنة ١٩٢٦ أرمنيين من متطوعة الجيش الفرنسوى، وكان عدد المتطوعة من هؤلاء غير قليل وقد أساءوا إلى البلاد شتى الإساءات.

١ ـ الكارثة الأولى

ولما قصرت يد هؤلاء المتطوعة عن الثار لقتلاهم من الثوار أغاروا على سكان الميدان التحتانى يوم ١٣ منه ونهبوا بعض المتاجر وقتلوا نيفا وعشرين شخصا بين شيخ وطفل

وإمرأة. واستأنفوا الغارة صباح ١٤ منه فهاجموا الحى بالاتفاق مع متطوعة الشراكسة فجاء نحو ٣٠٠ منهم إلى حى الغلاينية ونهبوا نحو مائة دار وفتكوا بكل من صادفوه.

وفى صباح الأربعاء ١٧ منه زحف عند شروق الشمس نحو ٦٠٠ جندى إلى الميدان تتقدمهم المصفحات والدبابات ويقودهم المسيو بيجان مدير الأمن العام الفرنسوى لدمشق. وقد أباح للجند الحى وأطلق يدهم فى السلب والنهب والقتل والتعذيب. فانقضوا على السكان يمعنون قتلا وتعذيبا وعلى البيوت يسرفون فى السلب والنهب وجاءوا بالسيارات والعربات فنقلوا الغنائم والمنهوبات إلى بيوتهم، واختلف الدرك الوطنى السورى مع متطوعة الارمن الذين انتهكوا حرمة جامع باب المصلى وجامع جنيد وجامع سيدنا صهيب وحطموا المصابيح وحرقوا المصاحف ونهبوا الطنافس، وكاد أن يقع قتال بينهما لولا تدخل الضباط الفرنسويين.

وظل الحال على هذا المنوال من الصباح إلى ما بعد الظهر فقامت دمشق وقعدت وقصد وفد من رجال الميدان إلى الجنرال أندريا يسأله كف اعتداء الجنود.

واجتمع أعضاء مجلس بلدى دمشق فى الغداة وتداولوا فى الأمر ثم زاروا متصرف دمشق للبحث معه فى ما يجب عمله لتلافى الكارثة، وحضر اجتماعهم الجنرال أندريا والمسيو بيجان مدير الأمن العام فاحتجت هيئة البلدية لدى الجنرال على فظائع متطوعة الشراكسة والأرمن. وقالت إن الذين نكبوا أبرياء لا صلة لهم بالثورة. فقال أن المنهوبات ضبطت وأنها محفوظة عند المسيو بيجان وستعاد إلى أصحابها.

واحتج أعضاء المجلس البلدى على ضرب المنازل وهدمها وحرقها. فقال الجنرال إن هذا تدبير اتخذ إزاء البيوت التى تأكدوا أن الثوار يلجأون إليها لإطلاق النار على الجند حين مرورهم، ولا تمس المنازل التى لا يلجأون إليها بأذى ولا يحدث عليها اعتداء.

وفى يوم الخميس ١٨ منه أذاع الجنرال أندريا البلاغ الرسمى الآتى:

«وجه متصرف دمشق أنظارى إلى الشكايات العديدة التى يبديها الشعب من متطوعة الجركس. فالسلطات المنتدبة لم تقصد بأعمالها العسكرية سوى أن تجعل السلم يسود هذه الأرجاء، وأن تحفظ حياة الشعب وأمواله من أى مذهب أو اعتقاد كان، ومن جهة أخرى فهى لا تعتنى إلا بإنزال العقاب بالذين يخلون بالأمن العام ويقلقون الراحة والسكينة. وقد

أمرت بإجراء التحقيقات بخصوص هذه الشكايات التى إذا ثبتت سأنزل العقاب الصارم بحق المتسببين فيها.

وقد أخذت الاحتياطات اللازمة لمنع تجدد مثل هذه الشكايات مرة أخرى، وهذا طبقا لرغائب السلطة المنتدبة.

وبهذه المناسبة أوجه نظر الشعب إلى الغلطات اليومية المرتكبة ضد جنودنا عند مرورهم فى حى الميدان أو فى غيره، وعلى الطلقات النارية التى توجه إليهم من البيوت أو من مآذن الجوامع التى يجب على كل إنسان أن يحترمها.

وإننى أحذر الأهالى بأن مثل هذه الحالة تجبرنى على أخذ الاحتياطيات اللازمة والصارمة معا، واستخدام الوسائل العسكرية التى تؤدى إلى الخراب وكل ذلك لتأمين سلامة جنودنا. وإننى أطلب إلى الشعب بأن يضع حدا لمثل هذه الأعمال التى لا يمكن أن تفيد. بل بالعكس فإنها تجلب التعاسة والشقاء.

فالسلام على الذين يتبعون الطريق السليم.

كتاب الثوار الميادنة إلى الشيخ والبطريرك

وأضربت دمشق ثلاثة أيام احتجاجا على هذه الفظائع، واشترك المسيحيون فى هذا الإضراب، وأرسلت عصبة الميدان فى الثورة الكتاب الآتى إلى الشيخ بدر الدين الحسنى ونصه:

لجنة الثورة السورية الوطنية فى الغوطة وضواحى دمشق عصبة الميدانيين

إلى سماحة أستاذنا ومولانا الشيخ بدر الدين الحسنى المحترم

سلام الله عليكم وبعد. فأنت اليوم إمام المسلمين فى جميع البلدان السورية. أن لم نقل فى جميع الأقطار الإسلامية والهدى الذى يهتدون به والعلم الفرد الذى يسيرون وراءه.

أن نيران الثورة تشتعل فى جميع أنحاء البلاد والقتال قائم على قدم وساق، وإن أبناءك يقومون بواجبهم حيال بلادهم ولا يخرجون عن أوامر خالقهم وسنن نبيهم ولا يتعرضون إلى إخوانهم الذميين ولا يقاتلون غير الأجنبى، وهم إلى الأيام الأخيرة ما كانوا يطلبون

منكم غير الدعاء ومراقبة الأحوال حسب عادتكم لتنهجوا المنهج الذى ترونه لازما عند الاقتضاء.

لقد خرج الفرنسويون فى جميع حركاتهم عن نظامات الحرب فقبلنا ذلك ولم ننتقم منهم على أعمالهم بغير قتال جنودهم، ولكنهم اليوم أباحوا للأرمن ينهبون ويقتلون البريئين والبريئات والغرض من ذلك هو إجبار أهل الميدان على الرحيل من حيهم بعد أن أصبح الميدان خارج الحصار الذى اختطوه حول المدينة، واضطروا قبله سكان قرى الغوطة بقنابل طياراتهم إلى هجر قراهم ظنا منهم بأن الثوار يرحلون من الغوطة، ولما لم يجدهم ذلك نفعا عادوا فقالوا لأهالى القرى ارجعوا إلى قراكم.

نرغب إليك ياسماحة الإمام أن تقنع الفرنسويين بأن يحترموا القوانين ولا ينتهكوا حرمة دور المسلمين وإن لهم أن يقاتلونا نحن معشر الثوار، ولهم علينا أن نأتى إلى قتالهم فى المكان الذى يعينونه لنا وإن المآسى التى مثلها رجلهم الخواجه بيجان ونال عليها وساما ولم تمثل فى عصر من العصور، وعلم بها الخاص والعام كافية إن كانوا يعقلون.

أن جيوشنا اليوم التى تقابل حملات فرنسا مهما كانت كبيرة بحمد الله من العار أن تسمى عصابات. لأن العصابات لا تقابل جيوشا، وإنما تقاتل سرقة واختلاسا وكان من الحق أن يعاملونا معاملة قانونية - أى معاملة جيش لجيش فلا يقتلوا أسرانا وعندئذ نعاملهم بالمثل، ولكنهم أبوا إلا أن يمثلوا أفظع صفحة من صحف التاريخ فهنيئا لهم بها.

لقد بعثنا إلى غبطة بطريرك الروم الأرثوذكس بكتاب أفهمناه فيه أنه إن لم يقلع الفرنسويون عن هذه الأعمال البربرية ويرفعوا تعديات الأرمن عن المسلمين الآمنين الذين لا علاقة لهم بالثوار. بالمثل الحى المسيحى المملوء بالأرمن والنصارى من الذين يكيدون للثوار وفى الكتاب تفصيل لقوم يفقهون.

ويرغب إليك ياسماحة الإمام أن تفهم الفرنسويين أنهم إن لم يرتدعوا عن مثل هذه الأعمال الدنيئة، وأنهم إذا كانوا يريدون أن يقلبوا الحركة إلى حركة دينية فإن المسؤولية تقع عليهم وعندئذ ستأتى سماحتكم إلينا ونمشى تحت لوائكم باسم الدين رضيتم أم كرهتم وندعوا باسمكم مسلمى سورية إلى الجهاد ولتقوم أوربا بعدئذ على المسؤول من كلينا (السوريين والفرنسويين) ونحن لدينا الوثائق العديدة الكثيرة التى يمكن أن نثبت للعالم بها أن فرنسا ما زالت تعمل منذ قامت الثورة السورية على إضرام النار بين

المسلمين والمسيحيين لتجد لها أنصارا فى أوربا، ومن حمد الله نيتها السيئة هذه قد شاعت وذاعت وعلم بها الخاص والعام، وأن الثوار قد تحاشوا كثيرا أن يقعوا فى شباكها قبل أن يعلم الناس بحقيقة نيات فرنسا وتعلم بذلك أوربا المتمدنة.

وختاما تفضلوا ياسماحة الإمام أعظم احتراماتنا مولاى

١ شعبان سنة ١٣٤٤ باسم عصبة الميدان

توفيق المهاينى عبد القادر سكر

وهذا نص كتابها إلى غبطة بطريرك الروم الأرثوذكس رقم ١٤١

إلى غبطة بطريرك الروم الارثوذكس فى إنطاكية وعموم بلاد الشرق الأفخم:

يا صاحب الغبطة:

ليس المجال مجال تفصيل وتطويل. فالرب والسموات والأرضون وكل إنسان منصف يقر بأن الثوار عامة والدمشقيين منهم خاصة قد تحاشوا كل المحاشاة أن يمسوا إخوانهم النصارى بسوء رغم كل يشيعه ويذيعه عنهم الفرنسويون وعمالهم من بعض نصارى البلاد وفى مقدمتهم الموارنة، وذلك لأنهم قد أدركوا منذ قام (رجل فرنسا مسيو كربيه) حاكم جبل الدروز السابق ينادى يوم دخل الثوار مدينتهم دمشق للمرة الأولي (أين أنتم يا نصاري دمشق؟. اليوم يومكم) أجل. قد أدركوا بأن الفرنسويين يريدون أن يقلبوا الثورة السورية من ثورة وطنية إلى قتال دينى، ويرغبون فى أن يقتتل أبناء البلاد، ولكن إخواننا النصارى لم يدركوا هذا الغرض السيئ، ولعلهم أدركوه وحبذوه رغبة فى بقاء فرنسا.

لقد ضربت دبابات الفرنسويين شوارع الميدان مرارا وقتلت كثيرين من الأبرياء والبريئات من شيوخ ونساء وأطفال فى الشوارع والنوافذ. فلم نحرك ساكنا وكنا نكتفى بقتال الجند الباغى فقط، ثم نسفوا البيوت وقاموا بتهديمها ونهبها باسم فتح الشوارع فكذلك لم نلتفت لغير قتال الجند ولكنهم اليوم أباحوا للنصارى الأرمن نهب النساء المسلمات الآمنات الفقيرات اللواتى لم يستطعن أن يرحلن من الميدان وليس لهن أقل علاقة بالثوار. فوالذى رفع السماء إن لم يغير الفرنسويون اعتبارا من تاريخ وصول هذا إلى غبطتكم واطلاعكم عليه ذلك المنهج البربرى لنضطر إلى مقابلتهم بالمثل فننهب ونقتل أهالى

الحى المسيحى المملوء بالأرمن وغيرهم من النصارى الذين يكيدون للثوار. والتاريخ والعالم المنصف يجيز لنا ذلك مادام الفرنسويون يبيحون للأرمن النصارى الذين قد اتخذوهم لهم أنصارا نهب بيوت المسلمين الأبرياء وانتهاك حرمة نساء المسلمين الآمنات ثم نعتهم إيانا بلا خجل ولا وجل بالسلابين. وما دام نصارى لبنان يقومون علينا ويتهموننا بأن ثورتنا ثورة دينية وأننا نقتل النصارى - رغم علمهم ببراءتها من ذلك - وأننا وشرف العرب الذى هو عندنا فوق كل شئ ليشجينا ويؤلمنا كل الألم اضطرارنا لانتهاج هذا المنهج الوحشى ولكن لسنا بملومين والبادئ أظلم.

وهذا الكتاب هو الوثيقة التاريخية التى سنبرزها إذا لم يرتدع الفرنسويون عن أعمالهم. ومضينا نحن فى عملنا ونفذنا إنذارنا وأراد نصارى لبنان أن يتهمونا بالتعصب الدينى وإننا نلفت نظركم ياصاحب الغبطة بأننا معشر الثوار قد تحملنا فوق الطوق والأمثلة على ذلك كثيرة وإن الذين كادوا إلينا من أبنائكم كثيرون فلم تتعرض لأحد منهم كل هذا تحاشيا من أن نتهم بالتعصب.

وختاما فالبلاد بلادنا وبلادكم فنلفت نظر غبطتكم إلى لزوم إقناع وكيل غبطة بطريرك الكاثوليك الذى يأتمر الفرنسويون بأمره أن يوعز إلى هؤلاء بأن يرفعوا الحيف عن الأبرياء والبريئات. ولا نريد أكثر. وليس من العدل والانصاف إذا كان الشارع كما يسميه الذين اختطوه حول مدينة دمشق قد جعل الميدان خارج الحصار أن يعمدوا إلى مثل هذه الوسائل البربرية ليضطروا سكان الميدان إلى هجر محلتهم وهى تؤلف ثلث المدينة. هذا ومن أنذر فقد أعذر.

وتفضلوا يا صاحب الغبطة بقبول فائق الاحترام

باسم عصبة الميدان

توفيق المهاينى　　　عبد القادر سكر

توسط الشيخ وجواب الجنرال

وانتدب الشيخ بدر الدين الشيخ محمد رفيق السباعى من تلامذته فذهب فقابل الجنرال أندريا محتجا فأرسل الجنرال أندريا الرد الآتى وقد أذيع على الصحف بشكل بلاغ رسمى يوم ٢٠ فبراير ونصه:

يا صاحب السماحة:

أن سكرتيركم الشيخ محمد رفيق السباعى أخبرنى عن بعض شكاوى أهالى الميدان ضد أعمال متطوعتنا الشراكسة الذين كما يزعم يقتلون النساء والأولاد والشيوخ.

وإنه يا ذا السماحة لمن المؤسف أن تكون الحقيقة التى هى على هذا الشكل محرفة أيضا.

فالتجول ممنوع فى الميدان الفوقانى والحافلات لا تذهب إلى هناك بسبب وجود العصابات فى جميع منعطفات الطرق. وقد اضطررت لتكليف المتطوعة الشركس بتفتيش المنازل لتوقيف الثوار الملتجئين إليها. وهؤلاء المتطوعون الشراكسة لا يقتلون إلا الذين يقابلونهم بالطلقات النارية ويمنعونهم من القيام بوظيفتهم.

وأؤكد لكم فضلا عن ذلك أن بعض العصابات يلتجئون إلى بعض الجوامع ويتخذون المآذن مراكز لهم يطلقون منها النيران على عساكرنا ومتطوعتنا وهذا العمل بدون شك مؤلم. لأننا نحترم الجوامع ونرغب أن تكون محترمة من الجميع فى كل وقت. فأتوسل إليكم يا صاحب السماحة أن تدعوا إئمة هذه الجوامع وأن تمنعوهم من السماح للثوار بدخول هذه الأماكن المقدسة التى نريد أن تبقى على احترامها لأنهم إذا تحدونا فالسلطة العسكرية تضطر لتسليط قنابل مدفعهما حيثما وجدت الثوار، وعندها أكون شديد الأسف لاضطرارى إلى استعمال هذا التدبير.

وإننى أكرر لسماحتكم أن التعليمات الصريحة المعطاة لجنودنا والمتطوعين تنص على احترام النساء والأولاد والشيوخ والأموال، ولكنه قد يتفق أن تصيب بعض الرصاصات الطائشة جماعة من الأبرياء.

يا صاحب السماحة سأستعمل الإجراءات الصارمة لا نزال العقاب بالثوار ولتنظيف مدينة دمشق لحاجة ماسة لإقرار السلام، وإن سماحتكم تشاركونى بدون شك فى هذا الرأى. وعلى الأهلين المسالمين أن لا يسمحوا للثوار بالالتجاء إليهم على الأقل. وبذلك يسهلون للجنود مهمتهم الشاقة إذا كانوا لا يريدون أن يغيثوهم.

وإننى أكلف سعادة متصرف دمشق أن يقابل الجميع وأن يطلع سماحتكم على ماجريات الأحوال.

وتفضلوا يا صاحب السماحة بقبول فائق اعتبارى مع احترامى

احتجاج أهالى دمشق

ووضع عدد من أهل دمشق الاحتجاج الآتى وسلموه إلى قناصل الدول فى مدينتهم قالوا:

إن تهديم القرى ودك صروح العمران وتقتيل الأبرياء وسلب أموال المحايدين هو كل ما وصل من المدنية الفرنسوية إلى سورية التى جاءت فرنسا لتمدينها وتدريبها على الحياة الاستقلالية. وقد صرنا نعتقد بعد الذى رأيناه أن الحرية والعدالة محصورة بين جدران باريس لا تتعداها إلى بلاد الانتداب، ومن الساعة التى وطئت بها فرنسا الأراضى السورية لم نر سوى مرتبات باهظة ونفقات سفر وسيارات وخدم ومركبات لموظفيها تستحلها من دم الشعب السورى الذى رزح تحت باهظ الضرائب، وكلما رفعنا عقيرتنا بالاحتجاج على مثل هذه الأعمال والتصرفات الغريبة الشاذة قالوا يد أجنبية تدفعنا لذلك، ولسنا بحاجة إلى تذكيركم بأن الثورة السورية ما نشأت إلا بسبب سوء تصرف رجال الانتداب وطيشهم وتعمدهم حكم البلاد حكما قاسيا وابتزازهم الأموال بصورة مخجلة.

إن الثوار لم يقصدوا من ثورتهم الوطنية البحتة سوى إصلاح ما ارتكبته فرنسا من السيئات والسياسة الخرقاء والنزق والحمق الذى يرافق جميع أعمالها. وليست هذه الثورة سوى مظاهرة مسلحة لأن البلاد السورية التى تأنف الاستعمار قامت بالاحتجاجات الكثيرة على تجزئة البلاد وتصرفات رجال الانتداب. فكانت كالصارخ فى واد، وليست الثورة السورية مذهبية ولا طائفية رغم ما بذله رجال الانتداب من جهود لإلباسها اللباس الدينى والطائفى فقد سلحوا مسيحيى حوران ووادى التيم وضواحى حمص ودمشق، وبالأخص الأرمن ورعاع الشركس وأغروهم بالفتك بالآمنين من المسلمين ونهب أموالهم وقتل الشيوخ والأطفال والتمثيل بالنساء وبقربطون الحاملات وتقطيع أيديهن طمعا فى حلاهن وإحراق الدور وانتهاك حرمات المعابد والمساجد. ومع ذلك فقد ظلت الثورة وطنية ولم تنقلب إلى طائفية. فضلا عن ضرب مدينتى دمشق وحماه الآمنتين بالمدافع المدمرة والقذائف المحرقة.

إن الحكومة الفرنسوية التى عجزت مع ما لديها من قوة ومن الجنود والمعدات عن صد الثوار عن أبواب دمشق تطلب من الفلاح البائس المسكين الأعزل أن يقوم بما عجزت عنه. وإن الأعمال الفظيعة البربرية التى ارتكبها الأرمن المتطوعون فى الجيش الفرنسوى

برئاسة ضباط فرنسويين مما تقشعر لهوله الأبدان. فقد مشوا تحت العلم الفرنسوى صباح الأربعاء ١٧ فبراير سنة ١٩٢٦ إلى حى الميدان المسالم فمثلوا بالنساء والأطفال وسلبوا الدور والمنازل وهدموها وأحرقوها، وقتلوا الشيوخ ونهبوا المعابد والمعاهد الدينية ومزقوا الكتب الإلهية المقدسة وقتلوا المسالمين الأبرياء. مما حملنا على لفت نظر سعادتكم إلى النتيجة السيئة التى يخشى من وقوعها فقد لا يستطيع عقلاء المسلمين منع شبانهم من القيام بعمل مماثل فيقتلون الأرمن وينهبون أموالهم. والمسئولية فى هذه الحالة لاحقة بموظفى فرنسا وخاصة بجمعية الأمم التى تسمع بما يقع من فظائع وتتغاضى عنها.

وقد تجاوز عدد القتلى والجرحى والمصابين فى هذا الحادث المؤلم الحد المعقول والهيئات الوطنية باذلة الجهد لوضع إحصاء دقيق للضحايا. وقد ثبت ذلك بموجب تقارير الشرطة اليومية وبلاغات المتصرف وإذاعات الجنرال أندريا. ولا ريب أن دول أوربا لا ترضى أن يعامل الشعب السورى المسالم مثل هذه المعاملة السيئة. وهذا ما دعانا إلى رفع احتجاجنا لسعادتكم راجين إبلاغه للدولة التى تمثلونها لتظهر لفرنسا سوء الخطة التى تسير عليها، ولتسعى لوضع حد لهذه الأعمال ولإعطاء البلاد حقوقها المشروعة. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام».

منشـــور الثوار

ونشر ثوار الغوطة المنشور الآتى:

«يا رجال الشرطة والدرك: قد رأيتم ما حل بأبناء وطنكم سكان حى الميدان من هتك العرض وقتل الأطفال الرضع وسلب الأموال من جانب متطوعة الأرمن بدون مسوغ سوى التعصب الدينى الذميم. ولذلك ندعوكم باسم الوطنية أن تفروا من الخدمة ولو أدى ذلك إلى قطع رزقكم مدة من الزمن.

«وأنتم يا جنود المستعمرات ويا من يخدعكم المستعمرون بقولهم إنكم تدافعون عن أبناء دينكم من السلب والنهب. ألا فانتبهوا واعلموا أنكم لا تقتلون سوى أبناء دينكم، وما جئتم من أقاصى المعمور إلا تحت القاعدة المرعية لدى المستعمرين وهى أن أبناء الإسلام يعضد بعضهم بعضا.

«وأنت أيها المندوب يامن تدعى أنك قدمت إلى سورية حاملا لواء السلام والعدل، يا من لا تفتأ تنادى أن رجال الثورة هم رجال سلب ونهب، إننا ناشدك وطنيتك، هل اعتدى أحد من رجال الثورة على عرض مسيحى أو قتل طفل وقطعه إربا إربا كما فعل جيشك المنظم؟، أو هل سمعت عن أحد منهم أنه اختص مسيحيا بفريضة دون غيره من أبناء دينه؟ فإياك نخاطب قائلين وليشهد العالم المتمدن أنك ما أتيت إلى هذه البلاد إلا لتعيد عهد نيرون فيها».

«وأنتم أيها الموظفون يجب عليكم أن تسقيلوا من وظائفكم.

«وأنتم يا أبناء هذا الوطن من مسلم ومسيحى ويهودى نناديكم ونستحلفكم بأبنائكم ووطنيتكم أن تقاطعوا الأرمن فى بلادكم مقاطعة أبدية تلجئهم إلى الهجرة لبلادهم، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه والسلام».

٢ ـ الكارثة الثانيـة

واستأنف الفرنسويون الغارة على الميدان فدمروا معظم منازل الميدان الفوقانى وبيان ما حدث أن دورية فرنسوية جاءت صباح ٢٦ إبريل إلى سوق الجزماتية فبدأت باطلاق الرصاص فى الهواء إرهابا بعد ما تفرست فى وجوه الحاضرين، ثم انصرفت للنهب فهاج ذلك بعض السكان فقابلوا الجند بالرصاص واشتبكوا معه بمناوشة انتهت بقتل جندى واحد فأمرت السلطة على الفور بتدمير المنازل وحرقها فالتهمت النار نحو مائة دار ومسجدين وحوانيت كثيرة، وطالبت الميدانيين بألف ليرة عثمانية ذهبا كانت فرضتها على حيهم فى شهر مارس، وهددتهم بقطع الماء عنهم إذا لم يدفعوا الغرامة حتى يوم ٢٨ إبريل.

وهذا نص البلاغ الرسمى الصادر فى هذا الشأن: «إنه فى حالة امتناع أهل الميدان حتى ٢٨ إبريل سنة ١٩٢٦ عند الساعة السادسة من الصباح عن تأدية غرامة الألف ليرة عثمانية ذهبا المفروضة عليهم فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٦ من قبل الحاكم العسكرى للمنطقة يقطع ماء عين الفيجة عن الحى المذكور».

وقد قطع الماء فعلا عنه لأن سكانه عجزوا عن دفع الغرامة. ومن أين لهم أن يدفعوها وقد فقدوا كل شئ. ورفعت الهيئات الوطنية فى دمشق احتجاجا إلى قناصل الدول على

ماحدث جاء فى مقدمته ما نصه:

«يؤسفنا جدا أن نعيد احتجاجنا لسعادتكم هذه المرة أيضا عن الأعمال الشاذة التى يأتيها رجال الدولة الفرنسوية فى سورية، وكنا نود أن نرى لاحتجاجاتنا السابقة تأثيرها الحسن بإيقاف تلك الأعمال وبالرجوع إلى القوانين الدولية والقواعد الإنسانية فإذا الأمر بالعكس وإذا الانتداب التى أودعته جمعية الأمم فرنسا لمساعدة سورية وإنهاضها مكافأة لما بذلته من الضحايا فى الحرب العامة بجانب الحلفاء صار عبارة عما شاهدتموه من حرق وهدم ودك صروح المدينة والعمران وسلب الأموال ومشاركة السوريين فى أموالهم وجعلهم أرقاء فى بلادهم.

٣ ـ الكارثة الثالثة

ولم تكتف السلطة بما أنزلته بالميدان وأهله. فسيرت فجر الجمعة ٧ مايو قوة من رجالها حاصرت الحى من الجهة الشرقية وأرسلت قوة أخرى بالسكة الحديد حاصرته من الجهتين الغربية والجنوبية، وتقدمت فى الوقت نفسه قوة ثالثة من الشمال مخترقة الميدان التحتانى وابتدأ الهجوم من الجهات الثلاث وأهل الميدان غارقون فى النوم فحطم الجند أبواب المخازن والمنازل وكانوا يقتلون كل من يصادفونه من النساء والرجال والأطفال، واشتركت المدفعية الفرنسوية فى باب شرقى والجبخانة والمزة فى الغارة بإطلاق قنابلها على الحى. كما اشتركت الطيارات من الجو والدبابات والمصفحات، وكان الجنود يلقون صفائح البنزين فى مداخل البيوت والمخازن التى اقتحموها ولم تمض ساعة حتى امتد لسان النيران إلى المنازل الأخرى والحوانيت المجاورة فى خط مستقيم طوله نحو ٦٥٠ مترا وتقوض كثير من البيوت على ساكنيها من نسوة وأطفال. وكان الجنود يطلقون الرصاص على الذين يفرون من الحريق باحثين عن ملجأ يلجأون إليه. فاستشهد عدد غير يسير. دع الذين ذهبوا طعمة للنيران. ولجأ عند المساء فريق من النساء إلى محطة القدم ليركبن القطار إلى دمشق فاعتقلهن الجند فى قلعة هنالك فقضين ليلة السبت. وجاء يوم السبت فريق من الميدانيين يستغيث بالداماد رئيس الحكومة الجديدة فصم أذنيه عن سماع شكايتهم قائلا إن الحادث عسكرى لا يجوز له أن يتدخل فيه ونصح لهم باخراج الثوار من بين ظهرانيهم ليأمنوا غضب السلطة ونقمتها، وبدفع غرامة الألف ليرة المطلوبة منهم.

وطلب الوفد من الحكومة إرسال مضخات لاطفاء الحريق فأجيب بأن الأمر متعلق بالسلطة.

وسمح للنساء الميدانيات المعتقلات فى القلعة بالقدوم إلى المدينة صباح السبت فقصدن دار الحكومة مستغيثات فطردهن الجند. فقصدن إلى الفندق الذى يقيم فيه الداماد فأبى مقابلتهن ودعا فصيلة من الجند لحراسته خوف الطوارئ فذهبن إلى دار المندوب الممتاز فرددن فعدن إلى باب المصلى يعملن فى إطفاء الحرائق وكانت لا تزال متقدة فمنعهن الجند فهجمن عليه مختارات أن يمزقهمن ببنادقه من أن يرين دورهن تلتهمها النيران. وفى مساء السبت أرسلت المضخات للإطفاء.

ويقدر الذين ماتوا تحت الردم أو قتلوا بأكثر من مائة وخمسين، ولا يقل عدد البيوت والدكاكين التى هدمت أو دمرت أو حرقت عن الألف بينها عدد من الدور الأثرية الفخمة. وقدرت خسارة الميدان فى هذه الكارثة بنحو نصف مليون ليرة عثمانية.

واحتج أهل الميدان إلى قناصل الدول على ما جرى وذهب وفد قابل الجنرال فالبير قائد دمشق الجديد محتجا فقال إن السلطة أحرقت الميدان لأن الثوار لجأوا إليه.

وانتشر بعض الذين نجو من الميادنة فى أحياء دمشق الأخرى يبكون وينتخبون فبثوا الرعب والهول ونزح غيرهم إلى جهات أخرى خوف تجدد الكارثة فخيم الخراب والدمار على هذا الحى. وننشر هنا نص البلاغ الرسمى الذى أصدرته الحكومة السورية يوم ١٠ مايو عن هذا الحادث ونصه:

«فى الوقت الذى شرعت الحكومة الوطنية الجديدة بأعمالها وقعت حادثة الميدان المؤلمة التى نشرت السلطة العسكرية بيانا بشأنها. وعليه قامت الحكومة بما تستطيعه من الأعمال لأجل تخفيف ويلات المنكوبين من أهالى الميدان وغيرهم وللافاة خسائرهم، ولما رأت الحكومة أن أهالى الأحياء المجاورة للميدان ينتقلون من بيوتهم خشية أن يصيبهم ما أصاب جيرانهم، وكانت واثقة من إخلاص الأهلين جميعا وإخلادهم إلى السكينة، وكان تنقلهم بالحالة المشهودة مما يزيد فى ضررهم فقد قررت بعد الاتفاق مع السلطة العسكرية أن تبلغهم وجوب بقائهم فى أماكنهم مطمئنين هادئين، وأن تتخذ جميع التدابير لمنع دخول الثائرين إلى المحلات الأخرى وإذا لا سمح الله تشبث الثائرون بالدخول إليها رغما عن كل التدابير غير ناظرين إلى العواقب الوخيمة التى تنتجها مثل هذه المحاولة. فإن الحكومة العسكرية ستقوم بانذار الأهالى قبل إطلاق القنابل على الأحياء.

وعليه تنتظر الحكومة الوطنية من الأهلين داخل المدينة وخارجها أن يساعدوها بسكونهم وتعقلهم، ويمنحوها الوقت الكافى لإتمام مهمتها التى ترمى إلى تحقيق أمانى البلاد وإقرار السلام، وهى ستقوم باتخاذ التدابير اللازمة للوصول لهذه الغاية بأقرب ما يمكن والسلام.

كارثة مضايا

ونرى أن نلحق بوصف كوارث الميدان التقرير الرسمى الذى رفعه نسيب مسلم الخياط قائقمام الزبدانى إلى وزير داخلية سورية يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٩٢٥ معلنا استقالته من منصبه احتجاجا عل ما أنزله الجند الفرنسوى من فظائع بسكان قرية مضايا من أعمال الزبدانى قال:

«لمعالى دولة وزير الداخلية المعظم (بدمشق) أمس نهار الثلاثاء الواقع ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٥ نحو الساعة العاشرة صباحا قضى على وعلى مأمورى وأهالى القضاء أن نشاهد بأم العين منظرا يفتت الأكباد وتشيب لهوله الأطفال: قرية آمنة. قرية مسكينة بائسة. قرية مخلدة لمنتهى السكينة ولأقصى الإخلاص والطاعة للحكومة طمرت بما فيها من نساء وأطفال تحت وابل من قنابل مدفع جئ به من جهة رياق، وقد دام اطلاق القنابل عليها تحت قيادة القومندان الفرنسوى «تورناد» قائد منطقة الزبدانى من الساعة ١٢ ونصف. هذه القرية هى قرية مضايا زينة هذا القضاء من حيث مركزها وجودة هوائها وبساتينها وسلوك أهلها. وقد ارتعدت فرائصى حينما سمعت الطلقة الأولى. إذ لم يكن عندى علم بشئ، ولما تقابلت مع القومندان بعد عودته من تدمير القرية المذكورة سألته عن الذنب الفجائى الذى اقترفته قرية مضايا أجاب لكونها قبلت عندها عصابة جمعه سوسق.

يا للهول قرية خالية من السلاح دخلتها العصابة ليلا والحكومة والقوة الفرنسوية على مسافة ٥ كيلو مترات منها. دخلت العصابة فألقت الرعب فى قلوب أهلها ـ أهانتهم وضربتهم ومن الجملة المختار على محرز الذى شطرته أمس قنبلة شطرين، وسلبتهم مؤونتهم من حنطة وشعير وبرغل ووو.. أجبرتهم على ذبح ٤٠ ذبيحة، أقامت عندهم على مرأى منا ومن نفس القومندان الفرنسوى زهاء ٢٤ ساعة ليلة ونهارا وأرسل الأهالى من يخبرنا بأعمالهم ويستنجد بنا. ثم توسلت إلى القومندان بأشد الإلحاح وبكل ما فى فؤادى

من قوة بأن يبعث بطلب طيارة تخيف العصابة فتنزح عن القرية، أو أن يذهب هو للبطش بها أو أن ينظر فى طريقة أو غيرها . أن وظيفتى تنحصر فى المحافظة على الخط الحديدى والمحطات وإننى مستعد للقيام بهذه الوظيفة فما على العصابة إلا أن تقترب منى...

مساء اليوم العاشر من هذا الشهر خرجت العصابة من مضايا آمنة مطمئنة بعد أن استراحت وأكلت وشربت وأشبعت خيولها من بيوت الأهالى المساكين، وبعد أن نهبت وسلبت كل ما وقع عليه نظرها من ملابس وخلافه خرجت إلى التكية حيث أحرقت محطتها وخربت قسما من الخط الحديدى، وحاولت أن تقترب من المعمل الكهربائى فكان من دفاع الـ ٣٣ دركى السورى وتفانيهم بواجبهم ما صانه.

مضى على هذه الحادثة نحو أربعة أيام كان بعض أهالى مضايا فى خلالها يقصدوننى بحالة تدمى القلوب شاكين مما حل بهم وعاملين على إقناع القومندان بأن أهل مضايا ليسوا بملومين بمكث العصابة بين ظهرانيهم وبوصف حال هذا القضاء من حيث فقره ومانتابه من المصائب، ومن حيث إخلاص أهله للحكومة والانتداب وسكونهم ومسالمتهم وحصر جهودهم فى الحرث والفلاحة. وقد خيل لى من أجوبة القومندان أنه كان مشاركا لعواطفى وآرائى مما جعلنى أطمئن الأهلين وأعتقد بأن هذا القضاء بات فى مأمن فكان ما كان صبيحة أمس من ضرب قرية بائسة بمن فيها من شيوخ ونساء وأطفال دون أن يعطى لهم أقل إنذار وإخطار لا من جانب الحكومة إذ إن كانت جاهله كل شئ حتى وقوع الحادث ولا من قبل الفرنسويين.

قرية خالية من الأسلحة. مركزها غير حربى ولا توجد فيها قلعة ولا حصن وحتى لا مخفر تتساقط عليها قنابل جهنمية بدون أقل إخطار!! وذنبها أن لا حكومة ولا السلطة المنتدبة أسرعت لنجدتها . بل تركتاها ٢٤ ساعة تنهب وتسلب وتضرب وتهان قبل أن ينزل فيها الموت الزؤام.

وبمناسبة وقوع مثل هذه الفظاعة وبصورة خالية من أصغر ما يمكن أن يكون من عواطف الشفقة والإنسانية أرى من واجبى المقدس ـ بصفتى رئيسا لهذا القضاء يفاخر أمام شرفه ووجدانه بأنه جاهد فى سبيل لفت نظر الحكومة لحالة رعيتها وتفهيم قومندان القوة الفرنسوية باللغة الفرنسوية حقيقة هذا الحال – أن أكتب احتجاجا على ما حصل واسترحم سرعة قبول استقالتى من خدمة الدولة السورية بعد أن ضحيت بمركزى فى

سبيل خدمتها فى نظارة الخارجية فى باريس، راجيا إرسال من يخلفنى حال دولتكم على هذه الأسطر، وعلى الله الرزق والاتكال.

اعتقال ثلاثة من الوزراء ونفيهم

قضت كارثة الميدان وقد حدثت فى خلال الأسبوع الأول بعد تقلد الوزارة الجديدة الحكم على كل نفوذ لها. إذ وقفت عاجزة عن دفع عادية السلطة العسكرية عن حى من أعظم أحياء عاصمتها وتركته فريسة للنيران وللجند.

وتلت كارثة الميدان حادثة إعلان الدستور اللبنانى يوم ٢٦ مايو سنة ١٩٢٦ وقد نص فيه على عدم التنازل عن أى جزء من الأراضى اللبنانية. مما يحول دون تحقيق الوحدة التى كانت تبشر بها وتنادى أنها توشك أن تنالها - فاجتث كل أمل للوزارة بالنجاح، فلا هى قادرة على كف أذى السلطة العسكرية المسرفة فى الحرق والتدمير، ولا هى قادرة على اقناع الثوار بالاستسلام وترك السلاح، ولا هى قادرة على تحقيق الوحدة، وقد كانت تنادى بأنها لم تل الحكم إلا بعد ما تحققت من فوزها بها.

وأدى هذا الإخفاق الذى أصيبت به الحكومة الجديدة إلى وقوع اضطربات فى صفوفها، واختلاف بين أعضائها. فقد طلب الوزراء الذين ينتسبون إلى العنصر الوطنى وهم فارس الخورى وحسنى البرازى ولطفى الحفار إلى الداماد أن يحدد موقفه نهائيا. فإما أن ينضم إليهم ويؤيد سياستهم، وأما أن يسير مع الفريق الآخر الموالى للانتداب ولما ينالوا منه جوابا امتنعوا عن الاشتراك فى الأعمال وأعلنوا أنهم مستقيلون فتدخل الفرنسويون واستصدروا يوم السبت ١٢ يونيو قرارا من الداماد بحل الوزارة بحجة عدم التجانس بين أعضائها، وفى منتصف ليل ١٢ منه قبضت السلطة العسكرية الفرنسوية على الوزراء الثلاثة المستقلين وجاءت بهم من بيوتهم إلى دار الحكومة وفى صباح الأحد أركبوا قطارا مصفحا أقلهم إلى حلب ومنها أرسلوا إلى الحسجة. وقبض أيضا فى الوقت نفسه على فوزى الغزى وبدر الدين الصفدى وأديب الصفدى وأرسلوا منفيين مع الوزراء. وأعيد تأليف الوزارة فى اليوم نفسه (١٢ منه) من العناصر المعتدلة وبذلك أقصى العنصر الوطنى نهائيا عن الحكم، وعادت السلطة إلى التعاون مع العناصر المعروفة بموالاتها.

الثوار والوزارة

وألفت حكومة الداماد، وذلك قبل القبض على الوزراء الوطنيين ونفيهم، لجنة من أعضائها للعناية بقضية الثورة. كما ألفت وفدا برئاسة الشيخ بدر الدين الحسنى قوامه الشيخ هاشم الخطيب وأنور البكرى وزكى المهايني وأحمد اللحام والأمير طاهر الجزائرى لزيارة الغوطة والاجتماع إلى الثوار وإقناعهم بالاستسلام والخضوع. كما انتدبت عثمان الشراباتى فسافر إلى عمان وجبل الدروز للاجتماع بالزعماء والتفاهم معهم وغنى عن البيان أن حوادث الميدان الأخيرة ونفى الوزراء وبعض الوطنيين قضى على كل سعى من هذه الجهة وأفقد الوزارة كل مكانة.

ـ ١٧ ـ

حروب الغوطة الختامية
ومعارك قلمون والهرمل والضنية

من تحصيل الحاصل التنويه بما للغوطة وثوارها من مقام فى الثورة الوطنية. فقد حملوا كما حملت عبئها الأكبر، واستنفدوا الجهد فى الدفاع والنضال والكر والفر، وظلوا يقاتلون حتى النفس الأخير، فالغوطة هى آخر معقل استسلم للفرنسويين.

التنظيم فى الغوطة

ولقد شعر ثوار الغوطة بشدة حاجتهم إلى التنظيم وإلى وضع قواعد يسيرون عليها منذ ابتداء الحركة. فاجتمع رؤساء العصابات فى شهر فبراير سنة ١٩٢٦ وأصدروا القرارات الآتية:

١ ـ يؤلف من مجموع عصابات الغوطة وضواحى دمشق وحدة تامة توزع على المناطق الحربية بحسب الضرورة الحربية وأحوال المنطقة.

٢ ـ يؤلف مجلس عام يسمى «المجلس الوطنى للجنة الثورة السورية فى الغوطة وضواحى دمشق» ينتخب أعضاؤه من قبل رؤساء الثوار بتفويض خطى.

٣ ـ تقوم كل عصابة بالحركات الحربية فى منطقتها برأى مشاورها العسكرى. أما الحركات العامة فتكون بقرار من المجلس

٤ ـ تخصص كل عصابة مفرزة من رجالها لتوطيد الأمن فى منطقتها وتأمين المواصلات مع المناطق المجاورة لها.

٥ ـ يحمل رجال كل عصابة شارة خاصة بهم تميزهم عن سواهم، ولا يجوز لأى مجاهد كان أن يترك عصابته المسجل فيها ويلتحق بغيرها.

٦ ـ الجاسوس الذى يقبض عليه فى إحدى مناطق الثوار يحال (بعد أن يضبط زعيم تلك المنطقة إفادته الأولية) إلى المجلس الوطنى لينظر فى أمره ويصدر بحقه الحكم النهائى.

٧ ـ يلاحق المجلس الوطنى ملاحقة شديدة الذين يعتدون على الأهلين ويدعون أنهم من الثوار، ويعاقبهم أشد عقاب ويطرد من صفوف المجاهدين المجاهد الذى يأتى عملا يخرج به عن غرض الثورة النبيل.

٨ ـ المناطق الحربية تبين وتحدد فى نظام توزيعها

٩ ـ صلاحية المجلس ووظيفته توضح فى نظام تأليفه ومضبطة انتخاب أعضائه. وكذلك قسموا مناطق الثورة ونظموها على المنوال الآتى:

المنطقة الأولى ـ أراضى باب السريجة وقبر عاتكة وما بين المزة وداريا، والحد بينها وبين المنطقة الثانية الخط الحديدى.

المنطقة الثانية ـ تمتد من أراضى حى الميدان والشاغور وقرى ببيلا ويلدا وعقربا حتى قرية عباده، والحد بينها وبين المنطقة الثالثة نهر بردى.

المنطقة الثالثة ـ تمتد من حدود نهر بردى حتى جسر نهر تورا، والحد بينها وبين المنطقة الرابعة الطريق بين دوما ودمشق.

المنطقة الرابعة ـ تمتد من حدود المنطقة الثالثة إلى مركز قضاء دوما.

المنطقة الخامسة ـ تمتد من حى الأكراد حتى عدرا.

المنطقة السادسة ـ من سهل القابون حتى صيدنايا، ومن دمر حتى الزبدانى.

المنطقة السابعة ـ من عدرا إلى النبك حيث تتصل بعصابات الشمال.

نظام مجلس الثورة الأعلى

ووضعوا لمجلس الثورة الأعلى النظام الآتى:

١ ـ يؤلف المجلس من عشرة أعضاء ينتخبهم زعماء الثورة فى المناطق المذكورة آنفا.

٢ ـ ينظر المجلس بهيئته فى القضايا العدلية والإدارية.

٣ ـ ينقسم المجلس إلى ثلاث لجان وهى: (١) اللجنة المالية (٢) ولجنة الحركات الحربية (٣) ولجنة الدعاية والاستخبارات.

٤ ـ وظيفة اللجنة المالية جمع الأموال والإعانات لتأمين إعاشة الثوار ومهاتهم وفقا لنظام خاص يضعه لها المجلس الوطنى.

٥ ـ وظيفة لجنة الحركات الحربية تنظيم الخطط الحربية وقيادة الثوار فى مواطن القتال وإبلاغ التعليمات إلى المساورين العسكريين والسهر على توطيد الأمن فى مناطق الثوار. وتأمين المواصلات بينها وبين المناطق المجاورة.

٦ ـ وظيفة لجنة الدعاية والاستخبارات بث الدعاية وحض الأهالى على الثورة والقتال فى مناطق الثوار ومدينة دمشق وجمع الاستعلامات السرية عن حركات الجيش الفرنسوى ومقاومة دعايته وإذاعة النشرات الأسبوعية عن أخبار الثوار وحركاتهم.

٧ ـ للمجلس الوطنى طابع رسمى خاص.

هيئة أول مجلس

وقد اختار الزعماء السادة الآتية أسماؤهم أعضاء للمجلس الوطنى ووضعوا بذلك المضبطة الآتية:

نحن عموم رؤساء الثوار فى مناطق الغوطة وضواحى دمشق قد انتخبنا أعضاء للمجلس الوطنى كلا من السادة زكى الحلبى . شوكت العائدى. نزيه المؤيد. فائق العسلى. أحمد الحصنى. جميل شاكر. صبرى فريد. اسماعيل القعلجى. محمد الشيخ. على ديبو وفوضناهم تفويضا مطلقا ليسيروا فى أعمالهم حسب قرارنا الذى اتخذناه فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٦ بإجماع الآراء. والقرارات والأحكام التى يصدرها المجلس الوطنى بعد الآن تسرى على الجميع. وزعماء الثوار هم القوة التنفيذية لهذا المجلس وعليه نظمنا مضبطة انتخاب أعضائه هذه الموقعة بامضاءاتنا.

تحريرا فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٢٦

ورأس المجلس فى معظم الأدوار نسيب بك البكرى.

القرارات الأولى للمجلس الوطنى

وللمرة الأولى اجتمع المجلس الوطنى يوم أول مارس وقرر القرارات الآتية:

١ - أن يعهد بأعمال اللجنة المالية إلى السادة نزيه المؤيد وعلى ديبو ومحمد الشيخ.

٢ - أن يعهد بأعمال لجنة الحركات الحربية إلى الضباط زكى الحلبى وشوكت العائدى وصبرى فريد.

٣ - أن يعهد بأعمال لجنة الدعاية والاستخبارات إلى السادة فائق العسلى وجميل شاكر.

٤ - أن ينتخب المجلس لكل جلسة رئيسا بالاقتراع السرى، وأن يعهد بأمانة السر إلى السيد فائق العسلى.

ثم حدد المجلس صلاحية كل لجنة ووضع لها النظام الخاص الذى ينبغى لها أن تسير عليه ونشر إذاعة عامة على أهل قرى الغوطة والمرج أبلغهم فيها تأسيس المجلس وصلاحيته وأنه أصبح بيده الحكم وعليهم أن يرجعوا إليه فى أمورهم

القائد العام الجديد للغوطة

وفى الوقت الذى كان ثوار الغوطة يصدرون فيه هذه القرارات كانت المفاوضات تدور فى جبل الدروزيين سلطان باشا الأطرش والدكتور شهبندر بشأن تنظيم العلاقات بين الغوطة والجبل ووضع خطة واحدة للعمل فقد شعر الجميع بضرورة التكاتف والتساند بعد ما فشلت المفاوضات التى دارت مع المسيو دى جوفنيل.

ولقد شهد الدكتور مؤتمر دامه يوم ٢٥ فبراير وفيه تقرر احتلال اللجاءه كما تقرر تعيين مصطفى وصفى أميرالاى أركان الحرب قائدا عاما للغوطة، وقد حضر مؤتمر دامه، وفى يوم ١٠ إبريل غادر الدكتور قرية جدل فى اللجاه بعد ما اجتمع طويلا إلى سلطان باشا وتم بينهما الاتفاق على توحيد الخطط الأساسية. وفى يوم ١٢ منه وصل الدكتور إلى قرية قرحتا فى طريقه إلى الغوطة فبات فيها وفى صباح ١٣ بلغ قرية زبدين فاجتمع ببعض المجاهدين فى الغوطة. وفى يوم ١٥ منه عقدوا مجلسا وطنيا أعلن فيه تعيين مصطفى وصفى قائدا عاما للغوطة.

ولم يطل الدكتور الإقامة فى الغوطة بل عاد إلى جبل الدروز للإشراف على الحالة فقد اتصل به ما يعده الفرنسويون من معدات للزحف على السويدا فوصلها وشهد معركتها يوم ٢٥ إبريل بالذات.

وأقلق مجئ الدكتور إلى الغوطة الفرنسويين فاتخذوا كثير من التدابير لمطاردته وأرسلوا الطيارات فضربت الأماكن التى نزلها. وهذا نص البلاغ الرسمى الذى أذاعه الجنرال فالبير حاكم دمشق العسكرى على سكان الغوطة يوم ٣ مايو سنة ١٩٢٦:

«لا أحجم مع ما أشعر به من الأسف عن عمل الأعمال العسكرية التى أصبحت ضرورية إزاء عمل الشهبندر الذى لم يتجرأ على البقاء فى الجبل على أثر اقتراب جنودنا. بل جاء يحدث حركة جديدة، وهو بعد أن سبب الشقاء للدروز يعمل للقضاء على رخاء هذه المقاطعة الجميلة ويبذر بذور الفوضى والموت فى كل مكان يطأه.

«فإذا لم يسلم السكان الشهبندر وعصابته فلا يستحق لهم أن يستغربوا إذا اعتبروا مسئولين معه»

«أنى أدعو قرى الغوطة إلى السكون والهدوء والامتناع عن العداء ولا أحجم فى حالة الرفض عن استعمال الوسائط العسكرية التى تضمن إقرار النظام بسرعة».

معارك التطويق فى الغوطة

والتفت الفرنسويون إلى الغوطة بعد ما احتلوا السويدا ووطدوا أقدامهم فى جبل الدروز فأخذوا يعدون المعدات للحملة عليها. وتقضى الخطة التى رسموها بأن يهاجموها من الغرب والشرق والشمال والجنوب فى زمن واحد. وبدأت القوى الفرنسوية بالزحف فجر ٩ يوليو فجاءت حملة ثالثة من دمشق فارتقت جبل قاسيون، ثم انحدرت بطريق برزة، ومشت حملة رابعة من دمشق سالكة الطريق السلطانى إلى الغوطة، وجاءت الخامسة من النبك والقطيفة فاطبقوا على الغوطة من جميع الجهات.

وبدأ القتال صباح ١٩ منه على طريق دوما فقد استقرت الحملة الثالثة فى أوتايا وضربت القرى بمدافعها ثم زحفت على حوش الفارة. فأصبح خط القتال يمتد من حوش الريحانى حتى خرابو وأوتايا، واحتشدت عصابات دوما وحرستا والعمارة فى هذه المنطقة للمقاومة.

ودارت معركة أخرى فى الشفونية بين قوات فوزى القاوقجى - وكان فى دوما وبين الفرنسويين واستمر القتال يوم ١٩ بطوله وامتد حتى شمل بيت سوى والأشعرى وشبعا

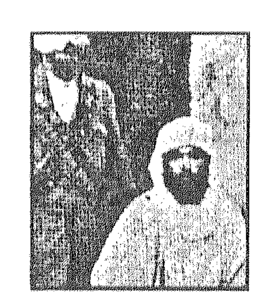
وكفر بطنا وحمورى، وصمد مصطفى وصفى ومعه عصابة العهد وعصابة المليحة وعصابة زبدين للفرنسويين فى الشرق ونازلهم قرب شبعا فدار قتال عنيف بينهما امتد حتى الليل وتحصن الفرنسويون فى الكروم وعند المساء أوقفوا الحرب فانسحب مصطفى وصفى إلى حتيته.

وجاءت قوة فرنسوية أخرى من وادى منين بطريق صيدنايا فقابلتها عصابة برزة ودار قتال بين الفريقين امتد أربع ساعات وانتهى بانسحاب العصابة إلى برزة فلحق بها الجند فوقفت للدفاع عن القرية (برزة) وفى الليل تمكن الثوار من الانسحاب إلى الجهة الشرقية فرابطوا فيها وأحرق الجند القرية.

واستؤنفت المعركة فى الغداة فزحف الجند من برزة إلى عين ترما وانتشر فى الغوطة والتقت فى هذا النهار عصابة برزة بقوة كبيرة للثوار فى عين ترما على رأسها آصف عمر باشا وعصابة جوبر فاتحدتا وانسحبتا إلى الزور ثم قصدتا كفر بطنا فاجتمعا فيها بعصابة مصطفى وصفى واشتبك الفرنسويون في هذا النهار مع عصابة الشيخ محمد الأشمر، وعاد مصطفي وصفي مع رجاله إلى المليحة فنازل الفرنسويين فى جوار بيت سوى. وانضمت إليه هنا عصابة برزة واشتركت معه فى قتال الجيش المحاصر فى داخل القرية وكان الجند يطلق عليهم النار من داخل ثقوب البيوت ومن مسافة لا تزيد عن ٧ أمتار واستشهد فى هذا اليوم اليوزباشى محمود حمدى شقيق مصطفى وصفى ودفن فى الحتيتة وثأر له الثوار فى الغداة فقتلوا الكولونيل فينغ قائد إحدى الحملات قرب جسرين - كفر بطنا.

وقد اشتركت فى هذه المعارك مدفعية المزة والجبخانة ومعمل القزاز وقصر البلور ومركز حارة الأكراد، فكانت تطلق مدافعها بلا انقطاع على الغوطة ويقال إنها أطلقت ١٨ ألف طلقة فى تلك الأيام كما اشتركت فيها الطيارات وتعد بالعشرات ومثلها الدبابات، ويقدر عدد الجند الذى زحف بثمانية عشر ألف مقاتل وفى يوم ٢٢ منه عاد الجيش إلى دمشق فاستراح قليلا ثم استأنف العمل يوم ٢٤ منه. وقد انتهت هذه المعارك بعدول الثوار عن خطة الحروب المنظمة وعودتهم إلى حروب العصابات. ونقول بهذه المناسبة إنه بلغ عدد الحملات التى سيرها الفرنسويون على الغوطة من ابتداء الثورة حتى أواسط شهر يوليو ٥٢ لم تنل منها منالا، وقد تغلب عليها الثوار وهزموها.

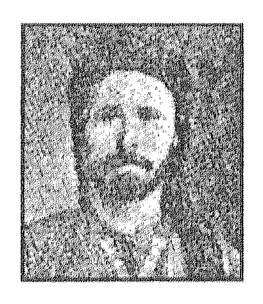
فريق من رجال الثورة الثورية وشبانها



الشيخ محمد الاشمر
وإلى جانبه جميل شاكر



عبد القادر سكر



أبو محيى الدين شعبان



محمد الدرخبانى



صبرى فريد البديوى



سعيد الترماتينى



الأمير نسيب شهاب



عادل الحامدى



رشيدة الزيبق

ووالى الفرنسويون الغارة على الغوطة بعد هذه المعارك ويسمونها معارك التطويق فكانوا يسيرون إليها كل يوم تقريبا ، فأدى ذلك إلى تضعضع الثورة وإضعافها. يضاف إلى هذا أنهم شددوا فى الضغط على الفلاحين وهدموا الدكوك (الحواجز) بين البساتين والأراضى وقطعوا الأشجار ودمروا البيوت ومنعوا الماء فكاد هؤلاء يهلكون عطشا ، وزاد الطين بلة المخافر التى بثوها فى أنحائها وقد شحنوها بالجند والمدافع كما أحاطوها نفسها (الغوطة) بسلسلة من الحصون مما جعل الدخول إليها والتجول فى أنحائها من أشق المهمات. ويجب أن لا ننسى ما أسداه بعض أصحاب الأملاك فى الغوطة من الدمشقيين للسلطة. فقد سعوا كثيرا مع الفلاحين وأقنعوهم بضرورة موالاة الفرنسويين ومقاومة الثورة رعاية لمصالحهم.

ونختم هذا الفصل باثبات نص البيان الذى أذاعه فوزى القاوقجى عن هذه المعارك فى أوائل أغسطس قال:

«أن العدو الذى قد بذل من الاهتمام والاستعداد مدة عشرين يوما لجمع سائر قواه المتفرقة من أنحاء سورية بقصد مهاجمة الغوطة وتطويقها قد تقدم فى ١٩ يوليو سنة ١٩٢٦ للمراكز التى اختارها للإحاطة من الشفونية إلى حوش الدوير وهاجم مواقعنا الدفاعية من الوراء والجناحين فى ٢٠ منه واستمرت المعارك بشدة زائدة حتى ٢٥ منه فكان فى كل معركة يخوضها يعود منها مندحرا وذلك بفضل تريتباتنا الدفاعية وبطولة مجاهدينا ، وقد شتتنا قطعات العدو خلال المعارك التى دارت فى جسرين وكفر بطنا والتجأت بعض أجزائه المشتتة إلى كفر بطنا فحوصرت وهوجمت ليلة ٢١ هجوما شديدا كلفه ضحايا عديدة. حتى أنه من شدة الضغط طلب كثير من المحصورين الأمان. وقد اضطر العدو لاستخدام قواه الاحتياطية واستمرارها لإنقاذ المحصورين فنصبنا له شركا أوقعنا فيه المحصورين والمنجدين وقضينا على البقية الباقية من الحملة المشتتة واتلفنا قسما كبيرا من المنجدين.

«فأعاد العدو حملاته فى الأيام الأخيرة فكان نصيبه الفشل فى النهاية كنصيبه فى البداية. وهكذا قد قضينا على أحلام العدو وآماله المبنية على هذه القوة.

«ولما أخفقت جميع حركاته وحاق به الخذلان والخسران قام ينتقم لنفسه بحرق القرى والمحصولات وقتل الأولاد والنساء ومنع الماء عن المزروعات.

«وقد قمنا الآن بتنسيقات فى الجيش وجعلنا الخدمة إجبارية، وأصبح لنا جيش نظامى بكافة معداته الحديثة من الغنائم الحربية وآخر احتياطيا.

«ولما بلغ الخبر جبل الدروز خصصت نجدات قوية وقد وصلت مقدمتها مع قائدها متعب الأطرش وتمثل الإخاء الدرزى السورى والرابطة المتينة فى هذه الآونة العصيبة.

«إن خسارة العدو تتجاوز ألفا بين قتيل وجريح وفقيد وخمسمائة من الخيل والبغال وكثير من الضباط وطيارتين. وقد وقعت بأيدينا أوراق مهمة من الضباط المقتولين وبينها أورق الكولونيل فينغ الذى قتل فى معارك جسرين - كفر بطنا وبين هذه الأوراق برنامج تطهير الغوطة وخرائطها، وخسارتنا اثنان وأربعون جريحا ومعظمها خفيفة وسبعة عشر شهيدا.

حروب قلمون الثانية

أشرنا آنفا إلى الحملتين الكبيرتين اللتين جهزهما الفرنسويون على قلمون بقيادة الجنرال مارتى والكولونيل ماسيت، وقلنا إن الأولى استردت النبك وطاردت العصابات التى كانت ترابط حول حمص وأخرجتها من حسيه وصدد والقصير ثم تقدمت إلى القطيفة فاتصلت بحملة الكولونيل ماسيت فيها وقامتا بجولة فى أنحاء قلمون فدخلتا يبرود ومعلولا ورنكوس ثم عادتا سوية إلى دمشق، واشتركتا بعد ذلك فى الأعمال التى عملت فى إقليم البلان.

ونقول هنا إن عصابات الثوار التى كانت تعمل فى قلمون وهى عصابة خالد النفورى وجمعه سوسق، وكان أول من نادى بالثورة فى قلمون، عادت إلى العمل هنا بد رجوع الحملتين فبسطت نفوذها على قلمون ثانية، واتصلت بعصابات الغوطة واشتركت معها فى شهر يوليو فتفرق رجالها هنا وهنالك. فعاد الفرنسويون إلى قلمون وبسطوا نفوذهم نهائيا عليه من أوائل سنة ١٩٢٧ تقريبا.

عصابة بعلبك

نزلت هذه العصابة إلى الميدان فى شهر مايو سنة ١٩٢٦ فقد هاجمت فى الساعة التاسعة من مساء ١٨ منه مدينة بعلبك فاحتلتها ودخلت دار الحكومة فأضرمت النار فيها

ثم غادرتها عند الفجر عائدة إلى الجبال للاعتصام فيه، لأنها لم تجد فائدة من البقاء.

وزعيم هذه العصابة هو توفيق هولو حيدر وقد كان فى دمشق خلال شهر أغسطس سنة ١٩٢٥ موظفا فى حكومتها . فلما حدثت الاضطرابات الأولى فى جبل الدروز وأصدر الفرنسويون أمرا باعتقال رجال حزب الشعب قصد قرية اللبوة وهى واقعة بين حمص وبعلبك فأقام فيها يرقب الحالة ويعد المعدات لإضرام ثورة فى تلك الجهات، ثم غادرها فى شهر سبتمبر ومعه بعض رجاله إلى جبل قلمون فاشترك مع العصابات التى كانت تعمل فيه وقاد حملة على حمص فى شهر نوفمبر سنة ١٩٢٥ وقد دعاه بعض أهلها إلى دخولها واحتلالها ففضل التريث استكمالا لمعداته، ثم قصد الغوطة ومنها ذهب إلى السويدا واشترك فى مؤتمر دامه وفى الهجوم على اللجاه واحتلالها، وفى أوائل إبريل سنة ١٩٢٦ عاد إلى بلاد بعلبك لإضرام الثورة فى ربوعها . فعلم الفرنسويون بوصوله فأرسلت قوات للقبض عليه فنازلها يوم ١٤ إبريل وهزمها . وفى يوم ١٨ مايو زحف على بعلبك واحتلها على المنوال الذى بسطناه آنفا.

وفى يوم ١١ يونيو سنة ١٩٢٦ جهز الفرنسويون حملة كبيرة زحفت من رياق ومن رأس بعلبك فى ست قطارات، ولا يقل مجموعها عن خمسة آلاف جندى مسلحة بالرشاشات والدبابات والطيارات والمدفعية. فنزلت عند الفجر فى محطة اللبوة وما كادت تغادرها فى طريقها إلى القرية لمباغتة العصابة - والمسافة بينهما ٤ كيلو مترات - حتى بادرها باطلاق نار شديدة عليها - لأنها كانت عارفة بمسير هذه القوة وبمكان احتشادها فوقع الذعر والاضطراب فى صفوفها وتشتت رجالها، ولم يستطع ضباطهم إعادة النظام إلا بشق الأنفس. وارتد الجند إلى المحطة بعد حرب دامية امتدت ساعات تاركة كثيرا من القتلى والجرحى والغنائم بين أيدى الثوار حينما جاءت نساء القرى يحملن الماء والطعام إلى المجاهدين وهن يزغردن فظن الجيش أنها نجدة قادمة فركن إلى الفرار.

واتصل بتوفيق هولو فى أواخر شهر يونيو أن الفرنسويين يعدون العدد لتسيير حملة كبيرة على الغوطة فقصدها مع عدد من رجاله للاشتراك فى الأعمال العسكرية التى تعمل، وسعى مدة إقامته فيها للتوفيق بين زعماء العصابات وتوحيد الخطة فلم يوفق واشترك فى المعارك العنيفة التى دارت أيام ١٩و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ يوليو وقصد الجبل فى أوائل شهر أغسطس للاتصال بالزعماء وللعمل لرسم خطة جديدة وظل فيه حتى أواسط

أغسطس ثم عاد ثالثة إلى بلاد بعلبك واعتصم فى جردها فاتصل خبره بالفرنسويين فسيروا القوى لقتاله فاشتبك معهم فى معارك عديدة كانت الغلبة له وقتل فى أحدها الكابتن بوافان قاتل الشهيد أحمد مريود.م وفى شتاء سنة ١٩٢٧ غادر معتصمه إلى جبل الدروز لعدم إمكانه المقاومة بعد ما استسلمت المناطق الأخرى وسيطر الفرنسويون عليها.

عصابات وادى التيم وإقليم البلان

وتكرر فى وادى التيم وإقليم البلان ما وقع فى قلمون من قبل. فإنه ما كادت الحملات التى سيرها الفرنسويون لتدويخ هذه المنطقة تعود إلى مراكزها بعد احتلال مجدل شمس فى الأسبوع الأول من شهر إبريل سنة ١٩٢٦ حتى عاد المجاهدون فانتشروا فى ربوعه بقيادة الأمير عادل أرسلان والشهيد المرحوم أحمد مريود وشكيب وهاب فدارت بينهم وبين الفرنسويين معارك اشترك فيها الشراكسة وبعض المسيحيين من أبناء البلاد فى الجانب الفرنسوى، وتم للثوار فى أواخر شهر مايو احتلال مجدل شمس نفسها وسيطروا على لبنان الشرقى كله تقريبا. وفى يوم ٣٠ مايو أرسلوا إلى مدينة زحلة انذارا يطلبون منها التسليم ودفع ٢٥٠٠ ليرة عثمانية غرامة. فهاجت زحلة وماجت لهذا الإنذار وألف سكانها وفدا من مطران الروم الأرثوذكس ووكيل مطران الكاثوليك ورئيس دير الآباء اليسوعيين ورئيس البلدية وبعض الوجوه فقابلوا المستشار الفرنسوى ووصفوا له ما يسود المدينة من قلق وخصوصا بعد ما علموا أن الحكومة نقلت الأوراق الرسمية إلى بيروت وطلبوا من الطلبات الآتية:

١ ـ جلب قوة لا تقل عل ٣٥٠٠ جندى إلى زحلة لحمايتها.

٢ ـ توزيع ١٥٠٠ بندقية على الشبان بوثائق على أن يعاد هذا السلاح للسلطة بعد أن تبرهن الحالة على عدم حاجة الأهالى إليه.

٣ ـ الترخيص للأهالى بشراء السلاح

فطمأن المستشار خواطرهم ووعدهم خيرا، وقال أنه سيرفع الأمر إلى القائد العام.

ولم ينفذ الثوار وعيدهم ولم يهاجموا زحلة ولم ينالوا أحدا من سكانها بسوء.

وفى أواسط شهر أغسطس وبعد أن تضعضع معقل الغوطة وتسرب الوهن إلى صفوف

المجاهدين فى الجبل غادر الأمير عادل ارسلان إقليم البلان بمن معه من قوى فجاء إلى قرية العادلية فى جنوبى الغوطة ثم قصد اللجاه وتحصن فيه ونازل الفرنسويين فى داخله واشتبك معهم فى معارك سنأتى على وصفها.

معارك الضنية وعكار

فى يوم ١٨ إبريل سنة ١٩٢٦ غادر سعيد العاص مقر قيادة الثورة فى الغوطة (كانت فى قرية حتيتة) قاصدا الأنحاء الشمالية لإثارتها فسلك طريق الضمير ومنها هبط قلمون وسار حتى اكروم وتطلق على مجموعة قرى هذه أسماؤها: اكروم وأكوم وكفرنون وقنه والمومسة والخوخ وبساتين والسهلة وتتمتع بموقع جغرافى ممتاز وتتصل بجبال عكار غربا وبجبال العلويين شمالا وبسهل الهرمل شرقا وبجبال لبنان جنوبا وسكانها مسلمون من الشيعة.

وصحب سعيد العاص فى رحلته إلى تلك الجهات ٢٣ مجاهدا منهم منير الريس وفائق الكيلانى وعلاء الدين الكيلانى وشاكر السباعى ورشاد ملص ومحمد على الدروبى ومحمد على النابلسى والشريف راجح، ولكن هذا ما لبث أن قصد بغداد ولم يشترك فى القتال.

وكان زين مرعى جعفر وأقاربه، وهم زعماء تلك الجهات قد أعلنوا الثورة على الفرنسويين فسيرت حكومة طرابلس قوة لمطاردتهم مؤلفة من ١٥ خيالا بقيادة الملازم عبد الملك الدرزى فنازلها زين مرعى ورجاله وقتل جنديا منها وأسر الباقى وانضم إليه فى تلك الأثناء المجاهد سعيد البرى فقطع سكة الحديد قرب وادى خالد فتعطلت المواصلات بين حمص وطرابلس.

وانضم إلى سعيد العاص بعد وصوله إلى اكروم بعض ثوار حمص بقيادة نظير النشيواتى فوحدوا العمل، وكانوا يقصدون حمص ليلا ويجردون رجال المخافر من أسلحتهم ويسطون على الجند ثم يعودون إلى معقل اكروم عند الفجر وأقلق نزول المجاهدين فى هذا المنزل ولاة الأمور فى طرابلس وعكار والضنية فاتخذوا تدابير شديدة للدفاع عن تلك المناطق.

وبينما كانت العصابة عائدة من غارتها على حمص يوم ٤ مايو هاجمها النصيرية من

سكان قرية خربة غازى وخربة التين وسرجة الحجر والحجر الناعم وأم الحارتين وقرحا وخربة وأم العظام فقاومهم الثوار فى أول الأمر فأعطاهم النصيرية أمان أمير المؤمنين وقالوا لهم لا حاجة للقتال وتعالوا نتفاهم فاستسلموا إليهم فجردوهم من أسلحتهم وأبلغوا السلطة الأمر فأرسلت قوة تسلمتهم وهذه أسماؤهم:

نظير النشيواتى وحسين جراد وعبد الكريم العاصى وسعيد شهلة ومرعى التركمانى وعبد الله المغربى وحسين النابلسى وعقل الدندشى وكان أول ما فعله الضابط الفرنسوى المرسل لتسلمهم أنه بادرهم بإطلاق الرصاص من مسدسه واحدا بعد واحد ثم عاد ثانية وكرر هذه العملية ثم أمر جنوده بأن تقذفهم من هوة وعاد بعد ذلك إلى حمص معتقدا أنه تركهم جثثا هامدة، بيد أن نظير النشيواتى أفاق بعد رحيلهم واستطاع أن يواصل السفر إلى حمص وأن يلجأ إلى أحد البيوت وتولى أحد الأطباء علاجه وشفى بعد ذلك وعاد إلى النضال.

واستبقى النصيرية عندهم من رجال العصابة محمد على الدوربى نجل محيى الدين الدوربى وعلاء الدين الكيلانى وهو من الأسرة الكيلانية فى حماة ومن الشبان المثقفين كان أستاذا فى مدرسة الطفيلة حين إعلان الثورة فاستقال وانضم إليها، على أنهم عادوا فسلموهما إلى الفرنسويين فنقلا إلى حمص وأعدما رميا بالرصاص بعد ما عذبا أفظع عذاب.

واتسع نطاق الثورة فى تلك الجهات على أثر ما وقع وهب السكان للانتقام من النصيرية ومن الفرنسويين وهذه صورة المنشور الذى نشره قائد الثورة فى الشمال سعيد العاص على سكان الجبل الغربى:

«اخواننا البواسل زعماء عشائر الحمادية الأماجد

«أزفت ساعة العمل وأيقظتنا صرخة انقاذ الوطن ونحن عصبة أمير المؤمنين وستكون خطتنا الجهاد عملا بقوله تعالى: «وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم» وقوله «كتب عليكم القتال كما كتب على الذين من قبلكم».

ويجب علينا أن نعمل بقوله تعالى «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» وقوله وقوله «وقاتلوا المشركين حيث ثقفتموهم» ولا تقولوا لبعضكم كما قال بنو إسرائيل لنبيهم «اذهب

أنت وربك فقاتلا أنا ههنا قاعدون» بل قولوا إلى الجهاد إلى أخذ الثأر إلى إنقاذ الوطن من براثن المستعمرين الأشرار، الوطن وطنكم والشرف شرفكم، وأنتم عصبة أمير المؤمنين فيجب علينا أن نخلد ذكر جيشه الخالد بأعماله الخالدة ولا نكون دون إخواننا الدروز وأنتم من خيرة العرب بل أنتم خيار من خيار وأنتم أهل الشجاعة والشهامة والنجدة والنخوة، حاشا نفوسكم الأبية أن تقيم على الذل وتخضع للعدو، حاشا شهامتكم أن تستسلم أترضون بهتك العرض وأنتم حماة العرض والدين

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

وانتقل مقر العصابة بعد ذلك إلى قرية عين التينة وفيها انضم إليها نظير النشيواتى بعد ما شفى من جراحه كما انضمت إليها عصابة حماة بزعامة الكنفيد(١).

وفى أواسط شهر مايو جهز الفرنسويون قوات كبيرة لاحتلال اكروم فزحفت حملة من حمص وسارت أخرى من الهرمل وجاءت ثالثة من وادى خالد وأرسلوا الطيارات للاستطلاع وإلقاء القنابل. واتصل ذلك بالمجاهدين فأعدوا التدابير لمنازلة القوى وقرروا أن يكون القتال فى وادى فيسان وفى صباح ١٨ منه بدأت المعركة فى مكانين: فى الناحية الشرقية وقد نازل سعيد العاص ومن معه الحملة القادمة من حمص فانتصروا عليها عند المساء وهزموها وفى الناحية الجنوبية وقد قاتل فيها الجعافرة الحملة القادمة من الهرمل وهى مؤلفة من اللبنانيين والشراكسة والنصيرية. وقد استبسل الجعافرة فى النضال واشتركت نساؤهم فى الحرب وظل القتال دائرا حتى الغروب واشترك فيه رجال العصابة بعدما هزموا القوى التى كانت تنازلهم فوضعوا الجيش بين نارين. وخسر المجاهدون فى هذه المعارك أربعة عشر قتيلا بينهم إمرأة واحدة وغنموا ما يربو على مائة رأس من الخيل وبنادق كثيرة وجرح قائد الحملة الفرنسوى وهو برتبة كولونيل وتزيى بالزى العربى فنجا وعلى أثر هذا الانتصار أذاع قائد الحملة البلاغ الآتى:

«إخوانى الأعزاء أبناء المنطقة الشمالية

---

(١) تألفت هذه العصابة من شبان حماه لمكافحة الفرنسويين وأنصارهم فكانت تقيم أحيانا فى الجبل الأعلى وأحيانا في جبل شمشو وقد هددت حماة غير مرة وهاجمت بالاتفاق مع عصابة صبحى اللاذقانى قوة الدرك الحموى وعلى رأسها اليوزباشى عبد الله الشركسى قائد درك وحماه وطاغيتها فى قرية مورك فقتلت خمسة من رجاله وفر هو بلباس امرأة على أن أحد أفراد العصابة وهو الشهيد رزوق نصر لحق به إلى حماه واغتاله فى وضح النهار.

«نعلمكم يا أنسال الأبطال الأماجد الذين فتحوا الأمصار والممالك وكانت راية نصرهم تخفق فوق رؤوسهم أينما حلوا، ونزف إليكم هذه البشرى العظيمة، بشرى انكسار الحملات التى هاجمت الجبل الغربى الشامخ، تراث آبائنا وأجدادنا فإن حملة الهرمل كسرت شر كسرة ومزقت شر ممزق وأما حملة حمص فقد جرح قائدها وبادت. وفقدت الحملتان معظم قواهما وقتل منها زهاء ٦٠٠ وأسر ٧٠ جنديا. وسقط فى ميدان القتال تسعة ضباط فرنسويون وغنم المجاهدون غنائم عظيمة من أسلحة وذخيرة وخيول يتجاوز عددها المائة وقتل أبو خزنة وتركت الأسرى بوجه سعد الله حماده حرمة لعوائد البلاد ولأنهم من أبنائها فيجب عليكم أن تكونوا متحدين وسنثاير على جهادنا متوكلين على الله حتى آخر نقطة من دمائنا فنطلب منكم المعونة والنجدة وإعانتنا بالمال والرجال والله يحفظكم».

مؤتمر مرجحين وقراراته

وحشد الفرنسويون على أثر معارك وادى فيسان قوى جديدة فى قرية زيتا وأخذوا يستعدون لغارة أخرى فغادرت العصابة مقرها ونزلت فى قرية حميرة ووصل فى تلك الأثناء قاسم شوك من ثوار النضية ومصطفى على شنديب فاتصلا بالقادة وسار الجميع إلى قرية مرجحين فعقدوا اجتماعا حضره كبار الشيوخ والزعماء واتفقوا مبدئيا على تأليف جيش وطنى يسمى جيش أمير المؤمنين وعلى المطالبة بالانفصال عن لبنان الكبير وأقسموا القسم الآتى:

«نحن زعماء الجبل الغربى نقسم بكتاب الله وبمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشرف أمير المؤمنين أننا سنخدم أوطاننا ونضحى بالغالى والرخيص فى سبيل انقاذ الوطن وأن لأنشذ عن المقررات العامة ونعمل بموجب الشرع الشريف والله على ما نقول شهيد»

ووضع المجتمعون قرارا ضمنوه مطالبهم وأرسلوا نسخة منه إلى كل من سلطان باشا الأطرش وإلى اللجنة التنفيذية بمصر وإلى الدكتور شهبندر وإلى الوفد السورى فى أوربا وإلى جمعية الأمم وهذا نصه:

«نحن الموقعون أدناه زعماء عشائر الهرمل وبعلبك قد عاهدنا الله ورسوله على أن نمد

حركتكم الوطنية وثورتكم الشريفة بأموالنا وأنفسنا وأرواحنا وأن لا نأتى بحركة سلمية أصلا ما لم تتفق كلمة المجالس السورية الوطنية للثورة العامة وزعماء الحركة السياسية أمثالكم وبما أننا من الشعب الإسلامى العربى فإن مطالبنا هى مطالبكم المشروعة السياسية ونرجو من دولتكم تبليغ جميع زعماء الحركة السياسية إخوانكم فى الخارج واسماعهم أصواتنا وإعلامهم مطالبنا وبالأخص الجمعيات السورية فى أميركا وأوربا بأننا نود الرجوع إلى حضن أمنا سورية وطننا التاريخى المحبوب وقطع علاقاتنا وانفصالنا عن لبنان الصغير انفصالا تاما فنأمل من وطنيتكم حين قيامكم بالمفاوضات السياسية والسلمية بأن لا يغيب عن بالكم وتنسوا المطالبة بحقوق إخوانكم لأنه لا يمكن تأمين حياتنا فى داخل لبنان أصلا حيث حقوقنا السياسية والقومية مهضومة وستبقى مهضومة أبد الدهر. وها نحن نؤيد مطالبنا المشروعة بالسلام وباشتراكنا فى الثورة العامة ولا نترك سلاحنا من أيدينا مالم نعد إلى حضن أمنا سورية حيث منطقتنا محصورة بين حمص وبعلبك وطرابلس ومرفا اقتصادياتنا حمص وجميع معاملاتنا مع الداخلية وقد أهديت الهرمل لقمة سائغة للبنان مع أنها سورية جغرافيا وتاريخيا. وقد علمتم كسرنا للحملات الفرنسوية التى زحفت لاكتساح بلادنا واخضاع جبلنا الأشم ومجموع نفوسنا يتجاوز العشرين ألف نسمة وكلنا عرب مسلمون فنرجوكم التكرم بالإسراع فى إجابة ملتمسنا وإعادة حقوقنا السياسية وإعلامنا نتيجة المفاوضات، ونعاهدكم على أن لا نلقى سلاحنا مالم نصل إلى غايتنا الأساسية وهدفنا الأسمى وهو الرجوع إلى حضن أمنا سورية والله يجعلكم ذخرا للأمة العربية».

فى ٣٠ مايو سنة ١٩٢٦

ووضعوا قرار اسندوا فيه منصب القيادة العليا إلى حسن طعان وهذا نصه:

«نحن زعماء عشائر الحمادية الموقعون أدناه قد تعهدنا على أنفسنا بتأليف جيش مؤلف من جميع العشائر باسم جيش أمير المؤمنين على أن يكون لكل عشيرة قوة خاصة مرتبطة بالقيادة العامة المنحصرة برئاسة المجلس الأعلى الوطنى للجبل الغربى، وعلى أن تخضع العشيرة لجميع التعليمات الصادرة من رئيس المجلس. ويكون هذا الجيش من حيث التقسيمات العشائرية مرتبطا برئيس المجلس المنتخب بالأكثرية وهو الشيخ حسن طعان دندش وعليه نوقع» ومما تم الاتفاق عليه فى هذه الاجتماعات أن نقسم منطقة القتال بين

العصابات على المنوال الآتى:

عصابة بعلبك من رياق إلى بعلبك وعصابة حسن طعان دندش من بعلبك حتى رأس اللبوة وعصابة أولاد جعفر من اللبوة إلى القصير وعصابة حمص من القصير حتى حمص.

حروب الضنية

وفى يوم الاثنين ١٤ يونيو غادر سعيد العاص أكروم مع بعض رجاله إلى الضنية تلبية لدعوتها ولدعوة رجاله الذين سبقوه إليها ليمهدوا لقدومه. فبلغوا قرية كفر حبو بعد مسيرة يومين وكانت المعركة دائرة بين الثوار والفرنسويين فاشتبكوا فيها وقاتلوهم قتالا شديدا وردهم ثم قصدوا إلى سير عاصمة الضنية فأنشأوا فيها حكومة منظمة وخصصوا للمجاهد النظامى ٣ ليرات فرنسوية شهريا وللقائد أربع ليرات وللشرطى ليرتين، وكانوا يعولون على تأييد آل شوك وآل شنديب.

بين الثوار وزغرتا

ومن سير أرسل سعيد العاص الكتاب الآتى إلى أهالى زغرتا الموارنة يطلب إليهم الكف عن الاعتداء على جيرانهم المسلمين وهو:

إلى وجوه زغرتا المحترمين:

علمت بأن تعدياتكم تزداد يوما فيوما على إخوانكم المسلمين وتعرضكم لأبناء السبيل من قبل بعض الجهلة وسلبهم أموالهم على قارعة الطريق. فنحن قيامنا قومى بحت، وهدفنا أعداء الوطن الفرنسويون. أما أنتم فلكم مالنا وعليكم ما علينا إذا عدتم إلى الصراط المستقيم وأحبطتم أعمال هؤلاء، حيث هذه الأعمال تولد ضغائن بينكم وبين جيرانكم المسلمين. فأدعوكم للإقلاع عن الأعمال المخلة بحقوق الجوار ومصالح الوطن. وإذا تماديتم فى التمر فلا حرج علنا ولا تثريب. ونحن نتعهد لكم طالما أنتم على الحياد أن لا يمسكم سوء منا فأدعوكم للتفاهم معنا والسير على خطة تتفق مع المصلحة الوطنية وتعيدكم إلى الصواب فأرجوكم إعلامى عن خطتكم والسلام عليكم.

فى ٩ ذى الحجة سنة ١٣٤٤

فورده منهم يوم ٢٠ يونيو الجواب الآتى:

إلى الزعيم العسكرى الأركان حرب سعيد العاص المحترم

قد صار الاطلاع على كتابكم المؤرخ ٩ ذى الحجة سنة ١٣٤٤ وعرض فحواه على وجوه زغرتا وقد فهم مضمونه ونتشرف بإعطاء الجواب عليه بالصورة الآتية:

١ ـ إنه لم يحصل من الزغرتاويين اعتداء على إخوانكم المجاهدين، ولم يحدث حادث سلب على قارعة الطريق خلافا لما اتصل بكم، لأنه لم يتعود الشعب الزغرتاوى على مناوأة جيرانه وخصوصا المسلمين منهم وخصوصا عند عدم الاعتداء على الممتلكات والأرواح ضمن منطقة زغرتا، وإذا رجعتم إلى تاريخ علاقاتنا مع الأمة الإسلامية المجاورة لنا يتضح لكم جليا بأننا لم نكن فى وقت من الأوقات معادين لهم ولا لمبادئهم، وحركتنا التاريخية غايتها المحافظة على كرامتنا وأراضينا معا.

٢ ـ أن خطتنا تجاه حركتكم هى الحياد طالما لم يحصل اعتداء من قبلكم على أراضينا وجوارنا المسلمين معا. الذين تعودوا أن يضعوا ما عندهم تحت حماية زغرتا.

٣ ـ أننا لا نرى من الضرورى الاجتماع بحضرتكم للتفاهم مبدئيا إذ إننا متفقون على عدم التعدى والله يحفظكم

وجوه زغرتا.

فأرسل إليهم فى ٢١ منه الردى الآتى:

إلى حضرة إخواننا وجوه زغرتا المحترمين

وصلنا كتابكم وشكرنا كم على إحساساتكم وعواطفكم العربية وشهامتكم اللبنانية. إن بقاءكم على الحياد هو عين الصواب الآن. حيث فيه سلامة بلادكم والمصلحة الخاصة والعامة، وحبا فى ذلك فقد عممنا لجميع مناطق الثورة بالامتناع عن كل اعتداء على أى فرد كان بلا تفريق فى الجنس والمذهب، وباستطاعتكم أن توعزوا لإخواننا المسيحيين بالعودة إلى أوطانهم. فهم وأملاكهم فى عهدتنا وإذا حصل عليهم أي اعتداء فنحن مسؤولون، وإذا لم يحضروا فالتبعة ملقاة على عواتقهم فيما إذا صار على أموالهم شئ لا سمح الله من قبل بعض الأشرار الذين لا يخلو منهم أى مكان. ولا مانع من أن تجهزوا كل عائلة بوثيقة من قبلكم بشرط أن يلزموا الحياد ويثابروا على أشغالهم وأن لا يتجسس أحد

منهم على حركاتنا الحربية والسلام.

وفى يوم ٩ ذى الحجة أذاع البلاغ الآتى على سكان الضنية وهو:

«لى الشرف أن أعلم الجمهور أن زعماء الثورة فى الضنية يؤمنون جميع السكان الذين غادروها خوفا على أموالهم وأنفسهم وأملاكهم فهم، فى حصن منيع على جميع أملاكهم وأنفسهم إذا عادوا لأعمالهم فى المنطقة فى خلال أسبوع وأقاموا فى قراهم، وكل من لا يلبى الدعوة فماله حلال للمجاهدين وأمواله تصادر باسم الثورة الوطنية»

ثم أذاع المنشور الآتى إلى المسيحيين من سكان الضنية وهو:

إلى إخواننا فى الوطن مسيحيى الضنية:

إن خطتنا فى هذه الثورة هى أن الدين لله والوطن للجميع، وأن المصلحة الوطنية فوق كل مصلحة، وباستطاعتى أن أؤمنكم على أموالكم وأعراضكم فيما إذا عدتم لأشغالكم وخدمتم وطنكم كإخوانكم المسلمين، فلكم مالهم وعليكم ما عليهم، وأعلموا أننا إخوان فى القومية واللغة والتقاليد والجنس والعادات ولكم دينكم ولنا ديننا، ولا فرق بيننا وبينكم ونحن منكم وأنتم أحرار منا فادعوكم وأنتم إلى الانخراط فى صفوفنا إذا أردتم، وأما إذا أحببتم البقاء على الحياد فأنتم أحرار أيضا فغايتنا استقلال بلادنا وتحريرها من الاستعباد ومنفعتنا فى منفعتكم والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه، فادعوكم يا نسل قحطان وعدنان للانضمام إلى إخوانكم والله يحفظكم».

تدابير السلطة فى طرابلس

أقلق وصول الثوار إلى الضنية ـ وهى على مقربة من طرابلس ـ وتعد بابا من أبوابها ـ الفرنسويين فحشدوا فى هذه قوات كبيرة على الفور، وأقاموا حولها المتاريس والأسلاك الشائكة ونصبوا المدافع الضخمة.

وفى يوم ٢٩ يونيو زار أميرال الأسطول الفرنسوى فى البحر الأبيض طرابلس على ظهر بارجته فنزل إلى دار الحكومة وجئ له بأعيان طرابلس وذوى الكلمة فيها فقال لهم: «أنه يسمع دائما بأن أهالى طرابلس يفكرون فى الانتقاض على السلطة وممالأة الثوار، فإذا ما حدثت أحد نفسه بأن يضرم نار الفتنة فى ذلك الثغر بالاتفاق مع بعض الأهالى

فإنه يدمر المدينة بقنابل مدرعاته من البحر» وبعد أن انتهى من كلامه ودعهم وعاد إلى البارحة فأقلعت به إلى بيروت».

وقبضت السلطة بعد ذلك على بعض رجال طرابلس المعروفين بالوطنية، وفى مقدمتهم عبد الحميد كرامى مفتيها السابق والدكتور عبد اللطيف البيسار وعارف الحسن وحسن العلى وولده محمد وخضر المصطفى كما أخذت من الجهة الأخرى تعمل للقضاء على الثورة بتدابير سلبية مستعينة ببعض أعيان عكار والضنية من الذين اشتهروا بممالأة الانتداب. فسعى هؤلاء سعيا حثيثا لإقناع كبار آل شوك وآل شنديب بالاستسلام إلى الفرنسويين فلا ينالهم عقاب، والظاهر أنهم تمكنوا فى النهاية من استمالة بعضهم فقصدوا طرابلس فلم تف السلطة بعهودها. بل قبضت عليهم وأرسلتهم إلى بيروت وحاكمتهم وحكمت على أربعة منهم بالاعدام وهم: عبد الواحد حمدان شوك وقاسم شوك ومحمود على خضر ومرعى حسن شنديب.

ولما وصلت الحالة إلى هذا الحد رأى رجال الثورة أنه لابد لهم من مغادرة الضنية خوفا من الوقوع فى قبضة السلطة بعد ما تخلى عنهم أنصارهم. فأرسل سعيد العاص قبل الرحيل البلاغ الآتى إلى زعماء الحركة الوطنية فى طرابلس الشام وجوارها ـ وقال:

إخوانى الأماجد

علمتم بالنطور الجديد الذى تطورته الحركة الوطنية فى هذه الربوع الجميلة بعد تلك الانتصارات الباهرة التى أحرزناها على المستعمرين، ولكن أصابع زينب لعبت فى المدة الأخيرة بواسطة الذهب الرنان، أو بالأحرى الورقة السورية التى أخذت دورها المشين ففككت عرى اتحاد جبل المتاولة كما أن دسائس عبود عبد الرازق (من أعيان عكار ومن أنصار الفرنسويين) فككت عرى اتحاد الضنية، فقد خدع بيت شوك وحملهم على استسلام مشين مما أدى إلى تمزيق القوى وتفريقها فصرت أعزل وحيدا فى منطقة الضنية، ولم يبق معى سوى أبى على طاهر. وكذلك فالدعاية الهائلة التى نشطها الفرنسويين بالمال حملت آل جعفر على الاستسلام فرضوا بأن يسلموا ٥٠ بارودة للحكومة، وفى هذا اليوم اجتمع زعماء الجبل كلهم بالمستشار الفرنسوى فى الهرمل لعقد اتفاق نهائى. واستمال عبود عبد الرازق كثيرا من الأسافل وسجلهم كجنود فى الجيش الفرنسوى لقتالنا، ومما يوجب الأسف أن حسن طعان دندش رأس حركة المتاولة تطوع

عند السلطة وانخرط فى زمرة الخونة لقاء ١٠٠ ليرة سورية يتقاضاها شهريا، وهكذا شلت حركة المقاومة فى المنطقة، وبناء على هذه الاعتبارات وبسبب خضوع آل شوك ونزوح معظم سكان الضنية وانخراطهم فى الجندية وإخلاء القرى وفقد مواد الغذاء انسحبنا من هذه المنطقة لجلب القوى والقيام بأعمال حاسمة. فلا تعتمدوا على أحد من بعدنا فى هذه الديار، ولابد من سحق هؤلاء الخونة فتدبروا أموركم ونظموا صفوفكم، ولا تركنوا إلى الخونة فالحق أبلج والباطل لجلج واذكرونا مثل ذكرانا لكم والله فى عونكم».

ـ ١٨ ـ
معارك الجبـــل الختاميـــــة

استقرت جيوش الجنرال أندريا فى السويدا بعد احتلالها يوم ٢٦ إبريل وانصرف قائدها إلى تحصينها وبناء المعاقل حولها. كما سعى لاستمالة بعض الشيوخ والرؤوساء فنثر الذهب وبذل الوعود المعسولة فنال ما عجز أسلافه عن نيله.

وكان فى مقدمة أعماله الخطيرة فى هذا الدور تأليفه بواسطة بعض الشيوخ والزعماء الذين استسلموا إليه من آل الأطرش وآل عامر كتائب من شبان الدروز لمقاتلة الثورة ومقاومتها. وهكذا تسنى له أن يضرب الدروز، ويستخدم الشبان الذين كانوا يقاتلون الجيش الفرنسوى فى مقاتلة الثوار.

وانسحب المجاهدون إلى الشرق فنزل سلطان باشا وإخوانه على عين الخشبة ونزل الدكتور شهبندر ومن معه فى قرية ساله، ونزل آخرون العانات وغيرها من قرى المقرن الشرقى وكانوا على اتصال تام فيما بينهم. وفى سالة التحق بالدكتور شهبندر عدد من الجنود التونسيين كانوا قد فروا من الجيش الفرنسوى قبل معركة السويدا، ولاقوا فى طريقهم مصاعب جمة فمنهم من سافر إلى الغوطة فأبلى أحسن بلاء فى قتال الفرنسويين ومنهم من قصد عمان.

وعقد زعماء الجبل اجتماعات عديدة للبحث فى الموقف فرأوا أن يرسلوا الحريم والذرارى والأموال والماشية إلى الأزرق (على ٥٠ كيلو مترا من حدود الجبل فى البادية)

فأرسلوا وقدر عدد الذين نزحوا إليها فى تلك الأيام بثلاثة آلاف معظمهم فى الخيام وأنشأ بعض أغنيائهم بيوتا للسكنى وأعلنوا أنهم لن يعودوا إلى الجبل حتى تجاب طلبات الوطن.

ولما أطمأن بال الدروز من جهة حريمهم وعيالهم عقدوا مؤتمرا فى قرية شقة فى النصف الأول من شهر يوليو سنة ١٩٢٦ رأسه سلطان باشا بالذات وأصدر القرارات الآتية:

١ ـ وجوب المثابرة على الجهاد حتى تنال البلاد أمانيها وإباحة أموال المستسلمين

للفرنسويين وهدر دم المتطوعين فى الجيش الفرنسوى من الدروز وهدم دروهم ونهب مواشيهم مصادرة حبوبهم ومفروشاتهم

٢ ـ تنظيم خطاب للسلطة الفرنسوية يتضمن أن الدروز المستسلمين لا يمثلون سوى أنفسهم، ولا يؤثرون فى أحد من أقاربهم.

٣ ـ إن تجمع الجنود من مجاهدى الدروز وتقسم إلى كتائب يكون لكل منها قائد مسؤول.

٤ ـ مصادرة كل ما يورده أهل القرى إلى السويدا وصلخد، وتنظر فى ذلك لجنة منتخبة.

٥ ـ إنشاء مجلس وطنى ولجنة إدارية وأخرى مالية وهيئة قضائية «محكمة استقلال» للفصل فى قضايا الثورة.

٦ ـ منع النهب والسلب بدون قرار من الهيئة المسؤولة

٧ ـ إيجاد مركز للثوار يجتمعون فيه كقوة احتياطية تستخدم حين مسيس الحاجة.

٨ ـ انتخاب أربعة من رؤساء المقرن الجنوبى، وستة من زعماء المقرن الشمالى لجمع المجندين وتنظيم شؤونهم وإدارة حركاتهم. فيكون على رأس كل مائة رئيس من رؤساء العائلات.

٩ ـ إنشاء حكومة وطنية.

١٠ ـ أن يكون انتخاب أعضاء المجلس الوطنى وباقى الهيئات باعتبار جبل الدروز ثلاث عشرة ناحية، وأن ينتخب عن كل ناحية من عضوين إلى ستة

ثم جرى انتخاب أعضاء المجلس الوطنى وهذه أسماء الذين فازوا:

عن عرى ـ متعب الأطرش وأسد درويش وعقله القطامى وعن القرية على الأطرش ومحمد البربور وصياح الحمود، وعن صلخد جاد الله الأطرش وعلى الحجار وسليم كيوان، وعن ملح يحيى رزق وسعيد رزق ويوسف العيسمى وعبد الله الجفامى، وعن ساله سليمان نصار وجاد الله سلام وقاسم غانم المشنف ويوسف الشاعر وينوب عنه قاسم أبو زيمان، وعن نمرة اسكندر القلعانى وحمود الصحناوى وحسن ناصيف، وعن الهيت على عامر وأبو محمد زين الدين سلمان المكارم ومحمد نوفل، وعن تجران نايف نصر وجندى أبو فخر، وعن شهبا هايل عامر وعلى طراد عامر ومصطفى حمشو، وعن عاهرة حمد عزام وشبيب

القنطار وشاهين عساف مسعود غانم وجبر شلغين ووهبى جزان، وعن المجدل فضل الله الهنيدى وأسعد الهنيدى، وسليم الهنيدى وعن وادى اللوى سعيد عز الدين وعبدالكريم عز الدين وهايل زهر الدين وعلى هلال محمد كفيرى، وعن السويدا عبد الغفار الأطرش والشيخ صالح طربية وعلى عبيد ونجم الدين الحلبى ومحمود رويعر.

وعلى أثر ختام المؤتمر أذاع سلطان باشا الأطرش يوم ١٥ المحرم سنمة ١٣٤٥ بيانا إلى عموم قواد المناطق السورية فى الشمال وسائر الجهات هذا نصه:

«بناء على القرار الذى اتخذه المجلس الوطنى الأعلى بتاريخ ٢ المحرم سنة ١٣٤٥ رقم ١ القاضى بحرق وضبط جميع أملاك وأموال كل من يتخلف عن معاضدة ثورتنا فعليا نطلب منكم أن تنفذوا القرار المذكور فى جهتكم بكل شدة صونا لكرامة الوطن والسلام عليكم».

مؤتمر مفعلة

وعاد الرؤساء فعقدوا يوم ٢٩ يوليو مؤتمرا فى مفعلة اختار الشيخ يوسف الهجرى رئيسا للمجلس الوطنى للثورة، وقرر القرارات الآتية:

١ ـ مواصلة الحرب حتى تنال سورية أمانيها المشروعة.

٢ ـ الإصرار على الاستقلال التام مع التمثيل الخارجى والوحدة الكاملة لسورية.

٣ ـ تشكيل حكومة وطنية سورية، وانتخاب مجلس تأسيسى يسن الدستور ويعين شكل الحكومة.

٤ ـ استفظاع الأعمال الحربية التى تقوم بها السلطة الفرنسوية بتدميرها القرى الآمنة وقتلها النساء والأطفال والعجزة بقنابل الطيارات والمدافع من دون إنذار حتى بلغ عدد النساء المقتولات ٥٠٠.

٥ ـ مناشدة الأمم المتمدنة باسم الإنسانية أن تحتج على فرنسا وتطلب العطف على سورية.

وأرسل سلطان باشا فى تلك الأثناء رسالة إلى الشعب الأميركى بواسطة شركة

الصحافة المتحدة هذا بعض ما جاء فيها:

«نقدم احترامنا بناء على جهادكم الشريف ونرجو منكم أن تعرضوا قضية الدروز على الأمة الأميركية، واسمحوا لنا بأن نقول إن بعض الجرائد تلفق أشياء لا أساس لها عن ثورتنا.

«إن التهم القائلة بأننا نثير حربا على المسيحيين هى تهم باطلة وكل منصف فى الغرب يجب أن يعلم أن ثورتنا هى نتيجة فظائع ارتكبها بعض ممثلى الاستعمار.

«وقد برهنا على حسن نيتنا بأننا لم نمس أحد من الأهالى المسالمين فى الأماكن التى دخلناها، لأننا نشعر أننا كلنا اخوان فى الإنسانية وأن سورية للسوريين بقطع النظر عن دينهم أو معتقدهم»

«فنحن أبرياء من الدم المسيحى الذى سفك».

«ولذلك نلتمس منكم أن تذكروا وتفهموا أبناء وطنكم وكل الذين يسمعون صوتكم العظيم من مسيحيين وغيرهم أن صلاحهم صلاحنا وشقاءهم شقاؤنا.

«إننا لا نعرف فرقا بين الأديان والمذاهب. لأن غايتنا الوحيدة هى الحصول على حقوقنا المشروعة التى هى لجميع أبناء سورية على الإطلاق وإننا كنا لا نزال وسنظل مهتمين بالمحافظة على حقوق وسلامة الجميع. لانريد أن نتعرض لأحد مادام هو لا يعرض نفسه ضدنا، وإننا نتحاشى كل الأعمال التى تمس شعور الوطنيين أو الأجانب ماخلا الذين يظهرون لنا العداء.

«وفى الختام نرجو ونلتمس عطف الشعب الأميركى على قضيتنا آملين أن لا نحرم من مساعدة رجال أميركا الأخيار».

حروب المقارن

بدأ الجنرال أندريا عمله الحربى، بعد ما مهد له بالعمل السياسى على المنوال الذى وصفناه آنفا، فأخذ يوجه الحملات الاستطلاعية إلى المقارن لسبر غورها مستعينا على إدراك الفوز بالكتائب الدرزية التى جندها، وكانت تسير دائما فى مقدمة حملاته فتنازل الثوار وتقاتلهم، وبالدسائس التى كان يدسها لتفريق كلمة الدروز وتمزيق وحدتهم.

١ ـ الزحف على المقرن الشمالى

ووجه وجهه فى ابتداء هذه المرحلة إلى احتلال المقرن الشمالى، لأن عددا من آل عامر وبينهم كثير من كبار بيوته أقام على الولاء للفرنسويين فلم يشترك فى الثورة. كما أن أحدهم وهو تركى عامر انضم إلى قواته حين زحفه إلى السويدا يوم ٢٥ إبريل وقاد كتيبة من شبان الدروز سارت فى المقدمة. على أن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بأن بين رجال هذا البيت من قاتل أشد قتال فى الثورة واستبسل فى المقاومة، وقد خر بعضهم شهداء فى ميادينها.

وللمرة الأولى غادر الجنرال أندريا السويدا فى أواسط شهر مايو فقاد حملة إلى شهباء بطريق قرية سليم فرابط لها الدروز وقاتلوها فارتدت فتفرقوا إلى قراهم كما هى عادتهم لاعتقادهم أن مهمتهم انتهت.

وأستأنف الفرنسويون الزحف فى الغداة فدخلوا شهباء بلا مقاومة تقريبا. فدمروا سبعة منازل للثوار ونهبوا غيرها. مما كان له أسوأ وقع فى النفوس فتألب عليهم السكان فجلوا بعد ثلاثة أيام.

وأسرع رشيد بك طليع إلى المقرن الشمالى يطوف قراه ودساكره داعيا الناس إلى المقاومة، ومبينا اضرار التخاذل والتوانى. فأقبلوا عليه وانضموا إليه وعاهدوه على الدفاع حتى النفس الأخير، ثم جاء سلطان باشا الأطرش ومعه عدد من الشيوخ والزعماء لتنظيم حركة المقاومة فأضرم مجيئه نار الحماسة فى الصدور.

واتصل ما جرى بالجنرال أندريا فجهز حملة كبيرة مشى على رأسها يوم ٤ أغسطس سنة ١٩٢٦ قاصدان شهباء وبدلا من أن يسلك طريق قرية سليم وهو الأقرب ويسلكه المسافرون عادة بين العاصمتين سلك طريق المزرعة وهو أطول وأبعد خوفا من مباغتة. ثم قصد نجران فصدمه الهنيدات وقاتلوه قتال الأبطال، وبينما كان كبيرهم فضيل الله باشا الهنيدى يرقب حركات القتال بمنظاره أصابته رصاصة طائرة فرنسوية فخر شهيدا واستشهد فى هذه المعارك على طويرش وناصيف ناصيف وشاهين صالحة مع نخبة من المجاهدين من آل الحلبى والهنيدى. وخسر الفرنسويون طيارتين وعددا من الضباط ونحو ٧٠٠ جندى ودخلوا شهباء بعد معارك امتدت أسبوعا كاملا، وجعلوا منها معقلا حربيا حصينا نصبوا فيه المدافع وحشروا فيه المصفحات والطائرات وسلطوها على القرى المجاورة فاضطر أهلوها للاستسلام.

٢ ـ الزحف على المقرن الجنوبى

يختلف المقرن الجنوبى عن المقارن الأخرى بكون الزعامة المطلقة فيه لآل الأطرش فلهم الكلمة العليا فى شؤونه وأموره.

وما كانت هذه الاعتبارات لتخفى على الفرنسويين، ولذلك وجهوا جانبا كبيرا من قواهم إلى اخضاع قرى المقرن الجنوبى أو القبلى كما يسميه الدروز فسيروا حملة كبيرة زحفت فى أول يونيو من بصر الحرير إلى ديبين فدخلتها فى الساعة الواحدة بعد الظهر وفى يوم ٢ منه دخلت القارة ثم زحفت إلى أم الرمان فدخلتها بعد معركة حامية، وفى يوم ٤ منه دخلت صلخد عاصمة المقرن ـ ومن أكبر قرى الجبل وكان على الأطرش شقيق سلطان باشا يقاتلهم فى هذا الميدان. وقد تلا الاستيلاء على صلخد خضوع معظم القرى المجاورة لها.

٣ ـ الزحف على المقرن الشرقى

بعد ما وطد الفرنسويون أقدامهم فى المقرن القبلى وفى المقرن الشمالى التفتوا إلى المقرن الشرقى فأعد الجنرال أندريا حملة زحفت إلى أمتان (عاصمة المقرن) فدخلتها فى آواخر شهر سبتمبر بعد معارك عنيفة. ربما كان أعظمها شأنا معركة الرشيدات فقد غادر الجنرال السويدا يوم ١١ سبتمبر قاصدا المقرن الشرقى ومعه ٤٥٠٠ جندى و ١٢٠٠ جمل لحمل الماء والذخيرة و ٥٠ سيارة و ٨ طائرات وسبع مصفحات. فلما بلغ وادى الرشيدة حمل عليه المجاهدون وكانوا قد استعدوا للقائه فدارت معركة شديدة قادها سلطان باشا بنفسه واشترك فيها الأمير عادل أرسلان ورشيد وزيد الأطرش وصياح الحمود وشكيب وهاب.

وانتهت بارتداد الحملة إلى السويدا. على أنها عادت إلى العمل بعد ذلك فدخلت أمتان ووطدت أقدامها فى المقرن وأخرجت الثوار منه.

الجلاء إلى اللجاه والصفاء

ولقد استمرت معارك المقارن هذه نحو ستة أشهر. مايو ـ أكتوبر وانتهت بتوطيد أقدام الفرنسويين فى الجبل، وصادف حينئذ دخول فصل الشتاء فوقف القتال فى خلاله إلا

بعض مناوشات كانت تدور بين الثوار وكانوا يقاتلون بشكل عصابات وبين متطوعة الدروز فى الجيش الفرنسوى.

معارك اللجاه

ودخل فصل ربيع سنة ١٩٢٧ وللثوار فى الجبل قوتان: قوة فى الأنحاء الشرقية بقيادة سلطان باشا نفسه، وكانت تغير على القرى الموالية للفرنسويين وقوة فى اللجاه بقيادة الأمير عادل أرسلان ومحمد عز الدين الحلبى، وتضم مجاهدى آل الحلبى من سكان وادى اللوى والمقرن الشمالى وأنصارهم ومجاهدى إقليم البلان ووادى التيم ودروز الشوف الذين تطوعوا فى الثورة، وعملوا بقيادة الأمير عادل فقد اعتصموا جميعا باللجاه وتحصنوا فيه فسير الفرنسويون فى خريف سنة ١٩٢٦ حملات عليهم قيل أن عدد الأخيرة منها بلغ ثمانية آلاف مقاتل فكسرت وهزمت.

وما كاد فصل الشتاء يلفظ أنفاسه حتى أعد الفرنسويون حملة جديدة قيل أن عدد رجالها بلغ اثنى عشر ألف مقاتل حملت على اللجاه فى أواخر شهر مارس سنة ١٩٢٧ من شتى الجهات فدارت معارك عنيفة بين الفريقين امتدت نحو شهر بذل الفرنسويون فى خلالها جهودا عظيمة للتغلب على الثوار والاستيلاء على هذا المعقل الحصين فتغلبت فى أواخر شهر إبريل القوة على الشجاعة.

العصابات فى الصفا

ولجأ بعض الثوار الذى انسحبوا من الغوطة والمناطق الأخرى إلى جبل الصفا. لجأت إليه عصابات المقرن الشرقى الدرزية وعصابات اللجاه، وهى آخر من غادر الجبل وتتألف من عصابة سعيد عز الدين وعصابة الحلبية بقيادة محمد عز الدين وعصابة أبو هاتى وعصابة كنج صلاح وعصابة العوامرة وعصابة الشمال.

تلك هى العصابات التى استقرت فى الصفا فى أوائل شهر مايو سنة ١٩٢٧ قادمة من الجبل وللجاه والغوطة.

وكان سلطان باش يقيم يومئذ فى الشبكة ومعه نخبة من رجاله الأبطال، وقد صمم على مواصلة القتال حتى النفس الأخير.

والصفا من المعاقل الطبيعية المنيعة، وهو متصل بجبل الدروز اتصالا وثيقا من جهة الشرق، وسكانه وهم عرب الغياث مرتبطون بالجبل وقد اشتركوا في الثورة وأيدوها.

وأنشأ الجنرال أندريا بعد ما استقرت أقدامه في الجبل وأخضع المقارن المخافر على الحدود الشرقية وحشد القوى لمنع الطعام عن المجاهدين وقطع كل صلة لهم بالجبل ولمنازلتهم إذا حاولوا الغارة، فنضبت موارد الرزق وشح الطعام فاكتفوا بما كانوا يحصلون عليه من قمح العربان المجاورين لهم يدقونه ويأكلونه.

آخر حملة على الغوطة

وفي الصفا هذه تألفت آخر حملة للزحف على الغوطة وقد قادها سعيد العاص والأمير عز الدين الجزائري فزحفت يوم ١٠ مايو سنة ١٩٢٧ لمنازلة الفرنسويين وهذانص العهد الذي وضعه زعماء هذه الحملة وهم في الطريق.

نحن الموقعون أدناه رؤوساء عصابات الغوطة والشمال نعاهد الله ورسوله على العمل بالقواعد الآتية:

١ ـ الغنائم ـ إن الكسب الذي يحصل من إعانة أو غنائم أو غرائم يوزع بحسب العرف المتبع لدى الثوار.

٢ ـ نقبل جميع التنظيمات الملائمة لصالحنا العامة. وتناطر الأمور الإدارية بالمقررات العامة، وجميع ما يرد للقضية هو مال عام للثوار.

٣ ـ لا يجوز بيع أي شئ كان والتصرف بأي شئ عمومي كان إلا برأي اللجنة الإدارية وتصديق القائد، ويثبت قيد العدد بدفتر خاص، وعلى كل رئيس أن يقدم كشفا للقائد.

٤ ـ يعاقب كل من يتجاوز حدوده ويعتدي على إخوانه بقرار من الهيئة التأديبية وتصديق القائد.

٥ ـ تقرر اللجنة القرارات الخطيرة بالاشتراك، ولا يبت في أي أمر حربي كان أو بوظيفة حربية مستقلة إلا برأي القائد، وتناط بالقائد جميع الأعمال الحربية ولا يجوز لأحد أن يتدخل بالأعمال العامة.

ملحق: الكسب الهامل أي الغنم الذي يحصل بدون قوة هو مال عام للقضية، وأما الكسب الذي يحصل بالقوة في أثناء القتال فإذا كان بندقية أو حصانا فهو للغانم وأما إذا كان مقادير كبيرة فتحفظ باسم المصلحة العامة، وتمنح مكافأة للغانم.

«تعين الغرامات الخاصة والعامة بقرار خاص وجميع ما يرد من الإعانات يعتبر كمال خاص للقضية، ومحظور جدا على أى رئيس كان التصرف بالأموال العامة وممنوع جدا القيام بأعمال اللصوصية من أى كان. كما أن الأعمال الفردية ممنوعة أيضا».

وقصدت العصابة قرية الهيجانة ومنها سارت إلى بحيرة عتيبة فالعبادى فالقاسمية ولما صارت على أبواب الغوطة استقبلتها القوى الفرنسوية فدارت معركة بسيطة دخل الثوار على أثرها ثم قصدوا النشابية واحتلوا دار الحكومة وصادروا أوراقها (مقر ناحية تعرف باسمها فى شرقى الغوطة) ثم غادروها فدخلوا حوش خرابو ومنها اتجهوا إلى الزور (زوربالا) للتمكن فيه كما فعلت العصابة الأولى فى ابتداء الثورة.

وما كادوا يستقرون فيه حتى هاجمهم الجند من كل جانب قدارت معركة عنيفة امتدت سبع ساعات سقط فى خلالها رجال العصابة، ولما جن الليل جمع بعض الأحياء الجرحى من إخوانهم ومعظمهم من أبناء حى الميدان فحملوهم وعادوا بهم إلى بيوتهم فى دمشق. أما الباقون فزحفوا إلى جبل القلمون فشعرت القوى الفرنسوية بهم فتحركت لمطاردتهم فتفرقوا عند مسرابا. فذهب الأمير عز الدين مع رجاله بطريق حمورى، وذهب سعيد العاص من ناحية أخرى سالكا طريق الأشعرى ثم عاد فسلك طريقا آخر حتى بلغ حوش فاره وواصل السرى حتى أصبح الصباح فإذا هو قرب قصير دوما فكمن فى مغارة بمساعدة السكان حتى المساء ثم سرى قاصدا قلمون، ولما أصبح الصباح لجأ إلى الشعاب وظل يسرى فى الليل وينام فى النهار حتى وصل إلى شرق الأردن.

وقصد الأمير عز الدين عين الصاحب بطريق الدريج فهاجمه الجند قبل وصوله فدار قتال عنيف استبسل الأمير فى خلاله وكان يقاتل وهو سائر إلى العين للتحصن فى مغارة هنالك فبلغها أخيرا بعد ما فقد معظم رجاله، وتحصن فيها فأحدق به الجند من كل جانب فوالى إطلاق الرصاص عليهم فجندل منهم نحو ٧٠ وخر من رجاله نحو ٢٢ بين قتيل وجريح وطوق الجند المغارة وبدأوا يقذفون المجاهدين بالقنابل اليدوية فانفجرت إحداها فجرح ساعد الأمير فهرول إلى الباب يريد الخروج وكان عتاده قد نفد فهاجمته الجنود من كل جانب فاستبسل اثنان كانا معه وكثر الجند على الأمير فقبضوا عليه حيا ثم أعدموه بعد ما أبرز بطولة خارقة.

ونقل أهله جثمانه إلى دمشق على سيارة وابنه فى المستشفى الجنرال فاليبر قائد دمشق معترفا ببسالته وبطولته الخارقة. ولم تظهر عصابات فى الغوطة بعد ذلك.

فريق من شهداء الثورة السورية



أحمد مريود — عادل نكد — فؤاد سليم

فائق العسلى — الأمير عز الدين الجزايرى — الدكتور صالح قنباز

الأمير حمد الأطرش — توفيق الحلبى — حمد البربور

ـ ١٩ ـ

الإنكليز والثورة السورية

عمل ولاة الأمور الفرنسويون فى سورية وفى مقدمتهم الجنرال سراى والجنرال غاملان على إقناع وزارة الحربية الفرنسوية والرأى العام الفرنسوى بأن الإنكليز هم الذين دبروا الثورة السورية وأوقدوا نارها وحملوا السوريين على مقاتلة الفرنسويين، واعتمدوا فى إثبات مدعياتهم على تقارير كاذبة، وأقوال باطلة، لفقوها من هنا وهنالك ولاسيما على شهادة زعيم درزى ـ زعم الجنرال غاملان فى كتاب رسمى سرى أرسله إلى وزير الحربية الفرنسوية أنه ـ أى الزعيم كان مطلعا على كل شئ بحكم مركزه ـ فأكد لهم أن الإنكليز لم يترددوا فى مد يد المساعدة للثورة السورية، وأنهم كانوا يرسلون الذخائر والمآكل للثوار، وأن ضباطهم كانوا يترددون على الجبل ويوزعون الأموال على الثوار والزعماء.

وكتب الجنرال سراى يوم ٢٥ اغسطس إلى صديق له يقول: «أنا أعتقد أن هناك تدخلا بلشفيا فى الحوادث الأخيرة. بل تدخلا بريطانيا ولدى براهين على ذلك» ومذكرات هذا الجنرال طافحة بالوثائق المزورة لإثبات هذه الدعوى الباطلة، والقصد منها تبرير السياسة الغاشمة التى سار عليها هذا القائد وإيهام الجمهور الفرنسوى بأن الثورة نشأت عن عوامل خارجية لا انتقاضا من أهل البلاد وطلبا للخلاص من المظالم التى حلت بهم.

لقد كان الإنكليز فى جميع أدوار الثورة مع الفرنسويين على الثوار وقد عملوا من الساعة الأولى على إرضاء الفرنسويين باتخاذهم فى مناطق الحدود ـ ولاسيما فى شرقى الأردن ـ تدابير شديدة جدا فأرسلوا فى أوائل أغسطس دباباتهم فوقفت على الحدود لمنع الثوار من الدخول إلى تلك البلاد.

القبض على اللاجئين السياسيين

ومما يؤيد هذه الدعوى إنذار السلطة البريطانية فى شرقى الأردن لحسن الحكيم

وسعيد حيدر بمغادرة عمان حين وصولهما إليها يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٥ قادمين من جبل الدروز على أثر إصدار السلطة الفرنسوية أمرا باعتقالهما فسافرا فورا إلى معان ـ وكانت من أراضي الحجاز في ذلك الوقت.

وقبضت حكومة حيفا على جبل مردم بك حينما جاءها فى أواخر شهر سبتمبر من تلك السنة قادما من السويد بعد اندلاع ألسنة الثورة وسلمته إلى السلطة الفرنسوية فأقام عونى عبدالهادى ادعوى على حكومة فلسطين أمام المحكمة العليا لمخالفتها القانون فى هذا التصرف[١].

خطب الأمير عبدالله وتصريحات بيك باشا

ودعا الأمير عبدالله بن الحسين بعض شيوخ شرق الأردن إلى زيارته فحثهم على التمسك بالهدوء والتزام أسباب الحيطة فى الثورة السورية، وقال لهم إن الحكومة لا تتأخر عن معاقبة الذين يخالفون أوامرها. ثم أخذ عليهم العهود والمواثيق بأن يكفوا عن مساعدة الثورة.

وذهب الجنرال بيك باشا قائد الجيش العربى العام فى شرق الأردن إلى أربد وجمع الشيوخ وقال لهم «إن الحكومة البريطانية تحتقر كل من يترك بلاده ويذهب إلى سورية للاشتراك فى الثورة، وأنها وسمو الأمير عبدالله يرغبان فى منع أى إنسان كان من السفر إلى سورية وأنه يعرف أن هنالك بعض الجهلة من الذين يفضلون خدمة مصالحهم الخاصة ولا يحبون بلادهم يعملون لإقناعهم بتأييد الثورة. ولذلك فهو يطلب منهم أن لايعيروهم آذانا صاغية، وأن لا يصدقوا ما يقولونه لهم أن بريطانيا وسمو الأمير يرغبان سرا فى مساعدة الثورة ومحاربة الفرنسويين. فالأمر غير ذلك والحكومة البريطانية والأمير يرغبان فى البقاء على الحياد».

---

١ ـ غادر الدكتور عبد الرحمن شبندر جبل الدروز قاصدا حيفا بعد معركة السويدا الثانية يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٥ للاجتماع بإخوانه اللاجئين إليها ولم يدخلوا عمان خوف الاعتقال. واتصل بالسلطة الفرنسوية خبر وصولهم إلي حيفا فكتبت إلى السلطة البريطانية طالبة القبض عليهم وتسليميهم. فقبض على جمل مردم بك لأنه كان نازلا فى فندق الكرمل، أما الدكتور ونزيه بك فقد استطاعا النجاة بسيارة خاصة أقلتهما إلى جبل الدروز. وقد اعتقل جميل مردم بك نحو ثلاثة أشهر فى أرواد، وأطلق سراحه بعد وصول المسيو دى جوفنيل ولم يقدم إلى المحاكمة.

التدابير على الحدود

وفى يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٥ أذيع فى عمان البلاغ الرسمى الآتى:

رعاية لقواعد الحياد التام بسبب حوادث سورية الحاضرة لايسمح لأى كان بأن يعبر الحدود الفاصلة بين شرق الأردن وسورية من بعد الغروب حتى الفجر.

ويجوز فى أثناء النهار عبور الحدود بشرط أن يقدم العابر نفسه إلى أحد المراكز الآتية:

فى المفرق: إلى قائد فصيلة الجيش العربى.

فى الرمثا: إلى قائد فصيلة الجيش العربى.

فى أم قيس: إلى الحاكم.

وأنشأ البريطانيون مخافر على طول خط الحدود بين شرق الأردن وجبل الدروز لمنع الثوار من دخول البلاد فى الليل والنهار. ومما يستحق الذكر بهذه المناسبة ماوقع للمندوب السامى البريطانى لفلسطين وهو اللورد بلومر مع الجنرال بيك باشا. فقد زار الأول عمان فى تلك الأيام للإشراف على التدابير التى اتخذت لمنع الثوار من دخول البلاد. فسأل بيك باشا عن المخافر التى أنشأها على الحدود وهل هى كافية أم لا فقال له إنه فى حاجة إلى عدد من الجند. قال ولماذا لا تجندهم فقال لا مال عندى ولابد من استئذان وزارة المستعمرات والحصول على المال لدفع الرواتب. فأخرج المندوب على الفور دفتر الحوالات المالية وسلمة حوالة بما يحتاجه من مال وقال له يجب أن تبداء التجنيد فورا.

وقد شكر المسيو بلغة رئيس الوزارة الفرنسوية يومئذ للإنكليز موقفهم فى شرق الأردن. وقال إنه منطو على الوفاء والإخلاص كما نوه المسيو بريان وزير الخارجية الفرنسوية أمام لجنة الشئون الخارجية والجيش بإخلاص ولاة الأمور البريطانيين وتعاونهم الصادق فى قمع حوادث سورية، وأعرب عن اعتقاده بأن مثل هذا التعاون يدوم فى المستقبل.

منع الفلسطينيين من إقامة مظاهرات

وأراد أهل فلسطين أن يقوموا بمظاهرة وطنية كبيرة تأييدا لإخواتهم السوريين وإظهارا للعطف عليهم، وطلبوا من الحكومة السماح لهم بإقامتها فأبت ذلك فأذاعت اللجنة

التنفيذية العربية فى القدس بلاغا احتجت فيه على المنع، ودعت المسلمين إلى تلاوة الأدعية فى المساجد بعد صلاة الجمعة ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٥ وفى الكنائس بعد حفلات القداس يوم الاحد ٢٠ منه لتأييد الثورة السورية وكشف الضر عن السوريين.

دى جوفنيل فى لندن والقدس

وما كاد المسيو دى جوفنيل يتلقى أمر تعيينه لمنصب المندوب السامى لسورية حتى شد رحاله إلى لندن فبلغها يوم ١٩ نوفمبر فاجتمع إلى وزيرى الخارجية والمستعمرات وفاوضهما فى الشئون السورية ونال منهما وعدا بمساعدته فى مهمته.

ووصل المسيو دى جوفنيل إلى القدس يوم الإربعاء ٣١ مارس سنة ١٩٢٦ لزيارة المندوب السامى البريطانى والاتفاق معه على بعض الشئون الخاصة بسورية. فأضربت فلسطين يوم وصوله برا وبحرا احتجاجا على الفظائع التى ارتكبت فى عهده وكتب بعضهم على جدران القدس بأحرف بارزة «ليسقط المسيو دى جوفنيل جلاد سورية» وكانت القدس مضربة مقفلة حين وصوله لها. وقد حاول بعضهم إقامة مظاهرات فمنعته السلطة[1].

ولقد كانت هذه الزيارة مجلى لعاطفة فلسطين نحو سورية. فقد أمطره البرق وابلا من الاحتجاجات باستنكار تقتيل العزل وتدمير معالم الحضارات «وهو أفظع حادث يسجله التاريخ على مدعى الحضارات فى القرن العشرين» كما جاء فى برقية النادى العربى فى نابلس. فعاد من رحلته حانقا على الفلسطينيين الذين قابلوه تلك المقابلة السيئة، وعلى حكومتهم لأنها لم تتخذ التدابير اللازمة لوقايته والدفاع عنه. وقد شاع يومئذ أن ولاة الأمور البريطانيين فى فلسطين نصحوه بعدم زيارتهم خوفا من هذه النتائج فأبى إلا القدوم، فعاد وهو يجرر أذيال الخيبة والفشل.

---

(١) لما وصلت الأخبار إلي مصر بإضراب فلسطين إحتجاجا علي زيارة المسيو دي جوفنيل أرسلت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني بمصر البرقية الآتية إلى زميلتها اللجنة التنفيذية في القدس:
باسم سورية المتألمة نرجو أن تبلغوا شكرنا الخالص إلي جميع إخواننا في سوريا الجنوبية لتضامنهم مع سائر إخوانهم السوريين بالاحتجاج والاضراب العام عند حلول مسيو دي جوفنيل بين ظهرانيم فنفاخر بهذا التضامن الذي هو الأساس لاستقلال الوطن ووحدته.

التعاون الإنكليزى ـ الفرنسوى فى الأزرق

وتجلى التعاون الإنكليزى ـ الفرنسوى بأجلى مظاهره حينما نزح المجاهدون إلى الأزرق فى خريف سنة ١٩٢٦ فقد أسرف ولاة الأمور الإنكليز فى شرق الأردن فى التضييق عليهم وما كان عددهم يقل عن ثلاثة آلاف فى أول الأمر بين رجل وامرأة وشيخ وطفل ـ لحملهم على الاستسلام للفرنسويين والخضوع لهم.

وكان أول تدبير عمدوا إليه أنهم أصدروا أمرا إداريا منعوا فيه الإقامة فى الأزرق على الرجال القادرين على حمل السلاح ـ كما أصدروا أمرا بمنع حمل السلاح وبمصادرته وسيروا قوة عسكرية كبيرة لتنفيذ آوامرهم.

وفى يوم ١٠ ابريل أذيع فى عمان المرسوم الآتى بإعلان الإدارة العرفية فى الأزرق ونصه: «بما أن البلدان الواقعة حول الأزرق اصبحت بحالة قلق ـ أعلن لإشعار آخر أن المنطقة المبينة فى مايأتى هى خاضة للحكم العرفى، وكل من يخالف ـ ضمن حدود هذه المنطقة أوامر السلطة العسكرية يعرض نفسه للمحاكمة أمام مجلس عسكرى ويجازى بالعقوبات التى تشير بها السلطات العسكرية.

«ان المنطقة المعلن فيها الحكم العرفى هى محاطة بخط بين المراكز الآتية:

«من تلول الرقيات ـ حمام الصارة ـ قصر العمرة ـ ومن آخر نقطة واقعة إلى جنوب قصر العمرة إلى طريق بغداد ـ وطول طريق بغداد إلى جبل كرما ـ شمالى غربى تلول الشبهات ـ شمالى تخوم شرق الأردن الشمالية».

وأذا ع قائد القوة البريطانية فى الازرق يوم ١٣ إبريل سنة ١٩٢٧ المنشور الآتى:

«حيث إن الأوامر الصادرة التى تقضى بأن تستعمل منطقة الأزرق ملجأ للنساء والأولاد ولغير المحاربين فقط. لا ملجأ للمحاربين أو مكانا للحرب والقتال لم تنفذ، لذلك فقد أعلنت الحكم العرفى فى الأزرق والمنطقة المجاورة له. وقد اتخذت الترتيبات لإرسال قوة من الجند لتنفيذ أوامرى هذه.

«إن الأولاد والشيوخ مسموح لهم فى البقاء بالأزرق. على أن لا يسمح للرجال المسلحين ومن يرى قائد القوة بأن وجودهم فى المنطقة مما يهدد السلام فى البلاد بالبقاء فى تلك الآونة، ولذلك فانى آمر جميع هؤلاء بأن يغادروا منطقة شرق الأردن».

وعلى أثر نشر هذا المرسوم صدرت الأوامر إلى قوة الحدود الفلسطينية بالسفر إلى الأزرق، ويبلغ عددها أربعة آلاف جندى فوصلته فى أواسط شهر إبريل سنة ١٩٢٧ مجهزة بدبباتها ورشاشاتها وطائراتها ومدفعيتها ورابطت على الطريق الشرقى - وهو طريق المجاهدين إلى جبل الدروز، وبدأت تنفذ أحكام الادارة العرفية بشدة وصرامة.

طرد اللاجئين

ولما رأى الفرنسويون أن هذا التدبير لم يعد بالفائدة التى أملوها واصلوا السعى عند ولاة الأمور الإنكليز لتشديد الضغط على اللاجئين فكان لهم ماأرادوه. فأصدر الكابتن كروب قائد منطقة الأزرق يوم ١٧ يونيو سنة ١٩٢٧ المنشور الآتى:

«بما أن الشروط التى بموجبها يمكن مساعدة الموجودين فى المنطقة العسكرية الآن للرجوع إلى أوطانهم قد أعلنت وأذيعت فإنى أعلن هنا بأن جميع الذين ليسوا من سكان شرق الأردن، والذين ليس لهم وسائط معيشة ظاهرة فى الأزرق يجب عليهم العودة لأوطانهم بدون تأخير وعليه أعطوا مهلة ١٤ يوما من تاريخ هذا الإعلان حتى يمكنهم تجهيز أنفسهم للرحيل. وبعد انتهاء هذه المدة يطرد من المنطقة كل من يخالف هذا الأمر».

سعى الفرنسويين فى الأزرق

وزار الأزرق فى تلك الأثناء الكولونيل أرنو مدير الاستخبارات الفرنسوية فى سورية ومعه مستشار درعا الفرنسوى والشيخ محمود أبوفخر قاضى المذهب الدرزى - وهو أحد المستسلمين والكولونيل كوكس المعتمد البريطانى فى عمان والكولونيل ستراتفورد قائد الجيش العربى بالوكالة وقائد قوة الطيران البريطانية، وعقدوا اجتماعا حضره من الدروز اللاجئين عبدالكريم عزالدين وهلال عزالدين وحسنى صخر وبرجس الأطرش وعبدالكريم عامر وسعيد عزالدين وسلامة النجم الأطرش فتكلم المعتمد البريطانى وقال للرؤساء: كفى ماوقع وإنه يجب عليهم ان يعودوا إلى منازلهم وأن الحكومة الفرنسوية لا تضمر لهم شرا وإنما تهيئ لهم جميع الأسباب اللازمة لراحتهم. فقالوا إنهم يعودون إذا حقق المطلبان الآتيان:

١ ـ إعلان عفو عام عن جميع الدروز الذين اشتركوا فى الثورة من دون قيدٍ ولا شرط.

٢ ـ إعلان الوحدة السورية وإجابة طلبات سورية.

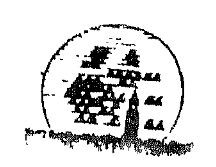
فأجابهم الكولونيل ارنو عن المطلب الأول بان الحكومة الفرنسوية تعفو عن جميع الدروز ماعدا سلطان باشا الأطرش وصياح الحمود الأطرش ومحمد عزالدين الحلبى وفؤاد الحلبى. أما متعب الأطرش فلم يقرر شئ بشأنه، والغالب انه من الذين يشملهم لعفو. وقال عن المطلب الثانى إن المسيو بونسو سيعلن الوحدة السورية عند قدومه، ويحقق آمال البلاد فيجب ان يطمئنوا. فطلبوا إمهالهم خمسة ايام للبحث واجتمعوا وتناقشوا وانقسموا إلى فريقين: فريق وهو الأكثر يرى الاستسلام والرجوع باعتبار ان طلبات الأمة قبلت، وفريق وهو الأقل يرى النزوح إلى البادية والإقامة فيها وعدم الرجوع إلى البلاد قبل إجابة مطالبها فعلا وتحقيق أمانيها كاملة.

وببين الزعماء الذين استسلموا فى الأزرق عبدالغفار الأطرش وعلى الأطرش واسد الأطرش ومتعب الأطرش وبلغ عدد الذين عادوا يومئذ نحو ألفى نسمة.

وقد ظل سلطان باشا على رأس الذين رفضوا الرجوع فنزح معهم إلى قريات الملح فى البادية، ويبلغ عددهم نحو ١٥٠٠ ومن كبارهم الأمير عادل ارسلان وصياح الحمود الأطرش ومحمد عزالدين الحلبى وعلى عبيد وزيد الأطرش وعقلة القطامى (زعيم مسيحى الجبل) والشيخ يوسف العيسمى وغيرهم.

ولابد لنا من القول أن الحكومة البريطانية عرضت على سلطان الأطرش أن يأتى إلى فلسطين وينزل ضيفا عليها وتعهدت بمعاملته بإحسان ففضل الإقامة فى البادية حيث يكون حرا طليقا.

وبعد ما أقام نحو ثلاث سنوات فى قريات الملح انتقل إلى النبك، ثم قصد الكرك ولايزال فيها معلنا انه لايعود إلى بلاده حتى تنال أمانيها كاملة، ومفضلا حياة الغربة علي حياة الذل والاستعباد.



ـ ٢٠ ـ

الثورة وجمعية الأمم

مساعى اللجنة التنفذية والوفد السورى في جنيف وباريس

بسطنا فى الفصول السابقة حين الكلام على أعمال السوريين فى خارج بلادهم ماقامت به اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى ووفدها من جهود فى أوربا للدفاع عن قضية سورية، ونشرنا جانبا من مذكراتها وتقاريرها. ونقول هنا إنه ما كاد علم الثورة ينشر فى سورية وينادى مناد حتى برزت اللجنة إلى الميدان. وكان أول ما فعلته أنها أرسلت يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٥ البرقية الآتية إلى الهيئة العامة لجمعية الأمم بمناسبة انعقادها يومئذ:

«قررت اللجنة التنفيذية أن ترفع إلى جمعيتكم المحترمة مرة أخرى ما نتمناه من ظفر المبادئ التى قامت عليها اعظم هيئة أنشئت لإقامة العدل والسلام، ولتكون ملجأ للشعوب المظلومة، وتستميحكم اللجنة عذرا بتذكيركم بأنها كانت ترفع إليكم كل سنة شكاوى ومطالب الشعب فى سورية وفلسطين، ولكن يظهر أن الاهتمام اليسير الذى لقيته تلك المطالب من جمعية الأمم دفع قسما من الأهالى إلى اليأس وأفضى إلى حالة محزنة تتخبط فيها البلاد اليوم وتظهر هذه الحالة ظهورا محزنا فى الدماء التى تسفك والقرى التى تدمر. فاللجنة ترجو مرة أخرى من جمعيتكم المحترمة أن تتدخل فى الأمر وأن يقتصر تدخلها على وضع حد لأعمال التخريب التى تجرى فى سورية الآن لمنع القتال من أن يتطور تطورا يجر الكوارث. بل يتناول على الأخص سماع صوت الشعب الذى يطلب العدالة فى سورية وفلسطين وذلك بإرسال لجنة تحقيق تبحث عن أسباب الثورة الحقيقية وتقف على شكاوى الأهالى وتسمع أصواتهم مباشرة بطريقة لاتشو بها شائبة وها أن أهالى تلك البلاد التاعسة يضعون فى جمعية الأمم وتدخلها المباشر بقية ماعندهم من أمل فى العدل والإنصاف وما برحوا يعدونها الملجأ الوحيد».

مفاوضات باريس والقاهرة

واتصل المسيو دى جوفنيل على أثر تعيينه مندوبا ساميا لسورية بالأمير جورج لطف الله شقيق الأمير ميشيل لطف الله رئيس اللجنة التنفيذية والوفد السورى، وأظهر رغبته فى التعاون مع اللجنة ووفدها كما أظهر ميله إلى الاجتماع بالأمير شكيب عضو الوفد فتم اجتماعهما فى باريس وسلمه الأمير المذكرة الآتية وقد ضمنها مقترحاته لحل القضية السورية، قال:

« نعترف بأن فرنسا تقدر على تدويخنا بالقوة، لكننا واثقون بأن شرفنا القومى يأبى إلا أن نرفع رؤوسنا فيما بعد عند كل فرصة ملائمة، ولهذا نرى أنه لا يصعب لأجل مصلحة الأمتين إيجاد شكل وئام وسلام بين فرنسا وسورية يضع حدا لأسباب النزاع بيننا .

إن فرنسا منذ سبع سنوات قد بذلت مليار ين ونصف مليار من الفرنكات فى سورية، وتلف نحو عشرة آلاف عسكرى من جيشها (لم يدخل فى هذا الإحصاء قتلى الحرب السورية إلى الساعة الحاضرة) وقد خسرت فى البلاد العواطف التى كانت تعتمد عليها حتى فى الأوساط الكاثوليكية، أفلا يمكن النظر فى حل لهذا الأزمة بأسلوب يغنيها عن اطراد الخسائر المستمرة التى هى مضطرة إليها واسترداد العواطف التى خسرتها؟

نعم إنه مع حسن النية ونظرة صائبة فى مطالب الفريقين يمكن الوصول إلى ذلك.

فالسوريون يطلبون قبل كل شئ استقلالهم التام الناجز نظير سائر الممالك المستقلة ويبتغون التمتع التام بسلطانهم القومى، ويريدون إذا أن يكونوا داخلين فى جمعية الأمم أى انهم يريدون الاستمتاع بجميع نتائج الاستقلال من الوجه الفعلية ومن الوجهة القانونية.

إن إخواتنا اللبنانيين يريدون لأنفسهم دولة مستقلة بنفسها، فنحن نبتغى هذا الخلاص لدولة لبنان كما لدولة سورية، إلا أن هذه الأقضية الثلاثة صيدا وصور ومرجعيون ومقاطعة طرابلس وأقضية البقاع وبعلبك وراشيا وحاصبيا يكون لها الحق بإعطاء الأصوات العمومية ان تختار أى القطرين تريد أن تتبع، سورية أو لبنان، أما بلاد العلويين فتدخل ضمن سورية

ومن جملة نتائج الاستقلال الآتى حق كل من سورية ولبنان فى التمثيل السياسى الخاص

فى لبلدان الأجنبية، ثم إنه لأجل الاعتراف بالضحايا التى بذلتها فرنسا فى سورية ولبنان يعترف نواب الشعبين السورى واللبنانى لفرنسا بعدد معلوم من المنافع الاقتصادية نلخص فيما يأتى:

السوريون يتعهدون باستثمار خيرات بلادهم الطبيعية ـ أى أنهم اذا لم يقدروا على القيام به مستقلين بانفسهم لا يلجأون إلا إلى رأس المال الفرنسوى والصناعة الفرنسوية، وإن جميع قروض الحكومة والبلديات لا تعقد إلا فى فرنسا. وإن مدربى الجيش السورى يؤخذون من ضباط الجيش الفرنسوى، وإن تعليم اللغة الفرنسوية يكون عاما إلزاميا ولا يكون فى مملكة سورية حامية فرنسوية، لكن إذا اشتهى لبنان ذلك فإن سورية لا تعارض فيه كذلك فى قضية القاعدة البحرية التى يجوز ان فرنسا تطلبها. وأخيرا لأجل توطيد العلاقات الأخوية بين الأمتين تعقد محالفة بين فرنسا وسورية إلى ثلاثين سنة، وتضع سورية فى حال الحرب تحت تصرف فرنسا عددا من الجند يصير الاتفاق عليه وإنما نزارة دخل سورية فى تمنعها من تجهيز هذا العدد من الجند فتترك امر تجهيزهم وتسليحهم للدولة الفرنسوية كما أن هذه الدولة تأخذ على نفسها أن تخف لمعاونة سورية فى حال الخطر.

إن تعيين شكل الحكومة فى المستقبل يتعلق بإرادة الشعب التى تظهر بواسطة نوابه المنتخبين بصورة قانونية، فإذا تم الاتفاق ووقع عليه تؤلف لجان من المتخصصين لوضع جزئيات الإدارة الجديدة،

على أن الاتفاق على الخطوط العامة لهذا القرار يجب أن يعقد مع زعماء الأحزاب الوطنية ولا يدخل فى ذلك المأمورون،

وإذا كان ثمة شك فى قبول الشعب بهذه الاقتراحات تعين جمعية الأمم لجنة مؤلفة من رجال من البلدان المتحايدة ويكون انتخاب هؤلاء الرجال بالوفاق مع كل من الفريقين فتذهب هذه اللجنة إلى البلاد لتحقق ما إذا كانت هذه المطالب مطابقة لرغائب الاهلين أم لا.

فإذا وقع على الاتفاقات أو وجدت حاجة إلى تحقيق لجنة تذهب من قبل جمعية الامم وأكملت التحقيقات وأتت بها تعلن فرنسا الأمان العام حتى يمكن الرجوع إلى الحالة المعتادة وتنصرف العساكر الفرنسوية تدريجا وتقوم مظاهر الود مؤذنة بالحالة الجديدة وحينئذ تبدأ المحبة الأكيدة،

وأما فى دور الانتقال الذى يسبق استتباب الحكومة المنتظمة فيرضى نواب الشعب السورى بالاستعانة بآراء أخصائيين أوربيين يؤخذون من البلاد المحايدة ويكلفون الموازرة على توطيد إدارة منتظمة فى البلاد» انتهى.

الثورة وجمعية الأمم ولجنة الانتدابات

وفى أواسط شهر ديسمبر سنة ١٩٢٥ نشرت سكرتيرية جمعية الأمم البيان الآتى عن الثورة السورية.

تعقد لجنة الانتدابات الدائمة فى روما فى ١٦ فبراير فى الساعة الحادية عشرة صباحا اجتماعها الاستثنائى الخاص بدرس تقارير الحكومة الفرنسوية عن إدارة الانتداب فى سورية ولبنان. وتؤلف هذه اللجنة من المركيز تيودولى الإيطالى رئيسا والسنيور فريرى وإندراد البرتغالى والسنيور ليوبولد بالسيوس الأسبانى والمسيو روم الفرنسوى والسير فريدريك لوجارد الانكليزى والمسيو بيار ادرتس البلجيكى والمسيو فان ريس الهولندى والسيدة حنه بوجودو يكسيل الاسوجية والمسيو شيوكى باماناك اليابانى والمسيو وليام رابار السويسرى والمسيو حريشو مندوب مكتب العمل الدولى أعضاء.

ومعلوم أن لجنة الانتدابات تلقت فى شهر اكتوبر الماضى قبيل اجتماعها السابع تقرير الحكومة الفرنسوية السنوى عن حالة سورية ولبنان فى سنة ١٩٢٤.

وبالنظر إلى الاضطرابات السائدة بسورية والى الدعوات الكثيرة التى وجهت إليها سزلت اللجنة: هل يجب عليها ان تبدأ بدرس حالة سورية بلا تأخير أم لا؟ ولكنها رأت انه لابد لها من الحصول على تقرير خطى مصحوب بوثائق كثيرة عن حوادث سنة ١٩٢٥ وعن الدواء الذى تقترحه الحكومة الفرنسوية لمعالجة الحالة، وذلك لكى تتمكن من درس المشكلة السورية درسا دقيقا مفيدا.

ولكى يتيسر للدولة المنتدبة الوقت الكافى لإعداد تقريرها ويتمكن مجلس جمعية الأمم من الوقوف على ملاحظات لجنة الانتدابات فى اجتماعه فى شهر مارس المقبل قررت اللجنة عقد اجتماع استثنائى فى أوائل سنة ١٩٢٦ تسمع فيه أقوال ممثلى الحكومة الفرنسوسة وتمكنهم من إيضاح المسألة.

وقد صرح المسيو كلوزن ممثل فرنسا لدى لجنة الانتدابات حينئذ بمايأتى قال:

«إن اللجنة واقفة على الاضطرابات القائمة فى جبل الدروز. وقد اتخذت الحكومة الفرنسوية الوسائل اللازمة لإعادة الأمن إلى نصابه. وبدأت تنفذ الآن هذه الوسائل، فأنفذت قوة يقودها الجنرال غاملان إلى السويدا فى ٢٤ سبتمبر وأخذت سلطة الحكومة المنتدبة تعود إلى جبل الدروز بحيث جاء كثيرون من زعماء الثورة فى ١١ اكتوبر وقدموا الطاعة للسلطة الفرنسوية، وفى ١٨ منه قدم رؤساء الدين فى قنوات وأفراد أسرة عامر الطاعة وطلبوا الأمان. على ان حمد بك وسلطان باشا الأطرش لايزالان لاجئين إلى الجبل ولم يسلما سلاحهما بعد.

«ثم إن بعض المحرضين من السكان انتهزوا فرصة الثورة فى جبل الدروز وحاولوا إحداث اضطرابات فى حمص وحماه ودمشق بمساعدة فريق من البدو الذين دأبهم السلب والنهب، ولكن هذه الاضطرابات قمعت على التوالى بكل سرعة ولن تهمل الحكومة الفرنسوية تدابير تعيد الطمأنينة التامة إلى النفوس موقنة بأن لجنة الانتدابات الدائمة سترى نتيجة مجهوداتها فى اجتماعها الاستثنائى المقبل.

«إن صك الانتداب يقضى على فرنسا فى سورية ولبنان ـ كما تعلمون ـ بأن تسن نظاما أساسيا لهذين البلدين قبل ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦. وقد الفت لجنة لهذا الغرض برياسة المسيو بول بونكور تضم بين أعضائها اثنين من البرلمان، وأحد الموظفين فى مجلس شورى الدولة، وبدأت هذه اللجنة فى وضع النظام الاساسى (الدستوز) سورية ولبنان بالاتفاق فى الرأى مع السلطات المحلية ـ مراعية مصالح السكان السوريين واللبنانيين وآمالهم.

«وإن أهم مايعنى به المسيو بو بونكور وأعضاء لجنته هو تأمين التعاون التام بين ممثلى السكان المفوضين فى القيام بهذه المهمة الدقيقة بالاتفاق مع المندوب السامى وعلى قاعدة الاستقلال الذاتى الواسعة النطاق المنصوص علها فى عهد جمعية الأمم وفى صك الانتداب، وذلك مع مراعاة جميع العوامل السياسية والجغرافية والطائفية.

«وإننا نؤمل أن تساعد الروح الحرة التى تشرف على استشارة التقرير الإضافى الذى تقدمة الحكومة الفرنسوية إلى السكرتيرية العامة فى يناير ١٩٢٦ إلى نتائج عظيمة فى هذا الموضوع. وهو التقرير الذى سيمكن لجنة الانتدابات الدائمة من الوقوف على الحقائق وإبداء ملاحظاتها إلى مجلس جمعية الأمم فى الاجتماع الذى تعقده فى شهر مارس ـ اهـ.

تقرير اللجنة التنفيذية

وفى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٢٦ أرسلت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى بمصر طائفة من البيانات والمستندات إلى لجنة الانتدابات الدائمة لجمعية الأمم لدرسها فى اجتماعها الخاص بالثورة السورية فى روما يوم ١٦ فبراير وهذا نص التقرير.

ياصاحب السعادة:

كنا قد قدمنا إلى سعادتكم بمناسبة اجتماع الجمعية العمومية السادسة لجمعية الأمم بيانا مفصلا عن تنفيذ الانتداب فى سورية ولبنان كما نفعل فى السنوات السابقة. وقد تحققنا الآن والألم ملء نفوسنا أن نظام الانتداب الذى نفذته الحكومة الفرنسوية قد أفضى إلى النتائج المهلكة التى يردد العالم كله صداها السيئ فى الوقت الحاضر كما كنا نحاذره.

وقد هال حرج الوقف اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى وخشيت وقوع العواقب الوخيمة التى تعرضت سورية لها. فاسرعت وطلبت من جمعية الأمم مرارا متعددة أن تتدخل تدخلا مباشرا لحجب الدماء بإرسال لجنة تحقيق فى الحال إلى مكان الوقائع.

ولكن آلام سورية واستغاثات ممثلى أحزابها السياسية فى الخارج لم تستطع ويااللاسف أن تمنع لجنة الانتدابات من تاجيل فحص الحالة فى سورية إلى موعد بعيد هو ١٦ فبراير. فاغتنمت السلطة الفرنسوية فرصة هذا التأجيل ولم تتردد فى استخدام جميع ماالديها من الوسائل لكى تخمد بالحديد والنار لهيب الثورة التى اضطرمت نيرانها.

على أنه لم يبق أدنى شك فى مسئولية عمال الانتداب عن إثارة ثورة جبل الدروز وقد اتضحت هذه المسئولية كل الوضوح من تقارير الموظفين الفرنسويين ومن التحقيقات التى أجراها أشخاص كثيرون من جملتهم مسيو كيرللس الذى أوفدته جريدة إيكودى بارى إلى سورية لدرس الحالة فكتب سلسلة مقالات عديدة مؤيدة بالمستندات كشف فيها الحجاب الذى كان مسدولا على الفضائح الإدارية الفرنسوية.

وقد أرسلنا إليكم بتاريخ ٢٩ يناير الماضى المستندات الآتية:

١ ـ نسخة من بيان مفصل عن وقائع دمشق.

٢ ـ نسخة من عريضة قدمها فيضى الأتاسى متصرف حماه إلى المندوب السامى الفرنسوى عن ثورة حماه.

٣ ـ نسخة من احتجاج قدمته سيدات حماه إلى المندوب السامى الفرنسوى.

٤ ـ نسخة من كتاب الاستقالة الذى قدمه نسيب مسلم الخياط قائمقام الزيدانى بسبب ضرب مضايا.

وهذه المستندات توضح تطورات الثورة وامتدادها وتبين وسائل التنكيل والإرهاب اللذين استخدمتها السلطة الفرنسوية بدعوى قمع الثورة. وقد ورد فيها وصف لكارثة دمشق وكارثة حماه وتدمير القرى الآمنة فى جوار دمشق. ومما يزيد فى قيمتها أنها مستندات صادرة من رجال ذوى صبغة رسمية من انصار الانتداب ومقدمة إلى ممثل فرنسا. ونضيف إليها الآن المستندات التالية:

١ ـ تقرير عن وقائع دمشق.

٢ ـ تقرير عن وقائع حماه.

٣ ـ تقرير عن وقائع وادى التيم (حاصبيا وراشيا).

٤ ـ تقرير عن سلسلة من الفظائع التى ارتكبتها الجنود الفرنسوية.

وقد استقينا الوقائع المذكورة فى البند ـ ٤ ـ من مصادر مختلفة أخصها بالذكر البلاغات الرسمية الفرنسوية والجرائد السورية. وكل ما نقلناه عن الصحف لم تصدر السلطة تكذيبا له. وقد حرصنا على أن لا نذكر أية واقعة لم تثبت من صحتها.

ونقدم مع هذه المستندات بيانا مفصلا بعنوان (امسألة السورية ـ المفاوضات مع مسيو دى جوفنيل فى باريس ومصر وبيروت) واضفنا إلى هذا البيان ملحقين ـ الأول هو المذكرة التى قدمتها اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى إلى مسيو دى جوفنيل فى مصر. والثانى الكتاب الذى كتبته اللجنة إليه. وفى ذيل البيان تقرير من الدكتور عبدالرحمن شهبندر عن أسباب الثورة ومطالب البلاد.

وهذا البيان يظهر جليا أن جميع المساعي التي بذلها فريق من كبراء السوريين، وممثلي الأحزاب السياسية في سورية وفي الخارج قد اصطدمت بتعنت السياسة الفرنسوية،

وإصرارها علي عن السير فى خططها الاستعمارية.

فبناء على ما تقدم:

ولما كان إعطاء فرنسا الانتداب على سورية مناقضا للمادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم. إذ لم يكن لرغائب الأهالى الاعتبار الأول فى اختيار الدولة المنتدبة فضلا عن كون اللجنة الأميركية التى طاقت سورية سنة ١٩١٩ قررت أن ٩٠٪ من الأهالى يعارضون فى إعطاء فرنسا الانتداب على سورية.

ولما كان الأمن لم يستقر قط استقرارا تاما فى سورية منذ احتلتها الجنود الفرنسوية. بل كان الثورات متعاقبة فى جميع الاقطار السورية وأبلغت وقائعها إلى جمعية الأمم فى حينها.

ولما كانت مهمة الانتداب تقضى على فرنسا بأن تصون وحدة الاقطار السورية، ولكنها أجرت مفاوضات مع تركيا رغبة فى الحصول على عطفها وسلمتها قسما من الأراضى السورية، وقبلت حدودا مصطنعة لسورية تركت البلاد تحت رحمة جيرانها من الشمال (اتفاق أنقرة).

ولما كان الغرض المعترف به من الانتداب هو إزالة أضرار الحروب ومساعدة البلاد على الترقى والفلاح وإرشاد الأمة فى سيرها إلى الاستقلال. ففعلت فرنسا عكس ذلك. إذ حولت سورية إلى ساحة حرب عم فيها الخراب وتراكمت أنقاضه كما وقع فى دمشق وحماه والقنيطرة وحاصبيا وراشيا وفى جميع أنحاء البلاد. وبدلا من أن تساعد على ترقى البلاد زادت الحالة الاقتصادية حرجا بإنشاء بنك امتص ما فى البلاد من الذهب وجعلت تداول الأوراق التى أصدرها إلزاميا. وهى أوراق معرضة لجميع التقلبات فأفضى ذلك إلى إضعاف الثقة المالية بالبلاد. وألغت الحقوق السياسية التى كان السوريون يتمتعون بها عندما كانوا فى السلطنة العثمانية، وحرمتهم من حقهم فى تقرير مصيرهم. وقسمت سورية إلى دول متعددة أرهقتها بالضرائب لتسد حاجات جيش من الموظفين لا فائدة منه.

ولما كان حكم الشعب بالقوة مكروها فى كل حين. وكانت فرنسا قد أثارت الأحقاد بسلوك موظفيها ونزعت كل ثقة من النفوس وجعلت الشعب السورى يعتقد أن فرنسا تسعى إلى إبادة قسم من الأهالى ليستفيد قسم آخر.

ولما كان عدم تدخل جمعية الأمم فى العراك الحالى يسوق البلاد إلى الخراب التام ويوجد فى الشرق مباءة للاضطرابات الوخيمة من جميع الوجوه.

فاللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى تناشد جمعية الأمم بكل مافيها من قوة

لفحص الحالة الجديدة التى أوجدت فى سورية، وتأمر فى الحال بإرسال لجنة تحقيق تضع قرارا عن الموقف وتعيد إلى سورية السكينة والسلام والى جمعية الأمم سمعتها الحسنة وثقة الشعوب المكلفة حمايتها.

وترى اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى أن فرنسا قد فشلت فى القيام بانتدابها وأن على جمعية الأمم أن تعيد النظر فى القرار الذى منحتها به هذا الانتداب. فتعطى سورية الاستقلال الكامل الذى مابرحت تطالب به.

ولا يسع جمعية الأمم أن تنظر بعدم اكتراث إلى إطالة حرب مدمرة تجتاح سورية وتغرقها فى دماء أبنائها. ولا تستطيع أن تتبرأ من المسئولية الخطيرة عن الأعمال المريعة التى ترتكب فى هذا الوقت.

الوفد السورى فى روما

ووصل إلى روما فى الأسبوع الأول من شهر فبراير الوفد السورى ليكون حاضران فى أثناء الجلسة التى تعقدها لجنة الانتدابات ولمقابلة رجالها وتنوير أذهانهم وإطلاعهم على حقيقة الحالة فى سورية، وقد أدى مهمته على الوجه الأكمل.

ومما يستحق الذكر أنه لما قابل أعضاء لجنة الانتدابات ملك إيطاليا صباح ١٨ فبراير استفهم من المسيو روبير دى كيه مندوب فرنسا عن تفاصيل ضرب دمشق.

التقرير الفرنسوى عن الثورة وجواب الوفد السورى

ووضع المسيو دى جوفنيل تقريرا مفصلا عن أسباب الثورة السورية رفعة إلى لجنة الانتدابات للنظر فيه. وجاء روما المسيو روبير دى كيه مندوب فرنسا المفوض لدى جمعية الأمم فى المسألة السورية ليجيب على أسئلة اللجنة حين درس التقرير.

والتقرير مطول وهو يتضمن نبذة تاريخية عن حوادث الثورة ويقول إن الاضطراب السياسى فى جبل الدروز نشأ على الأخص عن وضع الجبل الذى لا يفتأ بحالة الثورة والانقسام بين أسره الكبرى بسبب الزعامة والمصالح. ثم سرد الحوادث العسكرية وقال إنه لولا الجنود الفرنسويون لأتلف ثوار جبل الدروز ودمشق سفح جبل لبنان البحرى، وإن الحكومة الفرنسوية ترى أنه لا يرجح ان يلقى الثوار سلاحهم من دون إظهار القوة

العسكرية دائما، وستختار القيادة العسكرية الوقت الملائم للعمل.

وفند الوفد السورى فى تقرير رفعه إلى لجنة الانتدابات يوم ٢١ فبراير التقرير الفرنسوى فكذب:

١ ـ مازعمه عن نقص الأعمال الفنية عند السوريين، فى حين أن الاحتلال قضى على يسر البلاد تماما.

٢ ـ ما اتهم به الوطنيين السوريين فى مصر وحزب الشعب، فقد قالوا إنه من البديهى أن تؤيد الجالية السورية فى مصر القضية الوطنية، أما الإعانات التى قيل انها أرسلت إلى الثائرين فهى وسيلة يقصد منها إيهام الرأى العام بأنه لولا هذه الإعانات لما نشبت الثورة فى سورية.

والقول بأن هنالك أناسا يسعون إلى الحصول على عرش سورية من المضحكات فجميع السوريين لا يرمون إلا لغرض واحد وهو استقلال بلادهم فى ظل نظام ديمقراطى ومعلوم أن حزب الشعب مؤلف من فئات ديمقراطية ومفكرة.

٣ ـ أما فيما يتعلق بمحاولة المسيو دى جوفنيل وضع دستور للبلاد فإن السوريين لم يحتجوا على أن ولاة الأمور فى بلادهم هم من المسيحيين أو من الترك، بل احتجوا لانهم رأوهم خدمة للأجانب.

٤ ـ أضرب السوريون عن الاشتراك فى الانتخابات الجزئية لأسباب أهمها فساد الأساليب الانتخابية التى أرادت السلطة أن تجعلها على أساس محلى طائفى وأن تكون على درجتين بقصد تمزيق وحدة البلاد وتحويلها إلى سناجق وإنشاء مجالس تمثيلية لا تمثل البلاد تمثيلا حقيقيا.

٥ ـ رد الوفد السورى أيضًا على ما جاء فى تقرير المسيو دى جوفنيل عن سعى سلطان باشا الأطرش إلى الانفصال.

٦ ـ نفى الوفد ماقيل عن اشتداد الأحقاد الدينية والسياسية.

٧ ـ بحث فى تمزيق الوحدة السورية.

٨ ـ أشار إلى وسائل العلاج التى اقترحها المسيو دى جوفنيل وقال إنها وسائل غير ناجعة.

وأبدى المسيو دى كيه حين درس التقرير الفرنسوى تصريحات قال فيها إن استقلال سورية كان منحة من الحلفاء وإن فرنسا تحملت فى هذه المسألة كثيرا من التضحية وإن السكان السوريين لم يساعدوا كثيرا على تحرير بلادهم ولا على الدفاع عن حدودهم وهو الدفاع الذى يدعون الآن أنه واجب عليهم.

وطلبت اللجنة إيضاحات عن مهمة ممثلى فرنسا فى علاقاتهم مع الخارج. فقال المسيو روبردى كاى إن الحكومة المنتدبة طلبت مساعدين لها من السوريين فى أثناء البحث فى مسألة توزيع الديون وأنشأت قنصليات فى مصر والولايات المتحدة والبرازيل عينت فيها موظفين مكلفين بالاهتمام بشئون المهاجرون.

ثم بدأت اللجنة فى درس النظام الإدارى بالبلاد الموضوعة تحت الانتداب فبسط المسيو دى كيه الأسباب التى قضت بتعيين الحدود الحالية للبنان وتوزيع السلطة بين السلطة المنتدبة والحكومات المحلية. وقال إن فرنسا وجدت فى سورية حالة نشأت عن الحكم التركى فحاولت بقدر الإمكان أن لا تحيد عن مبادئ الانتداب فى معالجة هذ الحالة وقد كان سببافى وضع نظام الانتخابات المعمول به الآن.

ويرى المسيو دى كيه أن أهم المسائل الحالية هى مسألة إنشاء هيئة مشتركة بين جميع الدول السورية تكفل الاستقلال الذاتى لكل منها مع مراعاة حاجة البلاد إلى حياة اقتصادية مشتركة.

تصريحات رئيس اللجنة وتقررها

وأذيع فى روما يوم ٢٤ فبراير أن المركيز تيودلى رئيس لجنة الانتدابات قابل الوفد السورى للمرة الرابعة فأبلغه الوفد برقيتين تلقاهما من القاهرة تبسطان الحالة المزعجة فى سورية. وتكلم الرئيس فى جلسة ذاك اليوم فذكر أن جمعية الأمم لم تتدخل فى توزيع الانتدابات فليس فى وسع لجنة الانتدابات أن تحل المطالب السورية المتعلقة بإلغاء الانتداب أو تعديله محلها من الاعتبار. بيد أن ثلاثة من المندوبين فى اللجنة طلبوا القيام بتحقيق فى سورية فلم تأخذ الأكثرية برأيهم.

وفى يوم ٦ مارس أعلنت اللجنة ختام فصل انعقادها ووضعت تقريرا مفصلا ضمنته

خلاصة وافية لمناقشاتها قدمته يوم ٨ مارس إلى مجلى جمعية الأمم وختمته بالملاحظة الآتية:

«إن فرنسا تصرح على الملأ أنها لا تتبع فى سورية ولبنان أى غرض كان سوى مساعدة الشعوب التى يعترف من الآن فصاعدا بسيادتها وأهليتها للحصول علي المقدرة التي تمارس بها هذه السيادة بنفسها . فيجب أن يسلم بأن الامتناع عن التعاون لتنفيذ الانتداب لا يعجل حلول يوم التحرير العام بل يؤجله. فما يظهره السوريون الوطنيون من نفاد صبر يبدو فى بعض الأحيان فى شكل عدم اكثرات للانتداب أو عداء له يجب أن يتحول بعد الآن إلى تعاون ودى، وتأمل اللجنة أن الجهود التى بذلتها بعض الأحزاب السورية حتى الآن فى منع نجاح سياسة ادولة المنتدبة فى البلاد وفى الطعن فى هذه السياسة فى الخارج تخصص بعد الآن لتقويتها».

التقرير فى مجلس جمعية الأمم

ولما وصل تقرير اللجنة إلى مجلس جمعية الأمم درسه المسيو أوندن مندوب أسوج وكتب عنه التقرير الآتى ورفعة إلى المجلس فى اجتماعه خلال شهر إبريل سنة ١٩٢٦ فأقره بعد مناقشة قصيرة وهذه ترجمته:

إن الاضطراب الذى ساد سورية فلم يسمح للدولة المنتدبة بأن تقدم تقريرها حتى الآن ـ جعل مجلس جمعية الأمم يقترح على لجنة الانتدابات الدائمة فى دور انعقادها فى شهر اكتوبر الماضى أن تطلب إلى الحكومة الفرنسوية تقديم تقرير خاص عن الحالة فى هذه الأراضى (السورية) يفحص فى أثناء اجتماع غير عادى كان يجب ان يعقد فى شهر فبراير من هذه السنة. وقد أقر المجلس فى اجتماعه يوم ٩ ديسمبر الأخير اقتراح اللجنة هذا . كما تعهدت الحكومة المنتدبة بإرسال التقرير المطلوب.

وقد تبين بجلاء من التقرير الذى قدمته اللجنة الدائمة للانتدابات عن اجتماعها الثامن (غير العادى) أنها فحصت تقرير الدولة المنتدبة فحصا دقيقا ودرست مجمل الحالة فى الأراضى المشمولة بالانتداب، وأن محاضر الأربع والعشرين جلسة التى عقدت فى خلال مدة تزيد عن ثلاثة أسابيع والتى ستبلغ إلى المجلس وإلى أعضاء الجمعية بأسرع ما يستطاع من الوقت ـ إن هذه المحاضر تنطق بالجهود الصادقة التى بذلتها اللجنة للوصول

إلى الأسباب الحقيقية التى أوقعت الاضطرابات فى سورية وتشهد بما أسداه المسيو روبر دى كيه ممثل الحكومة الفرنسوية المفوض من مساعدة قيمة للجنة.

وإنى أعتقد أن هذا التقرير وما تضمنه من الفصول التى تعلل المشاكل التى صادفتها الحكومة الفرنسوية فى تطبيق الانتداب فى سورية وبعض خطيئات ارتكبت فى أعمال الإدارة وحوادث هى أصل لما وقع فى جبل الدروز - كل ذلك سينير الرأى العام عن الاعمال التى عملت فى الأراضى المشمولة بالانتداب ويساعد الدولة المنتدبة على حل المشاكل التى تواجهها. ولا أكاد أرانى فى حاجة إلى القول أن المجلس سيقدر تقديرا عظيما الجهود التى سيسع الدولة المنتدبة ان تبذلها فى المستقبل لإحاطة لجنة الانتدابات إحاطة تامة بالحوادث التى تحدث فى الأراضى المشمولة بالانتداب. وذلك بأن تقدم لها من دون ابطاء جميع الوثائق التى قد يهمها الاطلاع عليها وفى جملتها نتائج التحقيق الدقيق الذى دعى المسيو دى جوفنيل إلى إجرائه.

وقد أقر خبراء الجمعية الأخصائيون باتفاق الآراء تقرير اللجنة. ولما كانوا قد حققوا ماجاء فيه تحقيقا دقيقا فإنه يلوح لى أنه ليست هناك حاجة ما إلى أن يفحص المجلس بالإسهاب الأمور العديدة التى عالجتها اللجنة وقدم عليها ممثل الدولة المنتدب المفوض ملاحظات فى تعليقه الملحق بهذا التقرير. وعليه أتشرف بأن أقترح - طبقا للطريقة المتبعة - إحالة هذا التقرير إلى الدولة المنتدبة والرجاء منها بأن تتفضل بمنحة ما يستحق من عناية واهتمام.

ومع هذا فأظن أن هنالك شيئا من الالتباس فى نقطة من نقط تقرير اللجنة وملاحظات الممثل المفوض للدولة المنتدبة فى ما يختص بإبلاغ جمعية الأمم الاتفاق الجديد الذى عقدة المسيو دى جوفنيل فى أنقرة. فاللجنة لا تستند إلى روح المادة الثالثة من صك الانتداب وحده بل تستند أيضًا إلى المادة الرابعة التى تنص على أن:

«تضمن الدولة المنتدبة أراضى سورية ولبنان من كل ضياع أو استئجار يقع عليها أو على قسم منها ومن وضع أية مراقبة لسلطة أجنبية عليها».

والذى يلوح لى أنه يجب ان يستخرج بالضرورة من نصوص هذه المادة ان «المراقبة الإجبارية» على الصلات الخارجية للأراضى المشمولة بالانتداب - وهى للدولة التى دعيت لتكون منتدبة بموجب المادة الثالثة من صك الانتداب - لا تستلزم منح الدولة المنتدبة حق

التنازل بمحض سلطتها المفردة عن جزء من الأراضى المنتدب لها أيا كان أو مهما كان يسيرا.

ويجب علىّ قبل اقتراح إقرار القرار أن الفت النظر إلى شدة حرج الحالة فى الوقت الحاضر. إذ إن حركة الثورة لم تنته حتى الآن ويظهر أن الأراضى المشمولة بالانتداب لاتزال تتحمل خسارة لايستهان بها فى الأرواح والممتلكات.

ولا يسع المجلس إلا أن يواصل درس الحالة بقلق شديد راجيا أن الجهود التى يبذلها أولو الشأن تؤدى إلى وضع حد لهذه الثورة فى القريب العاجل.

ومهما تكن البواعث التى بعثت على هذه الثورة ومهما تكن التبعات ـ وقد عولجت هذه الأمور المختلفة بإسهاب فى تقرير لجنة الانتدابات وفى محاضر جلساتها ـ فإن اللجنة ترى أن أفضل حل ممكن وموافق هو تعاون جميع هيئات هذه الأراضى (السورية) تعاونا صميما صادقا مع الدولة المنتدبة لتوطيد السلام ولإنشاء إدارة اعتيادية طبقا للسياسة التى كانت موضوع تصريحات المسيو روبير دى كيه الحديثة والمسيو دى جوفنيل بصفة كونها ممثلين للحكومة الفرنسوية، والتى نالت موافقة لجنة الانتدابات عليها من دون تردد وأريد بهذا الصدد أن الفت بوجه خاص نظر المجلس إلى الفقرتين الأخيرتين من تقرير اللجنة اللتين أنقلهما بنصهما.

«إن فرنسا تعلن أنها لا تتبع فى سورية وفى لبنان غاية ما سوى مساعدة الشعوب التى يعترف من الآن فصاعدا بسيادتها وأهليتها للحصول على المقدرة التى تمارسها فى هذه السيادة بنفسها. ويجب إذا التسليم بأن رفض التعاون فى تنفيذ الانتداب.لا يعجل حلول يوم تحرير البلاد تحريرا كاملا بل يؤجله. فما يظهره السوريون الوطنيون أحيانا من نفاذ الصبر فى شكل يدل على عدم الاكتراث للانتداب أو على عداء له يجب أن يتحول بعد الآن إلى تعاون ودى. وتأمل اللجنة أن الجهود التى بذلتها بعض العناصر السورية حتى الآن لعرقلة نجاح سياسة الدولة المنتدبة فى البلاد وللطعن فى هذه السياسة فى الخارج توقف بعد الآن على تعزيزها وتأييدها.

«إن الدولة المنتدبة تؤكد علنا وصراحة أن لا غرض لسياستها سوى إنشاء حكومة حرة فى سورية ولبنان، وقد برهن المسيو دى جوفنيل المندوب السامى الفرنسوى الجديد بتصريحاته وأعماله على أنه يوافق كل الموافقة على هذه السياسة. فمن السهل على الذين

يعيشون فى ظل تلك الإدارة أن يقدموا معاونتهم للدولة المنتدبة ليكون ذلك دليلا على حسن نيتهم ورضائهم وفهمهم المقصد السامى منها.

«ولما كانت هذه الغاية متفقة مع غاية الدولة التى تقوم وقتيا بمهمة الوصى السياسى عليهم، فيجب أن تتجه جهودهم إلى تعجيل تحقيق تلك الغاية وتشجيعها. فالإصرار على الثورة بعد الآن يجب أن لا تستنكره الدولة المنتدبة وحدها ومعها جمعية الأمم بل جميع الذين فى سورية ولبنان وفى الخارج الذين يودون أن يروا السلام والرخاء والحرية تسود البلاد التى تمزقها الخصومة الدموية العقيمة».

وأنا واثق بأن المجلس على اتفاق فى الرجاء وأن هذه الأمانى التى أعربت عنها هاتان الفقرتان تلاقى تأييدا تاما من جميع أولى الشأن، سواء كانوا من سكان البلاد أنفسهم أو من عمال الدولة المنتدبة فهم يستفيدون استفادة تامة ومباشرة من فخر تطبيق البرنامج الذى حددته المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم ومن تطبيق الانتداب نفسه فى سورية.

وأرى شخصيا أن أفضل أسلوب تسر عليه الدولة المنتدبة هو أن تنشر فى جميع الأراضى المنتدبة لها هذا النص الذى يعبر عن رغائب الدوائر المختصة بجمعية الأمم فى السياسة التى تمنحها أعظم تأييد ودى.

وأتشرف بأن اقترح إقرار القرار الآتى:

«لما كان مجلس جمعية الأمم قد فحص تقرير الحكومة الفرنسوية عن الحالة فى سورية لسنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥ (تقرير وقتى) كما فحص عدة عرائض وتقرير لجنة الانتدابات الدائمة والملاحظات المقدمة على هذا التقرير من قبل الممثل المفوض للسلطة المنتدبة والتقرير الذى قدمه له المقرر - يقرر.

«إرسال تقرير اللجنة وتقرير المقرر إلى الحكومة الفرنسوية ودعوتها إلى التفضل بمنحهما ما يستحقان من اهتمام»

اجتماع آخر

واجتمعت لجنة الانتدابات فى جنيف يوم الخميس ١٧ يونيو فى اجتماع عادى فحضر الوفد السورى الاجتماع، وقدم مستنداته ووثائقه، وألح على اللجنة بالعمل لإقناع فرنسا بوقف أعمال التخريب والهدم وإنصاف السوريين وإجابة مطالبهم المشروعة.

وحضر المسيو دى جوفنيل بنفسه اجتماع اللجنة وقدم تقريرا مفصلا عن الحالة فى سورية فدارت مناقشة بينه وبين اللجنة استمرت ثلاث ساعات حاول فى خلالها أن يسوغ ضرب دمشق بالقنابل بحجة أنه ضرورة عسكرية وأن يعتذر عن تعدد الدول فى سورية بأنه نتيجة الروح الدينى والعهد الإقطاعى. ثم ناقض نفسه بعد ذلك إذ أكد أن الانتخابات الأخيرة جرت فى لبنان باتفاق الكلمة مع وجود الاختلافات الدينية. وزعم أنه أنزل عقوبات بالذين أساءوا استعمال سلطتهم من رجال العسكرية. وأكد أن السوريين لايحترمون سوى القوة ويعتبرون كل عمل من أعمال فرنسا المنطوية على السخاء ضعفا وأن الشرقيين يسئون الظن بجمعية الأمم ويفسرون ميثاق لوكارنو بانه آئتلاف أوربى على آسيا.

ثم سرد مطالب الثوار بسحب الجنود الفرنسويين. وقال لو وقع هذا لعقبته مذبحة عامة. وحمل أيضًا حملة شعواء على الوفد السورى وأعضاء اللجنة التنفذية للمؤتمر السورى الفلسطينى قائلا إن سورية لا تقبلهم مدافعين عنها.

ودعا رئيس لجنة الانتدابات المسيو دى جوفنيل إلى تقديم بيانات صريحة عن شئون معينة فى جلسة خاصة اجتنابا لإزعاج الدولة المنتدبة وارتباكها.

وعقدت اللجنة جلسة سرية خاصة حضرها بعد ظهر ذاك اليوم المسيو دى جوفنيل وحدة وأجاب على الأسئلة التى وجهت إليه وهذا مادار بينه وبين اللجنة منقولا عن محضر الجلسة الرسمى:

فتحت الجلسة فقال الرئيس إنه يشكر المسيو دى جوفنيل على ما أبداه بقدومه للتعاون معها وقال المسيو أورتس إنه تساءل مرارا كيف يتفق أن تكون المعارضة صادرة من أقلية كما قال المسيو دى جوفنيل فى جلسة الصباح. فى حين ان جمعية الأمم تلقت شكاوى كثيرة صادرة من جمعيات سورية عديدة فى أوربا وفى أميركا وجميعها معارض للدولة المنتدبة ماعدا عددا قليلا نادرا جدا منها فأجابة هذا إنه إذا كانت اللجنة تريد أن تحصل على أكداس من العرائض فإنه مستعد لإرسالها فليس أسهل من الحصول عليها وأن هذه العرائض صادرة من أناس مقيمين فى خارج سورية. أما الذين فى الداخل فهم مخلصون للانتداب يرحبون به وأنهم يستقبلون ممثلى فرنسا بحماسة فى تنقلاتهم. فلاحظ مسيو آورتس أنه مادام عضوا في لجنة الانتدابات فلا يستطيع أن يكون شاهدا علي مظاهرات الحماسة، وعرفان الجميل التى ذكرها المسيو دى جوفنيل فالأصوات الوحيدة التى تصل

إليه ترتفع بالشكوى ومادام يجد فى العرائض التى يتلقاها عريضة واحدة للدولة المنتدبة مقابل ٣٠ أو ٤٠ بالشكوى من أعمالها فهو يتساءل لماذا لاتحتج العناصر التى تحبذ الانتداب على التهم التى تتهم بها الدولة؟ فأجاب مسيو دى جوفنيل أن العرائض صادرة من أناس لا سلطة لهم، وأنه لا يريد أن يأبه لعرائض لا تصدر من هيئات رسمية ويجب أن لا تخدع اللجنة بالعرائض ويجب أن لا يذهب عن البال أن الارتياح أعظم حتما من الاستياء فلاحظ مسيو أو رتس أن مسيو دى جوفنيل تكلم فى الصباح عن حركة العصيان وقال إنها خاضعة لرؤساء يوحدون مجهوداتهم فهو يريد أن يعرف من هم هؤلاء الرؤساء الذين أوجدوا اتفاقا بين فريقين كانا منقسمين كما كانت الحالة حتى الآن بين دمشق وجبل الدروز؟ فمن الممكن أن العناصر التى تلزم للحكومة يمكن استخراجها من هؤلاء الرؤساء ويخطر له أن فرنسا حكمت تلك البلاد بأناس لا نفوذ لهم، وكان الآخرون ضدها فأجاب دى جوفنيل ذاكرا عددا من الزعماء وقال إن سلطان الاطرش موجود بلاشك وهو ذو سلطه ولكنه إذا وضع في منصة الحكم كان عرضة لمعارضة شديدة، وقد بذل السعي في كل حين لوضع درزى فى رأس حكومة الجبل ولكن صعوبة تثبيته هى التى قضت بتعيين حاكم فرنسوى على البلاد، فليس فى البلاد رئيس وطنى يطيق سلطة منافس له، ومن رؤساء العصيان الآخرين الأمير عادل أرسلان فهو من عائلة درزية من جبل لبنان منقسمة على نفسها انقساما كبيرا والدكتور الشهبندر الذى هو مسلم سوري أثرت فى نفس المسيو دى جوفنيل لهجته فى بعض رسائلة وتساءل عن إمكان استخدامه ولكن يظهر أنه ذو فكر كثير التردد والتقلب على أنه من الخطر أن يجعل ثوار الأمس رؤساء وقد جربت هذه التجربة بصبحى بركات وعين رئيسا للحكومة السورية فعين أصدقاءه فى مراكز كثيرة مدفوعا بشعور رئيس عصابة قديم. فكان ذلك سببا لإثارة معارضة تكاد تكون عمومية. وفضلا عن ذلك فإن هذا المثال شجع رؤساء آخرين على العصيان معتقدين أن ذلك مقدمة للوصول إلى منصة الحكم وإلى جانب الرؤساء الذين لهم شئ من القيمة أشخاص عديدون لا قيمة لهم ومعظمهم عاديون يستحيل عليهم أن يفعلوا شيئا آخر. ولاشك فى أن الموقف يسهل وتستفيد السلطة الفرنسوية من ذلك لو قامت لها البلاد رؤساء. ولكن الحالة ليست كذلك قط ولم يحكم دمشق فى أى عصر من العصور رجل دمشقى وكان صلاح الدين نفسه رجلا كرديا من الموصل.

فسأل مسيو أو رتس كيف يمكن الوصول إذن إلى جعل البلاد تحكم نفسها بنفسها.

فأجاب مسيو دى جوفنيل أن الرؤساء يعدون للرئاسة بالتعليم والتربية وقد اخترت البرنس أحمد نامى رئيسا للحكومة السورية لأنه الوحيد الذى لقيته ووجدت أنه ذو كلمة يركن إليها.

فذكر مسيو مرلن أن مسيو دى جوفنيل قال فى جلسة الصباح أنه لجأ إلى الشعب بإزاء الصعوبة التى سببها له رؤساء ذوو طبائع إقطاعية لكى يعين وكلاءه بنفسه، أفلا يمكن جعل الأهالى يعينون الذين يعدونهم جديرين بحكمهم بدلا من إجهاد النفس بالسعى إلى إيجاد رجال قادرين على الحكم بين الإقطاعيين.

فأجاب مسيو دى جوفنيل أن هذه الوسيلة الوحيدة التى يلوح له أنها طبيعية وممكنة، فالرجال الذين يصلون إلى إدارة شئون البلاد إدارة ثابتة مستقرة عملا بالوكالة التى تعطى لهم يجب إخراجهم من سواد الشعب بفضل التعليم.

فلاحظ رئيس اللجنة أنه قد جرت انتخابات وان مسيو دى جوفنيل ذكر رقما مؤثرا عن نسبة الناخبين الذين اشتركوا فيها ولكن الحكومة اتهمت بأنها أدارت الانتخابات بوسائل العنف وأبعدت عددا من المعارضين قبل إجرائها وأرسلتهم إلى مكان إقامة إلزامية.

فأجاب مسيو دى جوفنيل أن الامر لم يكن كذلك وأنه سافر هو نفسه لكى يأمر بإجراء الانتخابات فى سورية فى كل مكان لم تكن فيه إدارة عرفية فى ٢١ ديسمبر - أى فى يوم استقالة صبحى بك بركات، وجعل يوم ٨ يناير موعدا لإجراء الانتخابات فلم يكن الوقت اذن كافيا لإعدادها ولم يصدر أمر بإقامات إجبارية. أما ما جرى من هذا النوع فى حلب فقد كان بعد الانتخابات لا قبلها، والسبب الذى دعا إليها هو مقاطعة منظمة فالانتخابات قد جرت إذن بسرعة وبحرية.

فسأل مسيو فان ريس المندوب السامى عما فعله رئيس حكومة سورية أخيرا وكيف أنه حل وزارته وأرسل ثلاثة من وزرائه إلى محل إقامة إلزامية.

فأجاب مسيو دى جوفنيل أن هذا الحادث صحيح فقد تمسك احمد نامي بك رئيس الحكومة بوجوب تعيين عدد من المتطرفين في وزارته، وتدخل مسيو دى جوفنيل لكى لا يكون فيها منهم أكثر من نصف الوزراء، ولكن هؤلاء المتطرفين نظموا مؤامرة بالاتفاق مع العصابات فلم يجد أحمد نامى بك بدا من طلب الإذن بإرسالهم إلى محل إقامة إلزامية.

وسأل رئيس اللجنة ماهى مسئولية الوزراء تجاه البرلمان؟

فأجاب مسيو دى جوفنيل بأنه لايوجد برلمان فى دمشق، حيث لايمكن رفع الإدارة العرفية.

وقال مسيو رابار إنه لا يعلق أهمية كبيرة على العرائض وهى فى بعض الأحيان تنهال دفعة واحدة كأن أحد الناس ضغط على زر كهربائى لإرسالها كلها فى وقت واحد من جميع أنحاء العالم. ولكنه يريد أن يذكر بعض الوقائع التى أوجدت الشك فى نفوس أعضاء اللجنة. وذكر اسم كراين وحادثة بلفور وتقارير بعض القناصل وأن بعض السياح الذين بينهم أحد أصدقائه الشخصيين لم يكادوا يستطيعون النزول إلى بيروت والسفر منها وأن البلاد غاصة بالجنود وأن الدولة المنتدبة اضطرت إلى تبديل خمسة مندوبين ساميين وأن المراقبة عمومية وأن المسيو دى جوفنيل ذاته ذكر أنه يكفى أن تظهر الدولة المنتدبة ارتياحها إلى أحد السوريين لكى يكون ذلك هادما لسمعته.

فقال المسيو دى جوفنيل إن الأمر لا يتعلق بارتياح الدولة المنتدبة، بل إنه عندما يوضع رجل فى منصبه الحكم ينازع فى الحال كما يجرى فى كل مكان، ولكن هذا الحال فى سورية أشد منها فى كل مكان آخر.

ورد المسيو دى جوفنيل على الوقائع التى ذكرها مسيو رابار واحدة فواحدة ولاحت له أنها مناقضة لما ذكره مسيو دى جوفنيل من ارتياح الأهالى. وقال مسيو دى جوفنيل إن الشرق كان يجرى دائما على خطة «الكيس كومين» الذى كان يسعى إلى التفريق بين الأوربيين. وهذا مايجرى فى سورية فإن أحد السوريين يقابل أحد الفرنسويين ويقول له إنه يستطيع أن يتفاهم بسهولة معه ولكن يوجد فرنسوى آخر فيه جميع العيوب يحول دون الاتفاق. فيجب على الأوربيين أن يفكروا فى هذا المنهج ويشعروا أنه من الضرورى لهم أن يتساندوا فى الشرق. وهذا الميل يوضح ماجرى عند ذهاب بعثة كرين فقد شاع أن سورية ستوضع تحت الانتداب الأميركى ونتجت من ذلك حركة كان المستر كرين ضحيتها. أما فيما يتعلق بمستر بلفور فإن الصهيونية التى هى غول الجميع في سورية هى التى كانت السبب. ففى الوقت الذى قام فيه مستر بلفور بسياحته لم يكن أحد يطيق أن يسمع شيئا عن الصهيونية. وهذا هو الذى سبب المظاهرات فى دمشق ضد مستر بلفور فلم يجد الانتداب الفرنسوى الذى لم يكن مسئولا عنها بوجه من الوجوه بدا من حماية مستر بلفور ممثل الصهيونية بقوة البوليس.

أما السياح الذين لم يستطيعوا أن يسافروا من بيروت فالسبب فى ذلك يعود إلى طباعهم فقد لاقى المندوب السامى سياحا فى سورية كلها واستطاع أعضاء مؤتمر الآثار أخيرا أن يتجولوا فى البلاد ويزوروا حلب وبعلبك وتدمر. فإذا كانوا لم يذهبوا إلى دمشق فلأنه لم يكن لهم الوقت الكافى. ولكن من الممكن الذهاب إليها بالقطار كما تذهب إلى باريس أو بالطريق العادية التى سلكها مسيو دى جوفنيل نفسه ولم يصبه فيها أقل سوء فيجب أن لاتغتر اللجنة بالحوادث. نعم إن السلطة ليست محبوبة فى سورية أكثر منها فى كل بلد آخر ولكنها تحب بين وقت وآخر وفى هذا بعض المزية. أما الثورة فى جبل الدروز فإنها فى طور الانتهاء. وليست البلاد غاصة بالجنود ففيها نحو فرقتين، ومن المهم أن تزول الشكوك من نفوس أعضاء اللجنة لأنها متضامنة مع الدولة المنتدبة.

فصرح مسو رابار أنه ما من أحد أعظم اقتناعا منه بالضرورة المطلقة القاضية بالتعاون مع الدولة المنتدبة فهذا التعاون لابد منه لكى يسير النظام سيرا حسنا ولهذا الغرض ذاته أراد أن يبسط ما يخالج نفسه بحرية تامة.

وقال السير فردريك لوجارد إنه يعتقد أن الإدارة العرفية مازالت موجودة فى جزء كبير من البلاد ويأمل أن يكون فى المستطاع رفعها قريبا وحصرها فى ساحة الأعمال العسكرية حيث يفهم ضرورة وجودها.

فأجاب مسيو دى جوفنيل أنه استطاع أن يلغى الإدارة العرفية من حوران ولم يجد بدا من إبقائها فى دمشق وجبل الدروز، والإقليم اواقع بين حمص وطرابلس حيث عادت العصابات إلى التكون مغتنمة فرصة انشغال الجنود فى الجنوب وسيلغى الإدارة العرفية فى أقرب وقت ممكن، ولكنه لا يستطيع أن يحدد هذا الوقت. وعلى أثر ذلك يبدأ إجراء الانتخابات وتعطى البلاد دستورا.

فسأل مسيو فان ريس المندوب السامى عن الأسباب التى حملت الجنود الفرنسوية على مهاجمة حى الميدان الممتد فى حوض المدينة الجنوبى وهل أخلى الأهالى هذا الحى ولجأوا إلى المدينة قبل الهجوم.

فأجاب مسيو دى جوفنيل أن معظم السكان كانوا قد رحلوا. فالبعض الذين بقوا كانوا على اتصال بالعصابات وربما كانوا مشتركين معها. وكان يجب أن تتوافر الجنود لكى يمكن حراسة الميدان وجعله ضمن نطاق الحماية الذى يحيط بالمدينة. وكان جميع السكان

الأتقياء قد لجأوا إلى داخل المدينة وكانت مخافر الحماية لحى الميدان عرضة للهجوم على الدوام فى الليل، وكان الثوار قد نظموا الحى وحفروا فيه الخنادق وأقاموا الاستحكامات، وبقى فيه عدد من السكان لان امرأة قتلت وجاءت اثنتان أو ثلاث أمام الجنود فى يوم الهجوم وطلبن منهم حمايتهن وإرسالهن إلى داخل المدينة وسأل السيرف. بوجارد ممن يتألف الجنود المكلفون بالقمع فأجاب مسيو دى جوفنيل أن فيهم أكثرية من الجنود الجزائرية وفيهم جنود فرنسويون أيضا يحتلون المدن ويوجد أيضًا جنود سوريون وجندرمة لبنانية ويحدث أن الأرمن والجركس المجندين فى القوات المحلية يتهمون كما اتهموا. وترتكب الجندرمة اللبنانية فى بعض الأحيان مثل هذه المساوئ. على أن النهب هناك من المساوئ المتأصلة فى البلاد فتقضى الحالة فى بعض الأحيان بتسريح فصائل كاملة. وقد أمكن تأليف جندرمة لبنانية من أناس منتخبين، ويقدم العلويون جنودا أيضا كالجركس وهم الآن فى أيدى ضباط من الفرنسويين ويتصرفون بكل دربة ونظام. ويوجد أيضًا كوكبة أو كوكبتان من الكرد وكوكبة من الدروز ستتلوها ثانية بعد قليل.

فسأل السيرف. لوجارد هل هؤلاء الجنود فى أيدى ضباط من الفرنسويين.

فأجاب مسيو دى جوفنيل نعم ولكن أصحاب الرتب العسكرية الصغرى هم من غير الأوربيين ويوجد منهم أيضا بعض الضباط. ويجب أن ينظم الجيش الوطنى الذى سيحل محل القوات الفرنسوية شيئا فشيئا ولكن هذه المهمة صعبة جدا.

وسأل رئيس اللجنة مسيو دى جوفنيل: هل صحيح ما شاع أنه يهتم كما اهتمت اللجنة فى روما بمسألة النقد التى أحدثت استياء فى سورية.

فأجاب المسيو دى جوفنيل: إن هذه المسألة موضوع اهتمامه وأنه عمل كثيرا لإدخال حرية النقد وأن جميع أنواع النقد تستعمل فى سورية الآن، وفضلا عن ذلك ففى النية إحداث نقد جديد وهو الآن موضوع البحث.

وقال الرئيس إنه إذا لم تكن قد بقيت أسئلة توجه إلى المندوب السامى فقد حان الوقت لتقديم الشكر إليه ويجب أن يعلم وهو خبير بشئون جمعية الأمم أن اللجنة لا ترغب بتاتا فى إحداث مصاعب للدولة المنتدبة، ولكنها تعد مهمتها مهمة جدية وهو يعرف جيدا بلدان الشرق الأدنى معرفة شخصية فلا يدهشه ما يلاقية مسيو دى جوفنيل من المصاعب.

فشكر المسيو دى جوفنيل للرئيس واللجنة إصغاءهما إلى بياناته. وقد استطاع ان

يظهر صعوبة مهمته التى لا تحتوى فى الواقع إلا الصعوبات. وسعى إلى تنوير اللجنة أعظم تنوير ممكن، لأنه لابد من التعاون بين الدولة المنتدبة ولجنة الانتدابات وهو تحت تصرف اللجنة ويحترمها احتراما عظيما. وقد أعطاها أيضاحات على أعظم مايمكن من الصراحة جوابا على الأسئلة ألتى سئلت فهو يظهر كل امتنانه لما شهده من الإصغاء والعطف.

بين الوفد السورى ودى جوفنيل

واتصل الوفد السورى مدة إقامته فى جنيف بالمسيو دى جوفنيل، واجتمعا اجتماعات خاصة للبحث فى القضية السورية وإيجاد حل لها، سيما وقد سبقت ذلك بوادر بدرت من بعض دوائر باريس العليا تنم عن الرغبة فى وضع حل للمشكلات العارضة بطريق التفاهم والاتفاق.

وانتهت تلك الاجتماعات بسماح الحكومة الفرنسوية للوفد بالسفر إلى باريس فذهب إليها فى شهر يوليو واجتمع بالأمير ميشيل لطف الله رئيس اللجنة التنفيذية واشتراك الجميع فى المساعى ودارت بين الوفد وأشخاص مسئولين من الفرنسويين مباحثات عديدة استغرقت وقتا غير قصير طلب الوفد فى أثنائها تعليمات من اللجنة فكتبت إلى جميع زعماء الحركة الوطنية وسألتهم رأيهم فى الحل الذى يرونه، وانتهت إلى وضع برنامج عام وافق الجميع عليه وأرسل إلى الوفد ليكون قاعدة لمفاوضاته مع الفرنسوين وهذا نصه:

١ ـ يشترط بادئ ذى بدء أن تعترف الحكومة الفرنسوية باستقلال البلاد التام وبحقها فى التمثيل الخارجى، وتؤلف حكومة وطنية بالتفاق مع زعماء الثورة وتوفيق حالة الحرب ثم يشرع بانتخاب المجلس التأسيسى انتخابا حرا مباشرا بالاقتراع العام ليتولى سن الدستور وتعيين شكل الحكومة والدولة على أساس السيادة القومية (على أن لا تجرى فى غضون الانتخابات حركات عسكرية لا من الخارج ولا من الداخل) وأما الانتخابات الحالية فإنها تلغى بطبيعة الحال.

٢ ـ تحويل الانتداب إلى معاهدة تعقد بين فرنسا وسورية المستقلة لمدة ١٥ سنة تعين فيها الحقوق والواجبات والعلائق المتقابلة بين الأمتين على مثال المعاهدة المعقودة بين بريطانيا والعراق، مع مراعاة الفروق بين البلادين ورقى السوريين، ولا تكون هذه

المعاهدة نافذة الا بعد تصديقها من البرلمان السورى ومجلس النواب الفرنسوى ويحتفظ فيها لفرنسا بموقع خاص وأرجحية فى المشروعات الاقتصادية ـ على شرط عدم الاخلال بالسيادة القومية، وهذه المعاهدة تسجل لدى جمعية الأمم التى تضمن تنفيذها.

٣ ـ تحقيق الوحدة السورية بما فيها لواء طرابلس الشام وأقضية عكار وحصن الأكراد وبعلبك التى هى جزء من الوحدة بطبيعة الحال. أما بقية البلاد التى ضمت إلى لبنان فيستفتى أهلها بتقرير مصيرهم.

٤ ـ توحيد النظام القضائى على أساس السيادة القومية بصورة تصون حقوق الوطنيين وأجانب معا.

٥ ـ إدخال سورية فى جمعية الأمم.

٦ ـ تأليف جيش وطنى فى مدة ثلاث سنين بحيث تتمكن القوات الفرنسوية من الجلاء التدريجى عن البلاد ويتم الجلاء التام فى خلال هذه المدة.

٧ ـ إصلاح النظام النقدى وإعادة العملة على الأساس الذهبى حالا فى كافة البلاد السورية واللبنانية وإلغاء امتياز البنك السورى وضمان أوراق النقد السورى المتداولة أوتبديلها.

٨ ـ العفو العام عن جميع أصحاب الجرائم السياسية بدون قيد ولا شرط وبدون الاحتفاظ بالحق الشخصى بطبيعة الحال.

٩ ـ إلغاء الغرامات الحربية بتمامها مع إعادة كل ما أخذ حتى الآن بهذا الاسم. سواء أكان فى دمشق أم فى غيرها من المدن والقرى.

١٠ـ تعويض منكوبى الثورة.

ولم تنتج تلك المفاوضات النتيجة المرجوة منها فبعد ما كاد الاتفاق يتم على جميع الشئون الجوهرية تغلب أنصار البطش والإرهاب فى سورية على دعاة التفاهم والوفاق فأبلغت وزارة الخارجية الوفد أن أمر البت فى الشروط التى تم الاتفاق عليها قد أرجئ ريثما يسافر المسيو بونسو المندوب السامى الجديد[1]. ويقوم بتحقيق دقيق هنا لك وبعد عودته تبلغ الحكومة الفرنسوية الوفد ما يستقر عليه قرارها. فأدرك (الوفد) انها تريد وقف

المفاوضات إن لم يكن قطعها وأنه لم يبق له عمل فى باريس فسافر إلى جنيف وقدم إلى جمعية الأمم بيانا بمساعيه فى باريس.

السلطة الفرنسوية فى دمشق والمفاوضات

وحقيقة ما حدث أنه كبر على رجال الطغيان الاستعمارى فى سورية أن تدور مفاوضات بين الوفد السورى والحكومة الفرنسوية وأن تعترف حكومة باريس بهيئة وطنية وعدوا ذلك ذلا وخزيا لفرنسا يورثها العار إلى الأبد. واستعانوا ببعض كبار الاستعماريين فى باريس لحمل وزارة الخارجية على قطع كل صلة بالوفد. وقالوا إنهم لا يقرون أى مشروع يتم الاتفاق عليه بينها وبينه ولا ينفذونه مهما كانت الظروف والاعتبارات فنزلت الوزارة على رأيهم وكان ما كان من وقف المفاوضات وسفر الوفد إلى جنيف.

ولم يكتف هؤلاء بذلك بل نشروا فى دمشق فى أواسط شهر أغسطس سنة ١٩٢٦ البلاغ الرسمى الآتى:

«شاعت إشاعات بأن مفاوضات دارت فى باريس تتعلق بحوادث سورية الحالية فليكن بعلم كل إنسان أنه لايمكن عمل مفاوضة فى باريس لإعادة السلم الداخلى إلا بعد انتهاء الثورة واستسلام الثائرين.

«إن الأوامر الواردة من الحكومة الفرنسوية تقضى بالسير بحزم لإرجاع الأمن إلى البلاد. وما لم تدرك هذه النتيجة فمن العبث التفكير بأقل مفاوضة».

ولما اطلع الوفد السورى فى جنيف على هذا البلاغ أرسل إلى الصحف المصرية يوم ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٦ البلاغ الآتى:

اطلعنا فى بعض جرائد سورية على بيان نشرته السلطة المحتلة هناك متضمنا تكذيب الخبر الذي تناقلته الجرائد بوقوع مفاوضات صلحية بيننا وبين الحكومة الفرنسوية فى باريس.

فهذا التكذيب لا يقوى سمعة السلطة المشار إليها فى تحرى الصحة والصدق والحقيقة إن الوفد السورى لم يكن ليذهب إلى باريس من تلقاء نفسه ولا يقدر فعلا أن يذهب إلى باريس إلا بإشارة رسمية. وإذا كانت المفاوضات الصلحية التى

---

١ - عين المسيو بونسو مندوبا ساميا لفرنسا فى سوريا يوم ١٤ أغسطس سنة ١٩٢٦ خلفا للسيو جوفنيل ولم يقلد منصبه إلا يوم ١١ أكتوبر من السنة نفسها.

استمرت على عدة جلسات لم تسفر عن اتفاق نهائي فلم يكن الوفد السورى هو المسئول عن هذه الحالة. بل وقوف المفاوضات إنما نشأ عن اختلاف آراء ذوى الحل والعقد من الفرنسويين أنفسهم.

وعليه نشفع هذا التكذيب بتكذيب آخر، وهو أنه لا أثر من الصحة لما ذكرته بعض الجرائد الباريسية من وقوع خلاف بين أعضاء الوفد بعضهم مع بعض أو بين الوفد وجلالة الملك فيصل الذى لم يتدخل فى هذه المفاوضات. وأنه لا صحة أيضًا لوضع مسألة العرش السورى موضع المناقشة إذ كان تعيين شكل الحكومة المستقبلة منذ اليوم أمرا مبتسرا وهو على كل حال منوط بإرادة الأمة السورية التى بالبداهة لا تبحث فيه قبل الحصول على تمام استقلالها.

الميثاق الوطنى وكيف وضع

تلقى المجاهدون السوريون فى أواخر شهر يونيو سنة ١٩٢٦ وبعد نزولهم فى الأزرق نبأ من بغداد بان جلالة الملك فيصل عزم على السفر إلى أوربا، وأنه اختار طريق الصحراء للاجتماع بزعماء الثورة وللوقوف على آرائهم وأنه ينوى التدخل لحل القضية صلحا بين الثوار وفرنسا إذا استطاع، وإنه يود أن يتفق الثوار على برنامج معين يقدم إلى جلالته ليعمل على تحقيقه.

وعقد الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر اجتماعات فى الأزرق أتموا فيها وضع الميثاق الوطنى وفى ٢٧ يونيو أرسل الدكتور نص الميثاق إلى سلطان باشا وأبلغه ما وقع فوافق عليه وأقره وهذا نصه:

١ـ اعتراف الحكومة الفرنسوية باستقلال سورية التام وبحقها فى التمثيل الخارجى وتأليف حكومة وطنية بالاتفاق مع زعماء الثورة ثم يشرع فى انتخاب المجلس التأسيسى انتخابا مباشرا بالاقتراع العام فيتولى سن الدستور وتقرير شكل الحكم على أساس السادة القومية.

٢ـ تحويل الانتداب الى معاهدة تعقد بين فرنسا وسورية المستقلة لمدة ١٥ سنة تعين فيها الحقوق والواجبات والعلاقات المتقابلة بين الأمتين على مثال المعاهدة المعقودة بين بريطانيا والعراق مع مراعاة الفروق بين البلدين ورقى السوريين ولا تكون هذه

المعاهدة نافذة إلا بعد تصديقها من البرلمان السورى ومجلس النواب الفرنسوى ويحتفظ فيها لفرنسا بموقع خاص وأرجحية فى المشروعات الاقتصادية على شرط عدم الاخلال بالسيادة القومية، وهذه المعاهدة تسجل لدى جمعية الأمم وتضمن تنفيذها.

٣ ـ تحقيق الوحدة السورية بما فيها لواء طرابلس الشام وأقضية عكار وحصن الأكراد وبعلبك التى هى جزء من الوحدة بطبيعة الحال، أما بقية البلاد التى ضمت إلى لبنان فيستفتى أهلها فى تقرير مصيرهم.

٤ ـ توحيد النظام القضائى على قاعدة السيادة القومية بصورة تصون حقوق الوطنيين والأجانب معا.

٥ ـ دخول سورية فى جمعية الأمم.

٦ ـ تأليف جيش وطنى فى خلال ثلاث سنوات بحيث تتمكن القوات الفرنسوية من الجلاء التدريجى عن البلاد على أن يتم الجلاء التام فى هذه المدة.

٧ ـ إصلاح نظام النقد واعادة العملة على أساس الذهب وإلغاء امتيازات البنك السورى وضمان أوراق النقد السورى المتداولة أو تبديلها.

٨ ـ العفو العام عن جميع أصحاب الجرائم السياسية بدون قيد ولا شرط وبدون الاحتفاظ بالحق الشخصى المضمون بطبيعة الحال.

٩ ـ إلغاء الغرامات الحربية كلها مع إعادة ما أخذ حتى الآن بهذا الاسم، سواء كان فى دمشق أم فى غيرها من المدن.

١٠ـ التعويض على منكوبى الثورة.

بين الملك فيصل والزعماء

وفى صباح الجمعة ٢ يوليو سنة ١٩٢٦ كان الدكتور شهبندر على طريق بغداد إلى الجنوب من القباسة ومعه سلامة الأطرش والأمير حسن الأطرش ونزيه المؤيد العظم ويوسف العيسمى ومتعب الأطرش وعلى زوقان الأطرش وغيرهم وبعد انتظار ساعة أطل الملك من سيارته فانحدرت الدموع وكان لقاء مؤثرا ثم عقدت جلسة اشترك فيها زعماء

الثورة الحاضرون والذين كانوا مع الملك وهم رستم حيدر وناجى السويدى وتحسين قدرى وسلموا الميثاق إلى جلالته فأطراه وقال انه معمول بحنكة سياسية لأخذ الفرنسويين بحجتهم.

ووضع زعماء الثورة باقتراح الدكتور شهبندر مضبطه وكلوا فيها جلالة الملك فيصل للمفاوضة باسمهم وانتدبوا الأمير ميشيل لطف الله رئيس اللجنة التنفيذية والوفد السورى فى أوربا ونجيب شقير السكرتير العام للجنة التنفيذية وسعيد حيدر للاشتراك مع جلالته فى المفاوضة وهذا نص المضبطة التى وضعوها يوم ٢٢ يوليو:

«لما كان صاحب الجلالة الملك فيصل سيمر فى طريقة إلى ديار الغرب بفرنسا وسيجتمع فيها بكبار الرجال الفرنسويين المسئولين ويفاوضهم فى القضية السورية عاملا للوصول إلى حل نافع يحقق آمال الوطنيين السوريين فحبا للمنفعة والمصلحة العامة رأينا أن نرفق جلالته بأناس من ذوى الاطلاع على شئون البلاد وأمانى أبنائها الناهضين ليكونوا على صلة دائمة بجلالته بصورة سرية أثناء هذه المفاوضات وقد كتبنا إلى جلالته اننا كلفنا سعادتكم لتقوموا بهذه المهمة على اساس الميثاق الوطنى الذى نقدم نسخة منه إلى اللجنة التنفيذية ونسخة إلى زميلكم إحسان الجابرى».

وأرسلوا إلى جلالة الملك الكتاب الآتى:

«الى أعتاب صاحب الجلالة الهاشمية ملك العراق المعظم. بعد أن نرفع إلى مقامكم العالى واجب الاحترام نقول إننا عرضنا على مقامكم العالى بتاريخ ٢٢ منه أسماء المفوضين الأربعة وهم الأمير ميشيل لطف الله والأمير شكيب أرسلان ونجيب شقير وسعيد حيدر والآن نعرض أننا كلفنا الأمير ميشيل والأمير شكيب ليكونا على اتصال دائم بجلالتكم أثناء المفاوضات السرية فى القضية السورية وحلها على قاعدة الميثاق الوطنى الذى قدمنا إلى جلالتكم نسخة منه ونرجو الله أن يوفق جلالتكم إلى رفع شأن الناطقين بالضاد ويديمكم للنهضة العربية عونا منه وكرما».

الوفد يستغيث بجمعية الأمم

وعقدت جمعية الأمم اجتماعها السنوى العام فى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٩٢٦ فقدم لها الوفد الاستغاثة الآتية:

حضرة صاحب السعادة رئيس الاجتماع السابع لجمعية الأمم.

كان لنا الشرف نحن الموقعين على هذا مندوبى المؤتمر السورى الفلسطينى وأحزاب استقلال سورية أن بسطنا فى مذكرتنا المؤرخة فى ٧ يونيو سنة ١٩٢٦ لمجلس جمعية الأمم وللجنة الانتدابات الدائمة فى الوقت عينه حالة بلادنا الباعثة على الألم والحزن، طالبين منهما أن يتدخلا بنفوذهما السامى لأجل إعادة الأمور إلى مجراها الطبيعى فى سورية.

وقد قلنا فى تلك المذكرة إن المواطنين السوريين عملا بنصائح ومشورات لجنة الانتدابات فى الجلسة التى عقدتها في روما ونوهت فيها بمزايا الاتفاق المباشر مع فرنسا أخذوا يبذلون المساعى عند السلطات الفرنسوية للبحث عن وسلة للاتفاق وحمل الحكومة الفرنسوية على التسليم بمشروعية الأمانى السورية وأن تلك المساعى لم تجد نفعا لأن الحكومة الفرنسوية صرحت بلسان مندوبيها المسئولين بأنها تبغى مواصلة الحرب إلى أن يخضع السوريون من غير شرط ولا قيد.

والظاهر أن الدولة المنتدبة اعتقدت أن فى استطاعتها التوصل إلى تهدئة البلاد تماما بقوة السلاح. وسياستها برمتها مبنية على هذه الفكرة - ونعنى بها فكرة اخضاع سورية بالقوة.

ومما يجب ذكره هنا انه رغما من الدم التى لا يفتا يهرق منذ ١٥ شهرا وزعما من الحملات العسكرية التى يتوالى توجيهها إلى سورية لاتزال البلاغات الرسمية الفرنسوية تصر على وصف المعارك الدائرة فى البلاد المعهود فى أمرها إلى جمعية الأمم انها ليست إلا تدابير بوليسية بسيطة ولا تفتأ تؤكد بأن الهدوء قد استتب تماما وليس لهذه الدعوى ظل من الصحة بدليل الحقائق الواقعة التى تنطق بافصح بيان بما ينفيها.

وعندنا إن هذه الطريقة التى جرت عليها فرنسا تناقض الغرض الإنسانى الذى تسعى إليه جمعية الأمم.

فأمام خطور الحالة التى تتفاقم يوما فيوما رأينا أن نتبع إلى النهاية نصائح مجلس الجمعية، وأردنا أن ننسى الأربعة عشر ألف قتيل (انظر التقرير المقدم إلى السكرتارية العامة فى يونيو سنة ١٩٢٦) والضحايا الأبرياء من النساء والأطفال وتدمير المدن

التاريخية والقرى الزاهرة. فسافرنا فى شهر يوليو سنة ١٩٢٦ إلى باريس ولبثنا فيها أربعين يوما نبذل أقصى ما عندنا من المجهودات لكى نتوصل مع ولاة الأمور الفرنسويين إلى اتفاق يضع حدا لهذه الحالة السيئة.

وقد اجتمعنا مرارا عديدة بصاحب السعادة المسيو دى جوفنيل المندوب السامى فأظهر هذه المرة من روح المسالمة مالا يسعنا إلا نذكره بالحمد والثناء ولكن حين أوشكنا أن نصل إلى اتفاق تام وقعت أمور غامضة لايد لنا فيها وكان من جرائها أن وقفت المفاوضات بغتة وعندئذ بذلنا مساعى شديدة لاستئناف المحادثة بقصد الوصول إلى اتفاق يرضى الفريقين عملا برأى لجنة الانتدابات فذهبت مساعينا أدراج الرياح، واضطررنا إلى العودة إلى جنيف لاجئين إلى عدل جمعية الأمم وإنصافها لنبسط المجهودات التى بذلناها وفقا للرغبة التى أعربت عنها.

واذا كان قد ظهر لنا ما نذكره بالدهشة والألم وهو تلك الأصوات التى ارتفعت مؤخرا فى مجلس جمعية الأمم للقضاء على ذلك التصرف المحمود الذى أظهرته لجنة الانتدابات الدائمة حين اقترحت ان تسمع اقوال مندوبى الشعوب ذات الشأن فان صدورنا لاتزال عامرة بالأمل بأن مجلس جمعية الأمم لا يحيد عن مهمته المقدسة وأن الحجة التى كثيرا مالاكتها الألسنة بوجود دسائس خيالية لا تثنيه عن إتمام الواجب عليه للعدالة والإنسانية.

وقد كان لنا الشرف أن صرخنا فى جميع عرائضنا السابقة تقريبا فى مذكراتنا التى قدمناها إلى المجلس وإلى الجمعية العمومية وإلى لجنة الانتدابات الدائمة بأن من أهم أسباب الهياج الحالى فى سورية سياسية الاستعمار التى تتجلى بأعمال العنف والشدة وإحداث الفرقة بين طوائف الأهلين والقضاء على كل حرية. فعلى هذه الأمور الثلاثة تتكئ السلطات المحتلة لتأييد سلطاتها. ومن البراهين القاطعة على هذه السياسة إدارة البلاد بالإرهاب وتقسيم سورية إلى أربع دويلات وضم أراضى احدى هذه الدويلات إلى الأخرى من غير رغبة سكانها الذين لايفتأون يحتجون على ذلك، كما يؤخذ من تلغراف مؤرخ فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٦ قدمناه إلى السكرتيرية العامة وهذا نصه:

«نحن الموقعين على هذا التجار وأصحاب الأملاك والمحامين والأطباء والمهندسين الممثلين للرأى العام فى البلاد التى ضمت إلى لبنان من دون رضاء سكانها ننتهز فرصة اجتماع مجلس جمعية الأمم فنكرر احتجاجاتنا على إلحاق بلادنا بلبنان بناء على

مايسمونه قانونا أساسيا سن من غير اشتراكنا وعلى غير إرادة الأهلين. بدليل أن النواب عنا أبوا الموافقة عليه فى جلسة مجلس النواب اللبنانى التى عقدت فى ١٩ مايو ونطالب بالوحدة السورية على أساس السيادة القومية ونرجو أن تتدخل جمعية الأمم تدخلا فعليا توصلا إلى حل المسألة السورية حلا عادلا طبقا لمبدأ الحق وأمانى السكان الاجتماعية».

وقد أرسل هذا التلغراف من فلسطين لتعذر إرساله من الأراضى المشمولة بالانتداب الفرنسوى.

ولاشك فى أن إرادة أهالى البلاد لم تظهر حتى الآن بأجلى من مظهرها فى هذا التلغراف. ومنه يرى أن قانون البلاد الأساسى الذى كان ينبغى أن يصدر عن هذه الإرادة وأن يكون من عملها وحدها طبقا لروح المادة (٢٢) من عهد جمعية الأمم ومبادئ القانون العام الحديث وضعته السلطات الفرنسوية بمحض إرادتها. وهى تحاول أن تفرضه على الأهلين بالتدليس والخداع أو بما يشبه ذلك.

إن السلطات المشار اليها لا تروم أن تتصل بممثلى أغلبية الشعب ولاتزال تعدهم أعداء فرنسا ـ لا لسبب إلا لأنهم يطالبون بحقوق بلادهم المشروعة وهى لاتريد أن تفهم أن الأهلين ماقاموا قومتهم إلا مدفوعين باليأس بعد ما تبين لهم أن السلطات الفرنسوية انكرت مبادئ جمعية الأمم وحقوق الأمة المشروعة جدا، وبعد ما رأوا أن مطالبهم الحقة قد ضرب بها عرض الحائط.

فبعد كل هذا يتعذر علينا أن نصدق أن جمعية الأمم التى تجتهد فى أن تقوم بتبعاتها الأدبية تأبى بعد ١٥ شهرا انقضت فى القتل والتخريب أن تتوسط فى انقاذ بلادنا من طائلة الخراب التام ووضع حد لحالة يخشى أن تكدر صفو الأمن فى الشرق الأدنى.

إن جمعية الأمم هى الحكم المكلف إصدار حكمه فى الاختلافات القائمة بين الدولة المنتدبة وأهالى البلاد المشمولة بهذا الانتداب.

وإننا نرى بالنظر إلى خطورة الحالة، ولأجل أن تتمكن جمعية الأمم من تكوين رأى نهائى قاطع عن الحالة فى سورية أن يعمل تحقيق. ونظن أن الدولة المنتدبة لا يسعها أن تعارض فى مثل هذا التحقيق إلا إذا خشيت أن يفضح نور الفحص أعمالها فإذا أرسلت جمعية الأمم إلى سورية بعثة لجمع المعلومات عن حقيقة الحالة وحقيقة أمانى الأمة فإنها

لاتكون بذلك إلا عاملة بروح عهد الجمعية. ولا شك أن سلطة الإشراف التى لها قانونا ستمكنهاإذا استعملت حق الاستعمال من تكوين رأى صحيح عن حالة يألم لها ضمير كل رجل متمدن.

ونحن نعترف أن رأى الجمعية لم يؤخذ فى صحة الانتدابات من الوجهة القانونية ولا فى طريقة توزيعها ولا فى إبرامها ولكننا نعلم أن سلطة الجمعية الأدبية السامية تجعل من الميسور لها أن تطلب أن لاتسفك الدماء باسمها وبهذا الروح نتقدم بعريضتنا إليكم أنتم الذين تمثلون أسمى مظاهر الضمير البشرى على وجه العالم المتمدن ونطلب العدل لبلادنا التعسة آملين أن تظلوا أمناء فى خدمة العدالة والحرية اللتين هما غرض الشعوب الأسمى وأن تتفضلوا بإعارة ملتمسنا ماهو جدير به من العناية بعد ماطال اصطبارنا.

وتفضلوا ياسعادة الرئيس وياحضرات الأعضاء بقبول فائق احترامنا.

الوفد والمؤتمر الراديكالى الفرنسوى

وعقد فى فرنسا فى شهر اكتوبر سنة ١٩٢٦ مؤتمران مهمان أولهما مؤتمر الحزب الراديكالى الاشتراكى، والثانى مؤتمر جمعية حقوق الإنسان. وكانت مسألة سورية مدونة فى برنامج المؤتمرين فقدم الوفد السورى إلى كل منهما مطالب لا تخرج فى حملتها عن فحوى البرنامج المتقدم الذكر. وقد أظهر أعضاء المؤتمرين رغبتهم فى وضع حل للمسألة السورية على أساس التفاهم والتسامح ووضع أمانى السوريين الوطنية موضع الاعتبار وقابل كل منهما البرنامج الذى قدم إليه بالارتياح وعده دليلا من الجانب السورى على الرغبة الأكيدة فى التفاهم.

الوفد يحتج إلى جمعية الأمم

وعلم الوفد السورى أن مجلس جمعية الأمم قرر فى خلال اجتماعه الأخير إمهال فرنسا ستة أشهر أخرى لتقديم مشروع دستور سورية فأرسل إلى السكرتير العام لجمعية الأمم الاحتجاج الآتى:

جنيف فى ٢ اكتوبر سنة ١٩٢٦.

سعادة السكرتير العام لجمعية الأمم،

نتشرف بان نرفع إليكم مايأتى،

علمنا أن مجلس جمعية الأمم الذى كان يجب أن يتلقى فى أثناء اجتماعه الحالى مشروع دستور لسورية ولبنان ومكاتبه تتعلق باتفاق كان ينبغى أن يوضع بين فرنسا والشعب السورى عملا بنصائح لجنة الانتدابات قد أمهل ممثل فرنسا ستة أشهر أخرى لكى يسمح للحكومة الفرنسوية باستشارة المجالس المحلية.

فنتشرف بأن نلفت أنظار جمعية الأمم إلى أن هذه المهلة الجديدة ستجر ويلات جديدة على سورية التى تنتظر ببسالة وشمم منذ سنين عديدة ان ترى عدالة وإنصافا من هذا المجتمع الدولى.

إن هذه هى المهلة الثالثة التى تطلبها فرنسا من جمعية الأمم. ولكنها لا تريد منها أن تسعى إلى إيجاد حل يتفق مع مطالب للشعب السورى، بل أن تنتهز فرصة أخرى كما فعلت حتى الآن لكى تبيد بالحديد والنار كل سعى للحرية والاستقلال اللذين عدتهما جمعية الأمم نفسها من أسس عهدها وأعمالها النافعة.

فنحن نعتقد واليأس ملء نفوسنا أن الواجب يقضى علينا بأن نحتج على تأخير حل هذه المسألة مرة أخرى، ولم نعد نعلم متى تريد جمعية الأمم أن تتدخل لصيانة البلاد الموضوعة تحت حراستها لكى تضع حداً نهائيا للمذابح التى ترتكب باسمها كل يوم.

ونتشرف ياحضرة السكرتير العام بأن إليكم وافر احترامنا.

ـ ٢١ ـ

مؤتمر بيروت وتصريح بونسو

بلغ المسيو بونسو المندوب السامى الجديد بيروت يوم ١١ أكتوبر سنة ١٩٢٦ قادما من باريس فأذاع على أثر وصوله أنه سيعنى بدرس الحالة عن كثب، وأنه لن يقوم بعمل من الأعمال قبل أن يتم دراسته ويحيط بالموقف إحاطة تامة.

ولم يطل الإقامة فى بيروت بل غادرها إلى دمشق ثم قصد جبل الدروز ومنه عاد إلى حلب فدير الزور فبيروت. وعاد إلى دمشق ثانية للوقوف على طلبات الأهالى ورغائبهم. وكان الدمشقيون قد إستعدوا لهذا الأمر من قبل فألفوا وفدا منهم زاره يوم ١٧ ديسمبر وسلمه الطلبات الآتية:

١ـ إسدال ستار على الماضى والتعامل على أساس روح معاهدة لوكارنو ٢ ـ دعوة جمعية تأسيسية تسن الدستور على أساس السيادة القومية ٣ ـ تحويل الانتداب إلى معاهدة تعقد بين الحكومة الوطنية والدولة المنتدبة لمدة ثلاثين سنة ٤ ـ تحقيق الوحدة السورية ٥ ـ توحيد النظام القضائى على قاعدة السيادة القومية ٦ ـ تأليف جيش وطنى ٧ ـ إدخال سورية فى جمعية الأمم وتخويلها حق التمثيل الخارجى ٨ ـ إعلان عفو عام ٩ ـ إيجاد طريقة للتعويض على المنكوبين.

ووضع أهل حماه أيضا مطالب بمثل ماتقدم وحذا حذوهم أهل حمص وأهل دير الزرو وسلمت إليه الطلبات فى دمشق. ولما زار حلب سلمه أهلها طلبات تتفق فى روحها ومعناها مع طلبات المدن الأخرى. فقال لوفدهم إن المعاهدة التى ستعقد بين سورية وفرنسا ستكون شبيهة بالمعاهدة العراقية ومر باللاذقية فقابله وفد يمثل مسلميها وقدم له نفس الطلبات التى قدمتها المدن السورية الأخرى.

واستقبل المسيو بونسو رؤساء الطوائف وزعماءها فى بيروت وطلب إلى كل واحد منهم ان يضع تقريرا مفصلا عما يرى الأخذ به من تدابير لمعالجة الحالة فأجيب إلى طلبه.

اللجنة التنفيذية والوفد والمسيو بونسو

وما كاد يستقر به المقام فى سورية ويبدأ دراسته حتى أرسلت إليه اللجنة التنفيذية يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٦ الكتاب الآتى تأكيدا لرغبتها التى أظهرتها مرارا فى الوصول إلى تفاهم مع فرنسا ونزولا على إرادة جمعية الأمم ونصائحها قالت:

«ياصاحب السعادة

«لم تنقطع اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى منذ أوائل القتال الذى خضب سورية بالدماء - واشتهرت أسبابه لدى الخاص والعام - عن بذل مساعيها لإعادة السلام على أسس توفق بين أمانينا الوطنية ومصالح فرنسا الحقيقية.

«هذه الفكرة هى التى كانت رائدا لنا فى محادثاتنا الأولى مع المسيو دى جوفنيل فى القاهرة فى شهر يوليو سنة ١٩٢٦ وكان يرجى أن تنتهى هذه المفاوضات بسرعة ولكنها توقفت لأسباب لادخل لنا فيها، ولكى يستطيع المندوب السامى الجديد أن يقف بنفسه على حقيقة الحالة فى سورية فنحن نرجو من سعادتكم الآن أن تبلغوناإذا كنتم ترون أن الوقت قد حان لاستئناف المفاوضات وللسعى بالاشتراك معكم وبروح الوفاق والتعاون الخالص لإيجاد حل يفضى إلى حسم النزاع وإعادة السلام إلى البلاد ووضع علاقات بين فرنسا وسورية مؤسسة على الثقة المتبادلة وصيانة أمانى أمتنا الشرعية ومصالح فرنسا الحقيقية.

«فإذا كنتم توافقون على هذا الاقتراح الصادر عن إخلاص وتنزه عن الغرض فنحن مستعدون لاستئناف المحادثات بالطريقة والشكل اللذين ترونهما مفيديين».

ولم تتلق اللجنة ردا من المسيو بونسو على كتابها هذا ولم يطل نفسه الإقامة فى سورية بل غادرها إلى فرنسا فى أوائل شهر فبراير سنة ١٩٢٧ يحمل التقارير والطلبات التى قدمت إليه لمقابلة ولاة الأمور وإطلاعهم على نتائج بحثه وللاتفاق على الخطة التى يسير عليها.

ووصل فى شهر مارس سنة ١٩٢٧ إلى جنيف لشهود اجتماع مجلس جمعية الأمم فاتصل بالوفد السورى، وعلم الوفد أن بعض المقامات المسئولة فى فرنسا ترغب فى استئناف المفاوضات التى توقفت فى شهر أغسطس الماضى وتود أن كون الجانب السورى هو البادئ علنا بإبداء الرغبة فى التفاهم، وذلك أمام مجلس جمعية الأمم على أن تقابل كل

إشارة تبدو من الجانب السورى فى هذا الصدد بمثلها وأفضل منها . فأرسل كتابا إلى مجلس جمعية الأمم هذا نصه

جنيف فى ٨ مارس سنة ١٩٢٧

الى سعادة رئيس مجلس جمعة الأمم

ياصاحب السعادة

علمنا نحن الموقعين على هذا مندوبى اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى أن الحكومة الفرنسوية شارعة فى عرض مشروع للمشكلة السورية على جمعية الأمم فننتهز هذه الفرصة لنصرح مرة أخرى برغبتنا الأكيدة الصادقة فى إقرار العلاقات بين فرنسا وسورية على أساس الولاء والوفاق ونرى أن الواجب يقضى علينا بإزاء ذلك بأن نصرح جهارا أننا لما كنا لم نقصد قط إلى غرض شخصى ولم نعمل إلا لنيل حرية سورية واستقلالها فلا نجد أى مانع يمنعنا عن الموافقة على كل حل ينطبق على أمانى الأمة السورية، ونحن نأمل أن تتغلب روح الحكومة الفرنسوية والشعب الفرنسوى الحرة على جميع المصاعب المتراكمة فى سبيل الوفاق.

مذكرة فرنسوية عن القضية السورية

وقصد الوفد باريس على أثر تقديم هذا الكتاب، وبعد رجوع المسيو بونسو إليها وقضى فيها أياما لم تدر فى خلالها مفاوضات معه فعاد إلى جنيف بعد ماتبين أن الفرنسويين لا يميلون إلى الاتفاق معه ولا إلى إجابة شئ من مطالب البلاد وأن الخطة الجديدة تقوم على تعليل السوريين بالآمال وعلى قمع كل حركة بالقوة يؤيد ذلك ماجاء فى مذكرة فرنسوية وضعت ونشرت فى شهر فبراير سنة ١٩٢٧ وهذا تعريبها:

إن حوادث سنة ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ كانت ثقيلة الوطأة على سورية وعلى فرنسا على السواء ويظهر أن معظم الأحزاب السياسية السورية اليوم أخذت تدرك أن النظام والسلام ضروريان لتقديم البلاد ويسرها. ومما يسر ذكره ان شهوة المطامع السياسية خفت وحلت محلها الرغبة البادية فى كل مكان فى تعاون فرنسا وسورية.

فالفرصة سانحة إذن لاتفاق الأحزاب السورية على برنامج يشمل الحد الأدنى للمطالب

التى يمكن قبولها من جانبهم أو من جانب فرنسا وحول هذا البرنامج يؤلف نوع من الاتحاد لإسداء أعظم مايمكن إسداؤه من الخير للشعب السورى.

وليس هناك تناقض مابين هذا النوع من التهادن السياسى واحتفاظ كل حزب من هذه الأحزاب بغاية وطنية لايفكر أحد فى معارضتها ومكافحتها.

وتكون القاعدة الأساسية لهذا البرنامج قبول الانتداب الفرنسوى بإخلاص وولاء على أن ينفذ هذا الانتداب كما تصوره مؤتمر السلام وحددته جمعية الأمم.

إن الانتداب مطابق لفكرة الاستقلال الوطنى لأنه السبيل الموصل إلى هذا الاستقلال وهذا هو شعور المنتدبين الذين تقوم مهمتهم الأصلية على تنظيم السيادة القومية السورية ولبنان.

وغنى عن البيان أن تنظيم الحريات للسوريين وتهيئة أسبابها بتعاون صريح بين المنتدبين والمشمولين بالانتداب هو المادة الأولى من البرنامج السياسى الذى يجب أن يلتف حوله جميع العقلاء وذوى النيات الحسنة.

ورب قائل يقول: وفى أى حدود جغرافية يزاول هذا العمل؟ والجواب على ذلك هو أن لبنان والمقاطعات التى تؤلف سورية لاتتمنى إلا الاشتراك فى الحياة ولا يسع فرنسا إلا أن تحترم هذه الرغبة. ولذلك سيظل لبنان مستقلا عن جيرانه أما حدوده فتحدد نهائيا باتفاق مع هؤلاء الجيران. وإذا تعذر الاتفاق فيحال الأمر إلى التحكيم ويجب أن يذعن الجميع لقراره.

وأما الاستقلال الإدارى للمقاطعات فيجب الاحتفاظ به كمسألة من مسائل النظام الداخلى. إذ لا يوجد سبب مايحول دون حله طبقا لرغائب الشعب.

إن فرنسا المنتدبة لاتعد سورية كمستعمرة، ولا كبلاد مشمولة بالحماية. فهى تساعدها لأن جمعية الأمم عهدت إليها فى هذا الواجب الدولى الذى هو جم المتاعب.وأمنيتها الوحيدة هى أن تقوم بالواجب عليها لأن العهد المقطوع واجب الاحترام وبذلك تجد عوضا أدبيا واقتصاديا مقابل مابذلت من الرجال وما أنفقته من أموال مما يعترف به جميع المفكرين من السوريين.

وإن نتائج مثل هذه الخطة من جانب فرنسا يجب أن تظهر بأعمال تطابق الأمانى

الوطنية السورية. أى بالسير نحو الوحدة الوطنية بإنشاء نظام حكومى دستورى يطابق فكرة السواد الأعظم من المواطنين، ويقبلونه عن طيبة خاطر وتخفيض عدد الموظفين الفرنسويين إلى أدنى حد ممكن على أن يكونوا مستشارين فقط لا موظفين لهم حق التنفيذ، وإنشاء مليشيا وطنية بالتدريج بضباط من الفرنسويين يعهد إليها فى صون النظام فى الداخل ومراقبة الحدود.

وأما فيما يختص بالشئون الخارجية فإذا كان مفهوم الانتداب يجبر فرنسا على أن تمثل سورية سياسيا فإنها لا ترى مانعا يمنع من وجود موظفين سوريين يعملون بالاتفاق التام مع ممثلى الدولة المنتدبة للدفاع عن مصالح إخوانهم المقيمين فى الخارج رمزا للسيادة الوطنية.

إن قبول الأحزاب السورية لهذه القواعد العامة مع تنازلها عن آرائها فى الأمور الثانوية عن طيب خاطر يمكن سورية من أفتتاح عهد من السلام واليسر، ويسهل لها جلب الأموال الضرورية لان هذه الأموال لا سبيل إليها إلا إذا كفل للمقرضين الضمان الوافى على ثبات الحالة السياسية.

وفى هذا باعث آخر يبعث الوطنيين السوريين على أن يقفوا حول برنامج وسط معتدل يظهر أن قبوله هو الطريقة الوحيدة المفيدة لتهيئة وسائل الاستقلال القومى التام الذى يطابق تحقيقه رغائب جميع الفرنسويين والسوريين على السواء.

تصريح المسيو بونسو

وعاد المسيو بونسو إلى بيروت فى أواسط شهر يونيو حاملا البرنامج الذى تم الاتفاق على تنفيذه فى هذه المرحلة، فنشرة رسميا يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٢٧ وهذا نصه:

لقد تسنى مرارا عديدة للمفوض السامى فى خلال مدة اقامته فى فرنسا أن يوضح للحكومة الفرنسوية وللجان الأمور الخارجية فى مجلسى الشيوخ والنواب نتائج التحقيق الذى قام به عن الحالة فى سورية ولبنان، وأن ينقل إليها بوجه خاص الأمانى التى بسطت لديه مدة إقامته الأولى وتجوله فى البلاد المشمولة بالانتداب.

وقد جرى له منذ عودته مفاوضات عدية مع رؤساء الدولة أوضح خلالها آراء ومقاصد

الدولة المنتدبة وأبان لهم نقط الخطة الأساسية التى سيواصل أمر تحقيقها بالاتفاق مع الدول المشمول بالانتداب وهى:

أولا ـ لما كانت فرنسا عملا بمنطوق صك الانتداب (المادة الأولى) قد ألقى على عاتقها «أن تمهد السبيل لنمو سورية ولبنان نموا تدريجيا كدول مستقلة» وأن تحفظ الاستقلال الداخلى على قدر ما تسمح به الظروف فهى تستمر على إتمام المهمة المعهودة إليها من قبل جمعية الأمم ولا وجه للبحث فى إمكان عدولها عنها.

صفة هذه المهمة ـ أن تطبيق نص المادة الثانية والعشرين من معاهدة فرسايل ظهر أنه ذو دقة خاصة فى الشرق. حيث الطوائف المختلفة التى تقيم فى أراضيه قد بلغت منذ زمن بعيد درجة من الرقى جعلها فى الصف الأول بين الدول الأكثر تطورا فى الشرق الأدنى فالدولة المنتدبة مع تأييدها الأمن والسكينة وهما الركنان الأساسيان لكل تطور سياسى لم تغفل عن تحقيق أمنية هذه الطوائف غير أن تأويل هذه الأمانى صادف حتى الآن عراقيل لا يستهان بها نظرا لما بينها من التناقض الكثير.

وكان الاهتمام بتحقيق أمانى هذه الطوائف هى الفكرة المتواصلة التى أوحت بالسياسة الفرنسوية ولم تزل الدولة المنتدبة ثابتة على هذه الخطة وموطدة النية على النزول عند هذه الأمانى مادامت ضمن دائرة النظام والسكينة، ومادامت لاتمس حقوق الأقليات التى أبدتها المعاهدات ولا تخالف ما تقتضيه المصالح العامة الكبرى للبلاد.

ثانيـــا ـ استمرار السياسة الفرنسوية والقانون الأساسى ـ إن هذه السياسة التى حددها المسيو دى جوفنيل بوضوح نالت موافقة الحكومة الفرنسوية وجمعية الأمم فوجب أن يفصح عنها بصراحة فى القانون الأساسى وهذه هى السياسة التى سيبقى المفوض السامى الجديد متمسكا بها.

على أن النظام النهائى لبلاد الشرق المشمولة بالانتداب الفرنسوى سيكون قبل كل شئ من وضع الذين يهمهم أمره. فالدول ضمن نظامها الحالى الذى هو ثمرة جهود ثمانى سنوات جديرة بأن تبحث فى شئون مصلحتها وفى إزالة المنازعات بعضها مع بعض. كما أنها جديرة بأن تعقد كل اتفاق جديد من شأنه أن يزيد التوفيق بين المصالح التى لم تكن فى وقت من الأوقات متفرقة ولا منفصلة. فالدولة المنتدبة ستبذل قصارى جهدها فى عقد اتفاق عام وستقوم بوظيفة الحكم فى ماقد يحصل من المنازعات. أماإذا كانت قد رغبت فى

جعل النظام الجديد على أساس موافقة الأهلين عليه فلا يسعها أن تنسى المهمة التى وكلت إليها فاذا لم يحصل اتفاق عمدت إلى التدابير اللازمة لأجل المحافظة على السكينة وضمان المستقبل، وستبلغ تلك التدابير وقتئذ إلى جمعية الأمم.

ثالثا ـ الحكومات المحلية ووظيفة الانتداب ـ لقد تم حتى الآن تقدم كبير من هذا الوجه وسلمت الدولة المنتدبة مقاليد السلطة إلى الذين يهميهم الأمر فى كل جهة أعيد إليها نظام ثابت وأمكن فيها بفضل الهدوء والسكينة استطلاع رأى الأمة وتأليف حكومات نظامية. فعلى الحكومات المحلية أن تعمل مافيه مصلحتها الخاصة بمشورة ومساعدة الدولة المنتدبة.

إن تجديد التنظيم الجارى فى دائرة الانتداب المؤدى إلى لا مركزية أتم وإلى التقريب بين المشورة والعمل واجتناب تراكم هيئات المراقبة سيزيد رغبة الدولة المنتدبة وضوحا وجلاء فيما يختص بمساعدة الدول المشمولة بالانتداب فى تطورها السياسى والإسراع به فتتحقق حينئذ تماما الأمنية المنصوص عليها فى عهد جمعية الأمم.

رابعا ـ النظام والأمن ـ أعيد النظام وأصبح الأمن سائدا اليوم ضمن الحدود ولقد بذلت الدولة المنتدبة للوصول إلى هذا الغرض جهدا عظيما، وقبلت تقديم ضحايا تدل دلالة واضحة على أنها تريد إرادة لا تتزعزع أن تصل إلى نتيجة حسنة بمهمتها الكبرى التى بها توثق عرى الصداقة النهائية بين فرنسا والبلاد المشمولة بالانتداب.

ويجب أن تتأيد فوائد السلم بالتعاون الأدبى والتعاون المادى بين تلك الدول نفسها. فإن السلم هو خير منهاج لها وكل عمل يجرى بدون هذا السلم سواء كان من الوجه السياسى أم الوجه الإدارى أم الاقتصادى أو المالى لايثمر الثمرات المرجوة منه. بل يكون عبثا بلا جدوى، وهذا يجعل ما تطلبه الدولة المنتدبة من اشتراك تلك الدول على وجه معقول فى الاعباء التى تستلزمها صيانة الأمن طلبا مشروعا.

ولا يستفاد من هذا التصريح بوجه من الوجوه أن الدولة المنتدبة تفكر فى أن تضعف عدة الأمن التى أعدتها لحماية هذه البلاد أو أنها لا تهتم بعد الآن بحفظ النظام. فهى بالعكس لا تزال تتحمل التبعة أمام جمعية الأمم، ولكنها تريد أن تزيد كل يوم اشتراك الأهلين أنفسهم فى الجهد الذى تبذله لمنفعتهم فى سبيل حفظ الامن. وعلى ذلك يجب أن يقابل التخفيض المتوقع فى القوات الفرنسوية بزيادة فى القوات المحلية والمليشيا اللازمة

للدفاع عن الأراضى وستكون أعباء تلك القوات على عاتق الدول المشار إليها.

خامسا - التقدم الاقتصادى - إن صيانة الأمن تعجل فى إنجاح البلاد الاقتصادى ولا تلبث أن تحمل المهاجرين العديدين الذين مابرحوا شديدى التمسك بمساقط رؤوسهم على الرجوع إلى البلاد. فبالخطة الاقتصادية يمكن أن يكون تعاون الدولة المنتدبة والدول المشمولة بالانتداب مفيدا في تحقيق أمور لا تكفى المتوفرات المحلية للقيام بها. لاسيما أن تحسين الحالة الاقتصادية والمالية فى العالم وبالاخص لإمكان الحصول على شروط للسلفيات أكثر موافقة مما مضى لابد ان يكون له تأثير فى الشرق. ولقد يثبت المفوض السامى فى أثناء اقامته فى فرنسا أن الاسواق الفرنسوية يمكنها ان تهتم بتقديم سورية ولبنان من الوجهة الاقتصادية.

سادسا - إدارة المصالح المشتركة - إن المصالح المشتركة بين الدول المشمولة بالانتداب الفرنسوى كثيرة جدا، والمنازعات التى قامت فى بعض الأحيان لا تتفق بوجه عام مع الحقيقة الراهنة. فلأجل صيانة ذلك الملك المشترك تقوم المفوضية السامية بنوع خاص بمراقبة بعض المصالح التى يمتد عملها على جميع الأراضى بالسواء وستظل قائمة بهذه المراقبة بتنبيه خاص إلى أن تضع الدول الحالية قواعد ثابتة لاتفاقها وتؤسس تحت رعاية الدولة المنتدبة الهيئات المشتركة اللازمة.

وبينما نرى تطور العالم يتجه فى كل مكان نحو تأليف المصالح لايسع دول الشرق وحدها ان تطلب التقدم والرقى باتباع سياسة تفريق ضيقة جدا. إن مستقبلها لايكون بالسير على هذا المنوال والدولة المنتدبة المهتمة بتوثيق عرى الاتحاد والوئام بين الملل التى وكلت إليها وصايتها تتمنى أن تراها تزداد تقربا بعضها إلى بعض، ويجب أن يكون لها من إدارة المصالح المشتركة بينها فرصة تنتهزها لذلك. والمفوض السامى يريد ان يتبع هذه المهمة بمعاونة ممثلى الدول معاونة تزداد نشاطا فى كل يوم، وأن الزمان سيعمل عمله وحكمة الحكومات واختبارها يتكفلان بالباقى، وأن الانتداب بحكم صفته نفسها لا يسعى للخلود ولا للتجدد.

فإلى قضاء تلك المهمة يرمى الجميع وإن عدم الصبر لا يعجل فى الحل المرغوب فيه بل لايمكن ان يعود إلا بتأخير وإن العنف ليقوض أعدل الآمال.

إن المبدأ الحر الذى تتمشى عليه الجمهورية الفرنسوية لا يسع أحد أن يرتاب فيه،

وعليه فإن الدولة المنتدبة التى عهد إليها فى مساعدة سورية ولبنان كدولتين مستقلتين فى سبيل الرقى التدريجى، وفى جعل حقوق الجميع محمية ومحترمة لا تتخلف عن القيام بواجباتها - اهـ.

صدى البيان فى الداخل والخارج

ولقد عجل هذا البيان فى القضاء على سياسة التفاهم بين سورية وفرنسا وأثبت تمسك الفرنسويين بخططهم وأساليبهم القديمة فلا يحيدون عنها ولا يخرجون عن دائرتها.

١ـ رد اللجنة التنفيذية

وأذاعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٧ بيانا مطولا ردت فيه على بيان المسيو بونسو وقال إن الخطة التى أعلنت الحكومة الفرنسوية تمسكها بها مناقضة تماما لسياسة الوطنيين وإنه لا يسع اللجنة بعد الموقف الودى الذى وقفته فى السابق سوى العودة إلى خطة المعارضة ودعوة السوريين فى داخل سورية وخارجها إلى استئناف الجهاد لتحقيق آمالهم وأمانيهم المشروعة.

٢ ـ مؤتمر بيروت [١]

واتفقت كلمة الوطنيين فى الداخل على عقد مؤتمر عام يدرس البيان الجديد ويقرر الخطة التى يسار عليها فى هذه المرحلة وقد افتتح هذا المؤتمر فى بيروت يوم ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٢٧ برئاسة هاشم الأتاسى، واختتم يوم ٢٥ منه وهذا نص البيان الذى وضعه وأبلغه إلى المفوض السامى:

لما وجدنا الموقف السياسى فى سورية لم ينحل غيهبه منذ ثمانى سنوات وأن الدولة الفرنسوية رغم اهتمامها الشديد فى الأمر لا تزال تلجأ إلى تجارب متنوعة وإلى تطبيق خطط وأشكال من الأوضاع السياسية والإدارية لم تنتج حتى الآن التفاهم المرغوب ولم

---

(١) شهد هذا المؤتمر باسم دمشق الأمير سعيد الجزائرى ويوسف العيسى وإحسان الشريف وباسم حمص هاشم الأتاسى ومظهر رسلان، وباسم حماه نجيب البرازى وعبد القادر الكيلانى وباسم حلب إبراهيم هنانو وفاخر الجابرى والدكتور عبد الرحمن الكيالى وباسم طرابلس عبد الحميد كرامة والدكتور عارف البيسار وعارف الرفاعى وباسم بيروت عبد الرحمن بيهم والدكتور عبد الله اليافى.

تضمن تحقيق الأمانى التى ترمى إليها الأمة السورية ولم يزل ماجره الماضى من الأحوال السيئة والمصائب المفجعة. وشعرنا بأن البلاد قادمة على تطور جديد لايتفق تماما مع المطالبات التى رفعتها الأمة السورية إلى حكومة الجمهورية الفرنسوية بلسان وفودها وممثليها وصحافتها تكرارا ورأينا أن بيان المفوض السامى المسيو بونسو المعلن فى ٢٦ يوليو غامضه وأن ماجاء فيه من أسس ونظريات عامة لم يجل الموقف الذى أشرنا إليه. بل ولد نوعا من الريبة فى نفوس أهالى وطننا الذين كانوا يعتقدون بأنه يقضى على جميع مايشكو منه ويحقق كل مايصبون إليه، ولما كان أيضًا ما أشاع وذاع عن الإجراءات التى تنوى السلطة تطبيقها والحكومة المحلية تنفيذها لا يتفق مع ما تنتظره البلاد. فضلا عن وجود عامل آخر يقف دائما فى سبيل حسن التفاهم وهو فقدان بعض الحريات كحرية الصحافة وحرية الاجتماع وحرية الكلام، وكوجود الإدارة العرفية المختلفة الشدة بين مكان ومكان والاستمرار على الاعتقالات وسلب الحرية الشخصية بدون سابق أحكام وكعدم اعتناء السلطة الفرنسوية برأى أكثرية الأمة الذى يجاهر به الوطنيون.

لهذه الأسباب جميعها وجدنا أن واجب الإخلاص يوجب علينا التداول فى الأمور كلها لنجد لها حلا عادلا مرضيا للطرفين فقر رأينا على عقد اجتماع فى جو خال من التأثيرات، واخترنا مدينة بيروت وبحثنا هذه الأمور من جميع أطرافها لنرفع النتيجة إلى المراجع لعليا ونكاشفها بما فيه مصلحة الأمتين السورية والفرنسوية، لتبقى الثقة متبادلة ولتعود الطمأنية إلى القلوب ونتساعد على تحقيق النوايا الحسنة فيما يتعلق بإرشاد وترقية سورية التى قطعت الجمهورية الفرنسوية على نفسها عهدا بإيصالها إلى المستوى اللائق بها من المدنية والاستقلال.

وقد كان أول عملنا درسنا بيان المفوض السامى فوجدنا بعد درسه أنه يقضى علينا لفت نظره إلى نقاط غامضة لم تتوصل إلى حلها وهى:

١ - إن السلطة الفرنسوية اطلعت كما قلنا على أمانى البلاد وعرفت ما يصبو إليه أبناؤها من الطلبات. ومع ذلك ففى جميع التطورات التى تطورتها القضية السورية فى المدة الأخيرة وفى جميع المفاوضات التى دارت معكم ومع أسلافكم وبعض كبار رجال فرنسا الذين قدموا سورية ، وتذاكروا مع وفودها، ودرسوا حالاتها الاقتصادية والسياسية والإدارية لم يأت ذكر التحفظات التى ترتكز عليها سياسة فرنسا فى

سورية، وغير خاف أن التجاريب الكثيرة عند الأمم التى وقعت بينها اختلافات دلت على أن أقرب الطرق لحل المشكلات وإزالة سوء التفاهم كانت ومازالت بتعيين النقاط والمنافع التى يحتفظ بها أحد الفريقين. فبيان المفوض لم يذكر شيئا من هذا القبيل ولم يشر إليه ولو من طرف خفى حتى أن التفسير الشفوى للبيان لم يتعرض لذلك أيضا.

٢ ـ لم يتضمن البيان مايدل على إعادة الحرية الطبيعية للأمة فى صحافتها واجتماعاتها وتشكيل أحزابها ورفع الأحكام العرفية وإلغاء النفى الإدارى وسياسة الإبعاد ولانص على العفو العام الذى يستطيع معه المعتقلون والمحكومون السياسيون والمبعدون عن أوطانهم الرجوع إلى البلاد قبل دخولها فى تطور عملى جديد لكى يعملوا ويشتركوا فى خدمة البلاد.

٣ ـ اعتبر البيان سورية أجزاء مفكة متباينة وراعى الطائفية والتقسيمات الإدارية والأوضاع السياسية. وغير خاف أن الاعتبار يجعل الجسم السورى الذى لم يقو الحكم السالف على تجزئته وتفكيكه عرضة للوهن والضعف مع السنين.

٤ ـ يصرح بيانكم «أن الدستور سيضعه من يهمهم أمره» ويفهم من هذا وجود من لايهمهم أمره فى البلاد. مع أن الأمة مازالت تنتظر الدستور بفارغ الصبر وتلح بوضعه من قبل جمعية تأسيسية تنتخب انتخابا حرا لتكون ممثلة لها بأجمعها وتستطيع أن تحدد علاقات الطرفين والشكل الإدارى الملائم لحالة البلاد الإدارية والاقتصادية والسياسة وما تتطلبه من الأسس الكافلة لتنفيذ سلطانها القومى.

٥ ـ أشار البيان إلى بقاء الدول والبلاد ضمن نظمها الحالية فهذه القضية لم تعالج بوضوح كاف وبطريقة حاسمة. لأنه ليس بخاف عليكم ان المصالح التى تفضلتم بالقول عنها «إنها لم تكن فى وقت من الأوقات منفصلة ومتفرقة» لاتضمن الوسائل المؤدية إلى إزالة المنازعات فما لو صح وجودها. وعقد الاتفاقات لايكون ميسورا مالم تصرح الدولة المنتدبة فى مقرراتها وإجراءاتها باعتبار سورية مجموعا كاملا يقضى ان يطبق فيه مايحفظ جميع المقومات والمشخصات التى تحتاج إليها كأمة للمحافظة على قوميتها الخاصة.

٦ ـ ذكر البيان اهتمام الأسواق الفرنسوية فى إنجاح سورية من الوجهة الاقتصادية،

ولكنه لم يتعرض لاقتصاديات البلاد الحالية وضرورة تحسينها بتخفيف الضرائب التى أثقلت كاهل السوريين وأضحت أضعاف ما كان يؤديه المكلف فى الماضى وما يتحمله إنتاج زراعته وصناعته وتجارته ولم يعد بالنظر فى أمر الحواجز الجمركية وفى الامتيازات، إلى آخر ما هنالك من الأمور الداخلية التى لم يشعر الرجل السورى بإصلاحها . فلا كبير فائدة له من اهتمام الأسواق الفرنسوية بأموره الاقتصادية.

٧ ـ ذكر البيان أن المفوض سيبقى متمسكا بالسياسة التى حددها المسيو دى جوفنيل بوضوح وجلاء والتى حصلت على موافقة الحكومة الفرنسوية وجمعية الأمم. والمفوض السامى السابق عقد اتفاقا مع الدول السورية مبنيا على هذه السياسة فهل ما جاء فى هذا الاتفاق هو الذى سينفذه المندوب الحالى؟ إن البيان لم يوضح هذا الأمر.

٨ـ أشار بيانكم إلى تنظيم جديد فى دوائر الانتداب، ولكنه لم يحدد العلاقات التى ستكون بين هذه الدوائر والحكومة المحلية وعلى من تقع المسئولية فيما يرتئيه المستشارون إذا وقع اختلاف أو خطأ. ونحن نرى حتى اليوم أن الحكومة المحلية تتحمل مسئولية تنفيذ إجراءات عديدة لم تكن صادرة عن فكرتها الخاصة. وعلى هذا ضاعت المسئولية وضعفت كفاءة الوطنيين واضطربت المعاملات.

٩ ـ ذكرتم أن الدولة المنتدبة « لأجل صيانة الملك» ستقوم بنوع خاص بمراقبة المصالح وذلك على ماتبين لنا بإحداث مصالح مشتركة فهل يفهم من هذا أن هذه الدوائر ستتولى توثيق عرى الاتحاد والوئام بين الملل التى ذكرتموها وعلى أى أساس يكون؟.

١٠ ـ يقول البيان إن عدم الصبر لا يعجل فى الحل المرغوب فيه بل يمكن أن يعود بتأخير وأن العنف يقوض أعدل الآمال وهو قول حق، ولكن ألا تظنون أن السنين التى مرت بدون استقرار على سياسة مرضية بدليل سرعة تبدل الأوضاع الإدارية والسياسية ومخالفة هذه الأوضاع رغم تنوعها ـ للأمانى الوطنية، يحمل على إدخال اليأس فى نفوس المفكرين ويولد القلق فى أفكارهم لأنهم طالما سعوا لمداواة ذلك بالطرق السلمية والقانونية فلم يجدوا التسهيلات المطلوبة، وكان سعيهم وبالا عليهم وعلى حريتهم.

النتيجة: فهذه النقط الغامضة فى بيان المفوض السامى هى التى وجدنا ضرورة رفعها إليكم ولفت نظركم إليها ـ كما أن الأسباب الداعية للتفكير فى تقرير مصير الحالة الحرجة، تنحصر فى عدم إضاعة الجهود والأتعاب المبذولة فى سبيل إنماء مواهب الأمة واستثمار

خيرات البلاد، وهذا مايقوى رغبتنا فى التفاهم والعمل المشترك مع الأمة الفرنسوية الحرة توصلا لهذه الغاية ويدعونا لأن نضيف إلى ذلك الكلمة الآتية:

إن السوريين فى إلحاحهم على الشعب الفرنسوى بتحقيق أمانيهم لا يطلبون خلق حالة سياسية جديدة. لأن البيانات والمعاهدات اعترفت باستقلال سورية واعترفت للسوريين بالجدارة بحكم أنفسهم فهم إذن يطلبون حقا كانت الدولة الفرنسوية قد ضمنته لهم وحرمتهم منه سياسة بعض الموظفين الفرنسويين فى سورية الذين تجاوزوا حدود النصح والإرشاد، مما أدى إلى جر فرنسا لمواجهة المواقف المضطرب في سوري، ولهذا فنحن واثقون بأن وجهة نظر الدول الفرنسوية ووجهة نظر الوطنيين يمكن بل يجب أن يتفقا ويتحدا ونحن نعتقد أن فى فرنسا أمة نبيلة تؤيد قضيتنا الوطنية وتعطف عليها وتريد إعادة الثقة بيننا وبينها، وهذا ما يؤكد لنا تمسك الشعب الفرنسوى بالعدل ويدلنا على لزوم التعاون المشترك المبنى على تبادل المنفعة وتعيين واجبات الطرفين.

هذا واسمحوا لنا ياجناب المفوض السامى أن نذكركم بطلبات أمتنا التى قدمت إليكم سابقا بلسان وفودها فى الداخل ووفدها فى الخارج والتى بسطناها إجمالا فى هذه السطور ووعدتم قبل سفركم إلى فرنسا بدرسها ومعالجتها. والآن لا نعلم مصيرها ولا نسبتها فيما تنوون إجراءه وقد وجدنا أنه جدير بنا لفت نظركم فى الختام إلى لسان حال أمتنا فى الظروف الحاضرة فهو يخاطبكم قائلا:

طلبتم منا الصبر فصبرنا وحسن الثقة فوثقنا فهل يرضيكم بقاؤنا متذمرين شاكين مقيدى الحركة مفككيى الأجزاء؟. إننا لا نصدق ذلك، ولا نريد أن نصدق أننا عندما نطلب منكم النظر فى قضييتنا بإنصاف، ونسأكم تعديل ماهو ضرورى تعديله وإصلاح ماهو واجب إصلاحه من الموقف والتدابير غير المرضية أن تتهمونا بأننا أعداؤكم وأن مصالح الانتداب مهددة مع أنا أدرى الناس بالأمر الواقع ونياتنا الحسنة.

هذا هو لسان حال الأمة نعيده على مسامعكم ونزيد عليه بأننا لسنا أعداء فرنسا التى عرفناها بعلمها وحريتها ومدنيتها وتفانيها فى خدمة المبادئ الإنسانية، ولهذا رمينا بهذا الاجتماع إلى تذكيركم بأن الأمة السورية مستعدة لمد يد الصداقة والمصافحة ونسيان الماضى المؤلم كلما وجدت تحقيقا لأمانيها وسيادتها القومية - اهـ.

ـ ٢٢ ـ
الجمعيـــة التأسيسية

عمل المسيو بونسو على تخدير أعصاب الأمة وقتل الروح الوطنية بالتسويف والمماطلة فلم يتحرك حركة، ولم يباشر مشروعا مدة ثمانية عشر شهرا وكان يجيب على الأسئلة التى توجه إليه بإنه منصرف إلى الدرس والبحث، وأنه سيعمل متى آن الأوان مما أحرج الصدور وكاد يؤدى إلى رد فعل لا تحمد مغبته وعواقبه.

وأخيرا بعد مفاوضات سرية طويلة بينه وبين هاشم الأتاسى وإبراهيم هنانو من جهة وبينه وبين الشيخ تاج الدين الحسنى من جهة أخرى وافق على إحداث تغيير فى الوضع الحكومى فحمل الداماد على الاستقالة فاستقال يوم ٨ فبراير سنة ١٩٢٨، وفى يوم ١٢ منه عهد إلى الشيخ تاج الدين الحسنى بإنشاء حكومة مؤقتة تتولى إدارة البلاد فى هذه المرحلة فألفها على الفور وهذا بيانها:

«إن الحكومة المؤقتة فى سورية شاعرة بخطورة الأحوال السياسية الحاضرة ومقدرة للتبعة الواقعة عليها فيما إذا لم تحقق أمانى الأمة. سواء بسبب إخفاقها أو لتصلبها فى رأيها.

وحيث إنها واثقة بإخلاص ممثلى الانتداب وعالمة بأن تنفيذ الانتداب الذى أقرته جمعية الأمم يفرض على فرنسا وسورية حقوقا ووجبات متقابلة فهى تصرح بعزمها على اتباع سياسة أيجابية مفيدة واضعة نصب عينيها الرقى السياسى والأدبى والمادى لتسير الأمة بأقرب الطرق إلى الحكم الذاتى.

إن برنامج كل حكومة مؤقتة يكون بحكم الأحوال مختصرا، ولذلك تعد حكومتنا مهمتها الأساسية قاصرة على تسليم زمام الحكم بأسرع وقت ممكن إلى حكومة دستورية، وقد نظرت فى الشروط التى تمكنها من إتمام مهمتها بأسرع مايمكن من الزمن وهى واثقة بالنجاح. وأهم هذه الشروط الانتخابات النيابية وسيشرع بها قريبا لتضع حدا للحالة المبهمة التى تألمت منها البلاد، وستكون الانتخابات حرة مطلقة من كل قيد لتبدو فيها الآراء كافة بشرط عدم تعكير الراحة العامة، وبديهى أن حرية الاقتراع تقضى برفع الأحكام

العرفية وإلغاء المراقبة، ومنح العفو الواسع النطاق.

والجمعية التأسيسية المنتخبة تتمكن بملء الحرية من سن القانون الأساسى لتنشره الحكومة بالاتفاق مع فرنسا، ولكى تستطيع الحكومة أن تشرف على جميع مصالح البلاد ومواردها أحبت ان تكون ممثلة فى إدارة المصالح الاقتصادية المشتركة بين جميع الحكومات.

وهى تعتقد أنها تكون قد قامت بواجبها إذا تمكنت فى شهور قليلة من تنفيذ برنامجها المقبول من سلطة الانتداب. أما الحكومة النهائية فستكون لها مهمة أخرى ولن تأخذ الحكومة المؤقتة نحو البلاد تعهدات تكون من وظيفة الحكومة النهائية، ولكنها لاتقوم بواجبها إذا أهملت بيان رأيها فى القضيتين الخطيرتين اللتين يجب على الأمة أن تقدم على حلهما بعد وضع دستورها.

فالحكومة تصرح بنبذ شكل الانفصال الذى لايفيد غير العداء والتضارب المضرين بسعادة البلاد وعمرانها، ولكنها احتراما للاتفاقات الدولية ولرغبات الأهلين تود أن يكون كل تقدم فى هذا السبيل قائما على رغبات الذين يهمهم الأمر وعلى مفاوضات ودية بينهم، وسيطلب تحكيم فرنسا فى ذلك حين الحاجة وتصرح أيضا بأن العمل القائم على الإخلاص المرغوب فيه بين فرنسا وسورية والذى هو وحده يخول سورية حق الانضمام إلى جمعية الأمم لايعود بالفائدة المنشودة إلا بتجديد علاقات الدولتين بمعاهدة يجب عرضها على البرلمان السورى لإبرامها وهذه المعاهدة تحدد بصراحة مدى الواجبات الناشئة عن صك الانتداب وتكون عرضة للتعديل لمصلحة سورية فى مدة ستعين فيما بعد وفاقا لتقديم البلاد إلى آن تحصل سورية على سيادتها التامة. وستبحث الحكومة النهائية فى جميع المطالب الوطنية عند عقد المعاهدة المشار إليها.

فعلى الأمة السورية إذا قبلت هذا البرنامج وكانت قد ملت الوعود الفارغة أن تجمع صوتها حول حكومة لم تضع أمامها سوى هدف واحد يمكن بلوغه وستصل إليه - اهـ.

بيان المندوب السامى

وآصدر المندوب السامى يوم ١٥ فبراير وبمناسبة إنشاء الحكومة الجديدة البيان الآتى:

إن الدولة المنتدبة ترجو من زمن بعيد أن تأزف الساعة التى تتمكن فيها سورية من حل

قضية دستورها فى حالة السلام، وقد أزفت هذه الساعة الآن وستجرى الانتخابات قريبا بمقتضى القوانين المعمول بها والتى تكفل حرية الاقتراع لجميع الاحزاب. وستلغى جميع قيود الحريات المشروعة وهى القيود الموروثة من عهد الاضطراب لتظهر آراء البلاد الحقيقية ظهورا جليا باستشارة الشعب.

وستسن الجمعية التى تنشأ عن هذه الانتخابات القانون الأساسى النهائى للبلاد السورية بتمام الحرية المطلقة ضمن نطاق الاتفاقات الدولية والصكوك المسئولة عنها فرنسا تجاه جمعية الأمم. فاحترام الحقوق والواجبات المتبادلة الناشئة عن صك الانتداب، والتى يمكن تحديدها باتفاقات تعقد فيما بعد هو فى الحقيقة أساس للرقى السريع الذى يجب أن تبلغ إليه سورية وتساعدها الدولة المنتدبة على تحيقه بكل قواها.

وفى الوقت الذى تقيم فيه فرنسا للسوريين عامة الدليل على سخائها والثقة التى تضعها فيهم تحذرهم من تعريض المستقبل - المملوء بالوعود الجميلة والذى تفتح أمامهم أبوابه للأخطار الناشئة عن الاضطرابات والاختلافات، أو عن جهل الحقائق السياسية. وإن فرنسا تنفيذا لهذه الخطة التى رسمتها تضع ثقتها بالحكومة المؤقتة التى أخذت اليوم على عاتقها مهمة محدودة هى إدارة الشئون العامة - اهـ.

العفو المقيد

وطبقا لما تم عليه الاتفاق بين المندوب السامى ورئيس الحكومة المؤقتة أذاع المندوب البيان الآتى:

لما كان السلم فى سورية قام تماما وأصبح هدوء الأفكار مبررا للحلم والعفو فقد أعلن العفو فى الأراضى السورية عن الأعمال المرتكبة قبل تاريخ هذا المرسوم والمتعلقة بالصحافة والانتخاب كما أعلن عن الجرائم والجنح المرتكبة فى أثناء الثورة أو المرافقة لأعمال العصيان.

ولا يشمل هذا العفو سوى الذين استسلموا سابقا فى خلال ثلاثين يوما تبدأ من توقيع المرسوم الحالى، وستعاد الأملاك المصادرة إلى أصحابها إلا إذا كانت قد بيعت فيعاد إليهم الثمن فقط.

ولا يتناول هذا العفو أعمال العصيان والجرائم والجنح المرافقة لها والتى اقترفها:

١ ـ التابعون لجنسية غير جنسية البلاد المشمولة بالانتداب.

٢ ـ الذين عادوا إلى الثورة بعد ما أعلنوا خضوعهم.

٣ ـ الموظفون وخاصة رجال القوات العامة.

٤ ـ الواردة أسماؤهم فى اللائحتين الملحقتين بهذا القرار سواء أشير إليهم فى فقرات هذه المادة أم لا.

أما الذين صدرت عليهم أحكام من مجالس الحرب ولا يستفيدون من هذا القرار فستتخذ فيما بعد التدابير اللازمة لتسوية حالتهم، ويستثنى من ذلك الواردة أسماؤهم فى اللائحتين المذكورتين.

فقد استثنى من اللائحة الأولى المرموز إليها بحرف «أ» الدكتور عبدالرحمن شهبندر وحسن الحكيم وسعيد الترمانينى والدكتور على الشواف وعثمان الشراباتى ومصطفى وصفى والدكتور محمود حمدى ويحيى حياتى والشيخ كامل القصاب وشكرى القوتلى ونبيه العظمة ونزيه المؤيد العظم وإحسان الجابرى وفتاح المرعشلى والدكتور خالد الخطيب وسعيد العاص فى دولة سورية.

وسلطان باشا وعلى وزيد وصياح وفضل الله النجم وسلامة الأطرش وعقلة الطامى وعلى عبيد وفرحات العبد ومحمد عبدالكريم بكر وسعيد بكر ومحمد عزالدين الحلبى فى جبل الدروز.

وتوفيق هولو حيدر وسعيد حيدر والأمير شكيب أرسلان والأمير عادل أرسلان وفوزى الفاوقجى وشكيب وهاب فى الجمهورية اللبنانية.

محمد الشريقى والدكتور أمين رويحة من دولة العلويين وجميع هؤلاء استثنوا من العفو العام لجرائم سياسية[1].

أما اللائحة الثانية المرموز اليها بحرف «ب» فقد استثنت من العفو العام المتهمين

---

(١) صدر عفو خاص فى أوقات مختلفة عن بعض هؤلاء فعادوا إلى بلادهم نذكر منهم عثمان الشراباتى ومصطفى وصفى ونزيه المؤيد وسعيد الترمانينى والدكتور محمود حمدى ويحيى حياتى والشيخ كامل القصاب وشكرى القوتلى والدكتور على الشواف. أما الباقون فلا يزالون فى خارج البلاد ولم يصدر عنهم عفو حتى الآن.

بجرائم تتعلق بالحق العام وهم:

الشيخ مصطفى الخليلى وزكريا الداغستانى ومحمد عكاش وحسن رعد ومحمد عبدالكريم وعبد القادر وأبو السعود وعبدالهادى ومحمد حسن رعد ونظير النشيواتى وعبدالقادر سكر وحسن وطفا ومحمد عباسى ومحمد سعيد العرفى ومحمد الحاج حسين والإخوة الثلاثة آل قطاط من جوبر وأحمد محيى الدين شعبان من دولة سورية[١].

وهايل سلام وعلى سلام وكنج سلام وعبدالكريم عامر فى جبل الدروز.

وأصدرنا قرارا بإلغاء المراقبة عن الصحف فى دمشق وإلغاء الحكم العرفى فى دمشق ابتداء من ١٧ فراير سنة ١٩٢٨.

وألغيت أحكام الإقامة الإجبارية الصادرة على فوزى الغزى وفارس الخورى وحسنى البرازى ولطفى الحفار وسعد الله الجابرى وإسماعيل حلمى وعبدالمجيد الطباخ وبدر الدين الصفدى وأديب الصفدى.

انتخاب الجمعية التأسيسية

وفى يوم ٢٤ ابريل سنة ١٩٢٨ جرت انتخابات الجمعية التأسيسية. فاشترك فيها الوطنيون الذين سبقوا فأصدروا يوم ٢٨ مارس منشورا قالوا فيه «عزمنا عل مواجهة المستقبل الذى ذكر المفوض السامى فى بيان أنه مملوء بالوعود برغم مافى الموقف من غموض وإبهام لا يأتلفان مع السخاء والحرية اللذين صرح بهما فى بيانه، وبرغم أن الأوضاع الحاضرة ليست فى فى حالة تبعث على الاطمئنان بسلامة الانتخابات واثقين بان المجال مازال متسعا لتعديل مواد قانون الانتخابات على أساس القضاء دون اللواء ومدة النيابة وشروط الإقامة والنيابة عن الأقليات. خصوصا بعد أن سبق تعديل أحكام هذا القانون إلخ[٢].

(١) عفى بعد ذلك عن بعض هؤلاء وعادوا إلى بلادهم.

(٢) أذاعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى يوم ٣٠ مارس سنة ١٩٢٨ بيانا بمناسبة الانتخابات قالت فيه : واللجنة التنفيذية التى لاتحيد عن خطتها لتحقيق استقلال البلاد التام بحدودها الطبيعية ترحب بكل فرصة تتاح لأبناء الوطن للإعراب عن آرائهم فى مصيرهم وفى نظام الحكم الذى يختارونه بحرية تامة وطريقة رسمية، ولكنها ترى فى قانون الانتخاب الذى نشر أخيرا أداة تحول فى مجموعها دون انتخاب الممثلين الأكفاء الذين يستطيعون أن يقوموا بمهمة التشريع الدستورى حق القيام ويمثلون رغائب الأمة =

افتتاح الجمعية وأغلاقها

وفى يوم ٩ يونيو سنة ١٩٢٨ افتتحت الجمعية التأسيسية - بعد تردد طويل من المسيو بونسو - الذى أخافه نجاح الوطنيين وفوزهم فى الانتخابات خلافا لما كان يامله ويرجوه فجاء بالذات إلى دار الجمعية وألقى الخطبة الآتية.

«أيها السادة:

«إنها لساعة جليلة سيكون لها أثرها الخالد فى تاريخ سورية، هذه الساعة التى تجتمعون فيها هنا لوضع دستور الدولة - أى تنظيم أسس الحكومة التى ستأخذ على نفسها إدارة تطور البلاد وتأمين مستقبل الأمة، وكنا - ونحن نرقب عن كثب رقي الثقافة السياسية في البلاد نتمنى اجتياز هذه المرحلة الدقيقة نزولا على آمال السوريين وفرنسا وجمعية الأمم. ففى يومنا هذا فرصة مناسبة بصورة خاصة للقيام بهذا العمل ضمن روح الوفاق بين جمعكم وروح الثقة الحقيقية بين النواب ورجال الانتداب، ولكن العمل الذى نشترك فيه يتطلب من الجميع عزما صادقا على استنباط حل يؤمن - ضمن روح التساهل الواسع - الضمانات الضرورية لصيانة جميع الحقوق واحترام جميع المصالح.

«لقد حدد بيانى المنشور فى ١٥ فبراير المسائل المحتم علينا تناولها الواحدة تلو الأخرى، وعند ماتنهون مهمتكم هذه يكون قد حان الوقت لتشييد العلاقات بين فرنسا وسورية على دعائم متينة تتفق مع ما تتطلبه أنفسكم وتتوق إليه نحن أيضا، لأن إجراء المفاوضات اللازمة لعقد المعاهدة يفسح لنا المجال لتدبير طرق حل لجميع المسائل التى تشغلنا جميعا. وأنتم تكونون قد أعددتم هذا الحل بقدر ما تبرهنون من الآن عن حنكة سياسية تضمن نتيجتها لسورية - عند حلول الأجل - مكانتها المشروعة فى مصاف الأمم وبين سائر الشعوب.

«سادتى: أنا أعرف تماما رغباتكم وتمنياتكم فأرجو وأنتم تعملون أنكم تجدون دائما الاجتماع إلى سهلا وأن لا تدعوا مجالا لأن تنشأ وتنمو فى داخل المجلس حالة قد تذهب بثمرة جهودنا المشتركة. وختاما أعرب لكم مع ثقتى الودية عن تمنياتى المخلصة بأن تتكلل أعمالكم بالنجاح».

= ومرامى نهضتها تمثيلا حقيقيا. فهى تخشى أن يقضى بقاء العيوب الموجودة فى قانون الانتخاب على حالها إلى نتيجة لاتقتصر على الإتيان بعكس الغرض المطلوب من الانتخابات فقط. بل تستخدم أيضا وسيلة لتأييد الأسباب الوهمية التى بنى عليها تمزيق وحدة البلاد وحرمانها من استقلالها».

وألقى الشيخ تاج الدين الحسنى رئيس الحكومة المؤقتة الخطبة الآتية:

«أحيى مع السرور العظيم مجلسكم التأسيسى الذى وكل إليه وضع الأسس لكيان سورية السياسى المقبل وإن مجلسا كمجلسكم أركانه هم خيرة الرجال أخلاقا وعلما ووطنية لهو أجدر المجالس بالقيام بالمهمة التاريخية التى مابرح الشعب يطالب بتحقيقها.

وقد بدأت الحالة تظهر بوضوح وجلاء ودخلنا فى دور جديد فيجب علينا أن ننسى الحوادث الماضية، وأن نواصل جهودنا للسير على هذا الطريق الجديد الذى مهدنا سبيله لأنفسنا. ومما يعزز ثقتنا بالنجاح النهائى روح الحرية التى تظهرها فرنسا لوطننا المحبوب والتى تتضح جليا اليوم باجتماعكم هذا الضامن للاتفاق والتعاون النزيه بين البلدين.

وأصرح نفيا للاشاعات الرائجة بأنه لايوجد هنالك مشروع بالدستور يقدم إلى مجلسكم الموقر. بل إنه هو الذى سيضع بملء الحرية الدستور الضامن للسيادة القومية. ومع بيان استعدادى لتسهيل مهمتكم الخطيرة أختم كلامى معلنا افتتاح الجمعية التأسيسية وداعيا لها بالنجاح والتوفيق».

وجرت الانتخابات على الأثر للرئاسة ففاز بها هاشم الاتاسى زعيم الكتلة الوطنية وانتخبت فوزى الغزى وفتح الله اسيون لوكالة الرئاسة.

شكل الحكم فى سورية ومؤتمر الوحدة

وبمناسبة افتتاح الجمعة التأسيسية وما ألقى على عاتقها من مهمة تقرير شكل الحكم نشطت الحركة السياسية فى داخل سورية نشاطا زائدا. فظهر أن هنالك أنصارا للملكية كما أن هنالك أنصارا للجمهورية.

١ ـ اجتماع القاهرة

وبدأت اللجنة التنفذية بمصر العمل فدعت يوم ٧ يونيو نخبة من السوريين إلى عقد اجتماع فى دارها للبحث فى تحول سورية الأخير. وهذا نص بيانها عن هذا الاجتماع:

عقد اجتماع عام فى دار اللجنة التنفذية ليل ٧ يونيو سنة ١٩٢٨ برئاسة الأمير ميشيل لطف الله حضره عدد يربو على ٨٠ من زعماء السوريين الوطنيين وأحرارهم، ووضعوا بعد البحث والمداولة القرار الآتى بالإجماع:

بالنظر لقرب اجتماع الجمعية التأسيسية.

ولما كان الشعب السورى قد أسمع صوته العالم كله بجميع الوسائل المشروعة مطالبا بوحدة بلاده واستقلالها، ولما كانت ثقافة البلاد وحالتها الاقتصادية والاجتماعية وعلاقاتها الدولية وسلامة وحدتها القومية التى لا يضيرها تعدد المذاهب تقتضى أن يكون شكل الحكومة فيها جمهوريا.

ولما كانت العلاقات بين سورية وفرنسا غير محددة تحديدا واضحا يكفل للسوريين حقوقهم الطبيعية فالمجتمعون اليوم اجتماعا عاما فى دار اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى من أحرار سورية - الذين لم يتسن لهم الاشتراك فى انتخابات الجمعية التأسيسية لأسباب قهرية - يقررون مايأتى:

١- إن دستور سورية يجب ان يصرح بوحدة البلاد السورية واستقلالها وسلطانها القومى وأن تكون حكومتها ديمقراطية برلمانية جمهورية.

٢- أن تحدد العلاقات بين سورية وفرنسا بمعاهدة يبرمها البرلمان السورى وتبنى على قاعدة احترام استقلال البلاد وسيادتها وأن تنص هذه المعاهدة على قرب جلاء الجيش المحتل.

٢ - بيان سلطان باشا الأطرش

وأذاع سلطان باشا بيانا أيد فه الوحدة السورية على أن يكون جبل الدروز حلقة من حلقاتها.

٣ - مؤتمر أبناء الساحل

واغتنم أنصار الوحدة فى الساحل السورى وجبل لبنان والأقضية الأربعة فرصة اجتماع الجمعية التأسيسية ومباشرتها وضع دستور البلاد فوفدوا إلى دمشق وعقدوا فيها يوم ٢٣ يونيو مؤتمرا باسم مؤتمر أبناء الساحل رأسة عبدالحميد كرامة مفتى طرابلس السابق. وهذا نص البيان الذى أذاعه:

لما كانت القضية السورية قضية واحدة لا تقبل التجزئة والانقسام، ولما كان السوريون

أمة واحدة تربطهم جامعة القومية، ولا تفرق بينهم الأديان والمذاهب.

ولما كانت الظروف القاسية حالت دون اشتراك بعض أبناء هذه البلاد فى الجمعية التأسيسية السورية التى تضع دستور هذا الوطن وتقرر مصيره النهائى فقد أتينا نحن أبناء البلاد المحرومين من هذا الحق إلى دمشق عاصمة سورية ومصدر الوطنية الحقة والمبادئ الصحيحة، وعقدنا مؤتمرا فى يوم السبت الواقع ٥ المحرم سنة ١٣٤٧ الموافق ٢٣ يونيو سنة ١٩٢٨ خلال انعقاد الجمعي التأسيسية السورية في الوقت الذي يظهر فيه الشعب الفرنسوى النبيل استعداده لإيجاد صداقة دائمة مع بلادنا تقوم على أساس الاعتراف بحقنا الشرعى، وبعد درس القضية من جميع وجوهها وإنعام النظر فى الأدوار التى مرت بها من ثمانى سنوات قررنا ما يأتى:

١ـ يؤيد المؤتمر ميثاق البلاد القومى ويطلب إلى الجمعية التأسيسية تحقيق وحدة البلاد السورية العامة بضم جبل الدروز والبلاد المسماة ببلاد العلويين والبلاد التى ضمت إلى لبنان القديم من سورية، وذلك بوضع مادة خاصة فى صلب الدستور تنص على ان سورية المؤلفة من البلاد المذكورة هى دولة واحدة مستقلة ذات وحدة سياسية لا تتجزأ وذات سيادة.

٢ـ إرسال تحية خالصة إلى الجمعية التأسيسية وتأييد الكتلة الوطنية العاملة على تحقيق الميثاق القومى فى داخل البلاد وخارجها وكل عامل مخلص لتحقيق هذا الميثاق.

٣ـ يبلغ هذا القرار إلى صاحب الدولة رئيس الجمعية التأسيسية وبواسطته إلى المفوض السامى وإلى وزارة خارجية فرنسا وجمعية الأمم.

وهذه أسماء وفود البلاد التى اشتركت فى المؤتمر.

وفد بيروت ـ عمر بيهم نائب بيروت وعبدالرحمن بيهم واحمد الداعواق وصلاح عثمان بيهم وعزت قريطم وبشير جبر ومحمد خرما والدكتور عبدالله الياقى ومحمد الباقر وأنيس نجا وعونى الكعكى وعلى ناصر الدين.

وفد *طرابلس* ـ عبدالحميد كرامة والدكتور عبداللطيف البيسار ومصطفى عادل الهندى وسعدى المنلا وعارف الحسن الرفاعى والدكتور حسن رعد وصبحى الملك وتيودور حكيم.

وفد *جبل عامل وصيدا* وصور ـ الشيخ أحمد رضا والشيخ أحمد عارف الزين ورياض الصلح ومحمود زنتوت والحاج إسماعيل خليل وتوفيق الجوهرى ويوسف أبو ظهر وسامى زنتوت وبديع الزين، وفؤد الميدانى وسعيد عسيران ومراد غلمية ومحمد على الحومانى.

وفد *وادى التيم* ـ الأمير فؤاد الشهابى.

وفد *اللاذقية* ـ عبدالواحد هارون وعبدالقادر شريتح ومجد الدين الأزهرى والدكتور ضيا ماميش والمحامى صبحى الطويل ومحمود عبدالرازق ومحمود الأحمد وعلى المحمد وحسين تحوف ومحمد نورالدين الخدام.

وفد *البقاع* ـ الدكتور ملحم الفرزلى وميخائيل فلفلى وخليل سلوخ وسمعان خزعلى وإبراهيم القيم وقاسم الهيمانى.

وفد حصن *الأكراد* ـ عبدالله الكنج وعبداللطيف الكنج وعبدالحميد القاسم وعبدالرزاق الرستم الدندشى وعبدالقادر الأحمد.

وفد *بعلبك* ـ صبحى حيدر نائب بعلبك فى مجلس نواب لبنان وعباس ياغى وأديب حسن شومان وأديب الرفاعى ونجيب حيدر ولطفى حيدر ومحمد أديب قانصوه.

دستور اللجنة التأسيسية ومبادئه

واختارت الجمعية لجنة من أعضائها عهدت إليها بوضع مشروع الدستور وتولى ابراهيم هنانو رئاسة اللجنة فأتمت وضع المشروع، وقد نص على أن تكون الحدود السورية نفس الحدود الواردة بمعاهدة سايكس ـ بيكو وأن يكون نظام الحكم جمهوريا، وأن يكون رئيس الجمهورية مسلما ونص على حرية الأديان وعدم جواز نفى سورى وجعل التعليم إجباريا للبنات والبنين وأن يكون اللغة العربية هى الرسمية وأن تكون السلطة التشريعية منحصرة فى مجلس منفرد ينتخب أعضاؤه على درجتين وأن ينظم الجيش بقانون خاص وأن يكون لرئيس الجمهورية حق إعلان الحكم العرفى وتنتخب الجمعية التأسيسية أول رئيس للجمهورية. وقد كان أقطاب اللجنة على اتصال بولاة الأمور الفرنسويين حين وضع المشروع وكانوا يطلعونهم على مواده قبل البت فيها دفعا للخلاف، وضرب يوم ٧ اغسطس موعدا لتقديم المشروع إلى الهيئة العامة للمناقشة فيه وإقراره.

بلاغ فرنسوى رسمى للجمعية

وقبل أن تبت الهيئة العامة فى المشروع، وتقره نهائيا فوجئت الجمعية يوم الأربعاء ٨ اغسطس ببلاغ فرنسوى رسمى تلاه عليها المسيو موغرا السكرتير العام للمفوضية الفرنسوية باسم المفوض وهذا نصه:

تتبع ممثل فرنسا سيرا أعمال الجمعية التأسيسية بانتباه وعطف عظيمين راجيا حصول الاتفاق الذى يعطى لسورية دستورها النهائى قريبا. وحيث إن المناقشة فى مشروع الدستور الذى وضعته اللجنة تبدأ اليوم فقد وجب على العميد الفرنسوى ان ينبه أعضاء الجمعية التأسيسية إلى ضرورة عدم البحث الآن فى المسائل التى ليس حلها من اختصاص الجمعية وحدها. لأنها تمس تنفيذ الانتداب الذى تعد فرنسا مسئولة عنه أمام جمعية الأمم، ولا يمكن تغيير شيء في نصوص هذا الانتداب إلا باتفاق سابق توافق عليه الجمعية، وقد رغب العميد فى بياناته السابقة الإعراب بصراحة عن ذلك تجنبا لكل سوء تفاهم على نقط هامة كهذه تعرض للخطر ثمرة الجهود المبذولة بإخلاص من الفريقين لقطع المرحلة الأولى بسلام، ولكن بعض أحكام المشروع تستدعى تحفظات خاصة لأن بعضها يخالف تصريحات العهود الدولية المعينة بها مسئولية الدولة المنتدبة. والمواد ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ١١٠ و ١١٢ فى مشروع الدستور تعد ماسة بالمسائل الداخلة ضمن النطاق المشار إليه وكذلك المادة ٢[1] من حيث مخالفتها للاتفاقات الدولية ولحالة قانونية واقعة لا يمكن تعديلها

---

(١) ـ هذا نص المواد المطلوب حذفها:

المادة ٢ ـ البلاد السورية المنفصلة من الدولة العثمانية وحدة سياسية لاتتجزأ ولا عبرة بكل تجزئة طرأت عليها بعد نهاية الحرب العامة.

المادة ٧٣ ـ لرئيس الجمهورية حق العفو الخاص أما العفو العام فلا يمنح إلا بقانون.

المادة ٧٤ ـ يتولى رئيس الجمهورية عقد المعاهدات الدولية وإبرامها أما المعاهدات التي تنطوي علي شروط تتعلق بسلام البلاد أو بمالية الدولة أو المعاهدات التجارية أو سائر المعاهدات التي لايجوز فسخها سنة فسنة فلا تعد نافذة إلا بعد موافقة المجلس عليها.

المادة ٧٥ ـ يختار رئيس الجمهورية رئيس الوزراء ويعين الوزراء بناء على اقتراح رئيسهم ويقبل استقالتهم ويستقبل الممثلين السياسيين ويعين الموظفين الملكيين والقضاة ضمن حدود القانون ويرأس الحفلات الرسمية.

المادة ١١٠ ـ تنظيم الجيش الذي سيؤلف يكون بقانون خاص.

المادة ١١٢ – لرئيس الجمهورية أن يعلن بناء علي اقتراح الوزارة الأحكام العرفية فى الأماكن التي تحدث فيها اضطربات أو قلاقل ويجب أن يعلم المجلس النيابى بإعلان الأحكام فورا وإذا لم يكن المجلس مجتمعا فيدعى على وجه السرعة.

بقرار يتخذه فريق واحد. فبقاء أحكام كهذه يوجد حالة مبهمة تعرض للخطر ما كان يرجى تحقيقة وبفروغ صبر. فالعميد الفرنسوى يثق بحكمة الجمعية ولايشك فى أنها بوقوفها على هذه الصعوبات تعنى بالملاحظات المذكورة من تلقاء نفسها وتقرر فصل الأحكام المشار إليها من صلب الدستور قبل ولوج باب المناقشة فيكون مشروع الدستور متفقا فى جوهره مع حالة لا يمكن تغييرها إلا باتفاقات يجب عقدها مع الحكومة الفرنسوية فإنه لايسع فرنسا أن تأذن بنشر وتنفيذ دستور يحرمها الوسائل التى تساعدها على القيام بالفروض الدولية التى أخذتها على نفسها».

وتناقشت الجمعية فى البلاغ افرنسوى وتعاقب لخطباء واشتدت الحماسة وانتهت المناقشة باتفاق كلمة أعضاء الجمعية ـ ماعدا ستة منهم ـ على رفض البلاغ وهذا نص القرار الموضوع:

«لما كان طى المواد الست الواردة فى بيان العميد ورفعه من صلب الدستور يجعله أثرا لا قيمة له ويحرم الدولة السورية من سيادتها واستقلالها المعترف به دوليا، ولما كانت الجمعية التأسيسية التى انتخبتها الأمة لوضع دستور كفيل بتحقيق استقلالها وسيادتها ووحدتها غير مرتبطة إلا بالبرامج التى أعلنها أعضاؤها حين انتخابهم ولما كانت البيانات والعهود المقطوعة من قبل المفوضية ذات طرف واحد لايلزم الجمعية التأسيسية فى شئ، ولما كانت هذه الجمعية قد قررت فى جلستها السابقة قبول مشروع الدستور بكاملة ولم يبق بالإمكان الرجوع عن هذا القرار بحذف أهم مواد الدستور وأركانه. فالجمعية تقرر ـ مع رغبته لأكيدة دوام حسن التفاهم بينها وبين ممثلى فرنسا بسورية ـ عدم موافقتها على حذف المواد الست المذكورة وتفويض مكتب الجمعية مواصلة العمل باسمها».

ولما أبلغ هذا القرار إلى المندوب السامى أصدر قرارا بوقف الجمعية مدة ثلاثة أشهر تلى على أعضائها صباح ١١ منه فتفرقوا وهذا نصه:

«أجلت الجمعية التأسيسية الملتئمة فى اليوم التاسع من شهر يونيو لوضع الدستور مدة ثلاثة أشهر تبدأ من يوم !! أغسطس سنة ١٩٢٨».

ولقد كان لهذا العمل، يعمله الفرنسويون ويحولون به بين الجمعية التأسيسية وبين إتمام مهمتها، ويقصون عن سورية الاستقرار الذى تنشده، أسوأ أثر فى الرأى العام السورى فأضربت دمشق احتجاجا وأقيمت المظاهرات فى جميع أحيائها فقبضت السلطة

على بعض الشبان الوطنيين وعذبتهم عذابا أليما فاحتج النواب برقيا على ذلك إلى المندوب السامى وطلبوا إجراء تحقيق دقيق.

وغادر المسيو يونسو سورية على الأثر إلى فرنسا لاطلاع ولاة الأمور على حقائق الحالة فشاعت إشاعات بأنه أقيل وان غيره سيخلفه فأذيع بلاغ رسمى بأنه مسافر إلى باريس لمفاوضة وزارة الخارجية وتقديم تقرير عن الحالة فى سورية.

ورددت الألسن يومئذ بان الوطنيين عزموا على إرسال وفد إلى باريس لمقابلة أقطاب الحكومة الفرنسوية وإطلاعهم على حقيقة الحالة والسعى للاتفاق ولكنه لم يسافر بل سافر إليها جميل مردم بك فى أواخر شهر سبتمبر للاتصال بالمندوب السامى والدفاع عن القضية الوطنية.

مفاوضات جديدة بين الجمعية والسلطة

وفى يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٢٨ صدر قرار جديد يؤجل الجمعية ثلاثة أشهر أخرى انتظارا «لإيجاد حل للقضايا التى أوجبت التعطيل فى شهر أغسطس» وعاد المندوب السامى من رحلته إلى بيروت يوم ٢٦ ديسمبر وفى يوم ١١ يناير سنة ١٩٢٩ دعا رئيس الجمعية التأسيسية وسلمه المقترحات الآتية لعرضها على هيئة المكتب ولجنة الدستور والحصول على موافقتهما عليها وهذا نصها:

«تضاف المادة الآتية إلى مشروع الدستور:

«إن كافة أحكام هذا الدستور هى غير مخالفة ولا يجوز أن تخالف الواجبات التى اتخذتها فرنسا على نفسها فيما يختص بسورية خاصة نحو جمعية الأمم.

«هذه التحفظات تنطبق خاصة على المواد التى تمس التحفظات على الأمن العام وعلى النظام والمواد التى تمس الدفاع عن البلاد ومواد العلاقات الخارجية. فى كل المدة التى تبقى الواجبات الدولية فيما يختص بسورية ملقاة على فرنسا لا تكون أحكام هذا الدستور التى من شأنها أن تمس هذه الواجبات قابلة التنفيذ إلا ضمن الشروط المعينة فى اتفاقات تعقد ما بين الحكومتين الفرنسوية والسورية. بناء عليه فالقوانين المنصوص عليها فى مواد هذا الدستور والتى قد تمس تنفيذها هذه المسئوليات لا يبحث فيها ولا تنشر طبقا

لهذا الدستور إلا بموجب الاتفاقات المذكورة.

«لا يجوز نقض القرارات التشريعية والتنظيمية التى اتخذها ممثلو الحكومة الفرنسوية الإإذا تم الاتفاق على ذلك مقدما ببين الحكومتين».

واجتمع أقطاب الجمعية فى دمشق يوم ١٨ منه لدرس الاقتراح الفرنسوى فقرروا أن يقابل رئيس الجمعية مع جميل مردم بك المندوب السامى ويسألانه هل فى الإمكان تعديل الاقتراح المعروض أم لا ولما اجتمعا به وناقشاه فى محتوياته وأبانا له مخالفته لأحكام الدستور أجابهم أن إرادة الخارجية تقضى بقبوله كما هو فوضعوا اقتراحا اعتقدوا أن الأخذ به يحل المشكلة وأبلغوه اياه يوم ٢٥ يناير وهذا نصه:

طلب المندوب السامى إلى الجمعية التأسيسية بتاريخ ٩ أغسطس فصل المواد ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ١١٠ و ١١٢ من مشروع الدستور وتعديل المادة الثانية بحجة أن هذه المواد تعارض تعهدات فرنسا الدولية ورأت الجمعية فى ذاك الحين ان فصل هذه المواد عن اللدستور يجعله ناقصا وغير معرب عن رغبات الأمة السورية وكان يرى أن تحدد العلاقات بين فرنسا وسورية الناشئة عن المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم بمعاهدة تبنى على تبادل المصالح وتصان فيها السيادة القومية لسورية، وقد أعلنت فرنسا رضاها عن ذلك بلسان مفوضها السابق المسيو دى جوفنيل وبوسائل أخرى عديدة ولذلك اعتذرت الجمعية عن تلبية هذا الطلب مظهرة رغبتها فى استمرار سياسة التعاون والتفاهم ثم قابلت تأجيل ثلاثة أشهر أخرى بالتؤدة والتفاؤل آملة إيجاد وسيلة تضمن مصالح الجانبين وتوفق بين النظريتين وبعد التأمل وجدت أن ذلك مضمون بإضافة مادة على الدستور هذا نصها:

١ ـ تعدل المادة الثانية من الستور على الوجه الآتى :

البلاد السورية وحدة سياسية لا تتجزأ وحقوق الاعتراض على التجزئة الحاضرة محفوظة.

٢ ـ أضافة مادة مشروع الدستور بعنوان أحكام موقة وهذا نصها:

إن أحكام المواد ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ١١٠ و ١١٢ تنفذ باتفاقات خاصة بين الحكومتين الفرنسوية والسورية ريثما تعقد المعاهدة لتحديد العلاقات بين الدولتين».

تأجيل الجمعية إلى اجل غير مسمى

ولقد كانت غاية مكتب اللجنة من اقتراحه إنقاذ البلاد من حالة التقلقل والمساعدة على إنشاء حياة دستورية ثابتة والإبقاء على سياسة التفاهم فلم يشأ الفرنسويون أن يمدوا يدهم لليد التى مدت إليهم. بل اعتبروا اقتراح المكتب رفضا للمشروع الفرنسوى وأصدر المفوض السامى يوم ٧ فبراير سنة ١٩٢٩ قرارا بتأجيل الجمعية إلى أجل غير مسمى وأرسل إلى رئيسها الكتاب الآتى:

تشرفت فى أثناء المحادثات العديدة التى جرت بيننا فبحثت معكم فى الحالة الناشئة عن المساعى التى بذلت من شهر أغسطس الأخير سعيا وراء أسس الاتفاق الذى يضع التناسب بين الأمانى التى أعرب عنها نواب البلاد بملء الحرية وبين الحق العام المحدد فى المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم وفى صك الانتداب فعلى أثر الجهود المبذولة فى فرنسا وفى سورية خلال ستة أشهر من قبل المفوض السامى ومن قبل الأشخاص الذين فوضتموهم عملا بقرار الجمعية التأسيسية يوم ١١ أغسطس سنة ١٩٢٨ بالاتصال مع السلطات الفرنسوية كان يجوز لى الأمل بأن الاتفاق الذى كان ينظر إليه من الطرفين ممكنا فيما يختص بروح الأصل لايتأخر عن الظهور فى شكل واضح جلى يحول دون وقوع سوء التفاهم. وقد سلمتكم يوم ١١ يناير كملخص لتلك المحادثات التمهيدية نص تحفظات عامة مأخوذة عن الواجبات الدولية الملقاة على فرنسا، فقبول هذه التحفظات التى أضم نسخة عنها إلى رسالتى هذه على سبيل التفكير فى مادة ملحقة كان يسمح للجمعية أن تحتفظ تقريبا بكلية نصوص الدستور الذى أخذته الجمعية بالاعتبار فى اقتراعها عليه يوم ٧ أغسطس الماضى.

إن هذا الاقتراح المشبع بروح الحرية، والذى وزنت كلماته ليأتى مطابقا دون إبهام لما توجبه حالة حقوقية ليس فى مقدور الحكومة الفرنسوية أن تغير فيها دون موافقة جمعية الأمم، وليصون الحقوق الجوهرية الموضوعة طبقا للانتداب كان يدعنى أن أفكر بأن مكتب الجمعية الذى أرسل إليه لا يتردد فى أن يشير على الجمعية بالموافقة عليه وإقراره، ولكن هذا الأمل لم يتحقق ولم تستطيعوا فى آخر حديث دار بيننا يوم ٢٥ يناير أن تعطونى الموافقة والضمانات التى طلبتها منكم.

بيد أنكم إثباتا لرغبتكم فى التفاهم تفضلتم وأعلمتمونى أن رئيس وأعضاء المكتب قد

يقبلون أن تطبق المواد الواردة فى صلب الدستور والتى طلب المندوب السامى يوم ٩ أغسطس فصلها عنه ولم تقبل الجمعية بذلك وفقا للاتفاقات الخاصة التى تعقد بين الحكومتين السورية والفرنسوية ريثما يتم عقد معاهدة تحدد العلاقات بين الحكومتين. ولقد أعرت انتباهى كله نظريتكم هذه ولكنى اضطررت أن أشاهد مع الأسف عدم وجود الاتفاق على النص الذى أودعته إليكم، وهو يعرب من قبل السلطة المنتدبة عن غاية روح هذا التساهل والتفاهم. ولم أتمكن من أن أجد فى الاقتراح المحدد الذى أودعتموه لى فى ٢٥ يناير مواد كافية للاتفاق فالتكهن عن اتفاقات خاصة تعقد فيما بعد لا يكفى ولا يحقق المنافع العامة التى نحن بصددها ولا يمنح الضمانات الكافية التى يضطرنا مبدأ الانتداب إلى صونها والدفاع عنها - كما أنه ليس فى ظل سوء التفاهم ولا بجهل الحقائق يمكن حل الخلاف الذى أوقف أعمال الجمعية منذ ستة شهور.

لهذا تظهر الحاجة إلى الجهود الساكنة الثابتة التى تسعى وراء منفذ للصعوبات الحالية، وبما أن التبصر وإنعام النظر لم ينضجا الحلول لهذه القضية الجوهرية فقد أصبح انعقاد الجمعية غير مجد فلهذا ولعدم معرفة الساعة التى يمكن فيها الوصول إلى النتيجة المنتظرة فى فرنسا اتخذت اليوم قرارا بتأجيل الجمعية إلى أجل غير مسمى.

وفى الوقت الذى أرسل إليكم فيه هذا الكتاب ويصل نصه إلى أعضاء الجمعية أود أن أعرب عن أملى ان التقدم الذى حصلنا عليه فى سبيل التفاهم سيقوى ويزداد متانة وأن النجاح سيأتى فى النهاية مكللا لجهودنا ومبررا لحسن نيتنا الثابتة.

مؤتمر الحديثة ومساعى الوطنيين

وعقد الوطنيون فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٩ مؤتمرا فى عين زحلته أذاعوا فى ختامه بيانا بمناسبة انقضاء سنة على وقف الجمعية التأسيسية قالوا فى مقدمته: كنا نتوقع أن يعود المندوب السامى من رحلته إلى باريس حاملا إلينا موافقة حكومته على الوجهة التى ذهبنا إليها من جهة بقاء الدستور تاما على أن تحدد العلاقات الناشئة عن المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم بمعاهدة خاصة تعقد بين فرنسا وسورية. ولكن خلافا لما توقعنا سلمنا بعد عودته مذكرة يطلب فيها أن يزاد على الدستور تلك المادة التى نشرتها الصحف وعرفها الناس وهى بالصيغة التى أفرغت فيها لا تقتصر على تعطيل المواد الست التى

كانت وحدها موضع الخلاف يوم ٩ اغسطس بل تتناول سائر أحكام الدستور وتحرم السلطات المحلية من حرية تنفيذه حرمانا تاما. لا فى خواصه الخارجية فقط. بل فى خواصه الداخلية وتقضى ببقاء الإدارة فى حالتها الحاضرة تماما مع زيادة مجلس نواب ليس لمقرراته صفة سوى التمنى وهى كما ترى ليس للأمة السورية فيها شيء مما تتوق اليه من الاستقلال المعترف به».

ثم قال البيان «لقد مر عام كامل على منع الجمعية التأسيسية من الاجتماع وقضيتنا باقية فى حالة من الغموض والإبهام والشعب السورى ينتظر بمرارة الصبر تحقيق أمانيه فى الاستقلال وإيجاد حالة مستقرة فى البلاد. إن الأمة السورية لم تعد تطيق بقاء الحكم المطلق الذى من طبيعته ضياع المسئولية وجعل الحكم فى أيدى موظفين ضعفاء لا كفاءة لهم ليكون ذلك حجة على قصور السوريين وعجزهم عن الحكم.

ثم قال «ولا نرى بدا بعد صبرنا عاما كاملا على وقف الجمعية التأسيسية والحيلولة دون وصول الأمة السورية إلى أمانيها المشروعة من أن نصرح بان هذه الأمة لا تنظر بعين الرضى والقبول إلى أى دستور كان غير دستورها الذى قبله نوابها فى ٧ اغسطس الماضى، ولا لأى تعديل يطرأ عليه بغير إرادتها وهى تعتبر كل حكومة تقوم على غير أساس الدستور حكومة غير مشروعة، ولا يكون الشعب السورى مسؤولا عما تتخذه من قرارات وتوقعه من عقود وتمنحه من امتيازات».

وعقد المجاهدون المرابطون فى الصحراه اجتماعا يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٢٩ برئاسة سلطان باشا الأطرش للنظر فى حالة البلاد وسياسة الفرنسويين فقرروا أن يدعوا إلى عقد مؤتمر عام فى وادى السرحان وهذا نص الدعوة إلى أذاعتها سلطان باشا بهذا الشان:

إلى حضرات إخواننا السوريين فى سائر الجهات:

بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٢٩ عقد المجاهدون المرابطون فى الصحراء اجتماعا عاما برياستنا للمداولة فى الموقف الحاضر الذى آلت إليه البلاد وقرروا بالاجماع تكليفنا إذاعة دعوة عامة لجميع الأحزاب لعقد اجتماع وطنى كبير تعالج فيه قضية البلاد ولاتخاذ التدابير التى يجب اتخاذها لإمكان حدوث تغييرات هامة فى سياسة البلاد.

فنزولا على رغبة المجاهدين الكرام، وسعيا وراء تحقيق أمانى الأمة التى بذلتها وستبذل كل غال فى سبيل تحقيقها نذيع هذه الدعوة العامة إلى جميع الأحزاب السياسية والكتل الوطنية العاملة التى يهمها انتصار قضيتها إلى الاجتماع فى وادى السرحان ـ الحديثة فى يوم ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٢٩ ولنا ملء الثقة أن الأمة لا تقعد عن إجابة دعوتنا نظرا لما سيكون لهذا الاجتماع الخطير من الأهمية فى سير قضيتنا، والله يوفقنا لما فيه خير الأمة وسعادة البلاد.

وتوافد المندوبون إلى الاجتماع فى الوقت المعين فافتتح سلطان باشا المؤتمر بالخطبة الآتية:

اخوانى

«بمناسبة الموقف الحاضر فى سورية وسياسة التسويف والمماطلة التى مازالت تتبعها الحكومة الفرنسوية إزاء حقوقنا الوطنية المشروعة وبمناسبة تصريحات المسيو روبير دى كيه الأخيرة أمام جمعية الأمم. تلك التصريحات المجحفة بحقوق الشعب العربى السورى والمناقضة لآماله القومية والسياسية وبمناسبة عودة المسيو بونسو إلى سورية واحتمال حدوث أوضاع جديدة ربما لا تتفق مع آمال البلاد وبمناسبة ما أحدثته وزارة العمال البريطانية من الانقلابات السياسية الخطيرة فى الشرق وإنالتها مصر والعراق حقوقا أكثرها يتناسب مع أمانى تلك البلاد التى لا تقل سورية عنها مدنية ورقيا ـ إذا لم تكن أعرق منها فقد وجهت القيادة العامة للثورة الوطنية السورية دعوة عامة إلى جميع الأحزاب والهيئات العاملة للاشتراك فى هذا المؤتمر الذى يعقد بعيدا عن كل تأثير خارجى على ضوء المصلحة الوطنية الخالدة التى هى فوق كل اعتبار حزبى لتكون مقرراته نبراسا لكل وطنى عامل ولتظهر سورية للملأ أجمع إنها مازالت ولن تزال كتلة واحدة كالبنيان المرصوص أمام دفع الطوارىء النازلة متناسية فى الأيام العصيبة كل ما يسمونه أحقادا ـ حزبية ـ هذا المؤتمر التاريخى الذى نعلن افتتاحه باسم الله والوطن وشهدائنا الأبرار الذين كتبوا عهد حريتنا واستقلالنا بدمهم الطاهر الزكى.

فباسم المجاهدين المرابطين بالصحراء أرحب بكم يا مندوبى الأحزاب الوطنية السورية واللجان العربية العاملة على تحرير الوطن المقدس موقتا. أيها الإخوان أن تجشمكم مشقة الحضور إلى هذه الصحراء النائية ما هو الإجهاد فى سبيل الله والوطن واننا على ضوء

مبادىء الثورة الفرنسوية الخالدة، مبادىء حقوق الإنسان وعلى ضوء مبادىء تحرير الشعوب الضعيفة كما نعتها الرئيس ولسن ورجال الحلفاء الرسميون نجتمع معتصمين بحبل الله جميعا معلنين للملأ أجمع أن سورية لا تتنازل أصلا عن حقوقها المشروعة ووحدتها القومية الشاملة، وأنها لا تدخر وسعا فى بذل جهودها التى تبوؤها مكانها تحت الشمس. وعلى هذا الأساس المقدس افتتح المؤتمر شاكرا للأمة السورية الكريمة تلبيتها هذه الدعوة وظهورها فى جهادها بمظهر الرجل الواحد. وأدعو حضرات المندوبين الكرام للشروع فى العمل» ـ أهـ

وبدأ المؤتمر أعماله على الأثر فكرر عهود الاتفاق على مواصلة العمل لاستقلال سورية والتضحية فى سبيلها وقرر ما يأتى:

١ ـ تجديد القسم على بذل النفس والنفيس إلى آخر رمق فى سبيل إنقاذ سورية واستقلالها ونيلها مطالبها وحقوقها كاملة.

٢ ـ استنكار السياسة التى اتبعتها وتتبعها فرنسا فى سورية منإهمالها مطالب الأمة وطرائق المطل والتسويف.

٣ ـ يعلن المؤتمر أن كل ما يقع من نتائج الجهاد الذى تثابر عليه الأمة السورية فى سبيل استقلالها تكون تبعته على عاتق الحكومة الفرنسوية وحدها.

٤ ـ الاحتجاج على تعطيل الجمعية التأسيسية.

٥ ـ الاحتجاج على اعتداء اليهود وعلى الحكومة الفلسطينية التى تأخذ بناصرهم ضد العرب.

٦ ـ المطالبة بإلغاء وعد بلفور وتنفيذ العهود التى قطعتها انكلترا للعرب.

٧ ـ مضاعفة الجهود لجمع الإعانات باسم تحرير سورية.

٨ ـ شكر جميع المشتغلين بالقضية العربية على ما بذلوه ويبذلونه من جهود.

وساد الموقف على أثر ذلك سكون طويل شق حجابه الوطنيون فقد أرسل هاشم الاتاسى يوم ١٧ مارس سنة ١٩٣٠ الكتاب الآتى إلى المندوب السامى:

أتشرف بأن أعرض أننى كنت قد رغبت فى الاجتماع بكم فى أوائل الخريف الماضى

عند رجوعكم من باريس بأمل أن أصل معكم إلى موقف يكون خادما لسياسة التعاون التى بدأنا بها بنبل وشرف.

«ورغما عن ذهابى إلى بيروت لهذه الغاية بقيت آسفا لعدم مشاطرتكم إياى هذه الرغبة فاكتفيت بتقديم مذكرة لمقامكم باسم مكتب الجمعية التأسيسية الذى أتشرف برئاسته وأقمت أنتظر نتيجة مساعيكم نحو التفاهم المرغوب وإقرار الصلات بين البلادين على أساس متين. وها قد مضت مدة طويلة والشعب السورى ينتظر هذه النتيجة المطلوبة حتى كاد اليأس يستولى على النفوس وأصبحنا نخشى أن لا يجد السوريون وسيلة للاستمرار على التعاون الذى ضحينا لأجله كثيرا. ولذلك أتقدم اليكم راجيا أن تعينوا لى موعدا لمقابلتكم وأرجو أن يكون خلال الشهر الحالى لعلنا نتمكن بما نسترشد به من النيات الحسنة من تمهيد العقبات الحائلة دون تحقيق الأمانى واجتناب العواقب التى قد يولدها الاستمرار فى هذا الغموض».

وقد جرت المقابلة فى موعدها المقرر ودامتت أكثر من ساعة أشار المندوب فى خلالها إلى أنهم «سيقدمون قريبا على خطة تسير بنفس السياسة الحرة التى ابتدأ بها» وانتهت من دون إدراك نتيجة فأذا ع الوطنيون يوم ١٥ منه بيانا مطولا وقعه رئيسهم بسطوا فيه الادوار التى مرت بها القضية وقالوا فى مقدمته:

يا بنى وطنى

لقد ظلت بلادكم منذ الاحتلال الفرنسوى عرضة لألوان التجارب الفاشلة ومسرحا لأنوا ع السياسات المرهقة وأنتم تحاولون الوصول إلى حالة مستقرة تنفى عنكم ضرر تلك التجارب وتقيكم سوء عاقبتها، وظللتم تكافحون مكافحة سلبية مدة ثمانى سنوات انتهت بأن عقد الوطنيون مؤتمرهم فى بيروت يوم ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٢٧ وقرروا فيه تذكير أولى الشان بأن الأمة السورية على استعداد لمد يد المصافحة والصداقة ونسيان الماضى المؤلم إذا وجدت تحقيقا لأمانيها وسيادتها القومية» ثم تكلم البيان عن انتخابات الجمعية التاسيسية وعن طلب السلطة حذف المواد الست وما تلا ذلك من وقف الجمعية ثم أشار إلى طلب المندوب إضافة المادة ١١٦ إلى نص الدستور ورفض مكتب الجمعية وختم البيان قائلا:

يا بنى وطنى

«إنكم قد حافظتم على السكينة والهدوء إبقاء على جو الثقة فى الوقت الذى يسير فيه أخواننا سكان الشرق الأدنى بخطوات واسعة نحو استقلالهم وتحقيق أمانيهم وأنتم لاتزالون حيث كنتم منذ عشر سنين، ثم رضيتم مع ذلك بما يراه إخوانكم فى بغداد بعيدا عن الوفاء ببعض حقهم ومطمعهم وقبلتم ما لا يزال يتذمر منه سائر إخوانكم فى الأقطار العربية، ومع ذلك لم يزل يقال عنكم إنكم قوم متطرفون لا تقدرون الالتزامات الدولية حق قدرها. ولكنكم كغيركم تفهمون أن هذه الالتزامات لا تحول دون ما تصبو إليه نفوسكم، بل هى مما يمكن تأمينه فى المعاهدات.

«لقد بسطتم يدكم للشعب الفرنسوى مدة سنتين فحال بينكم وبينه السياسة القائمة اليوم، ولكن المكلف الفرنسوى لن يرضى أن ينفق ماله الذى يكتسبه بعرق جبينه فى سبيل حماية بعض الشركات التى يجب أن تعلم أن ما تبرمه الحكومات القائمة على هذا النظام الحالى من الاتفاقات والعقود المحلية على أنواعها مع أى طرف آخر تعتبره الأمة باطلا غير ملزم لها. والأمة الفرنسوية لن تقبل أن تظل عرضة لتحميل الآلام فى سبيل استعمار شعب أعزل وهضم حقوق أمة آمنة ولئن، استطاعت قوة السياسة الحاضرة أن تحول دون امتداد يد فرنسا الحرة إلى يدكم فإنها لن تستطيع ذلك إلى الأبد بل لابد للأحزاب الحرة من يوم فى فرنسا، وإذ ذاك تصافح يدكم يدهم ويعلو الحق.

أى بنى وطنى

إن تاريخ الشعوب حافل بالمواعظ والعبر فانه لن يدخل الوهن على قوم الاإذا اختلفت كلمتهم ولهوا عن مصلحتهم العامة بمصالحهم الخاصة. وإننا ما رأينا قوما تركوا خصمهم الغريب ليشتغل بعضهم ببعض إلا عرفنا أن ساعتهم قد دنت وذلهم حان وإنى أعيذكم من هذا فاعتصموا بالاتحاد وهو السور المنيع يصد عنكم كل متهجم عليكم طامع فيكم وهو فى يدكم العزلى أقوى سلاح فى وجه القوة، إليه أدعوكم وإلى تناسى كل حزازة أو مصلحة تحول دونه. يدعوكم ثرى بلادكم الملطخ بدماء شهدائكم».

ـ ٢٣ ـ

إعلان الدستور والانتخابات النيابية

وبينما كانت البلاد تنتظر من المسيو بونسو عملا ينقذ الموقف ويقودها إلى الاستقرار الذى تنشده بعد ما ملت الوعود وسئمت التسويف فوجئت يوم ٢٢ مايو سنة ١٩٣٠ بإعلان دستور سورية الجديد بقرار أصدره المندوب السامى يوم ١٤ مايو سنة ١٩٣٣٠ ونصه:

بناء على أعمال الجمعية التأسيسية لدولة سورية التى التأمت فى دمشق من ٩ يونيو إلى ١١ أغسطس سنة ١٩٢٨ وعلى الأراء التى تبودلت بعد ذلك مع مكتب هذه الجمعية قرر المندوب السامى ما يأتى:

١ ـ تدار دولة سورية بموجب الدستور الملحق بهذا القرار.

٢ ـ إن هذا الدستور المذاع والمنشور نصه كملحق لهذا القرار يوضع موضع التنفيذ بعد انتخاب اعضاء مجلس النواب الذى يعين موعد انتخابه فيما بعد بقرار من المفوض السامى.

٣ ـ في أثناء مدة الانتداب تنفذ الاختصاصات المنشأة بموجب الدستور بشرط الاحتفاظ بحقوق الدولة المنتدبة وواجباتها كما هي ناجمة عن المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم وصك اللانتداب.

«ان التحفظ المذكور في المادة ١١٦ من الدستور لضمان موافقة هذا النص مع المبادىء التى تدار بموجبها حالة سورية الحاضرة بالنسبة للدولة المنتدبة وجمعية الأمم يكون له عمله إلى أن تعقد مع حكومة قانونية معاهدة تحدد فيها من جديد برضى جمعية الأمم شروط تطبيق الإنتداب وفقا للمبادىء المذكورة فى المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم مراعاة لما يكون قد تم من التطور والترقى».

وأرسل المسيو بونسو فى اليوم نفسه إلى وزير الخارجية الفرنسوية كتابا بسط فيه تاريخ التحول الدستورى فى سورية وقال فيه:

أتشرف بأن أبعث إليكم النصوص الرسمية التى يتالف من مجملها القانون الأساسى

للدول المشمولة بالانتداب الفرنسوى وفقا لأحكام المادة الأولى من صك الانتداب لإبلاغها إلى أعضاء مجلس جمعية الأمم.

تحدد هذه النصوص الأسس الحقوقية الخاصة بتنظيم البلدان التى يترتب على فرنسا العمل على تنميتها واسدائها النصح والمساعدة فى سبيل رقيها. ويمكن تعديلها برضى الدولة المنتدبة لتماشى الرقى وذلك إما بالوسائل الدستورية المذكورة فيها وإما بمعاهدات تعقد مع الدولة المنتدبة وإما باتفاقات فيما بين الحكومات ذات الشأن فى ظل الدولة المنتدبة».

وتكلم بعد ذلك عن دستور سورية الجديد فقال «إن دستور دولة سورية الذى نشر اليوم هو فى مجمله نسخة عن النص الذى كانت وضعته لجنة الإنشاء فى الجمعية التأسيسية خلال شهرى يونيو ويوليو سنة ١٩٢٨ وكانت هذه الجمعية قد أحلته محله من الاعتبار يوم ٧ أغسطس.

ولقد كانت الغاية من التعديلات المبدئية الوحيدة التى أدخلت عليه أن لا يكون تطبيقه مانعا من القيام بالحقوق والواجبات التى تعود للدولة المنتدبة من الاتفاقات الدولية النافذة وعليه فقد عبر عن تحفظات الانتداب بمادة أضيفت إلى الدستور وأوضح مداها فى قرار المفوض السامى. ويظل تأثير هذه المادة قائما حتى تعقد مع حكومة منشأة قانونيا المعاهدة التى يحدد فيها من جديد برضى جمعية الأمم شروط تطبيق الانتداب وفقا للمبادىء المذكورة فى المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم مراعاة لما يكون قد تم من التطور والترقى.

أما التعديلات البسيطة التى أدخلت على النص الأصلى فقد تبودلت الآراء بصددها فى حينها مع مكتب الجمعية وكان من المنتظر أن يقبلها المكتب - أهـ.

وصف الدستور والمادة الموقتة

ويقع الدستور الجديد فى ١١٥ مادة. ويتألف من ستة أبواب فالباب الأول يشتمل على أحكام أساسية وقد جاء فى مادته الأولى «سورية دولة مستقلة ذات سيادة» وجاء فى الثانية «سورية وحدة سياسية لا تتجزأ» وقالت الثالثة «سورية جمهورية نيابية دين رئيسها

الاسلام وعاصمتها مدينة دمشق، والمادة الرابعة خاصة بالعلم السورى ونصها «يكون العلم السورى على الشكل الآتى: طوله ضعف عرضه ويقسم إلى ثلاثة ألوان متساوية متوازية أعلاها الأخضر فالأبيض فالأسود. على أن يحتوى القسم الأبيض منها فى خط مستقيم واحد على ثلاثة كواكب حمراء ذات خمسة أشعة» والفصل الثانى من هذا الباب فى حقوق الأفراد والباب الثانى فى السلطات العامة والثالث فى المالية والرابع فى طرق تعديل الدستور، والخامس أحكام مختلفة والسادس أحكام مؤقتة وتنطوى المادة ١٦ التحفظية وقد نشرنا نصها من قبل.

صدى نشر الدستور

ولقد قوبل نشر الدستور على هذا المنوال بأشد مظاهر الاستياء والاستنكار فى سورية فأغلقت المدن وعطلت الأعمال وقامت المظاهرات فى كل مكان.

واغتنم الوطنيون فرصة حلول الذكرى السنوية لافتتاح الجمعية التأسيسية وهو يوم ١١ يونيو فعقدوا اجتماعات عامة فى دمشق وحلب للاحتجاج على الدستور الجديد وقاومتهم السلطة فى دمشق وحالت دون اجتماعهم فى المكان الذى اختاروه فاجتمعوا فى مكان آخر وخطب جميل مردم بك الحاضرين باسم الكتلة الوطنية محتجا على تفرد السلطة الفرنسوية بنشر الدستور. ومما جاء فى خطبته قوله: «أقدمت السلطة على نشر الدستور السورى وحدها وعلى مسؤوليتها فكبلته بالقيود الثقيلة. على أن الوطنيين لن يتقيدوا بهاتيك القيود ولن يعترفوا بها وأنهم ليبذلون قصارى جهدهم لتحقيق الدستور الذى سنته الجمعية التأسيسية طليقا من كل قيد، سالما من كل علة. ذلك الدستور الذى يمثل سيادة الأمة ويحفظ لها حقها فى وحدتها واستقلالها».

وأرسل جميل مردم بك فى نهاية الاجتماع البرقية الآتية إلى المسيو بونسو فى باريس بعد ما أقرها المجتمعون:

«أرجوكم تبليغ البرقية الآتية إلى جمعية الأمم

كلفتنى الجموع العظيمة التى احتشدت اليوم وأيدتها مدينة دمشق بإضرابها العام أن أرسل إلى جمعية الأمم احتجاجها على منع الجمعية التأسيسية من إتمام مهمتها وعلى

إقرار تجزئة البلاد بإصدار دساتير مختلفة، وعلى المادة ١١٦ التى تعطل الدستور وتغاير الاستقلال القومى».

وعقد اجتماع عام فى حلب فى اليوم نفسسه (١١ يونيو) خطب فيه ابراهيم هنانو (رئيس اللجنة التى وضعت مشروع الدستور) ومما قاله «لقد أعلن المفوض السامى عدة دساتير أحدها دستور قبل إنه دستور سورية ولكن إذا نظرنا إلى ما كان من تشويه ٢٣ مادة منه وإضافة المادة ١١٦ إليه وقد عطلته كله وشلته نرى أن ما جرى ليس إعلانا للدستور بل تعطيلا للدستور».

وأرسل المجتمعون فى حلب برقية إلى وزارة الخارجية الفرنسوية وأخرى إلى جمعية الأمم قالوا فيها: «إن انتصار القوى المسلح على الضعيف الأعزل بسلطة الانتذاب المقرون بالمطامع الاستعمارية يمثله صدور الدستور السورى من قبل المفوض السامى مستأثرا بتصحيحه وبتره ووضع مادة تحفظية ضمنت ذلك الفوز المناقض للمادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم وعهود الحلفاء للعرب الخ».

ولم تجد هذه الاحتجاجات والشكايات ولم تحمل الفرنسويين على تغيير خططهم وأساليبهم، فظل كل قديم على قدمه حتى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣١ فأصدر المفوض السامى قرارا ختم به عهد الحكومة الموقتة ودعا الأمة السورية إلى الاشتراك فى انتخابات المجلس النيابى تمهيدا لتطبيق الدستور وهذا نص الوثائق التى أصدرها:

١ـ كتابه إلى رئيس الحكومة

دمشق فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣١

من المفوض السامى للجمهورية الفرنسوية فى سورية ولبنان

إلى الشيخ تاج الدين الحسنى رئيس مجلس وزراء دولة سورية

فى الساعة التى يفتح فيها لسورية عهد تنفيذ القانون الأساسى المعلن فى ١٤ مايو سنة ١٩٣٠ رأى ممثل الدولة المنتدبة من الضرورى أن يقوم بنوع أكثر مباشرة بماله من المسؤولية لأجل تنفيذ صك الانتداب.

وهكذا ينتهى النظام الموقت الذى كان من الواجب أن يسبق تنفيذ القانون الأساسى

وذلك طبقا لما عرضه ممثلوا الحكومة الفرنسوية الرسميون أمام جمعية الأمم ووافقت عليه هذه الجمعية.

منذ أربع سنين تقريبا خلت وأنتم تتفضلون بمساعدتى على رأس الحكومة الموقتة وتقومون بأعباء هذه الحكومة بالروح المحددة فى التصريحات الرسمية التى كانت عينت سابقا بالاتفاق فيما بيننا سير هذه الاعباء ونهايتها.

نصل اليوم إلى آخر هذه المرحلة وأنتم مدعوون إلى العمل إلى جانب الذوات السامين الذين قاموا باعباء الحكم قبلكم منذ بدء الانتداب فى المجلس الموكول إليه أمر مؤازرتى بآرائه فى خلال العهد الذى نلجه اليوم إلى أن تتألف حكومة نظامية معترف بها.

وبهذه المناسبة يلذ لى بنوع خاص أن أعرب لكم عن تقديرى الكلى للمؤازرة التى تفضلتم على بإسدائها فى ساعات كانت غالبا صعبة فى إتمام مهمة كانت دائما دقيقة.

ستجرى انتخابات حرة لتعيين أعضاء مجلس النواب فى شهر يناير

وغاية قصدى أن تجرى هذه الانتخابات فى جو أكثر ما يمكن من التعاون النزيه الذى هو ضرورى اليوم كما هو ضرورى غدا لتأمين نجاح تطور الانتداب التدريجى وفاقا لمحتويات المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم وبمؤازرة جميع ذوى النيات الحسنة.

تجدون طيه القرارات الثلاثة الصادرة فى هذا اليوم والتى تحدد لعهد الانتقال هذا توزيع السلطات وكيفية القيام بها الخ.

٢- إنشاء مجلس استشارى

وأنشىء مجلس استشارى لمساعدة المفوض السامى لأجل تنفيذ القانون الأساسى فى سورية يكون أعضاء فيه حكما رؤساء الدولة السورية المتعاقبين ورئيس مجلس الشورى ورئيس محكمة التمييز وعميد جامعة دمشق ورئيس مجلس سنجق إسكندرونة الإدارى ورئيسا غرفتى التجارة فى حلب ودمشق. ويجوز أن يشترك فى اجتماعات المجلس الذين يرى المفوض السامى من المناسب استشارتهم ودعوتهم إلى استماع آرائهم.

٣ـ تشيير أعمال الحكومة

وأصدر المفوض قرارا ثالثا قال فيه:

١ـ إلى أن ينفذ الدستور السورى وتتألف حكومة نظامية معترف بها يقوم بمصالح الدولة وزير العدلية ووزير المعارف ووزير المالية ووزير الاشغال العامة والزراعة وأمانة سر عامة تقوم موقتا بتسيير الأعمال العادية المربوطة بوزارة الداخلية وبرئاسة المجلس طبقا للشروط المبنية فى ما يلى:

٢ـ تؤمن أمانة سر الحكومة السورية العامة تسيير الأشغال الجارية المربوطة بوزارة الداخلية تحت امضاء وزير عامل يعين لهذه الغاية، وبمؤازرة مندوب المفوض السامى فى المجلس.

جميع الوثائق الرسمية والقرارات والأوامر التى يجب أن يوافق عليها رئيس الدولة وفاقا للنصوص المرعية تجمع فى أمانة السر العامة قبل إمضائها.

يعطى الإمضاء فى هذه الحال وزيران عاملان معا بواسطة امانة السر العامة وبمؤازرة مندوب المفوض السامى فى المجلس.

وأخيرا تؤمن أمانة السر العامة إعلان جميع الأعمال الرسمية ونشرها فى الجريدة الرسمية.

يقوم المستشار مندوب المفوض السامى لدى دولة سورية بالمراقبة التى تخصه طبقا للنصوص المرعية وذلك بتماس مباشر مع أمانة السر العامة.

٤ ـ المفوض يشرف على الانتخابات

وأصدر أيضا القرار الآتى:

١ـ يقوم المفوض السامى للجمهورية الفرنسوية فيما يختص بأصول الانتخابات بالصلاحيات الخاصة الموكول بها إلى رئيس الدولة بموجب قرار المفوض السامى عدد ١٨٨٩ الصادر فى ٢٠ مارس سنة ١٩٢٨ وعلى الخصوص الصلاحيات المنصوص عليها فى المواد ٣ و٢٩ و٣١ و٤٢ و٥١ و٥٦ و٩٥ الآتى ذكرها فى ملحق هذا القرار.

اجتماع المجلس الاستشارى

وفى يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ اجتمع المجلس الاستشارى فى دمشق فافتتحه المندوب السامى بخطبة طويلة قال فيها: «إن الحل الدائم للعلاقات بين سورية وفرنسا سيكون بعقد معاهدة وأنه صرح بذلك من قبل يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٢٨ ثم جدد هذا التصريح يوم ١٤ مايو سنة ١٩٣٠ فى كتاب إلى وزير الخارجية الفرنسوية وكرر ذلك أمام لجنة الانتدابات الدائمة لجمعية الأمم يوم ١٧ يونيو سنة ١٩٣٠ وقال إن صمته ليس معناه عدم الاكتراث.

ثم قال إن الانتخابات تبتدىء غدا ٨ ديسمبر، وإنه ينوى أن يجعل يوم ٢٠ ديسمبر موعدا لانتخابات الدرجة الأولى على أن تجرى الانتخابات الختامية يوم ٥ يناير سنة ١٩٣٢ «ومن شأن هذه الانتخابات أن تمكن من تأليف حكومة نظامية شرعية فتفتتح عندما يأتى أوان المفاوضات التى تحدد العلاقات نهائيا بين فرنسا وسورية بمعاهدة، ذلك لأن المفاوضات التى يستطيع المفوض السامى أن يدخلها لإخراج عناصر القضية الجوهرية ولأجل الوصول إلى حل يرضى الفريقين صاحبى الشأن على السواء - يجب أن تكون مع ممثلى سورية الشرعيين وحدهم».

مؤتمر الوطنيين وبيانهم

وعقد الوطنيون مؤتمرا فى دمشق لتقرير موقفهم وهل يشتركون فى الانتخابات أم يقاطعونها فأذاعوا يوم ١٠ ديسمبر البيان الآتى:

بنى الأوطان

«ها نحن اليوم أمام حلقة جديدة نرجو أن تكون أسعد حظا من سابقاتها فى سلسلة هذه التجارب، فقد دعا ممثل فرنسا الأمة السورية لممارسة حق من حقوقها بانتخاب مجلس نيابى تنشأ عنه حكومة دستورية تتولى المفاوضة مع فرنسا لعقد معاهدة تحدد العلاقات بين الدولتين وينتهى بها هذا الانتداب المفروض علينا فرضا بدون إرادتنا.

أمام هذا الحدث الجديد اجتمعنا وأطلنا المذاكرة باستعراض الماضى واستشعار المستقبل ودرس الخطة التى يحسن بالشعب السورى انتهاجها حيال هذا الاتجاه الجديد

فى السياسة الفرنسوية لنكون بمرصد العامل اليقظان بهذا الدور الدقيق الذى يراد به انتقال البلاد من حالة معلومات كرهناها إلى حالة مجهولة لا نعرف مداها.

وضعنا أمامنا صفحات تاريخنا القريب المؤلم والمصائب التى اجتاحت بلادنا منذ الحرب العامة إلى الآن فلم نجد فيها إلا بواعث الخيبة والاستنكار والدوافع الملحة بسرعة العمل للخروج من هذه المآزق المنذرة بالفقر والدمار.

أخذنا بنظر الاهتمام البيانات التى ألقاها مندوب فرنسا لدى جمعية الأمم وبيانات ممثل فرنسا التى أعلنها فى هذا الأسبوع بدمشق مع ما سبقها من الأقوال الصادرة من المقامات الرسمية الفرنسوية فوجدناها جميعها قاصرة على أن فرنسا تنوى استبدال عقد الانتداب الوحيد الطرف بعقد عهد ثنائى الطرف تتفاوض به وتعقده مع نواب الأمة الشرعيين الذين يوجدهم هذا الانتخاب العتيد بدون أن يشار فى هذه البيانات إلى الأسس التى ستبنى عليها هذه المعاهدة أو إلى مدى الحقوق التى ستنالها سورية. وعبثا ذهبت المساعى المخلصة التى بذلناها لاستجلاء هذه الغوامض التى كنا نود جلاءها قبل الشروع فى الانتخاب لنكون على بينة من النتائج المنتظرة وعلى ثقة من إمكان استمرار العمل لإيصال البلاد إلى استقلال وحدتها.

بيد أنه لما كان الانتخاب حقا أساسيا تمارسه الشعوب لإيجاد نواب يعالجون مقدراتها بالحرية التامة ولا يتقيدون بغير مصلحة الشعب الذين تقدموا لتمثيله والدفاع عن حقوقه فإننا بالرغم عن هذا الغموض المحيط بالطريق الذى نحن قادمون على سلوكه، ورغما عن السكوت العميق عن مطالب البلاد ورغبتها بأمر ضم أجزائها المتفرقة وتأسيس وحدتها، ورغما عن بقاء عدد كبير من أبناء سورية مشردين فى الأقطار وممنوعين عن دخول أوطانهم منذ سنين عديدة، ورغما عن العيوب الجمة المعترف بها فى قانون الانتخاب الحالى وعجزه عن ضمان الحقوق لأربابها، ورغما عن بقاء الأوضاع الإدارية الداعية للشكوك بحرية الانتخاب وسلامته، ورغما من عدم ظهور حالات فعلية تساعد على إزالة الريبة وتبعث شيئا من الطمأنينة فى النفوس البائسة قد شعرنا أن الواجب الوطنى يدعونا إلى عدم الغياب عن ساحة الجهاد فى هذه المرحلة الدقيقة التى تجتاز الأمة بها منقلبا خطيرا يتوقف عليها مستقبلها إلى ما شاء الله من السنين.

نحن إلى اليوم تحت نظام انتداب وحيد الطرف فرض علينا فرضا. وليس لنا به رأى

ولا رضى ولكنا بحسب المنهاج الذى أعلنه ممثل فرنسا سندخل فى نظام معاهدة ثنائية الطرف يقبلها نواب الأمة ويسجلون بها عليها حجة تسد فى وجهها جميع مسالك الاعتراض فإذا لم تكن هذه المعاهدة ضامنة لحقوق الشعب وكافلة لنيل الأمانى الوطنية العادلة غير مانعة للتطور الاقتصادى والسياسى والرقى القومى المنشود تكون قد جلبت على البلاد نقمة بدل النعمة من سىء إلى أسوأ.

فالأمة السورية إذن فى هذه الحقبة الصغيرة أشد ما تكون حاجة لسواعد أبنائها البررة ونجدة رجالها المخلصين ليتقدموا لميدان العمل وينتبهوا لما يراد بها من خير أو شر حتى إذا كان خيرا تقبلوه لها وإن كان شرا حالوا دونه وسعوا لإنقاذها من غوائله.

تحت هذا اللواء الوطنى الطاهر وهذه النيات البريئة قررنا متحدين دعوة الأمة للاشتراك معنا فى هذا الانتخاب غير مقيدين بما ظهر من الأحداث العابثة بحقوق الأمة وأمانيها، ومعتصمين جميعا بالمبادىء القومية العزلاء من كل سلاح غير سلاح الحق والاخلاص ومعتمدين على الثقة الغالية التى شرفتنا بها أمتنا النبيلة وراغبين بأن نقابل كل نية صافية تبدو من جهة فرنسا بأصفى منها فلا نضيع فرصة حسنة لبلوغ الأمانى الوطنية المشتهاة ولا نفسح مجالا لاستمرار الظلامة والعبث بحقوق البلاد.

الى الشعب السورى النبيل الذى أثبت فى أحرج الأوقات أنه لا يؤخذ بالتغرير ولا يجرى وراء الأوهام الخادعة ننشر هذه الدعوة المخلصة ليؤازرنا ويشد عزائمنا للمضى فى خدمة مصالحه والذود عن حقوقه. ونحن واثقون أن الأطوار الصعبة التى اجتازتها البلاد منذ الحرب العامة إلى اليوم كشفت الغطاء عن طوايا جميع الأشخاص الذين تقدموا لخدمة البلاد، أو تولوا فروع إدارتها فلم تعد تنطلى عليها الوعود الزائفة. فهى اليوم تعرف أين تضع ثقتها ومن الذين يعملون للوكالة عنها فى دعواها هذه المرتبطة بكيانها الأعلى.

نحن لا نشك فى اتحاد الأمة النبيلة صفا واحدا فى هذه المرحلة الخطيرة ومنح ثقتها لرجالها المخلصين المجربين. وإذا نجت صفحات الانتخاب من العبث والإرهاق لا يدخل المجلس إلا أصحاب الماضى الناصع والنية الطيبة الذين يعرفون كيف يتقبلون لها الخير ويدفعون عنها الشر.

حوادث ٢٠ ديسمبر ووقف الانتخابات

ومن ينعم النظر فى بيان الوطنيين يتبين حسن النية والرغبة فى التفاهم مع الفرنسويين متوفرا فيه. فقد أقدموا على الاشتراك فى الانتخابات وعلى خوض غمرتها من دون أن ينالوا ضمانة على عدم تدخل الفرنسويين فيها لتأييد أنصارهم. يضاف إلى هذا أن رئيس الحكومة التى تشرف على الانتخابات وتديرها فرنسوى فقد عين المسيو بونسو مندوبه لدى حكومة دمشق واسمه المسيو سالومياك رئيسا للحكومة الجديدة وحدد مهمتها بإدارة الانتخابات ومنح نفسه الاختصاصات الممنوحة لرئيس الدولة السورية فى ما يختص بالانتخابات مما هو مخالف للقوانين والأنظمة. فلا يجوز عرفا ولا قانونا أن يتولى ولاة الأمور الفرنسويون إدارة انتخابات مجلس، مهمته الرئيسية عقد معاهدة تحدد العلاقات بين سورية وفرنسا، ومعنى ذلك أنهم ذوو مصلحة وأن هذه المصلحة تقضى عليهم بتأييد أنصارهم ومشايعيهم وضمان الفوز لهم ليسيروا داخل البرلمان طبق التعليمات التى يصدرونها إليهم. ولقد جاء سير الحوادث مؤيدا لرأى المتشائمين الذين لم يحسنوا الظن بالسياسة الفرنسوية، والذين كانوا يرون أن الفرنسويين يعملون لإنشاء مجلس «مستسلم» يقر مشروع المعاهدة التى ظهر أن الفرنسويين استعدوا لها وأحكموا وضع خططها، وفعلوا كل شىء لضمان فوز المرشحين الذين اختاروهم ليفوزوا على مرشحى الوطنيين مما أدى إلى هياج الشعب فى معظم الدوائر الانتخابية وخصوصا فى دمشق . فقد ثار ثورة عنيفة يوم ٢٠ ديسمبر وهاجم مكاتب الاقتراع وحطم صناديقها المحشوة بالأوراق المزورة فنثرها فى الهواء كما هاجم دار البلدية وكاد يحرقها لولا تدخل الجند ومقاومته له بالرصاص. وحمل أيضا على دار الحكومة ودار الشرطة ودارت معارك عنيفة فى الأسواق اشتركت فيها الدبابات والجند وسقط سبعة قتلى و٢٥ جريحا وكان الخطب يتفاقم لولا إسراع الفرنسويين بوقف الانتخابات فى الساعة الثانية بعد الظهر وتعطيل أعمالها فاطمأن الشعب وهدأت الثائرة وجرى مثل ذلك فى حماه فقد اقتحم الشعب مكاتب الاقتراع وحطم صناديقها واعتدى على موظفيها وقتل اثنان وجرح كثيرون. وجرى ذلك فى دوما فأوقفت السلطة الانتخابات فى هاتين المنطقتين - علاوة على دمشق - وحمل الشعب فى حمص على مكاتب الاقتراع فتدخلت الحكومة وأقالت الموظفين الذين هم موضع شبهة وأبدلتهم بآخرين يثق بهم الشعب ويعتمد عليهم فسكنت الحالة.

انتخابات حلب

واتخذت السلطة فى حلب شتى التدابير لضمان فوز مرشحيها وأنصارها فاستدعى المسيو لافاستر (مندوب المفوض السامى فى حلب) رؤساء الطوائف المسيحية واليهود (ولا يقل عدد المسيحيين واليهود فى حلب عن ثلث السكان) وأمرهم بأن يطلبوا حماية فرنسا للاقليات وبأن يدعو إلى مقاطعة انتخاب النواب الوطنيين وينتخبوا مرشحى السلطة وحدهم ومنعت السلطة مرشحى الوطنيين من إقامة حفلات انتخابية كما منعت تجولهم فى الأحياء واعتقلت أنصارهم فأرسلوا يوم ١١ ديسمبر البرقية الآتية إلى المندوب السامى: «حرية الانتخابات التى وعدتم بها رسميا انتجت فضيحة لا مثيل لها. السلطة والحكومة والبلدية تآمرت على حرية الانتخابات. تحرش القوة المسلحة بالأهالى والحيل الشائنة وملء الصناديق مقدما تجعل الانتخابات غير شرعية، نرمى تبعتها على مدبريها. خذوا علما بمقاطعتها» ثم أتبعوها بالبرقية الآتية إلى وزارة الخارجية الفرنسوية «دخلنا الانتخابات بدون ضمانات على الرغم من نقائص قانون الانتخابات واستنادا إلى وعود فرنسا بحرية الانتخابات. أعمال ممثليكم المسؤولين مباشرة تبرهن على عدم تنفيذ الوعد.. الإبعاد والتوقيف والحجر على الصحف ومنع الاجتماعات ورفض إجازتها ومنع الزيارات الشخصية لبيوت المرشحين وتهديد الناخبين كل ذلك يجرى علانية. احتجاجاتنا لدى السلطات الفرنسوية لا تجدى. الرجاء العمل لاحترام وعد فرنسا» وأرسلوا أيضا فى اليوم نفسه إلى جمعية الأمم البرقية الآتية: «طبقا لتوصياتكم وبالرغم عن خيبة آمالنا بالتفاهم مع الفرنسويين دخلنا الانتخابات بدون ضمانة اعتمادا على وعود فرنسا. السلطات الفرنسوية المسؤولة الحاكمة مباشرة ترهقنا وتمنعنا من مراقبة الصناديق وتضاعف التوقيف والنفى وتصادر الصحف وتمنع الاجتماعات وتحاصر بيوت المرشحين وتهدد الناخبين وتحرمنا من مبدأ التعبير عن رأينا ومراجعاتنا بلا جدوى. أنتم آخر ملجأ. نطلب حماية شعب مضطهد».

وبدأت الانتخابات صباح ٢٠ ديسمبر وكانت أسواق حلب مغلقة وغاصة بالجنود فقصد الناس مكاتب الاقتراع مطالبين بتطبيق أحكام قانون الانتخاب فطردوا فذهبوا إلى الوالى واحتجوا لديه فلم يلقوا إنصافا فانسحب الوطنيون من الميدان بعد ما اعتقلت السلطة زعماءهم وهكذا تم للسلطة إجراء الانتخابات فى حلب واعتبرتها شرعية صحيحة.

ولما حل يوم ٥ يناير سنة ١٩٣٢ وهو الموعد المضروب لإجراء الانتخابات النهائية حشدت السلطة ستة آلاف جندى فى حلب وأنشأت ثلاثة خطوط عسكرية للدفاع: الأول أحاط بالبلدة من جميع نواحيها وطوله كيلو متر ونصف. وأحاط الثانى بمفارق الطرق القريبة من دار البلدية والحكومة. والثالث امتد حول دار البلدية (دار الانتخاب) ودار الحكومة على مسافة ٥٠ مترا من كل جهة ونصبت المدافع فى القلعة وسلطت على المدينة وأقيمت أكياس الرمل فى الشوارع العامة ووضعت الرشاشات فى كل مكان.

وسبقت السلطة فاعتقلت يوم ٢ يناير ثلاثة من مرشحى الوطنيين و٦٨ من أنصارهم وقبضت على نحو ٢٠ من الشباب الوطنى ومنعت الناخبين الثانويين يهودا ونصارى من مقابلة مرشحى الوطنيين، ورغم ذلك لم ينسحب هؤلاء من الميدان بل ظلوا فى الحومة حجبا للدماء وانتهت الانتخابات وجاءت طبق النتيجة المقدرة لها وهى فوز أنصار الحكومة وفشل مرشحى الوطنيين ويجب أن نعترف بأن السلطة سمحت لاثنين منهم بالحضور فى دار البلدية يوم الانتخاب بصفة متفرجين لا يجوز لهم التدخل.

ووضع الحلبيون مضابط وقعها ٢٠ ألفا منهم بالاحتجاج على هذه الانتخابات الفاسدة فأبى ممثل السلطة الفرنسوية تسلمها منهم فحلها هاشم الأتاسى رئيس الكتلة الوطنية إلى المندوب السامى فقال له «إن انتخابات حلب كانت قانونية وأصحابك هم الذين تركوا صناديق الاقتراع فلو عملوا مثل ما عملت دمشق وقبضوا بيدهم على السارق لأوقفت الانتخابات. والآن لا يمكن إعادتها وليس من اختصاصى النظر فى المضابط بل إن ذلك من اختصاص المجلس النيابى فهو الذى ينظر فيها».

واضطربت الحالة فى حلب على أثر امتناع السلطة عن التدخل واعترافها بصحة الانتخابات فاقفلت المدينة أبوابها وعطلت أعمالها ٢٠ يوما احتجاجا وكثرت الاعتداءات وسقط عدد من القتلى والجرحى فاعتقلت السلطة ٨٥ من أنصار الوطنيين وزجتهم فى السجون وحاكمتهم بموجب نظام جديد سنه المندوب السامى وأسماه «نظام قمع الجرائم»[١] وفعلت مثل ذلك فى دمشق بعد وقف الانتخابات يوم ٢٠ ديسمبر فقبضت على ٧٣ وحاكمتهم بموجب النظام الجديد وحكمت على كثيرين منهم.

---

(١) وضع المفوض السامى هذا النظام وهو كثير الشبه بالأنظمة العرفية ويقضى بأن يحاكم الذين يقبض عليهم بموجبه أمام المحاكم الأجنبية المؤلفة فى دمشق وحلب فورا.

إعادة الانتخابات فى دمشق وحماه

ودارت بعد ذلك مفاوضات بين الوطنين فى دمشق وممثلى السلطة الفرنسوية للاتفاق على قاعدة تستانف بموجبها الانتخابات فتم التفاهم على أن يرشح الوطنيون ستة منهم ويتركوا للسلطة اربعة مقاعد ترشح لها أنصارها[1] وجرت الانتخابات الأولية يوم ٣٠ مارس والختامية يوم ٦ ابريل ففاز النواب الوطنيون كما فاز ثلاثة من مرشحى السلطة وفشل الثانى وهو رضا الركابى فاعيد الانتخاب يوم ٩ منه ففاز مرشح الوطنيين وهو نسيب البكرى.

دعوة البرلمان إلى الاجتماع

وفى يوم ٢ يونيو سنة ١٩٣٢ أصدر المفوض السامى قرارا بدعوة البرلمان إلى الاجتماع بدورة استثنائية فى يوم الثلاثاء ٧ منه الساعة التاسعة صباحا لأجل وضع الدستور موضع التنفيذ. وحدد هذا القرار أعمال المجلس فى دورته هذه كما يأتى:

١ ـ انتخاب مكتب المجلس: رئيس ونائب رئيس وسكرتيرون وثلاثة مراقبين.

٢ ـ انتخاب رئيس الجمهورية.

٣ ـ التصديق على الانتخابات

٤ ـ تحديد راتب رئيس الجمهورية والتعويض السنوى لأعضاء المجلس على أن تختم الدورة بانتهاء هذه الأعمال.

---

(١) هذه هى أسماء مرشحى السلطة: محمد على العابد ورضا الركابى وحقى العظم ويوف لينادو (نائب اليهود).

ـ ٢٤ ـ
عهـــد الجمهوريـــة

لم تقدم السلطة الفرنسوية على دعوة المجلس النيابى إلى الاجتماع الا بعد أن أعدت للأمر عدته، وبعد أن وثقت من تأييد أكثرية النواب لها وائتمارهم بأمرها فقد استطاع مندوب حلب فى الفترة الممتدة بين شهور يناير ويونيو أن يؤلف بين نواب المقاطعات الشمالية الذين ضمنت لهم السلطة الفوز وعددهم ٢٨ نائبا وينشىء منهم حزبا أسماه الحزب الحر الدستورى، وحذا مندوب دمشق حذو زميله وصنوه فألف من نواب دير الزور وأقضية دمشق وحوران كتلة بلغ عدد أعضائها ٢٣ نائبا، ومعنى ذلك أن السلطة ضمنت تأييد ٥١ نائبا من أصل ٦٩ نائبا هم مجموع أعضاء المجلس النيابى السورى. أما الثمانية عشر نائبا الباقون فيتألفون هكذا ٧ نواب للكتلة الوطنية فى دمشق وأربعة من حمص وثلاثة من حماه وانضم اليهم أحد نواب دير الزور ونائب المعرة فبلغ عددهم ١٦ نائبا هم كل ما كان للوطنيين من نواب ثم انضم إليهم واحد حل محل رئيس الجمهورية بعد انتخابه فصاروا ١٧ نائبا.

ورشح الفرنسويون لرئاسة المجلس صبحى بركات زعيم الحزب الحر الدستورى وأوعزوا إلى كتلة الجنوب (الكتلة التى جمعها مندوب دمشق) بتأييده فانتخب باتفاق ٥١ صوتا وحاز هاشم الاتاسى مرشح الوطنيين ١٧ صوتا. ثم أعلن ختام الجلسة على أن يجتمع المجلس يوم السبت ١١ يونيو لانتخاب رئيس الجمهورية.

ورشح صبحى بركات نفسه لرئاسة الجمهورية بالاتفاق مع الفرنسويين باعتباره زعيم كتلة الشمال وحذا حقى العظم حذوه فرشح نفسه للرئاسة أيضا باعتباره زعيم كتلة الجنوب وتظاهر الفرنسويون بالحياد إزاءهما لأنهما من أنصارهم، ولأن فوز أى منهما هو فوز لسياستهم.

وبحث النواب الوطنيون الموقف وكانوا يرشحون للرئاسة زعيمهم هاشم الاتاسى، وبعد أخذ ورد طويلين وضعوا كتابا حمله جميل مردم بك ليسلمه إلى السلطة الفرنسوية عند الحاجة يعلنون فيه انسحابهم من المجلس النيابى احتجاجا على الأساليب التى تسير عليها السلطة فى مضايقة النواب خارج المجلس وفى داخله لحملهم على انتخاب مرشحيها

وأنصارها . ودارت مباحثات خاصة بين بعض أقطاب الوطنيين والفرنسويين الرسميين فأبلغ الأولون الآخرين أنه إذا أصرت السلطة على التمسك بمرشحيها الاثنين (حقى العظم وصبحى بركات) فلابد للوطنيين من الانسحاب من المجلس وإغلاق المدن الأربع احتجاجا (دمشق وحمص وحماه وحلب) وتعطيل كل عمل وشل الحركة الدستورية والقضاء عليها وفعلا فقد أضربت دمشق يوم الجمعة (١٠ يونيو) أى قبل الانتخاب بيوم واحد وعقدت اجتماعات عديدة فى المنازل وتم الاتفاق على القيام بعمل حاسم لاحباط خطط السلطة وتدابيرها .

ورأى المسيو بونسو بعد ما تحقق من ثبات النواب الوطنيين وعزمهم على عدم الاشتراك فى أعمال المجلس أن تحل القضية حلا وسطا، فوافق فى الساعة الثانية بعد منتصف ليل السبت ١١ يونيو أى قبيل الوقت المحدد لاجتماع البرلمان بسبع ساعات فقط على انتخاب محمد على العابد (أحد مرشحى السلطة فى انتخابات دمشق) رئيسا للجمهورية السورية على أن يقلد حقى العظم رئاسة مجلس الوزراء وقبل الوطنيون هذا الحل إنقاذا للموقف فذهبوا إلى البرلمان صباح السبت واشتركوا فى الاقتراع وقد انتهى بفوز محمد على العابد بستة وثلاثين صوتا على ٣٢ حازها صبحى بركات.

أول حكومة دستورية

وعملا بالاتفاق المعقود بين الوطنيين والسلطة ألف حقى العظم الوزارة الجديدة يوم ١٤ يونيو واختص بوزارة الداخلية. كما تقلد سليم جنبرت من نواب الشمال وزارة الأشغال العامة واشترك اثنان من النواب الوطنيين فى الوزارة الجديدة فتقلد جميل مردم بك وزارتى المالية والزراعة ومظهر رسلان وزارتى الحقانية والمعارف. ومعنى ذلك أن الوزارات كانت فى هذه المرحلة مقسومة بالتساوى بين الوطنيين والانتدابيين: أربع وزارات للاولين يتقلدها اثنان منهما ووزارتان مع الرئاسة للآخرين ويتقلدهما اثنان منهما، ولاشتراك الوطنيين فى الحكومة الجديدة على هذا المنوال معنى آخر فهم. بذلك يرجعون ثانية إلى الحكم بعد ما غادروه فى سنة ١٩٢٦ يوم اشتركوا فى حكومة الداماد الأولى.

ولم يحجم الموظفون الفرنسويون عن وضع العراقيل فى طريق الحكومة الجديدة المصبوغة بالصبغة الوطنية مما جعل هؤلاء يفكرون فى الانسحاب وظهرت فكرة جديدة فى

صفوف الوطنيين حينما حل زمن اجتماع البرلمان فى دورته العادية (شهر نوفمبر سنة ١٩٣٢) ترمى إلى عدم الاشتراك فى أعماله لعدم وجود فائدة منه مادامت الأكثرية المطلقة بيد السلطة الفرنسوية تسيرها كيفما شاءت . ولأن أسس المعاهدة التى يراد عقدها مجهولة وبعد مباحثات ومناقشات بين النواب الوطنيين أنفسهم أجمعوا أمرهم على دخول البرلمان فأذاع هاشم الاتاسى يوم ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٢ بلاغا على الأمة قال فيه «أقدم الوطنيون على خوض غمرة الانتخابات وهدفهم العمل على عقد معاهدة مع الحكومة الفرنسوية تضمن استقلال البلاد ووحدتها وتنتهى بها الأوضاع الشاذة التى كادت تقضى على حياتها السياسية والاقتصادية وقد مضى على ذلك خمسة أشهر لم نر فى خلالها من الجانب الفرنسوى أى مظهر من مظاهر التسهيل لمهمة الحكومة ولتطمين أفكار الشعب على مصيره فرأينا أن الواجب يقضى بانسحابنا من المجلس النيابى ريثما تتبين أسس المعاهدة التى يجب ألا تقل عن المعاهدة العراقية الإنكليزية إلا أن المساعى المبذولة أخيرا جعلت الوزيرين الوطنيين وفريقا من إخواننا يعتقدون أن الاستمرار مرة أخرى على السياسة التى انتهجت سيساعد على تحقيق الأمانى القومية فلذلك رأينا لزوم التريث لنقيم دليلا جديدا على حسن النية التى لم يحجم الوطنيون عن إظهارها رغبة منهم فى الوصول إلى حل يرتفع بالبلاد من هذه الحالة المرهقة إلى حالة الاستقلال».

انسحاب الوطنيين من الحكومة والبرلمان

ولم تدم هذه التجربة طويلا فقد اضطر النواب والوزيران الوطنيان للانسحاب من الحكومة والبرلمان يوم ١٨ ابريل سنة ١٩٣٣ على أثر ظهور ما ظهر وهو أن مشروع المعاهدة الذى جاء به المسيو بونسو لا يحقق أمانى البلاد بالوحدة والاستقلال، ولا يزيد عن أن يقر الحالة القائمة مما كان لو أسوأ أثر فى النفوس وإليك نص البيان الذى أذاعه هاشم الاتاسى وإبراهيم هنانو باسم الوطنيين يوم ٢٠ ابريل:

إن الكتلة الوطنية بعد ما درست فى مؤتمرها الأخير المعقود فى دمشق الموقف السياسى الحاضر ومحصته من جميع وجوهه واطلعت على ما وصلت إليه المحادثات التمهيدية بشأن المعاهدة المنوى عقدها بين سورية وفرنسا أجمعت آراء أعضائها فى الجلسة المنعقدة يوم ١٨ إبريل سنة ١٩٣٣ على تفويضنا أمر النظر فى اختيار الخطة التى

نراها أكثر موافقة للمصلحة الوطنية وأناطت بنا إعلانها.

لذلك ولدى استعراض كل ما أحاط بالقضية السورية والحوادث والظروف وبعد الاسترسال بالمحادثات والآراء المتبادلة فى اجتماعاتنا المتكررة منذ عشرة أيام رأينا أن المحادثات التى جرت حتى الآن بين المفاوض السورى ورجال المفوضية العليا لن تخرج فى مجموعها عن نطاق بيانات المفوض السامى الأخيرة فى لجنة الانتدابات ولا تحتوى على أى اعتراف بالوحدة السورية التى قررت الكتلة الوطنية أن لا تجرى المفاوضات إلا على أساس الاعتراف بتحقيقها وأعلنت ذلك فى بيان مؤتمرها المنعقد فى حلب بتاريخ ١٨ فبراير[١] المنصرم وأن الاستمرار على التعاون لا يجوز إلا مع وجود الصراحة من الجانب الفرنسوى فى أمر الوحدة وهذا لم يحصل حتى الآن.

فالجانب الوطنى رغم ما فى الاوضاع الحاضرة من شذوذ وعدم الاطمئنان ـ لاسيما على أساس إقامة مجلس مزيف فى أكثريته قد أظهر كل ما يمكنه من المسايرة والتساهل بحسن نية وإخلاص أملا فى الوصول إلى حل يحقق رغائب البلاد فى استقلالها ووحدتها، فلا يجد عند الجانب الفرنسوى ما تستحقه هذه الرغبة الصادقة من الاعتبار. لذلك نرى أن من الواجب عدم الاستمرار على سياسة التعاون التى بدأ بها الجانب الوطنى فى المجلس والحكومة ريثما تبدو من الجانب الفرنسوى بادرة تساعد على استئناف العمل.

وإننا لنغتبط بهذه المناسبة من تقدير الأمة لموقف الوزيرين الوطنيين اللذين تقدما باستقالتهما والنظر فى إعجاب وإكبار إلى ما عانياه فى خلال التجربة القاسية من مضض وما تحملاه من عناء فى سبيل تحقيق أمانى الأمة التى أولتهما ثقتها الغالية ونحمد للأمة موقفها الرصين الذى وقفته فى جميع الظروف العصيبة التى مرت بالبلاد بجانب الكتلة الوطنية التى هى من الأمة وإليها آملين أن تظل محافظة على وحدة صفوفها واتفاق كلمتها.

---

(١) جاء فى هذا البيان وقد أذيع على أثر مؤتمر قمة عقده فى حلب مانصه: «ورأى الوطنيون بعد استطلاع أراء مفكرى الشعب السورى أن يعلنوا للشعب الكريم فى الداخل والساحل تمسكهم بحق البلاد القائم على أساس الوحدة ، وأن كل معاهدة أو مفاوضة لعقد معاهدة مع فرنسا غير قائمة على هذ الأسس لاتكون جديرة بالقبول».

ـ ٢٥ ـ
عـــرض المعاهـــدة ورفضـــها

وأحجمت السلطة الفرنسوية عن عرض مشروع المعاهدة على البرلمان بسبب انسحاب الوطنيين من الحكم والبرلمان، وأسرعت فاستدعت المسيو بونسو مندوبها السامى لسورية (شهر يوليو سنة ١٩٣٣) وعينت المسيو دى مارتيل خلفا له.

والواقع أن الإشاعات التى شاعت عن مشروع المعاهدة وما ينطوى عليه رجت البلاد رجة عنيفة فارتفعت الأصوات من كل مكان بطلب الوحدة الكاملة لسورية وبالقضاء على التجزئة مما أقلق الفرنسويين وأزعجهم. فسعوا لمقاومة الحركة الجديدة بكل قواهم ودعوا نفرا من الموظفين فى حكومة اللاذقية واستكتبوهم مضبطة بطلب الإبقاء على الوضع القائم فى بلاد العلويين. فساء ذلك الطبقة المستنيرة من أبناء تلك البلاد فعقدت مؤتمرا فى صافيتا باسم مؤتمر المسيحيين فى بلاد العلويين ويؤلف هؤلاء مع المسلمين نحو ٦٠ فى المائة من السكان قرروا فيه العمل للانضمام إلى الوحدة وأيدهم عدد من زعماء العلويين أنفسهم، وأقلق ما جرى الحكومة فأصدرت قرارا بتطبيق نظام «قمع الجرائم» فى بلاد العلويين.

وحاول الكابتن دزديريه مدير الاستخبارات فى جبل الدروز الحصول على مضبطة من شيوخ الجبل بتأييد الانفصال فأعد لذلك اجتماعا خاصا عقد فى قرية «قنوات» يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٣ حضره عدد كبير من الزعماء وانتهت تلك المناورة بالإخفاق والفشل.

العمل لاتحاد القطرين

على أن حركة الدعاية للوحدة السورية ما لبثت أن تحولت تحولا استوقف الأنظار. فقد اغتنم بعض الأحرار فرصة سفر المرحوم الملك فيصل إلى أوربا لزيارة الملك جورج ملك بريطانيا زيارة رسمية، وذلك فى شهر يونيو سنة ١٩٣٣ فوضعوا مضابط وكلوا فيها جلالته فى حل القضية السورية على قاعدة توحيد سورية والعراق فى ظل عرش واحد.

ولا يخفى أن فكرة توحيد القطرين فى ظل عرش واحد ظهرت للمرة الأولى فى سنة ١٩٣١ على أثر زيارة رسمية زارها جلالته لباريس فقد دارت بينه وبين بعض كبار الموظفين الفرنسويين محادثات فى هذا الشأن أبدى فيها هؤلاء ميلا إلى تحقيق هذه الفكرة على أن إنشاء الجمهورية السورية فى شهر يونيو سنة ١٩٣٢ شغل الناس عنها ولم يطل الأمر حتى أدركوا أن الجمهورية الجديدة ليست سوى ألهية أراد الفرنسويون أن يلهوا بها، وأنها لا تختلف عن الحكومات الأخرى التى أنشأوها فى خلال احتلالهم إلا بالاسم فقط.

وقد لقيت الدعاية لاتحاد القطرين فى هذه الفترة تأييدا كبيرا. فوضعت دمشق وحلب وحمص وحماه وبيروت وطرابلس وجبلة وصيدا وصور وجبل عامل مضابط بطلب وحدة القطرين بتوكيل جلالة الملك فيصل وحملتها وفودهم إلى عمان فى أول يونيو فسلمتها إلى جلالته. وفعل كذلك سوريو القاهرة فسلم باسمهم مؤلف الكتاب مضبطة إلى جلالته حين مروره بها فوعد بالاهتمام بالأمر وأقلقت الحركة الجديدة الفرنسويين وجعلتهم يحسبون لها حسابا. بيد أن موت الملك وهو يستشفى فى برن (سويسرا) يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩٣٣ جعلهم يتنفسون الصعداء.

الفرنسويون يعرضون المعاهدة رسميا

ووصل إلى بيروت يوم ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٣ المسيو دى مارتيل المندوب السامى الجديد يحمل تعليمات صريحة من وزارة الخارجية الفرنسوية بعرض مشروع المعاهدة على الجمهورية وبرلمانها وبالعمل لإقرارها بالاتفاق مع الوطنيين أو بدونهم لأن رجال وزارة الخارجية اعتقدوا أن موت الملك فيصل فرصة يجب استغلالها.

وجاء المسيو دى مارتيل إلى دمشق على الفور وبدأ استشاراته فأفهم أن البلاد السورية لا يمكن أن ترضى عن معاهدة لا تحقق الوحدة. وقيل له إن كل سعى يبذله لحمل البرلمان على إقرار المعاهدة محكوم عليه بالفشل فلم يصغ إلى هذه الآراء السديدة بل مضى فى خطته فتبادل مع حقى العظم بصفته رئيس الحكومة السورية ومندوب رئيس الجمهورية يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٣ توقيع مشروع المعاهدة الجديدة مع ملحقاته وقد أذيع فى دمشق رسميا يوم ١٩ منه وهذا نصه:

١ـ مشروع المعاهدة

إن حكومة الجمهورية الفرنسوية والحكومة السورية بالنظر للتقدم الناتج من تطبيق المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم فى سبيل إنشاء سورية كدولة مستقلة.

وبناء على الرغبة التى أبدتها الحكومة الفرنسوية أمام جمعية الأمم فى عقد معاهدة مع الحكومة السورية مقدرة التطور الذى تم حتى الآن.

وبناء على موافقة الحكومتين على تحقيق جميع الشروط المؤدية، باتباع طرق صريحة لقبول سورية فى جمعية الأمم.

فقد اتفقتا توصلا إلى هذه الغاية على عقد معاهدة صداقة وتحالف تبنى على أسس الحرية التامة والسيادة والاستقلال لتحديد العلاقات التى تبقى بين الدولتين بعد انتهاء الانتداب. ويعين فى الاتفاقات الملحقة بها والتى توضع موضع التنفيذ فى ذات التاريخ الذى تنفذ فيه المعاهدة شروط وكيفية تطبيق بعض بنودها.

وللوصول إلى هذه الغاية بصورة أكثر ملاءمة فقد اتفق الطرفان الساميان المتعاقدان أيضا على أن يحددا بجلاء برنامج تطور المؤسسات الحاضرة فى جميع النواحى التى يكون واجبا فيها تعاون الحكومتين تعاونا حقيقيا صادقا لتحقيق الشروط التى وضعتها جمعية الأمم فى الناحيتين الداخلية والدولية وفاقا للمبادىء العامة التى فرضتها تلك الجمعية ليسوغ انهاء نظام الانتداب.

ولهذه الغاية أفرغ الطرفان الساميان المتعاقدان اتفاقهما فى ثلاثة صكوك وهى:

أولا ـ معاهدة صداقة وتحالف.

ثانيا ـ بروتوكول (آ).

بشأن الاتفاقات الملحقة بالمعاهدات والتى توضع موضع التنفيذ فى ذات الوقت الذى تنفذ فيه المعاهدة عند قبول سورية فى جمعية الأمم.

ثالثا ـ بروتوكول (ب).

بشأن البرنامج المطلوب تحقيقه فى غضون المدة اللازمة لتطور المؤسسات الحاضرة بطريق التقاعد وضمن نطاق القانون الأساسى بناء على انتقال المسئوليات إلى الحكومة السورية تدريجيا.

لهذه الغاية فقد انتدب كل من رئيس الجمهورية الفرنسوية ورئيس الجمهورية السورية مفوضين عنهما.

عن رئيس الجمهورية الفرنسوية الكونت دى مارتيل سفير فرنسا المفوض السامى للجمهورية الفرنسوية الحائز على وسام جوقة الشرف من رتبة كوماندور الخ..

وعن رئيس الجمهورية السورية حقى العظم رئيس مجلس الوزراء الحائز على وسام جوقة الشرف من رتبة كوماندور الخ..

وهما بعد أن تبادلا أوراق اعتمادهما ووجداها موافقة للأصول عقدا ما يلى:

المادة الأولى ـ يقوم بين فرنسا وسورية سلم وصداقة دائمان

أنشىء تحالف بين الدولتين المستقلتين ذات السيادة تثبيتا لصداقتهما وللروابط التى تربطهما دفاعا عن السلم ومحافظة على مصالحهما المشتركة.

المادة الثانية ـ اتفقت الحكومتان أن تتشاورا تماما وبدون قيد فى كل أمر يتعلق بالسياسة الخارجية من شأنه أن يمس بمصالحهما المشتركة. كما أنهما تعهدتا بأن تتخذا إزاء الدول الأجنبية موقفا يلائم تحالفهما وأن تتجنبا كل ما من شأنه أن يسىء علائقهما مع الدول الأخرى. تعين كل حكومة منهما لدى الأخرى ممثلا سياسيا.

تضمن الحكومة الفرنسوية بواسطة عمالها حماية الرعايا السوريين ومصالحهم فى كل مكان.

لا تكون الحكومة السورية ممثلة مباشرة وفاقا للتعامل الدولى المرعى بهذا الشأن.

المادة الثالثة ـ سيتخذ الطرفان الساميان المتعاقدان جميع التدابير اللازمة ليتسنى منذ يوم انتهاء الانتداب أن تنقل إلى الحكومة السورية وحدها الحقوق والواجبات الناجمة عن جميع المعاهدات والاتفاقات وسائر العقود الدولية التى عقدتها الحكومة الفرنسوية باسم سورية او المتعلقة بها.

تساعد الحكومة الفرنسوية الحكومة السورية كل المساعدة لتسهل لها تعديل الاتفاقات والتعهدات الدولية التى قد تستمر لغاية هذا التاريخ، والتى قد لا تكون موافقة الوضع الدولى الجديد فى سورية.

يستفيد الرعايا الفرنسويون وذوو التبعة الفرنسوية حكما من الحقوق التى قد تمنح عند حصول التعديل المذكور إلى رعايا وذوى التبعة الأجنبية.

المادة الرابعة - إذا نشب بين سورية ودولة أخرى خلاف أدى إلى وضع من شأنه خطر قطع العلائق مع هذه الدولة فإن الحكومتين تتشاوران لحسم هذا الخلاف بالطرق السلمية وفقا لأحكام ميثاق جمعية الأمم أو لأى اتفاق دولى آخر يمكن تطبيقه فى مثل تلك الحالة.

وإذا وجدت الحكومتان رغم جهودهما المشتركة انهما مهددتان بخلاف مسلح فإنهما تتشاوران حالا بشأن التدابير اللازمة للدفاع.

المادة الخامسة - إن مسئولية المحافظة على النظام والدفاع عن سورية تقع على الحكومة السورية. على أنه فى سبيل تسهيل إنفاذ الواجبات التى تترتب عليها بمقتضى أحكام هذه المعاهدة فإن الحكومة الفرنسوية تقبل بأن تؤازر الحكومة السورية عسكريا مدة هذه المعاهدة وفاقا لمضمون الاتفاق الملحق.

من المقرر أن بقاء القوى العسكرية الفرنسوية والجوية أو البحرية لا يعتبر احتلالا ولا يمس بحق السيادة لسورية.

تظل هذه القوى والمؤسسات المربوطة بها خاضعة لنظام خارج أراضى الدولة، وتبقى متمتعة بالحصانة والميزات التى تكون لها عند وضع هذه المعاهدة موضع التنفيذ.

ستساعد الحكومة الفرنسوية على التنظيم والتعليم والتسليح وتجهيز القوى العسكرية السورية وقوى الدرك وفاقا لمضمون الاتفاق الملحق، وستضع تحت تصرف الحكومة السورية البعثات والضباط الذين يرى الطرفان المتعاقدان وجودهم مفيدا لذلك وفقا للاتفاقية الملحقة بهذا الشأن.

المادة السادسة - تضع الحكومة الفرنسوية تحت تصرف الحكومة السورية المستشارين الفنيين والقضاة والموظفين الذين يرى الطرفان المتعاقدان وجودهم مفيدا لأعمال بعض المصالح العامة وفاقا لمحتويات وتحديدات الاتفاق الملحق.

المادة السابعة - تتعهد الحكومة السورية بالمحافظة على ضمانات الحق العام الدائمة المنصوص عليها فى دستور دولة سورية لصالح الأفراد والجماعات، وأن تعطى هذه الضمانات كامل مفعولها. وتتعهد فيما يتعلق بحقوق الأقليات الجنسية والمذهبية وبأحوالها

الشخصية أن تضمن لها معاملة تتفق مع المبادىء العامة التى قبلت بها جمعية الأمم فيما يختص بهذه الشئون.

المادة الثامنة ـ الطرفان الساميان المتعاقدان يتفقان كل منهما فيما يخصه على أنهما يريان من المناسب بقاء حالة الاشتراك القائمة فى المصالح الاقتصادية فى جميع الأراضى الوارد ذكرها فى عهدة لندن المؤرخة فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢م(١).

المادة التاسعة ـ عقدت هذه المعاهدة لمدة خمس وعشرين سنة.

سيكون للاتفاقات والعقود التى ستطبق نفس المدة المحددة للمعاهدة ما لم ينص فى متنه على مدة أقصر. أو أن يتفق الطرفان الساميان المتعاقدان على تمديدها مراعاة لأوضاع جديدة.

يمكن بعد مرور عشرين عاما على تنفيذ هذه المعاهدة أن تفتح مفاوضات لتجديدها أو تعديلها إذا طلبت ذلك إحدى الحكومتين.

المادة العاشرة ـ ستصدق هذه المعاهدة ويجرى تبادل صكوك التصديق فى أقصر وقت ممكن وتبلغ إلى جمعية الأمم.

توضع هذه المعاهدة موضع التنفيذ فى الوقت الذى تنفذ فيه الاتفاقات والعقود الملحقة بها والمنصوص عليها فى البروتوكول «آ» يوم دخول سورية جمعية الأمم.

توضع العقود الملحقة المنصوص عليها فى بروتوكول (ب) والمتعلقة بالبرنامج المطلوب تحقيقه فى خلال المدة التمهيدية موضع التنفيذ فورا عند الانتهاء من تبادل صكوك التصديق على المعاهدة.

المادة الحادية عشرة ـ اعتبارا من دخول سورية جمعية الأمم تسقط عن الحكومة الفرنسوية التبعات الملقاة عليها بموجب عهدة لندن المؤرخة فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢.

المادة الثانية عشرة ـ حررت هذه المعاهدة باللغتين الفرنسوية والعربية وكلا النصين رسميان والمعول على النص الفرنسوى.

إذا حصل اختلاف بشأن تفسير هذه المعاهدة أو تطبيقها ولم يمكن حسمه حسما نهائيا عن طريق المفاوضة مباشرة فالطرفان الساميان المتعاقدان يتفقان على أن يلجآ إلى

---

(١) يراد بعهدة لندن، صك الانتداب لسورية وقد نشرنا نصه فى هذا الجزء فليرجع إليه.

أصول المصالحة والتحكيم المنصوص عليها فى ميثاق جمعية الأمم.

حرر فى أربع سنة فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٣

٢ ـ ملحقات المعاهدة

بروتوكول (آ)

بشأن الاتفاقات والعقود التى ستوضع موضع التنفيذ فى ذات الوقت الذى تنفذ فيه المعاهدة عند دخول سورية جمعية الأمم.

المادة الأولى ـ الطرفان الساميان المتعاقدان متفقان على أن يتفاوضا ويعقدا بأسرع وقت:

١ ـ الاتفاقات العسكرية المدون مبدؤها فى المادة الخامسة من المعاهدة.

٢ ـ الاتفاق المتعلق بالموظفين المنصوص عليه فى المادة السادسة من المعاهدة.

٣ ـ الاتفاق القضائى واتفاقات الإقامة والاتفاقات المالية التى من شأنها تنفيذ أحكام عهدة لندن المتعلقة بمختلف هذه الشؤون.

المادة الثانية ـ ستبلغ هذه الاتفاقات كلها وهى جزء متمم للمعاهدة إلى جمعية الأمم وتكون نافذة منذ يوم دخول سورية جمعية الأمم إلا إذا نص على خلاف ذلك.

بروتوكول «ب»

بشان البرنامج المطلوب تحقيقه فى خلال المدة التمهيدية لكى يؤمن بطريقة التعاقد وضمن نطاق القانون الأساسى تطور المؤسسات الحالية لأجل نقل التبعات إلى الحكومة السورية نقلا تدريجيا.

المادة الاولى ـ الطرفان الساميان المتعاقدان متفقان على أن يعطى مفعول بأقرب وقت للمباحث الجارية المتعلقة بعقد عدة اتفاقات بشأن:

١ ـ المسائل العسكرية وتنظيم الجيش الوطنى

٢ ـ المسائل المالية المنوه عنها فى عهدة لندن المؤرخة فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢.

٣ ـ حالة الموظفين الفرنسويين الداخلين فى خدمة الدولة.

المادة الثـانيــة ـ تشترك الحكومة الفرنسوية والحكومة السورية فى إدارة الشؤون الخارجية بطريقة تدريجية. وفضلا عن ذلك فهى تساعد على إجراء التهيئة الدبلوماسية لنقل التبعات المنصوص عليها فى المادة الثالثة من المعاهدة.

المادة الثـالثـة ـ لقد اتفق الطرفان الساميان المتعاقدان على ضرورة وجود دوائر للمصالح المشتركة بين الأراضى المنوه عنها فى عهدة لندن المؤرخة فى ٤ يوليو سنة ١٩٢٢.

إن تمشية هذه الدوائر ستكون موضوع اتفاق خاص يعتبر جزءا متمما للمعاهدة ويعقد فى أقرب وقت ممكن.

المادة الرابعــة ـ تتعهد الحكومة السورية أن تضع بالاتفاق مع الحكومة الفرنسوية القوانين الأساسية والأحكام التشريعية التى قد تكون ضرورية لتنفيذ الضمانات المدونة فى دستور دولة سورية الحالى لصالح الأفراد والجماعات. وعلى الأخص فيما يتعلق بالمساواة أمام القانون (المادة ٦ و٢٦) وحرية الضمير واحترام المصالح الدينية والأحوال الشخصية (المادة ١٥) وحرية الفكر (المادة ١٦) وحرية التعليم (المادة ١٩ و٢٨) والقبول فى الوظائف العامة (المادة ٢٦) وتمثيل الأقليات المذهبية (المادة ٣٧).

المادة الخامسة ـ تتعهد الحكومة الفرنسوية بأن تساعد على إدخال سورية جمعية الأمم بعد تحقيق البرنامج المحدد فى المواد السابقة، وحالما يسمح بذلك الرقى الحاصل.

يوضع برنامج هذا التطور على أساس انتظار تحقيقه بمدة تقدر تقريبا بأربع سنوات.

وتبادل رئيس الجمهورية والمفوض السامى بهذه المناسبة الكتب الأربعة الآتية:

ـ ١ ـ

إلى المفوض السامى

عطفا على محادثاتنا الأخيرة بشأن معاهدة صداقة وتحالف بين فرنسا وسورية وبمناسبة توقيع هذه المعاهدة أرى من اللازم بيان وجهة نظر الحكومة السورية فيما

يتعلق بالنظام الإدارى للوائى (سنجقى) اللاذقية وجبل الدروز المستقلين (اوتونوم).

تعتبر الحكومة السورية أن لوائى اللاذقية وجبل الدروز هما جزء من سورية.

إنما تعترف الحكومة السورية أن الوضع الخاص لهاتين المنطقتين سيستدعى منحهما نظاما خاصا.

ـ٢ـ

عطفا على توقيع معاهدة الصداقة والتحالف بين فرنسا وسورية وعلى الرسائل التى تبودلت فى بيان وجهة نظر حكومة الجمهورية السورية المتفقة مع وجهة نظر حكومة الجمهورية الفرنسوية فيما يتعلق بالنظام الخاص للوائى اللاذقية وجبل الدروز وتمهيدا للتطور الواجب الشروع فيه فى هذا السبيل أتشرف بعرض ما يلى:

إن الحكومة السورية ترجو أن تتفضلوا بأخذ التدابير اللازمة لربط مرجع القضاء الأعلى (محكمة التمييز) والدوائر الوقفية فى اللوائين المشار إليهما منذ اليوم بالحكومة السورية.

فرد عليه المفوض السامى بالكتابين الآتيين

ـ٣ـ

إلى رئيس الجمهورية

عطفا على محادثاتنا الأخيرة بشأن معاهدة صداقة وتحالف بين فرنسا وسورية وبمناسبة توقيع هذه المعاهدة قد تفضلتم بكتاب اليوم يبين وجهة نظر الحكومة السورية بما يختص بنظام حكومتى اللاذقية وجبل الدروز المستقلتين إداريا (اوتونوم).

وبعد تدوين هذه المراسلة اللطيفة لى الشرف أن أحيطكم علما بأن موقف الحكومة الفرنسوية تجاه هذه الأمور مع أخذ التطورات المقبلة فى نظر الاعتبار لا يخرج عما جاء

فى عهدة لندن المؤرخة فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢ ملخصا بما يلى:

ان الحكومة الفرنسوية مستعدة أن تبحث قبيل تقديم طلب دخول سورية فى جمعية الأمم التعديلات التى يمكن أن تطرأ على الوضع الحالى للحكومتين المستقلتين إداريا (اوتونوم) وأن هذا البحث سيشمل ليس فقط بمعنى نظام هاتين الحكومتين بل الشروط التى يمكن بموجبها أيضا إيفاء ضمان الاستقلال الإدارى والمالى اللذين تتمتعان بهما الآن. وسيشترك بهذا البحث ممثلون مفوضون عن السكان صاحبى الشأن ولا يعمل بنتيجة هذا البحث إلا بموافقتهم.

ـ ٤ ـ

جوابا على كتابكم المبين وجهة نظر الحكومة السورية فيما يتعلق فى طلب ربط مرجع القضاء الأعلى (محكمة التمييز) والدوائر الوقفية فى حكومتى اللاذقية وجبل الدروز بالحكومة السورية لى الشرف أن أعلمكم بأنى مستعد لقبول هذا الطلب وإجابة له فإنى اتخذ منه الآن جميع التدابير اللازمة ليمكن العمل بمقتضاها منذ يوم تصديق المعاهدة.

دمشق تثور على المعاهدة

كانت استقالة سليم جنيرت وزير المعارف فى الوزارة العظمية يوم ١٥ نوفمبر أول احتجاج عملى على المعاهدة، وكان قد انقطع من قبل عن الذهاب إلى مكتبه فى الوزارة وأبلغ رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة أنه لا يسعه قبول معاهدة لا تحقق للبلاد وحدتها ولا تزيد على أن تقر الحالة القائمة. وبذل الفرنسويون جهودا كبيرة لحمله على استرداد استقالته فلم يوفقوا. فجاءوا له بأصدقائه وبيطريرك الروم الكاثوليك (لأنه كاثوليكى) لإقناعه بالرجوع عن عزمه فلم يقبل ودعاه المفوض السامى إلى مقابلته فقابله وقال له: إن الشعب السورى لا يمكن أن يقبل، بعد جهاد ١٥ سنة معاهدة لا تحقق وحدة بلاده، وأكد له أن الذين يزعمون ان فى استطاعتهم حمل النواب على إقرار المعاهدة المعروضة على البرلمان يخدعونه ونصحه باستردادها وتعديلها على منوال يمكن قبولها معه.

وعقدت اجتماعات سرية فى أحياء دمشق واتفقت الكلمة على رفض المشروع وقامت

السيدات بمظاهرات وطنية يوم ١٨ منه وتألف منهن وفد طاف منازل النواب يناشدهن الوطنية بأن لايقبلوا معاهدة تقضى على مستقبل البلاد وتصفدها بالأصفاد، واتصل النواب الوطنيون بالنواب المعتدلين فتفاهموا وتعاهدوا على رفض المعاهدة ووضعوا بذلك مضبطة وقعها ٤٦ نائبا (أى الأكثرية المطلقة).

وعقد مجلس النواب جلسته يوم الثلاثاء ٢١ منه فوقف وزير المالية يخطب مدافعا عن المعاهدة وطالبا من المجلس إقرارها، وما كاد ينتهى من خطبته حتى وقف أحد النواب وطلب توزيع المشروع على الأعضاء للمناقشة فيه فأقر المجلس الطلب ووزع المشروع ووقف على الفور جميل مردم بك وتلا المضبطة الخاصة برد المعاهدة ونصها:ـ

إلى رئيس المجلس النيابى الموقر:

لقد اطلع النواب الموقعون أدناه على نصوص المعاهدة التى وقعت عليها الحكومة وعرضتها على مجلسنا النيابى لإقرارها فوجدوها مناقضة لرغائب الأمة، وغير ضامنه لصالح البلاد من وحدة وسيادة واستقلال. ولذلك فنحن نرى رد هذه المعاهدة وانتخاب لجنة مؤلفة من خمسة عشر نائبا لكتابة قرار الرد. ونقترح إجراء انتخاب اللجنة حالا وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

وما كاد ينتهى من تلاوته حتى أبلغ المسيو فيبر مندوب المفوض لدى حكومة دمشق وكان يشهد الجلسة وقد انسحب إلى غرفة التليفون حينما بدأ جميل مردم بك يتلو المضبطة ـ رئيس المجلس إن المفوض السامى أصدر قرارا بتأجيل البرلمان إلى يوم السبت ٢٥ منه، وطلب منه وقف الجلسة فأوقفها فورا بعد ما سجل فى الضبط ما حدث من تلاوة المضبطة. مع ذكر أسماء النواب الذين وقعوها. ودعا رئيس المجلس إلى مقابلة المفوض السامى فقابله فاقترح عليه أن ينزع من ضبط الجلسة الجزء الخاص برفض المعاهدة بحجة أنه جرى بعد تبليغ قرار التعطيل فأجابه أنه يستحيل عليه الإقدام على مثل هذا العمل خصوصا وقد جرى بحضور كثير من المستمعين فلم ير المفوض السامى حلا للمشكلة سوى استرداد المشروع من الحكومة. فأرسل يوم ٢٢ منه الكتاب الآتى إلى رئيس الجمهورية:

«إن الحوادث التى جرت خلال يوم ٢٠ و٢١ نوفمبر تؤلف بحد ذاتها برهانا كافيا على

قلة استعداد مجلس النواب للاشتراك فى مسؤليات المعاهدة، وعلى محاذير وضع عبء المناقشة فى نص له هذه الأهمية ـ منذ الآن ـ على عاتق مؤسسة لم ترسخ فيها بالقدر الكافى على ما يظهر ممارسة الأحكام الدستورية والتقاليد النيابية.

«ويتبين ولاشك لكم كما تبين لى أن التدبير الوحيد الذى من شأنه تذليل هذه المصاعب هو استرداد النص المودع إلى المجلس النيابى بكتابكم المؤرخ فى ١٩ الجارى وانى أعتمد عليكم فى هذا الاسترداد».

تعطيـــل البرلمان

وتناقلت الألسنة فى دمشق يوم الجمعة (٢٤ نوفمبر) أن الحكومة بالاتفاق مع السلطة قررت تأجيل البرلمان، وأنها لا تسمح له بالاجتماع فى داره صباح السبت. وقد أيدت الحوادث هذه الإشاعة فتلقى رئيسه فى السهرة قرار المفوض السامى المؤرخ فى ٢٤ وهو يقضى بوقف أعماله سحابة الدورة البرلمانية القائمة. لأنه «خرق تحت تأثير المظاهرات المثارة قبل. وفى خلال جلسة المجلس النيابى يوم ٢١ نوفمبر أحكام المادتين ٤٤ و١٠٠ من الدستور بمناقشته فى موضوع غير مشروع الميزانية وقبل أن يودع المشروع إلى لجنته».

وقصد النواب دار البرلمان صباح السبت ٢٥ منه لعقد جلستهم فألفوها مغلقة والجند محدق بها ولما حاولوا الدخول منعهم الشرط بالقوة فقصدوا دار رئيسهم وهى فى داخل دار البرلمان فعقدوا جلسة حضرها ٤٤ نائبا برئاسة الرئيس وأصدروا فى ختامها القرار الآتى وأبلغوه إلى رئيس الجمهورية والمفوض السامى ووزارة الخارجية الفرنسوية وجمعية الأمم ونصه:

إننا نحن النواب الموقعين أدناه قررنا فى الجلسة المنعقدة بتاريخ ٢١ نوفمبر رد المعاهدة الموقعة من قبل الحكومة والتى عرضت على مجلسنا لأنها مناقضة لرغائب الأمة وغير ضامنة لحقوق البلاد من وحدة وسيادة واستقلال. فبينما كنا نتوقع أن تستقيل الحكومة التى سقطت بحكم سقوط المشروع المقدم من قبلها فإذا بنا نفاجأ بتأجيل المجلس وإلغاء الدورة الحاضرة. ولما كان هذا العمل هو خرق للدستور وانتهاكا لحرمته فنحن نؤيد

رفضنا للمعاهدة المذكورة، ونعتبر أن الحكومة القائمة هى ساقطة دستوريا وأن كل عمل تقوم به هو غير مشروع، وإننا كنا ومازلنا حريصين على توطيد العلائق بيننا وبين الأمة الفرنسوية النبيلة على أسس تضمن حقوقنا ووحدتنا واستقلالنا. فاننا نعتقد أن هذا التدخل المنكر حتى بحياتنا الداخلية يجعلنا نرتاب فى المستقبل، ويعرض العلاقات بين الأمتين إلى التوتر فإننا نحتج على هذا التأجيل ونعتبره لاغيا ونعد الحكومة ساقطة. وقد فوضنا أمر متابعة العمل إلى لجنة مؤلفة من صبحى بركات وهاشم الأتاسى وجميل مردم بك وفائز الخورى ونقولا جانجى ونورى الأصفرى ونسيب الكيلانى وعفيف الصلح.

وعليه فإننا نرجو منكم أن تبلغوا صورة من هذا القرار إلى المفوض السامى وإلى وزارة الخارجية الفرنسوية.

وثيقتان رسميتان عن المعاهدة

ومن المفيد أن نثبت هنا نص الكتابين اللذين تبادلهما رئيس المجلس النيابى ومندوب المفوض السامى لدى حكومة دمشق فى صدد المعاهدة وتأجيل البرلمان لما لهما من الشان الخطير.

فقد ارسل مندوب المفوض يوم ٢٤ نوفمبر إلى صبحى بركات رئيس المجلس النيابى الكتاب الآتى:

فى أثناء جلسة مجلس النواب يوم الثلاثاء الأخير ٢١ الجارى اضطررت أن أتلو قرار المفوض السامى بتاريخ ٢١ نوفمبر القاضى بتعليق مناقشات المجلس النيابى حتى السبت فى ٢٥ منه.

إن نص هذا القرار أسلمه إليك فى صباح اليوم نفسه حضرة مسيو لافاستر المندوب المعاون فى حلب.

وفى ظنى أننى ملزم بذكر الظروف التى فيها جرى تدخلى.

لقد سألك أحد النواب عما إذا كان نص المعاهدة قد طبع، فوزعته، وللحال قامت مناقشة عامة فى المعاهدة دون ان يبدو أى تدخل من مكتب المجلس من شأنه أن يحول دون

هذه المناقشات التى كان يجب ألا تجرى: أولا ـ لأن مشروع المعاهدة الذى عرضته الحكومة لم يكن أرسل إلى اللجنة. ثانيا ـ لأن اللجنة المكلفة بدرس الموازنة لم تكن ألفت. ثالثا ـ لأن المعاهدة لم ترسل إلى اللجنة.

وفى هذه الظروف قام النائب جميل مردم بك إلى المنبر ليتلو وثيقة أخرجها من جيبه.

ومنذ ما بدأت تلاوة هذه الوثيقة تلوت قرار المفوض السامى القاضى بتعليق مناقشات البرلمان.

أى أن تلاوة مردم بك (للمضبطة) لا يمكن أن تتابع إلا بعد الابتداء من تدخلى القاضى بوقف المناقشات.

وعدا ذلك فان مردم بك مد يده بالوثيقة إلى أحد السكرتيريين البرلمانيين ولكنه أعادها حالا إلى جيبه، وعليه فإن الوثيقة لم توضع بين أيدى مكتب المجلس لكى تضم إلى أوراق البرلمان.

وفى أثناء حديث جرى لك يوم ٢٢ الجارى مع المفوض السامى بحضور مسيو لافاستر وحضورى أنا اعترفت: أولا ـ ان المكتب لم يتدخل لإيقاف المناقشة التى بدأت متجاوزة على القواعد الدستورية والتقاليد البرلمانية. ثانيا ـ إنه عندما وقع تدخلى لم يكن جميل مردم بك قد انهى تلاوة المضبطة. ثالثا ـ أن تلاوة أسماء الموقعين على هذه الوثيقة لم تكن قد بدأت.

وإننى أذكر هذه الإيضاحات التى صدرت منك لاثبت أن تلاوة المضبطة لم تكن انتهت عندما وقع تدخلى. وبناء على ذلك فإن نص هذه الوثيقة لا يصح أن يظهر فى محضر الجلسة.

على أنه نمى إلىّ أن شيئا من هذا لم يكن. وانك قررت أن تذكر فى محضر الجلسة نص المضبطة الحرفى بما فيه الأسماء التى تحملها وإتباعه بنص قرار المفوض السامى الذى تلوته دون أى شىء آخر.

وإننى منذ الآن أبدى أشد التحفظات على قيمة هذا المحضر الذى وضع على هذه الصورة لأنه يشوه حقيقة الوقائع.

وترانى مضطرا أن أزيد أنه لا تمكن الثقة بمثل هذا المحضر، ولو أنه فاز بتصديق المجلس فى جلسته المقبلة.

فرد عليه يوم ٢٧ بالكتاب الآتى:

من رئيس المجلس النيابى فى الجمهورية السورية إلى مندوب المفوض السامى فى دمشق.

أتشرف بأن أعلمك بوصول كتابك رقم ١٣١٤ بتاريخ ٢٤ الجارى.

يظهر أن خطورة القضية التى كانت موضوع كتابك معدة لأن تكون ذات أهمية كبرى فى تاريخ سورية. وربما للاعتداء على الحياة البرلمانية فى البلاد، ولذلك أرى من واجبى أن أجيب على كتابك مع الرجاء أن تضيف نسخة من جوابى هذا إلى نسخة من كتابك وتبعث بهما إلى المراجع العليا لكى تسمح لها بذلك أن تطلع على رأى الفريقين فى هذه القضية الخطيرة.

ففى الفقرة الأولى من كتابك تقول إنك فى أثناء جلسة الثلاثاء ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣٣ دفعت إلى تلاوة قرار المفوض السامى المؤرخ فى ٢١ منه القاضى بتعليق مناقشات المجلس النيابى إلى ٢٥ من هذا الشهر، وأن نص هذا القرار أبلغ إلىّ فى صباح ذلك اليوم بعناية المسيو لافاستر المندوب المعاون فى حلب، ثم تقص ما جرى فى تلك الجلسة كما استطعت أن تحفظه.

قلت إنك دفعت إلى تلاوة قرار العميد السامى مما يبرهن على أنك كنت تحمله فى جيبك من قبل الجلسة، وانك كنت تتحين الدقيقة الملائمة لتلاوته، ولكنك لم ترد أن تعرفنا بهذه الدقيقة فاذا كان قرار التعليق قد أعد للحالة التى فيها يتناقش المجلس فى أى موضوع غير موضوع الموازنة كما تلمع إلى ذلك فى الفقرة الرابعة من كتابك. فوجب أن تقع هذه التلاوة تماما فى الدقيقة التى بدأ فيها وزير المالية المناقشة باسم الحكومة فالمسؤولية الناتجة عن تأخير هذه التلاوة إلى ما بعد القرار الذى اتخذه المجلس بشأن المناقشة فى المعاهدة إنما تقع عليك وعليه ليس من العدل أن تلقيها على الآخرين.

أما فيما يتعلق بتسلمى نص قرار المفوض السامى فى صباح يوم الجلسة نفسه فإنى أعترف بأننى لم أتسلمه إلا بعد الجلسة، وعلى ذلك حفظته فى أوراق البرلمان بصفة وثيقة، ولم يكن على إلا تقيد واحد إزاء المفوض السامى وهو أن أمنع فى قلب المجلس كل غوغاء يمكن أن تسبب إهانة للوزراء أو بعض الكلمات الموجهة إليهم وهذا ما صار إبلاغه إلى

المفوض وأنى أعلن انه ليس فى تاريخ البرلمانات جلسة أكثر هدوءاً وأكثر سكينة من جلسة الثلاثاء فى ٢١ منه ـ هذه الجلسة التى طرحت فيها على المناقشة مقدرات البلاد فقد قمت بتعهدى ولم يرفع إلى المفوض أى حادث من النوع الذى كان مقدراً.

وعند سردك وقائع الجلسة تقول فى كتابك أن نائبا سألنى عما إذا كان نص المعاهدة قد طبع فأسرعت بتوزيعه وقامت على الأثر مناقشة ولم يقع أى تدخل من مكتب المجلس من شانه أن يحول دون هذه المناقشة التى لم يكن يجب أن تقع ولكنك لاحظت ولاشك أن وزير المالية كان إذا ذاك على المنبر آخذا بتلاوة خطابه الطويل الذى يدافع به عن المعاهدة، واسمح لى بان أذكرك أن القرار الذى كنت تحمله كان يجب أن يتلى تماما فى الدقيقة التى دخل فيها المناقشة الوزير الذى سمح لنفسه بأن يخالف منطوق القرار الذى له اطلاع تام عليه والذى وضع طبعا بالاتفاق مع الحكومة، وإذا كان قطع المناقشة ضروريا فواجب التدخل يقع عليك أولا. ثم على الحكومة لأن المعاهدة أحيلت إلى المجلس وبالتالى كانت تحت تصرفه وفاقا لمرسوم رئيس الجمهورية رقم ٢٠٥٤ ـ ١٦٩٩٦ ـ ٥٦٧٧ بتاريخ ٢٠ نوفمبر كما يؤيد ذلك تحويل الحكومة بتاريخ ٢٠ منه وبأكثر ايضاح بلاغ المفوض السامى إلى الصحافة بتاريخ ١٩ منه الذى يعلن فيه «ان المعاهدة طرحت على مجلس النواب ومن العبث التدليل على أهمية المناقشات القادمة وأن المجلس مدعو اليوم ليقول كلمته فى نص المعاهدة التى طرحت عليه» (وفقا للنص العربى الذى حمل النواب على طلب المناقشة وإثارة أفكار الأمة).

ولا يخفى عليك أنه متى طرح مشروع على المجلس وتقررت المناقشة فيه فإن المناقشة تتناول أولا مجموع المشروع حتى إذا قبل أحيل إلى اللجنة، ولكن فى حالة رفضه لا يبقى لزوم لإحالته وعليه فإن المناقشة فى المشروع التى أثيرت مرارا من قبل الحكومة وتلاوة السكرتير البرلمانى نص كل ذلك جرى على مسمع ومرأى منك، ومن بعد ذلك قام النائب جميل مردم بك إلى المنبر وتلا مضبطة النواب ومن المدهش حقا أن تنتظر سعادتك نهاية هذا الحادث حتى تتلو قرار المفوض السامى.

وإذا كنت سعادتك على عكس ذلك تتحين الفرصة الموافقة لتلاوة القرار، أو لو كنت اعطيتنى نسخة عنه لكنت كلفت أحد السكرتيرين تلاوته بالعربية حتى يفهم المجلس ما تريد أن تعلنه، ولكنك عملت بطريقة أخرى ثم لم تختر الوقت المناسب لتلاوة القرار الذى تلوته

بالفرنسوية ومن ذلك نتج الموقف العصيب لسعادتك والقلق والاضطراب للبلاد.

وأرى من الضرورى أن أعيد عليك باجمال أمين الحوادث التى جرت فى هذه الجلسة فافسح لك المجال لتنقيح بعض أخطاء قد تكون حفظتها فى ذاكراتك سواء من جراء ترجمة سيئة أو من جراء عدم الانتباه.

لقد طلب النواب ان يوزع عليهم مشروع المعاهدة فلم يسع الرئاسة منعه أو إنكار وجوده - لاسيما بعد بلاغ المفوض السامى للصحف المعلن بأن المعاهدة تحت تصرف المجلس. فوزعته وقام أحد النواب فألقى خطابا طويلا حول المشروع وفتح المناقشة فطلب وزير المالية الكلام باسم الحكومة وصعد إلى المنبر ودخل فى صميم المعاهدة وبحثها طويلا وعند ذلك طلب نائب تلاوة النص فكان ما طلبه. وحينئذ وقف جميل مردم بك وطلب من الرئيس الكلام وتلا مضبطة النواب وعندما أوشك الانتهاء منها ولم يبق له غير سطر أو بعض السطر وقفت سعادتك وبدأت بتلاوة قرار المفوض السامى. هذه هى حقيقة ما جرى فى جلسة ٢١ نوفمبر وهى الحقيقة التى سجلت فى محضر الجلسة المذكورة.

وتقول سعادتك فى كتابك إن جميل مردم بك بعد أن مد يده بالمعاهدة إلى أحد السكرتيريين البرلمانيين سحبها ووضعها فى جيبه. وهكذا لا تكون قدمت إلى قلم المجلس. اننى لا أستطيع أن أبين لك السبب الذى حدا بجميل مردم بك إلى استرجاع هذه الوثيقة ولربما كان بسبب الضجة التى أحدثتها تلاوة قرار المفوض السامى فى وقت لم يكن مناسبا. ومن المؤكد أنه ليس من الصعب أخذ هذه الوثيقة عند افتتاح المجلس وضمها إلى اوراق البرلمان. وليس هذا بالأمر المهم ولتسمح لى سعادتك أن أذكرك بأنك نفسك فعلت منتل ذك.

وشئت أن تدون إيضاحات فهت بها عند المفوض السامى بحضور مسيو لافاستر وحضور سعادتك. وبالحقيقة إننى لا أستطيع أن أفهم كيف اتخذت منها هذه الحجج التى عليها تبنى كل هذه الاستنتاجات الخطيرة المدونة فى ختام كتابك.

إن مكتب المجلس لم ير من واجبه إيقاف المناقشة فى المعاهدة لأنه:

اولا - كان من واجب سعادتك وأنت تحمل قرار العميد ومكلف بتلاوته ان تتلوه ولم تفعل.

ثانيا ـ لم يكن على الحكومة أن تدخل فى المناقشة وأن تسمح لأحد أعضائها أن يمتدح معاهدتها ويطلب درسها.

بناء عليه أكون لك مدينا جدا إذا لم تعن كثيرا بالدفاع عن القواعد الدستورية والتقاليد البرلمانية. فسعادتك تعرف جيدا من يتجاوز عليها ومن لا يحترمها.

أما القسم الثانى من التصريحات التى عزوتها إلىَّ والتى تتعلق بأن جميل مردم بك لم يكن أنهى تلاوة المضبطة عندما بدأن تلاوة القرار فقد قلت وأعيد القول إنه لم يكن باقيا سوى سطر أو بعض السطر عندما وقفت وبدأت بتلاوة قرار المفوض السامى الذى كان يجب أن يتلى قبل دخول وزير المالية فى المناقشة.

وأخيرا إن جميل بك لم يقرأ تواقيع النواب لأن العادة جرت أن لا تقرأ التواقيع فى الجلسة، وإنما تؤخذ فى آخرها للسبب البسيط وهو إذا وجب كل مرة أن تتلى التواقيع فى الوثائق الواردة إلى الرئاسة كالتقارير والمشروعات والاستدعاءات والبرقيات إلى آخره فلا يبقى وقت للعمل.

هذه إيضاحات قد أردت أن تعلق عليها أهمية كبرى. وما هى فى الحقيقة سوى مسائل بسيطة لا يمكن استخدامها أساسا لنتائج خطيرة كالتى أردت استنتاجها فى سبيل تبرير الخطر.

ولا أخفى عليك يا حضرة المندوب دهشتى من كتابك وعجبى من التحفظات التى بينتها فى آخر هذا الكتاب فاسمح لى على كل حال أن أختصر لك جوابى فيما يلى:

١ ـ إن جلسة مجلس النواب يوم الثلاثاء ٢١ نوفمبر كانت هادئة جدا ولا يمكن أن تكون جلسة برلمانية فى العالم تبحث فيها مقدرات الأمة أكثر هدوءا منها.

٢ ـ إن الرئاسة قامت بواجبها وطبقت النظام الداخلى واحترمت القواعد الدستورية ـ ولا يطلب منها ولا يمكن أن يطلب منها ـ أكثر من ذلك.

٣ ـ إن الحكومة التى أبلغتها تعليماتك برفض كل مناقشة فى المعاهدة ارتكبت خطأ بسماحها لأحد أعضائها بالدخول باسمها فى المناقشة.

٤ ـ إن سعادتك لم تحسن اختيار الوقت المناسب لتتلو قرار المفوض السامى وهو ما عرض موقفك إلى هذه النتائج.

٥ ـ إن التحفظات التى أردت إبداءها على محضر الجلسة لا يمكنها أن تقلل من قيمته المشروعة التى تبقى برهانا قاطعا لبيان الحقيقة ولتبقى أساسا لتقرير الموقف.

٦ ـ إن أدهش عبارة لاحظتها فى كتابك هى عبارة التحفظ الأخير وفيها تعلن عدم الثقة بامثال هذه المحاضر حتى ولو صدق عليها المجلس فى جلسته القادمة مما يجعلنا نفهم انك تريد إبطال أعمال المجلس قبل أن يلتئم ويعلن رأيه.

وتفضل يا حضرة المندوب بقبول فائق اعتبارى.

بيـــان الوطنيين

وأنتهت هذه المرحلة الرهيبة من مراحل الجهاد السورى بفوز الأمة فوزا مبينا وبتوحيد صفوفها واجتماع كلمتها فأذاعت الكتلة الوطنية يوم ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٣ بيانا إلى الشعب السورى الكريم هذا نصه:

غداة المعركة الرهيبة التى خاضتها البلاد دفاعا عن كرامتها ترى الكتلة الوطنية واجبا عليها أن تقدم بين أيدى الأمة الكريمة بيانا وجيزا تلخص فيه الحوادث وتضع الأشياء فى مواضعها حتى لا يشوه أحد صفاء هذه الصفحة اللامعة التى كتبتها الأمة فى تاريخ جهادها القومى.

وهى تحرص قبل كل شىء على أن تحيى الأمة النبيلة رجالها ونساءها تحية تقدير وإكبار لموقفها العظيم من الخطر المداهم إذ نهضت صفا واحدا جبارا تسمع صوتها وتستبسل فى الدفاع عن حقها المقدس وتغمر بمظاهر العطف والتأييد رجالاتها الوطنيين المخلصين وتجهر بالسخط على الذين اشتروا الضلالة بالهدى وتنكبوا النهج القويم.

وبعد . فإن الأمة السورية التى مازالت تجاهد منذ أعوام طويلة فى سبيل حريتها ووحدتها قد استطاعت أن تقنع العالم بإجماعها على استنكار الانتداب الذى فرض عليها فرضا، وأن تحمل ولاة الأمور فى فرنسا على المجاهرة بضرورة إلغائه ليتسنى لسورية أن تعقد مع فرنسا معاهدة صداقة تضع حدا للتجاريب والفوضى. وقد قامت فى الماضى القريب مفاوضات بين الجانب الفرنسوى والجانب الوطنى لوضع أسس المعاهدة فاستمرت مدة من الزمن. ولكنها أوقفت ثم قام الفرنسويون بمفاوضات جديدة مع أشخاص آخرين

فما هى إلا عشية وضحاها حتى أسفرت مفاوضاتهم عن مشروع معاهدة نشرته الصحف فلما درسه الشعب وتروى فى مضامينه أعلن أن هذا المشروع لا يحقق شيئا من أمانيه وانه محاولة لصوغ الانتداب المفروض فى صيغة معاهدة تقر تجزئة البلاد وتحرمها من السيادة والاستقلال.

وبرغم كل النقائص التى اتصف بها هذا المشروع فقد عرضته الحكومة على المجلس وراح وزير المالية يخترع له الحسنات والمزايا ليحمل الناس على قبوله. ولكن مساعيه باءت بالخيبة لأن الكثرة الساحقة من النواب قدمت اقتراحا مكتوبا برفض المعاهدة وسجلته فى ضبط الجلسات، وذلك قبل أن يقرأ مندوب المفوض السامى ـ خلافا للدستور وللتقاليد البرلمانية المرعية فى جميع أنحاء العالم ـ قرار التعطيل.

إن السلطة التى لم يرق لها هذا الرفض قد أنكرته وطلبت إلى رئاسة الجمهورية أن تسحب مشروع المعاهدة من المجلس ولكن هذا العمل لا يبدل فى كثير أو قليل حقيقة الأشياء لأن المجلس لو لم يقرر رفض المعاهدة لما عطلت جلساته وقد صادق هو نفسه فى الجلسة الثالثة المنعقدة فى ٢٥ نوفمبر على ضبط الجلسة السابقة الذى سجل فيه. رفض المعاهدة فأصبح رفضها أمرا مفروغا منه ولا مجال للاجتهاد فيه وبذلك أنقذ النواب الشرفاء بلادهم من مصير مرعب وخطر محيق وأدوا رسالتهم بأمانة وشرف.

إن السلطة تتذرع لتعطيل أعمال المجلس طيلة الدورة الحالية بالمحافظة على الدستور والأمن فإما الأمن فليس المجلس هو المسؤول عنه، لأنه رفض المعاهدة التى أقامت البلاد وأقعدتها فكسب عطف الأمة وحمل إلى قلوبها الطمأنينة والسلام ولكن الحكومة هى التى تحمل تبعة الهياج وهى التى يضطر أعضاؤها للالتجاء إلى الجند ليحموهم من سخط الشعب.

وأما الدستور فأن النواب النبلاء ليسوا فى حاجة إلى من يعلمهم قواعد الحياة النيابية والمحافظة على الدستور، ولو انهم ارتكبوا جريمة قبول المعاهدة لما نسبت إليهم هذه الجريمة الوهمية. فإن المفوض السامى قد ذكر فى بيانه أن المعاهدة عرضت على المجلس ليتناقش فيها فلم يعد حقا أن يقال المجلس أخطأ لأنه تناقش فيها عملا برغبة المفوض السامى نفسه، وكان يجدر بالمفوض السامى أن ينظر إلى هذا الموقف نظرا مجردا عن الهوى ويسعى للتوفيق وتحقيق رغائبنا القومية وحقوقنا المقدسة، ولكنه عدل عن كل ذلك

فعطل لحياة النيابية ملتمسا الحجج والأسباب لهذا التعطيل مثل محاولة التأثير فى مناقشات المجلس، أو عدم كفاءة المجلس وما أشبه ذلك كأن الكفاءة لا تكون إلا عند الخضوع والإذعان لكل ما يراد! وكان إعلان الأمة رأيها فى المعاهدة التى دعيت للنظر بها من قبيل التهييج والتحريض الذى يسوغ إغلاق المجلس.

إن المخالفة الوحيدة هى التى ارتكبتها الحكومة بتوقيعها معاهدة لا تحقق للبلاد وحدة ولا سيادة. وليس لهذه المخالفة إلا نتيجة هى أن تقال الوزارة من الحكم وتحال عند الضرورة إلى القضاء العالى لمحاكمتها أما أن تحمى هذه الحكومة التى أسقطها المجلس والشعب ويؤجل المجلس النيابى الذى حافظ على إرادة الشعب وروح الدستور فعمل ما كان ينتظر من المفوض السامى الإقدام عليه.

إن النواب الشرفاء قد استمدوا قرارهم برفض المعاهدة من ضمائرهم الحية ومن آمال الأمة ومن المؤلم ان المفوضية العليا قد حكمت على عملهم بقلة النضوج قبل أن تستمع إلى الأسباب التى دعتهم إليه. بينما كان يجب أن يحترم تفكير الأمة لا أن تخاطب بمثل ما تخاطب به المستعمرات المتأخرة، وأن يطلب منها الاستسلام والقبول بما يفرض. وإذن فأى معنى للتفاوض والتعاقد إذا كان أحد الطرفين يريد أن يملى على الأخر إرادته؟.

وأية قيمة لحرية الرأى إذا كان الاحتقار نصيب من يجرؤ على التعبير عن رأى يؤمن به أيمانا.

أيتها الأمة الكريمة

إن نوابك النبلاء قد دفعوا عنك نقمة وبلاء، ولكن النضال لم ينته بعد. والوطن فى أشد الحاجة إلى قوى أبنائه مجتمعة للدفاع عن المطالب الوطنية المقدسة فى داخل البلاد وخارجها فالكتلة الوطنية التى أخذت على عاتقها خدمة الأمة فى جميع الميادين والتى أولتها الأمة ثقتها الغالية فى جميع المواقف ستبقى أمينة على العهد عاملة على توحيد صفوف وجهود الوطنيين حتى تتحقق مطالبنا السامية فى الوحدة الشاملة والاستقلال الصحيح وإنها لفخورة بهذا الإجماع الذى طالما عرفناه عند الشدائد شاكرة للأمة ونوابها الكرام الذين أجابوا دعوة الحق ولبوا نداء الوطن حريصة على أن يدنو الوقت لتحقيق آمالها ورغائبها متابعة النضال جهدها واثقة من بلوغ الغاية المنشودة بفضل ثبات الأمة

وصبرها وإجماع كلمتها ويقظة بنائها الذين لن يبرحوا مواقفهم الشريفة المحمودة حتى يذللوا جميع المصاعب ويدفعوا عن هذه البلاد ما يحيق بها من الشدائد والمكاره. والله لايضيع أجر من أحسن عملا - أهـ.

البرلمان يؤجل مرة أخرى

وقبل أن تنتهي مدة تعطيل البرلمان السورى أصدر المفوض السامى يوم ١٠ مارس سنة ١٩٣٤ قرارا جديدا يقضى بوقف مذاكراته حتى يوم الثلاثاء الذى يلى ١٥ اكتوبر سنة ١٩٣٤ وقد نفذ قراره ولايزال معطلا حتى الآن.

ـ ٢٦ ـ

صدى الثورة فى البلاد الشرقية

أما وقد انتهينا من سرد التاريخين العسكرى والسياسى للثورة السورية الكبرى ووصفنا ما بذله السوريون من جهود عظيمة لتحرير بلادهم فمن الواجب علينا أن نأتى على لمحة تصف ما كان للثورة السورية من الصدى فى نفوس الشعوب العربية التى عطفت على السوريين فى نضالهم وواستهم فى نكبتهم.

ولقد كانت فلسطين ومصر فى مقدمة الأقطار التى عطفت على سورية. كما كان المهاجرون السوريون إلى أميركا أيضا فى مقدمة الذين جادوا بالأموال لتأييد ومساعدة القائمين بأمرها.

أما فى مصر فقد فتح دولة الزعيم الخالد سعد باشا زغلول باب الاكتتاب لمنكوبى سورية بنداء بليغ أذاعه على الشعب المصرى، وبمبلغ من المال جاء به باسمه وباسم السيدة حرمه المصون، وقد سلم المبلغان إلى لجنة الإعانة لمساعدة منكوبى الثورة السورية، وقد تألفت برئاسة الأمير ميشيل لطف الله فجمعت نحو ألف جنيه أيضا وأرسلت مقدارا كبيرا من العقاقير والأدوية إلى الجبل.

نداء سعد باشا زغلول

بنى وطنى

«سورية، التى تربطنا بها روابط وثيقة من تاريخ، ولغة، ودين، وعادة، وجوار، نزلت بها هذه الأيام حوادث هائلة، تقشعر من هولها الأبدان، ونوازل جائحة تنخلع من بشاعتها القلوب، وشرور من أفظع ما يرتكبه إنسان ضد إنسان!! منكرات ارتكبها عمال حكومة الانتداب ضد محكوميهم الآمنين، فأزهقوا الكثير من أرواحهم البريئة، وأراقوا الغزير من دمائهم الطاهرة، وحرقوا كثيرا من قراهم وبيوتهم وعفوا كثيرا من آثار مدينتهم الفاخرة، ورملوا الجم الغفير من نسائهم، ويتموا العدد العديد من أطفالهم، وصيروا كثيرا من السكان بلا سكن يأويهم، ولا غطاء يغطيهم، ولا خبز يتبلغون به!!! وبهذه الآثار أذلوا شعبا

كان عزيزا وأسلموه للعدم والشقاء، وأفهموا الناس جميعا أن حكومة الانتداب لم تقم على ما زعموا لمصلحة المحكومين، بل لمصلحة الحاكمين!! ووصموا اسم فرنسا المجيد، فى الغرب وفى الشرق، وصمات لا يمحوها إلا إنزال أشد العقاب بهم، وترك البلاد لأهليها، يحكمون أنفسهم كما يشاءون.

وإننا معاشر المصريين لنشعر فى قلوبنا بكل عطف على إخواننا المصابين، ونرثى لمصابهم رثاء الإخوان للإخوان، ونحس بأن علينا واجب مساعدتهم بكل ما فى الإمكان، بما يخفف من بلواهم، ويلطف من آلامهم، ونرى أن هذا أيسر ما يجب للجار على الجار، وأقل ما يساعد به الإنسان أخاه الإنسان».

بيت الأمة فى ١٨ ربيع الثانى سنة ١٣٣٤ (٥ نوفمبر سنة ١٩٢٥)

رد الدكتور شهبندر

ورد الدكتور شهبندر على نداء سعد باشا فأرسل اليه الكتاب البليغ الآتى ـ قال:

من سفوح جبال الدروز المطلة على سهول حوران، ومن تحت السماء الصافية الأديم التى تعكرها الطيارات بالقنابل المفرقعة وفى وسط حلقة من المجاهدين الذين عاهدوا بلادهم أن يفتدوها بالغالى والرخيص، وباسم الجيش الوطنى الذى يكتنف الأعداء من جميع الجهات وبجانب سلطان باشا الأطرش قائده العام أرفع لمعالى زعيم مصر الأكبر وإمام المجاهدين فى سائر الأمصار الناطقة بالضاد خالص الشكر وعظيم الامتنان على ندائه البليغ لإسعاف القطر السورى الذى يجاهد كالقطر المصرى لتحرير نفسه من رق العبودية ووصمة الاستعمار.

يحاول أنصار البسطة العسكرية الفارعة وعمال المستعمرين الظمآنين من الغربيين أن يظهروا كل عطف بين الأقطار الشرقية، ولا سيما العربية منها بمظهر العداء للجنس الأوروبى والتمسك بأذيال التعصب الدينى تضليلا للرأى العام الساذج وتنفيذا للخطط الاستعمارية المشئومة، وفاتهم أن جيشهم هذا هو الذى اضطر الشرق اضطرارا أن يسطر بالحبر الأحمر المتفجر من الأوعية الدموية صحيفة سيارة طافحة بالفواجع تكشف القناع عن مخاز يندى لها جبين الإنسانية.

ليس فى معاجم الشرق كره لقوم خاص أو أمة بعينها إلا كره الظالم أنى وجد وحيثما حل - وهذا أقل ما يستحق - والتعصب الدينى لولا وجود المستعمرين المستثمرين بين ظهرانينا لما انتفض من القبر بعد أن نبت عليه الشوك، ولكن أبت شيمة القائلين بالتفريق لتحقيق سيادتهم الثقيلة إلا أن يفرقونا شيعا ويحيطون كل شيعة بالحواجز كيلا تتسرب إليها روح الرابطة القومية. فلما آن الأوان وحقت الكلمة انهارت هذه الحواجز على رؤوس أصحابها فعادت المياه إلى مجاريها.

إن القطر السورى المتحدد بقوميته وبإيمانه الوطنى يرى فى القطر المصرى النابه أخاً شقيقا أكبر، ويعد الاختبارات المؤلمة التى مرت عليه فى محنته ولاتزال تمر حتى هذه الساعة اختبارات قيمة لها فى التطورات السياسية الشرقية المقبلة الشأن الأعظم. ولئن عجزت مئات الأميال من الرمل القاحل فى صحراء التية فى الأيام الخالية أن تقيم سدا منيعا بين القطرين الشقيقين فلن تتمكن مئات الأمتار من الماء الأزرق الرقراق فى الأيام الحاضرة من إقامة هذا السد لأن ما وصلته يد الخالق لا تقطعه يد المخلوق.

إن نداء الرئيس الجليل هو عنوان ما حدث فى الشرق من روح التكاتف التى أخذت تدب فى القلوب، وستنبت الدراهم التى تبذرها اليد المصرية السمحة فى المدن السورية المحروقة والقرى المهدومة أشجار الغار لتحيك منها الأيدى الوطنية فى بلاد الشام أكاليل الظفر فتضعها على رؤوس المجاهدين فى الشرق الناهض يوم يختبىء الخائنون وينهزم الظالمون ويفوز المتقون.

السويداء - مقر القيادة العامة لجيوش الثورة السورية فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٥

ولم يدخر سكان فلسطين وشرقى الأردن وسعا فى مساعدة الثورة والعطف على الثوار وخصوصا بعدما ضرب الفرنسويون ضربتهم الكبرى فى الغوطة وفى الأقاليم فقد لجأ الثوار من أبناء المدن السورية إلى عمان ويافا والقدس - كما لجأ إخوانهم الدروز إلى الأزرق - فوجدوا الأبواب مفتتحة فى وجوههم، وألفوا عطفا صحيحا وإخاء صادقا هون عليهم بعض مصابهم وخفف وقع النكبة فى نفوسهم.

عطف العراق على الثورة

ورأت لجنة الإعانة المركزية المؤلفة فى القدس أن تستدر أكف العراقيين الكرام فقررت

فى جلستها المعقودة يوم ٣١ اكتوبر سنة ١٩٢٦ انتداب حسن الحكيم ومحمد الشريقى وعبد اللطيف العسلى للسفر إلى العراق، على أن يكون الأول رئيسا والثانى عضوا والثالث سكرتيرا «ليقوم هذا الوفد ببسط الحالة التى وصل إليها منكوبو سورية لدى حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل الأول، ولإطلاع الأمة العراقية الشقيقة على هذه الحالة، ولجمع الإعانات المالية للمنكوبين» كما جاء فى قراراها.

وفى يوم ٢٧ نوفمبر غادر الوفد عمان بالسيارة إلى بغداد فبلغها صباح ٢ ديسمبر وبدأ عمله على الفور ونثبت هنا نص التقرير الذى وضعه رئيسه عن نتائج رحلته وسلمه إلى رئيس اللجنة المركزية ليكون مرجعا يرجع إليه وهو:

عمان فى ٢ مارس سنة ١٩٢٧

سماحة الأستاذ المفضال الحاج أمين أفندى الحسينى رئيس المجلس الإسلامى الأعلى واللجنة المركزية لإعانة منكوبى سورية القدس ـ فلسطين

إجابة لرغبة سيدى الأستاذ الرئيس واللجنة التنفيذية لإعانة منكوبى سورية، قصد وفدنا إلى القطر العراقى الشقيق وقام هناك بالمهمة الإنسانية التى عهد بها إليه. وها أنا أعرض لسماحتكم بهذا التقرير خلاصة العمل ونتائجه.

١ ـ تحرك الوفد بتاريخ ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٦ بالسيارة من عمان عن طريق الصحراء فبلغ بغداد صباح ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٦.

٢ ـ بما أنه لا يجوز للوفد أن يقدم على العمل قبل عرض الأمر على الحكومة العراقية والحصول على موافقتها فقد زرنا بادئ ذى بدء رئيس الوزراء وأعضاءها وبسطنا لهم ما حل بالبلاد السورية من الحوادث المرعبة وما نزل بأهليها الآمنين من النكبات وما وصلت اليه حالة المنكوبين من البؤس والشقاء، فأبدوا لنا عطفا جميلا ووعدونا خيرا ثم بعد المداولة فى الأمر فيما بينهم علمنا بأن الحكومة لا ترى مانعا يمنع عطف الإنسان على أخيه الإنسان مادام العمل عملا خيريا ليس بسياسى ولا دينى.

٣ ـ لما كان جمع الإعانات على يد أبناء البلاد وبمعرفة هيئات معروفة بالاستقامة والأمانة فيها أدعى لثقة المتبرعين فقد رأينا إيداع الأمر إلى اللجنة العليا لإعانة منكوبى سورية المؤلفة سابقا ببغداد، وفقا لاتفاقنا عند تأليف الوفد، أما نحن فقد أخذنا على عاتقنا

زيارة المدن لبسط الحالة واستنهاض الهمم، وبهذا تم القصد وحصلت الغاية من أقرب السبل وأحسنها.

٤ ـ زرنا كثيرا من المدن العراقية كبغداد والموصل وإربيل وكركوك وكربلاء والنجف والحلة والبصرة والزبير والكاظمية فرأينا من قادة هذا القطر المبارك ومن شبابه الناهض وأبنائه الغر الكرام ما أثر فى نفوسنا أحسن أثر، وزادنا إيمانا بالروابط الوثيقة التى تربط القطرين الشيقين.

٥ ـ استأنفت اللجنة المشار إليها العمل من جديد بهمة لا تعرف الكلل واتخذت كل ما يمكنها من الطرق المشروعة، ورغم سوء الحالة الاقتصادية فى البلاد فقد توفقت لأن تحصل فى هذه المدة القصيرة على ٦/١٦ ٣٤٣٢٥ روبية كما يتضح من الحساب الآتى، ولا يزال فى صناديق فروعها فى الملحقات مالا يقل عن ثمانية آلاف روبية أيضا والعمل مستمر، أما ما أرسلته اللجنة المشار إليها إلى لجنتكم الموقرة من هذا المبلغ مباشرة وعينت بكتابها المؤرخ ٢ يناير سنة ١٩٢٧ النسبة الأساسية لتوزيعه على المنكوبين فقد بلغ حتى يوم عودتنا ١/٢ ٣٢١٨٧ روبية أو ألفان وأربعمائة جنيه إنكليزى. ومن دواعى السرور للجنة المشار إليها أن يعنى عناية خاصة بإرسال الوصولات اليها فى حينها.

بيـــــان مجمع التبرعات

آنة	روبية	
٨	١٤٣١	الموجود من الإعانة السابقة
	٣٨١٠	من الموظفين السوريين والجالية السورية فى
	١٨٤٥	بغداد من ريع الحفلة التمثيلية ببغداد.
	٢٢٠	من مجلس الأعيان
	٢٤٥٥	من مجلس النواب
	٣٤٠٠	من موظفى وزارة الدفاع
	١٧٤	من موظفى وزارة الداخلية
	٢٧٦	من موظفى وزارة الأوقاف
١٢	٤٢٠	من مدرسى المدرسة الثانوية وتلاميذها

بيـــــان مجموع التبرعات

آنة	روبيـــة	
٩	٢٦٤	من موظفى البلاط الملكى
	٢٣٥	من محسن إيطالى
	٥٠	من لواء الموصل
	٤٥٠٠	من لواء البصرة
	٥٠٠٠	من لواء إربيل
	١١١٧	من لاء المنتفك
	٦١٦٠	من لواء ديالى
	٥٣٣	من لواء الكويت
٩	٣٤٤	من لواء كربلاء
	٢٢٠٠	من لواء بغداد
	٣٨٩	
٦	٣٤٨٢٥	المجموع العمومى

بيـــــان مجموع المرسل

آنـة	روبيـــة	التاريخ	
	٤٠١٥	فى ٦ يناير ـ ١٩٢٧	أو ٣٠٠ جنيه إنكليزى
	٦٦٩٠	١٨ منه	أو ٥٠٠ جنيه إنكليزى
	٤٠٣٢	٣٠ منه	أو ٣٠٠ جنيه إنكليزى
	٤٠٢٣	٩ فبراير	أو ٣٠٠ جنيه إنكليزى
	١٣٤٢٧	١٨ منه	أو ١٠٠٠ جنيه إنكليزى
	٣٢١٨٧	المجموع	و ٢٤٠٠ جنيه إنكليزى

٦- بعد أن بلغت الإعانات المقدار الآنف الذكر لم نر مسوغا لبقائنا واختيار نفقات زائدة، بل رجحنا إتمام العمل على يد اللجان القائمة بالأمر والعودة بطيارة فى ١٩ فبراير على طريق بغداد - غزة لأنها أرخص وسائل النقل وأسرعها بالنظر إلى طريق الصحراء، أو البحر فلذلك نشرنا فى الصحف بيانا شكرنا فيه للشعب العراقى الكريم كرمه ونجدته وغادرنا القطر وفى أنفسنا أجمل ذكرى وأطيب ثناء،

٧- وقبل أن أختم هذا التقرير أرى من الواجب أن أطرى أولئك الأفاضل الذين خصونا بقسط وافر من مساعداتهم الثمينة ومعاونتهم القيمة، فأسدوا لنا معروفا كبيرا فى سبيل تسهيل مهمتنا . أمثال أصحاب الفخامة والدولة والسعادة جعفر باشا العسكرى رئيس الوزارة العراقية وعبد المحسن بك السعدون رئيس مجلس النواب وياسين باشا الهاشمى وزير المالية ونورى باشا السعيد وزير الدفاع ورشيد عالى بك وزير الداخلية وأمين عالى بك وزير الأوقاف وجميل بك المدفعى متصرف المنتفك وناجى شوكت بك متصرف الموصل وعبد الله بك الدليمى متصرف كربلاء وعلى جودة بك متصرف البصرة. أما سعادة مولود باشا مخلص عضو الأعيان وسعيد بك الحاج ثابت وثابت بك عبد النور نواب الموصل الذين أخذوا على عاتقهم القيام بهذا الأمر بكل ما فيهم من همة وغيرة ونشاط فإن خدمتهم أكبر من أن توصف وجميلهم فوق كل أطراء وثناء، وهناك فئة من علية القوم كان لنا نصيب كبير من مؤازرتهم الفعلية التى نذكرها لهم مقرونة بالحمد والثناء أمثال أحمد بك الجليلى عين أعيان الموصل والشيخ أحمد بك باش أعيان العباسى وشقيقه عبد القادر بك وعمهما الشيخ صالح بك من أعاظم البصرة وعبد اللطيف باشا المنديل وأحمد باشا الصانع من سراة المدينة المذكورة والسيد أبى بكر منلا كبير القوم فى إربيل والسيد إبراهيم عطار باشى من تجار الموصل وفخرى بك جميل من أعيان بغداد،

وهنا لابد من الإشارة إلى كرام المحسنين الذين جادت أنفسهم الكريمة بما ينم عن كرم وسخاء عظيمين ويسطر لهم بمداد المجد والفخر. كدولة طالب باشا النقيب سليل الشرف الرفيع فى البصرة وحضرة كاظم بك الشمخانى من كبار تجارها وقاسم بك الصابونجى من كبراء الموصل وسالم بك خيون رئيس عشيرة بنى أسد ونزيل الموصل. إذ تبرع الأول بألف وخمسمائة روبية والثانى بألف والثالث بثمانمائة والرابع بساعة ذهبية لا

يقل ثمنها عن سبعمائة روبية، وبالجملة فقد عدنا من ألسنتنا تفيض بالشكر والثناء لهذه العصبة الصالحة خاصة. ولعموم أبناء هذا الشعب النابه عامة، وانني على مثل اليقين بأن اللجنة المركزية لا تغفل عن أن تشكر لكل من ذكر نجدتهم وإعانتهم بكتب خاصة ـ أهـ

ويقول رئيس اللجنة فى كتاب أرسله إلى واضع هذا الكتاب يوم ٢٨ يونيو سنة ١٩٣٤ إنه علم أن مجموع الإعانات التى وردت من العراق بلغ نيفا وثلاثة آلاف وخمسماية جنيه أى أن اللجنة العراقية المؤلفة فى بغداد أرسلت إلى اللجنة المركزية فى القدس بعد رجوع الوفد نيف وألف ومئة جنيه.

عطف الحجاز على الثورة

ولابد لنا من التنويه بما لقيه مندوب لجنة الاعانة من عطف فى الحجار. فقد انتدبت جمعية إعانة المنكوبين فى البلاد السورية المؤلفة فى القاهرة حسن الحكيم للسفر إلى مكة (وذلك قبل سفره إلى بغداد) فأرسلت إليه يوم ٢ يونيو سنة ١٩٢٦ الكتاب الآتى:

حضرة صاحب السعادة حسن بك الحكيم الأفخم

«تحية طيبة وسلاما عاطرا وبعد ـ فقد رأت جمعية إعانة المنكوبين فى البلاد السورية أن تنتهز فرصة زيارة إخواننا المسلمين للديار الحجازية ابتغاء أداء فريضة الحج والاعتماد على جماعة من أرباب الفضل وأولى البر ليبسطوا للحجاج الكرام الحالة المؤلمة التى أصبحت تئن منها البلاد السورية بسبب حوادث القتال، ويذكروهم بواجباتهم الدينية والإنسانية نحو إخوانهم المفجوعين بأنفسهم وأوطانهم وأموالهم وذويهم، ويحثوهم على اعانتهم وإسعافهم بما تجود به نفوسهم الكريمة لتخفيف ويلات الحرب وإنقاذ تلك الأرواح البريئة من مخالب الجوع وبراثن الهلاك وبالنظر لما لسعادتكم من المنزلة الرفيعة ولما عرفتم به من الغيرة الدينية والحمية الوطنية والعاطفة الإنسانية فقد قررت الجمعية فى جلستها المنعقدة مساء ٢٨ مايو انتداب سعادتكم للفر إلى الحجاز للقيام بهذه المهمة الخيرية، بالاشتراك مع السيد محمد امين الحسينى والسيد محمد رشيد رضا والشيخ بهجت البيطار والشيخ يوسف يس بصفتكم سكرتيرا عاما للهيئة المذكورة.

والجمعية واثقة كل الوثوق بان مساعيكم الخيرية فى سبيل هذا المشروع الإنسانى

ستتوج بالفوز وتكلل بالنجاح أدامكم الله نصيرا للخير والإنسانية.

وفى يوم ١٥ يوليو سنة ١٩٢٦ عاد من مكة وسلم إلى رئيس الجمعية التقرير الآتى عن نتائج رحلته:

بناء على قرار جمعيتكم الموقرة المؤرخ ٢٨ مايو سنة ١٩٢٤ قصدت إلى مكة المكرمة وسعيت والوفد الكريم وراء اتمام المهمة التى عهدتم بها إلينا فكانت النتيجة كما يلى:

١ ـ بلغ مجموع ما جادت به أكف المحسنين وسلم الينا دفعة واحدة بواسطة عبد الله الفضل بمكة أربعة آلاف ليرة عثمانية ذهبا اشترط متبرعوها إنفاق الربع منها على إعاشة منكوبى المسلمين بدمشق وتوزيع الباقى على المنكوبين الموجودين فى نفس مناطق الثورة كجبل الدروز والغوطة والأقليم وغيرها توزيعا عادلا بمعرفة هيئات مؤتمنة.

٢ ـ بلغ مجموع ما تبرع به السوريون المقيمون بمكة وغيرهم من المحسنين أيضا أربعة وستين جنيها مصريا وأربعماية مليم وإحدى وعشرين ليرة عثمانية ذهبا وثلاثة وعشرين ليرة فرنسوية ذهبا.

٣ ـ جميع المبالغ المحررة فى المادتين السالفتين قبضت بموجب وصولات رسمية تبتدىء من رقم ٧٠٠١ وتنتهى برقم ٧٠٣٤ وسلمت اليوم بتمامها إلى أمين صندوق الجمعية نسيم صيبعه بموجب الوصل رقم ١١٧ المؤرخ ١٥ يوليو سنة ١٩٢٦.

٤ ـ لم يبع من رسالة صدى الفاجعة السورية سوى مائتين وثلاثين عددا بلغ مجموع اثمانها ألفا وماية وخمسين غرشا مصريا تجدونها مقدمة مع هذا الكتاب. وأما بقية الأعداد وقدرها سبعماية وستة وأربعون فقد سلمت للشيخ يوسف ياسين مدير مطبعة الحكومة الحجازية بناء على تعهده ببيعها وإرسال ثمنها إلى مركز الجمعية.

عطف مهاجرى الدروز فى أميركا

وحاز المهاجرون السوريون إلى أميركا وفى مقدمتهم الدروز قصب السبق فى مضمار الكرم. فقد قدر ما تبرعوا به بمبلغ ٥٠ ألف جنيه. جمعت بواسطة حزب سورية الجديدة المطالب باستقلال سورية ووحدتها فى تلك البلاد النائية.

ويقال إن مجموع الإعانات التى وردت لمساعدة منكوبى الثورة من جميع الأقطار لا يقل عن ١٢٠ ألف جنيه تسلمتها لجنة الإعانة العليا فى القدس ووزعتها.

احتجاج الحسين

ونرى أن نختم هذا الفصل بإثبات نص البرقية التى أرسلها الحسين بن على من قبرص يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٥ إلى رئيس جمعية الأمم احتجاجا على ما جرى فى سورية قال:

بصفتى المعلومة الأساسية أقدم لفخامتك وللهيئة الموقرة احتراماتى، ثم أجلب أنظار كمالات مزاياكم إلى المعاملات الجارية فى عموم سورية ونتائجها المؤدية إلى محو العرب والمؤثرة حتى على شرف المقصد الأساسى من تشكيل وتأسيس هيئتكم المعظمة. سيما بعد اعلان الحلفاء بصورة رسمية أنهم لم يخوضوا غمار الحرب إلا لخلاص الشعوب المظلومة وإعادة حقوقهم ومنافعهم إلا أن العرب لا تشملهم مقاصد تلك التأسيسات، ولكن بلاغ العظمة البريطانية أخيرا لمخلصكم بأن هيئتكم الموقرة قررت انتداب عظمتها أيضا على معان والعقبة ضمن انتدابها على عمان الشرق العربى يخالف ذلك. وعليه فالمرجو من الفخامة اصدار القرار القطعى الصريح بمصير بلادنا معاشر العرب وتطبيق قوانين وقواعد الانتداب الأساسية على ما ترى انتدابه من بلادهم وإلا فالعرب لهم الفخر فى الحكم عليهم بان يكونوا ضحية لمصالح الحلفاء وأخلاق المدنية الحاضرة.

ملاحظات عامة

افتتحنا هذا الجزء بالكلام عن إمارة الأردن وهى ثمرة من ثمرات الحركة العربية ونفحة من نفحاتها. فسردنا تاريخها السياسى وأثبتنا الوثائق الخاصة بإنشائها والعقود التى عقدت بشأنها. ولابد لنا من الإشارة هنا إلى التعديل الجديد الذى أدخل على المعاهدة الأردنية - الإنكليزية. فقد وقع عليه يوم ٢ يونيو سنة ١٩٣٤ بالقدس بين إبراهيم هاشم المندوب المفوض لأمير شرقى الأردن والسير آرثر والهوب المندوب السامى لحكومة فلسطين ونصه:

المادة الاولى - تلغى المادة الاولى من الاتفاق عليه فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٨ ويستعاض عنها بالنصوص الآتية:

ويوافق صاحب السمو الأمير على أن يمثل صاحب الجلالة البريطانية فى شرق الأردن معتمد بريطانى يعمل بالنيابة عن المندوب السامى لشرقى الأردن، وعلى أن تجرى المخابرات بين صاحب الجلالة البريطانية وجميع الدول الأخرى من الجهة الواحدة وبين حكومة الأردن من الجهة الثانية عن طريق المعتمد البريطانى والمندوب السامى السالف الذكر.

ويوافق صاحب الجلالة البريطانية على أن لصاحب السمو الأمير أن يعين موظفين قنصليين لدى اية دولة عربية مجاورة بحسب ما قد يعتبر ذلك لازما.

ويوافق صاحب السمو الأمير على أن النفقات العادية للحكومة المدنية والإدارة تتحملها بأسرها شرق الأردن.

المادة الثانية - تلغى الفقرة الاولى من المادة السابعة من الاتفاق الموقع عليه فى ٢٠ فبراير ١٩٢٨ ويستعاض عنها بالنصوص الآتية:

لا يكون بين فلسطين وشرق الأردن أى حاجز جمركى ما لم يقع اتفاق بين البلدين.

المادة الثالثة - يبرم هذا الاتفاق ويجرى تبادل ابرامه حالما يستطاع ذلك، ويصبح نافذ المفعول فور إبرامه.

المادة الرابعة - لقد صيغ الاتفاق الحاضر من لغتين: الإنكليزية والعربية، وقد وقع المندوبان المفوضان للفريقين الساميين المتعاقدين على نسختين إنكليزيتين ونسختين

عربيتين، ويكون للصيغتين عين المقام من الاعتبار وإنما عند الاختلاف بينهما فى تفسير مادة من مواد هذا الاتفاق يكون للصيغة الإنكليزية التقدم - أهـ

وأوردنا كذلك جانبا من تاريخ الحركة الوطنية فى هذا الإقليم ونشرنا نص الميثاق الوطنى الذى وضعه رجاله مع قرارات المؤتمرات الوطنية التى عقدت فى ربوعه.

وقبل أن نختم هذا الفصل لابد لنا من التنبيه إلى أمر ذى بال يختص بتاريخ هذه الإمارة. فقد سألنا الأمير عبد الله خلال مروره بالقطر المصرى فى شهر يونيو سنة ١٩٣٤ حين رحلته إلى إنكلترا عن حقيقة الاتفاق الشفهى الذى جرى بينه وبين المستر تشرشل حين اجتماعهما فى القدس يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٢١ لإنشاء حكومة فى شرق الأردن فأجابنا أن الاتفاق تم على ما يأتى:

١ - إنشاء حكومة مستقلة فى شرق الأردن.

٢ - تمنح هذه الحكومة حق التمثيل السياسى.

٣ - يتعهد الإنكليز بمساعدة هذه الإمارة ماليا ريثما تستقر أمورها.

٤ - يوافق سمو الأمير عبد الله على أن يتبوأ جلالة الملك فيصل عرش العراق.

٥ - تتعهد الحكومة البريطانية بان تسعى لكى تتألف من شرق الأردن والمدن الأربعة (سورية الداخلية) حكومة عربية برئاسة الأمير عبد الله (أى أن تعود الحالة إلى ما كانت عليه قبل نكبة ميسلون، وتنفذ أحكام معاهدة سايكس - بيكو).

ويرى الأمير أن حادثة الاعتداء على الجنرال غورو على طريق القنيطرة حالت دون تنفيذ المادة الخامسة من الاتفاق بعد ما تقدمت المفاوضات التى دارت بهذا الشأن تقدما يذكر.

وقفينا على تاريخ إمارة الأردن بإيراد تاريخ القضية الفلسطينية وهى من أغرب القضايا فى هذا العصر، ومدارها إجلاء عرب فلسطين عن بلادهم وإنشاء دولة يهودية لحما ودما. ويستعين اليهود لإدراك هذه الغاية بوسيلتين:

١ - الهجرة اليهودية إلى فلسطين

٢ - ابتياع الأراضى من العرب

ولقد فاز اليهود فوزا لا يستهان به حتى الآن، فإما من جهة المهاجرة فقد تسنى لهم أن

يحشدوا أكبر عدد ممكن فى فلسطين، ويقال إن مجموعهم اليوم فى ربوعها لا يقل عن ٣٠٠ ألف بدلا من ٥٠ ألفا حين نهاية الحرب، ومعنى ذلك أن عددهم تضاعف فى خلال خمس عشرة سنة نحو خمسة أضعاف. ويتوالى وصولهم إليها بلا انقطاع، وهم يدخلونها من طريق البحر ومن طريق البر ويتسربون إليها من كل مكان.

ويمكن القول أن فوزهم من ناحية ابتياع الأراضى يفوق فوزهم من ناحية الهجرة. فقد تم لهم فى خلال هذه المدة الاستيلاء على نحو ربع الأراضى الفلسطينية. ويملكون اليوم نحو مليون ونصف مليون دونم من أصل ستة ملايين دونم (مساحة الدونم ألف متر مربع) هى مجموع أراضى فلسطين. ومعظم ما يملكونه خصب، جيد التربة، والمناطق الساحلية بين يافا وحيفا تقريبا ملكهم، ويمتلكون معظم الاراضى حول القدس واللد والرملة. ومعظم الأراضى الباقية بيد العرب جبلية. ومما يجب ذكره أن اليهود يشترطون على سكان كل قرية يبتاعونها أن يخربوا بيوتهم بأيديهم قبل جلائهم عن قريتهم ويدمروا مسجد القرية ومدرستها - إن كان فيها مسجد أو مدرسة ومقبرتها فلا يتركون فيها آثارا من أثارهم ولا يبقون على رابطة تربطهم بها، والقصد من هذا التدبير القضاء على كل ما للعرب فى فلسطين من ذكريات وآثار ومقابر ومساجد وجعل البلاد يهودية بما فيها ومن فيها، وما كانوا يمتلكون حتى سنة ١٩٢٠ أكثر من ٤٥٠ ألف دونم كما جاء فى تقرير رسمى بريطانى.

ولقد تنبه العرب إلى الخطر العظيم الذين يستهدفون له من بقاء باب الهجرة مفتوحا ومن عدم منع بيع الأراضى فطالبوا الحكومة ولايزالون يطالبونها بمنعهما. ورغم ما أوصتها به اللجان الإنكليزية المختلفة - وآخرها لجنة شو - لم تقم حتى الآن بأى تدبير من شأنه أن يزيل مخاوف العرب.

ورب سائل يسأل ولماذا يقدم العرب على بيع أراضيهم؟ ولماذا لا يحتفظون بها وما برحت منذ ثلاثة عشر قرنا ملكا للعرب لم تدنس اراضيها باقدام الدخلاء؟ وبديهى أن اليهود لن يقتصروا على فلسطين - إذا تم لهم استصفاؤها لا سمح اللّه - بل لابد لهم من أن يمدوا أبصارهم إلى الشمال والى الشرق وإلى الجنوب. عاملين على توسيع رقعة فلسطين بما يضمونه إليها من الأقطار المجاورة فيكون ذلك مصدر نزاع لا ينتهى بينهم وبين العرب.

فخطر نجاح القضية الصهيونية لا يهدد عرب فلسطين وحدهم وإنما يهدد القضية العربية كلها. وكل نجاح يدركه اليهود هنا يضر بقضية العرب عامة ويؤخر نجاحها. ولهذا نهيب برجال العرب ومفكريهم إلى أن يعنوا بالقضية الفلسطينية عناية خاصة فهى جزء ثمين من اجزاء القضية العامة وإلى أن يشدوا أزر الفلسطينيين فى جهادهم ويأخذوا بيدهم ويساعدوهم فى دفع الخطر المحدق بهم. فهم عاجزون وحدهم عن الكفاح والمقاومة ولابد من سقوطهم صرعى إذا تركوا منفردين أمام قوى اليهود الفاغرة الأفواه لابتلاعهم.

وتكلمنا بعد ذلك على الدولة الهاشمية فى الحجاز فسردنا تاريخها السياسى بعد الثورة وفصلنا صلاتها مع الإمارات العربية المجاورة لها ووصفنا الظروف والحوادث التى أحاطت بسقوطها وإنهيارها. وخلاصة ما يقال فى هذا الباب أن الطريقة التى سار عليها المرحوم الحسين فى سياستها وعدم مراعاته حالة العصر وروحه أنشأت فتورا بينه وبين شعبه، عرف خصومه كيف يستغلونه لمصلحتهم، ولم يجد السعوديون صعوبة فى الاستيلاء على الحجاز حين حملوا عليه سنة ١٩٢٤ فقد انضم معظم سكانه إليهم، وكان موظفو تلك الحكومة والأشراف أنفسهم فى مقدمة الذين أيدوهم وناصروهم: وحسبك ان بعض موظفى الطائف هم الذين فتحوا أبواب سورها للمهاجمين وحملوا حاميتها على الاستسلام رغما عنها للتخلص من حكومتهم. كما انضم معظم القبائل إليهم فى زحفهم على مكة وساروا أمامهم تحدوهم نفس العوامل التى حدت بموظفى الطائف، وحاول بعض موظفى حكومة جدة أن يمثلوا الدور الذى مثل فى الطائف وأن يحملوا الملك الجديد على مغادرة بلادهم فوقف فى وجههم وساعده الجند الذى جاء من الأردن فقبض على ناصية الحال وأمر باعتقال بعض دعاة التسليم وسجنهم فخاف الباقون.

ويقدر ما أنفقه الحسين المرحوم على حرب جده بمائة ألف جنيه من اصل مائة وعشرين ألف جنيه يقول بعض العارفين إنها كل ما خرج به من الحجاز ويقول هؤلاء إنه لو فتح صناديقه من أول الحرب وبذل بسخاء على تجنيد الجنود وابتياع الأسلحة لتمكنت حكومة جدة من استرداد مكة على الأقل. بيد أن الطريقة التى سار عليها، وهى أنه ما كان يجود بشىء إلا بعد إلحاح عظيم، وبعد أن تسوء الحالة ويثور الجند طلبا للقوت جعل مساعدته عقيمة. فقد كان مثله مثل الطبيب يتدارك المحتضر بالعلاج فينتعش ومتى أنتعش تركه وشأنه بدلا من تعهده بعنايته واعطائه المقويات، ويظل على إهماله له حتى يعود إلى

الاحتضار فيعود إلى معالجته فيعود إلى الانتعاش أياما ثم ينتكس وهكذا دواليك. وبالطبع فإن مثل هذه الحالة لا تختم بغير الموت وهو ما وقع فى النهاية. فقد اضطر الملك على إلى التسليم بعد ما استفرغ جهده واستنفد قواه وأنفق ثروته الخاصة وثروة الملكة زوجته فى الدفاع. فكان مثلا عاليا فى النجدة وعلو الهمة وحمل عبئا ثقيلا لا يحمله سواه فقد قبل البيعة والأمر مدبر والشعب معرض عن الحكومة، وقد حمل معظم أبنائه السلاح للقتال فصمد نحو احد عشر شهرا ونازل خصومه فى معارك كانت الحرب سجالا بينهما وانتهت بتسليمه سلما بعد ما نضبت قواه وموارده.

ولا ريب أن فى سقوط الدولة الهاشمية بسرعة - فهى لم تعش أكثر من تسع سنوات - درس عبرة لأمراء العرب الذين لايزالون يميلون إلى الاستئثار ويظنون أنفسهم من طينة اسمى من الشعب، فقد هتف العرب للحكومة الجديدة يوم تأسست وأقبلوا عليها يشدون أزرها وأمدها الإنكليز بالسلاح والمال والرجال فبدلا من أن تنصرف إلى الاصلاح والتنظيم وتعمل على إنشاء إدارة راقية أبت إلا الإنكماش فى دائرة ضيقة والتمسك بتقاليد قديمة فانفض الناس من حولها تدريجا وجفاها حلفاؤها وتخلوا عنها فى النهاية وعندنا أنه ما كان يجب أن تصل الحالة بين الإنكليز والحسين إلى ما وصلت إليه رغم إنكارهم لعهودهم. ولابد لنا من الإشارة هنا إلى ابتهاج الصحف اليهودية يوم سقوط الدولة الهاشمية لأنها حررت بريطانيا - كما قالت - من عهودها وأنقذ اليهود من خصم عنيد كان يضايقهم ويلاحق القضية العربية، وحذت صحف إنكلترا أيضا حذوهم فضربت على هذا الوتر وقالت ان بريطانيا تخلصت من عهودها للعرب بسقوط الدولة الهاشمية.

ويدرأون عن أنفسهم وبلادهم الأخطار والمصائب، وفى الجواب على هذا الاعتراض نقول إن معظم التبعة لاحق بالحكومة التى أنشأها الانكليز فى فلسطين. فقد جارت على العرب وضيقت عليهم سبل العيش. فاضطروا إلى بيع أراضيهم اضطرارا ويجب أن لا ننسى أن بين كبار رجال الحكومة عددا غير قليل من اليهود. كما أن الجانب الأكبر من الموظفين أصحاب الدرجات الوسطى هم من اليهود أيضا. أما العرب، وبخاصة المسلمين منهم فنصيبهم أسوأ نصيب فقد اختصوا بالوظائف الصغيرة الحقيرة ولا سيما وظائف الشرطة والخفر، وهم مجردون من كل نفوذ وسلطان فى هذه الدولة فغرمها عليهم وغنمها للإنكليز واليهود ويشتركون فى السيطرة عليها واستغلالها، ويضع الانكليز لليهود القوانين

والأنظمة التى تساعدهم على إدراك غاياتهم وتسهل لهم انتزا ع الأراضى من العرب وذلك بإفقارهم وعدم العناية بتعليمهم وإهمال أراضيهم وقراهم يضاف إلى ذلك كله الجدب الذى أصيبت به فلسطين، فقد انحبس الغيث تقريبا عنها فى خلال السنوات الخمس الأخيرة من سنة ١٩٢٨ ـ ١٩٣٣ انحباسا قضى على المواسم فازداد الفلاحون العرب بؤسا على بؤسهم واضطر بعضهم إلى بيع أراضيه لوفاء دينه ولسداد الضرائب الفادحة التى ترهقهم بها الحكومة الجديدة من دون ان تهتم بمصيرهم ومن دون ان تدرأ عنهم الأخطار التى تهددهم.

هذا من جهة واحدة أما من الجهة الأخرى فان إقبال بعض العرب الفلسطينيين على الاشتغال بالسمسرة لما تدره من الأرباح الطائلة على المشتغلين بها ساعد أيضا على انتقال الأراضى إلى اليهود فقد ظهر فى بعض القرى والمدن أفراد وقفوا أنفسهم على تسهيل انتقال الأراضى لليهود، فهم يصطادون الفلاحين وأصحاب الأطيان ممن كثرت ديونهم ويزينون لهم بيعها بأثمان عالية ولايزالون بهم حتى يقنعوهم بالبيع ومتى تمت الصفقة قبضوا جعلا كبيرا من اليهود، ومع أن الجمهور العربى يزدرى هؤلاء السماسرة ويقاطعهم ويحتقرهم فإن عددهم لايزال غير قليل.

ومما ساعد أيضا على انتقال الأراضى إلى اليهود ما يدفعونه من أثمان عالية تغرى بسطاء الفلاحين. ومعظم الأراضى ينتقل إلى الجمعيات اليهودية الكبرى وتستمد ثروتها من أموال الإعانات التى تنصب عليها صبا من انحاء العالم الاسرائيلى ويجود لها اليهود بلا حساب، فهى تدفع مبالغ طائلة فى شراء الأراضى وتوزيعها على المهاجرين اليهود لاستغلالها ويقولون إن ما أنفقوه فى فلسطين لا يقل عن ٣٠ مليونا من الجنيهات.

ونرى واجب الانصاف يدعونا إلى الاعتراف بأن عرب فلسطين بذلوا جهوداً جبارة فى مكافحة الحركة الصهيونية ومقاومتها فأنفقوا الأموال الطائلة، وأوفدوا الوفود إلى الشرق والغرب وتحملوا المشاق والمغارم ولايزالون يتحملون ويكافحون ـ واذا كانوا لم يوفقوا التوفيق الذى ينشدونه فالذنب على الحكومة البريطانية نفسها فهى المسؤولة مباشرة عن كل ما جرى فقد ضربت بجميع وعودها وعهودها للعرب عرض الحائط وتمسكت بوعد بلفور وحده فنفذته على المنوال الذى يرضى اليهود وسارت معهم أشواطا فى تحقيق مطامعهم. ولا ريب أن إخفاق العرب وفوز اليهود يعود إلى العامل الأصلى الذى وصفناه

فى الجزء الأول وهو ضعف الأخلاق السياسية عند العرب وتفرق كلمتهم وتشتت آرائهم فلو كانوا أقوياء موحدى الكلمة كاليهود على الأقل لحملوا الإنكليز على احترامهم ولاضطروهم إلى الوفاء لهم وإنصافهم - كما يضطرهم اليهود - فالإنكليز وكل شعب فى العالم لا يعرفون سوى القوة ولا يحترمون غيرها، وما على العرب اذا أرادوا أن يكونوا محترمين مرهوبى الجانب إلا أن يوحدواكلمتهم ويلموا شعثهم ويومئذ يذكر الانكليز عهودهم للعرب ويوفون بها.

وغنى عن البيان اننا لا نعنى بكلمة العرب هنا عرب فلسطين، فقط وإنما نعنى جميع أبناء العنصر العربى الضاربين فى هذه المنطقة الواسعة بين شمالى إفريقية وغربى آسيا والنازلين بين خليج فارس والمحيط الأطلسى قائلين لهم إن الثمانمائة ألف عربى القاطنين فى فلسطين لا يستطيعون أن يدفعوا وحدهم الخطر اليهودى ولا يقدرون على مقاومة الحركة الصهيونية، ويؤيدها يهود العالم كلهم ويمدونها بأموالهم. وهم يملكون المال الوافر فمعظم ثروات العالم فى أيديهم ويتعهدونها بنفوذهم وبينهم عدد غير قليل من الأقطاب السياسيين ذوى الكلمة المسموعة فى الأندية الدولية العليا. فلابد من الأخذ بيدهم والدفاع عنهم.

ان فوز الحركة الصيهونية ونجاحها وإنشاء حكومة يهودية فى قلب بلاد العرب بين الشام من الشمال ومصر والحجاز من الجنوب وإمارة الأردن والعراق ونجد من الشرق يؤلف خطرا حقيقيا على الحركة العربية. فهو يقحم عنصرا أجنبيا على البلاد العربية.

على أنه مهما تقلبت الأدوار فاسم الحسين سيظل مقرونا بالنهضة العربية. فهو أول من ثار لأجل العرب وركب الأخطار فى سبيلهم وقاتل لإنقاذهم.

وتكلمنا بعد ذلك عن القضية السورية وتحولها: والكلام على هذه القضية شمل ثلاثة أدوار:

فالدور الأول يمتد من دخول الفرنسويين دمشق فى شهر يوليو سنة ١٩٢٠ حتى إعلان الثورة الكبرى فى شهر اغسطس سنة ١٩٢٥.

والدور الثانى وهو دور الثورة وينتهى بمعركة الصاحب فى شهر مايو سنة ١٩٢٧.

والدور الثالث وهو العهد الحاضر ويمتد من إنشاء الحكومة الموقتة يوم ١٢ فبراير سنة ١٩٢٨ حتى يومنا هذا.

ولقد فصلنا أخبار الدور الأول، وسجلنا ما بذله الوطنيون من جهود فى داخل البلاد وفى خارجها للدفاع عن قضيتها وإسماع صوتها. سواء فى القاهرة أو فى جنيف أو فى لندن وباريس وروما وأثبتنا جانبا من التقارير التى وضعوها فى وصف الضرر اللاحق بسورية من جراء السياسة التى نفذها الفرنسويون فى خلال هذه المرحلة، وتقوم على تجزئتها إلى دول وحكومات نثروها فى الشرق والغرب والشمال والجنوب لا لغاية سوى القبض على مقاليد البلاد والسيطرة عليها سيطرة فعلية لا تدرك إذا كانت موحدة الشمل مجتمعة الكلمة.

ولقد اقترنت بهذه التجزئة - ولم تخف الغاية منها على رجال البلاد - خطيئات إدارية فادحة اقترفها الموظفون الفرنسويون. يضاف إلى ذلك أن معظم الذين وقع اختيار الفرنسويين عليهم لمساعدتهم فى حكم البلاد كانوا من طبقة عرفت بضعف الوطنية وخور العزيمة فساءت الحالة وارتفعت الأصوات بالشكوى والتذمر، وبدلا من أن يعمل كبار الموظفين الفرنسويين على تهدئة الحالة زادوها اضطرابا بسوء تصرفاتهم وتنافسهم ودسائسهم. ويرى معظم الباحثين أن الخطيئات الإدارية العظيمة التى اقترفها الجنرال سرايل وفى مقدمتها تمسكه بالكابتن كربيه وعدم موافقته على إقالته ثم رفضه مقابلة زعماء الدروز ثم اصداره الأمر إلى نائبه فى دمشق بان يستدعيهم إلى حضوره بحجة أنه سيضعى إلى مطالبهم فيقبض عليهم وينفيهم - وقد نفذ ذلك فعلا - وسيظل لطخة سوداء فى تاريخ الاستعمار الفرنسوى فى سورية - عجلت بإعلان الثورة وساعدت على انتشارها وفوجىء ولاة الأمور الفرنسويون بالثورة مفاجأة ما كانوا يترقبونها. واذا استثنينا العاملين من رجال حزب الشعب - وعلى رأسهم الدكتور عبد الرحمن شهبندر زعيم هذا الحزب - فهو الذى اجتمع إلى زعماء الدروز وكبارهم وعقد معهم المواثيق والعهود على اضرام ثورة لإنقاذ البلاد وتحريرها - فرجال سورية الآخرون ما كانوا يترقبون هذه الثورة ولولا حوادث الغوطة وثورة حماه وقد بعثت الجنرال غاملان على التعجيل بالتراجع عن السويدا بعدما دخلها يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٥ لاعتقاده أنه أمام خطة حربية منظمة مدبرة يراد بها الإحداق بجيشه والاستيلاء على دمشق وحمص وحماه، لتم له توطيد أقدامه فى الجبل على المنوال الذى اتبعه الجنرال أندريا فى المرحلة الثانية.

فارتداد الجنرال غاملان عن الجبل وحشده قواه فى دمشق وفى حماه وفى حمص وقلمون لقتال الثوار الذين انتشروا خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر، نفس عن الجبل كربته،

ودرأ عنه الخطر الذى كان يهدده، فانطلق عدد من فرسانه فاقتحموا إقليم البلان ووادى التيم واحتلوا حاصبيا وبلغوا حدود لبنان القديمة من جهة الجنوب. ولولا ما لقوه من مقاومة فى راشيا لتدفقوا على سهل البقاع ولا تصلوا برجال العصابات فى بلاد بعلبك، وقصد جانب منهم الغوطة فاشترك فى الأعمال العسكرية التى عملت فيها وأبدوا من الشجاعة ما هو مأثور عنهم، ولم يعودوا إلى الجبل إلا فى فصل الربيع حينما بدأ الفرنسويون الهجوم عليه.

وبالغ رجال العسكرية الفرنسوية فى الانتقام فعاملوا سورية بشر مما اعتادوا أن يعاملوا به ثوار المستعمرات. فدمروا القرى على رؤوس سكانها وأحرقوها بمن فيها وقتلوا الكثيرين على الشبهة وبدون محاكمة، وكانت السجون غاصة بالمسجونين الأبرياء فى بيروت وحماه وحمص وطرابلس وكانوا يتفننون فى تعذيبهم والانتقام منهم، ولو شئنا لملأنا مجلدات ضخمة فى وصف ما ارتكبه بعض موظفى السجون فى دمشق من أعمال منكرة يندى لها جبين الإنسانية خجلا، وكذلك يجب أن لا ننسى ما أتاه المسيو بيجان مفتش الشرطة العام الفرنسوى فى دمشق فقد أحصى الذين قتلهم ظلما بالمئات، وكانوا يقبضون عليهم فى قارعة الطريق. فاذا جن الليل قتلوهم رميا بالرصاص ثم دفنوهم فى حفر يحفرونها لهم.

لقد توهم الفرنسويون أنهم بمثل هذه الأسباب القاسية الظالمة يقضون على الثورة ويحملون الجمهور على الابتعاد عنها فانعكس الأمر والتوى ولم تمنع هذه التدابير الناس عن تأييد الثورة، اذا لم نقل أنها حفزتهم للانتقام وأضرمت نار الحماسة والغيرة فى صدورهم. فقد روى بعض الباحثين أن عددا غير قليل من سكان دمشق كان يقصد مضارب الثوار فى الليل حاملا إليهم المال والزاد والذخيرة فيقدمها إليهم ويشترك معهم فى الأعمال العسكرية التى قد تعمل فى الليل وعند الصباح يتسلل عائدا إلى المدينة لمزاولة أعماله اليومية. ولابد لنا من الاعتراف هنا بأن دمشق رغم النكبات المتتالية التى صبت على رأسها، ورغم أعمال الهدم والتدمير وقد شملت نحو ثلث أحيائها وذهبت بنصف ثروتها ظلت توالى الثوار حتى الساعة الأخيرة وتمدهم بالمال ولا تبخل عليهم بشىء.

ويجب أيضا أن نسجل لفلاح الغوطة والمرج نصيبه الكبير فى تأييد الثورة. فقد اشترك فى معظم الأعمال العسكرية التى عملت فى داخلها، وناصرها بكل ما وصلت إليه يده

وكان من أفضل جنودها المخلصين، وحسبك أنه كان يعمل فى أرضه وبندقيته إلى جانبه فاذا نشبت المعركة وحمى الوطيس ترك محراثه أو عدته وتقلد البندقية واندفع إلى المعركة، فإما أن يرجع إلى عمله أو لا يرجع. وقد اشتركت كثيرات من نساء الغوطة فى المعارك إلى جانب الرجال. ويقال إن عددا منهن ألفن عصابات كانت تقاتل إلى جانب عصابات الرجال واشترك بعض غلمانهم فى القتال وكذلك فيجب أن لا ننسى ما قام به بعض شيوخهم من أعمال مجيدة فكانوا يتقدمون الصفوف مخترقين خطوط النار بلحاهم البيضاء وظهورهم المحدودبة. وقد وفد على الغوطة فى زمن الثورة عدد غير قليل من أطفال دمشق وغلمانها لينالوا شرف الاشتراك فى الجهاد أسوة بإخوانهم وذويهم فلقى الثوار مشاق فى سبيل إعادتهم إلى منازلهم.

وكان عمل العصابات فى أول الأمر موضعيا، وكانت كل عصابة ترابط فى المكان الذى اختارته لنفسها فإذا وقعت معركة فى منطقة غير منطقتها أقبلت لنصرة العصابة التى اشتبكت فى القتال ويشترك الجميع فى مقاتلة الحملة التى كانت تخرج من دمشق ويصمدون لها ومتى عادت عاد كل إلى مكانه. وكانوا جميعا على اتصال دائم وتزاور مستمر وكثيرا ما كانوا يجتمعون بشكل مؤتمر يتفق على زمانه ومكانه مقدما فيقررون ما يرونه لازما وينفذونه بحسب الأحوال والظروف، لأنه ليس هنالك رابط مسيطر سوى الاندفاع الشخصى فى العمل، وكثيرا ما ذهبت عصابات الغوطة إلى قلمون وإلى الإقليم فهاجمت المراكز الفرنسوية طبقا لقرارات تقرر.

وكان ثوار الغوطة يستعينون على معرفة حركات الجيش الفرنسوى بما يتلقونه من أخبار ترسل إليهم من دمشق، وكثيرا ما يكون مصدرها بعض رجال الجيش الفرنسوى أنفسهم وكانوا يعرفون حركات الجند من تسليط مدافع الحصون والقلاع فى دمشق فيفتحون له طريقا إلى الجهة التى يريدها، ويكمنون له فى أماكن يختارونها ويعرفون أنه لابد له من اجتيازها ومتى سقط فى كمينهم أطلقوا عليه نارا حامية من مسافة لا تزيد عن ٢٠٠ متر، وأحيانا ١٠٠ متر فيضطرب الجيش ويقع الذعر فى صفوفه مع وفرة عدده ومعداته وقلة عددهم وقد تستمر المعركة التى تدور على مثل هذا المنوال ساعات وتنتهى إما بعودة الجيش إلى دمشق منهزما مشتت الشمل وإما بالتجائه إلى مركز من المراكز العسكرية القائمة فى وسط الغوطة كدوما وأوتايا بعد خسارة لا تذكر فى جانبها خسارة

الثوار الذين يتحصنون فى الغالب فى أماكن اختاروها وأعدوها.

وكان الثوار يعيشون فى ذلك العهد مما يصل إليهم من مساعدات ترسلها من دمشق أو من أهل القرى (الفلاحين) الذين أيدوا الثورة كما قلنا آنفا بعد ما عرفوا أغراضها الشريفة، وأمنوا مهاجمة الجيش الفرنسوى لقراهم.

وأنشأ الثوار فى داخل الغوطة شبكة للتليفون وصلت بين بعض مراكزهم كما أنشأوا خنادق عند الخطوط الأمامية حول دمشق وخصصوا لها قوات تحرسها بالمناوبة، أى أنهم اتخذوا من الغوطة شكل منطقة عسكرية منظمة، ويجب علينا أن ننوه بما كان هنالك من فرق عظيم بين القوى الادبية فى صدور الثوار وفى صفوف الجيش الفرنسوى. فقد كان الثوار يتمتعون بأعظم قسط من هذه الروح وكانوا يندفعون إلى الهجوم والقتال كأنهم مقبلون إلى وليمة بعكس الجند. وقد اعترف الجنرال سرايل بهذه الحقيقة فى مذكرته ولولا ما أبرزه بعض المتطوعين من الشراكسة والارمن والإسماعيليين من شجاعة وثبات لكانت مهمة الثوار أسهل، وكان الفرنسويون يعتمدون فى قتالهم على المعدات الفنية الكثيرة عندهم. ولقد استعان الثوار فى قتال الفرنسويين بالغنائم الكثيرة التى غنموها منهم بين خيول وألبسة وأسلحة وقنابل يدوية ورشاشات. وكانوا يجمعون القنابل التى يطلقها الفرنسويون ولا تنفجر فيصلونها بأسلاك كهربائية ويبثونها ألغاما فى طريق الجيش يفجرونها عند مروره أو يفرغون بعضها ويستخدمون ما فيها من بارود فى صنع قذائف البنادق، وقد أسسوا معملا لصنعها فى الغوطة وكثرت البنادق المغتنمة من الجيش الفرنسوى كثرة زائدة فهبطت أثمانها كثيرا.

وكان الناس يتجولون أحرارا فى داخل منطقة الثورة ولكن بمراقبة شديدة وكانوا يدخلون دمشق ويخرجون منها بإذن خاص من قيادة الغوطة. وكانت هذه الرقابة وبالا على الجواسيس الذين كان الفرنسويون يرسلونهم للتجسس فكان من يقع منهم فى أيدى الثوار ينال جزاءه.

ومهما كانت النتائج التى أسفرت عنها الثورة. فالثوار ما كانوا يعتقدون أن فى إمكانهم التغلب على الحكومة الفرنسوية، وتملك جيشا يزيد عدد رجاله عن عدد سكان سورية كلهم ضعفين، وتملك من الثروات الضخمة ما يجعلها فى مقدمة حكومات العالم ثروة وغنى، وإنما يرون أنهم قاموا بواجب تفرض عليهم الوطنية الحقة القيام به دفاعا عن كرامة

أوطانـهم وللفت نظر العـالم المتـمـدن إلى مـا يعـانونه من ارهاق وعنت فى ظل الإدارة الفرنسوية. ولقد أدركوا هذه الأمنية، فعرف الناس أن فى بلاد الشام شعبا أبيا كريما عيوفا لا يصبر على ضيم استنفد كل مجهوداته فى قتال مغتصبى بلاده، وبذل فوق الطاقة لإخـراجـهم منها. ويجب علينا أن نشـيـر هنا إلى أن نـشوب الثورة فى سورية وافق زمن اشتداد حركة ثورة المغرب الاقصى انتقاضا على الفرنسويين الذين جروا على خطة إرهاق الشعوب العربية واضطهادها فجهزوا الجيوش اللجبة لإخـماد الثورتين العربيتين. وكما سعوا فى لندن لحمل الإنكليز على مساعدتهم فى إخـماد ثورة سورية فقد سعوا مثل هذا الشعى فى مدريد لحمل أسبانيا على تأييدهم ومد يد المساعدة لهم فى قتال المغاربة. وكل ذلك باسم الدفـاع عن الاسـتعمار الظالم. وقد خـدمـهم الحظ فقضـوا على الثـورة المغربية بحمل زعيمـها الأمير عبد الكريم على الاستسلام، والتفتوا بعد ذلك إلى الثورة السـورية فأخمدوها بالقوة.

وبسطنا فى متن الكتاب الأدوار التى مرت بها المفاوضـات السياسية من إعلان الثـورة حتى اجتماع الجمعية التأسيسية. وقد حرص المفاوضون السوريون فى جميع الأدوار على التفاهم مع الفرنسويين، ولكن المستعمرين من هؤلاء ـ ولهم الكلمة العليا ـ أبوا إقرار أى حل قبل أن يلقى الثـوار سـلاحـهم ويسلمـوا أنفسـهم ويعرضـوا طاعتـهم من دون قـيد ولا شرط. والغاية من فرض هذه الشروط القاسية ـ ولا يرضى بها أبى النفس ـ الاستمرار فى النضال حتى تنفد قوى السوريين، وحتى يتم إخـماد الثورة بالقوة وهـو ما كان. وبدلا من أن يتعظ الفرنسويون بحوادث الماضى فينشئوا فى الدور الجديد نظاما ثابتا ويعيدوا إلى البلاد وحدتها ويسلموها إلى ابنائها ويجتثوا أسباب النزاع والاضطراب عادوا إلى تطبيق أساليبهم القديمة التى هى مصدر الشكوى، وقذفوا سورية بسيل جارف من موظفيـهم ففـيـها اليـوم من الموظفين الفرنسويين مـالا يقل عن ٥٠٠ مـوظف يتناولون الضـخم من الرواتب ويتمتعون بمزايا عديدة ويحرم أهل البلاد من خدمة بلادهم وتوصد فى وجوهـهم الأبواب مما يحول دون قبـول كل حل للقضية السورية يعرضـه الفرنسويون ويباعد بينهم وبين السـوريين، ويحـفـر هوة عمـيـقـة إذا لم نقل إنه يبـذر بذور الفتن وثمـراتهـا الخـراب والدمار.

مركز القضية العربية اليوم
ضـــرورة العمل لإنقاذ الشام وفلسطين

انتهينا بانتهاء هذا الجزء من سرد الأدوار التى مرت بها القضية العربية وتتبعناها فى مراحلها منذ كانت خيالا حتى صارت فكرة فحقيقة ملموسة، وأثبتنا كل ما استطعنا جمعه من المكاتبات الرسمية والعهود الدولية والوثائق المعتبرة والبيانات والمنشورات فتكون مرجعا يرجع اليه، ومصدرا يعول عليه.

ولقد تقدمت القضية العربية فى خلال هذه الفترة تقدما محسوسا لا ينكره منكر فتم توحيد أقطار الجزيرة فى سمط واحد. فبعد ما كان هنالك ثمانى إمارات عند ختام الحرب العظمى فى سنة ١٩١٨ وهى إمارتا الرياض وحايل فى قلب نجد وإمارة الشعلان فى الجوف ودولة الهاشميين فى الحجاز والأدارسة فى تهامة وآل عايض فى عسير والمتوكلون فى صنعاء، أبيدت هذه الإمارات واندمجت دولة السعوديين فى مكة وحكومة المتوكلين فى صنعاء وقد ارتبطت بالدولة السعودية بمعاهدة تحالف وقع عليها فى الطائف فى شهر مايو سنة ١٩٣٤ وقد نصت على تعاونهما فى دفع الأخطار التى تهدد بلاد العرب واتباعهما خطة قومية فى السياسة الخارجية. ومعنى ذلك أن بلاد العرب الواقعة فى داخل الجزيرة تخلصت من الحكم الإقطاعى القديم الذى هو علة شقائها وبلائها، وقد طالما مهد للأجانب سبل التدخل فى شؤونها ومكنهم من بسط نفوذهم وسيطرتهم على بعض أقطارها - وأنها تستقبل حياة جديدة لم تعرفها ولم تذق طعمها وهى حياة الاستقرار والهدوء فتنتعش وتستريح وتواصل تقدمها الاجتماعى والعلمى، وبديهى أن فى ذلك غنما كبيرا للقضية لا يستهان به، فقد أصبحت تستند إلى دولة فتية تشد أزرها بالتعاون مع الحكومتين القائمتين فى خارج الجزيرة وهما حكومتا بغداد وعمان وهو ما يرجى أن يسجل بمعاهدات رسمية قريبا وهيهات أن يرتفع للعرب رأس أو أن يستردوا مجدهم قبل أن يقضوا قضاء أبديا على كل أثر للسياسة الإقليمية فى ربوعهم وينبذوا كل داع إليها فالبوحدة نجاتهم وحريتهم واستقلالهم.

أما حالة الأقطار فى خارج الجزيرة فهى متباينة. فقد خطا العراق بعد ثورته الكبرى وبعد انشاء دولته الجديدة خطوات واسعة. فنظم علاقاته مع إنكلترا بمعاهدات واتفاقات

عدلت غير مرة وانتظم فى سلك جمعية الأمم يوم ٣ اكتوبر سنة ١٩٣٢ فدخل بذلك فى زمرة الدول المستقلة، وأقام صلاته مع الدول المجاورة له على قاعدة الصداقة والولاء، وأنشا جيشا قويا وهو ينفذ برنامجا واسعا للإصلاح الداخلى يبشر بنهضة طيبة مباركة، ومعنى ذلك ان الخطر الاستعمارى الذى كان يهدد العراق قبل الثورة زال وحل محله أمل باسم ورجاء كبير بالدولة الجديدة الناهضة.

ولقد فصلنا فى هذا الجزء أخبار القضية الفلسطينية تفصيلا وأسهبنا فى الكلام عن الأخطار التى يستهدف لها هذا الإقليم من إطلاق الهجرة اليهودية ومن انطلاق يد اليهود فى امتلاك الأراضى وقلنا إن سكانه العرب غير قادرين بمفردهم على مقاومة يهود العالم جملة، وقد تعاهدوا واتحدوا على استصفاء فلسطين وإنشاء دولة يهودية فى ربوعها يؤيدهم الإنكليز ويشدون أزرهم.

ولا يظن ظان أن الحالة فى بلاد الشام أفضل مما هى فى فلسطين وأن سكان تلك البلاد فى نجوة من خطر الفناء، والانقراض يهدد جيرانهم وإخوانهم وأبناء عمومتهم الفلسطينيين. فقد شهر الاستعمار الفرنسوى حربا عوانا على القومية العربية وهو يقاتلها ويعمل لاستئصالها بالأسلحة الآتية:

١ـ سلاح التجزئة: جزء الاستعمار الفرنسوى سورية إلى خمس دول ضرب بينها الحواجز والأسداد فأقام.

(١) دولة مسيحية فى لبنان الكلمة العليا فيها للمسيحيين وان كان المسلمون لا يقلون عنهم عددا، ولا يسأل المسيحيون عن هذا ولا يلامون. فالاستعمار الفرنسوى هو الذى أقام هذه الدولة وأنشأها ضاربا بآراء الأكثرية المطلقة من سكانها الذين يلحون بالانضمام إلى سورية عرض الحائط. ولا يخفى أن كثيرين من عقلاء المسيحيين فى لبنان جاهروا بأن فى بقاء هذه الدولة خطرا يهدد المسيحيين من سكانها بما يولده من ضغائن، ودعا إلى إلغائها وإرجاع لبنان إلى ما كان عليه فى العهد العثمانى فى دائرة الوحدة السورية فلم يأخذ الفرنسويون بقوله.

(٢) وأنشأوا حكومة العلويين فى الشمال وسودوا فيها اتباع المذهب العلوى (النصيرية) مع أنهم لا يزيدون عن نصف السكان ولايزال سوادهم على الفطرة وعدد الذين يعرفون القراءة والكتابة بينهم محدود. والغاية من هذا التدبير هو

اضعاف عصبية المسلمين السنيين فى تلك البلاد واذلالهم. فقد أقصوهم عن الوظائف إلا قليلا ، وجعلوها وقفا على الشبان العلويين والمسيحيين فأصبح المسلمون ويؤلفون ٤٠ فى المائة من مجموع السكان ويملكون نحو ٣٠ فى المائة من الأراضى بحالة يرثى لها من الفقر والفاقة.

(٣) وأنشأوا فى لواء إسكندرونة حكومة مستقلة ذات دستور خاص، واعترفوا بالتركية لغة رسمية لتلك الحكومة ومكنوا للترك فيها والغاية من ذلك جلية واضحة وهى إضعاف العصبية العربية ففى إنطاكية مدرسة ثانوية (تجهيزية) تدرس باللغة التركية وهم يعملون على إضعاف العربية ليسيطروا على البلاد.

(٤) وأنشأوا فى جبل الدروز حكومة درزية مستقلة فصلوها على دمشق وقطعوا كل اتصال بينهما فلا يجوز لدمشقى أن يدخل الجبل ولا لدرزى أن يهبط دمشق إلا بتصريح خاص صادر من السلطة الفرنسوية فى الجبل، والقصد من ذلك بت الروابط الاقتصادية والاجتماعية والقومية التى تربط قطرين عاشا متحدين من فجر التاريخ.

(٥) وأنشأوا فى داخلية سورية حيث الأكثرية المطلقة للمسلمين العرب جمهورية جردوها من كل قوة ونفوذ، واستعانوا بالمهاجرين من أبناء الأقليات الأجنبية لإضعاف الأكثرية العربية فجاءوا بالأرمن الذين طردهم الترك من كيليكية فأنزلوهم فى حلب والجزيرة الفراتية وبعض الانحاء الأخرى كما جاءوا بالشراكسة المنبوذين من تركيا الكمالية فأنزلوهم فى القنيطرة وحمص وأتوا بالأشوريين والنساطرة والسريان المطرودين من العراق وتركيا فأنزلوهم فى الجزيرة الفراتية أيضا. وهكذا فهم يملأون البلاد بهؤلاء المنبوذين الذين يصبحون كلا اعليها لاستخدامهم فى مقاومة الأكثرية عند الحاجة. كما حدث فى أثناء الثورة فقد جندوا مالا يقل عن أربعين ألفا من أبناء هذه العناصر وحشدوها لمقاتلة الثوار فتلف منها نحو النصف على الأقل. وكانوا كلما هلك منها فوج جاءوا بفوج آخر.

٢ـ سلاح الإفقار ـ ولقد أدت هذا التجزئة بطبيعتها إلى زيادة النفقات زيادة استغرقت أموال الميزانية. فعمدت السلطة إلى زيادة الضرائب زيادة أرهقت الناس. وتناولت فيما

تناولته الضريبة الجمركية فارتفعت من ١٤ فى المائة وقد كانت تجبى حتى ختام العهد التركى ١١ فى المائة إلى ٢٥ فى المائة ثم زادتها إلى ٤٠ و٥٠ وهى تجبى الآن على هذا المعدل وقد ترتفع الضريبة فى بعض المواد إلى ٧٠ و٨٠ فى المائة، وطالما شكى التجار السوريون من هذه الحالة المرهقة وطالما طرقوا أبواب السلطة الفرنسوية لأنها هى المسيطرة على مصلحة الجمارك طالبين تخفيض هذه الضريبة لما تلحقه من عظيم الضرر بتجارتهم فلم يلقوا اهتماما.

وارتفعت ميزانية النفقات فى سورية من خمسة ملايين ليرة سورية فى ختام العهد التركى إلى ٣٢ مليون ليرة سورية فى العهد الحاضر، وكان عدد الموظفين فى سورية زمن العهد التركى لا يزيد عن ألف موظف فارتفع فى العهد الحاضر الى ١٨٢٢٣ موظفا [1].

وما كان عدد الموظفين الترك فى سورية يزيد عن خمسين موظفا يتناولون رواتب ضئيلة مقابل ٥٠٠ موظف فرنسوى اليوم يتناولون رواتب باهظة ضخمة من أموال البلاد. عدا الامتيازات الأخرى التى يتمتعون بها من إجازات سنوية وأجور منازل وأسفار وغير ذلك ولا يدخل فى هذا الإحصاء ضباط الجيش، ولا يقلون عن الألف على اختلاف الرتب وتدفع سورية مبلغا سنويا مقطوعا للجيش الفرنسوى قدره ٤٧٥٠٠٠٠ ليرة سورية.

ولعل أفضل ما يصح الاستشهاد به على سوء الحالة الاقتصادية وتدهورها التقرير الذى وضعته الهيئة الاقتصادية التى انتخبها المكلفون فى دمشق يوم ٢٧ مارس سنة ١٩٣٤ وسلمته إلى المفوض السامى الفرنسوى وقد جاء فيه أن سورية استوردت فى خلال المدة المنقضية من سنة ١٩٢٠ أى منذ الاحتلال الفرنسوى حتى سنة ١٩٣٣ من البضائع ما قيمته ٦٨٢ و٧٩٠ و١٤٧ جنيها عثمانيا ذهبا وأصدرت فى خلال هذه المدة ما قيمته ١٥٠ و١٦٨ و٥٢ جنيها عثمانيا فيكون الفرق بين الصادر والوارد هو ٧١٢ و٩١١ و٩٤ جنيها عثمانيا خسرتها البلاد من ثروتها المدخرة. وقد كادت أن تنفذ تقريبا وتعانى شر أزمة اقتصادية عرفتها فى تاريخها، وقد بدأ تجارها وصناعها بالهجرة إلى الأقطار المجاورة بعد ما سدت أبواب العمل أمامهم فى داخل بلادهم.

(١) أخذت هذه البيانات من تقرير اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى بمصر إلى جمعية الأمم عن الحالة السياسية والاقتصادية فى سورية لسنة١٩٣٣ وهو بقلم مؤلف الكتاب.

٣ ـ سلاح التعليم ـ وقبض الاستعمار الفرنسوى على عنق التعليم ويعمل على (فرنسة) الناشئة والقضاء على اللغة العربية والثقافة العربية وكل ما هو وطنى وقومى، فالتعليمان الأولى والابتدائى يجريان باللغة الفرنسوية وحدها فى جبل الدروز وفى بلاد العلويين وفى لواء الجزيرة والفرات من ألوية الدولة السورية، وفى لواء إسكندرونة المستقل وفى الجمهورية اللبنانية. ويتولاه ويشرف عليه موظفون فرنسويون ويشترك فيه بعض المعلمين المتفرنسين من اللبنانيين. ومما يؤسف له أن السلطة العسكرية الفرنسوية لا تتورع عن استخدام بعض هؤلاء المعلمين فى مهنة الجاسوسية ـ كما وقع فى جبل الدروز بعهد الكابتن كرابيه فاعتدت بذلك على قدسية التعليم ودنست حرمته.

ويجرى التعليم الأولى والابتدائى فى منطقة دمشق وحدها باللغة العربية ويحمل التلاميذ الصغار على تعلم اللغة الفرنسوية إلى جانب لغتهم العربية، ويدرسون اللغة الفرنسوية بعناية زائدة. ولا يمكن لتلميذ أن ينتقل من صف إلى صف ما لم يضرب بسهم وافر فى هذه اللغة، والتعليم الدينى الإسلامى فى مدارس الجمهورية السورية ضعيف وهو مفقود من مدارس الحكومات الأخرى، ويعنون عناية خاصة بحماية مدارس المبشرين المسيحيين ورعايتها ويمنحونها الامتيازات. وقد سهلوا للمبشرين سبيل العمل فى البلاد السورية كلها وخصوصا فى جبال العلويين. حيث الشعب لايزال على الفطرة فهم يعلمون بجد ونشاط على تنصير هذه الطائفة واخراجها من دينها وعقائدها[1].

وكثرت الحانات فى البلاد السورية كثرة تستوقف الأنظار. ولو جرى إحصاء دقيق للمقارنة بين عدد هذه الدور فى العهد العثمانى القديم وبين عددها اليوم لكان الفرق عظيما. وبديهى أن الغاية من ذلك كله هى إفساد الأخلاق القومية ونشر التفرنج والتخنث وقتل الرجولة فى صدور النشء الجديد.

وهنالك أيضا سلاح رابع. وهو سلاح الغرامات المالية فقد جرى الفرنسويون من ابتداء

---

(١) أقلقت هذه الحركات زعماء العلويين ورجالهم فعقدوا يوم ١٨ إبريل سنة ١٩٣٣ مؤتمرا لمعالجتها فى قرية بيت الشيخ يونس من أعمال صافيتا احتج بشدة على أعمال المبشرين وتصرفاتهم وأرسل البرقية الآتية إلى المفوضية الفرنسوي وإلى جمعية الأمم:
«نحن الزعماء العلويين الدينيين والسياسيين نرفع إليكم وبواسطتكم إلى جمعية الأمم احتجاجاتنا على أعمال التنصير القائمة فى جبالنا والمستندة على تغرير وتضليل القرويين السذج والتى من شأنها أن تفسد الألفة بين أبناء الوطن مما يعود على البلاد بما يضرها ويسوءها».

نزولهم سورية على فرض غرامات مالية باهظة مقرونة فى أكثر الأحيان بتقديم كمية من الأسلحة يضربونها على كل قرية أو مدينة أو مقاطعة لاتنقاد إليهم. ومع أننا لا نملك إحصاء دقيقا عن مقدار الغرامات التى جمعت إلا أننا نعتقد بأنها لا تقل عن عشرات الملايين من الفرنكات تسرب معظمها إلى جيوب الضباط الفرنسويين الذين فرضوها أو جمعوها أو تولوا جمعها، وذهب الباقى إلى صندوق الجيش الفرنسوى. ويجب الاعتراف أيضا بأنهم أساءوا استعمال جباية هذه الغرامات كثيرا واتخذوها وسيلة للسلب والنهب وابتزاز الأموال وخربوا بيوت الفلاحين.

ولما طغى سيل هذه الغرامات سأل أحد نواب لبنان الحكومة اللبنانية عن مصير هذه الغرامات التى تفرض وتجبى بمعرفة السلطة. فرد عليه مندوب الحكومة يوم أول اكتوبر سنة ١٩٢٦ بأن المفوض السامى قد عمل على توطيد الأمن فى لبنان بموجب الحق المخول له بالمادة الثانية من صك الانتداب متخذا الوسائل التى رآها ضرورية.

واستفحل شر هذه الغرامات فى زمن الثورة وتفننوا فى فرضها وجمعها.

وقد جاء فى قرار رسمى وضعه المفوض السامى لتنظيم طرق طرح هذه الغرامات فى شهر فبراير سنة ١٩٢٦ ما يأتى:

لا تفرض الغرامات على أهل القرى والمدن الذين يشتركون فى الثورة إلا بقرار من مندوبى المفوض السامى. اللهم إلا فى مناطق الأحكام العسكرية فإنها تفرض من القائد فى تلك المنطقة وفى المناطق التى تكون فيها الأعمال العسكرية فإن القائد العام القائم بالأعمال يفرضها إذا كان مأذونا من مندوب المفوض.

وهذه الغرامات تكون مالية وتستوفى ذهبا ويمكن أن تفرض غرامات أرزاق إذا كان ينبغى دفعها سريعا.

ونشر قلم المطبوعات فى دمشق بلاغا رسميا فى صحفها يوم ٢٨ إبريل سنة ١٩٢٦ أصدره قائد المنطقة العسكرى هذا نصه:

«إن بعض القرى فى الغوطة أو بعض الأحياء فى المدينة تقع تحت طائلة الغرامات النقدية، ويمكن أن تصبح عرضة لتدابير الإخضاع فى حالة عدم الدفع. ولما كانت هذه التدابير الاخضاعية تجرى بدون أى إنذار سابق وبحال عدم الوفاء فإن الجنرال قائد

المنطقة يدعو فى الحال السلطات السورية المحلية ذات العلاقة إلى أن تخرج فى الوقت المناسب النساء والشيوخ والأطفال، لأن الحاكم العسكرى لا يقبل بعد هذا الإعلام أية مسؤولية حتى أدبية عن الكوادث التى يمكن أن تقع».

ويجب أن لاننسى ما جرى من المآسى أثناء عملية جمع السلاح من لبنان فى خريف سنة ١٩٢٣ فقد جمعوا نحو عشرة آلاف بندقية من الشوف وحاصبيا وجزين ومرجعيون وراشيا والبقاع، وجمعوا أكثر من عشرة آلاف جنيه غرامات. ولما جاء الجنرال سرايل إلى بيروت فى سنة ١٩٢٥ واطلع على تفاصيل ما جرى من الفظائع حين جمع السلاح أعاد جانبا من الأموال التى جمعت إلى أصحابها البائسين.

بمثل هذه الأساليب وأشباهها يحارب المستعمرون الفرنسويون الروح الوطنية فى سورية، ويعملون للقضاء على القومية العربية والآثار العربية، فمثلهم من هذه الناحية مثل اليهود فى فلسطين الذين يجبرون سكان القرى من الفلاحين على تدمير بيوتهم ومقابرهم ومساجدهم بأيديهم حينما يبتاعون منهم قراهم. والفرق بين اليهود والمستعمرين الفرنسويين أن أولئك يطبقون برنامجهم فى القرى والمزارع الصغيرة وعلى منوال ضيق محدود. اما هؤلاء فيطبقونه على الأمة برمتها مستعينين على ذلك بكل ما يملكونه من وسائط مادية وتشريعية ونظامية ومالية، ومعتمدين على السيف والمدفع فقد قدر ما أنفقوه على تجهيز الحملات العسكرية التى أرسلت إلى سورية لتدويخها بعشرة مليارات من الفرنكات الفرنسوية [1] ونحن نورد هنا جدولا رسميا لنفقات فرنسا العسكرية من سنة ١٩١٩ أى من أول احتلالها حتى سنة ١٩٢٣ يحسن أن يقاس عليه

سنة	١٩١٩	٧٨	مليون فرنك
سنة	١٩٢٠	٥٦٤	مليون فرنك
سنة	١٩٢١	٧٤٠	مليون فرنك
سنة	١٩٢٢	٤٠٠	مليون فرنك
سنة	١٩٢٣	٢٦٠	مليون فرنك

ومجموع ذلك ٢٠٤١ مليون فرنك. وأنفقت فى خلال هذه المدة ٤٠٠ مليون فرنك على سلاح الدفاع البحرى و٣٦٥ مليون فرنك على المصالح الادارية، ومجموع ذلك ٢٨٠٦ ملايين

(١) قال الجنرال أندريا قائد رمشق وجبل الدروز يوم ١٤ يناير سنة ١٩٢٦ لصحافيى دمشق إن فرنسا أنفقت فى سورية ثمانية مليارات وخسرت كثيرا من أبنائها.

من الفرنكات يضاف اليه خمسة مليارات أخرى من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٨ على أننا لا ننكر أن نفقات فرنسا قلت منذ سنة ١٩٢٩ فهى تنفق الآن على جيشها وعلى المصالح الملكية فى سورية مبلغ ١٢٠ و٦٠٠ و٣١٥ فرنكا سنويا كما جاء فى بلاغ رسمى نشر سنة ١٩٣٢ ولسنا فى حاجة إلى القول أن الفرنسويين ما كانوا فى حاجة إلى إنفاق مثل هذا المبلغ فى كل عام وإلى أنفاق المليارات التى أنفقوها أو أنصفوا السوريين وجلوا عن بلادهم.

ويسلم الباحث المنصف معنا بعد هذه البيانات بأن مستقبل سورية لا يبعث على الارتياح وبأنها فى حالة لا تقل سوءا عن حالة شقيقتها فلسطين، ويسلم أيضا بأننا على حق فى دعوتنا - الشعوب العربية إلى التكاتف لإنقاذ هذين القطرين وإن كنا لا ننكر بأن هنالك عددا غير قليل من الفرنسويين الأحرار ينكر على المستعمرين من أبناء قومهم أساليبهم وينادى بوجوب إنصاف سورية ومنح السوريين حقوقهم ومثل هؤلاء مثل بعض أحرار الإنكليز الذين يعطفون على فلسطين ويؤيدونها . وغنى من البيان إن هذا العطف المجرد لا يكفى. فلابد من السعى عند الحكومتين الإنكليزية والفرنسوية لحملهما على تعديل خططهما فى هذين القطرين قبل ضياع الوقت.

وخلاصة القول اننا مع اعترافنا بالتقدم العظيم الذى أدركته القضية العربية فى خلال الخمس والعشرين سنة الأخيرة. سواء فى داخل الجزيرة حيث قضى على الحكم الإقطاعى وقامت مقامه حكومة فتية قوية، أم فى العراق وقد نشأت دولة مدنية راقية يعقد العرب عليها أطيب الآمال، أم فى شرق الأردن وتتحسن حالة الإمارة تدريجا وسواء بانتشار فكرة الوحدة بين شباب العرب فى الأقطار العربية كلها من خليج فارس حتى المحيط الأطلسى فأننا نعتقد بأن فى مقدمة واجبات الحكومات العربية المستقلة والهيئات العربية ذات الشأن العمل لانقاذ فلسطين وسورية، لأن خروجهما من يد العرب وتغلب العناصر الأجنبية عليهما كارثة قومية لا تعادلها كارثة. ولا تعوض بأى فوز يدركه العرب فى ناحية أخرى.

ولابد من مضاعفة السعى والجهود لنشر فكرة الوحدة العربية وتعميمها بين شبان العرب فى الأقاليم والبلدان التى ينطق أهلها بالضاد وإنشاء جمعيات منظمة قوية فى كل حاضرة من حواضرهم وفى كل عاصمة من عواصمهم وإقليم من أقاليمهم تستقل فى إقليمها وترجع إلى جمعية رئيسية عليا تدير حركة الوحدة وتنظمها وتشرف عليها .

القاهرة فى ٨ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ و٢٠ يونيو سنة ١٩٣٤.

ملاحـــق الـكـتـاب

ـ ١ ـ

أسماء الذين اشتركوا فى الثورة السورية من السياسيين والذين نفوا وأبعدوا وماتوا فى سبيلها

الذين اشتركوا فيها: الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، نسيب البكرى، حسن الحكيم، سعيد حيدر، جميل مردم بك، رشيد طليع[1] الأمير عادل أرسلان.

الذين نفوا أو سجنوا فى سبيلها: فوزى البكرى، سامى البكرى، مظهر البكرى، عثمان شراباتى، توفيق شامية، عمر الطيبى، فارس الخورى، فوزى الغزى، بدر الدين الصفدى، سعد الله الجابرى، حسنى البرازى، لطفى الحفار، هاشم الأتاسى، شكرى الجندى، وصفى الاتاسى، إحسان الشريف، خالد الشلق، الأمير أمين أرسلان، أسعد حيدر، حسن حيدر، مهدى حيدر، مصطفى خليل حيدر، يوسف حيدر، أحمد مهدى حيدر، عباس ياغى، محمد حسن شومان، حسين قنواتى، وصفى الأتاسى، الدكتور عبد الرحمن الكيالى، الشيخ محمد الزعل شيخ قرية المسيفرة فى حوران، محمد ديب الحريرى شيخ قرية الحراك، فخرى البارودى، عبد الحميد كرامى، الدكتور عبد اللطيف البيسار، عارف الحسن، عارف الرفاعى وغيرهم.

ـ ٢ ـ

أسماء الذين أعدموا شنقا فى سبيلها

أعدم فى دمشق شنقا يوم ٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦ رشيد الكردى من حى الشاغور ومحمد الكردى من حى العمارة ومحمود خرنوبى من قبر عاتكه وتوفيق لطف من حى الخراب وعبد الرحمن الأزعر من حى قبر عاتكه، وأعدم أيضا فخرى نجل حسن الخراط وأعدم آخرون فى بيروت.

---

(١) توفى المرحوم رشيد على أثر مرض أصابه فى جبل الدروز فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٦.

ـ ٣ ـ

أسماء الضباط الذين اشتركوا فى الثورة

فؤاد سليم، يحيى حياتى، زكى الدروبى، سعيد العاص، فوزى القاوقجى، صادق الداغستانى، مصطفى وصفى، محمود حمدى السمان، آصف السفرجلانى، زكى الحلبى، عبد الله التركى، جميل البابا، عبد الكريم المدفعى، مظهر رسلان، واصف عمر باشا، فؤاد رسلان، إبراهيم أبو مصلح، إبراهيم عبد العال، شوكت العايدى، أحمد الملا، أبو تركى سرحان، الشيخ خطار أبو هرموش، سعيد اليمانى، صادق المغربى، عبد القادر مليشو، مظهر السباعى، إبراهيم صدقى، حسين المدفعى، خير الدين اللبابيدى (الطيار).

ـ ٣ ـ

أسماء الذين استشهدوا منهم

فؤاد سليم، زكى الحلبى، شوكت العايدى، محمود حمدى السمان، مظهر السباعى، فؤاد رسلان، سعيد اليمانى، صادق المغربى، إبراهيم أبو مصلح، إبراهيم عبد العال، إبراهيم صدقى، أحمد الملا، أبو تركى سرحان، الشيخ خطار أبو هرموش، صادق المغربى حسين المدفعى.

أسماء الأطباء الذين اشتركوا فى الثورة

خالد الخطيب وعلى الشواف وأمين رويحه وتوفيق القصيباتى ومدحت شيخ الأرض ومنير شيخ الأرض.

ـ ٤ ـ

أسماء الشبان الذين اشتركوا فى الثورة

فائق العسلى، صبرى العسلى، حكمت العسلى، عبد اللطيف العسلى، نسيب شهاب، الأمير عز الدين الجزايرى، نزيه المؤيد، ياسين الخانجى، عادل الحامدى، الأمير أحمد الشهابى، سعد الدين المؤيد، مصطفى العظم، مصطفى حيدر، حسين حيدر، صالح سلو،

عبد القادر القواص، شفيق الركابى، زكى الركابى، سعيد الترمانينى، منير الريس، زكى المرادى، محمد على الدروبى، سليمان المعصرانى، صبرى فريد البديوى، جميل شاكر، علاء الدين الكيلانى، فائق الكيلانى، توفيق الحلبى، زكى المرادى، شفيق عمر باشا، شوكت البسطامى، صبرى الخطيب، عمر عمر باشا، سعيد الزعيم، زكى الشربجى، أحمد مريود، شاكر العاص، مؤيد شرف، مهدى قزيها، نديم الرفاعى.

أسماء شهدائهم

فائق العسلى، حكمت العسلى، عادل نكد، الأمير عز الدين الجزايرى، سعد الدين المؤيد، محمد على الدروبى، علاء الدين الكيلانى، فائق الكيلانى، توفيق الحلبى، زكى الشربجى، عمر عمر باشا، احمد مريود، مؤيد شرف، مهدى قزيها، شوكت البسطامى، نديم الرفاعى، زكى المرادى، زكى الشرربجى.

- ٤ -

أسماء العصابات ومقرها وعددها وأسماء رؤسائها

لا يمكن وضع إحصاء حقيقى للعصابات التى اشتركت فى الثورة، فقد كان لكل حى من أحياء دمشق عصابة أو عصابتان أو أكثر تضم أبناءه، وكانت كثيرا ما ترابط أمام الحى نفسه للدفاع عنه فكانت عصابات الميدان مثلا ترابط فى جهات الميدان ومثلها عصابات الشاغور والعمارة والأكراد، وحذا سكان الغوطة حذو أبناء الأحياء فكانت لكل قرية عصابة أو أكثر من أبنائها يقودها أحد رجالها المتصفين بالشجاعة والإقدام مهمتها فى الدرجة الاولى الدفاع عن قريتها والقتال فى سبيلها والاشتراك فى الحركات العامة وتذكر ما عرفناه من أسماء العصابات وعدد رجالها وقادتها ومراكزها.

١- عصابات الميدان - كانت هنالك عدة عصابات من أبناء هذا الحى اشتهرت من بينها عصابة عبد القادر سكر وعصابة إسماعيل المهاينى وعصابة عبد الغنى أبو نجيب وعصابة محمد الدرخبانى وعصابة الاشمر.

٢- عصابة الشاغور - بقيادة حسن الخراط وحسن المقبعة (استشهد الاثنان فى الدور الأول من أدوار الغوطة فحل محلهما حسن الزيبق).

٣ ـ عصابة العمارة بقيادة أبو عجاج الشيخ.

٤ ـ عصابة مأذنة الشحم.

٥ ـ عصابة الخراب.

٦ ـ عصابة باب السريجة بقيادة سعيد وسليم الأوزون.

٧ ـ عصابات الأكراد بقيادة سعيد عدى وأبو دياب البرازى وأحمد الملا.

٨ ـ عصابة قبر عاتكة بقيادة عمر البهلوان.

٩ ـ عصابة المغاربة بقيادة الأمير عز الدين الجزايرى.

١٠ـ عصابة برزة بقيادة أحمد أبى محيى الدين شعبان.

١١ـ عصابة جوبر بقيادة أولاد قطاط.

١٢ـ عصابة حرستا بقيادة أبو عمر ديبو.

١٣ـ عصابة أولاد عكاشة فى وادى بردى.

١٤ـ عصابة جرمانا بقيادة عادل نكد.

١٥ـ عصابات بعلبك بقيادة توفيق هولو حيدر.

١٦ـ عصابات الشوف بقيادة شكيب وهاب.

١٧ـ عصابات الإقليم بقيادة احمد مريود.

١٨ـ عصابة داريا بقيادة خليل بصله.

١٩ـ عصابة القدم بقيادة الشيخ ديب القديمى.

٢٠ـ عصابات قلمون بقيادة جمعة سوسق وخالد النفورى.

٢١ـ عصابة حمص بقيادة نظير النشيواتى.

٢٢ـ عصابة حماه بقيادة عدية الكنيفد.

٢٣ـ عصابة الشمال بقيادة عقيل السقاطى.

٢٤ـ عصابات دوما بقيادة محمود خيتى وغنيم خيتى ويونس الخنشور.

أسماء الذين استشهدوا من قادة العصابات

حسن الخراط، حسن المقبعة، احمد مريود، عقيل السقاطى، عبد الغنى أبو نجيب،

الأمير عز الدين الجزايرى، عادل نكد، حسن وطفا، أحمد الملا، أبو دياب البرازى.

أسماء الهيئة العسكرية للغوطة

وكانت للغوطة هيئة عسكرية ـ عدا مجلس الثورة الأعلى ـ تتألف من مصطفى وصفى وزكى الحلبى الدروبى وفوزى القاوقجى وشوكت العايدى وسعيد العاص وصادق الداغستانى.

القيادة العامة للغوطة

وكانت القيادة العامة للغوطة فى معظم أدوار الجهاد بعهدة نسيب البكرى.

ـ ٥ ـ

أسماء المسيحيين الذين اشتركوا فى الثورة

عقله القطامى شيخ قرية خربا وزعيم مسيحيى جبل الدروز، ميشيل النحاس (طرابلس) نزيه النبكى (دمشق)(١).

أسماء المسيحيين الذين نفوا فى سبيلها

توفيق شامية وفارس الخورى.

ـ ٦ ـ

أسماء السيدات السوريات اللواتى اشتركن فى الثورة

والدة توفيق بك هولو حيدر (توفيت منفية بمصر) رشيدة زوجة حسن الزيبق وقد نشرنا صورتها بين الصور.

وقد اشتركت نساء الغوطة فى الثورة اشتراكا فعليا إلى جانب رجالهم، وألف بعضهن عصابات خاصة قاتلت الفرنسويين.

---

(١) لايزال الأول لاجئا فى شرق الأردن وقد سافر الثانى إلى البرازيل أما الثالث فق عفى عنه وعاد إلى دمشق.

- ٧ -

أسماء زعماء الدروز وشبانهم الذين استشهدوا فى الثورة

الأمير حمد الأطرش وحمد البربور وحمد الصحناوى وحمد عامر وحمد النبوانى وسليمان العقبانى وسليم المغوش وفرحان شرف وفضل الله الهنيدى، وكامل حاطوم ومحمد على الأطرش ومحمد كنج أبو صالح ومحمود البربور ومحمود حسن صعب ومحمود كنج ومصطفى الأطرش ومعدى المغوش وناصيف الناصيف ونايف شلغين ونايف عبيد ونسيب الأطرش ونعمان زاكى.

- ٨ -

عدد القرى والمنازل التى دمرت فى أثناء الثورة مع بيان تقريبى لعدد الذين ماتوا وقتلوا بسببها

لا يوجد إحصاء رسمى يستند إليه فى إيراد أسماء القرى والمدن التى دمرت أو أحرقت فى أثناء الثورة، ولذلك نكتفى بنشر بيان تقريبى موجز وضعناه لها اعتمادا على المعلومات الخاصة التى جمعناها.

١ ـ أسماء المدن التى ضربت

دمشق وحماه والسويدا وراشيا وحاصبيا ومرجعيون والنبك.

٢ ـ أسماء القرى التى ضربت ودمرت

يضيق المقام عن أسماء القرى التى دمرت أو حرقت فهى كثيرة جدا. ويمكن القول أنه لم تبق قرية فى الغوطة وجبل الدروز وإقليم البلان ووادى التيم وقلمون لم تدمر أو تحرق.

٣ ـ بيان عن الذين ماتوا أو قتلوا فى أثناء الثورة

يقدر عدد الذين ماتوا أو قتلوا بسبب الثورة أو بسبب أعمال الحريق والتدمير من النساء والأطفال والشيوخ والرجال بخمسة عشر ألفا. يضاف اليهم مثلهم استشهدوا فى الحروب والمعارك التى دارت مع الجيش الفرنسوى.

٤ ـ الخسارة المالية

يقدر ما خسرته سورية ماليا فى الثورة بخمسة ملايين جنيه بما فى ذلك أثمان الدور والمنازل التى احترقت ودمرت فى دمشق وحماه، وكان بعضها يحتوى على غالى التحف والنفائس مع الأسواق التى نهبت.

ـ ٩ ـ

بيان عن عدد القوات الفرنسوية التى كانت تقاتل الثوار وأسماء القواد

لم يكن عند الفرنسويين من القوى العسكرية حين إعلان الثورة ما يزيد عن عشرة آلاف مقاتل، فقدوا جانبا غير قليل منها فى المعارك الأولى، على أنهم ما لبثوا أن سدوا النقص الواقع فى صفوفها بنجدات جاء تهم من فرنسا وتتابع بعد ذلك وصول النجدات حتى بلغ عدد الجنود التى وردت بطريق البحر نحو ثمانين ألفا معظمهم من السنغاليين وأبناء إفريقية الشمالية والصينيين.

تجنيد أبناء الأقليات الدينية والعنصرية من السوريين

واستعان الفرنسويون بأبناء الأقليات الدينية فجندوا نحو ثلاثين ألفا من شبانها ألفوا منها كتائب خاصة بقيادة ضباط فرنسويين لقتال الثوار، وكانوا يسددون نفقاتها من أموال سورية وهذا بيان عنها:

١٠٠٠٠ شركسى.

١٠٠٠٠ أرمنى

٤٠٠٠ نصيرية وإسماعيلية.

١٥٠٠ يزيدية

١٥٠٠ بدو عكيل

٢٠٠٠ دروز

٢٩٠٠٠

وكانوا يجندون بدلا من الذين يقتلون من أبناء هذه الكتائب.

فاذا أضفنا هذا المجموع إلى رقم الجنود التى وصلت من البحر بلغ المجموع مائة وعشرة آلاف جندى اشتركوا فى قتال الثوار السوريين.

توزيع هذه القوات

وكانت هذه القوات موزعة كما يأتى:

١٥٠٠٠ دمشق

١٢٠٠٠ جبل الدروز

٥٠٠٠ رياق

٢٠٠٠ شتورة

٥٠٠٠ قلمون

٤٠٠٠ حوران

٥٠٠٠ طرابلس وحمص وحماه

٥٠٠٠ بعلبك

١٠٠٠ بلاد الشمال

٥٠٠٠ بيروت

أسماء القواد الفرنسويين

كانت القيادة العليا للجنود الفرنسوية بعهدة الجنرال غاملان، وكان هنالك ستة قواد برتبة جنرال يعملون تحت إمرته فى المناطق الآتية: الجنرال فاليير فى منطقة دمشق والجنرال أندريا فى جبل الدروز والجنرال مارتى فى حمص وقلمون والجنرال سوليه فى

لبنان والجنرال بيلوت فى الشمال. وكان هنالك عدد كبير من كبار الضباط يعملون فى مختلف المناطق.

انضمام بعض أبناء أفريقية الشمالية إلى الثوار

ولابد لنا من القول أن عددا غير قليل من أبناء الجزائر وتونس والمغرب الأقصى من المجندين فى الجيش الفرنسوى انضم إلى الثوار فى أثناء الثورة، وقاتل معهم وأبلى بلاء حسنا. وكذلك انضم إلى الثورة عدد من جنود الفرقة الأجنبية فى الجيش الفرنسوى معظمهم من الألمان والبلغاريين وقاتلوا الفرنسويين فى صفوف الثوار.

خسارة الفرنسويين فى الثورة

ويقدر عدد الذين خسرهم الجيش الفرنسوى فى الثورة بثلاثين ألف مقاتل سواء الذين جاءوا بهم من وراء البحار، أو الذين جندوهم من أبناء الأقليات الدينية.

استدراك وبيان

جاء فى الصفحة الاولى من المجلد الأول أن سلطان العثمانيين مزق جيش السلطان قايتباى آخر المماليك المصريين يوم مرج دابق، وصوابه أن السلطان العثمانى مزق جيش طومان باى خليفة الغورى آخر المماليك. وجاء فيها أيضا أن شريف مكة وهو حسين بن أبى نمى أرسل الى القاهرة من حمل إلى السلطان كتاب بيعته، وصوابه الشريف بركات لا حسين، وورد فى الصفحة الثامنة اسم المنتدى العربى وصوابه الأدبى. وهنالك أغلاط لغوية ومطبعية أخرى لا تخفى على فطنة القارى الأديب.

وكذلك بذلنا جهدا كبيرا فى الحصول على صور الرؤساء والزعماء والشهداء الذين وردت أسماؤهم فى متن الكتاب فلم نعثر إلا على طائفة معظمها قديم فأثبتناها وإذا كان بعضها غير واضح فما ذلك إلا لقدمها، ولعدم تيسر الحصول على غيرها فمعذرة مقبولة.

ووقعت أغلاط مطبعية، وهى مما لا يخلو منها كتاب فنوجه إليها نظر القارىء الكريم لإصلاحها عند القراءة.

اسماء مصادر الكتاب

الكتب العربية

مقدرات العراق السياسية لطاهر العمرى، والقضية العربية لأحمد عزت الأعظمى، والقضية العراقية لمهدى الجواهرى، وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة، والمؤتمر العربى فى باريس، وماضى الحجاز وحاضره لحسين محمد ناصيف والكتاب الأخضر النجدى عن مؤتمر الكويت وتاريخ حزب الاتحاد السورى، ودليل المهاجرين، والكتاب الأسود فى القضية الأردنية ورسائل اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى وسجلاتها، وايامنا الحمراء لسعيد العاص وتاريخ الوزارات العراقية لعبد الرزاق الحسنى، ورسائل الدكتور شهبندر عن لورانس وجبل الدروز لحنا أبى راشد.

الكتب التركيـــة

كتاب الايضاحات السياسية لقيادة الجيش الرابع، ومذكرات أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع، ومذكرات على فؤاد باشا رئيس اركان حرب الجيش الرابع، ومذكرات سيفى بك رئيس استخبارات الجيش الرابع، ومذكرات محمود مختار باشا سفير تركيا فى برلين، ومذكرات رئيس استخبارات القوة المرتبة فى معان.

الكتب الفرنسوية

الحجاز فى الحرب العالمية: تأليف الجنرال أ. بريمون

Le Hidjaz dans la guerre mondiale Par General A. Bremond.

الثورة العربية: تأليف أوجين يونغ

La revolution arabe par U. Yung.

كيف استقرت فرنسا فى سورية تأليف الكونت غونتنبيرون

Gomment la France s'est installee en Syrie Par G.G.

فهرست الجزء الثالث

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة